



مَجْمُوعُ مُؤَلَّفَاتِ الشَّيْخِ الْعَلَامَةِ

عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ السَّعْدِيِّ

رَمَّةُ اللَّهِ ١٣٠٧ - ١٣٧٦ هـ

(يُطْبَعُ كَامِلًا لِأَوَّلِ مَرَّةٍ)

إِشْرَافُ وَمُتَابَعَةُ وَتَنْشِيقُ

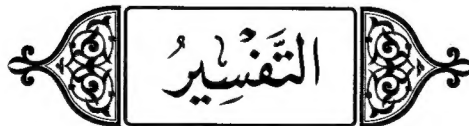
أَبْنَاءُ الشَّيْخِ

مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ السَّعْدِيِّ مِسْأَعِدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ السَّعْدِيِّ
مَاهِدُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ الشَّيْبَلِ رَامِي بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ الشَّيْبَلِ

الِدَارُ الْعَرَبِيَّةُ

سُلَيْمَانُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ الْمُتَيْمَن أَيُّمَنُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ الْحَنْجُونِ

الْمَجْلَدُ الثَّانِي

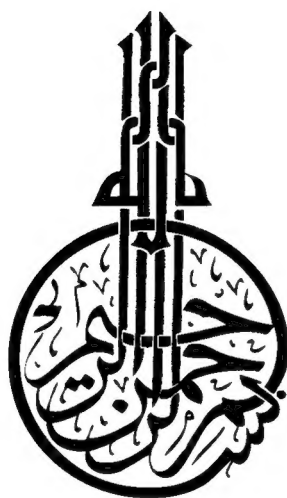


طُبِعَ عَلَى نَفَقَةٍ

وَزَارَةُ الْأَوْقَافِ وَالشُّؤْنِ الْأِسْلَامِيَّةِ

إِدَارَةُ الشُّؤْنِ الْأِسْلَامِيَّةِ

دَوْلَةُ قَطَر



مَجْمُوعُ مُؤَلَّفَاتِ الشَّيْخِ الْعَلَامَةِ

عَبْدِ الْحَمِيدِ بْنِ عَبْدِ السَّعِيدِ

رَحِمَهُ اللَّهُ

طُبِعَ عَلَى نَفَقَةٍ
وَفَرَادَةِ الْأَوْقَافِ وَالشُّؤْنِ الْأَسْلَامِيَّةِ
إِدَارَةُ الشُّؤْنِ الْأَسْلَامِيَّةِ
رَدْلَةُ قَطْرَ

© جميع الحقوق محفوظة للناشر

الطبعة الأولى

١٤٣٢ هـ - ٢٠١١ م

حقوق الطبع والنشر والتوزيع محفوظة لدار الميمان بموجب الاتفاق بين الدار
وورثة المؤلف فلا يجوز نشر أي جزء من هذا الكتاب، أو تخزينه أو تسجيله
بأي وسيلة، أو تصويره أو ترجمته دون موافقة خطية مسبقة من الناشر.

مَجْمُوعَةُ دَرَجَةِ وَأَعَادَ صَعْدَهُ وَتَحْيَا لِهَيْئَةِ وَتَحْيَا لِهَيْئَةِ عَلَمِ الْأَسْلَامِ

فَيْسَهُ تَحْقِيقُ الثَّرَاثِ وَالنَّشْرِ الْعِلْمِيِّ
شَرَكَةُ الدَّارِ الْعَرَبِيَّةِ لِلتَّحْقِيقِ الْمَعْلُومَاتِ



لِلنَّشْرِ وَالتَّوْزِيعِ بِالرِّيَاضِ

الرياض: هاتف: ٤٦٢٧٣٣٦ فاكس: ٤٦١٢١٦٣
بريد إلكتروني: Info@arabia-it.com الموقع: www.arabia-it.com

مَجْمُوعُ مُؤَلَّفَاتِ ابْنِ سَعْدٍ ①

تَيْسِيرُ الْكَلِمِ الرَّحْمَنِ
فِي تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَنَانِ

تَأَلَّفَ
الْشَيْخُ الْعَلَامَةُ

عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ نَاصِرٍ السَّعْدِيُّ

رَحِمَهُ اللَّهُ

من تقديمات الطبقات السابقة

لتفسير الشيخ السعدي

رحمه الله

مقدمة صاحب الفضيلة

الشيخ عبد الله بن عبد العزيز بن عقيل^(١)

الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجاً، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه وسلم تسليماً كثيراً.

أما بعد:

إن الله بحكمته ورحمته أنزل كتابه تبياناً لكل شيء، وجعله هدى وبرهاناً لهذه الأمة، ويسره للذكر والتلاوة والهداية بجميع أنواعها ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَذَا مِنْ مَّذْكُرٍ﴾ [القمر: ١٧]. أنزله بلسان عربي مبين، وتكفل بحفظه وإبلاغه لجميع البشر، وقبض له من العلماء من يفسرونه، ويبلغونه للناس ألفاظه ومعانيه، لتتم بذلك الهداية وتقوم به الحجة. وقد أكثر العلماء من التأليف في تفسير القرآن العظيم؛ كل بما أوتي من علم، فمنهم من يفسر القرآن بالقرآن، ومنهم من يفسره بالأخبار والآثار، ومنهم من يفسره من حيث اللغة العربية بأنواعها، ومنهم من يعتني بآيات الأحكام إلى غير ذلك.

وقد كان لشيخنا العلامة الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي - رحمه الله - من ذلك حظ وافر؛ وذلك بتفسيره المسمى: (تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان) حيث جاء هذا التفسير سهل العبارة، واضح الإشارة، وصاغه على نمط بديع بعبارات قريبة لا خفاء فيها ولا غموض، فهو يعتني بإيضاح المعنى المقصود من الآية بكلام مختصر مفيد، مستوعب لجميع ما تضمنته الآية من معنى أو حكم، سواء من منطوقها أو مفهومها، دون إطالة أو استطراد أو ذكر قصص أو إسرائيليّات، أو حكاية أقوال تخرج عن المقصود، أو ذكر أنواع الإعراب إلا في النادر الذي يتوقف عليه المعنى، بل يركز على المعنى المقصود من الآية بعبارة واضحة يفهمها كل من يقرأها مهما كان مستواه العلمي، فهو في الحقيقة سهل ممتنع يفهم معناه من مجرد تلاوة لفظه، وقد اهتم بترسيخ العقيدة السلفية، والتوجه إلى الله، واستنباط الأحكام الشرعية، والقواعد الأصولية، والفوائد الفقهية إلى غير ذلك من الفوائد الأخرى التي لا توجد في غير تفسيره، مع اهتمامه بتفسير آيات الصفات بمقتضى عقيدة السلف خلافاً لما يؤولها بعض المفسرين.

وقد من الله علي فسمعت منه بعض تفسيره شفهيًا في حلقات الدروس في مسجد الجامع بعنيزة، كما أنني ممن أشار عليه بطبعه فطبع الجزء الخامس فقط في حياته عام ١٣٧٥ هـ في المطبعة السلفية بمصر، وبعد ذلك تشاورنا في طبع بقيته، وساهمت في ذلك أيام كنت قاضيا في عنيزة، فطبع باقيه بعد وفاته في عامي ٧٦، ٧٧، وبعد تمام طبعه تداوله الناس بالقراءة والتدريس، ودرسناه لإخواننا وأبنائنا الطلاب، وحصل بذلك خير كثير وقرأه أئمة المساجد على جماعاتهم لوضوح عباراته. وقد طبع بعد ذلك طبعات أخرى لا يخلو كل منها من ملاحظة أو مؤاخذه.

أسأل الله أن ينفع بهذه الطبعة كما نفع بسابقاتها، وأن يجزي كل من ساهم في إخراج هذا المشروع النافع أفضل الجزاء، وأن يتغمد الجميع ومؤلف التفسير برحمته إنه جواد كريم، وصلى الله على نبينا محمد وآله وصحبه وسلم.

حرر في ٢٧/٩/١٤١٦ هـ.

وكتبه الفقير إلى الله

عبد الله بن عبد العزيز بن عقيل

رئيس الهيئة الدائمة بمجلس القضاء الأعلى سابقا

وعضو بمجلس القضاء الأعلى (متقاعد)

مقدمة فضيلة الشيخ العلامة
عبد الله بن عبد العزيز بن عجيل العقيل
رئيس الهيئة الدائمة بمجلس القضاء الأعلى سابقاً^(١)

الحمد لله، وبعد..

الحقيقة أن هذا التفسير قد وضع الله له القبول بين المسلمين، فهو يذاع من إذاعة القرآن الكريم بالمملكة يومياً مرتين، ويقرأ في المساجد على جماعة المصلين، ويدرس في حلقات المشايخ. وقد طبع عدة طبعات، لكنها مع الأسف لا تخلو من الأغلط، وبعضها من تصرفات المعلقين.

وهذا التفسير من أنفع التفاسير وأقربها إلى الفهم لسهولة عباراته، فهي سهلة المباني، واضحة المعاني، خالية من التعقيدات والإسرائيليات ومشاكل الإعراب، وذكر الخلاف. وأهم شيء سلامته من تأويل آيات الصفات، حيث يفسرها على منهج السلف، إضافة إلى ما فيه من الاستنباطات الدقيقة، وذكر ما يستفاد من كل آية يمر بها في موضعها دون الإحالة إلى موضع آخر.

وحسبك ما أرشد إليه من الأخلاق الإسلامية والحكم النبوية والآداب الشرعية، كل هذا بعبارات سهلة واضحة، يفهمها عامة الناس، ويستفيد منها طلاب العلم. فهو في الحقيقة من السهل الممتنع. ولطالما تمنيت ودعوت الله تعالى أن يهيئ لهذا التفسير من يترجمه إلى إحدى اللغات الأجنبية، لا سيما اللغة الإنجليزية، لعل الله ينفع به هناك؛ فهو أبلغ دعاية إلى الدين الإسلامي، وبالله التوفيق

وكتبه الفقير إلى الله

عبد الله بن عبد العزيز بن عجيل

حامداً لله مصلياً مسلماً على نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين

رئيس الهيئة الدائمة بمجلس القضاء الأعلى سابقاً

مقدمة صاحب الفضيلة
الشيخ محمد بن صالح العثيمين
رحمه الله تعالى^(١)

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وأصحابه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد:

فإن تفسير شيخنا عبد الرحمن بن ناصر السعدي رحمه الله تعالى المسمى (تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان) من أحسن التفاسير؛ حيث كان له ميزات كثيرة:

منها: سهولة العبارة ووضوحها؛ حيث يفهمها الراسخ في العلم ومن دونه.

ومنها: تجنب الحشو والتطويل الذي لا فائدة منه إلا إضاعة وقت القارئ وتبليبل فكره.

ومنها: تجنب ذكر الخلاف إلا أن يكون الخلاف قوياً تدعو الحاجة إلى ذكره، وهذه ميزة مهمة بالنسبة للقارئ، حتى يثبت فهمه على شيء واحد.

ومنها: السير على منهج السلف في آيات الصفات؛ فلا تحريف ولا تأويل يخالف مراد الله بكلامه، فهو عمدة في تقرير العقيدة.

ومنها: دقة الاستنباط فيما تدل عليه الآيات من الفوائد والأحكام والحكم، وهذا يظهر جلياً في بعض الآيات كآية الوضوء في سورة المائدة؛ حيث استنبط منها خمسين حكماً، وكما في قصة داود وسليمان في سورة ص.

ومنها: أنه كتاب تفسير وتربية على الأخلاق الفاضلة، كما يتبين في تفسير قوله تعالى في سورة الأعراف ﴿ خُذِ الْعَقْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴾ [الأعراف: ١٩٩].

ومن أجل هذا أشير على كل مرید لاقتناء كتب التفسير ألا تخلو مكتبته من هذا التفسير القيم.

وَأَسْأَلُ اللَّهَ تَعَالَى أَنْ يَنْفَعَهُ بِهِ مُؤَلَّفَهُ وَقَارِئُهُ إِنَّهُ كَرِيمٌ جَوَادٌ، وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى نَبِينَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَمَنْ تَبِعَهُمْ بِإِحْسَانٍ.

كتبه

محمد الصالح العثيمين

في ١٥ رمضان ١٤١٦ هـ

تقديم بقلم الشيخ بكر بن عبد الله أبو زيد

الحمد لله وحده والصلاة والسلام على من لا نبي بعده وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهديه واستن بسنته.

أما بعد:

فإن ما أكتبه هنا ليس تقديمًا ولا تقريرًا، لكن دلالة على الخير، وتنويهًا؛ فلا أكتفم القراء حديثًا إذا قلت: إنه في عام ١٣٨٠هـ تقريبًا سمعت من بعض الصالحين الوصية بتفسير الشيخ عبد الرحمن بن سعدي المتوفى سنة ١٣٧٦هـ - رحمه الله تعالى - تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، لأنه يتميز بأمور أهمها: أنه تفسير مأمون جارٍ على طريقة السلف يجمع خلاصة الأثر الصحيح والفهم السليم سياق سهل مختصر، فهو تذكرة للمنتهي، وتبصرة للمبتدي، ثم تتابع هذا السماع من آخرين من العلماء وطلبة العلم، ثم بعد بضع سنين أهدى إليّ ابنه ذو الوجه الصبوح الشيخ عبد الله المتوفى سنة ١٤٠٥هـ - رحمه الله تعالى - بعض رسائل أبيه الشيخ عبد الرحمن، ومنها: تيسير اللطيف المنان في خلاصة تفسير القرآن، والقواعد الحسان لتفسير القرآن، وفوائد مستنبطة من قصة يوسف عليه السلام، فقرأت هذه الرسائل الثلاث فوجدت فيها دافعًا قويًا إلى هذا التفسير، فكنت أستفيد منه من وقت إلى آخر حتى إذا جاء عام ١٤١٨هـ كان لي شرف المراجعة الأخيرة لكتاب التفسير الميسر الذي أعده نخبة من العلماء، وطبع بمجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف بمدينة النبي ﷺ فوجدت أن هذا التفسير يعتمد كثيرًا تفسير ابن جرير الطبري المتوفى سنة ٣١٠هـ وتفسير ابن سعدي - رحمه الله تعالى - فحصل لي من تفسير ابن سعدي نوع ارتواء، وصار لي به فضل اعتناء.

وظهر لي أنه - إضافة إلى تلك الميزات - كان لفائق عنايته بكتب الشيخين ابن تيمية وابن القيم - رحمهما الله تعالى - ينتخب من فوائدهما ما طرز به هذا التفسير.

من هذه المعارف وغيرها ضمن - رحمه الله تعالى - تفسيره كثيرًا من جلائل المعاني، ودقائق الاستنباط من آيات الذكر الحكيم والقرآن المجيد، منها على سبيل المثال: ما ذكره عند تفسيره لقول الله تعالى: ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا﴾ [البقرة: ١٣٦]. وما استنبطه من الأحكام من آية الوضوء (٦) من سورة المائدة. والفوائد الجليلة التي يذكرها عقب قصص الأنبياء وغيرهم...

وانظر إلى تلك الإشارة اللطيفة في تفسيره لقوله تعالى في سورة الأحزاب: ﴿وَلَوْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَأْتِ أَهْلَ يَرْبٍ﴾ [الأحزاب: ١٣] الآية.

فأبان - رحمه الله تعالى - بإشارته أن المناداة بالوطنية، وترك الأخوة الإيمانية والرابطة الإسلامية من أعمال الجاهلية، وليست من الإسلام، وهذه فائدة عزيزة لم أر من حام حولها، وهذه الآية تكمل ثلاث آيات جاءت في أن (الرابطة الوطنية) ليست (رابطة إسلامية).

وإذا جاوزنا هذه المعارف والأهلية، ونظرنا في سيرته العطرة وجدناه على جانب كبير من التأسي والافتداء، والخير والصلاح والهدى والفلاح.

ومما لم يقيد في سيرته ما حدثني به الشيخ محمد عبد الرحيم صديق المكي المتوفى سنة ١٤٠٨ هـ - رحمه الله تعالى - صاحب المكتبة الصديقية ضمن خزائن مكتبة الحرم المكي أنه شاهد من عبادة الشيخ في صلاته، ما يدل على الخشوع والتعلق بالله تعالى مما علمه عن مشاهدة كيفية الأداء لهذه العبادة العظيمة.

وهذا نظير ما يتناقله الأشياخ عن الشيخ محمد حامد الفقي المتوفى سنة ١٣٧٩ هـ - رحمه الله تعالى - من قوله: إنه لم يعرف عن مشاهدة أداء الصلاة على وجهها بخشوع وخضوع لله - عز وجل - مثلما عرفه من الشيخ أحمد شاكر المتوفى سنة ١٣٧٧ هـ رحمه الله تعالى.

فنرجو أن يكون لهذا العلامة المفسر نصيب من قول شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله تعالى -:
وأما العلم اللدني فلا ريب أن الله يفتح على قلوب أوليائه المتقين، وعباده الصالحين بسبب طهارة قلوبهم مما يكرهه، واتباعهم ما يحبه - ما لا يفتح به على غيرهم.

وهذا كما قال علي: إلا فهمًا يؤتيه الله عبدًا في كتابه، وفي علم الأثر: (من عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يعلم)، وقد دل القرآن على ذلك في غير موضع، كقوله: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَسَدَّ ثَبَاتًا ۖ وَإِذَا آتَيْنَهُمْ مِّنْ لَّدُنَّا آجْرًا عَظِيمًا ۖ﴾ [النساء: ٦٦ - ٦٨]. فقد أخبر أنه من فعل ما يؤمر به، يهديه الله صراطًا مستقيمًا، وقال تعالى: ﴿يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ ۖ﴾ [المائدة: ١٦]. وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَآذَنُوا بِرَحْمَةِ اللَّهِ وَرَحْمَةُ اللَّهِ كَثِيرَةٌ ۖ﴾ [الأنعام: ١١٧]. وقال: ﴿إِنَّهُمْ فِيهِ عَمَتُوا بِرَبِّهِمْ وَذِذْنَهُمْ هُدًى ۖ﴾ [الكهف: ١٣]. وقال تعالى: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۖ﴾ [البقرة: ٢]. وقال تعالى: ﴿هَذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ۖ﴾ [الجاثية: ٢٠]. وقال تعالى: ﴿هَذَا بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۖ﴾ [الأعراف: ٢٠٣].^(١)

ويحضرني عند التنويه بتفسير هذا الشيخ الجواب البديع من العلامة المفسر الشيخ عبد الرحمن الدوسري المتوفى سنة ١٣٩٩هـ - رحمه الله تعالى - عندما سئل عن أهم شروط المفسر؟ فقال على البديهة: أن تملأ قلبه الفرحة بالقرآن.

وأحسب أن الشيخ ابن سعدي ممن تحقق فيه هذا الأمر؛ فتفجرت أنهار المعاني بين يديه وذلك من فضل الله عليه، فرحمه الله وأجزل مثوبته.

وكما قيل: إن معاني القرآن لا يذوقها إلا القلوب الطاهرة وهي قلوب المتقين .

نفع الله الشيخ ابن سعدي هذا السبق العلمي من عالم نجدي؛ فإني لا أعلم في النجديين من له تفسير كامل لكتاب الله - تعالى - بهذا السبك والجودة؛ فقد قضى الشيخ - رحمه الله تعالى - الدين عمن قبله، وسبق من بعده، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.

وقد كتب الله لهذا التفسير من القبول والانتشار ما بلغ مبلغ الليل والنهار، فطبع عدة طبعات...

وكتب

بكر بن عبد الله أبو زيد

٨ شعبان ١٤٢١هـ

تنبيه

اعلم أن طريقتي في هذا التفسير: أني أذكر عند كل آية ما يحضرني من معانيها، ولا أكتفي بذكر ما تعلق بالمواضع السابقة عن ذكر ما تعلق بالمواضع اللاحقة؛ لأن الله وصف هذا الكتاب أنه «مثنى» تثنى فيه الأخبار والقصص والأحكام وجميع المواضع النافعة لحكم عظيمة، وأمر بتدبره جميعه لما في ذلك من زيادة العلوم والمعارف، وصلاح الظاهر والباطن، وإصلاح الأمور كلها.



مقدمة

الحمد لله الذي أنزل على عبده الفرقان الفارق بين الحلال والحرام، والسعداء والأشقياء، والحق والباطل، وجعله برحمته هدى - للناس عموماً، وللمتقين خصوصاً - من ضلال الكفر والمعاصي والجهل، إلى نور الإيمان والتقوى والعلم. وأنزله شفاء للصدور من أمراض الشبهات والشهوات، ويحصل به اليقين والعلم في المطالب العاليات، وشفاء للأبدان من أمراضها وعللها وآلامها وأسقامها. وأخبر أنه لا ريب فيه ولا شك بوجه من الوجوه، وذلك لاشتماله على الحق العظيم في أخباره وأوامره ونواهيها، وأنزله مباركاً، فيه الخير الكثير، والعلم الغزير، والأسرار البديعة، والمطالب الرفيعة. فكل بركة وسعادة تنال في الدنيا والآخرة، فسيبها الاهتداء به واتباعه. وأخبر أنه مصدق ومهيمن على الكتب السابقة، فما شهد له فهو الحق، وما رده فهو المردود؛ لأنه تضمنها وزاد عليها، وقال تعالى فيه: ﴿يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانُكُ سُبُلَ السَّلَامِ﴾ [المائدة: ١٦]، فهو هادٍ لدار السلام، مبين لطريق الوصول إليها وحاث عليها، كاشف عن الطريق الموصلة إلى دار الآلام ومحذر عنها. وقال تعالى مخبراً عنه: ﴿كَتَبَ أَهْكَتَ آيَاتُهُ، ثُمَّ فَصَّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَيْرٍ﴾ [هود: ١]. فبين آياته أكمل تبين، وأتقنها أي إتقان، وفصلها بتمييز الحق من الباطل، والرشد من الضلال، تفصيلاً كاشفاً للبس؛ لكونه صادراً من حكيم خبير، فلا يخبر إلا بالصدق والحق واليقين، ولا يأمر إلا بالعدل والإحسان والبر، ولا ينهى إلا عن المضار الدينية والدنيوية.

وأقسم تعالى بالقرآن ووصفه بأنه (مجيد)؛ والمجد: سعة الأوصاف وعظمتها، وذلك لسعة معاني القرآن وعظمتها. ووصفه بأنه (ذو الذكر)؛ أي: يتذكره العلوم الإلهية والأخلاق الجميلة والأعمال الصالحة، ويتعظ به من يخشى. وقال تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [يوسف: ٢]، وأنزله بهذا اللسان لنعقله وفهمه، وأمرنا بتدبره، والتفكر فيه، والاستنباط لعلومه، وما ذاك إلا لأن تدبره مفتاح كل خير، محصل للعلوم والأسرار. فله الحمد والشكر والثناء، الذي جعل كتابه هدى وشفاء ورحمة، ونوراً وتبصرة وتذكراً وعبرة، وبركة وهدى وبشرى للمسلمين. فإذا علم هذا؛ علم افتقار كل مكلف لمعرفة معانيه والاهتداء بها، وكان حقيقاً بالعبد أن يبذل جهده ويستفرغ وسعه في تعلمه وتفهمه بأقرب الطرق الموصلة إلى ذلك. وقد كثرت تفاسير الأئمة - رحمهم الله - لكتاب الله؛ فمن مطول خارج في

أكثر بحوثه عن المقصود، ومن مقتصر يقتصر على حل بعض الألفاظ اللغوية بقطع النظر عن المراد. وكان الذي ينبغي في ذلك أن يجعل المعنى هو المقصود، واللفظ وسيلة إليه، فينظر في سياق الكلام وما سيق لأجله، ويقابل بينه وبين نظيره في موضع آخر، ويعرف أنه سيق لهداية الخلق كلهم عالمهم وجاهلهم، حضريهم وبدويهم. فالنظر لسياق الآيات، مع العلم بأحوال الرسول وسيرته مع أصحابه وأعدائه وقت نزوله، من أعظم ما يعين على معرفته وفهم المراد منه، خصوصاً إذا انضم إلى ذلك معرفة علوم العربية على اختلاف أنواعها. فمن وفق لذلك لم يبق عليه إلا الإقبال على تدبره وتفهمه، وكثرة التفكير في ألفاظه ومعانيه ولوازمها، وما تتضمنه، وما تدل عليه منطوقاً ومفهوماً. فإذا بذل وسعه في ذلك فالرب أكرم من عبده؛ فلا بد أن يفتح عليه من علومه أموراً لا تدخل تحت كسبه. ولما منَّ الباري علي وعلى إخواني بالاشتغال بكتابه العزيز بحسب الحال اللائقة بنا، أحببت أن أرسم من تفسير كتاب الله ما تيسر وما منَّ به الله علينا؛ ليكون تذكرة للمحصلين، وآلة للمستبصرين، ومعونة للسالكين، ولأقيده خوف الضياع. ولم يكن قصدي في ذلك إلا أن يكون المعنى هو المقصود، ولم أشتغل في حل الألفاظ والعقود للمعنى الذي ذكرت. ولأن المفسرين قد كفوا من بعدهم، فجزأهم الله عن المسلمين خيراً، والله أرجو وعليه أعتمد أن ييسر ما قصدت، ويذل ما أردت، فإنه إن لم ييسره الله؛ فلا سبيل إلى حصوله، وإن لم يعن عليه؛ فلا طريق إلى نيل العبد مأموله.

وأسأله - تعالى - أن يجعله خالصاً لوجهه الكريم، وأن ينفع به النفع العميم، إنه جواد كريم.

اللهم صل على محمد وآله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا.



فوائد مهمة تتعلق بتفسير القرآن من بدائع الفوائد لابن القيم رحمه الله تعالى

قال:

فصل

النكرة في سياق النفي تعم، مستفاد من قوله تعالى: ﴿وَلَا يَظِلُّ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩]، ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءُ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٧]، وفي الاستفهام من قوله تعالى: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ [مريم: ٦٥]، وفي الشرط من قوله: ﴿فَإِنَّمَا تَرَوْنَهُ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا﴾ [مريم: ٢٦]، ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ﴾ [التوبة: ٦]. وفي النهي من قوله تعالى: ﴿وَلَا يَلْفُتْ مِنْكَ أَحَدٌ﴾ [الحجر: ٦٥]. وفي سياق الإثبات بعموم العلة والمقتضى، كقوله: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا أَحْضَرَتْ﴾ [التكوير: ١٤]، وإذا أضيف إليها (كل) نحو ﴿وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ﴾ [ق: ٢١]، ومن عمومها بعموم المقتضى: ﴿وَنَفْسٌ وَمَا سَوَّاهَا﴾ [الشمس: ٧].

فصل

ويستفاد عموم المفرد المحلى باللام من قوله: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ خَشِيرٌ﴾ [العصر: ٢]، وقوله: ﴿وَيَقُولُ الْكَافِرُ﴾ [النبا: ٤٠]، وعموم المفرد المضاف من قوله: ﴿وَصَدَقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتِبَ﴾ [التحریم: ١٢]، (وكتابه)؛ قرأ أهل البصرة وحفص: ﴿وَكُتِبَ﴾ على الجمع، وقرأ الآخرون: (وكتابه) على التوحيد، وقوله: ﴿هَذَا كِتَابُنَا يُطِيقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ﴾ [الجاثية: ٢٩]، والمراد جميع الكتب التي أحصيت فيها أعمالهم.

وعوموم الجمع المحلى باللام من قوله: ﴿وَإِذَا الرُّسُلُ أَقْبَتْ﴾ [المرسلات: ١١]، وقوله: ﴿وَإِذَا أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ﴾ [الأحزاب: ٧]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ﴾ [الأحزاب: ٣٥] إلى آخرها، والمضاف من قوله: ﴿كُلُّ عَامِنٍ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَكُتِبَ وَرُسُلِهِ﴾ [البقرة: ٢٨٥]. وعموم أدوات الشرط من قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا﴾ [طه: ١١٢]، وقوله: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ [الزلزلة: ٧]، وقوله: ﴿وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ﴾ [البقرة: ١٩٧]، وقوله: ﴿أَتَيْنَاكُمْ كَوْنًا يُدْرِكُكُمُ الْمَوْتُ﴾ [النساء: ٧٨]، وقوله: ﴿وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾ [البقرة: ١٤٤]، وقوله: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ [الأنعام: ٦٨]، وقوله: ﴿وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ

رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ ﴿ [الأنعام: ٥٤]، هذا إذا كان الجواب طلباً مثل هاتين الآيتين، فإن كان خبراً ماضياً لم يلزم العموم؛ كقوله: ﴿ وَإِذَا رَأَوْا تَحِيْرَةً أَوْ لَوْ أَنفَضُوا إِلَيْهَا ﴾ [الجمعة: ١١]، ﴿ إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ ﴾ [المنافقون: ١]، وإن كان مستقبلاً فالتزموا رد العموم موارد للعموم؛ كقوله تعالى: ﴿ وَإِذَا كَانُوا مِنْ أَهْلِ الْبَيْتِ أَوْ لَمْ يَكُنْ مِنْ أَهْلِ الْبَيْتِ يُحْذِرُونَ ﴾ [المطففين: ٣]، وقوله: ﴿ وَإِذَا مَرَأَتْهُمُ ابْنَاتُهُنَّ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [المطففين: ٣٠]، وقوله: ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ [الصفات: ٣٥]، وقد لا يعم، كقوله تعالى: ﴿ وَإِذَا رَأَوْهُمْ تَبََّعَكَ أَجْسَامُهُمْ ﴾ [المنافقون: ٤].

فصل

ويستفاد كون الأمر المطلق للوجوب من ذمه لمن خالفه، وتسميته إياه عاصياً، وترتيبه عليه العقاب العاجل أو الآجل. ويستفاد كون النهي للتحريم من ذمه لمن ارتكبه، وتسميته عاصياً، وترتيبه العقاب على فعله.

ويستفاد الوجوب بالأمر تارة، وبالتصريح بالإيجاب والفرض والكتب، ولفظة على، ولفظة حق على العباد وعلى المؤمنين.

ويستفاد التحريم من النهي، والتصريح بالتحريم والحظر، والوعيد على الفعل، وذم الفاعل، وإيجاب الكفارة بالفعل، وقوله: (لا ينبغي): فإنها في لغة القرآن والرسول للمنع عقلاً وشرعاً، ولفظة (ما كان لهم كذا وكذا) (ولم يكن لهم)، وترتيب الحد على الفعل، ولفظة (لا يحل) و(لا يصلح)، ووصف الفعل بأنه فساد، وأنه من تزوين الشيطان وعمله، وأن الله تعالى لا يحبه ولا يرضاه لعباده، ولا يزي فاعله، ولا يكلمه، ولا ينظر إليه، ونحو ذلك.

وتستفاد الإباحة من الإذن والتخيير، والأمر بعد الحظر، ونفي الجناح والحرص والإثم والمؤاخاة، والإخبار بأنه يعفو عنه، والإقرار على فعله في زمن الوحي، وبالإنكار على من حرم الشيء، والإخبار بأنه خلق لنا كذا وجعله لنا، وامتنانه علينا به وإخباره عن فعل من قبلنا غير ذام لهم عليه، فإن اقترن بإخباره مدح دل على رجحانه استحباباً أو وجوباً.

فصل

وكل فعل عظمه الله ورسوله أو مدحه أو مدح فاعله لأجله، أو فرح به، أو أحبه، أو أحب فاعله، أو رضي به، أو رضي عن فاعله، أو وصفه بالطيب، أو البركة، أو الحسن، أو نصبه سبباً لمحبة أو لشواب عاجل أو آجل، أو نصبه سبباً لذكره لعبده، أو لشكره له، أو لهدايته إياه، أو لإرضاء فاعله، أو وصف فاعله بالطيب، أو وصف الفعل بأنه معروف، أو نفي الحزن والخوف عن فاعله، أو وعده بالأمن،

أو نصبه سبباً لولايته، أو أخبر عن دعاء الرسل بحصوله، أو وصفه بكونه قربة، أو أقسم به أو بفاعله كالقسم بخيل المجاهدين وإثارتها، أو ضحك الرب جل جلاله عن فاعله، أو عجبه به؛ فهو دليل على مشروعيته المشتركة بين الوجوب والندب.

فصل

وكل فعل طلب الشارع تركه أو ذم فاعله، أو عيب عليه أو مقت فاعله أو لعنه، أو نفى محبته إياه أو محبة فاعله أو نفى الرضا به أو الرضا عن فاعله، أو شبه فاعله بالبهايم أو الشياطين أو جعله مانعاً من الهدى أو وصفه بسوء أو كراهة أو استعاذ الأنبياء منه أو أبغضوه، أو جعل سبباً لنفي الفلاح أو لعذاب عاجل أو آجل أو لدم أو لوم أو ضلالة أو معصية، أو وصفه بخبث أو رجس أو نجس، أو بكونه فسقاً أو إثماً أو سبباً لإثم أو رجس أو لعن أو غضب أو زوال نعمة أو حلول نقمة أو حد من الحدود أو قسوة أو خزي أو ارتهان نفس، أو لعداوة الله ومحاربه أو الاستهزاء به وسخريته، أو جعله سبباً لنسيانه لفاعله، أو وصف نفسه بالصبر عليه أو الحلم عنه أو الصفح، أو دعا إلى التوبة منه، أو وصف فاعله بخبث أو احتقار، أو نسبته إلى الشيطان وتزيينه أو تولي الشيطان لفاعله، أو وصفه بصفة ذم مثل كونه ظلماً أو بغياً أو عدواناً أو إثماً، أو تبرأ الأنبياء منه أو من فاعله، أو شكوا إلى الله من فاعله، أو جاهروا فاعله بالعداوة، أو نصب سبباً لخيبة فاعله عاجلاً، أو آجلاً، أو رتب عليه حرمان الجنة، أو وصف فاعله بأنه عدو لله أو الله عدوه، أو أعلم فاعله بحرب من الله ورسوله، أو حمل فاعله إثم غيره، أو قيل فيه لا ينبغي هذا أو لا يصلح، أو أمر بالتقوى عند السؤال عنه، أو أمر بفعل يضاده، أو هجر فاعله، أو تلاعن فاعله في الآخرة، أو تبرأ بعضهم من بعض، أو وصف فاعله بالضلالة، أو أنه ليس من الله في شيء، أو أنه ليس من الرسول وأصحابه، أو قرن بمحرم ظاهر التحريم في الحكم والخبر عنه بخبر واحد، أو جعل اجتنابه سبباً للفلاح، أو جعل سبباً لإيقاع العداوة والبغضاء بين المسلمين، أو قيل لفاعله هل أنت متته، أو نهى الأنبياء عن الدعاء لفاعله، أو رتب عليه إبعاد أو طرد أو لفظة قتل من فعله، أو قاتل الله من فعله، أو أخبر أن فاعله لا يكلمه الله يوم القيامة ولا ينظر إليه ولا يزيكه، أو أن الله لا يصلح عمله ولا يهدي كيده، أو أن فاعله لا يفلح ولا يكون يوم القيامة من الشهداء ولا من الشفعاء، أو أن الله يغار من فعله، أو نبه على وجه المفسدة فيه، أو أخبر أنه لا يقبل من فاعله صرفاً ولا عدلاً، أو أخبر أن من فعله قبيح له الشيطان فهو له قرين، أو جعل الفعل سبباً لإزاعة الله قلب فاعله أو صرفه عن آياته وفهم آلائه، أو سؤال الله سبحانه عن علة الفعل: لِمَ فعل؟ نحو: ﴿لِمَ نَصُوتُ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ ءَامَنَ﴾ [آل عمران: ٩٩]، ﴿لِمَ تَلْسُوتُ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ﴾ [آل عمران: ٧١]، ﴿مَا مَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ﴾ [ص: ٧٥]، ﴿لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ [الصف: ٢]. ما لم يقترب به جواب من المسئول؛ فإذا قرن به جواب كان بحسب جوابه، فهذا ونحوه يدل على المنع من الفعل، ودلالته على التحريم أطرده من دلالة على مجرد الكراهة.

وأما لفظة: يكرهه الله ورسوله أو مكروهه، فأكثر ما يستعمل في المحرم، وقد يستعمل في كراهة التنزيه. وأما لفظة: وأما أنا فلا أفعل، فالمتحقق منه الكراهة؛ كقوله ﷺ: «أما أنا فلا أكل متكئاً»^(١). وأما لفظة: ما يكون لك، وما يكون لنا، فاطرد استعمالها في المحرم نحو ﴿مَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا﴾ [الأعراف: ١٣]. ﴿وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا﴾ [الأعراف: ٨٩]. ﴿مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقِّ﴾ [المائدة: ١١٦].

فصل

وتستفاد الإباحة من لفظ الإحلال، ورفع الجناح والإذن والعفو وإن شئت فافعل وإن شئت فلا تفعل، ومن الامتنان بما في الأعيان من المنافع وما يتعلق بها من الأفعال، نحو: ﴿وَمِنْ أَصْنَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثْنَا وَمِئَتًا إِلَى حِينٍ﴾ [النحل: ٨٠]. ونحو: ﴿وَيَا تَجَمُّ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ [النحل: ١٦]. ومن السكوت عن التحريم، ومن الإقرار على الفعل في زمن الوحي.

فائدة التعجب كما يدل على محبة الله تعالى للفعل، نحو «عجب ربك من شاب ليست له صبرة»^(٢). ونحوه قد يدل على بغض الفعل؛ كقوله: ﴿وَإِنْ تَعَجَّبَ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ﴾ [الرعد: ٥]. وقوله: ﴿بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ﴾ [الصافات: ١٢]. وقوله: ﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ﴾ [آل عمران: ١٠١]. وقد يدل على امتناع الحكم وعدم حسنه؛ كقوله: ﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٧]. ويدل على حسن المنع منه قدرًا وأنه لا يليق به فعله؛ كقوله تعالى: ﴿كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ﴾ [آل عمران: ٨٦].

فائدة

نفي التساوي في كتاب الله قد يأتي بين الفعلين؛ كقوله - تعالى - : ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ أَمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ [التوبة: ١٩] الآية. وقد يأتي بين الفاعلين؛ كقوله: ﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [النساء: ٩٥]. وقد يأتي بين الجزاءين؛ كقوله: ﴿لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ﴾ [الحشر: ٢٠]. وقد جمع الله بين الثلاثة في آية واحدة وهي قوله تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ﴾^(٣) وَلَا الظُّلُمْتُ وَلَا النُّورُ ﴿[فاطر: ١٩، ٢٠] الآيات.

فائدة

في ضرب الأمثال في القرآن يستفاد منه أمور: التذكير والوعظ، والحث والزجر، والاعتبار والتقرير

(١) البخاري (٥٣٩٨).

(٢) أحمد (١٥١/٤)، وأبو يعلى (١٧٤٩).

وتقريب المراد للعقل، وتصويره في صورة المحسوس بحيث يكون نسبته للعقل كنسبة المحسوس إلى الحس، وتأتي أمثال القرآن مشتملة على: بيان تفاوت الأجر، وعلى المدح والذم، وعلى الثواب، وعلى تفخيم الأمر أو تحقيره، وعلى تحقيق أمر وإبطال أمر.

فائدة

السياق يرشد إلى بيان المجمل وتعيين المحتمل، والقطع بعدم احتمال غير المراد، وتخصيص العام، وتقييد المطلق، وتنوع الدلالة، وهو من أعظم القرائن الدالة على مراد المتكلم، فمن أهمله غلط في نظره، وغالط في مناظرته، فانظر إلى قوله: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾ [الدخان: ٤٩]. كيف تجد سياقه يدل على أنه الدليل الحقيق.

فائدة

إخبار الرب عن المحسوس الواقع له عدة فوائد:

منها: أن يكون توطئة وتقديم لإبطال ما بعده.

ومنها: أن يكون موعظة وتذكرة.

ومنها: أن يكون شاهداً على ما أخبر به من توحيده وصدق رسوله وإحياء الموتى.

ومنها: أن يذكر في معرض الامتنان.

ومنها: أن يذكر في معرض اللوم والتوبيخ.

ومنها: أن يذكر في معرض المدح والذم.

ومنها: أن يذكر في معرض الإخبار عن اطلاع الرب عليه. وغير ذلك من الفوائد.

انتهى كلامه رحمه الله، وهو في غاية النفاسة والاشتغال على كثير من القواعد والضوابط المتعلقة بتفسير القرآن؛ فجزاه الله خيراً.

قلت: وقد اشتمل القرآن على عدة علوم قد ثبتت فيه وأعيدت:

فمنها: ضرب الأمثال، وقد ذكر ابن القيم فيما تقدم فوائدها.

ومنها: ذكر صفات أهل السعادة والشقاوة، وفي ذلك فوائد عديدة:

منها: أن الأوصاف التي يوصف بها أهل الخير تدل على محبة الله ورضاه، وأنها محمودة.

والصفات التي يوصف بها أهل الشر تدل على بغض الله لها وأنها مذمومة.

ومنها: ما يكرم الله به أوليائه من الثناء الحسن بين عباده فهو ثواب معجل، ويهين به أعداءه من الأوصاف القبيحة فيكون عقاباً معجلاً.

ومنها: أن فيه حثاً للنفوس على الاقتداء بأهل الخير ومنافستهم، وتنشيط العمال على الأعمال ببيان من عملها من أولياء الله، وفيه الترهيب من أفعال أهل الشر وتبغيض المعاصي التي أثرت مع عاملها ما أثرت.

ومنها: الاعتبار بصفات أهل الخير والشر، وأن من فعل مثل فعلهم؛ ناله ما نالهم.

وقد حث تعالى على الاعتبار في غير موضع من كتابه، وحقيقته: العبور من شيء إلى شيء وقياس الشيء على نظيره.

ومنها: أن العبد إذا نظر إلى أعمال أهل الخير وعجزه عن القيام بها أوجب له ذلك الإزراء على نفسه واحتقارها، وهذا هو عين صلاحه، كما أن رؤيته نفسه بعين الإعجاب والتكبر هو عين فساد، إلى غير ذلك من الفوائد.

ومنها: ذكر صفات الله وأسمائه وأفعاله وتقديسه عن النقائص، وفي ذلك فوائد عظيمة:

منها: أن هذا العلم - وهو العلم المتعلق بالله تعالى - أشرف العلوم وأجلها على الإطلاق، فالاشتغال بفهمه والبحث التام عنه اشتغال بأعلى المطالب، وحصوله للعبد من أشرف المواهب.

ومنها: أن معرفة الله تعالى تدعو إلى محبته وخشيته وخوفه ورجائه وإخلاص العمل له، وهذا عين سعادة العبد، ولا سبيل إلى معرفة الله إلا بمعرفة أسمائه وصفاته والتفقه في فهم معانيها، وقد اشتمل القرآن من ذلك على ما لم يشتمل عليه غيره من تفاصيل ذلك وتوضيحها والتعرف بها إلى عباده وتعريفهم لنفسه كي يعرفوه.

ومنها: أن الله خلق الخلق ليعرفوه ويعبدوه وهذا هو الغاية المطلوبة منهم.

فالاشتغال بذلك اشتغال بما خلق له العبد، وتركه وتضييعه إهمال لما خلق له، وقبيح بعبد لم تزل نعم الله عليه متواترة، وفضله عليه عظيم من كل وجه أن يكون جاهلاً بربه معرضاً عن معرفته.

ومنها: أن أحد أركان الإيمان بل أفضلها وأصلها؛ الإيمان بالله، وليس الإيمان مجرد قوله: «آمنت بالله». من غير معرفة بربه، بل حقيقة الإيمان: أن يعرف الرب الذي يؤمن به وي بذل جهده في معرفة أسمائه وصفاته حتى يبلغ درجة اليقين. وبحسب معرفته بربه، يكون إيمانه، فكلما ازداد معرفة بربه؛

ازداد إيمانه، وكلما نقص؛ نقص. وأقرب طريق يوصله إلى ذلك تدبر صفاته وأسمائه من القرآن، والطريق في ذلك إذا مر به اسم من أسماء الله أن يثبت له ذلك المعنى وكماله وعمومه وينزّهه عما يضاد ذلك.

ومنها: أن العلم به تعالى أصل الأشياء كلها، حتى إن العارف به حقيقة المعرفة يستدل بما عرف من صفاته وأفعاله على ما يفعله وعلى ما يشرعه من الأحكام؛ لأنه لا يفعل إلا ما هو مقتضى أسمائه وصفاته، فأفعاله دائرة بين العدل والفضل والحكمة.

وكذلك لا يشرع ما يشرعه من الأحكام إلا على حسب ما اقتضاه حمده وحكمته وفضله وعدله، فأخباره كلها حق وصدق، وأوامره ونواهيه عدل وحكمة، وهذا العلم أعظم وأشهر من أن ينبه عليه لوضوحه.

وكيف يصح في الأذهان شيء إذا احتاج النهار إلى دليل

ومنها: ذكر الأنبياء والمرسلين وما أرسلوا به وما جرى لهم مع أممهم، وفي ذلك عدة فوائد:

منها: أن من تمام الإيمان بهم معرفتهم بصفاتهم وسيرهم وأحوالهم، وكلما كان المؤمن بذلك أعرف كان أعظم إيماناً بهم ومحبة لهم وتعظيماً لهم وتعزيراً وتوقيراً.

ومنها: أن من بعض حقوقهم علينا - خصوصاً النبي محمد ﷺ - معرفتهم ومحبتهم محبة صادقة، ولا سبيل لذلك إلا بمعرفة أحوالهم.

ومنها: أن معرفة الأنبياء موجبة لشكر الله تعالى على ما من به على المؤمنين، إذ بعث فيهم رسولاً منهم، يزيهم، ويعلمهم الكتاب والحكمة بعد أن كانوا في ضلال مبين.

ومنها: أن الرسل هم المربون للمؤمنين الذين ما نال المؤمنون مثقال ذرة من الخير ولا اندفع عنهم مثقال ذرة من الشر إلا على أيديهم وبسببهم، فقيح بالمؤمن أن يجهل حالة مربيه ومزيه ومعلمه، وإذا كان من المستنكر جهل الإنسان بحال أبويه ومباعدته لذلك فكيف بحالة الرسول الذي هو أولى بالمؤمنين من أنفسهم، وهو أبوهم الحقيقي الذي حقه مقدم على سائر الحقوق بعد حق الله تعالى.

ومنها: أن في معرفة ما جرى لهم وما جرى عليهم تحصل للمؤمنين الأسوة والقُدوة، وتخف عنهم كثير من المقلقات والمزعجات؛ لأنها مهما بلغت من الثقل والشدة فلا تصل إلى بعض ما جرى على الأنبياء، قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب: ٢١]. ومن أعظم الاقتداء بهم الاقتداء بتعليماتهم، وكيفية إلقاء العلم على حسب مراتب الخلق، والصبر على التعليم، والدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة والمجادلة بالتي هي أحسن. وبهذا وأمثاله كان العلماء ورثة الأنبياء.

ومن فوائد معرفة الرسول ﷺ معرفة الآيات القرآنية المنزلة عليه، وفهم المعنى والمراد منها موقوف على معرفة أحوال الرسول، وسيرته مع قومه، وأصحابه وغيرهم من الناس، فإن الأزمنة والأمكنة والأشخاص تختلف اختلافاً كثيراً؛ فلو أراد الإنسان أن يصرف همه لمعرفة معاني القرآن من دون معرفة منه لذلك؛ لحصل من الغلط على الله وعلى رسوله وعلى مراد الله من كلامه شيء كثير، وهذا إنما يعرفه من عرف كيف كثر حمل مراد الله ورسوله على العرف الحادث فوق الخلل الكثير.

وغير ذلك من الفوائد المفيدة والنتائج السديدة.

ومن علوم القرآن: الأمر والنهي الموجه لهذه الأمة وغيرها، وهذا هو المقصود منهم، وفي معرفة ذلك عدة فوائد:

منها: أن الله تعالى حث على معرفة حدود ما أنزل على رسوله، وذم من لم يعرف ذلك؛ ومن أعظم ما يجب معرفة حدوده: الأوامر والنواهي التي كلفنا بها، وألزمنا بالقيام بها وتعلمها وتعليمها، ولا سبيل إلى امتثالها أو اجتنابها إلا بمعرفتها، ليتأتى فعلها أو تركها، وذلك أن المكلف إذا أمر بأمر وجب عليه أولاً معرفة ما هو الذي أمر به، وما يدخل به وما لا يدخل، فإذا عرف ذلك استعان بالله واجتهد في امتثاله بحسب القدرة والإمكان، وكذلك إذا نهى عن أمر من الأمور وجب عليه معرفة ذلك المنهي وحقيقته، ثم يبذل جهده مستعيناً بربه على تركه امتثالاً لأمر الله واجتناباً لنهييه، وامتنال الأمر واجتناب النهي كل منهما واجب، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب، فعرفت أن العلم بها قبل العمل، ومتقدم عليه.

ومنها: أن الدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لا يمكن حصولها وتحصيلها إلا بعد معرفة الخير ليدعوه له، ومعرفة المعروف ليأمر به، ومعرفة المنكر لينهى عنه، والقرآن مشتمل على ذلك أعظم اشتمال، ومتضمن له أكمل تضمن.

ومن علوم القرآن: أحوال اليوم الآخر، وهو ما يكون بعد الموت مما أخبر به الله في كتابه أو أخبر به رسوله من أحوال الموت والقبر والموقف والجنة والنار، وفي العلم بذلك فوائد كثيرة:

منها: أن الإيمان باليوم الآخر أحد أركان الإيمان الستة التي لا يصح الإيمان بدونها، وكلما ازدادت معرفته بتفاصيله ازداد إيمان العبد به.

ومنها: أن معرفة ذلك حقيقة المعرفة؛ يفتح للإنسان باب الخوف والرجاء اللذين إن خلا القلب منهما؛ خرب كل الخراب، وإن عمر بهما؛ أوجب له الخوف الانكفاف عن المعاصي، والرجاء تيسير الطاعة وتسهيلها، ولا يتم ذلك إلا بمعرفة تفاصيل الأمور التي يخاف منها وتحذر: كأحوال القبر وشدته، وأحوال الموقف الهائلة، وصفات النار المفضعة، وبمعرفة تفاصيل الجنة وما فيها من النعيم المقيم والحبرة والسرور، ونعيم القلب والروح والبدن؛ فيحدث بسبب ذلك الاشتياق الداعي للاجتهاد

في السعي للمحبوب المطلوب بكل ما يقدر عليه.

ومنها: أنه يعرف بذلك فضل الله وعدله في المجازاة على الأعمال الصالحة والسيئة الموجب لكمال حمده والثناء عليه بما هو أهله، وعلى قدر علم العبد بتفاصيل الثواب والعقاب يعرف بذلك فضل الله وعدله وحكمته.

ومن علوم القرآن: مجادلة المبطلين، ودفع شبه الظالمين، وإقامة البراهين العقلية الموافقة للأدلة النقلية، وهذا الفن من علوم القرآن من خواص العلماء الربانيين والجهابذة الراسخين والعقلاء المستبصرين.

وقد اشتمل القرآن من الأدلة العقلية والقواطع البرهانية ما لو جمع ما عند جميع المتكلمين من حق لكان بالنسبة إليه كنقرة عصفور بالنسبة لماء البحر. ذلك بأن القرآن هو الحق.

وقد اشتمل على الحق والصدق والعدل والميزان العادل والقسط والصلاح والفلاح، فإن ذكر التوحيد والشرك، وأمر بالأول ونهى عن الثاني أقام من البراهين القاطعة على صحة التوحيد وحسنه وتعينه طريقاً للنجاة، وقبح الشرك وبطلانه وكونه هو الطريق للهلاك؛ ما يجعل ذلك للبصيرة كالشمس في نحر الظهيرة.

وإن أمر بالأوامر الشرعية وحث على الآداب ومكارم الأخلاق رأيته ينبه العقول النيرة على ما اشتملت عليه من المصالح الضرورية، التي يحتاجونها في معاشهم ومعادهم ما يجزم بأنه لا أحسن منها، وأن حكمته تقتضي الأمر بها أشد اقتضاء.

وإن نهى عن المحارم والقبائح والخبائث أخبر بما في ضمنها من الفساد والضرر والشر الحاصل بتناولها، وأن نعمة الله عليهم بتحريمها عليهم وتنزيههم عنها وتكريمهم وتعلية أقدارهم عن التلبس بها فوق كل نعمة، فالمأمورات مشتملة على الصلاح، والمحرمات مشتملة على المفاسد.

وإن شرع في الحجاج للمبطلين وتزييف شبه المشبهين وبطلان مذاهب الضالين، فقل ما شئت من إحقاق حق، ودمغ باطل، وإرشاد ضال، وإقامة الحجة على المعاند، وبيان أن الباطل لا يقوم لأقل شيء من الحق، بل هو على اسمه باطل لا حقيقة له، إن هي إلا أسماء يسمون بها الباطل، إذا جردت تينت هباءً منشوراً، ورأيت يسوق البراهين العقلية بأوضح عبارة وأوجزها وأسلمها من الاعتراض والنقض والخفاء؛ فيجمع بين الدليل العقلي والنقلي في كلمة واحدة إيجازاً غير مخل بالمطلوب، وتارة يفصل ذلك ويسرد من البراهين ما يكفي بعضه بالبيان. فله الحمد والشكر.

فهذه مقدمة نافعة - إن شاء الله - ينبغي استقراؤها في كل مواردنا، والتنبيه لكل ما يرد من هذه المطالب على وجه التفصيل، فمن استعملها في كل ما يرد عليه من الآيات؛ انتفع بها نفعًا عظيمًا، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم.



أصول وکليات من أصول التفسير وکلياته - لا يستغني عنها المفسر للقرآن

النكرة في سياق النفي، أو سياق النهي، أو الاستفهام، أو سياق الشرط، تعم، وكذلك المفرد المضاف يعم. وأمثلة ذلك كثيرة: فمتى وجدت نكرة واقعة بعد المذكورات أو وجدت مفردًا مضافًا إلى معرفة، فأثبت جميع ما دخل في ذلك اللفظ، ولا تعتبر سبب النزول وحده، فإن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

وينبغي أن تنزل جميع الحوادث والأفعال الواقعة، والتي لا تزال تحدث على العمومات القرآنية؛ فبذلك تعرف أن القرآن تبيان لكل شيء، وأنه لا يحدث حادث ولا يستجد أمر من الأمور إلا وفي القرآن بيانه وتوضيحه.

ومن أصوله: أن الألف واللام الداخلة على الأوصاف، وعلى أسماء الأجناس، تفيد استغراق جميع ما دخلت عليه من المعاني.

ومن كليات القرآن: أنه يدعو إلى توحيد الله ومعرفته، بذكر أسماء الله وأوصافه وأفعاله الدالة على تفرده بالوحدانية وأوصاف الكمال، وإلى أنه الحق، وعبادته هي الحق، وأن ما يدعون من دونه هو الباطل. ويبين نقص كل ما عبد من دون الله من جميع الوجوه.

ويدعو إلى صحة ما جاء به الرسول محمد ﷺ وصدقه ببيان أحكامه، وتمامه وصدق إخباراته كلها، وحسن أحكامه، ويبين ما كان عليه الرسول ﷺ من الكمال البشري الذي لا يلحقه فيه أحد من الأولين والآخرين، ويتحداهم بأن يأتوا بمثل ما جاء به إن كانوا صادقين، ويقرر ذلك بشهادته تعالى بقوله وفعله وإقراره إياه، وتصديقه له بالحجة والبرهان والنصر والظهور وبشهادة أهل العلم المنصفين، ويقابل بين ما جاء به من الحق في أخباره وأحكامه وبين ما كان عليه أعداؤه والمكذبون به من الكذب في أخبارهم والباطل في أحكامهم، كما يقرر ذلك بالمعجزات المتنوعة.

ويقرر الله المعاد بذكر كمال قدرته، وخلق له السماوات والأرض اللتين هما أكبر من خلق الناس، وبأن الذي بدأ الخلق قادر على إعادته من باب أولى، وبأن الذي أحيا الأرض بعد موتها قادر على إحياء الموتى.

ويذكر أيضًا أيامه في الأمم ووقوع المثلثات التي شاهدها الناس في الدنيا وأنها نموذج من جزاء الآخرة.

ويدعو جميع المبطلين، من الكفار والمشركين، والملحدين بذكر محاسن الدين، وأنه يهدي للتي هي أقوم في عقائده وأخلاقه وأعماله، ويبيان ما لله من العظمة والربوبية والنعم العظيمة، وأن من تفرد بالكمال المطلق والنعم كلها هو الذي لا تصلح العبادة إلا له، وأن ما عليه المبطلون إذا ميز وحقق وجد شرًا وباطلاً، وعواقبه وخيمة.

ومن أصول التفسير: إذا فهمت ما دلت عليه الآيات الكريمة من المعاني مطابقة وتضمنًا؛ فاعلم أن لوازم هذه المعاني وما لا تتم إلا به؛ وشروطها وتوابعها تابعة لذلك المعنى، فما لا يتم الخبر إلا به فهو تابع للخبر، وما لا يتم الحكم إلا به؛ فهو تابع للحكم.

وأن الآيات التي يفهم منها التعارض والتناقض ليس فيها تناقض ولا تعارض، بل يجب حمل كل منها على الحالة المناسبة لللائقة بها، وأن حذف المتعلقات من مفعولات وغيرها يدل على تعميم المعنى؛ لأن هذا من أعظم فوائد الحذف، وأنه لا يجوز حذف ما لا يدل عليه السياق اللفظي أو القرينة الحالية.

كما أن الأحكام المقيدة بشروط أو صفات تدل على أن تلك القيود لا بد منها في ثبوت الحكم. إذا أمر الله بشيء كان ناهيًا عن ضده، وإذا نهى عن شيء كان أمرًا بضده، وإذا أثنى على نفسه بنفي شيء من النقائص كان إثباتًا للكمال المنافي لذلك النقص، وكذلك إذا أثنى على رسله وأوليائه ونزههم عن شيء من النقائص فهو مدح لهم بما يصاد ذلك النقص، ومثله نفي النقائص عن دار النعيم؛ يدل على إثبات ضد ذلك.

ومن الكمالات: أنه إذا وضح الحق وظهر ظهورًا جليًا لم يبق للمجادلات العلمية والمعارضات العملية محل، بل تبطل المعارضات وتضمحل المجادلات.

ما نفاه القرآن؛ فإما أن يكون غير موجود، أو أنه موجود، ولكنه غير مفيد ولا نافع.

الموهوم لا يدفع المعلوم، والمجهول لا يعارض المحقق؛ وما بعد الحق إلا الضلال.

ذكر الله في القرآن الإيمان والعمل الصالح في مواضع كثيرة، رتب عليهما من الجزاء العاجل والآجل والآثار الحميدة شيئًا كثيرًا، فالإيمان: هو التصديق الجازم بما أمر الله ورسوله بالتصديق به المتضمن لأعمال الجوارح، والعمل الصالح: هو القيام بحقوق الله وحقوق عباده.

وكذلك أمر الله بالتقوى ومدح المتقين، ورتب على التقوى حصول الخيرات وزوال المكروهات، والتقوى الكاملة امثال أمر الله وأمر رسوله واجتناب نهيهما وتصديق خبرهما.

وإذا جمع الله بين التقوى والبر ونحوه كانت التقوى اسمًا لتوقي جميع المعاصي، والبر اسما لفعل الخيرات. وإذا أفرد أحدهما دخل فيه الآخر.

وذكر الله الهدى المطلوب في مواضع كثيرة، وأثنى على المهتدين وأخبر أن الهدى بيده، وأمرنا بطلبه منه وبالسعي في كل سبب يحصل الهدى، وذلك شامل لهداية العلم والعمل، فالمهتدي من عرف الحق وعمل به، وضده الغي والضلال، فمن عرف الحق ولم يعمل به؛ فهو الغاوي، ومن جهل الحق؛ فهو الضال.

أمر الله بالإحسان وأثنى على المحسنين، وذكر ثوابهم المتنوع في آيات كثيرة. وحقيقة الإحسان: أن تعبد الله كأنك تراه؛ فإن لم تكن تراه؛ فإنه يراك، وأن تبذل ما تستطيعه من النفع المالي والبدني والقلوبي إلى المخلوقين.

وأمر بالإصلاح وأثنى على المصلحين، وأخبر أنه لا يضيع ثوابهم وأجرهم، والإصلاح هو: أن تسعى في إصلاح عقائد الناس، وأخلاقهم، وجميع أحوالهم، بحيث تكون على غاية ما يمكن من الصلاح، وأيضًا يشمل إصلاح الأمور الدينية والأموال الدنيوية، وإصلاح الأفراد والجماعات.

و ضد هذا الفساد قد نهى عنه، وذم المفسدين وذكر عقوباتهم المتعددة، وأخبر أنه لا يصلح أعمالهم الدينية والدنيوية.

أثنى الله على اليقين وعلى الموقنين، وأنهم هم المنتفعون بالآيات القرآنية والآيات الأفقية. واليقين أخص من العلم؛ فهو: العلم الراسخ المثمر للعمل والطمأنينة.

أمر الله بالصبر وأثنى على الصابرين، وذكر جزاءهم العاجل والآجل في عدة آيات نحو تسعين موضعًا، وهو يشمل أنواعه الثلاثة: الصبر على طاعة الله حتى يؤديها كاملة من جميع الوجوه، والصبر عن محارم الله حتى ينهى نفسه الأمارة بالسوء عنها، والصبر على أقدار الله المؤلمة؛ فيتلقاها بصبر وتسليم غير متسخط في قلبه ولا بدنه ولا لسانه.

وكذلك أثنى الله على الشكر وذكر ثواب الشاكرين، وأخبر أنهم أرفع الخلق في الدنيا والآخرة. وحقيقة الشكر هو: الاعتراف بجميع نعم الله، والثناء على الله بها، والاستعانة بها على طاعة المنعم.

وذكر الله الخوف والخشية في مواضع كثيرة، أمر به وأثنى على أهله، وذكر ثوابهم وأنهم المنتفعون بالآيات التاركون للمحرمات.

وحقيقة الخوف والخشية: أن يخاف العبد مقامه بين يدي الله، ومقامه عليه؛ فينهى نفسه بهذا الخوف عن كل ما حرم الله.

والرجاء: أن يرجو العبد رحمة الله العامة ورحمته الخاصة به، فيرجو قبول ما تفضل الله عليه به من الطاعات وغفران ما تاب منه من الزلات، ويعلق رجاءه بربه في كل حالة من أحواله.

وذكر الله الإنابة في مواضع كثيرة وأثنى على المنيبين وأمر بالإنابة إليه، وحقيقة الإنابة: انجذاب القلب إلى الله في كل حالة من أحواله ينب إلى ربه عند النعماء بشكره، وعند الضراء بالتضرع إليه، وعند مطالب النفوس الكثيرة بكثرة دعائه في جميع مهماته، وينيب إلى ربه باللهج بذكره في كل وقت. والإنابة أيضًا: الرجوع إلى الله بالتوبة من جميع المعاصي، والرجوع إليه في جميع أعماله وأقواله؛ فيعرضها على كتاب الله وسنة رسوله ﷺ فتكون الأعمال والأقوال موزونة بميزان الشرع.

أمر تعالى بالإخلاص، وأثنى على المخلصين وأخبر أنه لا يقبل إلا العمل الخالص. وحقيقة الإخلاص أن يقصد العامل بعمله وجه الله وحده وثوابه. وضده الرياء والعمل للأغراض النفسية.

نهى الله عن التكبر وذم الكبر والمتكبرين، وأخبر عن عقوباتهم العاجلة والآجلة.

والتكبر هو: رد الحق واحتقار الخلق. وضد ذلك التواضع فقد أمر به وأثنى على أهله وذكر ثوابهم، فهو قبول الحق ممن قاله، وألا يحتقر الخلق بل يرى فضلهم، ويحب لهم ما يحب لنفسه.

العدل هو: أداء حقوق الله وحقوق العباد، والظلم: عكسه، فهو يشمل ظلم العبد لنفسه بالمعاصي والشرك وظلم العباد في دمائهم وأموالهم وأعراضهم.

الصدق هو: استواء الظاهر والباطن على الاستقامة على الصراط المستقيم، والكذب بخلاف ذلك.

حدود الله هي: محارمه، وهي التي يقول فيها: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرُبُوهَا﴾ [البقرة: ١٨٧]. ويراد بها: ما أباحه الله، وحلله، وقدره، وفرضه، فيقول فيها: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا﴾ [البقرة: ٢٢٩].

الأمانة هي: الأمور التي يؤتمن عليها العبد؛ فيشمل ذلك أداء حقوق الله وخصوصًا الخفية، وحقوق خلقه كذلك.

العهود والعقود يدخل فيها التي بينه وبين الله وهو: القيام بعبادة الله مخلصًا له الدين، والتي بينه وبين العباد من المعاملات ونحوها.

الحكمة والقوام: فعل ما ينبغي على الوجه الذي ينبغي.

والإسراف والتبذير: مجاوزة الحد في الإنفاق. والتقتير والبخل عكسه: التقصير في النفقات الواجبة. المعروف: اسم جامع لكل ما عرف حسنه ونفعه شرعاً وعقلاً، والمنكر عكسه. الاستقامة: لزوم طاعة الله وطاعة رسوله على الدوام.

مرض القلب هو اعتلاله، وهو نوعان: مرض شكوك في الحق، ومرض شهوة للأموال المحرمة. النفاق: إظهار الخير وإبطان الشر؛ فيدخل فيه النفاق الاعتقادي، والنفاق العملي.

القرآن كله محكم، وأحكمت آياته من جهة موافقتها للحكمة، وأن أخباره أعلى درجات الصدق، وأحكامه في غاية الحسن، وكله متشابه من جهة اتفائه في البلاغة، والحسن، وتصديق بعضه لبعض، وكمال اتفائه، ومنه محكم ومتشابه من جهة أن متشابهه: ما كان فيه إجمال أو احتمال لبعض المعاني، ومحكمه واضح مبين صريح في معناه، إذا رد إليه المتشابه اتفق الجميع واستقامت معانيه. معية الله التي ذكرها في كتابه نوعان:

• معية العلم والإحاطة وهي: المعية العامة، فإنه مع عباده أينما كانوا.

• ومعية خاصة وهي: معيته مع خواص خلقه بالنصرة واللفظ والتأييد.

الدعاء والدعوة، يشمل دعاء العبادة، فيدخل فيه كل عبادة أمر الله بها ورسوله، ودعاء المسألة وهو: سؤال الله جلب المنافع ودفع المضار.

الطيبات: اسم جامع لكل طيب نافع من العقائد والأخلاق والأعمال والمآكل والمشرب والمكاسب. والخبيث ضد ذلك. وقد يراد بالخبيث: الرديء وبالطيب: الخيار؛ كقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ﴾ [البقرة: ٢٦٧].

النفقة: تشمل النفقة الواجبة كالزكاة والكفارة ونفقة النفس والعائلة والمماليك، والنفقة المستحبة كالنفقة في جميع طرق الخير.

التوكل على الله والاستعانة به: قد أمر الله بها، وأثنى على المتوكلين في آيات كثيرة، وحقيقة ذلك: قوة اعتماد القلب على الله في جلب المصالح ودفع المضار الدينية والدنيوية، مع الثقة به في حصول ذلك.

العقل: الذي مدحه الله وأثنى على أهله، وأخبر أنهم هم المستفعلون بالآيات، هو: الذي يفهم ويعقل الحقائق النافعة ويعمل بها، ويعقل صاحبه عن الأمور الضارة، ولذلك قيل له: حجر ولب ونهى؛ لأنه يحجر صاحبه، وينهاه عما يضره.

العلم: هو معرفة الهدى بدليله، فهو معرفة المسائل النافعة المطلوبة، ومعرفة أدلتها وطرقها التي تهدي إليها. والعلم النافع هو: العلم بالحق والعمل به، وضده الجهل.

لفظ «الأمة» في القرآن على أربعة أوجه: يراد به الطائفة من الناس، وهو الغالب، ويراد به: المدة، ويراد به: الدين والملة، ويراد به: الإمام في الخير.

لفظ «استوى» في القرآن على ثلاثة أوجه:

- إن عدي بعلى كان معناه العلو والارتفاع ﴿ثُمَّ أَسْتَوَىٰ عَلَى الْمَرْشِ﴾ [الأعراف: ٥٤].
- وإن عدي بإلى؛ فمعناه قصد؛ كقوله: ﴿ثُمَّ أَسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ﴾ [البقرة: ٢٩].
- وإن لم يعد بشيء؛ فمعناه كمل كقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَىٰ﴾ [القصص: ١٤].

التوبة: ورد في آيات كثيرة الأمر بها، ومدح التائبين وثوابهم، وهي: الرجوع عما يكرهه الله ظاهراً وباطناً إلى ما يحبه الله ظاهراً وباطناً.

الصراط المستقيم الذي أمر الله بلزومه وأثنى على المستقيمين عليه هو: الطريق المعتدل الموصل إلى رضوان الله وثوابه، وهو متابعة النبي ﷺ في أقواله وأفعاله وكل أحواله.

الذكر لله الذي أمر به، وأثنى على الذاكرين، وذكر جزاءهم العاجل والآجل هو: عند الإطلاق يشمل جميع ما يقرب إلى الله من عقيدة، أو فكر نافع، أو خلق جميل، أو عمل قلبي، أو بدني، أو ثناء على الله، أو تسييح ونحوه، أو تعلم أحكام الشرع الأصولية والفروعية، أو ما يعين على ذلك، فكله داخل في ذكر الله.

فصل

وقد تكرر كثير من أسماء الله الحسنى في القرآن بحسب المناسبات، والحاجة داعية إلى التنبيه إلى معانيها الجامعة فنقول:

قد تكرر اسم الرب في آيات كثيرة، فالرب هو المربي جميع عبادته بالتدبير وأصناف النعم، وأخص من هذا تربيته لأصفيائه بإصلاح قلوبهم وأرواحهم وأخلاقهم؛ ولهذا كثر دعاؤهم له بهذا الاسم الجليل، لأنهم يطلبون منه هذه التربية الخاصة.

الله هو المألوه المعبود ذو الألوهية والعبودية على خلقه أجمعين، لما اتصف به من صفات الألوهية التي هي صفات الكمال.

الملك، المالك، الذي له الملك فهو الموصوف بصفة الملك، وهي صفات العظمة والكبرياء والقهر

والتدبير، الذي له التصرف المطلق في الخلق والأمر والجزاء، وله جميع العالم العلوي والسفلي، كلهم عبيد ومماليك ومضطرون إليه.

الواحد، الأحد: وهو الذي توحد بجميع الكمالات، بحيث لا يشاركه فيها مشارك. ويجب على العبيد توحيده عقدًا وقولًا وعملاً، بأن يعترفوا بكماله المطلق، وتفرد بالوحدانية، ويفردوه بأنواع العبادة.

الصمد: وهو الذي تقصده الخلائق كلها في جميع حاجاتها، وضروراتها وأحوالها؛ لما له من الكمال المطلق في ذاته، وأسمائه، وصفاته، وأفعاله.

العليم، الخبير: وهو الذي أحاط علمه بالظواهر والبواطن، والإسرار والإعلان، وبالواجبات والمستحيلات والممكّنات، وبالعالم العلوي والسفلي، وبالماضي والحاضر والمستقبل؛ فلا يخفى عليه شيء من الأشياء.

الحكيم: وهو الذي له الحكمة العليا في خلقه، وأمره الذي أحسن كل شيء خلقه ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: ٥٠]. فلا يخلق شيئاً عبثاً ولا يشرع شيئاً سدى، الذي له الحكم في الأولى والآخرة، وله الأحكام الثلاثة لا يشاركه فيها مشارك: فيحكم بين عباده في شرعه، وفي قدره، وجزائه، والحكمة: وضع الأشياء مواضعها وتنزيلها منازلها.

الرحمن، الرحيم، البر، الكريم، الجواد، الرؤوف، الوهاب هذه الأسماء تتقارب معانيها، وتدل كلها على اتصاف الرب بالرحمة والبر والجود والكرم، وعلى سعة رحمته ومواهبه التي عم بها جميع الوجود بحسب ما تقتضيه حكمته، وخص المؤمنين منها بالنصيب الأوفر والحظ الأكمل، قال تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُمُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٦] الآية. والنعم والإحسان كله من آثار رحمته وجوده وكرمه، وخيرات الدنيا والآخرة كلها من آثار رحمته.

السميع: لجميع الأصوات، باختلاف اللغات، على تفنن الحاجات.

البصير: الذي يبصر كل شيء وإن دق وصغر، فيبصر ديبب النملة السوداء في الليلة الظلماء على الصخرة الصماء، ويبصر ما تحت الأرضين السبع كما يبصر ما فوق السماوات السبع، وأيضاً سميع بصير بمن يستحق الجزاء بحسب حكمته، والمعنى الأخير يرجع إلى الحكمة.

الحميد في ذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله، فله من الأسماء أحسنها ومن الصفات أكملها، ومن الأفعال أتمها وأحسنها؛ فإن أفعاله تعالى دائرة بين الفضل والعدل.

المجيد، الكبير، العظيم، الجليل: وهو الموصوف بصفات المجد والكبرياء، والعظمة والجلال،

الذي هو أكبر من كل شيء، وأعظم من كل شيء، وأجل وأعلى، وله التعظيم والإجلال في قلوب أوليائه وأصفياه، قد ملئت قلوبهم من تعظيمه وإجلاله والخضوع له والتذلل لكبريائه.

العفو، الغفور، الغفار: الذي لم يزل ولا يزال بالعفو معروفاً، وبالعفو عن عباده موصوفاً، كل أحد مضطر إلى عفوهِ ومغفرته كما هو مضطر إلى رحمته وكرمه، وقد وعد بالمغفرة والعفو لمن أتى بأسبابها، قال تعالى: ﴿وَلِيَّ لَفْقَارٍ لَّنْ تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى﴾ [طه: ٨٢].

التواب: الذي لم يزل يتوب على التائبين، ويغفر ذنوب المنيبين، فكل من تاب إلى الله توبة نصوحاً تاب الله عليه، فهو التائب على التائبين: أولاً بتوفيقهم للتوبة والإقبال بقلوبهم إليه، وهو التائب عليهم بعد توبتهم قبولاً لها، وعفواً عن خطاياهم.

القدوس، السلام: أي: المعظم المنزه عن صفات النقص كلها، وأن يماثله أحد من الخلق، فهو المتنزه عن جميع العيوب، والمتنزه عن أن يقاربه أو يماثله أحد في شيء من الكمال ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١]. ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ٤]. ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ [مريم: ٦٥]. ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا﴾ [البقرة: ٢٢]. فالقدوس كالسلام ينفيان كل نقص من جميع الوجوه، ويتضمنان الكمال المطلق من جميع الوجوه، لأن النقص إذا انتفى ثبت الكمال كله.

العلي، الأعلى: وهو الذي له العلو المطلق من جميع الوجوه: علو الذات، وعلو القدر والصفات، وعلو القهر، فهو الذي على العرش استوى، وعلى الملك احتوى، وبجميع صفات العظمة والكبرياء والجلال والجمال وغاية الكمال اتصف، وإليه فيها المنتهى.

العزیز: الذي له العزة كلها: عزة القوة، وعزة الغلبة، وعزة الامتناع؛ فامتنع أن يناله أحد من المخلوقات، وقهر جميع الموجودات، ودانت له الخليفة، وخضعت لعظمته.

القوي، المتين: هو في معنى العزيز.

الجبار: هو بمعنى العلي الأعلى، وبمعنى القهار، وبمعنى الرؤف الجابر للقلوب المنكسرة، وللضعيف العاجز ولمن لا ذبه ولجأ إليه.

المتكبر: عن السوء والنقص والعيوب، لعظمته وكبريائه.

الخالق، البارئ، المصور: الذي خلق جميع الموجودات، وبرأها وسواها بحكمته وصورها بحمده وحكمته، وهو لم يزل ولا يزال على هذا الوصف العظيم.

المؤمن: الذي أثنى على نفسه بصفات الكمال، وبكمال الجلال والجمال، الذي أرسل رسله، وأنزل كتبه بالآيات والبراهين، وصدق رسله بكل آية وبرهان يدل على صدقهم، وصحة ما جاءوا به.

المهيمن: المطلع على خفايا الأمور، وخبايا الصدور، الذي أحاط بكل شيء علمًا.

القدير: كامل القدرة، بقدرته أوجد الموجودات، وبقدرته دبرها، وبقدرته سواها وأحكمها، وبقدرته يحيي ويميت، ويبعث العباد للجزاء، ويجازي المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته، الذي إذا أراد شيئًا قال له: كن فيكون، وبقدرته يقلب القلوب ويصرفها على ما يشاء ويريد.

اللطيف: الذي أحاط علمه بالسرائر والخفايا، وأدرك الخبايا والبواطن والأمور الدقيقة، اللطيف بعباده المؤمنين، الموصل إليهم مصالحهم بلطفه وإحسانه من طرق لا يشعرون بها، فهو بمعنى «الخير» وبمعنى «الرءوف».

الحسيب: هو العليم بعباده، كافي المتوكلين، المجازي لعباده بالخير والشر بحسب حكمته، وعلمه بدقيق أعمالهم وجليلها.

الرقيب: المطلع على ما أكتته الصدور، القائم على كل نفس بما كسبت، الذي حفظ المخلوقات، وأجراها على أحسن نظام وأكمل تدبير.

الحفيظ: الذي حفظ ما خلقه، وأحاط علمه بما أوجده، وحفظ أوليائه من وقوعهم في الذنوب والهلكات، ولطف بهم في الحركات والسكنات، وأحصى على العباد أعمالهم وجزاءها.

المحيط: بكل شيء علمًا وقدرة ورحمة وقهرًا.

القهار: لكل شيء، الذي خضعت له المخلوقات، وذلت لعزته وقوته وكمال اقتداره.

المقيت: الذي أوصل إلى كل موجود ما به يقتات، وأوصل إليها أرزاقها وصرفها كيف يشاء بحكمته وحمده.

الوكيل: المتولي لتدبير خلقه بعلمه وكمال قدرته وشمول حكمته، الذي تولى أوليائه فيسرهم ليسرى وجنبهم العسرى وكفاهم الأمور؛ فمن اتخذه وكيلًا كفاه. ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [البقرة: ٢٥٧].

ذو الجلال والإكرام: أي: ذو العظمة والكبرياء، وذو الرحمة والجود والإحسان العام والخاص، المكرم لأوليائه وأصفياه، الذين يجلوونه ويعظمونه ويحبونه.

الودود: الذي يحب أنبياءه ورسله وأتباعهم ويحبونه، فهو أحب إليهم من كل شيء، قد امتلأت قلوبهم من محبته، ولهجت ألسنتهم بالثناء عليه، وانجذبت أفئدتهم إليه ودا وإخلاصًا وإنابة من جميع الوجوه.

الفتاح: الذي يحكم بين عباده بأحكامه الشرعية، وأحكامه القدريّة، وأحكام الجزاء، الذي فتح بلفظه بصائر الصادقين، وفتح قلوبهم لمعرفة ومحبته والإنابة إليه، وفتح لعباده أبواب الرحمة والأرزاق المتنوعة، وسبب لهم الأسباب التي ينالون بها خير الدنيا والآخرة ﴿مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكُ فَلَا مُرْتِيلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ﴾ [فاطر: ٢].

الرزاق: لجميع عباده فما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها. ورزقه لعباده نوعان: رزق عام شمل البر والفاجر والأولين والآخرين وهو رزق الأبدان، ورزق خاص وهو رزق القلوب وتغذيتها بالعلم والإيمان، والرزق الحلال الذي يعين على صلاح الدين، وهذا خاص بالمؤمنين على مراتبهم منه بحسب ما تقتضيه حكمته ورحمته.

الحكم، العدل: الذي يحكم بين عباده في الدنيا والآخرة بعدله وقسطه؛ فلا يظلم مثقال ذرة، ولا يحمل أحدًا وزر أحد، ولا يجازي العبد بأكثر من ذنبه، ويؤدي الحقوق إلى أهلها، فلا يدع صاحب حق إلا أوصل إليه حقه، وهو العدل في تدبيره وتقديره ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [هود: ٥٦].

جامع الناس ليوم لا ريب فيه، وجامع أعمالهم وأرزاقهم فلا يترك منها صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها، وجامع ما تفرق واستحال من الأموات الأولين والآخرين بكمال قدرته وسعة علمه.

الحي، القيوم: كامل الحياة، والقائم بنفسه، القيوم لأهل السماوات والأرض، القائم بتدبيرهم وأرزاقهم وجميع أحوالهم، فالحي الجامع لصفات الذات، والقيوم الجامع لصفات الأفعال.

النور: نور السماوات والأرض، الذي نور قلوب العارفين بمعرفته والإيمان به، ونور أفئدتهم بهدايته، وهو الذي أنار السماوات والأرض بالأنوار التي وضعها، وحجابه النور لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه^(١).

بديع السماوات والأرض: أي: خالقهما ومبدعهما في غاية ما يكون من الحسن، والخلق البديع، والنظام العجيب المحكم.

القابض، الباسط: يقبض الأرزاق والأرواح، ويسط الأرزاق والقلوب، وذلك تبع لحكمته ورحمته.

المعطي، المانع: لا مانع لما أعطى ولا معطي لما منع، فجميع المصالح والمنافع منه تطلب وإليه يرغب فيها، وهو الذي يعطيها لمن يشاء، ويمنعها من يشاء بحكمته ورحمته.

الشهيد: أي: المطلع على جميع الأشياء، سمع جميع الأصوات خفيها وجليها، وأبصر جميع الموجودات دقيقها وجليلها، صغيرها وكبيرها، وأحاط علمه بكل شيء، الذي شهد لعباده وعلى عباده بما عملوه.

المبدئ، المعيد: قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ [الروم: ٢٧]. ابتداء خلقهم؛ ليلوهم أيهم أحسن عملاً، ثم يعيدهم؛ ليجزي الذين أحسنوا بالحسنى، ويجزي المسيئين بإساءتهم، وكذلك هو الذي يبدأ إيجاد المخلوقات شيئاً فشيئاً، ثم يعيدها كل وقت.

الفعال لما يريد: وهذا من كمال قوته ونفوذ مشيئته وقدرته؛ أن كل أمر يريده يفعله بلا ممانع ولا معارض، وليس له ظهير ولا عوين على أي أمر يكون، بل إذا أراد شيئاً قال له: كن؛ فيكون، ومع أنه الفعال لما يريد، لإرادته تابعة لحكمته وحمده؛ فهو موصوف بكمال القدرة ونفوذ المشيئة، وموصوف بشمول الحكمة لكل ما فعله ويفعله.

الغني، المغني: فهو الغني بذاته الذي له الغنى التام المطلق من جميع الوجوه والاعتبارات، لكماله وكمال صفاته؛ فلا يتطرق إليها نقص بوجه من الوجوه، ولا يمكن أن يكون إلا غنياً؛ لأن غناه من لوازم ذاته، كما لا يكون إلا خالقاً قادراً رازقاً محسناً؛ فلا يحتاج إلى أحد بوجه من الوجوه؛ فهو الغني الذي بيده خزائن السماوات والأرض وخزائن الدنيا والآخرة، المغني جميع خلقه غنى عاماً، والمغني لخواص خلقه بما أفاض على قلوبهم من المعارف الربانية والحقائق الإيمانية.

الحليم: الذي يدر على خلقه النعم الظاهرة والباطنة مع معاصيهم وكثرة زلاتهم، فيحلم عن مقابلة العاصين بعصيانهم، ويستعذبهم كي يتوبوا، ويمهلهم كي ينيبوا.

الشاكر، الشكور: الذي يشكر القليل من العمل، ويغفر الكثير من الزلل، ويضاعف للمخلصين أعمالهم بغير حساب، ويشكر الشاكرين، ويذكر من ذكره، ومن تقرب إليه بشيء من الأعمال الصالحة؛ تقرب الله منه أكثر.

القريب، المجيب: أي: هو تعالى القريب من كل أحد. وقربه تعالى نوعان: قرب عام من كل أحد بعلمه وخبرته ومراقبته ومشاهدته وإحاطته، وقرب خاص من عابديه وسائليه ومحبيه، تقرب لا تدرك له حقيقة، وإنما تعلم آثاره من لطفه بعبده وعنايته به وتوفيقه وتسديده.

ومن آثاره: الإجابة للداعين والإنابة للعبدين؛ فهو المجيب إجابة عامة للداعين، مهما كانوا، وأينما كانوا، وعلى أي حال كانوا كما وعدهم بهذا الوعد المطلق؛ وهو المجيب إجابة خاصة للمستجيبين له المنقادين لشرعه، وهو المجيب أيضاً للمضطربين، ومن انقطع رجائهم من المخلوقين، وقوي تعلقهم به طمعاً ورجاء وخوفاً.

الكافي عباده جميع ما يحتاجونه ويضطرون إليه، الكافي كفاية خاصة، من آمن به وتوكل عليه، واستمد منه حوائج دينه ودنياه.

الأول والآخر والظاهر والباطن: قد فسرهما النبي ﷺ تفسيرًا جامعًا واضحًا؛ فقال: «أنت الأول؛ فليس قبلك شيء، وأنت الآخر، فليس بعدك شيء، وأنت الظاهر؛ فليس فوقك شيء، وأنت الباطن، فليس دونك شيء»^(١).

الواسع الصفات والنعوت ومتعلقاتها بحيث لا يحصي أحد ثناء عليه، بل هو كما أثنى على نفسه، واسع العظمة والسلطان والملك، واسع الفضل والإحسان، عظيم الجود والكرم.

الهادي، الرشيد: أي: الذي يهدي ويرشد عباده إلى جميع المنافع وإلى دفع المضار، ويعلمهم ما لا يعلمون، ويهديهم هداية التوفيق والتسديد، ويلهمهم التقوى، ويجعل قلوبهم منية إليه، منقادة لأمره، وللرشيد معنى، بمعنى (الحكيم). فهو الرشيد: في أقواله وأفعاله، وشرائعه كلها خير ورشد وحكمة، ومخلوقاته مشتملة على الرشد.

الحق في ذاته وصفاته، فهو واجب الوجود، كامل الصفات والنعوت، وجوده من لوازم ذاته، ولا وجود لشيء من الأشياء إلا به، فهو الذي لم يزل ولا يزال بالجلال والجمال والكمال موصوفًا، ولم يزل ولا يزال بالإحسان معروفًا. فقله حق، وفعله حق، ولقاؤه حق، ورسله حق، وكتبه حق، ودينه هو الحق، وعبادته وحده لا شريك له هي الحق، وكل شيء ينسب إليه فهو حق؛ ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ [الحج: ٦٢]. ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ﴾ [الكهف: ٢٩]. ﴿فَمَاذَا بَعَدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ﴾ [يونس: ٣٢]. ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ [الإسراء: ٨١].

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، وصلى الله وسلم على محمد وعلى آله وأصحابه، ومن تبعهم إلى يوم الدين.

قال ذلك وكتبه العبد الفقير إلى ربه عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله بن ناصر السعدي - غفر الله له ولوالديه ومشايخه وأحبابه وجميع المسلمين - آمين.



تفسير سورة الفاتحة

وهي مكية

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ ① الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ
الْعَالَمِينَ ② الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ③ مَلِكِ يَوْمِ
الدِّينِ ④ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ⑤ اهْدِنَا
الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ⑥ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ
الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ⑦ ﴿

① أي: أبتدئ بكل اسم لله تعالى؛ لأن لفظ «اسم» مفرد
مضاف، فيعم جميع الأسماء الحسنى. ﴿اللَّهُ﴾: هو المألوه
المعبود المستحق لإفراده بالعبادة، لما اتصف به من صفات
الالوهية، وهي: صفات الكمال.

② ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾: هو: الثناء على الله بصفات الكمال،
وبأفعاله الدائرة بين الفضل والعدل، فله الحمد الكامل بجميع
الوجوه. ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ③: الرب: هو المربي لجميع
العالمين، وهم من سوى الله بخلقه لهم، وإعداده لهم
الآلات، وإنعامه عليهم بالنعم العظيمة، التي لو فقدوها لم
يمكن لهم البقاء، فما بهم من نعمة فمنه تعالى.

وتريبته تعالى لخلقه نوعان: عامة وخاصة: فالعامة هي: خلقه للمخلوقين ورزقهم وهدايتهم لما فيه مصالحهم التي فيها
بقاؤهم في الدنيا، والخاصة: تربيته لأوليائه، فيربهم بالإيمان، ويوفقهم له، ويكملهم، ويدفع عنهم الصوارف والعوائق
الحائلة بينهم وبينه. وحقيقتها: تربية التوفيق لكل خير، والعصمة من كل شر، ولعل هذا المعنى هو السر في كون أكثر أدعية
الأنبياء بلفظ الرب، فإن مطالبهم كلها داخلة تحت ربوبيته الخاصة؛ فدل قوله: ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ③ على انفراده
بالخلق، والتدبير، والنعم، وكمال غناه، وتمام فقر العالمين إليه بكل وجه واعتبار.

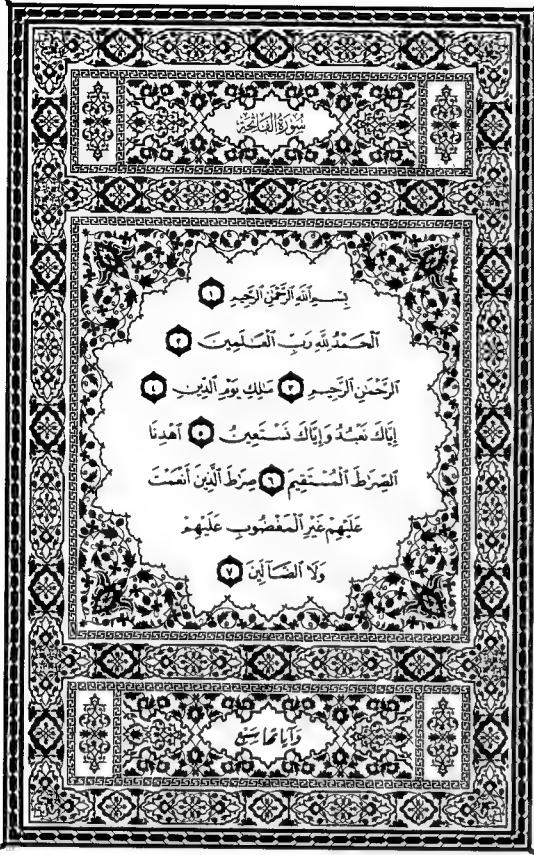
④ ﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ ④: اسمان دالان على أنه تعالى ذو الرحمة الواسعة العظيمة التي وسعت كل شيء، وعمت كل
حي، وكتبها للمتقين المتبعين لأنبيائه ورسله؛ فهؤلاء لهم الرحمة المطلقة، ومن عداهم فله نصيب منها.

واعلم: أن من القواعد المتفق عليها بين سلف الأمة وأئمتها الإيمان بأسماء الله وصفاته وأحكام الصفات، فيؤمنون مثلاً
بأنه رحمن رحيم ذو الرحمة التي اتصف بها، المتعلقة بالمرحوم، فالنعم كلها أثر من آثار رحمته، وهكذا في سائر الأسماء.

يقال في العليم: إنه عليم ذو علم يعلم به كل شيء، قدير ذو قدرة يقدر على كل شيء.

⑤ ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ ⑤: المالك: هو من اتصف بصفة الملك التي من آثارها أنه يأمر وينهى، ويثيب ويعاقب،
ويتصرف بمماليكه بجميع أنواع التصرفات.

وأضاف الملك ليوم الدين، وهو يوم القيامة، يوم يدان الناس فيه بأعمالهم خيرا وشرها؛ لأن في ذلك اليوم يظهر للخلق
تمام الظهور كمال ملكه وعدله وحكمته، وانقطاع أملاك الخلائق، حتى إنه يستوي في ذلك اليوم الملوك والرعايا والعبيد



والأحرار، كلهم مذعنون لعظمته، خاضعون لعزته، منتظرون لمجازاته، راجون ثوابه، خائفون من عقابه، فلذلك خصه بالذكر، وإلا فهو المالك ليوم الدين وغيره من الأيام.

﴿٢﴾ وقوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ أي: نخصك وحدك بالعبادة والاستعانة، لأن تقديم المعمول يفيد الحصر، وهو إثبات الحكم للمذكور ونفيه عما عداه؛ فكأنه يقول: نعبدك، ولا نعبد غيرك، ونستعين بك، ولا نستعين بغيرك، وتقديم العبادة على الاستعانة من باب تقديم العام على الخاص، واهتماماً بتقديم حقه تعالى على حق عبده.

والعبادة: اسم جامع لما يحبه الله ويرضاه من الأعمال والأقوال الظاهرة والباطنة، والاستعانة هي: الاعتماد على الله تعالى في جلب المنافع ودفع المضار، مع الثقة به في تحصيل ذلك.

والقيام بعبادة الله والاستعانة به هو الوسيلة للسعادة الأبدية والنجاة من جميع الشرور، فلا سبيل إلى النجاة إلا بالقيام بهما، وإنما تكون العبادة عبادة إذا كانت مأخوذة عن رسول الله ﷺ، مقصوداً بها وجه الله، فهذهين الأمرين تكون عبادة، وذكر الاستعانة بعد العبادة مع دخولها فيها؛ لاحتياج العبد في جميع عباداته إلى الاستعانة بالله تعالى؛ فإنه إن لم يعنه الله لم يحصل له ما يريد من فعل الأوامر واجتناب النواهي.

ثم قال تعالى:

﴿١﴾ ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ أي: دلنا وأرشدنا، ووفقنا إلى الصراط المستقيم، وهو الطريق الواضح الموصل إلى الله وإلى جنته، وهو معرفة الحق والعمل به، فاهدنا إلى الصراط، واهدنا في الصراط، فالهداية إلى الصراط لزوم دين الإسلام وترك ما سواه من الأديان، والهداية في الصراط تشمل الهداية لجميع التفاصيل الدينية علماً وعملاً؛ فهذا الدعاء من أجمع الأدعية وأنفعها للعبد؛ ولهذا وجب على الإنسان أن يدعو الله به في كل ركعة من صلاته لضرورته إلى ذلك؛ وهذا الصراط المستقيم هو:

﴿٧﴾ ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ﴿غَيْرِ﴾ صراط ﴿الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ الذين عرفوا الحق وتركوه كاليهود ونحوهم، وغير صراط ﴿الضَّالِّينَ﴾ الذين تركوا الحق على جهل وضلال كالنصارى ونحوهم.

فهذه السورة على إيجازها قد احتوت على ما لم تحتو عليه سورة من سور القرآن، فتضمنت أنواع التوحيد الثلاثة: توحيد الربوبية يؤخذ من قوله: ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، وتوحيد الإلهية، وهو إفراد الله بالعبادة يؤخذ من لفظ ﴿اللَّهُ﴾ ومن قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، وتوحيد الأسماء والصفات، وهو إثبات صفات الكمال لله تعالى التي أئبتها لنفسه وأئبتها له رسوله من غير تعطيل ولا تمثيل ولا تشبيه، وقد دل على ذلك لفظ ﴿الْحَمْدُ﴾ كما تقدم.

وتضمنت إثبات النبوة في قوله: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾؛ لأن ذلك ممتنع بدون الرسالة.

وإثبات الجزاء على الأعمال في قوله: ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ وأن الجزاء يكون بالعدل؛ لأن الدين معناه الجزاء بالعدل.

وتضمنت إثبات القدر، وأن العبد فاعل حقيقة خلافاً للقدرية والجبرية.

بل تضمنت الرد على جميع أهل البدع والضلال في قوله: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾؛ لأنه معرفة الحق والعمل به. وكل مبتدع وضال فهو مخالف لذلك.

وتضمنت إخلاص الدين لله تعالى عبادة واستعانة في قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾. فالحمد لله رب العالمين.



تفسير سورة البقرة

وهي مدنية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿١﴾ ﴿الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ عِذابَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ أُولَئِكَ سَئِيمٌ﴾
﴿٢﴾ ﴿الَّذِينَ يَدْعُونَ بِالْغَيْبِ وَيَتَّبِعُونَ صُلُوبَهُمْ وَعَمَّا رَفَعَهُمْ يُقْفُونَ﴾
﴿٣﴾ ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾
﴿٤﴾ ﴿أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾
﴿٥﴾

تقدم الكلام على البسملة.

﴿١﴾ وأما الحروف المقطعة في أوائل السورة؛ فالأسلم

فيها السكوت عن التعرض لمعناها من غير مستند شرعي، مع الجزم بأن الله تعالى لم ينزلها عبثاً، بل لحكمة لا نعلمها.

﴿٢﴾ وقوله: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ﴾؛ أي: هذا الكتاب العظيم، الذي هو الكتاب على الحقيقة، المشتمل على ما لم تشتمل عليه كتب المتقدمين والمتأخرين من العلم العظيم والحق المبين؛ ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ فلا ريب فيه ولا شك بوجه من الوجوه، ونفي الريب عنه يستلزم ضده إذ ضد الريب والشك اليقين، فهذا الكتاب مشتمل على علم اليقين المزيل للشك والريب.

وهذه قاعدة مفيدة أن النفي المقصود به المدح لا بد أن يكون متضمناً لضده وهو الكمال؛ لأن النفي عدم، والعدم المحض لا مدح فيه، فلما اشتمل على اليقين وكانت الهداية لا تحصل إلا باليقين؛ قال: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ (١) والهدى: ما تحصل به الهداية من الضلالة والشبه، وما به الهداية إلى سلوك الطرق النافعة.

وقال: ﴿هُدًى﴾ وحذف المعمول، فلم يقل: هدى للمصلحة الفلانية ولا للشيء الفلاني؛ لإرادة العموم وأنه هدى لجميع مصالح الدارين، فهو مرشد للعباد في المسائل الأصولية والفروعية، ومبين للحق من الباطل والصحيح من الضعيف، ومبين لهم كيف يسلكون الطرق النافعة لهم في دنياهم وأخراهم. وقال في موضع آخر: ﴿هُدًى لِّلنَّاسِ﴾ [البقرة: ١٨٥] فعمم، وفي هذا الموضع وغيره: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ (٢)؛ لأنه في نفسه هدى لجميع الناس، فالأشقياء لم يرفعوا به رأساً ولم يقبلوا هدى الله، فقامت عليهم به الحجة، ولم ينتفعوا به لشقايتهم.

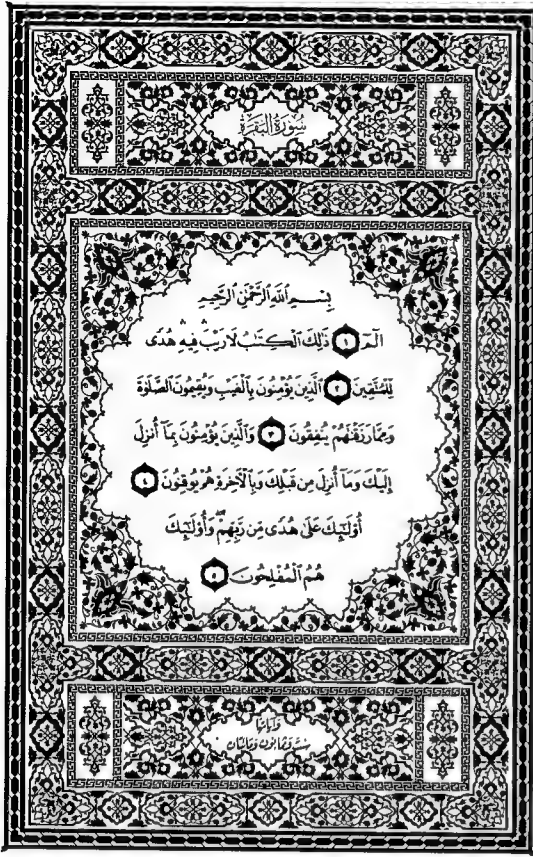
وأما المتقون الذين أتوا بالسبب الأكبر لحصول الهداية وهو التقوى التي حقيقتها: اتخاذ ما يقي سخط الله وعذابه بامثال أوامره، واجتناب النواهي، فاهتدوا به، وانتفعوا غاية الانتفاع، قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَن تَسْأَلُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَّكُمْ فُرْقَانًا﴾ [الأنفال: ٢٩]. فالمتقون هم المنتفعون بالآيات القرآنية والآيات الكونية.

ولأن الهداية نوعان: هداية البيان، وهداية التوفيق، فالمتقون حصلت لهم الهدايتان، وغيرهم لم تحصل لهم هداية التوفيق، وهداية البيان بدون توفيق للعمل بها ليست هداية حقيقية تامة.

ثم وصف المتقين بالعقائد والأعمال الباطنة والأعمال الظاهرة لتضمن التقوى لذلك فقال:

﴿٣﴾ ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾ حقيقة الإيمان هو التصديق التام بما أخبرت به الرسل، المتضمن لانقياد الجوارح، وليس الشأن في الإيمان بالأشياء المشاهدة بالحس، فإنه لا يتميز بها المسلم من الكافر، إنما الشأن في الإيمان بالغيب الذي لم نره ولم نشاهده، وإنما نؤمن به لخبر الله وخبر رسوله.

فهذا الإيمان الذي يميز به المسلم من الكافر؛ لأنه تصديق مجرد لله ورسله، فالمؤمن يؤمن بكل ما أخبر الله به، أو أخبر به رسوله سواء شاهده أو لم يشاهده، وسواء فهمه وعقله، أو لم يهتد إليه عقله وفهمه، بخلاف الزنادقة المكذبين بالأمور الغيبية؛ لأن عقولهم القاصرة المقصرة لم تهتد إليها فكذبوا بما لم يحيطوا بعلمه؛ ففسدت عقولهم، ومرجت أحلامهم؛ وزكت عقول المؤمنين المصدقين المهتدين بهدى الله.



ورسوله، كما يفعل ذلك من يفعله من المبتدعة الذين يؤولون النصوص الدالة على خلاف قولهم بما حاصله عدم التصديق بمعناها وإن صدقوا بلفظها، فلم يؤمنوا بها إيماناً حقيقياً. وقوله: ﴿وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ﴾ يشمل الإيمان بجميع الكتب السابقة، ويتضمن الإيمان بالكتب الإيمان بالرسول وبما اشتملت عليه، خصوصاً التوراة والإنجيل والزبور، وهذه خاصية المؤمنين يؤمنون بالكتب السماوية كلها وبجميع الرسل؛ فلا يفرقون بين أحد منهم.

ثم قال: ﴿وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ والآخر: اسم لما يكون بعد الموت، وخصه بالذكر بعد العموم؛ لأن الإيمان باليوم الآخر أحد أركان الإيمان؛ ولأنه أعظم باعث على الرغبة والرغبة والعمل، واليقين هو: العلم التام، الذي ليس فيه أدنى شك، الموجب للعمل.

﴿أُولَئِكَ﴾ أي: الموصوفون بتلك الصفات الحميدة ﴿عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ﴾؛ أي: على هدى عظيم؛ لأن التنكير للتعظيم، وأي هداية أعظم من تلك الصفات المذكورة المتضمنة للعقيدة الصحيحة والأعمال المستقيمة؟! وهل الهداية في الحقيقة إلا هدايتهم، وما سواها مما خالفها فهي ضلالة؟! وأتى بـ (على) في هذا الموضع الدالة على الاستعلاء، وفي الضلالة يأتي بـ (في) كما في قوله: ﴿وَإِنَّا أَرْسَلْنَاكُمْ لَكُلِّ هَدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [سبأ: ٢٤]؛ لأن صاحب الهدى مستعمل بالهدى مرتفع به، وصاحب الضلال منغمس فيه محقر.

ثم قال: ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ والفلاح هو الفوز المطلوب والنجاة من المروء، حصر الفلاح فيهم؛ لأنه لا سبيل إلى الفلاح إلا بسلك سبيلهم، وما عدا تلك السبيل فهي سبل الشقاء والهلاك والخسار التي تفضي بسالكها إلى الهلاك؛ فلماذا لما ذكر صفات المؤمنين حقاً ذكر صفات الكفار المظهرين لكفرهم المعاندين للرسول فقال:

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشوة ولهم عذاب عظيم.

﴿يَخْبَرُ تَعَالَى:﴾ ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾، أي: اتصفوا بالكفر وانصبغوا به، وصار وصفاً لهم لازماً لا يردعهم عنه رادع، ولا ينجع فيهم وعظ؛ إنهم مستمرون على كفرهم،

ويدخل في الإيمان بالغيب الإيمان بجميع ما أخبر الله به من الغيوب الماضية والمستقبلية، وأحوال الآخرة وحقائق أوصاف الله وكيفيته، وما أخبرت به الرسل من ذلك، فيؤمنون بصفات الله ووجودها، ويتيقنونها وإن لم يفهموا كيفيتها.

ثم قال: ﴿وَيُؤْمِنُونَ الصَّلَاةَ﴾ لم يقل: يفعلون الصلاة، أو يأتون بالصلاة؛ لأنه لا يكفي فيها مجرد الإتيان بصورتها الظاهرة، فإقامة الصلاة إقامتها ظاهراً؛ بإتمام أركانها وواجباتها وشروطها، وإقامتها باطناً؛ بإقامة روحها وهو حضور القلب فيها وتدبر ما يقول ويفعله منها، فهذه الصلاة هي التي قال الله فيها: ﴿إِنَّ أَصْكَوَةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ [النكبات: ٤٥] وهي التي يترتب عليها الثواب، فلا ثواب للعبد من صلاته إلا ما عقل منها، ويدخل في الصلاة فرائضها ونوافلها.

ثم قال: ﴿وَمَا رَزَقَهُمْ يَفْقُونُ﴾ يدخل فيه النفقات الواجبة؛ كالزكاة، والنفقة على الزوجات والأقارب والماليك ونحو ذلك، والنفقات المستحبة بجميع طرق الخير، ولم يذكر المنفق عليه لكثرة أسبابه وتنوع أهله، ولأن النفقة من حيث هي قربة إلى الله، وأتى بـ (من) الدالة على التبعية؛ لينبهم أنه لم يرد منهم إلا جزءاً يسيراً من أموالهم غير ضار لهم، ولا مثقل، بل يتفقون هم بإنفاقه، ويتفجع به إخوانهم، وفي قوله: ﴿رَزَقَهُمْ﴾ إشارة إلى أن هذه الأموال التي بين أيديكم ليست حاصلة بقوتكم وملكتكم، وإنما هي رزق الله الذي خولكم وأنعم به عليكم، فكما أنعم عليكم وفضلكم على كثير من عباده فاشكروه بإخراج بعض ما أنعم به عليكم، وواسوا إخوانكم المعدمين.

وكثيراً ما يجمع تعالى بين الصلاة والزكاة في القرآن؛ لأن الصلاة متضمنة للإخلاص للمعبود، والزكاة والنفقة متضمنة للإحسان على عبيده؛ فعنوان سعادة العبد إخلاصه للمعبود وسعيه في نفع الخلق، كما أن عنوان شقاوة العبد عدم هذين الأمرين منه، فلا إخلاص ولا إحسان.

﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ﴾ وهو: القرآن والسنة، قال تعالى: ﴿وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ [النساء: ١١٣] فالمتقون يؤمنون بجميع ما جاء به الرسول ولا يفرقون بين بعض ما أنزل إليه، فيؤمنون ببعضه، ولا يؤمنون ببعضه؛ إما بجحدته، أو تأويله على غير مراد الله

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أُنذِرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾
 لَا يَأْتِيَهُمْ غِشْوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٧﴾
 وَمَنْ يَقُولْ عِمَّا بِاللَّهِ وَيَأْتُوا الْآخِرَ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾
 يُخَذِّعُونَ اللَّهَ وَلِلَّذِينَ ءَامَنُوا وَمَا يُخَذِّعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ
 وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا
 وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ يَمَّا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴿١٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ
 لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾
 أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾ وَإِذَا قِيلَ
 لَهُمْ ءَامِنُوا كَمَا ءَامَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا ءَامَنَ الشُّفَهَاءُ
 أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الشُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾ وَإِذَا لُقُوا
 بِالَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامِنُوا ءَامِنُوا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شِيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا
 مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزَؤُونَ ﴿١٤﴾ اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدِّدُهُمْ
 فِي طُغْيَانِهِمْ بِمُحْمَدٍ ﴿١٥﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ
 بِالْهُدَىٰ فَمَا رَبَحَتِ بِحَدِيثِهِمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴿١٦﴾

فسواء عليهم ﴿٦﴾ أُنذِرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾
 وحقيقة الكفر هو الجحود لما جاء به الرسول أو جحد بعضه،
 فهؤلاء الكفار لا تنفيدهم الدعوة إلا إقامة الحجة عليهم، وكان
 في هذا قطعاً لطمع الرسول ﷺ في إيمانهم، وأنت لا تأس
 عليهم، ولا تذهب نفسك عليهم حسرات.

ثم ذكر الموانع المانعة لهم من الإيمان، فقال:

﴿٧﴾ حَمَّ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ ﴿٧﴾ أي: طبع عليها
 بطابع لا يدخلها الإيمان ولا ينفذ فيها؛ فلا يعون ما يتفهم
 ولا يسمعون ما يفيدهم ﴿٧﴾ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشْوَةٌ ﴿٧﴾ أي: غشاء
 وغطاء وأكئة تمنعها عن النظر الذي يتفهم، وهذه طرق
 العلم والخير قد سدت عليهم، فلا مطعم فيهم ولا خير يرجى
 عندهم، وإنما منعوا ذلك وسدت عنهم أبواب الإيمان بسبب
 كفرهم وجحودهم ومعاندتهم بعدما تبين لهم الحق، كما قال
 تعالى: ﴿وَنَقَلُبُ أَقْسَامَهُمْ وَأَبْصَرَهُمْ كَمَا لَوْ يُؤْمِنُونَ بِهِ أَوْ لَمْ يَرْوُ﴾
 [الأنعام: ١١٠] وهذا عقاب عاجل، ثم ذكر العقاب الآجل فقال:
 ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ ﴿٧﴾ وهو عذاب النار، وسخط
 الجبار المستمر الدائم.

ثم قال تعالى في وصف المنافقين الذين ظاهرهم الإسلام
 وباطنهم الكفر:

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَيَأْتُوا الْآخِرَ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿٨﴾ يُخَذِّعُونَ اللَّهَ وَلِلَّذِينَ ءَامَنُوا وَمَا يُخَذِّعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ
 وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ يَمَّا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴿١٠﴾

﴿٨﴾، ﴿٩﴾ واعلم: أن النفاق هو إظهار الخير وإبطان الشر، ويدخل في هذا التعريف النفاق الاعتقادي والنفاق العملي؛
 فالنفاق العملي كالذي ذكر النبي ﷺ في قوله: «آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا أؤتمن خان»؛ وفي
 رواية: «وإذا خاصم فجر»^(١).

وأما النفاق الاعتقادي المخرج عن دائرة الإسلام؛ فهو الذي وصف الله به المنافقين في هذه السورة وغيرها، ولم يكن
 النفاق موجوداً قبل هجرة النبي ﷺ من مكة إلى المدينة ولا بعد الهجرة، حتى كانت وقعة بدر وأظهر الله المؤمنين وأعزهم؛
 فذل من في المدينة ممن لم يسلم، فأظهر الإسلام بعضهم خوفاً ومخادعة؛ ولتحقق دماؤهم وتسلم أموالهم، فكانوا بين أظهر
 المسلمين، في الظاهر أنهم منهم، وفي الحقيقة ليسوا منهم.

فمن لطف الله بالمؤمنين أن جلا أحوالهم، ووصفهم بأوصاف يتميزون بها لثلاث يفتقر بهم المؤمنون، ولينقمعوا أيضاً عن
 كثير من فجورهم، قال تعالى: ﴿يُخَذِّعُ الْمُنَافِقُونَ﴾ أَنْ تَنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةُ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ ﴿التوبة: ٦٤﴾؛ فوصفهم الله
 بأصل النفاق فقال: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَيَأْتُوا الْآخِرَ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿٨﴾؛ فإنهم يقولون بألسنتهم ما ليس في
 قلوبهم فأكذبهم الله بقوله: ﴿وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿٨﴾؛ لأن الإيمان الحقيقي ما تواطأ عليه القلب واللسان، وإنما هذا مخادعة
 لله ولعباده المؤمنين، والمخادعة: أن يظهر المخادع لمن يخادعه شيئاً، ويبطن خلافه لكي يتمكن من مقصوده ممن يخادع،

﴿١٠﴾ أي: إذا نهى هؤلاء المنافقون عن الإفساد في الأرض، وهو العمل بالكفر والمعاصي، ومنه إظهار سرائر المؤمنين لعدوهم ومولاتهم للكافرين: ﴿قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ ﴿١١﴾؛ فجمعوا بين العمل بالفساد في الأرض وإظهار أنه ليس بإفساد، بل هو إصلاح قلباً للحقائق، وجمعاً بين فعل الباطل واعتقاده حقاً، وهؤلاء أعظم جناية ممن يعمل بالمعاصي مع اعتقاد تحريمها، فهذا أقرب للسلامة وأرجى لرجوعه، ولما كان في قولهم: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ ﴿١١﴾ حصر للإصلاح في جانبهم - وفي ضمنه أن المؤمنين ليسوا من أهل الإصلاح - قلب الله عليهم دعواهم بقوله:

﴿١٢﴾ ﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ﴾ فإنه لا أعظم إفساداً ممن كفر بآيات الله، وصد عن سبيل الله، وخادع الله وأوليائه، وإلى المحاربين لله ورسوله، وزعم مع هذا أن هذا إصلاح، فهل بعد هذا الفساد فساداً؟ ولكن لا يعلمون علماً ينفعهم، وإن كانوا قد علموا بذلك علماً تقوم به عليهم حجة الله، وإنما كان العمل بالمعاصي في الأرض إفساداً؛ لأنه سبب لفساد ما على وجه الأرض من الحبوب والثمار والأشجار والنبات، لما يحصل فيها من الآفات التي سببها المعاصي، ولأن الإصلاح في الأرض أن تعمر بطاعة الله والإيمان به، لهذا خلق الله الخلق وأسكنهم في الأرض وأدر عليهم الأرزاق؛ ليستعينوا بها على طاعته وعبادته، فإذا عمل فيها بضده كان سعيًا فيها بالفساد وإخرباً لها عما خلقت له.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا كَمَا ءَامَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا ءَامَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ﴿١٣﴾

﴿١٣﴾ أي: إذا قيل للمنافقين آمنوا كما آمن الناس، أي: كإيمان الصحابة رضي الله عنهم وهو: الإيمان بالقلب واللسان، قالوا بزعمهم الباطل: أنؤمن كما آمن السفهاء؟! يعنون - قبحهم الله - الصحابة رضي الله عنهم؛ لزعيمهم أن سفههم أوجب لهم الإيمان، وترك الأوطان، ومعاداة الكفار، والعقل عندهم يقتضي ضد ذلك، فنسبوه إلى السفه، وفي ضمن ذلك أنهم هم العقلاء أرباب الحجا والنهي؛ فرد الله ذلك عليهم وأخبر أنهم هم السفهاء على الحقيقة؛ لأن حقيقة السفه جهل الإنسان بمصالح نفسه، وسعيه فيما يضرها، وهذه الصفة منطبقة عليهم، وصادقة عليهم كما أن

فهؤلاء المنافقون سلكوا مع الله وعباده هذا المسلك؛ فعاد خداعهم على أنفسهم، وهذا من العجائب؛ لأن المخادع إما أن ينتج خداعه ويحصل له مقصوده أو يسلم لاله ولا عليه، وهؤلاء عاد خداعهم على أنفسهم، فكأنهم يعملون ما يعملون من المكر لإهلاك أنفسهم وإضرارها وكيدها؛ لأن الله لا يتضرر بخداعهم شيئاً، وعبادة المؤمنين لا يضرهم كيدهم شيئاً، فلا يضر المؤمنين أن أظهر المنافقون الإيمان؛ فسلمت بذلك أموالهم، وحقت دماؤهم، وصار كيدهم في نحورهم، وحصل لهم بذلك الخزي والفضيحة في الدنيا، والحزن المستمر بسبب ما يحصل للمؤمنين من القوة والنصرة، ثم في الآخرة لهم العذاب الأليم الموجه المفجع بسبب كذبهم وكفرهم وفجورهم، والحال أنهم من جهلهم وحماقتهم لا يشعرون بذلك.

﴿١٤﴾ وقوله: ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ﴾؛ المراد بالمرض هنا: مرض الشك، والشبهات، والنفاق، وذلك أن القلب يعرض له مرضان يخرجانه عن صحته واعتداله: مرض الشبهات الباطلة، ومرض الشهوات المردية. فالكفر والنفاق والشكوك والبدع كلها من مرض الشبهات، والزنا ومجبة الفواحش والمعاصي وفعلها من مرض الشهوات؛ كما قال تعالى: ﴿فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ﴾ [الأحزاب: ٣٢]؛ وهو شهوة الزنا، والمعافي من عوفي من هذين المرضين، فحصل له اليقين والإيمان والصبر عن كل معصية، فرفل في أثواب العافية.

وفي قوله عن المنافقين:

﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا﴾؛ بيان لحكمته تعالى في تقدير المعاصي على العاصين، وأنه بسبب ذنوبهم السابقة يبتليهم بالمعاصي اللاحقة الموجبة لعقوباتها، كما قال تعالى: ﴿وَنَقَلِبُ أَقْبَسَهُمْ وَأَبْصَرَهُمْ كَمَا لَوْ يُؤْمِنُوا بِهِ أُولَئِكَ مَرَّةٌ﴾ [الأنعام: ١١٠]، وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥]، وقال تعالى: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ﴾ [التوبة: ١٢٥] فعقوبة المعصية المعصية بعدها، كما أن من ثواب الحسنة الحسنة بعدها؛ قال تعالى: ﴿وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا هُدًى﴾ [مريم: ٧٦].

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ ﴿١٤﴾ ﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ ﴿١٥﴾

في الضلالة رغبة فيها، فهذه تجارتهم؛ فبئس التجارة، وهذه صفقتهم؛ فبئست الصفقة.

وإذا كان من يبدل دينارًا في مقابلة درهم خاسرًا فكيف من يبدل جوهرة وأخذ عنها درهمًا، فكيف من يبدل الهدى في مقابلة الضلالة، واختار الشقاء على السعادة، ورغب في سافل الأمور وترك عاليها؟! فما ربحت تجارتها بل خسر فيها أعظم خسارة، أولئك الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ﴿١٥﴾ [الزمر: ١٥]. وقوله: ﴿وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ ﴿١٦﴾؛ تحقيق لضلالهم وأنهم لم يحصل لهم من الهداية شيء، فهذه أوصافهم القبيحة، ثم ذكر مثلهم الكاشف لها غاية الكشف، فقال:

﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْفَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَّهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾ ضُمْ بِهِمْ أَنْفُسَهُمْ فَإِنَّهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُخْرِجُونَ ﴿١٨﴾ أَوْ كَصَيْبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَنُقُبٌّ يُجْعَلُونَ أَنْصِبُهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿١٩﴾ يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَرَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَرِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾﴾

﴿١٧﴾ أي: مثلهم المطابق لما كانوا عليه كمثل الذي استوفد نارًا أي: كان في ظلمة عظيمة، وحاجة إلى النار شديدة فاستوفدها من غيره، ولم تكن عنده معدة، بل هي خارجة عنه، فلما أضاءت النار ما حوله، ونظر المحل الذي هو فيه وما فيه من المخاوف، وأمنها وانتفع بتلك النار، وقرت بها عينه، وظن أنه قادر عليها، فبينما هو كذلك، إذ ذهب الله بنوره؛ فزال عنه النور وذهب معه السرور، وبقي في الظلمة العظيمة والنار المحرقة؛ فذهب ما فيها من الإشراف وبقي ما فيها من الإحراق، فبقي في ظلمات متعددة: ظلمة الليل، وظلمة السحاب، وظلمة المطر، والظلمة الحاصلة بعد النور، فكيف يكون حال هذا الموصوف؟ فكذا هؤلاء المنافقون استوفدوا نار الإيمان من المؤمنين ولم تكن صفة لهم، فاستضاءوا بها مؤقتًا وانتفعوا؛ فحقت بذلك دماؤهم، وسلمت أموالهم، وحصل لهم نوع من الأمن في الدنيا، فبينما هم كذلك إذ هجم عليهم الموت؛ فسلبهم الانتفاع بذلك النور، وحصل لهم كل هم وغم وعذاب، وحصل لهم

العقل والحجا معرفة الإنسان بمصالح نفسه والسعي فيما ينفعه وفي دفع ما يضره، وهذه الصفة منطبقة على الصحابة والمؤمنين؛ فالعبرة بالأوصاف والبرهان، لا بالدعاوى المجردة والأقوال الفارغة.

﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّمَا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾ اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٥﴾﴾

﴿١٤﴾ هذا من قولهم بالاستهزاء ما ليس في قلوبهم، وذلك أنهم إذا اجتمعوا بالمؤمنين أظهروا أنهم على طريقتهم، وأنهم معهم، فإذا خلوا إلى شياطينهم - أي كبرائهم وروسائهم بالشر - قالوا: إنا معكم في الحقيقة، وإنما نحن مستهزون بالمؤمنين بإظهارنا لهم أننا على طريقتهم، فهذه حالهم الباطنة والظاهرة، ﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾ [فاطر: ٤٣].

﴿١٥﴾ قال تعالى: ﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ ﴿١٥﴾؛ وهذا جزاء لهم على استهزائهم بعباده، فمن استهزأ بهم أن زين لهم ما كانوا فيه من الشقاء والأحوال الخبيثة حتى ظنوا أنهم مع المؤمنين لما لم يسلط الله المؤمنين عليهم، ومن استهزأ بهم يوم القيامة أنه يعطيهم مع المؤمنين نورًا ظاهرًا، فإذا مضى المؤمنون بنورهم طغى نور المنافقين وبقوا في الظلمة بعد النور متحيرين، فما أعظم اليأس بعد الطمع ﴿يُنَادُوهُمْ أَمْ لَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ قَالُوا بَلَىٰ وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبَسْتُمْ﴾ الآية [الحديد: ١٤].

قوله: ﴿وَيَمُدُّهُمْ﴾؛ أي: يزيدهم ﴿فِي طُغْيَانِهِمْ﴾؛ أي: فجورهم وكفرهم، ﴿يَعْمَهُونَ﴾ ﴿١٥﴾؛ أي: حائرون مترددون، وهذا من استهزائه تعالى بهم.

ثم قال تعالى كاشفًا عن حقيقة أحوالهم:

﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ فَمَا رَبَحَتْ يُحْدِرُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ ﴿١٦﴾

﴿١٦﴾ ﴿أُولَٰئِكَ﴾؛ أي: المنافقون الموصوفون بتلك الصفات ﴿الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ﴾؛ أي: رغبوا في الضلالة رغبة المشتري في السلعة، التي - من رغبته فيها - يبذل فيها الأموال النفيسة، وهذا من أحسن الأمثلة، فإنه جعل الضلالة التي هي غاية الشر كالسلعة، وجعل الهدى الذي هو غاية الصلاح بمنزلة الثمن، فبدلوا الهدى رغبة عنه

ظلمة القبر، وظلمة الكفر، وظلمة النفاق، وظلمة المعاصي على اختلاف أنواعها، وبعد ذلك ظلمة النار وبئس القرار؛ فهذا قال تعالى عنهم:

﴿١٨﴾ ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ﴾؛ أي: عن سماع الخير ﴿بُكْمٌ﴾، أي: عن النطق به ﴿عُمْيٌ﴾ عن رؤية الحق ﴿فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾؛ لأنهم تركوا الحق بعد أن عرفوه؛ فلا يرجعون إليه، بخلاف من ترك الحق عن جهل وضلال؛ فإنه لا يعقل، وهو أقرب رجوعاً منهم.

﴿١٩﴾ ثم قال تعالى: ﴿أَوْ كَصَيْبٍ مِّنَ السَّمَاءِ﴾؛ أي: كصاحب صيب وهو: المطر الذي يصب؛ أي: ينزل بكثرة ﴿فِيهِ ظُلُمَاتٌ﴾؛ ظلمة الليل، وظلمة السحاب، وظلمة المطر، وفيه (رعد)؛ وهو: الصوت الذي يسمع من السحاب وفيه (برق)؛ وهو الضوء اللامع المشاهد من السحاب.

﴿٢٠﴾ ﴿كُلَّمَا أَصَاءَ لَهُمْ﴾؛ البرق في تلك الظلمات ﴿مَشَرَا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا﴾؛ أي: وقفوا، فهكذا حالة المنافقين إذا سمعوا القرآن، وأوامره ونواهيه، ووعده ووعيده؛ جعلوا أصابعهم في آذانهم، وأعرضوا عن أمره ونهيه، ووعده ووعيده؛ فيروهم وعيده، وترعجهم ووعده، فهم يعرضون عنها غاية ما يمكنهم، ويكرونها كراهة صاحب الصيب الذي يسمع الرعد فيجعل أصابعه في أذنيه خشية الموت، فهذا ربما حصلت له السلامة، وأما المنافقون فأنى لهم السلامة وهو تعالى محيط بهم قدرة وعلماً، فلا يفوتونه ولا يعجزونه، بل يحفظ عليهم أعمالهم ويجازيهم عليها أتم الجزاء.

ولما كانوا مبتلين بالصمم والبكم والعمى المعنوي، ومسدودة عليهم طرق الإيمان قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَرِهِمْ﴾؛ أي الحسية، ففيه تخويف لهم وتحذير من العقوبة الدنيوية؛ ليحذروا فيرتدعوا عن بعض شرهم ونفاقهم ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾؛ فلا يعجزه شيء، ومن قدرته أنه إذا شاء شيئاً فعله من غير ممانع ولا معارض.

وفي هذه الآية وما أشبهها رد على القائلين بأن أفعالهم غير داخلة في قدرة الله تعالى؛ لأن أفعالهم من جملة الأشياء الداخلة في قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

﴿٢١﴾ ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ عَبْدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فَرَشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾

﴿٢٢﴾ هذا أمر عام لجميع الناس بأمر عام، وهو العبادة الجامعة لامثال أوامر الله واجتناب نواهيه وتصديق خبره، فأمرهم تعالى بما خلقهم له، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ ﴿الذاريات: ٥٦﴾؛ ثم استدلت على وجوب عبادته وحده بأنه ربكم الذي رباكم بأصناف النعم، فخلقكم بعد العدم، وخلق الذين من قبلكم.

﴿٢٣﴾ وأنعم عليكم بالنعم الظاهرة والباطنة، فجعل لكم الأرض فراشاً تستقرون عليها، وتتفنون بالأنبنة والزراعة والحراثة، والسلوك من محل إلى محل، وغير ذلك من وجوه الانتفاع بها، وجعل السماء بناءً لمساكنكم، وأودع فيها من المنافع ما هو من ضروراتكم وحاجاتكم كالشمس والقمر والنجوم ﴿وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾؛ والسماء هو: كل ما علا فوقك فهو سماء،

سورة البقرة
مَنْ لَهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْفَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَزَرَّهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يَبْصُرُونَ ﴿١٧﴾ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾ أَوْ كَصَيْبٍ مِّنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصْغَعِمَ فِيءَ إِذَانِهِمْ مِّنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿١٩﴾ يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَرَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشْرَافُهُ إِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَرِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾ يَأْتِيهَا النَّاسُ عَبْدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فَرَشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾ وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِّن دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِنْ لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَكِنْ تَفْعَلُوا فَأْزَنُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿٢٤﴾

بكتاب زعم أنه من عند الله، وقتلتم أنتم؛ إنه تقوله وافترائه، فإن كان الأمر كما تقولون؛ فأتوا بسورة من مثله، واستعينوا بمن تقدرون عليه من أعوانكم وشهداءكم، فإن هذا أمر يسير عليكم، خصوصاً وأنتم أهل الفصاحة والخطابة والعداوة العظيمة للرسول، فإن جئتم بسورة من مثله؛ فهو كما زعمتم، وإن لم تأتوا بسورة من مثله وعجزتم غاية العجز ولن تأتوا بسورة من مثله، ولكن هذا التقييم على وجه الإنصاف والتنزل معكم؛ فهذا آية كبيرة ودليل واضح جلي على صدقه وصدق ما جاء به؛ فيتعين عليكم اتباعه، واتقاء النار التي بلغت في الحرارة العظيمة والشدة، أن كان وقودها الناس والحجارة، ليست كنار الدنيا التي إنما تنقد بالحطب، وهذه النار الموصوفة معدة ومهيأة للكافرين بالله ورسوله؛ فاحذروا الكفر برسوله بعدما تبين لكم أنه رسول الله.

وهذه الآية ونحوها يسمونها: آية التحدي، وهو: تعجيز الخلق عن أن يأتوا بمثل هذا القرآن أو يعارضوه بوجه، قال تعالى: ﴿قُلْ لِّئِنْ أَجْمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَتْ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء: ٨٨]؛ وكيف يقدر المخلوق من تراب أن يكون كلامه ككلام رب الأرباب، أم كيف يقدر الفقير الناقص من جميع الوجوه أن يأتي بكلام ككلام الكامل، الذي له الكمال المطلق، والغنى الواسع من جميع الوجوه؟! هذا ليس في الإمكان ولا في قدرة الإنسان، وكل من له أدنى ذوق ومعرفة بأنواع الكلام، إذا وزن هذا القرآن العظيم بغيره من كلام البلاء، ظهر له الفرق العظيم.

وفي قوله: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّنْ مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [٢٣]؛ فَإِنْ لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَأْتُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ [٢٤].

وهذا دليل عقلي على صدق رسول الله ﷺ وصحة ما جاء به فقال: وإن كنتم - يا معشر المعاندين للرسول الرادين بدعوته الزاعمين كذبه - في شك، واشتباه مما نزلنا على عبدنا، هل هو حق أو غيره؟ فهنا أمر نصف فيه الفصلة بينكم وبينه، وهو: أنه بشر مثلكم ليس من جنس آخر، وأنتم تعرفونه منذ نشأ بينكم لا يكتب ولا يقرأ، فأناكم

ولهذا قال المفسرون: المراد بالسماء هنا السحاب، فأنزل منه تعالى ماء ﴿فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ﴾؛ كالحبوب والثمار من نخيل وفواكه وزروع وغيرها ﴿رِزْقًا لَّكُمْ﴾؛ به ترتزقون وتتقوتون وتعيشون وتفكهون، ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا﴾؛ أي: أشباهاً ونظراء من المخلوقين؛ فتعبدوهم كما تعبدون الله، وتعبدوهم كما تحبونه، وهم مثلكم مخلوقون مرزوقون مدبرون، لا يملكون مثقال ذرة في الأرض، ولا في السماء، ولا ينفعونكم ولا يضرون ﴿وَأَنْتُمْ تَقْلُمُونَ﴾ [٢٦]؛ أن الله ليس له شريك، ولا نظير لا في الخلق والرزق والتدبير، ولا في الألوهية والكمال، فكيف تعبدون معه آلهة أخرى مع علمكم بذلك؟ هذا من أعجب العجب وأسفه السفه.

وهذه الآية جمعت بين الأمر بعبادة الله وحده، والنهي عن عبادة ما سواه، وبيان الدليل الباهر على وجوب عبادته وبطالان عبادة ما سواه، وهو ذكر توحيد الربوبية المتضمن انفراد بالخلق والرزق والتدبير، فإذا كان كل أحد مقرّاً بأنه ليس له شريك بذلك فكذلك؛ فليكن الإقرار بأن الله ليس له شريك في عبادته، وهذا أوضح دليل عقلي على وحدانية الباري تعالى وبطالان الشرك.

وقوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [٢٦]؛ يحتمل أن المعنى أنكم إذا عبدتم الله وحده اتقيتم بذلك سخطه وعذابه؛ لأنكم أتيتم بالسبب الدافع لذلك، ويحتمل أن يكون المعنى أنكم إذا عبدتم الله صرتم من المتقين الموصوفين بالتقوى، وكلا المعنيين صحيح، وهما متلازمان، فمن أتى بالعبادة كاملة؛ كان من المتقين، ومن كان من المتقين؛ حصلت له النجاة من عذاب الله، وسخطه.

﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّنْ مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [٢٣]؛ فَإِنْ لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَأْتُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ [٢٤].

وهذا دليل عقلي على صدق رسول الله ﷺ وصحة ما جاء به فقال: وإن كنتم - يا معشر المعاندين للرسول الرادين بدعوته الزاعمين كذبه - في شك، واشتباه مما نزلنا على عبدنا، هل هو حق أو غيره؟ فهنا أمر نصف فيه الفصلة بينكم وبينه، وهو: أنه بشر مثلكم ليس من جنس آخر، وأنتم تعرفونه منذ نشأ بينكم لا يكتب ولا يقرأ، فأناكم

وفي وصف الرسول بالعبودية في هذا المقام العظيم دليل على أن أعظم أوصافه ﷺ قيامه بالعبودية التي لا يلحقه فيها أحد من الأولين والآخرين، كما وصفه بالعبودية في مقام الإسراء فقال: ﴿سُبْحَنَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا﴾ [الإسراء: ١]؛

وفي مقام الإنزال فقال: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ ﴿٢١﴾ [الفرقان: ١].

﴿٢٢﴾ وفي قوله: ﴿أَعَدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ ﴿٢٢﴾؛ ونحوها من الآيات دليل لمذهب أهل السنة والجماعة أن الجنة والنار مخلوقتان، خلافاً للمعتزلة.

وفيها أيضاً: أن الموحدين وإن ارتكبوا بعض الكبائر لا يخلدون في النار؛ لأنه قال: ﴿أَعَدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ ﴿٢٢﴾؛ فلو كان عصاة الموحدين يخلدون فيها لم تكن معدة للكافرين وحدهم، خلافاً للخوارج والمعتزلة، وفيها دلالة على أن العذاب مستحق بأسبابه، وهو الكفر وأنواع المعاصي على اختلافها.

﴿وَيَبِّرُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَنْجَارٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ ﴿٢٥﴾.

﴿٢٥﴾ لما ذكر جزاء الكافرين ذكر جزاء المؤمنين أهل الأعمال الصالحات كما هي طريقته تعالى في كتابه يجمع بين الترغيب والترهيب؛ ليكون العبد راغباً راهباً خائفاً راجياً فقال: ﴿وَيَبِّرُ﴾؛ أي: أيها الرسول، ومن قام مقامك فصدقوا إيمانهم بأعمالهم الصالحة، ووصفت أعمال الخير بالصالحات؛ لأن بها تصلح أحوال العبد، وأمور دينه ودنياه، وحياته الدنيوية والأخروية، ويحول بها عنه فساد الأحوال؛ فيكون بذلك من الصالحين الذين يصلحون لمجاورة الرحمن في جنته فيشرهم ﴿أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ﴾؛ أي: بساتين جامعة للأشجار العجيبة والثمار الأنيقة والظل المديد والأغصان والأفنان، وبذلك صارت جنة يجتن بها داخلها وينعم فيها ساكنها ﴿تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾؛ أي: أنهار الماء واللبن والعسل والخمر يفجرونها كيف شاءوا، ويصرفونها أين أرادوا، وتسقى منها تلك الأشجار؛ فثبت أصناف الثمار ﴿كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ﴾؛ أي: هذا من جنسه وعلى وصفه، كلها متشابهة في الحسن واللذة ليس فيها ثمرة خاصة، وليس لهم وقت خال من اللذة؛ فهم دائماً متلذذون بأكلها، وقوله: ﴿وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا﴾؛ قيل: متشابهة في الاسم مختلفاً في الطعم، وقيل: متشابهة في اللون مختلفاً في الاسم، وقيل: يشبه بعضه بعضاً في الحسن واللذة والفكاهة، ولعل هذا أحسن.

ثم لما ذكر مسكنهم، وأقواتهم من الطعام والشراب، وفواكههم ذكر أزواجهم؛ فوصفهن بأكمل وصف وأوجزه وأوضحه؛ فقال: ﴿وَلَهُمْ فِيهَا أَنْجَارٌ مُطَهَّرَةٌ﴾؛ فلم يقل مطهرة من العيب الفلاني؛ ليشمل جميع أنواع التطهير، فهن مطهرات الأخلاق، مطهرات الخلق، مطهرات اللسان، مطهرات الأبصار، فأخلاقهن أنهن عرب متحبات إلى أزواجهن بالخلق الحسن وحسن التبعيل والأدب القولي والفعل، ومطهر خلقهن من الحيض والنفاس والمني والبول والغائط والمخاط والبصاق والرائحة الكريهة، ومطهرات الخلق أيضاً بكمال الجمال؛ فليس فيهن عيب ولا دمامة خلق، بل هن خيرات حسان، مطهرات اللسان والطرف، قاصرات طرفهن على أزواجهن، وقاصرات الستهن عن كل كلام قبيح.

ففي هذه الآية الكريمة ذكر المبشر والمبشر والمبشر به والسبب الموصل لهذه البشارة؛ فالمبشر هو: الرسول ﷺ ومن قام مقامه من أمته، والمبشر هم: المؤمنون العاملون بالصالحات، والمبشر به هي: الجنات الموصوفات بتلك الصفات، والسبب

سورة البقرة
وَيَبِّرُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَنْجَارٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٥﴾
﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِ أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ ﴿٢٦﴾ الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَّا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٢٧﴾
كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَنًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمَيِّسُكُمْ ثُمَّ يُغْنِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٨﴾ هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ أَسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٩﴾

العباد من نزول الآيات القرآنية، ومع هذا تكون لقوم محنة وحيرة وضلالة وزيادة شر إلى شرهم، ولقوم منحة ورحمة وزيادة خير إلى خيرهم، فسبحان من فاوت بين عباده، وانفرد بالهداية والإضلال.

ثم ذكر حكمته وعدله في إضلاله من يضل؛ فقال: ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ﴾ (٦٦)؛ أي: الخارجين عن طاعة الله المعاندين لرسول الله الذين صار الفسق وصفهم؛ فلا ييغون به بدلاً، فاقضت حكمته تعالى إضلالهم؛ لعدم صلاحيتهم للهدى، كما اقتضى فضله وحكمته هداية من اتصف بالإيمان وتحلى بالأعمال الصالحة.

والفسق نوعان: نوع مخرج من الدين وهو الفسق المقتضي للخروج من الإيمان كالمذكور في هذه الآية ونحوها، ونوع غير مخرج من الإيمان كما في قوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ (٦٦)؛ الآية [الحجرات: ٦].

ثم وصف الفاسقين فقال:

﴿الَّذِينَ يَتَّقُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ﴾؛ وهذا يعم العهد الذي بينهم وبين ربهم، والذي بينهم وبين الخلق، الذي أكد عليهم بالمواثيق الثقيلة والإلزامات، فلا يبالون بتلك المواثيق، بل يتقضونها، ويتركون أوامره، ويرتكبون نواهيه، ويتقضون العهود التي بينهم وبين الخلق ﴿وَيَقْطَعُونَ مَا ءَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ﴾؛ وهذا يدخل فيه أشياء كثيرة، فإن الله أمرنا أن نصل ما بيننا وبينه بالإيمان به والقيام بعبوديته، وما بيننا وبين رسوله بالإيمان به ومحبته وتعزيره والقيام بحقوقه، وما بيننا وبين الوالدين والأقارب والأصحاب وسائر الخلق بالقيام بحقوقهم التي أمر الله أن نصلها؛ فأما المؤمنون فوصلوا ما أمر الله به أن يوصل من هذه الحقوق، وقاموا بها أتم القيام، وأما الفاسقون فقطعوها ونبذوها وراء ظهورهم معتاضين عنها بالفسق والقطيعة والعمل بالمعاصي، وهو الإفساد في الأرض، ﴿أُولَئِكَ﴾؛ أي: من هذه صفته ﴿هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ (٧٧)؛ في الدنيا والآخرة، فحصر الخسارة فيهم؛ لأن خسارتهم عام في كل أحوالهم ليس لهم نوع من الربح؛ لأن كل عمل صالح شرطه الإيمان، فمن لا إيمان له لا عمل له، وهذا الخسار هو: خسار الكفر، وأما الخسار الذي قد يكون كفراً وقد يكون معصية وقد يكون تفريطاً في ترك مستحب، المذكور في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ خَسِيرٌ﴾ (٩٠) [العصر: ٩٢]؛ فهذا عام لكل

الموصل لذلك، هو: الإيمان والعمل الصالح، فلا سبيل إلى الوصول إلى هذه البشارة إلا بهما، وهذا أعظم بشارة حاصلة على يد أفضل الخلق بأفضل الأسباب، وفيه استحباب بشارة المؤمنين وتشيطهم على الأعمال بذكر جزائها وثمراتها؛ فإنها بذلك تخف وتسهل، وأعظم بشرى حاصلة للإنسان توفيقه للإيمان والعمل الصالح، فذلك أول البشارة وأصلها، ومن بعده البشري عند الموت، ومن بعده الوصول إلى هذا النعيم المقيم. نسأل الله من فضله.

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا ءَرَادَ اللَّهُ يَهْدِي مَثَلًا يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ﴾ (٦٦) الَّذِينَ يَتَّقُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا ءَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ (٧٧).

﴿٦٦﴾ يقول تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا﴾؛ أي: أي مثل كان ﴿بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا﴾؛ لاشتغال الأمثال على الحكمة وإيضاح الحق، والله لا يستحي من الحق، وكان في هذا جواباً لمن أنكر ضرب الأمثال في الأشياء الحقيرة، واعترض على الله في ذلك؛ فليس في ذلك محل اعتراض، بل هو من تعليم الله لعباده ورحمته بهم، فيجب أن تتلقى بالقبول والشكر، ولهذا قال: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ﴾؛ فيفهمونها ويتفكرون فيها، فإن علموا ما اشتملت عليه على وجه التفصيل ازداد بذلك علمهم وإيمانهم، وإلا علموا أنها حق، وما اشتملت عليه حق، وإن خفي عليهم وجه الحق فيها، لعلمهم بأن الله لم يضر بها عبثاً، بل لحكمة بالغة ونعمة سابعة، ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا ءَرَادَ اللَّهُ يَهْدِي مَثَلًا﴾؛ فيعترضون ويتحIRON فيزدادون كفراً إلى كفرهم كما ازداد المؤمنون إيماناً على إيمانهم؛ ولهذا قال: ﴿يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا﴾؛ فهذه حال المؤمنين والكافرين عند نزول الآيات القرآنية، قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ ءِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ (١٠٥) وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَمِنْهُمْ مَن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ هَيْبَةً وَهُمْ يَكْفُرُونَ﴾ (١٠٥) [التوبة: ١٢٤، ١٢٥]؛ فلا أعظم نعمة على

وَأَتْنٰهَا ﴿۱٦﴾ وَهُوَ يَكْلِي شَيْءٌ عَٰلِمٌ ﴿۱٧﴾، ف ﴿۱٨﴾ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ
وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَزِلُّ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَرْجُ فِيهَا ﴿[سبا: ٢٧]﴾، وَ﴿۱٩﴾ يَعْلَمُ
مَا تُسْرُوكَ وَمَا تَعْلِنُونَ ﴿[النحل: ١٩]﴾، ﴿۲٠﴾ يَعْلَمُ الْغَيْبَ
وَأَخْفَى ﴿[طه: ٧]﴾.

وكثيراً ما يقرن بين خلقه وإثبات علمه كما في هذه
الآية وكما في قوله تعالى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ
الْخَبِيرُ﴾ ﴿[الملك: ١٤]﴾ لأن خلقه للمخلوقات أدل دليل
على علمه وحكمته وقدرته.

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً
قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَآءَ وَنَحْنُ
نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾
وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلٰٓئِكَةِ فَقَالَ
أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَٰؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صٰدِقِينَ ﴿٢٢﴾ قَالُوا سُبْحٰنَكَ
لَا عِلْمَ لَنَا بِهَٰذَا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٢٣﴾ قَالَ
يَقَادُمُ أَنْبِئُهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَّكُمْ
إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ
تَكْتُمُونَ ﴿٢٤﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلٰٓئِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا
إِبْلٰسَ أَبٰى وَأَسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَٰفِرِينَ ﴿٢٥﴾﴾.

﴿٢٥﴾ هذا شروع في ابتداء خلق آدم عليه السلام أبي
البشر وفضله، وأن الله تعالى حين أراد خلقه أخبر الملائكة
بذلك، وأن الله مستخلفه في الأرض، فقالت الملائكة
عليهم السلام: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا﴾ بالمعاصي
﴿وَيَسْفِكُ الدِّمَآءَ﴾، وهذا تخصيص بعد تعميم؛ لبيان
شدة مفسدة القتل، وهذا بحسب ظنهم أن الخليفة المجعول
في الأرض سيحدث منه ذلك، فنزهوا الباري عن ذلك
وعظموه، وأخبروا أنهم قائمون بعبادة الله على وجه خال
من المفسدة فقالوا: ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ﴾؛ أي: نزهك
التزنية اللائق بحمدك وجلالك ﴿وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾؛ يحتمل
أن معناها ونقدسك؛ فتكون اللام مفيدة للتخصيص
والإخلاص، ويحتمل أن يكون: ونقدس لك أنفسنا؛ أي:
نظهرها بالأخلاق الجميلة؛ كمحبة الله، وخشيته، وتعظيمه،
ونظيرها من الأخلاق الرذيلة ﴿قَالَ﴾؛ الله للملائكة:
﴿إِنِّي أَعْلَمُ﴾؛ من هذا الخليفة ﴿مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾؛ لأن
كلامكم بحسب ما ظننتم، وأنا عالم بالظواهر والسرائر،
وأعلم أن الخير الحاصل بخلق هذا الخليفة أضعاف أضعاف

مخلوق إلا من اتصف بالإيمان والعمل الصالح والتواصي
بالحق والتواصي بالصبر، وحقيقته فوات الخير الذي كان
العبد بصدد تحصيله وهو تحت إمكانه.

ثم قال تعالى:

﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ
ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٦﴾﴾.

﴿٢٦﴾ هذا استفهام بمعنى التعجب والتوبيخ والإنكار؛ أي:
كيف يحصل منكم الكفر بالله الذي خلقكم من العدم، وأنعم
عليكم بأصناف النعم، ثم يميتكم عند استكمال آجالكم،
ويجازيكم في القبور، ثم يحييكم بعد البعث والنشور، ثم
إليه ترجعون فيجازيكم الجزاء الأوفى، فإذا كنتم في تصرفه
وتدبيره وبره وتحت أوامره الدينية، وبعد ذلك تحت دينه
الجزائي أفيلق بكم أن تكفروا به؟ وهل هذا إلا جهل عظيم
وسفه كبير؟ بل الذي يليق بكم أن تتقوه وتشكروه، وتؤمنوا
به، وتخافوا عذابه، وترجوا ثوابه.

﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾.

﴿٢٧﴾ أي: خلق لكم برأ بكم ورحمة جميع ما على الأرض
للاستمتاع والاستمتاع والاعتبار.

وفي هذه الآية الكريمة دليل على أن الأصل في الأشياء
الإباحة والطهارة؛ لأنها سبقت في معرض الامتنان، يخرج
بذلك الخبائث فإن تحريمها أيضاً يؤخذ من فحوى الآية،
وبيان المقصود منها، وأنه خلقها لنفعنا، فما فيه ضرر؛ فهو
خارج من ذلك، ومن تمام نعمته منعنا من الخبائث تنزيهاً
لنا؛ وقوله:

﴿ثُمَّ أَسْرَوْنِي إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّيْنَهُنَّ سَبْعَ سَمٰوٰتٍ وَهُوَ
يَكْلِي شَيْءٌ عَٰلِمٌ ﴿٢٨﴾﴾.

«استوى»: ترد في القرآن على ثلاثة معان: فتارة لا تعدى
بالحرف فيكون معناها: الكمال والتمام، كما في قوله عن
موسى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى﴾ [القصص: ١٤]؛ وتارة تكون
بمعنى علا وارتفع، وذلك إذا عدت بـ (على) كقوله تعالى:
﴿الرَّحْمٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ ﴿[طه: ٥]﴾ ﴿لَسْتَوَى عَلَى
ظُهُورِهِ﴾ [الزخرف: ١٣]؛ وتارة تكون بمعنى قصد كما إذا عدت
بـ (إلى) كما في هذه الآية، أي: لما خلق تعالى الأرض قصد
إلى خلق السماوات فسواهن سبع سماوات فخلقها وأحكمها

سورة البقرة

البقرة

وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكِ إِنَّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً
 قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ
 نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٩﴾
 وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَكِ
 فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣٠﴾
 قَالُوا سُبْحَنَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ
 ﴿٣١﴾ قَالَ يَتَذَكَّرُ أُنْثَاهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ
 أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا
 تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٢﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَكِ اسْجُدُوا
 لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ
 ﴿٣٣﴾ وَقُلْنَا يَتَذَكَّرُ أَسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا
 حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٣٤﴾
 فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا
 بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ ﴿٣٥﴾
 فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿٣٦﴾

٦

ما في ضمن ذلك من الشر، فلو لم يكن في ذلك، إلا أن الله تعالى أراد أن يجتبي منهم الأنبياء والصديقين والشهداء والصالحين، ولتظهر آياته للخلق، ويحصل من العبوديات التي لم تكن تحصل بدون خلق هذا الخليفة كالجهاد وغيره، وليظهر ما كمن في غرائز المكلفين من الخير والشر بالامتحان، وليبين عدوه من وليه وحزبه من حربه، وليظهر ما كمن في نفس إبليس من الشر الذي انطوى عليه واتصف به، فهذه حكم عظيمة يكفي بعضها في ذلك.

ثم لما كان قول الملائكة عليهم السلام فيه إشارة إلى فضلهم على الخليفة الذي يجعله الله في الأرض، أراد الله تعالى أن يبين لهم من فضل آدم ما يعرفون به فضله، وكمال حكمة الله وعلمه.

﴿٢٩﴾ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا؛ أي: أسماء الأشياء ومن هو مسمى بها، فعلمه الاسم والمسمى؛ أي: الألفاظ والمعاني حتى المصغر من الأسماء والمكبر؛ كالقصعة والقصيعة، ﴿ثُمَّ عَرَضَهُمْ﴾؛ أي: عرض المسميات ﴿عَلَى الْمَلَكِ﴾؛ امتحاناً لهم هل يعرفونها أم لا ﴿فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ﴾ إن كنتم صادقين ﴿٣٠﴾؛ في قولكم وظنكم أنكم أفضل من هذا الخليفة.

﴿٣١﴾ قَالُوا سُبْحَنَكَ؛ أي ننزهك من الاعتراض منا عليك، ومخالفة أمرك ﴿لَا عِلْمَ لَنَا﴾؛ بوجه من الوجوه، ﴿إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا﴾؛ إياه فضلاً منك وجوداً ﴿إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾؛ العليم الذي أحاط علماً بكل شيء، فلا يغيب عنه ولا يعزب مثقال ذرة في السماوات والأرض ولا أصغر من ذلك ولا أكبر. الحكيم: من له الحكمة التامة التي لا يخرج عنها مخلوق ولا يشذ عنها مأمور، فما خلق شيئاً إلا لحكمة، ولا أمر بشيء إلا لحكمة، والحكمة وضع الشيء في موضعه اللائق به.

فأقروا واعترفوا بعلم الله وحكمته وقصورهم عن معرفة أدنى شيء، واعترفوا بفضل الله عليهم وتعليمه إياهم ما لا يعلمون.

﴿٣٢﴾ فحيتل قال الله: ﴿يَتَذَكَّرُ أُنْثَاهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ﴾؛ أي: أسماء المسميات التي عرضها الله على الملائكة؛ فعجزوا عنها ﴿فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ﴾؛ تبين للملائكة فضل آدم عليهم، وحكمة الباري وعلمه في استخلاف هذا الخليفة ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ وهو ما غاب عنا فلم نشاهده، فإذا كان عالماً بالغيب، فالشهادة من باب أولى ﴿وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ﴾؛ أي: تظهرون ﴿وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾.

﴿٣٣﴾ ثم أمرهم تعالى بالسجود لآدم إكراماً له وتعظيماً وعبودية لله تعالى؛ فامتثلوا أمر الله، وبادروا كلهم بالسجود، ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى﴾ امتنع عن السجود، واستكبر عن أمر الله، وعلى آدم قال: ﴿ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا﴾ ﴿٣٤﴾ [الإسراء: ٦١] وهذا الإباء منه، والاستكبار نتيجة الكفر الذي هو منطوق عليه، فتبينت حيثل عداوته لله ولآدم وكفره واستكباره.

وفي هذه الآيات من العبر والآيات إثبات الكلام لله تعالى، وأنه لم يزل متكلاً يقول ما شاء، ويتكلم بما شاء وأنه عليم حكيم، وفيه أن العبد إذا خفيت عليه حكمة الله في بعض المخلوقات، والمأمورات؛ فالواجب عليه التسليم وإتاهام عقله والإقرار

لله بالحكمة؛ وفيه اعتناء الله بشأن الملائكة وإحسانه بهم بتعليمهم ما جهلوا، وتنبههم على ما لم يعلموه.

وفيه فضيلة العلم من وجوه:

منها: أن الله تعرف لملائكته بعلمه وحكمته.

ومنها: أن الله عرفهم فضل آدم بالعلم، وأنه أفضل صفة تكون في العبد.

ومنها: أن الله أمرهم بالسجود لآدم إكرامًا له لما بان فضل علمه.

ومنها: أن الامتحان للغير إذا عجزوا عما امتحنوا به، ثم عرفه صاحب الفضيلة فهو أكمل مما عرفه ابتداء.

ومنها: الاعتبار بحال أبوي الإنس والجن وبيان فضل آدم وأفضال الله عليه وعداوة إبليس له، إلى غير ذلك من العبر.

﴿وَقُلْنَا يَتَادُمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [٣٥] فَأَزَلَهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ﴾ [٣٦]

﴿٣٥﴾ لما خلق الله آدم وفضله، أتم نعمته عليه بأن خلق منه زوجة؛ ليسكن إليها ويستأنس بها، وأمرهما بسكنى الجنة والأكل منها رغداً؛ أي: واسعاً هيناً ﴿حَيْثُ شِئْتُمَا﴾؛ أي: من أصناف الثمار والفواكه، وقال الله له: ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا يَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَمْرَأُ﴾ [٣٨] وَأَنْتَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَصْحَى [٣٩] ﴿طه: ١١٨، ١١٩﴾ ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ﴾؛ نوع من أنواع شجر الجنة الله أعلم بها، وإنما نهاهما عنها امتحاناً وابتلاء أو لحكمة غير معلومة لنا، ﴿فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [٣٥]؛ دل على أن النهي للتحريم؛ لأنه رتب الظلم عليه؛ فلم يزل عدوهما يوسوس لهما ويزين لهما تناول ما نهاها عنه حتى أزلهما أي حملهما على الزلل بتزيينه ﴿وَقَاسَمَهُمَا﴾ [الأعراف: ٢١]؛ بالله ﴿إِنِّي لَكُمَا لَيِّنُ النَّاصِيحِينَ﴾ [٣٦] ﴿[الأعراف: ٢١]﴾.

﴿٣٦﴾ فاغترابه وأطاعاه؛ فأخرجهما مما كانا فيه من النعيم، والرغد، وأهبطوا إلى دار التعب والنصب والمجاهدة ﴿بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾؛ أي: آدم وذريته أعداء لإبليس وذريته.

ومن المعلوم أن العدو يجد ويجتهد في ضرر عدوه

وليصال الشر إليه بكل طريق وحرمانه الخير بكل طريق، ففي ضمن هذا تحذير بني آدم من الشيطان كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حَزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [فاطر: ٦] ﴿أَفَسْتَجِدُّونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أُولَئِكَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا﴾ [الكهف: ٥٠] ثم ذكر منتهى الإيهاب فقال: ﴿وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ﴾؛ أي: مسكن وقرار ﴿إِلَى حِينٍ﴾ [٣٦]؛ انقضاء آجالكم ثم تنتقلون منها للدار التي خلقتكم لها وخلقت لكم، ففيها أن مدة هذه الحياة مؤقتة عارضة ليست مسكنًا حقيقياً، وإنما هي معبر يتزود منها لتلك الدار، ولا تعمر للاستقرار.

﴿فَلَقَّيْنِ عَادَمَ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَتٍ قَنَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [٣٧]

﴿٣٧﴾ فَلَقَّيْنِ عَادَمَ؛ أي: تلقف وتلقن وألهمه الله ﴿مِنْ رَبِّهِ كَلِمَتٍ﴾؛ وهي قوله: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا﴾؛ الآية [الأعراف: ٢٣]؛ فاعترف بذنبه، وسأل الله مغفرته ﴿قَنَابَ﴾؛ الله، ﴿عَلَيْهِ﴾؛ ورحمه ﴿إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ﴾؛ لمن تاب إليه وأتاب.

وتوبته نوعان: توفيقه أولاً. ثم قبوله للتوبة إذا اجتمعت شروطها ثانياً.

﴿الرَّحِيمُ﴾ [٣٧]؛ بعباده، ومن رحمته بهم أن وفقهم للتوبة وعفا عنهم وصفح.

﴿قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [٣٨] وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [٣٩]

﴿٣٨﴾ كرر الإيهاب؛ ليرتب عليه ما ذكر، وهو قوله: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى﴾؛ أي: أي وقت وزمان جاءكم مني يا معشر الثقلين هدى؛ أي: رسول وكتاب يهديكم لما يقرىكم مني، ويدينكم من رضائي ﴿فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ﴾ منكم؛ بأن آمن برسلي، وكتبي واهتدى بهم، وذلك بتصديق جميع أخبار الرسل والكتب والامثال للآمر والاجتناب للنهي، ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [٣٨]؛ وفي الآية الأخرى، ﴿فَمَنْ أَتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشَقُّ﴾ [٣٩] ﴿طه: ١٢٣]﴾.

فرتب على اتباع هذه أربعة أشياء:

نفي الخوف والحزن والفرق بينهما: أن المكروه إن كان قد مضى أحدث الحزن، وإن كان منتظراً أحدث الخوف،

فنفاهما عن اتباع الهدى وإذا انتفيا حصل ضدهما وهو الأمن التام.

﴿٣٩﴾ وكذلك: نفي الضلال والشقاء عن اتباع هداة، وإذا انتفيا ثبت ضدهما، وهو الهدى والسعادة، فمن اتبع هداة حصل له الأمن والسعادة الدنيوية والأخروية والهدى وانتفى عنه كل مكروه من الخوف والحزن والضللال والشقاء؛ فحصل له المرغوب واندفع عنه المرهوب، وهذا عكس من لم يتبع هداة فكفر به وكذب بآياته؛ فأولئك أصحاب النار، أي: الملازمون لها ملازمة الصاحب لصاحبه، والغريم لغريمه ﴿هُم فِيهَا خَالِدُونَ﴾ ﴿٤٠﴾ لا يخرجون منها ولا يفترون عنهم العذاب ولا هم ينصرون.

وفي هذه الآيات، وما أشبهها انقسام الخلق من الجن والإنس إلى أهل السعادة، وأهل الشقاوة، وفيها صفات الفريقين والأعمال الموجبة لذلك، وأن الجن كالإنس في الثواب والعقاب، كما أنهم مثلهم في الأمر والنهي.

ثم شرع تعالى يذكر بني إسرائيل نعمه عليهم وإحسانه فقال:

﴿يَبْنَیْ إِسْرَءِیْلَ أَذْکُرُوا نِعْمَتِیَ الَّتِیْ أَنْعَمْتُ عَلَیْکُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِیْ أُوفِ بِعَهْدِکُمْ وَإِنِّیْ فَازْهَبُونَ﴾ ﴿٤١﴾ وَءَامِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَّکُمْ وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ کَافِرٍ بِهِ وَلَا تَشْتَرُوا بِعَاقِبَتِیْ ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِنِّیْ فَاتَّقُونَ﴾ ﴿٤٢﴾ وَلَا تَلْسِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَکْذِبُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ ﴿٤٣﴾ وَأَقِیمُوا الصَّلَاةَ وَءَاتُوا الزَّکَاةَ وَارْکَعُوا مَعَ الرَّاكِعِیْنَ﴾ ﴿٤٤﴾

﴿يَبْنَیْ إِسْرَءِیْلَ﴾؛ المراد بإسرائيل: يعقوب عليه السلام، والخطاب مع فرق بني إسرائيل، الذين بالمدينة وما حولها ويدخل فيهم من أتى بعدهم، فأمرهم بأمر عام فقال: ﴿أَذْکُرُوا نِعْمَتِیَ الَّتِیْ أَنْعَمْتُ عَلَیْکُمْ﴾؛ وهو يشمل سائر النعم التي سيذكر في هذه السورة بعضها، والمراد بذكرها بالقلب اعترافاً، وباللسان ثناءً، وبالجوارح باستعمالها فيما يحبه ويرضيه ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِیْ﴾؛ وهو ما عهده إليهم من الإيمان به، وبرسله، وإقامة شرعه ﴿أُوفِ بِعَهْدِکُمْ﴾؛ وهو المجازاة على ذلك، والمراد بذلك ما ذكره الله في قوله: ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِیْ إِسْرَءِیْلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَءَاتَيْتُمُ الزَّکَاةَ وَءَامَنْتُمْ بِرُسُلِیْ﴾؛ إلى قوله: ﴿فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ ﴿١١﴾ [المائدة: ١٢]؛ ثم أمرهم بالسبب الحامل لهم على الوفاء بعهده، وهو الرهبة منه تعالى، وخشيته وحده، فإن من خشية أوجب له خشيته امتثال أمره، واجتناب نهيه، ثم أمرهم بالأمر الخاص الذي لا يتم إيمانهم ولا يصح إلا به فقال:

﴿وَءَامِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ﴾؛ وهو: القرآن الذي أنزل على عبده ورسوله محمد ﷺ، فأمرهم بالإيمان به واتباعه، ويستلزم ذلك، الإيمان بمن أنزل عليه، وذكر الداعي لإيمانهم، فقال: ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَّکُمْ﴾؛ أي: موافقاً له لا مخالفاً ولا مناقضاً، فإذا كان موافقاً لما معكم من الكتب غير مخالف لها فلا مانع لكم من الإيمان به؛ لأنه جاء بما جاءت به المرسلون، فأنتم أولى من آمن به وصدق به؛ لكونكم أهل الكتب والعلم.

وأيضاً فإن في قوله: ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَّکُمْ﴾؛ إشارة إلى أنكم إن لم تؤمنوا به عاد ذلك عليكم بتكذيب ما معكم؛ لأن ما جاء به هو الذي جاء به موسى وعيسى وغيرهما من الأنبياء، فتكذيبكم له تكذيب لما معكم.

سورة البقرة
الْحَمْدُ لِلَّهِ
قُلْنَا أَهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ تَّبَعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٣٩﴾ يَبْنَیْ إِسْرَءِیْلَ أَذْکُرُوا نِعْمَتِیَ الَّتِیْ أَنْعَمْتُ عَلَیْکُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِیْ أُوفِ بِعَهْدِکُمْ وَإِنِّیْ فَازْهَبُونَ ﴿٤٠﴾ وَءَامِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَّکُمْ وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ کَافِرٍ بِهِ وَلَا تَشْتَرُوا بِعَاقِبَتِیْ ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِنِّیْ فَاتَّقُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا تَلْسِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَکْذِبُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤٢﴾ وَأَقِیمُوا الصَّلَاةَ وَءَاتُوا الزَّکَاةَ وَارْکَعُوا مَعَ الرَّاكِعِیْنَ ﴿٤٣﴾ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَکُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٤٤﴾ وَاسْتَعِیْذُوا بِالصَّیْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِیْرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِیْنَ ﴿٤٥﴾ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَیْهِ رَاجِعُونَ ﴿٤٦﴾ يَبْنَیْ إِسْرَءِیْلَ أَذْکُرُوا نِعْمَتِیَ الَّتِیْ أَنْعَمْتُ عَلَیْکُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُکُمْ عَلَى الْعَالَمِیْنَ ﴿٤٧﴾ وَأَقْرَبُوا بِمَا لَا یُنْجِیْ نَفْسَ عَنْ نَفْسٍ شَیْئًا وَلَا یُقْبَلُ مِنْهَا شَعْنَةٌ وَلَا یُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ یَنْصُرُونَ ﴿٤٨﴾

مَعَ الزَّكِيِّينَ ﴿٤٦﴾؛ أي: صلوا مع المصلين، ففيه، الأمر بالجماعة للصلاة، ووجوبها، وفيه، أن الركوع ركن من أركان الصلاة، لأنه عبر عن الصلاة بالركوع، والتعبير عن العبادة بجزئها يدل على فرضيته فيها.

﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾
﴿الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ ﴿٤٧﴾

﴿٤٧﴾ ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ﴾؛ أي: بالإيمان والخير، ﴿وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ﴾؛ أي: تتركونها عن أمرها بذلك والحال، ﴿وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ ﴿٤٨﴾؛ وسمي العقل عقلاً؛ لأنه يعقل به ما ينفعه من الخير، ويتعقل به عما يضره، وذلك أن العقل يحث صاحبه أن يكون أول فاعل لما يأمر به، وأول تارك لما ينهى عنه، فمن أمر غيره بالخير ولم يفعله أو نهاه عن الشر فلم يتركه دل على عدم عقله وجهله، خصوصاً إذا كان عالماً بذلك، قد قامت عليه الحجة، وهذه الآية وإن كانت نزلت في سبب بني إسرائيل، فهي عامة لكل أحد لقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَعْمَلُونَ﴾ ﴿٤٩﴾ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَعْمَلُونَ ﴿٥٠﴾ [الصف: ٢، ٣]؛ وليس في الآية أن الإنسان إذا لم يقم بما أمر به أنه يترك الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر؛ لأنها دلت على التوبخ بالنسبة إلى الواجبين، وإلا فمن المعلوم أن على الإنسان واجبين: أمر غيره ونهيه، وأمر نفسه ونهيه، فترك أحدهما لا يكون رخصة في ترك الآخر، فإن الكمال أن يقوم الإنسان بالواجبين، والنقص الكامل أن يتركهما، وأما قيامه بأحدهما دون الآخر فليس في رتبة الأول وهو دون الأخير، وأيضاً فإن النفوس مجبولة على عدم الانقياد لمن يخالف قوله فعله، فافتداؤهم بالأفعال أبلغ من اقتدائهم بالأقوال المجردة.

﴿وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْغَاسِقِينَ﴾ ﴿٥١﴾ الَّذِينَ يَطُغُونَ أَنْهُمْ هُمُ الْمُتَّقُونَ رَبِّهِمْ وَأَنْتُمْ إِلَيْهِ رَجِعُونَ ﴿٥٢﴾ يَبْنِي إِسْرَءِيلَ أَذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٥٣﴾ وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾

﴿٥١﴾ أمرهم الله أن يستعينوا في أمورهم كلها ﴿بِالصَّبْرِ﴾

وأيضاً فإن في الكتب التي بأيديكم صفة هذا النبي الذي جاء بهذا القرآن، والبشارة به، فإن لم تؤمنوا به؛ كذبت بعض ما أنزل إليكم، ومن كذب ببعض ما أنزل إليه؛ فقد كذب بجميعه، كما أن من كفر برسول؛ فقد كذب الرسل جميعهم، فلما أمرهم بالإيمان به نهاهم، وحذرهم عن ضده وهو الكفر به فقال: ﴿وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَاذِبِينَ﴾؛ أي: بالرسول والقرآن، وفي قوله: ﴿أَوَّلَ كَاذِبِينَ﴾؛ أبلغ من قوله ولا تكفروا به؛ لأنهم إذا كانوا أول كافر به كان فيه مبادرتهم إلى الكفر [به] عكس ما ينبغي منهم، وصار عليهم إثمهم وإثم من اقتدى بهم من بعدهم.

ثم ذكر المانع لهم من الإيمان وهو اختيار العرض الأدنى على السعادة الأبدية فقال: ﴿وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا﴾؛ وهو ما يحصل لهم من المناصب والمآكل التي يتوهمون انقطاعها إن آمنوا بالله ورسوله، فاشتروها بآيات الله واستحبوها وآثروها ﴿وَأَنَّى﴾؛ أي: لا غيري، ﴿فَأَتَّقُوا﴾ ﴿٥٥﴾؛ فإنكم إذا اتقيتم الله وحده أوجبت تقواه تقديم الإيمان بآياته على الثمن القليل، كما أنكم إذا اخترتم الثمن القليل؛ فهو دليل على ترحل التقوى من قلوبكم، ثم قال:

﴿٥٦﴾ ﴿وَلَا تَلْسَؤُوا﴾؛ أي: تخلطوا ﴿الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَكَتُمُوا الْحَقَّ﴾؛ فنهاهم عن شيئين، عن خلط الحق بالباطل وكتمان الحق؛ لأن المقصود من أهل الكتب والعلم تمييز الحق [من الباطل] وإظهار الحق، ليهتدي بذلك المهتدون، ويرجع الضالون وتقوم الحجة على المعاندين؛ لأن الله فصل آياته وأوضح بيناته؛ ليميز الحق من الباطل، ولتستبين سبيل المهتدين من سبيل المجرمين، فمن عمل بهذا من أهل العلم؛ فهو من خلفاء الرسل وهداة الأمم، ومن لبس الحق بالباطل فلم يميز هذا من هذا مع علمه بذلك، وكتّم الحق الذي يعلمه وأمر بإظهاره؛ فهو من دعاة جهنم؛ لأن الناس لا يقتدون في أمر دينهم بغير علمائهم، فاختاروا لأنفسكم إحدى الحالتين.

﴿٥٦﴾ ثم قال: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾؛ أي: ظاهرها وباطنها ﴿وَأَتُوا الزَّكَاةَ﴾؛ مستحقيها، ﴿وَارْكَعُوا مَعَ الزَّكِيِّينَ﴾ ﴿٥٧﴾؛ أي: صلوا مع المصلين، فإنكم إذا فعلتم ذلك مع الإيمان برسول الله وآيات الله، فقد جمعت بين الأعمال الظاهرة والباطنة، وبين الإخلاص للمعبود والإحسان إلى عبيده، وبين العبادات القلبية والبدنية والمالية، وقوله: ﴿وَارْكَعُوا

والصبر عن معصية الله حتى يتركها، والصبر على أقدار الله المؤلمة فلا يتسخطها، فبالصبر وحس النفس على ما أمر الله بالصبر عليه معونة عظيمة على كل أمر من الأمور، ومن يتصبر يصبره الله، وكذلك الصلاة التي هي ميزان الإيمان، وتنتهي عن الفحشاء والمنكر يستعان بها على كل أمر من الأمور، ﴿وَإِنهَا﴾؛ أي: الصلاة، ﴿لَكَبِيرَةٌ﴾؛ أي: شاقة ﴿إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾؛ فإنها سهلة عليهم خفيفة، لأن الخشوع وخشية الله ورجاء ما عنده يوجب له فعلها منشراح صدره لترقبه للثواب وخشيته من العقاب، بخلاف من لم يكن كذلك، فإنه لا داعي له يدعو إليها، وإذا فعلها صارت من أثقل الأشياء عليه.

والخشوع: هو خضوع القلب وطمانيته وسكونه لله تعالى وانكساره بين يديه ذلاً وافتقاراً وإيماناً به وبلقائه، ولهذا قال:

﴿الَّذِينَ يَظُنُّونَ﴾؛ أي يستيقنون ﴿أَنَّهُمْ مُّلتَفَوْنَ رَبِّهِمْ﴾؛ فيجازيهم بأعمالهم، ﴿وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾؛ فهذا الذي خفف عليهم العبادات وأوجب لهم التسلي في المصيبات ونفس عنهم الكربات وزجرهم عن فعل السيئات، فهو لاء لهم النعيم المقيم في الغرفات العاليات، وأما من لم يؤمن بلقاء ربه كانت الصلاة وغيرها من العبادات من أشق شيء عليه.

ثم: كرر على بني إسرائيل التذكير بنعمته وعظماً لهم وتحذيراً وحثاً.

﴿وَخَوْفَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ الَّذِي﴾؛ لَا تَجْرَى؛ فيه أي لا تغني ﴿نَفْسٌ﴾؛ ولو كانت من الأنفس الكريمة؛ كالأنبياء والصالحين ﴿عَنْ نَفْسٍ﴾؛ ولو كانت من العشيرة الأقربين ﴿شَيْئًا﴾ لا كبيراً ولا صغيراً، وإنما ينفع الإنسان عمله الذي قدمه ﴿وَلَا يَقْبَلُ مِنْهَا﴾؛ أي: النفس، ﴿شَفْعَةً﴾؛ لأحد بدون إذن الله ورضاه عن المشفوع له، ولا يرضى من العمل إلا ما أريد به وجهه وكان على السبيل والسنّة، ﴿وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ﴾؛ أي فداء ولو أن لكل نفس ظلمت ما في الأرض جميعاً ومثله معه لا فتدوا به من عذاب الله ولا يقبل منهم ذلك، ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾؛ أي: يدفع عنهم المكروه، فنفي الانتفاع من الخلق بوجه من الوجوه، فقلوه: ﴿لَا تَجْرَى نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا﴾ هذا في تحصيل المنافع، ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ هذا في دفع المضار، فهذا النفي للأمر المستقبل به النافع، ﴿وَلَا يَقْبَلُ مِنْهَا شَفْعَةً وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ﴾ هذا نفي للنفع الذي يطلب ممن يملكه بعوض، كالعدل أو بغيره كالشفاعة؛ فهذا يوجب للعبد أن ينقطع قلبه من التعلق بالمخلوقين لعلهم أنهم لا يملكون له مثقال ذرة من النفع، وأن يعلقه بالله الذي يجلب المنافع ويدفع المضار فيعبده وحده لا شريك له، ويستعينه على عبادته.

﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ ﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمْ الْبَحْرَ فَأَنجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ نَظَرُونَ﴾ ﴿وَإِذْ وَعَدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ أَخَذْتُمْ الْعَيْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ﴾ ﴿ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ ﴿وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يُقَوْمِ إِنكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَى بَارِيكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِيكُمْ فَثَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَابُ الرَّحِيمُ﴾ ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَمُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ نَظَرُونَ﴾ ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاكَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ ﴿وَلَطَّلْنَا عَلَيْكُمْ

يشكروا هذه النعمة، واستمروا على قساوة القلوب وكثرة الذنوب ﴿وَمَا ظَلَمُونَا﴾؛ يعني بتلك الأفعال المخالفة لأوامرنا، لأن الله لا تضربه معصية العاصين، كما لا تنفعه طاعات الطائعين ﴿وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾؛ فيعود ضرره عليهم.

﴿وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَتَكُمْ وَسَارِعُوا إِلَى الظَّالِمِينَ﴾ ﴿٥٨﴾ ﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ يَمَسُّ مَا كَانُوا يَقْسُقُونَ﴾ ﴿٥٩﴾

﴿٥٨﴾ وهذا أيضًا من نعمته عليهم بعد معصيتهم إياه، فأمرهم بدخول قرية تكون لهم عزًا ووطنًا ومسكنًا، ويحصل لهم فيها الرزق الرغد، وأن يكون دخولهم على وجه خاضعين لله فيه بالفعل، وهو دخول الباب سجدًا، أي: خاضعين ذليلين، وبالقول وهو أن يقولوا: ﴿حِطَّةٌ﴾؛ أي: أن يحط عنهم خطاياهم بسؤالهم إياه مغفرته، ﴿نَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَتَكُمْ﴾؛ بسؤالكم المغفرة ﴿وَسَارِعُوا إِلَى الظَّالِمِينَ﴾؛ بأعمالهم أي: جزاء عاجلاً وأجلاً.

﴿٥٩﴾ ﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾؛ منهم، ولم يقل: فبدلوا؛ لأنهم لم يكونوا كلهم بدلوا ﴿قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ﴾؛ فقالوا: بدل حطة، حبة في حنطة، استهانة بأمر الله، واستهزاء، وإذا بدلوا القول مع خفته فتبديلهم للفعل من باب أولى وأحرى، ولهذا دخلوا يزحفون على أديبارهم، ولما كان هذا الطغيان أكبر سبب لوقوع عقوبة الله بهم قال: ﴿فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾؛ منهم ﴿رِجْزًا﴾؛ أي: عذابًا ﴿مِنَ السَّمَاءِ﴾؛ بسبب فسقهم وبغيهم.

﴿وَإِذْ اسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَايَهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرِبَهُمْ كَلُوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ ﴿٦٠﴾

﴿٦٠﴾ ﴿اسْتَسْقَىٰ﴾؛ أي: طلب لهم ماء يشربون منه ﴿فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ﴾؛ إما حجر مخصوص معلوم عنده، وإما اسم جنس؛ ﴿فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا﴾؛ وقبائل بني إسرائيل اثنتا عشرة قبيلة، ﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ

الْعَمَامِ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْمَنَّاءَ وَالسَّلَوى كُلُّوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ ﴿٥٧﴾

﴿٥٧﴾ - ﴿٥٨﴾ هذا: شروع في تعداد نعمه على بني إسرائيل على وجه التفصيل فقال: ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكَ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ﴾؛ أي: من فرعون وملئه وجنوده، وكانوا قبل ذلك ﴿يَسُوءُونَكَ﴾؛ أي: يولونهم ويستعملونهم ﴿سُوءَ الْقَلْبِ﴾؛ أي: أشده بأن كانوا ﴿يَذَّبَحُونَ أَبْنَاءَكَ﴾؛ خشية نموكم، ﴿وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكَ﴾؛ أي: فلا يقتلونهن فأنتم بين قتل ومذل بالأعمال الشاقة مستحيًا على وجه المنة عليه والاستعلاء عليه فهذا غاية الإهانة، فمن الله عليهم بالنجاة التامة، وإغراق عدوهم، وهم ينظرون لتقر أعينهم ﴿وَفِي ذَلِكَ﴾؛ أي: الإنجاء ﴿بَلَاءٌ﴾؛ أي: إحصان ﴿مِن رَّبِّكُمْ عَظِيمٍ﴾ ﴿٥٩﴾؛ فهذا مما يوجب عليكم الشكر والقيام بأوامره.

ثم ذكر منته عليهم بوعده لموسى أربعين ليلة؛ لينزل عليهم التوراة المتضمنة للنعم العظيمة والمصالح العظيمة، ثم إنهم لم يصبروا قبل استكمال الميعاد حتى عبدوا العجل من بعده؛ أي ذهابه ﴿وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ﴾ ﴿٥١﴾؛ عالمون بظلمكم، قد قامت عليكم الحجة، فهو أعظم جرماً، وأكبر إثماً.

ثم إنه أمركم بالتوبة على لسان نبيه موسى بأن يقتل بعضكم بعضاً؛ فعفا الله عنكم بسبب ذلك ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ ﴿٥٢﴾؛ الله.

﴿٥٥﴾ ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَمُوسَىٰ لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَرَىٰ اللَّهَ جَهْرَةً﴾؛ وهذا غاية الجرأة على الله وعلى رسوله، ﴿فَأَخَذْنَاكُمْ فَلَصِقَةً﴾؛ إما الموت أو العشية العظيمة ﴿وَأَنْتُمْ نَظَرُونَ﴾ ﴿٥٦﴾؛ وقوع ذلك كل ينظر إلى صاحبه.

﴿٥٦﴾ ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاكَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ ﴿٥٦﴾؛ ثم ذكر نعمته عليهم في التيه والبرية الخالية من الظلال وسعة الأرزاق فقال:

﴿٥٧﴾ ﴿وَوَدَّعَيْنَاكَ الْغَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْمَنَّاءَ﴾؛ وهو: اسم جامع لكل رزق حسن يحصل بلا تعب، ومنه الزنجبيل والكمأة، والخبز، وغير ذلك، ﴿وَالسَّلَوى﴾؛ طائر صغير يقال له: السماني طيب اللحم؛ فكان ينزل عليهم من المن والسلوى ما يكفيهم ويقيتهم ﴿كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾؛ أي: رزقاً لا يحصل نظيره لأهل المدن المترفين، فلم

أَنَاسٍ ۖ مِنْهُمْ ۖ مَثَرِيبُهُمْ ۖ أَي: محلهم الذي يشربون عليه من هذه الأعين، فلا يراحم بعضهم بعضاً، بل يشربونه متهئين لا متكدرين، ولهذا قال: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ ۖ أَي: الذي آتاكم من غير سعي ولا تعب﴾ وَلَا تَعْوُوا فِي الْأَرْضِ ۖ أَي: تخربوا على وجه الإفساد.

﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَمْوِسُ لَنْ نَصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاجِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّنَا يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُثْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِشَائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصِلِهَا ۖ قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ أَهَيُّطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَّا سَأَلْتُمْ ۖ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ ۚ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّنَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ۚ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿١١﴾﴾

﴿١١﴾ أَي: واذكروا ﴿إِذْ قُلْتُمْ﴾ لموسى على وجه التمليل لنعم الله، والاحتقار لها ﴿لَنْ نَصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاجِدٍ﴾؛ أَي: جنس من الطعام وإن كان كما تقدم أنواعا لكنها لا تتغير ﴿فَادْعُ لَنَا رَبَّنَا يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُثْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا﴾؛ أَي: نباتها الذي ليس بشجر يقوم على ساقه ﴿وَقِشَائِهَا﴾؛ وهو الخيار ﴿وَفُومِهَا﴾؛ أَي: ثومها، والعدس والبصل معروف، قال لهم موسى: ﴿أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ﴾؛ وهو

الأطعمة المذكورة ﴿بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ﴾؛ وهو المن والسلوى، فهذا غير لائق بكم، فإن هذه الأطعمة التي طلبتم، أي مصر هبطتموه وجدتموها، وأما طعامكم الذي من الله به عليكم فهو خير الأطعمة وأشرفها فكيف تطلبون به بدلاً؟

ولما كان الذي جرى منهم فيه أكبر دليل على قلة صبرهم، واحتقارهم لأوامر الله ونعمه جازاهم من جنس عملهم فقال: ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ﴾؛ التي تشاهد على ظاهر أبدانهم ﴿وَالْمَسْكَنَةُ﴾؛ بقلوبهم فلم تكن أنفسهم عزيزة، ولا لهم همم عالية بل أنفسهم أنفس مهينة، وهمهم أردأ الهمم ﴿وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ﴾؛ أي: لم تكن غنيمتهم التي رجعوا بها وفازوا إلا أن رجعوا بسخطه عليهم؛ فبئس الغنيمة غنيمتهم، وبئس الحالة حالتهم ﴿ذَلِكَ﴾؛ الذي استحقوا به غضبه ﴿يَأْتَهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾؛ الدالات على الحق الموضحة لهم، فلما كفروا بها عاقبهم بغضبه عليهم وبما كانوا يقتلون النبيين بغير الحق؛ وقوله: ﴿بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ زيادة شناعة، وإلا فمن المعلوم أن قتل النبيين لا يكون بحق، لكن لثلا يظن جهلهم وعدم علمهم ﴿ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا﴾؛ بأن ارتكبوا معاصي الله ﴿وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿١٢﴾﴾؛ على عباد الله؛ فإن المعاصي يجز بعضها بعضاً، فالغفلة ينشأ عنها الذنب الصغير، ثم ينشأ عنه الذنب الكبير، ثم ينشأ عنها أنواع البدع والكفر وغير ذلك، فنسأل الله العافية من كل بلاء.

واعلم أن الخطاب في هذه الآيات لأمة بني إسرائيل الذين كانوا موجودين وقت نزول القرآن، وهذه الأفعال المذكورة خوطبوا بها وهي فعل أسلافهم، ونسبت لهم لفوائد عديدة.

منها: أنهم كانوا يتمدحون، ويزكون أنفسهم، ويزعمون فضلهم على محمد ومن آمن به؛ فبين الله من أحوال سلفهم التي قد تقرر عندهم ما يبين به لكل واحد منهم أنهم ليسوا من أهل الصبر، ومكارم الأخلاق، ومعالي الأعمال، فإذا كانت هذه حالة سلفهم - مع أن المظنة أنهم أولى وأرفع حالة ممن بعدهم - فكيف الظن بالمخاطبين؟!

وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَتَكُمْ وَسَتَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣﴾ ۖ قَدَّالَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ يَمَسُّوهُمُ أَصْحَابُ الْيَمِينِ ﴿١٤﴾ ۖ وَإِذْ اسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مِثْرَيبَهُمْ ۖ كُلُوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعْوُوا فِي الْأَرْضِ مُضِيِّدِينَ ﴿١٥﴾ ۖ وَإِذْ قُلْتُمْ يَمْوِسُ لَنْ نَصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاجِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّنَا يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُثْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِشَائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصِلِهَا ۖ قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ أَهَيُّطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَّا سَأَلْتُمْ ۖ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ ۚ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّنَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ۚ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿١٦﴾ ۖ

ومنها: أن نعمة الله على المتقدمين منهم نعمة واصله إلى المتأخرين، والنعمة على الآباء نعمة على الأبناء، فخطوبوا بها، لأنها نعم تشملهم وتعمهم.

ومنها: أن الخطاب لهم بأفعال غيرهم مما يدل على أن الأمة المجتمعة على دين تتكافل وتتساعد على مصالحها، حتى كأن متقدمهم ومتأخرهم في وقت واحد، وكأن الحادث من بعضهم حادث من الجميع؛ لأن ما يعمل به بعضهم من الخير يعود بمصلحة الجميع، وما يعمل به الشر يعود بضرر الجميع.

ومنها: أن أفعالهم أكثرها لم ينكروها، والراضي بالمعصية شريك للمعاصي، إلى غير ذلك من الحكم التي لا يعلمها إلا الله.

ثم قال تعالى حاكماً بين الفرق الكتابية:

﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِرِينَ
مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ
رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ ﴿٦٢﴾

﴿٦٢﴾ وهذا الحكم على أهل الكتاب خاصة، لأن الصابئين الصحيح: أنهم من جملة فرق النصارى، فأخبر الله أن المؤمنين من هذه الأمة واليهود والنصارى والصابئين من آمن بالله منهم واليوم الآخر وصدقوا رسلم، فإن لهم الأجر العظيم، والأمن، ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون، وأما من كفر منهم بالله ورسله واليوم الآخر، فهو بضد هذه الحال؛ فعليه الخوف والحزن.

والصحيح: أن هذا الحكم بين هذه الطوائف من حيث هم لا بالنسبة إلى الإيمان بمحمد، فإن هذا إخبار عنهم قبل بعثة محمد، وإن هذا مضمون أحوالهم، وهذه طريقة القرآن إذا وقع في بعض النفوس - عند سياق الآيات - بعض الأوهام، فلا بد أن تجد ما يزيل ذلك الوهم؛ لأنه تنزيل من يعلم الأشياء قبل وجودها، ومن رحمته وسعت كل شيء، وذلك - والله أعلم - أنه لما ذكر بني إسرائيل وذمهم وذكر معاصيهم وقبائحهم ربما وقع في بعض النفوس أنهم كلهم يشملهم الذم، فأراد الباري تعالى أن يبين من لا يلحقه الذم منهم بوصفه، ولما كان أيضاً ذكر بني إسرائيل خاصة يوم الاختصاص بهم، ذكر تعالى حكماً عاماً يشمل الطوائف كلها؛ ليتضح الحق ويزول التوهم والإشكال، فسبحان من أودع في كتابه ما يبهع عقول العالمين.

ثم عاد تبارك وتعالى يوبخ بني إسرائيل بما فعل سلفهم:

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا ءَاتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَآذِكُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ ﴿٦٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ مِمَّا
بَعْدَ ذَلِكَ فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ ﴿٦٤﴾

﴿٦٣﴾ أي: واذكروا، ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ﴾، وهو العهد الثقيل المؤكد بالتخويف لهم برفع الطور فوقهم وقيل لهم: ﴿خُذُوا مَا ءَاتَيْنَاكُمْ﴾؛ من التوراة ﴿بِقُوَّةٍ﴾؛ أي بجهد واجتهاد، وصبر على أوامر الله ﴿وَآذِكُوا مَا فِيهِ﴾؛ أي: ما في كتابكم بأن تتلوه وتتعلموه ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ ﴿٦٣﴾؛ عذاب الله وسخطه، أو لتكنوا من أهل التقوى.

سورة البقرة
بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِرِينَ
مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ
عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ وَإِذْ
أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا ءَاتَيْنَاكُمْ
بِقُوَّةٍ وَآذِكُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ
مِمَّا بَعْدَ ذَلِكَ فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنْتُمْ مِنَ
الْخَاسِرِينَ ﴿٦٤﴾ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدُوا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ
فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قَوْمَ فَارُوقَ خَلِيسِينَ ﴿٦٥﴾ فَعَلَّانَهَا تَكَالُفًا
بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٦٦﴾ وَإِذْ قَالَ
مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبُحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَنُذْخِذْنَا
هَؤُلَاءِ قَالِ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَن أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا
ادْعُ لِنَارِكَ يَبْنَ لَنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِصٌ
وَلَا يَكُرُّ عَوَانُ بَنِيكَ ذَلِكَ فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ ﴿٦٨﴾
قَالُوا ادْعُ لِنَارِكَ يَبْنَ لَنَا مَا لَوْ نُفَاهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ
إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ ﴿٦٩﴾

سورة البقرة

الجزء الأول

قَالُوا أَدْعُ لَنَا رَبَّكَ يَبْنَ لَنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقْرَ تَشَبَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا
 إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَدَلُولُ
 ثِيَرُ الْأَرْضِ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةً لَا شَيْءَ فِيهَا فَسَلُّوا
 أَلْفَنَ حَتَّى بِالْحَقِّ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ ﴿٧٦﴾ وَإِذْ
 قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَآذَرْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٧﴾
 فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ
 آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧٨﴾ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ
 فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ
 مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَسْقَى فَيُخْرِجُ مِنْهُ أَلْمَاءً وَإِنَّ
 مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٧٩﴾
 ﴿٨٠﴾ أَفَلَتَمْنَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ
 يَسْمَعُونَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ يَحْرِفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقِلُوهُ
 وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾ وَإِذَا قَالُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا
 وَإِذَا خَلَا بِبَعْضِهِمْ إِلَى بَعْضٍ قَالُوا اتَّخَذُوا لَهُمْ سَمْعًا
 اللَّهُ عَلَيْهِمْ لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٨٢﴾

١١

﴿٦٤﴾ فبعد هذا التأكيد البالغ ﴿تَوَلَّيْتُمْ﴾؛ وأعرضتم وكان
 ذلك موجباً لأن يحل بكم أعظم العقوبات، ولكن ﴿فَلَوْلَا
 فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ ﴿٦٤﴾.

﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ
 كُونُوا فِرْدَةً خَاسِرِينَ﴾ ﴿٦٥﴾ فجعلناها نكلاً لما بين يديها وما
 خلفها وموعظة للمتقين ﴿٦٦﴾.

﴿٦٥﴾ أي: ولقد تقرر عندهم حالة، ﴿الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ
 فِي السَّبْتِ﴾؛ وهم الذين ذكر الله قصتهم مبسطة في سورة
 الأعراف في قوله: ﴿وَسَأَلْتَهُمْ عَنِ الْفَرِيكَةِ الَّتِي كَانَتْ
 حَاضِرَةً الْخَيْرِ إِذْ يَعْدُونَ﴾ في السَّبْتِ ﴿الآيات [الأعراف،
 الآيات من ١٦٣-١٦٦]؛ فأوجب لهم هذا الذنب العظيم أن
 غضب الله عليهم، وجعلهم ﴿فِرْدَةً خَاسِرِينَ﴾ ﴿٦٥﴾؛ حقيرين
 ذليين، وجعل الله هذه العقوبة:

﴿٦٦﴾ ﴿نَكْلًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا﴾؛ أي: لمن حضرها من الأمم،
 وبلغه خبرها ممن هو في وقتهم ﴿وَمَا خَلْفَهَا﴾؛ أي: من
 بعدها فتقوم على العباد حجة الله، وليرتدعوا عن معاصيه،
 ولكنها لا تكون موعظة نافعة إلا للمتقين، وأما من عداهم
 فلا ينتفعون بالآيات.

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقْرَةً قَالُوا أَنْتَجِدُهَا هَبْ إِنْ أَنْتَ إِلَّا كَوْنٌ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٧٥﴾
 قَالُوا أَدْعُ لَنَا رَبَّكَ يَبْنَ لَنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَدَلُولُ ثِيَرُ الْأَرْضِ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةً لَا شَيْءَ فِيهَا فَسَلُّوا
 أَلْفَنَ حَتَّى بِالْحَقِّ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ ﴿٧٦﴾ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَآذَرْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٧﴾
 فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧٨﴾ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ
 فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَسْقَى فَيُخْرِجُ مِنْهُ أَلْمَاءً
 وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٧٩﴾﴾.

﴿٧٥﴾ أي: واذكروا ما جرى لكم مع موسى حين قتلتم قتيلاً؛ فادارأتم فيه، أي: تدافعتم واختلتم في قاتله حتى تفاقم الأمر
 بينكم، وكاد - لولا تبين الله لكم - يحدث بينكم شر كبير، فقال لكم موسى في تبين القاتل: اذبحوا بقرة، وكان من الواجب
 المبادرة إلى امتثال أمره، وعدم الاعتراض عليه، ولكنهم أبوا إلا الاعتراض فقالوا: ﴿الَّتِي أَنْتَ إِلَّا كَوْنٌ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾؛ فقال نبي الله: ﴿أَدْعُ
 لَنَا رَبَّكَ يَبْنَ لَنَا مَا هِيَ﴾؛ فإن الجاهل هو الذي يتكلم بالكلام الذي لا فائدة فيه وهو الذي يستهزئ بالناس، وأما
 العاقل فيرى أن من أكبر العيوب المزرية بالدين والعقل استهزاء بمن هو آدمي مثله. وإن كان قد فضل عليه تفضيله يقتضي
 منه الشكر لربه والرحمة لعباده: فلما قال لهم موسى ذلك علموا أن ذلك صدق، فقالوا:

﴿٧٦﴾ ﴿أَدْعُ لَنَا رَبَّكَ يَبْنَ لَنَا مَا هِيَ﴾؛ أي: ما سنها ﴿قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَدَلُولُ ثِيَرُ الْأَرْضِ﴾؛ أي: صغيرة،

ففضلت قلوبكم. ثم توعدهم تعالى أشد الوعيد فقال: ﴿وَمَا اللَّهُ بِغَفِيلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ (٧٥)، بل هو عالم بها حافظ لصغيرها وكبيرها، وسيجازيكم على ذلك أتم الجزاء وأوفاه.

واعلم أن كثيراً من المفسرين - رحمهم الله - قد أكثروا في حشو تفاسيرهم من قصص بني إسرائيل، ونزلوا عليها الآيات القرآنية، وجعلوها تفسيراً لكتاب الله، محتجين بقوله ﷺ: «حدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج»^(١).

والذي أرى أنه وإن جاز نقل أحاديثهم على وجه تكون مفردة غير مقرونة ولا منزلة على كتاب الله، فإنه لا يجوز جعلها تفسيراً لكتاب الله قطعاً إذا لم تصح عن رسول الله ﷺ، وذلك أن مرتبتها كما قال ﷺ: «لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم»^(٢)، فإذا كانت مرتبتها أن تكون مشكوكاً فيها، وكان من المعلوم بالضرورة من دين الإسلام أن القرآن يجب الإيمان به والقطع بألفاظه ومعانيه، فلا يجوز أن تجعل تلك القصص المنقولة بالروايات المجهولة التي يغلب على الظن كذبها، أو كذب أكثرها - معاني لكتاب الله مقطوعاً بها، ولا يستريب بهذا أحد، ولكن بسبب الغفلة عن هذا حصل ما حصل، والله الموفق.

﴿أَفَنظَمُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ (٧٥) وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا بِغَضَمٍ مِنْهُمْ إِلَى بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ، عِنْدَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (٧٦) أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ (٧٧) وَمِنْهُمْ أُمِّيُونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانٍ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ (٧٨)﴾.

(٧٥) هذا قطع لأطماع المؤمنين من إيمان أهل الكتاب؛ أي فلا تطمعوا في إيمانهم، وأخلاقهم لا تقتضي الطمع فيهم؛ فإنهم كانوا يحرفون كلام الله من بعد ما عقلوه وعلموه، فيضعون له معاني ما أرادها الله؛ ليوهموا الناس أنها من عند الله، وما هي من عند الله، فإذا كانت هذه حالهم في كتابهم الذي يرونه شرفهم ودينهم يصلون به الناس عن سبيل الله، فكيف يرجى منهم إيمان لكم؟! فهذا من أبعد الأشياء.

(١) البخاري (٣٤٦١).

(٢) البخاري (٤٤٨٥).

﴿عَوَائِدُ يَتَكِّدُ ذَلِكَ فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ﴾ (٧٨)؛ واتركوا التشديد والتعنت.

(٦٩) ﴿قَالُوا آذَعْ لَنَا رَبِّكَ يَبْنَ لَنَا مَا لُونُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا﴾؛ أي: شديد، ﴿تَسْرُ النَّظِيرِ﴾ (٧٠)؛ من حسنها.

(٧١) ﴿قَالُوا آذَعْ لَنَا رَبِّكَ يَبْنَ لَنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَبَهَ عَلَيْنَا﴾؛ فلم نهتد إلى ما تريد، ﴿وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ﴾ (٧٢).

(٧٣) ﴿قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولَ﴾؛ أي: مذللة بالعمل ﴿ثَبِيرُ الْأَرْضِ﴾؛ بالحرارة ﴿وَلَا تَسْمَعُ الْكَوْلَ﴾؛ أي: ليست بسانية، ﴿مُسْلَمَةً﴾؛ من العيوب أو من العمل ﴿لَا شَيْءَ فِيهَا﴾؛ أي: لا لون فيها غير لونها الموصوف المتقدم، ﴿قَالُوا أَتَنْتَ جِنَّتَ بِالْحَقِّ﴾؛ أي: بالبيان الواضح، وهذا من جهلهم، وإلا فقد جاءهم بالحق أول مرة، فلو أنهم اعترضوا أي بقرة لحصل المقصود، ولكنهم شددوا بكثرة الأسئلة؛ فشدد الله عليهم، ولو لم يقولوا إن شاء الله لم يهتدوا أيضاً إليها، ﴿فَذَبِّحُوهَا﴾؛ أي: البقرة التي وصفت بتلك الصفات، ﴿وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ﴾ (٧٤)؛ بسبب التعنت الذي جرى منهم.

(٧٦)، (٧٧) فلما ذبحوها قلنا لهم اضربوا القليل ببعضها، أي: بعضو منها، إما بعضو معين أو أي عضو منها فليس في تعيينه فائدة؛ فضربه ببعضها؛ فأحياء الله، وأخرج ما كانوا يكتمون؛ فأخبر بقاتله، وكان في إحيائه - وهم يشاهدون - ما يدل على إحياء الله الموتى، ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ (٧٦)؛ فتتجزون عما يضرركم.

(٧٨) ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ﴾؛ أي: اشتدت وغلظت فلم تؤثر فيها الموعظة ﴿وَمِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾؛ أي: من بعد ما أنعم الله عليكم بالنعم العظيمة وأراكم الآيات، ولم يكن ينبغي أن تقسو قلوبكم؛ لأن ما شاهدتم مما يوجب رقة القلب وانقياده، ثم وصف قسوتها بأنها ﴿كَالْحِجَارَةِ﴾ التي هي أشد قسوة من الحديد، لأن الحديد والرصاص إذا أذيب في النار ذاب بخلاف الأحجار، وقوله: ﴿أَوْ أَشَدُّ قَسَوَةً﴾؛ أي: أنها لا تقصر عن قسوة الأحجار، وليست (أو) بمعنى (بل).

ثم ذكر فضيلة الأحجار على قلوبهم فقال: ﴿وَإِنَّ مِنْ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشْقُقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ أَلْمَاءٌ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ حَشِيَّةٍ﴾، فهذه الأمور

سورة البقرة

البقرة

﴿٧٦﴾ ثم ذكر حال منافقي أهل الكتاب، فقال: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا﴾، فأظهروا لهم الإيمان قولاً بالسهم ما ليس في قلوبهم، ﴿وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ﴾؛ فلم يكن عندهم أحد من غير أهل دينهم قال بعضهم لبعض: ﴿أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾؛ أي: أنظفرون لهم الإيمان وتخبرونهم أنكم مثلهم فيكون ذلك حجة لهم عليكم؟ يقولون إنهم قد أقرؤا بأن ما نحن عليه حق وما هم عليه باطل، فيحتجون عليكم بذلك عند ربكم ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾؟ أي: أفلا يكون لكم عقل فتتكون ما هو حجة عليكم؟

﴿٧٧﴾ هذا يقوله بعضهم لبعض: ﴿أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُرْسِرُونَ وَمَا يَحْتَفِظُونَ﴾؟ فهم وإن أسروا ما يعتقدونه فيما بينهم، وزعموا أنهم بإسرارهم لا يتطرق عليهم حجة للمؤمنين؛ فإن هذا غلط منهم وجهل كبير؛ فإن الله يعلم سرهم وعلمهم؛ فيظهر لعباده ما هم عليه.

﴿٧٨﴾ وَمِنْهُمْ؛ أي: من أهل الكتاب ﴿أُمِّيُونَ﴾؛ أي: عوام، وليسوا من أهل العلم ﴿لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا ءَامَانِي﴾؛ أي: ليس لهم حظ من كتاب الله إلا التلاوة فقط، وليس عندهم خبر بما عند الأولين الذين يعلمون حق المعرفة حالهم، وهؤلاء إنما معهم ظنون وتقاليد لأهل العلم منهم.

فذكر في هذه الآيات علماءهم وعوامهم ومنافقيهم ومن لم يناق منهم، فالعلماء منهم متمسكون بما هم عليه من الضلال، والعوام مقلدون لهم، لا بصيرة عندهم؛ فلا مطمع لكم في الطائفتين.

﴿قَوْلِ لِلَّذِينَ يَكْتُوبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا قَوْلِ لَهُمْ مِمَّا كَتَبْتَ بِيَدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ﴾ ﴿٧٩﴾

﴿٧٩﴾ نود تعالى المحرفين للكتاب الذين يقولون لتحريفهم وما يكتبون ﴿هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾، وهذا فيه إظهار الباطل وكتف الحق، وإنما فعلوا ذلك مع علمهم، ﴿لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾، والدنيا كلها من أولها إلى آخرها ثمن قليل، فجعلوا باطلهم شركاً يصطادون به ما في أيدي الناس.

فظمهم من وجهين: من جهة تلبس دينهم عليهم، ومن جهة أخذ أموالهم بغير حق، بل بأبطل الباطل، وذلك أعظم ممن يأخذها غصباً وسرقة ونحوهما، ولهذا توعدهم بهذين الأمرين، فقال: ﴿قَوْلِ لَهُمْ مِمَّا كَتَبْتَ بِيَدِيهِمْ﴾؛ أي من التحريف والباطل ﴿وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ﴾؟ من الأموال، والويل: شدة العذاب والحسرة، وفي ضمنها الوعيد الشديد.

قال شيخ الإسلام لما ذكر هذه الآيات من قوله: ﴿أَفَنُظْمِعُونَ﴾ إلى ﴿يَكْسِبُونَ﴾ ﴿٧٩﴾: «فإن الله ذم الذين يحرفون الكلم عن مواضعه، وهو متناول لمن حمل الكتاب والسنة على ما أصله من البدع الباطلة، وذم الذين لا يعلمون الكتاب إلا أمانى وهو متناول لمن ترك تدبر القرآن ولم يعلم إلا مجرد تلاوة حروفه، ومتناول لمن كتب كتاباً بيده مخالفاً لكتاب الله لينال به دنيا وقال: إنه من عند الله، مثل أن يقول: هذا هو الشرع والدين، وهذا معنى الكتاب والسنة، وهذا معقول السلف والأئمة،

﴿مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً﴾؛ وهو نكرة في سياق الشرط؛ فيعم الشرك فما دونه، والمراد به الشرك هنا بدليل قوله: ﴿وَأَحْطَّتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ﴾؛ أي: أحاطت بعاملها فلم تدع له متفذاً، وهذا لا يكون إلا الشرك، فإن من معه الإيمان لا تحيط به خطيئته، ﴿فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾؛ وقد احتج بها الخوارج على كفر صاحب المعصية، وهي حجة عليهم كما ترى، فإنها ظاهرة في الشرك، وهكذا كل مبطل يحتج بآية أو حديث صحيح على قوله الباطل؛ فلا بد أن يكون فيما احتج به حجة عليه.

﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا﴾؛ بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾؛ ولا تكون الأعمال صالحة إلا بشرطين: أن تكون خالصة لوجه الله، متبعا بها سنة رسوله.

فحاصل هاتين الآيتين أن أهل النجاة والفوز أهل الإيمان والعمل الصالح، والهالكون أهل النار المشركون بالله الكافرون به.

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ لَا نَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَءَاتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْكُمْ وَأَنتُمْ مُّعْرِضُونَ﴾.

فهذه الشرائع من أصول الدين التي أمر الله بها في كل شريعة لاشتمالها على المصالح العامة في كل زمان ومكان؛ فلا يدخلها نسخ، كأصل الدين، ولهذا أمرنا الله بها في قوله: ﴿وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾؛ إلى آخر الآية [النساء: ٣٦].

فقوله: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾؛ هذا من قسوتهم أن كل أمر أمروا به استعصوا، فلا يقبلونه إلا بالإيمان الغليظة والعهود الموثقة ﴿لَا نَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ﴾؛ هذا أمر بعبادة الله وحده ونهي عن الشرك به، وهذا أصل الدين، فلا تقبل الأعمال كلها إن لم يكن هذا أساسها، فهذا حق الله تعالى على عباده، ثم قال: ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾؛ أي أحسنوا بالوالدين إحساناً، وهذا يعم كل إحسان قولني وفعلني مما هو إحسان إليهم، وفيه النهي عن الإساءة إلى الوالدين أو عدم الإحسان والإساءة؛ لأن الواجب الإحسان، والأمر بالشئ نهي عن ضده، وللإحسان ضدان: الإساءة وهي

وهذا هو أصول الدين الذي يجب اعتقاده على الأعيان أو الكفاية، ومتناول لمن كنتم ما عنده من الكتاب والسنة، لثلاث يحتج به مخالفه في الحق الذي يقوله، وهذه الأمور كثيرة جداً في أهل الأهواء جملة، كالرافضة والجهمية ونحوهم من أهل الأهواء والكلام، وفي أهل الأهواء، وتفصيلاً مثل كثير من المتسبين إلى الفقهاء... انتهى.

﴿وَقَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ بَلَىٰ مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحْطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.

ذكر أفعالهم القبيحة، ثم ذكر - مع هذا - أنهم يزكون أنفسهم، ويشهدون لها بالنجاة من عذاب الله والفوز بثوابه، وأنهم لن تمسهم النار إلا أياماً معدودة؛ أي قليلة تعد بالأصابع، فجمعوا بين الإساءة والأمن، ولما كان هذا مجرد دعوى رد تعالى عليهم فقال: ﴿قُلْ﴾؛ لهم يا أيها الرسول، ﴿أَتَّخَذْتُمْ عِندَ اللَّهِ عَهْدًا﴾؛ أي: بالإيمان به وبرسله وبطاعته، فهذا الوعد الموجب لنجاة صاحبه الذي لا يتغير ولا يتبدل ﴿أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾؟ فأخبر تعالى أن صدق دعواهم متوقفة على أحد هذين الأمرين اللذين لا ثالث لهما:

إما أن يكونوا قد اتخذوا عند الله عهداً؛ فتكون دعواهم صحيحة.

وإما أن يكونوا متقولين عليه؛ فتكون كاذبة فيكون أبلغ لخزيهم وعذابهم، وقد علم من حالهم أنهم لم يتخذوا عند الله عهداً لتكذيبهم كثيراً من الأنبياء حتى وصلت بهم الحال إلى أن قتلوا طائفة منهم، ولنكولهم عن طاعة الله ونقضهم المواثيق، فتعين بذلك أنهم متقولون مختلقون قائلون عليه ما لا يعلمون، والقول عليه بلا علم من أعظم المحرمات وأشنع القبيحات.

ثم ذكر تعالى حكماً عاماً لكل أحد، يدخل فيه بنو إسرائيل وغيرهم، وهو الحكم الذي لا حكم غيره، لا أمانهم ودعواهم بصفة الهالكين والناجين فقال: ﴿بَلَىٰ﴾؛ أي: ليس الأمر كما ذكركم، فإنه قول لا حقيقة له، ولكن:

أعظم جرماً، وترك الإحسان بدون إساءة، وهذا محرم لكن لا يجب أن يلحق بالأول.

وكذا يقال في صلة الأقارب واليتامى والمساكين، وتفصيل الإحسان لا تنحصر بالعد، بل تكون بالحد كما تقدم. ثم أمر بالإحسان إلى الناس عموماً فقال: ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾؛ ومن القول الحسن أمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر وتعليمهم العلم وبذل السلام والبشاشة وغير ذلك من كل كلام طيب، ولما كان الإنسان لا يسع الناس بماله أمر بأمر يقدر به على الإحسان إلى كل مخلوق وهو الإحسان بالقول، فيكون في ضمن ذلك النهي عن الكلام القبيح للناس حتى للكفار، ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [المكبوت: ٤٦]؛ ومن أدب الإنسان الذي أدب الله به عباده أن يكون الإنسان نزيهاً في أقواله وأفعاله، غير فاحش ولا بذيء ولا شاتم ولا مخاصم، بل يكون حسن الخلق واسع الحلم، معاملاً لكل أحد، صبوراً على ما يناله من أذى الخلق امتثالاً لأمر الله ورجاءً لثوابه.

ثم أمرهم بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة لما تقدم أن الصلاة متضمنة للإخلاص للمعبود، والزكاة متضمنة للإحسان إلى العبيد، ثم بعد هذا الأمر لكم بهذه الأوامر الحسنة التي إذا نظر إليها البصير العاقل عرف أن من إحسان الله على عباده

أن أمرهم بها وتفضل بها عليهم وأخذ المواثيق عليكم، ﴿تَوَلَّيْتُمْ﴾؛ على وجه الإعراض؛ لأن المتولي قد يتولى وله نية رجوع إلى ما تولى عنه، وهؤلاء ليس لهم رغبة ولا رجوع في هذه الأوامر، فنعوذ بالله من الخذلان. وقوله: ﴿وَلَا قَلِيلًا مِّنْكُمْ﴾؛ هذا استثناء؛ لثلاث يومهم أنهم تولوا كلهم، فأخبر أن قليلاً منهم عصمهم الله وثبتهم.

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِينِكُمْ ثُمَّ أَقَرَرْتُمْ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ﴾ ﴿٨٤﴾ ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقُولُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِنْكُمْ مِنْ دِينِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِمْ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِنْ يَأْتُوكُمْ أُسْرَى تَعْدُوهُمْ وَهِيَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أشدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ ﴿٨٥﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ فَلَا يَخَفُفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ ﴿٨٦﴾ ﴿

٨٩، ٩٠ وهذا الفعل المذكور في هذه الآية فعل للذين كانوا في زمن الوحي بالمدينة، وذلك أن الأوس والخزرج - وهم الأنصار - كانوا قبل مبعث النبي ﷺ مشركين، وكانوا يقتلون على عادة الجاهلية، فنزل عليهم الفرق الثلاث من فرق اليهود: بنو قريظة، وبنو النضير، وبنو قينقاع، فكل فرقة منهم حالفت فرقة من أهل المدينة، فكانوا إذا اقتتلوا أعان اليهودي حليفه على مقاتليه الذين تعينهم الفرقة الأخرى من اليهود، فيقتل اليهودي اليهودي، ويخرجه من دياره إذا حصل جلاء ونهب، ثم إذا وضعت الحرب أوزارها، وكان قد حصل أسارى بين الطائفتين فدى بعضهم بعضاً، والأمور الثلاثة كلها قد فرضت عليهم: ففرض عليهم ألا يسفك بعضهم دم بعض، ولا يخرج بعضهم بعضاً، وإذا وجدوا أسيراً منهم وجب عليهم فداؤه، فعملوا بالأخير وتركوا الأولين، فأنكر الله عليهم ذلك فقال: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ﴾؛ وهو فداء الأسير

سورة البقرة

البقرة

وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٨٦﴾
يَسْمَا أَسْرَفُوا بِهِ أَنْ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَنْ يَنْزِلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءَ وَبَعْضٍ عَلَى غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴿٨٧﴾
وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا تَوْحَدُونَ بِمَا أَنْزَلَ عَلَيْنَا رَبُّكُمْ وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ أَخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ ﴿٨٩﴾
وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاسْمِعُوا قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأَشْرَبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ يَسْمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمَانُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٩٠﴾

﴿وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾؛ وهو القتل والإخراج، وفيها دليل على أن الإيمان يقتضي فعل الأوامر واجتناب النواهي، وأن الأمور من الإيمان. قال تعالى: ﴿فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾؛ وقد وقع ذلك فأخزاهم الله، وسلط رسوله عليهم فقتل من قتل، وسبى من سبى منهم، وأجل من أجل، ﴿وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ يُرَدُّونَ إِلَيْهِ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾؛ أي: أعظمه، ﴿وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ ﴿٧٤﴾؛ ثم أخبر تعالى عن السبب الذي أوجب لهم الكفر ببعض الكتاب والإيمان ببعضه، فقال:

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ﴾؛ توهموا أنهم إن لم يعينوا حلفاءهم حصل لهم عار فاختراروا النار على العار، فلماذا قال: ﴿فَلَا يَخَفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ﴾؛ بل هو باق على شدته، ولا يحصل لهم راحة بوقت من الأوقات ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ ﴿٨١﴾؛ أي: يدفع عنهم مكروهه.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَفَقَيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمْ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ ﴿٨٧﴾.

﴿يَمْتَن تَعَالَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنْ أَرْسَلَ إِلَيْهِمْ كَلِيمَهُ مُوسَى وَآتَاهُ التَّوْرَةَ، ثُمَّ تَابِعَ مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ الَّذِينَ يَحْكُمُونَ بِالتَّوْرَةِ، إِلَى أَنْ خَتَمَ أَنْبِيَاءَهُمْ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَآتَاهُ مِنَ الْآيَاتِ الْبَيِّنَاتِ مَا يُؤْمِنُ عَلَى مِثْلِهِ الْبَشَرُ﴾ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ؛ أي: قواه الله بروح القدس، قال أكثر المفسرين: إنه جبريل عليه السلام، وقيل: إنه الإيمان الذي يؤيد الله به عباده، ثم مع هذه النعم التي لا يقدر قدرها لما أتوكم ﴿بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمْ اسْتَكْبَرْتُمْ﴾، عن الإيمان بهم، ﴿فَرِيقًا﴾، منهم، ﴿كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ ﴿٨٧﴾، فقدمتم الهوى على الهدى وأثرتم الدنيا على الآخرة، وفيها من التوبيخ والتشديد ما لا يخفى.

﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ﴾ ﴿٨٨﴾.

﴿أي: اعترضوا عن الإيمان لما دعوتهم إليه يا أيها الرسول بأن قلوبهم غلف أي عليها غلاف وأعطية فلا تفقه ما تقول، يعني فيكون لهم - بزعمهم - عذر لعدم العلم، وهذا كذب منهم، فلماذا قال تعالى: ﴿بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ﴾؛ أي: أنهم مطرودون ملعونون بسبب كفرهم؛ فقليلًا المؤمن منهم، أو قليلًا إيمانهم، وكفرهم هو الكثير.

﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ ﴿٨٦﴾ يَسْمَا أَسْرَفُوا بِهِ أَنْ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَنْ يَنْزِلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءَ وَبَعْضٍ عَلَى غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴿٨٧﴾.

﴿٨٦﴾، ﴿أي:﴾ ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ﴾ من عند الله على يد أفضل الخلق وخاتم الأنبياء، المشتمل على تصديق ما معهم من التوراة، وقد علموا به، وتيقنوه على أنهم إذا كان وقع بينهم وبين المشركين في الجاهلية حروب استنصروا بهذا النبي وتوعدوهم بخروجه، وأنهم يقاتلون المشركين معه، فلما جاءهم هذا الكتاب والنبي الذي عرفوا؛ كفروا به بغيًا وحسدًا

عليكم وتكفرون بنظيره، هل هذا إلا تعصب واتباع للهوى لا للهدى؟ وأيضا فإن كون القرآن مصدقا لما معهم يقتضي أنه حجة لهم على صدق ما في أيديهم من الكتب، فلا سبيل لهم إلى إثباتها إلا به، فإذا كفروا به وجحدوه صاروا بمنزلة من ادعى دعوى بحجة وبينه ليس له غيرها، ولا تتم دعواه إلا بسلامة بيته، ثم يأتي هو لبيته وحجته فيقده فيها ويكذب بها، أليس هذا من الحماقة والجنون؟! فكان كفرهم بالقرآن كفرا بما في أيديهم ونقصا له. ثم نقض عليهم تعالى دعواهم الإيمان بما أنزل إليهم بقوله: ﴿قُلْ﴾ لهم ﴿فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (٩١).

﴿٩٢﴾ وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ؛ أَي: بالأدلة الواضحات المبينة للحق ﴿ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ﴾؛ أَي: بعد مجيئه ﴿وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ﴾ (٩٢)؛ في ذلك ليس لكم عذر.

﴿٩٣﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمْ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَأَسْمِعُوا؛ أَي: سماع قبول وطاعة واستجابة، ﴿قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾؛ أَي: صارت هذه حالتهم ﴿وَأَشْرَبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ﴾؛ أَي:

صبغ حب العجل وحب عبادته في قلوبهم وشربها بسبب كفرهم ﴿قُلْ يَسْكَا يَا مُرْكُم بِهِ إِيْمَانُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (٩٣)؛ أَي: أنتم تدعون الإيمان وتمدحون بالدين الحق وأنتم قتلتم أنبياء الله واتخذتم العجل إلها من دون الله لما غاب عنكم موسى نبي الله، ولم تقبلوا أوامره ونواهيه إلا بعد التهديد ورفع الطور فوقكم، فالتزمت بالقول ونقضتم بالفعل، فما هذا الإيمان الذي ادعيتم؟! وما هذا الدين؟! فإن كان هذا إيمانا على زعمكم، فبئس الإيمان الداعي صاحبه إلى الطغيان والكفر برسل الله وكثرة العصيان، وقد عهد أن الإيمان الصحيح يأمر صاحبه بكل خير وينهاه عن كل شر، فوضح بهذا كذبهم وتبين تناقضهم.

﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ لَكُمْ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (٩٤) وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمْتُمْ إِلَيْهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٩٥﴾ وَلَنَجْذِثَنَّهُمْ أَخْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَوَاتِهِمْ وَمَنْ أَلْزَمَ الْإِسْلَامَ يَوْمَ يُدْعَاهُمْ أَنْ يُعْمَرُوا أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُمْ بِمُرْجَاهِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعْمَرُوا وَاللَّهُ بِصِيرُورِهِمْ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ (٩٦).

أن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده، فلعنهم الله وغضب عليهم غضبا بعد غضب؛ لكثرة كفرهم وتوالي شكهم وشركهم، ولهم في الآخرة عذاب مهين أي: مؤلم موجع، وهو صلي العجيم وفوت النعيم المقيم، فبئس الحال حالهم، وبئس ما استعاضوا واستبدلوا من الإيمان بالله وكتبه ورسله، الكفر به وكتبه وبرسله مع علمهم وتيقنهم، فيكون أعظم لعذابهم.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا تُوْمِنُ بِمَا أَنْزَلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (٩١) وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ ﴿٩٢﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمْ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَأَسْمِعُوا قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأَشْرَبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ يَسْكَا يَا مُرْكُم بِهِ إِيْمَانُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (٩٣).

﴿٩٤﴾ أَي: وإذا أمر اليهود بالإيمان بما أنزل الله على رسوله وهو القرآن استكبروا وعتوا ﴿قَالُوا تُوْمِنُ بِمَا أَنْزَلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ﴾؛ أَي: بما سواه من الكتب، مع أن الواجب أن يؤمنوا بما أنزل الله مطلقا سواء أنزل عليهم أو على غيرهم، وهذا هو الإيمان النافع، الإيمان بما أنزل الله على جميع رسل الله، وأما التفريق بين الرسل والكتب وزعم الإيمان ببعضها دون بعض فهذا ليس بإيمان، بل هو الكفر بعينه، ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا﴾ (١٥٠) أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا ﴿النساء: ١٥٠، ١٥١﴾ ولهذا رد عليهم تبارك وتعالى هنا ردا شافيا، وألزمهم إلزاما لا محيد لهم عنه فرد عليهم بكفرهم بالقرآن بأمرين فقال: ﴿وَهُوَ الْحَقُّ﴾، فإذا كان هو الحق في جميع ما اشتمل عليه من الأخبارات والأوامر والنواهي وهو من عند ربهم؛ فالكفر به بعد ذلك كفر بالله وكفر بالحق الذي أنزله.

ثم قال: ﴿مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ﴾؛ أَي: موافقا له في كل ما دل عليه من الحق ومهيما عليه، فلم تؤمنوا بما أنزل

﴿٩٤﴾ أَي: ﴿قُلْ﴾؛ لهم على وجه تصحيح دعواهم، ﴿إِنْ كَانَتْ لَكُمْ الدَّارُ الْآخِرَةُ﴾، يعني الجنة ﴿خَالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ﴾، كما زعمتم أنه لن يدخل الجنة إلا من كان هوذا أو نصارى، وأن النار لن تمسهم إلا أياماً معدودة فإن كنتم صادقين بهذه الدعوى ﴿فَتَمْنُوا أَلَمُوتَ﴾ وهذا نوع مباهلة بينهم وبين رسول الله ﷺ، وليس بعد هذا الإلجاء والمضايقة لهم بعد العناد منهم إلا أحد أمرين: إما أن يؤمنوا بالله ورسوله، وإما أن يباهلوا على ما هم عليه بأمر يسير عليهم، وهو تمني الموت الذي يوصلهم إلى الدار التي هي خالصة لهم، فامتنعوا عن ذلك؛ فعلم كل أحد أنهم في غاية المعاندة والمحاداة لله ورسوله مع علمهم بذلك، ولهذا قال تعالى:

﴿٩٥﴾ وَلَنْ يَسْتَنْوَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمْتْ أَيْدِيهِمْ، من الكفر والمعاصي؛ لأنهم يعلمون أنه طريق لهم إلى المجازاة بأعمالهم الخبيثة، فالموت أكره شيء إليهم، وهم أحرص على الحياة من كل أحد من الناس حتى من المشركين الذين لا يؤمنون بأحد من الرسل والكتب. ثم ذكر شدة محبتهم الدنيا فقال:

﴿٩٦﴾ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرَ أَلْفَ سَنَةٍ؛ وهذا: أبلغ ما يكون من الحرص؛ تمنوا حالة هي من المحالات، والحال أنهم لو عمروا العمر المذكور لم يغن عنهم شيئاً، ولا دفع عنهم من العذاب شيئاً، ﴿وَاللَّهُ بِصِيرُ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾، تهديد لهم على المجازاة بأعمالهم.

﴿قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿٩٧﴾ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ﴾ ﴿٩٨﴾

﴿٩٧﴾، أي: قل لهؤلاء اليهود الذين زعموا أن الذي منعمهم من الإيمان أن وليك جبريل عليه السلام. ولو كان غيره من ملائكة الله لأنوا بك وصدقوا: إن هذا الزعم منكم تناقض وتهافت وتكبر على الله، فإن جبريل عليه السلام هو الذي نزل بالقرآن من عند الله على قلبك، وهو الذي ينزل على الأنبياء قبلك، والله هو الذي أمره وأرسله بذلك، فهو رسول محض، مع أن هذا الكتاب الذي نزل به جبريل مصدق لما تقدمه من الكتب غير مخالف لها ولا مناقض، وفيه الهداية التامة من أنواع الضلالات، والبشارة بالخير الدنيوي والأخروي لمن آمن به، فالعداوة لجبريل الموصوف بذلك كفر بالله وآياته وعداوة لله ولرسوله وملائكته، فإن عداوتهم لجبريل لا لذاته، بل لما ينزل به من عند الله من الحق على رسل الله، فيضمن الكفر والعداوة للذي أنزله وأرسله والذي أرسل به، والذي أرسل إليه، فهذا وجه ذلك.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَيْكَ ءَايَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ﴾ ﴿٩٩﴾.

﴿٩٩﴾ يقول لنبية ﷺ: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَيْكَ ءَايَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾؛ تحصل بها الهداية لمن استهدى وإقامة الحجة على من عاند، وهي في الوضوح والدلالة على الحق قد بلغت مبلغاً عظيماً، ووصلت إلى حالة لا يمتنع من قبولها إلا من فسق عن أمر الله وخرج عن طاعة الله، واستكبر غاية التكبر.

سورة البقرة
قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمْ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمْنُوا أَلَمُوتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٩٥﴾ وَلَنْ يَسْتَنْوَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمْتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٩٦﴾ وَلَنَجْذِثُنَّهُمْ أَخْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَوتِهِمْ مِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرَ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُرَحِّجٍهُ مِنْ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾ قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٩٨﴾ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ ﴿٩٩﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَيْكَ ءَايَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ ﴿١٠٠﴾ أَوْ كَلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا أَبَدَهُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾ وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ بَشَرٌ مِنْ الَّذِينَ أَوْثَرُوا الْكَيْتَ كَتَبَ اللَّهُ وِرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَانَتْهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠٢﴾

سورة البقرة

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿أَوْ كَلِمَاتٍ عَاهَدُوا عَهْدَ رَبِّهِمْ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ ﴿١٠٠﴾

﴿١٠٠﴾ وهذا فيه التعجب من كثرة معاهداتهم وعدم صبرهم على الوفاء بها؛ ف (كلمات) تفيد التكرار، فكلمات وجد العهد ترتب عليه النقص، ما السبب في ذلك؟ السبب أن أكثرهم لا يؤمنون، فعدم إيمانهم هو الذي أوجب لهم نقض العهود، ولو صدق إيمانهم لكانوا مثل من قال الله فيهم: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَصْبِرُوا عَلَىٰ مَا يَأْتِيكُم مِّنَ الرَّبِّ وَأَطِيعُوا أَمْرَهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الأحزاب: ٢٣].

﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ بَدَّ فَرِيقٌ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ﴿١٠١﴾ وَأَتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكٍ سَلِيمٍ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَنُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينُ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَائِكَةِ بِإِذْنِ هَارُونَ وَمُوسَىٰ وَمَا يَعْلَمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُمْ بِضَارِينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلَّمُوا لَمَّا أُسْرِيَ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلْقٍ وَلَئِنَّ مَا شَكَرُوا بِهِ أَنفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ ﴿١٠٢﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا وَأَتَّقُوا لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ خَيْرٌ لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ ﴿١٠٣﴾

﴿١٠٢﴾ ولما جاءهم هذا الرسول الكريم بالكتاب العظيم بالحق الموافق لما معهم، وكانوا يزعمون أنهم متمسكون بكتابهم، فلما كفروا بهذا الرسول وبما جاء به ﴿بَدَّ فَرِيقٌ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ﴾؛ الذي أنزل إليهم، أي: طرحوه رغبة عنه ﴿وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ﴾، وهذا أبلغ في الإعراض، كأنهم في فعلهم هذا من الجاهلين وهم يعلمون صدقه وحقيقة ما جاء به، تبين بهذا أن هذا الفريق من أهل الكتاب لم يبق في أيديهم شيء حيث لم يؤمنوا بهذا الرسول، فصار كفرهم به كفراً بكتابهم من حيث لا يشعرون.

﴿١٠٣﴾ أي: ولما كان من العوائد القدريّة والحكمة الإلهية أن من ترك ما ينفعه وأمكنه الانتفاع به ولم يتنفع؛ ابتلي بالاشتغال بما يضره، فمن ترك عبادة الرحمن؛ ابتلي بعبادة الأوثان، ومن ترك محبة الله وخوفه ورجاءه؛ ابتلي بمحبة غير الله وخوفه ورجاءه، ومن لم ينق ماله في طاعة الله أنفقه في طاعة الشيطان، ومن ترك الذل لربه؛ ابتلي بالذل للعبيد، ومن ترك الحق؛ ابتلي بالباطل.

ولما كان من العوائد القدريّة والحكمة الإلهية أن من ترك ما ينفعه وأمكنه الانتفاع به ولم يتنفع؛ ابتلي بالاشتغال بما يضره، فمن ترك عبادة الرحمن؛ ابتلي بعبادة الأوثان، ومن ترك محبة الله وخوفه ورجاءه؛ ابتلي بمحبة غير الله وخوفه ورجاءه، ومن لم ينق ماله في طاعة الله أنفقه في طاعة الشيطان، ومن ترك الذل لربه؛ ابتلي بالذل للعبيد، ومن ترك الحق؛ ابتلي بالباطل.

﴿١٠٢﴾، ﴿١٠٣﴾ كذلك: هؤلاء اليهود لما نبذوا كتاب الله اتبعوا ما تتلو الشياطين، وتخلق من السحر على ملك سليمان؛ حيث أخرجت الشياطين للناس السحر، وزعموا أن سليمان عليه السلام كان يستعمله وبه حصل له الملك العظيم، وهم كذبة في ذلك فلم يستعمله سليمان، بل نزهه الصادق في قوله: ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَنُ﴾؛ أي: بتعلم السحر فلم يتعلمه، ﴿وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا﴾، في ذلك ﴿يَعْلَمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ﴾، من إضلالهم وحرصهم على إغواء بني آدم، وكذلك اتبع اليهود السحر الذي أنزل على الملكين الكائنين بأرض بابل من أرض العراق، أنزل عليهما السحر امتحاناً وابتلاءً من الله لعباده

﴿يَأْتِيهَا الذِّبْرُ ءَامِنُوا لَا تَقُولُوا رَعْنَا وَقُولُوا أَنْظَرْنَا وَأَسْمِعُوا وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ١١٣﴾ مَا يُوَدُّ الذِّبْرُ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَاللَّهُ يَخْتَصِرُ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ١١٤﴾.

١١٣ كان المسلمون يقولون حين خطابهم للرسول عند تعلمهم أمر الدين: ﴿رَعْنَا﴾؛ أي: راع أحوالنا فيقصدون بها معنى صحيحاً، وكان اليهود يريدون بها معنى فاسداً، فانتهزوا الفرصة فصاروا يخاطبون الرسول بذلك ويقصدون المعنى الفاسد، فنهى الله المؤمنين عن هذه الكلمة سداً لهذا الباب، ففيه النهي عن الجائر إذا كان وسيلة إلى محرم، وفيه الأدب واستعمال الألفاظ التي لا تحتل إلا الحسن وعدم الفحش وترك الألفاظ القبيحة أو التي فيها نوع تشويش واحتمال لأمر غير لائق، فأمرهم بلفظة لا تحتل إلا الحسن فقال: ﴿وَقُولُوا أَنْظَرْنَا﴾؛ فإنها كافية يحصل بها المقصود من غير محذور، ﴿وَأَسْمِعُوا﴾؛ لم يذكر المسموع ليعم ما أمر باستماعه فيدخل فيه سماع القرآن وسماع السنة التي هي الحكمة لفظاً ومعنى واستجابة ففيه الأدب والطاعة، ثم توعد الكافرين بالعذاب المؤلم الموجه.

١١٤ وأخبر عن عداوة اليهود والمشركين للمؤمنين أنهم ما يودون، ﴿أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ﴾؛ أي: لا قليلاً ولا كثيراً، ﴿مِنْ رَبِّكُمْ﴾؛ حسداً منهم وبغضاً لكم أن يختصكم بفضله فإنه، ﴿ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ١١٣﴾ ومن فضله عليكم إنزال الكتاب على رسولكم؛ ليزكيكم ويعلمكم الكتاب والحكمة ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون، فله الحمد والمنة.

﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلَهَا ۗ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ١١٥﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ١١٦﴾.

١١٥ النسخ هو النقل، فحقيقة النسخ نقل المكلفين من حكم مشروع إلى حكم آخر أو إلى إسقاطه، وكان اليهود ينكرون النسخ ويزعمون أنه لا يجوز، وهو مذكور عندهم في التوراة، فإنكارهم له كفر وهوى محض، فأخبر الله تعالى

فيعلمانهم السحر، ﴿وَمَا يَعْلَمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَقًّا﴾؛ ينصحه و﴿يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾؛ أي: لا تتعلم السحر؛ فإنه كفر، فينهانهم عن السحر ويخبرانه عن مرتبته، فتعليم الشياطين للسحر على وجه التدليس والإضلال، ونسبته وتروجه إلى من برأه الله منه وهو سليمان عليه السلام، وتعليم الملكين امتحاناً مع نصحهما؛ لئلا يكون لهم حجة، فهؤلاء اليهود يتبعون السحر الذي تعلمه الشياطين والسحر الذي يعلمه الملكان، فتركوا علم الأنبياء والمرسلين وأقبلوا على علم الشياطين، وكل يصبو إلى ما يناسبه.

ثم ذكر مفاسد السحر فقال: ﴿فَيَعْلَمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ﴾؛ مع أن محبة الزوجين لا تقاس بمحبة غيرهما، لأن الله قال في حقهما: ﴿وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ [الروم: ٢١]؛ وفي هذا دليل على أن السحر له حقيقة، وأنه يضر بإذن الله؛ أي: بإرادة الله. والإذن نوعان: إذن قدري: وهو المتعلق بمشيئة الله كما في هذه الآية، وإذن شرعي كما في قوله تعالى في الآية السابقة: ﴿فَإِذْ نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾؛ وفي هذه الآية وما أشبهها أن الأسباب مهما بلغت في قوة التأثير فإنها تابعة للقضاء والقدر ليست مستقلة في التأثير، ولم يخالف في هذا الأصل أحد من فرق الأمة غير القدري في أفعال العباد زعموا: أنها مستقلة غير تابعة للمشيئة، فأخرجوها عن قدرة الله، فخالفوا كتاب الله وسنة رسوله وإجماع الصحابة والتابعين.

ثم ذكر أن علم السحر مضره محضة، ليس فيه منفعة لا دينية ولا دنيوية، كما يوجد بعض المنافع الدنيوية في بعض المعاصي، كما قال تعالى في الخمر والميسر: ﴿قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنْفَعَةٌ لِلنَّاسِ وَإِنَّهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا﴾ [البقرة: ٢١٩]؛ فهذا السحر مضره محضة، فليس له داع أصلاً، فالمنهيات كلها إما مضره محضة أو شرها أكبر من خيرها، كما أن المأمورات إما مصلحة محضة أو خيرها أكثر من شرها.

﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا﴾؛ أي: اليهود، ﴿لَمَنِ اشْتَرَاهُ﴾؛ أي: رغب في السحر رغبة المشتري في السلعة، ﴿مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلْقٍ﴾؛ أي: نصيب بل هو موجب للعقوبة، فلم يكن فعلهم إياه جهلاً ولكنهم استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة فلبس ﴿مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ١١٦﴾؛ علماً يثمر العمل ما فعلوه.

سورة البقرة

البقرة

عن حكمته في النسخ، وأنه ما ينسخ ﴿ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُسِيهَا ﴾؛ أي: نسيها العباد فزِيلها من قلوبهم، ﴿ تَأْتِي بِخَيْرٍ مِنْهَا ﴾؛ وأنفع لكم، ﴿ أَوْ يُنْزِلْهَا ﴾؛ فدل على أن النسخ لا يكون لأقل مصلحة لكم من الأول؛ لأن فضله تعالى يزداد، خصوصاً على هذه الأمة التي سهل عليها دينها غاية التسهيل، وأخبر أن من قُدح في النسخ فقد قُدح في ملكه وقدرته فقال: ﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ ﴿١٥٦﴾.

﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾؛ فإذا كان مالكا لكم متصرفاً فيكم تصرف المالك البر الرحيم في أقداره وأوامره ونواهيه، فكما أنه لا حجر عليه في تقدير ما يقدره على عباده من أنواع التقادير، كذلك لا يعترض عليه فيما يشرعه لعباده من الأحكام، فالعبد مدبر مسخر تحت أوامر ربه الدينية والقدرية فما له والاعتراض، وهو أيضاً ولي عباده ونصيرهم، فيتولاهم في تحصيل منافعهم، وينصرهم في دفع مضارهم، فمن ولايته لهم أن يشرع لهم من الأحكام ما تقتضيه حكمته ورحمته بهم.

ومن تأمل ما وقع في القرآن والسنة من النسخ عرف بذلك حكمة الله، ورحمته عباده، وإيصالهم إلى مصالحهم من حيث لا يشعرون بلفظه.

﴿ أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَتَّبِدَلِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴾ ﴿١٥٨﴾ وَكَثِيرٌ مِنَ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَكًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْتُوا وَأَصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرٍ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٥٩﴾ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ نَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١٦٠﴾ وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصْرِيًّا تِلْكَ آيَاتُيْهِمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٦١﴾ بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٦٢﴾

﴿١٥٨﴾ ينهى الله المؤمنين أو اليهود بأن يسألوا رسولهم، ﴿ كَمَا سُئِلَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ ﴾؛ والمراد بذلك أسئلة التعنت والاعتراض، كما قال تعالى: ﴿ يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تَنزَلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرَنَا اللَّهَ جَهْرَةً ﴾ [النساء: ١٥٣] وقال تعالى: ﴿ يَتَأْتِيهِمُ الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءٍ إِنْ بُدِّ لَكُمْ تَسْأَلُكُمْ ﴾ [المائدة: ١٠١]؛ فهذه ونحوها هي المنهي عنها.

وأما سؤال الاسترشاد والتعلم فهذا محمود قد أمر الله به، كما قال تعالى: ﴿ فَتَسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [النحل: ٤٣]؛ ويقرهم عليه كما في قوله: ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ ﴾ [البقرة: ٢١٩]؛ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى [البقرة: ٢٢٠] ونحو ذلك. ولما كانت المسائل المنهي عنها مذمومة قد تصل بصاحبها إلى الكفر قال: ﴿ وَمَنْ يَتَّبِدَلِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴾ ﴿١٥٨﴾.

﴿١٥٩﴾ ثم أخبر عن حسد كثير من أهل الكتاب وأنهم بلغت بهم الحال أنهم ودوا ﴿ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا ﴾؛ وسعوا في ذلك، وعملوا المكاييد، وكيدهم راجع عليهم كما قال تعالى: ﴿ وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِنَ أَهْلِ الْكِتَابِ ءَامِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَجَهِ النَّهَارِ وَكُفُّوا ءَاخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [آل عمران: ٧٧]؛ وهذا من حسدهم الصادر من عند أنفسهم، فأمرهم الله

بمقابلة من أساء إليهم غاية الإساءة بالعفو عنهم والصفح حتى يأتي الله بأمره، ثم بعد ذلك أتى الله بأمره بإيهاهم بالجهاد، فشفى الله أنفس المؤمنين منهم، فقتلوا من قتلوا واسترقوا من استرقوا، وأجلوا من أجلوا، ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

﴿١١٠﴾ ثم أمرهم الله بالاشتغال بالوقت الحاضر بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وفعل كل القربات، ووعدهم أنهم مهما فعلوا من خير فإنه لا يضيع عند الله بل يجدونه عنده وافراً موفراً قد حفظه ﴿إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.

﴿وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصْرِيًّا تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١١٢﴾.

﴿١١١﴾ أي: قال اليهود: لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً، وقالت النصارى: لن يدخل الجنة إلا من كان نصارى، فحكموا لأنفسهم بالجنة وحدهم، وهذا مجرد أمني غير مقبولة إلا بحجة وبرهان فأتوا بها إن كنتم صادقين، وهكذا كل من ادعى دعوى لا بد أن يقيم البرهان على صحة دعواه، وإلا فلو قلبت عليه دعواه وادعى مدع عكس ما ادعى بلا برهان لكان لا فرق بينهما، فالبرهان هو الذي يصدق الدعاوي أو يكذبها، ولما لم يكن بأيديهم برهان علم كذبهم بتلك الدعوى.

﴿١١٢﴾ ثم ذكر تعالى البرهان الجلي العام لكل أحد فقال: ﴿بَلَى﴾؛ أي: ليس بأمانيتكم ودعاويكم ولكن ﴿مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ﴾؛ أي: أخلص لله أعماله متوجهاً إليه بقلبه، ﴿وَهُوَ﴾؛ مع إخلاصه ﴿مُحْسِنٌ﴾؛ في عبادة ربه بأن عبده بشعره فأولئك هم أهل الجنة وحدهم، فلهم أجرهم عند ربهم، وهو الجنة بما اشتملت عليه من النعيم، ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾؛ فحصل لهم المرغوب ونجوا من المرهوب، ويفهم منها أن من ليس كذلك فهو من أهل النار الهالكين، فلا نجاة إلا لأهل الإخلاص للمعبود والمتابعة للرسول.

﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصْرِيَّةُ عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصْرِيَّةُ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾.

﴿١١٣﴾ وذلك أنه بلغ بأهل الكتاب الهوى والحسد إلى أن بعضهم ضلل بعضاً، وكفر بعضهم بعضاً كما فعل الأميون من مشركي العرب وغيرهم، فكل فرقة تضلل الفرقة الأخرى، ويحكم الله في الآخرة بين المختلفين بحكمه العدل الذي أخبر به عباده، فإنه لا فوز ولا نجاة إلا لمن صدق جميع الأنبياء والمرسلين، وامثل أوامر ربه، واجتنب نواهيه، ومن عداها هم هالك.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسْجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذَكَّرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَا أُولَٰئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

يأمركم باستقبال الكعبة بعد أن كنتم مأمورين باستقبال بيت المقدس، أو تؤمرون بالصلاة في السفر على الرحلة ونحوها، فإن القبلة حيثما توجه العبد، أو تشبه القبلة فيتحرى الصلاة إليها، ثم يتبين له الخطأ أو يكون معذوراً بصلب أو مرض ونحو ذلك، فهذه الأمور إما أن يكون العبد فيها معذوراً أو مأموراً.

ويكل حال فما استقبل جهة من الجهات خارجة عن ملك ربه ﴿فَتَمَّ وَجْهَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾؛ فيه إثبات الوجه لله تعالى على الوجه اللائق به تعالى، وأن لله وجهاً لا تشبیه الوجوه، وهو تعالى واسع الفضل والصفات عظيمها عليم بسر أئركم ونياتكم، فمن سعته وعلمه وسع لكم الأمر، وقيل منكم المأمور، فله الحمد والشكر.

﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَنَهُ بَلْ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ لَّهُ قَلْبُونَ﴾ [البقرة: ١١٦] ﴿يَذِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [البقرة: ١١٧].

﴿وَقَالُوا﴾؛ أي: اليهود والنصارى والمشركون وكل من قال ذلك، ﴿اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا﴾؛ فسبوه إلى ما لا يليق بجلاله وأساءوا كل الإساءة وظلموا أنفسهم، وهو تعالى صابر على ذلك منهم، قد حلم عليهم، وعافاهم، ورزقهم مع تقصصهم إياه ﴿سُبْحَنَهُ﴾؛ أي: تنزه وتقدس عن كل ما وصفه به المشركون والظالمون مما لا يليق بجلاله، فسبحان من له الكمال المطلق من جميع الوجوه الذي لا يعتريه نقص بوجه من الوجوه، ومع رده لقولهم أقام الحجة والبرهان على تنزيهه عن ذلك فقال: ﴿بَلْ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾؛ أي: جميعهم ملكه وعبيده يتصرف فيهم تصرف المالك بالماليك، وهم قانتون له مسخرون تحت تدبيره، فإذا كانوا كلهم عبيده مفتقرين إليه، وهو غني عنهم فكيف يكون منهم أحد يكون له ولدًا، والولد لا بد أن يكون من جنس والده لأنه جزء منه، والله تعالى المالك القاهر وأنتم المملوكون المقهورون وهو الغني وأنتم الفقراء، فكيف مع هذا يكون له ولد؟ هذا من أبطل الباطل وأسمجه.

والقنوت نوعان: قنوت عام، وهو قنوت الخلق كلهم تحت تدبير الخالق، وخاص، وهو قنوت العبادة. فالنوع الأول كما في هذه الآية، والنوع الثاني كما في قوله تعالى: ﴿وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾ [البقرة: ٢٣٨]. ثم قال:

﴿أَي: لا أحد أظلم وأشد جرمًا ممن منع مساجد الله عن ذكر الله فيها وإقامة الصلاة وغيرها من أنواع الطاعات، وَرَسَوْنَ﴾؛ أي: اجتهد وبذل وسعه، ﴿فِي خَرَابِهَا﴾؛ الحسي والمعنوي، فالخراب الحسي: هدمها وتخريبها وتقديرها، والخراب المعنوي: منع الذاكرين لاسم الله فيها، وهذا عام لكل من اتصف بهذه الصفة فيدخل في ذلك أصحاب القيل وقريش حين صدوا رسول الله عنها عام الحديبية، والنصارى حين أخبروا بيت المقدس، وغيرهم من أنواع الظلمة الساعين في خرابها محادة لله ومشاقة، فعجازهم الله بأن منعهم دخولها شرعاً وقدرًا إلا خائفين ذليين، فلما أخافوا عباد الله أخافهم الله، فالمشركون الذين صدوا رسوله لم يلبث رسول الله ﷺ إلا يسيرًا حتى أذن الله له في فتح مكة ومنع المشركين من قربان بيته فقال تعالى: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نجسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا﴾ [التوبة: ٢٨] وأصحاب القيل قد ذكر الله ما جرى عليهم، والنصارى سلط الله عليهم المؤمنين فأجلوهم عنه، وهكذا كل من اتصف بوصفهم فلا بد أن يناله قسطه، وهذا من الآيات العظيمة أخبر بها الباري قبل وقوعها فوقعت كما أخبر، واستدل العلماء بالآية الكريمة على أنه لا يجوز تمكين الكفار من دخول المساجد ﴿لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ﴾؛ أي: فضيحة؛ كما تقدم ﴿وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [البقرة: ١١٦]؛ وإذا كان لا أظلم ممن منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه، فلا أعظم إيمانًا ممن سعى في عمارة المساجد بالعمارة الحسية والمعنوية؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنِ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ [التوبة: ١٨]؛ بل قد أمر الله تعالى برفع بيوته وتعظيمها وتكريمها فقال تعالى: ﴿فِي بُيُوتٍ أُذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ﴾ [النور: ٣٦].

وللمساجد أحكام كثيرة يرجع حاصلها إلى مضمون هذه الآيات الكريمة.

﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُولُوا فَتَمَّ وَجْهَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ١١٥].

﴿أَي:﴾ [البقرة: ١١٥] ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ﴾؛ خصهما بالذكر لأنهما محل الآيات العظيمة فهما مطالع الأنوار ومغاريبها، فإذا كان مالكا لها كان مالكا لكل الجهات ﴿فَأَيْنَمَا تُولُوا﴾؛ وجوهكم من الجهات إذا كان توليكم إياها بأمره، إما أن

في قوله: ﴿بِالْحَقِّ﴾.

وبيان الأمر الأول: وهو - نفس إرساله - أنه قد علم حالة أهل الأرض قبل بعثته ﷺ وما كانوا عليه من عبادة الأوثان والنيران والصليبان، وتبديلهم للأديان حتى كانوا في ظلمة من الكفر قد عمتهم وشملتهم، إلا بقايا من أهل الكتاب قد انقروا قبيل البعثة، وقد علم أن الله تعالى لم يخلق خلقه سدى ولم يتركهم هملاً، لأنه حكيم عليم قدير رحيم، فمن حكمته ورحمته بعباده أن أرسل إليهم هذا الرسول العظيم يأمرهم بعبادة الرحمن وحده لا شريك له، فبمجرد رسالته يعرف العاقل صدقه، وهو آية كبيرة على أنه رسول الله.

وأما الثاني: فمن عرف النبي ﷺ معرفة تامة، وعرف سيرته وهدى قبل البعثة ونشؤه على أكمل الخصال، ثم من بعد ذلك قد ازدادت مكارمه وأخلاقه العظيمة الباهرة للناظرين، فمن عرفها وسبر أحواله عرف أنها لا تكون إلا أخلاق الأنبياء الكاملين؛ لأنه تعالى جعل الأوصاف أكبر دليل على معرفة أصحابها وصدقهم وكذبهم.

وأما الثالث: فهو معرفة ما جاء به ﷺ من الشرع العظيم والقرآن الكريم المشتمل على الإخبارات الصادقة والأوامر الحسنة والنهي عن كل قبيح، والمعجزات الباهرة، فجميع الآيات تدخل في هذه الثلاثة.

قوله: ﴿بَشِيرًا﴾، أي: لمن أطاعك بالسعادة الدنيوية والأخروية، ﴿وَنَذِيرًا﴾؛ لمن عصاك بالشقاوة والهلاك الدنيوي والأخروي، ﴿وَلَا تَسْتَلْ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ﴾، أي: لست مسئولاً عنهم، إنما عليك البلاغ وعلينا الحساب. ﴿وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هَذِي سَبِيلُ اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ وَلَئِنْ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْبَيِّنَاتِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾.

﴿يُخَبِّرُ تَعَالَى رَسُولَهُ أَنَّهُ لَا يَرْضَى مِنْهُ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى إِلَّا بِاتِّبَاعِهِ دِينَهُمْ؛ لَأَنَّهُمْ دَعَا إِلَى الدِّينِ الَّذِي هُمْ عَلَيْهِ يَزْعُمُونَ أَنَّهُ الْهُدَى، فَقُلْ لَهُمْ: ﴿إِنَّ هَذِي سَبِيلُ اللَّهِ﴾، الَّذِي أَرْسَلْتُ بِهِ ﴿هُوَ الْهُدَى﴾؛ وَأَمَّا مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ فَهُوَ الْهَوَىٰ بِدَلِيلِ قَوْلِهِ: ﴿وَلَئِنْ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْبَيِّنَاتِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾. فهذا فيه النهي العظيم عن اتباع أهواء اليهود والنصارى والتشبه بهم بما يختص به دينهم.

﴿يَدْعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾؛ أي: خالقهما على وجه قد أنقذهما وأحسنهما على غير مثال سبق، ﴿وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾؛ فلا يستعصي عليه ولا يمتنع منه.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَبَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾. إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَا تُسْتَلْ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ.

أي: قال الجهلة من أهل الكتاب وغيرهم: هلا يكلمنا الله كما كلم الرسل، ﴿أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ﴾؛ يعنون آيات الاقتراح التي يقترحونها بعقولهم الفاسدة وآرائهم الكاسدة التي تجرؤوا بها على الخالق واستكبروا على رسله كقولهم: ﴿لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَىٰ اللَّهَ جَهْرَةً﴾ [البقرة: ٥٥]؛ ﴿يَسْتَلْ أَهْلَ الْكِتَابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَىٰ أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ﴾ [النساء: ١٥٣]؛ الآية. ﴿وَقَالُوا مَا هَذَا الرَّسُولُ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَنْشَىٰ فِي الْآسَاقِ لَوْلَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونُ مَعَهُ نَذِيرًا﴾ [٧] أَوْ يُنْفِثْ إِلَيْهِ كَفَرٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا﴾ [الفرقان: ٧، ٨]، وقوله: ﴿وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَنْفَجِرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنبُوعًا﴾ [الآيات [الإنعام: ٩٠].

فهذا دأبهم مع رسلهم يطلبون آيات التعنت لا آيات الاسترشاد، ولم يكن قصدهم تبين الحق فإن الرسل قد جاءوا من الآيات بما يؤمن على مثله البشر، ولهذا قال تعالى: ﴿قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾؛ فكل موقن فقد عرف من آيات الله الباهرة وبراهينه الظاهرة ما حصل له به اليقين، واندفع عنه كل شك وريب.

ثم ذكر تعالى بعض آية موجزة مختصرة جامعة للآيات الدالة على صدقه ﷺ وصحة ما جاء به فقال:

﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾؛ فهذا مشتمل على الآيات التي جاء بها، وهي ترجع إلى ثلاثة أمور:

الأول في نفس إرساله، والثاني في سيرته وهدى ودله، والثالث في معرفة ما جاء به من القرآن والسنة. فالأول والثاني قد دخلا في قوله: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ﴾؛ والثالث دخل

سورة البقرة

الْبَقَرَةُ

وَلَنْ رَضَىٰ عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصْرَىٰ حَتَّىٰ تَبْعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ أَلْهُدَىٰ وَلَئِنْ أَتَيْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنْ أَلِيمٍ مَّا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٣١﴾ الَّذِينَ آتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ يَأْتِ بِغَيْرِ نَفْسٍ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يَقْبَلَ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا نَنْفَعُهَا شَفَعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿١٣٢﴾ وَإِذْ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ﴿١٣٣﴾ وَإِذْ جَعَلْنَا آيَاتٍ مُتَابَعَةً لِّلنَّاسِ وَأَمَّا وَاتَّخِذُوا مِنْ مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنَّ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴿١٣٤﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا آيَمًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الشَّرَائِعِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٣٥﴾

١٩

والخطاب وإن كان لرسول الله ﷺ، فإن أمته داخله في ذلك؛ لأن الاعتبار بعموم المعنى لا بخصوص المخاطب، كما أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

ثم قال:

﴿الَّذِينَ آتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ يَأْتِ بِغَيْرِ نَفْسٍ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يَقْبَلَ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا نَنْفَعُهَا شَفَعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ ﴿١٣٢﴾

﴿١٣٢﴾ يخبر تعالى أن الذين آتاهم الكتاب ومن عليهم به منة مطلقاً أنهم ﴿يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ﴾؛ أي: يتبعونه حق اتباعه، والتلاوة: الاتباع، فيحلون حلاله، ويحرمون حرامه، ويعملون بمحكمه، ويؤمنون بمتشابهه، وهؤلاء هم السعداء من أهل الكتاب الذين عرفوا نعمة الله وشكروها، وآمنوا بكل الرسل ولم يفرقوا بين أحد منهم، فهؤلاء هم المؤمنون حقاً لا من قال منهم: ﴿تُؤْمِنُ بِمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَتَكْفُرُ بِمَا وَرَاءَهُ﴾، ولهذا توعدهم بقوله: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ يَأْتِ بِغَيْرِ نَفْسٍ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يَقْبَلَ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا نَنْفَعُهَا شَفَعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ ﴿١٣٢﴾.

﴿١٣٣﴾، ﴿١٣٤﴾ وقد تقدم تفسير الآية التي بعدها.

﴿وَإِذْ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ ﴿١٣٣﴾ وَإِذْ جَعَلْنَا آيَاتٍ مُتَابَعَةً لِّلنَّاسِ وَأَمَّا وَاتَّخِذُوا مِنْ مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنَّ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ ﴿١٣٤﴾.

﴿١٣٣﴾ يخبر تعالى عن عبده وخليفه إبراهيم عليه السلام المتفق على إمامته وجلالته، الذي كل من طوائف أهل الكتاب تدعيه، بل وكذلك المشركون - أن الله ابتلاه وامتحنه بكلمات أي بأوامر ونواهٍ كما هي عادة الله في ابتلائه لعباده ليتبين الكاذب الذي لا يثبت عند الابتلاء والامتحان من الصادق، الذي ترتفع درجته، ويزيد قدره، ويزكو عمله ويخلص ذممه، وكان من أجلهم في هذا المقام الخليل عليه السلام، فأتى ما ابتلاه الله به وأكمله ووفاه، ف شكر الله له ذلك، ولم يزل الله شكوراً فقال: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾؛ أي: يقتدون بك في الهدى ويمشون خلفك إلى سعادتهم الأبدية، ويحصل لك الشاء الدائم والأجر الجزيل والتعظيم من كل أحد.

وهذه - لعمر الله - أفضل درجة تنافس فيها المتنافسون، وأعلى مقام شمر إليه العاملون، وأكمل حالة حصلها أولو العزم من المرسلين وأتباعهم من كل صديق متبع لهم، داع إلى الله وإلى سبيله، فلما اغتبط إبراهيم بهذا المقام، وأدرك هذا، طلب ذلك لذريته لتعلو درجته ودرجة ذريته، وهذا أيضاً من إمامته ونصحه لعباد الله ومحبه أن يكثر فيهم المرشدون، فله عظمة هذه الهمم العالية والمقامات السامية.

فأجابه الرحيم اللطيف وأخبر بالمانع من نيل هذا المقام فقال: ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ ﴿١٣٣﴾؛ أي: لا ينال الإمامة في الدين من ظلم نفسه وضررها وحط قدرها لمنافاة الظلم لهذا المقام، فإنه مقام آتته الصبر واليقين، ونتيجته أن يكون صاحبه

ومنها: أن هذه الإضافة هي السبب الجالب للقلوب إليه.

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنْ الثَّرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾﴾.

﴿١٢٦﴾ أي: وإذ دعا إبراهيم لهذا البيت أن يجعله الله بلدًا آمنًا ويرزق أهله من أنواع الثمرات، ثم قيد عليه السلام هذا الدعاء للمؤمنين تأدبًا مع الله إذ كان دعاؤه الأول فيه الإطلاق، فجاء الجواب فيه مقيدًا بغير الظالم، فلما دعا لهم بالرزق وقيد به بالمؤمن وكان رزق الله شاملًا للمؤمن والكافر والعاصي والطائع قال تعالى: ﴿وَمَنْ كَفَرَ﴾؛ أي: أرزقهم كلهم مسلمهم وكافرهم، أما المسلم فيستعين بالرزق على عبادة الله ثم يتقل منه إلى نعيم الجنة، وأما الكافر فيمتنع فيها قليلًا، ﴿ثُمَّ أَضْطَرُّهُ﴾؛ أي: الجنة وأخرجه مكرهاً ﴿إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾.

﴿وَإِذْ رَفَعَ إِبْرَاهِيمُ أَلْفَاةً مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾﴾.

﴿١٢٧﴾ أي: واذكر إبراهيم وإسماعيل في حالة رفعهما القواعد من البيت (الأساس) واستمرارهما على هذا العمل العظيم، وكيف كانت حالهما من الخوف والرجاء حتى إنهما مع هذا العمل دعوا الله أن يتقبل منهما عملهما حتى يجعل فيه النفع العميم.

﴿١٢٨﴾ ودعوا لأنفسهما وذريتهما بالإسلام الذي حقيقته خضوع القلب وانقياده لربه المتضمن لانقياد الجوارح ﴿وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا﴾؛ أي: علمناها على وجه الإراءة والمشاهدة ليكون أبلغ، يحتمل أن يكون المراد بالمناسك أعمال الحج كلها كما يدل عليه السياق والمقام، ويحتمل أن يكون المراد ما هو أعم من ذلك وهو الدين كله والعبادات كلها كما يدل عليه عموم اللفظ، لأن النسك التعبد، ولكن غلب على متعبدات الحج تغليبًا عرفيًا، فيكون حاصل دعائهما يرجع إلى التوفيق للعمل النافع والعمل الصالح.

على جانب عظيم من الإيمان والأعمال الصالحة، والأخلاق الجميلة، والشمائل السديدة، والمحبة التامة، والخشية، والإنابة، فأين الظلم وهذا المقام؟ ودل مفهوم الآية أن غير الظالم سينال الإمامة، ولكن مع إتيانه بأسبابها.

﴿١٢٩﴾ ثم ذكر تعالى أنموذجًا باقيًا دالًا على إمامة إبراهيم وهو: هذا البيت الحرام الذي جعل قصده ركنًا من أركان الإسلام حائطًا للذنوب والآثام، وفيه من آثار الخليل وذريته ما عرف به إمامته وتذكرت به حالته فقال: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ﴾؛ أي: مرجعًا يثوبون إليه بحصول منافعهم الدينية والدنيوية، يترددون إليه ولا يقضون منه وطراً، وجعله آمناً؛ يأمن به كل أحد حتى الوحش وحتى الجمادات كالأشجار، ولهذا كانوا في الجاهلية - على شركهم - يحترمونه أشد الاحترام ويجد أحدهم قاتل أبيه في الحرم فلا يهيجه، فلما جاء الإسلام زاده حرمة وتعظيمًا وتشريفًا وتكريماً، ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾؛ يحتمل أن يكون المراد بذلك المقام المعروف الذي قد جعل الآن مقابل باب الكعبة، وأن المراد بهذا ركنًا الطواف يستحب أن تكونا خلف مقام إبراهيم وعليه جمهور المفسرين، ويحتمل أن يكون المقام مفردًا مضافاً فيعم جميع مقامات إبراهيم في الحج، وهي المشاعر كلها من الطواف والسعي والوقوف بعرفة ومزدلفة ورمي الجمار والنحر وغير ذلك من أفعال الحج، فيكون معنى قوله: ﴿مُصَلًّى﴾؛ أي: معبداً، أي اقتدوا به في شعائر الحج، ولعل هذا المعنى أولى لدخول المعنى الأول فيه واحتمال اللفظ له.

﴿وَعَهْدَنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ﴾؛ أي: أوحينا إليهما وأمرناهما بتطهير بيت الله من الشرك والكفر والمعاصي ومن الرجس والنجاسات والأقذار ليكون ﴿لِلطَّائِفِينَ﴾؛ فيه ﴿وَالْمُكِنِينَ﴾ وَالزَّكَّاجُ السُّجُودِ ﴿١٣٠﴾؛ أي: المصلين، قدم الطواف لاختصاصه بالمسجد الحرام، ثم الاعتكاف لأن من شرطه المسجد مطلقاً، ثم الصلاة مع أنها أفضل لهذا المعنى، وأضاف الباري البيت إليه لفوائد:

منها: أن ذلك يقتضي شدة اهتمام إبراهيم وإسماعيل بتطهيره لكونه بيت الله فيبذلان جهدهما، ويستفرغان وسعهما في ذلك.

ومنها: أن الإضافة تقتضي التشريف والإكرام، ففي ضمنها أمر عباده بتعظيمه وتكريمه.

سورة البقرة

البقرة الأولى

وَإِذْ رَفَعْنَا إِلَهُكُمْ أَلْفَاةً مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلَ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمِينَ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَانْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَحِفْظًا وَتَحْفِظًا، وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ، معنى ﴿وَرَزَّكِبَهُمْ﴾؛ بالتربية على الأعمال الصالحة والتبلي من الأعمال الرديئة التي لا تزكو النفس معها، ﴿إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ﴾؛ أي: القاهر لكل شيء الذي لا يمتنع على قوته شيء ﴿الْحَكِيمُ﴾؛ الذي يضع الأشياء مواضعها، فبعزتكم وحكمتكم ابعت فيهم هذا الرسول.

فاستجاب الله لهما؛ فبعث الله هذا الرسول الكريم الذي رحم الله به ذريتهما خاصة وسائر الخلق عامة، ولهذا قال عليه الصلاة والسلام: «أنا دعوة أبي إبراهيم».

ولما عظم الله إبراهيم هذا التعظيم وأخبر عن صفاته الكاملة قال تعالى:

﴿وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدْ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٢٩﴾ إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٣٠﴾ وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿١٣١﴾ أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتَ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهُاتِنَا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُنْشَئُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٣﴾﴾

٢٠

ولما كان العبد مهتماً كان لا بد أن يعتريه التقصير ويحتاج إلى التوبة قالوا: ﴿وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾.

﴿رَبَّنَا وَانْعَثْ فِيهِمْ﴾؛ أي: في ذريتنا ﴿رَسُولًا مِنْهُمْ﴾؛ ليكون أرفع لدرجتهم وليتقداوا له وليعرفوه حقيقة المعرفة ﴿يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ﴾؛ لفظاً وحفظاً، ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾؛ معنى ﴿وَرَزَّكِبَهُمْ﴾؛ بالتربية على الأعمال الصالحة والتبلي من الأعمال الرديئة التي لا تزكو النفس معها، ﴿إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ﴾؛ أي: القاهر لكل شيء الذي لا يمتنع على قوته شيء ﴿الْحَكِيمُ﴾؛ الذي يضع الأشياء مواضعها، فبعزتكم وحكمتكم ابعت فيهم هذا الرسول.

فاستجاب الله لهما؛ فبعث الله هذا الرسول الكريم الذي رحم الله به ذريتهما خاصة وسائر الخلق عامة، ولهذا قال عليه الصلاة والسلام: «أنا دعوة أبي إبراهيم».

ولما عظم الله إبراهيم هذا التعظيم وأخبر عن صفاته الكاملة قال تعالى:

﴿وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدْ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٢٩﴾ إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٣٠﴾ وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿١٣١﴾ أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتَ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهُاتِنَا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُنْشَئُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٣﴾﴾

﴿١٢٩﴾ أي: ما يرغب ﴿عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ﴾؛ بعد ما عرف من فضله، ﴿إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ﴾؛ أي: جهلها وامتنعها ورضي لها بالدون وباعها بصفقة المغبون، كما أنه لا أرشد وأكمل ممن رغب في ملة إبراهيم، ثم أخبر عن حالته في الدنيا والآخرة فقال: ﴿وَلَقَدْ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا﴾؛ أي: اخترناه ووفقناه للأعمال التي صار بها من المصطفين الأخيار، ﴿وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾؛ الذين لهم أعلى الدرجات.

﴿١٣٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ ﴿أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾؛ إخلاصاً وتوحيداً ومحبة وإنابة فكان التوحيد لله نعتاً، ثم ورثه في ذريته ووصاهم به، وجعلها كلمة باقية في عقبه، وتوارثت فيهم حتى وصلت ليعقوب فوصى بها بنيه.

فأنتم - يا بني يعقوب - قد وصاكم أبوكم بالخصوص فيجب عليكم كمال الانقياد، واتباع خاتم الأنبياء. قال:

﴿يَبْنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ﴾؛ أي: اختاره، وتخير له لكم رحمة بكم وإحساناً إليكم، فقوموا به، واتصفوا بشرائعه، وانصحبوا بأخلاقه حتى تستمروا على ذلك فلا يأتيكم الموت إلا وأنتم عليه، لأن من عاش على شيء مات عليه، ومن مات على شيء بعث عليه.

﴿١٣٣﴾ ولما كان اليهود يزعمون أنهم على ملة إبراهيم ومن بعده يعقوب قال تعالى منكراً عليهم: ﴿أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ﴾؛ أي:

حضوراً ﴿إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ﴾؛ أي: مقدماته وأسبابه فقال لبنيه على وجه الاختبار ولتقر عينه في حياته بامتثالهم ما وصاهم به: ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي﴾؛ فأجابوه بما قرت به عينه فقالوا: ﴿تَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهُاتِنَا وَجَدْنَا فَلَا نَشْرِكُ بِهِ شَيْئاً وَلَا نَعْبُدُ بِهِ﴾ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾؛ فجمعوا بين التوحيد والعمل، ومن المعلوم أنهم لم يحضروا يعقوب، لأنهم لم يوجدوا بعد، فإذا لم يحضروا، فقد أخبر الله عنه أنه وصى بنيه بالحنيفية لا باليهودية، ثم قال تعالى:

﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ﴾؛ أي: مضت ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ﴾؛ أي: كل له عمله، وكل سيجازى بما فعله، لا يؤخذ أحد بذنب أحد، ولا ينفع أحد إلا إيمانه وتقواه، فاشتغالكم بهم وادعائكم أنكم على ملتهم، والرضا بمجرد القول أمر فارغ لا حقيقة له، بل الواجب عليكم أن تنظروا حالتكم التي أنتم عليها، هل تصلح للنجاة أم لا؟

﴿وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ ﴿١٣٤﴾.

﴿١٣٥﴾ أي: دعا كل من اليهود والنصارى المسلمين إلى الدخول في دينهم زاعمين أنهم هم المهتدون وغيرهم ضال، قلاً على الله معرضاً عما سواه قائماً بالتوحيد تاركاً للشرك والتنديد، فهذا الذي في اتباعه الهداية وفي الإعراض عن ملته الكفر والغواية.

﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ ﴿١٣٦﴾.

﴿١٣٦﴾ هذه الآية الكريمة قد اشتملت على جميع ما يجب الإيمان به. واعلم أن الإيمان الذي هو تصديق القلب التام بهذه الأصول، وإقراره المتضمن لأعمال القلوب والجوارح، وهو - بهذا الاعتبار - يدخل فيه الإسلام وتدخل فيه الأعمال الصالحة كلها، فهي من الإيمان وأثر من آثاره، فحيث أطلق الإيمان دخل فيه ما ذكر، وكذلك الإسلام إذا أطلق دخل فيه الإيمان، فإذا قرن بينهما كان الإيمان اسماً لما في القلب من الإقرار والتصديق، والإسلام اسماً للأعمال الظاهرة. وكذلك إذا جمع بين الإيمان والأعمال الصالحة.

فقوله تعالى: ﴿قُولُوا﴾؛ أي: بالسلك متواظفة عليها قلوبكم، وهذا هو القول التام المترتب عليه الثواب والجزاء، فكما أن النطق باللسان بدون اعتقاد القلب نفاق وكفر، فالقول الخالي من العمل عمل القلب عديم التأثير قليل الفائدة، وإن كان العبد يؤجر عليه إذا كان خيراً ومعه أصل الإيمان، لكن فرق بين القول المجرد والمقترن به عمل القلب.

وفي قوله ﴿قُولُوا﴾؛ إشارة إلى الإعلان بالعقيدة والصدق بها والدعوة لها، إذ هي أصل الدين وأساسه، وفي قوله ﴿آمَنَّا﴾؛ ونحوه مما فيه صدور الفعل منسباً إلى جميع الأمة إشارة إلى أنه يجب على الأمة الاعتصام بحبل الله جميعاً والحث على الائتلاف حتى يكون داعيهم واحداً وعملهم متحداً، وفي ضمنه النهي عن الافتراق. وفيه أن المؤمنين كالجسد الواحد.

سورة البقرة
وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٤﴾ قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٥﴾ فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدْ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٣٦﴾ صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ ﴿١٣٧﴾ قُلْ أَتَحَاوِرُنَا فِي اللَّهِ وَهُدًى وَرَبِّكُمْ وَلَنَا أَعْمَلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ ﴿١٣٨﴾ أَمْ نَقُولُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى قُلْ ءَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَبَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَفِيلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٣٩﴾ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُنتَفِلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٠﴾

فلا تقتضي ربوبيته تركهم سدَى ولا هملاً، وإذا كان ما أوتي النبيون إنما هو من ربهم ففيه الفرق بين الأنبياء وبين من يدعي النبوة، وأنه يحصل الفرق بينهم بمجرد معرفة ما يدعون إليه، فالرسل لا يدعون إلا لخير ولا يهتدون إلا عن كل شر، وكل واحد منهم يصدق الآخر ويشهد له بالحق من غير تخالف ولا تناقض لكونه من عند ربهم، ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢]؛ وهذا بخلاف من ادعى النبوة فلا بد أن يتناقضوا في أخبارهم وأوامرهم ونواهيهم كما يعلم ذلك من سبر أحوال الجميع وعرف ما يدعون إليه، فلما بين تعالى جميع ما يؤمن به عموماً وخصوصاً، وكان القول لا يغني عن العمل قال: ﴿وَحُشُّ لَّهُ مُسْلِمُونَ﴾ [النساء: ٨٣]؛ أي: خاضعون لعظمته متقادون لعبادته بباطنتنا وظاهرنا مخلصون له العباد، بدليل تقديم المعمول وهو ﴿لَّهُ﴾؛ على العامل وهو ﴿مُسْلِمُونَ﴾ [النساء: ٨٣].

فقد اشتملت هذه الآية الكريمة على إيجازها واختصارها على أنواع التوحيد الثلاثة: توحيد الربوبية، وتوحيد الألوهية، وتوحيد الأسماء والصفات.

واشتملت على الإيمان بجميع الرسل وجميع الكتب، وعلى التخصيص الدال على الفضل بعد التعميم، وعلى التصديق بالقلب واللسان والجوارح والإخلاص لله في ذلك، وعلى الفرق بين الرسل الصادقين ومن ادعى النبوة من الكاذبين، وعلى تعليم الباري عباده كيف يقولون، ورحمته وإحسانه عليهم بالنعم الدينية المتصلة بسعادة الدنيا والآخرة. فسبحان من جعل كتابه تبياناً لكل شيء وهدى ورحمة لقوم يؤمنون.

﴿فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدْ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [النساء: ٨٤].

﴿٨٤﴾ أي: فإن آمن أهل الكتاب بمثل ما آمنتم به يا معشر المؤمنين من جميع الرسل، وجميع الكتب الذين أول وأولى من دخل فيهم خاتمهم وأفضلهم محمد ﷺ، والقرآن، وأسلموا لله وحده ولم يفرقوا بين أحد من الرسل، ﴿فَقَدْ اهْتَدَوْا﴾؛ للصرط المستقيم الموصل لجنت النعيم؛ أي فلا سبيل لهم إلى الهداية إلا بهذا الإيمان، لا كما زعموا بقولهم: ﴿كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا﴾ فزعموا أن الهداية خاصة بما كانوا عليه.

وفي قوله: ﴿فَوَلَّوْا أَمَانًا بِاللَّهِ﴾ إلخ دلالة على جواز إضافة الإنسان إلى نفسه الإيمان على وجه التقييد، بل على وجوب ذلك، بخلاف قوله: أنا مؤمن ونحوه فإنه لا يقال إلا مقروناً بالاستثناء بالمشيئة لما فيه من تركية النفس والشهادة على نفسه بالإيمان، فقوله: ﴿أَمَانًا بِاللَّهِ﴾؛ أي: بأنه واجب الوجود واحد أحد متصف بكل صفة كمال، منزّه عن كل نقص وعيب، مستحق لإفراده بالعبادة كلها وعدم الإشراك به في شيء منها بوجه من الوجوه.

﴿وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا﴾؛ يشمل القرآن والسنة لقوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ [النساء: ١١٣]؛ فيدخل فيه الإيمان بما تضمنته كتاب الله وسنة رسوله من صفات الباري وصفات رسله واليوم الآخر والغيوب الماضية والمستقبل، والإيمان بما تضمنته ذلك من الأحكام الشرعية الأمرية وأحكام الجزاء وغير ذلك ﴿وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّهِمْ﴾؛ إلى آخر الآية، فيه الإيمان بجميع الكتب المنزلة على جميع الأنبياء، والإيمان بالأنبياء عموماً، وخصوصاً ما نص عليه في الآية لشرفهم ولإتيانهم بالشرائع الكبار، فالواجب في الإيمان بالأنبياء والكتب أن يؤمن بهم على وجه العموم والشمول، ثم ما عرف منهم بالتفصيل وجب الإيمان به مفصلاً.

وقوله: ﴿لَا تَفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ﴾؛ أي: بل تؤمن بهم كلهم، هذه خاصية المسلمين التي انفردوا بها عن كل من يدعي أنه على دين، فاليهود والنصارى والصابئون وغيرهم وإن زعموا أنهم يؤمنون بما يؤمنون به من الرسل والكتب، فإنهم يكفرون بغيره فيفرون بين الرسل والكتب، بعضها يؤمنون به وبعضها يكفرون به، وينقض تكذيبهم تصديقهم، فإن الرسول الذي زعموا أنهم قد آمنوا به قد صدق سائر الرسل وخصوصاً محمداً ﷺ، فإذا كذبوا محمداً فقد كذبوا رسولهم فيما أخبرهم به فيكون كفراً برسولهم، وفي قوله: ﴿وَمَا أَوْفَى النَّبِئِينَ مِنْ رَبِّهِمْ﴾. دلالة على أن عطية الدين هي العطية الحقيقية المتصلة بالسعادة الدنيوية والأخروية، لم يأمرنا أن نؤمن بما أوتي الأنبياء من الملك والمال ونحو ذلك، بل أمرنا أن نؤمن بما أعطوا من الكتب والشرائع، وفيه أن الأنبياء مبلغون عن الله ووسائط بين الله وبين خلقه في تبليغ دينه، ليس لهم من الأمر شيء.

وفي قوله: ﴿مِنْ رَبِّهِمْ﴾؛ إشارة إلى أنه من كمال ربوبيته لعباده أن ينزل عليهم الكتب ويرسل إليهم الرسل،

والهدى: هو العلم بالحق والعمل به، وضده الضلال عن العلم، والضلal عن العمل بعد العلم وهو الشقاق الذي كانوا عليه لما تولوا وأعرضوا، فالمشاق هو الذي يكون في شق والله ورسوله في شق، ويلزم من المشاققة المحادة والعداوة البليغة التي من لوازمها بذل ما يقدرون عليه من أذية الرسول، فلهذا وعد الله رسوله أن يكفيه إياهم لأنه ﴿السَّامِعُ﴾ لجميع الأصوات باختلاف اللغات على تفنن الحاجات. ﴿الْعَلِيمُ﴾ بما بين أيديهم وما خلفهم بالغيب والشهادة بالظواهر والبواطن، فإذا كان كذلك كفاك الله شهرهم، وقد أنجز الله لرسوله وعده، وسلطه عليهم حتى قتل بعضهم، وسبى بعضهم، وأجلى بعضهم، وشردهم كل مشرد، ففيه معجزة من معجزات القرآن، وهو الإخبار بالشيء قبل وقوعه فوق طبق ما أخبر.

﴿صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَبِيدُونَ﴾^(١٣٨) أي: الزموا صبغة الله وهو دينه، وقوموا به قياماً تاماً بجميع أعماله الظاهرة والباطنة وجميع عقائده في جميع الأوقات حتى يكون لكم صبغة وصفة من صفاتكم، فإذا كان صفة من صفاتكم أوجب ذلك لكم الانقياد لأوامره طوعاً واختياراً ومجبة، وصار الدين طبيعة لكم بمنزلة الصبغ التام للثوب الذي صار له صفة، فحصلت لكم السعادة الدنيوية والأخروية لحث الدين على مكارم الأخلاق ومحاسن الأعمال ومعالي الأمور.

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْ اللَّهِ صِبْغَةً﴾ أي: لا أحسن صبغة من صبغته، وإذا أردت أن تعرف نموذجاً يبين لك الفرق بين صبغة الله وبين غيرها من الصبغ فقس الشيء بضده، فكيف ترى في عبد آمن بربه إيماناً صحيحاً أثر معه خضوع القلب وانقياد الجوارح، فلم يزل يتحلى بكل وصف حسن وفعل جميل وخلق كامل ونعت جليل، ويتخلى عن كل وصف قبيح ورذيلة وعيب، فوصفه الصدق في قوله وفعله، والصبر والحلم والعفة والشجاعة والإحسان القولي والفعلية ومجبة الله وخشيته وخوفه ورجاؤه، فحاله الإخلاص للمعبود والإحسان لعبيده، فقسه بعبد كفر بربه وشرد عنه وأقبل على غيره من المخلوقين فاتصف بالصفات القبيحة من الكفر والشرك والكذب والخيانة والمكر والخداع وعدم العفة والإساءة إلى الخلق في أقواله وأفعاله، فلا إخلاص للمعبود

وفي قوله: ﴿وَنَحْنُ لَهُ عَبِيدُونَ﴾^(١٣٨) بيان لهذه الصبغة، وهي القيام بهذين الأصلين الإخلاص والمتابعة؛ لأن العبادة: اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأعمال والأقوال الظاهرة والباطنة، ولا تكون كذلك حتى يشرعها الله على لسان رسوله. والإخلاص: أن يقصد العبد وجه الله وحده في تلك الأعمال، فتقديم المعمول يؤذن بالحصص، وقال: ﴿وَنَحْنُ لَهُ عَبِيدُونَ﴾^(١٣٨)؛ فوصفهم باسم الفاعل الدال على الثبوت والاستقرار؛ ليدل على اتصافهم بذلك وكونه صار صبغة لهم ملازماً.

﴿قُلْ أَتَمَّاجُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ﴾^(١٣٩)

المحاجة: هي المجادلة بين اثنين فأكثر تتعلق في المسائل الخلافية حتى يكون كل من الخصمين يريد نصرة قوله وإبطال قول خصمه، فكل واحد منهما يجتهد في إقامة الحجة على ذلك، والمطلوب منها أن تكون بالتي هي أحسن بأقرب طريق يرد الضال إلى الحق، ويقيم الحجة على المعاند، ويوضح الحق، ويبين الباطل، فإن خرجت عن هذه الأمور كانت ممارسة ومخاصمة لا خير فيها، وأحدثت من الشر ما أحدثت، فكان أهل الكتاب يزعمون أنهم أولى بالله من المسلمين، وهذا مجرد دعوى تفتقر إلى برهان ودليل، فإذا كان رب الجميع واحداً ليس رباً لكم دوننا، وكل منا ومنكم له عمله، فاستوتينا نحن وأنتم بذلك، فهذا لا يوجب أن يكون أحد الفريقين أولى بالله من غيره؛ لأن التفريق مع الاشتراك في الشيء من غير فرق مؤثر دعوى باطلة، وتفریق بين متماثلين ومكابرة ظاهرة، وإنما يحصل التفضيل بإخلاص الأعمال الصالحة لله وحده، وهذه الحالة وصف المؤمنين وحدهم فتعين أنهم أولى بالله من غيرهم، لأن الإخلاص هو الطريق إلى الخلاص.

فهذا هو الفرق بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان بالأوصاف الحقيقية التي يسلمها أهل العقول، ولا يتنازع فيها إلا كل مكابر جهول، ففي هذه الآية إرشاد لطيف لطريق المحاجة، وأن الأمور مبنية على الجمع بين المتماثلين، والفرق بين المختلفين.

﴿ أَمْ يَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى قُلْ أَعْتُمْ أَغْلَمُ أَمْ اللَّهُ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَرَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَفِيلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ ﴿١٤١﴾

﴿١٤١﴾ وهذه دعوى أخرى منهم ومحااجة في رسل الله زعموا أنهم أولى بهؤلاء الرسل المذكورين من المسلمين؛ فرد الله عليهم بقوله: ﴿أَعْتُمْ أَغْلَمُ أَمْ اللَّهُ؟﴾ فالله يقول: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ ﴿١٤٢﴾ [آل عمران: ٦٧]؛ وهم يقولون بل كان يهوديًا أو نصرانيًا، فيما أن يكونوا هم الصادقين العالمين أو يكون الله تعالى هو الصادق العالم بذلك، فأحد الأمرين متعين لا محالة، وصورة الجواب مبهم وهو في غاية الوضوح والبيان، حتى إنه من وضوحه لم يحتج أن يقول بل الله أعلم وهو أصدق، ونحو ذلك لانجلاؤه لكل أحد، كما إذا قيل الليل أنور أم النهار؟ والنار أحر أم الماء؟ والشرك أحسن أم التوحيد؟ ونحو ذلك، وهذا يعرفه كل من له أدنى عقل حتى إنهم بأنفسهم يعرفون ذلك ويعرفون أن إبراهيم وغيره من الأنبياء لم يكونوا هودًا ولا نصارى، فكتموا هذا العلم وهذه الشهادة، فلماذا كان ظلمهم أعظم الظلم، ولهذا قال تعالى:

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَرَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ؟ ﴾ فهي شهادة عندهم مودعة من الله لا من الخلق فيقتضي الاهتمام بإقامتها، فكتموها وأظهروا ضدها، جمعوا بين كتم الحق وعدم النطق به وإظهار الباطل والدعوة إليه، أليس هذا أعظم الظلم؟ بلى والله وسيعاقبهم عليه أشد العقوبة، فلماذا قال: ﴿وَمَا اللَّهُ بِغَفِيلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ ﴿١٤٣﴾؛ بل قد أحصى أعمالهم وعددها وادخر لهم جزاءها، فبئس الجزاء جزاؤهم، وبئست النار مثوى للظالمين.

وهذه طريقة القرآن في ذكر العلم والقدرة عقب الآيات المتضمنة للأعمال التي يجازى عليها، فيفيد ذلك الوعد والوعيد والترغيب والترهيب، ويفيد أيضًا ذكر الأسماء الحسنى بعد الأحكام أن الأمر الديني والعزائي أثر من آثارها وموجب من موجباتها وهي مقتضية له. ثم قال تعالى:

﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ ﴿١٤٤﴾

﴿١٤٤﴾ تقدم تفسيرها وكررها لقطع التعلق بالمخلوقين، وأن المعول عليه ما اتصف به الإنسان لا عمل أسلافه وآبائه، فالنفع الحقيقي بالأعمال لا بالانتساب المجرد للرجال.

﴿ سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّهُمْ عَمَّا كَانُوا عَلَيْهِمْ قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ ﴿١٤٥﴾ وكذلك جعلتكم أمةً وسطًا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدًا وما جعلنا القبلة التي كنتم عليها إلا لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه وإن كانت لكبيرة إلا على الذين هدى الله وما كان الله ليضيع إيمانكم إن الله بالناس لرؤوف رحيم ﴿١٤٦﴾

﴿١٤٦﴾ قد اشتملت الآية الأولى على معجزة وتسليية وتطمين قلوب المؤمنين واعتراض، وجوابه من ثلاثة أوجه وصفه

لهما أسباب أوجبتها حكمة الله وعدله وقد أخبر في غير موضع من كتابه بأسباب الهداية التي إذا أتى بها العبد حصل له الهدى كما قال تعالى: ﴿يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَاطِ﴾ [المائدة: ١٦]؛ ذكر في هذه الآية السبب الموجب لهداية هذه الأمة مطلقاً بجميع أنواع الهداية ومنة الله عليها فقال:

﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾؛ أي: عدلاً خياراً وما عدا الوسط فأطراف داخلية تحت الخطر فجعل الله هذه الأمة وسطاً في كل أمور الدين:

وسطاً في الأنبياء بين من غلا فيهم كالنصارى، وبين من جفاهم كاليهود بأن آمنوا بهم كلهم على الوجه اللائق بذلك. ووسطاً في الشريعة لا تشديدات اليهود وآصارهم ولا تهاون النصارى.

وفي باب الطهارة والمطاعم لا كاليهود الذين لا تصح لهم صلاة إلا في بيعهم وكنائسهم، ولا يطهرهم الماء من النجاسات، وقد حرمت عليهم طيبات عقوبة لهم، ولا كالنصارى الذين لا ينجسون شيئاً، ولا يحرمون شيئاً، بل أباحوا ما دب ودرج. بل طهارتهم أكمل طهارة وأنمها.

وأباح الله لهم الطيبات من المطاعم والمشارب والملابس والمناكح وحرّم عليهم الخبائث من ذلك، فلهذه الأمة من الدين أكمله ومن الأخلاق أجملها ومن الأعمال أفضلها ووهبهم الله من العلم والحلم والعدل والإحسان ما لم يهبه لأمة سواهم، فلذلك كانوا ﴿أُمَّةً وَسَطًا﴾؛ كاملين معتدلين ليكونوا ﴿شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾؛ بسبب عدالتهم وحكمهم بالقسط يحكمون على الناس من سائر أهل الأديان ولا يحكم عليهم غيرهم، فما شهدت له هذه الأمة بالقبول فهو مقبول، وما شهدت له بالرد فهو مردود.

فإن قيل: كيف يقبل حكمهم على غيرهم والحال أن كل مختصمين غير مقبول قول بعضهم على بعض؟!

قيل: إنما لم يقبل قول أحد المتخاصمين لوجود التهمة، فأما إذا انتفت التهمة وحصلت العدالة التامة كما في هذه الأمة فإنما المقصود الحكم بالعدل والحق، وشرط ذلك العلم والعدل وهما موجودان في هذه الأمة فقبل قولها، فإن شك شك في فضلها وطلب مزكياً لها فهو أكمل الخلق نبهم ﷺ، فلهذا قال تعالى: ﴿وَيَكُونُ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ

المعتز وصفة المسلم لحكم الله ودينه، فأخبر تعالى أنه سيعترض السفهاء من الناس وهم الذين لا يعرفون مصالح أنفسهم، بل يضيعونها ويبيعونها بأبخس ثمن وهم اليهود والنصارى ومن أشبههم من المعترضين على أحكام الله وشرائعه، وذلك أن المسلمين كانوا مأمورين باستقبال بيت المقدس مدة مقامهم بمكة ثم بعد الهجرة إلى المدينة نحو سنة ونصف لما لله تعالى في ذلك من الحكم التي سيشير إلى بعضها، وكانت حكمته تقتضي أمرهم باستقبال الكعبة فأخبرهم أنه لا بد أن يقول السفهاء من الناس: ﴿مَا وَلَهُمْ عَن قَوْلِهِمْ أَتَيْنَا كَاوًا عَلَيْهَا﴾؛ وهي استقبال بيت المقدس أي: أي شيء صرفهم عنه؟ وفي ذلك الاعتراض على حكم الله وشرعه وفضله وإحسانه، فسلامهم وأخبر بوقوعه وأنه إنما يقع ممن اتصف بالسفه قليل العقل والحلم والديانة، فلا تبالوا بهم؛ إذ قد علم مصدر هذا الكلام، فالعاقل لا يبالى باعتراض السفه ولا يلقي له ذهنه.

ودلت الآية على أنه لا يعترض على أحكام الله إلا سفهيه جاهل معاند، وأما الرشيد المؤمن العاقل فيلتقي أحكام ربه بالقبول والانقياد والتسليم كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا لِمُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٣٦]؛ ﴿فَلَا وَرَيْكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾ [النساء: ٦٥] الآية ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ [النور: ٥١]؛ وقد كان في قوله السفهاء ما يغني عن رد قولهم وعدم المبالاة به، ولكنه تعالى مع هذا لم يترك هذه الشبهة حتى أزالها وكشفها مما سيعرض لبعض القلوب من الاعتراض فقال تعالى: ﴿قُلْ﴾؛ لهم مجيباً: ﴿يَلِلَّ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [١٤٣]؛ أي: فإذا كان المشرق والمغرب ملكاً لله ليس جهة من الجهات خارجة عن ملكه ومع هذا يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم ومنه هدايتكم إلى هذه القبلة التي هي ملة أبيكم إبراهيم فلا شيء يعترض المعترض بتوليحكم قبلة داخلية تحت ملك الله؟ لم تستقبلوا جهة ليست ملكاً له فهذا يوجب التسليم لأمره بمجرد ذلك، فكيف وهو من فضل الله عليكم وهدايته وإحسانه أن هداكم لذلك، فالمعترض عليكم معترض على فضل الله حسداً لكم وبيعاً.

ولما كان قوله: ﴿يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [١٤٣]؛ مطلقاً والمطلق يحمل على المقيد فإن الهداية والضلال

شَهِيدًا ﴿١٤٣﴾؛ ومن شهادة هذه الأمة على غيرهم أنه إذا كان يوم القيامة وسأل الله المرسلين عن تبليغهم والأُمم المكذبة عن ذلك وأنكروا أن الأنبياء بلغتهم استشهد الأنبياء بهذه الأمة، وزكاها نبيها.

وفي الآية دليل على أن إجماع هذه الأمة حجة قاطعة، وأنهم معصومون عن الخطأ لإطلاق قوله: ﴿وَسَطًا﴾؛ فلو قدر اتفاقهم على الخطأ لم يكونوا وسطًا إلا في بعض الأمور، ولقوله: ﴿لَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾؛ يقتضي أنهم إذا شهدوا على حكم أن الله أحله أو حرمه أو أوجبه فإنها معصومة في ذلك. وفيها اشتراط العدالة في الحكم والشهادة والفتيا ونحو ذلك.

يقول تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا آيَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا﴾؛ وهي: استقبال بيت المقدس أولاً، ﴿إِلَّا لِنَعْلَمَ﴾؛ أي: علماً يتعلق به الثواب والعقاب، وإلا فهو تعالى عالم بكل الأمور قبل وجودها، ولكن هذا العلم لا يعلق عليه ثواباً ولا عقاباً لتعام عدله وإقامة الحجة على عباده، بل إذا وجدت أعمالهم ترتب عليها الثواب والعقاب، أي شرعنا تلك القبلة لنعلم ونمتحن ﴿مَنْ يَتَّبِعِ الرَّسُولَ﴾؛ ويؤمن به فيتبعه على كل حال لأنه عبد مأمور مدبر، ولأنه قد أخبرت الكتب المتقدمة أنه يستقبل الكعبة فالمنصف الذي مقصوده الحق مما يزيده ذلك إيماناً وطاعة للرسول، وأما من انقلب على عقبيه وأعرض عن الحق واتبع هواه فإنه يزداد كفرًا إلى كفره وحيرة إلى حيرته ويدلي بالحجة الباطلة المبنية على شبهة لا حقيقة لها ﴿وَأَنْ كَانَتْ﴾؛ أي: صرفك عنها ﴿لَكِبْرَةً﴾؛ أي: شاقة ﴿إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ﴾؛ فعرفوا بذلك نعمة الله عليهم وشكروا وأقروا له بالإحسان حيث وجههم إلى هذا البيت العظيم الذي فضله على سائر بقاع الأرض وجعل قصده ركنًا من أركان الإسلام وهادمًا للذنوب والآثام، فلهذا خف عليهم ذلك وشق على من سواهم.

ثم قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضَيِّعَ إِيمَانَكُمْ﴾؛ أي: ما ينبغي له ولا يليق به تعالى بل هي من الممتنعات عليه، فأخبر أنه متمتع عليه ومستحيل أن يضيع إيمانكم، وفي هذا بشارة عظيمة لمن من الله عليهم بالإسلام والإيمان بأن الله سيحفظ عليهم إيمانهم فلا يضيعه، وحفظه نوعان: حفظ عن الضياع والبطلان بعصمته لهم عن كل مفسد ومزيل له ومنقص من المحن المقلقة والأهواء الصادة، وحفظ

بتنميته لهم وتوفيقهم لما يزداد به إيمانهم ويتم به إيقانهم، فكما ابتدأكم بأن هداكم للإيمان فسيحفظه لكم ويتم نعمته بتنميته وتنمية أجره وثوابه وحفظه من كل مكدر، بل إذا وجدت المحن التي المقصود منها تبين المؤمن الصادق من الكاذب فإنها تمحص المؤمنين وتظهر صدقهم، وكان في هذا احترازًا عما قد يقال إن قوله: ﴿وَمَا جَعَلْنَا آيَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعِ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقَبَيْهِ﴾؛ قد يكون سببًا لترك بعض المؤمنين إيمانهم فدفع هذا الهم بقوله: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضَيِّعَ إِيمَانَكُمْ﴾؛ بتقديره لهذه المحنة أو غيرها، ودخل في ذلك من مات من المؤمنين قبل تحويل الكعبة فإن الله لا يضيع إيمانهم لكونهم امتثلوا أمر الله وطاعة رسوله في وقتها، وطاعة الله امتثال أمره في كل وقت بحسب ذلك. وفي هذه الآية دليل لمذهب أهل السنة والجماعة أن الإيمان تدخل فيه أعمال الجوارح.

وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ (١٤٤)؛ أي: شديد الرحمة بهم عظيمها، فمن رآفته ورحمته بهم أن يتم عليهم نعمته التي ابتدأهم بها، وأن ميز عنهم من دخل في الإيمان بلسانه دون قلبه، وأن امتحنهم امتحانًا زاد به إيمانهم وارتفعت به درجاتهم، وأن وجههم إلى أشرف البيوت وأجلها.

﴿قَدْ رَأَى نَفْلَهُ وَجْهَكَ فِي السَّمَاءِ فَلَتَوَلَّىكَ قِبَلَهُ تَرْضَاهَا قَوْلٌ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ (١٤٥).

﴿١٤٥﴾ يقول الله لنبيه: ﴿قَدْ رَأَى نَفْلَهُ وَجْهَكَ فِي السَّمَاءِ﴾؛ أي كثرة ترده في جميع جهاته شوقًا وانتظارًا لنزول الوحي باستقبال الكعبة، وقال: ﴿وَجْهَكَ﴾؛ ولم يقل بصرك لزيادة اهتمامه، ولأن تقليب الوجه مستلزم لتقليب البصر، ﴿فَلَتَوَلَّىكَ﴾؛ أي: نوجهك لولايتنا إياك، ﴿قِبَلَهُ تَرْضَاهَا﴾؛ أي: تحبها، وهي الكعبة، وفي هذا بيان لفضله وشرفه ﷺ، حيث إن الله تعالى يسارع في رضاه. ثم صرح له باستقبالها فقال: ﴿قَوْلٌ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾؛ والوجه: ما أقبل من بدن الإنسان ﴿وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ﴾؛ أي: من بر وبحر، شرق وغرب، جنوب وشمال، ﴿فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾؛ أي: جهته، ففيها اشتراط استقبال الكعبة للصلوات كلها فرضها ونفلها، وأنه إن أمكن استقبال عينها وإلا فيكفي

لا دليل لهم على قولهم، وكذلك إذا تبين الحق بأدلة اليقينية لم يلزم الإتيان بأجوبة الشبه الواردة عليه؛ لأنه لا حد لها، ولأنه يعلم بطلانها للعلم بأن كل ما نافي الحق الواضح فهو باطل، فيكون حل الشبه من باب التبرع.

﴿وَلَيْنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ﴾؛ إنما قال: أهواءهم ولم يقل: دينهم؛ لأن ما هم عليه مجرد أهوية نفس، حتى هم في قلوبهم يعلمون أنه ليس بدين، ومن ترك الدين اتبع الهوى ولا محالة، قال تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهُهُ هَوًى﴾ [الجاثية: ٢٣]، ﴿يَوْمَ بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ﴾؛ بأنك على الحق وهم على الباطل، ﴿إِنَّكَ إِذَا﴾؛ أي: إن اتبعتهم، فهذا احتراز لثلاث تفصل هذه الجملة عما قبلها ولو في الأفهام ﴿لَئِنْ أَتَيْنَاكَ بِالْحَقِّ﴾؛ أي: داخل فهم ومندرج في جملتهم، وأي ظلم أعظم من ظلم من علم الحق والباطل؟ فآثر الباطل على الحق، وهذا وإن كان الخطاب له ﷺ، فإن أمته داخله في ذلك؛ وأيضاً فإذا كان هو ﷺ، لو فعل ذلك - وحاشاه - صار ظالماً مع علو مرتبته وكثرة إحسانه فغيره من باب أولى وأحرى. ثم قال تعالى:

﴿الَّذِينَ اتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِغَيْرِ أَمْرِ اللَّهِ كَمَا يَعْرِفُونَ آبَاءَهُمْ وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْعَنُونَ﴾ [الحق من رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ] ﴿١٦٧﴾.

﴿١٦٦﴾ يخبر تعالى أن أهل الكتاب قد تقرر عندهم وعرفوا أن محمداً رسول الله وأن ما جاء به حق وصدق، وتيقنوا ذلك كما تيقنوا أبناءهم بحيث لا يشتبهون عليهم بغيرهم، فمعرفة بمحمد ﷺ، وصلت إلى حد لا يشكون فيه ولا يمترون. لكن فريقاً منهم وهم أكثرهم الذين كفروا به كتموا هذه الشهادة مع تيقنها وهم يعلمون، ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ﴾ يَمَن كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنْ اللَّهِ ﷻ وفي ضمن ذلك تسليّة للرسول والمؤمنين وتحذير لهم من شرهم وشبههم، وفريق منهم لم يكتموا الحق وهم يعلمون، فمنهم من آمن به، ومنهم من كفر به جهلاً.

فالعالم عليه إظهار الحق وتبيينه وتزيينه بكل ما يقدر عليه من عبارة وبرهان ومثال وغير ذلك، وإبطال الباطل وتمييزه عن الحق وتشيينه وتقييحه للنفوس بكل طريق مؤدٍ لذلك، فهؤلاء الكاتمون عكسوا الأمر فانعكست أحوالهم.

﴿الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ﴾؛ أي: هذا الحق الذي هو أحق

شطرها وجهتها، وأن الالتفات بالبدن مبطل للصلاة؛ لأن الأمر بالشيء نهى عن ضده.

ولما ذكر تعالى - فيما تقدم - المعترضين على ذلك من أهل الكتاب وغيرهم وذكر جوابهم، ذكر هنا أن أهل الكتاب والعلم منهم يعلمون أنك في ذلك على حق واضح لما يجدونه في كتبهم فيعترضون عناداً وبغياً، فإذا كانوا يعلمون بخطئهم فلا تبالوا بذلك، فإن الإنسان إنما يغمه اعتراض من اعترض عليه إذا كان الأمر مشتبهاً وكان ممكناً أن يكون معه صواب، فأما إذا تيقن أن الصواب والحق مع المعترض عليه وأن المعترض معاند عارف ببطلان قوله فإنه لا محل للمبالاة، بل ينتظر بالمعترض العقوبة الدنيوية والأخروية فلماذا قال تعالى: ﴿وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾؛ بل يحفظ عليهم أعمالهم ويجازيهم عليها، وفيها وعيد للمعترضين وتسليّة للمؤمنين.

﴿وَلَيْنِ اتَّبَعْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَئِنْ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾.

﴿١٦٥﴾ كان النبي ﷺ من كمال حرصه على هداية الخلق يبذل لهم غاية ما يقدر عليه من النصيحة ويتلطف بهدياتهم، ويحزن إذا لم يتقادوا لأمر الله، فكان من الكفار من ترمد عن أمر الله واستكبر على رسل الله وترك الهدى عمداً وعدواناً فمنهم اليهود والنصارى أهل الكتاب الأول الذين كفروا بمحمد عن يقين لا عن جهل؛ فلماذا أخبره الله تعالى أنك لو ﴿اتَّبَعْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ﴾؛ أي: بكل برهان ودليل يوضح قولك ويبين ما تدعو إليه، ﴿مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ﴾؛ أي: ما تبعوك؛ لأن اتباع القبلة دليل على اتباعه، ولأن السبب هو شأن القبلة، وإنما كان الأمر كذلك لأنهم معاندون عرفوا الحق وتركوه، فالآيات إنما تفيد ويتنفع بها من يتطلب الحق وهو مشتبه عليه؛ فتوضح له الآيات البينات، وأما من جزم بعدم اتباع الحق فلا حيلة فيه، وأيضاً فإن اختلافهم فيما بينهم حاصل، وبعضهم غير تابع قبلة بعض، فليس بغريب منهم مع ذلك ألا يتبعوا قبلك يا محمد وهم الأعداء حقيقة الحسدة. وقوله: ﴿وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ﴾؛ أبلغ من قوله ولا تتبع؛ لأن ذلك يتضمن أنه ﷺ، اتصف بمخالفتهم، فلا يمكن وقوع ذلك منه، ولم يقل: ولو أتوا بكل آية؛ لأنهم

سورة البقرة

الجزء الثاني

الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ آبَاءَهُمْ وَإِنَّ
 فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾ الْحَقُّ مِنْ
 رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿١٤٧﴾ وَلِكُلِّ وُجْهٍ هُومٌ مِثْلُ
 فَاسْتَيْقُوا الْخَيْرَاتِ إِنَّمَا تَكُونُوا بِنَاتِ بِكُمْ اللَّهُ جَمِيعًا
 إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٤٨﴾ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ
 وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَمَا
 اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٩﴾ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ
 شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ
 شَطْرَهُ إِذَا يَكُونُ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا
 مِنْهُمْ فَلَا تَحْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَلَا تَمْنَعِي عَابَتَكُمْ وَلَعَلَّكُمْ
 تَهْتَدُونَ ﴿١٥٠﴾ كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ
 يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ
 وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مِمَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴿١٥١﴾ فَأَذِّنُ فِي
 أَذْكَرَكُمْ وَأَشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ ﴿١٥٢﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ
 ءَامَنُوا اسْتَيْسِيئُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٣﴾

٢٣

أن يسمى حقاً من كل شيء لما اشتمل عليه من المطالب
 العالية والأوامر الحسنة وتركية النفوس وحثها على تحصيل
 مصالحها ودفع مفاسدها لصدوره من ريك الذي من جملة
 تربيته لك أن أنزل عليك هذا القرآن الذي فيه تربية العقول
 والنفوس وجميع المصالح، ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ (١٤٧)؛
 أي: فلا يحصل لك أدنى شك وريبة فيه، بل تفكر فيه وتأمل
 حتى تصل بذلك إلى اليقين، لأن التفكير فيه لا محالة دافع
 للشك موصل لليقين.

﴿وَلِكُلِّ وُجْهٍ هُومٌ مِثْلُ فَاسْتَيْقُوا الْخَيْرَاتِ إِنَّمَا تَكُونُوا
 بِنَاتِ بِكُمْ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (١٤٨).

﴿١٤٨﴾ أي: كل أهل دين وملة له وجهة يتوجه إليها في عبادته،
 وليس الشأن في استقبال القبلة فإنه من الشرائع التي تتغير
 بها الأزمنة والأحوال ويدخلها النسخ والنقل من جهة إلى
 جهة، ولكن الشأن كل الشأن في امتثال طاعة الله والتقرب
 إليه وطلب الزلفى عنده، فهذا هو عنوان السعادة ومنشور
 الولاية، وهو الذي إذا لم تتصف به النفوس حصلت لها
 خسارة الدنيا والآخرة، كما أنها إذا اتصفت به فهي الرابحة
 على الحقيقة، وهذا أمر متفق عليه في جميع الشرائع، وهو
 الذي خلق الله له الخلق وأمرهم به، والأمر بالاستباق إلى

الخيرات قدر زائد على الأمر بفعل الخيرات، فإن الاستباق إليها يتضمن فعلها وتكميلها وإيقاعها على أكمل الأحوال
 والمبادرة إليها، ومن سبق في الدنيا إلى الخيرات فهو السابق في الآخرة إلى الجنات، فالسابقون أعلى الخلق درجة،
 والخيرات تشمل جميع الفرائض والنوافل من صلاة وصيام وزكاة وحج وعمرة وجهاد ونفع متعد وقاصر، ولما كان أقوى
 ما يحث النفوس على المسارعة إلى الخير وينشطها ما رتب الله عليها من الثواب قال: ﴿إِنَّمَا تَكُونُوا بِنَاتِ بِكُمْ اللَّهُ جَمِيعًا
 إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (١٤٨)؛ فيجمعكم ليوم القيامة بقدرته، فيجازي كل عامل بعمله، ﴿لَيَجْزِي الَّذِينَ أَسْتَوُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِي
 الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى﴾ (١٤٩) [النجم: ٣١].

ويستدل بهذه الآية الشريفة على الإتيان بكل فضيلة يتصف بها العمل، كالصلاة في أول وقتها، والمبادرة إلى إبراء الذمة من
 الصيام والحج والعمرة وإخراج الزكاة، والإتيان بسنن العبادات وآدابها، فله ما أجمعها وأنفعها من آية.

﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ (١٤٩) وَمِنْ حَيْثُ
 خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ إِذَا يَكُونُ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ
 ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلَا تَحْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَلَا تَمْنَعِي عَابَتَكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٠﴾.

﴿١٤٩﴾ أي: ﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ﴾؛ في أسفارك وغيرها وهذا للعموم، ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾؛ أي: جهته.
 ثم خاطب الأمة عمومًا فقال:

﴿وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾؛ وقال: ﴿وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ﴾؛ أكد به (إن)، واللام لتلايق لأحد فيه
 أدنى شبهة، ولتلايق أنه على سبيل التشبه لا الامثال، ﴿وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ (١٤٩)؛ بل هو مطلع عليكم في جميع

ومنها: قوله: ﴿وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ﴾؛ فمجرد إخبار الصادق العظيم كافٍ شافٍ، ولكن مع هذا قال: ﴿وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ﴾.

ومنها: أنه أخبر وهو العالم بالخفيات أن أهل الكتاب متقرر عندهم صحة هذا الأمر، ولكنهم يكتمون هذه الشهادة مع العلم.

ولما كان توليته لنا إلى استقبال القبلة نعمة عظيمة وكان لطفه بهذه الأمة ورحمته لم يزل يتزايد وكلما شرع لهم شريعة فهي نعمة عظيمة قال: ﴿وَلَا يَمُنُّ عَلَيْكَ﴾؛ فأصل النعمة الهداية لدينه بإرسال رسوله وإنزال كتابه، ثم بعد ذلك النعم المتممات لهذا الأصل لا تعد كثرة ولا تحصر منذ بعث الله رسوله إلى أن قرب رحيله من الدنيا وقد أعطاه الله من الأحوال والنعم وأعطى أمته ما أتم به نعمته عليه وعليهم وأنزل الله عليه ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣]؛ فله الحمد على فضله الذي لا يبلغ له عدًا فضلًا عن القيام بشكره، ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ (١٥١)؛ أي: تعلمون الحق وتعملون به، فالله تبارك وتعالى من رحمته بالعباد قد يسر لهم أسباب الهداية غاية التيسير ونههم على سلوك طرقها وبينها لهم أتم تبين حتى إن من جملة ذلك أنه يقيض للحق المعاندين له فيجادلون فيه فيتضح بذلك الحق وتظهر آياته وأعلامه، ويتضح بطلان الباطل وأنه لا حقيقة له، ولولا قيامه في مقابلة الحق لربما لم يتبين حاله لأكثر الخلق وبضدها تتبين الأشياء، فلولا الليل ما عرف فضل النهار، ولولا القبيح ما عرف فضل الحسن، ولولا الظلمة ما عرف منفعة النور، ولولا الباطل ما اتضح الحق اتضاحًا ظاهرًا. فله الحمد على ذلك.

﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾ (١٥١) فَأَذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ (١٥٢).

(١٥١) يقول تعالى: إن إنعامنا عليكم باستقبال القبلة وإتمامها بالشرائع والنعم المتممة ليس ذلك ببدع من إحساننا ولا بأوله، بل أنعمنا عليكم بأصول النعم ومتمماتها فأبلغها إرسالنا إليكم هذا الرسول الكريم منكم تعرفون نسبه

أحوالكم فتأدبوا معه وراقبوه بامتنال أوامره واجتانب نواهيه، فإن أعمالكم غير مغفول عنها بل مجازون عليها أتم الجزاء إن خيرًا فخير وإن شرًا فشر، وقال هنا: ﴿يَتْلُو عَلَيْكُمْ حُجَّةً﴾؛ أي: شرعنا لكم استقبال القبلة المشرفة لينقطع عنكم احتجاج الناس من أهل الكتاب والمشركين، فإنه لو بقي مستقبلًا لبقيت المقدس لتوجهت عليه الحجة، فإن أهل الكتاب يجدون في كتابهم أن قبلته المستقرة هي القبلة البيت الحرام، والمشركين يرون أن من مفاخرهم هذا البيت العظيم، وأنه من ملة إبراهيم، وأنه إذا لم يستقبله محمد ﷺ، توجهت نحوه حججهم، وقالوا: كيف يدعي أنه على ملة إبراهيم وهو من ذريته وقد ترك استقبال قبلته؟ فباستقبال القبلة قامت الحجة على أهل الكتاب والمشركين وانقطعت حججهم عليه، إلا من ظلم منهم؛ أي: من احتج منهم بحجة هو ظالم فيها وليس لها مستند إلا اتباع الهوى والظلم؛ فهذا لا سبيل إلى إقناعه والاحتجاج عليه، وكذلك لا معنى لجعل الشبهة التي يوردونها على سبيل الاحتجاج محلاً يؤبه لها ولا يلقى لها بال، فهذا قال تعالى: ﴿فَلَا تَحْشَوْهُمْ﴾؛ لأن حججهم باطلة، والباطل كاسمه مخذول، مخذول صاحبه، وهذا بخلاف صاحب الحق فإن للحق صولة وعزًا يوجب خشية من هو معه، وأمر تعالى بخشيته التي هي رأس كل خير، فمن لم يخش الله؛ لم ينكف عن معصيته، ولم يمتثل أمره.

وكان صرف المسلمين إلى القبلة مما حصلت فيها فتنة كبيرة أشاعها أهل الكتاب والمنافقون والمشركون وأكثروا فيها من الكلام والشبه، فلهذا بسطها الله تعالى، وبينها أكمل بيان، وأكدها بأنواع من التأكيدات التي تضمنتها هذه الآيات.

ومنها: الأمر بها ثلاث مرات مع كفاية المرة الواحدة.

ومنها: أن المعهود أن الأمر إما أن يكون للرسول فتدخل فيه الأمة تبعًا أو للأمة عمومًا، وفي هذه الآية أمر فيها الرسول بالخصوص في قوله: ﴿قَوْلٍ وَجْهَكَ﴾؛ والأمة عمومًا في قوله: ﴿قَوْلُوا وَجُوهَكُمْ﴾.

ومنها: أنه رد فيه جميع الاحتجاجات الباطلة التي أوردها أهل العناد وأبطالها شبهة شبهة كما تقدم توضيحها.

ومنها: أنه قطع الأطماع من اتباع الرسول قبله أهل الكتاب.

من العلم وتركية الأخلاق والتوفيق للأعمال بيان أنها أكبر النعم، بل هي النعم الحقيقية التي تدوم إذا زال غيرها، وأنه ينبغي لمن وفقوا لعلم أو عمل أن يشكروا الله على ذلك ليزيدهم من فضله وليندفع عنهم الإعجاب فيشتغلوا بالشكر، ولما كان الشكر ضده الكفر نهى عن ضده فقال: ﴿وَلَا تَكْفُرُوا﴾ (١٥٢)؛ المراد بالكفر ههنا ما يقابل الشكر، فهو كفر النعم وجحدها وعدم القيام بها.

ويحتمل أن يكون المعنى عامًا فيكون الكفر أنواعًا كثيرة أعظمه الكفر بالله، ثم أنواع المعاصي على اختلاف أنواعها وأجناسها من الشرك فما دونه.

﴿يَتَّيْنَاهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَتَّعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ (١٥٢).

﴿١٥٢﴾ أمر الله تعالى المؤمنين بالاستعانة على أمورهم الدينية والدنيوية ﴿بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾؛ فالصبر هو حبس النفس وكفها على ما تكره، فهو ثلاثة أقسام:

صبرها على طاعة الله حتى تؤديها، وعن معصية الله حتى تتركها، وعلى أقدار الله المؤلمة فلا تتسخطها.

فالصبر هو المعونة العظيمة على كل أمر، فلا سبيل لغير الصابر أن يدرك مطلوبه، خصوصًا الطاعات الشاقة المستمرة فإنها مفترقة أشد الافتقار إلى تحمل الصبر وتجزع المرارة الشاقة، فإذا لازم صاحبها الصبر فاز بالنجاح، وإن رده المكروه والمشقة عن الصبر والملازمة عليها لم يدرك شيئًا وحصل على الحرمان، وكذلك المعصية التي تشتد دواعي النفس ونوازعها إليها وهي في محل قدرة العبد، فهذه لا يمكن تركها إلا بصبر عظيم وكف لدواعي قلبه ونوازعها لله تعالى واستعانة بالله على العصمة منها فإنها من الفتن الكبار، وكذلك البلاء الشاق خصوصًا إن استمر، فهذا تضعف معه القوى النفسانية والجسدية ويوجد مقتضاها وهو التسخط إن لم يقاومها صاحبها بالصبر لله والتوكل عليه واللجأ إليه والافتقار على الدوام، فعلمت أن الصبر محتاج إليه العبد، بل مضطر في كل حالة من أحواله، فهذا أمر الله تعالى به وأخبر أنه ﴿مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ (١٥٢)؛ أي: مع من كان الصبر لهم خلقًا وصفة وملكة بمعونته وتوفيقه وتسديده فهانت عليهم بذلك المشاق والمكاره وسهل عليهم كل عظيم وزالت عنهم كل صعوبة، وهذه

وصدقه وأمانته وكمالته ونصحه ﴿يَتْلُوا عَلَيْكُمْ﴾؛ وهذا يعم الآيات القرآنية وغيرها، فهو يتلو عليكم الآيات المبينة للحق من الباطل والهدى من الضلال التي دلتكم أولًا على توحيد الله وكمالته ثم على صدق رسوله ووجوب الإيمان به ثم على جميع ما أخبر به من المعاد والغيوب، حتى حصل لكم الهداية التامة والعلم اليقيني ﴿وَرَزَّيْكُمْ﴾؛ أي: يظهر أخلاقكم ونفوسكم بتربيتها على الأخلاق الجميلة، وتنزيهاها عن الأخلاق الرذيلة، وذلك كنزكيته من الشرك إلى التوحيد ومن الرياء إلى الإخلاص، ومن الكذب إلى الصدق، ومن الخيانة إلى الأمانة، ومن الكبر إلى التواضع، ومن سوء الخلق إلى حسن الخلق، ومن التباغض والتهاجر والتقاطع إلى التحاب والتواصل والتوادد وغير ذلك من أنواع التزكية ﴿وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ﴾؛ أي: القرآن ألفاظه ومعانيه ﴿وَالْحِكْمَةَ﴾؛ قيل هي السنة، وقيل: الحكمة معرفة أسرار الشريعة والفقه فيها وتنزيل الأمور منازلها، فيكون على هذا تعليم السنة داخلًا في تعليم الكتاب؛ لأن السنة تبين القرآن وتفسره وتعبّر عنه ﴿وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾ (١٥٢)؛ لأنهم كانوا قبل بعثته في ضلال مبين لا علم ولا عمل، فكل علم أو عمل نالته هذه الأمة فعلى يده ﷺ، ويسببه كان.

فهذه النعم هي أصول النعم على الإطلاق، وهي أكبر نعم ينعم بها على عبادته؛ فوظيفتهم شكر الله عليها والقيام بها، فلهاذا قال تعالى:

﴿١٥٦﴾ ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾؛ فأمر تعالى بذكره، ووعد عليه أفضل جزاء وهو ذكره؛ لمن ذكره كما قال تعالى على لسان رسوله: «من ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، ومن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منهم»^(١)، وذكر الله تعالى أفضل ما تواطأ عليه القلب واللسان وهو الذكر الذي يثمر معرفة الله ومحبته وكثرة ثوابه، والذكر هو رأس الشكر فلهاذا أمر به خصوصًا ثم من بعده أمر بالشكر عمومًا فقال: ﴿وَأَشْكُرُوا﴾ (١٥٦)؛ أي: على ما أنعمت عليكم بهذه النعم ودفعت عنكم صنوف النقم، والشكر يكون بالقلب إقرارًا بالنعم واعتراقًا، وباللسان ذكرًا وثناءً، وبالجوارح طاعة لله واتباعًا لأمره واجتنابًا لنهيه، فالشكر فيه بقاء النعمة الموجودة وزيادة في النعم المفقودة، قال تعالى: ﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: ٢٧]. وفي الإتيان بالأمر بالشكر بعد النعم الدينية

معية خاصة تقتضي محبته ومعونته ونصره وقربه وهذه منقبة عظيمة للصابرين فلو لم يكن للصابرين فضيلة إلا أنهم فازوا بهذه المعية من الله لكفى بها فضلاً وشرفاً، وأما المعية العامة فهي معية العلم والقدرة كما في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ﴾ [الحديد: ٤] وهذه عامة للخلق.

وأمر تعالى بالاستعانة بالصلاة؛ لأن الصلاة هي عماد الدين ونور المؤمنين، وهي الصلة بين العبد وبين ربه، فإذا كانت صلاة العبد صلاة كاملة مجتمعاً فيها ما يلزم فيها وما يسن، وحصل فيها حضور القلب الذي هو لبها، فصار العبد إذا دخل فيها استشعر دخوله على ربه ووقوفه بين يديه موقف العبد الخادم المتأدب مستحضراً لكل ما يقوله وما يفعله مستغرقاً بمناجاة ربه ودعائه، لا جرم أن هذه الصلاة من أكبر المعونة على جميع الأمور، فإن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، ولأن هذا الحضور الذي يكون في الصلاة يوجب للعبد في قلبه وصفاً وداعياً يدعو إلى امتثال أوامر ربه واجتناب نواهيه، هذه هي الصلاة التي أمر الله أن نستعين بها على كل شيء.

﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمُوتَ بَلْ أَحْيَا وَلَكِنَّ لَّا تَشْعُرُونَ﴾ [١٥٤].

وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمُوتَ بَلْ أَحْيَا وَلَكِنَّ لَّا تَشْعُرُونَ ﴿١٥٤﴾ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالتَّحَرُّتِ وَكَثِيرِ الضَّرْبِ وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿١٥٥﴾ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَهْتَدُونَ ﴿١٥٦﴾ إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوَاعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطُوفَ بِهِمَا وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٥٨﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْمُهْذَبَاتِ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّعِينُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنَّاهُ فَأُولَئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٦٠﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارًا أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٦١﴾ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَخَفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ ﴿١٦٢﴾ وَلِلَّهِ كُزُّهُ وَحَيْدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾

لما ذكر تبارك وتعالى الأمر بالاستعانة بالصبر على جميع الأحوال ذكر نموذجاً مما يستعان بالصبر عليه وهو الجهاد في سبيله وهو أفضل الطاعات البدنية وأشقها على النفوس لمشتقة في نفسه ولكونه مؤدياً للقتل وعدم الحياة التي إنما يرغب الراغبون في هذه الدنيا لحصول الحياة ولوازمها، فكل ما يتصرفون به فإنه سعي لها ودفع لما يضادها.

ومن المعلوم أن المحبوب لا يتركه العاقل إلا لمحبوب أعلى منه وأعظم، فأخبر تعالى أن من قتل في سبيله بأن قاتل في سبيل الله لتكون كلمة الله هي العليا ودينه الظاهر، لا لغير ذلك من الأغراض فإنه لم تفته الحياة المحبوبة، بل حصل له حياة أعظم وأكمل مما تظنون وتحسبون، فالشهداء ﴿أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [١٦٩] فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَكَسَبَتْهُمْ بِرَأْسِهِمْ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةِ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٧١﴾ [ال عمران: ١٦٩-١٧١]؛ فهل أعظم من هذه الحياة المتضمنة للقرب من الله تعالى وتمتعهم برزقه البدني في المأكولات والمشروبات اللذيذة والرزق الروحي وهو الفرح وهو الاستبشار وزوال كل خوف وحزن، وهذه حياة برزخية أكمل من الحياة الدنيا، بل قد أخبر النبي ﷺ أن أرواح الشهداء في أجواف طير خضر ترد أنهار الجنة، وتأكل من ثمارها وتأوي إلى قناديل معلقة بالعرش.

وفي هذه الآية أعظم حث على الجهاد في سبيل الله وملازمة الصبر عليه، فلو شعر العباد بما للمقتولين في سبيل الله من الثواب لم يتخلف عنه أحد، ولكن عدم العلم اليقيني التام هو الذي فتر العزائم وزاد نوم النائم وأفات الأجور العظيمة والغنائم، لم لا يكون كذلك والله تعالى قد ﴿أَشْرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ يُقَرَّبُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ﴾ [التوبة: ١١١]؛ فوالله لو كان للإنسان ألف نفس تذهب نفساً فنفساً في سبيل الله لم يكن عظيماً في جانب هذا الأجر العظيم.

وعلم أن ما يدركه من الأجر بصبره أعظم من المصيبة التي حصلت له، بل المصيبة تكون نعمة في حقه؛ لأنها صارت طريقاً لحصول ما هو خير له وأنفع منها، فقد امثل أمر الله وفاز بالثواب، فهذا قال تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾ (١٥٦)؛ أي: بشرهم بأنهم يوفون أجرهم بغير حساب، فالصابرون هم الذين فازوا بالبشارة العظيمة والمنحة الجسيمة، ثم وصفهم بقوله:

﴿الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ﴾؛ وهي كل ما يؤلم القلب أو البدن أو كليهما مما تقدم ذكره، ﴿قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ﴾؛ أي: مملوكون لله مدبرون تحت أمره وتصريفه؛ فليس لنا من أنفسنا وأموالنا شيء، فإذا ابتلانا بشيء منها فقد تصرف أرحم الراحمين بمالكيه وأموالهم فلا اعتراض عليه، بل من كمال عبودية العبد علمه بأن وقوع البلية من المالك الحكيم الذي هو أرحم بعبده من نفسه، فيوجب له ذلك الرضا عن الله والشكر له على تدبيره لما هو خير لعبده وإن لم يشعر بذلك، ومع أننا مملوكون لله فإننا إليه راجعون يوم المعاد، فمجاز كل عامل بعمله، فإن صبرنا واحسبنا وجدنا أجرنا موفراً عنده، وإن جزعنا وسخطنا لم يكن حظنا إلا السخط وفوات الأجر، فكون العبد لله وراجعاً إليه من أقوى أسباب الصبر.

﴿أُولَئِكَ﴾؛ الموصوفون بالصبر المذكور ﴿عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ﴾؛ أي: ثناء وتنويه بحالهم، ﴿وَرَحْمَةٌ﴾؛ عظيمة، ومن رحمته إياهم أن وفقهم للصبر الذي ينالون به كمال الأجر ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾ (١٥٧)؛ الذين عرفوا الحق، وهو في هذا الموضع علمهم بأنهم لله وأنهم إليه راجعون، وعملوا به وهو هنا صبرهم لله، ودلت هذه الآية على أن من لم يصبر فله ضد ما لهم فحصل له الذم من الله والعقوبة والضلال والخسار، فما أعظم الفرق بين الفريقين، وما أقل تعب الصابرين وأعظم عناء الجازعين.

فقد اشتملت هاتان الآيتان على توطین النفوس على المصائب قبل وقوعها لتخف وتسهل إذا وقعت، وبيان ما تقابل به إذا وقعت وهو الصبر، وبيان ما يعين على الصبر وما للصابرين من الأجر. ويعلم حال غير الصابر بضد حالة الصابر، وأن هذا الابتلاء والامتحان سنة الله التي قد خلت، ولن تجد لسنة الله تبديلاً وبيان أنواع المصائب.

ولهذا لا يتمنى الشهداء بعدما عاينوا من ثواب الله وحسن جزائه إلا أن يردوا إلى الدنيا؛ حتى يقتلوا في سبيله مرة بعد مرة.

وفي الآية دليل على نعيم البرزخ وعذابه كما تكاثرت بذلك النصوص.

﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ﴾ (١٥٨) ﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾ (١٥٩) ﴿الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ (١٦٠) ﴿أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾ (١٦١).

أخبر تعالى أنه لا بد أن يتلي عبادَه بالمحن ليتين الصادق من الكاذب والجازع من الصابر، وهذه سنته تعالى في عبادَه، لأن السراء لو استمرت لأهل الإيمان ولم يحصل معها محنة لحصل الاختلاط الذي هو فساد، وحكمة الله تقتضي تمييز أهل الخير من أهل الشر، هذه فائدة المحن لا إزالة ما مع المؤمنين من الإيمان ولا ردهم عن دينهم، فما كان الله ليضيع إيمان المؤمنين. فأخبر في هذه الآية أنه سيتلي عبادَه، ﴿بَشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ﴾؛ من الأعداء، ﴿وَالْجُوعِ﴾؛ أي: بشيء يسير منهما لأنه لو ابتلاههم بالخوف كله أو الجوع لهلكوا، والمحن تمحص لا تهلك، ﴿وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ﴾؛ وهذا يشمل جميع النقص المعثري للأموال من جوائح سماوية وغرق وضياع وأخذ الظلمة للأموال من الملوك الظلمة وقطاع الطريق وغير ذلك ﴿وَالْأَنْفُسِ﴾؛ أي: ذهاب الأحباب من الأولاد والأقارب والأصحاب، ومن أنواع الأمراض في بدن العبد أو بدن من يحبه، ﴿وَالثَّمَرَاتِ﴾؛ أي: الحبوب وثمار النخيل والأشجار كلها والخضر يبرد أو يبرّد أو حرق أو آفة سماوية من جراد ونحوه، فهذه الأمور لا بد أن تقع؛ لأن العليم الخبير أخبر بها ف وقعت كما أخبر، فإذا وقعت انقسم الناس قسمين: جازعين وصابرين.

فالجازع حصلت له المصيبتان، فوات المحبوب وهو وجود هذه المصيبة، وفوات ما هو أعظم منها وهو الأجر بامثال أمر الله بالصبر؛ ففاز بالخسارة والحرمان ونقص ما معه من الإيمان، وفاته الصبر والرضا والشكران، وحصل له السخط الدال على شدة النقصان.

وأما من وفقه الله للصبر عند وجود هذه المصائب فحبس نفسه عن التسخط قولاً وفعلاً واحتسب أجرها عند الله،

أسماء الله تعالى الذي يقبل من عباده اليسير من العمل، ويجازيهم عليه العظيم من الأجر الذي إذا قام عبده بأوامره وامثل طاعته أعانه على ذلك، وأثنى عليه ومدحه وجازاه في قلبه نوراً وإيماناً وسعة وفي بدنه قوة ونشاطاً، وفي جميع أحواله زيادة بركة ونماء، وفي أعماله زيادة توفيق، ثم بعد ذلك يقدم على الثواب الآجل عند ربه كاملاً موفراً لم تنقصه هذه الأمور، ومن شكره لعبده أن من ترك شيئاً لله أعاضه الله خيراً منه، ومن تقرب منه شبراً تقرب منه ذراعاً، ومن تقرب منه ذراعاً تقرب منه باعاً، ومن أتاه يمشي أتاه هرولة، ومن عامله ربح عليه أضعافاً مضاعفة، ومع أنه شاكر فهو عليم بمن يستحق الثواب الكامل بحسب نيته وإيمانه وتقواه ممن ليس كذلك، عليم بأعمال العباد فلا يضيعها، بل يجدونها أوفر ما كانت على حسب نياتهم التي اطلع عليها العليم الحكيم.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَأَهْدَىٰ مِنْهَا بَعْدَ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّعْنَةُ ﴿١٥٨﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنَّا فَاُولَٰئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٥٩﴾﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٦٠﴾ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَخَفُّ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْقَرُونَ ﴿١٦١﴾﴾

﴿١٥٨﴾ هذه الآية وإن كانت نازلة في أهل الكتاب وما كتُموا من شأن الرسول ﷺ وصفاته، فإن حكمها عام لكل من اتصف بكتمان ما أنزل الله ﷻ ﴿مِنَ الْبَيِّنَاتِ﴾؛ الدالات على الحق المظاهرات له ﴿وَأَهْدَىٰ﴾؛ وهو العلم الذي تحصل به الهداية إلى الصراط المستقيم، ويتبين به طريق أهل النعيم من طريق أهل الجحيم، فإن الله أخذ الميثاق على أهل العلم بأن يبينوا للناس ما مَنَّ الله به عليهم من علم الكتاب ولا يكتُموه، فمن نبذ ذلك وجمع بين المفسدتين: كتم ما أنزل الله، والغش لعباد الله فأولئك ﴿يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ﴾؛ أي: يبعدهم ويطردهم عن قربهِ ورحمته ﴿وَيَلْعَنُهُمُ اللَّعْنَةُ﴾؛ وهم جميع الخليقة، فتقع عليهم اللعنة من جميع الخليقة لسعيهم في غش الخلق وفساد أديانهم وإبعادهم من رحمة الله، فجوزوا من جنس عملهم، كما أن معلم الناس الخير يصلي الله عليه وملائكته حتى الحوت في جوف الماء لسعيه في مصلحة الخلق وإصلاح أديانهم، وقربهم من رحمة الله، فجوزي من جنس عمله.

﴿إِنَّ الْأَصَمَّ وَالْمَرَّةَ مِنْ سَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ أَلْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٥٨﴾﴾.

﴿١٥٨﴾ يخبر تعالى: ﴿إِنَّ الْأَصَمَّ وَالْمَرَّةَ﴾؛ وهما معروفان ﴿مِنْ سَعَائِرِ اللَّهِ﴾؛ أي: أعلام دينه الظاهرة التي تعبد الله بها عباده، وإذا كانا من شعائر الله فقد أمر الله بتعظيم شعائره فقال: ﴿وَمَنْ يُعْظَمْ شَعِيرٌ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ ﴿١٥٩﴾﴾ [الحج: ٣٢]؛ فدل مجموع النصين أنهما من شعائر الله، وأن تعظيم شعائره من تقوى القلوب، والتقوى واجبة على كل مكلف، وذلك يدل على أن السعي بهما فرض لازم للحج والعمرة كما عليه الجمهور، ودلت عليه الأحاديث النبوية، وفعله النبي ﷺ، وقال: «خذوا عني مناسككم»^(١).

﴿فَمَنْ حَجَّ أَلْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾؛ هذا دفع لوهم من توهم وتخرج من المسلمين عن الطواف بينهما؛ لكونهما في الجاهلية تعبد عندهما الأصنام، فنفى تعالى الجناح لدفع هذا الوهم، لا لأنه غير لازم، ودل تقييد نفي الجناح فيمن تطوف بهما في الحج والعمرة أنه لا يتطوع بالسعي مفرداً إلا مع انضمامه لحج أو عمرة، بخلاف الطواف بالبيت؛ فإنه يشرع مع العمرة والحج وهو عبادة مفردة.

فأما السعي والوقوف بعرفة ومزدلفة ورمي الجمار فإنها تتبع النسك، فلو فعلت غير تابعة للنسك كانت بدعة، لأن البدعة نوعان: نوع يتعبد لله بعبادة لم يشرعها أصلاً، ونوع يتعبد له بعبادة قد شرعها على صفة مخصوصة، فتفعل على غير تلك الصفة وهذا منه.

وقوله: ﴿وَمَنْ تَطَوَّعَ﴾؛ أي: فعل طاعة مخلصاً بها لله تعالى ﴿خَيْرًا﴾؛ من حج وعمرة وطواف وصلاة وصوم وغير ذلك، فهو خير له؛ فدل هذا على أنه كلما ازداد العبد من طاعة الله ازداد خيره وكماله ودرجته عند الله لزيادة إيمانه، ودل تقييد التطوع بالخير أن من تطوع بالبدع التي لم يشرعها الله ولا رسوله أنه لا يحصل له إلا العناء، وليس بخير له، بل قد يكون شراً له إن كان متعمداً عالمًا لعدم مشروعية العمل.

﴿فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٥٩﴾﴾؛ الشاكر والشكور من (١) مسلم (١٢٩٧).

فالكاتم لما أنزله الله مضاد لأمر الله مشاق لله، يبين الله الآيات للناس ويوضحها، وهذا يسعى في طمسها وإخفائها، فهذا عليه هذا الوعيد الشديد.

﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا﴾؛ أي: رجعوا عما هم عليه من الذنوب ندماً وإقلاعاً وعزماً على عدم المعادة ﴿وَأَصْلَحُوا﴾؛ ما فسد من أعمالهم؛ فلا يكفي ترك القبيح حتى يحصل فعل الحسن، ولا يكفي ذلك في الكاتم أيضاً حتى يبين ما كتبه ويبيد ضد ما أخفى فهذا يتوب الله عليه لأن توبة الله غير محجوب عنها، فمن أتى بسبب التوبة تاب الله عليه لأنه ﴿التَّوَّابُ﴾؛ أي: الرجاء على عباده بالعفو والصفح بعد الذنب إذا تابوا وبالإحسان والنعم بعد المنع إذا رجعوا ﴿الرَّحِيمُ﴾؛ الذي اتصف بالرحمة العظيمة التي وسعت كل شيء، ومن رحمته أن وفقهم للتوبة والإنابة فتابوا وأنابوا ثم رحمهم بأن قبل ذلك منهم لطفًا وكرمًا، هذا حكم التائب من الذنب.

﴿وَأَمَّا مَنْ كَفَرَ وَاسْتَمَرَ عَلَى كُفْرِهِ حَتَّى مَاتَ لَمْ يَرْجِعْ إِلَى رَبِّهِ وَلَمْ يَنْبِ إِلَيْهِ وَلَمْ يَتُبْ عَنْ قَرِيبٍ فَأُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾؛ لأنه لما صار كفرهم وصفًا ثابتًا صارت اللعنة عليهم وصفًا ثابتًا لا تزول؛ لأن الحكم يدور مع علته وجودًا وعدمًا.

﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾؛ أي: في اللعنة أو في العذاب وهما متلازمان ﴿لَا يَخَفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ﴾؛ بل عذابهم دائم شديد مستمر ﴿وَلَا يُمْسِكُونَ﴾؛ أي: يمهلون لأن وقت الإمهال وهو الدنيا قد مضى، ولم يبق لهم عذر فيعتذرون.

﴿وَاللَّهُ أَكْبَرُ إِنَّ اللَّهَ وَحْدَهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾؛ يخبر تعالى وهو أصدق القائلين أنه ﴿إِلَهُ وَحْدَهُ﴾؛ أي: متوحد منفرد في ذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله؛ فليس له شريك في ذاته ولا سمي له ولا كفو له ولا مثل ولا نظير ولا خالق ولا مدبر غيره، فإذا كان كذلك فهو المستحق لأن يؤله ويعبد بجميع أنواع العبادة، ولا يشرك به أحد من خلقه؛ لأنه ﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ المتصف بالرحمة العظيمة التي لا يماثلها رحمة أحد فقد وسعت كل شيء وعمت كل حي، فبرحمته وجدت المخلوقات وبرحمته حصلت لها أنواع الكمالات، وبرحمته اندفع عنها كل نقمة، وبرحمته عُرِفَ عباده نفسه بصفاته وآلائه، وبين لهم كل ما يحتاجون إليه من

مصالح دينهم ودنياهم بإرسال الرسل وإنزال الكتب، فإذا علم أن ما بالعباد من نعمة فمن الله وأن أحدًا من المخلوقين لا ينفع أحدًا، علم أن الله هو المستحق لجميع أنواع العبادة، وأن يفرد بالمحبة والخوف والرجاء والتعظيم والتوكل وغير ذلك من أنواع الطاعات، وأن من أظلم الظلم وأقبح القبيح أن يعدل عن عبادته إلى عبادة العبيد وأن يشرك المخلوقين من تراب برب الأرباب أو يعبد المخلوق المدبر العاجز من جميع الوجوه مع الخالق المدبر القادر القوي الذي قد قهر كل شيء، ودان له كل شيء.

ففي هذه الآية إثبات وحدانية الباري وإلهيته وتقديرها بنفيها عن غيره من المخلوقين، وبيان أصل الدليل على ذلك وهو إثبات رحمته التي من آثارها وجود جميع النعم واندفاع جميع النقم، فهذا دليل إجمالي على وحدانيته تعالى.

ثم ذكر الأدلة التفصيلية فقال:

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَكَاتِ وَالْأَرْضِ وَآخِلَافِ الْيَلِّ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَّاءٍ فَأَخْبَا بِهِنَّ الْأَرْضَ بِعَدِّ مَوْتَيْهَا وَبَنَىٰ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيْحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾.

﴿أخبر تعالى أن في هذه المخلوقات العظيمة آيات؛ أي: أدلة على وحدانية الباري وإلهيته وعظيم سلطانه ورحمته وسائر صفاته، ولكنها ﴿لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾؛ أي: لمن لهم عقول يعملونها فيما خلقت له، فعلى حسب ما من الله على عبده من العقل ينتفع بالآيات ويعرفها بعقله وفكره وتدبره، ففي ﴿خَلْقِ السَّمَكَاتِ﴾؛ في ارتفاعها واتساعها وإحكامها وإتقانها، وما جعل الله فيها من الشمس والقمر والنجوم وتنظيمها لمصالح العباد، وفي خلق الأرض؛ مهادًا للخلق يمكنهم القرار عليها والانتفاع بما عليها والاعتبار، ما يدل ذلك على انفراد الله تعالى بالخلق والتدبير وبيان قدرته العظيمة التي بها خلقها، وحكمته التي بها ألقنها وأحسنها ونظمها، وعلمه ورحمته التي بها أودع ما أودع من منافع الخلق ومصالحهم وضرورتهم وحاجاتهم، وفي ذلك أبلغ الدليل على كماله واستحقاقه أن يفرد بالعبادة لانفراده بالخلق والتدبير والقيام بشئون عباده.

المِزَان

سورة البقرة

وفي اختلاف الليل والنهار؛ وهو تعاقبهما على الدوام إذا ذهب أحدهما خلفه الآخر، وفي اختلافهما في الحر والبرد والتوسط، وفي الطول والقصر والتوسط، وما ينشأ عن ذلك من الفصول التي بها انتظام مصالح بني آدم وحيواناتهم، وجميع ما على وجه الأرض من أشجار ونوابت، كل ذلك بانتظام وتدبير وتسخير تنبهر له العقول، وتعجز عن إدراكه من الرجال الفحول ما يدل ذلك على قدرة مصرفها وعلمه وحكمته ورحمته الواسعة ولطفه الشامل وتصريفه وتدبيره الذي تفرد به وعظمته وعظمة ملكه وسلطانه، مما يوجب أن يُؤَلَّه ويعبد ويفرد بالمحبة والتعظيم والخوف والرجاء وبذل الجهد في محابه ومراضيه.

وفي الفلك ﴿الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ﴾ وهي السفن والمراكب ونحوها مما ألهم الله عباده صنعتها، وخلق لهم من الآلات الداخلية والخارجية ما أقدرهم عليها، ثم سخر لها هذا البحر العظيم والرياح التي تحملها بما فيها من الركاب والأموال والبضائع التي هي من منافع الناس وبما تقوم مصالحهم وتنظم معاشهم، فمن الذي ألهمهم صنعتها وأقدرهم عليها وخلق لهم من الآلات ما به يعملونها؟ أم من الذي سخر لها البحر تجري فيه بإذنه وتسخيره والرياح؟ أم من الذي خلق للمراكب البرية والبحرية النار والمعادن المعينة على حملها

إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَكَاتِ وَالْأَرْضِ وَخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَع النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَّاءٍ فَأَنْحَاكُمُ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيْحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٥٠﴾ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ وَلَوْ رَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرُونَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ ﴿٢٥١﴾ إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوْا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ ﴿٢٥٢﴾ وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّا كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ الْمَكِيدَةِ إِنَّا كُنَّا فِيهَا كَالْعِخْلِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّا كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ الْمَكِيدَةِ إِنَّا كُنَّا فِيهَا كَالْعِخْلِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّا كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ الْمَكِيدَةِ

وحمل ما فيها من الأموال؟ فهل هذه الأمور حصلت اتفاقاً أم استقل بعملها هذا المخلوق الضعيف العاجز الذي خرج من بطن أمه لا علم له ولا قدرة، ثم خلق له ربه القدرة وعلمه ما يشاء تعليمه، أم المسخر لذلك رب واحد حكيم عليم لا يعجزه شيء، ولا يمتنع عليه شيء؟ بل الأشياء قد دانت لربوبيته، واستكانت لعظمته، وخضعت لجبروته.

وغاية العبد الضعيف أن جعله الله جزءاً من أجزاء الأسباب التي بها وجدت هذه الأمور العظام، فهذا يدل على رحمة الله وعنايته بخلقه، وذلك يوجب أن تكون المحبة كلها له والخوف والرجاء وجميع الطاعة والذل والتعظيم ﴿وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَّاءٍ﴾؛ وهو المطر النازل من السحاب ﴿فَأَنْحَاكُمُ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾؛ فأظهرت من أنواع الأقوات وأصناف النبات ما هو من ضرورات الخلاق التي لا يعيشون بدونها، أليس ذلك دليلاً على قدرة من أنزله وأخرج به ما أخرج ورحمته ولطفه بعباده وقيامه بمصالحهم وشدة افتقارهم وضرورتهم إليه من كل وجه؟ أما يوجب ذلك أن يكون هو معبودهم وإلههم؟ أليس ذلك دليلاً على إحياء الموتى ومجازاتهم بأعمالهم؟

﴿وَبَثَّ فِيهَا﴾؛ أي في الأرض ﴿مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ﴾؛ أي: نشر في أقطار الأرض من الدواب المتنوعة ما هو دليل على قدرته وعظمته ووحدانيته وسلطانه العظيم، وسخرها للناس يتفنون بها بجميع وجوه الانتفاع: فمنها ما يأكلون من لحمة ويشربون من دره، ومنها ما يركبون، ومنها ما هو ساع في مصالحهم وحراستهم، ومنها ما يعتبر به، ومنها أنه بث فيها من كل دابة فإنه سبحانه هو القائم بأرزاقهم المتكفل بأقواتهم، فما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها.

وفي تصريف ﴿الرِّيْحِ﴾؛ باردة وحارة وجنوباً وشمالاً وشرقاً ودبوراً وبين ذلك، وتارة تثير السحاب، وتارة تؤلف بينه، وتارة تلتحمه، وتارة تدره، وتارة تمزقه، وتزيل ضرره، وتارة تكون رحمة، وتارة ترسل بالعذاب، فمن الذي صرفها هذا التصريف وأودع فيها من منافع العباد ما لا يستغنون عنه، وسخرها ليعيش فيها جميع الحيوانات وتصلح الأبدان والأشجار والحبوب

معرض عن تدبر آياته، والتفكر في مخلوقاته فليس له أدنى عذر في ذلك، بل قد حقت عليه كلمة العذاب، وهؤلاء الذين يتخذون الأنداد مع الله لا يسوونهم بالله في الخلق والرزق والتدبير، وإنما يسوونهم به في العبادة فيعبدونهم ليقربوهم إليه، وفي قوله ﴿يَتَّخِذْ﴾ دليل على أنه ليس لله ند، وإنما المشركون جعلوا بعض المخلوقات أنداداً له تسمية مجردة ولفظاً فارغاً من المعنى؛ كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ قُلْ سُبُّهُمْ أَمْ يَتَّبِعُونَ مَا لَا يَعْلَمُونَ أَمْ يَتَّبِعُونَ مَا يَشَاءُونَ أَمْ يَتَّبِعُونَ مَا يَشَاءُ الَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَشَاءُ اللَّهُ وَمَا أَنْزَلَ إِلَهُهُ إِنَّ إِلَهُهُ إِيَّاهُ يَتَّبِعُونَ﴾ [النجم: ٢٣].

فالمخلوق ليس نداً لله؛ لأن الله هو الخالق وغيره مخلوق، والرب الرازق ومن عده مرزوق، والله هو الغني وأنتم الفقراء وهو الكامل من كل الوجوه، والعبيد ناقصون من جميع الوجوه، والله هو النافع الضار، والمخلوق ليس له من النفع والضرر والأمر شيء، فعلم علماً يقيناً بطلان قول من اتخذ من دون الله آلهة وأنداداً سواء كان ملكاً أو نبياً أو صالحاً أو صنماً أو غير ذلك، وأن الله هو المستحق للمحبة الكاملة والذل التام، فلهذا مدح الله المؤمنين بقوله: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾؛ أي: من أهل الأنداد لأناداهم، لأنهم أخلصوا محبتهم له وهؤلاء أشركوا بها، ولأنهم أحبوا من يستحق المحبة على الحقيقة، الذي محبته هي عين صلاح العبد وسعادته وفوزه. والمشركون أحبوا من لا يستحق من الحب شيئاً ومحبته عين شقاء العبد وفساده وتشتت أمره.

فلهذا توعدهم الله بقوله: ﴿وَلَوْ رَى الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾؛ باتخاذ الأنداد والانقياد لغير رب العباد وظلموا الخلق بصددهم عن سبيل الله وسعيهم فيما يضرهم ﴿إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ﴾؛ أي: يوم القيامة عياناً بأبصارهم ﴿أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ﴾؛ أي: لعلموا علماً جازماً أن القوة والقدرة لله كلها، وأن أندادهم ليس فيها من القوة شيء، فبين لهم في ذلك اليوم ضعفها وعجزها لا كما اشتبه عليهم في الدنيا، وظنوا أن لها من الأمر شيئاً وأنها تقربهم إليه وتوصلهم إليه فخاب ظنهم، وبطل سعيهم، وحق عليهم شدة العذاب ولم تدفع عنهم أندادهم شيئاً، ولم تغن عنهم مثقال ذرة من النفع، بل يحصل لهم الضرر منها من حيث ظنوا نفعها.

وتبرأ المتبعون من التابعين، وتقطعت بينهم الوصل التي كانت في الدنيا؛ لأنها كانت لغير الله وعلى غير أمر الله،

والنوابت إلا العزيز الحكيم الرحيم اللطيف بعباده المستحق لكل ذل وخضوع ومحبة وإنابة وعبادة، وفي تسخير السحاب بين السماء والأرض على خفته ولطافته يحمل الماء الكثير فيسوقه الله إلى حيث شاء فيحيي به البلاد والعباد ويروي التلول والوهاد وينزله على الخلق وقت حاجتهم إليه، فإذا كان يضرهم كثرة، أمسكه عنهم فينزله رحمة ولطفًا ويصرفه عناية وعطفًا، فما أعظم سلطانه وأغزر إحسانه وألطف امتنانه، أليس من القبيح بالعباد أن يتمتعوا برزقه ويعيشوا ببره وهم يستعينون بذلك على مساخطه ومعاصيه؟ أليس ذلك دليلاً على حلمه وصبره وعفوه وصفحه وعظيم لطفه؟ فله الحمد أولاً وآخراً وباطناً وظاهراً.

والحاصل أنه كلما تدبر العاقل في هذه المخلوقات، وتغلغل فكره في بدائع المبتدعات، وازداد تأمله للصنعة وما أودع فيها من لطائف البر والحكمة علم بذلك أنها خلقت للحق وبالحق، وأنها صحائف آيات وكتب دلالات على ما أخبر به الله عن نفسه ووحدانيته، وما أخبرت به الرسل من اليوم الآخر، وأنها مسخرات ليس لها تدبير ولا استعصاء على مدبرها ومصرفها، فتعرف أن العالم العلوي والسفلي كلهم إليه مفتقرون وإليه صامدون، وأنه الغني بالذات عن جميع المخلوقات فلا إله إلا الله، ولا رب سواه.

ثم قال تعالى:

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ وَلَوْ رَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ﴾ ﴿١٦٥﴾ إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوْا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّا كُنَّا نَدْرِكُهُمْ لَسَبَّحْنَاهُمْ هُمْ كَمَا تَبَرَّأُوا مِنَّا كَذَلِكَ يَرَبُّهُمُ اللَّهُ أَعْمَلْتُمْ حَسْرَتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ ﴿١٦٧﴾.

﴿١٦٥﴾ - ﴿١٦٧﴾ ما أحسن اتصال هذه الآية بالتي قبلها، فإنه تعالى لما بين وحدانيته وأدلتها القاطعة وبراهينها الساطعة الموصلة إلى علم اليقين المزيل لكل شك ذكر هنا أن ﴿مِنَ النَّاسِ﴾ مع هذا البيان التام ﴿مَن يَتَّخِذُ﴾ من المخلوقين ﴿أَندَادًا﴾ لله؛ أي: نظراء ومثلاء يساووهم في الله بالعبادة والمحبة والتعظيم والطاعة، ومن كان بهذه الحالة - بعد إقامة الحجة وبيان التوحيد - علم أنه معاند لله، مشاق له، أو

﴿طَبَيًّا﴾؛ أي: ليس بخبيث كالميتة والدم ولحم الخنزير والخبائث كلها. ففي هذه الآية دليل على أن الأصل في الأعيان الإباحة أكلاً وانتفاعاً، وأن المحرم نوعان: إما محرم لذاته وهو الخبيث الذي هو ضد الطيب، وإما محرم لما عرض له وهو المحرم لتعلق حق الله أو حق عباده به، وهو ضد الحلال.

وفيه دليل على أن الأكل بقدر ما يقيم البنية واجب يأثم تاركه لظاهر الأمر، ولما أمرهم باتباع ما أمرهم به إذ هو عين صلاحهم نهاهم عن اتباع ﴿خُطُوبِ الشَّيْطَانِ﴾؛ أي: طرقه التي يأمر بها، وهي جميع المعاصي من كفر وفسوق وظلم، ويدخل في ذلك تحريم السواحب والحام ونحو ذلك، ويدخل فيه أيضاً تناول المأكولات المحرمة.

﴿إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾؛ أي: ظاهر العداوة فلا يريد بأمركم إلا غشكم وأن تكونوا من أصحاب السعير، فلم يكتف ربنا بنهينا عن اتباع خطواته حتى أخبرنا - وهو أصدق القائلين - بعداوته الداعية للحذر منه، ثم لم يكتف بذلك حتى أخبرنا بتفصيل ما يأمر به، وأنه أقبح الأشياء، وأعظمها مفسدة، فقال:

﴿إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِالسُّوءِ﴾؛ أي: الشر الذي يسوء صاحبه، فيدخل في ذلك جميع المعاصي فيكون قوله، ﴿وَالْفَحْشَاءَ﴾؛ من باب عطف الخاص على العام؛ لأن الفحشاء من المعاصي ما تنهاى قبحه كالزنا وشرب الخمر والقتل والقذف والبخل ونحو ذلك مما يستفحشه من له عقل ﴿وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾؛ فيدخل في ذلك القول على الله بلا علم في شرعه وقدره، فمن وصف الله بغير ما وصف به نفسه، أو وصفه به رسوله، أو نفى عنه ما أثبتته لنفسه، أو أثبت له ما نفاه عن نفسه؛ فقد قال على الله بلا علم، ومن زعم أن الله ندأ وأوثاناً تقرب من عبدها من الله فقد قال على الله تعالى بلا علم، ومن قال: إن الله أحل كذا، أو حرم كذا، أو أمر بكذا، أو نهى عن كذا بغير بصيرة، فقد قال على الله بلا علم، ومن قال: إن الله خلق هذا الصنف من المخلوقات لليلة الفلانية بلا برهان له بذلك؛ فقد قال على الله بلا علم.

ومن أعظم القول على الله بلا علم أن يتأول المتأول كلامه أو كلام رسوله على معانٍ اصطلاح عليها طائفة من طوائف الضلال، ثم يقول: إن الله أرادها، فالقول على الله

ومتعلقة بالباطل الذي لا حقيقة له فاضمحلت أعمالهم، وتلاشت أحوالهم، وتبين لهم أنهم كانوا كاذبين، وأن أعمالهم التي يؤملون نفعها وحصول نتيجتها انقلبت عليهم حسرة وندامة، وأنهم خالدون في النار لا يخرجون منها أبداً، فهل بعد هذا الخسران خسران؟ ذلك بأنهم اتبعوا الباطل فعملوا العمل الباطل ورجوا غير مرجو وتعلقوا بغير متعلق، فبطلت الأعمال ببطان متعلقة، ولما بطلت وقعت الحسرة بما فاتهم من الأمل فيها فضرتهم غاية الضرر، وهذا بخلاف من تعلق بالله الملك الحق المبين، وأخلص العمل لوجهه، ورجا نفعه فهذا قد وضع الحق في موضعه، فكانت أعماله حقاً لتعلقها بالحق، ففاز بنتيجة عمله ووجد جزاءه عند ربه غير منقطع كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلُّ أَضَلًّا﴾ (١٦٨) ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ذَلِكَ بِأَنْ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَالَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَلَهُمْ﴾ (١٦٩) [محمد: ١-٣].

وحينئذ يتمنى التابعون أن يردوا إلى الدنيا فيتبرءوا من متبوعهم بأن يتركوا الشرك بالله ويقبلوا على إخلاص العمل لله، وهيهات، فات الأمر وليس الوقت وقت إمهال وإنظار، ومع هذا فهم كذبة؛ فلو ردوا لعادوا لما نهوا عنه، وإنما هو قول يقولونه وأماي يتمنونها حقاً وغيظاً على المتبوعين لما تبرءوا منهم والذنب ذنبهم؛ فأسر المتبوعين على الشر إبليس ومع هذا يقول لأتباعه: ﴿لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعَدَ الْحَقُّ وَوَعَدُكُمْ فَاحْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُمُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ [إبراهيم: ٢٢].

﴿يَتَّبِعُهَا النَّاسُ لَكُلٌّ أَوْ مَنَّا فِي الْأَرْضِ حَلَّالًا طَبَيًّا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوبَ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ (١٦٨) ﴿إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ (١٦٩) ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوْ لَوْ كُنَّا آبَاءَهُمْ وَلَا يَعْقِلُونَ سَيِّئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ (١٧٠).

﴿١٧١﴾ هذا خطاب للناس كلهم مؤمنهم وكافرهم، فامتن عليهم بأن أمرهم أن يأكلوا من جميع ما في الأرض من حيوب وثمار وفواكه وحيوانات حالة كونها ﴿حَلَّالًا﴾؛ أي: محللاً لكم تناوله ليس بغصب ولا سرقة ولا محصلاً بمعاملة محرمة أو على وجه محرم أو معيّن على محرم.

سورة البقرة

البقرة

بلا علم من أكبر المحرمات وأشملها وأكبر طرق الشيطان التي يدعو إليها، فهذه طرق الشيطان التي يدعو إليها هو وجنوده، ويبدلون مكرهم وخداعهم على إغواء الخلق بما يقدرون عليه، وأما الله تعالى فإنه يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى.

فلينظر العبد نفسه مع أي الداعيين هو ومن أي الحزبين؟ اتبع داعي الله الذي يريد لك الخير والسعادة الدنيوية والأخروية، الذي كل الفلاح بطاعته، وكل الفوز في خدمته، وجميع الأرباح في معاملة المنعم بالنعم الظاهرة والباطنة، الذي لا يأمر إلا بالخير، ولا ينهى إلا عن الشر، أم تتبع داعي الشيطان الذي هو عدو الإنسان الذي يريد لك الشر، ويسعى بجهد على إهلاكك في الدنيا والآخرة؟ الذي كل الشر في طاعته وكل الخسران في ولايته، والذي لا يأمر إلا بشر، ولا ينهى إلا عن خير.

ثم أخبر تعالى عن حال المشركين إذا أمروا باتباع ما أنزل الله على رسوله مما تقدم وصفه ورغبوا عن ذلك وقالوا:

﴿يَلْتَمِعُ مَا لَأَفِينَا عَلَيْهِ ءَابَاءُنَا﴾ فاكثفوا بتقليد الآباء، وزهدوا في الإيمان بالأنبياء، ومع هذا فابأؤهم أجهل الناس وأشدهم ضلالاً. وهذه شبهة لرد الحق واهية، فهذا دليل على

إعراضهم عن الحق ورغبتهم عنه وعدم إنصافهم، فلو هداوا لرشدهم وحسن قصدهم لكان الحق هو القصد، ومن جعل الحق قصده، ووازن بينه وبين غيره، تبين له الحق قطعاً واتبعه إن كان منصفاً. ثم قال تعالى:

﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمُّ بُكْمٌ عُمْىٰ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾.

﴿١٧١﴾ لما بين تعالى عدم انقيادهم لما جاءت به الرسل وردهم لذلك بالتقليد علم من ذلك أنهم غير قابلين للحق ولا مستجيبين له، بل كان معلوماً لكل أحد أنهم لن يزولوا عن عنادهم، أخبر تعالى أن مثلهم عند دعاء الداعي لهم إلى الإيمان كمثل البهائم التي ينقح لها راعيها وليس لها علم بما يقول داعيها ومناديها، فهم يسمعون مجرد الصوت الذي تقوم به عليهم الحجة، ولكنهم لا يفقهونه فقهاً ينفعهم، فلهذا كانوا صمماً لا يسمعون الحق سماع فهم وقبول، عمياً لا ينظرون نظر اعتبار، بكماً فلا ينطقون بما فيه خير لهم، والسبب الموجب لذلك كله أنه ليس لهم عقل صحيح، بل هم أسفه السفهاء وأجهل الجهلاء. فهل يستريب العاقل أن من دعي إلى الرشاد، وزيد عن الفساد، ونهي عن اقتحام العذاب، وأمر بما فيه صلاحه وفلاحه وفوزه ونعيمه، فعصى الناصح، وتولى عن أمر ربه، واقتحم النار على بصيرة، واتباع الباطل ونبت الحق أن هذا ليس له مسكة من عقل، وأنه لو اتصف بالمكر والخديعة والدهاء فإنه من أسفه السفهاء.

﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ ﴿١٧٢﴾ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخَيْزِرِ وَمَا أَهْلَ بِهِ لغيرِ اللَّهِ فَمَنْ اضْطَرَّ غَيْرَ بَاجٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنْ أَلَّهَ عَفْوَ رَحِيمٌ﴾.

﴿١٧٣﴾ هذا أمر للمؤمنين خاصة بعد الأمر العام، وذلك أنهم هم المتصفون على الحقيقة بالأوامر والنواهي بسبب إيمانهم،

والتوسعة من رحمته تعالى بعباده، فلهذا ختمها بهذين الاسمين الكريمين المناسبين غاية المناسبة فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (١٧٣).

ولما كان الحل مشروطاً بهذين الشرطين، وكان الإنسان في هذه الحالة ربما لا يستقصي تمام الاستقصاء في تحقيقها، أخبر تعالى أنه غفور، فيغفر له ما أخطأ فيه في هذه الحال خصوصاً، وقد غلبته الضرورة، وأذهبت حواسه المشقة.

وفي هذه الآية دليل على القاعدة المشهورة «الضرورات تبيح المحظورات»، فكل محظور اضطر له الإنسان فقد أباحه له الملك الرحمن، فله الحمد والشكر أولاً وآخراً وظاهراً وباطناً.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنْ الْكِتَابِ وَيَشْتُرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (١٧٤) أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ ﴿١٧٥﴾ ذَلِكَ يَأْنِ لِلَّهِ أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾ (١٧٦).

﴿١٧٤﴾، ﴿١٧٥﴾ هذا وعيد شديد لمن كتم ما أنزل الله على رسله من العلم الذي أخذ الله الميثاق على أهله أن يبينوه للناس ولا يكتُموه، فمن تعوض عنه بالحطام الدنيوي ونبد أمر الله فأولئك ﴿مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ﴾؛ لأن هذا الثمن الذي اكتسبوه إنما حصل لهم بأفحج المكاسب وأعظم المحرمات، فكان جزاؤهم من جنس عملهم، ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾؛ بل قد سخط عليهم وأعرض عنهم، فهذا أعظم عليهم من عذاب النار، ﴿وَلَا يُزَكِّيهِمْ﴾؛ أي: لا يطهرهم من الأخلاق الرذيلة، وليس لهم أعمال تصلح للمدح والرضا والجزاء عليها، وإنما لم يذكهم لأنهم فعلوا أسباب عدم التزكية التي أعظم أسبابها العمل بكتاب الله والاهتداء به والدعوة إليه، فهؤلاء نبذوا كتاب الله وأعرضوا عنه واختاروا الضلالة على الهدى والعذاب على المغفرة، فهؤلاء لا يصلح لهم إلا النار، فكيف يصبرون عليها؟ وأنى لهم الجلد عليها؟

فأمرهم بأكل الطيبات من الرزق والشكر لله على إنعامه باستعمالها بطاعته والتقوي بها على ما يوصل إليه، فأمرهم بما أمر به المرسلين في قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنْ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا﴾ [المؤمنون: ٥١]؛ فالشكر في هذه الآية هو العمل الصالح، وهنا لم يقل حلالاً؛ لأن المؤمن أباح الله له الطيبات من الرزق خالصة من التبعة، ولأن إيمانه يحجزه عن تناول ما ليس له. وقوله: ﴿إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ (١٧٦)؛ أي: فاشكروه فدل على أن من لم يشكر الله لم يعبه وحده، كما أن من شكره فقد عبده وأتى بما أمر به، ويدل أيضاً على أن أكل الطيب سبب للعمل الصالح وقبوله.

والأمر بالشكر عقيب النعم، لأن الشكر يحفظ النعم الموجودة، ويجلب النعم المفقودة، كما أن الكفر ينفر النعم المفقودة، ويزيل النعم الموجودة.

﴿١٧٣﴾ ولما ذكر تعالى إباحة الطيبات ذكر تحريم الخبائث فقال: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ﴾؛ وهي: ما مات بغير تذكية شرعية؛ لأن الميتة خبيثة مضرّة لرداءتها في نفسها، ولأن الأغلب أن تكون عن مرض فيكون زيادة ضرر، واستثنى الشارع من هذا العموم ميتة الجراد وسلك البحر فإنه حلال طيب ﴿وَالذَّمَّ﴾؛ أي: المسفوح كما قيد في الآية الأخرى ﴿وَمَا أَهْلَ بِهِ يَبْرَأَ اللَّهُ﴾؛ أي ذبح لغير الله كالذي يذبح للأصنام والأوثان من الأحجار والقبور ونحوها، وهذا المذكور غير حاصر للمحرمات، وحيى به لبيان أجناس الخبائث المدلول عليها بمفهوم قوله: ﴿طَيِّبَاتٍ﴾؛ فعموم المحرمات تستفاد من الآية السابقة من قوله: ﴿حَلَالًا طَيِّبًا﴾؛ كما تقدم وإنما حرم علينا هذه الخبائث ونحوها لطفًا بنا وتنزيهاً عن المضر، ومع هذا ﴿فَمَنْ أَضْطَرَّ﴾؛ أي: ألجئ إلى المحرم بجوع وعدم أو إكراه ﴿غَيْرَ بَاغٍ﴾؛ أي: غير طالب للمحرم مع قدرته على الحلال أو مع عدم جوعه ﴿وَلَا عَادٍ﴾؛ أي: متجاوز الحد في تناول ما أبيح له اضطراراً، فمن اضطر وهو غير قادر على الحلال، وأكل بقدر الضرورة فلا يزيد عليها ﴿فَلَا إِثْمَ﴾؛ أي: جناح ﴿عَلَيْهِ﴾؛ وإذا ارتفع الإثم رجع الأمر إلى ما كان عليه، والإنسان بهذه الحالة مأمور بالأكل، بل منهي أن يلقي بيده إلى التهلكة وأن يقتل نفسه، فيجب إذاً عليه الأكل ويأثم إن ترك الأكل حتى مات فيكون قاتلاً لنفسه، وهذه الإباحة

(١٧٦)

﴿ذَلِكَ﴾؛ المذكور وهو مجازاته بالعدل ومنعه أسباب الهداية ممن أباحا واختار سواها ﴿يَأَنَّ اللَّهَ سَرَّكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ﴾؛ ومن الحق مجازاة المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته، وأيضاً ففي قوله: ﴿سَرَّكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ﴾؛ ما يدل على أن الله أنزله لهداية خلقه وتبيين الحق من الباطل والهدى من الضلال، فمن صرفه عن مقصوده فهو حقيق بأن يجازى بأعظم العقوبة، ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لِيُشَاقِقْ بَعِيدٌ﴾ (١٧٦)؛ أي: وإن الذين اختلفوا في الكتاب فآمنوا ببعضه وكفروا ببعضه، والذين حرفوه وصرفوه على أهوائهم ومراداتهم ﴿لِيُشَاقِقْ﴾؛ أي: محادة ﴿بَعِيدٌ﴾ (١٧٦)؛ من الحق، لأنهم قد خالفوا الكتاب الذي جاء بالحق الموجب للاتفاق وعدم التناقض، فمرج أمرهم، وكثر شقاقهم، وترتب على ذلك افتراقهم، بخلاف أهل الكتاب الذين آمنوا به، وحكموه في كل شيء، فإنهم اتفقوا، وارتفقوا بالمحبة والاجتماع عليه.

وقد تضمنت هذه الآيات الوعيد للكاتبين لما أنزل الله، المؤثرين عليه عرض الدنيا بالعذاب والسخط، وأن الله لا يطهرهم بالتوفيق ولا بالمغفرة. وذكر السبب في ذلك بإيثارهم الضلالة على الهدى، فترتب على ذلك اختيار العذاب على المغفرة، ثم توجع لهم بشدة صبرهم على النار

لعملهم بالأسباب التي يعلمون أنها موصلة لها، وأن الكتاب مشتمل على الحق الموجب للاتفاق عليه وعدم الافتراق، وأن كل من خالفه فهو في غاية البعد عن الحق والمنازعة والمخاصمة. والله أعلم.

﴿لَيْسَ إِلَهٌ أَنْ تُولُوا وَجُوهَكُمْ فَيَكُ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ وَلَكِنَّ إِلَهَ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَءَاتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوَى الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَأَبْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَءَاتَى الزَّكَاةَ وَالْمُؤْتُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّادِقِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ (١٧٧)

(١٧٧) يقول تعالى: ﴿لَيْسَ إِلَهٌ أَنْ تُولُوا وَجُوهَكُمْ فَيَكُ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ﴾؛ أي: ليس هذا هو البر المقصود من العباد فيكون كثرة البحث فيه والجدال من العناء الذي ليس تحته إلا الشقاق والخلاف، وهذا نظير قوله ﷺ: «ليس الشديد بالصرعة إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب»، ونحو ذلك، ﴿وَلَكِنَّ إِلَهَ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ﴾؛ أي: بأنه إله واحد موصوف بكل صفة كمال منزّه عن كل نقص ﴿وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾؛ وهو كل ما أخبر الله به في كتابه أو أخبر به الرسول مما يكون بعد الموت ﴿وَالْمَلَائِكَةِ﴾؛ الذين وصفهم الله لنا في كتابه ووصفهم رسوله ﷺ، ﴿وَالْكِتَابِ﴾؛ أي: جنس الكتب التي أنزلها الله على رسله وأعظمها القرآن فيؤمن بما تضمنته من الأخبار والأحكام. ﴿وَالْيَتَامَىٰ﴾؛ عمومًا، خصوصًا خاتمهم وأفضلهم محمد ﷺ ﴿وَأَتَى الْمَالَ﴾؛ وهو كل ما يتمول الإنسان من مال قليلاً كان أو كثيراً أي أعطى المال ﴿عَلَى حُبِّهِ﴾؛ أي: حب المال بين به أن المال محبوب للنفس فلا يكاد يخرج العبد، فمن أخرجه مع حبه له تقريباً إلى الله تعالى كان هذا برهاناً لإيمانه، ومن إيتاء المال على حبه أن يتصدق وهو صحيح شحيح يأمل الغنى ويخشى الفقر، وكذلك إذا كانت الصدقة عن قلة كان أفضل لأنه في هذه

﴿لَيْسَ إِلَهٌ أَنْ تُولُوا وَجُوهَكُمْ فَيَكُ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ وَلَكِنَّ إِلَهَ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالْيَتَامَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَأَبْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَءَاتَى الزَّكَاةَ وَالْمُؤْتُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّادِقِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ (١٧٧) ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا كِتَابَ عَلَيْكُمْ الْفَصَاصُ فِي الْقَتْلِ الْخُرْبِ وَالْخُرْبِ وَالْعَبْدِ بِالْعَبْدِ وَالْأَنْثَىٰ بِالْأَنْثَىٰ فَمَنْ عَنِ لَدُنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَأَبْعَ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَّاهُ إِلَيْهِ بِإِحْسَنٍ ذَلِكَ تَفْصِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ مِّنْ عَبْدِي بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (١٧٨) ﴿وَلَكُمْ فِي الْفَصَاصِ حَيَوةٌ يَتَأُولَى الْأَنْثَىٰ لَمَلِكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (١٧٩) ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾ (١٨٠) ﴿فَمَنْ بَدَّلَهُ بَعْدَ مَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (١٨١)

أداؤها، وحقوق العباد التي أوجبها الله عليهم والحقوق التي التزمها العبد كالأيمان والنذور ونحو ذلك.

﴿وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ﴾؛ أي: الفقر لأن الفقير يحتاج إلى الصبر من وجوه كثيرة لكونه يحصل له من الآلام القلبية والبدنية المستمرة ما لا يحصل لغيره، فإن تنعم الأغنياء بما لا يقدر عليه تألم وإن جاع أو جاعت عياله تألم، وإن أكل طعاماً غير موافق لهواه تألم، وإن عري أو كاد تألم، وإن نظر إلى ما بين يديه وما يتوهمه من المستقبل الذي يستعد له تألم، وإن أصابه البرد الذي لا يقدر على دفعه تألم، فكل هذه ونحوها مصائب يؤمر بالصبر عليها والاحتساب ورجاء الثواب من الله عليها ﴿وَالْفَرَءُ﴾؛ أي: المرض على اختلاف أنواعه من حمى وقروح ورياح ووجع عضو حتى الضرس والإصبع ونحو ذلك فإنه يحتاج إلى الصبر على ذلك، لأن النفس تضعف والبدن يألم وذلك في غاية المشقة على النفوس، خصوصاً مع تطاول ذلك، فإنه يؤمر بالصبر احتساباً لثواب الله تعالى ﴿وَيَعِزُّ الْبَاسُ﴾؛ أي: وقت القتال للأعداء المأمور بقتالهم، لأن الجلال يشق غاية المشقة على النفس ويجزع الإنسان من القتل أو الجراح أو الأسر، فاحتيج إلى الصبر في ذلك احتساباً ورجاء لثواب الله تعالى الذي منه النصر والمعونة التي وعد بها الصابرين.

﴿أُولَئِكَ﴾؛ أي: المتصفون بما ذكر من العقائد الحسنة والأعمال التي هي آثار الإيمان وبرهانه ونوره والأخلاق التي هي جمال الإنسان وحقيقة الإنسانية فأولئك ﴿الَّذِينَ صَبَرُوا﴾؛ في إيمانهم لأن أعمالهم صدقت بإيمانهم ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾؛ لأنهم تركوا المحظور وفعلوا المأمور، لأن هذه الأمور مشتملة على كل خصال الخير تضمناً ولزوماً لأن الوفاء بالعهد يدخل فيه الدين كله، ولأن العبادات المنصوص عليها في هذه الآية أكبر العبادات، ومن قام بها كان بما سواها أقوم، فهو لاء هم الأبرار الصادقون المتقون.

وقد علم ما رتب الله على هذه الأمور الثلاثة من الثواب الدنيوي والأخروي مما لا يمكن تفصيله في مثل هذا الموضع.

﴿يَتْلُهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْفَصَاصُ فِي الْقَتْلِ الْخُرِّ بِالْحَرْ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأَنْثَى بِالْأُنْثَى فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ

الحال يحب إمساكه لما يتوهمه من العدم والفقر، وكذلك إخراج النفس من المال وما يحبه من ماله كما قال تعالى: ﴿لَنْ نَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران: ٩٢]؛ فكل هؤلاء ممن أتى المال على حبه.

ثم ذكر المنفق عليهم وهم أولى الناس ببرك وإحسانك من الأقارب؛ الذين تتوقع لمصائبهم وتفرح بسرورهم الذين يتناصرون ويتعاقلون، فمن أحسن البر وأوفقه تعاقد الأقارب بالإحسان المالي والقولي على حسب قربهم وحاجتهم، ومن ﴿أَيَسَّرَ﴾؛ الذين لا كاسب لهم وليس لهم قوة يستغنون بها، وهذا من رحمته تعالى بالعباد الدالة على أنه تعالى أرحم بهم من الوالد بولده، فالله قد أوصى العباد وفرض عليهم في أموالهم الإحسان إلى من فقد أبائهم ليصيروا كمن لم يفقد والديه، ولأن الجزاء من جنس العمل فمن رحم يقيم غيره رُحِمَ يتيمة.

﴿وَالْمَسْكِينِ﴾؛ وهم الذين أسكتهم الحاجة وأذلهم الفقر فلهم حق على الأغنياء بما يدفع مسكتهم أو يخففها بما يقدرون عليه وبما يتيسر. ﴿وَأَبْنِ السَّبِيلِ﴾؛ وهو الغريب المنقطع به في غير بلده. فحث الله عباده على إعطائه من المال ما يعينه على سفره لكونه مظنة الحاجة وكثرة المصارف، فعلى من أنعم الله عليه بوطنه وراحته وخوله من نعمته أن يرحم أخاه الغريب الذي بهذه الصفة على حسب استطاعته ولو بتزويده أو إعطائه آلة لسفره أو دفع ما ينويه من المظالم وغيرها. ﴿وَالسَّائِلِينَ﴾؛ أي: الذين تعرض لهم حاجة من الحوائج توجب السؤال، كمن ابتلي بأرش جنائية أو ضريبة عليه من ولاية الأمور، أو يسأل الناس لتعمير المصالح العامة كالمساجد والمدارس والقناطر ونحو ذلك فهذا له الحق وإن كان غنياً. ﴿وَفِي الرِّقَابِ﴾؛ فيدخل فيه العتق والإعانة عليه وبذل مال للمكاتب ليوفي سيده، وفداء الأسراء عند الكفار أو عند الظلمة.

﴿وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَءَاتَى الزَّكَاةَ﴾؛ قد تقدم مراراً أن الله تعالى يقرن بين الصلاة والزكاة لكونهما أفضل العبادات، وأكمل القربات؛ عبادات قلبية وبدنية ومالية، وبهما يوزن الإيمان ويعرف ما مع صاحبه من الإيقان، ﴿وَالْمُؤْتُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا﴾؛ والعهد هو الالتزام بإلزام الله أو إلزام العبد لنفسه فدخل في ذلك حقوق الله كلها، لكون الله ألزم بها عباده والتزموها، ودخلوا تحت عهدها ووجب عليهم

من غير مظل ولا نقص ولا إساءة فعلية أو قولية، فهل جزاء الإحسان إليه بالعفو إلا الإحسان بحسن القضاء، وهذا مأمور به في كل ما ثبت في ذم الناس للإنسان، مأمور من له الحق بالاتباع بالمعروف، ومن عليه الحق بالأداء بالإحسان، وفي قوله: ﴿فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ﴾؛ ترقيق وحث على العفو إلى الدية وأحسن من ذلك العفو مجاناً.

وفي قوله: ﴿أَخِي﴾؛ دليل على أن القاتل لا يكفر لأن المراد بالأخوة هنا أخوة الإيمان فلم يخرج بالقتل منها ومن باب أولى أن سائر المعاصي التي هي دون الكفر لا يكفر بها فاعلمها وإنما ينقص بذلك إيمانه، وإذا عفا أولياء المقتول أو عفا بعضهم احتقن دم القاتل وصار معصوماً منهم ومن غيرهم، ولهذا قال: ﴿فَمَنْ أَعْتَدَى بِكَ ذَلِكَ﴾؛ أي: بعد العفو، ﴿فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾؛ أي في الآخرة، وأما قتله وعدمه فيؤخذ مما تقدم لأنه قتل مكافئاً له فيجب قتله بذلك، وأما من فسر العذاب الأليم بالقتل، وأن الآية تدل على أنه يتعين قتله ولا يجوز العفو عنه، وبذلك قال بعض العلماء، والصحيح الأول لأن جنايته لا تزيد على جناية غيره.

ثم بين تعالى حكمته العظيمة في مشروعية القصاص فقال:

﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ﴾؛ أي: تنحقق بذلك الدماء وتنمتع به الأشقياء، لأن من عرف أنه مقتول إذا قتل لا يكاد يصدر منه القتل، وإذا رثي القاتل مقتولاً اندفع بذلك غيره وانزجر، فلو كانت عقوبة القاتل غير القتل لم يحصل انكفاف الشر الذي يحصل بالقتل، وهكذا سائر الحدود الشرعية فيها من النكاية والانزجار ما يدل على حكمة الحكيم الغفار. ونكر الحياة لإفادة التعظيم والتكثير، ولما كان هذا الحكم لا يعرف حقيقته إلا أهل العقول الكاملة والألباب الثقيلة خصهم بالخطاب دون غيرهم، وهذا يدل على أن الله تعالى يحب من عباده أن يعملوا أفكارهم وعقولهم في تدبر ما في أحكامه من الحكم والمصالح الدالة على كماله وكمال حكمته وحمده وعدله ورحمته الواسعة، وأن من كان بهذه المثابة فقد استحق المدح بأنه من ذوي الألباب الذين وجه إليهم الخطاب وناداهم رب الأرباب، وكفى بذلك فضلاً وشرفاً لقوم يعقلون.

وقوله: ﴿لَكُمْ تَتَّقُونَ﴾؛ وذلك أن من عرف ربه، وعرف ما في دينه وشرعه من الأسرار العظيمة

شئاً فأنبأ بالمعروف وأداءً إليه بإحسنى ذلك تخفيف من ربكم ورحمة فمن اعتدى بعد ذلك فله عذاب أليم ﴿١٧٨﴾ ولكم في القصاص حياة يتأولي الألباب لكم تَتَّقُونَ ﴿١٧٩﴾.

﴿١٧٨﴾ يمتن تعالى على عباده المؤمنين بأنه فرض عليهم ﴿الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ﴾؛ أي: المساواة فيه، وأن يقتل القاتل على الصفة التي قتل عليها المقتول، إقامة للعدل والقسط بين العباد، وتوجيه الخطاب لعموم المؤمنين فيه دليل على أنه يجب عليهم كلهم حتى أولياء القاتل حتى القاتل بنفسه إعانة ولي المقتول إذا طلب القصاص، وتمكينه من القاتل، وأنه لا يجوز لهم أن يحولوا بين هذا الحد، ويمنعوا الولي من الاقتصاص كما عليه عادة الجاهلية ومن أشبههم من إيواء المحدثين.

ثم بين تفصيل ذلك فقال: ﴿الْحَرْبُ بِلَاغٌ﴾؛ يدخل بمنطوقها الذكر بالذكر، والأنثى بالأنثى، والأنثى بالذكر والذكر بالأنثى، فيكون منطوقها مقدماً على مفهوم قوله: الأنثى بالأنثى مع دلالة السنة على أن الذكر يقتل بالأنثى، وخرج من عموم هذا الأبوان وإن علوا فلا يقتلان بالولد لورود السنة بذلك مع أن في قوله: ﴿الْقِصَاصُ﴾؛ ما يدل على أنه ليس من العدل أن يقتل الوالد بولده، ولأن ما في قلب الوالد من الشفقة والرحمة ما يمنعه من القتل لولده إلا بسبب اختلال في عقله أو أذية شديدة جداً من الولد له، وخرج من العموم أيضاً الكافر بالسنة مع أن الآية في خطاب المؤمنين خاصة، وأيضاً فليس من العدل أن يقتل ولي الله بعدوه، ﴿وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ﴾؛ ذكر كان أو أنثى تساوت قيمتهما أو اختلفت، ودل بمفهومها على أن الحر لا يقتل بالعبد لكونه غير مساوٍ له، ﴿وَالْأَنْثَى بِالْأَنْثَى﴾؛ أخذ بمفهومها بعض أهل العلم فلم يجز قتل الرجل بالمرأة، وتقدم وجه ذلك.

وفي هذه الآية دليل على أن الأصل وجوب القود في القتل وأن الدية بدل عنه، فلهذا قال: ﴿فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ﴾؛ أي: عفا ولي المقتول عن القاتل إلى الدية أو عفا بعض الأولياء فإنه يسقط القصاص وتجب الدية وتكون الخيرة في القود واختيار الدية إلى الولي، فإذا عفا عنه، وجب على الولي؛ أي ولي المقتول أن يتبع القاتل، ﴿بِالْمَعْرُوفِ﴾؛ من غير أن يشق عليه ولا يحمله ما لا يطيق، بل يحسن الاقتضاء والطلب ولا يخرجه. وعلى القاتل أداء ﴿إِلَيْهِ بِإِحْسَنِ﴾؛

والحكم البديعة والآيات الرفيعة أوجب له ذلك أن يتقاد لأمر الله، ويعظم معاصيه فيتركها؛ فيستحق بذلك أن يكون من المتقين.

﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةَ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ ﴾ (١٨١) ﴿ فَمَنْ بَدَّلَهُ بَعْدَ مَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ (١٨٢) ﴿ فَمَنْ خَافَ مِنْ مُوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ (١٨٣).

(١٨١) أي: فرض الله عليكم يا معشر المؤمنين ﴿ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ ﴾؛ أي: أسبابه كالمرض المشرف على الهلاك وحضور أسباب المهلاك وكان قد ﴿ تَرَكَ خَيْرًا ﴾؛ وهو المال الكثير عرفاً فعليه أن يوصي لوالديه وأقرب الناس إليه بالمعروف على قدر حاله من غير سرف ولا اقتصار على الأبعد دون الأقرب، بل يرتبهم على القرب والحاجة ولهذا أتى فيه بأفعل التفضيل، وقوله: ﴿ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ ﴾؛ دل على وجوب ذلك، لأن الحق هو الثابت، وقد جعله الله من موجبات التقوى.

واعلم أن جمهور المفسرين يرون أن هذه الآية منسوخة

بآية الموارث، وبعضهم يرى أنها في الوالدين والأقربين غير الوارثين، مع أنه لم يدل على التخصيص بذلك دليل، والأحسن في هذا أن يقال: إن هذه الوصية للوالدين والأقربين مجملة ردها الله تعالى إلى العرف الجاري، ثم إن الله تعالى قدر للوالدين الوارثين وغيرهما من الأقارب الوارثين هذا المعروف في آيات الموارث بعد أن كان مجملًا، وبقي الحكم فيمن لم يرثوا من الوالدين الممنوعين من الإرث وغيرهما ممن حجب بشخص أو وصف، فإن الإنسان مأمور بالوصية لهؤلاء وهم أحق الناس ببره، وهذا القول تتفق عليه الأمة، ويحصل به الجمع بين القولين المتقدمين، لأن كلا من القائلين بهما كل منهما لحظ ملحظًا واختلف المورد، فبهذا الجمع يحصل الاتفاق والجمع بين الآيات، فإنه مهما أمكن الجمع كان أحسن من ادعاء النسخ الذي لم يدل عليه دليل صحيح.

ولما كان الموصي قد يمتنع من الوصية لما يتوهمه أن من بعده قد يبدل ما وصى به قال تعالى:

(١٨١) ﴿ فَمَنْ بَدَّلَهُ ﴾؛ أي: الإيضاء للمذكورين أو غيرهم ﴿ بَعْدَ مَا سَمِعَهُ ﴾؛ أي: بعد ما عقله وعرف طريقه وتنفيذه ﴿ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ ﴾؛ وإلا فالموصي وقع أجره على الله، وإنما الإثم على المبدل المغير ﴿ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ ﴾؛ يسمع سائر الأصوات ومنه سماعه لمقالة الموصي ووصيته فينبغي له أن يراقب من يسمعه ويراه وألا يجور في وصيته، ﴿ عَلِيمٌ ﴾؛ يبينه وعليم بعمل الموصي إليه، فإذا اجتهد الموصي، وعلم الله من نيته ذلك أثابه ولو أخطأ، وفيه التحذير للموصي إليه من التبديل، فإن الله عليم به مطلع على ما فعله فليحذر من الله، هذا حكم الوصية العادلة، وأما الوصية التي فيها حيف وجنف وإثم فينبغي لمن حضر الموصي وقت الوصية بها أن ينصحه بما هو الأحسن والأعدل، وأن ينهيه عن الجور والجنف وهو الميل بها عن خطأ من غير تعمد، والإثم وهو التعمد لذلك، فإن لم يفعل ذلك فينبغي له أن يصلح بين الموصي إليهم ويتوصل إلى العدل بينهم على وجه التراضي والمصالحة ووعظهم بترثة ذمة ميتهم، فهذا قد فعل معروفًا عظيمًا، وليس

الجزء الثاني
سورة البقرة
فَمَنْ خَافَ مِنْ مُوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٨٣﴾ يَتَّيْهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَكُمْ تَنَقُّونَ ﴿١٨٤﴾ أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٥﴾ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَيْتُمْ وَلِعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٨٦﴾ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٧﴾

عليه لعلمه باطلاع الله عليه، ومنها: أن الصيام يضيق مجاري الشيطان فإنه يجري من ابن آدم مجرى الدم فبالصيام يضعف نفوذه وتقل منه المعاصي، ومنها: أن الصائم في الغالب تكثر طاعته والطاعات من خصال التقوى، ومنها: أن الغني إذا ذاق ألم الجوع أوجب له ذلك مواساة الفقراء المعدمين. وهذا من خصال التقوى.

﴿١٨٤﴾ ولما ذكر أنه فرض عليهم الصيام أخبر أنه أيام معدودات أي قليلة في غاية السهولة ثم سهل تسهلاً آخر فقال: ﴿فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾؛ وذلك للمشقة في الغالب رخص الله لهما في الفطر، ولما كان لا بد من حصول مصلحة الصيام لكل مؤمن أمرهما أن يقضياه في أيام أخر إذا زال المرض وانقضى السفر وحصلت الراحة، وفي قوله: ﴿فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾؛ فيه دليل على أنه يقضي عدد أيام رمضان كاملاً كان أو ناقصاً وعلى أنه يجوز أن يقضي أياماً قصيرة باردة عن أيام طويلة حارة كالعكس، وقوله: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ﴾؛ أي: يطيقون الصيام ﴿فَدِيَّةٌ﴾؛ عن كل يوم يفطرونه ﴿طَعَامٌ مَسْكِينٍ﴾؛ وهذا في ابتداء فرض الصيام لما كانوا غير معتادين للصيام وكان فرضه حتماً فيه مشقة عليهم درجهم الرب الحكيم بأسهل طريق، وخير المطيق للصوم بين أن يصوم وهو أفضل أو يطعم ولهذا قال: ﴿وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ﴾؛ ثم بعد ذلك جعل الصيام حتماً على المطيق، وغير المطيق يفطر ويقضيه في أيام أخر، وقيل: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ﴾؛ أي يتكلفونه، ويشق عليهم مشقة غير محتملة كالشيخ الكبير، فدية عن كل يوم مسكين، وهذا هو الصحيح.

﴿١٨٥﴾ ﴿شَهْرَ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾؛ أي: الصوم المفروض عليكم هو شهر رمضان الشهر العظيم الذي قد حصل لكم فيه من الله الفضل العظيم، وهو القرآن الكريم المشتمل على الهداية لمصالحكم الدينية والدنيوية وتبيين الحق بأوضح بيان، والفرقان بين الحق والباطل والهدى والضلال وأهل السعادة وأهل الشقاوة، فحقيق بشهر هذا فضله، وهذا إحسان الله عليكم فيه، أن يكون موسماً للعباد مفروضاً فيه الصيام، فلما قرره وبين فضيلته وحكمة الله تعالى في تخصيصه قال: ﴿فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ اشْهَرٌ فَلْيَصُمْهُ﴾؛ هذا فيه تعيين الصيام على القادر الصحيح الحاضر، ولما كان النسخ للتخيير بين الصيام والفداء خاصة، أعاد الرخصة للمريض والمسافر لثلاث يتوهم أن الرخصة

عليه إثم كما على مبدل الوصية الجائزة ولهذا قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ﴾؛ أي: يغفر جميع الزلات ويصفح عن التبعات لمن تاب إليه، ومنه مغفرته لمن غص من نفسه وترك بعض حقه لأخيه، لأن من سامح سامحه الله، غفور لميتهم الجائر في وصيته إذا احتسبوا بمسامحة بعضهم بعضاً لأجل براءة ذمته، ﴿رَجِيمٌ﴾؛ بعباده حيث شرع لهم كل أمر به يتراحمون ويتعاطفون.

فدلت هذه الآيات على الحث على الوصية وعلى بيان من هي له وعلى وعيد المبدل للوصية العادلة والترغيب في الإصلاح في الوصية الجائزة.

﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ ﴿١٨٦﴾ ﴿أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مَسْكِينٍ فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرٌ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ ﴿١٨٧﴾ ﴿شَهْرَ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ اشْهَرٌ فَلْيَصُمْهُ وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَيْتُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ ﴿١٨٨﴾

﴿١٨٦﴾ يخبر تعالى بما من الله به على عباده بأنه فرض عليهم الصيام كما فرضه على الأمم السابقة؛ لأنه من الشرائع والأوامر التي هي مصلحة للخلق في كل زمان، وفيه تشييط لهذه الأمة بأنه ينبغي لكم أن تنافسوا غيركم في تكميل الأعمال والمصارعة إلى صالح الخصال، وأنه ليس من الأمور الثقيلة التي اختصصتم بها.

ثم ذكر تعالى حكمته في مشروعية الصيام فقال: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ ﴿١٨٦﴾؛ فإن الصيام من أكبر أسباب التقوى؛ لأن فيه امتثال أمر الله واجتناب نهيه، فمما اشتمل عليه من التقوى أن الصائم يترك ما حرم الله عليه من الأكل والشرب والجماع ونحوها التي تميل إليها نفسه متقرباً بذلك إلى الله راجياً بتركها ثوابه، فهذا من التقوى، ومنها: أن الصائم يدرّب نفسه على مراقبة الله تعالى فيترك ما تهوى نفسه مع قدرته

سورة البقرة

الحمد لله

أَحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفْتُ إِلَىٰ نِسَائِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَا تَبْشِرُوا بِهِ هُوَ غَفُورٌ رَحِيمٌ وَابْتَغُوا مِمَّا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّىٰ يَبَيِّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتُوا الصِّيَامَ إِلَىٰ الْآيِلِ وَلَا تَبْشِرُوا بِهِ أَنْتُمْ عَدُوٌّ لَكُمْ فِي الْمَسْجِدِ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ اللَّهُ فَعَلَا تَقْرُبُوهَا كَذَلِكَ يَبَيِّنُ اللَّهُ ءَايَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٨٧﴾ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْمُكَامَرِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٨﴾ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْآيَةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مِنَ اتَّقَىٰ وَأَتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَأَقْفُوا أَلْفًا لَكُمْ لَكُمْ نَفْسُكُمْ قُلْ حَتَّىٰ يُفْلِحَكُمُ ﴿١٨٩﴾ وَفَقِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقْتُلُونَكُمْ وَلَا تَقْتُلُوا أُولَئِكَ اللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٩٠﴾

٢٩

أَيْضًا مَنْسُوخَةٌ فَقَالَ: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمْ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمْ الْعُسْرَ﴾؛ أي: يريد الله تعالى أن يسر عليكم الطرق الموصلة إلى رضوانه أعظم تيسير ويسهلها أبلغ تسهيل، ولهذا كان جميع ما أمر الله به عباده في غاية السهولة في أصله، وإذا حصلت بعض العوارض الموجبة لثقله سهله تسهيلًا آخر؛ إما بإسقاطه أو تخفيفه بأنواع التخفيفات، وهذه جملة لا يمكن تفصيلها، لأن تفاصيلها جميع الشرعيات، ويدخل فيها جميع الرخص والتخفيفات.

﴿وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ﴾؛ وهذا والله أعلم لثلاث يتوهم متوهم أن صيام رمضان يحصل المقصود منه ببعضه، دفع هذا الوهم بالأمر بتكميل عدته، ويشكر الله تعالى عند إتمامه على توفيقه وتسهيله وتبيينه لعباده وبالتكبير عند انقضائه، ويدخل في ذلك التكبير عند رؤية هلال شوال إلى فراغ خطبة العيد.

﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ ﴿١٨٦﴾

﴿١٨٦﴾ هذا جواب سؤال. سأل النبي ﷺ بعض أصحابه فقالوا: يا رسول الله، أقرب ربنا فتناجيه، أم بعيد فتناجيه؟

فتزل ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾؛ لأنه تعالى الرقيب الشهيد المطلع على السر وأخفى يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور فهو قريب أيضًا من داعيه بالإجابة، ولهذا قال: ﴿أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾؛ والدعاء نوعان: دعاء عبادة، ودعاء مسألة.

والقرب نوعان: قرب بعلمه من كل خلقه، وقرب من عابديه وداعيه بالإجابة والمعونة والتوفيق.

فمن دعا ربه بقلب حاضر ودعاء مشروع ولم يمنع مانع من إجابة الدعاء كأكل الحرام ونحوه فإن الله قد وعده بالإجابة، وخصوصًا إذا أتى بأسباب إجابة الدعاء وهي الاستجابة لله تعالى بالانقياد لأوامره ونواهيه القولية والفعلية والإيمان به الموجب للاستجابة، فلهذا قال: ﴿فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ ﴿١٨٦﴾؛ أي: يحصل لهم الرشd الذي هو الهداية للإيمان والأعمال الصالحة ويزول عنهم الغي المنافي للإيمان والأعمال الصالحة، ولأن الإيمان بالله والاستجابة لأمره سبب لحصول العلم كما قال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ تَقُولُوا اللَّهُ يَجْعَلُ لَكُمْ فُرْقَانًا﴾ [الأنفال: ٢٩]. ثم قال تعالى:

﴿أَحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفْتُ إِلَىٰ نِسَائِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَا تَبْشِرُوا بِهِ هُوَ غَفُورٌ رَحِيمٌ وَابْتَغُوا مِمَّا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّىٰ يَبَيِّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتُوا الصِّيَامَ إِلَىٰ الْآيِلِ وَلَا تَبْشِرُوا بِهِ أَنْتُمْ عَدُوٌّ لَكُمْ فِي الْمَسْجِدِ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ اللَّهُ فَعَلَا تَقْرُبُوهَا كَذَلِكَ يَبَيِّنُ اللَّهُ ءَايَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ ﴿١٨٧﴾

﴿١٨٧﴾ كان في أول فرض الصيام يحرم على المسلمين الأكل والشرب والجماع في الليل بعد النوم، فحصلت المشقة

القربان يشمل النهي عن فعل المحرم بنفسه، والنهي عن وسائله الموصلة إليه.

والعبد مأمور بترك المحرمات والبعد منها غاية ما يمكنه، وترك كل سبب يدعو إليها، وأما الأوامر فيقول الله فيها: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْدُوهَا﴾ فينها عن مجاوزتها ﴿كَذَلِكَ﴾ أي: بين الله لعباده الأحكام السابقة أتم تبين، وأوضحها لهم أكمل إيضاح ﴿يُنَبِّئُ اللَّهُ عَائِيَتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٨٧] فإنهم إذا بان لهم الحق اتبعوه، وإذا تبين لهم الباطل اجتنبوه، فإن الإنسان قد يفعل المحرم، على وجه الجهل بأنه محرم ولو علم تحريمه لم يفعله، فإذا بين الله للناس آياته؛ لم يبق لهم عذر ولا حجة، فكان ذلك سبباً للتقوى.

﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾

﴿أي: ولا تأخذوا أموالكم أي: أموال غيركم، أضافه إليهم؛ لأنه ينبغي للمسلم أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه، ويحترم ماله كما يحترم ماله، ولأن أكله لمال غيره يجري غيره على أكل ماله عند القدرة، ولما كان أكلها نوعين: نوعاً بحق ونوعاً بباطل، وكان المحرم إنما هو أكلها بالباطل قيده تعالى بذلك، ويدخل بذلك أكلها على وجه الغصب والسرقة والخيانة في ودعية أو عارية أو نحو ذلك، ويدخل فيه أيضاً أخذها على وجه المعاوضة بمعاوضة محرمة، كعقود الربا والقمار كلها فإنها من أكل المال بالباطل، لأنه ليس في مقابلة عوض مباح، ويدخل في ذلك أخذها بسبب غش في البيع والشراء والإجارة ونحوها، ويدخل في ذلك استعمال الأجراء وأكل أجرتهم، وكذلك أخذهم أجره على عمل لم يقوموا بواجبه، ويدخل في ذلك أخذ الأجرة على العبادات والقربات التي لا تصح حتى يقصد بها وجه الله تعالى، ويدخل في ذلك الأخذ من الزكوات والصدقات والأوقاف والوصايا، لمن ليس له حق منها أو فوق حقه، فكل هذا ونحوه من أكل المال بالباطل، فلا يحل ذلك بوجه من الوجوه حتى ولو حصل فيه النزاع والارتفاع إلى حاكم الشرع، وأدلى من يريد أكلها بالباطل بحجة غلبت حجة المحق، وحكم له الحاكم بذلك، فإن حكم الحاكم لا يبيح محرماً ولا يحلل حراماً، إنما يحكم على نحو مما يسمع، وإلا فحقائق الأمور باقية، فليس في حكم الحاكم للمبطل راحة ولا شبهة ولا استراحة، فمن

لبعضهم، فخفف الله تعالى عنهم ذلك وأباح في ليالي الصيام كلها الأكل والشرب والجماع، سواء نام أو لم ينم، لكونهم يختانون أنفسهم بترك بعض ما أمروا به، ﴿فَتَأْتِ﴾ الله ﴿عَلَيْتُكُمْ﴾؛ بأن وسع لكم أمراً كان لولا توسعته موجباً للإثم، ﴿وَعَفَا عَنْكُمْ﴾؛ ما سلف من التخون ﴿فَأَلْقَى﴾؛ بعد هذه الرخصة والسعة من الله ﴿بِكَيْشْرُوهُمْ﴾؛ وطناً وقبله ولمساً وغير ذلك ﴿وَأَتَّعُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾؛ أي: انووا في مباشرتكم لزوجاتكم التقرب إلى الله تعالى، والمقصود الأعظم من الوطء، وهو حصول الذرية وإعفاف فرجه وفرج زوجته، وحصول مقاصد النكاح، ومما كتب الله لكم ليلة القدر الموافقة لليالي صيام رمضان، فلا ينبغي لكم أن تشتغلوا بهذه اللذة عنها وتضيعوها، فاللذة مدركة وليلة القدر إذا فاتت لم تدرك.

﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَبَيِّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ﴾؛ هذا غاية للأكل والشرب والجماع، وفيه أنه إذا أكل ونحوه شاكاً في طلوع الفجر فلا بأس عليه، وفيه دليل على استحباب السحور للأمر، وأنه يستحب تأخيرها، أخذاً من معنى رخصة الله وتسهيله على العباد، وفيه أيضاً دليل على أنه يجوز أن يدركه الفجر وهو جنب من الجماع قبل أن يغتسل، ويصح صيامه؛ لأن لازم إباحة الجماع إلى طلوع الفجر، أن يدركه الفجر وهو جنب، ولازم الحق حق ﴿ثُمَّ﴾؛ إذا طلع الفجر ﴿أَتِمُّوا الصِّيَامَ﴾؛ أي: الإمساك عن المفطرات ﴿إِلَى الْآتِلِ﴾؛ وهو غروب الشمس، ولما كان إباحة الوطء في ليالي الصيام ليست بإباحة عامة لكل أحد، فإن المعتكف لا يحل له ذلك استثناء بقوله: ﴿وَلَا تُبَشِّرُوهُمْ﴾ وأنتم عنكفون في المسجد؛ أي: وأنتم متصفون بذلك.

ودلت الآية على مشروعية الاعتكاف وهو لزوم المسجد لطاعة الله تعالى وانقطاعاً إليه، وأن الاعتكاف لا يصح إلا في مسجد، ويستفاد من تعريف المساجد أنها المساجد المعروفة عندهم، وهي التي تقام فيها الصلوات الخمس، وفيه أن الوطء من مفسدات الاعتكاف.

تلك المذكورات وهو تحريم الأكل والشرب والجماع، ونحوه من المفطرات في الصيام، وتحريم الفطر على غير المعذور، وتحريم الوطء على المعتكف، ونحو ذلك من المحرمات ﴿حُدُودُ اللَّهِ﴾؛ التي حدّها لعباده ونهاهم عنها فقال: ﴿فَلَا تَقْرُبُوهَا﴾؛ أبلغ من قوله فلا تفعلوها؛ لأن

أدلى إلى الحاكم بحجة باطلة، وحكم له بذلك فإنه لا يحل له، ويكون أكلاً لمال غيره بالباطل والإثم، وهو عالم بذلك فيكون أبغ في عقوبته وأشد في نكاله.

وعلى هذا؛ فالوكيل إذا علم أن موكله مبطل في دعواه لم يحل له أن يخاصم عن الخائن كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِبِينَ خَصِيماً﴾ [النساء: ١٠٥].

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مِنْ اتَّقَى وَأَتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَأَتَقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [١٨٩].

﴿١٨٩﴾ فقله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلِ؟﴾ - جمع هلال - ما فائدتها وحكمتها أو عن ذاتها؟ ﴿قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ﴾؛ أي: جعلها الله تعالى بلطفه ورحمته على هذا التدبير، يبدو الهلال ضعيفاً في أول الشهر، ثم يتزايد إلى نصفه، ثم يشرع في النقص إلى كماله، وهكذا يعرف الناس بذلك مواقيت عباداتهم؛ من الصيام وأوقات الزكاة والكفارات وأوقات الحج، ولما كان الحج يقع في أشهر معلومات، ويستغرق أوقاتاً كثيرة قال: ﴿وَالْحَجِّ﴾؛ وكذلك تعرف بذلك أوقات الديون المؤجلات، ومدة الإجازات ومدة العدد والحمل، وغير ذلك مما هو من حاجات الخلق، فجعله تعالى حساباً يعرفه كل أحد من صغير وكبير وعالم وجاهل، فلو كان الحساب بالسنة الشمسية لم يعرفه إلا النادر من الناس.

﴿وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا﴾؛ وهذا كما كان الأنصار وغيرهم من العرب إذا أحرموا لم يدخلوا البيوت من أبوابها؛ تعبدًا بذلك وظناً أنه بر، فأخبر تعالى أنه ليس من البر؛ لأن الله تعالى لم يشرعه لهم، وكل من تعبد بعبادة لم يشرعها الله ولا رسوله فهو متعبد ببدعة، وأمرهم أن يأتوا البيوت من أبوابها؛ لما فيه من السهولة عليهم التي هي قاعدة من قواعد الشرع.

ويستفاد من إشارة الآية أنه ينبغي في كل أمر من الأمور أن يأتيه الإنسان من الطريق السهل القريب الذي قد جعل له موصلاً، فالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ينبغي أن ينظر في حالة المأمور، ويستعمل معه الرفق والسياسة التي بها يحصل المقصود أو بعضه، والمتعلم والمعلم ينبغي أن يسلك أقرب طريق وأسهله يحصل به مقصوده، وهكذا كل من حاول أمراً من الأمور، وأثابه من أبوابه، وثابر عليه فلا بد أن يحصل له المقصود بعون الملك المعبود.

﴿وَأَتَقُوا اللَّهَ﴾؛ هذا هو البر الذي أمر الله به، وهو لزوم تقواه على الدوام بامتثال أوامره واجتناب نواهيه، فإنه سبب للفلاح الذي هو الفوز بالمطلوب والنجاة من المرهوب، فمن لم يتق الله تعالى لم يكن له سبيل إلى الفلاح، ومن اتقاه فاز بالفلاح والنجاح.

﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعَدِّينَ﴾ [١٩٠] ﴿وَأَقْتُلُوا حَيْثُ تَقْتُلُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا تَقَاتِلُوا عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلَكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَتَلْتُمْ فَأَقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ

سورة البقرة

الْمُحَرَّمَاتِ

وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ تَقْتُلُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا تَقَاتِلُوا عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلَكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَتَلْتُمْ فَأَقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴿١٩١﴾ فَإِنْ أَنْهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٩٢﴾ وَتَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنْ أَنْهَوْا فَلَا عُدْوَانَ عَلَيْنَا الظَّالِمِينَ ﴿١٩٣﴾ الشَّهْرِ الْحَرَامِ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَتُ قِصَاصٌ مَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴿١٩٤﴾ وَأَنِفُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تَقْلُوا بَأْيَدِكُمْ إِلَى الْهَلَكََةِ وَأَخْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٩٥﴾ وَأَتُوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ فَإِنْ أُخْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ وَلَا تَحْلِفُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحَلَّهُ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِنْ رَأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَمَنْ تَمَنَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامٌ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فَمَنْ لَمْ يَفْعَلْ سَبْعَةً إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشْرَةٌ كَامِلَةٌ ذَلِكَ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلَهُ حَاصِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿١٩٦﴾

جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴿١٩١﴾ فَإِنْ أَنْهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٩٢﴾ وَقَتْلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنْ أَنْهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿١٩٣﴾.

﴿١٩١﴾ هذه الآيات تتضمن الأمر بالقتال في سبيل الله، وهذا كان بعد الهجرة إلى المدينة، لما قوي المسلمون للقتال أمرهم الله به بعدما كانوا مأمورين بكف أيديهم، وفي تخصيص القتال ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾؛ حث على الإخلاص ونهي عن الاقتتال في الفتن بين المسلمين، ﴿الَّذِينَ يَقْتُلُونَكَ﴾؛ أي: الذين هم مستعدون لقتلكم، وهم المكلفون الرجال غير الشيوخ الذين لا رأي لهم ولا قتال.

والنهي عن الاعتداء يشمل أنواع الاعتداء كلها من قتل من لا يقاتل من النساء والمجانين والأطفال والرهبان ونحوهم، والتمثيل بالقتلى وقتل الحيوانات وقطع الأشجار ونحوها، لغير مصلحة تعود للمسلمين، ومن الاعتداء مقاتلة من تقبل منهم الجزية، إذا بذلوا، فإن ذلك لا يجوز.

﴿١٩٢﴾، ﴿١٩٣﴾ وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ تَقْبَلُونَهُمْ؛ هذا أمر بقتالهم أينما وجدوا في كل وقت وفي كل زمان قتال مدافعة وقتال مهاجمة، ثم استثنى من هذا العموم قتالهم ﴿عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾؛ وأنه لا يجوز إلا أن يبدعوا بالقتال فإنهم يقاتلون جزاء لهم على اعتدائهم، وهذا مستمر في كل وقت حتى يتنهدوا عن كفرهم فيسلموا، فإن الله يتوب عليهم ولو حصل منهم ما حصل من الكفر بالله والشرك في المسجد الحرام وصد الرسول والمؤمنين عنه، وهذا من رحمته وكرمه بعباده. ولما كان القتال عند المسجد الحرام يتوهم أنه مفسدة في هذا البلد الحرام أخبر تعالى أن المفسدة بالفتنة عنده بالشرك والصد عن دينه أشد من مفسدة القتل، فليس عليكم أيها المسلمون حرج في قتالهم.

ويستدل في هذه الآية على القاعدة المشهورة، وهي أنه يرتكب أخف المفسدتين لدفع أعلاهما.

﴿١٩٣﴾ ثم ذكر تعالى المقصود من القتال في سبيله، وأنه ليس المقصود به سفك دماء الكفار وأخذ أموالهم، ولكن المقصود به أن ﴿يَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ﴾ تعالى، فيظهر دين الله تعالى على سائر الأديان، ويدفع كل ما يعارضه من الشرك وغيره وهو المراد بالفتنة، فإذا حصل هذا المقصود فلا قتل ولا قتال. ﴿فَإِنْ أَنْهَوْا﴾؛ عن قتالكم عند المسجد الحرام،

﴿فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ﴾؛ أي: فليس عليهم منكم اعتداء إلا من ظلم منهم؛ فإنه يستحق المعاقبة بقدر ظلمه.

﴿الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَتُ قِصَاصٌ فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَأَعْدُوا عَلَيْهِ يُمِثَلْ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَأَتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّادِقِينَ﴾.

﴿١٩٤﴾ يقول تعالى: ﴿الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ﴾ يحتمل أن يكون المراد به ما وقع من صد المشركين للنبي ﷺ وأصحابه عام الحديبية عن الدخول لمكة وقاضوهم على دخولها من قابل، وكان الصد والقضاء في شهر حرام وهو ذو القعدة فيكون هذا بهذا، فيكون فيه تطيب لقلوب الصحابة بتمام نسكهم وكمالهم، ويحتمل أن يكون المعنى: إنكم إن قاتلتموهم في الشهر الحرام، فقد قاتلوكم فيه وهم المعتدون، فليس عليكم في ذلك حرج، وعلى هذا فيكون قوله: ﴿وَالْحُرُمَتُ قِصَاصٌ﴾؛ من باب عطف العام على الخاص، أي: كل شيء يحترم من شهر حرام أو بلد حرام أو إحرام، أو ما هو أعم من ذلك جميع ما أمر الشرع باحترامه، فمن تجرأ عليها فإنه يقتص منه: فمن قاتل في الشهر الحرام قوتل، ومن هتك البلد الحرام أخذ منه الحد ولم يكن له حرمة، ومن قتل مكافأ له قتل به، ومن جرحه، أو قطع عضواً منه اقتص منه، ومن أخذ مال غيره المحترم؛ أخذ منه بدله، ولكن هل لصاحب الحق أن يأخذ من ماله بقدر حقه أم لا؟ خلاف بين العلماء، الراجح من ذلك أنه إن كان سبب الحق ظاهراً كالضيف إذا لم يقره غيره، والزوجة والقريب إذا امتنع من تجب عليه الثقة من الإنفاق عليه، فإنه يجوز أخذه من ماله، وإن كان السبب خفياً كمن جحد دين غيره أو خانته في ودیعة أو سرق منه ونحو ذلك، فإنه لا يجوز له أن يأخذ من ماله مقابلة له جمعاً بين الأدلة، ولهذا قال تعالى توكيداً وتقوية لما تقدم: ﴿فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَأَعْدُوا عَلَيْهِ يُمِثَلْ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ﴾؛ هذا تفسير لصفة المقاصة وأنها هي المماثلة في مقابلة المعتدي.

ولما كانت النفوس - في الغالب - لا تقف على حدها إذا رخص لها في المعاقبة لطلبها الشفهي، أمر تعالى بلزوم تقواه التي هي الوقوف عند حدوده وعدم تجاوزها وأخبر تعالى أنه ﴿مَعَ الصَّادِقِينَ﴾؛ أي: بالعون والنصر والتأييد والتوفيق، ومن كان الله معه حصل له السعادة الأبدية، ومن لم يلزم التقوى تخلى عنه وليه، وخذله فوكله إلى نفسه،

فصار هلاكه أقرب إليه من حبل الوريد.

﴿وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ (١٩٥).

﴿١٩٥﴾ يأمر تعالى عباده بالنفقة في سبيله، وهو إخراج الأموال في الطرق الموصلة إلى الله، وهي كل طرق الخير من صدقة على مسكين أو قريب أو إنفاق على من تجب مؤنته، وأعظم ذلك وأول ما دخل في ذلك الإنفاق في الجهاد في سبيل الله، فإن النفقة فيه جهاد بالمال وهو فرض كالجهاد بالبدن، وفيها من المصالح العظيمة الإعانة على تقوية المسلمين وعلى توهية الشرك وأهله وعلى إقامة دين الله وإعزازه، فالجهاد في سبيل الله لا يقوم إلا على ساق النفقة، فالنفقة له كالروح لا يمكن وجوده بدونها، وفي ترك الإنفاق في سبيل الله إبطال للجهاد وتسلط للأعداء، وشدة تكاليفهم، فيكون قوله تعالى: ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾؛ كالتعليل لذلك.

والإلقاء باليد إلى التهلكة يرجع إلى أمرين: ترك ما أمر به العبد إذا كان تركه موجباً أو مقارباً لهلاك البدن أو الروح، وفعل ما هو سبب موصل إلى تلف النفس أو الروح فيدخل تحت ذلك أمور كثيرة، فمن ذلك ترك الجهاد في سبيل الله، أو النفقة فيه الموجب لتسلط الأعداء، ومن ذلك تغريب الإنسان بنفسه في مقاتلة أو سفر مخوف أو محل مسبعة أو حيات، أو يصعد شجرة أو بنياناً خطراً، أو يدخل تحت شيء فيه خطر ونحو ذلك، فهذا ونحوه ممن ألقى بيده إلى التهلكة، ومن ذلك الإقامة على معاصي الله واليأس من التوبة، ومنها ترك ما أمر الله به من الفرائض التي تركها هلاك للروح والدين.

ولما كانت النفقة في سبيل الله نوعاً من أنواع الإحسان أمر بالإحسان عموماً فقال: ﴿وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ (١٩٥)؛ وهذا يشمل جميع أنواع الإحسان؛ لأنه لم يقيد بشيء دون شيء، فيدخل فيه الإحسان بالمال كما تقدم، ويدخل فيه الإحسان بالجاء بالشفاعات ونحو ذلك، ويدخل في ذلك الإحسان بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وتعليم العلم النافع، ويدخل في ذلك قضاء حوائج الناس من تفريج كرباتهم، وإزالة شدائهم وعبادة مرضاهم وتشجيع جنانتهم وإرشاد ضالهم وإعانة من يعمل عملاً، والعمل لمن لا يحسن العمل، ونحو ذلك مما هو من الإحسان الذي أمر الله به، ويدخل في الإحسان أيضاً الإحسان في عبادة الله

تعالى، وهو كما ذكر النبي ﷺ: «أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ»^(١)، فمن اتصف بهذه الصفات كان من الذين قال الله فيهم: ﴿لَّذِينَ أَحْسَنُوا لِحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٍ﴾ [يونس: ٢٦]؛ وكان الله معه يسدده ويرشده ويعينه على كل أمره.

ولما فرغ تعالى من ذكر أحكام الصيام والجهاد ذكر أحكام الحج فقال:

﴿وَاتِمُوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ فَإِنْ أُخْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحَلَّهُ، فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِنْ رَأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَمَنْ تَمَنَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشْرَةٌ كَامِلَةٌ ذَلِكَ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلَهُ. حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ (١٩٦).

﴿١٩٦﴾ يستدل بقوله: ﴿وَاتِمُوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ﴾؛ على أمور: أحدها: وجوب الحج والعمرة وفرضيتهما. الثاني: وجوب إتمامهما بأركانهما وواجباتهما التي قد دل عليها فعل النبي ﷺ، وقوله: «خذوا عني مناسككم». الثالث: أن فيه حجة لمن قال بوجوب العمرة. الرابع: أن الحج والعمرة يجب إتمامهما بالشروع فيهما ولو كانا نفلاً. الخامس: الأمر بإتقانهما وإحسانهما، وهذا قدر زائد على فعل ما يلزم لهما. السادس: فيه الأمر بإخلاصهما ﷻ تعالى. السابع: أنه لا يخرج المحرم بهما بشيء من الأشياء حتى يكملهما، إلا بما استثناه الله وهو الحصر، فهذا قال: ﴿فَإِنْ أُخْصِرْتُمْ﴾؛ أي: منعت من الوصول إلى البيت لتكميلهما بمرض أو ضلالة أو عدو، ونحو ذلك من أنواع الحصر الذي هو المنع ﴿فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ﴾؛ أي: فاذبحوا ما استيسر من الهدى، وهو سبع بدنة أو سبع بقرة أو شاة يذبحها المحصر، ويحلق، ويحل من إحرامه بسبب الحصر، كما فعل النبي ﷺ، وأصحابه لما صدهم المشركون عام الحديبية، فإن لم يجد الهدى فليصم بدله عشرة أيام كما في المتمتع ثم يحل.

ثم قال تعالى: ﴿وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحَلَّهُ﴾؛ وهذا من محظورات الإحرام إزالة الشعر بحلق أو غيره؛ لأن المعنى واحد من الرأس أو من البدن، لأن المقصود من ذلك حصول الشعث، والمنع من الترفه بإزالته وهو موجود

الْحَجَّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَةٌ ۖ فَمَنْ رَضِيَ فِيهِكَ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ
وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ
يَعْلَمُهُ اللَّهُ وَكَرَّوْذُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ وَاتَّقُونِ
يَتَأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿١٩٧﴾ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ
تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ فَإِذَا أَقَضْتُمْ مِنْ
عَرَفَاتٍ فَأَذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ
وَأَذْكُرُوهُ كَمَا هَدَيْتُكُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ
لَمَنِ الضَّالِّينَ ﴿١٩٨﴾ ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ
النَّكَاسُ وَاسْتَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ عَفْوَ رَحِيمٍ ﴿١٩٩﴾
فَإِذَا أَقَضْتُمْ مِنْ تَيْبَسُكُكُمْ فَأَذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ
ءَابَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا فَمِنْ النَّكَاسِ مَنْ
يَقُولُ رَبَّنَا إِنَّا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ
خَلْقٍ ﴿٢٠٠﴾ وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا إِنَّا فِي الدُّنْيَا
حَسَنَةٌ وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةٌ وَقَدْ آذَابَ النَّارِ ﴿٢٠١﴾
أُولَئِكَ لَهُمْ نُصِيبُ بِمَا كَسَبُوا وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٢٠٢﴾

في بقية الشعر، وقاس كثير من العلماء على إزالة الشعر تقليم الأظفار بجامع الترفه، ويستمر المنع مما ذكر حتى يبلغ الهدي محله وهو يوم النحر، والأفضل أن يكون الحلق بعد النحر كما تدل عليه الآية.

ويستدل بهذه الآية على أن المتمتع إذا ساق الهدي لم يتحلل من عمرته قبل يوم النحر، فإذا طاف وسعى للعمرة أحرم بالحج، ولم يكن له إحلال بسبب سوق الهدي، وإنما منع تبارك وتعالى من ذلك لما فيه من الذل والخضوع لله والانكسار له والتواضع الذي هو عين مصلحة العبد، وليس عليه في ذلك من ضرر؛ فإذا حصل الضرر بأن كان به أذى من مرض يتفجع بحلق رأسه له أو قروح أو قمل ونحو ذلك، فإنه يحل له أن يحلق رأسه، ولكن يكون عليه فدية من صيام ثلاثة أيام، أو إطعام ستة مساكين، أو نسك ما يجزئ في أضحية فهو مخير، والنسك أفضل فالصدقة فالصيام، ومثل هذا، كل ما كان في معنى ذلك من تقليم الأظفار أو تغطية الرأس أو لبس المخيط أو الطيب؛ فإنه يجوز عند الضرورة مع وجوب الفدية المذكورة؛ لأن القصد من الجميع إزالة ما به يترفع.

ثم قال تعالى: ﴿فَإِذَا أُنْمِئْتُمْ﴾؛ أي: بأن قدرتم على البيت من غير مانع عدو وغيره ﴿فَنَنْتَعِ بِالْفَمَةِ إِلَى الْحَجِّ﴾؛ بأن توصل بها إليه، وانتفع بتمتعه بعد الفراغ منها ﴿فَاسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ﴾؛ أي فعليه ما تيسر من الهدي، وهو ما يجزئ في أضحية، وهذا دم نسك مقابلة لحصول النسكين له في سفرة واحدة، ولإنعام الله عليه بحصول الانتفاع بالتمتع بعد فراغ العمرة وقبل الشروع في الحج، ومثلها القرآن لحصول النسكين له، ويدل مفهوم الآية على أن المفرد للحج ليس عليه هدي، ودلت الآية على جواز بل فضيلة التمتع وعلى جواز فعلها في أشهر الحج ﴿فَمَنْ لَمْ يَجِدْ﴾؛ أي الهدي أو ثمنه ﴿فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ﴾؛ أول جوازها من حين الإحرام بالعمرة، وآخرها ثلاثة أيام بعد النحر، أيام رمي الجمار والمبيت بمنى، ولكن الأفضل منها أن يصوم السابع والثامن والتاسع ﴿وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ﴾؛ أي: فرغتم من أعمال الحج، فيجوز فعلها في مكة، وفي الطريق، وعند وصوله إلى أهله. ذلك المذكور من وجوب الهدي على المتمتع ﴿لَنْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾؛ بأن كان بعيداً عنه مسافة قصر فأكثر أو بعيداً عنه عرفاً، فهذا الذي يجب عليه الهدي لحصول النسكين له في سفر واحد، وأما من كان أهله من حاضري المسجد الحرام، فليس عليه هدي لعدم الموجب لذلك.

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾؛ أي: في جميع أموركم بامثال أوامره واجتناب نواهيه، ومن ذلك امتثالكم لهذه الأمور واجتناب هذه المحظورات المذكورة في هذه الآية ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ ﴿٢٠٣﴾؛ أي: لمن عصاه، وهذا هو الموجب للتقوى، فإن من خاف عقاب الله انكف عما يوجب العقاب، كما أن من رجا ثواب الله عمل لما يوصله إلى الثواب، وأما من لم يخف العقاب، ولم يرج الثواب اقتحم المحارم، وتجراً على ترك الواجبات.

﴿الْحَجَّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَةٌ ۖ فَمَنْ رَضِيَ فِيهِكَ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمُهُ اللَّهُ وَكَرَّوْذُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ وَاتَّقُونِ يَتَأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ ﴿١٩٧﴾.

﴿١٩٧﴾ يخبر تعالى أن الحج واقع في أشهر معلومات؛ عند المخاطبين مشهورات بحيث لا تحتاج إلى تخصيص، كما احتاج الصيام إلى تعيين شهره، وكما بين تعالى أوقات الصلوات الخمس، وأما الحج فقد كان من ملة إبراهيم التي لم تزل مستمرة في ذريته معروفة بينهم. والمراد بالأشهر المعلومات عند الجمهور: شوال وذو القعدة وعشر من ذي الحجة، فهي التي يقع فيها الإحرام بالحج غالباً ﴿فَمَنْ رَضَ فِيهِكَ الْحَجَّ﴾؛ أي: أحرم به؛ لأن الشروع فيه يصيره فرضاً، ولو كان نفلاً.

واستدل بهذه الآية الشافعي ومن تابعه على أنه لا يجوز الإحرام بالحج قبل أشهره، قلت: لو قيل إن فيها دلالة لقول الجمهور بصحة الإحرام بالحج قبل أشهره لكان قريباً، فإن قوله: ﴿فَمَنْ رَضَ فِيهِكَ الْحَجَّ﴾؛ دليل على أن الفرض قد يقع في الأشهر المذكورة، وقد لا يقع فيها وإلا لم يقيد، وقوله: ﴿فَلَا رَفْتَ وَلَا شُؤفَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ﴾؛ أي: يجب أن تعظموا الإحرام بالحج وخصوصاً الواقع في أشهره، وتصونوه عن كل ما يفسده أو ينقصه من الرفث: وهو الجماع، ومقدماته الفعلية والقولية، خصوصاً عند النساء بحضرتهن، والفسوق: وهو جميع المعاصي، ومنها محظورات الإحرام، والجدال: وهو المماارة والمنازعة والمخاصمة، لكونها تثير الشر وتوقع العداوة، والمقصود من الحج الذل والانكسار لله والتقرب إليه بما أمكن من القربات والتزهد عن مقارفة السيئات، فإنه بذلك يكون مبروراً، والمبرور ليس له جزاء إلا الجنة، وهذه الأشياء وإن كانت ممنوعة في كل مكان وزمان، فإنه يتغلظ المنع عنها في الحج.

واعلم أنه لا يتم التقرب إلى الله بترك المعاصي حتى يفعل الأوامر، ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَسْكُنْهُ اللَّهُ﴾؛ أي: ب (من) لتنصيب العموم، فكل خير وقربة وعبادة داخل في ذلك، أي: فإن الله به عليم، وهذا يتضمن غاية الحث على أفعال الخير خصوصاً في تلك البقاع الشريفة والحرمان المنيفة، فإنه ينبغي تدارك ما أمكن تداركه فيها من صلاة وصيام وصدقة وطواف وإحسان قولي وفعلي، ثم أمر تعالى بالتزود لهذا السفر المبارك؛ فإن التزود فيه الاستغناء عن المخلوقين، والكف عن أموالهم سؤلاً واستشرافاً، وفي الإكثار منه نفع، وإعانة للمسافرين، وزيادة

قربة لرب العالمين، وهذا الزاد الذي المراد منه إقامة البنية بُلغةً ومتاع، وأما الزاد الحقيقي المستمر نفعه لصاحبه في دنياه وآخره فهو زاد التقوى؛ الذي هو زاد إلى دار القرار، وهو الموصل لأكمل لذة وأجل نعيم دائماً أبداً، ومن ترك هذا الزاد فهو المنقطع به، الذي هو عرضة لكل شر وممنوع من الوصول إلى دار المتقين، فهذا مدح للتقوى، ثم أمر بها أولي الأبواب فقال: ﴿وَأَتَقُونَ يَتَأُولَى الْأَبْأَبِ﴾ ﴿١٩٨﴾؛ أي: يا أهل العقول الرزينة، اتقوا ربكم، الذي تقواه أعظم ما تأمر به العقول، وتركها دليل على الجهل وفساد الرأي.

﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلاً مِنْ رَبِّكُمْ فَإِذَا أَقَضْتُمْ مِنْ عَرَفَتٍ فَأَذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوا كَمَا هَدَيْتُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الضَّالِّينَ﴾ ﴿١٩٩﴾ ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ ﴿٢٠٠﴾ فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكَكُمْ فَأَذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْراً فَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلْقٍ﴾ ﴿٢٠١﴾ وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ ﴿٢٠٢﴾ أُولَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ ﴿٢٠٣﴾

﴿٢٠٤﴾ لما أمر تعالى بالتقوى أخبر تعالى أن ابتغاء فضل الله بالتكسب في مواسم الحج وغيره ليس فيه حرج إذا لم يشغل عما يجب إذا كان المقصود هو الحج، وكان الكسب حلالاً منسوباً إلى فضل الله؛ لا منسوباً إلى حقد العبد والوقوف مع السبب ونسيان المسبب، فإن هذا هو الحرج بعينه، وفي قوله: ﴿فَإِذَا أَقَضْتُمْ مِنْ عَرَفَتٍ فَأَذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ﴾؛ دلالة على أمور:

أحدها: الوقوف بعرفة، وأنه كان معروفاً أنه ركن من أركان الحج، فالإفاضة من عرفات لا تكون إلا بعد الوقوف.

الثاني: الأمر بذكر الله عند المشعر الحرام وهو المزدلفة، وذلك أيضاً معروف يكون ليلة النحر باتتاً بها، وبعد صلاة الفجر يقف في المزدلفة داعياً حتى يسفر جداً، ويدخل في ذكر الله عنده إيقاع الفرائض والنوافل فيه.

الثالث: أن الوقوف بمزدلفة متأخر عن الوقوف بعرفة كما تدل عليه الفاء والترتيب.

الرابع والخامس: أن عرفات ومزدلفة كلاهما من مشاعر الحج المقصود فعلها وإظهارها.

السادس: أن مزدلفة في الحرم كما قيده بالحرام.

السابع: أن عرفة في الحل كما هو مفهوم التقييد بمزدلفة.

﴿وَأَذْكُرُوهُ كَمَا هَدَيْتُكُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الصَّكَالِينَ﴾ (١٩٨)؛ أي اذكروا الله تعالى كما من عليكم بالهداية بعد الضلال، وكما علمكم ما لم تكونوا تعلمون. فهذه من أكبر النعم التي يجب شكرها ومقابلتها بذكر المنعم بالقلب واللسان.

﴿ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ﴾؛ أي: ثم أفيضوا من مزدلفة من حيث أفاض الناس من لدن إبراهيم عليه السلام إلى الآن، والمقصود من هذه الإفاضة كان معروفاً عندهم، وهو رمي الجمار، وذبح الهدايا، والطواف والسعي والمبيت بمنى ليالي التشريق، وتكميل باقي المناسك. ولما كانت هذه الإفاضة يقصد بها ما ذكر والمذكورات آخر المناسك، أمر تعالى عند الفراغ منها باستغفاره والإكثار من

ذكره، فالاستغفار للخلل الواقع من العبد في أداء عبادته وتقصيره فيها، وذكر الله شكر الله على إنعامه عليه بالتوفيق لهذه العبادة العظيمة والمنة الجسيمة، وهكذا ينبغي للعبد كلما فرغ من عبادة أن يستغفر الله عن التقصير، ويشكره على التوفيق، لا كمن يرى أنه قد أكمل العبادة، ومن بها على ربه، وجعلت له محلاً ومنزلة رفيعة، فهذا حقيق بالمقت ورد العمل، كما أن الأول حقيق بالقبول والتوفيق لأعمال آخر.

(٢٠٠) - (٢٠١) ثم أخبر تعالى عن أحوال الخلق، وأن الجميع يسألونه مطالبهم، ويستدفعونه ما يضرهم، ولكن مقاصدهم تختلف، فمنهم ﴿مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا﴾؛ أي: يسأله من مطالب الدنيا ما هو من شهواته، وليس له في الآخرة نصيب لرغبته عنها، وقصر همته على الدنيا، ومنهم من يدعو الله لمصلحة الدارين، ويفتقر إليه في مهمات دينه ودنياه، وكل من هؤلاء وهؤلاء لهم نصيب من كسبهم وعملهم، وسيجازيهم تعالى على حسب أعمالهم وهماهم ونياتهم جزاء دائراً بين العدل والفضل، يحمد عليه أكمل حمد وأتمه.

وفي هذه الآية دليل على أن الله يجيب دعوة كل داع مسلماً أو كافراً أو فاسقاً، ولكن ليست إجابته دعاء من دعاه دليلاً على محبته له وقربه منه إلا في مطالب الآخرة ومهمات الدين، والحسنة المطلوبة في الدنيا يدخل فيها كل ما يحسن وقعه عند العبد من رزق هنيئ واسع حلال، وزوجة صالحة، وولد تقر به العين، وراحة، وعلم نافع، وعمل صالح، ونحو ذلك من المطالب المحبوبة والمباحة، وحسنة الآخرة هي السلامة من العقوبات في القبر والموقف والنار، وحصول رضا الله، والفوز بالنعيم المقيم، والقرب من الرب الرحيم، فصار هذا الدعاء أجمع دعاء وأكمل وأولاه بالإيثار، ولهذا كان النبي ﷺ يكثر من الدعاء به^(١) والحث عليه.

يوم الجزاء بالأعمال، الذي قد حشي من الأهوال والشدائد والفظائع ما يقلقل قلوب الظالمين، ويحق به الجزاء السيئ على المفسدين، وذلك أن الله تعالى يطوي السماوات والأرض، وتنتشر الكواكب، وتكور الشمس والقمر، وتنزل الملائكة الكرام فتحيط بالخلائق، وينزل الباري تبارك وتعالى ﴿فِي ظُلُلٍ مِّنَ الْفُجَارِ﴾ ليفصل بين عباده بالقضاء العدل، فتوضع الموازين، وتنتشر الدواوين، وتبيض وجوه أهل السعادة، وتسود وجوه أهل الشقاوة، ويتميز أهل الخير من أهل الشر، وكل يجازى بعمله، فهناك يعرض الظالم على يديه إذا علم حقيقة ما هو عليه.

وهذه الآية وما أشبهها دليل لمذهب أهل السنة والجماعة المثبتين للصفات الاختيارية؛ كالاستواء، والنزول، والمجيء، ونحو ذلك من الصفات التي أخبر بها تعالى عن نفسه، أو أخبر بها عنه رسوله ﷺ، فيثبتونها على وجه يليق بجلال الله وعظمته من غير تشبيه ولا تحريف، خلافاً للمعظلة على اختلاف أنواعهم؛ من الجهمية والمعتزلة والأشعرية ونحوهم، ممن ينفي هذه الصفات، ويتأول لأجلها الآيات بتأويلات ما أنزل الله عليها من سلطان، بل حقيقتها القدر في بيان الله وبيان رسوله، والزعم بأن كلامهم هو الذي تحصل به الهداية في هذا الباب، فهؤلاء ليس معهم دليل نقلي؛ بل ولا دليل عقلي.

أما النقلي فقد اعترفوا أن النصوص الواردة في الكتاب والسنة ظاهراً؛ بل صريحها دال على مذهب أهل السنة والجماعة، وأنها تحتاج لدلائلها على مذهبهم الباطل أن تخرج عن ظاهرها ويزاد فيها وينقص، وهذا كما ترى لا يرتضيه من في قلبه مثقال ذرة من إيمان.

وأما العقل فليس في العقل ما يدل على نفي هذه الصفات، بل العقل دل على أن الفاعل أكمل من الذي لا يقدر على الفعل، وأن فعله تعالى المتعلق بنفسه والمتعلق بخلقه هو كمال، فإن زعموا أن إثباتها يدل على التشبيه بخلقه، قيل لهم: الكلام على الصفات يتبع الكلام على الذات، فكما أن لله ذاتاً لا تشبهها الذات فله صفات لا تشبهها الصفات، فصفاته تبع لذاته وصفات خلقه تبع لذواتهم، فليس في إثباتها ما يقتضي التشبيه بوجه، ويقال أيضاً لمن أثبت بعض الصفات، ونفى بعضاً، أو أثبت الأسماء دون الصفات: إما أن تثبت الجميع كما أثبت الله لنفسه، وأثبتته

﴿٢٠٧﴾ [هؤلاء هم الموقفون الذين باعوا أنفسهم، وأرخصوها، وبذلوها طلباً لمرضاة الله، ورجاءً لثوابه، فهم بذلوا الثمن للمليء الوفي، الرؤوف بالعباد، الذي من رأفته ورحمته أن وفقهم لذلك، وقد وعد الوفاء بذلك، فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّهُ لَهُمُ الْجَنَّةُ﴾ [التوبة: ١١١] إلى آخر الآية. وفي هذه الآية أخبر أنهم اشتروا أنفسهم وبذلوها، وأخبر برأفته الموجبة لتحصيل ما طلبوا، وبذل ما به رغبوا، فلا تسأل بعد هذا عما يحصل لهم من الكريم، وما ينالهم من الفوز والتكريم.]

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَآفَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [٢٠٨] فَإِنْ زَلَلْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمْ الْبَيِّنَاتُ فَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٠٩﴾.

﴿٢٠٨﴾ هذا أمر من الله تعالى للمؤمنين أن يدخلوا ﴿فِي السِّلْمِ كَآفَّةً﴾؛ أي: في جميع شرائع الدين، ولا يتركوا منها شيئاً، وألاً يكونوا ممن اتخذ إلهه هواه؛ إن وافق الأمر المشروع هواه فعله، وإن خالفه تركه، بل الواجب أن يكون الهوى تبعاً للدين، وأن يفعل كل ما يقدر عليه من أفعال الخير، وما يعجز عنه يلتزمه، وينويه فيدركه بنيته، ولما كان الدخول في السلم كافة لا يمكن ولا يتصور إلا بمخالفة طرق الشيطان قال: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾؛ أي: في العمل بمعاصي الله، ﴿إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [٢٠٨]؛ والعدو المبين لا يأمر إلا بالسوء والفحشاء وما به الضرر عليكم، ولما كان العبد لا بد أن يقع منه خلل وزلل قال تعالى:

﴿٢٠٩﴾ فَإِنْ زَلَلْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمْ الْبَيِّنَاتُ؛ أي: على علم ويقين، ﴿فَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [٢٠٩]، وفيه من الوعيد الشديد والتخويف ما يوجب ترك الزلل، فإن العزيز المقام الحكيم إذا عصاه العاصي، قهره بقوته، وعذبه بمقتضى حكمته، فإن من حكمته تعذيب العصاة والجناة.

﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلُلٍ مِّنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ وَفُضِيَ الْأَمْرُ إِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ [٢١٠].

﴿٢١٠﴾ وهذا فيه من الوعيد الشديد والتهديد ما تنخلع له القلوب، يقول تعالى: هل ينتظر الساعون في الفساد في الأرض، المتبعون لخطوات الشيطان، النابذون لأمر الله إلا

رسوله، وإما أن تنفي الجميع، وتكون منكراً لرب العالمين. وأما إثباتك بعض ذلك ونفيك لبعضه فهذا تناقض، ففرق بين ما أثبتته وبين ما نفيت، ولن تجد إلى الفرق سبيلاً. فإن قلت: ما أثبتته لا يقتضي تشبيهاً، قال لك أهل السنة: والإثبات لما نفيت لا يقتضي تشبيهاً، فإن قلت: لا أعقل من الذي نفيت إلا التشبيه، قال لك النفاة: ونحن لا نعقل من الذي أثبتته إلا التشبيه، فما أجبت به النفاة أجابك به أهل السنة لما نفيت.

والحاصل أن من نفى شيئاً، وأثبت شيئاً مما دل الكتاب والسنة على إثباته فهو متناقض؛ لا يثبت له دليل شرعي ولا عقلي، بل قد خالف المعقول والمنقول.

﴿سَلِّ بَنِي إِسْرَءِيلَ كَمَا ءَاتَيْنَهُمْ مِنْ ءَايَمِ بَيْنَتِهِ وَمَنْ يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ (٢١١) ﴿٢١١﴾

يقول تعالى: ﴿سَلِّ بَنِي إِسْرَءِيلَ كَمَا ءَاتَيْنَهُمْ مِنْ ءَايَمِ بَيْنَتِهِ﴾، تدل على الحق وعلى صدق الرسل فتيقنوها، وعرفوها، فلم يقوموا بشكر هذه النعمة التي تقتضي القيام بها، بل كفروا بها، وبدلوا نعمة الله كفراً؛ فلهذا استحقوا أن ينزل الله عليهم عقابه، ويحرمهم من ثوابه، وسمى الله تعالى كفر النعمة تبديلاً لها؛ لأن من أنعم الله عليه نعمة دينية أو دنيوية فلم يشكرها، ولم يقم بواجبها اضمحلت عنه، وذهبت وتبدلت بالكفر والمعاصي، فصار الكفر بدل النعمة، وأما من شكر الله تعالى، وقام بحقها فإنها ثبتت، وتستمر، ويزيده الله منها.

﴿رُبُّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَوةُ الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ (٢١٢) ﴿٢١٢﴾

يخبر تعالى أن الذين كفروا بالله وبآياته ورسله، ولم يتقادوا لشرعه أنهم زينت لهم الحياة الدنيا، فزينت في أعينهم وقلوبهم، فرضوا بها، واطمأنوا بها، فصارت أهواؤهم وإراداتهم وأعمالهم كلها لها، فأقبلوا عليها، وأكبوا على تحصيلها، وعظموها، وعظموا من شاركهم في صنعهم، واحترقوا المؤمنين، واستهزءوا بهم، وقالوا: ﴿أَهْؤَلَاءُ مَكَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا﴾ [الأنعام: ٥٣]، وهذا من ضعف عقولهم ونظرهم القاصر، فإن الدنيا دار ابتلاء وامتحان، وسيحصل الشقاء فيها لأهل الإيمان والكفران، بل المؤمن في الدنيا وإن ناله مكروه فإنه يصبر ويحتسب، فيخفف الله عنه بإيمانه وصبره ما لا يكون لغيره، وإنما الشأن كل الشأن والتفضيل الحقيقي في الدار الباقية، فلهذا قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾؛ فيكون المتقون في أعلى الدرجات متمتعين بأنواع النعيم والسرور والبهجة والحبور، والكفار تحتهم في أسفل الدرجات، معذبين بأنواع العذاب والإهانة والشقاء السرمدي الذي لا منتهى له، ففي هذه الآية تسلية للمؤمنين، ونعي على الكافرين، ولما كانت الأرزاق الدنيوية والأخروية لا تحصل إلا بتقدير الله، ولن تنال إلا بمشيئة الله قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ (٢١٢) ﴿٢١٢﴾؛ فالرزق الدنيوي يحصل للمؤمن والكافر، وأما رزق القلوب من العلم والإيمان ومحبة الله وخشيته ورجائه ونحو ذلك فلا يعطيها إلا من يحبه.

﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا

سُورَةُ الْبَقَرَةِ

سَلِّ بَنِي إِسْرَءِيلَ كَمَا ءَاتَيْنَهُمْ مِنْ ءَايَمِ بَيْنَتِهِ وَمَنْ يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٢١١﴾ رُبُّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَوةُ الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢١٢﴾ كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٢١٣﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخَلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّهُمُ الْبَاسُ وَالْغَرَارُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾ يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ مَا أَنْفَقْتُ مِنْ خَيْرٍ فَلِلَّذِينَ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَى وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴿٢١٥﴾

٣٣

﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَاءُ وَزُلْزَلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ ۚ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ ﴾ (٢١٣)

﴿٢١٣﴾ يخبر تبارك وتعالى أنه لا بد أن يمتحن عباده بالسراء والضراء والمشقة كما فعل بمن قبلهم، فهي سته الجارية التي لا تتغير ولا تبدل، أن من قام بدينه وشرعه لا بد أن يبتليه، فإن صبر على أمر الله، ولم يبال بالمكاره الواقعة في سبيله، فهو الصادق الذي قد نال من السعادة كمالها ومن السيادة آلتها، ومن جعل فتنة الناس كعذاب الله، بأن صدته المكاره عما هو بصده، وثنته المحن عن مقصده، فهو الكاذب في دعوى الإيمان، فإنه ليس الإيمان بالتحلي والتمني ومجرد الدعاوي؛ حتى تصدقه الأعمال أو تكذبه، فقد جرى على الأمم الأقدمين ما ذكر الله عنهم ﴿ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَاءُ ﴾؛ أي: الفقر والأمراض في أبدانهم ﴿ وَزُلْزَلُوا ﴾؛ بأنواع المخاوف من التهديد بالقتل والنفي، وأخذ الأموال، وقتل الأحبة، وأنواع المضار، حتى وصلت بهم الحال، وآل بهم الزلزال إلى أن استبطئوا نصر الله مع يقينهم به، ولكن لشدة الأمر وضيقه قال ﴿ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ ﴾؛ فلما كان الفرج عند الشدة، وكلما ضاق الأمر اتسع قال تعالى: ﴿ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ ﴾؛ فهكذا كل من قام بالحق فإنه يمتحن، فكلما اشتدت عليه وصعبت إذا صابر وثابر على ما هو عليه؛ انقلبت المحنة في حقه منحة، والمشقات راحت، وأعقبه ذلك الانتصار على الأعداء وشفاء ما في قلبه من الداء.

وهذه الآية نظير قوله تعالى: ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الْقَاهِرِينَ ﴾ ﴿ آل عمران: ١٤٢ ﴾؛ وقوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّا جَعَلْنَا نَارًا أَنْ يُرْكَبُوا أَنْ يَقُولُوا ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْقَهُونَ ﴾ ﴿ آل عمران: ١٤٢ ﴾؛ ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين ﴿ آل عمران: ١٤٢ ﴾؛ فعند الامتحان يكرم المرء أو يهان.

﴿ يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ مَا أَنْفَقْتُ مِنْ خَيْرٍ فَلِلَّهِ وَالَّذِينَ الْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَى وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴾ (٢١٤)

﴿٢١٤﴾ أي: يسألونك عن النفقة وهذا يعم السؤال عن

اختلفوا فيه وما اختلف فيه إلا الذين أوتوه من بعد ما جاءتهم البينات بغيا بينهم فهدى الله الذين ءامنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم ﴿٢١٤﴾.

﴿٢١٤﴾ [أي: كانوا مجتمعين على الهدى، وذلك عشرة قرون بعد نوح عليه السلام، فلما اختلفوا في الدين، فكفر فريق منهم، وبقي الفريق الآخر على الهدى، وحصل النزاع، بعث الله الرسل؛ ليفصلوا بين الخلائق، وقيموا الحجة عليهم، وقيل: بل كانوا] - أي: كان الناس - مجتمعين على الكفر والضلال والشقاء ليس لهم نور ولا إيمان، فرحمهم الله تعالى بإرسال الرسل إليهم ﴿ مُبَشِّرِينَ ﴾؛ من أطاع الله بشمرات الطاعات من الرزق والقوة في البدن والقلب والحياة الطيبة، وأعلى ذلك الفوز برضوان الله والجنة ﴿ وَمُنذِرِينَ ﴾؛ من عصى الله بشمرات المعصية من حرمان الرزق والضعف والإهانة والحياة الضيقة، وأشد ذلك سخط الله والنار، وأنزل الكتب عليهم بالحق؛ وهو الإخبارات الصادقة والأوامر العادلة.

فكل ما اشتملت عليه الكتب فهو حق يفصل بين المختلفين في الأصول والفروع، وهذا هو الواجب عند الاختلاف والتنازع أن يرد الاختلاف إلى الله وإلى رسوله، ولولا أن في كتابه وستة رسوله فصل النزاع لما أمر بالرد إليهما، ولما ذكر نعمته العظيمة بإنزال الكتب على أهل الكتاب، وكان هذا يقتضي اتفاقهم عليها واجتماعهم فأخبر تعالى أنهم بغى بعضهم على بعض، وحصل النزاع والخصام وكثرة الاختلاف، فاختلقوا في الكتاب الذي ينبغي أن يكونوا أولى الناس بالاجتماع عليه، وذلك من بعد ما علموه وتيقنوه بالآيات البينات والأدلة القاطعات، وضلوا بذلك ضلالاً بعيداً، وهدى الله ﴿ الَّذِينَ ءَامَنُوا ﴾؛ من هذه الأمة ﴿ لِمَا اختلفوا فيه مِنَ الْحَقِّ ﴾؛ فكل ما اختلف فيه أهل الكتاب، وأخطأوا فيه الحق والبصواب، هدى الله للحق فيه هذه الأمة ﴿ بِإِذْنِهِ ﴾؛ تعالى وتيسيره لهم ورحمته.

﴿ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ ﴿٢١٥﴾؛ فعم الخلق تعالى بالدعوة إلى الصراط المستقيم عدلاً منه تعالى وإقامة حجة على الخلق؛ لثلاث يقولوا: ما جاءنا من بشير ولا نذير، وهدى - فضله ورحمته وإعائته ولطفه - من شاء من عباده، فهذا فضله وإحسانه، وذلك عدله وحكمته تبارك وتعالى.

المتفق والمتفق عليه، فأجابهم عنها فقال: ﴿قُلْ مَا أَنْفَقْتُ مِنَ خَيْرٍ﴾؛ أي: مال قليل أو كثير فأولى الناس به وأحقهم بالتقديم أعظمهم حقاً عليك، وهم الوالدان الواجب برهما والمحرم عقوقهما، ومن أعظم برهما النفقة عليهما، ومن أعظم العقوق ترك الإنفاق عليهما، ولهذا كانت النفقة عليهما واجبة على الولد الموسر، ومن بعد الوالدين الأقربون على اختلاف طبقاتهم، الأقرب فالأقرب، على حسب القرب والحاجة، فالإنفاق عليهم صدقة وصلة ﴿وَالْيَتَامَى﴾؛ وهم الصغار الذين لا كاسب لهم فهم في مظنة الحاجة، لعدم قيامهم بمصالح أنفسهم وفقد الكاسب، فوصى الله بهم العباد رحمة منه بهم ولطفًا ﴿وَالْمَسْكِينِ﴾؛ وهم أهل الحاجات وأرباب الضرورات الذين أسكتهم الحاجة، فينفق عليهم لدفع حاجاتهم وإغنائهم ﴿وَأَيُّ الْمَسْكِينِ﴾؛ أي: الغريب المنقطع به في غير بلده، فيعان على سفره بالنفقة التي توصله إلى مقصده.

ولما خصص الله تعالى هؤلاء الأصناف لشدة الحاجة، عزم تعالى فقال: ﴿وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ﴾؛ من صدقة على هؤلاء وغيرهم، بل ومن جميع أنواع الطاعات والقربات؛ لأنها تدخل في اسم الخير ﴿فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾؛ فيجازيكم عليه، ويحفظه لكم كل على حسب نيته وإخلاصه،

سورة البقرة
كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهُ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾ يَسْتَأْذِنُكَ عَنِ النَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدُّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدَ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا يَزَالُونَ يَقْبَلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنْ أَسْطَلَعُوا وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢١٧﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَفْوٌ رَحِيمٌ ﴿٢١٨﴾ يَسْتَأْذِنُكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنْعٌ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا وَيَسْتَأْذِنُكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْمَغْفُورُ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١٩﴾

وكثرة نفقته وقتلها، وشدة الحاجة إليها، وعظم وقعها ونفعها.

﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهُ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ ﴿٢١٦﴾.

﴿٢١٦﴾ هذه الآية فيها فرض القتال في سبيل الله بعدما كان المؤمنون مأمورين بتركه لضعفهم وعدم احتمالهم لذلك، فلما هاجر النبي ﷺ إلى المدينة، وكثر المسلمون، وقوا أمرهم الله تعالى بالقتال، وأخبر أنه مكروه للنفس، لما فيه من التعب والمشقة وحصول أنواع المخاوف والتعرض للمتألف، ومع هذا فهو خير محض لما فيه من الثواب العظيم والتحرز من العقاب الأليم والنصر على الأعداء والظفر بالغنائم، وغير ذلك مما هو مرب على ما فيه من الكراهة ﴿وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ﴾؛ وذلك مثل القعود عن الجهاد لطلب الراحة فإنه شر؛ لأنه يعقب الخذلان، وتسلط الأعداء على الإسلام وأهله، وحصول الذل والهوان، وفوات الأجر العظيم، وحصول العقاب.

وهذه الآيات عامة مطردة في أن أفعال الخير التي تكرها النفوس لما فيها من المشقة أنها خير بلا شك، وأن أفعال الشر التي تحبها النفوس لما تنوهم فيها من الراحة واللذة فهي شر بلا شك، وأما أحوال الدنيا فليس الأمر مطردًا، ولكن الغالب على العبد المؤمن أنه إذا أحب أمرًا من الأمور فقيض الله له من الأسباب ما يصرفه عنه أنه خير له، فالأوفق له في ذلك أن يشكر الله، ويعتقد الخير في الواقع، لأنه يعلم أن الله تعالى أرحم بالعبد من نفسه، وأقدر على مصلحة عبده منه، وأعلم بمصلحته منه كما قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ ﴿٢١٦﴾؛ فالالاتق بكم أن تمشوا مع أقداره سواء سرتكم أو ساءتكم.

ولما كان الأمر بالقتال لو لم يقيد؛ لشمّل الأشهر الحرم وغيرها، استثنى تعالى القتال في الأشهر الحرم فقال:

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدُّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكَفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدَ الْحَرَامَ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَظَلَمُوا وَمَنْ يَرْتَدِدْ دِينَكُمْ عَنْ دِينِهِ قِيمَتٌ لَهُ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢١٧﴾﴾

﴿٢١٧﴾ الجمهور على أن تحريم القتال في الأشهر الحرم منسوخ بالأمر بقتال المشركين حيثما وجدوا. وقال بعض المفسرين: إنه لم ينسخ لأن المطلق محمول على المقيد، وهذه الآية مقيدة لعموم الأمر بالقتال مطلقاً، ولأن من جملة مزية الأشهر الحرم، بل أكبر مزاياها تحريم القتال فيها، وهذا إنما هو في قتال الابتداء وأما قتال الدفع فإنه يجوز في الأشهر الحرم كما يجوز في البلد الحرام.

ولما كانت هذه الآية نازلة بسبب ما حصل لسرية عبد الله ابن جحش وقتلهم عمرو بن الحضرمي وأخذهم أموالهم - وكان ذلك على ما قيل في شهر رجب - غيرهم المشركون بالقتال بالأشهر الحرم وكانوا في تعييرهم ظالمين؛ إذ فيهم من القبائح ما بعضه أعظم مما عيروا به المسلمين، قال تعالى في بيان ما فيهم: ﴿وَصَدُّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾؛ أي: صد المشركين من يريد الإيمان بالله وبرسوله وفتنتهم من آمن به وسعيهم في ردهم عن دينهم وكفرهم الحاصل في الشهر الحرام والبلد الحرام الذي هو بمجرده كاف في الشر، فكيف وقد كان في شهر حرام وبلد حرام ﴿وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ﴾؛ أي: أهل المسجد الحرام وهم النبي ﷺ، وأصحابه لأنهم أحق به من المشركين وهم عماره على الحقيقة فأخرجهم ﴿مِنْهُ﴾؛ ولم يمكنهم من الوصول إليه، مع أن هذا البيت سواء العاكف فيه والباد، فهذه الأمور كل واحد منها ﴿أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ﴾؛ في الشهز الحرام فكيف وقد اجتمعت فيهم فعلم أنهم فسقة ظلمة في تعييرهم المؤمنين.

ثم أخبر تعالى أنهم لن يزالوا يقاتلون المؤمنين، وليس غرضهم في أموالهم وقتلهم وإنما غرضهم أن يرجعهم عن دينهم ويكونوا كفاراً بعد إيمانهم حتى يكونوا من أصحاب

السعير، فهم باذلون قدرتهم في ذلك ساعون بما أمكنهم، ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون. وهذا الوصف عام لكل الكفار لا يزالون يقاتلون غيرهم حتى يردوهم عن دينهم، وخصوصاً أهل الكتاب من اليهود والنصارى الذين بذلوا الجمعيات، ونشروا الدعاة، وبثوا الأطباء، وبنوا المدارس لجذب الأمم إلى دينهم، وتدخلهم عليهم كل ما يمكنهم من الشبه التي تشككهم في دينهم، ولكن المرجو من الله تعالى الذي من على المؤمنين بالإسلام، واختار لهم دينه القيم، وأكمل لهم دينه أن يتم عليهم نعمته بالقيام به أتم قيام، وأن يخذل كل من أراد أن يطفئ نوره، ويجعل كيدهم في نحورهم، وينصر دينه، ويعلي كلمته وتكون هذه الآية صادقة على هؤلاء الموجودين من الكفار كما صدقت على من قبلهم ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُضِلُّونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُضِلُّونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُخْشَرُونَ ﴿٢١٨﴾﴾ [الأنفال: ٣٦]؛ ثم أخبر تعالى أن من ارتد عن الإسلام بأن اختار عليه الكفر واستمر على ذلك حتى مات كافراً ﴿فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾؛ لعدم وجود شرطها وهو الإسلام ﴿وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢١٩﴾﴾.

ودلت الآية بمفهومها أن من ارتد ثم عاد إلى الإسلام أنه يرجع إليه عمله الذي قبل رده، وكذلك من تاب من المعاصي فإنها تعود إليه أعماله المتقدمة.

﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَدْنَاهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٢٢٠﴾﴾.

﴿٢٢٠﴾ هذه الأعمال الثلاثة هي عنوان السعادة وقطب رحي العبودية، وبها يعرف ما مع الإنسان من الريح والخسران، فأما الإيمان فلا تسأل عن فضيلته وكيف تسأل عن شيء هو الفاصل بين أهل السعادة وأهل الشقاوة، وأهل الجنة من أهل النار، وهو الذي إذا كان مع العبد قبلت أعمال الخير منه، وإذا عدم منه لم يقبل له صرف ولا عدل، ولا فرض ولا نفل، وأما الهجرة فهي مفارقة المحبوب المألوف؛ لرضا الله تعالى فترك المهاجر وطنه وأمواله وأهله وخلانه؛ تقرباً إلى الله ونصرة لدينه، وأما الجهاد فهو بذل الجهد في مقارعة الأعداء، والسعي التام في نصرة دين الله وقمع دين الشيطان، وهو ذروة الأعمال الصالحة وجزاؤه أفضل الجزاء، وهو السبب الأكبر لتوسيع دائرة الإسلام، وخذلان عباد الأصنام

ترجحت مصلحته، ويجتنب ما ترجحت مضرته، ولكن لما كانوا قد ألفوهما، وصعب التحريم بتركهما أول وهلة؛ قدم هذه الآية مقدمة للتحريم الذي ذكره في قوله: ﴿تَأْتِيَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَّا الْخَيْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَصَابُ وَالَّذِينَ يُجَسِّسُونَ مِن عَمَلِ الشَّيْطَانِ﴾ إلى قوله: ﴿مُنْتَهَوْنَ﴾ (٢١٩) ﴿[المائدة: ٩٠، ٩١]، وهذا من لطفه ورحمته وحكمته، ولهذا لما نزلت قال عمر رضي الله عنه: انتهينا انتهينا^(١).

فأما الخمر فهو كل مسكر خامر العقل وغطاه من أي نوع كان، وأما الميسر فهو كل المغالبات التي يكون فيها عوض من الطرفين من الرد والشطرنج وكل مغالبة قولية أو فعلية بعوض، سوى مسابقة الخيل والإبل والسهام؛ فإنها مباحة لكونها معينة على الجهاد؛ فلهذا رخص فيها الشارع.

﴿وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ (٢١٩) في الدنيا والآخرة.

وهذا سؤال عن مقدار ما ينفقونه من أموالهم، فيسر الله لهم الأمر وأمرهم أن ينفقوا العفو، وهو المتيسر من أموالهم الذي لا تتعلق به حاجتهم وضرورتهم، وهذا يرجع إلى كل أحد بحسبه من غني وفقير ومتوسط، كل له قدرة على إنفاق ما عفا من ماله ولو شق تمره، ولهذا أمر الله رسوله ﷺ، أن يأخذ العفو من أخلاق الناس وصدقاتهم، ولا يكلفهم ما يشق عليهم؛ ذلك بأن الله تعالى لم يأمرنا بما أمرنا به حاجة منه لنا أو تكليفاً لنا بما يشق، بل أمرنا بما فيه سعادتنا وما يسهل علينا وما به النفع لنا وإخواننا فيستحق على ذلك أتم الحمد.

ولما بين تعالى هذا البيان الشافي وأطلع العباد على أسرار شرعه قال: ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ﴾؛ أي: الدالات على الحق المحصلات للعلم النافع والفرقان، ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ (٢١٩) في الدنيا والآخرة؛ أي: لكي تستعملوا أفكاركم في أسرار شرعه، وتعرفوا أن أوامره فيها مصالح الدنيا والآخرة، وأيضاً لكي تتفكروا في الدنيا وسرعة انقضائها فترفضوها، وفي الآخرة وبقائها، وأنها دار الجزاء فتعمروها.

﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى قُلِ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ

وأمن المسلمين على أنفسهم وأموالهم وأولادهم، فمن قام بهذه الأعمال الثلاثة على لأوائها ومشقتها، كان لغيرها أشد قياماً به وتكميلاً، فحقيق بهؤلاء أن يكونوا هم الراجون رحمة الله لأنهم أتوا بالسبب الموجب للرحمة، وفي هذا دليل على أن الرجاء لا يكون إلا بعد القيام بأسباب السعادة، وأما الرجاء المقارن للكسل وعدم القيام بالأسباب فهذا عجز وتمن وغرور، وهو دال على ضعف همة صاحبه، ونقص عقله، بمنزلة من يرجو وجود الولد بلا نكاح، ووجود الغلة بلا بذل وسقي ونحو ذلك.

وفي قوله: ﴿أَوَلَيْكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ﴾؛ إشارة إلى أن العبد ولو أتى من الأعمال بما أتى به لا ينبغي له أن يعتمد عليها ويعول عليها، بل يرجو رحمة ربه ويرجو قبول أعماله ومغفرة ذنوبه وستر عيوبه، ولهذا قال: ﴿وَاللَّهُ عَفْوٌ﴾؛ أي: لمن تاب توبة نصوحاً، ﴿رَجِيمٌ﴾ (٢٢٠)؛ وسعت رحمته كل شيء وعم جوده وإحسانه كل حي، وفي هذا دليل على أن من قام بهذه الأعمال المذكورة حصل له مغفرة الله، إذ الحسنات يذهبن السيئات، وحصلت له رحمة الله، وإذا حصلت له المغفرة اندفعت عنه عقوبات الدنيا والآخرة التي هي آثار الذنوب التي قد غفرت، واضمحلت آثارها، وإذا حصلت له الرحمة حصل على كل خير في الدنيا والآخرة، بل أعمالهم المذكورة من رحمة الله بهم، فلولا توفيقه إياهم لم يريدوها، ولولا إقدارهم عليها لم يقدروا عليها، ولولا إحسانه لم يتمها ويقبلها منهم، فله الفضل أولاً وآخرًا وهو الذي من بالسبب والمسبب، ثم قال تعالى:

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا﴾.

(٢٢٠) أي: يسألك يا أيها الرسول المؤمنون عن أحكام الخمر والميسر، وقد كانا مستعملين في الجاهلية وأول الإسلام، فكانه وقع فيهما إشكال، فلهذا سألوا عن حكمهما، فأمر الله تعالى نبيه أن يبين لهم منافعهما ومضارهما ليكون ذلك مقدمة لتحريمهما وتحريم تركهما، فأخبر أن إثمهما ومضارهما وما يصدر عنهما من ذهاب العقل والمال والصد عن ذكر الله وعن الصلاة والعداوة والبغضاء أكبر مما يظنونه من نفعهما من كسب المال بالتجارة بالخمر وتحصيله بالقمار والطرب للنفوس عند تعاطيها، وكان هذا البيان زاجراً للنفوس عنهما؛ لأن العاقل يرجح ما

لَاغْنَتَكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٢٠﴾ ﴿٢٢١﴾

﴿٣٠﴾ لما نزل قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ

الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ

سَعِيرًا﴾ ﴿١٧﴾ [النساء: ١٠]؛ شق ذلك على المسلمين وعزلوا

طعامهم عن طعام اليتامى خوفاً على أنفسهم من تناولها ولو في

هذه الحالة التي جرت العادة بالمشاركة فيها، وسألوا النبي ﷺ،

عن ذلك، فأخبرهم تعالى أن المقصود إصلاح أموال اليتامى

بحفظها وصيانتها والاتجار فيها، وأن خلطتهم إياهم في طعام

وغيره جائز على وجه لا يضر باليتامى؛ لأنهم إخوانكم ومن

شأن الأخ مخالطة أخيه، والمرجع في ذلك إلى النية والعمل،

فمن علم الله من نيته أنه مصلح لليتيم وليس له طمع في ماله

فلو دخل عليه شيء من غير قصد لم يكن عليه بأس، ومن علم

الله من نيته أن قصده بالمخالطة التوصل إلى أكلها وتناولها

فذلك الذي حرج وأثم، والوسائل لها أحكام المقاصد.

وفي هذه الآية دليل على جواز أنواع المخالطات في المأكَل والمشارب والعقود وغيرها، وهذه الرخصة لطف من الله تعالى وإحسان وتوسعة على المؤمنين وإلا، فلو ﴿سَاءَ اللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ﴾؛ أي: شق عليكم بعدم الرخصة بذلك فخرجتم وشق عليكم وأتمتم ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ﴾؛ أي: له القوة الكاملة والقهر لكل شيء ولكنه مع ذلك ﴿حَكِيمٌ﴾ لا يفعل

إلا ما هو مقتضى حكمته الكاملة وعنايته التامة فعزته لا تنافي حكمته فلا يقال: إنه ما شاء فعل وافق الحكمة أو خالفها، بل يقال: إن أفعاله وكذلك أحكامه تابعة لحكمته فلا يخلق شيئاً عبثاً بل لا بد له من حكمة عرفناها أم لم نعرفها، وكذلك لم يشرع لعباده شيئاً مجزئاً عن الحكمة، فلا يأمر إلا بما فيه مصلحة خالصة أو راجحة ولا ينهى إلا عما فيه مفسدة خالصة أو راجحة لتمام حكمته ورحمته.

﴿وَلَا تُنْكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُوا ۖ وَلَا أَمَةٌ مُؤْمِنَةٌ حَتَّى يُؤْمِنُوا ۚ وَلَوْ عَجَبْتَكَمْ وَلَا تُنْكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُوا ۚ وَلَعَبَدٌ مُؤْمِنٌ حَتَّى يُؤْمِنُوا ۚ وَلَوْ عَجَبْتَكَمْ أُولَئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ ۚ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ ۚ وَيُبَيِّنُ ءَايَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ۝﴾

(٣) أي: ﴿وَلَا تُنْكِحُوا﴾؛ النساء، ﴿الْمُشْرِكَاتِ﴾؛ ما دمن على شركهن ﴿حَتَّى يُؤْمِنَ﴾؛ لأن المؤمنة ولو بلغت من الدمامة ما بلغت خير من المشركة ولو بلغت من الحسن ما بلغت، وهذه عامة في جميع النساء المشركات، وخصصتها آية المائدة في إباحة نساء أهل الكتاب كما قال تعالى: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ [المائدة: ٥٠]؛ ﴿وَلَا تُنْكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُوا﴾؛ وهذا عام لا تخصيص فيه، ثم ذكر تعالى الحكمة في تحريم نكاح المسلم أو المسلمة لمن خالفهما في الدين فقال: ﴿أُولَئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ﴾؛ أي: في أقوالهم وأفعالهم وأحوالهم، فمخالطتهم على خطر منهم، والخطر ليس من الأخطار الدنيوية إنما هو الشقاء الأبدي.

ويستفاد من تعليل الآية النهي عن مخالطة كل مشرك ومبتدع؛ لأنه إذا لم يجز التزوج مع أن فيه مصالح كثيرة؛ فالخلطة المجردة من باب أولى وخصوصاً الخلطة التي فيها ارتفاع المشرك ونحوه على المسلم كالخدمة ونحوها.

التطهر الحسي من الأنجاس والأحداث، فيه مشروعية الطهارة مطلقاً؛ لأن الله تعالى يحب المتصف بها، ولهذا كانت الطهارة مطلقاً شرطاً لصحة الصلاة والطواف وجواز مس المصحف، ويشمل التطهر المعنوي عن الأخلاق الرذيلة والصفات القبيحة والأفعال الخسيسة.

﴿يَسْأَلُكُمْ حَرْثُ لَكُمْ فَأَتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ﴾؛ مقابلة ومدبرة غير أنه لا يكون إلا في القبل لكونه موضع الحرث وهو الموضع الذي يكون منه الولد، وفيه دليل على تحريم الوطء في الدبر؛ لأن الله لم يبح إتيان المرأة إلا في الموضع الذي منه الحرث. وقد تكررت الأحاديث عن النبي ﷺ، في تحريم ذلك ولعن فاعله. ﴿وَقَدِمُوا لِأَنفُسِكُمْ﴾؛ أي: من التقرب إلى الله بفعل الخيرات، ومن ذلك أن يباشر الرجل امرأته ويجمعها على وجه القرية والاحتساب وعلى رجاء تحصيل الذرية الذين ينفع الله بهم. ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾؛ أي: في جميع أحوالكم كونوا ملازمين لتقوى الله مستعينين على ذلك بعلمكم، ﴿أَنَّكُمْ مُلْكُوهُ﴾؛ ومجازكم على أعمالكم الصالحة وغيرها، ثم قال: ﴿وَيَبْشِرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾؛ لم يذكر المبشر به ليدل على العموم وأن لهم البشري في الحياة الدنيا وفي الآخرة، وكل خير واندفاع كل ضرر رتب على الإيمان فهو داخل في هذه البشارة، وفيها محبة الله للمؤمنين ومحبة ما يسرهم واستحباب تشيطنهم وتشويقهم بما أعد الله لهم من الجزاء الدنيوي والأخروي.

﴿وَلَا تَجْمَعُوا اللَّهَ عَرْضَةً لِأَتَمِّنْكُمْ أَنْ تَبْزُوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.

﴿الْمَقْصُودُ مِنَ الْيَمِينِ وَالْقِسْمُ تَعْظِيمُ الْمَقْسَمِ بِهِ وَتَأْكِيدُ الْمَقْسَمِ عَلَيْهِ. وَكَانَ اللَّهُ تَعَالَى قَدْ أَمَرَ بِحِفْظِ الْإِيمَانِ وَكَانَ مُقْتَضًى ذَلِكَ حِفْظُهَا فِي كُلِّ شَيْءٍ، وَلَكِنَّ اللَّهَ تَعَالَى اسْتَشْنَى مِنْ ذَلِكَ إِذَا كَانَ الْبِرُّ بِالْيَمِينِ يَتَضَمَّنُ تَرْكَ مَا هُوَ أَحَبُّ إِلَيْهِ فَفَنَهَى عِبَادَهُ أَنْ يَجْعَلُوا إِيْمَانَهُمْ عَرْضَةً أَيْ مَانَعَةً وَحَائِلَةً عَنْ أَنْ يَبْرُوا أَيْ يَفْعَلُوا خَيْرًا وَيَتَّقُوا شَرًّا وَيُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ، فَمَنْ حَلَفَ عَلَى تَرْكِ وَاجِبٍ وَجَبَ حَتُّهُ وَحَرَمَ إِقَامَتُهُ عَلَى يَمِينِهِ، وَمَنْ حَلَفَ عَلَى تَرْكِ مُسْتَحَبٍّ اسْتَحَبَّ لَهُ الْحَنْثُ، وَمَنْ حَلَفَ عَلَى فِعْلِ مَحْرُومٍ وَجَبَ الْحَنْثُ، أَوْ عَلَى فِعْلِ مَكْرُوهٍ اسْتَحَبَّ الْحَنْثُ. وَأَمَّا الْمَبَاحُ فَيَنْبَغِي فِيهِ حِفْظُ الْيَمِينِ عَنِ الْحَنْثِ.

ويستدل بهذه الآية على القاعدة المشهورة أنه إذا تراخمت المصالح قدم أهمها، فهنا تميم اليمين مصلحة، وامتنال

وفي قوله: ﴿وَلَا تُنْكِحُوا الْمُشْرِكِينَ﴾؛ دليل على اعتبار الولي في النكاح ﴿وَاللَّهُ يَدْعُوا إِلَى الْإِجْتِهَادِ وَالْمَغْفِرَةِ﴾؛ أي: يدعو عباده لتحصيل الجنة والمغفرة التي من آثارها دفع العقوبات؛ وذلك بالدعوة إلى أسبابها من الأعمال الصالحة والتوبة النصوح والعلم النافع والعمل الصالح، ﴿وَيَسِّرُ الْيُسْرَى﴾؛ أي: أحكامه وحكمها للناس لعلهم يتذكرون ﴿وَيَسِّرُ﴾؛ فيوجب لهم ذلك التذكر لما نسوه وعلم ما جهلوه والامتنال لما ضيعوه. ثم قال تعالى:

﴿وَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَأَعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّى يَظْهَرْنَ فَإِذَا تَظَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ ﴿يَسْأَلُكُمْ حَرْثُ لَكُمْ فَأَتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ وَقَدِمُوا لِأَنفُسِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلْكُوهُ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

﴿يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ سَوَالِهِمْ عَنِ الْمَحِيضِ وَهَلْ تَكُونُ الْمَرْأَةُ بِحَالِهَا بَعْدَ الْحَيْضِ كَمَا كَانَتْ قَبْلَ ذَلِكَ أَمْ تَجْتَنِبُ مطلقاً كما يفعله اليهود؟ فأخبر تعالى أن الحيض أذى، وإذا كان أذى فمن الحكمة أن يمنع الله تعالى عباده عن الأذى وحده، ولهذا قال: ﴿فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ﴾؛ أي: مكان الحيض وهو الوطء في الفرج خاصة فهذا المحرم إجماعاً، وتخصيص الاعتزال في المحيض يدل على أن مباشرة الحائض وملاستها في غير الوطء في الفرج جائز، لكن قوله: ﴿وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّى يَظْهَرْنَ﴾؛ يدل على ترك المباشرة فيما قرب من الفرج وذلك فيما بين السرة والركبة ينبغي تركه كما كان النبي ﷺ، إذا أراد أن يباشر امرأته وهي حائض أمرها أن تنزل فيباشرها، وحد هذا الاعتزال وعدم القربان للحيض ﴿حَتَّى يَظْهَرْنَ﴾؛ أي: ينقطع دمهن، فإذا انقطع الدم زال المنع الموجود وقت جريانه، الذي كان لحله شرطان: انقطاع الدم والاعتزال منه، فلما انقطع الدم زال الشرط الأول وبقي الثاني فلهذا قال: ﴿فَإِذَا تَظَهَّرْنَ﴾؛ أي: اغتسلن، ﴿فَأَتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ﴾؛ أي: في القبل لا في الدبر لأنه محل الحرث، وفيه دليل على وجوب الاعتزال للحائض وأن انقطاع الدم شرط لصحته، ولما كان هذا المنع لطفاً منه تعالى بعباده وصيانة عن الأذى، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ﴾؛ أي: من ذنوبهم على الدوام، ﴿وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾؛ أي: المتزهين عن الآثام، وهذا يشمل

سورة البقرة

الْبَقَرَةُ

لَا يُوَازِدُكُمْ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُوَازِدُكُمْ بِمَا كَسَبْتُمْ قُلُوبُكُمْ وَاللَّهُ عَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٢٥﴾ الَّذِينَ يُؤْلُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ رِزْصَ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِنْ فَاءُوا فَإِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٢٦﴾ وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٢٧﴾ وَالْمُطَلَّقَتُ يَبْرَأُصَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِنْ كُنَّ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَبِعَوْلِهِنَّ أَحْيَ بَرِيهِنَّ فِي ذَلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٢٨﴾ أَطْلَقْتُمْ مَرَائِيَّ فَمَا مَسَكْتُ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَرَبَّعْتُ بِإِحْسَنِ وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا بِمَا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ ذَلِكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿١٢٩﴾ فَإِنْ طَلَقَهَا فَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَتَزَوَّجَا حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ فَإِنْ طَلَقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يَرَجَعَا إِنْ ظَنَّا أَنْ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٠﴾

٣٦

أوامر الله في هذه الأشياء مصلحة أكبر من ذلك، فقدمت لذلك. ثم ختم الآية بهذين الاسمين الكريمين فقال: ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ﴾؛ أي: لجميع الأصوات، ﴿عَلِيمٌ﴾؛ بالمقاصد والنيات، ومنه سماعه لأقوال الحالفين وعلمه بمقاصدهم هل هي خير أم شر، وفي ضمن ذلك التحذير من مجازاته، وأن أعمالكم ونياتكم قد استقر علمها عنده. ثم قال تعالى:

﴿لَا يُوَازِدُكُمْ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُوَازِدُكُمْ بِمَا كَسَبْتُمْ قُلُوبُكُمْ وَاللَّهُ عَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ ﴿١٢٥﴾.

﴿١٢٥﴾ أي: لا يوازِدكم بما يجري على ألسنتكم من الأيمان اللغوية التي يتكلم بها العبد، من غير قصد منه، ولا كسب قلب، ولكنها جرت على لسانه، كقول الرجل في عرض كلامه: لا والله وبلى والله، وكحلفه على أمر ماض يظن صدق نفسه، وإنما المواخذة على ما قصده القلب، وفي هذا دليل على اعتبار المقاصد في الأقوال كما هي معتبرة في الأفعال، والله غفور لمن تاب إليه، حلِيم بمن عصاه حيث لم يعاجله بالعقوبة، بل حلم عنه، وستر، وصفح مع قدرته عليه وكونه بين يديه.

﴿لَّذِينَ يُؤْلُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ رِزْصَ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِنْ فَاءُوا فَإِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ ﴿١٢٦﴾ وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ ﴿١٢٧﴾.

﴿١٢٦﴾ وهذا من الأيمان الخاصة بالزوجة في أمر خاص وهو حلف الرجل على ترك وطء زوجته مطلقاً أو مقيداً بأقل من أربعة أشهر أو أكثر، فمن آلى من زوجته خاصة فإن كان لدون أربعة أشهر فهذا مثل سائر الأيمان إن حنث كفر وإن أتم يمينه فلا شيء عليه، وليس لزوجه عليه سبيل؛ لأنه ملكه أربعة أشهر، وإن كان أبداً أو مدة تزيد على أربعة أشهر ضربت له مدة أربعة أشهر من يمينه إذا طلبت زوجته ذلك؛ لأنه حق لها، فإذا تمت أمر بالفيئة وهو الوطء، فإن وطئ فلا شيء عليه إلا كفارة اليمين، وإن امتنع أجبر على الطلاق، فإن امتنع طلق عليه الحاكم ولكن الفيئة والرجوع إلى زوجته أحب إلى الله تعالى، ولهذا قال: ﴿فَإِنْ فَاءُوا﴾؛ أي: رجعوا إلى ما حلفوا على تركه وهو الوطء، ﴿فَإِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ﴾؛ يغفر لهم ما حصل منهم من الحلف بسبب رجوعهم ﴿رَحِيمٌ﴾؛ حيث جعل لأيمانهم كفارة وتحلة ولم يجعلها لازمة لهم غير قابلة للانفكاك، ورحيم بهم أيضاً حيث فاءوا إلى زوجاتهم وحنوا عليهن ورحمهن.

﴿١٢٧﴾ وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ﴾؛ أي امتنعوا من الفيئة فكان ذلك دليلاً على رغبتهم عنهن وعدم إرادتهم لأزواجهن، وهذا لا يكون إلا عزماً على الطلاق فإن حصل هذا الحق الواجب منه مباشرة وإلا أجبره الحاكم عليه أو قام به ﴿فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾؛ فيه وعيد وتهديد لمن يحلف هذا الحلف ويقصد بذلك المضارة والمشاقة.

ويستدل بهذه الآية على أن الإبلاء خاص بالزوجة لقوله: ﴿مِنْ نِسَائِهِمْ﴾، وعلى وجوب الوطء في كل أربعة أشهر مرة؛ لأنه بعد أربعة يجبر إما على الوطء أو على الطلاق، ولا يكون ذلك إلا لتركه واجباً.

﴿وَالْمُطَلَّقَتُ يَبْرَأُصَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِنْ كُنَّ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَبِعَوْلِهِنَّ أَحْيَ بَرِيهِنَّ فِي ذَلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ ﴿١٢٨﴾.

﴿٢٢٨﴾ أي: النساء اللاتي طلقهن أزواجهن ﴿يَرْبِضْنَ﴾ بِأَنْفُسِهِنَّ؟ أي: ينتظرن ويعتددن مدة ﴿ثَلَاثَةَ أَشْهُرٍ﴾؟ أي: حيض أو أطهار على اختلاف العلماء في المراد بذلك مع أن الصحيح أن القراء الحيض، ولهذه العدة عدة حكم منها العلم ببراءة الرحم إذا تكررت عليها ثلاثة أقراء علم أنه ليس في رحمها حمل فلا يفضي إلى اختلاط الأنساب، ولهذا أوجب تعالى عليهن الإخبار عما خلق الله في أرحامهن؛ وحرّم عليهن كتمان ذلك من حمل أو حيض، لأن كتمان ذلك يفضي إلى مفاسد كثيرة فكتمان الحمل موجب أن تلحقه بغير من هو له رغبة فيه أو استعجالاً لانقضاء العدة فإذا ألحقته بغير أبيه حصل من قطع الرحم والإرث واحتجاب محارمه وأقاربه عنه، وربما تزوج ذوات محارمه وحصل في مقابلة ذلك إلحاقه بغير أبيه وثبوت توابع ذلك من الإرث منه وله، ومن جعل أقارب الملقح به أقارب له وفي ذلك من الشر والفساد ما لا يعلمه إلا رب العباد، ولو لم يكن في ذلك إلا إقامتها مع من نكاحها باطل في حقه، وفيه الإصرار على الكبيرة العظيمة وهي الزنا لكفى بذلك شراً.

وأما كتمان الحيض فإن استعجلت فأخبرت به وهي كاذبة ففيه من انقطاع حق الزوج عنها وإباحتها لغيره وما يتفرع عن ذلك من الشر كما ذكرنا، وإن كذبت وأخبرت بعدم وجود الحيض لتطول العدة فتأخذ منه نفقة غير واجبة عليه بل هي سحت عليها محرمة من جهتين: من كونها لا تستحقه، ومن كونها نسبتها إلى حكم الشرع وهي كاذبة، وربما راجعها بعد انقضاء العدة فيكون ذلك سفاحاً لكونها أجنبية منه، فلهذا قال تعالى: ﴿وَلَا يَحِلُّ لَهَا أَنْ يَكْتُمَنَّ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أََرْحَامِهَا إِنْ كُنَّ يَؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾.

فصدور الكتمان منهن دليل على عدم إيمانهن بالله واليوم الآخر وإلا فلو آمن بالله واليوم الآخر وعرفن أنهم مجزيات عن أعمالهن لم يصدر منهن شيء من ذلك، وفي ذلك دليل على قبول خبر المرأة عما تخبر به عن نفسها من الأمر الذي لا يطلع عليه غيرها كالحمل والحيض ونحوهما.

ثم قال تعالى: ﴿وَمَوْلَاهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَلِكَ﴾؟ أي: لأزواجهن ما دامت متربصة في تلك العدة أن يردوهن إلى نكاحهن ﴿إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا﴾؟ أي: رغبة وألفة ومودة، ومفهوم الآية أنهم إن لم يريدوا الإصلاح فليسوا بأحق بردهن، فلا يحل لهم أن يراجعوهن لقصد المضارة لها وتطويل العدة عليها، وهل يملك ذلك مع هذا القصد؟ فيه قولان:

الجمهور: على أنه يملك ذلك مع التحريم، والصحيح: أنه إذا لم يرد الإصلاح لا يملك ذلك كما هو ظاهر الآية الكريمة، وهذه حكمة أخرى في هذا التربص، وهي أنه ربما أن زوجها ندم على فراقه لها فجعلت له هذه المدة ليتروى بها ويقطع نظره، وهذا يدل على محبته تعالى للآلفة بين الزوجين وكرهته للفراق، كما قال النبي ﷺ: «أَبْغَضُ الْحَلَالِ إِلَى اللَّهِ الطَّلَاقُ»^(١)، وهذا خاص في الطلاق الرجعي، وأما الطلاق البائن فليس البعل بأحق برجعته، بل إن تراضيا على التراجع فلا بد من عقد جديد مجتمع الشروط.

ثم قال تعالى: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾؟ أي: وللنساء على بعولتهن من الحقوق واللوازم مثل الذي عليهن لأزواجهن من الحقوق اللازمة والمستحبة، ومرجع الحقوق بين الزوجين إلى المعروف، وهو العادة الجارية في ذلك البلد وذلك الزمان من مثلها لمثلها، ويختلف ذلك باختلاف الأزمنة والأمكنة والأحوال والأشخاص والعوائد، وفي هذا دليل على أن النفقة والكسوة والمعاشرة والمسكن وكذلك الوطء الكل يرجع إلى المعروف، فهذا موجب العقد المطلق، وأما مع الشرط فعلى شرطهما، إلا شرطاً أحل حراماً أو حرم حلالاً.

﴿وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾؟ أي: رفعة ورياسة وزيادة حق عليها كما قال تعالى: ﴿الرِّجَالُ قَوَّاتٌ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ﴾ [النساء: ٣٤]؛ ومنصب النبوة والقضاء والإمامة الصغرى والكبرى وسائر الولايات مختص بالرجال، وله ضعفا ما لها في كثير من الأمور كالميراث ونحوه ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾؟ أي: له العزة القاهرة والسلطان العظيم الذي دانت له جميع الأشياء، ولكنه مع عزته حكيم في تصرفه.

ويخرج من عموم هذه الآية الحوامل فعدتهن وضع الحمل، واللاتي لم يدخل بهن فليس لهن عدة، والإماء فعدتهن حيضتان كما هو قول الصحابة رضي الله عنهم، وسياق الآية يدل على أن المراد بها الحرة.

﴿الطَّلَاقُ مَرَّتَانٍ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَرَيجٌ بِإِحْسَنٍ وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا بِمَا آتَيْنَهُمْ شَيْئاً إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُعْسِمَا حَدُودَ اللَّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يَفِيقَا حَدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا

فِيهَا أَفَدَّتْ بِهِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٢٩﴾

﴿٢٢٩﴾ كان الطلاق في الجاهلية واستمر أول الإسلام يطلق الرجل زوجته بلا نهاية، فكان إذا أراد مضاربتها طلقها فإذا شارفت انقضاء عدتها راجعها ثم طلقها وصنع بها مثل ذلك أبداً، فيحصل عليها من الضر ما الله به عليم. فأخبر تعالى أن الطلاق؛ أي: الذي تحصل به الرجعة، ﴿سَرَتَانٍ﴾؛ ليتمكن الزوج إن لم يرد المضارة من ارتجاعها ويراجع رأيها في هذه المدة، وأما ما فوقها فليس محلاً لذلك؛ لأن من زاد على الثنتين فإما متجري على المحرم أو ليس له رغبة في إمساكها بل قصده المضارة، فلهذا أمر تعالى الزوج أن يمسك زوجته ﴿بِمَعْرُوفٍ﴾؛ أي: عشرة حسنة ويجري مجرى أمثاله مع زوجاتهم، وهذا هو الأرجح، وإلا يسرحها ويفارقها، ﴿بِإِحْسَنِ﴾؛ ومن الإحسان ألا يأخذ على فراقه لها شيئاً من مالها لأنه ظلم وأخذ للمال في غير مقابلة بشيء، فلهذا قال: ﴿وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا ءَاتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئاً إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ﴾؛ وهي المخالعة بالمعروف بأن كرهت الزوجة زوجها لخلقها أو خلقه أو نقص دينه، وخافت ألا تطيع الله فيه ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ﴾؛ لأنه عوض لتحصيل مقصودها من الفقرة، وفي هذا

مشروعية الخلع إذا وجدت هذه الحكمة ﴿تِلْكَ﴾؛ أي: ما تقدم من الأحكام الشرعية، ﴿حُدُودُ اللَّهِ﴾؛ أي: أحكامه التي شرعها لكم وأمر بالوقوف معها ﴿وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾، وأي ظلم أعظم ممن اقتحم الحلال وتعدى منه إلى الحرام فلم يسعه ما أحل الله؟

والظلم ثلاثة أقسام:

ظلم العبد فيما بينه وبين الله، وظلم العبد الأكبر الذي هو الشرك، وظلم العبد فيما بينه وبين الخلق.

فالشرك لا يغفره الله إلا بالتوبة، وحقوق العباد لا يترك الله منها شيئاً، والظلم الذي بين العبد وربّه فيما دون الشرك تحت المشيئة والحكمة.

﴿فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا يَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدِ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجاً غَيْرَهُ فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يَرَاجَعَا إِنْ طَلَّ أَنْ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ ﴿٢٣٠﴾ وَإِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ فَلَنْ أَجْلِهِنَّ فَمَسْكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرَحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلَا تَسْكُوهُنَّ ضَرَاراً لِنَعْتَدُوا وَمَنْ يَعْمَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ وَلَا تَتَّخِذُوا ءَايَتِ اللَّهِ هُزُوّاً وَادْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُمْ بِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٣١﴾

﴿٢٣٠﴾ يقول تعالى: ﴿فَإِنْ طَلَّقَهَا﴾؛ أي: الطلقة الثالثة ﴿فَلَا يَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدِ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجاً غَيْرَهُ﴾؛ أي: نكاحاً صحيحاً ويطأها، لأن النكاح الشرعي لا يكون إلا صحيحاً ويدخل فيه العقد والوطء وهذا بالاتفاق، ويتعين أن يكون نكاح الثاني نكاح رغبة، فإن قصد به تحليلها للأول فليس بنكاح ولا يفيد التحليل، ولا يفيد وطء السيد لأنه ليس بزواج، فإذا تزوجها الثاني رغباً، ووطأها، ثم فارقها وانقضت عدتها ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا﴾؛ أي: على الزوج الأول والزوجة ﴿أَنْ يَرَاجَعَا﴾؛ أي: يجددا عقداً

وإِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ فَلَنْ أَجْلِهِنَّ فَمَسْكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرَحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلَا تَسْكُوهُنَّ ضَرَاراً لِنَعْتَدُوا وَمَنْ يَعْمَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ وَلَا تَتَّخِذُوا ءَايَتِ اللَّهِ هُزُوّاً وَادْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُمْ بِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٣١﴾ وَإِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ فَلَنْ أَجْلِهِنَّ فَلَا تَقْضُوا لَهُنَّ دُونَ ذَلِكَ فَإِنْ رَاضُوا بِبَيْنِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ ذَلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ مِنْكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ أَرْكَى لَكُمْ وَأَطْهَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٢﴾ وَالْوَلَدَاتُ يُرْضَعْنَ أَوْلَدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُنِمَّ الرِّضَاعَةَ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا لَا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَهُ بِوَلَدِهِ وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالاً عَنْ تَرَاضٍ مِنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَسْرِعُوا أَوْلَادَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُمْ مَا ءَاتَيْتُمُ بِالْمَعْرُوفِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٣٣﴾

وبالقلب اعترافاً وإقراراً، وبالأركان بصرفها في طاعة الله ﴿وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ﴾؛ أي: السنة، اللذين بين لكم بهما طرق الخير، ورغبكم فيها، وطرق الشر، وحذركم بإيها، وعرفكم أنفسه ووقائعه في أوليائه وأعدائه، وعلمكم ما لم تكونوا تعلمون، وقيل: المراد بالحكمة أسرار الشريعة، فالكتاب فيه الحكم، والحكمة فيها بيان حكمة الله في أوامره ونواهيه، وكلا المعنيين صحيح، ولهذا قال: ﴿يُعْظَمُ بِهِ﴾؛ أي: بما أنزل عليكم، وهذا مما يقوي أن المراد بالحكمة أسرار الشريعة؛ لأن الموعظة ببيان الحكم والحكمة والترغيب أو التهيب، فبالحكم به يزول الجهل، والحكمة مع الترغيب يوجب الرغبة، والحكمة مع التهيب يوجب الرهبة ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ في جميع أموركم ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾؛ فلهذا بين لكم هذه الأحكام بغاية الإتيان والإحكام التي هي جارية مع المصالح في كل زمان ومكان، فله الحمد والمنة.

﴿وَإِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ فَلَنْ أَجْلِهِنَّ فَلَا تَعْصُلُوهُنَّ أَنْ يَنْكِحَنَّ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضَوْا بَيْنَهُنَّ بِالْعُرْفِ ذَلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ مِنْكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَمْ أَزْكَى لَكُمْ وَأَطْهَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾.

﴿٢٣١﴾ هذا خطاب لأولياء المرأة المطلقة دون الثلاث إذا خرجت من العدة وأراد زوجها أن ينكحها ورضيت بذلك، فلا يجوز لوليها من أب وغيره أن يعضلها، أي: يمنعها من الزواج به حقاً عليه وغضباً واشتمئزاً لما فعل من الطلاق الأول، وذكر أن من كان يؤمن بالله واليوم الآخر؛ فيإمانه يمنعه من العضل، ذلك ﴿أَزْكَى لَكُمْ وَأَطْهَرُ﴾؛ وأطيب مما يظن الولي أن عدم تزويجه هو الرأي واللاق، وأنه يقابل بطلاقه الأول بعدم تزويجه كما هو عادة المترفعين المتكبرين، فإن كان يظن أن المصلحة في عدم تزويجه فالله ﴿يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾؛ فامثلوا أمر من هو عالم بمصالحكم، مريد لها، قادر عليها، ميسر لها من الوجه الذي تعرفون وغيره.

وفي هذه الآية دليل على أنه لا بد من الولي في النكاح؛ لأنه نهى الأولياء عن العضل، ولا ينهاهم إلا عن أمر هو تحت تدبيرهم ولهم فيه حق. ثم قال تعالى:

﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُنْمِيَ الرِّضَاعَةَ وَعَلَى الْوَالِدِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْعُرْفِ لَا

جديداً بينهما لإضافته التراجع إليهما، فدل على اعتبار التراضي، ولكن يشترط في التراجع أن يظنا ﴿أَنْ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ﴾؛ بأن يقوم كل منهما بحق صاحبه، وذلك إذا ندما على عشرينهما السابقة الموجبة للفراق، وعزما أن يبدياها بعشرة حسنة، فهنا لا جناح عليهما في التراجع.

ومفهوم الآية الكريمة أنهما إن لم يظنا أن يقيما حدود الله بأن غلب على ظنهما أن الحال السابقة باقية والعشرة السيئة غير زائلة أن عليهما في ذلك جناحاً، لأن جميع الأمور إن لم يقيم فيها أمر الله ويسلك بها طاعته لم يحل الإقدام عليها، وفي هذا دلالة على أنه ينبغي للإنسان إذا أراد أن يدخل في أمر من الأمور، خصوصاً الولايات الصغار والكبار، أن ينظر في نفسه، فإن رأى من نفسه قوة على ذلك ووثق بها أقدم وإلا أحجم.

ولما بين تعالى هذه الأحكام العظيمة قال: ﴿وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ﴾؛ أي: شرائع التي حددها وبينها ووضحها، ﴿يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾؛ لأنهم هم المستفوعون بها النافعون لغيرهم، وفي هذا من فضيلة أهل العلم ما لا يخفى، لأن الله تعالى جعل تبينه لحدوده خاصاً بهم وأنهم المقصودون بذلك، وفيه أن الله تعالى يحب من عباده معرفة حدود ما أنزل على رسوله والتفقه بها.

﴿٢٣٢﴾ ثم قال تعالى: ﴿وَإِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ﴾؛ أي: طلاقاً رجعيّاً بواحدة أو اثنتين ﴿فَلَنْ أَجْلِهِنَّ﴾؛ أي: قاربين انقضاء عدتهن ﴿فَأَنْكِحُوهُنَّ بِعُرْفٍ أَوْ سَرِيحَةٍ يَعْرِفُ﴾؛ أي: إما أن تراجعوهن ونيتمكم القيام بحقوقهن، أو تركوهن بلا رجعة ولا إضرار، ولهذا قال: ﴿وَلَا تَنْكِحُوهُنَّ ضَرَارًا﴾؛ أي: مضارة بهن ﴿لَعَنْتُوهُنَّ﴾ في فعلكم هذا الحلال إلى الحرام، فالحلال الإمساك بالمعروف والحرام المضارة، ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ﴾، ولو كان الحق يعود للمخلوق فالضرر عائد إلى من أراد الضرر، ﴿وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ﴾؛ لما بين تعالى حدوده غاية التبين، وكان المقصود العلم بها والعمل والوقوف معها وعدم مجاوزتها، لأنه تعالى لم ينزلها عبثاً بل أنزلها بالحق والصدق والجد، نهى عن اتخاذها هزواً، أي: لعباً بها، وهو التجري عليها وعدم الامتثال لواجبها، مثل: استعمال المضارة في الإمساك أو الفراق أو كثرة الطلاق أو جمع الثلاث، والله من رحمته جعل له واحدة بعد واحدة رفقاً به، وسعيّاً في مصلحته.

﴿وَأَذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾؛ عموماً باللسان حمداً وثناءً،

ثُمَّ كَفَّلُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَا تُضَارُّ وَالِدَهُ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَهُ بِوَلَدِهِ وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَنْ تَرَاضٍ مِنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَسْرِضَعُوا أَوْلَادَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُمْ مَا آتَيْتُم بِالْمَعْرُوفِ وَالْقَوَا أَلَا اللَّهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٣٣﴾

وَالَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٣٤﴾ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ أَوْ أَكْتَسَبْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ عَلِيمَ اللَّهِ أَنَّكُمْ سَتَذَكَّرُونَ هُنَّ وَلَكِنْ لَا تُؤَاعِدُهُنَّ سِرًّا إِلَّا أَنْ تَقُولُوا قَوْلًا مَعْرُوفًا وَلَا تَعْرِضُوا عَقْدَةَ الزَّكَاجِ حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوا وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَفُوٌّ ذَلِيلٌ ﴿٢٣٥﴾ لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمْسُوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً وَمَتَّعُوهُنَّ عَلَى الْوَسْعِ قَدْرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدْرُهُ مَتَّعًا بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ ﴿٢٣٦﴾ وَإِنْ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فِضْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّا أَنْ يَعْقُوبَ أَوْ يُعْطُوا الَّذِي يَدِيهِ عَقْدَةُ الزَّكَاجِ وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَلَا تَنْسُوا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٣٧﴾

ثُمَّ كَفَّلُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَا تُضَارُّ وَالِدَهُ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَهُ بِوَلَدِهِ وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَنْ تَرَاضٍ مِنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَسْرِضَعُوا أَوْلَادَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُمْ مَا آتَيْتُم بِالْمَعْرُوفِ وَالْقَوَا أَلَا اللَّهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٣٣﴾

﴿٢٣٣﴾ هذا خير بمعنى الأمر تنزيلاً له منزلة المقرر الذي لا يحتاج إلى أمر بأن ﴿يَرْضَعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ﴾؛ ولما كان الحول يطلق على الكامل وعلى معظم الحول قال: ﴿كاملين﴾ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَتِمَّ الرِّضَاعَةَ؛ فإذا تم للرضيع حولان فقد تم رضاعه وصار اللبن بعد ذلك بمنزلة سائر الأغذية، فلهذا كان الرضاع بعد الحولين غير معتبر لا يحرم. ويؤخذ من هذا النص ومن قوله تعالى: ﴿وَحَلَهُ، وَفَضَّلَهُ، ثَلَاثُونَ شَهْرًا﴾ [الاحقاف: ١٥]؛ أن أقل مدة الحمل ستة أشهر وأنه يمكن وجود الولد بها ﴿وَعَلَى الْوَلَدِ لَهُ، أَي: الأب، رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾؛ وهذا شامل لما إذا كانت في حباله أو مطلقة، فإن على الأب رزقها؛ أي: نفقتها وكسوتها وهي الأجرة للرضاع، ودل هذا على أنها إذا كانت في حباله لا يجب لها أجرة غير النفقة والكسوة وكل بحسب حاله، فلهذا قال: ﴿لَا تُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾؛ فلا يكلف الفقير أن ينفق نفقة الغني ولا

من لم يجد شيئاً بالنفقة حتى يجد. ﴿لَا تُضَارُّ وَالِدَهُ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَهُ بِوَلَدِهِ﴾؛ أي: لا يحل أن تضار الوالدة بسبب ولدها؛ إما أن تمنع من إرضاعه أو لا تعطى ما يجب لها من النفقة والكسوة أو الأجرة ﴿وَلَا مَوْلُودٌ لَهُ بِوَلَدِهِ﴾؛ بأن تمتنع من إرضاعه على وجه المضارة [له] أو تطلب زيادة عن الواجب ونحو ذلك من أنواع الضرر، ودل قوله: ﴿مَوْلُودٌ لَهُ﴾؛ أن الولد لأبيه؛ لأنه موهوب له ولأنه من كسبه، فلذلك جاز له الأخذ من ماله رضي أو لم يرض، بخلاف الأم.

وقوله: ﴿وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ﴾؛ أي: على وارث الطفل إذا عدم الأب، وكان الطفل ليس له مال مثل ما على الأب من النفقة للمرضع والكسوة، فدل على وجوب نفقة الأقارب المعسرين على القريب الوارث الموسر، ﴿فَإِنْ أَرَادَا﴾؛ أي: الأبوان، ﴿فِصَالًا﴾؛ أي: فطام الصبي قبل الحولين، ﴿عَنْ تَرَاضٍ مِنْهُمَا﴾؛ بأن يكونا راضيين، ﴿وَتَشَاوُرٍ﴾؛ فيما بينهما هل هو مصلحة للصبي أم لا؟ فإن كان مصلحة ورضيا ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا﴾؛ في فطامه قبل الحولين، فدللت الآية بفهمها على أنه إن رضي أحدهما دون الآخر أو لم يكن مصلحة للطفل أنه لا يجوز فطامه. وقوله: ﴿وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَسْرِضَعُوا أَوْلَادَكُمْ﴾؛ أي: تطلبوا لهم المراضع غير أمهاتهم على غير وجه المضارة، ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُمْ مَا آتَيْتُم بِالْمَعْرُوفِ﴾؛ أي: للمرضعات، ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾؛ فمجازيكم على ذلك بالخير والشر.

﴿وَالَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ ﴿٢٣٤﴾

﴿٢٣٤﴾ أي: إذا توفي الزوج مكثت زوجته أربعة أشهر وعشرة أيام وجوباً، والحكمة في ذلك ليتبين الحمل في مدة الأربعة ويتحرك في ابتدائه في الشهر الخامس، وهذا العام مخصوص بالحوامل، فإن عدتهن بوضع الحمل، وكذلك الأمة عدتها على النصف من عدة الحرة شهران وخمسة أيام. وقوله: ﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ﴾؛ أي: انقضت عدتهن، ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾

﴿لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمْسُوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً وَمَتَّعُوهُنَّ عَلَى الْمَوْسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتَرِ قَدَرُهُ مَتَّعًا بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ﴾ (٢٣٦).

﴿٢٣٦﴾ أي: ليس عليكم - يا معشر الأزواج - جناح وإثم بتطليق النساء قبل المسيس وفرض المهر، وإن كان في ذلك كسر لها فإنه ينجر بالمتعة فعليكم أن تمتعوهن؛ بأن تعطوهن شيئاً من المال جبراً لخواطرن. ﴿عَلَى الْمَوْسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتَرِ﴾؛ أي: المعسر، ﴿قَدَرُهُ﴾؛ وهذا يرجع إلى العرف وأنه يختلف باختلاف الأحوال، ولهذا قال: ﴿مَتَّعًا بِالْمَعْرُوفِ﴾؛ فهذا حق واجب ﴿عَلَى الْمُحْسِنِينَ﴾ (٢٣٦)؛ ليس لهم أن يبخسوهن، فكما تسببوا لتشوفهن واشتياقهن وتعلق قلوبهن، ثم لم يعطوهن ما رغبن فيه فعليهم في مقابلة ذلك المتعة.

فله ما أحسن هذا الحكم الإلهي وأدله على حكمة شارعهِ ورحمته! ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون! فهذا حكم المطلقات قبل المسيس وقبل فرض المهر، ثم ذكر حكم المفروض لهن فقال:

﴿وَإِنْ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّا أَنْ يَعْفُوَ أَوْ يَعْفُوا الَّذِي بِيَدِهِ عَقْدَةُ الزَّكَاجِ وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَلَا تَنْسُوا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ (٢٣٧).

﴿٢٣٧﴾ أي: إذا طلقتم النساء قبل المسيس وبعد فرض المهر فللمطلقات من المهر المفروض نصفه ولكم نصفه، هذا هو الواجب ما لم يدخله عفو ومسامحة بأن تعفو عن نصفها لزوجها إذا كان يصح عفوها، ﴿أَوْ يَعْفُوا الَّذِي بِيَدِهِ عَقْدَةُ الزَّكَاجِ﴾؛ وهو الزوج على الصحيح لأنه الذي بيده حل عقدته، ولأن الولي لا يصح أن يعفو عما وجب للمرأة لكونه غير مالك ولا وكيل، وقيل: إنه الأب وهو الذي يدل عليه لفظ الآية الكريمة.

ثم رغب في العفو وأن من عفا كان أقرب لتقواه لكونه إحساناً موجباً لشرح الصدر، ولكون الإنسان لا ينبغي أن يهمل نفسه من الإحسان والمعروف، وينسى الفضل الذي هو أعلى درجات المعاملة، لأن معاملة الناس فيما بينهم على درجتين: إما عدل وإنصاف واجب، وهو أخذ الواجب وإعطاء الواجب، وإما فضل وإحسان، وهو إعطاء ما ليس

فِيمَا قَلَمَنْ فِي أَنْفُسِهِنَّ؛ أي: من مراجعتها للزينة والطيب، ﴿بِالْمَعْرُوفِ﴾؛ أي: على وجه غير محرم ولا مكروه، وفي هذا وجوب الإحداً مدة العدة على المتوفى عنها زوجها دون غيرها من المطلقات والمفارات وهو مجمع عليه بين العلماء، ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ (٢٣٦)؛ أي: عالم بأعمالكم ظاهرها وباطنها جلها وخفيها فمجازيكم عليها، وفي خطابه للأولياء بقوله: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا قَلَمَنْ فِي أَنْفُسِهِنَّ﴾؛ دليل على أن الولي ينظر على المرأة ويمنعها مما لا يجوز فعله، ويجبرها على ما يجب وأنه مخاطب بذلك واجب عليه.

﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُمْ بِهِ مِنْ خُطْبَةِ النِّسَاءِ أَوْ أَكْنَنْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ عِلْمَ اللَّهِ أَنْتُمْ سَتَذْكُرُوهُنَّ وَلَكِنْ لَا تَوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّا أَنْ تَقُولُوا قَوْلًا مَعْرُوفًا وَلَا تَعْرِضُوا عَقْدَةَ الزَّكَاجِ حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَفُوٌّ حَلِيمٌ﴾ (٢٣٧).

﴿٢٣٧﴾ هذا حكم المعتدة من وفاة أو المبانة في الحياة، فيحرم على غير مبينها أن يصرح لها في الخطبة، وهو المراد بقوله: ﴿وَلَكِنْ لَا تَوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا﴾؛ وأما التعريض فقد أسقط تعالى فيه الجناح، والفرق بينهما أن التصريح لا يحتمل غير النكاح فلهذا حرم خوفاً من استعجالها وكذبها في انقضاء عدتها رغبة في النكاح، ففيه دلالة على منع وسائل المحرم وقضاء لحق زوجها الأول بعدم مواعدها لغيره مدة عدتها، وأما التعريض وهو الذي يحتمل النكاح وغيره فهو جائز للبائن كأن يقول [لها]: إني أريد الزوج وإني أحب أن تشاوريني عند انقضاء عدتك ونحو ذلك، فهذا جائز لأنه ليس بمنزلة الصريح، وفي النفوس داع قوي إليه، وكذا إضمار الإنسان في نفسه أن يتزوج من هي في عدتها إذا انقضت، ولهذا قال: ﴿أَوْ أَكْنَنْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ عِلْمَ اللَّهِ أَنْتُمْ سَتَذْكُرُوهُنَّ﴾؛ هذا التفصيل كله في مقدمات العقد، وأما عقد النكاح فلا يحل، ﴿حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ﴾؛ أي: تنقضي العدة.

﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ﴾؛ أي: فانوا الخير ولا تننوا الشر خوفاً من عقابه ورجاء لثوابه، ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَفُوٌّ﴾؛ لمن صدرت منه الذنوب فتاب منها، ورجع إلى ربه، ﴿حَلِيمٌ﴾ (٢٣٧)؛ حيث لم يعاجل العصيين على معاصيهم مع قدرته عليهم.

بواجب والتسامح في الحقوق والغض مما في النفس، فلا ينبغي للإنسان أن ينسى هذه الدرجة ولو في بعض الأوقات، وخصوصاً لمن بينك وبينه معاملة أو مخالطة، فإن الله مجاز المحسنين بالفضل والكرم، ولهذا قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَمَّا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ (٢٣٧). ثم قال تعالى:

﴿حَفِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾ (٢٣٨) ﴿إِنْ خِفْتُمْ فِرَاجًا أَوْ رُكْبَانًا فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَأَذْكُرُوا اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾ (٢٣٩).

﴿٢٣٨﴾ يأمر تعالى بالمحافظة ﴿عَلَى الصَّلَوَاتِ﴾؛ عموماً وعلى الصلاة الوسطى؛ وهي العصر خصوصاً، والمحافظة عليها أداؤها بوقتها وشروطها وأركانها وخشوعها وجميع ما لها من واجب ومستحب. وبالمحافظة على الصلوات تحصل المحافظة على سائر العبادات وتفيد النهي عن الفحشاء والمنكر، خصوصاً إذا أكملها كما أمر بقوله: ﴿وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾ (٢٣٩)؛ أي: ذليين مخلصين خاشعين، فإن القنوت دوام الطاعة مع الخشوع.

﴿٢٣٩﴾ وقوله: ﴿إِنْ خِفْتُمْ﴾؛ حذف المتعلق ليعم الخوف من العدو والسبع وفوات ما يتضرر العبد بفوته فصلوا رجالاً؛

ماشين على أرجلكم، ﴿أَوْ رُكْبَانًا﴾؛ على الخيل والإبل وسائر المركوبات، وفي هذه الحال لا يلزمه الاستقبال. فهذه صفة صلاة المعذور بالخوف، فإذا حصل الأمن صلى صلاة كاملة ويدخل في قوله: ﴿إِذَا أَمِنْتُمْ فَأَذْكُرُوا اللَّهَ﴾؛ تكميل الصلوات، ويدخل فيه أيضاً الإكثار من ذكر الله شكرًا له على نعمة الأمن وعلى نعمة التعليم لما فيه سعادة العبد.

وفي الآية الكريمة فضيلة العلم، وأن على من علمه الله ما لم يكن يعلم الإكثار من ذكر الله، وفيه الإشعار أيضاً أن الإكثار من ذكره سبب لتعليم علوم آخر؛ لأن الشكر مقرون بالمزيد. ثم قال تعالى:

﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِمْ مَتْنَعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ مِنْ مَعْرُوفٍ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (٢٤٠).

﴿٢٤٠﴾ اشتهر عند كثير من المفسرين أن هذه الآية الكريمة نسختها الآية التي قبلها وهي قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَرَوْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾؛ وأن الأمر كان على الزوجة أن تتربص حولاً كاملاً ثم نسخ بأربعة أشهر وعشر، ويجيبون عن تقدم الآية الناسخة أن ذلك تقدم في الوضع لا في النزول؛ لأن شرط النسخ أن يتأخر عن المنسوخ، وهذا القول لا دليل عليه، ومن تأمل الآيتين اتضح له أن القول الآخر في الآية هو الصواب، وأن الآية الأولى في وجوب التربص أربعة أشهر وعشرًا على وجه التحريم على المرأة، وأما في هذه الآية فإنها وصية لأهل الميت أن يبقوا زوجة ميتهم عندهم حولاً كاملاً جبراً لخطرها وبراً بميتهم، ولهذا قال: ﴿وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِمْ﴾؛ أي: وصية من الله لأهل الميت أن يستوصوا بزوجه ويمتعوها ولا يخرجوها، فإن رغبت أقامت في وصيتها وإن أحببت الخروج فلا حرج عليها، ولهذا قال: ﴿إِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ﴾؛ أي: من التجميل واللباس، لكن الشرط أن يكون بالمعروف

سُورَةُ الْبَقَرَةِ
الْمُؤْتَلَفَاتِ
حَفِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ ﴿٢٣٨﴾ فَإِنْ خِفْتُمْ فِرَاجًا أَوْ رُكْبَانًا فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَأَذْكُرُوا اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٩﴾ وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِمْ مَتْنَعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ مِنْ مَعْرُوفٍ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٤٠﴾ وَالْمُطَلَقَتِ مَتْنَعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ ﴿٢٤١﴾ كَذَلِكَ يبين الله لكم آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٤٢﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٢٤٣﴾ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَعَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٤﴾ مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصِطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٤٥﴾

وفي هذه القصة عبرة بأنه على كل شيء قدير، وذلك آية محسوسة على البعث؛ فإن هذه القصة معروفة منقولة نقلاً متواتراً عند بني إسرائيل ومن اتصل بهم، ولهذا أتى بها تعالى بأسلوب الأمر الذي قد تقرر عند المخاطبين، ويحتمل أن هؤلاء الذين خرجوا من ديارهم خوفاً من الأعداء وجناً عن لقاءهم، ويؤيد هذا أن الله ذكر بعدها الأمر بالقتال وأخبر عن بني إسرائيل أنهم كانوا مخرجين من ديارهم وأبنائهم، وعلى الاحتمالين فإن فيها ترغيباً في الجهاد وترهيباً من التقاعد عنه، وأن ذلك لا يعني عن الموت شيئاً ﴿قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٥٤].

﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (٢٤١) مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (٢٤٢).

﴿٢٤١﴾ ﴿٢٤٢﴾ جمع الله بين الأمر بالقتال في سبيله بالمال والبدن؛ لأن الجهاد لا يقوم إلا بالأمرين، وحث على الإخلاص فيه بأن يقاتل العبد لتكون كلمة الله هي العليا فإن الله ﴿سَمِيعٌ﴾؛ للأقوال وإن خفيت ﴿عَلِيمٌ﴾؛ بما تحتوي عليه القلوب من النيات الصالحة وضدها. وأيضاً فإنه إذا علم المجاهد في سبيله أن الله سميع عليم، هان عليه ذلك وعلم أنه يرى بعينه ما يتحمل المتحملون من أجله، وأنه لا بد أن يمدهم بعونه ولطفه.

وتأمل هذا الحث اللطيف على النفقة، وأن المنفق قد أقرض الله الملىء الكريم ووعدته المضاعفة الكثيرة كما قال تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلٍ فِي كُلِّ سَبِيلَةٍ يَأْتِيهَا حَبٌّ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَسِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦١]؛ ولما كان المانع الأكبر من الإنفاق خوف الإملاق أخبر تعالى أن الغنى والفقر بيد الله، وأنه يقبض الرزق على من يشاء ويسطه على من يشاء، فلا يتأخر من يريد الإنفاق خوف الفقر، ولا يظن أنه ضائع، بل مرجع العباد كلهم إلى الله فيجد المنفقون والعاملون أجورهم عنده مدخراً أحوج ما يكونون إليه، ويكون له من الوقع العظيم ما لا يمكن التعبير عنه.

والمراد بالقرض الحسن هو ما جمع أوصاف الحسن من النية الصالحة وسماحة النفس بالنفقة ووقوعها في محلها، والآ يتبعها المنفق متناً ولا أدنى ولا مبطلاً ومنقصاً.

الذي لا يخرجها عن حدود الدين والاعتبار. وختم الآية بهذين الاسمين العظيمين الدالين على كمال العزة وكمال الحكمة، لأن هذه أحكام صدرت عن عزته، ودلت على كمال حكمته حيث وضعها في مواضعها اللاتقة بها.

﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ مَتَّعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾ (٢٤٣) كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ ۖ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ (٢٤٤).

﴿٢٤٣﴾ ﴿٢٤٤﴾ لما بين في الآية السابقة إمتناع المفارقة بالموت ذكر هنا أن كل مطلقة لها على زوجها أن يمتعها ويعطيها ما يناسب حاله وحالها وأنه حق إنما يقوم به المتقون، فهو من خصال التقوى الواجبة أو المستحبة، فإن كانت المرأة لم يسم لها صداق وطلقها قبل الدخول فتقدم أنه يجب عليه بحسب يساره وإعساره، وإن كان مسمى لها فمتاعها نصف المسمى، وإن كانت مدخولاً بها صارت المتعة مستحبة في قول جمهور العلماء ومن العلماء من أوجب ذلك استدلالاً بقوله: ﴿حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾ (٢٤٣)؛ والأصل في الحق أنه واجب خصوصاً وقد أضافه إلى المتقين، وأصل التقوى واجبة، فلما بين تعالى هذه الأحكام الجليلة بين الزوجين؛ أثنى على أحكامه، وعلى بيانه لها وتوضيحه، وموافقتها للعقول السليمة، وأن القصد من بيانه لعباده أن يعقلوا عنه ما بينه فيعقلونها حفظاً وفهماً وعملاً بها، فإن ذلك من تمام عقلها.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ (٢٤٥).

﴿٢٤٥﴾ أي: ألم تسمع بهذه القصة العجيبة الجارية على من قبلكم من بني إسرائيل حيث حل الوباء بديارهم فخرجوا بهذه الكثرة فراراً من الموت فلم ينجهم الفرار ولا أغنى عنهم من وقوع ما كانوا يحذرون، فعاملهم بنقيض مقصودهم وأماتهم الله عن آخرهم، ثم تفضل عليهم فأحياهم إما بدعوة نبي كما قاله كثير من المفسرين وإما بغير ذلك، ولكن ذلك بفضله وإحسانه وهو لا يزال فضله على الناس، وذلك موجب لشكرهم لنعم الله بالاعتراف بها وصرفها في مرضاة الله، ومع ذلك فأكثر الناس قد قصروا بواجب الشكر.

سورة البقرة

البقرة

هَلْ تَرَى إِلَى الْآلَمِ مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا
لِنَبِيِّ لَهُمْ آتِنَا مِلْكًا نُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ
عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا قَالُوا
وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا
وَبَنَاتِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ
وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٢٤٦﴾ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ
بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ
عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ
قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ
وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ
عَلِيمٌ ﴿٢٤٧﴾ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ
يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ
مِّمَّا تَرَكَ آءَالُ مُوسَى وَآءَالُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ
إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ لِّكُم مِّنْكُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٤٨﴾ فَلَمَّا
فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ
فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا
مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ
فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا

الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُّكَلَّفُوا اللَّهَ كَم مِّن فِتْنَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِتْنَةُ كَثِيرَةٍ يَّا ذِينَ اللَّهِ
وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٢٤٩﴾ وَلَمَّا بَرَرُوا لِبَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا مَبِئَرًا وَكُنْتَ أَقْدَامَنَا وَأَنْصُرْنَا
عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٢٥٠﴾ فَهَزَمُوهُمْ يَذِزُّ اللَّهُ وَقَتْلَ دَاوُدَ جَالُوتَ وَءَاتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ
وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَئِنْ أَكَّنَ اللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى
الْعَالَمِينَ ﴿٢٥١﴾ تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ تَنْزِيلُهَا عَلَيْكَ يَا حَقُّ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٢٥٢﴾

﴿٢٤٦﴾، ﴿٢٤٧﴾ يقص الله تعالى هذه القصة على الأمة ليعتبروا وليرغبوا في الجهاد ولا يتكلموا عنه، فإن الصابرين صارت لهم
العواقب الحميدة في الدنيا والآخرة، والناكلين خسروا الأمرين، فأخبر تعالى أن أهل الرأي من بني إسرائيل وأصحاب
الكلمة النافذة تراودوا في شأن الجهاد واتفقوا على أن يطلبوا من نبيهم أن يعين لهم ملكاً لينقطع النزاع بتعيينه وتحصل
الطاعة التامة ولا يبقى لقاتل مقال، وأن نبيهم خشي أن طلبهم هذا مجرد كلام لا فعل معه، فأجابوا نبيهم بالعزم الجازم
وأنهم التزموا ذلك التزاماً تاماً، وأن القتال متعين عليهم حيث كان وسيلة لاسترجاع ديارهم ورجوعهم إلى مقرهم ووطنهم،
وأنه عين لهم نبيهم طالوت ملكاً يقودهم في هذا الأمر الذي لا بد له من قائد يحسن القيادة، وأنهم استغربوا تعيينه لطالوت
وتم من هو أحق منه بيتاً وأكثر مالاً، فأجابهم نبيهم: إن الله اختاره عليكم بما آتاه الله من قوة العلم بالسياسة وقوة الجسم،
للذين هما آلة الشجاعة والنجدة وحسن التدبير، وأن الملك ليس بكثرة المال، ولا بكون صاحبه ممن كان الملك والسيادة
في بيوتهم، فالله يؤتي ملكه من يشاء.

ثم لم يكتف ذلك النبي الكريم بتقنيهم بما ذكره من كفاءة طالوت واجتماع الصفات المطلوبة فيه حتى قال لهم:

﴿٢٤٨﴾ **إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَىٰ وَآلُ هَارُونَ**؛ وكان هذا التابوت قد استولت عليه الأعداء، فلم يكتفوا بالصفات المعنوية في طالوت ولا بتعيين الله له على لسان نبيه حتى يؤدي ذلك هذه المعجزة، ولهذا قال: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾ (٢٤٨)؛ فحيث سلموا وانقادوا، فلما ترأس فيهم طالوت وجندهم وربتهم وفصل بهم إلى قتال عدوهم، وكان قد رأى منهم من ضعف العزائم والههم ما يحتاج إلى تمييز الصابر من الناكل فقال:

﴿٢٤٩﴾ **إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ**؛ تمرّون عليه وقت حاجة إلى الماء، ﴿فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي؛ أي لا يتبعني؛ لأن ذلك برهان على قلة صبره ووفور جزعه ﴿وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي؛ لصدقه وصبره، ﴿إِلَّا مَنِ أَغْرَقَهُ يَدُّهُ؛ أي: فإنه مسامح فيها. فلما وصلوا إلى ذلك النهر وكانوا محتاجين إلى الماء شربوا كلهم منه ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ؛ فإنهم صبروا ولم يشربوا ﴿فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ قَالُوا؛ أي: الناكلون أو الذين عبروا ﴿لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ؛ فإن كان القائلون هم الناكلين فهذا قول يبررون به نكلهم، وإن كان القائلون هم الذين عبروا مع طالوت فإنه حصل معهم نوع الاستضعاف لأنفسهم، ولكن شجعهم على الثبات والإندام أهل الإيمان الكامل حيث قالوا: ﴿كُم مِّن فَتْنَةٍ يَأْذِنُ اللَّهُ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ (٢٤٩)؛ بعونه وتأييده ونصره فثبتوا وصبروا لقتال عدوهم جالوت وجنوده.

﴿٢٥٠﴾ **وَقَتْلَ دَاوُدَ**؛ ﷺ، ﴿جَالُوتَ؛ وحصل بذلك الفتح والنصر على عدوهم ﴿وَأَنكَنَّهُ اللَّهُ؛ أي: داود ﴿الْمَلِكَ وَالْحِكْمَةَ؛ النبوة والعلوم النافعة، وآناه الله الحكمة وفصل الخطاب. ثم بين تعالى فائدة الجهاد فقال: ﴿وَلَوْلَا دَفَعُ اللَّهُ النَّاسَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ؛ باستيلاء الكفرة والفجار وأهل الشر والفساد ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ دُو فَضَّلَ عَلَى الْمَكْرُمِينَ﴾ (٢٥٠)؛ حيث لطف بالمؤمنين ودافع عنهم وعن دينهم بما شرعه وبما قدره. فلما بين هذه القصة قال لرسوله ﷺ:

﴿٢٥١﴾ **يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ تَنَلُّهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ**؛ ومن جملة الأدلة على رسالته هذه القصة حيث أخبر بها وحيا من الله مطابقا للواقع.

وفي هذه القصة عبر كثيرة للأمة:

منها: فضيلة الجهاد في سبيله وفوائده وثمراته، وأنه السبب الوحيد في حفظ الدين وحفظ الأوطان وحفظ الأبدان والأموال، وأن المجاهدين ولو شقت عليهم الأمور فإن عواقبهم حميدة، كما أن الناكلين ولو استراحوا قليلا فإنهم سيتعبون طويلا.

ومنها: الانتداب لرياسة من فيه كفاءة، وأن الكفاءة ترجع إلى أمرين: إلى العلم الذي هو علم السياسة والتدبير، وإلى القوة التي ينفذ بها الحق، وأن من اجتمع فيه الأمران فهو أحق من غيره.

ومنها: الاستدلال بهذه القصة على ما قاله العلماء أنه ينبغي للأمير للجيش أن يتفقدتها عند فصولها؛ فيمنع من لا يصلح

للقاتل من رجال وخيل وركاب، لضعفه أو ضعف صبره أو لتخذيذه أو خوف الضرر بصحبته، فإن هذا القسم ضرر محض على الناس.

ومنها: أنه ينبغي عند حضور البأس تقوية المجاهدين وتشجيعهم وحثهم على القوة الإيمانية والاتكال الكامل على الله والاعتماد عليه، وسؤال الله التثبيت والإعانة على الصبر والنصر على الأعداء.

ومنها: أن العزم على القتال والجهاد غير حقيقته، فقد يعزم الإنسان ولكن عند حضوره تنحل عزمته، ولهذا من دعاء النبي ﷺ: «أَسْأَلُكَ الثَّباتَ فِي الْأَمْرِ وَالْعَزِيمَةَ عَلَى الرَّشْدِ»^(١)، فهؤلاء الذين عزموا على القتال وأتوا بكلام يدل على العزم المصمم لما جاء الوقت نكص أكثرهم، ويشبه هذا قوله ﷺ: «وَأَسْأَلُكَ الرِّضَا بَعْدَ الْقَضَاءِ»^(٢)؛ لأن الرضا بعد وقوع القضاء المكروه للنفس هو الرضا الحقيقي.

﴿تِلْكَ أَرْسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَقْتَلْنَا الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنْ اخْتَلَفُوا فَجَاءَهُمْ مِنْ آمَنْ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَقْتَلْنَا وَلَكِنْ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾

﴿تِلْكَ أَرْسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَقْتَلْنَا وَلَكِنْ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾

﴿تِلْكَ أَرْسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَقْتَلْنَا وَلَكِنْ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾

يخبر الباري أنه فاوت بين الرسل في الفضائل الجليلة والتخصيصات الجميلة، بحسب ما من الله به عليهم وقاموا به من الإيمان الكامل واليقين الراسخ والأخلاق العالية والأداب السامية والدعوة والتعليم والنفع العميم، فمنهم من اتخذ خليلاً، ومنهم من كلمه تكليماً، ومنهم من رفعه فوق الخلائق درجات، وجميعهم لا سبيل لأحد من البشر إلى الوصول إلى فضلهم الشامخ. وخص عيسى ابن مريم أنه آتاه البينات الدالة على أنه رسول الله حقاً وعبيده صدقاً وأن ما جاء به من عند الله كله حق، فجعله يرى الأكمه والأبرص ويحيي الموتى بإذن الله وكلم الناس في المهد صبياً وأيده بروح القدس، أي: بروح الإيمان، فجعل روحانيته فائقة روحانية غيره، فحصل له بذلك القوة والتأييد، وإن كان أصل التأييد بهذه الروح عامماً لكل مؤمن بحسب إيمانه كما قال: ﴿وَأَيَّدْنَاهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ﴾ [المجادلة: ٢٢]؛ لكن ما لعيسى أعظم مما لغيره لهذا خصه الله بالذكر، وقيل: إن روح القدس هنا جبريل، أيده الله بإعاناته ومؤازرته لكن المعنى هو الأول. ولما أخبر عن كمال الرسل وما أعطاهم من الفضل والخصائص وأن دينهم واحد ودعوتهم إلى الخير واحدة، وكان موجب ذلك ومقتضاه أن تجتمع الأمم على تصديقهم والانقياد لهم لما آتاهم من البينات التي على مثلها يؤمن البشر، لكن أكثرهم انحرفوا عن الصراط المستقيم، ووقع الاختلاف بين الأمم فمنهم من آمن ومنهم من كفر ووقع لأجل ذلك الاقتتال، الذي هو موجب الاختلاف والتعادي، ولو شاء الله لجمعهم على الهدى فما اختلفوا، ولو شاء الله أيضاً بعدما وقع الاختلاف الموجب للاقتتال ما اقتتلوا، ولكن حكمته اقتضت جريان الأمور على هذا النظام بحسب الأسباب.

(١) أحمد (١٧١١٤)، الترمذي (٣٤٠٧).

(٢) أحمد (٢١٦٦٦)، الحاكم (٥١٦/١)، (٥١٧).

غيره وعبادة غيره باطلة، وأنه ﴿الْحَيُّ﴾ الذي له جميع معاني الحياة الكاملة من السمع والبصر والقدرة والإرادة وغيرها من الصفات الذاتية، كما أن ﴿الْقَيُّومُ﴾؛ تدخل فيه جميع صفات الأفعال؛ لأنه القيوم الذي قام بنفسه واستغنى عن جميع مخلوقاته وقام بجميع الموجودات فأوجدتها وأبقاها وأمدّها بجميع ما تحتاج إليه في وجودها وبقائها. ومن كمال حياته وقيوميته أنه ﴿لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ﴾؛ أي: نعاس ﴿وَلَا نَوْمٌ﴾؛ لأن السنة والنوم إنما يعرضان للمخلوق الذي يعتريه الضعف والعجز والانحلال، ولا يعرضان لذي العظمة والكبرياء والجلال، وأخبر أنه مالك جميع ما في السماوات والأرض، فكلهم عبيد لله ممالك، لا يخرج أحد منهم عن هذا الطور ﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتَى الرَّحْمَنِ عَبْدًا﴾ [مریم: ٩٣]؛ فهو المالك لجميع الممالك، وهو الذي له صفات الملك والتصرف والسلطان والكبرياء، ومن تمام ملكه أنه لا ﴿يَشْفَعُ عِنْدَهُ﴾؛ أحد ﴿إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾؛ فكل الوجهاء والشفعاء عبيد له ممالك لا يقدمون على شفاعته حتى يأذن لهم ﴿قُلْ لِلَّهِ الشَّفَعَةُ جَمِيعًا لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الزمر: ٤٤]؛ والله لا يأذن لأحد أن يشفع إلا فيمن ارتضى ولا يرتضى إلا توحيده واتباع رسله، فمن لم يتصف بهذا فليس له في الشفاعه نصيب. ثم أخبر عن علمه الواسع المحيط، وأنه يعلم ما بين أيدي الخلائق من الأمور المستقبلية التي لا نهاية لها ﴿وَمَا خَلَقَهُمْ﴾؛ من الأمور الماضية التي لا حد لها، وأنه لا تخفى عليه خافية ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾ [غافر: ١٩]؛ وأن الخلق لا يحيط أحد بشيء من علم الله ومعلوماته ﴿إِلَّا بِمَا شَاءَ﴾ منها، وهو ما أطلعهم عليه من الأمور الشرعية والقدرية، وهو جزء يسير جدًا مضمحل في علوم الباري ومعلوماته كما قال أعلم الخلق به وهم الرسل والملائكة: ﴿سُبْحَنَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا﴾ [البقرة: ٣٢]؛ ثم أخبر عن عظمته وجلاله وأن كرسيه وسع السماوات والأرض، وأنه قد حفظهما ومن فيهما من العوالم بالأسباب والنظامات التي جعلها الله في المخلوقات، ومع ذلك فلا يتوذه، أي: يثقله حفظهما لكمال عظمته واقتداره وسعة حكمته في أحكامه ﴿وَهُوَ الْعَلِيُّ﴾؛ بذاته على جميع مخلوقاته، وهو العلي بعظمة صفاته، وهو العلي الذي قهر المخلوقات، ودانت له الموجودات، وخضعت له الصعاب، وذلت له الرقاب ﴿الْعَلِيُّ﴾ [٢٥٥]؛ الجامع لجميع صفات العظمة والكبرياء والمجد والبهاء،

ففي هذه الآية أكبر شاهد على أنه تعالى يتصرف في جميع الأسباب المقضية لمسيباتها، وإن شاء أبقاها وإن شاء منعها، وكل ذلك تبع لحكمته وحده؛ فإنه فعال لما يريد، فليس لإرادته ومشيتته ممانع ولا معارض ولا معاون.

﴿يَتَابِعُهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَكُمْ مِّن قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفْعَةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [٢٥٤].

يبحث الله المؤمنين على النفقات في جميع طرق الخير، لأن حذف المعمول يفيد التعميم، ويذكرهم نعمته عليهم بأنه هو الذي رزقهم ونوع عليهم النعم، وأنه لم يأمرهم بإخراج جميع ما في أيديهم، بل أتى بـ (من) الدالة على التعييض، فهذا مما يدعوهم إلى الإنفاق، ومما يدعوهم أيضًا إخبارهم أن هذه النفقات مدخرة عند الله في يوم لا تفيد فيه المعاولات بالبيع ونحوه ولا التبرعات ولا الشفاعات فكل أحد يقول ما قدمت لحياتي، فتقطع الأسباب كلها إلا الأسباب المتعلقة بطاعة الله والإيمان به ﴿يَوْمَ لَا يَفْعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ﴾ [٨٨] ﴿إِلَّا مَنْ ءَاتَى اللَّهَ يَلْبَاقٍ سَلِيمٌ﴾ [الشعراء: ٨٨، ٨٩]. ﴿وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِآلَتِي تُفَرِّقُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا قُلُوبُهُمْ جَزَاءُ الَّذِي صَبَوْا وَعَمِلُوا وَهُمْ فِي الْفُرْقَتِ ءَامُونَ﴾ [٢٧] ﴿سَبَأَ: ٣٧﴾، ﴿وَمَا تُفَرِّقُوا لِأَنفُسِكُمْ مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ وَأَعْظَمُ أَجْرًا﴾ [المزمل: ٢٠]. ثم قال تعالى: ﴿وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [٢٥٤]؛ وذلك لأن الله خلقهم لعبادته، ورزقهم، وعافاهم، ليستعينوا بذلك على طاعته، فخرجوا عما خلقهم الله له، وأشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانًا، واستعانوا بنعمه على الكفر والفسوق والعصيان، فلم يبقوا للعدل موضعًا، فلهذا حصر الظلم المطلق فيهم.

﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾ [٢٥٥].

أخبر ﷺ أن هذه الآية أعظم آيات القرآن (١) لما احتوت عليه من معاني التوحيد والعظمة وسعة الصفات للباري تعالى، فأخبر أنه ﴿اللَّهُ﴾ الذي له جميع معاني الألوهية، وأنه لا يستحق الألوهية والعبودية إلا هو، فالهوية

الذي تحبه القلوب، وتعظمه الأرواح، ويعرف العارفون أن عظمة كل شيء وإن جلت عن الصفة فإنها مضمحلة في جانب عظمة العلي العظيم. فآية احتوت على هذه المعاني التي هي أجل المعاني يحق أن تكون أعظم آيات القرآن، ويحق لمن قرأها متدبراً متفهماً أن يمتلئ قلبه من اليقين والعرفان والإيمان، وأن يكون محفوظاً بذلك من شرور الشيطان.

﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِرْ بِاللَّهِ فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (٢٥٦).

﴿٢٥٦﴾ هذا بيان لكمال هذا الدين الإسلامي، وأنه لكمال براهيته، واتضح آياته وكونه هو دين العقل والعلم ودين الفطرة والحكمة ودين الصلاح والإصلاح ودين الحق والرشد، فلكمال وقبول الفطر له لا يحتاج إلى الإكراه عليه، لأن الإكراه إنما يقع على ما تنفر عنه القلوب، ويتنافى مع الحقيقة والحق، أو لما تخفى براهيته وآياته، وإلا فمن جاءه هذا الدين ورده ولم يقبله فإنه لعناده؛ فإنه ﴿قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ فلم يبق لأحد عذر ولا حجة إذا رده ولم يقبله.

ولا منافاة بين هذا المعنى وبين الآيات الكثيرة الموجبة للجهاد، فإن الله أمر بالقتال ليكون الدين كله لله، ولدفع اعتداء المعتدين على الدين، وأجمع المسلمون على أن الجهاد ماض مع البر والفاجر، وأنه من الفروض المستمرة؛ الجهاد القولي والجهاد الفعلي، ومن ظن من المفسرين أن هذه الآية تنافي آيات الجهاد فجزم بأنها منسوخة فقله ضعيف لفظاً ومعنى، كما هو واضح بين لمن تدبر الآية الكريمة كما نبهنا عليه.

ثم ذكر الله انقسام الناس إلى قسمين: قسم آمن بالله وحده لا شريك له وكفر بالطاغوت - وهو كل ما ينافي الإيمان بالله من الشرك وغيره - فهذا قد ﴿اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى﴾ التي ﴿لَا انْفِصَامَ لَهَا﴾، بل هو مستقيم على الدين الصحيح حتى يصل به إلى الله وإلى دار كرامته. ويؤخذ القسم الثاني من مفهوم الآية أن من لم يؤمن بالله بل كفر به وآمن بالطاغوت فإنه هالك هالكا أبدياً ومعذب عذاباً سرمدياً. وقوله ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ﴾؛ أي: لجميع الأصوات باختلاف اللغات على تغنن الحاجات، وسميع لدعاء الداعين وخضوع المتضرعين. ﴿عَلِيمٌ﴾؛ بما أكتنه الصدور، وما خفي من خفايا الأمور، فيجازي كل أحد بحسب ما يعلمه من نياته وعمله.

﴿اللَّهُ وَبِالَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أُولَئِكَ وَهُمُ الظَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (٢٥٧).

﴿٢٥٧﴾ هذه الآية مترتبة على الآية التي قبلها، فالسابقة هي الأساس وهذه هي الثمرة. فأخبر تعالى أن الذين آمنوا بالله وصدقوا إيمانهم بالقيام بواجبات الإيمان وترك كل ما ينافية أنه وليهم يتولاهم بولايته الخاصة، ويتولى تربيتهم، فيخرجهم من ظلمات الجهل والكفر والمعاصي والغفلة والإعراض إلى نور العلم واليقين والإيمان والطاعة والإقبال الكامل على ربهم، وينور قلوبهم بما يقذفه فيها من نور الوحي والإيمان، ويسرهم لليسرى، ويجنبهم العسرى، وأما الذين كفروا فإنهم لما تولوا غير وليهم، ولاهم الله ما تولوا لأنفسهم، وخذلهم، ووكلمهم إلى رعاية من تولاهم ممن ليس عنده نفع ولا ضرر، فأضلّوهم،

وأشقوهم، وحرموهم هداية العلم النافع والعمل الصالح، وحرموهم السعادة، وصارت النار مثوam خالدين فيها مخلدين. اللهم تولنا فيمن توليت.

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ ءَاتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُعْجِي وَيُمْيْتُ قَالَ أَنَا أُعْجِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالسَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾

٢٥٨) يقص الله علينا من أنباء الرسل والسالفين ما به تبين الحقائق، وتقوم البراهين المتنوعة على التوحيد، فأخبر تعالى عن خليفه إبراهيم عليه السلام، حيث حاج هذا الملك الجبار، وهو نمرود البابلي المعطل المنكر لرب العالمين، وانتدب لمقاومة إبراهيم الخليل ومحاخته في هذا الأمر الذي لا يقبل شكًا ولا إشكالًا ولا ريبًا، وهو توحيد الله وربوبيته الذي هو أجلى الأمور وأوضحها. ولكن هذا الجبار غره ملكه وأطفاه حتى وصلت به الحال إلى أن نفاه، وحاج إبراهيم الرسول العظيم الذي أعطاه الله من العلم واليقين ما لم يعط أحدًا من الرسل سوى محمد ﷺ، فقال إبراهيم منظرًا له: ﴿رَبِّیَ الَّذِی یُحْیِی وَیُمِیتُ﴾؛ أي: هو المنفرد بالخلق والتدبير

والإحياء والإماتة، فذكر من هذا الجنس أظهرها وهو الإحياء والإماتة، فقال ذلك الجبار مباهتاً: ﴿أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ﴾؛ وعنى بذلك أنني أقتل من أردت قتله وأستحيي من أردت استيقاءه، ومن المعلوم أن هذا تمويه وتزوير عن المقصود، وأن المقصود أن الله تعالى هو الذي تفرد بإيجاد الحياة في المعدومات وردّها على الأموات، وأنه هو الذي يميّت العباد والحيوانات بأجلها بأسباب ربطها وبغير أسباب.

فلما رآه الخليل ممومًا تمويهاً راج على الهمج الرعاع قال إبراهيم ملزماً له بتصديق قوله إن كان كما يزعم: ﴿قَالَ﴾
 اللَّهُ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ ۚ أَي: وقف وانقطعت حجته، واضمحلت شبهته.

وليس هذا من الخليل انتقالاتاً من دليل إلى آخر، وإنما هو إلزام لنمرود بطرد دليله إن كان صادقاً وأتى بهذا الذي لا يقبل الترويج والتزوير والتمويه، فجميع الأدلة السمعية والعقلية والفطرية قد قامت شاهدة بتوحيد الله معترفة بانفراده بالخلق والتدبير، وأن من هذا شأنه لا يستحق العبادة إلا هو، وجميع الرسل متفقون على هذا الأصل العظيم، ولم ينكره إلا معاند مكابر مماثل لهذا الجبار العنيد، فهذا من أدلة التوحيد، ثم ذكر أدلة كمال القدرة والبعث والجزاء فقال:

﴿ أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْبَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَلْ لَبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانْظُرْ إِلَى جِمَاركَ وَلِجَعَلِكَ آيَةً لِلنَّاسِ ۚ وَانْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِئُهَا ثُمَّ تَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٥﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ ارْنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَرَأَيْتَ أَتَوَمِّنُ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لَيْظُمِينَ فَلَمَّا قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ أَجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦﴾ ۝

سُورَةُ الْبَقَرَةِ

الجزء الثالث

اللفظ، بل ينافيه، ولا يدل عليه المعنى، فأى آية وبرهان برجوع البلدان الدامرة إلى العماره، وهذه لم تزل تشهد تعمير قرى ومساكن، وتخرب أخرى، وإنما الآية العظيمة في إحيائه بعد موته وإحياء حمارة وإبقاء طعامه وشرابه لم يتعفن ولم يتغير، ثم قوله: ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ﴾؛ صريح في أنه لم يتبين له إلا بعدما شاهد هذه الحال الدالة على كمال قدرته عياناً.

﴿٢٥٩﴾ وأما البرهان الآخر فإن إبراهيم قال طالباً من الله أن يريه كيف يحيي الموتى فقال الله له: ﴿أَوَلَمْ تُؤْمِنْ﴾؛ ليزيل الشبهة عن خليله، ﴿قَالَ﴾؛ إبراهيم: ﴿بَلَى﴾؛ يا رب قد آمنت أنك على كل شيء قدير، وأنك تحيي الموتى وتجزي العباد، ولكن أريد أن يطمئن قلبي وأصل إلى درجة عين اليقين، فأجاب الله دعوته كرامة له ورحمة بالعباد، ﴿قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ﴾؛ ولم يبين أي الطيور هي فالآية حاصلة بأي نوع منها وهو المقصود، ﴿فَصَرْنَهُنَّ إِلَيْكَ﴾؛ أي: ضمنهن واذبحهن ومزقهن ﴿ثُمَّ أَجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءاً ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْياً وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾؛ ففعل ذلك وفرق أجزاءهن على الجبال التي حوله ودعاهن بأسمائهن فأقبلن إليه أي سريعات، لأن السعي السرعة، وليس المراد أنهن جئن على قوائمه، وإنما جئن طائرات على أكمل ما يكون من الحياة، وخص الطيور بذلك لأن إحياءهن أكمل وأوضح من غيرهن، وأيضاً أزال في هذا كل وهم ربما يعرض للنفوس المبطله، فجعلهن متعدّدات أربعة، ومزقهن جميعاً، وجعلهن على رؤوس الجبال، ليكون ذلك ظاهراً علناً يشاهد من قرب ومن بعد، وأنه نحاهن عنه كثيراً لئلا يظن أن يكون عاملاً حيلة من الحيل، وأيضاً أمره أن يدعوهم فجئن مسرعات، فصارت هذه الآية أكبر برهان على كمال عزة الله وحكمته.

وفيه تنبيه على أن البعث فيه يظهر للعباد كمال عزة الله وحكمته وعظمته وسعة سلطانه وتمايم عدله وفضله.

﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَتَتْ سَنّاً سَوَابِلَ فِي كُلِّ سَبِيلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ ﴿٢٦٠﴾ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنّاً وَلَا أَذًى لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٦١﴾

﴿٢٥٩﴾ هذان دليلان عظيمان محسوسان في الدنيا قبل الآخرة على البعث والجزاء؛ واحد أجراه الله على يد رجل شاك في البعث على الصحيح كما تدل عليه الآية الكريمة، والآخر على يد خليله إبراهيم، كما أجرى دليل التوحيد السابق على يده. فهذا الرجل مر على قرية قد دمرت تدميراً وخوت على عروشها قد مات أهلها وخربت عمارتها، فقال على وجه الشك والاستبعاد: ﴿أَنَّى يُحْيِي هَٰذَا اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾؟ أي: ذلك بعيد وهي في هذه الحال، يعني وغيرها مثلها بحسب ما قام بقلبه تلك الساعة، فأراد الله رحمته ورحمة الناس حيث أماته الله مائة عام، وكان معه حمار فأماته معه، ومعه طعام وشراب فأبقاهما الله بحالهما كل هذه المدد الطويلة. فلما مضت الأعوام المائة بعثه الله فقال: ﴿كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾؛ وذلك بحسب ما ظنه، فقال الله: ﴿بَلْ لَبِثْتَ مِائَةً عَامٍ﴾؛ والظاهر أن هذه المجاوبة على يد بعض الأنبياء الكرام.

ومن تمام رحمة الله به وبالناس أنه أراه الآية عياناً ليقتنع بها، فبعدما عرف أنه ميت قد أحياه الله قيل له: انظر ﴿إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ﴾؛ أي: لم يتغير في هذه المدد الطويلة. وذلك من آيات قدرة الله؛ فإن الطعام والشراب خصوصاً ما ذكره المفسرون أنه فاكهة وعصير لا يلبث أن يتغير، وهذا قد حفظه الله مائة عام وقيل له: ﴿وَأَنْظُرْ إِلَى جِوَارِكَ﴾؛ فإذا هو قد تمزق وتفرق وصار عظاماً نخرة، ﴿وَأَنْظُرْ إِلَى الظَّيْرِ كَيْفَ تُخَشِّرُهَا﴾؛ أي: نرفع بعضها إلى بعض ونصل بعضها ببعض بعدما تفرقت وتمزقت ﴿ثُمَّ نَكْسُوهَا﴾؛ بعد الالتئام ﴿لَحْمًا﴾؛ ثم نعيد فيه الحياة ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ﴾؛ رأي عين لا يقبل الريب بوجه من الوجوه ﴿قَالَ أَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾؛ فاعترف بقدرة الله على كل شيء وصار آية للناس، لأنهم قد عرفوا موته وموت حمارة وعرفوا قضيته ثم شاهدوا هذه الآية الكبرى. هذا هو الصواب في هذا الرجل.

وأما قول كثير من المفسرين: إن هذا الرجل مؤمن أو نبي من الأنبياء إما عزيز أو غيره وأن قوله: ﴿أَنَّى يُحْيِي هَٰذَا اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾؛ يعني: كيف تعمّر هذه القرية بعد أن كانت خراباً؟ وأن الله أماته ليريه ما يعيد لهذه القرية من عمارتها بالخلق وأنها عمرت في هذه المدة وتراجع الناس إليها وصارت عامرة بعد أن كانت دامرة، فهذا لا يدل عليه

﴿٢٦١﴾ هذا حث عظيم من الله لعباده في إنفاق أموالهم في سبيله، وهو طريقه الموصل إليه، فيدخل في هذا إنفاقه في ترقية العلوم النافعة، وفي الاستعداد للجهاد في سبيله، وفي تجهيز المجاهدين وتجهيزهم، وفي جميع المشاريع الخيرية النافعة للمسلمين، ويلي ذلك الإنفاق على المحتاجين والفقراء والمساكين، وقد يجتمع الأمران فيكون في النفقة دفع الحاجات والإعانة على الخير والطاعات، فهذه النفقات مضاعفة هذه المضاعفة بسبعمائة إلى أضعاف أكثر من ذلك، ولهذا قال: ﴿وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ﴾؛ وذلك بحسب ما يقوم بقلب المنفق من الإيمان والإخلاص التام وفي ثمرات نفقته ونفعها، فإن بعض طرق الخيرات يترتب على الإنفاق فيها منافع متسلسلة ومصالح متنوعة فكان الجزاء من جنس العمل.

﴿٢٦٢﴾ ثم أيضاً ذكر ثواباً آخر للمنفقين أموالهم في سبيله نفقة صادرة مستوفية لشروطها متتية موانعها، فلا يتبعون المنفق عليه منّا منهم عليه وتعداداً للنعم وأذية له قولية أو فعلية، فهؤلاء ﴿لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾؛ بحسب ما يعلمه منهم وبحسب نفقاتهم ونفعها وبفضله الذي لا تناله ولا تصل إليه صدقاتهم، ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾؛ نفى عنهم المكروه الماضي بنفي الحزن، والمستقبل بنفي الخوف عليهم، فقد حصل لهم المحبوب واندفع عنهم المكروه.

﴿قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ﴾.

﴿٢٦٣﴾ ذكر الله أربع مراتب للإحسان:

المرتبة العليا: النفقة الصادرة عن نية صالحة ولم يتبعها المنفق منّا ولا أذى.

ثم يليها قول المعروف وهو الإحسان القولي بجميع وجوهه الذي فيه سرور المسلم، والاعتذار من السائل إذا لم يوافق عنده شيئاً، وغير ذلك من أقوال المعروف.

والثالثة: الإحسان بالعفو والمغفرة عمن أساء إليك بقول أو فعل.

وهذان أفضل من الرابعة وخير منها وهي: التي يتبعها المتصدق الأذى للمعطي؛ لأنه كدر إحسانه وفعل خيراً وشراً.

فالخير المحض وإن كان مفضولاً خير من الخير الذي يخالطه شر وإن كان فاضلاً، وفي هذا التحذير العظيم لمن يؤذي من تصدق عليه كما يفعله أهل اللؤم والحق والجهل، ﴿وَاللَّهُ﴾؛ تعالى ﴿غَنِيٌّ﴾؛ عن صدقاتهم وعن جميع عباده ﴿حَلِيمٌ﴾؛ مع كمال غناه وسعة عطاياه يحلم عن العاصين، ولا يعاجلهم بالعقوبة بل يعافهم، ويرزقهم، ويدبر عليهم خيره، وهم مبارزون له بالمعاصي.

ثم نهى أشد النهي عن المن والأذى وضرب لذلك مثلاً:

﴿يَتَأْتِيَهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَبْطُلُوا صَدَقَتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ

وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَتَفَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتُكْسِبَتَا مَنْ أَنْفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَمٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَتَأْتَتْ أَكْطُلَهَا ضَعْفَتٌ فَإِنْ لَمْ يُبْسَبْهَا وَابِلٌ قُطِلَ ۖ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٦٤﴾ أَيَوَّدُ أَحَدُكُمْ أَنَّ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِنْ نَجِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَةٌ ضَعُفَاءٌ فَأَصَابَهَا أَغْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْرَقَتْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٦٥﴾ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَلَسْتُمْ بِعَاجِزِينَ إِلَّا أَنْ تُنْفِقُوا فِيهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَكِيمٌ ﴿٢٦٦﴾ الشَّيْطَانُ يَدْعُكُمْ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضلاً وَاللَّهُ وَسِعَ عَلَيْهِ ﴿٢٦٧﴾ يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أُولَ الْأَلْبَابِ ﴿٢٦٨﴾

يشبه حال صاحب الجنة التي جرى عليها ما جرى حين اشتدت ضرورته إليها.

المثل الثالث: الذي يراي الناس، وليس معه إيمان بالله ولا احتساب لثوابه حيث شبه قلبه بالصفوان وهو الحجر الأملس عليه تراب يظن الرائي أنه إذا أصابه المطر أنبت كما تنبت الأراضي الطيبة، ولكنه كالبحر الذي أصابه الوابل الشديد فاذهب ما عليه من التراب وتركه صلدًا، وهذا مثل مطابق لقلب المرائي الذي ليس فيه إيمان، بل هو قاس لا يلين ولا يخشع، فهذا أعماله ونفقاته لا أصل لها تؤسس عليه ولا غاية لها تنتهي إليه، بل ما عمله فهو باطل لعدم شرطه.

والذي قبله بطل بعد وجود الشرط لوجود المانع، والأول مقبول مضاعف لوجود شرطه الذي هو الإيمان والإخلاص والثبات وانتفاء الموانع المفسدة. وهذه الأمثال الثلاثة تنطبق على جميع العاملين، فليزن العبد نفسه وغيره بهذه الموازين العادلة والأمثال المطابقة ﴿وَلِئَلَّا تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ تَنذِرُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾ [٢٤٣] [المعنبوت: ٤٣].

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنفِقُوا مِن طَبِيبَتِ مَا كَسَبَتْمْ وَمِمَّا أَرْحَمْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفِيٌّ حَكِيمٌ﴾ [٢٤٤] الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء والله يعدكم مغفرة منه وفضلاً والله واسع عليم [٢٤٥].

﴿٢٤٤﴾، ﴿٢٤٥﴾ يحث الباري عباده على الإنفاق مما كسبوا في التجارات، ومما أخرج لهم من الأرض من الحبوب والثمار، وهذا يشمل زكاة النقدين والعروض كلها المعدة للبيع والشراء والخارج من الأرض من الحبوب والثمار. ويدخل في عمومها الفرض والنفل، وأمر تعالى أن يقصدوا الطيب منها ولا يقصدوا الخبيث وهو الرديء الدون يجعلونه لله، ولو بذل لهم من لهم حق عليه لم يرتضوه، ولم يقلوه إلا على وجه المغاضاة والإغماض، فالواجب إخراج الوسط من هذه الأشياء، والكمال إخراج العالي، والممنوع إخراج الرديء فإن هذا لا يجزي عن الواجب، ولا يحصل فيه الثواب التام في المندوب.

﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفِيٌّ حَكِيمٌ﴾ [٢٤٦] فهو غني عن جميع المخلوقين، وهو الغني عن نفقات المنفقين وعن طاعات

كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿٢٤٦﴾ وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَثْبِيْتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّتٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَفَانَتْ أَكْطُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِيبْهَا وَابِلٌ قَطَلَتْ وَاللَّهُ يَمَّا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٤٧﴾ أَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّنْ نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَةٌ ضُعْفَاءُ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤٨﴾.

﴿٢٤٦﴾ - ﴿٢٤٧﴾ ضرب الله في هذه الآيات ثلاثة أمثلة: للمنفق ابتغاء وجهه ولم يتبع نفقته منّا ولا أذى، ولمن أتبعها منّا وأذى، وللمرائي.

فأما الأول: فإنه لما كانت نفقته مقبولة مضاعفة، لصدورها عن الإيمان والإخلاص التام ﴿ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَثْبِيْتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾؛ أي: ينفقون وهم ثابتون على وجه السماح والصدق فمثل هذا العمل، ﴿كَمَثَلِ جَنَّتٍ بِرَبْوَةٍ﴾؛ وهو المكان المرتفع لأنه يتبين للرياح والشمس، والماء فيها غزير، فإن لم يصيبها ذلك الوابل الغزير، حصل لها ظل كاف لطيب منبتها وحسن أرضها وحصول جميع الأسباب الموفرة لنموها وازدهارها وإثمارها، ولهذا ﴿فَفَانَتْ أَكْطُلَهَا ضِعْفَيْنِ﴾؛ أي: متضاعفاً، وهذه الجنة التي على هذا الوصف هي أعلى ما يطلبه الناس، فهذا العمل الفاضل بأعلى المنازل.

وأما من أنفق لله ثم أتبع نفقته منّا وأذى، أو عمل عملاً فأتى بمبطل لذلك العمل فهذا مثال صاحب هذه الجنة، لكن سلط عليها ﴿إِعْصَارٌ﴾؛ وهو الريح الشديدة ﴿فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ﴾؛ وله ذرية ضعفاء وهو ضعيف قد أصابه الكبر، فهذه الحال من أظنع الأحوال، ولهذا صدر هذا المثل بقوله: ﴿أَوَدُّ أَحَدُكُمْ﴾؛ إلى آخرها بالاستفهام المتقرر عند المخاطبين فظاعته، فإن تلفها دفعة واحدة بعد زهاء أشجارها وإيناع ثمارها مصيبة كبرى، ثم حصول هذه الفاجعة وصاحبها كبير قد ضعف عن العمل وله ذرية ضعفاء لا مساعدة منهم له ومؤنتهم عليه فاجعة أخرى، فصار صاحب هذا المثل الذي عمل لله ثم أبطل عمله بمناف له

الطائعين، وإنما أمرهم بها وحثهم عليها لنفعهم ومحض فضله وكرمه عليهم، ومع كمال غناه وسعة عطاياه فهو الحميد فيما يشرعه لعباده من الأحكام الموصلة لهم إلى دار السلام، وحميد في أفعاله التي لا تخرج عن الفضل والعدل والحكمة، وحميد الأوصاف لأن أوصافه كلها محاسن وكمالات لا يبلغ العباد كنهها ولا يدركون وصفها. فلما حثهم على الإنفاق النافع نهاهم عن الإمساك الضار، وبين لهم أنهم بين داعيين: داعي الرحمن يدعوهم إلى الخير ويعددهم عليه الخير والفضل والثواب العاجل والأجل وإخلاف ما أنفقوا، وداعي الشيطان الذي يحثهم على الإمساك، ويخوفهم إن أنفقوا أن يفتقروا.

فمن كان مجيباً لداعي الرحمن، وأنفق مما رزقه الله فليشر بمغفرة الذنوب وحصول كل مطلوب، ومن كان مجيباً لداعي الشيطان فإنه إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير، فليختر العبد أي الأمرين أليق به.

وختم الآية بأنه ﴿وَأَسْعَ عَلَيْهِمُ﴾؛ أي واسع الصفات كثير الهبات، عليهم بمن يستحق المضاعفة من العاملين، وعلیم بمن هو أهل فيوقفه لفعل الخيرات، وترك المنكرات. ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾.

وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُمْ مِنْ نَذْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ. وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ﴿٧٦﴾ إِنْ تَبَدُّوا الْأَرْضَ فَدَتْ فَنِعْمَ هِيَ وَإِنْ تُخَفُّوْهَا وَتُؤْتُوْهَا الْفُقَرَاءُ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٧٧﴾ لَيْسَ عَلَيْكُمْ هُدُوءٌ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَا تُنْفِسْكُمْ وَمَا تُنْفِقُونَ إِلَّا لَا يَتَّبِعَهُ وَجْهُ اللَّهِ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُؤْتِ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٧٨﴾ لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ يَأْتِلِي وَالتَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٨٠﴾

لما ذكر أحوال المنفقين للأموال، وأن الله أعطاهم، ومنَّ عليهم بالأموال التي يدركون بها النفقات في الطرق الخيرية، وينالون بها المقامات السنية، ذكر ما هو أفضل من ذلك وهو أنه يعطي الحكمة من يشاء من عباده، ومن أراد بهم خيراً من خلقه، والحكمة هي العلوم النافعة والمعارف الصائبة والعقول المسددة والألباب الرزينة وإصابة الصواب في الأقوال والأفعال، وهذا أفضل العطايا وأجل الهبات، ولهذا قال: ﴿وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾؛ لأنه خرج من ظلمة الجهالات إلى نور الهدى، ومن حلق الانحراف في الأقوال والأفعال إلى إصابة الصواب فيها وحصول السداد، ولأنه كمل نفسه بهذا الخير العظيم واستعد لنفع الخلق أعظم نفع في دينهم ودنياهم، وجميع الأمور لا تصلح إلا بالحكمة التي هي وضع الأشياء مواضعها وتنزيل الأمور منازلها، والإقدام في محل الإقدام، والإحجام في موضع الإحجام.

ولكن ما يتذكر هذا الأمر العظيم وما يعرف قدر هذا العطاء الجسيم ﴿إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾؛ وهم أهل العقول الوافية والأحلام الكاملة، فهم الذين يعرفون النافع فيعملونه والضار فيتركونه، وهذان الأمران وهما بذل النفقات المالية وبذل الحكمة العلمية أفضل ما تقرب به المتقربون إلى الله وأعلى ما وصلوا به إلى أجل الكرامات، وهما اللذان ذكرهما النبي ﷺ بقوله: «لا حسد إلا في اثنتين: رجل آتاه الله مالاً فسلطه علىهلكته في الحق، ورجل آتاه الله الحكمة فهو يعلمها الناس»^(١).

﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُمْ مِنْ نَذْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ. وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ ﴿٧٦﴾ إِنْ تَبَدُّوا الْأَرْضَ فَدَتْ فَنِعْمَ هِيَ وَإِنْ تُخَفُّوْهَا وَتُؤْتُوْهَا الْفُقَرَاءُ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٧٧﴾.

﴿لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أَحْصَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَتِهِمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَاقًا وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَاِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴿٢٧٢﴾ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِالْإِتْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٣﴾﴾.

﴿٢٧٢﴾ يعني أنه ينبغي أن تتحروا بصداقاتكم الفقراء الذين حبسوا أنفسهم في سبيل الله وعلى طاعته، وليس لهم إرادة في الاكتساب أو ليس لهم قدرة عليه وهم يتعففون، إذا رآهم الجاهل ظن أنهم أغنياء ﴿لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَاقًا﴾؛ فهم لا يسألون بالكلية وإن سألوا اضطراباً لم يلحفوا في السؤال، فهذا الصنف من الفقراء أفضل ما وضعت فيهم النفقات لدفع حاجتهم وإعانة لهم على مقصدهم وطريق الخير وشكراً لهم على ما اتصفوا به من الصبر والنظر إلى الخالق لا إلى الخلق، ومع ذلك فالإتفاق في طرق الإحسان وعلى المحاريج حيشاً كانوا فإنه خير وأجر وثواب عند الله ولهذا قال:

﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِالْإِتْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٣﴾﴾؛ فإن الله يظلمهم بظله يوم لا ظل إلا ظله، وإن الله ينبلهم بالخيرات ويدفع عنهم الأحزان والمخاوف والكربات. وقوله: ﴿فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾؛ أي: كل أحد منهم بحسب حاله، وتخصيص ذلك بأنه عند ربهم يدل على شرف هذه الحال ووقوعها في الموقع الأكبر كما في الحديث الصحيح «إن العبد ليتصدق بالتمر من كسب طيب فيقبلها الجبار بيده فيريها لأحدكم كما يري أحدكم فلو حتى تكون مثل الجبل العظيم»^(١).

﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٧٤﴾﴾ يَمْحُقُ

﴿٢٧٤﴾ يخبر تعالى أنه مهما أنفق المنفقون أو تصدق المتصدقون أو نذر الناذرون فإن الله يعلم ذلك. ومضمون الإخبار بعلمه يدل على الجزاء وأن الله لا يضع عنده مثقال ذرة، ويعلم ما صدرت عنه من نيات صالحة أو سيئة، وأن الظالمين الذين يمنعون ما أوجب الله عليهم، أو يقتحمون ما حرم عليهم، ليس لهم من دونه أنصار ينصرونهم ويمنعونهم. وأنه لا بد أن تقع بهم العقوبات، وأخبر أن الصدقة إن أبداها المتصدق فهي خير، وإن أخفاها وسلمها للفقير كان أفضل، لأن الإخفاء على الفقير إحسان آخر، وأيضاً فإنه يدل على قوة الإخلاص. وأحد السبعة الذين يظلمهم الله في ظله من تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه، وفي قوله: ﴿وَلِنْ تَخْفَوْهَا وَتُوْثَوْهَا الْفُقَرَاءُ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾؛ فائدة لطيفة، وهو أن إخفاءها خير من إظهارها إذا أعطيت الفقير.

فأما إذا صرفت في مشروع خيري لم يكن في الآية ما يدل على فضيلة إخفائها، بل هنا قواعد الشرع تدل على مراعاة المصلحة، فربما كان الإظهار خيراً لحصول الأسوة والاقتداء وتشيط النفوس على أعمال الخير.

وقوله: ﴿وَيَكْفُرْ عَنْكُمْ مِّن سَعَاتِكُمْ﴾؛ في هذا أن الصدقات يجتمع فيها الأمران: حصول الخير وهو كثرة الحسنات والثواب والأجر، ودفع الشر والبلاء الدنيوي والأخروي بتكفير السيئات ﴿وَاللَّهُ يَمَّا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٧١﴾﴾؛ فيجازي كلأ بعمله بحسب حكمته.

﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَا يُنْفِقُكُمْ وَمَا تُنْفِقُونَ إِلَّا لِنَفْسٍ وَأَجْرٍ وَاللَّهُ وَجَّهَ اللَّهُ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُّوفِّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٢﴾﴾.

﴿٢٧٢﴾ أي: إنما عليك أيها الرسول البلاغ وحث الناس على الخير وزجرهم عن الشر، وأما الهداية فبيد الله تعالى.

ويخبر عن المؤمنين حقاً أنهم لا ينفقون إلا لطلب مرضاة ربهم واحتساب ثوابه؛ لأن إيمانهم يدعوهم إلى ذلك، فهذا خير وتركية للمؤمنين، ويتضمن التذكير لهم بالإخلاص، وكرر علمه تعالى بنفقاتهم لإعلامهم أنه لا يضيع عنده ﴿مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكَ حَسَنَةً يَّصْنُفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيماً ﴿٤٠﴾﴾ [النساء: ٤٠].

سورة البقرة

الحكمة والعدل

الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي
يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ
مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ
مِّن رَّبِّهِ فَأْتَنَّهُ فَلْيَرْسَلْهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ
فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٧٥﴾ يَمْحُ
اللَّهُ الرِّبَا وَيُزِيلُ الصَّدَقَاتِ وَالَّذِي لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴿٢٧٦﴾
إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ
وَأَتَوْا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ
وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٧﴾ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ
وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ فَإِنْ لَّمْ تَفْعَلُوا
فَأَذْنُوبٌ يَحْرَبُ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِنْ تُبْتِغُوا فَلََكُمْ رُءُوسُ
أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٩﴾ وَإِنْ كَانَتْ
ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ
إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٨٠﴾ وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى
اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٨١﴾

٤٧

اللَّهُ الرِّبَا وَيُزِيلُ الصَّدَقَاتِ وَالَّذِي لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴿٢٧٦﴾
الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَتَوْا
الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ
يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٧﴾ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ
مِن الرِّبَا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ فَإِنْ لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ
اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِنْ تُبْتِغُوا فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ
وَلَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٩﴾ وَإِنْ كَانَتْ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ
وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٨٠﴾ وَاتَّقُوا
يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ
وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٨١﴾

﴿٢٧٥﴾ لما ذكر الله حالة المنافقين وما لهم من الله من الخيرات
وما يكفر عنهم من الذنوب والخطيئات ذكر الظالمين أهل الربا
والمعاملات الخبيثة، وأخبر أنهم يجازون بحسب أعمالهم،
فكما كانوا في الدنيا في طلب المكاسب الخبيثة كالمجانين
عوقبوا في البرزخ والقيامة أنهم لا يقومون من قبورهم إلى
يوم بعثهم ونشورهم ﴿إِنَّمَا يَأْكُلُونَ الرِّبَا﴾ لا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان
من المسِّ؛ أي: من الجنون والصرع وذلك عقوبة وخزي
وفضيحة لهم وجزاء لهم على مراتبهم ومجاهرتهم بقولهم:
﴿إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا﴾؛ فجمعوا - بجراءتهم - بين ما أحل
الله وبين ما حرم الله واستباحوا بذلك الربا. ثم عرض تعالى التوبة على المرائين وغيرهم فقال: ﴿فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِ﴾؛
بيان مقرون به الوعد والوعيد ﴿فَأْتَنَّهُ﴾؛ عما كان يتعاطاه من الربا ﴿مَا سَلَكَ﴾؛ مما تجرأ عليه وتاب منه ﴿وَأَمْرُهُ إِلَى
اللَّهِ﴾؛ فيما يستقبل من زمانه فإن استمر على توبته، فالله لا يضيع أجر المحسنين.

﴿وَمَنْ عَادَ﴾؛ بعد بيان الله وتذكيره وتوعده لأكل الربا ﴿فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ ﴿٢٧٥﴾؛ في هذا أن
الربا موجب لدخول النار والخلود فيها، وذلك لشناعته ما لم يمنع من الخلود مانع الإيمان، وهذا من جملة الأحكام التي
تتوقف على وجود شروطها وانتفاء موانعها؛ وليس فيها حجة للخوارج كغيرها من آيات الوعيد، فالواجب أن تصدق جميع
نصوص الكتاب والسنة فيؤمن العبد بما تواترت به النصوص من خروج من في قلبه أدنى مثقال حبة خردل من الإيمان من
النار، ومن استحقاق هذه الموبات لدخول النار إن لم يتب منها.

﴿٢٧٦﴾ ثم أخبر تعالى أنه يمحى صدقات المنافقين، عكس ما يتبادر لأذهان كثير من الخلق أن الإنفاق
ينقص المال وأن الربا يزيده، فإن مادة الرزق وحصول ثمراته من الله تعالى، وما عند الله لا ينال إلا بطاعته وامتثال أمره،
فالمترجى على الربا يعاقبه بنقيض مقصوده، وهذا مشاهد بالتجربة ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا﴾ ﴿٢٧٦﴾ [النساء: ١٢٢]. ﴿وَاللَّهُ لَا
يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ﴾ ﴿٢٧٦﴾؛ وهو الذي كفر نعمة الله، وجحد منة ربه وأثم بإصراره على معاصيه.

ومفهوم الآية أن الله يحب من كان شكورًا على النعماء ثابتًا من المآثم والذنوب. ثم أدخل هذه الآية بين آيات الربا وهي
قوله:

﴿٢٧٧﴾ - ﴿٢٧٨﴾ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَتَوْا الزَّكَاةَ﴾؛ الآية لبيان أن أكبر الأسباب لاجتناب
ما حرم الله من المكاسب الربوية تكميل الإيمان وحقوقه، خصوصًا إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، فإن الصلاة تنهى عن الفحشاء

والمنكر، والزكاة إحسان إلى الخلق ينافي تعاطي الربا الذي هو ظلم لهم وإساءة عليهم، ثم وجه الخطاب للمؤمنين وأمرهم أن يتقوه ويذروا ما بقي من معاملات الربا التي كانوا يتعاطونها قبل ذلك، وأنهم إن لم يفعلوا ذلك فإنهم محاربون لله ورسوله، وهذا من أعظم ما يدل على شناعة الربا حيث جعل المصر عليه محارباً لله ورسوله، ثم قال: ﴿وَإِنْ تَبَيَّنَ﴾ يعني من المعاملات الربوية ﴿فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ﴾ الناس بأخذ الربا ﴿وَلَا تَظْلَمُونَ﴾ ببيعكم رءوس أموالكم، فكل من تاب من الربا فإن كانت معاملات سالفة فله ما سلف وأمره منظور فيه، وإن كانت معاملات موجودة وجب عليه أن يقتصر على رأس ماله، فإن أخذ زيادة فقد تجرأ على الربا. وفي هذه الآية بيان لحكمة الربا، وأنه يتضمن الظلم للمحتاجين بأخذ الزيادة وتضاعف الربا عليهم وهو واجب إنظارهم، ولهذا قال:

﴿وَإِنْ كَانَتْ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ﴾ أي: وإن كان الذي عليه الدين معسراً لا يقدر على الوفاء وجب على غريمه أن ينظره إلى ميسرة، وهو يجب عليه إذا حصل له وفاء بأي طريق مباح أن يوفي ما عليه، وإن تصدق عليه غريمه بإسقاط الدين كله أو بعضه فهو خير له، ويهون على العبد التزام الأمور الشرعية واجتناب المعاملات الربوية والإحسان

إلى المعسرين؛ علمه بأن له يوماً يرجع فيه إلى الله ويوفيه عمله ولا يظلمه مثقال ذرة. كما ختم هذه الآية بقوله: ﴿وَأَتَوْا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾؛ ثم قال تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدِينٍ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُب بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا بَيَّحْسَ مِنْهُ شَيْئاً فَإِنْ كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهاً أَوْ ضَعِيفاً أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّن رَضَوْنَ مِنَ الشَّهَدَاءِ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكَّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَىٰ وَلَا يَأْبَ الشَّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا وَلَا تَسْمَعُوا أَنْ تَكْتُبُوهُ صَغِيراً أَوْ كَبِيراً إِلَىٰ أَجَلٍ ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَدَةِ وَأَدَقُّ أَلَّا تَرْتَابُوا إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلَا يُضَارَ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ وَإِنْ تَفَعَّلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاللَّهُ يَكُلُّ شَيْءٍ عَلَيْهِ ﴿٢٨٢﴾ وَإِنْ كُنْتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِباً فَرِهْنِ مَقْبُوضَةً فَإِنْ آمَنَ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ فَلْيُذَرِ الَّذِي أَتَوْا مِنْ أَمْنَتِهِ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَدَةَ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ ءَانِمٌ قَلْبُهُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨٣﴾

احتوت هذه الآية على إرشاد الباري عباده في معاملاتهم إلى حفظ حقوقهم بالطرق النافعة والإصلاحات التي لا يقترح العقلاء أعلى ولا أكمل منها، فإن فيها فوائد كثيرة:

منها: جواز المعاملات في الديون سواء كانت ديون سلم أو شراء مؤجلاً ثمنه فكله جائز، لأن الله أخبر به عن المؤمنين، وما أخبر به عن المؤمنين فإنه من مقتضيات الإيمان، وقد أقرهم عليه الملك الديان.

ومنها: وجوب تسمية الأجل في جميع المديانات وحلول الإجازات.

ومنها: أنه إذا كان الأجل مجهولاً فإنه لا يحل؛ لأنه غرر وخطر فيدخل في الميسر.

ومنها: أمره تعالى بكتابة الديون، وهذا الأمر قد يجب إذا وجب حفظ الحق كالذي للعبد عليه ولاية، كأموال اليتامى والأوقاف والوكلاء والأمناء، وقد يقارب الوجوب كما إذا كان الحق متمحصاً للعبد فقد يقوى الوجوب وقد يقوى الاستحباب، بحسب الأحوال المقتضية لذلك، وعلى كل حال فالكتابة من أعظم ما تحفظ به هذه المعاملات المؤجلة لكثرة النسيان ولوقوع المغالطات، وللاحتراز من الخونة الذين لا يخشون الله تعالى.

ومنها: أمره تعالى للكاتب أن يكتب بين المتعاملين بالعدل؛ فلا يميل مع أحدهما لقربة ولا غيرها ولا على أحدهما لعداوة ونحوها.

ومنها: أن الكتابة بين المتعاملين من أفضل الأعمال ومن الإحسان إليهما، وفيها حفظ حقوقهما وبراءة ذمهما كما أمره الله بذلك فليحتسب الكاتب بين الناس هذه الأمور ليحظى بثوابها.

ومنها: أن الكاتب لا بد أن يكون عارفاً بالعدل معروفاً بالعدل، لأنه إذا لم يكن عارفاً بالعدل لم يتمكن منه، وإذا لم يكن معتبراً، عدلاً عند الناس، رضىً، لم تكن كتابته معتبرة، ولا حاصلًا بها المقصود الذي هو حفظ الحقوق.

ومنها: أن من تمام الكتابة والعدل فيها أن يحسن الكاتب الإنشاء والألفاظ المعتبرة في كل معاملة بحسبها، وللعرف في هذا المقام اعتبار عظيم.

ومنها: أن الكتابة من نعم الله على العباد التي لا تستقيم أمورهم الدينية ولا الدنيوية إلا بها، وأن من علمه الله الكتابة فقد تفضل عليه بفضل عظيم، فمن تمام شكره لنعمة الله تعالى أن يقضي بكتابته حاجات العباد ولا يمتنع من الكتابة، ولهذا قال: ﴿وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ﴾.

ومنها: أن الذي يكتبه الكاتب هو اعتراف من عليه الحق إذا كان يحسن التعبير عن الحق الذي عليه، فإن كان لا يحسن ذلك لصغره أو سفهه أو جنونه أو خرسه أو عدم استطاعته،

أملى عنه وليه، وقام وليه في ذلك مقامه.

ومنها: أن الاعتراف من أعظم الطرق التي تثبت بها الحقوق حيث أمر الله تعالى أن يكتب الكاتب ما أملى عليه من عليه الحق.

ومنها: ثبوت الولاية على القاصرين من الصغار والمجانين والسفهاء ونحوهم.

ومنها: أن الولي يقوم مقام موليه في جميع اعترافاته المتعلقة بحقوقه.

ومنها: أن من أمته في معاملة وفوضته فيها فقله في ذلك مقبول وهو نائب منك، لأنه إذا كان الولي على القاصرين ينوب منابهم، فالذي وليته باختيارك وفوضت إليه الأمر أولى بالقبول واعتبار قوله وتقديمه على قولك عند الاختلاف.

ومنها: أنه يجب على الذي عليه الحق إذا أملى على الكاتب أن يتقي الله ولا يبخل الحق الذي عليه فلا ينقصه في قدره ولا في وصفه ولا في شرط من شروطه أو قيد من قيوده، بل عليه أن يعترف بكل ما عليه من متعلقات الحق كما يجب ذلك إذا كان الحق على غيره له، فمن لم يفعل ذلك فهو من المطففين الباخسين.

ومنها: وجوب الاعتراف بالحقوق الجلية والحقوق الخفية وأن ذلك من أعظم خصال التقوى، كما أن ترك الاعتراف بها من نواقض التقوى ونواقصها.

ومنها: الإرشاد إلى الإشهاد في البيع فإن كانت في المديانات فحكمها حكم الكتابة كما تقدم، لأن الكتابة هي كتابة الشهادة، وإن كان البيع بيعاً حاضراً فينبغي الإشهاد فيه ولا حرج فيه بترك الكتابة لكثرة وحصول المشقة فيه.

ومنها: الإرشاد إلى إشهاد رجلين عدلين فإن لم يمكن أو تعذر أو تعسر فرجل وامرأتان، وذلك شامل لجميع المعاملات، يبيع الإدارة، ويبيع الديون وتوابعها من الشروط والوثائق وغيرها. وإذا قيل قد ثبت أنه ﷺ قضى بالشاهد الواحد مع اليمين^(١)، والآية الكريمة ليس فيها إلا شهادة رجلين أو رجل وامرأتين، قيل: الآية الكريمة فيها إرشاد الباري عباده إلى حفظ حقوقهم ولهذا أتى فيها بأكمل الطرق وأقواها، وليس فيها ما ينافي ما ذكره النبي ﷺ من الحكم

ومنها: التنبيه على المصالح والفوائد المترتبة على العمل بهذه الإرشادات الجليّة وأن فيها حفظ الحقوق والعدل وقطع التنازع والسلامة من النسيان والذهول ولهذا قال: ﴿ذَلِكُمْ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَدَةِ وَأَدَقُّ أَلَّا تَرْتَابُوا﴾؛ وهذه مصالح ضرورية للعباد.

ومنها: أن تعلم الكتابة من الأمور الدينية، لأنها وسيلة إلى حفظ الدين والدنيا وسبب للإحسان.

ومنها: أن من خصه الله بنعمة من النعم يحتاج الناس إليها فمن تمام شكر هذه النعمة أن يعود بها على عباد الله وأن يقضي بها حاجاتهم لتعليل الله النهي عن الامتناع عن الكتابة بتذكير الكاتب بقوله: ﴿كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ﴾؛ ومع هذا فمن كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته.

ومنها: أن الإضرار بالشهود والكتاب فسوق بالإنسان، فإن الفسوق هو الخروج عن طاعة الله إلى معصيته، وهو يزيد وينقص ويتبعض، ولهذا لم يقل فأنتم فساق أو فاسقون بل قال: ﴿فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ﴾؛ فيقدر خروج العبد عن طاعة ربه فإنه يحصل به من الفسوق بحسب ذلك، واستدل بقوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ﴾؛ أن تقوى الله وسيلة إلى حصول العلم، وأوضح من هذا قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا﴾ [الأنفال: ٢٩]؛ أي: علماً تفرقون به بين الحقائق والحق والباطل.

ومنها: أنه كما أنه من العلم النافع تعليم الأمور الدينية المتعلقة بالعبادات فمنه أيضاً تعليم الأمور الدنيوية المتعلقة بالمعاملات، فإن الله تعالى حفظ على العباد أمور دينهم ودنياهم، وكتابه العظيم فيه تبيان كل شيء.

ومنها: مشروعية الوثيقة بالحقوق وهي الرهون والضمانات التي تكفل للعبد حصول حقه سواء عامل براً أو فاجراً، أميناً أو خائناً، فكم في الوثائق من حفظ حقوق وانقطاع منازعات.

ومنها: أن تمام الوثيقة في الرهن أن يكون مقبوضاً، ولا يدل ذلك على أنه لا يصح الرهن إلا بالقبض، بل التقيد بكون الرهن مقبوضاً يدل على أنه قد يكون مقبوضاً تحصل به الثقة التامة وقد لا يكون مقبوضاً فيكون ناقصاً.

ومنها: أنه يستدل بقوله:

﴿فَرِهْنٌ مَّقْبُوضَةٌ﴾؛ أنه إذا اختلف الراهن والمرتهن

بالشاهد واليمين، فباب حفظ الحقوق في ابتداء الأمر يرشد فيه العبد إلى الاحتراز والتحفظ التام، وباب الحكم بين المتنازعين ينظر فيه إلى المرجحات والبيّنات بحسب حالها.

ومنها: أن شهادة المرأتين قائمة مقام الرجل الواحد في الحقوق الدنيوية وأما في الأمور الدينية كالرواية والفتوى فإن المرأة فيه تقوم مقام الرجل، والفرق ظاهر بين البابين.

ومنها: الإرشاد إلى الحكمة في كون شهادة المرأتين عن شهادة الرجل وأنه لضعف ذاكرة المرأة غالباً وقوة حافظه الرجل.

ومنها: أن الشاهد لو نسي شهادته فذكره الشاهد الآخر فذكر، أنه لا يضر ذلك النسيان إذا زال بالتذكير لقوله: ﴿أَنْ تَصِلَ إِحْدَهُمَا فَتُكْرِهَ إِحْدَهُمَا أَلَا تَعْلَمُ﴾؛ ومن باب أولى إذا نسي الشاهد ثم ذكر من دون تذكير، فإن الشهادة مدارها على العلم واليقين.

ومنها: أن الشهادة لا بد أن تكون عن علم ويقين لا عن شك، فمتى صار عند الشاهد ريب في شهادته ولو غلب على ظنه لم يحل له أن يشهد إلا بما يعلم.

ومنها: أن الشاهد ليس له أن يتمتع إذا دعي للشهادة سواء دعي للتحمل أو للاداء وأن القيام بالشهادة من أفضل الأعمال الصالحة كما أمر الله بها وأخبر عن نفعها ومصالحها.

ومنها: أنه لا يحل الإضرار بالكاتب ولا بالشاهد بأن يدعي في وقت أو حالة تضرهما. وكما أنه نهى لأهل الحقوق والمتعاملين أن يضاروا الشهود والكتاب فإنه أيضاً نهى للكاتب والشاهد أن يضار المتعاملين أو أحدهما. وفي هذا أيضاً أن الشاهد والكاتب إذا حصل عليهما ضرر في الكتابة والشهادة أنه يسقط عنهما الوجوب.

وفيها: التنبيه على أن جميع المحسنين الفاعلين للمعروف لا يحل إضرارهم وتحميلهم ما لا يطيقون، فهل جزاء الإحسان إلا الإحسان؟ وكذلك على من أحسن وفعل معروفاً أن يتم إحسانه بترك الإضرار القولي والفعلية بمن أوقع به المعروف، فإن الإحسان لا يتم إلا بذلك.

ومنها: أنه لا يجوز أخذ الأجرة على الكتابة والشهادة حيث وجبت لأنه حق أوجه الله على الكاتب والشاهد، ولأنه من مضارة المتعاملين.

في مقدار الدين الذي به الرهن أن القول قول المرتهن صاحب الحق لأن الله جعل الرهن وثيقة به فلو لا أنه يقبل قوله في ذلك لم تحصل به الوثيقة لعدم الكتابة والشهود.

ومنها: أنه يجوز التعامل بغير وثيقة ولا شهود لقوله: ﴿إِنْ آمَنَ بِبَعْضِكُمْ بَعْضًا فُلْيُودُ الَّذِي أَوْثَمَنَ آمَنْتَهُ﴾؛ ولكن في هذه الحال يحتاج إلى التقوى والخوف من الله وإلا فصاحب الحق مخاطر في حقه ولهذا أمر الله في هذه الحال من عليه الحق أن يتيقن الله ويؤدي أمانته.

ومنها: أن من اتهمه معاملته فقد عمل معه معروفاً عظيماً ورضي بدينه وأمانته فيتأكد على من عليه الحق أداء الأمانة من الجهتين: أداء لحق الله وامتنالاً لأمره، ووفاء بحق صاحبه الذي رضي بأمانته ووثق به.

ومنها: تحريم كتم الشهادة وأن كانتها قد أتم قلبه الذي هو ملك الأعضاء، وذلك لأن كتمها كالشهادة بالباطل والزور فيها ضياع الحقوق وفساد المعاملات والإثم المتكرر في حقه وحق من عليه الحق. وأما تقييد الرهن بالسفر مع أنه يجوز حضراً وسفراً فللحاجة إليه لعدم الكاتب والشهيد. وختم الآية بأنه عليم بكل ما يعمل العباد كالترغيب لهم في المعاملات الحسنة والترهيب من المعاملات السيئة.

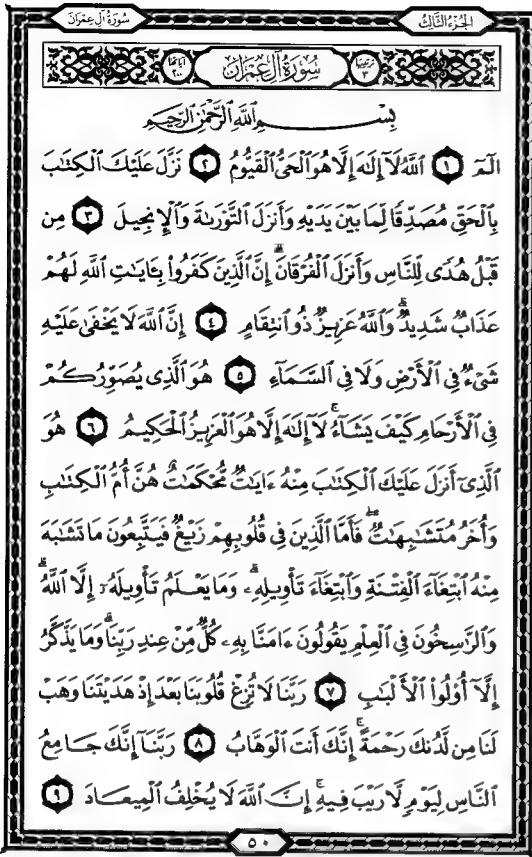
وَلَا تَكْتُمُوا لِلشَّهَادَةِ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ عَنِ اللَّهِ قَلْبُهُ. وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨٢﴾ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنْ تُبْذَرُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفَوُهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٨٣﴾ ءَأَمِنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَأَمِنَ بِاللَّهِ وَمَلَكِيَّهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا تَنفِرُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴿٢٨٤﴾ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إَصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاعْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٢٨٥﴾

﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنْ تُبْذَرُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفَوُهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

﴿٢٨٢﴾ يخبر تعالى بعموم ملكه لأهل السماء والأرض وإحاطة علمه بما أبداه العباد وما أخفوه في أنفسهم، وأنه سيحاسبهم به ﴿فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ وهو المنيب إلى ربه الأبواب إليه، ﴿فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غُفُورًا﴾ ﴿[الإسراء: ٢٥]﴾ ﴿وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ﴾ وهو المصير على المعاصي في باطنه وظاهره، وهذه الآية لا تنافي الأحاديث الواردة في العفو عما حدث به العبد نفسه ما لم يعمل أو يتكلم، فذلك الخطرات التي تتحدث بها النفوس التي لا يتصف بها العبد ولا يصمم عليها، وأما هنا فهي العزائم المصممة والأوصاف الثابتة في النفوس، أوصاف الخير وأوصاف الشر، ولهذا قال: ﴿مَا فِي أَنْفُسِكُمْ﴾؛ أي: استقر فيها وثبت من العزائم والأوصاف. وأخبر أنه ﴿عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾؛ فمن تمام قدرته محاسبة الخلائق وإيصال ما يستحقونه من الثواب والعقاب.

﴿ءَأَمِنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَأَمِنَ بِاللَّهِ وَمَلَكِيَّهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا تَنفِرُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ ﴿٢٨٤﴾ لا يكلف الله نفساً إلا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إَصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاعْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٢٨٥﴾

﴿٢٨٤﴾ ثبت عنه ﷺ أن من قرأ هاتين الآيتين في ليلة كفتاه^(١)؛ أي: من جميع الشورور، وذلك لما احتوتا عليه من المعاني



الجليلة، فإن الله أمر في أول هذه السورة الناس بالإيمان بجميع أصوله في قوله: ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا﴾ [البقرة: ١٣٦]؛ الآية، وأخبر في هذه الآية أن الرسول ﷺ ومن معه من المؤمنين آمنوا بهذه الأصول العظيمة وبجميع الرسل وجميع الكتب، ولم يصنعوا صنيع من آمن ببعض وكفر ببعض كحالة المنحرفين من أهل الأديان المنحرفة. وفي قرن المؤمنين بالرسول ﷺ والإخبار عنهم جميعاً بخبر واحد شرف عظيم للمؤمنين، وفيه أنه ﷺ مشارك للأمة في توجه الخطاب الشرعي له وقيامه التام به وأنه فاق المؤمنين، بل فاق جميع المرسلين في القيام بالإيمان وحقوقه.

وقوله: ﴿وَكُلُّوْا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾؛ هذا التزام من المؤمنين عام لجميع ما جاء به النبي ﷺ من الكتاب والسنة، وأنهم سمعوه سماع قبول وإذعان وانقياد. ومضمون ذلك تضرعهم إلى الله في طلب الإعانة على القيام به وأن الله يغفر لهم ما قصروا فيه من الواجبات وما ارتكبوه من المحرمات، وكذلك تضرعوا إلى الله في هذه الأدعية النافعة، والله تعالى قد أجاب دعاءهم على لسان نبيه ﷺ فقال: «قد فعلت» (١).

فهذه الدعوات مقبولة من مجموع المؤمنين قطعاً ومن أفرادهم إذا لم يمنع من ذلك مانع في الأفراد، وذلك أن الله رفع عنهم المؤاخذه في الخطأ والنسيان وأن الله سهل عليهم شرعه غاية التسهيل، ولم يحملهم من المشاق والآصار والأغلال ما حمله على من قبلهم، ولم يحملهم فوق طاقتهم، وقد غفر لهم ورحمهم ونصرهم على القوم الكافرين. فنسأل الله تعالى بأسمائه وصفاته وبما من به علينا من التزام دينه أن يحقق لنا ذلك وأن ينجز لنا ما وعدنا على لسان نبيه، وأن يصلح أحوال المؤمنين.

ويؤخذ من هذا قاعدة التيسير ونفي الحرج في أمور الدين كلها، وقاعدة العفو عن النسيان والخطأ في العبادات وفي حقوق الله تعالى، وكذلك في حقوق الخلق من جهة رفع المأثم وتوجيه الذم، وأما وجوب ضمان المتلفات خطأ أو نسياناً في النفوس والأموال فإنه مرتب على الإتيان بغير حق، وذلك شامل لحالة الخطأ والنسيان والعمد.

تم تفسير سورة البقرة. ولله الحمد والثناء. وصلى الله على محمد وسلم.



تفسير سورة آل عمران

وهي مدنية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ۝ نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ ۝ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ ۝ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۝ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ ۝ إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي

﴿٧﴾ يخبر تعالى عن عظمته وكمال قيوميته أنه هو الذي تفرد بإنزال هذا الكتاب العظيم، الذي لم يوجد، ولن يوجد له نظير أو مقارب في هدايته وبلاغته وإعجازه وإصلاحه للخلق، وأن هذا الكتاب يحتوي على المحكم الواضح المعاني، البين الذي لا يشبهه غيره، ومنه آيات متشابهات تحتمل بعض المعاني، ولا يتعين منها واحد من الاحتمالين بمجرد ما حتى تضم إلى المحكم، فالذين في قلوبهم مرض وزيف وانحراف لسوء قصدهم يتبعون المتشابه منه؛ فيستدلون به على مقالاتهم الباطلة، وآرائهم الزائفة، طلباً للفتنة وتحريفاً لكتابه، وتأويلاً له على مشاربهم ومذاهبهم ليضلوا ويضلوا.

وأما أهل العلم الراسخون فيه الذين وصل العلم واليقين إلى أئمتهم، فأنمّر لهم العمل والمعارف فيعلمون أن القرآن كله من عند الله وأنه كله حق محكمه ومتشابهه، وأن الحق لا يتناقض ولا يختلف، فلعلمهم أن المحكمات معناها في غاية الصراحة والبيان، يردون إليها المشتبه الذي تحصل فيه الحيرة لنقص العلم ونقص المعرفة، فيردون المتشابه إلى المحكم فيعود كله محكماً ويقولون: ﴿ءَمَّا يَوْمَ كُلِّ مَنْ عِنْدَ رَبِّنَا وَمَا يَذْكُرُ﴾؛ للأمور النافعة والعلوم الصائبة ﴿إِلَّا أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ ﴿٧﴾؛ أي: أهل العقول الرزينة، ففي هذا دليل على أن هذا من علامة أولي الأبواب وأن اتباع المتشابه من أوصاف أهل الآراء السقيمة والعقول الواهية والقصود السيئة.

وقوله: ﴿وَمَا يَسْكُمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ﴾؛ إن أريد بالتأويل معرفة عاقبة الأمور وما تنتهي وتؤول إليه تعين الوقوف على ﴿إِلَّا اللَّهُ﴾ حيث هو تعالى المتفرد بالتأويل بهذا المعنى، وإن أريد بالتأويل معنى التفسير ومعرفة معنى الكلام كان العطف أولى؛ فيكون هذا مدخلاً للراسخين في العلم، أنهم يعلمون كيف يتزلون نصوص الكتاب والسنة محكمها ومتشابهها.

ولما كان المقام مقام انقسام إلى منحرفين ومستقيمين دعوا الله تعالى أن يشتهم على الإيمان فقالوا:

﴿٨﴾ رَبَّنَا لَا تُرِغْ قُلُوبَنَا؛ أي: لا تملها عن الحق إلى الباطل ﴿بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً﴾ تصلح بها أحوالنا؛ ﴿إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾ ﴿٨﴾؛ أي: كثير الفضل والهبات. وهذه الآية تصلح مثلاً للطريقة التي يتعين سلوكها

الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ﴿٥﴾ هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٦﴾.

﴿١﴾ ﴿الْأَرْضِ﴾؛ من الحروف التي لا يعلم معناها إلا الله. ﴿٢﴾ فأخبر تعالى أنه ﴿الْحَيُّ﴾؛ كامل الحياة ﴿الْقَيُّومُ﴾؛ القائم بنفسه المقيم لأحوال خلقه، وقد أقام أحوالهم الدينية وأحوالهم الدنيوية والقدرية، فأنزل على رسوله محمد ﷺ الكتاب بالحق الذي لا ريب فيه وهو مشتمل على الحق.

﴿٣﴾ ﴿صَدَقَ﴾؛ أي: شهد بما شهدت به ووافقها وصدق من جاء بها من المرسلين. وكذلك أنزل ﴿التَّوْرَةَ﴾ ﴿وَالْإِنْجِيلَ﴾ ﴿٤﴾ من قبل ﴿هذا الكتاب﴾، ﴿هُدًى لِلنَّاسِ﴾؛ وأكمل الرسالة وختمها بمحمد ﷺ وكتابه العظيم الذي هدى الله به الخلق من الضلالات واستقذهم به من الجهالات، وفرق به بين الحق والباطل والسعادة والشقاوة، والصراط المستقيم وطرق الجحيم، فالذين آمنوا به، واهتدوا حصل لهم به الخير الكثير والثواب العاجل والأجل و ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا يَتَنَبَّأُ اللَّهُ﴾؛ التي بينها في كتابه وعلى لسان رسوله ﴿لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ﴾ ﴿٥﴾؛ ممن عصاه.

﴿٦﴾ ومن تمام قيوميته تعالى أن علمه محيط بالخالق ﴿لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ ﴿٥﴾؛ حتى ما في بطون الحوامل فهو ﴿الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ﴾؛ من ذكر وأنثى وكامل الخلق وناقصه متقلين في أطوار خلقته وبديع حكمته، فمن هذا شأنه مع عباده واعتناؤه العظيم بأحوالهم من حين أنشأهم إلى منتهى أمورهم لا مشارك له في ذلك فيتعين أنه لا يستحق العبادة إلا هو ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ﴾؛ الذي قهر الخلاق بقوته، واعتز عن أن يوصف بنقص، أو ينعت بدم. ﴿الْحَكِيمُ﴾ ﴿٦﴾؛ في خلقه وشرعه.

﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَمَّا يَوْمَ كُلِّ مَنْ عِنْدَ رَبِّنَا وَمَا يَذْكُرُ إِلَّا أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ ﴿٧﴾ رَبَّنَا لَا تُرِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ ﴿٨﴾.

سورة آل عمران

المائدة

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ
 مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ ﴿١٠﴾ كَذَابُ آلِ
 فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَآخَذَهُمُ اللَّهُ يَذُّوهُمْ
 وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿١١﴾ قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَعْلَبُونَ
 وَتُحْشَرُونَ إِلَى جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْإِهَادُ ﴿١٢﴾ قَدْ كَانَ
 لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ
 وَأُخْرَى كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِثْلَهُمْ رَأَى الْمُؤْمِنِينَ وَاللَّهُ
 يُؤَيِّدُ بَصَرِيٍّ مَنْ يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لَأُولِي
 الْأَبْصَارِ ﴿١٣﴾ زَيْنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ
 وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ
 وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثُ ذَلِكَ مَتَاعُ
 الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْبُ الْمَعَادِ ﴿١٤﴾ قُلْ
 أَوْفَيْتُكُمْ بِحَيْثُ مَنَ دَلَّكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّتْ
 تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ
 وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴿١٥﴾

٥١

في المتشابهات، وذلك أن الله تعالى ذكر عن الراسخين أنهم يسألونه ألا يزغ قلوبهم بعد إذ هداهم؛ وقد أخبر في آيات آخر الأسباب التي بها تزغ قلوب أهل الانحراف وأن ذلك بسبب كسبهم كقولهم: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥]؛ ﴿ثُمَّ أَنْصَرَفُوا سَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾؛ ﴿وَنَقَلُبٌ آفِكُهُمْ وَأَبْصُرُهُمْ كَمَا لَا يُؤْمِنُوا بِهِمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الأنعام: ١١٠]؛ فالعبد إذا تولى عن ربه، ووالى عدوه، ورأى الحق فصدف عنه ورأى الباطل فاختاره وواه الله ما تولى لنفسه، وأزاع قلبه عقوبة له على زيغ، وما ظلمه الله ولكنه ظلم نفسه، فلا يلم إلا نفسه الأمانة بالسوء. والله أعلم.

﴿رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ إِنَّكَ اللَّهُ لَا يُخْلِفُ الْوَعْدَ﴾ ﴿٩﴾.

﴿٩﴾ هذا من تمة كلام الراسخين في العلم، وهو يتضمن الإقرار بالبعث والجزاء واليقين التام، وأن الله لا بد أن يوقع ما وعد به، وذلك يستلزم موجه ومقتضاه من العمل والاستعداد لذلك اليوم، فإن الإيمان بالبعث والجزاء أصل صلاح القلوب، وأصل الرغبة في الخير والرغبة من الشر اللذين هما أساس الخيرات.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ﴾ ﴿١٠﴾ كَذَابُ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَآخَذَهُمُ اللَّهُ يَذُّوهُمْ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿١١﴾.

﴿١٠﴾ ﴿١١﴾ لما ذكر يوم القيامة، ذكر أن جميع من كفر بالله، وكذب رسل الله لا بد أن يدخلوا النار ويصلوها، وأن أموالهم وأولادهم لن تغني عنهم شيئاً من عذاب الله، وأنه سيجري عليهم في الدنيا من الأخذات والعقوبات ما جرى على فرعون وسائر الأمم المكذبة بآيات الله، ﴿فَآخَذَهُمُ اللَّهُ يَذُّوهُمْ﴾؛ وعجل لهم العقوبات الدنيوية متصلة بالعقوبات الأخروية ﴿وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ ﴿١١﴾؛ فإياكم أن تستهونوا بعقابه فيهون عليكم الإقامة على الكفر والتكذيب.

﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَعْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَى جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْإِهَادُ﴾ ﴿١٢﴾ قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِثْلَهُمْ رَأَى الْمُؤْمِنِينَ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بَصَرِيٍّ مَنْ يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لَأُولِي الْأَبْصَارِ﴾ ﴿١٣﴾.

﴿١٢﴾ ﴿١٣﴾ وهذا خبر وبشرى للمؤمنين، وتخويف للكافرين أنهم لا بد أن يغلبوا في هذه الدنيا، وقد وقع كما أخبر الله فغلبوا غلبة لم يكن لها مثيل ولا نظير، وجعل الله تعالى ما وقع في بدر من آياته الدالة على صدق رسوله، وأنه هو على الحق، وأعداؤه على الباطل حيث التقت فئتان فئة المؤمنين لا يبلغون إلا ثلاثمائة وبضعة عشر رجلاً مع قلة عددهم، وفئة الكافرين يناهزون الألف مع استعدادهم التام في السلاح وغيره، فأيد الله المؤمنين بنصره فهزمهم بإذن الله. ففي هذا عبرة لأهل البصائر، فلو لا أن هذا هو الحق الذي إذا قابل الباطل أزقه، واضمحل الباطل لكان بحسب الأسباب الحسية الأمر بالعكس.

سورة آل عمران

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا
عَذَابَ النَّارِ ﴿١٦﴾ الصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالْقَانِتِينَ
وَالْمُسْتَفْقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ ﴿١٧﴾ شَهِدَ
اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ
لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٨﴾ إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ
اللَّهِ أَلَسُّوا وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أَوْتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ
بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَيِّنَاتٍ وَمَنْ يَكْفُرْ بَيِّنَاتٍ
اللَّهُ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿١٩﴾ فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ
وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ
أَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا
عَلَيْكَ الْبَلَاءُ وَاللَّهُ بِصِيرٍ بِأَعْيَادٍ ﴿٢٠﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ
بَيِّنَاتٍ لِلَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيَّاتِ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ
الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَيِّنَتُهُمْ
يُعَذَّبُ أَلِيمٌ ﴿٢١﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتِ أَعْمَالُهُمْ
فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ﴿٢٢﴾

٥٢

﴿ زَيْنَ النَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ
وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ
الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا
وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَعَآبِ ﴿١٤﴾ قُلْ أَوْفَيْتُكُمْ بِحَيْثُ مَنَ دَلَّكُمْ
لِلَّذِينَ آمَنُوا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّتْ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ
فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بِصِيرٍ
بِأَعْيَادٍ ﴿١٥﴾ ۞

﴿١٤﴾ أخبر تعالى في هاتين الآيتين عن حالة الناس في إشار
الدنيا على الآخرة، وبين التفاوت العظيم والفرق الجسيم
بين الدارين، فأخبر أن الناس زينت لهم هذه الأمور فرمقوها
بالأبصار، واستحلوها بالقلوب، وعكفت على لذاتها
النفوس، كل طائفة من الناس تميل إلى نوع من هذه الأنواع،
قد جعلوها هي أكبر همهم ومبلغ علمهم، وهي مع هذا متاع
قليل منقضى في مدة يسيرة، فهذا ﴿١٤﴾ متاع الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ
عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَعَآبِ ﴿١٥﴾ ۞

﴿١٥﴾ ثم أخبر عن ذلك بأن المتقين لله القائمين بعبوديته
لهم خير من هذه اللذات، فلهم أصناف الخيرات والنعيم
المقيم، مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب
بشر، ولهم رضوان الله الذي هو أكبر من كل شيء، ولهم الأزواج المطهرة من كل آفة ونقص، جميلات الأخلاق كاملات
الخلائق، لأن النفي يستلزم ضده، فتطهيرها من الآفات مستلزم لوصفها بالكمالات.

﴿ وَاللَّهُ بِصِيرٍ بِأَعْيَادٍ ﴿١٥﴾ ۞ ﴾؛ فيفسر كلاً منهم لما خلق له، أما أهل السعادة فيسهرهم للعمل لهذه الدار الباقية ويأخذون
من هذه الحياة الدنيا ما يعينهم على عبادة الله وطاعته، وأما أهل الشقاوة والإعراض فيقيضهم لعمل أهل الشقاوة، ويرضون
بالحياة الدنيا، ويطمنون بها، ويتخذونها قراراً.

﴿الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١٦﴾ الصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالْقَانِتِينَ
وَالْمُسْتَفْقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ ﴿١٧﴾ ۞﴾

﴿١٦﴾ أي: هؤلاء الراسخون في العلم أهل العلم والإيمان يتوسلون إلى ربهم بإيمانهم لمغفرة ذنوبهم ووقايتهم عذاب النار،
وهذا من الوسائل التي يحبها الله أن يتوسل العبد إلى ربه بما منَّ به عليه من الإيمان والأعمال الصالحة إلى تكميل نعم الله
عليه بحصول الثواب الكامل واندفاع العقاب.

﴿١٧﴾ ثم وصفهم بأجمل الصفات: بالصبر الذي هو حبس النفوس على ما يحبه الله طلباً لمرضاته، يصبرون على طاعة الله
ويصبرون عن معاصيه ويصبرون على أقداره المؤلمة، وبالصدق بالأقوال والأحوال وهو استواء الظاهر والباطن وصدق
العزيمة على سلوك الصراط المستقيم، وبالقنوت الذي هو دوام الطاعة مع مصاحبة الخشوع والخضوع، وبالنفقات في سبل
الخيرات وعلى الفقراء وأهل الحاجات، وبالاستغفار خصوصاً وقت الأسحار، فإنهم مدوا الصلاة إلى وقت السحر؛ فجلسوا
يستغفرون الله تعالى.

ثم أخبر تعالى أن أهل الكتاب يعلمون ذلك، وإنما اختلفوا فأنحرفوا عنه عنادًا وبعيًا. وإلا فقد جاءهم العلم المقضي لعدم الاختلاف الموجب للزوم الدين الحقيقي، ثم لما جاءهم محمد ﷺ عرفوه حق المعرفة، ولكن الحسد والبغي والكفر بآيات الله هي التي صدتهم عن اتباع الحق ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ (١٨)؛ أي: فليتظروا ذلك فإنه آت وسيجزيه الله بما كانوا يعملون.

﴿فَإِنْ حَاجَّوكَ فَقُلْ أَسَلْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعْتُ وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأَنبِيَاءَ أَسَلْتُمْ فَإِنْ أَسَلْتُمْ فَقَدْ أَهْتَدُوا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاءُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ (١٩).

﴿٢٠﴾ لما بين أن الدين الحقيقي عنده الإسلام، وكان أهل الكتاب قد شافهوا النبي ﷺ بالمجادلة، وقامت عليهم الحجة فعاندوها، أمره الله تعالى عند ذلك أن يقول ويعلم أنه قد أسلم وجهه أي ظاهره وباطنه لله، وأن من اتبعه كذلك قد وافقوه على هذا الإذعان الخالص، وأن يقول للناس كلهم من أهل الكتاب والأمين أي الذين ليس لهم كتاب من العرب وغيرهم: إن أسلمتم فأنتم على الطريق المستقيم والهدى والحق، وإن توليتم فحسابكم على الله، وأنا ليس علي إلا البلاغ، وقد أبلغتكم وأقمت عليكم الحجة.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيَّاتِ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ (٢١) ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾ (٢٢).

﴿٢٣﴾ أي: الذين جمعوا بين هذه الشرور: الكفر بآيات الله، وتكذيب رسل الله، والجناية العظيمة على أعظم الخلق حقًا على الخلق وهم الرسل وأئمة الهدى، الذين يأمرهم الناس بالقسط الذي اتفقت عليه الأديان والعقول، فهؤلاء قد ﴿حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾؛ واستحقوا العذاب الأليم، وليس لهم ناصر من عذاب الله ولا منقذ من عقوبته.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يَدْعُونَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ وَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ (٢٤) ذَلِكَ

﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (٢٥).

﴿٢٦﴾ هذه أجل الشهادات الصادرة من الملك العظيم، ومن الملائكة، وأهل العلم على أجل مشهود عليه وهو توحيد الله وقيامه بالقسط، وذلك يتضمن الشهادة على جميع الشرع وجميع أحكام الجزاء، فإن الشرع والدين أصله وقاعدته توحيد الله وإفراده بالعبودية والاعتراف بانفراده بصفات العظمة والكبرياء والمجد والعز والقدرة والجلال، وبنعوت الجود والبر والرحمة والإحسان والجمال، وبكمال المطلق الذي لا يحصي أحد من الخلق أن يحيطوا بشيء منه أو يبلغوه أو يصلوا إلى الثناء عليه، والعبادات الشرعية والمعاملات وتوابعها والأمر والنهي كله عدل وقسط لا ظلم فيه ولا جور بوجه من الوجوه، بل هو في غاية الحكمة والإحكام، والجزاء على الأعمال الصالحة والسيئة كله قسط وعدل، ﴿قُلْ أَشَى شَيْءٌ أَكْبَرُ شَهَدَةً قُلْ اللَّهُ﴾ [الأنعام: ١٩] فتوحيد الله ودينه وجزاؤه قد ثبت ثبوتًا لا ريب فيه وهو أعظم الحقائق وأوضحها، وقد أقام الله على ذلك من البراهين والأدلة ما لا يمكن إحصاؤه وعده.

وفي هذه الآية فضيلة العلم والعلماء؛ لأن الله خصهم بالذكر من دون البشر، وقرن شهادتهم بشهادته وشهادة ملائكته، وجعل شهادتهم من أكبر الأدلة والبراهين على توحيد الله ودينه وجزائه، وأنه يجب على المكلفين قبول هذه الشهادة العادلة الصادقة، وفي ضمن ذلك تعديلهم، وأن الخلق تبع لهم وأنهم هم الأئمة والمتبوعون، وفي هذا من الفضل والشرف وعلو المكانة ما لا يقادر قدره.

﴿إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ اللَّهِ أَلْسِنَةٌ وَمَا اختلف الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمْ أَنبَاءُ بَقِيَّةٍ بَيْنَهُمْ وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ (٢٧).

﴿٢٨﴾ يخبر تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ اللَّهِ﴾ أي الذين الذي لا دين لله سواه ولا مقبول غيره هو ﴿الْإِسْلَامُ﴾؛ وهو الانقياد لله وحده ظاهرًا وباطنًا بما شرعه على السنة رسله، قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (٢٩) ﴿آل عمران: ٨٥﴾ فمن دان بغير دين الإسلام فهو لم يدين لله حقيقة؛ لأنه لم يسلك الطريق الذي شرعه على السنة رسله.

سورة آل عمران

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أَوْتُوا ضَيْبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ
 اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ فَيُتَوَلَّى قَرِيبٌ مِّنْهُمْ وَهُمْ مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾
 ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ وَغَرَّهُمْ
 فِي دِينِهِمْ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٢٤﴾ فَكَيْفَ إِذَا جُمِعْتُمْ فِي
 يَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ
 لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٥﴾ قُلِ اللَّهُمَّ مَلِكُ الْمَلَائِكَةِ تُؤْتِي الْمَلَائِكَةَ
 مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمَلَائِكَةَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ
 مَن تَشَاءُ بِإِذْنِكَ الْحَيُّ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾ تُولِجُ اللَّيْلَ
 فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ
 وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَن تَشَاءُ بِعَبْرِ حَسَابٍ ﴿٢٧﴾
 لَا يَخْتِزُّ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَن
 يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَن يَتَّقُوا مِنْهُمْ
 تُقَاتَةَ وَيُعِزُّكُمْ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴿٢٨﴾ قُلْ
 إِن تَحِبُّوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْذَرُوا بِعَلْمِهِ اللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي
 السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾

٥٣

يَأْتُهُمْ قَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِمْ مَا
 كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٢٣﴾ فَكَيْفَ إِذَا جُمِعْتُمْ فِي يَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ
 وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٤﴾

﴿٢٣﴾ - ﴿٢٤﴾ أي: ألا تنظر وتعجب من هؤلاء ﴿الَّذِينَ أَوْتُوا
 ضَيْبًا مِّنَ الْكِتَابِ﴾ و﴿يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ﴾؛ الذي يصدق
 ما أنزله على رسله ﴿ثُمَّ يَتَوَلَّى قَرِيبٌ مِّنْهُمْ وَهُمْ مُّعْرِضُونَ﴾؛
 عن اتباع الحق، فكانه قيل: لأي داع دعاهم إلى هذا الإعراض
 وهم أحق بالاتباع وأعرفهم بحقيقة ما جاء به محمد ﷺ؟
 فذكر لذلك سببين:

أمنهم وشهادتهم الباطلة لأنفسهم بالنجاة، وأن النار
 لا تمسهم إلا أيامًا معدودة حدودها بحسب أهوائهم الفاسدة،
 كان تدبير الملك راجع إليهم حيث قالوا: ﴿لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ
 إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصْرَانً﴾ [البقرة: ١١١]؛ ومن المعلوم أن
 هذه أمانتي باطلة شرعاً وعقلاً.

والسبب الثاني: أنهم لما كذبوا بآيات الله، وافترخوا عليه
 زين لهم الشيطان سوء عملهم، واغترخوا بذلك وتراءى لهم
 أنه الحق عقوبة لهم على إعراضهم عن الحق، فهؤلاء كيف
 يكون حالهم إذا جمعهم الله يوم القيامة، ووفى العاملين
 ما عملوا وجرى عدل الله في عبادته؟ فهناك لا تسأل عما
 يصلون إليه من العقاب وما يفوتهم من الخير والثواب، وذلك بما كسبت أيديهم، وما ربك بظلام للعبيد.

﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَلِكُ الْمَلَائِكَةِ تُؤْتِي الْمَلَائِكَةَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمَلَائِكَةَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِإِذْنِكَ الْحَيُّ إِنَّكَ
 عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ ﴿٢٦﴾ تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَن تَشَاءُ
 بِعَبْرِ حَسَابٍ ﴿٢٧﴾

﴿٢٦﴾ ﴿٢٧﴾ يأمر تعالى نبيه ﷺ أصلاً وغيره تبعاً أن يقول عن ربه معلناً بتفرد بصريف الأمور، وتدبير العالم العلوي
 والسفلي، واستحقاقه باختصاصه بالملك المطلق والتصرف المحكم، وأنه يؤتي الملك من يشاء، وينزع الملك ممن يشاء،
 ويعز من يشاء ويذل من يشاء، فليس الأمر بأمني أهل الكتاب ولا غيرهم، بل الأمر أمر الله، والتدبير له، فليس له معارض
 في تدبيره، ولا معاون في تقديره، وأنه كما أنه المتصرف بمداولة الأيام بين الناس فهو المتصرف بنفس الزمان: يولج النهار
 في الليل ويولج الليل في النهار؛ أي: يدخل هذا على هذا ويحل هذا محل هذا، ويزيد في هذا ما ينقص من هذا ليقيم بذلك
 مصالح خلقه، ويخرج الحي من الميت كما يخرج الزروع والأشجار المتنوعة من بذورها والمؤمن من الكافر والميت من
 الحي، كما يخرج الجيوب والنوى والزروع والأشجار والبيضة من الطائر، فهو الذي يخرج المتضادات بعضها من بعض،
 وقد انتقادت له جميع العناصر.

وقوله: ﴿بِإِذْنِكَ الْحَيُّ﴾؛ أي: الخير كله منك ولا يأتي بالحسنات والخيرات إلا الله، وأما الشر فإنه لا يضاف إلى الله تعالى
 لا وصفاً ولا اسماً ولا فعلاً، ولكنه يدخل في مفعولاته ويندرج في قضائه وقدره، فالخير والشر كله داخل في القضاء والقدر فلا
 يقع في ملكه إلا ما شاءه، ولكن الشر لا يضاف إلى الله، فلا يقال: بيدك الخير والشر، بل يقال: بيدك الخير كما قاله الله وقاله
 رسوله، وأما استدراك بعض المفسرين حيث قال: وكذلك الشر بيد الله فإنه وهم محض، ملحظهم حيث ظنوا أن تخصيص

الخير بالذكر ينافي قضاءه وقدره العام، وجوابه ما فصلناه.

وقوله: ﴿وَرَزَقُكَ مِنْ شَأْنِهِ يُخَبِّرُ حَسَابٍ﴾ (٢٧)؛ وقد ذكر الله في غير هذه الآية الأسباب التي ينال بها رزقه كقوله: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا﴾ (١) و﴿رَزَقُهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [الطلاق: ٢، ٣]؛ فعلى العباد ألا يطلبوا الرزق إلا من الله، ويسعوا فيه بالأسباب التي يسرها الله وأباحها.

﴿لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَنَّةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ. وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾ (٢٨).

(٢٨) هذا نهي من الله وتحذير للمؤمنين أن يتخذوا الكافرين أولياء من دون المؤمنين، فإن المؤمنين بعضهم أولياء بعض، والله وليهم ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ﴾ التولي، ﴿فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ﴾ أي: فهو بريء من الله، والله بريء منه كقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ يَتَوَلَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [المائدة: ٥١] وقوله: ﴿إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَنَّةً﴾ أي: إلا أن تخافوا على أنفسكم في إيداء العداوة للكافرين فلكم في هذه الحال الرخصة في المسالمة والمهادنة لا في التولي الذي هو محبة القلب الذي تتبعه النصرة، ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾ أي: فخافه واخلشه

وقدموا خشيتهم على خشية الناس؛ فإنه هو الذي يتولى الكافرين، وقد أخذ بنواصيهم وإليه يرجعون وسيصبرون إليه، فيجازي من قدم خوفه ورجاهه على غيره بالثواب الجزيل، ويعاقب الكافرين ومن تولاهم بالعذاب الويل.

﴿قُلْ إِنْ تَحْفَظُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَكْفُرُ اللَّهُ وَيَكْفُرْكُمْ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (٢٩) يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ. وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعَاصِينَ﴾ (٣٠).

(٢٩)، (٣٠) يخبر تعالى بإحاطة علمه بما في الصدور سواء أخفاه العباد أو أبدوه، كما أن علمه محيط بكل شيء في السماء والأرض فلا تخفى عليه خافية، ومع إحاطة علمه فهو العظيم القدير على كل شيء الذي لا يمتنع عن إرادته موجود. ولما ذكر لهم من عظمتهم وسعة أوصافه ما يوجب للعباد أن يراقبوه في كل أحوالهم، ذكر لهم أيضًا داعيًا آخر إلى مراقبته وتقواه، وهو أنهم كلهم صائرون إليه، وأعمالهم حيثن من خير وشر محضرة، فحيثن يغتبط أهل الخير بما قدموه لأنفسهم، ويتحسر أهل الشر إذا وجدوا ما عملوه محضراً، ويودون أن بينهم وبينه أمدًا بعيداً.

فإذا عرف العبد أنه ساع إلى ربه وكادح في هذه الحياة، وأنه لا بد أن يلاقي ربه ويلقي سعيه أوجب له أخذ الحذر والتوقي من الأعمال التي توجب الفضيحة والعقوبة، والاستعداد بالأعمال الصالحة التي توجب السعادة والثبوة، ولهذا قال تعالى: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾؛ وذلك بما يبدي لكم من أوصاف عظمتهم وكمال عدله وشدة نكاله، ومع شدة عقابه فإنه رءوف رحيم، ومن رأفته ورحمته أنه خوف العباد، وزجرهم عن الغي والفساد، كما قال تعالى لما ذكر العقوبات: ﴿ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ. يُعَادُّنَا فَأَتَقُونَ﴾ (١٦) [الزمر: ١٦]؛ فرأفته ورحمته سهلت لهم الطرق التي ينالون بها الخيرات، ورأفته ورحمته حذرتهم من الطرق التي تفضي بهم إلى المكروهات.

سورة آل عمران

يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ. وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعَاصِينَ ﴿٣٠﴾ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٣١﴾ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ ﴿٣٢﴾ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٣٣﴾ ذُرِّيَّةً بَعْضًا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَى وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَى وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَنْزِيلُ مِنَ اللَّهِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ رَزَقُكَ مِنْ شَأْنِهِ يُخَبِّرُ حَسَابٍ ﴿٣٧﴾

٥٤

الْمُرُوءَاتُ

سورة آل عمران

وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٥٦﴾
 قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكَ
 اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٥٧﴾
 وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِسْمَةَ وَالْتُورَةَ وَالْإِنْجِيلَ ﴿٥٨﴾
 وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَاتٍ مِّن رَّبِّكُمْ
 أَنِّي أَخْلَقُ لَكُمْ مِنَ الطَّيْرِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْشُخُ فِيهِ
 فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ
 وَأُنْخِ الْمَوْتَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدْخُرُونَ
 فِي بُيُوتِكُمْ إِنِّي فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴿٥٩﴾
 وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيَّنَّ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَلِأَحْمَدَ لَكُمْ
 بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُمْ بِآيَاتٍ مِّن رَّبِّكُمْ
 فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ۖ ﴿٦٠﴾ إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ
 هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ
 الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْخَوَارِثُ نَحْنُ
 أَنْصَارُ اللَّهِ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَأَشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٢﴾

٥٦

وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيَّنَّ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَلِأَحْمَدَ لَكُمْ
 بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُمْ بِآيَاتٍ مِّن رَّبِّكُمْ
 فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ۖ ﴿٥٠﴾ إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ
 هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٥١﴾ فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ الْكُفْرَ
 قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْخَوَارِثُ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ
 ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَأَشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٥٢﴾ رَبَّنَا ءَامَنَّا بِمَا
 أَنْزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُتِبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴿٥٣﴾
 وَمَكْرُؤًا وَمَكْرَ اللَّهِ ۖ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمُنْكَرِينَ ﴿٥٤﴾ إِذْ قَالَ
 اللَّهُ لِيَعِيسَىٰ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ
 كَفَرُوا وَجَاعِلَ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ قَوْمَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ يَوْمِ
 الْقِيَمَةِ ثُمَّ إِلَىٰ مَرْجِعِكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ
 تَخْتَلِفُونَ ﴿٥٥﴾

(٣٣) - (٥٥) لله تعالى من عباده أصفياء يصطفاهم ويختارهم
 ويمن عليهم بالفضائل العالية والنعوت السامية والعلوم
 النافعة والأعمال الصالحة والخصائص المتنوعة، فذكر هذه
 البيوت الكبار وما احتوت عليه من كَمَل الرجال الذين حازوا
 أوصاف الكمال، وأن الفضل والخير تسلسل في ذرائعهم،
 وشمل ذكورهم ونساءهم، وهذا من أجل منته وأفضل مواقع
 جوده وكرمه ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (٣٤)؛ يعلم من يستحق الفضل والتفضيل فيضع فضله حيث اقتضت حكمته. فلما قرر عظمة
 هذه البيوت ذكر قصة مريم وابنها عيسى ﷺ وكيف تسلسلا من هذه البيوت الفاضلة، وكيف تنقلت بهما الأحوال من ابتداء
 أمرهما إلى آخره، وأن امرأة عمران قالت متضرعة إلى ربها متقربة إليه بهذه القرية التي يحبها، التي فيها تعظيم بيته وملازمة
 طاعته: ﴿إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا﴾؛ أي خادمًا لبيت العبادة المشحون بالمتعبدین ﴿فَتَقَبَّلَ مَوْءِي﴾؛ هذا العمل أي اجعله
 مؤسسًا على الإيمان والإخلاص مثمرًا للخير والثواب ﴿إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (٣٥) فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ وَاللَّهُ
 أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ وَلَئِنَّكَ لَآلَأَنَّي؛ كان في هذا الكلام نوع تضرع منها وانكسار نفس، حيث كان نذرنا بناءً على أنه يكون
 ذكرًا يحصل منه من القوة والخدمة والقيام بذلك ما يحصل من أهل القوة، والأُنثى بخلاف ذلك، فجبر الله قلبها وتقبل الله
 نذرنا، وصارت هذه الأُنثى أكمل وأتم من كثير من الذكور، بل من أكثرهم، وحصل بها من المقاصد أعظم مما يحصل
 بالذكر، ولهذا قال: ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا﴾؛ أي: ربيت تربية عجيبة دينية أخلاقية أدبية، كملت بها
 أحوالها، وصلحت بها أقوالها وأفعالها، ونما فيها كمالها، ويسر الله لها زكريا كافيًا، وهذا من منة الله على العبد أن يجعل
 من يتولى تربيته من الكاملين المصلحين.

ثم إن الله تعالى أكرم مريم وزكريا حيث يسر لمريم من الرزق الحاصل بلاكد ولا تعب، وإنما هو كرامة أكرمها الله به، إذ
 ﴿كَلَّمَآ دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ﴾؛ وهو محل العبادة وفيه إشارة إلى كثرة صلاتها وملازمتها لمحرابها ﴿وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا﴾؛
 هنيئًا معدًا قال: ﴿أَنَّى لَكَ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ (٣٦)؛ فلما رأى زكريا هذه الحال والبر
 واللطف من الله بها، ذكره أن يسأل الله تعالى حصول الولد على حين اليأس منه فقال: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ
 سَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ (٣٧) فَنَادَتْهُ الْمَلَكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بَيِّنًا مُّصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ؛ اسمه أي: الكلمة التي
 من الله عيسى ابن مريم، فكانت بشارته بهذا النبي الكريم تتضمن البشارة بعيسى ابن مريم والتصديق له والشهادة له بالرسالة،

فهذه الكلمة من الله كلمة شريفة اختص الله بها عيسى ابن مريم، وإلا فهي من جملة كلماته التي أوجد بها المخلوقات، كما قال تعالى: ﴿إِن مِّثْلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمِثْلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تَرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ ﴿آل عمران: ٥٩﴾.

وقوله: ﴿وَسَيَذَاحِصُونَ﴾؛ أي: هذا المبشر به وهو يحيى سيد من فضلاء الرسل وكرامهم، والحضور، قيل: هو الذي لا يولد له ولا شهوة له في النساء، وقيل: هو الذي عصم وحفظ من الذنوب والشهوات الضارة، وهذا أليق المعنيين، ﴿وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾ (٣٩)؛ الذين بلغوا في الصلاح ذروته العالية، ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي كُنتُ لِيَ غَلَمٌ وَقَدْ بَلَغْتُ الْكَبَرِ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ﴾؛ فهذا مانعان فمن أي طريق يا رب يحصل لي ذلك مع ما ينافي ذلك ﴿قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾ (٤٠)؛ فإنه كما اقتضت حكمته جريان الأمور بأسبابها المعروفة، فإنه قد يخرق ذلك لأنه الفعال لما يريد، الذي قد انقادت الأسباب لقدرته، ونفذت فيها مشيئته وإرادته، فلا يتعاصى على قدرته شيء من الأسباب ولو بلغت في القوة ما بلغت ﴿قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِّيَ آيَةً﴾؛ ليحصل السرور والاستبشار وإن كنت يا رب متيقناً مما أخبرتني به ولكن النفس تفرح، ويطمئن القلب إلى مقدمات الرحمة واللطف، ﴿قَالَ عَآئِشَةُ أَلَا تَكَلِّمُ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمَزًا﴾؛ وفي هذه المدة ﴿وَأَذْكُرُ رَبَّكَ كَثِيرًا

وَسَيَحْيِي بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ ﴿٤١﴾؛ أول النهار وآخره، فمَنع من الكلام في هذه المدة، فكان في هذا مناسبة لحصول الولد من بين الشيخ الكبير والمرأة العاقر، وكونه لا يقدر على مخاطبة الأدميين ولسانه منطلق بذكر الله وتسيبحه آية أخرى، فحينئذ حصل له الفرح والاستبشار، وشكر الله، وأكثر من الذكر والتسبيح بالعشايا والإبكار.

وكان هذا المولود من بركات مريم بنت عمران على زكريا، فإن ما مَنَّ الله به عليها من ذلك الرزق الهني الذي يحصل بغير حساب ذكره وهيجه على التضرع والسؤال، والله تعالى هو المتفضل بالسبب والمسبب، ولكنه يقدر أموراً محبوبة على يد من يحبه ليرفع الله قدره ويعظم أجره، ثم عاد تعالى إلى ذكر مريم وأنها بلغت في العبادة والكمال مبلغاً عظيماً فقال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَأِكَةُ يَمْرُؤُكُمْ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ ۖ﴾؛ أي: اختارك وهب لك من الصفات الجليلة والأخلاق الجميلة ﴿وَوَهَبَ لَكِ مِنَ الْإِسْلَامِ﴾؛ أي: من الأخلاق الرذيلة ﴿وَوَهَبَ لَكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ﴾ (٤٢)؛ ولهذا قال ﷺ: «كمل من الرجال كثير، ولم يكمل من النساء إلا مريم بنت عمران وآسية بنت مزاحم وخديجة بنت خويلد، وفضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام» (١)، فنادت بها الملائكة عن أمر الله لها بذلك لتغبط بنعم الله وتشكر الله، وتقوم بحقوقه، وتشتغل بخدمته، ولهذا قال الملائكة: ﴿يَمْرُؤُكُمْ أَفْتَنِي لِيَبْكِي﴾؛ أي: أكثرني من الطاعة والخضوع والخشوع لربك وأديمي ذلك ﴿وَأَرْكَبِي مَعَ الزَّكِيَّةِ﴾ (٤٣)؛ أي: صلي مع المصلين فقامت بكل ما أمرت به وبرزت وفاقته في كمالها.

ولما كانت هذه القصة وغيرها من أكبر الأدلة على رسالة محمد ﷺ حيث أخبر بها مفصلة محققة لا زيادة فيها ولا نقص، وما ذاك إلا لأنه وحي من الله العزيز الحكيم لا يتعلم من الناس قال تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَقُولُ أَفْلَحَ أَهْمٌ أَهْمٌ يَكْذُلُ مَرِيْمَ ﴾؛ حيث جاءت بها أمها فاختصموا أيهم يكفلها لأنها بنت إمامهم ومقدمهم، وكلهم

(١) البخاري (٣٧٦٩)، مسلم (٢٤٣١).

والدين الذي جاء به وأنه دين التوراة ودين الأنبياء السابقين، وهذا أكبر الأدلة على صدق الصادقين، فإنه لو كان من الكاذبين لخالف ما جاءت به الرسل ولناقضهم في أصولهم وفروعهم، فعلم بذلك أنه رسول الله وأن ما جاء به حق لا ريب فيه، وأيضاً فقله: ﴿وَلَا تُحِلُّ لَكُمْ بَعْضُ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾؛ أي: ولا تخف عنكم بعض الآصار والأغلال ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا﴾ (٥٠) إِنَّ اللَّهَ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ؛ وهذا ما يدعو إليه جميع الرسل عبادة الله وحده لا شريك له وطاعتهم، وهذا هو الصراط المستقيم الذي من سلكه أوصله إلى جنات النعيم.

فحيثما اختلفت أحزاب بني إسرائيل في عيسى؛ فمنهم من آمن به واتبعوه، ومنهم من كفر به وكذبه ورمى أمه بالفاحشة كاليهود ﴿فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ﴾؛ والاتفاق على رد دعوته ﴿قَالَ﴾؛ نادياً لبني إسرائيل على موازرتة: ﴿مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْخَوَارِثُ﴾؛ أي: الأنصار: ﴿وَمَنْ أَنْصَارُ اللَّهِ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَأَشْهَدُ بِأَنَّكَ مُسْلِمُونَ﴾ (٥١) وهذا من منة الله عليهم وعلى عيسى، حيث ألهم هؤلاء الحواريين الإيمان به والانقياد لطاعته والنصرة لرسوله ﴿رَبَّنَا ءَامِنَا بِمَا أَنْزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ﴾؛ وهذا التزام تام للإيمان بكل ما أنزل الله ولطاعة رسوله ﴿فَأَكْتُمْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ (٥٢) لك بالوحدانية ولنبيك بالرسالة ولدينك بالحق والصدق. وأما من أحس عيسى منهم الكفر وهم جمهور بني إسرائيل فإنهم ﴿مَكْرُوا﴾؛ بعيسى ﴿وَمَكَرَ اللَّهُ﴾؛ بهم ﴿وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ (٥٣)؛ فانفقوا على قتله وصلبه، وشبه لهم شبه عيسى فقبضوا على من شبه لهم به، وقال الله لعيسى: ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾؛ فرفعه الله إليه، وطهره من الذين كفروا، وصلبوا من قتلوه، ظانين أنه عيسى، وباءوا بالإثم العظيم.

وسينزل عيسى ابن مريم في آخر هذه الأمة حكماً عادلاً يقتل الخنزير ويكسر الصليب ويتبع ما جاء به محمد ﷺ، ويعلم الكاذبون غرورهم وخداعهم وأنهم مغرورون مخدوعون. وقوله: ﴿وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْفَيْصَةِ﴾؛ المراد بمن اتبعه الطائفة التي آمنت به ونصرهم الله على من انحرف عن دينه، ثم لما جاءت أمة محمد ﷺ كانوا هم أتباعه حقاً فأيدهم ونصرهم على الكفار كلهم، وأظهرهم بالدين الذي جاءهم به محمد ﷺ ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا يَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ اللَّهِ رَبِّهِمْ وَيُؤْتُونَهُمُ الْغِنَى وَالْكَثْلَ لِيَنْصَرُوا بِأَمْرِ اللَّهِ إِلَى طَاعَتِهِ﴾ (٥٤) فليست خلفتهم

يريد الخير والأجر من الله حتى وصلت بهم الخصومة إلى أن اقرعوا عليها فألقوا أقلامهم مقترعين، فأصابته القرعة زكريا رحمة من الله به وبها

فأنت - يا أيها الرسول - لم تحضر تلك الحالة لتعرفها فتقصها على الناس، وإنما الله نباك بها، وهذا هو المقصود الأعظم من سياق القصص أنه يحصل بها العبرة، وأعظم العبر والاستدلال بها على التوحيد والرسالة والبعث وغيرها من الأصول الكبار ﴿إِذْ قَاتَلِ الْمَلَكَةُ يَمْرُؤًا إِنَّ اللَّهَ يَنْشُرُكَ يَكَلِّمُهُ إِنَّهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِهَاً فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمَقَرِّينَ﴾ (٥٥)؛ أي: له الوجاهة والجاه العظيم في الدنيا والآخرة عند الخلق، ومع ذلك فهو عند الله من المقربين الذين هم أقرب الخلائق إلى الله وأعلامهم درجة، وهذه بشارة لا يشبهها شيء من البشارات، ومن تمام هذه البشارة أنه يكلم الناس في المهد؛ فيكون تكليمه آية من آيات الله ورحمة منه بأمه وبالخلق، وكذلك يكلمهم ﴿وَكَهَلًا﴾؛ أي: في حال كهولته، وهذا تكليم النبوة والدعوة والإرشاد، فكلامه في المهد فيه آيات وبراهين على صدقه ونبوته وبراءة أمه مما يظن بها من الظنون السيئة، وكلامه في كهولته فيه نفعه العظيم للخلق وكونه واسطة بينهم وبين ربهم في وحيه وتبليغ دينه وشرعه، ومع ذلك فهو من الصالحين؛ الذين أصلح الله قلوبهم بمعرفته وحبه، وألستهم بالثناء عليه وذكره، وجوارحهم بطاعته وخدمته ﴿قَاتَلَتْ رَبِّي أَنِّي يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَكُنْ لِي بَشَرٌ﴾؛ وهذا هو من الأمور المستغربة ﴿قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾؛ ليعلم العباد أنه على كل شيء قدير، وأنه لا ممانع لإرادته ﴿إِذَا قُضِيَ أَمْرٌ فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ (٥٦) وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ؛ أي: جنس الكتب السابقة، والحكم بين الناس ويعطيه النبوة ويجعله رسولاً إلى بني إسرائيل؛ ويؤيده بالآيات البينات والأدلة القاهرة حيث قال: ﴿إِنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِتَايَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ﴾؛ تدلهم أنني رسول الله حقاً، وذلك ﴿إِنِّي أَخْلَقْتُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ﴾؛ وهو ممسوح العينين الذي فقد بصره وعيناه ﴿وَالْأَبْرَصَ وَأُنْجِي الْأُمُوتَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَأَنْتِشِرُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدْخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (٥٧) وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ؛ فأيده الله بجنسين من الآيات والبراهين الخوارق المستغربة التي لا يمكن لغير الأنبياء الإتيان بها، والرسالة والدعوة

فِي الْأَرْضِ ﴿التور: ٥٥﴾ الآية. ولكن حكمة الله عادلة؛ فإنها اقتضت أن من تمسك بالدين نصره النصر المبين، وأن من ترك أمره ونهيه ونبذ شرعه وتجراً على معاصيه أن يعاقبه ويسلط عليه الأعداء. والله عزيز حكيم. وقوله:

﴿ثُمَّ إِلَيْكَ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ٥٥﴾ ثم بين ما يفعله بهم فقال:

﴿فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَعَذَابُ اللَّهِ سَئِيدٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ٥٦﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَجِبُ الظَّالِمِينَ ٥٧﴾

٥٦، ٥٧ وهذا الجزء عام لكل من اتصف بهذه الأوصاف من جميع أهل الأديان السابقة. ثم لما بعث سيد المرسلين وخاتم النبيين، ونسخت رسالته الرسائل كلها، ونسخ دينه جميع الأديان صار المتمسك بغير هذا الدين من الهالكين. وقوله تعالى:

﴿ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ ٥٨﴾

٥٨ أي: هذا القرآن العظيم الذي فيه نبأ الأولين والآخرين والأنبياء والمرسلين هو آيات الله البينات، وهو الذي يذكر العباد كل ما يحتاجونه، وهو الحكيم المحكم صادق الأخبار،

الْحَمْدُ لِلَّهِ
سُورَةُ آلِ عِمْرَانَ
إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ وَلَئِنْ لَمْ يَنْهَ الْأَعْرَبُ الْحَكِيمَ ٥٦ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَلَيْهِمُ بِالْمُفْسِدِينَ ٥٧ قُلْ يَتَاهَلُ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ٥٨ يَتَاهَلُ الْكِتَابِ لِمَ تَحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أَزَلَّتِ التَّوْرَةُ وَلَا انْجِيلٌ إِلَّا مِنْ بَدْوٍ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ٥٩ هَكَأَنتمْ هُنَالِكَ خَجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ٦٠ مَا كَانَ إِبْرَاهِيمَ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ٦١ إِنَّ أَوَّلَ النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لِلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ ٦٢ وَذَاتَ طَائِفَةٍ مِنَ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَمْضِلُونَكُمْ وَلَوْ يَمْضِلُونَكُمْ لَأَافَأْتُمْ بَصَبُورًا ٦٣ يَتَاهَلُ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأَنْتُمْ تَسْهَوْنَ ٦٤

حسن الأحكام.

﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ٥٩﴾ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ٦٠ فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْوَحْيِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ ٦١﴾ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ وَلَئِنْ لَمْ يَنْهَ الْأَعْرَبُ الْحَكِيمَ ٥٦ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَلَيْهِمُ بِالْمُفْسِدِينَ ٥٧﴾

٥٩ - ٦٢ لما ذكر قصة مريم وعيسى ونبأهما الحق، وأنه عبد أنعم الله عليه، وأن من زعم أن فيه شيئاً من الإلهية فقد كذب على الله، وكذب جميع أنبيائه وكذب عيسى ﷺ فإن الشبهة التي عرضت لمن اتخذه إلهاً شبهة باطلة، فلو كان لها وجه صحيح لكان آدم أحق منه؛ فإنه خلق من دون أم ولا أب، ومع ذلك فاتفق البشر كلهم على أنه عبد من عباد الله، فدعوى إلهية عيسى بكونه خلق من أم بلا أب دعوى من أبطل الدعاوى، وهذا هو الحق الذي لا ريب فيه أن عيسى كما قال عن نفسه: ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ عِبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾ [المائدة: ١١٧]؛ وكان قد قدم على النبي ﷺ وفد نصارى نجران^(١)، وقد تصلبوا على باطلهم بعدما أقام عليهم النبي ﷺ البراهين بأن عيسى عبد الله ورسوله حيث زعموا إلهيته، فوصلت به وبهم الحال إلى أن أمره الله تعالى أن يباهلهم فإنه قد اتضح لهم الحق ولكن العناد والتعصب منعاهم منه، فدعاهم رسول الله ﷺ إلى المباهلة بأن يحضر هو وأهله وأبنائه، وهم يحضرون بأهلهم وأبنائهم ثم يدعون الله تعالى أن ينزل عقوبته ولعنته على الكاذبين، فتشاؤروا هل يجيئونه إلى ذلك، فاتفق رأيهم ألا يجيئوه؛ لأنهم عرفوا أنه نبي الله حقاً، وأنهم إن باهلوه هلكوا هم وأولادهم وأهلهم فصالحوه وبذلوا له الجزية، وطلبوا منه المودة والمهادنة فأجابهم ﷺ

ولم يرحمهم؛ لأنه حصل المقصود من وضوح الحق، وتبين عنادهم حيث صمموا على الامتناع عن المباحلة، وذلك يبرهن على أنهم كانوا ظالمين.

ولهذا قال تعالى: ﴿لَإِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ﴾؛ أي: الذي لا ريب فيه، ﴿وَلَيْكَ اللَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ﴾ الذي قهر بقدرته وقوته جميع الموجودات وأذعنت له سكان الأرض والسموات، ومع ذلك فهو ﴿الْحَكِيمُ﴾؛ الذي يضع الأشياء مواضعها وينزلها منازلها.

﴿قُلْ يَتَاهَلِ الْكِتَابُ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾.

هذه الآية الكريمة كان النبي ﷺ يكتب بها إلى ملوك أهل الكتاب. وكان يقرأ أحياناً في الركعة الأولى من سنة الفجر ﴿قُولُوا ءَامَنَّا بِاللَّهِ﴾ [البقرة: ١٣٦] الآية؛ ويقرأ بها في الركعة الأخيرة من سنة الصبح لاشتمالها على الدعوة إلى دين واحد، قد اتفقت عليه الأنبياء والمرسلون، واحتوت على توحيد الإلهية المبني على عبادة الله وحده لا شريك له، وأن يعتقد أن البشر وجميع الخلق كلهم في طور البشرية لا يستحق منهم أحد شيئاً من خصائص الربوبية ولا من نعوت الإلهية، فإن انقاد أهل الكتاب وغيرهم إلى هذا فقد اهتدوا ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾؛ كقوله تعالى: ﴿قُلْ يَتَاهَلِ الْكِتَابُ﴾ [الكافرون: ١] إلى آخرها.

﴿يَتَاهَلِ الْكِتَابُ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنْزِلَتِ التَّوْرَةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ هَآأَنْتُمْ هَآؤَآءَ حُجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ مَا كَانَ لِلْإِبْرَاهِيمِ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ إِنَّ أَوَّلَ النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لِلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

كانت الأديان كلها اليهود والنصارى والمشركون وكذلك المسلمون كلهم يدعون أنهم على ملة إبراهيم، فأخبر الله تعالى أن أولى الناس به محمد ﷺ وأتباعه وأتباع الخليل قبل محمد ﷺ، وأما اليهود والنصارى

والمشركون فإبراهيم بريء منهم ومن ولايتهم؛ لأن دينه الحنيفية السمحة التي فيها الإيمان بجميع الرسل وجميع الكتب، وهذه خصيصة المسلمين، وأما دعوى اليهود والنصارى أنهم على ملة إبراهيم فقد علم أن اليهودية والنصرانية التي هم يدعون أنهم عليها لم تؤسس إلا بعد الخليل، فكيف يحاجون في هذا الأمر الذي يعلم به كذبهم وافترائهم، فهب أنهم حاجوا فيما لهم به علم فكيف يحاجون في هذه الحالة؟! فهذا قبل أن ينظر ما احتوى عليه قولهم من البطالان يعلم فساد دعواهم، وفي هذه الآية دليل على أنه لا يحل للإنسان أن يقول أو يجادل فيما لا علم له به. وقوله: ﴿وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾؛ فكلمة قوري إيمان العبد تولاها الله بلطفه، ويسره ليسرى وجنبه العسرى.

﴿وَدَّتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُغُلُّوكُمْ وَمَا يُغْلَبُونَ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ يَتَاهَلِ الْكِتَابُ لِمَ تُكْفِّرُونَ بِنَائِكَ اللَّهُ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ يَتَاهَلِ الْكِتَابُ لِمَ تَلْسِنُونَ الْحَقَّ بِالْبَطْلِ وَتَكْمُنُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ءَامِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَجَهَ النَّهَارِ وَكَفَرُوا ءَاخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَنْ تَمَعَّ دِينَكُمْ قُلْ إِنْ أَلْهَىٰ هُدَىٰ اللَّهِ أَنْ يُؤْتَىٰ أَحَدٌ مِثْلَ مَا أُوتِيتُمْ أَوْ يُعَاقَبُوا عِنْدَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنْ الْفَضْلُ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَسِعَ عَلَيْهِمْ يَخْصُصُ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾.

هذا من منة الله على هذه الأمة، حيث أخبرهم بمكر أعدائهم من أهل الكتاب، وأنهم من حرصهم على إضلال المؤمنين ينوعون المكرات الخبيثة فقالت طائفة منهم: ﴿ءَامِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَجَهَ النَّهَارِ﴾؛ أي: أوله وارجعوا عن دينهم آخر النهار؛ فإنهم إذا رأوكم راجعين وهم يعتقدون فيكم العلم استرابوا بدينهم وقالوا: لولا أنهم رأوا فيه ما لا يعجبهم ولا يوافق الكتب السابقة لم يرجعوا، هذا مكرهم والله تعالى هو الذي يهدي من يشاء وهو الذي بيده الفضل يختص به من يشاء، فخصكم يا هذه الأمة بما لم يخص به غيركم، ولم يدر هؤلاء الماكرون أن دين الله حق إذا وصلت حقيقته إلى القلوب لم يزد صاحبها على طول المدى إلا إيماناً و يقيناً، ولم تزد الشبه إلا تمسكاً بدينه وحمداً لله وثناء عليه حيث منَّ به عليه. وقولهم: ﴿أَنْ

رَبَّنَا إِنَّا أَلَيْنَاكَ الْغَنَاءَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ۖ وَالَّذِينَ يَتَّبِعُونَ آيَاتِنَا يُحِبُّونَ ۖ وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا لِلْمَلَائِكَةِ وَلِلنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿٧٩﴾

﴿٧٩﴾ أي: يمتنع ويستحيل كل الاستحالة لبشر من الله عليه بالوحي والكتاب والنبوة وأعطاه الحكم الشرعي، أن يأمر الناس بعبادته ولا بعبادة النبيين والملائكة واتخاذهم أرباباً، لأن هذا هو الكفر، فكيف وقد بعث بالاسلام المنافي للكفر من كل وجه فكيف يأمر بضده؟ هذا من الممتنع لأن حاله وما هو عليه وما من الله به عليه من الفضائل والخصائص تقتضي العبودية الكاملة والخضوع التام لله الواحد القهار، وهذا جواب لوفد نجران حين تمادى بهم الغرور ووصلت بهم الحال والكبر أن قالوا: أتأمرنا يا محمد أن نعبدك؟! حين أمرهم بعبادة الله وطاعته، فينب البارئ انتفاء ما قالوا، وأن كلامهم وكلام أمثالهم في هذا ظاهر البطلان.

﴿٨٠﴾ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ ۚ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي ۚ قَالُوا أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَاشْهَدُوا ۚ وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨١﴾ فَمَنْ تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٨٢﴾

وَأَنَّ مِنْهُمْ لَفِرَيقًا يُلوْن ۚ أَلَيْسَتُنَّهُمْ بِالْكَتِبِ لِتَحْسَبُوهُ مِنْ الْكِتَابِ وَمَا هُمْ مِنَ الْكِتَابِ يَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُمْ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ يَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٨٣﴾ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ أَنْ يُوْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنَّبُوءَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّيْنَ بِمَا كُنْتُمْ تُعْلَمُونَ الْكِتَابَ وَمِمَّا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٨٤﴾ وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا لِلْمَلَائِكَةِ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿٨٥﴾ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ ۚ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي ۚ قَالُوا أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَاشْهَدُوا ۚ وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨٦﴾ فَمَنْ تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٨٧﴾ أَفَعَبَرْدِينِ اللَّهُ يَبْعَثُ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٨٨﴾

﴿٨١﴾، ﴿٨٢﴾ هذا إخبار منه تعالى أنه أخذ عهد النبيين وميثاقهم كلهم بسبب ما أعطاهم، ومن به عليهم من الكتاب والحكمة المقتضي للقيام التام بحق الله وتوفيقه، أنه إن جاءهم رسول مصدق لما معهم بعث بما بعثوا به من التوحيد والحق والقسط والأصول التي اتفقت عليها الشرائع أنهم يؤمنون به وينصرونه، فأقروا على ذلك، واعترفوا، والتزموا، وأشهدهم، وشهد عليهم، وتوعد من خالف هذا الميثاق.

وهذا أمر عام بين الأنبياء أن جميعهم طريقهم واحد وأن دعوة كل واحد منهم قد اتفقا وتعاقدا عليها، وعموم ذلك أنه أخذ على جميعهم الميثاق بالإيمان والنصرة لمحمد ﷺ، فمن ادعى أنه من أتباعهم فهذا دينهم الذي أخذه الله عليهم وأقروا به واعترفوا، فمن تولى عن اتباع محمد ممن يزعم أنه من أتباعهم فإنه فاسق خارج عن طاعة الله مكذب للرسول الذي يزعم أنه من أتباعه مخالف لطريقه، وفي هذا إقامة الحجة والبرهان على كل من لم يؤمن بمحمد ﷺ من أهل الكتب والأديان، وأنه لا يمكنهم الإيمان برسولهم الذين يزعمون أنهم أتباعهم حتى يؤمنوا بإمامهم وخاتمهم ﷺ.

﴿٨٨﴾ أَفَعَبَرْدِينِ اللَّهُ يَبْعَثُ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٨٩﴾ قُلْ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿٩٠﴾ وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٩١﴾

﴿٩٠﴾ - ﴿٩١﴾ قد تقدم في سورة البقرة أن هذه الأصول التي هي أصول الإيمان التي أمر الله بها هذه الأمة قد اتفقت عليها

الكتب والرسول، وأنها هي الغرض الموجه لكل أحد وأنها هي الدين والإسلام الحقيقي، وأن من ابتغى غيرها فعمله مردود وليس له دين يعول عليه، فمن زهد عنه ورغب عنه فأين يذهب؟ إلى عبادة الأشجار والأحجار والنيران، أو إلى اتخاذ الأجار والرهبان والصلبان، أو إلى التعطيل لرب العالمين، أو إلى الأديان الباطلة التي هي من وحي الشياطين؟ وهؤلاء كلهم في الآخرة من الخاسرين.

﴿كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرُّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ (٨٦) ﴿أُولَئِكَ جَزَاءُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ (٨٧) ﴿خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ﴾ (٨٨) ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (٨٩) ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ أَزْدَادُوا كُفْرًا لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ﴾ (٩٠) ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يُبْعَثَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلْءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوْ افْتَدَى بِهِ﴾ (٩١) ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾ (٩٢).

(٨٦) - (٨٨) يعني أنه يعذب كل البعد أن يهدي الله قوما عرفوا الإيمان، ودخلوا فيه وشهدوا أن الرسول حق ثم ارتدوا على

أعقابهم ناكسين ناكثين، لأنهم عرفوا الحق فرفضوه، ولأن من هذه الحالة وصفه فإن الله يعاقبه بالانتكاس وانقلاب القلب جزاء له إذ عرف الحق فتركه، والباطل فآثره فولاه الله ما تولى لنفسه، فهؤلاء عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين؛ خالدين في اللعنة والعذاب ﴿لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ﴾ (٨٨)؛ إذا جاءهم أمر الله، لأن الله عمرهم ما يتذكر فيه ما تذكر، وجاءهم النذير.

(٨٩) - (٩١) ثم إنه تعالى استثنى من هذا الوعيد التائبين من كفرهم وذنوبهم، المصلحين لعيوبهم فإن الله يغفر لهم ما قدموه ويعفو عنهم ما أسلفوه، ولكن من كفر وأصر على كفره، ولم يزد إلا كفرا حتى مات على كفره، فهؤلاء هم الضالون عن طريق الهدى السالكون لطريق الشقاء، وقد استحقوا بهذا العذاب الأليم، فليس لهم ناصر من عذاب الله ولو بذلوا ملء الأرض ذهباً ليفتدوا به لم ينفعهم شيئا. فعياداً بالله من الكفر وفروعه.

﴿لَنْ نَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ (٩٢).

(٩٢) يعني ﴿لَنْ نَنَالُوا﴾ وتذكروا ﴿الْبِرَّ﴾، الذي هو اسم جامع للخيرات وهو: الطريق الموصل إلى الجنة ﴿حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ من أطيب أموالكم وأزكاها، فإن النفقة من الطيب المحبوب للنفوس من أكبر الأدلة على سماحة النفس واتصافها بمكارم الأخلاق ورحمتها ورققتها، ومن أدل الدلائل على محبة الله وتقدير محبته على محبة الأموال التي جبلت النفوس على قوة التعلق بها، فمن أثر محبة الله على محبة نفسه فقد بلغ الذروة العليا من الكمال، وكذلك من أنفق الطيبات وأحسن إلى عباد الله أحسن الله إليه ووفقه أعمالاً وأخلاقاً لا تحصل بدون هذه الحالة. وأيضاً فمن قام بهذه النفقة على هذا الوجه كان قيامه ببقية الأعمال الصالحة والأخلاق الفاضلة من طريق الأولى والأحرى، ومع أن النفقة من الطيبات هي أكمل الحالات، فمهما أنفق العبد من نفقة قليلة أو كثيرة من طيب أو غيره ﴿فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ (٩٢)، وسيجزى كل منفق بحسب عمله، سيجزيه في الدنيا

سورة آل عمران
بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
قُلْ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْكَ إِلَّا رَحْمَةٌ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُمْ مُسْلِمُونَ ﴿٨٦﴾ وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٨٧﴾ كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرُّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٨٨﴾ أُولَئِكَ جَزَاءُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿٨٩﴾ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ ﴿٩٠﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٩١﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ أَزْدَادُوا كُفْرًا لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ ﴿٩٢﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يُبْعَثَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلْءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوْ افْتَدَى بِهِ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ﴿٩٣﴾

سورة آل عمران

وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ ۚ وَمَنْ يَعْتَصِمِ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٩٨﴾
يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿٩٩﴾
وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا ۚ وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٠﴾
وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٠١﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٢﴾
يَوْمَ يَبْسُ وَجُوهٌ وَتَسْوَدُ وَجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وَجُوهُهُمْ آكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٠٣﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ أَبْيَضَتْ وَجُوهُهُمْ ففِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١٠٤﴾ تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ تَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ ۚ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظَلَمًا لِلْعَالَمِينَ ﴿١٠٥﴾

٦٣

يمكن الصلاح التام بدونها. فمن أذعن لذلك وقام به فهو من المهتدين المؤمنين، ومن كفر فلم يلتزم حج بيته فهو خارج عن الدين، ﴿ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴾ (٩٧).

﴿ قُلْ يَتَاهَلُ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ ﴾ (٩٨) قُلْ يَتَاهَلُ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ تَبِعُونَهَا عَوَجًا وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ ۚ وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ (٩٩).

﴿ ٩٨ ﴾، ﴿ ٩٩ ﴾ لما أقام فيما تقدم الحجج على أهل الكتاب مع أنهم قبل ذلك يعرفون النبي ﷺ، كما يعرفون أبناءهم، ويُخ المعاندين منهم بكفرهم بآيات الله وصددهم الخلق عن سبيل الله؛ لأن عوامهم تبع لعلمائهم، والله تعالى يعلم أحوالهم وسيجازيهم على ذلك أتم الجزاء وأوفاه.

﴿ يَتَاهَلُ الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا فَرِيقًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كُفْرِينَ ﴾ (١٠٠) وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ ۚ وَمَنْ يَعْتَصِمِ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ (١٠١).

﴿ ١٠٠ ﴾، ﴿ ١٠١ ﴾ لما أقام الحجج على أهل الكتاب وبخهم بكفرهم وعنادهم، حذر عباده المؤمنين عن الاغترار بهم، وبين لهم أن هذا الفريق منهم حريصون على إضراركم وردكم إلى الكفر بعد الإيمان، ولكن ولله الحمد أنتم يا معشر المؤمنين، بعدما من الله عليكم بالدين ورأيتم آياته ومحاسنه ومناقبه وفضائله، وفيكم رسول الله الذي أرشدكم إلى جميع مصالحكم، واعتصمتم بالله وبحبله الذي هو دينه يستحيل أن يردوكم عن دينكم، لأن الدين الذي بني على هذه الأصول والدعائم الثابتة الأساس، المشرقة الأنوار تنجذب إليه الأفئدة، ويأخذ بمجامع القلوب، ويوصل العباد إلى أجل غاية وأفضل مطلوب.

﴿ وَمَنْ يَعْتَصِمِ بِاللَّهِ ۚ أَي: يتوكل عليه ويحتمي بحماه ﴾ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿ ١٠٢ ﴾؛ وهذا فيه الحث على الاعتصام به وأنه السبيل إلى السلامة والهداية.

﴿ يَتَاهَلُ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ (٩٩) وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا ۚ وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿ ١٠٠ ﴾ وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿ ١٠١ ﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿ ١٠٢ ﴾.

﴿ ١٠٢ ﴾ - ﴿ ١٠٣ ﴾ هذه الآيات فيها حث الله عباده المؤمنين أن يقوموا بشكر نعمه العظيمة بأن يتقوه حق تقواه، وأن يقوموا بطاعته وترك معصيته مخلصين له بذلك، وأن يقيموا دينهم ويستمسكوا بحبله الذي أوصله إليهم، وجعله السبب بينهم وبينه وهو دينه وكتابه، والاجتماع على ذلك وعدم التفرق، وأن يستديموا ذلك إلى الممات.

وذكرهم ما هم عليه قبل هذه النعمة وهو أنهم كانوا أعداء متفرقين فجمعهم بهذا الدين وألف بين قلوبهم وجعلهم إخوانًا،

خَلِدُونَ ﴿١٠٦﴾ تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ تَتْلُوهَا عَلَيْكَ يَا لَحِقَ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعَالَمِينَ ﴿١٠٧﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿١٠٨﴾.

﴿١٠٨﴾ يعني تعالى على ما قصه على نبيه من آياته التي حصل بها الفرقان بين الحق والباطل وبين أولياء الله وأعدائه، وما أعد لهؤلاء من الثواب وللآخرين من العقاب، وأن ذلك مقتضى فضله وعدله وحكمته، وأنه لم يظلم عباده ولم ينقصهم من أعمالهم أو يعذب أحداً بغير ذنبه أو يحمل عليه وزر غيره. ولما ذكر أن له الأمر والشرع ذكر أن له تمام الملك والتصرف والسلطان فقال:

﴿١٠٩﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿١١٠﴾؛ فيجازي المحسنين بإحسانهم والمسيئين بعصيانهم، وكثيراً ما يذكر الله أحكامه الثلاثة مجتمعة بين لعباده أنه الحاكم المطلق فله الأحكام القدرية والأحكام الشرعية والأحكام الجزائية، فهو الحاكم بين عباده في الدنيا والآخرة، ومن سواه من المخلوقات محكوم عليها ليس لها من الأمر شيء.

﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلَ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمْ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ ﴿١١١﴾ لَنْ يَضُرَّوَكُمْ إِلَّا أَذًى وَلَنْ يُقَتِّلُوكُمْ يُولُوكُمُ الْأَذْيَارَ ثُمَّ لَا يَصُرُونَ﴾ ﴿١١٢﴾.

﴿١١١﴾، ﴿١١٢﴾ هذا تفضيل من الله لهذه الأمة بهذه الأسباب، التي تميزوا بها وافاقوا بها سائر الأمم، وأنهم خير الناس للناس نصحاً ومحبة للخير ودعوة وتعليماً وإرشاداً وأمرًا بالمعروف ونهيًا عن المنكر وجمعاً بين تكميل الخلق والسعي في منافعهم بحسب الإمكان، وبين تكميل النفس بالإيمان بالله والقيام بحقوق الإيمان، وأن أهل الكتاب لو آمنوا بمثل ما آمنتم به لاهتدوا وكان خيراً لهم ولكن لم يؤمن منهم إلا القليل، وأما الكثير فهم فاسقون خارجون عن طاعة الله وطاعة رسوله محاربون للمؤمنين ساعون في إضرارهم بكل مقدورهم، ومع ذلك فلن يضرروا المؤمنين إلا أذى باللسان، وإلا فلو قاتلوهم لولوا الأدبار ثم لا ينصرون. وقد وقع ما أخبر الله به، فإنهم لما قاتلوا المسلمين ولوا الأدبار ونصر الله المسلمين عليهم.

وكانوا على شفا حفرة من النار فأنقذهم من الشقاء، ونهج بهم طريق السعادة؛ لذلك بين ﴿الله لكم آية﴾ لعلكم تهتدون ﴿١١٣﴾؛ إلى شكر الله والتمسك بحبله. وأمرهم بتميم هذه الحالة، والسبب الأقوى الذي يتمكنون به من إقامة دينهم بأن يتصدى منهم طائفة يحصل فيها الكفاية ﴿يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ﴾؛ وهو الدين: أصوله وفروعه وشرائعه ﴿وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ﴾؛ وهو ما عرف حسنه شرعاً وعقلاً ﴿وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾؛ وهو ما عرف قبحه شرعاً وعقلاً ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ ﴿١١٤﴾؛ المدركون لكل مطلوب الناجون من كل مرهوب، ويدخل في هذه الطائفة أهل العلم والتعليم والمتصدون للخطابة ووعظ الناس عموماً وخصوصاً والمحتسبون، الذين يقومون بإلزام الناس بإقامة الصلوات وإيتاء الزكاة والقيام بشرائع الدين، وينهونهم عن المنكرات.

فكل من دعا الناس إلى خير على وجه العموم أو على وجه الخصوص، أو قام بنصيحة عامة أو خاصة فإنه داخل في هذه الآية الكريمة.

ثم نهاهم عن سلوك مسلك المتفرقين الذين جاءهم الدين والبيئات الموجب لقيامهم به واجتماعهم، فتفرقوا واختلفوا وصاروا شيعة، ولم يصدر ذلك عن جهل وضلال، وإنما صدر عن علم وقصد سيئ وبغى من بعضهم على بعض، ولهذا قال: ﴿وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ ﴿١١٥﴾؛ ثم بين متى يكون هذا العذاب العظيم ويمسهم هذا العذاب الأليم فقال:

﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ ﴿١١٦﴾.

﴿١١٦﴾، ﴿١١٧﴾ يخبر تعالى بتفاوت الخلق يوم القيامة في السعادة والشقاوة، وأنه تبيض وجوه أهل السعادة، الذين آمنوا بالله، وصدقوا رسله وامتثلوا أمره واجتنبوا نهيه، وأن الله تعالى يدخلهم الجنات ويفيض عليهم أنواع الكرامات وهم فيها خالدون، وتسود وجوه أهل الشقاوة الذين كذبوا رسله وعصوا أمره وفرقوا دينهم شيعةً وأنهم يوبخون فيقال: ﴿أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾؛ فكيف اخترتم الكفر على الإيمان ﴿فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ ﴿١١٨﴾.

﴿وَأَمَّا الَّذِينَ أَبْيَضَتْ وُجُوهُهُمْ فَمِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا

سورة آل عمران

الجزء الرابع

وَاللَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿١١٨﴾ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمْ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿١١٩﴾ لَنْ يَضُرَّوْكُمْ إِلَّا أَذًى وَإِنْ يُضَيِّقُواكُمْ يُوَلُّوْكُمْ الْآدْبَارَ ثُمَّ لَا يُبْصِرُونَ ﴿١٢٠﴾ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا تَقِفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِنَ اللَّهِ وَحَبْلِ مِنَ النَّاسِ وَبِأَمْرٍ يُفْضَى مِنَ اللَّهِ وَبِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿١٢١﴾ لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ إِنَّهٗ أَلِيلٌ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١٢٢﴾ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَٰئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٢٣﴾ وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ ﴿١٢٤﴾

٦٤

﴿ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا تَقِفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِنَ اللَّهِ وَحَبْلِ مِنَ النَّاسِ وَبِأَمْرٍ يُفْضَى مِنَ اللَّهِ وَبِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴾ ﴿١٢١﴾

﴿١٢١﴾ هذا إخبار من الله تعالى أن اليهود ضربت عليهم الذلة فهم خائفون أينما تقفوا، ولا يؤمنهم شيء إلا معاهدة وسبب يأمنون به، يرضخون لأحكام الإسلام ويعترفون بالعجزية أو بحبل ﴿مِنَ النَّاسِ﴾؛ أي: إذا كانوا تحت ولاية غيرهم ونظارتهم كما شوهد حالهم سابقاً ولاحقاً، فإنهم لم يتمكنوا في الوقت الأخير من الملك المؤقت في فلسطين إلا بنصر الدول الكبرى وتمهيدهم لهم كل سبب ﴿وَبِأَمْرٍ يُفْضَى مِنَ اللَّهِ﴾؛ أي: قد غضب الله عليهم وعاقبهم بالذلة والمسكنة، والسبب في ذلك كفرهم بآيات الله وقتلهم الأنبياء ﴿بِغَيْرِ حَقٍّ﴾؛ أي: ليس ذلك عن جهل وإنما هو بغى وعناد، تلك العقوبات المتنوعة عليهم ﴿بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ ﴿١٢٢﴾؛ فالله تعالى لم يظلمهم ويعاقبهم بغير ذنب، وإنما الذي أجراه عليهم بسبب بغيتهم وعدوانهم وكفرهم وتكذيبهم للرسل وجناباتهم الفظيعة.

﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ إِنَّهٗ أَلِيلٌ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١٢٢﴾ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَٰئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٢٣﴾ وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ ﴾ ﴿١٢٤﴾

﴿١٢٢﴾، ﴿١٢٣﴾ لما ذكر الله المنحرفين من أهل الكتاب بين حالة المستقيمين منهم، وأنه منهم أمة مقيمون لأصول الدين وفروعه ﴿يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَهُوَ جَمِيعُ الشَّرِّ﴾، كما قال تعالى: ﴿رَبِّنَا قَوْمٌ مُّوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ ﴿١٥٩﴾ [الأعراف: ١٥٩]؛ ﴿وَيُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ﴾؛ والمسارة إلى الخيرات قدر زائد على مجرد فعلها، فهو وصف لهم بفعل الخيرات والمبادرة إليها وتكميلها بكل ما تتم به من واجب ومستحب.

﴿١٢٤﴾ ثم بين تعالى أن كل ما فعلوه من خير قليل أو كثير فإن الله تعالى سيقبله حيث كان صادراً عن إيمان وإخلاص، ﴿فَلَنْ يُكْفَرُوهُ﴾؛ يعني لن ينكر ما عملوه ولن يهدر ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ﴾ ﴿١٢٥﴾؛ وهم الذين قاموا بالخيرات وتركوا المحرمات لقصد رضا الله وطلب ثوابه.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ سَيِّئًا وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١٢٦﴾ مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ ﴿١٢٧﴾

﴿١٢٦﴾، ﴿١٢٧﴾ بين تعالى أن الكفار الذين كفروا بآيات الله وكذبوا رسله أنه لا ينقذهم من عذاب الله منقذ ولا ينفعهم نافع ولا يشفع لهم عند الله شافع، وأن أموالهم وأولادهم التي كانوا يعدونها للشدائد والمكاره لا تفيدهم شيئاً، وأن نفقاتهم

الجزء الرابع

سورة آل عمران

التي أنفقوها في الدنيا لنصر باطلهم ستضمحل، وأن مثلها
﴿كَمَثَلِ﴾؛ حُرَّتْ أَصَابَتُهُ ﴿رِيحٍ﴾؛ شديدة ﴿فِيهَا صِرٌّ﴾؛ أي:
برد شديد أو نار محرقة فأهلك ذلك الحرث وذلك بظلمهم
فلم يظلمهم الله، وبعاقبهم بغير ذنب، وإنما ظلموا أنفسهم.
وهذه كقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ
لِيُضِدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً
ثُمَّ يُغْلَبُونَ﴾ [الأنفال: ٣٦].

﴿يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لَا
يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ
وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ
﴿١١٨﴾ هَآأَنْتُمْ أَوْلَاءُ يُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتَوَدُّونَ بِالْكِتَابِ كُلَّهُ
وَإِذَا لَقَوْكُمْ قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ
الْغَيْظِ قُلْ مُؤْمِنُوا بِعَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١١٩﴾ إِنْ
تَمَسَّكْتُمْ حَسَنَةً سَوْهُمْ وَإِنْ تُصِيبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِنْ
تَصِيرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا
يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿١٢٠﴾﴾.

﴿١١٨﴾، ﴿١١٩﴾ هذا تحذير من الله لعباده عن ولاية الكفار
واتخاذهم بطانة أو خصيصة وأصدقاء، يسرون إليهم ويفضون
لهم بأسرار المؤمنين، فوضح لعباده المؤمنين الأمور الموجبة

للبراءة من اتخاذهم بطانة، بأنهم ﴿لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا﴾ أي حريصون غير مقصرين في إيصال الضرر بكم، وقد بدت البغضاء
من كلامهم وفتلات ألسنتهم وما تخفيه صدورهم من البغضاء والعداوة ﴿أَكْبَرُ﴾ مما ظهر لكم من أقوالهم وأفعالهم، فإن
كانت لكم فهم وعقول فقد وضح الله لكم أمرهم، وأيضاً فما الموجب لمحبتهم واتخاذهم أولياء ويطانة، وقد تعلمون منهم
الانحراف العظيم في الدين وفي مقابلة إحسانكم؟ فأنتم مستقيمون على أديان الرسل تؤمنون بكل رسول أرسله الله وبكل
كتاب أنزله الله، وهم يكفرون بأجل الكتب وأشرف الرسل، وأنتم تبدلون لهم من الشفقة والمحبة ما لا يكافئونكم على
أقل القليل منه، فكيف تحبونهم وهم لا يحبونكم وهم يداهنونكم وينافقونكم، فإذا لقوكم ﴿قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا﴾ مع بني
جنسهم ﴿عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ﴾ من شدة الغيظ والبغض لكم ولدينكم، قال تعالى: ﴿قُلْ مُؤْمِنُوا بِعَيْظِكُمْ﴾؛ أي: سترون من
عز الإسلام وذل الكفر ما يسوءكم، وتموتون بغيتكم فلن تذكروا شفاء ذلك بما تقصدون ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾؛
فلذلك بين لعباده المؤمنين ما تنطوي عليه صدور أعداء الدين من الكفار والمنافقين.

﴿١٢٠﴾ ﴿إِنْ تَمَسَّكْتُمْ حَسَنَةً﴾؛ عز ونصر وعافية وخير ﴿سَوْهُمْ وَإِنْ تُصِيبْكُمْ سَيِّئَةٌ﴾؛ من إدالة العدو أو حصول بعض
المصائب الدنيوية ﴿يَفْرَحُوا بِهَا﴾؛ وهذا وصف العدو الشديدة عداوته. لما بين تعالى شدة عداوتهم، وشرح ما هم عليه
من الصفات الخبيثة أمر عباده المؤمنين بالصبر ولزوم التقوى، وأنهم إذا قاموا بذلك فلن يضرهم كيد أعدائهم شيئاً، فإن الله
محيط بهم وبأعمالهم وبمكائدهم التي يكيدونكم فيها، وقد وعدكم عند القيام بالتقوى أنهم لا يضرونكم شيئاً فلا تشكوا في
حصول ذلك.

﴿وَإِذْ عَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقْعِدَ الْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ ﴿١٢١﴾ إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا وَاللَّهُ
وَلِيُّهَا وَعَلَى اللَّهِ فَيْتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ ﴿١٢٢﴾ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُشْكُرُونَ﴾ ﴿١٢٣﴾ إِذْ نَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ

الحزب الرابع

سورة آل عمران

إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيُّمَا وَعَلَى
 اللَّهُ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٢١﴾ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرِ وَائْتَمَّ
 أَوَّلُهُ فَأَتَقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٢﴾ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ
 أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُبَدِّلَ رُبَّكُمْ بِثَلَاثَةِ آفَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ
 مُزَلَّيْنَ ﴿١٢٣﴾ بَلَىٰ إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فُورِهِمْ
 هَذَا يُبَدِّلْكُمْ رُبَّكُمْ بِخَمْسَةِ آفَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ
 ﴿١٢٤﴾ وَمَا جَعَلَ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ وَمَا
 النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿١٢٥﴾ لِيَقْطَعَ طَرَفًا
 مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنْقَلِبُوا خَآئِبِينَ ﴿١٢٦﴾ لَيْسَ لَكَ
 مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ
 ﴿١٢٧﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ يَعْرِضُ لِمَنْ يَشَاءُ
 وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ يَتَأَيَّاهُ الَّذِينَ
 ءَامَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً وَاتَّقُوا اللَّهَ
 لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٢٩﴾ وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ
 ﴿١٣٠﴾ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٣١﴾

١٦٦

أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُبَدِّلَ رُبَّكُمْ بِثَلَاثَةِ آفَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ
 مُزَلَّيْنَ ﴿١٢١﴾ بَلَىٰ إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فُورِهِمْ هَذَا
 يُبَدِّلْكُمْ رُبَّكُمْ بِخَمْسَةِ آفَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٢﴾ وَمَا
 جَعَلَ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ
 عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿١٢٣﴾ لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ
 يَكْبِتَهُمْ فَيَنْقَلِبُوا خَآئِبِينَ ﴿١٢٤﴾

﴿١٢١﴾ وذلك يوم أحد حين خرج ﷺ بالمسلمين، حين وصل
 المشركون بجمعهم إلى قريب من أحد، فنزلهم ﷺ منازلهم،
 ورتبهم في معادهم، ونظمهم تنظيمًا عجيبًا، يدل على كمال
 رأيه وبراعته الكاملة في علوم السياسة، كما كان كاملاً في كل
 المقامات، ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ ﴿١٢١﴾؛ لا يخفى عليه شيء من
 أموركم.

﴿١٢٢﴾ ﴿إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا﴾؛ وهم بنو
 سلمة وبنو حارثة لكن تولاها الباري بلطفه ورعايته وتوفيقه،
 ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ ﴿١٢٢﴾؛ فإنهم إذا توكلوا عليه كفاهم
 وأعانهم وعصمهم من وقوع ما يضرهم في دينهم ودنياهم.

وفي هذه الآية ونحوها وجوب التوكل وأنه على حسب
 إيمان العبد يكون توكله، والتوكل: هو اعتماد العبد على ربه
 في حصول منافعه ودفع مضاره.

فلما ذكر حالهم في أحد وما جرى عليهم من المصيبة أدخل فيها تذكيرهم بنصره ونعمته عليهم يوم بدر؛ ليكونوا شاكرين
 لربهم وليخفف هذا هذا، فقال:

﴿١٢٣﴾ ﴿وَأَنْتُمْ أَوَّلُهُ﴾؛ في عددكم وعددكم، فكانوا ثلاثمائة وبضعة عشر في قلة ظهر وورثاة سلاح،
 وأعداؤهم يناهزون الألف في كمال العدة والسلاح ﴿فَأَتَقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ ﴿١٢٣﴾؛ الذي أنعم عليكم بنصره.

﴿١٢٤﴾ ﴿إِذْ تَقُولُ﴾ مبشراً ﴿لِلْمُؤْمِنِينَ﴾؛ مثبتاً لجنانهم: ﴿أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُبَدِّلَ رُبَّكُمْ بِثَلَاثَةِ آفَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ
 مُزَلَّيْنَ﴾ ﴿١٢٤﴾.

﴿١٢٥﴾ ﴿بَلَىٰ إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فُورِهِمْ هَذَا﴾؛ أي: من حملتهم هذه بهذا الوجه.

﴿يُبَدِّلْكُمْ رُبَّكُمْ بِخَمْسَةِ آفَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾ ﴿١٢٥﴾؛ أي: معلمين علامة الشجعان. واختلف الناس هل كان هذا
 الإمداد حصل فيه من الملائكة مباشرة للقتال، كما قاله بعضهم أو أن ذلك تهيئة من الله لعباده المؤمنين، وإلقاء الرعب في
 قلوب المشركين كما قاله كثير من المفسرين ويدل عليه قوله:

﴿١٢٦﴾ ﴿وَمَا جَعَلَ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ ﴿١٢٦﴾؛ وفي هذا أن الأسباب
 لا يعتمد عليها العبد بل يعتمد على الله، وإنما الأسباب وتوفرها فيها طمأنينة للقلوب وثبات على الخير.

﴿١٢٧﴾ ﴿لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنْقَلِبُوا خَآئِبِينَ﴾ ﴿١٢٧﴾؛ أي: نصر الله لعباده المؤمنين لا يعدو أن يكون قطعاً
 لطرف من الكفار، أو ينقلبوا بغيظهم لم ينالوا خيراً، كما أرجعهم يوم الخندق بعدما كانوا قد أتوا على حرد قادرين أرجعهم
 الله بغيظهم خائبين.

﴿١٢٩﴾ تقدم في مقدمة هذا التفسير: أن العبد ينبغي له مراعاة الأوامر والنواهي في نفسه وفي غيره، وأن الله تعالى إذا أمره بأمر وجب عليه أولاً أن يعرف حده وما هو الذي أمر به ليتمكن بذلك من امتثاله، فإذا عرف ذلك اجتهد واستعان بالله على امتثاله في نفسه وفي غيره بحسب قدرته وإمكانه. وكذلك إذا نُهي عن أمر عرف حده وما يدخل فيه وما لا يدخل، ثم اجتهد واستعان بربه في تركه. وأن هذا ينبغي مراعاته في جميع الأوامر الإلهية والنواهي. وهذه الآيات الكريمة قد اشتملت على أوامر وخصال من خصال الخير، أمر الله بها وحث على فعلها، وأخبر عن جزاء أهلها، وعلى نواها حث على تركها.

ولعل الحكمة - والله أعلم - في إدخال هذه الآيات أثناء قصة أحد أنه قد تقدم أن الله تعالى وعد عباده المؤمنين أنهم إذا صبروا واتقوا نصرهم على أعدائهم وخذل الأعداء عنهم، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِنْ تَصَبَّرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرَّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا﴾ [آل عمران: ١٢٠]، ثم قال: ﴿إِنْ تَصَبَّرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ﴾ [آل عمران: ١٢٥] الآيات. فكان النفوس اشتاقت إلى معرفة خصال التقوى التي يحصل بها النصر والفلاح والسعادة، فذكر الله في هذه الآيات أهم خصال التقوى التي إذا قام العبد بها، فقيامه بغيرها من باب أولى وأحرى.

ويدل على ما قلنا أن الله ذكر لفظ التقوى في هذه الآيات ثلاث مرات، مرة مطلقة، وهي قوله: ﴿أَعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ ﴿١٢٣﴾، ومرتين مقيدتين فقال: ﴿وَأَتَّقُوا اللَّهَ﴾ ﴿١٢٤﴾ و﴿وَأَتَّقُوا النَّارَ﴾.

ف قوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الذِّكْرُ﴾ ﴿١٢٥﴾ كل ما في القرآن من قوله تعالى: يا أيها الذين آمنوا افعلوا كذا أو اتركوا كذا يدل على أن الإيمان هو السبب الداعي والموجب لامثال ذلك الأمر واجتناب ذلك النهي، لأن الإيمان هو التصديق الكامل بما يجب التصديق به المستلزم لأعمال الجوارح، فنهاهم عن أكل الربا أضاعافاً مضاعفة، وذلك هو ما اعتاده أهل الجاهلية ومن لا يبالي بالأوامر الشرعية، من أنه إذا حل الدين على المعسر ولم يحصل منه شيء، قالوا له: إما أن تقضي ما عليك من الدين، وإما أن نزيد في المدة ونزيد ما في ذمتك فيضطر الفقير ويستدفع غريمه ويلتزم ذلك اغتناماً لراحته الحاضرة فيزداد بذلك ما في ذمته أضاعافاً مضاعفة من غير نفع وانتفاع. ففي قوله: ﴿أَضْعَفَتْ مَضَاعَفَةً﴾؛ تنبيه على شدة شناعته بكثرته وتنبيه لحكمة تحريمه، وأن تحريم الربا

﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبُهُمْ فَلَهُمْ ظِلْمُوتٌ﴾ ﴿١٢٨﴾.

﴿١٢٨﴾ لما أصيب ﷺ يوم أحد وكسرت رباعيته وشج رأسه جعل يقول: «كيف يفلح قوم شجوا وجه نبيهم وكسروا رباعيته؟» ﴿١﴾، فأنزل الله تعالى هذه الآية، وبين أن الأمر كله لله وأن الرسول ﷺ ليس له من الأمر شيء، لأنه عبد من عبيد الله والجميع تحت عبودية ربهم مدبرون لا مدبرون، وهؤلاء الذين دعوت عليهم أيها الرسول أو تابعت فلاحهم وهدايتهم إن شاء الله تاب عليهم ووقفهم للدخول في الإسلام، وقد فعل، فإن أكثر أولئك هدامهم الله فأسلموا، وإن شاء الله عذبهم؛ فإنهم ظالمون مستحقون لعقوبات الله وعذابه.

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ ﴿١٢٩﴾.

﴿١٢٩﴾ يخبر تعالى أنه هو المتصرف في العالم العلوي والسفلي، وأنه يتوب على من يشاء فيغفر له ويخذل من يشاء فيعذبه، ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ ﴿١٢٩﴾ فمن صفته اللازمة كمال المغفرة والرحمة ووجود مقتضياتها في الخلق والأمر؛ يغفر للتائبين ويرحم من قام بالأسباب الموجبة للرحمة، قال تعالى: ﴿وَاطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَمَّا كُمْ تَرْحَمُونَ﴾ ﴿١٣٣﴾ [آل عمران: ١٣٢].

﴿يَأْتِيهَا الذِّكْرُ﴾ ﴿١٢٥﴾ لا تأكلوا الزبوا أضعفاً مضاعفةً وأتقوا الله لعلكم تفلحون ﴿١٢٦﴾ وأتقوا النار التي أعدت للكافرين ﴿١٢٧﴾ واطيعوا الله واطيعوا الرسول لعلكم ترحموا ﴿١٢٨﴾ وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنوا عنهن الساميات والأرض أعدت للمتقين ﴿١٢٩﴾ الذين ينفقون في السراء والضراء والكاظمين الفلظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين ﴿١٣٠﴾ والذين إذا فعلوا فحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ومن يغفر الذنوب إلا الله ولم يصبروا على ما فعلوا وهم يعلمون ﴿١٣١﴾ أولئك جراؤهم مغيرة من ربهم وحنن تجري من تحتها الأنهر خالدين فيها وبقم أجر العاكفين ﴿١٣٢﴾.

(١) البخاري معلقاً (باب ليس لك من الأمر شيء...)، «الفتح» (٣٦٥/٧)، ووصله مسلم (١٧٩١).

حكيمته أن الله منع منه لما فيه من الظلم، وذلك أن الله أوجب إنظار المعسر وبقاء ما في ذمته من غير زيادة، فالإزاه بما فوق ذلك ظلم متضاعف، فيتعين على المؤمن المتقي تركه وعدم قربانه؛ لأن تركه من موجبات التقوى، والفلاح متوقف على التقوى، فلهذا قال: ﴿وَأَتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ ﴿١٣٠﴾.

﴿١٣١﴾ ﴿وَأَتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ ﴿١٣١﴾، بترك ما يوجب دخولها من الكفر والمعاصي على اختلاف درجاتها، فإن المعاصي كلها وخصوصاً المعاصي الكبار تجر إلى الكفر، بل هي من خصال الكفر الذي أعد الله النار لأهله، فترك المعاصي ينجي من النار وبقي من سخط الجبار، وأفعال الخير والطاعة توجب رضا الرحمن ودخول الجنان وحصول الرحمة، ولهذا قال:

﴿١٣٢﴾ ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ﴾، بفعل الأوامر امتثالاً واجتناب النواهي ﴿لَعَلَّكُمْ تَرْحَمُونَ﴾ ﴿١٣٢﴾، فطاعة الله وطاعة رسوله من أسباب حصول الرحمة، كما قال تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ [الأعراف: ١٥٦] الآيات.

﴿١٣٣﴾ ثم أمرهم تعالى بالمسارعة إلى مغفرته وإدراك جنته التي عرضها السماوات والأرض، فكيف بطولها التي أعدها

سورة آل عمران
﴿١٣٤﴾ وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٤﴾ الَّذِينَ يُقِفُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكُظُمِينِ الْفَظِطِ وَالْمَافِئِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٥﴾ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرِ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٦﴾ أُولَٰئِكَ جَزَاءُ مَّغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّتْ تجرَىٰ مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيَغْمُ الْآجِرُ الْعَمَلِينَ ﴿١٣٧﴾ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ ﴿١٣٨﴾ هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٩﴾ وَلَا تَيْهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤٠﴾ إِن يَسْأَلْكُمُ فَجٌ فَقَدْ مَنَّ الْقَوْمُ فَجْرًا مِّثْلَهُ وَتِلْكَ الْآيَاتُ نُدَآؤُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمُ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿١٤١﴾

الله للمتقين!؟ فهم أهلها، وأعمال التقوى هي الموصلة إليها.

﴿١٣٤﴾ ثم وصف المتقين وأعمالهم فقال: ﴿الَّذِينَ يُقِفُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ﴾؛ أي: في حال عسرهم ويسرهم إن أسروا أكثر من النفقة، وإن أعسروا لم يحتقروا من المعروف شيئاً ولو قل، ﴿وَالْكُظُمِينِ الْفَظِطِ﴾؛ أي: إذا حصل لهم من غيرهم أذية توجب غيظهم، وهو امتلاء قلوبهم من الحق الموجب للانتقام بالقول والفعل. هؤلاء لا يعملون بمقتضى الطباع البشرية، بل يكظمون ما في القلوب من الغيظ، ويصبرون عن مقابلة المسيء إليهم.

﴿وَالْمَافِئِينَ عَنِ النَّاسِ﴾، يدخل في العفو عن الناس العفو عن كل من أساء إليك بقول أو فعل، والعفو أبلغ من الكظم، لأن العفو ترك المؤاخذه مع السماح عن المسيء، وهذا إنما يكون ممن تحلى بالأخلاق الجميلة وتخلى عن الأخلاق الرذيلة، وممن تاجر مع الله وعفا عن عباد الله رحمة بهم وإحساناً إليهم، وكراهة لحصول الشر عليهم، وليعفو الله عنه ويكون أجره على ربه الكريم لا على العبد الفقير، كما قال تعالى: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ [الشورى: ٤٠].

ثم ذكر حالة أعم من غيرها وأحسن وأعلى وأجل، وهي الإحسان، فقال تعالى: ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ ﴿١٣٥﴾، والإحسان نوعان: الإحسان في عبادة الخالق والإحسان إلى المخلوق.

فالإحسان في عبادة الخالق فسرّها النبي ﷺ بقوله: «أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك»^(١).

وأما الإحسان إلى المخلوق فهو إيصال النفع الديني والدنيوي إليهم ودفع الشر الديني والدنيوي عنهم، فيدخل في ذلك أمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر وتعليم جاهلهم ووعظ غافلهم والنصيحة لعامتهم وخاصتهم، والسعي في جمع كلمتهم وإيصال الصدقات والنفقات الواجبة والمستحبة إليهم على اختلاف أحوالهم وتباين أوصافهم، فيدخل في ذلك بذل الندى وكف الأذى

واحتمال الأذى، كما وصف الله به المتقين في هذه الآيات، فمن قام بهذه الأمور فقد قام بحق الله وحق عبيده.

ثم ذكر اعتذارهم لرهبهم من جنائياتهم وذنوبهم فقال:

﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَجَسَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾؛ أي: صدر منهم أعمال سيئة كبيرة أو ما دون ذلك، بادروا إلى التوبة والاستغفار، وذكروا ربهم وما توعد به العاصين، ووعد به المتقين فسألوه المغفرة لذنوبهم، والستر لعبوبهم، مع إقلاعهم عنها وندمهم عليها، فهذا قال: ﴿وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾.

﴿أُولَٰئِكَ﴾؛ الموصوفون بتلك الصفات ﴿جَزَاءُهم مَّغْفَرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ﴾ تزيل عنهم كل محذور، ﴿وَجَنَّتْ تَجْرِي مِّن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ فيها من النعيم المقيم والبهجة والسرور والبهاء والخير والسرور والقصور والمنازل الأنيفة العاليات والأشجار المثمرة البهية والأنهار الجارية في تلك المساكن الطيبات، ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ لا يحولون عنها ولا يبغيون بها بدلاً ولا يغير ما هم فيه من النعيم ﴿وَيَقَعُ أَجْرُ الْمُحْسِنِينَ﴾ عملوا لله قليلاً فأجروا كثيراً، فعند الصباح يحمد القوم السرى، وعند الجزاء يجد العامل أجره كاملاً موفراً.

وهذه الآيات الكريمات من أدلة أهل السنة والجماعة، على أن الأعمال تدخل في الإيمان خلافاً للمرجئة، ووجه الدلالة إنما يتم بذكر الآية التي في سورة الحديد نظير هذه الآيات وهي قوله: ﴿سَابِقُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ﴾ [الحديد: ٢١]، فلم يذكر فيها إلا لفظ الإيمان به وبرسله، وهنا قال: ﴿أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾، ثم وصف المتقين بهذه الأعمال المالية والبدنية، فدل على أن هؤلاء المتقين هم الموصوفون بهذه الصفات هم أولئك المؤمنون. ثم قال تعالى:

﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ﴾ هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهَدًى وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ

وهذه الآيات الكريمات، وما بعدها في قصة أحد، يعزي تعالى عباده المؤمنين، ويسليهم ويخبرهم أنه مضى قبلهم أجيال وأمم كثيرة امتحنوا، وابتلي المؤمنون منهم بقتال الكافرين، فلم يزالوا في مداولة ومجاوله حتى جعل الله العاقبة للمتقين والنصر لعباده المؤمنين، وآخر الأمر حصلت

الدولة على المكذبين وخذلهم الله بنصر رسله وأتباعهم، ﴿فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ بأبدانكم وقلوبكم ﴿فَافْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ﴾، فإنكم لا تجدونهم إلا معذيين بأنواع العقوبات الدنيوية، قد خوت ديارهم وتبين لكل أحد خسارهم، وذهب عزهم وملكتهم وزال بذخهم وفخرهم، أفليس في هذا أعظم دليل وأكبر شاهد على صدق ما جاءت به الرسل، وحكمة الله التي يمتحن بها عباده ليلوهم ويتبين صادقهم من كاذبهم؟ ولهذا قال تعالى:

﴿هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ﴾؛ أي: دلالة ظاهرة تبين للناس الحق من الباطل، وأهل السعادة من أهل الشقاوة، وهو الإشارة إلى ما أوقع الله بالمكذبين، ﴿وَهَذَىٰ وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ﴾، لأنهم هم المتفوعون بالآيات، فتهديهم إلى سبيل الرشاد وتعظمهم وتزجرهم عن طريق الغي، وأما باقي الناس فهي بيان لهم تقوم عليهم الحجة من الله ليهلك من هلك عن بينة، ويحتمل أن الإشارة في قوله: ﴿هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ﴾، للقرآن العظيم والذكر الحكيم وأنه بيان للناس عموماً، وهدى وموعظة للمتقين خصوصاً، وكلا المعنيين حق.

﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾ إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَيَتَّخِذُ مِنكُمْ شُرَكَاءَ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ وَلَيُمَهِضَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَيَمَاقُصَ الْكُفْرِينَ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخَلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الظَّالِمِينَ وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ نَظُرُونَ

يقول تعالى مشجعاً لعباده المؤمنين ومقوياً لعزائمهم ومنهضاً لهممهم: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا﴾؛ أي: ولا تهنوا وتضعفوا في أبدانكم، ولا تحزنوا في قلوبكم عندما أصابكم المصيبة، وابتليتكم بهذه البلوى، فإن الحزن في القلوب والوهن على الأبدان زيادة مصيبة عليكم، وعون لعدوكم عليكم، بل شجعوا قلوبكم وصبروها وادفعوا عنها الحزن وتصلبوا على قتال عدوكم، وذكر تعالى أنه لا ينبغي ولا يليق بهم الوهن والحزن وهم الأعلون في الإيمان، ورجاء نصر الله وثوابه، فالؤمن المبتغي ما وعده الله من الثواب الدنيوي والأخروي لا ينبغي له ذلك، ولهذا قال

تعالى: ﴿وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (١٣٩).

ثم سلاهم بما حصل لهم من الهزيمة، وبين الحكم العظيمة المرتبة على ذلك فقال:

﴿إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ﴾،
فأنتم وهم قد تساوتيم في القرع، ولكنكم ترجون من الله ما لا
يرجون كما قال تعالى: ﴿إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ
كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾ [النساء: ١٠٤].

ومن الحكم في ذلك أن هذه الدار يعطي الله منها المؤمن
والكافر والبر والفاجر فيداول الله الأيام بين الناس: يوم لهذه
الطائفة ويوم للطائفة الأخرى، لأن هذه الدار الدنيا منقضية
فانية، وهذا بخلاف الدار الآخرة؛ فإنها خالصة للمؤمنين.

﴿وَلْيَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾، هذا أيضًا من الحكم أنه
يبتلي الله عباده بالهزيمة والابتلاء ليتبين المؤمن من المنافق،
لأنه لو استمر النصر للمؤمنين في جميع الوقائع لدخل في
الإسلام من لا يريده، فإذا حصل في بعض الوقائع بعض
أنواع الابتلاء تبين المؤمن حقيقته الذي يرغب في الإسلام في
الضراء والسراء واليسر والعسر ممن ليس كذلك، ﴿وَيَتَّخِذْ
مِنْكُمْ شُهَدَاءَ﴾.

وهذا أيضًا من بعض الحكم، لأن الشهادة عند الله من أرفع المنازل، ولا سبيل لنيلها إلا بما يحصل من وجود أسبابها،
فهذا من رحمته بعباده المؤمنين، أن قيض لهم من الأسباب ما تكرهه النفوس، لينيلهم ما يحبون من المنازل العالية والنعيم
المقيم.

﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾، الذين ظلموا أنفسهم وتقاعدوا عن القتال في سبيله، وكان في هذا تعريضًا بدم المنافقين
وأنهم مبعوضون لله، ولهذا يبطئهم عن القتال في سبيله: ﴿وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ
فَتَبَطَّوهُمْ وَقِيلَ أَفْعُدُوا مَعَ الْفَاعِلِينَ﴾ (١٤١) [التوبة: ٤٦].

﴿وَلْيَمِصَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾، وهذا أيضًا من الحكم أن الله يمحس بذلك المؤمنين من ذنوبهم وعيوبهم، يدل ذلك
على أن الشهادة والقتال في سبيل الله تكفر الذنوب وتزيل العيوب، وليرحم الله أيضًا المؤمنين من غيرهم من المنافقين
فيتخلصون منهم ويعرفون المؤمن من المنافق.

ومن الحكم أيضًا أنه يقدر ذلك ليمحق الكافرين، أي: ليكون سببًا لمحققهم واستئصالهم بالعقوبة، فإنهم إذا انتصروا بغوا
وازدادوا طغيانًا إلى طغيانهم يستحقون به المعالجة بالعقوبة رحمة بعباده المؤمنين. ثم قال تعالى:

﴿أَمْرٌ حَسْبُكُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الضَّالِّينَ﴾ (١٤٢)، هذا استفهام إنكاري، أي:
لا تظنوا ولا يخطر ببالكم أن تدخلوا الجنة من دون مشقة واحتمال المكاره في سبيل الله، وابتغاء مرضاته، فإن الجنة أعلى
المطالب وأفضل ما به يتنافس المتنافسون، وكلما عظم المطلوب عظم وسيلته والعمل الموصل إليه، فلا يوصل إلى
الراحة إلا بترك الراحة ولا يدرك النعيم إلا بترك النعيم، ولكن مكاره الدنيا التي تصيب العبد في سبيل الله عند توطين النفس
لها وتمريتها عليها ومعرفة ما تؤول إليه تنقلب عند أبواب البصائر منحًا يسرون بها ولا يبالون بها، وذلك فضل الله يؤتيه من

وَلْيَمِصَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمِصَّ الْكَافِرِينَ ﴿١٤١﴾ أَمْرٌ حَسْبُكُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الضَّالِّينَ ﴿١٤٢﴾ وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ نَظْرُونَ ﴿١٤٣﴾ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَصُرَ لَهُ شَيْءٌ وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كَتَبْنَا مُوَجَلًّا وَمَنْ يَرُدَّ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِيهِ مِنْهَا وَمَنْ يَرُدَّ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِيهِ مِنْهَا وَسَيَجْزِي الشَّاكِرِينَ ﴿١٤٥﴾ وَكَانَ مِنْ نَبِيِّ قَتَلَ مَعَهُ رِيتُونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ ﴿١٤٦﴾ وَمَا كَانَ قَوْلُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿١٤٧﴾ فَكَانَتْهُمْ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحَسُنَ ثَوَابُ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٤٨﴾

في كل أمر من أمور الدين بعدة أناس من أهل الكفاءة فيه إذا فقد أحدهم قام به غيره، وأن يكون عموم المؤمنين قصدهم إقامة دين الله والجهاد عنه بحسب الإمكان، لا يكون لهم قصد في رئيس دون رئيس، فبهذه الحال يستتب لهم أمرهم، وتستقيم أمورهم.

وفي هذه الآية أيضًا أعظم دليل على فضيلة الصديق الأكبر أبي بكر وأصحابه الذين قاتلوا المرتدين بعد رسول الله ﷺ؛ لأنهم هم سادات الشاكرين.

﴿١٤٥﴾ ثم أخبر تعالى أن النفوس جميعها معلقة بأجالها بإذن الله وقدره وقضائه، فمن حتم عليه بالقدر أن يموت مات ولو بغير سبب، ومن أراد بقاءه فلو وقع من الأسباب كل سبب لم يضره ذلك قبل بلوغ أجله، وذلك أن الله قضاء وقدره وكتبه إلى أجل مسمى ﴿إِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَلَا يَسْتَرْجِعُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْرِبُونَ﴾ ﴿١٤٦﴾ [يونس: ٤٩]. ثم أخبر تعالى أنه يعطي الناس من ثواب الدنيا والآخرة ما تعلق به إرادتهم، فقال: ﴿وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا﴾، قال الله تعالى: ﴿كَلَّا نُمِدُّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾ ﴿١٤٧﴾ أَنْظَرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلِلْآخِرَةِ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾ ﴿١٤٨﴾ [الإسراء: ٢١]. ﴿وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ﴾ ﴿١٤٩﴾، ولم يذكر جزاءهم ليدل ذلك على كثرة وعظمته، وليعلم أن الجزاء على قدر الشكر قلة وكثرة وحسنا.

﴿وَكَايْنٍ مِّنْ نَّبِيِّ قَتَلَ مَعَهُ رِيتُونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّادِقِينَ﴾ ﴿١٥٠﴾ وَمَا كَانَ قَوْلُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ ﴿١٥١﴾ فَقَاتَلَهُمْ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحَسَنَ ثَوَابَ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ ﴿١٥٢﴾.

﴿١٥١﴾ هذا تسلية للمؤمنين وحث على الاقتداء بهم والفعل كفعالهم، وأن هذا أمر قد كان متقدما لم تزل سنة الله جارية بذلك، فقال: ﴿وَكَايْنٍ مِّنْ نَّبِيِّ﴾؛ أي: وكم من نبي ﴿قَتَلَ مَعَهُ رِيتُونَ كَثِيرٌ﴾؛ أي: جماعات كثيرون من أتباعهم الذين قد ربتهم الأنبياء بالإيمان والأعمال الصالحة فأصابهم قتل وجراح وغير ذلك، ﴿فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا﴾؛ أي: ما ضعفت قلوبهم، ولا وهنت

يشاء، ثم ويخهم تعالى على عدم صبرهم بأمر كانوا يتمنونوه ويودون حصوله، فقال:

﴿١٥٣﴾ وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ، وذلك أن كثيرا من الصحابة رضي الله عنهم ممن فاته بدر، يتمنون أن يحضرهم الله مشهدا يذلون فيه جهدهم، قال الله تعالى لهم: ﴿فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ﴾؛ [أي: رأيتم] ما تمنيتم بأعينكم ﴿وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾ ﴿١٥٤﴾، فما بالكم وترك الصبر؟ هذه حالة لا تليق ولا تحسن، خصوصا لمن تمنى ذلك وحصل له ما تمنى، فإن الواجب عليه بذل الجهد واستفراغ الوسع في ذلك. وفي هذه الآية دليل على أنه لا يكره تمنى الشهادة. ووجه الدلالة أن الله تعالى أقرهم على أمنيته، ولم ينكر عليهم، وإنما أنكر عليهم عدم العمل بمقتضاها والله أعلم. ثم قال تعالى:

﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَى عَقْبِهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ ﴿١٥٥﴾ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كَتَبْنَا مُوَجَلًّا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ﴾ ﴿١٥٦﴾.

﴿١٥٥﴾ يقول تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾؛ أي: ليس بيدع من الرسل، بل هو من جنس الرسل الذين قبله، وظيفتهم تبليغ رسالة ربهم وتنفيذ أوامره ليسوا بمخلدين، وليس بقاؤهم شرطا في امتثال أوامر الله، بل الواجب على الأمم عبادة ربهم في كل وقت وبكل حال، ولهذا قال: ﴿أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ﴾؛ بترك ما جاءكم به من إيمان أو جهاد أو غير ذلك، قال الله تعالى: ﴿وَمَن يَنقَلِبْ عَلَى عَقْبِهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا﴾، إنما يضر نفسه، وإلا فالله تعالى غني عنه، وسيقيم دينه، ويعز عباده المؤمنين.

فلما وبخ تعالى من انقلب على عقبيه، مدح من ثبت مع رسوله، وامثل أمر ربه فقال: ﴿وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ ﴿١٥٦﴾، والشكر لا يكون إلا بالقيام بعبودية الله تعالى في كل حال. وفي هذه الآية الكريمة إرشاد من الله تعالى لعباده أن يكونوا بحالة لا يزعزعهم عن إيمانهم أو عن بعض لوازمه فقد رئيس ولو عظم، وما ذاك إلا بالاستعداد

أبدانهم، ولا استكانوا؛ أي: ذلوا لعدوهم، بل صبروا وثبتوا وشجعوا أنفسهم، ولهذا قال: ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾ (١٤٦).

ثم ذكر قولهم واستنصارهم لربهم فقال: ﴿وَمَا كَانَ قَوْلُهُمْ﴾؛ أي: في تلك المواطن الصعبة ﴿إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا آغْنِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا﴾، والإسراف هو: مجاوزة الحد إلى ما حرم، علموا أن الذنوب والإسراف من أعظم أسباب الخذلان وأن التخلي منها من أسباب النصر، فسألوا ربهم مغفرتها. ثم إنهم لم يتكلموا على ما بذلوا جهدهم به من الصبر، بل اعتمدوا على الله، وسألوه أن يثبت أقدامهم عند ملاقاته الأعداء الكافرين، وأن ينصرهم عليهم، فجمعوا بين الصبر وترك ضده، والتوبة والاستغفار والاستنصار بربهم، لا جرم أن الله نصرهم، وجعل لهم العاقبة في الدنيا والآخرة ولهذا قال:

﴿فَقَاتِلْهُمْ اللَّهُ تَوَّابٌ أَلْبِئْسَ مِنَ النَّصْرِ وَالْظَّفَرِ وَالْغَنِيمَةِ وَحَسَنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ﴾ وهو الفوز برضا ربهم والنعيم المقيم الذي قد سلم من جميع المنكذات، وما ذاك إلا أنهم أحسنوا له الأعمال فجازاهم بأحسن الجزاء، فلهذا قال: ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ (١٤٨). في عبادة الخالق ومعاملة الخلق، ومن الإحسان أن يفعل عند جهاد الأعداء كفعل هؤلاء المؤمنين. ثم قال تعالى:

يَتَّيْنَاهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ ﴿١٤٩﴾ بَلِ اللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ ﴿١٥٠﴾ سَتَلْقَىٰ فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانٌ وَمَأْوَهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَىٰ الظَّالِمِينَ ﴿١٥١﴾ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ ۖ فَخَسِبَ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَزَّعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تَحِبُّونَ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْأُنْيَا وَيَصْطَكِبُ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥٢﴾ إِذْ تَضَعُونَ وَلَا تَكُونُونَ عَلَىٰ أَحَدٍ وَالرُّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أَخْرَجَكُمْ فَأَتْبَعَكُمْ غَمًّا بِغَمٍ لِكَيْ لَا تَحْزَنُوا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٥٣﴾

﴿يَتَّيْنَاهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ﴾ (١٤٩) بَلِ اللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ ﴿١٥٠﴾ سَتَلْقَىٰ فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانٌ وَمَأْوَهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَىٰ الظَّالِمِينَ ﴿١٥١﴾.

(١٤٩) وهذا نهي من الله للمؤمنين، أن يطيعوا الكافرين من المنافقين والمشركين فإنهم إذا أطاعوهم لم يريدوا لهم إلا الشر، وهم قصدهم ردهم إلى الكفر الذي عاقبته الخيبة والخسران.

(١٥٠) ثم أخبر أنه مولاهم وناصرهم، ففيه إخبار لهم بذلك وبشارة، بأنه يتولى أمورهم بلطفه ويعصمهم من أنواع الشرور، وفي ضمن ذلك الحث لهم على اتخاذه وحده ولياً وناصرًا من دون كل أحد.

(١٥١) فمن ولايته ونصره لهم أنه وعدهم أنه سيلقي في قلوب أعدائهم من الكافرين الرعب، وهو الخوف العظيم الذي يمنعهم من كثير من مقاصدهم، وقد فعل تعالى، وذلك أن المشركين بعدما انصرفوا من وقعة أحد تشاوروا بينهم، وقالوا: كيف نصرهم بعد أن قتلنا منهم من قتلنا وهزمناهم ولما نستأصلهم؟ فهموا بذلك، فألقى الله الرعب في قلوبهم فانصرفوا خائبين.

ولا شك أن هذا من أعظم النصر، لأنه قد تقدم أن نصر الله لعباده المؤمنين لا يخرج عن أحد أمرين: إما أن يقطع طرفًا ممن كفروا أو يكبتهم فيقبلوا خائبين، وهذا من الثاني. ثم ذكر السبب الموجب لإلقاء الرعب في قلوب الكافرين فقال: ﴿بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانٌ﴾؛ أي: ذلك بسبب ما اتخذوا من دونه من الأنداد والأصنام التي اتخذوها على حسب أهوائهم وإراداتهم الفاسدة من غير حجة ولا برهان، وانقطعوا من ولاية الواحد الرحمن، فمن ثم كان المشرك مرعوبًا من المؤمنين

﴿إِذْ تَصْعَدُونَ وَلَا تَكُونُ عَلَى أَحَدٍ
وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أَخْرَجِكُمْ فَأَتْبَعَكُمْ غَمًّا
يَعْمَى لِكَيْلًا تَحْزَنُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا
أَصَابَكُمْ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٥٢﴾ ثُمَّ أَنْزَلَ
عَلَيْكُمْ مِنْ بَدَدِ الْغَمِّ أَمْنَةً نَافَسًا يَفْشَى طَائِفَةً مِنْكُمْ
وَطَائِفَةً قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ
الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ
كُلَّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ
لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هُنَا قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ
الَّذِينَ كَتَبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلَ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي
صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ
الصُّدُورِ ﴿١٥٣﴾﴾.

﴿١٥٢﴾ يذكرهم تعالى حالهم في وقت انهزامهم عن القتال،
ويعاتبهم على ذلك فقال: ﴿إِذْ تَصْعَدُونَ﴾؛ أي: لا
تجدون في الهرب ﴿وَلَا تَكُونُ عَلَى أَحَدٍ﴾؛ أي: لا
يلوي أحد منكم على أحد ولا ينظر إليه، بل ليس لكم هم
إلا الفرار والنجاء عن القتال، والحال أنه ليس عليكم خطر
كبير، إذ لستم آخر الناس مما يلي الأعداء ويأبسون الهيجاء،
بل ﴿وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أَخْرَجِكُمْ﴾؛ أي: مما يلي
القوم يقول: «إلى عباد الله»، فلم تلتفتوا إليه ولا عرجتم عليه،
فالفرار نفسه موجب للوم، ودعوة الرسول الموجبة لتقديمه
على النفس أعظم لو ما تخلفكم عنها ﴿فَأَتْبَعَكُمْ﴾؛ أي: لا
جازاكم على فعلكم ﴿غَمًّا يَعْمَى﴾؛ أي: غمًا يتبعه غم؛
غم بفوات النصر وفوات الغنيمة، وغم بانهزامكم، وغم
أنساكم كل غم وهو سماعكم أن محمدًا ﷺ قد قتل.

ولكن الله بلطفه وحسن نظره لعباده جعل اجتماع
هذه الأمور لعباده المؤمنين خيرًا لهم فقال: ﴿لِكَيْلًا
تَحْزَنُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ﴾؛ من النصر والظفر، ﴿وَلَا مَا
أَصَابَكُمْ﴾؛ من الهزيمة والقتل والجراح إذا تحققتم
أن الرسول ﷺ لم يقتل، هانت عليكم تلك المصيبات،
واغبتكم بوجوده المسلي عن كل مصيبة ومحنة، فله ما في
ضمن البلاء والمحن من الأسرار والحكم، وكل هذا صادر
عن علمه وكمال خبرته بأعمالكم وظواهركم وبواطنكم،
ولهذا قال: ﴿وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٥٢﴾﴾، ويحتمل أن
معنى قوله: ﴿لِكَيْلًا تَحْزَنُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا

لا يعتمد على ركن وثيق، وليس له ملجأ عند كل شدة وضيق،
هذا حاله في الدنيا وأما في الآخرة فأشد وأعظم، ولهذا قال:
﴿وَمَا أَوْنَهُمُ النَّكَارُ﴾؛ أي: مستقرهم الذي يأوون إليه وليس
لهم عنها خروج ﴿وَيَتَسَنَّمُونَ الظَّالِمِينَ ﴿١٥١﴾﴾، بسبب
ظلمهم وعدوانهم؛ صارت النار مثواهم.

﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُونَهُمْ
بِأَذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَزَّعْتُمْ فِي الْأَمْرِ
وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرْسَلَكُمْ مَا تُحِبُّونَ مِنْكُمْ
مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ
صَرَفَكُم عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَاللَّهُ
ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥٢﴾﴾.

﴿١٥٢﴾ أي: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ﴾ بالنصر
فنصركم عليهم حتى ولوكم أكتافهم، وطفقتم فيهم قتلاً حتى
صرتهم سبياً لأنفسكم وعوناً لأعدائكم عليكم، فلما حصل
منكم الفشل وهو الضعف والخور ﴿وَتَنَزَّعْتُمْ فِي الْأَمْرِ﴾
الذي فيه ترك أمر الله بالائتلاف وعدم الاختلاف، فاختلقتهم؛
فمن قاتل: نقيم في مركزنا الذي جعلنا فيه النبي ﷺ، ومن
قاتل: ما مقامنا فيه وقد انهزم العدو ولم يبق محذور، فعصيت
الرسول وتركتم أمره، من بعد ما أراكم الله ما تحبون، وهو
انخذال أعدائكم، لأن الواجب على من أنعم الله عليه بما
أحب أعظم من غيره، فالواجب في هذه الحال خصوصاً
وفي غيرها عموماً امتثال أمر الله ورسوله، ﴿وَمِنْكُمْ مَنْ
يُرِيدُ الدُّنْيَا﴾؛ وهم الذين أوجب لهم ذلك ما أوجب،
﴿وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ﴾؛ وهم الذين لزموا أمر
رسول الله. وثبتوا حيث أمروا، ﴿ثُمَّ صَرَفَكُم عَنْهُمْ﴾؛
أي: بعدما وجدت هذه الأمور منكم، صرف الله وجوهكم
عنهم، فصار الوجه لعدوكم ابتلاء من الله لكم وامتحاناً،
ليبتين المؤمن من الكافر والطائع من العاصي، وليكفر الله
عنكم بهذه المصيبة ما صدر منكم، فلهذا قال: ﴿وَلَقَدْ
عَفَا عَنْكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥٢﴾﴾؛ أي:
ذو فضل عظيم عليهم، حيث من عليهم بالإسلام، وهداهم
لشراعتهم، وعفا عنهم سيئاتهم، وأثابهم على مصيبتهم، ومن
فضله على المؤمنين أنه لا يقدر عليهم خيراً ولا مصيبة إلا
كان خيراً لهم، إن أصابتهم سراء فشكروا، جازاهم جزاء
الشاكرين، وإن أصابتهم ضراء فصبروا، جازاهم جزاء
الصابرين.

أَصَابَكُمْ؟ يعني: أنه قدر ذلك الغم والمصيبة عليكم، لكي تتوطن نفوسكم وتمرنوا على الصبر على المصيبات، ويخف عليكم تحمل المشقات.

﴿ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُم مِّن بَدْدِ الْغَمِّ﴾، الذي أصابكم، ﴿أَمْنَةً تُمَاسًا يَفْشَى طَائِفَةً مِّنْكُمْ﴾، ولا شك أن هذا رحمة بهم وإحسان وتثبيت لقلوبهم وزيادة طمأنينة، لأن الخائف لا يأتيه النعاس، لما في قلبه من الخوف، فإذا زال الخوف عن القلب أمكن أن يأتيه النعاس، وهذه الطائفة التي أنعم الله عليها بالنعاس، هم المؤمنون الذين ليس لهم إلا إقامة دين الله ورضا الله ورسوله ومصلحة إخوانهم المسلمين، وأما الطائفة الأخرى الذين ﴿قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ﴾، فليس لهم هم في غيرها لنفاقهم أو ضعف إيمانهم، فلهذا لم يصيبهم من النعاس ما أصاب غيرهم، ﴿يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ الْأَمْرِ مِن شَيْءٍ﴾، وهذا استفهام إنكاري، أي: ما لنا من الأمر، أي: النصر والظهور شيء، فأساءوا الظن بربهم وبدينه وبنيه، وظنوا أن الله لا يتم أمر رسوله، وأن هذه الهزيمة هي الفصلة والقاضية على دين الله.

قال الله في جوابهم: ﴿قُلْ إِنَّا الْأَمْرُ كُلُّهُ لِلَّهِ﴾، الأمر يشمل الأمر القدري والأمر الشرعي، فجميع الأشياء بقضاء الله وقدره، وعاقبتها النصر والظفر لأوليائه وأهل طاعته وإن جرى عليهم ما جرى، ﴿يُخْفُونَ﴾ يعني المنافقين ﴿فِي أَنفُسِهِمْ مَا لَا يَبْدُونَ لَكَ﴾، ثم بين الأمر الذي يخفونه فقال: ﴿يَقُولُونَ لَوْ كُنَّا لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾؛ أي: لو كان لنا في هذه الواقعة رأي ومشورة ﴿مَا قُتِلْنَا هُنَا﴾، وهذا إنكار منهم، وتكذيب بقدر الله، وتسفيه منهم لرأي رسول الله ورأي أصحابه، وتركبة منهم لأنفسهم، فرد الله عليهم بقوله: ﴿قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ﴾ التي هي أبعد شيء عن مظان القتل ﴿لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ﴾، فالأسباب وإن عظمت إنما تنفع إذا لم يعارضها القدر والقضاء، فإذا عارضها القدر لم تنفع شيئاً، بل لا بد أن يمضي الله ما كتب في اللوح المحفوظ من الموت والحياة ﴿وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ﴾؛ أي: يختبر ما فيها من نفاق وإيمان وضعف إيمان، ﴿وَلِيُمَخِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ﴾ من وساوس الشيطان وما تأثر عنها من الصفات غير الحميدة ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾؛ أي: بما فيها وما أكتنه، فاقتضى علمه وحكمته أن قدر من الأسباب ما به تظهر مخبات الصدور وسرائر الأمور. ثم قال تعالى:

﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنكُمْ يَوْمَ الْجَمْعَانِ إِنَّمَا أَسْأَرُ لَهُمُ الشَّيْطَانُ بَعْضُ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ (١٥٢).

يخبر تعالى عن حال الذين انهمزوا يوم أحد، وما الذي أوجب لهم الفرار وأنه من تسويل الشيطان، وأنه تسلط عليهم ببعض ذنوبهم، فهم الذين أدخلوه على أنفسهم ومكنوه بما فعلوا من المعاصي لأنها مركبة ومدخلة، فلو اعتصموا بطاعة ربهم لما كان له عليهم من سلطان، قال تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ [الحجر: ٤٢]، ثم أخبر أنه عفا عنهم بعدما فعلوا ما يوجب المؤاخذه، وإلا فلو أخذهم لاستأصلهم ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ﴾ للمذنبين الخطائين بما يوفقههم له من التوبة والاستغفار والمصائب المكفرة ﴿حَلِيمٌ﴾ لا يعاجل من عصاه، بل يستأني به ويدعوه إلى الإنابة إليه والإقبال عليه، ثم إن تاب وأناب قبل منه، وصيره كأنه لم يجر منه ذنب، ولم يصدر عنه عيب. فله الحمد على إحسانه.

سورة آل عمران
ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُم مِّن بَدْدِ الْغَمِّ أَمْنَةً تُمَاسًا يَفْشَى طَائِفَةً مِّنْكُمْ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ الْأَمْرِ مِن شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِي أَنفُسِهِم مَّا لَا يَبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كُنَّا لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هُنَا قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَخِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١٥٢﴾ إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا أَسْأَرُ لَهُمُ الشَّيْطَانُ بَعْضُ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٥٣﴾ يَتْلُوهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُرَى لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْمَلَ اللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ يُخَيِّئُ وَيُبْتَلِي وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١٥٤﴾ وَلَكِنْ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مِتُّمْ لَمَغْفِرَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَحْمَةً خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿١٥٥﴾

الْبُرْجِ

سورة آل عمران

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا
لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُرًى لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا
مَا مَاتُوا وَمَاقْتُلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ يُحْيِي
وَيُمِيتُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١٥٦﴾ وَلَئِنْ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ
اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ ﴿١٥٧﴾
وَلَئِنْ مُتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى اللَّهِ تَحْشُرُونَ ﴿١٥٨﴾﴾.

﴿١٥٦﴾ ينهى تعالى عباده المؤمنين أن يشابهوا الكافرين،
الذين لا يؤمنون بربهم ولا بقضائه وقدره من المنافقين
وغيرهم، ينهاهم عن مشابهتهم في كل شيء، وفي هذا
الأمر الخاص وهم أنهم يقولون لإخوانهم في الدين أو
في النسب ﴿إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ﴾؛ أي: سافروا للتجارة
﴿أَوْ كَانُوا غُرًى﴾؛ أي: غزاة ثم جرى عليهم قتل أو موت
يعارضون القدر ويقولون: ﴿لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَاقْتُلُوا﴾
وهذا كذب منهم، فقد قال تعالى: ﴿قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ
الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ﴾، ولكن هذا التكذيب
لم يفدهم، إلا أن الله يجعل هذا القول وهذه العقيدة حسرة
في قلوبهم، فتزداد مصيبتهم، وأما المؤمنون فإنهم يعلمون
أن ذلك بقدر الله فيؤمنون ويسلمون فيهدي الله قلوبهم
ويشبهها ويخفف بذلك عنهم المصيبة، قال الله ردًا عليهم:
﴿وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾؛ أي: هو المتفرد بذلك فلا يغني حذر عن قدر، ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ ﴿١٥٦﴾؛ فيجازيكم بأعمالكم
وتكذيبكم.

﴿١٥٧﴾ ثم أخبر تعالى أن القتل في سبيله أو الموت فيه، ليس فيه نقص ولا محذور، وإنما هو مما ينبغي أن يتنافس فيه
المتنافسون، لأنه سبب مفض وموصل إلى مغفرة الله ورحمته، وذلك خير مما يجمع أهل الدنيا من دنياه.

﴿١٥٨﴾ وأن الخلق أيضًا إذا ماتوا، أو قتلوا بأي حالة كانت، فإنما مرجعهم إلى الله ومآلهم إليه، فيجازي كلًا بعمله، فأين الفرار
إلا إلى الله، وما للخلق عاصم إلا الاعتصام بحبل الله.

﴿فِيمَا رَحِمَهُ مِنَ اللَّهِ لَئِنْ لَمْ يَكُنْ قَدْ غَلِظَ الْقَلْبُ لَأَنْفَضُوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ
فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾﴾.

﴿١٥٩﴾ أي: برحمة الله لك ولأصحابك، من الله عليك أن ألنت لهم جانبك وخفضت لهم جناحك، وترققت عليهم،
وحسنت لهم خلقك، فاجتمعوا عليك، وأحبوك وامتلوا أمرك، ﴿وَلَوْ كُنْتَ قَطًّا﴾؛ أي: سعى الخلق ﴿غَلِظَ الْقَلْبُ﴾؛ أي:
قاسيه، ﴿لَأَنْفَضُوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ لأن هذا ينفرهم ويبغضهم لمن قام به هذا الخلق السعى، فالأخلاق الحسنة من الرئيس في الدين
تجذب الناس إلى دين الله وترغبهم فيه، مع ما لصاحبه من المدح والثواب الخاص، والأخلاق السيئة من الرئيس في الدين
تنفر الناس عن الدين وتبغضهم إليه، مع ما لصاحبها من الذم والعقاب الخاص. فهذا الرسول المعصوم يقول الله له ما يقول،
فكيف بغيره؟ أليس من أوجب الواجبات وأهم المهمات الاقتداء بأخلاقه الكريمة، ومعاملة الناس بما يعاملهم به ﷺ، من
اللين وحسن الخلق والتأليف؟ امتثالًا لأمر الله وجذبًا لعباد الله لدين الله؟

الخلق، وفي ضمن ذلك الأمر بالاستنصار بالله والاعتماد عليه والبراءة من الحول والقوة، ولهذا قال: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾، تقدم المعمول يؤذن بالحصص، أي: على الله توكلوا لا على غيره، لأنه قد علم أنه هو الناصر وحده، فالاعتماد عليه توحيد محصل للمقصود، والاعتماد على غيره شرك غير نافع لصاحبه بل ضار، وفي هذه الآية الأمر بالتوكل على الله وحده، وأنه بحسب إيمان العبد يكون توكله.

﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ وَمَنْ يَغُلَّ يَأْتِ بِمَا عَلَّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ ثُمَّ تَوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾.

الغلول: هو الكتمان من الغنيمة والخيانة في كل مال يتولاه الإنسان وهو محرم إجماعاً، بل هو من الكبائر كما تدل عليه هذه الآية الكريمة وغيرها من النصوص، فأخبر الله تعالى أنه ما ينبغي ولا يليق بنبي أن يغل، لأن الغلول - كما علمت - من أعظم الذنوب وشر العيوب.

وقد صان الله تعالى أنبياءه عن كل ما يندسهم ويقدح فيهم، وجعلهم أفضل العالمين أخلاقاً وأظهرهم نفوساً، وأزكاهم وأطيبهم، ونزههم عن كل عيب، وجعلهم محل رسالته ومعدن حكمته، ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ [الأنعام: ١٢٤]، فبمجرد علم العبد بالواحد منهم يجزم بسلامتهم من كل أمر يقدح فيهم، ولا يحتاج إلى دليل على ما قيل فيهم من أعدائهم، لأن معرفته بنبوتهم مستلزمة لدفع ذلك، ولذلك أتى بصيغة يمتنع معها وجود الفعل منهم فقال: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ﴾؛ أي: يمتنع ذلك ويستحيل على من اختارهم الله لنبوته. ثم ذكر الوعيد على من غل فقال: ﴿وَمَنْ يَغُلَّ يَأْتِ بِمَا عَلَّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾؛ أي: يأت به حاملة على ظهره؛ حيواناً كان أو متاعاً أو غير ذلك يعذب به يوم القيامة ﴿ثُمَّ تَوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ﴾؛ الغال وغيره كل يوفى أجره ووزره على مقدار كسبه ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾؛ أي: لا يزداد في سيئاتهم ولا يهضمون شيئاً من حسناتهم.

وتأمل حسن هذا الاحتراز في هذه الآية الكريمة لما ذكر عقوبة الغال، وأنه يأتي يوم القيامة بما غله، ولما أراد أن يذكر توفيته وجزاءه وكان اقتضاه على الغال يوهم بالمفهوم أن غيره من أنواع العاملين قد لا يوفون، أتى بلفظ عام جامع له ولغيره.

ثم أمر الله تعالى بأن يعفو عنهم ما صدر منهم من التقصير في حقه ﷺ ويستغفر لهم في التقصير في حق الله فيجمع بين العفو والإحسان، ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾؛ أي: الأمور التي تحتاج إلى استشارة ونظر وفكر، فإن في الاستشارة من الفوائد والمصالح الدينية والدنيوية ما لا يمكن حصره:

منها: أن المشاورة من العبادات المتقرب بها إلى الله.

ومنها: أن فيها تسميحاً لخواطرهم وإزالة لما يصير في القلوب عند الحوادث، فإن من له الأمر على الناس إذا جمع أهل الرأي والفضل، وشاورهم في حادثة من الحوادث، اطمأنت نفوسهم وأحبوه وعلموا أنه ليس يستبد عليهم، وإنما ينظر إلى المصلحة الكلية العامة للجميع، فبدلوا جهدهم ومقدورهم في طاعته لعلمهم بسعيه في مصالح العموم، بخلاف من ليس كذلك فإنهم لا يكادون يحبونه محبة صادقة ولا يطيعونه، وإن أطاعوه فطاعة غير تامة.

ومنها: أن في الاستشارة تنور الأفكار بسبب إعمالها فيما وضعت له، فصار في ذلك زيادة للعقول.

ومنها: ما تنتجه الاستشارة من الرأي المصيب، فإن المشاور لا يكاد يخطئ في فعله، وإن أخطأ أو لم يتم له مطلوب فليس بملوم.

فإذا كان الله يقول لرسوله ﷺ - وهو أكمل الناس عقلاً وأغزرهم علماً وأفضلهم رأياً -: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾، فكيف بغيره؟ ثم قال تعالى: ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ﴾؛ أي: على أمر من الأمور بعد الاستشارة فيه إن كان يحتاج إلى استشارة ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾؛ أي: اعتمد على حول الله وقوته متبرئاً من حولك وقوتك، ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ عليه اللاجئين إليه.

﴿إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذَلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾.

﴿١٦٠﴾ أي: إن يمددكم الله بنصره ومعونه ﴿فَلَا غَالِبَ لَكُمْ﴾، فلو اجتمع عليكم من في أقطارها وما عندهم من العدد والعدد؛ لأن الله لا مغالب له، وقد قهر العباد وأخذ بنواصيهم، فلا تتحرك دابة إلا بإذنه، ولا تسكن إلا بإذنه، ﴿وَإِنْ يَخْذَلْكُمْ﴾ ويكلكم إلى أنفسكم ﴿فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ﴾، فلا بد أن تنخلدوا ولو أعانكم جميع

وكانوا من العلماء الربانيين ﴿وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ﴾؛ بعثة هذا الرسول ﴿لَقَدْ ضَلَلْتُمْ بَيْنَ﴾؛ لا يعرفون الطريق الموصل إلى ربهم، ولا ما يزكي النفوس، ويطهرها، بل ما يزين لهم جهلهم فغلوه، ولو ناقض ذلك عقول العالمين!

﴿أَوَلَمَّْا أَصَبْتَكُمْ مُصِيبَةً قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ ﴿١٦٥﴾ ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَيَازِنُ اللَّهُ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿١٦٦﴾ ﴿وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْ فَنُقِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَاتَّبَعْنَكُمْ هُمْ لِلْكَافِرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَنِ يَقُولُونَ يَأْفَوهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ﴾ ﴿١٦٧﴾ ﴿الَّذِينَ قَالُوا لَاخُونَهُمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ ﴿١٦٨﴾.

﴿١٦٥﴾ هذا تسلية من الله تعالى لعباده المؤمنين حين أصابهم ما أصابهم يوم أحد وقتل منهم نحو سبعين، فقال الله: إنكم ﴿قَدْ أَصَبْتُمْ﴾؛ من المشركين ﴿مِثْلَهَا﴾ [يوم بدر]؛ فقتلتم سبعين من كبارهم وأسرتهم سبعين، فليهن الأمر ولتخف المصيبة عليكم مع أنكم لا تستون أنتم وهم، فإن قتلاكهم في الجنة وقتلاهم في النار، ﴿قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا﴾؛ أي: من أين أصابنا ما أصابنا وهزمننا؟ ﴿قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ﴾؛ حين تنازعتم وعصيتهم من بعد ما أراكم ما تحبون، فعودوا على أنفسكم باللوم واحذروا من الأسباب المردية ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ ﴿١٦٦﴾؛ فإياكم وسوء الظن بالله، فإنه قادر على نصركم، ولكن له أتم الحكمة في ابتلائكم ومصيبتكم ﴿ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ﴾ [محمد: ٤].

﴿١٦٧﴾ ثم أخبر أن ما أصابهم يوم التقى الجمعان: جمع المسلمين وجمع المشركين في أحد من القتل والهزيمة، أنه يأذنه وقضائه وقدره، لا مرد له ولا بد من وقوعه، والأمر القدري إذا نفذ لم يبق إلا التسليم له وأنه قدره لحكم عظيمة وفوائد جسيمة، وأنه ليتبين بذلك المؤمن من المنافق الذين لما أمروا بالقتال ﴿وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْ فَنُقِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾؛ أي: ذباً عن دين الله وحماية له وطلباً لمرضاة الله، ﴿أَوْ ادْفَعُوا﴾ عن محارمكم وبلدكم إن لم يكن لكم نية صالحة، فأبوا ذلك واعتذروا بأن: ﴿قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَاتَّبَعْنَكُمْ﴾؛ أي:

﴿أَفَمَنْ اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللَّهِ كَمَنْ بَاءَ بِسَخَطٍ مِنَ اللَّهِ وَمَا لَهُ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ ﴿١٦٩﴾ ﴿هُمْ دَرَجَتٌ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ ﴿١٧٠﴾.

﴿١٦٩﴾ يخبر تعالى أنه لا يستوي من كان قصده رضوان ربه والعمل على ما يرضيه كمن ليس كذلك ممن هو مكب على المعاصي مسخط لربه، هذان لا يستويان في حكم الله وحكمة الله وفي فطر عباد الله ﴿أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لَا يَسْتَوُونَ﴾ ﴿١٧٠﴾ [السجدة: ١٨]؛ لهذا قال هنا: ﴿هُمْ دَرَجَتٌ عِنْدَ اللَّهِ﴾؛ أي: كل هؤلاء متفاوتون في درجاتهم ومنازلهم بحسب تفاوتهم في أعمالهم.

فالمبتعون لرضوان الله يسعون في نيل الدرجات العاليات والمنازل والغرفات، فيعطيه الله من فضله وجوده على قدر أعمالهم، والمبتعون لمساخط الله يسعون في النزول في الدرجات إلى أسفل سافلين كل على حسب عمله، والله بصير بأعمالهم لا يخفى عليه منها شيء، بل قد علمها وأثبتها في اللوح المحفوظ وكل ملائكته الأمناء الكرام أن يكتبوها ويحفظوها ويضبطوها.

﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ ﴿١٧١﴾.

﴿١٧١﴾ هذه المنة التي امتن الله بها على عباده أكبر النعم بل أصلها، وهي الامتنان عليهم بهذا الرسول الكريم الذي أنقذهم الله به من الضلالة، وعصمهم به من الهلكة فقال: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾؛ يعرفون نسبه وحاله ولسانه من قومهم وقبيلتهم ناصحاً لهم مشفقاً عليهم يتلو عليهم آيات الله؛ يعلمهم ألفاظها ومعانيها ﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾؛ من الشرك والمعاصي والرذائل وسائر مساوئ الأخلاق ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ﴾؛ إما جنس الكتاب الذي هو القرآن فيكون قوله: ﴿يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ﴾؛ المراد به الآيات الكونية، أو المراد بالكتاب هنا الكتابة فيكون قد امتن عليهم بتعليم الكتاب والكتابة التي بها تدرك العلوم وتحفظ ﴿وَالْحِكْمَةَ﴾؛ هي: السنة التي هي شقيقة القرآن، أو وضع الأشياء مواضعها ومعرفة أسرار الشريعة فجمع لهم بين تعليم الأحكام وما به تنفذ الأحكام وما به تدرك فوائدها وثمراتها ففاقوا بهذه الأمور العظيمة جميع المخلوقين،

لو نعلم أنكم يصير بينكم وبينهم قتال لاتبعناكم، وهم كذبة في هذا، قد علموا وتيقنوا، وعلم كل أحد أن هؤلاء المشركين قد ملثوا من الحق والغيب على المؤمنين بما أصابوا منهم، وأنهم قد بذلوا أموالهم وجمعوا ما يقدرون عليه من الرجال والعدد، وأقبلوا في جيش عظيم قاصدين المؤمنين في بلدهم متحرقين على قتالهم، فمن كانت هذه حالهم كيف يتصور أنه لا يصير بينهم وبين المؤمنين قتال؟

خصوصاً وقد خرج المسلمون من المدينة وبرزوا لهم، هذا من المستحيل، ولكن المنافقين ظنوا أن هذا العذر يروج على المؤمنين، قال تعالى: ﴿هُمُ لِلْكَافِرِ يَوْمِيذٍ﴾؛ أي: في تلك الحال التي تركوا فيها الخروج مع المؤمنين ﴿أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾، وهذه خاصة المنافقين يظهرن بكلامهم وفعالهم ما يبيطون ضده في قلوبهم وسرائرهم، ومنه قولهم: ﴿لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّاتَّبَعْنَاكُمْ﴾، فإنهم قد علموا وقوع القتال. ويستدل بهذه الآية على قاعدة ارتكاب أخف المفسدتين، لدفع أعلاهما وفعل أدنى المصلحتين للعجز عن أعلاهما، لأن المنافقين أمروا أن يقاتلوا للدين، فإن لم يفعلوا فللمدافعة عن العيال والأوطان ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ﴾، فيبديه لعباده المؤمنين، ويعاقبهم عليه.

وَمَا أَصْبَحْتُمْ يَوْمَ النَّفْيِ الْجَمْعَانِ فَيَا ذِي اللَّهِ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٦٨﴾ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَمَآؤًا قَتَلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ أَذْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّاتَّبَعْنَاكُمْ هُمْ لِلْكَافِرِ يَوْمِيذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ﴿١٦٩﴾ الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قَتَلُوا قُلَّ قَادَرُوا عَنْ أَنْفُسِكُمْ أَلَمْ تَمُوتْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٧٠﴾ وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٧١﴾ فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٢﴾ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةِ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلِهِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٧٣﴾ الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقُوا أَجْرَ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾ الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴿١٧٥﴾

ثم قال تعالى: ﴿الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قَتَلُوا﴾؛ أي: جمعوا بين التخلف عن الجهاد وبين الاعتراض والتكذيب بقضاء الله وقدره، قال الله ردًا عليهم: ﴿قُلْ قَادَرُوا﴾؛ أي: ادفعوا ﴿عَنْ أَنْفُسِكُمْ أَلَمْ تَمُوتْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾، إنهم لو أطاعوكم ما قتلوا، لا تقدرون على ذلك ولا تستطيعونه. وفي هذه الآيات دليل على أن العبد قد يكون فيه خصلة كفر وخصلة إيمان، وقد يكون إلى إحداها أقرب منه إلى الأخرى.

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ ﴿١٧١﴾ فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ ﴿١٧٢﴾ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةِ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلِهِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿١٧٣﴾.

هذه الآيات الكريمات فيها فضل الشهداء وكرامتهم، وما من الله عليهم به من فضله وإحسانه، وفي ضمنها تسلية الأحياء عن قتالهم وتعزيتهم وتشيطهم للقتال في سبيل الله والتعرض للشهادة فقال: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾؛ أي: في جهاد أعداء الدين قاصدين بذلك إعلاء كلمة الله، ﴿أَمْوَاتًا﴾؛ أي: لا يخطر ببالك وحسبانك أنهم ماتوا، وفقدوا، وزهبت عنهم لذة الحياة الدنيا والمتعة يزهرتها، الذي يحذر من فواته من جبن عن القتال وزهد في الشهادة، ﴿بَلْ﴾ قد حصل لهم أعظم مما يتنافس فيه المتنافسون، فهم ﴿أَحْيَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ في دار كرامته، ولفظ: ﴿عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾، يقتضي علو درجتهم وقربهم من ربهم، ﴿يُرْزَقُونَ﴾ من أنواع النعيم الذي لا يعلم وصفه إلا من أنعم به عليهم.

ومع هذا ﴿فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾؛ أي: مغتبطين بذلك وقد قرت به عيونهم وفرحت به نفوسهم، وذلك لحسنه وكثرته وعظمته وكمال اللذة في الوصول إليه وعدم المنغص، فجمع الله لهم بين نعيم البدن بالرزق ونعيم

الجزء الرابع

سورة آل عمران

القلب والروح بالفرح بما آتاهم من فضله، فتم لهم النعيم والسرور وجعلوا يستبشرون ﴿بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ﴾؛ أي: يبشر بعضهم بعضًا بوصول إخوانهم الذين لم يلحقوا بهم وأنهم سينالون ما نالوا ﴿أَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾؛ أي: يستبشرون بزوال المحذور عنهم وعن إخوانهم المستلزم كمال السرور.

﴿يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ﴾؛ أي: يهنئ بعضهم بعضًا بأعظم مهناً به وهو نعمة ربهم وفضله وإحسانه ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾؛ بل ينميهِ ويشكره، ويزيده من فضله ما لا يصل إليه سعيهم.

وفي هذه الآيات إثبات نعيم البرزخ، وأن الشهداء في أعلى مكان عند ربهم، وفيه تلاقي أرواح أهل الخير، وزيارة بعضهم بعضًا، وتبشير بعضهم بعضًا.

﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرُّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقُوا أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴿١٧٢﴾ فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمَسَّ لَهُمْ سُوءٌ وَأَتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٣﴾ إِنَّمَا ذَلِكَ الشَّيْطَانُ يُوْخِوْهُ أُولِيَائِهِ. فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٧٤﴾

﴿١٧٢﴾ لما رجع النبي ﷺ من أحد إلى المدينة وسمع أن أبا سفيان ومن معه من المشركين قد هموا بالرجوع إلى المدينة ندب أصحابه إلى الخروج، فخرجوا على ما بهم من الجراح استجابة لله ولرسوله وطاعة لله ولرسوله، فوصلوا إلى حمراء الأسد^(١)، وجاءهم من جاءهم وقال لهم: ﴿إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ﴾؛ وهموا باستئصالكم تخويفاً لهم وترهيباً، فلم يزددهم ذلك إلا إيماناً بالله واثكالاً عليه ﴿وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ﴾؛ أي: كافينا كل ما أهمنا ﴿وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾؛ المفوض إليه تدبير عباده والقيام بمصالحهم.

﴿١٧٣﴾ فَانْقَلَبُوا؛ أي: رجعوا ﴿بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمَسَّ لَهُمْ سُوءٌ﴾؛ وجاء الخبر المشركين: أن الرسول وأصحابه قد خرجوا إليكم وندم من تخلف منهم، فألقى الله الرعب في قلوبهم واستمروا راجعين إلى مكة، ورجع المؤمنون بنعمة من الله وفضل حيث منَّ عليهم بالتوفيق للخروج بهذه الحالة والاثكال على ربهم، ثم إنه قد كتب لهم أجر غزاة تامة، فبسبب إحسانهم بطاعة ربهم وتقواهم عن معصيتهم، لهم أجر عظيم، وهذا فضل الله عليهم.

﴿١٧٤﴾ ثم قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ذَلِكَ الشَّيْطَانُ يُوْخِوْهُ أُولِيَائِهِ﴾؛ أي: إن ترهيب من رهب من المشركين - وقال: إنهم ﴿جَمَعُوا لَكُمْ﴾ - داع من دعاة الشيطان يخوف بها أوليائه الذين عدم إيمانهم أو ضعف، ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾؛ أي: فلا تخافوا المشركين أوليائه الشيطان فإن نواصيهم بيد الله لا يتصرفون إلا بقدره، بل خافوا الله الذي ينصر أوليائه الخائفين منه، المستجيبين لدعوته.

وزيادة عذاب وعقوبة إلى عذابهم، ولهذا قال: ﴿إِنَّمَا نُكَلِّمُ لَهْمَ لِيَزِدَادُوا إِشْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ (١٧٦)، فالله تعالى يملئ للظالم حتى يزداد طغيانه، ويترادف كفرانه حتى إذا أخذه أخذه أخذ عزيز مقتدر، فليحذر الظالمون من الإمهال، ولا يظنوا أن يفوتوا الكبير المتعال.

﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِيٰ مِنْ رُسُلِهِ مَن يَشَاءُ فَاتَّبِعُوا بِاللَّهِ رُسُلَهُ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ (١٧٧).

(١٧٦) أي: ما كان في حكمة الله أن يترك المؤمنين على ما أنتم عليه من الاختلاط وعدم التمييز، حتى يميز الخبيث من الطيب، والمؤمن من المنافق، والصادق من الكاذب، ولم يكن في حكمته أيضًا أن يطلع عباده على الغيب الذي يعلمه من عباده، فاقضت حكمته الباهرة أن يتلي عباده، ويفتنهم بما به يتميز الخبيث من الطيب من أنواع الابتلاء والامتحان، فأرسل الله رسله وأمر بطاعتهم والانقياد لهم والإيمان بهم، ووعدهم على الإيمان والتقوى الأجر العظيم، فانقسم الناس بحسب اتباعهم للرسل قسمين: مطيعين وعاصين، ومؤمنين ومنافقين، ومسلمين وكافرين، ليرتب على ذلك الثواب والعقاب، وليظهر عدله وفضله وحكمته لخلقه.

﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْغُلُونَ صَمًا ءَاتَتْهُمْ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرٌ لَهُمْ بَلْ هُمْ سَوَّوُونَ مَا يَبْغُلُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ (١٧٨).

(١٧٨) أي: ولا يظن الذين يبخلون؛ أي: يمنعون ما عندهم مما آتاهم الله من فضله من المال والجاه والعلم وغير ذلك، مما منحهم الله وأحسن إليهم به، وأمرهم ببذل ما لا يضرهم منه لعباده فبخلوا بذلك، وأمسكوه وضمنوا به على عباد الله، وظنوا أنه خير لهم، بل هو شر لهم في دينهم ودنياهم وعاجلهم وآجلهم، ﴿سَوَّوُونَ مَا يَبْغُلُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾؛ أي يجعل ما بخلوا به طوقاً في أعناقهم يعذبون به كما ورد في الحديث الصحيح: «إن البخليل يمثل له ماله يوم القيامة شجاعاً أقرع له زبيبتان يأخذن ببلهزمته يقول: أنا مالك، أنا كنزك»^(١)، وتلا رسول الله ﷺ مصداق ذلك هذه الآية،

(١) البخاري (١٤٠٣، ٤٥٦٥).

وفي هذه الآية وجوب الخوف من الله وحده وأنه من لوازم الإيمان، فعلى قدر إيمان العبد يكون خوفه من الله، والخوف المحمود ما حجز العبد عن محارم الله.

﴿وَلَا يَحْزَنْكَ الَّذِينَ يُسْرِعُونَ فِي الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا يُرِيدُ اللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حِطًّا فِي الْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (١٧٩) إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرُوا الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٨٠).

(١٧٩) كان النبي ﷺ حريصاً على الخلق مجتهداً في هدايتهم، وكان يحزن إذا لم يهتدوا، قال الله تعالى: ﴿وَلَا يَحْزَنْكَ الَّذِينَ يُسْرِعُونَ فِي الْكُفْرِ﴾ من شدة رغبتهم فيه وحرصهم عليه ﴿إِنَّهُمْ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا﴾ فالله ناصر دينه ومؤيد رسوله ومنفذ أمره من دونهم، فلا تبالهم ولا تحفل بهم، إنما يضررون ويسعون في ضرر أنفسهم بفوات الإيمان في الدنيا، وحصول العذاب الأليم في الآخرة، من هوانهم على الله وسقوطهم من عينه وإرادته أَلَّا يجعل لهم نصيباً في الآخرة من ثوابه؛ خذلهم فلم يوفقهم لما وفق إليه أوليائه، ومن أراد به خيراً عدلاً منه وحكمة، لعلمه بأنهم غير زاكين على الهدى ولا قابلين للرشاد لفساد أخلاقهم وسوء قصدهم.

(١٨٠) ثم أخبر أن الذين اختاروا الكفر على الإيمان ورغبوا فيه رغبة من بذل ما يحب من المال في شراء ما يحب من السلع ﴿لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا﴾، بل ضرر فعلهم يعود على أنفسهم، ولهذا قال: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (١٨٠)، وكيف يضررون الله شيئاً؟! وهم قد زهدوا أشد الزهد في الإيمان ورغبوا كل الرغبة بالكفر بالرحمن فالله غني عنهم، وقد قبض لدينه من عباده الأبرار الأزكياء سواهم وأعد له ممن ارتضاه لنصرته أهل البصائر والعقول، وذوي الأبواب من الرجال الفحول، قال الله تعالى: ﴿قُلْ ءَاتُوا بِهٖ أَوْ لَا تُوْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا﴾ (١٨١) [الإسراء: ١٠٧] الآيات.

﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُكَلِّمُهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُكَلِّمُهُمْ لِيَزِدَادُوا إِشْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ (١٨٢).

(١٨٢) أي: ولا يظن الذين كفروا بربهم، وناذبوا دينه، وحاربوا رسوله أن تركنا إياهم في هذه الحياة الدنيا، وعدم استئصالنا لهم وإملاءنا لهم خير لأنفسهم ومحبة منا لهم، كلا ليس الأمر كما زعموا، وإنما ذلك لشربه الله بهم

فهؤلاء حسبوا أن يخلهم نافعهم ومجد عليهم فانقلب عليهم الأمر، وصار من أعظم مضارهم وسبب عقابهم.

﴿وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾؛ أي: هو تعالى مالك الملك وترد جميع الأملاك إلى مالكها وينقلب العباد من الدنيا ما معهم درهم ولا دينار ولا غير ذلك من المال. قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾ [مريم: ٤٠]، وتأمل كيف ذكر السبب الابتدائي والسبب الغائي، الموجب كل واحد منهما ألا ييخل العبد بما أعطاه الله.

أخبر أولاً أن الذي عنده وفي يده فضل من الله ونعمة ليس ملكاً للعبد، بل لولا فضل الله عليه وإحسانه لم يصل إليه منه شيء. فمنعه ذلك منع لفضل الله وإحسانه، ولأن إحسانه موجب للإحسان إلى عبيده، كما قال تعالى: ﴿وَأَحْسِنَ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾ [القصص: ٢٧]، فمن تحقق أن ما بيده فضل من الله لم يمنع الفضل الذي لا يضره بل ينفعه في قلبه وماله وزيادة إيمانه وحفظه من الآفات.

ثم ذكر ثانياً أن هذا الذي بيد العباد، كلها ترجع إلى الله ويرثها تعالى وهو خير الوارثين، فلا معنى للبلخل بشيء هو زائل عنك، منتقل إلى غيرك.

ثم ذكر ثالثاً السبب الجزائي فقال: ﴿وَاللَّهُ يَمَّا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [١٨١]، فإذا كان خبيراً بأعمالكم جميعها ويستلزم ذلك الجزاء الحسن على الخيرات والعقوبات على الشر لم يتخلف من في قلبه مثقال ذرة من إيمان عن الإنفاق الذي يجزي به الثواب ولا يرضى بالإمساك الذي به العقاب.

﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُمُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلُ دُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ [١٨١] ذَلِكَ يَمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيَكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَالَمِينَ [١٨٢].

[١٨١] يخبر تعالى عن قول هؤلاء المتمردين الذين قالوا أقبح المقالة وأشنعها وأسمجها، فأخبر أنه قد سمع ما قالوه، وأنه سيكتبه ويحفظه مع أفعالهم الشنيعة وهو قتلهم الأنبياء الناصحين، وأنه سيعاقبهم على ذلك أشد العقوبة وأنه يقال لهم بدل قولهم إن الله فقير ونحن أغنياء: ﴿دُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ [١٨١]؛ المحرق النافذ من البدن إلى الأفتدة، وأن عذابهم ليس ظمناً من الله لهم فإنه ﴿لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَالَمِينَ﴾ [١٨٢]؛ فإنه منزّه عن ذلك.

[١٨٢] وإنما ﴿ذَلِكَ يَمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيَكُمْ﴾ من المخازي والقبائح التي أوجبت استحقاقهم العذاب وحرمانهم الثواب. وقد ذكر المفسرون أن هذه الآية نزلت في قوم من اليهود تكلموا بذلك، وذكرنا منهم فنحاص بن عازوراء من رؤساء علماء اليهود في المدينة، وأنه لما سمع قول الله تعالى: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ [البقرة: ٢٤٥]، ﴿وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ [الحديد: ١٨]، قال على وجه التكبر والتجرهم هذه المقالة قبحه الله، فذكرها الله عنهم، وأخبر أنه ليس ببدع من شنائعهم، بل قد سبق لهم من الشنائع ما هو نظير ذلك وهو قتلهم الأنبياء بغير حق، هذا القيد يراد به أنهم تجرؤوا على قتلهم مع علمهم بشناعتهم لا جهلاً وضلالاً بل تمرداً وعناداً.

﴿الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عٰهَدَ إِلَيْنَا آلَا تَوٰمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتَيْنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّن قَبْلِ يَأْتِيَنَّتْ وَيَأْتِيَنَّتْ قُلْتُمْ قَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِنْ كُنْتُمْ صٰدِقِينَ﴾ [١٨٢] فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ رَسُولٌ مِّن قَبْلِكَ جَاءُوا بِأَلْبَيْنَتِ

وَالرُّزْبُ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ ﴿١٨٤﴾

﴿١٨٣﴾ يخبر تعالى عن حال هؤلاء المفترين القائلين: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَمِدَ إِيَّتَانَا﴾؛ أي: تقدم إلينا وأوصى ألا نؤمن لرسول حتى يأتينا بقربان تأكله النار فجمعوا بين الكذب على الله وحصر آية الرسل بما قالوه من هذا الإفك المبين، وأنهم إن لم يؤمنوا برسول لم يأتهم بقربان تأكله النار فهم في ذلك مطيعون لربهم ملتزمون وعهده، وقد علم أن كل رسول يرسله الله يؤيده من الآيات والبراهين ما على مثله آمن البشر، ولم يقصرها على ما قالوه، ومع هذا فقد قالوا إفكاً لم يلتزموه وباطلاً لم يعملوا به، ولهذا أمر الله رسوله أن يقول لهم: ﴿قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّن قَبْلِ يَابِسْتِ الدَّالَاتِ عَلَى صَدَقِهِمْ﴾ ﴿وَبِالَّذِي قُلْتُمْ﴾ بأن اتاكم بقربان تأكله النار ﴿فَلَيْرَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ ﴿١٨٣﴾؛ أي: في دعوكم الإيمان برسول يأتكم بقربان تأكله النار، فقد تبين بهذا كذبهم وعنادهم وتناقضهم.

﴿١٨٤﴾ ثم سلى رسوله ﷺ فقال: ﴿فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رَسُولٌ مِّن قَبْلِكَ﴾؛ أي: هذه عادة الظالمين ودأبهم الكفر بالله وتكذيب رسل الله، وليس تكذيبهم لرسول الله عن قصور بما أتوا به أو عدم تبين حجة، بل قد ﴿جَاءَهُ يَابِسْتِ﴾؛ أي: الحجج العقلية والبراهين النقليية ﴿وَالرُّزْبُ﴾؛ أي: الكتب المزبورة المنزلة من السماء التي لا يمكن أن يأتي بها غير الرسل، ﴿وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ﴾ ﴿لِلْأَحْكَامِ الشَّرْعِيَّةِ وَبَيَانِ مَا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ مِنَ الْمَحَاسِنِ الْعَقْلِيَّةِ، وَمُنِيرٍ أَيْضًا لِلْأَخْبَارِ الصَّادِقَةِ، فَإِذَا كَانَ هَذَا عَادَتَهُمْ فِي عَدَمِ الْإِيمَانِ بِالرَّسْلِ الَّذِينَ هَذَا وَصَفَهُمْ فَلَا يَحْزَنُكَ أَمْرُهُمْ وَلَا يَهْمُنُكَ شَأْنُهُمْ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى:

﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَاقَةُ الْوَيْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّقُ أَجْرَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَمَن رُّحِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ ﴿١٨٥﴾

﴿١٨٥﴾ هذه الآية الكريمة فيها التهديد في الدنيا بفنائها وعدم بقائها وأنها متاع الغرور، تفتن بزخرفها وتخدع بغرورها وتغر بمحاسنها، ثم هي متقلبة ومتقلِّعة عنها إلى دار القرار التي توفي فيها النفوس ما عملت في هذه الدار من خير وشر ﴿فَمَن رُّحِحَ﴾؛ أي: أخرج ﴿عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾؛ أي: حصل له الفوز العظيم بالنجاة من العذاب الأليم

والوصول إلى جنات النعيم التي فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

ومفهوم الآية: أن من لم يزحج عن النار، ويدخل الجنة فإنه لم يفز، بل قد شقي الشقاء الأبدي، وابتلي بالعذاب السرمدى.

وفي هذه الآية إشارة لطيفة إلى نعيم البرزخ وعذابه، وأن العاملين يجزون فيه بعض الجزاء مما عملوه ويقدم لهم أنموذج مما أسلفوه، يفهم هذا من قوله: ﴿وَإِنَّمَا تُوَفَّقُ أَجْرَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾؛ أي: توفية الأعمال التامة إنما يكون يوم القيامة، وأما ما دون ذلك فيكون في البرزخ، بل قد يكون قبل ذلك في الدنيا كقوله: ﴿وَلَنَذِقَنَّهُمْ مِّنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ﴾ [السجدة: ٢١].

﴿لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِن عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ ﴿١٨٦﴾

﴿١٨٦﴾ يخبر تعالى ويخاطب المؤمنين أنهم سيبتلون في أموالهم من النفقات الواجبة والمستحبة، ومن التعريض لإتلافها في سبيل الله، وفي أنفسهم من التكليف بأعباء التكالييف الثقيلة على كثير من الناس كالجهاد في سبيل الله، والتعرض فيه للتعب والقتل والأسر والجراح، وكالأمراض التي تصيبه في نفسه أو فيمن يحب، ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم والمشركين ﴿أَذًى كَثِيرًا﴾ من الطعن فيكم وفي دينكم وكتابكم ورسولكم. وفي إخباره لعباده المؤمنين بذلك عدة فوائد:

منها: أن حكمته تعالى تقتضي ذلك لتمييز المؤمن الصادق من غيره.

ومنها: أنه تعالى يقدر عليهم هذه الأمور لما يريد بهم من الخير ليعلي درجاتهم ويكفر من سيئاتهم ويزداد بذلك إيمانهم ويتم به إيقانهم، فإنه إذا أخبرهم بذلك ووقع كما أخبر، ﴿قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ، وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ، وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا﴾ ﴿٢٢﴾ [الأحزاب: ٢٢].

ومنها: أنه أخبرهم بذلك لتوطن نفوسهم على وقوع ذلك والصبر عليه إذا وقع؛ لأنهم قد استعدوا لوقوعه فيهن عليهم

الْمَائِدَةُ

سورة آل عمران

وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ
وَلَا تَكْفُرُونَهُ، فَبَذَلُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَأَشْرَوْا بِهِ مِنَّا
قَلِيلًا فِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴿١٨٧﴾ لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ
بِمَا آتَوْا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ
بِمَقَارِقٍ مِنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨٨﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ
السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٨٩﴾ إِنَّ فِي
خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَآخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ
لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿١٩٠﴾ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِسْمًا وَقُعُودًا
وَعَلَى جُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ
رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا سُبْحَنَكَ قِسْمًا وَعَذَابًا نَارٍ ﴿١٩١﴾
رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تَدْخِلُ النَّارَ فَقَدْ أَخْرَجْتَهُ، وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ
أَنْصَارٍ ﴿١٩٢﴾ رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ
آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا
سَيِّئَاتِنَا وَتَوَقَّنَا مِنَ الْآثَرَارِ ﴿١٩٣﴾ رَبَّنَا وَءَاثِنَا مَا وَعَدْتَنَا
عَلَى رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْوَعْدَ ﴿١٩٤﴾

٧٥

حملة وتخف عليهم مؤنته ويلجئون إلى الصبر والتقوى، ولهذا قال: ﴿وَإِنْ تَصَبَّرُوا وَتَتَّقُوا﴾؛ أي: إن تصبروا على ما نالكم في أموالكم وأنفسكم من الابتلاء والامتحان وعلى أذية الظالمين وتتقوا الله في ذلك الصبر؛ بأن تنووا به وجه الله والتقرب إليه ولم تتعدوا في صبركم الحد الشرعي من الصبر في موضع لا يحل لكم فيه الاحتمال، بل وظيفتكم فيه الانتقام من أعداء الله.

﴿فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ ﴿١٨٧﴾؛ أي: من الأمور التي يعزم عليها وينافس فيها ولا يوفق لها إلا أهل العزائم والهمم العالية، كما قال تعالى: ﴿وَمَا يُلْقِهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقِهَا إِلَّا ذُو حِظٍّ عَظِيمٍ﴾ ﴿٢٥﴾ [نصفت: ١٣٥].

﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْفُرُونَهُ، فَبَذَلُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَأَشْرَوْا بِهِ مِنَّا قَلِيلًا فِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ﴾ ﴿١٨٧﴾ لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا آتَوْا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَقَارِقٍ مِنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ﴿١٨٨﴾.

﴿الميثاق﴾ هو العهد الثقيل المؤكد، وهذا الميثاق أخذه الله تعالى على كل من أعطاه الله الكتاب، وعلمه العلم أن يبين للناس ما يحتاجون إليه مما علمه الله ولا يكتهم ذلك ويخل

عليهم به، خصوصاً إذا سأله أو وقع ما يوجب ذلك، فإن كل من عنده علم يجب عليه في تلك الحال أن يبينه ويوضح الحق من الباطل. فأما الموفقون فقاموا بهذا أتم القيام وعلموا الناس مما علمهم الله ابتغاء مرضاة ربهم وشفقة على الخلق وخوفاً من إثم الكتمان. وأما الذين أوتوا الكتاب من اليهود والنصارى ومن شابههم فبذلوا هذه العهود والمواثيق وراء ظهورهم فلم يعبوا بها فكتموا الحق وأظهروا الباطل تجرؤاً على محارم الله وتهاوناً بحقوقه تعالى وحقوق الخلق واشتروا بذلك الكتمان ثمنًا قليلًا وهو ما يحصل لهم إن حصل من بعض الرياسات والأموال الحقة من سفلتهم المتبعين أهواءهم المقدمين شهواتهم على الحق ﴿فِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ﴾ ﴿١٨٧﴾ لأنه أخس العوض والذي رغبوا عنه وهو بيان الحق الذي فيه السعادة الأبدية والمصالح الدينية والدنيوية أعظم المطالب وأجلها، فلم يختاروا الدني الخسيس وبتروا العالي النفيس إلا لسوء حظهم وهوانهم وكونهم لا يصلحون لغير ما خلقوا له. ثم قال تعالى:

﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا آتَوْا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا﴾؛ أي: بالخير الذي لم يفعلوه والحق الذي لم يقولوه، فجمعوا بين فعل الشر وقوله والفرح بذلك ومحبة أن يحمدا على فعل الخير الذي ما فعلوه، ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَقَارِقٍ مِنَ الْعَذَابِ﴾؛ أي: بمحل نجوة منه وسلامة، بل قد استحقوه وسيصبرون إليه، ولهذا قال: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ﴿١٨٨﴾.

ويدخل في هذه الآية الكريمة أهل الكتاب الذين فرحوا بما عندهم من العلم ولم يتقادوا للرسول، وزعموا أنهم هم المحقون في حالهم ومقالهم، وكذلك كل من ابتدع بدعة قولية أو فعلية، وفرح بها، ودعا إليها، وزعم أنه محق وغيره مبطل كما هو الواقع من أهل البدع.

سلطانه وشمول قدرته، وما فيها من الإحكام والإتقان وبديع الصنع ولطائف الفعل يدل على حكمة الله ووضع الأشياء مواضعها وسعة علمه، وما فيها من المنافع للخلق يدل على سعة رحمة الله وعموم فضله وشمول بره ووجوب شكره، وكل ذلك يدل على تعلق القلب بخالقها ومبدعها وبذل الجهد في مرضاته، وألا يشرك به سواه ممن لا يملك لنفسه ولا لغيره مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء، وخص الله بالآيات أولي الأبواب وهم أهل العقول؛ لأنهم هم المتفكرون بها الناظرون إليها بعقولهم لا بأبصارهم.

﴿١٨٦﴾ ثم وصف أولي الأبواب بأنهم: ﴿يَذْكُرُونَ أَنَّهُ﴾ في جميع أحوالهم ﴿قِسْمًا وَقَعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾، وهذا يشمل جميع أنواع الذكر بالقول والقلب، ويدخل في ذلك الصلاة قائمًا، فإن لم يستطع فقاعدًا، فإن لم يستطع فعلى جنب، وأنهم يتفكرون ﴿فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾؛ أي: ليستدلوا بها على المقصود منها، ودل هذا على أن التفكير عبادة من صفات أولياء الله العارفين، فإذا تفكروا بها عرفوا أن الله لم يخلقها عبثًا فيقولون: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطُلًا تُسَبِّحُكَ﴾ عن كل ما لا يليق بجلالك، بل خلقتها بالحق وللحق، مشتملة على الحق ﴿فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ ﴿١٨٧﴾، بأن تعصمنا من السيئات وتوفقنا للأعمال الصالحات لننال بذلك النجاة من النار. ويتضمن ذلك سؤال الجنة لأنهم إذا وقاهم الله عذاب النار حصلت لهم الجنة، ولكن لما قام الخوف بقلوبهم، دعوا الله بأهم الأمور عندهم:

﴿١٨٨﴾ ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ﴾؛ أي: لحصوله على السخط من الله ومن ملائكته وأوليائه ووقوع الفضيحة التي لا نجاة منها ولا منقذ منها، ولهذا قال: ﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن أَنصَارٍ﴾ ﴿١٨٩﴾ ينقذونهم من عذابه، وفيه دلالة على أنهم دخلوها بظلمهم.

﴿١٩٠﴾ ﴿رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ﴾ وهو محمد ﷺ؛ أي: يدعو الناس إليه ويرغبهم فيه في أصوله وفروعه ﴿فَقَامْنَا﴾؛ أي: أجبناه مبادرة وسارعنا إليه. وفي هذا إخبار منهم بمنة الله عليهم وتبجح بنعمته وتوسل إليه بذلك أن يغفر ذنوبهم ويكفر سيئاتهم؛ لأن الحسنات يذهبن السيئات. والذي من عليهم بالإيمان سيمن عليهم بالأمان التام، ﴿وَوَفَّقْنَا مَعَ الْآبَرَارِ﴾ ﴿١٩١﴾، يتضمن هذا الدعاء التوفيق لفعل الخير وترك الشر الذي به يكون العبد من

ودلت الآية بمفهومها على أن من أحب أن يحمد ويشي عليه بما فعله من الخير واتباع الحق إذا لم يكن قصده بذلك الرياء والسמعة أنه غير مذموم، بل هذا من الأمور المطلوبة التي أخبر الله أنه يجزي بها المحسنين له الأعمال والأقوال، وأنه جازى بها خواص خلقه وسألوها منه كما قال إبراهيم عليه السلام: ﴿وَجَعَلْ لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ﴾ ﴿١٩٢﴾ [الشعراء: ٨٤]، وقال: ﴿سَلِّمْ عَلَيَّ نَوْجٍ فِي الْآخِرِينَ﴾ ﴿١٩٣﴾ [الكهف: ٨٠]، وقد قال عباد الرحمن: ﴿وَجَعَلْنَا لِلنَّفِثَاتِ إِمَامًا﴾ ﴿١٩٤﴾ [الفرقان: ٧٤]، وهي من نعم الباري على عبده ومنته التي تحتاج إلى شكر.

﴿١٩٥﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٩٦﴾.

﴿١٩٧﴾ أي: هو المالك للسموات والأرض وما فيهما من سائر أصناف الخلق، المتصرف فيهم بكمال القدرة وبديع الصنعة، فلا يمتنع عليه منهم أحد، ولا يعجزه أحد.

﴿١٩٨﴾ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿١٩٩﴾ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ أَنَّهُ قِسْمًا وَقَعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطُلًا تُسَبِّحُكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿٢٠٠﴾ رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن أَنصَارٍ ﴿٢٠١﴾ رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَن ءَامِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَقَّنَا مَعَ الْآبَرَارِ ﴿٢٠٢﴾ رَبَّنَا وَءَايِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴿٢٠٣﴾.

﴿٢٠٤﴾ يخبر تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ ﴿٢٠٥﴾ وفي ضمن ذلك حث العباد على التفكير فيها والتبصر بآياتها وتدبر خلقها. وأبهم قوله: ﴿لَآيَاتٍ﴾، ولم يقل على المطلب الفلاني إشارة لكثرتها وعمومها، وذلك لأن فيها من الآيات العجيبة ما يبهير الناظرين ويقنع المتفكرين ويجذب أفئدة الصادقين وينبه العقول النيرة على جميع المطالب الإلهية، فأما تفصيل ما اشتملت عليه فلا يمكن مخلوقًا أن يحصره ويحيط ببعضه، وفي الجملة فما فيها من العظمة والسعة وانتظام السير والحركة يدل على عظمة خالقها وعظمة

الأبرار والاستمرار عليه والثبات إلى الممات.

﴿١٩٤﴾ ولما ذكروا توفيق الله إياهم للإيمان وتوسلهم به إلى تمام النعمة، سألوه الثواب على ذلك، وأن ينجز لهم ما وعدهم به على السنة رسله من النصر والظهور في الدنيا، ومن الفوز برضوان الله وجنته في الآخرة، فإنه تعالى لا يخلف الميعاد، فأجاب الله دعاءهم وقبل تضرعهم فلهاذا قال:

﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَمِلٍ مِّنْكُمْ مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْتُمْ بِعَعْضِكُمْ مِّنَ الَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِينِهِمْ وَأَوْدُوا فِي سَبِيلِي وَقَتَلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ تَوَابًا مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ ﴿١٩٥﴾﴾

﴿١٩٥﴾ أي: أجب الله دعاءهم دعاء العبادة ودعاء الطلب وقال: ﴿أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَمِلٍ مِّنْكُمْ مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْتُمْ﴾ فالجميع سيلقون ثواب أعمالهم كاملاً موفراً، أي: كلكم على حد سواء في الثواب والعقاب، ﴿فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِينِهِمْ وَأَوْدُوا فِي سَبِيلِي وَقَتَلُوا وَقُتِلُوا﴾ فجمعوا بين الإيمان والهجرة ومفارقة المحبوبات من الأوطان والأموال طلباً لمرضاة ربهم وجاهدوا في سبيل الله ﴿لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ تَوَابًا مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ الذي يعطي عبده الثواب الجزيل على العمل القليل، ﴿وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ ﴿١٩٥﴾﴾، مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، فمن أراد ذلك فليطلبه من الله بطاعته والتقرب إليه بما يقدر عليه العبد.

﴿لَا يَغُرُّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ ﴿١٩٦﴾ مَتَّعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَهَادُ ﴿١٩٧﴾ لَكِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ هُمْ جَنَّتْ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا تَزُلْ وَنَ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ ﴿١٩٨﴾﴾

﴿١٩٦﴾ وهذه الآية المقصود منها التسلية عما يحصل للذين كفروا من متاع الدنيا وتنعمهم فيها، وتقلبهم في البلاد بأنواع التجارات والمكاسب واللذات وأنواع العز والغلبة في بعض الأوقات، فإن هذا كله:

﴿مَتَّعٌ قَلِيلٌ﴾ ليس له ثبوت ولا بقاء، بل يتمتعون به قليلاً ويعذبون عليه طويلاً، هذه أعلى حالة تكون للكافر، وقد رأيت ما تؤول إليه.

﴿وَأَمَّا الْمُتَّقُونَ لِرَبِّهِمُ الْمُؤْمِنُونَ بِهِ فَمَعَ مَا يَحْصُلُ لَهُمْ مِنْ عِزِّ الدُّنْيَا وَنَعِيمِهَا﴾ هُمْ جَنَّتْ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا؛ فلو قدر أنهم في دار الدنيا قد حصل لهم كل بؤس وشدة وعناء ومشقة، لكان هذا بالنسبة إلى النعيم المقيم والعيش السليم والسرور والحبور والبهجة نزرًا يسيرًا ومنحة في صورة محنة، ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ ﴿١٩٨﴾﴾ وهم الذين برت قلوبهم فبرت أفعالهم وأفعالهم فأنابهم البر الرحيم من بره أجرًا عظيمًا وعطاءً جسيمًا وفوزًا دائمًا.

﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتُرُونَ بِعَاقِبَتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أَوْ لَيْتَكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِنْ كَانَتْ سَرِيعَ الْحِسَابِ ﴿١٩٩﴾ يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَاطِبُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢٠٠﴾﴾

﴿١٩٩﴾ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتُرُونَ بِعَاقِبَتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أَوْ لَيْتَكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِنْ كَانَتْ سَرِيعَ الْحِسَابِ ﴿١٩٩﴾ يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَاطِبُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢٠٠﴾

تفسير سورة النساء

وهي مدنية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَجَعَلَكُمْ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنَسَاءً ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ۝﴾.

﴿١﴾ افتتح تعالى هذه السورة بالأمر بتقواه والحث على عبادته والأمر بصلة الأرحام والحث على ذلك، وبين السبب الداعي الموجب لكل من ذلك، وأن الموجب لتقواه: أنه ربكم ﴿الَّذِي خَلَقَكُمْ ۚ وَرَزَقَكُمْ وَرَبَّكُمْ بِنِعْمَةِ الْعَظِيمَةِ الَّتِي مِنْ جَمَلَتِهَا خَلَقَكُمْ ۚ مِنْ نَفْسٍ وَجَعَلَكُمْ ۚ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا ۚ لِيُنَاسِبَهَا فَيَسْكُنَ إِلَيْهَا وَتَمَّ بِذَلِكَ النِّعْمَةَ وَيَحْصِلَ بِهِ السُّرُورُ؛ وَكَذَلِكَ مِنَ الْمَوْجِبِ الدَّاعِي لَتَقَوَاهُ تَسْأَلُوكُمْ بِهِ وَتُعْظِمُكُمْ، حَتَّى إِذَا أَرَدْتُمْ قَضَاءَ حَاجَاتِكُمْ وَمَأْرِبِكُمْ؛ تَوَسَّلْتُمْ لَهَا بِالسُّؤَالِ بِاللَّهِ، فَيَقُولُ مَنْ يَرِيدُ ذَلِكَ لغيره: أَسْأَلُكَ بِاللَّهِ أَنْ تَفْعَلَ الْأَمْرَ الْفُلَانِي؛ لِعَلَّمَهُ بِمَا قَامَ فِي قَلْبِهِ مِنْ تَعْظِيمِ اللَّهِ الدَّاعِي إِلَى أَنْ يَرُدَّ مِنْ سَأَلِهِ بِاللَّهِ؛ فَكَمَا عَظَّمْتُمُوهُ بِذَلِكَ؛ فَلْتَعْظُمُوهُ بِعِبَادَتِهِ وَتَقَوَاهُ. وَكَذَلِكَ الْإِخْبَارُ بِأَنَّهُ رَقِيبٌ؛ أَيُّ: مُطْلَعٌ عَلَى الْعِبَادَةِ فِي حَالِ خَرَكَاتِهِمْ وَسُكُونِهِمْ وَسِرْهِمْ وَعِلْنِهِمْ وَجَمِيعِ الْأَحْوَالِ مُرَاقِبًا لَهُمْ فِيهَا، مِمَّا يُوْجِبُ مُرَاقَبَتَهُ وَشِدَّةَ الْحَيَاءِ مِنْهُ بِلُزُومِ تَقَوَاهُ؛ وَفِي الْإِخْبَارِ بِأَنَّهُ خَلَقَهُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ، وَأَنَّهُ يَبْهَمُ فِي أَقْطَارِ الْأَرْضِ مَعَ رَجُوعِهِمْ إِلَى أَمَلٍ وَاحِدٍ لِيَعْطِفَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ، وَيُرْفِقَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ.

وَقَرْنَ الْأَمْرَ بِتَقَوَاهُ بِالْأَمْرِ بِبِرِّ الْأَرْحَامِ وَالنَّهْيِ عَنْ قَطْعِهَا لِيُؤَكِّدَ هَذَا الْحَقَّ، وَأَنَّهُ كَمَا يُلْزَمُ الْقِيَامُ بِحَقِّ اللَّهِ كَذَلِكَ يَجِبُ الْقِيَامُ بِحَقُوقِ الْخَلْقِ، خُصُوصًا الْأَقْرَبِينَ مِنْهُمْ، بِلِ الْقِيَامِ بِحَقُوقِهِمْ هُوَ مِنْ حَقِّ اللَّهِ الَّذِي أَمَرَ اللَّهُ بِهِ. وَتَأْمَلْ كَيْفَ افْتَتَحَ هَذِهِ السُّورَةَ بِالْأَمْرِ بِالتَّقْوَى، وَصَلَةَ الْأَرْحَامِ، وَالْأَزْوَاجِ عُمُومًا، ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ فَصَلَ هَذِهِ الْأُمُورَ أَتَمَّ تَفْصِيلٍ مِنْ أَوَّلِ السُّورَةِ إِلَى آخِرِهَا؛ فَكَأَنَّهُا مَبْنِيَّةٌ عَلَى هَذِهِ الْأُمُورِ الْمَذْكُورَةِ، مُفْصَلَةٌ لِمَا أَجْمَلَ مِنْهَا، مُوضَحَةٌ لِمَا أَبْهَمَ.

وَفِي قَوْلِهِ: ﴿وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا ۚ﴾: تَنْبِيهُ عَلَى مُرَاعَاةِ حَقِّ الْأَزْوَاجِ وَالزَّوْجَاتِ وَالْقِيَامِ بِهِ؛ لِكُونِ الزَّوْجَاتِ مَخْلُوقَاتٍ مِنَ الْأَزْوَاجِ؛ فَبَيْنَهُمْ وَبَيْنَهُنَّ أَقْرَبُ نَسَبٍ وَأَشَدُّ اتِّصَالٍ وَأَوْثَقُ عِلَاقَةٍ.

﴿٢﴾ وَي: وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ طَائِفَةٌ مَوْفِقَةٌ لِلْخَيْرِ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُونَ بِمَا ﴿أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ ۚ﴾، وَهَذَا الْإِيمَانُ النَّافِعُ لَا كَمَنْ يُؤْمِنُ بِبَعْضِ الرُّسُلِ وَالْكِتَابِ وَيَكْفُرُ بِبَعْضٍ، وَلِهَذَا لَمَّا كَانَ إِيْمَانُهُمْ عَامًّا حَقِيقِيًّا صَارَ نَافِعًا فَأَحْدَثَ لَهُمْ خَشْيَةَ اللَّهِ وَخُضُوعَهُمْ لِحُجَالِهِ الْمَوْجِبِ لِلانْقِيَادِ لِأَمْرِهِ وَنَوَاهِيهِ وَالْوُقُوفِ عِنْدَ حُدُودِهِ، وَهَؤُلَاءِ أَهْلُ الْكِتَابِ وَالْعِلْمُ عَلَى الْحَقِيقَةِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ۚ﴾ [فاطر: ٢٨]، وَمِنْ تَمَامِ خَشْيَتِهِمْ لِلَّهِ أَنَّهُمْ لَا يَشْتَرُونَ بِطَائِبَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ، فَلَا يَقْدُمُونَ الدُّنْيَا عَلَى الدِّينِ كَمَا فَعَلَ أَهْلُ الْانْحِرَافِ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أُنْزِلَ اللَّهُ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا، وَأَمَّا هَؤُلَاءِ فَعَرَفُوا الْأَمْرَ عَلَى الْحَقِيقَةِ وَعَلِمُوا أَنَّ مِنْ أَعْظَمِ الْخُسْرَانِ الرِّضَا بِالْدُّنْيَا عَنِ الدِّينِ، وَالْوُقُوفُ مَعَ بَعْضِ حُظُوظِ النَّفْسِ السُّفْلِيَّةِ وَتَرْكُ الْحَقِّ الَّذِي هُوَ أَكْبَرُ حُظٍّ وَفُوزٍ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، فَاتَّروا الْحَقَّ وَبَيَّنُّوهُ وَدَعَوْا إِلَيْهِ، وَحَذَرُوا عَنِ الْبَاطِلِ، فَأَثَابَهُمُ اللَّهُ عَلَى ذَلِكَ بِأَنْ وَعَدَهُمُ الْأَجْرَ الْجَزِيلَ وَالثَّوَابَ الْجَمِيلَ، وَأَخْبَرَهُمْ بِقُرْبِهِ وَأَنَّهُ ﴿سَرِيعُ الْحِسَابِ ۝﴾ فَلَا يَسْتَبْطِنُونَ مَا وَعَدَهُمُ اللَّهُ، لِأَنَّ مَا هُوَ آتٍ مُحَقَّقٌ حَصُولُهُ فَهُوَ قَرِيبٌ.

﴿٣﴾ ثُمَّ حَضَّ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا يُوْصِلُهُمْ إِلَى الْفَلَاحِ، وَهُوَ الْفُوزُ بِالسَّعَادَةِ وَالنَّجَاحِ، وَأَنَّ الطَّرِيقَ الْمَوْصِلَ إِلَى ذَلِكَ لُزُومُ الصَّبْرِ: الَّذِي هُوَ حَبْسُ النَّفْسِ عَلَى مَا تَكْرَهُهُ مِنْ تَرْكِ الْمَعَاصِي وَمِنْ الصَّبْرِ عَلَى الْمَصَائِبِ وَعَلَى الْأَوَامِرِ الثَّقِيلَةِ عَلَى النَّفُوسِ، فَأَمَرَهُمُ بِالصَّبْرِ عَلَى جَمِيعِ ذَلِكَ. وَالْمَصَابِرَةُ: هِيَ الْمَلَازِمَةُ وَالِاسْتِمْرَارُ عَلَى ذَلِكَ عَلَى الدَّوَامِ، وَمُقَاوَمَةُ الْأَعْدَاءِ فِي جَمِيعِ الْأَحْوَالِ. وَالْمَرَابِطَةُ: وَهُوَ لُزُومُ الْمَحَلِّ الَّذِي يَخَافُ مِنْ وَصُولِ الْعَدُوِّ مِنْهُ وَأَنْ يَرَاقِبُوا أَعْدَاءَهُمْ وَيَمْنَعُوهُمْ مِنَ الْوُصُولِ إِلَى مَقَاصِدِهِمْ، لِعَلَّهُمْ يَفْلَحُونَ: يَفُوزُونَ بِالْمَحْبُوبِ الدِّينِيِّ وَالْدُنْيَوِيِّ وَالْآخِرِيِّ وَيَنْجُونَ مِنَ الْمَكْرُوهِ كَذَلِكَ. فَعَلِمَ مِنْ هَذَا أَنَّهُ لَا سَبِيلَ إِلَى الْفَلَاحِ بَدُونِ الصَّبْرِ وَالْمَصَابِرَةِ وَالْمَرَابِطَةِ الْمَذْكُورَاتِ، فَلَمْ يَفْلَحْ مَنْ أَفْلَحَ إِلَّا بِهَا وَلَمْ يَفْتَ أَحَدًا الْفَلَاحُ إِلَّا بِالْإِخْلَالِ بِهَا أَوْ بَعْضِهَا.

وَاللَّهُ الْمَوْفِقُ وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِهِ.

تَم تَفْسِيرُ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ. وَالْحَمْدُ لِلَّهِ عَلَى نِعْمَتِهِ وَنَسْأَلُهُ تَمَامَ النِّعْمَةِ.

وقوله تعالى:

﴿وَأَنؤَا أَلْبَنَىٰ أَمْؤَالَهُمْ وَلَا تَبْدَلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْؤَالَهُمْ إِلَىٰ أَمْؤَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا ٢﴾.

﴿٢﴾ هذا أول ما أوصى به من حقوق الخلق في هذه السورة، وهم اليتامى الذين فقدوا آباءهم الكافرين لهم، وهم صغار ضعاف، لا يقومون بمصالحهم، فأمر الرؤوف الرحيم عباده أن يحسنوا إليهم، وألا يقربوا أموالهم إلا بالتي هي أحسن، وأن يؤتوهم أموالهم إذا بلغوا ورشدوا كاملة موفرة، وألا يتبدلوا الخبيث الذي هو أكل مال اليتيم بغير حق ﴿بِالطَّيِّبِ﴾ وهو الحلال الذي ما فيه حرج ولا تبعة ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْؤَالَهُمْ إِلَىٰ أَمْؤَالِكُمْ﴾؛ أي: مع أموالكم، ففيه تنبيه لقبح أكل مالهم بهذه الحالة، التي هي قد استغنى بها الإنسان بما جعل الله له من الرزق في ماله؛ فمن تجرأ على هذه الحالة فقد أتى ﴿حُوبًا كَبِيرًا﴾ ﴿٢﴾؛ أي: إثماً عظيماً ووزراً جسيماً.

ومن استبدال الخبيث بالطيب أن يأخذ الولي من مال اليتيم النفيس ويجعل بدله من ماله الخسيس.

وفيه الولاية على اليتيم؛ لأن من لازم إيتاء اليتيم ماله ثبوت ولاية المؤتي على ماله. وفيه الأمر بإصلاح مال اليتيم؛ لأن

تمام إيتائه ماله حفظه والقيام به بما يصلحه وينميهِ وعدم تعريضه للمخاوف والأخطار.

﴿وَأَن خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانْكَحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَتَىٰ وَرُبِعٌ فَإِن خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةٌ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَنُكُمْ ذَلِكَ أَدْنَىٰ أَلَّا تَعُولُوا ٣﴾ وَأَنؤَا النِّسَاءِ صَدَقْتِهِنَّ نِحْلَةً فَإِن طَبَنَ لَكُمْ عَن شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هِيَئًا مَّرِيئًا ٤﴾.

﴿٣﴾ أي: وإن خفتم ألا تعدلوا في يتامى النساء اللاتي تحت حجوركم وولايتكم، وخفتم ألا تقوموا بحققن لعدم محبتكم إياهن، فاعدلوا إلى غيرهن وانكحوا ﴿مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ﴾؛ أي: ما وقع عليهن اختياركم من ذوات الدين والمال والجمال والحسب والنسب وغير ذلك من الصفات الداعية لنكاحهن؛ فاخترن على نظركم، ومن أحسن ما يختار من ذلك صفة الدين؛ كما قال النبي ﷺ: «نكح المرأة لأربع: لمالها ولجمالها ولحسبها ولدينها؛ فاظفر بذات الدين تربت يمينك» (١). وفي هذه الآية أنه ينبغي للإنسان أن يختار قبل النكاح، بل قد أباح له الشارع النظر إلى من يريد تزوجها؛ ليكون على بصيرة من أمره.

ثم ذكر العدد الذي أباحه من النساء، فقال: ﴿مَتَىٰ وَرُبِعٌ﴾؛ أي: من أحب أن يأخذ ثنتين فليفعل، أو ثلاثاً فليفعل، أو أربعاً فليفعل، ولا يزيد عليها؛ لأن الآية سبقت لبيان الامتنان، فلا يجوز الزيادة على غير ما سمي الله تعالى إجماعاً، وذلك لأن الرجل قد لا تدفع شهوته بالواحدة، فأبيح له واحدة بعد واحدة، حتى تبلغ أربعاً؛ لأن في الأربع غنية لكل أحد إلا ما ندر، ومع هذا فإنما يباح له ذلك إذا أمن على نفسه الجور والظلم ووثق بالقيام بحقوقهن؛ فإن خاف شيئاً من هذا فليقتصر على واحدة أو على ملك يمينه؛ فإنه لا يجب عليه القسم في ملك اليمين، ﴿ذَلِكَ﴾؛ أي: الاقتصار على واحدة أو ما ملك اليمين ﴿أَدْنَىٰ أَلَّا تَعُولُوا﴾ ﴿٣﴾؛ أي: تظلموا، وفي هذا أن تعرض العبد للأمر الذي يخاف منه الجور والظلم وعدم القيام بالواجب

ولو كان مباحاً؛ أنه لا ينبغي له أن يتعرض له، بل يلزم السعة والعافية؛ فإن العافية خير ما أعطي العبد.

﴿١﴾ ولما كان كثير من الناس يظلمون النساء ويهضمونهن حقوقهن، خصوصاً الصداق الذي يكون شيئاً كثيراً ودفعة واحدة يشق دفعه للزوجة؛ أمرهم وحثهم على إيتاء النساء ﴿صَدَقْتِهِنَّ﴾، أي: مهورهن ﴿نَحْلَةً﴾؛ أي: عن طيب نفس وحال طمأنينة؛ فلا تمطلوهن أو تبخسوا منه شيئاً، وفيه أن المهر يدفع إلى المرأة إذا كانت مكلفة، وأنها تملكه بالعقد؛ لأنه أضافه إليها، والإضافة تقتضي التملك؛ ﴿فَإِنْ طَبَنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ﴾؛ أي: من الصداق ﴿نَفْسًا﴾؛ بأن سمحن لكم عن رضا واختيار بإسقاط شيء منه أو تأخيرها أو المعاوضة عنه؛ ﴿فَكُلُّوا مِنْ ثَمَرِهَا﴾؛ أي: لا حرج عليكم في ذلك ولا تبعه. وفيه دليل على أن للمرأة التصرف في مالها ولو بالتبرع إذا كانت رشيدة؛ فإن لم تكن كذلك فليس لعطيتها حكم، وأنه ليس لوليها من الصداق شيء غير ما طابت به. وفي قوله: ﴿فَأَكْبَرُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ﴾: دليل على أن نكاح الخبيثة غير مأمور به، بل منهي عنه كالمشركة وكالفاجرة؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَ حَتَّى يُؤْمِنَ﴾ [البقرة: ٢٢١]، وقال: ﴿وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحَهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ﴾ [النور: ٣].

وقوله تعالى:

﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَمًا وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاَسْوُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾.

﴿٢﴾ السفهاء: جمع سفيه، وهو من لا يحسن التصرف في المال؛ إما لعدم عقله كالمجنون والمعتوه ونحوهما، وإما لعدم رشده؛ كالصغير وغير الرشيد، فنهى الله الأولياء أن يؤتوا هؤلاء أموالهم خشية إفسادها وإتلافها؛ لأن الله جعل الأموال قياماً لعباده في مصالح دينهم ودنياهم، وهؤلاء لا يحسنون القيام عليها وحفظها، فأمر الله الولي ألا يؤتهم إياها، بل يرزقهم منها ويكسوهم ويبدل منها ما يتعلق بضرورتاتهم وحاجاتهم الدينية والدنيوية، وأن يقولوا لهم قولاً معروفاً؛ بأن يعدوهم إذا طلبوها أنهم سيدفعونها لهم بعد رشدهم ونحو ذلك، ويلطفوا لهم في الأقوال جبراً للخواطيرهم.

وفي إضافته تعالى الأموال إلى الأولياء إشارة إلى أنه يجب عليهم أن يعملوا في أموال السفهاء ما يفعلونه في

أموالهم من الحفظ والتصرف وعدم التعريض للأخطار. وفي الآية دليل على أن نفقة المجنون والصغير والسفيه في مالهم إذا كان لهم مال، لقوله: ﴿وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاَسْوُوهُمْ﴾. وفيه دليل على أن قول الولي مقبول فيما يدعيه من النفقة الممكنة والكسوة؛ لأن الله جعله مؤتمناً على مالهم، فلزم قبول قول الأمين.

﴿وَابْتُلُوا الْيَتَامَى حَتَّى إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ اسْتَمْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَنْ يَكْبَرُوا وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْعِفْ وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهَدُوا عَلَيْهِمْ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا﴾.

﴿٣﴾ الابتلاء هو: الاختبار والامتحان، وذلك بأن يدفع لليتم المقارب للرشد الممكن رشده شيء من ماله، ويتصرف فيه التصرف اللائق بحاله، فيتبين بذلك رشده من سفهه؛ فإن استمر غير محسن للتصرف؛ لم يدفع إليه ماله، بل هو باق على سفهه، ولو بلغ عمراً كثيراً؛ فإن تبين رشده وصلاحه في ماله وبلغ النكاح؛ ﴿فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ﴾ كاملة موفرة، ﴿وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا﴾؛ أي: مجاوزة للحد الحلال الذي أباحه الله لكم من أموالكم إلى الحرام الذي حرمه الله عليكم من أموالهم؛ ﴿وَبِدَارًا أَنْ يَكْبَرُوا﴾، أي: ولا تأكلوها في حال صغرهم التي لا يمكنهم فيها أخذها منكم، ولا منعكم من أكلها تبادرون بذلك أن يكبروا فيأخذوها منكم ويمنعوك منها، وهذا من الأمور الواقعة من كثير من الأولياء الذين ليس عندهم خوف من الله ولا رحمة ومحبة للمولى عليهم، يرون هذه الحال حال فرصة، فيغتتمونها ويتعجلون ما حرم الله عليهم، فنهى الله تعالى عن هذه الحالة بخصوصها.

﴿لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَّقْرُوضًا﴾.

﴿٤﴾ كان العرب في الجاهلية من جبروتهم وقسوتهم لا يورثون الضعفاء كالنساء والصبيان، ويجعلون الميراث للرجال الأقوياء؛ لأنهم - بزعمهم - أهل الحرب والقتال والنهب والسلب، فأراد الرب الرحيم الحكيم أن يشرع لعباده

سورة النساء

الجزء الرابع

لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ
مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا
مَّفْرُوضًا ﴿٧﴾ وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ
وَالْمَسْكِينُ فَأَرْزُقُوهُمْ مِنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا
﴿٨﴾ وَلِيَحْشَ الَّذِينَ لَوَّزَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ ضِعْفًا
خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٩﴾
إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي
بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴿١٠﴾ يُوصِيكُمُ اللَّهُ
فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ الْإُنثَىٰ فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً
فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا
النِّصْفُ وَلِابْنَتَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُمَا النِّصْفُ مِمَّا تَرَكَ إِنْ
كَانَ لَهُ وَلَدٌ فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَوَرِثَتْهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ
فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ النِّصْفُ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّتِ يَوْصِي
بِهَا أَوْ ذِيٍّ أَسَافًا وَبَنَاتُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَرِثُونَ مِنْهُمْ شَيْءًا لِّكُلِّ
نَفْعًا فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١﴾

٧٨

شرعاً يستوي فيه رجالهم ونسأؤهم وأقرباؤهم وضعفاؤهم،
وقدم بين يدي ذلك أمراً مجملاً لتوطن على ذلك النفوس
فيأتي التفصيل بعد الإجمال قد تشوقت له النفوس وزالت
الوحشة التي منشؤها العادات القبيحة، فقال: ﴿لِلرِّجَالِ
نَصِيبٌ﴾؛ أي: قسط وحصّة، ﴿وَمِمَّا تَرَكَ﴾؛ أي: خلف،
﴿الْوَالِدَانِ﴾؛ أي: الأب والأم، ﴿وَالْأَقْرَبُونَ﴾؛ عموم بعد
خصوص، ﴿وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ﴾،
فكانه قيل: هل ذلك النصيب راجع إلى العرف والعادة وأن
يرضخوا لهم ما يشاءون أو شيئاً مقدراً؟ فقال تعالى: ﴿نَصِيبًا
مَّفْرُوضًا﴾ ﴿٧﴾؛ أي: قد قدره العليم الحكيم. وسأيتي إن شاء
الله تقدير ذلك. وأيضاً؛ فهنا توهم آخر: لعل أحداً يتوهم
أن النساء والولدان ليس لهم نصيب إلا من المال الكثير،
فأزال ذلك بقوله: ﴿وَمِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ﴾؛ فتبارك الله أحسن
الحاكمين.

﴿وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينُ
فَأَرْزُقُوهُمْ مِنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾ ﴿٨﴾.

﴿٨﴾ وهذا من أحكام الله الحسنة الجليلة الجابرة للقلوب،
فقال: ﴿وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ﴾؛ أي: قسمة الموارث،
﴿أُولُو الْقُرْبَىٰ﴾؛ أي: الأقارب غير الوارثين بقرينة قوله:
﴿الْقِسْمَةَ﴾؛ لأن الوارثين من المقسوم عليهم، ﴿وَالْيَتَامَىٰ
وَالْمَسْكِينُ﴾؛ أي: المستحقون من الفقراء؛ ﴿فَأَرْزُقُوهُمْ مِنْهُ﴾؛ أي: أعطوهم ما تيسر من هذا المال الذي جاءكم بغير

كد ولا تعب ولا عناء ولا نصب؛ فإن نفوسهم متشوفة إليه وقلوبهم متطلعة؛ فاجبروا خواطريهم بما لا يضرهم وهو نافعهم.
ويؤخذ من المعنى أن كل من له تطلع وتشوف إلى ما حضر بين يدي الإنسان ينبغي له أن يعطيه منه ما تيسر؛ كما كان النبي ﷺ
يقول: «إذا جاء أحدكم خادمه بطعامه؛ فليجلسه معه؛ فإن لم يجلسه معه؛ فليناول له لقمته أو لقمتين»^(١)، أو كما قال. وكان
الصحابه رضي الله عنهم إذا بدأت باكورة أشجارهم؛ أتوا بها رسول الله ﷺ، فبرك عليها، ونظر إلى أصغر وليد عنده، فأعطاه
ذلك^(٢)؛ علماً منه بشدة تشوفه لذلك، وهذا كله مع إمكان الإعطاء؛ فإن لم يمكن ذلك لكونه حق سفهاء أو ثم أهم من ذلك؛
فليقولوا لهم ﴿قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾ ﴿٨﴾؛ يردونهم رداً جميلاً بقول حسن غير فاحش ولا قبيح.

﴿وَلِيَحْشَ الَّذِينَ لَوَّزَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ ضِعْفًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا﴾ ﴿٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ
يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴿١٠﴾.

﴿٩﴾ قيل: إن هذا خطاب لمن يحضر من حضره الموت، وأجنف في وصيته أن يأمره بالعدل في وصيته والمساواة فيها؛
بدليل قوله: ﴿وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا﴾ ﴿٩﴾؛ أي: سداداً موافقاً للقسط والمعروف، وأنهم يأمر من يريد الوصية على أولاده
بما يحبون معاملة أولادهم بعدهم. وقيل: إن المراد بذلك أولياء السفهاء والمجانين والصغار والضعاف أن يعاملوهم في
مصالحهم الدينية والدنيوية بما يحبون أن يعامل به من بعدهم من ذريتهم الضعاف؛ ﴿فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ﴾؛ في ولايتهم لغيرهم؛
أي: يعاملونهم بما فيه تقوى الله من عدم إهانتهم والقيام عليهم وإلزامهم لتقوى الله.

(١) البخاري (٥٤٦٠)، مسلم (١٦٦٣).

(٢) مسلم (١٣٧٣).

سورة النساء

النساء

وَلَكُمْ يَصِفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُنَّ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمْ الرُّبْعُ مِمَّا تَرَكَنَّ مِنْ بَعْدٍ وَصِيَّةٍ يُوَصِّينَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَلَهُنَّ الرُّبْعُ مِمَّا تَرَكَنَّ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا تَرَكَنَّ مِنْ بَعْدٍ وَصِيَّةٍ يُوَصِّونَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَإِنْ كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَالَةً أَوْ امْرَأَةٌ وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتُ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا الشُّدُسُ فَإِنْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ مِنْ بَعْدٍ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَارٍّ وَصِيَّةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ خَلِيلٌ ﴿١٢﴾ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٣﴾ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴿١٤﴾

٧٩

﴿١٢﴾ ولما أمرهم بذلك زجرهم عن أكل أموال اليتامى وتوعد على ذلك أشد العذاب، فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا﴾؛ أي: بغير حق، وهذا القيد يخرج به ما تقدم من جواز الأكل للفقير بالمعروف، ومن جواز خلط طعامهم بطعام اليتامى؛ فمن أكلها ظلماً؛ فإنما ﴿يَأْكُلُونَ فِي بَطُونِهِمْ نَارًا﴾؛ أي: فإن الذي أكلوه نار تتأجج في أجوافهم، وهم الذين أدخلوه في بطونهم، ﴿وَسَيَصْلُونَ سَعِيرًا﴾؛ أي: نارا محرقة متوقدة. وهذا أعظم وعيد ورد في الذنوب يدل على شناعة أكل أموال اليتامى وقبحها وأنها موجبة لدخول النار، فدل ذلك أنها من أكبر الكبائر، نسأل الله العافية.

﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلَّذِ كَرَّمِ مِثْلَ حِظِّ الْأُنثَيَيْنِ فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثُ مَا تَرَكَ وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا الشُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِنْ كَانَ لَهُ وَلَدٌ فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلِلْأُمِّهِ الثُّلُثُ فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِلْأُمِّهِ الشُّدُسُ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ ءَابَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا فَرِيضَةٌ مِنَ اللَّهِ إِنْ اللَّهُ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ ﴿١١﴾ وَلَكُمْ يَصِفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُنَّ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمْ الرُّبْعُ مِمَّا تَرَكَنَّ مِنْ بَعْدٍ وَصِيَّةٍ يُوَصِّينَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَلَهُنَّ الرُّبْعُ مِمَّا تَرَكَنَّ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا تَرَكَنَّ مِنْ بَعْدٍ وَصِيَّةٍ يُوَصِّونَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَإِنْ كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَالَةً أَوْ امْرَأَةٌ وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتُ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا الشُّدُسُ فَإِنْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ مِنْ بَعْدٍ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَارٍّ وَصِيَّةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ خَلِيلٌ ﴿١٢﴾

هذه الآيات والآية التي هي آخر السورة هن آيات الموارث المتضمنة لها؛ فإنها مع حديث عبد الله بن عباس الثابت في صحيح البخاري: «ألحقوا الفرائض بأهلها؛ فما بقي؛ فلأولى رجل ذكر»^(١)؛ مشتملات على جل أحكام الفرائض، بل على جميعها كما سترى ذلك إلا ميراث الجدات؛ فإنه غير مذكور في ذلك، لكنه قد ثبت في «السنن»^(٢) عن المغيرة بن شعبة ومحمد بن مسلمة: أن النبي ﷺ أعطى الجدة السدس. مع إجماع العلماء على ذلك.

﴿١١﴾ فقله تعالى: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ﴾؛ أي: أولادكم يا معشر الوالدين عندكم ودائع قد وصاكم الله عليهم لتقوموا بمصالحهم الدينية والدنيوية، فتعلموهم وتؤدبوهم وتكفوهم عن المفساد وتأمروهم بطاعة الله وملازمة التقوى على الدوام؛ كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾ [التحريم: ٦]؛ فالأولاد عند والديهم موصى بهم؛ فإذا أن يقوموا بتلك الوصية فلهم جزيل الثواب، وإما أن يضيعوها فيستحقوا بذلك الوعيد والعقاب. وهذا مما يدل على أن الله تعالى أرحم بعباده من الوالدين، حيث أوصى الوالدين مع كمال شفقتهم عليهم.

(١) البخاري (٦٧٣٧)، مسلم (١٦١٥).

(٢) أبو داود (٢٨٩٤)، الترمذي (٢١٠١).

ذلك أن يفرض لهن أزيد من الثلثين، وهو خلاف النص. وكل هذه الأحكام مجمع عليها بين العلماء، ولله الحمد.

ودل قوله: ﴿مَا تَرَكَ﴾: أن الوارثين يرثون كل ما خلف الميت من عقار وأثاث وذهب وفضة وغير ذلك، حتى الدية التي لم تجب إلا بعد موته، وحتى الديون التي في الذمة.

ثم ذكر ميراث الأبوين، فقال: ﴿وَلِأَبَوَيْهِ﴾؛ أي: أبوه وأمه، ﴿لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا الشُّدُّسُ مِمَّا تَرَكَ إِنْ كَانَ لَهُ وَلَدٌ﴾؛ أي: ولد صلب أو ولد ابن ذكراً كان أو أنثى واحداً أو متعدداً: فأما الأم؛ فلا تزيد على السدس مع أحد من الأولاد، وأما الأب؛ فمع الذكور منهم لا يستحق أزيد من السدس؛ فإن كان الولد أنثى أو إناثاً، ولم يبق بعد الفرض شيء؛ كأبوين وأبنتين؛ لم يبق له تعصيب، وإن بقي بعد فرض البنت أو البنات شيء؛ أخذ الأب السدس فرضاً والباقي تعصياً؛ لأننا ألحقنا الفروض بأهلها؛ فما بقي؛ فلاولى رجل ذكر، وهو أولى من الأخ والعم وغيرهما. ﴿فَإِنْ لَّمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَوَرِثَةٌ﴾: أبواه فلائيه الثلث؛ أي: والباقي للأب؛ لأنه أضاف المال إلى الأب والأم إضافة واحدة، ثم قدر نصيب الأم، فدل ذلك على أن الباقي للأب، وعلم من ذلك أن الأب مع عدم الأولاد لا فرض له، بل يرث تعصياً المال كله، أو ما أبقى الفروض.

لكن لو وجد مع الأبوين أحد الزوجين - ويعبر عنهما بالمعريتين - فإن الزوج أو الزوجة يأخذ فرضه، ثم تأخذ الأم ثلث الباقي والأب الباقي، وقد دل على ذلك قوله: ﴿وَوَرِثَةٌ أَبَوَاهُ فَلَائِيهِ الثُلُثُ﴾؛ أي: ثلث ما ورثه الأبوان، وهو في هاتين الصورتين: إما سدس في زوج وأم وأب، وإما ربع في زوجة وأم وأب، فلم تدل الآية على إرث الأم ثلث المال كاملاً مع عدم الأولاد حتى يقال: إن هاتين الصورتين قد استثنيتا من هذا. ويوضح ذلك أن الذي يأخذه الزوج أو الزوجة بمنزلة ما يأخذه الغرماء، فيكون من رأس المال، والباقي بين الأبوين. ولأننا لو أعطينا الأم ثلث المال؛ لزم زيادتها على الأب في مسألة الزوج أو أخذ الأب في مسألة الزوجة زيادة عنها نصف السدس، وهذا لا نظير له؛ فإن المعهود مساواتها للأب أو أخذه ضعف ما تأخذه الأم.

﴿فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأَيِّهِ الشُّدُّسُ﴾: أشقاء أو لأب أو لأم ذكوراً كانوا أو إناثاً وارثين أو محجوبين بالأب أو الجد. لكن قد يقال: ليس ظاهر قوله: ﴿فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ﴾: شاملاً لغير

ثم ذكر كيفية إرثهم، فقال: ﴿لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ﴾؛ أي: الأولاد للصلب والأولاد للابن، للذكر مثل حظ الأنثيين إن لم يكن معهم صاحب فرض، أو ما أبقى الفروض يقتسمونه كذلك، وقد أجمع العلماء على ذلك، وأنه مع وجود أولاد الصلب فالميراث لهم، وليس لأولاد الابن شيء؛ حيث كان أولاد الصلب ذكوراً وإناثاً. هذا مع اجتماع الذكور والإناث. وهنا حالتان: انفراد الذكور وسياثي حكمها، وانفراد الإناث. وقد ذكره بقوله: ﴿فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ﴾؛ أي: بنات صلب أو بنات ابن ثلاثاً فأكثر؛ ﴿فَلَهُنَّ ثُلُثًا مِّمَّا تَرَكَ وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً﴾؛ أي: بنتاً أو بنت ابن؛ ﴿فَلَهَا النِّصْفُ﴾. وهذا إجماع.

بقي أن يقال: من أين يستفاد أن للابنتين الثلثين الثلثين بعد الإجماع على ذلك؟ فالجواب: أنه يستفاد من قوله: ﴿وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ﴾؛ فمفهوم ذلك أنه إن زادت على الواحدة انتقل الفرض عن النصف، ولا ثم بعده إلا الثلثان. وأيضاً؛ فقوله: ﴿لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ﴾؛ إذا خلف ابناً وبنتاً؛ فإن الابن له الثلثان، وقد أخبر الله أنه مثل حظ الأنثيين، فدل ذلك على أن للبتين الثلثين. وأيضاً؛ فإن البنت إذا أخذت الثلث مع أخيها وهو أزيد ضرراً عليها من أختها؛ فأخذها له مع أختها من باب أولى وأحرى. وأيضاً؛ فإن قوله تعالى في الأختين: ﴿فَإِنْ كَانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ﴾ [النساء: ١٧٦]؛ نص في الأختين الثلثين؛ فإذا كان الأختان الشتان مع بعدهما يأخذان الثلثين؛ فالابنتان مع قريبهما من باب أولى وأحرى. وقد أعطى النبي ﷺ ابنتي سعد الثلثين؛ كما في الصحيح.

بقي أن يقال: فما الفائدة في قوله: ﴿فَوْقَ اثْنَتَيْنِ﴾؟ قيل: الفائدة في ذلك والله أعلم: أنه ليعلم أن الفرض الذي هو الثلثان لا يزيد بزيادتهن على الثلثين، بل من الثلثين فصاعداً.

ودلت الآية الكريمة أنه إذا وجد بنت صلب واحدة وبنت ابن أو بنات ابن؛ فإن لبنت الصلب النصف، ويبقى من الثلثين اللذين فرضهما الله للبنات أو بنات الابن السدس، فيعطى بنت الابن أو بنات الابن، ولهذا يسمى هذا السدس تكملة الثلثين. ومثل ذلك بنت الابن مع بنات الابن اللاتي أنزل منها. وتدل الآية أنه متى استغرق البنات أو بنات الابن الثلثين؛ أنه يسقط من دونهن من بنات الابن؛ لأن الله لم يفرض لهن إلا الثلثين، وقد تم؛ فلو لم يسقطن لزم من

(١٢) ثم قال تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا الْأَزْوَاجُ﴾ يَصِفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُنَّ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمْ الرَّبْعُ مِمَّا تَرَكَتُمْ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوَصِّيْتُ بِهَا أَوْ ذَيْنَ وَلَهُنَّ الرَّبْعُ مِمَّا تَرَكَتُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا تَرَكَتُمْ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوَصِّيْتُ بِهَا أَوْ ذَيْنَ ﴿وَيَدْخُلُ فِي مِسمى الْوَلَدِ الْمَشْرُوطُ وَجُودُهُ أَوْ عَدَمُهُ وَلَدُ الصَّلْبِ، أَوْ وَلَدُ الْإِبْنِ، الذَّكَرُ وَالْأُنْثَى، الْوَاحِدُ، وَالْمُتَعَدِّدُ الَّذِي مِنَ الزَّوْجِ أَوْ مِنْ غَيْرِهِ، وَيُخْرَجُ عَنْهُ وَلَدُ الْبَنَاتِ إِجْمَاعًا.

ثم قال تعالى: ﴿وَإِنْ كَانَتْ رَجُلٌ يُوْرَثُ كَلَالَةً أَوْ امْرَأَةً وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ﴾ أي: من أم؛ كما هي في بعض القراءات، وأجمع العلماء على أن المراد بالإخوة هنا الإخوة للأم؛ فإذا كان يورث كلاله؛ أي: ليس للميت والد ولا ولد؛ أي: لا أب ولا جد ولا ابن ولا ابن ابن ولا بنت ولا بنت ابن وإن نزلوا، وهذه هي الكلاله كما فسرنا بذلك أبو بكر الصديق رضي الله عنه، وقد حصل على ذلك الاتفاق ولله الحمد، ﴿فَلِكُلِّ رَجُلٍ مِّنْهُمَا﴾ أي: من الأخ والأخت ﴿الْأُسْدُسُ فَإِنْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ﴾ أي: من واحد؛ ﴿فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثَّلْثِ﴾ أي: لا يزيدون على الثلث ولو زادوا عن اثنين. ودل قوله: ﴿فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثَّلْثِ﴾ أن ذكرهم وأثاثهم سواء؛ لأن لفظ الشريك يقتضي التسوية. ودل لفظ (الكلاله) على أن الفروع وإن نزلوا، والأصول الذكور وإن علوا، يسقطون أولاد الأم؛ لأن الله لم يورثهم إلا في الكلاله؛ فلو لم يكن يورث كلاله لم يرثوا منه شيئاً اتفاقاً. ودل قوله: ﴿فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثَّلْثِ﴾ أن الإخوة الأشقاء يسقطون في المسأله المسماة بالحمارية، وهي زوج وأم وإخوة لأم وإخوة أشقاء: للزوج النصف، وللأم السدس، وللإخوة للأم الثلث، ويسقط الأشقاء لأن الله أضاف الثلث للإخوة من الأم؛ فلو شاركهم الأشقاء؛ لكان جمعاً لما فرق الله حكمه. وأيضاً؛ فإن الإخوة للأم أصحاب فروض والأشقاء عصابات، وقد قال النبي ﷺ: «الْحَقُّوا الْفَرَائِضَ بِأَهْلِهَا؛ فَمَا بَقِيَ فَلأُولَى رَجُلٍ ذَكَرَ».

الوارثين، بدليل عدم تناولها للمحجوب بالنصف؛ فعلى هذا لا يحجبها عن الثلث من الإخوة إلا الإخوة الوارثون. ويؤيده أن الحكمة في حجبهم لها عن الثلث لأجل أن يتوفر لهم شيء من المال، وهو معدوم. والله أعلم. ولكن بشرط كونهم اثنين فأكثر.

ويشكل على ذلك إتيان لفظ الإخوة بلفظ الجمع. وأجيب عن ذلك بأن المقصود مجرد التعدد لا الجمع، ويصدق ذلك باثنين، وقد يطلق الجمع ويراد به الاثنان؛ كما في قوله تعالى عن داود وسليمان: ﴿وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ﴾ [الأنبياء: ١٧٨]. وقال في الإخوة للأم: ﴿وَإِنْ كَانَتْ رَجُلٌ يُوْرَثُ كَلَالَةً أَوْ امْرَأَةً وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ رَجُلٍ مِّنْهُمَا الْأُسْدُسُ فَإِنْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثَّلْثِ﴾: فأطلق لفظ الجمع، والمراد به اثنان فأكثر بالإجماع. فعلى هذا؛ لو خلف أمًا وأبًا وإخوة؛ كان للأم السدس والباقي للأب، فحجبوا عن الثلث مع حجب الأب إياهم؛ إلا على الاحتمال الآخر؛ فإن للأم الثلث والباقي للأب.

ثم قال تعالى: ﴿مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ ذَيْنَ﴾ أي: هذه الفروض والأنصباء والموارث، إنما ترد وتستحق بعد نزع الديون التي على الميت لله أو للذميين، وبعد الوصايا التي قد أوصى الميت بها بعد موته؛ فالباقي عن ذلك هو التركة الذي يستحقه الورثة. وقدم الوصية مع أنها مؤخره عن الدين للاهتمام بشأنها لكون إخراجها شاقاً على الورثة، وإلا فالديون مقدمة عليها، وتكون من رأس المال، وأما الوصية فإنها تصح من الثلث فأقل للأجنبي الذي هو غير وارث، وأما غير ذلك فلا ينفذ إلا بإجازة الورثة.

قال تعالى: ﴿ءَابَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَعْتًا﴾؛ فلورد تقدير الإرث إلى عقولكم واختياركم؛ لحصل من الضرر ما الله به عليم؛ لنقص العقول وعدم معرفتها بما هو اللائق الأحسن في كل زمان ومكان، فلا يدرون أي الأولاد أو الوالدين أنفع لهم وأقرب لحصول مقاصدهم الدينية والدنيوية.

﴿فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ (١١) أي: فرضها الله الذي قد أحاط بكل شيء علماً وأحكم ما شرعه وقدر ما قدره على أحسن تقدير، لا تستطيع العقول أن تقترح مثل أحكامه الصالحة الموافقة لكل زمان ومكان وحال.

وأهل الفروض هم الذين قدر الله أنصباءهم؛ ففي هذه المسأله لا يبقى بعدهم شيء، فيسقط الأشقاء، وهذا هو الصواب في ذلك.

قال ابن القيم في «جلاء الأفهام»: «وتأمل هذا المعنى في آية الموارث وتعليقه سبحانه التوارث فيها بلفظ الزوجة دون المرأة؛ كما في قوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ﴾: إيدان بأن هذا التوارث إنما وقع بالزوجية المقتضية للتساكل والتناسب، والمؤمن والكافر لا تساكل بينهما ولا تناسب، فلا يقع بينهما التوارث، وأسرار مفردات القرآن ومركباته فوق عقول العالمين». انتهى.

وأما الرقيق؛ فإنه لا يرث ولا يورث: أما كونه لا يورث فواضح؛ لأنه ليس له مال يورث عنه، بل كل ما معه فهو لسيده. وأما كونه لا يرث؛ فلا أنه لا يملك؛ فإنه لو ملك لكان لسيده، وهو أجني من الميت، فيكون مثل قوله تعالى: ﴿لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثِيَيْنِ﴾ ﴿وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ﴾ ﴿فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا أَسَدُسٌ﴾.... ونحوها لمن يتأتى منه التملك، وأما الرقيق؛ فلا يتأتى منه ذلك، فعلم أنه لا ميراث له.

وأما من بعضه حر وبعضه رقيق؛ فإنه تتبع بعض أحكامه؛ فما فيه من الحرية يستحق بها ما ربه الله في الموارث؛ لكون ما فيه من الحرية قابلاً للتملك، وما فيه من الرق فليس يقابل لذلك؛ فإذاً يكون المبعوض يرث ويورث ويحجب بقدر ما فيه من الحرية، وإذا كان العبد يكون محموراً ومذموماً، مثاباً ومعاقباً بقدر ما فيه من موجبات ذلك؛ فهذا كذلك.

وأما الخنثى؛ فلا يخلو إما أن يكون واضحاً ذكوريته أو أنوثيته أو مشكلاً؛ فإن كان واضحاً؛ فالأمر فيه واضح؛ إن كان ذكراً؛ فله حكم الذكور، ويشمله النص الوارد فيهم، وإن كانت أنثى؛ فلها حكم الإناث، ويشملها النص الوارد فيهن. وإن كان مشكلاً؛ فإن كان الذكر والأنثى لا يختلف إرثهما - كالإخوة للأولاد - فالأمر فيه واضح، وإن كان يختلف إرثه بتقدير ذكوريته وبتقدير أنوثيته، ولم يبق لنا طريق إلى العلم بذلك لم نعطه أكثر التقديرين لاحتمال ظلم من معه من الورثة، ولم نعطه الأقل لاحتمال ظلمنا له، فوجب التوسط بين الأمرين وسلوك أعدل الطريقين، قال تعالى: ﴿اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾ [المائدة: ٨]؛ فليس لنا طريق إلى العدل في مثل هذا أكثر من هذا الطريق المذكور، و﴿لَا يَكْلَفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦]؛ ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: ١٦].

وأما ميراث الجد مع الإخوة الأشقاء أو لأب، وهل يرثون معه أم لا؟ فقد دل كتاب الله على قول أبي بكر الصديق

وأما ميراث الإخوة والأخوات الأشقاء أو لأب؛ فمذكور في قوله: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ﴾ [النساء: ١٧٦] الآية؛ فالأخت الواحدة شقيقة أو لأب لها النصف، والثلثان لهما الثلثان، والشقيقة الواحدة مع الأخت للأب أو الأخوات تأخذ النصف والباقي من الثلثين للأخت أو أخوات الأب وهو السدس تكملة للثلثين، وإذا استغرقت الشقيقات الثلثين؛ تسقط الأخوات للأب، كما تقدم في البنات وبنات الابن، وإن كان الإخوة رجالاً ونساء؛ فللذكر مثل حظ الأنثيين.

فإن قيل: فهل يستفاد حكم ميراث القاتل والرقيق والمخالف في الدين والمبعض والخنثى والجد مع الإخوة لغير أم والعول والرد وذوي الأرحام وبقية العصبية والأخوات لغير أم مع البنات أو بنات الابن من القرآن أم لا؟ قيل: نعم فيه تنبيهات وإشارات دقيقة يعسر فهمها على غير المتأمل تدل على جميع المذكورات:

فأما القاتل والمخالف في الدين؛ فيعرف أنهما غير وارثين من بيان الحكمة الإلهية في توزيع المال على الورثة بحسب قريتهم ونفعهم الديني والدنيوي، وقد أشار تعالى إلى هذه الحكمة بقوله: ﴿لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا﴾، وقد علم أن القاتل قد سعى لموروثه بأعظم الضرر، فلا ينتهض ما فيه من موجب الإرث أن يقاوم ضرر القتل الذي هو ضد النفع الذي رتب عليه الإرث، فعلم من ذلك أن القتل أكبر مانع يمنع الميراث ويقطع الرحم الذي قال الله فيه: ﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ [الأفقال: ١٧٥]، مع أنه قد استقرت القاعدة الشرعية: أن من استعجل شيئاً قبل أوانه؛ عوقب بحرمانه.

وبهذا ونحوه يعرف أن المخالف لدين الموروث لا يرث له، وذلك أنه قد تعارض موجب الذي هو اتصال النسب الموجب للإرث والمانع الذي هو المخالفة في الدين الموجبة للمباينة من كل وجه، فقوي المانع، ومنع موجب الإرث الذي هو النسب، فلم يعمل موجب لقيام المانع. يوضح ذلك أن الله تعالى قد جعل حقوق المسلمين أولى من حقوق الأقارب الكفار الدنيوية؛ فإذا مات المسلم انتقل ماله إلى من هو أولى وأحق به، فيكون قوله تعالى: ﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾: إذا اتفقت أديانهم، وأما مع تباينهم؛ فالأخوة الدينية مقدمة على الأخوة النسبية المجردة.

وميل ومعارضة لقوله: ﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ [الأنفال: ٧٥]، فتعين أن يرد على أهل الفروض بقدر فروضهم، ولما كان الزوجان ليسا من القرابة؛ لم يستحقا الزيادة على فرضهما المقدر [عند القائلين بعدم الرد عليهما، وأما على القول الصحيح أن حكم الزوجين حكم باقي الورثة في الرد؛ فالدليل المذكور شامل للجميع كما شملهم دليل العول].

وبهذا يعلم أيضًا ميراث ذوي الأرحام؛ فإن الميت إذا لم يخلف صاحب فرض ولا عاصبًا، وبقي الأمر دائرًا بين كون ماله يكون لبيت المال لمنافع الأجانب وبين كون ماله يرجع إلى أقربائه المدلين بالورثة المجمع عليهم؛ تعين الثاني، ويدل على ذلك قوله تعالى: ﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾، فصرفه لغيرهم ترك لمن هو أولى من غيره، فتعين توريث ذوي الأرحام، وإذا تعين توريثهم؛ فقد علم أنه ليس لهم نصيب مقدر بأعيانهم في كتاب الله، وأن بينهم وبين الميت وسائط صاروا بسببها من الأقارب، فينزلون منزلة من أدلوا به من تلك الوسائط. والله أعلم.

وأما ميراث بقية العصبية كالبنوة والأخوة وبنيتهم والأعمام وبنيتهم... إلخ؛ فإن النبي ﷺ قال: «ألحقوا الفرائض بأهلها، فما بقي؛ فلأولى رجل ذكر»، وقال تعالى: ﴿وَلِكُلِّ جَمَلًا مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ﴾ [النساء: ٢٣]، فإذا ألحقنا الفروض بأهلها ولم يبق شيء لم يستحق العاصب شيئًا، وإن بقي شيء أخذه أولى العصبية بحسب جهاتهم ودرجاتهم؛ فإن جهات العصوية خمس: البنوة، ثم الأبوة، ثم الأخوة وبنوهم، ثم العمومة وبنوهم، ثم الولاء، ويقدم منهم الأقرب جهة؛ فإن كانوا في جهة واحدة فالأقرب منزلة فإن كانوا بمنزلة واحدة؛ فالأقوى، وهو الشقيق؛ فإن تساوا من كل وجه اشتركوا والله أعلم.

وأما كون الأخوات لغير أم مع البنات أو بنات الابن عصبيات يأخذن ما فضل عن فروضهن؛ فلأنه ليس في القرآن ما يدل على أن الأخوات يسقطن بالبنات، فإذا كان الأمر كذلك، وبقي شيء بعد أخذ البنات فرضهن؛ فإنه يعطى للأخوات ولا يعدل عنهن إلى عصبية أبعد منهن كابن الأخ والعم ومن هو أبعد منهم. والله أعلم.

﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ

رضي الله عنه، وأن الجد يحجب الإخوة أشقاء أو لأب أو لأم كما يحجبهم الأب، وبيان ذلك أن الجد أب في غير موضع من القرآن؛ كقوله تعالى: ﴿إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ﴾ [البقرة: ١٣٣] الآية، وقال يوسف عليه السلام: ﴿وَأَتَيْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾ [يوسف: ٣٨]، فسمى الله الجد وجد الأب أبًا، فدل ذلك على أن الجد بمنزلة الأب، يرث ما يرثه الأب، ويحجب من يحجبه، وإذا كان العلماء قد أجمعوا على أن الجد حكمه حكم الأب عند عدمه في ميراثه مع الأولاد وغيرهم من بين الإخوة والأعمام وبنيتهم وسائر أحكام الموارث؛ فينبغي أيضًا أن يكون حكمه حكمه في حجب الإخوة لغير أم، وإذا كان ابن الأب بمنزلة ابن الصلب؛ فلم لا يكون الجد بمنزلة الأب؟ وإذا كان جد الأب مع ابن الأخ قد اتفق العلماء على أنه يحجبه؛ فلم لا يحجب جد الميت أخاه؟ فليس مع من يورث الإخوة مع الجد نص ولا إشارة ولا تنبيه ولا قياس صحيح.

وأما مسائل العول فإنه يستفاد حكمها من القرآن، وذلك أن الله تعالى قد فرض وقدر لأهل الموارث أنصبا، وهم بين حالتين: إما أن يحجب بعضهم بعضًا، أو لا؛ فإن حجب بعضهم بعضًا؛ فالمحجوب ساقط لا يزاحم ولا يستحق شيئًا، وإن لم يحجب بعضهم بعضًا؛ فلا يخلو: إما ألا تستغرق الفروض التركية، أو تستغرقها من غير زيادة ولا نقص، أو تزيد الفروض على التركية؛ ففي الحالتين الأوليين كل يأخذ فرضه كاملاً، وفي الحالة الأخيرة، وهي ما إذا زادت الفروض على التركية؛ فلا يخلو من حالين:

إما أن ننقص بعض الورثة عن فرضه الذي فرضه الله له ونكمل للباقيين منهم فروضهم، وهذا ترجيح بغير مرجح، وليس نقصان أحدهم بأولى من الآخر، فتعينت الحال الثانية، وهو أننا نعطي كل واحد منهم نصيبه بقدر الإمكان، ونحاصص بينهم؛ كديون الغرماء الزائدة على مال الغريم، ولا طريق موصل إلى ذلك إلا بالعول، فعلم من هذا أن العول في الفرائض قد بينه الله في كتابه.

وبعكس هذه الطريقة بعينها يعلم الرد؛ فإن أهل الفروض إذا لم تستغرق فروضهم التركية، وبقي شيء ليس له مستحق من عاصب قريب ولا بعيد؛ فإن رده على أحدهم ترجيح بغير مرجح، وإعطاءه غيرهم ممن ليس بقريب للميت جنف

الجزء الرابع

سورة النساء

خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْقَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٣﴾
وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا
خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴿١٤﴾

﴿١٣﴾ أي: تلك التفاصيل التي ذكرها في الموارث حدود الله التي يجب الوقوف معها، وعدم مجاوزتها ولا القصور عنها، وفي ذلك دليل على أن الوصية للوارث منسوخة بتقديره تعالى أنصاء الوارثين. ثم قوله تعالى: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا﴾^(١)؛ فالوصية للوارث بزيادة على حقه يدخل في هذا التعدي مع قوله ﷺ: «لا وصية لوارث»^(٢). ثم ذكر طاعة الله ورسوله ومعصيتهما عموماً؛ ليدخل في العموم لزوم حدوده في الفرائض أو ترك ذلك، فقال: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾: بامثال أمرهما الذي أعظمه طاعتهما في التوحيد ثم الأوامر على اختلاف درجاتها، واجتناب نهيهما الذي أعظمه الشرك بالله ثم المعاصي على اختلاف طبقاتها. ﴿يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا﴾: فمن أدى الأوامر واجتنب النواهي؛ فلا بد له من دخول الجنة والنجاة من النار. ﴿وَذَلِكَ الْقَوْزُ الْعَظِيمُ﴾^(٣): الذي حصل به النجاة من سخطه وعذابه والفوز بثوابه ورضوانه بالنعيم المقيم الذي لا يصفه الواصفون.

﴿١٤﴾ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ، إلخ، ويدخل في اسم المعصية الكفر فما دونه من المعاصي؛ فلا يكون فيها شبهة للخوارج القائلين بكفر أهل المعاصي؛ فإن الله تعالى رتب دخول الجنة على طاعته وطاعة رسوله، ورتب دخول النار على معصيته ومعصية رسوله؛ فمن أطاعه طاعة تامة دخل الجنة بلا عذاب، ومن عصى الله ورسوله معصية تامة يدخل فيها الشرك فما دونه دخل النار وخلص فيها، ومن اجتمع فيه معصية وطاعة؛ كان فيه من موجب الثواب والعقاب بحسب ما فيه من الطاعة والمعصية.

وقد دلت النصوص المتواترة على أن الموحدين الذين معهم طاعة التوحيد غير مخلدين في النار؛ فما معهم من التوحيد مانع لهم من الخلود فيها.

﴿وَالَّذِينَ يَأْتِيكَ الْفَجْشَةُ مِنْ نِسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَ أَرْبَعَةً مِنْكُمْ فَإِنْ شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّى يَتَوَقَّعَنَّ الْمَوْتَ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا﴾^(١٥) وَالَّذِينَ يَأْتِيَنَهَا مِنْكُمْ فَتَاذُوهُمَا فَإِنْ تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَحِيمًا﴾^(١٦).

﴿١٥﴾ أي: النساء اللاتي ﴿يَأْتِيَنَ الْفَجْشَةَ﴾؛ أي: الزنا، فوصفها بالفاحشة لشناعة وقبحها. ﴿فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَ أَرْبَعَةً مِنْكُمْ﴾؛ أي: من رجالكم المؤمنين العدول. ﴿فَإِنْ شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ﴾؛ أي: احبسوهن عن الخروج الموجب للريبة، وأيضاً؛ فإن الحبس من جملة العقوبات. ﴿حَتَّى يَتَوَقَّعَنَّ الْمَوْتَ﴾؛ أي: هذا منتهى الحبس. ﴿أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا﴾^(١٧)؛ أي: طريقاً غير الحبس في البيوت.

(١) كذا أثبتها الشيخ، وهي جزء من الآية ٢٢٩ من سورة البقرة، وعليها شرح الشيخ، فأبقينا عليها كما هي.

(٢) أحمد (١٧٦٦٣)، أبو داود (٣٥٦٥).

فهذه الآية ليست منسوخة؛ فإنما هي مغياة إلى ذلك الوقت، فكان الأمر في أول الإسلام كذلك، حتى جعل الله لهن سبيلاً، وهو رجم المحصن وجلد غير المحصن.

وكذلك اللذان ﴿يَأْتِيَنِيهَا﴾؛ أي: الفاحشة ﴿مِنْكُمْ﴾: من الرجال والنساء. ﴿فَتَاذُوهُمَا﴾: بالقول والتوبيخ والتعير والضرب الرادع عن هذه الفاحشة. فعلى هذا يكون الرجال إذا فعلوا الفاحشة يؤذون والنساء يحبسن ويؤذنين؛ فالحبس غاية للموت، والأذية نهايتها إلى التوبة والإصلاح. ولهذا قال: ﴿فَإِنْ تَابَا﴾؛ أي: رجعا عن الذنب الذي فعلاه وندما عليه وعزما ألا يعودا، ﴿وَأَصْلَحَا﴾: العمل الدال على صدق التوبة. ﴿فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا﴾؛ أي: عن أذاهما. ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَحِيمًا﴾؛ أي: كثير التوبة على المذنبين الخطائين، عظيم الرحمة والإحسان الذي من إحسانه وفقههم للتوبة، وقبلها منهم، وسامحهم عما صدر منهم.

ويؤخذ من هاتين الآيتين أن بينة الزنا لا بد أن تكون أربعة رجال مؤمنين، ومن باب أولى وأحرى اشتراط عدالتهم؛ لأن الله تعالى شدد في أمر هذه الفاحشة سترًا لعباده، حتى إنه لا يقبل فيها النساء منفردات ولا مع الرجل ولا مع دون أربعة، ولا بد من التصريح بالشهادة كما دلت على ذلك الأحاديث الصحيحة وتومى إليه هذه الآية: لما قال: ﴿فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ أَرْبَعَةً مِنْكُمْ﴾؛ لم يكتف بذلك، حتى قال: ﴿فَإِنْ شَهِدُوا﴾؛ أي: لا بد من شهادة صريحة عن أمر يشاهد عياناً من غير تعريض ولا كناية.

ويؤخذ منهما أن الأذية بالقول والفعل والحبس قد شرعه الله تعزيراً للجنس المعصية التي يحصل به الزجر.

﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهْلَةٍ ثُمَّ يُتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ ﴿١٧﴾ وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَقًّا إِذَا حَضَرَ أَحَدُهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْكُفْرَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٨﴾

﴿١٧﴾، ﴿١٨﴾ توبة الله على عباده نوعان: توفيق منه للتوبة، وقبول لها بعد وجودها من العبد. فأخبر هنا أن التوبة المستحقة على الله حقاً أحقه على نفسه كرمًا منه وجوداً

لمن عمل السوء؛ أي: المعاصي ﴿بِجَهْلَةٍ﴾؛ أي: جهالة منه لعاقبتها وإيجابها لسخط الله وعقابه، وجهل منه لنظر الله ومراقبته له، وجهل منه بما تتول إليه من نقص الإيمان أو انعدامه؛ فكل عاص لله فهو جاهل بهذا الاعتبار وإن كان عالماً بالتحريم، بل العلم بالتحريم شرط لكونها معصية معاقباً عليها. ﴿ثُمَّ يُتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ﴾: يحتمل أن يكون المعنى: ثم يتوبون قبل معاناة الموت؛ فإن الله يقبل توبة العبد إذا تاب قبل معاناة الموت والعذاب قطعاً، وأما بعد حضور الموت؛ فلا يقبل من العاصين توبة ولا من الكفار رجوع؛ كما قال تعالى عن فرعون: ﴿حَقَّ إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ ءَأَمِنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي ءَأَمَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَءِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ ﴿٩٠﴾ الآية [يونس: ٩٠]، وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا ءَأَمَنَّا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ﴾ ﴿١٨٥﴾ فَلَمْ يَكْ يَنْفَعُهُمْ إِيْمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسًا سَتَّ اللَّهُ آلِيَّ قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ﴾ [غافر: ٨٤، ٨٥]، وقال هنا: ﴿وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ﴾؛ أي: المعاصي فيما دون الكفر. ﴿حَقَّ إِذَا حَضَرَ أَحَدُهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْكُفْرَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ ﴿١٨﴾، وذلك أن التوبة في هذه الحال توبة اضطرار لا تنفع صاحبها، إنما تنفع توبة الاختيار.

ويحتمل أن يكون معنى قوله: ﴿مِنْ قَرِيبٍ﴾؛ أي: قريب من فعلهم للذنوب الموجب للتوبة، فيكون المعنى: أن من بادر إلى الإقلاع من حين صدور الذنب وأناب إلى الله وندم عليه فإن الله يتوب عليه؛ بخلاف من استمر على ذنبه وأصر على عيوبه حتى صارت فيه صفات راسخة؛ فإنه يعسر عليه إيجاد التوبة التامة، والغالب أنه لا يوفق للتوبة ولا ييسر لأسبابها؛ كالذي يعمل السوء على علم قائم ويقين متهاون بنظر الله إليه؛ فإنه يسد على نفسه باب الرحمة. نعم؛ قد يوفق الله عبده المصر على الذنوب عن عمد ويقين للتوبة النافعة التي يمحو بها ما سلف من سيئاته وما تقدم من جناياته، ولكن الرحمة والتوفيق للأول أقرب، ولهذا ختم الآية الأولى بقوله: ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ ﴿١٧﴾؛ فمن علمه أنه يعلم صادق التوبة وكاذبها، فيجازي كلا منهما بحسب ما استحق بحكمته، ومن حكمته أن يوفق من اقتضت حكمته ورحمته توفيقه للتوبة، ويخذل من اقتضت حكمته وعدله عدم توفيقه. والله أعلم.

سورة النساء

المجادل

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرِهًا وَلَا تَقْضُوا لَهُنَّ إِنْ تَزْهَبُوا بَعْضُ مَا أَتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَحِشَةٍ مُبِينَةٍ وَعَاشِرُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ۝١٩﴾ وَإِنْ أَرَدْتُمْ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَكَاتٍ زَوْجٍ وَأَتَيْتَهُ إِحْدَهُنَّ قِطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا أَتَأْخُذُونَهُ بِهْتِنَا وَإِنَّمَا مِثْلُنَا ۝٢٠﴾ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ وَأَخَذْتُ مِنْكُمْ مِثْقَالَ غَلِيظًا ۝٢١﴾.

﴿١٩﴾ كانوا في الجاهلية إذا مات أحدهم عن زوجته؛ رأى قريبه كأخيه وابن عمه ونحوهما - أنه أحق بزوجه من كل أحد، وحماها عن غيره، أحب أو كرهت؛ فإن أحبها تزوجها على صداق يحبه دونها، وإن لم يرضها عضلها فلا يزوجه إلا من يختاره هو، وربما امتنع من تزويجها حتى تبدل له شيئاً من ميراث قريبه أو من صداقها. وكان الرجل أيضاً يعضل زوجته التي يكون يكرهها لذهب ببعض ما آتاها. فنهى الله المؤمنين عن جميع هذه الأحوال إلا حالتين: إذا رضيت واختارت نكاح قريب زوجها الأول كما هو مفهوم قوله: ﴿كَرِهًا﴾. وإذا أتت بفاحشة مبينة كالزنا والكلام الفاحش وأذيتها لزوجها؛ فإنه في هذه الحال يجوز له أن يعضلها عقوبة لها على فعلها، لتفتدي منه إذا كان عضلاً بالعدل.

ثم قال: ﴿وَعَاشِرُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾: وهذا يشمل المعاشرة القولية والفعلية، فعلى الزوج أن يعاشر زوجته بالمعروف من الصحة الجميلة وكف الأذى وبذل الإحسان وحسن المعاملة، ويدخل في ذلك الثقة والكسوة ونحوهما، فيجب على الزوج لزوجه المعروف من مثله لمثلها في ذلك الزمان والمكان، وهذا يتفاوت بتفاوت الأحوال. ﴿فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ۝١٩﴾: أي: ينبغي لكم أيها الأزواج أن تمسكوا زوجاتكم مع الكراهة لهن؛ فإن في ذلك خيراً كثيراً: من ذلك امثال أمر الله وقبول وصيته التي فيها سعادة الدنيا والآخرة. ومنها: أن إجباره نفسه مع عدم محبته لها فيه مجاهدة النفس والتخلق بالأخلاق الجميلة، وربما أن الكراهة تزول وتخلفها المحبة كما هو الواقع في ذلك، وربما رزق منها ولداً صالحاً، نفع والديه في الدنيا والآخرة.

﴿٢٠﴾ وهذا كله مع الإمكان في الإمساك وعدم المحذور، فإن كان لا بد من الفراق وليس للإمساك محل؛ فليس الإمساك بلام، بل متى ﴿أَرَدْتُمْ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَكَاتٍ زَوْجٍ﴾: أي: تطليق زوجة وتزوج أخرى؛ أي: فلا جناح عليكم في ذلك ولا حرج، ولكن إذا أتيتم ﴿إِحْدَهُنَّ﴾: أي: المفارقة أو التي تزوجه ﴿قِطَارًا﴾: أي: مالا كثيراً. ﴿فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا﴾، بل وفروه لهن ولا تمطلوا بهن.

وفي هذه الآية دلالة على عدم تحريم كثرة المهر، مع أن الأفضل واللائق الاقتداء بالنبي ﷺ في تخفيف المهر، ووجه الدلالة أن الله أخبر عن أمر يقع منهم ولم ينكره عليهم، فدل على عدم تحريمه.

لكن قد ينهى عن كثرة الصداق إذا تضمن مفسدة دينية وعدم مصلحة تقاوم. ثم قال: ﴿أَتَأْخُذُونَهُ بِهْتِنَا وَإِنَّمَا مِثْلُنَا ۝٢٠﴾: أي: مالا كثيراً. ﴿فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا﴾، بل وفروه لهن ولا تمطلوا بهن.

هذه الآيات الكريمات مشتملات على المحرمات بالنسب والمحرمات بالرضاع والمحرمات بالصهر والمحرمات بالجمع وعلى المحلات من النساء.

﴿٣٣﴾ فاما المحرمات في النسب؛ فهن السبع اللاتي ذكرهن الله: الأم: يدخل فيها كل من لها عليك ولادة وإن بعدت. ويدخل في البنت كل من لك عليها ولادة. والأخوات الشقيقات أو لأب أو لأم. والعمة: كل أخت لأبيك أو لجدك وإن علا. والخالة: كل أخت لأمك أو جدتك وإن علت وارثة أم لا. وبنات الأخ وبنات الأخت؛ أي: وإن نزلت. فهؤلاء هن المحرمات من النسب بإجماع العلماء؛ كما هو نص الآية الكريمة، وما عداهن؛ فيدخل في قوله: ﴿وَأَجَلَ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكَ﴾، وذلك كبنت العمة والعم وبنت الخال والخالة.

وأما المحرمات بالرضاع؛ فقد ذكر الله منهن الأم والأخت، وفي ذلك تحريم الأم، مع أن اللبن ليس لها، إنما هو لصاحب اللبن، دل بتبيينه على أن صاحب اللبن يكون أباً للمرتضع؛ فإذا ثبت الأبوة والأمومة ثبت ما هو فرع عنهما؛ كأخوتهما وأصولهما وفروعهما، وقال النبي ﷺ: «يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب»^(١)، فينتشر التحريم من جهة المرضعة ومن له اللبن كما ينتشر في الأقارب وفي الطفل المرتضع إلى ذريته فقط، لكن بشرط أن يكون الرضاع خمس رضعات في الحولين؛ كما بينت السنة.

وأما المحرمات بالصهر؛ فهن أربع: حلالل الآباء وإن علوا، وحلالل الأبناء وإن نزلوا وارثين أو محجوبين، وأمها والزوجة وإن علون؛ فهؤلاء الثلاث يحرمن بمجرد العقد، والرابعة الربيبة، وهي بنت زوجته وإن نزلت؛ فهذه لا تحرم حتى يدخل بزوجته؛ كما قال هنا: ﴿وَرَبِّبُكُمْ أَلَّتِي فِي حُجُورِكُمْ مِّنْ نِّسَائِكُمُ الَّتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ﴾ الآية. وقد قال الجمهور: إن قوله: ﴿أَلَّتِي فِي حُجُورِكُمْ﴾؛ قيد خرج بمخرج الغالب لا مفهوم له؛ فإن الربيبة تحرم ولو لم تكن في حجره، ولكن للتقيد بذلك فائدتان: إحداهما: [فيه] التنبيه على الحكمة في تحريم الربيبة، وأنها كانت بمنزلة البنت؛ فمن المستقيم إباحتها. والثانية: فيه دلالة على جواز الخلوة بالربيبة، وأنها بمنزلة من هي في حجره من بناته ونحوهن. والله أعلم.

(١) البخاري (٢٦٤٥)، مسلم (١٤٤٧).

﴿٣٤﴾ وقد بين تعالى حكمة ذلك بقوله: ﴿وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ وَأَخَذْتُ مِنْكُمْ مِّيثَاقًا غَلِيظًا﴾، وبيان ذلك أن الزوجة قبل عقد النكاح محرمة على الزوج، ولم ترض بحلها له إلا بذلك المهر الذي يدفعه لها؛ فإذا دخل بها وأفصى إليها وباشرها المباشرة التي كانت حراماً قبل ذلك والتي لم ترض ببذلها إلا بذلك العوض؛ فإنه قد استوفى المعوض، فثبت عليه العوض؛ فكيف يستوفي المعوض ثم بعد ذلك يرجع على العوض؟ هذا من أعظم الظلم والجور، وكذلك أخذ الله على الأزواج ميثاقاً غليظاً بالعقد والقيام بحقوقها. ثم قال تعالى:

﴿وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِّنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ ﴿٣٥﴾.

﴿٣٥﴾ أي: لا تتزوجوا من النساء ما تزوجهن آبؤكم؛ أي: الأب وإن علا. ﴿إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً﴾؛ أي: أمراً قبيحاً يفحش ويعظم قبحه. ﴿وَمَقْتًا﴾: من الله لكم، ومن الخلق؛ بل يمقت بسبب ذلك الابن أباه والأب ابنه مع الأمر ببره. ﴿وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ ﴿٣٦﴾؛ أي: بشس الطريق طريقاً لمن سلكه؛ لأن هذا من عوائد الجاهلية التي جاء الإسلام بالنتزه عنها والبراءة منها.

﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَخَنَاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأُخْتِ وَأُمَّهَاتُكُمُ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُمُ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ وَرَبِّبُكُمْ أَلَّتِي فِي حُجُورِكُمْ مِّنْ نِّسَائِكُمُ الَّتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَإِنْ لَّمْ تَكُونُوا دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُورًا رَّحِيمًا﴾ ﴿٣٧﴾ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ وَأَجَلَ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكَ أَنْ تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُمْ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسْفِحِينَ فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرْضَيْنَهُ مِنْهُ مِنْ بَعْدِ الْفَرِيضَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ ﴿٣٨﴾.

وأما المحرمات بالجمع؛ فقد ذكر الله الجمع بين الأختين وحرمه، وحرم النبي ﷺ الجمع بين المرأة وعمتها أو خالتها؛ فكل امرأتين بينهما رحم محرم، لو قدر إحداهما ذكراً والأخرى أنثى حرمت عليه؛ فإنه يحرم الجمع بينهما، وذلك لما في ذلك من أسباب التقاطع بين الأرحام.

ومن المحرمات في النكاح ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ﴾؛ أي: ذوات الأزواج؛ فإنه يحرم نكاحهن ما دمن في ذمة الزوج حتى تطلق وتنقضي عدتها؛ ﴿إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾؛ أي: بالسي؛ فإذا سبت الكافرة ذات الزوج؛ حلت للمسلمين بعد أن تستبرأ، وأما إذا بيعت الأمة المزوجة أو وهبت؛ فإنه لا يفسخ نكاحها؛ لأن المالك الثاني نزل منزلة الأول، ولقصة بريرة حين خيرها النبي ﷺ.

وقوله: ﴿كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾؛ أي: الزموه واهتدوا به؛ فإن فيه الشفاء والنور، وفيه تفصيل الحلال من الحرام.

ودخل في قوله: ﴿وَأَحَلَّ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكَ﴾؛ كل ما لم يذكر في هذه الآية؛ فإنه حلال طيب؛ فالحرام محصور، والحلال ليس له حد ولا حصر؛ لطفاً من الله ورحمة وتيسيراً للعباد. وقوله: ﴿أَنْ تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُمْ﴾؛ أي: تطلبوا من وقع عليه نظركم واختياركم من اللاتي أباحهن الله لكم

حالة كونكم ﴿مُحْصِنِينَ﴾؛ أي: مستعفين عن الزنا ومعفين نساءكم. ﴿غَيْرِ مُسْتَفْجِرِينَ﴾؛ والسفح: سفح الماء في الحلال والحرام؛ فإن الفاعل لذلك لا يحصن زوجته؛ لكونه وضع شهوته في الحرام، فتضعف داعيته للحلال، فلا يبقى محصناً لزوجته. وفيها دلالة على أنه لا يزوج غير العفيف؛ لقوله تعالى: ﴿الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ﴾ [النور: ٣].

﴿فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ﴾؛ أي: من تزوجتموها. ﴿فَتَأْتُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ﴾؛ أي: الأجور في مقابلة الاستمتاع، ولهذا إذا دخل الزوج بزوجه؛ تقرر عليه صداقها ﴿فَرِيضَةً﴾؛ أي: إتيانكم إياهن أجورهن فرض فرضه الله عليكم، ليس بمزلة التبرع الذي إن شاء أمضاه وإن شاء رده، أو معنى قوله: ﴿فَرِيضَةً﴾؛ أي: مقدرة، قد قدرتموها، فوجبت عليكم؛ فلا تنقصوا منها شيئاً. ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا رَزَقْتُمْ بِهِ مِنْ بَعْدِ الْفَرِيضَةِ﴾؛ أي: بزيادة من الزوج أو إسقاط من الزوجة عن رضا وطيب نفس. هذا قول كثير من المفسرين. وقال كثير منهم: إنها نزلت في متعة النساء التي كانت حلالاً في أول الإسلام، ثم حرّمها النبي ﷺ، وأنه يؤمر بتوقيتها وأجرها، ثم إذا انقضى الأمد الذي بينهما، فتراضيا بعد الفريضة؛ فلا حرج عليهما. والله أعلم. ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾؛ أي: كامل العلم واسعه، كامل الحكمة؛ فمن علمه وحكمته شرع لكم هذه الشرائع، وحد لكم هذه الحدود الفاصلة بين الحلال والحرام. ثم قال تعالى:

﴿وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلًا أَنْ يَنْكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ فَيْسَرِكُمْ الْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَيْمَانِكُمْ بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَانكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَءَاتُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ مُحْصَنَاتٍ غَيْرِ مُسْتَفْجِرَاتٍ وَلَا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ فَإِذَا أَحْصَيْتُمْ أَنْتَ بِنَفْسِكُمْ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنْكُمْ وَأَنْ تَصْرِبُوا خَيْرٌ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

﴿يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذَيِّبَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ (٢٥) وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ يُمِيلُوا مِيلًا عَظِيمًا ﴿٢٦﴾ يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلُقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا ﴿٢٧﴾.

﴿٢٥﴾ يخبر تعالى بمتته العظيمة ومنحته الجسيمة وحسن تربيته لعباده المؤمنين وسهولة دينه، فقال: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذَيِّبَ لَكُمْ﴾؛ أي: جميع ما تحتاجون إلى بيانه من الحق والباطل والحلال والحرام. ﴿وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾؛ أي: الذين أنعم الله عليهم من النبيين وأتباعهم في سيرهم الحميدة وأفعالهم السديدة وشماثلهم الكاملة وتوفيقهم التام؛ فلذلك نفذ ما أراه، ووضح لكم، وبين بيانًا كما بين لمن قبلكم، وهذاكم هداية عظيمة في العلم والعمل.

﴿وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾؛ أي: يلطف [بكم] في أحوالكم وما شرعه لكم، حتى تتمكنوا من الوقوف على ما حده الله والاكْتفاء بما أحله، فتقل ذنوبكم بسبب ما يسر الله عليكم؛ فهذا من توبته على عباده، ومن توبته عليهم أنهم إذا أذنبوا فتح لهم أبواب الرحمة، وأوزع قلوبهم الإنابة إليه والتذلل بين يديه، ثم يتوب عليهم بقبول ما وفقهم له؛ فله الحمد والشكر على ذلك. وقوله: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ (٢٦)؛ أي: كامل العلم واسع، كامل الحكمة؛ فمن علمه أن علمكم ما لم تكونوا تعلمون، ومنها هذه الأشياء والحدود. ومن حكمته أنه يتوب على من اقتضت حكمته ورحمته التوبة عليه، ويخذل من اقتضت حكمته وعدله ألا يصلح للتوبة.

﴿٢٦﴾ وقوله: ﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾؛ أي: توبة تلم شعثكم وتجمع متفرقكم وتقرب بعيدكم. ﴿وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ﴾؛ أي: يميلون معها حيث مالت، ويقدمونها على ما فيه رضا محبوبهم ويعبدون أهواءهم من أصناف الكفرة والعاصين المقدمين لأهوائهم على طاعة ربهم؛ فهؤلاء يريدون ﴿أَنْ يُمِيلُوا مِيلًا عَظِيمًا﴾ (٢٧)؛ أي: أن تنحرفوا عن الصراط المستقيم إلى صراط المغضوب عليهم والضالين، يريدون أن يصرفوكم عن طاعة الرحمن إلى طاعة الشيطان، وعن التزام حدود من السعادة كلها في امتثال أوامره إلى من الشقاوة كلها في اتباعه؛ فإذا عرفتم أن الله تعالى يأمركم بما فيه صلاحكم وفلاحكم وسعادتكم،

أي: ومن لم يستطع الطول الذي هو المهر لنكاح المحصنات؛ أي: الحرائر المؤمنات، وخاف على نفسه العنت؛ أي: الزنا والمشقة الكثيرة؛ فيجوز له نكاح الإماء المملوكات المؤمنات، وهذا بحسب ما يظهر، وإلا فالله أعلم بالمؤمن الصادق من غيره؛ فأمر الدنيا مبنية على ظواهر الأمور، وأحكام الآخرة مبنية على ما في البواطن. ﴿فَأَنكِحُوهُنَّ﴾؛ أي: المملوكات ﴿يَاذُنْ أَهْلَهُنَّ﴾؛ أي: سيدهن واحدًا أو متعدداً. ﴿وَأَتَوْهُنَّ أَجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾؛ أي: ولو كن إماء؛ فإنه كما يجب المهر للحر؛ فكذلك يجب للإماء، ولكن لا يجوز نكاح الإماء إلا إذا كن ﴿مُحْصَنَاتٍ﴾؛ أي: عفيفات عن الزنا، ﴿غَيْرِ مُسْتَفْحِجَاتٍ﴾؛ أي: زانيات علانية، ﴿وَلَا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ﴾؛ أي: أخلاء في السر.

فالحاصل أنه لا يجوز للحر المسلم نكاح أمة إلا بأربعة شروط ذكرها الله: إيمانهن، والعفة ظاهرًا وباطنًا، وعدم استطاعة طول الحرية، وخوف العنت؛ فإذا تمت هذه الشروط؛ جاز له نكاحهن، ومع هذا فالصبر عن نكاحهن أفضل؛ لما فيه من تعريض الأولاد للرق، ولما فيه من الدناءة والعيب، وهذا إذا أمكن الصبر؛ فإن لم يمكن الصبر عن الحرام إلا بنكاحهن وجب ذلك، ولهذا قال: ﴿وَأَنْ تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (٢٨).

وقوله: ﴿فَإِذَا أُحْصِنَ﴾؛ أي: تزوجن أو أسلمن؛ أي: الإماء. فعليهن نصف ما على المحصنات؛ أي: الحرائر ﴿مِنْ الْعَذَابِ﴾. وذلك الذي يمكن تنصيفه وهو الجلد، فيكون عليهن خمسون جلدة، وأما الرجم فليس على الإماء رجم؛ لأنه لا ينتصف؛ فعلى القول الأول: إذا لم يتزوجن فليس عليهن حد، إنما عليهن تعزير يردعهن عن فعل الفاحشة. وعلى القول الثاني: إن الإماء غير المسلمات إذا فعلن فاحشة أيضًا عزن.

وختم هذه الآية بهذين الاسمين الكريمين: الغفور والرحيم؛ لكون هذه الأحكام رحمة بالعباد وكرماً وإحساناً إليهم، فلم يضيّق عليهم، بل وسع غاية السعة. ولعل في ذكر المغفرة بعد ذكر الحد إشارة إلى أن الحدود كفارات يغفر الله بها ذنوب عباده كما ورد بذلك الحديث.

وحكم العبد الذكر في الحد المذكور حكم الأمة لعدم الفارق بينهما.

وأن هؤلاء المتبعين شهواتهم يأمرونكم بما فيه غاية الخسار والشقاء؛ فاختاروا لأنفسكم أولى الداعيين وتخبروا أحسن الطريقتين.

﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ﴾؛ أي: بسهولة ما أمركم به وما نهاكم عنه، ثم مع حصول المشقة في بعض الشرائع أباح لكم ما تقتضيه حاجتكم كالميتة والدم ونحوهما للمضطر، وكزوج الأمة للحر بتلك الشروط السابقة، وذلك لرحمته التامة وإحسانه الشامل وعلمه وحكمته بضعف الإنسان من جميع الوجوه؛ ضعف البنية وضعف الإرادة وضعف العزيمة وضعف الإيمان وضعف الصبر فناسب ذلك أن يخفف الله عنه ما يضعف عنه، وما لا يطيقه إيمانه وصبره وقوته.

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ رَاضٍ مِنْكُمْ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ ﴿٢٦﴾ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ عُدْوَانًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾ ﴿٢٧﴾.

﴿٢٦﴾ ينهى تعالى عباده المؤمنين أن يأكلوا أموالهم بينهم بالباطل، وهذا يشمل أكلها بالغصب والسرقات وأخذها بالقمار والمكاسب الرديئة، بل لعله يدخل في ذلك أكل

وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ تَتُوبَ عَلَيْهِمْ وَأُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّوَاهِدَ أَنْ يَقْبَلُوا مِيلًا عَظِيمًا﴾ ﴿٢٥﴾ يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا﴾ ﴿٢٨﴾ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ رَاضٍ مِنْكُمْ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ ﴿٢٦﴾ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ عُدْوَانًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾ ﴿٢٧﴾ إِنَّ تَحْتَبَبُّوا كَبَائِرَ مَا تُنْتَهَوْنَ عَنْهُ تُكْفِرُ عَنْكُمْ سَعْيَاتِكُمْ وَتُدْخِلُكُمْ مَدْخَلًا كَرِيمًا﴾ ﴿٢٨﴾ وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبْنَ وَسَأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ ﴿٢٩﴾ وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِي مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَنُكُمْ فَتَأْتُوهُمْ نَصِيبُهُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا﴾ ﴿٣٠﴾

مال نفسك على وجه البطر والإسراف؛ لأن هذا من الباطل، وليس من الحق. ثم إنه لما حرم أكلها بالباطل أباح لهم أكلها بالتجارات والمكاسب الخالية من الموانع المشتملة على الشروط من التراضي وغيره.

﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾؛ أي: لا يقتل بعضكم بعضًا، ولا يقتل الإنسان نفسه، ويدخل في ذلك الإلقاء بالنفس إلى التهلكة وفعل الأخطار المفضية إلى التلف والهلاك ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ ﴿٢٦﴾: ومن رحمته أن صان نفوسكم وأموالكم ونهاكم عن إضاعتهما وإتلافها، ورتب على ذلك ما رتبته من الحدود. وتأمل هذا الإيجاز والجمع في قوله ﴿لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ﴾ ﴿٢٦﴾ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾؛ كيف شمل أموال غيرك وقتل نفسك وقتل غيرك بعبارة أخصر من قوله: لا يأكل بعضكم مال بعض ولا يقتل بعضكم بعضًا؛ مع قصور هذه العبارة على مال الغير ونفس الغير، مع أن إضافة الأموال والأنفس إلى عموم المؤمنين فيه دلالة على أن المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم ومصالحهم كالجسد الواحد؛ حيث كان الإيمان يجمعهم على مصالحهم الدينية والدنيوية.

ولما نهى عن أكل الأموال بالباطل التي فيها غاية الضرر عليهم، على الأكل ومن أخذ ماله أباح لهم ما فيه مصلحتهم من أنواع المكاسب والتجارات وأنواع الحرف والإجازات، فقال: ﴿إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ رَاضٍ مِنْكُمْ﴾؛ أي: فإنها مباحة لكم. وشرط التراضي مع كونها تجارة لدلالة أنه يشترط أن يكون العقد غير عقد ربا، لأن الربا ليس من التجارة؛ بل مخالف لمقصودها، وأنه لا بد أن يرضى كل من المتعاقدين ويأتي به اختيارًا، ومن تمام الرضا أن يكون المعقود عليه معلومًا؛ لأنه إذا لم يكن كذلك لا يتصور الرضا مقدورًا على تسليمه؛ لأن غير المقدور عليه شبيه ببيع القمار؛ فبيع الغر بجميع أنواعه خال من الرضا فلا ينفذ عقده. وفيها أنه تتعدد العقود بما دل عليها من قول أو فعل؛ لأن الله شرط الرضا، فبأي طريق حصل الرضا انعقد به العقد.

ثم ختم الآية بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ۝٢٩﴾: ومن رحمته أن عصم دماءكم وأموالكم، وصانها، ونهاكم عن انتهاكها.

﴿٣٠﴾ ثم قال: ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ۖ أَيُّ: أَكَلَ الْأَمْوَالِ بِالْبَاطِلِ وَقَتْلَ الْفُوسِ ۖ عُدُوًّا وَظُلْمًا ۖ أَيُّ: لَا جَهْلًا وَنِسْيَانًا ۖ فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا ۖ أَيُّ: عَظِيمَةً كَمَا يَفِيدُهُ التَّنَكُّيرُ ۖ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ۝٣١﴾.

﴿٣١﴾ إِنَّ تَحْتَبِئُوا كِبَارَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ تُكْفِرَ عَنْكُمْ سِعَاتِكُمْ وَتُذْخِلُكُمْ مَدْخَلًا كَرِيمًا ۝٣٢﴾.

﴿٣٢﴾ وهذا من فضل الله وإحسانه على عباده المؤمنين، وعدمهم أنهم إذا اجتنبوا كبائر المنهيات غفر لهم جميع الذنوب والسيئات، وأدخلهم مدخلا كريما كثير الخير، وهو الجنة المشتملة على ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

ويدخل في اجتناب الكبائر فعل الفرائض التي يكون تاركها مرتكبًا كبيرة؛ كالصلوات الخمس والجمعة ورمضان؛ كما قال النبي ﷺ: «الصلوات الخمس، والجمعة إلى الجمعة، ورمضان إلى رمضان مكفرات لما بينهن، ما اجتنبت الكبائر»^(١).

وأحسن ما حدثت به الكبائر: أن الكبيرة ما فيه حد في الدنيا أو وعيد في الآخرة أو نفي إيمان أو ترتيب لعنة أو غضب عليه.

﴿وَلَا تَمْنُوا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ ۚ لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبْنَ ۚ وَسَأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ۝٣٣﴾.

﴿٣٣﴾ ينهى تعالى المؤمنين عن أن يتمنى بعضهم ما فضل الله به غيره من الأمور الممكنة وغير الممكنة؛ فلا تمنى النساء خصائص الرجال التي بها فضلهم على النساء، ولا صاحب الفقر والنقص حالة الغني والكمال تمنيا مجردا؛ لأن هذا هو الحسد بعينه؛ تمنى نعمة الله على غيرك أن تكون لك ويسلب إياها، ولأنه يقتضي السخط على قدر الله، والإخلاد إلى الكسل، والأمانى الباطلة التي لا يقترن

بها عمل ولا كسب، وإنما المحمود أمران: أن يسعى العبد على حسب قدرته بما ينفعه من مصالحه الدينية والدنيوية، ويسأل الله تعالى من فضله؛ فلا يتكل على نفسه ولا على غير ربه، ولهذا قال تعالى: ﴿لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبُوا ۖ أَيُّ: من أعمالهم المتتجة للمطلوب. ﴿وَاللِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبْنَ ۖ أَيُّ: فكل منهم لا يناله غير ما كسبه وتعب فيه. ﴿وَسَأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ ۖ أَيُّ: من جميع مصالحهم في الدين والدنيا؛ فهذا كمال العبد وعنوان سعادته، لا من يترك العمل أو يتكل على نفسه غير مفقر لربه أو يجمع بين الأمرين؛ فإن هذا مخذول خاسر. وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ۝٣٣﴾: فيعطي من يعلمه أهلا لذلك، ويمنع من يعلمه غير مستحق.

﴿وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيًا مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ ۚ وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَنُكُمْ فَتَأْتُوهُمْ نَصِيبُهُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا ۝٣٤﴾.

﴿٣٤﴾ أَيُّ: ﴿وَلِكُلٍّ﴾: من الناس ﴿جَعَلْنَا مَوَالِيًا﴾؛ أَيُّ: يتولونه ويتولاهم بالتعزز والنصرة والمعاونة على الأمور، ﴿مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ﴾: وهذا يشمل سائر الأقارب من الأصول والفروع والحواشي، هؤلاء الموالي من القرابة. ثم ذكر نوعا آخر من الموالي، فقال: ﴿وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَنُكُمْ﴾؛ أَيُّ: حالفتموهم بما عقدتم معهم من عقد المحالفة على النصرة والمساعدة والاشتراك بالأموال وغير ذلك، وكل هذا من نعم الله على عباده؛ حيث كان الموالي يتعاونون بما لا يقدر عليه بعضهم مفردا. قال تعالى: ﴿فَتَأْتُوهُمْ نَصِيبُهُمْ﴾؛ أَيُّ: أتوا الموالي نصيبهم الذي يجب القيام به من النصرة والمعاونة والمساعدة على غير معصية الله والميراث للأقارب الأدين من الموالي. ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا ۝٣٤﴾؛ أَيُّ: مطلعا على كل شيء بعلمه لجميع الأمور وبصره لحركات عبادته وسمعه لجميع أصواتهم.

﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ ۚ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ ۚ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ ۚ فَالَّذِينَ حَقَّتْ قَيْنَتُكَ حَقُّهُنَّ لِلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ ۚ وَالَّذِينَ نَحْنُ شُرَهْرُكُمْ قَوَّامُونَ ۚ وَأَهْمُجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاصْرُبُوهُنَّ ۚ فَإِنْ أَطَعْتَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا كَرِيمًا ۝٣٥﴾.

﴿٢٤﴾

يخبر تعالى أن ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ﴾؛ أي: قوامون عليهن بالزمامهن بحقوق الله تعالى من المحافظة على فرائضه وكفهن عن المفساد، والرجال عليهن أن يلزموهن بذلك، وقوامون عليهن أيضًا بالإنفاق عليهن والكسوة والمسكن. ثم ذكر السبب الموجب لقيام الرجال على النساء، فقال: ﴿يَمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَيَمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ﴾؛ أي: بسبب فضل الرجال على النساء وإفضالهم عليهن؛ تفضيل الرجال على النساء من وجوه متعددة: من كون الولايات مختصة بالرجال، والنبوة، والرسالة، واختصاصهم بكثير من العبادات كالجهاد والأعياد والجمع، وبما خصهم الله به من العقل والرزانة والصبر والجلد الذي ليس للنساء مثله، وكذلك خصهم بالنفقات على الزوجات، بل وكثير من النفقات يختص بها الرجال ويتميزون عن النساء، ولعل هذا سر قوله: ﴿وَيَمَا أَنْفَقُوا﴾، وحذف المفعول؛ ليدل على عموم النفقة، فعلم من هذا كله أن الرجل كالوالي والسيد لامرأته، وهي عنده عانية أسيرة خادمة، فوظيفته أن يقوم بما استراحه الله به، ووظيفتها القيام بطاعة ربها وطاعة زوجها؛ فلهذا قال: ﴿فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ﴾؛ أي: مطيعات لله تعالى، ﴿حَافِظَاتٌ لِّغَيْبِ﴾؛ أي: مطيعات لأزواجهن حتى في الغيب، تحفظ بعلمها بنفسها وماله، وذلك بحفظ الله لهن وتوفيقه لهن لا من أنفسهن؛ فإن النفس أمارة بالسوء، ولكن من توكل على الله؛ كفاه ما أهمه من أمر دينه ودنياه.

ثم قال: ﴿وَاللَّي تَخَافُونَ سُوءَ بَعْضِهِمْ﴾؛ أي: ارتفاعهن عن طاعة أزواجهن؛ بأن تعصيه بالقول أو الفعل، فإنه يؤديها بالأسهل فالأسهل. ﴿فَعِظُوهُنَّ﴾؛ أي: ببيان حكم الله في طاعة الزوج ومعصيته، والترغيب في الطاعة، والترهيب من المعصية، فإن انتهت فذلك المطلوب، وإلا فيهجرها الزوج في المضجع؛ بالأبىاضاجعها ولا يجامعها بمقدار ما يحصل به المقصود، وإلا ضربها ضرباً غير مبرح؛ فإن حصل المقصود بواحد من هذه الأمور وأطعنكم؛ ﴿فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا﴾؛ أي: فقد حصل لكم ما تحبون فاتركوا معاتبتها على الأمور الماضية والتنقيب عن العيوب التي يضر ذكرها، ويحدث بسببه الشر.

﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا كَبِيرًا﴾؛ أي: له العلو المطلق بجميع الوجوه والاعتبارات؛ علو الذات وعلو القدر، وعلو القهر. الكبير: الذي لا أكبر منه ولا أجل ولا أعظم، كبير الذات والصفات.

﴿وَأِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَأَبْعَثُوا حَكَمًا مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِنْ أَهْلِهَا﴾؛ أي: وإن خفتم الشقاق بين الزوجين والمباعدة والمجانبة حتى يكون كل منهما في شق؛ ﴿فَأَبْعَثُوا حَكَمًا مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِنْ أَهْلِهَا﴾؛ أي: رجلين مكلفين مسلمين عدلين عاقلين، يعرفان ما بين الزوجين، ويعرفان الجمع والتفريق، وهذا مستفاد من لفظ الحكم؛ لأنه لا يصلح حكماً إلا من اتصف بتلك الصفات، فينظران ما ينقم كل منهما على صاحبه، ثم يلزمان كلاً منهما ما يجب؛ فإن لم يستطع أحدهما ذلك قنعا الزوج الآخر بالرضا بما تسر من الرزق والخلق، ومهما أمكنهما الجمع والإصلاح فلا يعدلا عنه، فإن وصلت الحال إلى أنه لا يمكن اجتماعهما وإصلاحهما إلا على وجه المعادة والمقاطعة ومعصية الله، ورأيا أن التفريق بينهما أصلح؛ فرقا بينهما، ولا يشترط رضا الزوج كما يدل عليه أن الله سماهما الحكمين،

﴿أَي: وإن خفتم الشقاق بين الزوجين والمباعدة والمجانبة حتى يكون كل منهما في شق؛ ﴿فَأَبْعَثُوا حَكَمًا مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِنْ أَهْلِهَا﴾؛ أي: رجلين مكلفين مسلمين عدلين عاقلين، يعرفان ما بين الزوجين، ويعرفان الجمع والتفريق، وهذا مستفاد من لفظ الحكم؛ لأنه لا يصلح حكماً إلا من اتصف بتلك الصفات، فينظران ما ينقم كل منهما على صاحبه، ثم يلزمان كلاً منهما ما يجب؛ فإن لم يستطع أحدهما ذلك قنعا الزوج الآخر بالرضا بما تسر من الرزق والخلق، ومهما أمكنهما الجمع والإصلاح فلا يعدلا عنه، فإن وصلت الحال إلى أنه لا يمكن اجتماعهما وإصلاحهما إلا على وجه المعادة والمقاطعة ومعصية الله، ورأيا أن التفريق بينهما أصلح؛ فرقا بينهما، ولا يشترط رضا الزوج كما يدل عليه أن الله سماهما الحكمين،

سورة النساء

النساء

الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ يَمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَيَمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِّغَيْبِ يَمَا حَفِظَ اللَّهُ وَاللَّي تَخَافُونَ سُوءَ بَعْضِهِمْ فَعِظُوهُنَّ وَأَهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَصَاجِعِ وَأَضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْتَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا كَبِيرًا ﴿٢٤﴾ وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَأَبْعَثُوا حَكَمًا مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِنْ أَهْلِهَا إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقُ اللَّهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٢٥﴾ وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَاللَّوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسْكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴿٢٦﴾ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ بِأَمْوَالِهِمْ الَّتِي آتَاهُمُ اللَّهُ لِيُزِيلُوا عَنْهَا عَنْهُمْ أَلَمْ يَكُنْ اللَّهُ يَخْتَصُ بِهِنَّ مِنْ فَضْلِهِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا ﴿٢٧﴾

٨١

والحكم يحكم، وإن لم يرض المحكوم عليه، ولهذا قال: ﴿إِنْ يُرِيدَ إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا﴾؛ أي: بسبب الرأي الميمون والكلام الذي يجذب القلوب ويؤلف بين القريتين. ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾؛ أي: عالمًا بجميع الظواهر والبواطن، مطلعًا على خفايا الأمور وأسرارها؛ فمن علمه وخبره أن شرع لكم هذه الأحكام الجليلة والشرائع الجميلة.

﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَاللَّذِينَ إِحْسَنَّا وَبَذَى الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسْكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا﴾ (٣٦) ﴿الَّذِينَ يَبْخُلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا﴾ (٣٧) ﴿وَالَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِثَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَنْ يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا﴾ (٣٨).

(٣٦)، (٣٧) يأمر تعالى عباده بعبادته وحده لا شريك له، وهو الدخول تحت رق عبوديته والانقياد لأوامره ونواهيه؛ محبةً وذلاً وإخلاصاً له في جميع العبادات الظاهرة والباطنة، وينهى عن الشرك به شيئاً؛ لا شركاً أصغر، ولا أكبر، لا ملكاً، ولا نبياً، ولا ولياً، ولا غيره من المخلوقين الذين لا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضرا ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً، بل الواجب المتعين لإخلاص العباد لمَن له الكمال المطلق من جميع الوجوه، وله التدبير الكامل الذي لا يشركه ولا يعينه عليه أحد.

ثم بعدما أمر بعبادته والقيام بحقه أمر بالقيام بحقوق العباد الأقرب فالأقرب، فقال: ﴿وَالَّذِينَ إِحْسَنَّا﴾؛ أي: أحسنوا إليهم بالقول الكريم والخطاب اللطيف والفعل الجميل، بطاعة أمرهما واجتناب نهيهما، والإنفاق عليهما، وإكرام من له تعلق بهما، وصلة الرحم التي لا رحم لك إلا بهما. وللإحسان ضدان الإساءة وعدم الإحسان، وكلاهما منهي عنه. ﴿وَبَذَى الْقُرْبَى﴾ أيضاً إحساناً، ويشمل ذلك جميع الأقارب، قربوا أو بعدوا، بأن يحسن إليهم بالقول والفعل، وألاً يقطع رحمه بقوله أو فعله. ﴿وَالْيَتَامَى﴾؛ أي: الذين فقدوا آباءهم وهم صغار، فلمن حق على المسلمين، سواء كانوا أقارب أو غيرهم، بكفالتهم وبرهم وجبر خواطرهم

وتأديبهم وتربيتهم أحسن تربية في مصالح دينهم ودنياهم. ﴿وَالْمَسْكِينِ﴾؛ وهم الذين أسكنتهم الحاجة والفقر، فلم يحصلوا على كفايتهم ولا كفاية من يمونون، فأمر الله تعالى بالإحسان إليهم بسد خلتهم وبدفع فاقتهم والحض على ذلك والقيام بما يمكن منه. ﴿وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى﴾؛ أي: الجار القريب الذي له حقان؛ حق الجوار وحق القرابة؛ فله على جاره حق وإحسان راجع إلى العرف. وكذلك ﴿وَالْجَارِ الْجُنُبِ﴾؛ أي: الذي ليس له قرابة، وكلما كان الجار أقرب باباً كان أكد حقاً، فينبغي للجار أن يتعاهد جاره بالهدية والصدقة والدعوة واللطافة بالأقوال والأفعال وعدم أذيته بقول أو فعل. ﴿وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ﴾: قيل: الرفيق في السفر، وقيل: الزوجة، وقيل: الصاحب مطلقاً، ولعله أولى؛ فإنه يشمل الصاحب في الحضر والسفر ويشمل الزوجة؛ فعلى الصاحب لصاحبه حق زائد على مجرد إسلامه، من مساعدته على أمور دينه ودنياه، والنصح له، والوفاء معه في اليسر والعسر والمنشط والمكره، وأن يحب له ما يحب لنفسه، ويكره له ما يكره لنفسه، وكلما زادت الصحبة تأكد الحق وزاد. ﴿وَابْنِ السَّبِيلِ﴾: وهو الغريب الذي احتاج في بلد الغربة أو لم يحتج؛ فله حق على المسلمين لشدة حاجته وكونه في غير وطنه بتبليغه إلى مقصوده أو بعض مقصوده وإيثاره وتأنيسه. ﴿وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾؛ أي: من الأدميين والبهائم، بالقيام بكفائتهم وعدم تحميلهم ما يشق عليهم، وإعانتهم على ما تحملوه وتأديبهم لما فيه مصلحتهم؛ فمن قام بهذه الأمور فهو الخاضع لربه، المتواضع لعباد الله، المنقاد لأمر الله وشرعه، الذي يستحق الثواب الجزيل والثناء الجميل، ومن لم يقم بذلك فإنه عبد معرض عن ربه، غير منقاد لأوامره، ولا متواضع للخلق، بل هو متكبر على عباد الله، معجب بنفسه، فخور بقوله. ولهذا قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا﴾؛ أي: معجباً بنفسه متكبراً على الخلق، ﴿فَخُورًا﴾ (٣٦)؛ يشني على نفسه ويمدحها على وجه الفخر والبطر على عباد الله؛ فهو لاء ما بهم من الاختيال والفخر يمنعهم من القيام بالحقوق، ولهذا ذمهم بقوله: ﴿الَّذِينَ يَبْخُلُونَ﴾؛ أي: يمتنعون ما عليهم من الحقوق الواجبة، ﴿وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ﴾: بأقوالهم وأفعالهم، ﴿وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾؛ أي: من العلم الذي يهتدي به الضالون ويسترشد به الجاهلون، فيكتمونه عنهم، ويظهرون لهم من الباطل

ما يحول بينهم وبين الحق، فجمعوا بين البخل بالمال والبخل بالعلم وبين السعي في خسارة أنفسهم وخسارة غيرهم، وهذه هي صفات الكافرين؛ فهذا قال تعالى: ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا﴾ (٧)؛ أي: كما تكبروا على عباد الله، ومنعوا حقوقه، وتسببوا في منع غيرهم من البخل وعدم الاهتداء أهانهم بالعذاب الأليم والخزي الدائم؛ فعياداً بك اللهم من كل سوء.

﴿٢٨﴾ ثم أخبر عن النفقة الصادرة عن رياء وسمعة وعدم إيمان به، فقال: ﴿وَالَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاءَ النَّاسِ﴾؛ أي: ليروهم ويمدحهم ويعظمهم. ﴿وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾؛ أي: ليس إنفاقهم صادراً عن إخلاص وإيمان بالله ورجاء ثوابه؛ أي: فهذا من خطوات الشيطان وأعماله، التي يدعو حزبه إليها ليكونوا من أصحاب السعير، وصدرت منهم بسبب مقارنته لهم وأزهم إليها؛ فهذا قال: ﴿وَمَنْ يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا﴾ (٢٨)؛ أي: بشس المقارن والصاحب الذي يريد إهلاك من قارنه ويسعى فيه أشد السعي؛ فكما أن من بخل بما آتاه الله وكنم ما من به الله عليه عاص آثم مخالف لربه؛ فكذلك من أنفق وتعبد لغير الله؛ فإنه آثم عاص لربه مستوجب للعقوبة؛ لأن الله إنما أمر بطاعته وامتنال أمره على وجه الإخلاص؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا

اللَّهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [البينة: ٥]؛ فهذا العمل المقبول الذي يستحق صاحبه المدح والثواب؛ فهذا حث تعالى عليه بقوله:

﴿وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ وَكَانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا﴾ (٢٩).

﴿٣٠﴾ أي: أي شيء عليهم وأي حرج ومشقة تلحقهم لو حصل منهم الإيمان بالله الذي هو الإخلاص وأنفقوا من أموالهم التي رزقهم الله وأنعم بها عليهم، فجمعوا بين الإخلاص والإنفاق، ولما كان الإخلاص سرّاً بين العبد وبين ربه لا يطلع عليه إلا الله؛ أخبر تعالى بعلمه بجميع الأحوال، فقال: ﴿وَكَانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا﴾ (٣٠).

﴿٣١﴾ إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكَ حَسَنَةً يُّضَعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٣٢﴾ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴿٣٣﴾ يَوْمَئِذٍ يُوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُوا الرُّسُولَ لَوْ شِئَى بِهِمُ الْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا﴾ (٣١).

﴿٣٤﴾ يخبر تعالى عن كمال عدله وفضله وتنزهه عما يضاد ذلك من الظلم القليل والكثير، فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾؛ أي: ينقصها من حسنات عبده أو يزيدها في سيئاته؛ كما قال تعالى: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ (٧) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ (٨) [الزلزلة: ٧، ٨]. ﴿وَإِنْ تَكَ حَسَنَةً يُّضَعِفْهَا﴾؛ أي: إلى عشرة أمثالها، إلى أكثر من ذلك، بحسب حالها ونفعها وحال صاحبها إخلاصاً ومحبةً وكمالاً. ﴿وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ (٣١)؛ أي: زيادة على ثواب العمل بنفسه من التوفيق لأعمال آخر وإعطاء البر الكثير والخير الغزير.

﴿٣٥﴾ ثم قال تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ (٣٥)؛ أي: كيف تكون تلك الأحوال؟ وكيف يكون ذلك الحكم العظيم الذي جمع أن من حكم به كامل العلم، كامل العدل، كامل الحكمة بشهادة أركى

وَالَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَنْ يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا ﴿٢٨﴾ وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ وَكَانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا ﴿٢٩﴾ إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكَ حَسَنَةً يُّضَعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٣٠﴾ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴿٣١﴾ يَوْمَئِذٍ يُوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُوا الرُّسُولَ لَوْ شِئَى بِهِمُ الْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا ﴿٣٢﴾ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَرَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلاَّ عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّى تَغْتَسِلُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرَضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَمْ يَسْمَعْهُ الْإِنْسَاءُ فَلَئِنْ تَجَدَّوْا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوْهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٣٣﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أَوْتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يَشْتَرُونَ الصَّلَاةَ وَيُرِيدُونَ أَنْ تَضِلُّوا السَّبِيلَ ﴿٣٤﴾

الخلق، وهم الرسل على أممهم مع إقرار المحكوم عليه؟ فهذا والله الحكم الذي هو أعم الأحكام وأعدلها وأعظمها، وهناك يبقى المحكوم عليهم مقرين له بكمال الفضل والعدل والحمد والثناء، وهناك يسعد أقوام بالفوز والفلاح والعز والنجاح، ويشقى أقوام بالخزي والفضيحة والعذاب المهيمن.

﴿٤٢﴾ ولهذا قال: ﴿يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُوا أَرْسُولَ﴾ أي: جمعوا بين الكفر بالله وبرسوله ومعصية الرسول، ﴿لَوْ سَوَّيْتُمْ بِهِمُ الْأَرْضَ﴾ أي: تبتلعهم ويكونون ترابًا وعمدًا؛ كما قال تعالى: ﴿وَيَقُولُ الْكَافِرُ إِنِّي إِنَّمَا كُنْتُ نَزَابًا﴾ ﴿النبا: ٤٠﴾. ﴿وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا﴾ ﴿٤٣﴾ أي: بل يقولون له بما عملوا ﴿وَتَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ﴿٢٤﴾ يَوْمَئِذٍ يُؤْفِكُ اللَّهُ دِينَهُمْ، جزاءهم ﴿الْحَقُّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ﴾ ﴿النور: ٢٤، ٢٥﴾. فأما ما ورد من أن الكفار يكتُمون كفرهم وجحودهم؛ فإن ذلك يكون في بعض مواضع القيامة حين يظنون أن جحودهم ينفعهم من عذاب الله؛ فإذا عرفوا الحقائق وشهدت عليهم جوارحهم، حينئذ ينجلي الأمر، ولا يبقى للكتمان موضع ولا نفع ولا فائدة.

﴿يَتَأَيَّأُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنْبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّى تَغْتَسِلُوا﴾ وإن كنتم مرهقين أو على سفري أو جساء أحد منكم من الغائط أو لمتستم النساء فلم يجدوا ماء فتيمموا صعيدا طيبا فامسحوا بوجوهكم وأيديكم إن الله كان عفوا غفورا ﴿٤٤﴾.

﴿٤٣﴾ ينهى تعالى عباده المؤمنين أن يقربوا الصلاة وهم سكارى حتى يعلموا ما يقولون، وهذا شامل لقربان مواضع الصلاة كالمسجد؛ فإنه لا يمكن السكران من دخوله، وشامل لنفس الصلاة؛ فإنه لا يجوز للسكران صلاة ولا عبادة لا اختلاط عقله وعدم علمه بما يقول، ولهذا حدد تعالى ذلك وغياه إلى وجود العلم بما يقول السكران.

وهذه الآية الكريمة منسوخة بتحريم الخمر مطلقا؛ فإن الخمر في أول الأمر كان غير محرم، ثم إن الله تعالى عرض لعباده بتحريمه بقوله: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنْتَفِعٌ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا﴾ [البقرة: ٢١٩]، ثم إنه تعالى نهاهم عن الخمر عند حضور الصلاة كما في هذه الآية، ثم إنه تعالى حرمه على

الإطلاق في جميع الأوقات في قوله: ﴿يَتَأَيَّأُ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْحَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَصَابُ وَالْأَزْلَمُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ﴾ الآية [المائدة: ٩٠]. ومع هذا؛ فإنه يشتد تحريمه وقت حضور الصلاة؛ لتضمنه هذه المفسدة العظيمة بعدم حصول مقصود الصلاة الذي هو روحها ولبها، وهو الخشوع وحضور القلب؛ فإن الخمر يسكر القلب، ويصد عن ذكر الله وعن الصلاة.

ويؤخذ من المعنى منع الدخول في الصلاة في حال النعاس المفرط الذي لا يشعر صاحبه بما يقول ويفعل، بل لعل فيه إشارة إلى أنه ينبغي لمن أراد الصلاة أن يقطع عنه كل شاغل يشغل فكره؛ كمدافعة الأخشين والتوق لطعام ونحوه؛ كما ورد في ذلك الحديث الصحيح^(١).

ثم قال: ﴿وَلَا جُنْبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ﴾ أي: لا تقربوا الصلاة حالة كون أحدكم جنبًا إلا في هذه الحال، وهو عابر السبيل؛ أي: تمرن في المسجد ولا تمكثون فيه. ﴿حَتَّى تَغْتَسِلُوا﴾ أي: فإذا اغتسلتم؛ فهو غاية المنع من قربان الصلاة للجنب، فيحل للجنب المرور في المسجد فقط.

﴿وَإِنْ كُنْتُمْ مَرَهَقِينَ أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَمَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ يَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا﴾: فأباح التيمم للمريض مطلقا مع وجود الماء وعدمه، والعلة المرض الذي يشق مع استعمال الماء، وكذلك السفر؛ فإنه مظنة فقد الماء؛ فإذا فقدته المسافر أو وجد ما يتعلق بحاجته من شرب ونحوه جاز له التيمم، وكذلك إذا أحدث الإنسان ببول أو غائط أو ملامسة النساء؛ فإنه يباح له التيمم إذا لم يجد الماء حضرا وسفرا؛ كما يدل على ذلك عموم الآية. والحاصل أن الله تعالى أباح التيمم في حالتين: حال عدم الماء، وهذا مطلقا في الحضر والسفر. وحال المشقة باستعماله بمرض ونحوه.

واختلف المفسرون في معنى قوله: ﴿أَوْ لَمَسْتُمُ النِّسَاءَ﴾: هل المراد بذلك الجماع؟ فتكون الآية نصا في جواز التيمم للجنب كما تكاثرت بذلك الأحاديث الصحيحة، أو المراد بذلك مجرد اللبس باليد، ويقيد ذلك بما إذا كان مظنة خروج المذي، وهو المس الذي يكون لشهوة، فتكون الآية دالة على نقض الوضوء بذلك. واستدل الفقهاء بقوله: ﴿فَلَمْ يَجِدُوا مَاءً﴾: بوجوب طلب الماء عند دخول الوقت؛ قالوا:

ومغفرته أن فتح للمذنبين باب التوبة والإنابة ودعاهم إليه ووعدهم بمغفرة ذنوبهم، ومن عفوه ومغفرته أن المؤمن لو أتاه بقراب الأرض خطايا ثم لقيه لا يشرك به شيئاً لأتاه بقرابها مغفرةً.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أَوْتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يَشَرُّونَ الصَّلَاةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضَلُّوا السَّبِيلَ ۚ وَاللَّهُ يَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ وَكَفَى بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَى بِاللَّهِ نَصِيرًا ۚ﴾ ﴿٤٥﴾ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا يُخَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأَسْمَعُ غَيْرَ مُسْمِعٍ وَرَاعِنَا لِيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأَسْمَعُ وَنَنْظُرًا لَّكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَٰكِن لَّنَعْمُ اللَّهُ يَكْفُرُهُمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ۚ﴾ ﴿٤٦﴾

﴿٤٥﴾ هذا ذم لمن ﴿أَوْتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ﴾، وفي ضمنه تحذير عباده عن الاغترار بهم والوقوف في شراكتهم، فأخبر أنهم في أنفسهم ﴿يَشَرُّونَ الصَّلَاةَ﴾؛ أي: يحبونها محبة عظيمة ويؤثرونها إيثار من يبذل المال الكثير في طلب ما يحبه، فيؤثرون الضلال على الهدى والكفر على الإيمان والشقاء على السعادة، ومع هذا يريدون أن تضلوا السبيل؛ فهم حريصون على إضلالكم غاية الحرص، باذلون جهدهم في ذلك، ولكن لما كان الله ولي عباده المؤمنين وناصرهم؛ بين لهم ما اشتملوا عليه من الضلال والإضلال.

﴿٤٦﴾ ولهذا قال: ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ وَلِيًّا﴾؛ أي: يتولى أحوال عباده، ويلطف بهم في جميع أمورهم، ويسر لهم ما به سعادتهم وفلاحهم، ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ نَصِيرًا﴾ ﴿٤٥﴾: ينصرهم على أعدائهم، ويبين لهم ما يحذرون منهم، ويعينهم عليهم؛ فولايته تعالى فيها حصول الخير، ونصره فيه زوال الشر.

﴿٤٦﴾ ثم بين كيفية ضلالهم وعنادهم وإيثارهم الباطل على الحق، فقال: ﴿مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا﴾؛ أي: اليهود، وهم علماء الضلال منهم، ﴿يُخَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ﴾: إما بتغيير اللفظ أو المعنى أو هما جميعاً؛ فمن تحريفهم تنزيل الصفات التي ذكرت في كتبهم التي لا تنطبق ولا تصدق إلا على محمد ﷺ على أنه غير مراد بها ولا مقصود بها، بل أريد بها غيره، وكتماهم ذلك؛ فهذا حالهم في العلم شر حال، قلبوا فيه الحقائق، ونزلوا الحق على الباطل، وجحدوا لذلك الحق. وأما حالهم في العمل والانقياد؛ فإنهم يقولون ﴿سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾؛ أي: سمعنا قولك وعصينا أمرك، وهذا

لأنه لا يقال: لم يجد لمن لم يطلب، بل لا يكون ذلك إلا بعد الطلب. واستدل بذلك أيضاً على أن الماء المتغير بشيء من الطاهرات يجوز بل يتعين التطهر به لدخوله في قوله: ﴿فَلَمْ يَجِدُوا مَاءً﴾، وهذا ماء. ونوزع في ذلك بأنه ماء غير مطلق، وفي ذلك نظر.

وفي هذه الآية الكريمة: مشروعية هذا الحكم العظيم الذي امتن به الله على هذه الأمة، وهو مشروعية التيمم، وقد أجمع على ذلك العلماء، ولله الحمد.

وأن التيمم يكون بالصعيد الطيب، وهو كل ما تصاعد على وجه الأرض، سواء كان له غبار أم لا، ويحتمل أن يختص ذلك بذي الغبار؛ لأن الله قال: ﴿فَأَمْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ﴾ منه، وما لا غبار له لا يمسح به. وقوله: ﴿فَأَمْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ﴾ منه: هذا محل المسح في التيمم: الوجه جميعه واليدين إلى الكوعين؛ كما دلت على ذلك الأحاديث الصحيحة، ويستحب أن يكون ذلك بضربة واحدة؛ كما دل على ذلك حديث عمار، وفيه أن تيمم الجنب كتيمم غيره بالوجه واليدين.

فائدة: اعلم أن قواعد الطب تدور على ثلاث قواعد: حفظ الصحة عن المؤذيات، والاستفراغ منها، والحماية عنها. وقد نبه تعالى عليها في كتابه العزيز: أما حفظ الصحة والحماية عن المؤذي؛ فقد أمر بالأكل والشرب وعدم الإسراف في ذلك، وأباح للمسافر والمريض الفطر حفظاً لصحتهما باستعمال ما يصلح البدن على وجه العدل، وحماية للمريض عما يضره. وأما استفراغ المؤذي؛ فقد أباح تعالى للمحرم المتأذي برأسه أن يحلقه لإزالة الأبخرة المحتقة فيه؛ فيه تنبيه على استفراغ ما هو أولى منها من البول والغائط والقيء والمني والدم وغير ذلك. نبه على ذلك ابن القيم رحمه الله تعالى.

وفي الآية وجوب تعميم مسح الوجه واليدين، وأنه يجوز التيمم، ولو لم يضق الوقت، وأنه لا يخاطب بطلب الماء إلا بعد وجود سبب الوجوب. والله أعلم.

ثم ختم الآية بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا﴾؛ أي: كثير العفو والمغفرة لعباده المؤمنين بتيسير ما أمرهم به وتسهيله غاية التسهيل بحيث لا يشق على العبد امتثاله فيخرج بذلك، ومن عفوه ومغفرته أن رحم هذه الأمة بشرح طهارة التراب بدل الماء عند تعذر استعماله، ومن عفوه

غاية الكفر والعناد والشroud عن الانقياد، وكذلك يخاطبون الرسول ﷺ بأبجح خطاب وأبعده عن الأدب، فيقولون: اسمع غير مسمع؛ قصدهم: اسمع منا غير مسمع ما تحب، بل مسمع ما تكره.

﴿وَرَعْنَا﴾: قصدهم بذلك الرعونة بالعيب القبيح، ويظنون أن اللفظ لما كان محتملاً لغير ما أرادوا من الأمور؛ أنه يروج على الله وعلى رسوله، فتوصلوا بذلك اللفظ الذي يلون به ألسنتهم إلى الطعن في الدين والعيب للرسول، ويصرحون بذلك فيما بينهم؛ فلهذا قال: ﴿لِيَأْأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنَا فِي الَّذِينَ﴾. ثم أرشدهم إلى ما هو خير لهم من ذلك، فقال: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأَسْمَعُ وَأَنْظُرَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَكِنْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ ﴿٤٦﴾ يتأنيها الذين أوثوا الكذب أيماناً بما نزلنا مصدقاً لما معكم من قبل أن نطمس وجوهاً فنردّها على أدبارها أو نلعنهم كما لعنا أصحاب السبّ وكان أمر الله مفعولاً ﴿٤٧﴾ إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ومن يشرك بالله فقد افترى إثماً عظيماً ﴿٤٨﴾ ألم تر إلى الذين يزكون أنفسهم بل الله يترك من يشاء ولا يظلمون شيئاً ﴿٤٩﴾ أنظر كيف يفترون على الله الكذب وكفى به إثماً مبيناً ﴿٥٠﴾ ألم تر إلى الذين أوثوا نصيباً من الكتاب يؤمنون بالغيب والطغوت ويقولون للذين كفروا هؤلاء هتولاء اهتدى من الذين آمنوا سبيلاً ﴿٥١﴾

﴿يَتَأْنِيهَا الَّذِينَ أَوْتُوا الْكِتَابَ أَيْمَانُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَطْمِسَ وَجُوهًا فنردّها على أدبارها أو نلعنهم كما لعنا أصحاب السبّ وكان أمر الله مفعولاً﴾ ﴿٤٧﴾.

﴿٤٧﴾ يأمر تعالى أهل الكتاب من اليهود والنصارى أن يؤمنوا بالرسول محمد ﷺ وما أنزل الله عليه من القرآن العظيم المهيمن على غيره من الكتب السابقة الذي صدقها؛ فإنها أخبرت به، فلما وقع المخبر به كان تصديقاً لذلك الخبر. وأيضا فإنهم إن لم يؤمنوا بهذا القرآن فإنهم لم يؤمنوا بما في أيديهم من الكتب؛ لأن كتب الله يصدق بعضها بعضاً، ويوافق بعضها بعضاً؛ فدعوى الإيمان ببعضها دون بعض دعوى باطلة لا يمكن صدقها.

وفي قوله: ﴿أَيْمَانُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ﴾: حث لهم، وأنهم ينبغي أن يكونوا قبل غيرهم مبادرين إليه بسبب ما أنعم الله عليهم به من العلم والكتاب الذي يوجب أن يكون ما عليهم أعظم من غيرهم، ولهذا توعدهم على عدم الإيمان، فقال: ﴿مَنْ قَبْلَ أَنْ نَطْمِسَ وَجُوهًا فنردّها على أدبارها﴾: وهذا جزاء من جنس ما عملوا؛ كما تركوا الحق وآثروا الباطل وقلبو الحقائق فجعلوا الباطل حقاً والحق باطلاً، جوزوا من جنس ذلك بطمس وجوههم كما طمسوا الحق، وردّها على أدبارها بأن تجعل في أفئدتهم، وهذا أشنع ما يكون. ﴿أَوْ نَلْعَنُهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبِّ﴾: بأن يطردهم من رحمته ويعاقبهم بجعلهم قرده؛ كما فعل بإخوانهم ﴿الَّذِينَ اعْتَدُوا مِنْكُمْ فِي السَّبِّ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ ﴿٥٠﴾ [البقرة: ٦٥]. ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا﴾ ﴿٤٧﴾. كقولهم: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ ﴿٨٢﴾ [يس: ٨٢].

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا﴾ ﴿٤٨﴾.

﴿٤٨﴾ يخبر تعالى أنه لا يغفر لمن أشرك به أحداً من المخلوقين ويغفر ما دون ذلك من الذنوب صغائرها وكبائرها، وذلك عند مشيئته مغفرة ذلك إذا اقتضت حكمته مغفرته؛ فالذنوب التي دون الشرك قد جعل الله لمغفرتها أسباباً كثيرة؛ كالחסنات الماحية والمصائب المكفرة في الدنيا والبرزخ ويوم القيامة، وكدعاء المؤمنين بعضهم لبعض، وبشفاعة الشافعين، ومن

من خصال الزاكين نصيب بسبب ظلمهم وكفرهم لا يظلم من الله لهم، ولهذا قال: ﴿وَلَا يَظْلَمُونَ قِتِيلًا﴾ (٤٩)، وهذا لتحقيق العموم؛ أي: لا يظلمون شيئاً، ولا مقدار القتل الذي في شق النواة أو الذي يقتل من وسخ اليد وغيرها.

﴿٥٠﴾ قال تعالى: ﴿أَنْظُرْ كَيْفَ يَقْرَوْنَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ﴾؛ أي: بتزكيته أنفسهم؛ لأن هذا من أعظم الافتراء على الله؛ لأن مضمون تزكيتهم لأنفسهم الإخبار بأن الله جعل ما هم عليه حقاً وما عليه المؤمنون المسلمون باطلاً، وهذا أعظم الكذب وقلب الحقائق يجعل الحق باطلاً والباطل حقاً، ولهذا قال: ﴿وَكَفَى بِهِ إِثْمًا مُبِينًا﴾ (٥٠)؛ أي: ظاهراً بيناً موجباً للعقوبة البليغة والعذاب الأليم.

﴿٥١﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكَتَبِ يُؤْمِنُونَ بِالْحَبِيبِ وَأَقْبَلُوا وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا سَبِيلًا ﴿٥١﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَن يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَن مَّجِدَ لَهُ نَصِيرًا ﴿٥٢﴾ أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ الْمَلَكِ فَإِذَا لَا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا ﴿٥٣﴾ أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا ءَاتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ فَقَدْ ءَاتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَاهُم مَّلَكًا عَظِيمًا ﴿٥٤﴾ فَمِنْهُمْ مَّنْ ءَامَنَ بِهِ وَمِنْهُمْ مَّنْ صَدَّ عَنْهُ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا ﴿٥٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كَمَا نَصَبْتَ جُلُودَهُمْ بَدَلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّكَ اللَّهُ كَانَ عَرِيزًا حَكِيمًا ﴿٥٦﴾ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَىٰ مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا ﴿٥٧﴾

﴿٥١﴾ وهذا من قبائح اليهود وحسدكم للنبي ﷺ والمؤمنين؛ أن أخلاقهم الرذيلة وطبعهم الخبيث حملهم على ترك الإيمان بالله ورسوله والتعوض عنه بالإيمان بالجبت والطاغوت، وهو الإيمان بكل عبادة لغير الله أو حكم بغير شرع الله، فدخل في ذلك السحر والكهانة وعبادة غير الله وطاعة الشيطان، كل هذا من الجبت والطاغوت، وكذلك حملهم الكفر والحسد على أن فضلوا طريقة الكافرين بالله عبدة الأصنام على طريق المؤمنين، فقال: ﴿وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾؛ أي: لأجلهم تملقاً لهم ومداينةً وبغضاً للإيمان: ﴿هَؤُلَاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا سَبِيلًا﴾ (٥١)؛ أي: طريقاً؛ فما أسمعهم وأشد عنادهم وأقل عقولهم! كيف سلكوا هذا

فوق ذلك كله رحمته التي أحق بها أهل الإيمان والتوحيد، وهذا بخلاف الشرك؛ فإن المشرك قد سد على نفسه أبواب المغفرة، وأغلق دونه أبواب الرحمة؛ فلا تنفعه الطاعات من دون التوحيد، ولا تفيده المصائب شيئاً، وما لهم يوم القيامة ﴿مِنْ شَفِيعِينَ﴾ (١١٠) وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴿١١١﴾ [الشعراء: ١٠٠، ١٠١]، ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا﴾ (٤٨)؛ أي: افترى جرماً كبيراً، وأي ظلم أعظم ممن سوى المخلوق من تراب، الناقص من جميع الوجوه، الفقير بذاته من كل وجه، الذي لا يملك لنفسه - فضلاً عما عده - نفعاً ولا ضرراً ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً بالخالق لكل شيء، الكامل من جميع الوجوه، الغني بذاته عن جميع مخلوقاته، الذي بيده النفع والضرر والعطاء والمنع، الذي ما من نعمة بالمخلوقين إلا فمته تعالى؛ فهل أعظم من هذا الظلم شيء؟! ولهذا حتم على صاحبه بالخلود بالعذاب وحرمان الثواب: ﴿إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ﴾ [المائدة: ١٧٢].

وهذه الآية الكريمة في حق غير التائب، وأما التائب فإنه يغفر له الشرك فما دونه؛ كما قال تعالى: ﴿قُلْ يَبْعَادَى الَّذِينَ أَشْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ [الزمر: ٥٣]؛ أي: لمن تاب إليه وأناب.

﴿٥٢﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُرْكَبُونَ أَنفُسَهُمْ بِلِ اللَّهِ يُرْكَبُ مَن يَشَاءُ وَلَا يُظْلَمُونَ قِتِيلًا ﴿٥٢﴾ أَنْظُرْ كَيْفَ يَقْرَوْنَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَكَفَىٰ بِهِ إِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٣﴾

﴿٥٢﴾ هذا تعجب من الله لعباده وتوبيخ للذين يزكون أنفسهم من اليهود والنصارى ومن نحا نحوهم من كل من زكى نفسه بأمر ليس فيه، وذلك أن اليهود والنصارى يقولون: ﴿عَنَّا آتَيْنَا اللَّهَ وَأَحْبَبْنَاهُ﴾ [المائدة: ١٨]، ويقولون: ﴿لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصْرَانًا﴾ [البقرة: ١١١]؛ وهذا مجرد دعوى لا برهان عليها، وإنما البرهان ما أخبر به في القرآن في قوله: ﴿بَلَىٰ مَن أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِندَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (١٢٢)، فهو هؤلاء هم الذين زكاهم الله، ولهذا قال هنا: ﴿بَلَىٰ اللَّهُ يُرْكَبُ مَن يَشَاءُ﴾؛ أي: بالإيمان والعمل الصالح، بالتخلي عن الأخلاق الرذيلة والتخلي بالصفات الجميلة، وأما هؤلاء فهم وإن زكوا أنفسهم بزعمهم أنهم على شيء وأن الثواب لهم وحدهم؛ فإنهم كذبة في ذلك، ليس لهم

المسلك الوخيم والوادي الذميم؟! هل ظنوا أن هذا يروج على أحد من العقلاء أو يدخل عقل أحد من الجهلاء؟! فهل يفضل دين قام على عبادة الأصنام والأوثان، واستقام على تحريم الطيبات وإباحة الخبائث وإحلال كثير من المحرمات، وإقامة الظلم بين الخلق وتسوية الخالق بالمخلوقين، والكفر بالله ورسله وكتبه على دين قام على عبادة الرحمن، والإخلاص لله في السر والإعلان والكفر بما يعبد من دونه من الأوثان والأنداد والكاذبين، وعلى صلة الأرحام والإحسان إلى جميع الخلق حتى البهائم، وإقامة العدل والقسط بين الناس وتحريم كل خبيث وظلم، ومصدق في جميع الأقوال والأعمال؟! فهل هذا إلا من الهذيان؟! وصاحب هذا القول إما من أجهل الناس وأضعفهم عقلاً، وإما من أعظمهم عناداً وتمرداً ومراغة للحق، وهذا هو الواقع.

ولهذا قال تعالى عنهم: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ﴾؛ أي: طردهم عن رحمته وأحل عليهم نقمته. ﴿وَمَن يَلْعَنِ اللَّهُ فَعَلَنَ مَعِدَ لَهُ نَصِيرًا﴾؛ أي: يتولاه ويقوم بمصالحه ويحفظه عن المكاره، وهذا غاية الخذلان.

﴿٥٣﴾ ﴿أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ الْمُلْكِ﴾؛ أي: فيفضلون من شاءوا على من شاءوا بمجرد أهوائهم، فيكونون شركاء لله في تدبير ال: ﴿فَإِذَا﴾؛ أي: لو كان لهم نصيب من الملك ﴿لَا يُؤْتُونَ﴾ البخل على تقدير وجود ملكهم المشارك لملك الله، وأخرج

﴿٥٤﴾ أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ؟ أَيُّ هَلِ الْحَامِلُ لَهُمْ عَلَى قَوْلِهِمْ كَوْنَهُمْ شُرَكَاءُ لِلَّهِ يَفْضُلُونَ مِنْ شَاءُوا؟ أَمْ الْحَامِلُ لَهُمْ عَلَى ذَلِكَ الْحَسَدِ لِلرَّسُولِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ؟ وَذَلِكَ لَيْسَ بِبَدْعٍ وَلَا غَرِيبٌ عَلَى فَضْلِ اللَّهِ؛ ﴿فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا﴾ ﴿٥٥﴾، وَذَلِكَ مَا أَنْعَمَ اللَّهُ بِهِ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَذُرِّيَّتِهِ مِنَ النَّبُوَّةِ وَالْكِتَابِ وَالْمُلْكِ الَّذِي أَعْطَاهُ مِنْ أَنْبِيَائِهِ؛ كَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ، فَإِنْعَامَهُ لَمْ يَزَلْ مُسْتَمِرًّا عَلَى عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ؛ فَكَيْفَ يَنْكُرُونَ إِنْعَامَهُ بِالنَّبُوَّةِ وَالنَّصْرِ وَالْمُلْكِ لِمُحَمَّدٍ ﷺ أَفْضَلُ الْخَلْقِ وَأَجْلَهُمْ وَأَعْظَمُهُمْ مَعْرِفَةً بِاللَّهِ وَأَخْشَاهُمْ لَهُ؟

﴿٥٥﴾ ﴿فِيهِمْ مَنْ ءَامَنَ بِهِ﴾؛ أي: بمحمد ﷺ فقال بذلك السعادة الدنيوية والفلاح الآخروي، ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ صَدَّ عَنْهُ﴾؛ عناداً وبيعاً وحسدًا، فحصل لهم من شقاء الدنيا ومصائبها ما هو بعض آثار معاصيهم، ﴿وَكُفِيَ بِهِمْ سَعِيرًا﴾ ﴿٥٥﴾: تسرع على من كفر بالله، ووجد نبوة أنبيائه من اليهود والنصارى وغيرهم من أصناف الكفرة.

ولهذا قال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا﴾؛ أي: عظيمة الوقود شديدة الحرارة، ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ﴾؛ أي: احترقت، ﴿بَدَلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾؛ أي: ليلبغ العذاب منهم كل مبلغ، وكما تكرر منهم الكفر والعناد؛ وصار وصفًا لهم وسجية؛ كرر عليهم العذاب جزاء وفاقًا، ولهذا قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾؛ أي: له العزة العظيمة والحكمة في خلقه وأمره وثوابه وعقابه.

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾: أي: بالله وما أوجب الإيمان به، ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾: من الواجبات والمستحبات، ﴿سَنُدْهُمْ

سُورَةُ النَّاسِ

أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَنْ يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَنْ يَجِدَ لَهُ نَصِيرًا ﴿٥٢﴾

أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِنَ الْمُلْكِ فَإِذَا لَا يَأْتُونُ النَّاسَ نَقِيرًا ﴿٥٣﴾

يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا

أَالَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا ﴿٥٤﴾

فَمِنْهُمْ مَنْ ءَامَنَ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ صَدَّ عَنْهُ وَكَفَى بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا ﴿٥٥﴾

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كَمَا نُصِغَتْ

جُلُودُهُمْ بَدَنَتْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ

كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٥٦﴾

وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ

سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا

لَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَدُخْلُهُمْ ظِلٌّ ظَلِيلًا ﴿٥٧﴾

إِنَّ

اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ

النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيمًا

بَصِيرًا ﴿٥٨﴾

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي

الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ

تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٥٩﴾

٨٧

معصية الخالق. ولعل هذا هو السر في حذف الفعل عند الأمر بطاعتهم وذكره مع طاعة الرسول؛ فإن الرسول لا يأمر إلا بطاعة الله، ومن يطعه فقد أطاع الله، وأما أولو الأمر فشرط الأمر بطاعتهم ألا يكون معصية.

ثم أمر برد كل ما تنازع الناس فيه من أصول الدين وفروعه إلى الله وإلى الرسول؛ أي: إلى كتاب الله وسنة رسوله؛ فإن فيهما الفصل في جميع المسائل الخلافية؛ إما بصريحهما أو عمومهما أو إيماء أو تنبيه أو مفهوم أو عموم معنى يقاس عليه ما أشبهه؛ لأن كتاب الله وسنة رسوله عليهما بناء الدين، ولا يستقيم الإيمان إلا بهما؛ فالرد إليهما شرط في الإيمان؛ فلهذا قال: ﴿إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾: فدل ذلك على أن من لم يرد إليهما مسائل النزاع فليس بمؤمن حقيقة، بل مؤمن بالطاغوت؛ كما ذكر في الآية بعدها. ﴿ذَلِكَ﴾؛ أي: الرد إلى الله ورسوله، ﴿خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾؛ فإن حكم الله ورسوله أحسن الأحكام وأعدلها وأصلحها للناس في أمر دينهم ودنياهم وعاقبتهم.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَكَّمُوا إِلَى الظَّالِمِينَ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾. وإذا قيل لهم تمالؤا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا.

﴿١١﴾، ﴿١٢﴾ يعجب تعالى عباده من حالة المنافقين الذين يزعمون أنهم مؤمنون بما جاء به الرسول وبما قبله، ومع هذا ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَكَّمُوا إِلَى الظَّالِمِينَ﴾، وهو كل من حكم بغير شرع الله فهو طاغوت، والحال أنهم قد ﴿أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ﴾؛ فكيف يجتمع هذا والإيمان؟! فإن الإيمان يقتضي الانقياد لشرع الله وتحكيمه في كل أمر من الأمور، فمن زعم أنه مؤمن واختار حكم الطاغوت على حكم الله فهو كاذب في ذلك، وهذا من إضلال الشيطان إياهم، ولهذا قال: ﴿وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾. ﴿١٣﴾ عن الحق.

جَنَّتْ تَجَرَّى مِنْ تَحَنُّبِهَا إِلَى الْآخِرِ خَلْدِينَ فِيهَا أَبَدًا هُمْ فِيهَا آزَوَجٌ مُطَهَّرَةٌ؛ أي: من الأخلاق الرذيلة والخلق الذميم ومما يكون من نساء الدنيا من كل دنس وعيب، ﴿وَتَدْخُلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا﴾.

﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾. يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا.

﴿١٤﴾ الأمانات كل ما أوثمن عليه الإنسان وأمر بالقيام به، فأمر الله عباده بأدائها؛ أي: كاملة موفرة لا منقوصة ولا مبخوسة ولا ممطولا بها، ويدخل في ذلك أمانات الولايات والأموال والأسرار والمأمورات التي لا يطلع عليها إلا الله. وقد ذكر الفقهاء أن من أوثمن أمانة وجب عليه حفظها في حرز مثلها؛ قالوا: لأنه لا يمكن أداؤها إلا بحفظها، فوجب ذلك. وفي قوله: ﴿إِلَىٰ أَهْلِهَا﴾: دلالة على أنها لا تدفع وتؤدي لغير المؤتمن، ووكيله بمنزلته؛ فلو دفعها لغير ربها لم يكن مؤديا لها.

﴿وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾: وهذا يشمل الحكم بينهم في الدماء والأموال والأعراض؛ القليل من ذلك والكثير، على القريب والبعيد، والبر والفاجر، والولي والعدو. والمراد بالعدل الذي أمر الله بالحكم به هو ما شرعه الله على لسان رسوله من الحدود والأحكام، وهذا يستلزم معرفة العدل ليحكم به، ولما كانت هذه أوامر حسنة عادلة قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾. وهذا مدح من الله لأوامره ونواهيها؛ لاشتغالها على مصالح الدارين ودفع مضارهما؛ لأن شارعها السميع البصير الذي لا تخفى عليه خافية ويعلم من مصالح العباد ما لا يعلمون.

﴿١٥﴾ ثم أمر بطاعته وطاعة رسوله، وذلك بامثال أمرهما الواجب والمستحب واجتناب نهيهما، وأمر بطاعة أولي الأمر، وهم الولاة على الناس من الأمراء والحكام والمفتين؛ فإنه لا يستقيم للناس أمر دينهم ودنياهم إلا بطاعتهم والانقياد لهم؛ طاعة لله ورغبة فيما عنده، ولكن بشرط ألا يأمرُوا بمعصية الله؛ فإن أمروا بذلك فلا طاعة لمخلوق في

سورة النساء

النساء

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَكَّمُوا إِلَى الظَّالِمِينَ وَالظَّالِمُونَ قَدْ أَمَرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَكًا بَعِيدًا ﴿٦٥﴾ وَإِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتُ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا ﴿٦٦﴾ فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءَهُمْ وَلَكِنْ يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ لَئِنْ آتَانَا إِلَّا إِحْسِنًا وَتَوْفِيقًا ﴿٦٧﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا ﴿٦٨﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا ﴿٦٩﴾ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِي مَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٧٠﴾

﴿٦٦﴾ فَكَيْفَ ﴿٦٦﴾ يكون حال هؤلاء الضالين ﴿٦٦﴾ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ﴿٦٦﴾ من المعاصي، ومنها تحكيم الطاغوت، ﴿٦٦﴾ ثُمَّ جَاءَهُمْ وَلَكِنْ يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ لَئِنْ آتَانَا إِلَّا إِحْسِنًا وَتَوْفِيقًا ﴿٦٧﴾ ﴿٦٧﴾ أي: ما قصدنا في ذلك إلا الإحسان إلى المتخاصمين والتوفيق بينهم، وهم كذبة في ذلك؛ فإن الإحسان كل الإحسان تحكيم الله ورسوله، ﴿٦٧﴾ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾ ﴿٥٠﴾ [المائدة: ٥٠].

﴿٦٧﴾ ولهذا قال: ﴿٦٧﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ ﴿٦٧﴾؛ أي: من النفاق والقصد السيئ؛ ﴿٦٧﴾ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ ﴿٦٧﴾؛ أي: لا تبال بهم ولا تقابلهم على ما فعلوه واقتروه، ﴿٦٧﴾ وَعِظْهُمْ ﴿٦٧﴾؛ أي: بين لهم حكم الله تعالى مع الترغيب في الانقياد لله والترهيب من تركه، ﴿٦٧﴾ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا ﴿٦٨﴾ ﴿٦٨﴾؛ أي: انصحهم سرًا بينك وبينهم؛ فإنه أنجح لحصول المقصود، وبالغ في زجرهم وقمعهم عما كانوا عليه. وفي هذا دليل على أن مقترف المعاصي وإن أعرض عنه فإنه ينصح سرًا ويبالغ في وعظه بما يظن حصول المقصود به.

﴿٦٨﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا ﴿٦٩﴾ ﴿٦٩﴾ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِي مَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٧٠﴾ ﴿٧٠﴾

﴿٦٩﴾ يخبر تعالى خبرًا في ضمنه الأمر والحث على طاعة الرسول والانقياد له، وأن الغاية من إرسال الرسل أن يكونوا مطاعين ينقاد لهم المرسل إليهم في جميع ما أمروا به ونهوا عنه، وأن يكونوا معظمين تعظيم المطاع للمطيع، وفي هذا إثبات عصمة الرسل فيما يبلغونه عن الله وفيما يأمرهم به وينهون عنه؛ لأن الله أمر بطاعتهم مطلقًا؛ فلو لا أنهم معصومون لا يشرعون ما هو خطأ؛ لما أمر بذلك مطلقًا. وقوله: ﴿٦٩﴾ بِإِذْنِ اللَّهِ ﴿٦٩﴾؛ أي: الطاعة من المطيع صادرة بقضاء الله وقدره؛ ففيه إثبات القضاء والقدر، والحث على الاستعانة بالله، وبيان أنه لا يمكن الإنسان إن لم يعنه الله أن يطيع الرسول.

ثم أخبر عن كرمه العظيم وجوده ودعوته لمن اقررف السيئات أن يعترفوا ويتوبوا ويستغفروا الله، فقال: ﴿٦٩﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ ﴿٦٩﴾؛ أي: معترفين بذنوبهم باخعين بها. ﴿٦٩﴾ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا ﴿٧٠﴾ ﴿٧٠﴾؛ أي: لتاب عليهم بمغفرته ظلمهم، ورحمهم بقبول التوبة والتوفيق لها والثواب عليها. وهذا المبعي إلى الرسول ﷺ مختص بحياته؛ لأن السياق يدل على ذلك؛ لكون الاستغفار من الرسول لا يكون إلا في حياته، وأما بعد موته فإنه لا يطلب منه شيء، بل ذلك شرك.

﴿٧٠﴾ ثم أقسم تعالى بنفسه الكريمة أنهم لا يؤمنون حتى يحكموا رسوله فيما شجر بينهم؛ أي: في كل شيء يحصل فيه اختلاف؛ بخلاف مسائل الإجماع فإنها لا تكون إلا مستندة للكتاب والسنة، ثم لا يكفي هذا التحكيم حتى ينتفي الحرج من قلوبهم والضيق. وكونهم يحكمونه على وجه الإغماض، ثم لا يكفي هذا التحكيم حتى يسلموا لحكمه تسليماً بانسراح صدر وطمأنينة نفس وانقياد بالظاهر والباطن؛ فالتحكيم في مقام الإسلام، وانتفاء الحرج في مقام الإيمان، والتسليم في

سورة النساء

المجادل

وَلَوْ أَنَّا كُنْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوْ أُخْرِجُوا مِنْ دِينِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَنِييَةً ﴿٦٦﴾ وَإِذَا لَا تَنِيئُهُمْ مِنْ لَدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٦٧﴾ وَلَهْدَيْنَهُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ﴿٦٨﴾ وَمَنْ يَطْعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾ ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ عَلِيمًا ﴿٧٠﴾ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانْفِرُوا ثُبَاتٍ أَوْ وَفُرًا جَمِيعًا ﴿٧١﴾ وَإِنْ مِنْكُمْ لَمَنْ لَيْسَ بِشَهِيدٍ فَإِنْ أَصَبَكُمْ مُصِيبَةٌ قَالْ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْنَا إِذْ لَوْ أَكُنْ مَعَهُمْ شَهِيدًا ﴿٧٢﴾ وَلَئِنْ أَصَبَكُمْ فَضْلٌ مِنَ اللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَنْ لَمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَلَيْسَ لَنَا بِمَعَهُمْ قَوْرٌ قَوْرًا عَظِيمًا ﴿٧٣﴾ فَلْيَقْتَتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ وَمَنْ يُقْتَلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٧٤﴾

٨٩

مقام الإحسان؛ فمن استكمل هذه المراتب وكمملها؛ فقد استكمل مراتب الدين كلها، فمن ترك هذا التحكيم المذكور غير ملتزم له؛ فهو كافر، ومن تركه مع التزامه؛ فله حكم أمثاله من العصاة.

﴿وَلَوْ أَنَّا كُنْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوْ أُخْرِجُوا مِنْ دِينِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَنِييَةً﴾ ﴿٦٦﴾ وَإِذَا لَا تَنِيئُهُمْ مِنْ لَدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٦٧﴾ وَلَهْدَيْنَهُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ﴿٦٨﴾.

﴿٦٦﴾ يخبر تعالى أنه لو كتب على عباده الأوامر الشاقة على النفوس؛ من قتل النفوس والخروج من الديار لم يفعله إلا القليل منهم والنادر؛ فليحمدوا ربهم وليشكروه على تيسير ما أمرهم به من الأوامر التي تسهل على كل أحد ولا يشق فعلها، وفي هذا إشارة إلى أنه ينبغي أن يلحظ العبد ضد ما هو فيه من المكروهات؛ لتخف عليه العبادات، ويزداد حمداً وشكراً لربه.

ثم أخبر أنهم لو ﴿فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ﴾؛ أي: ما وظف عليهم في كل وقت بحسبه، فبدلوا همهمهم، ووفروا نفوسهم للقيام به وتكميله، ولم تطمح نفوسهم لما لم يصلوا إليه، ولم يكونوا بصدد، وهذا هو الذي ينبغي للعبد أن ينظر إلى الحالة التي يلزمه القيام بها، فيكملها، ثم يتدرج شيئاً فشيئاً، حتى يصل إلى ما قدر له من العلم والعمل في أمر الدين والدنيا، وهذا بخلاف من طمعت نفسه إلى أمر لم يصل إليه ولم يؤمر به بعد؛ فإنه لا يكاد يصل إلى ذلك بسبب تفريق الهمة وحصول الكسل وعدم النشاط، ثم رتب ما يحصل لهم على فعل ما يوعظون به، وهو أربعة أمور:

أحدها: الخيرية في قوله: ﴿لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ﴾؛ أي: لكانوا من الأخيار المتصفين بأوصافهم من أفعال الخير التي أمروا بها؛ أي: وانتفى عنهم بذلك صفة الأشرار؛ لأن ثبوت الشيء يستلزم نفي ضده.

الثاني: حصول الثبوت والثبات وزيادته؛ فإن الله يثبت الذين آمنوا به من الإيمان الذي هو القيام بما وعظوا به، فيثبتهم في الحياة الدنيا عند ورود الفتن في الأوامر والنواهي والمصائب، فيحصل لهم ثبات يوفقون لفعل الأوامر وترك الزواجر التي تقتضي النفس فعلها وعند حلول المصائب التي يكرها العبد، فيوفق للثبوت بالتوفيق للصبر أو للرضا أو للشكر، فينزل عليه معونة من الله للقيام بذلك، ويحصل لهم الثبات على الدين عند الموت وفي القبر. وأيضاً فإن العبد القائم بما أمر به لا يزال يتمرن على الأوامر الشرعية حتى يألفها ويشتاق إليها وإلى أمثالها فيكون ذلك معونة له على الثبات على الطاعات.

﴿٦٧﴾ الثالث: قوله: ﴿وَإِذَا لَا تَنِيئُهُمْ مِنْ لَدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا﴾ ﴿٦٧﴾؛ أي: في العاجل والآجل، الذي يكون للروح والقلب والبدن، ومن النعيم المقيم مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

﴿٦٨﴾ الرابع: الهداية إلى صراط مستقيم، وهذا عموم بعد خصوص؛ لشرف الهداية إلى الصراط المستقيم، من كونها متضمنة للعلم بالحق ومحبة وإثارة والعمل به وتوقف السعادة والفلاح على ذلك؛ فمن هدي إلى صراط مستقيم؛ فقد وفق لكل خير، واندفع عنه كل شر وضير.

﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصَّدِيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا ۖ﴾ ﴿٦٩﴾ ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ عَلِيمًا ۖ ﴿٧٠﴾

﴿٦٩﴾ أي: كل من أطاع الله ورسوله على حسب حاله، وقدر الواجب عليه؛ من ذكر وأنثى، وصغير وكبير ﴿فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾؛ أي: النعمة العظيمة التي تقتضي الكمال والفلاح والسعادة. ﴿مِنَ النَّبِيِّينَ﴾: الذين فضلهم الله بوحيه واختصهم بتفضيلهم بإرسالهم إلى الخلق ودعوتهم إلى الله تعالى. ﴿وَالصَّدِيقِينَ﴾: وهم الذين كمل تصديقهم بما جاء به الرسل، فعملوا الحق وصدقوه بيقينهم، وبالقيام به قولاً وعملاً وحالاً ودعوة إلى الله. ﴿وَالشُّهَدَاءَ﴾: الذين قاتلوا في سبيل الله لإعلاء كلمة الله، فقتلوا. ﴿وَالصَّالِحِينَ﴾: الذين صلح ظاهريهم وباطنيهم، فصلحت أعمالهم؛ فكل من أطاع الله تعالى كان مع هؤلاء وفي صحبتهم. ﴿وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا ۖ﴾ ﴿٧٠﴾: بالاجتماع بهم في جنات النعيم والأنس بقربهم في جوار رب العالمين.

﴿٧١﴾ ﴿ذَلِكَ الْفَضْلُ﴾: الذي نالوه ﴿مِنَ اللَّهِ﴾: فهو الذي وفقهم لذلك وأعانهم عليه، وأعطاهم من الثواب ما لا تبلغه أعمالهم. ﴿وَكَفَىٰ بِاللَّهِ عَلِيمًا ۖ﴾: يعلم أحوال عباده ومن يستحق منهم الثواب الجزيل بما قام به من الأعمال الصالحة التي تواطأ عليها القلب والجوارح.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانْفِرُوا ثُبَاتٍ أَوْ انفِرُوا جَمِيعًا ۖ﴾ ﴿٧٢﴾ وَإِنْ مَنَعَكَ لَنْ يُبِطَنَّ فَإِنْ أَصَبَتْكَ مُصِيبَةٌ قَالْ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُنْ مَعَهُمْ شَهِيدًا ۖ ﴿٧٣﴾ وَلَئِنْ أَصَبَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ اللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَنْ لَّمْ يَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَلَيْتَنِي كُنْتُ مَعَهُمْ فَأَفُورَ قُوْرًا عَظِيمًا ۖ ﴿٧٤﴾ فَلْيَقْتَتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ ۖ وَمَنْ يُقْتَلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ۖ ﴿٧٥﴾

﴿٧٢﴾ يأمر تعالى عباده المؤمنين بأخذ حذرهم من أعدائهم الكافرين، وهذا يشمل الأخذ بجميع الأسباب التي بها يستعان على قتالهم ويستدفع مكرهم وقوتهم؛ من استعمال الحصون والخنادق، وتعلم الرمي والركوب، وتعلم

الصناعات التي تعين على ذلك، وما به يعرف مداخلهم ومخارجهم ومكرهم، والنفير في سبيل الله، ولهذا قال: ﴿فَانْفِرُوا ثُبَاتٍ﴾؛ أي: متفرقين؛ بأن تنفر سرية أو جيش ويقيم غيرهم، ﴿أَوْ انفِرُوا جَمِيعًا ۖ﴾ ﴿٧٣﴾، وكل هذا تبع للمصلحة والنكاية والراحة للمسلمين في دينهم. وهذه الآية نظير قوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾ [الأنفال: ٦٠].

﴿٧٤﴾ ثم أخبر عن ضعفاء الإيمان المتكاسلين عن الجهاد فقال: ﴿وَإِنْ مَنَعَكَ﴾؛ أي: أيها المؤمنون، ﴿لَنْ يُبِطَنَّ﴾؛ أي: يتأقل عن الجهاد في سبيل الله ضعفًا وخورًا وجبنًا. هذا الصحيح، وقيل: معناه ليبطن غيره؛ أي: يزهده عن القتال، وهؤلاء هم المنافقون، ولكن الأول أولى لوجهين: أحدهما: قوله: ﴿مِنْكُمْ﴾، والخطاب للمؤمنين.

والثاني: قوله في آخر الآية: ﴿كَأَنْ لَّمْ يَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ﴾؛ فإن الكفار من المشركين والمنافقين قد قطع الله بينهم وبين المؤمنين المودة.

وأيضًا؛ فإن هذا هو الواقع؛ فإن المؤمنين على قسمين: صادقون في إيمانهم أوجب لهم ذلك كمال التصديق والجهاد. وضعفاء دخلوا في الإسلام فصار معهم إيمان ضعيف لا يقوى على الجهاد؛ كما قال تعالى: ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ ءَمَّا قُلْ لَمْ تَزَيْسُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا﴾ [الحجرات: ١٤] إلى آخر الآيات.

ثم ذكر غايات هؤلاء المتأقلين ونهاية مقاصدهم، وأن معظم قصدهم الدنيا وحطامها، فقال: ﴿فَإِنْ أَصَبَتْكَ مُصِيبَةٌ﴾؛ أي: هزيمة وقتل وظفر الأعداء عليكم في بعض الأحوال لما لله في ذلك من الحكم، ﴿قَالَ﴾: ﴿ذَلِكَ الْمُتَخَلَّفُ﴾: ﴿قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُنْ مَعَهُمْ شَهِيدًا ۖ﴾: رأى من ضعف عقله وإيمانه أن التقاعد عن الجهاد الذي فيه تلك المصيبة نعمة، ولم يدر أن النعمة الحقيقية هي التوفيق لهذه الطاعة الكبيرة التي بها يقوى الإيمان ويسلم بها العبد من العقوبة والخسران، ويحصل له فيها عظيم الثواب ورضا الكريم الوهاب، وأما القعود فإنه وإن استراح قليلًا فإنه يعقبه تعب طويل وآلام عظيمة، ويفوته ما يحصل للمجاهدين.

﴿٧٥﴾ ثم قال: ﴿وَلَئِنْ أَصَبَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ اللَّهِ﴾؛ أي: نصر وغنيمة، ﴿لَيَقُولَنَّ كَأَنْ لَّمْ يَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَلَيْتَنِي

الْمُؤْمِنُونَ

سُورَةُ النِّسَاءِ

وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ
وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ
الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ
نَصِيرًا ﴿٧٥﴾ الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا
يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الْطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ
الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا ﴿٧٦﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ
وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ
مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ
كُتِبَ عَلَيْنَا الْقِتَالُ لَوْ لَا أَخَّرْنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَنَعَ الدُّنْيَا
قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَىٰ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧٧﴾ أَيْنَمَا
تَكُونُوا يَدْرِكَكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي مِزْعٍ مُّسْتَدِيرَةٍ وَإِن قُتِلْتُمْ
حَسَنَةً يَقُولُوا هَٰذِهِ مِن عِندِ اللَّهِ وَإِن تُصْبِحُوا بِقَوْلِهَا
هَٰذِهِ مِن عِندِكُمْ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللَّهِ قَالِ هَٰؤُلَاءِ الْقَوْمُ لَا يَكَادُونَ
يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴿٧٨﴾ مَا أَصَابَكُم مِّنْ حَسَنَةٍ فَرِثَ اللَّهُ وَمَا أَصَابَكُم مِّنْ
سَيِّئَةٍ فَرِثَ نَفْسِكُمْ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴿٧٩﴾

٩٠

كُنْتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧٣﴾؛ أي: يتمنى أنه حاضر
لينال من المغانم، ليس له رغبة ولا قصد في غير ذلك، كأنه
ليس منكم يا معشر المؤمنين، ولا بينكم وبينه المودة الإيمانية
التي من مقتضاها أن المؤمنين مشتركون في جميع مصالحهم
ودفع مضارهم، يفرحون بحصولها ولو على يد غيرهم من
إخوانهم المؤمنين وبألمون بفقدائها ويسعون جميعًا في كل
أمر يصلحون به دينهم ودنياهم، فهذا الذي يتمنى الدنيا فقط
ليست معه الروح الإيمانية المذكورة.

﴿٧٤﴾ ومن لطف الله بعباده ألا يقطع عنهم رحمته، ولا يغلق
عنهم أبوابها، بل من حصل على غير ما يليق أمره ودعاه إلى
جبر نقصه وتكميل نفسه، فلهذا أمر هؤلاء بالإخلاص
والخروج في سبيله، فقال: ﴿فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ
يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ﴾؛ هذا أحد الأقوال في
هذه الآية وهو أصحها، وقيل: إن معناه فليقاتل في سبيل الله
المؤمنون الكاملو الإيمان الصادقون في إيمانهم ﴿الَّذِينَ
يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ﴾؛ أي: يبيعون الدنيا
رغبة عنها بالآخرة رغبة فيها؛ فإن هؤلاء هم الذين يوجه إليهم
الخطاب؛ لأنهم الذين قد أعدوا أنفسهم ووطنوا على جهاد
الأعداء؛ لما معهم من الإيمان التام المقتضي لذلك، وأما
أولئك المتشاكسون؛ فلا يُعاب بهم خروجوا أو قعدوا، فيكون هذا

نظير قوله تعالى: ﴿قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ إِذَا يُسْأَلُ عَلَيْهِمْ يُخَوِّنُونَ لَلْآدَانِ سُجَدًا﴾ ﴿[الإسراء: ١٠٧]﴾ إلى
آخر الآيات، وقوله: ﴿فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ﴾ ﴿[الأنعام: ٨٩]﴾.

وقيل: إن معنى الآية: فليقاتل المقاتل والمجاهد للكفار الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة، فيكون على هذا الوجه.
﴿الَّذِينَ﴾ في محل نصب على المفعولية، ﴿وَمَن يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾: بأن يكون جهادًا قد أمر الله به ورسوله، ويكون
العبد مخلصًا لله فيه قاصدًا وجه الله، ﴿يُقَاتِلْ أَوْ يُقَاتِلْ فَسَوْفَ نُوْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ ﴿٧٦﴾: زيادة في إيمانه ودينه وغنيمة وثناء
حسنًا وثواب المجاهدين في سبيل الله الذين أعد الله لهم في الجنة ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب
بشر.

﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ
أَهْلُهَا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا﴾ ﴿٧٥﴾.

﴿٧٥﴾ هذا حث من الله لعباده المؤمنين وتهيج لهم على القتال في سبيله، وأن ذلك قد تعين عليهم وتوجه اللوم العظيم عليهم
بتركه، فقال: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾؛ والحال أن المستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين لا يستطيعون
حيلة ولا يهتدون سبيلًا، ومع هذا فقد نالهم أعظم الظلم من أعدائهم؛ فهم يدعون الله أن يخرجهم من هذه القرية الظالم
أهلها لأنفسهم بالكفر والشرك، وللمؤمنين بالأذى والصد عن سبيل الله، ومنعهم من الدعوة لدينهم والهجرة، ويدعون الله
أن يجعل لهم وليًّا ونصيرًا يستنقذهم من هذه القرية الظالم أهلها، فصار جهادكم على هذا الوجه من باب القتال والذب عن
عيلاتكم وأولادكم ومحارمكم لا من باب الجهاد الذي هو الطمع في الكفار؛ فإنه وإن كان فيه فضل عظيم ولام المتخلف
عنه أعظم اللوم فالجهاد الذي فيه استنقاذ المستضعفين منكم أعظم أجرًا وأكبر فائدة بحيث يكون من باب دفع الأعداء.

ثم قال:

﴿الَّذِينَ آمَنُوا يَقْتُلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَقْتُلُونَ فِي سَبِيلِ الظَّالِمِينَ فَفَقِّلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا ۝﴾

﴿٧٦﴾ هذا إخبار من الله بأن المؤمنين يقتلون في سبيله، والذين كفروا يقتلون في سبيل الظالمين الذي هو الشيطان. في ضمن ذلك عدة فوائد:

منها: أنه بحسب إيمان العبد يكون جهاده في سبيل الله وإخلاصه ومتابعته، فالجهاد في سبيل الله من آثار الإيمان ومقتضياته ولوازمه؛ كما أن القتال في سبيل الطاغوت من شعب الكفر ومقتضياته.

ومنها: أن الذي يقاتل في سبيل الله ينبغي له ويحسن منه من الصبر والجلد ما لا يقوم به غيره؛ فإذا كان أولياء الشيطان يصبرون ويقاتلون وهم على باطل؛ فأهل الحق أولى بذلك؛ كما قال تعالى في هذا المعنى: ﴿إِنْ تَكُونُوا تَأْمَنُونَ فَاِنَّهُمْ يَأْمَنُونَ كَمَا تَأْمَنُونَ وَرَجُونَ مِنْ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ۝﴾ الآية [النساء: ١٠٤].

ومنها: أن الذي يقاتل في سبيل الله معتمداً على ركن وثيق، وهو الحق والتوكل على الله؛ فصاحب القوة والركن الوثيق يطلب منه من الصبر والثبات والنشاط ما لا يطلب ممن يقاتل عن الباطل الذي لا حقيقة له ولا عاقبة حميدة؛ فلهذا قال تعالى: ﴿فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا ۝﴾ والكيد سلوك الطرق الخفية في ضرر العدو؛ فالشيطان وإن بلغ مكره مهما بلغ فإنه في غاية الضعف الذي لا يقوم لأدنى شيء من الحق ولا لكيد الله لعباده المؤمنين.

﴿أَنْتَرِ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْفِتْنَةُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كُتِبَ عَلَيْنَا الْفِتْنَةُ لَوْلَا أَخَّرْنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَنْعَ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ أَنْتَنَّى وَلَا تَظْلُمُونَ فَبَيَّنَّا ۝﴾ آيَتِنَا تَكُونُوا يَذَرِكُمْ أَلْمُوتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي رُوحٍ مُسَيِّدَةٍ ۝

﴿٧٧﴾ كان المسلمون إذ كانوا بمكة مأمورين بالصلاة والزكاة؛ أي: مواساة الفقراء، لا الزكاة المعروفة ذات

النَّصْب والشروط؛ فإنها لم تفرض إلا بالمدينة، ولم يؤمروا بجهاد الأعداء لعدة فوائد:

منها: أن من حكمة الباري تعالى أن يشرع لعباده الشرائع على وجه لا يشق عليهم، ويبدأ بالأهم فالأهم والأسهل فالأسهل.

ومنها: أنه لو فرض عليهم القتال مع قلة عددهم وعددهم وكثرة أعدائهم؛ لأدى ذلك إلى اضمحلال الإسلام، فروعياً وجانب المصلحة العظمى على ما دونها. ولغير ذلك من الحكم.

وكان بعض المؤمنين يودون أن لو فرض عليهم القتال في تلك الحال غير اللاتق فيها ذلك، وإنما اللاتق فيها القيام بما أمروا به في ذلك الوقت من التوحيد والصلاة والزكاة ونحو ذلك؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيثًا ۝﴾، فلما هاجروا إلى المدينة وقوي الإسلام؛ كتب عليهم القتال في وقته المناسب لذلك، فقال فريق من الذين يستعجلون القتال قبل ذلك خوفاً من الناس وضعفاً وخوفاً: ﴿رَبَّنَا لِمَ كُتِبَ عَلَيْنَا الْفِتْنَةُ؟ وَفِي هَذَا تَضْجِرُهُمْ واعتراضهم على الله، وكان الذي ينبغي لهم ضد هذه الحال؛ التسليم لأمر الله والصبر على أوامره، فعكسوا الأمر المطلوب منهم، فقالوا: ﴿لَوْلَا أَخَّرْنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ؟﴾ أي: هلا أخرت فرض القتال مدة متأخرة عن الوقت الحاضر، وهذه الحال كثيراً ما تعرض لمن هو غير رزين واستعجل في الأمور قبل وقتها؛ فالغالب عليه أنه لا يصبر عليها وقت حلولها ولا ينوء بحملها، بل يكون قليل الصبر.

ثم إن الله وعظهم عن هذه الحال التي فيها التخلف عن القتال، فقال: ﴿قُلْ مَنْعَ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ أَنْتَنَّى ۝﴾ أي: التمتع بلذات الدنيا وراحاتها قليل، فتحمل الأثقال في طاعة الله في المدة القصيرة مما يسهل على النفوس ويخف عليها؛ لأنها إذا علمت أن المشقة التي تتأهلها لا يطول لبثها هان عليها ذلك فكيف إذا وازنت بين الدنيا والآخرة، وأن الآخرة خير منها في ذاتها ولذاتها وزمانها؛ فذاتها كما ذكر النبي ﷺ في الحديث الثابت عنه: «إن موضع سوط في الجنة خير من الدنيا وما فيها»^(١)، ولذاتها صافية عن المكدرات، بل كل ما خطر بالبال أو دار في الفكر من تصور لذة فلذة

تطير أمثالهم برسول الله؛ كما أخبر الله عن قوم فرعون أنهم قالوا لموسى: ﴿فَإِذَا جَاءَتْهُمْ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ﴾ [الأعراف: ١٣١]، وقال قوم صالح: ﴿قَالُوا أَطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَنْ مَعَكَ﴾ [النمل: ٤٧]، وقال قوم يس لرسولهم: ﴿إِنَّا نَطَّيَّرْنَا بِكُمْ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهُوا لَنَرْجِمَنَّكُمْ﴾ الآية [يس: ١٨]، فلما تشابهت قلوبهم بالكفر؛ تشابهت أقوالهم وأفعالهم، وهكذا كل من نسب حصول الشر أو زوال الخير لما جاءت به الرسل أو لبعضه؛ فهو داخل في هذا الذم الوخيم. قال الله في جوابهم: ﴿قُلْ كُلٌّ أَيْ: من الحسنة والسيئة والخير والشر، مِنْ عِنْدَ اللَّهِ أَيْ: بقضائه وقدره وخلقه. ﴿فَالْأُولَاءِ أَفْوَِرٌ﴾ أَيْ: الصادر منهم تلك المقالة الباطلة، ﴿لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾ (٧٨)؛ أَيْ: لا يفهمون حديثاً بالكلية ولا يقربون من فهمه أو لا يفهمون منه إلا فهماً ضعيفاً. وعلى كل فهو ذم لهم وتوبيخ على عدم فهمهم وفقههم عن الله وعن رسوله، وذلك بسبب كفرهم وإعراضهم.

وفي ضمن ذلك مدح من يفهم عن الله وعن رسوله، والحث على ذلك وعلى الأسباب المعينة على ذلك من الإقبال على كلامهما، وتدبره وسلوك الطرق الموصلة إليه؛ فلو فقهوا عن الله لعلموا أن الخير والشر والحسنات والسيئات كلها بقضاء الله وقدره، لا يخرج منها شيء عن ذلك، وأن الرسل عليهم الصلاة والسلام لا يكونون سبباً لشر يحدث، هم ولا ما جاءوا به؛ لأنهم بعثوا بمصالح الدنيا والآخرة والدين.

﴿ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿مَا أَصَابَكُمْ مِنْ حَسَنَةٍ﴾؛ أَيْ: في الدين والدنيا ﴿فَإِنَّ اللَّهَ﴾؛ هو الذي من بها ويسرها بتيسير أسبابها، ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ سَيِّئَةٍ﴾؛ في الدين والدنيا ﴿فَإِنَّ نَفْسَكُمْ﴾؛ أَيْ: بذنوبك وكسبك وما يعفو الله عنه أكثر؛ فالله تعالى قد فتح لعباده أبواب إحسانه وأمرهم بالدخول لبره وفضله، وأخبرهم أن المعاصي مانعة من فضله؛ فإذا فعلها العبد فلا يلومن إلا نفسه؛ فإنه المانع لنفسه عن وصول فضل الله وبره.

ثم أخبر عن عموم رسالة رسوله محمد ﷺ، فقال: ﴿وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ (٧٩)؛ على أنك رسول الله حقاً بما أيدك بنصره والمعجزات الباهرة والبراهين الساطعة؛ فهي أكبر شهادة على الإطلاق؛ كما قال تعالى:

الجنة فوق ذلك؛ كما قال تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ [السجدة: ١٧]، وقال الله على لسان نبيه (١): «أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر».

وأما لذات الدنيا؛ فإنها مشوبة بأنواع التنغيص الذي لو قبل بين لذاتها وما يقترب بها من أنواع الآلام والهموم والغموم لم يكن لذلك نسبة بوجه من الوجوه. وأما زمانها؛ فإن الدنيا منقضية وعمر الإنسان بالنسبة إلى الدنيا شيء يسير، وأما الآخرة؛ فإنها دائمة النعيم، وأهلها خالدون فيها؛ فإذا فكر العاقل في هاتين الدارين، وتصور حقيقتهما حق التصور عرف ما هو أحق بالإثارة والسعي له والاجتهاد لطلبه، ولهذا قال: ﴿وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى﴾ أَيْ: اتقى الشرك وسائر المحرمات. ﴿وَلَا تَقْلُمُونَ قَبِيلًا﴾ (٨٠)؛ أَيْ: فسعيكم للدور الآخرة ستجدونه كاملاً موفراً غير منقوص منه شيء.

﴿ثُمَّ أَخْبَرَ أَنَّهُ لَا يَغْنِي حِذْرُ عَنْ قَدْرٍ، وَأَنَّ الْقَاعِدَ لَا يَدْفَعُ عَنْهُ قَعُودُهُ شَيْئًا، فَقَالَ: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكْكُمُ الْمَوْتُ﴾ أَيْ: في أي زمان وأي مكان. ﴿وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشِيدَةٍ﴾ أَيْ: قصور منيعة ومنازل رفيعة. وكل هذا حث على الجهاد في سبيل الله؛ تارة بالترغيب في فضله وثوابه، وتارة بالترهيب من عقوبة تركه، وتارة بالإخبار أنه لا ينفع القاعدين قعودهم، وتارة بتسهيل الطريق في ذلك وقصرها.

ثم قال:

﴿وَإِنْ تُصِيبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَإِنْ تُصِيبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ فَإِنَّ هَؤُلَاءِ أَفْوَِرٌ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾ (٨١) مَا أَصَابَكُمْ مِنْ حَسَنَةٍ فَإِنَّ اللَّهَ وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ سَيِّئَةٍ فَإِنَّ نَفْسَكُمْ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ (٨٢).

يخبر تعالى عن الذين لا يعلمون، المعرضين عما جاءت به الرسل، المعارضين لهم أنهم إذا جاءتهم حسنة؛ أَيْ: خصب وكثرة أموال وتوفر أولاد وصحة قالوا: ﴿هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾، وأنهم إن أصابتهم سيئة؛ أَيْ: جذب وفقر ومرض وموت أولاد وأحباب؛ قالوا: ﴿هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ﴾؛ أَيْ: بسبب ما جئتنا به يا محمد! تطيروا برسول الله ﷺ كما

المزمل والمزمل

سورة النساء

مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيفًا ﴿٨٠﴾ وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَرُوا مِنْ عِنْدِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿٨١﴾ أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْفَرَاءَنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لَوْجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾ وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَ الَّذِينَ يُسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَتَبَعَتُ الشَّيْطَانُ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٣﴾ فَقِيلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تَكْفُلْ إِلَّا نَفْسَكَ وَحَرِّضَ الْمُؤْمِنِينَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَكْفِ بِأَسِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَاللَّهُ أَشَدُّ بِأَسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلًا ﴿٨٤﴾ مَنْ يَشْفَعْ شَفْعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِنْهَا وَمَنْ يَشْفَعْ شَفْعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِنْهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقِيمًا ﴿٨٥﴾ وَإِذْ أَخَذْتُمْ بِنَحِيفَةٍ فَوُحَا بِأَحْسَنِ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا ﴿٨٦﴾

٩١

﴿قُلْ أَتُحِبُّونَ أَكْثَرَ شَهَادَةٍ قُلْ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ [الأنعام: ١٩]؛ فإذا علم أن الله تعالى كامل العلم، تام القدرة، عظيم الحكمة وقد أيد الله رسوله بما أيدته ونصره نصرًا عظيمًا؛ يتقن بذلك أنه رسول الله، وإلا فلو تقول عليه بعض الأفاويل؛ لأخذ منه باليمين ثم لقطع منه الوتين.

﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيفًا﴾ ﴿٨٠﴾ وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَرُوا مِنْ عِنْدِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ ﴿٨١﴾.

﴿٨٠﴾ أي: كل من أطاع رسول الله في أوامره ونواهيه؛ ﴿فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ تعالى؛ لكونه لا يأمر ولا ينهى إلا بأمر الله وشرعه ووجيه وتنزيله، وفي هذا عصمة الرسول ﷺ؛ لأن الله أمر بطاعته مطلقًا؛ فلو لا أنه معصوم في كل ما يبلغ عن الله لم يأمر بطاعته مطلقًا ويمدح على ذلك، وهذا من الحقوق المشتركة؛ فإن الحقوق ثلاثة: حق لله تعالى لا يكون لأحد من الخلق، وهو عبادة الله والرغبة إليه وتوابع ذلك؛ وقسم مختص بالرسول، وهو التعزيز والتوقير والنصرة. وقسم مشترك، وهو الإيمان بالله ورسوله ومحبتهم وطاعتهم؛ كما جمع الله بين هذه الحقوق في قوله: ﴿لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾

﴿تُعَزِّزُوهُ وَتُوقِرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ ﴿٩﴾ [الفتح: ٩]؛ فمن أطاع الرسول فقد أطاع الله، وله من الثواب والخير ما رتب على طاعة الله. ﴿وَمَنْ تَوَلَّى﴾: عن طاعة الله ورسوله؛ فإنه لا يضر إلا نفسه، ولا يضر الله شيئًا. ﴿فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيفًا﴾ ﴿٨٠﴾؛ أي: تحفظ أعمالهم وأحوالهم، بل أرسلناك مبلغًا ومبينًا وناصحًا، وقد أدبت وظيفتك ووجب أجرك على الله، سواء اهتموا أم لم يهتموا؛ كما قال تعالى: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ﴾ ﴿٢١﴾ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ ﴿٢٢﴾ [الغاشية: ٢١، ٢٢].

﴿٨١﴾ ولا بد أن تكون طاعة الله ورسوله ظاهرًا وباطنًا في الحضرة والمغيب، فأما من يظهر في الحضرة الطاعة والالتزام؛ فإذا خلا بنفسه أو أبناء جنسه ترك الطاعة وأقبل على ضدها؛ فإن الطاعة التي أظهرها غير نافعة ولا مفيدة، وقد أشبه من قال الله فيهم: ﴿وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ﴾؛ أي: يظهرن الطاعة إذا كانوا عندك، ﴿فَإِذَا بَرَرُوا مِنْ عِنْدِكَ﴾؛ أي: خرجوا وخلوا في حالة لا يُطْلَعُ فيها عليهم، ﴿بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ﴾؛ أي: يبتوا ودبروا غير طاعتك، ولا ثم إلا المعصية. وفي قوله: ﴿بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ﴾: دليل على أن الأمر الذي استقروا عليه غير الطاعة؛ لأن التبيت تدبير الأمر ليلا على وجه يستقر عليه الرأي. ثم توعدهم على ما فعلوا، فقال: ﴿وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ﴾؛ أي: يحفظه عليهم وسيجازيهم عليه أتم الجزاء؛ ففيه وعيد لهم. ثم أمر رسوله بمقابلتهم بالإعراض وعدم التعنيف؛ فإنهم لا يضررونه شيئًا إذا توكل على الله واستعان به في نصر دينه وإقامة شرعه، ولهذا قال: ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ ﴿٨١﴾.

﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْفَرَاءَنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لَوْجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ ﴿٨٢﴾.

﴿٨٢﴾ يأمر تعالى بتدبر كتابه، وهو التأمل في معانيه وتحديق الفكر فيه وفي مبادئه وعواقبه ولوازم ذلك؛ فإن في تدبر كتاب الله مفتاحًا للعلوم والمعارف، وبه يُسْتَنْجَجُ كل خير وتستخرج منه جميع العلوم، وبه يزداد الإيمان في القلب وترسخ شجرته؛ فإنه يعرف بالرب المعبود وما له من صفات الكمال، وما ينزه عنه من سمات النقص، ويعرف الطريق الموصلة إليه، وصفة

وفيه النهي عن العجلة والتسرع لنشر الأمور من حين سماعها، والأمر بالتأمل قبل الكلام والنظر فيه؛ هل هو مصلحة فيقدم عليه الإنسان أم لا فيحجم عنه؟

ثم قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ﴾؛ أي: في توفيقكم وتأييدكم وتعليمكم ما لم تكونوا تعلمون، ﴿لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا﴾؛ لأن الإنسان بطبعه ظالم جاهل فلا تأمره نفسه إلا بالشر؛ فإذا لجأ إلى ربه، واعتصم به، واجتهد في ذلك؛ لطف به ربه، ووفقه لكل خير، وعصمه من الشيطان الرجيم.

﴿فَقَنِّلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تُكَلِّفْ إِلَّا نَفْسَكَ وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَكْفٍ بِأَسَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَاللَّهُ أَشَدُّ بِأَسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلًا﴾.

هذه الحالة أفضل أحوال العبد؛ أن يجتهد في نفسه على امتثال أمر الله من الجهاد وغيره، ويحرض غيره عليه، وقد يعدم في العبد الأمران أو أحدهما؛ فلهاذا قال [الله] لرسوله: ﴿فَقَنِّلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تُكَلِّفْ إِلَّا نَفْسَكَ﴾؛ أي: ليس عليك قدرة على غير نفسك، فلن تكلف بفعل غيرك. ﴿وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ على القتال، وهذا يشمل كل أمر يحصل به نشاط المؤمنين وقوة قلوبهم؛ من تقويتهم، والإخبار بضعف الأعداء وفشلهم، وبما أعد الله للمقاتلين من الثواب، وما على المتخلفين من العقاب؛ فهذا وأمثاله كله يدخل في التحريض على القتال. ﴿عَسَى اللَّهُ أَنْ يَكْفٍ بِأَسَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾؛ أي: بتالكهم في سبيل الله وتحريض بعضكم بعضاً. ﴿وَاللَّهُ أَشَدُّ بِأَسًا﴾؛ أي: قوة وعزة، ﴿وَأَشَدُّ تَنكِيلًا﴾؛ بالمذهب في نفسه وتنكيلاً لغيره؛ فلو شاء تعالى لانتصر من الكفار بقوته، ولم يجعل لهم باقية، ولكن من حكمته يبلو بعض عباده ببعض؛ ليقوم سوق الجهاد، ويحصل الإيمان النافع، إيمان الاختيار لا إيمان الاضطرار والقهر الذي لا يفيد شيئاً.

﴿مَنْ يَشْفَعْ شَفْعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِنْهَا وَمَنْ يَشْفَعْ شَفْعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِنْهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقِينًا﴾.

المراد بالشفاعة هنا المعاونة على أمر من الأمور؛ فمن شفع غيره وقام معه على أمر من أمور الخير، ومنه الشفاعة للمظلومين لمن ظلمهم كان له نصيب من شفاعته بحسب

أهلها، وما لهم عند القدوم عليه، ويعرف العدو الذي هو العدو على الحقيقة، والطريق الموصلة إلى العذاب، وصفة أهلها، وما لهم عند وجود أسباب العقاب. وكلما ازداد العبد تأملاً فيه؛ ازداد علماً وعملاً وبصيرة، لذلك أمر الله بذلك وحث عليه وأخبر أنه هو المقصود بإنزال القرآن؛ كما قال تعالى: ﴿كَتَبَ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [ص: ٢٩]؛ وقال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ أَلْقُرْآنَ أَمْرًا عَلَى قُلُوبٍ أَفْقَالَهَا﴾ [محمد: ٢٤].

ومن فوائد التدبر لكتاب الله أنه بذلك يصل العبد إلى درجة اليقين والعلم بأنه كلام الله؛ لأنه يراه يصدق بعضه بعضاً، ويوافق بعضه بعضاً، فترى الحكم والقصة والإخبارات تعاد في القرآن في عدة مواضع، كلها متوافقة متصادقة، لا ينقض بعضها بعضاً؛ فبذلك يعلم كمال القرآن، وأنه من عند من أحاط علمه بجميع الأمور؛ فلذلك قال تعالى: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾؛ أي: فلما كان من عند الله لم يكن فيه اختلاف أصلاً.

﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوْ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولَى الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا﴾.

هذا تأديب من الله لعباده عن فعلهم هذا غير اللائق، وأنه ينبغي لهم إذا جاءهم أمر من الأمور المهمة والمصالح العامة ما يتعلق بالأمن وسرور المؤمنين أو بالخوف الذي فيه مصيبة عليهم أن يتشبتوا ولا يستعجلوا بإشاعة ذلك الخبر، بل يردونه إلى الرسول وإلى أولي الأمر منهم؛ أهل الرأي والعلم والنصح والعقل والرزانة الذين يعرفون الأمور ويعرفون المصالح وضدها، فإن رأوا في إذاعته مصلحة ونشاطاً للمؤمنين وسروراً لهم وتحزراً من أعدائهم فعلوا ذلك، وإن رأوا أنه ليس فيه مصلحة، أو فيه مصلحة ولكن مضرته تزيد على مصلحته لم يذيعوه. ولهذا قال: ﴿لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾؛ أي: يستخرجونه بفكرهم وآرائهم السديدة وعلومهم الرشيدة.

وفي هذا دليل لقاعدة أدبية، وهي أنه إذا حصل بحث في أمر من الأمور ينبغي أن يولي من هو أهل لذلك، ويجعل إلى أهله، ولا يتقدم بين أيديهم؛ فإنه أقرب إلى الصواب وأحرى للسلامة من الخطأ.

سعيه وعمله ونفعه، ولا ينقص من أجر الأصيل أو المباشر شيء، ومن عاون غيره على أمر من الشر كان عليه كفل من الإثم بحسب ما قام به وعاون عليه. ففي هذا الحث العظيم على التعاون على البر والتقوى، والزجر العظيم عن التعاون على الإثم والعدوان. وقرر ذلك بقوله: ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقْبِلًا ۝٨٥﴾ أي: شاهدًا حفيظًا حسيبًا على هذه الأعمال، فيجازي كلًا ما يستحقه.

﴿وَإِذَا حُيِّنْتُمْ بِنَحِيَةٍ فَجُوبُوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا ۝٨٦﴾.

﴿٨٦﴾ التحية: هي اللفظ الصادر من أحد المتلاقيين على وجه الإكرام والدعاء وما يقترن بذلك اللفظ من البشاشة ونحوها، وأعلى أنواع التحية ما ورد به الشرع من السلام ابتداءً وردًا، فأمر تعالى المؤمنين أنهم إذا حيوا بأي تحية كانت أن يردوها بأحسن منها لفظًا وبشاشة أو مثلها في ذلك، ومفهوم ذلك النهي عن عدم الرد بالكلية أو ردها بدونها. ويؤخذ من الآية الكريمة الحث على ابتداء السلام والتحية من وجهين:

أحدهما: أن الله أمر بردها بأحسن منها أو مثلها، وذلك يستلزم أن التحية مطلوبة شرعًا.

والثاني: ما يستفاد من أفعل التفضيل، وهو أحسن، الدال

سورة النساء
لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لِيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا ﴿٨٧﴾ ﴿فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِتْنَةٍ وَاللَّهُ أَرَكْسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا أَتُرِيدُونَ أَنْ تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا ۝٨٨﴾ وَذُوقُوا تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّىٰ يَهْجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَخُذُواهُمْ وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ۝٨٩﴾ إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ أَوْ جَاءَهُمْ حَصْرَتْ صُدُورُهُمْ أَنْ يَقْتُلُوَكُمْ أَوْ يَقْبَلُوا قَوْمَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَاطَهُمْ عَلَيْهِمْ قُلُوبُهُمْ فَلَقَتَلُوكُمْ فَإِنْ أَعْرَضَ لَكُمْ فَلَمْ يَقْبَلُواكُمْ وَأَقْبَلُوا إِلَيْكُمْ أَلَسَلِمَ فَأَجَلَّ اللَّهُ لَهُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا ۝٩٠﴾ سَتَجِدُونَ مَآخِرِينَ يَرِيدُونَ أَنْ يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ كُلٌّ مَارَدُوا إِلَى الْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا فِيهَا فَإِنْ لَمْ يَعْرِزُوا لَكُمْ وَلَقَدْ أَلَيْكُمْ أَلْسَلَمَ وَيَكْفُرُوا أَنْ يَدِيَهُمْ فَخُذُواهُمْ وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ تَجِدْتُمُوهُمْ وَأُولَٰئِكَ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا مُبِينًا ۝٩١﴾

على مشاركة التحية وردها بالحسن؛ كما هو الأصل في ذلك.

ويستثنى من عموم الآية الكريمة من حيًا بحال غير مأمور بها؛ كعلى مشتغل بقراءة أو استماع خطبة أو مصلى ونحو ذلك؛ فإنه لا يطلب إجابة تحيته، وكذلك يستثنى من ذلك من أمر الشارع بهجره وعدم تحيته، وهو العاصي غير التائب، الذي يرتدع بالهجر؛ فإنه يهجر ولا يحيا ولا ترد تحيته، وذلك لمعارضة المصلحة الكبرى، ويدخل في رد التحية كل تحية اعتادها الناس، وهي غير محظورة شرعًا؛ فإنه مأمور بردها أو أحسن منها. ثم أوعد تعالى وتوعد على فعل الحسنات والسيئات بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا ۝٨٦﴾: فيحفظ على العباد أعمالهم حسناتها وسيئاتها، صغيرها وكبيرها، ثم يجازيهم بما اقتضاه فضله وعدله وحكمه المحمود.

﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لِيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا ۝٨٧﴾.

﴿٨٧﴾ يخبر تعالى عن انفراد بالوحدانية، وأنه لا معبود ولا مألوه إلا هو لكمال في ذاته وأوصافه، ولكونه المنفرد بالخلق والتدبير والنعم الظاهرة والباطنة، وذلك يستلزم الأمر بعبادته والتقرب إليه بجميع أنواع العبودية؛ لكونه المستحق لذلك وحده، والمجازي للعباد بما قاموا به من عبوديته أو تركوه منها، ولذلك أقسم على وقوع محل الجزاء، وهو يوم القيامة، فقال: ﴿لِيَجْمَعَنَّكُمْ﴾؛ أي: أولكم وآخركم، في مقام واحد، في ﴿يَوْمِ الْقِيَمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾؛ أي: لا شك ولا شبهة بوجه من الوجوه بالدليل العقلي والدليل السمعي.

فالدليل العقلي ما نشاهده من إحياء الأرض بعد موتها، ومن وجود النشأة الأولى التي وقوع الثانية أولى منها بالإمكان، ومن الحكمة التي يجزم بأن الله لم يخلق خلقه عبثًا يحيون ثم يموتون.

ويستلزم أيضًا بغضهم وعداوتهم؛ لأن النهي عن الشيء أمر بضده، وهذا الأمر موقت بهجرتهم؛ فإذا هاجروا جرى عليهم ما جرى على المسلمين؛ كما كان النبي ﷺ يجري أحكام الإسلام لكل من كان معه وهاجر إليه، وسواء كان مؤمنًا حقيقة أو ظاهر الإيمان، وأنهم إن لم يهاجروا وتولوا عنها؛ ﴿فَحَذُّوهُمْ وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾؛ أي: في أي وقت وأي محل كان، وهذا من جملة الأدلة الدالة على نسخ القتال في الأشهر الحرم؛ كما هو قول جمهور العلماء، والمنازعون يقولون: هذه نصوص مطلقة محمولة على تقييد التحريم في الأشهر الحرم.

﴿٩٠﴾ ثم إن الله استثنى من قتال هؤلاء المنافقين ثلاث فرق:

فرقتين أمر بتركهم وحتم على ذلك:

إحداهما: من يصل إلى قوم بينهم وبين المسلمين عهد وميثاق بترك القتال، فينضم إليهم، فيكون له حكمهم في حقن الدم والمال.

والفرقة الثانية: قوم ﴿حَصَرَتْ صُدُورُهُمْ أَنْ يُقَاتِلُوكُمْ أَوْ يُقَاتِلُوا قَوْمَهُمْ﴾؛ أي: بقوا لا تسمح أنفسهم بقتالكم ولا بقتال قومهم، وأحبوا ترك قتال الفريقين؛ فهؤلاء أيضًا أمر بتركهم، وذكر الحكمة في ذلك بقوله: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَاتِلُوكُمْ﴾؛ فإن الأمور الممكنة ثلاثة أقسام: إما أن يكونوا معكم ويقاتلوا أعداءكم، وهذا متعذر من هؤلاء، فدار الأمر بين قتالكم مع قومهم، وبين ترك قتال الفريقين، وهو أهون الأمرين عليكم، والله قادر على تسليطهم عليكم؛ فاقبلوا العافية واحمدوا ربكم الذي كف أيديهم عنكم مع التمكن من ذلك؛ فهؤلاء إن اعتزلوكم ﴿فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَالْقَوَا إِلَيْكُمْ أَلَسَلَّمْ مَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا﴾ ﴿٩١﴾.

﴿٩١﴾ الفرقة الثالثة: قوم يريدون مصلحة أنفسهم، بقطع النظر عن احترامكم، وهم الذين قال الله فيهم: ﴿سَتَجِدُونَ ءَاخِرِينَ﴾؛ أي: من هؤلاء المنافقين. ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُامِنُوكُمْ﴾؛ أي: خوفًا منكم، ﴿وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ كُلَّ مَا رُدُّوا إِلَى الْفِتْنَةِ أُرْكَسُوا فِيهَا﴾؛ أي: لا يزالون مقيمين على كفرهم ونفاقهم، وكلما عرض لهم عارض من عوارض الفتن أعماهم ونكسهم على رؤوسهم وازداد كفرهم ونفاقهم، وهؤلاء في الصورة كالفرقة الثانية، وفي الحقيقة مخالفة لها؛ فإن الفرقة الثانية

وأما الدليل السمعي؛ فهو إخبار أصدق الصادقين بذلك، بل إقسامه عليه، ولهذا قال: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا﴾ ﴿٩٧﴾، كذلك أمر رسوله ﷺ أن يقسم عليه في غير موضع من القرآن؛ كقوله تعالى: ﴿رَعِمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبِّئُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ ﴿١٧﴾ [التغابن: ١٧].

وفي قوله: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا﴾ ﴿٩٧﴾، ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا﴾ ﴿١٢٢﴾ [النساء: ١٢٢]: إخبار بأن حديثه وأخباره وأقواله في أعلى مراتب الصدق، بل أعلاها، فكل ما قيل في العقائد والعلوم والأعمال مما يناقض ما أخبر الله به فهو باطل لمناقضته للخبر الصادق اليقين، فلا يمكن أن يكون حقًا.

﴿فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِتْنَةٍ وَاللَّهُ أَرَكُسُهُمْ بِمَا كَسَبُوا أُرِيدُونَ أَنْ تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا﴾ ﴿٩٨﴾ وُدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً فَلَا تَنَجِدُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّى يَهَاجِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَحَذُّوهُمْ وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَلَا تَنَجِدُوا مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ ﴿٩٩﴾ إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ أَوْ جَاءَكُمْ حَصْرَتْ صُدُورُهُمْ أَنْ يُقَاتِلُوكُمْ أَوْ يُقَاتِلُوا قَوْمَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَاتِلُوكُمْ فَإِنْ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَالْقَوَا إِلَيْكُمْ أَلَسَلَّمْ مَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا﴾ ﴿١٠٠﴾ سَتَجِدُونَ ءَاخِرِينَ يُرِيدُونَ أَنْ يُامِنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ كُلَّ مَا رُدُّوا إِلَى الْفِتْنَةِ أُرْكَسُوا فِيهَا فَإِنْ لَمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوا إِلَيْكُمْ أَلَسَلَّمْ وَيَكُفُّوا أَيْدِيَهُمْ فَحَذُّوهُمْ وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ تَقَعْتُمُوهُمْ وَأَوَلَيْكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا مُبِينًا﴾ ﴿١٠١﴾.

﴿٩٨﴾، ﴿٩٩﴾ المراد بالمنافقين المذكورين في هذه الآيات، المنافقون المظهرون إسلامهم ولم يهاجروا مع كفرهم، وكان قد وقع بين الصحابة رضوان الله عليهم فيه اشتباه؛ فبعضهم تخرج عن قتالهم وقطع موالاتهم بسبب ما أظهروه من الإيمان، وبعضهم علم أحوالهم بقرائن أفعالهم فحكم بكفرهم، فأخبرهم الله تعالى أنه لا ينبغي لكم أن تشبهوا فيهم ولا تشكوا، بل أمرهم واضح غير مشكل، إنهم منافقون، قد تكرر كفرهم وودوا مع ذلك كفرهم وأن تكونوا مثلهم؛ فإذا تحققت ذلك منهم؛ ﴿فَلَا تَنَجِدُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ﴾؛ وهذا يستلزم عدم محبتهم؛ لأن الولاية فرع المحبة،

سورة النساء

المجادل

وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَاً وَمَنْ قَتَلَ
مُؤْمِنًا خَطَاً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى
أَهْلِهِ إِلَّا أَنْ يَصَّدَّقُوا فَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ
وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَإِنْ كَانَ مِنَ
مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ فَدْيَةٌ مُسَلَّمَةٌ
إِلَى أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ
فَقِيَامَ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِنَ اللَّهِ وَكَانَ
اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٩٣﴾ وَمَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا
مُتَعَمِّدًا فَجَزَاءُ لَهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ
اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا ﴿٩٤﴾ يَأَيُّهَا
الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَيَبَّسُوا وَلَا تَقُولُوا
لِمَنْ آتَيْنَا إِلَيْكُمْ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ
عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ
كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنْ آتَاكُمْ عَلَيْكُمْ
فَتَبَيَّنُوا إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٩٥﴾

٩٣

تركوا قتال المؤمنين احتراماً لهم لا خوفاً على أنفسهم، وأما
هذه الفرقة فتركوه خوفاً لا احتراماً، بل لو وجدوا فرصة في
قتال المؤمنين؛ فإنهم سيقدمون لانتهازها؛ فهؤلاء إن لم
يتبين منهم، ويتضح انتصاحاً عظيماً اعتزال المؤمنين وترك
قتالهم فإنهم يقاتلون، ولهذا قال: ﴿فَإِنْ لَمْ يَبَيَّنُوا لَكُمْ
إِتِّكُافُ السَّلَامِ﴾؛ أي: المسالمة والمودعة، ﴿وَيَكُونُوا أَيْدِيَهُمْ
فَتْحُورُهُمْ وَأَقْلُوهُمْ حَيْثُ يَفْتَنُوهُمْ وَأُولَئِكَ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ
سُلْطَانًا مُبِينًا ﴿٩١﴾﴾؛ أي: حجة بيّنة واضحة؛ لكونهم معتدين
ظالمين لكم تاركين للمسالمة فلا يلوموا إلا أنفسهم.

﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَاً وَمَنْ
قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَاً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ
إِلَى أَهْلِهِ إِلَّا أَنْ يَصَّدَّقُوا فَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ
وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَإِنْ كَانَ مِنَ
قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ فَدْيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى
أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَقِيَامَ
شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِنَ اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا
حَكِيمًا ﴿٩٣﴾﴾.

﴿٩٣﴾ هذه الصيغة من صيغ الامتناع، أي: يتمتع ويستحيل أن
يصدر من مؤمن قتل مؤمن؛ أي: متعمداً.

وفي هذا الإخبار بشدة تحريمه وأنه مناف للإيمان أشد منافاة، وإنما يصدر ذلك إما من كافر أو من فاسق قد نقص إيمانه نقصاً
عظيماً ويخشى عليه ما هو أكبر من ذلك؛ فإن الإيمان الصحيح يمنع المؤمن من قتل أخيه الذي قد عقد الله بينه وبينه الأخوة
الإيمانية التي من مقتضاها محبته وموالاته وإزالة ما يعرض لأخيه من الأذى، وأي أذى أشد من القتل؟! وهذا يصدق قوله ﷺ:
«لا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضهم رقاب بعض»^(١)، فعلم أن القتل من الكفر العملي، وأكبر الكبائر بعد الشرك بالله.

ولما كان قوله: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا﴾: لفظاً عاماً لجميع الأحوال، وأنه لا يصدر منه قتل أخيه بوجه من
الوجوه؛ استثنى تعالى قتل الخطأ، فقال: ﴿إِلَّا خَطَاً﴾؛ فإن المخطئ الذي لا يقصد القتل غير آثم ولا متجرب على محارم
الله، ولكنه لما كان قد فعل فعلاً شنيعاً وصورته كافية في قبحه وإن لم يقصده أمر تعالى بالكفارة والدية، فقال: ﴿وَمَنْ قَتَلَ
مُؤْمِنًا خَطَاً﴾: سواء كان القاتل ذكراً أو أنثى، حراً أو عبداً، صغيراً أو كبيراً، عاقلاً أو مجنوناً، مسلماً أو كافراً؛ كما يفيد
لفظ «مَنْ» الدالة على العموم، وهذا من أسرار الإتيان بـ «مَنْ» في هذا الموضع؛ فإن سياق الكلام يقتضي أنه يقول: فإن
قتله، ولكن هذا لفظ لا يشمل ما تشمله «مَنْ»، وسواء كان المقتول ذكراً أو أنثى، صغيراً أو كبيراً؛ كما يفيد التنكير في سياق
الشرط؛ فإن على القاتل تحرير ربة مؤمنة: كفارة لذلك، تكون في ماله، ويشمل ذلك الصغير والكبير، والذكر والأنثى،
والصحيح والمعيب في قول بعض العلماء، ولكن الحكمة تقتضي ألا يجزئ عتق المعيب في الكفارة؛ لأن المقصود بالعتق
نفع العتق وملكه منافع نفسه؛ فإذا كان يضيع بعثقه، ويقاؤه في الرق أنفع له؛ فإنه لا يجزئ عتقه، مع أن قوله: ﴿فَتَحْرِيرُ
رَقَبَةٍ﴾ ما يدل على ذلك؛ فإن التحرير تخليص من استحققت منفعه لغيره أن تكون له؛ فإذا لم يكن فيه منافع لم يتصور وجود
التحرير، فتأمل ذلك فإنه واضح.

كما سيأتي إن شاء الله تعالى. ومن حكمته أن أوجب في القتل الدية، ولو كان خطأ؛ لتكون رادعة وكافة عن كثير من القتل باستعمال الأسباب العاصمة عن ذلك. ومن حكمته أن أوجب على العاقلة في قتل الخطأ بإجماع العلماء؛ لكون القاتل لم يذنب، فيشق عليه أن يحمل هذه الدية الباهظة، فناسب أن يقوم بذلك من بينه وبينهم المعاونة والمناصرة والمساعدة على تحصيل المصالح وكف المفسد، ولعل ذلك من أسباب منعهم لمن يعقلون عنه من القتل حذار تحميلهم، ويخف عليهم بسبب توزيعه عليهم بقدر أحوالهم وطاقتهم، وخففت أيضًا بتأجيلها عليهم ثلاث سنين. ومن حكمته وعلمه أن جبر أهل القتل عن مصيبتهم بالدية التي أوجبها على أولياء القاتل.

﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَدِّيًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَعَذِيبُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ (٩٣).

﴿٩٣﴾ تقدم أن الله أخبر أنه لا يصدر قتل المؤمن من المؤمن، وأن القتل من الكفر العملي، وذكر هنا وعيد القاتل عمدًا وعيدًا ترجف له القلوب وتنصدع له الأفئدة وتنزع منه أولو العقول، فلم يرد في أنواع الكبائر أعظم من هذا الوعيد، بل ولا مثله، ألا وهو الإخبار بأن جزاء جهنم؛ أي: فهذا الذنب العظيم قد انتهض وحده أن يجازي صاحبه بجهنم بما فيها من العذاب العظيم والخزي المهين وسخط الجبار وفوات الفوز والفلاح وحصول الخيبة والخسارة؛ فعيادًا بالله من كل سبب يبعد عن رحمته.

وهذا الوعيد له حكم أمثاله من نصوص الوعيد على بعض الكبائر والمعاصي بالخلود في النار أو حرمان الجنة. وقد اختلف الأئمة رحمهم الله في تأويلها، مع اتفاقهم على بطلان قول الخوارج والمعتزلة الذين يخلدونهم في النار ولو كانوا موحدين، والصواب في تأويلها ما قاله الإمام المحقق شمس الدين ابن القيم رحمه الله في المدارج^(١)؛ فإنه قال بعدما ذكر تأويلات الأئمة في ذلك وانتقدها، فقال:

وقالت فرقة: إن هذه النصوص وأمثالها مما ذكر فيه المقتضي للعقوبة، ولا يلزم من وجود مقتضى الحكم وجوده؛ فإن الحكم إنما يتم بوجود مقتضيه وانتفاء موانعه،

وأما الدية؛ فإنها تجب على عاقلة القاتل في الخطأ وشبه العمد. ﴿مُسْكَنَةً إِلَى أَهْلِهِ﴾: جبرًا لقلوبهم. والمراد بـ ﴿أَهْلِهِ﴾ هنا هم ورثته؛ فإن الورثة يرثون ما ترك الميت، فالدية داخلة فيما ترك، وللدية تفاصيل كثيرة مذكورة في كتب الفقه. وقوله: ﴿إِلَّا أَنْ يَصَدَّقُوا﴾؛ أي: يتصدق ورثة القاتل بالعفو عن الدية؛ فإنها تسقط، وفي ذلك حث لهم على العفو؛ لأن الله سماها صدقة، والصدقة مطلوبة في كل وقت. ﴿فَإِنْ كَانَ الْمَقْتُولُ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ﴾؛ أي: من كفار حريين، ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ﴾؛ أي: وليس عليكم لأهله دية؛ لعدم احترامهم في دمائهم وأموالهم. ﴿وَإِنْ كَانَ الْمَقْتُولُ مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ فَدِيَةٌ مُسْكَنَةً إِلَى أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ﴾، وذلك لاحترام أهله بما لهم من العهد والميثاق. ﴿فَإِنْ لَمْ يَجِدْ رَقَبَةً وَلَا ثَمَنًا﴾: الرقبة ولا ثمنها؛ بأن كان معسرًا بذلك، ليس عنده ما يفضل عن مؤنته وحوائجه الأصلية شيء يفي بالرقبة. ﴿فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ﴾؛ أي: لا يفطر بينهما من غير عذر؛ فإن أظفر لعذر فإن العذر لا يقطع التتابع؛ كالمرض والحيض ونحوهما، وإن كان لغير عذر؛ انقطع التتابع، ووجب عليه استئناف الصوم، ﴿تَوَكَّبَهُ مِنَ اللَّهِ﴾؛ أي: هذه الكفارات التي أوجبها الله على القاتل توبة من الله على عباده ورحمة بهم وتكفيرًا لما عساه أن يحصل منهم من تقصير وعدم احتراز كما هو الواقع كثيرًا للقاتل خطأ.

﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ (٩٤)؛ أي: كامل العلم كامل الحكمة، لا يخفى عليه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر، في أي وقت كان وأي محل كان، ولا يخرج عن حكمته من المخلوقات والشرائع شيء، بل كل ما خلقه وشرعه فهو متضمن لغاية الحكمة.

ومن علمه وحكمته أن أوجب على القاتل كفارة مناسبة لما صدر منه؛ فإنه تسبب لإعدام نفس محترمة، وأخرجها من الوجود إلى العدم، فناسب أن يعق رقبة ويخرجها من رق العبودية للخلق إلى الحرية التامة؛ فإن لم يجد هذه الرقبة صام شهرين متتابعين، فأخرج نفسه من رق الشهوات واللذات الحسية القاطعة للعبد عن سعادته الأبدية إلى التعبد لله تعالى بتركها تقريبًا إلى الله، ومدّها تعالى بهذه المدة الكثيرة الشاقة في عددها ووجوب التتابع فيها، ولم يشرع الإطعام في هذه المواضع لعدم المناسبة؛ بخلاف الظهار؛

وغاية هذه النصوص الإعلام بأن كذا سبب للعقوبة ومقتضى لها، وقد قام الدليل على ذكر الموانع؛ فبعضها بالإجماع وبعضها بالنص؛ فالتوبة مانع بالإجماع، والتوحيد مانع بالنصوص المتواترة التي لا مدفع لها، والحسنات العظيمة الماحية مانعة، والمصائب الكبار المكفرة مانعة، وإقامة الحدود في الدنيا مانع بالنص، ولا سبيل إلى تعطيل هذه النصوص، فلا بد من إعمال النصوص من الجانبين، ومن هنا قامت الموازنة بين الحسنات والسيئات اعتبارًا لمقتضى العقاب وممانعه وإعمالًا لأرجحها. قالوا: وعلى هذا بناء مصالح الدارين ومفاسدهما، وعلى هذا بناء الأحكام الشرعية والأحكام القدرية، وهو مقتضى الحكمة السارية في الوجود، وبه ارتباط الأسباب ومسبباتها خلقًا وأمرًا، وقد جعل الله سبحانه لكل ضدًّا يدافعه ويقاومه ويكون الحكم للأغلب منهما؛ فالقوة مقتضية للصحة، والعافية وفساد الأخلاط وبغيها مانع من عمل الطبيعة، وفعل القوة والحكم للغالب منهما، وكذلك قوى الأدوية والأمراض، والعبد يكون فيه مقتضى للصحة ومقتضى للعطب، وأحدهما يمنع كمال تأثير الآخر ويقاومه؛ فإذا ترجح عليه وقهره كان التأثير له، ومن هنا يعلم انقسام الخلق إلى من يدخل الجنة ولا يدخل النار وعكسه، ومن يدخل النار ثم يخرج منها ويكون مكثه فيها بحسب ما فيه من مقتضى المكث في سرعة الخروج وبطئه، ومن له بصيرة منورة يرى بها كل ما أخبر الله به في كتابه من أمر المعاد وتفصيله، حتى كأنه يشاهده رأي العين، ويعلم أن هذا مقتضى إلهيته سبحانه وربوبيته وعزته وحكمته، وأنه يستحيل عليه خلاف ذلك، ونسبة ذلك إليه نسبة ما لا يليق به إليه، فيكون نسبة ذلك إلى بصيرته كنسبة الشمس والنجوم إلى بصره، وهذا يقين الإيمان، وهو الذي يحرق السيئات كما تحرق النار الحطب، وصاحب هذا المقام من الإيمان يستحيل إصراره على السيئات وإن وقعت منه وكثرت؛ فإن ما معه من نور الإيمان يأمره بتجديد التوبة كل وقت بالرجوع إلى الله في عدد أنفاسه، وهذا من أحب الخلق إلى الله. انتهى كلامه قدس الله روحه وجزاه عن الإسلام والمسلمين خيرًا.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْفَقَ إِلَيْكُمْ أَسَلَكُمُ السَّيْلَ مَوْتًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِندَ اللَّهِ مَغَانِمُ

كَثِيرَةٌ كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنْ أَتَاهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٩٤﴾

﴿٩٤﴾ يأمر تعالى عباده المؤمنين إذا خرجوا جهادًا في سبيله وابتغاء مرضاته أن يتبينوا ويتثبتوا في جميع أمورهم المشبهة؛ فإن الأمور قسمان: واضحة وغير واضحة؛ فالواضحة البينة لا تحتاج إلى تثبت وتبين؛ لأن ذلك تحصيل حاصل. وأما الأمور المشككة غير الواضحة؛ فإن الإنسان يحتاج إلى التثبت فيها والتبين؛ ليعرف هل يقدم عليها أم لا؛ فإن التثبت في هذه الأمور يحصل فيه من الفوائد الكثيرة والكف لشروع عزيمة؛ ما به يعرف دين العبد وعقله وورثاته؛ بخلاف المستعجل للأمور في بدايتها قبل أن يتبين له حكمها؛ فإن ذلك يؤدي إلى ما لا ينبغي؛ كما جرى لهؤلاء الذين عاتبهم الله في الآية لما لم يتثبتوا وقتلوا من سلم عليهم وكان معه غنيمة له أو مال غيره؛ ظنًّا أنه يستكفي بذلك قتلهم، وكان هذا خطأ في نفس الأمر؛ فلهذا عاتبهم بقوله: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْفَقَ إِلَيْكُمْ أَسَلَكُمُ السَّيْلَ لَسَتْ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِندَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ﴾؛ أي: فلا يحملنكم العرض الفاني القليل على ارتكاب ما لا ينبغي، فيفوتكم ما عند الله من الثواب الجزيل الباقي؛ فما عند الله خير وأبقى. وفي هذا إشارة إلى أن العبد ينبغي له إذا رأى دواعي نفسه مائلة إلى حالة له فيها هوى وهي مضرة له؛ أن يذكرها ما أعد الله لمن نهى نفسه عن هواها، وقدم مرضاة الله على رضا نفسه؛ فإن في ذلك ترغيبًا للنفس في امتثال أمر الله، وإن شق ذلك عليها.

ثم قال تعالى مذكّرًا لهم بحالهم الأولى قبل هدايتهم إلى الإسلام: ﴿كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنْ أَتَاهُ عَلَيْكُمْ﴾؛ أي: فكما هداكم بعد ضلالكم؛ فكذلك يهدي غيركم، وكما أن الهداية حصلت لكم شيئًا فشيئًا؛ فكذلك غيركم؛ فنظر الكامل لحاله الأولى الناقصة ومعاملته لمن كان على مثلها بمقتضى ما يعرف من حاله الأولى ودعائه له بالحكمة والموعظة الحسنة من أكبر الأسباب لنفعه وانتفاعه، ولهذا أعاد الأمر بالتبين، فقال: ﴿فَتَبَيَّنُوا﴾؛ فإذا كان من خرج للجهاد في سبيل الله ومجاهدة أعداء الله واستعد بأنواع الاستعداد للإيقاع بهم مأمورًا بالتبين لمن ألقى إليه السلام، وكانت القرينة قوية في أنه إنما سلم تعودًا

لَا يَسْتَوِي الْقَاتِلُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرَ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاتِلِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاتِلِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٩٥﴾ دَرَجَتٍ مِنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٩٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَالِمِ أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيهِمْ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضَ اللَّهِ وَسِعَةً فَهَاجَرُوا فِيهَا قَالُوا لَيْكَ مَاؤُنْهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾ قَالُوا لَيْكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَغْفِرَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٩٩﴾ وَمَنْ هَاجَرَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَحْدِثْ فِي الْأَرْضِ مُرَعًا كَثِيرًا وَسِعَةً وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿١٠٠﴾ وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُبِينًا ﴿١٠١﴾

٩٤

من القتل وخوفاً على نفسه؛ فإن ذلك يدل على الأمر بالتبني والتثبت في كل الأحوال التي يقع فيها نوع اشتباه، فيثبت فيها العبد، حتى يتضح له الأمر، ويبين الرشد والصواب.

﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ ﴿٩٥﴾: فيجازي كلا ما عمله ونواه بحسب ما علمه من أحوال عباده ونياتهم.

﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاتِلُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرَ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاتِلِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاتِلِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ ﴿٩٥﴾ دَرَجَتٍ مِنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٩٦﴾.

﴿٩٥﴾، ﴿٩٦﴾ أي: لا يستوي من جاهد من المؤمنين بنفسه وماله ومن لم يخرج للجهاد ولم يقاتل أعداء الله؛ ففيه الحث على الخروج للجهاد والترغيب في ذلك والتهريب من التكاثر والقعود عنه من غير عذر، وأما أهل الضرر كالمريض والأعمى والأعرج والذي لا يجد ما يتجهز به؛ فإنهم ليسوا بمنزلة القاعدين من غير عذر؛ فمن كان من أولي الضرر راضياً بقعوده، لا ينوي الخروج في سبيل الله لولا وجود المانع ولا يحدث نفسه بذلك؛ فإنه بمنزلة القاعد لغير عذر، ومن كان عازماً على الخروج في سبيل الله لولا وجود المانع

يتمنى ذلك ويحدث به نفسه؛ فإنه بمنزلة من خرج للجهاد؛ لأن النية الجازمة إذا اقترن بها مقدورها من القول أو الفعل، ينزل صاحبها منزلة الفاعل.

ثم صرح تعالى بتفضيل المجاهدين على القاعدين بالدرجة؛ أي: الرفعة، وهذا تفضيل على وجه الإجمال، ثم صرح بذلك على وجه التفصيل، ووعدهم بالمغفرة الصادرة من ربهم والرحمة التي تشتمل على حصول كل خير واندفاع كل شر، والدرجات التي فصلها النبي ﷺ بالحديث الثابت عنه في الصحيحين: «إن في الجنة مائة درجة، ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض، أعداها الله للمجاهدين في سبيله»^(١). وهذا الثواب الذي رتبته الله على الجهاد نظير الذي في سورة الصف في قوله: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَذْكَرُ عَلَى غَيْرَةٍ تُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَقُولُونَ﴾ ﴿١١﴾ يَغْفِرُ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلُكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَسَيُكَفُّ عَنْكُمْ فِي جَنَّاتٍ عَذْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ ﴿١٢﴾ [الصف: ١٠-١٢] إلى آخر السورة.

وتأمل حسن هذا الانتقال من حالة إلى أعلى منها؛ فإنه نفى التسوية أولاً بين المجاهد وغيره، ثم صرح بتفضيل المجاهد على القاعد بدرجة، ثم انتقل إلى تفضيله بالمغفرة والرحمة والدرجات. وهذا الانتقال من حالة إلى أعلى منها عند التفضيل والمدح أو النزول من حالة إلى ما دونها عند القدح والذم أحسن لفظاً وأوقع في النفس، وكذلك إذا فضل تعالى شيئاً على شيء، وكل منهما له فضل؛ احتزر بذكر الفضل الجامع للأمرين؛ لثلاث يتوهم أحد ذم المفضل عليه؛ كما قال هنا: ﴿وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى﴾، وكما قال تعالى في الآيات المذكورة في الصف في قوله: ﴿وَيُثَبِّرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿١٣﴾ [الصف: ١٣]، وكما في قوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَتْلًا﴾ [الحديد: ١٠]؛ أي: ممن لم يكن كذلك، ثم قال: ﴿وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى﴾، وكما قال تعالى: ﴿فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ [الأنبياء: ١٧٩]. فيبني لمن بحث في التفضيل بين الأشخاص

وفي الآية دليل على أن الهجرة من أكبر الواجبات، وتركها من المحرمات، بل من أكبر الكبائر. وفي الآية دليل على أن كل من توفي فقد استكمل واستوفى ما قدر له من الرزق والأجل والعمل، وذلك مأخوذ من لفظ التوفي؛ فإنه يدل على ذلك؛ لأنه لو بقي عليه شيء من ذلك؛ لم يكن متوفياً. وفي الإيمان بالملائكة ومدحهم؛ لأن الله ساق ذلك الخطاب لهم على وجه التقرير والاستحسان منهم وموافقته لمحلله.

﴿٩٩﴾، ﴿١٠٠﴾ ثم استثنى المستضعفين على الحقيقة الذين لا قدرة لهم على الهجرة بوجه من الوجوه ﴿وَلَا يَهْدُونَ سَبِيلًا﴾؛ فهؤلاء قال الله فيهم: ﴿فَأُولَٰئِكَ عَسَىٰ اللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا﴾ ﴿٩٩﴾، و﴿عَسَىٰ﴾ ونحوها واجب وقوعها من الله تعالى بمقتضى كرمه وإحسانه. وفي الترجية بالثواب لمن عمل بعض الأعمال فائدة، وهو أنه قد لا يوفيه حق توفيته، ولا يعمل على الوجه اللائق الذي ينبغي، بل يكون مقصراً، فلا يستحق ذلك الثواب، والله أعلم.

وفي الآية الكريمة دليل على أن من عجز عن المأمور من واجب وغيره؛ فإنه معذور؛ كما قال تعالى في العاجزين عن الجهاد: ﴿لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ﴾ [النور: ٦١]، وقال في عموم الأوامر: ﴿فَأَنفُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: ١٦]، وقال النبي ﷺ: «إذا أمرتكم بأمر؛ فأتوا منه ما استطعتم»^(١). ولكن لا يعذر الإنسان إلا إذا بذل جهده، وانسدت عليه أبواب الحيل؛ لقوله: ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً﴾.

وفي الآية تنبيه على أن الدليل في الحج والعمرة، ونحوهما مما يحتاج إلى سفر من شروط الاستطاعة.

﴿وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرْعَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَن يَخْرُجْ مِن بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ ﴿١٠٠﴾.

﴿١٠١﴾ هذا في بيان الحث على الهجرة والترغيب وبيان ما فيها من المصالح، فوعد الصادق في وعده أن من هاجر في سبيله ابتغاء مرضاته أنه يجد مراغماً في الأرض وسعة؛ فالمرام مشتعل على مصالح الدين، والسعة على مصالح الدنيا، وذلك أن كثيراً من الناس يتوهم أن في الهجرة شتاتاً بعد الألفة، وفقراً بعد الغنى، وذلاً بعد العز، وشدة بعد

والطوائف والأعمال أن يفتن لهذه النكته، وكذلك لو تكلم في ذم الأشخاص والمقالات؛ ذكر ما تجتمع فيه عند تفضيل بعضها على بعض؛ لثلاثتهم أن المفضل قد حصل له الكمال؛ كما إذا قيل: النصارى خير من المجوس؛ فليقل مع ذلك: وكل منهما كافر. والقتل أشنع من الزنا، وكل منهما معصية كبيرة، حرماها الله ورسوله، وزجر عنها.

ولما وعد المجاهدين بالمغفرة والرحمة الصادرين عن اسميه الكريمين الغفور الرحيم؛ ختم هذه الآية بهما، فقال: ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ ﴿١٠١﴾.

﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّيْنَاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَسِعَةً فَهَاجِرُوا فِيهَا قَالُوا لَيْكَ مَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ ﴿٩٧﴾ إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾ فَأُولَٰئِكَ عَسَىٰ اللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا غَفُورًا ﴿٩٩﴾.

﴿٩٧﴾ هذا الوعيد الشديد لمن ترك الهجرة مع قدرته عليها حتى مات؛ فإن الملائكة الذين يقبضون روحه يوبخونه بهذا التوبيخ العظيم، ويقولون لهم: ﴿فِيمَ كُنتُمْ﴾؛ أي: على أي حال كنتم؟ وبأي شيء تميزتم عن المشركين؟ بل كنتم سوادهم، وربما ظاهرتموهم على المؤمنين، وفاتكم الخير الكثير والجهاد مع رسوله والكون مع المسلمين ومعاونتهم على أعدائهم. ﴿قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ﴾؛ أي: ضعفاء مقهورين مظلومين ليس لنا قدرة على الهجرة، وهم غير صادقين في ذلك؛ لأن الله وبخهم وتوعدهم، ولا يكلف الله نفساً إلا وسعها، واستثنى المستضعفين حقيقة، ولهذا قالت لهم الملائكة: ﴿أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَسِعَةً فَهَاجِرُوا فِيهَا﴾؟ وهذا استفهام تقرير؛ أي: قد تقرر عند كل أحد أن أرض الله واسعة؛ فحيثما كان العبد في محل لا يتمكن فيه من إظهار دينه؛ فإن له متسعاً وفسحة من الأرض يتمكن فيها من عبادة الله؛ كما قال تعالى: ﴿يَعْبَادِي الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِنِّي فَأَعْبُدُونِ﴾ ﴿٥١﴾ [الأنكبوت: ٥٦]. قال الله عن هؤلاء الذين لا عذر لهم: ﴿فَأُولَٰئِكَ مَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ ﴿٩٧﴾. وهذا كما تقدم فيه ذكر بيان السبب الموجب؛ فقد يترتب عليه مقتضاه مع اجتماع شروطه وانتفاء موانعه، وقد يمنع من ذلك مانع.

فَلَنَقُصَّ طَائِفَةً مِّنْهُمْ مَّعَكَ وَلِيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِن وَرَائِكُمْ وَلِتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَى لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلِيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَّيْلَةً وَاحِدَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ كَانَ بِكُمْ أَذَىٰ مِّنْ مَّطَرٍ أَوْ كُنْتُمْ مَّرْضَىٰ أَنْ تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُوا حِذْرَكُمْ إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٢٦﴾

﴿١٢٦﴾ هاتان الآيتان: أصل في رخصة القصر وصلاة الخوف، يقول تعالى: ﴿وَإِذَا صَرَيْتُمْ فِي الْأَرْضِ﴾؛ أي: في السفر، وظاهر الآية أنه يقتضي الترخيص في أي سفر كان، ولو كان سفر معصية؛ كما هو مذهب أبي حنيفة رحمه الله، وخالف في ذلك الجمهور، وهم الأئمة الثلاثة وغيرهم، فلم يجوزوا الترخيص في سفر المعصية؛ تخصيصاً للآية بالمعنى والمناسبة؛ فإن الرخصة سهولة من الله لعباده إذا سافروا أن يقصروا ويفطروا، والعاصي بسفره لا يناسب حاله التخفيف.

وقوله: ﴿فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ﴾؛ أي: لا حرج ولا إثم عليكم في ذلك. ولا ينافي ذلك كون القصر هو الأفضل؛ لأن نفي الحرج إزالة لبعض الوهم الواقع في كثير من النفوس، بل ولا ينافي الوجوب؛ كما تقدم ذلك في سورة البقرة في قوله: ﴿إِنَّ الْأَصْغَارَ وَالْمَرْءَ مِنَ سَعَاءِ النَّاسِ﴾ [البقرة: ١٥٨] إلى آخر الآية، وإزالة الوهم في هذا الموضوع ظاهرة؛ لأن الصلاة قد تقرر عند المسلمين وجوبها على هذه الصفة التامة، ولا يزيل هذا عن نفوس أكثرهم إلا بذكر ما ينافي. ويدل على أفضلية القصر على الإتمام أمران: أحدهما: ملازمة النبي ﷺ على القصر في جميع أسفاره. والثاني: أن هذا من باب التوسعة والترخيص والرحمة بالعباد، والله تعالى يحب أن تؤتى رخصه، كما يكره أن تؤتى معصيته.

وقوله: ﴿أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ﴾، ولم يقل: أن تقصروا الصلاة؛ فيه فائدتان: إحداهما: أنه لو قال: أن تقصروا الصلاة؛ لكان القصر غير منضبط بحد من الحدود، فربما ظن أنه لو قصر معظم الصلاة وجعلها ركعة واحدة؛ لأجزأ؛ فإتيانه بقوله: ﴿مِنَ الصَّلَاةِ﴾؛ ليدل ذلك على أن القصر محدود مضبوط مرجوع فيه إلى ما تقرر من فعل النبي ﷺ وأصحابه. الثانية: أن ﴿مِنَ﴾ تفيد التبعض؛ ليعلم بذلك أن

الرخاء، والأمر ليس كذلك؛ فإن المؤمن ما دام بين أظهر المشركين؛ فدينه في غاية النقص؛ لا في العبادات القاصرة عليه كالصلاة ونحوها، ولا في العبادات المتعدية كالجهاد بالقول والفعل وتوابع ذلك؛ لعدم تمكنه من ذلك، وهو بصدد أن يفتن عن دينه، خصوصاً إن كان مستضعفاً؛ فإذا هاجر في سبيل الله؛ تمكن من إقامة دين الله وجهاد أعداء الله ومراغمتهم؛ فإن المراغمة اسم جامع لكل ما يحصل به إغاطة لأعداء الله من قول وفعل وكذلك يحصل له سعة في رزقه، وقد وقع كما أخبر الله تعالى.

واعتبر ذلك بالصحابة رضي الله عنهم؛ فإنهم لما هاجروا في سبيل الله وتركوا ديارهم وأولادهم وأموالهم لله؛ كمل بذلك إيمانهم، وحصل لهم من الإيمان التام والجهاد العظيم والنصر لدين الله ما كانوا به أئمة لمن بعدهم، وكذلك حصل لهم مما يترتب على ذلك من الفتوحات والغنائم ما كانوا به أغنى الناس، وهكذا كل من فعل فعلهم؛ حصل له ما حصل لهم إلى يوم القيامة.

ثم قال: ﴿وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾؛ أي: قاصداً ربه ورضاه ومحبته لرسوله ونصراً لدين الله لا لغير ذلك من المقاصد. ﴿ثُمَّ يَرْكُزْهُ الْكُوفُ﴾: بقتل أو غيره، ﴿فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾؛ أي: فقد حصل له أجر المهاجر الذي أدرك مقصوده بضمن الله تعالى، وذلك لأنه نوى وجزم وحصل منه ابتداء وشروع في العمل؛ فمن رحمة الله به وبأمثاله أن أعطاهم أجرهم كاملاً، ولو لم يكملوا العمل، وغفر لهم ما حصل منهم من التقصير في الهجرة وغيرها، ولهذا ختم هذه الآية بهذين الاسمين الكريمين، فقال: ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ ﴿١٢٧﴾: يغفر للمؤمنين ما اقترفوه من الخطيئات، خصوصاً التائبين المنيبين إلى ربهم، رحيمًا بجميع الخلق رحمةً أوجدتهم وعافتهم ورزقهم من المال والبنين والقوة وغير ذلك، رحيمًا بالمؤمنين؛ حيث وفقهم للإيمان، وعلمهم من العلم ما يحصل به الإيقان، ويسر لهم أسباب السعادة والفلاح، وما به يدركون غاية الأرباح، وسيرون من رحمته وكرمه ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر. فنسأل الله ألا يحرمنا خيره بشر ما عندنا.

﴿وَإِذَا صَرَيْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا﴾ ﴿١٢٨﴾ وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ

القصر لبعض الصلوات المفروضات لا جميعها؛ فإن الفجر والمغرب لا يقصران، وإنما الذي يقصر الصلاة الرباعية من أربع إلى ركعتين.

فإذا تقرر أن القصر في السفر رخصة؛ فاعلم أن المفسرين قد اختلفوا في هذا القيد، وهو قوله: ﴿إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَقْبَلَكُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾، الذي يدل ظاهره أن القصر لا يجوز إلا بوجود الأمرين كليهما السفر مع الخوف، ويرجع حاصل اختلافهم إلى أنه هل المراد بقوله: ﴿أَنْ تَقْصُرُوا﴾: قصر العدد فقط أو قصر العدد والصفة؟ فالإشكال إنما يكون على الوجه الأول. وقد أشكل هذا على أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه، حتى سأل عنه النبي ﷺ، فقال: يا رسول الله! ما لنا نقصر الصلاة وقد أمنا؟ أي: والله يقول: ﴿إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَقْبَلَكُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾. فقال رسول الله ﷺ: «صدقة تصدق الله بها عليكم؛ فاقبلوا صدقته»^(١). أو كما قال. فعلى هذا يكون هذا القيد أتى به نظرًا لغالب الحال التي كان النبي ﷺ وأصحابه عليها؛ فإن غالب أسفاره أسفار جهاد.

وفيه فائدة أخرى: وهي بيان الحكمة والمصلحة في مشروعية رخصة القصر؛ فبين في هذه الآية أنهى ما يتصور من المشقة المناسبة للرخصة، وهي اجتماع السفر والخوف، ولا يستلزم ذلك ألا يقصر مع السفر وحده الذي هو مظنة المشقة. وأما على الوجه الثاني، وهو أن المراد بالقصر [هنا] قصر العدد والصفة؛ فإن القيد على بابه؛ فإذا وجد السفر والخوف؛ جاز قصر العدد وقصر الصفة، وإذا وجد السفر وحده جاز قصر العدد فقط، أو الخوف وحده جاز قصر الصفة.

ولذلك أتى بصفة صلاة الخوف بعدها بقوله: ﴿وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ﴾؛ أي: صليت بهم صلاة تقيمها وتم ما يجب فيها ويلزم فعلهم ما ينبغي لك ولهم فعله، ثم فسر ذلك بقوله: ﴿فَلَنَقُصَّ طَائِفَةً مِنْهُمْ مَعَكَ﴾؛ أي: وطائفة قائمة بإزاء العدو؛ كما يدل على ذلك ما يأتي. ﴿فَإِذَا سَجَدُوا﴾؛ أي: الذين معك؛ أي: أكملوا صلاتهم، وعبر عن الصلاة بالسجود؛ ليدل على فضل السجود وأنه ركن من أركانها، بل هو أعظم أركانها، ﴿فَلْيَكُونُوا مِنْ وَرَائِكُمْ وَلَتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَى لَمْ يُصَلُّوا﴾. وهم الطائفة الذين قاموا إزاء العدو، ﴿فَلْيَصَلُّوا مَعَكَ﴾. ودل ذلك على أن الإمام يبقى بعد انصراف الطائفة الأولى منتظرًا للطائفة الثانية؛ فإذا حضروا صلى بهم ما بقي من صلاته، ثم جلس ينتظرهم حتى يكملوا صلاتهم، ثم يسلم بهم. وهذا أحد الوجوه في صلاة الخوف؛ فإنها صحت عن النبي ﷺ من وجوه كثيرة كلها جائزة.

وهذه الآية تدل على أن صلاة الجماعة فرض عين من وجهين:

أحدهما: أن الله تعالى أمر بها في هذه الحالة الشديدة وقت اشتداد الخوف من الأعداء وحذر مهاجمتهم؛ فإذا أوجبها في هذه الحالة الشديدة، فإيجابها في حالة الطمأنينة والأمن من باب أولى وأحرى.

والثاني: أن المصلين صلاة الخوف يتركون فيها كثيرًا من الشروط واللوازم، ويعفى فيها عن كثير من الأفعال المبطلية في غيرها، وما ذاك إلا لتأكد وجوب الجماعة؛ لأنه لا تعارض بين واجب ومستحب؛ فلولا وجوب الجماعة؛ لم تترك هذه الأمور اللازمة لأجلها.

﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَاةَ فَادْكُرُوا اللَّهَ قِيَمًا وَفَعُولًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ فَإِذَا اطْمَأْنَنْتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا﴾.

﴿١١٦﴾ أي: فإذا فرغتم من صلاتكم صلاة الخوف وغيرها؛ فاذكروا الله في جميع أحوالكم وهيئاتكم، ولكن خصت صلاة الخوف بذلك لفوائده:

منها: أن القلب صلاحه وفلاحه وسعادته بالإجابة إلى الله تعالى في المحبة وامتلاء القلب من ذكره والثناء عليه، وأعظم ما يحصل به هذا المقصود الصلاة التي حقيقتها أنها صلة بين العبد وبين ربه.

ومنها: أن فيها من حقائق الإيمان ومعارف الإيقان ما أوجب أن يفرضها الله على عباده كل يوم وليلة، ومن المعلوم أن صلاة الخوف لا تحصل فيها هذه المقاصد الحميدة بسبب اشتغال القلب والبدن، والخوف، فأمر بجبرها بالذكر بعدها.

ومنها: أن الخوف يوجب من قلق القلب وخوفه، ما هو مظنة لضعفه، وإذا ضعف القلب ضعف البدن عن مقاومة العدو. والذكر لله والإكثار منه من أعظم مقويات القلب.

ومنها: أن الذكر لله تعالى مع الصبر والثبات سبب للفلاح والظفر بالأعداء؛ كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الأنفال: ٤٥]، فأمر بالإكثار منه في هذه الحال، إلى غير ذلك من الحكم.

وقوله: ﴿فَإِذَا اطْمَأْنَنْتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾؛ أي: إذا أمتم من الخوف واطمأن قلوبكم وأبدانكم؛ فأتوا صلاتكم على الوجه الأكمل ظاهرًا وباطنًا بأركانها وشروطها وخشوعها وسائر مكملاتها. ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا﴾؛ أي: مفروضة في وقته. فدل ذلك على فرضيتها وأن لها وقتًا لا تصح إلا به، وهو هذه الأوقات التي قد تقررت عند المسلمين صغيرهم وكبيرهم، عالمهم وجاهلهم، وأخذوا ذلك عن نبيهم محمد ﷺ بقوله: «صلوا كما رأيتموني أصلي»^(١).

ودل قوله: ﴿عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾: على أن الصلاة ميزان

وتدل الآية الكريمة على أن الأولى والأفضل أن يصلوا بإمام واحد ولو تضمن ذلك الإخلال بشيء لا يخل به لو صلوا بعدة أئمة، وذلك لأجل اجتماع كلمة المسلمين واتفاقهم وعدم تفرق كلمتهم، وليكون ذلك أوقع هيئة في قلوب أعدائهم.

وأمر تعالى بأخذ السلاح والحذر في صلاة الخوف، وهذا وإن كان فيه حركة واشتغال عن بعض أحوال الصلاة؛ فإن فيه مصلحة راجحة، وهو الجمع بين الصلاة والجهاد والحذر من الأعداء الحريصين غاية الحرص على الإيقاع بالمسلمين والميل عليهم وعلى أمتعتهم، ولهذا قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغَفَّلُوا عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً وَحِدَةً﴾.

ثم إن الله عذر من له عذر من مرض أو مطر أن يضع سلاحه، ولكن مع أخذ الحذر، فقال: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ كَانَ بِكُمْ أَذًى مِنْ مَطَرٍ أَوْ كُنْتُمْ مَرَضًا أَنْ تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُوا حِذْرَكُمْ إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا﴾، ومن العذاب المهين ما أمر الله به حزيه المؤمنين وأنصار دينه الموحدين من قتلهم وقتالهم حيثما ثقفوهم، ويأخذوهم، ويحصروهم، ويقعدوا لهم كل مرصد، ويحذروهم في جميع الأحوال، ولا يغفلوا عنهم خشية أن ينال الكفار بعض مطلوبهم فيهم؛ فله أعظم حمد وثناء على ما من به على المؤمنين وأيدهم بمعونته وتعاليمه التي لو سلكوها على وجه الكمال؛ لم تهزم لهم راية، ولم يظهر عليهم عدو في وقت من الأوقات.

وقوله: ﴿فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِنْ وَرَائِكُمْ﴾: يدل على أن هذه الطائفة تكمل جميع صلاتها قبل ذهابهم إلى موضع الحارسين، وأن الرسول ﷺ يثبت منتظرًا للطائفة الأخرى قبل السلام؛ لأنه أولاً ذكر أن الطائفة تقوم معه، فأخبر عن مصاحبتهم له، ثم أضاف الفعل بعد إليهم دون الرسول، فدل ذلك على ما ذكرناه.

وفي قوله: ﴿وَلَتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ﴾: دليل على أن الطائفة الأولى قد صلوا، وأن جميع صلاة الطائفة الثانية تكون مع الإمام حقيقة في ركعتهم الأولى وحكمًا في ركعتهم الأخيرة، فيستلزم ذلك انتظار الإمام إياهم حتى يكملوا صلاتهم، ثم يسلم بهم. وهذا ظاهر للمتأمل.

الإيمان، وعلى حسب إيمان العبد تكون صلواته وتتم وتكمل. ويدل ذلك على أن الكفار - وإن كانوا ملتزمين لأحكام المسلمين كأهل الذمة - أنهم لا يخاطبون بفروع الدين كالصلاة، ولا يؤمرون بها، بل ولا تصح منهم ما داموا على كفرهم، وإن كانوا يعاقبون عليها وعلى سائر الأحكام في الآخرة.

﴿وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنْ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ١٤٦﴾.

﴿١٤٦﴾ أي: لا تضعفوا ولا تكسلوا في ابتغاء عدوكم من الكفار؛ أي: في جهادهم والمرابطة على ذلك؛ فإن وهن القلب مستدع لوهن البدن، وذلك يضعف عن مقاومة الأعداء، بل كونوا أقوياء نشيطين في قتالهم. ثم ذكر ما يقوي قلوب المؤمنين، فذكر شيئين:

الأول: أن ما يصيبكم من الألم والتعب والجراح ونحو ذلك؛ فإنه يصيب أعداءكم، فليس من المروءة الإنسانية والشهامة الإسلامية أن تكونوا أضعف منهم وأنتم وهم قد تساوت في ما يوجب ذلك؛ لأن العادة الجارية أنه لا يضعف إلا من توالى عليه الآلام، وانتصر عليه الأعداء على الدوام، لا من يدال مرة ويدال عليه أخرى.

الأمر الثاني: أنكم ترجون من الله ما لا يرجون، فترجون الفوز بثوابه والنجاة من عقابه، بل خواص المؤمنين لهم مقاصد عالية وآمال رفيعة من نصر دين الله وإقامة شرعه واتساع دائرة الإسلام وهداية الضالين وقمع أعداء الدين؛ فهذه الأمور توجب للمؤمن المصدق زيادة القوة وتضاعف النشاط والشجاعة التامة؛ لأن من يقاتل ويصبر على نيل عزه الدنيوي إن ناله ليس كمن يقاتل لنيل السعادة الدنيوية والأخروية والفوز برضوان الله وجنته؛ فسبحان من فاءت بين العباد وفرق بينهم بعلمه وحكمته، ولهذا قال: ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ١٤٦﴾: كامل العلم كامل الحكمة.

﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِبِينَ خَصِيمًا ١٤٧﴾ وَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ إِنَّكَ كَانَ عَفْوًا رَحِيمًا ١٤٨ وَلَا تَحْدِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَلُونَ أَنْفُسَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَافًا أَثِيمًا ١٤٩﴾

يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّنُونَ مَا لَا يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ١٤٨ هَآتَتْهُ هَنُؤَالٌ جَدَلْتَهُ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَمَنْ يُجَادِلُ اللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَمْ مَنْ يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ١٤٩ وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ عَفْوًا رَحِيمًا ١٥٠ وَمَنْ يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَى نَفْسِهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ١٥١ وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرِهِ بِهِ بُرِيحًا فَقَدْ احْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا ١٥٢ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ أَنْ يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ١٥٣﴾.

﴿١٤٧﴾ يخبر تعالى أنه أنزل على عبده ورسوله الكتاب بالحق؛ أي: محفوظًا في إنزاله من الشياطين أن يتطرق إليه منهم باطل، بل نزل بالحق ومشتعلًا أيضًا على الحق؛ فأخبره صدق وأوامره ونواهيه عدل، ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام: ١١٥]، وأخبر أنه أنزله ليحكم بين الناس، وفي الآية الأخرى: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل: ٤٤]، فيحتمل أن هذه الآية في الحكم بين الناس في مسائل النزاع والاختلاف، وتلك في تبين جميع الدين وأصوله وفروعه. ويحتمل أن الآيتين كليهما معناهما واحد، فيكون الحكم بين الناس هنا يشمل الحكم بينهم في الدماء والأعراض والأموال وسائر الحقوق وفي العقائد وفي جميع مسائل الأحكام. وقوله: ﴿بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ﴾، أي: لا بهواك بل بما علمك الله وألهمك كقوله تعالى: ﴿وَمَا يَبْطِئُ عَنِ الْهَوَىٰ ١٤٧﴾ إِنَّهُ هُوَ إِلَّا وَحْيُ يُوحَىٰ ١٤٨﴾ [النجم: ٤، ٣]. وفي هذا دليل على عصمته ﷺ فيما يبلغ عن الله من جميع الأحكام وغيرها، وأنه يشترط في الحكم العلم والعدل؛ لقوله: ﴿بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ﴾، ولم يقل: بما رأيت. ورتب أيضًا الحكم بين الناس على معرفة الكتاب.

ولما أمر الله بالحكم بين الناس المتضمن للعدل والقسط؛ نهاه عن الجور والظلم الذي هو ضد العدل، فقال: ﴿وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِبِينَ خَصِيمًا ١٤٧﴾؛ أي: لا تخاصم عن من عرفت خيائته من مدح ما ليس له أو منكر حقًا عليه سواء علم

ذلك أو ظنه. ففي هذا دليل على تحريم الخصومة في باطل، والنيابة عن المبطل في الخصومات الدينية والحقوق الدنيوية، ويدل مفهوم الآية على جواز الدخول في نيابة الخصومة لمن لم يُعرف منه ظلم.

﴿وَأَسْتَغْفِرِ اللَّهَ﴾: مما صدر منك إن صدر. ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُورًا رَحِيمًا﴾: أي: يغفر الذنب العظيم لمن استغفره، وتاب إليه وأتاب، يوفقه للعمل الصالح بعد ذلك الموجب لثوابه وزوال عقابه.

﴿وَلَا يُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنْفُسَهُمْ﴾: الاختيان والخيانة بمعنى الجنابة والظلم والإثم، وهذا يشمل النهي عن المجادلة عمن أذنب وتوجه عليه عقوبة من حد أو تعزير؛ فإنه لا يجادل عنه بدفع ما صدر منه من الخيانة أو بدفع ما ترتب على ذلك من العقوبة الشرعية. ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَافًا أَثِيمًا﴾: أي: كثير الخيانة والإثم، وإذا انتفى الحب؛ ثبت ضده، وهو البغض، وهذا كالتعليل للنهي المتقدم.

﴿ثُمَّ ذَكَرَ عَنْ هَؤُلَاءِ الْخَائِنِينَ أَنَّهُمْ لَا يَسْتَحْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَحْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُمْ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ﴾: وهذا من ضعف الإيمان ونقصان اليقين أن تكون مخافة الخلق عندهم أعظم من مخافة الله فيحرصون بالطرق المباحة والمحرمة على عدم الفضيحة عند الناس، وهم مع

ذلك قد بارزوا الله بالعظائم، ولم يبالوا بنظره واطلاعه عليهم، وهو معهم بالعلم في جميع أحوالهم، خصوصًا في حال تبيسهم ما لا يرضيه من القول من تبرئة الجاني ورمي البريء بالجنابة والسعي في ذلك للرسول ﷺ ليفعل ما يبتوه؛ فقد جمعوا بين عدة جنایات، ولم يراقبوا رب الأرض والسموات المطلع على سرائرهم وضمايرهم، ولهذا توعدهم تعالى بقوله: ﴿وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا﴾؛ أي: قد أحاط بذلك علمًا، ومع هذا لم يعاجلهم بالعقوبة، بل استأنى بهم، وعرض عليهم التوبة، وحذرهم من الإصرار على ذنبهم الموجب للعقوبة البليغة.

﴿هَاتَانِ هَتُورَاءَ جَدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَمَنْ يُجَادِلِ اللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَمْ مَنْ يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا﴾؛ أي: هبكم جادلتم عنهم في هذه الحياة الدنيا ودفع عنهم جدالكم بعض ما يحذرون من العار والفضيحة عند الخلق؛ فماذا يغني عنهم وينفعهم؟! ومن يجادل الله عنهم يوم القيامة حين تتوجه عليهم الحجة وتشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون؟! ﴿يَوْمَ يُؤْفِكُ اللَّهُ بِهِمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ﴾ [النور: ٢٥]؛ فمن يجادل عنهم من يعلم السر وأخفى ومن أقام عليهم من الشهود ما لا يمكن معه الإنكار؟

وفي هذه الآية الإرشاد إلى المقابلة بين ما يتوهم من مصالح الدنيا المترتبة على ترك أوامر الله أو فعل مناهيه وبين ما يفوت من ثواب الآخرة أو يحصل من عقوباتها، فيقول من أمرته نفسه بترك أمر الله: ها أنت تركت أمره كسلًا وتفریطًا؛ فما النفع الذي انتفعت به؟ وماذا فاتك من ثواب الآخرة؟ وماذا ترتب على هذا الترك من الشقاء والحرمان والخيبة والخسران؟ وكذلك إذا دعت نفسه إلى ما تشتهيه من الشهوات المحرمة؛ قال لها: هَبْكِ فعلت ما اشتهيت؛ فإن لذته تنقضي ويعقبها من الهموم والغموم والحسرات وفوات الثواب وحصول العقاب ما بعضه يكفي العاقل في الإحجام عنها، وهذا من أعظم ما ينفع العبد تدبره، وهو خاصة العقل الحقيقي؛ بخلاف من يدعي العقل وليس كذلك؛ فإنه بجعله وظلمه يؤثر اللذة الحاضرة والراحة الراهنة، ولو ترتب عليها ما ترتب. والله المستعان.

المذنب أنه إن صدر منه الذنب بغلبة دواعي نفسه الأمارة بالسوء مع إنابته إلى ربه في كثير من أوقاته: أنه سيغفر له ويوفقه للتوبة، وإن صدر منه بتجرئه على المحارم استخفافاً بنظر ربه وتهاوناً بعقابه؛ فإن هذا بعيد من المغفرة بعيد من التوفيق للتوبة.

﴿١١٢﴾ ثم قال: ﴿وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً﴾؛ أي: ذنباً كبيراً، ﴿أَوْ إِثْمًا﴾: ما دون ذلك، ﴿ثُمَّ يَرَوْهُ﴾؛ أي: يتهم بذنبه ﴿بَرِيئًا﴾ من ذلك الذنب وإن كان مذنباً. ﴿فَقَدْ أَحْصَيْنَا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا﴾؛ أي: فقد حمل فوق ظهره بهتاناً للبريء وإثماً ظاهراً بيناً. وهذا يدل على أن ذلك من كبائر الذنوب وموبقاتها؛ فإنه قد جمع عدة مفاصد: كسب الخطيئة والإثم، ثم رمي من لم يفعلها بفعلها، ثم الكذب الشنيع بثرته نفسه واتهام البريء، ثم ما يترتب على ذلك من العقوبة الدنيوية تندفع عمن وجبت عليه وتقام على من لا يستحقها، ثم ما يترتب على ذلك أيضاً من كلام الناس في البريء، إلى غير ذلك من المفاسد التي نسال الله العافية منها ومن كل شر.

﴿١١٣﴾ ثم ذكر مثته على رسوله بحفظه وعصمته ممن أراد أن يضلّه، فقال: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ أَنْ يُضِلُّوكَ﴾؛ وذلك أن هذه الآيات الكريكات قد ذكر المفسرون أن سبب نزولها أن أهل بيت سرقوا في المدينة، فلما اطلع على سرقتهم؛ خافوا الفضيحة، وأخذوا سرقتهم، فرموها بيت من هو بريء من ذلك، واستعان السارق بقومه أن يأتوا رسول الله ﷺ ويطلبوا منه أن يبرئ أصحابهم على رءوس الناس، وقالوا: إنه لم يسرق وإنما الذي سرق من وجدت السرقة ببيته وهو البريء، فهم رسول الله ﷺ أن يبرئ أصحابهم، فأنزل الله هذه الآيات تذكيراً وتبييناً لتلك الواقعة وتحذيراً للرسول ﷺ من المخاصمة عن الخائنين؛ فإن المخاصمة عن المبطل من الضلال؛ فإن الضلال نوعان: ضلال في العلم وهو الجهل بالحق، وضلال في العمل وهو العمل بغير ما يجب؛ فحفظ الله رسوله عن هذا النوع من الضلال كما حفظه عن الضلال في الأعمال، وأخبر أن كيدهم ومكرهم يعود على أنفسهم كحالة كل مكر، فقال: ﴿وَمَا يُضِلُّوكَ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ﴾؛ لكون ذلك المكر وذلك التحيل لم يحصل لهم فيه مقصودهم ولم يحصل لهم إلا الخيبة والحرمان والإثم والخسران، وهذه نعمة كبيرة على رسوله ﷺ، يتضمن النعمة بالعمل، وهو التوفيق لفعل ما يجب والعصمة له عن كل محرم، ثم

﴿١١٤﴾ ثم قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾؛ أي: من تجرأ على المعاصي واقترح على الإثم، ثم استغفر الله استغفاراً تاماً يستلزم الإقرار بالذنب والندم عليه والإقلاع والعزم على ألا يعود؛ فهذا قد وعده من لا يخلف الميعاد بالمغفرة والرحمة، فيغفر له ما صدر منه من الذنب، ويزيل عنه ما ترتب عليه من النقص والعيب، ويعيد إليه ما تقدم من الأعمال الصالحة، ويوفقه فيما يستقبله من عمره، ولا يجعل ذنبه حائلاً عن توفيقه؛ لأنه قد غفره، وإذا غفره؛ غفر ما يترتب عليه.

واعلم أن عمل السوء عند الإطلاق يشمل سائر المعاصي الصغيرة والكبيرة، وسمي سوءاً لكونه يسوء عامله بعقوبته، ولكونه في نفسه سيئاً غير حسن، وكذلك ظلم النفس عند الإطلاق يشمل ظلمها بالشرك فما دونه، ولكن عند اقتران أحدهما بالآخر قد يفسر كل واحد منهما بما يناسبه، فيفسر عمل السوء هنا بالظلم الذي يسوء الناس، وهو ظلمهم في دمائهم وأموالهم وأعراضهم، ويفسر ظلم النفس بالظلم والمعاصي التي بين الله وبين عبده، وسمي ظلم النفس ظلماً؛ لأن نفس العبد ليست ملكاً له يتصرف فيها بما يشاء وإنما هي ملك لله تعالى، قد جعلها أمانة عند العبد، وأمره أن يقيمها على طريق العدل بإلزامها للضوابط المستقيم علماً وعملاً، فيسعى في تعليمها ما أمر به، ويسعى في العمل بما يجب، فسعيه في غير هذا الطريق ظلم لنفسه وخيانة وعدول بها عن العدل الذي ضده الجور والظلم.

﴿١١٥﴾ ثم قال: ﴿وَمَنْ يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَى نَفْسِهِ﴾؛ وهذا يشمل كل ما يؤثم من صغير وكبير؛ فمن كسب سيئة؛ فإن عقوبتها الدنيوية والأخروية على نفسه لا تعداها إلى غيرها؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَا زُرُّ وَارِدَةً وَزَرَ أُخْرَى﴾ [الأنعام: ١٦٤]، لكن إذا ظهرت السيئات فلم تنكسر؛ عمت عقوبتها وشمل إثمها؛ فلا تخرج أيضاً عن حكم هذه الآية الكريمة؛ لأن من ترك الإنكار الواجب؛ فقد كسب سيئة، وفي هذا بيان عدل الله وحكمته أنه لا يعاقب أحداً بذنب أحد، ولا يعاقب أحداً أكثر من العقوبة الناشئة عن ذنبه، ولهذا قال: ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾؛ أي: له العلم الكامل والحكمة التامة، ومن علمه وحكمته أنه يعلم الذنب وما صدر منه والسبب الداعي لفعله والعقوبة المترتبة على فعله، ويعلم حالة

سورة النساء

المزمل المسمى

﴿لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّنْ نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ١١٥﴾ وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا بُيِّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ تُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَتُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ١١٦﴾ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا ١١٧﴾ إِن يَدْعُوا مِن دُونِهِ إِلَّا إِنسًا وَإِن يَدْعُوا إِلَّا شَيْطَانًا مَّرِيدًا ١١٨﴾ لَّعَنَهُ اللَّهُ وَقَالَ لَا تُخَاجِدُنِي مِن عِبَادِكِ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ١١٩﴾ وَلَا ضِلَّةَ لَهُمْ وَلَا يُمْنِنَ لَهُمْ وَلَا مَرْتَبَتٌ لَهُمْ فَلَْيَسْكُنَّ أَذَانُ الْأَنْعَامِ وَلَا مَرْتَبَتٌ فَلْيَعْرِضْ خَلْقَ اللَّهِ وَمَن يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِّن دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ١٢٠﴾ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ١٢١﴾ أُولَٰئِكَ مَا وَلَّهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يُجَدُّونَ عَنْهَا بِحِصَا ١٢٢﴾

٩٧

ذكر نعمته عليه بالعلم، فقال: ﴿وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾؛ أي: أنزل عليك هذا القرآن العظيم والذكر الحكيم الذي فيه تبيان كل شيء وعلم الأولين والآخرين.

والحكمة إما السنة التي قد قال فيها بعض السلف: إن السنة تنزل عليه كما ينزل القرآن، وإما معرفة أسرار الشريعة الزائدة على معرفة أحكامها وتنزيل الأشياء منازلها وترتيب كل شيء بحسبه. ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ﴾: وهذا يشمل جميع ما علمه الله تعالى؛ فإنه ﷺ كما وصفه الله قبل النبوة بقوله: ﴿مَا كُنْتُ نَبِيًّا وَلَا أُبَيِّنُ﴾ [الشورى: ٥٢]، ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ﴾ [الضحى: ٧]، ثم لم يزل يوحى الله إليه ويعلمه ويكمله حتى ارتقى مقامًا من العلم يتعذر وصوله على الأولين والآخرين، فكان أعلم الخلق على الإطلاق وأجمعهم لصفات الكمال وأكملهم فيها، ولهذا قال: ﴿وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ١١٦﴾؛ ففضله على الرسول محمد ﷺ أعظم من فضله على كل الخلق، وأجناس الفضل الذي قد فضله الله به لا يمكن استقصاؤه ولا يتيسر إحصاؤه.

﴿لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّنْ نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ١١٥﴾.

﴿أي: لا خير في كثير مما يتناجى به الناس ويتخاطبون، وإذا لم يكن فيه خير؛ فإما لا فائدة فيه؛ كفضول الكلام المباح، وإما شر ومضرة محضة؛ كالكلام المحرم بجميع أنواعه. ثم استثنى تعالى فقال: ﴿إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ﴾: من مال أو علم أو أي نفع كان، بل لعله يدخل فيه العبادات القاصرة؛ كالتمسيع والتحميد ونحوه؛ كما قال النبي ﷺ: «إن بكل تسبيحة صدقة، وكل تكبيرة صدقة، وكل تهليل صدقة، وأمر بالمعروف صدقة، ونهي عن المنكر صدقة، وفي بضع أحدكم صدقة....» [الحديث]. ﴿أَوْ مَعْرُوفٍ﴾: وهو الإحسان والطاعة وكل ما عرف في الشرع والعقل حسنه، وإذا أطلق الأمر بالمعروف من غير أن يقرن بالنهي عن المنكر؛ دخل فيه النهي عن المنكر؛ وذلك لأن ترك المنهيات من المعروف، وأيضا لا يتم فعل الخير إلا بترك الشر، وأما عند الاقتران؛ فيفسر المعروف بفعل المأمور والمنكر بترك المنهي.

﴿أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ﴾: والإصلاح لا يكون إلا بين متنازعين متخاصمين، والنزاع والخصام والتغاضب يوجب من الشر والفرقة ما لا يمكن حصره؛ فلذلك حث الشارع على الإصلاح بين الناس في الدماء والأموال والأعراض، بل وفي الأديان؛ كما قال تعالى: ﴿وَأَعْرِضُوا عَنِّي جَمِيعًا وَلَا تَفْرُقُوا﴾ [آل عمران: ١٠٣]، وقال تعالى: ﴿وَلَن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَغْت إِحْدَهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ﴾ [الحجرات: ٩]، وقال تعالى: ﴿وَالصُّلْحُ خَيْرٌ﴾ [النساء: ١٢٨]، والساعي في الإصلاح بين الناس أفضل من القاتل بالصلاة والصيام والصدقة، والمصلح لا بد أن يصلح الله سعيه وعمله؛ كما أن الساعي في الإفساد لا يصلح الله عمله ولا يتم له مقصوده؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [٨١]؛ [يونس: ٨١]؛ فهذه الأشياء حيثما فعلت؛ فهي خير؛ كما دل على ذلك الاستثناء، ولكن كمال الأجر وتمامه بحسب النية والإخلاص. ولهذا قال: ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ١١٥﴾؛ فلهاذا

وفي وحدانيته، وتسوية المخلوق الذي لا يملك لنفسه ضرراً ولا نفعاً بمن هو مالك النفع والضرر، الذي ما من نعمة إلا منه، ولا يدفع النقم إلا هو، الذي له الكمال المطلق من جميع الوجوه والغنى التام بجميع وجوه الاعتبارات؛ فمن أعظم الظلم وأبعد الضلال عدم إخلاص العبادة لمن هذا شأنه وعظمته، وصرف شيء منها للمخلوق الذي ليس له من صفات الكمال شيء ولا له من صفات الغنى شيء، بل ليس له إلا العدم، عدم الوجود وعدم الكمال وعدم الغنى، والفقر من جميع الوجوه. وأما ما دون الشرك من الذنوب والمعاصي؛ فهو تحت المشيئة: إن شاء الله غفره برحمته وحكمته، وإن شاء عذب عليه وعاقب بعدله وحكمته.

ينبغي للعبد أن يقصد وجه الله تعالى ويخلص العمل لله في كل وقت وفي كل جزء من أجزاء الخير؛ ليحصل له بذلك الأجر العظيم، وليتعود الإخلاص، فيكون من المخلصين. ولتيم له الأجر، سواء تم مقصوده أم لا؛ لأن النية حصلت، واقترب بها ما يمكن من العمل.

﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ تُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ ۖ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ١١٥﴾ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ۚ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا ١١٦﴾

وقد استدلل بهذه الآية الكريمة على أن إجماع هذه الأمة حجة، وأنها معصومة من الخطأ، ووجه ذلك أن الله توعد من خالف سبيل المؤمنين بالخذلان والنار، وسبيل المؤمنين مفرد مضاف يشمل سائر ما المؤمنون عليه من العقائد والأعمال؛ فإذا اتفقوا على إيجاب شيء أو استحبابه أو تحريمه أو كراهته أو إباحته؛ فهذا سبيلهم، فمن خالفهم في شيء من ذلك بعد انعقاد إجماعهم عليه؛ فقد اتبع غير سبيلهم.

ويدل على ذلك قوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ۚ لَمَّا خُفَّتِ الْالسَّيْرُ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ ۚ﴾ [آل عمران: ١١٠]، ووجه الدلالة منها أن الله تعالى أخبر أن المؤمنين من هذه الأمة لا يأمرؤن إلا بالمعروف؛ فإذا اتفقوا على إيجاب شيء أو استحبابه؛ فهو مما أمروا به، فيتعين بنص الآية أن يكون معروفاً، ولا شيء بعد المعروف غير المنكر، وكذلك إذا اتفقوا على النهي عن شيء؛ فهو مما نهوا عنه، فلا يكون إلا منكراً.

ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ ۚ﴾ [البقرة: ١٤٣]، فأخبر تعالى أن هذه الأمة جعلها الله وسطاً؛ أي: عدلاً خياراً؛ ليكونوا شهداء على الناس؛ أي: في كل شيء؛ فإذا شهدوا على حكم بأن الله أمر به أو نهى عنه أو أباحه؛ فإن شهادتهم معصومة؛ لكنهم عالمين بما شهدوا به عادلين في شهادتهم؛ فلو كان الأمر بخلاف ذلك؛ لم يكونوا عادلين في شهادتهم ولا عالمين بها.

ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿إِنْ نَزَعْنَاهُ مِنْ شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ ۚ﴾ [النساء: ٥٩]؛ يفهم منها أن ما لم يتنازعا فيه، بل

أي: ومن يخالف الرسول ﷺ ويعانده فيما جاء به، ﴿مَنْ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ﴾: بالذلال القرآنية والبراهين النبوية، ﴿وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ﴾: وسبيلهم هو طريقهم في عقائدهم وأعمالهم، ﴿تُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ﴾: أي: تركه وما اختاره لنفسه ونخله؛ فلا نوقفه للخير؛ لكونه رأى الحق وعلمه وتركه؛ فجزاؤه من الله عدلاً أن يبقية في ضلاله حائراً ويزداد ضلالاً إلى ضلاله؛ كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥]، وقال تعالى: ﴿وَقَلْبُ آبَدَتْهُمْ وَأَبْصَرَهُمْ كَمَا لَوْ يُؤْمِنُوا بِهِ أُولَٰئِكَ مَرَّةً﴾ [الأنعام: ١١٠].

ويدل مفهومها على أن من لم يشاقق الرسول ﴿وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ﴾؛ بأن كان قصده وجه الله واتباع رسوله ولزوم جماعة المسلمين، ثم صدر منه من الذنوب أو الهم بها ما هو من مقتضيات النفوس وغلبات الطباع؛ فإن الله لا يولييه نفسه وشيطانه، بل يتداركه بلطفه ويمن عليه بحفظه ويعصمه من سوء؛ كما قال تعالى عن يوسف عليه السلام: ﴿كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ ٢٤﴾ [يوسف: ٢٤]؛ أي: بسبب إخلاصه صرفنا عنه سوء، وكذلك كل مخلص؛ كما يدل عليه عموم التعليل، وقوله: ﴿وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ﴾؛ أي: نعذبه فيها عذاباً عظيماً. ﴿وَسَاءَتْ مَصِيرًا ١١٥﴾؛ أي: مرجعاً له ومآلاً.

﴿١١٦﴾ وهذا الوعيد المترتب على الشقاق ومخالفة المؤمنين مراتب لا يحصيها إلا الله بحسب حالة الذنب صغراً وكبراً؛ فمنه ما يخلد في النار ويوجب جميع الخذلان، ومنه ما هو دون ذلك؛ فلعل الآية الثانية كالتفصيل لهذا المطلق، وهو أن الشرك لا يغفره الله تعالى؛ لتضمنه القدح في رب العالمين

لهم، والفساد، وأنه قال لربه مقسمًا: ﴿لَا تَجِدَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا﴾ ١١٨؛ أي: مقدراً، علم اللعين أنه لا يقدر على إغواء جميع عباد الله، وأن عباد الله المخلصين ليس له عليهم سلطان، وإنما سلطانه على من تولاه وآثر طاعته على طاعة مولاة. وأقسم في موضع آخر ليغوينهم [فقال]: ﴿وَلَا تُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ ١١٩ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴿١٢٠﴾ [الحجر: ٢٩، ٤٠]؛ فهذا الذي ظنه الخيث، وحزم به، أخبر الله تعالى بوقوعه بقوله: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ١٢١ ﴿سبا: ٢٠﴾.

﴿١٢٠﴾ وهذا النصيب المفروض الذي أقسم لله أنه يتخذهم؛ ذكر ما يريد بهم، وما يقصده لهم بقوله: ﴿وَلَا تُضِلَّهُمْ﴾ ١٢٢؛ أي: عن الصراط المستقيم ضلالاً في العلم وضلالاً في العمل، ﴿وَلَا تُمَيِّنْهُمْ﴾ ١٢٣؛ أي: مع الإضلال لأمنيتهم أن ينالوا ما ناله المهتدون، وهذا هو الغرور بعينه، فلم يقتصر على مجرد إضلالهم، حتى زين لهم ما هم فيه من الضلال، وهذا زيادة شر إلى شرهم، حيث عملوا أعمال أهل النار الموجبة للعقوبة، وحسبوا أنها موجبة للجنة. واعتبر ذلك باليهود والنصارى ونحوهم؛ فإنهم كما حكى الله عنهم: ﴿وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ﴾ [البقرة: ١١١]، ﴿كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ﴾ [الأنعام: ١٠٨]، ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا﴾ [الزین: ١٢٣] الَّذِينَ صَدَّ سَعْيَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٢٤﴾ [الكهف: ١٠٣، ١٠٤]. وقال تعالى عن المنافقين: إنهم يقولون يوم القيامة للمؤمنين: ﴿أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ قَالُوا بَلَىٰ وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ﴾ [الحديد: ١٤].

وقوله: ﴿وَلَا تُمَرِّتُهُمْ فَلْيَتَّبِعْكُمُ أَذَانًا﴾ ١٢٥؛ أي: بتقطيع أذانها، وذلك كالبحيرة والسائبة والوصيلة والحام، فبني بعض ذلك على جميعه، وهذا نوع من الإضلال يقتضي تحريم ما أحل الله، أو تحليل ما حرم الله، ويلتحق بذلك من الاعتقادات الفاسدة والأحكام الجائرة ما هو من أكبر الإضلال. ﴿وَلَا تُمَرِّتُهُمْ فَلْيَتَّبِعْكُمُ أَذَانًا﴾ ١٢٥؛ وهذا يتناول تغيير الخلقة الظاهرة بالوشم والوشر والنمص والتفلج للحسن، ونحو ذلك مما أغواهم به الشيطان، وغيروا خلقة الرحمن، وذلك يتضمن التسخط من خلقة، والقدح في حكمته واعتقاده أن ما يصنعونه بأيديهم أحسن من خلقة الرحمن، وعدم الرضا بتقديره وتدبيره، ويتناول أيضاً تغيير

اتفقوا عليه أنهم غير مأمورين برده إلى الكتاب والسنة، وذلك لا يكون إلا موافقاً للكتاب والسنة، فلا يكون مخالفاً.

فهذه الأدلة ونحوها تفيد القطع أن إجماع هذه الأمة حجة قاطعة.

ولهذا بين الله قبح ضلال المشركين بقوله:

﴿إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنَّا وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَرِيدًا﴾ ١٢٦ لَعَنَهُ اللَّهُ وَقَالَ لَا تَجِدَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا ﴿١٢٧﴾ وَلَا ضِلَّتْهُمْ وَلَا مَيِّنَتْهُمْ وَلَا مَرَّتْهُمْ فَلْيَتَّبِعْكُمُ أَذَانًا الْأَنْعَمِ وَلَا تُمَرِّتُهُمْ فَلْيَتَّبِعْكُمُ اللَّهُ وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِّنْ دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ﴿١٢٨﴾ يَعِدُهُمْ وَيُمَيِّنُهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢٩﴾ أُولَٰئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَخْرُجُونَ عَنْهَا مَحِيصًا ﴿١٣٠﴾.

﴿١٢٦﴾، ﴿١٢٧﴾ أي: ما يدعو هؤلاء المشركون من دون الله إلا إناثاً؛ أي: أوثاناً وأصناماً مسميات بأسماء الإناث؛ كالعزى ومناة ونحوهما. ومن المعلوم أن الاسم دال على المسمى؛ فإذا كانت أسماؤها أسماء مؤنثة ناقصة؛ دل ذلك على نقص المسميات بتلك الأسماء وفقدتها لصفات الكمال؛ كما أخبر الله تعالى في غير موضع من كتابه أنها لا تخلق ولا ترزق ولا تدفع عن عابديها، بل ولا عن نفسها نفعا ولا ضرا ولا تنصر أنفسها ممن يريد بها سوء، وليس لها أسمع ولا أبصار ولا أفئدة؛ فكيف يعبد من هذا وصفه ويترك الإخلاص لمن له الأسماء الحسنى، والصفات العليا، والحمد والكمال والمجد والجلال والعز والجمال والرحمة والبر والإحسان والانفراد بالخلق والتدبير والحكمة العظيمة في الأمر والتقدير؛ هل هذا إلا من أقبح القبيح الدال على نقص صاحبه وبلوغه من الخسة والدناءة أدنى ما يتصوره متصور أو يصفه واصف؟! ومع هذا فعبادتهم إنما صورتها فقط لهذه الأوثان الناقصة، وبالحقيقة ما عبدوا غير الشيطان الذي هو عدوهم، الذي يريد إهلاكهم، ويسعى في ذلك بكل ما يقدر عليه، الذي هو في غاية البعد من الله، لعنه الله وأبعده عن رحمته؛ فكما أبعده الله من رحمته، يسعى في إبعاد العباد عن رحمة الله، إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير. ولهذا أخبر الله عن سعيه في إغواء العباد، وتزيين الشر

سورة النساء

طه بن قيس

وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ
جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَعَدَ
اللَّهُ حَقًّا وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا ﴿١٢١﴾ لَيْسَ بِأَمَانَتِكُمْ
وَلَا أَمَانِي أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْرَ بِهِ
وَلَا يَحِثْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٢٢﴾ وَمَنْ
يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنَّى وَهُوَ مُؤْمِنٌ
فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ فِيهَا شَيْئًا ﴿١٢٣﴾
أَحْسَنَ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَأَتَّبَعَ
مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا ﴿١٢٤﴾ وَلِلَّهِ مَا
فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ
مُحِيطًا ﴿١٢٥﴾ وَاسْتَفْتَوْكَ فِي النِّسَاءِ قُلِ اللَّهُ يَفْتِيكُمْ
فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتِمِّي النِّسَاءَ
الَّتِي لَا تَوْفُقُهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَرَغْبُوْنَ أَنْ تَكُوْهُنَّ
وَالْمُسْتَضَعِّينَ مِنْ أَوْلَادِنِ وَأَنْ تَقُوْمُوا لِلْيَتَامَى
يَأْلُقِسْطَ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِهِ عَلِيمًا ﴿١٢٦﴾

٩٨

الخلقة الباطنة؛ فإن الله تعالى خلق عباده حنفاء، مفطورين
على قبول الحق وإيثاره، فجاءتهم الشياطين، فاجتالهم
عن هذا الخلق الجميل، وزينت لهم الشر والشرك والكفر
والفسوق والعصيان؛ فإن كل مولود يولد على الفطرة، ولكن
أبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه ونحو ذلك مما يغيرون به
ما فطر الله عليه العباد من توحيده وحبه ومعرفته، فافترسهم
الشياطين في هذا الموضع افتراس السبع والذئب للغنم
المنفردة، لولا لطف الله وكرمه بعباده المخلصين؛ لجرى
عليهم ما جرى على هؤلاء المفتونين، وهذا الذي جرى عليهم
من توليهم عن ربهم وفاطرمهم وتوليهم لعدوهم المريد لهم
الشر من كل وجه، فخسروا الدنيا والآخرة، ورجعوا بالخيبة
والصفقة الخاسرة، ولهذا قال: ﴿وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا
مِنْ دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرًا مُبِينًا ﴿١٢٢﴾﴾. وأي
خسار أبين وأعظم ممن خسر دينه ودنياه وأوبقته معاصيه
وخطاياهم فحصل له الشقاء الأبدي وفاته النعيم السرمدي؟!
كما أن من تولى مولاه، وأثر رضاه، ربح كل الربح، وأفلح كل
الفلاح، وفاز بسعادة الدارين، وأصبح قرير العين. فلا مانع
لما أعطيت ولا معطي لما منعت، اللهم! تولنا فيمن توليت،
وعافنا فيمن عافيت.

﴿١٢٣﴾ ثم قال: ﴿يَعِدُّهُمْ وَيُعْمِيهِمْ﴾؛ أي: يعد الشيطان من

يسعى في إضلالهم، والوعد يشمل حتى الوعيد؛ كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَكْفُرُونَ يُكْذِبُكُمْ ذِكْرُكُمْ أَلَمْ تُكْفِرُوا بِاللَّهِ إِذْ أَنْفَقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ؟ فَتَقَرُّوا وَخُوفُهُمْ إِذَا جَاهَدُوا بِالْقَتْلِ وَغَيْرِهِ؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ذَلِكُمُ الْقَيْطَانُ يَخَافُ أَوْلِيَائَهُ﴾. الآية [آل عمران: ١٧٥]. ويخوفهم عند إثارة مرضاة الله بكل ما يمكن وما لا يمكن مما يدخله في عقولهم حتى يكسبوا عن فعل الخير، وكذلك يمينهم الأمانى الباطلة التي هي عند التحقيق كالسراب الذي لا حقيقة له، ولهذا قال: ﴿وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢٤﴾﴾.

﴿١٢٥﴾ ﴿أُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ﴾؛ أي: من انقاد للشيطان وأعرض عن ربه وصار من أتباع إبليس وحزبه مستقرهم النار، ولا يجدون عنها محيصًا ﴿١٢٦﴾؛ أي: مخلصًا ولا ملجأ، بل هم خالدون فيها أبد الآباد.

ولما بين مال الأشقياء أولياء الشيطان؛ ذكر مال السعداء أوليائه فقال:

﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا ﴿١٢٣﴾﴾.

﴿١٢٣﴾ أي: ﴿ءَامَنُوا﴾ بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره على الوجه الذي أمروا به علمًا وتصديقًا وإقرارًا. ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾: الناشئة عن الإيمان، وهذا يشمل سائر المأمورات من واجب ومستحب؛ الذي على القلب، والذي على اللسان، والذي على بقية الجوارح؛ كل له من الثواب المرتب على ذلك بحسب حاله ومقامه وتكميله للإيمان والعمل الصالح، ويفوته ما رتب على ذلك بحسب ما أخل به من الإيمان والعمل، وذلك بحسب ما علم من حكمة الله ورحمته، وكذلك وعده الصادق الذي يعرف من تتبع كتاب الله وسنة رسوله، ولهذا ذكر الثواب المرتب على ذلك بقوله: ﴿سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر؛ من أنواع المأكَل

أو كثير، دنيوي أو أخروي، والناس في هذا المقام درجات لا يعلمها إلا الله؛ فمستقل ومستكثر؛ فمن كان عمله كله سوءاً، وذلك لا يكون إلا كافراً؛ فإذا مات من دون توبة؛ جوزي بالخلود في العذاب الأليم، ومن كان عمله صالحاً وهو مستقيم في غالب أحواله، وإنما يصدر منه أحياناً بعض الذنوب الصغار فما يصيبه من الهم والغم والأذى وبعض الآلام في بدنه، أو قلبه، أو حبيبه، أو ماله ونحو ذلك؛ فإنها مكفرات للذنوب؛ وهي مما يجزى به على عمله، قيسها الله لطفاً بعباده.

وبين هذين الحالين مراتب كثيرة، وهذا الجزاء على عمل السوء العام مخصوص في غير التائبين؛ فإن التائب من الذنب كمن لا ذنب له؛ كما دلت على ذلك النصوص.

وقوله: ﴿وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ (١٢٣)؛ لإزالة بعض ما لعله يتوهم أن من استحق المجازاة على عمله قد يكون له ولي أو ناصر أو شافع يدفع عنه ما استحقه، فأخبر تعالى بانتفاء ذلك، فليس له ولي يحصل له المطلوب ولا نصير يدفع عنه المرهوب؛ إلا ربه ومليكه.

﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ﴾. دخل في ذلك سائر الأعمال القلبية والبدنية، ودخل أيضاً كل عامل؛ من إنس أو جن، صغير أو كبير، ذكر أو أنثى. ولهذا قال: ﴿مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ وهذا شرط لجميع الأعمال، لا تكون صالحة ولا تقبل ولا يترتب عليها الثواب ولا يندفع بها العقاب إلا بالإيمان؛ فالأعمال بدون الإيمان كأغصان شجرة قطع أصلها، وكبناء بني على موج الماء؛ فالإيمان هو الأصل والأساس والقاعدة التي يبنى عليها كل شيء، وهذا القيد ينبغي التفطن له في كل عمل مطلق؛ فإنه مقيد به. ﴿فَأُولَئِكَ﴾؛ أي: الذين جمعوا بين الإيمان والعمل الصالح، ﴿يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ﴾: المشتملة على ما تشتهي الأنفس وتلد الأعين، ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ نَفِيرًا﴾ (١٢٤)؛ أي: لا قليلاً ولا كثيراً مما عملوه من الخير، بل يجدونه كاملاً موفراً مضاعفاً أضعافاً كثيرة.

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾ (١٢٥).

﴿أَي: لا أحد أحسن من دين من جمع بين الإخلاص للمعبود، وهو إسلام الوجه لله الدال على استسلام القلب،

والمشارب اللذيذة، والمناظر العجيبة، والأزواج الحسنة، والقصور والغرف المزخرفة، والأشجار المتدلية، والفواكه المستغربة، والأصوات الشجية، والنعم السابغة، وتزاور الإخوان وتذكرهم ما كان منهم في رياض الجنان، وأعلى من ذلك كله وأجل؛ رضوان الله عليهم وتمتع الأرواح بقربه، والعيون برؤيته، والأسماع بخطابه الذي ينسيهم كل نعيم وسرور، ولولا الثبات من الله لهم؛ لطاروا وماتوا من الفرح والحبور؛ فلله ما أحلى ذلك النعيم! وما أعلى ما أنالهم الرب الكريم! وما حصل لهم من كل خير وبهجة لا يصفه الواصفون! وتمام ذلك وكماله الخلود الدائم في تلك المنازل العاليات.

ولهذا قال: ﴿خَلِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا﴾ (١٢٦)؛ فصدق الله العظيم الذي بلغ قوله وحديثه في الصدق أعلى ما يكون، ولهذا لما كان كلامه صدقاً، وخبره صدقاً؛ كان ما يدل عليه مطابقة وتضمناً وملازمة؛ كل ذلك مراد من كلامه، وكذلك كلام رسوله ﷺ؛ لكونه لا يخبر إلا بأمره ولا ينطق إلا عن وحيه.

﴿لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَى بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ (١٢٧) ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَفِيرًا﴾ (١٢٨).

﴿أَي: ﴿لَيْسَ﴾ الأمر والنجاة والتركية ﴿بِأَمَانِيكُمْ﴾ وَلَا أَمَانِي أَهْلِ الْكِتَابِ﴾، والأمانى أحاديث النفس المجردة عن العمل المقترن بها دعوى مجردة، لو عورضت بمثلاً؛ لكانت من جنسها، وهذا عام في كل أمر؛ فكيف بأمر الإيمان والسعادة الأبدية؛ فإن أمانى أهل الكتاب قد أخبر الله بها أنهم قالوا: ﴿لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصْرَانًا تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ﴾ [البقرة: ١١١]، وغيرهم ممن ليس يتسبب لكتاب ولا رسول من باب أولى وأحرى، وكذلك أدخل الله في ذلك من يتسبب إلى الإسلام لكمال العدل والإنصاف؛ فإن مجرد الانتساب إلى أي دين كان لا يفيد شيئاً إن لم يأت الإنسان ببرهان على صحة دعواه؛ فالأعمال تصدق الدعوى أو تكذبها. ولهذا قال تعالى: ﴿مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَى بِهِ﴾: وهذا شامل لجميع العاملين؛ لأن السوء شامل لأي ذنب كان من صفات الذنوب وكبائرها، وشامل أيضاً لكل جزاء؛ قليل

وتوجهه وإنابته وإخلاصه وتوجه الوجه وسائر الأعضاء لله. ﴿وَمَوْءُودٌ﴾: مع هذا الإخلاص والاستسلام ﴿مُحْسِنٌ﴾؛ أي: متبع لشريعة الله التي أرسل الله بها رسله وأنزل كتبه وجعلها طريقاً لخواص خلقه وأتباعهم، ﴿وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ﴾؛ أي: دينه وشرعه ﴿حَنِيفًا﴾؛ أي: مائلاً عن الشرك إلى التوحيد وعن التوجه للخلق إلى الإقبال على الخالق، ﴿وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾ (١٢٦)؛ والخلَّة أعلى أنواع المحبة، وهذه المرتبة حصلت للخليلين محمد وإبراهيم عليهما الصلاة والسلام، وأما المحبة من الله؛ فهي لعموم المؤمنين، وإنما اتخذ الله إبراهيم خليلًا؛ لأنه وفي بما أمر به، وقام بما ابتلي به، فجعله الله إماماً للناس، واتخذة خليلًا، ونوه بذكره في العالمين.

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطًا﴾ (١٢٧).

(١٢٧) وهذه الآية الكريمة فيها بيان إحاطة الله تعالى بجميع الأشياء، فأخبر أنه له ﴿مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾؛ أي: الجميع ملكه وعبيده؛ فهم المملوكون وهو المالك المتفرد بتدبيرهم، وقد أحاط علمه بجميع المعلومات، وبصره بجميع المبصرات وسمعه بجميع المسموعات ونفذت مشيئته وقدرته بجميع الموجودات ووسعت رحمته أهل الأرض والسموات، وقهر بعزه وقهره كل مخلوق، ودانت له جميع الأشياء.

﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتْلَىٰ النِّسَاءِ الَّتِي لَا تَوْتُوهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَرَغِبُونَ أَنْ تَنكِحُوهُنَّ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْوُلَدِ وَأَنْ تَقُومُوا لِلنِّسَاءِ بِالْقِسْطِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِهِ عَلِيمًا﴾ (١٢٨).

(١٢٨) الاستفتاء طلب السائل من المسئول بيان الحكم الشرعي في ذلك المسئول عنه، فأخبر عن المؤمنين أنهم يستفتون الرسول ﷺ في حكم النساء المتعلق بهم، فتولى الله هذه الفتوى بنفسه، فقال: ﴿قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ﴾؛ فاعملوا على ما أفتاكم به في جميع شئون النساء من القيام بحقوقهن وترك ظلمهن عموماً وخصوصاً، وهذا أمر عام يشمل جميع ما شرع الله أمراً ونهيًا في حق النساء الزوجات وغيرهن الصغار والكبار، ثم خص بعد التعميم

الوصية بالضعاف من اليتامى والولدان اهتماماً بهم وزجرًا عن التفريط في حقوقهم، فقال: ﴿وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتْلَىٰ النِّسَاءِ﴾؛ أي: ويفتيكم أيضًا بما يتلى عليكم في الكتاب في شأن اليتامى من النساء، ﴿الَّتِي لَا تَوْتُوهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ﴾؛ وهذا إخبار عن الحالة الموجودة الواقعة في ذلك الوقت؛ فإن اليتيمة إذا كانت تحت ولاية الرجل؛ بخسها حقها، وظلمها؛ إما بأكل مالها الذي لها، أو بعضه، أو منعها من الزوج؛ ليتفع بمالها خوفًا من استخراجها من يده إن زوجها، أو يأخذ من مهرها الذي تتزوج به بشرط أو غيره، هذا إذا كان راغبًا عنها، أو يرغب فيها وهي ذات جمال ومال ولا يقسط في مهرها، بل يعطيها دون ما تستحق؛ فكل هذا ظلم يدخل تحت هذا النص، ولهذا قال: ﴿وَرَغِبُونَ أَنْ تَنكِحُوهُنَّ﴾؛ أي: ترغبون عن نكاحهن أو في نكاحهن كما ذكرنا تمثيله.

﴿وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْوُلَدِ﴾؛ أي: ويفتيكم في المستضعفين من الولدان الصغار أن تعطوهم حقهم من الميراث وغيره، وألا تستولوا على أموالهم على وجه الظلم والاستبداد، ﴿وَأَنْ تَقُومُوا لِلنِّسَاءِ بِالْقِسْطِ﴾؛ أي: بالعدل التام، وهذا يشمل القيام عليهم بالزمامهم أمر الله وما أوجبه على عباده، فيكون الأولياء مكلفين بذلك يلزمونهم بما أوجبه الله، ويشمل القيام عليهم في مصالحهم الدنيوية بتسمية أموالهم وطلب الأخط لهم فيها وألا يقربوها إلا بالتي هي أحسن، وكذلك لا يحابون فيهم صديقًا ولا غيره في تزوج وغيره على وجه الهضم لحقوقهم، وهذا من رحمته تعالى بعباده؛ حيث حث غاية الحث على القيام بمصالح من لا يقوم بمصلحة نفسه لضعفه وفقد أبيه.

ثم حث على الإحسان عموماً، فقال: ﴿وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ﴾: لليتامى ولغيرهم، سواء كان الخير متعدياً أو لازماً، ﴿فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِهِ عَلِيمًا﴾ (١٢٩)؛ أي: قد أحاط علمه بعمل العاملين للخير، قلة وكثرة، حسناً وضده، فيجازي كلًا بحسب عمله.

﴿وَإِنْ أَمْرًا خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا ثُورًا وَآوِئَارًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ وَأُحْضِرَتِ الْأَنفُسُ الشُّحَّ وَإِنْ تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ (١٣٠).

المزة لقائش

﴿١٢٨﴾

أي: إذا خافت المرأة نشوز زوجها؛ أي: ترفعه عنها وعدم رغبته فيها وإعراضه عنها؛ فالأحسن في هذه الحالة أن يصلحها بينهما صلحاً؛ بأن تسمح المرأة عن بعض حقوقها اللازمة لزوجها على وجه تبقى مع زوجها إما أن ترضى بأقل من الواجب لها من النفقة أو الكسوة أو المسكن أو القسم؛ بأن تسقط حقها منه أو تهب يومها وليتها لزوجها أو لضررتها؛ فإذا اتفقا على هذه الحالة؛ فلا جناح ولا بأس عليهما فيها، لا عليها ولا على الزوج، فيجوز حينئذ لزوجها البقاء معها على هذه الحال، وهي خير من الفقرة، ولهذا قال: ﴿وَأَصْلَحْ خَيْرٌ﴾.

ويؤخذ من عموم هذا اللفظ والمعنى أن الصلح بين من بينهما حق أو منازعة في جميع الأشياء أنه خير من استقصاء كل منهما على كل حقه لما فيها من الإصلاح وبقاء الألفة والاتصاف بصفة السماح، وهو جائز في جميع الأشياء؛ إلا إذا أحل حراماً أو حرم حلالاً؛ فإنه لا يكون صلحاً، وإنما يكون جوراً، واعلم أن كل حكم من الأحكام لا يتم ولا يكمل إلا بوجود مقتضيه وانتفاء موانعه؛ فمن ذلك هذا الحكم الكبير الذي هو الصلح، فذكر تعالى المقتضي لذلك، ونبه على أنه خير، والخير كل عاقل يطلبه ويرغب فيه؛ فإن كان مع ذلك قد أمر الله به وحث عليه؛ ازداد المؤمن طلباً له ورغبة فيه، وذكر المانع بقوله: ﴿وَأُحْضِرْتُ الْأَنْفُسُ الشَّحَّ﴾؛ أي: جبلت

النفوس على الشح، وهو عدم الرغبة في بذل ما على الإنسان، والحرص على الحق الذي له؛ فالنفوس مجبولة على ذلك طبعاً؛ أي: فينبغي لكم أن تحرصوا على قلع هذا الخلق الدنيء من نفوسكم، وتستبدلوا به ضده، وهو السماحة، وهو بذل الحق الذي عليكم، والافتقار ببعض الحق الذي لك؛ فمتى وفق الإنسان لهذا الخلق الحسن؛ سهل حينئذ عليه الصلح بينه وبين خصمه ومعامله، وتسهلت الطريق للوصول إلى المطلوب؛ بخلاف من لم يجتهد في إزالة الشح من نفسه؛ فإنه يعسر عليه الصلح والموافقة؛ لأنه لا يرضيه إلا جميع ما له، ولا يرضى أن يؤدي ما عليه؛ فإن كان خصمه مثله، اشتد الأمر.

ثم قال: ﴿وَإِنْ تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا﴾؛ أي: تحسنوا في عبادة الخالق؛ بأن يعبد العبد ربه كأنه يراه؛ فإن لم يكن يراه؛ فإنه يراه، وتحسنوا إلى المخلوقين بجميع طرق الإحسان من نفع بمال أو علم أو جاه أو غير ذلك، وتتقوا الله بفعل جميع الأمور وترك جميع المحظورات، أو تحسنوا بفعل الأمور وتتقوا بترك المحظور؛ ﴿فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ ﴿١٢٨﴾: قد أحاط به علماً وخبراً بظاهره وباطنه فيحفظه لكم ويجازيكم عليه أتم الجزاء.

﴿وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمِيلِ فَتَدْرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ وَإِنْ تُصْلِحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُورًا رَحِيمًا﴾ ﴿١٢٩﴾.

﴿١٢٩﴾ يخبر تعالى أن الأزواج لا يستطيعون وليس في قدرتهم العدل التام بين النساء، وذلك لأن العدل يستلزم وجود المحبة على السواء، والداعي على السواء، والميل في القلب إليهن على السواء، ثم العمل بمقتضى ذلك، وهذا متعذر غير ممكن؛ فلذلك عفا الله عما لا يستطاع ونهى عما هو ممكن بقوله: ﴿فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمِيلِ فَتَدْرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ﴾؛ أي: لا تميلوا ميلاً كثيراً بحيث لا تؤدون حقوقهن الواجبة، بل افعلوا ما هو باستطاعتكم من العدل؛ فالنفقة والكسوة والقسم ونحوها عليكم أن تعدلوا بينهن فيها؛ بخلاف الحب والوطء ونحو ذلك؛ فإن الزوجة إذا ترك زوجها ما يجب لها؛ صارت كالمعلقة التي

وَإِنْ أَمْرَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُورًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ وَأُحْضِرْتُ الْأَنْفُسُ الشَّحَّ وَإِنْ تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٢٨﴾ وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمِيلِ فَتَدْرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ وَإِنْ تُصْلِحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُورًا رَحِيمًا ﴿١٢٩﴾ وَإِنْ يَفْرَقَا فَعِنَ اللَّهُ كُلاًّ مِنْ سَعْيَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ وَاسِعًا حَكِيمًا ﴿١٣٠﴾ وَاللَّهُ مَكِافٍ السَّعَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنْ اتَّقُوا اللَّهَ وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا ﴿١٣١﴾ وَاللَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٣٢﴾ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى ذَلِكَ قَدِيرًا ﴿١٣٣﴾ مَنْ كَانَ يُرِيدِ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴿١٣٤﴾

لا زوج لها فستريح وتستعد للزوج، ولا ذات زوج يقوم بحقوقها. ﴿وَإِنْ تُصِلْهَُا﴾ ما بينكم وبين زوجاتكم بإجبار أنفسكم على فعل ما لا تهواه النفس احتساباً وقياماً بحق الزوجة، وتصلحوا أيضاً فيما بينكم وبين الناس، وتصلحوا أيضاً بين الناس فيما تنازعوا فيه، وهذا يستلزم الحث على كل طريق يوصل إلى الصلح مطلقاً كما تقدم. ﴿وَتَتَّقُوا﴾: الله بفعل المأمور وترك المحذور والصبر على المقدور، ﴿فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ يغفر ما صدر منكم من الذنوب والتقصير في الحق الواجب، ويرحمكم كما عطفتم على أزواجكم ورحمتموهن.

﴿وَإِنْ يَفْرَقَا يُعِنَّ اللَّهُ كِلَا مِّن سَعَتِهِ وَكَانَ اللَّهُ وَاسِعًا حَكِيمًا﴾.

﴿١٣٠﴾ هذه الحالة الثالثة بين الزوجين إذا تعذر الاتفاق؛ فإنه لا بأس بالفراق، فقال: ﴿وَإِنْ يَفْرَقَا﴾ أي: بطلاق أو فسخ أو خلع أو غير ذلك، ﴿يُعِنَّ اللَّهُ كِلَا مِّن﴾ من الزوجين ﴿سَعَتِهِ﴾ أي: من فضله وإحسانه الواسع الشامل، فيغني الزوج بزوجة خير له منها، ويغنيها من فضله، وإن انقطع نصيبها من زوجها؛ فإن رزقها على المتكفل بأرزاق جميع الخلق، القائم بمصالحهم، ولعل الله يرزقها زوجاً خيراً منه. ﴿وَكَانَ اللَّهُ وَاسِعًا﴾ أي: كثير الفضل واسع الرحمة، وصلت رحمته وإحسانه إلى حيث وصل إليه علمه، ولكنه مع ذلك ﴿حَكِيمًا﴾ أي: يعطي بحكمته ويمنع لحكمته؛ فإذا اقتضت حكمته منع بعض عباده من إحسانه بسبب من العبد لا يستحق معه الإحسان؛ حرمة عدلاً وحكمة.

﴿وَلِلَّهِ مَكَاتُ السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنْ اتَّقُوا اللَّهَ وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا﴾ ﴿١٣١﴾ ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ ﴿١٣٢﴾.

﴿١٣١﴾، ﴿١٣٢﴾ يخبر تعالى عن عموم ملكه العظيم الواسع المستلزم تدييره بجميع أنواع التدبير وتصرفه بأنواع التصريف قدرًا وشرعًا؛ فتصرفه الشرعي أن وصى الأولين والآخرين أهل الكتب السابقة واللاحقة بالتقوى المتضمنة للأمر والنهي وتشريع الأحكام والمجازاة لمن قام بهذه الوصية بالثواب والمعاقبة لمن أهملها وضعيها باليَم

العذاب، ولهذا قال: ﴿وَإِنْ تَكْفُرُوا﴾: بأن تتركوا تقوى الله وتشركوا بالله ما لم ينزل به عليكم سلطانًا؛ فإنكم لا تضرون بذلك إلا أنفسكم، ولا تضرون الله شيئًا، ولا تنقصون ملكه، وله عبيد خير منكم وأعظم وأكثر، مطيعون له خاضعون لأمره، ولهذا رتب على ذلك قوله: ﴿وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا﴾ ﴿١٣١﴾: له الجود الكامل والإحسان الشامل الصادر من خزائن رحمته التي لا ينقصها الإنفاق ولا يغيضها نفقة، سحاء الليل والنهار، لو اجتمع أهل السماوات وأهل الأرض أولهم وآخرهم، فسأل كل واحد منهم ما بلغت أمانيه، ما نقص من ملكه شيئًا، ذلك بأنه جواد واجد ماجد، عطاؤه كلام، وعذابه كلام، إنما أمره لشيء إذا أراد أن يقول له كن فيكون، ومن تمام غناه أنه كامل الأوصاف؛ إذ لو كان فيه نقص بوجه من الوجوه؛ لكان فيه نوع افتقار إلى ذلك الكمال، بل له كل صفة كمال، ومن تلك الصفة كمالها.

ومن تمام غناه أنه لم يتخذ صاحبة ولا ولدًا ولا شريكًا في ملكه ولا ظهيرًا ولا معاونًا له على شيء من تدابير ملكه، ومن كمال غناه افتقار العالم العلوي والسفلي في جميع أحوالهم وشئونهم إليه وسؤالهم إياه جميع حوائجهم الدقيقة والجليلة، فقام تعالى بتلك المطالب والأسئلة، وأغناهم وأقناهم ومن عليهم بلطفه وهداهم.

وأما الحميد؛ فهو من أسماء الله تعالى الجليلة، الدال على أنه هو المستحق لكل حمد ومحبة وثناء وإكرام، وذلك لما اتصف به من صفات الحمد التي هي صفة الجمال والجلال، ولما أنعم به على خلقه من النعم الجزال؛ فهو المحمود على كل حال.

وما أحسن اقتران هذين الاسمين الكريمين: الغني الحميد؛ فإنه غني محمود؛ فله كمال من غناه وكمال من حمده وكمال من اقتران أحدهما بالآخر، ثم كرر إحاطة ملكه لما في السماوات وما في الأرض، وأنه على كل شيء وكيل؛ أي: عالم قائم بتدبير الأشياء على وجه الحكمة؛ فإن ذلك من تمام الوكالة؛ فإن الوكالة تستلزم العلم بما هو وكيل عليه، والقوة والقدرة على تنفيذه وتدييره، وكون ذلك التدبير على وجه الحكمة والمصلحة؛ فما نقص من ذلك؛ فهو لنقص الوكيل، والله تعالى متزه عن كل نقص.

سورة النساء

سورة النساء

﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِتَاخِرِينَ﴾ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى ذَلِكَ قَدِيرًا ﴿١٢٦﴾ مَن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَعِندَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴿١٢٧﴾.

﴿١٢٦﴾ أي: هو الغني الحميد الذي له القدرة الكاملة والمشئنة النافذة فيكم. ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِتَاخِرِينَ﴾: غيركم هم أطوع لله منكم وخير منكم. وفي هذا تهديد للناس على إقامتهم على كفرهم وإعراضهم عن ربهم؛ فإن الله لا يعاب بهم شيئاً إن لم يطيعوه، ولكنه يمهّل ويملي ولا يهمل.

﴿١٢٧﴾ ثم أخبر أن من كانت همته وإرادته دنية غير متجاوزة ثواب الدنيا، وليس له إرادة في الآخرة؛ فإنه قد قصر سعيه ونظره، ومع ذلك؛ فلا يحصل له من ثواب الدنيا سوى ما كتب الله له منها؛ فإنه تعالى هو المالك لكل شيء، الذي عنده ثواب الدنيا والآخرة، فليطلبها منه ويستعان به عليهما؛ فإنه لا ينال ما عنده إلا بطاعته، ولا تدرك الأمور الدينية والدنيوية إلا بالاستعانة به والافتقار إليه على الدوام، وله الحكمة تعالى في توفيق من يوفقه وخذلان من يخذله وفي عطائه ومنعه، ولهذا قال: ﴿وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ ﴿١٢٧﴾.

ثم قال تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلَوُّا أَوْ نَعَرَضُوا فَلَا تَعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ ﴿١٢٨﴾.

﴿١٢٨﴾ يأمر تعالى عباده المؤمنين أن يكونوا ﴿قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ﴾، والقوام صيغة مبالغة؛ أي: كونوا في كل أحوالكم قائمين بالقسط الذي هو العدل في حقوق الله وحقوق عباده؛ فالقسط في حقوق الله ألا يستعان بنعمه على معصيته، بل تصرف في طاعته، والقسط في حقوق الأدميين أن تؤدي جميع الحقوق التي عليك كما تطلب حقوقك، فتؤدي النفقات الواجبة والديون وتعامل الناس بما تحب أن يعاملوك به من الأخلاق والمكافأة وغير ذلك.

ومن أعظم أنواع القسط القسط في المقالات والقائلين؛ فلا يحكم لأحد القولين أو أحد المتنازعين لانتسابه أو ميله لأحدهما، بل يجعل وجهته العدل بينهما، ومن القسط أداء الشهادة التي عندك على أي وجه كان، حتى على الأحاب، بل على النفس، ولهذا قال: ﴿شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا﴾؛ أي: فلا تراعوا الغني لغناه ولا الفقير بزمكم رحمة له، بل اشهدوا بالحق على من كان. والقيام بالقسط من أعظم الأمور وأدل على دين القائم به وورعه ومقامه في الإسلام، فيتعين على من نصح نفسه وأراد نجاتها أن يهتم له غاية الاهتمام، وأن يجعله نصب عينيه ومحل إرادته، وأن يزيل عن نفسه كل مانع وعائق يعوقه عن إرادة القسط أو العمل به، وأعظم عائق لذلك اتباع الهوى، ولهذا نبه تعالى على إزالة هذا المانع بقوله: ﴿فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَنْ تَعْدِلُوا﴾؛ أي: فلا تتبعوا شهوات أنفسكم المعارضة للحق؛ فإنكم إن اتبعتموها؛ عدلتم عن الصواب ولم توفقوا للعدل؛ فإن الهوى إما أن يعمي بصيرة صاحبه حتى يرى الحق باطلاً والباطل حقاً، وإما أن يعرف الحق ويتركه لأجل هواه؛ فمن سلم من هوى نفسه؛ وفق للحق وهدى إلى الصراط المستقيم.

علم من ذلك بالتفصيل؛ فمن آمن هذا الإيمان المأمور به؛ فقد اهتدى وأنجح.

﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ (١٣٦)؛ وأي ضلال أبعد من ضلال من ترك طريق الهدى المستقيم وسلك الطريق الموصلة له إلى العذاب الأليم؟! وأعلم أن الكفر بشيء من هذه الأمور المذكورة كالكفر بجميعها؛ لتلازمها وامتناع وجود الإيمان ببعضها دون بعض.

ثم قال:

﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ أَزَادُوا كُفْرًا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرْ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا﴾ (١٣٧).

(١٣٧) أي: من تكرر منه الكفر بعد الإيمان؛ فاهتدى ثم ضل، وأبصر ثم عمي، وآمن ثم كفر، واستمر على كفره وازداد منه؛ فإنه بعيد من التوفيق والهداية لأقوم الطريق، وبعيد من المغفرة لكونه أتى بأعظم مانع يمنعه من حصولها؛ فإن كفره يكون عقوبة وطبعًا لا يزول؛ كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥]، وَتَقَلَّبُ أَفْسَدَتُهُمْ وَأَبْصَرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الأنعام: ١١٠].

ودلت الآية أنهم إن لم يزدادوا كفرًا، بل رجعوا إلى الإيمان، وتركوا ما هم عليه من الكفران؛ فإن الله يغفر لهم، ولو تكررت منهم الردة، وإذا كان هذا الحكم في الكفر؛ فغيره من المعاصي التي دونها من باب أولى؛ أن العبد لو تكررت منه ثم عاد إلى التوبة؛ عاد الله له بالمغفرة.

﴿بَشِّرِ الْمُتَّقِينَ بِأَنَّهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ (١٣٨) الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيْنِغُوتَ عَنْهُمْ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ (١٣٩).

(١٣٨)، (١٣٩) البشارة تستعمل في الخير، وتستعمل في الشر بقيد؛ كما في هذه الآية. يقول تعالى: ﴿بَشِّرِ الْمُتَّقِينَ﴾؛ أي: الذين أظهروا الإسلام وأبطنوا الكفر بأقبح بشارة وأسوأها، وهو العذاب الأليم، وذلك بسبب محبتهم الكفار وموالاتهم ونصرتهم وتركهم لموالات المؤمنين؛ فأى شيء حملهم على ذلك؟! أيتنغون عندهم العزة؟! وهذا هو الواقع من أحوال المنافقين، ساء ظنهم بالله، وضعف يقينهم بنصر الله لعباده المؤمنين، ولحظوا بعض الأسباب التي عند

ولما بين أن الواجب القيام بالقسط؛ نهى عما يضاد ذلك، وهو لي اللسان عن الحق في الشهادات وغيرها، وتحريف النطق عن الصواب المقصود من كل وجه أو من بعض الوجوه، ويدخل في ذلك تحريف الشهادة وعدم تكميلها أو تأويل الشاهد على أمر آخر؛ فإن هذا من اللي؛ لأنه الانحراف عن الحق. ﴿أَوْ تَعْرِضُوا﴾؛ أي: تركوا القسط المنوط بكم كترك الشاهد لشهادته وترك الحاكم لحكمه الذي يجب عليه القيام به.

﴿فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ (١٤٠)؛ أي: محيطًا بما فعلتم، يعلم أعمالكم خفيها وجليها، وفي هذا تهديد شديد للذي يلوي أو يعرض، ومن باب أولى وأحرى الذي يحكم بالباطل أو يشهد بالزور؛ لأنه أعظم جرماً؛ لأن الأولين تركا الحق، وهذا ترك الحق، وقام بالباطل.

﴿يَتَّخِطُّ الَّذِينَ ءَامَنُوا ءَامِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَأَلْكِتَبِ الَّذِينَ نَزَّلَ عَلَى رُسُلِهِ وَأَلْكِتَبِ الَّذِينَ نَزَّلَ مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ (١٤١).

(١٤١) أعلم أن الأمر إما أن يوجه إلى من لم يدخل في الشيء ولم يتصف بشيء منه؛ فهذا يكون أمراً له في الدخول فيه، وذلك كأم من ليس بمؤمن بالإيمان؛ كقوله تعالى: ﴿يَتَّخِطُّ الَّذِينَ أَوْتُوا الْكِتَابَ ءَامِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ﴾ [النساء: ٤٧] الآية، وإما أن يوجه إلى من دخل في الشيء؛ فهذا يكون أمره ليصحح ما وجد منه ويحصل ما لم يوجد، ومنه ما ذكره الله في هذه الآية من أمر المؤمنين بالإيمان؛ فإن ذلك يقتضي أمرهم بما يصحح إيمانهم من الإخلاص والصدق وتجنب المفسدات والتوبة من جميع المنقصات، ويقتضي أيضاً الأمر بما لم يوجد من المؤمن من علوم الإيمان وأعماله؛ فإنه كلما وصل إليه نص وفهم معناه واعتقده؛ فإن ذلك من الإيمان المأمور به، وكذلك سائر الأعمال الظاهرة والباطنة، كلها من الإيمان؛ كما دلت على ذلك النصوص الكثيرة وأجمع عليه سلف الأمة، ثم الاستمرار على ذلك والثبات عليه إلى الممات؛ كما قال تعالى: ﴿يَتَّخِطُّ الَّذِينَ ءَامِنُوا أَتَقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ (١٤٢) [آل عمران: ١٠٢]، وأمر هنا بالإيمان به وبرسله وبالقرآن وبالكاتب المتقدم؛ فهذا كله من الإيمان الواجب الذي لا يكون العبد مؤمناً إلا به، إجمالاً فيما لم يصل إليه تفصيله، وتفصيلاً فيما

الكافرين، وقصر نظرهم عما وراء ذلك، فاتخذوا الكافرين أولياء يتعززون بهم ويستنصرون، والحال أن العزة لله جميعاً؛ فإن نواصي العباد بيده ومشيتته نافذة فيهم، وقد تكفل بنصر دينه وعباده المؤمنين، ولو تخلل ذلك بعض الامتحان لعباده المؤمنين وإدالة العدو عليهم إدالة غير مستمرة؛ فإن العاقبة والاستقرار للمؤمنين.

وفي هذه الآية الترهيب العظيم من موالة الكافرين وترك موالة المؤمنين، وأن ذلك من صفات المنافقين، وأن الإيمان يقتضي محبة المؤمنين وموالاتهم وبغض الكافرين وعداوتهم.

﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَةَ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ ۚ إِنَّكُمْ إِذًا مِثْلُهُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا ۚ﴾ الَّذِينَ يَرَضُّونَ بِكُمْ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِنَ اللَّهِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ مَعَكُمْ وَإِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعُكُم مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ۖ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ ۚ وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴿١٤١﴾

الَّذِينَ يَرَضُّونَ بِكُمْ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِنَ اللَّهِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ مَعَكُمْ وَإِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعُكُم مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ۖ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ ۚ وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴿١٤١﴾ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَدِّعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَدِيعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كَسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٤٢﴾ مَذْبَذِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ ۚ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَنْ يَجْدَلَ لَهُ سَبِيلًا ﴿١٤٣﴾ يٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ۚ أُرِيدُوا أَنْ يَجْعَلُوا اللَّهَ عَالِيَكُمْ سُلْطَانًا مُبِينًا ﴿١٤٤﴾ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ يَجْدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ ۖ وَسَوْفَ يُؤْتِي اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٤٦﴾ مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَءَامَنْتُمْ ۚ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴿١٤٧﴾

﴿١٤١﴾ أي: وقد بين الله لكم فيما أنزل عليكم الشرعي عند حضور مجالس الكفر والمعاصي، ﴿أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَةَ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا﴾ أي: يستهان بها، وذلك أن الواجب على كل مكلف في آيات الله الإيمان بها وتعظيمها وإجلالها وتفخيمها، وهذا المقصود بإزالتها، وهو الذي خلق الله الخلق لأجله؛ ففسد الإيمان الكفر بها، وضد تعظيمها الاستهزاء بها واحتقارها، ويدخل في ذلك مجادلة الكفار والمنافقين لإبطال آيات الله ونصر كفرهم، وكذلك المبتدعون على اختلاف أنواعهم؛ فإن احتجاجهم على باطلهم يتضمن الاستهانة بآيات الله؛ لأنها لا تدل إلا على الحق ولا تستلزم إلا صدقاً، بل وكذلك يدخل فيه حضور مجالس المعاصي والفسوق التي يستهان فيها بأوامر الله ونواهيه، وتقبح حدوده التي حدها لعباده. ومنتهى هذا النهي عن القعود معهم ﴿حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ﴾ أي: غير الكفر بآيات الله والاستهزاء بها. ﴿إِنَّكُمْ إِذًا مِثْلُهُمْ﴾ أي: إن قعدتم معهم في الحال المذكور ﴿مِثْلُهُمْ﴾: لأنكم رضيتم بكفرهم واستهزائهم، والراضي بالمعصية كالفاعل لها، والحاصل أن من حضر مجلساً يعصى الله به؛ فإنه يتعين عليه الإنكار عليهم مع القدرة أو القيام مع عدمها.

﴿إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾ كما اجتمعوا على الكفر والموالات، ولا ينفع المنافقين مجرد كونهم في الظاهر مع المؤمنين؛ كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا انظُرُونَا نَقْتِسِمْ مِنْ تَوَرُّكُمُ﴾ [الحديد: ١٣] إلى آخر الآيات.

﴿١٤٢﴾ ثم ذكر تحقيق موالة المنافقين للكافرين ومعاداتهم للمؤمنين، فقال: ﴿الَّذِينَ يَرَضُّونَ بِكُمْ﴾ أي: ينتظرون الحالة التي تصيرون عليها، وتنتهون إليها من خير أو شر، قد أعدوا لكل حالة جواباً بحسب نفاقهم؛ ﴿فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِنَ اللَّهِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ مَعَكُمْ﴾؛ فيظهرون أنهم مع المؤمنين ظاهراً وباطناً؛ ليسلموا من القنح والظعن عليهم وليشركوهم في الغنيمة والفىء وليتنصروا بهم. ﴿وَإِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ﴾ ولم يقل: فتح؛ لأنه لا يحصل لهم فتح يكون مبدأ لنصرتهم المستمرة، بل غاية ما يكون أن يكون لهم نصيب غير مستقر حكمة من الله؛ فإذا كان ذلك؛ ﴿قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحِذْ عَلَيْكُمْ﴾ أي:

فلولا أن قلوبهم فارغة من الرغبة إلى الله وإلى ما عنده عادمة للإيمان؛ لم يصدر منهم الكسل. ﴿رَأَوْنَ النَّاسَ﴾؛ أي: هذا الذي انطوت عليه سرائرهم، وهذا مصدر أعمالهم، مراعاة للناس، يقصدون رؤية الناس وتعظيمهم، واحترامهم، ولا يخلصون لله؛ فهذا ﴿وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾؛ لا امتلاء قلوبهم من الرياء؛ فإن ذكر الله تعالى وملازمته لا يكون إلا من مؤمن ممتلئ قلبه بمحبة الله وعظمته.

﴿مُذَبِّدِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ﴾؛ أي: مترددين بين فريق المؤمنين وفريق الكافرين، فلا من المؤمنين ظاهرًا وباطنًا ولا من الكافرين ظاهرًا وباطنًا، أعطوا باطنهم للكافرين وظاهرهم للمؤمنين، وهذا أعظم ضلال يقدر، ولهذا قال: ﴿وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَكَانَ نَجْدًا لَهُ سَبِيلًا﴾؛ أي: لن تجد طريقًا لهديته ولا وسيلة لترك غوايته؛ لأنه انغلق عنه باب الرحمة، وصار بدله كل نقمة؛ فهذه الأوصاف المذمومة تدل بتبيينها على أن المؤمنين متصفون بضدها من الصدق ظاهرًا وباطنًا والإخلاص، وأنهم لا يجهل ما عندهم، ونشاطهم في صلاتهم وعبادتهم وكثرة ذكرهم لله تعالى، وأنهم قد هداهم الله ووفقهم للصراط المستقيم، فليعرض العاقل نفسه على هذين الأمرين، وليختار أيهما أولى به، والله المستعان.

نستولي عليكم ﴿وَمَتَّعَكُمْ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾؛ أي: يتصنعون عندهم بكف أيديهم عنهم مع القدرة، ومنعهم من المؤمنين بجميع وجوه المنع من تنفيذهم وتزهيدهم في القتال ومظاهرة الأعداء عليهم وغير ذلك مما هو معروف منهم. ﴿فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾: فيجازي المؤمنين ظاهرًا وباطنًا بالجنة، ويعذب المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات.

﴿وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾؛ أي: تسلطًا واستيلاء عليهم، بل لا تزال طائفة من المؤمنين على الحق منصوره، لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم، ولا يزال الله يحدث من أسباب النصر للمؤمنين ودفع تسلط الكافرين ما هو مشهود بالعيان، حتى إن بعض المسلمين الذين تحكمهم الطوائف الكافرة قد بقوا محترمين، لا يتعرضون لأديانهم ولا يكونون مستصغرين عندهم، بل لهم العز التام من الله، فله الحمد أولاً وآخرًا وظاهرًا وباطنًا.

﴿إِنَّ الْمُتَفِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كَسَالَىٰٓٔ رَّأَوْنَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ ﴿مُذَبِّدِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَكَانَ نَجْدًا لَهُ سَبِيلًا﴾.

﴿يُخَبِّرُ تَعَالَىٰ عَنِ الْمُنَافِقِينَ بِمَا كَانُوا عَلَيْهِ مِنْ قَبِيحِ الصِّفَاتِ وَشَنَائِعِ السَّمَاتِ، وَأَنْ طَرِيقَتَهُمْ مَّخَادَعَةُ اللَّهِ تَعَالَى؛ أَي: بِمَا أَظْهَرُوهُ مِنَ الْإِيمَانِ، وَأَبْطَنُوهُ مِنَ الْكُفْرَانِ؛ ظَنُّوا أَنَّهُ يَرُوجُ عَلَى اللَّهِ وَلَا يَعْلَمُهُ وَلَا يَبْدِيهِ لِعِبَادِهِ، وَالْحَالُ أَنَّ اللَّهَ خَادِعُهُمْ؛ فَمَجْرَدُ وَجُودِ هَذِهِ الْحَالِ مِنْهُمْ وَمُشَاهِدِهِمْ عَلَيْهَا خِدَاعٌ لِّأَنْفُسِهِمْ، وَأَيُّ خِدَاعٍ أَعْظَمَ مِمَّنْ يَسْعَى سَعْيًا يَعُودُ عَلَيْهِ بِالْهَوَانِ وَالذُّلِّ وَالْحَرَمَانِ، وَيَدُلُّ بِمَجْرَدِهِ عَلَى نَقْصِ عَقْلِ صَاحِبِهِ؛ حَيْثُ جُمِعَ بَيْنَ الْمَعْصِيَةِ وَرَأَاهَا حَسَنَةً وَظَنُّهَا مِنَ الْعَقْلِ وَالْمَكْرِ؟! فَلِلَّهِ مَا يَصْنَعُ الْجَهْلُ وَالْخِذْلَانُ بِصَاحِبِهِ! وَمَنْ خَدَاعُهُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا ذَكَرَهُ اللَّهُ فِي قَوْلِهِ: ﴿يَوْمَ يَقُولُ الْمُنْفِقُونَ وَالْمُنْفِقَتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا انْظُرُونَا نَقْتِسِمْ مِّنْ ثَوْرِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا ثَوْرًا ضَرْبٌ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بُابٌ بِأُتْبَعُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِّنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ﴾ ﴿يَا دُونَهُمْ أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ﴾ [الحديد: ١٣، ١٤] إلى آخر الآيات. ومن صفاتهم أنهم إذا ﴿قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ﴾ - إن قاموا - التي هي أكبر الطاعات العملية ﴿قَامُوا كَسَالَىٰٓٔ﴾: متثاقلين لها متبرمين من فعلها، والكسل لا يكون إلا من فقد الرغبة من قلوبهم؛

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا نَخْذَرُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَتُرِيدُونَ أَنْ يُجْعَلُوا إِلَٰهَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا مُّبِينًا﴾.

﴿لَمَّا ذَكَرَ أَنَّ مِنْ صِفَاتِ الْمُنَافِقِينَ اتِّخَاذَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ؛ نَهَىٰ عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ أَنْ يَتَصَفَّوْا بِهَذِهِ الْحَالَةِ الْقَبِيحَةِ، وَأَنْ يَشَابَهُوا الْمُنَافِقِينَ؛ فَإِنْ ذَلِكَ مُوجِبٌ لِأَنْ يُجْعَلُوا إِلَٰهَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا مُّبِينًا﴾؛ أي: حجة واضحة على عقوبتكم؛ فإنه قد أنذرنا وحذرنا منها، وأخبرنا بما فيها من المفساد؛ فسلكوها بعد هذا موجب للعقاب. وفي هذه الآية دليل على كمال عدل الله، وأن الله لا يعذب أحدًا قبل قيام الحجة عليه. وفيها التحذير من المعاصي؛ فإن فاعلها يجعل لله عليه سلطانًا مبينًا.

﴿إِنَّ الْمُنْفِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ يَجْعَدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾ ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾

من أسرار القرآن البديعة؛ فالتائب من المنافقين مع المؤمنين وله ثوابهم.

﴿١٤٧﴾ ثم أخبر تعالى عن كمال غناه وسعة حلمه ورحمته وإحسانه، فقال: ﴿مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَءَامَنْتُمْ﴾. والحال أن الله شاكراً عليكم، يعطي المتحلمين لأجله الأثقال، الدائنين في الأعمال - جزيل الثواب وواسع الإحسان، ومن ترك شيئاً لله أعطاه الله خيراً منه، ومع هذا يعلم ظاهرهم وباطنهم وأعمالهم وما تصدر عنه من إخلاص وصدق وضد ذلك، وهو يريد منكم التوبة والإنابة والرجوع إليه؛ فإذا أنبتم إليه؛ فأى شيء يفعل بعذابكم؟! فإنه لا يتشفى بعذابكم ولا ينتفع بعقابكم، بل العاصي لا يضر إلا نفسه؛ كما أن عمل المطيع لنفسه، والشكر هو خضوع القلب، واعترافه بنعمة الله، وثناء اللسان على المشكور، وعمل الجوارح بطاعته، والآن يستعين بنعمه على معاصيه.

﴿لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعاً عَلِيماً﴾ ﴿١٤٨﴾ إِنْ بُدُّوا خَيْرًا أَوْ تُخَفُّوهُ أَوْ تَعَفَّوْا عَنْ سُوءٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا﴾ ﴿١٤٩﴾.

﴿١٤٨﴾ يخبر تعالى أنه لا يحب الجهر بالسوء من القول؛ أي: ييغض ذلك ويمقته ويعاقب عليه، ويشمل ذلك جميع الأقوال السيئة التي تسوء وتحزن؛ كالشتم والقذف والسب ونحو ذلك؛ فإن ذلك كله من المنهي عنه الذي ييغضه الله، ويدل مفهومها أنه يحب الحسن من القول؛ كالذكر والكلام الطيب اللين. وقوله: ﴿إِلَّا مَنْ ظَلَمَ﴾؛ أي: فإنه يجوز له أن يدعو على من ظلمه ويشتكى منه ويجهر بالسوء لمن جهر له به من غير أن يكذب عليه ولا يزيد على مظلمته ولا يتعدى بشتمه غير ظالمه، ومع ذلك فعفوه وعدم مقابلته أولى؛ كما قال تعالى: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ [الشورى: ٤٠]، ﴿وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعاً عَلِيماً﴾ ﴿١٤٩﴾.

ولما كانت الآية قد اشتملت على الكلام السيئ والحسن والمباح؛ أخبر تعالى أنه سميع، فيسمع أقوالكم؛ فاحذروا أن تتكلموا بما ييغضب ربكم فيعاقبكم على ذلك، وفيه أيضاً ترغيب على القول الحسن. علم بنيانكم ومصدر أقوالكم.

﴿١٤٩﴾ ثم قال تعالى: ﴿إِنْ بُدُّوا خَيْرًا أَوْ تُخَفُّوهُ﴾؛ وهذا يشمل كل خير قولي وفعلي، ظاهر وباطن من واجب ومستحب، ﴿أَوْ تَعَفَّوْا عَنْ سُوءٍ﴾؛ أي: عمن ساءكم في

وَسَوْفَ يُؤْتِي اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيماً ﴿١٤٦﴾ مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَءَامَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيماً ﴿١٤٧﴾.

﴿١٤٦﴾ يخبر تعالى عن مآل المنافقين أنهم في أسفل الدركات من العذاب وأشر الحالات من العقاب؛ فهم تحت سائر الكفار؛ لأنهم شاركوهم بالكفر بالله ومعاداة رسله، وزادوا عليهم المكر والخديعة والتمكن من كثير من أنواع العداوة للمؤمنين على وجه لا يشعر به ولا يحس، ورتبوا على ذلك جريان أحكام الإسلام عليهم واستحقاق ما لا يستحقونه؛ فبذلك ونحوه استحقوا أشد العذاب، وليس لهم منقذ من عذابه ولا ناصر يدفع عنهم بعض عقابه.

﴿١٤٧﴾ وهذا عام لكل منافق؛ إلا مَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِم بالتوبة من السيئات. ﴿وَأَصْلَحُوا﴾: له الظواهر والبواطن. واعتصموا به والتجئوا إليه في جلب منافعهم ودفع المضار عنهم، ﴿وَأَخْلَصُوا بِهِمْ﴾: الذي هو الإسلام والإيمان والإحسان لله. ﴿فَقَصِدُوا وَجْهَ اللَّهِ بِأَعْمَالِهِم الظاهرة والباطنة، وسلموا من الرياء والنفاق؛ فمن اتصف بهذه الصفات ﴿فَأُولَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾؛ أي: في الدنيا والبرزخ ويوم القيامة. ﴿وَسَوْفَ يُؤْتِي اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيماً﴾: لا يعلم كنهه إلا الله، مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر. وتأمل كيف خص الاعتصام والإخلاص بالذكر مع دخولهما في قوله: ﴿وَأَصْلَحُوا﴾؛ لأن الاعتصام والإخلاص من جملة الإصلاح؛ لشدة الحاجة إليهما، خصوصاً في هذا المقام الحرج، الذي تمكن من القلوب النفاق، فلا يزيله إلا شدة الاعتصام بالله ودوام اللجأ والافتقار إليه في دفعه، وكون الإخلاص مناف كل المنافاة للنفاق، فذكرهما لفضلهما وتوقف الأعمال الظاهرة والباطنة عليهما ولشدة الحاجة في هذا المقام إليهما.

وتأمل كيف لما ذكر أن هؤلاء مع المؤمنين لم يقل: وسوف يؤتيهم أجراً عظيماً، مع أن السياق فيهم، بل قال: ﴿وَسَوْفَ يُؤْتِي اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيماً﴾؛ لأن هذه القاعدة الشريفة لم يزل الله يبدئ فيها ويعيد إذا كان السياق في بعض الجزئيات، وأراد أن يترتب عليه ثواباً أو عقاباً، وكان ذلك مشتركاً بينه وبين الجنس الداخل فيه؛ رتب الثواب في مقابلة الحكم العام الذي تندرج تحته تلك القضية وغيرها، ولئلا يتوهم اختصاص الحكم بالأمر الجزئي؛ فهذا

سورة النساء

الطبراني

لَا يَجِبُ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا ﴿١٥٨﴾ إِنْ يَدْعُوا خَيْرًا أَوْ تُخَفَّوْهُ أَوْ تَعْفُوا عَنْ سُوءِ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا ﴿١٥٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُوا نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا ﴿١٦٠﴾ أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا ﴿١٦١﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ أُولَئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أَجْرُهُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿١٦٢﴾ يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تَنزِلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرَهُمْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرَنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ أَلْبَيْنَتْ فَعَفَوْنَا عَنْ ذَلِكَ وَإِنَّا لَمُوسَى سُلْطٰنًا مُبِينًا ﴿١٦٣﴾ وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِثْقَلِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمْ ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا ﴿١٦٤﴾

١٠٢

أبدانكم وأموالكم وأعراضكم فتمسحوا عنه؛ فإن الجزاء من جنس العمل فمن عفا لله؛ عفا الله عنه. ومن أحسن؛ أحسن الله إليه، فهذا قال: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا﴾ ﴿١٥٩﴾؛ أي: يعفو عن زلات عباده وذنوبهم العظيمة، فيسدل عليهم ستره، ثم يعاملهم بعفو التام الصادر عن قدرته.

وفي هذه الآية إرشاد إلى التفقه في معاني أسماء الله وصفاته، وأن الخلق والأمر صادر عنها، وهي مقتضية له ولهذا يعلل الأحكام بالأسماء الحسنى كما في هذه الآية، لما ذكر عمل الخير والعفو عن المسيء، رتب على ذلك بأن أحوالنا على معرفة أسمائه، وأن ذلك يغنينا عن ذكر ثوابها الخاص.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُوا نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا﴾ ﴿١٦٠﴾ أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا ﴿١٦١﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ أُولَئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أَجْرُهُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿١٦٢﴾.

﴿١٦٠﴾ هنا قسمان قد وضحا لكل أحد: مؤمن بالله وبرسوله كلهم وكتبه، وكافر بذلك كله. وبقي قسم ثالث: وهو الذي يزعم أنه يؤمن ببعض الرسل دون بعض، وأن هذا سبيل ينجي من عذاب الله، إن هذا إلا مجرد أماني؛ فإن هؤلاء يريدون التفريق بين الله وبين رسله؛ فإن من تولى الله حقيقة؛ تولى جميع رسله؛ لأن ذلك من تمام تولى، ومن عادى أحدًا من رسله؛ فقد عادى الله وعادى جميع رسله، كما قال تعالى: ﴿مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ﴾ [البقرة: ٩٨] الآيات، وكذلك من كفر برسول؛ فقد كفر بجميع الرسل، بل بالرسول الذي يزعم أنه به مؤمن.

﴿١٦١﴾ ولهذا قال: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا﴾، وذلك لثلاث يثبتهم أن مرتبتهم متوسطة بين الإيمان والكفر. ووجه كونهم كافرين حتى بما زعموا الإيمان به؛ أن كل دليل دلهم على الإيمان بمن آمنوا به موجود هو أو مثله أو ما فوقه للنبي الذي كفروا به، وكل شبهة يزعمون أنهم يقدحون بها في النبي الذي كفروا به موجود مثلها أو أعظم منها فيمن آمنوا به، فلم يبق بعد ذلك إلا التشهي والهوى ومجرد الدعوى التي يمكن كل أحد أن يقابلها بمثلها. ولما ذكر أن هؤلاء هم الكافرون حقا؛ ذكر عقابا شاملا لهم ولكل كافر، فقال: ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا﴾ ﴿١٦١﴾؛ كما تكبروا عن الإيمان بالله؛ أهانهم بالعذاب الأليم المخزي. ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ﴾. وهذا يتضمن الإيمان بكل ما أخبر الله به عن نفسه وبكل ما جاء به الرسل من الأخبار والأحكام. ولم يفرقوا بين أحد من رسله، بل آمنوا بهم كلهم؛ فهذا الإيمان الحقيقي واليقين المبني على البرهان.

﴿أُولَئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أَجْرُهُمْ﴾؛ أي: جزاء إيمانهم وما ترتب عليه من عمل صالح وقول حسن وخلق جميل؛ كل على حسب حاله، ولعل هذا هو السر في إضافة الأجور إليهم. ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ ﴿١٦٢﴾: يغفر السيئات، ويتقبل الحسنات.

﴿يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تَنزِلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرَهُمْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرَنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ أَلْبَيْنَتْ فَعَفَوْنَا عَنْ ذَلِكَ وَإِنَّا لَمُوسَى سُلْطٰنًا مُبِينًا﴾ ﴿١٦٣﴾ وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ

الْمُتَقَاتِلِينَ

سُورَةُ النِّسَاءِ

فِيمَا نَقَضَهُمْ مِيثَقَهُمْ وَكَفَرَهُمْ بَيَّاتٍ اللَّهُ وَقَالَهُمُ الْأَنْبِيَاءُ
بَغْيٍ حَتَّى وَقَالَهُمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ
فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥٥﴾ وَكَفَرَهُمْ وَقَالَهُمْ عَلَى مَرِيَمَ
بُهْتَنَّا عَظِيمًا ﴿١٥٦﴾ وَقَالَهُمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ
رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ
اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا أَنْبَاءُ الظَّنِّ
وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ﴿١٥٧﴾ بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ غَرَضًا حَكِيمًا
﴿١٥٨﴾ وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ
الْقِيَمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِدًا ﴿١٥٩﴾ فَيُظَاهَرُ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا
حَرَمًا عَلَيْهِمْ طَبِئَتْ أُحْلَتْ لَهُمْ وَبَصَدَهُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ
كثيرًا ﴿١٦٠﴾ وَأَخَذَهُمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلَهُمْ آمُولَ
الْبَاطِلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦١﴾ لَكِنِ
الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا
أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ
وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أُولَئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٦٢﴾

١٥٣

أُطُورَ بِمِيثَقِهِمْ وَقَالُوا لَهُمْ ادْخُلُوا الْبَابَ حُدُودًا وَقَالُوا لَهُمْ لَا تَعْدُوا
فِي السَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَقًا غَلِيظًا ﴿١٥٥﴾ فِيمَا نَقَضَهُمْ مِيثَقَهُمْ
وَكَفَرَهُمْ بَيَّاتٍ اللَّهُ وَقَالَهُمُ الْأَنْبِيَاءُ بَغْيٍ حَتَّى وَقَالَهُمْ قُلُوبُنَا
غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥٥﴾
وَكَفَرَهُمْ وَقَالَهُمْ عَلَى مَرِيَمَ بُهْتَنَّا عَظِيمًا ﴿١٥٦﴾ وَقَالَهُمْ إِنَّا
قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ
وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ
مِنْ عِلْمٍ إِلَّا أَنْبَاءُ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ﴿١٥٧﴾ بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ
وَكَانَ اللَّهُ غَرَضًا حَكِيمًا ﴿١٥٨﴾ وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ
بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِدًا ﴿١٥٩﴾ فَيُظَاهَرُ مِنَ
الَّذِينَ هَادُوا حَرَمًا عَلَيْهِمْ طَبِئَتْ أُحْلَتْ لَهُمْ وَبَصَدَهُمْ عَنْ
سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾ وَأَخَذَهُمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلَهُمْ آمُولَ
النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦١﴾.

﴿١٥٣﴾ - ﴿١٥٨﴾ هذا السؤال الصادر من أهل الكتاب للرسول
محمد ﷺ على وجه العناد والافتراء وجعلهم هذا السؤال
يتوقف عليه تصديقهم أو تكذيبهم، وهو أنهم سألوه أن ينزل
عليهم القرآن جملة واحدة كما نزلت التوراة والإنجيل،
وهذا غاية الظلم منهم والجهل؛ فإن الرسول بشر عبد مذبذب

ليس في يده من الأمر شيء، بل الأمر كله لله، وهو الذي يرسل وينزل ما يشاء على عباده؛ كما قال تعالى عن الرسول
لما ذكر الآيات التي فيها اقتراح المشركين على محمد: ﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّيَ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا﴾ ﴿١٦٣﴾ [الإسراء: ٩٣]؛
وكذلك جعلهم الفارق بين الحق والباطل مجرد إنزال الكتاب جملة أو مفرقاً - مجرد دعوى لا دليل عليها، ولا مناسبة بل
ولا شبهة؛ فمن أين يوجد في نبوة أحد من الأنبياء أن الرسول الذي يأتيكم بكتاب نزل مفرقاً؛ فلا تؤمنوا به ولا تصدقوه؟!
بل نزول هذا القرآن مفرقاً بحسب الأحوال مما يدل على عظمته واعتناء الله بمن أنزل عليه؛ كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ
كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا﴾ ﴿٢٢﴾ ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق وأحسن
تفسيره ﴿٢٣﴾ [الفقان: ٣٢، ٣٣].

فلما ذكر اعتراضهم الفاسد؛ أخبر أنه ليس بغريب من أمرهم، بل سبق لهم من المقدمات القبيحة ما هو أعظم مما سلكوا
مع الرسول الذي يزعمون أنهم آمنوا به؛ من سؤالهم له رؤية الله عياناً، واتخاذهم العجل إلهاً يعبدونه من بعدما رأوا من
الآيات بأبصارهم ما لم يره غيرهم، ومن امتناعهم من قبول أحكام كتابهم، وهو التوراة حتى رفع الطور من فوق رؤوسهم،
وهددوا أنهم إن لم يؤمنوا أسقط عليهم فقبلوا ذلك على وجه الإغماض والإيمان الشبيه بالإيمان الضروري، ومن امتناعهم
من دخول أبواب القرية التي أمروا بدخولها سجداً مستغفرين فخالفوا القول والفعل، ومن اعتداء من اعتدى منهم في السبت
فعاقبهم الله تلك العقوبة الشنيعة، وبأخذ الميثاق الغليظ عليهم فنبذوه وراء ظهورهم وكفروا بآيات الله وقتلوا رسوله بغير
حق، ومن قولهم أنهم قتلوا المسيح عيسى وصلبوه، والحال أنهم ما قتلوه وما صلبوه بل شبه لهم غيره. فقتلوا غيره وصلبوه،
وادعائهم أن قلوبهم غلغلة لا تفقه ما تقول لهم ولا تفهمه، وبصدهم الناس عن سبيل الله فصدوهم عن الحق، ودعوهم
إلى ما هم عليه من الضلال والغي، وبأخذهم السحت والربا مع نهي الله لهم عنه والتشديد فيه؛ فالذين فعلوا هذه الأفاعيل
لا يستنكر عليهم أن يسألوا الرسول محمداً أن ينزل عليهم كتاباً من السماء.

بسبب ظلمهم واعتدائهم وصددهم الناس عن سبيل الله ومنعهم إياهم من الهدى وبأخذهم الربا وقد نهوا عنه، فمنعوا المحتاجين ممن يبيعونه عن العدل، فعاقبهم الله من جنس فعلهم، فمنعهم من كثير من الطيبات التي كانوا بصددها لكونها طيبة. وأما التحريم الذي على هذه الأمة؛ فإنه تحريم تنزيه لهم عن الخبائث التي تضرهم في دينهم ودنياهم.

﴿لَنَكِينِ الرَّسُخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَالْمُسْلِمِينَ الصَّلَاةَ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أُولَئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ (١٦٣)

﴿لما ذكر معائب أهل الكتاب؛ ذكر الممدوحين منهم، فقال: ﴿لَنَكِينِ الرَّسُخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾؛ أي: الذين ثبت العلم في قلوبهم ورسخ الإيقان في أفئدتهم، فأنمر لهم الإيمان التام العام، ﴿بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ﴾؛ وأنمر لهم الأعمال الصالحة من إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة اللذين هما أفضل الأعمال، وقد اشتملنا على الإخلاص للمعبود والإحسان إلى العبيد، وآمنوا باليوم الآخر، فخافوا الوعيد ورجوا الوعد، ﴿أُولَئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ (١٦٣)؛ لأنهم جمعوا بين العلم والإيمان والعمل الصالح والإيمان بالكتب والرسول السابقة واللاحقة.

﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُوشَعَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآدَمَ دَاوُدَ زَكَرِيَّا﴾ (١٦٤) ﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾ (١٦٥) ﴿رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ (١٦٥)

﴿يخبر تعالى أنه أوحى إلى عبده ورسوله من الشرع العظيم والأخبار الصادقة ما أوحى إلى هؤلاء الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وفي هذا عدة فوائد: منها: أن محمدًا ﷺ ليس ببدء من الرسل، بل أرسل الله قبله من المرسلين العدد الكثير والجم الغفير؛ فاستغراب رسالته لا وجه له إلا الجهل أو العناد.

وهذه الطريقة من أحسن الطرق لمحااجة الخصم المبطل، وهو أنه إذا صدر منه من الاعتراض الباطل ما جعله شبهة له ولغيره في رد الحق أن يبين من حاله الخبيثة وأفعاله الشنيعة ما هو من أقبح ما صدر منه؛ ليعلم كل أحد أن هذا الاعتراض من ذلك الوادي الخسيس، وأن له مقدمات يجعل هذا معها. وكذلك كل اعتراض يعترضون به على نبوة محمد ﷺ يمكن أن يقابل بمثله أو ما هو أقوى منه في نبوة من يدعون إيمانهم به؛ ليكتفي بذلك شرهم وينقمع باطلهم، وكل حجة سلكوها في تقريرهم لنبوة من آمنوا به؛ فإنها ونظيرها وما هو أقوى منها دالة ومقررة لنبوة محمد ﷺ.

ولما كان المراد من تعديد ما عدد الله من قبائحهم هذه المقابلة؛ لم يبسطها في هذا الموضع، بل أشار إليها وأحال على مواضعها، وقد بسطها في غير هذا الموضع في المحل اللائق ببسطها.

﴿١٥٩﴾ وقوله: ﴿وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ﴾: يحتمل أن الضمير هنا في قوله قبل موته يعود إلى أهل الكتاب، فيكون على هذا كل كتابي يحضره الموت ويعاين الأمر حقيقة؛ فإنه يؤمن بعيسى عليه السلام، ولكنه إيمان لا ينفع؛ إيمان اضطرار، فيكون مضمون هذا التهديد لهم والوعيد ألا يستمروا على هذه الحال التي سيندمون عليها قبل مماتهم؛ فكيف يكون حالهم يوم حشرهم وقيامهم؟ ١٩ ويحتمل أن الضمير في قوله: ﴿قَبْلَ مَوْتِهِ﴾: راجع إلى عيسى عليه السلام، فيكون المعنى: وما من أحد من أهل الكتاب إلا ليؤمنن بالمسيح عليه السلام قبل موت المسيح، وذلك يكون عند اقتراب الساعة وظهور علاماتها الكبار؛ فإنها تكاثرت الأحاديث الصحيحة في نزوله عليه السلام في آخر هذه الأمة؛ يقتل الدجال، ويضع الجزية، ويؤمن به أهل الكتاب مع المؤمنين ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾: يكون عيسى عليهم شهيداً يشهد عليهم بأعمالهم، وهل هي موافقة لشرع الله أم لا؟ وحينئذ لا يشهد إلا ببطان كل ما هم عليه مما هو مخالف لشرعية القرآن، ولما دعاهم إليه محمد ﷺ علمنا بذلك لعلمنا بكمال عدالة المسيح عليه السلام وصدقه، وأنه لا يشهد إلا بالحق، إلا أن ما جاء به محمد ﷺ هو الحق وما عداه فهو ضلال وباطل.

﴿١٦٠﴾ ثم أخبر تعالى أنه حرم على أهل الكتاب كثيراً من الطيبات التي كانت حلالاً عليهم، وهذا تحريم عقوبة،

ومنها: أنه أوحى إليه كما أوحى إليهم من الأصول والعدل الذي اتفقوا عليه، وأن بعضهم يصدق بعضاً، ويوافق بعضهم بعضاً.

ومنها: أنه من جنس هؤلاء الرسل؛ فليعتبره المعتبر بإخوانه المرسلين؛ فدعوته دعوتهم، وأخلاقهم متفقة، ومصدرهم واحد، وغايتهم واحدة، فلم يقرنه بالمجهولين ولا بالكذابين ولا بالملوك الظالمين.

ومنها: أن في ذكر هؤلاء الرسل وتعدادهم من التنويه بهم والثناء الصادق عليهم وشرح أحوالهم مما يزداد به المؤمن إيماناً بهم ومحبة لهم واقتداءً بهديهم واستناناً بسنتهم ومعرفةً بحقوقهم، ويكون ذلك مصداقاً لقوله: ﴿سَلَّمَ عَلَى نُوْحٍ فِي الْغُلَامَيْنِ ۖ﴾ [الصافات: ٧٩]، ﴿سَلَّمَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ ۖ﴾ [الصافات: ١٠٩]، ﴿سَلَّمَ عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ ۖ﴾ [الصافات: ١٢٠]، ﴿سَلَّمَ عَلَى إِيْلَ يَاسِينَ ۖ﴾ [١٢١]، ﴿كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ۖ﴾ [الصافات: ١٣٠، ١٣١]؛ فكل محسن له من الثناء الحسن بين الأنام بحسب إحسانه، والرسل خصوصاً هؤلاء المسمون في المرتبة العليا من الإحسان.

ولما ذكر اشتراكهم بوحيه؛ ذكر تخصيص بعضهم، فذكر أنه أتى داود الزبور، وهو الكتاب المعروف المزبور، الذي خص الله به داود عليه السلام لفضله وشرفه، وأنه كلم موسى تكليماً؛ أي: مشافهةً منه إليه لا بواسطة، حتى اشتهر بهذا عند العالمين، فيقال: موسى كلمه الرحمن.

﴿١٦٤﴾ وذكر أن الرسل منهم من قصه الله على رسوله، ومنهم من لم يقصصه عليه، وهذا يدل على كثرتهم.

﴿١٦٥﴾ وأن الله أرسلهم مبشرين لمن أطاع الله واتبعهم بالسعادة الدنيوية والأخروية، ومنذرين من عصى الله وخالفهم بشقاوة الدارين؛ ﴿لَيْلًا يَكُونُ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾، فيقولوا ما جاءنا من بشير ولا نذير، قل: قد جاءكم بشير ونذير، فلم يبق للخلق على الله حجة؛ لإرساله الرسل تترى؛ يبينون لهم أمر دينهم ومراضى ربههم ومساخته وطرق الجنة وطرق النار؛ فمن كفر منهم بعد ذلك، فلا يلومن إلا نفسه، وهذا من كمال عزته تعالى وحكمته؛ أن أرسل إليهم الرسل وأنزل عليهم الكتب، وذلك أيضاً من فضله وإحسانه؛ حيث كان الناس مضطرين إلى الأنبياء أعظم ضرورة تقدر، فأزال هذا الاضطراب؛ فله الحمد والشكر، ونسأله كما ابتدأ علينا نعمته بإرسالهم أن يتمها بالتوفيق لسلوك طريقهم؛ إنه جواد كريم.

﴿لَيْكِنَ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ، يَعْلَمُهُ ۖ وَالْمَلَكُ يَشْهَدُونَ ۖ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا ۖ﴾.

﴿١٦٦﴾ لما ذكر أن الله أوحى إلى رسوله محمد ﷺ كما أوحى إلى إخوانه من المرسلين؛ أخبر هنا بشهادته تعالى على رسالته وصحة ما جاء به. وأنه ﴿أَنْزَلَهُ، يَعْلَمُهُ ۖ﴾: يحتمل أن يكون المراد: أنزله مشتملاً على علمه؛ أي: فيه من العلوم الإلهية والأحكام الشرعية والأخبار الغيبية ما هو من علم الله تعالى الذي علم به عباده، ويحتمل أن يكون المراد: أنزله صادراً عن علمه، ويكون في ذلك إشارة وتنبيه على وجه شهادته، وأن المعنى إذا كان تعالى أنزل هذا القرآن المشتمل على الأوامر والنواهي، وهو يعلم ذلك، ويعلم حالة الذي أنزله عليه، وأنه دعا الناس إليه؛ فمن أجابه وصدقته؛ كان وليه، ومن كذبه وعاداه؛ كان عدوه، واستباح ماله ودمه، والله تعالى يمكنه ويوالي نصره ويجيب دعواته ويخذل أعداءه وينصر أوليائه؛ فهل توجد

سورة النساء
الجزء الثاني
﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ ۚ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زُورًا ۖ﴾ [١٦٧] ﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ۚ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا ۖ﴾ [١٦٨] ﴿رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ۖ﴾ [١٦٩] ﴿لَيْكِنَ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ، يَعْلَمُهُ ۖ وَالْمَلَكُ يَشْهَدُونَ ۖ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا ۖ﴾ [١٧٠] ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا ضَلَالًا بَعِيدًا ۖ﴾ [١٧١] ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرْ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ۖ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ۚ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ۖ﴾ [١٧٢] ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ ۖ فَآمِنُوا خَيْرًا لَكُمْ ۚ وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ۖ﴾ [١٧٣]

شهادة أعظم من هذه الشهادة وأكبر؟! ولا يمكن القدح في هذه الشهادة إلا بعد القدح بعلم الله وقدرته وحكمته. وإخباره تعالى بشهادة الملائكة على ما أنزل على رسوله؛ لكمال إيمانهم ولجلالة هذا المشهود عليه؛ فإن الأمور العظيمة لا يستشهد عليها إلا الخواص؛ كما قال تعالى في الشهادة على التوحيد: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [١٨] ﴿آل عمران: ١٨﴾، ﴿وَكُنْ بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ [١٩] ﴿النساء: ١٧٩﴾.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ [٢٠] ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيُغَيِّرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا﴾ [٢١] ﴿إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾ [٢٢].

﴿٢٣﴾ لما أخبر عن رسالة الرسل صلوات الله وسلامه عليهم، وأخبر برسالة خاتمهم محمد، وشهد بها وشهدت ملائكته؛ لزم من ذلك ثبوت الأمر المقرر والمشهود به، فوجب تصديقهم والإيمان بهم واتباعهم، ثم توعدهم من كفر بهم، فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾؛ أي: جمعوا بين الكفر بأنفسهم وصددهم الناس عن سبيل الله، وهؤلاء هم أئمة الكفر ودعاة الضلال، ﴿قَدْ ضَلُّوا ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ [٢٤]، وأي ضلال أعظم من ضلال من ضل بنفسه وأضل غيره؛ فباء بالاثمين ورجع بالخسارتين وفاته الهدايتان؟!

﴿٢٥﴾ ولهذا قال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا﴾: وهذا الظلم هو زيادة على كفرهم، وإلا؛ فالكفر عند إطلاق الظلم يدخل فيه، والمراد بالظلم هنا: أعمال الكفر والاستغراق فيه؛ فهو لا بعيدون من المغفرة والهداية للصراف المستقيم، ولهذا قال: ﴿لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيُغَيِّرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا﴾ [٢٦] ﴿إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ﴾، وإنما تعذرت المغفرة لهم والهداية لأنهم استمروا في طغيانهم وازدادوا في كفرهم فطبع على قلوبهم وانسدت عليهم طرق الهداية بما كسبوا وما ربك بظلام للعبيد. ﴿وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾ [٢٧]؛ أي: لا يبالي الله بهم ولا يعبا؛ لأنهم لا يصلحون للخير، ولا يليق بهم إلا الحالة التي اختاروها لأنفسهم.

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ فَآمِنُوا خَيْرًا لَكُمْ وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [٢٨].

﴿٢٩﴾ يأمر تعالى جميع الناس أن يؤمنوا بعبدته ورسوله محمد ﷺ، وذكر السبب الموجب للإيمان به والفائدة من الإيمان به، والمضرة من عدم الإيمان به.

فالسبب الموجب هو إخباره بأنه جاءهم بالحق؛ أي: فمجيئه نفسه حق وما جاء به من الشرع حق؛ فإن العاقل يعرف أن بقاء الخلق في جهلهم يعمهون وفي كفرهم يترددون والرسالة قد انقطعت عنهم غير لائق بحكمة الله ورحمته؛ فمن حكمته ورحمته العظيمة نفس إرسال الرسول إليهم ليعرفهم الهدى من الضلال والغي من الرشد؛ فمجرد النظر في رسالته دليل قاطع على صحة نبوته، وكذلك النظر إلى ما جاء به من الشرع العظيم والصراف المستقيم؛ فإن فيه من الإخبار بالغيوب الماضية والمستقبل والخبر عن الله وعن اليوم الآخر - ما لا يعرفه إلا بالوحي والرسالة وما فيه من الأمر بكل خير وصالح ورشد وعدل وإحسان وصدق وبر وصلة وحسن خلق، ومن النهي عن الشر والفساد والبغي والظلم وسوء الخلق والكذب والعقوق، مما يقطع به أنه من عند الله، وكلما ازداد به العبد بصيرة؛ ازداد إيمانه وبقينه؛ فهذا السبب الداعي للإيمان.

وأما الفائدة في الإيمان؛ فأخبر أنه خير ﴿لَكُمْ﴾، والخير ضد الشر؛ فالإيمان خير للمؤمنين في أبدانهم وقلوبهم وأرواحهم ودنياهم وأخراهم، وذلك لما يترتب عليه من المصالح والفوائد؛ فكل ثواب عاجل وأجل فمن ثمرات الإيمان؛ فالتصبر والهدى والعلم والعمل الصالح والسرور والأفراح والجنة وما اشتملت عليه من النعيم كل ذلك سبب عن الإيمان؛ كما أن الشقاء الدنيوي والأخروي من عدم الإيمان أو نقصه.

وأما مضرة عدم الإيمان به ﷺ؛ فيعرف بضد ما يترتب على الإيمان به وأن العبد لا يضر إلا نفسه، والله تعالى غني عنه لا تضره معصية العاصين، ولهذا قال: ﴿فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾؛ أي: الجميع خلقه وملكه وتحت تدبيره وتصريفه. ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا﴾: بكل شيء ﴿حَكِيمًا﴾ [٣٠]؛ أي: في خلقه وأمره؛ فهو العليم بمن يستحق الهداية والغواية، الحكيم في وضع الهداية والغواية موضعهما.

﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ

فَأَمْنُوا بِاللهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةً أَنْتَهُوا خَيْرًا لَكُمْ إِنَّمَا اللهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَنَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفى بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٧١﴾

﴿١٧١﴾ ينهى تعالى أهل الكتاب عن الغلو في الدين، وهو مجاوزة الحد والقدر المشروع إلى ما ليس بمشروع، وذلك كقول النصارى في غلوهم بعمسى عليه السلام ورفعته عن مقام النبوة والرسالة إلى مقام الربوبية الذي لا يليق بغير الله؛ فكما أن التقصير والتفريط من المنهيات؛ فالغلو كذلك، ولهذا قال: ﴿وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللهِ إِلَّا الْحَقُّ﴾، وهذا الكلام يتضمن ثلاثة أشياء: أمرين منهي عنهما، وهما قول الكذب على الله والقول بلا علم في أسمائه وصفاته وأفعاله وشرعه ورسله. والثالث: مأمور به، وهو قول الحق في هذه الأمور.

ولما كانت هذه قاعدة عامة كلية، وكان السياق في شأن عمسى عليه السلام نص على قول الحق فيه المخالف لطريقة اليهودية والنصرانية، فقال: ﴿إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللهِ﴾؛ أي: غاية المسيح عليه السلام ومنتهى ما يصل إليه من مراتب الكمال أعلى حالة تكون للمخلوقين، وهي درجة الرسالة، التي هي أعلى الدرجات وأجل المثوبات، وأنه كلمته التي ﴿أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ﴾؛ أي: كلمة تكلم الله

بِهَا، فكان بها عيسى، ولم يكن تلك الكلمة، وإنما كان بها، وهذا من باب إضافة التشريف والتكريم، وكذلك قوله: ﴿وَرُوحٌ مِنْهُ﴾؛ أي: من الأرواح التي خلقها وكمّلها بالصفات الفاضلة والأخلاق الكاملة، أرسل الله روحه جبريل عليه السلام، فنفخ في فرج مريم عليها السلام، فحملت بإذن الله بعمسى عليه السلام، فلما بين حقيقة عمسى عليه السلام؛ أمر أهل الكتاب بالإيمان به وبرسله، ونهاهم أن يجعلوا الله ثالث ثلاثة؛ أحدهم عيسى والثاني مريم؛ فهذه مقالة النصارى قبحهم الله، فأمرهم أن يتنهدوا، وأخبر أن ذلك خير لهم؛ لأنه الذي يتعين أنه سبيل النجاة وما سواه فهو طرق الهلاك. ثم نزه نفسه عن الشريك والولد، فقال: ﴿إِنَّمَا اللهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾؛ أي: هو المنفرد بالالوهية الذي لا تنبغي العبادة إلا له. ﴿سُبْحَنَهُ﴾؛ أي: تنزهه وتقدس، ﴿أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ﴾؛ لأن لله ﴿مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾؛ فالكل مملوكون له مفتقرون إليه؛ فمحال أن يكون له شريك منهم أو ولد.

ولما أخبر أنه المالك للعالم العلوي والسفلي أخبر أنه قائم بمصالحهم الدنيوية والأخروية، وحافظها ومجازيهم عليها تعالى:

﴿لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِي وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيَّ جَمِيعًا﴾ ﴿١٧٢﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنْكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧٣﴾

﴿١٧٢﴾ لما ذكر تعالى غلو النصارى في عمسى عليه السلام، وذكر أنه عبده ورسوله؛ ذكر هنا أنه لا يستنكف عن عبادته ربه؛ أي: لا يمتنع عنها رغبة عنها، لا هو ﴿وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ﴾، فنزههم عن الاستنكاف، وتنزيههم عن الاستكبار من باب أولى، ونفي الشيء فيه إثبات ضده؛ أي: فعمسى والملائكة المقربون قد رغبوا في عبادة ربهم وأحبوها وسعوا فيها

والنفسية، ﴿سَرَّيْهِمْ ءَايَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَبَيِّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ [فصلت: ٥٣]، وفي قوله: ﴿مَنْ زَيَّكَمْ﴾: ما يدل على شرف هذا البرهان وعظمته؛ حيث كان من ربكم الذي رباكم التربية الدينية والدنيوية؛ فمن تربيته لكم التي يحمد عليها، ويشكر أن أوصل إليكم البينات ليهديكم بها إلى الصراط المستقيم والوصول إلى جنات النعيم. وأنزل ﴿إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا﴾ (١٧٦)، وهو هذا القرآن العظيم، الذي قد اشتمل على علوم الأولين والآخرين والأخبار الصادقة النافعة والأمر بكل عدل وإحسان وخير والنهي عن كل ظلم وشر؛ فالناس في ظلمة إن لم يستضيئوا بأنواره، وفي شقاء عظيم إن لم يقتبسوا من خيره.

(١٧٥) ولكن انقسم الناس بحسب الإيمان بالقرآن والانتفاع به قسمين: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ﴾؛ أي: اعترفوا بوجوده واتصافه بكل وصف كامل وتنزيهه من كل نقص وعيب، ﴿وَأَعْتَصَمُوا بِهِ﴾؛ أي: لجئوا إلى الله واعتمدوا عليه وتبرءوا من حولهم وقوتهم واستعانوا بربهم، ﴿فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ﴾؛ أي: فسيغمدهم بالرحمة الخاصة فيوفقهم للخيرات ويجزل لهم المثوبات ويدفع عنهم البليات والمكروهات. ﴿وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمًا﴾ (١٧٥)؛ أي: يوفقهم للعلم والعمل؛ معرفة الحق والعمل به؛ أي: ومن لم يؤمن بالله، ويعتصم به، ويتمسك بكتابه؛ منعهم من رحمته، وحرهم من فضله، وخلى بينهم وبين أنفسهم، فلم يهتدوا، بل ضلوا ضلالاً مبيناً؛ عقوبة لهم على تركهم الإيمان، فحصلت لهم الخيبة والحرمان. نسأله تعالى العفو والعافية والمعافة.

﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ إِنِ امْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أَخْتُ فَلَهَا بِضْعُ فَرْسَخٍ وَهُوَ رِيثُهَا إِن لَّمْ يَكُنْ لَهَا وَلَدٌ فَإِن كَانَتَا أَثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثَّلَاثَانِ بِمِثْلِ تَرْكِ وَإِن كَانُوا إِخْوَةً رِّجَالًا وَنِسَاءً فَلِلَّذَكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيْنِ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَن تَصَلُّوا وَأَلَّا يَكُنْ شَيْءٌ عَلَيْكُمْ﴾ (١٧٦).

(١٧٦) أخبر تعالى أن الناس استفتوا رسوله ﷺ؛ أي: في الكلالة؛ بدليل قوله: ﴿قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ﴾، وهي الميت يموت وليس له ولد صلب ولا ولد ابن ولا أب ولا جد، ولهذا قال: ﴿إِنِ امْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ﴾؛ أي: لا ذكر ولا أنثى، لا ولد صلب ولا ولد ابن، وكذلك ليس

بما يليق بأحوالهم، فأوجب لهم ذلك الشرف العظيم والفوز العظيم، فلم يستكفوا أن يكونوا عبيداً لربوبيته ولا لإلهيته، بل يرون افتقارهم لذلك فوق كل افتقار. ولا يظن رفع عيسى أو غيره من الخلق فوق مرتبته التي أنزله الله فيها وترفعه عن العبادة كمالاً، بل هو النقص بعينه، وهو محل الذم والعقاب، ولهذا قال: ﴿وَمَنْ يَسْتَكْفِ عَنْ عِبَادَتِي وَسَكَرَ فَنَحْشُرْهُمُ إِلَيَّ جَمِيعًا﴾ (١٧٦)؛ أي: فسيحشر الخلق كلهم إليه المستكفين والمستكبرين وعباده المؤمنين، فيحكم بينهم بحكمه العدل وجزائه الفصل.

(١٧٦) ثم فصل حكمه فيهم، فقال: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾؛ أي: جمعوا بين الإيمان المأمور به وعمل الصالحات من واجبات ومستحبات من حقوق الله وحقوق عباده، ﴿فَيُوفِّيهِمْ أَجْرَهُمْ﴾؛ أي: الأجور التي رتبها على الأعمال كل بحسب إيمانه وعمله، ﴿وَيَزِيدُهُمْ مِّن فَضْلِهِ﴾؛ من الثواب الذي لم تنله أعمالهم ولم تصل إليه أفعالهم ولم يخطر على قلوبهم، ودخل في ذلك كل ما في الجنة من المأكول والمشرب والمناكح والمناظر والسرور ونعيم القلب والروح ونعيم البدن، بل يدخل في ذلك كل خير ديني ودنيوي رتب على الإيمان والعمل الصالح. ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا﴾؛ أي: عن عبادة الله تعالى، ﴿فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾، وهو سحق الله وغضبه والنار الموقدة التي تطلع على الأفئدة، ﴿وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِّن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ (١٧٦)؛ أي: لا يجدون أحداً من الخلق يتولاهم فيحصل لهم المطلوب، ولا من ينصرهم فيدفع عنهم المروهب، بل قد تخلى عنهم أرحم الراحمين وتركهم في عذابهم خالدين، وما حكم به تعالى؛ فلا راد لحكمه ولا مغير لقضائه.

﴿يَتَأْتِيَ النَّاسَ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا﴾ (١٧٦) ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَأَعْتَصَمُوا بِهِ﴾؛ أي: فسيدخلهم في رحمة مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمًا (١٧٥).

(١٧٦) يمتن تعالى على سائر الناس بما أوصل إليهم من البراهين القاطعة والأنوار الساطعة، وقيم عليهم الحجة، ويوضح لهم المحجة، فقال: ﴿يَتَأْتِيَ النَّاسَ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾؛ أي: حجج قاطعة على الحق تبينه وتوضحه وتبين ضده، وهذا يشمل الأدلة العقلية والنقلية، الآيات الأفقية

سُورَةُ الْمَائِدَةِ
الْمَائِدَةُ

يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكُلَّةِ إِنِ آمَرُؤُا هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ وَهُوَ يَرِثُهَا إِن لَّمْ يَكُنْ لَهَا وَلَدٌ فَإِن كَانَتَا أُتْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلَاثَانِ بِمَا تَرَكَ وَإِن كَانُوا إِخْوَةً رِّجَالًا وَنِسَاءً فَلِلَّذَكَرِ مِثْلُ حِظِّ الْأُنثِيَيْنِ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا وَاللَّهُ يَكُلُّ شَيْءٌ عَالِمٌ ﴿١٧٦﴾

سُورَةُ الْمَائِدَةِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُتَىٰ عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ ﴿١﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَحْلُوا شَعَائِرَ اللَّهِ وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلَا الْهَدْيَ وَلَا الْقَلَائِدَ وَلَا ءَايِينَ الْبَيْتِ الْحَرَامِ يَنْتَعُونَ فَضْلًا مِنْ رَبِّهِمْ وَرِضْوَانًا وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا وَلَا يَجْرِمُكُمْ شَتَائِنُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا وَتَمَآوَنُوا عَلَى الْإِلَهِ وَالنَّفْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٢﴾

١٠٦

له والد؛ بدليل أنه ورث فيه الإخوة والأخوات، بالإجماع لا يرثون مع الوالد؛ فإذا هلك وليس له ولد ولا والد. ﴿١٧٦﴾ وأخت؛ أي: شقيقة أو لأب لا لأم؛ فإنه قد تقدم حكمها. ﴿١٧٦﴾ فلها نصف ما ترك؛ أي: نصف متروكات أخيها من نقود وعقار وأثاث وغير ذلك، وذلك من بعد الدين والوصية؛ كما تقدم. ﴿١٧٦﴾ وهو؛ أي: أخوها الشقيق أو الذي للأب، يرثها إن لم يكن لها ولد؛ ولم يقدر له إرثاً لأنه عاصب فيأخذ مالها كله إن لم يكن صاحب فرض ولا عاصب يشاركه أو ما أبقته الفروض. ﴿١٧٦﴾ فإن كانتا؛ أي: الأختان، أفنتين؛ أي: فما فوق ﴿١٧٦﴾ فلهما الثلثان بما ترك وإن كانوا إخوة رجالاً ونساء؛ أي: اجتمع الذكور من الإخوة لغير أم مع الإناث، فللذكر مثل حظ الأنثيين. فيسقط فرض الإناث ويعصبن إخوانهن. ﴿١٧٦﴾ يبين الله لكم أن تضلوا؛ أي: يبين لكم أحكامه التي تحتاجونها ويوضحها ويشرحها لكم فضلاً منه وإحساناً لكي تهتدوا ببيانه وتعملوا بأحكامه، ولئلا تضلوا عن الصراط المستقيم بسبب جهلكم وعدم علمكم. ﴿١٧٦﴾ والله يكُلُّ شَيْءٌ عَالِمٌ ﴿١٧٦﴾؛ أي: عالم بالغيب والشهادة والأمور الماضية والمستقبلية، ويعلم حاجتكم إلى بيانه وتعليمه، فيعلمكم من علمه الذي ينفعكم على الدوام في جميع الأزمنة والأمكنة.

آخر تفسير سورة النساء. فله الحمد والشكر.



تفسير سورة المائدة

وهي مدنية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُتَىٰ عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ ﴿١﴾﴾.

﴿١﴾ هذا أمر من الله تعالى لعباده المؤمنين بما يقتضيه الإيمان بالوفاء بالعقود؛ أي: بإكمالها وإتمامها وعدم نقضها ونقصها، وهذا شامل للعقود التي بين العبد وبين ربه من التزام عبوديته؛ والقيام بها أتم قيام، وعدم الانتقاص من حقوقها شيئاً، والتي بينه وبين الرسول بطاعته واتباعه، والتي بينه وبين الوالدين والأقارب برهم وصلتهم وعدم قطيعتهم، والتي بينه وبين أصحابه من القيام بحقوق الصحبة في الغنى والفقر واليسر والعسر، والتي بينه وبين الخلق من عقود المعاملات كالبيع والإجارة ونحوهما، وعقود التبرعات كالهبة ونحوها، بل والقيام بحقوق المسلمين التي عقدها الله بينهم في قوله: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠]، بالتناصر على الحق والتعاون عليه والتآلف بين المسلمين وعدم التقاطع؛ فهذا الأمر شامل لأصول الدين وفروعه؛ فكلها داخلية في العقود التي أمر الله بالقيام بها [ويستدل بهذه الآية أن الأصل في العقود والشروط الإباحة، وأنها تنعقد بما دل عليها من قول أو فعل لإطلاقها].

يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرْمٌ ذَلِكَ
الَّذِينَ لَقِيتُمْ فَلَاحَ تَطْلُبُوا فِيهِمْ أَنْفُسَكُمْ ﴿التوبة: ٣٦﴾.

والجمهور من العلماء على أن القتال في الأشهر الحرم
منسوخ بقوله تعالى: ﴿فَإِذَا أَسْلَخَ الْأَشْهُرَ الْحُرُمَ فَاقْتُلُوا
الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾ [التوبة: ٥]، وغير ذلك من
العمومات التي فيها الأمر بقتال الكفار مطلقاً والوعيد في
التخلف عن قتالهم مطلقاً، وبأن النبي ﷺ قاتل أهل الطائف
في ذي القعدة، وهو من الأشهر الحرم.

وقال آخرون: إن النهي عن القتال في الأشهر الحرم غير
منسوخ لهذه الآية وغيرها مما فيه النهي عن ذلك بخصوصه،
وحملوا النصوص المطلقة الواردة على ذلك وقالوا: المطلق
يحمل على المقيد. وفصل بعضهم فقال: لا يجوز ابتداء
القتال في الأشهر الحرم، وأما استدامته وتكميله إذا كان أوله
في غيرها؛ فإنه يجوز، وحملوا قتال النبي ﷺ لأهل الطائف
على ذلك؛ لأن أول قتالهم في حنين في شوال.

وكل هذا في القتال الذي ليس المقصود منه الدفع، فأما
قتال الدفع إذا ابتدأ الكفار المسلمين بالقتال؛ فإنه يجوز
للمسلمين القتال دفعاً عن أنفسهم في الشهر الحرام وغيره
بإجماع العلماء.

وقوله: ﴿وَلَا الْهَدْيَ وَلَا الْفَلَيْدَ﴾؛ أي: ولا تحلوا الهدى
الذي يهدى إلى بيت الله في حج أو عمرة أو غيرهما من
نعم وغيرها؛ فلا تصدوه عن الوصول إلى محله، ولا تأخذه
بسرقه أو غيرها، ولا تقصروا به أو تحملوه ما لا يطيق خوفاً
من تلفه قبل وصوله إلى محله، بل عظموه وعظموا من جاء
به. ﴿وَلَا الْفَلَيْدَ﴾: هذا نوع خاص من أنواع الهدى، وهو
الهدى الذي يقتل له فلاتد أو عرى، فيجعل في أعناقهم؛ إظهاراً
لشعائر الله، وحملاً للناس على الاقتداء، وتعليماً لهم للسنة،
وليعرف أنه هدي فيحترم، ولهذا كان تقليد الهدى من السنن
والشعائر المسنونة.

﴿وَلَا أَمِينَ الْبَيْتِ الْحَرَامِ﴾؛ أي: قاصدين له، ﴿يَبْتَغُونَ
فَضْلاً مِنْ رَبِّهِمْ وَرِضْوَاناً﴾؛ أي: من قصد هذا البيت الحرام،
وقصده فضل الله بالتجارة والمكاسب المباحة، أو قصده
رضوان الله بحجه وعمرته والطواف به والصلاة وغيرها من
أنواع العبادات؛ فلا تعرضوا له بسوء ولا تهنئوه، بل أكرموا
وعظموا الوافدين الزائرين لبيت ربكم. ودخل في هذا

ثم قال ممتناً على عباده: ﴿أَحَلَّتْ لَكُمْ﴾؛ أي: لأجلكم،
رحمة بكم، ﴿بِهَيْمَةِ الْأَنْعَامِ﴾: من الإبل والبقر والغنم،
بل ربما دخل في ذلك الوحشي منها والظباء وحمر الوحش
ونحوها من الصيد. واستدل بعض الصحابة بهذه الآية على
إباحة الجنين، الذي يموت في بطن أمه بعدما تذبج. ﴿إِلَّا مَا
يُنَالُ عَلَيْكُمْ﴾: تحريمه منها في قوله: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أَلَيْتُهُ
وَالْدَمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ﴾ إلى آخر الآية؛ فإن هذه المذكورات وإن
كانت من بهيمة الأنعام؛ فإنها محرمة.

ولما كانت إباحة بهيمة الأنعام عامة في جميع الأحوال
والأوقات؛ استثنى منها الصيد في حال الإحرام، فقال:
﴿غَيْرَ مَحْيٍ الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ﴾؛ أي: أحلت لكم بهيمة الأنعام
في كل حال؛ إلا حيث كنتم متصفين بأنكم غير محلي الصيد
وأنتم حرم؛ أي: متجربون على قتله في حال الإحرام؛ فإن
ذلك لا يحل لكم إذا كان صيداً؛ كالظباء ونحوه، والصيد هو
الحيوان المأكول المتوحش. ﴿إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ﴾؛
أي: فمهما أرادته تعالى؛ حكم به حكماً موافقاً لحكمته؛ كما
أمركم بالوفاء بالعقود؛ لحصول مصالحكم ودفع المضار
عنكم، وأحل لكم بهيمة الأنعام رحمة بكم، وحرم عليكم
ما استثنى منها من ذوات العوارض من الميتة ونحوها
صوناً لكم واحتراماً، ومن صيد الإحرام احتراماً للإحرام
واعظاماً.

﴿يَتَأَيَّأُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يُحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ وَلَا الشَّهَرَ
الْحَرَامَ وَلَا الْهَدْيَ وَلَا الْفَلَيْدَ وَلَا أَمِينَ الْبَيْتِ الْحَرَامِ يَبْتَغُونَ
فَضْلاً مِنْ رَبِّهِمْ وَرِضْوَاناً وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ
شَتَانُ قَوْمٍ أَنْ صَدَّوْكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَنْ تَعْتَدُوا
وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالنَّفْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ
وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾.

يقول تعالى: ﴿يَتَأَيَّأُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يُحِلُّوا شَعَائِرَ
اللَّهِ﴾؛ أي: محرماته التي أمركم بتعظيمها وعدم فعلها؛
فالنهي يشمل النهي عن فعلها والنهي عن اعتقاد حلها؛ فهو
يشمل النهي عن فعل القبيح وعن اعتقاده، ويدخل في ذلك
النهي عن محرمات الإحرام ومحرمات الحرم، ويدخل
في ذلك ما نص عليه بقوله: ﴿وَلَا الشَّهَرَ الْحَرَامَ﴾؛ أي:
لا تنتهكوه بالقتال فيه وغيره من أنواع الظلم؛ كما قال تعالى:
﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ

سورة المائدة

المائدة

حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالْدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهْلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ، وَالْمُنْخَفَقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَمِ ذَلِكَمْ فَنُقِيَ الْيَوْمَ يَسُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَحْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكَلَتْ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَّتْ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيْتُ لَكُمْ الْإِسْلَامَ دِينًا فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرِ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٦﴾ يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ وَمَا عَلَّمْتُمْ مِنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهَا مَا عَلَّمَكُمْ اللَّهُ فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَادْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ وَأَقْنُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿١٧﴾ الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسْفَحِينَ وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيْمَنِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿١٨﴾

١٠٧

الأمر بتأمين الطرق الموصلة إلى بيت الله، وجعل القاصدين له مطمئنين مستريحين غير خائفين على أنفسهم من القتل فما دونه ولا على أموالهم من المكس والنهب ونحو ذلك. وهذه الآية الكريمة مخصوصة بقوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نجسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا﴾ [التوبة: ٢٨]؛ فالمشرك لا يمكن من الدخول إلى الحرم. والتخصيص في هذه الآية بالنهي عن التعرض لمن قصد البيت ابتغاء فضل الله أو رضوانه يدل على أن من قصده ليلحد فيه بالمعاصي؛ فإن من تمام احترام الحرم صد من هذه حاله عن الإفساد ببيت الله؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ﴾ [الحج: ٢٥].

ولما نهاهم عن الصيد في حال الإحرام؛ قال: ﴿وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا﴾؛ أي: إذا حللتكم من الإحرام بالحج والعمرة، وخرجتم من الحرم؛ حل لكم الاصطياد، وزال ذلك التحريم، والأمر بعد التحريم يرد الأشياء إلى ما كانت عليه من قبل.

﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاَنُ قَوْمٍ أَنْ صَدَّوْكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَنْ تَعْتَدُوا﴾؛ أي: لا يحملنكم بغض قوم وعداوتهم واعتداؤهم عليكم حيث صدوكم عن المسجد على الاعتداء عليهم طلباً للاشتفاء منهم؛ فإن العبد عليه أن يلتزم أمر الله ويسلك طريق العدل، ولو جني عليه أو ظلم واعتدي عليه؛ فلا يحل له أن يكذب على من كذب عليه أو يخون من خانه.

﴿وَتَمَآوُا عَلَى الْآلِ وَالَّتَّقَوِ﴾؛ أي: ليعن بعضكم بعضاً على البر، وهو اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأعمال الظاهرة والباطنة من حقوق الله وحقوق الآدميين، والتقوى في هذا الموضع اسم جامع ترك كل ما يكرهه الله ورسوله من الأعمال الظاهرة والباطنة، وكل خصلة من خصال الخير المأمور بفعلها، أو خصلة من خصال الشر المأمور بتركها؛ فإن العبد مأمور بفعلها بنفسه وبمعاونة غيره من إخوانه المؤمنين عليها بكل قول بيعث عليها وينشط لها وبكل فعل كذلك. ﴿وَلَا تَمَآوُا عَلَى الْآلِ﴾؛ وهو التجرؤ على المعاصي التي يَأْثَمُ صاحبها ويُحْرَجُ، ﴿وَالْعُدُوْنَ﴾؛ وهو التعدي على الخلق في دماءهم وأموالهم وأعراضهم؛ فكل معصية وظلم يجب على العبد كف نفسه عنه، ثم إعانة غيره على تركه.

﴿وَأَقْنُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾؛ على من عصاه وتجراً على محارمه؛ فاحذروا المحارم؛ لئلا يحل بكم عقابه العاجل والأجل.

﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالْدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهْلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ، وَالْمُنْخَفَقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَمِ ذَلِكَمْ فَنُقِيَ﴾.

﴿١٦﴾ هذا الذي حولنا الله عليه في قوله: ﴿إِلَّا مَا يَتَىٰ عَلَيْكُمْ﴾. واعلم أن الله تبارك وتعالى لا يحرم ما يحرم إلا صيانة لعباده وحماية لهم من الضرر الموجود في المحرمات، وقد بين للعباد ذلك وقد لا يبين، فأخبر أنه حرم ﴿الْمَيْتَةَ﴾، والمراد بالميتة ما فقدت حياته بغير ذكاة شرعية؛ فإنها تحرم لضررها، وهو احتقان الدم في جوفها ولحمها المضر بأكملها، وكثيراً ما تموت بعلقة تكون سبباً لهلاكها فتضرب بالأكل، ويستثنى من ذلك ميتة الجراد والسماك؛ فإنه حلال، ﴿وَالْدَّمُ﴾؛ أي: المسفوح؛ كما قيد في الآية الأخرى، ﴿وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ﴾؛ وذلك شامل لجميع أجزائه، وإنما نص الله عليه من بين سائر الخبائث من السباع؛ لأن طائفة

﴿الْيَوْمَ يَبْسُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ
وَاحْشَوْنَ الْيَوْمَ أَكَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَمْسَكْتُ عَلَيْكُمْ نَفْعِي
وَرَضِيْتُ لَكُمْ الْإِسْلَامَ دِينًا فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ
مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٢﴾﴾.

واليوم المشار إليه يوم عرفة؛ إذ أتم الله دينه ونصر عبده
ورسوله وانخذل أهل الشرك انخذالاً بليغاً بعدما كانوا
حريصين على رد المؤمنين عن دينهم طامعين في ذلك،
فلما رأوا عز الإسلام وانتصاره وظهوره؛ يشعرون كل اليأس
من المؤمنين أن يرجعوا إلى دينهم، وصاروا يخافون منهم
ويخشون، ولهذا في هذه السنة التي حج فيها النبي ﷺ
سنة عشر حجة الوداع لم يحج فيها مشرك ولم يطف
باليات عريان. ولهذا قال: ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاحْشَوْنَ﴾؛ أي:
فلا تخشوا المشركين واخشوا الله الذي نصركم عليهم
وخذلهم ورد كيدهم في نحورهم. ﴿الْيَوْمَ أَكَلْتُ لَكُمْ
دِينَكُمْ﴾؛ بتمام النصر وتكميل الشرائع الظاهرة والباطنة
الأصول والفروع.

ولهذا كان الكتاب والسنة كافيين كل الكفاية في أحكام
الدين وأصوله وفروعه؛ فكل متكلف يزعم أنه لا بد للناس
في معرفة عقائدهم وأحكامهم إلى علوم غير علم الكتاب
والسنة من علم الكلام وغيره؛ فهو جاهل مبطل في دعواه، قد
زعم أن الدين لا يكمل إلا بما قاله ودعا إليه، وهذا من أعظم
الظلم والتجهيل لله ورسوله، ﴿وَأَمْسَكْتُ عَلَيْكُمْ نَفْعِي﴾:
الظاهرة والباطنة، ﴿وَرَضِيْتُ لَكُمْ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾؛ أي: اخترته
واصطفيته لكم ديناً كما ارتضيتكم له؛ فقوموا به شكراً لربكم
واحمدوا الذي من عليكم بأفضل الأديان وأشرفها وأكملها،
﴿فَمَنِ اضْطُرَّ﴾؛ أي: ألجأته الضرورة إلى أكل شيء من
المحرمات السابقة في قوله: ﴿حَرَمْتُ عَلَيْكُمْ أَلَيْسَتْ﴾؛ ﴿فِي
مَخْمَصَةٍ﴾؛ أي: مجاعة، ﴿غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ﴾؛ أي: مائل إلى
إثم: بالآكل حتى يضطر، ولا يزيد في الأكل على كفايته.
﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٢﴾﴾؛ حيث أباح له الأكل في هذه
الحال، ورحمه بما يقم به نيته من غير نقص يلحقه في دينه.

﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمْ الطَّيِّبُ وَمَا
عَلَّمْتُمْ مِنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ فَكُلُوا مِمَّا
أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَادْكُرُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَيْهِ وَأَنْفُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ
الْحِسَابِ ﴿٣﴾﴾.

من أهل الكتاب من النصارى يزعمون أن الله أحله لهم؛ أي:
فلا تغتروا بهم، بل هو محرم من جملة الخبائث، ﴿وَمَا أُحِلَّ
لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ﴾؛ أي: ذكر عليه اسم غير الله تعالى من الأصنام
والأولياء والكواكب وغير ذلك من المخلوقين؛ فكما أن
ذكر الله تعالى يطيب الذبيحة؛ فذكر اسم غيره عليها يفيدها
خبثاً معنوياً؛ لأنه شرك بالله تعالى، ﴿وَأَلْمَخِيقَةُ﴾؛ أي:
الميتة بخنق بيد أو حبل أو إدخالها رأسها بشيء ضيق فتعجز
عن إخراجها حتى تموت، ﴿وَالْمَوْقُودَةُ﴾؛ أي: الميتة بسبب
الضرب بعضاً أو حصى أو خشبة أو هدم شيء عليها بقصد
أو بغير قصد، ﴿وَالْمَرْدِيَّةُ﴾؛ أي: الساقطة من علو؛ كجبل
أو جدار أو سطح ونحوه فتموت بذلك، ﴿وَالنَّطِيقَةُ﴾:
وهي التي تنطحها غيرها فتموت، ﴿وَمَا أَكَلَ السَّبْعُ﴾: من
ذئب أو أسد أو نمر أو من الطيور التي تغترس الصيود؛ فإنها
إذا ماتت بسبب أكل السبع؛ فإنها لا تحل. وقوله: ﴿إِلَّا مَا
ذَكَّيْتُمْ﴾: راجع لهذه المسائل من منخقة وموقودة ومتردية
ونطيحة وأكيلة سبع إذا ذكيت وفيها حياة مستقرة لتتحقق
الذكاة فيها. ولهذا قال الفقهاء: لو أبان السبع أو غيره
حشوتها أو قطع حلقومها؛ كان وجود حياتها كعدمها؛ لعدم
فائدة الذكاة فيها. وبعضهم لم يعتبر فيها إلا وجود الحياة؛
فإذا ذكاه وفيها حياة؛ حلت، ولو كانت مبانة الحشوة، وهو
ظاهر الآية الكريمة.

﴿وَأَنْ تَسْتَفْسِفُوا بِالْأَزْكَرِ﴾؛ أي: وحرم عليكم الاستقسام
بالأزلام، ومعنى الاستقسام طلب ما يقسم لكم ويقدر بها،
وهي قدام ثلاثة كانت تستعمل في الجاهلية، مكتوب على
أحدها افعل، وعلى الثاني لا تفعل، والثالث غُفِّلَ لا كتابة
فيه؛ فإذا هم أحدهم بسفر أو عرس أو نحوهما؛ أجال تلك
القدام المتساوية في الجرم، ثم أخرج واحداً منها؛ فإن خرج
المكتوب عليه افعل؛ مضى في أمره، وإن ظهر المكتوب
عليه لا تفعل؛ لم يفعل ولم يمض في شأنه، وإن ظهر الآخر
الذي لا شيء عليه؛ أعادها حتى يخرج أحد القدحين فيعمل
به، فحرمه الله عليهم الذي في هذه الصورة وما يشبهه،
وعوضهم عنه بالاستخارة لربهم في جميع أمورهم.

﴿ذَلِكَكُمْ فَسَقٌ﴾: الإشارة لكل ما تقدم من المحرمات
التي حرمها الله صيانة لعباده وأنها فسق؛ أي: خروج عن
طاعته إلى طاعة الشيطان.

ثم امتن على عباده بقوله:

السابع: أن الاشتغال بتعليم الكلب أو الطير أو نحوهما ليس مذمومًا وليس من العبث والباطل، بل هو أمر مقصود؛ لأنه وسيلة لحل صيده والانتفاع به.

الثامن: فيه حجة لمن أباح بيع كلب الصيد؛ قال: لأنه قد لا يحصل له إلا بذلك.

التاسع: فيه اشتراط التسمية عند إرسال الجارح، وأنه إن لم يسم الله متعمدًا؛ لم يباح ما قتل الجارح.

العاشر: أنه يجوز أكل ما صاده الجارح، سواء قتله الجارح أم لا، وأنه إن أدركه صاحبه وفيه حياة مستقرة؛ فإنه لا يباح إلا بها.

ثم حث تعالى على تقواه وحذر من إتيان الحساب في يوم القيامة، وأن ذلك أمر قد دنا واقترب، فقال: ﴿وَأَتُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾.

﴿الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمْ الْطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ إِذَا ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أَجْرَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾.

كرر تعالى إحلال الطيبات لبيان الامتنان، ودعوة للعباد إلى شكره والإكثار من ذكره؛ حيث أباح لهم ما تدعوهم الحاجة إليه، ويحصل لهم الانتفاع به من الطيبات.

﴿وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ﴾؛ أي: ذبائح اليهود والنصارى حلال لكم يا معشر المسلمين دون باقي الكفار فإن ذبائحهم لا تحل للمسلمين، وذلك لأن أهل الكتاب يتسبون إلى الأنبياء والكتب، وقد اتفق الرسل كلهم على تحريم الذبح لغير الله؛ لأنه شرك؛ فاليهود والنصارى يتدينون بتحريم الذبح لغير الله؛ فلذلك أبيحت ذبائحهم دون غيرهم. والدليل على أن المراد بطعامهم ذبائحهم: أن الطعام الذي ليس من الذبائح؛ كالحبوب والثمار، ليس لأهل الكتاب فيه خصوصية، بل يباح ذلك، ولو كان من طعام غيرهم. وأيضًا؛ فإنه أضاف الطعام إليهم، فدل ذلك على أنه كان طعامًا بسبب ذبحهم، ولا يقال: إن ذلك للتمليك، وأن المراد الطعام الذي يملكون؛ لأن هذا لا يباح على وجه

﴿يَقُولُ تَعَالَى لِنَبِيِّ مُحَمَّدٍ ﷺ: ﴿يَسْتَأْذِنُكَ مَاذَا أُحِلَّ لَكُمْ﴾: ﴿قُلْ أُحِلَّ لَكُمْ الْطَّيِّبَاتُ﴾؛ وهي كل ما فيه نفع أو لذة من غير ضرر بالبدن ولا بالعقل، فدخل في ذلك جميع الحبوب والثمار التي في القرى والبراري، ودخل في ذلك جميع حيوانات البحر وجميع حيوانات البر؛ إلا ما استثناه الشارع كالسباع والخبائث منها. ولهذا دلت الآية بمفهومها على تحريم الخبائث؛ كما صرح به في قوله تعالى: ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ﴾ [الأعراف: ١٥٧]، ﴿وَمَا عَلَّمْتُمْ مِنَ الْجَوَارِحِ﴾؛ أي: وأحل لكم ما علمتم من الجوارح... إلى آخر الآية.

دلت هذه الآية على أمور:

أحدها: لطف الله بعباده ورحمته لهم؛ حيث وسع عليهم طرق الحلال، وأباح لهم ما لم يذكره مما صادته الجوارح، والمراد بالجوارح الكلاب والفهود والصقر ونحو ذلك مما يصيد بنابه أو بمخلبه.

الثاني: أنه يشترط أن تكون معلمة بما يعد في العرف تعليمًا؛ بأن يسترسل إذا أرسل، وينزجر إذا زجر، وإذا أمسك لم يأكل، ولهذا قال: ﴿تَعْلُمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ﴾؛ أي: أمسكن من الصيد لأجلكم، وما أكل منه الجارح؛ فإنه لا يعلم أنه أمسكه على صاحبه، ولعله أن يكون أمسكه على نفسه.

الثالث: اشتراط أن يجرحه الكلب أو الطير ونحوهما؛ لقوله: ﴿يَنْ الْجَوَارِحِ﴾؛ مع ما تقدم من تحريم المنخقة؛ فلو خنقه الكلب أو غيره أو قتله بثقله؛ لم يباح، هذا بناء على أن الجوارح اللاتي يجرحن الصيد بأنيابها أو مخالبها، والمشهور أن الجوارح بمعنى الكواشب؛ أي: المحصلات للصيد والمدركات له، فلا يكون فيها على هذا دلالة. والله أعلم.

الرابع: جواز اقتناء كلب الصيد؛ كما ورد في الحديث الصحيح، مع أن اقتناء الكلب محرم؛ لأن من لازم إباحة صيده وتعليمه جواز اقتنائه.

الخامس: طهارة ما أصابه فم الكلب من الصيد؛ لأن الله أباحه ولم يذكر له غسلًا، فدل على طهارته.

السادس: فيه فضيلة العلم، وأن الجارح المعلوم بسبب العلم يباح صيده، والجاهل بالتعليم لا يباح صيده.

الغضب ولا من المسلمين. ﴿وَطَعَّامُكُمْ﴾: أيها المسلمون، ﴿جَلَّ لَّهُمُ﴾: أي: يحل لكم أن تطعموهم إياه.

وأحل لكم المحصنات؛ أي: الحرائر العفيفات ﴿مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ﴾؛ والحرائر العفيفات ﴿مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ﴾؛ أي: من اليهود والنصارى، وهذا مخصص لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَةَ حَتَّىٰ يُوْمَنَ﴾ [البقرة: ٢٢١]، ومفهوم الآية أن الأرقاء من المؤمنات لا يباح نكاحهن للأحرار وهو كذلك، وأما الكتائيات فعلى كل حال لا يباح ولا يجوز نكاحهن للأحرار مطلقاً؛ لقوله تعالى: ﴿مِنَ قَبْلِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ﴾ [النساء: ٢٥]. وأما المسلمات إذا كن رقيقات؛ فإنه لا يجوز للأحرار نكاحهن إلا بشرطين: عدم الطول، وخوف العنت. وأما الفاجرات غير العفيفات عن الزنا؛ فلا يباح نكاحهن، سواء كن مسلمات أو كتابيات حتى يتبين؛ لقوله تعالى: ﴿الزَّانِ لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً﴾ [النور: ٢٣] الآية. وقوله: ﴿إِذَا عَاتَيْتُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ﴾؛ أي: أبحنا لكم نكاحهن إذا أعطينوهن مهورهن؛ فمن عزم على ألا يؤتيها مهرها؛ فإنها لا تحل له، وأمر بإيتائها إذا كانت رشيدة تصلح للإيتاء، وإلا أعطاه الزوج لوليها، وإضافة الأجور إليهن دليل على أن المرأة تملك جميع مهرها، وليس لأحد منه شيء؛ إلا ما سمحت به لزوجها أو وليها أو غيرها. ﴿مُحْصِنِينَ غَيْرَ﴾

مُسْتَفْجِينَ؛ أي: حالة كونكم أيها الأزواج محصنين لسنائكم بسبب حفظكم لفروجكم عن غيرهن، ﴿غَيْرَ مُسْتَفْجِينَ﴾؛ أي: زانين مع كل أحد، ﴿وَلَا مُتَخَذِي أَخْدَانٍ﴾: وهو الزنا مع العشيقات؛ لأن الزنا في الجاهلية منهم من يزني مع من كان؛ فهذا المسافح، ومنهم من يزني مع خدنه ومجبه؛ فأخبر الله تعالى أن ذلك كله ينافي العفة، وأن شرط الزواج أن يكون الرجل عفيفاً عن الزنا.

وقوله تعالى: ﴿وَمَن يَكْتُم بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ﴾؛ أي: ومن كفر بالله تعالى وما يجب بالإيمان به من كتبه ورسله أو شيء من الشرائع؛ فقد حبط عمله؛ بشرط أن يموت على كفره؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُم مِّنْ دِينِهِ فِمَتَّ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ [البقرة: ٢١٧]. ﴿وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾؛ أي: الذين خسروا أنفسهم وأموالهم وأهلهم يوم القيامة، وحصلوا على الشقاوة الأبدية.

﴿يَتَأَيَّأُ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ وَإِن كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا وَإِن كُنْتُمْ مَّرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنْكُم مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لَمَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ يَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّن حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

﴿هذه آية عظيمة قد اشتملت على أحكام كثيرة نذكر منها ما يسره الله وسهله:

أحدها: أن هذه المذكورات فيها امثالها والعمل بها من لوازم الإيمان الذي لا يتم إلا به؛ لأنه صدرها بقوله: ﴿يَتَأَيَّأُ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ إلى آخرها؛ أي: يا أيها الذين آمنوا، اعملوا بمقتضى إيمانكم بما شرعناه لكم.

الثاني: الأمر بالقيام بالصلاة؛ لقوله: ﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ﴾.

محمولة على معنى؛ فعلى قراءة النصب فيها غسلهما إن كانتا مكشوفتين، وعلى قراءة الجر فيها مسحهما إذا كانتا مستورتين بالخف.

السادس عشر: الأمر بالترتيب في الوضوء؛ لأن الله تعالى ذكرها مرتبة؛ ولأنه أدخل ممسوحاً - وهو الرأس - بين مغسولين، ولا يعلم لذلك فائدة غير الترتيب.

السابع عشر: أن الترتيب مخصوص بالأعضاء الأربعة المسميات في هذه الآية، وأما الترتيب بين المضمضة والاستنشاق والوجه أو بين اليمنى واليسرى من اليدين والرجلين؛ فإن ذلك غير واجب، بل يستحب تقديم المضمضة والاستنشاق على غسل الوجه، وتقديم اليمنى على اليسرى من اليدين والرجلين، وتقديم مسح الرأس على مسح الأذنين.

الثامن عشر: الأمر بتجديد الوضوء عند كل صلاة؛ لتوجد صورة المأمور.

التاسع عشر: الأمر بالغسل من الجنابة.

العشرون: أنه يجب تعميم الغسل للبدن؛ لأن الله أضاف التطهر للبدن ولم يخصه بشيء دون شيء.

الحادي والعشرون: الأمر بغسل ظاهر الشعر وباطنه في الجنابة.

الثاني والعشرون: أنه يندرج الحدث الأصغر في الحدث الأكبر، ويكفي من هما عليه أن ينوي ثم يعمم بدنه؛ لأن الله لم يذكر إلا التطهر، ولم يذكر أنه يعيد الوضوء.

الثالث والعشرون: أن الجنب يصدق على من أنزل المنى يقظةً أو مناماً أو جامع ولو لم ينزل.

الرابع والعشرون: أن من ذكر أنه احتلم ولم يجد بللاً؛ فإنه لا غسل عليه؛ لأنه لم يتحقق منه الجنابة.

الخامس والعشرون: ذكر منه الله تعالى على العباد بمشروعيته التيمم.

السادس والعشرون: أن من أسباب جواز التيمم وجود المرض الذي يضره غسله بالماء فيجوز له التيمم.

السابع والعشرون: أن من جملة أسباب جوازه؛ السفر والإتيان من البول والغائط إذا عدم الماء؛ فالمرض يجوز

الثالث: الأمر بالنية للصلاة؛ لقوله: ﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ﴾؛ أي: بقصدتها ونيتها.

الرابع: اشتراط الطهارة لصحة الصلاة؛ لأن الله أمر بها عند القيام إليها، والأصل في الأمر الوجوب.

الخامس: أن الطهارة لا تجب بدخول الوقت، وإنما تجب عند إرادة الصلاة.

السادس: أن كل ما يطلق عليه اسم الصلاة من الفرض والنفل وفرض الكفاية وصلاة الجنازة تشترط له الطهارة، حتى السجود المجرد عند كثير من العلماء؛ كسجود التلاوة والشكر.

السابع: الأمر بغسل الوجه، وهو ما تحصل به المواجهة من منابت شعر الرأس المعتاد إلى ما انحدر من اللحيين والذقن طولاً ومن الأذن إلى الأذن عرضاً، ويدخل فيه المضمضة والاستنشاق بالسنة، ويدخل فيه الشعور التي فيه، لكن إن كانت خفيفة؛ فلا بد من إيصال الماء إلى البشرة، وإن كانت كثيفة؛ اكتفى بظاهاها.

الثامن: الأمر بغسل اليدين، وأن حدهما إلى المرفقين، و﴿إِلَى﴾ كما قال جمهور المفسرين بمعنى مع؛ كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ إِلَىٰ أَمْوَالِكُمْ﴾ [النساء: ٢٩]، ولأن الواجب لا يتم إلا بغسل جميع المرفق.

التاسع: الأمر بمسح الرأس.

العاشر: أنه يجب مسح جميعه؛ لأن الباء ليست للتبعية، وإنما هي للملاصقة، وأنه يعم المسح بجميع الرأس.

الحادي عشر: أنه يكفي المسح كيفما كان بيديه أو إحدهما أو خرقة أو خشبة أو نحوهما؛ لأن الله أطلق المسح، ولم يقيد بصفة، فدل ذلك على إطلاقه.

الثاني عشر: أن الواجب المسح؛ فلو غسل رأسه ولم يُمسح يده عليه؛ لم يكف؛ لأنه لم يأت بما أمر الله به.

الثالث عشر: الأمر بغسل الرجلين إلى الكعبين، ويقال فيهما ما يقال في اليدين.

الرابع عشر: فيها الرد على الرافضة على قراءة الجمهور بالنصب، وأنه لا يجوز مسحهما دامتا مكشوفتين.

الخامس عشر: فيه الإشارة إلى مسح الخفين على قراءة الجر في ﴿وَأَرْجُلَيْكُمْ﴾، وتكون كل من القراءتين

الحادي والأربعون: أن قوله: ﴿يُجْهِدُكُمْ﴾: شامل لجميع الوجه، وأنه يعمه بالمسح.

إلا أنه معفو عن إدخال التراب في الفم والأنف وفيما تحت الشعور ولو خفيفة.

الثاني والأربعون: أن اليدين تمسحان إلى الكوعين فقط، لأن اليدين عند الإطلاق كذلك؛ فلو كان يشترط إيصال المسح إلى الذراعين؛ لقيده الله بذلك؛ كما قيده في الوضوء.

الثالث والأربعون: أن الآية عامة في جواز التيمم لجميع الأحداث كلها؛ الحدث الأكبر والأصغر، بل ونجاسة البدن؛ لأن الله جعلها بدلاً عن طهارة الماء، وأطلق في الآية، فلم يقيد. وقد يقال: إن نجاسة البدن لا تدخل في حكم التيمم؛ لأن السياق في الأحداث، وهو قول جمهور العلماء.

الرابع والأربعون: أن محل التيمم في الحدث الأصغر والأكبر واحد، وهو الوجه واليدان.

الخامس والأربعون: أنه لو نوى من عليه حدثان التيمم عنهما؛ فإنه يجزئ؛ أخذاً من عموم الآية وإطلاقها.

السادس والأربعون: أنه يكفي المسح بأي شيء كان بيده أو غيرها؛ لأن الله قال: ﴿فَأَمْسَحُوا﴾، ولم يذكر الممسوح به، فدل على جوازه بكل شيء.

السابع والأربعون: اشتراط الترتيب في طهارة التيمم كما يُشترط ذلك في الوضوء، ولأن الله بدأ بمسح الوجه قبل مسح اليدين.

الثامن والأربعون: أن الله تعالى فيما شرعه لنا من الأحكام لم يجعل علينا في ذلك من حرج ولا مشقة ولا عسر، وإنما هو رحمة منه بعباده ليظهرهم وليتم نعمته عليهم، وهذا هو.

التاسع والأربعون: أن طهارة الظاهر بالماء والتراب تكميل لطهارة الباطن بالتوحيد والتوبة النصوح.

الخمسون: أن طهارة التيمم وإن لم يكن فيها نظافة وطهارة تُذكرُ بالحس والمشاهدة؛ فإن فيها طهارة معنوية ناشئة عن امتثال أمر الله تعالى.

الحادي والخمسون: أنه ينبغي للعبد أن يتدبر الحكيم والأسرار في شرائع الله في الطهارة وغيرها؛ ليزداد معرفة

التيمم مع وجود الماء لحصول الضرر به، وبأقيها يجوزه العدم للماء، ولو كان في الحضر.

الثامن والعشرون: أن الخارج من السيلين من بول وغانط ينقض الوضوء.

التاسع والعشرون: استدل بها من قال: لا ينقض الوضوء إلا هذان الأمران؛ فلا يتنقض بلمس الفرج ولا بغيره.

الثلاثون: استحباب التكنية عما يستقذر التلفظ به؛ لقوله تعالى: ﴿أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنْكُم مِّنَ الْغَائِطِ﴾.

الحادي والثلاثون: أن لمس المرأة بلذة وشهوة ناقض للوضوء.

الثاني والثلاثون: اشتراط عدم الماء لصحة التيمم.

الثالث والثلاثون: أنه مع وجود الماء ولو في الصلاة يبطل التيمم؛ لأن الله إنما أباحه مع عدم الماء.

الرابع والثلاثون: أنه إذا دخل الوقت وليس معه ماء؛ فإنه يلزمه طلبه في رحله وفيما قرب منه؛ لأنه لا يقال: لم يجد لمن لم يطلب.

الخامس والثلاثون: أن من وجد ماء لا يكفي بعض طهارته؛ فإنه يلزمه استعماله ثم يتيمم بعد ذلك.

السادس والثلاثون: أن الماء المتغير بالطهارات مقدم على التيمم؛ أي: يكون طهوراً؛ لأن الماء المتغير ماء، فيدخل في قوله: ﴿فَلَمْ يَجِدُوا مَاءً﴾.

السابع والثلاثون: أنه لا بد من نية التيمم؛ لقوله: ﴿فَتَيَمَّمُوا﴾؛ أي: اقصدوا.

الثامن والثلاثون: أنه يكفي التيمم بكل ما تصاعد على وجه الأرض من تراب وغيره، فيكون على هذا قوله: ﴿فَأَمْسَحُوا بِوُجُوْهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِّنْهُ﴾: إما من باب التغليب وأن الغالب أن يكون له غبار يمسح منه ويعلق بالوجه واليدين، وإما أن يكون إرشاداً للأفضل، وأنه إذا أمكن التراب الذي فيه غبار فهو أولى.

التاسع والثلاثون: أنه لا يصح التيمم بالتراب النجس؛ لأنه لا يكون طيباً، بل خبيثاً.

الأربعون: أنه يُمسحُ في التيمم الوجه واليدان فقط دون بقية الأعضاء.

وقوموا بذلك على القريب والبعيد والصديق والعدو. ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ﴾؛ أي: يحملنكم بغض قوم ﴿عَلَىٰ آلَا تَعَدَّلُوا﴾؛ كما يفعله من لا عدل عنده ولا قسط، بل كما تشهدون لوليكم؛ فاشهدوا عليه، وكما تشهدون على عدوك؛ فاشهدوا له، ولو كان كافراً أو مبتدعاً؛ فإنه يجب العدل فيه وقبول ما يأتي به من الحق؛ لأنه حق، لا لأنه قاله، ولا يرد الحق لأجل قوله؛ فإن هذا ظلم للحق. ﴿أَعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾؛ أي: كلما حرصتم على العدل واجتهدتم في العمل به؛ كان ذلك أقرب لتقوى قلوبكم؛ فإن تم العدل؛ كملت التقوى، ﴿إِنَّ اللَّهَ حَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾؛ فمجازيكم بأعمالكم خيرها وشرها، صغيرها وكبيرها جزاءً عاجلاً وأجلاً.

﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿١٧﴾.

﴿١٧﴾ أي: ﴿وَعَدَ اللَّهُ﴾ - الذي لا يخلف الميعاد، وهو أصدق القائلين - المؤمنين به وبكتبه ورسله واليوم الآخر، ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾: من واجبات ومستحبات بالمغفرة لذنوبهم بالعفو عنها وعن عواقبها وبالأجر العظيم الذي لا يعلم عظمه إلا الله تعالى، ﴿فَلَا تَقْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٧].

﴿١٨﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا: الدالة على الحق المبين، فكذبوا بها بعدما أبانت الحقائق. ﴿أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾: الملازمون لها ملازمة الصاحب لصاحبه.

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هُمْ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾.

﴿١٩﴾ يذكر تعالى عباده المؤمنين بنعمه العظيمة، ويحثهم على تذكرها بالقلب واللسان، وأنهم كما أنهم يعدون قتلهم لأعدائهم وأخذ أموالهم وبلادهم وسيبهم نعمة؛ فليعدوا أيضاً إنعامه عليهم بكف أيديهم عنهم ورد كيدهم في نحورهم نعمة؛ فإنهم - الأعداء - قد هموا بأمر، وظنوا أنهم قادرون عليه؛ فإذا لم يدرکوا بالمؤمنين مقصودهم فهو نصر من الله لعباده المؤمنين؛ ينبغي لهم أن يشكروا الله على

وعلمًا ويزداد شكراً لله ومحبّة له على ما شرع من الأحكام التي توصل العبد إلى المنازل العالية الرفيعة.

﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُمْ بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾.

﴿٢٠﴾ يأمر تعالى عباده بذكر نعمه الدينية والدنيوية بقلوبهم وألسنتهم؛ فإن في استدامة ذكرها داعياً لشكر الله تعالى ومحبة وامتناء القلب من إحسانه، وفيه زوال للعجب من النفس بالنعم الدينية وزيادة لفضل الله وإحسانه ﴿وَمِيثَقَهُ﴾؛ أي: واذكروا ميثاقه ﴿الَّذِي وَاثَقَكُمْ بِهِ﴾؛ أي: عهده الذي أخذه عليكم، وليس المراد بذلك أنهم لفظوا ونطقوا بالعهد والميثاق، وإنما المراد بذلك أنهم بإيمانهم بالله ورسوله قد التزموا طاعتها، ولهذا قال: ﴿إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾؛ أي: سمعنا ما دعوتنا به من آياتك القرآنية والكونية سمع فهم وإذعان وانقياد، وأطعنا ما أمرتنا به بالامتثال وما نهيتنا عنه بالاجتناب، وهذا شامل لجميع شرائع الدين الظاهرة والباطنة، وأن المؤمنين يذكرون في ذلك عهد الله وميثاقه عليهم وتكون منهم على بال، ويحرصون على أداء ما أمروا به كاملاً غير ناقص، ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾: في جميع أحوالكم، ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾؛ أي: ما تنطوي عليه من الأفكار والأسرار والخواطر؛ فاحذروا أن يطلع من قلوبكم على أمر لا يرضاه أو يصدر منكم ما يكرهه، واعمروا قلوبكم بمعرفته ومحبة والنصح لعباده؛ فإنكم إن كنتم كذلك غفر لكم السيئات، وضاعف لكم الحسنات لعلمه بصلاح قلوبكم.

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَا نُ قَوْمٍ عَلَىٰ آلَا تَعَدَّلُوا أَعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ حَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾.

﴿٢١﴾ أي: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾: بما أمروا بالإيمان به، قوموا بآلام إيمانكم، بأن تكونوا ﴿قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ﴾: بأن تنشط للقيام بالقسط حركاتكم الظاهرة والباطنة، وأن يكون ذلك القيام لله وحده لا لغرض من الأغراض الدنيوية، وأن تكونوا قاصدين للقسط الذي هو العدل، لا الإفراط ولا التفريط في أقوالكم ولا أفعالكم،

ذلك ويعبدوه ويذكروه، وهذا يشمل كل من هم بالمؤمنين بشر من كافر ومنافق وباغ، كف الله شره عن المسلمين؛ فإنه داخل في هذه الآية. ثم أمرهم بما يستعينون به على الانتصار على عدوهم وعلى جميع أمورهم، فقال: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ (١١)؛ أي: يعتمدوا عليه في جلب مصالحهم الدينية والدنيوية، ويتبرءوا من حولهم وقوتهم، ويشقوا بالله تعالى في حصول ما يحبون، وعلى حسب إيمان العبد يكون توكله، وهو من واجبات القلب المتفق عليها.

﴿وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ (١٢) ﴿فِيمَا نَقُضُهُمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ (١٣)

وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿١٤﴾ يَتَأْتِيهِمُ الَّذِينَ يَأْمُرُوا أَذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْهِمْ إِذْ هُمْ قَوْمٌ أَنْ يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٥﴾ وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿١٦﴾ فِيمَا نَقُضُهُمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٧﴾

(١٢) يخبر تعالى أنه أخذ على بني إسرائيل الميثاق الثقيل المؤكد، وذكر صفة الميثاق وأجرهم إن قاموا به وإثمهم إن لم يقوموا به، ثم ذكر أنهم ما قاموا به، وذكر ما عاقبهم به، فقال: ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾؛ أي: عهدهم المؤكد الغليظ، ﴿وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا﴾؛ أي: رئيساً وعريقاً على من تحته؛ ليكون ناظرًا عليهم حاثًا لهم على القيام بما أمروا به مطالبًا يدعوهم، ﴿وَقَالَ اللَّهُ﴾: للنبلاء الذين تحملوا من الأعباء ما تحملوا: ﴿إِنِّي مَعَكُمْ﴾؛ أي: بالعون والنصر؛ فإن المعونة بقدر المؤنة. ثم ذكر ما واثقهم عليه فقال: ﴿لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ﴾: ظاهرًا وباطنًا بالإتيان بما يلزم وينبغي فيها والمداومة على ذلك، ﴿وَأَتَيْتُمُ الزَّكَاةَ﴾: لمستحقها، ﴿وَأَمَنْتُمْ بِرُسُلِي﴾: جميعهم، الذين أفضلهم وأكملهم محمد ﷺ. ﴿وَعَزَرْتُمُوهُمْ﴾؛ أي: عظمتوهم، وأديتم ما يجب لهم من الاحترام والطاعة، ﴿وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾: وهو الصدقة والإحسان الصادر عن الصدق والإخلاص وطيب المكسب؛ فإذا قمت بذلك ﴿لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾: فجمع لهم بين حصول المحبوب بالجنة وما فيها من النعيم واندفاع المكروه بتكفير السيئات ودفع ما يترتب عليها من العقوبات. ﴿فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ﴾: العهد والميثاق المؤكد بالإيمان والالتزامات المقرون بالترغيب بذكر ثوابه، ﴿فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ (١٣)؛ أي: عن عمد وعلم، فيستحق ما يستحقه الضالون من حرمان الثواب وحصول العقاب.

(١٣) فكانه قيل: ليت شعري! ماذا فعلوا؟ وهل وفوا بما عاهدوا الله عليه أم نكثوا؟ فبين أنهم نقضوا ذلك، فقال: ﴿وَبَيْنَمَا نَقُضُهُمْ مِيثَاقَهُمْ﴾؛ أي: بسببه عاقبناهم بعدة عقوبات:

الأولى: أنا: ﴿لَعَنَّاهُمْ﴾؛ أي: طردناهم وأبعدناهم من رحمتنا، حيث أغلقوا على أنفسهم أبواب الرحمة، ولم يقوموا بالعهد

الذي أخذ عليهم، الذي هو سببها الأعظم.

الثانية: قوله: ﴿وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً﴾؛ أي: غليظة لا تجدي فيها المواعظ ولا تنفعها الآيات والنذر؛ فلا يرغبهم تشويق ولا يزعجهم تخويف، وهذا من أعظم العقوبات على العبد؛ أن يكون قلبه بهذه الصفة التي لا يفيد الهدى والخير إلا شراً.

الثالثة: أنهم ﴿يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ﴾؛ أي: ابتلوا بالتغيير والتبديل، فيجعلون للكلم الذي أراد الله معنى غير ما أراده الله ولا رسوله.

الرابعة: أنهم نسوا ﴿حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ﴾؛ فإنهم ذكروا بالتوراة وبما أنزل الله على موسى فسوا حظاً منه، وهذا شامل لنسيان علمه، وأنهم نسوه وضاع عنهم ولم يوجد كثير مما أنساهم الله إياه عقوبةً منه لهم، وشامل لنسيان العمل الذي هو الترك، فلم يوفقوا للقيام بما أمروا به. ويستدل بهذا على أهل الكتاب بإنكارهم بعض الذي قد ذكر في كتابهم أو وقع في زمانهم أنه مما نسوه.

الخامسة: الخيانة المستمرة التي لا ﴿تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ﴾؛ أي: خيانة لله ولعباده المؤمنين. ومن أعظم الخيانة منهم كتمهم عنّ يعظّمهم ويحسن فيهم الظن الحق، وإيقاؤهم على كفرهم؛ فهذه خيانة عظيمة.

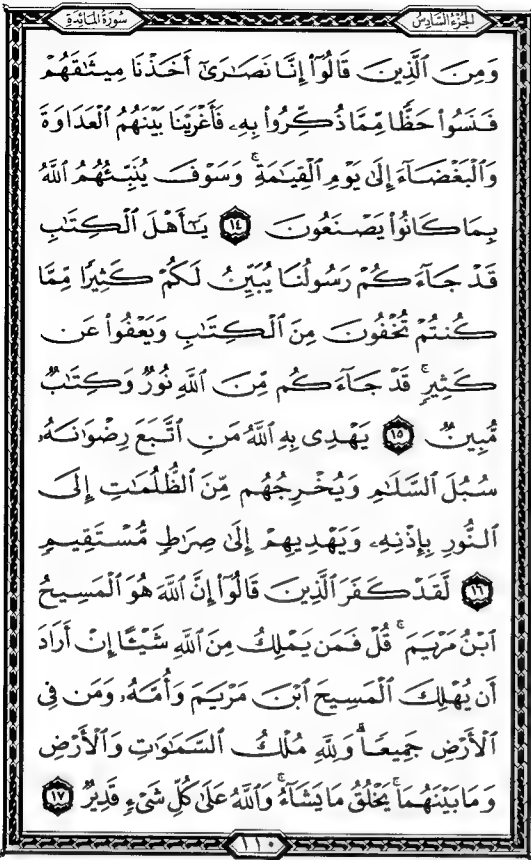
وهذه الخصال الذميمة حاصلة لكل من اتصف بصفاتهم، فكل من لم يقم بما أمر الله به وأخذ به عليه الالتزام؛ كان له نصيب من اللعنة، وقسوة القلب، والابتلاء بتحريف الكلم، وأنه لا يوفق للصواب، ونسيان حظ مما ذكر به، وأنه لا بد أن يتلى بالخيانة، نسأل الله العافية.

وسمى الله تعالى ما ذكروا به حظاً؛ لأنه هو أعظم الحظوظ، وما عداه؛ فإنما هي حظوظ دنيوية؛ كما قال تعالى: ﴿فَرَحَّحَ عَلَيَّ قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ﴾ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَلِيتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَوْمُؤُا إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾ [القصص: ٧٩]، وقال في الحظ النافع: ﴿وَمَا يُقْلِقْهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُقْلِقْهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٢٥﴾﴾ [فصلت: ٣٥].

وقوله: ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ﴾؛ أي: فإنهم وفوا بما عاهدوا الله عليه، فوفقههم وهداهم للصراط المستقيم، ﴿فَاعُفَّ عَنْهُمْ وَأَصْفَحَ﴾؛ أي: لا تراخضهم بما يصدر منهم من الأذى الذي يقتضي أن يعفى عنهم، واصفح فإن ذلك من الإحسان، ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٢﴾﴾؛ والإحسان هو أن تعبد الله كأنك تراه؛ فإن لم تكن تراه؛ فإنه يراك، وفي حق المخلوقين بذل النفع الديني والدنيوي لهم.

﴿وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَرَيْنَا أَخَذْنَا مِيثَقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿١٤﴾﴾.

﴿١٤﴾ أي: وكما أخذنا على اليهود العهد والميثاق؛ فكذلك أخذنا على الذين قالوا: إنا نصارى لعيسى ابن مريم، وزكوا أنفسهم بالإيمان بالله ورسله، وما جاءوا به فتقضوا العهد، ونسوا حظاً مما ذكروا به نسياناً علمياً ونسياناً عملياً، ﴿فَأَغْرَيْنَا



سبل السلام التي يسلم صاحبها من العذاب وتوصله إلى دار السلام، وهو العلم بالحق والعمل به إجمالاً وتفصيلاً. ويخرجهم من ظلمات الكفر والبدعة والمعصية والجهل والغفلة، إلى نور الإيمان والسنة والطاعة والعلم والذكر، وكل هذه من الهداية بإذن الله الذي ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، ﴿وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (١٦).

﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ، وَفِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (١٧) وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبُّهُمْ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ (١٨).

﴿١٧﴾ لما ذكر تعالى أخذ الميثاق على أهل الكتابين وأنهم لم يقوموا به بل نقضوه؛ ذكر أقوالهم الشنيعة، فذكر قول النصارى، القول الذي ما قاله أحد غيرهم، بأن الله هو المسيح ابن مريم، ووجه شبهتهم أنه ولد من غير أب، فاعتقدوا فيه هذا الاعتقاد الباطل، مع أن حواء نظيره، خلقت بلا أم، وآدم أولى منه خلق بلا أب ولا أم؛ فهلا ادعوا فيهما الإلهية كما ادعوا في المسيح! فدل على أن قولهم اتباع هوى من غير برهان ولا شبهة، فرد الله عليهم بأدلة عقلية واضحة، فقال: ﴿قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ، وَفِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾؛ فإذا كان المذكورون لا امتناع عندهم يمنعهم لو أراد الله أن يهلكهم ولا قدرة لهم على ذلك؛ دل على بطلان إلهية من لا يمتنع من الإهلاك ولا في قوته شيء من الفكاك. ومن الأدلة أن لله وحده ﴿مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، يتصرف فيهن بحكمه الكوني والشرعي والجزائي، وهم مملوكون مدبرون؛ فهل يليق أن يكون المملوك العبد الفقير إلهاً معبوداً غنياً من كل وجه؟! هذا من أعظم المحال، ولا وجه لاستغرابهم لخلق المسيح عيسى ابن مريم من غير أب؛ فإن الله ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾؛ إن شاء من أب وأم كسائر بني آدم وإن شاء من أب بلا أم كحواء، وإن شاء من أم بلا أب كعيسى،

يَتَنَّهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ؛ أي: سلطنا بعضهم على بعض، وصار بينهم من الشرور والإحسان ما يقتضي بغض بعضهم بعضاً ومعاداة بعضهم بعضاً إلى يوم القيامة، وهذا أمر مشاهد؛ فإن النصارى لم يزالوا ولا يزالون في بغض وعداوة وشقاق، ﴿وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ (١٩): فيعاقبهم عليه.

﴿يَتَأْهَلُ الْكِتَابُ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْقُو عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ﴾ (٢٠) يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانُكَ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (٢١).

﴿٢٠﴾ لما ذكر تعالى ما أخذه الله على أهل الكتاب من اليهود والنصارى، وأنهم نقضوا ذلك إلا قليلاً منهم؛ أمرهم جميعاً أن يؤمنوا بمحمد ﷺ، واحتج عليهم بأية قاطعة دالة على صحة نبوته، وهي أنه يبين لهم كثيراً مما يخفون عن الناس، حتى عن العوام من أهل ملتهم؛ فإذا كانوا هم المشار إليهم في العلم ولا علم عند أحد في ذلك الوقت إلا ما عندهم؛ فالحريص على العلم لا سبيل له إلى إدراكه إلا منهم؛ فإتيان الرسول ﷺ بهذا القرآن العظيم الذي بين به ما كانوا يتكتمونه بينهم، وهو أُمِّي لا يقرأ ولا يكتب من أدل الدلائل على القطع برسالته، وذلك مثل صفة محمد في كتبهم، ووجود البشائر به في كتبهم، وبيان آية الرجم ونحو ذلك، ﴿وَيَعْقُو عَنْ كَثِيرٍ﴾؛ أي: يترك بيان ما لا تقتضيه الحكمة.

﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ﴾: وهو القرآن يستضاء به في ظلمات الجهالة وعمية الضلالة، ﴿وَكِتَابٌ مُبِينٌ﴾ (٢١): لكل ما يحتاج الخلق إليه من أمور دينهم ودنياهم؛ من العلم بالله وأسمائه وصفاته وأفعاله، ومن العلم بأحكامه الشرعية وأحكامه الجزائية.

﴿٢١﴾ ثم ذكر من الذي يهتدي بهذا القرآن، وما هو السبب - الذي من العبد - لحصول ذلك، فقال: ﴿يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانُكَ سُبُلَ السَّلَامِ﴾؛ أي: يهدي من اجتهد وحرص على بلوغ مرضاة الله وصار قصده حسناً

سورة المائدة

سورة المائدة

وإن شاء من غير أب ولا أم كآدم؛ فنوع خلقته تعالى بمشيئته النافذة التي لا يستعصي عليها شيء، ولهذا قال: ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (١٧).

(١٨) ومن مقالات اليهود والنصارى أن كلا منهما ادعى دعوى باطلة يزكون بها أنفسهم؛ بأن قال كل منهما: ﴿نَحْنُ أَبْنَاؤُ اللَّهِ وَأَحِبُّونَاهُ﴾، والابن في لغتهم هو الحبيب، ولم يريدوا البنية الحقيقية؛ فإن هذا ليس من مذهبهم؛ إلا مذهب النصراني في المسيح. قال الله ردًا عليهم حيث ادعوا بلا برهان: ﴿قَدْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ﴾: فلو كنتم أحبابه؛ ما عذبكم؛ لكون الله لا يحب إلا من قام بمراضيه. ﴿بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِّثْلَ خَلْقٍ﴾: تجري عليكم أحكام العدل والفضل، ﴿يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ﴾: إذا أتوا بأسباب المغفرة أو أسباب العذاب، ﴿وَاللَّهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ (١٩)؛ أي: فأي شيء خصصكم بهذه الفضيلة وأنتم من جملة الممالك ومن جملة من يرجع إلى الله في الدار الآخرة فيجازيكم بأعمالكم.

﴿يَتَأَهَّلُ الْكِتَابُ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فَتْرَةٍ مِّنَ الرُّسُلِ أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِن بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (٢٠).

(٢١) يدعو تبارك وتعالى أهل الكتاب بسبب ما من عليهم من كتابه أن يؤمنوا برسوله محمد ﷺ ويشكروا الله تعالى الذي أرسله إليهم ﴿عَلَى﴾ حين ﴿فَتَرَى مِّنَ الرُّسُلِ﴾ وشدة حاجة إليه وهذا مما يدعو إلى الإيمان به وأنه يبين لهم جميع المطالب الإلهية والأحكام الشرعية، وقد قطع الله بذلك حجتهم؛ لثلا يقولوا: ﴿مَا جَاءَنَا مِن بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ﴾: ييسر بالثواب العاجل والأجل وبالأعمال الموجبة لذلك وصفة العاملين بها، وينذر بالعقاب العاجل والأجل بالأعمال الموجبة لذلك وصفة العاملين بها. ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (٢٢)؛ انقادت الأشياء طوعًا وإذعانًا لقدرته؛ فلا يستعصي عليه شيء منها، ومن قدرته أن أرسل الرسل وأنزل الكتب، وأنه يثيب من أطاعهم، ويعاقب من عصاهم.

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَتَقَوَّمُ أَدَّكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ﴾ (٢٣) يَتَقَوَّمُ أَدَّكُرُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ ﴿إِلَى آخِرِ الْقِصَّةِ﴾.

(٢٤) لما امتن الله على موسى وقومه بنجاتهم من فرعون وقومه وأسرهم واستعبادهم؛ ذهبوا قاصدين لأوطانهم ومساكنهم، وهي بيت المقدس وما حوالیه، وقاربوا وصول بيت المقدس، وكان الله قد فرض عليهم جهاد عدوهم ليخرجوه من ديارهم، فوعظهم موسى عليه السلام وذكرهم ليقدموا على الجهاد، فقال: ﴿أَذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾: بقلوبكم وألستكم؛ فإن ذكرها داع إلى محبته تعالى ومنشط على العبادة، ﴿إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ﴾: يدعونكم إلى الهدى ويحذرونكم من الردى، ويحثونكم على سعادتك الأبدية، ويعلمونكم ما لم تكونوا تعلمون، ﴿وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا﴾: تملكون أمركم بحيث إنه زال عنكم استعباد عدوكم لكم فكنتم تملكون أمركم، وتتمكنون من إقامة دينكم، ﴿وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ﴾ (٢٥)؛ فإنهم - في ذلك الزمان - خيرة الخلق وأكرمهم على الله، وقد أنعم عليهم بنعم ما كانت لغيرهم، فذكرهم بالنعم الدينية والدنيوية، الداعي ذلك لإيمانهم وثباته، وثباتهم على الجهاد وإقدامهم عليه.

سورة المائدة

سورة المائدة

قَالُوا يَكُونُ مِنَّا لَوْ نَدَخُلُهَا أَيْدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَأَذْهَبَ
 أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَتَلَا إِنَّا هُنَا قَاعِدُونَ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ
 إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَافَرَّقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ
 الْفَاسِقِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَ فَإِنَّا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً
 يَكُونُ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ
 ﴿٢٦﴾ وَآتَلَ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا
 فَتَقَبَّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ
 قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ لَئِن بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ
 لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لَأَقْتُلَنَّكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ
 رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٨﴾ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ نَبْنِي بُيُوتًا لِتَتَنَزَّلَ فِيهَا
 مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَطَوَّعَتْ
 لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٣٠﴾
 فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي
 سَوْءَ أَخِيهِ قَالَ يُوَارِيهِ أَصْحَرْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا
 الْغُرَابِ فَأُوَارِي سَوْءَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ ﴿٣١﴾

﴿٢١﴾ ولهذا قال: ﴿يَكُونُ أَدْخُلُوا الْأَرْضَ الْمَقْدَسَةَ﴾؛ أي: المطهرة ﴿الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾: فأخبرهم خبراً تطمئن به أنفسهم إن كانوا مؤمنين مصدقين بخبر الله، وأنه قد كتب الله لهم دخولها وانتصارهم على عدوهم، ﴿وَلَا تَزِدُوا﴾؛ أي: ترجعوا ﴿عَلَّ أَدْبَارُكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ﴾ ﴿٢٢﴾: قد خسرتكم دنياكم بما فاتكم من النصر على الأعداء وفتح بلادكم، وأخرتكم بما فاتكم من الثواب وما استحققتكم بمعصيتكم من العقاب.

﴿٢٣﴾ فقالوا قولاً يدل على ضعف قلوبهم وخور نفوسهم وعدم اهتمامهم بأمر الله ورسوله: ﴿يَكُونُ إِنَّا فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ﴾: شديدي القوة والشجاعة؛ أي: فهذا من الموانع لنا من دخولها، ﴿وَأِنَّا لَنَ نَدْخُلُهَا حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ﴾ ﴿٢٤﴾: وهذا من الجبن وقلة اليقين، وإلا؛ فلو كان معهم رشدهم؛ لعلموا أنهم كلهم من بني آدم، وأن القوي من أعانه الله بقوة من عنده؛ فإنه لا حول ولا قوة إلا بالله، ولعلموا أنهم سينصرون عليهم إذ وعدهم الله بذلك وعداً خاصاً.

﴿٢٥﴾ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ ﴿٢٦﴾: الله تعالى؛ مشجعين لقومهم، منهضين لهم على قتال عدوهم واحتلال بلادهم ﴿أَنعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا﴾: بالتوفيق وكلمة الحق في هذا الموطن المحتاج إلى مثل كلامهم، وأنعم عليهم بالصبر واليقين، ﴿أَدْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَالْكُم مِّنْ خَلْفِهِمْ﴾؛ أي: ليس بينكم وبين نصركم عليهم إلا أن تجزئوا عليهم وتدخلوا عليهم الباب، فإذا دخلتموه عليهم؛ فإنهم سينهزمون. ثم أمرهم بعدة هي أقوى العدد، فقالا: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾ ﴿٢٧﴾: فإن في التوكل على الله، وخصوصاً في هذا الموطن، تيسيراً للأمر ونصراً على الأعداء. ودل هذا على وجوب التوكل، وعلى أنه بحسب إيمان العبد يكون توكله.

﴿٢٨﴾ فلم ينجع فيهم هذا الكلام، ولا نفع فيهم الملام، فقالوا قول الأذلين: ﴿يَكُونُ إِنَّا لَنَ نَدْخُلُهَا أَيْدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَأَذْهَبَ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَتَلَا إِنَّا هُنَا قَاعِدُونَ﴾ ﴿٢٩﴾: فما أشنع هذا الكلام منهم، ومواجهتهم لنبيهم فيه في هذا المقام الحرج الضيق، الذي قد دعت الحاجة والضرورة إلى نصرته نبيهم وإعزاز أنفسهم! وبهذا وأمثاله يظهر التفاوت بين سائر الأمم وأمة محمد ﷺ؛ حيث قال الصحابة لرسول الله ﷺ حين شاورهم في القتال يوم بدر، مع أنه لم يحتم عليهم: يا رسول الله! لو خضت بنا هذا البحر؛ لخضناه معك، ولو بلغت بنا برك الغماد؛ ما تخلف عنك أحد، ولا نقول كما قال قوم موسى لموسى: ﴿فَأَذْهَبَ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَتَلَا إِنَّا هُنَا قَاعِدُونَ﴾ ﴿٣٠﴾، ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون من بين يدك ومن خلفك وعن يمينك وعن يسارك^(١).

﴿٣١﴾ فلما رأى موسى عليه السلام عتوهم عليه: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي﴾؛ أي: فلا يدان لنا بقتالهم ولست بجبار على هؤلاء، ﴿فَافَرَّقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ ﴿٣٢﴾؛ أي: احكم بيننا وبينهم بأن تنزل فيهم من العقوبة ما اقتضته حكمتك. ودل ذلك على أن قولهم وفعلهم من الكبائر العظيمة الموجبة للفسق.

ذلك العمل؛ بأن يكون عملهم خالصاً لوجه الله، متبعين فيه لسنة رسول الله ﷺ.

﴿٢٨﴾ ثم قال له مخبراً أنه لا يريد أن يتعرض لقتله لا ابتداءً ولا مدافعةً، فقال: ﴿لَيْنَ بَسَطْتَ لَكَ يَدَكَ لِنَقْلَتِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِي إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ﴾، وليس ذلك جبناً مني ولا عجزاً، وإنما ذلك لأنني ﴿أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾، والخائف لله لا يقدم على الذنوب، خصوصاً الذنوب الكبار. وفي هذا تخويف لمن يريد القتل، وأنه ينبغي لك أن تتقي الله وتخافه.

﴿٢٩﴾ ﴿إِنِّي أُرِيدُ أَنْ نَبْنُوَ﴾؛ أي: ترجع ﴿إِلَيْنِي وَإِنَّمَا﴾؛ أي: إنه إذا دار الأمر بين أن أكون قاتلاً أو تقتلني، فإني أؤثر أن تقتلني فتبوء بالوزرين، ﴿فَتَكُونُ مِنَ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ﴾. دل هذا على أن القتل من كبائر الذنوب، وأنه موجب لدخول النار.

﴿٣٠﴾ فلم يرتدع ذلك الجاني، ولم ينزجر، ولم يزل يعزم نفسه ويجزمها، حتى طوعت له قتل أخيه الذي يقتضي الشرع والطبع احترامه، ﴿فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾. دنياهم وآخرتهم، وأصبح قد سن هذه السنة لكل قاتل، ومن سن سنة سيئة؛ فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة، ولهذا ورد في الحديث الصحيح: أنه «ما من نفس تقتل؛ إلا كان على ابن آدم الأول شطر من دمها؛ لأنه أول من سن القتل»^(١).

﴿٣١﴾ فلما قتل أخاه؛ لم يدر كيف يصنع به؛ لأنه أول ميت مات من بني آدم، ﴿فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ﴾؛ أي: يشير لها ليدفن غراباً آخر ميتاً. ﴿لِيُرِيَهُ﴾؛ بذلك ﴿كَيْفَ يُؤَدِّي سَوْءَ أَخِيهِ﴾؛ أي: بدنه؛ لأن بدن الميت يكون عورة، ﴿فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ﴾. وهكذا عاقبة المعاصي الندامة والخسارة.

﴿مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ﴾.

(١) البخاري (٣٣٣٥)، مسلم (١٦٧٧).

﴿قَالَ﴾ الله مجيباً لدعوة موسى: ﴿فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ﴾؛ أي: إن من عقوبتهم أن نحرم عليهم دخول هذه القرية التي كتبها الله لهم مدة أربعين سنة، وتلك المدة أيضاً يتيهون في الأرض، لا يهتدون إلى طريق ولا ييقنون مطمئنين. وهذه عقوبة دنيوية؛ لعل الله تعالى كفر بها عنهم ودفع عنهم عقوبة أعظم منها. وفي هذا دليل على أن العقوبة على الذنب قد تكون بزوال نعمة موجودة أو دفع نعمة قد انعقد سبب وجودها، أو تأخرها إلى وقت آخر، ولعل الحكمة في هذه المدة أن يموت أكثر هؤلاء الذين قالوا هذه المقالة الصادرة عن قلوب لا صبر فيها ولا ثبات، بل قد ألقت الاستعباد لعدوها ولم تكن لها همم ترفيها إلى ما فيه ارتقاؤها وعلوها، ولتظهر ناشئة جديدة تربى عقولهم على طلب قهر الأعداء وعدم الاستعباد والذل المانع من السعادة. ولما علم الله تعالى أن عبده موسى في غاية الرحمة على الخلق خصوصاً قومه، وأنه ربما رق لهم واحتملته الشفقة على الحزن عليهم في هذه العقوبة أو الدعاء لهم بزوالها، مع أن الله قد حتمها؛ قال: ﴿فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْرِ أَلْفَسِقِينَ﴾؛ أي: لا تأسف عليهم ولا تحزن؛ فإنهم قد فسقوا، وفسقهم اقتضى وقوع ما نزل بهم لا ظلماً منا.

﴿وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنِ آدَمَ بِالْحَقِّ﴾ إلى آخر القصة.

﴿٧﴾ أي: قص على الناس وأخبرهم بالقضية التي جرت على ابني آدم بالحق تلاوة يعتبر بها المعتبرون صدقاً لا كذباً وجداً لا لعباً. والظاهر أن ابني آدم هما ابناه لصلبه؛ كما يدل عليه ظاهر الآية والسياق، وهو قول جمهور المفسرين؛ أي: اتل عليهم نبأهما في حال تقرييهما للقربان الذي أداهما إلى الحال المذكورة، ﴿إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا﴾؛ أي: أخرج كل منهما شيئاً من ماله لقصد التقرب إلى الله، ﴿فَقَبِلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ﴾؛ بأن علم ذلك بخبر من السماء أو بالعادة السابقة في الأمم أن علامة تقبل الله للقربان أن تنزل نار من السماء فتحرقه. ﴿قَالَ﴾ الابن الذي لم يتقبل منه للآخر حسداً وبغياً: ﴿لَأَقْتُلَنَّكَ﴾ فقال له الآخر مترقفاً له في ذلك: ﴿إِنَّمَا يَقْبَلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾؛ أي: فأي ذنب لي وجناية توجب لك أن تقتلني إلا أنني اتقيت الله تعالى الذي تقواه واجبة علي وعليك وعلى كل أحد. وأصبح الأقوال في تفسير ﴿الْمُتَّقِينَ﴾؛ هنا؛ أي: المتقين لله في

﴿٢٢﴾ يقول تعالى: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ﴾: الذي ذكرناه في قصة

ابني آدم وقتل أحدهما أخاه وسنه القتل لمن بعده وأن القتل عاقبته وخيمة وخسار في الدنيا والآخرة؛ ﴿كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾: أهل الكتب السماوية ﴿أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ﴾؛ أي: بغير حق ﴿فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا﴾؛ لأنه ليس معه داع يدعو إلى التبيين وأنه لا يقدم على القتل إلا بحق، فلما تجرأ على قتل النفس التي لم تستحق القتل؛ علم أنه لا فرق عنده بين هذا المقتول وبين غيره، وإنما ذلك بحسب ما تدعوه إليه نفسه الأمارة بالسوء، فنجروه على قتله كأنه قتل الناس جميعاً، وكذلك من أحياناً نفساً؛ أي: استبقى أحداً فلم يقتله مع دعاء نفسه له إلى قتله، فمنعه خوف الله تعالى من قتله؛ فهذا كأنه أحياناً الناس جميعاً؛ لأن ما معه من الخوف يمنعه من قتل من لا يستحق القتل. ودلت الآية على أن القتل يجوز بأحد أمرين: إما أن يقتل نفساً بغير حق متعمداً في ذلك؛ فإنه يحل قتله إن كان مكلفاً مكافئاً ليس بوالد للمقتول، وإما أن يكون مفسداً في الأرض يفسده لأديان الناس أو أبدانهم أو أموالهم؛ كالكفار المرتدين والمحاربين والدعاة إلى البدع الذين لا ينكف شرمهم إلا بالقتل، وكذلك قطاع الطرق ونحوهم ممن يصول على الناس لقتلهم أو أخذ أموالهم. ﴿وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ أَهْلِ الْبَيْتِ﴾: أي: من الناس ﴿بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾: البيان القاطع للحجة، الموجب للاستقامة في الأرض ﴿لَمُسْرِفُونَ﴾: في العمل بالمعاصي ومخالفة الرسل الذين جاءوا بالبينات والحجج.

﴿إِنَّمَا جَرَأُوا الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خَلْفٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ﴾: ذلك لهم جزئ في الدنيا ولهم في الآخرة عذاب عظيم ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

﴿٢٣﴾ المحاربون لله ورسوله هم الذين بارزوه بالعداوة وأفسدوا في الأرض بالكفر والقتل وأخذ الأموال وإخافة السبل، والمشهور أن هذه الآية الكريمة في أحكام قطاع الطريق الذين يعرضون للناس في القرى والبوادي فيغصبونهم أموالهم ويقتلونهم ويخيفونهم، فيمتنع الناس من سلوك الطريق التي هم بها، فتنتقطع بذلك. فأخبر الله أن جزاءهم ونكالهم عند إقامة الحد عليهم أن يفعل بهم واحد من هذه الأمور.

واختلف المفسرون هل ذلك على التخيير، وأن كل قاطع طريق يفعل به الإمام أو نائبه ما رآه المصلحة من هذه الأمور المذكورة، وهذا ظاهر اللفظ، أو أن عقوبتهم تكون بحسب جرائمهم؛ فكل جريمة لها قسط يقابلها؛ كما تدل عليه الآية بحكمته وموافقتها لحكمة الله تعالى، وأنهم إن قتلوا وأخذوا مالا؛ تحتم قتلهم وصلبهم، حتى يشتهروا ويختزوا ويرتدع غيرهم، وإن قتلوا ولم يأخذوا مالا؛ تحتم قتلهم فقط، وإن أخذوا مالا ولم يقتلوا؛ تحتم أن تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف؛ اليد اليمنى، والرجل اليسرى، وإن أخافوا الناس، ولم يقتلوا، ولا أخذوا مالا؛ نفوا من الأرض، فلا يتركون يأوون في بلد حتى تظهر توبتهم. وهذا قول ابن عباس رضي الله عنه وكثير من الأئمة على اختلاف في بعض التفاصيل. ﴿ذَٰلِكَ﴾ النكال

سورة المائدة

المائدة

مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ أَهْلِ الْبَيْتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ بَعْدَ ذَٰلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ ﴿٢٢﴾ إِنَّمَا جَرَأُوا الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خَلْفٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَٰلِكَ لَهُمْ جزئ في الدنيا ولهم في الآخرة عذاب عظيم ﴿٢٣﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٢٤﴾ يَتَأَيَّاهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا تَوَاتَوْا لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لِيَفْقَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَمَةِ مَا نُقِيلْ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٦﴾

١١٢

ثم خص تبارك وتعالى من العبادات المقربة إليه الجهاد في سبيله، وهو بذل الجهد في قتال الكافرين بالمال والنفس والرأي واللسان والسعي في نصر دين الله بكل ما يقدر عليه العبد؛ لأن هذا النوع من أجل الطاعات وأفضل القربات، ولأن من قام به؛ فهو على القيام بغيره أخرى وأولى، ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (٣٥) : إذا اتقيتم الله بترك المعاصي، وابتغيتم الوسيلة إلى الله بفعل الطاعات، وجاهدتم في سبيله ابتغاء مرضاته. والفلاح هو الفوز والظفر بكل مطلوب مرغوب والنجاة من كل مرهوب؛ فحقيقته السعادة الأبدية والنعيم المقيم.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَيَفْقَدُوهُ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا تُقْبَلُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (٣٦) يُؤِيدُونَ أَن يُخْرَجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِمٌ﴾ (٣٧).

(٣٦)، (٣٧) يخبر تعالى عن شناعة حال الكافرين بالله يوم القيامة ومآلهم الفظيع، وأنهم لو اقتدوا من عذاب الله بملء الأرض ذهبًا، ومثله معه ما تقبل منهم ولا أفاد؛ لأن محل الاقتداء قد فات ولم يبق إلا العذاب الأليم الموجه الدائم الذي لا يخرجون منه أبدًا، بل هم ماكثون فيه سرمداً.

﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (٣٨) فَن تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (٣٩) أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (٤٠).

(٣٨) السارق: هو من أخذ مال غيره المحترم خفية بغير رضاه، وهو من كباثر الذنوب الموجبة لترتب العقوبة الشنيعة، وهو قطع اليد اليمنى؛ كما هو في قراءة بعض الصحابة، وحده اليد عند الإطلاق من الكوع؛ فإذا سرق؛ قطعت يده من الكوع وحسمت في زيت لتسند العروق فيقف الدم. ولكن السنة قيدت عموم هذه الآية من عدة أوجه: منها الحرز؛ فإنه لا بد أن تكون السرقة من حرز، وحرز كل مال ما يحفظ به عادة؛ فلو سرق من غير حرز؛ فلا قطع عليه. ومنها: أنه لا بد أن يكون المسروق نصيبًا، وهو ربع دينار أو ثلاثة دراهم أو ما يساوي أحدهما؛ فلو سرق دون ذلك فلا قطع

﴿لَهُمْ جَزَاءٌ فِي الدُّنْيَا﴾؛ أي: فضيحة وعار، ﴿وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (٣٩) : فدل هذا أن قطع الطريق من أعظم الذنوب، موجب لفضيحة الدنيا وعذاب الآخرة، وأن فاعله محارب لله ولرسوله. وإذا كان هذا شأن عظم هذه الجريمة؛ علم أن تطهير الأرض من المفسدين وتأمين السبل والطرق عن القتل وأخذ الأموال وإخافة الناس من أعظم الحسنات وأجل الطاعات، وأنه إصلاح في الأرض؛ كما أن ضده إفساد في الأرض.

﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَن تَقْدُرُوا عَلَيْهِمْ﴾؛ أي: من هؤلاء المحاربين. ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَفُوٌّ رَحِيمٌ﴾ (٤٠) : أي: فيسقط عنه ما كان لله من تحتم القتل والصلب والقطع والنفي ومن حق الأدمي أيضًا إن كان المحارب كافرًا ثم أسلم؛ فإن كان المحارب مسلمًا فإن حق الأدمي لا يسقط عنه من القتل وأخذ المال، ودل مفهوم الآية على أن توبة المحارب بعد القدرة عليه أنها لا تسقط عنه شيئًا، والحكمة في ذلك ظاهرة، وإذا كانت التوبة قبل القدرة عليه تمنع من إقامة الحد في الحرابة؛ فغيرها من الحدود إذا تاب من فعلها قبل القدرة عليه من باب أولى.

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (٤١).

(٤١) هذا أمر من الله لعباده المؤمنين بما يقتضيه الإيمان من تقوى الله والحذر من سخطه وغضبه، وذلك بأن يجتهد العبد ويبدل غاية ما يمكنه من المقدور في اجتناب ما يسخطه الله من معاصي القلب واللسان والجوارح الظاهرة والباطنة، ويستعين بالله على تركها لينجو بذلك من سخط الله وعذابه. ﴿وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ﴾؛ أي: القرب منه والحظوة لديه والحب له، وذلك بأداء فرائضه القلبية كالحب له وفيه، والخوف والرجاء والإنابة والتوكل، والبدينية كالزكاة والحج، والمركبة من ذلك كالصلاة ونحوها من أنواع القراءة والذكر، ومن أنواع الإحسان إلى الخلق بالمال والعلم والجاه والبدن والنصح لعباد الله؛ فكل هذه الأعمال تقرب إلى الله، ولا يزال العبد يتقرب بها إلى الله حتى يحبه؛ فإذا أحبه؛ كان سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، ويستجيب الله له الدعاء.

٤١) كان الرسول ﷺ من شدة حرصه على الخلق يشد حزنه لمن يظهر الإيمان ثم يرجع إلى الكفر، فأرشده الله تعالى إلى أنه لا يأسى ولا يحزن على أمثال هؤلاء؛ فإن هؤلاء لا في العير ولا في النفير؛ إن حضروا لم ينفعوا، وإن غابوا لم يفقدوا، ولهذا قال مبيناً للسبب الموجب لعدم الحزن عليهم، فقال: ﴿مِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا بَأْفُوهُمْ ۖ وَكُرْ تَوَاسٍ قُلُوبُهُمْ﴾؛ فإن الذين يؤسى ويحزن عليهم من كان معدوداً من المؤمنين، وهم المؤمنون ظاهراً وباطناً، وحاشا لله أن يرجع هؤلاء عن دينهم

سورة المائدة

الآيات ٢٧-٢٨

سَمِعْتُمْ لِلْكَذِبِ أَكْثَرُونَ لِلْحَقِّ فَإِنْ جَاءَكُمْ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِنْ تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَكَنْ يَضُرُّكَ شَيْئًا وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿٢٧﴾ وَكَيْفَ يُحْكِمُكَ وَعِنْدَهُمُ التَّوْرَةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٨﴾ إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يُحْكَمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَابُ يَسْتَحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلَا تَخْشَوُا النَّكَاسَ وَأَخْشَوْنَ وَلَا تَشْتَرُوا بِإِيتَانِي سُنًّا قَلِيلًا وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴿٢٩﴾ وَكُنَّا عَلَيْنَهُمْ فِيهَا أَنْ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٣٠﴾

١١٥

ويرتدوا؛ فإن الإيمان إذا خالطت بشاشته القلوب؛ لم يعدل به صاحبه غيره ولم يبع به بدلاً. ﴿وَمَنْ أَلَّيْنِ هَادُوا﴾ أي: اليهود، ﴿سَمِعْتُمْ لِلْكَذِبِ سَمِعْتُمْ لِقَوْلِهِ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ﴾ أي: مستجيون ومقلدون لرؤسائهم المبني أمرهم على الكذب والضلال والغي. وهؤلاء الرؤساء المتبوعون ﴿لَمْ يَأْتُوكَ﴾ بل أعرضوا عنك وفرحوا بما عندهم من الباطل. وهو تحريف الكلم عن مواضعه؛ أي: جلب معانٍ للالفاظ ما أرادها الله، ولا قصدها؛ لإضلال الخلق ولدفع الحق؛ فهؤلاء المنقادون للدعاة إلى الضلال المتبعين للمحال الذين يأتون بكل كذب لا عقول لهم ولا همم؛ فلا تبال أيضاً إذا لم يتبعوك؛ لأنهم في غاية النقص، والناقص لا يؤبه له ولا يبالى به. ﴿يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا﴾ أي: هذا قولهم عند محاكمتهم إليك، لا قصد لهم إلا اتباع الهوى، يقول بعضهم لبعض: إن حكم لكم محمد بهذا الحكم الذي يوافق هواكم؛ فاقبلوا حكمه، وإن لم يحكم لكم به؛ فاحذروا أن تتابعوه على ذلك، وهذا فتنة واتباع ما تهوى الأنفس. ﴿وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا﴾ كقوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [القصص: ٥٦]، ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِمْ قُلُوبَهُمْ﴾ أي: فلذلك صدر منهم ما صدر.

فدل ذلك على أن من كان مقصوده بالتحاكم إلى الحكم الشرعي اتباع هواه، وأنه إن حكم له رضي، وإن لم يحكم له سخط؛ فإن ذلك من عدم طهارة قلبه؛ كما أن من حاكم وتحاكم إلى الشرع، ورضي به وافق هواه أو خالفه؛ فإنه من طهارة القلب، ودل على أن طهارة القلب سبب لكل خير، وهو أكبر داع إلى كل قول رشيد وعمل سديد. ﴿لَهُمْ فِي الدُّنْيَا جَزَاءٌ﴾ أي: فضيحة وعار، ﴿وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ ﴿٣١﴾ هو النار وسخط الجبار.

﴿سَمِعْتُمْ لِلْكَذِبِ﴾ والسمع هنا سمع استجابة؛ أي: من قلة دينهم وعقلهم أن استجابوا لمن دعاهم إلى القول بالكذب، ﴿أَكْثَرُونَ لِلْحَقِّ﴾ أي: المال الحرام بما يأخذونه على سفلتهم وعوامهم من المعلومات والرواتب التي بغير الحق، فجمعوا بين اتباع الكذب وأكل الحرام. ﴿فَإِنْ جَاءَكُمْ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾؛ فأنت مخير في ذلك، وليست هذه منسوخة؛ فإنه عند تحاكم هذا الصنف إليه يخير بين أن يحكم بينهم أو يعرض عن الحكم بينهم؛ بسبب أنه لا قصد لهم في الحكم الشرعي إلا أن يكون موافقاً لأهوائهم.

وعلى هذا؛ فكل مستفت وتحاكم إلى عالم يعلم من حاله أنه إن حكم عليه لم يرض؛ لم يجب الحكم ولا الإفتاء لهم؛ فإن حكم بينهم؛ وجب أن يحكم بالقسط. ولهذا قال: ﴿وَإِنْ تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَكَنْ يَضُرُّكَ شَيْئًا وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ ﴿٣٢﴾: حتى ولو كانوا ظلمة وأعداء؛ فلا يمنعك ذلك من العدل في الحكم بينهم. وفي هذا بيان فضيلة العدل والقسط في الحكم بين الناس، وأن الله تعالى يحبه.

﴿ثُمَّ قَالَ مُتَعَجِّبًا مِنْهُمْ﴾ ﴿وَكَيْفَ يُحْكِمُكَ وَعِنْدَهُمُ التَّوْرَةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿٣٣﴾؛ فإنهم لو كانوا مؤمنين عاملين بما يقتضيه الإيمان ويوجبه؛ لم يصدفوا عن حكم الله الذي في التوراة التي بين أيديهم إلا لعلهم أن يجدوا عندك ما يوافق أهواءهم، وحين حكمت بينهم بحكم الله الموافق لما عندهم أيضاً؛ لم

العلم؛ سلموا ونجوا، وأما أهل العلم؛ فكما أنهم مطالبون بالقيام بما عليهم أنفسهم فإنهم مطالبون أن يعلموا الناس، وينبوههم على ما يحتاجون إليه من أمور دينهم، خصوصاً الأمور الأصولية، والتي يكثر وقوعها، وألاً يخشوا الناس، بل يخشون ربهم، ولهذا قال: ﴿فَلَا تَخْشَوْا أَلَنَاسَ وَأَخْشَوْا وَلَا تَشْرَوْا بِمَا بَيْنِي تَمَنَّا قَلِيلًا﴾؛ فتكتموا الحق، وتظهروا الباطل لأجل متاع الدنيا القليل.

وهذه الآفات إذا سلم منها العالم؛ فهو من توفيقه وسعاده؛ بأن يكون همه الاجتهاد في العلم والتعليم، ويعلم أن الله قد استحفظه بما أودعه من العلم واستشده عليه، وأن يكون خائفاً من ربه، ولا يمنعه خوف الناس وخشيتهم من القيام بما هو لازم له، وألاً يؤثر الدنيا على الدين؛ كما أن علامة شقاوة العالم أن يكون مخلصاً للبطالة، غير قائم بما أمر به، ولا مبالٍ بما استحفظ عليه، قد أهمله وأضاعه، قد باع الدين بالدنيا، قد ارتشى في أحكامه، وأخذ المال على فتاويه، ولم يعلم عباد الله إلا بأجرة وجعالة؛ فهذا قد من الله عليه بمنة عظيمة كفرها، ودفع حظاً جسيماً محروماً منه غيره، فنسألك اللهم علماً نافعاً وعملاً متقبلاً، وأن ترزقنا العفو والعافية من كل بلاء ياكريم.

﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾: من الحق المبين، وحكم بالباطل الذي يعلمه لغرض من أغراضه الفاسدة؛ ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ (٤٤)؛ فالحكم بغير ما أنزل الله، من أعمال أهل الكفر، وقد يكون كفراً يَنقُطُ عن الملة، وذلك إذا اعتقد حله وجوازه، وقد يكون كبيراً من كبائر الذنوب، ومن أعمال الكفر؛ قد استحق من فعله العذاب الشديد.

﴿وَكُنَّا عَلَيْهِمْ نِهًا أَنْ تَلْفَسَ بِالنَّفْسِ وَالتَّنْفِيسِ وَالْعَيْنِ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفِ بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنُ بِالْأُذُنِ وَاللِّسَنُ بِاللِّسَنِ وَالْجُرُوحُ قِصَاصٌ فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ (٤٥).

﴿٤٥﴾ هذه الأحكام من جملة الأحكام التي في التوراة، يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا والربانيون والأحبار؛ فإن الله أوجب عليهم أن النفس إذا قتلت تقتل بالنفس بشرط العمد والمكافأة، والعين تقلع بالعين، والأذن تؤخذ بالأذن، والسن تنزع بالسن، ومثل هذه ما أشبهها من

يرضوا بذلك، بل أعرضوا عنه، فلم يرتضوه أيضاً. قال تعالى: ﴿وَمَا أَوْلَيْكَ﴾: الذين هذا صنيعهم، بمؤمنين؛ أي: ليس هذا دأب المؤمنين، وليسوا حريين بالإيمان؛ لأنهم جعلوا ألهتهم أهواءهم، وجعلوا أحكام الإيمان تابعة لأهوائهم.

﴿إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَةَ﴾: على موسى بن عمران عليه الصلاة والسلام ﴿فِيهَا هُدًى﴾: يهدي إلى الإيمان والحق ويعصم من الضلالة، ﴿وَنُورٌ﴾ يستضاء به في ظلم الجهل والحيرة والشكوك والشبهات والشهوات؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيكَةَ ذِكْرِكَ لِّلْمُتَّقِينَ﴾ (٤٨) [الأنبياء: ٤٨]، ﴿يَحْكُمُ بَيْنَ﴾ - بين الذين هادوا؛ أي: اليهود، في القضايا والفتاوى - ﴿الَّذِينَ اسْلَمُوا﴾ لله وانقادوا لأوامره، الذين إسلامهم أعظم من إسلام غيرهم، وهم صفوة الله من العباد؛ فإذا كان هؤلاء النبيون الكرام والسادة للأنام، قد اقتدوا بها، واتسموا، ومشوا خلفها؛ فما الذي منع هؤلاء الأراذل من اليهود من الاقتداء بها؟ وما الذي أوجب لهم أن ينبذوا أشرف ما فيها من الإيمان بمحمد ﷺ الذي لا يقبل عمل ظاهر وباطن إلا بتلك العقيدة؟! هل لهم إمام في ذلك؟! نعم؛ لهم أئمة دأبهم التحريف وإقامة رياستهم ومناصبهم بين الناس والتأكل بكتمان الحق وإظهار الباطل، أولئك أئمة الضلال الذين يدعون إلى النار. وقوله: ﴿وَالرَّيْبِيِّونَ وَالْأَحْبَارُ﴾؛ أي: وكذلك يحكم بالتوراة للذين هادوا أئمة الدين من الربانيين؛ أي: العلماء العاملين المعلمين، الذين يربون الناس بأحسن تربية، ويسلكون معهم مسلك الأنبياء المشفقين، والأحبار؛ أي: العلماء الكبار الذين يقتدى بأقوالهم وترمق آثارهم ولهم لسان الصدق بين أممهم.

وذلك الحكم الصادر منهم الموافق للحق ﴿بِمَا اسْتَحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ﴾؛ أي: بسبب أن الله استحفظهم على كتابه، وجعلهم أمناء عليه، وهو أمانة عندهم، أوجب عليهم حفظه من الزيادة والنقصان والكتمان وتعليمه لمن لا يعلمه، وهم شهداء عليه بحيث إنهم المرجوع إليهم فيه وفيما اشبه على الناس منه؛ فالله تعالى قد حمل أهل العلم ما لم يحمله الجهال، فيجب عليهم القيام بأعباء ما حملوا، وألاً يقتصدوا بالجهال بالإخلاد إلى البطالة والكسل، وألاً يقتصروا على مجرد العبادات القاصرة من أنواع الذكر والصلاة والزكاة والحج والصوم ونحو ذلك من الأمور التي إذا قام بها غير أهل

الْقُرْآنُ الْعَظِيمُ

سُورَةُ الْمَائِدَةِ

الأطراف التي يمكن الاقتصاص منها بدون حيف. ﴿وَالْجُرُوحُ قِصَاصٌ﴾: والاقتصاص أن يفعل به كما فعل؛ فمن جرح غيره عمدًا؛ اقتص من الجارح جرحًا مثل جرحه للمجروح حدًا وموضعًا وطولًا وعرضًا وعمقًا. وليعلم أن شرع من قبلنا شرع لنا ما لم يرد شرعنا بخلافه، ﴿فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ﴾؛ أي: بالقصاص في النفس وما دونها من الأطراف والجروح؛ بأن عفا من جنى وثبت له الحق قبله، ﴿فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ﴾؛ أي: كفارة للجاني؛ لأن الأدمي عفا عن حقه، والله تعالى أحق وأولى بالعفو عن حقه، وكفارة أيضًا عن العافي؛ فإنه كما عفا عمن جنى عليه أو على من يتعلق به؛ فإن الله يعفو عن زلاته وجنباياته.

﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾: قال ابن عباس: كفر دون كفر، وظلم دون ظلم، وفسق دون فسق؛ فهو ظلم أكبر عند استحلاله، وعظيمة كبيرة عند فعله غير مستحل له.

﴿وَقَفَّيْنَا عَلَى آثَرِهِمْ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَآيَاتُنَا فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾: ﴿وَلِيَحْكُمَ أَهْلُ الْإِنجِيلِ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فِيهِ وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾: ﴿٤٧﴾.

﴿٤٦﴾ أي: وأتبعنا هؤلاء الأنبياء والمرسلين الذين يحكمون بالتوراة بعبدنا ورسولنا عيسى ابن مريم، روح الله وكلّمته التي ألّفها إلى مريم، بعثه الله مصدقًا لما بين يديه من التوراة؛ فهو شاهد لموسى ولما جاء به من التوراة بالحق والصدق، ومؤيد لدعوته، وحاكم بشريعته، وموافق له في أكثر الأمور الشرعية، وقد يكون عيسى عليه السلام أخف في بعض الأحكام؛ كما قال تعالى عنه: إنه قال لبني إسرائيل: ﴿وَلَا حُجْلَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾ [آل عمران: ٥٠]، ﴿وَأَيَّتُنَا الْإِنجِيلُ﴾: الكتاب العظيم المتمم للتوراة، ﴿فِيهِ هُدًى وَنُورٌ﴾: يهدي إلى الصراط المستقيم، ويبين الحق من الباطل، ﴿وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ﴾: بتبشيتها والشهادة لها والموافقة. ﴿وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾: ﴿٤٦﴾: فإنهم الذين يتفجعون بالهدى ويتعظون بالمواعظ ويرتدعون عما لا يليق.

﴿٤٧﴾ ﴿وَلِيَحْكُمَ أَهْلُ الْإِنجِيلِ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فِيهِ﴾؛ أي: يلزمهم التقيد بكتابتهم، ولا يجوز لهم العدول عنه، ﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾: ﴿٤٧﴾.

﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيِّمًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِنَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَيْنَاكُمْ فَاسْتَجِيبُوا لِحُكْمِ الْخَيْرِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنْصِتُ فِيهِ تَخْلِقُونَ﴾: ﴿٤٨﴾ وَإِنْ أَحْكَمْتُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتَنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّهُ يَرِيدُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ دُخُونِهِمْ وَإِنْ كَثُرَ مِنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ﴾: ﴿٤٩﴾ أَفَحُكْمَ الْجَهْلِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾: ﴿٥٠﴾.

ويستدل بهذه الآية على المبادرة لأداء الصلاة وغيرها في أول وقتها، وعلى أنه ينبغي ألا يقتصر العبد على مجرد ما يجزئ في الصلاة وغيرها من العبادات من الأمور الواجبة، بل ينبغي أن يأتي بالمستحبات التي يقدر عليها لتتم وتكمل ويحصل بها السبق. ﴿إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا﴾: الأمم السابقة واللاحقة، كلهم سيجمعهم الله ليوم لا ريب فيه، ﴿فَيُنْزِلُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ (٤٨): من الشرائع والأعمال، فيثيب أهل الحق والعمل الصالح، ويعاقب أهل الباطل والعمل السيئ.

﴿وَإِنْ أَحْكَمَ بَيْنَهُمْ يَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾: هذه الآية هي التي قيل: إنها ناسخة لقوله: ﴿فَأَحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾، والصحيح أنها ليست بناسخة، وأن تلك الآية تدل على أنه ﷺ مخير بين الحكم بينهم وبين عدمه، وذلك لعدم قصدهم بالتحاكم للحق. وهذه الآية تدل على أنه إذا حكم؛ فإنه يحكم بينهم بما أنزل الله من الكتاب والسنة، وهو القسط الذي تقدم أن الله قال: ﴿وَإِنْ حَكَمْتَ فَأَحْكُم بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ﴾. ودل هذا على بيان القسط، وأن مادته هو ما شرعه الله من الأحكام؛ فإنها المشتملة على غاية العدل والقسط، وما خالف ذلك فهو جور وظلم، ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ﴾: كسر النهي عن اتباع أهوائهم لشدة التحذير منها، ولأن ذلك في مقام الحكم والفتوى، وهو أوسع، وهذا في مقام الحكم وحده، وكلاهما يلزم فيه ألا يتبع أهواءهم المخالفة للحق. ولهذا قال: ﴿وَاحْذَرُهُمْ أَنْ يَقْبَلُواكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾؛ أي: إياك والاعتراض بهم وأن يفتنوك فيصدوك عن بعض ما أنزل الله إليك، فصار اتباع أهوائهم سبباً موصلاً إلى ترك الحق الواجب، والغرض اتباعه، ﴿فَإِنْ قَوْلُوا﴾: عن اتباعك واتباع الحق، ﴿فَاعْلَمْ﴾: أن ذلك عقوبة عليهم، وأن الله يريد أن يصيبهم ببعض ذنوبهم، فإن للذنوب عقوبات عاجلة وأجلة، ومن أعظم العقوبات أن يبتلى العبد ويزين له ترك اتباع الرسول، وذلك لفسقه، ﴿وَإِنْ كَثُرَ مِنْ أَتَائِهِمْ فَتَسْتَفِئُوا﴾ (٤٩): أي: طبيعتهم الفسق والخروج عن طاعة الله واتباع رسوله.

﴿فَأَحْكُمَ الْجَاهِلِيَّةَ يَبْغُونَ﴾؛ أي: أفيطلبون بتوليهم وإعراضهم عنك حكم الجاهلية؟ وهو كل حكم خالف ما أنزل الله على رسوله؛ فلا ثم إلا حكم الله ورسوله أو حكم الجاهلية؛ فمن أعرض عن الأول؛ ابتلي بالثاني المبني على الجهل والظلم والغني، ولهذا أضافه الله للجاهلية، وأما

﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ﴾: الذي هو القرآن العظيم، أفضل الكتب وأجلها، ﴿بِالْحَقِّ﴾؛ أي: إنزالاً بالحق ومشتماً على الحق في أخباره وأوامره ونواهيه، ﴿مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ﴾: لأنه شهد لها، ووافقها، وطابقت أخباره أخبارها، وشرائعه الكبار شرائعها، وأخبرت به، فصار وجوده مصداقاً لخبرها، ﴿وَمُهَيِّئًا عَلَيْهِ﴾؛ أي: مستملاً على ما اشتملت عليه الكتب السابقة، وزيادة في المطالب الإلهية والأخلاق النفسية؛ فهو الكتاب الذي تتبع كل حق، جاءت به الكتب فأمر به، وحث عليه، وأكثر من الطرق الموصلة إليه، وهو الكتاب الذي فيه نبأ السابقين واللاحقين، وهو الكتاب الذي فيه الحكم والحكمة والأحكام، الذي عرضت عليه الكتب السابقة؛ فما شهد له بالصدق؛ فهو المقبول، وما شهد له بالرد؛ فهو مردود قد دخله التحريف والتبديل، وإلا؛ فلو كان من عند الله لم يخالفه.

﴿فَأَحْكُم بَيْنَهُمْ يَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾: من الحكم الشرعي الذي أنزله الله عليك، ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ﴾؛ أي: لا تجعل اتباع أهوائهم الفاسدة المعارضة للحق بدلاً عما جاءك من الحق، فتستبدل الذي هو أدنى بالذي هو خير.

لكل منكم أيها الأمم جعلنا: ﴿شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾؛ أي: سبيلاً وسنة، وهذه الشرائع التي تختلف باختلاف الأمم، هي التي تتغير بحسب تغير الأزمنة والأحوال، وكلها ترجع إلى العدل في وقت شرعها، وأما الأصول الكبار التي هي مصلحة وحكمة في كل زمان؛ فإنها لا تختلف، فتشرع في جميع الشرائع، ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾: تبعاً لشريعة واحدة، لا يختلف متأخرها ولا متقدمها. ﴿وَلَكِنْ يَبْتَغِيكُمْ فِي مَآءَاتِكُمْ﴾: فيختبركم وينظر كيف تعملون، ويبتلي كل أمة بحسب ما تقتضيه حكمته، ويؤتي كل أحد ما يليق به، وليحصل التنافس بين الأمم؛ فكل أمة تحرص على سبق غيرها. ولهذا قال: ﴿فَاسْتَفِئُوا الْخَيْرَاتِ﴾؛ أي: بادروا إليها وأكملوها؛ فإن الخيرات الشاملة لكل فرض ومستحب من حقوق الله وحقوق عباده لا يصير فاعلها سابقاً لغيره مستولياً على الأمر إلا بأمرين: المبادرة إليها، وانتهاز الفرصة حين يجيء وقتها ويعرض عارضها، والاجتهاد في أدائها كاملة على الوجه المأمور به.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ يَتَوَلَّكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٥١﴾ فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسْرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَحْشَىٰ أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَىٰ اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا أَسْرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ ﴿٥٢﴾ وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَأَصْبَحُوا خَاسِرِينَ ﴿٥٣﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِيَ اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةً لَّيِّمَةً ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٤﴾ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ ﴿٥٥﴾ وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ ﴿٥٦﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا وَيَتَكَبَّرُونَ هُزُوعًا وَلِكُلِّ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَالْكَافَرِ أَوْلِيَاءُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّكُمْ مِّنْ مُّؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾

حكم الله تعالى؛ فمبني على العلم والعدل والقسط والنور والهدى. ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا يَقُومُ يُقِظُونَ﴾ (٥٠): فالموقن هو الذي يعرف الفرق بين الحكيمين ويميز بإيقانه ما في حكم الله من الحسن والبهاء، وأنه يتعين عقلاً وشرعاً اتباعه، واليقين هو العلم التام الموجب للعمل.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ يَتَوَلَّكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ (٥١) فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسْرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَحْشَىٰ أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَىٰ اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا أَسْرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ ﴿٥٢﴾ وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَأَصْبَحُوا خَاسِرِينَ ﴿٥٣﴾.

﴿٥١﴾ يرشد تعالى عباده المؤمنين حين بين لهم أحوال اليهود والنصارى وصفاتهم غير الحسنة ألا يتخذوهم أولياء؛ فإن بعضهم ﴿أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾: يتناصرون فيما بينهم، ويكونون يداً على من سواهم؛ فأنتم لا تتخذوهم أولياء؛ فإنهم الأعداء على الحقيقة، ولا يبالون بضرركم، بل لا يدخرون من مجهودهم شيئاً على إضلالكم؛ فلا يتولاكم إلا من هو مثلهم. ولهذا قال: ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّكُمْ يَتَوَلَّكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ﴾؛ لأن التولي التام يوجب الانتقال إلى دينهم، والتولي القليل يدعو إلى الكثير، ثم يتدرج شيئاً فشيئاً، حتى يكون العبد منهم. ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ (٥١)؛ أي: الذين وصفهم الظلم، وإليه يرجعون، وعليه يعملون؛ فلو جتتهم بكل آية؛ ما تبعوك، ولا انقادوا لك.

﴿٥٢﴾ ولما نهى الله المؤمنين عن توليهم؛ أخبر أن ممن يدعي الإيمان طائفة تواليهم فقال: ﴿فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾؛ أي: شك ونفاق وضعف إيمان يقولون: إن تولينا إياهم للحاجة؛ فإننا ﴿نَحْشَىٰ أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ﴾؛ أي: تكون الدائرة لليهود والنصارى؛ فإذا كانت الدائرة لهم؛ فإذا لنا معهم يد يكافئونها عنها، وهذا سوء ظن منهم بالإسلام. قال تعالى راداً لظنهم السيئ: ﴿فَعَسَىٰ اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ﴾: الذي يعز الله به الإسلام على اليهود والنصارى، ويقهرهم المسلمون، ﴿أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِ﴾: يأسأ به المنافقون من ظفر الكافرين من اليهود وغيرهم، ﴿فَيُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا أَسْرُوا﴾؛ أي: أضمرنا ﴿فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ﴾ (٥٢) على ما كان منهم، وضرهم بلا نفع حصل لهم، فحصل الفتح الذي نصر الله به الإسلام والمسلمين، وأذل به الكفر والكافرين، فندموا وحصل لهم من الغم ما الله به عليم.

﴿٥٣﴾ ﴿وَقَوْلُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ متعجبين من حال هؤلاء الذين في قلوبهم مرض: ﴿أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ﴾؛ أي: حلفوا، وأكدوا حلفهم، وغلظوه بأنواع التأكيدات، إنهم لمعكم في الإيمان وما يلزمه من النصر والمجبة والمالاة؛ ظهر ما أضمره، وتبين ما أسروه، وصار كيدهم الذي كادوه، وظنهم الذي ظنوه بالإسلام وأهله باطلاً، فبطل كيدهم، وبطلت ﴿أَعْمَالُهُمْ﴾: في الدنيا، ﴿فَأَصْبَحُوا خَاسِرِينَ﴾ (٥٣)؛ حيث فاتهم مقصودهم، وحضرهم الشقاء والعذاب.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِيَ اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّونَهُ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةً لَّيِّمَةً ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ (٥٤).

ولا تمنع الغلظة عليهم والشدة دعوتهم إلى الدين الإسلامي بالتي هي أحسن، فتجتمع الغلظة عليهم واللين في دعوتهم، وكلا الأمرين من مصلحتهم، ونفعه عائد إليهم.

﴿يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾: بأموالهم وأنفسهم، بأقوالهم وأفعالهم. ﴿وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ﴾: بل يقدمون رضا ربهم والخوف من لومه على لوم المخلوقين، وهذا يدل على قوة همهم وعزائمهم؛ فإن ضعيف القلب ضعيف الهمة، تتقضى عزيمته عند لوم اللائمين، وتفتقر قوته عند عدل العاذلين، وفي قلوبهم تعبد لغير الله، بحسب ما فيها من مراعاة الخلق، وتقديم رضاهم ولومهم على أمر الله؛ فلا يسلم القلب من التعبد لغير الله، حتى لا يخاف في الله لومة لائم.

ولما مدحهم تعالى بما من به عليهم من الصفات الجميلة والمناقب العالية المستلزمة لما لم يذكر من أفعال الخير؛ أخبر أن هذا من فضله عليهم وإحسانه؛ لئلا يعجبوا بأنفسهم، وليشكروا الذي من عليهم بذلك؛ ليزيدهم من فضله، وليعلم غيرهم أن فضل الله تعالى ليس عليه حجاب، فقال: ﴿ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ أي: واسع الفضل والإحسان، جزيل المنن، قد عمت رحمته كل شيء، ويوسع على أوليائه من فضله ما لا يكون لغيرهم، ولكنه عليهم بمن يستحق الفضل فيعطيه؛ فالله أعلم حيث يجعل رسالته أصلاً وفرعاً.

﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾ ﴿٥٥﴾ وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حَرْبَ اللَّهِ هُمْ أَلْفَلُكُونَ﴾ ﴿٥٦﴾.

﴿٥٥﴾ لما نهى عن ولاية الكفار من اليهود والنصارى وغيرهم، وذكر مال توليهم أنه الخسران المبين؛ أخبر تعالى من يجب ويتعين توليه، وذكر فائدة ذلك ومصلحته، فقال: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾؛ فولاية الله تدرك بالإيمان والتقوى؛ فكل من كان مؤمناً تقياً؛ كان لله ولياً، ومن كان لله ولياً؛ فهو ولي لرسوله، ومن تولى الله ورسوله؛ كان تمام ذلك تولي من تولاه، وهم المؤمنون الذين قاموا بالإيمان ظاهراً وباطناً، وأخلصوا للمعبود بإقامتهم الصلاة بشروطها وفروضها ومكملاتها، وأحسنوا للخلق، وبذلوا الزكاة من أموالهم لمستحقيها منهم. وقوله: ﴿وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾ ﴿٥٥﴾؛ أي: خاضعون لله ذليلون. فأداة الحصر في قوله: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ

﴿٥٦﴾ يخبر تعالى أنه الغني عن العالمين، وأنه من يرتد عن دينه؛ فلن يضر الله شيئاً، وإنما يضر نفسه، وأن لله عبداً مخلصين ورجالاً صادقين قد تكفل الرحمن الرحيم بهدایتهم ووعد بالإتيان بهم، وأنهم أكمل الخلق أوصافاً وأقواهم نفوساً وأحسنهم أخلاقاً:

أجل صفاتهم أن الله ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾؛ فإن محبة الله للعبد هي أجل نعمة أنعم بها عليه وأفضل فضيلة تفضل الله بها عليه، وإذا أحب الله عبداً؛ يسر له الأسباب، وهون عليه كل عسير، ووفقه لفعل الخيرات وترك المنكرات، وأقبل بقلوب عباده إليه بالمحبة والوداد. ومن لوازم محبة العبد لربه أنه لا بد أن يتصف بمتابعة الرسول ﷺ ظاهراً وباطناً في أقواله وأعماله وجميع أحواله؛ كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١]، كما أن من لوازم محبة الله للعبد أن يكثر العبد من التقرب إلى الله بالفرائض والنوافل؛ كما قال النبي ﷺ في الحديث الصحيح عن الله: «وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضت عليه، ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه؛ فإذا أحببته؛ كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها. ورجله التي يمشي بها، ولئن سألني؛ لأعطينه، ولئن استعاذني؛ لأعيذنه»^(١).

ومن لوازم محبة الله معرفته تعالى والإكثار من ذكره؛ فإن المحبة بدون معرفة بالله ناقصة جداً، بل غير موجودة، وإن وجدت دعواها، ومن أحب الله؛ أكثر من ذكره، وإذا أحب الله عبداً؛ قبل منه السير من العمل، وغفر له الكثير من الزلل.

ومن صفاتهم أنهم: ﴿أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾؛ فهم للمؤمنين أذلة من محبتهم لهم ونصحهم لهم ولينهم ورفقهم ورأفتهم ورحمتهم بهم وسهولة جانبهم وقرب الشيء الذي يطلب منهم، وعلى الكافرين بالله المعاندين لآياته المكذبين لرسله أعزة، قد اجتمعت همهم وعزائمهم على معاداتهم، وبذلوا جهدهم في كل سبب يحصل به الانتصار عليهم: قال تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ [الأنفال: ٦٠]. وقال تعالى: ﴿أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩]؛ فالغلظة الشديدة على أعداء الله مما يقرب العبد إلى الله ويوافق العبد ربه في سخطه عليهم،

لِقَاءُ النَّاصِرِ

سُورَةُ الْعَاثِرَةِ

وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٥٨﴾ قُلْ يَٰ أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَقِيمُونَ مِنَّا إِلَّا أَنَّا ءَمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ ﴿٥٩﴾ قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِّنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ مَن لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمْ الْفِرْدَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ أُولَٰئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴿٦٠﴾ وَإِذَا جَاءُوكُم قَالُوا ءَمَنَّا وَقَدْ دَخَلُوا بِالْكَفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِئْسَ مَا اللَّهُ أَعْمَرُ بِمَا كَانُوا يَكْمُنُونَ ﴿٦١﴾ وَرَبِّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسْرِعُونَ فِي الْإِثْرِ وَالْعُدُونِ وَأَكْثِلَهُمُ الشَّحْتُ لَيْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٦٢﴾ لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبِّيُّوتُ وَالْأَجْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ الشَّحْتَ لَيْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿٦٣﴾ وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلِقُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُفْقِ كَيْفَ يَشَاءُ وَلَنَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا وَلَقَيْتَنَا بَيْنَهُمُ الْعُدَّةَ وَالْعِصْيَانَةَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ كُلَّمَا أَوْفَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴿٦٤﴾

١١٨

وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا: تدل على أنه يجب قصر الولاية على المذكورين والتبري من ولاية غيرهم.

﴿٥٨﴾ ثم ذكر فائدة هذه الولاية، فقال: ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ﴾ ﴿٥٩﴾؛ أي: فإنه من الحزب المضافين إلى الله إضافة عبودية وولاية، وحزبه هم الغالبون، الذين لهم العاقبة في الدنيا والآخرة؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَنَ جُذُنًا هُمْ الْغَالِبُونَ﴾ ﴿٦٠﴾ [الصافات: ١٧٣]، وهذه بشارة عظيمة لمن قام بأمر الله وصار من حزبه وجنده أن له الغلبة، وإن أدب عليه في بعض الأحيان لحكمة يريد بها الله تعالى؛ فأخر أمره الغلبة والانتصار، ومن أصدق من الله قيلاً.

﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَالْكَفَّارَ أَوْلِيَاءَ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ كُفْرَ مُؤْمِنِينَ﴾ ﴿٥٧﴾ وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ﴾ ﴿٥٨﴾.

﴿٥٧﴾، ﴿٥٨﴾ ينهى عباده المؤمنين عن اتخاذ أهل الكتاب من اليهود والنصارى ومن سائر الكفار أولياء، يحبونهم ويتولونهم، ويدون لهم أسرار المؤمنين، ويعاونونهم على بعض أمورهم التي تضر الإسلام والمسلمين، وأن ما معهم من الإيمان يوجب عليهم ترك موالاتهم، ويحثهم على معاداتهم، وكذلك ما كان عليه المشركون والكفار المخالفون للمسلمين من قدهم في واجتناب زواجه مما تدعوهم إلى معاداتهم، وكذلك ما كان عليه المشركون والكفار المخالفون للمسلمين من قدهم في دين المسلمين، واتخاذهم إياه هُزُوًا ولَعِبًا واحتقاره واستصغاره، خصوصاً الصلاة التي هي أظهر شعائر المسلمين وأجل عباداتهم، إنهم إذا نادوا إليها؛ اتخذوها هُزُوًا ولَعِبًا، وذلك لعدم عقلهم ولجهلهم العظيم، وإلا؛ فلو كان لهم عقول، لخضعوا لها، ولعلموا أنها أكبر من جميع الفضائل التي تتصف بها النفوس؛ فإذا علمتم أيها المؤمنون حال الكفار وشدة معاداتهم لكم ولدينكم؛ فمن لم يعادهم بعد هذا؛ دل على أن الإسلام عنده رخيص، وأنه لا يبالي بمن قدح فيه أو قدح بالكفر والضلال، وأنه ليس عنده من المروءة والإنسانية شيء؛ فكيف تدعي لنفسك ديناً قيماً وأنه الدين الحق وما سواه باطل وترضى بموالاته من اتخذ هُزُوًا ولَعِبًا وسخر به وبأهله من أهل الجهل والحمق؟! وهذا فيه من التهيج على عداوتهم ما هو معلوم لكل من له أدنى مفهوم.

﴿قُلْ يَٰ أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَقِيمُونَ مِنَّا إِلَّا أَنَّا ءَمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ﴾ ﴿٥٨﴾ قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِّنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ مَن لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمْ الْفِرْدَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ أُولَٰئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴿٦٠﴾ وَإِذَا جَاءُوكُم قَالُوا ءَمَنَّا وَقَدْ دَخَلُوا بِالْكَفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِئْسَ مَا اللَّهُ أَعْمَرُ بِمَا كَانُوا يَكْمُنُونَ ﴿٦١﴾ وَرَبِّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسْرِعُونَ فِي الْإِثْرِ وَالْعُدُونِ وَأَكْثِلَهُمُ الشَّحْتُ لَيْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٦٢﴾ لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبِّيُّوتُ وَالْأَجْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ الشَّحْتَ لَيْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ ﴿٦٣﴾.

﴿٥٩﴾ أي: يا أيها الرسول: ﴿يَٰ أَهْلَ الْكِتَابِ﴾؛ ملزماً لهم: إن دين الإسلام هو الدين الحق، وإن قدهم فيه قدح بأمر ينبغي المدح عليه، ﴿هَلْ تَقِيمُونَ مِنَّا إِلَّا أَنَّا ءَمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ﴾ ﴿٥٨﴾؛ أي: هل لنا من العيب

إلا إيماننا بالله وبكتبه السابقة واللاحقة وبأنبيائه المتقدمين والمتأخرين؟! وبأننا نجزم أن من لم يؤمن كهذا الإيمان؛ فإنه كافر فاسق؛ فهل تنقمون منا بهذا الذي هو أوجب الواجبات على جميع المكلفين؟! ومع هذا؛ فأكثركم ﴿فَسِقُونَ﴾ ٥٩؛ أي: خارجون عن طاعة الله متجربون على معاصيه؛ فأولى لكم أيها الفاسقون السكوت؛ فلو كان عيكم وأنتم سالمون من الفسق وهيئات ذلك؛ لكان الشر أخف من قدحكم فينا مع فسقكم.

﴿٦٠﴾ ولما كان قدحهم في المؤمنين يقتضي أنهم يعتقدون أنهم على شر؛ قال تعالى: ﴿قُلْ لَهُمْ مَخْرَجٌ عَنْ شِنَاعَةِ مَا كَانُوا عَلَيْهِ: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكَ﴾: الذي نقسم فيه علينا مع التزل معكم، ﴿مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ﴾؛ أي: أبعدته عن رحمته، ﴿وَعَصِبَ عَلَيْهِ﴾: وعاقبه في الدنيا والآخرة، ﴿وَجَعَلَ مِنْهُمْ الْفِرَّةَ وَالْخَازِرَ﴾ وَمَنْ عَبْدَ ﴿الطُّغُوتَ﴾ وهو الشيطان، وكل ما عبد من دون الله فهو طاغوت. ﴿أُولَئِكَ﴾ المذكورون بهذه الخصال القبيحة ﴿شَرُّ مَكَانٍ﴾: من المؤمنين الذين رحمة الله قريب منهم، ورضي الله عنهم، وأثابهم في الدنيا والآخرة؛ لأنهم أخلصوا له الدين، وهذا النوع من باب استعمال أفعال التفضيل في غير بابه، وكذلك قوله: ﴿وَأَضَلُّ عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ ٦٠؛ أي: وأبعد عن قصد السبيل.

﴿٦١﴾ ﴿وَإِذَا جَاءَكُمْ قَالُوا آمَنَّا﴾: نفاقاً ومكرًا، وهم قد دَخَلُوا ﴿مُشْتَمِلِينَ عَلَى الْكُفْرِ﴾ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ؛ فمدخلهم ومخرجهم بالكفر، وهم يزعمون أنهم مؤمنون؛ فهل أشر من هؤلاء وأقبح حالاً منهم؟! ﴿وَاللَّهُ أَغْلَىٰ بِمَا كَانُوا يَكْتُمُونَ﴾ ٦١؛ فيجازيهم بأعمالهم خيرها وشرها.

﴿٦٢﴾ ثم استمر تعالى يعدد معايهم انتصاراً لقدحهم في عباده المؤمنين، فقال: ﴿وَرَبِّكَ كَثِيرًا مِنْهُمْ﴾؛ أي: من اليهود، ﴿يُسْرِعُونَ فِي الْآثِرِ وَالْعُدُونِ﴾؛ أي: يحرصون ويبادرون بالمعاصي المتعلقة في حق الخالق والعدوان على المخلوقين. ﴿وَأَكْثِلُهُمُ السُّحْتُ﴾: الذي هو الحرام، فلم يكتف بمجرد الإخبار أنهم يفعلون ذلك، حتى أخبر أنهم يسارعون، وهذا يدل على خبثهم وشرهم وأن أنفسهم مجبولة على حب المعاصي والظلم، هذا وهم يدعون لأنفسهم المقامات العالية، ﴿لَيْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ٦٢؛ وهذا في غاية الذم لهم والقبح فيهم.

﴿٦٣﴾ ﴿لَوْلَا بَهْتُهُمُ الرِّبَايُونَ وَالْأَجْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِيمَانُ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتُ﴾؛ أي: هلا ينهاتهم العلماء المتصدون لنفع الناس الذين من الله عليهم بالعلم والحكمة عن المعاصي، التي تصدر منهم، ليزول ما عندهم من الجهل، وتقوم حجة الله عليهم، فإن العلماء عليهم أمر الناس ونهيهم، وأن يبينوا لهم الطريق الشرعي، ويرغبوهم في الخير، ويرهبوهم من الشر. ﴿لَيْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ ٦٣.

﴿٦٤﴾ وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُفَقُّ كَيْفَ يَشَاءُ وَلْيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا وَالْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاةَ وَالْبِعْضَاءُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ كُلَّمَا أَقْدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ وَسِعُونَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴿٦٥﴾ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَرْنَا عَنْهُمْ سَتَاتِهِمْ وَلَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿٦٦﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكْلَوْا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴿٦٧﴾

﴿٦٤﴾ يخبر تعالى عن مقالة اليهود الشنيعة وعقيدتهم الفظيعة، فقال: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾؛ أي: عن الخير والإحسان والبر ﴿غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا﴾: وهذا دعاء عليهم بجنس مقالتهم؛ فإن كلامهم متضمن لوصف الله الكريم بالبخل وعدم الإحسان، فجازاهم بأن كان هذا الوصف منطبقاً عليهم؛ فكانوا أبخل الناس وأقلهم إحساناً وأسوأهم ظناً بالله وأبعدهم عن رحمته التي وسعت كل شيء وملأت أقطار العالم العلوي والسفلي، ولهذا قال: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُفَقُّ كَيْفَ يَشَاءُ﴾: لا حرج عليه ولا مانع يمنعه مما أراد؛ فإنه تعالى قد بسط فضله وإحسانه الديني والدنيوي، وأمر العباد أن يتعرضوا لنفحات جوده، والآن يسدوا على أنفسهم أبواب إحسانه بمعاصيهم، فيده سحاء الليل والنهار، وخيره في جميع الأوقات مدراراً؛ يفرج كرباً، ويزيل غماً، ويغني فقيراً، ويفك أسيراً، ويجبر كسيراً، ويعجب سائلاً، ويعطي فقيراً عائلاً، ويعجب المضطرين، ويستجيب للسائلين، وينعم على من لم يسأله، ويعافي من طلب العافية، ولا يحرم من خيره عاصياً، بل خيره يرتع فيه البر والفاجر ويجود على أوليائه بالتوفيق لصالح الأعمال ثم

الجزء الثامن

سورة المائدة

وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَادْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿١٥﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ يَأْتِيهَا الرُّسُولُ يَبْلُغُ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ مَا بَلَغَتْ رِسَالَتُهُ وَاللَّهُ يَعْصُمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿١٧﴾ قُلْ يَأْهْلُ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿١٨﴾ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِقُونَ وَالصَّادِقُونَ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٩﴾ لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رُسُلًا كَمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ ﴿٢٠﴾

١١٩

يحمدهم عليها ويضيفها إليهم وهي من جوده ويشيهم عليها من الثواب العاجل والأجل ما لا يدركه الوصف ولا يخطر على بال العبد، ويلطف بهم في جميع أمورهم، ويوصل إليهم من الإحسان، ويدفع عنهم من النقم ما لا يشعرون بكثير منه؛ فسبحان مَنْ كُل النعم التي بالعباد منه وإليه يجأرون في دفع المكاره، وتبارك من لا يحصي أحد ثناء عليه، بل هو كما أثنى على نفسه، وتعالى من لا يخلو العباد من كرمه طرفة عين، بل ولا وجود لهم ولا بقاء إلا بجلوه، وقبح الله من استغنى بجهله عن ربه ونسبه إلى ما لا يليق بجلاله، بل لو عامل الله اليهود القائلين تلك المقالة ونحوهم ممن حاله كحالهم ببعض قولهم؛ لهلكوا وشقوا في دنياهم، ولكنهم يقولون تلك الأقوال، وهو تعالى يحلم عنهم، ويصفح، ويمهلهم، ولا يهملهم.

وقوله: ﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا﴾: وهذا أعظم العقوبات على العبد: أن يكون الذكر الذي أنزله الله على رسوله، الذي فيه حياة القلب والروح وسعادة الدنيا والآخرة وفلاح الدارين، الذي هو أكبر منة امتن الله بها على عباده، توجب عليهم المبادرة إلى قبولها والاستسلام لله بها وشكراً لله عليها، أن تكون لمثل هذا زيادة غي إلى غيه وطغيان إلى طغيانه وكفر إلى كفره، وذلك بسبب إعراضه عنها ورده لها ومعاندته إياها ومعارضته لها بالشبه الباطلة.

﴿وَأَلْفَيْتَنَّا بَيْنَهُمُ الْعُدَّةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ﴾: فلا يتآلفون ولا يتناصرون ولا يتفقون على حالة فيها مصلحتهم، بل لم يزالوا متباغضين في قلوبهم متعادين بأفعالهم إلى يوم القيامة، ﴿كَلَّمَا أَوْفَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ﴾: ليكيّدوا بها الإسلام وأهله وأبدوا وأعدوا وأجلّوا بخيلهم ورجلهم، ﴿أَطْفَأَهَا اللَّهُ﴾: بخذلانهم وتفرق جنودهم وانتصار المسلمين عليهم، ﴿وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا﴾: أي: يجتهدون ويجدون ولكن بالفساد في الأرض؛ بعمل المعاصي والدعوة إلى دينهم الباطل والتعويق عن الدخول في الإسلام، ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ ﴿٢١﴾: بل ييغضهم أشد البغض، وسيجازيهم على ذلك.

﴿٢٢﴾ ثم قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَادْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ ﴿٢٣﴾: وهذا من كرمه وجوده؛ حيث ذكر قبائح أهل الكتاب ومعايهم وأقوالهم الباطلة؛ دعاهم إلى التوبة، وأنهم لو آمنوا بالله وملائكته وجميع كتبه وجميع رسله واتقوا المعاصي؛ لكفر عنهم سيئاتهم، ولو كانت ما كانت، ولأدخلهم جنات النعيم التي فيها ما تشبهه الأنفس، وتلد الأعين.

﴿٢٤﴾ ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ﴾: أي: قاموا بأوامرهما ونواهيها كما نديهم الله وحشهم، ومن إقامتهما الإيمان بما دعيا إليه من الإيمان بمحمد ﷺ وبالقرآن؛ فلو قاموا بهذه النعمة العظيمة التي أنزلها ربهم إليهم؛ أي: لأجلهم وللاعتناء بهم؛ ﴿لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾: أي: لأدر الله عليهم الرزق ولأمر عليهم السماء وأنبت لهم الأرض؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْفُرْقَةِ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَنَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ٩٦]. ﴿مِنْهُمْ﴾: أي: من أهل الكتاب ﴿أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ﴾: أي: عاملة بالتوراة والإنجيل عملاً غير قوي ولا نشيط. ﴿وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ﴾ ﴿٢٥﴾: أي: والمسيء منهم الكثير، وأما السابقون منهم؛ فقليل ما هم.

﴿يَأْتِيهَا الرُّسُولُ بِلَغٍّ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ
فَمَا بَلَغَتْ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصُمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي
الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿٦٧﴾﴾.

﴿٦٧﴾ هذا أمر من الله لرسوله محمد ﷺ بأعظم الأوامر وأجلها، وهو التبليغ لما أنزل الله إليه، ويدخل في هذا كل أمر تلقته الأمة عنه ﷺ من العقائد والأعمال والأقوال والأحكام الشرعية والمطالب الإلهية، فبلغ ﷺ أكمل تبليغ، ودعا وأنذر وبشر ويسر، وعلم الجهال الأميين حتى صاروا من العلماء الربانيين، وبلغ بقوله وفعله وكتبه ورساله، فلم يبق خير إلا دل أمته عليه، ولا شر إلا حذرهما عنه، وشهد له بالتبليغ أفاضل الأمة من الصحابة فمن بعدهم من أئمة الدين ورجال المسلمين. ﴿وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ﴾؛ أي: لم تبلغ ما أنزل إليك من ربك، ﴿فَمَا بَلَغَتْ رِسَالَتَهُ﴾؛ أي: فما امتثلت أمره، ﴿وَاللَّهُ يَعْصُمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾: هذه حماية وعصمة من الله لرسوله من الناس، وأنه ينبغي أن يكون حرصك على التعليم والتبليغ، ولا يثنيك عنه خوف من المخلوقين؛ فإن نواصبيهم بيد الله، وقد تكفل بعصمتك، فانت إنما عليك البلاغ المبين؛ فمن اهتدى فلنفسه، وأما الكافرون الذين لا قصد لهم إلا اتباع أهوائهم؛ فإن الله لا يهديهم، ولا يوفقهم للخير بسبب كفرهم.

﴿قُلْ يَٰ أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَةَ
وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ
مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ
الْكَافِرِينَ ﴿٦٨﴾﴾.

﴿٦٨﴾ أي: قل لأهل الكتاب منادياً على ضلالهم ومعلناً بباطلهم: ﴿لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ﴾: من الأمور الدينية؛ فإنكم لا بالقرآن ومحمد آمتهم، ولا بنبيتكم وكتابتكم صدقتم، ولا بحق تمسكتهم، ولا على أصل اعتمدتم. ﴿حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾؛ أي: تجعلوهما قائمين بالإيمان بهما واتباعهما والتمسك بكل ما يدعوان إليه، وتقيموا ما ﴿أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ﴾، الذي رباكم، وأنعم عليكم، وجعل أجل إنعامه إنزال الكتب إليكم؛ فالواجب عليكم أن تقوموا بشكر الله، وتلتزموا أحكام الله، وتقوموا بما حملتم من أمانة الله وعهده، ﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٦٩﴾﴾.

﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّيِّغُونَ وَالصَّادِينَ مِنَ
ءَامَرِ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ
وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٧٠﴾﴾.

﴿٧٠﴾ يخبر تعالى عن أهل الكتاب من أهل القرآن والتوراة والإنجيل أن سعادتهم ونجاتهم في طريق واحد وأصل واحد، وهو الإيمان بالله واليوم الآخر والعمل الصالح؛ فمن آمن منهم بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً؛ فله النجاة ولا خوف عليهم فيما يستقبلونه من الأمور المخوفة ولا هم يحزنون على ما خلفوا منها. وهذا الحكم المذكور يشمل سائر الأزمنة.

﴿لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَارْسَلْنَا إِلَيْهِمْ
رُسُلًا كَلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنْفُسُهُمْ فَرِيقًا
كَذَّبُوا وَفِرَيقًا يَقْتُلُونَ ﴿٧١﴾﴾ وَحَسِبُوا ٱلَّا تَكُونُ فِتْنَةً
فَعَمُوا وَصَمُوا ثُمَّ تَابَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا وَصَمُوا
كَثِيرٌ مِّنْهُمْ ۖ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۭ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٧٢﴾﴾.

﴿٧١﴾ يقول تعالى: ﴿لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾؛ أي: عهدهم الثقيل بالإيمان بالله والقيام بواجباته التي تقدم الكلام عليها في قوله: ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا﴾ [المائدة: ١٢] إلى آخر الآيات، ﴿وَارْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رُسُلًا﴾: يتوالون عليهم بالدعوة ويتعاهدونهم بالإرشاد، ولكن ذلك لم ينجع فيهم ولم يفد. ﴿كَلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنْفُسُهُمْ﴾ من الحق كذبوه وعاندوه، وعاملوه أقبح المعاملة، ﴿فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفِرَيقًا يَقْتُلُونَ ﴿٧١﴾﴾.

﴿٧٢﴾ ﴿وَحَسِبُوا ٱلَّا تَكُونُ فِتْنَةً﴾؛ أي: ظنوا أن معصيتهم وتكذيبهم لا يجر عليهم عذاباً ولا عقوبة، واستمروا على باطلهم، ﴿فَعَمُوا وَصَمُوا﴾: عن الحق. ﴿ثُمَّ﴾: نعشهم، ﴿وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ حين تابوا إليه وأنابوا. ﴿ثُمَّ﴾ لم يستمروا على ذلك حتى انقلب أكثرهم إلى الحال القبيحة؛ ف﴿عَمُوا وَصَمُوا كَثِيرٌ مِّنْهُمْ﴾: بهذا الوصف، والقليل استمروا على توبتهم وإيمانهم. ﴿وَاللَّهُ بَصِيرٌۭ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٧٢﴾﴾: فيجازي كل عامل بعمله إن خيراً فخير وإن شراً فشر.

﴿لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوا ۖ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ ۖ وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَبْنِي إِسْرَءِيلَ ۖ عِبُدُوا ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ

الجزء الثاني

سورة المائدة

وَحَسِبُوا أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةً فَعَمُوا وَصَمُوا ثُمَّ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا وَصَمُوا كَثِيرٌ مِنْهُمْ وَاللَّهُ بِبَصِيرٍ يَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿٧٢﴾ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّهُ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ ۖ وَقَالَ الْمَسِيحُ بَنِي إِسْرَءِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ﴿٧٣﴾ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّهُ نَالِكٌ ثَلَاثُونَ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ وَحْدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٤﴾ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونََهُ وَاللَّهُ عَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٧٥﴾ مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ ۖ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأَمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا أَنْظَرَ كَيْفَ تَنْبِئُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ أَنْظِرْ أَنْ يُؤْفَكُونَ ﴿٧٦﴾ قُلْ أَعْبُدُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٧٧﴾

١٢٠

إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ﴿٧٢﴾ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّهُ نَالِكٌ ثَلَاثُونَ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ وَحْدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونََهُ وَاللَّهُ عَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٧٤﴾ مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ ۖ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأَمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا أَنْظَرَ كَيْفَ تَنْبِئُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ أَنْظِرْ أَنْ يُؤْفَكُونَ ﴿٧٥﴾

﴿٧٢﴾ يخبر تعالى عن كفر النصارى بقولهم: ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾: بشبهة أنه خرج من أم بلا أب وخالف المعهود من الخلقة الإلهية، والحال أنه عليه الصلاة والسلام قد كذبهم في هذه الدعوى وقال لهم: ﴿بَنِي إِسْرَءِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾: فثبت لنفسه العبودية التامة ولربه الربوبية الشاملة لكل مخلوق. ﴿إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ﴾: أحداً من المخلوقين لا عيسى ولا غيره، ﴿فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ﴾: وذلك لأنه سوى الخلق بالخالق، وصرف ما خلقه الله له، وهو العبادة الخالصة لغير من هي له، فاستحق أن يخلد في النار. ﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾: ينقذونهم من عذاب الله، أو يدفعون عنهم بعض ما نزل بهم.

﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ نَالِكٌ ثَلَاثُونَ﴾: وهذا من أقوال النصارى المنصورة عندهم، زعموا أن الله ثالث ثلاثة؛ الله، وعيسى، ومريم! تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً، وهذا أكبر دليل على قلة عقول النصارى؛ كيف قبلوا هذه المقالة الشنعاء والعقيدة القبيحة؟! كيف اشتبه عليهم الخالق بالمخلوق؟! كيف خفي عليهم رب العالمين؟! قال تعالى راداً عليهم وعلى أشباههم: ﴿وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ وَحْدٌ﴾: متصف بكل صفة كمال، منزّه عن كل نقص، منفرد بالخلق والتدبير، ما بالخلق من نعمة إلا منه؛ فكيف يجعل معه إله غيره، تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً. ثم توعدهم بقوله: ﴿وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

﴿٧٤﴾ ثم دعاهم إلى التوبة عما صدر منهم، وبين أنه يقبل التوبة عن عباده، فقال: ﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ﴾: أي: يرجعون إلى ما يحبه ويرضاه من الإقرار لله بالتوحيد، وبأن عيسى عبد الله ورسوله، وعما كانوا يقولونه ﴿وَيَسْتَغْفِرُونََهُ﴾: عما صدر منهم، ﴿وَاللَّهُ عَفُورٌ رَحِيمٌ﴾: أي: يغفر ذنوب التائبين، ولو بلغت عنان السماء، ويرحمهم بقبول توبتهم وتبديل سيئاتهم حسنات، وصدر دعوتهم إلى التوبة بالعرض الذي هو في غاية اللطف واللين في قوله: ﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ﴾.

﴿٧٥﴾ ثم ذكر حقيقة المسيح وأمه الذي هو الحق، فقال: ﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾؛ أي: هذا غاية ومنتهاى أمره؛ أنه من عباد الله المرسلين، الذين ليس لهم من الأمر ولا من التشريع إلا ما أرسلهم به الله، وهو من جنس الرسل قبله، لا مزية له عليهم تخرجه عن البشرية إلى مرتبة الربوبية. ﴿وَأَمُّهُ﴾: مريم ﴿صِدِّيقَةٌ﴾: أي: هذا أيضاً غايتها أن كانت من الصديقين الذين هم أعلى الخلق رتبةً بعد الأنبياء، والصديقية هي العلم النافع المثمر لليقين والعمل الصالح، وهذا دليل على أن مريم لم تكن نبيه، بل أعلى أحوالها الصديقية، وكفى بذلك فضلاً وشفراً، وكذلك سائر النساء، لم

يكن منهن نبيه؛ لأن الله تعالى جعل النبوة في أكمل الصنفين؛ في الرجال؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رَجُلًا نُوحِيَ إِلَيْهِمْ﴾ [يوسف: ١٠٩]؛ فإذا كان عيسى عليه السلام من جنس الأنبياء والرسل من قبله، وأمه صديقة؛ فلا شيء اتخذهما النصراني إلهين مع الله.

وقوله: ﴿كَانَا يَافِئًا لِنِ الْطَعَامِ﴾: دليل ظاهر على أنهما عبدان فقيران محتاجان كما يحتاج بنو آدم إلى الطعام والشراب؛ فلو كانا إلهين؛ لاستغنيا عن الطعام والشراب، ولم يحتاجا إلى شيء؛ فإن الإله هو الغني الحميد. ولما بين تعالى البرهان؛ قال: ﴿أَنْظُرْ كَيْفَ بُيِّنْتُ لَهُمُ الْآيَاتِ﴾ الموضحة للحق الكاشفة لليقين، ومع هذا لا تفيد فيهم شيئاً، بل لا يزالون على إفكهم وكذبهم وافتراءهم، وذلك ظلم وعناد منهم.

﴿قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (٧٦).

﴿٧٦﴾ أي: ﴿قُلْ﴾ لهم أيها الرسول: ﴿أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾: من المخلوقين الفقراء المحتاجين، من ﴿لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾: وتدعون من انفرد بالضر والنفع والعطاء والمنع، ﴿وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ﴾: لجميع الأصوات باختلاف اللغات على تفنن الحاجات، ﴿الْعَلِيمُ﴾: بالظواهر والبواطن والغيب والشهادة والأمر الماضي والمستقبل؛ فالكامل تعالى الذي هذه أوصافه هو الذي يستحق أن يفرد بجميع أنواع العبادة، ويخلص له الدين.

﴿قُلْ يَتَّاهِلَ الْكَتَبُ لَا تَقْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ (٧٧) ﴿لَيْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ (٧٨) ﴿كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ (٧٩) ﴿تَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ﴾ (٨٠) ﴿وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ مَا أَتَوْا بِهَذَا بَغْيًا وَلَكِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ فَسِقُونَ﴾ (٨١).

﴿٧٧﴾ يقول تعالى لنبيه ﷺ: ﴿قُلْ يَتَّاهِلَ الْكَتَبُ لَا تَقْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ﴾؛ أي: لا تتجاوزوا، وتعدوا، الحق إلى الباطل، وذلك قتلهم في المسيح ما تقدم حكايته عنهم، وكغلوهم في بعض المشايخ اتباعاً لأهواء ﴿قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ﴾؛ أي: تقدم ضلالهم، ﴿وَأَضَلُّوا كَثِيرًا﴾: من الناس بدعتهم إياهم إلى الدين الذي هم عليه، ﴿وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ (٧٧)؛ أي: قصد الطريق، فجمعوا بين الضلال والإضلال، وهؤلاء هم أئمة الضلال الذين حذر الله عنهم وعن اتباع أهوائهم المردية وآرائهم المضلة.

﴿٧٨﴾ ثم قال تعالى: ﴿لَيْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾؛ أي: طردوا وأبعدوا عن رحمة الله، ﴿عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾؛ أي: بشهادتهما وإقرارهما بأن الحجة قد قامت عليهم وعاندوها. ﴿ذَلِكَ﴾: الكفر واللعن ﴿بِمَا عَصَوْا﴾

﴿قُلْ يَتَّاهِلَ الْكَتَبُ لَا تَقْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ (٧٧) ﴿لَيْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ (٧٨) ﴿كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ (٧٩) ﴿تَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ﴾ (٨٠) ﴿وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ مَا أَتَوْا بِهَذَا بَغْيًا وَلَكِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ فَسِقُونَ﴾ (٨١) ﴿تَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصْرُكَ ذَلِكَ يَأْتِيهِمْ فَيَقْسِمُونَ بِكَ يَصِيدُونَ﴾ (٨٢)

وَكَاثُوا يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ أي: بعضيَانهم لله وظلمهم لعباد الله صار سبباً لكفرهم وبعدهم عن رحمة الله؛ فإن للذنوب والظلم عقوبات.

﴿٧٩﴾ ومن معاصيهم التي أحلت بهم المثلاث وأوقعت بهم العقوبات أنهم ﴿كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ﴾ أي: كانوا يفعلون المنكر ولا ينهاي بعضهم بعضاً، فيشترك بذلك المباشر وغيره، الذي سكت عن النهي عن المنكر مع قدرته على ذلك، وذلك يدل على تهاونهم بأمر الله، وأن معصيته خفيفة عليهم؛ فلو كان لديهم تعظيم لربهم؛ لغاروا المحارمه، ولغضبوا لغضبه.

ولما كان السكوت عن المنكر مع القدرة موجباً للعقوبة لما فيه من المفاسد العظيمة:

منها: أن مجرد السكوت فعل معصية، وإن لم يباشرها الساكت؛ فإنه كما يجب اجتناب المعصية؛ فإنه يجب الإنكار على من فعل المعصية.

ومنها: ما تقدم أنه يدل على التهاون بالمعاصي وقلة الإكثارات بها.

ومنها: أن ذلك يُجرى العصاة والفسقة على الإكثار من المعاصي إذا لم يردعوا عنها، فيزداد الشر وتعمم المصيبة الدينية والدنيوية، ويكون لهم الشوكة والظهور، ثم بعد ذلك يضعف أهل الخير عن مقاومة أهل الشر، حتى لا يقدرّوا على ما كانوا يقدرّون عليه أولاً.

ومنها: أن في ترك الإنكار للمنكر يندرس العلم ويكثر الجهل؛ فإن المعصية مع تكررها وصدورها من كثير من الأشخاص وعدم إنكار أهل الدين والعلم لها يظن أنها ليست بمعصية، وربما ظن الجاهل أنها عبادة مستحسنة، وأي مفسدة أعظم من اعتقاد ما حرم الله حلالاً وانقلاب الحقائق على النفوس ورؤية الباطل حقاً؟!!

ومنها: أن السكوت على معصية العاصين ربما تزينت المعصية في صدور الناس، واقتدى بعضهم ببعض؛ فالإنسان مولع بالافتداء بأضرابه وبني جنسه... ومنها ومنها...

فلما كان السكوت عن الإنكار بهذه المثابة؛ نص الله تعالى أن بني إسرائيل الكفار منهم لعنهم بمعاصيهم واعتدائهم، وخص من ذلك هذا المنكر العظيم: ﴿لَيْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ ﴿٧٩﴾.

﴿٨٠﴾ تَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴿٨١﴾ بالمحبة والموالاة والنصرة، ﴿لَيْسَ مَا قَدَمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ﴾: هذه البضاعة الكاسدة والصفقة الخاسرة، وهي سخط الله الذي يسخط لسخطه كل شيء والخلود الدائم في العذاب العظيم؛ فقد ظلمتهم أنفسهم حيث قدمت لهم هذا النزول غير الكريم، وقد ظلموا أنفسهم إذ فوتوها النعيم المقيم.

﴿٨١﴾ وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ ﴿٨٢﴾ فإن الإيمان بالله وبالنبي وما أنزل إليه يوجب على العبد موالاة ربه وموالاة أوليائه ومعاداة من كفر به وعاداه وأوضع في معاصيه؛ فشرط ولاية الله والإيمان به ألا يتخذ أعداء الله أولياء، وهؤلاء لم يوجد منهم الشرط، فدل على انتفاء المشروط. ﴿وَلَكِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ فَسَقُونَ﴾ ﴿٨٢﴾ أي: خارجون عن طاعة الله والإيمان به وبالنبي، ومن فسقهم موالاة أعداء الله.

﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ ءَامَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ ءَامَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَرُّكَ ذَلِكَ بَأَنَ مِنْهُمْ قَتِيلِينَ ﴿٨٣﴾ وَرُحْبَانَا وَأَنْهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٤﴾ وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا ءَامَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨٥﴾ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا رَبَّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ ﴿٨٦﴾ فَأَنْبَهُمُ اللهُ يَمَا قَالُوا جَنَّتْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٧﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿٨٨﴾.

﴿٨٣﴾ يقول تعالى في بيان أقرب الطائفتين إلى المسلمين وإلى ولايتهم ومحبتهم وأبعدهم من ذلك: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ ءَامَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾: فهؤلاء الطائفتان على الإطلاق أعظم الناس معاداة للإسلام والمسلمين وأكثرهم سعيًا في إيصال الضرر إليهم، وذلك لشدة بغضهم لهم بغياً وحسداً وعناداً وكفراً. ﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ ءَامَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَرُّكَ﴾: وذكر تعالى لذلك عدة أسباب:

سورة المائدة

الحجرات

وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُمَا أَمَّا أَزْوَاجُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ قَبْلَ الْإِسْلَامِ مِنَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَىٰ وَالْمُجَافِرِينَ كُفَرَاءَ وَأَمْ يَأْمُرُ اللَّهُ بِكُفْرَانٍ أَكْثَرٍ ۚ قُلْ يَأْمُرُ اللَّهُ بِالْعَدْلِ وَالْإِيمَانِ بِاللَّهِ وَحَدِيثِهِ الْوَحِيدِ ۚ بَلْ كُفِّرُوا بَعْدَ مَا عَاهَدُوا لَنَا بِبُرْهَانٍ ۚ وَاللَّهُ عَظِيمٌ ٨٣

وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ لَنِذَرَهُمْ إِنَّمَا جَاءَهُمْ وَبُرْهَانٌ مُّبِينٌ ٨٤

وَلَقَدْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ أَن يَقُولُوا إِنَّمَا جَاءَنَا الْحَقُّ وَبُرْهَانٌ مُّبِينٌ ٨٥

وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ لَنِذَرَهُمْ إِنَّمَا جَاءَهُمْ وَبُرْهَانٌ مُّبِينٌ ٨٦

وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ لَنِذَرَهُمْ إِنَّمَا جَاءَهُمْ وَبُرْهَانٌ مُّبِينٌ ٨٧

منها: أن فيهم ﴿فَتَبَيَّنَ﴾ وَهُبْنَا؟ أي: علماء مترهدين وعبادًا في الصوامع متعبدين، والعلم مع الزهد وكذلك العبادة مما يطفئ القلب، ويرققه، ويزيل عنه ما فيه من الجفاء والغلظة؛ فلذلك لا يوجد فيهم غلظة اليهود وشدة المشركين.

ومنها: ﴿وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ ٨٢؛ أي: ليس فيهم تكبر ولا عتو عن الانقياد للحق، وذلك موجب لقربهم من المسلمين ومن محبتهم؛ فإن المتواضع أقرب إلى الخير من المستكبر.

٨٣ ومنها: أنهم إذا ﴿سَأَلْتُمُوهُمَا﴾ على محمد ﷺ، أثر ذلك في قلوبهم وخشعوا له وفاضت أعينهم بحسب ما سمعوا من الحق الذي تيقنوه؛ فلذلك آمنوا وأقروا به، فقالوا: ﴿رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ ٨٤؛ وهم أمة محمد ﷺ؛ يشهدون لله بالتوحيد، ولرسله بالرسالة وصحة ما جاءوا به، ويشهدون على الأمم السابقة بالتصديق والتكذيب، وهم عدول، شهادتهم مقبولة؛ كما قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣].

٨٥ فكانهم ليموا على إيمانهم ومسارعتهم فيه، فقالوا: ﴿وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ لَنِذَرَهُمْ إِنَّمَا جَاءَهُمْ وَبُرْهَانٌ مُّبِينٌ ۚ وَاللَّهُ عَظِيمٌ ٨٦﴾ وما الذي يمنعنا من الإيمان بالله؛ والحال أنه قد جاءنا الحق من ربنا الذي لا يقبل الشك والريب، ونحن إذا آمننا واتبعنا الحق طمعنا أن يدخلنا الله الجنة مع القوم الصالحين؛ فأى مانع يمنعنا؟! أليس ذلك موجبًا للمسارعة والانقياد للإيمان وعدم التخلف عنه؟

٨٧ قال الله تعالى: ﴿فَأَنذَرْتَهُمْ أَنَّهُمْ يَمُوتُونَ﴾؛ أي: بما نفوهوا به من الإيمان ونطقوا به من التصديق بالحق ﴿جَنَّتْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ ٨٨ وذلك جزاء الْمُحْسِنِينَ ٨٩. وهذه الآيات نزلت في النصارى الذين آمنوا بمحمد ﷺ كالنجاشي وغيره ممن آمن منهم، وكذلك لا يزال يوجد فيهم من يختار دين الإسلام، ويتبين له بطلان ما كانوا عليه وهم أقرب من اليهود والمشركين إلى دين الإسلام.

٩٠ ولما ذكر ثواب المحسنين؛ ذكر عقاب المسيئين، قال: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ٩١﴾؛ لأنهم كفروا بالله وكذبوا بآياته المبينة للحق.

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحْزَنُوا طَبِيبَتٌ مَّا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ٩٢﴾ وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنتُمْ بِهٖ مُؤْمِنُونَ ٩٣.

٩٤ يقول تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحْزَنُوا طَبِيبَتٌ مَّا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ﴾: من المطاعم والمشارب؛ فإنها نعم أنعم الله بها عليكم؛ فاحمدوه إذ أحلها لكم واشكروه، ولا تردوا نعمته بكفرها، أو عدم قبولها، أو اعتقاد تحريمها، فتجمعون بذلك بين القول على الله الكذب وكفر النعمة، واعتقاد الحلال الطيب حرامًا خبيثًا؛ فإن هذا من الاعتداء، والله قد نهى عن الاعتداء، فقال: ﴿وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ٩٥﴾، بل يغيضهم ويمقتهم، ويعاقبهم على ذلك.

سورة المائدة

سورة المائدة

﴿٨٨﴾ ثم أمر بضد ما عليه المشركون الذين يحرمون ما أحل الله فقال: ﴿وَكُلُوا مِنَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا﴾؛ أي: كلوا من رزقه الذي ساقه إليكم بما يسره من الأسباب إذا كان حلالاً لا سرقة ولا غصباً ولا غير ذلك من أنواع الأموال التي تؤخذ بغير حق، وكان أيضاً طيباً، وهو الذي لا خبث فيه، فخرج بذلك الخبيث من السباع والخبائث. ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾: في امتثال أوامره واجتناب نواهيه، ﴿الَّذِي أَنشَأَ بِهِ مَوْثُوتَ﴾ ﴿٨٩﴾؛ فإن إيمانكم بالله يوجب عليكم تقواه ومراعاة حقه؛ فإنه لا يتم إلا بذلك.

ودلت الآية الكريمة على أنه إذا حرم حلالاً عليه من طعام وشراب وسُرِّيَّة وأمة ونحو ذلك؛ فإنه لا يكون حراماً بتحريمه، لكن لو فعله؛ فعليه كفارة يمين؛ كما قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ النَّبِيَّ لِمَنْ يُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ﴾ الآية [التحریم: ١]؛ إلا أن تحريم الزوجة فيه كفارة طهار، ويدخل في هذه الآية أنه لا ينبغي للإنسان أن يتجنب الطيبات ويحرمها على نفسه، بل يتناولها مستعيناً بها على طاعة ربه.

﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الْأَيْمَانَ فَكَفَرْتُمْهُ إِطْعَامَ عَشْرَةِ مَسْكِينٍ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعَمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كَسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ذَلِكَ كَفَرْتُمْهُ أَيْمَانَكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ ءَايَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ ﴿٩١﴾.

﴿٩١﴾ أي: في أيمانكم التي صدرت على وجه اللغو، وهي الأيمان التي حلف بها المقسم من غير نية ولا قصد، أو عقدها يظن صدق نفسه، فبان بخلاف ذلك، ﴿وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الْأَيْمَانَ﴾؛ أي: بما عزمتم عليه وعقدت عليه قلوبكم؛ كما قال في الآية الأخرى: ﴿وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَيْتُمْ قُلُوبَكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢٥]، ﴿فَكَفَرْتُمْهُ﴾؛ أي: كفارة اليمين التي عقدتموها بقصدكم: ﴿إِطْعَامَ عَشْرَةِ مَسْكِينٍ﴾، وذلك الإطعام ﴿مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعَمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كَسْوَتُهُمْ﴾؛ أي: كسوة عشرة مساكين، والكسوة هي التي تجزئ في الصلاة، ﴿أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾؛ أي: عتق رقبة مؤمنة؛ كما قيدت في غير هذا الموضع؛ فمتى فعل واحداً من هذه الثلاثة؛ فقد انحلت يمينه. ﴿فَمَنْ لَمْ يَجِدْ﴾ واحداً من هذه الثلاثة، ﴿وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ﴾: عن الحلف بالله كاذباً وعن كثرة الأيمان، واحفظوها إذا حلفتم عن الحنث فيها؛ إلا إذا كان الحنث خيراً؛ فتمام الحفظ أن يفعل الخير، ولا يكون يمينه عرضة لذلك الخير.

﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ ءَايَاتِهِ﴾: الميمنة للحلال من الحرام، الموضحة للأحكام. ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ ﴿٩٢﴾؛ الله؛ حيث علمكم ما لم تكونوا تعلمون؛ فعلى العبد شكر الله تعالى على ما منَّ به عليه من معرفة الأحكام الشرعية وتبيينها.

﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْأَصْبَابُ وَالْأَزْلَمُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ ﴿٩٣﴾؛ إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْهَوْنَ﴾ ﴿٩٤﴾.

﴿٩٣﴾، ﴿٩٤﴾ يذم تعالى هذه الأشياء القبيحة، ويخبر أنها من عمل الشيطان، وأنها رجس؛ ﴿فَاجْتَنِبُوهُ﴾؛ أي: اتركوه، ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ ﴿٩٥﴾؛ فإن الفلاح لا يتم إلا بترك ما حرم الله، خصوصاً هذه الفواحش المذكورة، وهي الخمر، وهو

ولهذا عرض تعالى على العقول السليمة النهي عنها عرضاً بقوله: ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُنَبِّهُونَ﴾ (٩١)؛ لأن العاقل إذا نظر إلى بعض تلك المفاصد؛ انزجر عنها، وكفت نفسه، ولم يحتاج إلى وعظ كثير ولا زجر بليغ.

﴿وَاطِيعُوا اللَّهَ وَاطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَّغُ الْمُبِينُ﴾ (٩٢).

(٩٢) طاعة الله وطاعة رسوله واحدة؛ فمن أطاع الله فقد أطاع الرسول، ومن أطاع الرسول فقد أطاع الله، وذلك شامل للقيام بما أمر الله به ورسوله من الأعمال والأقوال الظاهرة والباطنة، الواجبة والمستحبة، المتعلقة بحقوق الله وحقوق خلقه، والانتفاء عما نهى الله ورسوله عنه كذلك، وهذا الأمر أعم الأوامر؛ فإنه كما ترى يدخل فيه كل أمر ونهي ظاهر وباطن. وقوله: ﴿وَاحْذَرُوا﴾؛ أي: من معصية الله ومعصية رسوله؛ فإن في ذلك الشر والخسران المبين. ﴿فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ﴾: عما أمرتم به ونهيتم عنه، ﴿فَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَّغُ الْمُبِينُ﴾ (٩٢): وقد أدى ذلك؛ فإن اهتديتم فلأنفسكم، وإن أسأتم فعليها، والله هو الذي يحاسبكم، والرسول قد أدى ما عليه، وما حمل به.

﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا وَءَامَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ (٩٣).

(٩٣) لما نزل تحريم الخمر والنهي الأكيد والتشديد فيه؛ تمنى أناس من المؤمنين أن يعلموا حال إخوانهم الذين ماتوا على الإسلام قبل تحريم الخمر وهم يشربونها، فأنزل الله هذه الآية، وأخبر تعالى أنه ﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا﴾؛ أي: حرج وإثم ﴿فِيمَا طَعِمُوا﴾: من الخمر والميسر قبل تحريمهما. ولما كان نفي الجناح يشمل المذكورات وغيرها؛ قيد ذلك بقوله: ﴿إِذَا مَا اتَّقَوْا وَءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾؛ أي: بشرط أنهم تاركون للمعاصي مؤمنون بالله إيماناً صحيحاً موجباً لهم عمل الصالحات، ثم استمروا على ذلك، وإلا فقد يتصف العبد بذلك في وقت دون آخر، فلا يكفي حتى يكون كذلك، حتى يأتيه أجله ويدوم على إحسانه؛ فإن الله يحب المحسنين في عبادة الخالق، المحسنين في نفع العبيد. ويدخل في هذه الآية الكريمة من طعم المحرم أو فعل غيره بعد التحريم ثم

كل ما خامر العقل؛ أي: غطاه بسكره، والميسر، وهو جميع المغالبات التي فيها عوض من الجانبين؛ كالمراهنة ونحوها، والأنصاب، وهي الأصنام والأنداد ونحوها مما ينصب ويعبد من دون الله، والأزلام التي يستقسمون بها. فهذه الأربعة نهى الله عنها، وزجر، وأخبر عن مفسادها الداعية إلى تركها واجتنابها:

فمنها: أنها رجس؛ أي: نجس، خبث معنى، وإن لم تكن نجسة حساً، والأمور الخبيثة مما ينبغي اجتنابها وعدم التدنس بأوضارها.

ومنها: أنها من عمل الشيطان الذي هو أعدى الأعداء للإنسان، ومن المعلوم أن العدو يحذر منه وتحذر مصايدته وأعماله، خصوصاً الأعمال التي يعملها ليقع فيها عدوه؛ فإنها فيها هلاكه؛ فالحزم كل الحزم البعد عن عمل العدو المبين، والحذر منها، والخوف من الوقوع فيها.

ومنها: أنه لا يمكن الفلاح للعبد إلا باجتنابها؛ فإن الفلاح هو الفوز بالمطلوب المحبوب والنجاة من المهرب، وهذه الأمور مانعة من الفلاح ومعوقة له.

ومنها: أن هذه موجبة للعداوة والبغضاء بين الناس، والشيطان حريص على بثها، خصوصاً الخمر والميسر؛ ليقع بين المؤمنين العداوة والبغضاء فإن في الخمر من انقلاب العقل وذهاب حججه ما يدعو إلى البغضاء بينه وبين إخوانه المؤمنين، خصوصاً إذا اقترن بذلك من السباب ما هو من لوازم شارب الخمر؛ فإنه ربما أوصل إلى القتل، وما في الميسر من غلبة أحدهما للآخر وأخذ ماله الكثير في غير مقابلة ما هو من أكبر الأسباب للعداوة والبغضاء.

ومنها: أن هذه الأشياء تصد القلب ويتبعه البدن عن ذكر الله وعن الصلاة اللذين خلق لهما العبد وبهما سعادته؛ فالخمر والميسر يصدانه عن ذلك أعظم صد، ويشغل قلبه ويذهل لبه في الاشتغال بهما، حتى يمضي عليه مدة طويلة وهو لا يدري أين هو؛ فأى معصية أعظم وأقبح من معصية تدنس صاحبها، وتجعله من أهل الخبث، وتوقعه في أعمال الشيطان وشبائه فينقاد له كما تنقاد البهيمة الذليلة لراعيتها، وتحول بين العبد وبين فلاحه، وتوقع العداوة والبغضاء بين المؤمنين، وتصعد عن ذكر الله وعن الصلاة؛ فهل فوق هذه المفاصد شيء أكبر منها؟!

والإعانة على قتله، حتى إن من تمام ذلك أنه ينهى المحرم عن أكل ما قتل أو صيد لأجله، وهذا كله تعظيم لهذا النسك العظيم؛ أنه يحرم على المحرم قتل وصيد ما كان حلالاً له قبل الإحرام. وقوله: ﴿وَمَنْ قَتَلَ مِنْكُمْ مُتَعَمِّدًا﴾؛ أي: قتل صيداً عمدًا، فعليه جزاء ﴿مِثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ﴾؛ أي: الإبل أو البقر أو الغنم، فينظر ما يشبه شيئاً من ذلك، فيجب عليه مثله، يذبحه ويتصدق به، والاعتبار بالمماثلة، ﴿يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ﴾؛ أي: عدلان يعرفان الحكم ووجه الشبه؛ كما فعل الصحابة رضي الله عنهم؛ حيث قضوا بالحمامة شاة، وفي النعامة بدنة، وفي بقر الوحش على اختلاف أنواعه بقرة، وهكذا كل ما يشبه شيئاً من النعم؛ ففيه مثله، فإن لم يشبه شيئاً؛ ففيه قيمته كما هو القاعدة في المتلفات، وذلك الهدى لا بد أن يكون ﴿هَدْيًا بَلِغَ الْكَعْبَةِ﴾؛ أي: يذبح في الحرم، ﴿أَوْ كَثْرَةٌ طَعَامُ مَسْكِينٍ﴾؛ أي: كفارة ذلك الجزاء طعام مساكين؛ أي: يجعل مقابلة المثل من النعم طعام يطعم المساكين. قال كثير من العلماء: يقرم الجزاء، فيشتري بقيمته طعام، فيطعم كل مسكين مَدْبَرٌ أو نصف صاع من غيره، ﴿أَوْ عَدْلُ ذَلِكَ الطَّعَامِ﴾؛ أي: يصوم عن إطعام كل مسكين يوماً، ﴿يَذُوقُ﴾؛ أي: يجاب الجزاء المذكور عليه وبإل امره، ﴿وَمَنْ عَادَ﴾ بعد ذلك ﴿فَيَنْتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو

الْإِنْقَامِ﴾. وإنما نص الله على المتعمد لقتل الصيد، مع أن الجزاء يلزم المتعمد والمخطئ كما هو القاعدة الشرعية: أن المتلف للنفوس والأموال المحترمة؛ فإنه يضمنها على أي حال كان إذا كان إتلافه بغير حق؛ لأن الله رتب عليه الجزاء والعقوبة والانتقام، وهذا للمتعمد، وأما المخطئ؛ فليس عليه عقوبة، إنما عليه الجزاء. [هذا قول جمهور العلماء، والصحيح ما صرحت به الآية: أنه لا جزاء على غير المتعمد؛ كما لا إثم عليه].

﴿٩٦﴾ ولما كان الصيد يشمل الصيد البري والبحري؛ استثنى تعالى الصيد البحري، فقال: ﴿أَحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ﴾؛ أي: أحل لكم في حال إحرامكم ﴿صَيْدُ الْبَحْرِ﴾؛ وهو الحي من حيواناته، ﴿وَطَعَامُهُ﴾؛ وهو الميت منها، فدل ذلك على حل ميتة البحر، ﴿مَتْنًا لَكُمْ وَلِلْسَيَّارَةِ﴾؛ أي: الفائدة في إباحته لكم أنه لأجل انتفاعكم وانتفاع رفقكم الذين يسرون معكم، ﴿وَحَرَّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدَ الْبَرِّ مَا دُمْتُ حُرْمًا﴾؛ ويؤخذ من لفظ الصيد أنه لا بد أن يكون

اعترف بذنبه، وتاب إلى الله، واتقى، وآمن وعمل صالحاً؛ فإن الله يغفر له، ويرفع عنه الإثم في ذلك.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَبْلُغْكُمْ اللَّهُ بِشَيْءٍ مِنَ الصَّيْدِ تَنَالَهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ اللَّهُ مِنْ بَحْثِهِ بِالْغَيْبِ فَمَنْ أَعْدَدَ بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ﴿٩٧﴾ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ وَمَنْ قَتَلَ مِنْكُمْ مُتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ مِثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ هَدْيًا بَلِغَ الْكَعْبَةِ أَوْ كَثْرَةٌ طَعَامُ مَسْكِينٍ أَوْ عَدْلُ ذَلِكَ صِيَامًا يَذُوقُ وَيَالَ أَمْرِهُ عَفَا اللَّهُ عَنْ سَلَفٍ وَمَنْ عَادَ فَيَنْتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ﴾ ﴿٩٨﴾ ﴿أَحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتْنًا لَكُمْ وَلِلْسَيَّارَةِ وَحَرَّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدَ الْبَرِّ مَا دُمْتُ حُرْمًا وَأَتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ ﴿٩٩﴾

﴿٩٧﴾ هذا من ممن الله على عباده أن أخبرهم بما سيفعل قضاءً وقدراً ليطيعوه ويقدموا على بصيرة ويهلك من هلك عن بينة ويحيى من حي عن بينة، فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾؛ لا بد أن يختبر الله إيمانكم، ﴿لِيَبْلُغْكُمْ اللَّهُ بِشَيْءٍ مِنَ الصَّيْدِ﴾؛ أي: شيء غير كثير، فتكون محنة يسيرة؛ تخفيفاً منه تعالى ولطفاً، وذلك الصيد الذي يبتليكم الله به ﴿تَنَالَهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ﴾؛ أي: تتمكنون من صيده؛ ليمت بذلك الابتلاء؛ لا غير مقدور عليه بيد ولا رمح فلا يبقى للابتلاء فائدة. ثم ذكر الحكمة في ذلك الابتلاء، فقال: ﴿لِيَعْلَمَ اللَّهُ﴾؛ علماً ظاهراً للخلق يرتب عليه الثواب والعقاب، ﴿مَنْ بَحْثَهُ بِالْغَيْبِ﴾؛ كيف عما نهى الله عنه، مع قدرته عليه وتمكنه، فيشبه الثواب الجزيل، ممن لا يخافه بالغيب، فلا يرتدع عن معصية تعرض له، فيصطاد ما تمكن منه. ﴿فَمَنْ أَعْدَدَ﴾؛ منكم بعد هذا البيان الذي قطع الحجج وأوضح السبل، ﴿فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ﴿٩٨﴾؛ أي: مؤلم موجه، لا يقدر على وصفه إلا الله؛ لأنه لا عذر لذلك المعتدي، والاعتبار بمن يخافه بالغيب وعدم حضور الناس عنده، وأما إظهار مخافة الله عند الناس؛ فقد يكون ذلك لأجل مخافة الناس، فلا يثاب على ذلك.

﴿٩٩﴾ ثم صرح بالنهي عن قتل الصيد في حال الإحرام، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ﴾؛ أي: محرمون في الحج والعمرة، والنهي عن قتله يشمل النهي عن مقدمات القتل وعن المشاركة في القتل والدلالة عليه

وحشياً؛ لأن الإنسي ليس بصيد، ومأكولاً؛ فإن غير المأكول لا يصاد ولا يطلق عليه اسم الصيد. ﴿ وَأَتَقُوا اللَّهَ الَّتِي إِلَيْهِ تَحْشُرُونَ ﴾ ٩٦؛ أي: اتقوه بفعل ما أمر به وترك ما نهى عنه، واستعينوا على تقواه بعلمكم أنكم إليه تحشرون، فيجازيكم؛ هل قمتم بتقواه فيثيبكم الثواب الجزيل، أم لم تقوموا بها فيعاقبكم؟

﴿ جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَمًا لِلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ وَالْهَدْيَ وَالْقَلْبَدَّ ذَلِكَ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَنَّ اللَّهَ يَكُلُّ شَيْءٍ عَلَيْهِ ﴾ ٩٧ ﴿ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ ٩٨ ﴿ مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلْغُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴾ ٩٩ ﴿ قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَتَذَكَّرُ أُولَى الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَفْلَحُونَ ﴾ ١٠٠ ﴿ يٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَن أَشْيَاءٍ إِن تَبْدَلْكُمْ سَؤُلُوكُمُ وَإِن تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبْدَلْكُمْ عَفَا اللَّهُ عَنْهَا وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴾ ١٠١ ﴿ قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُم ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ ﴾ ١٠٢ ﴿ مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامِرٍ وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَقْتُرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ ١٠٣

﴿ ٩٧ ﴾ يخبر تعالى أنه جعل ﴿ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَمًا لِلنَّاسِ ﴾: يقوم بالقيام بتعظيمه دينهم وديناهم؛ فبذلك يتم إسلامهم، وبه تحط أوزارهم، وتحصل لهم بقصده العطايا الجزيلة والإحسان الكثير، وبسببه تنفق الأموال وتقتحم من أجله الأهوال، ويجتمع فيه من كل فج عميق جميع أجناس المسلمين، فيتعارفون، ويستعين بعضهم ببعض، ويتشاورون على المصالح العامة، وتنعقد بينهم الروابط في مصالحهم

الدينية والدنيوية؛ قال تعالى: ﴿ لِشَهِدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَنْبَاءِ مَقْلُومَاتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةٍ الْأَنْفُسِ ﴾ [الحج: ٢٨]؛ ومن أجل كون البيت قياماً للناس قال من قال من العلماء: إن حج بيت الله فرض كفاية في كل سنة؛ فلو ترك الناس حجه؛ لأثم كل قادر، بل لو ترك الناس حجه؛ لزال ما به قوامهم وقامت القيامة. وقوله: ﴿ وَالْهَدْيَ وَالْقَلْبَدَّ ﴾؛ أي: وكذلك جعل الهدى والقلائد التي هي أشهر أنواع الهدى قياماً للناس يتفنون بهما، ويثابون عليهما. ﴿ ذَلِكَ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَنَّ اللَّهَ يَكُلُّ شَيْءٍ عَلَيْهِ ﴾ ٩٧: فمن علمه أن جعل لكم هذا البيت الحرام لما يعلمه من مصالحكم الدينية والدنيوية.

﴿ ٩٨ ﴾ ﴿ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ ٩٨؛ أي: ليكن هذان العلمان موجودين في قلوبكم على وجه الجزم واليقين؛ تعلمون أنه شديد العقاب العاجل والأجل على من عصاه، وأنه غفور رحيم لمن تاب إليه وأطاعه، فيثمر لكم هذا العلم الخوف من عقابه والرجاء لمغفرته وثوابه، وتعملون على ما يقتضيه الخوف والرجاء.

﴿ ٩٩ ﴾ ثم قال تعالى: ﴿ مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلْغُ ﴾: وقد بلغ كما أمر وقام بوظيفته وما سوى ذلك؛ فليس له من الأمر شيء. ﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴾ ٩٩: فيجازيكم بما يعلمه تعالى منكم.

﴿ ١٠٠ ﴾ ﴿ قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَتَذَكَّرُ أُولَى الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَفْلَحُونَ ﴾ ١٠٠: أي: ﴿ قُلْ ﴾ للناس محذراً عن الشر ومرغباً في الخير: ﴿ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ ﴾: من كل شيء؛ فلا يستوي الإيمان والكفر، ولا الطاعة والمعصية، ولا أهل الجنة وأهل النار، ولا الأعمال الخبيثة والأعمال الطيبة، ولا المال الحرام بالمال الحلال، ﴿ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ ﴾: فإنه لا ينفع صاحبه شيئاً، بل يضره في دينه ودينه، ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَتَذَكَّرُ أُولَى الْأَلْبَابِ ﴾ ١٠١

أَلَا لَبِيبٌ لِّمَلَكِكُمْ تَقْلُحُوتُ ﴿١٠١﴾: فأمر أولي الألباب؛ أي: أهل العقول الوافية والآراء الكاملة؛ فإن الله تعالى يوجه إليهم الخطاب، وهم الذين يؤبه لهم ويرجى أن يكون فيهم خير، ثم أخبر أن الفلاح متوقف على التقوى التي هي موافقة الله في أمره ونهيهِ؛ فمن اتقاه؛ أفلح كل الفلاح، ومن ترك تقواه؛ حصل له الخسران، وفاته الأرباح.

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ بُدِّ لَكُمْ سَأَلُوكُمْ وَإِنْ تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبَدِّ لَكُمْ عَفَا اللَّهُ عَنْهَا وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٠٢﴾ قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ ﴿١٠٣﴾﴾.

﴿١٠١﴾ ينهى عباده المؤمنين عن سؤال الأشياء التي إذا بينت لهم ساءت لهم وأحزنتهم، وذلك كسؤال بعض المسلمين لرسول الله ﷺ عن آياتهم وعن حالهم في الجنة أو النار، فهذا ربما أنه لو بين للسائل؛ لم يكن له فيه خير، وكسؤالهم للأمور غير الواقعة، وكالسؤال الذي يترتب عليه تشديدات في الشرع ربما أحرجت الأمة، وكالسؤال عما لا يعني؛ فهذه الأسئلة وما أشبهها هي المنهي عنها، وأما السؤال الذي لا يترتب عليه شيء من ذلك؛ فهو مأمور به؛ كما قال تعالى: ﴿فَسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٠٤﴾﴾ [النحل: ٤٣]. ﴿وَإِنْ تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبَدِّ لَكُمْ﴾؛ أي: وإذا وافق سؤالكم محله، فسألتم عنها حين ينزل عليكم القرآن، فتسألون عن آية أشكلت أو حكم خفي وجهه عليكم في وقت يمكن فيه نزول الوحي من السماء، ﴿تُبَدِّ لَكُمْ﴾؛ أي: تبين لكم وتظهر، وإلا؛ فاسكتوا عما سكنت الله عنه. ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْهَا﴾؛ أي: سكت معافياً لعباده منها؛ فكل ما سكنت الله عنه؛ فهو مما أباحه وعفا عنه. ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٠٢﴾﴾؛ أي: لم يزل بالمغفرة موصوفاً وبالعلم والإحسان معروفاً، فتعرضوا لمغفرته وإحسانه، واطلبوه من رحمته ورضوانه.

﴿١٠٢﴾ وهذه المسائل التي نهيتهم عنها، ﴿قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ﴾؛ أي: جنسها وشبهها سؤال تعنت لا استرشاد، فلما بينت لهم وجاءتهم، ﴿أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ ﴿١٠٣﴾﴾؛ كما قال النبي ﷺ في الحديث الصحيح: «ما نهيتكم عنه؛ فاجتنبوه، وما أمرتكم به؛ فاتوا منه ما استطعتم؛ فإنما أهلك من كان قبلكم كثرة مسائلهم واختلافهم على أنبيائهم»^(١).

(١) البخاري (٧٢٨٨)، مسلم (١٣٣٧).

﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِيَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَكَذَّبَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٤﴾﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَاءَنَا أُولُو كَانَ ءَابَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٠٥﴾﴾.

﴿١٠٤﴾ هذا ذم للمشركين الذين شرعوا في الدين ما لم يأذن به الله وحرّموا ما أحله الله، فجعلوا بآرائهم الفاسدة شيئاً من مواشيهم محرّماً على حسب اصطلاحاتهم التي عارضت ما أنزل الله، فقال: ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ﴾؛ وهي ناقة يشقون أذنّها ثم يحرمون ركوبها ويرونها محترمة، ﴿وَلَا سَائِيَةٍ﴾؛ وهي ناقة أو بقرة أو شاة إذا بلغت شيئاً اصطلاحوا عليه؛ سيوها فلا تركب ولا يحمل عليها ولا تؤكل، وبعضهم ينذر شيئاً من ماله يجعله سائبة، ﴿وَلَا حَامٍ﴾؛ أي: جمل يحمى ظهره عن الركوب والحمل إذا وصل إلى حالة معروفة بينهم؛ فكل هذه مما جعلها المشركون محرّمة بغير دليل ولا برهان، وإنما ذلك افتراء على الله وصادرة من جهلهم وعدم عقلهم. ولهذا قال: ﴿وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَكَذَّبَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٤﴾﴾ فلا نقل فيها ولا عقل.

﴿١٠٥﴾ ومع هذا؛ فقد أعجبوا بآرائهم التي بنيت على الجهالة والظلم؛ فإذا دعوا ﴿إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَىٰ الرَّسُولِ﴾؛ أعرضوا فلم يقبلوا، و﴿قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَاءَنَا﴾؛ من الدين، ولو كان غير سديد ولا ديناً ينجي من عذاب الله، ولو كان في آياتهم كفاية ومعرفة ودراية؛ لهان الأمر، ولكن آباءهم لا يعقلون شيئاً؛ أي: ليس عندهم من المعقول شيء ولا من العلم والهدى شيء؛ فتبّاً لمن قلّد من لا علم عنده صحيح ولا عقل رجيح، وترك اتباع ما أنزل الله واتباع رسله الذي يملأ القلوب علماً وإيماناً وهدى وإيقاناً.

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسُكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مِّنْ ضَلَّ إِذَا أَهْتَدَيْتُمْ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٦﴾﴾.

﴿١٠٥﴾ يقول تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسُكُمْ﴾؛ أي: اجتهدوا في إصلاحها وكمالها والزمها سلوك الصراط المستقيم؛ فإنكم إذا صليتم؛ لا يضرركم من ضل عن الصراط المستقيم ولم يهتد إلى الدين القويم، وإنما يضر نفسه. ولا يدل هذا على أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

سورة المائدة

سورة المائدة

وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا
حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ
شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٠٦﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسُكُمْ
لَا يَضُرُّكُمْ مَن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا
فَنُصِيفُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٧﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا شَهَادَةُ
بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدُكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ذُوَا
عَدْلٍ مِّنْكُمْ أَوْ ءَاخَرَانِ مِّنْ غَيْرِكُمْ إِن أَنتُمْ صَرَيْتُمْ فِي الْأَرْضِ
فَأُصْبِحَتْكُم مَّصِيبَةُ الْمَوْتِ تَحْسِبُونَهُمَا مِنْ بَعْدِ الصَّلَاةِ
فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ إِنِ ارْتَبْتُمْ لَا نَشْتَرِي بِهِ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ
وَلَا تَكْتُمُ شَهَادَةَ اللَّهِ إِنَّا إِذًا لَّيِنَ الْآثِمِينَ ﴿١٠٨﴾ فَإِنْ عُرِ
عَلَىٰ أَنَّهُمَا اسْتَحَقَّا إِثْمًا فَآخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ
الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْأَوَّلَيْنِ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ لَشَهَدْنَا أَحَقَّ
مِنْ شَهَدَتِهِمَا وَمَا اعْتَدَيْنَا إِنَّا إِذًا لَّيِنَ الظَّالِمِينَ ﴿١٠٩﴾ ذَلِكَ
أَدْنَىٰ أَن يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ عَلَىٰ وَجْهِهَا أَوْ يَخَافُوا أَن تُرَدَّ آيَةٌ بَعْدَ
آيَتِهِمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَسْمِعُوا لِلَّهِ يُهْدِيَ الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿١١٠﴾

١٢٥

لا يضر العبد تركهما وإهمالهما؛ فإنه لا يتم هداة إلا بالإتيان
بما يجب عليه من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، نعم؛
إذا كان عاجزاً عن إنكار المنكر بيده ولسانه وأنكره بقلبه؛ فإنه
لا يضره ضلال غيره. وقوله: ﴿إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا﴾؛
أي: مالكم يوم القيامة واجتماعكم بين يدي الله تعالى،
﴿فَنُصِيفُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ ﴿١٠٦﴾: من خير وشر.

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدُكُمُ الْمَوْتُ
حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ذُوَا عَدْلٍ مِّنْكُمْ أَوْ ءَاخَرَانِ مِّنْ غَيْرِكُمْ إِن
أَنتُمْ صَرَيْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَأُصْبِحَتْكُم مَّصِيبَةُ الْمَوْتِ تَحْسِبُونَهُمَا
مِنْ بَعْدِ الصَّلَاةِ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ إِنِ ارْتَبْتُمْ لَا نَشْتَرِي بِهِ ثَمَنًا
وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَلَا تَكْتُمُ شَهَادَةَ اللَّهِ إِنَّا إِذًا لَّيِنَ الْآثِمِينَ﴾ ﴿١٠٦﴾
فَإِنْ عُرِ عَلَىٰ أَنَّهُمَا اسْتَحَقَّا إِثْمًا فَآخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ
الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْأَوَّلَيْنِ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ لَشَهَدْنَا أَحَقَّ
مِنْ شَهَدَتِهِمَا وَمَا اعْتَدَيْنَا إِنَّا إِذًا لَّيِنَ الظَّالِمِينَ﴾ ﴿١٠٧﴾ ذَلِكَ
أَدْنَىٰ أَن يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ عَلَىٰ وَجْهِهَا أَوْ يَخَافُوا أَن تُرَدَّ آيَةٌ بَعْدَ
آيَتِهِمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَسْمِعُوا لِلَّهِ يُهْدِيَ الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ ﴿١٠٨﴾

﴿١٠٦﴾ يخبر تعالى خبراً متضمناً للأمر بإشهاد اثنين على
الوصية إذا حضر الإنسان مقدمات الموت وعلائمه، فينبغي
له أن يكتب وصيته، ويشهد عليها اثنين ذوي عدل ممن
يعتبر شهادتهما، ﴿أَوْ ءَاخَرَانِ مِّنْ غَيْرِكُمْ﴾؛ أي: من غير أهل دينكم من اليهود أو النصارى أو غيرهم، وذلك عند الحاجة
والضرورة وعدم غيرهما من المسلمين ﴿إِن أَنتُمْ صَرَيْتُمْ فِي الْأَرْضِ﴾؛ أي: سافرتم فيها، ﴿فَأُصْبِحَتْكُم مَّصِيبَةُ الْمَوْتِ﴾؛ أي:
فأشهدوهما، ولم يأمر بإشهادهما إلا لأن قولهما في تلك الحال مقبول، ويؤكد عليهما بأن يحبسا ﴿مِنْ بَعْدِ الصَّلَاةِ﴾: التي
يعظمونها، ﴿فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ﴾: أنهما صدقا وما غيرا ولا بدلا هذا، ﴿إِنِ ارْتَبْتُمْ﴾: في شهادتهما؛ فإن صدقتموها؛ فلا حاجة
إلى القسم بذلك. ويقولان: ﴿لَا نَشْتَرِي بِهِ ثَمَنًا﴾؛ أي: بأيماننا ﴿ثَمَنًا﴾: بأن نكذب فيها لأجل عرض من الدنيا، ﴿وَلَوْ كَانَ ذَا
قُرْبَىٰ﴾: فلا نراعيه لأجل قربه منا، ﴿وَلَا تَكْتُمُ شَهَادَةَ اللَّهِ﴾: بل نؤديها على ما سمعناها، ﴿إِنَّا إِذًا لَّيِنَ الْآثِمِينَ﴾ ﴿١٠٧﴾.

﴿١٠٧﴾ فَإِنْ عُرِ عَلَىٰ أَنَّهُمَا اسْتَحَقَّا إِثْمًا﴾: أي: الشاهدين ﴿اسْتَحَقَّا إِثْمًا﴾: بأن وجد من القرائن ما يدل على كذبهما وأنهما خانا،
﴿فَآخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْأَوَّلَيْنِ﴾؛ أي: فليقم رجلان من أولياء الميت، وليكونا من أقرب الأولياء
إليه، ﴿فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ لَشَهَدْنَا أَحَقَّ مِنْ شَهَدَتِهِمَا﴾؛ أي: أنهما كذبا وغيرا وخانا. ﴿وَمَا اعْتَدَيْنَا إِنَّا إِذًا لَّيِنَ الظَّالِمِينَ﴾ ﴿١٠٨﴾؛
أي: إن ظلمنا، واعتدينا، وشهدنا بغير الحق.

﴿١٠٨﴾ قَالَ اللَّهُ تَعَالَىٰ فِي بَيَانِ حِكْمَةِ تِلْكَ الشَّهَادَةِ وَتَأْكِيدِهَا وَرَدِّهَا عَلَىٰ أَوْلِيَاءِ الْمَيِّتِ حِينَ تَظْهَرُ مِنَ الشَّاهِدِينَ الْخِيَانَةُ: ﴿ذَلِكَ
أَدْنَىٰ﴾؛ أي: أقرب ﴿أَن يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ عَلَىٰ وَجْهِهَا﴾: حين تؤكد عليهما تلك التأكيدات ﴿أَوْ يَخَافُوا أَن تُرَدَّ آيَةٌ بَعْدَ آيَتِهِمْ﴾؛ أي:
ألا تقبل إيمانهم ثم ترد على أولياء الميت ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ ﴿١٠٩﴾: أي: الذين وصفهم الفسق؛ فلا يريدون الهدى
والقصد إلى الصراط المستقيم.

وحاصل هذا أن الميت إذا حضره الموت في سفر ونحوه مما هو مظنة قلة الشهود المعتبرين: أنه ينبغي أن يوصي شاهدين

ومنها: تعظيم أمر الشهادة؛ حيث أضافها تعالى إلى نفسه، وأنه يجب الاعتناء بها والقيام بها بالقسط.

ومنها: أنه يجوز امتحان الشاهدين عند الريبة منهما وتفريقهما لينظر عن شهادتهما.

ومنها: أنه إذا وجدت القرائن الدالة على كذب الوصيين في هذه المسألة؛ قام اثنان من أولياء الميت، فأقسما بالله أن أيماننا أصدق من أيمانهما ولقد خانا وكذبا، ثم يدفع إليهما ما ادعياه، وتكون القرينة مع أيمانهما قائمة مقام البيعة.

﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّمَهُ الْغُيُوبَ﴾ (١٠٩) إِذْ قَالَ اللَّهُ يٰعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَلَدَيْكَ إِذْ أُيِّدْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتَبْرِئُ الْأَكْمَامَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتِ بِإِذْنِي وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَنْكَ إِذْ جَعَلْتَهُمُ الْبَلَيْنَتَ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴿١١٠﴾

﴿١٠٩﴾ يخبر تعالى عن يوم القيامة وما فيه من الأحوال العظام، وأن الله يجمع به جميع الرسل، فيسألهم: ﴿مَاذَا أُجِبْتُمْ؟﴾ أي: ماذا أجابكم به أممكم؟ فقالوا: ﴿لَا عِلْمَ لَنَا﴾؛ وإنما العلم لك يا ربنا؛ فأنت أعلم منا. ﴿إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّمَهُ الْغُيُوبَ﴾ (١٠٩)؛ أي: تعلم الأمور الغائبة والحاضرة.

﴿١١٠﴾ إِذْ قَالَ اللَّهُ يٰعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَلَدَيْكَ؛ أي: اذكرها بقلبك ولسانك، وقم بواجبها شكرًا لربك، حيث أنعم عليك نعمًا ما أنعم بها على غيرك، ﴿وَإِذْ أُيِّدْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾؛ أي: إذ قويتك بالروح والوحي الذي طهرك وزكاك وصار لك قوة على القيام بأمر الله والدعوة إلى سبيله. وقيل: إن المراد بروح القدس جبريل عليه السلام، وإن الله أعانه به وبملازمته له وتثبيتته في المواطن المشقة، ﴿تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا﴾؛

المراد بالتكليم هنا غير التكليم المعهود الذي هو مجرد الكلام، وإنما المراد بذلك التكليم الذي يتنفع به المتكلم والمخاطب، وهو الدعوة إلى الله، ولعيسى عليه السلام من

مسلمين عدلين؛ فإن لم يجد إلا شاهدين كافرين؛ جاز أن يوصي إليهما، ولكن لأجل كفرهما؛ فإن الأولياء إذا ارتابوا بهما؛ فإنهم يحلفونهما بعد الصلاة أنهما ما خانا ولا كذبا ولا غيرا ولا بدلا، فيبرآن بذلك من حق يتوجه إليهما؛ فإن لم يصدقوهما ووجدوا قرينة تدل على كذب الشاهدين؛ فإن شاء أولياء الميت؛ فليقم منهم اثنان، فيقسمان بالله لشهادتهما أحق من شهادة الشاهدين الأولين، وأنهما خانا وكذبا، فيستحقون منهما ما يدعون.

وهذه الآيات الكريمة نزلت في قصة تميم الداري وعدي بن بداء المشهورة^(١)، حين أوصى لهما العدوي. والله أعلم.

ويستدل بالآيات الكريمات على عدة أحكام:

منها: أن الوصية مشروعة، وأنه ينبغي لمن حضره الموت أن يوصي.

ومنها: أنها معتبرة ولو كان الإنسان وصل إلى مقدمات الموت وعلاماته ما دام عقله ثابتًا.

ومنها: أن شهادة الوصية لا بد فيها من اثنين عدلين.

ومنها: أن شهادة الكافرين في هذه الوصية ونحوها مقبولة لوجود الضرورة. وهذا مذهب الإمام أحمد. وزعم كثير من أهل العلم أن هذا الحكم منسوخ، وهذه دعوى لا دليل عليها.

ومنها: أنه ربما استفيد من تلميح الحكم ومعناه، أن شهادة الكفار عند عدم غيرهم حتى في غير هذه المسألة مقبولة؛ كما ذهب إلى ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية.

ومنها: جواز سفر المسلم مع الكافر إذا لم يكن محذور.

ومنها: جواز السفر للتجارة.

ومنها: أن الشاهدين إذا ارتبب منهما، ولم تبد قرينة تدل على خيانتهم، وأراد الأولياء أن يؤكدوا عليهم اليمين، ويحبسوهما من بعد الصلاة، فيقسمان بصفة ما ذكر الله تعالى.

ومنها: أنه إذا لم تحصل تهمة ولا ريب؛ لم يكن حاجة إلى حبسهما وتأكيده اليمين عليهما.

ذلك ما لإخوانه من أولي العزم من المرسلين من التكليم في حال الكهولة بالرسالة والدعوة إلى الخير والنهي عن الشر، وامتناز عنهم بأنه كلم الناس في المهدي، فقال: ﴿إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ؕ آتَنِي الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ۖ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ۖ﴾ [مريم: ٣٠، ٣١].

﴿وَإِذْ عَلَّمْنَاكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾؛ فالكتاب: يشمل الكتب السابقة، وخصوصًا التوراة؛ فإنه من أعلم أنبياء بني إسرائيل بعد موسى بها، ويشمل الإنجيل الذي أنزله الله عليه. والحكمة: هي معرفة أسرار الشرع وفوائده وحكمه وحسن الدعوة والتعليم ومراعاة ما ينبغي على الوجه الذي ينبغي. ﴿وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنْفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتَبْرِئُ الْأَكْمَامَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَى بِإِذْنِي وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَنْكَ إِذْ جَعَلَهُمُ الْيَتَامَى فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسْحَرُ تُبَيِّتُ ۖ﴾ وَإِذْ أُوحِيَتْ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ ءَامِنُوا بِ وَبِرَسُولِي قَالُوا ءَامَنَّا وَأَشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ۖ﴾ إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَٰعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ قَالَ أَتَقُولُ إِنَّ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ۖ قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَّقْتَنَا وَتَكُونَ عَلَيْنَا مِنَ الشَّاهِدِينَ ۖ

فكف الله أيديهم عنه، وحفظه منهم، وعصمه.

يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا بِئِنَّكَ أَنْتَ عَلَّمَهُ الْغُيُوبَ ۖ﴾ إِذْ قَالَ اللَّهُ يَٰعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنْفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتَبْرِئُ الْأَكْمَامَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَى بِإِذْنِي وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَنْكَ إِذْ جَعَلَهُمُ الْيَتَامَى فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسْحَرُ تُبَيِّتُ ۖ﴾ وَإِذْ أُوحِيَتْ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ ءَامِنُوا بِ وَبِرَسُولِي قَالُوا ءَامَنَّا وَأَشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ۖ﴾ إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَٰعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ قَالَ أَتَقُولُ إِنَّ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ۖ قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَّقْتَنَا وَتَكُونَ عَلَيْنَا مِنَ الشَّاهِدِينَ ۖ

فهذه من امتن الله بها على عبده ورسوله عيسى ابن مريم ودعاه إلى شكرها والقيام بها، فقام بها عليه السلام، أتم القيام، وصبر كما صبر إخوانه من أولي العزم.

﴿وَإِذْ أُوحِيَتْ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ ءَامِنُوا بِ وَبِرَسُولِي قَالُوا ءَامَنَّا﴾ إلى آخر الآيات.

﴿١١٠﴾ - ﴿١١١﴾ أي: واذكر نعمتي عليك إذ يسرت لك أتباعًا وأعوانًا، فأوحيت إلى الحواريين؛ أي: ألهمتهم وأوزعت قلوبهم الإيمان بي وبرسولي، أو أوحيت إليهم على لسانك؛ أي: أمرتهم بالوحي الذي جاءك من عند الله، فأجابوا لذلك وانقادوا وقالوا: ﴿ءَامَنَّا وَأَشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾، فجمعوا بين الإسلام الظاهر والانقياد بالأعمال الصالحة والإيمان الباطن المخرج لصاحبه من النفاق ومن ضعف الإيمان. والحواريون هم الأنصار؛ كما قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ﴾ [الصف: ١٤].

﴿إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَٰعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ﴾؛ أي: مائدة فيها طعام، وهذا ليس منهم عن شك في قدرة الله واستطاعته على ذلك وإنما ذلك من باب العرض والأدب منهم، ولما كان سؤال آيات الاقتراح منافيًا للانقياد للحق وكان هذا الكلام الصادر من الحواريين ربما أوهم ذلك؛ وعظهم عيسى عليه السلام فقال: ﴿أَتَقُولُ إِنَّ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾؛ فإن المؤمن يحمل ما معه من الإيمان على ملازمة التقوى، وأن ينقاد لأمر الله، ولا يطلب من آيات الاقتراح التي لا يدري ما يكون بعدها شيئًا.

فأخبر الحواريون أنهم ليس مقصودهم هذا المعنى، وإنما لهم مقاصد صالحة ولأجل الحاجة إلى ذلك، فقالوا: ﴿نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا﴾؛ وهذا دليل على أنهم محتاجون لها، ﴿وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا﴾؛ بالإيمان حين نرى الآيات العيانة، حتى يكون

الإيمان عين اليقين؛ كما كان قبل ذلك علم اليقين؛ كما سأل الخليل عليه الصلاة والسلام ربه أن يريه كيف يحيي الموتى، ﴿قَالَ أَوْلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَىٰ وَلَكِنْ لَّيَطْمِئَنَّ قَلْبِي﴾ [البقرة: ٢٦٠]؛ فالعبد محتاج إلى زيادة العلم واليقين والإيمان كل وقت، ولهذا قال: ﴿وَتَعْلَمُ أَنَّ قَدْ صَدَقْتَنِي﴾؛ أي: نعلم صدق ما جئت به أنه حق وصدق، ﴿وَتَكُونُ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ [١١٦]؛ فتكون مصلحة لمن بعدنا، نشهدها لك، فتقوم الحجة، ويحصل زيادة البرهان بذلك.

فلما سمع عيسى عليه الصلاة والسلام ذلك وعلم مقصودهم؛ أجابهم إلى طلبهم في ذلك، فقال: ﴿اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِنْكَ﴾؛ أي: يكون وقت نزولها عيدًا وموسمًا يتذكر به هذه الآية العظيمة، فتحفظ ولا تنسى على مرور الأوقات وتكرر السنين؛ كما جعل الله تعالى أعياد المسلمين ومناسكهم مذكرًا لآياته، ومنبهاً على سنن المرسلين وطرقهم القويمة وفضله وإحسانه عليهم، ﴿وَأَرْزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّزُقِينَ﴾ [١١٦]؛ أي: اجعلها لنا رزقًا. فسأل عيسى عليه السلام نزولها وأن تكون لها تين المصلحتين: مصلحة الدين بأن تكون آية باقية، ومصلحة الدنيا، وهي أن تكون رزقًا.

﴿قَالَ اللَّهُ إِنِّي مَرْسَلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدَ مِنْكُمْ فَإِنِّي أَعَذِّبُهُ عَذَابًا لَا أَعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ [١١٦]؛ لأنه شاهد الآية الباهرة وكفر عنادًا وظلمًا، فاستحق العذاب الأليم والعقاب الشديد.

واعلم أن الله تعالى وعد أنه سينزلها، وتوعدهم إن كفروا بهذا الوعد، ولم يذكر أنه أنزلها: فيحتمل أنه لم ينزلها بسبب أنهم لم يختاروا ذلك، ويدل على ذلك أنه لم يذكر في الإنجيل الذي بأيدي النصارى ولا له وجود. ويحتمل أنها نزلت كما وعد الله، وأنه لا يخلف الميعاد، ويكون عدم ذكرها في الأناجيل التي بأيديهم من الحظ الذي ذكروا به فنسوه، أو أنه لم يذكر في الإنجيل أصلاً، وإنما ذلك كان متوارثاً بينهم، ينقله الخلف عن السلف، فاكفى الله بذلك عن ذكره في الإنجيل، ويدل على هذا المعنى قوله: ﴿وَتَكُونُ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ [١١٦]. والله أعلم بحقيقة الحال.

﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ لِيَعِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ مَا أَنْتَ لِلنَّاسِ أُخِيذُونِي وَأُنْزِلَ إِلَهُي مِنَ دُونِ اللَّهِ﴾؛ وهذا توبيخ للنصارى الذين قالوا: إن الله ثالث ثلاثة! فيقول الله هذا الكلام لعيسى، فيتبرأ منه عيسى، ويقول: ﴿سُبْحَانَكَ﴾؛ عن هذا الكلام القبيح وعملاً لا يليق بك، ﴿مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ﴾؛ أي: ما ينبغي لي ولا يليق أن أقول شيئاً ليس من أوصافي ولا من حقوقي؛ فإنه ليس أحد من المخلوقين؛ لا الملائكة المقربون، ولا الأنبياء المرسلون، ولا غيرهم له حق ولا استحقاق لمقام الإلهية، وإنما جميع عباد مدبرون وخلق مسخرون وفقراء عاجزون. ﴿إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ﴾؛ فأنت أعلم بما صدر مني وأنت علام الغيوب، وهذا من كمال أدب المسيح عليه الصلاة والسلام في خطابه لربه، فلم يقل عليه السلام: لم أقل شيئاً من ذلك، وإنما أخبر بكلام ينفي عن نفسه أن يقول كل مقالة تنافي منصبه الشريف، وأن هذا من الأمور المحالة، ونزه ربه عن ذلك أتم تنزيهه، ورد العلم إلى عالم الغيب والشهادة.

ثم صرح بذكر ما أمر به بني إسرائيل، فقال: ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ﴾؛ فأناب عبد متبع لأمر لا متجرب على عظمتك، ﴿إِنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾؛ أي: ما أمرتهم إلا بعبادة الله وحده وإخلاص الدين له المتضمن للنهي عن اتخاذي وأمي

﴿وَاللَّهُ يَكْفُرُ عَنْ غَيْرِهِمْ﴾؛ أي: ما ينبغي لي ولا يليق أن أقول شيئاً ليس من أوصافي ولا من حقوقي؛ فإنه ليس أحد من المخلوقين؛ لا الملائكة المقربون، ولا الأنبياء المرسلون، ولا غيرهم له حق ولا استحقاق لمقام الإلهية، وإنما جميع عباد مدبرون وخلق مسخرون وفقراء عاجزون. ﴿إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ﴾؛ فأنت أعلم بما صدر مني وأنت علام الغيوب، وهذا من كمال أدب المسيح عليه الصلاة والسلام في خطابه لربه، فلم يقل عليه السلام: لم أقل شيئاً من ذلك، وإنما أخبر بكلام ينفي عن نفسه أن يقول كل مقالة تنافي منصبه الشريف، وأن هذا من الأمور المحالة، ونزه ربه عن ذلك أتم تنزيهه، ورد العلم إلى عالم الغيب والشهادة.

﴿وَاللَّهُ يَكْفُرُ عَنْ غَيْرِهِمْ﴾؛ أي: ما ينبغي لي ولا يليق أن أقول شيئاً ليس من أوصافي ولا من حقوقي؛ فإنه ليس أحد من المخلوقين؛ لا الملائكة المقربون، ولا الأنبياء المرسلون، ولا غيرهم له حق ولا استحقاق لمقام الإلهية، وإنما جميع عباد مدبرون وخلق مسخرون وفقراء عاجزون. ﴿إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ﴾؛ فأنت أعلم بما صدر مني وأنت علام الغيوب، وهذا من كمال أدب المسيح عليه الصلاة والسلام في خطابه لربه، فلم يقل عليه السلام: لم أقل شيئاً من ذلك، وإنما أخبر بكلام ينفي عن نفسه أن يقول كل مقالة تنافي منصبه الشريف، وأن هذا من الأمور المحالة، ونزه ربه عن ذلك أتم تنزيهه، ورد العلم إلى عالم الغيب والشهادة.

ثم صرح بذكر ما أمر به بني إسرائيل، فقال: ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ﴾؛ فأناب عبد متبع لأمر لا متجرب على عظمتك، ﴿إِنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾؛ أي: ما أمرتهم إلا بعبادة الله وحده وإخلاص الدين له المتضمن للنهي عن اتخاذي وأمي

إلهين من دون الله وبيان أني عبد مربوب؛ فكما أنه ربكم فهو ربي، ﴿وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ﴾: أشهد على من قام بهذا الأمر ممن لم يقم به. ﴿فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ﴾: أي: المطلع على سرائرهم وضمايرهم، ﴿وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾: علماً وسمعاً وبصراً؛ فعلمك قد أحاط بالمعلومات وسمعك بالمسموعات وبصرك بالمبصرات؛ فانت الذي تجازي عبادك بما تعلمه فيهم من خير وشر.

﴿إِنْ تُعَذِّبُهُمْ فَلَا تَهِنُ عَذَابُكَ﴾: وأنت أرحم بهم من أنفسهم وأعلم بأحوالهم؛ فلولا أنهم عباد متمردون؛ لم تعذبهم، ﴿وَأِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْغَفُورُ﴾: أي: فمغفرتك صادرة عن تمام عزة وقدره، لا كمن يغفر ويعفو عن عجز وعدم قدرة، ﴿لَلْكَيْمِ﴾: حيث كان من مقتضى حكمتك أن تغفر لمن أتى بأسباب المغفرة.

﴿قَالَ اللَّهُ﴾ مبيناً لحال عبادهم يوم القيامة ومن الفائز منهم ومن الهالك ومن الشقي ومن السعيد: ﴿هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ﴾: والصادقون هم الذين استقامت أعمالهم وأقوالهم ونياتهم على الصراط المستقيم والهدي القويم؛ فيوم القيامة يجدون ثمرة ذلك الصدق إذا أحلهم الله في مقعد صدق عند مليك مقتدر. ولهذا قال: ﴿مَنْ جَنَّتْ فَجَئَتْ مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾،

والكاذبون بضد هم سيجدون ضرر كذبهم وافترائهم وثمره أعمالهم الفاسدة.

﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾: لأنه الخالق لهما والمدير لذلك بحكمه القدري وحكمه الشرعي وحكمه الجزائي. ولهذا قال: ﴿وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾: فلا يعجزه شيء بل جميع الأشياء منقادة لمشيئته ومسخرة بأمره.

تم تفسير سورة المائدة بفضل من الله وإحسان.

والحمد لله رب العالمين.



تفسير سورة الأنعام

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ ١ ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضَى أَجَلًا وَأَجَلٌ مُسَمًّى عِنْدَهُ ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ﴾ ٢ ﴿

١ هذا إخبار عن حمده والثناء عليه بصفات الكمال ونعوت العظمة والجلال عمومًا وعلى هذه المذكورات خصوصًا؛ فحمد نفسه على خلقه السماوات والأرض الدالة على كمال قدرته وسعة علمه ورحمته وعموم حكمته وانفراده بالخلق

مَكَتَّهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ تُمَكِّنْ لَكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ
مِدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ
وَأَسْأَلْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ ﴿٦﴾

﴿٦﴾ هذا إخبار منه تعالى عن إعراض المشركين وشدة
تكذيبهم وعداوتهم، وأنهم لا تنفع فيهم الآيات حتى تحل
بهم المثالات، فقال: ﴿وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ﴾
الدالة على الحق دلالة قاطعة، الداعية لهم إلى اتباعه وقبوله،
﴿إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ لا يلقون لها بالاً ولا يصغون
لها سمعاً، قد انصرفت قلوبهم إلى غيرها، وولوها أديارهم.

﴿٥﴾ فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ: والحق حقه أن يتبع
ويشكر الله على تيسيره لهم وإتيانهم به، فقابلوه بضد ما يجب
مقابلته به، فاستحقوا العقاب الشديد. ﴿فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا
كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ أي: فسوف يرون ما استهزؤا به
أنه الحق والصدق، وبين الله للمكذبين كذبهم وافتراءهم،
وكانوا يستهزئون بالبعث والجنة والنار؛ فإذا كان يوم القيامة؛
قبل للمكذبين: ﴿هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾
[الطور: ١٤]، وقال تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا
يَعِثُّ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ بَلَى وَعَذَابٌ عَلَيْهِمْ حَقٌّ وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ
لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يٰسِينَ ٢٨] لَهْمُ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلَيَعْلَمَنَّ الَّذِينَ
كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ ﴿٣٩﴾ [النحل: ٣٨، ٣٩].

﴿٦﴾ ثم أمرهم أن يعتبروا بالأُمم السابقة، فقال: ﴿أَلَمْ يَرَوْا
كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ﴾ أي: كم تتابع إهلاكنا للأُمم
المكذبين وأمهلتهم قبل ذلك الإهلاك بآن ﴿مَكَتَّهُمْ فِي
الْأَرْضِ مَا لَمْ تُمَكِّنْ﴾ لهؤلاء من الأموال والبنين والرفاهية،
﴿وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِنْ
تَحْتِهِمْ﴾ تنبت لهم بذلك ما شاء الله من زروع وثمار يتمتعون
بها ويتناولون منها ما يشتهون، فلم يشكروا الله على نعمه،
بل أقبلوا على الشهوات، وألهتهم أنواع اللذات، فجاءتهم
رسلهم بالبينات، فلم يصدقوها، بل ردوها وكذبوها،
فأهلكهم الله بذنوبهم، وأنشأ من بعدهم قرناً آخرين؛ فهذه
سنة الله ودأبه في الأُمم السابقين واللاحقين؛ فاعتبروا بمن
قص الله عليكم نبأهم.

﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ
الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ [٧] وَقَالُوا لَوْلَا أَنْزَلَ
عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكًا لَفُصِّحَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يَنْظُرُونَ ﴿٨﴾

والتدبير، وعلى جعله الظلمات والنور، وذلك شامل
للحسي من ذلك؛ كالليل والنهار والشمس والقمر،
والمعنوي؛ كظلمات الجهل والشك والشرك والمعصية
والغفلة ونور العلم والإيمان واليقين والطاعة، وهذا كله يدل
دلالة قاطعة أنه تعالى هو المستحق للعبادة وإخلاص الدين
له، ومع هذا الدليل ووضوح البرهان: ﴿ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا
بِرَبِّهِمْ يَقُولُونَ﴾ أي: يعدلون به سواء؛ يسوونهم به
في العبادة والتعظيم، مع أنهم لم يساووا الله في شيء من
الكمال، وهم فقراء عاجزون ناقصون من كل وجه.

﴿٢﴾ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ: وذلك بخلق مادتكُم
وأبيكم آدم عليه السلام. ﴿ثُمَّ قَضَىٰ أَجَلًا﴾ أي: ضرب لمدة
إقامتكم في هذه الدار أجلاً تتمتعون به، وتمتحنون، وتبتلون
بما يرسل إليهم به رسله؛ ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾
[هود: ٧]، ويعمركم، ما يتذكر فيه من تذكر. ﴿وَأَجَلٌ مُّسَمًّى
عِنْدَهُ﴾ وهي الدار الآخرة التي ينتقل العباد إليها من هذه
الدار، فيجازيهم بأعمالهم من خير وشر، ﴿ثُمَّ﴾ مع هذا
البيان التام وقطع الحجة ﴿أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ﴾ أي: تشكون
في وعد الله ووعيده ووقوع الجزاء يوم القيامة.

وذكر الله الظلمات بالجمع لكثرة موادها وتنوع طرقها،
ووحده النور لكون الصراط الموصلة إلى الله واحدة لا تعدد
فيها، وهي الصراط المتضمنة للعلم بالحق والعمل به؛ كما
قال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا
السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

﴿وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ
وَيَعْلَمُ مَا تُكْتَسِبُونَ﴾

﴿٣﴾ أي: وهو المألوه المعبود، ﴿فِي السَّمَوَاتِ وَفِي
الْأَرْضِ﴾: فأهل السماء والأرض متعبدون لربهم خاضعون
لعظمته مستكينون لعزه وجلاله؛ الملائكة المقربون والأنبياء
والمرسلون والصدقيون والشهداء والصالحون. وهو تعالى
﴿يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تُكْتَسِبُونَ﴾ فاحذروا
معاصيه وارغبوا في الأعمال التي تقرّبكم منه، وتدينكم من
رحمته، واحذروا من كل عمل يبعدكم منه ومن رحمته.

﴿وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا
مُعْرِضِينَ﴾ فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ
مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٥﴾ أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ

وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلِيْسُونَ ﴿٩﴾

﴿٧﴾ هذا إخبار من الله لرسوله عن شدة عناد الكافرين، وأنه ليس تكذيبهم لقصور فيما جتهد به ولا لجهل منهم بذلك، وإنما ذلك ظلم وبغي لا حيلة لكم فيه، فقال: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ﴾: ويطقوه، ﴿فَلَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾: ظلماً وعلواً: ﴿إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ ﴿٧﴾؛ فأي بيعة أعظم من هذه البيعة، وهذا قولهم الشنيع فيها، حيث كابروا المحسوس الذي لا يمكن من له أدنى مسكة من عقل دفعه؟!

﴿٨﴾ ﴿وَقَالُوا﴾ أيضاً تعنتاً مبنياً على الجهل وعدم العلم بالمعقول: ﴿لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ﴾؛ أي: هلاً أنزل مع محمد ملك يعاونه ويساعده على ما هو عليه؛ بزعمهم أنه بشر وأن رسالة الله لا تكون إلا على أيدي الملائكة. قال الله في بيان رحمته ولطفه بعباده حيث أرسل إليهم بشراً منهم يكون الإيمان بما جاء به عن علم وبصيرة وغيب: ﴿وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكًا﴾: برسالتنا؛ لكان الإيمان لا يصدر عن معرفة بالحق، ولكان إيماناً بالشهادة الذي لا ينفع شيئاً وحده، هذا إن آمنوا، والغالب أنهم لا يؤمنون بهذه الحالة، فإذا لم يؤمنوا؛ ﴿لَقُصِيَ الْأَمْرُ﴾: بتعجيل الهلاك عليهم وعدم إنظارهم؛ لأن هذه سنة وأرقف بهم مع إمهال الله للكافرين والمكذبين خير لهم وأنفع، فطلبهم لإنزال الملك شر لهم لو كانوا يعلمون.

﴿٩﴾ ومع ذلك؛ فالملك لو أنزل عليهم وأرسل؛ لم يطبقوا التلقي عنه ولا احتملوا ذلك ولا أطاقتهم قواهم الفانية، فلو ﴿جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا﴾: لأن الحكمة لا تقتضي سوى ذلك، ﴿وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلِيْسُونَ﴾ ﴿٩﴾؛ أي: ولكان الأمر مختلطاً عليهم وملبوساً، وذلك بسبب ما لبسوه على أنفسهم؛ فإنهم بنوا أمرهم على هذه القاعدة التي فيها اللبس وعدم بيان الحق، فلما جاءهم الحق بطرقه الصحيحة وقواعده التي هي قواعده؛ لم يكن ذلك هداية لهم إذا اعتدى بذلك غيرهم، والذنب ذنبهم؛ حيث أغلقوا على أنفسهم باب الهدى، وفتحوا أبواب الضلال.

﴿وَلَقَدْ أَسْتَهْزِئُ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَقَّ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ ﴿١٠﴾ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ أَنْظَرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾

﴿١٠﴾ يقول تعالى مسلماً لرسوله ومصبراً، ومتهدداً أعداءه ومتوعداً: ﴿وَلَقَدْ أَسْتَهْزِئُ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ﴾: لما جاءوا أمهم بالبيئات؛ كذبهم واستهزءوا بهم وبما جاءوا به، فأهلكهم الله بذلك الكفر والتكذيب، ووفى لهم من العذاب أكمل نصيب، ﴿فَحَقَّ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ ﴿١٠﴾: فاحذروا أيها المكذبون أن تستمروا على تكذيبكم، فيصيبكم ما أصابهم.

﴿١١﴾ فإن شككتم في ذلك أو ارتبتم؛ ف﴿سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ أَنْظَرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ ﴿١١﴾؛ فلن تجدوا إلا قوماً مهلكين، وأمماً في المثلاث تالفين، قد أوحشت منهم المنازل، وعدم من تلك الربوع كل متمتع بالسرور نازل، أبادهم الملك الجبار، وكان نؤهم عبرة لأولي الأبصار. وهذا السير المأمور به سير القلوب والأبدان الذي يتولد منه الاعتبار،

وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلِيْسُونَ ﴿٩﴾ وَلَقَدْ أَسْتَهْزِئُ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَقَّ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿١٠﴾ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ أَنْظَرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾ قُلْ لِمَن مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ لِلَّهِ كُتِبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةُ لِيَجْمَعَ كُفْرَكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ هُمْ لَأَيُّوْمُونَ ﴿١٢﴾ وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي الْأَيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٣﴾ قُلْ أَغْنَى اللَّهُ عَنِ الْبَشَرِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطِمْسِقُ وَلَا يُطْمِمْ قُلْ إِنَّي أَمَرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَمْسَرَ وَلَا تَكُونَتْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٤﴾ قُلْ إِنَّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ مَن يَصْرِفْ عَنْهُ يَوْمَ فَقَدَ رَحْمَتَهُ وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ ﴿١٦﴾ وَإِن يَمَسَّكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِن يَمَسَّكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ﴿١٨﴾

أَتَنَاءَهُمُ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾

اعلم أن هذه السورة الكريمة قد اشتملت على تقرير التوحيد بكل دليل عقلي ونقلي، بل كادت أن تكون كلها في شأن التوحيد ومجادلة المشركين بالله المكذبين لرسوله؛ فهذه الآيات ذكر الله فيها ما يتبين به الهدى، ويتنقم به الشرك:

﴿١٢﴾ فذكر أن له تعالى ﴿مَا سَكَنَ فِي آلِيلٍ وَالنَّهَارِ﴾، وذلك هو المخلوقات كلها من آدميها وجننها وملائكتها وحيواناتها وجماداتها؛ فالكل خلق مدبرون وعبيد مسخرون لربهم العظيم القاهر المالك؛ فهل يصح في عقل ونقل أن يعبد من هؤلاء الممالك الذي لا نفع عنده ولا ضرر ويترك الإخلاص للخالق المدبر المالك الضار النافع؟! أم العقول السليمة والفطر المستقيمة تدعو إلى إخلاص العبادة والحب والخوف والرجاء لله رب العالمين؟ ﴿السَّمِيعُ﴾: لجميع الأصوات على اختلاف اللغات بتفنن الحاجات. ﴿الْعَلِيمُ﴾: بما كان وما يكون وما لم يكن لو كان كيف كان يكون، المطلع على الظواهر والبواطن.

﴿١٣﴾ ﴿قُلْ﴾ لهؤلاء المشركين بالله: ﴿أَعْبَدُوا اللَّهَ الَّذِي تَتَّخِذُ وَلِيًّا﴾: من هؤلاء المخلوقات العاجزة يتولاني وينصرني؛ فلا أتخذ من دونه تعالى وليًّا؛ لأنه ﴿فَاطِرُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾؛ أي: خالقهما ومدبرهما، ﴿وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ﴾؛ أي: وهو الرازق لجميع الخلق من غير حاجة منه تعالى إليهم؛ فكيف يليق أن أتخذ وليًّا غير الخالق الرازق الغني الحميد؟! ﴿قُلْ﴾ إِنْ أَمَرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ: لله بالتوحيد وانقاد له بالطاعة؛ لأنني أولى من غيري بامثال أوامر ربي، ﴿وَلَا تَكُونُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾: أي: ونهيت أيضًا عن أن أكون من المشركين؛ لا في اعتقادهم، ولا في مجالستهم، ولا في الاجتماع بهم؛ فهذا أفرض الفروض علي وأوجب الواجبات.

﴿١٤﴾ ﴿قُلْ﴾ إِنْ أَمَرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ: لله بالتوحيد وانقاد له بالطاعة؛ لأنني أولى من غيري بامثال أوامر ربي، ﴿وَلَا تَكُونُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾: أي: ونهيت أيضًا عن أن أكون من المشركين؛ لا في اعتقادهم، ولا في مجالستهم، ولا في الاجتماع بهم؛ فهذا أفرض الفروض علي وأوجب الواجبات.

﴿١٥﴾ وذلك اليوم هو اليوم الذي يخاف عذابه ويحذر عقابه؛ لأنه من صرف عنه العذاب يومئذ فهو المرحوم، ومن نجا فيه فهو الفائز حقًّا؛ كما أن من لم ينج منه؛ فهو الهالك الشقي.

وأما مجرد النظر من غير اعتبار؛ فإن ذلك لا يفيد شيئًا.

﴿قُلْ لِمَنْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ لِلَّهِ كُتِبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةُ لِيَجْمَعَ كُتُبَكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ لَا رَبَّ فِيهِ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ ﴿١٦﴾

﴿١٦﴾ يقول تعالى لنبيه ﷺ: ﴿قُلْ﴾ لهؤلاء المشركين بالله مقررًا لهم وملزمًا بالتوحيد: ﴿لِمَنْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾؛ أي: من الخالق لذلك المالك له المتصرف فيه؟ ﴿قُلْ﴾ لهم: ﴿لِلَّهِ﴾، وهم مقرون بذلك لا ينكرونه، أفلا حين اعترفوا بانفراد الله بالملك والتدبير أن يعترفوا له بالإخلاص والتوحيد؟ وقوله: ﴿كُتِبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةُ﴾؛ أي: العالم العلوي والسفلي تحت ملكه وتدبيره، وهو تعالى قد بسط عليهم رحمته وإحسانه، وتغدهم برحمته وامتنانه، وكتب على نفسه كتابًا: أن رحمته تغلب غضبه، وأن العطاء أحب إليه من المنع، وأن الله قد فتح لجميع العباد أبواب الرحمة إن لم يغلّقوا عليهم أبوابها بذنوبهم، ودعاهم إليها إن لم تمنعهم من طلبها معاصيهم وعيوبهم. وقوله: ﴿لِيَجْمَعَ كُتُبَكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ لَا رَبَّ فِيهِ﴾: وهذا قسم منه، وهو أصدق المخبرين، وقد أقام على ذلك من الحجج والبراهين ما يجعله حق اليقين، ولكن أبى الظالمون إلا جحودًا، وأنكروا قدرة الله على بعث الخلائق، فأوضعوا في معاصيه، وتجرءوا على الكفر به، فخسروا دنياهم وأخراهم، ولهذا قال: ﴿الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ ﴿١٧﴾

﴿وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي آلِيلٍ وَالنَّهَارِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ ﴿١٨﴾ ﴿قُلْ﴾ أَعْبَدُوا اللَّهَ الَّذِي تَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ قُلْ إِنْ أَمَرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ: لله بالتوحيد وانقاد له بالطاعة؛ لأنني أولى من غيري بامثال أوامر ربي، ﴿وَلَا تَكُونُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾: أي: ونهيت أيضًا عن أن أكون من المشركين؛ لا في اعتقادهم، ولا في مجالستهم، ولا في الاجتماع بهم؛ فهذا أفرض الفروض علي وأوجب الواجبات.

﴿١٧﴾ ومن أدلة توحيده أنه تعالى المنفرد بكشف الضراء وجلب الخير والسراء، ولهذا قال: ﴿وَإِنْ يَمَسُّكَ اللَّهُ بِضُرٍّ﴾ من فقر أو مرضٍ أو عسر أو غم أو هم أو نحوه، ﴿فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يَمَسُّكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ ﴿١٧﴾؛ فإذا كان وحده النافع الضار؛ فهو الذي يستحق أن يفرد بالعبودية والإلهية.

﴿١٨﴾ ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾؛ فلا يتصرف منهم متصرف ولا يتحرك متحرك ولا يسكن ساكن إلا بمشيئته، وليس للملوك وغيرهم الخروج عن ملكه وسلطانه، بل هم مدبرون مقهورون؛ فإذا كان هو القاهر وغيره مقهوراً؛ كان هو المستحق للعبادة. ﴿وَهُوَ الْحَكِيمُ﴾؛ فيما أمر به ونهى، وأتاب وعاقب، وفيما خلق وقدر، ﴿الْحَكِيمُ﴾ ﴿١٨﴾؛ المطلع على السرائر والضمائر وخفايا الأمور، وهذا كله من أدلة التوحيد.

﴿١٩﴾ ﴿قُلْ﴾ لهم لما بينا لهم الهدى وأوضحنا لهم المسالك: ﴿أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً﴾؛ على هذا الأصل العظيم، ﴿قُلْ اللَّهُ﴾ أكبر شهادة؛ فهو ﴿شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾؛ فلا أعظم منه شهادة ولا أكبر، وهو يشهد لي بإقراره وفعله، فيقرني على ما قلت لكم؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ نَقُولُ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقَاوِيلِ﴾ ﴿١٩﴾ لأخذنا منه بِاللَّيْنِ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ لَقَطْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴿٢١﴾ [الحاقة: ٤٤-٤٦]؛ فالله حكيم قدير، فلا يليق بحكمته وقدرته أن يقر كاذباً عليه،

زاعماً أن الله أرسله ولم يرسله، وأن الله أمره بدعوة الخلق ولم يأمره، وأن الله أباح له دماء من خالفه وأموالهم ونساءهم وهو مع ذلك يصدق به بإقراره ويفعله، فيؤيده على ما قال بالمعجزات الباهرة والآيات الظاهرة، وينصره ويخذل من خالفه وعاداه؛ فأى شهادة أكبر من هذه الشهادة؟! وقوله: ﴿وَأَوْحَىٰ إِلَيْنَا هَذِهِ الْقُرْآنَ لِأَشْهَدَ بِهِ وَمَنْ يَلْعَلْ﴾؛ أي: وأوحى الله إلي هذا القرآن الكريم لمنفعتكم ومصلحتكم؛ لأنذركم به من العقاب الأليم، والندارة إنما تكون بذكر ما ينذرهم به من الترغيب والترهيب وبيان الأعمال والأقوال الظاهرة والباطنة التي من قام بها فقد قبل الندارة؛ فهذا القرآن فيه الندارة لكم أيها المخاطبون وكل من بلغه القرآن إلى يوم القيامة؛ فإن فيه بيان كل ما يحتاج إليه من المطالب الإلهية.

لما بين تعالى شهادته التي هي أكبر الشهادات على توحيده؛ قال: قل لهؤلاء المعارضين لخبر الله والمكذبين لرسله: ﴿أَيُّكُمْ لَشَهِدُونَ أَنَّهُ مَعَ اللَّهِ إِلَهٌ آخَرٌ قُلْ لَا أَشْهَدُ﴾؛ أي: إن شهدوا؛ فلا تشهد معهم، فوازن بين شهادة أصدق القائلين ورب العالمين، وشهادة أزكى الخلق المؤيدة بالبراهين القاطعة والحجج الساطعة على توحيد الله وحده لا شريك له، وشهادة أهل الشرك الذين مرجت عقولهم وأديانهم وفسدت آراؤهم وأخلاقهم وأضحكوا على أنفسهم العقلاء، بل خالفت شهادتهم فطرهم وتناقضت أقوالهم على إثبات أن مع الله آلهة أخرى مع أنه لا يقوم على ما خالفوه أدنى شبهة فضلاً عن الحجج، واختر لنفسك أي الشهادتين إن كنت تعقل، ونحن نختار لأنفسنا ما اختاره الله لنبيه الذي أمرنا الله بالاعتدائه به فقال: ﴿قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهُ وَحْدٌ﴾؛ أي: منفرد لا يستحق العبودية والإلهية سواه كما أنه المنفرد بالخلق والتدبير. ﴿وَإِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾ ﴿٢٠﴾ به من الأوثان والأنداد وكل ما أشرك به مع الله. فهذا حقيقة التوحيد: إثبات الإلهية لله، ونفيها عما عداه.

﴿٢١﴾ لما بين شهادته وشهادة رسوله على التوحيد وشهادة المشركين الذين لا علم لديهم على ضده؛ ذكر أن أهل الكتاب من اليهود والنصارى ﴿يَعْرِفُونَهُ﴾؛ أي: يعرفون صحة التوحيد، ﴿كَمَا يَعْرِفُونَ آبَاءَهُمْ﴾؛ أي: لا شك عندهم فيه بوجه؛ كما

سورة الأنعام
قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلْ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأَوْحَىٰ إِلَيْنَا هَذِهِ الْقُرْآنَ لِأَشْهَدَ بِهِ وَمَنْ يَلْعَلْ أَيُّكُمْ لَشَهِدُونَ أَنَّهُ مَعَ اللَّهِ إِلَهٌ آخَرٌ قُلْ لَا أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهُ وَحْدٌ وَإِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ الَّذِينَ آمَنَتْهُمْ أَكْتَتابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ آبَاءَهُمْ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ قُلُوبُهُمْ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جِجَاعًا نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنِّي سُرَّكَاؤُكُمْ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ ثُمَّ لَرَكُنْ فَنُنْزِلُ الْإِنِّ أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبَّنَا مَا كَانَا مُشْرِكِينَ أَظْهَرَ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَصَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ وَمَنْهُمْ مَن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ يَرَوْا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَلْعَنُوا يَوْمَئِذٍ إِذَا جَاءَهُمْ يَسْتَكْبِرُونَ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَنِيدٌ وَإِنْ يَهْدِكُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ وَكَوْنُوا إِذْ يَقُولُوا عَلَى النَّارِ فَعَالُوا يُلَاقِلْنَا نَرْدُهُ وَلَا تَكْذِبْ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَكُنْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ

﴿ وَمِنْهُمْ مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَوَلَن يُرَوِّا كُلاًّ عَابِثٌ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا حَتَّى إِذَا جَاءَهُمْ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا أَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴾ (٢٥) ﴿

﴿٢٥﴾ أي: ومن هؤلاء المشركين قوم يحملهم بعض الأوقات بعض الدواعي إلى الاستماع لما تقول، ولكنه استماع خال من قصد الحق واتباعه، ولهذا لا يتفهمون بذلك الاستماع لعدم إرادتهم للخير. ﴿وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً﴾ أي: أغطية وأغشية لتلا يفقهوا كلام الله، فصان كلامه عن أمثال هؤلاء. ﴿وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ جعلنا ﴿وَقْرًا﴾ أي: صمماً، فلا يستمعون ما ينفعهم، ﴿وَلَن يُرَوِّا كُلاًّ عَابِثٌ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا﴾: وهذا غاية الظلم والعناد: أن الآيات البينات الدالة على الحق لا ينقادون لها ولا يصدقون بها، بل يجادلون الحق بالباطل ليدحضوه، ولهذا قال: ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَهُمْ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا أَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ ﴿٢٥﴾ أي: مأخوذ من صحف الأولين المسطورة التي ليست عن الله ولا عن رسله، وهذا من كفرهم، وإلا؛ فكيف يكون هذا الكتاب الحاوي لأبناء السابقين واللاحقين والحقائق التي جاءت بها الأنبياء والمرسلون والحق والقسط والعدل التام من كل وجه أساطير الأولين؟!

﴿ وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْتَوُونَ عَنْهُ وَإِنْ يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَتَذَكَّرُونَ ﴾ (٢٦) ﴿

﴿٢٦﴾ وهم أي: المشركون بالله المكذبون لرسوله يجمعون بين الضلال والإضلال؛ ينهون الناس عن اتباع الحق، ويحذرونهم منه، ويعيدون بأنفسهم عنه، ولن يضرُوا الله ولا عباده المؤمنين بفعلهم هذا شيئاً. ﴿وَإِنْ يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَتَذَكَّرُونَ﴾ ﴿٢٦﴾ بذلك.

﴿ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى عُقْبَىٰ عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَلَيْسَ نَارُؤُ وَلَا تُكْذِبُ بَيِّنَاتٍ رَبَّنَا وَكَوْنُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (٢٧) ﴿ بَلْ بَدَأَ لَهُمْ مَا كَانُوا يُحْذَرُونَ مِنْ قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ (٢٨) ﴿ وَقَالُوا إِن هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴾ (٢٩) ﴿

﴿٢٧﴾ يقول تعالى مخبراً عن حال المشركين يوم القيامة وإحضارهم النار: ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى عُقْبَىٰ عَلَى النَّارِ﴾: ليوبخوا ويقرعوا؛ لرأيت أمراً هائلاً وحالاً مفضعة، ولرأيتهم كيف أقروا على أنفسهم بالكفر والفسوق، وتمنوا أن لو يردوا

أنهم لا يشبهون بأولادهم، خصوصاً البنين الملازمين في الغالب لأبائهم، ويحتمل أن الضمير عائد إلى الرسول محمد ﷺ، وأن أهل الكتاب لا يشبهون بصحة رسالته ولا يمترون بها لما عندهم من البشارات به ونعوته التي تنطبق عليه ولا تصلح لغيره، والمعنيين متلازمان. قوله: ﴿الَّذِينَ حَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ أي: فوترها ما خلقت له من الإيمان والتوحيد وحرموها الفضل من الملك المجيد، ﴿فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ ﴿٢٦﴾: فإذا لم يوجد الإيمان منهم؛ فلا تسأل عن الخسار والشر الذي يحصل لهم.

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْقَهُ الظَّالِمُونَ ﴾ (٢٦) ﴿

﴿٢٦﴾ أي: لا أعظم ظلماً وعناداً ممن كان فيه أحد الوصفين؛ كيف لو اجتماعاً: افتراء الكذب على الله، أو التكذيب بآياته التي جاءت بها المرسلون؟! فإن هذا أظلم الناس، والظالم لا يقلح أبداً، ويدخل في هذا كل من كذب على الله بادعاء الشريك له والعوين، أو زعم أنه ينبغي أن يعبد غيره، أو اتخذ له صاحبة أو ولداً، وكل من رد الحق الذي جاءت به الرسل أو من قام مقامهم.

﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا آيِنَ شُرَكَائِكُمْ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾ (٢٧) ﴿ ثُمَّ لَمْ يَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴾ (٢٨) ﴿ أَنْظِرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَصَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾ (٢٩) ﴿

﴿٢٧﴾ يخبر تعالى عن مآل أهل الشرك يوم القيامة، وأنهم يسألون ويوبخون فيقال لهم: ﴿آيِنَ شُرَكَائِكُمُ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ ﴿٢٧﴾ أي: إن الله ليس له شريك، وإنما ذلك على وجه الزعم منهم والافتراء.

﴿ ثُمَّ لَمْ يَكُنْ فِتْنَتُهُمْ ﴾ أي: لم يكن جوابهم حين يفتنون ويختبرون بذلك السؤال إلا إنكارهم لشركهم وحلفهم أنهم ما كانوا مشركين.

﴿٢٨﴾ ﴿أَنْظِرْ﴾: متعجباً منهم ومن أحوالهم، ﴿كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ﴾ أي: كذبوا كذباً عاد بالخسار على أنفسهم وضرهم - والله - غاية الضرر، ﴿وَصَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ ﴿٢٨﴾: من الشركاء الذين زعموهم مع الله، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

إلى الدنيا، ﴿فَقَالُوا يَلَيِّنَا رُءُودًا وَكَذَبَ بَيِّنَاتٍ رَبِّنَا وَكَوْنُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (١٧) ﴿﴾.

﴿بَلْ بَدَأَهُمْ مَا كَانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ﴾: فإنهم كانوا يخفون في أنفسهم أنهم كانوا كاذبين، ويدعو في قلوبهم في كثير من الأوقات، ولكن الأغراض الفاسدة صدتهم عن ذلك وصدفت قلوبهم عن الخير، وهم كذبة في هذه الأمانة، وإنما قصدهم أن يدفَعوا بها عن أنفسهم العذاب. فلو ﴿رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَرَأَيْتُمْ لَكِذِبُونَ﴾ (١٨) ﴿﴾.

﴿وَقَالُوا﴾: منكرين للبعث: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا﴾؛ أي: ما حقيقة الحال والأمر وما المقصود من إيجادنا إلا الحياة الدنيا وحدها، ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ (١٩) ﴿﴾.

﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يَقُولُ عَلَىٰ رَبِّهِمْ قَالَ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ (٢٠) ﴿﴾.

﴿أي: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ﴾: الكافرين ﴿إِذْ يَقُولُ عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾؛ لرايت أمراً عظيماً وهو لا جسيماً، ﴿قَالَ﴾: لهم موبخاً ومقرعاً: ﴿أَلَيْسَ هَذَا﴾ الذي ترون من العذاب ﴿بِالْحَقِّ﴾ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا: فأقروا واعترفوا حيث لا ينفعهم ذلك، ﴿قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ (٢١) ﴿﴾.

﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمْ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَحْصِرُنَا عَلَىٰ مَا فَرَطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ أَلَا سَاءَ مَا يَزُرُونَ﴾ (٢٢) ﴿﴾.

﴿أي: قد خاب وخسر وحرم الخير كله من كذب بقاء الله، فأوجب له هذا التكذيب الاجترار على المحرمات واقتراف الموبقات، ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمْ السَّاعَةُ﴾: وهم على أقباح حال وأسوته، فأظهروا غاية الندم، ﴿قَالُوا يَحْصِرُنَا عَلَىٰ مَا فَرَطْنَا فِيهَا﴾: ولكن هذا تحسر ذهب وقته، ﴿وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ أَلَا سَاءَ مَا يَزُرُونَ﴾ (٢٣) ﴿﴾: فإن وزرهم وزر يثقلهم ولا يقدرّون على التخلص منه، ولهذا خلدوا في النار، واستحقوا التأييد في غضب الجبار.

﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهُوَ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ (٢٤) ﴿﴾.

﴿هذه حقيقة الدنيا وحقيقة الآخرة: أما حقيقة الدنيا؛ فإنها لعب ولهو، لعب في الأبدان، ولهو في القلوب؛ فالقلوب لها والهة، والنفوس لها عاشقة، والهوموم فيها متعلقة، والاشتغال بها كلب الصبيان. وأما الآخرة؛ فإنها ﴿خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾؛ في ذاتها وصفاتها، وبقائها ودوامها، وفيها ما تشتهيهِ الأنفس وتلذ الأعين؛ من نعيم القلوب والأرواح، وكثرة السرور والأفراح، ولكنها ليست لكل أحد، وإنما هي للمتقين، الذين يفعلون أوامر الله، ويتركون نواهيهِ وزواجره، ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ (٢٥) ﴿﴾؛ أي: أفلا يكون لكم عقول بها تدركون أي الدارين أحق بالإشارة؟!﴾

﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزَنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يَكْذِبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بَيِّنَاتٍ اللَّهُ يَجْحَدُونَ﴾ (٢٦) ﴿﴾ وَلَقَدْ كَذَبْتَ رَسُولٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبْرُوا عَلَىٰ مَا كَذَّبُوا وَأَوْدُوا حَتَّىٰ أَنَّهُمْ نَصَرُوا وَلَا مَبْدِلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ بَنِي الْمُرْسَلِينَ (٢٧) ﴿﴾ وَإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنْ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْغِي نَقْفًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ وَكَوْشَاءَ اللَّهُ لَجَمْعَهُمْ عَلَىٰ الْهُدَىٰ فَلَا تَكُونُ

سُورَةُ الْأَنْعَامِ

بَلْ بَدَأَهُمْ مَا كَانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ
وَرَأَيْتُمْ لَكِذِبُونَ ﴿١٨﴾ وَقَالُوا إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ
بِمَبْعُوثِينَ ﴿١٩﴾ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يَقُولُ عَلَىٰ رَبِّهِمْ قَالَ أَلَيْسَ هَذَا
بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ
﴿٢٠﴾ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمْ السَّاعَةُ
بَغْتَةً قَالُوا يَحْصِرُنَا عَلَىٰ مَا فَرَطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ
عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ أَلَا سَاءَ مَا يَزُرُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا
لَعِبٌ وَلَهُوَ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ
﴿٢٢﴾ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزَنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يَكْذِبُونَكَ
وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بَيِّنَاتٍ اللَّهُ يَجْحَدُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ كَذَبْتَ
رَسُولٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبْرُوا عَلَىٰ مَا كَذَّبُوا وَأَوْدُوا حَتَّىٰ أَنَّهُمْ نَصَرُوا
وَلَا مَبْدِلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ بَنِي الْمُرْسَلِينَ
﴿٢٤﴾ وَإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنْ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْغِي
نَقْفًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ وَكَوْشَاءَ
اللَّهُ لَجَمْعَهُمْ عَلَىٰ الْهُدَىٰ فَلَا تَكُونُ مِنَ الْإِلْهَائِينَ ﴿٢٥﴾

١٣١

مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٢٥﴾

﴿٢٥﴾ أي: قد نعلم أن الذي يقول المكذبون فيك يحزنك ويسوءك، ولم نأمرك بما أمرناك به من الصبر إلا لتحصل لك المنازل العالية، والأحوال الغالية؛ فلا تظن أن قولهم صادر عن اشتباه في أمرك وشك فيك؛ ﴿فَأَنَّهُمْ لَا يَكْذِبُونَكَ﴾: لأنهم يعرفون صدقك ومدخلك ومخرجك وجميع أحوالك، حتى إنهم كانوا يسمونه قبل بعثته الأمين، ﴿وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَخَادُونَ﴾ ﴿٢٦﴾؛ أي: فإن تكذيبهم لآيات الله التي جعلها الله على يديك.

﴿٢٦﴾ وَلَقَدْ كَذَبْتَ رَسُولٌ مِّن قَبْلِكَ فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأَوْدُوا حَتَّىٰ أَنَّهُمْ نَصَرُوا: فاصبر كما صبروا؛ تظفر كما ظفروا، ﴿وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَّبَائِ الْمُرْسَلِينَ﴾ ﴿٢٧﴾؛ ما به يثبت فؤادك، ويطمئن به قلبك.

﴿٢٧﴾ وَإِنْ كَانَ كِبَرُ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ؛ أي: شق عليك من حرصك عليهم ومحبتك لإيمانهم؛ فابذل وسعك في ذلك؛ فليس في مقدورك أن تهدي من لم يرد الله هدايته. ﴿فَإِنْ أَسْطَقَمَ أَن تَبْنِيَنَّ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ﴾؛ أي: فافعل ذلك؛ فإنه لا يفيدهم شيئاً، وهذا قطع لطمعه في هدايته أشباه هؤلاء المعاندين، ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَىٰ﴾: ولكن حكمته تعالى اقتضت أنهم يبقون على الضلال، ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ ﴿٢٨﴾: الذين لا يعرفون حقائق الأمور ولا ينزلونها على منازلها.

﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِمْ يُرْجَعُونَ﴾ ﴿٢٨﴾ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّا أَقْدَرُ عَلَىٰ أَن نُّزِيلَ آيَةً وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٩﴾

﴿٢٨﴾ يقول تعالى لنبيه ﷺ: ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ﴾ لدعوتك ولبلي رسالتك وينقاد لأمرك ونهيك، ﴿الَّذِينَ يَسْمَعُونَ﴾: بقلوبهم ما ينفعهم، وهم أولو الألباب والأسماع، والمراد بالسماع هنا سماع القلب والاستجابة، وإلا فمجرد سماع الأذن يشترك فيه البر والفاجر، فكل المكلفين قد قامت عليهم حجة الله تعالى باستماع آياته، فلم يبق لهم عذر في عدم القبول. ﴿وَالْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِمْ يُرْجَعُونَ﴾: يحتمل أن المعنى مقابل للمعنى المذكور؛ أي: إنما يستجيب لك أحياء القلوب، وأما أموات القلوب الذين لا يشعرون بسعادتهم ولا يحسون بما ينجيهم؛ فإنهم لا يستجيبون لك ولا ينقادون، وموعدهم القيامة، يبعثهم الله ثم إليه يرجعون. ويحتمل أن المراد بالآية على ظاهرها، وأن الله تعالى يقرر المعاد، وأنه سيبعث الأموات يوم القيامة، ثم ينبئهم بما كانوا يعملون، ويكون هذا متضمناً للترغيب في الاستجابة لله ورسوله، والترهيب من عدم ذلك.

﴿٢٩﴾ وَقَالُوا: أي: المكذبون بالرسول تعتاً وعناداً: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ﴾؛ يعنون بذلك آيات الاقتراح التي يقترحونها بعقولهم الفاسدة وآرائهم الكاسدة؛ كقولهم: ﴿وَقَالُوا لَوْ نَوُومَنُ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا﴾ ﴿٣٠﴾ أَوْ تَكُونُ لَكَ جَنَّةٌ مِّنْ نَّحِيلٍ وَعَنْبٌ فَتَفْجُرَ الْأَنْهَارُ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا﴾ ﴿٣١﴾ أَوْ شَقِطَ السَّمَاءُ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِي بِلَهُةٍ أَلْمَلِكَةِ قَبِيلًا﴾ ﴿٣٢﴾ [الإسراء: ٩٠-٩٢] الآيات. ﴿قُلْ﴾: مجيباً لقولهم: ﴿إِنَّا أَقْدَرُ عَلَىٰ أَن نُّزِيلَ آيَةً﴾: فليس في قدرته قصور عن ذلك، كيف وجميع الأشياء متفاداة لعزته مذعنة لسلطانه. ولكن أكثر الناس لا يعلمون، فهم لجهلهم وعدم علمهم يطلبون

﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِمْ يُرْجَعُونَ﴾ ﴿٢٨﴾ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّا أَقْدَرُ عَلَىٰ أَن نُّزِيلَ آيَةً وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٩﴾ وَمَا قَرْنًا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَيْكَ رَيْبُهُمْ يُمْشِرُونَ ﴿٣٠﴾ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُدُّوا بِكُمْ فِي الظُّلُمَاتِ مَن يَشَاءُ اللَّهُ يُضِلُّهُ وَمَنْ يُضِلُّهُ فَلَا يَهْدِيهِ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَنزَلْنَاهُ عَذَابًا أَوْ أَنزَلْنَاهُ السَّاعَةَ غَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ لَكُم مِّنْ دُونِ اللَّهِ أَتَدْعُونَ كُتُبًا مُّضَوِّقِينَ ﴿٣١﴾ بَلْ إِلَهُكُمْ اللَّهُ فَكَيْفَ تَدْعُونَ لِكُلِّ إِلَهٍ شَاءَ وَتَسْتَوُونَ مَا تُشْرِكُونَ ﴿٣٢﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَآخَذْنَاهُمْ بِالْأَسْوَ وَالضَّرَ لَعَلَّهُمْ يَضُرَّعُونَ ﴿٣٣﴾ فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بِأُسْنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٣٤﴾ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فُوحُوا بِمَآثُرِهِمْ خِلَافَهُمْ وَقَدَّمْنَا لَهُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ مَا يَشَاءُونَ ﴿٣٥﴾

الردى، وأنهم ﴿صُتُّوا﴾ عن سماع الحق، بُكِّمَ عن النطق به؛ فلا ينطقون إلا بالباطل، ﴿فِي الظُّلُمَاتِ﴾؛ أي: منغمسون في ظلمات الجهل والكفر والظلم والعناد والمعاصي، وهذا من إضلال الله إياهم؛ ﴿فَمَنْ يَشَاءُ اللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَنْ يَشَاءُ اللَّهُ يُهْدِهِ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (٣٨)؛ لأنه المنفرد بالهداية والإضلال بحسب ما اقتضاه فضله وحكمته.

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَنْتُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَنْتُمْ السَّاعَةُ أَعْبَرِ اللَّهُ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (٣٩) بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ وَتَنْسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ﴾ (٤٠).

﴿يَقُولُ تَعَالَى لِرَسُولِهِ﴾ ﴿قُلْ﴾ للمشركين بالله العادلين به غيره: ﴿أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَنْتُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَنْتُمْ السَّاعَةُ أَعْبَرِ اللَّهُ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (٣٩)؛ أي: إذا حصلت هذه المشقات وهذه الكرب التي يضطر إلى دفعها؛ هل تدعون آلهتكم وأصنامكم أم تدعون ربكم الملك الحق المبين؟

﴿بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ وَتَنْسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ﴾ (٤٠)؛ فإذا كانت هذه حالكم مع أنادكم عند الشدائد؛ تنسونهن لعلمكم أنهم لا يملكون لكم ضرا ولا نفعاً ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً، وتخلصون لله الدعاء؛ لعلمكم أنه هو الضار النافع المجيب لدعوة المضطر؛ فما بالك في الرخاء تشركون به وتجعلون له شركاء؟! هل دلكم على ذلك عقل أو نقل؟ أم عندكم من سلطان بهذا؟ أم تفترون على الله الكذب؟!

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُم بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَاءِ لَعَلَّهُمْ يَضُرَّعُونَ﴾ (٤١) فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (٤٢) فَلَمَّا شَاؤُوا مَا دُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ﴾ (٤٣) فَقُطِعَ دَائِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (٤٤).

﴿يَقُولُ تَعَالَى﴾ ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ﴾: من الأمم السالفين، والقرون المتقدمين، فكذبوا رسلنا، وجحدوا بآياتنا، ﴿فَأَخَذْنَاهُم بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَاءِ﴾؛ أي: بالفقر والمرض والآفات والمصائب رحمةً منا بهم، ﴿لَعَلَّهُمْ يَضُرَّعُونَ﴾ (٤١) إلينا، ويلجئون عند الشدة إلينا.

ما هو شر لهم من الآيات، التي لو جاءتهم فلم يؤمنوا بها؛ لعوجلوا بالعقاب؛ كما هي سنة الله التي لا تبدل لها، ومع هذا؛ فإن كان قصدهم الآيات التي تبين لهم الحق وتوضح السبيل؛ فقد أتى محمد ﷺ بكل آية قاطعة، وحجة ساطعة، دالة على ما جاء به من الحق، بحيث يتمكن العبد في كل مسألة من مسائل الدين أن يجد فيما جاء به عدة أدلة عقلية ونقلية؛ بحيث لا تبقى في القلوب أدنى شك وارتباب، فتبارك الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق وأيده بالآيات البينات ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حي عن بينة، وإن الله لسميع عليم.

﴿وَمِمَّنْ دَاخِلِيَ فِي الْأَرْضِ وَلَا ظَلَمَ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَلُكُمْ مَا فَرَقْنَاهُمْ فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ (٣٨).

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾: جميع الحيوانات الأرضية والهوائية من البهائم والوحوش والطيور كلها أمم أمثالكم، خلقناها كما خلقناكم، ورزقناها كما رزقناكم، ونفذت فيها مشيئتنا وقدرتنا كما كانت نافذة فيكم. ﴿مَا فَرَقْنَاهُمْ فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾؛ أي: ما أهملنا ولا أغفلنا في اللوح المحفوظ شيئاً من الأشياء، بل جميع الأشياء - صغيرها وكبيرها - مثبتة في اللوح المحفوظ على ما هي عليه، فتقع جميع الحوادث طبق ما جرى به القلم. وفي هذه الآية دليل على أن الكتاب الأول قد حوى جميع الكائنات، وهذا أحد مراتب القضاء والقدر؛ فإنها أربع مراتب: علم الله الشامل لجميع الأشياء، وكتابه المحيط بجميع الموجودات، ومشيئته وقدرته النافذة العامة لكل شيء، وخلقته لجميع المخلوقات حتى أفعال العباد. ويحتمل أن المراد بالكتاب هذا القرآن، وأن المعنى كالمعنى في قوله تعالى: ﴿وَزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ [النحل: ٨٩]. وقوله: ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ (٣٨)؛ أي: جميع الأمم تحشر وتجمع إلى الله في موقف القيامة، في ذلك الموقف العظيم الهائل، فيجازيهم بعدله وإحسانه، ويمضي عليهم حكمه الذي يحمد عليه الأولون والآخرون؛ أهل السماء وأهل الأرض.

﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُتُّوا فِي الظُّلُمَاتِ مَن يَشَاءُ اللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَنْ يَشَاءُ اللَّهُ يُهْدِهِ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ (٣٩).

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾: هذا بيان لحال المكذبين بآيات الله المكذبين لرسوله: أنهم قد سدوا على أنفسهم باب الهدى، وفتحوا باب

سورة الأنعام

المزة الثالثة

﴿٤٣﴾ قُلُوا لَا إِلَهَ إِلَّا جَاءَهُمْ بَأْسًا نَزَعُوا وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ؛ أَي: استحجرت فلا تلتين للحق، ﴿وَرَبَّنَا لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ﴿٤٤﴾: فظنوا أن ما هم عليه دين الحق، فتمتعوا في باطلهم برهة من الزمان، ولعب بعقولهم الشيطان.

﴿٤٥﴾ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ: من الدنيا ولذاتها وغفلاتها، ﴿حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ﴾ ﴿٤٦﴾: أي: آيسون من كل خير، وهذا أشد ما يكون من العذاب: أن يؤخذوا على غيرة وغفلة وطمانينة؛ ليكون أشد لعقوبتهم، وأعظم لمصيبتهم.

﴿٤٧﴾ فَقَطَّعْ دَائِرَ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا؛ أي: اصطلموا العذاب، وتقطعت بهم الأسباب ﴿وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿٤٨﴾: على ما قضاه وقدره من هلاك المكذبين؛ فإن بذلك تتبين آياته وإكرامه وأوليائه، وإهانته لأعدائه، وصدق ما جاءت به المرسلون.

﴿٤٩﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَرَكُمْ وَخَمَّ عَلَى قُلُوبِكُمْ مِّنَ اللَّهِ غَيْرَ اللَّهِ يَأْتِيَكُمْ بِهِ أَنْظَرُ كَيْفَ نَصَرَفُ الْآيَاتِ ثُمَّ هُمْ يَصْذِقُونَ ﴿٥٠﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَنْتُمْ عَذَابُ اللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلِكُ إِلَّا الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٥١﴾

﴿٥١﴾ يخبر تعالى أنه كما هو المتفرد بخلق الأشياء وتديرها؛ فإنه المتفرد بالوحدانية والإلهية، فقال: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَرَكُمْ وَخَمَّ عَلَى قُلُوبِكُمْ﴾: فبقيت بلا سمع ولا بصر ولا عقل. ﴿مِّنَ اللَّهِ غَيْرَ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِهِ﴾: فإذا لم يكن غير الله يأتي بذلك؛ فلم عبدتم معه من لا قدرة له على شيء إلا إذا شاء الله؛ وهذا من أدلة التوحيد وبطلان الشرك، ولهذا قال: ﴿أَنْظَرُ كَيْفَ نَصَرَفُ الْآيَاتِ﴾؛ أي: تنوعها، ونأتي بها في كل فن، ولتنير الحق، وتبين سبيل المجرمين. ﴿ثُمَّ هُمْ﴾: مع هذا البيان التام، ﴿يَصْذِقُونَ﴾ ﴿٥٢﴾: عن آيات الله، ويعرضون عنها.

﴿٥٣﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ﴾؛ أي: أخبروني ﴿إِنْ أَنْتُمْ عَذَابُ اللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً﴾؛ أي: مفاجأة أو قد تقدم أمامه مقدمات تعلمون بها وقوعه، ﴿هَلْ يُهْلِكُ إِلَّا الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ ﴿٥٤﴾: الذين صاروا سبباً لوقوع العذاب بهم بظلمهم وعنادهم؟ فاحذروا أن تقيموا على الظلم؛ فإنه الهلاك الأبدي، والشقاء السرمدى.

﴿٥٥﴾ وَمَا تُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٥٦﴾ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا يَمَسُّهُمُ الْعَذَابُ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿٥٧﴾

﴿٥٨﴾ يذكر تعالى زبدة ما أرسل به المرسلين أنه البشارة والنذارة، وذلك مستلزم لبيان: المبشر والمبشّر به والأعمال التي إذا عملها العبد حصلت له البشارة، والمنذر والمنذر به والأعمال التي من عملها حقت عليه النذارة، ولكن الناس انقسموا بحسب إجابتهم لدعوتهم وعدمها إلى قسمين: ﴿فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ﴾؛ أي: آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وأصلح إيمانه وأعماله ونيته، ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾: فيما يستقبل، ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ ﴿٥٩﴾: على ما مضى.

﴿٦٠﴾ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا يَمَسُّهُمُ الْعَذَابُ﴾؛ أي: ينالهم ويدوقونه، ﴿بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ ﴿٦١﴾.

﴿ قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴾ (٥٠).

﴿٥٠﴾ يقول تعالى لنبيه ﷺ للمقترحين عليه الآيات، أو القائلين له إنما تدعوننا لتخذك إلهاً مع الله: ﴿ قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ ﴾؛ أي: مفاتيح رزقه ورحمته، ﴿ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ ﴾؛ وإنما ذلك كله عند الله؛ فهو الذي ما يفتح للناس من رحمة فلا ممسك لها وما يمسك فلا مرسل له من بعده، وهو وحده عالم الغيب والشهادة فلا يظهر على غيبه أحداً إلا من ارتضى من رسول. ﴿ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ ﴾؛ فأكون نافذ التصرف قوياً، فلست أدعي فوق منزلتي التي أنزلني الله بها، ﴿ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ ﴾؛ أي: هذا غايتي ومنتهى أمري وأعلاه، إن أتبع إلا ما يوحى إلي، فأعمل به في نفسي، وأدعو الخلق كلهم إلى ذلك؛ فإذا عرفت منزلتي؛ فلاي شيء يبحث الباحث معي أو يطلب مني أمراً لست أدعيه؟! وهل يلزم الإنسان بغير ما هو بصده؟! ولاي شيء إذا دعوتكم بما يوحى إلي أن تلزموني أني أدعي لنفسي غير مرتبتي؟! وهل هذا إلا ظلم منكم وعناد وتمرد؟! قل لهم في بيان الفرق بين من قبل دعوتي وانقاد لما أوحى إلي وبين من لم يكن كذلك: ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴾ (٥١)؛ فتتزلزل الأشياء منازلها وتختارون ما هو أولى بالاختيار والإيثار.

﴿ وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا سَفِيحٌ لَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ (٥١) وَلَا تَقْطُرُوا الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْعَدْوَةِ وَالْعَنِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَقْطُرُهُمْ فَبُذِلُوا أَلْهَوْا أَمْ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ بَيِّنَاتٌ لَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالسَّادِكِينَ ﴿٥٢﴾ وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلِّمُوا عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهْلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٥٣﴾ وَكَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ الْآيَاتِ وَلِتُنْذِرَ أَلْمُجْرِمِينَ ﴿٥٤﴾.

﴿٥١﴾ هذا القرآن نذارة للخلق كلهم، ولكن إنما ينتفع به

﴿ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ ﴾؛ فهم متيقنون للانتقال من هذه الدار إلى دار القرار؛ فلذلك يستصحبون ما ينفعهم ويدعون ما يضرهم. ﴿ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ ﴾؛ أي: من دون الله ﴿ وَلِيٌّ وَلَا سَفِيحٌ ﴾؛ أي: لا من يتولى أمرهم فيحصل لهم المطلوب، ويدفع عنهم المحذور، ولا من يشفع لهم؛ لأن الخلق كلهم ليس لهم من الأمر شيء. ﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ (٥١)؛ الله بامثال أوامره واجتناب نواهيه؛ فإن الإنذار موجب لذلك وسبب من أسبابه.

﴿٥٢﴾ وَلَا تَقْطُرُوا الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْعَدْوَةِ وَالْعَنِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ﴾؛ أي: لا تطرد عنك وعن مجالستك أهل العبادة والإخلاص رغبة في مجالسة غيرهم، من الملازمين لدعاء ربهم دعاء العبادة بالذكر والصلاة ونحوها ودعاء المسألة في أول النهار وآخره، وهم قاصدون بذلك وجه الله، ليس لهم من الأغراض سوى ذلك الغرض الجليل؛ فهؤلاء ليسوا مستحقين للطرد والإعراض عنهم، بل هم مستحقون لموالاتهم ومحبتهم وإدنائهم وتقريبهم؛ لأنهم الصفوة من الخلق - وإن كانوا فقراء - الأجزاء في الحقيقة، وإن كانوا عند الناس أذلاء. ﴿ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ ﴾؛ أي: كل له حسابه وله عمله الحسن وعمله القبيح، ﴿ فَتَقْطُرُهُمْ فَبُذِلُوا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ (٥٢)؛ وقد امثال ﷺ هذا الأمر أشد امثال، فكان إذا جلس الفقراء من المؤمنين؛ صبر نفسه معهم، وأحسن معاملتهم، وألان لهم جانبه، وحسن خلقه، وقربهم منه، بل كانوا هم أكثر أهل مجلسه رضي الله عنهم.

وكان سبب نزول هذه الآيات أن أناساً من قريش أو من أجلاف العرب قالوا للنبي ﷺ: إن أردت أن تؤمن لك وتنبعك؛ فاطرد فلاناً وفلاناً - أناساً من فقراء الصحابة -؛ فإنا نستحي أن ترائنا العرب جالسين مع هؤلاء الفقراء. فحمله حبه لإسلامهم واتباعهم له فحدثه نفسه بذلك، فعاتبه الله بهذه الآيات ونحوها.

﴿٥٣﴾ وَكَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكُمْ بَعْضَ مَا يَقُولُونَ أَهْلَكُوا مَنَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيِّنَاتٍ ﴾؛ أي: هذا من ابتلاء الله لعباده حيث جعل بعضهم غنيا وبعضهم فقيراً وبعضهم شريفاً وبعضهم ضعيفاً؛ فإذا من الله بالإيمان على الفقير أو الوضيع، كان ذلك محل محنة للغني والشريف؛ فإن كان قصبه الحق واتباعه؛ آمن وأسلم ولم يمنعه من ذلك مشاركة الذي يراه

دونه بالغنى أو الشرف، وإن لم يكن صادقاً في طلب الحق؛ كانت هذه عقبة تردّه عن اتباع الحق، وقالوا محتقرين لمن يرونهم دونهم: ﴿أَهْوَاءُ مَنْ أَلَّسَ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا﴾: فمنعهم هذا من اتباع الحق لعدم زكائهم. قال الله مجيباً لكلامهم المتضمن الاعتراض على الله في هداية هؤلاء وعدم هدايتهم هم: ﴿أَلَّسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ﴾ الذين يعرفون النعمة ويقرون بها ويقومون بما تقتضيه من العمل الصالح، فيضع فضله ومته عليهم دون من ليس بشاكر؛ فإن الله تعالى حكيم لا يضع فضله عند من ليس له بأهل، وهؤلاء المعترضون بهذا الوصف بخلاف من من الله عليهم بالإيمان من الفقراء وغيرهم؛ فإنهم هم الشاكرون.

﴿٥٤﴾ ولما نهى الله رسوله عن طرد المؤمنين القانتين؛ أمره بمقابلتهم بالإكرام والإعظام والتبجيل والاحترام، فقال: ﴿وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلِّمُوا عَلَيْكُمْ﴾؛ أي: وإذا جاءك المؤمنون؛ فحيهم، ورحب بهم، ولقهم منك تحية وسلاماً، وبشرهم بما ينشط عزائمهم وهمهم من رحمة الله وسعة جوده وإحسانه، وحثهم على كل سبب وطريق يوصل لذلك، ورهبهم من الإقامة على الذنوب، وأمرهم بالتوبة من المعاصي لينالوا مغفرة ربهم وجوده، ولهذا قال: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةُ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهْلَةٍ سَأَلَ مِنْ رَبِّهِ وَأَصْلَحَ﴾؛ أي: فلا بد مع ترك الذنوب والإفلاع والندم عليها من إصلاح العمل وأداء ما أوجب الله وإصلاح ما فسد من الأعمال الظاهرة والباطنة؛ فإذا وجد ذلك كله؛ ﴿فَأَنَّهُ عَفْوٌ رَجِيمٌ﴾؛ أي: صب عليهم من مغفرته ورحمته بحسب ما قاموا به مما أمرهم به.

﴿٥٥﴾ وكذلك نُفَصِّلُ الْآيَاتِ؛ أي: نوضحها ونبينها ونميز بين طريق الهدى من الضلال والغي والرشاد؛ ليهتدي بذلك المهتدون ويتبين الحق الذي ينبغي سلوكه. ﴿وَلَنَسْتَبِينَ سَبِيلَ الْمُجْرِمِينَ﴾: الموصلة إلى سخط الله وعذابه؛ فإن سبيل المجرمين إذا استبان وتوضحت؛ أمكن اجتنابها والبعد منها؛ بخلاف ما لو كانت مشبهة ملتبسة؛ فإنه لا يحصل هذا المقصود الجليل.

﴿قُلْ إِنِّي نُهَيْتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قُلْ لَا آتِيْكُمْ أَهْوَاءُكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذَا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾ قُلْ إِنِّي عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَكَذَّبْتُ بِرَبِّي مَا تَسْتَعِجِلُونَ بِهِ إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ يَقْضِي الْحَقُّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَصْلِينَ قُلْ لَوْ أَنَّ عِنْدِي مَا تَسْتَعِجِلُونَ بِهِ لَقَضِيَ الْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ

﴿٥٦﴾ يقول تعالى لنبيه ﷺ: ﴿قُلْ﴾ لهؤلاء المشركين الذين يدعون مع الله آلهة أخرى: ﴿إِنِّي نُهَيْتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾: من الأنداد والأوثان التي لا تملك نفعا ولا ضرا ولا موتا ولا حياة ولا نشورا؛ فإن هذا باطل، وليس لكم فيه حجة ولا شبهة إلا اتباع الهوى الذي اتبعه أعظم الضلال. ولهذا قال: ﴿قُلْ لَا آتِيْكُمْ أَهْوَاءُكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذَا﴾؛ أي: إن اتبعت أهواءكم، ﴿وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾: بوجه من الوجوه.

﴿٥٧﴾ وأما ما أنا عليه من توحيد الله وإخلاص العمل له؛ فإنه هو الحق الذي تقوم عليه البراهين والأدلة القاطعة، وأنا

سورة الأنعام
وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوا أَهْوَاءُ مَنْ أَلَّسَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا أَلَّسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ ﴿٥٤﴾ وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلِّمُوا عَلَيْكُمْ كُتِبَ عَلَيْكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةُ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهْلَةٍ سَأَلَ مِنْ رَبِّهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ عَفْوٌ رَجِيمٌ ﴿٥٥﴾ وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِنَسْتَبِينَ سَبِيلَ الْمُجْرِمِينَ ﴿٥٦﴾ قُلْ إِنِّي نُهَيْتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قُلْ لَا آتِيْكُمْ أَهْوَاءُكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذَا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ ﴿٥٧﴾ قُلْ إِنِّي عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَكَذَّبْتُ بِرَبِّي مَا تَسْتَعِجِلُونَ بِهِ إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ يَقْضِي الْحَقُّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَصْلِينَ ﴿٥٨﴾ قُلْ لَوْ أَنَّ عِنْدِي مَا تَسْتَعِجِلُونَ بِهِ لَقَضِيَ الْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ ﴿٥٩﴾ وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ رَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظِلْمَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا رَطْبٌ وَلَا خُضْبٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴿٦٠﴾

من حبوب الثمار والزروع وحبوب البذور التي يبذرها الخلق وبذور الثوابت البرية التي ينشأ منها أصناف النباتات، ﴿وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَابِسٌ﴾: هذا عموم بعد خصوص ﴿إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾: وهو اللوح المحفوظ؛ قد حواها واشتمل عليها، وبعض هذا المذكور يهر عقول العقلاء، ويذهل أئفدة النبلاء، فدل هذا على عظمة الرب العظيم وسعته في أوصافه كلها، وأن الخلق من أولهم إلى آخرهم لو اجتمعوا على أن يحيطوا ببعض صفاته؛ لم يكن لهم قدرة ولا وسع في ذلك، فتبارك الرب العظيم الواسع العليم الحميد المجيد الشهيد المحيط، وجل من إله لا يحصي أحد ثناء عليه، بل هو كما أثنى على نفسه وفوق ما يثني عليه عباده. فهذه الآية دلت على علمه المحيط بجميع الأشياء وكتابه المحيط بجميع الحوادث.

﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقَاضَىٰ أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ ﴿٥٦﴾ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴿٥٧﴾ ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ أَلا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ ﴿٥٨﴾

هذا كله تقرير لألوهيته واحتجاج على المشركين به وبيان أنه تعالى المستحق للحب والتعظيم والإجلال والإكرام.

﴿٥٦﴾ فأخبر أنه وحده المتفرد بتدبير عباده في يقظتهم ونامهم، وأنه يتوفاهم بالليل وفاة النوم، فتهدأ حركاتهم وتستريح أبدانهم، ويبعثهم في اليقظة من نومهم؛ ليتصرفوا في مصالحهم الدينية والدنيوية، وهو تعالى يعلم ما جرحوا وما كسبوا من تلك الأعمال، ثم لا يزال تعالى هكذا يتصرف فيهم حتى يستوفوا آجالهم، فيقضي بهذا التدبير أجل مسمى، وهو أجل الحياة، وأجل آخر فيما بعد ذلك، وهو البعث بعد الموت، ولهذا قال: ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ﴾: لا إلى غيره، ﴿ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾: من خير وشر.

﴿٥٧﴾ ﴿وَهُوَ﴾ تعالى ﴿الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾: ينفذ فيهم إرادته الشاملة ومشيتته العامة، فليسوا يملكون من الأمر شيئاً، ولا يتحركون ولا يسكنون إلا بإذنه، ومع ذلك؛ فقد وكل بالعباد حفظاً من الملائكة يحفظون العبد ويحفظون عليه ما عمل؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ﴾

﴿عَلَىٰ بَيْنَتَيْنِ رَبِّي﴾؛ أي: على يقين مبين بصحته وبطلان ما عده. وهذه شهادة من الرسول جازمة لا تقبل التردد، وهو أعدل الشهود من الخلق على الإطلاق، فصدق بها المؤمنون، وتبين لهم من صحتها وصدقها بحسب ما من الله به عليهم، ولكنكم أيها المشركون كذبتهم به، وهو لا يستحق هذا منكم، ولا يليق به إلا التصديق، وإذا استمررتكم على تكذيبكم؛ فاعلموا أن العذاب واقع بكم لا محالة، وهو عند الله، هو الذي ينزله عليكم إذا شاء وكيف شاء، وإن استعجلتم به؛ فليس بيدي من الأمر شيء، ﴿إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ﴾؛ فكما أنه هو الذي حكم بالحكم الشرعي فأمر ونهى؛ فإنه سيحكم بالحكم الجزائي فيثيب ويعاقب بحسب ما تقتضيه حكمته؛ فالاعتراض على حكمه مطلقاً مدفوع، وقد أوضح السبيل وقص على عباده الحق قصاً قطع به معاذيرهم وانقطعت له حجتهم؛ ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حي عن بينة. ﴿وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ﴾: بين عباده في الدنيا والآخرة، فيفصل بينهم فصلاً يحمدده عليه حتى من قضى عليه ووجه الحق نحوه.

﴿٥٨﴾ ﴿قُلْ﴾ للمستعجلين بالعذاب جهلاً وعتاداً وظلماً: ﴿لَوْ أَنَّ عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَفُضِيَ الْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾: فأوقعتكم بكم، ولا خير لكم في ذلك، ولكن الأمر عند الحليم الصبور الذي يعصيه العاصون ويتجرأ عليه المتجرئون وهو يعافهم ويرزقهم ويسدي عليهم نعمه الظاهرة والباطنة. ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ﴾: لا يخفى عليه من أحوالهم شيء فيمهلهم ولا يهملهم.

﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ رَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظُلْمَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَابِسٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ ﴿٥٩﴾

﴿٥٩﴾ هذه الآية العظيمة من أعظم الآيات تفصيلاً لعلمه المحيط، وأنه شامل للغيوب كلها، التي يُطلع منها ما شاء من خلقه، وكثير منها طوى علمه عن الملائكة المقربين والأنبياء المرسلين فضلاً عن غيرهم من العالمين، وأنه يعلم ما في البراري والفقرار من الحيوانات والأشجار والرمال والحصى والتراب، وما في البحار من حيواناتها ومعاندها وصيدها وغير ذلك مما تحتويه أرجاؤها ويشتمل عليه ماؤها. ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِنْ رَرَقَةٍ﴾: من أشجار البر والبحر والبلدان والقفر والدنيا والآخرة إلا يعلمها، ﴿وَلَا حَبَّةٌ فِي ظُلْمَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا﴾

وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰ أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنْفِثُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٦٥﴾ وَهُوَ الْفَاحِشُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَرُسُلُ عَلَيْهِمْ حَفَظَةٌ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدُكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴿٦٦﴾ ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقُّ أَلا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ ﴿٦٧﴾ قُلْ مَنْ يُنْجِيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ اللَّيْلِ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّيْنٍ أَجَنَابًا مِنْ هَذِهِ لَتَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿٦٨﴾ قُلِ اللَّهُ يُنْجِيكُمْ مِنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنْتُمْ مُشْكِرُونَ ﴿٦٩﴾ قُلْ هُوَ الْفَارُوقُ عَلَيَّ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَنْتُمْ لَكُمْ أَوْ لَيْسَ لَكُمْ شَيْعًا وَيَذِيقُ بَعْضُكُمُ بَأْسَ بَعْضٍ أَنْظَرْكُمْ كَيْفَ تُصْرَفُ الْأَكْبَابُ لِمَالِهِمْ يَقْضُونَ ﴿٧٠﴾ وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ قُلْ لَسْتُ بِوَكِيلٍ ﴿٧١﴾ لِكُلِّ نَبِيٍّ مُنْتَصَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٧٢﴾ وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَلِمَا يَسْتَلِيزُكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرِىٰ مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٧٣﴾

عبادة من ليس له من الأمر شيء ولا عنده مثقال ذرة من النفع ولا له قدرة وإرادة؟ أما والله؛ لو علموا حلم الله عليهم، وعفوه ورحمته بهم، وهم يبارزون به بالشرك والكفران، ويتجرءون على عظمتهم بالإفك والبهتان، وهو يعافهم ويرزقهم؛ لانجذبت دواعيهم إلى معرفته، وذلت عقولهم في حبه، ولما مقتوا أنفسهم أشد المقت حيث انقادوا للداعي الشيطان، الموجب للخزي والخسران، ولكنهم قوم لا يعقلون.

﴿ قُلْ مَنْ يُنْجِيكُمْ مِنَ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ دَعُوهُ نَضَرُّوا وَخُفِيَاهُ لِيَنْجِيَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴾ ﴿١٣﴾ قُلِ اللَّهُ يُنْجِيكُمْ مِنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنْتُمْ مُشْكُرُونَ ﴿١٤﴾

﴿١٣﴾ أي: ﴿قُلْ﴾: للمشركين بالله الداعين معه آلهة أخرى ملزمًا لهم بما أثبتوه من توحيد الربوبية على ما أنكروه من توحيد الإلهية، ﴿مَنْ يَنْجِيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْآلِ وَالْبَحْرِ﴾؛ أي: شدائدهما ومشقاتهما وحين يتعذر أو يتعسر عليكم وجه الحيلة، فتدعون ربكم تضرعًا بقلب خاضع ولسان لا يزال يلهج بحاجته في الدعاء وتقولون وأنتم في تلك الحال: ﴿لَئِنْ أُنْجِئْنَا مِنْ هَٰؤُلَاءِ﴾: الشدة التي وقعنا فيها، ﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ ﴿١٣﴾: لله؛ أي: المعترفين بنعمته، الواضعين لها في طاعة ربهم، الذين حفظوها عن أن يبذلوها في معصيته.

﴿قُلِ اللَّهُ يُبَيِّعُكُمْ مِمَّا هِيَ ۖ وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ ۖ﴾؛ أي: من هذه الشدة الخاصة، ومن جميع الكروب العامة، ﴿ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ﴾ ﴿١٦﴾: لا تفنن لله بما قلتم، وتسنون نعمه عليكم؛ فأَيُّ برهان أوضح من هذا على بطلان الشرك وصحة التوحيد؟!

﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيْعًا وَيُرِيكُمْ بَعْضُكُم بَأْسَ بَعْضٍ ۗ إِنَّظُرْ كَيْفَ نَصَرَفَ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ۝١٥﴾ وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ ۚ قُلْ لَّسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ ۝١٦ لِكُلِّ نَبِيٍّ مُّسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ يُعْلَمُونَ ۝١٧﴾

وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَلَٰكِنْ ذَكَرُوا لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٦٦﴾ وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَعَرَّتْهُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَذَكَّرْتَهُمْ أَنْ تَسْكَرُوا نَفْسٌ يَمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِنْ تَعَدَّلَ كُلٌّ لَدَدٍ لَا يُخَذُّ مِنْهَا أُولَٰئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُوا بِمَا كَسَبُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ يَمَّا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٦٧﴾ قُلْ أَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْنَا اللَّهَ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانٌ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُوهُ إِلَىٰ الْهُدَىٰ آمَنَّا قُلْ إِنِّي هَدَىٰ اللَّهُ هُوَ الْهُدَىٰ وَأَمَرَ نَارِ السَّلَامِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٨﴾ وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَهُوَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٦٩﴾ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَكُوتَ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ قَوْلُهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ عَلَيْهِمُ الْغُيُبُ وَالشَّهَادَةُ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ﴿٧٠﴾

﴿٦٥﴾ أي: هو تعالى قادر على إرسال العذاب إليكم من كل جهة، ﴿مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتَ أَرْجَلِكُمْ أَوْ يَلِسَكُمْ﴾؛ أي: يخلطكم ﴿شِمَاعًا وَيُزِيغُ بَعْضَكُمْ بِأَسْبَاطٍ﴾؛ أي: في الفتنة وقتل بعضهم بعضًا؛ فهو قادر على ذلك كله؛ فاحذروا من الإقامة على معاصيه فيصيبكم من العذاب ما يهلككم ويمحقكم، ومع هذا؛ فقد أخبر أنه قادر على ذلك، ولكن من رحمته أن رفع عن هذه الأمة العذاب من فوقهم بالرجم والحصب ونحوه ومن تحت أرجلهم بالخسف، ولكن عاقب من عاقب منهم بأن أذاق بعضهم بأس بعض وسلط بعضهم على بعض بهذه العقوبات المذكورة عقوبة عاجلة يراها المعتبرون ويشعر بها العاملون. ﴿أَنْظُرْ كَيْفَ نَصَرُوا الْأَيُّتِ﴾؛ أي: أنواعها ونأتي بها على أوجه كثيرة، وكلها دالة على الحق، ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ ﴿٦٦﴾؛ أي: يفهمون ما خلقوا من أجله ويفقهون الحقائق الشرعية والمطالب الإلهية.

﴿٦٧﴾ وكذب به؛ أي: بالقرآن ﴿قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ﴾: الذي لا مزية فيه ولا شك يعتريه. ﴿قُلْ لَسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ﴾: أحفظ أعمالكم وأجازيكم عليها، وإنما أنا منذر ومبلغ.

﴿٦٨﴾ ﴿لِكُلِّ نَبِيٍّ مُسْتَقَرٌّ﴾؛ أي: وقت يستقر فيه وزمان لا يتقدم عنه ولا يتأخر، ﴿وَسَوْفَ تَمْلُونَ﴾ ﴿٦٩﴾: ما توعدون به من العذاب.

﴿٧٠﴾ وإذا رأيت الذين يخوضون في آبناس فأعرض عنهم حتى يخوضوا في حديث غيره، وإما ينسينك الشيطان فلا تقعد بعد الذكرى مع القوم الظالمين ﴿٧١﴾ وما على الذين يتقون من حسابهم من شيء، ولكن ذكرى لعلهم يتقون ﴿٧٢﴾.

﴿٧١﴾ المراد بالخوض في آيات الله التكلم بما يخالف الحق من تحسين المقالات الباطلة والدعوة إليها ومدح أهلها والإعراض عن الحق والقدح فيه وفي أهله؛ فأمر الله رسوله أصلاً وأمه تبعاً إذا رأوا من يخوض بآيات الله بشيء مما ذكر بالإعراض عنهم وعدم حضور مجالس الخائضين بالباطل والاستمرار على ذلك حتى يكون البحث والخوض في كلام غيره؛ فإذا كان في كلام غيره؛ زال النهي المذكور؛ فإن كان مصلحة؛ كان مأموراً به، وإن كان غير ذلك؛ كان غير مفيد ولا مأمور به، وفي ذم الخوض بالباطل حث على البحث والنظر والمناظرة بالحق.

ثم قال: ﴿وَمَا يَسِينَنَّكَ الشَّيْطَانُ﴾؛ أي: بأن جلست معهم على وجه النسيان والغفلة، ﴿فَلَا تَقْعُدَ بَعْدَ الذِّكْرِىٰ مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾: يشمل الخائضين بالباطل وكل متكلم بمحرم أو فاعل لمحرم؛ فإنه يحرم الجلوس والحضور عند حضور المنكر الذي لا يقدر على إزالته، هذا النهي والتحريم لمن جلس معهم، ولم يستعمل تقوى الله بأن كان يشاركهم في القول والعمل المحرم أو يسكت عنهم وعن الإنكار؛ فإن استعمل تقوى الله تعالى بأن كان يأمرهم بالخير وينهاهم عن الشر والكلام الذي يصدر منهم؛ فترتب على ذلك زوال الشر أو تخفيفه؛ فهذا ليس عليه حرج ولا إثم، ولهذا قال:

﴿٧٢﴾ ﴿وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَلَٰكِنْ ذَكَرُوا لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ ﴿٧٣﴾؛ أي: ولكن ليذكرهم ويعظهم لعلهم يتقون الله تعالى. وفي هذا دليل على أنه ينبغي أن يستعمل المذكر من الكلام ما يكون أقرب إلى حصول مقصود التقوى، وفيه دليل على أنه إذا كان التذكير والوعظ مما يزيد الموعوظ شراً إلى شره؛ كان تركه هو الواجب؛ لأنه إذا ناقض المقصود؛ كان تركه مقصوداً.

هَدَى اللَّهُ هُوَ الْهُدَى وَأَمْرًا لِلْإِسْلَامِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٧١﴾ وَأَنْ
 اتَّقُوا الصَّلَاةَ لِأَقْوَمِهِمْ هُوَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٢﴾
 وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَيَوْمَ
 يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ قَوْلُهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنْفَخُ
 فِي الصُّورِ عَلَيْهِمُ الْعَذَابُ وَالْغَيْبُ وَالشَّهَادَةُ وَهُوَ الْحَكِيمُ
 الْخَبِيرُ ﴿٧٣﴾

﴿٧١﴾ قُلْ يا أيها الرسول للمشركين بالله، الداعين
 معه غيره، الذين يدعونكم إلى دينهم؛ مبيّنًا وشارحًا لوصف
 ألهمهم التي يكتفي العاقل بذكر وصفها عن النهي عنها؛ فإن
 كل عاقل إذا تصور مذهب المشركين؛ جزم بطلانه قبل أن
 تقام البراهين على ذلك، فقال: ﴿أَنْدَعُوا مِنْ دُوبِ اللَّهِ مَا لَا
 يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا﴾؛ وهذا وصف يدخل فيه كل من عبّد من
 دون الله؛ فإنه لا ينفع ولا يضر، وليس له من الأمر شيء،
 إن الأمر لإلا لله. ﴿وَرُدُّ عَلَى أَغْيَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْنَا اللَّهَ﴾؛ أي:
 ونقلب بعد هداية الله لنا إلى الضلال، ومن الرشد إلى الغي،
 ومن الصراط الموصل إلى جنات النعيم إلى الطرق التي
 تقضي بسالكها إلى العذاب الأليم!! فهذه حال لا يرتضيها
 ذورشد، وصاحبها ﴿كَأَلَيْكَ أَسْتَهْوَتْهُ الشَّيْطَانُ فِي الْأَرْضِ﴾؛
 أي: أضلته وتبتهته عن طريقه ومنهجه الموصل إلى مقصده،
 فبقي ﴿حَيْرَانَ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى﴾، والشياطين
 يدعونهم إلى الردى، فبقي بين الداعين حائرًا، وهذه حال
 الناس كلهم؛ إلا من عصمه الله تعالى؛ فإنهم يجدون فيهم
 جواذب ودواعي متعارضة؛ داعي الرسالة والعقل الصحيح
 والفترة المستقيمة يدعونهم إلى الهدى والصعود إلى أعلى
 عِلين، ودواعي الشيطان ومن سلك مسلكه والنفس الأمارة
 بالسوء يدعونهم إلى الضلال والتزول إلى أسفل سافلين؛ فمن
 الناس من يكون مع دواعي الهدى في أموره كلها أو أغلبها،
 ومنهم من بالعكس من ذلك، ومنهم من يتساوى لديه
 الداعيان ويتعارض عنده الجاذبان، وفي هذا الموضع تعرف
 أهل السعادة من أهل الشقاوة.

وقوله: ﴿قُلْ إِنَّ هَدَى اللَّهُ هُوَ الْهُدَى﴾؛ أي: ليس الهدى
 إلا الطريق التي شرعها الله على لسان رسوله، وما عداه فهو
 ضلال وردى وهلاك. ﴿وَأَمْرًا لِلْإِسْلَامِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿٧١﴾:
 بأن نقاد لتوحيدهم ونستسلم لأوامره ونواهيهم وندخل تحت
 رق عبوديته؛ فإن هذا أفضل نعمة أنعم الله بها على العباد،
 وأكمل تربية أوصلها إليهم.

﴿وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَعَرَّتَهُمْ
 الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَذَكَّرْنَاهُ أَنْ تَسْأَلَ نَفْسُهُ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ
 لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِنْ تَعَدَّلَ كُلٌّ عَدْلٍ لَا
 يُؤْخَذُ مِنْهَا أُولَئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُوا بِمَا كَسَبُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ
 حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ ﴿٧٤﴾.

﴿٧٤﴾ المقصود من العباد أن يخلصوا لله الدين بأن يعبدوه
 وحده لا شريك له ويبدلوا مقدورهم في مرضاته ومحابه،
 وذلك متضمن لإقبال القلب على الله وتوجهه إليه وكون
 سعي العبد نافعًا، وجِدًا لا هزلًا، وإخلاصًا لوجه الله لا رياء
 وسمعة، هذا هو الدين الحقيقي الذي يقال له: دين، فأما من
 زعم أنه على الحق، وأنه صاحب دين وتقوى، وقد اتخذ دينه
 لعبًا ولهوًا؛ بأن لها قلبه عن محبة الله ومعرفته، وأقبل على
 كل ما يضره، ولها في باطله، ولعب فيه يبدنه؛ لأن العمل
 والسعي إذا كان لغير الله؛ فهو لعب؛ فهذا أمر الله تعالى أن
 يترك ويحذر ولا يغتر به، وتنظر حاله، ويحذر من أفعاله،
 ولا يغتر بتعويقه عما يقرب إلى الله.

﴿وَذَكَّرْنَاهُ﴾؛ أي: ذكر بالقرآن ما ينفع العباد أمرًا
 وتفصيلًا وتحسينًا له بذكر ما فيه من أوصاف الحسن،
 وما يضر العباد نهيًا عنه وتفصيلًا لأنواعه وبيان ما فيه من
 الأوصاف القبيحة الشنيعة الداعية لتركه، وكل هذا لئلا تسبل
 نفس بما كسبت؛ أي: قبل اقتحام العبد للذنوب وتجتره
 على علام الغيوب واستمراره على ذلك المرهوب؛ فذكرها
 وعظها لترتدع وتنزجر وتكف عن فعلها.

وقوله: ﴿لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ﴾؛ أي: قبل
 أن تحيط بها ذنوبها ثم لا ينفعها أحد من الخلق لا قريب ولا
 صديق ولا يتولاها من دون الله أحد ولا يشفع لها شافع.
 ﴿وَإِنْ تَعَدَّلَ كُلٌّ عَدْلٍ﴾؛ أي: تقتدي بكل فداء ولو
 بملء الأرض ذهبًا ﴿لَا يُؤْخَذُ مِنْهَا﴾؛ أي: لا يقبل ولا يفيد.
 ﴿أُولَئِكَ﴾: الموصوفون بما ذكر ﴿الَّذِينَ أُبْسِلُوا﴾؛ أي:
 أهلكوا وأيسوا من الخير، وذلك ﴿بِمَا كَسَبُوا لَهُمْ شَرَابٌ
 مِنْ حَمِيمٍ﴾؛ أي: ماء حار قد انتهى حره يشوي وجوههم
 ويقطع أمعاءهم ﴿وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ ﴿٧٤﴾.

﴿قُلْ أَنْدَعُوا مِنْ دُوبِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَرُدُّ
 عَلَى أَغْيَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْنَا اللَّهَ كَأَلَيْكَ أَسْتَهْوَتْهُ الشَّيْطَانُ فِي
 الْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى أَنْتَ قُلْ إِنَّ

سورة الأنعام

الحكمة السابعة

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ ءَاذَرَ اتَّخِذْ أَصْنَامًا ءَالِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ۖ وَكَذَلِكَ نُرَى إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَيْكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ۖ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلْأَيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ ٱلْأَفْلَاجَ ۖ فَلَمَّا رَأَى ٱلْقَمَرَ بَازِعًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَيْنَ لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ ۖ فَلَمَّا رَأَى ٱلشَّمْسَ بَازِعَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ بِقَوْمٍ إِنِّي بِرُءُوسِهِمْ شَاكِرُونَ ۖ وَإِنِّي وَجْهَتُ وَجْهِي لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۖ وَحَاجِبُهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحِبُّونِي فِي ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَانِي وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ ؕ إِلَّا أَن يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ۚ وَكَيفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمُ ٱللَّهَ مَالَهُ بُزُرُكُم مِّنْهُ عَلَىٰكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝﴾

١٣٧

﴿٧٢﴾ ﴿وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾؛ أي: وأمرنا أن نقيم الصلاة بأركانها وشروطها وسنتها ومكملاتها، ﴿وَأَتَّقُوا﴾: بفعل ما أمر به واجتناب ما عنه نهى. ﴿وَهُوَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾؛ أي: تجمعون ليوم القيامة، فيجازيكم بأعمالكم خيرا وشرها.

﴿٧٣﴾ ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ﴾: ليأمر العباد وينهاهم ويشيهم ويعاقبهم، ﴿وَيَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ قَوْلُهُ ٱلْحَقُّ﴾: الذي لا مرية فيه ولا مشوية ولا يقول شيئا عبثا. ﴿وَلَهُ ٱلْمَلَكُوتُ يَوْمَ يُنْفَخُ ٱلصُّورُ﴾؛ أي: يوم القيامة خصه بالذكر مع أنه مالك كل شيء؛ لأنه تنقطع فيه الأملاك، فلا يبقى ملك إلا الله الواحد القهار. ﴿عَلِيمٌ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَادَةِ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾؛ الذي له الحكمة التامة، والنعمة السابعة، والإحسان العظيم، والعلم المحيط بالسرائر والبواطن والخفايا، لا إله إلا هو، ولا رب سواه.

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ ءَاذَرَ اتَّخِذْ أَصْنَامًا ءَالِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ۖ وَكَذَلِكَ نُرَى إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَيْكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ إلى آخر القصة.

﴿٧٤﴾ يقول تعالى: واذكر قصة إبراهيم عليه الصلاة والسلام مثنيا عليه ومعظما في حال دعوته إلى التوحيد ونهيه عن الشرك. ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ ءَاذَرَ اتَّخِذْ أَصْنَامًا ءَالِهَةً﴾؛ أي: لا تنفع ولا تضر، وليس لها من الأمر شيء، ﴿إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾؛ حيث عبدتم من لا يستحق من العبادة شيئا، وتركتم عبادة خالقكم ورازقكم ومدبركم.

﴿٧٥﴾ ﴿وَكَذَلِكَ﴾: حين وفقناه للتوحيد والدعوة إليه، ﴿نُرَى إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَٱلْأَرْضِ﴾؛ أي: ليرى ببصيرته ما اشتملت عليه من الأدلة القاطعة والبراهين الساطعة، ﴿وَلَيْكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾؛ فإنه بحسب قيام الأدلة يحصل له الإيقان والعلم التام بجميع المطالب.

﴿٧٦﴾ ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلْأَيْلُ﴾؛ أي: أظلم، ﴿رَأَى كَوْكَبًا﴾: لعله من الكواكب المضيئة؛ لأن تخصيصه بالذكر يدل على زيادته عن غيره، ولهذا - والله أعلم - قال من قال: إنه الزهرة، ﴿قَالَ هَٰذَا رَبِّي﴾؛ أي: على وجه التنزل مع الخصم؛ أي: هذا ربي؛ فهلهم نظروا: هل يستحق الربوبية؟ وهل يقوم لنا دليل على ذلك؟ فإنه لا ينبغي لعاقل أن يتخذ إلهه هواه بغير حجة ولا برهان، ﴿فَلَمَّا أَفَلَ﴾؛ أي: غاب ذلك الكوكب، ﴿قَالَ لَا أُحِبُّ ٱلْأَفْلَاجَ﴾؛ أي: الذي يغيب ويختفي عن عبده؛ فإن المعبود لا بد أن يكون قائما بمصالح من عبده ومدبره في جميع شئونه، فأما الذي يمضي وقت كثير وهو غائب؛ فمن أين يستحق العبادة، وهل اتخاذه إلها إلا من أسفه السفه وأبطل الباطل؟!!

﴿٧٧﴾ ﴿فَلَمَّا رَأَى ٱلْقَمَرَ بَازِعًا﴾؛ أي: طالعا، ورأى زيادته على نور الكواكب ومخالفته لها، ﴿قَالَ هَٰذَا رَبِّي﴾: تنزلا، ﴿فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَيْنَ لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ الضَّالِّينَ﴾؛ فافتقر غاية الافتقار إلى هداية ربه، وعلم أنه إن لم يهده الله؛ فلا هادي له، وإن لم يعنه على طاعته؛ فلا معين له.

﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ
يُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَذَكَرْنَا يُحْيَىٰ وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَاعِيلَ
وَإِسْحَاقَ وَيُوشَعَ وَخَلْدَةَ وَشَالُونَ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٨٦﴾ وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَأَخْوَانِهِمْ أَجْبَأ إِلَهُهُم إِلَى صِرَاطٍ

أخي إبراهيم، ﴿وَكَلَّا﴾: من هؤلاء الأنبياء والمرسلين ﴿فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ (٨٧): لأن درجات الفضائل أربع، وهي التي ذكرها الله بقوله: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ﴾ [النساء: ٦٩]: فهؤلاء من الدرجة العليا، بل هم أفضل الرسل على الإطلاق، فالرسل الذين قصهم الله في كتابه أفضل ممن لم يقصص علينا نبأهم بلا شك.

﴿وَمِنْ آبَائِهِمْ﴾؛ أي: آباء هؤلاء المذكورين، ﴿وَدُرِّيَّتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ﴾؛ أي: وهدينا من آباء هؤلاء وذرياتهم وإخوانهم، ﴿وَأَجْنِبْتُمْ﴾؛ أي: اخترناهم، ﴿وَهَدَيْتُهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (٨٧).

﴿وَالَّذِينَ هَدَى اللَّهُ﴾: الهدي المذكور ﴿هُدَى اللَّهِ﴾: الذي لا هدى إلا هداية. ﴿يَهْدِي بِوَهْدٍ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾: فاطلبوا منه الهدى؛ فإنه إن لم يهدكم؛ فلا هادي لكم غيره، ومن شاء هدايته هؤلاء المذكورون. ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا﴾: على الفرض والتقدير، ﴿لَحِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَمْعَلُونَ﴾ (٨٨): فإن الشرك محبط للعمل موجب للخلود في النار؛ فإذا كان هؤلاء الصفوة الأخيار لو أشركوا - وحاشاهم - لحبطت أعمالهم؛ فغيرهم أولى.

﴿أُولَٰئِكَ﴾: المذكورون ﴿الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ﴾: فهدى الله لهم الهدى؛ أي: أمش أيها الرسول الكريم خلف هؤلاء الأنبياء الأخيار واتبع ملتهم. وقد امثال ﷺ فاهتدى بهدي الرسل قبله، وجمع كل كمال فيهم، فاجتمعت لديه فضائل وخصائص فاق بها جميع العالمين، وكان سيد المرسلين وإمام المتقين صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين. وبهذا الملحظ استدل بهذه من استدل من الصحابة أن رسول الله ﷺ أفضل الرسل كلهم، ﴿قُلْ﴾ للذين أعرضوا عن دعوتك: ﴿لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾؛ أي: لا أطلب منكم مغرمًا ومالًا جزاء عن إبلاغي إياكم ودعوتي لكم، فيكون من أسباب امتناعكم، إن أجري إلا على الله. ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾ (٩٠): يتذكرون به ما يتفهم فيفعلونه وما يضرهم فيذرونه، ويتذكرون به معرفة ربهم بأسمائه وأوصافه، ويتذكرون به الأخلاق الحميدة والطرق الموصلة إليها، والأخلاق الرذيلة والطرق المفضية إليها؛ فإذا كان ذكرى للعالمين؛ كان أعظم نعمة أنعم الله بها عليهم، فعليهم قبولها، والشكر عليها.

﴿ذَلِكَ هَدَىٰ اللَّهُ يَهْدِي بِوَهْدٍ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾. ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَمْعَلُونَ﴾ (٨٨) ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَٰؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ﴾ (٨٩) ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَىٰ اللَّهُ فَيُهْدِيهِمْ أَفْتَدَهُ قُلْ لَا آسَأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾ (٩٠).

لما ذكر الله تعالى عبده وخليله إبراهيم عليه السلام، وذكر ما من الله عليه به من العلم والدعوة والصبر؛ ذكر ما أكرمه الله به من الذرية الصالحة والنسل الطيب وأن الله جعل صفوة الخلق من نسله، وأعظم بهذه المنقبة والكرامة الجسيمة التي لا يدرك لها نظير!! فقال:

﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾: ابنه الذي هو إسرائيل أبو الشعب الذي فضله الله على العالمين، ﴿كَلَّا﴾: منهما هديناه الصراط المستقيم في علمه وعمله، و﴿نُوحًا﴾ هديناه ﴿مِنْ قَبْلُ﴾، وهدايته من أعلى أنواع الهدايات الخاصة التي لم تحصل إلا لأفراد من العالم، وهم أولو العزم من الرسل، الذي هو أحدهم، ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ﴾: -: يحتمل أن الضمير عائد إلى نوح؛ لأنه أقرب مذكور، ولأن الله ذكر مع من ذكر لوطًا، وهو من ذرية نوح لا من ذرية إبراهيم؛ لأنه ابن أخيه، ويحتمل أن الضمير يعود إلى إبراهيم؛ لأن السياق في مدحه والثناء عليه، ولوط وإن لم يكن من ذريته؛ فإنه ممن آمن على يده، فكان منقبة الخليل وفضيلته بذلك أبلغ من كونه مجرد ابن له. ﴿دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ﴾ ابن داود ﴿وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ﴾ ابن يعقوب ﴿وَمُوسَىٰ وَهَارُونَ﴾ ابني عمران. ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾: كما أصلحنا ذرية إبراهيم الخليل؛ لأنه أحسن في عبادة ربه وأحسن في نفع الخلق، كذلك ﴿تَجْرَىٰ الْمُحْسِنِينَ﴾ (٩١): بأن نجعل لهم من الثناء الصدق والذرية الصالحة بحسب إحسانهم.

﴿وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ﴾: ابنه، ﴿وَعِيسَى﴾ ابن مريم، ﴿وَالْيَاسِينَ كُلٌّ﴾: من هؤلاء ﴿مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ (٩٢): في أخلاقهم وأعمالهم وعلومهم، بل هم سادة الصالحين وقادتهم وأئمتهم.

﴿وَإِسْحَاقَ﴾: ابن إبراهيم، أبو الشعب الذي هو أفضل الشعوب، وهو الشعب العربي، ووالد سيد ولد آدم محمد ﷺ، ﴿وَيُوسُفَ﴾ ابن متى، ﴿وَلُوطًا﴾ ابن هاران

﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ قُلْ مَن أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قُرْآنًا يُدْعَوْنَ بِهَا وَيُخْفَوْنَ كَثِيرًا وَعَلَّمْتُهُ مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنسَرُ وَلَا آبَاءُكُمْ قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩١﴾﴾.

﴿٩١﴾ هذا تشنيع على من نفى الرسالة من اليهود والمشركين وزعم أن الله ما أنزل على بشر من شيء؛ فمن قال هذا؛ فما قدر الله حق قدره ولا عظمه حق عظمته؛ إذ هذا قدح في حكمته، وزعم أنه يترك عباده هملاً لا يأمرهم ولا ينهاهم، ونفي لأعظم منة امتن الله بها على عباده، وهي الرسالة التي لا طريق للعباد إلى نيل السعادة والكرامة والفلاح إلا بها؛ فأبي قدح في الله أعظم من هذا!

﴿قُلْ﴾ لهم ملزماً بفساد قولهم وقرهم بما به يقرون: ﴿مَن أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى﴾؛ وهو التوراة العظيمة ﴿نُورًا﴾؛ في ظلمات الجهل، ﴿وَهَدًى﴾؛ من الضلالة، وهادياً إلى الصراط المستقيم علماً وعملاً، وهو الكتاب الذي شاع وذاع وملاً ذكره القلوب والأسماع، حتى إنهم جعلوا يتناسخونه في القراطيس ويتصرفون فيه بما شاءوا؛ فما وافق أهواءهم منه؛ أبدوه وأظهروه، وما خالف ذلك؛ أخفوه وكنموه، وذلك كثير. ﴿وَعَلَّمْتُهُ﴾؛ من العلوم التي بسبب ذلك الكتاب الجليل ﴿مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنسَرُ وَلَا آبَاءُكُمْ﴾.

﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ قُلْ مَن أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قُرْآنًا يُدْعَوْنَ بِهَا وَيُخْفَوْنَ كَثِيرًا وَعَلَّمْتُهُ مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنسَرُ وَلَا آبَاءُكُمْ قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩١﴾﴾
وَهَذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَن حَوْلَهَا وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩٢﴾ وَمَن أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُوتُ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْرَزُونَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٩٣﴾ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْتَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرْكُنتُمْ مَا خَوَّلْنَكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٩٤﴾﴾

فإذا سألتهم عن أنزل هذا الكتاب الموصوف بتلك الصفات؛ فأجب عن هذا السؤال و﴿قُلِ اللَّهُ﴾؛ الذي أنزله، فحيث يتضح الحق، وينجلي مثل الشمس؛ وتقوم عليهم الحجة. ﴿ثُمَّ﴾ إذا ألزمتهم بهذا الإلزام ﴿ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾؛ أي: اتركهم يخوضوا في الباطل ويلعبوا بما لا فائدة فيه حتى يلاقوا يومهم الذي يوعدون.

﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَن حَوْلَهَا وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩٢﴾﴾.

﴿٩٢﴾ أي: ﴿وَهَذَا﴾؛ القرآن الذي ﴿أَنزَلْنَاهُ﴾ إليك ﴿مُبَارَكٌ﴾؛ أي: وصفه البركة، وذلك لكثرة خيراته وسعة مبراته ﴿مُصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾؛ أي: موافق للكتب السابقة وشاهد لها بالصدق، ﴿وَلِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَن حَوْلَهَا﴾؛ أي: وأنزلناه أيضاً لتنذر أم القرى - وهي مكة المكرمة - ومن حولها من ديار العرب، بل ومن سائر البلدان، فتحذر الناس عقوبة الله وأخذه الأمم، وتحذرهم مما يوجب ذلك. ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾؛ لأن الخوف إذا كان في القلب؛ عمرت أركانه وانقاد لمراضي الله، ﴿وَهُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾؛ أي: يدومون عليها ويحفظون أركانها وحدودها وشروطها وآدابها ومكملاتها. جعلنا الله منهم.

﴿وَمَن أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُوتُ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيَهُمْ أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْرَزُونَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٩٣﴾﴾ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْتَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرْكُنتُمْ مَا خَوَّلْنَكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَى

﴿٩٣﴾ فهذه حالهم في البرزخ، وأما يوم القيامة؛ فإنهم إذا وردوها؛ وردوها مفلسين فرادى بلا أهل ولا مال ولا أولاد ولا جنود ولا أنصار؛ كما خلقهم الله أول مرة، عارين من كل شيء؛ فإن الأشياء إنما تتمول وتحصل بعد ذلك بأسبابها التي هي أسبابها، وفي ذلك اليوم تنقطع جميع الأمور التي كانت مع العبد في الدنيا سوى العمل الصالح والعمل السيئ الذي هو مادة الدار الآخرة الذي تنشأ عنه ويكون حسننها وقبحها وسرورها وغمومها وعذابها ونعيمها بحسب الأعمال؛ فهي التي تنفع أو تضر وتسوء أو تسر، وما سواها من الأهل والولد والمال والأنصار فعوار خارجية وأوصاف زائلة وأحوال حائلة، ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْتُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَرَكُم مَّا حَوَّلْنَكُمْ﴾؛ أي: أعطيناكم وأنعمنا به عليكم ﴿وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ﴾؛ لا يغنون عنكم شيئاً، ﴿وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ﴾؛ فإن المشركين يشركون بالله ويعبدون معه الملائكة والأنبياء والصالحين وغيرهم، وهم كلهم لله، ولكنهم يجعلون لهذه المخلوقات نصيباً من أنفسهم وشركة في عبادتهم، وهذا زعم منهم وظلم؛ فإن الجميع عبيد لله، والله مالكمهم والمستحق لعبادتهم؛ فشركوهم في العبادة وصرفها لبعض العبيد تنزيل لهم منزلة الخالق المالك، فيوبخون يوم القيامة، ويقال لهم هذه المقالة ﴿وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ﴾؛ أي: تقطعت الوصل والأسباب بينكم وبين شركائكم من الشفاعة وغيرها، فلم تنفع ولم تجد شيئاً. ﴿وَصَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾؛ من الريح والأمن والسعادة والنجاة التي زينها لكم الشيطان وحسنها في قلوبكم، فنطقت بها ألسنتكم، واغترتم بهذا الزعم الباطل الذي لا حقيقة له حين تبين لكم نقض ما كنتم تزعمون، وظهر أنكم الخاسرون لأنفسكم وأهلكم وأموالكم.

﴿إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْغَيْثِ وَالنَّوْثِ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ ذَلِكُمُ اللَّهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ﴾ ﴿٩٤﴾ فالق الإصباح وجعل الليل سكناً والشمس والقمر حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٩٥﴾ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ اللَّيْلِ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَوْفٍ وَمُسْتَوْدِعٌ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴿٩٧﴾

مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَصَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٩٤﴾.

﴿٩٣﴾ يقول تعالى: لا أحد أعظم ظلماً ولا أكبر جرماً ممن كذب على الله بأن نسب إلى الله قولاً أو حكماً وهو تعالى بريء منه، وإنما كان هذا أظلم الخلق؛ لأن فيه من الكذب وتغيير الأديان أصولها وفروعها ونسبة ذلك إلى الله ما هو من أكبر المفاسد، ويدخل في ذلك ادعاء النبوة، وأن الله يوحى إليه، وهو كاذب في ذلك؛ فإنه مع كذبه على الله وجرائته على عظمته وسلطانه يوجب على الخلق أن يتبعوه ويجاهدهم على ذلك ويستحل دماء من خالفه وأموالهم. ويدخل في هذه الآية كل من ادعى النبوة كمسيلمة الكذاب والأسود العنسي والمختار وغيرهم ممن اتصف بهذا الوصف. ﴿وَمَنْ قَالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾؛ أي: ومن أظلم ممن زعم أنه يقدر على ما يقدر الله عليه ويجاري الله في أحكامه ويشرع من الشرائع كما يشرعه الله. ويدخل في هذا كل من يزعم أنه يقدر على معارضة القرآن، وأنه في إمكانه أن يأتي بمثله! وأي ظلم أعظم من دعوى الفقير العاجز بالذات الناقص من كل وجه، مشاركة القوي الغني الذي له الكمال المطلق من جميع الوجوه في ذاته وأسمائه وصفاته؟!

ولما ذم الظالمين؛ ذكر ما أعد لهم من العقوبة في حال الاحتضار ويوم القيامة، فقال: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ﴾؛ أي: شدائده وأحواله الفظيعة وكربه الشنيعة؛ لرأيت أمراً هائلاً وحالة لا يقدر الواصف أن يصفها. ﴿وَأَلْمَلَتِ كُلُّكُمُ بِأَسْطُورٍ أَيْدِيهِمْ﴾؛ إلى أولئك الظالمين المحضرين بالضرب والعذاب؛ يقولون لهم عند المنازعة أرواحهم وقلقها وتعصياها عن الخروج من الأبدان: ﴿أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ﴾؛ أي: العذاب الشديد الذي يهينكم ويذلكم، والجزاء من جنس العمل؛ فإن هذا العذاب ﴿بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ﴾؛ من كذبكم عليه وردكم للحق الذي جاء به الرسل، ﴿وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ ﴿٩٣﴾؛ أي: ترفعون عن الانقياد لها والاستسلام لأحكامها.

وفي هذا دليل على عذاب البرزخ ونعيمه؛ فإن هذا الخطاب والعذاب الموجه إليهم إنما هو عند الاحتضار وقبيل الموت وبعده. وفيه دليل على أن الروح جسم يدخل ويخرج ويخاطب، ويسكن الجسد ويفارقه.

﴿٩٥﴾ يخبر تعالى عن كماله وعظمته سلطانه وقوة اقتداره وسعة رحمته وعموم كرمه وشدة عنايته بخلقه، فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْغَيْبِ﴾ شامل لسائر الحبوب التي يياشر الناس زرعها، والتي لا يياشرونها؛ كالحبوب التي ييها الله في البراري والقفار، فيفلق الحبوب عن الزروع والنوابت على اختلاف أنواعها وأشكالها ومنافعها، ويفلق النوى عن الأشجار من النخيل والفواكه وغير ذلك، فينتفع الخلق من الأدميين والأنعام والدواب، ويرتعون فيما فلق الله من الحب والنوى، ويقتاوتون وينتفعون بجميع أنواع المنافع التي جعلها الله في ذلك، ويريههم الله من بره وإحسانه ما يبهر العقول ويذهل الفحول، ويريههم من بدائع صنعته وكمال حكمته ما به يعرفونه ويوحّدونه ويعلمون أنه هو الحق وأن عبادة ما سواه باطلة. ﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ﴾: كما يخرج من المني حيواناً ومن البضة فرخاً ومن الحب والنوى زرعاً وشجراً، ﴿وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ﴾: وهو الذي لا نمو فيه أو لا روح ﴿مِنَ الْغَيْبِ﴾: كما يخرج من الأشجار والزروع النوى والحب، ويخرج من الطائر بيضاً ونحو ذلك. ﴿ذَلِكُمْ﴾ الذي فعل ما فعل وانفرد بخلق هذه الأشياء وتدبيرها ﴿اللَّهُ﴾؛ أي: الذي له الألوهية والعبادة على خلقه أجمعين، وهو الذي ربى جميع العالمين بنعمه وغذاهم بكرمه، ﴿فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ﴾؛ أي: فأنى تصرفون وتصدون عن عبادة من هذا شأنه إلى عبادة من لا يملك لنفسه نفعا ولا ضرا ولا موتا ولا حياة ولا نشورا؟

﴿٩٦﴾ ولما ذكر تعالى مادة خلق الأقوات؛ ذكر مته بتهيئة المساكن وخلق كل ما يحتاج إليه العباد من الضياء والظلمة وما يترتب على ذلك من أنواع المنافع والمصالح، فقال: ﴿فَالِقُ الْإِصْبَاحِ﴾؛ أي: كما أنه فالق الحب والنوى، كذلك هو فالق ظلمة الليل الداجي الشامل لما على وجه الأرض بضياء الصباح الذي يفلقه شيئا فشيئا، حتى تذهب ظلمة الليل كلها ويخلفها الضياء والنور العام الذي يتصرف به الخلق في مصالحهم ومعاشهم ومنافع دينهم ودنياهم.

ولما كان الخلق محتاجين إلى السكون والاستقرار والراحة التي لا تتم إلا بوجود النهار والنور؛ ﴿جَعَلَ﴾: الله الليل سكنا يسكن فيه الأدميون إلى دورهم ومنامهم، والأنعام إلى مأواها، والطيور إلى أوكارها فتأخذ نصيبها من الراحة، ثم يزيل الله ذلك بالضياء، وهكذا أبداً إلى يوم القيامة. وجعل تعالى الشمس ﴿وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا﴾: بهما تعرف الأزمنة والأوقات؛ فتتضبط بذلك أوقات العبادات وآجال المعاملات، ويعرف بها مدة ما مضى من الأوقات التي لولا وجود الشمس والقمر وتناوبهما واختلافهما لما عرف ذلك عامة الناس واشتركوا في علمه، بل كان لا يعرفه إلا أفراد من الناس بعد الاجتهاد، وبذلك يفوت من المصالح الضرورية ما يفوت. ﴿ذَلِكَ﴾: التقدير المذكور، ﴿تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾: الذي من عزته انقادت له هذه المخلوقات العظيمة فجرت مذلة مسخرة بأمره، بحيث لا تتعدى ما حده الله لها ولا تتقدم عنه ولا تتأخر، العليم الذي أحاط علمه بالظواهر والبواطن والأوائل والأواخر. ومن الأدلة العقلية على إحاطة علمه تسخير هذه المخلوقات العظيمة على تقدير ونظام بديع تحير العقول في حسنه وكماله وموافقته للمصالح والحكم.

﴿٩٧﴾ ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾: حين تشبه عليكم المسالك، وتتحير في سيره السالك، فجعل الله النجوم هداية للخلق إلى السبيل التي يحتاجون إلى سلوكها لمصالحهم وتجاراتهم وأسفارهم، منها

الناس والأنعام، فرتع الخلق بفضل الله وانبسطوا برزقه وفرحوا بإحسانه وزال عنهم الجذب واليأس والقحط، وفرحت القلوب وأسفرت الوجوه وحصل للعباد من رحمة الرحمن الرحيم ما به يتمتعون وبه يرتعون، مما يوجب لهم أن يبذلوا جهدهم في شكر من أسدى النعم وعبادته والإجابة إليه والمحبة له.

ولما ذكر عموم ما ينبت بالماء من أنواع الأشجار والنبات؛ ذكر الزرع والنخل لكثرة نفعهما وكونهما قوتاً لأكثر الناس، فقال: ﴿فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرِجُ مِنْهُ﴾؛ أي: من ذلك النبات الخضر ﴿حَبًّا مُتَرَاكِبًا﴾؛ بعضه فوق بعض من بر وشعير وذرة وأرز وغير ذلك من أصناف الزروع، وفي وصفه بأنه متراكب إشارة إلى أن حبوبه متعددة، وجميعها تستمد من مادة واحدة، وهي لا تختلط، بل هي متفرقة الحبوب مجتمعة الأصول، وإشارة أيضاً إلى كثرتها وشمول ريعها وغلتها؛ ليقى أصل البذر، ويبقى بقية كثيرة للأكل والادخار. ﴿وَمِنَ النَّخْلِ﴾؛ أخرج الله ﴿مِنْ طَلْعِهَا﴾؛ وهو الكُثْرَى والوعاء قبل ظهور القنوم، فيخرج من ذلك الوعاء ﴿قَتَوَانٌ دَانِيَةٌ﴾؛ أي: قريبة سهلة التناول متدلية على من أرادها؛ بحيث لا يعسر تناول من النخل، وإن طالت؛ فإنه يوجد فيها كَرْبٌ ومراق يسهل صعودها. وأخرج تعالى بالماء جنات ﴿مِّنْ أَغْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ﴾؛ فهذه من الأشجار الكثيرة النفع العظيمة الوقع؛ فلذلك خصصها الله بالذكر بعد أن عم جميع الأشجار والنبات. وقوله: ﴿مُشْتَبِهًا وَعَيْرَ مُشْتَبِهٍ﴾؛ يحتمل أن يرجع إلى الرمان والزيتون؛ أي: مشتبهًا في شجره وورقه غير متشابه في ثمره، ويحتمل أن يرجع ذلك إلى سائر الأشجار والفواكه، وأن بعضها مشتبه؛ يشبه بعضه بعضاً، ويتقارب في بعض أوصافه، وبعضها لا مشابهة بينه وبين غيره، والكل يتنفع به العباد ويتفكهون، ويقتاتون ويعتبرون، ولهذا أمر تعالى بالاعتبار به، فقال: ﴿انظُرُوا﴾؛ نظر فكر واعتبار ﴿إِلَى ثَمَرِهِ﴾؛ أي: الأشجار كلها، خصوصاً النخل، ﴿إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ﴾؛ أي: انظروا إليه وقت إطلاعه ووقت نضجه وإنعائه؛ فإن في ذلك عبراً وآيات يستدل بها على رحمة الله وسعة إحسانه وجوده وكمال اقتداره وعنايته بعباده، ولكن ليس كل أحد يعتبر ويتفكر، وليس كل من تفكر؛ أدرك المعنى المقصود، ولهذا قيد تعالى الانتفاع بالآيات بالمؤمنين، فقال: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكُمْ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾؛ فإن المؤمنين يحملهم ما معهم

نجوم لا تزال ترى ولا تسير عن محلها، ومنها ما هو مستمر السير يعرف سيره أهل المعرفة بذلك، ويعرفون به الجهات والأوقات. ودلت هذه الآية ونحوها على مشروعية تعلم سير الكواكب ومحالها الذي يسمى علم التسيير؛ فإنه لا تتم الهداية ولا تمكن إلا بذلك.

﴿قَدْ فَصَّلْنَا آيَاتٍ﴾؛ أي: بينها ووضحناها وميزنا كل جنس ونوع منها عن الآخر بحيث صارت آيات الله بادية ظاهرة، ﴿لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾؛ أي: لأهل العلم والمعرفة؛ فإنهم الذين يوجه إليهم الخطاب، ويطلب منهم الجواب؛ بخلاف أهل الجهل والجفاء المعرضين عن آيات الله وعن العلم الذي جاءت به الرسل؛ فإن البيان لا يفيدهم شيئاً، والتفصيل لا يزيل عنهم ملتبساً، والإيضاح لا يكشف لهم مشكلاً.

﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾؛ وهو آدم عليه السلام، أنشأ الله منه هذا العنصر الآدمي الذي قد ملأ الأرض، ولم يزل في زيادة ونمو، الذي قد تفاوت في أخلاقه وخلقه وأوصافه تفاوتاً لا يمكن ضبطه، ولا يدرك وصفه، وجعل الله لهم مستقراً؛ أي: متتهى يتتهون إليه وغاية يساقون إليها، وهي دار القرار التي لا مستقر وراءها ولا نهاية فوقها؛ فهذه الدار هي التي خلق الخلق لسكنائها، وأوجدوا في الدنيا ليسعوا في أسبابها التي تنشأ عليها وتعمر بها، وأودعهم الله في أصلاب آبائهم وأرحام أمهاتهم، ثم في دار الدنيا، ثم في البرزخ؛ كل ذلك على وجه الودعة التي لا تستقر ولا تثبت، بل ينتقل منها، حتى يوصل إلى الدار التي هي المستقر، وأما هذه الدار؛ فإنها مستودع وممر. ﴿قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ﴾؛ عن الله آياته، ويفهمون عنه حججه وبياناته.

﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قَتَوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَعَلْنَا مِّنْ أَغْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَعَيْرَ مُشْتَبِهٍ انظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكُمْ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

﴿٩٩﴾ وهذا من أعظم منته العظيمة التي يضطر إليها الخلق من الآدميين، وغيرهم، وهو أنه أنزل من السماء ماءً متتابعاً وقت حاجة الناس إليه، فأثبت الله به كل شيء مما يأكل

من الإيمان على العمل بمقتضياته ولوازمه التي منها التفكير في آيات الله والاستنتاج منها ما يراد منها وما تدل عليه عقلاً وفطرةً وشرعاً.

﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُصِفُونَ ﴿١٣٠﴾ بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَيْ يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَنِجَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٣١﴾ ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٣٢﴾ لَا تَذَرِكُهُ الْآبَصُرُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْآبَصَرَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿١٣٣﴾ قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ ﴿١٣٤﴾﴾.

﴿١٣٠﴾ يخبر تعالى أنه مع إحسانه لعباده وتعرفه إليهم بآياته البينات وحججه الواضحات؛ أن المشركين به من قريش وغيرهم جعلوا له شركاء يدعونهم ويعبدونهم من الجن والملائكة، الذين هم خلق من خلق الله، ليس فيهم من خصائص الربوبية والألوهية شيء، فجعلوها شركاء لمن له الخلق والأمر، وهو المنعم بسائر أصناف النعم، الدافع لجميع النقم، وكذلك خرق المشركون؛ أي: اتفكوا وافتروا من تلقاء

ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٣٠﴾ لَا تَذَرِكُهُ الْآبَصُرُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْآبَصَرَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿١٣١﴾ قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ ﴿١٣٢﴾ وَكَذَلِكَ نَضْرِبُ الْآيَاتِ لِيُقُولُوا أَدْرَسْتَ وَلِيُبَيِّنَ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٣﴾ أَتَبِعَ مَا أَوْحَى إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٤﴾ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ ﴿١٣٥﴾ وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَلِكَ زَيْنًا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلُهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٦﴾ وَأَسْمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَنِهِمْ إِذْ جَاءَهُمْ بَأْيَهُ لِيُؤْمِنُوا بِهَا قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٣٧﴾ وَتَقَلَّبَ أَفْعَادُهُمْ وَأَصْدَرَهُمْ كَمَا لَوْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرَهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٣٨﴾

أنفسهم لله بنين وبنات بغير علم منهم، ومن أظلم ممن قال على الله بلا علم، وافتري عليه أشنع النقص الذي يجب تنزيه الله عنه، ولهذا نزه نفسه عما افتراه عليه المشركون، فقال: ﴿سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُصِفُونَ ﴿١٣٠﴾﴾؛ فإنه تعالى الموصوف بكل كمال، المنزه عن كل نقص وآفة وعيب.

﴿١٣١﴾ ﴿بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾؛ أي: خالقهما ومتقن صنعتهما على غير مثال سبق بأحسن خلق ونظام وبها لا تقتصر عقول أولي الأبواب مثله، وليس له في خلقهما مشاركة. ﴿أَيْ يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَنِجَةٌ﴾؛ أي: كيف يكون لله الولد وهو الإله السيد الصمد الذي لا صاحبة له؛ أي: لا زوجة، وهو الغني عن مخلوقاته، وكلها فقيرة إليه مضطرة في جميع أحوالها إليه، والولد لا بد أن يكون من جنس والده، والله خالق كل شيء، وليس شيء من المخلوقات مشابهاً لله بوجه من الوجوه؟ ولما ذكر عموم خلقه للأشياء؛ ذكر إحاطة علمه بها، فقال: ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٣١﴾﴾، وفي ذكر العلم بعد الخلق إشارة إلى الدليل العقلي إلى ثبوت علمه، وهو هذه المخلوقات وما اشتملت عليه من النظام التام والخلق الباهر؛ فإن في ذلك دلالة على سعة علم الخالق وكمال حكمته؛ كما قال تعالى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿١٣١﴾﴾ [الملك: ١٤]، وكما قال تعالى: ﴿وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ﴿٨١﴾﴾ [يس: ٨١].

﴿١٣٢﴾ ﴿ذَلِكُمْ﴾ الذي خلق ما خلق وقدر ما قدر؛ ﴿اللَّهُ رَبُّكُمْ﴾؛ أي: المألوه المعبود الذي يستحق نهاية الذل ونهاية الحب، الرب الذي ربي جميع الخلق بالنعم، وصرف عنهم صنوف النقم، خالق كل شيء لا إله إلا هو ﴿فَاعْبُدُوهُ﴾؛ أي: إذا استقر وثبت أنه الله الذي لا إله إلا هو؛ فاصرفوا له جميع أنواع العبادة، وأخلصوها لله، واقصدوا بها وجهه؛ فإن هذا هو المقصود من الخلق الذي خلقوا لأجله، ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥١﴾﴾ [الذاريات: ٥٦]. ﴿وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٣٢﴾﴾؛ أي: جميع الأشياء تحت وكالة الله وتديره خلقاً وتديراً وتصريفاً. ومن المعلوم أن الأمر المتصرف فيه

والباطنة، التي من أفضلها وأجلها تبين الآيات وتوضح المشكلات. ﴿فَمَنْ أَبْصَرَ﴾: بتلك الآيات مواقع العبرة وعمل بمقتضاها ﴿فَلِنَفْسِهِ﴾: فإن الله هو الغني الحميد، ومن عمي بأن بَصَرَ فلم يتبصر، وزجر فلم يتزجر، وبين له الحق فما انقاد له ولا تواضع؛ فإنما عماء مضرته عليه. ﴿وَمَا أَنَا﴾: أيها الرسول، ﴿عَلَيْكُمْ بِحَفِيزٍ﴾: أحفظ أعمالكم وأراقبها على الدوام، إنما علي البلاغ المبين، وقد أدبته وبلغت ما أنزل الله إلي؛ فهذه وظيفتي، وما عدا ذلك فلست موظفًا فيه.

﴿وَلَا تَسْبُوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسْبُوا اللَّهَ عَدُوًّا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَلِكَ زِينًا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلُهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

ينهى الله المؤمنين عن أمر كان جائزًا بل مشروعًا في الأصل، وهو سب آلهة المشركين التي اتخذت أوثانًا وآلهة مع الله، التي يتقرب إلى الله بإهانتها وسبها، ولكن لما كان هذا السب طريقًا إلى سب المشركين لرب العالمين، الذي يجب تنزيه جنابه العظيم عن كل عيب وآفة وسب وقذح؛ نهى الله عن سب آلهة المشركين؛ لأنهم يحمون لدينهم ويتعصبون له؛ لأن كل أمة زين الله لهم عملهم فأروه حسنًا وذبوا عنه ودافعوا بكل طريق، حتى إنهم يسبون الله رب العالمين الذي رسخت عظمته في قلوب الأبرار والفجار إذا سب المسلمون آلهتهم، ولكن الخلق كلهم مرجعهم ومآلهم إلى الله يوم القيامة، يعرضون عليه وتعرض أعمالهم، فينبئهم بما كانوا يعملون من خير وشر.

وفي هذه الآية الكريمة دليل للقاعدة الشرعية، وهو أن الوسائل تعتبر بالأمور التي توصل إليها، وأن وسائل المحرم - ولو كانت جائزة - تكون محرمة إذا كانت تفضي إلى الشر.

﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَنِهِمْ لَئِنْ جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَّيُؤْمِنَنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا آيَاتُنَا عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾. وَتَقَلَّبَ أَفْنَدَتُهُمْ وَأَبْصَرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرَهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾. وَلَوْ أَنَّا نَزَّلْنَا إِلَهُمُ الْمَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْتَوَقُّ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَا كَانُوا لَيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ يَجْهَلُونَ﴾.

يكون استقامته وتماحه وكمال انتظامه بحسب حال الوكيل عليه، ووكلته تعالى على الأشياء ليست من جنس وكالة الخلق؛ فإن وكالتهم وكالة نباية، والوكيل فيها تابع لموكله، وأما الباري تبارك وتعالى؛ فوكالته من نفسه لنفسه، متضمنة لكمال العلم وحسن التدبير والإحسان فيه والعدل، فلا يمكن أحدًا أن يستدرك على الله، ولا يرى في خلقه خللاً ولا فطوراً، ولا في تدبيره نقصاً وعيباً، ومن وكالته أنه تعالى توكل ببيان دينه وحفظه عن المزيلات والمغيرات، وأنه تولى حفظ المؤمنين وعصمتهم عما يزيل إيمانهم ودينهم.

﴿لَا تُذِرْكُهُ الْبَصَرُ﴾: لعظمته وجلاله وكماله، أي: لا تحيط به الأبصار وإن كانت تراه وتفرح بالنظر إلى وجهه الكريم، ففي الإدراك لا ينفي الرؤية، بل يشبها بالمفهوم؛ فإنه إذا نفى الإدراك الذي هو أخص أوصاف الرؤية؛ دل على أن الرؤية ثابتة؛ فإنه لو أراد نفى الرؤية؛ لقال: لا تراه الأبصار... ونحو ذلك، فعلم أنه ليس في الآية حجة لمذهب المعطلة الذين ينفون رؤية ربهم في الآخرة، بل فيها ما يدل على نفي قولهم. ﴿وَهُوَ يُدْرِكُ الْبَصَرَ﴾: أي: هو الذي أحاط علمه بالظواهر والبواطن، وسمعه بجميع الأصوات الظاهرة والخفية، وبصره بجميع المبصرات صغارها وكبارها، ولهذا قال: ﴿وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾: أي: الذي لطف علمه وخبرته ودق حتى أدرك السرائر والخفايا والخبائا والبواطن، ومن لطفه أنه يسوق عبده إلى مصالح دينه، ويوصلها إليه بالطرق التي لا يشعر بها العبد ولا يسعى فيها، ويوصله إلى السعادة الأبدية والفلاح السرمدي من حيث لا يحتسب، حتى إنه يقدر عليه الأمور التي يكرها العبد ويتألم منها ويدعو الله أن يزيلها؛ لعلمه أن دينه أصلح؛ وأن كماله متوقف عليها؛ فسبحان اللطيف لما يشاء، الرحيم بالمؤمنين.

﴿قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيزٍ﴾: لما بين تعالى من الآيات البينات والأدلة الواضحات الدالة على الحق في جميع المطالب والمقاصد؛ نبه العباد عليها، وأخبر أن هدايتهم وضدها لأنفسهم، فقال: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ﴾؛ أي: آيات تبين الحق وتجعله للقلب بمنزلة الشمس للأبصار؛ لما اشتملت عليه من فصاحة اللفظ وبيانه ووضوحه ومطابقته للمعاني الجليلة والحقائق الجميلة؛ لأنها صادرة من الرب الذي ربي خلقه بصنوف نعمه الظاهرة

سورة الأنعام

سورة الأنعام

﴿١٠٩﴾ أي: وأقسم المشركون المكذبون للرسول محمد ﷺ
 ﴿يَاللَّهِ جَهْدَ آيَمِنِهِمْ﴾؛ أي: قسماً اجتهدوا فيه وأكدوه، ﴿لَئِنْ
 جَاءَتْهُمْ آيَةٌ﴾: تدل على صدق محمد ﷺ، ﴿لَيُؤْمِنَنَّ بِهَا﴾:
 وهذا الكلام الذي صدر منهم لم يكن قصدهم فيه الرشاد، وإنما
 قصدهم دفع الاعتراض عليهم ورد ما جاء به الرسول قطعاً؛
 فإن الله أيد رسوله ﷺ بالآيات البينات والأدلة الواضحات
 التي عند الالتفات لها لا تبقى أدنى شبهة ولا إشكال في
 صحة ما جاء به؛ فطلبهم بعد ذلك للآيات من باب التعنت
 الذي لا يلزم إجابته، بل قد يكون المنع من إجابتهم أصلح
 لهم؛ فإن الله جرت سته في عبادته أن المقترحين للآيات على
 رسلكم إذا جاءتهم فلم يؤمنوا بها أنه يعاجلهم بالعقوبة، ولهذا
 قال: ﴿قُلْ إِنَّمَا آيَاتُ اللَّهِ عِنْدَ اللَّهِ﴾؛ أي: هو الذي يرسلها إذا
 شاء، ويمنعها إذا شاء، ليس لي من الأمر شيء، فطلبكم مني
 الآيات ظلم وطلب لما لا أملك، وإنما توجهون إلى توضيح
 ما جئتكم به وتصديقه، وقد حصل، ومع ذلك؛ فليس معلوماً
 أنهم إذا جاءتهم الآيات يؤمنون ويصدقون، بل الغالب ممن
 هذه حاله أنه لا يؤمن، ولهذا قال: ﴿وَمَا يَشْعُرُكُمْ أَنَّهُمْ إِذَا جَاءَتْ
 لَا يُؤْمِنُونَ﴾ ﴿١١٠﴾.

﴿١١١﴾ ﴿وَنَقَلِبْ أَقْبَسَهُمْ وَأَنْصَرَهُمْ كَمَا لَوْ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ أَوَّلَ مَرَّةٍ
 وَنَذَرَهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٢﴾؛ أي: ونعاقبهم إذا لم
 يؤمنوا أول مرة يأتيهم فيه الداعي وتقوم عليهم الحجة بتقلب القلوب والحيلولة بينهم وبين الإيمان وعدم التوفيق لسلوك
 الصراط المستقيم، وهذا من عدل الله وحكمته بعباده؛ فإنهم الذين جنوا على أنفسهم، وفتح لهم الباب فلم يدخلوا، وبين
 لهم الطريق فلم يسلكوا؛ فبعد ذلك إذا حرموا التوفيق؛ كان مناسباً لأحوالهم.

﴿١١٣﴾ وكذلك تعليقهم الإيمان بإرادتهم ومشيتهم وحدهم وعدم الاعتماد على الله من أكبر الغلط؛ فإنهم لو جاءتهم الآيات
 العظيمة؛ من تنزيل الملائكة إليهم يشهدون للرسول بالرسالة، وتكليم الموتى، وبعثهم بعد موتهم، وحشرنا عليهم كل شيء
 حتى يكلمهم ﴿قُبْلًا﴾ قبلًا ومشاهدة ومباشرة بصدق ما جاء به الرسول؛ ما حصل لهم الإيمان إذا لم يشأ الله إيمانهم، ولكن
 أكثرهم يجهلون؛ فلذلك رتبوا إيمانهم على مجرد إثبات الآيات، وإنما العقل والعلم أن يكون العبد مقصوده اتباع الحق،
 ويطلبه بالطرق التي بينها الله، ويعمل بذلك، ويستعين ربه في اتباعه، ولا يتكل على نفسه وحوله وقوته، ولا يطلب من الآيات
 الاقتراحية ما لا فائدة فيه.

﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيْطَانِ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ
 نَذَرَهُمْ وَمَا يَخْتَرُونَ﴾ ﴿١١٤﴾ وَلِنَصْنَعِ الْإِنْسَ آفِئِدَةً الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُمْ مُقْتَرِفُونَ﴾ ﴿١١٥﴾.

﴿١١٦﴾ يقول تعالى مسلماً لرسوله محمد ﷺ: وكما جعلنا لك أعداء يردون دعوتك ويحاربونك ويحسدونك؛ فهذه سنتنا أن
 نجعل لكل نبي رسوله إلى الخلق أعداء من شياطين الإنس والجن يقومون بضد ما جاءت به الرسل، ﴿يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ
 زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾؛ أي: يزين بعضهم لبعض الأمر الذي يدعون إليه من الباطل ويزخرفون له العبارات حتى يجعلوه في
 أحسن صورة ليغتر به السفهاء وينقاد له الأغبياء الذين لا يفهمون الحقائق ولا يفقهون المعاني، بل تعجبهم الألفاظ المزخرفة
 والعبارات المموهة، فيعتقدون الحق باطلاً والباطل حقاً.

لا بيان فوق بيانه، ولا برهان أجلى من برهانه، ولا أحسن منه حكماً، ولا أقوم قبلاً؛ لأن أحكامه مشتملة على الحكمة والرحمة، وأهل الكتب السابقة من اليهود والنصارى يعترفون بذلك ﴿وَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ﴾: ولهذا تواطأت الإخبارات، ﴿فَلَا تَشْكَنَ فِي ذَلِكَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ ﴿١١٤﴾.

﴿١١٥﴾ ثم وصف تفصيلها فقال: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾؛ أي: صدقاً في الإخبار وعدلاً في الأمر والنهي؛ فلا أصدق من أخبار الله التي أودعها هذا الكتاب العزيز، ولا أعدل من أوامره ونواهيه، ﴿لَا مُبْدِلَ لِكَلِمَتِهِ﴾؛ حيث حفظها وأحكمها بأعلى أنواع الصدق وبغاية الحق؛ فلا يمكن تغييرها ولا اقتراح أحسن منها. ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ﴾: لسائر الأصوات، باختلاف اللغات، على تفنن الحاجات، ﴿الْعَلِيمُ﴾ ﴿١١٦﴾: الذي أحاط علمه بالظواهر والبواطن والماضي والمستقبل.

﴿وَلَن تَطْعَ أَكْثَرُ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ ﴿١١٧﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿١١٨﴾.

﴿١١٧﴾ يقول تعالى لنبية محمد ﷺ محذراً عن طاعة أكثر الناس: ﴿وَلَن تَطْعَ أَكْثَرُ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾: فإن أكثرهم قد انصرفوا في أديانهم وأعمالهم وعلومهم؛ فأديانهم فاسدة، وأعمالهم تبع لأهوائهم، وعلومهم ليس فيها تحقيق ولا إيصال لسواء الطريق، بل غايتهم أنهم يتبعون الظن الذي لا يغني من الحق شيئاً، ويتخرصون في القول على الله ما لا يعلمون.

﴿١١٨﴾ ومن كان بهذه المثابة؛ فحري أن يحذر الله منه عبادة ويصف لهم أحواله؛ لأن هذا وإن كان خطاباً للنبى ﷺ، فإن أمته أسوة له في سائر الأحكام التي ليست من خصائصه، والله تعالى أصدق قبلاً وأصدق حديثاً، ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَنْ سَبِيلِهِ﴾، وأعلم بمن يهتدي ويهدي، فيجب عليكم أيها المؤمنون أن تتبعوا نصائحه وأوامره ونواهيه؛ لأنه أعلم بمصالحكم، وأرحم بكم من أنفسكم.

ودلت هذه الآية على أنه لا يستدل على الحق بكثرة أهله، ولا يدل قلة السالكين لأمر من الأمور أن يكون غير حق، بل الواقع بخلاف ذلك؛ فإن أهل الحق هم الأقلون عدداً

﴿١١٣﴾ ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَنَصَبَّحَ إِلَيْهِ﴾؛ أي: ولتميل إلى ذلك الكلام المزخرف ﴿أَفَعِدَّةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾: لأن عدم إيمانهم باليوم الآخر وعدم عقولهم النافعة يحملهم على ذلك، ﴿وَلَيَرْضَوْنَهُ﴾: بعد أن يصغوا إليه، فيصغون إليه أولاً، فإذا مالوا إليه ورأوا تلك العبارات المستحسنة؛ رضوه وزين في قلوبهم وصار عقيدة راسخة وصفة لازمة، ثم ينتج من ذلك أن يقتربوا من الأعمال والأقوال ما هم مقتربون؛ أي: يأتون من الكذب بالقول والفعل ما هو من لوازم تلك العقائد القبيحة؛ فهذه حال المفترين شياطين الإنس والجن المستجيبين لدعوتهم، وأما أهل الإيمان بالآخرة وأولو العقول الوافية والألباب الرزينة؛ فإنهم لا يغترون بتلك العبارات، ولا تخلبهم تلك التمويهات، بل همته مصروفة إلى معرفة الحقائق، فينظرون إلى المعاني التي يدعو إليها الدعاة؛ فإن كانت حقاً؛ قبلوها وانقادوا لها، ولو كسيت عبارات رديئة وألفاظاً غير وافية، وإن كانت باطلاً؛ ردوها على من قالها، كائنًا من كان، ولو ألبست من العبارات المستحسنة ما هو أرق من الحرير.

ومن حكمة الله تعالى في جعله للأنبياء أعداء وللباطل أنصاراً قائمين بالدعوة إليه: أن يحصل لعباده الابتلاء والامتحان؛ ليميز الصادق من الكاذب، والعاقل من الجاهل، والبصير من الأعمى. ومن حكمته: أن في ذلك بياناً للحق وتوضيحاً له؛ فإن الحق يستتير ويتضح إذا قام الباطل يصارعه ويقاومه؛ فإنه حيثئذ يتبين من أدلة الحق وشواهد الدالة على صدقه وحقيقته ومن فساد الباطل وبطلانه ما هو من أكبر المطالب التي يتنافس فيها المتنافسون.

﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ ابْتِغَىٰ حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ ﴿١١٩﴾ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبْدِلَ لِكَلِمَتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٢٠﴾.

﴿١١٩﴾ أي: قل يا أيها الرسول: ﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ ابْتِغَىٰ حَكَمًا﴾: أحاكم إليه وأتقيد بأوامره ونواهيه؟ فإن غير الله محكوم عليه لا حاكم، وكل تدبير وحكم للمخلوق؛ فإنه مشتمل على النقص والعيب والجور، وإنما الذي يجب أن يتخذ حاكماً؛ فهو الله وحده لا شريك له، الذي له الخلق والأمر ﴿الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا﴾؛ أي: موضحاً فيه الحلال والحرام والأحكام الشرعية وأصول الدين وفروعه، الذي

الأعظمون عند الله قدرًا وأجرًا، بل الواجب أن يستدل على الحق والباطل بالطرق الموصلة إليه.

﴿فَكُلُوا وَمِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ بِبَيِّنَاتٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾ وَمِمَّا لَكُمْ أَتَاكُمْ وَمِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَحْرَمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرُّرْتُمْ إِلَيْهِ وَإِنْ كُنْتُمْ لَيَّالُونَ بِأَهْوَايِهِمْ يَغْيِرْ عَلَيْهِمْ إِنْ رَبُّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ ﴿١١٩﴾﴾.

﴿١١٨﴾، ﴿١١٩﴾ يأمر تعالى عباده المؤمنين بمقتضى الإيمان، وأنهم إن كانوا مؤمنين؛ فليأكلوا مما ذكر اسم الله عليه من بهيمة الأنعام وغيرها من الحيوانات المحللة، ويعتقدوا حلها، ولا يفعلوا كما يفعله أهل الجاهلية من تحريم كثير من الحلال ابتداءً من عند أنفسهم وإضلالاً من شياطينهم؛ فذكر الله أن علامة المؤمن مخالفة أهل الجاهلية في هذه العادة الذميمة المتضمنة لتغيير شرع الله، وأنه أي شيء يمنعهم من أكل ما ذكر اسم الله عليه؛ وقد فصل الله لعباده ما حرم عليهم وبينه ووضحه، فلم يبق فيه إشكال ولا شبهة توجب أن يمتنع من أكل بعض الحلال خوفاً من الوقوع في الحرام.

ودلت الآية الكريمة على أن الأصل في الأشياء والأطعمة الإباحة، وأنه إذا لم يرد الشرع بتحريم شيء منها؛ فإنه باق على الإباحة؛ فما سكنت الله عنه؛ فهو حلال؛ لأن الحرام قد فصله الله؛ فما لم يفصله الله؛ فليس بحرام. ومع ذلك؛ فالحرام الذي قد فصله الله وأوضحه قد أباحه عند الضرورة والمخخصة؛ كما قال تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أَمْيَةُ الدَّمِّ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ﴾ إلى أن قال: ﴿فَمَنْ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرِ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمِهِ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٣﴾﴾ [المائدة: ٣].

ثم حذر عن كثير من الناس، فقال: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ لَيَّالُونَ بِأَهْوَايِهِمْ﴾؛ أي: بمجرد ما تهوى أنفسهم ﴿يَغْيِرْ عَلَيْهِمْ﴾؛ ولا حجة؛ فليحذر العبد من أمثال هؤلاء، وعلامتهم كما وصفهم الله لعباده أن دعوتهم غير مبنية على برهان ولا لهم حجة شرعية، وإنما يوجد لهم شبه بحسب أهوائهم الفاسدة، وآرائهم القاصرة؛ فهؤلاء معتدون على شرع الله وعلى عباد الله، والله لا يحب المعتدين؛ بخلاف الهادين المهتدين؛ فإنهم يدعون إلى الحق والهدى، ويؤيدون دعوتهم بالحجج العقلية والنقلية، ولا يتبعون في دعوتهم إلا رضا ربهم والقرب منه.

﴿وَدَرُّوا ظِلْهَ الْإِثْمِ وَبَاطِنُهُ إِنْ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ ﴿١٢٠﴾﴾.

﴿١٢٠﴾ المراد بالإثم: جميع المعاصي التي تؤثم العبد؛ أي: توقعه في الإثم والحرَج من الأشياء المتعلقة بحقوق الله وحقوق عباده، فنهى الله عباده عن اقتراف الإثم الظاهر والباطن؛ أي: السر والعلانية المتعلقة بالبدن والجوارح والمتعلقة بالقلب، ولا يتم للعبد ترك المعاصي الظاهرة والباطنة إلا بعد معرفتها والبحث عنها، فيكون البحث عنها ومعرفة معاصي القلب والبدن والعلم بذلك واجباً متعيناً على المكلف، وكثير من الناس تخفى عليه كثير من المعاصي، خصوصاً معاصي القلب؛ كالكبر والعجب والرياء... ونحو ذلك حتى إنه يكون به كثير منها وهو لا يحس به ولا يشعر، وهذا من الإعراض عن العلم وعدم البصيرة.

ثم أخبر تعالى أن الذين يكسبون الإثم الظاهر والباطن سيجزون على حسب كسبهم وعلى قدر ذنوبهم قلت أو كثرت، وهذا الجزاء يكون في الآخرة، وقد يكون في الدنيا؛ يعاقب العبد فيخفف عنه بذلك من سيئاته.

﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَحْرَمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرُّرْتُمْ إِلَيْهِ وَإِنْ كُنْتُمْ لَيَّالُونَ بِأَهْوَايِهِمْ يَغْيِرْ عَلَيْهِمْ إِنْ رَبُّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ ﴿١١٨﴾ وَدَرُّوا ظِلْهَ الْإِثْمِ وَبَاطِنُهُ إِنْ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ ﴿١٢٠﴾ وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يَذْكُرْ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيْطَانَ لِيَوْحُونَ إِلَيْكُمْ أَوَّلِيَّائِهِمْ لِيُجِدَ لَكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ لَكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴿١١٩﴾ أَوْ مَن كَانَ مِيتًا فَحَيَّيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢٠﴾ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكْثَرَ مُّجْرِمِينَ لِيَمْلِكُوا فِيهَا وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿١٢١﴾ وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ أَشِدَّاءُ شَدِيدٌ مِّثْلَ مَا أَوتَى رَسُولُ اللَّهِ أَتَعْلَمُ حَيْثُ يَحْمِلُ رِسَالَتَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٢﴾﴾

يكون من الرحمن ويكون من الشيطان؛ فلا بد من التمييز بينهما والفرقان، وبعدم التفريق بين الأمرين حصل من الغلط والضلال ما لا يحصيه إلا الله.

﴿أَوْمَنَ كَانَ مِثْلًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مِثْلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (١٢٢) وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكْثَرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنْفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿١٢٣﴾ وَإِذَا جَاءَهُمْ ءَايَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٤﴾.

﴿١٢٢﴾ يقول تعالى: ﴿أَوْمَنَ كَانَ:﴾ من قبل هداية الله له ﴿مِثْلًا:﴾ في ظلمات الكفر والجهل والمعاصي، ﴿فَأَحْيَيْنَاهُ:﴾ بنور العلم والإيمان والطاعة، فصار يمشي بين الناس في النور، متبصرًا في أموره، مهتديًا لسيبله، عارفًا للخير، مؤثرًا له، مجتهدًا في تنفيذه في نفسه وغيره، عارفًا بالشر، مبغضًا له، مجتهدًا في تركه وإزالته عن نفسه وعن غيره، أفيستوي هذا بمن هو في الظلمات؟ ظلمات الجهل والغي والكفر والمعاصي، ﴿لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا:﴾ قد التبست عليه الطرق، وأظلمت عليه المسالك، فحضره الهم والغم والحزن والشقاء، فبني تعالى العقول بما تدركه وتعرفه أنه لا يستوي هذا ولا هذا كما لا يستوي الليل والنهار والضيء والظلمة والأحياء والأموات، فكأنه قيل: كيف يؤثر من له أدنى مُسْكَةٍ من عقل أن يكون بهذه الحالة وأن يبقى في الظلمات متحيرًا؟! فأجاب بأنه ﴿زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (١٢٢)، فلم يزل الشيطان يحسن لهم أعمالهم ويزينها في قلوبهم حتى استحسوها ورأوها حقًا وصار ذلك عقيدة في قلوبهم وصفة راسخة ملازمة لهم؛ فلذلك رضوا بما هم عليه من الشر والقبايح.

﴿١٢٣﴾ وهؤلاء الذين في الظلمات يعمهون وفي باطلهم يترددون غير متساوين؛ فمنهم القادة والرؤساء والمتبعون، ومنهم التابعون المرءوسون، والأولون منهم الذين فازوا بأشقى الأحوال، ولهذا قال: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكْثَرَ مُجْرِمِيهَا:﴾ أي: الرؤساء الذين قد كبر جرمهم واشتد طغيانهم؛ ﴿لِيَمْكُرُوا فِيهَا:﴾ بالخديعة والدعوة

﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يَذْكُرْ أَسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيْطَانَ لِيُؤْخَذَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجْنِدَ لَكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ (١٢١).

﴿١٢١﴾ ويدخل تحت هذا المنهي عنه ما ذكر عليه اسم غير الله؛ كالذي يذبح للأصنام وآلهة المشركين؛ فإن هذا مما أهل لغير الله به المحرم بالنص عليه خصوصًا.

ويدخل في ذلك متروك التسمية مما ذبح لله كالضحايا والهدايا، أو للحم والأكل، إذا كان الذابح متعمدًا ترك التسمية عند كثير من العلماء، ويخرج من هذا العموم الناسي بالنصوص الآخر الدالة على رفع الحرج عنه.

ويدخل في هذه الآية ما مات بغير ذكاة من الميتات؛ فإنها مما لم يذكر اسم الله عليه، ونص الله عليها بخصوصها في قوله: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أَلْمِيتَةُ﴾ [المائدة: ٣]، ولعلها سبب نزول الآية؛ لقوله: ﴿وَإِنَّ الشَّيْطَانَ لِيُؤْخَذَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجْنِدَ لَكُمْ﴾ بغير علم؛ فإن المشركين حين سمعوا تحريم الله ورسوله للميتة وتحليله للمذكاة، وكانوا يستحلون أكل الميتة قالوا معاندة لله ورسوله ومجادلة بغير حجة ولا برهان: أتأكلون ما قتلتم ولا تأكلون ما قتل الله يعنون بذلك الميتة؟! وهذا رأي فاسد لا يستند على حجة ولا دليل، بل يستند إلى آرائهم الفاسدة التي لو كان الحق تبعًا لها لفسدت السماوات والأرض ومن فيهن؛ فتبا لمن قدم هذه العقول على شرع الله وأحكامه الموافقة للمصالح العامة والمنافع الخاصة. ولا يستغرب هذا منهم؛ فإن هذه الآراء وأشباهها صادرة عن وحي أوليائهم من الشياطين الذين يريدون أن يضلوا الخلق عن دينهم ويدعوهم ليكونوا من أصحاب السعير. ﴿وَإِنَّ أَطَعْتُمُوهُمْ:﴾ في شركهم وتحليلهم الحرام وتحريمهم الحلال، ﴿إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ (١٢١)؛ لأنكم اتخذتموهم أولياء من دون الله، ووافقتموهم على ما به فارقوا المسلمين؛ فلذلك كان طريقكم طريقهم.

ودلت هذه الآية الكريمة على أن ما يقع في القلوب من الإلهامات والكشوف التي يكثر وقوعها عند الصوفية ونحوهم لا تدل بمجردها على أنها حق ولا تصدق حتى تعرض على كتاب الله وسنة رسوله؛ فإن شهدا لها بالقبول؛ قبلت، وإن ناقضتهما؛ ردت، وإن لم يعلم شيء من ذلك؛ توقف فيها ولم تصدق ولم تكذب؛ لأن الوحي والإلهام

إلى سبيل الشيطان ومحاربة الرسل وأتباعهم بالقول والفعل، وإنما مكرهم وكيدهم يعود على أنفسهم؛ لأنهم يمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين.

وكذلك يجعل الله كبار أئمة الهدى وأفاضلهم يناضلون هؤلاء المجرمين ويردون عليهم أقوالهم، ويجاهدونهم في سبيل الله، ويسلكون بذلك السبل الموصلة إلى ذلك، ويعينهم الله، ويسدد رأيهم، ويثبت أقدامهم، ويداول الأيام بينهم وبين أعدائهم حتى يدول الأمر في عاقبته بنصرهم وظهورهم. والعاقبة للمتقين.

﴿١٢٤﴾ وإنما ثبت أكابر المجرمين على باطلهم، وقاموا برد الحق الذي جاءت به الرسل؛ حسداً منهم وبغياً، فقالوا: ﴿لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ﴾. من النبوة والرسالة، وفي هذا اعتراض منهم على الله، وعجب بأنفسهم، وتكبر على الحق الذي أنزله على أيدي رسله، وتحجر على فضل الله وإحسانه، فرد الله عليهم اعتراضهم الفاسد، وأخبر أنهم لا يصلحون للخير، ولا فيهم ما يوجب أن يكونوا من عباد الله الصالحين، فضلاً أن يكونوا من النبيين والمرسلين، فقال: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾؛ فمن علمه يصلح لها ويقوم بأعبائها وهو متصف بكل خلق جميل ومتبرئ من كل خلق دنيء، أعطاه الله ما تقتضيه حكمته أصلاً وتبعاً، ومن لم يكن كذلك؛ لم يضع أفضل مواهبه عند من لا يستأهله ولا يزكو عنده.

وفي هذه الآية دليل على كمال حكمة الله تعالى؛ لأنه وإن كان تعالى رحيمًا واسع الجود كثير الإحسان؛ فإنه حكيم لا يضع جوده إلا عند أهله. ثم توعد المجرمين، فقال: ﴿سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِنْدَ اللَّهِ﴾؛ أي: إهانة وذل؛ كما تكبروا على الحق؛ أذلهم الله، ﴿وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ﴾. أي: بسبب مكرهم لا ظلماً منه تعالى.

﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصْعَقُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾. ﴿١٢٥﴾

﴿١٢٥﴾ يقول تعالى مبيناً لعباده علامة سعادة العبد وهدايته وعلامة شقاوته وضلاله: إن من انشرح صدره للإسلام؛ أي: اتسع وانفسح فاستنار بنور الإيمان وحيي بضوء اليقين فاطمأنت بذلك نفسه وأحب الخير وطوعت له نفسه فعله متلذذاً به غير مستثقل؛ فإن هذا علامة على أن الله قد هداه ومن عليه بالتوفيق وسلوك أقوم الطرق، وأن علامة من يرد الله ﴿أَنْ يُضِلَّهُ﴾؛ أنه ﴿يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا﴾؛ أي: في غاية الضيق عن الإيمان والعلم واليقين، قد انغمس قلبه في الشهوات والشهوات، فلا يصل إليه خير، ولا ينشرح قلبه لفعل الخير. كأنه من ضيقه وشدة يكاد ﴿يَصْعَقُ فِي السَّمَاءِ﴾؛ أي: كأنه يكلف الصعود إلى السماء الذي لا حيلة له فيه، وهذا سببه عدم إيمانهم؛ هو الذي أوجب أن يجعل الله الرجز عليهم؛ لأنهم سدوا على أنفسهم باب الرحمة والإحسان، وهذا ميزان لا يعول وطريق لا يتغير؛ فإن من أعطى واتقى وصدق بالحسنى؛ ييسره الله لليسرى، ومن بخل واستغنى وكذب بالحسنى؛ فسييسره لليسرى.

﴿وَهَذَا صِرَاطٌ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا قَدْ فَضَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾ ﴿١٢٦﴾ ﴿لَهُمْ دَارُ السَّلَاطَةِ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَهُوَ وَلِيُّهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ﴿١٢٧﴾

﴿١٢٦﴾ ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصْعَقُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ ﴿١٢٥﴾ ﴿وَهَذَا صِرَاطٌ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا قَدْ فَضَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾ ﴿١٢٦﴾ ﴿لَهُمْ دَارُ السَّلَاطَةِ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَهُوَ وَلِيُّهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ﴿١٢٧﴾ ﴿يَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَمْعَشَرُ لِحْنٍ قَدْ اسْتَكْبَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُمْ مِنَ الْإِنْسِ رَبَّنَا اسْتَمْنَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَّغْنَا أَمْرًا الَّذِي أَجَلْتُمْ لَنَا قَالُوا نَارُ مَثُوبَكُمْ خَلِيلِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّنَا حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ ﴿١٢٨﴾ ﴿وَكَذَلِكَ لَوْ بَعَضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ ﴿١٢٩﴾ ﴿يَمْعَشَرُ لِحْنٍ وَالْإِنْسِ أَلْفَايَاتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَشِذْرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا شَهِدْنَا عَلَىٰ أَنْفُسِنَا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَوةُ الدُّنْيَا وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ﴾ ﴿١٣٠﴾ ﴿أَنْ لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ﴾ ﴿١٣١﴾

فيقول موبخاً للجن الذين أضلوا الإنس وزينوا لهم الشر وأزوهم إلى المعاصي: ﴿يَمَعُشَرُ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْرَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ﴾؛ أي: من إضلالهم وصددهم عن سبيل الله؛ فكيف أقدمتم على محارمي، وتجرأتم على معاندة رسلي، وقمتم محاربين لله، ساعين في صد عباد الله عن سبيله إلى سبيل الجحيم؟! فالיום حقت عليكم لعنتي، ووجبت لكم نقمتي، وسيزيدكم من العذاب بحسب كفركم وإضلالكم لغيركم، وليس لكم عذر به تعتذرون، ولا ملجأ إليه تلجئون، ولا شافع يشفع، ولا دعاء يسمع! فلا تسأل حينئذ عما يحل بهم من النكال والخزي والوبال، ولهذا لم يذكر الله لهم اعتذاراً، وأما أولياؤهم من الإنس؛ فأبدوا عذراً غير مقبول، فقالوا: ﴿رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ﴾؛ أي: تمتع كل من الجني والإنسي بصاحبه وانتفع به؛ فالجني يستمتع بطاعة الإنسي له وعبادته وتعظيمه واستعاذته به، والإنسي يستمتع بنيل أغراضه وبلوغه بحسب خدمة الجني له بعض شهوراته؛ فإن الإنسي يعبد الجني فيخدمه الجني ويحصل له بعض الحوائج الدنيوية؛ أي: حصل منا من الذنوب ما حصل، ولا يمكن رد ذلك. ﴿وَبَلَّغْنَا آجَلَنَا الَّذِي أَجَّلْتَ لَنَا﴾؛ أي: وقد وصلنا المحل الذي تجازي فيه بالأعمال؛ فافعل بنا الآن ما تشاء، واحكم فينا بما تريد، قد انقطعت حجتنا، ولم يبق لنا عذر، والأمر أمرك والحكم حكمك، وكان في هذا الكلام منهم نوع تضرع وترقق، ولكن في غير أوانه، ولهذا حكم فيهم بحكمه العادل، الذي لا جور فيه، فقال: ﴿النَّارُ مَثْوٍ لَكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا﴾، ولما كان هذا الحكم من مقتضى حكمته وعلمه؛ ختم الآية بقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾؛ فكما أن علمه وسع الأشياء كلها وعمها؛ فحكمته الغائية شملت الأشياء، وعمتها، ووسعتها.

﴿وَكَذَلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾؛ أي: وكما ولينا الجن المردة وسلطانهم على إضلال أوليائهم من الإنس وعقدنا بينهم عقد الموالاة والموافقة بسبب كسبهم وسعيهم بذلك؛ كذلك من سنتنا أن نولي كل ظالم ظالماً مثله يؤزره إلى الشر ويحثه عليه ويزهده في الخير وينفره عنه، وذلك من عقوبات الله العظيمة الشنيع أثرها البليغ خطرهما، والذنب ذنب الظالم؛ فهو الذي أدخل الضرر على نفسه وعلى نفسه جنى، وما ربك بظلام للعبيد.

ومن ذلك أن العباد إذا كثر ظلمهم وفسادهم ومنعهم الحقوق الواجبة؛ وُلِّي عليهم ظلمة يسومونهم سوء العذاب،

﴿أَي: معتدلاً موصلاً إلى الله وإلى دار كرامته، قد بينت أحكامه، وفصلت شرائعه، وميز الخير من الشر. ولكن هذا التفصيل والبيان ليس لكل أحد، إنما هو ﴿لِقَوْمٍ يَذْكُرُونَ﴾؛ فإنهم الذين علموا فانتفعوا بعلمهم، وأعد الله لهم الجزاء الجزيل والأجر الجميل.

﴿فلهذا قال: ﴿لَهُمْ دَارُ الْآلِكَرِ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾، وسميت الجنة دار السلام لسلامتها من كل عيب وآفة وكدر وهم وغم وغير ذلك من المنقصات، ويلزم من ذلك أن يكون نعيمها في غاية الكمال ونهاية التمام؛ بحيث لا يقدر على وصفه الواصفون، ولا يتمنى فوقه المتمنون؛ من نعيم الروح والقلب والبدن، ولهم فيها ما تشتهيهِ الأنفس وتلذ الأعين وهم فيها خالدون. ﴿وَهُوَ وَلِيُّهُمْ﴾: الذي تولى تدبيرهم وتربيتهم، ولطف بهم في جميع أمورهم، وأعانهم على طاعته، ويسر لهم كل سبب موصل إلى محبته، وإنما تولاهاهم بسبب أعمالهم الصالحة ومقدماتهم التي قصدوا بها رضا مولاهم؛ بخلاف من أعرض عن مولاه، واتبع هواه؛ فإنه سلط عليه الشيطان، فتولاها، فافسد عليه دينه ودنياه.

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَمَعُشَرُ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْرَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُمْ مِنَ الْإِنْسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَّغْنَا آجَلَنَا الَّذِي أَجَّلْتَ لَنَا قَالَ النَّارُ مَثْوٍ لَكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ (١٢٦) ﴿وَكَذَلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (١٢٧) ﴿يَمَعُشَرُ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ مَا يَنبَغِي وَيُذَرِّعُوكُم لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا شَهِدْنَا عَلَى أَنْفُسِنَا وَغَرَّبْنَاهُمْ لِقَاءَ الدُّنْيَا وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ﴾ (١٢٨) ﴿ذَلِكَ أَن لَّمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ﴾ (١٢٩) ﴿وَلِكُلِّ دَرَجَةٍ مِّنْكُمْ عَمَلٌ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ (١٣٠) ﴿وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ مَا يَشَأْ كَمَا أَنشَأَكُم مِّنْ ذُرِّيَّةٍ قَوْمٍ ءَاخِرِينَ﴾ (١٣١) ﴿إِنَّ مَا تَوْعَدُونَ لَأَن يَأْتِيَنَّكُمْ وَمَا أَنتُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ (١٣٢) ﴿قُلْ يَتَّقُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَكَاتِبِكُمْ إِنِّي عَايِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُ عَقِيبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ (١٣٣).

﴿يقول تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا﴾؛ أي: جميع الثقلين من الإنس والجن، من ضل منهم ومن أضل غيره،

ويأخذون منهم بالظلم والجور أضعاف ما منعوا من حقوق الله وحقوق عباده على وجه غير مأجورين فيه ولا محتسبين؛ كما أن العباد إذا صلحوا واستقاموا؛ أصلح الله رعاتهم، وجعلهم أئمة عدل وإنصاف، لا ولاة ظلم واعتساف.

﴿١٢٠﴾ ثم وبخ الله جميع من أعرض عن الحق ورده من الجن والإنس، وبين خطأهم، فاعترفوا بذلك، فقال: ﴿يَمَعُشَرِ الْجَنِّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي﴾: الواضحات البينات التي فيها تفاصيل الأمر والنهي والخير والشر والوعد والوعيد، ﴿وَيَذَرُونَكُمْ إِفَاءً يَوْمَكُمْ هَذَا﴾: ويعلمونكم أن النجاة فيه الفوز إنما هو بامثال أوامر الله واجتناب نواهيه، وأن الشقاء والخسران في تضييع ذلك، فأقروا بذلك واعترفوا، فقالوا: بلى، ﴿شَهِدْنَا عَلَى أَنْفُسِنَا وَغَرَّكُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾: بزيتها وزخرفها ونعيمها، فاطمانوا بها ورضوا وألهتهم عن الآخرة، ﴿وَتَشْهَدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ﴾ ﴿١٢١﴾: فقامت عليهم حجة الله، وعلم حينئذ كل أحد حتى هم بأنفسهم عدل الله فيهم، فقال لهم حاكماً عليهم بالعذاب الأليم: ﴿ادْعُوا فِيَّ﴾ جملة ﴿أُسِرْ قَدْ خَلَّتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجَنِّ وَالْإِنْسِ﴾ [الأعراف: ٣٨]؛ صنعوا كصنيعكم، واستمتعوا بخلقهم كما استمتعتم، وخاضوا بالباطل كما خضتم؛ إنهم كانوا خاسرين؛ أي: الأولون من هؤلاء والآخرين، وأي خسران أعظم من خسران جنات النعيم وحرمان جوار أكرم الأكرمين؟!

﴿١٢٢﴾ وَلِكُلِّ دَرَجَةٍ مِمَّا عَمِلُوا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٢٣﴾ وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ إِنْ يَشَاءُ يُدْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ مَا يَشَاءُ كَمَا أَنْشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَةِ قَوْمٍ آخَرِينَ ﴿١٢٤﴾ إِنْ مَا تُوَعَّدُونَ لَا تَلْتُمُوا مَا أَنْشَأَ بِمُعْجِزِينَ ﴿١٢٥﴾ قُلْ يَقَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنْ عَادِلْتُمْ فَسَوْفَ تَعْمَلُونَ مِنْ تَكْوُنٍ لَكُمْ عَذَابُ الدَّارِ الْآخِرَةِ لَا يَفْلَحُ الظَّالِمُونَ ﴿١٢٦﴾ وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِرَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَمَا كَانَ لِلَّهِ يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَهِيَ تَكْوُنُ لَكُمْ مَا يَحْكُمُونَ ﴿١٢٧﴾ وَكَذَلِكَ زُيِّنَ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَائِهِمْ يُرِيدُوهُمْ وَلَيْسُوا عَلَيْهِمْ دِيهَةً وَلَوِ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوا فَذَرَهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١٢٨﴾

١٤٥

﴿١٢٢﴾ ولكنهم وإن اشتركوا في الخسران؛ فإنهم يتفاوتون في مقداره تفاوتاً عظيماً، ﴿وَلِكُلِّ﴾: منهم ﴿دَرَجَةٌ مِمَّا عَمِلُوا﴾: بحسب أعمالهم، لا يجعل قليل الشر منهم كثيره، ولا التابع كالمتبوع، ولا المرءوس كالرئيس؛ كما أن أهل الثواب والجنة وإن اشتركوا في الربح والفلاح ودخول الجنة؛ فإن بينهم من الفرق ما لا يعلمه إلا الله، مع أنهم كلهم قد رضوا بما آتاهم مولاهم وبقنوعوا بما حباهم، فنسأله تعالى أن يجعلنا من أهل الفردوس الأعلى التي أعدها الله للمقربين من عباده والمصطفين من خلقه وأهل الصفوة من أهل وادده. ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ ﴿١٢٣﴾: فيجازي كلا بحسب عمله، وبما يعلمه من مقصده.

﴿١٢٤﴾ وإنما أمر الله العباد بالأعمال الصالحة ونهاهم عن الأعمال السيئة رحمة بهم وقصدًا لمصالحهم، وإلا؛ فهو الغني بذاته عن جميع مخلوقاته؛ فلا تنفعه طاعة الطائعين؛ كما لا تضره معصية العاصين. ﴿إِنْ يَشَاءُ يُدْهِبْكُمْ﴾: بالإهلاك، ﴿وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ مَا يَشَاءُ كَمَا أَنْشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَةِ قَوْمٍ آخَرِينَ﴾ ﴿١٢٥﴾: فإذا عرفتم بأنكم لا بد أن تنتقلوا من هذه الدار كما انتقل غيركم، وترحلوا منها وتخلوها لمن بعدكم كما رحل عنها من قبلكم وخلوها لكم؛ فلم تأخذتموها قراراً، وتوطئتم بها، ونسيتم أنها دار ممر، لا دار مقر وأن أمامكم داراً هي الدار التي جمعت كل نعيم وسلمت من كل آفة ونقص؟ وهي الدار التي يسعى إليها الأولون والآخرين، ويرتحل نحوها السابقون واللاحقون، التي إذا وصلوها؛ فثم الخلود الدائم والإقامة اللازمة والغاية التي لا غاية وراءها والمطلوب الذي ينتهي إليه كل مطلوب والمرغوب الذي يضمحل دونه كل مرغوب، هنالك والله ما تشتهي الأنفس وتلذ الأعين ويتنافس فيه المتنافسون من لذة الأرواح وكثرة الأفراح ونعيم الأبدان والقلوب والقرب من علام الغيوب؛ فله همة تعلقت بتلك الكرامات، وإرادة سمت إلى أعلى الدرجات، وما أبخس حظ من رضي بالدون، وأدنى همة من اختار صفقة المغبون!

﴿١٣٦﴾ ولا يستبعد المعرض الغافل سرعة الوصول إلى هذه الدار؛ فإن ﴿مَاتُوا عَدُونَ لَاتٍ وَمَا أَشَدُّ بِمُعْجِزِينَ﴾ ﴿١٣٦﴾: لله، فارين من عقابه؛ فإن نواصيكم تحت قبضته، وأنتم تحت تدبيره وتصرفه.

﴿١٣٧﴾ ﴿قُلْ﴾ يا أيها الرسول لقومك إذا دعوتهم إلى الله وبينت لهم ما لهم وما عليهم من حقوقه فامتنعوا من الانقياد لأمره واتبعوا أهواءهم واستمروا على شركهم: ﴿يَقُولُ أَتَأْمُرُونَ عَلَىٰ مَكَائِكُمْ﴾؛ أي: على حالتكم التي أنتم عليها ورضيتموها لأنفسكم، ﴿إِنِّي عَاوِلٌ﴾: على أمر الله ومتبع لما رضي الله: ﴿تَسْتَوُونَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُ عَقِيبَةُ الْأَذَارِ﴾: أنا أو أنتم، وهذا من الإنصاف بموضع عظيم؛ حيث بين الأعمال وعالميلها، وجعل الجزاء مقروناً بنظر البصير، ضارباً فيه صفحاً عن التصريح الذي يغني عنه التلويح، وقد علم أن العاقبة الحسنة في الدنيا والآخرة للمتقين، وأن المؤمنين لهم عقبى الدار، وأن كل معرض عما جاءت به الرسل عاقبته عاقبة سوء وشر، ولهذا قال: ﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ ﴿١٣٧﴾: فكل ظالم وإن تمتع في الدنيا بما تمتع به؛ فنهايته فيه الاضمحلال والتلف؛ إن الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته.

﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِرِزْقِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ ﴿١٣٨﴾ وكذلك زنت لك كثير من المشركين قتل أولادهم شركائهم ليردوهم وليكسبوا عليهم دينهم ولو شاء الله ما فعلوه فذرهم وما يفترون ﴿١٣٩﴾ وقالوا هذوة أنعم وحرث جعر لا يطعمهما إلا من نشأ برزقيهم وأنعم حرمت ظهورها وأنعم لا يذكرون أسد الله عليها أقرآه عليه سيجزيهم بما كانوا يفترون ﴿١٤٠﴾ وقالوا ما في بطون هذه الأنعام خالصة للذكورنا ومحرم علىٰ أزواجنا وإن يكن مينة فهم فيه شركاء سيجزيهم وصفهم إنه حكيم عليهم ﴿١٤١﴾ قد خسر الذين قتلوا أولادهم سفهاً بغير علم وحرثوا

مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ أَقْرَبَهُ عَلَى اللَّهِ قَدْ صَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴿١٤٢﴾

﴿١٤٣﴾ يخبر تعالى عما عليه المشركون المكذبون للنبي ﷺ من سفاهة العقل وخفة الأحلام والجهل البليغ، وعدد تبارك وتعالى شيئاً من خرافاتهم؛ لينبه بذلك على ضلالهم والحذر منهم، وأن معارضة أمثال هؤلاء السفهاء للحق الذي جاء به الرسول لا تقدر فيه أصلاً؛ فإنهم لا أهلية لهم في مقابلة الحق، فذكر من ذلك أنهم: جعلوا ﴿لِلَّهِ﴾ نصيباً ﴿مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ﴾: ولشركائهم من ذلك نصيباً، والحال أن الله تعالى هو الذي ذراه للعباد وأوجده رزقاً، فجمعوا بين محذورين محذورين، بل ثلاثة محاذير:

متهم على الله في جعلهم له نصيباً مع اعتقادهم أن ذلك منهم تبرع.

وإشراك الشركاء الذين لم يرزقوهم ولم يوجدوا لهم شيئاً في ذلك.

وحكمهم الجائر في أن ما كان لله لم يبالوا به ولم يهتموا، ولو كان واصل إلى الشركاء، وما كان لشركائهم اعتنوا به واحتفظوا به ولم يصل إلى الله منه شيء، وذلك أنهم إذا حصل لهم من زروعهم وثمارهم وأنعامهم التي أوجدها الله لهم شيء جعلوه قسمين: قسمًا قالوا: هذا لله بقولهم وزعهم، وإلا؛ فالله لا يقبل إلا ما كان خالصاً لوجهه ولا يقبل عمل من أشرك به، وقسمًا جعلوه حصّة شركائهم من الأوئان والأنداد؛ فإن وصل شيء مما جعلوه لله واختلط بما جعلوه لغيره؛ لم يبالوا بذلك، وقالوا: الله غني عنه فلا يردونه، وإن وصل شيء مما جعلوه لأهلهم إلى ما جعلوه لله؛ ردوه إلى محله، وقالوا: إنها فقراء، لا بد من رد نصيبها؛ فهل أسوأ من هذا الحكم وأظلم حيث جعلوا ما للمخلوق يجتهد فيه وينصح ويحفظ أكثر مما يفعل بحق الله؟

ويحتمل أن تأويل الآية الكريمة ما ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ: أنه قال عن الله تعالى: أنه قال: «أنا أغني الشركاء عن الشرك، من أشرك معي شيئاً تركته وشركه»^(١)، وأن معنى الآية أن ما جعلوه وتقربوا به لأوثانهم فهو تقرب خالص لغير الله، ليس لله منه شيء، وما جعلوه لله على زعمهم؛ فإنه لا يصل إليه؛ لكونه شركاً، بل يكون حظ الشركاء والأنداد؛

لأن الله غني عنه، لا يقبل العمل الذي أشرك به معه أحد من الخلق.

﴿١٣٧﴾ ومن سفة المشركين وضلالهم أنه ﴿زَيْنَ لِكَثِيرٍ زَيْنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ شركاؤهم - أي: رؤساؤهم وشياطينهم - قتل أولادهم، وهو الواد؛ الذين يدفنون أولادهم خشية الافتقار والإناث خشية العار، وكل هذا من خدع الشياطين الذين يريدون أن يردوهم بالهلاك ويلبسوا عليهم دينهم فيفعلون الأفعال التي في غاية القبح، ولا يزال شركاؤهم يزينونها لهم حتى تكون عندهم من الأمور الحسنة والخصال المستحسنة، ولو شاء الله أن يمنعهم ويحول بينهم وبين هذه الأفعال ويمنع أولادهم عن قتل الأبوين لهم؛ ما فعلوه، ولكن اقتضت حكمته التخلية بينهم وبين أفعالهم؛ استدراجاً منه لهم وإمهالاً لهم وعدم مبالاة بما هم عليه، ولهذا قال: ﴿فَذَرَهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾؛ أي: دعهم مع كذبهم واقترائهم، ولا تحزن عليهم؛ فإنهم لن يضروا الله شيئاً.

﴿١٣٨﴾ ومن أنواع سفاهتهم أن الأنعام التي أحلها الله لهم عموماً وجعلها رزقاً ورحمة يتمتعون بها ويتفنون قد اخترعوا فيها بدعاً وأقوالاً من تلقاء أنفسهم؛ فعندهم اصطلاح في بعض الأنعام والحرث أنهم يقولون فيها: ﴿هَذِهِ أُنْعَمٌ وَحَرْتُ حَجَرٌ﴾؛ أي: محرم. لا يطعمه ﴿إِلَّا مَنْ نَشَأَ﴾؛ أي: لا يجوز أن يطعمه أحد إلا من أردنا أن يطعمه أو وصفناه بوصف من عندنا، وكل هذا بزعمهم لا مستند لهم ولا حجة إلا أهويتهم وآراؤهم الفاسدة.

وأنعام ليست محرمة من كل وجه، بل يحرمون ظهورها؛ أي: بالركوب والحمل عليها، ويحمون ظهرها، ويسمونها الحام.

﴿وَأُنْعَمٌ لَا يَذْكُرُونَ أَسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا﴾، بل يذكرون اسم أصنامهم وما كانوا يعبدون من دون الله عليها، وينسبون تلك الأفعال إلى الله، وهم كذبة فجار في ذلك. ﴿سَيَجْزِيهِمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ ﴿١٣٩﴾: على الله من إحلال الشرك وتحريم الحلال من الأكل والمنافع.

﴿١٤٠﴾ ومن آرائهم السخيفة أنهم يجعلون بعض الأنعام ويعينونها محرماً ما في بطنها على الإناث دون الذكور، فيقولون: ﴿مَا فِي بَطْنِ هَذِهِ الْأُنْثَى خَالِصَةٌ لِلذَّكَورِ﴾؛ أي: حلال لهم لا يشاركون فيها النساء. ﴿وَمَحْرَمٌ عَلَى أَرْوَاحِنَا﴾؛ أي: نسائنا، هذا إذا ولد حياً، وإن يكن ما في بطنها يولد ميتاً؛ فهم فيه شركاء؛ أي: فهو حلال للذكور والإناث. ﴿سَيَجْزِيهِمْ﴾: الله ﴿وَصَفَّهُمْ﴾؛ حيث وصفوا ما أحله الله بأنه حرام، ووصفوا الحرام بالحلال، فناقضوا شرع الله وخالفوه ونسبوا ذلك إلى الله. ﴿إِنَّهُ حَكِيمٌ﴾؛ حيث أمهل لهم ومكنهم مما هم فيه من الضلال، ﴿عَلِيمٌ﴾ ﴿١٤١﴾: بهم لا تخفى عليه خافية، وهو تعالى يعلم بهم، وبما قالوه عليه، واقتروه وهو يعافهم، ويرزقهم جل جلاله.

﴿١٤٢﴾ ثم بين خسراهم وسفاهة عقولهم، فقال: ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾؛ أي: خسروا دينهم وأولادهم وعقولهم، وصار وصفهم بعد العقول الرزينة السفة المردية والضلال، ﴿وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ﴾؛ أي: ما جعله

أكلًا يضر بالزكاة، والإسراف في إخراج حق الزرع بحيث يخرج فوق الواجب عليه أو يضر نفسه أو عائلته أو غراماءه؛ فكل هذا من الإسراف الذي نهى الله عنه، الذي لا يحبه الله بل يبغضه، ويمقت عليه.

وفي هذه الآية دليل على وجوب الزكاة في الثمار، وأنه لا حول لها، بل حولها حصادها في الزرع وجذاذ النخيل، وأنه لا تكرر فيها الزكاة لو مكثت عند العبد أحوالًا كثيرة إذا كانت لغير التجارة؛ لأن الله لم يأمر بالإخراج منه إلا وقت حصاده، وأنه لو أصابها آفة قبل ذلك بغير تفريط من صاحب الزرع والثمر؛ أنه لا يضمها، وأنه يجوز الأكل من النخل والزرع قبل إخراج الزكاة منه، وأنه لا يحسب ذلك من الزكاة، بل يزكي المال الذي يبقى بعده، وقد كان النبي ﷺ يبعث خارصًا يحرص للناس ثمارهم ويأمره أن يدع لأهلها الثلث أو الربع بحسب ما يعتريها من الأكل وغيره من أهلها وغيرهم.

﴿وَمِنَ الْأَنْعَامِ حَمُولَةٌ وَفَرَسٌ كَلُوا مِنَّا رِزْقَكُمْ ۖ وَاللَّهُ لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ۝١٤١﴾
ثَمِينَةٌ أَرْوَجُ مِنْ الْأَصْنَانِ اثْنَيْنِ وَمِنْ الْعَمَزِ اثْنَيْنِ قُلْ
مَالِ الذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَرِ الْأُنثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ
الْأُنثَيَيْنِ نَبَوْنِي بِعِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ۝١٤٢﴾ وَمِنْ
الْإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنْ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ قُلْ مَالِ الذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَرِ
الْأُنثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنثَيَيْنِ أَم كُنْتُمْ
شُهَدَاءَ إِذْ وَصَّيْكُمْ اللَّهُ بِهَذَا فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى
عَلَى اللَّهِ كَذِبًا لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي
الْقَوْمَ الْفَاطِلِينَ ۝١٤٣﴾

﴿١٤١﴾ أي: وخلق وأنشأ من ﴿الْأَنْعَامِ حَمُولَةٌ وَفَرَسٌ﴾؛ أي: بعضها يحملون عليه وتركبونه، وبعضها لا تصلح للحمل والركوب عليها لصغرهما كالفصلا ن ونحوها، وهي الفرس؛ فهي من جهة الحمل والركوب تنقسم إلى هذين القسمين. وأما من جهة الأكل وأنواع الانتفاع؛ فإنها كلها تؤكل ويتفع بها، ولهذا قال: ﴿كَلُوا مِنَّا رِزْقَكُمْ ۖ وَاللَّهُ لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾؛ أي: طرقه وأعماله التي من جملتها أن تحرموا بعض ما رزقكم الله. ﴿إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ فلا يأمركم إلا بما فيه مضرركم وشقاؤكم الأبدي.

رحمة لهم وساقه رزقًا لهم، فردوا كرامة ربهم، ولم يكتفوا بذلك، بل وصفوها بأنها حرام وهي من أحل الحلال، وكل هذا ﴿أَفْتَرَا عَلَى اللَّهِ﴾؛ أي: كذب يكذب به كل معاند كفار، ﴿قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾؛ أي: قد ضلوا ضلالًا بعيدًا ولم يكونوا مهتدين في شيء من أمورهم.

﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أَكْلُهُ ۖ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّاتِ مُتَشَكِّبًا وَغَيْرَ مُتَشَكِّبٍ ۖ كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَءَاتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ۝١٤٢﴾

﴿١٤٢﴾ لما ذكر تعالى تصرف المشركين في كثير مما أحله الله لهم من الحروث والأنعام؛ ذكر تبارك وتعالى نعمته عليهم بذلك ووظيفتهم اللازمة عليهم في الحروث والأنعام، فقال: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ﴾؛ أي: بساتين فيها أنواع الأشجار المتنوعة والنباتات المختلفة، ﴿مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ﴾؛ أي: بعض تلك الجنات مجعول لها عريش تنتشر عليه الأشجار ويعاونها في النهوض عن الأرض، وبعضها خالٍ من العروش تنبت على ساق أو تنفرش في الأرض. وفي هذا تنبيه على كثرة منافعها وخيراتها، وأنه تعالى علم العباد كيف يعرشونها ويمنونها. وأنشأ تعالى النخل ﴿وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أَكْلُهُ﴾؛ أي: كله في محل واحد، ويشرب من ماء واحد، ويفضل الله بعضه على بعض في الأكل، وخص تعالى النخل والزرع، على اختلاف أنواعه، لكثرة منافعها ولكونها هي القوت لأكثر الخلق. وأنشأ تعالى الزيتون ﴿وَالرُّمَّاتِ مُتَشَكِّبًا﴾؛ أي: في شجره، ﴿وغير متشكيب﴾: في ثمره وطعمه، كأنه قيل: لأي شيء أنشأ الله هذه الجنات؟ وما عطف عليها؟ فأخبر أنه أنشأها لمنافع العباد، فقال: ﴿كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ﴾؛ أي: النخل والزرع، ﴿إِذَا أَثْمَرَ وَءَاتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ﴾؛ أي: أعطوا حق الزرع، وهو الزكاة ذات الأنصبة المقدرة في الشرع؛ أمرهم أن يعطوها يوم حصادها، وذلك لأن حصاد الزرع بمنزلة حولان الحول؛ لأنه الوقت الذي تتشوف إليه نفوس الفقراء، ويسهل حينئذ إخراجها على أهل الزرع، ويكون الأمر فيها ظاهرًا لمن أخرجها حتى يتميز المخرج ممن لا يخرج.

وقوله: ﴿وَلَا تُسْرِفُوا﴾؛ يعم النهي عن الإسراف في الأكل، وهو مجاوزة الحد والعادة. وأن يأكل صاحب الزرع

﴿١٤٣﴾ وهذه الأنعام التي امتن الله بها على عباده، وجعلها كلها حلالاً طيباً، فصلها بأنها: ﴿تَمْنِيَّةُ أَزْوَاجٍ رَبِّ الصَّكَّانِ أَتَيْنِي﴾: ذكر وأنثى، ﴿وَمِنَ الْمَعَزِ أَتَيْنِي﴾: كذلك؛ فهذه أربعة، كلها داخلة فيما أحل الله، لا فرق بين شيء منها؛ فقل لهؤلاء المتكلفين الذين يحرمون منها شيئاً دون شيء أو يحرمون بعضها على الإناث دون الذكور ملزماً لهم بعدم وجود الفرق بين ما أباحوا منها وحرموا: ﴿ءَالَذَكْرَيْنِ﴾: من الضأن والمعز ﴿حَرَّمَ﴾: الله فلستم تقولون بذلك وتطردونه، ﴿أَمِ الْأُنثَيَيْنِ﴾: حرم الله من الضأن والمعز؛ فليس هذا قولكم؛ لا تحريم الذكور الخالص، ولا الإناث الخالص من الصنفين، بقي إذا كان الرحم مشتملاً على ذكر وأنثى أو على مجهول، فقال: أم تحرمون ما ﴿أَشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَحْرَامُ الْأُنثَيَيْنِ﴾؟ أي: أنثى الضأن وأنثى المعز من غير فرق بين ذكر وأنثى؛ فلستم تقولون أيضاً بهذا القول؛ فإذا كنتم لا تقولون بأحد هذه الأقوال الثلاثة التي حصرت الأقسام الممكنة في ذلك؛ فإلى أي شيء تذهبون؟ ﴿تَيَقُّونِي بِمِثْلِهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾: في قولكم ودعواكم.

ومن المعلوم أنهم لا يمكنهم أن يقولوا قولاً سائغاً في العقل إلا واحداً من هذه الثلاثة، وهم لا يقولون بشيء منها، إنما يقولون: إن بعض الأنعام التي يصطلحون عليها اصطلاحات من عند أنفسهم حرام على الإناث دون الذكور، أو محرمة في وقت من الأوقات، أو نحو ذلك من الأقوال التي يعلم علماً لا شك فيه أن مصدرها من الجهل المركب والعقول المنحرفة والآراء الفاسدة، وأن الله ما أنزل بما قالوه من سلطان، ولا لهم عليه حجة ولا برهان.

﴿١٤٤﴾ ثم ذكر في الإبل والبقر مثل ذلك، فلما بين بطلان قولهم وفساده؛ قال لهم قولاً لا حيلة لهم في الخروج من تبعته إلا في اتباع شرع الله، ﴿أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ وَصَّيْكُمْ اللَّهُ﴾؛ أي: لم يبق عليكم إلا دعوى لا سبيل لكم إلى صدقها وصحتها، وهي أن تقولوا: إن الله وصانا بذلك وأوحى إلينا كما أوحى إلى رسله، بل أوحى إلينا وحياً مخالفاً لما دعت إليه الرسل ونزلت به الكتب، وهذا افتراء لا يجله أحد، ولهذا قال: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾؛ أي: مع كذبه وافتراءه على الله قصده بذلك إضلال عباد الله عن سبيل الله بغير بينة منه ولا برهان ولا عقل ولا نقل. ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾: الذين لا إرادة لهم في غير الظلم والجور والافتراء على الله.

﴿قُلْ لَا آجِدُ فِي مَا أُوْحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أَوْ لَغْوٌ لِلَّهِ يَدْعُ فَمَنْ أَضْطَرَّ عَلَيْهِ بَيْعٌ وَلَا عَادِلٌ فَإِنَّ رَبَّكَ عَفُورٌ رَحِيمٌ﴾: ﴿وَعَلَى الذِّبْتِ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفْرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْفَرَسِ حَرَّمَنا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوْ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَلِكَ جَزَيْنَهُمْ بِغَيْرِهِمْ وَإِنَّا لَصَدِيقُونَ﴾.

﴿١٤٥﴾ لما ذكر تعالى ذم المشركين على ما حرموا من الحلال ونسبوه إلى الله وأبطل قولهم؛ أمر تعالى رسوله أن يبين للناس ما حرمه الله عليهم؛ ليعلموا أن ما عدا ذلك حلال؛ من نسب تحريمه إلى الله فهو كاذب مبطل؛ لأن التحريم لا يكون إلا من عند الله على لسان رسوله، وقد قال لرسوله: ﴿قُلْ لَا آجِدُ فِي مَا أُوْحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ﴾؛ أي: محرماً أكله؛

﴿تَمْنِيَّةُ أَزْوَاجٍ رَبِّ الصَّكَّانِ أَتَيْنِي﴾: ذكر وأنثى، ﴿وَمِنَ الْمَعَزِ أَتَيْنِي﴾: كذلك؛ فهذه أربعة، كلها داخلة فيما أحل الله، لا فرق بين شيء منها؛ فقل لهؤلاء المتكلفين الذين يحرمون منها شيئاً دون شيء أو يحرمون بعضها على الإناث دون الذكور ملزماً لهم بعدم وجود الفرق بين ما أباحوا منها وحرموا: ﴿ءَالَذَكْرَيْنِ﴾: من الضأن والمعز ﴿حَرَّمَ﴾: الله فلستم تقولون بذلك وتطردونه، ﴿أَمِ الْأُنثَيَيْنِ﴾: حرم الله من الضأن والمعز؛ فليس هذا قولكم؛ لا تحريم الذكور الخالص، ولا الإناث الخالص من الصنفين، بقي إذا كان الرحم مشتملاً على ذكر وأنثى أو على مجهول، فقال: أم تحرمون ما ﴿أَشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَحْرَامُ الْأُنثَيَيْنِ﴾؟ أي: أنثى الضأن وأنثى المعز من غير فرق بين ذكر وأنثى؛ فلستم تقولون أيضاً بهذا القول؛ فإذا كنتم لا تقولون بأحد هذه الأقوال الثلاثة التي حصرت الأقسام الممكنة في ذلك؛ فإلى أي شيء تذهبون؟ ﴿تَيَقُّونِي بِمِثْلِهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾: في قولكم ودعواكم.

المشركين الذين حرموا ما رزقهم الله مفترون على الله متقولون عليه ما لم يقل.

وفي هذه الآية احتمال قوي، لولا أن الله ذكر فيها الخنزير، وهو أن السياق في نقض أقوال المشركين المتقدمة في تحريمهم لما أحله الله وخوضهم بذلك بحسب ما سولت لهم أنفسهم، وذلك في بهيمة الأنعام خاصة، وليس منها محرم إلا ما ذكر في الآية؛ الميتة منها وما أهل لغير الله به، وما سوى ذلك؛ فحلال. ولعل مناسبة ذكر الخنزير هنا على هذا الاحتمال أن بعض الجاهل قد يدخله في بهيمة الأنعام، وأنه نوع من أنواع الغنم؛ كما قد يتوهمه جهلة النصارى وأشباههم، فيمنونها كما ينمون المواشي، ويستحلونها، ولا يفرقون بينها وبين الأنعام.

﴿١٤٦﴾ فهذا المحرم على هذه الأمة كلها من باب التنزيه لهم والصيانة، وأما ما حرم على أهل الكتاب؛ فبعضه طيب، ولكنه حرم عليهم عقوبة لهم، ولهذا قال: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمًا كُلًّا ذِي ظُلْفُرٍ﴾: وذلك كالإبل وما أشبهها. وحرمنا عليهم من ﴿الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ﴾ بعض أجزائها، وهو ﴿شُحُومُهُمَا﴾ وليس المحرم جميع الشحوم منها، بل شحم الألية والثرب، ولهذا استثنى الشحم الحلال من ذلك، فقال: ﴿إِلَّا مَا حَكَّتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا﴾؛ أي: الشحم المخالط للأعضاء، ﴿أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَلِكَ﴾: التحريم على اليهود - ﴿جَرَيْتُهُمْ يَبَغْيِهِمْ﴾؛ أي: ظلمهم وتعديهم في حقوق الله وحقوق عباده، فحرم الله عليهم هذه الأشياء عقوبة لهم ونكالاً. ﴿وَإِنَّا لَصَدِّقُونَ﴾: في كل ما نقول ونفعل ونحكم به، ومن أصدق من الله حديثاً؟ ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون؟

﴿فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾.

﴿١٤٧﴾ أي: فإن كذبك هؤلاء المشركون؛ فاستمر على دعوتهم بالترغيب والترهيب، وأخبرهم بأن الله ﴿ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ﴾؛ أي: عامة شاملة لجميع المخلوقات كلها؛ فسارعوا إلى رحمته بأسبابها التي رأسها وأسها ومادتها تصديق محمد ﷺ فيما جاء به. ﴿وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾: أي: الذين كثر إجرامهم وذنوبهم؛ فاحذروا الجرائم الموصلة لبأس الله التي أعظمها ورأسها تكذيب محمد ﷺ.

بقطع النظر عن تحريم الانتفاع بغير الأكل وعدمه، ﴿إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْسَةً﴾: والميتة ما مات بغير ذكاة شرعية؛ فإن ذلك لا يحل؛ كما قال تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ الْمَيْتَةُ وَالْدَّمُ وَلَحْمُ الْخَنَازِيرِ﴾ [المائدة: ٣]، ﴿أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا﴾: وهو الدم الذي يخرج من الذبيحة عند ذكاتها؛ فإنه الدم الذي يضر احتباسه في البدن؛ فإذا خرج من البدن؛ زال الضرر بأكل اللحم.

ومفهوم هذا اللفظ أن الدم الذي يبقى في اللحم والعروق بعد الذبح أنه حلال طاهر، ﴿أَوْ لَحْمَ خَنَازِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ﴾؛ أي: فإن هذه الأشياء الثلاثة رجس؛ أي: خبث نجس مضر حرمه الله لطفاً بكم ونزاهة لكم عن مقاربة الخبائث ﴿أَوْ﴾: إلا أن يكون ﴿فَسَقًا أَهْلًا لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ﴾؛ أي: إلا أن تكون الذبيحة مذبوحة لغير الله من الأوثان والآلهة التي يعبدونها المشركون؛ فإن هذا من الفسق الذي هو الخروج عن طاعة الله إلى معصيته. ومع هذا؛ فهذه الأشياء المحرمات؛ من اضطر إليها؛ أي: حملته الحاجة والضرورة إلى أكل شيء منها بأن لم يكن عنده شيء وخاف على نفسه التلف، ﴿غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ﴾: ﴿غَيْرَ بَاغٍ﴾؛ أي: مريد لأكلها من غير اضطرار، ولا متعدي؛ أي: متجاوز للحد؛ بأن يأكل زيادة عن حاجته، ﴿فَإِنْ رَبَّكَ عَفْوٌ رَحِيمٌ﴾: أي: فالله قد سامح من كان بهذه الحال.

واختلف العلماء رحمهم الله في هذا الحصر المذكور في هذه الآية مع أن ثم محرمات لم تذكر فيها كالسباع وكل ذي مخلب من الطير ونحو ذلك؛ فقال بعضهم: إن هذه الآية نازلة قبل تحريم ما زاد على ما ذكر فيها؛ فلا ينافي هذا الحصر المذكور فيها التحريم المتأخر بعد ذلك؛ لأنه لم يجده فيما أوحى إليه في ذلك الوقت.

وقال بعضهم: إن هذه الآية مشتملة على سائر المحرمات، بعضها صريح وبعضها يؤخذ من المعنى وعموم العلة؛ فإن قوله تعالى في تعليل الميتة والدم ولحم الخنزير أو الأخير منها فقط: ﴿فَإِنَّهُ رِجْسٌ﴾: وصف شامل لكل محرم؛ فإن المحرمات كلها رجس وخبث، وهي من الخبائث المستقرة التي حرمها الله على عباده صيانة لهم وتكرمة عن مباشرة الخبيث الرجس، ويؤخذ تفاصيل الرجس المحرم من السنة؛ فإنها تفسر القرآن وتبين المقصود منه.

فإذا كان الله تعالى لم يحرم من المطاعم إلا ما ذكر، والتحريم لا يكون مصدره إلا شرع الله؛ دل ذلك على أن

﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا بَاسًا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿١٤٨﴾ قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَيْتُكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٤٩﴾﴾.

﴿١٤٨﴾ هذا إخبار من الله أن المشركين سيحتجون على شركهم وتحريمهم ما أحل الله بالقضاء والقدر، ويجعلون مشيئة الله الشاملة لكل شيء من الخير والشر حجة لهم في دفع اللوم عنهم، وقد قالوا ما أخبر الله أنهم سيقولونه؛ كما قال في الآية الأخرى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبْدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ [النحل: ٣٥] الآية. فأخبر تعالى أن هذه الحجة لم تزل الأمم المكذبة تدفع بها عنهم دعوة الرسل ويحتجون بها، فلم تجد فيهم شيئاً ولم تنفعهم، فلم يزل هذا دأبهم حتى أهلكهم الله وأذاقهم بأسه؛ فلو كانت حجة صحيحة؛ لدفعت عنهم العقاب، ولما أحل الله بهم العذاب؛ لأنه لا يحل بأسه إلا بمن استحقه فعلم أنها حجة فاسدة وشبهة كاسدة من عدة أوجه:

منها: ما ذكر الله من أنها لو كانت صحيحة لم تحل بهم العقوبة.

ومنها: أن الحجة لا بد أن تكون حجة مستندة إلى العلم والبرهان، فأما إذا كانت مستندة إلى مجرد الظن والخرص الذي لا يغني من الحق شيئاً؛ فإنها باطلة، ولهذا قال: ﴿قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا﴾؛ فلو كان لهم علم - وهم خصوم الداء - لأخرجوه، فلما لم يخرجوه؛ علم أنه لا علم عندهم. ﴿إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾ ﴿١٤٨﴾: ومن بنى حججه على الخرص والظن؛ فهو مبطل خاسر؛ فكيف إذا بناها على البغي والعناد والشر والفساد؟

﴿١٤٩﴾ ومنها: أن الحجة لله البالغة التي لم تبق لأحد عذراً، التي اتفقت عليها الأنبياء والمرسلون والكتب الإلهية والآثار النبوية والعقول الصحيحة والفطر المستقيمة والأخلاق القويمة، فعلم بذلك أن كل ما خالف هذه الآية القاطعة باطل؛ لأن نقض الحق لا يكون إلا باطلاً.

ومنها: أن الله تعالى أعطى كل مخلوق قدرة وإرادة يتمكن بها من فعل ما كلف به؛ فلا أوجب الله على أحد ما لا يقدر على فعله، ولا حرم على أحد ما لا يتمكن على تركه؛ فالاحتجاج بعد هذا بالقضاء والقدر ظلم محض وعناد صرف.

ومنها: أن الله تعالى لم يجبر العباد على أفعالهم، بل جعل أفعالهم تبعاً لاختيارهم؛ فإن شاءوا فعلوا وإن شاءوا كفوا، وهذا أمر مشاهد لا ينكره إلا من كابر وأنكر المحسوسات؛ فإن كل أحد يفرق بين الحركة الاختيارية والحركة القسرية، وإن كان الجميع داخلاً في مشيئة الله ومندرجاً تحت إرادته.

ومنها: أن المحتجين على المعاصي بالقضاء والقدر يتناقضون في ذلك؛ فإنهم لا يمكنهم أن يطردوا ذلك؛ بل لو أساء إليهم مسيء بضرب أو أخذ مال أو نحو ذلك، واحتج بالقضاء والقدر لما قبلوا منه هذا الاحتجاج ولغضبوا من ذلك أشد الغضب. فباعتبار كيف يحتجون به على معاصي الله ومساخطه ولا يرضون من أحد أن يحتج به في مقابلة مساخطهم.

﴿سورة الأنعام﴾
فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ ﴿١٤٧﴾ سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا بَاسًا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿١٤٨﴾ قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَيْتُكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٤٩﴾ قُلْ هَلَمْ شَهِدَ أَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَذَا فَإِنْ شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدُ مَعَهُمْ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَهُمْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٠﴾ قُلْ نَعَمَلُوا أَتَقُولُ مَا نَحَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَلَدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقُولُوا لَوْلَا أُولَٰئِكَ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ حَرَمٌ إِنَّ اللَّهَ لَمَلِكٌ عَزِيزٌ عَلِيمٌ ﴿١٥١﴾

ومنها: أن احتجاجهم بالقضاء والقدر ليس مقصوداً، ويعلمون أنه ليس بحجة، وإنما المقصود منه دفع الحق ويرون أن الحق بمنزلة الصائل؛ فهم يدفعونه بكل ما يخطر ببالهم من الكلام، ولو كانوا يعتقدونه خطأ.

﴿قُلْ هَلَمْ شَهِدَ أَمْ لَكُمْ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَذَا فَإِنْ شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدُ مَعَهُمْ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَهُمْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ (١٥٠).

﴿١٥٠﴾ أي: قل لمن حرم ما أحل الله ونسب ذلك إلى الله: أحضروا شهداءكم الذين يشهدون أن الله حرم هذا! فإذا قيل لهم هذا الكلام؛ فهم بين أمرين: إما ألا يحضروا أحداً يشهد بهذا، فتكون دعواهم إذا باطلت خلية من الشهود والبرهان. وإما أن يحضروا أحداً يشهد لهم بذلك، ولا يمكن أن يشهد بهذا إلا كل أفاك أثيم غير مقبول الشهادة، وليس هذا من الأمور التي يصح أن يشهد بها العدول، ولهذا قال تعالى ناهياً نبيه وأتباعه عن هذه الشهادة: ﴿فَإِنْ شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدُ مَعَهُمْ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَهُمْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ (١٥١)؛ أي: يسوون به غيره من الأنداد والأوثان؛ فإذا كانوا كافرين باليوم الآخر غير موحدين لله؛ كانت أهويتهم مناسبة لعقيدتهم، وكانت دائرة بين الشرك والتكذيب بالحق، فحري بهوى هذا شأنه أن ينهى الله خيار خلقه عن اتباعه، وعن الشهادة مع أربابه، وعلم حيث أن تحريمهم لما أحل الله صادر عن تلك الأهواء المضلة.

﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّي عَلَيْكُمْ عَلَىٰ شَرِّ مَا بِهِ شَيْئًا وَيَا ذُلِّ الَّذِينَ إِحْسَنَّا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِمَّنْ إِمْلَيْتُمْ لَخَنَّ زُرْقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكَُمْ وَصْنَكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ (١٥١) وَلَا تَقْرَبُوا مَا الْيَبِيسَ إِلَّا بِالْحَقِّ هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْبَلِ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا تُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكَُمْ وَصْنَكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ (١٥٢) وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكَُمْ وَصْنَكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (١٥٣).

﴿١٥١﴾ يقول تعالى لنبيه ﷺ: ﴿قُلْ﴾: لهؤلاء الذين حرموا ما أحل الله: ﴿تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّي عَلَيْكُمْ عَلَىٰ شَرِّ مَا بِهِ شَيْئًا﴾: أي: لا قليلاً ولا كثيراً. وحقيقة الشرك بالله أن يعبد المخلوق كما يعبد الله أو يعظم كما يعظم الله أو يصرف له نوع من خصائص الربوبية والإلهية، وإذا ترك العبد الشرك كله؛ صار موحدًا مخلصاً لله في جميع أحواله؛ فهذا حق الله على عباده: أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً. ثم بدأ بأكد الحقوق بعد حقه، فقال: ﴿وَيَا ذُلِّ الَّذِينَ إِحْسَنَّا﴾: من الأقوال الكريمة الحسنة والأفعال الجميلة المستحسنة؛ فكل قول وفعل يحصل به منفعة للوالدين أو سرور لهما؛ فإن ذلك من الإحسان، وإذا وجد الإحسان؛ انتفى العقوق، ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ﴾: من ذكور وإناث ﴿مِمَّنْ إِمْلَيْتُمْ﴾: أي: بسبب الفقر وضيقكم من رزقهم؛ كما كان ذلك موجوداً في الجاهلية القاسية الظالمة، وإذا كانوا منهيين عن قتلهم في هذه الحال وهم أولادهم؛ فنهيههم عن قتلهم لغير موجب أو قتل أولاد غيرهم من باب أولى وأحرى. ﴿لَخَنَّ زُرْقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾: أي: قد تكفلنا برزق الجميع، فلستم الذين ترزقون أولادكم، بل ولا أنفسكم، فليس عليكم منهم ضيق. ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ﴾: وهي الذنوب العظام المستفحشة ﴿مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾: أي: لا تقربوا الظاهر منها والخفي أو المتعلق منها بالظاهر والمتعلق بالقلب والباطن، والنهي عن قربان الفواحش أبلغ من النهي عن مجرد فعلها؛ فإنه يتناول النهي عن مقدماتها ووسائلها الموصلة إليها. ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ﴾: وهي النفس المسلمة من ذكر وأنثى صغير وكبير وفاجر والكافرة التي قد عصمت بالعهد والميثاق، ﴿إِلَّا بِالْحَقِّ﴾: كالزاني المحصن والنفس بالنفس والتارك لدينه المفارق للجماعة. ﴿ذَلِكَُمْ﴾: المذكور، ﴿وَصْنَكُمْ﴾: [الله] ﴿بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ (١٥١)؛ عن الله وصيته ثم تحفظونها ثم تراعونها وتقومون بها. ودلت الآية على أنه بحسب عقل العبد يكون قيامه بما أمر الله به.

﴿١٥٢﴾ ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَا الْيَبِيسَ﴾: بأكل أو معاوضة على وجه المحاباة لأنفسكم أو أخذ من غير سبب، ﴿إِلَّا بِالْحَقِّ هِيَ أَحْسَنُ﴾: أي: إلا بالحال التي تصلح بها أموالهم ويتشفعون بها، فدل هذا على أنه لا يجوز قربانها والتصرف بها على

وَجَه يَضُرُّ الْيَتَامَى أَوْ عَلَى وَجَه لَا مُضِرَّة فِيهِ وَلَا مُصْلِحَةٌ. ﴿حَتَّى يَبْلُغَ﴾: الْيَتِيمَ ﴿أَشُدَّهُ﴾: أَي: حَتَّى يَبْلُغَ وَيُرْشَدَ وَيَعْرِفَ التَّصَرُّفَ؛ فَإِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ؛ أُعْطِيَ حَيْثُ ذَا مَالِهِ، وَتَصَرَّفَ فِيهِ عَلَى نَظَرِهِ. وَفِي هَذَا دَلَالَةٌ عَلَى أَنَّ الْيَتِيمَ قَبْلَ بُلُوغِ الْأَشَدِّ مُحْجُورٌ عَلَيْهِ، وَأَنْ وَلِيَهُ يَتَصَرَّفُ فِي مَالِهِ بِالْأَحْظَ، وَأَنْ هَذَا الْحَجَرُ يَنْتَهِي بِبُلُوغِ الْأَشَدِّ. ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ﴾؛ أَي: بِالْعَدْلِ وَالْوَفَاءِ التَّامِّ؛ إِذَا اجْتَهَدْتُمْ فِي ذَلِكَ؛ فَـ ﴿لَا تُكَلِّفْ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾؛ أَي: بِقَدْرِ مَا تَسْعُهُ وَلَا تُضَيِّقْ عَنْهُ؛ فَمَنْ حَرَصَ عَلَى الْإِيفَاءِ فِي الْكَيْلِ وَالْوِزْنِ، ثُمَّ حَصَلَ مِنْهُ تَقْصِيرٌ؛ لَمْ يَفْرُطْ فِيهِ وَلَمْ يَعْلَمْ؛ فَإِنَّ اللَّهَ عَفُوٌّ غَفُورٌ. وَبِهَذِهِ الْآيَةِ وَنَحْوِهَا اسْتَدَلَّ الْأَصُولِيُّونَ بِأَنَّ اللَّهَ لَا يَكْلِفُ أَحَدًا مَا لَا يَطِيقُ، وَعَلَى أَنَّ مَنْ اتَّقَى اللَّهَ فِيمَا أَمَرَ وَفَعَلَ مَا يُمْكِنُهُ مِنْ ذَلِكَ؛ فَلَا حَرَجَ عَلَيْهِ فِيمَا سِوَى ذَلِكَ.

﴿وَإِذَا قُلْتُمْ﴾: قَوْلًا تَحْكُمُونَ بِهِ بَيْنَ النَّاسِ، وَتَفْصِلُونَ بَيْنَهُمُ الْخُطَابَ، وَتَتَكَلَّمُونَ بِهِ عَلَى الْمَقَالَاتِ وَالْأَحْوَالِ، ﴿فَاعْدِلُوا﴾: فِي قَوْلِكُمْ بِمِرَاعَاةِ الصَّدَقِ فِيمَنْ تَحِبُّونَ وَمَنْ تَكْرَهُونَ وَالْإِنْصَافِ وَعَدَمِ كِتْمَانِ مَا يَلِزَمُ بَيَانَهُ؛ فَإِنَّ الْمِيلَ عَلَى مَنْ تَكْرَهُ بِالْكَلَامِ فِيهِ أَوْ فِي مَقَالَتِهِ مِنَ الظُّلْمِ الْمَحْرَمِ، بَلْ إِذَا تَكَلَّمَ الْعَالَمُ عَلَى مَقَالَاتِ أَهْلِ الْبِدْعِ؛ فَالْوَاجِبُ عَلَيْهِ أَنْ يُعْطِيَ كُلَّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ وَأَنْ يُبَيِّنَ مَا فِيهَا مِنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ، وَيُعْتَبَرُ قَرِيبًا مِنَ الْحَقِّ وَبَعْدَهَا مِنْهُ، وَذَكَرَ الْفُقَهَاءُ أَنَّ الْقَاضِيَ يَجِبُ عَلَيْهِ الْعَدْلُ بَيْنَ الْخَصْمَيْنِ فِي لِحْظِهِ وَلَفْظِهِ. ﴿وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا﴾: وَهَذَا يَشْمَلُ الْعَهْدَ الَّذِي عَاهَدَهُ عَلَيْهِ الْعِبَادُ؛ مِنَ الْقِيَامِ بِحَقُوقِهِ وَالْوَفَاءِ بِهَا، وَمِنَ الْعَهْدِ الَّذِي يَقَعُ التَّعَاهُدُ بِهِ بَيْنَ الْخَلْقِ؛ فَالْجَمِيعُ يَجِبُ الْوَفَاءُ بِهِ، وَيَحْرَمُ نَقْضُهُ وَالْإِخْلَالُ بِهِ. ﴿ذَلِكُمْ﴾: الْأَحْكَامُ الْمَذْكُورَةُ، ﴿وَصَنَّكُمُ﴾: [اللَّهُ] ﴿بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾: مَا بَيْنَهُ لَكُمْ مِنَ الْأَحْكَامِ، وَتَقُومُونَ بِوَصِيَّةِ اللَّهِ لَكُمْ حَقَّ الْقِيَامِ، وَتَعْرِفُونَ مَا فِيهَا مِنَ الْحُكْمِ وَالْأَحْكَامِ.

﴿لَمَّا بَيَّنَّ كَثِيرًا مِنَ الْأُمُورِ الْكِبَارِ وَالشَّرَائِعِ الْمَهْمَةِ؛ أَشَارَ إِلَيْهَا إِلَى مَا هُوَ أَعَمُّ مِنْهَا، فَقَالَ: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا﴾؛ أَي: هَذِهِ الْأَحْكَامُ وَمَا أَشْبَهَهَا مِمَّا بَيْنَهُ اللَّهُ فِي كِتَابِهِ وَوَضَحَهُ لِعِبَادِهِ صِرَاطُ اللَّهِ الْمَوْصِلُ إِلَيْهِ وَإِلَى دَارِ كِرَامَتِهِ الْمَعْتَدِلِ السَّهْلِ الْمُخْتَصَرِ. ﴿فَاتَّبِعُوهُ﴾: لَتَنَالُوا الْفَوْزَ وَالْفَلَاحَ، وَتَدْرِكُوا الْأَمَالَ وَالْأَفْرَاحَ، ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ﴾: أَي: الطَّرِيقَ الْمَخَالَفَةَ لِهَذَا الطَّرِيقِ، ﴿فَفَرَّقَ بَيْنَكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾: أَي: تَضَلَّكُمُ عَنْهُ وَتَفَرَّقَكُمُ بَيْنًا وَشِمَالًا؛ إِذَا ضَلَلْتُمْ عَنِ الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ؛ فَلَيْسَ ثُمَّ إِلَّا طَرُقَ تَوْصِلُ إِلَى الْجَحِيمِ. ﴿ذَلِكُمْ وَصَّيْتُكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾: فَإِنَّكُمْ إِذَا قُمْتُمْ بِمَا بَيْنَهُ اللَّهُ لَكُمْ عِلْمًا وَعَمَلًا؛ صَرَّيْتُمْ مِنَ الْمُتَّقِينَ وَعِبَادِ اللَّهِ الْمُفْلِحِينَ. وَوَحْدَ الصِّرَاطِ وَأَضَافَهُ إِلَيْهِ؛ لِأَنَّهُ سَبِيلُ وَاحِدٍ مَوْصِلٌ إِلَيْهِ، وَاللَّهُ هُوَ الْمَعِينُ لِلْسَّالِكِينَ عَلَى سُلُوكِهِ.

﴿ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَنَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّعَالَمٍ يُوقِنُونَ﴾ وَهَذَا كِتَابُ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكًا فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٥٥﴾ أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَنْزَلَ الْكِتَابَ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَغَفْلِينَ ﴿١٥٦﴾ أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أَنْزَلْنَا الْكِتَابَ لَكُنَّا أَهْدَى مِنْهُمْ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَّبَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ ﴿١٥٧﴾

﴿ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَنَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّعَالَمٍ يُوقِنُونَ﴾ وَهَذَا كِتَابُ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكًا فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٥٥﴾ أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَنْزَلَ الْكِتَابَ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَغَفْلِينَ ﴿١٥٦﴾ أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أَنْزَلْنَا الْكِتَابَ لَكُنَّا أَهْدَى مِنْهُمْ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَّبَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ ﴿١٥٧﴾

ولما أن تعتذروا بعدم كمالها وتماها، فحصل لكم بكتابتكم أصل الهداية وكمالها، ولهذا قال: ﴿فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾: وهذا اسم جنس يدخل فيه كل ما يبين الحق، ﴿وَهَذَى﴾: من الضلالة، ﴿وَرَحِمَهُ﴾: أي: سعادة لكم في دينكم ودنياكم؛ فهذا يوجب لكم الانقياد لأحكامه والإيمان بأخباره وأن من لم يرفع به رأساً وكذب به؛ فإنه أظلم الظالمين. ولهذا قال: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَّقَ عَنْهَا﴾: أي: أعرض ونأى بجانيه، ﴿سَخَّرَ الَّذِينَ يَصْدَفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ﴾: أي: العذاب الذي يسوء صاحبه ويشق عليه، ﴿يَمَّا كَانُوا يَصْدِفُونَ﴾ (١٥٧): لأنفسهم ولغيرهم جزاء لهم على عملهم السيئ، وما ربك بظلام للعبيد.

وفي هذه الآيات دليل على أن علم القرآن أجل العلوم وأبركها وأوسعها، وأنه به تحصل الهداية إلى الصراط المستقيم هداية تامة لا يحتاج معها إلى تخرص المتكلمين ولا إلى أفكار المتفلسفين ولا لغير ذلك من علوم الأولين والآخرين.

وأن المعروف أنه لم ينزل جنس الكتاب إلا على الطائفتين؛ من اليهود والنصارى؛ فهم أهل الكتاب عند الإطلاق، لا يدخل فيهم سائر الطوائف؛ لا المجوس ولا غيرهم.

وفيه ما كان عليه الجاهلية قبل نزول القرآن من الجهل العظيم وعدم العلم بما عند أهل الكتاب الذين عندهم مادة العلم، وغفلتهم عن دراسة كتبهم.

﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيَسْتَأْذَنَ تَكُنَّ ءَامَنَةً مِّن قَبْلِ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا قُلْ لِنَنْظُرُوا إِنَّا مُنْظَرُونَ﴾ (١٥٨).

يقول تعالى: هل ينظر هؤلاء الذين استمر ظلمهم وعنادهم، ﴿إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ﴾: مقدمات العذاب ومقدمات الآخرة؛ بأن تأتيتهم ﴿الْمَلَائِكَةُ﴾ لقبض أرواحهم؛ فإنهم إذا وصلوا إلى تلك الحال؛ لم ينفعهم الإيمان ولا صالح الأعمال، ﴿أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ﴾: لفصل القضاء بين العباد ومجازاة المحسنين والمسيئين ﴿أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ﴾: الدالة على قرب الساعة. ﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ﴾: الخارقة للعادة، التي يعلم بها أن الساعة قد دنت وأن القيامة قد اقتربت. ﴿لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيَسْتَأْذَنَ تَكُنَّ ءَامَنَةً مِّن قَبْلِ أَوْ كَسَبَتْ

﴿ثُمَّ﴾ في هذا الموضع ليس المراد منها الترتيب الزمني؛ فإن زمن موسى عليه السلام متقدم على تلاوة الرسول محمد ﷺ هذا الكتاب، وإنما المراد الترتيب الإخباري، فأخبر أنه أتى ﴿مُوسَى الْكِتَابَ﴾: وهو التوراة ﴿تَمَامًا﴾: لنعمته وكمالاً لإحسانه، ﴿عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ﴾: من أمة موسى؛ فإن الله أنعم على المحسنين منهم بنعم لا تحصى من جملتها وتماها إنزال التوراة عليهم، فتمت عليهم نعمة الله ووجب عليهم القيام بشكرها، ﴿وَتَقْصِيلاً لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾: يحتاجون إلى تفصيله من الحلال والحرام والأمر والنهي والعقائد ونحوها، ﴿وَهَذَى وَرَحِمَهُ﴾: أي: يهديهم إلى الخير ويعرفهم بالشر في الأصول والفروع، ﴿وَرَحِمَهُ﴾: يحصل به لهم السعادة والرحمة والخير الكثير، ﴿لَعَلَّهُمْ﴾: بسبب إنزالنا الكتاب والبينات عليهم ﴿يَلْقَاءَ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ﴾ (١٥٩)؛ فإنه اشتمل من الأدلة القاطعة على البعث والجزاء بالأعمال، ما يوجب لهم الإيمان بقاء ربهم والاستعداد له.

﴿وَهَذَا﴾: القرآن العظيم والذكر الحكيم، ﴿كَتَبَ﴾: أنزلناه مبارك؛ أي: فيه الخير الكثير والعلم الغزير، وهو الذي تستمد منه سائر العلوم وتستخرج منه البركات؛ فما من خير إلا وقد دعا إليه ورغب فيه وذكر الحكم والمصالح التي تحث عليه، وما من شر إلا وقد نهى عنه وحذر منه وذكر الأسباب المنفرة عن فعله وعواقبها الوخيمة. ﴿فَأَتَّبِعُوهُ﴾: فيما يأمر به وينهى، وابتوا أصول دينكم وفروعه عليه. ﴿وَاتَّقُوا﴾: الله تعالى أن تخالفوا له أمراً ﴿لَعَلَّكُمْ﴾: إن اتبعتموه ﴿تُرْحَمُونَ﴾ (١٥٩)؛ فأكبر سبب لنيل رحمة الله اتباع هذا الكتاب علماً وعملاً.

﴿إِنَّمَا أَنْزَلَ الْكِتَابَ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِّن قَبْلِنَا وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَغَفْلِينَ﴾ (١٥٩)؛ أي: أنزلنا إليكم هذا الكتاب المبارك قطعاً لحجتكم وخشية أن تقولوا إنما أنزل الكتاب على طائفتين من قبلنا؛ أي اليهود والنصارى. ﴿وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَغَفْلِينَ﴾ (١٥٩)؛ أي: تقولون: لم تنزل علينا كتاباً، والكتب التي أنزلتها على الطائفتين ليس لنا بها علم ولا معرفة، فأنزلنا إليكم كتاباً لم ينزل من السماء كتاب أجمع ولا أوضح ولا أبين منه.

﴿أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لَكُنَّا أَهْدَى مِنْهُمْ﴾: أي: إما أن تعتذروا بعدم وصول أصل الهداية إليكم،

فَإِيْمَانُهَا خَيْرًا ۖ أَي: إذا وجد بعض آيات الله؛ لم ينفع الكافر إيمانه إن آمن ولا المؤمن المقصر أن يزداد خيره بعد ذلك، بل ينفعه ما كان معه من الإيمان قبل ذلك، وما كان له من الخير الموجود قبل أن يأتي بعض الآيات. والحكمة في هذا ظاهرة؛ فإنه إنما كان الإيمان ينفع إذا كان إيمانًا بالغيب وكان اختيارًا من العبد. فاما إذا وجدت الآيات؛ صار الأمر شهادة، ولم يبق للإيمان فائدة؛ لأنه يشبه الإيمان الضروري؛ كإيمان الغريق والحريق ونحوهما ممن إذا رأى الموت أقبل عما هو فيه؛ كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ وَسُكَّرْنَا بِمَا كُنَّا فِيهِ مُشْرِكِينَ﴾ (١٥٩) فَلَمْ يَكُنْ يَنْفَعُهُمْ إِيْمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهُ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ ۖ [غافر: ٨٤، ٨٥].

وقد تكاثرت الأحاديث الصحيحة عن النبي ﷺ أن المراد ببعض آيات الله طلوع الشمس من مغربها، وأن الناس إذا راوها؛ آمنوا، فلم ينفعهم إيمانهم، ويغلق حينئذ باب التوبة. ولما كان هذا وعيدًا للمكذبين بالرسول ﷺ منتظرًا وهم ينتظرون بالنبي ﷺ وأتباعه قوارع الدهر ومصائب الأمور؛ قال: ﴿وَأَنْظُرُوا إِنَّا مُنْظِرُونَ﴾ (١٦٠) [هود: ١٢٢]: فستعلمون أننا أحق بالأمن.

وفي هذه الآية دليل لمذهب أهل السنة والجماعة في إثبات الأفعال الاختيارية لله تعالى؛ كالاستواء والتزول والإتيان لله تبارك وتعالى من غير تشبيه له بصفات المخلوقين، وفي الكتاب والسنة من هذا شيء كثير.

وفيه أن من جملة أشرار الساعة طلوع الشمس من مغربها.

وأن الله تعالى حكيم قد جرت عادته وسنته أن الإيمان إنما ينفع إذا كان اختياريًا لا اضطراريًا كما تقدم، وأن الإنسان يكتبب الخير بإيمانه؛ فالطاعة والبر والتقوى إنما تنفع وتتمو إذا كان مع العبد إيمان، فإذا خلا القلب من الإيمان؛ لم ينفعه شيء من ذلك.

﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيْعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ (١٥٩) مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَلِهَا وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ (١٦٠).

(١٥٩) يتوعد تعالى الذين فرقوا دينهم؛ أي: شتتوه وتفرقوا فيه، وكل أخذ لنفسه نصيبًا من الأسماء التي لا تفيد الإنسان في دينه شيئًا؛ كاليهودية والنصرانية والمجوسية، أو لا يكمل بها إيمانه؛ بأن يأخذ من الشريعة شيئًا ويجعله دينه ويدع مثله أو ما هو أولى منه؛ كما هو حال أهل الفرقة من أهل البدع والضلال والمفرقين للأمة. ودلت الآية الكريمة أن الدين يأمر بالاجتماع والاتلاف وينهى عن التفرق والاختلاف في أهل الدين وفي سائر مسائل الأصولية والفروعية، وأمره أن يتبرأ ممن فرقوا دينهم، فقال: ﴿لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾؛ أي: لست منهم وليسوا منك؛ لأنهم خالفوك وعاندوك. ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ﴾: يردون إليه فيجازيهم بأعمالهم، ﴿ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ (١٥٩).

(١٦٠) ثم ذكر صفة الجزاء فقال: ﴿مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ﴾: القولية والفعلية، الظاهرة والباطنة، المتعلقة بحق الله أو حق خلقه، ﴿فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَلِهَا﴾: هذا أقل ما يكون من التضعيف، ﴿وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا﴾: وهذا من تمام عدله تعالى

سورة الأنعام
هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا لَمْ تَكُنْ مِنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيْمَانِهَا خَيْرًا قُلِ انْظُرُوا إِنَّا مُنْظِرُونَ ﴿١٥٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيْعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿١٦٠﴾ مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَلِهَا وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦١﴾ قُلِ إِنِّي هَدَيْتُ رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِثْلَ آبَائِهِمْ خِفَاءً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٦٢﴾ قُلِ إِنْ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٣﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٤﴾ قُلِ أَغَيْرَ اللَّهِ أُبَدِّئُ رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكَ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿١٦٥﴾ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ خَلْقَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَبْلُوكُمْ فِي مَاءِ آتَانِكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٦﴾

أحسن ذلك، ويليق بي أن أتخذ غيره مريباً ومدبراً، والله رب كل شيء، فالخلق كلهم داخلون تحت ربوبيته، متقادون لأمره، فتعين علي وعلى غيري أن يتخذ الله رباً ويرضى به ألا يتعلق بأحد من المربوبين الفقراء العاجزين. ثم رغب ورهب بذلك الجزاء، فقال: ﴿وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ﴾: من خير وشر ﴿إِلَّا عَلَىٰهَا﴾؛ كما قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلْ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا﴾ [فصلت: ٤٦]، ﴿وَلَا تُزِرُّ وَازِرَةً وَزَرَ أُخْرَىٰ﴾: بل كل كل عليه وزر نفسه، وإن كان أحد قد تسبب في ضلال غيره ووزره؛ فإن عليه وزر التسبب من غير أن ينقص من وزر المباشر شيء، ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ﴾: يوم القيامة، ﴿فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾: من خير وشر، ويجازيكم على ذلك أوفى الجزاء.

﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلْقَ الْأَرْضِ﴾؛ أي: يخلف بعضكم بعضاً، واستخلفكم الله في الأرض، وسخر لكم جميع ما فيها، وابتلاكم لينظر كيف تعملون، ﴿وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ﴾: في القوة والعافية والرزق والخلق والخلق، ﴿يَسْبُلُوكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ﴾: فتفاوتت أعمالكم.

﴿إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ﴾: لمن عصاه وكذب بآياته، ﴿وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾: لمن آمن به وعمل صالحاً، وتاب من الموبقات^(١).

آخر تفسير سورة الأنعام.

قلله الحمد والثناء. وصلى الله على محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً إلى يوم الدين.



(١) في هامش النسخة (أ): «بلغ مقابلة على أصله».

جاء في نهاية المجلد الثاني:

وكان الفراغ من كتابته في يوم الجمعة موافق خمس وعشرين من جمادى الآخرة سنة ١٣٤٥؛ خمس وأربعين وثلاثمائة وألف.

بقلم الفقير إلى ربه المنان، علي الحسن العلي الحسن البريكاني، وقد نسخته على نسخة المؤلف، غفر الله له، وأثابه على ذلك الثواب الجزيل، وجزاء الله عنا وعن جميع المسلمين أفضل الجزاء في دار الجزاء، وأدخله الله برحمته فسيح الجنان، ووقانا وإياه عذاب النيران، بفضله وكرمه؛ إنه قريب مجيب. وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين. آمين ثم آمين يا رب العالمين.

وإحسانه، وأنه لا يظلم مثقال ذرة، ولهذا قال: ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾.

﴿قُلْ إِنِّي هَدَيْتُ رَبِّيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾: قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿لَا شَرِيكَ لَهُ﴾: وبذلك أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴿قُلْ أَغْنَىٰ اللَّهُ أَتَنِي رِبَاً وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَىٰهَا وَلَا تُزِرُّ وَازِرَةً وَزَرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾: وهو الذي جعلكم خَلْقَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَسْبُلُوكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ.

﴿يَأْمُرُ تَعَالَىٰ نَبِيَّهُ﴾ أن يقول ويعلن بما هو عليه من الهداية إلى الصراط المستقيم، الدين المعتدل، المتضمن للعقائد النافعة والأعمال الصالحة والأمر بكل حسن والنهي عن كل قبيح، الذي عليه الأنبياء والمرسلون، خصوصاً إمام الحنفاء والوالد من بعث من بعد موته من الأنبياء خليل الرحمن إبراهيم عليه الصلاة والسلام، وهو الدين الحنيف، المائل عن كل دين غير مستقيم من أديان أهل الانحراف كاليهود والنصارى والمشركين. وهذا عموم.

﴿ثُمَّ خَصَّصَ مِنْ ذَلِكَ أَشْرَفَ الْعِبَادَاتِ﴾، فقال: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي﴾؛ أي: ذبهي، وذلك لشرف هاتين العبادتين وفضلهما ودلالتهما على محبة الله تعالى وإخلاص الدين له والتقرب إليه بالقلب واللسان والجوارح وبالذبح الذي هو بذل ما تحبه النفس من المال لما هو أحب إليها وهو الله تعالى، ومن أخلص في صلاته ونسكه؛ استلزم ذلك إخلاصه لله في سائر أعماله. وقوله: ﴿وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي﴾؛ أي: ما أتيت في حياتي وما يجريه الله علي وما يقدر علي في مماتي؛ الجميع ﴿لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

﴿لَا شَرِيكَ لَهُ﴾: في العبادة؛ كما أنه ليس له شريك في الملك والتدبير، وليس هذا الإخلاص لله ابتداءً مني وبدعاً أتيت به تلقاء نفسي، بل ﴿وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ﴾: أمراً حتماً لا أخرج من التبعية إلا بامثاله، ﴿وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾: من هذه الأمة.

﴿قُلْ أَغْنَىٰ اللَّهُ﴾: من المخلوقين ﴿أَتَنِي رِبَاً﴾؛ أي:

تفسير سورة الأعراف

مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الْمَصَّ ١﴾ كَتَبَ أَنْزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ لِئَنْذَرَبِهِ وَذَكَرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾ وَكَمْ مِنْ قَرِيبٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بِأَسْنَانٍ أَوْ هُمْ قَائِلُونَ ﴿٤﴾ فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءَهُمْ بِأَسْنَانٍ إِلَّا أَنْ قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٥﴾ فَلَنَسْتَأْذِنَ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْتَأْذِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٦﴾ فَلَنَقْضِيَّ عَلَيْهِمْ بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ ﴿٧﴾ ۞

﴿١﴾، ﴿٢﴾ يقول تعالى لرسوله محمد ﷺ مبيِّناً له عظمة القرآن: ﴿كَتَبَ أَنْزَلَ إِلَيْكَ﴾؛ أي: كتاب جليل حوى كل ما يحتاج إليه العباد وجميع المطالب الإلهية والمقاصد الشرعية محكماً مفصلاً. فلا يكن في صدرك منه ﴿حَرَجٌ﴾؛ أي: ضيق وشك واشتباه، بل لتعلم أنه تنزيل من حكيم حميد، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، فليشرح له صدرك، ولتطمئن به نفسك، ولتصدع بأوامره ونواهيه، ولا تخش لائماً ومعارضاً؛ ﴿لِئَنْذَرَبِهِ﴾: الخلق وتعظهم

وتذكرهم فتقوم الحجة على المعاندين، وليكن ذكرى ﴿لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿٦﴾؛ كما قال تعالى: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿٥٥﴾ [الذاريات: ٥٥]: يتذكرون به الصراط المستقيم، وأعماله الظاهرة والباطنة، وما يحول بين العبد وبين سلوكه.

﴿٣﴾ ثم خاطب الله العباد، ولفتهم إلى الكتاب، فقال: ﴿اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾؛ أي: الكتاب الذي أريد إنزاله لأجلكم، وهو ﴿مِّن رَّبِّكُمْ﴾، الذي يريد أن يتم تربيته لكم، فأنزل عليكم هذا الكتاب الذي إن اتبعتموه كملت تربيتكم وتمت عليكم النعمة وهديتم لأحسن الأعمال والأخلاق ومعاليها، ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾؛ أي: تتولونهم، وتتبعون أهواءهم، وتتركون لأجلها الحق، ﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ ﴿٣﴾: فلو تذكروا وعرفتم المصلحة؛ لما أثرت الضار على النافع والدعوى على الولي.

﴿٤﴾ ثم حذرهم عقوباته للأمم الذين كذبوا ما جاءتهم به رسلهم فلا يشابهوهم، فقال: ﴿وَكََمْ مِنْ قَرِيبٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بِأَسْنَانٍ﴾؛ أي: عذابنا الشديد، ﴿بَيْنَمَا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ﴾ ﴿٤﴾؛ أي: في حين غفلتهم وعلى غرتهم غافلون، لم يخطر الهلاك على قلوبهم، فحين جاءهم العذاب؛ لم يدفعوه عن أنفسهم، ولا أغنت عنهم آلهتهم التي كانوا يرجونهم، ولا أنكروا ما كانوا يفعلونه من الظلم والمعاصي.

﴿٥﴾ ﴿فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءَهُمْ بِأَسْنَانٍ إِلَّا أَنْ قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ ﴿٥﴾؛ كما قال تعالى: ﴿وَكََمْ قَصَصْنَا مِنْ قَرِيبٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ﴾ ﴿١١﴾ ﴿فَلَمَّا أَحْسَوْا بِأَسْنَانٍ إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْضُونَ﴾ ﴿١١﴾ لَا تَرْكَبُوا وَأَرْجِعُوا إِلَى مَا أَتَرَقْتُمْ فِيهِ وَمَسْكِيكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ ﴿١٢﴾ قَالُوا يُونُسَ إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ ﴿١٤﴾ فَمَا زَالَتْ تِلْكَ دَعْوَاهُمْ حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَامِدِينَ﴾ ﴿١٥﴾ [الأنبياء: ١١-١٥].

﴿٦﴾ وقوله: ﴿فَلَنَسْتَأْذِنَ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ﴾؛ أي: لنسألن الأمم الذين أرسل الله إليهم المرسلين عما أجابوا به رسلهم، ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ﴾ ﴿١٥﴾ [القصص: ٢٥]. ﴿وَلَنَسْتَأْذِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ ﴿٦﴾: عن تبليغهم لرسالات ربهم وعما أجابتهم به أمهم.

سورة الأعراف

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الْمَصَّ ١﴾ كَتَبَ أَنْزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ لِئَنْذَرَبِهِ وَذَكَرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾ وَكَمْ مِنْ قَرِيبٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بِأَسْنَانٍ أَوْ هُمْ قَائِلُونَ ﴿٤﴾ فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءَهُمْ بِأَسْنَانٍ إِلَّا أَنْ قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٥﴾ فَلَنَسْتَأْذِنَ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْتَأْذِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٦﴾ فَلَنَقْضِيَّ عَلَيْهِمْ بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ ﴿٧﴾ ۞

﴿١﴾، ﴿٢﴾ يقول تعالى لرسوله محمد ﷺ مبيِّناً له عظمة القرآن: ﴿كَتَبَ أَنْزَلَ إِلَيْكَ﴾؛ أي: كتاب جليل حوى كل ما يحتاج إليه العباد وجميع المطالب الإلهية والمقاصد الشرعية محكماً مفصلاً. فلا يكن في صدرك منه ﴿حَرَجٌ﴾؛ أي: ضيق وشك واشتباه، بل لتعلم أنه تنزيل من حكيم حميد، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، فليشرح له صدرك، ولتطمئن به نفسك، ولتصدع بأوامره ونواهيه، ولا تخش لائماً ومعارضاً؛ ﴿لِئَنْذَرَبِهِ﴾: الخلق وتعظهم

وتذكرهم فتقوم الحجة على المعاندين، وليكن ذكرى ﴿لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿٦﴾؛ كما قال تعالى: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿٥٥﴾ [الذاريات: ٥٥]: يتذكرون به الصراط المستقيم، وأعماله الظاهرة والباطنة، وما يحول بين العبد وبين سلوكه.

﴿٣﴾ ثم خاطب الله العباد، ولفتهم إلى الكتاب، فقال: ﴿اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾؛ أي: الكتاب الذي أريد إنزاله لأجلكم، وهو ﴿مِّن رَّبِّكُمْ﴾، الذي يريد أن يتم تربيته لكم، فأنزل عليكم هذا الكتاب الذي إن اتبعتموه كملت تربيتكم وتمت عليكم النعمة وهديتم لأحسن الأعمال والأخلاق ومعاليها، ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾؛ أي: تتولونهم، وتتبعون أهواءهم، وتتركون لأجلها الحق، ﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ ﴿٣﴾: فلو تذكروا وعرفتم المصلحة؛ لما أثرت الضار على النافع والدعوى على الولي.

﴿٤﴾ ثم حذرهم عقوباته للأمم الذين كذبوا ما جاءتهم به رسلهم فلا يشابهوهم، فقال: ﴿وَكََمْ مِنْ قَرِيبٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بِأَسْنَانٍ﴾؛ أي: عذابنا الشديد، ﴿بَيْنَمَا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ﴾ ﴿٤﴾؛ أي: في حين غفلتهم وعلى غرتهم غافلون، لم يخطر الهلاك على قلوبهم، فحين جاءهم العذاب؛ لم يدفعوه عن أنفسهم، ولا أغنت عنهم آلهتهم التي كانوا يرجونهم، ولا أنكروا ما كانوا يفعلونه من الظلم والمعاصي.

﴿٥﴾ ﴿فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءَهُمْ بِأَسْنَانٍ إِلَّا أَنْ قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ ﴿٥﴾؛ كما قال تعالى: ﴿وَكََمْ قَصَصْنَا مِنْ قَرِيبٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ﴾ ﴿١١﴾ ﴿فَلَمَّا أَحْسَوْا بِأَسْنَانٍ إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْضُونَ﴾ ﴿١١﴾ لَا تَرْكَبُوا وَأَرْجِعُوا إِلَى مَا أَتَرَقْتُمْ فِيهِ وَمَسْكِيكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ ﴿١٢﴾ قَالُوا يُونُسَ إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ ﴿١٤﴾ فَمَا زَالَتْ تِلْكَ دَعْوَاهُمْ حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَامِدِينَ﴾ ﴿١٥﴾ [الأنبياء: ١١-١٥].

﴿٦﴾ وقوله: ﴿فَلَنَسْتَأْذِنَ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ﴾؛ أي: لنسألن الأمم الذين أرسل الله إليهم المرسلين عما أجابوا به رسلهم، ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ﴾ ﴿١٥﴾ [القصص: ٢٥]. ﴿وَلَنَسْتَأْذِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ ﴿٦﴾: عن تبليغهم لرسالات ربهم وعما أجابتهم به أمهم.

﴿١١﴾ يقول تعالى مخاطباً لبني آدم: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ﴾: بخلق أصلكم ومادتكم التي منها خرجتم؛ أيكم آدم عليه السلام، ﴿ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ﴾: في أحسن صورة وأحسن تقويم، وعلمه الله تعالى ما به تكمل صورته الباطنة؛ أسماء كل شيء، ثم أمر الملائكة الكرام أن يسجدوا لآدم إكراماً واحتراماً وإظهاراً لفضله، فامتثلوا أمر ربهم، ﴿فَسَجَدُوا﴾ كلهم أجمعون ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ﴾: أبى أن يسجد له تكبراً عليه وإعجاباً بنفسه.

﴿١٢﴾ فوبخه الله على ذلك، وقال: ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدي؛ أي شرفته وفضلته بهذه الفضيلة التي لم تكن لغيره، فعصيت أمري وتهاونت بي. ﴿قَالَ﴾ إبليس معارضاً لربه: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ﴾، ثم برهن على هذه الدعوى الباطلة بقوله له: ﴿خَلَقَنِي مِنْ نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾: وموجب هذا أن المخلوق من نار أفضل من المخلوق من طين لعلو النار على الطين وصعودها.

وهذا القياس من أفسد الأقيسة؛ فإنه باطل من عدة أوجه: منها: أنه في مقابلة أمر الله له بالسجود، والقياس إذا عارض النص فإنه قياس باطل؛ لأن المقصود بالقياس أن يكون الحكم الذي لم يأت فيه نص يقارب الأمور المنصوص عليها ويكون تابعاً لها، فأما قياس يعارضها ويلزم من اعتباره إلغاء النصوص؛ فهذا القياس من أشنع الأقيسة.

ومنها: أن قوله: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ﴾؛ بمجردها كافية لنقص إبليس الخبيث؛ فإنه برهن على نقصه بإعجابه بنفسه وتكبره والقول على الله بلا علم، وأي نقص أعظم من هذا؟!

ومنها: أنه كذب في تفضيل مادة النار على مادة الطين والتراب؛ فإن مادة الطين فيها الخشوع والسكون والرزانة، ومنها تظهر بركات الأرض من الأشجار وأنواع النبات على اختلاف أجناسه وأنواعه، وأما النار؛ ففيها الخفة والطيش والإحراق.

﴿١٣﴾ ولهذا؛ لما جرى من إبليس ما جرى؛ انحط من مرتبته العالية إلى أسفل السافلين، فقال الله له: اهبط ﴿مِنْهَا﴾ أي: من الجنة، ﴿فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا﴾: لأنها دار الطيبين الطاهرين، فلا تليق بأخبث خلق الله وأشرهم، ﴿فَأَخْرَجَ إِنْكَ مِنَ الصَّنَعِينَ﴾: أي: المهانين الأذلين؛ جزاء على كبره وعجبه بالإهانة والذل.

﴿٧﴾ ﴿فَلَنُصَنِّعَ لَهُمْ﴾؛ أي: على المخلوق كلهم ما عملوا، ﴿يَعْمَلُونَ﴾: منه تعالى لأعمالهم، ﴿وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ﴾: في وقت من الأوقات؛ كما قال تعالى: ﴿أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنُوحُوهُ﴾ [المجادلة: ٦]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا قَوْكُمُ سَبْعَ طَرَائِقٍ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ﴾ [المؤمنون: ١٧].

ثم ذكر الجزاء على الأعمال، فقال:

﴿وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ ﴿٨﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ﴾ ﴿٩﴾.

﴿٨﴾ أي: والوزن يوم القيامة يكون بالعدل والقسط الذي لا جور فيه ولا ظلم بوجه. ﴿فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ﴾: بأن رجحت كفة حسناته على سيئاته، ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾: أي: الناجون من المكروه، المدركون للمحبوب، الذين حصل لهم الريح العظيم والسعادة الدائمة.

﴿٩﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ﴾: بأن رجحت سيئاته وصار الحكم لها، ﴿فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ﴾: إذ فاتهم النعيم المقيم وحصل لهم العذاب الأليم، ﴿بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ﴾: فلم ينقادوا لها كما يجب عليهم ذلك.

﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعِيشٌ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ﴾ ﴿١٠﴾.

﴿١٠﴾ يقول تعالى ممتناً على عباده بذكر المسكن والمعيشة: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ﴾؛ أي: هيأناها لكم بحيث تتمكنون من البناء عليها وحرثها ووجوه الانتفاع بها، ﴿وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعِيشٌ﴾: مما يخرج من الأشجار والنبات ومعادن الأرض وأنواع الصنائع والتجارات؛ فإنه هو الذي هيأها وسخر أسبابها، ﴿قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ﴾: الله الذي أنعم عليكم بأصناف النعم، وصرف عنكم النقم.

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ﴾ ﴿١١﴾ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقَنِي مِنْ نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ ﴿١٢﴾ قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ ﴿١٣﴾ قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤﴾ قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ ﴿١٥﴾.

سورة الأعراف

قَالَ مَا مَنَّكَ عَلَىٰ فَسَّادٍ كَذَّابٍ أَتَىٰ مَا مَنَعَهُ وَأَنشَأَ خَيْرٌ مِّنْ خَلْقِي مِن نَّارٍ
وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ﴿١٤﴾ قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ
فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ ﴿١٥﴾ قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ
﴿١٦﴾ قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ ﴿١٧﴾ قَالَ فِيمَا أُغْوِيَنِّي لِأَقْعُدَ لَهُمْ
صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿١٨﴾ ثُمَّ لَا تَجِدُ فِيهِمْ مِنْ أُبْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ
وَعَنْ أَيْمَنِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴿١٩﴾ قَالَ
اخْرُجْ مِنْهَا مَذْهُومًا مُّذْحَرًا لَّمَّا يَبْعَثُكَ مِنْهَا لِأَنَّهُمْ كَانُوا فِيهَا
أَجْعِينَ ﴿٢٠﴾ وَيَكَادُمُ السَّكَنُ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ
شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٢١﴾ فَوَسَّوَسَ
لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْآتِهِمَا وَقَالَ
مَا نَهَىٰكُمْ عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَن تَكُونَا مَلَكَتَيْنِ أَوْ تَكُونَا
مِنَ الْخَالِدِينَ ﴿٢٢﴾ وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَنَاصِحٌ حَقٌّ ﴿٢٣﴾ فَذَلَّلَهُمَا بِهَزْوٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفَفَا
بِخِصْفَانٍ عَلَيْهِمَا مِنْ رَّوْقِ الْجَنَّةِ وَكَادَتْهُمَا رُجُمًا أَلَّا أَنَّهُمَا
عَنِ الشَّجَرَةِ وَأَقْلَلُ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٤﴾ فَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّا تَغْفِرْ
لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٢٥﴾

﴿١٤﴾ ﴿١٥﴾ فلما أعلن عدو الله بعداوة الله وعداوة آدم
وذريته؛ سأل الله النظرة والإمهال إلى يوم البعث؛ ليتمكن
من إغواء ما يقدر عليه من بني آدم، ولما كانت حكمة الله
مقتضية لابتلاء العباد واختبارهم ليتبين الصادق من الكاذب
ومن يطيعه ومن يطيع عدوه؛ أجابه لما سأل، فقال: ﴿إِنَّكَ مِنَ
الْمُنظَرِينَ﴾ ﴿١٦﴾

﴿١٧﴾ ﴿١٨﴾ ﴿١٩﴾ قَالَ فِيمَا أُغْوِيَنِّي لِأَقْعُدَ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ثُمَّ
لَا تَجِدُ فِيهِمْ مِنْ أُبْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَنِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا
تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴿٢٠﴾

﴿٢١﴾ أي: قال إبليس لما أبلس وأيس من رحمة الله: ﴿فِيمَا
أُغْوِيَنِّي لِأَقْعُدَ لَهُمْ؟﴾ أي: للخلق ﴿صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾؟
أي: لألزم من الصراط، ولأسعى غاية جهدي على صد الناس
عنه وعدم سلوكهم إياه.

﴿٢٢﴾ ﴿٢٣﴾ ثُمَّ لَا تَجِدُ فِيهِمْ مِنْ أُبْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَنِهِمْ وَعَنْ
شَمَائِلِهِمْ؟ أي: من جميع الجهات والجوانب، ومن كل طريق
يتمكن فيه من إدراك بعض مقصوده فيهم، ولما علم الخبيث
أنهم ضعفاء قد تغلب الغفلة على كثير منهم، وكان جازما ببذل
مجهوده على إغوائهم؛ ظن - وصدق ظنه - فقال: ﴿وَلَا تَجِدُ
أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾ ﴿٢٤﴾ فإن القيام بالشكر من سلوك الصراط

المستقيم، وهو يريد صددهم عنه وعدم قيامهم به؛ قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَدْعُوا حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ ﴿٢٥﴾ [فاطر: ٦٦]، وإنما
نهى الله على ما قال، وعزم على فعله، لتأخذ منه حذرنا، ونستعد لعدونا، ونحترز منه بعلمنا بالطرق التي يأتي منها ومدخله
التي ينفذ منها؛ فله تعالى علينا بذلك أكمل نعمة.

﴿٢٦﴾ ﴿٢٧﴾ قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْهُومًا مُّذْحَرًا لَّمَّا يَبْعَثُكَ مِنْهَا لِأَنَّهُمْ كَانُوا فِيهَا
أَجْعِينَ ﴿٢٨﴾

﴿٢٩﴾ أي: قال الله لإبليس لما قال ما قال: ﴿اخْرُجْ مِنْهَا﴾: خروج صغار واحتقار، لا خروج إكرام، بل ﴿مَذْهُومًا﴾؛ أي:
مذموماً، ﴿مَذْهُومًا﴾: مبعداً عن الله وعن رحمته وعن كل خير. ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ﴾: منك وممن تبعك منهم ﴿أَجْعِينَ﴾: وهذا قسم من الله تعالى أن النار دار العصاة، لا بد أن يملأها من إبليس وأتباعه من الجن والإنس.

ثم حذر آدم شره وفتنته فقال:

﴿٣٠﴾ وَيَكَادُمُ السَّكَنُ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٣١﴾ فَوَسَّوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ
لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْآتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَن تَكُونَا مَلَكَتَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ ﴿٣٢﴾
وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَنَاصِحٌ حَقٌّ ﴿٣٣﴾ فَذَلَّلَهُمَا بِهَزْوٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفَفَا بِخِصْفَانٍ عَلَيْهِمَا مِنْ رَّوْقِ
الْجَنَّةِ وَكَادَتْهُمَا رُجُمًا أَلَّا أَنَّهُمَا عَنِ الشَّجَرَةِ وَأَقْلَلُ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٣٤﴾ فَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّا تَغْفِرْ
لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٣٥﴾

﴿٣٦﴾ أي: أمر الله تعالى آدم وزوجته حواء التي أنعم الله بها عليه ليسكن إليها أن يأكلا من الجنة حيث شاء ويتمتعاً فيها
بما أرادا؛ إلا أنه عين لهما شجرة ونهاهما عن أكلها، والله أعلم ما هي، وليس في تعيينها فائدة لنا، وحرّم عليهما أكلها؛ بدليل

قوله: ﴿فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ (١٩).

(٢٠) فلم يزا الا ممثلين لأمر الله حتى تغلغل إليهما عدوهما إبليس بمكره، فوسوس لهما وسوسة خدعهما بها وموه عليهما وقال: ﴿مَا تَهْكُمَا رَبَّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ﴾؛ أي: من جنس الملائكة، ﴿أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ﴾ (٢١)؛ كما قال في الآية الأخرى: ﴿هَلْ أَذُكَّ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَى﴾ (٢٢) [طه: ١٢٠].

(٢١) ومع قوله هذا أقسم لهما بالله: ﴿إِنِّي لَكُمَا لَئِنَ النَّاصِحِينَ﴾ (٢٣)؛ أي: من جملة الناصحين؛ حيث قلت لكما ما قلت.

(٢٢) فاعترأ بذلك، وغلبت الشهوة في تلك الحال على العقل، ﴿فَذَلَّهُمَا﴾؛ أي: نزلهما عن رتبتهما العالية التي هي البعد عن الذنوب والمعاصي إلى التلوث بأوصارها، فأقدا على أكلها، ﴿فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءُهُمَا﴾؛ أي: ظهرت عورة كل منهما بعدما كانت مستورة، فصار للعرى الباطن من التقوى في هذه الحال أثر في اللباس الظاهر حتى انخلع، فظهرت عوراتهما، ولما ظهرت عوراتهما؛ خجلا وجعلا يخصفان على عوراتهما من أوراق شجر الجنة ليسترا بذلك، ﴿وَوَدَّاهُمَا رَبُّهُمَا﴾؛ وهما بتلك الحال موبخا ومعاتبأ:

﴿أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكَ الشَّجَرَةِ وَأَقُلْتُ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ (٢٤)؛ فلم اقترفتما المنهي وأطعتما عدوكما!؟

(٢٣) فحينئذ من الله عليهما بالتوبة وقبولها، فاعترفا بالذنب، وسألا من الله مغفرته، فقالا: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (٢٥)؛ أي: قد فعلنا الذنب الذي نهيتنا عنه وأضرنا بأنفسنا باقتراف الذنب، وقد فعلنا سبب الخسار إن لم تغفر لنا بمحو أثر الذنب وعقوبته وترحمنا بقبول التوبة والمعافة من أمثال هذه الخطايا، فغفر الله لهما ذلك، ﴿وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى﴾ (٢٦) ثم أَجْنَبَهُ رَبُّهُ فَجَاءَ عَلَيْهِ وَهْدَى (٢٧) [طه: ١٢١، ١٢٢]. هذا وإبليس مستمر على طغيانه، غير مقلع من عصيانه؛ فمن أشبه آدم بالاقرار والندم والإقلاع إذا صدرت منه الذنوب؛ اجتباه ربه وهداه، ومن أشبه إبليس إذا صدر منه الذنب لا يزال يزداد من المعاصي؛ فإنه لا يزداد من الله إلا بعدأ.

﴿قَالَ اهْبِطَا بَعْضُكُمَا لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتْنٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ (٢٨) قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ (٢٩) يَبْنِي آدَمُ قَدِ أَزَلْنَا عَلَيْكَ لِبَاسًا يُورِي سَوَاءَ تَكُمُ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَلِكَ خَيْرٌ ذَلِكَ مِنْ ءَايَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ (٣٠).

(٢٨) أي: لما أهبط الله آدم وزوجته وذريتهما إلى الأرض؛ أخبرهما بحال إقامتهم فيها، وأنه جعل لهم فيها حياة، يتلوها الموت مشحونة بالامتحان والابتلاء، وأنهم لا يزالون فيها، يرسل إليهم رسله، وينزل عليهم كتبه، حتى يأيهم الموت فيدفنون فيها، ثم إذا استكملوا بعثهم الله، وأخرجهم منها إلى الدار التي هي الدار حقيقة، التي هي دار المقامة.

(٢٩) ثم امتن عليهم بما يسر لهم من اللباس الضروري واللباس الذي المقصود منه الجمال، وهكذا سائر الأشياء كالطعام والشراب والمراكب والمناكب، ونحوها قد يسر الله للعباد ضروريها ومكمل ذلك، وبين لهم أن هذا ليس مقصودا بالذات،

قَالَ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمَا لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتْنٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٢٨﴾ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴿٢٩﴾ يَبْنِي آدَمُ قَدِ أَزَلْنَا عَلَيْكَ لِبَاسًا يُورِي سَوَاءَ تَكُمُ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَلِكَ خَيْرٌ ذَلِكَ مِنْ ءَايَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٣٠﴾ يَبْنِي آدَمُ لَا يَفْنَىٰكُمْ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَ تَبَهُمَا إِنَّهُمَا بِرَبِّكُم هُوَ قَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَأْتِيهِمْ إِنْ جَاءَكُمَا الشَّيْطَانُ أُولَئِكَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آيَاتِنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّمَا اللَّهُ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٢﴾ قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴿٣٣﴾ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ إِنَّهُمْ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيََاءَ مِن دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٤﴾

مُتَهَدِّتُونَ ﴿٢٧﴾

﴿٢٧﴾ يقول تعالى مبيناً لفتح حال المشركين الذين يفعلون الذنوب وينسبون أن الله أمرهم بها: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً﴾: وهي كل ما يستفحش ويستفحش، ومن ذلك طوافهم بالبيت عراً، ﴿قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا﴾: وصدقوا في هذا، ﴿وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾: وكذبوا في هذا، ولهذا رد الله عليهم هذه النسبة، فقال: ﴿قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ﴾؛ أي: لا يليق بكمالهِ وحكمته أن يأمر عباده بتعاطي الفواحش، لا هذا الذي يفعله المشركون ولا غيره، ﴿أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ ﴿٢٨﴾: وأي افتراء أعظم من هذا؟

﴿٢٨﴾ ثم ذكر ما يأمر به، فقال: ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ﴾؛ أي: بالعدل في العبادات والمعاملات، لا بالظلم والجور، ﴿وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾؛ أي: توجهوا لله، واجتهدوا في تكميل العبادات، خصوصاً الصلاة، أقيموها ظاهراً وباطناً، ونقوها من كل مُتَقَصٍّ ومفسد. ﴿وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾؛ أي: قاصدين بذلك وجهه وحده لا شريك له، والدعاء يشمل دعاء المسألة ودعاء العبادة؛ أي: لا تريدون ولا تقصدون من الأغراض في دعائكم سوى عبودية الله ورضاه، ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ﴾: أول مرة ﴿تَعُولُونَ﴾ ﴿٢٩﴾: للبعث، فالقادر على بدء خلقكم قادر على إعادته، بل الإعادة أهون من البداية.

﴿٣٠﴾ ﴿فَرِيقًا﴾: منكم، ﴿هَدَى﴾: الله؛ أي: وفقهم للهداية ويسر لهم أسبابها وصرف عنهم موانعها، ﴿وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ﴾؛ أي: وجبت عليهم الضلالة بما تسببوا لأنفسهم وعملوا بأسباب الغواية. فإنهم ﴿اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾؛ ﴿وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيَاطِينَ وَلِيًّا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُبِينًا﴾ ﴿١١٨﴾ [النساء: ١١٩] ومن يتخذ الشيطان ولياً من دون الله؛ فقد خسر خسراناً مبيناً؛ فحين انسلخوا من ولاية الرحمن واستحبوا ولاية الشيطان؛ حصل لهم النصيب الوافر من الخذلان، ووكلوا إلى أنفسهم فخسروا أشد الخسران. وهم يحسبون ﴿أَنَّهُمْ مُتَهَدِّتُونَ﴾ ﴿٣١﴾: لأنهم انقلبت عليهم الحقائق، فظنوا الباطل حقاً والحق باطلاً.

وفي هذه الآيات دليل على أن الأوامر والنواهي تابعة للحكمة والمصلحة؛ حيث ذكر تعالى أنه لا يتصور أن يأمر بما تستفحشه وتكره العقول، وأنه لا يأمر إلا بالعدل والإخلاص.

وإنما أنزله الله ليكون معونة لهم على عبادته وطاعته، ولهذا قال: ﴿وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾: من اللباس الحسي؛ فإن لباس التقوى يستمر مع العبد ولا يلى ولا يبلى، وهو جمال القلب والروح، وأما اللباس الظاهري؛ فغايتة أن يستر العورة الظاهرة في وقت من الأوقات، أو يكون جمالاً للإنسان، وليس وراء ذلك منه نفع. وأيضاً؛ فبتقدير عدم هذا اللباس تنكشف عورته الظاهرة التي لا يضره كشفها مع الضرورة، وأما بتقدير عدم لباس التقوى؛ فإنها تنكشف عورته الباطنة، وينال الخزي والفضيحة. وقوله: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ ﴿٣٢﴾؛ أي: ذلك المذكور لكم من اللباس مما تذكرون به ما ينفعكم، ويضركم، وتستعينون باللباس الظاهر على الباطن.

﴿يَبْنِيْ اٰدَمَ لَا يَفْنٰىكُمْ الشَّيْطٰنُ كَمَا اَخْرَجَ اٰبَوَيْكُمْ مِّنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسًا لِّرِيْهِمَا سَوَءًا تَمَتُّوا اِنَّهٗ يَرٰىكُمْ هُوَ وَقَبِيْلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرٰوْنَهُمْ اِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِيْنَ اَوْلِيَآءَ لِلَّذِيْنَ لَا يُؤْمِنُوْنَ﴾ ﴿٣٣﴾

﴿٣٣﴾ يقول تعالى محذراً لبني آدم أن يفعل بهم الشيطان كما فعل بأبيهم: ﴿يَبْنِيْ اٰدَمَ لَا يَفْنٰىكُمْ الشَّيْطٰنُ﴾: بأن يزين لكم العصيان ويدعوكم إليه ويرغبكم فيه فتفقدون له، ﴿كَمَا اَخْرَجَ اٰبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ﴾: وأنزلهما من المحل العالي إلى أنزل منه؛ فأنتم تريد أن يفعل بكم كذلك ولا يالو جهده عنكم حتى يفتنكم إن استطاع؛ فعليكم أن تجعلوا الحذر منه في بالك، وأن تلبسوا لأمة الحرب بينكم وبينه، وألاً تغفلوا عن المواضع التي يدخل منها إليكم. فإنه يراقبكم على الدوام، ﴿وَيَرٰىكُمْ هُوَ وَقَبِيْلُهُ﴾: من شياطين الجن ﴿وَمِنْ حَيْثُ لَا تَرٰوْنَهُمْ اِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِيْنَ اَوْلِيَآءَ لِلَّذِيْنَ لَا يُؤْمِنُوْنَ﴾ ﴿٣٤﴾: فعدم الإيمان هو الموجب لعقد الولاية بين الإنسان والشيطان. ﴿اِنَّهٗ لَيْسَ لَهُ سُلْطٰنٌ عَلَى الْاٰدَمِيْنَ اٰمَنُوْا وَعَلٰى رَبِّيْهِمْ يَتَوَكَّلُوْنَ﴾ ﴿٣٥﴾: إنما سلطنته على الآدميين يتولونهم والذين هم به مشركون ﴿٣٦﴾ [النحل: ٩٩، ١٠٠].

﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ ﴿٣٧﴾ قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُولُونَ ﴿٣٨﴾ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ إِنَّهُمْ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَآءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ

وفيه دليل على أن الهداية بفضل الله ومنه، وأن الضلالة بخذلانه للعبد إذ تولى - بجهله وظلمه - الشيطان، وتسبب لنفسه بالضلال، وأن من حسب أنه مهتد وهو ضال فإنه لا عذر له؛ لأنه متمكن من الهدى، وإنما آتاه حسابه من ظلمه بترك الطريق الموصل إلى الهدى.

﴿يَبْنِيْءَ آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾﴾

﴿٣١﴾ يقول تعالى بعدما أنزل على بني آدم لباساً يوارى سواتهم وريشاً: ﴿يَبْنِيْءَ آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾؛ أي: استروا عوراتكم عند الصلاة كلها فرضها ونفلها؛ فإن سترها زينة للبدن؛ كما أن كشفها يدع البدن قبيحاً مشوهاً، ويحتمل أن المراد بالزينة هنا ما فوق ذلك من اللباس النظيف الحسن. ففي هذا الأمر بستر العورة في الصلاة وباستعمال التجميل فيها ونظافة السترة من الأدناس والأنجاس. ثم قال: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا﴾؛ أي: مما رزقكم الله من الطيبات، ﴿وَلَا تُسْرِفُوا﴾؛ في ذلك، والإسراف إما أن يكون بالزيادة على القدر الكافي والشره في المأكولات التي تضر بالجسم، وإما أن يكون بزيادة الترفه والتتوق في المأكول والمشارب واللباس، وإما بتجاوز الحلال إلى المحرام. ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾﴾

فإن السرف ييغضه الله، ويضر بدن الإنسان ومعيشته، حتى إنه ربما أدت به الحال إلى أن يعجز عما يجب عليه من النفقات. ففي هذه الآية الكريمة الأمر بتناول الأكل والشرب والنهي عن تركهما وعن الإسراف فيهما.

﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَمَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣٢﴾﴾ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا نَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾﴾

﴿٣٢﴾ يقول تعالى منكرًا على من تعنت وحرم ما أحل الله من الطيبات: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ﴾؛ من أنواع اللباس على اختلاف أصنافه والطيبات من الرزق من مأكول ومشرب بجميع أنواعه؛ أي: من هذا الذي يقدم على تحريم ما أنعم الله به على العباد؟ ومن ذا الذي يضيق عليهم ما وسعه الله؟ وهذا التوسيع من الله لعباده بالطيبات جعله لهم ليستعينوا به على عبادته فلم يبيحه إلا لعباده المؤمنين، ولهذا قال: ﴿قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾؛ أي: لا تبعة عليهم فيها. ومفهوم الآية أن من لم يؤمن بالله، بل استعان بها على معاصيه؛ فإنها غير خالصة له ولا مباحة، بل يعاقب عليها وعلى التمتع بها، ويسأل عن النعيم يوم القيامة. ﴿كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ﴾؛ أي: نوضحها ونبينها، ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣٢﴾﴾؛ لأنهم الذين ينتفعون بما فصله الله من الآيات، ويعلمون أنها من عند الله، فيعقلونها ويفهمونها.

﴿٣٣﴾ ثم ذكر المحرمات التي حرّمها الله في كل شريعة من الشرائع، فقال: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ﴾؛ أي: الذنوب الكبار التي تستفحش، وتستقبح لشناعتها وقبحها، وذلك كالزنا واللواط ونحوهما. وقوله: ﴿مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾؛ أي: الفواحش التي تتعلق بحركات البدن والتي تتعلق بحركات القلوب؛ كالكبر والعجب والرياء والنفاق ونحو ذلك، ﴿وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾؛ أي: الذنوب التي تؤثم وتوجب العقوبة في حقوق الله، والبغى على الناس في دمائهم وأموالهم وأعراضهم.

سورة الاعراف
يَبْنِيْءَ آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَمَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣٢﴾ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا نَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْذِنُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِرُونَ ﴿٣٤﴾ يَبْنِيْءَ آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَاتٍ فَمَنْ أَتَقْنَى وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٥﴾ وَالَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٣٦﴾ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ أُولَٰئِكَ يَنْهَكُمُ نَصِيحُهُمْ مِنْ الْكِتَابِ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُمْ ثُمَّ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوا أَتَيْنَا مَا كُنْتُمْ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا وَشَهِدُوا عَلَٰئِ أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ ﴿٣٧﴾

فدخل في هذا الذنوب المتعلقة بحق الله والمتعلقة بحق العباد، ﴿وَأَنْ تَشْكُرُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يَزَلْ يَوْءُ سُلْطَانًا﴾؛ أي: حجة، بل أنزل الحجة والبرهان على التوحيد. والشرك هو أن يُشرك مع الله في عبادته أحد من الخلق، وربما دخل في هذا الشرك الأصغر؛ كالرياء والحلف بغير الله ونحو ذلك، ﴿وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ (٣٢)؛ في أسمائه وصفاته وأفعاله وشرعه؛ فكل هذه قد حرّمها الله ونهى العباد عن تعاطيها؛ لما فيها من المفساد الخاصة والعامة، ولما فيها من الظلم والتجري على الله والاستطالة على عباد الله وتغيير دين الله وشرعه.

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ (٣١).

﴿٣١﴾ أي: وقد أخرج الله بني آدم إلى الأرض، وأسكنهم فيها، وجعل لهم أجلاً مسمى، لا تتقدم أمة من الأمم على وقتها المسمى ولا تتأخر، لا الأمم المجتمعة ولا أفرادها.

﴿يَبْنِيٰٓ ءَادَمَ إِمَآ يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌۭ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمۡ ءَايَٰتِيۡ فَمَنۢ أَتَقَىٰ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (٣٥) ﴿وَالَّذِينَ كَذَبُوا۟ بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا۟ عَنْهَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (٣٦).

﴿٣٥﴾ لما أخرج الله بني آدم من الجنة؛ ابتلاهم بإرسال الرسل وإنزال الكتب عليهم يقصون عليهم آيات الله ويبينون لهم أحكامه. ثم ذكر فضل من استجاب لهم وخسار من لم يستجب لهم، فقال: ﴿فَمَنۢ أَتَقَىٰ﴾؛ ما حرم الله من الشرك والكبائر والصغائر، ﴿وَأَصْلَحَ﴾؛ أعماله الظاهرة والباطنة، ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾؛ من الشر الذي قد يخافه غيرهم، ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (٣٥)؛ على ما مضى. وإذا اتقى الخوف والحزن؛ حصل الأمن التام والسعادة والفلاح الأبدي.

﴿٣٦﴾ ﴿وَالَّذِينَ كَذَبُوا۟ بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا۟ عَنْهَا﴾؛ أي: لا آمنتم بها قلوبهم ولا انقادت لها جوارحهم، ﴿أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (٣٦)؛ كما استهانوا بآياته، ولازموا التكذيب بها؛ أهينوا بالعذاب الدائم الملازم.

﴿فَمَنۢ أَظْلَمُ مِمَّنۢ أَفْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِۦٓ أُولَٰئِكَ يَنَٰلُهُمْ نَصِيبُهُمۡ مِّنَ الْعَذَابِ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَقَّوْنَهُمْ قَالُوا۟ أَنِنۡ مَا كُنْتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ قَالُوا۟ ضَلُّوا۟ عَنَّا

وَشَهِدُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَنَّهُمْ كَاٰفِرُونَ﴾ (٣٧) ﴿قَالَ ادْخُلُوا۟ فِيٓ أُمَمٍۭ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ فِي النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّىٰٓ إِذَا آذَرَكُوۡا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَيْنَاهُ لِأَوْلٰٓئِهِمۡ رَبَّنَا هَٰؤُلَآءِ أَصْلَحُوا۟ مِنَّا فَأَنۢبَأَهُمۡ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ النَّارِ قَالَ لِكُلِّ ضِعْفٌ وَلٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ﴾ (٣٨) ﴿وَقَالَتْ أُولَٰئِكَ لَآخِرَتُهُمۡ فَمَا كَانَتْ لَكُمۡ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ فذُقُوا۟ الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ (٣٩).

﴿٣٧﴾ أي: لا أحد أظلم ﴿مِمَّنۢ أَفْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾؛ بنسبة الشريك له والنقص له والتقول عليه ما لم يقل، ﴿أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ﴾؛ الواضحة المبينة للحق المبين، الهادية إلى الصراط المستقيم؛ فهؤلاء وإن تمتعوا بالدنيا ونالهم نصيبهم مما كان مكتوباً لهم في اللوح المحفوظ؛ فليس ذلك بمنع عنهم شيئاً، يتمتعون قليلاً ثم يعذبون طويلاً. ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُمۡ رُسُلُنَا يَتَوَقَّوْنَهُمْ﴾؛ أي: الملائكة الموكلون بقبض أرواحهم واستيفاء آجالهم، ﴿قَالُوا۟﴾؛ لهم في تلك الحالة توبيخاً وعتاباً: ﴿أَنۡ مَا كُنْتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾؛ من الأصنام والأوثان؛ فقد جاء وقت الحاجة إن كان فيها منفعة لكم أو دفع مضرة، ﴿قَالُوا۟ ضَلُّوا۟ عَنَّا﴾؛ أي: اضمحلوا وطلوا، وليسوا مغنين عنا من عذاب الله من شيء، ﴿وَشَهِدُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَنَّهُمْ كَاٰفِرُونَ﴾ (٣٧)؛ مستحقين للعذاب المهيمن الدائم.

﴿٣٨﴾، ﴿٣٩﴾ فقالت لهم الملائكة: ﴿ادْخُلُوا۟ فِيٓ أُمَمٍ﴾؛ أي: في جملة أمة ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ﴾؛ أي: مضوا على ما مضيت عليهم من الكفر والاستكبار، فاستحق الجميع الخزي والبوار. ﴿كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ﴾؛ من الأمم العاتية النار، ﴿لَعَنَتْ أُخْتَهَا﴾؛ كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ يَوْمَ الْقِيٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَلَيَعَنَّ بَعْضُكُمۡ بِبَعْضٍ﴾ [النبوت: ٢٥]، ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا آذَرَكُوۡا فِيهَا جَمِيعًا﴾؛ أي: اجتمع في النار جميع أهلها من الأولين والآخرين والقادة والرؤساء والمقلدين الأتباع، ﴿قَالَتْ أُخْرَيْنَاهُ﴾؛ أي: متأخروهم المتبعون للرؤساء، ﴿لِأَوْلٰٓئِهِمۡ رَبَّنَا هَٰؤُلَآءِ أَصْلَحُوا۟ مِنَّا فَأَنۢبَأَهُمۡ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ النَّارِ﴾؛ أي: عذبهم عذاباً مضاعفاً لأنهم أضلونا وزينوا لنا الأعمال الخبيثة.

﴿وَقَالَتْ أُولَٰئِكَ لَآخِرَتُهُمۡ لِأَخْرَيْنَاهُمۡ﴾؛ أي: الرؤساء قالوا لأتباعهم: ﴿فَمَا كَانَتْ لَكُمۡ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ﴾؛ أي: قد اشترطنا جميعاً

في الغي والضلال، وفي فعل أسباب العذاب؛ فأبي فضل لكم علينا؟ ﴿قَالَ﴾ الله: ﴿لِكُلِّ﴾ منكم ﴿ضِعْفٌ﴾: ونصيب من العذاب، ﴿فَذَرُوا الْعَذَابَ﴾ بما كنتم تكسبون ﴿٣٨﴾: ولكنه من المعلوم أن عذاب الرؤساء وأئمة الضلال أبلغ وأشنع من عذاب الأتباع؛ كما أن نعيم أئمة الهدى ورؤسائه أعظم من ثواب الأتباع؛ قال تعالى: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ﴾ بما كانوا يفعلون ﴿٣٩﴾ [النحل: ٨٨]. فهذه الآيات ونحوها دلت على أن سائر أنواع المكذبين بآيات الله مخلدون في العذاب مشتركون فيه وفي أصله، وإن كانوا متفاوتين في مقداره بحسب أعمالهم وعنادهم وظلمهم وافترائهم وأن مودتهم التي كانت بينهم في الدنيا تنقلب يوم القيامة عداوة وملاعة.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تَفْتَحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سِرِّ الْحَيَاطِ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ﴾ ﴿٤٠﴾ ﴿لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ ﴿٤١﴾.

﴿٤٠﴾ يخبر تعالى عن عقاب من كذب بآياته فلم يؤمن بها مع أنها آيات بينات واستكبر عنها فلم ينقد لأحكامها، بل كذب وتولى، أنهم آيسون من كل خير؛ فلا تفتح أبواب السماء لأرواحهم إذا ماتوا، وصعدت تريد العروج إلى الله، فتستأذن، فلا يؤذن لها؛ كما لم تصعد في الدنيا إلى الإيمان بالله ومعرفته ومحبته، كذلك لا تصعد بعد الموت؛ فإن الجزاء من جنس العمل.

ومفهوم الآية أن أرواح المؤمنين المنقادين لأمر الله المصدقين بآياته تفتح لها أبواب السماء حتى تعرج إلى الله، وتصل إلى حيث أراد الله من العالم العلوي، وتتهج بالقرب من ربها والخطوة برضوانه. وقوله عن أهل النار: ﴿وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ﴾: وهو البعير المعروف ﴿فِي سِرِّ الْحَيَاطِ﴾؛ أي: حتى يدخل البعير الذي هو من أكبر الحيوانات جسمًا في خرق الإبرة الذي هو من أضيق الأشياء. وهذا من باب تعليق الشيء بالمحال؛ أي: فكما أنه محال دخول الجمل في سم الخياط؛ فكذلك المكذبون بآيات الله محال دخولهم الجنة؛ قال تعالى: ﴿إِنَّهُ مَنْ يَشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ﴾ [المائدة: ٧٢]؛ وقال هنا: ﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ﴾ ﴿٤١﴾؛ أي: الذين كثر إجرامهم، واشتد ظغيمانهم.

﴿لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ﴾؛ أي: فراش من تحتهم، ﴿وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ﴾؛ أي: ظلل من العذاب تغشاهم، ﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ ﴿٤١﴾: لأنفسهم جزاء وفاقا، وما ريك بظلام للعبيد.

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ ﴿٤٢﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رَسُولُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ وَنُودُوا أَنْ تِلْكَ الْجَنَّةُ أَوْرِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ ﴿٤٣﴾.

﴿٤٢﴾ لما ذكر تعالى عقاب العاصين الظالمين؛ ذكر ثواب المطيعين، فقال: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾: بقلوبهم، ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾: بجوارحهم؛ فجمعوا بين الإيمان والعمل، بين الأعمال الظاهرة والأعمال الباطنة، بين فعل الواجبات وترك المحرمات، ولما كان قوله: ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ لفظًا عامًا يشمل جميع الصالحات الواجبة والمستحبة، وقد يكون

سورة الأعراف
سورة الأعراف
قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ فِي النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّى إِذَا دَارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أَخْرِجْنَهُمْ لِأَوْلَانِهِمْ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَخَرَّجْنَهُمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِنَ النَّارِ قَالَ لِكُلِّ ضِعْفٍ وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ وَقَالَتْ أُولَاهُمْ لِأَخْرَجْنَهُمْ فَمَا كَانَتْ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ فَذَرُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تَفْتَحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سِرِّ الْحَيَاطِ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ ﴿٤٠﴾ لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴿٤١﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٤٢﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رَسُولُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ وَنُودُوا أَنْ تِلْكَ الْجَنَّةُ أَوْرِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾

بعضها غير مقدور للعبد؛ قال تعالى: ﴿لَا تُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾؛ أي: بمقدار ما تسعه طاقتها ولا يعسر على قدرتها؛ فعلها في هذه الحال أن تقى الله بحسب استطاعتها، وإذا عجزت عن بعض الواجبات التي يقدر عليها غيرها؛ سقطت عنها؛ كما قال تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَّا عَاتَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦]، ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَّا عَاتَهَا﴾ [الطلاق: ١٧]، ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكَ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: ١٧٨]، ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: ١٦]؛ فلا واجب مع العجز، ولا محرم مع الضرورة. ﴿أُولَئِكَ﴾؛ أي: المتصفون بالإيمان والعمل الصالح، ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [٤٣]؛ أي: لا يحولون عنها ولا ييغون بها بدلاً؛ لأنهم يرون فيها من أنواع اللذات وأصناف المشتيات ما تقف عنده الغايات، ولا يطلب أعلى منه.

﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ﴾: وهذا من كرمه وإحسانه على أهل الجنة؛ أن الغل الذي كان موجوداً في قلوبهم والتنافس الذي بينهم أن الله يقلعه ويزيله حتى يكونوا إخواناً متحابين وأخلاء متصافين؛ قال تعالى: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ﴾ [الحجر: ٤٧]، ويخلق الله لهم من الكرامة ما به يحصل لكل واحد منهم الغبطة والسرور، ويرى أنه لا فوق ما هو فيه من النعيم نعيم؛ فهذا يأمنون من التحاسد والتباغض؛ لأنه قد فقدت أسبابه. وقوله: ﴿تَجَرَّى مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ﴾؛ أي: يفجرونها تفجيراً حيث شاءوا وأين أرادوا، إن شاءوا في خلال القصور أو في تلك الغرف العاليات أو في رياض الجنات من تحت تلك الحدائق الزاهرات، أنهار تجري في غير أخذود، وخيرات ليس لها حد محدود. ولهذا لما رأوا ما أنعم الله عليهم وأكرمهم به قالوا: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا﴾؛ بأن من علينا وأوحى إلى قلوبنا فأمنت به وانقادت للأعمال الموصلة إلى هذه الدار، وحفظ الله علينا إيماننا وأعمالنا حتى أوصلنا بها إلى هذه الدار، فنعم الرب الكريم الذي ابتدأنا بالنعيم، وأسدى من النعم الظاهرة والباطنة ما لا يحصى المحصون ولا يعده العادون. ﴿وَمَا كُنَّا لِنَهْدِيَ لَوْلَا أَنَّ هَدَانَا اللَّهُ﴾؛ أي: ليس في نفوسنا قابلية للهدى، لولا أنه تعالى من بهدائيه واتباع رسله، ﴿لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا بِالْحَقِّ﴾؛ أي: حين كانوا يتمتعون بالنعيم الذي أخبر به الرسل وصار حق يقين لهم بعد أن كان علم يقين لهم قالوا: لقد تحققنا ورأينا ما وعدتنا به الرسل وأن جميع ما جاءوا به حق اليقين لامية فيه ولا إشكال. ﴿وَنُودُوا﴾: نهتة لهم وإكراماً وتحية واحتراماً ﴿أَنْ تَلْكُمْ الْجَنَّةُ أُورَثْتُمُوهَا﴾؛ أي: كنتم الوارثين لها، وصارت إقطاعاً لكم إذ كان إقطاع الكفار النار، أورثتموها ﴿بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [٤٣]؛ قال بعض السلف: أهل الجنة نجوا من النار بعفو الله، وأدخلوا الجنة برحمة الله، واقتسموا المنازل، وورثوها بالأعمال الصالحة، وهي من رحمته، بل من أعلى أنواع رحمته.

﴿وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ النَّارِ أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ فَإِنَّهُمْ أَن لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ [٤٤] الذين يصدون عن سبيل الله ويغوونها عوجاً وهم بالآخرة كفرون [٤٥].

﴿وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ النَّارِ أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ فَإِنَّهُمْ أَن لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ [٤٤] الذين يصدون عن سبيل الله ويغوونها عوجاً وهم بالآخرة كفرون [٤٥].

يقول تعالى بعدما ذكر استقرار كل من الفريقين في الدارين ووجدا ما أخبر به الرسل ونطقت به الكتب من الثواب والعقاب: إن أهل الجنة نادوا أصحاب النار بأن قالوا: ﴿أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا﴾؛ حين وعدنا على الإيمان والعمل الصالح الجنة، فأدخلناها وأرانا ما وصفه لنا، ﴿فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ﴾؛ على الكفر والمعاصي ﴿حَقًّا قَالُوا نَعَمْ﴾؛

معهم في الجنة ويحيونهم ويسلمون عليهم، وعند انصراف أبصارهم بغير اختيارهم لأهل النار يستجيرون بالله من حالهم هذا على وجه العموم.

﴿٤٨﴾ ثم ذكر الخصوص بعد العموم، فقال: ﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُمْ بِسْمَتِهِمْ﴾: وهم من أهل النار، وقد كانوا في الدنيا لهم أبهة وشرف وأموال وأولاد، فقال لهم أصحاب الأعراف حين رأوهم منفردين في العذاب بلا ناصر ولا مغيث: ﴿مَا أَغْنَىٰ عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ﴾: في الدنيا الذي تستدفعون به المكارة، وتوسلون به إلى مطالبكم في الدنيا؛ فالיום اضمحل ولا أغنى عنكم شيئاً، وكذلك أي شيء نفعكم استكباركم على الحق وعلى ما جاء به وعلى من اتبعه؟! ١

﴿٤٩﴾ ثم أشاروا لهم إلى أناس من أهل الجنة كانوا في الدنيا فقراء ضعفاء يستهزئ بهم أهل النار، فقالوا لأهل النار: ﴿أَهْوَلَاءَ﴾: الذين أدخلهم الله الجنة، ﴿الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ﴾: احتقاراً لهم وازدراء وإعجاباً بأنفسكم، قد حشتم في أيمانكم، وبدا لكم من الله ما لم يكن لكم في حساب. ﴿أَدْخُلُوا الْجَنَّةَ﴾: بما كنتم تعملون؛ أي: قيل لهؤلاء الضعفاء إكراماً واحتراماً: ادخلوا الجنة بأعمالكم الصالحة، ﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ﴾: فيما يستقبل من المكارة، ﴿وَلَا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ﴾: على ما مضى، بل آمنون مطمئنون فرحون بكل خير. وهذا كقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا يَضْحَكُونَ﴾ (١٩) وإذا مروا بهم يتغامزون ﴿٢٠﴾ إلى أن قال: ﴿فَالْيَوْمَ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ﴾ (٢١) على آلآذَانِكِ يَنْظُرُونَ ﴿٢٢﴾ [المطففين: ٢٩-٣٥].

واختلف أهل العلم والمفسرون من هم أصحاب الأعراف وما أعمالهم، والصحيح من ذلك أنهم قوم تساوت حسناتهم وسيئاتهم؛ فلا رجحت سيئاتهم فدخلوا النار، ولا رجحت حسناتهم فدخلوا الجنة، فصاروا في الأعراف ما شاء الله، ثم إن الله تعالى يدخلهم برحمته الجنة؛ فإن رحمته تسبق وتغلب غضبه، ورحمته وسعت كل شيء.

﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ (٥٠) الَّذِينَ أَتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَوةُ الدُّنْيَا قَالِیْمٌ نَنسَهُمْ كَمَا نَسُوا

قد وجدناه حقاً، فنبين للخلق كلهم بياناً لا شك فيه صدق وعد الله، ومن أصدق من الله قيلاً، وذهبت عنهم الشكوك والشبه، وصار الأمر حق اليقين، وفرح المؤمنون بوعد الله واغبطوا، وأيس الكفار من الخير، وأقروا على أنفسهم بأنهم مستحقون للعذاب. ﴿فَأَذَنُ مَوْذِنٌ يَنبَغُ﴾: أي: بين أهل النار وأهل الجنة بأن قال: ﴿أَنْ لَّكُنَّ اللَّهُ﴾: أي: بعده وإقصاؤه عن كل خير ﴿عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ (٤٤): إذ فتح الله لهم أبواب رحمته، فصدفوا أنفسهم عنها ظلماً وصدوا عن سبيل الله بأنفسهم وصدوا غيرهم فضلو وأضلوا. والله تعالى يريد أن تكون مستقيمة ويعتدل سير السالكين إليه، وهؤلاء يريدونها ﴿عَوَجًا﴾: منحرفة صادة عن سواء السبيل. ﴿وَهُمْ بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ﴾ (٤٥): وهذا الذي أوجب لهم الانحراف عن الصراط والإقبال على شهوات النفوس المحرمة عدم إيمانهم بالبعث، وعدم خوفهم من العقاب ورجائهم للثواب. ومفهوم هذا النداء أن رحمة الله على المؤمنين، وبه شامل لهم، وإحسانه متواتر عليهم.

﴿وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسْمَتِهِمْ وَنَادَوْا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ سَلِّمُوا عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ﴾ (٤٦) وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَرُهُمْ إِلَافَةً أَصْحَابُ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٤٧﴾ وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُمْ بِسْمَتِهِمْ قَالُوا مَا أَغْنَىٰ عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٨﴾ أَهْوَلَاءَ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ أَدْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٤٩﴾.

﴿٤٦﴾ أي: وبين أصحاب الجنة وأصحاب النار حجاب يقال له: الأعراف، لا من الجنة ولا من النار، يشرف على الدارين، وينظر من عليه حال الفريقين، وعلى هذا الحجاب رجال يعرفون كلا من أهل الجنة والنار بسيماهم؛ أي: علاماتهم التي بها يعرفون ويميزون؛ فإذا نظروا إلى أهل الجنة؛ نادوهم: ﴿أَنْ سَلِّمُوا عَلَيْكُمْ﴾: أي: يحيونهم ويسلمون عليهم، وهم إلى الآن لم يدخلوا الجنة، ولكنهم يطمعون في دخولها، ولم يجعل الله الطمع في قلوبهم إلا لما يريد بهم من كرامته.

﴿٤٧﴾ وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَرُهُمْ إِلَافَةً أَصْحَابُ النَّارِ: ورأوا منظراً شنيعاً وهولاً فظيماً، ﴿قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ (٤٧): فأهل الجنة إذا رآهم أهل الأعراف يطمعون أن يكونوا

سورة الأعراف

سورة الأعراف

لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا وَمَا كَانُوا بِتَابِعِينَ يَجْحَدُونَ ﴿٥١﴾ وَلَقَدْ جِئْتَهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ غَيْرِ هُدًى وَرَحْمَةٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلَهُ يَقُولُ الَّذِينَ كُنُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا بِالْحَقِّ فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٥٣﴾

﴿٥١﴾ - ﴿٥٢﴾ أي: ينادي أصحاب النار أصحاب الجنة حين يبلغ منهم العذاب كل مبلغ وحين يمسه الجوع المفرط والظمأ الموجع؛ يستغيثون بهم فيقولون: ﴿أَقْبِضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ﴾ من الطعام، فأجابهم أهل الجنة بقولهم: ﴿إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا﴾ أي: ماء الجنة وطعامها ﴿عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ وذلك جزاء لهم على كفرهم بآيات الله واتخاذهم دينهم الذي أمروا أن يستقيموا عليه ووعدوا بالجزاء الجزيل عليه ﴿لَهُوَ وَلَيْسَ﴾ أي: لهت قلوبهم وأعرضت عنه ولعبوا واتخذوه سخرى، أو أنهم جعلوا بدل دينهم اللهو واللعب، واستعاضوا بذلك عن الدين القيم، ﴿وَعَرَّتْهُمْ الْحَيَوةُ الدُّنْيَا﴾ بزيتها وزخرفها وكثرة دعائها، فاطمأنوا إليها ورضوا بها وفرحوا وأعرضوا عن الآخرة ونسوها. ﴿فَالْيَوْمَ نَنْسَهُمْ﴾ أي: نتركهم في العذاب،

﴿كَمَا سَأَلُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا﴾ فكانهم لم يخلقوا إلا للدنيا، وليس أمامهم عرض ولا جزاء، ﴿وَمَا كَانُوا بِتَابِعِينَ يَجْحَدُونَ﴾ والحال أن جحودهم هذا لا عن قصور في آيات الله وبيناته، بل قد ﴿جِئْتَهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ﴾ أي: بينا فيه جميع المطالب التي يحتاج إليها الخلق ﴿عَلَىٰ غَيْرِ﴾ من الله بأحوال العباد في كل زمان ومكان، وما يصلح لهم وما لا يصلح ليس تفصيله تفصيل غير عالم بالأمور، فتجهله بعض الأحوال فيحكم حكماً غير مناسب، بل تفصيل من أحاط علمه بكل شيء ووسعت رحمته كل شيء. ﴿هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ أي: تحصل للمؤمنين بهذا الكتاب الهداية من الضلال وبيان الحق والباطل والغي والرشد، ويحصل أيضاً لهم به الرحمة، وهي الخير والسعادة في الدنيا والآخرة، فينتفي عنهم بذلك الضلال والشقاء.

﴿٥٣﴾ وهؤلاء الذين حق عليهم العذاب لم يؤمنوا بهذا الكتاب العظيم ولا انقادوا لأوامره ونواهيه، فلم يبق فيهم حيلة إلا استحقاقهم أن يحل بهم ما أخبر به القرآن، ولهذا قال: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ﴾ أي: وقى ما أخبر به؛ كما قال يوسف عليه السلام حين وقعت رؤياه: ﴿هَذَا تَأْوِيلُ رَأْيِي مِنْ قَبْلُ﴾ [يوسف: ١٠٠]. ﴿يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلَهُ يَقُولُ الَّذِينَ كُنُوهُ مِنْ قَبْلُ﴾: متندمين متأسفين على ما مضى متشفعين في مغفرة ذنوبهم مقرين بما أخبرت به الرسل: ﴿قَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا بِالْحَقِّ فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ﴾ إلى الدنيا؛ ﴿فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾: وقد فات الوقت عن الرجوع إلى الدنيا؛ فما تنفعهم شفاعة الشافعين. وسؤالهم الرجوع إلى الدنيا ليعملوا غير عملهم كذب منهم، مقصودهم به دفع ما حل بهم؛ قال تعالى: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا هُوَ عَنْهُمْ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [الأنعام: ٢٨]. ﴿قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ﴾: حين فوتوها الأرباح وسلوكوا بها سبيل الهلاك، وليس ذلك كخسران الأموال والأثاث أو الأولاد، إنما هذا خسران لا جبران لمصابه. ﴿وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾: في الدنيا مما تمنىهم أنفسهم به، ويعدهم به الشيطان، قدموا على ما لم يكن لهم في حساب، وتبين لهم باطلهم وضلالهم، وصدق ما جاءتهم به الرسل.

ولما ذكر من عظمته وجلاله ما يدل ذوي الأبواب على أنه وحده المعبود المقصود في الحوائج كلها؛ أمر بما يترتب على ذلك، فقال:

﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ (٥٥) وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ (٥٦).

(٥٥) الدعاء يدخل فيه دعاء المسألة ودعاء العبادة، فأمر بدعائه ﴿تَضَرُّعًا﴾؛ أي: إلحاحًا في المسألة ودعاءً في العبادة، ﴿وَخُفْيَةً﴾؛ أي: لا جهرًا وعلانية يخاف منه الرباء، بل خفية وإخلاصًا لله تعالى. ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ (٥٥)؛ أي: المتجاوزين للحد في كل الأمور، ومن الاعتداء كون العبد يسأل الله مسائل لا تصلح له، أو يتنطع في السؤال، أو يبالغ في رفع صوته بالدعاء؛ فكل هذا داخل في الاعتداء المنهي عنه.

(٥٦) ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ﴾: بعمل المعاصي ﴿بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾: بالطاعات؛ فإن المعاصي تفسد الأخلاق والأعمال والأرزاق؛ كما قال تعالى: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ﴾ [الروم: ٤١]؛ كما أن الطاعات تصلح بها الأخلاق والأعمال والأرزاق وأحوال الدنيا والآخرة. ﴿وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾؛ أي: خوفًا من عقابه، وطمعًا في ثوابه؛ طمعًا في قبولها وخوفًا من ردها، لا دعاء عبد مدلل على ربه، قد أعجبته نفسه، ونزل نفسه فوق منزلته، أو دعاء من هو غافل لاه.

وحاصل ما ذكر الله من آداب الدعاء: الإخلاص فيه لله وحده؛ لأن ذلك يتضمنه الخفية، وإخفاؤه وإسراره، وأن يكون القلب خائفًا طامعًا لا غافلًا، ولا آمنًا ولا غير مبال بالإجابة، وهذا من إحسان الدعاء؛ فإن الإحسان في كل عبادة بذل الجهد فيها وأداؤها كاملة لا نقص فيها بوجه من الوجوه. ولهذا قال: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ (٥٦)؛ في عبادة الله، المحسنين إلى عباد الله، فكلما كان العبد أكثر إحسانًا؛ كان أقرب إلى رحمة ربه، وكان ربه قريبًا منه برحمته. وفي هذا من الحث على الإحسان ما لا يخفى.

﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَّحَ بُشْرًا بَيِّنَاتٍ يَدْفِئُ رَحْمَتَهُ حَيْثُ إِذَا أَقْلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَهُ إِلَيْكَ مَيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ

﴿إِن رَّبَّكُمْ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشَى اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَيْثُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ (٥٦).

(٥٦) يقول تعالى مبينًا أنه الرب المعبود وحده لا شريك له: ﴿إِن رَّبَّكُمْ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾: وما فيهما على عظمهما وسعتهما وإحكامهما وإتقانها وبتدبير خلقهما ﴿فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾: أولها يوم الأحد، وآخرها يوم الجمعة. فلما قضاهما وأودع فيهما من أمره ما أودع؛ ﴿اسْتَوَى﴾: تبارك وتعالى ﴿عَلَى الْعَرْشِ﴾: العظيم الذي يسع السماوات والأرض وما فيهما وما بينهما؛ استوى استواء يليق بجلاله وعظمته وسلطانه، فاستوى على العرش، واحتوى على الملك، ودبر الممالك، وأجرى عليهم أحكامه الكونية وأحكامه الدينية، ولهذا قال: ﴿يُغْشَى اللَّيْلَ﴾: المظلم ﴿النَّهَارَ﴾؛ المضيء، فيظلم ما على وجه الأرض، ويسكن آدميون، وتأوي المخلوقات إلى مساكنها، ويستريحون من التعب والذهاب والإياب الذي حصل لهم في النهار. ﴿يَطْلُبُهُ حَيْثُ﴾: كلما جاء الليل؛ ذهب النهار، وكلما جاء النهار؛ ذهب الليل، وهكذا أبدًا على الدوام حتى يطوي الله هذا العالم، ويتنقل العباد إلى دار غير هذه الدار.

﴿وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ﴾؛ أي: بتدبيره وتدبيره الدال على ما له من أوصاف الكمال، فخلقها وعظمها دال على كمال قدرته، وما فيها من الإحكام والانظام والإتقان دال على كمال حكمته، وما فيها من المنافع والمصالح الضرورية وما دونها دال على سعة رحمته، وذلك دال على سعة علمه، وأنه الإله الحق الذي لا تنبغي العبادة إلا له. ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾؛ أي: له الخلق الذي صدرت عنه جميع المخلوقات علويها وسفليها، أعيانها وأوصافها وأفعالها، والأمر المتضمن للشرائع والنبوات؛ فالخلق يتضمن أحكامه الكونية القدرية، والأمر يتضمن أحكامه الدينية الشرعية، وثم أحكام الجزاء، وذلك يكون في دار البقاء. ﴿تَبَارَكَ اللَّهُ﴾؛ أي: عظم وتعالى وكثر خيره وإحسانه، فتبارك في نفسه لعظمه وأوصافه وكمالها، وبارك في غيره بإحلال الخير الجزيل والبر الكثير؛ فكل بركة في الكون فمن آثار رحمته، ولهذا قال: ﴿تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ (٥٦).

الْمَاءُ الْغَائِي

سورة الأعراف

وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرِجُ نَبَاتَهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبَتْ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا كَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ﴿٥٨﴾
لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَتَقَوَّمُوا عِبَادُ اللَّهِ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥٩﴾
قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرِيكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٦٠﴾ قَالَ يَتَقَوَّمُوا لَيْسَ بِي ضَلَالٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦١﴾ أُنَبِّئُكُمْ رَسُولَتِي ربي وَأَصْحَ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٢﴾ أَوْعِظُكُمْ أَنْ جَاءَ كُرْدُكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٦٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَجَبْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلِ وَأَعْرَفْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ ﴿٦٤﴾ وَلَئِنْ عَادُوا لَخَافُوا هُدًى قَالَ يَتَقَوَّمُوا عِبَادُ اللَّهِ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرِيكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنُظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٦٦﴾ قَالَ يَتَقَوَّمُوا لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٧﴾

١٥٨

الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٥٧﴾ وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرِجُ نَبَاتَهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبَتْ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا كَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ﴿٥٨﴾.

﴿٥٧﴾ بين تعالى أثرا من آثار قدرته ونفحة من نفحات رحمته، فقال: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾؛ أي: الرياح المبشرات بالغيث، التي تثيره بإذن الله من الأرض، فيستبشر الخلق برحمة الله، وترتاح لها قلوبهم قبل نزوله. ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَقْلَتْ﴾: الرياح ﴿سَحَابًا فَقَالَ﴾: قد أثاره بعضها، وألفه ريح أخرى وألقحه ريح أخرى، ﴿سُقْنَتُهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ﴾: قد كادت تهلك حيواناته وكاد أهله أن يياسوا من رحمة الله. ﴿فَأَنْزَلْنَاهُ﴾؛ أي: بذلك البلد الميت ﴿الْمَاءَ﴾: الغزير من ذلك السحاب، وسخر الله له ريحا تدره وريحا تفرقه بإذن الله. ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾: فأصبحوا مستبشرين برحمة الله، راتعين بخير الله. وقوله: ﴿كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ ﴿٥٧﴾؛ أي: كما أحينا الأرض بعد موتها بالنبات كذلك نخرج الموتى من قبورهم بعدما كانوا رفاتا متمزقين. وهذا استدلال واضح؛ فإنه لا فرق بين الأميين؛ فمنكر البعث استبعادا له - مع أنه يرى ما هو نظيره - من باب العناد وإنكار المحسوسات. وفي هذا الحث

على التذكر والتفكير في آلاء الله والنظر إليها بعين الاعتبار والاستدلال لا بعين الغفلة والإهمال.

﴿٥٨﴾ ثم ذكر تفاوت الأراضي التي ينزل عليها المطر، فقال: ﴿وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ﴾؛ أي: طيب التربة والمادة، إذا نزل عليه المطر؛ ﴿يَخْرِجُ نَبَاتَهُ﴾: الذي هو مستعد له ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِ﴾؛ أي: بإرادة الله ومشيئته، فليست الأسباب مستقلة بوجود الأشياء حتى يأذن الله بذلك. ﴿وَالَّذِي خَبَتْ﴾: من الأراضي ﴿لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا﴾؛ أي: إلا نباتا خاسئا لا نفع فيه ولا بركة. ﴿كَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ﴾ ﴿٥٨﴾؛ أي: ننوعها، ونبينها، ونضرب فيها الأمثال، ونسوقها لقوم يشكرون الله بالاعتراف بنعمه والإقرار بها وصرفها في مرضاة الله؛ فهم الذين يتفنون بما فصل الله في كتابه من الأحكام والمطالب الإلهية؛ لأنهم يرونها من أكبر النعم الواصلة إليهم من ربهم، فيتلقونها مفتقرين إليها فرحين بها، فيتدبرونها ويتأملونها، فيبين لهم من معانيها بحسب استعدادهم، وهذا مثال للقلوب حين ينزل عليها الوحي الذي هو مادة الحياة كما أن الغيث مادة الحياة؛ فإن القلوب الطيبة حين يجيئها الوحي تقبله وتعلمه وتثبت بحسب طيب أصلها وحسن عنصرها.

وأما القلوب الخبيثة التي لا خير فيها؛ فإذا جاءها الوحي؛ لم يجد محلا قابلا، بل يجدها غافلة معرضة أو معارضة، فيكون كالمنزل الذي يمر على السباخ والرمال والصخور فلا يؤثر فيها شيئا، وهذا كقوله تعالى: ﴿أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا﴾ [الرعد: ١٧].

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَتَقَوَّمُوا عِبَادُ اللَّهِ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ ﴿٥٩﴾ إلى آخر قصته.

لما ذكر تعالى من أدلة توحيده جملة صالحة؛ أيد ذلك بذكر ما جرى للأنبياء الداعين إلى توحيده مع أمهم المنكرين لذلك، وكيف أيد الله أهل التوحيد وأهلك من عاندتهم ولم ينقذ لهم، وكيف اتفقت دعوة المرسلين على دين واحد ومعتقد واحد.

ونواهيه على وجه النصيحة لكم والشفقة عليكم، ﴿وَأَعْلَمُ مِنْكَ اللَّهُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ (١٦)؛ فالذي يتعين أن تطيعوني وتتقادوا لأمري إن كنتم تعلمون.

﴿أَوْعِظُكُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ﴾؛ أي: كيف تعجبون من حالة لا ينبغي العجب منها، وهو أن جاءكم التذكير والموعظة والنصيحة على يد رجل منكم، تعرفون حقيقته وصدقه وحاله؛ فهذه الحال من عناية الله بكم وبره وإحسانه الذي يتلقى بالقبول والشكر. وقوله: ﴿لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ (١٦)؛ أي: لينذركم العذاب الأليم، وتفعلوا الأسباب المنتجة من استعمال تقوى الله ظاهراً وباطناً، وبذلك تحصل عليهم، وتنزل رحمة الله الواسعة.

﴿فَلَمْ يَفِدْ فِيهِمْ وَلَا نَجِجْ﴾؛ فكذبوه فأبغضته والذين معه في ألفك؛ أي: السفينة التي أمر الله نوحاً عليه السلام بصنعها، وأوحى إليه أن يحمل من كل صنف من الحيوانات زوجين اثنين وأهله ومن آمن معه، فحملهم فيها، ونجاهم الله بها. ﴿وَأَعْرِفْنَا الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ﴾ (١٦)؛ عن الهدى، أبصروا الحق، وأراهم الله على يد نوح من الآيات البينات ما به يؤمن أولو الألباب، فسخروا منه، واستهزؤا به، وكفروا.

﴿وَالِإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا﴾ إلى آخر القصة.

﴿أَي: وَأَرْسَلْنَا إِلَى عَادٍ﴾؛ - الأولى، الذين كانوا في أرض اليمن - ﴿أَخَاهُمْ﴾؛ في النسب ﴿هُودًا﴾؛ عليه السلام، يدعوهم إلى التوحيد، وينهاهم عن الشرك، والطغيان في الأرض، ف ﴿قَالَ﴾ لهم: ﴿يَقْوِمُوا أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ (١٥)؛ سخطه وعذابه إن أقمتهم على ما أنتم عليه. فلم يستجيبوا ولا انقادوا.

﴿ف﴾ ﴿قَالَ أَلَمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِي﴾؛ رادين لدعوته قادحين في رأيه: ﴿إِنَّا لَنَرَنَّكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنُظُنُّكَ مِنَ الْكَذِبِينَ﴾ (١٦)؛ أي: ما نراك إلا سفيهاً غير رشيد، ويغلب على ظننا أنك من جملة الكاذبين. وقد انقلبت عليهم الحقيقة واستحكم عماهم حيث رموا نبهم عليه السلام بما هم متصفون به، وهو أبعد الناس عنه؛ فإنهم السفهاء حقاً الكاذبون، وأي سفه أعظم ممن قابل أحق الحق بالرد والإنكار، وتكبر عن الانقياد للمرشدين والنصحاء،

﴿قَالَ عَنْ نوح أول المرسلين: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ﴾: يدعوهم إلى عبادة الله وحده حين كانوا يعبدون الأوثان، ﴿فَقَالَ﴾ لهم: ﴿يَقْوِمُوا أَعْبُدُوا اللَّهَ﴾؛ أي: وحدوه، ﴿مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾؛ لأنه الخالق الرازق المدبر لجميع الأمور، وما سواه مخلوق مدبر ليس له من الأمر شيء. ثم خوفهم - إن لم يطيعوه - عذاب الله، فقال: ﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ (٥٩)؛ وهذا من نصحه عليه الصلاة والسلام وشفقته عليهم؛ حيث خاف عليهم العذاب الأبدي والشقاء السرمدي؛ كإخوانه من المرسلين، الذين يشفقون على الخلق أعظم من شفقة آبائهم وأمهاتهم. فلما قال لهم هذه المقالة؛ ردوا عليه أقبح رد.

﴿قَالَ أَلَمَلَأُ مِنْ قَوْمِي﴾؛ أي: الرؤساء الأغنياء المتبوعون، الذين قد جرت العادة باستكبارهم على الحق وعدم انقيادهم للرسول: ﴿إِنَّا لَنَرَنَّكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ (١٥)؛ فلم يكفهم - بقبحهم الله - أنهم لم يتقادوا له، بل استكبروا عن الانقياد له، وقدحوا فيه أعظم قدح، ونسبوه إلى الضلال، ولم يكتفوا بمجرد الضلال، حتى جعلوه ضلالاً مبيناً واضحاً لكل أحد!! وهذا من أعظم أنواع المكابرة، التي لا تروج على أضعف الناس عقلاً، وإنما هذا الوصف منطبق على قوم نوح، الذين جاءوا إلى أصنام قد صوروها ونحتوها بأيديهم من الجمادات التي لا تسمع ولا تبصر ولا تغني عنهم شيئاً، فنزلوها منزلة فاطر السماوات، وصرفوا لها ما أمكنهم من أنواع القربات، فلولا أن لهم أذهاناً تقوم بها حجة الله عليهم؛ لحكم عليهم بأن المجانين أهدى منهم، بل هم أهدى منهم وأعقل.

﴿فرد نوح عليهم ردّاً لطيفاً وترقق لهم لعلمهم يتقادون له، فقال: ﴿يَقْوِمُوا لَيْسَ فِي ضَلَالَةٍ﴾؛ أي: لست ضالاً في مسألة من المسائل من جميع الوجوه، وإنما أنا هاد مهتد، بل هدايته عليه الصلاة والسلام من جنس هداية إخوانه أولي العزم من المرسلين، أعلى أنواع الهدايا وأكملها وأتمها، وهي هداية الرسالة التامة الكاملة، ولهذا قال: ﴿وَلَنَكْنِي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (١٦)؛ أي: ربي وربكم ورب جميع الخلق، الذي ربي جميع الخلق بأنواع التربية، الذي من أعظم تربيته أن أرسل إلى عباده رسلاً تأمرهم بالأعمال الصالحة والأخلاق الفاضلة والعقائد الحسنة، وتنهاهم عن أضدادها، ولهذا قال: ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأُنصَحُ لَكُمْ﴾؛ أي: وظيفتي تبليغكم ببيان توحيده وأوامره

وانقاد قلبه وقالبه لكل شيطان مريد، ووضع العبادة في غير موضعها، فعبد من لا يغني عنه شيئاً من الأشجار والأحجار؟! وأي كذب أبلغ من كذب من نسب هذه الأمور إلى الله تعالى؟! ﴿١٧﴾

﴿١٧﴾ قَالَ يَتَقَوَّمُ لَيْسَ فِي سَفَاهَةٍ: بوجه من الوجوه، بل هو الرسول المرشد الرشيد، ﴿وَلَا يَكُنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿١٨﴾

﴿١٨﴾ أَيْلُغُكُمْ رَسُولُ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿١٩﴾: فالواجب عليكم أن تتلقوا ذلك بالقبول والانقياد وطاعة رب العباد.

﴿١٩﴾ أَوْعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنْذِرَكُمْ؟ أي: كيف تعجبون من أمر لا يتعجب منه، وهو أن الله أرسل إليكم رجلاً منكم، تعرفون أمره، يذكركم بما فيه مصالحكم، ويحثكم على ما فيه النفع لكم، فتعجبتم من ذلك تعجب المنكرين. ﴿وَأَذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ﴾؟ أي: واحمدوا ربكم، واشكروه إذ مكن لكم في الأرض، وجعلكم تخلفون الأمم الهالكة الذين كذبوا الرسل، فأهلكهم الله، وأبقاكم لينظر كيف تعملون، واحذروا أن تقيموا على التكذيب كما أقاموا، فيصيبكم ما

أصابهم، واذكروا نعمة الله عليكم التي خصكم بها، وهي أن زادكم ﴿فِي الْخَلْقِ بَصْطَةً﴾: في القوة وكبر الأجسام وشدة البطش، ﴿فَأَذْكُرُوا آيَةَ اللَّهِ﴾؟ أي: نعمه الواسعة وآياديه المتكررة، ﴿لَعَلَّكُمْ﴾: إذا ذكرتوها بشكرها وأداء حقها، ﴿تَقْلِحُونَ﴾ ﴿٢٠﴾؟ أي: تفوزون بالمطلوب، وتتجون من المرهوب.

﴿٢٠﴾ فوعظهم وذكرهم وأمرهم بالتوحيد وذكر لهم وصف نفسه وأنه ناصح أمين، وحذرهم أن يأخذهم الله كما أخذ من قبلهم، وذكرهم نعم الله عليهم وإدراك الأرزاق إليهم، فلم ينقادوا ولا استجابوا، ف﴿قَالُوا﴾ متعجبين من دعوته ومخبرين له أنهم من المحال أن يطيعوه: ﴿أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾: قبحهم الله، جعلوا الأمر الذي هو أوجب الواجبات وأكمل الأمور من الأمور التي لا يعارضون بها ما وجدوا عليه آباءهم، فقدموا ما عليه الآباء الضالون من الشرك وعبادة الأصنام على ما دعت إليه الرسل من توحيد الله وحده لا شريك له وكذبوا نبиеهم وقالوا: ﴿فَأَيْنَا يَمَّا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتُمْ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ ﴿٢١﴾: وهذا الاستفتاح منهم على أنفسهم.

﴿٢١﴾ فقال لهم هود عليه السلام: ﴿قَدْ وَفَّعَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ رَجْسٌ وَعَصَبٌ﴾؟ أي: لا بد من وقوعه؛ فإنه قد انعقدت أسبابه وحان وقت الهلاك. ﴿أَتَجِدُونَنِي فِي سَمَاءٍ سَمِيئَتُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ﴾؟ أي: كيف تجادلون على أمور لا حقائق لها وعلى أصنام سميتوها آلهة وهي لا شيء من الإلهية فيها ولا مثقال ذرة ﴿وَمَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ﴾؟ فإنها لو كانت صحيحة؛ لأنزل الله بها سلطاناً، فعدم إنزاله له دليل على بطلانها؛ فإنه ما من مطلوب ومقصود - وخصوصاً الأمور الكبار - إلا وقد بين الله فيها من الحجج ما يدل عليها ومن السلطان ما لا تخفى معه، ﴿فَأَنْظِرُوا﴾: ما يقع بكم من العقاب الذي وعدتكم به. ﴿إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْظِرِينَ﴾ ﴿٢٢﴾: وفرق بين الانتظرين؛ انتظار من يخشى وقوع العقاب، ومن يرجو من الله النصر والثواب.

سورة الأعراف
أَيْلُغُكُمْ رَسُولُ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿١٧﴾ أَوْعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنْذِرَكُمْ وَأَذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَصْطَةً فَأَذْكُرُوا آيَةَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تَقْلِحُونَ ﴿١٨﴾ قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأَيْنَا يَمَّا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتُمْ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٩﴾ قَالَ قَدْ وَفَّعَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ رَجْسٌ وَعَصَبٌ أَتَجِدُونَنِي فِي سَمَاءٍ سَمِيئَتُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ فَإِنْ كُنْتُمْ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٢٠﴾ قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأَيْنَا يَمَّا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتُمْ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٢١﴾ أَيْلُغُكُمْ رَسُولُ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٢٢﴾

سورة الأعراف

المكية

وَأَذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ
فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْجُونَ
الْجِبَالَ بُيُوتًا فَاذْكُرُوا ءَالَاءَ اللَّهِ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ
مُفْسِدِينَ ﴿٧٦﴾ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ
قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتَضَعُّوا لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ
أَنْتَ صَلَاحًا مَرَّسَلٌ مِنْ رَبِّكَ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ
مُؤْمِنُونَ ﴿٧٧﴾ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي
ءَامَنْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴿٧٨﴾ فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَكَتْ عَنْ
أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يُصْلِحْ أَثْنَانَا مَا عَدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ
الْمُرْسَلِينَ ﴿٧٩﴾ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ
جَاشِينَ ﴿٨٠﴾ فَنَوَّلَ عَنْهُمْ وَقَالَ يَنْقُورُ لَقَدْ أَتَلَقْتُمْ
رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِنْ لَا تَحِبُّونَ النَّصِيحَ
﴿٨١﴾ وَلَوْ طَا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفِتْنَةَ مَا سَبَقَكُمْ
بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿٨٢﴾ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ آلِجِبَالٍ
شَهْوَةً مِنْ دُونِ الْبَسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُتْسِرُونَ ﴿٨٣﴾

١٦٠

﴿٧٦﴾ ولهذا فتح الله بين الفريقين فقال: ﴿فَاتَّخِذْنَهُ﴾؛
أي: هودًا، ﴿وَالَّذِينَ﴾ آمنوا ﴿مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا﴾: فإنه الذي
هداهم للإيمان، وجعل إيمانهم سببًا ينالون به رحمته،
فأنجاهم برحمته، ﴿وَقَطَعْنَا دَائِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا بَيِّنَاتِنَا﴾؛
أي: استأصلناهم بالعذاب الشديد الذي لم يبق منهم أحدًا،
وسلط الله عليهم ﴿الرَّيْحَ الْفَقِيمَ﴾ ﴿٤١﴾ مَا نَذَرْنَا شَيْءًا أَنْتَ عَلَيْهِ
إِلَّا جَعَلْنَاهُ كَالرَّمِيمِ ﴿٤٢﴾ [الذاريات: ٤١، ٤٢]، فأهلكوا فأصبحوا
لا يرى إلا مساكنهم فانظر كيف كان عاقبة المنذرين، الذين
أقيمت عليهم الحجج فلم ينفادوا لها، وأمروا بالإيمان فلم
يؤمنوا، فكان عاقبتهم الهلاك والخزي والفضيحة، ﴿وَأَتَّبَعُوا
فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بِعَادِ
إِسمَاعِيلَ قَوْمِهِمْ﴾ ﴿١٠﴾ [هود: ٦٠]. وقال هنا: ﴿وَقَطَعْنَا دَائِرَ الَّذِينَ
كَذَبُوا بَيِّنَاتِنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾ ﴿٧٦﴾: بوجه من الوجوه،
بل وصفهم بالكذب والعناد، ونعتهم الكبر والفساد.

﴿وَالِئِنْ شِئِمُوا أَخَاهُمْ صَالِحًا﴾ إلى آخر قصتهم.

﴿٧٧﴾ أي: وأرسلنا إلى ﴿شُعُودَ﴾: القبيلة المعروفة الذين
كانوا يسكنون الحجر وما حوله من أرض الحجاز وجزيرة
العرب، أرسل الله إليهم ﴿أَخَاهُمْ صَالِحًا﴾: نبيًا يدعوهم
إلى الإيمان والتوحيد وينهاهم عن الشرك والتنديد، ف ﴿قَالَ
يَنْقُورُ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾: دعوته عليه الصلاة والسلام من جنس دعوة إخوانه من المرسلين: الأمر بعبادة
الله وبيان أنه ليس للعباد إله غير الله. ﴿فَدَجَّاءَ تَكُفُّمَ بَيْنَهُ مِنْ رَبِّكُمْ﴾؛ أي: خارق من خوارق العادات التي لا تكون إلا
آية سماوية لا يقدر الناس عليها، ثم فسرها بقوله: ﴿هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ ءَايَةٌ﴾؛ أي: هذه ناقة شريفة فاضلة لإضافتها إلى
الله تعالى إضافة تشريف، لكم فيها آية عظيمة، وقد ذكر وجه الآية في قوله: ﴿لَهَا يَرْبُ وَكَثْرُ يَرْبُ يَوْمَ مَعْمُورٍ﴾ ﴿١٥٥﴾ [الشعراء:
١٥٥]، وكان عندهم بئر كبيرة، وهي المعروفة ببئر الناقة، يتناوبونها هم والناقة، للناقة يوم تشربها ويشربون اللبن من ضرعها،
ولهم يوم يردونها وتصدر الناقة عنهم. وقال لهم نبيهم صالح عليه السلام: ﴿فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أََرْضِ اللَّهِ﴾: فلا عليكم من
مئونتها شيء، ﴿وَلَا تَمْسُوهَا يُسُورَ﴾؛ أي: بعقر أو غيره، ﴿فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ إِلِيمٍ﴾ ﴿٧٦﴾.

﴿٧٦﴾ وَأَذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ: في الأرض تتمتعون بها وتدركون مطالبكم، ﴿مِنْ بَعْدِ عَادٍ﴾: الذين أهلكهم
الله وجعلكم خلفاء من بعدهم، ﴿وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ﴾؛ أي: مكن لكم فيها وسهل لكم الأسباب الموصلة إلى ما تريدون
وتبتغون، ﴿وَتَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُورًا﴾؛ أي: الأراضي السهلة التي ليست بجبال تتخذون فيها القصور العالية والأبنية
الحصينة، ﴿وَتَنْجُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا﴾ كما هو مشاهد إلى الآن أعمالهم التي في الجبال من المساكن والحجر ونحوها، وهي
باقية ما بقيت الجبال. ﴿فَاذْكُرُوا ءَالَاءَ اللَّهِ﴾؛ أي: نعمه وما خولكم من الفضل والرزق والقوة، ﴿وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ
مُفْسِدِينَ﴾ ﴿٧٦﴾؛ أي: لا تخربوا في الأرض بالفساد والمعاصي؛ فإن المعاصي تدع الديار العامرة بلاقع، وقد أخلت ديارهم
منهم، وأبقت مساكنهم موحشة بعدهم.

﴿٧٧﴾ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ: أي: الرؤساء والأشراف الذين تكبروا عن الحق، ﴿لِلَّذِينَ اسْتَضَعُّوا﴾: ولما كان المستضعفون ليسوا كلهم مؤمنين؛ قالوا: ﴿لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنْتَ صَلَاحًا مَرَّسَلٌ مِنْ رَبِّكَ﴾؛ أي: أهو صادق
أم كاذب؟ فقال المستضعفون: إنا بالذي ﴿أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ﴾ ﴿٧٧﴾ من توحيد الله والخبر عنه وأمره ونهيه.

﴿٧٦﴾ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنْتُمْ بِهِ كَفِرُونَ ﴿٧٦﴾ حملهم الكبر ألا ينقادوا للحق الذي انقاد له الضعفاء.

﴿٧٧﴾ فَعَقَرُوا النَّاقَةَ ﴿٧٧﴾ التي توعدهم إن مسوها بسوء أن يصيبهم عذاب أليم. ﴿وَعَتَوْا عَنْ آيَةِ رَبِّهِمْ﴾ أي: قسوا عنه واستكبروا عن أمره الذي من عتاه أذاقه العذاب الشديد، لا جرم أحل الله بهم من النكال ما لم يحل بغيرهم. ﴿وَقَالُوا﴾: مع هذه الأفعال متجرين على الله معجزين له غير مباليين بما فعلوا بل مفتخرين بها: ﴿يَصْلَحُ أَمْنُنَا بِمَا تَوَدَّعَا﴾: إن كنت من الصادقين من العذاب، فقال: ﴿تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْدُوبٍ﴾ (مرد: ٦٥).

﴿٧٨﴾ فَأَخَذْتُمُ الرِّجْعَةَ فَاصْبِرُوا فِي دَارِهِمْ جَثِيمِينَ ﴿٧٨﴾ على ركبهم قد أبادهم الله وقطع دابرهم.

﴿٧٩﴾ فَتَوَلَّى عَنْهُمْ ﴿٧٩﴾: صالح عليه السلام حين أحل الله بهم العذاب، ﴿وَقَالَ﴾: مخاطباً لهم توبيخاً وعتاباً بعدما أهلكهم الله: ﴿يَقُولُ لَقَدْ أُنْفِثْتُكُمْ رَسُولًا رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ﴾ أي: جميع ما أرسلني الله به إليكم قد أبلغتكم به وحرصت على هدايتكم واجتهدت في سلوككم الصراط المستقيم والدين القويم، ﴿وَلَكِنْ لَا تَتَّبِعُونَ النَّصِيحَاتِ﴾ (٧٩): بل رددتم قول النصحاء، وأطعتم كل شيطان رجيم.

واعلم أن كثيراً من المفسرين يذكرون في هذه القصة أن الناقة خرجت من صخرة صماء ملساء اقترحوها على صالح، وأنها تمحضت تمحض الحامل، فخرجت الناقة وهم ينظرون، وأن لها فصيلاً حين عقروها رعى ثلاث رغبات وانفلق له الجبل ودخل فيه، وأن صالحاً عليه السلام قال لهم: آية نزول العذاب بكم أن تصبحوا في اليوم الأول من الأيام الثلاثة ووجوهكم مصفرة، واليوم الثاني محمرة، والثالث مسودة، فكان كما قال.

وهذا من الإسرائيليات التي لا ينبغي نقلها في تفسير كتاب الله، وليس في القرآن ما يدل على شيء منها بوجه من الوجوه، بل لو كانت صحيحة لذكرها الله تعالى؛ لأن فيها من العجائب والعبث والآيات ما لا يهمله تعالى ويدع ذكره حتى يأتي من طريق من لا يوثق بنقله، بل القرآن يكذب بعض هذه المذكورات؛ فإن صالحاً قال لهم: ﴿تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ

ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ﴾ (مرد: ٦٥) أي: تتمعوا وتلذذوا بهذا الوقت القصير جداً؛ فإنه ليس لكم من المتاع واللذة سوى هذا، وأي لذة وتمتع لمن وعدهم نبيهم وقوع العذاب وذكر لهم وقوع مقدماته فوقعت يوماً فيوماً على وجه يعمهم ويشملهم؛ لأن احمرار وجوههم واصفرارها واسودادها من العذاب! هل هذا إلا مناقض للقرآن ومضاد له؟ فالقرآن فيه الكفاية والهداية عمّا سواه. نعم؛ لو صح شيء عن رسول الله ﷺ مما لا يناقض كتاب الله؛ فعلى الرأس والعين، وهو مما أمر القرآن باتباعه: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً وَمَا نَهَيْتُمْ عَنْهُ فَأْتُوهُ﴾ (الحشر: ٧). وقد تقدم أنه لا يجوز تفسير كتاب الله بالأخبار الإسرائيلية، ولو على تجويز الرواية عنهم بالأمر التي لا يجرم بكذبها؛ فإن معاني كتاب الله يقينية، وتلك أمور لا تصدق ولا تكذب؛ فلا يمكن اتفاقهما.

﴿٨٠﴾ وَلَوْطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿٨٠﴾ إلى آخر القصة.

﴿٨١﴾ أي: واذكر عبدنا لوطاً عليه الصلاة والسلام؛ إذ أرسلناه إلى قومه؛ يأمرهم بعبادة الله وحده، وينهاهم عن الفاحشة التي ما سبقهم بها أحد من العالمين؛ فقال: ﴿أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ﴾؛ أي: الخصلة التي بلغت في العظم والشناعة إلى أن استغرقت أنواع الفحش، ﴿مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ (٨١): فكونها فاحشة من أشنع الأشياء، وكونهم ابتدعوها، وابتكروها، وسنوها لمن بعدهم من أشنع ما يكون أيضاً.

﴿٨٢﴾ ثم بينها بقوله: ﴿إِنَّكُمْ لَأَتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ﴾؛ أي: كيف تذرون النساء التي خلقهن الله لكم، وفيهن المستمتع الموافق للشهوة والفتنة، وتقبلون على أديار الرجال، التي هي غاية ما يكون في الشناعة والخبث؛ محل تخرج منه الأنتان والأخبار التي يستحى من ذكرها فضلاً عن ملامستها وقربها. ﴿بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾ (٨٢)؛ أي: متجاوزون لما حده الله، متجرئون على محارمه.

﴿٨٣﴾ وَمَا كَانَتْ قَوْمَهُ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَظْهَرُونَ ﴿٨٣﴾ أي: ينتهون عن فعل الفاحشة، ﴿وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ (٨٣) [البروج: ٨].

سورة الأعراف

المعزة الثاني

وَمَا كَانَتْ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَنْظَهُرُونَ ﴿٨٥﴾ فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَافِلِينَ ﴿٨٦﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَأَنْظَرُوا كَيْفَ كَانَتْ عَذَابُ الْمُجْرِمِينَ ﴿٨٧﴾ وَإِلَى مَدِينَةٍ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَنْفَوْرُ عَبْدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَاتٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخُسُوا الْبَاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَقْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ ءَامَرَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَثَرَكُمْ وَأَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَتْ عَذَابُ الْمُفْسِدِينَ ﴿٨٩﴾ وَإِنْ كَانَ طَائِفَةٌ مِنْكُمْ ءَامَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴿٩٠﴾

١٦١

﴿٨٢﴾ فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَافِلِينَ ﴿٨٣﴾ أَي: الباقيين المعذبين؛ أمره الله أن يسري بأهله ليلاً؛ فإن العذاب مُصْبِحٌ قومه، فسرى بهم إلا امرأته أصابها ما أصابهم.

﴿٨٤﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا؛ أي: حجارة حارة شديدة من سجيل، وجعل الله عليها سافلها، ﴿٨٥﴾ فَأَنْظَرُوا كَيْفَ كَانَتْ عَذَابُ الْمُجْرِمِينَ ﴿٨٦﴾: الهلاك والخزي الدائم. ﴿٨٧﴾ وَإِلَى مَدِينَةٍ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا؛ إلى آخر القصة.

﴿٨٨﴾ أَي: وأرسلنا إلى القبيلة المعروفة بمدينة ﴿أَخَاهُمْ﴾: في النسب، ﴿شُعَيْبًا﴾: يدعوهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له، ويأمرهم بإيفاء المكيال والميزان، وألا يبخسوا الناس أشياءهم، وألا يعثوا في الأرض مفسدين بالإكثار من عمل المعاصي، ولهذا قال: ﴿وَلَا تَقْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ ﴿٨٩﴾: فإن ترك المعاصي امتثالاً لأمر الله وتقرباً إليه خير وأنفع للعبد من ارتكابها الموجب لسخط الجبار وعذاب النار.

﴿٩٠﴾ وَلَا تَقْعُدُوا؛ للناس ﴿بِكُلِّ صِرَاطٍ﴾؛ أي: طريق من الطرق التي يكثر سلوكها؛ تحذرون الناس منها، من أراد الاهتداء به، ﴿وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾؛ أي: تبغون سبيل الله تكون معوجة، وتميلونها اتباعاً لأهوائكم، وقد كان الواجب عليكم وعلى غيركم الاحترام والتعظيم للسبيل التي نصبها الله لعباده، ليسلكوها إلى مرضاته ودار كرامته ورحمهم بها أعظم رحمة، وتصدون لنصرتها والدعوة إليها والذب عنها، لا أن تكونوا أنتم قطاع طريقها الصادين الناس عنها؛ فإن هذا كفر لنعمة الله، ومحادة لله، وجعل أقوم الطرق وأعدلها مائلة، وتشنعون على من سلكها، ﴿وَأَذْكُرُوا﴾: نعمة الله عليكم ﴿إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَثَرَكُمْ﴾؛ أي: نماكم بما أنعم عليكم من الزوجات والنسل والصحة، وأنه ما ابتلاكم بوباء أو أمراض من الأمراض المقللة لكم، ولا سلط عليكم عدوا يجتاحكم، ولا فرقكم في الأرض، بل أنعم عليكم باجتماعكم وإدراك الأرزاق وكثرة النسل. ﴿وَأَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَتْ عَذَابُ الْمُفْسِدِينَ﴾ ﴿٩١﴾: فإنكم لا تجدون في جموعهم إلا الشتات، ولا في ربوعهم إلا الوحشة والانبثات، ولم يورثوا ذكراً حسناً، بل اتبعوا في هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة أشد خزيًا وفضيحة.

﴿٩٢﴾ وَإِنْ كَانَ طَائِفَةٌ مِنْكُمْ ءَامَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَمْ يُؤْمِنُوا؛ وهم الجمهور منهم، ﴿فَاصْبِرُوا حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ ﴿٩٣﴾: فينصر المحق، ويوقع العقوبة على المبطل.

﴿٩٤﴾ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ؛ وهم الأشراف والكبراء منهم، الذين اتبعوا أهواءهم ولهوا بلذاتهم، فلما أتاهم الحق ورأوه غير موافق لأهوائهم الرديئة؛ ردوه، واستكبروا عنه، فقالوا لنبيهم شعيب ومن معه من المؤمنين المستضعفين: ﴿لَنُخْرِجَنَّكَ بِشُعَيْبٍ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُوذُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾: استعملوا قوتهم السبعية في مقابلة الحق، ولم يراعوا ديناً ولا ذمة ولا حقاً، وإنما راعوا أهواءهم وعقولهم السفهية، التي دلتهم على هذا القول الفاسد، فقالوا: إما أن ترجع أنت ومن معك إلى ديننا أو لنخرجنكم من قريتنا؛ فشعيب عليه الصلاة والسلام كان يدعوهم طامعاً في إيمانهم،

الْمُؤْمِنِينَ

سورة الأعراف

﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَشْعَبُ
وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَةٍ أَوْ نَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ
كُنَّا كَارِهِينَ ﴿٨٨﴾ أَي: أَتَتَّبِعُكُمْ عَلَى دِينِكُمْ وَمِلَّتِكُمُ الْبَاطِلَةِ وَلَوْ
كُنَّا كَارِهِينَ لَهَا لَعَلَّمْنَا بَيِّنَاتِهَا؛ فَإِنَّمَا يَدْعِي إِلَيْهَا مَنْ لَهُ نَوْعُ
رَغْبَةٍ فِيهَا، أَمَا مَنْ يَعْلَنُ بِالنَّهْيِ عَنْهَا وَالتَّشْنِيعِ عَلَى مَنْ اتَّبَعَهَا؛
فَكَيْفَ يَدْعِي إِلَيْهَا؟﴾
﴿قَدْ أَفْرَرْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنَّا عُذْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ بَخَّيْنَا
اللَّهُ مِنْهَا﴾؛ أَي: أَشْهَدُوا عَلَيْنَا أَنَّا إِنَّا عُدْنَا فِيهَا بَعْدَمَا نَجَانَا اللَّهُ
مِنْهَا وَأَنْقَذَنَا مِنْ شَرِّهَا أَنَّا كَاذِبُونَ مُفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبِ؛
فَإِنَّمَا نَعْلَمُ أَنَّهُ لَا أَعْظَمَ افْتِرَاءَ مِمَّنْ جَعَلَ لِلَّهِ شَرِيكًا وَهُوَ الْوَاحِدُ
الْأَحَدُ الْفَرْدُ الصَّمَدُ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا وَلَا شَرِيكًا
فِي الْمَلِكِ. ﴿وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا﴾؛ أَي: يَمْتَنِعُ عَلَى
مِثْلِنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا؛ فَإِنَّ هَذَا مِنَ الْمَحَالِ، فَأَيَسُّهُمْ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ
وَالسَّلَامُ مِنْ كَوْنِهِ يُوَافِقُهُمْ مِنْ وَجْهِ مُتَعَدِّدَةٍ.

من جهة أنهم كارهون لها مبعوضون لما هم عليه من
الشرك.

ومن جهة أنه جعل ما هم عليه كذبًا وأشهدهم أنه إن اتبعهم
ومن معه فإنهم كاذبون.

ومنها اعترافهم بمنة الله عليهم إذ أنقذهم الله منها.

ومنها أن عودهم فيها بعدما هداهم الله من المحالات بالنظر إلى حالتهم الراهنة وما في قلوبهم من تعظيم الله تعالى
والاعتراف له بالعبودية وأنه الإله وحده الذي لا تنبغي العبادة إلا له وحده لا شريك له، وأن آلهة المشركين أبطل الباطل
وأملح المحال، وحيث إن الله من عليهم يقول يعرفون بها الحق والباطل والهدى والضلال، وأما من حيث النظر إلى مشيئة
الله وإرادته النافذة في خلقه التي لا خروج لأحد عنها ولو تواترت الأسباب وتوافقت القوى؛ فإنهم لا يحكمون على أنفسهم
أنهم سيفعلون شيئًا أو يتركونه، ولهذا استثنى: ﴿وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا﴾؛ أَي: فلا يمكننا ولا غيرنا
الخروج عن مشيئته التابعة لعلمه وحكمته، وقد ﴿وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾؛ فيعلم ما يصلح للعباد، وما يدرهمهم عليه.

﴿عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا﴾؛ أَي: اعتمدنا أنه سيثبتنا على الصراط المستقيم، وأن يعصمنا من جميع طرق الجحيم؛ فإن من توكل
على الله كفاه ويسر له أمر دينه ودنياه. ﴿رَبَّنَا أَفْرِغْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ﴾؛ أَي: انصر المظلوم وصاحب الحق على الظالم
المعاند للحق، ﴿وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَلَّاحِينَ﴾ ﴿٨٩﴾؛ وفتحته تعالى لعباده نوعان: فتح العلم بتبيين الحق من الباطل والهدى من الضلال
ومن هو المستقيم على الصراط ممن هو منحرف عنه. والنوع الثاني: فتحه بالجزاء وإيقاع العقوبة على الظالمين، والنجاة
والإكرام للصالحين. فسألوا الله أن يفتح بينهم وبين قومهم بالحق والعدل، وأن يريهم من آياته وعبره ما يكون فاصلاً بين
الفرقيين.

﴿وَقَالَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ﴾: محذرين عن اتباع شعيب: ﴿لَئِنْ أَتَبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَخَسِرُونَ﴾ ﴿٩٠﴾؛ هذا
ما سولت لهم أنفسهم؛ أن الخسارة والشقاء في اتباع الرشد والهدى، ولم يدروا أن الخسارة كل الخسارة في لزوم ما هم عليه
من الضلال والإضلال، وقد علموا ذلك حين وقع بهم النكال.

﴿ ٩١ ﴾ فَأَخَذْتَهُمُ الرِّجْفَةَ ۖ أَي: الزلزلة الشديدة، ﴿ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَثْمِينَ ﴾ ﴿ ٩١ ﴾ أَي: صرعى ميتين هامدين.

﴿٩٢﴾ قال تعالى ناعيًا حالهم: ﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعْبًا كَانُوا لَا يَفْقَهُوا فِيهَا﴾؛ أي: كأنهم ما أقاموا في ديارهم، وكأنهم ما تمتعوا في عرصاتهم، ولا تفيثوا في ظلالها، ولا اغنوا في مسارح أنهارها، ولا أكلوا من ثمار أشجارها، حين فاجأهم العذاب فنقلهم من مورد اللهو واللعب واللذات إلى مستقر الحزن والشقاء والعقاب والدركات، ولهذا قال: ﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ﴾ ﴿٩٣﴾؛ أي: الخسار محصور فيهم؛ لأنهم ﴿خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخَسِرَانُ الْمُفْسِدُونَ﴾ ﴿٩٤﴾ [الزمر: ١٥]، لا من قالوا لهم: ﴿لَئِنْ أَتَعْتَمَّ شُعْبًا لَنُكَوِّدَنَّ أَخْيَارَهُمْ﴾ ﴿٩٥﴾.

فحين هلكوا تولى عنهم نبيهم عليه الصلاة والسلام،
 ﴿وَقَالَ﴾ معاتباً وموبخاً ومخاطباً لهم بعد موتهم: ﴿يَقَوْمُ
 لَقَدْ أَتَلَفْتُمْ رَسُولَكُمْ رَبِّي﴾؛ أي: أوصلتها إليكم وبستها
 حتى بلغت منكم أقصى ما يمكن أن تصل إليه وخالطت
 أفئدتكم، ﴿وَصَحَحْتُ لَكُمْ﴾: فلم تقبلوا نصحي ولا انقذتم
 لإرشادي، بل فسقتم وطفيتم؛ ﴿فَكَيْفَ ءَاسَى عَلَى قَوْمٍ
 كَفَرُوا﴾؛ أي: فكيف أحزن على قوم لا خير فيهم؛
 أتاهم الخير فردوه ولم يقبلوه، ولا يليق بهم إلا الشر؛ فهو لاء
 غير حقيقين أن يحزن عليهم، بل يفرح بإهلاكهم ومحققهم؛
 فعياداً بك اللهم من الخزي والفضيحة وأي شقاء وعقوبة
 أبلغ من أن يصلوا إلى حالة يتبرأ منهم أنصح الخلق لهم ١٩

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَاسِ
وَالضَّرِّ لَعَلَّهُمْ يَضْعَعُونَ ﴾ (٢٩) ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ
حَتَّىٰ عَفَوْا وَقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرُّ وَالسَّرُّ فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْنَةً
وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ (٣٠) ﴿

﴿ ٩٤ ﴾ يقول تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ ﴾
يدعوهم إلى عبادة الله، وينهاهم عما هم فيه من الشر،
فلم يتقادوا له؛ إلا ابتلاهم الله ﴿ بِالْأَلْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ ﴾ أي:
بالفقر والمرض وأنواع البلايا، ﴿ لَعَلَّهُمْ ﴾ إذا أصابتهم؛
خضعت نفوسهم؛ فقتلوا إلى الله، واستكانوا للحق.

﴿ثُمَّ﴾ : إِذَا لَمْ يَفِدْ فِيهِمْ وَاسْتَمَرَّ اسْتِكْبَارُهُمْ وَازْدَادَ طَغْيَانُهُمْ، ﴿بَدَّلْنَا مَكَانَ الْأَسِنَّةِ الْحَسَنَةِ﴾ : فَأَدَّرَ عَلَيْهِمُ الْأَرْزَاقَ، وَعَافَى أَبْدَانَهُمْ، وَرَفَعَ عَنْهُمْ الْبَلَايَا، ﴿حَتَّىٰ عَقَوْا﴾ :

أي: كثروا وكثرت أرزاقهم وانبسطوا في نعمة الله وفضله ونسوا ما مر عليهم من البلايا، ﴿وَقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ﴾؛ أي: هذه عادة جارية لم تزل موجودة في الأولين واللاحقين؛ تارة يكونون في سراء، وتارة في ضراء، وتارة في فرح، ومرة في ترح؛ على حسب تقلبات الزمان وتداول الأيام، وحسبوا أنها ليست للموعظة والتذكير ولا للاستدراج والنكير، حتى إذا اغتبطوا وفرحوا بما أوتوا، وكانت الدنيا أسراً ما كانت إليهم. أخذناهم بالعذاب ﴿بَعَثْنَا هُمَ لَا يَشْعُرُونَ﴾ ﴿٥٥﴾؛ أي: لا يخطر لهم الهلاك على بال، وظنوا أنهم قادرون على ما آتاهم الله، وأنهم غير زائلين ولا متفقلين عنه.

﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾ أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيِّنًا وَهُمْ نَائِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُجًى وَهُمْ يُلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾ أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٩٩﴾﴾

﴿٩٦﴾ لما ذكر تعالى أن المكذبين للرسول يبتلون بالضراء
موعظة وإنذاراً، وبالسراء استدراجاً ومكراً؛ ذكر أن أهل
القرى لو آمنوا بقلوبهم إيماناً صادقاً صدقته الأعمال،
واستعملوا تقوى الله تعالى ظاهراً وباطناً بترك جميع ما حرم
الله [تعالى]؛ لفتح عليهم بركات السماء والأرض؛ فأرسل
السماء عليهم مدراراً، وأنبت لهم من الأرض ما به يعيشون
وتعيش بهائمهم في أخصب عيش وأغزر رزق من غير عناء
ولا تعب ولا كد ولا نصب، ولكنهم لم يؤمنوا ويتقوا،
﴿فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ ﴿٩٧﴾ بالعقوبات والبلايا
ونزع البركات وكثرة الآفات، وهي بعض جزاء أعمالهم،
وإلا؛ فلو أخذهم بجميع ما كسبوا؛ ما ترك على ظهرها من
دابة، ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ
لِيَذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ ﴿٩٨﴾ [الروم: ٤١].

﴿۹۷﴾ أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقَرْيَةِ ﴿۹۷﴾؛ أي: المكذبة بقرينة السياق، ﴿۹۸﴾ أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ﴿۹۸﴾؛ أي: عذابنا الشديد، ﴿۹۹﴾ يَكُونُ ﴿۹۹﴾ وَهُمْ نَائِمُونَ ﴿۹۹﴾؛ أي: في غفلتهم وغرتهم وراحتهم؟

﴿٩٨﴾ وَأَمِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩٩﴾: أي شيء يؤمنهم من ذلك وهم قد فعلوا أسبابه وارتكبوا من الجرائم العظيمة ما يوجب بعضه الهلاك!

لَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ
 مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا
 يَكْسِبُونَ ﴿٩٩﴾ أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَتًّا
 وَهُمْ لَا يُشْعُرُونَ ﴿١٠٠﴾ أَوْ أَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا
 ضَعْفَىٰ وَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ
 مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ ﴿١٠٢﴾ أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ
 يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا أَن لَّوْنَشَاءَ أَصَبْنَاهُمْ
 بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿١٠٣﴾
 تِلْكَ الْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبِيَآئِهَا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ
 بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ
 كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ الْكَافِرِينَ ﴿١٠٤﴾ وَمَا وَجَدْنَا
 لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ وَإِن وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ ﴿١٠٥﴾
 ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ قَوْمِهِ وَفِرْعَوْنَ
 وَمَلَائِكَتِهِ فَنظَرْنَاهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ أَلَيْسَ بِالْمُفْسِدِينَ ﴿١٠٦﴾
 وَقَالَ مُوسَىٰ يُعْرَضُونَ عَلَيْكَ رُسُلًا مِنْ رَبِّ الْأَعْلَىٰ ﴿١٠٧﴾

﴿٩٩﴾ أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ: حيث يستدرجهم من حيث لا يعلمون، ويملي لهم إن كيده متين. ﴿١٠٠﴾ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٩٩﴾: فإن من آمن من عذاب الله؛ فإنه لم يصدق بالجزاء على الأعمال ولا آمن بالرسول حقيقة الإيمان.

وهذه الآية الكريمة فيها من التخويف البالغ على أن العبد لا ينبغي له أن يكون آمناً على ما معه من الإيمان، بل لا يزال خائفاً وجللاً أن يتلى بيلة تسلب ما معه من الإيمان، والأ يزال داعياً بقوله: يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك، وأن يعمل ويسعى في كل سبب يخلصه من الشر عند وقوع الفتن؛ فإن العبد ولو بلغت به الحال ما بلغت؛ فليس على يقين من السلامة.

﴿١٠٢﴾ أَوْ لَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا أَن لَّوْنَشَاءَ أَصَبْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿١٠٢﴾: تِلْكَ الْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبِيَآئِهَا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ الْكَافِرِينَ ﴿١٠٣﴾ وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ وَإِن وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ ﴿١٠٤﴾.

﴿١٠٣﴾ يقول تعالى منها للأمم الغابرين بعد هلاك الأمم الغابرين: ﴿١٠٣﴾ أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا أَن لَّوْنَشَاءَ أَصَبْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ؟ أي: أولم يتبين ويتضح للامم الذين ورثوا الأرض بعد إهلاك من قبلهم بذنوبهم ثم عملوا كأعمال أولئك المهلكين، أولم يهتدوا أن الله لو شاء لأصابهم بذنوبهم؛ فإن هذه سسته في الأولين والآخرين. وقوله: ﴿١٠٣﴾ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿١٠٣﴾: أي: إذا نبههم الله فلم يتبهوا، وذكرهم فلم يتذكروا، وهداهم بالآيات والعبر فلم يهتدوا؛ فإن الله تعالى يعاقبهم ويطبّع على قلوبهم فيعلوها الران والدنس حتى يختم عليها فلا يدخلها حق ولا يصل إليها خير ولا يسمعون ما ينفعهم، وإنما يسمعون ما به تقوم الحجة عليهم.

﴿١٠٤﴾ تِلْكَ الْقُرَىٰ: الذين تقدم ذكرهم، ﴿١٠٤﴾ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبِيَآئِهَا: ما يحصل به عبرة للمعتبرين، وازدجار للظالمين، وموعظة للمتقين، ﴿١٠٤﴾ وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ: أي: ولقد جاءت هؤلاء المكذبين رسلهم تدعوهم إلى ما فيه سعادتهم، وأيدهم الله بالمعجزات الظاهرة والبيّنات المبينات للحق بيّناً كاملاً، ولكنهم لم يفهموا هذا ولا أغنى عنهم شيئاً؛ ﴿١٠٤﴾ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ: أي: بسبب تكذيبهم وردهم الحق أول مرة ما كان يهديهم للإيمان جزاء لهم على ردهم الحق؛ كما قال تعالى: ﴿١٠٤﴾ وَنَقَلْنَا آيَاتِهِمْ وَأَبْصَرْتَهُمْ كَمَا تَرِثُؤْمُنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرْنَاهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَجْمَهُونَ ﴿١٠٤﴾ [الأنعام: ١١٠]، ﴿١٠٤﴾ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ الْكَافِرِينَ ﴿١٠٤﴾: عقوبة منه، وما ظلمهم الله، ولكنهم ظلموا أنفسهم.

﴿١٠٥﴾ وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ: أي: وما وجدنا لأكثر الأمم الذين أرسل الله إليهم الرسل من عهد؛ أي: من ثبات والتزام لوصية الله التي أوصى بها جميع العالمين، ولا انقادوا لأوامره التي ساقها إليهم على السنة رسله. ﴿١٠٥﴾ وَإِن وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ ﴿١٠٥﴾: أي: خارجين عن طاعة الله، متبعين لأهوائهم بغير هدى من الله؛ فالله تعالى امتحن العباد بإرسال الرسل وإنزال الكتب، وأمرهم باتباع عهده وهداه، فلم يمثل لأمره إلا القليل من الناس، الذين سبقت لهم من الله سابقة

السعادة، وأما أكثر الخلق؛ فأعرضوا عن الهدى، واستكبروا عما جاءت به الرسل، فأحل الله بهم من عقوباته المتنوعة ما أحل.

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ﴾ إلى آخر قصته.

﴿١٠٣﴾ أي: ثم بعثنا من بعد أولئك الرسل موسى الكليم الإمام العظيم والرسول الكريم إلى قوم عتاة جابرة - وهم فرعون وملؤه من أشrafهم وكبرائهم - فأراهم من آيات الله العظيمة ما لم يشاهد له نظير. ﴿فَظَلَمُوا بِهَا﴾: بأن لم ينقادوا لحقها الذي من لم ينقد له فهو ظالم، بل استكبروا عنها، ﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَتْ عِقَابُهُ الْمُفْسِدِينَ﴾ ﴿١٠٤﴾: كيف أهلكهم الله وأتبعهم الذم واللعنة في الدنيا، ويوم القيامة بشس الرشد المرفود.

﴿١٠٥﴾ وهذا مجمل فصله بقوله: ﴿وَقَالَ مُوسَى﴾: حين جاء إلى فرعون يدعو إلى الإيمان: ﴿يَفِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿١٠٦﴾؛ أي: إني رسول من مرسل عظيم، وهو رب العالمين، الشامل للعالم العلوي والسفلي، مربى جميع خلقه بأنواع التدابير الإلهية، التي من جملتها أنه لا يتركهم سدى، بل يرسل إليهم الرسل مبشرين ومنذرين، وهو الذي

حَقِيقٌ عَلَى أَنْ لَا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُمْ
بِبَيِّنَاتٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَءِيلَ ﴿١٠٥﴾ قَالَ إِنْ كُنْتَ
جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٠٦﴾ قَالَ لَقَدْ
عَصَاكَ إِذْ أَهَى ثُعْبَانٌ مُبِينٌ ﴿١٠٧﴾ وَنَزَعَ يَدَهُ إِذْ هِيَ بَيْضَاءُ
لِلنَّظِيرِينَ ﴿١٠٨﴾ قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ
عَلِيمٌ ﴿١٠٩﴾ يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ فَأَمَّا تَأْمُرُونَ ﴿١١٠﴾
قَالُوا أَزِجُّهُ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴿١١١﴾ يَأْتُونَكَ
بِكُلِّ سِحْرٍ عَلِيمٍ ﴿١١٢﴾ وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا إِنَّ
لَنَا لَأَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنِّكُمْ
لَمِنَ الْمُفْرَقِينَ ﴿١١٤﴾ قَالُوا يَمُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقَى وَإِمَّا أَنْ
تَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ ﴿١١٥﴾ قَالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا
أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴿١١٦﴾
﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ إِذْ هِيَ تَلْقَفُ مَا
يَأْفِكُونَ﴾ ﴿١١٧﴾ فَوَقَّعَ السَّحَرُ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾ فَعُلِبُوا
هُنَالِكَ وَانْقَلَبُوا صَغِيرِينَ ﴿١١٩﴾ وَأَلْقَى السَّحَرَةُ سِحْرَ بَنِي إِسْرَءِيلَ ﴿١٢٠﴾

لا يقدر أحد أن يتجرأ عليه ويدعي أنه أرسله ولم يرسله.

﴿١٢٠﴾ فإذا كان هذا شأنه، وأنا قد اختارني واصطفاني لرسالته؛ فحقيق علي ألا أكذب عليه ولا أقول عليه إلا الحق؛ فإني لو قلت غير ذلك؛ لعاجلني بالعقوبة، وأخذني أخذ عزيز مقتدر؛ فهذا موجب لأن ينقادوا له ويتبعوه، خصوصاً وقد جاءهم ببينة من الله واضحة على صحة ما جاء به من الحق، فوجب عليهم أن يعملوا بمقصود رسالته، ولها مقصودان عظيمان: إيمانهم به واتباعهم له، وإرسال بني إسرائيل الشعب الذي فضله الله على العالمين أولاد الأنبياء وسلسلة يعقوب عليه السلام الذي موسى عليه الصلاة والسلام واحد منهم.

﴿١٢١﴾ فقال له فرعون: ﴿إِنْ كُنْتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ ﴿١٢٢﴾. ﴿١٢٣﴾ ﴿فَأَلْقَى﴾ موسى ﴿عَصَاهُ﴾: في الأرض، ﴿فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ﴾ ﴿١٢٤﴾؛ أي: حية ظاهرة تسعى وهم يشاهدونها. ﴿١٢٥﴾ ﴿وَنَزَعَ يَدَهُ﴾: من جيبه، ﴿فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّظِيرِينَ﴾ ﴿١٢٦﴾: من غير سوء؛ فهاتان آيتان كبيرتان دالتان على صحة ما جاء به موسى وصدقه، وأنه رسول رب العالمين.

﴿١٢٧﴾ ولكن الذين لا يؤمنون لو جاءتهم كل آية لا يؤمنون حتى يروا العذاب الأليم؛ فلهذا ﴿قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ﴾ حين بهرهم ما رأوا من الآيات ولم يؤمنوا وطلبوا لها التاويلات الفاسدة: ﴿إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ عَلِيمٌ﴾ ﴿١٢٨﴾؛ أي: ماهر في سحره.

﴿١٢٩﴾ ثم خوفوا ضعفاء الأحلام وسفهاء العقول بأنه ﴿يُرِيدُ﴾ موسى بفعله هذا ﴿أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ﴾؛ أي: يريد أن يجليكم من أوطانكم، ﴿فَمَّاذَا تَأْمُرُونَ﴾ ﴿١٣٠﴾؟ أي: إنهم تشاوروا فيما بينهم ما يفعلون بموسى، وما يندفع به ضرره بزعمهم عنهم؛ فإن ما جاء به إن لم يقابل بما يبطله ويدحضه، دخل في عقول أكثر الناس.

سورة الأعراف

الترجمة

قَالُوا أَمْ آتَا رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿١١٦﴾ رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ ﴿١١٧﴾ قَالَ
 فِرْعَوْنُ مَا أَنْتُمْ بِإِلهٍ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَكْرُومُهُ
 فِي الْمَدِينَةِ لَخُجْرًا مِنْهَا أَهْلُهَا فَسَوْفَ نَعْتَلُونَ ﴿١١٨﴾ لَأَقْطَعَنَّ
 أَيْدِيَكُمْ وَأَقْطَعَنَّ مِنْ خَلْفِكُمْ ثُمَّ لَا أُولِيَتُكُمْ أَمْجُوعٍ ﴿١١٩﴾
 قَالُوا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ ﴿١٢٠﴾ وَمَا نَنْفَعُ مَنَا إِلَّا أَنْتَ أَمْ آتَا
 بِآيَاتٍ رَبِّنَا لَنَا جَاءَ تَارِبًا آفَرِجَ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴿١٢١﴾
 وَقَالَ الْكَلْبُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا
 فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ قَالَ سَنْقُبِلَ آبَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي
 نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ ﴿١٢٢﴾ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ
 اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَأَصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ
 يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٣﴾ قَالُوا أَوْذَيْنَا
 مِنْ قَبْلُ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ
 أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَ فِي الْأَرْضِ
 فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٢٤﴾ وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ
 بِالْأَسِنَّةِ وَنَقَصْنَا مِنَ الشَّعَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذْكُرُونَ ﴿١٢٥﴾

١٦٥

﴿١١٦﴾ ﴿١١٧﴾ فحيثما انعقد رأيهم إلى أن قالوا لفرعون: ﴿١١٦﴾ أَرَجِهْ
 وَأَخَاهُ ﴿١١٧﴾؛ أي: أحبسهما وأمهلهما، وابعث في المدائن أناسا
 يحشرون أهل المملكة ويأتون بكل سحار عليهم؛ أي: يجيئون
 بالسحرة المهرة؛ ليقابلوا ما جاء به موسى، فقالوا: يا موسى
 اجعل ﴿١١٦﴾ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَا نُخْلِفُهُ، نَحْنُ وَلَا أَنْتَ مَكَانًا
 سَوًى ﴿١١٧﴾ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمَ الزَّيْنَةِ وَأَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ ضَحًى ﴿١١٨﴾
 فَتَوَلَّى فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَى ﴿١١٩﴾ [طه: ٥٨-٦٠].

﴿١٢٠﴾ وقال هنا: ﴿١٢٠﴾ وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ ﴿١٢١﴾ طالبين منه
 الجزاء إن غلبوا، فقالوا: ﴿١٢١﴾ إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ
 الْغَالِبِينَ ﴿١٢٢﴾.

﴿١٢٣﴾ ف ﴿١٢٣﴾ قَالَ ﴿١٢٣﴾ فِرْعَوْنُ: ﴿١٢٣﴾ لَكُمْ أَجْرٌ، وَإِنَّكُمْ
 لِمِنَ الْمُفْلَكِينَ ﴿١٢٤﴾ ﴿١٢٥﴾: فوعدهم الأجر والتقريب وعلو المنزلة
 عنده؛ ليجتهدوا ويذلوا وسعهم وطاعتهم في مغالبة موسى.

﴿١٢٦﴾ فلما حضروا مع موسى بحضرة الخلق العظيم،
 ﴿١٢٧﴾ قَالُوا ﴿١٢٧﴾: على وجه التالي وعدم المبالاة بما جاء به موسى،
 ﴿١٢٨﴾ يَلْمُوسَىٰ إِمَّا أَنْ تُلْقَىٰ ﴿١٢٨﴾: ما معك، ﴿١٢٩﴾ وَإِمَّا أَنْ تَكُونَ نَحْنُ
 الْمُلْقِينَ ﴿١٣٠﴾.

﴿١٣١﴾ ف ﴿١٣١﴾ قَالَ ﴿١٣١﴾ موسى: ﴿١٣١﴾ أَلْقُوا ﴿١٣١﴾: لأجل أن يرى الناس
 ما معهم وما مع موسى، ﴿١٣٢﴾ فَلَمَّا أَلْقُوا ﴿١٣٢﴾: حبالهم وعصيهم إذا
 هي من سحرهم كأنها حيات تسعى، ف ﴿١٣٣﴾ سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴿١٣٤﴾: لم يوجد له نظير
 من السحر.

﴿١٣٥﴾ ﴿١٣٦﴾ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنَّ آلِيَّ عَصَاكَ ﴿١٣٦﴾: فآلقاها، ﴿١٣٧﴾ فَإِذَا هِيَ ﴿١٣٧﴾: حية تسعى ف ﴿١٣٨﴾ تَلَقَّكَ ﴿١٣٨﴾: جميع ﴿١٣٩﴾ مَا يَأْكُودُونَ ﴿١٣٩﴾: أي: يكذبون به ويموهون.

﴿١٤٠﴾ ﴿١٤١﴾ فَوَقَعَ الْحَقُّ ﴿١٤١﴾: أي: تبين، وظهر، واستعلن في ذلك المجمع، ﴿١٤٢﴾ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٢﴾.

﴿١٤٣﴾ ﴿١٤٤﴾ فَمَلَبُوا هَٰذَاكَ ﴿١٤٤﴾: أي: في ذلك المقام، ﴿١٤٥﴾ وَأَنْقَلَبُوا صَغِيرِينَ ﴿١٤٥﴾: أي: حقيرين قد اضمحل باطلهم وتلاشى سحرهم
 ولم يحصل لهم المقصود الذي ظنوا حصوله.

﴿١٤٦﴾ - ﴿١٤٧﴾ وأعظم من تبين له الحق العظيم أهل الصنف والسر الذين يعرفون من أنواع السحر وجزئياته ما لا يعرفه
 غيرهم، فعرفوا أن هذه آية عظيمة من آيات الله، لا يدان لأحد بها، ﴿١٤٨﴾ وَأَلْقَى السَّحَرَةُ سِحْرَ بَنِي إِسْرَءِيلَ ﴿١٤٨﴾ قَالُوا أَمْ آتَا رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿١٤٩﴾
 رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ ﴿١٤٩﴾: أي: وصدقنا بما بعث به موسى من الآيات البينات.

﴿١٥٠﴾ ف ﴿١٥٠﴾ قَالَ ﴿١٥٠﴾ لَهُمْ ﴿١٥٠﴾ فِرْعَوْنُ ﴿١٥٠﴾ متهددا لهم على الإيمان: ﴿١٥١﴾ مَا أَنْتُمْ بِإِلهٍ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ ﴿١٥١﴾: كان الخيبت حاكما مستبدا على
 الأبدان والأقوال، قد تقرر عنده وعندهم أن قوله هو المطاع وأمره نافذ فيهم ولا خروج لأحد عن قوله وحكمه، وبهذه الحالة
 تنحط الأمم وتضعف عقولها ونفوذها وتعجز عن المدافعة عن حقوقها، ولهذا قال الله عنه: ﴿١٥٢﴾ فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ ﴿١٥٢﴾
 [الزخرف: ٥٤]، وقال هنا: ﴿١٥٣﴾ مَا أَنْتُمْ بِإِلهٍ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ ﴿١٥٣﴾: أي: فهذا سوء أدب منكم وتجرؤ علي، ثم موه على قومه وقال:
 ﴿١٥٤﴾ إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَكْرُومُهُ فِي الْمَدِينَةِ لَخُجْرًا مِنْهَا أَهْلُهَا ﴿١٥٤﴾: أي: إن موسى كبيركم الذي علمكم السحر، فتواطأتم أنتم وهو على

موسى بحالة لا ينامون فيها ويأمن فرعون وقومه بزعمه من ضررهم: ﴿سَتَقِيلُ أَبْنَاؤُهُمْ وَتَسْتَعِيْ يَسَاءَ هُمْ﴾؛ أي: نستقيهن فلا نقتلن؛ فإذا فعلنا ذلك؛ أئنا من كثرتهم، وكنا مستخدمين لباقيهم ومسخرين لهم على ما نشاء من الأعمال، ﴿وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ﴾؛ لا خروج لهم عن حكمنا ولا قدرة. وهذا نهاية الجبروت من فرعون والعتو والقسوة.

﴿١٢٨﴾ فقال ﴿مُوسَى لِقَوْمِهِ﴾: موصيًا لهم - في هذه الحالة التي لا يقدرون معها على شيء ولا مقاومة - بالمقاومة الإلهية والاستعانة الربانية: ﴿أَسْعَيْتُوا بِاللَّهِ﴾؛ أي: اعتمدوا عليه في جلب ما ينفعكم ودفع ما يضركم، وثقوا بالله أنه سيمم أمركم، ﴿وَأَصْبِرُوا﴾؛ أي: الزموا الصبر على ما يحل بكم منتظرين للفرج. ﴿إِنَّكَ أَلْأَرْضَ لِلَّهِ﴾: ليست لفرعون ولا لقومه حتى يتحكموا فيها، ﴿يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾؛ أي: يداولها بين الناس على حسب مشيئته وحكمته، ولكن العاقبة للمتقين؛ فإنهم وإن امتحنوا مدة ابتلاء من الله وحكمة؛ فإن النصر لهم، ﴿وَالْعَاقِبَةُ﴾: الحميدة لهم على قومهم. وهذه وظيفة العبد؛ أنه عند القدرة أن يفعل من الأسباب الدافعة عنه أذى الغير ما يقدر عليه، وعند العجز أن يصبر ويستعين بالله ويتنظر الفرج.

﴿١٢٩﴾ ﴿قَالُوا﴾: لموسى متضجرين من طول ما مكثوا في عذاب فرعون وأذيته: ﴿أَوَدَيْتَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا﴾: فإنهم يسوموننا سوء العذاب؛ يذبحون أبناءنا ويستحيون نساءنا، ﴿وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْنَا﴾: كذلك، فـ ﴿قَالَ﴾ لهم موسى مرجيًا لهم بالفرج والخلاص من شرهم: ﴿عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَذَابُكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ﴾؛ أي: يمكنكم فيها ويجعل لكم التدبير فيها، ﴿فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾؛ هل تشكرون أم تكفرون؟ وهذا وعد أنجزه الله لما جاء الوقت الذي أَرَادَهُ الله.

﴿١٣٠﴾ قال الله تعالى في بيان ما عامل به آل فرعون في هذه المدة الأخيرة - إنها على عادته وسنته في الأمن أن يأخذهم ﴿يَا أَيُّهَا سَاءَ الْأُصْرَاءُ لَعَلَّهُمْ يَضُرُّوْنَ﴾ [الأعراف: ٢٩٤]: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّبْيِ﴾؛ أي: بالدهور والجذب، ﴿وَنَقَصَ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذْكُرُونَ﴾؛ أي: يتعظون أن ما حل بهم وأصابهم معاقبة من الله لهم لعلهم يرجعون عن كفرهم، فلم ينجع فيهم ولا أفاد، بل استمروا على الظلم والفساد.

أن تغلبوا له فيظهر فتبوه ثم يتبعكم الناس أو جمهورهم، فتخرجوا منها أهلها، وهذا كذب يعلم هو ومن سبر الأحوال أن موسى عليه الصلاة والسلام لم يجتمع بأحد منهم، وأنهم جمعوا على نظر فرعون وورسله، وأن ما جاء به موسى آية إلهية، وأن السحرة قد بذلوا مجهودهم في مغالبة موسى حتى عجزوا وتبين لهم الحق فاتبوه. ثم توعدهم فرعون بقوله: ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾؛ ما أحل بكم من العقوبة.

﴿١٣١﴾ ﴿لَأَطْعَمَ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خَلْفٍ﴾: زعم الخبيث أنهم مفسدون في الأرض، وسيصنع بهم ما يصنع بالمفسدين من تقطيع الأيدي والأرجل من خلاف؛ أي: اليد اليمنى والرجل اليسرى، ﴿ثُمَّ لَأَصْلَحَنَّكُمْ﴾: في جذوع النخل، لتختروا بزعمه ﴿أَجْمَعِينَ﴾؛ أي: لا أفعل هذا الفعل بأحد دون أحد، بل كلكم سيدوق هذا العذاب.

﴿١٣٢﴾ فقال السحرة الذين آمنوا لفرعون حين تهددهم: ﴿إِنَّا إِلَٰهٌ رَبَّنَا مُتَغَلَّبُونَ﴾؛ أي: فلا نبالي بعقوبتك؛ فالله خير وأبقى؛ فافض ما أنت قاض.

﴿١٣٣﴾ ﴿وَمَا نُنْقِمُ مِنْهَا﴾؛ أي: وما تعيب منا على إنكارك علينا وتوعدك لنا؟ فليس لنا ذنب ﴿إِلَّا أَنْتَ أَمَّا تَبَاتِلْ رَبَّنَا لَمَّا جَاءَنَا﴾؛ فإن كان هذا ذنبًا يعاب عليه ويستحق صاحبه العقوبة؛ فهو ذنبنا. ثم دعوا الله أن يثبتهم ويصبرهم، فقالوا: ﴿رَبَّنَا أَفْرِغْ﴾؛ أي: أفض ﴿عَلَيْنَا صَبْرًا﴾؛ أي: عظيمًا كما يدل عليه التثنية؛ لأن هذه محنة عظيمة تؤدي إلى ذهاب النفس، فيحتاج فيها من الصبر إلى شيء كثير؛ ليثبت الفؤاد ويطمئن المؤمن على إيمانه ويزول عنه الانزعاج الكثير. ﴿وَنُؤَفِّقْ مُسْلِمِينَ﴾؛ أي: منافقين لأمرك متبعين لرسولك. والظاهر أنه أوقع بهم ما توعدهم عليه، وأن الله تعالى ثبتهم على الإيمان.

﴿١٣٤﴾ هذا وفرعون وملؤه وعامتهم المتبعون للملأ قد استكبروا عن آيات الله وجحدوا بها ظلمًا وعلوًا وقالوا لفرعون مهيجين له على الإيقاع بموسى وزاعمين أن ما جاء باطل وفساد: ﴿أَنْتَ دُرُّ مِصْرَ وَقَوْمُهُ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ﴾: بالدعوة إلى الله وإلى مكارم الأخلاق ومحاسن الأعمال التي هي الصلاح في الأرض وما هم عليه هو الفساد، ولكن الظالمين لا يبالون بما يقولون، ﴿وَيَذَرُكَ وَآلِهَتَكَ﴾؛ أي: يدعك أنت وآلهتك، وينهى عنك، ويصد الناس عن اتباعك، فـ ﴿قَالَ﴾ فرعون مجيبًا لهم بأنه سيدع بني إسرائيل مع

الْباق

سورة الاعراف

فَإِذَا جَاءَهُمْ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِنْ تُصِيبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَلَا إِنَّمَا طَّيَّرَهُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣٦﴾ وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِينَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِيَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٧﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالْذَّمَاءَ إِنِّي مَقْصَلَتٌ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ ﴿١٣٨﴾ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَمْشَى آدَمُ لَنَا رَبِّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ لَئِنْ كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَءِيلَ ﴿١٣٩﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الرِّجْزَ إِلَى أَجَلٍ هُمْ بِلِقَاؤِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿١٤٠﴾ فَانْقَمْنَا مِنْهُمْ فَاغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴿١٤١﴾ وَأَوْثَرْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضَعُونَ مَشْرِقَ الْأَرْضِ وَمَغْرِبِهَا الْيَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يَكْفُرُونَ مَشْرِقَ الْحَسَنِيِّ عَلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَرْنَا مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ فَرَعُونَ وَقَوْمَهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ ﴿١٤٢﴾

١٦٦

﴿١٣٦﴾ فَإِذَا جَاءَهُمْ الْحَسَنَةُ ﴿١﴾؛ أي: الخصب وإدارار الرزق، ﴿٢﴾ قَالُوا لَنَا هَذِهِ ﴿٣﴾؛ أي: نحن مستحقون لها، فلم يشكروا الله عليها، ﴿٤﴾ وَإِنْ تُصِيبْهُمْ سَيِّئَةٌ ﴿٥﴾؛ أي: فحط وجذب، ﴿٦﴾ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ ﴿٧﴾؛ أي: يقولوا: إنما جاءنا بسبب مجيء موسى واتباع بني إسرائيل له. قال الله تعالى: ﴿٨﴾ أَلَا إِنَّمَا طَّيَّرَهُمْ عِنْدَ اللَّهِ ﴿٩﴾؛ أي: بقضائه وقدرته، ليس كما قالوا، بل إن ذنوبهم وكفرهم هو السبب في ذلك، بل أكثرهم لا يعلمون؛ أي: فلذلك قالوا ما قالوا.

﴿١٣٧﴾ وَقَالُوا ﴿١﴾: مبينين لموسى أنهم لا يزالون ولا يزولون عن باطلهم، ﴿٢﴾ مَهْمَا تَأْتِينَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِيَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾؛ أي: قد تقرر عندنا أنك ساحر؛ فمهما جئت بآية؛ جزمنا أنها سحر؛ فلا نؤمن لك ولا نصدق. وهذا غاية ما يكون من العناد أن يبلغ بالكافرين إلى أن تستوي عندهم الحالات سواء نزلت عليهم الآيات أم لم تنزل.

﴿١٣٨﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ ﴿١﴾؛ أي: الماء الكثير الذي أغرق أشجارهم وزروعهم وأضرهم ضرراً كثيراً، ﴿٢﴾ وَالْجَرَادَ ﴿٣﴾: فأكل ثمارهم وزروعهم ونباتهم، ﴿٤﴾ وَالْقُمَّلَ ﴿٥﴾: قيل: إنه الدُّبَاءُ؛ أي: صغار الجراد، والظاهر أنه القمل المعروف، ﴿٦﴾ وَالضَّفَادِعَ ﴿٧﴾: فملأت أوعيتهم وألقتهن وأذتهن أذية شديدة، ﴿٨﴾ وَالذَّمَاءَ ﴿٩﴾: إما أن يكون الرعاف، أو كما قال

كثير من المفسرين: إن ماءهم الذي يشربون انقلب دماً، فكانوا لا يشربون إلا دماً ولا يطبخون إلا بدم. ﴿١٠﴾ آيَاتٍ مُفَصَّلَتٍ ﴿١١﴾؛ أي: أدلة وبيانات على أنهم كانوا كاذبين ظالمين، وعلى أن ما جاء به موسى حق وصدق. ﴿١٢﴾ فَاسْتَكْبَرُوا ﴿١٣﴾: لما رأوا الآيات، ﴿١٤﴾ وَكَانُوا ﴿١٥﴾: في سابق أمرهم ﴿١٦﴾ قَوْمًا مُجْرِمِينَ ﴿١٧﴾: فلذلك عاقبهم الله تعالى بأن أبقاهم على النفي والضلال.

﴿١٣٩﴾ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ ﴿١﴾؛ أي: العذاب؛ يحتمل أن المراد به الطاعون؛ كما قاله كثير من المفسرين، ويحتمل أن يراد به ما تقدم من الآيات؛ الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم؛ فإنها رجز وعذاب، وأنهم كلما أصابهم واحد منها؛ ﴿٢﴾ قَالُوا يَمْشَى آدَمُ لَنَا رَبِّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ ﴿٣﴾؛ أي: تشفعوا بموسى بما عهد الله عنده من الوحي والشرع. ﴿٤﴾ لَئِنْ كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَءِيلَ ﴿٥﴾: وهم في ذلك كذبة لا قصد لهم إلا زوال ما حل بهم من العذاب، وظنوا إذا رفع لا يصيبهم غيره.

﴿١٤٠﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الرِّجْزَ إِلَى أَجَلٍ هُمْ بِلِقَاؤِهِ ﴿١﴾؛ أي: إلى مدة قدر الله بقاءهم إليها، وليس كشفاً مؤقتاً، وإنما هو مؤقت، ﴿٢﴾ إِذَا هُمْ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣﴾: العهد الذي عاهدوا عليه موسى ووعدوه بالإيمان به وإرسال بني إسرائيل، فلا آمنوا به ولا أرسلوا معه بني إسرائيل، بل استمروا على كفرهم يعمهون وعلى تعذيب بني إسرائيل دائبين.

﴿١٤١﴾ فَانْقَمْنَا مِنْهُمْ ﴿١﴾؛ أي: حين جاء الوقت المؤقت لهلاكهم؛ أمر الله موسى أن يسري ببني إسرائيل ليلاً، وأخبره أن فرعون سيبعثهم هو وجنوده. ﴿٢﴾ فَأَرْسَلَ فَرَعُونَ فِي الْمَلَائِكَةِ حَاشِرِينَ ﴿٣﴾: يجمعون الناس ليتبعوا بني إسرائيل، وقالوا لهم: ﴿٤﴾ إِنَّ هَذِهِ لَشَرْمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥﴾ وَلَئِنْ لَنَا لَغَالِظُونَ ﴿٦﴾ وَلَئِنْ لَنَا لَجَمِيعٌ حَذِرُونَ ﴿٧﴾ فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّتِ وَعَيْنُونَ ﴿٨﴾ وَكُنُوزَ وَمَقَارٍ كَرِيمٍ ﴿٩﴾ كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَءِيلَ ﴿١٠﴾ فَاتَّبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ ﴿١١﴾ فَلَمَّا رَأَوْا الْجَمْعَ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمَذْكُورُونَ ﴿١٢﴾ قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿١٣﴾ فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ ﴿١٤﴾ وَأَزَلَّانَا نَمُ الْآخَرِينَ ﴿١٥﴾ وَأَجْعَلْنَا

مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ ﴿١٦﴾ ﴿الشعراء: ٥٣-٦٦﴾. وقال هنا: ﴿فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ يَأْتُهُمْ كَذْبُؤُنَا بِأَيِّدِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴿١٦﴾﴾؛ أي: بسبب تكذيبهم بآيات الله، وإعراضهم عما دلت عليه من الحق.

﴿وَأَرْسَلْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضَعُونَ﴾: في الأرض؛ أي: بني إسرائيل الذين كانوا خدمة لآل فرعون يسومونهم سوء العذاب، أورثهم الله ﴿مَشْرُكَ الْأَرْضِ وَمَعْرِبَهَا﴾: والمراد بالأرض ههنا أرض مصر التي كانوا فيها مستضعفين أذلين؛ أي: ملكهم الله جميعها ومكنهم فيها، ﴿الَّتِي بَدَرْنَا فِيهَا وَكَمَتَ رَبُّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ بِمَا صَبَرُوا﴾: حين قال لهم موسى: ﴿اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٧٨﴾﴾، ﴿وَدَمَّرْنَا مَا كَانَتْ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ﴾: من الأبنية الهائلة والمساكن المزخرفة، ﴿وَمَا كَانُوا يَعْشَوْنَ﴾ ﴿١٧٩﴾: ﴿فَقَالَتْ يَأْتِيهِمْ خَاوِبَةً بَمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥٢﴾﴾ [النمل: ٥٢].

﴿وَجَوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَءِيلَ الْبَحْرَ﴾: بعدما أنجاهم الله من عدوهم فرعون وقومه وأهلكهم الله، وبنو إسرائيل ينظرون، ﴿فَاتَّأَوْا﴾؛ أي: مروا ﴿عَلَىٰ قَوْمٍ يَكْفُؤُونَ عَلَىٰ أَسْنَانِهِمْ﴾؛ أي: يقيمون عندها ويتبركون بها ويعبدونها، فـ ﴿قَالُوا﴾ من أراهم وسفهمهم لنبيهم موسى بعدما أراهم الله من الآيات ما أراهم: ﴿يَكْفُؤُونَ عَلَىٰ أَسْنَانِهِمْ﴾؛ أي: اشرع لنا أن نتخذ أصناماً آلهة كما اتخذها هؤلاء، فـ ﴿قَالَ﴾ لهم موسى: ﴿إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٧٨﴾﴾: وأي جهل أعظم من جهل من جهل ربه وخالقه، وأراد أن يسوي به غيره ممن لا يملك نفعا ولا ضرا ولا موتا ولا حياة ولا نشورا؟!

﴿وَلَهَذَا قَالَ لَهُمُ موسى: ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ مِثْرًا مَّا هُمْ فِيهِ وَيَطْلُبُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٧٩﴾﴾: لأن دعاءهم إياها باطل وهي باطلة بنفسها؛ فالعمل باطل وغايته باطلة.

﴿قَالَ أَغْيَرَ اللَّهُ آيَاتِكُمْ إِلَهًا﴾؛ أي: أطلب لكم إلها غير الله المألوه الكامل في ذاته وصفاته وأفعاله؟! ﴿وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿١٨٠﴾﴾: فيقتضي أن تقابلوا فضله وتفضيله بالشكر، وذلك بإفراد الله وحده بالعبادة والكفر بما يدعى من دونه.

﴿ثُمَّ ذَكَرَهُمْ مَا آمَنَ اللَّهُ بِهِ عَلَيْهِمْ فَقَالَ: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ﴾؛ أي: من فرعون وآله، ﴿يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ﴾؛ أي: يوجهون إليكم من العذاب أسوأه، وهو أنهم كانوا ﴿يَقْتُلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ﴾ وفي ذلكم ﴿أَي: النجاة من عذابهم، ﴿بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿١٨١﴾﴾؛ أي: نعمة جلييلة ومنحة جزيلة، أو وفي ذلك العذاب الصادر منهم لكم بلاء من ربكم عليكم عظيم.

﴿فَلَمَّا ذَكَرَهُمْ موسى ووعظهم؛ انتهوا عن ذلك، ولما أتم الله نعمته عليهم بالنجاة من عدوهم وتمكينهم في الأرض؛ أراد تبارك وتعالى أن يتم نعمته عليهم بإزالة الكتاب، الذي فيه الأحكام الشرعية والعقائد المرضية، فواعد موسى ثلاثين ليلة، وأتمها بعشر، فصارت أربعين ليلة؛ ليستعد موسى وتهيأ لوعده الله ويكون لنزولها موقع كبير لديهم وتشوق إلى إنزالها، ولما ذهب موسى إلى ميقات ربه، قال لهارون موصيا له على بني إسرائيل من حرصه عليهم وشفقته: ﴿اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي﴾؛ أي: كن

سُورَةُ الْأَعْرَافِ
وَجَوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَءِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَىٰ قَوْمٍ يَكْفُؤُونَ عَلَىٰ أَسْنَانِهِمْ لَهُمْ قَالُوا يُكْفُؤُونَ عَلَىٰ أَسْنَانِهِمْ كَذْبُؤُنَا بِأَيِّدِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴿١٦﴾ قَالَ لَهُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٧٨﴾ إِنَّ هَؤُلَاءِ مِثْرًا مَّا هُمْ فِيهِ وَيَطْلُبُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٧٩﴾ قَالَ أَغْيَرَ اللَّهُ آيَاتِكُمْ إِلَهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿١٨٠﴾ وَإِذْ أَخَذْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُقْتُلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكَ لَكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿١٨١﴾ وَوَعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتَمَّمْنَاهَا بِعَشْرِ فَمَتَّ مِيقَتَ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٨٢﴾ وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ نَرِيَّ وَلَكِنْ أَنْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ نَرِيَّ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لِرَبِّهِ لِلْجَبَلِ جَمْعَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صُغُقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَنَكَ ثَبَّتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٨٣﴾

خلفتي فيهم، واعمل فيهم بما كنت تعمل، ﴿وَأَصْلِحْ﴾؛ أي: اتبع طريق الصلاح، ﴿وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ ﴿١٤٦﴾: وهم الذين يعملون بالمعاصي.

﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا﴾: الذي وقتناه له لإنزال الكتاب، ﴿وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ﴾: بما كلمه من وحيه وأمره ونهيه؛ تشوق إلى رؤية الله، ونزعت نفسه لذلك حباً لربه ومودة لرؤيته، ف ﴿قَالَ رَبِّ ارْنِيْ أَنْظُرْ إِلَيْكَ﴾ قَالَ ﴿اللَّهُ: لَنْ تَرِنِيْ﴾؛ أي: لن تقدر الآن على رؤيتي؛ فإن الله تبارك وتعالى أنشأ الخلق في هذه الدار على نشأة لا يقدرون بها، ولا يشبثون لرؤية الله، وليس في هذا دليل على أنهم لا يرونه في الجنة؛ فإنه قد دلت النصوص القرآنية والأحاديث النبوية على أن أهل الجنة يرون ربهم تبارك وتعالى، ويتمتعون بالنظر إلى وجهه الكريم. وأنه ينشئهم نشأة كاملة يقدرون معها على رؤية الله تعالى، ولهذا رتب الله الرؤية في هذه الآية على ثبوت الجبل، فقال مقنناً لموسى في عدم إجابته للرؤية: ﴿وَلَكِنْ أَنْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ﴾: إذا تجلى الله له، ﴿فَسَوْفَ تَرِنِيْ فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ﴾: الأصم الغليظ، ﴿جَعَلَهُ دَكًّا﴾؛ أي: انهال مثل الرمل انزعاجاً من رؤية الله وعدم ثبوته لها، ﴿وَحَرَّ مُوسَى﴾: حين رأى ما رأى، ﴿صَعَقًا﴾ فتبين له حيث أنه إذا لم يثبت الجبل لرؤية الله؛ فموسى أولى

الأ يثبت لذلك، واستغفر ربه لما صدر منه من السؤال الذي لم يوافق موضعاً، ولذلك ﴿قَالَ سُبْحَنَكَ﴾؛ أي: تنزيهاً لك وتعظيماً عما لا يليق بجلالك، ﴿تَبَّتْ إِلَيْكَ﴾: من جميع الذنوب وسوء الأدب معك، ﴿وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿١٤٧﴾؛ أي: جدد عليه الصلاة والسلام إيمانه بما كمل الله له مما كان يجهله قبل ذلك.

﴿فَلَمَّا مَنَعَهُ اللَّهُ مِنْ رُؤْيَاهُ بَعْدَمَا كَانَ مَتَشَوِّقًا إِلَيْهَا﴾: أعطاه خيراً كثيراً، فقال: ﴿يَمُوسَى إِنْىِ أَصْطَفَيْتَكَ عَلَى النَّاسِ﴾؛ أي: اخترتك واجتيتك وفضلتك وخصصتك بفضائل عظيمة ومناقب جليلة، ﴿بِرِسَالَتِي﴾: التي لا أجعلها ولا أخص بها إلا أفضل الخلق، ﴿وَيَكَلِّبِي﴾: إياك من غير واسطة، وهذه فضيلة اختص بها موسى الكليم، وعرف بها من بين إخوانه من المرسلين، ﴿فَخَذَّ مَاءً تَمَيتُكَ﴾: من النعم، وخذ ما أتيتك من الأمر والنهي بانسراح صدر، وتلقه بالقبول والانقياد، ﴿وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ ﴿١٤٨﴾: لله على ما خصك وفضلك.

﴿وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَابِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾: يحتاج إليه العباد ﴿مَوْعِظَةً﴾: تُرغِّب النفوس في أفعال الخير وترهبهم من أفعال الشر، ﴿وَنَقَّصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾: من الأحكام الشرعية والعقائد والأخلاق والآداب، ﴿فَخَذَّهَا بِقُوَّةٍ﴾؛ أي: بجهد واجتهاد على إقامتها، ﴿وَأَمَرَ قَوْمَكُ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا﴾: وهي الأوامر الواجبة والمستحبة؛ فإنها أحسنها. وفي هذا دليل على أن أوامر الله في كل شريعة كاملة عادلة حسنة. ﴿سَأُورِيكَ دَارَ الْفَنَاقِينَ﴾ ﴿١٤٩﴾: بعدما أهلكهم الله وأبقى ديارهم عبرة بعدهم يعتبر بها المؤمنون الموفقون المتواضعون.

﴿وَأَمَّا غَيْرُهُمْ﴾ فقال عنهم: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِي﴾؛ أي: عن الاعتبار في الآيات الأفقية والنفسية والفهم لآيات الكتاب، ﴿الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾؛ أي: يتكبرون على عباد الله وعلى الحق وعلى من جاء به؛ فمن كان بهذه الصفة؛ حرمة الله خيراً كثيراً، وخذله، ولم يفقه من آيات الله ما يتفجع به، بل ربما انقلبت عليه الحقائق واستحسن القبيح، ﴿وَأِنْ يَرَوْا

كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا ﴿١﴾: لإعراضهم واعتراضهم ومحادّتهم لله ورسوله، ﴿وَأِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ﴾؛ أي: الهدى والاستقامة، وهو الصراط الموصل إلى الله وإلى دار كرامته، ﴿لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا﴾؛ أي: لا يسلكوه ولا يرغبوا فيه، ﴿وَأِنْ يَكُونْ سَبِيلَ النَّجَى﴾؛ أي: الغواية الموصل لصاحبه إلى دار الشقاء، ﴿يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا﴾. والسبب في انحرافهم هذا الانحراف، ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ﴾ ﴿٢﴾: هو فردهم لآيات الله وغفلتهم عما يراد بها واحتقارهم لها - هو الذي أوجب لهم من سلوك طريق الغي وترك طريق الرشد ما أوجب.

(157) ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾: العظيمة الدالة على صحة ما أرسلنا به رسلنا، ﴿وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ حِطَّتْ أَعْمَالُهُمْ﴾: لأنها على غير أساس، وقد فقد شرطها، وهو الإيمان بآيات الله والتصديق بجزائه. ﴿هَلْ يُجْزَوْنَ﴾: في بطلان أعمالهم وحصول ضد مقصودهم ﴿إِلَّا مَا كَانُوا يَمْلُوكُونَ﴾: (158) فإن أعمال من لا يؤمن باليوم الآخر لا يرجو فيها ثواباً، وليس لها غاية تنتهي إليها؛ فلذلك اضمحلت وبطلت.

﴿وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ خُلَيفَتِهِ عِجْلًا جَسَدًا﴾: صاغه السامري وألقى عليه قبضة من أثر الرسول فصار **الْأَخْوَارُ** ﴿وَصَوَّتْ، فَعْبَدُوهُ وَاتَّخَذُوهُ إِلَهًا، وَقَالَ: هَذَا

إلهكم وإله موسى، فأنسى موسى، وذهب يطلبه، وهذا من سفههم وقلة بصيرتهم؛ كيف اشتبه عليهم رب الأرض والسموات بعجل من أنقص المخلوقات؟! ولهذا قال مبيّنًا أنه ليس فيه من الصفات الذاتية ولا الفعلية ما يوجب أن يكون إلهًا: ﴿لَا يَرَوْنَ أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ﴾؛ أي: وعدم الكلام نقص عظيم؛ فهم أكمل حالة من هذا الحيوان أو الجماد الذي لا يتكلم، ﴿وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا﴾؛ أي: لا يهديهم طريقًا دينيًا ولا يحصل لهم مصلحة دنيوية؛ لأن من المتقرر في العقول والفطر أن اتخاذ إله لا يتكلم ولا ينفع ولا يضر من أبطل الباطل وأسمج السفه، ولهذا قال: ﴿اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ﴾ ﴿١١٥﴾: حيث وضعوا العبادة في غير موضعها، وأشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانًا. وفيها دليل على أن من أنكر كلام الله؛ فقد أنكر خصائص إلهية الله تعالى؛ لأن الله ذكر أن عدم الكلام دليل على عدم صلاحية الذي لا يتكلم للإلهية.

﴿١٤٩﴾ وَلَئِنْ رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ، فَوَجَدَهُمْ عَلَىٰ هَذِهِ الْحَالِ، وَأَخْبَرَهُمْ بِضَلَالَتِهِمْ؛ وَنَدِمُوا، وَسُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ؛ أَي: مِنَ الْهَمِّ وَالنَّدَمِ عَلَىٰ فِعْلِهِمْ، ﴿وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا﴾: فَتَنَصَّلُوا إِلَى اللَّهِ وَتَضَرَّعُوا، وَ﴿قَالُوا لَيْنَ لَمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا﴾: فَيُدِلَّنَا عَلَيْهِ، وَيَرْزُقَنَا عِبَادَتَهُ، وَيُوفِقَنَا لِمَصَالِحِ الْأَعْمَالِ، ﴿وَيَغْفِرَ لَنَا﴾: مَا صَدَرَ مِنَّا مِنْ عِبَادَةِ الْعَجَلِ؛ ﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾: الَّذِينَ خَسِرُوا الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ.

﴿١٥٠﴾ ﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَنَ أَسْفًا﴾؛ أي: ممتلئًا غضبًا وغيظًا عليهم لتعام غيرته عليه الصلاة والسلام وكمال نصحه وشفقته، ﴿قَالَ يَبْنَؤُا خَلْقْتُونِي مِنْ بَعْدِي﴾؛ أي: بشس الحالة التي خلقتوني بها من بعد ذهابي عنكم؛ فإنها حالة تفضي إلى الهلاك الأبدي والشفاء السرمدي. ﴿أَعَجَلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ﴾: حيث وعدكم بإنزال الكتاب فبادرتم بتركها، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَٰؤُلَاءِ﴾: هذه الخصلة القبيحة، ﴿وَأَلْقَى الْأَلْوَابَ﴾؛ أي: رماها من الغضب، ﴿وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ﴾: هارون ولحيته، ﴿يَجْرُؤُا إِلَيْهِ﴾: وقال له: ﴿مَا مَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوْا﴾ ﴿١٥١﴾ ﴿أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي﴾ ﴿١٥٢﴾ ﴿طه: ٩٢، ٩٣﴾ لك بقولي: ﴿أَخْلَفْتُ فِي قَوْمِي وَأَصْلَحَ وَلَا تَنْتَعِ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ ﴿١٥٣﴾ فقال: ﴿يَتَّبِعُونَ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي﴾ إِلَىٰ حَيْثُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَلَمْ تَرْفَعْ قَوْلِي ﴿١٥٤﴾ ﴿طه: ٩٤﴾

وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي أَعْجَلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَأَلْقُوا الْأَلْوَابَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ قَالَ ابْنُ أُمِّ إِبْرَاهِيمَ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضَعُّوا عُنُوفِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿١٥٠﴾ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِإِخْوَتِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿١٥١﴾ إِنَّ الَّذِينَ أَخْطَأُوا لَعِبَلٍ سَيِّئًا لَمْ يَغْضَبْ مِنْ رَبِّهِمْ ذُلَّهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ ﴿١٥٢﴾ وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا وَآمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَعَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٥٣﴾ وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْوَابَ وَفِي شَحْطِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴿١٥٤﴾ وَاتَّخَذَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِيُقَدِّتُنَا فَلَمَّا أَحَدْتُهُمُ الرِّجْفَةَ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَنَّكَ بِمَا أَفْعَلُ السَّفَهَاءَ إِنَّمَا أَنْتَ إِلَهُنَا أَنْتَ تَقْضِلُ بَيْنَنَا وَتَنْهَى عَنْ شَأْنٍ وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ ﴿١٥٥﴾

إلهمكم وإله موسى، فنسي موسى، وذهب يطلبه، وهذا من
عجل من أنقص المخلوقات؟! ولهذا قال مينا أنه ليس
يرون أنه لَا يَكْفُهُمْ ﴿١٤٦﴾؛ أي: وعدم الكلام نقص عظيم؛ فهم أ
سكيلا ﴿١٤٧﴾؛ أي: لا يدلهم طريقا دينيا ولا يحصل لهم مصلحة
ولا ينفع ولا يضر من أبطل الباطل وأسمج السفه، ولهذا قد
في غير موضعها، وأشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانا. وفي
تعالى؛ لأن الله ذكر أن عدم الكلام دليل على عدم صلاحية
﴿١٤٩﴾ وَلَمَّا ﴿١٥٠﴾: رجع موسى إلى قومه، فوجدهم على ه
أي: من الهم والندم على فعلهم، ﴿١٥١﴾ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا
فبدلنا عليه، وبرزقنا عبادته، ويوفقنا لصالح الأعمال، ﴿١٥٢﴾ وَ
الْخَسِرِينَ ﴿١٥٣﴾: الذين خسروا الدنيا والآخرة.

﴿١٥٠﴾ ﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَنَ أَسْفًا﴾؛ أي: ممت
نصحه وشفقته، ﴿قَالَ يَبْنَؤُا خَلْقْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي﴾؛ أي: بنس
إلى الهلاك الأبدى والشفاء السرمدي. ﴿أَعَجَلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ﴾
الخصلة القبيحة، ﴿وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ﴾؛ أي: رماها من الغضب
﴿مَا مَعَكُمْ إِذْ رَأَيْتُمْ صَلَواتِ﴾ ﴿١٥١﴾ ﴿أَلَّا تَتَّبِعُونَ أَفْعَصَيْتُمْ أَمْرِ﴾ ﴿١٥٢﴾
الْمُفْسِدِينَ﴾ ﴿١٥٣﴾ فقال: ﴿يَبْنَؤُا لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ

والأشياء عنده، ف ﴿أَخَذَ الْأَلْوَاخَ﴾: التي ألَّفَها، وهي ألواح عظيمة المقدار جليلة ﴿وَفِي شَجَبًا﴾: أي: مشتملة ومتضمنة ﴿هُدًى وَرَحْمَةً﴾: أي: فيها الهدى من الضلالة، وبيان الحق من الباطل، وأعمال الخير وأعمال الشر، والهدى لأحسن الأعمال والأخلاق والآداب، ورحمة وسعادة لمن عمل بها وعلم أحكامها ومعانيها، ولكن؛ ليس كل أحد يقبل هدى الله ورحمته، وإنما يقبل ذلك، وينقاد له، ويتلقاه بالقبول، الذين ﴿هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَوْنَ﴾ ﴿١٥١﴾: أي: يخافون منه ويخشونه، وأما من لم يخف الله ولا المقام بين يديه؛ فإنه لا يزداد بها إلا عتوًا ونفورًا، وتقوم عليه حجة الله فيها.

﴿١٥٢﴾ ولما تاب بنو إسرائيل، وتراجعوا إلى رشدهم، اختار ﴿مُوسَى﴾ منهم ﴿سَبْعِينَ رَجُلًا﴾: من خيارهم ليعتدروا لقومهم عند ربهم، ووعدهم الله ميقانًا يحضرون فيه، فلما حضروا؛ قالوا: يا موسى، ﴿أَرَأَيْتَ اللَّهُ جَهْرَةً﴾! [النساء: ١٥٣] فتجروا على الله جراءة كبيرة، وأسأوا الأدب معه، ف ﴿أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ﴾، فصعقوا وهلكوا، فلم يزل موسى عليه الصلاة والسلام يتضرع إلى الله ويتبتل ويقول: ﴿رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِن قَبْلُ﴾: أن يحضروا، ويكونون في حالة يعتدرون فيها لقومهم فصاروا هم الظالمين. ﴿أَتَهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْأُسُفْهَاءُ مِنَّا﴾: أي: ضعفاء العقول سفهاء الأحلام، فتضرع إلى الله، واعتذر بأن المتجرئين على الله ليس لهم عقول كاملة تردعهم عما قالوا وفعلوا، وبأنهم حصل لهم فتنة يخطر بها الإنسان ويخاف من ذهاب دينه، فقال: ﴿إِن هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَاءُ وَتَهْدِي مَن تَشَاءُ أَنتَ وَلِيْنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ﴾ ﴿١٥٣﴾: أي: أنت خير من غفر، وأولى من رحم، وأكرم من أعطى وتفضل، فكأن موسى عليه الصلاة والسلام قال: المقصود يارب بالقصد الأول لنا كلنا، هو التزام طاعتك والإيمان بك، وأن من حضره عقله ورشده وتم على ما وهبته من التوفيق؛ فإنه لم يزل مستقيمًا، وأما من ضعف عقله وسفه رأيه وصرفته الفتنة؛ فهو الذي فعل ما فعل لذئيك السبيين، ومع هذا؛ فأنت أرحم الراحمين وخير الغافرين؛ فاغفر لنا وارحمنا! فأجاب الله سؤاله، وأحياهم من بعد موتهم، وغفر لهم ذنوبهم.

﴿١٥٤﴾ وقال موسى في تمام دعائه: ﴿وَأَكْتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً﴾: من علم نافع ورزق واسع وعمل صالح، ﴿وَفِي الْآخِرَةِ﴾: حسنة، وهي ما أعد الله لأوليائه

﴿وَقَالَ﴾ هنا: ﴿إِنِّي أَمْ﴾: هذا ترقيق لأخيه بذكر الأم وحدها، وإلا فهو شقيقه لأمه وأبيه. ﴿إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضَعُّوْنِي﴾: أي: احتقروني حين قلت لهم: ﴿يَقُومُوا إِنَّمَا قِيتُم بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي﴾ ﴿١٥٤﴾ [طه: ٩٠]، ﴿وَكَاذُوبًا يَقْتُلُونَنِي﴾: أي: فلا تظن بي تقصيرًا، ﴿فَلَا تَشْتُم بِنِ الْأَعْدَاءِ﴾: بنهرك لي ومسك إيبي بسوء فإن الأعداء حريصون على أن يجدوا علي عثرة أو يطلعوا لي على زلة، ﴿وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ ﴿١٥٥﴾: فتعاملني معاملة لهم.

﴿١٥٦﴾ فندم موسى عليه السلام على ما استعجل من صنعه بأخيه قبل أن يعلم براءته مما ظنه فيه من التقصير، و ﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي﴾: هارون، ﴿وَأَدْخُلْنَا فِي رَحْمَتِكَ﴾: أي: في وسطها، واجعل رحمتك تحيط بنا من كل جانب؛ فإنها حصن حصين من جميع الشرور وتم كل خير وسرور. ﴿وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ ﴿١٥٦﴾: أي: أرحم بنا من كل راحم، أرحم بنا من آبائنا وأمهاتنا وأولادنا وأنفسنا.

﴿١٥٧﴾ قال الله تعالى مبيّنًا حال أهل العجل الذين عبدوه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَخَذُوا الْعِجْلَ﴾: أي: إلهًا، ﴿سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذَلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾: كما أغضبوا ربهم واستهانوا بأمره. ﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ﴾ ﴿١٥٧﴾: فكل مفتر على الله كاذب على شرعه متقول عليه ما لم يقل؛ فإن له نصيبًا من الغضب من الله والذل في الحياة الدنيا.

﴿١٥٨﴾ وقد نالهم غضب الله حيث أمرهم أن يقتلوا أنفسهم، وأنه لا يرضى الله عنهم إلا بذلك، فقتل بعضهم بعضًا، وانجلت المعركة على قتلى كثير، ثم تاب الله عليهم بعد ذلك، ولهذا ذكر حكمًا عامًا يدخلون فيه هم وغيرهم، فقال: ﴿وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ﴾: من شرك وكبائر وصغائر، ﴿ثُمَّ تَابُوا مِن بَعْدِهَا﴾: بأن ندموا على ما مضى وأقلعوا عنها وعزموا على ألا يعودوا، ﴿وَعَامَتُوا﴾: بالله وبما أوجب الله الإيمان به، ولا يتم الإيمان إلا بأعمال القلوب وأعمال الجوارح المترتبة على الإيمان. ﴿إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا﴾: أي: بعد هذه الحالة - حالة التوبة من السيئات والرجوع إلى الطاعات - ﴿لَغَفُورٌ﴾: يغفر السيئات ويمحوها، ولو كانت قراب الأرض. ﴿رَحِيمٌ﴾ ﴿١٥٨﴾: بقبول التوبة والتوفيق لأفعال الخير وقبولها.

﴿١٥٩﴾ ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى الْغَضَبُ﴾: أي: سكن غضبه وتراجعت نفسه، وعرف ما هو فيه؛ اشتغل بأهم

سورة الأعراف

المائة والثمانون

الصالحين من الثواب. ﴿إِنَّا هَذَا إِلَيْكَ﴾؛ أي: رجعنا مقرين بتقصيرنا منيبين في جميع أمورنا، ﴿قَالَ﴾ الله تعالى: ﴿عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ﴾: ممن كان شقياً متعرضاً لأسبابه، ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾: من العالم العلوي والسفلي؛ البر والفاجر، المؤمن والكافر؛ فلا مخلوق إلا وقد وصلت إليه رحمة الله وغمره فضله وإحسانه، ولكن الرحمة الخاصة المقتضية لسعادة الدنيا والآخرة ليست لكل أحد، ولهذا قال عنها: ﴿فَسَأْكَتُهَا لِلَّذِينَ يَنْفُونَ﴾: المعاصي صغارها وكبارها، ﴿وَيُؤْثِرُونَ الزَّكَاةَ﴾: الواجبة مستحقها، ﴿وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يَوْمِنُونَ﴾.

﴿١٥٧﴾ ومن تمام الإيمان بآيات الله معرفة معناها والعمل بمقتضاها، ومن ذلك اتباع النبي ﷺ ظاهراً وباطناً في أصول الدين وفروعه: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأَوَّلَ﴾: احتراز عن سائر الأنبياء؛ فإن المقصود بهذا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب، والسياق في أحوال بني إسرائيل، وأن الإيمان بالنبي محمد ﷺ شرط في دخولهم في الإيمان، وأن المؤمنين به المتبعين هم أهل الرحمة المطلقة التي كتبها الله لهم، ووصفه بالأمي لأنه من العرب الأمة الأمية التي لا تقرأ ولا تكتب وليس عندها قبل القرآن كتاب. ﴿الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ﴾: باسمه وصفته التي من أعظمها وأجلها ما يدعو إليه وينهى عنه، وأنه ﴿يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ﴾: وهو كل ما عرف حسنه وصلاحه ونفعه. ﴿وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾: وهو كل ما عرف قبحه في العقول والفطر، فيأمرهم بالصلاة والزكاة والصوم والحج وصلة الأرحام وبر الوالدين والإحسان إلى الجار والمملوك وبذل النفع لسائر الخلق والصدق والعفاف والبر والنصيحة وما أشبه ذلك، وينهى عن الشرك بالله وقتل النفوس بغير حق والزنا وشرب ما يسكر العقل والظلم لسائر الخلق والكذب والفجور ونحو ذلك؛ فأعظم دليل يدل على أنه رسول الله، ما دعا إليه، وأمر به، ونهى عنه، وأحله وحرمه؛ فإنه يحل ﴿لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ﴾: من المطاعم والمشارب والمناكح. ﴿وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ﴾: من المطاعم والمشارب والمناكح والأقوال والأفعال. ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾؛ أي: ومن وصفه أن دينه سهل سمح ميسر لا إصر فيه ولا أغلال ولا مشقات ولا تكاليف ثقال.

﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ﴾؛ أي: عظموه وبجلوه، ﴿وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ﴾: وهو القرآن الذي يستضاء به في ظلمات الشك والجهالات، ويقتدى به إذا تعارضت المقالات. ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾. ﴿الظَّافِرُونَ﴾ بخير الدنيا والآخرة، والناجون من شرهما؛ لأنهم أتوا بأكبر أسباب الفلاح، وأما من لم يؤمن بهذا النبي الأمي، ويعززه، وينصره، ولم يتبع النور الذي أنزل معه؛ فأولئك هم الخاسرون.

﴿١٥٨﴾ ولما دعا أهل التوراة من بني إسرائيل إلى اتباعه، وكان ربما توهم متوهم أن الحكم مقصور عليهم، أتى بما يدل على العموم، فقال: ﴿قُلْ يَأَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾؛ أي: عريكم وعجمكم، أهل الكتاب منكم وغيرهم، ﴿الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾: يتصرف فيهما بأحكامه الكونية والتدابير السلطانية وأحكامه الشرعية الدينية، التي من جملتها أن أرسل إليكم رسلاً عظيماً يدعوكم إلى الله وإلى دار كرامته، ويحذركم من كل ما يباعدكم منه ومن دار كرامته.

سورة الأعراف

البقرة

وَقَطَعْنَهُمْ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ آبَ آخَرْبٍ يَعَصَاكَ الْحَجَرُ فَأَنْجَسْتَ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرِبَهُمْ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَمَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّاتِ وَالسَّلَوى كُلُوا مِنْ طَبِيبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١٦١﴾ وَإِذْ قِيلَ لَهُمْ اسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا نَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَتَكُمْ سَرَّيْذَ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٦٢﴾ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْرًا مِنْ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ ﴿١٦٣﴾ وَسَلَّمْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَعًا وَيَوْمَ لَا تَأْتِيهِمْ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿١٦٤﴾

١٧١

﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾؛ أي: لا معبود بحق إلا الله وحده لا شريك له، ولا تعرف عبادته إلا من طريق رسله. ﴿يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾؛ أي: من جملة تدابير الإحياء والإماتة، التي لا يشاركه فيها أحد، التي جعل الله الموت جسراً ومعبراً، يعبر منه إلى دار البقاء التي من آمن بها صدق الرسول محمداً ﷺ قطعاً. ﴿فَتَأْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأَمِينِ﴾؛ إيماناً في القلب متضمناً لأعمال القلوب والجوارح، ﴿الَّذِي يُؤْتِي بِالْحَيَاةِ وَالْمَوْتِ﴾؛ أي: آمنوا بهذا الرسول المستقيم في عقائده وأعماله، ﴿وَأَتَّبِعُوا أَمْرَكُمْ تَهْتَدُوا﴾ ﴿١٥٩﴾؛ في مصالحكم الدينية والدنيوية؛ فإنكم إذا لم تتبعوه؛ ضللتكم ضللاً بعيداً.

﴿وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ﴾؛ أي: جماعة، ﴿يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ ﴿١٦١﴾؛ أي: يهدون به الناس في تعليمهم إياهم وفوائدهم لهم، ويعدلون به بينهم في الحكم بينهم في قضاياهم؛ كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ آيَةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لِمَا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ ﴿١٦٢﴾ [السجدة: ٢٤].

وفي هذا فضيلة لأمة موسى عليه الصلاة والسلام، وأن الله تعالى جعل منهم هداة يهدون بأمره. وكان الإتيان بهذه الآية الكريمة فيه نوع احتراز مما تقدم؛ فإنه تعالى ذكر فيما تقدم جملة من معايير بني إسرائيل المنافية للكمال المناقضة للهداية، فربما توهم متوهم أن هذا يعم جميعهم، فذكر تعالى أن منهم طائفة مستقيمة هادية مهدية.

﴿وَقَطَعْنَهُمْ﴾؛ أي: قسمناهم ﴿اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا﴾؛ أي: اثنتي عشرة قبيلة متعارفة متوالفة، كل بني رجل من أولاد يعقوب قبيلة، ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ آبَ آخَرْبٍ﴾؛ أي: طلبوا منه أن يدعو الله تعالى أن يسقيهم ماء يشربون منه وتشرب منه مواشيهم، وذلك لأنهم - والله أعلم - في محل قليل الماء، فأوحى الله لموسى إجابة لطلبهم: ﴿آبَ آخَرْبٍ يَعَصَاكَ الْحَجَرُ﴾: يحتمل أنه حجر معين، ويحتمل أنه اسم جنس يشمل أي حجر كان، فضربه، ﴿فَأَنْجَسْتَ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا﴾: انفجرت من ذلك الحجر ﴿اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا﴾: جارية سارحة، ﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرِبَهُمْ﴾؛ أي: قد قسم على كل قبيلة من تلك القبائل الاثنتي عشرة، وجعل لكل منهم عينا، فعلموها، واطمأنوا واستراحوا من التعب والمزاحمة، وهذا من تمام نعمة الله عليهم، ﴿وَضَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَمَ﴾: فكان يستريحون من حر الشمس، ﴿وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّاتِ﴾: وهو الحلوى، ﴿وَالسَّلَوى﴾: وهو لحم طير من أحسن أنواع الطيور والأدها، فجمع الله لهم بين الظلال والشراب والطعام الطيب من الحلوى واللحوم على وجه الراحة والطمأنينة، وقيل لهم: ﴿كُلُوا مِنْ طَبِيبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا﴾؛ حين لم يشكروا الله ولم يقوموا بما أوجب الله عليهم. ﴿وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ ﴿١٦١﴾: حيث فوتوها كل خير وعرضوها للشر والنقمة، وهذا كان مدة لبثهم في التيه.

﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمْ اسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ﴾؛ أي: ادخلوها لتكون وطناً لكم ومسكناً، وهي إيلياء، ﴿وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ﴾؛ أي: قرية كانت كثيرة الأشجار غزيرة الثمار رغيدة العيش؛ فلذلك أمرهم الله أن يأكلوا منها حيث شاءوا، ﴿وَقُولُوا﴾: حين تدخلون الباب: ﴿حِطَّةٌ﴾؛ أي: احطط عنا خطايانا واعف عنا، ﴿وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا﴾؛ أي: خاضعين

لربكم مستكئين لعزته شاكرين لنعمته؛ فأمرهم بالخضوع وسؤال المغفرة، ووعدهم على ذلك مغفرة ذنوبهم والثواب العاجل والآجل، فقال: ﴿تَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَتَكُمْ سَتَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ﴾ ١٦١: من خير الدنيا والآخرة.

﴿١٦٢﴾ فلم يمثلوا هذا الأمر الإلهي، بل بدل ﴿الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾؛ أي: عصوا الله واستهانوا بأمره ﴿قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ﴾: فقالوا بدل طلب المغفرة وقولهم حطة: حبة في شعيرة، وإذا بدلوا القول مع يسره وسهولته؛ فتبدلهم للفعل من باب أولى، ولهذا دخلوا يزحفون على أستاههم، ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ﴾: حين خالفوا أمر الله وعصوه ﴿رِجْرًا مِنَ السَّمَاءِ﴾؛ أي: عذاباً شديداً إما الطاعون وإما غيره من العقوبات السماوية، وما ظلمهم الله بعقابه، وإنما كان ذلك ﴿يَمَّا كَانُوا يَظْلِمُونَ﴾ ١٦٢.

﴿١٦٣﴾ ﴿وَسَأَلَهُمْ﴾؛ أي: أسأل بني إسرائيل ﴿عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ﴾؛ أي: على ساحله في حال تعديهم وعقاب الله إياهم، ﴿إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ﴾: وكان الله تعالى قد أمرهم أن يعظموه ويحترموه ولا يصيدوا فيه صيداً، فابتلاهم الله وامتنحهم، فكانت الحيتان تأتيهم ﴿يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَعًا﴾ يوم سبتهم شرعاً؛ أي: كثيرة طافية على وجه البحر. ﴿وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ﴾؛ أي: إذا ذهب يوم السبت ﴿لَا تَأْتِيهِمْ﴾؛ أي: تذهب في البحر فلا يرون منها شيئاً. ﴿كَذَلِكَ تَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ ١٦٣: ففسقهم هو الذي أوجب أن يتبليهم الله وأن تكون لهم هذه المحنة، وإلا؛ فلو لم يفسقوا؛ لعافاهم الله، ولما عرضهم للبلاء والشر.

﴿١٦٤﴾ فتحلوا على الصيد، فكانوا يحفرون لها حفراً، وينصبون لها الشباك؛ فإذا جاءت يوم السبت ووقعت في تلك الحفر والشباك؛ لم يأخذوها في ذلك اليوم؛ فإذا جاء يوم الأحد؛ أخذوها، وكثر فيهم ذلك، وانقسموا ثلاث فرق: معظمهم اعتدوا وتجروا وأعلنوا بذلك، وفرقة أعلنت بنهيهم والإنكار عليهم. وفرقة اكتفت بإنكار أولئك عليهم ونهيهم لهم وقالوا: ﴿لَمْ يَعْظُونُ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾: كأنهم يقولون: لا فائدة في وعظ من اقتحم محارم الله ولم يصغ للنصيح، بل استمر على اعتدائه وطغيانه؛ فإنه لا بد أن يعاقبهم الله إما بهلاك أو عذاب شديد. فقال الواعظون: نغظهم وننهاهم ﴿مَعَذَرَةً إِلَى رَبِّكَ﴾؛ أي: لنعذر فيهم، ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَنْفَوْنَ﴾ ١٦٤: أي: يتركون ما هم فيه من المعصية؛ فلا نياس من هدايتهم؛ فربما نجع فيهم الوعظ وأثر فيهم اللوم، وهذا المقصود الأعظم من إنكار المنكر؛ ليكون معذرة وإقامة حجة على المأمور المنهي، ولعل الله أن يهديه فيعمل بمقتضى ذلك الأمر والنهي.

﴿١٦٥﴾ ﴿فَلَمَّا سَأَوْا مَا دُكِّرُوا بِهِ﴾؛ أي: تركوا ما ذكروا به واستمروا على غيهم واعتدائهم، ﴿أَجْبَنَّا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ﴾: وهكذا سنة الله في عباده أن العقوبة إذا نزلت نجا منها الأمرون بالمعروف والناهون عن المنكر، ﴿وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾: وهم الذين اعتدوا في السبت ﴿بِعَذَابٍ بَئِيسٍ﴾؛ أي: شديد ﴿يَمَّا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ ١٦٥.

وأما الفرقة الأخرى التي قالت للناهيين: لم تعظون قوماً الله مهلكهم؛ فاختلف المفسرون في نجاتهم وهلاكهم، والظاهر أنهم كانوا من الناجين؛ لأن الله خص الهلاك بالظالمين، وهو لم يذكر أنهم ظالمون، فدل على أن العقوبة خاصة بالمعتدين في السبت، ولأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فرض كفاية إذا قام به البعض سقط عن الآخرين؛ فاعتصموا بإنكار أولئك،

وَأِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعْظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعَذَرَةٌ إِلَى رَبِّكَ وَلَعَلَّهُمْ يَنْفَوْنَ ﴿١٦٥﴾ فَلَمَّا سَأَوْا مَا دُكِّرُوا بِهِ أَجْبَنَّا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ يَمَّا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿١٦٦﴾ فَلَمَّا عَمَّرُوا مِنْ مَّا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴿١٦٧﴾ وَإِذْ تَأَذَّتْ رُكُبُكَ لِيَعْلَنَ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْفَيْصَةِ مَنْ يُسُوْهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ إِنَّ رُكُبَكَ لَسَرِيعُ الْفَقَابِ وَإِنَّهُ لَغَوْرٌ رَجِيمٌ ﴿١٦٨﴾ وَقَطَعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَسْمَاءً يَنْفَعُهُمُ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٦٩﴾ فَخَلَفَ مِنْ بَعدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلَهُ يَأْخُذُوهُ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُمْ أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقُّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ وَاللَّذَانِ الْأَخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَنْفَوْنَ أَفَلَا يَعْقِلُونَ ﴿١٧٠﴾ وَالَّذِينَ يَمْسِكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نَضِيعُ أَجْرَ الصَّالِحِينَ ﴿١٧١﴾

والإنكار عليهم وبيان جرائعهم: ﴿أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ بَيْعُ الْكِتَابِ أَن لَّا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ﴾: فما بالهم يقولون عليه غير الحق اتباعاً لأهوائهم وميلاً مع مطامعهم؟! والحال أنهم قد درسوا ﴿مَا فِيهِ﴾: فليس عليهم فيه إشكال، بل قد أتوا أمرهم متعمدين، وكانوا في أمرهم مستبصرين، وهذا أعظم للذنب وأشد للوم وأشنع للعقوبة، وهذا من نقص عقولهم وسفاهة رأيهم بإثارة الحياة الدنيا على الآخرة، ولهذا قال: ﴿وَالَّذَارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾: ما حرم الله عليهم من المآكل التي تصاب وتوكل رشوة على الحكم بغير ما أنزل الله وغير ذلك من أنواع المحرمات. ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾: أي: أفلا يكون لكم عقول توازن بين ما ينبغي إثارة وما ينبغي الإيثارة عليه، وما هو أولى بالسعي إليه والتقديم له على غيره؟! فخاصية العقل النظر للعواقب، وأما من نظر إلى عاجل طفيف منقطع يفوت نعيماً عظيماً باقياً؛ فأنى له العقل والرأي؟! ١٦٦

١٦٧ وإنما العقلاء حقيقة من وصفهم الله بقوله: ﴿وَالَّذِينَ يَتَّبِعُوكَ يَكْتُوبُ﴾: أي: يتمسكون به علماً وعملاً، فيعلمون ما فيه من الأحكام والأخبار التي علمها أشرف العلوم، ويعملون بما فيها من الأوامر التي هي قرة العيون وسرور القلوب وأفراح الأرواح وصلاح الدنيا والآخرة. ومن أعظم ما يجب التمسك به من المأمورات إقامة الصلاة ظاهراً وباطناً، ولهذا خصها بالذكر لفضلها وشرفها وكونها ميزان الإيمان وإقامتها داعية لإقامة غيرها من العبادات. ولما كان عملهم كله إصلاحاً؛ قال تعالى: ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ﴾: في أقوالهم وأعمالهم ونياتهم، مصلحين لأنفسهم ولغيرهم. ١٦٨

وهذه الآية وما أشبهها دلت على أن الله بعث رسله عليهم الصلاة والسلام بالصلاح لا بالفساد، وبالمنافع لا بالمضار، وأنهم يعثوا بصلاح الدارين؛ فكل من كان أصلح؛ كان أقرب إلى اتباعهم. ١٦٩

١٧٠ ثم قال تعالى: ﴿وَإِذْ نَفَقْنَا الْجِبَلِ فَوْقَهُمْ﴾: حين امتنعوا من قبول ما في التوراة، فآلزمهم الله العمل، وנתق فوق رؤسهم الجبل، فصار فوقهم: ﴿كَأَنَّهُ ظِلَّةٌ وَظَنُوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ﴾، وقيل لهم: ﴿خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ﴾: أي: بجهد واجتهاد. ﴿وَأَذْكُرُوا مَا فِيهِ﴾: دراسة ومباحثة واتصافاً بالعمل به، ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾: إذا فعلتم ذلك. ١٧١

ولأنهم أنكروا عليهم بقولهم: ﴿لَمْ نَعْظُوكَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾: فأبدوا من غضبهم عليهم ما يقتضي أنهم كارهون أشد الكراهة لفعلهم، وأن الله سيعاقبهم أشد العقوبة. ١٧٢

١٧٣ ﴿فَلَمَّا عَزَا عَنْ مَا نُهُوا عَنْهُ﴾: أي: قسوا فلم يلبنوا ولا اتعظوا، ﴿فَلَمَّا لَهُمْ﴾: قولاً قدرياً: ﴿كُتُوبًا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾: فانقلبوا بإذن الله قردة وأبعدهم الله من رحمته. ١٧٤

١٧٥ ثم ذكر ضرب الذلة والصغار على من بقي منهم، فقال: ﴿وَإِذْ تَأَذَّتْ رِيبَكَ﴾: أي: أعلم إعلاماً صريحاً، ﴿يَبْعَثُ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْبَيْعَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ﴾: أي: يهينهم ويذلهم، ﴿إِنَّ رِيبَكَ لَسَرِيعٌ أَلْعَابِ﴾: لمن عصاه، حتى إنه يعجل له العقوبة في الدنيا. ﴿وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾: لمن تاب إليه وأتاب؛ يغفر له الذنوب، ويستر عليه العيوب، ويرحمه بأن يتقبل منه الطاعات ويثيبه عليها بأنواع المثوبات، وقد فعل الله بهم ما وعدهم به؛ فلا يزالون في ذل وإهانة، تحت حكم غيرهم، لا تقوم لهم راية ولا ينصر لهم علم. ١٧٦

١٧٧ ﴿وَقَطَعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَسْمًا﴾: أي: فرقناهم ومزقناهم في الأرض بعدما كانوا مجتمعين، ﴿تَتَّبِعُهُ الصَّالِحُونَ﴾: القائمون بحقوق الله وحقوق عباده، ﴿وَمِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ﴾: أي: دون الصلاح؛ إما مقتصدون، وإما ظالمون لأنفسهم. ﴿وَيَكُونُ لَهُمْ﴾: على عادتنا وستتنا ﴿إِلَى الْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ﴾: أي: باليسر والعسر، ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾: عما هم عليه مقيمون من الردى، ويراجعون ما خلقوا له من الهدى، فلم يزالوا بين صالح وطالح ومقتصد. ١٧٨

١٧٩ حتى خلف ﴿مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ﴾: زاد شرهم ﴿وَرِثُوا﴾: بعدهم ﴿الْكِتَابَ﴾: وصار المرجع فيه إليهم، وصاروا يتصرفون فيه بأهوائهم، وتبذل لهم الأموال ليقبوا ويحكموا بغير الحق، وفشت فيهم الرشوة. ﴿يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى وَيَقُولُونَ﴾: مقرين بأنه ذنب وأنهم ظلمة: ﴿سَيَقْفَرُ لَنَا﴾: وهذا قول خالٍ من الحقيقة؛ فإنه ليس استغفاراً وطلباً للمغفرة على الحقيقة؛ فلو كان ذلك؛ لندموا على ما فعلوا، وعزموا على ألا يعودوا، ولكنهم إذا أتاهم عرض آخر ورشوة أخرى؛ يأخذونه، فاشترى بآيات الله ثمناً قليلاً، واستبدلوا الذي هو أدنى بالذي هو خير! قال الله تعالى في

﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ قُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾ وَكَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ الْآيَاتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٧٤﴾﴾

﴿١٧٢﴾، ﴿١٧٣﴾ يقول تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾؛ أي: أخرج من أصلابهم ذريتهم، وجعلهم يتناسلون ويتوالدون قرناً بعد قرن. وحين أخرجهم من بطون أمهاتهم وأصلاب آبائهم أشهدهم ﴿عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾؛ أي: قرهم بإثبات ربوبيته بما أودعه في فطريهم من الإقرار بأنه ربهم وخالقهم ومليكمهم. قالوا: بلى؛ قد أقرنا بذلك؛ فإن الله تعالى فطر عباده على الدين الحنيف القيم، فكل أحد فهو مفتطور على ذلك، ولكن الفطرة قد تغير وتبدل بما يطرأ على العقول والعقائد الفاسدة، ولهذا ﴿قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ ﴿١٧٢﴾﴾؛ أي: إنما امتحناكم حتى أقررتم بما تقرر عندكم من أن الله تعالى ربكم؛ خشية أن تنكروا يوم القيامة فلا تقروا بشيء من ذلك، وتزعمون أن حجة الله ما قامت عليكم، ولا عندكم بها علم، بل أنتم غافلون عنها لاهون؛ فالיום قد انقطعت حججتكم، وثبتت الحجة البالغة لله عليكم. أو تحتجون أيضاً بحجة أخرى، فتقولون: ﴿إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ﴾؛ فحدونا حدوهم، وتبعناهم في باطلهم. ﴿أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾﴾؟ فقد أودع الله في فطركم ما يدلکم على أن ما مع آبائكم باطل، وأن الحق ما جاءت به الرسل، وهذا يقاوم ما وجدتم عليه آباءكم ويعلو عليه. نعم؛ قد يعرض للعبد من أقوال آبائه الضالين ومذاهبهم الفاسدة ما يظنه هو الحق، وما ذاك إلا لإعراضه عن حجج الله وبياناته وآياته الأفقية والنفسية؛ فأعراضه عن ذلك وإقباله على ما قاله المبطلون، ربما صيره بحالة يفضل بها الباطل على الحق. هذا هو الصواب في تفسير هذه الآيات.

وقد قيل: إن هذا يوم أخذ الله الميثاق على ذرية آدم حين استخرجهم من ظهروه وأشهدهم على أنفسهم فشاهدوا بذلك، فاحتج عليهم بما أمرهم به في ذلك الوقت على ظلمهم في كفرهم وعنادهم في الدنيا والآخرة! ولكن ليس في الآية ما يدل على هذا، ولا له مناسبة، ولا تقتضيه حكمة الله تعالى، والواقع شاهد بذلك؛ فإن هذا العهد والميثاق الذي ذكروا أنه حين أخرج الله ذرية آدم من ظهروه حين كانوا في عالم الكالدر لا يذكره أحد ولا يخطر ببال آدمي؛ فكيف يحتج الله عليهم بأمر ليس عندهم به خبر ولا له عين ولا أثر؟!

﴿١٧٤﴾ ولهذا؛ لما كان هذا أمراً واضحاً جلياً؛ قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ الْآيَاتِ﴾؛ أي: نبينها ونوضحها، ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٧٤﴾﴾؛ إلى ما أودع الله في فطريهم وإلى ما عاهدوا الله عليه فيردعوا عن القبائح.

﴿وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي ءَاتَيْنَاهُ ءَايَاتِنَا فَاسْلَخَ مِنْهَا فَاتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَنُكَلِّمَهُ ءَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَنَأْتِجَ هَوْنَهُ فَنُكَلِّمَهُ كَمَا نَحْمَلُ عَلَيْهِ يَلْهَثُ أَوْ تَتَرَكُّهُ يَلْهَثُ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصْ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾ سَاءَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا وَأَنْفُسُهُمْ

سورة الأعراف
﴿وَإِذْ نَفَخْنَا فِي لُجُلٍ مَوْجِهِمْ كَانَتْهُ ظُلُمَةً لَظُنُوءًا أَنَّهُ وَقَعَ بِهِمْ خُذْرًا مَا ءَاتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَآذَكُرُوا مَا يَهْدِي لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧١﴾﴾
﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ قُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾ وَكَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ الْآيَاتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٧٤﴾﴾
﴿وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي ءَاتَيْنَاهُ ءَايَاتِنَا فَاسْلَخَ مِنْهَا فَاتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَنُكَلِّمَهُ ءَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَنَأْتِجَ هَوْنَهُ فَنُكَلِّمَهُ كَمَا نَحْمَلُ عَلَيْهِ يَلْهَثُ أَوْ تَتَرَكُّهُ يَلْهَثُ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصْ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾ سَاءَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا وَأَنْفُسُهُمْ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا وَأَنْفُسُهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ ﴿١٧٧﴾ مَنْ يَسْتَدِ اللَّهَ فَهُوَ الْمُهْتَدَى وَمَنْ يُضِلِلْ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿١٧٨﴾﴾

وفي هذه الآيات التريخ في العمل بالعلم، وأن ذلك رفعة من الله لصاحبه وعصمة من الشيطان، والترهيب من عدم العمل به، وأنه نزول إلى أسفل سافلين وتسليط للشيطان عليه. وفيه أن اتباع الهوى وإخلاق العبد إلى الشهوات يكون سبباً للخذلان.

﴿١٧٥﴾ ثم قال تعالى مبيهاً أنه المنفرد بالهداية والإضلال: ﴿مَنْ يَهْدِ اللَّهُ﴾: بأن يوفقه للخيرات ويعصمه من المكروهات ويعلمه ما لم يكن يعلم، ﴿فَهُوَ الْمُهْتَدَى﴾: حقاً؛ لأنه أثر هدايته تعالى، ﴿وَمَنْ يُضِلِّ﴾: فيخذله ولا يوفقه للخير، ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾: لأنفسهم وأهلهم يوم القيامة، ألا ذلك هو الخسران المبين.

﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ هُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَهُمْ ءَاذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾.

﴿١٧٦﴾ يقول تعالى مبيهاً كثرة الغاوين الضالين المتبعين إبليس اللعين: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا﴾؛ أي: أنشأنا، وبشنا ﴿لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ﴾: صارت البهائم أحسن حالة منهم. ﴿هُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا﴾؛ أي: لا يصل إليها فقه ولا علم إلا مجرد قيام الحجة، ﴿وَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا﴾: ما ينفعهم، بل فقدوا منفعتها وفائدتها، ﴿وَهُمْ ءَاذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا﴾: سماعاً يصل معناه إلى قلوبهم. ﴿أُولَئِكَ﴾: الذين بهذه الأوصاف القبيحة ﴿كَالْأَنْعَامِ﴾؛ أي: البهائم التي فقدت العقول، وهؤلاء آثروا ما يفنى على ما يبقى فسلبوا خاصية العقل. ﴿بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾: من البهائم؛ فإن الأنعام مستعملة فيما خلقت له، ولها أذهان تدرك بها مضرتها من منفعتها؛ فلذلك كانت أحسن حالاً منهم. ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾: الذين غفلوا عن أنفع الأشياء؛ غفلوا عن الإيمان بالله وطاعته وذكره، خلقت لهم الأفئدة والأسماع والأبصار لتكون عوناً لهم على القيام بأوامر الله وحقوقه، فاستعانوا بها على ضد هذا المقصود؛ فهؤلاء حقيقون بأن يكونوا ممن ذرأ الله لجهنم وخلقهم لها؛ فخلقهم للنار وبأعمال أهلها يعملون، وأما من استعمل هذه الجوارح في عبادة الله وانصبغ قلبه بالإيمان بالله ومحبه ولم يغفل عن الله؛ فهؤلاء أهل الجنة، وبأعمال أهل الجنة يعملون.

كَانُوا يَظْلُمُونَ ﴿١٧٧﴾ مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدَى وَمَنْ يُضِلِّ فَاُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿١٧٨﴾.

﴿١٧٩﴾ يقول تعالى لنبيه ﷺ: ﴿وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي ءَاتَيْنَاهُ ءَايَاتِنَا﴾؛ أي: علمناه علم كتاب الله فصار العالم الكبير والحبر التحرير فانسلخ منها فأتبعه الشيطان؛ أي: انسلخ من الاتصاف الحقيقي بالعلم بآيات الله؛ فإن العلم بذلك يصير صاحبه متصفاً بمكارم الأخلاق ومحاسن الأعمال ويرقى إلى أعلى الدرجات وأرفع المقامات؛ فترك هذا كتاب الله وراء ظهره، ونبد الأخلاق التي يأمر بها الكتاب، وخلعها كما يخلع اللباس، فلما انسلخ منها؛ أتبعه الشيطان؛ أي: تسلط عليه حين خرج من الحصن الحصين وصار إلى أسفل سافلين، فازه إلى المعاصي أژاً، ﴿فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾: بعد أن كان من الراشدين المرشدين.

﴿١٨٠﴾ وهذا لأن الله تعالى خذله ووكله إلى نفسه؛ فلهذا قال تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا﴾: بأن نوفقه للعمل بها، فيرتفع في الدنيا والآخرة، فيتحصن من أعدائه، ﴿وَلَنُكَفِّرَنَّ﴾: فعل ما يقتضي الخذلان؛ فأخلد إلى الأرض؛ أي: إلى الشهوات السفلية والمقاصد الدنيوية، ﴿وَنُتَبِّعَنَّ هَوَاهُ﴾: وترك طاعة مولاه. ﴿فَنُشَلِّهُ﴾: في شدة حرصه على الدنيا وانقطاع قلبه إليها ﴿كَثِلَ الْكَثْبِ إِنْ تَحْمِلَ عَلَيْهِ يَلْهَثُ أَوْ تَتْرُكُهُ يَلْهَثُ﴾؛ أي: لا يزال لاهثاً في كل حال، وهذا لا يزال حريصاً حرصاً قاطعاً قلبه لا يسد فاقته شيء من الدنيا. ﴿ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا﴾: بعد أن ساقها الله إليهم، فلم ينقادوا لها، بل كذبوا بها وردوها لهوانهم على الله واتباعهم لأهوائهم بغير هدى من الله. ﴿فَأَقْصَصْ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾: في ضرب الأمثال وفي العبر والآيات؛ فإذا تفكروا؛ علموا، وإذا علموا؛ عملوا.

﴿١٨١﴾ سَاءَ مَثَلًا الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا وَأَنْفُسُهُمْ كَانُوا يَظْلُمُونَ ﴿١٨٢﴾؛ أي: ساء وقبح مثل من كذب بآيات الله، وظلم نفسه بأنواع المعاصي؛ فإن مثلهم مثل السوء.

وهذا الذي آتاه الله آياته يحتمل أن المراد به شخص معين قد كان منه ما ذكره الله فقص الله قصته تنبيهاً للعباد، ويحتمل أن المراد بذلك أنه اسم جنس، وأنه شامل لكل من آتاه الله آياته فانسلخ منها.

﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٨٠﴾﴾

﴿١٨٠﴾ هذا بيان لعظيم جلاله وسعة أوصافه بأن له الأسماء الحسنى؛ أي: له كل اسم حسن، وضابطه أنه كل اسم دال على صفة كمال عظيمة، وبذلك كانت حسنى؛ فإنها لو دلت على غير صفة، بل كانت علماً محضاً؛ لم تكن حسنى، وكذلك لو دلت على صفة ليست بصفة كمال، بل إما صفة نقص أو صفة منقسمة إلى المدح والقدح؛ لم تكن حسنى؛ فكل اسم من أسمائه دال على جميع الصفة التي اشتق منها، مستغرق لجميع معناها، وذلك نحو: العليم الدال على أن له علماً محيطاً عاماً لجميع الأشياء فلا يخرج عن علمه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء، والرحيم الدال على أن له رحمة عظيمة واسعة لكل شيء، والتقدير الدال على أن له قدرة عامة لا يعجزها شيء... ونحو ذلك. ومن تمام كونها حسنى أنه لا يدعى إلا بها، ولذلك قال: ﴿فَادْعُوهُ بِهَا﴾: وهذا شامل لدعاء العبادة ودعاء المسألة، فيدعى في كل مطلوب بما يناسب ذلك المطلوب، فيقول الداعي مثلاً: اللهم اغفر لي، وارحمني، إنك أنت الغفور الرحيم. وتب علي يا تواب! وارزقني يا رزاق والطف بي يا لطيف، ونحو ذلك.

﴿سورة الأعراف﴾ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ النَّارِ وَالْإِنسِ لَمَّ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴿١٨١﴾ وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٨٢﴾ وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةً يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴿١٨٣﴾ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٤﴾ وَأُمْلٍ لَهُمْ إِن كُودِي مَتِينٌ ﴿١٨٥﴾ أَوَلَمْ يَنْفَكُوا مَّا بِصَاحِبِهِمْ مِنْ حِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١٨٦﴾ أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْ عَسَىٰ أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجْلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٧﴾ مَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَكَلا هَادِي لَهُ، وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٨٨﴾ يَسْتَأْذِنُكَ عَنِ السَّاعَةِ أَبَانَ مَرَسْنَهَا قُلْ إِنَّمَا عَلَّمَهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُخَلِّصُنَا لَوْفُنَا إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمُ الْآيَةُ إِلَّا بَعَثَ بَسْطُوكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عَلَّمَهَا عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٩﴾

وقوله: ﴿وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (١٨٠)؛ أي: عقوبة وعذاباً على إلحادهم في أسمائه. وحقيقة الإلحاد: الميل بها عما جعلت له، إما بأن يسمى بها من لا يستحقها؛ كسمية المشركين بها لألھتهم، وإما بنفي معانيها وتحريفها وأن يجعل لها معنى ما أراده الله ولا رسوله، وإما أن يشبه بها غيرها؛ فالواجب أن يحذر الإلحاد فيها ويحذر الملحدون فيها. وقد ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ: «إن لله تسعة وتسعين اسماً من أحصاها دخل الجنة» (١).

وقوله: ﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةً يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ (١٨١)؛

﴿١٨١﴾ أي: ومن جملة من خلقنا أمة فاضلة كاملة في نفسها مكمله لغيرها يهدون أنفسهم وغيرهم بالحق فيعلمون الحق ويعملون به ويعلمونه ويدعون إليه وإلى العمل به. ﴿وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ (١٨١)؛ بين الناس في أحكامهم إذا حكموا في الأموال والدماء والحقوق والمقالات وغير ذلك. وهؤلاء أئمة الهدى ومصابيح الدجى، وهم الذين أنعم الله عليهم بالإيمان والعمل الصالح والتواصي بالحق والتواصي بالصبر، وهم الصديقون الذين مرتبتهم تلي مرتبة الرسالة، وهم في أنفسهم مراتب متفاوتة؛ كل بحسب حاله وعلو منزلته؛ فسبحان من يختص برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم.

﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (١٨٢) وَأُمْلٍ لَهُمْ إِن كُودِي مَتِينٌ ﴿١٨٣﴾ أَوَلَمْ يَنْفَكُوا مَّا بِصَاحِبِهِمْ مِنْ حِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١٨٤﴾ أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْ عَسَىٰ أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجْلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٥﴾ مَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَكَلا هَادِي لَهُ، وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٨٦﴾

﴿١٨٢﴾ أي: والذين كذبوا بآيات الله الدالة على صحة ما جاء به محمد ﷺ من الهدى فردوها ولم يقبلوها، ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (١٨٢)؛ بأن يدر لهم الأرزاق.

﴿١٨٣﴾ وَأَتَى لَهُمْ؛ أَي: أمهلهم حتى يظنوا أنهم لا يؤخذون ولا يعاقبون، فيزدادون كفرًا وطغيانًا وشرًا إلى شرمهم، وبذلك تزيد عقوبتهم ويتضاعف عذابهم، فيضرون أنفسهم من حيث لا يعلمون. ولهذا قال: ﴿إِنَّكَ كِيدِي مَتِينٌ﴾؛ أَي: قوي بليغ.

﴿١٨٤﴾ أَوَلَمْ يَنْفَكُوا مَا يَصَاحِبُهُمْ: محمد ﷺ. مَنِ جَنَّةٍ؛ أَي: أولم يُعملوا أفكارهم وينظروا هل في صاحبهم الذي يعرفونه ولا يخفى عليهم من حاله شيء؛ هل هو مجنون؟! فلينظروا في أخلاقه وهديه ودله وصفاته، وينظروا فيما دعا إليه؛ فلا يجدون فيه من الصفات إلا أكملها، ولا من الأخلاق إلا أتمها، ولا من العقل والرأي إلا ما فاق به العالمين، ولا يدعو إلا لكل خير، ولا ينهى إلا عن كل شر! أفتبهاذ يا أولي الأبواب جنة؟! أم هو الإمام العظيم والناصح المبين والمجدد الكريم والرهوف الرحيم؟! ولهذا قال: ﴿إِنَّهُ لَا يَذِيرُ شَيْئًا﴾؛ أَي: يدعو الخلق إلى ما ينجيهم من العذاب، ويحصل لهم الثواب.

﴿١٨٥﴾ أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ: فإنهم إذا نظروا إليها؛ وجدوها أدلة دالة على توحيد ربها وعلى ما له من صفات الكمال. وكذلك لينظروا إلى جميع ﴿مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ﴾: فإن جميع أجزاء العالم يدل أعظم دلالة على علم الله وقدرته وحكمته وسعة رحمته وإحسانه ونفوذ مشيئته وغير ذلك من صفاته العظيمة الدالة على تفرد بالخلق والتدبير الموجبة لأن يكون هو المعبود المحمود المسيح الموحّد المحبوب. وقوله: ﴿وَأَنْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ﴾؛ أَي: لينظروا في خصوص حالهم، وينظروا لأنفسهم قبل أن يقترب أجلهم ويفجأهم الموت وهم في غفلة معرضون؛ فلا يتمكنون حينئذ من استدراك الفارط. ﴿فَيَأْتِي حَدِيثُ بَعْدَهُ، يُؤْمِنُونَ﴾؛ أَي: إذا لم يؤمنوا بهذا الكتاب الجليل، فبأي حديث يؤمنون به؟! أبكتب الكذب والضلال؟! أم بحديث كل مفتري دجال؟!

﴿١٨٦﴾ ولكن الضال لا حيلة فيه ولا سبيل إلى هدايته، ولهذا قال تعالى: ﴿مَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَكَأَيِّ هَادٍ لَهُ. وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾؛ أَي: متحيرين، يترددون لا يخرجون منه، ولا يهتدون إلى حق.

﴿١٨٧﴾ يَسْأَلُونَكَ عَنْ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجِيبُهَا لَوْفًا إِلَّا هُوَ نُفِثَ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمُ إِلَّا بَغْثَةٌ

يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنْ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٧﴾ قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبِ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٨﴾

﴿١٨٧﴾ يقول تعالى لرسوله محمد ﷺ: ﴿يَسْأَلُونَكَ﴾؛ أَي: المكذبون لك المتعتنون ﴿عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا﴾؛ أَي: متى وقتها التي تجيء به؟ ومتى تحل بالخلق؟ ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي﴾؛ أَي: إنه تعالى المختص بعلمها، ﴿لَا يُجِيبُهَا لَوْفًا إِلَّا هُوَ﴾؛ أَي: لا يظهرها لوقتها الذي قدر أن تقوم فيه إلا هو. ﴿نُفِثَ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾؛ أَي: خفي علمها على أهل السماوات والأرض واشتد أمرها أيضًا عليهم فهم من الساعة مشفقون. ﴿لَا تَأْتِيكُمُ إِلَّا بَغْثَةٌ﴾؛ أَي: فجأة من حيث لا يشعرون لم يستعدوا لها ولم يتهيئوا لها. ﴿يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا﴾؛ أَي: هم حريصون على سؤالك عن الساعة كأنك مستحيف عن السؤال عنها، ولم يعلموا أنك - لكمال علمك بربك وما ينفع السؤال عنه - غير مبال بالسؤال عنها، ولا حريص على ذلك، فلم لا يقتدون بك؟ ويكفون عن الاستحفاء عن هذا السؤال الخالي من المصلحة المتعذر علمه؛ فإنه لا يعلمها نبي مرسل ولا ملك مقرب، وهي من الأمور التي أخفاها عن الخلق لكمال حكمته وسعة علمه. ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنْ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾؛ فلذلك حرصوا على ما لا ينبغي الحرص عليه، وخصوصًا مثل حال هؤلاء الذين يتركون السؤال عن الأهم ويدعون ما يجب عليهم من العلم، ثم يذهبون إلى ما لا سبيل لأحد أن يدركه ولا هم مطالبون بعلمه.

﴿١٨٨﴾ ﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا﴾: فإني فقير مدبر، لا يأتيني خير إلا من الله، ولا يدفع عني الشر إلا هو، وليس لي من العلم إلا ما علمني الله تعالى. ﴿وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبِ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ﴾؛ أَي: لفعلت الأسباب التي أعلم أنها تنتج لي المصالح والمنافع، ولحذرت من كل ما يفضي إلى سوء ومكروه؛ لعلمي بالأشياء قبل كونها، وعلمي بما تفضي إليه، ولكني لعدم علمي قدينالي ما ينالني من السوء وقد يفوتني ما يفوتني من مصالح الدنيا ومنافعها؛ فهذا أدل دليل على أنني لا أعلم لي بالغيب. ﴿إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ﴾: أنذر العقوبات الدينية والدنيوية والأخروية، وأبين الأعمال المفضية إلى ذلك وأحذر منها.

﴿ وَشِيرٌ ﴾ وبشير بالثواب العاجل والآجل، ببيان الأعمال الموصلة إليه والترغيب فيها، ولكن ليس كل أحد يقبل هذه البشارة والنذارة، وإنما يتفجع بذلك ويقبله المؤمنون.

وهذه الآيات الكريمات مبينة جهل من يقصد النبي ﷺ ويدعوه لحصول نفع أو دفع ضرر؛ فإنه ليس بيده شيء من الأمر، ولا ينفع من لم يتفعه الله، ولا يدفع الضرر عن من لم يدفعه الله عنه، ولا له من العلم إلا ما علمه الله تعالى، وإنما ينفع من قَلِيل ما أُرسل به من البشارة والنذارة وعمل بذلك؛ فهذا نفعه عليه السلام الذي فاق نفع الآباء والأمهات والأخلاء والإخوان، بما حث العباد على كل خير، وحذره من كل شر، وبينه لهم غاية البيان والإيضاح.

﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا
يَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيًّا فَمَرَّتْ
بِئِنَّهَا فَلَمَّا آفَقَتْ دَعَا اللَّهَ رَبَّهَا لِنِ ءَاتِيَنَا صَلِحًا لَنُكَوِّنَ مِنْ
الشَّكْرِ ۖ ﴿١٨٩﴾ فَلَمَّا ءَاتَاهُمَا صَلِحًا جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا
ءَاتَاهُمَا فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٩٠﴾ أَشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ
شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنفُسُهُمْ
يُصْرُونَ ﴿١٩٢﴾ وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَتَّبِعُوكُمْ سَوَاءٌ
عَلَيْكُمْ أَدْعَوْتُهُمْ أَمْ أَسْتَدْعِيهِمْ ۚ صَبِحُوا ۖ ﴿١٩٣﴾ ۝

(١٨٩) **أَي:** ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ﴾: أيها الرجال والنساء المنتشرون في الأرض على كثرتكم وتفرقكم، ﴿مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾: وهو آدم أبو البشر ﷺ، ﴿وَجَعَلْ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾؛ أي: خلق من آدم زوجته حواء. لأجل أن يسكن إليها، لأنها إذا كانت منه؛ حصل بينهما من المناسبة والموافقة ما يقتضي سكون أحدهما إلى الآخر، فانقاد كل منهما إلى صاحبه بزمam الشهوة. ﴿فَلَمَّا تَعَاسَّهَا﴾؛ أي: تجللها مجامعاً لها؛ قدر الباري أن يوجد من تلك الشهوة - وذلك الجماع - النسل، فحملت ﴿حَمَلاً خَفِيًّا﴾، وذلك في ابتداء الحمل لا تحس به الأنثى ولا يثقلها. ﴿فَلَمَّا﴾ استمرت به و﴿أَنقَلَتْ﴾ به حين كبر في بطنها؛ فحينئذ صار في قلوبهما الشفقة على الولد وعلى خروجه حياً صحيحاً سالماً لا آفة فيه، فدعوا ﴿اللَّهُ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْنَا وَلَداً﴾ ﴿صَلِحاً﴾؛ أي: صالح الخلقة تامها لا نقص فيه، ﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ (١٨٩).

﴿فَلَمَّا ءَاتَاهُمَا صَٰلِحًا﴾: على وفق ما طلبا وتمت عليهما النعمة فيه، ﴿جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا ءَاتَاهُمَا﴾؛ أي: جعللا لله شركاء في ذلك الولد الذي انفرد الله بإيجاده والنعمة به وأقر به أعين والديه، فعبداه لغير الله: إما أن يسمياه بعبد غير الله؛ كعبد الحارث وعبد العزى وعبد الكعبة ونحو ذلك، أو يشركا في الله في العبادة بعدما منَّ الله عليهما بما منَّ مِنَ النعم التي لا يحصيها أحد من العباد، وهذا انتقال من النوع إلى الجنس؛ فإن أول الكلام في آدم وحواء، ثم انتقل إلى الكلام في الجنس، ولا شك أن هذا موجود في الذرية كثيرا؛ فلذلك قرره الله على بطلان الشرك، وأنهم في ذلك ظالمون أشد الظلم، سواء كان الشرك في الأقوال أم في الأفعال؛ فإن الخالق لهم من نفس واحدة، الذي خلق منها زوجها، وجعل لهم من أنفسهم أزواجا، ثم جعل بينهم من المودة والرحمة ما يسكن بعضهم إلى بعض ويألفه ويلتذ به، ثم هداهم إلى ما به تحصل الشهوة واللذة والأولاد والنسل، ثم أوجد الذرية في بطون الأمهات وقتا موقتا تشوف إليه نفوسهم ويدعون الله أن يخرجوه سويا صحيحا، فأنم الله عليهم النعمة، وأنالهم مطلوبهم، أفلا يستحق أن يعبدوه ولا يشركوا به في عبادته أحدا ويخلصوا له الدين؟! ١٩٠

﴿١٩٦﴾ وَلَكِنْ الْأَمْرُ جَاءَ عَلَى الْعَكْسِ، فَأَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يَخْلُقُونَ ﴿١٩٦﴾ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ ﴿١٩٦﴾: أي: لعابديها ﴿١٩٦﴾ نَصْرًا وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَصْرِفُونَ ﴿١٩٦﴾: فإذا كانت لا تخلق شيئًا ولا مثقال ذرة، بل هي مخلوقة، ولا تستطيع أن تدفع المكروه عن عبدها ولا عن أنفسها؛ فكيف تتخذ مع الله آلهة؟! إن هذا إلا أظلم الظلم وأسفه السفه.

﴿١٩٦﴾ وَإِنْ تَدْعُوا أَيُّهَا الْمَشْرِكُونَ، هَذِهِ الْأَصْنَامُ الَّتِي عِبَدْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴿١٩٦﴾ إِلَى الْهُدَى لَا يَتَّبِعُكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صَنِيعُونَ ﴿١٩٦﴾: فصار الإنسان أحسن حالة منها؛ لأنها لا تسمع ولا تبصر ولا تهدي ولا تهدى، وكل هذا إذا تصوره اللبيب العاقل تصورًا مجردًا؛ جزم ببطلان إلهيتها وسفاهة من عبدها.

﴿١٩٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادُ أَمْثَالِكُمْ فَأَدْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٩٦﴾ أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلْ أَدْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُوا فَلَا تُنْظَرُونَ ﴿١٩٦﴾ إِنَّ وَلِيَیَ اللَّهُ الَّذِي نَزَلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ ﴿١٩٦﴾.

﴿١٩٦﴾ وهذا من نوع التحدي للمشركين العابدين للأوثان؛ يقول تعالى: ﴿١٩٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادُ أَمْثَالِكُمْ ﴿١٩٦﴾: أي: لا فرق بينكم وبينهم؛ فكلكم عبيد لله مملوكون؛ فإن كنتم كما تزعمون صادقين في أنها تستحق من العبادة شيئًا؛ ﴿١٩٦﴾ فَأَدْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ ﴿١٩٦﴾: فإن استجابوا لكم وحصلوا المطلوبكم، وإلا؛ تبين أنكم كاذبون في هذه الدعوى مفترون على الله أعظم الفرية.

﴿١٩٦﴾ وهذا لا يحتاج إلى تبين فيه؛ فإنكم إذا نظرتُم إليها؛ وجدتم صورتها دالة على أنه ليس لديها من النفع شيء؛ فليس لها أرجل تمشي بها، ولا أيد تبطش بها، ولا أذن تسمع بها؛ فهي عادية لجميع الآلات والقوى الموجودة في الإنسان؛ فإذا كانت لا تجيبكم إذا دعوتموها؛ فهي عباد أمثالكم، بل أنتم أكمل منها وأقوى على كثير من الأشياء؛ فلا شيء عبدتموها؟! ﴿١٩٦﴾ قُلْ أَدْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُوا فَلَا تُنْظَرُونَ ﴿١٩٦﴾: أي: اجتمعوا أنتم وشركاؤكم على إيقاع السوء والمكروه بي من غير إهمال ولا انتظار فإنكم غير بالغين لشيء من المكروه بي.

﴿١٩٦﴾ لَأَنْ وَلِيَیَ اللَّهُ الَّذِي يَتَوَلَّى لِي الْمَنَافِعَ وَيُدْفَعُ عَنِّي الْمَضَارَّ. ﴿١٩٦﴾ الَّذِي نَزَلَ الْكِتَابَ ﴿١٩٦﴾: الذي فيه الهدى والشفاء والنور، وهو من توليه وتربيته لعباده الخاصة الدينية. ﴿١٩٦﴾ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ ﴿١٩٦﴾: الذين صلحت نياتهم وأعمالهم وأقوالهم؛ كما قال تعالى: ﴿١٩٦﴾ وَلِیَیَ الْأَزْوَاجُ أَمْثَلُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ﴿١٩٦﴾: [البقرة: ٢٥٧]؛ فالمؤمنون الصالحون لما تولوا ربهم بالإيمان والتقوى ولم يتولوا غيره ممن لا ينفع ولا يضر؛ تولاهم الله ولطف بهم وأعانهم على ما فيه الخير والمصلحة لهم في دينهم ودنياهم ودفع عنهم بإيمانهم كل مكروه؛ كما قال تعالى: ﴿١٩٦﴾ إِنَّ اللَّهَ يَدْفَعُ عَنِ الَّذِينَ ءَامَنُوا ﴿١٩٦﴾: [الحج: ٣٨].

﴿١٩٦﴾ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَصْرِفُونَ ﴿١٩٦﴾ وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَسْمَعُوا وَرَبَّهُمْ يُنْظَرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿١٩٦﴾.

أو دنيوية. ولما كان لا بد من أذية الجاهل؛ أمر الله تعالى أن يقابل الجاهل بالإعراض عنه وعدم مقابلته بجهله؛ فمن آذاك بقوله أو فعله؛ لا تؤذه، ومن حرمك لا تحرمه، ومن قطعك فصله، ومن ظلمك فاعدل فيه.

وأما ما ينبغي أن يعامل به العبد شياطين الجن؛ فقال تعالى:

﴿وَأَمَّا يَنْزَغُكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٠﴾ إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ ﴿١٠١﴾ وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّوهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ ﴿١٠٢﴾﴾.

﴿١٠٠﴾ أي: أي وقت وفي أي حال، ﴿يَنْزَغُكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ﴾؛ أي: تحس منه بوسوسة وشيطة عن الخير أو حث على الشر وإيعاز إليه، ﴿فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ﴾؛ أي: التجئ واعتصم بالله واحتم بحماه. فإنه ﴿سَمِيعٌ﴾ سميع لما تقول، ﴿عَلِيمٌ﴾؛ ببيتك وضعفك وقوة التجائك له فيحميك من فتته ويقيك من وسوسته؛ كما قال تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ﴿١﴾﴾ [الناس: ١] إلى آخر السورة.

﴿١٠١﴾ ولما كان العبد لا بد أن يغفل وينال منه الشيطان الذي لا يزال مرابطاً ينتظر غرته وغفلته؛ ذكر تعالى علامة المتقين من الغاوين، وأن المتقي إذا أحس بذنب ومسه طائف من الشيطان فأذنب بفعل محرم أو ترك واجب؛ تذكر من أي باب أتى ومن أي مدخل دخل الشيطان عليه، وتذكر ما أوجب الله عليه وما عليه من لوازم الإيمان، فأبصر، واستغفر الله تعالى، واستدرك ما فرط منه بالتوبة النصوح والحسنات الكثيرة، فرد شيطانه خاسئاً حسيراً؛ قد أفسد عليه كل ما أدركه منه.

﴿١٠٢﴾ وأما إخوان الشياطين وأولياؤهم؛ فإنهم إذا وقعوا في الذنوب لا يزالون يمدونهم في الغي ذنباً بعد ذنب، ولا يقصرون عن ذلك؛ فالشياطين لا تقصر عنهم بالإغواء؛ لأنها طمعت فيهم حين رأتهم سلسي القيادة لها وهم لا يقصرون عن فعل الشر.

﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِمْ بِنَاصِيَةٍ قَالُوا لَوْلَا جَاءَتْهُمْ نَاصِيَةٌ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ مِثْلُ مَا يُوحَىٰ هَذَا بَصَائِرٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٣﴾﴾.

﴿١٩٧﴾، ﴿١٩٨﴾ وهذا أيضاً في بيان عدم استحقاق هذه الأصنام التي يعبدونها من دون الله شيئاً من العبادة؛ لأنها ليس لها استطاعة ولا اقتدار في نصر أنفسهم ولا في نصر عابديها، وليس لها قوة العقل والاستجابة؛ فلو دعوتها إلى الهدى؛ لم تهتد، وهي صور لا حياة فيها، فتراهم ينظرون إليك وهم لا يبصرون حقيقة؛ لأنهم صوروها على صور الحيوانات من آدميين أو غيرهم، وجعلوا لها أبصاراً وأعضاء؛ فإذا رأيتها؛ قلت: هذه حية؛ فإذا تأملتتها؛ عرفت أنها جمادات لا حراك بها ولا حياة؛ فأبى رأي اتخذها المشركون آلهة مع الله ١٩؟ ولأي مصلحة أو نفع عكفوا عندها وتقربوا لها بأنواع العبادات؟! فإذا عرف هذا؛ عرف أن المشركين وآلهتهم التي عبدوها ولو اجتمعوا وأرادوا أن يكيدوا من تولاه فاطر السماوات والأرض متولي أحوال عباده الصالحين؛ لم يقدروا على كيدته بمغال ذرة من الشر؛ لكمال عجزهم وعجزها وكمال قوة الله واقداره وقوة من احتسب بجلاله وتوكل عليه، وقيل: إن معنى قوله: ﴿وَتَرْنَهُمْ يُنْظَرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿١٩٨﴾﴾: إن الضمير يعود إلى المشركين المكذبين لرسول الله ﷺ، فتحسبهم ينظرون إليك يا رسول الله نظر اعتبار يتبين به الصادق من الكاذب، ولكنهم لا يبصرون حقيقتك وما يتوسمه المتوسمون فيك من الجمال والكمال والصدق.

﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴿١٩٩﴾﴾.

﴿١٩٩﴾ هذه الآية جامعة لحسن الخلق مع الناس وما ينبغي في معاملتهم: فالذي ينبغي أن يعامل به الناس: أن يأخذ العفو؛ أي: ما سمحت به أنفسهم وما سهل عليهم من الأعمال والأخلاق؛ فلا يكلفهم ما لا تسمح به طبائعهم، بل يشكر من كل أحد ما قابله به من قول وفعل جميل أو ما هو دون ذلك، ويتجاوز عن تقصيرهم ويغض طرفه عن نقصهم ولا يتكبر على الصغير لصغره ولا ناقص العقل لنقصه ولا الفقير لفقره، بل يعامل الجميع باللطف والمقابلة بما تقتضيه الحال وتشرح له صدورهم. ﴿وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ﴾؛ أي: بكل قول حسن وفعل جميل وخلق كامل للقريب والبعيد؛ فاجعل ما يأتي إلى الناس منك إما تعليم علم أو حث على خير من صلة رحم أو بر والدين أو إصلاح بين الناس أو نصيحة نافعة أو رأي مصيب أو معاونة على بر وتقوى أو زجر عن قبيح أو إرشاد إلى تحصيل مصلحة دينية

إن أكثر العلماء يقولون: إن اشتغاله بالإنصات أولى من قراءته الفاتحة وغيرها.

﴿وَأَذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ﴾ (٢٠٥) إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ ﴿٢٠٦﴾

﴿٢٠٥﴾ الذكر لله تعالى يكون بالقلب ويكون باللسان ويكون بهما وهو أكمل أنواع الذكر وأحواله، فأمر الله عبده ورسوله محمدًا أصلًا وغيره تبعًا بذكر ربه في نفسه؛ أي: مخلصًا خاليًا، ﴿تَضَرُّعًا﴾؛ أي: متضرعًا بلسانك مكرراً لأنواع الذكر، ﴿وَخِيفَةً﴾: في قلبك؛ بأن تكون خائفًا من الله، وجل القلب منه خوفًا أن يكون عملك غير مقبول، وعلامة الخوف أن يسعى ويجتهد في تكميل العمل وإصلاحه والنصح به. ﴿وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ﴾؛ أي: كن متوسطًا، لا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها وابتغ بين ذلك سبيلًا - ﴿بِالْغُدُوِّ﴾: أول النهار، ﴿وَالْآصَالِ﴾: آخره، وهذان الوقتان لذكر الله فيهما مزية وفضيلة على غيرهما. ﴿وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ﴾ (٢٠٥): الذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم؛ فإنهم حرموا خير الدنيا والآخرة، وأعرضوا عن كل السعادة والفوز في ذكره وعبوديته، وأقبلوا على من كل الشقاوة والخيبة في الاشتغال به.

وهذه من الآداب التي ينبغي للعبد أن يراعيها حق رعايتها، وهي الإكثار من ذكر الله أثناء الليل والنهار، خصوصًا طرفي النهار، مخلصًا خاشعًا متضرعًا متذللاً ساكنًا متواضعًا عليه قلبه ولسانه بأدب ووقار وإقبال على الدعاء والذكر وإحضار له بقلبه وعدم غفلة؛ فإن الله لا يستجيب دعاء من قلب غافل لاه.

﴿٢٠٦﴾ ثم ذكر تعالى أن له عبادًا مستديمين لعبادته، ملازمين لخدمته، وهم الملائكة. فلتعلموا أن الله لا يريد أن يتكثر بعبادتكم من قلة، ولا ليتعز بها من ذلة، وإنما يريد نفع أنفسكم، وأن ترحبوا عليه أضعاف أضعاف ما علمتم، فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ﴾: من الملائكة المقربين وحملة العرش والكروبيين، ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ﴾: بل يذعنون لها ويتقادون لأوامر ربهم، ﴿وَيُسَبِّحُونَهُ﴾: الليل والنهار لا يفترون. ﴿وَلَهُ﴾ وحده لا شريك له ﴿يَسْجُدُونَ﴾ (٢٠٦).

﴿٢٠٣﴾ أي: لا يزال هؤلاء المكذبون لك في تعنت وعناد، ولو جاءتهم الآيات الدالة على الهدى والرشاد؛ فإذا جتتهم بشيء من الآيات الدالة على صدقك؛ لم يتقادوا. ﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِمْ بِآيَةٍ﴾: من آيات الاقتراح التي يعينونها، ﴿قَالُوا لَوْلَا آجَبْتِنَاهَا﴾؛ أي: هلا اخترت الآية فصارت الآية الفلانية أو المعجزة الفلانية، كأنك أنت المنزل للآيات المدبر لجميع المخلوقات، ولم يعلموا أنه ليس لك من الأمر شيء، أو أن المعنى: لولا اخترعتها من نفسك، ﴿قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ مِنْ رَبِّي﴾: فأنا عبد متبع مدبر، والله تعالى هو الذي ينزل الآيات ويرسلها على حسب ما اقتضاه حمده، وطلبته حكمته البالغة؛ فإن أردتم آية لا تضمحل على تعاقب الأوقات وحجة لا تبطل في جميع الآتات؛ ف ﴿هَذَا﴾: القرآن العظيم والذكر الحكيم. ﴿بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ﴾: يستبصر به في جميع المطالب الإلهية والمقاصد الإنسانية، وهو الدليل والمدلول؛ فمن تفكر فيه وتدبره؛ علم أنه تنزيل من حكيم حميد، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وبه قامت الحجة على كل من بلغه، ولكن أكثر الناس لا يؤمنون، وإلا؛ فمن آمن؛ فهو هدى له من الضلال ﴿وَرَحْمَةٌ﴾ له من الشقاء؛ فال مؤمن مهتد بالقرآن، متبع له، سعيد في دنياه وآخره، وأما من لم يؤمن به؛ فإنه ضال شقي في الدنيا والآخرة.

﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ (٢٠٤).

﴿٢٠٤﴾ هذا الأمر عام في كل من سمع كتاب الله يتلى؛ فإنه مأمور بالاستماع له والإنصات، والفرق بين الاستماع والإنصات أن الإنصات في الظاهر بترك التحدث أو الاشتغال بما يشغل عن استماعه، وأما الاستماع له؛ فهو أن يلقي سمعه ويحضر قلبه ويتدبر ما يستمع؛ فإن من لازم على هذين الأمرين حين يتلى كتاب الله؛ فإنه ينال خيرًا كثيرًا وعلماً غزيرًا وإيمانًا مستمراً متجدداً وهدىً متزايداً وبصيرة في دينه، ولهذا رتب الله حصول الرحمة عليهما، فدل ذلك على أن من تلي عليه الكتاب فلم يستمع له وينصت أنه محروم الحظ من الرحمة، قد فاته خير كثير.

ومن أوكد ما يؤمر به مستمع القرآن أن يستمع له وينصت في الصلاة الجهرية إذا قرأ إمامه؛ فإنه مأمور بالإنصات حتى

فليقتد العباد بهؤلاء الملائكة الكرام، وليداوموا على عبادة الملك العلام.

تم تفسير سورة الأعراف.

ولله الحمد والشكر والثناء. وصلى الله على محمد وآله وصحبه وسلم



تفسير سورة الأنفال

وهي مدنية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿يَسْتَأْذِنُكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَأَقْضُوا لِلَّهِ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ۝ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ۝ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ۝﴾

سُورَةُ الْأَنْفَالِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَسْتَأْذِنُكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَأَقْضُوا لِلَّهِ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ۝ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ۝ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ۝

مِنْ بَيْنِكَ بِالْحَقِّ وَإِنْ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَرِهُونَ ۝ يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا بَيَّنَّ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ ۝ وَإِذْ بَعَدَكُمْ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنهَآ لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ عَدَدَ ذَاتِ الشُّوْكَ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَن يُخَيِّطَ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ ۝ لِيُخَيِّطَ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَذِكْرُهُ الْمُجْرِمُونَ ۝

١٧٧

الأنفال: هي الغنائم التي ينقلها الله لهذه الأمة من أموال الكفار. وكانت هذه الآيات في هذه السورة قد نزلت في قصة بدر، أول غنيمة كبيرة غنمها المسلمون من المشركين، فحصل بين بعض المسلمين فيها نزاع، فسألوا رسول الله ﷺ عنها، فأمرهم الله: ﴿يَسْتَأْذِنُكَ عَنِ الْأَنْفَالِ﴾: كيف تقسم؟ وعلى من تقسم؟ ﴿قُلِ﴾ لهم: الأنفال لله ورسوله يضعانها حيث شاء؛ فلا اعتراض لكم على حكم الله ورسوله، بل عليكم إذا حكم الله ورسوله أن ترضوا بحكمهما وتسلموا الأمر لهما، وذلك داخل في قوله: ﴿فَأَقْضُوا لِلَّهِ﴾: بامثال أوامره واجتنب نواهيه، ﴿وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾؛ أي: أصلحوا ما بينكم من التشاحن والتقاطع والتدابير بالتوادر والتحاب والتواصل؛ فبذلك تجتمع كلمتكم ويزول ما يحصل - بسبب التقاطع - من التخاصم والتشاجر والتنازع.

ويدخل في إصلاح ذات البين تحسين الخلق لهم والعفو عن المسيئين منهم؛ فإنه بذلك يزول كثير مما يكون في القلوب من البغضاء والتدابير، والأمر الجامع لذلك كله قوله: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾؛ فإن الإيمان يدعو إلى طاعة الله ورسوله؛ كما أن من لم يطع الله ورسوله فليس بمؤمن، ومن نقصت طاعته لله ورسوله؛ فذلك لنقص إيمانه.

ولما كان الإيمان قسمين: إيماناً كاملاً يترتب عليه المدح والثناء والفوز التام، وإيماناً دون ذلك؛ ذكر الإيمان الكامل، فقال: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ﴾: الألف واللام للاستغراق لشرائع الإيمان، ﴿الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾؛ أي: خافت ورهبت فأوجب لهم خشية الله تعالى الانكفاف عن المحارم؛ فإن خوف الله تعالى أكبر علاماته أن يحجز صاحبه عن الذنوب. ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾: ووجه ذلك أنهم يلقون له السمع ويحضورون قلوبهم لتدبره؛ فعند ذلك يزيد إيمانهم؛ لأن التدبر من أعمال القلوب، ولأنه لا بد أن يبين لهم معنى كانوا يجهلونه ويتذكرون ما كانوا نسوه أو يحدث في قلوبهم رغبة في الخير واشتياقاً إلى كرامة ربهم أو وجلًا من العقوبات وازدجاراً عن المعاصي، وكل هذا مما يزداد به الإيمان.

التي على المؤمنين أن يقوموا بها؛ لأن من قام بها؛ استقامت أحواله وصلحت أعماله، التي من أكبرها الجهاد في سبيله.

﴿٥﴾ ﴿٦﴾ فكما أن إيمانهم هو الإيمان الحقيقي وجزاءهم هو الحق الذي وعدهم الله به؛ كذلك أخرج الله رسوله ﷺ من بيته إلى لقاء المشركين في بدر بالحق الذي يحبه الله تعالى وقد قدره وقضاه، وإن كان المؤمنون لم يخطر ببالهم في ذلك الخروج أنه يكون بينهم وبين عدوهم قتال؛ فحين تبين لهم أن ذلك واقع؛ جعل فريق من المؤمنين يجادلون النبي ﷺ في ذلك ويكرهون لقاء عدوهم كأنما يساقون إلى الموت وهم ينظرون! والحال أن هذا لا ينبغي منهم، خصوصاً بعدما تبين لهم أن خروجهم بالحق ومما أمر الله به ورضيه؛ فهذه الحال ليس للجدال فيها محل؛ لأن الجدال محلّه وفائدته عند اشتباه الحق والتباس الأمر، فأما إذا وضح وبان؛ فليس إلا الانقياد والإذعان. هذا؛ وكثير من المؤمنين لم يجر منهم من هذه المجادلة شيء ولا كرهوا لقاء عدوهم، وكذلك الذين عاتبهم الله انقادوا للجهاد أشد الانقياد، وثبتهم الله، وقضى لهم من الأسباب ما تطمئن به قلوبهم كما سيأتي ذكر بعضها.

﴿٧﴾ وكان أصل خروجهم يتعرضون لغير خرجت مع أبي سفيان بن حرب لقريش إلى الشام؛ قافلة كبيرة، فلما سمعوا برجوعها من الشام؛ ندب النبي ﷺ الناس، فخرج معه ثلاثمائة وبضعة عشر رجلاً معهم سبعون بعيراً يعقبون عليها ويحملون عليها متاعهم، فسمع بخبرهم قریش، فخرجوا لمنع غيرهم في عدد كثير وعُدّد وافر من السلاح والخيال والرجال، يبلغ عددهم قريباً من الألف، فوعد الله المؤمنين إحدى الطائفتين؛ إما أن يظفروا بالغير، أو بالنفير، فأحبوا الغير لقلّة ذات يد المسلمين ولأنها غير ذات الشوكة. ولكن الله تعالى أحب لهم وأراد أمراً أعلى مما أحبوا، أراد أن يظفروا بالنفير الذي خرج فيه كبراء المشركين وصناديدهم. ﴿وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَوِّقَ أَلْحَقَّ بِكَلِمَتِهِ﴾ ﴿فَيَنْصَرَّ أَهْلَهُ﴾ ﴿وَيَقْطَعَ دَائِرَ الْكَافِرِينَ﴾ ﴿٧﴾؛ أي: يستأصل أهل الباطل ويُرِي عباده من نصره للحق أمراً لم يكن يخطر ببالهم.

﴿٨﴾ ﴿لِيُخَوِّقَ أَلْحَقَّ﴾: بما يظهر من الشواهد والبراهين على صحته وصدقه، ﴿وَيُبْطِلُ الْبَاطِلَ﴾: بما يقيم من الأدلة والشواهد على بطلانه، ﴿وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ﴾ ﴿٨﴾:

فلا يبالي الله بهم.

﴿وَعَلَى رَبِّهِمْ﴾: وحده لا شريك له ﴿يَتَوَكَّلُونَ﴾ ﴿٢﴾؛ أي: يعتمدون في قلوبهم على ربهم في جلب مصالحهم ودفع مضارهم الدينية والدنيوية، ويتقنون بأن الله تعالى سيفعل ذلك، والتوكل هو الحامل للأعمال كلها؛ فلا توجد ولا تكمل إلا به.

﴿٣﴾ ﴿الَّذِينَ يَقِيمُونَ الصَّلَاةَ﴾: من فرائض ونوافل، بأعمالها الظاهرة والباطنة؛ كحضور القلب فيها، الذي هو روح الصلاة ولُبّها، ﴿وَمَا رَزَقْنَاهُمْ يُقِيمُونَ﴾ ﴿٣﴾: النفقات الواجبة؛ كالزكوات والكفارات والنفقة على الزوجات والأقارب وما ملكت أيماهم، والمستحبة؛ كالصدقة في جميع طرق الخير.

﴿٤﴾ ﴿أُولَئِكَ﴾: الذين اتصفوا بتلك الصفات، ﴿هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾: لأنهم جمعوا بين الإسلام والإيمان، بين الأعمال الباطنة والأعمال الظاهرة، بين العلم والعمل، بين أداء حقوق الله وحقوق عباده.

وقدم تعالى أعمال القلوب لأنها أصل لأعمال الجوارح وأفضل منها. وفيها دليل على أن الإيمان يزيد وينقص؛ فيزيد بفعل الطاعة وينقص بضدها. وأنه ينبغي للعبد أن يتعاهد إيمانه ويُنميه. وأن أولى ما يحصل به ذلك تدبر كتاب الله تعالى والتأمل لمعانيه. ثم ذكر ثواب المؤمنين حقاً، فقال: ﴿لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾؛ أي: عالية بحسب علو أعمالهم. ﴿وَمَغْفِرَةٌ﴾: لذنوبهم، ﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ ﴿٤﴾: وهو ما أعد الله لهم في دار كرامته مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر. ودل هذا على أن من لم يصل إلى درجتهم في الإيمان وإن دخل الجنة؛ فلن ينال ما نالوا من كرامة الله التامة.

﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَرِهُوا﴾ ﴿٥﴾ ﴿يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا بَيَّنَّ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ﴾ ﴿٦﴾ ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَوِّقَ أَلْحَقَّ بِكَلِمَتِهِ﴾ ﴿٧﴾ ﴿وَيَقْطَعَ دَائِرَ الْكَافِرِينَ﴾ ﴿٧﴾ ﴿لِيُخَوِّقَ أَلْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ﴾ ﴿٨﴾.

قدم تعالى أمام هذه الغزوة الكبرى المباركة الصفات

﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَبَ لَكُمْ أَنَّى مُمِدُّكُمْ يَأْتِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرَوِّفِينَ ٩﴾ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ١٠﴾ إِذْ يَغْشِيكُمُ النَّعَاسُ أَمَنَهُ مِنْهُ وَيُنْزِلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ ١١﴾ إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَأَصْرَبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَأَصْرَبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ١٢﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ١٣﴾ ذَلِكَكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ ١٤﴾

﴿٩﴾ أي: اذكروا نعمة الله عليكم لما قارب التقاؤكم بعدوكم؛ استغنم بربكم وطلبت منه أن يعينكم وينصركم، ﴿فَاسْتَجَبَ لَكُمْ﴾: وأعانكم بعدة أمور؛ منها: أن الله أمدكم ﴿يَأْتِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرَوِّفِينَ﴾ ﴿٩﴾؛ أي: يردف بعضهم بعضاً.

﴿١١﴾ ﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ﴾؛ أي: إنزال الملائكة ﴿إِلَّا بُشْرَى﴾؛ أي: لتستبشروا بذلك نفوسكم، ﴿وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ﴾: وإلا؛ فالنصر بيد الله، ليس بكثرة عدد ولا عدد. ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ﴾: لا يغالبه مغالب، بل هو القهار الذي يخذل من بلغوا من الكثرة وقوة العدد والآلات ما بلغوا، ﴿حَكِيمٌ﴾: حيث قدر الأمور بأسبابها ووضع الأشياء مواضعها.

﴿١١﴾ ومن نصره واستجابته لدعائكم أن أنزل عليكم نعاساً ﴿يَغْشِيكُمْ﴾؛ أي: فيذهب ما في قلوبكم من الخوف والوجل، ويكون ﴿أَمَنَةً﴾: لكم وعلامة على النصر والطمأنينة. ومن ذلك أنه أنزل عليكم من السماء مطراً ليطهركم به من الحدث والخبث، وليطهركم به من وساوس الشيطان ورجزه، ﴿وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ﴾؛ أي: يثبتها؛ فإن ثبات القلب أصل ثبات البدن، ﴿وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ﴾: فإن الأرض كانت سهلة دهسة، فلما نزل عليها المطر؛ تلبدت، وثبتت به الأقدام.

﴿١٢﴾ ومن ذلك أن الله أوحى إلى الملائكة: ﴿أَنِّي مَعَكُمْ﴾: بالعون والنصر والتأييد، ﴿فَثَبِّتُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾؛ أي: ألقوا في قلوبهم والأهموهم الجراءة على عدوهم ورجبهم في الجهاد وفضله. ﴿سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ﴾: الذي هو أعظم جند لكم عليهم؛ فإن الله إذا ثبت المؤمنين وألقى الرعب في قلوب الكافرين؛ لم يقدر الكافرون على الثبات لهم، ومنحهم الله أكتافهم، ﴿فَأَصْرَبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ﴾؛ أي: على الرقاب، ﴿وَأَصْرَبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ ﴿١٢﴾؛ أي: مفصل. وهذا خطاب: إما للملائكة الذين أوحى الله إليهم أن يثبتوا الذين آمنوا فيكون في ذلك دليل أنهم باشروا القتال يوم بدر، أو للمؤمنين يشجعهم الله ويعلمهم كيف يقتلون المشركين وأنهم لا يرحمونهم.

﴿١٣﴾ ذلك لأنهم شاقوا الله ورسوله؛ أي: حاربوهما وبارزوهما بالعداوة، ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾: ومن عقابه تسليط أوليائه على أعدائه وتقتيلهم.

﴿١٤﴾ ﴿ذَلِكَكُمْ﴾: العذاب المذكور، ﴿فَذُوقُوهُ﴾: أيها المشاقون لله ورسوله عذاباً معجلاً. ﴿وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ

سورة الأنفال

﴿١٧٨﴾

النَّارِ ﴿١٥﴾

وفي هذه القصة من آيات الله العظيمة ما يدل على أن ما جاء به محمد ﷺ رسول الله حقًا:

منها: أن الله وعدهم وعدًا فأنجزهموه.

ومنها: ما قال الله تعالى: ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ آتَيْنَا فِئَةً تَقْنُنُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ لِيُقَاتِلَهُمْ رَأَى أَلْفَيْنِ﴾ [آل عمران: ١٣] الآية.

ومنها: إجابة دعوة الله للمؤمنين لما استغاثوه بما ذكره من الأسباب.

وفيها الاعتناء العظيم بحال عباده المؤمنين وتقييض الأسباب التي بها ثبت إيمانهم، وثبتت أقدامهم، وزال عنهم المكروه والوساوس الشيطانية.

ومنها: أن من لطف الله بعبده أن يسهل عليه طاعته ويسرها بأسباب داخلية وخارجية.

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَيْسَ لَهُمُ الْقُوَّةُ فَكَفَرُوا زُحْفًا فَلَا تُحِلُّ لَهُمُ الْأَذْبَارُ ﴿١٥﴾ وَمَنْ يُؤْلِمِهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرُهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَى فِئَةٍ فَقَدْ بَكَءٌ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَمَا وَدَّ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٦﴾﴾.

﴿١٥﴾ يأمر تعالى عباده المؤمنين بالشجاعة الإيمانية والقوة في أمره والسعي في جلب الأسباب المقوية للقلوب والأبدان، ونهاهم عن الفرار إذا التقى الزحفان، فقال: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَيْسَ لَهُمُ الْقُوَّةُ زُحْفًا﴾؛ أي: في صف القتال وتزاحف الرجال واقتراب بعضهم من بعض، ﴿فَلَا تُحِلُّ لَهُمُ الْأَذْبَارُ﴾ ﴿١٥﴾: بل اثبتوا لقتالهم واصبروا على جلاדם؛ فإن في ذلك نصرة لدين الله وقوة لقلوب المؤمنين وإرهابًا للكافرين.

﴿١٦﴾ وَمَنْ يُؤْلِمِهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرُهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَى فِئَةٍ فَقَدْ بَكَءٌ﴾؛ أي: رجع ﴿بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَمَا وَدَّ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ ﴿١٦﴾.

وهذا يدل على أن الفرار من الزحف من غير عذر من أكبر الكبائر؛ كما وردت بذلك الأحاديث الصحيحة، وكما نص هنا على وعيده بهذا الوعيد الشديد. ومفهوم الآية أن المتحرف للقتال - وهو الذي ينحرف من جهة إلى أخرى

ليكون أمكن له في القتال وأنكى لعدوه - فإنه لا بأس بذلك؛ لأنه لم يول دبره فأرأ، وإنما ولى دبره ليستعلي على عدوه أو يأتيه من محل يصيب فيه غرته أو ليخدعه بذلك أو غير ذلك من مقاصد المحاربين. وأن المتحيز إلى فئة تمنعه وتعينه على قتال الكفار؛ فإن ذلك جائز؛ فإن كانت الفئة في العسكر؛ فالأمر في هذا واضح، وإن كانت الفئة في غير محل المعركة؛ كانهزام المسلمين بين يدي الكافرين والتجائهم إلى بلد من بلدان المسلمين أو إلى عسكر آخر من عسكر المسلمين؛ فقد ورد من آثار الصحابة ما يدل على أن هذا جائز، ولعل هذا يقيد بما إذا ظن المسلمون أن الانهزام أحمد عاقبة وأبقى عليهم، أما إذا ظنوا غلبتهم للكفار في ثباتهم لقتالهم؛ فيبعد في هذه الحال أن تكون من الأحوال المرخص فيها؛ لأنه على هذا لا يتصور الفرار المنهي عنه. وهذه الآية مطلقة، وسيأتي في آخر السورة تقييدها بالعدد.

﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءٌ حَسَنًا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٧﴾﴾ ذَلِكَكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ مُوْهِنُ كَيْدِ الْكَافِرِينَ ﴿١٨﴾﴾ إِنْ تَسْتَفِئِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمْ الْفَتْحُ وَإِنْ تَنْهَوْا فَهُوَ حَيْرٌ لَّكُمْ وَإِنْ تَعُودُوا نَعُدْ وَلَنْ تُغْنِيَ عَنْكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٩﴾﴾.

﴿١٧﴾ يقول تعالى لما انهزم المشركون يوم بدر وقتلهم المسلمون: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ﴾؛ بحولكم وقوتكم، ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ﴾؛ حيث أعانكم على ذلك بما تقدم ذكره، ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ﴾؛ وذلك أن النبي ﷺ وقت القتال دخل العريش، وجعل يدعو الله، ويناشده في نصرته، ثم خرج منه، فأخذ حفنة من تراب، فرماها في وجوه المشركين، فأوصلها الله إلى وجوههم، فما بقي منهم واحد إلا وقد أصاب وجهه وفمه وعينه منها؛ فحينئذ انكسر حدهم وفتر زندهم وبان فيهم الفشل والضعف فانهزموا. يقول تعالى لنبيه: لست بقوتك حين رميت التراب أوصلته إلى أعينهم، وإنما أوصلناه إليهم بقوتنا واقتدارنا. ﴿وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءٌ حَسَنًا﴾؛ أي: إن الله تعالى قادر على انتصار المؤمنين من الكافرين من دون مباشرة قتال، ولكن الله أراد أن يمتحن المؤمنين ويوصلهم بالجهد إلى أعلى الدرجات وأرفع المقامات ويعطيهم أجرًا حسنًا وثوابًا

جزيلًا. ﴿١٧﴾ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٧﴾: يسمع تعالى ما أسر به العبد وما أعلن، ويعلم ما في قلبه من النيات الصالحة وضدها، فيقدر على العباد أقدارًا موافقة لعلمه وحكمته ومصلحة عبادته، ويجزي كلا بحسب نيته وعمله.

﴿١٨﴾ ذَلِكُمْ: النصر من الله لكم، ﴿وَأَنَّ اللَّهَ مُهِينٌ كَبِيدُ الْكَافِرِينَ﴾ ﴿١٨﴾: أي: مضعف كل مكر وكيد يكيّدون به الإسلام وأهله، وجاعل مكرهم محققًا بهم.

﴿١٩﴾ إِنْ تَسْتَفْخِحُوا: أيها المشركون؛ أي: تطلبون من الله أن يوقع بأسه وعذابه على المعتدين الظالمين، ﴿فَقَدْ جَاءَكُمْ الْفَتْحُ﴾: حين أوقع الله بكم من عقابه ما كان نكالًا لكم وعبرة للمتقين. ﴿وَأِنْ تَنْتَهُوا﴾: عن الاستفتاح ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾: لأنه ربما أمهلكم ولم تعجل لكم النعمة. ﴿وَأِنْ تَعُدُّوا﴾: إلى الاستفتاح وقاتل حزب الله المؤمنين ﴿نَعُدُّ﴾: في نصرهم عليكم، ﴿وَلَنْ تُغْنِيَ عَنْكُمْ فِئَتُكُمْ﴾: أي: أعوانكم وأنصاركم الذين تحاربون وتقاتلون معتمدين عليهم شيئًا. ﴿وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿١٩﴾: ومن كان الله معه؛ فهو المنصور، وإن كان ضعيفًا قليلًا عدده.

وهذه المعية التي أخبر الله أنه يؤيد بها المؤمنين تكون بحسب ما قاموا به من أعمال الإيمان؛ فإذا أدبيل العدو على المؤمنين في بعض الأوقات؛ فليس ذلك إلا تفريطًا من المؤمنين وعدم قيام بواجب الإيمان ومقتضاه، وإلا؛ فلو قاموا بما أمر الله به من كل وجه؛ لما انهزم لهم راية انهزامًا مستقرًا ولا أدبيل عليهم عدوهم أبدًا.

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ﴾ ﴿٢٠﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٢٠﴾.

﴿٢١﴾ لما أخبر تعالى أنه مع المؤمنين؛ أمرهم أن يقوموا بمقتضى الإيمان الذي يدركون معيته، فقال: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾: بامثال أمرهما واجتناب نهيهما. ﴿وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ﴾: أي: عن هذا الأمر الذي هو طاعة الله وطاعة رسوله، ﴿وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ﴾: ما يتلى عليكم من كتاب الله وأوامره ووصاياه ونصائحه؛ فتوليكم في هذه الحال من أقبح الأحوال.

﴿٢٢﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٢٢﴾: أي: لا تكتفوا بمجرد الدعوى الخالية التي لا حقيقة لها؛ فإنها حالة لا يرضاها الله ولا رسوله، فليس الإيمان بالتمني والتحلي، ولكنه ما وفر في القلوب، وصدقته الأعمال.

﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الضُّمُّ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ ﴿٢٣﴾ وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾.

﴿٢٤﴾ يقول تعالى: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ﴾: من لم تفد فيهم الآيات والنذر، وهم ﴿الضُّمُّ﴾: عن استماع الحق، ﴿الْبُكْمُ﴾: عن النطق به، ﴿الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ ﴿٢٤﴾: ما ينفعهم ويؤثرونه على ما يضرهم؛ فهو لاء شر عند الله من شرار الدواب؛ لأن الله أعطاهم أسماعًا وأبصارًا وأفئدة ليستعملوها في طاعة الله، فاستعملوها في معاصيه، وعدموا بذلك الخير

سورة الأنفال
فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَنِكَرَ اللَّهُ فَلَئِمَهُ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَنِكَرَ اللَّهُ رَجَىٰ وَيُغْنِي أَلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءٌ حَسَنًا
إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٧﴾ ذَلِكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ مُهِينٌ كَبِيدُ الْكَافِرِينَ ﴿١٨﴾ إِنْ تَسْتَفْخِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمْ الْفَتْحُ وَإِنْ تَنْتَهُوا فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِنْ تَعُدُّوا نَعْدُوا وَلَنْ تُغْنِيَ عَنْكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٩﴾ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٢٠﴾ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الضُّمُّ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَٰهٌ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَأَتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٢٥﴾

الْحَمْدُ لِلَّهِ

سُورَةُ الْأَنْفَالِ

وَأَذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ
 أَنْ يَخْطَفَكُمْ النَّاسُ فَتَأْوِنَكُمْ وَإِيْدَكُمْ يَبْصِرُهُ وَرَزَقَكُمْ
 مِنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٢٣﴾ يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا
 لَا تَحُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَحُونُوا أَمْنِيَّتَكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ
 ﴿٢٤﴾ وَعَلِمُوا أَنَّ أَمْوَالَكُمْ وَأَوْلَادَكُمْ فَتَنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ
 عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٥﴾ يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنْ تَقَنَّوْا
 اللَّهُ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ
 لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٢٦﴾ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ
 كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ
 اللَّهُ وَاللَّهُ خَبِيرٌ الْمَكْرِينَ ﴿٢٧﴾ وَإِذْ أَنْشَأَ عَلَيْهِمُ آيَاتِنَا
 قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلَّا
 أَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٢٨﴾ وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَتْ هَذِهِ
 هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَابًا مِنَ السَّمَاءِ
 أَوْ آفِقْنَا بِعَذَابِ أَلِيمٍ ﴿٢٩﴾ وَمَا كَانَتْ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ
 وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَتْ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٠﴾

١٨٠

الكثير؛ فإنهم كانوا بصدد أن يكونوا من خيار البرية، فأبوا هذا الطريق، واختاروا لأنفسهم أن يكونوا من شر البرية. والسمع الذي نفاه الله عنهم سمع المعنى المؤثر في القلب، وأما سمع الحجة؛ فقد قامت حجة الله تعالى عليهم بما سمعوه من آياته.

﴿٢٣﴾ وإنما لم يسمعهم السماع النافع؛ لأنه لم يعلم فيهم خيراً يصلحون به لسماع آياته. ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ﴾: على الفرض والتقدير، ﴿لَتَوَلَّوْا﴾: عن الطاعة ﴿وَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ ﴿٢٣﴾: لا التفات لهم إلى الحق بوجه من الوجوه. وهذا دليل على أن الله تعالى لا يمنع الإيمان والخير إلا لمن لا خير فيه الذي لا يزكو لديه ولا يثمر عنده، وله الحمد تعالى والحكمة في هذا.

﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَهِهُ تُخْشَرُونَ﴾ ﴿٢٤﴾ وَأَتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ ﴿٢٥﴾.

﴿٢٤﴾ يأمر تعالى عباده المؤمنين بما يقتضيه الإيمان منهم، وهو الاستجابة لله وللرسول؛ أي: الانقياد لما أمرا به والمبادرة إلى ذلك والدعوة إليه، والاجتناب لما نهاها عنه والانكفاف عنه والنهي عنه. وقوله: ﴿إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾: وصف ملازم لكل ما دعا الله ورسوله إليه وبيان لفائدته وحكمته؛ فإن حياة القلب والروح بعبودية الله تعالى ولزوم طاعته وطاعة رسوله على الدوام. ثم حذر عن عدم الاستجابة لله وللرسول، فقال: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ﴾: فإياكم أن تردوا أمر الله أول ما يأتيكم، فيحال بينكم وبينه إذا أردتموه بعد ذلك، وتختلف قلوبكم؛ فإن الله يحول بين المرء وقلبه؛ يقلب القلوب حيث شاء، ويصرفها أنى شاء، فليكثر العبد من قول: يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك، يا مصرف القلوب اصرف قلبي إلى طاعتك. ﴿وَأَنَّهُ إِلَهِهُ تُخْشَرُونَ﴾ ﴿٢٤﴾؛ أي: تجمعون ليوم لا ريب فيه، فيجازي المحسن بإحسانه والمسيء بعصيانه.

﴿٢٥﴾ ﴿وَأَتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً﴾: بل تصيب فاعل الظلم وغيره، وذلك إذا ظهر الظلم فلم يغير؛ فإن عقوبته تعم الفاعل وغيره. وتقوى هذه الفتنة بالنهي عن المنكر وقمع أهل الشر والفساد وألا يمكنوا من المعاصي والظلم مهما أمكن. ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ ﴿٢٥﴾: لمن تعرض لمساخطه وجانب رضاه.

﴿وَأَذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَخْطَفَكُمْ النَّاسُ فَتَأْوِنَكُمْ وَإِيْدَكُمْ يَبْصِرُهُ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ ﴿٢٣﴾.

﴿٢٣﴾ يقول تعالى ممتناً على عباده في نصرهم بعد الذلة وتكثيرهم بعد القلة وإغنائهم بعد العيلة: ﴿وَأَذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ﴾؛ أي: مهجورون تحت حكم غيركم، ﴿تَخَافُونَ أَنْ يَخْطَفَكُمْ النَّاسُ﴾؛ أي: يأخذونكم، ﴿فَتَأْوِنَكُمْ وَإِيْدَكُمْ يَبْصِرُهُ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾: فجعل لكم بلداً تأوون إليه، وانتصر من أعدائكم على أيديكم، وغنمتم من أموالهم ما كنتم به أغنياء، ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ ﴿٢٣﴾: الله على منته العظيمة وإحسانه التام بأن تعبدوه، ولا تشركوا به شيئاً.

﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرَ الْمَكْرِينَ ﴿٢٦﴾﴾

﴿٢٦﴾ أي: واذكر أيها الرسول ما من الله به عليك إذ ﴿يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾: حين تشاور المشركون في دار الندوة فيما يصنعون بالنبي ﷺ: إما أن يثبتوه عندهم بالحبس ويؤثبوه، وإما أن يقتلوه فيستريحوا - بزعمهم - من شره، وإما أن يخرجوه ويحلوه من ديارهم؛ فكل أبدي من هذه الآراء رأياً رآه، فاتفق رأيهم على رأي رآه شريهر أبو جهل لعنه الله، وهو أن يأخذوا من كل قبيلة من قبائل قريش فتى، ويعطوه سيفاً صارماً، ويقتله الجميع قتلة رجل واحد؛ ليتفرق دمه في القبائل، فيرضى بنو هاشم ثم بديته، فلا يقدر على مقاومة جميع قريش، فترصدوا للنبي ﷺ في الليل ليقعوا به إذا قام من فراشه، فجاءه الوحي من السماء، وخرج عليهم، فذّر على رؤوسهم التراب وخرج، وأعمى الله أبصارهم عنه، حتى إذا استبطئوه؛ جاءهم آت وقال: خيكم الله؛ قد خرج محمد وذّر على رؤوسكم التراب، فنفض كل منهم التراب عن رأسه، ومنع الله رسوله منهم، وأذن له في الهجرة إلى المدينة، فهاجر إليها، وأيده الله بأصحابه المهاجرين والأنصار، ولم يزل أمره يعلو حتى دخل مكة عنوة وقهر أهلها فأذعنوا له وصاروا تحت حكمه بعد أن خرج مستخفياً منهم خائفاً على نفسه؛ فسيحان اللطيف بعبده الذي لا يغالبه مغالب. وقوله:

﴿وَإِذَا ثُنِيَ عَلَيْهِمْ ءَايَتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِن كَانَتْ هَذِهِ ءَايَاتِنَا فَذَرْهُمْ أَفَطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِكْمَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوْ أَنزَلْنَاهَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٧﴾ وَمَا كَانَتْ ءَالَهُمْ لِيُعَذِّبَهُمُ وَأَنَّهُ فِيهِمْ وَمَا كَانَتْ ءَالَهُمْ مُّعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٢٨﴾ وَمَا لَهُمْ ءَلَا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ ءِ إِن أَوْلِيَائِهِ ءِ إِلَّا الْمُتَفَوِّنَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٩﴾﴾

﴿٢٧﴾ يقول تعالى في بيان عناد المكذبين للرسول ﷺ: ﴿وَإِذَا ثُنِيَ عَلَيْهِمْ ءَايَتُنَا﴾: الدالة على صدق ما جاء به الرسول، ﴿قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِن

﴿يَأْتِيَهُمُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَحْزَنُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَحْزَنُوا أَمَنَتَكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٧﴾﴾ وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾﴾

﴿٢٧﴾ يأمر تعالى عباده المؤمنين أن يؤدوا ما ائتمنهم الله عليه من أوامره ونواهيه؛ فإن الأمانة قد عرضها الله على السماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوماً جهولاً؛ فمن أدى الأمانة؛ استحق من الله الثواب الجزيل، ومن لم يؤدها، بل خانها؛ استحق العقاب الويل، وصار خائناً لله وللرسول ولأمانته، متقصاً لنفسه بكونه اتصفت نفسه بأخس الصفات وأقبح الشيات، وهي الخيانة، مفوتاً لها أكمل الصفات وأتمها، وهي الأمانة.

﴿٢٨﴾ ولما كان العبد ممتحناً بأمواله وأولاده، فربما حمله محبة ذلك على تقديم هوى نفسه على أداء أمانته؛ أخبر الله تعالى أن الأموال والأولاد فتنة يبتلي الله بهما عباده، وأنها عارية ستؤدى لمن أعطها وترد لمن استودعها. ﴿وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾﴾: فإن كان لكم عقل ورأي؛ فأثروا فضله العظيم على لذة صغيرة فانية مضمحلة؛ فالعقل يوازن بين الأشياء، ويؤثر أولاهها بالإيثار وأحقها بالتقديم.

﴿يَأْتِيَهُمُ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تَقَفُوا اللَّهَ لَيَجْعَلَ لَكُمْ فُرْقَانًا وَكُفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرَ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾﴾

﴿٢٩﴾ امثال العبد لتقوى ربه عنوان السعادة وعلامة الفلاح، وقد رتب الله على التقوى من خير الدنيا والآخرة شيئاً كثيراً، فذكر هنا أن من اتقى الله؛ حصل له أربعة أشياء، كل واحد منها خير من الدنيا وما فيها: الأول: الفرقان، وهو العلم والهدى الذي يفرق به صاحبه بين الهدى والضلال والحق والباطل والحلال والحرام وأهل السعادة من أهل الشقاوة. الثاني والثالث: تكفير السيئات ومغفرة الذنوب، وكل واحد منهما داخل في الآخر عند الإطلاق، وعند الاجتماع يفسر تكفير السيئات بالذنوب الصغائر، ومغفرة الذنوب بتكفير الكبائر. الرابع: الأجر العظيم والثواب الجزيل لمن اتقاه وأثر رضاه على هوى نفسه. ﴿وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾﴾

سورة الأنفال

المزلة القاصعة

وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ ۚ إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلَّا الْمُنَفِقُونَ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٢﴾ وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصَدِيَةً فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٣﴾ إِنْ الَّذِينَ كَفَرُوا يَتُفَقِّحُونَ أَتَوَلَّوْهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُفَقِّهُنَّ اللَّهُ ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴿٣٤﴾ لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضُهُ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمُهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلُهُ فِي جَهَنَّمَ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٣٥﴾ قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ وَإِنْ يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنتُ الْأَوَّلِينَ ﴿٣٦﴾ وَقَسِّمُوا لَهُمْ حَقَّ لَا تَكُونُوا فِتْنَةً وَيَكُفُّوا عَنِ اللَّهِ كَلَّهُ ۚ اللَّهُ فَإِنْ أَنْتَهُوا فَإِنَّ اللَّهَ يَمَّا يَعْمَلُونَ بِصِيرٍ ﴿٣٧﴾ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَانَكُمْ يَغْفِرُ الْمُؤْمِنِينَ وَيُغْفِرُ النَّصِيرَ ﴿٣٨﴾

١٨١

هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٣١﴾: وهذا من عنادهم وظلمهم؛ وإلا؛ فقد تحداهم الله أن يأتوا بسورة من مثله، ويدعوا من استطاعوا من دون الله، فلم يقدرُوا على ذلك، وتبين عجزهم؛ فهذا القول الصادر من هذا القائل مجرد دعوى، كذبه الواقع، وقد علم أنه ﷺ أمي، لا يقرأ، ولا يكتب، ولا رحل ليدرس من أخبار الأولين، فأتى بهذا الكتاب الجليل الذي ﴿ لَا يَأْتِيهِ الْبُطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٣٢﴾ ﴾ [فصلت: ٤٢].

﴿ وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتَ هَذَا ﴾: الذي يدعو إليه محمد، ﴿ هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَابًا مِنَ السَّمَاءِ أَوْ آتِنَا بِعَذَابٍ آلِيمٍ ﴾ ﴿٣٣﴾: قالوه على وجه الجزم منهم بباطلهم، والجهل بما ينبغي من الخطاب؛ فلو أنهم إذا قاموا على باطلهم من الشبه والتلميحات ما أوجب لهم أن يكونوا على بصيرة ويقين منه قالوا لمن ناظرهم وادعى أن الحق معه: إن كان هذا هو الحق من عندك؛ فاهدنا له؛ لكان أولى لهم وأستر لظلمهم؛ فمذ قالوا: ﴿ اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ ﴾ الآية؛ علم بمجرد قولهم أنهم السفهاء الأغبياء الجهلة الظالمون.

﴿ فلو عاجلهم الله بالعقاب؛ لما أبقى منهم باقية، ولكنه تعالى دفع عنهم العذاب بسبب وجود الرسول بين أظهرهم، فقال: ﴿ وَمَا كُنْتَ اللَّهُ يُعَذِّبُهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ ﴾: فوجوده ﷺ بين أظهرهم أمنة لهم من العذاب، وكانوا مع قولهم هذه المقالة التي يظهرونها على رؤوس الأشهاد يدرون بقبحها، فكانوا يخافون من وقوعها فيهم، فيستغفرون الله تعالى؛ فلهذا قال: ﴿ وَمَا كُنْتَ اللَّهُ يُعَذِّبُهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ ﴿٣٤﴾: فهذا مانع يمنع من وقوع العذاب بهم بعدما انعقدت أسبابه.

﴿ ثُمَّ قَالَ ﴾: ﴿ وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ ﴾؛ أي: أي شيء يمنعه من عذاب الله وقد فعلوا ما يوجب ذلك؟ وهو صد الناس عن المسجد الحرام، خصوصاً صدهم النبي ﷺ وأصحابه الذين هم أولى به منهم، ولهذا قال: ﴿ وَمَا كَانُوا ﴾؛ أي: المشركون، ﴿ أَوْلِيَاءَهُ ﴾: يُحْتَمَلُ أَنْ الضمير يعود إلى الله؛ أي: أولياء الله، ويحتمل أن يعود إلى المسجد الحرام؛ أي: وما كانوا أولى به من غيرهم. ﴿ إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلَّا الْمُنَفِقُونَ ﴾: وهم الذين آمنوا بالله ورسوله وأفردوا الله بالتوحيد والعبادة وأخلصوا له الدين. ﴿ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ ﴿٣٥﴾: فلذلك ادعوا لأنفسهم أمراً غيرهم أولى به.

﴿ وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصَدِيَةً فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾ ﴿٣٦﴾.

﴿٣٦﴾ يعني: أن الله تعالى إنما جعل بيته الحرام ليقام فيه دينه وتُخلص له فيه العبادة؛ فالْمُؤْمِنُونَ هم الذين قاموا بهذا الأمر، وأما هؤلاء المشركون الذين يصدون عنه؛ فما كان صلاتهم فيه، التي هي أكبر أنواع العبادات ﴿ إِلَّا مُكَاءً وَتَصَدِيَةً ﴾؛ أي: صفيراً وتصفيقاً؛ فعل الجهلة الأغبياء، الذين ليس في قلوبهم تعظيم لربهم ولا معرفة بحقوقه ولا احترام لأفضل البقاع وأشرفها؛ فإذا كانت هذه صلاتهم فيه؛ فكيف ببقية العبادات؟! فبأي شيء كانوا أولى بهذا البيت من المؤمنين، الذين هم في صلاتهم خاشعون، والذين هم عن اللغو معرضون؟!... إلى آخر ما وصفهم الله به من الصفات الحميدة والأفعال السديدة لا جرم أورثهم الله بيته الحرام ومكنهم منه، وقال لهم بعدما مكن لهم فيه: ﴿ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَاهِهِمْ هَكَذَا ﴾ [التوبة: ٢٨]، وقال هنا: ﴿ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾ ﴿٣٧﴾.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُخْشَرُونَ ﴿٣٦﴾ لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلُهُ فِي جَهَنَّمَ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٣٧﴾﴾.

﴿٣٦﴾ يقول تعالى مبيناً لعداوة المشركين وكيدهم ومكرهم ومبارزتهم لله ولرسوله وسعيهم في إطفاء نوره وإخماد كلمته، وأن وبال مكرهم سيعود عليهم، ولا يحيق المكر السيئ إلا بأهله، فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾؛ أي: ليطلوا الحق، وينصروا الباطل، ويبتل توحيد الرحمن، ويقوم دين عبادة الأوثان.

﴿فَسَيُنفِقُونَهَا﴾؛ أي: فسيصدرون هذه النفقة، وتخف عليهم، لتمسكهم بالباطل، وشدة بغضهم للحق، ولكنها ستكون ﴿عَلَيْهِمْ حَسْرَةً﴾؛ أي: ندامة وخزياً وذللاً، ﴿ثُمَّ يُغْلَبُونَ﴾: فتذهب أموالهم وما أملوا، ويعذبون في الآخرة أشد العذاب، ولهذا قال: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُخْشَرُونَ ﴿٣٦﴾﴾؛ أي: يجمعون إليها ليدوقوا عذابها، وذلك لأنها دار الخبث والخبثاء.

﴿٣٧﴾ والله تعالى يريد أن يميز الخبيث من الطيب، ويجعل كل واحدة على حدة وفي دار تخصصه، فيجعل الخبيث بعضه على بعض من الأعمال والأموال والأشخاص، ﴿فَيَرْكُمَهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلُهُ فِي جَهَنَّمَ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٣٧﴾﴾: الذين خسروا أنفسهم وأهلهم يوم القيامة، ألا ذلك هو الخسران المبين.

﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ وَإِنْ يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنتُ الْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ وَقَبِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّهِ فَإِنْ أُنْتَهُوا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣٩﴾ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَانَكُمْ يَغْمُ الْمَوَلَىٰ وَيَغْمُ النَّصِيرُ ﴿٤٠﴾﴾.

﴿٣٨﴾ هذا من لطفه تعالى بعباده؛ لا يمنعه كفر العباد ولا استمرارهم في العناد من أن يدعوهم إلى طريق الرشاد والهدى وينهاهم عما يهلكهم من أسباب الغي والردى،

فقال: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا﴾: عن كفرهم، وذلك بالإسلام لله وحده لا شريك له، ﴿يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ﴾: منهم من الجرائم. ﴿وَإِنْ يَعُودُوا﴾: إلى كفرهم وعنادهم، ﴿فَقَدْ مَضَتْ سُنتُ الْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾﴾: بإهلاك الأمم المكذبة؛ فليستظروا ما حل بالمعاندين؛ فسوف يأتيهم أبناء ما كانوا به يستهزئون. فهذا خطابه للمكذبين.

﴿٣٩﴾ وأما خطابه للمؤمنين عندما أمرهم بمعاملة الكافرين؛ فقال: ﴿وَقَبِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾؛ أي: شرك وصد عن سبيل الله، ويدعوا لأحكام الإسلام. ﴿وَيَكُونَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّهِ﴾: فهذا المقصود من القتال والجهاد لأعداء الدين: أن يدفع شرهم عن الدين، وأن يذب عن دين الله الذي خلق الخلق له، حتى يكون هو العالي على سائر الأديان. ﴿فَإِنْ أُنْتَهُوا﴾: عما هم عليه من الظلم، ﴿فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾: لا تخفى عليه منهم خافية.

﴿٤٠﴾ ﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا﴾: عن الطاعة، وأوضعوا في الإضاعة، ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَانَكُمْ يَغْمُ الْمَوَلَى﴾: الذي يتولى عباده المؤمنين، ويوصل إليهم مصالحهم ويسر لهم منافعهم الدينية والدنيوية. ﴿وَيَغْمُ النَّصِيرُ ﴿٤٠﴾﴾: الذي ينصرهم فيدفع عنهم كيد الفجار وتكالب الأشرار، ومن كان الله مولاه وناصره؛ فلا خوف عليه، ومن كان الله عليه؛ فلا عز له ولا قائمة له.

﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِنْ كُنْتُمْ ءَامِنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ التَّلَاقِ أَلْجَمْعَانِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤١﴾ إِذْ أَنتُمْ بِالْعُدُوِّ الدُّنْيَا وَهُمْ بِالْعُدُوِّ الْأَقْصَىٰ وَالرَّكْبُ أَهْلٌ مِنْكُمْ وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ لِأَخْتَفْتُمْ فِي الْمِعْعِدِ وَلَكِنَّ لِقَاضِيَ اللَّهِ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٤٢﴾﴾.

﴿٤١﴾ يقول تعالى: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ﴾؛ أي: أخذتم من مال الكفار قهراً بحق قليلاً كان أو كثيراً، ﴿فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ﴾؛ أي: وباقيه لكم أيها الغانمون؛ لأنه أضاف الغنيمة إليهم، وأخرج منها خمسها، فدل على أن الباقي لهم، يقسم على ما قسمه رسول الله ﷺ: للراجل سهم، وللفراس سهمان لفرسه وسهم له، وأما هذا الخمس؛

سورة الأنفال

المزمنة المكية

﴿٤٢﴾ وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِن كُنتُمْ أَمْنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْبَقَىٰ الْجَمْعَانِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٣﴾ إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدُوِّ الدُّنْيَا وَهُمْ بِالْعُدُوِّ الْآخِرَةِ وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ وَلَكِنَّ لِيَقْضَىٰ اللَّهُ أَمْرًا كَانَتْ مَفْعُولًا لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٤٤﴾ إِذْ يُرِيكُهُمُ اللَّهُ فِي مَنَايِكَ قَلِيلًا وَلَوْ أَرَدْنَاكَ أَكْثَرًا لَفَسَلْتُهِمْ وَلَنِتَزَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَلَكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٤٥﴾ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضَىٰ اللَّهُ أَمْرًا كَانَتْ مَفْعُولًا وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿٤٦﴾ يَتَأْتِيهَا الْبُيُوتُ أَصْوَابًا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَأَثَبُوا وَأَذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٧﴾

١٨٢

فيقسم خمسة أسهم: سهم لله ولرسوله يصرف في مصالح المسلمين العامة من غير تعيين لمصلحة؛ لأن الله جعله له ولرسوله، والله ورسوله غنيان عنه، فعلم أنه لعباد الله؛ فإذا لم يعين الله له مصرفاً؛ دل على أن مصرفه للمصالح العامة. والخمس الثاني: لذی القربى، وهم قرابة النبي ﷺ من بني هاشم وبني المطلب، وأضافه الله إلى القرابة دليلاً على أن العلة فيه مجرد القرابة، فيستوي فيه غنيهم وفقيرهم ذكرهم وأنثاهم. والخمس الثالث: لليتامى، وهم الذين فقدت آباؤهم وهم صغار، جعل الله لهم خمس الخمس رحمة بهم، حيث كانوا عاجزين عن القيام بمصالحهم، وقد فقد من يقوم بمصالحهم. والخمس الرابع: للمساكين؛ أي: المحتاجين الفقراء من صغار وكبار ذكور وإناث. والخمس الخامس: لابن السبيل، وهو الغريب المتقطع به في غير بلده، وبعض المفسرين يقول: إن خمس الغنيمة لا يخرج عن هذه الأصناف، ولا يلزم أن يكونوا فيه على السواء، بل ذلك تبع للمصلحة، وهذا هو الأولى.

وجعل الله أداء الخمس على وجهه شرطاً للإيمان، فقال: ﴿إِنْ كُنْتُمْ أَمْنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ﴾: وهو يوم بدر، الذي فرق الله به بين الحق والباطل، وأظهر الحق وأبطل الباطل. ﴿يَوْمَ الْبَقَىٰ الْجَمْعَانِ﴾: جمع المسلمين وجمع الكافرين؛ أي: إن كان إيمانكم بالله وبالحق الذي أنزله الله على رسوله يوم الفرقان الذي حصل فيه من الآيات والبراهين ما دل على أن ما جاء به هو الحق. ﴿وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾: لا يغالبه أحد إلا غلبه.

﴿٤٢﴾ إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدُوِّ الدُّنْيَا؛ أي: بعدوة الوادي القريبة من المدينة. وهم بعدوته؛ أي: جانبه البعيدة من المدينة؛ فقد جمعكم واد واحد. ﴿وَالرَّكْبُ﴾: الذي خرجتم لطلبه، وأراد الله غيره ﴿أَسْفَلَ مِنْكُمْ﴾: مما يلي ساحل البحر. ﴿وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ﴾: أنتم وإياهم على هذا الوصف وبهذه الحال، ﴿لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ﴾؛ أي: لا بد من تقدم أو تأخر أو اختيار منزل أو غير ذلك مما يعرض لكم أو لهم يصدفكم عن ميعادهم. ولكن الله جمعكم على هذه الحال، ﴿لِيَقْضَىٰ اللَّهُ أَمْرًا كَانَتْ مَفْعُولًا﴾؛ أي: مقدراً في الأزل لا بد من وقوعه. ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ﴾؛ أي: ليكون حجة وبينه للمعاند، فيختار الكفر على بصيرة وجزم ببطلانه، فلا يبقى له عذر عند الله. ﴿وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ﴾؛ أي: يزداد المؤمن بصيرة ويقيناً بما أرى الله الطائفتين من أدلة الحق وبراهينه ما هو تذكرة لأولي الأبواب. ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾: سمع لجميع الأصوات باختلاف اللغات على تفنن الحاجات، عليم بالظواهر والضمائر والسرائر والغيب والشهادة.

﴿٤٣﴾ إِذْ يُرِيكُهُمُ اللَّهُ فِي مَنَايِكَ قَلِيلًا وَلَوْ أَرَدْنَاكَ أَكْثَرًا لَفَسَلْتُهِمْ وَلَنِتَزَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَلَكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٤٤﴾ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضَىٰ اللَّهُ أَمْرًا كَانَتْ مَفْعُولًا وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿٤٥﴾

﴿٤٤﴾، ﴿٤٥﴾ وكان الله قد أرى رسوله المشركين في الرؤيا عدداً قليلاً، فيشر بذلك أصحابه، فاطمأنت قلوبهم وثبتت أفئدتهم. ﴿وَلَوْ أَرَدْنَاكَ أَكْثَرًا﴾: فأنخبت بذلك أصحابك، ﴿لَفَسَلْتُهِمْ وَلَنِتَزَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ﴾: فمنكم من يرى الإقدام على قتالهم ومنكم من لا يرى ذلك، والتنازع مما يوجب الفشل، ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ﴾: فلفظ بكم. ﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ

يَذَاتِ السُّدُورِ ﴿٤٣﴾؛ أي: بما فيها من ثبات وجزع وصدق وكذب، فعلم الله من قلوبكم ما صار سبباً للطفه وإحسانه بكم وصدق رؤيائرسوله، فأرى الله المؤمنين عدوهم قليلاً في أعينهم، ويقللهم - يا معشر المؤمنين - في أعينهم؛ فكل من الطائفتين ترى الأخرى قليلة؛ لتقدم كل منهما على الأخرى. ﴿لَيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾: من نصر المؤمنين، وخذلان الكافرين، وقتل قادتهم ورؤساء الضلال منهم، ولم يبق منهم أحد له اسم يذكر، فيتيسر بعد ذلك انقيادهم إذا دعوا إلى الإسلام، فصار أيضاً لطفًا بالباقيين، الذين من الله عليهم بالإسلام. ﴿وَرَأَى اللَّهُ تَرْجِعَ الْأُمُورَ﴾ ﴿٤٤﴾؛ أي: جميع أمور الخلائق ترجع إلى الله، فيميز الخبيث من الطيب، ويحكم في الخلائق بحكمه العادل الذي لا جور فيه ولا ظلم.

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَيْسَتْ فِيكَ فَاثْبَتُوا وَادْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ ﴿٤٥﴾ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَتَزَعَوْا فَنَفْسُلُوا وَتَذَهَبَ رِيحُكُمْ وَأَصِيرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٤٦﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطَرًا وَرِشَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ يَمَّا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٤٧﴾ وَإِذْ زَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ فَلَمَّا تَرَأَتْ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَى عَقَبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٤٨﴾ إِذْ يَكْفُلُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ غَرَّ هَوَاهُ دِيْنَهُمْ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٩﴾ وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَرَهُمْ وَذُفُّوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿٥٠﴾ ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيَكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَمٍ لِلْعَبِيدِ ﴿٥١﴾ كَذَابَ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٥٢﴾

﴿٤٥﴾ يقول تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَيْسَتْ فِيكَ فَاثْبَتُوا﴾: لقاتلها، واستعملوا الصبر وحبس النفس على هذه الطاعة الكبيرة، التي عاقبتها العز والنصر، واستعينوا على ذلك بالإكثار من ذكر الله. ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ ﴿٤٦﴾؛ أي: تدركون ما تطلبون من الانتصار على أعدائكم؛ فالصبر والثبات والإكثار من ذكر الله من أكبر الأسباب للنصر.

﴿٤٧﴾ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾: في استعمال ما أمرا به والمشي خلف ذلك في جميع الأحوال، ﴿وَلَا تَتَزَعَوْا﴾: تنازعا يوجب تشتت القلوب وتفرقا، ﴿فَنَفْسُلُوا﴾: تَجَبَّوْا، ﴿وَتَذَهَبَ رِيحُكُمْ﴾؛ أي: تنحل عزائمكم وتفرق قوتكم ويرفع ما وعدتم به من النصر على طاعة الله ورسوله، ﴿وَأَصِيرُوا﴾: نفوسكم على طاعة الله. ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ ﴿٤٨﴾: بالعون والنصر والتأييد.

﴿٤٩﴾ واخشعوا لربكم واخضعوا له، ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطَرًا وَرِشَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾؛ أي: هذا مقصدهم الذي خرجوا إليه، وهذا الذي أبرزهم من ديارهم؛ لقصد الأشر والبطر في الأرض، وليراهم الناس ويفخروا لديهم، والمقصود الأعظم أنهم خرجوا ليصدوا عن سبيل الله من أراد سلوكه. ﴿وَاللَّهُ يَمَّا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ ﴿٥٠﴾: لذلك أخبركم بمقاصدهم، وحذركم أن تشبهوا بهم؛ فإنه سيعاقبهم على ذلك أشد العقوبة، فليكن قصدكم في خروجكم وجه الله تعالى، وإعلاء دين الله، والصد عن الطرق الموصلة إلى سخط الله وعقابه، وجذب الناس إلى سبيل الله القويم الموصول لجنات النعيم.

وكان واثقاً بربه مطمئن القلب لا فرعاً ولا جباناً، ولهذا قال: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ﴾: لا يغالب قوته قوة. ﴿حَكِيمٌ﴾: فيما قضاه وأجراه.

﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَذْءُتْهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾: ذلك بما قَدَمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَمٍ لِلْعَبِيدِ ﴿٥١﴾ كَذَابِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٥٢﴾.

﴿٥١﴾ يقول تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ﴾: الذين كفروا بآيات الله حين توافهم الملائكة الموكلون بقبض أرواحهم وقد اشتد بهم القلق وعظم كربهم ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَذْءُتْهُمْ﴾: يقولون لهم: أخرجوا أنفسكم، ونفوسهم متمنعة مستعصية على الخروج؛ لعلمها ما أمامها من العذاب الأليم. ولهذا قال: ﴿وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾: أي: العذاب الشديد المحرق.

﴿٥١﴾ ذلك العذاب حصل لكم غير ظلم ولا جور من ربكم، وإنما هو بما قدمت أيديكم من المعاصي التي أثرت لكم ما أثرت.

﴿٥٢﴾ وهذه سنة الله في الأولين والآخرين؛ فإن دأب هؤلاء المكذبين؛ أي: سنتهم وما أجرى الله عليهم من الهلاك بذنوبهم، ﴿كَذَابِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾: من الأمم المكذبة، ﴿كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ﴾: بالعقاب ﴿بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾: لا يعجزه أحد يريد أخذه. ﴿مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا﴾ [هود: ٥٦].

﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾: كَذَابِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَكُلُّ كَاذِبٍ ظَلِيمٌ ﴿٥٣﴾.

﴿٥٣﴾ ذلك: العذاب الذي أوقعه الله بالأمم المكذبة وأزال عنهم ما هم فيه من النعم والنعيم بسبب ذنوبهم وتغييرهم ما بأنفسهم، فإن ﴿اللَّهُ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ﴾: من نعم الدين والدنيا، بل يبقها ويزيدهم منها إن ازدادوا له شكراً، ﴿حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾: من الطاعة إلى المعصية، فيكفروا نعمة الله، ويبدلوا بها كفراً، فيسلبهم إياها

﴿وَإِذْ زَيَّنَّا لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَلَهُمْ﴾: حسنها في قلوبهم وخدعهم، ﴿وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ﴾: فإنكم في عدد وعددهمينة لا يقاومكم فيها محمد ومن معه. ﴿وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ﴾: من أن يأتيكم أحد ممن تخشون غائلته؛ لأن إبليس قد تبدى لقريش في صورة سراقه بن مالك بن جعشم المدلجي، وكانوا يخافون من بني مدلج لعداوة كانت بينهم، فقال لهم الشيطان: أنا جار لكم! فاطمأنت نفوسهم وأتوا على حرد قادرين. فلما ﴿تَرَاءَتْ أَلْفَتَانِ﴾: المسلمون والكافرون، فرأى الشيطان جبريل عليه السلام يزغ الملائكة؛ خاف خوفاً شديداً، ﴿تَكْصَحُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾؛ أي: ولى مدبراً، ﴿وَقَالَ﴾: لمن خدعهم وغرهم: ﴿إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ﴾؛ أي: أرى الملائكة الذين لا يدان لأحد بقتالهم؛ ﴿إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ﴾؛ أي: أخاف أن يعاجلني بالعقوبة في الدنيا، ﴿وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾.

ومن المحتمل أن يكون الشيطان قد سول لهم، ووسوس في صدورهم أنه لا غالب لهم اليوم من الناس وأنه جار لهم، فلما أوردتهم مواردهم؛ نكص عنهم، وتبرأ منهم؛ كما قال تعالى: ﴿كَشَلُ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلنَّاسِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿١٦﴾ فَكَانَ عَقِبَتُهُمَا أَنْهَمَا فِي النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ ﴿١٧﴾ [الحشر: ١٦، ١٧].

﴿١٦﴾ إِذْ يَكْفُرُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ؛ أي: شك وشبهة من ضعفاء الإيمان للمؤمنين حين أقدموا مع قتلهم على قتال المشركين مع كثرتهم: ﴿عَرَّ هَؤُلَاءِ دِينَهُمْ﴾؛ أي: أوردتهم الدين الذي هم عليه هذه الموارد التي لا يدان لهم بها ولا استطاعة لهم بها، يقولونه احتقاراً لهم واستخفافاً لعقولهم، وهم -والله- الأخفاء عقولاً الضعفاء أحلاماً؛ فإن الإيمان يوجب لصاحبه الإقدام على الأمور الهائلة التي لا يقدم عليها الجيوش العظام؛ فإن المؤمن المتوكل على الله الذي يعلم أنه ما من حول ولا قوة ولا استطاعة لأحد إلا بالله تعالى، وأن الخلق لو اجتمعوا كلهم على نفع شخص بمثقال ذرة؛ لم ينفعوه، ولو اجتمعوا على أن يضروه؛ لم يضروه؛ إلا بشيء قد كتبه الله عليه، وعلم أنه على الحق، وأن الله تعالى حكيم رحيم في كل ما قدره وقضاه؛ فإنه لا يبالى بما أقدم عليه من قوة وكثرة،

وبغيرها عليهم كما غيروا ما بأنفسهم، ولله الحكمة في ذلك والعدل والإحسان إلى عباده؛ حيث لم يعاقبهم إلا بظلمهم، وحيث جذب قلوب أوليائه إليه بما يذيق العباد من النكال إذا خالفوا أمره. ﴿وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (٥٦) : يسمع جميع ما نطق به الناطقون، سواء من أسر القول ومن جهر به. ويعلم ما تنطوي عليه الضمائر وتخفيه السرائر، فيجري على عباده من الأقدار ما اقتضاه علمه، وجرت به مشيئته.

﴿كَذَّابٌ ءَالٍ فِرْعَوْنَ﴾ (٥٦) : أي: فرعون وقومه، ﴿وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ﴾ (٥٦) : حين جاءتهم، ﴿فَأَهْلَكْنَاهُمْ﴾ (٥٦) : كل بحسب جرمه، ﴿وَأَغْرَقْنَاهُ آلَ فِرْعَوْنَ كُلًّا﴾ (٥٦) : من المهلكين المعذبين ﴿كَانُوا ظَالِمِينَ﴾ (٥٦) : لأنفسهم ساعين في هلاكها، لم يظلمهم الله ولا أخذهم بغير جرم اقترفوه؛ فيحذر المخاطبون أن يشابهوهم في الظلم، فيحل الله بهم من عقابه ما أحل بأولئك الفاسقين.

﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (٥٥) : الَّذِينَ عَاهَدَتْ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَنْقُضُونَ (٥٦) : فَإِنَّمَا تَشَفَّعْنَاهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِدَ بِهَم مِّنْ خَلْفِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ (٥٧) .

﴿٥٥﴾، ﴿٥٦﴾ هؤلاء الذين جمعوا هذه الخصال الثلاث -

الكفر، وعدم الإيمان، والخيانة - بحيث لا يثبتون على عهد عاهدوه ولا قول قالوه هم ﴿شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ﴾ : فهم شر من الحمير والكلاب وغيرها؛ لأن الخير معدوم منهم، والشر متوقع فيهم.

﴿٥٧﴾ فإذا هاب هؤلاء ومحقهم هو المتعين؛ لثلا يسري داؤهم لغيرهم، ولهذا قال: ﴿فَأِنَّمَا تَشَفَّعْنَاهُمْ فِي الْحَرْبِ﴾ (٥٧) : أي: تجندهم في حال المحاربة؛ بحيث لا يكون لهم عهد وميثاق. ﴿فَشَرِدَ بِهِمْ مِّنْ خَلْفِهِمْ﴾ (٥٧) : أي: نكل بهم غيرهم، وأوقع بهم من العقوبة ما يصيرون [به] عبرة لمن بعدهم، ﴿لَعَلَّهُمْ﴾ (٥٧) : أي: من خلفهم ﴿يَذَّكَّرُونَ﴾ (٥٧) : صنيعهم؛ لثلا يصيبهم ما أصابهم. وهذه من فوائد العقوبات والحدود المرتبة على المعاصي، أنها سبب لازدجار من لم يعمل المعاصي، بل وزجراً لمن عملها ألا يعاودها. ودل تقييد هذه العقوبة في الحرب أن الكافر ولو كان كثير الخيانة سريع الغدر؛ أنه إذا أعطي عهداً؛ لا يجوز خيانتته وعقوبته.

﴿وَأِنَّمَا تَخَافُونَ مِّنْ قَوْمٍ خِيَانَةٌ فَانذِرْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَآئِينَ﴾ (٥٨) .

﴿٥٨﴾ أي: وإذا كان بينك وبين قوم عهد وميثاق على ترك القتال، فخفت منهم خيانة؛ بأن ظهر من قرائن أحوالهم ما يدل على خيانتهم من غير تصريح منهم بالخيانة. ﴿فَإِنذِرْ إِلَيْهِمْ﴾ (٥٨) : عهدهم؛ أي: ارمه عليهم، وأخبرهم أنه لا عهد بينك وبينهم ﴿عَلَىٰ سَوَاءٍ﴾ (٥٨) : أي: حتى يستوي علمك وعلمهم بذلك، ولا يحل لك أن تغدرهم أو تسعى في شيء مما منعه موجب العهد حتى تخبرهم بذلك. ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَآئِينَ﴾ (٥٨) : بل يبغضهم أشد بغض؛ فلا بد من أمر بين ييرتكم من الخيانة. ودلت الآية على أنه إذا وجدت الخيانة المحققة منهم؛ لم يحتج أن ينذر إليهم عهدهم؛ لأنه لم يخف منهم، بل علم ذلك، ولعدم الفائدة، ولقوله: ﴿عَلَىٰ سَوَاءٍ﴾ (٥٨) ، وهنا قد كان معلوماً عند الجميع غدرهم. ودل مفهومها أيضاً أنه إذا لم يخف منهم خيانة؛ بأن لم يوجد منهم ما يدل على ذلك؛ أنه لا يجوز نبذ العهد إليهم، بل يجب الوفاء [به] إلى أن تتم مدته.

سورة الأنفال
ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُعْتَرِضًا بَيْنَهُمَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُعْذِرُوا مَا بَأْسُ بِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٦﴾ كَذَّابٌ ءَالٍ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَاهُ آلَ فِرْعَوْنَ كُلًّا كَانَ ظَالِمِينَ ﴿٥٥﴾ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٥﴾ الَّذِينَ عَاهَدَتْ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَنْقُضُونَ ﴿٥٦﴾ فَإِنَّمَا تَشَفَّعْنَاهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِدَ بِهِمْ مِّنْ خَلْفِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِنَّمَا تَخَافُونَ مِّنْ قَوْمٍ خِيَانَةٌ فَانذِرْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَآئِينَ ﴿٥٨﴾ وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن سَبَقُوا إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ ﴿٥٩﴾ وَأَعِدُوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخِرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٦٠﴾ وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلَامِ فَاجْعَلْ لَّهُمْ وَاوَكِلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٦١﴾

يعين على قتالهم بذل النفقات المالية في جهاد الكفار، ولهذا قال تعالى مرغياً في ذلك: ﴿وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾: قليلاً كان أو كثيراً، ﴿يُوفَّ إِلَيْكُمْ﴾: أجره يوم القيامة مضاعفاً مضاعفاً كثيرة، حتى إن النفقة في سبيل الله تضاعف إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة، ﴿وَأَنْتُمْ لَا تَظْلَمُونَ﴾ ﴿٥٩﴾: أي: لا تنقصون من أجرها وثوابها شيئاً.

﴿وَإِنْ جَحَرُوا لِلسَّلَامِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ ﴿٦٠﴾ وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَيْدَكَ بِبَصِيرَةٍ وَالْمُؤْمِنِينَ ﴿٦١﴾ وَأَلْفَ بَيْتٍ مُلْكِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مَا أَلْفَتْ بِكَ قُلُوبُهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلْفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٢﴾ يَتَأْتِيَ النَّبِيَّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٣﴾.

﴿٦٠﴾ يقول تعالى ﴿وَإِنْ جَحَرُوا﴾: أي: الكفار المحاربون؛ أي: مالوا إلى السلم؛ أي: الصلح وترك القتال، ﴿فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾: أي: أجبهم إلى ما طلبوا متوكلاً على ربك؛ فإن في ذلك فوائد كثيرة: منها: أن طلب العافية مطلوب كل وقت؛ فإذا كانوا هم المبتدئين في ذلك؛ كان أولى لإجابتهم.

ومنها: أن في ذلك إجماعاً لقواكم واستعداداً منكم لقتالهم في وقت آخر إن احتيج إلى ذلك. ومنها: أنكم إذا أصلحتم وأمن بعضكم بعضاً وتمكن كل من معرفة ما عليه الآخر؛ فإن الإسلام يعلو ولا يعلى عليه؛ فكل من له عقل وبصيرة إذا كان معه إنصاف؛ فلا بد أن يؤثره على غيره من الأديان؛ لحسنه في أوامره ونواهيه، وحسنه في معاملته للخلق والعدل فيهم. وأنه لا جور فيه ولا ظلم بوجه؛ فحيث يكثر الراغبون فيه والمتبعون له، فصار هذا السلم عوناً للمسلمين على الكافرين.

﴿٦٢﴾، ﴿٦٣﴾ ولا يخاف من السلم إلا خصلة واحدة، وهي أن يكون الكفار قصدهم بذلك خدع المسلمين وانتهاز الفرصة فيهم، فأخبرهم الله أنه حسبيهم وكافيهم خداعهم، وأن ذلك يعود عليهم ضرره، فقال: ﴿وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ﴾: أي: كافيك ما يؤذك، وهو القائم بمصالحك ومهماتك؛ فقد سبق لك من كفايته لك ونصره ما يطمئن به قلبك، فله ﴿هُوَ الَّذِي أَيْدَكَ بِبَصِيرَةٍ وَالْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿٦٣﴾: أي: أعانك بمعونة سماوية، وهو النصر منه الذي لا يقاومه شيء،

﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ﴾ ﴿٥٩﴾.

﴿٥٩﴾ أي: لا يحسب الكافرون بريهم المكذبون بآياته أنهم سبقوا الله وفاتوه؛ فإنهم لا يعجزونه، والله لهم بالمرصاد، وله تعالى الحكمة البالغة في إمهالهم وعدم معاجلتهم بالعقوبة، التي من جملتها ابتلاء عباده المؤمنين وامتحنهم وتزودهم من طاعته ومراضيه ما يصلون به إلى المنازل العالية واتصافهم بأخلاق وصفات لم يكونوا بغيره بالغوها؛ فلهذا قال لعباده المؤمنين:

﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخِرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَظْلَمُونَ﴾ ﴿٦٠﴾.

﴿٦٠﴾ أي: ﴿وَأَعِدُّوا﴾: لأعدائكم الكفار الساعين في هلاككم وإبطال دينكم، ﴿مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾: أي: كل ما تقدرون عليه من القوة العقلية والبدنية وأنواع الأسلحة، ونحو ذلك مما يعين على قتالهم، فدخل في ذلك أنواع الصناعات التي تعمل فيها أصناف الأسلحة والآلات من المدافع والرشاشات والبنادق والطائرات الجوية والمراكب البرية والبحرية والحصون والقلاع والخنادق وآلات الدفاع والرأي والسياسة التي بها يتقدم المسلمون، ويندفع عنهم به شر أعدائهم وتعلم الرمي والشجاعة والتدبير، ولهذا قال النبي ﷺ: «ألا إن القوة الرمي»^(١). ومن ذلك الاستعداد بالمراكب المحتاج إليها عند القتال، ولهذا قال تعالى: ﴿وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾: وهذه العلة موجودة فيها في ذلك الزمان، وهي إرهاب الأعداء. والحكم يدور مع علته؛ فإذا كان شيء موجود أكثر إرهاباً منها - كالسيارات البرية والهوائية المعدة للقتال التي تكون النكاية فيها أشد؛ كانت مأموراً بالاستعداد بها والسعي لتحصيلها، حتى إنها إذا لم توجد إلا بتعلم الصناعة؛ وجب ذلك؛ لأن ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب. وقوله: ﴿تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾: ممن تعلمون أنهم أعداؤكم، ﴿وَأَخِرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمْ﴾: ممن سيقاتلونكم بعد هذا الوقت الذي يخاطبهم الله به، ﴿اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾: فلذلك أمرهم بالاستعداد لهم. ومن أعظم ما

سورة الأنفال

المائدة

وَأَنْ يَرِيدُوا أَنْ يُخْدَعُوا فَارْتَحِبْ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي آتَاكَ
بَصِيرَتَهُ وَالْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢﴾ وَالْأَفْئِيتَةَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ
مَافِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَفْتَتِ بِرَبِّ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ
اللَّهَ أَلَفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٣﴾ يَتَأَيَّأُ الْيَتِيُّ حَسْبَكَ
اللَّهُ وَمَنْ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ يَتَأَيَّأُ الْيَتِيُّ حَرِصٌ
الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عَشْرُونَ صَاعِدُونَ
يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ
الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ ﴿١٥﴾ أَتَنْنِ خَفَّفَ
اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ
صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ
يُؤْذِنُ اللَّهُ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿١٦﴾ مَا كَانَتْ لِي أَنْ يَكُونَ
لَهُمْ أَمْرٌ حَتَّى يَخُوضَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَصَ الدُّنْيَا
وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٧﴾ لَوْ لَا كُتِبَ مِنْ
اللَّهِ سَبَقٌ لِمَسْئِكُمْ فِيمَا أَعْدْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٨﴾ فَكُلُوا مِمَّا
غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا وَأَتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٩﴾

١٨٥

يَفْقَهُونَ ﴿٢٠﴾ أَتَنْنِ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ
أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٢١﴾

ومعونة بالمؤمنين بأن قبضهم لنصرك، ﴿١٢﴾ وَأَلْفَ بَيْتٍ قُلُوبِهِمْ ﴿١٣﴾
فاجتمعوا، واتلفوا، وازدادت قوتهم بسبب اجتماعهم، ولم
يكن هذا بسعي أحد، ولا بقوة غير قوة الله، فلو ﴿١٤﴾ أَنْفَقْتَ مَا
فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ﴿١٥﴾ من ذهب وفضة وغيرهما لتأليفهم بعد
تلك النفرة والفرقة الشديدة، ﴿١٦﴾ مَّا أَفْتَتِ بِرَبِّ قُلُوبِهِمْ ﴿١٧﴾
لأنه لا يقدر على قلب القلوب إلا الله تعالى. ﴿١٨﴾ وَلَكِنَّ
اللَّهَ أَلَفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٩﴾ ومن عزته أن ألف بين
قلوبهم وجمعها بعد الفرقة؛ كما قال تعالى: ﴿٢٠﴾ وَأَذْكُرُوا بِمَنْتَ
اللَّهُ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا
وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا ﴿٢١﴾ [آل عمران: ١٠٣].

﴿٢٢﴾ ثم قال تعالى: ﴿٢٣﴾ يَتَأَيَّأُ الْيَتِيُّ حَسْبَكَ اللَّهُ ﴿٢٤﴾؛ أي: كافيك،
﴿٢٥﴾ وَمَنْ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٦﴾؛ أي: وكافي أتباعك
من المؤمنين. وهذا وعد من الله لعباده المؤمنين المتبعين
لرسوله بالكفاية والنصرة على الأعداء؛ فإذا أتوا بالسبب
الذي هو الإيمان والاتباع؛ فلا بد أن يكفيهم ما أهمهم من
أمور الدين والدنيا، وإنما تتخلف الكفاية بتخلف شرطها.

﴿٢٧﴾ يَتَأَيَّأُ الْيَتِيُّ حَرِصٌ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِنْ
يَكُنْ مِنْكُمْ عَشْرُونَ صَاعِدُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ
مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا

﴿٢٨﴾ يقول تعالى لنبيه ﷺ: ﴿٢٩﴾ يَتَأَيَّأُ الْيَتِيُّ حَرِصٌ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ ﴿٣٠﴾؛ أي: حثهم ونهضهم إليه بكل ما يقوي عزائمهم
وينشط هممهم؛ من الترغيب في الجهاد ومقارعة الأعداء، والترهيب من ضد ذلك، وذكر فضائل الشجاعة والصبر، وما يترتب
على ذلك من خير الدنيا والآخرة، وذكر مضار الجبن، وأنه من الأخلاق الرذيلة المنقصة للدين والمروءة، وأن الشجاعة
بالمؤمنين أولى من غيرهم، ﴿٣١﴾ إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ﴿٣٢﴾ [النساء: ١٠٤]. ﴿٣٣﴾ إِنْ
يَكُنْ مِنْكُمْ ﴿٣٤﴾ أيها المؤمنون، ﴿٣٥﴾ عَشْرُونَ صَاعِدُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴿٣٦﴾: يكون
الواحد بنسبة عشرة من الكفار، وذلك بأن الكفار ﴿٣٧﴾ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٣٨﴾؛ أي: لا علم عندهم بما أعد الله للمجاهدين في
سبيله؛ فهم يقاتلون لأجل العلو في الأرض والفساد فيها، وأنتم تفقهون المقصود من القتال أنه لإعلاء كلمة الله، وإظهار
دينه، والذب عن كتاب الله وحصول الفوز الأكبر عند الله، وهذه كلها دواعٍ للشجاعة والصبر والإقدام على القتال.

﴿٣٩﴾ ثم إن هذا الحكم خففه الله على العباد، فقال: ﴿٤٠﴾ أَتَنْنِ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا ﴿٤١﴾: فلذلك اقتضت
رحمته وحكمته التخفيف. ﴿٤٢﴾ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ
الصَّابِرِينَ ﴿٤٣﴾: بعونه وتأيدته.

وهذه الآيات صورتها صورة الإخبار عن المؤمنين بأنهم إذا بلغوا هذا المقدار المعين يغلبون ذلك المقدار المعين، في
مقابلته من الكفار، وأن الله يمتن عليهم بما جعل فيهم من الشجاعة الإيمانية، ولكن معناها وحقيقتها الأمر، وأن الله أمر
المؤمنين في أول الأمر أن الواحد لا يجوز له أن يفر من العشرة والعشرة من المائة والمائة من الألف، ثم إن الله خفف ذلك،

شرهم؛ فما دام لهم شر وصوله؛ فالأوفق ألا يؤسروا؛ فإذا أنخنوا، وبطل شرهم، واضمحل أمرهم؛ فحينئذ لا بأس بأخذ الأسرى منهم وإبقائهم. يقول تعالى: ﴿تُرِيدُونَ﴾: بأخذكم الفداء وإبقائهم ﴿عَرَضَ الدُّنْيَا﴾؛ أي: لا لمصلحة تعود إلى دينكم. ﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ﴾: بإعزاز دينه ونصر أوليائه وجعل كلمتهم عالية فوق غيرهم، فيأمركم بما يوصل إلى ذلك. ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (٧٧)؛ أي: كامل العزة، لو شاء أن يتصر من الكفار من دون قتال؛ لفعل، ولكنه حكيم يتلي بعضكم ببعض.

﴿لَوْلَا كَتَبَ مِنَ اللَّهِ سَبَقٌ﴾: به القضاء والقدر؛ أنه قد أحل لكم الغنائم، وأن الله رفع عنكم -أيها الأمة- العذاب، ﴿لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (٧٨) وفي الحديث: «لو نزل عذاب يوم بدر؛ ما نجا منه إلا عمر».

﴿فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا﴾: وهذا من لطفه تعالى بهذه الأمة أن أحل لها الغنائم ولم تحل لأمة قبلها، ﴿وَأَتَقُوا اللَّهَ﴾: في جميع أموركم، ولازموها شكراً لنعم الله عليكم. ﴿إِنَّ اللَّهَ عَفْوٌ﴾: يغفر لمن تاب إليه جميع الذنوب، ويغفر لمن لم يشرك به شيئاً جميع المعاصي، ﴿رَحِيمٌ﴾ (٧٩)؛ بكم حيث أباح لكم الغنائم وجعلها حلالاً طيباً.

﴿يَتَأْتِيَ النَّبِيَّ قُلُوبُ لِمَنِ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرَى﴾: إن يعلم الله في قلوبكم خيراً يؤتكم خيراً مما أخذ منكم، ويغفر لكم، ﴿وَاللَّهُ عَفْوٌ رَحِيمٌ﴾ (٨٠) وإن يريدوا خيانتك فقد خأنوا الله من قبل فأمكن منهم، ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ (٨١).

﴿٧٦﴾ وهذه نزلت في أسارى يوم بدر^(١)، وكان من جملتهم العباس عم رسول الله ﷺ، فلما طلب منه الفداء؛ ادعى أنه مسلم قبل ذلك، فلم يسقطوا عنه الفداء، فأنزل الله تعالى جبراً لخطئه ومن كان على مثل حاله: ﴿يَتَأْتِيَ النَّبِيَّ قُلُوبُ لِمَنِ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرَى﴾: إن يعلم الله في قلوبكم خيراً يؤتكم خيراً مما أخذ منكم؛ أي: من المال، بأن يسر لكم من فضله خيراً كثيراً مما أخذ منكم، ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾: ذنوبكم ويدخلكم الجنة. ﴿وَاللَّهُ عَفْوٌ رَحِيمٌ﴾ (٧٧)؛ وقد أنجز الله وعده للعباس وغيره، فحصل له بعد ذلك من المال شيء كثير، حتى إنه مرة لما قدم على النبي ﷺ مال كثير؛ أتاه العباس، فأمره أن يأخذ منه بثوبه ما يطيق حمله، فأخذ منه

فصار لا يجوز فرار المسلمين من مثليهم من الكفار؛ فإن زادوا على مثليهم؛ جاز لهم الفرار.

ولكن يرد على هذا أمران:

أحدهما: أنها بصورة الخبر، والأصل في الخبر أن يكون على بابه، وأن المقصود بذلك الامتنان والإخبار بالواقع.

والثاني: تقييد ذلك العدد أن يكونوا صابرين؛ بأن يكونوا متدربين على الصبر، ومفهوم هذا أنهم إذا لم يكونوا صابرين؛ فإنه يجوز لهم الفرار، ولو أقل من مثليهم، إذا غلب على ظنهم الضرر؛ كما تقتضيه الحكمة الإلهية.

ويجاب عن الأول بأن قوله: ﴿الَّذِينَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ﴾ إلى آخرها: دليل على أن هذا الأمر لازم وأمر محتم، ثم إن الله خففه إلى ذلك العدد؛ فهذا ظاهر في أنه أمر، وإن كان في صيغة الخبر، وقد يقال: إن في إتيانه بلفظ الخبر نكتة بديعة لا توجد فيه إذا كان بلفظ الأمر، وهي تقوية قلوب المؤمنين، والبشارة بأنهم سيغلبون الكافرين.

ويجاب عن الثاني: أن المقصود بتقييد ذلك بالصابرين أنه حث على الصبر، وأنه ينبغي منكم أن تفعلوا الأسباب الموجبة لذلك؛ فإذا فعلوها؛ صارت الأسباب الإيمانية والأسباب المادية مبشرة بحصول ما أخبر الله به من النصر لهذا العدد القليل.

﴿مَا كَانَتْ لِيَنِّي أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يَتَخَرَّجَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (٧٧) ﴿لَوْلَا كَتَبَ مِنَ اللَّهِ سَبَقٌ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (٧٨) ﴿فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا وَأَتَقُوا اللَّهَ﴾ (٧٩) ﴿إِنَّ اللَّهَ عَفْوٌ رَحِيمٌ﴾ (٨٠).

﴿٧٧﴾ هذه معاتبة من الله لرسوله وللمؤمنين يوم بدر؛ إذ أسروا المشركين وأبقوهم لأجل الفداء، وكان رأي أمير المؤمنين عمر بن الخطاب في هذه الحال قتلهم واستئصالهم، فقال تعالى: ﴿مَا كَانَتْ لِيَنِّي أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يَتَخَرَّجَ فِي الْأَرْضِ﴾؛ أي: ما ينبغي ولا يليق به إذا قاتل الكفار الذين يريدون أن يطفئوا نور الله، ويسعون لإخماد دينه وألا يبقى على وجه الأرض من يعبد الله أن يتسرع إلى أسرهم وإبقائهم لأجل الفداء الذي يحصل منهم، وهو عرض قليل بالنسبة إلى المصلحة المقضية لإبادتهم وإبطال

ما كاد أن يعجز عن حمله^(١).

﴿وَلَنْ يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ﴾: في السعي لحربك ومنابدتك، ﴿فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ﴾: فليحذروا خيانتك؛ فإنه تعالى قادر عليهم، وهم تحت قبضته. ﴿وَاللَّهُ عَلَيْهِمْ حَكِيمٌ﴾: أي: عليم بكل شيء، حكيم يضع الأشياء مواضعها، ومن علمه وحكمته أن شرع لكم هذه الأحكام الجليلة الجميلة، وقد تكفل بكفائتكم شأن الأسرى وشرهم إن أرادوا خيانة.

﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَاوَأُوا وَنَصَرُوا أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَكْظٍ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا وَإِنْ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمْ النَّصْرُ إِلَّا عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.

﴿٧١﴾ هذا عقد مولاة ومحبة عقدها الله بين المهاجرين الذين آمنوا وهاجروا في سبيل الله وتركوا أوطانهم لله لأجل الجهاد في سبيل الله، وبين الأنصار الذين آووا رسول الله ﷺ وأصحابه وأعانوه في ديارهم وأموالهم وأنفسهم؛ فهؤلاء بعضهم أولياء بعض؛ لكمال إيمانهم وتتمام اتصال بعضهم ببعض. ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَكْظٍ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا﴾: فإنهم قطعوا ولايتكم بانفصالهم عنكم في وقت شدة الحاجة إلى الرجال، فلما لم يهاجروا؛ لم يكن لهم من ولاية المؤمنين شيء، لكنهم إن ﴿اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ﴾؛ أي: لأجل قتال من قاتلهم؛ لأجل دينهم ﴿فَعَلَيْكُمْ النَّصْرُ﴾: والقتال معهم، وأما من قاتلهم لغير ذلك من المقاصد؛ فليس عليكم نصرهم. وقوله تعالى: ﴿إِلَّا عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ﴾؛ أي: عهد بترك القتال؛ فإنهم إذا أراد المؤمنون المتميزون الذين لم يهاجروا قتالهم؛ فلا تعينوهم عليهم؛ لأجل ما بينكم وبينهم من الميثاق. ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾: يعلم ما أنتم عليه من الأحوال، فيشرع لكم من الأحكام ما يليق بكم.

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾.

﴿٧٢﴾ لما عقد الولاية بين المؤمنين؛ أخبر أن الكفار حيث جمعهم الكفر فبعضهم أولياء بعض؛ فلا يواليه إلا كافر مثلهم، وقوله: ﴿إِلَّا تَفْعَلُوهُ﴾؛ أي: مولاة المؤمنين ومعاداة الكافرين؛ بأن واليتموهم كلهم أو عاديتموهم كلهم أو واليتهم الكافرين وعاديتهم المؤمنين، ﴿تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾: فإنه يحصل بذلك من الشر ما لا ينحصر من اختلاط الحق بالباطل والمؤمن بالكافر وعدم كثير من العبادات الكبار كالجهاد والهجرة وغير ذلك من مقاصد الشرع والدين التي نفوت إذا لم يتخذ المؤمنون وحدهم أولياء بعضهم لبعض.

﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَاوَأُوا وَنَصَرُوا أَوْلِيَاءَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا هُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾. ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْ بَعْدِ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَئِكَ مِنْكُمْ وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾.

الآيات السابقات في ذكر عقد الموالاة بين المؤمنين من المهاجرين والأنصار. وهذه الآيات في بيان مدحهم وثوابهم:

﴿٧٤﴾ فقال: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ﴾: أي: المؤمنون من المهاجرين والأنصار؛ ﴿هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾؛ لأنهم صدقوا إيمانهم بما قاموا به من الهجرة والنصرة والموالاة بعضهم لبعض وجهادهم لأعدائهم من الكفار والمنافقين. ﴿لَهُمْ مَغْفِرَةٌ﴾: من الله تمحى بها سيئاتهم وتضمنحل بها زلاتهم. ولهم رزق ﴿كَرِيمٌ﴾ ﴿٧٥﴾: أي: خير كثير من الرب الكريم في جنات النعيم، وربما حصل لهم من الثواب المعجل ما تقر به أعينهم، وتطمئن به قلوبهم.

﴿٧٥﴾ وكذلك من جاء بعد هؤلاء المهاجرين والأنصار ممن اتبعهم بإحسان فأمن وهاجر وجاهد في سبيل الله. ﴿فَأُولَئِكَ يَنْتَكِرُ﴾: لهم ما لكم وعليهم ما عليكم؛ فهذه الموالاة الإيمانية، وقد كانت في أول الإسلام لها وقع كبير وشأن عظيم، حتى إن النبي ﷺ أخى بين المهاجرين والأنصار أخوة خاصة غير الأخوة الإيمانية العامة، وحتى كانوا يتوارثون بها، فأنزل الله: ﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ فلا يرثه إلا أقاربه من العصابات وأصحاب الفروض فإن لم يكونوا؛ فأقرب قراباته من ذوي الأرحام كما دل عليه عموم الآية الكريمة، وقوله: ﴿فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾: أي: في حكمه وشرعه. ﴿إِنَّ اللَّهَ يَكِلُ شَيْءًا عَلِيمٌ﴾: ومنه ما يعلمه من أحوالكم التي يجري من شرائعها الدينية عليكم ما يناسبها.

تم تفسير سورة الأنفال. ولله الحمد والمنة.



تفسير سورة براءة ويقال سورة التوبة

وهي مدنية

﴿بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ ﴿١﴾ ﴿فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ﴾ ﴿٢﴾ ﴿وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ﴾ ﴿٣﴾.

﴿١﴾، ﴿٢﴾، ﴿٣﴾: أي: هذه ﴿بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ﴾ ومن رسوله إلى جميع المشركين المعاهدين؛ أن لهم أربعة أشهر يسبحون في الأرض على اختيارهم آمنين من المؤمنين، وبعد الأربعة الأشهر؛ فلا عهد لهم ولا ميثاق. وهذا لمن كان له عهد مطلق غير مقدر أو مقدر بأربعة أشهر فأقل، أما من كان له عهد مقدر بزيادة على أربعة أشهر؛ فإنه يتعين أن يتم له عهده إذا لم يخف منه خيانة، ولم يبدأ بنقض العهد.

ثم أنذر المعاهدين في مدة عهدهم أنهم وإن كانوا آمنين؛ فإنهم لن يعجزوا الله ولن يفوتوه، وأنه من استمر منهم على شركه؛ فإنه لا بد أن يخزبه، فكان هذا مما يجلبهم إلى الدخول في الإسلام إلا من عاند، وأصر، ولم يبال بوعيد الله.



﴿ فَإِذَا أَسْلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمَ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَأَحْصُرُوهُمْ وَأَقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصِدٍ ۚ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ٥٥ ﴾

﴿٥٥﴾ يقول تعالى: ﴿ فَإِذَا أَسْلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمَ ﴾؛ أي: التي حُرِّمَ فيها قتال المشركين المعاهدين، وهي أشهر التسيير الأربعة، وتمام المدة لمن له مدة أكثر منها؛ فقد برئت منهم الذمة. ﴿ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ ﴾: في أي مكان وزمان، ﴿ وَخُذُوهُمْ ﴾: أسرى، ﴿ وَأَحْصُرُوهُمْ ﴾؛ أي: ضيقوا عليهم؛ فلا تدعوهم يتوسعون في بلاد الله وأرضه التي جعلها الله معبدًا لعباده؛ فهؤلاء ليسوا أهلاً لسكنائها، ولا يستحقون منها شبرًا؛ لأن الأرض أرض الله، وهم أعداؤه المناذبون له ولرسله، المحاربون الذين يريدون أن تخلو الأرض من دينه، ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون. ﴿ وَأَقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصِدٍ ﴾؛ أي: كل ثنية وموضع يمرّون عليه، ورابطوا في جهادهم، وابدلوا غاية مجهودكم في ذلك، ولا تزالوا على هذا الأمر حتى يتوبوا من شركهم. ولهذا قال: ﴿ فَإِنْ تَابُوا ﴾: من شركهم، ﴿ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ ﴾؛ أي: أدوها بحقوقها، ﴿ وَآتَوُا الزَّكَاةَ ﴾: لمستحقيها، ﴿ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ ﴾؛ أي: اتركوهم، وليكونوا مثلكم لهم ما لكم، وعليهم ما عليكم. ﴿ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ٥٥ ﴾: يغفر الشرك فما دونه للتائبين، ويرحمهم بتوفيقهم للتوبة ثم قبولها منهم.

وفي هذه الآية دليل على أن من امتنع من أداء الصلاة أو الزكاة؛ فإنه يقاتل حتى يؤديها؛ كما استدلل بذلك أبو بكر الصديق رضي الله عنه.

﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ ابْلِغْهُ مَا مَنَعَهُ ۚ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ ٥٦ ﴾

﴿٥٦﴾ لما كان ما تقدم من قوله: ﴿ فَإِذَا أَسْلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمَ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَأَحْصُرُوهُمْ وَأَقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصِدٍ ﴾: أمرًا عامًا في جميع الأحوال وفي كل الأشخاص منهم؛ ذكر تعالى أن المصلحة إذا اقتضت تقريب بعضهم؛ جاز، بل وجب ذلك، فقال: ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ ﴾؛ أي: طلب منك أن تجبره وتمنعه من الضرر لأجل أن يسمع كلام الله وينظر حالة الإسلام،

﴿ وَأَذِّنْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ ٥٧ إِنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ ۚ فَإِنْ تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ عِزٌّ مُعْجِزٌ لِلَّهِ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ٥٨ ﴾

﴿٥٧﴾ هذا ما وعد الله به المؤمنين من نصر دينه وإعلاء كلمته وخذلان أعدائهم من المشركين الذين أخرجوا الرسول ومن معه من مكة من بيت الله الحرام وأجلوه مما لهم التسلط عليه من أرض الحجاز؛ نصر الله رسوله والمؤمنين حتى افتتح مكة وأذل المشركين وصار للمؤمنين الحكم والغلبة على تلك الديار، فأمر النبي ﷺ مؤذنه أن يؤذن يوم الحج الأكبر، وهو يوم النحر، وقت اجتماع الناس مسلمهم وكافرهم من جميع جزيرة العرب: أن يؤذن بأن الله بريء ورسوله من المشركين؛ فليس لهم عنده عهد وميثاق؛ فأينما وجدوا قتلوا، وقيل لهم: لا تقربوا المسجد الحرام بعد عامكم هذا. وكان ذلك سنة تسع من الهجرة، وحج بالناس أبو بكر الصديق رضي الله عنه، وأذن ببراءة يوم النحر ابن عم رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

ثم رغب تعالى المشركين بالتوبة ورهيمهم من الاستمرار على الشرك، فقال: ﴿ فَإِنْ تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ عِزٌّ مُعْجِزٌ لِلَّهِ ﴾؛ أي: فإتيه، بل أنتم في قبضته، قادر أن يسلط عليكم عباده المؤمنين. ﴿ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ٥٨ ﴾؛ أي: مؤلم مقطع في الدنيا بالقتل والأسر والجلاء وفي الآخرة بالنار وبئس القرار.

﴿ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ٥٩ ﴾

﴿٥٩﴾ أي: هذه البراءة التامة المطلقة من جميع المشركين، ﴿ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾: واستمروا على عهدهم، ولم يجر منهم ما يوجب النقص؛ فلا نقصوكم شيئًا، ولا عاونوا عليكم أحدًا؛ فهؤلاء أتموا إليهم عهدهم إلى مدتهم قلت أو كثرت؛ لأن الإسلام لا يأمر بالخيانة، وإنما يأمر بالوفاء. ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ٥٩ ﴾: الذين أدوا ما أمروا به، واتقوا الشرك والخيانة وغير ذلك من المعاصي.

﴿فَاجْرُهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَمَ اللَّهِ﴾: ثم إن أسلم؛ فذاك، وإلا؛ فأبلغه مأمته؛ أي: المحل الذي يأمن فيه.

والسبب في ذلك أن الكفار قوم لا يعلمون؛ فربما كان استمرارهم على كفرهم لجهل منهم إذا زال اختاروا عليه الإسلام؛ فلذلك أمر الله رسوله. وأمته أسوته في الأحكام أن يجيروا من طلب أن يسمع كلام الله.

وفي هذا حجة صريحة لمذهب أهل السنة والجماعة، القائلين بأن القرآن كلام الله غير مخلوق؛ لأنه تعالى هو المتكلم به، وأضافه إلى نفسه إضافة الصفة إلى موصوفها، وعلان مذهب المعتزلة ومن أخذ بقولهم أن القرآن مخلوق، وكم من الأدلة الدالة على بطلان هذا القول، ليس هذا محل ذكرها!

﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقِيمُوا لَكُمْ فَأَسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ (٧).

﴿٧﴾ هذا بيان للحكمة الموجبة لأن يتبرأ الله ورسوله من المشركين، فقال: ﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ﴾: هل قاموا بواجب الإيمان؟ أم تركوا رسول الله والمؤمنين من أذيتهم؟ أما حاربوا الحق ونصروا

الباطل؟! أما سعوا في الأرض فساداً؟! فيحق لهم أن يتبرأ الله منهم، وألا يكون لهم عهد عنده ولا عند رسوله. ﴿إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ﴾: من المشركين ﴿عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾: فإن لهم في العهد - وخصوصاً في هذا المكان الفاضل - حرمة أوجب أن يراعوا فيها، ﴿فَمَا اسْتَقِيمُوا لَكُمْ فَأَسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ (٧).

ولهذا قال:

﴿كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً يُرْضُونَكُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَى قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَسِقُوتٌ﴾ (٨) ﴿أَشْتَرُوا بِعَاقِبَتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدَّوْا عَنْ سَبِيلِهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (٩) ﴿لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ﴾ (١٠) ﴿إِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوْا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَنُفُصِلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ (١١).

﴿٨﴾ كَيْفَ: يكون للمشركين عند الله عهد وميثاق. والحال أنهم إن ﴿يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ﴾: بالقدرة والسلطة لا يرحمكم. و﴿لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً﴾: أي: لا ذمة ولا قرابة، ولا يخافون الله فيكم، بل يسومونكم سوء العذاب؛ فهذه حالكم معهم لو ظهروا، ولا يغرنكم منهم ما يعاملونكم به وقت الخوف منكم؛ فإنهم ﴿يُرْضُونَكُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَى قُلُوبُهُمْ﴾: الميل والمحبة لكم، بل هم الأعداء حقاً، المبغضون لكم صدقاً. ﴿وَأَكْثَرُهُمْ فَسِقُوتٌ﴾ (٨). لا ديانة لهم ولا مروءة.

﴿٩﴾ ﴿أَشْتَرُوا بِعَاقِبَتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾: أي: اختاروا الحظ العاجل الخسيس في الدنيا على الإيمان بالله ورسوله والانقياد لأيات الله، ﴿فَصَدَّوْا﴾: بأنفسهم وصدوا غيرهم ﴿عَنْ سَبِيلِهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (٩).

﴿٧﴾ كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقِيمُوا لَكُمْ فَأَسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ

﴿٨﴾ فَسِقُوتٌ ﴿٨﴾ أَشْتَرُوا بِعَاقِبَتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدَّوْا عَنْ سَبِيلِهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩﴾ لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ ﴿١٠﴾ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوْا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَنُفُصِلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ وَإِنْ تَكُونُوا أَيْمَنَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعْنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَبِلُوا أَيْمَةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَنَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُرُوا ﴿١٢﴾ أَلَا تَنْفُلُونَ قَوْمًا نَكَحُوا أَخْيَنَهُمْ وَهَكُومًا يَخْرُجُ الرُّسُولُ وَهُمْ بَدُّكُمْ أُولَئِكَ مَرَّةٌ كَثُفْتُمْ قُلُوبُهُمْ فَأَلَّ اللَّهُ أَحْقَ أَنْ تَنْفُسُوهُنَّ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾

ففي الدين، وتصدى للرد عليه فإنه من أئمة الكفر. ﴿إِنَّهُمْ لَا آيَةَ لَنَا بِهِمْ﴾؛ أي: لا عهود ولا موافيق يلازمون على الوفاء بها، بل لا يزالون خائنين ناكثين للعهد لا يوثق منهم. ﴿لَمَّا هَمَّ﴾؛ في قتالكم إياهم ﴿يَنْتَهُوْنَ﴾ ﴿عَنِ الطَّعْنِ فِي دِينِكُمْ، وَرَبَّمَا دَخَلُوا فِيهِ﴾.

ثم حث على قتالهم وهيج المؤمنين بذكر الأوصاف التي صدرت من هؤلاء الأعداء، والتي هم موصوفون بها، المقضية لقتالهم، فقال: ﴿أَلَا تَقْتُلُونَ قَوْمًا نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وُكُّوا بِأَحْزَابِكُمْ أُولَٰئِكَ لَعُنَ لَهُمُ اللَّهُ وَطَغَىٰ عَلَيْهِمْ وَهُمْ فِي ظُلُمٍ أَكْبَرٍ﴾ الذي يجب احترامه وتقديره وتعظيمه، وهموا أن يجلوه ويخرجوه من وطنه، وسعوا في ذلك ما أمكنهم، ﴿وَهُمْ بِذُنُوبِهِمْ لَدُونَكُمْ لَوْلَا آلُ مَرْثُومٍ﴾ حيث نقضوا العهود، وأعانوا عليكم وذلك حيث أعانت قريش وهم معاهدون بني بكر حلفاءهم على خزاعة حلفاء رسول الله ﷺ، وقاتلوا معهم كما هو مذكور مبسوط في السيرة. ﴿أَتَحْشَوْنَ اللَّهَ﴾ في ترك قتالهم؟ ﴿فَاللَّهُ أَشَقُّ أَنْ تَحْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ فالله أمركم بقتالهم، وأكد ذلك عليكم غاية التأكيد؛ فإن كنتم مؤمنين؛ فامتلوا لأمر الله، ولا تخشوهم فتركوا أمر الله.

يقول تعالى بعدما ذكر أن المعاهدين من المشركين إن استقاموا على عهدهم فاستقيموا لهم على الوفاء: ﴿وَإِنْ نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ﴾؛ أي: نقضوها وحلوها؛ فقاتلوكم أو أعانوا على قتالكم أو نقصوكم، ﴿وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ﴾؛ أي: عابوه وسخروا منه، ويدخل في هذا جميع أنواع الطعن الموجهة إلى الدين أو إلى القرآن، ﴿فَقَتَلُوا أَيْمَةَ الْكُفْرِ﴾؛ أي: القادة فيه، الرؤساء الطاعنين في دين الرحمن، الناصرين لدين الشيطان. وخصهم بالذكر لعظم جناتهم ولأن غيرهم تبع لهم، وليلد على أن من طعن

﴿١٤﴾ ثم أمر بقتالهم، وذكر ما يترتب على قتالهم من الفوائد وكل هذا حث وإنهاض للمؤمنين على قتالهم فقال: ﴿فَقَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ﴾: بالقتل، ﴿وَيُخْزِيهِمْ﴾: إذا نصركم الله عليهم، وهم الأعداء الذين يطلب خزيهم ويحرص عليه، ﴿وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ﴾: هذا وعد من الله وبشارة قد أنجزها، ﴿وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ﴾ ﴿١٥﴾.

لِلَّذِينَ هُمْ

سُورَةُ التَّوْبَةِ

﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِجَنَّةٍ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ (١٦).

﴿١٦﴾ يقول تعالى لعباده المؤمنين بعدما أمرهم بالجهاد: ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا ﴾: من دون ابتلاء وامتحان وأمر بما يبين به الصادق والكاذب، ﴿ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ ﴾: أي: علماً يظهر مما في القوة إلى الخارج؛ ليرتب عليه الثواب والعقاب، فيعلم الذين يجاهدون في سبيله لإعلاء كلمته، ﴿ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِجَنَّةٍ ﴾: أي: ولياً من الكافرين، بل يتخذون الله ورسوله والمؤمنين أولياء. فشرع الله الجهاد ليحصل به هذا المقصود الأعظم، وهو أن يتميز الصادقون الذين لا يتحيزون إلا لدين الله من الكاذبين الذين يزعمون الإيمان، وهم يتخذون الولائج والأولياء من دون الله ولا رسوله ولا المؤمنين. ﴿ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ (١٦): أي: يعلم ما يصير منكم ويصدر، فيبتليكم بما يظهر به حقيقة ما أنتم عليه، ويجازيكم على أعمالكم خيراً وشرها.

﴿ مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسْجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالْكَفْرِ أُولَئِكَ حِطَّتْ أَعْمَالُهُمْ فِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ ﴾ (١٧) إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسْجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَحْشَ إِلَى اللَّهِ فَعَسَى أُولَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ ﴾ (١٨).

﴿١٧﴾ يقول تعالى: ﴿ مَا كَانَ ﴾: أي: ما ينبغي، ولا يليق ﴿ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسْجِدَ اللَّهِ ﴾: بالعبادة والصلاة وغيرها من أنواع الطاعات، والحال أنهم شاهدون ومقرون على أنفسهم بالكفر بشهادة حالهم وفطرتهم وعلم كثير منهم أنهم على الكفر والباطل؛ فإذا كانوا ﴿ شَاهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالْكَفْرِ ﴾ وعدم الإيمان الذي هو شرط لقبول الأعمال؛ فكيف يزعمون أنهم عمار مساجد الله؛ والأصل منهم مفقود والأعمال منهم باطلة؟! ولهذا قال: ﴿ أُولَئِكَ حِطَّتْ أَعْمَالُهُمْ ﴾؛ أي: بطلت وضلت. ﴿ وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ ﴾ (١٧).

﴿١٨﴾ ثم ذكر من هم عمار مساجد الله، فقال: ﴿ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسْجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ ﴾: الواجبة والمستحبة بالقيام بالظاهر منها والباطن، ﴿ وَآتَى الزَّكَاةَ ﴾: لأهلها، ﴿ وَلَمْ يَحْشَ إِلَى اللَّهِ ﴾: أي: قصر خشيته على ربه، فكف عما حرم الله، ولم يقصر بحقوق الله الواجبة؛ فوصفهم بالإيمان النافع، وبالقيام بالأعمال الصالحة التي أمها الصلاة والزكاة، وبخشية الله التي هي أصل كل خير؛ فهؤلاء عمار المساجد على الحقيقة وأهلها الذين هم أهلها. ﴿ فَعَسَى أُولَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ ﴾ (١٨). و(عسى) من الله واجبة، وأما من لم يؤمن بالله ولا باليوم الآخر ولا عنده خشية لله؛ فهذا ليس من عمار مساجد الله ولا من أهلها الذين هم أهلها، وإن زعم ذلك وادعاه.

﴿ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ (١٩) الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ

سورة التوبة

سورة التوبة

هُرُّ الْفَاقِرُونَ ﴿١٩﴾ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّتْ لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُقِيمٌ ﴿٢٠﴾ خَلِيدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢١﴾

﴿١٩﴾ لما اختلف بعض المسلمين أو بعض المسلمين وبعض المشركين في تفضيل عمارة المسجد الحرام بالبناء والصلاة والعبادة فيه وسقاية الحاج على الإيمان بالله والجهاد في سبيله؛ أخبر الله تعالى بالتفاوت بينهما، فقال: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ﴾؛ أي: سقيهم الماء من زمزم؛ كما هو المعروف إذا أطلق هذا الاسم أنه المراد، ﴿وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْقَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ﴾: فالجهاد والإيمان بالله أفضل من سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام بدرجات كثيرة؛ لأن الإيمان أصل الدين وبه تقبل الأعمال وتركوا الخصال، وأما الجهاد في سبيل الله؛ فهو ذروة سنام الدين، الذي به يحفظ الدين الإسلامي ويتسع، وينصر الحق ويخذل الباطل، وأما عمارة المسجد الحرام وسقاية الحاج؛ فهي، وإن كانت أعمالاً صالحة؛ فهي متوقفة على الإيمان، وليس فيها من المصالح ما في الإيمان والجهاد؛ فلذلك قال: ﴿لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾؛ أي: الذين وصفهم الظلم،

يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّتْ لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُقِيمٌ ﴿١٩﴾ خَلِيدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٠﴾ يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا ءَابَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٢١﴾ قُلْ إِنْ كَانَ ءَابَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَبُيُوتٌ تَبْنُونَ كَسَادَهَا وَمَسْكَنٌ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرٍ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٢٢﴾ لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ عَجَبْتُمْ كَثْرَتَكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَصَافَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَآرِحُجَّتِ ثُمَّ وَلَيْتُمْ مُدِيرِينَ ﴿٢٣﴾ ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴿٢٤﴾

الذين لا يصلحون لقبول شيء من الخير، بل لا يليق بهم إلا الشر.

﴿٢٢﴾ ثم صرح بالفضل فقال: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ﴾: بالنفقة في الجهاد وتجهيز الغزاة، وأنفسهم. بالخروج بالنفس، ﴿أَعْظَمَ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاقِرُونَ﴾؛ أي: لا يفوز بالمطلوب، ولا ينجو من المرهوب إلا من اتصف بصفاتهم، وتخلق بأخلاقيهم.

﴿٢٣﴾ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ: رحمة منه وكرماً وبراً بهم واعتناء ومحبة لهم، ﴿بِرَحْمَةٍ مِنْهُ﴾: أزال بها عنهم الشور، وأوصل إليهم بها كل خير، ﴿وَرِضْوَانٍ﴾: منه تعالى عليهم، الذي هو أكبر نعيم الجنة وأجله، فيحل عليهم رضوانه؛ فلا يسخط عليهم أبداً، ﴿وَجَنَّتْ لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُقِيمٌ﴾: من كل ما اشتتهه الأنفس وتلذ الأعين مما لا يعلم وصفه ومقداره إلا الله تعالى، الذي منه أن الله أعد للمجاهدين في سبيله مائة درجة، ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض، ولو اجتمع الخلق في درجة واحدة منها؛ لوسعتم.

﴿٢٤﴾ خَلِيدِينَ فِيهَا أَبَدًا: لا يتقلون عنها ولا ييغون عنها حولاً. ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾: لا تستغرب كثرة على فضل الله، ولا يتعجب من عظمه وحسنه على من يقول للشيء: كن؛ فيكون.

﴿٢٥﴾ يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا ءَابَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٦﴾ قُلْ إِنْ كَانَ ءَابَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَبُيُوتٌ تَبْنُونَ كَسَادَهَا وَمَسْكَنٌ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرٍ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٢٧﴾

يجب عليه.

﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّذَبِّبِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٧﴾﴾.

يمتن تعالى على عباده المؤمنين بنصره إياهم في مواطن كثيرة من مواطن اللقاء ومواضع الحروب والهيئات، حتى في يوم حنين الذي اشتدت عليهم فيه الأزمة ورأوا من التخاذل والفرار ما ضاقت عليهم به الأرض على رحبها وسعتها، وذلك أن النبي ﷺ لما فتح مكة؛ سمع أن هوازن اجتمعوا لحربه، فسار إليهم ﷺ في أصحابه الذين فتحوا مكة وبمن أسلم من الطلقاء أهل مكة، فكانوا اثني عشر ألفاً، والمشركون أربعة آلاف، فأعجب بعض المسلمين بكثرتهم، وقال بعضهم: لن نغلب اليوم من قلة، فلما التقوا هم وهوازن؛ حملوا على المسلمين حملة واحدة، فانهزموا لا يلوي أحد على أحد، ولم يبق مع رسول الله ﷺ إلا نحو مائة رجل ثبتوا معه، وجعلوا يقاتلون المشركين، وجعل النبي ﷺ يُرْكُضُ بِغُلَّتِهِ نحو المشركين ويقول: «أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب»^(١). ولما رأى من المسلمين ما رأى؛ أمر العباس ابن عبد المطلب أن ينادي في الأنصار وبقيّة المسلمين، وكان رفيع الصوت، فناداهم: يا أصحاب السُّمُرَةِ! يا أهل سورة البقرة! فلما سمعوا صوته؛ عطفوا عطفة رجل واحد، فاجتلدوا مع المشركين، فهزم الله المشركين هزيمة شنيعة، واستولوا على معسكرهم ونساءهم وأموالهم.

﴿وَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ﴾: وهو اسم للمكان الذي كانت فيه الواقعة بين مكة والطائف، ﴿إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا﴾؛ أي: لم تفدكم شيئاً قليلاً ولا كثيراً، ﴿وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ﴾: - بما أصابكم من الهم والغم حين انهزمت - ﴿بِمَا رَحُبَتْ﴾؛ أي: على رحبها وسعتها، ﴿ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّذَبِّبِينَ ﴿٢٥﴾﴾؛ أي: منهزمين.

(١) مسلم (١٧٧٥، ١٧٧٦).

﴿يَقَاتِبُهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾: اعملوا بمقتضى الإيمان؛ بأن توالوا من قام به وتعادوا من لم يقم به. ﴿لَا تَتَّخِذُوا ءَابَاءَكُمْ وَإِخْوَتَكُمْ﴾: الذين هم أقرب الناس إليكم، وغيرهم من باب أولى وأحرى؛ فلا تتخذوهم ﴿أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا﴾؛ أي: اختاروا على وجه الرضا والمحبة، ﴿الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَوَلَّيْكُمُ الْفَظْلِيلُونَ ﴿٢٦﴾﴾: لأنهم تجرءوا على معاصي الله، واتخذوا أعداء الله أولياء، وأصل الولاية المحبة والنصرة، وذلك أن اتخاذهم أولياء موجب لتقديم طاعتهم على طاعة الله ومحبتهم على محبة الله ورسوله.

ولهذا ذكر السبب الموجب لذلك، وهو أن محبة الله ورسوله يتعين تقديمهما على محبة كل شيء، وجعل جميع الأشياء تابعة لهما، فقال: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَاؤُكُمْ﴾: ومثلهم الأمهات، ﴿وَإِخْوَتُكُمْ﴾: في النسب والعشرة، ﴿وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ﴾؛ أي: قرايبكم عموماً، ﴿وَأَنْتَوُا أَقْرَبُ فَتَمُوتُوهَا﴾؛ أي: اكتسبتموها وتعبتم في تحصيلها، خصها بالذكر لأنها أرغب عند أهلها، وصاحبها أشد حرصاً عليها ممن تأتية الأموال من غير تعب ولا كد. ﴿وَبَخْرَةٌ تَحْشُونَ كَسَادَهَا﴾؛ أي: رخصها ونقصها، وهذا شامل لجميع أنواع التجارات والمكاسب من عروض التجارات من الأثمان والأواني والأسلحة والأمتعة والحبوب والحروث والأنعام وغير ذلك. ﴿وَمَسْكِنٌ تَرْضَوْنَهَا﴾: من حسننها وزخرفتها وموافقتها لأهوائكم؛ فإن كانت هذه الأشياء ﴿أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ﴾: فأنتم فسقة ظلمة، ﴿فَتَرَبَّصُوا﴾؛ أي: انتظروا ما يحل بكم من العقاب، ﴿حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرٍ﴾: الذي لا مرد له. ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٢٧﴾﴾؛ أي: الخارجين عن طاعة الله، المقدمين على محبة الله شيئاً من المذكورات.

وهذه الآية الكريمة أعظم دليل على وجوب محبة الله ورسوله، وعلى تقديمهما على محبة كل شيء، وعلى الوعيد الشديد والمقت الأكيد على من كان شيء من هذه المذكورات أحب إليه من الله ورسوله وجهاد في سبيله، وعلامة ذلك أنه إذا عرض عليه أمران: أحدهما يحبه الله ورسوله وليس لنفسه فيه هوى، والآخر تحبه نفسه وتشتهيه ولكنه يفوت عليه محبوباً لله ورسوله أو ينقصه؛ فإنه إن قدم ما تهواه نفسه على ما يحبه الله؛ دل على أنه ظالم تارك لما

﴿٢٦﴾ ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالسَّكِينَةَ: ما يجعله الله في القلوب وقت القلاقل والزلازل والمفطعات مما يبتتها ويسكنها ويجعلها مطمئنة، وهي من نعم الله العظيمة على العباد، ﴿وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَوْ تَرَوْهَا﴾: وهم الملائكة، أنزلهم الله معونة للمسلمين يوم حنين يُثَبِّتُونَهُمْ وَيُسْرُونَهُمْ بالنصر، ﴿وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾: بالهزيمة والقتل واستيلاء المسلمين على نساءهم وأولادهم وأموالهم. ﴿وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ﴾: يعذبهم الله في الدنيا، ثم يردهم في الآخرة إلى عذاب غليظ.

﴿٢٧﴾ ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَنْ يَشَاءُ: فتاب الله على كثير ممن كانت الوقعة عليهم، وأتوا إلى النبي ﷺ مسلمين تائبين، فرد عليهم نساءهم وأولادهم. ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾: أي: ذو مغفرة واسعة ورحمة عامة، يعفو عن الذنوب العظيمة للتائبين، ويرحمهم بتوفيقهم للتوبة والطاعة والصفح عن جرائمهم وقبول توباتهم، فلا يباأسن أحد من رحمته ومغفرته، ولو فعل من الذنوب والإجرام ما فعل.

﴿يَتَابِعُهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نجسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شَاءَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾.

سورة التوبة
ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٢٧﴾ يَتَابِعُهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نجسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شَاءَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٨﴾ قَتَلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا يَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴿٢٩﴾ وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرُ ابْنِ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِيهِمْ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَتَلْنَا لَهُمُ اللَّهَ أَفَ يُؤْفَكُونَ ﴿٣٠﴾ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْكَبًا بَيْنَ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَنَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾

﴿٢٨﴾ يقول تعالى: ﴿يَتَابِعُهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نجسٌ﴾: أي: خبثاء في عقائدهم وأعمالهم، وأي نجاسة أبلغ ممن كان يعبد مع الله آلهة لا تنفع ولا تضر ولا تغني عنه شيئاً، وأعمالهم ما بين محاربة لله وصد عن سبيل الله ونصر للباطل ورد للحق وعمل بالفساد في الأرض لا في الصلاح؟! فعليكم أن تطهروا أشرف البيوت وأطهرها عنهم؛ ﴿فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا﴾: وهو سنة تسع من الهجرة، حين حج بالناس أبو بكر الصديق، وبعث النبي ﷺ ابن عمه علياً أن يؤذن يوم الحج الأكبر ببراءة، فنادى ألا يحج بعد العام مشرك ولا يطوف بالبيت عريان. وليس المراد هنا نجاسة البدن؛ فإن الكافر كغيره طاهر البدن؛ بدليل أن الله تعالى أباح وطء الكتابة ومباشرتها، ولم يأمر بغسل ما أصاب منها، والمسلمون ما زالوا يباشرون أبدان الكفار، ولم ينقل عنهم أنهم تقذروا منها تقذرهم من النجاسات، وإنما المراد كما تقدم نجاستهم المعنوية بالشرك؛ فكما أن التوحيد والإيمان طهارة؛ فالشرك نجاسة.

وقوله: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً﴾: أيها المسلمون، ﴿عَيْلَةً﴾: أي: فقراً وحاجة من منع المشركين من قربان المسجد الحرام؛ بأن تنقطع الأسباب التي بينكم وبينهم من الأمور الدنيوية، ﴿فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾: فليس الرزق مقصوراً على باب واحد ومحل واحد، بل لا ينغلق باب؛ إلا وفتح غيره أبواب كثيرة؛ فإن فضل الله واسع، وجوده عظيم، خصوصاً لمن ترك شيئاً لوجه الكريم؛ فإن الله أكرم الأكرمين، وقد أنجز الله وعده؛ فإن الله أغنى المسلمين من فضله، وبسط لهم من الأرزاق ما كانوا من أكبر الأغنياء والملوك. وقوله: ﴿إِنْ شَاءَ﴾: تعليق للإغناء بالمشيئة؛ لأن الغنى في الدنيا ليس من لوازم الإيمان، ولا يدل على محبة الله؛ فهذا علقه الله بالمشيئة؛ فإن الله يعطي الدنيا من يحب ومن لا يحب، ولا يعطي الإيمان والدين إلا من يحب. ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾: أي: علمه واسع، يعلم من يليق به الغنى ومن لا يليق، ويضع الأشياء مواضعها، وينزلها منازلها.

الجزية عن يد وهم صاغرون؛ لم يجز إقرارهم بالجزية، بل يقاتلون حتى يسلموا.

واستدل بهذه الآية الجمهور الذين يقولون: لا تؤخذ الجزية إلا من أهل الكتاب؛ لأن الله لم يذكر أخذ الجزية إلا منهم، وأما غيرهم؛ فلم يذكر إلا قتالهم حتى يسلموا. وألحق بأهل الكتاب في أخذ الجزية وإقرارهم في ديار المسلمين المجوس؛ فإن النبي ﷺ أخذ الجزية من مجوس هجر، ثم أخذها أمير المؤمنين عمر من الفرس المجوس^(١).

وقيل: إن الجزية تؤخذ من سائر الكفار من أهل الكتاب وغيرهم؛ لأن هذه الآية نزلت بعد الفراغ من قتال العرب المشركين والشروع في قتال أهل الكتاب ونحوهم، فيكون هذا القيد إخبارًا بالواقع لا مفهومًا له، ويدل على هذا أن المجوس أخذت منهم الجزية وليسوا أهل كتاب، ولأنه قد تواتر عن المسلمين من الصحابة ومن بعدهم أنهم يدعون من يقاتلونهم إلى إحدى ثلاث: إما الإسلام، أو أداء الجزية، أو السيف؛ من غير فرق بين كتابي وغيره.

﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرُ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَتَلْنَا لَهُمُ اللَّهَ إِنَّهُ يَؤْتِكُمُ الْيُفْكُوتَ ﴿٣١﴾ اتَّخَذُوا أَجْزَارَهُمْ وَرُءُوسَهُمْ أَزْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣٢﴾ يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُشَمِّرَ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴿٣٣﴾ أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴿٣٤﴾﴾

﴿٣١﴾ لما أمر تعالى بقتال أهل الكتاب ذكر من أقوالهم الخبيثة ما يبيح المؤمنين الذين يغارون لربهم ولدينه على قتالهم والاجتهاد وبذل الوسع فيه، فقال: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرُ ابْنُ اللَّهِ﴾: وهذه المقالة وإن لم تكن مقالة لعامتهم؛ فقد قالها فرقة منهم، فبدل ذلك على أن في اليهود من الخبث والشر ما أوصلهم إلى أن قالوا هذه المقالة التي تجرؤوا فيها على الله

وتدل الآية الكريمة - وهي قوله: ﴿فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا﴾ - أن المشركين بعدما كانوا هم الملوك والرؤساء بالبيت، ثم صار بعد الفتح الحكم لرسول الله والمؤمنين مع إقامتهم في البيت ومكة المكرمة، ثم نزلت هذه الآية، ولما مات النبي ﷺ؛ أمر أن يُجَلَّوْا من الحجاز؛ فلا يبقى فيها دينان، وكل هذا لأجل بعد كل كافر عن المسجد الحرام، فدخل في قوله: ﴿فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا﴾.

﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴿٣٥﴾﴾

﴿٣٥﴾ هذه الآية أمر بقتال الكفار من اليهود والنصارى من ﴿الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾: إيمانًا صحيحًا يصدقونه بأفعالهم وأعمالهم، ﴿وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ﴾: فلا يتبعون شرعه في تحريم المحرمات، ﴿وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ﴾؛ أي: لا يدينون بالدين الصحيح، وإن زعموا أنهم على دين؛ فإنه دين غير الحق؛ لأنه ما بين دين مبطل وهو الذي لم يشرعه الله أصلًا، وإما دين منسوخ قد شرعه الله ثم غيَّره بشريعة محمد ﷺ، فيبقى التمسك به بعد النسخ غير جائز. فأمره بقتال هؤلاء وحث على ذلك لأنهم يدعون إلى ما هم عليه، ويحصل الضرر الكثير منهم للناس، بسبب أنهم أهل كتاب. وغيًا ذلك القتال: ﴿حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ﴾؛ أي: المال الذي يكون جزاء لترك المسلمين قتالهم وإقامتهم آمنين على أنفسهم وأموالهم بين أظهر المسلمين، يؤخذ منهم كل عام كل على حسب حاله من غني وفقير ومتوسط؛ كما فعل ذلك أمير المؤمنين عمر بن الخطاب وغيره من أمراء المؤمنين. وقوله: ﴿عَنْ يَدٍ﴾؛ أي: حتى يبذلوها في حال ذلهم، وعدم اقتدارهم، ويعطوها بأيديهم، فلا يرسلون بها خادماً، ولا غيره، بل لا تقبل إلا من أيديهم. ﴿وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾: ﴿٣٦﴾ فإذا كانوا بهذه الحال، وسألوا المسلمين أن يقروهم بالجزية وهم تحت أحكام المسلمين وقهرهم، وحال الأمن من شرهم وفتنتهم، واستسلموا للشروط التي أجراها عليهم المسلمون، مما ينفي عزمهم وتكبرهم وتوجب ذلهم وصغارهم؛ وجب على الإمام أو نائبه أن يعقدها لهم، وإلا؛ بأن لم يفوا ولم يعطوا

وتنقصوا عظمته وجلاله. وقد قيل: إن سبب ادعائهم في عزير أنه ابن الله: أنه لما سلط الله الملوك على بني إسرائيل ومزقهم كل ممزق وقتلوا حملة التوراة؛ وجدوا عزيرًا بعد ذلك حافظًا لها أو أكثرها، فأملأها عليهم من حفظه، واستنسخوها. فادعوا فيه هذه الدعوى الشنيعة. **﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ الْمَسِيحُ﴾** عيسى ابن مريم **﴿ابْنُ اللَّهِ﴾**، قال الله تعالى: **﴿ذَلِكَ﴾** القول الذي قالوه، **﴿قَوْلُهُمْ يَأْفُوهُمْ﴾**؛ لم يقيموا عليه حجة ولا برهانًا، ومن كان لا يبالي بما يقول لا يستغرب عليه أي قول بقوله؛ فإنه لا دين ولا عقل يحجزه عما يريد من الكلام، ولهذا قال: **﴿يُضَاهِيهِمْ﴾**؛ أي: يشابهون في قولهم هذا **﴿قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ﴾**؛ أي: قول المشركين الذين يقولون الملائكة بنات الله، تشابهت قلوبهم فتشابهت أقوالهم في البطلان. **﴿قَتَلَهُمُ اللَّهُ أَتَى يَوْمَ الْفُكُورِ﴾**؛ أي: كيف يصرفون عن الحق الصرف الواضح المبين إلى القول الباطل المبين؟! **﴿٢١﴾**

وهذا وإن كان يستغرب على أمة كبيرة كثيرة أن تتفق على قول يدل على بطلانه أدنى تفكر وتسلط للعقل عليه؛ فإن لذلك سببًا، وهو أنهم **﴿اتَّخَذُوا أَجْرَهُمْ﴾**؛ وهم علمائهم، **﴿وَرَهَبْتَهُمْ﴾**؛ أي: العباد المتجردين للعبادة، **﴿أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾**؛ يحلون لهم ما حرم الله فيحلونه، ويحرمون لهم ما أحل الله فيحرمونه، ويشرعون لهم من الشرائع والأقوال المناهية لدين الرسل، فيتبعونهم عليها، وكانوا أيضًا يغفلون في مشايخهم وعبادهم، ويعظمونهم، ويتخذون قبورهم أوثانًا تعبد من دون الله، وتقصد بالبذائح والدعاء والاستغاثة. **﴿وَالْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾**؛ اتخذوه إلهًا من دون الله، والحال أنهم خالفوا في ذلك أمر الله لهم على ألسنة رسله، فما **﴿أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا إِلَّا هُوَ﴾**؛ فيخلصون له العبادة والطاعة ويخصونه بالمحبة والدعاء، فنبذوا أمر الله، وأشركوا به ما لم ينزل به سلطانًا. **﴿سُبْحَنَهُ﴾**؛ وتعالى **﴿عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾**؛ أي: تنزهه وتقدس وتعالته عظمته عن شركهم وافترائهم؛ فإنهم يتقصونه في ذلك ويصفونه بما لا يليق بجلاله، والله تعالى العالي في أوصافه وأفعاله عن كل ما نسب إليه مما ينافي كماله المقدس. **﴿٢٢﴾**

فلما تبين أنه لا حجة لهم على ما قالوه ولا برهان لما أصلوه، وإنما هو مجرد قول قالوه واقتراء افتروه؛ أخبر أنهم **﴿يُرِيدُونَ﴾** بهذا **﴿أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ يَأْفُوهُمْ﴾**؛ ونور الله دينه الذي أُرْسِلَ به الرسل وأنزل به الكتب، وسماه الله نورًا لأنه يستنار به في ظلمات الجهل والأديان الباطلة؛ فإنه علم بالحق وعمل بالحق، وما عداه فإنه بضد؛ فهو لاء اليهود والنصارى ومن ضاهاهم من المشركين، يريدون أن يطفئوا نور الله بمجرد أقوالهم التي ليس عليها دليل أصلاً. **﴿وَيَأْتِ اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُسَمَّرَ نُورُهُ﴾**؛ لأنه النور الباهر، الذي لا يمكن لجميع الخلق لو اجتمعوا على إطفائه أن يطفئوه، والذي أنزله لجميع نواصي العباد بيده، وقد تكفل بحفظه من كل من يريده بسوء، ولهذا قال: **﴿وَيَأْتِ اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُسَمَّرَ نُورُهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾**؛ وسعوا ما أمكنهم في رده وإبطاله؛ فإن سعيهم لا يضر الحق شيئًا. **﴿٢٣﴾**

ثم بين تعالى هذا النور الذي قد تكفل بإتمامه وحفظه، فقال: **﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى﴾**؛ الذي هو العلم النافع، **﴿وَدِينَ الْحَقِّ﴾** الذي هو العمل الصالح، فكان ما بعث الله به محمدًا ﷺ مشتملًا على بيان الحق من الباطل في أسماء الله وأوصافه وأفعاله، وفي أحكامه وأخباره، والأمر بكل مصلحة نافعة للقلوب والأرواح والأبدان؛ من إخلاص

سورة التوبة
يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ يَأْفُوهُمْ وَيَأْتِ اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُسَمَّرَ نُورُهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ
أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الَّذِينَ كَفَلَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ
يَتَأْتِي الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ كَثِيرًا مِنْ الْأَجْبَارِ وَالرَّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ يَكْتُمُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يَفْقَهُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ
يَوْمَ يُخَمَّنُ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَرَزْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ فَذُقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ
إِنَّ عَذَابَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ أَثَنَاءَ عَشْرٍ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرْمٌ ذَلِكَ الَّذِينَ أُلْقِمُوا فِيهِمْ أَنْفُسَكُمْ وَقَتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَأَفَّةً كَمَا يَقْتُلُونَكُمْ كَأَفَّةً وَعَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ

﴿٣٥﴾ ثم فسره بقوله: ﴿يَوْمَ يُحْصَىٰ عَلَيْهَا﴾؛ أي: على أموالهم ﴿فِي نَارِ جَهَنَّمَ﴾: فيحصى كل دينار أو درهم على حِدَّتِهِ، ﴿فَتَكُونُ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُورُهُمْ وَظُهُورُهُمْ﴾: في يوم القيامة، كلما بردت؛ أعيدت، في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة، ويقال لهم توبيخًا ولومًا: ﴿هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ﴾ ﴿٣٥﴾: فما ظلمكم، ولكنكم ظلمتم أنفسكم، وعذبتموها بهذا الكثر.

وذكر الله في هاتين الآيتين انحراف الإنسان في ماله، وذلك بأحد أمرين: إما أن ينفقه في الباطل الذي لا يجدي عليه نفعًا، بل لا يناله منه إلا الضرر المحض، وذلك كإخراج الأموال في المعاصي والشهوات التي لا تعين على طاعة الله، وإخراجها للصد عن سبيل الله. وإما أن يمسك ماله عن إخراجها في الواجبات، والنهي عن الشيء أمر بضده.

﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرْمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ وَقَتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقْتُلُونَكُم كَافَّةً وَعَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ ﴿٣٦﴾.

﴿٣٦﴾ يقول تعالى: ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ﴾؛ أي: في قضاء الله وقدره ﴿اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا﴾: وهي هذه الشهور المعروفة ﴿فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾؛ أي: في حكمه القديري، ﴿يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾: وأجرى ليها ونهارها، وقدر أوقاتها، فقسمها على هذه الشهور الاثني عشر شهرًا. ﴿وَمِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرْمٌ﴾: وهي رجب الفرد وذو القعدة وذو الحجة والمحرم، وسميت حرماً لزيادة حرمتها وتحريم القتال فيها. ﴿فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ﴾: يُحْتَمَلُ أَنْ الضمير يعود إلى الاثني عشر شهرًا، وأن الله تعالى بين أنه جعلها مقادير للعباد، وأن تُعَمَّرَ بطاعته، ويشكر الله تعالى على منته بها، وتقيضها لمصالح العباد، فلتحذروا من ظلم أنفسكم فيها. ويحتمل أن الضمير يعود إلى الأربعة الحرم، وأن هذا النهي لهم عن الظلم فيها خصوصًا، مع النهي عن الظلم كل وقت؛ لزيادة تحريمها وكون الظلم فيها أشد منه في غيرها، ومن ذلك النهي عن القتال فيها على قول من قال: إن القتال في الأشهر الحرم لم يُنسخ تحريمه؛ عملاً بالنصوص العامة في تحريم القتال فيها، ومنهم من قال: إن تحريم القتال فيها

الدين لله وحده، ومحبة الله وعبادته، والأمر بمكارم الأخلاق ومحاسن الشيم والأعمال الصالحة والآداب النافعة، والنهي عن كل ما يصاد ذلك ويناقضه من الأخلاق والأعمال السيئة المضرة للقلوب والأبدان والدنيا والآخرة، فأرسله الله بالهدى ودين الحق؛ ﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ ﴿٣٦﴾؛ أي: ليعليه على سائر الأديان؛ بالحجة والبرهان، والسيف والسنان، وإن كره المشركون ذلك، وبغوا له الغوائل، ومكروا مكروهم؛ فإن المكر السيئ لا يُضر إلا صاحبه؛ فوعد الله لا بد أن ينجزه وما ضمنه لا بد أن يقوم به.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لِيَأْكُلُوا أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْكَطِلِ وَيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبِشْرُهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ ﴿٣٧﴾
يَوْمَ يُحْصَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتَكُونُ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُورُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ ﴿٣٨﴾.

﴿٣٧﴾ هذا تحذير من الله تعالى لعباده المؤمنين عن كثير من الأحبار والرهبان؛ أي: العلماء والعباد الذين يأكلون أموال الناس بالباطل؛ أي: بغير حق ويصدون عن سبيل الله؛ فلأنهم إذا كانت لهم رواتب من أموال الناس، أو بذل الناس لهم من أموالهم؛ فإنه لأجل علمهم وعبادتهم ولأجل هدايتهم، وهؤلاء يأخذونها ويصدون الناس عن سبيل الله، فيكون أخذهم لها على هذا الوجه سحتًا وظلمًا؛ فإن الناس ما بذلوا لهم من أموالهم إلا ليدلوهم على الطريق المستقيم، ومن أخذهم لأموال الناس بغير حق أن يعطوهم ليفتوهم، أو يحكموا لهم بغير ما أنزل الله؛ فهؤلاء الأحبار والرهبان ليحذر منهم هاتان الحالتان: أخذهم لأموال الناس بغير حق، وصددهم الناس عن سبيل الله.

﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ﴾؛ أي: يمسكونها، ﴿وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾؛ أي: طرق الخير الموصلة إلى الله، وهذا هو الكثر المحرم: أن يمسكها عن النفقة الواجبة، كأن يمنع منها الزكاة أو النفقات الواجبة للزوجات أو الأقارب أو النفقة في سبيل الله إذا وجبت؛ ﴿فَبِشْرُهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ ﴿٣٨﴾.

منسوخ أخذًا بعموم نحو قوله: ﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً﴾؛ أي: قاتلوا جميع أنواع المشركين والكافرين برب العالمين، ولا تخلصوا أحدًا منهم بالقتال دون أحد، بل اجعلوهم كلهم لكم أعداء كما كانوا هم معكم كذلك قد اتخذوا أهل الإيمان أعداء لهم لا يألوهم من الشر شيئًا، ويحتمل أن ﴿كَافَّةً﴾ حال من الواو، فيكون معنى هذا: وقاتلوا جميعكم المشركين، فيكون فيها وجوب التفير على جميع المؤمنين، وقد نسخت على هذا الاحتمال بقوله: ﴿وَمَا كَانَتِ الْمُؤْمِنُونَ لِیَنْفِرُوا كَافَّةً﴾ [التوبة: ١٢٢] الآية. ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ ﴿٣٦﴾: بعونه ونصره وتأييده، فلتحرصوا على استعمال تقوى الله في سرکم وعلنکم والقيام بطاعته، خصوصًا عند قتال الكفار؛ فإنه في هذه الحال ربما ترك المؤمن العمل بالتقوى في معاملة الكفار الأعداء المحاربين.

﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحْلُونَهُ عَامًا وَيُكْرِمُونَهُ عَامًا لِيُؤَاطُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيَحْلُوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ زُنْتَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ ﴿٣٧﴾.

﴿٣٧﴾ النسيء هو ما كان أهل الجاهلية يستعملونه في الأشهر الحرم، وكان من جملة بدعهم الباطلة أنهم لما رأوا احتياجهم للقتال في بعض أوقات الأشهر الحرم؛ رأوا بآرائهم الفاسدة أن يحافظوا على عدة الأشهر الحرم التي حرم الله القتال فيها، وأن يؤخروا بعض الأشهر الحرم أو يقدموه ويجعلوا مكانه من أشهر الحل ما أرادوا؛ فإذا جعلوه مكانه؛ أحلوا القتال فيه، وجعلوا الشهر الحلال حرامًا؛ فهذا كما أخبر الله عنهم أنه زيادة في كفرهم وضلالهم؛ لما فيه من المحاذير:

منها: أنهم ابتدعوه من تلقاء أنفسهم، وجعلوه بمنزلة شرع الله ودينه، والله ورسوله بريئان منه.

ومنها: أنهم قلبوا الدين، فجعلوا الحلال حرامًا والحرام حلالًا.

ومنها: أنهم مؤهوا على الله بزعمهم وعلى عباده، ولَبَّسُوا عليهم دينهم، واستعملوا الخداع والحيلة في دين الله.

ومنها: أن العوائد المخالفة للشرع مع الاستمرار عليها يزول قبحها عن النفوس، وربما ظن أنها عوائد حسنة، فحصل من الغلط والضلال ما حصل.

ولهذا قال: ﴿يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحْلُونَهُ عَامًا وَيُكْرِمُونَهُ عَامًا لِيُؤَاطُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ﴾؛ أي: ليوافقوها في العدد، ﴿فَيَحْلُوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ زُنْتَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ﴾؛ أي: زينت لهم الشياطين الأعمال السيئة، فرأوها حسنة بسبب العقيدة المزينة في قلوبهم. ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ ﴿٣٧﴾؛ أي: الذين انصبغ الكفر والتكذيب في قلوبهم، فلو جاءتهم كل آية لم يؤمنوا.

ثم قال تعالى:

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ أَنْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَنَّا قُلْنَا إِلَى الْأَرْضِ أَرْضِيكُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا

سورة التوبة
سورة التوبة
إِنَّمَا السَّبِيلُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحْلُونَهُ عَامًا وَيُكْرِمُونَهُ عَامًا لِيُؤَاطُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيَحْلُوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ زُنْتَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿٣٧﴾ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ أَنْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَنَّا قُلْنَا إِلَى الْأَرْضِ أَرْضِيكُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَّعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٣٨﴾ إِلَّا تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّا نَظُنُّ أَنَّ اللَّهَ مَعَنَا قَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾

حاله أن يتوعده الله بالوعيد الشديد، فقال: ﴿إِلَّا تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلَ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾: ثم لا يكونوا أمثالكم، ﴿وَلَا تَضُرُّهُ شَيْئًا﴾؛ فإنه تعالى متكفل بنصر دينه وإعلاء كلمته؛ فسواء امتثلتم لأمر الله أو ألقيتموه وراءكم ظهريًا. ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾: لا يعجزه شيء أرادته ولا يغالبه أحد.

﴿إِلَّا تَضُرُّهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْفَكَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّا نَكُونُ اللَّهُ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْغَلِيَّةُ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.

﴿أَي:﴾ إلاتصروا رسوله محمدًا ﷺ؛ فالله غني عنكم، لا تضرونه شيئًا؛ فقد نصره في أقل ما يكون وأذله ﴿إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾: من مكة، لما هموا بقتله وسعوا في ذلك وحرصوا أشد الحرص فألجئوه إلى أن يخرج. ﴿ثَانِيَ اثْنَيْنِ﴾؛ أي: هو وأبو بكر الصديق رضي الله عنه. ﴿إِذْ هُمَا فِي الْفَكَارِ﴾؛ أي: لما هربا من مكة؛ لجأ إلى غار ثور في أسفل مكة، فمكثا فيه ليبرد عنهما الطلب؛ فهما في تلك الحالة الحرجة الشديدة المشقة حين انتشر الأعداء من كل جانب يطلبونهما ليقتلوهما، فأنزل الله عليهما من نصره ما لا يخطر على البال. ﴿إِذْ يَقُولُ﴾: النبي ﷺ ﴿لِصَاحِبِهِ﴾: أبي بكر لما حزن واشتد قلقة: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّا نَكُونُ اللَّهُ مَعَنَا﴾: يعونه ونصره وتأيدته، ﴿فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ﴾؛ أي: الثبات والطمأنينة والسكون المثبتة للنفوس، ولهذا لما قلق صاحبه؛ سكنه وقال: لا تحزن إن الله معنا. ﴿وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا﴾: وهي الملائكة الكرام، الذين جعلهم الله حرسًا له.

﴿وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى﴾؛ أي: الساقطة المخذولة؛ فإن الذين كفروا قد كانوا على حُرْدٍ قادرين في ظنهم على قتل الرسول ﷺ وأخذهم حقيقين عليه، فعملوا غاية مجهودهم في ذلك، فخذلهم الله ولم يتم لهم مقصودهم، بل ولا أدركوا شيئًا منه، ونصر الله رسوله بدفعه عنه، وهذا هو النصر المذكور في هذا الموضع؛ فإن النصر

مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَّعَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلَ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾.

﴿٣٨﴾ اعلم أن كثيرًا من هذه السورة الكريمة نزلت في غزوة تبوك، إذ ندب النبي ﷺ المسلمين إلى غزو الروم، وكان الوقت حارًا والزاد قليلًا والمعيشة عسيرة؛ فحصل من بعض المسلمين من التثاقل ما أوجب أن يعاتبهم الله تعالى عليه ويستنهضهم، فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾: ألا تعملون بمقتضى الإيمان ودواعي اليقين من المبادرة لأمر الله والمصارعة إلى رضاه وجهاد أعدائه والنصرة لدينكم؛ ف﴿مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ أَنْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَنْتَقَلَبُوا إِلَى الْآخِرَةِ﴾؛ أي: تكاسلتم وملتم إلى الأرض والدعة والسكون فيها. ﴿أَرْضِيئُكُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ﴾؛ أي: ما حالكم إلا حال من رضي بالدنيا وسعى لها ولم يبال بالآخرة؛ فكانه ما آمن بها. ﴿فَمَا مَتَّعَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾: التي مالت بكم وقد متموها على الآخرة ﴿إِلَّا قَلِيلٌ﴾: أفلست قد جعل الله لكم عقولًا تزنون بها الأمور؟ وأيها أحق بالإيثارة! أفلست الدنيا من أولها إلى آخرها لا نسبة لها في الآخرة! فما مقدار عمر الإنسان القصير جدًا من الدنيا حتى يجعله الغاية التي لا غاية وراءها فيجعل سعيه وكده وهمه وإرادته لا يتعدى الحياة الدنيا القصيرة المملوءة بالأكدار المشحونة بالآخطار؟ فبأي رأي رأيتم إيثارها على الدار الآخرة، الجامعة لكل نعيم، التي فيها ما تشهيه الأنفس وتلذ الأعين وأنتم فيها خالدون؟ فوالله ما أثر الدنيا على الآخرة من وقر الإيمان في قلبه، ولا من جزل رأيه، ولا من عدد من أولي الألباب.

﴿٣٩﴾ ثم توعدهم على عدم النفي، فقال: ﴿إِلَّا تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾: في الدنيا والآخرة؛ فإن عدم النفي في حال الاستنفار من كبائر الذنوب الموجبة لأشد العقاب؛ لما فيها من المضار الشديدة؛ فإن المتخلف قد عصى الله تعالى، وارتكب لنهي، ولم يساعد على نصر دين الله، ولا ذب عن كتاب الله وشرعه، ولا أعان إخوانه المسلمين على عدوهم الذي يريد أن يستأصلهم ويمحق دينهم، وربما اقتدى به غيره من ضعفاء الإيمان، بل ربما فت في أعضاد من قاموا بجهاد أعداء الله؛ فحقيق بمن هذا

على قسمين: نصر المسلمين إذا طمعوا في عدوهم بأن يتم الله لهم ما طلبوا وقصدوا ويستولوا على عدوهم ويظهروا عليهم. والثاني: نصر المستضعف الذي طمع فيه عدوه القادر، فنصر الله إياه أن يرد عنه عدوه، ويدافع عنه، ولعل هذا النصر أنفع النصرين، ونصر الله رسوله إذ أخرجه الذين كفروا ثاني اثنين من هذا النوع. وقوله: ﴿وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا﴾. أي: كلماته القدريه وكلماته الدينية هي العالية على كلمة غيره، التي من جملتها قوله: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿[الروم: ٤٧]﴾، ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾ ﴿[غافر: ٥١]﴾، ﴿وَإِنْ جُنَدْنَا لَهُمُ الْقَلِيلُونَ﴾ ﴿[الصافات: ١٧٣]﴾. فدين الله هو الظاهر العالي على سائر الأديان بالحجج الواضحة والآيات الباهرة والسلطان الناصر. ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ﴾: لا يغالبه مغالب ولا يفوته هارب. ﴿حَكِيمٌ﴾: يضع الأشياء مواضعها، ويؤخر نصر حزبه إلى وقت آخر اقتضته الحكمة الإلهية.

وفي هذه الآية الكريمة فضيلة أبي بكر الصديق بخصيصه لم تكن لغيره من هذه الأمة، وهي الفوز بهذه المنقبة الجليلة والصحة الجميلة، وقد أجمع المسلمون على أنه هو المراد بهذه الآية الكريمة، ولهذا عدوا من أنكروا صحة أبي بكر للنبي ﷺ كافراً؛ لأنه منكر للقرآن الذي صرح بها. وفيها فضيلة السكينة، وأنها من تمام نعمة الله على العبد في أوقات الشدائد والمخاوف التي تطيش لها الأئدة، وأنها تكون على حسب معرفة العبد بربه وثقته بوعده الصادق، وبحسب إيمانه وشجاعته. وفيها أن الحزن قد يعرض لخواص عباد الله الصديقين، مع أن الأولى إذا نزل بالعبد أن يسعى في ذهابه عنه؛ فإنه مضعف للقلب موهن للعزيمة.

﴿أَنِفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ ﴿٤١﴾ لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّاتَّبَعُوكَ وَلَكِنْ بَدَّتْ عَلَيْهِمُ الشَّقَّةُ وَسَيَّحِلَفُونَ بِاللَّهِ لَوْ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ ﴿٤٢﴾.

﴿٤١﴾ يقول تعالى لعباده المؤمنين مهيجاً لهم على النفير في سبيله، فقال: ﴿أَنِفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا﴾. في العسر واليسر، والمنشط والمكره، والحر والبرد، وفي جميع الأحوال، ﴿وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾؛ أي: ابدلوا جهدكم في ذلك، واستفرغوا وسعكم في المال والنفس. وفي هذا دليل على أنه كما يجب الجهاد في النفس يجب الجهاد في المال حيث اقتضت الحاجة ودعت لذلك. ثم قال: ﴿ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ ﴿٤١﴾. أي: الجهاد في النفس والمال خير لكم من التقاعد عن ذلك؛ لأن فيه رضا الله تعالى، والفوز بالدرجات العاليات عنده، والنصر لدين الله، والدخول في جملة جنده وحزبه.

﴿٤٢﴾ ﴿لَوْ كَانَ﴾: خروجهم لطلب عرض قريب أو منفعة دنيوية سهلة التناول. وكان السفر سفراً ﴿قَاصِدًا﴾؛ أي: قريباً سهلاً ﴿لَّاتَّبَعُوكَ﴾: لعدم المشقة الكثيرة، ﴿وَلَكِنْ بَدَّتْ عَلَيْهِمُ الشَّقَّةُ﴾؛ أي: طالت عليهم المسافة، وصعب عليهم السفر؛ فلذلك تناقلوا عنك، وليس هذا من أمارات العبودية، بل العبد حقيقة المتعبد لربه في كل حال، القائم بالعبادة السهلة والشاقة؛

سورة التوبة
أَنِفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّاتَّبَعُوكَ وَلَكِنْ بَدَّتْ عَلَيْهِمُ الشَّقَّةُ وَسَيَّحِلَفُونَ بِاللَّهِ لَوْ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٤٢﴾ عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ ﴿٤٣﴾ لَا يَسْتَغْنِيكَ الَّذِينَ يُوْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ عَلَيْهِمُ الْيَمِينُ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَآزَوَاتٌ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴿٤٥﴾ وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْفَاحِشِينَ ﴿٤٦﴾ لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَا تُنْفَعُوا خَلَكًا يَكْفُرُونَ كُفُّوا أَلْسِنَتَكُمْ وَفِيكُمْ سَمْعُوكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٤٧﴾

كَرِهَ اللَّهُ أَنْبِعَانَّهُمْ فَتَبَطَّهْمَ وَقِيلَ أَقْعُدُوا مَعَ
الْقَعِيدِينَ ﴿٤١﴾ لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا
وَلَا وَضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمْعُونُ
لَهُمْ وَاللَّهُ عَلَيْهِمُ بِالْظَّالِمِينَ ﴿٤٢﴾ لَقَدْ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ مِنْ
قَبْلُ وَقَبِلُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّى جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ
اللَّهِ وَهُمْ كَرِهُوا ﴿٤٣﴾

فهذا العبد لله على كل حال. ﴿وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ
اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ﴾؛ أي: سيحلفون أن تخلفهم عن
الخروج أن لهم عذراً، وأنهم لا يستطيعون ذلك، ﴿يُمْلِكُونَ
أَنْفُسَهُمْ﴾: بالقعود والكذب والإخبار بغير الواقع. ﴿وَاللَّهُ
يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَذِبُونَ﴾ ﴿٤٢﴾.

وهذا العتاب إنما هو للمنافقين، الذين تخلفوا عن
النبي ﷺ في غزوة تبوك، وأبدوا من الأعداء الكاذبة
ما أبدوا، فعفا النبي ﷺ عنهم بمجرد اعتذارهم، من غير
أن يمتحنهم فيتبين له الصادق من الكاذب، ولهذا عاتبه الله
على هذه المسارعة إلى عذرهم، فقال:

﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذْنَتْ لَهُمْ حَتَّى يَبَيِّنَ لَكَ
الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَذِبِينَ﴾ ﴿٤٤﴾ لَا يَسْتَعِذُّكَ
الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يُجَاهِدُوا
بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَاللَّهُ عَلَيْهِمُ بِالْمُتَّقِينَ ﴿٤٥﴾ إِنَّمَا يَسْتَعِذُّكَ
الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ
فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴿٤٦﴾

﴿٤٤﴾ يقول تعالى لرسوله ﷺ: ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ﴾.
أي: سامحك وغفر لك ما أجريت. ﴿لِمَ أَذْنَتْ لَهُمْ﴾:
في التخلف، ﴿حَتَّى يَبَيِّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ
الْكَذِبِينَ﴾ ﴿٤٥﴾: بأن تمتحنهم ليتبين لك الصادق من
الكاذب، فتعذر من يستحق العذر ممن لا يستحق ذلك.

﴿٤٦﴾ ثم أخبر أن المؤمنين بالله واليوم الآخر لا يستأذنون
في ترك الجهاد بأموالهم وأنفسهم؛ لأن ما معهم من الرغبة
في الخير والإيمان يحملهم على الجهاد من غير أن يحثهم
عليه حاث، فضلاً عن كونهم يستأذنون في تركه من غير
عذر. ﴿وَاللَّهُ عَلَيْهِمُ بِالْمُتَّقِينَ﴾ ﴿٤٥﴾: فيجازيهم على ما قاموا
به من تقواه، ومن علمه بالمتقين أنه أخبر أن من علاماتهم
أنهم لا يستأذنون في ترك الجهاد.

﴿٤٥﴾ إِنَّمَا يَسْتَعِذُّكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ
الْآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ﴾؛ أي: ليس لهم إيمان تام ولا يقين
صادق، فلذلك قلت رغبتهم في الخير، وجنبوا عن القتال،
واحتملوا أن يستأذنوا في ترك القتال. ﴿فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ
يَتَرَدَّدُونَ﴾ ﴿٤٦﴾: أي: لا يزالون في الشك والحيرة.

﴿وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِنْ

﴿٤١﴾ يقول تعالى مبيناً أن المتخلفين من المنافقين قد ظهر
منهم من القرائن ما يبين أنهم ما قصدوا الخروج بالكلية،
وأن أعداءهم التي اعتذروها باطلة؛ فإن العذر هو المانع
الذي يمنع إذا بذل العبد وسعه وسعى في أسباب الخروج ثم
منعه مانع شرعي؛ فهذا الذي يُعذر، وأما هؤلاء المنافقون،
فلو ﴿أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُوا لَهُ عُدَّةً﴾؛ أي: لاستعدوا
وعملوا ما يمكنهم من الأسباب، ولكن لما لم يعدوا له
عُدَّة؛ علم أنهم ما أرادوا الخروج، ﴿وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ
أَنْبِعَانَّهُمْ﴾: معكم في الخروج للغزو، ﴿فَتَبَطَّهْمَ﴾: قدراً
وقضاء وإن كان قد أمرهم وحثهم على الخروج وجعلهم
مقتدرين عليه، ولكن بحكمته ما أراد إعانتهم، بل خذلهم
وثبطهم، ﴿وَقِيلَ أَقْعُدُوا مَعَ الْقَعِيدِينَ﴾ ﴿٤٢﴾: من
النساء والمعدورين.

﴿٤٢﴾ ثم ذكر الحكمة في ذلك، فقال: ﴿لَوْ خَرَجُوا
فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا﴾؛ أي: نقصاً، ﴿وَلَا وَضَعُوا
خِلَالَكُمْ﴾؛ أي: ولسعوا في الفتنة والشر بينكم ورفقوا
جماعتكم المجتمعين. ﴿يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ﴾؛ أي: هم
حريصون على فتنتكم وإلقاء العداوة بينكم، ﴿وَفِيكُمْ﴾:
أناس ضعفاء العقول، ﴿سَمْعُونُ لَهُمْ﴾؛ أي: مستجيبون
لدعوتهم، يغترون بهم؛ فإذا كانوا حريصين على خذلانكم
ولقاء الشر بينكم وتبيطكم عن أعدائكم وفيكم من يقبل
منهم ويستنصحهم؛ فما ظنك بالشر الحاصل من خروجهم
مع المؤمنين والنقص الكثير منهم؟ لفلله أتم الحكمة حيث
ثبطهم، ومنعهم من الخروج مع عباده المؤمنين رحمة بهم،
ولطفاً من أن يداخلهم ما لا ينفعهم، بل يضرهم. ﴿وَاللَّهُ
عَلِيمٌ بِالْظَّالِمِينَ﴾ ﴿٤٣﴾: فيعلم عباده كيف يحذرونهم،
وبيين لهم من المفاصد الناشئة من مخالطتهم.

﴿٤٣﴾ ثم ذكر أنه قد سبق لهم سوابق في الشر، فقال:
﴿لَقَدْ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ﴾؛ أي: حين هاجرتهم إلى

المدينة، بذلوا الجهد، ﴿وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ﴾؛ أي: أداروا الأفكار، وأعملوا الحيل في إبطال دعوتكم وخذلان دينكم، ولم يقصروا في ذلك. ﴿حَتَّىٰ جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَرِهُونَ﴾ (٤٨)؛ فبطل كيدهم، واضمحل باطلهم؛ فحقيق بمثل هؤلاء أن يحذر الله عباده المؤمنين منهم، والآيالي المؤمنون بتخلفهم عنهم.

﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ يَقُولُ أَئِذْنَ لِي وَلَا نَفْتِيَّ إِلَّا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ (٤٩).

﴿٤٩﴾ أي: ومن هؤلاء المنافقين من يستأذن في التخلف ويعتذر بعذر آخر عجيب، فيقول: ﴿أَشْذَن لِّي﴾؛ في التخلف، ﴿وَلَا نَفْتِيَّ﴾؛ في الخروج؛ فإني إذا خرجت فرأيت نساء بني الأصفر لا أصبر عنهن؛ كما قال ذلك الجذبن قيس، ومقصوده - قبحه الله - الرياء والنفاق؛ بأن مقصودي مقصود حسن؛ فإن في خروجي فتنة، وتعرضاً للشر، وفي عدم خروجي عافية وكفا عن الشر. قال الله تعالى مبيهاً كذب هذا القول: ﴿إِلَّا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا﴾؛ فإنه على تقدير صدق هذا القائل في قصده في التخلف مفسدة كبرى وفتنة عظيمة محققة، وهي معصية الله ومعصية رسوله والتجرؤ على الإثم

الكبير والوزر العظيم، وأما الخروج؛ فمفسدة قليلة بالنسبة للتخلف، وهي متوهمة، مع أن هذا القائل قصده التخلف لا غير، ولهذا توعدهم الله بقوله: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ (٤٩). ليس لهم عنها مفر ولا مناص ولا فكاك ولا خلاص.

﴿إِنْ تُصِيبَكَ حَسَنَةٌ فُسُوءُهُمْ وَإِنْ تُصِيبَكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرًا مِنْ قَبْلٍ وَيَسْتَوَلُوا وَهُمْ فَرِحُونَ﴾ (٥٠) قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا هو مولنا وعلى الله فليتوكل المؤمنون (٥١).

﴿٥٠﴾ يقول تعالى مبيناً أن المنافقين هم الأعداء حقاً المبعضون للدين صراحة: ﴿إِنْ تُصِيبَكَ حَسَنَةٌ﴾. كنصر وإدالة على العدو، ﴿فُسُوءُهُمْ﴾؛ أي: تحزنهم وتغصهم، ﴿وَإِنْ تُصِيبَكَ مُصِيبَةٌ﴾: كإدالة العدو عليك، ﴿يَقُولُوا﴾: متبجحين بسلامتهم من الحضور معك: ﴿قَدْ أَخَذْنَا أَمْرًا مِنْ قَبْلٍ﴾. أي: قد حذرنا وعملنا بما ينجينا من الوقوع في مثل هذه المصيبة، ﴿وَيَسْتَوَلُوا وَهُمْ فَرِحُونَ﴾ (٥٠). بمصيبتك وبعدم مشاركتهم إياك فيها.

﴿٥١﴾ قال تعالى رادا عليهم في ذلك: ﴿قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا﴾. أي: قدره وأجراه في اللوح المحفوظ. ﴿هُوَ مَوْلَانَا﴾؛ أي: متولي أمورنا الدينية والدنيوية؛ فعلينا الرضا بأقداره، وليس في أيدينا من الأمر شيء. ﴿وَعَلَى اللَّهِ﴾: وحده ﴿فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ (٥١)؛ أي: يعتمدوا عليه في جلب مصالحهم ودفع المضار عنهم، ويثقوا به في تحصيل مطلوبهم؛ فلا خاب من توكل عليه، وأما من توكل على غيره؛ فإنه مخذول غير مدرك لما أُلِّل.

﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسَيْنَيْنِ وَنَحْنُ نَرَبَّصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ أَوْ بِأَيْدِيَّا فَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ﴾ (٥٢).

سورة التوبة
لَقَدْ اسْتَعَاذَ الْفِتْنَةُ مِنْ قَبْلِ وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّىٰ جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَرِهُونَ ﴿٤٨﴾ وَمِنْهُمْ مَّنْ يَقُولُ أَئِذْنَ لِي وَلَا نَفْتِيَّ إِلَّا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿٤٩﴾ إِنْ تُصِيبَكَ حَسَنَةٌ فُسُوءُهُمْ وَإِنْ تُصِيبَكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرًا مِنْ قَبْلٍ وَيَسْتَوَلُوا وَهُمْ فَرِحُونَ ﴿٥٠﴾ قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسَيْنَيْنِ وَنَحْنُ نَرَبَّصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ أَوْ بِأَيْدِيَّا فَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ ﴿٥٢﴾ قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَنْ يُتَقَبَلَ مِنْكُمْ إِنْ كُنْتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٥٣﴾ وَمَا مَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى وَلَا يُفْقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ ﴿٥٤﴾

﴿٥٢﴾ أَي: قل للمنافقين الذين يترصون بكم الدوائر: أي شيء ترصون بنا؟ فإنكم لا ترصون بنا إلا أمرًا فيه غاية نفعنا، وهو إحدى الحسنين: إما الظفر بالأعداء والنصر عليهم ونيل الثواب الأخروي والديني، وإما الشهادة التي هي من أعلى درجات الخلق وأرفع المنازل عند الله. وأما ترصنا بكم يا معشر المنافقين؛ فنحن ﴿تَرْتَبِصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمْ اللَّهُ عَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ﴾ لا سب لنا فيه، ﴿أَوْ بِأَيْدِينَا﴾؛ بأن يسلطنا عليكم فنقتلكم، ﴿فَرْتَبِصُوا﴾: بنا الخير، ﴿إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ﴾ ﴿٥٣﴾: بكم الشر.

﴿قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَنْ يُتَقَبَلَ مِنْكُمْ إِنْ كُنْتُمْ كُنْتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ ﴿٥٤﴾ وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقَبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ﴾ ﴿٥٥﴾.

﴿٥٣﴾ يقول تعالى مبينًا بطلان نفقات المنافقين وذاكرًا السبب في ذلك، ﴿قُلْ﴾ لهم: ﴿أَنْفِقُوا طَوْعًا﴾: من أنفسكم، ﴿أَوْ كَرْهًا﴾: على ذلك بغير اختياركم. ﴿لَنْ يُتَقَبَلَ مِنْكُمْ﴾: شيء من أعمالكم؛ لأنكم ﴿كُنْتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ ﴿٥٤﴾: خارجين عن طاعة الله.

﴿٥٤﴾ ثم بين صفة فسقهم وأعمالهم فقال: ﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقَبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾. والأعمال كلها شرط قبولها الإيمان؛ فهو لا إيمان لهم ولا عمل صالح، حتى إن الصلاة التي هي أفضل أعمال البدن إذا قاموا إليها قاموا كسالي؛ قال: ﴿وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى﴾؛ أي: متهاطلون لا يكادون يفعلونها من ثقلها عليهم. ﴿وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ﴾ ﴿٥٥﴾: من غير انشراح صدر وثبات نفس؛ ففي هذا غاية الذم لمن فعل مثل فعلهم، وأنه ينبغي للعبد ألا يأتي الصلاة إلا وهو نشيط البدن والقلب إليها، ولا يتفق إلا وهو مشرّح الصدر، ثابت القلب، يرجو ذخرها وثوابها من الله وحده، ولا يتشبهه بالمنافقين.

﴿فَلَا تَعْبَجْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ ﴿٥٦﴾ وَيَخْلَفُونَ بِاللَّهِ إِيَّاهُمْ لِيُنْكَرُوا وَلَكُمْهُمْ قَوْمٌ يَفْرُقُونَ ﴿٥٧﴾ لَوْ يَخْدُونَ مَلَجًا أَوْ مَغْرَبًا أَوْ مُدْخَلًا لَوْلَا إِلَهُهُمْ وَهُمْ يَجْمَحُونَ﴾ ﴿٥٨﴾.

﴿٥٦﴾ يقول تعالى: فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم؛ فإنه لا غبطة فيها، وأول بركاتها عليهم أن قدموها على مرضي ربهم وعصوا الله لأجلها. ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾: والمراد بالعذاب هنا ما ينالهم من المشقة في تحصيلها والسعي الشديد في ذلك وهم القلب فيها وتعبد البدن؛ فلو قابلت لذاتهم فيها بمشقاتهم؛ لم يكن لها نسبة إليها؛ فهي لَمَّا ألْهَتْهم عن الله وذكره صارت وبالأعلى عليهم حتى في الدنيا، ومن وبألها العظيم الخطر أن قلوبهم تتعلق بها وإراداتهم لا تعداها، فتكون منتهى مطلوبهم وغاية مرغوبهم، ولا يبقى في قلوبهم للأخرة نصيب، فيوجب ذلك أن ينتقلوا من الدنيا، ﴿وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ ﴿٥٧﴾؛ فأى عقوبة أعظم من هذه العقوبة الموجبة للشقاء الدائم والحسرة الملازمة؟! ﴿٥٨﴾

﴿إِنَّمَا أَصَدَقْتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْعَمِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةُ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغُرَمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ (٥٦).

﴿٥٦﴾ يقول تعالى: ﴿إِنَّمَا أَصَدَقْتُ﴾؛ أي: الزكوات الواجبة، بدليل أن الصدقة المستحقة لكل أحد لا يخص بها أحد دون أحد؛ أي: إنما الصدقات لهؤلاء المذكورين دون من عداهم؛ لأنه حصرها فيهم، وهم ثمانية أصناف:

الأول والثاني: الفقراء والمساكين، وهم في هذا الموضع صنفان متفاوتان؛ فالفقير أشد حاجة من المسكين؛ لأن الله بدأ بهم، ولا يبدأ إلا بالأهم فالأهم؛ ففسر الفقير بأنه الذي لا يجد شيئاً، أو يجد بعض كفايته دون نصفها، والمسكين الذي يجد نصفها فأكثر، ولا يجد تمام كفايته؛ لأنه لو وجدها؛ لكان غنياً، فيعطون من الزكاة ما يزول به فقرهم ومسكتهم.

والثالث: العاملون على الزكاة، وهم كل من له عمل وشغل فيها من حافظ لها وجاب لها من أهلها، أو راع، أو حامل لها، أو كاتب، أو نحو ذلك، فيعطون لأجل عمالتهم، وهي أجرة لأعمالهم فيها.

والرابع: المؤلفة قلوبهم، والمؤلف قلبه هو السيد المطاع في قومه ممن يرجى إسلامه، أو يخشى شره، أو يرجى بعطيته قوة إيمانه، أو إسلام نظيره، أو جبايتها ممن لا يعطيها، فيعطى ما يحصل به التأليف والمصلحة.

الخامس: الرقاب، وهم المكاتبون الذين قد اشتروا أنفسهم من ساداتهم؛ فهم يسعون في تحصيل ما يفك رقابهم، فيعانون على ذلك من الزكاة. وفك الرقبة المسلمة التي في حبس الكفار داخل في هذا، بل أولى. ويدخل في هذا أنه يجوز أن يعتق منها الرقاب استقلالاً؛ لدخوله في قوله: ﴿وَفِي الرِّقَابِ﴾.

السادس: الغارمون، وهم قسمان: أحدهما: الغارمون لإصلاح ذات البين، وهو أن يكون بين طائفتين من الناس شر وفتنة، فيتوسط الرجل للإصلاح بينهم بمال يبذله لأحدهم أو لهم كلهم، فجعل له نصيب من الزكاة؛ ليكون أنشط له وأقوى لعزمه، فيعطى ولو كان غنياً. والثاني: من غرم لنفسه ثم أعسر؛ فإنه يعطى ما يوفي به دينه.

﴿وَيَخْلِفُونَ بِاللَّهِ إِيَّاهُمْ لَوْنَكُمْ وَمَا هُمْ بِمُنْكَرُونَ وَلَكُمْهُمْ﴾: قصدهم في حلفهم هذا أنهم ﴿قَوْمٌ يَفْقَهُونَ﴾ (٥٦)؛ أي: يخافون الدوائر، وليس في قلوبهم شجاعة تحملهم على أن يبينوا أحوالهم، فيخافون إن أظهروا حالهم منكم، ويخافون أن تتبرعوا منهم فيتخطفهم الأعداء من كل جانب، وأما حال قوي القلب ثابت الجنان؛ فإنه يحمله ذلك على بيان حاله حسنة كانت أو سيئة، ولكن المنافقين خُلع عليهم خلعة الجبن، وحلوا بحلية الكذب.

﴿٥٧﴾ ثم ذكر شدة جبنهم، فقال: ﴿لَوْ يَخِدُونَ مَلَكًا﴾: يلجئون إليه عندما تنزل بهم الشدائد، ﴿أَوْ مَعْرَبٍ﴾: يدخلونها فيستقرون فيها، ﴿أَوْ مَدَّخَلًا﴾؛ أي: محلاً يدخلونه فيتحصنون فيه، ﴿لَوْ لَوْ إِلَى اللَّهِ وَهُمْ يَخْتَوُونَ﴾ (٥٧)؛ أي: يسرعون ويهرعون؛ فليس لهم ملكة يقتدرون بها على الثبات.

﴿وَمِنْهُمْ مَّن يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطُوا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْتَخْطُونَ﴾ (٥٨) وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ﴾ (٥٩).

﴿٥٨﴾ أي: ومن هؤلاء المنافقين من يعيبك في قسمة الصدقات ويتقد عليك فيها، وليس انتقادهم فيها وعيهم لقصد صحيح ولا لراي رجيح، وإنما مقصودهم أن يعطوا منها. ﴿فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطُوا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْتَخْطُونَ﴾ (٥٨) وهذه حالة لا تنبغي للعبد؛ أن يكون رضاه وغضبه تابعا لهوى نفسه الدنيوي وغرضه الفاسد، بل الذي ينبغي أن يكون هواه تبعاً لمرضاة ربه؛ كما قال النبي ﷺ: «لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به» (١).

﴿٥٩﴾ وقال هنا: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾؛ أي: أعطاهم من قليل وكثير، ﴿وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ﴾؛ أي: كافينا الله فرضى بما قسمه لنا، وليؤملوا فضله وإحسانه إليهم بأن يقولوا: ﴿سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ﴾ (٥٩)؛ أي: متضرعون في جلب منافعنا ودفع مضارنا؛ لسلموا من النفاق، ولهدوا إلى الإيمان والأحوال العالية.

ثم بين تعالى كيفية قسمة الصدقات الواجبة فقال:

أعظمها: أذية نبيهم الذي جاء لهدايتهم وإخراجهم من الشقاء والهلاك إلى الهدى والسعادة.

ومنها: عدم اهتمامهم أيضًا بذلك، وهو قدر زائد على مجرد الأذية.

ومنها: قدهم في عقل النبي ﷺ، وعدم إدراكه وتفريقه بين الصادق والكاذب، وهو أكمل الخلق عقلاً وأتمهم إدراكاً وأتقهم رأياً وبصيرة، ولهذا قال تعالى: ﴿قُلْ أَذُنُ خَيْرٍ لَكُمْ﴾؛ أي: يقبل من قال له خيراً وصدقاً، وأما إعراضه وعدم تعنيفه لكثير من المنافقين المعتذرين بالأعذار الكذب؛ فلسعة خلقه وعدم اهتمامه بشأنهم وامتناله لأمر الله في قوله: ﴿سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لَعَرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رَجِسٌ﴾ [التوبة: ٩٥]، وأما حقيقة ما في قلبه ورأيه، فقال عنه: ﴿يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾؛ الصادقين المصدقين، ويعلم الصادق من الكاذب، وإن كان كثيراً يُعرض عن الذين يعرف كذبهم وعدم صدقهم، ﴿وَرَحْمَةً لِلَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ﴾؛ فإنهم به يهتدون وبأخلاقه يقتدون، وأما غير المؤمنين؛ فإنهم لم يقبلوا هذه الرحمة، بل ردوها فخسروا دنياهم وآخرتهم. ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ﴾؛ بالقول والفعل ﴿هُمُ عَذَابُ اللَّهِ﴾؛ في الدنيا والآخرة، ومن العذاب الأليم أنه يتحتم قتل مؤذيه وشاتميه.

﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ ليرضوكم﴾؛ فيتبرءوا مما صدر منهم من الأذية وغيرها، فغايتهم أن ترضوا عليهم. ﴿وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضَوْهُ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾؛ لأن المؤمن لا يقدم شيئاً على رضا ربه ورضا رسوله، فدل هذا على انتفاء إيمانهم؛ حيث قدموا رضا غير الله ورسوله.

﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَن يُؤْذِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾؛ بأن يكون في حد وشق مبعد عن الله ورسوله؛ بأن تهاون بأوامر الله وتجراً على محارمه، ﴿فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَلِيداً فِيهَا﴾ و﴿ذَلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ﴾؛ الذي لا خزي أشنع ولا أفضع منه، حيث فاتهم النعيم المقيم، وحصلوا على عذاب الجحيم؛ عياداً بالله من حالهم.

﴿يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَزَيُوا رِبَاكَ اللَّهُ مُحْجِرٌ مَّا

والسابع: الغازي في سبيل الله، وهم الغزاة المتطوعة الذين لا ديوان لهم، فيعطون من الزكاة ما يعينهم على غزوهم من ثمن سلاح أو دابة أو نفقة له ولعيله؛ ليتوفر على الجهاد ويطمئن قلبه، وقال كثير من الفقهاء: إن تفرغ القادر على الكسب لطلب العلم؛ أعطي من الزكاة؛ لأن العلم داخل في الجهاد في سبيل الله. وقالوا أيضاً: يجوز أن يعطى منها الفقير لحج فرضه. وفيه نظر.

والثامن: ابن السبيل، وهو الغريب المنقطع به في غير بلده، فيعطى من الزكاة ما يوصله إلى بلده. فهؤلاء الأصناف الثمانية الذين تدفع إليهم الزكاة وحدهم. ﴿فَرِيضَةٌ مِّنَ اللَّهِ﴾؛ فرضها وقدرها تابعة لعلمه وحكمه، ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾.

واعلم أن هذه الأصناف الثمانية ترجع إلى أمرين: أحدهما: من يعطى لحاجته ونفعه؛ كالفقير والمسكين ونحوهما. والثاني: من يعطى للحاجة إليه وانتفاع الإسلام به.

فأوجب الله هذه الحصة في أموال الأغنياء لسد الحاجات الخاصة والعامة للإسلام والمسلمين، فلو أعطى الأغنياء زكاة أموالهم على الوجه الشرعي؛ لم يبق فقير من المسلمين، ولحصل من الأموال ما يسد الثغور، ويجاهد به الكفار، وتحصل به جميع المصالح الدينية.

﴿وَمِنْهُمْ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أَذُنٌ قُلْ أَذُنُ خَيْرٍ لَكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةً لِلَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ ليرضوكم﴾ والله ورسوله أحق أن يرضوه إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَن يُحَادِدُ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَلِيداً فِيهَا ذَلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ﴾.

﴿أي: ومن هؤلاء المنافقين، الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ﴾؛ بالأقوال الردية والعيب له ولدينه، ﴿وَيَقُولُونَ هُوَ أَذُنٌ﴾؛ أي: لا يبالون بما يقولون من الأذية للنبي، ويقولون: إذا بلغه عنا بعض ذلك؛ جئنا نعتذر إليه، فيقبل منا؛ لأنه أذن؛ أي: يقبل كل ما يقال له، لا يميز بين صادق وكاذب، وقصدهم - قبحهم الله - فيما بينهم أنهم غير مكترئين بذلك ولا مهتمين به؛ لأنه إذا لم يبلغه؛ فهذا مطلوبهم، وإن بلغه؛ اكتفوا بمجرد الاعتذار الباطل، فأساءوا كل الإساءة من أوجه كثيرة:

تَحَذَّرُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِإِلَهِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِنْ نَعْفَ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿٦٦﴾

﴿٦٤﴾ كانت هذه السورة الكريمة تسمى الفاضحة؛ لأنها بينت أسرار المنافقين وهتكت أستارهم؛ فما زال الله يقول: ومنهم، ومنهم... ويذكر أوصافهم؛ إلا أنه لم يعين أشخاصهم لفائدتين:

إحداهما: أن الله ستر يحب الستر على عباده.

والثانية: أن الذم على من اتصف بذلك الوصف من المنافقين الذين توجه إليهم الخطاب وغيرهم إلى يوم القيامة، فكان ذكر الوصف أعم وأنسب، حتى خافوا غاية الخوف؛ قال الله تعالى: ﴿لَئِنْ لَمْ يَنْهَ الْمُتَّقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجَفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُخَارُجُوكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا﴾ ﴿٦٦﴾ مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثَقِفُوا أَخْدُوا وَقُولُوا تَقْسِيلًا ﴿٦٧﴾ ﴿الأحزاب: ٦٠، ٦١﴾.

وقال هنا: ﴿يَحَذَّرُ الْمُتَّقُونَ أَنْ تُنْزَلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ

لنُنَبِّئَهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾؛ أي: تخبرهم وتفضحهم وتبين أسرارهم، حتى تكون علانية لعباده، ويكونوا عبرة للمعتبرين. ﴿قُلْ أَسْتَهْزِئُوا﴾؛ أي: استمروا على ما أنتم عليه من الاستهزاء والسخرية. ﴿إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَا تَحْذَرُونَ﴾ ﴿٦٦﴾. وقد وفي تعالى بوعده، فأنزل هذه السورة التي بينتهم، وفضحتهم، وهتكت أستارهم.

﴿٦٤﴾ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ ﴿٦٥﴾: عما قالوه من الطعن في المسلمين وفي دينهم، يقول طائفة منهم في غزوة تبوك: ما رأينا مثل قرأتنا هؤلاء - يعنون: النبي ﷺ وأصحابه - أرغب بطونًا وأكذب ألسنًا وأجبن عند اللقاء... ونحو ذلك^(١)، لما بلغهم أن النبي ﷺ قد علم بكلامهم؛ جاءوا يعتذرون إليه ويقولون: ﴿إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ﴾؛ أي: نتكلم بكلام لا قصد لنا به ولا قصدنا الطعن والعيب، قال الله تعالى مبيّنًا عدم عذرهم وكذبهم في ذلك: ﴿قُلْ لَهُمْ﴾ ﴿أَبِإِلَهِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ﴾ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ ﴿٦٦﴾؛ فإن الاستهزاء بالله ورسوله كفر مخرج عن الدين؛ لأن أصل الدين مبني على تعظيم الله وتعظيم دينه ورسله، والاستهزاء بشيء من ذلك مناف لهذا الأصل ومناقض له أشد المناقضة، ولهذا؛ لما جاءوا إلى الرسول يعتذرون بهذه المقالة، والرسول لا يزيدهم على قوله: ﴿أَبِإِلَهِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ﴾ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ ﴿٦٦﴾. وقوله: ﴿إِنْ نَعْفَ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ﴾: لتوبتهم واستغفارهم وندمهم، ﴿نُعَذِّبْ طَائِفَةً﴾: منكم بسبب أنهم ﴿كَانُوا مُجْرِمِينَ﴾ ﴿٦٦﴾: مقيمين على كفرهم ونفاقهم.

وفي هذه الآيات دليل على أن من أسر سريرة، خصوصًا السريرة التي يمكر فيها بدينه ويستهزئ به وبآياته ورسوله؛ فإن الله تعالى يظهرها ويفضح صاحبها ويعاقبه أشد العقوبة. وأن من استهزأ بشيء من كتاب الله أو سنة رسوله الثابتة عنه أو سخر بذلك أو تنقصه أو استهزأ بالرسول أو تنقصه؛ فإنه كافر بالله العظيم. وأن التوبة مقبولة من كل ذنب وإن كان عظيمًا.

الجزء العاشر
سورة التوبة
يَخْلُقُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيَرْضَوْكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ
أَنْ يُرْضَوْهُ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٦٣﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ
مَنْ يُحَادِدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا
ذَلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ ﴿٦٣﴾ يَحْذَرُ الْمُتَّقُونَ
أَنْ تُنْزَلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ اسْتَهْزِئُوا
إِنَّ اللَّهَ يُخْرِجُ مَا تَحْذَرُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ
لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِإِلَهِهِ وَرَسُولِهِ
كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ
بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِنْ نَعْفَ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً
بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿٦٦﴾ الْمُتَّقُونَ وَالْمُتَّقُونَ
بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ
عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ
إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٦٧﴾ وَعَدَّ اللَّهُ
الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ
فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعْنَهُمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ ﴿٦٨﴾

﴿الْمُنْفِقُونَ وَالْمُنْفِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ
بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ
أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنْفِقِينَ هُمُ
الْفَاسِقُونَ ﴿٦٧﴾ وَعَدَ اللَّهُ الْمُنْفِقِينَ وَالْمُنْفِقَاتِ
وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعْنَهُمُ اللَّهُ
وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٦٨﴾﴾

﴿٦٧﴾ يقول تعالى: ﴿الْمُنْفِقُونَ وَالْمُنْفِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ
بَعْضٍ﴾: لأنهم اشتركوا في النفاق، فاشتركوا في تولي
بعضهم بعضاً، وفي هذا قطع للمؤمنين من ولايتهم. ثم
ذكر وصف المنافقين العام الذي لا يخرج منه صغير منهم
ولا كبير، فقال: ﴿يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ﴾: وهو الكفر
والفسوق والعصيان، ﴿وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ﴾: وهو
الإيمان والأخلاق الفاضلة والأعمال الصالحة والآداب
الحسنة، ﴿وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ﴾: عن الصدقة وطرق
الإحسان؛ فوصفهم بالبخل. ﴿نَسُوا اللَّهَ﴾: فلا يذكرونه إلا
قليلاً، ﴿فَنَسِيَهُمْ﴾: من رحمته؛ فلا يوقفهم لخير ولا يدخلهم
الجنة، بل يتركهم في الدرك الأسفل من النار خالدين فيها
مخلدين. ﴿إِنَّ الْمُنْفِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٦٧﴾﴾:
حصر الفسق فيهم؛ لأن فسقهم أعظم من فسق غيرهم؛ بدليل

أن عذابهم أشد من عذاب غيرهم، وأن المؤمنين قد ابتلوا بهم إذ كانوا بين أظهرهم، والاحتراز منهم شديد.

﴿٦٨﴾ وَعَدَ اللَّهُ الْمُنْفِقِينَ وَالْمُنْفِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعْنَهُمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ
مُقِيمٌ ﴿٦٨﴾﴾: جمع المنافقين والكفار في نار جهنم واللعة والخلود في ذلك لاجتماعهم في الدنيا على الكفر والمعادة لله
ورسوله والكفر بآياته.

﴿كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً وَكَثَرُوا مَوَالَاً وَأُولَدَاً فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلْقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِخَلْقِكُمْ
كََمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِخَلْقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا أُولَئِكَ حِطَّتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا
وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٦٩﴾ أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ
وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ أَنَّهُمْ رُسُلُهُمْ يَأْتِيَنَّهُمْ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ
يَظْلِمُونَ ﴿٧٠﴾﴾

﴿٦٩﴾، ﴿٧٠﴾ يقول تعالى محذراً للمنافقين أن يصيبهم ما أصاب من قبلهم من الأمم المكذبة؛ ﴿قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ
وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ﴾؛ أي: قري قوم لوط؛ فكلهم ﴿أَنَّهُمْ رُسُلُهُمْ يَأْتِيَنَّهُمْ﴾؛ أي:
بالحق الواضح الجلي المبين لحقائق الأشياء، فكذبوا بها، فجرى عليهم ما قص الله علينا؛ فأنتم أعمالكم شبيهة بأعمالهم.
﴿فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِخَلْقِكُمْ﴾؛ أي: بنصيبيكم من الدنيا، فتناولتموه على وجه اللذة والشهوة، معرضين عن المراد منه، واستعتم به
على معاصي الله، ولم تعدد هميتكم وإرادتكم ما خولتم من النعم كما فعل الذين من قبلكم. ﴿وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا﴾؛
أي: وخضتم بالباطل والزور وجادلتم بالباطل لتدحضوا به الحق؛ فهذه أعمالهم وعلومهم: استمتاع بالخلاق، وخوض

المروية للبساتين الأنيقة التي لا يعلم ما فيها من الخيرات والبركات إلا الله تعالى. ﴿خَلِدِينَ فِيهَا﴾: لا يبعثون عنها حولاً. ﴿وَسَسَكُنَ طَيْبَةً فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ﴾: قد زخرت وحسنت وأعدت لعباد الله المتقين، قد طاب مرآها وطاب منزلها ومقيلها، وجمعت من آلات المساكن العالية ما لا يتمنى فوقه المتمنون، حتى إن الله تعالى قد أعد لهم غرفاً في غاية الصفاء والحسن، يرى ظاهرها من باطنها، وباطنها من ظاهرها؛ فهذه المساكن الأنيقة التي حقيق بأن تسكن إليها النفوس وتترع إليها القلوب وتشتاق لها الأرواح؛ لأنها ﴿فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ﴾؛ أي: إقامة، لا يظعنون عنها ولا يتحولون منها. ﴿وَوَرَوْتُ مِنَ اللَّهِ﴾: يحله على أهل الجنة ﴿أَكْبَرُ﴾: مما هم فيه من النعيم؛ فإن نعيمهم لم يطب إلا بروية ربهم ورضوانه عليهم، ولأنه الغاية التي أمها العابدون، والنهاية التي سعى نحوها المحبون؛ فرضا رب الأرض والسموات أكبر من نعيم الجنات. ﴿ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾: حيث حصلوا على كل مطلوب، وانتفى عنهم كل محذور، وحسنت وطابت منهم جميع الأمور، فنسأل الله أن يجعلنا معهم بجوده.

﴿يَتَأْتِيَ النَّبِيَّ جَهْدُ الْكُفَّارِ وَالْمُتَّقِينَ وَأَغْلَظَ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَهُمْ جَهَنَّمُ وَيَسَّ الْمَصِيرُ﴾: يخلفون بالله ما قالوا ولقد قالوا كلمة الكفر وكفروا بعد إسلامهم وهموا بما لم ينالوا وما نقموا إلا أن أغنهم الله ورسوله من فضله فإن يتوبوا بك خيراً لهم وإن يستولوا يعذبهم الله عذاباً أليماً في الدنيا والآخرة وما لهم في الأرض من ولي ولا نصير ﴿٧١﴾.

﴿٧٢﴾ يقول تعالى لنبيه ﷺ: ﴿يَتَأْتِيَ النَّبِيَّ جَهْدُ الْكُفَّارِ وَالْمُتَّقِينَ﴾؛ أي: بالغ في جهادهم، والغلظة عليهم حيث اقتضت الحال الغلظة عليهم، وهذا الجهاد يدخل فيه الجهاد باليد والجهاد بالحجة واللسان؛ فمن بارز منهم بالمحاربة؛ فيجاهد باليد واللسان والسيف والسنان، ومن كان مدعياً للإسلام بذمة أو عهد؛ فإنه يجاهد بالحجة والبرهان، ويبين له محاسن الإسلام ومساوئ الشرك والكفران؛ فهذا ما لهم في الدنيا، وأما في الآخرة؛ فمأواهم ﴿جَهَنَّمُ﴾؛ أي: مقرهم الذي لا يخرجون منها، ﴿وَيَسَّ الْمَصِيرُ﴾ ﴿٧٣﴾.

بالباطل؛ فاستحقوا من العقوبة والإهلاك ما استحق من قبلهم ممن فعلوا كفعالهم، وأما المؤمنون فهم وإن استمتعوا بنصيهم وما خولوا من الدنيا؛ فإنه على وجه الاستعانة به على طاعة الله، وأما علومهم؛ فهي علوم الرسل، وهي: الوصول إلى اليقين في جميع المطالب العالية، والمجادلة بالحق لإدحاض الباطل. قوله: ﴿فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ﴾: إذ أوقع بهم من عقوبته ما أوقع، ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴿٧٤﴾: حيث تجرأوا على معاصيه، وعصوا رسلهم، واتبعوا أمر كل جبار عنيد.

﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ ﴿٧٥﴾ وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَسَسَكُنَ طَيْبَةً فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٧٦﴾.

﴿٧٦﴾ لما ذكر أن المنافقين بعضهم من بعض؛ ذكر أن المؤمنين بعضهم أولياء بعض، ووصفهم بضد ما وصف به المنافقين، فقال: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ﴾؛ أي: ذكروهم وإناثهم، ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾: في المحبة والموالة والانتماء والنصرة. ﴿يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ﴾: وهو اسم جامع لكل ما عرف حسنه من العقائد الحسنة والأعمال الصالحة والأخلاق الفاضلة، وأول من يدخل في أمرهم أنفسهم. ﴿وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾: وهو كل ما خالف المعروف، وناقضه من العقائد الباطلة والأعمال الخبيثة والأخلاق الرذيلة، ﴿وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾؛ أي: لا يزالون ملازمين لطاعة الله ورسوله على الدوام. ﴿أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ﴾؛ أي: يدخلهم في رحمته ويشملهم بإحسانه. ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ ﴿٧٧﴾؛ أي: قوي قاهر، ومع قوته؛ فهو حكيم يضع كل شيء موضعه اللائق به الذي يحمد على ما خلقه وأمر به.

﴿٧٨﴾ ثم ذكر ما أعد الله لهم من الثواب، فقال: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾: جامعة لكل نعيم وفرح، خالية من كل أذى وترح، تجري من تحت قصورها ودورها وأشجارها الأنهار الغزيرة

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا جَاهِدُوا الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ
وَمَا أَوْثَنُكُمْ جِهَةً وَيَتْسِ الْأَمِيرُ ﴿٧٦﴾ يَخْلُفُونَ بِاللَّهِ
مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ
وَهُمْ أَوْيَا لَمْ يَنَالُوا وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ
مِنْ فَضْلِهِ فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَهُمْ وَإِنْ يَتَوَلَّوْا يَكُ
عَذَابُ اللَّهِ أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ
مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٧٧﴾ وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهُ لَئِنْ
آتَيْنَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٧٨﴾
فَلَمَّا آتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ
﴿٧٩﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا
اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴿٨٠﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوا
أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّامُ
الْغُيُوبِ ﴿٨١﴾ الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ
الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا
جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٨٢﴾

﴿٧٦﴾ يَخْلُفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ؛
أي: إذا قالوا قولاً كقول من قال منهم: ﴿يُخْرِجُكَ الْأَرْضُ
مِنْهَا الْأَذَلَّ﴾ [المنافقون: ٨]، والكلام الذي يتكلم به الواحد بعد
الواحد في الاستهزاء بالدين وبالرسول؛ فإذا بلغهم أن النبي ﷺ
قد بلغه شيء من ذلك؛ جاءوا إليه يحلفون بالله ما قالوا، قال
تعالى مكدباً لهم: ﴿وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ
إِسْلَامِهِمْ﴾: فإسلامهم السابق، وإن كان ظاهره أنه أخرجهم
من دائرة الكفر؛ فكلماهم الأخير ينقض إسلامهم ويدخلهم
بالكفر. ﴿وَهُمْ أَوْيَا لَمْ يَنَالُوا﴾: وذلك حين هموا بالفتك
برسول الله ﷺ في غزوة تبوك، فقص الله عليه نبأهم، فأمر
من يصددهم عن قصدهم. والحال أنهم ما ﴿نَقَمُوا﴾ وعابوا
من رسول الله ﷺ ﴿إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾:
بعد أن كانوا فقراء معوزين، وهذا من أعجب الأشياء: أن
يستهنوا بمن كان سبباً لإخراجهم من الظلمات إلى النور،
ومغنياً لهم بعد الفقر! وهل حقه عليهم إلا أن يعظموه ويؤمنوا
به ويجلوه؟! فاجتمع الداعي الديني وداعي المروءة الإنسانية.
ثم عرض عليهم التوبة، فقال: ﴿إِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَهُمْ﴾؛
لأن التوبة أصل لسعادة الدنيا والآخرة، ﴿وَإِنْ يَتَوَلَّوْا﴾: عن
التوبة والإنابة ﴿يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾:
في الدنيا بما ينالهم من الهم والغم والحزن على نصرة الله
لدينه وإعزاز نبيه وعدم حصولهم على مطلوبهم، وفي الآخرة
في عذاب السعير. ﴿وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ﴾: يتولى أمورهم ويحصل لهم المطلوب، ﴿وَلَا نَصِيرٍ﴾: يدفع عنهم
المكروه، وإذا انقطعوا من ولاية الله تعالى؛ فثم أصناف الشر والخسران والشقاء والحرمان.

﴿٧٧﴾ وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهُ لَئِنْ آتَيْنَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٧٨﴾ فَلَمَّا آتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ ﴿٧٩﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴿٨٠﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴿٨١﴾

﴿٧٥﴾ أي: ومن هؤلاء المنافقين من أعطى الله عهده وميثاقه، ﴿لَئِنْ آتَيْنَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ﴾: من الدنيا فسطها لنا ووسعها،
﴿لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾: فنصل الرحم ونقري الضيف، ونعين على نواب الحق، ونفعل الأفعال الحسنة
الصالحة.

﴿٧٦﴾ فَلَمَّا آتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ: لم يفوا بما قالوا، بل ﴿بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا﴾: عن الطاعة والانقياد، ﴿وَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾: أي: غير ملتفتين إلى الخير.

﴿٧٧﴾ فلما لم يفوا بما عاهدوا الله عليه؛ عاقبهم ﴿فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ﴾: مستمراً ﴿إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾: فليحذر المؤمن من هذا الوصف الشنيع أن يعاهد ربه إن حصل مقصوده الفلاني؛ ليفعلن كذا وكذا، ثم لا يفي بذلك؛ فإنه ربما عاقبه الله بالنفاق كما عاقب هؤلاء، وقد قال النبي ﷺ في الحديث الثابت في الصحيحين^(١): «آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا عاهد غدر، وإذا وعد أخلف»؛ فهذا المنافق الذي وعد الله وعاهده لئن أعطاه الله من فضله؛ ليصدقن وليكونن من الصالحين: حدث فكذب، وعاهد فغدر، ووعد فأخلف.

إِلَّا جُهِدْهُمْ ﴿٧٨﴾: فيخرجون ما استطاعوا ويقولون: الله غني عن صدقاتهم، ﴿فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ﴾، فقابلهم الله على صنيعهم بأن سخر منهم، ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةٌ﴾ ﴿٧٩﴾؛ فإنهم جمعوا في كلامهم هذا بين عدة محاذير:

منها: تتبعهم لأحوال المؤمنين وحرصهم على أن يجدوا مقالاً يقولونه فيهم، والله يقول: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفِتْنَةُ فِي الَّذِينَ ءَامَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ١٩].

ومنها: طعنهم بالمؤمنين لأجل إيمانهم كفرًا بالله تعالى وبغضًا للدين.

ومنها: أن اللز محرم، بل هو من كبائر الذنوب في أمور الدنيا، وأما اللز في أمر الطاعة؛ فأقبح وأقبح.

ومنها: أن من أطاع الله وتطوع بخصلة من خصال الخير؛ فإن الذي ينبغي إعانتة وتنشيطه على عمله، وهؤلاء قصدوا تشييطهم بما قالوا فيهم، وعابوهم عليه.

ومنها: أن حكمهم على من أنفق مالا كثيرا بأنه وراء غلط فاحش وحكم على الغيب ورجم بالظن، وأي شر أكبر من هذا؟!

ومنها: أن قولهم لصاحب الصدقة القليلة: الله غني عن صدقة هذا! كلام مقصوده باطل؛ فإن الله غني عن صدقة المتصدق بالقليل والكثير، بل وغني عن أهل السماوات والأرض، ولكنه تعالى أمر العباد بما هم مفتقرون إليه؛ فإله وإن كان غنيا عنه؛ فهم فقراء إليه؛ ﴿فَمَنْ يَشْكُلْ دَرْءَ خَيْرًا يَرَهُ﴾ ﴿٧٧﴾ [الزلزلة: ٧]، وفي هذا القول من التشييط عن الخير ما هو ظاهر بين، ولهذا كان جزاؤهم أن يسخر الله منهم، ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةٌ﴾ ﴿٧٨﴾.

﴿أَسْتَغْفِرُ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرُ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً﴾: على وجه المبالغة، وإلا؛ فلا مفهوم لها، ﴿فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾؛ كما قال في الآية الأخرى: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾ [المنافقون: ١٦]. ثم ذكر السبب المانع لمغفرة الله لهم، فقال: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾: والكافر لا ينفعه الاستغفار ولا العمل ما دام كافرا. ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ ﴿٨٠﴾؛ أي: الذين صار الفسق لهم وصفاً؛ بحيث لا يختارون عليه سواه، ولا ييغون به بدلاً، يأتيهم الحق الواضح فيردونه فيعاقبهم الله تعالى بالألأ يوفقهم له بعد ذلك.

﴿٧٨﴾ ولهذا تواعد من صدر منهم هذا الصنيع بقوله: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّمَهُ الْغَيْبُ﴾ ﴿٧٩﴾: وسيجازيهم على ما عملوا من الأعمال التي يعلمها الله تعالى.

وهذه الآيات نزلت في رجل من المنافقين يقال له ثعلبة، جاء إلى النبي ﷺ، وسأله أن يدعو الله له أن يعطيه الله من فضله، وأنه إن أعطاه ليتصدقن ويصل الرحم ويعين على نواب الحق، فدعا النبي ﷺ له، فكان له غنم، فلم تزل تنامي حتى خرج بها عن المدينة، فكان لا يحضر إلا بعض الصلوات الخمس، ثم أبعد فكان لا يحضر إلا صلاة الجمعة، ثم كثرت فأبعدها فكان لا يحضر جمعة ولا جماعة، ففقدته النبي ﷺ، فأخبر بحاله، فبعث من يأخذ الصدقات من أهلها، فمروا على ثعلبة، فقال: ما هذه إلا جزية، ما هذه إلا أخت الجزية. فلما لم يعطهم؛ جاءوا فأخبروا بذلك النبي ﷺ، فقال: يا ويح ثعلبة، يا ويح ثعلبة! ثلاثاً^(١). فلما نزلت هذه الآية فيه وفي أمثاله؛ ذهب بها بعض أهله، فبلغه إياها، فجاء بزكاته، فلم يقبلها النبي ﷺ، ثم جاء بها إلى أبي بكر بعد وفاة النبي ﷺ، فلم يقبلها، ثم جاء بها بعد أبي بكر إلى عمر، فلم يقبلها، فيقال: إنه هلك في زمن عثمان.

﴿الَّذِينَ يَلْمُزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ﴿٧٩﴾ أَسْتَغْفِرُ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرُ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ ﴿٨٠﴾.

﴿٧٩﴾ وهذا أيضاً من مخازي المنافقين، فكانوا - قبحهم الله - لا يدعون شيئاً من أمور الإسلام والمسلمين يرون لهم مقالاً؛ إلا قالوا وطعنوا بغياً وعدواناً، فلما حث الله ورسوله على الصدقة؛ بادر المسلمون إلى ذلك، وبدلوا من أموالهم كل على حسب حاله، منهم المكث ومنهم المقل، فيلمزون المكث منهم بأن قصده بنفقتة الرياء والسمعة، وقالوا للمقل الفقير: إن الله غني عن صدقة هذا، فأُنزل الله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَلْمُزُونَ﴾؛ أي: يعيرون ويطعنون ﴿الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ﴾: فيقولون: مراؤون قصدهم الفخر والرياء ويلمزون الذين ﴿لَا يَجِدُونَ

وفي هذه الآية دليل على مشروعية الصلاة على المؤمنين والوقوف عند قبورهم للدعاء لهم كما كان النبي ﷺ يفعل ذلك في المؤمنين؛ فإن تقيد النهي بالمنافقين يدل على أنه قد كان متقراً في المؤمنين.

﴿ وَلَا تَعْبُجْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ ﴾ (٨٥).

(٨٥) أي: لا تغتر بما أعطاهم الله في الدنيا من الأموال والأولاد؛ فليس ذلك لكرامتهم عليه، وإنما ذلك إهانة منه لهم. ﴿ يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الدُّنْيَا ﴾: فيتعبون في تحصيلها، ويخافون من زوالها، ولا يتهنون بها، بل لا يزالون يعانون الشدائد والمشاق فيها، وتلهيهم عن الله والدار الآخرة، حتى يتقبلوا من الدنيا، ﴿ وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ ﴾ (٨٥): قد سلبهم حبها عن كل شيء، فماتوا وقلوبهم بها متعلقة وأفندتهم عليها متحرقة.

﴿ وَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ ءَامِنُوا بِاللَّهِ وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذَنَكَ أُولُو الطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُنْ مَعَ الْقَائِدِينَ ﴾ (٨٦) رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴾ (٨٧).

(٨٦) يقول تعالى في بيان استمرار المنافقين على الشاغل عن الطاعات وأنها لا تؤثر فيهم السور والآيات: ﴿ وَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ ﴾: يؤمرون فيها بالإيمان بالله والجهد في سبيل الله، ﴿ اسْتَأْذَنَكَ أُولُو الطَّوْلِ مِنْهُمْ ﴾: يعني: أولي الغنى والأموال الذين لا عذر لهم، وقد أمدهم الله بأموال وبنين، أفلا يشكرون الله ويحمدونه ويقومون بما أوجبه عليهم وسهل عليهم أمره؟! ولكن أبوا إلا التكاسل والاستئذان في القعود، ﴿ وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُنْ مَعَ الْقَائِدِينَ ﴾ (٨٦).

(٨٧) قال تعالى: ﴿ رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ ﴾: أي: كيف رضوا لأنفسهم أن يكونوا مع النساء المتخلفات عن الجهاد؟! هل معهم فقه أو عقل دلهم على ذلك أم طبع الله على قلوبهم؟! فلا تعي الخير ولا يكون فيها إرادة لفعل ما فيه الخير والفلاح؛ فهم لا يفقهون مصالحهم؛ فلو فقهوا حقيقة الفقه؛ لم يرضوا لأنفسهم بهذه الحال التي تحطهم عن منازل الرجال.

﴿ لَيْكِنَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ جَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَأُولَئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ (٨٨) أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ (٨٩).

(٨٨) يقول تعالى: إذا تخلف هؤلاء المنافقون عن الجهاد؛ فالله سيغني عنهم، ولله عباد وخواص من خلقه اختصهم بفضله يقومون بهذا الأمر، وهم ﴿ الرَّسُولُ ﴾: محمد ﷺ، ﴿ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ ﴾: يجاهدون ﴿ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ ﴾: غير متساقلين ولا كسليين، بل هم فرحون مستبشرون، ﴿ وَأُولَئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ ﴾: الكثيرة في الدنيا والآخرة. ﴿ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ (٨٨): الذين ظفروا بأعلى المطالب وأكمل الرغائب.

(٨٩) ﴿ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ (٨٩): فتباً لمن لم يرغب بما رغبوا فيه وخسر دينه ودنياه وآخره، وهذا نظير قوله تعالى: ﴿ قُلْ ءَامِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْآذَانِ ﴾

الْجَنَّةُ النَّارُ
سورة التوبة

رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ (٨٧) لَيْكِنَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ جَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَأُولَئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٨٨) أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٨٩) وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٩٠) لَيْسَ عَلَى الضَّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يَنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللَّهُ عَفُورٌ رَحِيمٌ (٩١) وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَحِذْ مَا أَحْمَلْكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يَنْفِقُونَ (٩٢) إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٩٣)

٢٠١

﴿ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ ﴾؛ أي: من سبيل يكون عليهم فيه تبعة؛ فإنهم بإحسانهم فيما عليهم من حقوق الله وحقوق العباد أسقطوا توجه اللوم عليهم، وإذا أحسن العبد فيما يقدر عليه؛ سقط عنه ما لا يقدر عليه.

ويستدل بهذه الآية على قاعدة، وهي أن من أحسن على غيره في نفسه أو في ماله ونحو ذلك، ثم ترتب على إحسانه نقص أو تلف: أنه غير ضامن؛ لأنه محسن، ولا سبيل على المحسنين؛ كما أنه يدل على أن غير المحسن - وهو المسيء - كالمفرط؛ أن عليه الضمان. ﴿ وَاللَّهُ عَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾: من مغفرته ورحمته عفا عن العاجزين، وأثابهم بنيتهم الجازمة ثواب القادرين الفاعلين.

﴿ وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ ﴾: فلم يصادفوا عندك شيئاً. ﴿ قُلْتُ ﴾: لهم معذراً: ﴿ لَا أَحَدٌ مَّا أَجْمَلَكُم عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيَيْنُهُمْ تَفِيضٌ مِّنَ الدَّمْعِ حَرْثًا أَلَّا يَحْدُوا مَا يُفْقُونَ ﴾: فإنهم عاجزون باذلون لأنفسهم، وقد صدر منهم من الحزن والمشقة ما ذكره الله عنهم؛ فهؤلاء لا حرج عليهم، وإذا سقط الحرج عنهم؛ عاد الأمر إلى أصله، وهو أن من نوى الخير واقرن بنيتهم الجازمة سعي فيما يقدر عليه ثم لم يقدر؛ فإنه ينزل منزلة الفاعل التام.

﴿ إِنَّمَا السَّبِيلُ ﴾: يتوجه واللوم يتناول ﴿ الَّذِينَ يَسْتَنْدِثُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ ﴾: قادرون على الخروج لا عذر لهم؛ فهؤلاء ﴿ رَضُوا ﴾ لأنفسهم، ومن دينهم ﴿ يَأْنِ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ ﴾؛ كالنساء والأطفال ونحوهم. وإنما رضوا بهذه الحال لأن الله طبع ﴿ عَلَى قُلُوبِهِمْ ﴾؛ أي: ختم عليها؛ فلا يدخلها خير، ولا يحسون بمصالحهم الدينية والدنيوية ﴿ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾: عقوبة لهم على ما اقترفوا.

﴿ يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُلْ لَا تَعْتَذِرُوا لَنْ تُؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَأْنَا اللَّهَ مِنْ أَخْبَارِكُمْ وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عِلِّيِّ الْعَالِيَةِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنْشِئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾: سَخِلْفُونَ بِالله لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتَعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رَجِسٌ وَمَآوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿ ٩٥ ﴾ يَخْلَفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴿ ٩٦ ﴾

سَجَدًا ﴿ ٩٧ ﴾ [الإسراء: ١٠٧]، وقوله: ﴿ فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَلْنَا بِهَا قَوْلًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَفِرِينَ ﴾ [الأنعام: ٨٩].

﴿ وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾: لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَحْدُوتُ مَا يُفْقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللَّهُ عَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿ ٩١ ﴾ وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَحَدٌ مَّا أَجْمَلَكُم عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيَيْنُهُمْ تَفِيضٌ مِّنَ الدَّمْعِ حَرْثًا أَلَّا يَحْدُوا مَا يُفْقُونَ ﴿ ٩٢ ﴾ إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَنْدِثُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿ ٩٣ ﴾

﴿ ٩١ ﴾ يقول تعالى: ﴿ وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ ﴾؛ أي: جاء الذين تهاونوا وقصروا منهم في الخروج لأجل أن يؤذن لهم في ترك الجهاد؛ غير مباليين في الاعتذار لجفائهم وعدم حيائهم وإتيانهم بسبب ما معهم من الإيمان الضعيف، وأما الذين كذبوا الله ورسوله منهم؛ فقعدها وتركوا الاعتذار بالكلية. ويحتمل أن معنى قوله: ﴿ الْمُعَذِّرُونَ ﴾؛ أي: الذين لهم عذر أتوا إلى الرسول ﷺ ليعذرهم، ومن عادته أن يعذر من له عذر، ﴿ وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾: في دعواهم الإيمان المقضي للخروج وعدم عملهم بذلك. ثم توعدهم بقوله: ﴿ سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾: في الدنيا والآخرة.

﴿ ٩١ ﴾ لما ذكر المعتذرين، وكانوا على قسمين: قسم معذور في الشرع، وقسم غير معذور؛ ذكر ذلك بقوله: ﴿ لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ ﴾: في أبدانهم وأبصارهم، الذين لا قوة لهم على الخروج والقتال، ﴿ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى ﴾: وهذا شامل لجميع أنواع المرض، الذي لا يقدر صاحبه معه على الخروج والجهاد؛ من عرج وعمى وحمل وذات الجنب والفالج وغير ذلك. ﴿ وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَحْدُوتُ مَا يُفْقُونَ ﴾؛ أي: لا يجدون زاداً ولا راحلة يتبلفون بها في سفرهم؛ فهؤلاء ليس عليهم حرج، بشرط أن ينصحوا لله ورسوله؛ بأن يكونوا صادقي الإيمان، وأن يكون من نيتهم وعزمهم أنهم لو قدروا لجاهدوا، وأن يفعلوا ما يقدرون عليه من الحث والترغيب والتشجيع على الجهاد.

﴿٩٤﴾ لما ذكر تخلف المنافقين الأغنياء، وأنه لا عذر لهم؛ أخبر أنهم سـ ﴿يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ﴾: من غزائكم، ﴿قُلْ لَهُمْ﴾: ﴿لَا تَعْتَذِرُوا لَنْ تُؤْمِنَ لَكُمْ﴾؛ أي: لن نصدقكم في اعتذاركم الكاذب، ﴿قَدْ تَبَيَّنَا اللَّهُ مِنْ أَجْبَارِكُمْ﴾: وهو الصادق في قوله، فلم يبق للاعتذار فائدة؛ لأنهم يعتذرون بخلاف ما أخبر الله عنهم، ومحال أن يكونوا صادقين فيما يخالف خبر الله الذي هو أعلى مراتب الصدق. ﴿وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ﴾: في الدنيا؛ لأن العمل هو ميزان الصدق من الكذب، وأما مجرد الأقوال؛ فلا دلالة فيها على شيء من ذلك، ﴿ثُمَّ تَرُدُّونَ إِلَى عَلِيهِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾: الذي لا يخفى عليه خافية، ﴿فَيَلَيِّقُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ ﴿٩٥﴾: من خير وشر، ويجازيكم بعدله أو بفضله؛ من غير أن يظلمكم مثقال ذرة.

﴿٩٥﴾ واعلم أن المسيء المذنب له ثلاث حالات: إما [أن] يقبل قوله وعذره ظاهراً وباطناً ويعفى عنه بحيث يبقى كأنه لم يذنب. فهذه الحالة هي المذكورة هنا في حق المنافقين أن عذرهم غير مقبول، وأنه قد تقررت أحوالهم الخبيثة وأعمالهم السيئة. وإما أن يعاقبوا بالعقوبة والتعزير الفعلي على ذنبهم. وإما أن يعرض عنهم، ولا يقابلوا بما فعلوا بالعقوبة الفعلية. وهذه الحال الثالثة هي التي أمر الله بها في حق المنافقين، وللهذا قال: ﴿سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ يَتَّبِعُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ﴾؛ أي: لا توبخوهم ولا تعجلوهم أو تقتلوه. ﴿إِنَّهُمْ رِجْسٌ﴾؛ أي: إنهم قدر خبيثاء، ليسوا بأهل لأن يبالي بهم، وليس التوبيخ والعقوبة مفيدين فيهم. وتكفيهم عقوبة ﴿جَهَنَّمَ جَزَاءً يَمْكَأُونَ يَكْسِبُونَ﴾ ﴿٩٦﴾.

﴿٩٦﴾ وقوله: ﴿يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِيَرْضَوْا عَنْهُمْ﴾؛ أي: ولهم أيضاً هذا المقصد الآخر منكم غير مجرد الإعراض، بل يحبون أن ترضوا عنهم كأنهم ما فعلوا شيئاً. ﴿فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ ﴿٩٧﴾؛ أي: فلا ينبغي لكم أيها المؤمنون أن ترضوا عمن لم يرض الله عنه، بل عليكم أن توافقوا ربكم في رضاه وغضبه. وتأمل كيف قال: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ ﴿٩٧﴾، ولم يقل: فإن الله لا يرضى عنهم؛ ليدل ذلك على أن باب التوبة مفتوح، وأنهم مهما تابوا هم أم غيرهم؛ فإن الله يتوب عليهم ويرضى عنهم، وأما ما داموا فاسقين؛ فإن الله لا يرضى عليهم؛ لوجود المانع من رضاه، وهو خروجهم عما رضى الله لهم من الإيمان والطاعة إلى ما يغضبه من الشرك والنفاق والمعاصي.

وحاصل ما ذكره الله أن المنافقين المتخلفين عن الجهاد من غير عذر إذا اعتذروا للمؤمنين وزعموا أن لهم أعداء في تخلفهم؛ فإن المنافقين يريدون بذلك أن تعرضوا عنهم وترضوا وتقبلوا عذرهم: فأما قبول العذر منهم والرضا عنهم؛ فلا حرجاً ولا كرامة لهم. وأما الإعراض عنهم؛ فيعرض المؤمنون عنهم لإعراضهم عن الأمور الردية الرجس.

وفي هذه الآيات إثبات الكلام لله تعالى في قوله: ﴿قَدْ تَبَيَّنَا اللَّهُ مِنْ أَجْبَارِكُمْ﴾، وإثبات الأفعال الاختيارية لله الواقعة بمشيئته وقدرته في هذا وفي قوله: ﴿وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ﴾؛ أخبر أنه سيراه بعد وقوعه. وفيها إثبات الرضا لله عن المحسنين والغضب والسخط على الفاسقين.

سورة التوبة
يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُلْ لَا تَعْتَذِرُوا لَنْ تُؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ تَبَيَّنَا اللَّهُ مِنْ أَجْبَارِكُمْ وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تَرُدُّونَ إِلَى عَلِيهِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيَلَيِّقُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٥﴾ سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ يَتَّبِعُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَا وَنَهُمْ جَهَنَّمَ جَزَاءً يَمْكَأُونَ يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِيَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴿٩٧﴾ الْأَعْرَابُ أَشْذُكُمْ وَأَعْيَافًا أَجْدَرُ أَتَعْلَمُونَ حَدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٩٨﴾ وَالْأَعْرَابُ مِنْ يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُّ بِكُمُ الدَّوَائِرَ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٩٩﴾ وَالْأَعْرَابُ مِنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ فُرْقَانًا فَرِيقٌ عِنْدَ اللَّهِ وَصَلَوَاتُ الرَّسُولِ أَلَا إِنَّهَا فَرْقَةٌ لَكُمْ سَيِّدُ خَلْقِهِ وَاللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٠٠﴾

أي: دعائه لهم وتبريكه عليهم. قال تعالى مبيناً لنفع صلوات الرسول: ﴿أَلَا إِنَّا قُرْبَةُ لَهُمْ﴾: تبريهم إلى الله، وتنمي أموالهم، وتُجَلُّ فيها البركة. ﴿سَيَدْخُلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ﴾: في جملة عباد الصالحين. إنه ﴿عَفْوٌ رَحِيمٌ﴾: فيغفر السيئات العظيمة لمن تاب إليه، ويعم عباد برحمته التي وسعت كل شيء، ويخص عباد المؤمنين برحمة يوفقه فيها إلى الخيرات، ويحميهم فيها من المخالفات، ويجزل لهم فيها أنواع المشويات.

وفي هذه الآية دليل على أن الأعراب كأهل الحاضرة؛ منهم الممدوح ومنهم المذموم، فلم يذمهم الله على مجرد تعريضهم وبإديتهم، إنما ذمهم على ترك أوامر الله، وأنهم في مظنة ذلك.

ومنها: أن الكفر والنفاق يزيد وينقص ويغلظ، ويخف بحسب الأحوال.

ومنها: فضيلة العلم، وأن فاقده أقرب إلى الشر ممن يعرفه؛ لأن الله ذم الأعراب، وأخبر أنهم أشد كفراً ونفاقاً، وذكر السبب الموجب لذلك، وأنهم أجدر ألا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله.

ومنها: أن العلم النافع الذي هو أنفع العلوم معرفة حدود ما أنزل الله على رسوله من أصول الدين وفروعه؛ كمعرفة حدود الإيمان والإسلام والإحسان والتقوى والفلاح والطاعة والبر والصلة والإحسان والكفر والنفاق والفسق والعصيان والزنا والخمر والربا ونحو ذلك؛ فإن في معرفتها يتمكن من فعلها - إن كانت مأموراً بها أو تركها إن كانت محظورة - ومن الأمر بها أو النهي عنها.

ومنها: أنه ينبغي للمؤمن أن يؤدي ما عليه من الحقوق، مشروح الصدر، مطمئن النفس، ويحرص أن تكون مغنماً ولا تكون مغرمًا.

﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ مِنَ الْمُهِجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾.

السابقون هم الذين سبقوا هذه الأمة ويدروها إلى الإيمان والهجرة والجهاد وإقامة دين الله، ﴿مِنَ الْمُهِجِرِينَ﴾:

﴿الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ ومن الأعراب من يتخذ ما يُنفق مَقَرًّا وَيَرْتَضِ بِكَ الدَّوَابِرَ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ومن الأعراب من يؤمن بالله واليوم الآخر ويتخذ ما يُنفق قُرْبَةً عِنْدَ اللَّهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ أَلَا إِنَّا قُرْبَةُ لَهُمْ سَيَدْخُلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ إِنَّ اللَّهَ عَفْوٌ رَحِيمٌ.

يقول تعالى: ﴿الْأَعْرَابُ﴾: وهم سكان البادية والبراري، ﴿أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا﴾: من الحاضرة الذين فيهم كفر ونفاق، وذلك لأسباب كثيرة؛ منها: أنهم بعيدون عن معرفة الشرائع الدينية والأعمال والأحكام؛ فهم أخرى ﴿وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ﴾: من أصول الإيمان وأحكام الأوامر والنواهي؛ بخلاف الحاضرة؛ فإنهم أقرب لأن يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله، فيحدث لهم بسبب هذا العلم تصورات حسنة وإرادات للخير الذي يعلمون ما لا يكون في البادية. وفيهم من لطافة الطبع والانتباه للداعي ما ليس في البادية. ويجالسون أهل الإيمان، ويخالطونهم أكثر من أهل البادية؛ فلذلك كانوا أخرى للخير من أهل البادية، وإن كان في البادية والحاضرة كفار ومنافقون؛ ففي البادية أشد وأغلظ مما في الحاضرة.

ومن ذلك أن الأعراب أحرص على الأموال وأشح فيها؛ فمنهم ﴿مَنْ يَتَّخِذْ مَا يُنْفِقُ﴾: من الزكاة والنفقة في سبيل الله وغير ذلك، ﴿مَقَرًّا﴾؛ أي: يراها خسارة ونقصاً، لا يحتسب فيها، ولا يريد بها وجه الله، ولا يكاد يؤديها إلا كرهاً، ﴿وَيَرْتَضِ بِكَ الدَّوَابِرَ﴾؛ أي: من عداوتهم للمؤمنين وبغضهم لهم أنهم يودون ويتظرون فيهم دوائر الدهر وفجائع الزمان، وهذا سينعكس عليهم. فعليهم ﴿دَائِرَةُ السَّوْءِ﴾، أما المؤمنون؛ فلهم الدائرة الحسنة على أعدائهم، ولهم العقبى الحسنة. ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾: يعلم نيات العباد وما صدرت عنه الأعمال من إخلاص وغيره.

وليس الأعراب كلهم مذمومين، بل منهم ﴿مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾: فيسلم بذلك من الكفر والنفاق، ويعمل بمقتضى الإيمان، ﴿وَيَتَّخِذْ مَا يُنْفِقُ قُرْبَةً عِنْدَ اللَّهِ﴾؛ أي: يحتسب نفقته ويقصد بها وجه الله تعالى والقرب منه، ويجعلها وسيلة لصلوات ﴿الرَّسُولِ﴾؛

﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ
الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ (١٠٣).

﴿١٠٣﴾ أي: أما علموا سعة رحمة الله وعموم كرمه، وأنه
﴿ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ ﴾: التائبين من أي ذنب كان، بل
يفرح تعالى بتوبة عبده إذا تاب أعظم فرح يقدر، ﴿ وَيَأْخُذُ
الصَّدَقَاتِ ﴾: منهم؛ أي: يقبلها ويأخذها يمينه، فيريها
لأحدهم كما يربي الرجل فلوله، حتى تكون التمرة الواحدة
كالجبل العظيم؛ فكيف بما هو أكبر وأكثر من ذلك. ﴿ وَأَنَّ
اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ ﴾: أي: كثير التوبة على التائبين؛ فمن تاب
إليه؛ تاب عليه، ولو تكررت منه المعصية مراراً، ولا يمل
الله من التوبة على عباده حتى يملوا هم، ويأبوا إلا النفار
والشرود عن بابه ومولاتهم عدوهم. ﴿ الرَّحِيمُ ﴾ (١٠٤):
الذي وسعت رحمته كل شيء، وكتبها للذين يتقون، ويؤتون
الزكاة، ويؤمنون بآياته، ويتبعون رسوله.

﴿ وَقُلْ أَعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ
وَسَرُّدُونَ إِلَىٰ غَيْرِ الْعَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنْشَرُ بِمَا كُنتُمْ
تَعْمَلُونَ ﴾ (١٠٥).

﴿١٠٥﴾ يقول تعالى: ﴿ وَقُلْ ﴾ لهؤلاء المنافقين: ﴿ أَعْمَلُوا ﴾:
ما ترون من الأعمال، واستمروا على باطلكم؛ فلا تحسبوا
أن ذلك سيخفي، ﴿ فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ ﴾؛
أي: لا بد أن يتبين عملكم ويتضح، ﴿ وَسَرُّدُونَ إِلَىٰ غَيْرِ
الْعَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنْشَرُ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ (١٠٦): من خير وشر
ففي هذا التهديد والوعيد الشديد على من استمر على باطله
وطغيانه وغيه وعصيانه. ويحتمل أن المعنى: إنكم مهما
عملتم من خير أو شر؛ فإن الله مطلع عليكم، وسيطلع
رسوله وعباده المؤمنين على أعمالكم ولو كانت باطنة.

﴿ وَءَاخَرُونَ مَرْجُونَ لِأَمْرِ اللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ
عَلَيْهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ (١٠٧).

﴿١٠٧﴾ أي: ﴿ وَءَاخَرُونَ ﴾: من المخلفين مؤخرون ﴿ لِأَمْرِ
اللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ ﴾: ففي هذا التخويف الشديد
للمخلفين والحث لهم على التوبة والندم. ﴿ وَاللَّهُ عَلِيمٌ ﴾:
بأحوال العباد ونياتهم، ﴿ حَكِيمٌ ﴾ (١٠٨): يضع الأشياء
مواضعها، وينزلها منازلها؛ فإذا اقتضت حكمته أن يغفر لهم
ويتوب عليهم؛ غفر لهم وتاب عليهم. وإن اقتضت حكمته
أن يخذلهم ولا يوفقهم للتوبة؛ فعل ذلك.

على أن المخطئ المعترف النادم الذي لم يتب توبة نصوحاً؛
أنه تحت الخوف والرجاء، وهو إلى السلامة أقرب، وأما
المخطئ الذي لم يعترف، ولم يندم على ما مضى منه، بل
لا يزال مصراً على الذنوب؛ فإنه يخاف عليه أشد الخوف.

﴿١٠٧﴾ قال تعالى لرسوله ومن قام مقامه أمراً له بما يظهر
المؤمنين ويتمم إيمانهم: ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً ﴾: وهي
الزكاة المفروضة، ﴿ تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا ﴾؛ أي: تطهرهم من
الذنوب والأخلاق الرذيلة، ﴿ وَتُزَكِّيهِمْ ﴾؛ أي: تنميتهم، وتزيد
في أخلاقهم الحسنة وأعمالهم الصالحة، وتزيد في ثوابهم
الدنيوي والأخروي، وتُنمي أموالهم، ﴿ وَصَلِّ عَلَيْهِمْ ﴾؛ أي: ادع
لهم؛ أي: للمؤمنين عموماً وخصوصاً عندما يدفعون
إليك زكاة أموالهم. ﴿ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ ﴾؛ أي: طمأنينة
لقلوبهم. واستبشار لهم. ﴿ وَاللَّهُ سَمِيعٌ ﴾: لدعائك سمع
إجابة وقبول. ﴿ عَلِيمٌ ﴾ (١٠٨): بأحوال العباد ونياتهم،
فيجازي كل عامل بعمله وعلى قدر نيته. فكان النبي ﷺ
يمثل لأمر الله، ويأمرهم بالصدقة، ويحثهم على لجبايتها؛
فإذا أتاه أحد بصدقته؛ دعا له وبرك.

ففي هذه الآية دلالة على وجوب الزكاة في جميع الأموال،
وهذا إذا كانت للتجارة ظاهرة؛ فإنها أموال تنمى ويكتسب
بها؛ فمن العدل أن يواسي منها الفقراء بأداء ما أوجب الله
فيها من الزكاة. وما عدا أموال التجارة؛ فإن كان المال ينمى
كالحبوب والثمار والماشية المتخذة للنماء والدر والنسل؛
فإنها تجب فيها الزكاة، وإلا لم تجب فيها؛ لأنها إذا كانت
للقنية؛ لم تكن بمنزلة الأموال التي يتخذها الإنسان في
العادة مالا يتمول ويطلب منه المقاصد المالية، وإنما صرف
عن المالية بالقنية ونحوها.

وفيها: أن العبد لا يمكنه أن يتطهر، ويتزكى حتى يخرج
زكاة ماله، وأنه لا يكفرها شيء سوى أدائها؛ لأن الزكاة
والتنظيف متوقف على إخراجها.

وفيها: استحباب الدعاء من الإمام أو نائبه لمن أدى زكاته
بالبركة، وأن ذلك ينبغي أن يكون جهراً؛ بحيث يسمعه
المتصدق فيسكن إليه.

ويؤخذ من المعنى أنه ينبغي إدخال السرور على المؤمن
بالكلام اللين والدعاء له ونحو ذلك مما يكون فيه طمأنينة
وسكون لقلبه. وأنه ينبغي تشييط من أنفق نفقة، وعمل عملاً
صالحاً بالدعاء له والثناء ونحو ذلك.

سورة التوبة

المزمل

وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٧﴾ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لِمَسْجِدٍ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَّخِذُوا لِلَّهِ الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ يَحِبُّ الْمُطْهَرِينَ ﴿١٨﴾ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَاتَّخَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٩﴾ لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٠﴾

إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ يُقْبِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْبَلُونَ وَيُقْبَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْفُرْقَانِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبِشِرُوا بِهِ يَبْعَثُكُمْ الَّذِي يَبْعَثُ بِهِ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٢١﴾

٢٠٤

وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٧﴾ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لِمَسْجِدٍ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَّخِذُوا لِلَّهِ الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ يَحِبُّ الْمُطْهَرِينَ ﴿١٨﴾ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَاتَّخَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٩﴾ لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٠﴾

﴿١٧﴾ كان أناس من المنافقين من أهل قباء اتخذوا مسجداً إلى جنب مسجد قباء يريدون به المضارة والمشاقة بين المؤمنين، ويعدونه لمن يرجونه من المحاربين لله ورسوله؛ يكون لهم حصناً عند الاحتياج إليه، فبين تعالى خزيمهم، وأظهر سرهم، فقال: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا﴾؛ أي: مضارة للمؤمنين ولمسجدهم الذي يجتمعون فيه، ﴿وَكُفْرًا﴾؛ أي: مقصدهم فيه الكفر إذا قصد غيرهم الإيمان، ﴿وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾؛ أي: ليتشعبوا يفرقوا ويختلفوا، ﴿وَإِرْصَادًا﴾؛ أي: إعداداً لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ؛ أي: إغاثة للمحاربين لله ورسوله، الذين تقدم حرابهم واشتدت عدائتهم، وذلك كأبي عامر الراهب، الذي كان من أهل المدينة، فلما قدم النبي ﷺ وهاجر إلى المدينة؛ كفر به، وكان متعبداً في الجاهلية، فذهب إلى المشركين يستعين بهم على حرب رسول الله ﷺ، فلما لم يدرك مطلوبه عندهم؛ ذهب إلى قيصر بزمعه أنه ينصره، فهلك اللعين في الطريق، وكان على وعد ومبالاة هو والمنافقون، فكان مما أعدوا له مسجد الضرار، فنزل الوحي بذلك، فبعث إليه النبي ﷺ من يهدمه ويحرقه، فهدم، وحرق، وصار بعد ذلك مزبلة.

قال تعالى بعدما بين من مقاصدهم الفاسدة في ذلك المسجد: ﴿وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ﴾؛ أي: الإحسان إلى الضعيف والعاجز والضرير. ﴿وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾: شهادة الله عليهم أصدق من حلفهم.

﴿١٨﴾ ﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا﴾؛ أي: لا تصل في ذلك المسجد الذي بني ضاراً أبداً؛ فالله يغنيك عنه، ولست بمضطر إليه. ﴿لِمَسْجِدٍ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ﴾: ظهر فيه الإسلام في قباء، وهو مسجد قباء أسس على إخلاص الدين لله وإقامة ذكره وشعائره دينه، وكان قديماً في هذا عريقاً فيه؛ فهذا المسجد الفاضل ﴿أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ﴾: وتتعبد وتذكر الله تعالى؛ فهو فاضل وأهله فضلاء، ولهذا مدحهم الله بقوله: ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَّخِذُوا لِلَّهِ الْحُسْنَىٰ﴾: من الذنوب، ويتطهروا من الأوساخ والنجاسات والأحداث، ومن المعلوم أن من أحب شيئاً؛ لا بد أن يسعى له ويجتهد فيما يحب؛ فلا بد أنهم كانوا حريصين على التطهر من الذنوب والأوساخ والأحداث، ولهذا كانوا ممن سبق إسلامه، وكانوا مقيمين للصلاة، محافظين على الجهاد مع رسول الله ﷺ وإقامة شرائع الدين، وممن كانوا يتحززون من مخالفة الله ورسوله.

وسألهم النبي ﷺ بعدما نزلت هذه الآية^(١) في مدحهم عن طهارتهم، فأخبروه أنهم يتبعون الحجارة الماء، فحمدهم على

صنيعهم.

﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَهِّرِينَ﴾ (١٠٨): الطهارة المعنوية كالتنزه من الشرك والأخلاق الرذيلة، والطهارة الحسية كإزالة الأنجاس ورفع الأحداث.

﴿ثم فاضل بين المساجد بحسب مقاصد أهلها وموافقتها لرضاه، فقال: ﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُيُوتَهُ عَلَى تَقْوَىٰ مِنْ اللَّهِ﴾؛ أي: على نية صالحة وإخلاص، ﴿وَرِضْوَانٍ﴾؛ بأن كان موافقاً لأمره، فجمع في عمله بين الإخلاص والمتابعة. ﴿خَيْرٌ أَمْ مَن أَسَّسَ بُيُوتَهُ عَلَىٰ شَقَاٍ﴾؛ أي: على طرف؛ ﴿جُرْفٍ هَارٍ﴾؛ أي: بال، قد تداعى للانهدام، ﴿فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارٍ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ (١٠٩): لما فيه مصالح دينهم ودنياهم.

﴿لَا يَزَالُ بُعِثُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ﴾؛ أي: شكاً وريباً ماكناً في قلوبهم، ﴿إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ﴾؛ بأن يندموا غاية الندم، ويتوبوا إلى ربهم، ويخافوه غاية الخوف؛ فبذلك يعفو الله عنهم، وإلا؛ فبينانهم لا يزيدهم إلا ريباً إلى ربهم، ونفاقاً إلى نفاقهم. ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾؛ بجميع الأشياء؛ ظاهراً وباطناً، خفيها وجليها، وبما أسره العباد وأعلنوه، ﴿حَكِيمٌ﴾ (١١٠): لا يفعل ولا يخلق ولا يأمر ولا ينهى إلا ما اقتضته الحكمة وأمر به؛ فله الحمد.

وفي هذه الآيات عدة فوائد:

منها: أن اتخاذ المسجد الذي يقصد به الضرار لمسجد آخر بقربه أنه محرم، وأنه يجب هدم مسجد الضرار الذي اطلع على مقصود أصحابه.

ومنها: أن العمل، وإن كان فاضلاً، تغيره النية، فينقلب منهياً عنه؛ كما قلبت نية أصحاب مسجد الضرار عملهم إلى ما ترى.

ومنها: أن كل حالة يحصل بها التفريق بين المؤمنين؛ فإنها من المعاصي التي يتعين تركها وإزالتها؛ كما أن كل حالة يحصل بها جمع المؤمنين واتلافهم يتعين اتباعها والأمر بها والحث عليها؛ لأن الله علل اتخاذهم لمسجد الضرار بهذا المقصد الموجب للنهي عنه كما يوجب ذلك الكفر والمحاربة لله ورسوله.

ومنها: النهي عن الصلاة في أماكن المعصية والبعد عنها

وعن قربها.

ومنها: أن المعصية تؤثر في البقاع كما أثرت معصية المنافقين في مسجد الضرار ونهي عن القيام فيه، وكذلك الطاعة تؤثر في الأماكن كما أثرت في مسجد قباء، حتى قال الله فيه: ﴿لَمَسْجِدُ أُسُسٍ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ﴾؛ ولهذا كان لمسجد قباء من الفضل ما ليس لغيره، حتى كان ﷺ يزور قباء كل سبت يصلي فيه^(١)، وحث على الصلاة فيه.

ومنها: أنه يستفاد من هذه التعليل المذكورة في الآية أربع قواعد مهمة، وهي: كل عمل فيه مضارة لمسلم، أو فيه معصية لله؛ فإن المعاصي من فروع الكفر، أو فيه تفريق بين المؤمنين، أو فيه معاونة لمن عادى الله ورسوله؛ فإنه محرم ممنوع منه، وعكسه بعكسه.

ومنها: أن الأعمال الحسية الناشئة عن معصية الله، لا تزال مبعدة لفاعلها عن الله، بمنزلة الإصرار على المعصية حتى يزيلها ويتوب منها توبة تامة؛ بحيث يتقطع قلبه من الندم والحسرات.

ومنها: أنه إذا كان مسجد قباء مسجداً أسس على التقوى؛ فمسجد النبي ﷺ الذي أسسه بيده المباركة، وعمل فيه، واختاره الله له من باب أولى وأحرى.

ومنها: أن العمل المبني على الإخلاص والمتابعة هو العمل المؤسس على التقوى الموصول لعامله إلى جنات النعيم، والعمل المبني على سوء القصد وعلى البدع والضلال هو العمل المؤسس على شفا جرف هار، فانهار به في نار جهنم. والله لا يهدي القوم الظالمين.

﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ يُقَدِّمُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْبَلُونَ وَيُقْبَلُونَ وَعَدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْفُرْقَانِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِنِعْمَةِ اللَّهِ الَّذِي بَايَعَهُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ (١١١).

﴿يخبر تعالى خبراً صدقاً ويعد وعداً حقاً بمبايعة عظيمة ومعاوضة جسيمة، وهو أنه ﴿اشْتَرَى﴾: بنفسه الكريمة ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ﴾: فهي

سورة التوبة

سورة التوبة

الْكَافِرُونَ الْكَافِرُونَ الْكَافِرُونَ الْكَافِرُونَ الْكَافِرُونَ
 الْكَافِرُونَ الْكَافِرُونَ الْكَافِرُونَ الْكَافِرُونَ الْكَافِرُونَ
 وَالْكَافِرُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَفِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ
 وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾ مَا كَانِ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ
 يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولَى قُرْبَى مِنْ بَعْدِ
 مَا بَيَّنَّ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾ وَمَا كَانِ
 اسْتَغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ
 فَلَمَّا بَيَّنَّ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ
 ﴿١١٤﴾ وَمَا كَانِ اللَّهُ يُضِلُّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّى
 يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾ إِنَّ اللَّهَ
 لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَمَا لَكُمْ مِنْ
 دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١١٦﴾ لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى
 النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي
 سَاعَةِ الْمُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبَ فَرِيقٍ
 مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رُءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿١١٧﴾

٢٠٥

الثلث والثلثة المبيعة، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ التي فيها
 ما تشتهي النفس وتلد الأعين من أنواع اللذات والأفراح
 والمسرات والحوار الحسان والمنازل الأنيقات، وصفة
 العقد والمبايعات بأن يبذلوا لله نفوسهم وأموالهم في جهاد
 أعدائه؛ لإعلاء كلمته وإظهار دينه. فيقاتلون ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ
 فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ﴾: فهذا العقد والمبايعات قد صدرت من
 الله مؤكدة بأنواع التأكيدات. ﴿وَعَدَا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ
 وَالْإِنْجِيلِ وَالْفُرْقَانِ﴾: التي هي أشرف الكتب التي طرقت
 العالم وأعلاها وأكملها، وجاء بها أكمل الرسل أولو العزم،
 وكلها اتفقت على هذا الوعد الصادق. ﴿وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ
 مِنَ اللَّهِ فَأَسْتَبْشِرُوا﴾: أيها المؤمنون، القائمون بما وعدكم
 الله ﴿بِتَبْعِكُمُ الَّذِي يَبْعَثُ بِهِ﴾؛ أي: لتفرحوا بذلك وليبشر
 بعضكم بعضاً ويحث بعضهم بعضاً. ﴿وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ
 الْعَظِيمُ﴾: الذي لا فوز أكبر منه ولا أجل؛ لأنه يتضمن
 السعادة الأبدية والنعيم المقيم، والرضا من الله الذي هو أكبر
 من نعيم الجنات.

وإذا أردت أن تعرف مقدار الصفقة؛ فانظر إلى المشتري؛
 من هو؟ وهو الله جل جلاله، وإلى العوض، وهو أكبر
 الأعيان وأجلها؛ جنات النعيم، وإلى الثمن المبذول فيها،
 وهو النفس والمال، الذي هو أحب الأشياء للإنسان، وإلى من جرى على يديه عقد هذا التبايع، وهو أشرف الرسل، وبأي
 كتاب رُقِم؟ وهي كتب الله الكبار المنزلة على أفضل الخلق.

﴿الْكَافِرُونَ الْكَافِرُونَ الْكَافِرُونَ الْكَافِرُونَ الْكَافِرُونَ
 الْكَافِرُونَ الْكَافِرُونَ الْكَافِرُونَ الْكَافِرُونَ الْكَافِرُونَ
 وَالْكَافِرُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَفِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

﴿١١٢﴾ كأنه قيل: من هم المؤمنون الذين لهم البشارة من الله بدخول الجنات ونيل الكرامات؟ فقال: هم: ﴿الْكَافِرُونَ﴾؛
 أي: الملازمون للتوبة في جميع الأوقات عن جميع السيئات. ﴿الْكَافِرُونَ﴾؛ أي: المتصفون بالعبودية لله والاستمرار
 على طاعته من أداء الواجبات والمستحبات في كل وقت؛ فبذلك يكون العبد من العابدين. ﴿الْكَافِرُونَ﴾: لله في السراء
 والضراء واليسر والعسر، المعترفون بما لله عليهم من النعم الظاهرة والباطنة، المثنون على الله بذكرها وبذكره في آناء الليل
 وآناء النهار. ﴿الْكَافِرُونَ﴾: فُسِّرَتِ السياحة بالصيام، أو السياحة في طلب العلم، وفُسِّرَتِ بسياحة القلب في معرفة الله
 ومحبه والإجابة إليه على الدوام، والصحيح أن المراد بالسياحة السفر في القربات؛ كالحج والعمرة والجهاد وطلب العلم
 وصلة الأقارب ونحو ذلك. ﴿الْكَافِرُونَ الْكَافِرُونَ﴾: أي: المكثرون من الصلاة، المشتعلة على الركوع والسجود.
 ﴿الْكَافِرُونَ الْكَافِرُونَ﴾: ويدخل فيه جميع الواجبات والمستحبات. ﴿وَالْكَافِرُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾: وهي جميع ما نهى
 الله ورسوله عنه. ﴿وَالْحَفِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ﴾: بتعلمهم حدود ما أنزل الله على رسوله، وما يدخل في الأوامر والنواهي
 والأحكام، وما لا يدخل، الملازمون لها فعلاً وتركاً. ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾: لم يذكر ما يبشرهم به؛ ليعم جميع ما رتب
 على الإيمان من ثواب الدنيا والدين والآخرة؛ فالبشارة متناولة لكل مؤمن، وأما مقدارها وصفاتها؛ فإنها بحسب حال المؤمنين
 وإيمانهم قوة وضعفاً وعملاً بمقتضاها.

بسلوك الصراط المستقيم؛ فإنه تعالى يتم عليهم إحسانه،
وبين لهم جميع ما يحتاجون إليه وتدعو إليه ضرورتهم؛
فلا يتركهم ضالين جاهلين بأمور دينهم. ففي هذا دليل على
كمال رحمته، وأن شريعته وافية بجميع ما يحتاجه العباد في
أصول الدين وفروعه. ويحتمل أن المراد بذلك: ﴿وَمَا
كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَهُمْ حَتَّى يَبَيِّنَ لَهُمْ مَا
يَتَّقُونَ﴾: فإذا بين لهم ما يتقون، فلم ينقادوا له؛ عاقبهم
بالإضلال جزاء لهم على ردهم الحق المبين، والأول أولى.
﴿إِنَّ اللَّهَ يَكُلُّ شَيْءٌ عَلَيْهِ﴾: فلكمال علمه وعمومه
علمكم ما لم تكونوا تعلمون، وبين لكم ما به تتفتنون.

﴿إِنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾؛
أي: هو المالك لذلك، المدير لعباده بالإحياء والإماتة
وأنواع التدابير الإلهية؛ فإذا كان لا يخل بتدبيره القدري؛
فكيف يخل بتدبيره الديني المتعلق بإلهيته ويترك عباده
سدى مهملين أو يدعهم ضالين جاهلين وهو أعظم تولية
لعباده! فهذا قال: ﴿وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ
وَلَا نَصِيرٍ﴾: أي: ولي يتولاكم بجلب المنافع لكم
أو نصير يدفع عنكم المضار.

﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ
وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ
مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبَ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ
يَهْمُ رَوْفٌ رَّحِيمٌ﴾ وعلى الثلاثة الذين خَلَفُوا حَتَّى
إِذَا صَافَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَصَافَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ
وَعَفَوْا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا
إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾.

﴿يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ مِنْ لُطْفِهِ وَإِحْسَانِهِ﴾ تَابَ اللَّهُ عَلَى
النَّبِيِّ: محمد ﷺ، ﴿وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ﴾:
فغفر لهم الزلات ووفر لهم الحسنات ورقاهم إلى أعلى
الدرجات، وذلك بسبب قيامهم بالأعمال الصعبة الشاقات،
ولهذا قال: ﴿الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ﴾؛ أي:
خرجوا معه لقتال الأعداء في غزوة تبوك، وكانت في حر
شديد وضيق من الزاد والركوب وكثرة عدو مما يدعو إلى
التخلف، فاستعانوا الله تعالى، وقاموا بذلك ﴿مِنْ بَعْدِ
مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبَ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ﴾؛ أي: تنقلب قلوبهم
ويميلوا إلى الدعة والسكون، ولكن الله ثبتهم وأيدهم
وقواهم.

﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا
لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولَىٰ قُرْبَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ
لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ ﴿وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ
إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ
أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾.

﴿١١٢﴾ يعني: ما يليق ولا يحسن للنبي وللمؤمنين به، ﴿أَنْ
يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ﴾؛ أي: لمن كفر به وعبد معه غيره،
﴿وَلَوْ كَانُوا أُولَىٰ قُرْبَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ
الْجَحِيمِ﴾: فإن الاستغفار لهم في هذه الحال غلط غير
مفيد؛ فلا يليق بالنبي والمؤمنين؛ لأنهم إذا ماتوا على الشرك
أو علم أنهم يموتون عليه؛ فقد حقت عليهم كلمة العذاب،
ووجب عليهم الخلود في النار، ولم تنفع فيهم شفاعة
الشافعين ولا استغفار المستغفرين. وأيضاً؛ فإن النبي والذين
آمَنوا معه عليهم أن يوافقوا ربهم في رضاه وغضبه، ويوالوا
من والاه الله، ويعادوا من عاداه الله، والاستغفار منهم لمن
تبين أنه من أصحاب النار مناف لذلك مناقض له.

﴿١١٣﴾ ولئن وجد الاستغفار من خليل الرحمن إبراهيم
عليه السلام لأبيه؛ فإنه ﴿عَنْ مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ﴾:
في قوله: ﴿سَأَسْتَغْفِرُكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا﴾ ﴿١١٤﴾
[مریم: ٤٧]: وذلك قبل أن يعلم عاقبة أبيه، ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ﴾:
لإبراهيم أن أباه ﴿عَدُوٌّ لِلَّهِ﴾: سيموت على الكفر، ولم
ينفع فيه الوعظ والتذكير؛ ﴿تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾: موافقة لربه وتادبا
معه. ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ﴾؛ أي: رجع إلى الله في جميع
الأمور، كثير الذكر والدعاء والاستغفار والإنابة إلى ربه.
﴿حَلِيمٌ﴾: أي: ذو رحمة بالخلق، وصفح عما يصدر
منهم إليه من الزلات، لا يستغفر جهل الجاهلين، ولا يقابل
الجاني عليه بجرمه، فأبوه قال له: ﴿لَا زُجْمَنَكَ﴾، وهو
يقول له: ﴿سَلِّمْ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُكَ رَبِّي﴾ [مریم: ٤٦، ٤٧]؛
فعليكم أن تقتدوا وتتبعوا ملة إبراهيم في كل شيء ﴿إِلَّا قَوْلَ
إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ﴾ [المتحنة: ٤]؛ كما نهكم الله عليها
وعلى غيرها. ولهذا قال:

﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَهُمْ حَتَّى
يَبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ إِنَّ اللَّهَ يَكُلُّ شَيْءٌ عَلَيْهِ﴾ ﴿١١٥﴾ إِنَّ اللَّهَ
لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَمَا لَكُمْ مِنْ
دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ ﴿١١٦﴾.

﴿١١٥﴾ يعني: أن الله تعالى إذا مَنَّ على قوم بالهداية وأمرهم

وزيغ القلب هو انحرافه عن الصراط المستقيم؛ فإن كان الانحراف في أصل الدين؛ كان كفرًا، وإن كان في شرائعه؛ كان بحسب تلك الشريعة التي زاغ عنها: إما قصر عن فعلها، أو فعلها على غير الوجه الشرعي. وقوله: ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ﴾؛ أي: قبل توبتهم. ﴿إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ (١١٧)؛ ومن رأفته ورحمته أن مَن عليهم بالتوبة وقبلها منهم، وثبتهم عليها.

﴿١١٨﴾ وكذلك لقد تاب الله على ﴿الَّذِينَ خَلَفُوا﴾؛ عن الخروج مع المسلمين في تلك الغزوة، وهم: كعب بن مالك وصاحباها، وقصتهم مشهورة معروفة في الصحاح والسنن^(١). ﴿حَتَّى إِذَا﴾؛ حزنوا حزنًا عظيمًا، و﴿صَافَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ﴾؛ أي: على سعتها ورحبتها، ﴿وَصَافَتْ عَلَيْهِمُ أَنْفُسُهُمْ﴾؛ التي هي أحب إليهم من كل شيء، فضاقت عليهم الفضاء الواسع والمحجوب الذي لم تجر العادة بالضييق منه، وذلك لا يكون إلا من أمر مزعج بلغ من الشدة والمشقة ما لا يمكن التعبير عنه، وذلك لأنهم قدموا رضا الله ورضا رسوله على كل شيء. ﴿وَوَدَّ أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ﴾؛ أي: تيقنوا وعرفوا بحالهم أنه لا ينجي من الشدائد ويلجأ إليه إلا الله وحده لا شريك له، فانقطع تعلقهم بالمخلوقين، وتعلقوا بالله ربهم، وفروا منه إليه، فمكثوا بهذه الشدة نحو خمسين ليلة. ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ﴾؛ أي: أذن في

سورة التوبة
وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خَلَفُوا حَتَّى إِذَا صَافَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَصَافَتْ عَلَيْهِمُ أَنْفُسُهُمْ وَوَدَّ أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾ يَتَابِعُهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴿١١٩﴾ مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ مَن حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَخْلِفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظُلْمٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخَصَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطْغُونَ مَوْطِنًا يَفِيضُ الْكُفَّارُ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نِيلاً إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَلَا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢١﴾ وَمَا كَانُوا الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَفْقَهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١٢٢﴾

توبتهم ووقفهم لها، ﴿لِيَتُوبُوا﴾؛ أي: لتقع منهم فيتوب الله عليهم. ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ﴾؛ أي: كثير التوبة والعفو والغفران عن الزلات والنقصان، ﴿الرَّحِيمُ﴾ (١١٨)؛ وصفه الرحمة العظيمة التي لا تزال تنزل على العباد في كل وقت وحين، في جميع اللحظات ما تقوم به أمورهم الدينية والدنيوية.

وفي هذه الآيات دليل على أن توبة الله على العبد أجل الغايات وأعلى النهايات؛ فإن الله جعلها نهاية خواص عباده، وامتن عليهم بها حين عملوا الأعمال التي يحبها ويرضاها.

ومنها: لطف الله بهم، وتثبيتهم في إيمانهم عند الشدائد والنوازل المزعجة.

ومنها: أن العبادة الشاقة على النفس لها فضل ومزية ليست لغيرها، وكلما عظمت المشقة؛ عظم الأجر.

ومنها: أن توبة الله على عبده بحسب ندمه وأسفه الشديد، وأن من لا يبالى بالذنوب ولا يُخْرِجُ إذا فعله؛ فإن توبته مدخولة، وإن زعم أنها مقبولة.

ومنها: أن علامة الخير وزوال الشدة إذا تعلق القلب بالله تعالى تعلقًا تامًّا وانقطع عن المخلوقين.

ومنها: أن من لطف الله بالثلاثة أن وسَّمهم بوسم ليس بعار عليهم، فقال: ﴿خَلَفُوا﴾؛ إشارة إلى أن المؤمنين خلفوهم، أو خلفوا عمن بت في قبول عذرهم أو في رده، وأنهم لم يكن تخلفهم رغبة عن الخير، ولهذا لم يقل: تخلفوا.

ومنها: أن الله تعالى من عليهم بالصدق، ولهذا أمر بالاعتداء بهم، فقال:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ (١١٩).

﴿١١٩﴾ أي: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾: بالله وبما أمر الله بالإيمان به! قوموا بما يقتضيه الإيمان، وهو القيام بتقوى الله تعالى؛ باجتناب ما نهى الله عنه والبعد عنه، ﴿وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ (١١٩): في أقوالهم وأفعالهم وأحوالهم، الذين أقوالهم صدق، وأعمالهم وأحوالهم لا تكون إلا صدقًا، خلية من الكسل والفتور، سالمة من المقاصد السيئة، مشتملة على الإخلاص والنية الصالحة؛ فإن الصدق يهدي إلى البر، وإن البر يهدي إلى الجنة؛ قال تعالى: ﴿هَذَا يَوْمُ يَفْعَلُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ﴾ [المائدة: ١١٩] الآية.

﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَفُوا عَن رَسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَن نَفْسِهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخَصَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطْئُونَ مَوْطِنًا يَخْفَظُ الْكُفَّارُ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوِّ نَيْلًا إِلَّا كَيْبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ (١٢٠) وَلَا يُفْقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كَيْتَبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (١٢١).

﴿١٢٠﴾ يقول تعالى حائثًا لأهل المدينة المنورة من المهاجرين والأنصار ومن حولها من الأعراب الذين أسلموا فحسن إسلامهم: ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَفُوا عَن رَسُولِ اللَّهِ﴾؛ أي: ما ينبغي لهم ذلك ولا يليق بأحوالهم. ﴿وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ﴾: في بقائها وراحتها، وسكونه ﴿عَن نَفْسِهِ﴾: الكريمة الزكية، بل النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم؛ فعلى كل مسلم أن يفدي النبي ﷺ بنفسه ويقدمه عليها؛ فعلامة تعظيم الرسول ومحبة والإيمان التام به ألا يتخلفوا عنه. ثم ذكر الثواب الحامل على الخروج، فقال: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ﴾؛ أي: المجاهدين في سبيل الله، ﴿لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ﴾؛ أي: تعب ومشقة، ﴿وَلَا مَخَصَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾؛ أي: مجاعة، ﴿وَلَا يَطْئُونَ مَوْطِنًا يَخْفَظُ الْكُفَّارُ﴾: من الخوض لديارهم والاستيلاء على أوطانهم ﴿وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوِّ نَيْلًا﴾: كالظفر بجيش أو سرية أو الغنيمة لمال، ﴿وَلَا كَيْبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ﴾: لأن هذه آثار ناشئة عن أعمالهم. ﴿إِنَّ اللَّهَ

لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ (١٢٠): الذين أحسنوا في مبادرتهم إلى أمر الله وقيامهم بما عليهم من حقه وحق خلقه؛ فهذه الأعمال آثار من آثار عملهم.

﴿١٢١﴾ ثم قال: ﴿وَلَا يُفْقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا﴾: في ذهابهم إلى عدوهم، ﴿إِلَّا كَيْتَبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (١٢١) ومن ذلك هذه الأعمال إذا أخلصوا فيها لله، ونصحوا فيها.

ففي هذه الآيات أشد ترغيب وتشويق للنفوس إلى الخروج إلى الجهاد في سبيل الله والاحتساب لما يصيبهم فيه من المشقات، وأن ذلك لهم رفعة درجات، وأن الآثار المترتبة على عمل العبد له فيها أجر كبير.

﴿وَمَا كَانَتِ الْمُؤْمِنُونَ لِيَسْفَرُوا كَأَفَّةً فَلَوْلَا نَفَرٌ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَفْقَهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ (١٢٢).

﴿١٢٢﴾ يقول تعالى منبها لعباده المؤمنين على ما ينبغي لهم: ﴿وَمَا كَانَتِ الْمُؤْمِنُونَ لِيَسْفَرُوا كَأَفَّةً﴾؛ أي: جميعًا لقتال عدوهم؛ فإنه يحصل عليهم المشقة بذلك، ويفوت به كثير من المصالح الأخرى، ﴿فَلَوْلَا نَفَرٌ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ﴾؛ أي: من البلدان والقبائل والأفخاذ ﴿طَائِفَةٌ﴾: تحصل بها الكفاية والمقصود؛ لكان أولى.

ثم نبه على أن في إقامة المقيمين منهم وعدم خروجهم مصالح لو خرجوا لفاتتهم، فقال: ﴿لِّيَفْقَهُوا﴾؛ أي: القاعدون ﴿فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ﴾؛ أي: ليتعلموا العلم الشرعي، ويعلموا معانيه، ويفقهوا أسرارها، ولتعلموا غيرهم، ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم.

ففي هذا فضيلة العلم، وخصوصًا الفقه في الدين، وأنه أهم الأمور، وأن من تعلم علمًا؛ فعليه نشره وبثه في العباد ونصيحتهم فيه؛ فإن انتشار العلم عن العالم من بركته وأجره الذي ينمى، وأما اقتصار العالم على نفسه وعدم دعوته إلى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة وترك تعليم الجاهل ما لا يعلمون؛ فأى منفعة حصلت للمسلمين منه؟! وأي نتيجة نتجت من علمه؟! وغايته أن يموت فيموت علمه وثمرته، وهذا غاية الحرمان لمن آتاه الله علمًا، ومنحه فهمًا.

سورة التوبة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴿١٢٣﴾ وَإِذَا مَا أَنْزَلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ ﴿١٢٥﴾ أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذْكُرُونَ ﴿١٢٦﴾ وَإِذَا مَا أَنْزَلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ هَلْ يَرَيْنَكُمْ مِنْ أَحَدٍ ثُمَّ انْصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ ﴿١٢٧﴾ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿١٢٩﴾

وفي هذه الآية أيضًا دليل وإرشاد وتنبية لطيف لفائدة مهمة، وهي أن المسلمين ينبغي لهم أن يُعِدُّوا لكل مصلحة من مصالحهم العامة من يقوم بها، ويوفر وقته عليها، ويجتهد فيها، ولا يلتفت إلى غيرها؛ لتقوم مصالحهم، وتتم منافعهم، ولتكون وجهة جميعهم ونهاية ما يقصدون قصدًا واحدًا، وهو قيام مصلحة دينهم ودنياهم، ولو تفرقت الطرق وتعددت المشارب؛ فالأعمال متباينة، والقصد واحد، وهذه من الحكمة العامة النافعة في جميع الأمور.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ ﴿١٢٣﴾.

﴿١٢٣﴾ وهذا أيضًا إرشاد آخر: بعدما أرشدهم إلى التدبير فيمن يباشر القتال؛ أرشدهم إلى أنهم يبدؤون بالأقرب فالأقرب من الكفار والغلبة عليهم والشدة في القتال والشجاعة والثبات. ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ ﴿١٢٣﴾؛ أي: وليكن لديكم علم أن المعونة من الله تنزل بحسب التقوى؛ فلازموا على تقوى الله؛ يعينكم وينصركم على عدوكم. وهذا العموم في قوله: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ﴾: مخصوص بما إذا كانت المصلحة في قتال غير الذين يلوننا، وأنواع المصالح كثيرة جدًا.

﴿وَإِذَا مَا أَنْزَلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ ﴿١٢٥﴾ أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذْكُرُونَ﴾ ﴿١٢٦﴾.

﴿١٢٤﴾ يقول تعالى مبينًا حال المنافقين وحال المؤمنين عند نزول القرآن وتفاوت ما بين الفريقين، فقال: ﴿وَإِذَا مَا أَنْزَلَتْ سُورَةٌ﴾: فيها الأمر والنهي والخبر عن نفسه الكريمة وعن الأمور الغائبة والحث على الجهاد. ﴿فَمِنْهُمْ مَن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا﴾؛ أي: حصل الاستفهام لمن حصل له الإيمان بها من الطائفتين. قال تعالى مبينًا الحال الواقعة: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾: بالعلم بها وفهمها واعتقادها والعمل بها والرغبة في فعل الخير والانكفاف عن فعل الشر. ﴿وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ ﴿١٢٤﴾؛ أي: يبشر بعضهم بعضًا بما من الله عليهم من آياته والتوفيق لفهمها والعمل بها، وهذا دال على انشراح صدورهم لأيات الله، وطمانينة قلوبهم، وسرعة انقيادهم لما تحثهم عليه.

﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾؛ أي: شك ونفاق، ﴿فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ﴾؛ أي: مرضًا إلى مرضهم، وشكًا إلى شكهم؛ من حيث إنهم كفروا بها وعاندوها وأعرضوا عنها، فازداد لذلك مرضهم، وترامى بهم إلى الهلاك والطبع على قلوبهم حتى ماتوا ﴿وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ ﴿١٢٥﴾، وهذا عقوبة لهم لأنهم كفروا بآيات الله، وعصوا رسوله، فأعقبهم نفاقا في قلوبهم إلى يوم يلقونه.

﴿١٢٦﴾ قال تعالى موبخًا على إقامتهم على ما هم عليه من الكفر والنفاق: ﴿أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ﴾: بما يصيبهم من البلايا والأمراض، وبما يبتلون من الأوامر الإلهية التي يراد بها اختبارهم، ﴿ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ﴾: عما هم عليه من الشر، ﴿وَلَا هُمْ يَذْكُرُونَ﴾ ﴿١٢٦﴾: ما ينفعهم في فعلونه وما يضرهم في تركونه؛ فإله تعالى يتبليهم - كما هي

سنته في سائر الأمم- بالسراء والضراء وبالأوامر والنواهي ليرجعوا إليه، ثم لا يتوبون، ولا هم يذكرون.

وفي هذه الآيات دليل على أن الإيمان يزيد وينقص، وأنه ينبغي للمؤمن أن يتفقد إيمانه، ويتعاهده، فيجده، وينمي، ليكون دائماً في صعود.

وقوله:

﴿وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ هَلْ يَرَيْنَكُمْ مِنْ آحِلٍ ثُمَّ أَنْصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهِ قُلُوبَهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾ (١٢٧)

يعني: أن المنافقين الذين يحذرون أن تنزل عليهم سورة تنتبهم بما في قلوبهم. إذا نزلت سورة ليؤمنوا بها ويعملوا بمضمونها، ﴿نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ﴾: جازمين على ترك العمل بها، ينتظرون الفرصة في الاختفاء عن أعين المؤمنين، ويقولون: ﴿هَلْ يَرَيْنَكُمْ مِنْ آحِلٍ ثُمَّ أَنْصَرَفُوا﴾: متسللين وانقلبوا معرضين، فجازاهم الله بعقوبة من جنس عملهم؛ فكما انصرفوا عن العمل؛ ﴿صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾؛ أي: صدها عن الحق وخذلها، ﴿بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾ (١٢٧): فقهاً ينفعم؛ فإنهم لو فقهوا؛ لكانوا إذا نزلت سورة آمنوا بها وانقادوا لأمرها. والمقصود من هذا بيان شدة نفورهم عن الجهاد وغيره من شرائع الإيمان؛ كما قال تعالى عنهم: ﴿فَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ تُحْكَمُ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغِشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ﴾ [محمد: ٢٠].

﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ (١٢٨) ﴿إِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ (١٢٩).

يتمن تعالى على عباده المؤمنين بما بعث فيهم النبي الأمي، الذي من أنفسهم، يعرفون حاله، ويتمكنون من الأخذ عنه، ولا يأنفون عن الانقياد له، وهو ﷺ في غاية النصح لهم والسعي في مصالحهم. ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾؛ أي: يشق عليه الأمر الذي يشق عليكم ويعتكم. ﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ﴾: فيحب لكم الخير، ويسعى جهده في إيصاله إليكم، ويحرص على هدايتكم إلى الإيمان، ويكره لكم

الشر، ويسعى جهده في تنفيركم عنه. ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ (١٢٨)؛ أي: شديد الرأفة والرحمة بهم، أرحم بهم من والديهم، ولهذا كان حقه مقدماً على سائر حقوق الخلق، وواجب على الأمة الإيمان به وتعظيمه وتوقيره وتعزيه.

﴿إِنْ﴾ (١٢٩) ﴿فَإِنْ﴾ آمنوا؛ فذلك حظهم وتوفيقهم، وإن ﴿تَوَلَّوْا﴾ عن الإيمان والعمل؛ فامض على سبيلك، ولا تنزل في دعوتك، وقل: ﴿حَسْبِيَ اللَّهُ﴾؛ أي: الله كافي في جميع ما أهتمني. ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾؛ أي: لا معبود بحق سواه. ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾؛ أي: اعتمدت ووثقت به في جلب ما ينفع ودفع ما يضر. ﴿وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ (١٢٩): الذي هو أعظم المخلوقات، وإذا كان رب العرش العظيم الذي وسع المخلوقات؛ كان رباً لما دونه من باب أولى وأحرى.

تم تفسير سورة التوبة بعون الله ومنه. فله الحمد أولاً وآخراً وظاهراً وباطناً.



تفسير سورة يونس

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الرَّ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ﴾ (١) ﴿أَنَّا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ رَجُلٍ مِنْهُمْ أَن أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمٌ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُبِينٌ﴾ (٢).

﴿يَقُولُ تَعَالَى﴾ (٣) ﴿الرَّ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ﴾ (٤) وهو هذا القرآن، المشتمل على الحكمة والأحكام، الدالة آياته على الحقائق الإيمانية والأوامر والنواهي الشرعية، الذي على جميع الأمة تلقيه بالرضا والقبول والانقياد.

﴿وَمَعَ هَذَا﴾؛ فأعرض أكثرهم فهم لا يعلمون، فتعجبوا ﴿أَنَّا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ رَجُلٍ مِنْهُمْ أَن أَنْذِرِ النَّاسَ﴾: عذاب الله، وخوفهم نقم الله، وذكرهم بآيات الله، ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾: إيماناً صادقاً ﴿أَنَّا لَهُمْ قَدَمٌ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾؛ أي: لهم جزاء موفور وثواب مذكور عند ربهم بما قدموه وأسلفوه من الأعمال الصالحة الصادقة، فتعجب الكافرون من هذا الرجل العظيم تعجباً حملهم على الكفر به! ﴿ف قَالَ الْكَافِرُونَ﴾

عنه: ﴿إِنَّ هَذَا سَجَرٌ مُّثِينٌ﴾ ٢؛ أي: بين السحر، لا يخفى بزعمهم على أحد، وهذا من سفهمهم وعنادهم؛ فإنهم تعجبوا من أمر ليس مما يتعجب منه ويستغرب، وإنما يتعجب من جهالتهم وعدم معرفتهم بمصالحهم؛ كيف لم يؤمنوا بهذا الرسول الكريم الذي بعثه الله من أنفسهم؛ يعرفونه حق المعرفة، فردوا دعوته، وحرصوا على إبطال دينه؟! والله متم نوره ولو كره الكافرون.

﴿إِنَّ رَبِّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُدِيرُ الْأَمْرَ مَا مِنْ شَيْعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ﴾ ٣؛ ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ٤؛ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ يَمَّا كَانُوا يَكْفُرُونَ ٥؛

٢ يقول تعالى مبيناً لربوبيته وإلهيته وعظمته: ﴿إِنَّ رَبِّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ مع أنه قادر على خلقها في لحظة واحدة، ولكن لما له في ذلك من الحكمة الإلهية، ولأنه رفيق في أفعاله، ومن جملة حكمته فيها أنه خلقها بالحق وللحق؛ ليعرف بأسمائه وصفاته، ويفرد بالعبادة. ﴿ثُمَّ﴾: بعد خلق السماوات والأرض ﴿اسْتَوَىٰ﴾

عَلَى الْعَرْشِ: استواء يليق بعظمته ﴿يُدِيرُ الْأَمْرَ﴾: في العالم العلوي والسفلي؛ من الإمامة والإحياء، وإنزال الأرزاق، ومدولة الأيام بين الناس، وكشف الضر عن المضوررين، وإجابة سؤال السائلين؛ فأنواع التدابير نازلة منه وصاعدة إليه، وجميع الخلق مدعون لعزه خاضعون لعظمته وسلطانه. ﴿مَا مِنْ شَيْعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ﴾: فلا يقدم أحد منهم على الشفاعة، ولو كان أفضل الخلق، حتى يأذن الله، ولا يأذن إلا لمن ارتضى، ولا يرتضى إلا أهل الإخلاص والتوحيد له. ﴿ذَلِكُمْ﴾: الذي هذا شأنه ﴿اللَّهُ رَبُّكُمْ﴾؛ أي: هو الله الذي له وصف الإلهية الجامعة لصفات الكمال، ووصف الربوبية، الجامع لصفات الأفعال. ﴿فَاعْبُدُوهُ﴾؛ أي: أفردوه بجميع ما تقدرون عليه من أنواع العبودية. ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ ٣؛ الأدلة الدالة على أنه وحده المعبود المحمود ذو الجلال والإكرام.

٤ فلما ذكر حكمه القدري، وهو التدبير العام، وحكمه الديني، وهو شرعه الذي مضمونه ومقصوده عبادته وحده لا شريك له؛ ذكر الحكم الجزائي، وهو مجازاته على الأعمال بعد الموت، فقال: ﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا﴾؛ أي: سيجمعكم بعد موتكم لميقات يوم معلوم. ﴿إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾: فالقادر على ابتداء الخلق قادر على إعادته، والذي يرى ابتداءه بالخلق، ثم ينكر إعادته للخلق؛ فهو فاقد العقل، منكر لأحد المثليين؛ مع إثبات ما هو أولى منه؛ فهذا دليل عقلي واضح على المعاد. ثم ذكر الدليل النقلي، فقال: ﴿وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا﴾؛ أي: وعده صادق لا بد من إتمامه، ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾: بقلوبهم بما أمرهم الله بالإيمان به، ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾: بجوارحهم من واجبات ومستحبات ﴿بِالْقِسْطِ﴾؛ أي: ببيمانهم وأعمالهم جزاء قد بينه لعباده وأخبر أنه لا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين. ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾: بآيات الله، وكذبوا رسل الله ﴿لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ﴾؛ أي: ماء حار يشوي الوجه ويقطع الأمعاء، ﴿وَعَذَابٌ أَلِيمٌ﴾: من سائر أصناف العذاب، ﴿يَمَّا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ ٥؛ أي: بسبب كفرهم وظلمهم، وما ظلمهم الله ولكن أنفسهم يظلمون.

سورة يونس

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الرَّ تِلْكَ ءَايَاتُ الْكِتَابِ الْمَكِينِ ١ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ لَهُمْ قَدْ مِ صَدَقٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسَجَرٌ مُّثِينٌ ٢ إِنَّ رَبِّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُدِيرُ الْأَمْرَ مَا مِنْ شَيْعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ٣ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ يَمَّا كَانُوا يَكْفُرُونَ ٤ هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السَّيِّئِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ٥ إِنَّ فِي آخِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ٦

٢٠٨

سورة يونس

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي

﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السَّيِّنِ وَالْجَسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ ٥ ﴿إِنَّ فِي اخْتِلَافِ أَيْلٍ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْتَقُونَ﴾ ٦ ﴿

٥﴾، ٦﴾ لما قرر ربوبيته وإلهيته؛ ذكر الأدلة العقلية الأفقية الدالة على ذلك وعلى كماله في أسمائه وصفاته؛ من الشمس والقمر والسماوات والأرض: وجميع ما خلق فيهما من سائر أصناف المخلوقات، وأخبر أنها آيات ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ ٥ و﴿لِقَوْمٍ يَعْتَقُونَ﴾ ٦؛ فإن العلم يهدي إلى معرفة الدلالة فيها وكيفية استنباط الدلائل على أقرب وجه، والتقوى تحدث في القلب الرغبة في الخير والرغبة من الشر، الناشئين عن الأدلة والبراهين وعن العلم واليقين.

وحاصل ذلك أن مجرد خلق هذه المخلوقات بهذه الصفة دال على كمال قدرة الله تعالى وعلمه وحياته وقيوميته، وما فيها من الإحكام والإتقان والإبداع والحسن دال على كمال حكمة الله وحسن خلقه وسعة علمه، وما فيها من أنواع المنافع والمصالح - كجعل الشمس ضياء والقمر نورا يحصل بهما من النفع الضروري وغيره مما يحصل - يدل

ذلك على رحمة الله تعالى واعتناؤه بعباده وسعة بره وإحسانه، وما فيها من التخصيصات دال على مشيئة الله وإرادته النافذة، وذلك دال على أنه وحده المعبود المحبوب المحمود ذو الجلال والإكرام والأوصاف العظام، الذي لا تنبغي الرغبة والرغبة إلا إليه، ولا يصرف خالص الدعاء إلا له لا لغيره من المخلوقات المربوبات المفتقرات إلى الله في جميع شئونها.

وفي هذه الآيات الحث والترغيب على التفكير في مخلوقات الله والنظر فيها بعين الاعتبار؛ فإن بذلك تنفسح البصيرة ويزداد الإيمان والعقل وتقوى القرينة، وفي إهمال ذلك تهاون بما أمر الله به، وإغلاق لزيادة الإيمان، وجمود للذهن والقرينة.

﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ﴾ ٧ ﴿أُولَئِكَ مَا لَهُمْ مِنَ النَّارِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ ٨ ﴿

٧﴾ يقول تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا﴾؛ أي: لا يطمعون بلقاء الله، الذي هو أكبر ما طمع فيه الطامعون، وأعلى ما أمله المؤمنون، بل أعرضوا عن ذلك، وربما كذبوا به، ﴿وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾؛ بدلا عن الآخرة، ﴿وَاطْمَأَنُّوا بِهَا﴾؛ أي: ركنا إليها، وجعلوها غاية أمرهم ونهاية قصدهم؛ فسعوا لها، وأكبوا على لذاتها وشهواتها؛ بأي طريق حصلت حصلوها، ومن أي وجه لاحت ابتدروها، قد صرفوا إراداتهم ونياتهم وأفكارهم وأعمالهم إليها، فكانهم خلقوا للبقاء فيها، وكأنها ليست بدار ممر يتزود فيها المسافرون إلى الدار الباقية التي إليها يرحل الأولون والآخرون وإلى نعيمها ولذاتها شمر الموفقون. ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ﴾ ٧: ﴿فلا يتفكرون بالآيات القرآنية ولا بالآيات الأفقية والنفسية، والإعراض عن الدليل مستلزم للإعراض والغفلة عن المدلول المقصود.

إذا احتاجوا إلى الطعام والشراب ونحوهما؛ قالوا: سبحانه اللهم! فأحضر لهم في الحال، فإذا فرغوا قالوا: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿١٠﴾.

﴿وَلَوْ يَعْلَمُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَلْسِنَاسْتَغْبِجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ لَقَضَى إِلَيْهِمْ أَرْجَاهُمْ فَتَذَرُ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ ﴿١١﴾.

﴿١١﴾ وهذا من لطفه وإحسانه بعباده: أنه لو عجل لهم الشر إذا أتوا بأسبابه وبإدراهم بالعقوبة على ذلك كما يعجل لهم الخير إذا أتوا بأسبابه؛ ﴿لَقَضَى إِلَيْهِمْ أَرْجَاهُمْ﴾؛ أي: لمحققتهم العقوبة، ولكنه تعالى يمهلهم ولا يمهلهم ويعفو عن كثير من حقوقه؛ فلو يؤاخذ الله الناس بظلمهم؛ ما ترك على ظهرها من دابة، ويدخل في هذا أن العبد إذا غضب على أولاده أو أهله أو ماله ربما دعا عليهم دعوة لو قبلت منه؛ لهلكوا ولأضره ذلك غاية الضرر، ولكنه تعالى حلیم حكيم. وقوله: ﴿فَتَذَرُ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا﴾؛ أي: لا يؤمنون بالآخرة؛ فلذلك لا يستعدون لها ولا يعملون ما ينجيهم من عذاب الله، ﴿فِي طُغْيَانِهِمْ﴾؛ أي: باطلهم الذي جاوزوا به الحق والحد ﴿يَعْمَهُونَ﴾ ﴿١١﴾: يترددون حائرین، لا يهتدون السبيل، ولا يوفقون لأقوم دليل، وذلك عقوبة لهم على ظلمهم وكفرهم بآيات الله.

﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرِّهِ مَسَّهُ كَذَلِكَ زِينٌ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ﴿١٢﴾.

﴿١٢﴾ وهذا إخبار عن طبيعة الإنسان من حيث هو، وأنه إذا مسه ضر من مرض أو مصيبة؛ اجتهد في الدعاء، وسأل الله في جميع أحواله؛ قائمًا وقاعدًا ومضطجعًا، وألح في الدعاء؛ ليكشف الله عنه ضره، ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرِّهِ مَسَّهُ﴾؛ أي: استمر في غفلته معرضًا عن ربه كأنه ما جاءه ضر فكشفه الله عنه؛ فأى ظلم أعظم من هذا الظلم؛ يطلب من الله قضاء غرضه؛ فإذا أناله إياه؛ لم ينظر إلى حق ربه؛ وكأنه ليس عليه له حق؟! وهذا تزيين من الشيطان زين له ما كان مستهجنًا مستقبحًا في العقول والفطر، ﴿كَذَلِكَ زِينٌ لِلْمُسْرِفِينَ﴾؛ أي: المتجاوزين للحد ﴿مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ﴿١٢﴾.

﴿أُولَئِكَ﴾: الذين هذا وصفهم، ﴿مَا وَنَهُمُ النَّارُ﴾؛ أي: مقرهم ومسكنهم التي لا يرحلون عنها؛ ﴿يَمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ ﴿٨﴾: من الكفر والشرك وأنواع المعاصي.

فلما ذكر عقابهم؛ ذكر ثواب المطيعين، فقال:

﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿٩﴾ دَعْوُهُمْ فِيهَا سُبْحَنَكَ اللَّهُمَّ وَنَحْمُكَ فِيهَا سَلَامٌ وَأَعِزُّ دَعْوُهُمْ أِنْ أَلْحَمَدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿١٠﴾.

﴿٩﴾ يقول تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾؛ أي: جمعوا بين الإيمان والقيام بموجبه ومقتضاه من الأعمال الصالحة، المشتملة على أعمال القلوب وأعمال الجوارح، على وجه الإخلاص والمتابعة. ﴿يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ﴾؛ أي: بسبب ما معهم من الإيمان يشيهم الله أعظم الثواب، وهو الهداية، فيعملهم ما ينفعهم، ويمن عليهم بالأعمال الناشئة عن الهداية، ويهديهم للنظر في آياته، ويهديهم في هذه الدار إلى الصراط المستقيم، وفي الصراط المستقيم، وفي دار الجزاء إلى الصراط الموصل إلى جنات النعيم، ولهذا قال: ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ﴾: الجارية على الدوام. ﴿فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ ﴿٩﴾: أضافها الله إلى النعيم لاشتمالها على النعيم التام؛ نعيم القلب بالفرح والسرور والبهجة والحبور ورؤية الرحمن وسماع كلامه والاعتباط برضاه وقربه ولقاء الأحبة والإخوان والتمتع بالاجتماع بهم وسماع الأصوات المطربات والنعيمات المشجيات والمناظر المفرحات، ونعيم البدن بأنواع المأكول والمشرب والمناكح ونحو ذلك مما لا تعلمه النفوس ولا خطر ببال أحد، أو قدر أن يصفه الواصفون.

﴿١٠﴾ ﴿دَعْوُهُمْ فِيهَا سُبْحَنَكَ اللَّهُمَّ﴾؛ أي: عبادتهم فيها لله أولها تسبيح لله وتزييه له عن النقائص، وآخرها تحميد لله؛ فالتكاليف سقطت عنهم في دار الجزاء، وإنما بقي لهم أكمل اللذات، الذي هو ألد عليهم من المأكول اللذيذة، ألا وهو ذكر الله الذي تطمئن به القلوب وتفرح به الأرواح، وهو لهم بمنزلة النفس من دون كلفة ومشقة. وأما تحيتهم فيما بينهم عند التلاقي والتزاور؛ فهو السلام؛ أي: كلام سالم من اللغو والإثم، موصوف بأنه ﴿سَلَامٌ﴾. وقد قيل في تفسير قوله: ﴿دَعْوُهُمْ فِيهَا سُبْحَنَكَ اللَّهُمَّ﴾ إلى آخر الآية: إن أهل الجنة

سورة يونس

الْمُتَكَلِّمِينَ

﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ﴾ (١٢) ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾ (١٣).

(١٢) يخبر تعالى أنه أهلك الأمم الماضية بظلمهم وكفرهم بعدما جاءتهم البينات على أيدي الرسل تبين الحق، فلم ينقادوا لها، ولم يؤمنوا، فأحل بهم عقابه الذي لا يرد عن كل مجرم متجرئ على محارم الله، وهذه سنته في جميع الأمم.

(١٣) ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ ﴾ أي: أيها المخاطبون ﴿ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾ (١٤)؛ فإن أنتم اعتبرتم، واتعظتم بمن قبلكم، واتبعتم آيات الله، وصدقتم رسله؛ نجوتم في الدنيا والآخرة، وإن فعلتم كفعول الظالمين قبلكم؛ أحل بكم ما أحل بهم، ومن أنذر فقد أعذر.

﴿ وَإِذَا تَتَلَّى عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا أَتَيْتَ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدَّلَهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَآئِ نَفْسِي إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابٌ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ (١٥) قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرِكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ (١٦) فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ ﴾ (١٧).

(١٦) فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ ﴾ (١٧).

(١٥) يذكر تعالى تعنت المكذبين لرسوله محمد ﷺ، وأنهم إذا تتلى عليهم آيات الله القرآنية المبينة للحق؛ أعرضوا عنها، وطلبوا وجوه التعنت، فقالوا جراءة منهم وظلماً: ﴿ أَتَيْتَ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدَّلَهُ ﴾؛ فقبحهم الله؛ ما أجرأهم على الله وأشدهم ظلماً ورداً لآياته! فإذا كان الرسول العظيم يأمره الله أن يقول لهم: ﴿ قُلْ مَا يَكُونُ لِي ﴾؛ أي: ما ينبغي ولا يليق ﴿ أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَآئِ نَفْسِي ﴾؛ فإني رسول محض، ليس لي من الأمر شيء. ﴿ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ ﴾؛ أي: ليس لي غير ذلك؛ فإني عبد مأمور، ﴿ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابٌ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ (١٥)؛ فهذا قول خير الخلق وأدبه مع أوامره ووحيه؛ فكيف بهؤلاء السفهاء الضالين الذين جمعوا بين الجهل والضلال والظلم والعناد والتعنت والتعجز لرب العالمين؛ أفلا يخافون عذاب يوم عظيم؟! فإن زعموا أن قصدهم أن يبين لهم الحق بالآيات التي طلبوا؛ فهم كذبة في ذلك؛ فإن الله قد بين من الآيات ما يؤمن على مثله البشر، وهو الذي يُصَرِّفُهَا كَيْفَ يَشَاءُ؛ تابعا لحكمته الربانية ورحمته بعباده.

(١٦) ﴿ قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرِكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا ﴾ طويلاً ﴿ مِنْ قَبْلِهِ ﴾؛ أي: قبل تلاوته وقبل درايتكم به وأنا ما خطر على بالي ولا وقع في ظني. ﴿ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ (١٦)؛ أي: حيث لم أقوله في مدة عمري، ولا صدر مني ما يدل على ذلك؛ فكيف أقوله بعد ذلك، وقد لبثت فيكم عمراً طويلاً، تعرفون حقيقة حالي، بأني أُمي لا أقرأ، ولا أكتب، ولا أدرس، ولا أتعلم من أحد، فأتيتكم بكتاب عظيم أعجز الفصحاء وأعياء العلماء؛ فهل يمكن مع هذا أن يكون من تلقاء نفسي؟! أم هذا دليل قاطع أنه تنزيل من حكيم حميد؟! فلو أعملتم أفكاركم وعقولكم، وتدبرتم حالي وحال هذا الكتاب؛ لجزتم جزماً لا يقبل الريب بصدقه، وأنه الحق الذي ليس بعده إلا الضلال، ولكن إذا أبيتم إلا التكذيب والعناد؛ فأنتم لا شك أنكم ظالمون.

كَلِمَةً سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٩﴾ وَيَقُولُونَ لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ ﴿٢٠﴾

﴿١٩﴾ أي: ﴿وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً﴾: متفقين على الدين الصحيح، ولكنهم اختلفوا، ﴿فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ [البقرة: ٢١٣]. ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ﴾: بإمهال العاصين وعدم معاجلتهم بذنوبهم، ﴿لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾: بأن ننجي المؤمنين ونهلك الكافرين المكذبين، وصار هذا فارقاً بينهم ﴿فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾، ولكنه أراد امتحانهم وابتلاء بعضهم ببعض؛ ليتبين الصادق من الكاذب.

﴿٢٠﴾ وَيَقُولُونَ ﴿؟﴾ أي: المكذبون المتعنتون: ﴿لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ﴾؟ يعنون: آيات الاقتراح التي يعينونها؛ كقولهم: ﴿لَوْلَا أَنْزَلَ إِلَيْنَا مِلَّةً فَكَوْنُ مَعَهُ نَذِيرًا﴾ ﴿٧﴾ [الفرقان: ٧] والآيات، وكقولهم: ﴿وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَنْزِلَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوءًا﴾ ﴿١٦﴾ [الإسراء: ٩٠] الآيات. ﴿فَقُلْ﴾: لهم إذا طلبوا منك آية: ﴿إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ﴾؛ أي: هو المحيط علماً بأحوال العباد، فيدبرهم بما يقتضيه علمه فيهم وحكمته البديعة، وليس لأحد تدبير في حكم ولا دليل ولا غاية ولا تعليل. ﴿فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ﴾ ﴿٢٠﴾؛ أي: كل ينتظر بصاحبه ما هو أهل له فانظروا لمن تكون العاقبة.

﴿وَإِذَا دَقَّقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُمْ مَكْرٌ فِي آيَاتِنَا قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا نَعْمَكُونُ﴾ ﴿٢١﴾

﴿٢١﴾ يقول تعالى: ﴿وَإِذَا دَقَّقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُمْ﴾: كالصحة بعد المرض والغنى بعد الفقر والأمن بعد الخوف؛ نسوا ما أصابهم من الضراء، ولم يشكروا الله على الرخاء والرحمة، بل استمروا في طغيانهم ومكرهم، ولهذا قال: ﴿إِذَا لَهُمْ مَكْرٌ فِي آيَاتِنَا﴾؛ أي: يسعون بالباطل ليطيلوا به الحق. ﴿قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا﴾: فإن المكر السيئ لا يحيق إلا بأهله؛ فمقصودهم منعكس عليهم، ولم يسلموا من التبعة، بل تكتب الملائكة عليهم ما يعملون، ويحصىه الله عليهم، ثم يجازيهم الله عليه أوفر الجزاء.

﴿٧﴾ ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ﴾؛ فلو كنت متقولاً؛ لكنت أظلم الناس، وفاتني الفلاح، ولم تخف عليك حالي، ولكني جئتكم بآيات الله، فكذبتم بها، فتعين فيكم الظلم، ولا بد أن أمركم سيضمحل ولن تنالوا الفلاح ما دمتم كذلك. ودل قوله: ﴿قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا﴾ الآية: أن الذي حملهم على هذا التعنت الذي صدر منهم هو عدم إيمانهم بقاء الله وعدم رجائه وأن من آمن بقاء الله؛ فلا بد أن ينقاد لهذا الكتاب ويؤمن به، لأنه حسن القصد.

﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شَفَعُونَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَنْتَبَهُتُ اللَّهُ يَمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ ﴿١٨﴾

﴿١٨﴾ يقول تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ﴾؛ أي: المشركون المكذبون لرسول الله ﷺ ﴿مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ﴾؛ أي: لا تملك لهم مثقال ذرة من النفع ولا تدفع عنهم شيئاً ﴿وَيَقُولُونَ﴾: قولاً خالياً من البرهان: ﴿هَؤُلَاءِ شَفَعُونَا عِنْدَ اللَّهِ﴾؛ أي: يعبدونهم ليقربوهم إلى الله ويشفعوا لهم عنده، وهذا قول من تلقاء أنفسهم، وكلام ابتكروه هم، ولهذا قال مبطلاً لهذا القول: ﴿قُلْ أَنْتَبَهُتُ اللَّهُ يَمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ﴾؛ أي: الله تعالى هو العالم الذي أحاط علماً بجميع ما في السماوات والأرض، وقد أخبركم بأنه ليس له شريك ولا إله معه؛ فأنتم يا معشر المشركين تزعمون أنه يوجد له فيها شركاء، أفخبرونه بأمر خفي عليه وعلمتموه؟! أنتم أعلم أم الله؟! فهل يوجد قول أبطل من هذا القول المتضمن أن هؤلاء الضلال الجهال السفهاء أعلم من رب العالمين؟! فليكتف العاقل بمجرد تصور هذا القول؛ فإنه يجرم بفساده ويطلانه. ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ ﴿١٨﴾؛ أي: تقدس وتنزه أن يكون له شريك أو نظير، بل هو الله الأحد الفرد الصمد الذي لا إله في السماوات والأرض إلا هو، وكل معبود في العالم العلوي والسفلي سواه فإنه باطل عقلاً وشرعاً وفطرة، ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَبَدٌ مَا يَكْفُرُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَبَدٌ اللَّهُ هُوَ الْحَقُّ الْكَبِيرُ﴾ ﴿٢٢﴾ [الحج: ٦٢]. ﴿وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا وَلَوْلَا

سورة يونس

سورة يونس

طمع بأن ذلك سيستمر ويدوم لوقوف إرادتهم عنده وانتهاء مطالبهم فيه؛ فبينما هم في تلك الحالة؛ أتاها أمر الله ﴿لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَبِ بِالْأَمْسِ﴾؛ أي: كأنها ما كانت، فهذه حالة الدنيا سواء بسواء. ﴿كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ الْأَنْبِيَاءَ﴾؛ أي: نبينها ونوضحها بتقريب المعاني إلى الأذهان وضرب الأمثال، ﴿لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (٢٤)؛ أي: يعملون أفكارهم فيما ينفعهم، وأما الغافل المعرض؛ فهذا لا تنفعه الآيات، ولا يزيل عنه الشك البيان.

ولما ذكر الله حال الدنيا وحاصل نعيمها؛ شوق إلى الدار الباقية، فقال:

﴿وَاللَّهُ يَدْعُوا إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (٢٥) ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا لِحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (٢٦).

﴿٢٥﴾ عم تعالى عباده بالدعوة إلى دار السلام والحث على ذلك والترغيب، وخص بالهداية من شاء استخلاصه واصطفاه؛ فهذا فضله وإحسانه، والله يختص برحمته من يشاء، وذلك عدله وحكمته، وليس لأحد عليه حجة بعد البيان والرسول، وسمى الله الجنة دار السلام لسلامتها من جميع الآفات والنقائص، وذلك لكمال نعيمها وتمامه وبقاؤه

﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا لِحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (٢٦) ﴿وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَّا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِرٍ كَأَنَّمَا أَغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطْعًا مِنْ زَلِيلٍ مُّظْلِمًا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (٢٧) ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَاءُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَاءُهُمْ مَا كُنْتُمْ إِنَّا نَعْبُدُونَ﴾ (٢٨) ﴿فَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ﴾ (٢٩) ﴿هَٰذَا نَكْتُبُ إِلَيْكَ كُلَّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ وَرُدُّوْا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقُّ وَصَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ (٣٠) ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدِيرُ الْأَمْرَ فَيَقُولُوا اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ (٣١) ﴿فَلَذِكُرُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ الْحَقُّ قَمَآذٍ بَعْدَ الْحَقِّ إِلَى الصَّلَاتِ فَإِنِّي نَصْرُوفٌ﴾ (٣٢) ﴿كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (٣٣)

وحسنه من كل وجه.

﴿٣١﴾ ولما دعا إلى دار السلام؛ كأن النفوس تشوقت إلى الأعمال الموجبة لها الموصلة إليها، فأخبر عنها بقوله: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا لِحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾؛ أي: للذين أحسنوا في عبادة الخالق، بأن عبوده على وجه المراقبة والنصيحة في عبادته، وقاموا بما قدروا عليه منها، وأحسنوا إلى عباد الله، بما يقدرون عليه من الإحسان القولي والفعلية؛ من بذل الإحسان المالي والإحسان البدني والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وتعليم الجاهلين ونصيحة المعرضين وغير ذلك من وجوه البر والإحسان؛ فهؤلاء الذين أحسنوا لهم الحسنَى، وهي الجنة الكاملة في حسناتها، وزيادة، وهي النظر إلى وجه الله الكريم، وسماع كلامه، والفوز برضاه، والبهجة بقربه؛ فهذا حصل لهم أعلى ما يتمناه الممتنون، ويسأله السائلون.

ثم ذكر اندفاع المحذور عنهم، فقال: ﴿وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ﴾؛ أي: لا ينالهم مكروه بوجه من الوجوه؛ لأن المكروه إذا وقع بالإنسان؛ تبين ذلك في وجهه وتغير وتكدر. وأما هؤلاء؛ فكما قال الله عنهم: ﴿تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَصْرَةَ الْغَيْبِ﴾ (٣٤) [المطففين: ٢٤]، أولئك أصحاب الجنة الملازمون لها هم فيها خالدون، لا يحولون، ولا يزولون، ولا يتغيرون.

﴿وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَّا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِرٍ كَأَنَّمَا أَغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطْعًا مِنْ زَلِيلٍ مُّظْلِمًا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (٢٧).

﴿٢٧﴾ لما ذكر أصحاب الجنة؛ ذكر أصحاب النار، فذكر أن بضاعتهم التي اكتسبوها في الدنيا هي الأعمال السيئة المسخطة لله من أنواع الكفر والتكذيب وأصناف المعاصي، فجزاؤهم سيئة مثلها؛ أي: جزاء يسوءهم بحسب ما عملوا من السيئات على اختلاف أحوالهم، ﴿وَتَرْهَقُهُمْ﴾؛ أي: تغشاهم ﴿ذِلَّةٌ﴾؛ في قلوبهم وخوف من عذاب الله لا يدفعه عنهم دافع ولا يعصمهم

الخصال، ويتبين لهم يومئذ أنهم كانوا كاذبين، وأنهم مفترون على الله، قد ضلت عبادتهم واضمحلت معبوداتهم وتقطعت بهم الأسباب والوسائل، ولهذا قال: ﴿هُنَالِكَ﴾ أي: في ذلك اليوم، ﴿تَبْلَوْا كُلَّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ﴾ أي: تنفذ أعمالها وكسبها وتتبعه بالجزاء وتجازى بحسبه إن خيراً فخير وإن شراً فشر، ﴿وَصَلَّ عَنْهُمْ مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ أي: من قولهم بصحة ما هم عليه من الشرك، وأن ما يعبدون من دون الله تنفعهم، وتدفع عنهم العذاب.

﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدِيرُ الْأَمْرَ﴾ فَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٢٨﴾ فَذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ الْحَقُّ فَمَآذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ ﴿٢٩﴾ كَذَلِكَ حَقَّتْ كَيْمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾

﴿٢٨﴾ أي: قل لهؤلاء الذين أشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً محتجاً عليهم بما أقروا به من توحيد الربوبية على ما أنكروه من توحيد الإلهية: ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾: بإنزال الأرزاق من السماء وإخراج أنواعها من الأرض وتيسير أسبابها فيها. ﴿أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ﴾: أي: من هو الذي خلقهما وهو مالكهما؟ وخصهما بالذكر من باب التنبيه على المفضل بالفاضل، ولكمال شرفهما ونفعهما. ﴿وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ﴾: كإخراج أنواع الأشجار والنبات من الحبوب والنوى، وإخراج المؤمن من الكافر، والطائر من البيضة... ونحو ذلك، ﴿وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ﴾: عكس هذه المذكورات. ﴿وَمَنْ يُدِيرُ الْأَمْرَ﴾: في العالم العلوي والسفلي، وهذا شامل لجميع أنواع التدابير الإلهية؛ فإنك إذا سألتهم عن ذلك؛ ﴿فَيَقُولُونَ اللَّهُ﴾: لأنهم يعترفون بجميع ذلك، وأن الله لا شريك له في شيء من المذكورات، ﴿فَقُلْ﴾ لهم إلزاماً بالحجة: ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ ﴿٢٩﴾: الله فتخلصون له العبادة وحده لا شريك له، وتخلعون ما تعبدون من دونه من الأنداد والأوثان.

﴿٣٠﴾ فذَلِكُمُ اللَّهُ الذي وصف نفسه بما وصفها به ﴿اللَّهُ رَبُّكُمْ﴾ أي: المألوه المعبود المحمود المربي جميع الخلق بالنعمة، وهو ﴿الْحَقُّ فَمَآذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ﴾: فإنه تعالى المنفرد بالخلق والتدبير لجميع الأشياء، الذي ما بالعباد من

منه عاصم، وتسري تلك الذلة الباطنة إلى ظاهرهم، فتكون سواداً في وجوههم. ﴿كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطْعًا مِّنْ أَلِيلٍ مُّظْلِمًا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ ﴿٣١﴾ فكم بين الفريقين من الفرق! وما بعد ما بينهما من التفاوت! ﴿وَجُودُ يَوْمِئِذٍ بِآيَةٍ﴾ ﴿٣٢﴾ تَنْظُرُ أَنْ يُفْعَلَ بِهَا قَارُورٌ ﴿٣٣﴾ [القيامة: ٢٢-٢٥] ﴿وَجُودُ يَوْمِئِذٍ مُّسْفِرَةٌ﴾ ﴿٣٤﴾ صَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴿٣٥﴾ وَجُودُ يَوْمِئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٣٦﴾ تَرْهَقُهَا قَارَةٌ ﴿٣٧﴾ أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرَةُ الْفَجَرَةُ ﴿٣٨﴾ [عبس: ٣٨-٤٢].

﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَاءُكُمْ فَزَلَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَاءُهُمْ مَا كُنْتُمْ إِنَّا نَعْبُدُونَ﴾ ﴿٣٩﴾ فَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِنْ كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ ﴿٤٠﴾ هُنَالِكَ تَبْلَوْا كُلَّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ وَرُدُّوْا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقُّ وَصَلَّ عَنْهُمْ مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ ﴿٤١﴾

﴿٣٨﴾ يقول تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا﴾ أي: نجتمع جميع الخلائق لميعاد يوم معلوم، ونحضر المشركين وما كانوا يعبدون من دون الله، ﴿ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَاءُكُمْ﴾ أي: الزموا مكانكم ليقع التحاكم والفصل بينكم وبينهم، ﴿فَزَلَّلْنَا بَيْنَهُمْ﴾ أي: فرقنا بينهم بالبعد البدني والقلبي، فحصلت بينهم العداوة الشديدة بعد أن بذلوا لهم في الدنيا خالص المحبة وصفو الوداد، فانقلبت تلك المحبة والولاية بغضاً وعداوة. وتبرأ شركاؤهم منهم وقالوا: ﴿مَا كُنْتُمْ إِنَّا نَعْبُدُونَ﴾ ﴿٣٩﴾: فإننا ننزه الله أن يكون له شريك أو نذيد.

﴿٤٠﴾ فَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِنْ كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ ﴿٤١﴾ ما أمرناكم بها ولا دعوناكم لذلك، وإنما عيبتكم من دعاكم إلى ذلك، وهو الشيطان؛ كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهِدْ إِلَىٰكُمْ يَبْنَىٰءَ أَدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ ﴿٤٢﴾ [يس: ٦٠]، وقال: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلْمَلَكَةِ اهْزُلِي عَنْهُمْ لِيَنصُرُوا اللَّهَ وَنَحْنُ نُنصُرُ اللَّهَ﴾ ﴿٤٣﴾ قَالُوا سُبْحَنَكَ أَنْتَ وَلِسْنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُّؤْمِنُونَ ﴿٤٤﴾ [سبا: ٤٠، ٤١]: فالملائكة الكرام والأنبياء والأولياء ونحوهم يتبرءون ممن عبدتهم يوم القيامة، ويتصلون بدعائهم بإيهم إلى عبادتهم، وهم الصادقون البارون في ذلك.

﴿٤٥﴾ فحينئذ يتحسر المشركون حسرة لا يمكن وصفها، ويعلمون مقدار ما قدموا من الأعمال وما أسلفوا من رديء

سورة يونس

سورة يونس

قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَدْعُوا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلْ اللَّهُ يَسْبُدُّ
الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنْ تَوْفِكُونَ ﴿٣٢﴾ قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي
إِلَى الْحَقِّ قُلْ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَنْ يَهْدِيَ إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ
يُنَبِّعَ أَمَنْ لَا يَهْدِي إِلَّا أَنْ يَهْدِيَ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٣﴾
وَمَا يَنْبَغُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يَعْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ
عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٣٤﴾ وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفَرَّقَ مِنْ دُونِ
اللَّهِ وَلَكِنْ تَصْدِيقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلُ الْكِتَابِ لَرَّبِّ
فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٣٥﴾ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ
مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَفَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣٦﴾
بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذَّابٌ
الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَتْ عِقَابَةُ الظَّالِمِينَ ﴿٣٧﴾
وَمِنْهُمْ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهِ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ
بِالْمُفْسِدِينَ ﴿٣٨﴾ وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلٍ وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ
أَنْتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٣٩﴾ وَمِنْهُمْ مَنْ
يَسْتَعِينُ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَسْمَعُ أَلَمْ يَكُنُوا لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٠﴾

٢١٣

نعمة إلا منه، ولا يأتي بالحسنات إلا هو، ولا يدفع السيئات
إلا هو، ذو الأسماء الحسنى والصفات الكاملة العظيمة
والجلال والإكرام. ﴿فَأَنْ تَصْرُفُونَ﴾ ﴿٣٢﴾: عن عبادة من
هذا وصفه إلى عبادة الذي ليس له من وجوده إلا العدم
ولا يملك لنفسه نفعاً ولا ضرراً ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً؛
فليس له من الملك مثقال ذرة، ولا شركة له بوجه من الوجوه،
ولا يشفع عند الله إلا بإذنه.

﴿٣٣﴾ فتباً لمن أشرك به، وويحاً لمن كفر به؛ لقد عدموا
عقولهم بعد أن عدموا أديانهم، بل فقدوا دنياهم وأخرهم،
ولهذا قال تعالى عنهم: ﴿كَذَلِكَ حَقَّتْ كَيْتَ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ
فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ ﴿٣٣﴾: بعد أن أراهم الله من الآيات
البيّنات والبراهين النيرات ما فيه عبرة لأولي الألباب وموعظة
للمتقين وهدى للعالمين.

﴿قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَدْعُوا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلْ اللَّهُ
يَسْبُدُّ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنْ تَوْفِكُونَ﴾ ﴿٣٢﴾ قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ
مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلْ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَنْ يَهْدِيَ إِلَى
الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُنَبِّعَ أَمَنْ لَا يَهْدِي إِلَّا أَنْ يَهْدِيَ مَا لَكُمْ كَيْفَ
تَحْكُمُونَ ﴿٣٣﴾ وَمَا يَنْبَغُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يَعْنِي مِنَ
الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ ﴿٣٤﴾.

﴿٣٢﴾ يقول تعالى مبيناً عجز آلهة المشركين وعدم اتصافها بما يوجب اتخاذها آلهة مع الله: ﴿قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَدْعُوا
الْخَلْقَ﴾؛ أي: يبتدئ، ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾؛ وهذا استفهام بمعنى النفي والتقرير؛ أي: ما منهم أحد يبدؤ الخلق ثم يعيده، وهي أضعف
من ذلك وأعجز، ﴿قُلْ اللَّهُ يَسْبُدُّ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾: من غير مشارك ولا معاون له على ذلك. ﴿فَأَنْ تَوْفِكُونَ﴾ ﴿٣٢﴾؛ أي: تصرفون
وتصرفون عن عبادة المنفرد بالابتداء والإعادة إلى عبادة من لا يخلق شيئاً وهم يخلقون.

﴿٣٣﴾ قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ: بيانه وإرشاده أو بإلهامه وتوفيقه، ﴿قُلْ اللَّهُ﴾: وحده ﴿يَهْدِي لِلْحَقِّ﴾ بالأدلة
والبراهين وبالإلهام والتوفيق والإعانة إلى سلوك أقوم طريق. ﴿أَمَنْ لَا يَهْدِي﴾؛ أي: لا يهتدي ﴿إِلَّا أَنْ يَهْدِيَ﴾: لعدم علمه
ولضلاله، وهي شركاؤهم التي لا تهدي ولا تهتدي إلا أن تهدي. ﴿فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ ﴿٣٣﴾؛ أي: أي شيء جعلكم
تحكمون هذا الحكم الباطل بصحة عبادة أحد مع الله بعد ظهور الحجة والبرهان أنه لا يستحق العبادة إلا الله وحده؟!
فإذا تبين أنه ليس في آلهتهم التي يعبدون مع الله أوصاف معنوية ولا أوصاف فعلية تقتضي أن تعبد مع الله، بل هي متصفة
بالتقائص الموجبة لبطلان إلهيتها؛ فلا شيء جعلت مع الله آلهة؟!.

﴿٣٤﴾ فالجواب: إن هذا من تزوين الشيطان للإنسان أقبح البهتان وأضل الضلال، حتى اعتقد ذلك، وألفه، وظنه حقاً وهو
لا شيء، ولهذا قال: ﴿وَمَا يَنْبَغُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ﴾ [يونس: ٦٦]؛ أي: ما يتبعون في الحقيقة شركاء
لله؛ فإنه ليس لله شريك أصلاً عقلاً ولا نقلاً، وإنما يتبعون الظن، ﴿وَأَنْ الظَّنَّ لَا يَعْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا﴾: فسموها آلهة وعبدوها
مع الله؛ ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمِيَتْهُمَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ﴾ [النجم: ٢٣]. ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ ﴿٣٤﴾:
وسيجازيهم على ذلك بالعقوبة البليغة.

كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣٧﴾: يعاونكم على الإتيان بسورة مثله، وهذا محال، ولو كان ممكناً؛ لادعوا قدرتهم على ذلك، ولأتوا بمثله، ولكن لما بان عجزهم؛ تبين أن ما قالوه باطل، لا حظ له من الحجة.

﴿٣٨﴾ والذي حملهم على التكذيب بالقرآن المشتمل على الحق الذي لا حق فوقه أنهم لم يحيطوا به علماً؛ فلو أحاطوا به علماً وفهموه حق فهمه؛ لأذعنوا بالتصديق به، وكذلك إلى الآن لم يأتهم تأويله الذي وعدهم أن ينزل بهم العذاب، ويحل بهم النكال، وهذا التكذيب الصادر منهم من جنس تكذيب من قبلهم، ولهذا قال: ﴿كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَاَنْظُرْ كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ﴾ ﴿٣٩﴾: وهو الهلاك الذي لم يبق منهم أحداً؛ فليحذر هؤلاء أن يستمروا على تكذيبهم، فيحل بهم ما أحل بالأمم المكذبين والقرون المهلكين.

وفي هذا دليل على الثبوت في الأمور، وأنه لا ينبغي للإنسان أن يبادر بقبول شيء أو رده قبل أن يحيط به علماً.

﴿٤٠﴾ وَمِنْهُمْ مَّنْ يُّؤْمِنُ بِهِ ؕ أَيْ: بالقرآن وما جاء به، وَمِنْهُمْ مَّنْ لَا يُّؤْمِنُ بِهِ ؕ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ ﴿٤١﴾: وهم الذين لا يؤمنون به على وجه الظلم والعناد والفساد، فسيجازيهم على فسادهم بأشد العذاب.

﴿٤٢﴾ وَإِن كَذَّبُوكَ ؕ فَاسْتَمِرْ عَلَىٰ دَعْوَتِكَ، وَلَيْسَ عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ، وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ، لِكُلِّ عَمَلٍ. ﴿فَقُلْ لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيءُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ ﴿٤٣﴾: كما قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلْ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَلْعَلَّيْهَا﴾ [فصلت: ٤٦].

﴿٤٤﴾ وَمِنْهُمْ مَّنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٥﴾ وَمِنْهُمْ مَّنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَهْدِي الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يُبْصِرُونَ ﴿٤٦﴾ إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ الْإِنْسَانَ شَيْئًا وَلَكِنَّ الْإِنْسَانَ أَنَفْسُهُ ظَالِمٌ ﴿٤٧﴾.

﴿٤٨﴾ يخبر تعالى عن بعض المكذبين للرسول ولما جاء به: وَأَن مِنْهُمْ ﴿مَّنْ يَسْتَمِعُونَ﴾: إلى النبي ﷺ وقت قراءته للوحي، لا على وجه الاسترشاد، بل على وجه التفرج والتكذيب وتطلب العثرات، وهذا استماع غير نافع ولا مجد على أهله خيراً، لا جرم انسدهم عليهم باب التوفيق وحرموا من فائدة الاستماع، ولهذا قال: ﴿أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ﴾ ﴿٤٩﴾: وهذا الاستفهام بمعنى النفي المقرر؛

﴿وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ اللَّهِ وَلَكِن نَّصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿٥٠﴾ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٥١﴾ بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَاَنْظُرْ كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ ﴿٥٢﴾ وَمِنْهُمْ مَّنْ يُّؤْمِنُ بِهِ ؕ وَمِنْهُمْ مَّنْ لَا يُّؤْمِنُ بِهِ ؕ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ ﴿٥٣﴾ وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيءُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٥٤﴾.

﴿٥٥﴾ يقول تعالى: ﴿وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ اللَّهِ﴾؛ أي: غير ممكن ولا متصور أن يفتري هذا القرآن على الله تعالى؛ لأنه الكتاب العظيم، الذي ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبُطْلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِن خَلْفِهِ تَرْجِلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ ﴿٥٦﴾ [فصلت: ٤٢]، وهو الكتاب الذي لو اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثله لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً، وهو الكتاب الذي تكلم به رب العالمين؛ فكيف يقدر أحد من الخلق أن يتكلم بمثله أو بما يقاربه والكلام تابع لعظمة المتكلم ووصفه؟! فإن كان أحد يماثل الله في عظمته وأوصاف كماله؛ أمكن أن يأتي بمثل هذا القرآن، ولو تنزلنا على الفرض والتقدير، فنقله أحد على رب العالمين؛ لعاجله بالعقوبة وبأدبه بالنكال. ولكن الله أنزل هذا الكتاب رحمة للعالمين وحجة على العباد أجمعين، أنزله ﴿نَصْدِيقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾: من كتب الله السماوية؛ بأن وافقها وصدقها بما شهدت به وبشرت بنزوله، فوقع كما أخبرت، ﴿وَتَفْصِيلُ الْكِتَابِ﴾: للحلال والحرام والأحكام الدينية والقدرية والإخبارات الصادقة. ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿٥٧﴾؛ أي: لا شك ولا مرية فيه بوجه من الوجوه، بل هو الحق اليقين، تنزيل من رب العالمين، الذي ربي جميع الخلق بنعمه، ومن أعظم أنواع تربيته أن أنزل عليهم هذا الكتاب الذي فيه مصالحهم الدينية والدنيوية، المشتمل على مكارم الأخلاق ومحاسن الأعمال.

﴿٥٨﴾ أَمْ يَقُولُونَ ﴿٥٩﴾: أي: المكذبون به عناداً وبغياً: ﴿افْتَرَاهُ﴾: محمد على الله واختلقه، ﴿قُلْ﴾: لهم ملزماً لهم بشيء، إن قدروا عليه؛ أمكن ما ادعوه، وإلا كان قولهم باطلاً: ﴿فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِن دُونِ اللَّهِ إِن

أي: لا تسمع الصم الذين لا يستمعون القول ولو جهرت به، وخصوصاً إذا كان عقلهم معدوماً؛ فإذا كان من المحال إسماع الأصم الذي لا يعقل للكلام؛ فهو لاء المكذوبون كذلك ممتنع إسماعك إياهم إسماعاً يتفنون به، وأما سماع الحجة؛ فقد سمعوا ما تقوم عليهم به حجة الله البالغة؛ فهذا طريق عظيم من طرق العلم قد انسد عليهم، وهو طريق المسموعات المتعلقة بالخبر.

﴿٤٢﴾ ثم ذكر انسداد الطريق الثاني، وهو طريق النظر فقال: ﴿وَمِنْهُمْ مَّن يَنْظُرُ إِلَيْكَ﴾: فلا يفيده نظره إليك، ولا سبر أحوالك شيئاً فكما أنك لا تهدي العمي ولو كانوا لا يبصرون؛ فكذلك لا تهدي هؤلاء؛ فإذا فسدت عقولهم وأسماعهم وأبصارهم التي هي الطرق الموصلة إلى العلم ومعرفة الحقائق؛ فأين الطريق الموصل لهم إلى الحق؟!

ودل قوله: ﴿وَمِنْهُمْ مَّن يَنْظُرُ إِلَيْكَ﴾ الآية: أن النظر إلى حالة النبي ﷺ وهدية وأخلاقه وأعماله وما يدعو إليه من أعظم الأدلة على صدقه وصحة ما جاء به، وأنه يكفي البصير عن غيره من الأدلة.

﴿٤٣﴾ وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا﴾: فلا يزيد في سيئاتهم ولا ينقص من حسناتهم، ﴿وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾: يعجبهم الحق فلا يقبلونه، فيعاقبهم الله بعد ذلك بالطبع على قلوبهم، والختم على أسماعهم وأبصارهم.

﴿٤٤﴾ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لُّوْا بَلَسُوا إِلَّا سَاعَةً مِّنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا مُهْتَدِينَ ﴿٤٥﴾

﴿٤٥﴾ يخبر تعالى عن سرعة انقضاء الدنيا، وأن الله تعالى إذا حشر الناس وجمعهم ليوم لا ريب فيه كأنهم ما لبثوا إلا ساعة من نهار، وكأنه ما مر عليهم نعيم ولا بؤس، وهم يتعارفون بينهم كحالهم في الدنيا؛ ففي هذا اليوم يريح المتقون، ويخسر ﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ ﴿٤٥﴾ إلى الصراط المستقيم والدين القويم حيث فاتهم النعيم، واستحقوا دخول النار.

﴿٤٦﴾ وَإِنَّمَا تَرِيكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَوَفِّتُكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ ﴿٤٦﴾

﴿٤٦﴾ أي: لا تحزن أيها الرسول على هؤلاء المكذبين، ولا تستعجل لهم؛ فإنهم لا بد أن يصيبهم الذي نعدهم من العذاب؛ إما في الدنيا فتراه بعينك وتقر به نفسك، وإما في الآخرة بعد الوفاة؛ فإن مرجعهم إلى الله، وسينبئهم بما كانوا يعملون ﴿أَخْصَصَهُ اللَّهُ وَسُوءَ وَآلَهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ ﴿٤٦﴾ [المجادلة: ٦]؛ ففيه الوعيد الشديد لهم والتسلي للرسول الذي كذبه قومه وعاندوه.

﴿٤٧﴾ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رُسُلَهُمْ فُتِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٤٨﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤٩﴾ قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٥٠﴾

سورة يونس
وَمِنْهُمْ مَّن يَنْظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَن تَهْدِي أَعْمَىٰ وَلَوْ كَانَ ثَوْلاً لَا يَبْصُرُونَ ﴿٤٢﴾ إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٣﴾ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لُّوْا بَلَسُوا إِلَّا سَاعَةً مِّنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا مُهْتَدِينَ ﴿٤٤﴾ وَإِنَّمَا تَرِيكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَوَفِّتُكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ ﴿٤٥﴾ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رُسُلُهُمْ فُتِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٤٦﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤٧﴾ قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٤٨﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنْتُمْ عِدَابِي بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ قُلُوبُهُمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٤٩﴾ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنْتُمْ عِدَابِي بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ قُلُوبُهُمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٥٠﴾

رَأَوْا بِأَسْأَتِ اللَّهِ الَّتِي قَدْ حَلَّتْ فِي عِبَادِهِ. [غافر: ٨٥]، وقال هنا: ﴿أَنْتُمْ إِذَا مَا وَعَىٰ أَمْنُكُمْ بِهِ ۖ ءَأَلْقَيْنَ﴾: تدعون الإيمان، ﴿وَقَدْ كُنْتُمْ بِهِ سَاسِعَاجِلُونَ﴾ (٥١): فهذا ما عملت أيديكم، وهذا ما استعجلتم به.

﴿ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا﴾: حين يوفون أعمالهم يوم القيامة: ﴿ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ﴾؛ أي: العذاب الذي تخلصون فيه، ولا يفتر عنكم ساعة. ﴿هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ (٥٢): من الكفر والتكذيب والمعاصي.

﴿وَيَسْتَعِزُّونَكَ أَهَقُ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ (٥٣) وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الْأَرْضِ لَافْتَدَتْ بِهِ ۚ وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَفُتِنَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (٥٤) أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ إِنَّا وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٥٥) هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَلَئِنَّ تَرْجِعُونَ (٥٦)﴾.

﴿٥٢﴾ يقول تعالى لنبيه ﷺ: ﴿وَيَسْتَعِزُّونَكَ أَهَقُ هُوَ﴾؛ أي: يستعزبك المكذبون على وجه التعنت والعناد لا على وجه التبين والامترشاد. ﴿أَهَقُ هُوَ﴾؛ أي: أصحح حشر العباد وبعثهم بعد موتهم ليوم المعاد وجزاء العباد بأعمالهم إن خيرا فخير وإن شرا فشر؟ ﴿قُلْ﴾: لهم مقسما على صحته مستدلا عليه بالدليل الواضح والبرهان: ﴿إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ﴾: لا مزية فيه ولا شبهة تعتريه، ﴿وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ (٥٣): لله أن يبعثكم؛ فكما ابتدأ خلقكم ولم تكونوا شيئا؛ كذلك يعيدكم مرة أخرى ليجازيكم بأعمالكم.

﴿٥٤﴾ وإذا كانت القيامة، فلو ﴿أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ﴾: بالكفر والمعاصي جميع ﴿مَا فِي الْأَرْضِ﴾: من ذهب وفضة وغيرهما؛ لتفتدي به من عذاب الله، ﴿لَافْتَدَتْ بِهِ﴾: ولما نفعها ذلك، وإنما النفع والضرر والثواب والعقاب على الأعمال الصالحة والسيئة، ﴿وَأَسْرُوا﴾؛ أي: الذين ظلموا، ﴿النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ﴾: ندموا على ما قدموا ولات حين مناص، ﴿وَفُتِنَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ﴾؛ أي: العدل التام الذي لا ظلم ولا جور فيه بوجه من الوجوه.

﴿٥٥﴾ ﴿أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾: يحكم فيهم بحكمه الديني والقدري، وسيحكم فيهم بحكمه الجزائي، ولهذا قال: ﴿أَلَا إِنَّ وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٥٥): فلذلك لا يستعدون للقاء الله، بل ربما

﴿٤٧﴾ يقول تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ﴾: من الأمم الماضية ﴿رَسُولٌ﴾: يدعوهم إلى توحيد الله ودينه. فإذا جاءهم ﴿رُسُلُهُمْ﴾ بالآيات؛ صدقه بعضهم وكذبه آخرون، فيقضي الله بينهم بالقسط بنجاة المؤمنين وإهلاك المكذبين. ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ (٤٧): بأن يعذبوا قبل إرسال الرسول وبيان الحجة، أو يعذبوا بغير جرمهم.

﴿٤٨﴾، ﴿٤٩﴾ فليحذر المكذبون لك من مشابهة الأمم المهلكين فيحل بهم ما حل بأولئك ولا يستبطئوا العقوبة ويقولوا: ﴿مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (٤٨): فإن هذا ظلم منهم؛ حيث طلبوه من النبي ﷺ؛ فإنه ليس له من الأمر شيء، وإنما عليه البلاغ والبيان للناس، وأما حسابهم وإنزال العذاب عليهم؛ فمن الله تعالى، ينزل عليهم إذا جاء الأجل الذي أجله فيه والوقت الذي قدره فيه الموافق لحكمته الإلهية؛ فإذا جاء ذلك الوقت؛ لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون. فليحذر المكذبون من الاستعجال؛ فإنهم مستعجلون بعذاب الله الذي إذا نزل لا يرد بأسه عن القوم المجرمين. ولهذا قال:

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَنْتُمْ عَذَابُهُ بَيِّنًا أَوْ غَاهِرًا مَآذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ﴾ (٥٠) أَنْتُمْ إِذَا مَا وَعَىٰ أَمْنُكُمْ بِهِ ۖ ءَأَلْقَيْنَ وَقَدْ كُنْتُمْ بِهِ سَاسِعَاجِلُونَ (٥١) ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ (٥٢)﴾.

﴿٥١﴾ يقول تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَنْتُمْ عَذَابُهُ بَيِّنًا﴾: وقت نومكم بالليل، ﴿أَوْ غَاهِرًا﴾: في وقت غفلتكم، ﴿مَآذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ﴾ (٥١): أي: أي بشارة استعجلوا بها، وأي عقاب ابتدروا؟

﴿٥٢﴾ ﴿أَنْتُمْ إِذَا مَا وَعَىٰ أَمْنُكُمْ بِهِ﴾: فإنه لا ينفع الإيمان حين حلول عذاب الله، ويقال لهم توبيخا وعتابا في تلك الحال التي زعموا أنهم يؤمنون: ﴿ءَأَلْقَيْنَ﴾: تؤمنون في حال الشدة والمشقة، ﴿وَقَدْ كُنْتُمْ بِهِ سَاسِعَاجِلُونَ﴾ (٥١): فإن سنة الله في عباده أنه يعتهم إذا استعتهبه قبل وقوع العذاب؛ فإذا وقع العذاب؛ لا ينفع نفسا إيمانها؛ كما قال تعالى عن فرعون لما أدركه الغرق: ﴿قَالَ ءَأَمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي ءَأَمَنْتُ بِهِ ۚ بَرًّا بِرَبِّكَ أَلَّا يَمُنَّ إِلَّا بِمَنْ عَسَىٰ أَعْتَبُ ۚ أَن يَرَوْنَ عَذَابَ الْهُبَالِ﴾ (١٠٨)، وأنه يقال له: ﴿ءَأَلْقَيْنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلَ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ (٥١) [يونس: ٩٠، ٩١]، وقال تعالى: ﴿فَلَمْ يَكْ يَنْفَعُهُمْ إِيْمَانُهُمْ لَمَّا

لم يؤمنوا به، وقد تواترت عليه الأدلة القطعية والبراهين العقلية والعقلية.

﴿٥٦﴾ هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ؛ أي: هو المتصرف بالإحياء والإماتة وسائر أنواع التدابير لا شريك له في ذلك. ﴿وَالَّذِينَ تَرْتَجِعُونَ﴾ ﴿٥٧﴾: يوم القيامة، فيجازيكم بأعمالكم خيرها وشرها.

﴿يَتَأْتِيَ النَّاسَ قَدْ جَاءَ تَكُفُّكُمْ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿٥٧﴾ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾.

﴿٥٧﴾ يقول تعالى مرغبا للخلق في الإقبال على هذا الكتاب الكريم بذكر أوصافه الحسنة الضرورية للعباد فقال: ﴿يَتَأْتِيَ النَّاسَ قَدْ جَاءَ تَكُفُّكُمْ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾؛ أي: تعظكم وتذكركم عن الأعمال الموجبة لسخط الله، المقتضية لعقابه، وتحذركم عنها ببيان آثارها ومفاسدها، ﴿وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ﴾؛ وهو هذا القرآن، شفاء لما في الصدور من أمراض الشهوات الصادة عن الانقياد للشرع، وأمراض الشبهات القاذحة في العلم اليقيني؛ فإن ما فيه من المواعظ والترغيب والترهيب والوعد والوعيد مما يوجب للعبد الرغبة والرغبة، وإذا وجدت فيه الرغبة في الخير، والرغبة عن الشر، ونمتا على

تكرر ما يرد إليها من معاني القرآن؛ أوجب ذلك تقديم مراد الله على مراد النفس، وصار ما يرضي الله أحب إلى العبد من شهوة نفسه، وكذلك ما فيه من البراهين والأدلة التي صرّفتها الله غاية التصريف وبينها أحسن بيان مما يزيل الشبه القاذحة في الحق ويصل به القلب إلى أعلى درجات اليقين، وإذا صح القلب من مرضه، ورفل بأثواب العافية؛ تبعته الجوارح كلها؛ فإنها تصلح بصلاحه وتفسد بفساده.

﴿وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿٥٧﴾: فالهدى هو العلم بالحق والعمل به، والرحمة هي ما يحصل من الخير والإحسان والثواب العاجل والأجل لمن اهتدى به؛ فالهدى أجل الوسائل، والرحمة أكمل المقاصد والرغائب، ولكن لا يهتدي به ولا يكون رحمة إلا في حق المؤمنين، وإذا حصل الهدى وحلت الرحمة الناشئة عنه؛ حصلت السعادة والفلاح والربح والنجاح والفرح والسرور.

﴿٥٨﴾ ولذلك أمر تعالى بالفرح بذلك، فقال: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ﴾: الذي هو القرآن، الذي هو أعظم نعمة ومنه وفضل تفضل الله به على عباده، ﴿وَبِرَحْمَتِهِ﴾: الدين والإيمان وعبادة الله ومحبته ومعرفته. ﴿فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ ﴿٥٨﴾: من متاع الدنيا ولذاتها؛ فنعمة الدين المتصلة بسعادة الدارين لا نسبة بينها وبين جميع ما في الدنيا مما هو مضمحل زائل عن قريب. وإنما أمر الله تعالى بالفرح بفضله ورحمته؛ لأن ذلك مما يوجب انبساط النفس ونشاطها وشكرها لله تعالى وقوتها وشدة الرغبة في العلم والإيمان الداعي للزيادة منهما، وهذا فرح محمود؛ بخلاف الفرح بشهوات الدنيا ولذاتها أو الفرح بالباطل؛ فإن هذا مذموم؛ كما قال تعالى عن قوم قارون له: ﴿لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾ ﴿٧٦﴾ [القصاص: ٧٦]، وكما قال تعالى في الذين فرحوا بما عندهم من الباطل المناقض لما جاءت به الرسل: ﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ﴾ [غافر: ٨٣].

سُورَةُ يُوسُفَ
وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الْأَرْضِ لَافْتَدَتْ بِهِ. وَأَسْرُوا
الْأَنفُسَ لِمَا رَأَوْا الْعَذَابَ وَفُتِنَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ
لَا يُبْطِلُونَ ﴿٥٦﴾ أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْإِن
وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ
وَالَّذِينَ تَرْتَجِعُونَ ﴿٥٨﴾ يَتَأْتِيَ النَّاسَ قَدْ جَاءَ تَكُفُّكُمْ مَوْعِظَةٌ
مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ
﴿٥٧﴾ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا
يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ
فَجَعَلَهُ مِنَّةً حَرَامًا وَحَلَالًا قُلْ إِنَّ اللَّهَ أَدَّبَ لَكُمْ أَمْرًا عَلَى اللَّهِ
تَقَرُّوْنَ ﴿٥٩﴾ وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ
يَوْمَ الْفِتْمَةِ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ
لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦٠﴾ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ
وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ
فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي
السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿٦١﴾

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا قُلْ ءَاللهُ أَدَّبَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴾ (٥٩) وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦٠﴾

﴿٥٩﴾ يقول تعالى منكراً على المشركين الذين ابتدعوا تحريم ما أحل الله وتحليل ما حرمه: ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ ﴾؛ يعني: أنواع الحيوانات المحللة التي جعلها الله رزقاً لهم ورحمة في حقهم، ﴿ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا ﴾ قل لهم موبخاً على هذا القول الفاسد: ﴿ ءَاللهُ أَدَّبَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴾ (٥٩) ومن المعلوم أن الله لم يأذن لهم؛ فلعلم أنهم مفترون.

﴿٦٠﴾ ﴿ وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ يَوْمَ الْقِيَمَةِ ﴾: أن يفعل الله بهم من النكال ويحل بهم من العقاب؛ قال تعالى: ﴿ وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُسْوَدَّةٌ ﴾ [الزمر: ٦٠].

﴿ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ ﴾: كثير وذو إحسان جزيل. ولكن أكثر الناس لا يشكرون، إما ألا يقوموا بشكرها، وإما أن يستعينوا بها على معاصيه، وإما أن يحرموا منها، ويردوا ما من الله به على عباده، وقليل منهم الشاكر الذي يعترف بالنعمة، ويشني بها على الله، ويستعين بها على طاعته.

ويستدل بهذه الآية على أن الأصل في جميع الأطعمة الحلال؛ إلا ما ورد الشرع بتحريمه؛ لأن الله أنكر على من حرم الرزق الذي أنزله لعباده.

﴿ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ شِقَاقِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴾ (٦١).

﴿٦١﴾ يخبر تعالى عن عموم مشاهدته واطلاعه على جميع أحوال العباد في حركاتهم وسكناتهم، وفي ضمن هذا الدعوة لمراقبته على الدوام، فقال: ﴿ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ ﴾؛ أي: حال من أحوالك الدينية والدنيوية، ﴿ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ ﴾؛ أي: وما تتلو من القرآن الذي أوحاه الله إليك،

﴿ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ ﴾: صغير أو كبير، ﴿ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ﴾؛ أي: وقت شروعيكم فيه واستمراركم على العمل به، فراقبوا الله في أعمالكم، وأدوها على وجه النصيحة والاجتهاد فيها، وإياكم وما يكره الله تعالى؛ فإنه مطلع عليكم عالم بظواهركم وبواطنكم. ﴿ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ ﴾؛ أي: ما يغيب عن علمه وسمعه وبصره ومشاهدته ﴿ مِنْ شِقَاقِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴾ (٦١)؛ أي: قد أحاط به علمه وجرى به قلمه. وهاتان المرتبتان من مراتب القضاء والقدر كثيراً ما يقرن الله بينهما، وهما العلم المحيط بجميع الأشياء وكتابته المحيطة بجميع الحوادث؛ كقوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ (٧٠) [الحج: ٧٠].

﴿ أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ (٦٢) الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٦٤﴾

﴿٦٢﴾ يخبر تعالى عن أوليائه وأجابه ويذكر أعمالهم وأوصافهم وثوابهم، فقال: ﴿ أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ ﴾؛ فيما يستقبلونه مما أمامهم من المخاوف والأهوال، ﴿ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ (٦٢)؛ على ما أسلفوا؛ لأنهم لم يسلفوا إلا صالح الأعمال، وإذا كانوا لا خوف عليهم ولا هم يحزنون؛ ثبت لهم الأمن والسعادة والخير الكثير الذي لا يعلمه إلا الله تعالى.

﴿٦٣﴾ ثم ذكر وصفهم، فقال: ﴿ الَّذِينَ ءَامَنُوا ﴾: بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وبالقدر خيره وشره، وصدقوا بإيمانهم باستعمال التقوى بامتنال الأوامر واجتناب النواهي؛ فكل من كان مؤمناً تقياً؛ كان لله تعالى ولياً.

﴿٦٤﴾ ﴿ لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ ﴾: أما البشارة في الدنيا؛ فهي الثناء الحسن والمودة في قلوب المؤمنين والرؤيا الصالحة وما يراه العبد من لطف الله به وتيسيره لأحسن الأعمال والأخلاق وصرفه عن مساوئ الأخلاق، وأما في الآخرة؛ فأولها البشارة عند قبض أرواحهم؛ كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا سَتَتْلُو عَلَيْنَا مَلَكُكُمُ الْكَلِمَةَ أَلا تَخَفُوا وَلَا تَحْزَنُوا

وَأَبَشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ [فصلت: ٣٠]:
وفي القبر ما يبشر به من رضا الله تعالى والنعيم المقيم، وفي
الآخرة تمام البشري بدخول جنات النعيم والنجاة من العذاب
الآليم. ﴿لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ﴾: بل ما وعد الله فهو حق،
لا يمكن تغييره ولا تبديله؛ لأنه الصادق في قيله، الذي لا
يقدر أحد أن يخالفه فيما قدره وقضاه. ﴿ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ
الْعَظِيمُ﴾ ﴿٣١﴾: لأنه اشتمل على النجاة من كل محذور،
والظفر بكل مطلوب محبوب، وحصر الفوز فيه؛ لأنه لا فوز
لغير أهل الإيمان والتقوى.

والحاصل أن البشري شاملة لكل خير وثواب رتبته الله في
الدنيا والآخرة على الإيمان والتقوى، ولهذا أطلق ذلك فلم
يقده.

﴿وَلَا يَحْزَنُكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ
السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ ﴿٣٢﴾.

﴿٣٢﴾ أي: ولا يحزنك قول المكذبين فيك من الأقوال
التي يتوصلون بها إلى القدرح فيك وفي دينك؛ فإن أقوالهم
لا تعزهم ولا تضرك شيئاً. ﴿إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾؛ يؤتيها
من يشاء ويمنعها ممن يشاء، قال تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدِ الْعِزَّةَ
فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾ أي: فليطلبها بطاعته؛ بدليل قوله بعده:
﴿وَمَنْ الْمَعْلُومُ أَنَّكَ عَلَى طَاعَةِ اللَّهِ، وَأَنَّ الْعِزَّةَ لَكَ وَلِأَتْبَاعِكَ مِنْ
اللَّهِ.﴾ ﴿وَاللَّهُ الْعِزَّةُ وَلِرُسُولِهِ. وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون: ٨]. وقوله: ﴿هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ ﴿٣٢﴾؛ أي سمعه قد أحاط بجميع
الأصوات؛ فلا يخفى عليه شيء منها؛ وعلمه قد أحاط بجميع الظواهر والبواطن؛ فلا يعزب عنه مثقال ذرة في السموات
والأرض ولا أصغر من ذلك ولا أكبر، وهو تعالى يسمع قولك وقول أعدائك فيك، ويعلم ذلك تفصيلاً؛ فاكشف بعلم الله
وكفايته؛ فمن يتق الله فهو حسبه.

﴿أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَسْبِغُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ إِنْ
يَسْتَعِثُّونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ ﴿٣٣﴾ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ آيَاتٍ لَتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنْ
فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ ﴿٣٤﴾.

﴿٣٣﴾ يخبر تعالى أن له ما في السموات والأرض خلقاً وملكاً وعبداً، يتصرف فيهم بما يشاء من أحكامه؛ فالجميع ممالك لله
مسخرون مدبرون لا يستحقون شيئاً من العبادة وليسوا شركاء لله بوجه من الوجوه، ولهذا قال: ﴿وَمَا يَسْبِغُ الَّذِينَ يَدْعُونَ
مِنْ دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ إِنْ يَسْتَعِثُّونَ إِلَّا الظَّنَّ﴾: الذي لا يغني من الحق شيئاً، ﴿وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ ﴿٣٣﴾. في
ذلك خرص كذب وإفك وبهتان؛ فإن كانوا صادقين في أنها شركاء لله؛ فليظهروا من أوصافها ما تستحق به مثقال ذرة من
العبادة؛ فلن يستطيعوا؛ فهل منهم أحد يخلق شيئاً أو يرزق أو يملك شيئاً من المخلوقات أو يدبر الليل والنهار، الذي جعله
الله قياماً للناس؟! ﴿٣٤﴾

﴿٣٤﴾ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ آيَاتٍ لَتَسْكُنُوا فِيهِ﴾: في النوم والراحة بسبب الظلمة التي تغطي وجه الأرض؛ فلو استمر
الضياء؛ لما قروا ولما سكنوا. وجعل الله النهار ﴿مُبْصِرًا﴾؛ أي: مضيئاً يبصر به الخلق فيتصرفون في معاشهم ومصالح
دينهم ودنياهم. ﴿إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ ﴿٣٤﴾: عن الله، سمع فهم، وقبول، واسترشاد، لا سمع تعنت

سورة يونس
أَلَا إِنَّ لِلَّهِ أَهْلًا لَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ
﴿٣٥﴾ الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿٣٦﴾ لَهُمُ الْبُشْرَى
فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ
ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٣٧﴾ وَلَا يَحْزَنُكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ
الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٣٨﴾ أَلَا إِنَّ لِلَّهِ
مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَسْبِغُ الَّذِينَ
يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ إِنْ يَسْتَعِثُّونَ إِلَّا
الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٣٩﴾ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ
آيَاتٍ لَتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنْ فِي ذَلِكَ
لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا
سُبْحَنَهُ هُوَ الْعَزِيزُ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ
إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بِهَذَا أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا
لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ
لَا يَفْلَحُونَ ﴿٤٢﴾ مَتَّعْ فِي الدُّنْيَا ثَمَرًا إِنَّمَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ
نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٤٣﴾

وعناد؛ فإن في ذلك لآيات لقوم يسمعون يستدلون بها على أنه وحده المعبود، وأنه الإله الحق، وأن إلهية ما سواه باطلة، وأنه الرؤوف الرحيم العليم الحكيم.

﴿قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَنَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِنَّ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بِهَذَا أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧٨﴾ قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَقْتُرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿٧٩﴾ مَتَّعَ فِي الدُّنْيَا ثَمَرًا إِنَّمَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ يُنْفِقُهُمُ الْعَذَابُ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٨٠﴾﴾

﴿٧٨﴾ يقول تعالى مخبراً عن بهت المشركين لرب العالمين: ﴿قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا﴾: فتره نفسه عن ذلك بقوله: ﴿سُبْحَنَهُ﴾؛ أي: تنزه عما يقول الظالمون في نسبة النقائص إليه علواً كبيراً. ثم برهن عن ذلك بعدة براهين:

أحدها قوله: ﴿هُوَ الْغَنِيُّ﴾؛ أي: الغنى منحصر فيه، وأنواع الغنى مستغرقة فيه؛ فهو الغني الذي له الغنى التام بكل وجه واعتبار من جميع الوجوه؛ فإذا كان غنياً من كل وجه؛ فلاي شيء يتخذ الولد؟! الحاجة منه إلى الولد؟ فهذا مناف لغناه؛ فلا يتخذ أحد ولداً إلا لنقص في غناه؟!

البرهان الثاني قوله: ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾: وهذه كلمة جامعة عامة، لا يخرج عنها موجود من أهل السماوات والأرض، الجميع مخلوقون عبيد ممالك، ومن المعلوم أن هذا الوصف العام ينافي أن يكون له منهم ولد؛ فإن الولد من جنس والده، لا يكون مخلوقاً ولا مملوكاً؛ فملكه لما في السماوات والأرض عموماً تنافي الولادة.

البرهان الثالث قوله: ﴿إِنَّ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بِهَذَا﴾؛ أي: هل عندكم من حجة وبرهان يدل على أن لله ولداً؟! فلو كان لهم دليل؛ لأبدوه، فلما تحداهم وعجزهم عن إقامة الدليل؛ علم بطلان ما قالوه، وأن ذلك قول بلا علم، ولهذا قال: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧٨﴾﴾: فإن هذا من أعظم المحرمات.

﴿٧٩﴾ ﴿قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَقْتُرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿٧٩﴾﴾؛ أي: لا ينالون مطلوبهم ولا يحصل لهم مقصودهم، وإنما يتمتعون في كفرهم وكذبهم في الدنيا قليلاً، ثم ينتقلون إلى الله ويرجعون إليه، فيذيقهم العذاب

الشديد بما كانوا يكفرون ﴿٧٩﴾﴾، ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنْفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٨٠﴾﴾ [آل عمران: ١١٧].

﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَتَقَوُّمُ إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذِكْرِي بَيَّاتٍ اللَّهُ فَقُلِ اللَّهُ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنْظِرُونِ ﴿٧٦﴾﴾ فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرْتُ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأَمَرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٧٧﴾﴾ فَكَلَبُوهُ فَنَجَّيْتَهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلِكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلْقًا وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُتَدَبِّرِينَ ﴿٧٨﴾﴾.

﴿٧٦﴾ يقول تعالى لنبيه: وائل على قومك ﴿نَبَأَ نُوحٍ﴾: في دعوته لقومه حين دعاهم إلى الله مدة طويلة فمكث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً، فلم يزددهم دعاؤه لإياهم إلا طغياناً، فتمللوا منه وسثموا، وهو عليه الصلاة والسلام غير متكاسل ولا متوانٍ في دعوتهم، فقال لهم: ﴿يَتَقَوُّمُ إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذِكْرِي بَيَّاتٍ اللَّهُ﴾؛ أي: إن كان مقامى عندكم وتذكيري لإياكم ما ينفعكم بآيات الله الأدلة الواضحة البينة، قد شق عليكم، وعظم لديكم، وأردتم أن تتالوني بسوء أو تردوا الحق. ﴿فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ﴾؛ أي: اعتمدت على الله في دفع كل شر يراد بي وبما أدعو إليه؛ فهذا جندي، وعدتي. وأنتم فاتوا بما قدرتم عليه من أنواع العدد والعدد، ﴿فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ﴾: كلكم بحيث لا يتخلف منكم أحد ولا تدخروا من مجهودكم شيئاً، وأحضروا ﴿شُرَكَاءَكُمْ﴾: الذين كنتم تعبدونهم وتوالونهم من دون الله رب العالمين، ﴿ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً﴾؛ أي: مشتبهاً خفياً، بل ليكن ذلك ظاهراً علانية. ﴿ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ﴾؛ أي: اقضوا علي بالعقوبة والسوء الذي في إمكانكم، ﴿وَلَا تُنْظِرُونِ﴾ ﴿٧٧﴾؛ أي: لا تمهلوني ساعة من نهار.

فهذا برهان قاطع وآية عظيمة على صحة رسالته وصدق ما جاء به؛ حيث كان وحده لا عشيرة تحميه ولا جنود تؤويه، وقد بادأ قومه بتسفيه آرائهم وفساد دينهم وعيب آلهتهم، وقد حملوا من بغضه وعداوته ما هو أعظم من الجبال الرواسي، وهم أهل القدرة والسلطة، وهو يقول لهم: اجتمعوا أنتم وشركاؤكم ومن استطعتم، وأبدوا كل ما تقدرُونَ عليه من الكيد، فأوقعوا بي إن قدرتم على ذلك، فلم يقدرُوا على

شيء من ذلك، فعلم أنه الصادق حقًا، وهم الكاذبون فيما يدعون.

﴿٧٢﴾ ولهذا قال: ﴿إِنْ تَوَلَّيْتُمْ﴾: عمدًا دعوتكم إليه؛ فلا موجب لتوليكم؛ لأنه تبين أنكم لا تولون عن باطل إلى حق، وإنما تولون عن حق قامت الأدلة على صحته إلى باطل قامت الأدلة على فساد، ومع هذا: ﴿فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجَرٍ﴾: على دعوتي وعلى إجابتي، فتقولوا: هذا جاءنا لياخذ أموالنا فممتنعون لأجل ذلك. ﴿إِنْ أَجَرَى إِلَّا عَلَى اللَّهِ﴾: أي: لا أريد الثواب والجزاء إلا منه، وأيضًا: إني ما أمرتكم بأمر وأخالفكم إلى ضده. بل أمرت ﴿أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾: فانا أول داخل وأول فاعل لما أمرتكم به.

﴿٧٣﴾ ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾: بعدما دعاهم ليلاً ونهارًا وسرًا وجهارًا فلم يزدحم دعاؤه إلا فرارًا. ﴿فَنَجَّيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلِّ﴾: الذي أمرناه أن يصنعه بأعيننا، وقلنا له: إذا فار التنور؛ فـ ﴿أَحْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ﴾ [هود: ٤٠]، ففعل ذلك، فأمر الله السماء بماء منهمر، وفجر ﴿الْأَرْضَ غِيثًا فَأَلْقَى الْمَاءَ عَلَى أَمْرٍ قَدَرٍ﴾ [الأنعام: ١٢-١٤]. وحملته على ذات ألواح ودسر ﴿يَجْرِي بِأَعْيُنِنَا﴾ [القمر: ١٢-١٤]. ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ خَلْقًا﴾: في الأرض بعد إهلاك المكذبين، ثم بارك الله في ذريته وجعل ذريته هم الباقين، ونشرهم في أقطار الأرض، ﴿وَأَعْرَفْنَا الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا﴾: بعد ذلك البيان وإقامة البرهان. ﴿فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُتَكَبِّرِينَ﴾: وهو الهلاك المخزي واللعة المتابعة عليهم في كل قرن يأتي بعدهم، لا تسمع فيهم إلا لومًا، ولا ترى إلا قدحًا وذمًا؛ فليحذر هؤلاء المكذوبون أن يحل بهم ما حل بأولئك الأقوام المكذبين من الهلاك والخزي والنكال.

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾: فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ نَنْطِيعُ عَلَى قُلُوبِ الْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٤﴾.

﴿٧٤﴾ أي: ثم بعثنا من بعد نوح عليه السلام، ﴿رَسُولًا إِلَى قَوْمِهِمْ﴾: المكذبين يدعونهم إلى الهدى ويحذرونهم من أسباب الردى، ﴿فَجَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾: أي: كل نبي أيد دعوته بالآيات الدالة على صحة ما جاء به. ﴿فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ﴾: يعني: أن الله تعالى عاقبهم حيث جاءهم الرسول فبادروا بتكذيبه، طبع الله على قلوبهم، وحال بينهم وبين الإيمان بعد أن كانوا متمكنين منه؛ كما قال تعالى: ﴿وَقُلُوبُ أَهْلَيْهَا أَغْشِيَ﴾ [الأنعام: ١١٠]. ولهذا قال هنا: ﴿كَذَلِكَ نَنْطِيعُ عَلَى قُلُوبِ الْمُتَكَبِّرِينَ﴾ ﴿٧٥﴾: أي: نختم عليها فلا يدخلها خير، وما ظلمهم الله، ولكنهم ظلموا أنفسهم بردهم الحق لما جاءهم وتكذيبهم الأول.

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمُ مُوسَى وَهَارُونَ﴾: إلى آخر القصة.

﴿٧٥﴾ أي: ثم بعثنا من بعد هؤلاء الرسل الذين أرسلهم الله إلى القوم المكذبين المهلكين ﴿مُوسَى﴾: ابن عمران، كليم الرحمن، أحد أولي العزم من المرسلين، وأحد الكبار المقتدى بهم، المنزل عليهم الشرائع المعظمة الواسعة. وجعلنا معه أخاه هارون وزيرًا. بعثناهما ﴿إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ﴾: أي: كبار دولته ورؤسائهم؛ لأن عاتهم تبع للرؤساء، ﴿بِآيَاتِنَا﴾: الدالة



على صدق ما جاء به من توحيد الله والنهي عن عبادة ما سوى الله تعالى. ﴿فَاسْتَكَبَرُوا﴾: عنها ظلماً وعلواً بعدما استيقنوها، ﴿وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾: أي: وصفهم الإجرام والتكذيب.

﴿٧٦﴾ ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا﴾: الذي هو أكبر أنواع الحق وأعظمها، وهو من عند الله، الذي خضعت لعظمته الرقاب، وهو رب العالمين المربي لجميع خلقه بالنعيم، فلما جاءهم الحق من عند الله على يد موسى؛ ردوه فلم يقبلوه، ﴿وَقَالُوا إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ﴾: لم يكفهم - قبحهم الله - إعراضهم ولا ردهم إياه، حتى جعلوه أبطل الباطل، وهو السحر الذي حقيقته التمويه، بل جعلوه سحراً مبيناً ظاهراً، وهو الحق المبين.

﴿٧٧﴾ ولهذا ﴿قَالَ﴾ لهم ﴿مُوسَى﴾ موبخاً لهم عن ردهم الحق الذي لا يرده إلا أظلم الناس: ﴿أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ﴾: أي: أ تقولون: إنه سحر مبين. ﴿أَيَسْحَرُ هَذَا﴾: أي: فانظروا وصفه وما اشتمل عليه؛ فبمجرد ذلك يجزم بأنه الحق، ﴿وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ﴾: لا في الدنيا ولا في الآخرة؛ فانظروا لمن تكون له العاقبة، ولمن له الفلاح وعلى يديه النجاح، وقد علموا بعد ذلك وظهر لكل أحد أن موسى عليه السلام هو الذي أفلح، وفاز بظفر الدنيا والآخرة.

﴿٧٨﴾ ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ أَتَأْتُونِي بِكُلِّ سِحْرِ عَلِيمٍ﴾: ﴿فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ﴾ قال لهم موسى ﴿أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ﴾: ﴿فَلَمَّا أَلْقَوْا قَالَ مُوسَى مَا جِئْتُمْ بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ﴾: ﴿وَيُخَيِّئُ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ﴾: ﴿فَمَا آمَنَ لِمُوسَى إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ عَلَى خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَنْ يَفْتِنَهُمْ وَإِنْ فِرْعَوْنُ لَمَكِيدٌ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ﴾: ﴿وَقَالَ مُوسَى يَقَوْمِ إِن كُنتُمْ مَأْمَنُم بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنتُمْ شَاسِلِينَ﴾: ﴿فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾: ﴿وَنَحْنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَأَلْيِهِ أَنْ يَأْتِيَ بِقَوْمِكَ بِصَاحِبٍ يُؤْتِيكَمْ قِيلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾: ﴿وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَئَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوهُ عَنْ سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾: ﴿٢١٨﴾

﴿٧٨﴾ ﴿قَالُوا﴾ لموسى رادين لقوله بما لا يرده: ﴿أَجِئْنَا لِتُلْقِنَا عَمًّا وَجَدْنَا عَلَيْكَ آبَاءَنَا﴾: أي: أجئنا لتصدنا عما وجدنا عليه آبائنا من الشرك وعبادة غير الله وتأمرونا بأن نعبد الله وحده لا شريك له؛ فجعلوا قول آبائهم الضالين حجة يردون بها الحق الذي جاءهم به موسى عليه السلام. وقوله: ﴿وَتَكُونُ لَكُمْ الْكِبَرِيَّةُ فِي الْأَرْضِ﴾: أي: وجئتمونا لتكونوا أنتم الرؤساء ولتخرجونا من أراضينا؟ وهذا تمويه منهم، وترويج على جهالهم وتهيج لعوامهم على معاداة موسى، وعدم الإيمان به، وهذا لا يحتاج به من عرف الحقائق وميز بين الأمور؛ فإن الحجج لا تدفع إلا بالحجج والبراهين، وأما من جاء بالحق؛ فرد قوله بأمثال هذه الأمور؛ فإنها تدل على عجز موردها عن الإتيان بما يرد القول الذي جاء به خصمه؛ لأنه لو كان له حجة؛ لأوردها، ولم يلجأ إلى قوله: قصدك كذا أو مرادك كذا، سواء كان صادقاً في قوله وإخباره عن قصد خصمه أم كاذباً، مع أن موسى عليه الصلاة والسلام كل من عرف حاله وما يدعو إليه؛ عرف أنه ليس له قصد في العلو في الأرض، وإنما قصده كقصد إخوانه المرسلين، هداية الخلق وإرشادهم لما فيه نفعهم. ولكن حقيقة الأمر كما نطقوا به بقولهم: ﴿وَمَا نَحْنُ لَكُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾: أي: تكبراً وعناداً، لا لبطلان ما جاء به موسى وهارون، ولا لاشتباه فيه، ولا لغير ذلك من المعاني، سوى الظلم والعدوان، وإرادة العلو الذي رموا به موسى وهارون.

﴿٧٩﴾ ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ﴾: معارضاً للحق الذي جاء به موسى ومغالباً لملته وقومه: ﴿أَتَأْتُونِي بِكُلِّ سِحْرِ عَلِيمٍ﴾: أي: ماهر بالسحر متقن له. فأرسل في مدائن مصر من أتاه بأنواع السحرة على اختلاف أجناسهم وطبقاتهم.

﴿٨٠﴾ ﴿فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ﴾: للمغالبة لموسى، ﴿قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ﴾: أي: أي شيء أردتم، لا أعين لكم شيئاً، وذلك لأنه جازم بغلبته غير مهال بهم وبما جاءوا به.

فيفتنونا أو يغلبونا، فيفتنون بذلك، ويقولون: لو كانوا على حق لما غلبوا.

﴿٨٦﴾ وَخِصَّ بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٨٦﴾ لنسلم من شرهم ولنقيم على ديننا على وجه تتمكن به من إقامة شرائعه وإظهاره من غير معارض ولا منازع.

﴿٨٧﴾ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ: حِينَ اشْتَدَّ الْأَمْرُ عَلَىٰ قَوْمِهِمَا مِنْ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ وَحَرَصُوا عَلَىٰ قَتْلِهِمَا عَنْ دِينِهِمَا، ﴿٨٧﴾ أَنْ تَبَوَّآ لِقَوْمَيْكََا بِمِصْرَ يُبَوِّتَا: أي: مروهم أن يجعلوا لهم بيوتاً يتمكنون به من الاستخفاء فيها، ﴿٨٧﴾ وَأَجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبَلَةَ: أي: اجعلوها محلاً تصلون فيها حيث عجزتم عن إقامة الصلاة في الكنائس والبيع العامة. ﴿٨٧﴾ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ: فإنها معونة على جميع الأمور، ﴿٨٧﴾ وَنَبِّشِرِ الْمُؤْمِنِينَ: بالنصر والتأييد وإظهار دينهم؛ فإن مع العسر يسراً، إن مع العسر يسراً. وحين اشتد الكرب وضاق الأمر؛ فرجه الله ووسعه.

﴿٨٨﴾ فلما رأى موسى القسوة والإعراض من فرعون وملئه؛ دعا عليهم وأمن هارون على دعائه، فقال: ﴿٨٨﴾ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَئَهُ زِينَةً: يتزينون بها من أنواع الحلي والثياب والبيوت المزخرفة والمراكب الفاخرة والخدام، ﴿٨٨﴾ وَأَمَلُوا: عظيمة ﴿٨٨﴾ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ: أي: إن أموالهم لم يستعينوا بها إلا على الإضلال في سبيلك فَيُضِلُّوْنَ وَيُضِلُّوْنَ. ﴿٨٨﴾ رَبَّنَا أَطْمَسَ عَلَيْنَا أُمُورَهُمْ: أي: أثلفها عليهم إما بالهلاك وإما بجعلها حجارة غير مستفَع بها، ﴿٨٨﴾ وَأَشَدَّدَ عَلَيْنَا قُلُوبَهُمْ: أي: قسها، ﴿٨٨﴾ فَلَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾: قال ذلك غضباً عليهم حيث تجرءوا على محارم الله وأفسدوا عباد الله وصدوا عن سبيله، ولكمال معرفته بربه بأن الله سيعاقبهم على ما فعلوا بإغلاق باب الإيمان عليهم.

﴿٨٩﴾ قَالَ: ﴿٨٩﴾ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿٨٩﴾ نَدَّ أُجِبَتْ دَعْوَتُكُمْ: هذا دليل على أن موسى يدعو وهارون يؤمن على دعائه، وأن الذي يؤمن يكون شريكاً للداعي في ذلك الدعاء. ﴿٨٩﴾ فَاسْتَقْبَلْنَا: على دينكما، واستمرا على دعوتكما، ﴿٨٩﴾ وَلَا تَتَّبِعَانِ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾: أي: لا تتبعان سبيل الجهال الضلال، المنحرفين عن الصراط المستقيم، المتبعين لطرق الجحيم.

﴿٩٠﴾ فأمر الله موسى أن يسري ببني إسرائيل ليلاً، وأخبره

﴿٨١﴾ فَلَمَّا أَلْقَوْا: حبالهم وعصيهم إذا هي كأنها حيات تسعى، فـ ﴿٨١﴾ قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُ بِهٖ السِّحْرِ: أي: هذا السحر الحقيقي العظيم، ولكن مع عظمتي ﴿٨١﴾ إِنَّ اللَّهَ سَيَبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لَا يَصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾؛ فإنهم يريدون بذلك نصر الباطل على الحق، وأي فساد أعظم من هذا؟! وهكذا كل مفسد عمل عملاً واحتال كيداً أو أتى بمكر؛ فإن عمله سيبتل ويضمحل، وإن حصل لعمله روجان في وقت ما؛ فإن ماله الاضمحلال والمحق، وأما المصلحون الذين قصدهم بأعمالهم وجه الله تعالى، وهي أعمال ووسائل نافعة مأمور بها؛ فإن الله يصلح أعمالهم ويرقيها وينميها على الدوام.

﴿٨٢﴾ فَالْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ، فَتَلَقَّتْ جَمِيعَ مَا صَنَعُوا، فَبَطَلَ سِحْرَهُمْ، وَاضْمَحَلَّ بِأَطْلَهُمْ. ﴿٨٢﴾ وَيَحْيَىٰ اللَّهُ أَلْحَقَّ يَكْمُنِيهِ وَكَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ ﴿٨٢﴾: فالقي السحرة سجداً حين تبين لهم الحق، فتوعدهم فرعون بالصلب وتقطيع الأيدي والأرجل، فلم يبالوا بذلك، وثبتوا على إيمانهم.

﴿٨٣﴾ وأما فرعون وملؤه وأتباعهم؛ فلم يؤمن منهم أحد، بل استمروا في طغيانهم يعمهون، ولهذا قال: ﴿٨٣﴾ فَمَا ءَمَنَ لِّمُوسَىٰ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّنْ قَوْمِهِ: أي: شباب من بني إسرائيل صبروا على الخوف لما ثبت في قلوبهم الإيمان، ﴿٨٣﴾ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَنْ يَفْتِنَهُمْ: عن دينهم. ﴿٨٣﴾ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَكَا فِي الْأَرْضِ: أي: له القهر والغلبة فيها؛ فحقق بهم أن يخافوا من بطشته، وخصوصاً أنه ﴿٨٣﴾ لَيْنَ الْمُتْرَفِينَ: أي: المتجاوزين للحد في البغي والعدوان. والحكمة - والله أعلم - بكونه ما آمن لموسى إلا ذرية من قومه: أن الذرية والشباب أقبل للحق وأسرع له انقياداً؛ بخلاف الشيوخ ونحوهم ممن تربى على الكفر؛ فإنهم بسبب ما مكث في قلوبهم من العقائد الفاسدة أبعد من الحق من غيرهم.

﴿٨٤﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ: ﴿٨٤﴾ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ بِالصَّبْرِ، وَمَذَكَّرَا لَهُمْ مَا يَسْتَعِينُونَ بِهِ عَلَىٰ ذَلِكَ، فَقَالَ: ﴿٨٤﴾ يَقَوْمُ إِن كُنْتُمْ ءَاْمَنُمْ بِاللَّهِ: فقوموا بوظيفة الإيمان، ﴿٨٤﴾ فَعَلَيْكُمْ تَوَكَّلُوا: إن كُنْتُمْ مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾: أي: اعتمدوا عليه والجنوا إليه واستنصروه.

﴿٨٥﴾ فَقَالُوا: ﴿٨٥﴾ مِمثلين لذلك: ﴿٨٥﴾ عَلَىٰ اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٨٥﴾: أي: لا تسلطهم علينا

سورة يونس

الترجمة

قَالَ قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمْ فَأَسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَانِ سَبِيلَ
الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٩١﴾ وَجَنُوزَنَا بِنِيَّ إِسْرَءِيلَ الْبَحْرَ
فَاتَّبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدُوًّا حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ
الْفَرَقُ قَالَ ءَامَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي ءَامَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَءِيلَ
وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٩٢﴾ ءَالَكُنَّ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلَ وَكُنْتَ
مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٩٣﴾ فَأَلَيْكُم نَجِيكَ يَدُوكَ لِكُفُورٍ لِمَنْ
خَلَقَكَ ءَايَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ عَنْ ءَايَتِنَا لَعَنُفُلُونَ ﴿٩٤﴾
وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ مَبَازِئَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَاهُمْ مِّنَ الطَّيِّبَاتِ
فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّى جَاءَهُمُ الْوَعْدُ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ
فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٩٥﴾ فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِّمَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ
فَسْأَلِ الَّذِينَ يُقْرَأُونَ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ
الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿٩٦﴾ وَلَا تَكُونَنَّ
مِنَ الَّذِينَ كَذَبُوا بَيِّنَاتٍ مِّنَ اللَّهِ فَتَكُونُوا مِنَ الْخَاسِرِينَ
﴿٩٧﴾ إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ
﴿٩٨﴾ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٩٩﴾

٢١٩

أنهم سيتبعونه، وأرسل فرعون في المدائن حاشرين يقولون:
﴿إِنَّ هَؤُلَاءَ﴾ - أي: موسى وقومه - ﴿لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ﴾ ﴿٩١﴾
وَأَنَّهُمْ لَنَا لَعَنُفُلُونَ ﴿٩٢﴾ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَازِلُونَ ﴿٩٣﴾ [الشعراء: ٥٤-٥٦].
فجمع جنوده قاصيهم ودانيهم، فاتبعهم بجنوده بغيا وعدوا؛
أي: خروجهم باغين على موسى وقومه ومعتدين في الأرض،
وإذا اشتد البغي واستحكم الذنب؛ فانظر العقوبة. ﴿وَجَنُوزَنَا
بِنِيَّ إِسْرَءِيلَ الْبَحْرَ﴾: وذلك أن الله أوحى إلى موسى لما
وصل البحر أن يضربه بعصاه، فضربه، فانفلق اثني عشر
طريقا، وسلكه بنو إسرائيل، وساق فرعون وجنوده خلفه
داخلين، فلما استكمل موسى وقومه خارجين من البحر
وفرعون وجنوده داخلين فيه؛ أمر الله البحر، فالتطم على
فرعون وجنوده، فأغرقهم وبنو إسرائيل ينظرون، حتى إذا
أدرك فرعون الغرق وجزم بهلاكه؛ ﴿قَالَ ءَامَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا
الَّذِي ءَامَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَءِيلَ﴾: وهو الله الإله الحق الذي لا إله
إلا هو، ﴿وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ ﴿٩٢﴾؛ أي: المنقادين لدين الله،
ولما جاء به موسى.

﴿٩١﴾ قال الله تعالى مبينا أن هذا الإيمان في هذه الحالة غير
نافع له: ﴿ءَالَكُنَّ﴾: تؤمن وتقر برسول الله، ﴿وَقَدْ عَصَيْتَ
قَبْلَ﴾؛ أي: بارزت بالمعاصي والكفر والتكذيب، ﴿وَكُنْتَ
مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ ﴿٩٣﴾: فلا ينفك الإيمان كما جرت عادة الله
أن الكفار إذا وصلوا إلى هذه الحالة الاضطرارية أنه لا ينفعهم

إيمانهم؛ لأن إيمانهم صار إيمانا مشاهدا؛ كإيمان من ورد القيامة، والذي ينفع إنما هو الإيمان بالغيب.

﴿٩٤﴾ فَأَلَيْكُم نَجِيكَ يَدُوكَ لِكُفُورٍ لِمَنْ خَلَقَكَ ءَايَةً﴾: قال المفسرون: إن بني إسرائيل لما في قلوبهم من الرعب العظيم
من فرعون، كأنهم لم يصدقوا بإغراقه، وشكوا في ذلك، فأمر الله البحر أن يلقيه على نجوة مرتفعة يبدنه؛ ليكون لهم عبرة
وآية. ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ عَنْ ءَايَتِنَا لَعَنُفُلُونَ﴾ ﴿٩٥﴾: فلذلك تمر عليهم وتكرر فلا يتفكرون بها؛ لعدم إقبالهم عليها، وأما
من له عقل وقلب حاضر؛ فإنه يرى من آيات الله ما هو أكبر دليل على صحة ما أخبرت به الرسل.

﴿٩٦﴾ وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ مَبَازِئَ صِدْقٍ﴾؛ أي: أنزلهم الله وأسكنهم في مساكن آل فرعون، وأورثهم أرضهم وديارهم،
﴿وَرَزَقْنَاهُمْ مِّنَ الطَّيِّبَاتِ﴾: من المطاعم والمشارب وغيرهما، ﴿فَمَا اخْتَلَفُوا﴾: في الحق ﴿حَتَّى جَاءَهُمُ الْوَعْدُ﴾: الموجب
لاجتماعهم واتلافهم، ولكن بغى بعضهم على بعض، وصار لكثير منهم أهوية وأغراض تخالف الحق، فحصل بينهم من
الاختلاف شيء كثير. ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ ﴿٩٧﴾: بحكمه العدل الناشئ عن علمه التام وقدرته
الشاملة.

وهذا هو الداء الذي يعرض لأهل الدين الصحيح، وهو أن الشيطان إذا أعجزوه أن يطيعوه في ترك الدين بالكلية، سعى
في التحريش بينهم وإلقاء العداوة والبغضاء، فحصل من الاختلاف ما هو موجب ذلك، ثم حصل من تضليل بعضهم لبعض
وعداوة بعضهم لبعض ما هو قرة عين اللعين، وإلا؛ فإذا كان ربهم واحداً ورسولهم واحداً ودينهم واحداً ومصالحهم العامة
متفقة؛ فلا شيء يختلفون اختلافاً يفرق شملهم ويشتت أمرهم ويحل رابطتهم ونظامهم فيفوت من مصالحهم الدينية
والدنيوية ما يفوت ويموت من دينهم بسبب ذلك ما يموت؟! فنسألك اللهم لطفاً بعبادك المؤمنين، بجمع شملهم، ويرأب
صدعهم، ويرد قاصيهم على دانيهم يا ذا الجلال والإكرام!

غير كثيرة حتى انقاد للإسلام أكثر أهل الشام ومصر والعراق وما جاورها من البلدان التي هي مقر دين أهل الكتاب، ولم يبق إلا أهل الرياسات الذين أثروا رياستهم على الحق ومن تبعهم من العوام الجهلة، ومن تدين بدينهم اسمًا لا معنى؛ كالإفرنج الذين حقيقة أمرهم أنهم دهرية منحلون عن جميع أديان الرسل، وإنما انتسبوا للدين المسيحي ترويجًا لملكهم؛ وتمويهاً لباطلهم؛ كما يعرف ذلك من عرف أحوالهم البيئية الظاهرة.

وقوله: ﴿لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ﴾؛ أي: الذي لا شك فيه بوجه من الوجوه، ﴿مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ (٩٤)؛ كقوله تعالى: ﴿كَتَبْنَا أَنْزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ﴾ [الأعراف: ٢].

﴿٩٥﴾ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَتَكُونُوا مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٩٦﴾: وحاصل هذا أن الله نهى عن شيئين: الشك في هذا القرآن، والامتراء فيه. وأشد من ذلك التكذيب به، وهو آيات الله البيئات، التي لا تقبل التكذيب بوجه، ورتب على هذا الخسار، وهو عدم الربح أصلاً، وذلك بفوات الثواب في الدنيا والآخرة، وحصول العقاب في الدنيا والآخرة، والنهي عن الشيء أمر بضده، فيكون أمراً بالتصديق التام بالقرآن، وطمانينة القلب إليه، والإقبال عليه، علمًا وعملاً؛ فبذلك يكون العبد من الرابحين، الذين أدركوا أجل المطالب وأفضل الرغائب وأتم المناقب، وانتفى عنهم الخسار.

﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ (٩٧).

﴿٩٦﴾، ﴿٩٧﴾ يقول تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾؛ أي: إنهم من الضالين الغاوين أهل النار، لا بد أن يصيروا إلى ما قدره الله وقضاه؛ فلا يؤمنون ولو جاءتهم كل آية؛ فلا تزيدهم الآيات إلا طغيانًا وغيًا إلى غيهم، وما ظلمهم الله ولكن ظلموا أنفسهم بردهم للحق لما جاءهم أول مرة، فعاقبهم الله بأن طبع على قلوبهم وأسماعهم وأبصارهم، فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم الذي وعدوا به؛ فحينئذ يعلمون حق اليقين أن ما هم عليه هو الضلال وأن ما جاءتهم به الرسل هو الحق، ولكن في وقت لا يجدي عليهم إيمانهم شيئاً؛ ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعْذَرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ (٩٧) [الروم: ٥٧]. وأما الآيات؛ فإنها تنفع من له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد.

﴿إِنْ كُنْتَ فِي شكٍ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَسَلِ الَّذِينَ يُقْرَأُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ (٩٤) وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَتَكُونُوا مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٩٥﴾.

﴿٩٤﴾ يقول تعالى لنبيه محمد ﷺ: ﴿إِنْ كُنْتَ فِي شكٍ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ﴾: هل هو صحيح أم غير صحيح، ﴿فَسَلِ الَّذِينَ يُقْرَأُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ﴾؛ أي: أسأل أهل الكتب المنصفين والعلماء الراسخين؛ فإنهم سيقرون لك بصدق ما أخبرت به وموافقتهم لما معهم.

فإن قيل: إن كثيرًا من أهل الكتاب من اليهود والنصارى، بل ربما كان أكثرهم ومعظمهم، كذبوا رسول الله، وعاندوه، وردوا عليه دعوته، والله تعالى أمر رسوله أن يستشهد بهم، وجعل شهادتهم حجة لما جاء به وبرهانًا على صدقه؛ فكيف يكون ذلك؟! فالجواب عن هذا من عدة أوجه:

منها: أن الشهادة إذا أضيفت إلى طائفة أو أهل مذهب أو بلد ونحوهم؛ فإنها إنما تتناول العدول الصادقين منهم، وأما من عداهم؛ فلو كانوا أكثر من غيرهم؛ فلا عبرة فيهم؛ لأن الشهادة مبنية على العدالة والصدق، وقد حصل ذلك بإيمان كثير من أحبارهم الربانيين؛ كعبد الله بن سلام وأصحابه وكثير ممن أسلم في وقت النبي ﷺ وخلفائه ومن بعدهم.

ومنها: أن شهادة أهل الكتاب للرسول مبنية على كتابهم التوراة الذي يتسبون إليه؛ فإذا كان موجودًا في التوراة ما يوافق القرآن ويصدق له بالصحة؛ فلو اتفقوا من أولهم وآخرهم على إنكار ذلك؛ لم يقدح بما جاء به الرسول.

ومنها: أن الله تعالى أمر رسوله أن يستشهد بأهل الكتاب على صحة ما جاءه وأظهر ذلك وأعلنه على رءوس الأشهاد، ومن المعلوم أن كثيرًا منهم من أحرص الناس على إبطال دعوة الرسول محمد ﷺ؛ فلو كان عندهم ما يرد ما ذكره الله؛ لأبدوه وأظهروه وبينوه، فلما لم يكن شيء من ذلك؛ كان عدم رد المعادي وإقرار المستجيب من أدل الأدلة على صحة هذا القرآن وصدقه.

ومنها: أنه ليس أكثر أهل الكتاب رد دعوة الرسول، بل أكثرهم استجاب لها وانقاد طوعًا واختيارًا؛ فإن الرسول بعث وأكثر أهل الأرض المتدينين أهل كتاب، فلم يمكث دينه مدة

سورة يونس

الجزء الثاني

﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرِيبَةً ءَامَنْتَ فَفَعَلَهَا إِيْمَنُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا ءَامَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَوةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ (٩٨)

﴿٩٨﴾ يقول تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرِيبَةً﴾: من القرى المكذبتين، ﴿ءَامَنْتَ﴾: حين رأت العذاب، ﴿فَفَعَلَهَا إِيْمَنُهَا﴾؛ أي: لم يكن منهم أحد انتفع بإيمانه حين رأى العذاب؛ كما قال تعالى عن فرعون ما تقدم قريباً لما قال: ﴿ءَامَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي ءَامَنْتُ بِهِ، بَنُو إِسْرَءِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ (٩٠)، ﴿فَقِيلَ لَهُ: ءَالْتَنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلَ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ (٩١)، وكما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ﴾ (٩٢) فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سَلَتْ إِلَهُ أَلَنِي قَدْ خَلَفْتَ فِي عِبَادِهِ﴾ [غافر: ٨٤، ٨٥]، وقال تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ﴾ (٩١) لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا﴾ [المؤمنون: ٩٩، ١٠٠]، والحكمة في هذا ظاهرة؛ فإن الإيمان الاضطرابي ليس بإيمان حقيقة، ولو صرف عنه العذاب والأمر الذي اضطره إلى الإيمان؛ لرجع إلى الكفران. وقوله: ﴿إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا ءَامَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَوةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ (٩٨): فهم مستثنون من العموم السابق، ولا بد لذلك من حكمة لعالم الغيب والشهادة

لم تصل إلينا ولم تدركها أفهامنا؛ قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ (١٣٩) إلى قوله: ﴿وَأَرْسَلْنَاهُ إِنَّا مَاءِدٌ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ﴾ (١٤٨) فَتَمَتَّنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [الصافات: ١٣٩-١٤٨]. ولعل الحكمة في ذلك أن غيرهم من المهلكين لو ردوا لعادوا لما نهوا عنه، وأما قوم يونس؛ فإن الله أعلم أن إيمانهم سيستمر، بل قد استمر فعلاً، وثبتوا عليه، والله أعلم.

﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ (٩٩) وَمَا كَانَتْ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَجْعَلُ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا﴾ (٩٩) وَمَا كَانَتْ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَجْعَلُ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا﴾ (٩٩) وَمَا كَانَتْ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَجْعَلُ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا﴾ (٩٩)

﴿٩٩﴾ يقول تعالى لنبيه محمد ﷺ: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا﴾: بأن يلهمهم الإيمان ويوزع قلوبهم للتقوى؛ فقد رتبته صالحة لذلك، ولكنه اقتضت حكمته أن كان بعضهم مؤمنين وبعضهم كافرين. ﴿أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ (٩٩): أي: لا تقدر على ذلك، وليس في إمكانك، ولا قدرة لغير الله على شيء من ذلك.

﴿١٠٠﴾ وَمَا كَانَتْ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ: بإرادته ومشيتته وإذنه القدري الشرعي؛ فمن كان من الخلق قابلاً لذلك يزكو عنده الإيمان؛ وفقه وهده. ﴿وَيَجْعَلُ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا﴾ (٩٩) وَمَا كَانَتْ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَجْعَلُ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا﴾ (٩٩) وَمَا كَانَتْ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَجْعَلُ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا﴾ (٩٩)

﴿قُلْ أَنْظَرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُعْطِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (١٠١) فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا مِثْلَ آبَائِهِمُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ قُلْ فَاَنْظُرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظَرِينَ﴾ (١٠٢) ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنَجِّي الْمُؤْمِنِينَ﴾ (١٠٣)

﴿١٠١﴾ يدعو تعالى عباده إلى النظر لما في السماوات والأرض، والمراد بذلك نظر الفكر والاعتبار والتأمل لما فيها

أعمالك الظاهرة والباطنة لله، وأقم جميع شرائع الدين، ﴿حَنِيفًا﴾؛ أي: مقبلًا على الله معرضًا عما سواه. ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ ﴿١٥٥﴾: لا في حالهم ولا تكن معهم.

﴿وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ﴾: وهذا وصف لكل مخلوق أنه لا ينفع ولا يضر، وإنما النافع الضار هو الله تعالى. ﴿فَإِنْ فَعَلْتَ﴾؛ بأن دعوت من دون الله ما لا ينفعك ولا يضر، ﴿فَإِنَّكَ إِذَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ ﴿١٥٦﴾؛ أي: الضارين أنفسهم بإهلاكها، وهذا الظلم هو الشرك؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ ﴿١٥٧﴾ [نعمان: ١٣]. فإذا كان خير الخلق لو دعا مع الله غيره؛ لكان من الظالمين المشركين؛ فكيف بغيره؟!

﴿وَإِنْ يَسْأَلْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ ﴿١٥٨﴾.

﴿١٥٧﴾ هذا من أعظم الأدلة على أن الله وحده المستحق للعبادة؛ فإنه النافع الضار المعطي المانع الذي إذا مس بضر كفقر ومرض ونحوها: ﴿فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ﴾: لأن الخلق لو اجتمعوا على أن ينفعوا بشيء لم ينفعوا إلا بما كتبه الله ولو اجتمعوا على أن يضرُوا أحدًا؛ لم يقدروا على شيء من ضرره إذا لم يره الله. ولهذا قال: ﴿وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ﴾؛ أي: لا يقدر أحد من الخلق أن يرد فضله وإحسانه؛ كما قال تعالى: ﴿مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكُ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ﴾ [فاطر: ٢]. ﴿يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾؛ أي: يختص برحمته من شاء من خلقه والله ذو الفضل العظيم، ﴿وَهُوَ الْغَفُورُ﴾: لجميع الزلات، الذي يوفق عبده لأسباب مغفرته، ثم إذا فعلها العبد؛ غفر الله ذنوبه كبارها وصغارها، ﴿الرَّحِيمُ﴾ ﴿١٥٨﴾: الذي وسعت رحمته كل شيء ووصل جوده إلى جميع الموجودات؛ بحيث لا تستغني عن إحسانه طرفة عين.

فإذا عرف العبد بالدليل القاطع أن الله هو المنفرد بالنعم وكشف النقم وإعطاء الحسنات وكشف السيئات والكربات، وأن أحدًا من الخلق ليس بيده من هذا شيء إلا ما أجراه الله على يده؛ جزم بأن الله هو الحق وأن ما يدعون من دونه هو الباطل ولهذا لما بين الدليل الواضح؛ قال بعده:

وما تحتوي عليه والاستبصار؛ فإن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون وعبرًا لقوم يوقنون، تدل على أن الله وحده المعبود المحمود ذو الجلال والإكرام والأسماء والصفات العظام، ﴿وَمَا تَغْنِي الْآيَاتُ وَالنَّذْرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ ﴿١٥٩﴾؛ فإنهم لا ينتفعون بالآيات؛ لإعراضهم وعنادهم.

﴿فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ﴾؛ أي: فهل ينتظر هؤلاء الذين لا يؤمنون بآيات الله بعد وضوحها إلا مثل أيام الذين خلوا من قبلهم؛ أي: من الهلاك والعقاب؛ فإنهم صنعوا كصنيعهم، وسنة الله جارية في الأولين والآخرين. ﴿قُلْ فَانظُرُوا إِلَىٰ مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْظَرِينَ﴾ ﴿١٦٠﴾: فستعلمون لمن تكون له العاقبة الحسنة والنجاة في الدنيا والآخرة. وليست إلا للرسول وأتباعهم، ولهذا قال: ﴿ثُمَّ نَتَجَّى رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا﴾: من مكاره الدنيا والآخرة وشدائدهما. ﴿كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا﴾: أوجبناه على أنفسنا، ﴿شَيْءَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿١٦١﴾: فإن الله يدافع عن الذين آمنوا؛ فإنه بحسب ما مع العبد من الإيمان؛ تحصل له النجاة من المكاره.

﴿قُلْ يَتَّخِذُ النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ رَبِّي فَلَا أَغْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿١٦٢﴾ وَأَنْ أَقِمَّ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٦٣﴾ وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ ﴿١٦٤﴾.

﴿١٦٢﴾ يقول تعالى لنبى محمد ﷺ سيد المرسلين وإمام المتقين وخير الموقنين: ﴿قُلْ يَتَّخِذُ النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ رَبِّي﴾؛ أي: في ريب واشتباه؛ فإنني لست في شك منه، بل لدي العلم اليقيني أنه الحق وأن ما تدعون من دون الله باطل، ولي على ذلك الأدلة الواضحة والبراهين الساطعة، ولهذا قال: ﴿فَلَا أَغْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾: من الأنداد والأصنام وغيرهما؛ لأنها لا تخلق ولا ترزق ولا تدبر شيئًا من الأمور، وإنما هي مخلوقة مسخرة ليس فيها ما يقتضي عبادتها. ﴿وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ﴾؛ أي: هو الله الذي خلقكم، وهو الذي يميّتكم ثم يعينكم ليجازيكم بأعمالكم؛ فهو الذي يستحق أن يعبد، ويصلى له، ويخضع، ويسجد، ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿١٦٣﴾.

﴿وَأَنْ أَقِمَّ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا﴾؛ أي: أخلص

سورة هود

سورة يونس

وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ يَضْرِبْ فَلَاكَ شَفْ لَهُ إِلَّا هُوَ وَلَئِنْ
يُرِيدْ يَنْفِرْ فَلَآ رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ
وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿١٠٧﴾ قُلْ يَتَّيْبِهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ
الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَعْدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ
ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهِ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ ﴿١٠٨﴾ وَأَتَّبِعْ
مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّىٰ يَخُفَّكَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْخَافِينَ ﴿١٠٩﴾

سورة هود

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الرَّكُنْتُ أَتُحَكِّمُ إِلَهُهُ ثُمَّ فَضَّلْتُ مِنْ لَدُنِّ حَكِيمٍ خَيْرٍ ﴿١﴾
أَلَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ﴿٢﴾ وَأَنْ أَسْتَغْفِرُوا
رَبَّكُمْ ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ يُعْطِمْكُمْ مَنَاحِسًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَتُؤْتِ
كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ
كَبِيرٍ ﴿٣﴾ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤﴾ أَلَا إِنَّهُمْ
يَنْتَوْنُ صُدُورُهُمْ لَيَسْتَحْفُوا مِنْهُ أَلَا جِنَّ يَسْتَغْشُونَ شِيَابَهُمْ
يَعْلَمُ مَا يُبْشِرُونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ عَلَيْهِمْ يَذَاتُ الصُّدُورِ ﴿٥﴾

٢٢١

﴿ قُلْ يَتَّيْبِهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ
أَعْدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهِ
وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ ﴾ (١٠٨) وَأَتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّىٰ
يَخُفَّكَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْخَافِينَ (١٠٩).

﴿١٠٨﴾ أي: ﴿قُلْ﴾: يا أيها الرسول لما تبين البرهان: ﴿يَتَّيْبِهَا
النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ﴾؛ أي: الخبر الصادق
المؤيد بالبراهين الذي لا شك فيه بوجه من الوجوه، وهو
واصل إليكم من ربكم، الذي من أعظم تربيته لكم أن أنزل
إليكم هذا القرآن، الذي فيه تبيان لكل شيء، وفيه من أنواع
الأحكام والمطالب الإلهية والأخلاق المرضية ما فيه أعظم
تربية لكم وإحسان منه إليكم؛ فقد تبين الرشد من الغي، ولم
يبق لأحد شبهة. ﴿فَمَنْ أَعْدَىٰ﴾: بهدى الله؛ بأن علم الحق
وتفهمه وآثره على غيره فلنفسه. والله تعالى غني عن عباده،
وإنما ثمرة أعمالهم راجعة إليهم. ﴿وَمَنْ ضَلَّ﴾: عن الهدى؛
بأن أعرض عن العلم بالحق أو عن العمل به، ﴿فَإِنَّمَا يَضِلُّ
عَلَيْهَا﴾: ولا يضر الله شيئاً فلا يضر إلا نفسه. ﴿وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ
بِوَكِيلٍ﴾ (١٠٨): فأحفظ أعمالكم وأحاسبكم عليها، وإنما
أنا لكم نذير مبين، والله عليكم وكيل؛ فانظروا لأنفسكم ما
دتمتم في مدة الإمهال.

﴿وَأَتَّبِعْ﴾: أيها الرسول ﴿مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ﴾ علماً وعملاً وحالاً ودعوة إليه، ﴿وَاصْبِرْ﴾: على ذلك؛ فإن هذا أعلى أنواع
الصبر، وإن عاقبته حميدة؛ فلا تكسل ولا تضجر، بل دم على ذلك ثابت، ﴿حَتَّىٰ يَخُفَّكَ اللَّهُ﴾: بينك وبين من كذبك. ﴿وَهُوَ
خَيْرُ الْخَافِينَ﴾ (١٠٩): فإن حكمه مشتمل على العدل التام والقسط الذي يحمده عليه. وقد امثل ﷺ أمر ربه، وثبت على الصراط
المستقيم، حتى أظهر الله دينه على سائر الأديان، ونصره على أعدائه بالسيف والسنان، بعدما نصره الله عليهم بالحجة
والبرهان، فله الحمد والثناء الحسن كما ينبغي لجلاله وعظمته وكماله وسعة إحسانه.

تم تفسير سورة يونس. والحمد لله رب العالمين.

﴿﴾

تفسير سورة هود عليه السلام

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الرَّكُنْتُ أَتُحَكِّمُ إِلَهُهُ ثُمَّ فَضَّلْتُ مِنْ لَدُنِّ حَكِيمٍ خَيْرٍ﴾ (١) ﴿أَلَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ﴾ (٢) ﴿وَأَنْ أَسْتَغْفِرُوا
رَبَّكُمْ ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ يُعْطِمْكُمْ مَنَاحِسًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَتُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ
كَبِيرٍ﴾ (٣) ﴿إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (٤).

﴿١﴾ يقول تعالى: هذا ﴿رَكُنْتُ﴾: عظيم، ونزل كريم، ﴿أَتُحَكِّمُ إِلَهُهُ﴾؛ أي: أتقنت وأحسننت، صادقة أخبارها، عادلة

لهيئاتهم. قال تعالى مبيناً خطأهم في هذا الظن: ﴿أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ﴾؛ أي: يتغطون بها، يعلمهم في تلك الحال التي هي من أخفى الأشياء، بل ﴿يَعْلَمُ مَا يُيْرُوتُ﴾: من الأقوال والأفعال، ﴿وَمَا يَعْلَمُونَ﴾: منها، بل ما هو أبلغ من ذلك، وهو: ﴿إِنَّهُ عَلَيْهِمْ ذَاتُ الصُّدُورِ﴾؛ أي: بما فيها من الإيرادات والوساوس والأفكار التي لم ينطقوا بها سرّاً ولا جهراً؛ فكيف تخفى عليه حالكم إذا تئمت صدوركم لتستخفوا منه؟!

ويحتمل أن المعنى في هذا: أن الله يذكر إعراض المكذبين للرسول، الغافلين عن دعوته، أنهم من شدة إعراضهم يشنون صدورهم؛ أي: يحدّون بون حين يرون الرسول ﷺ؛ لثلاث يراهم ويسمعهم دعوته ويعظمهم بما ينفعهم؛ فهل فوق هذا الإعراض شيء؟! ثم توعدهم بعلمه تعالى بجميع أحوالهم وأنهم لا يخفون عليه، وسيجازيهم بصنيعهم.

﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾.

﴿١﴾ أي: جميع ما دب على وجه الأرض من آدمي أو حيوان بري أو بحري؛ فالله تعالى قد تكفل بأرزاقهم وأقواتهم، فرزقهم على الله. ﴿وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا﴾؛ أي: يعلم مستقر هذه الدواب، وهو المكان الذي تقيم فيه وتستقر فيه وتأوي إليه، ومستودعها المكان الذي تنتقل إليه في ذهابها ومجيئها وعوارض أحوالها. ﴿كُلٌّ﴾: من تفاصيل أحوالها ﴿فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾؛ أي: في اللوح المحفوظ، المحتوي على جميع الحوادث الواقعة، والتي تقع في السماوات والأرض، الجميع قد أحاط بها علم الله، وجرى بها قلمه، ونفذت فيها مشيئته ووسعها رزقه؛ فلتطمئن القلوب إلى كفاية من تكفل بأرزاقها، وأحاط علماً بذواتها وصفاتها.

﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَلَئِنْ قُلْتُمْ إِنَّكُمْ مَعْبُودُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ ﴿٢﴾ وَلَئِنْ أَخْرَأَ عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِلَّا أَنَّهُمْ مَعْدُودُونَ لَيَقُولَنَّ مَا بِهِمْ مِنْهُ إِلَّا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾.

وأوامرها ونواهيها، فصبيحة ألفاظه بهية معانيه، ﴿ثُمَّ فُصِّلَتْ﴾؛ أي: ميزت وبيّنت بياناً في أعلى أنواع البيان، ﴿مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ﴾: يضع الأشياء مواضعها، وينزلها منازلها، لا يأمر ولا ينهى إلا بما تقتضيه حكمته، ﴿حَكِيمٍ﴾: مطلع على الظواهر والبواطن؛ فإذا كان إحكامه وتفصيله من عند الله الحكيم الخبير؛ فلا تسأل بعد هذا عن عظمته وجلالته واشتماله على كمال الحكمة وسعة الرحمة.

﴿٢﴾ وإنما أنزل الله كتابه لثلاث تعبدوا إلا الله؛ أي: لأجل إخلاص الدين كله لله، وألا يشرك به أحد من خلقه. ﴿إِنِّي لَكُرٌّ﴾: أيها الناس، ﴿مِنْهُ﴾؛ أي: من الله ربكم ﴿نَذِيرٌ﴾: لمن تجرأ على المعاصي بعقاب الدنيا والآخرة، ﴿وَبَشِيرٌ﴾: للمطيعين لله بثواب الدنيا والآخرة.

﴿٣﴾ ﴿وَإِنْ أَسْتَغْفِرُوا رَبُّكُمْ﴾: عمّا صدر منكم من الذنوب، ﴿ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ﴾: فيما تستقبلون من أعماركم بالرجوع إليه بالإجابة والرجوع عما يكرهه الله إلى ما يحبه ويرضاه. ثم ذكر ما يترتب على الاستغفار والتوبة، فقال: ﴿يَتَّبِعْكُمْ مَغْفِرًا حَسَنًا﴾؛ أي: يعطيكم من رزقه ما تتمتعون به وتتفجعون. ﴿إِلَّا أَجَلَ تَسْكِيٍّ﴾؛ أي: إلى وقت وفاتكم. ﴿وَيُؤْتِ﴾: منكم ﴿كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ﴾؛ أي: يعطي أهل الإحسان والبر من فضله وبره ما هو جزاء لإحسانهم من حصول ما يحبون ودفع ما يكرهون. ﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا﴾: عمّا دعوتكم إليه، بل أعرضتم عنه، وربما كذبتم به، ﴿فَإِنَّ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ﴾: وهو يوم القيامة، الذي يجمع الله فيه الأولين والآخرين. فيجازيهم بأعمالهم إن خيراً؛ فخير، وإن شراً؛ فشر.

﴿٤﴾ وفي قوله: ﴿وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾: كالدليل على إحياء الله الموتى؛ فإنه على كل شيء قدير، ومن جملة الأشياء إحياء الموتى، وقد أخبر بذلك، وهو أصدق القائلين؛ فيجب وقوع ذلك عقلاً ونقلاً.

﴿أَلَا إِنَّهُمْ يَنْتَوُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخَفُّوا مِنْهُ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُيْرُوتُ وَمَا يَعْلَمُونَ إِنَّهُ عَلَيْهِمْ ذَاتُ الصُّدُورِ﴾.

﴿٥﴾ يخبر تعالى عن جهل المشركين وشدة ضلالهم أنهم ﴿يَنْتَوْنَ صُدُورَهُمْ﴾؛ أي: يميلونها ﴿لِيَسْتَخَفُّوا﴾ من الله، فتقع صدورهم حاجة لعلم الله بأحوالهم وبصره

﴿٧﴾ يخبر تعالى أنه ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾: أولها يوم الأحد، وآخرها يوم الجمعة. وحين خلق السماوات والأرض كان ﴿عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ﴾: فوق السماء السابعة؛ فبعد أن خلق السماوات والأرض؛ استوى على عرشه، يدبر الأمور ويصرفها كيف شاء من الأحكام القدرية والأحكام الشرعية. ولهذا قال: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ إِيَّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: ٢]؛ أي: ليمتحنكم إذ خلق لكم ما في السماوات والأرض بأمره ونهيه، فينظر أيكم أحسن عملاً. قال الفضيل بن عياض رحمه الله: أخلصه وأصوبه. قيل: يا أبا علي! ما أخلصه وأصوبه؟ فقال: إن العمل إذا كان خالصاً ولم يكن صواباً، لم يقبل، وإذا كان صواباً ولم يكن خالصاً؛ لم يقبل، حتى يكون خالصاً صواباً. والخالص: أن يكون لوجه الله، والصواب: أن يكون متبعاً فيه الشرع والسنة. وهذا كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]، وقال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [الطلاق: ١٢]؛ فالله تعالى خلق الخلق لعبادته ومعرفته بأسمائه وصفاته، وأمرهم بذلك؛ فمن انتقاد وأدى ما أمر به؛ فهو من المفlichen، ومن أعرض عن ذلك؛ فأولئك هم الخاسرون، ولا بد أن يجمعهم في دار

﴿وَمِمَّنْ دَابَّتْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رُفْقَهَا وَيَعَتَرُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ ﴿١﴾ وهو الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام وأتاهم ﴿وَكُنَّ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ إِيَّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَلَئِنْ قُلْتُمْ إِنَّكُمْ مَعْبُودُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا إِسْرَءِيلُ﴾ ﴿٧﴾ وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَى أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ لَيَقُولُنَّ مَا يَحْسِبُهُ الْآيَوْمَ بِأَنِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٨﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَكُونُ مِنَّا كَافِرٌ ﴿٩﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نِعْمَةً بَعْدَ ضَرَاءٍ مَسَتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحَ فَخُورٌ ﴿١٠﴾ إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١١﴾ فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ كُتُبٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٢﴾

٢٢٢

يجازيهم على ما أمرهم به ونهاهم. ولهذا ذكر الله تكذيب المشركين بالجزاء، فقال: ﴿وَلَئِنْ قُلْتُمْ إِنَّكُمْ مَعْبُودُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا إِسْرَءِيلُ﴾ ﴿٧﴾؛ أي: ولئن قلت لهؤلاء وأخبرتهم بالبعث بعد الموت؛ لم يصدقوك، بل كذبوك أشد التكذيب، وقدحوا فيما جئت به، وقالوا: ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا إِسْرَءِيلُ﴾ ﴿٧﴾؛ ألا وهو الحق المبين.

﴿٨﴾ وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَى أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ ﴿٨﴾؛ أي: إلى وقت مقدر فبباطوه، لقالوا من جهلهم وظلمهم: ﴿مَا يَحْسِبُهُ؟﴾! ومضمون هذا تكذيبهم به؛ فإنهم يستدلون بعدم وقوعه بهم عاجلاً على كذب الرسول المخبر بوقوع العذاب؛ فما أبعد هذا الاستدلال. ﴿أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ﴾: فيتمكنون من النظر في أمرهم، ﴿وَحَاقَ بِهِمْ﴾؛ أي: نزل ﴿مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ ﴿٨﴾: من العذاب حيث تهاونوا به، حتى جزوا بكذب من جاء به.

﴿٩﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَكُونُ مِنَّا كَافِرٌ ﴿٩﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نِعْمَةً بَعْدَ ضَرَاءٍ مَسَتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحَ فَخُورٌ ﴿١٠﴾ إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١١﴾.

﴿٩﴾، ﴿١٠﴾ يخبر تعالى عن طبيعة الإنسان أنه جاهل ظالم: بأن الله إذا أذاقه منه رحمة؛ كالصحة والرزق والأولاد ونحو ذلك، ثم نزعها منه؛ فإنه يستسلم للباس وينقاد للقنوط؛ فلا يرجو ثواب الله ولا يخطر بباله أن الله سيردها أو مثلها أو خيراً منها عليه، وأنه إذا أذاقه رحمة من بعد ضراء مسته، أنه يفرح ويطر ويطن أنه سيدوم له ذلك الخير ويقول: ﴿ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحَ فَخُورٌ﴾ ﴿١٠﴾؛ أي: فرح بما أوتي مما يوافق هوى نفسه، فخور بنعم الله على عباد الله، وذلك يحمله على الأشتر والبطر والإعجاب بالنفس والتكبر على الخلق واحتقارهم وازدراءهم، وأي عيب أشد من هذا؟!

سورة هود

سورة هود

﴿١١﴾ وهذه طبيعة الإنسان من حيث هو؛ إلا من وفقه الله وأخرجه من هذا الخلق الذميم إلى ضده، وهم الذين صبروا أنفسهم عند الضراء فلم يياسوا، وعند السراء فلم يبطروا، وعملوا الصالحات من واجبات ومستحبات. ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ﴾؛ لذنوبهم يزول بها عنهم كل محذور، ﴿وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾؛ وهو الفوز بجنت النعيم التي فيها ما تشتهي الأنفس، وتلذ الأعين.

﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضُ مَا يُوْحِي إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ كُتْرٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ ﴿١٢﴾ أم يقولون أفترنه قل فأتوا بعشر سور مثله مفترين من دون الله إن كنتم صديقين ﴿١٣﴾ فإلّا يستجيئوا لكم فاعلموا أنما أنزل بعلم الله وأن لا إله إلا هو فهل أنتم مسلمون ﴿١٤﴾.

﴿١٢﴾ يقول تعالى مسلماً لنبه محمد ﷺ عن تكذيب المكذبين: ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضُ مَا يُوْحِي إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ كُتْرٌ﴾؛ أي: لا ينبغي هذا لمثلك؛ أن قولهم يؤثر فيك ويصدق عما أنت عليه، فتترك بعض ما يوحى إليك، ويضيق صدرك لتعتهم بقولهم: ﴿لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ كُتْرٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ﴾؛ فإن هذا القول ناشئ من تعنت، وظلم، وعناد، وضلال، وجهل بمواقع الحجج والأدلة؛ فامض على أمرك، ولا تصدك هذه الأقوال الركيكة التي لا تصدر إلا من سفيه، ولا يضيق لذلك صدرك؛ فهل أوردوا عليك حجة لا تستطيع حلها؟ أم قدحوا ببعض ما جئت به قدحاً يؤثر فيه وينقص قدره فيضيق صدرك لذلك؟ أم عليك حسابهم ومطالب بهدياتهم جبراً؟ ﴿إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ ﴿١٢﴾: فهو الوكيل عليهم، يحفظ أعمالهم، ويجازيهم بها أتم الجزاء.

﴿١٣﴾ أم يقولون أفترنه؟ أي: افترى محمد هذا القرآن، فأجابهم بقوله: ﴿قُلْ﴾: لهم: ﴿فَأْتُوا بِعَشْرِ سُورٍ مِثْلِهِ مُفْتَرِينَ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ ﴿١٣﴾؛ أنه قد افتراه؛ فإنه لا فرق بينكم وبينه في الفصاحة والبلاغة، وأنتم الأعداء حقاً الحرصون بغاية ما يمكنكم على إبطال دعوته فإن كنتم صادقين فأتوا بعشر سور مثله مفتريات!

﴿١٤﴾ ﴿فَإِلَّا يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ﴾: على شيء من ذلك، ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَنْزَلَ بِعِلْمِ اللَّهِ﴾: من عند الله؛ لقيام الدليل والمقتضى وانتفاء المعارض. ﴿وَأَنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾؛ أي: واعلموا أنه لا إله إلا هو؛ أي: هو وحده المستحق للالوهية والعبادة. ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ ﴿١٤﴾؛ أي: متقادون لألوهيته، مستسلمون لعبوديته.

وفي هذه الآيات إرشاد إلى أنه لا ينبغي للداعي إلى الله أن يصدده اعتراض المعترضين ولا قدح القادحين، خصوصاً إذا كان القدح لا مستند له ولا يقدح فيما دعا إليه، وأنه لا يضيق صدره، بل يطمئن بذلك، ماضياً على أمره، مقبلاً على شأنه، وأنه لا يجب إجابة اقتراحات المقترحين للأدلة التي يختارونها، بل يكفي إقامة الدليل السالم عن المعارض على جميع المسائل والمطالب.

وفيها: أن هذا القرآن معجز بنفسه، لا يقدر أحد من البشر أن يأتي بمثله، ولا بعشر سور مثله، بل ولا بسورة من مثله؛ لأن الأعداء البلغاء الفصحاء تحداهم الله بذلك، فلم يعارضوه؛ لعلمهم أنهم لا قدرة فيهم على ذلك.

أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَيْنَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُورٍ مِثْلِهِ مُفْتَرِينَ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٣﴾ فَإِلَّا يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَنْزَلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿١٤﴾ مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوفِيَ إِلَيْهِمْ أَعْمَالُهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحِطَّ مَا صَبَّحُوا فِيهَا وَيُطْلَى مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ أَفَنْ كَانَ عَلَى بَيْنَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ وَمِنْ قَبْلِهِ كُتِبَ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالْحَرْبُ أَلْوَنٌ مَوْعِدُهُ فَلَا تَكُ فِي رَيْبٍ مِنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٧﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أُولَئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَى رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الْأَشْهَدُ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿١٨﴾ الَّذِينَ يَصْذُقُونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿١٩﴾

٢٢٣

المهمة ودلائلها الظاهرة، فتبين تلك البينة، ﴿وَيَتْلُوهُ﴾؛ أي: يتلو هذه البينة والبرهان برهان آخر، ﴿شَاهِدٌ مِنْهُ﴾؛ وهو شاهد الفطرة المستقيمة والعقل الصحيح، حين شهد حقيقة ما أوحاه الله وشرعه وعلم بعقله حسنه فازداد بذلك إيماناً إلى إيمانه وثم شاهد ثالث؛ وهو ﴿كِتَابُ مُوسَى﴾: التوراة التي جعلها الله ﴿إِمَامًا﴾ للناس ﴿وَرَحْمَةً﴾ لهم، يشهد لهذا القرآن بالصدق ويوافقه فيما جاء به من الحق؛ أي: أقمّن كان بهذا الوصف، قد تواردت عليه شواهد الإيمان وقامت لديه أدلة اليقين؛ كمن هو في الظلمات والجهالات ليس بخارج منها؟ لا يستون عند الله ولا عند عباد الله. ﴿أُولَئِكَ﴾؛ أي: الذين وفقوا لقيام الأدلة عندهم، يؤمنون بالقرآن حقيقة، فيثمر لهم إيمانهم كل خير في الدنيا والآخرة.

﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ﴾؛ أي: القرآن، ﴿مِنَ الْأَحْزَابِ﴾؛ أي: سائر طوائف أهل الأرض المتحزبة على رد الحق، ﴿فَالْتَأَرُّ مَوْعِدُهُ﴾: لا بد من وروده إليها، ﴿فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ﴾؛ أي: في أدنى شك. ﴿إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (١٧)؛ إما جهلاً منهم وضلالاً، وإما ظلمًا وعنادًا وبغيًا، وإلا؛ فمن كان قصده حسنًا وفهمه مستقيمًا؛ فلا بد أن يؤمن به؛ لأنه يرى ما يدعوه إلى الإيمان من كل وجه.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أُولَئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَى رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ (١٨) الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ (١٩) أُولَئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ يُضَاعِفُ لَهُمْ الْعَذَابَ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ (٢٠) أُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَصَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (٢١) لَا جَرَءَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمْ الْآخَسَرُونَ (٢٢).

(١٨) يخبر تعالى أنه لا أحد ﴿أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾؛ ويدخل في هذا كل من كذب على الله بنسبة الشريك له، أو وصفه بما لا يليق بجلاله، أو الإخبار عنه بما لم يقل، أو ادعاء النبوة، أو غير ذلك من الكذب على الله؛ فهؤلاء أعظم الناس ظلمًا. ﴿أُولَئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَى رَبِّهِمْ﴾؛

وفيها: أن مما يطلب فيه العلم ولا يكفي غلبة الظن، علم القرآن وعلم التوحيد؛ لقوله تعالى: ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَنْزَلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَآنَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾.

﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نَوْفَ إِلَيْهِمْ أَعْمَلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يَبْخُسُونَ﴾ (١٩) أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبِطُلَّ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢٠).

(١٩) يقول تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا﴾؛ أي: كل إرادته مقصورة على الحياة الدنيا وعلى زيتها من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث، قد صرف رغبته وسعيه وعمله في هذه الأشياء، ولم يجعل لدار القرار من إرادته شيئًا؛ فهذا لا يكون إلا كافرًا؛ لأنه لو كان مؤمنًا؛ لكان ما معه من الإيمان يمنعه أن تكون جميع إرادته للدار الدنيا، بل نفس إيمانه وما تيسر له من الأعمال أثر من آثار إرادته الدار الآخرة، ولكن هذا الشقي الذي كأنه خلق للدنيا وحدها، ﴿نَوْفَ إِلَيْهِمْ أَعْمَلَهُمْ فِيهَا﴾؛ أي: تعطيهما ما قسم لهم في أم الكتاب من ثواب الدنيا. ﴿وَهُمْ فِيهَا لَا يَبْخُسُونَ﴾ (٢٠)؛ أي: لا ينقصون شيئًا مما قدر لهم، ولكن هذا منتهى نعيمهم.

(٢١) ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ﴾؛ خالدون فيها أبدًا، لا يفتر عنهم العذاب، وقد حرموا جزيل الثواب. ﴿وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا﴾؛ أي: في الدنيا؛ أي: بطل، واضمحل ما عملوه مما يكيدون به الحق وأهله، وما عملوه من أعمال الخير التي لا أساس لها، ولا وجود لشرطها وهو الإيمان.

﴿أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ وَمِنْ قَبْلِهِ كَتَبَ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالْتَأَرُّ مَوْعِدُهُ فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (٢٢).

(٢٢) يذكر تعالى حال رسوله محمد ﷺ ومن قام مقامه من ورثته القائمين بدينه وحججه، الموقنين بذلك، وأنهم لا يوصف بهم غيرهم، ولا يكون أحد مثلهم، فقال: ﴿أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ﴾؛ بالوحي الذي أنزل الله فيه المسائل

سورة هود

بسم الله الرحمن الرحيم

أُولَئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ يُضْعِفُ لَهُمْ الْعَذَابَ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ ﴿١٩﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَصَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٢٠﴾ لَا جَرَمَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمْ الْأَخْسَرُونَ ﴿٢١﴾ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٢﴾ مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَى وَالْأَصْبَرِ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ إِتِي لَكُمْ بِذِكْرٍ مِّنْ رَبِّكُمْ أَنْ لَا تُعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٢٤﴾ فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا تَرِنَاكَ إِلَّا بَشْرًا مِّثْلَنَا وَمَا تَرِنَاكَ أَتَّبِعُكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا بِآدَىٰ الرَّأْيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَ يَقَوْمِ أَنَّىٰ بَدَأْتُ عَلَىٰ يَتِيمٍ مِّن رَّبِّي وَءَانِي رَحْمَةً مِّنْ عِنْدِهِ فَعَبَّيْتُ عَلَيْكُمْ أَنْزِلُكُمْ كُوهًا وَأَنْتُمْ لَهَا كَاهُونَ ﴿٢٦﴾

٢٢٤

ليجازيهم بظلمهم؛ فعندما يحكم عليهم بالعقاب الشديد؛ ﴿وَيَقُولُ الْأَشْهَدُ﴾؛ أي: الذين شهدوا عليهم بافترائهم وكذبهم: ﴿هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ ﴿١٩﴾؛ أي: لعنة لا تقطع؛ لأن ظلمهم صار وصفاً لهم ملازماً، لا يقبل التخفيف.

﴿٢٠﴾ ثم وصف ظلمهم فقال: ﴿الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾: فصدوا بأنفسهم عن سبيل الله، وهي سبيل الرسل التي دعوا الناس إليها، وصدوا غيرهم عنها، فصاروا أئمة يدعون إلى النار ﴿وَيَغْوِيهَا﴾؛ أي: سبيل الله ﴿عِوَجًا﴾؛ أي: يجتهدون في ميلها وتشينها وتهجينها؛ لتصير عند الناس غير مستقيمة، فيحسنون الباطل؛ ويقبحون الحق؛ قبحهم الله. ﴿وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾ ﴿٢١﴾.

﴿٢٢﴾ ﴿أُولَئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ﴾؛ أي: ليسوا فاتنين الله؛ لأنهم تحت قبضته وفي سلطانه، ﴿وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ﴾: فيدفعون عنهم المكروه أو يحصلون لهم ما ينفعهم، بل تقطعت بهم الأسباب. ﴿يُضْعِفُ لَهُمْ الْعَذَابَ﴾؛ أي: يُعَلِّطُ ويزداد؛ لأنهم ضلوا بأنفسهم وأضلوا غيرهم. ﴿مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ﴾؛ أي: من بغضهم للحق ونفورهم عنه، ما كانوا يستطيعون أن يسمعوا آيات الله سماعاً

يستفهمون به؛ ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذِكْرِ مُعْرِضِينَ﴾ ﴿٢٣﴾ كأنهم حُرْمُشْتَفِرَةٌ ﴿٢٤﴾ فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ ﴿٢٥﴾ [المدر: ٤٩-٥١]، ﴿وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ﴾ ﴿٢٦﴾؛ أي: ينظرون نظر عبرة وتفكر فيما ينفعهم، وإنما هم كالصم البكم الذين لا يعقلون.

﴿٢٧﴾ ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ﴾: حيث قَوَّوْهُمَا أعظم الثواب واستحقوا أشد العذاب، ﴿وَصَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ ﴿٢٨﴾؛ أي: اضمحل دينهم الذي يدعون إليه ويحسنونه، ولم تقن عنهم ألهتهم التي يعبدون من دون الله لما جاء أمر ربك.

﴿٢٩﴾ ﴿لَا جَرَمَ﴾؛ أي: حقاً وصدقاً، ﴿أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمْ الْأَخْسَرُونَ﴾ ﴿٣٠﴾: حصر الخسار فيهم، بل جعل لهم منه أشده؛ لشدة حسرتهم وحرمانهم وما يعانون من المشقة من العذاب، فنستجير بالله من حالهم.

ولما ذكر حال الأشقياء؛ ذكر أوصاف السعداء وما لهم عند الله من الثواب، فقال:

﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ ﴿٣١﴾ مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَى وَالْأَصْبَرِ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣٢﴾.

﴿٣٣﴾ يقول تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾: بقلوبهم؛ أي: صدقوا واعترفوا لما أمر الله بالإيمان به من أصول الدين وقواعده، ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾: المشتملة على أعمال القلوب والجوارح وأقوال اللسان، ﴿وَأَخْبَتُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾؛ أي: خضعوا له واستكانوا لعظمته وذلا سلطانه، وأنابوا إليه بمحبته وخوفه ورجائه والتضرع إليه. ﴿أُولَئِكَ﴾: الذين جمعوا تلك الصفات، ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ ﴿٣٤﴾: لأنهم لم يتركوا من الخير مطلباً إلا أدركوه، ولا خيراً إلا سبقوا إليه.

﴿٣٥﴾ مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ؛ أي: فريق الأشقياء وفريق السعداء، ﴿كَالْأَعْمَى وَالْأَصْبَرِ﴾: هؤلاء الأشقياء. ﴿وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ﴾: مثل السعداء. ﴿هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا﴾؟ لا يستويان مثلاً، بل بينهما من الفرق ما لا يأتي عليه الوصف. ﴿أَفَلَا

وتضمحل في جنب عقله عقول الفحول من الرجال، وهو الصادق حقاً؛ فإذا قال: إني على بينة من ربي؛ فحسبك بهذا القول شهادة له وتصديقاً. ﴿وَالَّذِينَ رَحِمَهُ مِنْ عِندِهِ﴾؛ أي: أوحى إلي وأرسلني ومن علي بالهداية، ﴿فَعَمِيتَ عَنْكَ﴾؛ أي: خفيت عليكم وبها تفاقمت، ﴿أَنْزَلْنَاهُمْ﴾؛ أي: أنكرهمكم على ما تحققناه، وشككتهم أنتم فيه. وأنتم كارهون حتى حرصتم على رد ما جئت به، ليس ذلك ضارنا، وليس بقادح من يقيننا فيه، ولا قولكم وافتراؤكم علينا صاداً لنا عما كنا عليه، وإنما غايته أن يكون صاداً لكم أنتم وموجباً لعدم انقيادكم للحق الذي تزعمون أنه باطل؛ فإذا وصلت الحال إلى هذه الغاية؛ فلا نقدر على إكراهكم على ما أمر الله ولا إلزامكم ما نفرتم عنه، ولهذا قال: ﴿أَنْزَلْنَاهُمْ وَأَنْشَرْنَاهُمْ كِرْهُونَ﴾ (٢٨) ١٩!

﴿وَيَنْقُورُ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ﴾؛ أي: على دعوتي إياكم ﴿مَا لَا﴾: فستقبلون المغرم، ﴿إِنْ أَجْرِي إِلَّا عَلَى اللَّهِ﴾: وكأنهم طلبوا منه طرد المؤمنين الضعفاء، فقال لهم: ﴿وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾؛ أي: ما ينبغي لي ولا يليق بي ذلك، بل أنلقاهم بالرحب والإكرام والإعزاز والإعظام، ﴿إِنَّهُمْ مُلْكُؤُا رَبِّهِمْ﴾: فمشيهم على إيمانهم وتقواهم بجنات النعيم. ﴿وَلَا يَكُنْ أَرْذَلُكُمْ قَوْمًا يَجْهَلُونَ﴾ (٢٩) : حيث تأمروني بطرد أولياء الله وإبعادهم عني، وحيث رددتهم الحق لأنهم أتباعه، وحيث استدللتهم على بطلان الحق بقولكم: إني بشر مثلكم، وإنه ليس لنا عليكم من فضل.

﴿وَيَنْقُورُ مَنْ يَضُرُّنِي مِنْ اللَّهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ﴾؛ أي: من يمنعي من عذابه؛ فإن طردهم موجب للعذاب والنكال الذي لا يمنعه من دون الله مانع. ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ (٣٠) : ما هو الأنفع لكم والأصلح وتدبرون الأمور؟!

﴿وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ﴾؛ أي: غاييتي أني رسول الله إليكم؛ أبشركم وأنذركم، وما عدا ذلك؛ فليس بيدي من الأمر شيء، فليست خزائن الله عندي أدبرها أنا وأعطي من أشياء وأحرم من أشياء. ﴿وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ﴾: فأخبركم بسرائركم وبواطنكم، ﴿وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ﴾: والمعنى أني لا أدعي رتبة فوق رتبتي، ولا منزلة سوى المنزلة التي أنزلني الله بها، ولا أحكم على الناس بظني. ﴿وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدِرِي أَعْيُنُكُمْ﴾؛ أي: الضعفاء المؤمنين الذين يحتقرهم الملأ الذين كفروا؛ ﴿لَنْ

نَذْكُرُونَ﴾ (٣١) : الأعمال التي تنفعكم فتفعلونها، والأعمال التي تضركم فتركونها.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ (٣٢) ... إلى آخر القصة.

﴿أَي:﴾ ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا﴾: أول المرسلين ﴿إِلَى قَوْمِهِ﴾: يدعوهم إلى الله وينهاهم عن الشرك، فقال: ﴿إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ (٣٣) ؛ أي: بينت لكم ما أنذرتكم به بيانا زال به الإشكال.

﴿أَلَا تَتَذَكَّرُونَ إِلَّا اللَّهَ﴾؛ أي: أخلصوا العبادة لله وحده، واتركوا كل ما يُعْبَدُ من دون الله. ﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمِ الْآسْرِ﴾ (٣٤) : إن لم تقوموا بتوحيد الله وتطيعوني.

﴿فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ﴾؛ أي: الأشراف والرؤساء رادين لدعوة نوح عليه السلام كما جرت العادة لأمثالهم أنهم أول من رد دعوة المرسلين ﴿مَا تَزْنِيكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا﴾: وهذا مانع بزعمهم عن اتباعه، مع أنه في نفس الأمر هو الصواب الذي لا ينبغي غيره؛ لأن البشر يتمكن البشر أن يتلقوا عنه ويراجعوه في كل أمر؛ بخلاف الملائكة. ﴿وَمَا تَزْنِيكَ أَتَّبِعُكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا﴾؛ أي: ما نرى أتبعك منا إلا الأراذل والسفلة - بزعمهم - وهم في الحقيقة الأشراف وأهل العقول، الذين انقادوا للحق، ولم يكونوا كالأراذل الذين يقال لهم: الملأ، الذين اتبعوا كل شيطان مريد، واتخذوا آلهة من الحجر والشجر يتقربون إليها ويسجدون لها؛ فهل ترى أرذل من هؤلاء وأخس؟! وقولهم: ﴿بَادِيَ الرَّأْيِ﴾؛ أي: إنما اتبعوك من غير تفكر وروية، بل بمجرد ما دعوتهم اتبعوك؛ يعنون بذلك أنهم ليسوا على بصيرة من أمرهم، ولم يعلموا أن الحق المبين تدعو إليه بدهة العقول، وبمجرد ما يصل إلى أولي الألباب يعرفونه ويتحققونه، لا كالأمر الخفية التي تحتاج إلى تأمل وفكر طويل. ﴿وَمَا زَيْ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ﴾؛ أي: لستم أفضل منا فننقاد لكم، ﴿بَلْ تَنْظُنُّكُمْ كَذَّابِينَ﴾ (٣٥) : وكذبوا في قولهم هذا؛ فإنهم رأوا من الآيات التي جعلها الله مؤيدة لنوح ما يوجب لهم الجزم التام على صدقه.

ولهذا ﴿قَالَ﴾ لهم نوح مجابياً: ﴿يَقُولُ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي﴾؛ أي: على يقين وجزم؛ يعني: وهو الرسول الكامل القدوة، الذي ينقاد له أولو الألباب،

سورة هود

يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ ﴿٣٢﴾: فإن كانوا صادقين في إيمانهم؛ فلهم الخير الكثير، وإن كانوا غير ذلك؛ فحسابهم على الله. ﴿إِنِّي إِذَا﴾؛ أي: إن قلت لكم شيئاً مما تقدم، ﴿لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ ﴿٣٣﴾: وهذا تأييد منه عليه الصلاة والسلام لقومه أن ينبذ فقراء المؤمنين أو يمقتهم، وتقنع لقومه بالطرق المقنعة للمنصف.

﴿٣٣﴾ فلما رأوه لا ينكف عما كان عليه من دعوتهم ولم يدركوا منه مطلوبهم؛ ﴿قَالُوا يَنْشُوعٌ قَدْ جَدَلْنَاكَ فَأَكْثَرْتَ جِدْلَنَا فَإِنَّا بِمَا قَوْلُكَ مِنَ الْعَذَابِ﴾ ﴿٣٤﴾: إن كنت من الصديقين ﴿٣٣﴾: فما أجهلهم وأضلهم! حيث قالوا هذه المقالة لنيهم الناصح؛ فهلا قالوا إن كانوا صادقين: يا نوح! قد نصحتنا وأشفقت علينا ودعوتنا إلى أمر لم يتبين لنا فريد منك أن تبينه لنا لتناقذ لك، وإلا فأنت مشكور في نصحك؛ لكان هذا الجواب المنصف للذي قد دعي إلى أمر خفي عليه، ولكنهم في قولهم كاذبون، وعلى نبيهم متجرئون، ولم يردوا ما قاله بأدنى شبهة فضلاً عن أن يردوه بحجة، ولهذا عدلوا من جهلهم وظلمهم إلى الاستعجال بالعذاب، وتعجيز الله.

﴿٣٣﴾ ولهذا أجابهم نوح عليه السلام بقوله: ﴿إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ﴾؛ أي: إن اقتضت مشيئته وحكمته أن ينزله بكم؛ فعل ذلك، ﴿وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ ﴿٣٤﴾: لله، وأنا ليس بيدي من الأمر شيء.

﴿٣٤﴾ ﴿وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ﴾؛ أي: إن إرادة الله غالبية؛ فإنه إذا أراد أن يغويكم لردكم الحق؛ فلو حرصت غاية مجهودي ونصحت لكم أتم النصح - وهو قد فعل عليه السلام - فليس ذلك بنافع لكم شيئاً. ﴿هُوَ رَبُّكُمْ﴾: يفعل بكم ما يشاء ويحكم فيكم بما يريد، ﴿وَالَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ ﴿٣٥﴾: فيجازيكم بأعمالكم.

﴿٣٥﴾ ﴿أَمْ يَقُولُونَ أَفَرَّغْتُهُ﴾: هذا الضمير محتمل أن يعود إلى نوح كما كان السياق في قصته مع قومه، وأن المعنى أن قومه يقولون: افترى على الله كذباً، وكذب بالوحي الذي يزعم أنه من الله، وأن الله أمره أن يقول: ﴿قُلْ إِنْ أَفَرَّغْتُهُ، فَعَلَىٰ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَجْحَرُونَ﴾ ﴿٣٥﴾؛ أي: كل عليه وزره، ﴿وَلَا زُرَّ وَارِدَةٌ وَزَّرَ أُخْرَىٰ﴾ [الأنعام: ١٦٤]. ويحتمل أن يكون عائداً إلى النبي محمد ﷺ، وتكون هذه الآية معترضة في أثناء قصة نوح وقومه؛ لأنها من الأمور التي لا يعلمها إلا الأنبياء، فلما شرع الله في قصصها على رسوله، وكانت من جملة الآيات الدالة على صدقه ورسالته، ذكر تكذيب قومه له، مع البيان التام، فقال: ﴿أَمْ يَقُولُونَ أَفَرَّغْتُهُ﴾؛ أي: هذا القرآن اختلقه محمد من تلقاء نفسه؛ أي: فهذا من أعجب الأقوال وأبطلها؛ فإنهم يعلمون أنه لم يقرأ ولم يكتب ولم يرحل عنهم لدراسة على أهل الكتب، فجاء بهذا الكتاب الذي تحداهم أن يأتوا بسورة من مثله؛ فإذا زعموا مع هذا أنه افتراه؛ علم أنهم معاندون، ولم يبق فائدة في حجاجهم، بل اللائق في هذه الحال الإعراض عنهم، ولهذا قال: ﴿قُلْ إِنْ أَفَرَّغْتُهُ، فَعَلَىٰ إِجْرَامِي﴾؛ أي: ذنبي وكذبي. ﴿وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَجْحَرُونَ﴾ ﴿٣٥﴾؛ أي: فلم تستلجئون في تكذبي؟

﴿٣٦﴾ وقوله: ﴿وَأَوْحَىٰ﴾: إلى نوح أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن؛ أي: قد قسوا ﴿فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ ﴿٣٦﴾؛ أي: فلا تحزن ولا تبال بهم وبأفعالهم؛ فإن الله قد مقتهم وأحق عليهم عذابه الذي لا يرد.

وَيَنْفَعُكُمْ لَآ أَتْلُكُمْ عَلَيْهِ مَا لَإِنْ أَجْرِي إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّهُمْ مُلَقَوْنَ رَبَّهُمْ وَلَكِنِّي أَنذَرْتُكُمْ قَوْمًا يَمُوتُونَ ﴿٣٢﴾ وَيَنْفَعُكُمْ مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ طَرَفْتُهُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ إِنِّي إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٣٤﴾ قَالُوا يَنْشُوعٌ قَدْ جَدَلْنَاكَ فَأَكْثَرْتَ جِدْلَنَا فَإِنَّا بِمَا قَوْلُكَ إِن كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٣٥﴾ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴿٣٦﴾ وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٣٧﴾ أَمْ يَقُولُونَ أَفَرَّغْتُهُ قُلْ إِنْ أَفَرَّغْتُهُ، فَعَلَىٰ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَجْحَرُونَ ﴿٣٨﴾ وَأَوْحَىٰ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٣٩﴾ وَأَصْنَعِ الْفُلَ كَمَا بَدَأْنَا وَحْيًا وَلَا تَخْطِئُنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ ﴿٤٠﴾

﴿٣٧﴾ وَأَصْنَعُ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيُنَا؛ أي: بحفظنا ومرأى منا وعلى مرضاتنا، ﴿وَلَا تَخْطِئُنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾؛ أي: لا تراجعني في إهلاكهم، ﴿إِنَّهُمْ مُّعْرِضُونَ﴾ ﴿٣٨﴾؛ أي: قد حق عليهم القول، ونفذ فيهم القدر.

﴿٣٨﴾ فامثل أمر ربه، وجعل يصنع الفلك، ﴿وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأَ مِنْ قَوْمِهِ﴾؛ ورأوا ما يصنع، ﴿سَخَّرُونَا لَهُ قَالَ إِنْ تَسَخَّرُوا مِنَّا﴾: الآن، ﴿فَإِنَّا نَسْخَرُهُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ﴾ ﴿٣٩﴾.

﴿٣٩﴾ سَوِّفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُثْقِلٌ ﴿٤٠﴾: نحن أم أنتم؟ وقد علموا ذلك حين حل بهم العقاب.

﴿٤٠﴾ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا؛ أي: قدرنا بوقت نزول العذاب بهم، ﴿وَفَارَ الْثُورُ﴾؛ أي: أنزل الله السماء بالماء المنهمر، وفجر الأرض كلها عيوناً، حتى التنانير التي هي محل النار في العادة وأبعد ما يكون عن الماء تفجرت، فالتقى الماء على أمر قد قدر، ﴿فَلَنَّا﴾ لنوح: ﴿أَحْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ﴾؛ أي: من كل صنف من أصناف المخلوقات ذكر وأنثى؛ لتبقى مادة سائر الأجناس، وأما بقية الأصناف الزائدة عن الزوجين؛ فلأن السفينة لا تطيق حملها، ﴿وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ﴾: ممن كان كافراً؛ كابنه الذي غرق. ﴿وَمَنْ ءَامَنَ﴾ والحال أنه ما ﴿ءَامَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ ﴿٤١﴾.

﴿٤١﴾ وَقَالَ ﴿نوح لمن أمره الله أن يحملهم﴾: ﴿أَرْكَبُوا فِيهَا بِإِسْمِ اللَّهِ بِحَبْرٍ نَهَا وَمُرْسَهَا﴾؛ أي: تجري على اسم الله وترسو على اسم الله وتجري بتسخيره وأمره. ﴿إِنْ رَبِّي لَمَغْفُورٌ رَحِيمٌ﴾ ﴿٤٢﴾: حيث غفر لنا، ورحمنا، ونجانا من القوم الظالمين.

﴿٤٢﴾ ثم وصف جريانه كأننا نشاهدها، فقال: ﴿وَيَجْرِي بِهَمٍّ﴾؛ أي: بنوح ومن ركب معه ﴿فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ﴾؛ والله حافظها، وحافظ أهلها، ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ ابْنَهُ﴾: لما ركب ليركب معه، ﴿وَكَانَ﴾ ابنه ﴿فِي مَعْرِلٍ﴾: عنهم حين ركبوا؛ أي: مبتعداً، وأراد منه أن يقرب ليركب، فقال له: ﴿يَبْنَئُ أَرْكَبَ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ﴾ ﴿٤٣﴾: فيصيبك ما يصيبهم.

﴿٤٣﴾ ف ﴿قَالَ﴾ ابنه مكذباً لأبيه أنه لا ينجو إلا من ركب معه السفينة: ﴿سَتَاوَىٰ إِلَىٰ جِبَلٍ يَفْعَسُنِي مِنَ الْمَاءِ﴾؛ أي: سأرتقي جبلاً أمتنع به من الماء. ف ﴿قَالَ﴾ نوح: ﴿لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ﴾: فلا يعصم أحداً جبلاً ولا غيره، ولو تسبب بغاية ما يمكنه من الأسباب؛ لما نجا إن لم ينجه الله، ﴿وَعَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ﴾ الابن ﴿مِنَ الْمُغْرَقِينَ﴾ ﴿٤٤﴾.

﴿٤٤﴾ فلما أغرقهم الله ونجى نوحاً ومن معه؛ ﴿وَقِيلَ يَتَّارُضْ أَبْلَىٰ مَاءَكِ﴾: الذي خرج منك، والذي نزل إليك، ابلعي الماء الذي على وجهك، ﴿وَنَسَسَاءُ آتَلِي﴾: فامثلنا لأمر الله، فابتلعت الأرض ماءها، وأقلعت السماء فضب الماء من الأرض، ﴿وَفُضِيَ الْأَمْرُ﴾: بهلاك المكذبين ونجاة المؤمنين، ﴿وَأَسْوَتَ﴾ السفينة ﴿عَلَى الْجُودِيِّ﴾؛ أي: أرسدت على ذلك الجبل المعروف في أرض الموصل، ﴿وَقِيلَ بَعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ ﴿٤٥﴾؛ أي: أتبعوا بهلاكهم لعنة وبعداً وسحقاً لا يزال معهم.

﴿٤٥﴾ وَنَادَىٰ نُوحٌ رَبَّهُ. فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ؛ أي: وقد قلت لي: ف ﴿أَحْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ﴾، ولن تخلف ما وعدتني به. لعله عليه الصلاة والسلام - حملته الشفقة وأن الله وعده بنجاة أهله - ظن أن

الوعد لعمومهم؛ من آمن ومن لم يؤمن؛ فلذلك دعا ربه بذلك الدعاء، ومع هذا؛ ففوض الأمر لحكمة الله البالغة.

﴿٤٦﴾ ف ﴿قَالَ﴾ الله له: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾: الذين وعدتك بإنجائهم، ﴿إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ﴾؛ أي: هذا الدعاء الذي دعوت به لنجاة كافر لا يؤمن بالله ولا رسوله، ﴿فَلَا تَسْتَلِنَ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾؛ أي: ما لا تعلم عاقبته ومآله، وهل يكون خيرًا أو غير خير. ﴿إِنِّي أَعْطُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾؛ أي: إني أعطتك وعظًا تكون به من الكاملين، وتنجو به من صفات الجاهلين.

﴿٤٧﴾ فحينئذ ندم نوح عليه السلام ندامة شديدة على ما صدر منه، و﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَتُكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَلَا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمَنِي أَكُنْ مِنَ الْخَسِرِينَ﴾: فبالمغفرة والرحمة ينجو العبد من أن يكون من الخاسرين. ودل هذا على أن نوحًا عليه السلام لم يكن عنده علم بأن سؤاله لربه في نجاة ابنه محرم داخل في قوله: ﴿وَلَا تُخْطِئُنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُخْرَجُونَ﴾، بل تعارض عنده الأمران، وظن دخوله في قوله: ﴿وَأَهْلَكَ﴾، وبعد هذا تبين له أنه داخل في المنهي عن الدعاء لهم والمراجعة فيهم.

﴿٤٨﴾ ﴿قِيلَ يَنْتُحِ أَهْطَ سَلَامٍ مَتَا وَبَرَكَتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمِّهِمْ وَمَنْ مَعَكَ﴾: من الآدميين وغيرهم من الأزواج التي حملها معه، فبارك الله في الجميع، حتى ملثوا أقطار الأرض ونواحيها ﴿وَأُمُّهُمْ سَمِيَّتُهُمْ﴾: في الدنيا، ﴿ثُمَّ يَسْأَلُهُمْ مَتَا عَذَابُ أَلِيمٌ﴾؛ أي: هذا الإنجاء ليس بمانع لنا من أن من كفر بعد ذلك؛ أحلنا به العقاب، وإن متعوا قليلاً؛ فسيؤخذون بعد ذلك.

﴿٤٩﴾ قال الله لنبيه محمد ﷺ بعدما قص عليه هذه القصة المبسطة التي لا يعلمها إلا مَنْ مَنْ عليه برسالته: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا﴾: فيقولوا: إنه كان يعلمها؛ فاحمد الله واشكره واصبر على ما أنت عليه من الدين القويم والصراط المستقيم والدعوة إلى الله. ﴿إِنَّ الْعَقِيبَةَ لِلْمُنْفِقِينَ﴾: الذين يتقون الشرك وسائر المعاصي، فستكون لك العاقبة على قومك كما كانت لنوح على قومه.

﴿وَلِإِيَّائِي عَادٌ أَهْلُهُمْ هُودًا﴾... إلى آخر القصة.

﴿٥٠﴾ أي: وأرسلنا إلى ﴿عَادٍ﴾: وهم القبيلة المعروفة في الأحقاف من أرض اليمن، ﴿أَهْلَهُمْ﴾: في النسب، ﴿هُودًا﴾: ليمتكنوا من الأخذ عنه والعلم بصدقه، فقال لهم: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ، إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ﴾؛ أي: أمرهم بعبادة الله وحده، ونهاهم عما هم عليه من عبادة غير الله، وأخبرهم أنهم قد افتروا على الله الكذب في عبادتهم لغيره وتجويزهم لذلك، ووضح لهم وجوب عبادة الله وفساد عبادة ما سواه.

﴿٥١﴾ ثم ذكر عدم المنع لهم من الاقنياد، فقال: ﴿يَقَوْمُ لَا أَتُكْرَرُ عَلَيْهِمْ آجْرًا﴾؛ أي: غرامة من أموالكم على ما دعوتكم إليه فتقولوا: هذا يريد أن يأخذ أموالنا، وإنما أدعوكم وأعلمكم مجانًا. ﴿إِنْ آجْرِي إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾: ما أدعوكم إليه وأنه موجب لقبوله، منتف المانع عن رده.

سورة هود

قَالَ يَنْتُحِ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْتَلِنَ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعْطُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَتُكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَلَا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمَنِي أَكُنْ مِنَ الْخَسِرِينَ ﴿٤٧﴾ قِيلَ يَنْتُحِ أَهْطَ سَلَامٍ مَتَا وَبَرَكَتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمِّهِمْ وَمَنْ مَعَكَ وَأُمُّهُمْ سَمِيَّتُهُمْ ثُمَّ يَسْأَلُهُمْ مَتَا عَذَابُ أَلِيمٌ ﴿٤٨﴾ تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَقِيبَةَ لِلْمُنْفِقِينَ ﴿٤٩﴾ وَلِإِيَّائِي عَادٌ أَهْلُهُمْ هُودًا قَالَ يَقَوْمُ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴿٥٠﴾ يَقَوْمُ لَا أَتُكْرَرُ عَلَيْهِمْ آجْرًا إِنْ آجْرِي إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٥١﴾ وَيَقَوْمُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا بَحْرِيْنِ ﴿٥٢﴾ قَالُوا يَهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِ الْهَارِ نَاعَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِرِينَ ﴿٥٣﴾

٢٢٧

سورة هود

الحمد لله

﴿٥٢﴾ وَنَقُومُوا اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ﴿٥٣﴾: عما مضى منكم، ﴿٥٤﴾ ثُمَّ نُوبُوا إِلَيْهِ ﴿٥٥﴾: فيما تستقبلونه بالتوبة النصوح والإجابة إلى الله تعالى؛ فإنكم إذا فعلتم ذلك؛ ﴿يُرْسِلُ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا﴾: بكثرة الأمطار التي تخصب بها الأرض ويكثر خيرها، ﴿وَنَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ﴾: فإنهم كانوا من أقوى الناس، ولهذا قالوا: ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ [فصلت: ١٥]، فوعدهم أنهم إن آمنوا زادهم قوة إلى قوتهم، ﴿وَلَا تَنُوتُوا﴾: عنه؛ أي: عن ربكم ﴿مُجْرِمِينَ﴾ ﴿٥٦﴾؛ أي: مستكبرين عن عبادته، متجربين على محارمه.

﴿٥٧﴾ ف ﴿قَالُوا﴾ رادين لقوله: ﴿يَهُودُ مَا جِئْنَا بِبَيِّنَةٍ﴾: إن كان قصدهم بالبيئة البينة التي يقترحونها؛ فهذه غير لازمة للحق، بل اللازم أن يأتي النبي بآية تدل على صحة ما جاء به، وإن كان قصدهم أنه لم يأتهم ببينة تشهد لما قاله بالصحة؛ فقد كذبوا في ذلك؛ فإنه ما جاء نبي لقومه إلا وبعث الله على يديه من الآيات ما يؤمن على مثله البشر، ولو لم يكن له آية إلا دعوته إياهم لإخلاص الدين لله وحده لا شريك له، والأمر بكل عمل صالح وخلق جميل، والنهي عن كل خلق ذميم من الشرك بالله والفواحش والظلم وأنواع المنكرات، مع ما هو مشتمل عليه هود عليه السلام من الصفات التي لا تكون إلا لخيار الخلق وأصدقهم، لكفى بها آيات وأدلة على صدقه، بل أهل العقول وأولو الأبواب يرون أن هذه الآية أكبر من مجرد الخوارق التي يراها بعض الناس هي المعجزات فقط.

ومن آياته، وبيناته الدالة على صدقه، أنه شخص واحد، ليس له أنصار ولا أعوان، وهو يصرخ في قومه ويناديهم ويعجزهم ويقول لهم: ﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ﴾، ﴿إِنِّي أَشْهَدُ أَنَّ اللَّهَ وَآشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾ ﴿٥٨﴾ من دُونِهِ. فَيَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظَرُونَ ﴿٥٩﴾: وهم الأعداء الذين لهم السطوة والغلبة، ويريدون إطفاء ما معه من النور بأي طريق كان، وهو غير مكترث منهم ولا مبال بهم، وهم عاجزون لا يقدر أن ينالوه بشيء من السوء، إن في ذلك آيات لقوم يعقلون. وقولهم: ﴿وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ﴾؛ أي: لا نترك عبادة آلهتنا لمجرد قولك الذي ما أقمته عليه بيته بزعمهم. ﴿وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿٦٠﴾: وهذا تأييس منهم لنبيهم هود عليه السلام في إيمانهم، وأنهم لا يزالون في كفرهم يعمهون.

﴿٦١﴾ إِنْ نَقُولُ ﴿٦٢﴾: فيك ﴿إِلَّا أَغْرَيْنَاكَ بِغُصٍّ آلِهَتِنَا يَسُوءُ﴾؛ أي: أصابك بخبال وجنون، فصرت تهذي بما لا يعقل؛ فسبحان من طبع على قلوب الظالمين! كيف جعلوا أصدق الخلق الذي جاء بأحق الحق بهذه المرتبة التي يستحي العاقل من حكايتها عنهم، لولا أن الله حكاها عنهم؟! ﴿٦٣﴾

﴿٦٤﴾ ولهذا بين هود عليه الصلاة والسلام أنه واثق غاية الوثوق أنه لا يصيبه منهم ولا من آلهتهم أذى، فقال: ﴿إِنِّي أَشْهَدُ أَنَّ اللَّهَ وَآشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾ ﴿٦٥﴾ من دُونِهِ. فَيَكِيدُونِي جَمِيعًا ﴿٦٦﴾؛ أي: اطلبوا لي الضرر كلكم بكل طريق تتمكنون بها مني، ﴿ثُمَّ لَا تُنْظَرُونَ﴾ ﴿٦٧﴾؛ أي: لا تمهلوني.

﴿٦٨﴾ إِنْ تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ ﴿٦٩﴾؛ أي: اعتمدت في أمري كله على الله، ﴿رَبِّي وَرَبِّكُمْ﴾؛ أي: هو خالق الجميع ومديرنا وإياكم، وهو الذي ربانا. ﴿مَنْ دَابَّةٌ إِلَّا هُوَ أَخِذْ بِاصْتِيهَا﴾: فلا تتحرك ولا تسكن إلا بإذنه؛ فلو اجتمعتم جميعاً على الإيقاع بي، والله لم يسلطكم علي؛ لم تقدروا على ذلك؛ فإن سلطكم فلحكمة أرادها. ف ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ ﴿٧٠﴾؛ أي: على

عدل وقسط وحكمة وحمد في قضائه وقدره وفي شرعه وأمره وفي جزائه وثوابه وعقابه، لا تخرج أفعاله عن الصراط المستقيم التي يحمد، ويشنى عليه بها.

﴿٥٧﴾ **﴿إِنْ تَوَلَّوْا﴾** : عما دعوتكم إليه، **﴿فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ﴾** : فلم يبق عليّ تبعة من شأنكم، **﴿وَسَنَخْلِفُ رَقِي قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾** : يقومون بعبادته ولا يشركون به شيئاً، **﴿وَلَا نَضُرُّهُ شَيْئًا﴾** : فإن ضرركم إنما يعود إليكم، فالله لا تضره معصية العصاة ولا تنفعه طاعة الطائعين، **﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ، وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا﴾** [فصلت: ٤٦]. **﴿إِنْ رَقِي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِظْتُ﴾** ﴿٥٧﴾.

﴿٥٨﴾ **﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا﴾** ؛ أي: عذابنا بإرسال الريح العقيم التي **﴿مَا تَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَنْتَ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلْنَاهُ كَالرَّايِمِ﴾** ﴿٥٨﴾ [الذاريات: ٤٢]؛ **﴿نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَنَجَّيْنَاهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾** ﴿٥٨﴾ ؛ أي: عظيم شديد أحله الله بعد فأصبحوا لا يرى إلا مساكنتهم.

﴿٥٩﴾ **﴿وَتِلْكَ عَادٌ﴾** : الذين أوقع الله بهم ما أوقع بظلم منهم لأنهم **﴿جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ﴾** : ولهذا قالوا لهود: **﴿مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ﴾** ! فتبين بهذا أنهم متيقنون لدعوته، وإنما عاندوا وجحدوا، **﴿وَعَصَوْا رُسُلَهُ﴾** ؛ لأن من عصى رسولاً؛ فقد عصى جميع المرسلين؛ لأن دعوتهم واحدة، **﴿وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ﴾** ؛ أي: متسلط على عباد الله بالجبروت، **﴿عَنِيدٍ﴾** ﴿٥٩﴾ ؛ أي: معاند لآيات الله، فعصوا كل ناصح ومشفق عليهم، واتبعوا كل غاش لهم يريد إهلاكهم، لا جرم أهلكهم الله.

﴿٦٠﴾ **﴿وَاتَّبَعُوا فِي هَذِهِ أَلْدُنْيَا لَعْنَةً﴾** : فكل وقت وجيل إلا ولأنبائهم القبيحة وأخبارهم الشنيعة ذكر يذكرون به وذم يلحقهم. **﴿وَيَوْمَ أَقْبَمْتَهُ﴾** : لهم أيضاً لعنة، **﴿أَلَّا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ﴾** ؛ أي: جحدوا من خلقهم ورزقهم ورباهم. **﴿أَلَّا بَعَدًا لِإِعَادٍ قَوْمٍ هُودٍ﴾** ﴿٦٠﴾ ؛ أي: أبعدهم الله عن كل خير، وقربهم من كل شر.

﴿وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا﴾ ... إلى آخر القصة.

﴿٦١﴾ **﴿أَي: وَأَرْسَلْنَا إِلَى ثَمُودَ﴾** : وهم عاد الثانية، المعروفون، الذين يسكنون الحِجْرَ وادي القري، **﴿أَخَاهُمْ﴾** : في النسب، **﴿صَالِحًا﴾** : عبد الله ورسوله ﷺ، يدعوهم إلى عبادة الله وحده. **﴿فَقَالَ يَتَوَمَّرُ عِبْدُوا اللَّهَ﴾** ؛ أي:

وحده وأخلصوا له الدين، **﴿مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾** : لا من أهل السماء ولا من أهل الأرض، **﴿هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ﴾** ؛ أي: خلقكم فيها، فقال: **﴿وَأَسْتَعْمِرُكُمْ فِيهَا﴾** ؛ أي: استخلفكم فيها وأنعم عليكم بالنعم الظاهرة والباطنة، ومكنكم في الأرض؛ تبنون وتغرسون وتزرعون وتحراثون ما شئتم وتتشفعون بمنافعها وتستغلون مصالحها؛ فكما أنه لا شريك له في جميع ذلك؛ فلا تشركوا به في عبادته. **﴿فَأَسْتَغْفِرُ﴾** : مما صدر منكم من الكفر والشرك والمعاصي وأقلعوا عنها، **﴿ثُمَّ نُبَوِّئُ آلِيَهُ﴾** ؛ أي: ارجعوا إليه بالتوبة النصوح والإنابة. **﴿إِنْ رَقِي قَرِيبٌ يُجِيبُ﴾** ﴿٦١﴾ ؛ أي: قريب ممن دعاه دعاء مسألة أو دعاء عبادة يجيبه بإعطائه سؤله وقبول عبادته وإثابته عليها أجل الثواب.

واعلم أن قربته تعالى نوعان: عام وخاص: فالقرب العام: قربته بعلمه، من جميع الخلق، وهو المذكور في قوله تعالى: **﴿وَمَنْ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾** ﴿٦٦﴾ [ق: ١٦].

والقرب الخاص: قربته من عابديه وسائليه ومحبيه، وهو المذكور في قوله تعالى: **﴿وَأَسْجُدْ وَاقْتَرِبْ﴾** ﴿١٩﴾ [العلق: ١٩]، وفي هذه الآية، وفي قوله: **﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ﴾** [البقرة: ١٨٦]، وهذا النوع قرب يقتضي اللطافة تعالى وإجابته لدعواتهم وتحقيقه لمراداتهم، ولهذا يقرن باسمه «القريب» اسمه «المجيب».

﴿٦٢﴾ فلما أمرهم نبينهم صالح عليه السلام ورغبهم في الإخلاص لله وحده؛ ردوا عليه دعوته، وقابلوه أشنع المقابلة. **﴿وَقَالُوا لَئِنْ لَمْ يَنْصَلِحْ لَنَا فَمَنْ نَعْبُدُ فَإِنَّا نَمُوتُ﴾** ؛ أي: قد كنا نرجوكم ونؤمل فيك العقل والنفع، وهذه شهادة منهم لنبينهم صالح: أنه ما زال معروفاً بمكارم الأخلاق ومحاسن الشيم، وأنه من خيار قومه، ولكنه لما جاءهم بهذا الأمر الذي لا يوافق أهواءهم الفاسدة؛ قالوا هذه المقالة التي مضمونها أنك قد كنت كاملاً، والآن أخلفت ظننا فيك، وصرت بحالة لا يرجى منك خير، وذنبه ما قالوه عنه، وهو قولهم: **﴿أَتَنْهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾** : وبزعمهم أن هذا من أعظم القدح في صالح؛ كيف قدح في عقولهم وعقول آبائهم الضالين؟! وكيف ينهاهم عن عبادة من لا ينفع ولا يضر ولا يغني شيئاً من الأحجار والأشجار ونحوها، وأمرهم بإخلاص الدين لله ربهم الذي لم تزل نعمه عليهم ترى وإحسانه عليهم دائماً ينزل، الذي ما بهم من نعمة

سورة هود

الْحَمْدُ لِلَّهِ

إلا منه، ولا يدفع عنهم السيئات إلا هو؟! ﴿١١﴾ وَإِنَّا لَنُفِي شَكِّ
نَمَّا نَدْعُونَ إِلَيْهِ مُرْسِيًا ﴿١٢﴾؛ أي: ما زلنا شاكين فيما دعوتنا إليه
شكًا مؤثرًا في قلوبنا الرب.

﴿١٣﴾ وبزعمهم أنهم لو علموا صحة ما دعاهم إليه؛ لاتبعوه،
وهم كذبة في ذلك، ولهذا بين كذبهم في قوله: ﴿١٤﴾ قَالَ يَقُولُ
أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى يَنْتَهٍ مِنْ رَبِّي؟ أي: برهان ويقين مني،
﴿١٥﴾ وَأَنَا نَتِي مِنْهُ رَحْمَةً؟ أي: من علي برسالته ووحيه؛ أي:
أفأنا بعكم على ما أنتم عليه وما تدعونني إليه. ﴿١٦﴾ فَمَنْ يَنْصُرُنِي
مِنْ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ، فَمَا تَرِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْصِيرٍ ﴿١٧﴾؛ أي: غير
خسار وتباب وضرر.

﴿١٨﴾ وَيَقُولُ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ ءَايَةٌ؛ لها شرب
من البشر يومًا، ثم يشربون كلهم من ضرعها، ولهم شرب يوم
معلوم، ﴿١٩﴾ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ؛ أي: ليس عليكم
من مؤنتها وعلفها شيء، ﴿٢٠﴾ وَلَا تَمْسُوهَا إِسْوَاءً؛ أي: بعقر؛
﴿٢١﴾ فَاخْذُكُمُ عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴿٢٢﴾.

﴿٢٣﴾ فَفَعَرُوهَا فَقَالَ لَهَا صَالِحٌ: لَهَا شَرِبٌ. ﴿٢٤﴾ تَمَتُّعًا فِي
دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعَدُ غَيْرَ مَكْذُوبٍ ﴿٢٥﴾؛ بل
لا بد من وقوعه.

﴿٢٦﴾ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا: بوقوع العذاب، ﴿٢٧﴾ بَنَيْتَنَا صَالِحًا
وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ؛ أي: نجيتهم من العذاب والخزي والفضيحة. ﴿٢٨﴾ إِنْ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ
الْعَزِيزُ ﴿٢٩﴾؛ ومن قوته وعزته أن أهلك الأمم الطاغية ونجى الرسل وأتباعهم.

﴿٣٠﴾ وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ العظيمة فقطعت قلوبهم؛ ﴿٣١﴾ فَاصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَحِشِينَ ﴿٣٢﴾؛ أي: خامدين لا
حراك لهم.

﴿٣٣﴾ كَانَ لَمْ يَنْتَوِ فِيهَا؛ أي: كأنهم لما جاءهم العذاب ما تمتعوا في ديارهم ولا أنسوا فيها ولا تنعموا بها يومًا من
الدهر، قد فارقهم النعيم، وتناولهم العذاب السرمدي، الذي لا ينقطع، الذي كأنه لم يزل. ﴿٣٤﴾ أَلَا إِنَّ تَمُودًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ؛
أي: جحدوه بعد أن جاءتهم الآية المبصرة. ﴿٣٥﴾ أَلَا بَعْدَ لَتَمُودَ ﴿٣٦﴾؛ فما أشقاهم وأذلهم! نستجير بالله من عذاب الدنيا
وخزيها.

﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى... إلى آخر القصة.

﴿٣٨﴾ أي: ﴿٣٩﴾ وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا: من الملائكة الكرام رسولنا ﴿٤٠﴾ إِبْرَاهِيمَ ﴿٤١﴾ الْخَلِيلَ ﴿٤٢﴾ بِالْبُشْرَى؛ أي: بالبشارة بالولد
حين أرسلهم الله لإهلاك قوم لوط وأمرهم أن يعمروا على إبراهيم فيبشروه بإسحاق، فلما دخلوا عليه، ﴿٤٣﴾ قَالُوا سَلَامًا قَالَ
سَلَامٌ؛ أي: سلموا عليه ورد عليهم السلام. ففي هذا مشروعية السلام، وأنه لم يزل من ملة إبراهيم عليه السلام، وأن السلام
قبل الكلام، وأنه ينبغي أن يكون الرد أبلغ من الابتداء؛ لأن سلامهم بالجملة الفعلية الدالة على التجدد، ورده بالجملة الاسمية
الدالة على الثبوت والاستمرار، وبينهما فرق كبير؛ كما هو معلوم في علم العربية. ﴿٤٤﴾ فَمَا لَيْتَ: إبراهيم لما دخلوا عليه، ﴿٤٥﴾ أَنْ
جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴿٤٦﴾؛ أي: بادر لبيته فاستحضر لأضيافه عجلًا مشويًا على الرضف سمينًا، فقربه إليهم فقال: ألا تأكلون.

سورة هود

الحق تعالیٰ

قَالَتْ يَوْنٰلَيْحَ ؕ اٰلِدُ وَاَنَا عَجُوزٌ وَهٰذَا بَعْلِي شَيْخًا ۚ اِنَّ هٰذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٠﴾ قَالُوا اَتَعْجِبِينَ مِنْ اَمْرِ اللّٰهِ رَحْمَتُ اللّٰهِ وَبَرَكَتُهُ عَلَيْكُمْ اَهْلَ الْبَيْتِ اِنَّهٗ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴿٧١﴾ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ اِبْرٰهِيْمَ الرُّوحُ وَجَآءَتْهُ الْبَشْرٰى يُجٰدِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٢﴾ اِنَّ اِبْرٰهِيْمَ لَحَلِيْمٌ اَوَّهٌ مُّنِيبٌ ﴿٧٣﴾ يٰۤاِبْرٰهِيْمُ اَعْرِضْ عَنْ هٰذَا ۖ اِنَّهٗ قَدْ جَآءَ اَمْرُ رَبِّكَ وَاِنَّهُمْ ءَاتٰيهِمْ عَذَابٌ عَزِيزٌ مَّرْدُوْرٌ ﴿٧٤﴾ وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِىِّئًا يَمِيْنٌ وَصَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴿٧٥﴾ وَجَآءَهُ قَوْمُهٗ يَهْرَعُوْنَ اِلَيْهِ وَمِنْ قَبْلِ كَاثُوْرٍ يَعْمَلُوْنَ السَّيِّئَاتِ ۖ قَالَ يَفْقُوْرٌ هٰۤؤُلَآءِ بَنَآئِي هُنَّ اَطْهَرُ لَكُمْ فَاَنْتُمْوْا اللّٰهَ وَلَا تَحْزَنْوْنَ فِي ضَلٰغٰتِ اَيْسٍ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَّشِيْدٌ ﴿٧٦﴾ قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَّا لَنَا فِي بَنٰٓئِكَ مِنْ حَقٍّ ۖ وَاِنَّكَ لَنَافَعُهُ مَارِيْدٌ ﴿٧٧﴾ قَالَ لَوْنَا لِي بِكُمْ قُوْرَةٌ اَوْ اَوْحٰى اِلٰى رَجُلٍ شٰدِيْدٍ ﴿٧٨﴾ قَالُوا يٰلُوطُ اِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوْا اِلَيْكَ فَاَنْتَ بِاَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ الْاَيْلِ وَلَا يَلْمُزُوْنَ مِنْكُمْ اَحَدٌ اِلَّا اَمْرًا لَّكَ ۖ اِنَّهٗ مُصِيبُهَا مَا اَصَابُهُمْ ۖ اِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ ۖ اَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيْبٍ ﴿٧٩﴾

٢٣٠

﴿٧٠﴾ ﴿فَلَمَّا رَأَىٰ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ﴾؛ أي: إلى تلك الضيافة، ﴿تَكَرَّهُمْ وَأَوَّجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾؛ وظن أنهم أتوه بشر ومكروه، وذلك قبل أن يعرف أمرهم، فقالوا: ﴿لَا تَخَفْ إِنَّا أَتَيْنَاكَ قَوْمَ لُوطٍ﴾ ﴿٧١﴾؛ أي: إنا رسل الله، أرسلنا الله إلى إهلاك قوم لوط.

﴿٧٢﴾ وامرأة إبراهيم ﴿قَالِيَةً﴾: تخدم أضيافه، ﴿فَفَسَحَكَتْ﴾: حين سمعت بحالهم وما أرسلوا به تعجبا، ﴿فَفَشَرْنَا بِهَا شَحَقًا وَمِنْ وَرَآءِ شَحَقٍ يَقْقُوبُ﴾ ﴿٧٣﴾.

﴿٧٤﴾ فتعجبت من ذلك ﴿وَقَالَتْ يَوْنٰلَيْحَ ؕ اٰلِدُ وَاَنَا عَجُوزٌ وَهٰذَا بَعْلِي شَيْخًا﴾: فهذان مانعان من وجود الولد. ﴿اِنَّ هٰذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ﴾ ﴿٧٥﴾.

﴿٧٦﴾ ﴿قَالُوا اَتَعْجِبِينَ مِنْ اَمْرِ اللّٰهِ﴾: فإن أمره لا عجب فيه؛ لنفوذ مشيئته التامة في كل شيء؛ فلا يستغرب على قدرته شيء، وخصوصا فيما يدبره ويمضيه لأهل هذا البيت المبارك. ﴿رَحْمَتُ اللّٰهِ وَبَرَكَتُهُ عَلَيْكُمْ اَهْلَ الْبَيْتِ﴾؛ أي: لا تزال رحمته وإحسانه وبركاته، وهي الزيادة من خيره وإحسانه وحلول الخير الإلهي على العبد، ﴿اِنَّهٗ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ﴾ ﴿٧٧﴾؛ أي: حميد الصفات؛ لأن صفاته صفات كمال، حميد الأفعال؛ لأن أفعاله إحسان وجود وبر وحكمة وعدل وقسط. ﴿مَّجِيدٌ﴾ ﴿٧٨﴾.

والمجد هو عظمة الصفات وسعتها؛ فله صفات الكمال، وله من كل صفة كمال أكملها وأتمها وأعمها.

﴿٧٩﴾ ﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ اِبْرٰهِيْمَ الرُّوحُ﴾: الذي أصابه من خيفة أضيافه، ﴿وَجَآءَتْهُ الْبَشْرٰى﴾: بالولد؛ التفت حينئذ إلى مجادلة الرسل في إهلاك قوم لوط، وقال لهم: ﴿اِنَّكُمْ فِيهَا لُوطًا قَالُوا نَحْنُ اَعْلَمُ بِمَن فِيْهَا لَنَنْجِيَنَّهُ وَاَهْلَهُ اِلَّا اَمْرًاۙنَا﴾ ﴿[العنكبوت: ٣٢]﴾.

﴿٨٠﴾ ﴿اِنَّ اِبْرٰهِيْمَ لَحَلِيْمٌ﴾؛ أي: ذو خلق حسن وسعة صدر وعدم غضب عند جهل الجاهلين، ﴿اَوَّهٌ﴾؛ أي: متضرع إلى الله في جميع الأوقات، ﴿مُّنِيبٌ﴾ ﴿٨١﴾؛ أي: رجع إلى الله بمعرفته ومحبه والإقبال عليه والإعراض عمن سواه؛ فلذلك كان يجادل عمن حتم الله بهلاكهم.

﴿٨٢﴾ فقيل له: ﴿يٰۤاِبْرٰهِيْمُ اَعْرِضْ عَنْ هٰذَا﴾: الجدال. ﴿اِنَّهٗ قَدْ جَآءَ اَمْرُ رَبِّكَ﴾: بهلاكهم، ﴿وَإِنَّهُمْ ءَاتٰيهِمْ عَذَابٌ عَزِيزٌ مَّرْدُوْرٌ﴾ ﴿٨٣﴾: فلا فائدة في جدالك.

﴿٨٤﴾ ﴿وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا﴾؛ أي: الملائكة الذين صلدوا من إبراهيم، لما أتوا ﴿لُوطًا سِىِّئًا يَمِيْنٌ﴾؛ أي: شق عليه مجيئهم، ﴿وَصَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ﴾ ﴿٨٥﴾؛ أي: شديد حرج؛ لأنه علم أن قومه لا يتركونهم؛ لأنهم في صور شباب جرد مرد في غاية الكمال والجمال.

﴿٨٦﴾ ولهذا وقع ما خطر بباله، ﴿وَجَآءَهُ قَوْمُهٗ يَهْرَعُوْنَ اِلَيْهِ﴾؛ أي: يسرعون ويبادرون يريدون أضيافه بالفاحشة التي كانوا يعملونها، ولهذا قال: ﴿وَمِنْ قَبْلِ كَاثُوْرٍ يَعْمَلُوْنَ السَّيِّئَاتِ﴾؛ أي: الفاحشة التي ما سبقهم إليها أحد من العالمين. ﴿قَالَ يَفْقُوْرٌ هٰۤؤُلَآءِ بَنَآئِي هُنَّ اَطْهَرُ لَكُمْ﴾: من أضيافي - وهذا كما عرض سليمان ﷺ على المرأتين أن يشق الولد المختصم فيه

سورة هود

بسم الله الرحمن الرحيم

فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا
حِجَابًا مِّن سِجِّيلٍ مَّنْصُورٍ ﴿٨٥﴾ مُسَوِّمَةً عِندَ رَبِّكَ
وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿٨٦﴾ وَإِلَى مَدِينٍ آخَاهُ
شُعَيْبًا قَالَ يَتَقَوَّمُوا عِبَادُ اللَّهِ مَا لَكُمْ مِّنَ اللَّهِ غَيْرُهُ
وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أُرْسِلُكُمْ بِخَيْرٍ
وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ تُحِيطُونَ ﴿٨٧﴾ وَيَتَقَوَّمُوا
أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا
النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٨﴾
بَقِيَ اللَّهُ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ
بِحَفِيفٍ ﴿٨٩﴾ قَالُوا بِشُعَيْبٍ أَصْلُوكُمُ أَتَأْمُرُكَ أَنْ
تَتْرَكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَأَنْ نَّفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ
إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ ﴿٩٠﴾ قَالَ يَتَقَوَّمُوا أَرَأَيْتُمْ إِنْ
كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَرَزَقْنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ
أُخَالِفَكُمْ إِلَيَّ مَا أَنْتُمْ عَنْهُ إِن أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ
مَا أَسْطَقْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٩١﴾

١١١

لاستخراج الحق - ولعلمه أن بناته ممتنع منالهن ولا حق لهم
فيهن، والمقصود الأعظم دفع هذه الفاحشة الكبرى. ﴿٨٥﴾ فَأَتَقَوَّأُ
اللَّهُ وَلَا تُخْزَوْنَ فِي صَيِّفِي؛ أي: إما أن تراعوا تقوى الله،
وإما أن تراعوني في صيفي ولا تخزوني عندهم. ﴿٨٦﴾ أَلَيْسَ
مِنْكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ ﴿٨٧﴾؛ أي: فينهامكم ويزجركم. وهذا دليل على
مروجهم وانحلالهم من الخير والمروءة.

﴿٨٨﴾ ف ﴿٨٩﴾ قَالُوا ﴿٩٠﴾ له: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِن حَقٍّ وَإِنَّكَ
لَنَعْلَمُ مَا تُرِيدُ ﴿٩١﴾؛ أي: لا نريد إلا الرجال، ولا لنا رغبة في
النساء.

﴿٨٥﴾ فاشتد قلق لوط عليه الصلاة والسلام ﴿٨٦﴾ قَالَ لَوْ أَنِّي لِي
يُكْمُ قُوَّةٍ أَوْ آوَى إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴿٨٧﴾؛ كقبيلة مانعة؛ لمنعتكم.
وهذا بحسب الأسباب المحسوسة، وإلا؛ فإنه يآوي إلى أقوى
الأركان، وهو الله الذي لا يقوم لقوته أحد.

﴿٨٨﴾ ولهذا لما بلغ الأمر منتهاه واشتد الكرب؛ ﴿٨٩﴾ قَالُوا ﴿٩٠﴾
له: ﴿إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ﴾؛ أي: أخبروه بحالهم ليطمئن قلبه، ﴿٩١﴾ لَنْ
يَصْلُوا إِلَيْكَ؛ بسوء. ثم قال جبريل بجناحه، فطمس أعينهم،
فانطلقوا يتوعدون لوطاً بمجيء الصبح، وأمر الملائكة لوطاً
أن يسري بأهله ﴿يَقْطَعُ مِنَ اللَّيْلِ﴾؛ أي: بجانب منه قبل الفجر
بكثير؛ لئيمكنوا من البعد عن قريتهم، ﴿وَلَا يَلْفِثُ مِنْكُمْ
أَحَدٌ﴾؛ أي: بادروا بالخروج، وليكن همكم النجاء، ولا تلتفتوا إلى ما وراءكم، ﴿إِلَّا أَمْرًا لَّكَ إِلَهُ مُصِيبُهَا﴾: من العذاب ﴿مَا
أَصَابَهُمْ﴾؛ لأنها تشارك قومها في الإثم، فتدلهم على أضياف لوط إذا نزل به أضياف. ﴿إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ﴾: فكان لوطاً
استعجل ذلك، فقيل له: ﴿أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾ ﴿٩١﴾.

﴿٨٢﴾ ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا﴾: بنزول العذاب وإحلاله فيهم ﴿جَعَلْنَا﴾: ديارهم ﴿عَالِيَهَا سَافِلَهَا﴾؛ أي: قلبناها عليهم،
﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَابًا مِّن سِجِّيلٍ﴾؛ أي: من حجارة النار الشديدة الحرارة، ﴿مَّنْصُورٍ﴾ ﴿٨٣﴾؛ أي: متتابعة تتبع من شد
عن القرية.

﴿٨٤﴾ ﴿مُسَوِّمَةً عِندَ رَبِّكَ﴾؛ أي: معلمة، عليها علامة العذاب والغضب، ﴿وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾: الذين يشابهون
لفعل قوم لوط، ﴿بِعَبِيدٍ﴾ ﴿٨٥﴾؛ فليحذر العباد أن يفعلوا كفعلهم؛ لتلا يصيبهم ما أصابهم.

﴿وَإِلَى مَدِينٍ آخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾... إلى آخر القصة.

﴿٨٦﴾ أي: وأرسلنا إلى ﴿مَدِينٍ﴾: القبيلة المعروفة، الذين يسكنون مدين، في أدنى فلسطين، ﴿آخَاهُ﴾: في النسب،
﴿شُعَيْبًا﴾: لأنهم يعرفونه ويتمكنون من الأخذ عنه، ف ﴿قَالَ﴾ لهم: ﴿يَتَقَوَّمُوا عِبَادُ اللَّهِ مَا لَكُمْ مِّنَ اللَّهِ غَيْرُهُ﴾؛ أي:
أخلصوا له العبادة؛ فإنهم كانوا يشركون به، وكانوا مع شركهم يبخسون المكيال والميزان، ولهذا نهاهم عن ذلك، فقال:
﴿وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ﴾: بل أوفوا الكيل والميزان بالقسط. ﴿إِنِّي أُرْسِلُكُمْ بِخَيْرٍ﴾؛ أي: بنعمة كثيرة وصحة
وكثرة أموال وبنين؛ فاشكروا الله على ما أعطاكم، ولا تكفروا بنعمة الله فيزيلها عنكم. ﴿وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ
تُحِيطُونَ﴾ ﴿٨٧﴾؛ أي: عذاباً يحيط بكم ولا يقي منكم باقية.

به، ﴿وَرَزَقْنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا﴾؛ أي: أعطاني الله من أصناف المال ما أعطاني، وأنا لا ﴿أُرِيدُ أَنْ أَمْلِكَكُمْ إِلَى مَا أَنْتُمْ عَنْهُ﴾؛ فلست أريد أن أنهاكم عن البخس في المكيال والميزان وأفعله أنا حتى تنطبق إلي التهمة في ذلك، بل ما أنهاكم عن أمر إلا وأنا أول مبتدئ لتركه. ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ﴾؛ أي: ليس لي من المقاصد إلا أن تصلح أحوالكم وتستقيم منافعكم، وليس لي من المقاصد الخاصة لي وحدي شيء بحسب استطاعتي. ولما كان هذا فيه نوع تزكية للنفس؛ دفع هذا بقوله: ﴿وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ﴾؛ أي: وما يحصل لي من التوفيق لفعل الخير والانتفاع عن الشر إلا بالله تعالى، لا بحولي ولا بقوتي. ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾؛ أي: اعتمدت في أموري ووثقت في كفايته. ﴿وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾؛ في أداء ما أمرني به من أنواع العبادات، وفي هذا التقرب إليه بسائر أفعال الخيرات، وبهذين الأمرين تستقيم أحوال العبد، وهما الاستعانة بربه والإنابة إليه؛ كما قال تعالى: ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود: ١٢٣]. وقال: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥].

﴿وَنَقُورَ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي﴾؛ أي: لا تحملنكم مخالفتي ومشاقتي، ﴿أَنْ يُصِيبَكُمْ﴾؛ من العقوبات، ﴿يُنْزِلُ مَا أَصَابَ قَوْمٌ نُوحٌ أَوْ قَوْمُ هُودٍ أَوْ قَوْمُ صَالِحٍ وَمَا قَوْمٌ لَوْ طُغِيَ عَنْكُمْ يَصِيبُهُ﴾؛ لا في الدار ولا في الزمان. ﴿وَأَسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ﴾؛ عما اقترفتم من الذنوب، ﴿ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ﴾؛ فيما يستقبل من أعماركم بالتوبة النصوح والإنابة إليه بطاعته وترك مخالفته. ﴿إِنَّ رَبَّ رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾؛ لمن تاب وأناب؛ يرحمه فيغفر له ويتقبل توبته ويحبه.

ومعنى الودود من أسمائه تعالى: أنه يحب عباده المؤمنين ويحبونه؛ فهو فعول بمعنى فاعل ومعنى مفعول.

﴿قَالُوا يَسْعَيْتُ مَا نَفَقَهُ كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ﴾؛ أي: تضجروا من نصائحه ومواظبه لهم، فقالوا: ﴿مَا نَفَقَهُ كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ﴾، وذلك لبغضهم لما يقول ونفرتهم عنه. ﴿وَإِنَّا لَنَرُّكَ فِتْنًا ضَعِيفًا﴾؛ أي: في نفسك لست من الكبار والرؤساء، بل من المستضعفين. ﴿وَلَوْلَا رَهْطُكَ﴾؛ أي: جماعتك وقبيلتك، ﴿لَرَجَمَنَّكَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بَعِزٌّ﴾؛ أي: ليس لك قدر في صدورنا ولا احترام في أنفسنا، وإنما احترمنا قبيلتك بتركنا إياك.

﴿وَيَقُولُ أَوْفُوا أَلْمِكِيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ﴾؛ أي: بالعدل الذي ترضون أن تعطوه، ﴿وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾؛ أي: لا تنقصوا من أشياء الناس، ففسقوها بأخذها بنقص المكيال والميزان، ﴿وَلَا تَمْشُوا فِي الْأَرْضِ مُمْسِدِينَ﴾؛ فإن الاستمرار على المعاصي يفسد الأديان والعقائد والدين والدنيا ويهلك الحرث والنسل.

﴿يَقِيتُ اللَّهُ خَيْرٌ لَكُمْ﴾؛ أي: يكفيكم ما أبقي الله لكم من الخير وما هو لكم؛ فلا تطمعوا في أمر لكم عنه غنية وهو ضار لكم جدًا، ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾؛ فاعملوا بمقتضى الإيمان. ﴿وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِظٍ﴾؛ أي: لست بحافظ لأعمالكم ووكيل عليها، وإنما الذي يحفظها الله تعالى، وأما أنا فأبلغكم ما أرسلت به.

﴿قَالُوا يَسْعَيْتُ أَصْلُوكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرَكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾؛ أي: قالوا ذلك على وجه التهكم بنبيهم والاستبعاد لإجابتهم له، ومعنى كلامهم: أنه لا موجب لنهيك لنا إلا أنك تصلي لله وتعبده؛ فإن كنت كذلك؛ أفوجب لنا أن نترك ما يعبد آباؤنا لقول ليس عليه دليل إلا أنه موافق لك؟ فكيف نتبعك ونترك آباءنا الأقدمين أولي العقول والألباب؟ وكذلك لا يوجب قولك لنا أن نفعل في أموالنا ما قلت لنا من وفاء الكيل والميزان وأداء الحقوق الواجبة فيها، بل لا نزال نفعل فيها ما شئنا؛ لأنها أموالنا، فليس لك فيها تصرف، ولهذا قالوا في تهكمهم: ﴿إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾؛ أي: أئنك أنت الذي الحلم والوقار لك خلق والرشد لك سجية؛ فلا يصدر عنك إلا رشد، ولا تأمر إلا برشد، ولا تنهى إلا عن غي؟ أي: ليس الأمر كذلك، وقصدهم أنه موصوف بعكس هذين الوصفين: بالسفه والغواية؛ أي: أن المعنى: كيف تكون أنت الحليم الرشيد، وآباؤنا هم السفهاء الغاوين؟ وهذا القول الذي أخرجوه بصيغة التهكم وأن الأمر بعكسه ليس كما ظنوه، بل الأمر كما قالوه: إن صلاته تأمره أن ينهاهم عما كان يعبد آباؤهم الضالون وأن يفعلوا في أموالهم ما يشاءون؛ فإن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، وأي فحشاء ومنكر أكبر من عبادة غير الله، ومن منع حقوق عباد الله، أو سرقته بالمكاييل والموازين، وهو عليه الصلاة والسلام الحليم الرشيد؟

﴿قَالَ﴾ لهم شعيب: ﴿يَقُولُ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى يَنْبَغٍ مِنْ رَبِّي﴾؛ أي: يقين وطمأنينة في صحة ما جئت

سورة هود

الحمد لله

وَيَقُولُ لَا يَحْمِلُنَا كُمْ شِقَاقُ أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ
 قَوْمُ نُوحٍ أَوْ قَوْمُ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ
 بِبَعِيدٍ ﴿٩٨﴾ وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي
 رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴿٩٩﴾ قَالُوا يَشْعَبُ مَا نَفَقَهُ كَثِيرًا يَمَّا نَقُولُ
 وَإِنَّا لَنَرِيكَ فِتْنًا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنْتَ
 عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴿١٠٠﴾ قَالَ يَقُولُونَ لَا تُطِيعُوا أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ
 اللَّهِ وَاتَّخَذُوا مِنْهُ وَرَاءَ ظَهْرٍ إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ
 مُحِيطٌ ﴿١٠١﴾ وَيَقُولُونَ أَعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَمِلٌ
 سَوْفَ تَعْلَمُونَ مِنْ بَيْنِهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ
 كَذِبٌ وَأَرْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴿١٠٢﴾ وَلَمَّا جَاءَ
 أَمْرُنَا لَنَجِيَّتَنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتْ
 الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جِثِيمٍ ﴿١٠٣﴾
 كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا آلَا بَعْدًا لِمَدِينٍ كَمَا بَعْدَتْ نُحُودٌ ﴿١٠٤﴾ وَلَقَدْ
 أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴿١٠٥﴾ إِلَى فِرْعَوْنَ
 وَمَلَائِيكِهِ فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴿١٠٦﴾

٢٣٢

﴿٩٢﴾ قَالَ ﴿لَهُمْ مَتَرَقًا لَهُمْ﴾: ﴿يَقُولُونَ أَرَهْطِي أَعَزُّ
 عَلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ﴾؛ أي: كيف تراعونني لأجل رهطي ولا
 تراعونني لله، فصار رهطي أعز عليكم من الله. ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْهُ
 وَرَاءَ ظَهْرٍ﴾؛ أي: نبذتم أمر الله وراء ظهوركم، ولم تبالوا
 به، ولا خفتم منه. ﴿إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾: ﴿٩٢﴾
 لا يخفى عليه من أعمالكم مثقال ذرة في الأرض ولا في
 السماء، فسيجازيكم على ما عملتم أتم الجزاء.

﴿٩٣﴾ ولما أعيوه وعجز عنهم؛ قال: يا قوم ﴿أَعْمَلُوا عَلَى
 مَكَانَتِكُمْ﴾؛ أي: على حالتكم ودينكم. ﴿إِنِّي عَمِلٌ سَوْفَ
 تَعْلَمُونَ مِنْ بَيْنِهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ﴾: ويحل عليه عذاب
 مقيم، أنا أم أنتم، وقد علموا ذلك حين وقع عليهم العذاب،
 ﴿وَأَرْتَقِبُوا﴾: ما يحل بي. ﴿إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ﴾: ﴿٩٣﴾ ما
 يحل بكم.

﴿٩٤﴾ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا ﴿بِإِهْلَاكِ قَوْمِ شُعَيْبٍ﴾: ﴿نَجِيَّتَنَا شُعَيْبًا
 وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتْ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا
 فِي دِيَارِهِمْ جِثِيمٍ﴾: ﴿٩٤﴾ لا تسمع لهم صوتًا، ولا ترى
 منهم حركة.

﴿٩٥﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا ﴿؟﴾ أي: كأنهم ما أقاموا في ديارهم
 ولا تنعموا فيها حين أتاهم العذاب. ﴿آلَا بَعْدًا لِمَدِينٍ﴾: إذ
 أهلكها الله وأخزاه، ﴿كَمَا بَعْدَتْ نُحُودٌ﴾: ﴿٩٥﴾ أي: قد اشتركت هاتان القبلتان في الشُّحِّ والبعد والهلاك.

وشعيب عليه السلام كان يسمى خطيب الأنبياء؛ لحسن مراجعته لقومه. وفي قصته من الفوائد والعبر شيء كثير:

منها: أن الكفار كما يعاقبون ويخاطبون بأصل الإسلام؛ فكذلك بشرائعه وفروعه؛ لأن شعيبًا دعا قومه إلى التوحيد وإلى
 إيفاء المكيال والميزان، وجعل الوعيد مرتبًا على مجموع ذلك.

ومنها: أن نقص المكايل والموازين من كبائر الذنوب وتخشى العقوبة العاجلة على من تعاطى ذلك، وأن ذلك من سرقة
 أموال الناس، وإذا كان سرقته في المكايل والموازين موجبة للوعيد؛ فسرقته على وجه القهر والغلبة من باب أولى
 وأخرى.

ومنها: أن الجزاء من جنس العمل؛ فمن يخنس أموال الناس يريد زيادة ماله؛ عوقب بنقيض ذلك، وكان سببًا لزوال الخير
 الذي عنده من الرزق؛ لقوله: ﴿إِنِّي أَرْسَلْتُكُمْ بِخَيْرٍ﴾؛ أي: فلا تسبوا إلى زواله بفعلكم.

ومنها: أن على العبد أن يقنع بما آتاه الله ويقنع بالحلال عن الحرام وبالمكاسب المباحة عن المكاسب المحرمة، وأن ذلك
 خير له؛ لقوله: ﴿يَقِيتُ اللَّهُ خَيْرَ لَكُمْ﴾؛ ففي ذلك من البركة وزيادة الرزق ما ليس في التكالب على الأسباب المحرمة من
 المحقق وضد البركة.

ومنها: أن ذلك من لوازم الإيمان وآثاره؛ فإنه رتب العمل به على وجود الإيمان، فدل على أنه إذا لم يوجد العمل؛ فالإيمان
 ناقص أو معدوم.

ومنها: أن الصلاة لم تزل مشروعة للأنبياء المتقدمين، وأنها من أفضل الأعمال، حتى إنه متقرر عند الكفار فضلها وتقديمها

ومنها: أن التائب من الذنب كما يسمح له عن ذنبه ويعفى عنه؛ فإن الله تعالى يحبه ويوده، ولا عبرة بقول من يقول: إن التائب إذا تاب؛ فحسبه أن يغفر له ويعود عليه العفو، وأما عود الود والحب؛ فإنه لا يعود؛ فإن الله قال: ﴿وَأَسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾ ﴿٩٦﴾.

ومنها: أن الله يدفع عن المؤمنين بأسباب كثيرة قد يعلمون بعضها وقد لا يعلمون شيئاً منها، وربما دفع عنهم بسبب قبيلتهم وأهل وطنهم الكفار؛ كما دفع الله عن شعيب رجم قومه بسبب رهطه.

وأن هذه الروابط التي يحصل بها الدفع عن الإسلام والمسلمين لا بأس بالسعي فيها، بل ربما تعين ذلك؛ لأن الإصلاح مطلوب على حسب القدرة والإمكان؛ فعلى هذا لو ساعد المسلمون الذين تحت ولاية الكفار، وعملوا على جعل الولاية جمهورية يتمكن فيها الأفراد والشعوب من حقوقهم الدينية والدنيوية؛ لكان أولى من استسلامهم لدولة تقضي على حقوقهم الدينية والدنيوية، وتحرص على إبادتها وجعلهم عملة وخداماً لهم. نعم؛ إن أمكن أن تكون الدولة للمسلمين وهم الحكام؛ فهو المتعين، ولكن لعدم إمكان هذه المرتبة؛ فالمرتبة التي فيها دفع ووقاية للدين والدنيا مقدمة. والله أعلم.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ ﴿٩٦﴾...

﴿٩٦﴾ يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ﴾: ابن عمران ﴿بِآيَاتِنَا﴾: الدالة على صدق ما جاء به؛ كالعصا واليد ونحوهما من الآيات التي أجزاها الله على يدي موسى عليه السلام، ﴿وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ ﴿٩٦﴾؛ أي: حجة ظاهرة بينة ظهرت ظهور الشمس.

﴿٩٧﴾ ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَآلِهِ﴾؛ أي: أشراف قومه؛ لأنهم المتبوعون، وغيرهم تبع لهم، فلم يتقادوا لما مع موسى من الآيات التي أراهم إياها كما تقدم بسطها في سورة الأعراف، ولكنهم اتبعوا ﴿أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ﴾ ﴿٩٧﴾: بل هو ضال غاوٍ، لا يأمر إلا بما هو ضرر محض.

﴿٩٨﴾ لا جرم لما اتبعه قومه؛ أراهم وأهلكهم؛ ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَأَوْدَدَهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ الْوَرْدُ الْمَوْرُودُ﴾ ﴿٩٨﴾.

على سائر الأعمال، وأنها تنهى عن الفحشاء والمنكر، وهي ميزان للإيمان وشرائعه؛ فبقايتها تكمل أحوال العبد، وبعدم إقامتها تختل أحواله الدينية.

ومنها: أن المال الذي يرزقه الله الإنسان، وإن كان الله قد خوله إياه؛ فليس له أن يصنع فيه ما يشاء؛ فإنه أمانة عنده، عليه أن يقيم حق الله فيه بأداء ما فيه من الحقوق والامتناع من المكاسب التي حرّمها الله ورسوله، لا كما يزعمه الكفار ومن أشبههم؛ أن أموالهم لهم أن يصنعوا فيها ما يشاءون ويختارون، سواء وافق حكم الله أو خالفه.

ومنها: أن من تكلمة دعوة الداعي وتماها: أن يكون أول مبادر لما يأمر غيره به وأول منته عما ينهى غيره عنه؛ كما قال شعيب عليه السلام: ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَمْلِكَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنهَضَكُمْ عَنْهُ﴾، ولقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ ﴿٢﴾ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٣﴾ [الصف: ٢، ٣].

ومنها: أن وظيفة الرسل وسنتهم وملتهم إرادة الإصلاح بحسب القدرة والإمكان، فيأتون بتحصيل المصالح وتكميلها أو بتحصيل ما يقدر عليه منها، وبدفع المفساد وتقليلها، ويراعون المصالح العامة على المصالح الخاصة.

وحقيقة المصلحة هي التي تصلح بها أحوال العباد، وتستقيم بها أمورهم الدينية والدنيوية.

ومنها: أن من قام بما يقدر عليه من الإصلاح؛ لم يكن ملوماً ولا مذموماً في عدم فعله ما لا يقدر عليه؛ فعلى العبد أن يقيم من الإصلاح في نفسه وفي غيره ما يقدر عليه.

ومنها: أن العبد ينبغي له ألا يتكل على نفسه طرفة عين، بل لا يزال مستعيناً بربه، متوكلاً عليه، سائلاً له التوفيق، وإذا حصل له شيء من التوفيق؛ فلينسبه لموليه ومسديه ولا يعجب بنفسه؛ لقوله: ﴿وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أَنِيبُ﴾ ﴿٨٨﴾.

ومنها: التهيب بأخذات الأمم، وما جرى عليهم، وأنه ينبغي أن تذكر القصص التي فيها إيقاع العقوبات بالمجرمين في سياق الوعظ والزجر؛ كما أنه ينبغي ذكر ما أكرم الله به أهل التقوى عند الترغيب والحث على التقوى.

سورة هود

الأنبياء

﴿٩٩﴾ وَأَتَّبِعُوا فِي هَذِهِ ۖ أَي: في الدنيا ۖ لَعْنَةُ وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ ۖ أَي: يلعنهم الله وملائكته والناس أجمعون في الدنيا والآخرة. ﴿يَسْ أَلْقَدُ الْمَرْفُودُ ﴿٩٩﴾ ۖ أَي: بس ما اجتمع لهم، وترادف عليهم من عذاب الله ولعنة الدنيا والآخرة.

﴿١٠٠﴾ ولما ذكر قصص هؤلاء الأمم مع رسلهم، قال الله تعالى لرسوله: ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْفَرَى نَقْصُهُ عَلَيْكَ﴾: لتندر به ويكون آية على رسالتك وموعظة وذكرى للمؤمنين. ﴿مِنْهَا قَائِدٌ ۖ﴾: لم يلف، بل بقي من آثار ديارهم ما يدل عليهم. ومنها حصيد: قد تهدمت مساكنهم، واضمحلت منازلهم فلم يبق لها أثر.

﴿١٠١﴾ وَمَا ظَلَمْتَهُمْ ۖ: بأخذهم بأنواع العقوبات، ولكن ظلموا أنفسهم ۖ: بالشرك والكفر والعناد. ﴿فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ﴾: وهكذا كل من التجأ إلى غير الله، لم ينفعه ذلك عند نزول الشدائد. ﴿وَمَا زَادَهُمْ غَيْرَ تَتَابُعٍ ﴿١٠١﴾ ۖ أَي: خسار ودمار بالضد مما خطر ببالهم.

﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْفَرَى وَهِيَ ظَلِيمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلَمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾﴾.

﴿١٠٢﴾ أَي: يقصمهم بالعذاب، ويبيدهم، ولا ينفعهم ما كانوا يدعون من دون الله من شيء.

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ذَلِكَ يَوْمٌ تَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ ﴿١٠٣﴾ وَمَا تُؤْخَرُوهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مَعْدُودٍ ﴿١٠٤﴾ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ﴿١٠٥﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ شَفَعُوا فِي النَّارِ لَمْ يَكُنْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيٌّ ﴿١٠٦﴾ خَلِيلٌ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ سَعَدُوا فِي الْجَنَّةِ خَلِيلٌ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءٌ غَيْرَ مَحْذُورٍ ﴿١٠٨﴾﴾.

﴿١٠٣﴾ ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾: المذكور من أخذه للظالمين بأنواع العقوبات، ﴿لَآيَةً لِمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ﴾؛ أي: لعبرة ودليلاً على أن أهل الظلم والإجرام لهم العقوبة الدنيوية والعقوبة الأخروية. ثم انتقل من هذا إلى وصف الآخرة، فقال: ﴿ذَلِكَ يَوْمٌ تَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ﴾؛ أي: جمعوا لأجل ذلك اليوم، للمجازاة، ول يظهر لهم من عظمة الله وسلطانه وعدله العظيم ما به يعرفونه حق المعرفة. ﴿وَذَلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ ﴿١٠٣﴾﴾؛ أي: يشهده الله وملائكته وجميع المخلوقين.

﴿١٠٤﴾ وَمَا تُؤْخَرُوهُ﴾؛ أي: إتيان يوم القيامة، ﴿إِلَّا لِأَجَلٍ مَعْدُودٍ ﴿١٠٤﴾﴾: إذا انقضى أجل الدنيا، وما قدر الله فيها من الخلق؛ فحيث ينقلهم إلى الدار الآخرة، ويجري عليهم أحكام الجزائية، كما أجرى عليهم في الدنيا أحكامه الشرعية.

﴿١٠٥﴾ ﴿يَوْمَ يَأْتِ﴾: ذلك اليوم ويجتمع الخلق، ﴿لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾: حتى الأنبياء والملائكة الكرام لا يشفعون إلا بإذنه. ﴿فَمِنْهُمْ﴾؛ أي: الخلق ﴿شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ﴿١٠٥﴾﴾: فالأشقياء هم الذين كفروا بالله، وكذبوا رسله وعصوا أمره، والسعداء هم المؤمنون المتقون.

سورة هود

سورة هود

فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَؤُلَاءِ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْْبُدُ
 ءَابَاؤُهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِنَّا لَمُوفُونَ هُمْ نَصِيبُهُمْ غَيْرَ مَقْصُودٍ ١٠٦
 وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتَلَفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ
 سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقَضَىٰ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِمَّنْ مَرِيبٍ
 ١٠٧ وَإِن كَلَامَ لَمَّا يُلَوِّقُ فَيَنْهَمُ رَبُّكَ أَعْمَلَهُمْ إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ
 خَبِيرٌ ١٠٨ فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا
 إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ١٠٩ وَلَا تَرْكَبُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا
 فَمِمَّا كُنْتُمْ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ
 لَا تُنصَرُونَ ١١٠ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَرِفَاقَيْنِ
 الْبَلِّ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّكَرَيْنِ
 ١١١ وَأَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ١١٢ فَلَوْلَا
 كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةً يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ
 فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ
 ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ ١١٣ وَمَا كَانَ
 رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ يَطْلُمُ وَأَهْلُهَا مُضِلَّحُونَ ١١٤

٢٣٤

يَعْبُدُ ءَابَاؤُهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِنَّا لَمُوفُونَ هُمْ نَصِيبُهُمْ غَيْرَ مَقْصُودٍ ١٠٦.

١٠٦ يقول الله تعالى لرسوله محمد ﷺ: ﴿فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِمَّا يَعْبُدُ هَؤُلَاءِ﴾: المشركون؛ أي: لا تشك في حالهم، وأن ما هم عليه باطل؛ فليس لهم دليل شرعي ولا عقلي، وإنما دليلهم وشبهتهم أنهم يعبدون كما يعبد آباؤهم من قبل، ومن المعلوم أن هذا ليس بشبهة فضلاً عن أن يكون دليلاً؛ لأن أقوال ما عدا الأنبياء يحتج لها لا يحتج بها، خصوصاً أمثال هؤلاء الضالين، الذين كثر خطوهم وفساد أقوالهم في أصول الدين؛ فإن أقوالهم وإن اتفقوا عليها؛ فإنها خطأ وضلال. ﴿وَإِنَّا لَمُوفُونَ نَصِيبُهُمْ غَيْرَ مَقْصُودٍ ١٠٦﴾؛ أي: لا بد أن ينالهم نصيبهم من الدنيا مما كتب لهم، وإن كثر ذلك النصيب أو راق في عينك؛ فإنه لا يدل على صلاح حالهم؛ فإن الله يعطي الدنيا من يحب ومن لا يحب، ولا يعطي الإيمان والدين الصحيح إلا من يحب. والحاصل أنه لا يغتر بانفاق الضالين على قول الضالين من آبائهم الأقدمين، ولا على ما خولهم الله، وآتاهم من الدنيا.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتَلَفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقَضَىٰ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِمَّنْ مَرِيبٍ ١٠٧ وَإِن كَلَامَ لَمَّا يُلَوِّقُ فَيَنْهَمُ رَبُّكَ أَعْمَلَهُمْ إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ١٠٨ فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ١٠٩ وَلَا تَرْكَبُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَمِمَّا كُنْتُمْ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ١١٠﴾.

١٠٩ يخبر تعالى أنه أتى موسى الكتاب، الذي هو التوراة، الموجب للاتفاق على أوامره ونواهيه، والاجتماع، ولكن مع هذا؛ فإن المنتسبين إليه اختلفوا فيه اختلافاً أضر بعقائدهم وبيجامعتهم الدينية. ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ﴾: بتأخيرهم وعدم معاجلتهم بالعذاب، ﴿لَقَضَىٰ بَيْنَهُمْ﴾: بإحلال العقوبة بالظالم، ولكنه تعالى اقتضت حكمته أن أخر القضاء بينهم إلى يوم القيامة، وبقوا في شك مريب. وإذا كانت هذه حالهم مع كتابهم؛ فمع القرآن الذي أوحاه الله إليك غير مستغرب من طائفة اليهود ألا يؤمنوا به، وأن يكونوا في شك منه مريب.

﴿وَأَمَّا جَزَاؤُهُمْ﴾: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُّوا﴾؛ أي: حصلت لهم الشقاوة والخزي والفضيحة ﴿فَنَارِ﴾: منغمسون في عذابها مشد عليهم عقابها. ﴿لَمْ فِيهَا﴾: من شدة ما هم فيه ﴿زَفِيرٌ وَسَهْقٌ ١٠٦﴾: وهو أشنع الأصوات وأقبحها.

١٠٧ ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾؛ أي: في النار التي هذا عذابها، ﴿مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾؛ أي: خالدين فيها أبداً إلا المدة التي شاء الله ألا يكونوا فيها، وذلك قبل دخولها؛ كما قاله جمهور المفسرين؛ فالاستثناء على هذا راجع إلى ما قبل دخولها؛ فهم خالدون فيها جميع الأزمان سوى الزمن الذي قبل الدخول فيها. ﴿إِنَّ رَبَّكَ فَقَالَ لَمَّا يُرِيدُ ١٠٧﴾: فكل ما أراد فعله واقتضته حكمته؛ فعله تبارك وتعالى، لا يرده أحد عن مراده.

١٠٨ ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ سَعِدُوا﴾؛ أي: حصلت لهم السعادة والفلاح والغفر، ﴿فَنَارِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾: ثم أكد ذلك بقوله: ﴿عَطَاءٌ غَيْرُ مُجْدِرٍ ١٠٨﴾؛ أي: ما أعطاهم الله من النعيم المقيم واللذة العالية؛ فإنه دائم مستمر غير منقطع بوقت من الأوقات. نسال الله الكريم من فضله.

﴿فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِمَّا يَعْبُدُ هَؤُلَاءِ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا

تقرب إلى الله وتوجب الثواب؛ فإنها تذهب السيئات وتمحوها، والمراد بذلك الصغائر؛ كما قيدتها الأحاديث الصحيحة عن النبي ﷺ؛ مثل قوله: «الصلوات الخمس، والجمعة إلى الجمعة، ورمضان إلى رمضان؛ مكفرات لما بينهن ما اجتنبت الكبائر»^(١)، بل كما قيدتها الآية التي في سورة النساء، وهي قوله عز وجل: ﴿إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا نُهَوْنَ عَنْهُ نَكُفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلَ كَرِيمٍ﴾ [النساء: ٣١]. ﴿ذَلِكَ﴾: لعل الإشارة لكل ما تقدم؛ من لزوم الاستقامة على الصراط المستقيم، وعدم مجاوزته وتعديه، وعدم الركون إلى الذين ظلموا، والأمر بإقامة الصلاة، وبيان أن الحسنات يذهبن السيئات؛ الجميع ﴿وَذَكِّرْ لِلذَّكَرِ﴾ [النساء: ٣١]: يفهمون بها ما أمرهم الله به ونهاهم، ويمثلون لتلك الأوامر الحسنة المثمرة للخيرات الدافعة للشرور والسيئات.

﴿وَلَكِنْ تِلْكَ الْأُمُورُ تَحْتَاجُ إِلَىٰ مَجَاهَدَةِ النَّفْسِ وَالصَّبْرِ عَلَيْهَا، ولهذا قال: ﴿وَأَصْبِرْ﴾؛ أي: احبس نفسك على طاعة الله وعن معصيته وإلزامها لذلك واستمر ولا تضجر. ﴿فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [النساء: ٣١]: بل يتقبل الله عنهم أحسن الذي عملوا ويجزيهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون.

وفي هذا ترغيب عظيم للزوم الصبر بتشويق النفس الضعيفة إلى ثواب الله كلما ونت وفرت.

﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةَ يَتَهَوَّتْ عَنِ الْفَسَادِ إِلَىٰ الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَجْسَنَّا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ﴾ [النساء: ٣١].

﴿لما ذكر تعالى إهلاك الأمم المكذبة للرسول، وأن أكثرهم منحرفون عن أهل الكتب الإلهية، وذلك كله يقضي على الأديان بالذهاب والاضمحلال؛ ذكر أنه لولا أنه جعل في القرون الماضية بقايا من أهل الخير، يدعون إلى الهدى وينهون عن الفساد والردى، فحصل من نفعهم، ما بقيت به الأديان، ولكنهم قليلون جدًا، وغاية الأمر أنهم نجوا باتباعهم المرسلين، وقيامهم بما قاموا به من دينهم، وبكون حجة الله أجراها على أيديهم؛ ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حي عن بينة ولكن اتبع ﴿الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ﴾؛ أي: اتبعوا ما هم فيه من النعيم والترف، ولم ييغوا به بدلًا.

(١) مسلم (٢٣٣).

﴿وَإِنْ كَلَّا لَأَكْفِرَنَّهُمْ رِيبًا أَعْمَلَهُمْ﴾؛ أي: لا بد أن يقضي الله بينهم يوم القيامة بحكمه العدل، فيجازي كلًا بما يستحقه. ﴿إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾: من خير وشر، ﴿خَبِيرٌ﴾ [النساء: ٣١]. فلا يخفى عليه شيء من أعمالهم؛ دقيقتها وجليلها.

﴿ثم لما أخبر بعدم استقامتهم التي أوجبت اختلافهم وافتراقهم؛ أمر نبيه محمدًا ﷺ ومن معه من المؤمنين أن يستقيموا كما أمروا، فيسلوكوا ما شرعه الله من الشرائع، ويعتقدوا ما أخبر الله به من العقائد الصحيحة، ولا يزيغوا عن ذلك يمنة ولا يسرة، ويدوموا على ذلك، ولا يطغوا بأن يتجاوزوا ما حده الله لهم من الاستقامة، وقوله: ﴿إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [النساء: ٣١]؛ أي: لا يخفى عليه من أعمالكم شيء، وسيجازيكم عليها، فيه ترغيب لسلوك الاستقامة وترهيب من ضدها.

﴿ولهذا حذرهم عن الميل إلى ما تعدى الاستقامة، فقال: ﴿وَلَا تَزْكُرُوا﴾؛ أي: لا تميلوا ﴿إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾: فإنكم إذا ملتم إليهم وافقتموهم على ظلمهم أو رضيت ما هم عليه من الظلم؛ ﴿فَتَسْكُ الْتَأَرُ﴾: إن فعلتم ذلك. ﴿وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ﴾: يمنعونكم من عذاب الله، ولا يحصلون لكم شيئًا من ثواب الله. ﴿ثُمَّ لَا تُصْرَفُونَ﴾ [النساء: ٣١]؛ أي: لا يدفع عنكم العذاب إذا مسكم.

ففي هذه الآية التحذير من الركون إلى كل ظالم، والمراد بالركون: الميل والانضمام إليه بظلمه وموافقته على ذلك والرضا بما هو عليه من الظلم، وإذا كان هذا الوعيد في الركون إلى الظلمة؛ فكيف حال الظلمة بأنفسهم؟! نسأل الله العافية من الظلم.

﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلْفًا مِنْ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرٌ لِلذَّكَرِ﴾ [النساء: ٣١] وَأَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ [النساء: ٣١].

﴿يأمر تعالى بإقامة الصلاة كاملة ﴿طَرَفِي النَّهَارِ﴾؛ أي: أوله وآخره، ويدخل في هذا صلاة الفجر وصلاتا الظهر والعصر، ﴿وَزُلْفًا مِنْ اللَّيْلِ﴾: ويدخل في ذلك صلاة المغرب والعشاء، ويتناول ذلك قيام الليل؛ فإنها مما تزلف العبد وتقربه إلى الله تعالى. ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾؛ أي: فهذه الصلوات الخمس وما ألحق بها من التطوعات من أكبر الحسنات، وهي مع أنها حسنات

تستقيم إلا بالامتحان والابتلاء، ولأنه تمت ﴿كَلِمَةً رَبِّكَ لَا تَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ ﴿١١٧﴾: فلا بد أن يسر للنار أهلاً يعملون بأعمالها الموصلة إليها.

﴿وَكَلَّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُنْثِي بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿١١٨﴾ وَقُلْ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ أَعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَمِلُونَ ﴿١١٩﴾ وَأَنْظِرُوا إِنَّا مُنْظِرُونَ ﴿١٢٠﴾ وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٢١﴾﴾.

﴿١١٧﴾ لما ذكر في هذه السورة من أخبار الأنبياء ما ذكر؛ ذكر الحكمة في ذكر ذلك، فقال: ﴿وَكَلَّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُنْثِي بِهِ فُؤَادَكَ﴾؛ أي: قلبك؛ ليطمئن، ويشت، ويصبر كما صبر أولو العزم من الرسل؛ فإن النفوس تأنس بالاعتناء وتنشط على الأعمال، وتريد المنافسة لغيرها، ويتأيد الحق بذكر شواهد وكثرة من قام به. ﴿وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ﴾: السورة ﴿الْحَقُّ﴾: اليقين فلا شك فيه بوجه من الوجوه؛ فالعلم بذلك من العلم بالحق الذي هو أكبر فضائل النفوس. ﴿وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿١١٨﴾؛ أي: يتعظون به فيرتدعون عن الأمور المكروهة ويتذكرون الأمور المحبوبة لله فيفعلونها.

﴿١١٩﴾ وأما من ليس من أهل الإيمان؛ فلا تنفعهم المواعظ وأنواع التذكير، ولهذا قال: ﴿وَقُلْ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾: بعدما قامت عليهم الآيات: ﴿أَعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ﴾؛ أي: حالتكم التي أنتم عليها، ﴿إِنَّا عَمِلُونَ﴾ ﴿١١٩﴾: على ما كنا عليه.

﴿١٢٠﴾ وَأَنْظِرُوا﴾: ما يحل بنا، ﴿إِنَّا مُنْظِرُونَ﴾ ﴿١٢٠﴾: ما يحل بكم.

﴿١٢١﴾ وقد فصل الله بين الفريقين، وأرى عباده نصره لعباده المؤمنين، وقمعه لأعداء الله المكذبين. ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾؛ أي: ما غاب فيهما من الخفايا والأمر الغيبية، ﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ﴾: من الأعمال والعمال، فيميز الخبيث من الطيب، ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾؛ أي: قم بعبادته، وهي جميع ما أمر الله به مما تقدر عليه. ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ [النساء: ٨١]: في ذلك.

﴿وَكَلَّا نُخَبِّرُكَ﴾ ﴿١١٧﴾؛ أي: ظالمين باتباعهم ما أترفوا فيه، فلذلك حق عليهم العقاب واستأصلهم العذاب.

وفي هذا حث لهذه الأمة أن يكون فيهم بقايا؛ مصلحون لما أفسد الناس، قاثمون بدين الله، يدعون من ضل إلى الهدى، ويصبرون منهم على الأذى، ويصبرونهم من العمى، وهذه الحالة أعلى حالة يرغب فيها الراغبون، وصاحبها يكون إماماً في الدين؛ إذا جعل عمله خالصاً لرب العالمين.

﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾ ﴿١١٧﴾﴾.

﴿١١٧﴾ أي: وما كان الله ليهلك القرى بظلم منه لهم والحال أنهم ﴿مُصْلِحُونَ﴾ ﴿١١٧﴾؛ أي: مقيمون على الصلاح مسترون عليه؛ فما كان الله ليهلكهم إلا إذا ظلموا، وقامت عليهم حجة الله.

ويحتمل أن المعنى: وما كان ربك ليهلك القرى بظلمهم السابق إذا رجعوا وأصلحوا عملهم؛ فإن الله يعفو عنهم، ويمحو ما تقدم من ظلمهم.

﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَا تَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١١٩﴾﴾.

﴿١١٨﴾ يخبر تعالى أنه لو شاء لجعل الناس أمة واحدة على الدين الإسلامي؛ فإن مشيئته غير قاصرة، ولا يمتنع عليه شيء، ولكنه اقتضت حكمته ألا يزالوا مختلفين، مخالفين للصرائط المستقيم، متبعين السبل الموصلة إلى النار، كل يرى الحق فيما قاله والضلال في قول غيره.

﴿١١٩﴾ إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ﴾: فهداهم إلى العلم بالحق والعمل به والاتفاق عليه؛ فهو لآ سبقت لهم سابقة السعادة وتداركتهم العناية الربانية والتوفيق الإلهي، وأما من عداهم؛ فهم مخدولون موكلون إلى أنفسهم. وقوله: ﴿وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ﴾؛ أي: اقتضت حكمته أنه خلقهم ليكون منهم السعداء والأشقياء والمتفوقون والمختلفون والفريق الذي هدى الله والفريق الذي حقت عليهم الضلالة؛ ليتبين للعباد عدله وحكمته، وليظهر ما كمن في الطباع البشرية من الخير والشر، وليقوم سوق الجهاد والعبادات التي لا تتم ولا

﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ (١٣٢) : من الخير والشر، بل قد أحاط علمه بذلك، وجرى به قلمه، وسيجري عليه حكمه وجزاؤه.

تم تفسير سورة هود.

والحمد لله رب العالمين. وصلى الله على محمد وسلم.
وكان الفراغ من نسخه في يوم السبت في ٢١ من شهر ربيع الآخر سنة ١٣٤٧.

﴿١٣٢﴾

تفسير سورة

يوسف بن يعقوب عليهما الصلاة والسلام

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الرَّ تِلْكَ ءَايَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ (١) إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢﴾ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الْغَافِلِينَ ﴿٣﴾

﴿١﴾ يخبر تعالى أن آيات القرآن هي ﴿ءَايَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ (١)؛ أي: البين الواضحة ألفاظه ومعانيه.

﴿٢﴾ ومن بيانه وإيضاحه أنه أنزله باللسان العربي، أشرف الألسنة وأبينها، المبين لكل ما يحتاجه الناس من الحقائق النافعة، وكل هذا الإيضاح والتبيين ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ (٢)؛ أي: لتعقلوا حدوده وأصوله وفروعه وأوامره ونواهيه؛ فإذا عقلتم ذلك بإيقانكم، واتصفت قلوبكم بمعرفتها؛ أثمر ذلك عمل الجوارح والانقياد إليه، و﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ (٢)؛ أي: تزداد عقلكم بتكرار المعاني الشريفة العالية على أذهانكم، فتستقلون من حال إلى أحوال أعلى منها وأكمل.

﴿٣﴾ ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾؛ وذلك لصدقها وسلاسة عبارتها ورواق معانيها، ﴿بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ﴾؛ أي: بما اشتمل عليه هذا القرآن الذي أوحيناه إليك وفضلناك به على سائر الأنبياء، وذلك محض منة من الله وإحسان. ﴿وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الْغَافِلِينَ﴾ (٣)؛ أي: ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان قبل أن يوحى الله إليك، ولكن جعلناه نوراً نهدي به من نشاء من عبادنا.

ولما مدح ما اشتمل عليه هذا القرآن من القصص وأنها أحسن القصص على الإطلاق؛ فلا يوجد من القصص في شيء من الكتب مثل هذا القرآن؛ ذكر قصة يوسف وأبيه وإخوته، القصة العجيبة الحسنة فقال:

﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾ (٤) قَالَ يَبْنَؤُكَ لَا نَقْصُ رُءُوكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿٥﴾ وَكَذَلِكَ يَجْنِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦﴾

واعلم أن الله ذكر أنه يقص على رسوله أحسن القصص في هذا الكتاب، ثم ذكر هذه القصة، وبسطها وذكر ما جرى

فيها، فلم بذلك أنها قصة تامة كاملة حسنة؛ فمن أراد أن يكملها أو يحسنها بما يذكر في الإسرائيليات التي لا يعرف لها سند ولا ناقل، وأغلبها كذب؛ فهو مستدرِك على الله، ومكمل لشيء يزعم أنه ناقص، وحسبك بأمر ينتهي إلى هذا الحد قبحاً؛ فإن تضاعف هذه السورة قد ملئت في كثير من التفاسير من الأكاذيب والأمور الشنيعة المناقضة لما قصه الله تعالى بشيء كثير؛ فعلى العبد أن يفهم عن الله ما قصه، ويدع ما سوى ذلك مما ليس عن النبي ﷺ ينقل.

❶ فقله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ﴾: يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم الخليل عليهم الصلاة والسلام، ﴿يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَجْدِينَ﴾: فكانت هذه الرؤيا مقدمة لما وصل إليه يوسف عليه السلام من الارتفاع في الدنيا والآخرة، وهكذا إذا أراد الله أمراً من الأمور العظام؛ قدم بين يديه مقدمة توطئة له وتسهيلاً لأمره، واستعداداً لما يرد على العبد من المشاق، ولطفاً بعبدته وإحساناً إليه فأولها يعقوب بأن الشمس أمه والقمر أبوه والكواكب إخوته، وأنه ستنتقل به الأحوال إلى أن يصير إلى حال يخضعون له ويسجدون له إكراماً وإعظاماً، وأن ذلك لا يكون إلا بأسباب تتقدمه من اجتباء الله له واصطفائه له وإتمام نعمته عليه بالعلم والعمل والتمكين في الأرض،

قَالَ يَبْنَئُ لَا تَقْصُصْ رَأْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا ۚ إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٥﴾ وَكَذَلِكَ يَجْنِبُكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦﴾ لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ ءَايَاتٍ لِّلْسَائِلِينَ ﴿٧﴾ إِذْ قَالُوا لِيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَيْنَا أَيْسَارِنَا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٨﴾ اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوْ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهَ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِن بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ ﴿٩﴾ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ يَلْقَاهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِن كُنْتُمْ فَاعِلِينَ ﴿١٠﴾ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَصِحُونَ ﴿١١﴾ أَرْسَلْنَا مِنْآءَدَا تَرْعَ وَيَلْعَبُ وَإِنَّا لَهُ لَنَحْفُظُونَ ﴿١٢﴾ قَالَ إِنِّي لَخَشِيعَةٌ أَن تَدْهَبُوا بِهِ وَآخَافُ أَن يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذًا لَّخَسِيرُونَ ﴿١٤﴾

وأن هذه النعمة ستشمل آل يعقوب الذين سجدوا له، وصاروا تبعاً له فيها.

❷ ولما تم تعبيرها ليوسف؛ قال له أبوه: ﴿يَبْنَئُ لَا تَقْصُصْ رَأْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا﴾؛ أي: حسداً من عند أنفسهم؛ بأن تكون أنت الرئيس الشريف عليهم. ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾: لا يفتقر عنه ليلاً ولا نهاراً ولا سراً ولا جهاراً؛ فالبعد عن الأسباب التي يتسلط بها على العبد أولى. فامتثل يوسف أمر أبيه، ولم يخبر إخوته بذلك، بل كتمها عنهم.

❸ ولهذا قال: ﴿وَكَذَلِكَ يَجْنِبُكَ رَبُّكَ﴾؛ أي: يصطفيك ويختارك بما منَّ به عليك من الأوصاف الجليلة والمناقب الجميلة، ﴿وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾؛ أي: من تعبير الرؤيا وبيان ما تنول إليه الأحاديث الصادقة كالكتب السماوية ونحوها، ﴿وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ﴾: في الدنيا والآخرة؛ بأن يؤتيك في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة، ﴿كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ﴾: حيث أنعم الله عليهما بنعم عظيمة واسعة دينية ودنيوية. ﴿إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾: أي: علمه محيط بالأشياء وبما احتوت عليه ضمائر العباد من البر وغيره، فيعطي كلاً ما تقتضيه حكمته وحمده؛ فإنه حكيم يضع الأشياء مواضعها، وينزلها منازلها.

﴿لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ ءَايَاتٍ لِّلْسَائِلِينَ﴾: ﴿إِذْ قَالُوا لِيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَيْنَا مِنْآءَدَا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾: ﴿اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوْ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهَ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِن بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ﴾.

❹ يقول تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ ءَايَاتٍ﴾؛ أي: عبر وأدلة على كثير من المطالب الحسنة، ﴿لِّلْسَائِلِينَ﴾: أي: لكل من سأل عنها بلسان الحال أو بلسان المقال؛ فإن السائلين هم الذين يتفتنون بالآيات والعبر، وأما المعرضون؛ فلا يتفتنون بالآيات ولا بالقصص والبيانات.

سبب ولا موجب، والحال: أنا ﴿٨﴾ لَنَصْحُونُ ﴿٩﴾؛ أي: مشفقون عليه نود له ما نود لأنفسنا.

وهذا يدل على أن يعقوب عليه السلام لا يترك يوسف يذهب مع إخته للبرية ونحوها.

﴿١٠﴾ فلما نفوا عن أنفسهم التهمة المانعة لعدم إرساله معهم؛ ذكروا له من مصلحة يوسف وأنسه الذي يحبه أبوه له ما يقتضي أن يسمح بإرساله معهم، فقالوا: ﴿١١﴾ أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ ﴿١٢﴾؛ أي: ينتزه في البرية ويستأنس، ﴿١٣﴾ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿١٤﴾؛ أي: سنراعيه، ونحفظه من أذى يريده.

﴿١٥﴾ فاجابهم بقوله: ﴿١٦﴾ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنَّ تَذْهَبُوا بِهِ ﴿١٧﴾؛ أي: مجرد ذهابكم به يحزنني ويشق علي؛ لأنني لا أقدر على فراقه، ولو مدة يسيرة؛ فهذا مانع من إرساله.

ومانع ثان، وهو أنني أخاف ﴿١٨﴾ أَن يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ ﴿١٩﴾؛ أي: في حال غفلتكم عنه؛ لأنه صغير لا يمتنع من الذئب.

﴿٢٠﴾ قَالُوا لَئِن أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ ﴿٢١﴾؛ أي: جماعة حريصون على حفظه؛ ﴿٢٢﴾ إِنَّا إِذَا لَخَبِيرُونَ ﴿٢٣﴾؛ أي: لا خير فينا ولا نفع يرجى منا إن أكله الذئب وغلبنا عليه.

فلما مهدوا لأبيهم الأسباب الداعية لإرساله وعدم الموانع؛ سمح حينئذ بإرساله معهم لأجل أنسه.

﴿٢٤﴾ فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَاجْمَعُوا أَن يَجْعَلُوهُ فِي غَيْبَتِ الْجُبِّ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٥﴾ وَجَاءَ آبَاؤُهُمْ عِشَاءَ يَبْكُونَ ﴿٢٦﴾ قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَقِيقُ وَرَكْنَا يَوْسُفَ عِنْدَ مَتَّعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ ﴿٢٧﴾ وَجَاءَهُ عَلَى قَيْصِهِ بِدَرٍّ كَذِبٍ قَالِ بَلْ سَوَّكْتُ لَكُمْ أَنْفُسَكُمْ أَمْرًا فَصَبِّرْ بِجِيلٍ وَأَلَّهُ الْمُسْتَغَانِ عَلَى مَا نَصَحُونَ ﴿٢٨﴾.

﴿٢٩﴾ أي: لما ذهب إخوة يوسف بيوسف بعدما أذن له أبوه، وعزموا أن يجعلوه في غيابة الجب كما قال قائلهم السابق ذكره، وكانوا قادرين على ما أجمعوا عليه، فنفلوا فيه قدرتهم، والقوه في الجب، ثم إن الله لطف به بأن أوحى إليه وهو بتلك الحال الحرجة: ﴿٣٠﴾ لَتُنَبِّئَهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٣١﴾؛ أي: سيكون منك معاتبة لهم، وإخبار عن

﴿٣٢﴾ إِذْ قَالُوا ﴿٣٣﴾: فِيمَا بَيْنَهُمْ: ﴿٣٤﴾ لَيُؤَسِّفُ وَأُخُوهُ ﴿٣٥﴾ بنيامين؛ أي: شقيقه، وإلا فكلهم إخوة، ﴿٣٦﴾ أَحَبُّ إِلَيْنَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ ﴿٣٧﴾؛ أي: جماعة، فكيف يفضلهما علينا بالمحبة والشفقة. ﴿٣٨﴾ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٣٩﴾؛ أي: لفي خطأ بين حيث فضلهما علينا من غير موجب نراه، ولا أمر نشاهده.

﴿٤٠﴾ أَقْتُلُوا يُوسُفَ أَوْ طَرْحُوهُ أَرْضًا ﴿٤١﴾؛ أي: غيبوه عن أبيه في أرض بعيدة لا يتمكن من رؤيته فيها؛ فإنكم إذا فعلتم أحد هذين الأمرين؛ ﴿٤٢﴾ يَجْعَلْ لَكُمْ وَجْهًا أَيْكُم ﴿٤٣﴾؛ أي: يتفرغ لكم، ويقبل عليكم بالشفقة والمحبة؛ فإنه قد اشتغل قلبه بيوسف شغلاً لا يتفرغ لكم. ﴿٤٤﴾ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ ﴿٤٥﴾؛ أي: من بعد هذا الصنيع قومًا صالحين؛ أي: تتوبون إلى الله وتستغفرونه من بعد ذنبكم، فقدمو العزم على التوبة قبل صدور الذنب منهم؛ تسهلاً لفعله، وإزالة لشناعته، وتنشيطاً من بعضهم لبعض.

﴿٤٦﴾ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَالْقُوَّةُ فِي غَيْبَتِ الْجُبِّ يَلْقَاهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ ﴿٤٧﴾.

﴿٤٨﴾ أي: ﴿٤٩﴾ قَالَ قَائِلٌ ﴿٥٠﴾: من إخوة يوسف الذين أرادوا قتله أو تبعيده: ﴿٥١﴾ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ ﴿٥٢﴾: فإن قتله أعظم إثماً وأشنع، والمقصود يحصل بتبعيده عن أبيه من غير قتل، ولكن توصلوا إلى تبعيده بأن تلقوه ﴿٥٣﴾ فِي غَيْبَتِ الْجُبِّ ﴿٥٤﴾: وتتوعدوه على أنه لا يخبر بشأنكم، بل على أنه عبد مملوك أبى منكم لأجل أن يلتقطه ﴿٥٥﴾ بَعْضُ السَّيَّارَةِ ﴿٥٦﴾: الذين يريدون مكاناً بعيداً فيحفظون فيه، وهذا القائل أحسنهم رأياً في يوسف وأبرهم وأتقاهم في هذه القضية؛ فإن بعض الشر أهون من بعض، والضرر الخفيف يدفع به الضرر الثقيل. فلما اتفقوا على هذا الرأي:

﴿٥٧﴾ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَصْحُونَ ﴿٥٨﴾ أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿٥٩﴾ قَالِ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنَّ تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ ﴿٦٠﴾ قَالُوا لَئِن أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذَا لَخَبِيرُونَ ﴿٦١﴾.

﴿٦٢﴾ أي: قال إخوة يوسف متوصلين إلى مقصدهم لأبيهم: ﴿٦٣﴾ يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَصْحُونَ ﴿٦٤﴾؛ أي: لأي شيء يدخلك الخوف منا على يوسف من غير

أمرهم هذا، وهم لا يشعرون بذلك الأمر. ففيه بشارة له بأنه سينجو مما وقع فيه، وأن الله سيجمعه بأهله وإخوته على وجه العز والتكئين له في الأرض.

﴿١٦﴾ ﴿وَجَاءَ أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ﴾: ليكون إتيانهم متأخراً عن عاداتهم، ويكاؤهم دليلاً لهم وقرينة على صدقهم.

﴿١٧﴾ فقالوا معتردين بعذر كاذب: ﴿يَبَايَأْنَا إِيَّاهُ فَكُذِّبُوا﴾: إما على الأقدام أو بالرمي والنضال، ﴿وَوَكَّلْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَّعِنَا﴾: توفيراً له وراحة، ﴿فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ﴾: في حال غيبتنا عنه واستبقا. ﴿وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ﴾: أي: تعذرنا بهذا العذر، والظاهر أنك لا تصدقنا؛ لما في قلبك من الحزن على يوسف والرقعة الشديدة عليه، ولكن عدم تصديقك إيانا لا يمنعنا أن نعتذر بالعذر الحقيقي. وكل هذا تأكيد لعذرهم.

﴿١٨﴾ ومما أكدوا به قولهم أنهم جاءوا: ﴿عَلَى قَيْصِهِ يَدِيرُ كُتُبَ آبَائِهِمْ﴾: زعموا أنه دم يوسف حين أكله الذئب، فلم يصدقهم أبوه بذلك، ﴿وَقَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا﴾: أي: زينت لكم أنفسكم أمراً قبيحاً في التفريق بيني وبينه؛ لأنه رأى من القرائن والأحوال ومن رؤيا يوسف التي قصها عليه ما دله على ما قال. ﴿فَصَبَّرْ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾: ﴿١٩﴾

أي: أما أنا؛ فوظيفتي ساحر ص على القيام بها، وهي أني أصبر على هذه المحنة صبراً جميلاً سالماً من السخط والتشكي إلى الخلق، وأستعين الله على ذلك لا على حولي وقوتي، فوعد من نفسه هذا الأمر، وشكا إلى خالقه في قوله: ﴿إِنَّمَا أَشْكُوا بِنِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ﴾: [يوسف: ٨٦]؛ لأن الشكوى إلى الخالق لا تنافي الصبر الجميل؛ لأن النبي إذا وعد وفي.

﴿وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ قَالَ يَبُشِّرُكَ هَذَا غُلَامٌ وَأَسَرُّهُ بَضْعَةً﴾: ﴿٢٠﴾ ﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ﴾: ﴿٢١﴾

﴿١٩﴾ أي: مكث يوسف في الحب ما مكث، حتى جاءت ﴿سَيَّارَةٌ﴾: أي: قافلة تريد مصر، ﴿فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ﴾: أي: فرطهم ومقدمهم الذي يعس لهم المياه ويسبرها ويستعد لهم بتهيئة الحياض ونحو ذلك، ﴿فَأَدْلَى﴾: ذلك الوارد ﴿دَلْوَهُ﴾: فتعلق فيه يوسف عليه السلام وخرج، فقال: ﴿يَبُشِّرُكَ هَذَا غُلَامٌ﴾: أي: استبشر وقال: هذا غلام نفيس، ﴿وَأَسَرُّهُ بَضْعَةً﴾.

﴿٢٠﴾ وكان إخوته قريباً منه، فاشتره السيارة منهم ﴿بِثَمَنٍ بَخْسٍ﴾: أي: قليل جداً، فسر به قوله: ﴿دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ﴾: لأنه لم يكن لهم قصد إلا تنغييه وإبعاده عن أبيه، ولم يكن لهم قصد في أخذه ثمنه. والمعنى في هذا أن السيارة لما وجدوه؛ عزموا أن يسروا أمره، ويجعلوه من جملة بضائعهم التي معهم، حتى جاءهم إخوته، فزعموا أنه عبد أبق منهم، فاشتروه منهم بذلك الثمن، واستوثقوا منهم فيه لثلا يهرب. والله أعلم.

﴿وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ أَوْ نَخِذْهُ وَلَدَّا وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾: ﴿٢١﴾

﴿٢١﴾ أي: لما ذهب به السيارة إلى مصر وباعوه بها، فاشتراه عزيز مصر، فلما اشتراه؛ أعجب به ووصى عليه أمرته وقال:

سورة يوسف
لَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَاجْتَمَعُوا أَن يُعْجِلُوهُ فِي غَيْبَتِ الْجُمُعَةِ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْنَا لَنُنَزِّلَهُمْ فِيهِمْ بَأْتَرَهُمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٦﴾ وَجَاءَ وَابَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ ﴿١٧﴾ قَالُوا يَبَايَأْنَا إِيَّاهُ فَكُذِّبُوا وَوَكَّلْنَا يُونُسَ عِنْدَ مَتَّعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ ﴿١٧﴾ وَجَاءَ عَلَى قَيْصِهِ يَدِيرُ كُتُبَ آبَائِهِمْ قَالُوا بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبَّرْ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾ وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ قَالَ يَبُشِّرُكَ هَذَا غُلَامٌ وَأَسَرُّهُ بَضْعَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَى أَن يَنْفَعَنَا أَوْ نَخْذَهُ وَلَدَّا وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَآتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٢٢﴾

﴿أَكْرَمِي مَثْوَاهُ عَسَىٰ أَن يَنْفَعَنَا أَوْ نَنْجِيَهُ وَلَئِكَ﴾؛ أي: إما أن
 ينفعنا كنعف العبيد بأنواع الخدم، وإما أن نستمتع فيه استمتاعنا
 بأولادنا، ولعل ذلك أنه لم يكن لهما ولد. ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾
 ﴿مَكَّنَّا يَٰيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ﴾؛ أي: كما يسرنا أن يشتريه عزيز
 مصر ويكرمه هذا الإكرام؛ جعلنا هذا مقدمة لتمكينه في
 الأرض من هذا الطريق. ﴿وَلِنُعَلِّمَهُ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾؛
 إذا بقي لا شغل له ولا هم له سوى العلم؛ صار ذلك من
 أسباب تعلمه علماً كثيراً من علم الأحكام وعلم التعبير
 وغير ذلك. ﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ﴾؛ أي: أمره تعالى نافذ
 لا يبطله مبطل ولا يغلبه مغالب. ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا
 يَعْلَمُونَ﴾. فلذلك يجري منهم، ويصدر ما يصدر في
 مغالبة أحكام الله القدرية، وهم أعجز وأضعف من ذلك.
 ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ ءَاتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي
 الْمُحْسِنِينَ﴾.

﴿٢٢﴾ أي: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ﴾ يوسف ﴿أَشُدَّهُ﴾؛ أي: كمال
 قوته المعنوية والحسية وصلح لأن يتحمل الأحمال الثقيلة
 من النبوة والرسالة؛ ءَاتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا؛ أي: جعلناه نبياً
 رسولاً وعالماً ربانياً. ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾. في
 عبادة الخالق ببذل الجهد والنصح فيها، وإلى عباد الله ببذل
 النفع والإحسان إليهم؛ نؤتيهم من جملة الجزاء على إحسانهم علماً نافعا. ودل هذا على أن يوسف وفي مقام الإحسان،
 فأعطاه الله الحكم بين الناس والعلم الكثير والنبوة.

﴿وَرَوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا
 يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾. ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهٖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَن رَّءَا بُرْهَانَ رَبِّهٖ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِن
 عِبَادِنَا الْمُتَّخِصِّصِينَ﴾. ﴿٢٤﴾ وَأَسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصُهُ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا الْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ
 سُوءًا إِلَّا أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾. ﴿٢٥﴾ قَالَ هِيَ رَوَدَّتْنِي عَن نَّفْسِي وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا إِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن قُبُلٍ
 فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾. ﴿٢٦﴾ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾. ﴿٢٧﴾ فَلَمَّا رَأَىٰ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ
 إِنَّهُ مِّنْ كَذِبِكُمْ إِنِ كُنْتُمْ عَاظِمِينَ﴾. ﴿٢٨﴾ يَٰيُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ﴾. ﴿٢٩﴾

﴿وَرَوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا
 يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾. ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهٖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَن رَّءَا بُرْهَانَ رَبِّهٖ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِن
 عِبَادِنَا الْمُتَّخِصِّصِينَ﴾. ﴿٢٤﴾ وَأَسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصُهُ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا الْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ
 سُوءًا إِلَّا أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾. ﴿٢٥﴾ قَالَ هِيَ رَوَدَّتْنِي عَن نَّفْسِي وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا إِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن قُبُلٍ
 فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾. ﴿٢٦﴾ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾. ﴿٢٧﴾ فَلَمَّا رَأَىٰ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ
 إِنَّهُ مِّنْ كَذِبِكُمْ إِنِ كُنْتُمْ عَاظِمِينَ﴾. ﴿٢٨﴾ يَٰيُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ﴾. ﴿٢٩﴾

هذه المحنة العظيمة أعظم على يوسف من محنة إخوته وصبره عليها، أعظم أجراً لأنه صبر اختيار مع وجود الدواعي
 الكثيرة لوقوع الفعل، فقدم محبة الله عليها، وأما محنته بإخوته؛ فصبره صبر اضطرار؛ بمنزلة الأمراض والمكاره التي تصيب
 العبد بغير اختياره، وليس له ملجأ إلا الصبر عليها طائعاً أو كارهاً.

﴿٢٣﴾، ﴿٢٤﴾ وذلك أن يوسف عليه الصلاة والسلام بقي مكرماً في بيت العزيز، وكان له من الجمال والكمال والبهاء
 ما أوجب ذلك أن راودته ﴿الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ﴾؛ أي: هو غلامها وتحت تدبيرها والمسكن واحد يتيسر إيقاع الأمر
 المكروه من غير شعور أحد ولا إحساس بشر. وزادت المصيبة بأن غلقت ﴿الْأَبْوَابَ﴾؛ وصار المحل خالياً، وهما أمانان من
 دخول أحد عليهما بسبب تغلق الأبواب. وقد دعت إلى نفسها، فقالت: ﴿هَيْتَ لَكَ﴾؛ أي: افعل الأمر المكروه وأقبل إلي!

لنيه وصفيه يوسف عليه السلام، فانبعث شاهد من أهل بيتها يشهد بقرينة من وجدت معه فهو الصادق، فقال: ﴿إِنْ كَانَتْ قَمِيصُهُ قَدْ مِنْ قُبْلِ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَذَّابِينَ﴾ ١٦؛ لأن ذلك يدل على أنه هو المقبل عليها المارود لها المعالج، وأنها أرادت أن تدفعه عنها، فشقت قميصه من هذا الجانب. ﴿وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قَدْ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ ١٧؛ لأن ذلك يدل على هروبه منها؛ وأنها هي التي طلبته، فشقت قميصه من هذا الجانب.

﴿فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قَدْ مِنْ دُبُرٍ﴾: عرف بذلك صدق يوسف وبرأته وأنها هي الكاذبة، فقال لها سيدها: ﴿إِنَّهُ مِنْ كَذِبِكُمْ إِنَّ كَيْدَكُمْ عَظِيمٌ﴾ ١٨؛ وهل أعظم من هذا الكيد الذي برأت به نفسها مما أرادت وفعلت ورمت به نبي الله يوسف عليه السلام؟!

﴿ثُمَّ إِنْ سَيِّدُهَا لَمَّا تَحَقَّقَ الْأَمْرُ﴾: قال ليوسف: ﴿يُؤَسِّفُ أَعْرَضَ عَنْ هَذَا﴾؛ أي: أترك الكلام فيه وتناسه ولا تذكره لأحد طلباً للستر على أهله. ﴿وَأَسْتَغْفِرِي﴾: أي: أيتها المرأة، ﴿لِذُنُوبِي إِنَّكَ كُنْتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ﴾ ١٩؛ فأمر يوسف بالإعراض، وهي بالاستغفار والتوبة.

﴿وَقَالَ يَسُوْفُ فِي الْمَدِيْنَةِ أَمْرَاتُ الْعَزِيْزِ تَرْوُدُ فَتَنْهَا عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ ٢٠ ﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكًا وَآتَتْ كُلَّ وَجْدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ ٢١ ﴿قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رُودْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِنْ لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونَا مِنَ الصَّغِيرِينَ﴾ ٢٢ ﴿قَالَ رَبِّ ائْسَجْنِ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْغَالِيْنَ﴾ ٢٣ ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ ٢٤ ﴿ثُمَّ بَدَأَ لَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الْآيَاتِ لَيْسَجُنَّهُ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ ٢٥.

﴿٢٠﴾ يعني: أن الخبر اشتهر وشاع في البلد، وتحدث به النسوة، فجعلن يلمنها ويقلن: ﴿أَمْرَاتُ الْعَزِيْزِ تَرْوُدُ فَتَنْهَا عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا﴾؛ أي: هذا أمر مستفح! هي امرأة كبيرة القدر وزوجها كبير القدر ومع هذا لم تزل تراود فتاها

ومع هذا؟ فهو غريب لا يحتشم مثله ما يحتشمه إذا كان في وطنه وبين معارفه، وهو أسير تحت يدها، وهي سيدته، وفيها من الجمال ما يدعو إلى ما هنالك، وهو شاب عذب، وقد توعدته إن لم يفعل ما تأمره به بالسجن أو العذاب الأليم، فصر عن معصية الله مع وجود الداعي القوي فيه؛ لأنه قد هم فيها هما تركه لله، وقدم مراد الله على مراد النفس الأمارة بالسوء، ورأى من برهان ربه - وهو ما معه من العلم والإيمان الموجب لترك كل ما حرم الله - ما أوجب له البعد والانكفاف عن هذه المعصية الكبيرة، ﴿وَقَالَ مَعَادَ اللَّهِ﴾؛ أي: أعوذ بالله أن أفعل هذا الفعل القبيح؛ لأنه مما يسخط الله ويبعد عنه، ولأنه خيانة في حق سيدي الذي أكرم مثواي؛ فلا يليق بي أن أقبله في أهله بأقبح مقابلة، وهذا من أعظم الظلم، والظالم لا يفلح.

والحاصل أنه جعل الموانع له من هذا الفعل: تقوى الله، ومراعاة حق سيده الذي أكرمه، وصيانة نفسه عن الظلم الذي لا يفلح من تعاطاه، وكذلك ما من الله عليه من برهان الإيمان الذي في قلبه يقتضي منه امتثال الأوامر واجتناب الزواجر، والجامع لذلك كله أن الله صرف عنه السوء والفحشاء؛ لأنه من عباده المخلصين له في عباداتهم، الذين أخلصهم الله واختارهم واختصهم لنفسه، وأسدى عليهم من النعم، وصرف عنهم من المكروه ما كانوا به من خيار خلقه.

﴿٢٠﴾ ولما امتنع من إجابة طلبها بعد المارودة الشديدة؛ ذهب ليهرب منها ويبادر إلى الخروج من الباب ليتخلص ويهرب من الفتنة، فبادرته إليه وتعلقت بثوبه، فشقت قميصه، فلما وصلا إلى الباب في تلك الحال؛ ألقيا سيدها - أي: زوجها - لدى الباب، فرأى أمراً شق عليه، فبادرت إلى الكذب، وأن المارودة قد كانت من يوسف، وقالت: ﴿مَا جَرَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا﴾؛ ولم تقل: من فعل بأهلك سوءاً؛ تبرئة لها وتبرئة له أيضاً من الفعل، وإنما النزاع عند الإرادة والمراودة، ﴿إِلَّا أَنْ يُسَجَّنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ٢٥؛ أي: أو يعذب عذاباً أليماً.

﴿٢٦﴾ فبرأ نفسه مما رمت به، و﴿قَالَ هِيَ رَوَدَّتْنِي عَنْ نَفْسِي﴾: فحيثما احتملت الحال صدق كل واحد منهما، ولم يعلم أيهما، ولكن الله تعالى جعل للحق والصدق علامات وأمارات تدل عليه، قد يعلمها العباد وقد لا يعلمونها؛ فمن الله [تعالى] في هذه القضية بمعرفة الصادق منها تبرئة

الذي تحت يدها وفي خدمتها عن نفسه، ومع هذا؛ فإن حبه قد بلغ من قلبها مبلغاً عظيماً. ﴿قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا﴾؛ أي: وصل حبه إلى شغاف قلبها، وهو باطنه وسويداؤه، وهذا أعظم ما يكون من الحب. ﴿إِنَّا لَنَرْنَهَا فِي صَلَاجٍ خَيْرٍ﴾: حيث وجدت منها هذه الحالة التي لا ينبغي منها، وهي حالة تحط قدرها وتضعه عند الناس.

﴿٣١﴾ وكان هذا القول منهن مكرًا ليس المقصود به مجرد اللوم لها والقدرح فيها، وإنما أردن أن يتوصلن بهذا الكلام إلى رؤية يوسف الذي فنتت به امرأة العزيز لتحقق امرأة العزيز وتريهن إياه ليعذرنها، ولهذا سماه مكرًا، فقال: ﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ﴾: تدعوهم إلى منزلها للضيافة، ﴿وَأَعَدَّتْ لَهُنَّ مَثَاجِرَ﴾؛ أي: محلًا مهيبًا بأنواع الفرش والوسائد وما يقصد بذلك من المأكّل اللذيذة، وكان في جملة ما أتت به وأحضرت في تلك الضيافة طعام يحتاج إلى سكين: إما تُرْج أو غيره. ﴿وَأَتَتْ كُلَّ وَجْدَةٍ مِّنْ سَيِّدَاتِهَا﴾: ليقطعن فيها ذلك الطعام، ﴿وَقَالَتْ لِيُوسُفُ﴾: أخرج عليهن؛ في حالة جماله وبهائه، ﴿فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ﴾؛ أي: أعظمته في صدورهن ورأين منظراً فائقاً لم يشاهدن مثله؛ ﴿وَقَطَّعْنَ مِنْ الدَّهْشِ أَصْوَافَهُنَّ﴾: بتلك السكاكين اللاتي معهن، ﴿وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ﴾؛ أي: تنزيهاً لله، ﴿مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾: وذلك أن يوسف أعطي من الجمال الفائق والنور والبهاء ما كان به آية للنظرين وعبرة للمتأملين.

﴿٣٢﴾ فلما تقرر عندهن جمال يوسف الظاهر، وأعجبهن غاية، وظهر منهن من العذر لامرأة العزيز شيء كثير؛ أرادت أن تريهن جماله الباطن بالعفة التامة، فقالت معلنة لذلك ومبينة لحبه الشديد غير مبالية ولأن اللوم انقطع عنها من النسوة: ﴿وَلَقَدْ رَوَدْنَهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ﴾؛ أي: امتنع، وهي مقيمة على مراودته، لم تزدها مرور الأوقات إلا محبة وشوقاً وقلقاً لوصاله وتوقاً، ولهذا قالت له بحضرتهن: ﴿وَلَكِنْ لَّمْ يَفْعَلْ مَا ءَامُرُهُ لِيَسْجَنَ وَلِيَكُونَا مِنَ الصَّغِيرِينَ﴾: لتلجته بهذا الوعيد إلى حصول مقصودها منه.

﴿٣٣﴾ فعند ذلك اعتصم يوسف بربه، واستعان به على كيدهن و﴿قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ﴾: وهذا يدل على أن النسوة جعلن يشرن على يوسف في مطاوعة سيده، وجعلن يكيدنه في ذلك، فاستحب السجن والعذاب الديني على لذة حاضرة توجب العذاب الشديد. ﴿وَلَا يَصْرِفُ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ﴾؛ أي: أمل إليهن؛ فإني ضعيف عاجز إن لم تدفع عني السوء؛ صبوت إليهن، ﴿وَأَكُنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾: فإن هذا جهل؛ لأنه أثر لذة قليلة منغصة على لذات متابعات وشهوات متنوعة في جنات النعيم، ومن أثر هذا على هذا؛ فمن أجهل منه؟! فإن العلم والعقل يدعو إلى تقديم أعظم المصلحتين وأعظم اللذتين، ويؤثر ما كان محمود العاقبة.

﴿٣٤﴾ ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ﴾: حين دعاه، ﴿فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ﴾: فلم تزل تراوده وتستعين عليه بما تقدر عليه من الوسائل، حتى أيسها، وصرف الله عنه كيدها. ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ﴾: لدعاء الداعي، ﴿الْعَلِيمُ﴾: بنيتها الصالحة وبنيتها الضعيفة المقتضية لإمداده بمعونته ولطفه، فهذا ما نجى الله به يوسف من هذه الفتنة الملمة والمحنة الشديدة.

سورة يوسف
فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعَدَّتْ لَهُنَّ مَثَاجِرَ وَآتَتْ كُلَّ وَجْدَةٍ مِّنْ سَيِّدَاتِهَا وَوَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾ قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَكِنْ لَّمْ يَفْعَلْ مَا ءَامُرُهُ لِيَسْجَنَ وَلِيَكُونَا مِنَ الصَّغِيرِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَلَا يَصْرِفُ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٣٣﴾ فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ بَدَأْ لَهُمْ مِن بَعْدِ مَا رَأَوُا آلِئَاتٍ لِّيَسْجُنَّهُ حَتَّى حِينٍ ﴿٣٥﴾ وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أُتْرَجُ فَخَرَّبْتُ عَلَىٰ أُخْرَىٰ وَأَقْبَرُ خَيْرًا قَالَ لِيُوسُفُ إِنَّكَ مُدْخَلُ الْمَسْجِنِ وَإِنَّا نَظُنُّكَ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٣٦﴾ قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَأُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿٣٧﴾

﴿٢٥﴾ وأما أسياده؛ فإنه لما اشتهر الخبر وبان وصار الناس فيها بين عاذر ولائم وقادح، ﴿بَدَأْتُمْ﴾؛ أي: ظهر لهم ﴿مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوْا آيَاتِي﴾؛ الدالة على براءته، ﴿لَيْسَ جُنُتُهُ حَتَّى جِئَ﴾؛ أي: لينقطع بذلك الخبر ويتناساه الناس؛ فإن الشيء إذا شاع؛ لم يزل يذكر، ويشاع مع وجود أسبابه؛ فإذا عذمت أسبابه؛ نسي، فراوا أن هذا مصلحة لهم، فأدخلوه في السجن.

﴿وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانٍ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْرًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ ﴿٢٦﴾ قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِيهِ إِلَّا نَبَّأُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ذَلِكَ مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿٢٧﴾ وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَتْ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٢٨﴾ بَصَّحْتِ السِّجْنَ بِأَرْبَابٍ مُتَفَرِّقِينَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿٢٩﴾ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءَ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ إِلَهُ الْيَقِينِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ بَصَّحْتِ السِّجْنَ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا وَأَمَّا الْآخَرُ فَيُصْلِبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ فَبُؤْسَ الْأُمْرِ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴿٣١﴾

﴿٣١﴾ أي: ولما دخل يوسف السجن؛ كان في جملة من دخل ﴿مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانٍ﴾؛ أي: شابان، فرأى كل واحد منهما رؤيا، فقصها على يوسف ليعبرها، ﴿قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْرًا﴾؛ وذلك الخبز ﴿تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ﴾؛ أي: بتفسيره وما يتول إليه أمرهما. وقولهما: ﴿إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾؛ أي: من أهل الإحسان إلى الخلق؛ فأحسن إلينا في تعبيرك لرؤيانا كما أحسنت إلى غيرنا، فتوسلا ليوسف بإحسانه.

﴿٣٧﴾ ف ﴿قَالَ﴾ لهما مجيبًا لطلبهما: ﴿لَا يَأْتِيَكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِيهِ إِلَّا نَبَّأُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا﴾؛ أي: فلتطمئن قلوبكما فإني سأبادر إلى تعبير رؤياكما، فلا يأتیکما غداكما

أو عشاؤكما أول ما يجيء إليكما؛ إلا نبأتكما بتأويله قبل أن يأتیکما، ولعل يوسف عليه الصلاة والسلام قصد أن يدعوهما إلى الإيمان في هذه الحال التي بدت حاجتهما إليه؛ ليكون أنجع لدعوته وأقبل لهما. ثم قال: ﴿ذَلِكَ﴾؛ التعبير الذي سأعبره لكما، ﴿مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي﴾؛ أي: هذا من علم الله علمنيه وأحسن إلي به. وذلك ﴿إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾؛ والترك كما يكون للداخل في شيء ثم يتنقل عنه يكون لمن لم يدخل فيه أصلاً؛ فلا يقال: إن يوسف كان من قبل على غير ملة إبراهيم.

﴿٣٨﴾ وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾؛ ثم فسر تلك الملة بقوله: ﴿مَا كَانَتْ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾؛ أي: ما ينبغي ولا يليق بنا ﴿أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾؛ بل نفرد الله بالتوحيد ونخلص له الدين والعبادة. ﴿ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ﴾؛ أي: هذا من أفضل منته وإحسانه وفضله علينا وعلى من هداه الله كما هدانا؛ فإنه لا أفضل من منه الله على العباد بالإسلام والدين القويم؛ فمن قبله وانقاد له؛ فهو حظه، وقد حصل له أكبر النعم وأجل الفضائل. ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾؛ فلذلك تأتيم المنة والإحسان فلا يقبلونها ولا يقومون لله بحقه. وفي هذا من الترتيب للطريق التي هو عليها ما لا يخفى؛ فإن الفتيتين لما تقرر عنده أنهما رآياه بعين التعظيم والإجلال وأنه محسن معلم؛ ذكر لهما أن هذه الحالة التي أنا عليها كلها من فضل الله وإحسانه، حيث منَّ عليّ بترك الشرك واتباع ملة آبائي؛ فبهذا وصلت إلى ما رأيتم، فينبغي لكما أن تسلكا ما سلكت.

﴿٣٩﴾ ثم صرح لهما بالدعوة فقال: ﴿بَصَّحْتِ السِّجْنَ بِأَرْبَابٍ مُتَفَرِّقِينَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾؛ أي: أرباب عاجزة ضعيفة لا تنفع ولا تضر ولا تطي ولا تمنع وهي متفرقة ما بين أشجار وأحجار وملائكة وأموات وغير ذلك من أنواع المعبودات التي يتخذها المشركون، أهلك خير أم الله الذي له صفات الكمال الواحد في ذاته وصفاته وأفعاله؟ فلا شريك له في شيء من ذلك، القهار الذي انتقادت الأشياء لقهره وسلطانه؛ فما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، ما من دابة إلا هو أخذ بناصيته.

﴿٤٠﴾ ومن المعلوم أن من هذا شأنه ووصفه خير من الآلة المتفرقة التي هي مجرد أسماء لا كمال لها ولا فعال لديها، ولهذا قال: ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءَ سَمَّيْتُمُوهَا

أَتُنْعَرُ وَابَاؤُكُمْ؟ أَي: كسوتوها أسماء وسميتوها آلهة، وهي لا شيء، ولا فيها من صفات الألوهية شيء. ﴿مَا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ﴾: بل أنزل الله السلطان بالنهي عن عبادتها وبيان بطلانها، وإذا لم ينزل الله بها سلطاناً؛ لم يكن طريق ولا وسيلة ولا دليل لها. لأن الحكم لله. ﴿وَحْدَهُ﴾: وهو الذي يأمر وينهى ويشرع الشرائع ويسن الأحكام، وهو الذي أمركم ﴿أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الَّذِينَ الْقَتَلْتُمْ﴾؛ أَي: المستقيم الموصل إلى كل خير، وما سواه من الأديان؛ فإنها غير مستقيمة، بل معوجة توصل إلى كل شر. ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾: ﴿حَقَائِقُ الْأَشْيَاءِ﴾، وإلا؛ فإن الفرق بين عبادة الله وحده لا شريك له وبين الشرك به أظهر الأشياء وأبينها، ولكن لعدم العلم من أكثر الناس بذلك حصل منهم ما حصل من الشرك. فيوسف عليه السلام دعا صاحبي السجن لعبادة الله وحده وإخلاص الدين له، فيحتمل أنهما استجابا وانقادا فتمت عليهما النعمة، ويحتمل أنهما لم يزاالا على شركهما، فقامت عليهما بذلك الحجة.

﴿٤١﴾ ثم إنه عليه السلام شرع يعبر رؤياهما بعدما وعدهما ذلك، فقال: ﴿يَصْنَعِي السِّجْنَ أَمَّا أَحَدُكُمَا﴾: وهو الذي رأى أنه يعصر خمراً؛ فإنه يخرج من السجن، ويسقي ربه، خمراً؛ أَي: يسقي سيده الذي كان يخدمه خمراً، وذلك

مستلزم لخروجه من السجن. ﴿وَأَمَّا الْآخَرُ﴾: وهو الذي رأى أنه يحمل فوق رأسه خبزاً تأكل الطير منه، ﴿فَيَصْلُبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ﴾: فإنه عبر عن الخبز الذي تأكله الطير بلحم رأسه وشحمه وما فيه من المخ، وأنه لا يقبر ويستر عن الطيور، بل يصلب ويجعل في محل تتمكن الطيور من أكله، ثم أخبرهما بأن هذا التأويل الذي تأوله لهما أنه لا بد من وقوعه، فقال: ﴿قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾؛ أَي: تسألان عن تعبيره وتفسيره.

﴿وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِنْهُمَا أَذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ فَأَنْسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ﴾.

﴿٤٢﴾ أَي: ﴿يوسف عليه السلام﴾ ﴿لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِنْهُمَا﴾: وهو الذي رأى أنه يعصر خمراً: ﴿أَذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ﴾؛ أَي: اذكر له شأني وقصتي لعله يرق لي فيخرجني مما أنا فيه، ﴿فَأَنْسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ﴾؛ أَي: فأنسى الشيطان ذلك الناجي ذكر الله تعالى وذكر ما يقرب إليه، ومن جملة ذلك نسيانه ذكر يوسف الذي يستحق أن يجازى بأتم الإحسان، وذلك ليعلم الله أمره وقضاه. ﴿فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ﴾. والبضع من الثلاث إلى التسع، ولهذا قيل: إنه لبث سبع سنين.

ولما أراد الله أن يتم أمره ويأذن بإخراج يوسف من السجن؛ قدر لذلك سبباً لإخراج يوسف وارتفاع شأنه وإعلاء قدره وهو رؤيا الملك.

﴿وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَنَعُ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعُ عِجَافٍ وَسَنَعُ سُبُلَكُتٍ خُضِرٍ وَأُخَرَ يَابِسَتٍ يَأْتِيَانِهَا أَلْمَلَأُ أَفْتُونٍ فِي رُءْيَايَ إِن كُنْتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ﴾. ﴿٤٣﴾ قَالُوا أَضْغَنْتَ أَحْلَامَ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعِلْمٍ. ﴿٤٤﴾ وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا

سورة يوسف
وَأَتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِتْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَتْ لَنَا أَنْ تُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٨﴾ يَصْنَعِي السِّجْنَ أَرَأَيْتَ إِنْ أَنزَلَ اللَّهُ إِلَهُ الْوَحْدَ الْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءُ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَءَابَاؤُكُمْ مَا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الَّذِينَ الْقَتَلْتُمْ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٠﴾ يَصْنَعِي السِّجْنَ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا وَأَمَّا الْآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴿٤١﴾ وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِنْهُمَا أَذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ فَأَنْسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴿٤٢﴾ وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَنَعُ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعُ عِجَافٍ وَسَنَعُ سُبُلَكُتٍ خُضِرٍ وَأُخَرَ يَابِسَتٍ يَأْتِيَانِهَا أَلْمَلَأُ أَفْتُونٍ فِي رُءْيَايَ إِن كُنْتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ ﴿٤٣﴾

وَأَذْكُرْ بَعْدَ أَمْرِهِ أَنَا أَنْتِ كُمْ بِتَأْوِيلِهِ. فَأَرْسَلُونَهُ يُوسُفُ أَيُّهَا الصَّادِقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعُ عِجَافٍ وَسَبْعِ سُبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُبُلِهِ. إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَأْكُلُونَ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَحْصِنُونَ ﴿٤٨﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴿٤٩﴾

لما أراد الله تعالى أن يخرج يوسف من السجن؛ أرى الله الملك هذه الرؤيا العجيبة التي تأويلها يتناول جميع الأمة؛ ليكون تأويلها على يد يوسف، فيظهر من فضله وبيّن من علمه ما يكون له رفعة في الدارين. ومن التقادير المناسبة أن الملك الذي ترجع إليه أمور الرعية هو الذي رآها؛ لارتباط مصالحها به، وذلك أنه رأى رؤيا حالته، فجمع علماء قومه وذوي الرأي منهم وقال:

﴿إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ﴾؛ أي: سبع من البقرات ﴿عِجَافٌ﴾؛ وهذا من العجب أن السبع العجاف الهزليات اللاتي سقطت قوتهن يأكلن السبع السمّان التي كن نهاية في القوة. ورأيت سبع ﴿سُبُلَاتٍ خُضْرٍ﴾ يأكلهن سبع سنبلات ﴿يَابِسَاتٍ﴾؛ ﴿يَتَأْتِيهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُبِّي﴾؛ لأن تعبير الجميع واحد وتأويلهن شيء واحد، ﴿إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ﴾. ﴿٤٦﴾

﴿٤٤﴾ فتحيروا ولم يعرفوا لها وجهًا؛ ﴿قَالُوا أَضْغَتْ أَحْلَامٌ﴾؛ أي: أحلام لا حاصل لها ولا لها تأويل. وهذا جزم منهم بما لا يعلمون وتعذر منهم بما ليس بعذر. ثم قالوا: ﴿وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعِلَالٍ﴾؛ أي: لا نعبّر إلا الرؤيا وأما الأحلام التي هي من الشيطان أو من حديث النفس فإننا لا نعبّر بها. فجمعوا بين الجهل والجزم بأنها أضغاث أحلام والإعجاب بالنفس بحيث إنهم لم يقولوا: لا نعلم تأويلها وهذا من الأمور التي لا تنبغي لأهل الدين والحجاء. وهذا أيضًا من لطف الله بيوسف عليه السلام؛ فإنه لو عبرها ابتداء قبل أن يعرضها على الملأ من قومه وعلمائهم فيعجزوا عنها؛ لم يكن لها ذلك الموقع، ولكن لما عرضها عليهم، فعجزوا عن الجواب، وكان الملك مهتمًا لها غاية، فعبرها يوسف؛ وقعت عندهم موقعًا عظيمًا.

وهذا نظير إظهار الله فضل آدم على الملائكة بالعلم بعد أن سألهم فلم يعلموا، ثم سأل آدم فعلمهم أسماء كل شيء، فحصل بذلك زيادة فضله. وكما يظهر فضل أفضل خلقه محمد ﷺ في القيامة أن يلهم الله الخلق أن يتشفعوا بآدم ثم بنوح ثم إبراهيم ثم موسى ثم عيسى عليهم السلام، فيعتذرون عنها، ثم يأتون محمدًا ﷺ، فيقول: «أنا لها، أنا لها»^(١)، فيشفع في جميع الخلق، وينال ذلك المقام المحمود الذي يغبطه به الأولون والآخرون؛ فسبحان من خفيت ألطافه ودقت في إيصاله البر والإحسان إلى خواص أصفياه وأوليائه.

﴿٤٥﴾ وَقَالَ الَّذِي نَجَّا مِنْهَا وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعِلَالٍ﴾؛ أي: من الفتيين، وهو الذي رأى أنه يعصر خمرًا، وهو الذي أوصاه يوسف أن يذكره عند ربه، ﴿وَأَذْكُرْ بَعْدَ أَمْرِهِ﴾؛ أي: وتذكر يوسف وما جرى له في تعبيرة لرؤياهما وما وصاه به وعلم أنه كفيل بتعبير هذه الرؤيا بعد مدة من السنين، فقال: ﴿أَنَا أَنْتِ كُمْ بِتَأْوِيلِهِ. فَأَرْسَلُونَهُ﴾. ﴿٤٥﴾ إلى يوسف لأسأله عنها.

﴿٤٦﴾ فأرسلوه، فجاء إليه، ولم يعتفه يوسف على نسيانه، بل استمع ما يسأله عنه، وأجابه عن ذلك، فقال: ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ﴾؛ أي: كثير الصدق في أقواله وأفعاله، ﴿أَفْتَنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعُ عِجَافٍ وَسَبْعُ سُبُلُكٍ خُضِرٍ وَأَحْمَرٍ يَاسْتَفْتِي لَعَلَّ ارْتِجَاعِي إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ ﴿٤٦﴾: فإنهم متشوفون لتعبيرها، وقد أهمتهم.

﴿٤٧﴾ فعبّر يوسف السبع البقرات السمان والسبع السنبلات الخضر بأنهن سبع سنين مخصبات، والسبع البقرات العجاف والسبع السنبلات اليابسات بأنهن سنين مجذبات، ولعل وجه ذلك - والله أعلم - أن الخصب والجذب لما كان الحراث مبنياً عليه، وأنه إذا حصل الخصب؛ قويت الزروع والحروث وحسن منظرها وكثرت غلالها، والجذب بالعكس من ذلك، وكانت البقر هي التي تحراث عليها الأرض وتسقى عليها الحروث في الغالب، والسنبلات هي أعظم الأقوات وأفضلها؛ عبرها بذلك لوجود المناسبة، فجمع لهم في تأويلها بين التعبير والإشارة لما يفعلونه ويستعدون به من التدبير في سني الخصب إلى سني الجذب، فقال: ﴿تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَابًّا﴾؛ أي: متتابعات، ﴿فَمَا حَصَدْتُمْ﴾: من تلك الزروع، ﴿فَذَرُوهُ﴾؛ أي: اتركوه ﴿فِي سُبُلِكُمْ﴾: لأنه أبقى له وأبعد من الالتفات إليه، ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَأْكُلُونَ﴾ ﴿٤٧﴾؛ أي: دبروا أيضاً أكلكم في هذه السنين الخصبة، وليكن قليلاً؛ ليكثر ما تدخرون، ويعظم نفعه ووقعه.

﴿٤٨﴾ ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾؛ أي: بعد تلك السنين السبع المخصبات، ﴿سَبْعُ شِدَادٍ﴾؛ أي: مجذبات، ﴿يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ﴾؛ أي: يأكلن جميع ما ادخرتموه ولو كان كثيراً، ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَحْصُونَ﴾ ﴿٤٨﴾؛ أي: تمنعونه من التقديم لهن.

﴿٤٩﴾ ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾؛ أي: السبع الشداد عام فيه يفتأ الناس وفيه يعصرون ﴿٤٩﴾؛ أي: فيه تكثر الأمطار والسيول، وتكثر الغلات، وتزيد على أقواتهم حتى إنهم يعصرون العنب ونحوه زيادة على أكلهم، ولعل استدلاله على وجود هذا العام الخصب مع أنه غير مصرح به في رؤيا الملك؛ لأنه فهم من [التعبير] بالسبع الشداد أن العام الذي يليها يزول به شدتها، ومن المعلوم أنه لا يزول الجذب المستمر سبع سنين متواليات إلا بعام مخصب جداً، وإلا؛ لما كان للتقدير فائدة.

فلما رجع الرسول إلى الملك والناس، وأخبرهم بتأويل يوسف للرؤيا؛ عجبوا من ذلك، وفرحوا بها أشد الفرح.

﴿٥٠﴾ وَقَالَ لِلْمَلِكِ أَتُؤْتِي بِيَدِي فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَسْأَلْهُ مَا بَالُ الْيَسْوَةِ الَّتِي قَطَعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴿٥٠﴾ قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاودْتُنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ الْفَن حَصَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاودْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٥١﴾ ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِبِينَ ﴿٥١﴾ وَمَا أُبْرِئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٥٢﴾ وَقَالَ الْمَلِكُ أَتُؤْتِي بِيَدِي أَسْتَخْلَصُهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴿٥٢﴾ قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٣﴾ وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٤﴾ وَلَاجِرَ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿٥٥﴾

﴿٥٠﴾ يقول تعالى: ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ﴾ لمن عنده: ﴿أَتُؤْتِي بِيَدِي﴾؛ أي: ييوسف عليه السلام بأن يخرجوه من السجن ويحضره إليه. فلما جاء يوسف الرسول، وأمره بالحضور عند الملك؛ امتنع عن المبادرة إلى الخروج حتى تتبين براءته التامة، وهذا من صبره وعقله ورأيه التام، فقال للرسول: ﴿ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ﴾؛ يعني به: الملك، ﴿فَسْأَلْهُ مَا بَالُ الْيَسْوَةِ الَّتِي قَطَعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾؛ أي: أسأله ما شأنهن وقصتهن؛ فإن أمرهن ظاهر متضح. ﴿إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ﴾ ﴿٥٠﴾.

﴿٥١﴾ فأحضرهن الملك وقال: ﴿مَا خَطْبُكُنَّ﴾؛ أي: شأنكن، ﴿إِذْ رَاودْتُنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ﴾: فهل رأيتم منه ما يريب؟! فبرأته و﴿قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ﴾؛ أي: لا قليل ولا كثير؛ فحيث زال السبب الذي تبنى عليه التهمة، ولم يبق إلا ما عند امرأة العزيز، فقالت ﴿امْرَأَتُ الْعَزِيزِ الْفَن حَصَصَ الْحَقُّ﴾؛ أي: تمحص وتبين بعدما كنا ندخل معه من السوء والتهمة ما أوجب السجن ليوسف، ﴿أَنَا رَاودْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾ ﴿٥١﴾: في أقواله وبرأته.

﴿٥٢﴾ ﴿ذَلِكَ﴾: الإقرار الذي أقررت أني راودت يوسف، ﴿لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ﴾: يحتمل أن مرادها بذلك زوجها؛ أي: ليعلم أني حين أقررت أني راودت يوسف أني لم أخنه

سورة يوسف

طه ١٢٨ عشر

بالغيب؛ أي: لم يجر مني إلا مجرد المراودة، ولم أفسد عليه فراشه. ويحتمل أن المراد بذلك: ليعلم يوسف حين أقررت أنني أنا الذي راودته، وأنه صادق أنني لم أخنه في حال غيبته عني. ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ﴾ (٥٢)؛ فإن كل خائن لا بد أن تعود حياته ومكره على نفسه، ولا بد أن يتبين أمره.

﴿٥٣﴾ ثم لما كان في هذا الكلام نوع تركية لنفسها وأنه لم يجر منها ذنب في شأن يوسف استدركت فقالت: ﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي﴾؛ أي: من المراودة والهم والحرص الشديد والكيد في ذلك. ﴿إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ﴾؛ أي: لكثيرة الأمر لصاحبها بالسوء؛ أي: الفاحشة وسائر الذنوب؛ فإنها مركب الشيطان، ومنها يدخل على الإنسان. ﴿إِلَّا مَا رَجِمَ رَبِّي﴾؛ فنجاه من نفسه الأمارة حتى صارت نفسه مطمئنة إلى ربهامقادة لداعي الهدى متعاضية عن داعي الردى؛ فذلك ليس من النفس، بل من فضل الله ورحمته بعبده. ﴿إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (٥٣)؛ أي: هو غفور لمن تجرأ على الذنوب والمعاصي إذا تاب وأناب، رحيم بقبول توبته وتوفيقه للأعمال الصالحة.

وهذا هو الصواب أن هذا من قول امرأة العزيز لا من قول يوسف؛ فإن السياق في كلامها، ويوسف إذ ذاك في السجن لم يحضر.

﴿٥٤﴾ وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَرَجِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٥٥﴾ وَقَالَ الْمَلِكُ أَتُؤْتُونِي بِهِ؟ اسْتَخَصَّهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ مَكِينٌ أَمِينٌ ﴿٥٦﴾ قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلَيْهٖ ﴿٥٧﴾ وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُوهُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ وَلَا أَجْرَ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿٥٩﴾ وَجَاءَ إِخْوَتُهُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ ﴿٦٠﴾ وَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَّازِهِمْ قَالَ أَتُؤْتُونِي بِأَنْجٍ لَكُمْ مِنْ أَيْكُمُ الْآتَرُونَ أَوْ فِي الْكَيْلِ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ ﴿٦١﴾ فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي وَلَا تَقْرَبُونِ ﴿٦٢﴾ قَالُوا سَرُدُّوْهُ عَنْهُ آتَاهُ وَإِنَّا لَنَافِعُونَ ﴿٦٣﴾ وَقَالَ لِفِتْيَانِهِ اجْعَلُوا بِضْعَتَهُمْ فِي رِجَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انْشَلُّوا إِلَآ أَهْلَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٦٤﴾ فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَى أَيْبِهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مَنَعَنَا الْكَيْلَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا آخَنَانَا فَكُنَّا لَهُ وَلِيًّا لَعَلَّهُمْ يَحْفَظُونَا ﴿٦٥﴾

٢٤٢

﴿٥٤﴾ فلما تحقق الملك والناس براءة يوسف التامة؛ أرسل إليه الملك، وقال: ﴿أَتُؤْتُونِي بِهِ؟ اسْتَخَصَّهُ لِنَفْسِي﴾؛ أي: أجعله خصيصة لي ومقرراً لدي. فاتوه به مكرماً محترماً، ﴿فَلَمَّا كَلَّمَهُ﴾؛ أعجبه كلامه، وزاد موقعه عنده، فقال له: ﴿إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا﴾؛ أي: عندنا ﴿مَكِينٌ أَمِينٌ﴾ (٥٤)؛ أي: متمكن أمين على الأسرار.

﴿٥٥﴾ فقال يوسف طلباً للمصلحة العامة: ﴿اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ﴾؛ أي: على خزائن جبايات الأرض وغلالاتها وكيلاً حافظاً مدبراً. ﴿إِنِّي حَفِيظٌ عَلَيْهٖ﴾ (٥٥)؛ أي: حفيظ للذي أتولاه؛ فلا يضيع منه شيء في غير محله، وضابط للداخل والخارج، عليم بكيفية التدبير والإعطاء والمنع والتصرف في جميع أنواع التصرفات. وليس ذلك حرصاً من يوسف على الولاية، وإنما هو رغبة منه في النفع العام، وقد عرف من نفسه من الكفاية والأمانة والحفظ ما لم يكونوا يعرفونه؛ فلذلك طلب من الملك أن يجعله على خزائن الأرض، فجعله الملك على خزائن الأرض وولاه إياها.

﴿٥٦﴾، ﴿٥٧﴾ قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ﴾؛ أي: بهذه الأسباب والمقدمات المذكورة، ﴿مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُوهُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ﴾؛ في عيش رغد ونعمة واسعة وجاه عريض، ﴿نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ﴾؛ أي: هذا من رحمة الله بيوسف التي أصابه بها وقدرها له، وليست مقصورة على نعمة الدنيا. فإن الله لا يضيع أجر المحسنين، ويوسف عليه السلام من سادات المحسنين؛ فله في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة، ولهذا قال: ﴿وَلَا أَجْرُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ﴾ - من أجر الدنيا - ﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ (٥٧)؛ أي: لمن جمع بين التقوى والإيمان؛ فبالتقوى ترك الأمور المحرمة من كبائر الذنوب وصغائرها، وبالإيمان التام يحصل تصديق القلب بما أمر الله بالتصديق به وتتبعه أعمال القلوب وأعمال الجوارح من الواجبات والمستحبات.

﴿٥٨﴾ وَجَاءَ إِخْوَتُهُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ ﴿٥٩﴾ وَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَّازِهِمْ قَالَ أَتُؤْتُونِي بِأَنْجٍ لَكُمْ مِنْ أَيْكُمُ الْآتَرُونَ أَوْ فِي الْكَيْلِ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ ﴿٦٠﴾ فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي وَلَا تَقْرَبُونِ ﴿٦١﴾ قَالُوا سَرُدُّوْهُ عَنْهُ آتَاهُ وَإِنَّا

﴿١١﴾ ف ﴿قَالُوا سَتَرُوا عَنْهُمْ آيَاتُ﴾: دل هذا على أن يعقوب عليه السلام كان مولعاً به لا يصبر عنه، وكان يتسلى به بعد يوسف؛ فلذلك احتاج إلى مرادة في بعثه معهم، ﴿وَرَأَى﴾ لَفَعِلُونَ ﴿١١﴾: لما أمرتنا به.

﴿١٢﴾ وَقَالَ ﴿يُوسُفُ﴾ لِفَتَيْنِيهِ ﴿الَّذِينَ فِي خِدْمَتِهِ: أَجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ﴾؛ أي: الثمن الذي اشتروا به منه الميرة، ﴿فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا﴾؛ أي: بضاعتهم إذا رأوها بعد ذلك في رحالهم؛ ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾: لأجل التخرج من أخذها على ما قيل. والظاهر أنه أراد أن يرغبهم في إحسانه إليهم بالكيل لهم كيلاً وافياً ثم إعادة بضاعتهم إليهم على وجه لا يحسون بها ولا يشعرون لما يأتي؛ فإن الإحسان يوجب للإنسان تمام الوفاء للمحسن.

﴿١٣﴾ فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَى أَبِيهِمْ قَالُوا يَتَابَانَا مَنَعَ مِنَّا الْكَيْلَ؛ أي: إن لم ترسل معنا أخانا، ﴿فَأَرْسِلْ مَعَنَا أَخَانَا نَكْتَلْ﴾؛ أي: ليكون ذلك سبباً لكيلا. ثم التزموا له بحفظه فقالوا: ﴿وَرَأَى لَهُ لَحْفَظُونَ﴾: من أن يعرض له ما يكره.

﴿١٤﴾ قَالَ ﴿لَهُمْ﴾ يعقوب عليه السلام: ﴿هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا ءَامَنُكُمْ عَلَى أَخِيهِ مِنْ قَبْلُ﴾؛ أي: قد تقدم منكم التزام أكثر من هذا في حفظ يوسف، ومع هذا؛ فلم تفوا بما عقدتم من التأكيد؛ فلا أثق بالتزامكم وحفظكم، وإنما أثق بالله تعالى. ﴿قَالَ هَبْ حَفِظْتُ وَأَوْزَحِمُ الرَّجُلَيْنِ﴾؛ أي: يعلم حالي وأرجو أن يرحمني، فيحفظه ويرده علي، وكأنه في هذا الكلام قد لان لإرساله معهم.

﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَمَّا ﴿فَتَحُوا مَنَعَهُمْ وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ﴾: هذا دليل على أنه قد كان معلوماً عندهم أن يوسف قد ردّها عليهم بالقصد، وأنه أراد أن يملكهم إياها، فقالوا لأبيهم ترغيباً في إرسال أخيه معهم: ﴿يَتَابَانَا مَا نَبْغِي﴾؛ أي: أي شيء نطلب بعد هذا الإكرام الجميل حيث وفي لنا الكيل، ورد علينا بضاعتنا على [هذا] الوجه الحسن المتضمن للإخلاص ومكارم الأخلاق؟! ﴿هَذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا﴾؛ أي: إذا ذهبنا بأخيها؛ صار سبباً لكيله لنا، فمرنا أهلنا، وأتينا لهم بما هم مضطرون إليه من القوت، ﴿وَنَحْفَظُ أَخَانًا وَتَزَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ﴾: بإرساله معنا؛ فإنه يكيل لكل واحد حمل بعير. ﴿ذَلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ﴾: أي: سهل لا ينالك ضرر؛ لأن المدة لا تطول، والمصلحة قد تبينت.

لَفَعِلُونَ ﴿١١﴾ وَقَالَ لِفَتَيْنِيهِ أَجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٢﴾ فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَى أَبِيهِمْ قَالُوا يَتَابَانَا مَنَعَ مِنَّا الْكَيْلَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُ لَحَفِظُونَ ﴿١٣﴾ قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا ءَامَنُكُمْ عَلَى أَخِيهِ مِنْ قَبْلُ قَالَهُ هَبْ حَفِظْتُ وَأَوْزَحِمُ الرَّجُلَيْنِ ﴿١٤﴾ وَلَمَّا فَتَحُوا مَنَعَهُمْ وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا يَتَابَانَا مَا نَبْغِي هَذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانًا وَتَزَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ ﴿١٥﴾ قَالَ لَنْ أَرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُونِي مَوْفِقًا مِنَ اللَّهِ لَتَأْتُنِي بِهِ إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّا ءَاتَوْهُ مَوْفِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿١٦﴾ وَقَالَ يَبْنَئِي لَا تَدْخُلُوا مِن بَابٍ وَجِدْ وَادْخُلُوا مِنْ أَوْبٍ مُتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أُلْحِمَكُمُ إِلَّا اللَّهُ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴿١٧﴾ وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ مَا كَانَ يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا وَإِنَّهُ لَدُوٌّ عَلِيمٌ لِمَا عَلَّمْنَاهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾

أي: لما تولى يوسف عليه السلام خزائن الأرض؛ دبها أحسن تدبير، فزرع في أرض مصر جميعها في السنين المخصصة زروعاً هائلة، واتخذ لها المحلات الكبار، وجبى من الأطعمة شيئاً كثيراً، وحفظه وضبطه ضبطاً تاماً، فلما دخلت السنين المجعدة، وسرى الجذب حتى وصل إلى فلسطين التي يقيم فيها يعقوب وبنوه، فأرسل يعقوب بنيه لأجل الميرة إلى مصر.

﴿١٩﴾ فَبَاءَ ﴿إِخْوَةُ يُوسُفَ﴾ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ ﴿٢٠﴾؛ أي: لم يعرفوه.

﴿٢١﴾ وَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ؛ أي: كال لهم كما كان يكيل لغيرهم، وكان من تدبيره الحسن أنه لا يكيل لكل واحد أكثر من حمل بعير، وكان قد سألهم عن حالهم، فأخبروه أن لهم أخاً عند أبيه، وهو بنيامين، ف ﴿قَالَ﴾ لهم: ﴿أَتَتُونِي بِأَخٍ لَّكُمْ مِنْ آبَائِكُمْ﴾: ثم رغبهم في الإتيان به، فقال: ﴿الْأَتَرُونَ أَنِّي أَوفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ﴾: في الضيافة والإكرام.

﴿٢٢﴾ ثُمَّ رَهَبَهُمْ بِعَدَمِ الْإِتْيَانِ بِهِ، فقال: ﴿فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي وَلَا تَقْرَبُونِي﴾: وذلك لعلمه باضطرابهم إلى الإتيان إليه، وأن ذلك يحملهم على الإتيان به.

﴿٦٦﴾ ف ﴿قَالَ﴾ لَهُمْ يَعْقُوبُ: ﴿لَنْ أَرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُوا مَوْثِقًا مِنْ اللَّهِ﴾؛ أَي: عَهْدًا ثَقِيلًا وَتَحْلِفُونَ بِاللَّهِ ﴿لَأَنْتُنِي بِهِ﴾ إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ؛ أَي: إِلَّا أَنْ يَأْتِيَكُمُ أَمْرٌ لَا قِبَلَ لَكُمْ بِهِ وَلَا تَقْدِرُونَ دَفْعَهُ، ﴿فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ﴾: عَلَى مَا قَالَ وَأَرَادَ؛ ﴿قَالَ اللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ ﴿٦٧﴾؛ أَي: تَكْفِينَا شَهَادَتَهُ عَلَيْنَا وَحَفَظَهُ وَكَفَالَتَهُ.

﴿٦٧﴾ ثُمَّ لَمَّا أَرْسَلَهُ مَعَهُمْ؛ وَصَاهُم إِذَا هُمْ قَدُمُوا مِصْرَ الْأَرْضَ يَدْخُلُوا ﴿مِنْ بَابٍ وَجِيدٍ وَأَدْخَلُوا مِنْ آيَاتِهِ مُتَفَرِّقِينَ﴾: وَذَلِكَ أَنَّهُ خَافَ عَلَيْهِمُ الْعَيْنَ؛ لِكثَرَتِهِمْ وَبِهَاءِ مَنَظَرِهِمْ؛ لِكُونِهِمْ أَبْنَاءَ رَجُلٍ وَاحِدٍ، وَهَذَا سَبَبٌ، وَإِلَّا فَمَا ﴿أَغْنَى عَنْكُمْ رَبُّكَ اللَّهُ﴾: شَيْئًا؛ فَالْمَقْدَرُ لَا بَدَأَ أَنْ يَكُونَ. ﴿إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾؛ أَي: الْقَضَاءُ قَضَاؤُهُ وَالْأَمْرُ أَمْرُهُ؛ فَمَا قَضَاهُ، وَحُكْمُهُ لَا بَدَأَ أَنْ يَقَعَ. ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾؛ أَي: اعْتَمَدْتُ عَلَى اللَّهِ لَا عَلَى مَا وَصَيْتُكُمْ بِهِ مِنَ السَّبَبِ. ﴿وَعَلَيْهِ فَتَوَكَّلْ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ ﴿٦٨﴾: فَإِنْ بِالتَّوَكُّلِ يَحْصُلُ كُلُّ مَطْلُوبٍ، وَيَنْدَفِعُ كُلُّ مَرْهُوبٍ.

﴿٦٨﴾ وَلَمَّا ﴿ذَهَبُوا وَدَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ آبَاؤُهُمْ مَا كَانَتْ﴾: ذَلِكَ الْفِعْلُ ﴿يُعْنِي عَنْهُمْ مِنْ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا﴾: وَهُوَ مُوجِبُ الشَّفَقَةِ وَالْمَحَبَةِ لِلْأَوْلَادِ، فَحَصَلَ لَهُ فِي ذَلِكَ نَوْعٌ طَمَئِنَّةٍ وَقَضَاءٌ لِمَا فِي خَاطِرِهِ، وَلَيْسَ هَذَا قَصُورًا فِي عِلْمِهِ؛ فَإِنَّهُ مِنَ الرُّسُلِ الْكَرَامِ وَالْعُلَمَاءِ الرَّبَّانِيِّينَ، وَلِهَذَا قَالَ عَنْهُ: ﴿وَلِلَّهِ لَذُو عِلْمٍ﴾؛ أَي: لِصَاحِبِ عِلْمٍ عَظِيمٍ، ﴿لِمَا عَلَّمْتَهُ﴾؛ أَي: لِتَعْلِيمِنَا إِيَّاهُ، لَا بِحَوْلِهِ وَقُوَّتِهِ أَدْرَكَهُ، بَلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَتَعْلِيمِهِ. ﴿وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ﴿٦٩﴾: عَوَاقِبُ الْأُمُورِ وَدَقَائِقُ الْأَشْيَاءِ، وَكَذَلِكَ أَهْلُ الْعِلْمِ مِنْهُمْ يَخْفَى عَلَيْهِمْ مِنَ الْعِلْمِ وَأَحْكَامِهِ وَلُؤَازِمِهِ شَيْءٌ كَثِيرٌ.

﴿وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ﴾: أَوْتَى إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِيَّيْنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَّازِهِمْ جَعَلَ السِّقَايَةَ فِي رِجْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذِنَ مَوْدُنَ إِتَيْتُهَا الْعَبْرُ إِنَّكُمْ لَسْرِقُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِمْ مَاذَا تَفْقِدُونَ ﴿٧١﴾ قَالُوا نَفَقْدُ صُوعَ الْمَلِكِ وَلَمَنْ جَلَسَ بِهِ جُلُوسًا بَعِيرٌ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْتَنَا بِنَفْسٍ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ ﴿٧٤﴾ قَالُوا جَزَاؤُهُ مَنْ وَجِدَ فِي رِجْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَبَدَأَ بِأَوْعِيَّتِهِمْ قَبْلَ وَعَاةِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِنْ وَعَاةِ أَخِيهِ كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَن نَّشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴿٧٦﴾ قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِنْ قَبْلُ فَأَسْرَهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ قَالَ أُنْتُ سَرٌّ مَكَانًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُوا يَا أَبَتَا الْعَزِيزِ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرْنَكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٧٨﴾ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَاعًا عَنْدَهُ إِنَّا إِذَا ظَالِمُونَ ﴿٧٩﴾.

﴿٧٩﴾ أَي: لَمَّا دَخَلَ إِخْوَةُ يُوسُفَ عَلَى يُوسُفَ؛ ﴿أَوْتَى إِلَيْهِ أَخَاهُ﴾؛ أَي: شَقِيقُهُ، وَهُوَ بَنِيَامِينَ، الَّذِي أَمْرُهُم بِالْإِتْيَانِ بِهِ وَضَمُّهُ إِلَيْهِ، وَاخْتِصَمَ مِنْ بَيْنِ إِخْوَتِهِ، وَأَخْبَرَهُ بِحَقِيقَةِ الْحَالِ، وَ﴿قَالَ إِيَّيْنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ﴾؛ أَي: لَا تَحْزَنْ. ﴿بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ﴿٨٠﴾: فَإِنَّ الْعَاقِبَةَ خَيْرٌ لَنَا، ثُمَّ خَبَرَهُ بِمَا يَرِيدُ أَنْ يَصْنَعَ وَيَتَحِيلَ لِبَقَائِهِ عَنْدَهُ إِلَى أَنْ يَتِمَّهِ الْأَمْرُ.

سورة يوسف
قَالَ هَلْ أَمَانَتُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمَانَتُكُمْ عَلَى أَخِيهِ مِنْ قَبْلُ قَالَ اللَّهُ خَيْرَ حِفْظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿٦٦﴾ وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضْعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي هَذِهِ بِضْعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزِدُ بِكَ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَلِكَ كَيْلُ يَسِيرٍ ﴿٦٧﴾ قَالَ لَنْ أَرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُوا مَوْثِقًا مِنْ اللَّهِ لَأَنْتُنِي بِهِ إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٦٨﴾ وَقَالَ بَنِي إِسْرَءِيلَ لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَجِيدٍ وَأَدْخُلُوا مِنْ آيَاتِهِ مُتَفَرِّقِينَ وَمَا أَغْنَى عَنْكُمْ رَبُّكَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٦٩﴾ وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ آبَاؤُهُمْ مَا كَانَتْ يُعْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِمَا عَلَّمْنَاهُ وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٧٠﴾ وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ أَوْتَى إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِيَّيْنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٧١﴾

سورة يوسف

الْحَمْدُ لِلَّهِ

فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السِّقَايَةَ فِي رِثْلِ أُخِيهِ ثُمَّ
 أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَتَتْهَا الْوَيْلِيُّ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ ﴿٧٥﴾ قَالُوا وَقَبِلُوا
 عَلَيْهِمْ مَاذَا تَفْقِدُونَ ﴿٧٦﴾ قَالُوا نَقْضُ صُورِ الْمَلِكِ
 وَلَمَن جَاءَ بِهِ جُمِلَ بَعِيرٌ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ ﴿٧٧﴾ قَالُوا تَاللَّهِ
 لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْتُمْ لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ
 ﴿٧٨﴾ قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ ﴿٧٩﴾ قَالُوا جَزَاؤُهُ
 مَنْ وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ
 ﴿٨٠﴾ فَبَدَأَ بِأُورُشِيمَ قَبْلَ وَعَاءِ أُخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِنْ
 وَعَاءِ أُخِيهِ كَذَلِكَ كَذَبَ الْيُوسُفُ مَا كَانَ لِأَخِيهِ
 فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ تَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ تَشَاءُ
 وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴿٨١﴾ قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ
 فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِنْ قَبْلُ فَأَسْرَهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ
 وَلَمْ يُبَيِّدْهَا لَهُمْ قَالَ أَنْتُمْ شَرُّ مَكَانٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا
 تَصِفُونَ ﴿٨٢﴾ قَالُوا يَتَّخِذُ الْغَزِيرَ إِلهًا لَهُ أَبَا شَيْخٍ كَبِيرًا
 فَخَذَّ أَحَدًا مَكَانَهُ إِنَّا تَرَيْنَا مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٣﴾

٢٤٤

﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ؛ أي: كال لكل واحد من
 إخوته، ومن جملتهم أخوه هذا، ﴿جَعَلَ السِّقَايَةَ﴾: وهو
 الإناء الذي يشرب به ويكال فيه ﴿فِي رِثْلِ أُخِيهِ ثُمَّ﴾: أو عوا
 متاعهم، فلما انطلقوا ذاهبين؛ ﴿أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَتَتْهَا الْوَيْلِيُّ إِنَّكُمْ
 لَسَارِقُونَ﴾ ﴿٧٦﴾: ولعل هذا المؤذن لم يعلم بحقيقة الحال.

﴿٧٧﴾ قَالُوا؛ أي: إخوة يوسف، ﴿وَقَبِلُوا عَلَيْهِمْ﴾:
 لإبعاد التهمة؛ فإن السارق ليس له هم إلا البعد والانطلاق
 عمن سرق منه؛ لتسلم له سرقة، وهؤلاء جاءوا مقبلين إليه،
 ليس لهم هم إلا إزالة التهمة التي رموا بها عنهم، فقالوا في
 هذه الحال: ﴿مَاذَا تَفْقِدُونَ﴾ ﴿٧٨﴾؟ ولم يقولوا: ما الذي
 سرقنا؟ لجزمهم بأنهم براء من السرقة.

﴿٧٩﴾ قَالُوا نَقْضُ صُورِ الْمَلِكِ وَلَمَن جَاءَ بِهِ جُمِلَ
 بَعِيرٌ؛ أي: أجرة له على وجدانه، ﴿وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ﴾ ﴿٧٩﴾؛
 أي: كفيل. وهذا يقوله المؤذن المتفقد.

﴿٧٩﴾ قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْتُمْ لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ؛
 بجميع أنواع المعاصي، ﴿وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ﴾ ﴿٧٩﴾: فإن السرقة
 من أكبر أنواع الفساد في الأرض. وإنما أقسموا على علمهم
 أنهم ليسوا مفسدين ولا سارقين؛ لأنهم عرفوا أنهم سبوا من
 أحوالهم ما يدلهم على عفتهم وورعهم وأن هذا الأمر لا يقع
 منهم بعلم من اتهموهم، وهذا أبلغ في نفي التهمة من أن لو قالوا: تالله لم نفسد في الأرض ولم نسرق.

﴿٧٩﴾ قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ؛ أي: جزاء هذا الفعل، ﴿إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ﴾ ﴿٧٩﴾: بأن كان معكم.

﴿٧٩﴾ قَالُوا جَزَاؤُهُ مَنْ وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ؛ أي: الموجود في رحله، ﴿جَزَاؤُهُ﴾: بأن يملكه صاحب السرقة، وكان
 هذا في دينهم؛ أن السارق إذا ثبت عليه السرقة؛ كان ملكاً لصاحب المال المسروق، ولهذا قالوا: ﴿كَذَلِكَ نَجْزِي
 الظَّالِمِينَ﴾ ﴿٧٩﴾.

﴿٨٠﴾ فَبَدَأَ الْمَفْتَشُ بِأُورُشِيمَ قَبْلَ وَعَاءِ أُخِيهِ، وذلك لتزول الريبة التي يظن أنها فعلت بالقصد. فلما لم يجد في أوعيتهم شيئاً،
 ﴿اسْتَخْرَجَهَا مِنْ وَعَاءِ أُخِيهِ﴾: ولم يقل: وجدها أو سرقها أخوه مراعاة للحقيقة الواقعة؛ فحينئذ تم ليوسف ما أراد من بقاء
 أخيه عنده على وجه لا يشعر به إخوته. قال تعالى: ﴿كَذَلِكَ كَذَبَ الْيُوسُفُ﴾؛ أي: يسرنا له هذا الكيد الذي توصل به إلى أمر
 غير مذموم. ﴿مَا كَانَ لِأَخِيهِ فِي دِينِ الْمَلِكِ﴾: لأنه ليس من دينه أن يملك السارق، وإنما له عندهم جزاء آخر؛ فلوردت
 الحكومة إلى دين الملك؛ لم يتمكن يوسف من إبقاء أخيه عنده، ولكنه جعل الحكم منهم؛ ليطمأن له ما أراد. قال تعالى: ﴿تَرْفَعُ
 دَرَجَاتٍ مَنْ تَشَاءُ﴾: بالعلم النافع ومعرفة الطرق الموصلة إلى مقصدها؛ كما رفعنا درجات يوسف. ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ
 عَلِيمٌ﴾ ﴿٨١﴾؛ فكل عالم فوقه من هو أعلم منه حتى ينتهي العلم إلى عالم الغيب والشهادة.

﴿٨٢﴾ فَلَمَّا رَأَى إِخْوَةَ يُوسُفَ مَا رَأَوْا؛ ﴿قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ﴾: هذا الأخ؛ فليس هذا غريباً منه، ﴿فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِنْ
 قَبْلُ﴾؛ يعنون يوسف عليه السلام، ومقصودهم تبرئة أنفسهم، وأن هذا وأخاه قد يصدر منهم ما يصدر من السرقة، وهما ليسا
 شقيقين لنا، وفي هذا من الغضب عليهما ما فيه، ولهذا ﴿فَأَسْرَهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ﴾: ولم يبيدها لهم؛ أي: لم يقابلهم على ما
 قالوه بما يكرهون، بل كظم الغيظ وأسر الأمر في نفسه، و﴿قَالَ﴾ في نفسه: ﴿أَنْتُمْ شَرُّ مَكَانٍ﴾: حيث ذمتمونا بما

أنتم على أشر منه. ﴿٧٧﴾ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴿٧٧﴾ : منا من وصفنا بسرقة يعلم الله أنا براء منها.

﴿٧٨﴾ ثُمَّ سَلَكُوا مَعَهُ مَسْلَكَ التَّمَلُّقِ لَعَلَّهُ يَسْمَحُ لَهُمْ بِأَخِيهِمْ، ف ﴿٧٨﴾ قَالُوا يَا أَبَانَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا ؛ أَي: وإنه لا يصبر عنه، وسيشق عليه فراقه. ﴿٧٩﴾ فَخَذَّ أَحَدُنَا مَكَّانَهُ؛ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٧٩﴾ : فأحسن إلينا وإلى أبينا بذلك.

﴿٧٩﴾ فَقَالَ يَوْسُفُ: ﴿٧٩﴾ مَكَادَ اللَّهُ أَنْ تَأْخُذَ إِلَّا مِنْ وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِنْدَهُ ؛ أَي: هذا ظلم منا لو أخذنا البريء بذن من وجدنا متاعنا عنده، ولم يقل: من سرق. كل هذا تحرز من الكذب. ﴿٨٠﴾ إِنَّا إِذَا ؛ أَي: إن أخذنا غير من وجد في رحله، ﴿٨٠﴾ لَنُظْلِمُونَ ﴿٨٠﴾ : حيث وضعنا العقوبة في غير موضعها.

﴿٨١﴾ فَلَمَّا اسْتَيْسَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ وَمِنْ قَبْلُ مَا فَرَّطْتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴿٨١﴾ أَرْجِعُوا إِلَيَّ أَبِيكُمْ فَقُولُوا يَا أَبَانَا إِنَّكَ سَرَقْتَ وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلَّمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَفِظِينَ ﴿٨١﴾ وَسَلِّ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿٨٢﴾ قَالَ بَلْ

قَالَ مَكَادَ اللَّهُ أَنْ تَأْخُذَ إِلَّا مِنْ وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِنْدَهُ وَإِنَّا إِذَا الظَّالِمُونَ ﴿٧٨﴾ فَلَمَّا اسْتَيْسَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ وَمِنْ قَبْلُ مَا فَرَّطْتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴿٨١﴾ أَرْجِعُوا إِلَيَّ أَبِيكُمْ فَقُولُوا يَا أَبَانَا إِنَّكَ سَرَقْتَ وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلَّمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَفِظِينَ ﴿٨١﴾ وَسَلِّ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿٨٢﴾ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٨٣﴾ وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَأْسَفُ عَلَيْ يُونُسَ وَأَبْضَتَ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٨٤﴾ قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتُنَا تَذَكَّرُ يُونُسَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ ﴿٨٥﴾ قَالَ إِنَّمَا أَشْكُوا بِنَاتِي وَحُزِنِي إِلَى اللَّهِ وَاعْلَمْتُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾

سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٨٣﴾ .

﴿٨٣﴾ أَي: فلما استياس إخوة يوسف من يوسف أن يسمح لهم بأخيهم، ﴿٨٣﴾ خَلَصُوا نَجِيًّا ؛ أَي: اجتمعوا وحدهم ليس معهم غيرهم، وجعلوا يتناجون فيما بينهم، ف ﴿٨٣﴾ قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ ؛ فِي حِفْظِهِ وَأَنْتُمْ تَأْتُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَحَاطَ بِكُمْ، ﴿٨٣﴾ وَمِنْ قَبْلُ مَا فَرَّطْتُمْ فِي يُوسُفَ ؛ فَاجْتَمَعَ عَلَيْكُمْ الْأَمْرَانِ: تَفْرِيطُكُمْ فِي يَوْسُفَ السَّابِقِ، وَعَدَمُ إِيْتَانِكُمْ بِأَخِيهِ بِاللَّاحِقِ؛ فَلَيْسَ لِي وَجْهٌ أَوَاجَهُ بِهِ أَبِي. ﴿٨٣﴾ فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ ؛ أَي: سأقيم في هذه الأرض ولا أزال بها، ﴿٨٣﴾ حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي ؛ أَي: يقدر لي المجيء وحدي أو مع أخي، ﴿٨٣﴾ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴿٨٣﴾ .

﴿٨٤﴾ ثُمَّ وَصَاهُمْ مَا يَقُولُونَ لِأَبِيهِمْ، فَقَالَ: ﴿٨٤﴾ أَرْجِعُوا إِلَيَّ أَبِيكُمْ فَقُولُوا يَا أَبَانَا إِنَّكَ سَرَقْتَ ؛ أَي: وأخذ بسرقة، ولم يحصل لنا أن تأتيك به مع ما بذلنا من الجهد في ذلك، والحال أنا ما شهدنا بشيء لم نعلمه، وإنما شهدنا بما علمنا؛ لأننا رأينا الصواع استخرج من رحله. ﴿٨٤﴾ وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَفِظِينَ ﴿٨٤﴾ ؛ أَي: لو كنا نعلم الغيب؛ لما حرصنا وبذلنا المجهود في ذهابه معنا، ولما أعطيناك عهدنا وموآثيقنا، فلم نظن أن الأمر سيبلغ ما بلغ.

﴿٨٥﴾ وَسَلِّ ؛ إِنْ شَكَّكَتْ فِي قَوْلِنَا ﴿٨٥﴾ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا ؛ فَاطْلَعُوا عَلَى مَا أَخْبَرْنَاكَ بِهِ، وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿٨٥﴾ : لم نكذب، ولم نغير، ولم نبذل، بل هذا الواقع.

﴿٨٦﴾ فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَى آبِيهِمْ وَأَخْبَرُوهُ بِهَذَا الْخَبَرِ؛ اشْتَدَّ حُزْنُهُ وَتَضَاعَفَ كَمَدُهُ وَاتَّهَمَهُمْ أَيْضًا فِي هَذِهِ الْقَضِيَةِ كَمَا اتَّهَمَهُمْ فِي الْأُولَى ﴿٨٦﴾ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ؛ أَي: ألجأ في ذلك إلى الصبر الجميل الذي لا يصحبه تسخط ولا جزع ولا شكوى للخلق. ثم لجأ إلى حصول الفرج لما رأى أن الأمر اشتد، والكرية انتهت، فقال: ﴿٨٦﴾ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا ؛ أَي: يوسف وبنيامين وأخوهم الكبير الذي أقام في مصر. ﴿٨٦﴾ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ ؛ الَّذِي يَعْلَمُ حَالِي

سورة يوسف

المزمار الثاني عشر

واحتياجي إلى تفريجه ومنته واضطاري إلى إحسانه،
﴿الْحَكِيمُ﴾ (٨٣): الذي جعل لكل شيء قدراً، ولكل
أمر منتهى بحسب ما اقتضته حكمته الربانية.

﴿وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَأْسَفُ عَلَيَّ يُوسُفُ وَأَبِضَّتْ
عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ﴾ (٨٤) قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَوُا
تَذْكُرُ يُّوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ
الْهَالِكِينَ (٨٥) قَالَ إِنَّمَا أَشْكُوا بَنِي وَحَرَقِي إِلَى اللَّهِ
وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٨٦).

(٨٤) أي: وتولى يعقوب عليه الصلاة والسلام عن أولاده
بعدا ما أخبروه هذا الخبر، واشتد به الأسف والأسى، وابيضت
عيناه من الحزن الذي في قلبه والكمد الذي أوجب له كثرة
البكاء حيث ابيضت عيناه من ذلك؛ ﴿فَهُوَ كَظِيمٌ﴾ (٨٤)؛ أي:
ممتلئ القلب من الحزن الشديد، ﴿وَقَالَ يَأْسَفُ عَلَيَّ يُّوسُفُ﴾؛
أي: ظهر منه ما كمن من الهم القديم والشوق المقيم، وذكرته
هذه المصيبة الخفيفة بالنسبة للأولى، المصيبة الأولى.

(٨٥) فقال له أولاده متعجبين من حاله: ﴿تَاللَّهِ تَفْتَوُا
تَذْكُرُ يُّوسُفَ﴾؛ أي: لا تزال تذكر يوسف في جميع
أحوالك، ﴿حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا﴾؛ أي: فاني لا حراك فيك
ولا قدرة لك على الكلام، ﴿أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ﴾ (٨٥)؛ أي: لا تترك ذكره مع قدرتك على ذكره أبداً.

(٨٦) فقال يعقوب: ﴿إِنَّمَا أَشْكُوا بَنِيَّ﴾؛ أي: ما أثبت من الكلام، ﴿وَحَرَقِي﴾: الذي في قلبي. ﴿إِلَى اللَّهِ﴾: وحده لا إليكم
ولا إلى غيركم من الخلق؛ فقولوا ما شئتم، ﴿وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ (٨٦): من أنه سيردهم عليّ ويقر عيني
بالاجتماع بهم.

﴿يَبْنِي أَذْهَبُوا فَحَسَسُوا مِنْ يُّوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَأْتِسُوا مِنْ رَّوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَأْتِسُ مِنْ رَّوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ (٨٧)
فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَأْتِيهَا الْعَزِيزُ مَسْنًا وَأَهْلُنَا الشَّرُّ وَحَسْنَا يَضَعُهُ مُزَجَّجَةً فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي
الْمُتَصَدِّقِينَ (٨٨) قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا عَلَّمْتُ يُّوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ (٨٩) قَالُوا أَوَإِنَّمَا أَنْتَ يُّوسُفُ قَالَ
أَنَا يُّوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مِنْ يَتَّى وَبَصِيرَةٍ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (٩٠) قَالُوا
تَاللَّهِ لَقَدْ ءَاتَاكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَطِيطِينَ (٩١) قَالَ لَا تَثْرِبَ عَلَيْكُمْ أَيُّومَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ
الرَّاحِمِينَ (٩٢).

(٨٧) أي: قال يعقوب عليه السلام لبنيه: ﴿يَبْنِي أَذْهَبُوا فَحَسَسُوا مِنْ يُّوسُفَ وَأَخِيهِ﴾؛ أي: احرصوا واجتهدوا على التفطيش
عنهما، ﴿وَلَا تَأْتِسُوا مِنْ رَّوْحِ اللَّهِ﴾: فإن الرجاء يوجب للعبد السعي والاجتهاد فيما رجاه، والإياس يوجب له التنازل
والتباطؤ، وأولى ما رجا العباد فضل الله وإحسانه ورحمته وروحه. ﴿إِنَّهُ لَا يَأْتِسُ مِنْ رَّوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ (٨٧):
فإنهم لكفرهم يستبعدون رحمته، ورحمته بعيدة منهم؛ فلا تشبهوا بالكافرين. ودل هذا على أنه بحسب إيمان العبد يكون
رجاؤه لرحمة الله وروحه.

﴿٨٨﴾ فذهبوا. فلما دخلوا على يوسف، ﴿قَالُوا﴾: متضرعين إليه: ﴿يَتَأْتِيَ الْعَزِيزُ مَسْنًا وَأَهْلُنَا الضَّرَّ وَجِئْنَا بِضِغَعَةٍ مُرَجَحَةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا﴾؛ أي: قد اضطررنا نحن وأهلنا ﴿وَجِئْنَا بِضِغَعَةٍ مُرَجَحَةٍ﴾؛ أي: مدفوعة مرغوب عنها قتلها وعدم وقوعها الموقوع؛ ﴿فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ﴾؛ أي: مع عدم وفاء العوض، وتصدق علينا بالزيادة عن الواجب. ﴿إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ﴾ ﴿٨٩﴾: بثواب الدنيا والآخرة.

﴿٩٠﴾ فلما انتهى الأمر وبلغ أشده؛ رق لهم يوسف رقة شديدة، وعرفهم بنفسه، وعاتبهم فقال: ﴿هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾؛ أما يوسف؛ فظاهر فعلهم فيه، وأما أخوه؛ فلعله - والله أعلم - قولهم: ﴿إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِنْ قَبْلُ﴾، أو أن السبب الذي فرق بينه وبين أبيه هم السبب فيه والأصل الموجب له. ﴿إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ﴾ ﴿٩١﴾: وهذا نوع اعتذار لهم بجَهْلهم أو توبيخ لهم إذ فعلوا فعل الجاهلين، مع أنه لا ينبغي ولا يليق منهم.

﴿٩٢﴾ فعرفوا أن الذي خاطبهم هو يوسف، فقالوا: ﴿إِذْ نَأَىٰ عَنْكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَٰذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا﴾. بالإيمان والتقوى والتمكين في الدنيا، وذلك بسبب الصبر والتقوى، ف ﴿إِنَّهُ مِنْ يَتَّىٰ وَيَصِيرُ﴾؛ أي: يتقي فعل ما حرم الله ويصبر على الآلام والمصائب وعلى الأوامر بامثالها. ﴿فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ ﴿٩٣﴾: فإن هذا من الإحسان، والله لا يضيع أجر من أحسن عملاً.

﴿٩٤﴾ ﴿قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ مَنَّكَ اللَّهُ عَلَيْنَا﴾؛ أي: فضلك علينا بمكارم الأخلاق ومحاسن الشيم، وأسأنا إليك غاية الإساءة، وحرصنا على إيصال الأذى إليك والتباعد لك عن أيبك، فأثرك الله تعالى وممكنك مما تريد ﴿وَلَوْ أَنَّ كُنَّا لَخَطِئِينَ﴾ ﴿٩٥﴾، وهذا غاية الاعتراف منهم بالجرم الحاصل منهم على يوسف.

﴿٩٦﴾ ف ﴿قَالَ﴾ لهم يوسف عليه السلام كرمًا وجودًا: ﴿لَا تَتْرِبَ عَلَيْكُمُ أَيُّومٌ﴾؛ أي: لا أثرب عليكم ولا الوهمكم، ﴿يَقْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ ﴿٩٧﴾؛ فسمح لهم سماحًا تامًا من غير تعيير لهم على ذكر الذنب السابق، ودعا لهم بالمغفرة والرحمة، وهذا نهاية الإحسان الذي لا يتأتى إلا من خواص الخلق وخيار المصطفين.

﴿٩٨﴾ ﴿أَذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ ﴿٩٩﴾ ﴿وَلَمَّا فَصَلَ الْوَيْلُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَنْ تُفَنِّدُونِ﴾ ﴿١٠٠﴾ ﴿قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيرِ﴾ ﴿١٠١﴾ ﴿فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَىٰ وَجْهِهِ فَازْتَدَّ بِصِيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنْ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ ﴿١٠٢﴾ ﴿قَالُوا يَتَابَانَا أَسْتَغْفِرُ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ﴾ ﴿١٠٣﴾ ﴿قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ ﴿١٠٤﴾.

﴿٩٨﴾ أي: قال يوسف عليه السلام لإخوته: ﴿أَذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا﴾: لأن كل داء يداوى بضده؛ فهذا القميص لما كان فيه أثر ريح يوسف الذي أودع قلب أبيه من الحزن والشوق ما الله به عليم؛ أراد أن يشمه فترجع إليه روحه وتراجع إليه نفسه ويرجع إليه بصرة، ولله في ذلك حكم وأسرار لا يطلع عليها العباد، وقد اطلع يوسف من ذلك على هذا الأمر. ﴿وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ ﴿٩٩﴾؛ أي: أولادكم وعشيرتكم وتوابعكم كلهم؛ ليحصل تمام اللقاء ويزول عنكم نكد المعيشة وضنك الرزق.

﴿١٠٠﴾ ﴿وَلَمَّا فَصَلَ الْوَيْلُ﴾: عن أرض مصر مقبلة إلى أرض فلسطين؛ شم يعقوب ريح القميص، فقال: ﴿إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَنْ تُفَنِّدُونِ﴾ ﴿١٠١﴾؛ أي: تسخرون مني، وتزعمون أن هذا الكلام صدر مني من غير شعور؛ لأنه رأى منهم من التعجب من حاله ما أوجب له هذا القول.

﴿١٠٢﴾ ﴿فَوَقَعَ مَا ظَنَّهُ بِهِمْ﴾، فقالوا: ﴿تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيرِ﴾ ﴿١٠٣﴾؛ أي: لا تزال تائها في بحر لجي، لا تدري ما تقول.

﴿١٠٤﴾ ﴿فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ﴾: بقرب الاجتماع بيوسف وإخوته وأبيهم، ﴿أَلْقَاهُ عَلَىٰ وَجْهِهِ﴾: ﴿فَازْتَدَّ بِصِيرًا﴾؛ أي: رجع على حاله الأولى بصيرًا بعد أن ابيضت عيناه من الحزن، فقال لمن حضره من أولاده وأهله الذين كانوا يفندون رأيه، ويتعجبون منه منتصرًا عليهم متبجحًا بنعمة الله عليه: ﴿أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنْ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ ﴿١٠٥﴾: حيث كنت مترجيًا للقاء يوسف مترقبًا لزوال الهم والغم والحزن.

﴿٩٧﴾ فَأَقْرُوا بُنْدِيهِمْ، وَنَجِعُوا بِذَلِكَ ﴿٩٨﴾ قَالُوا يَتَابَنَّا أَسْتَغْفِر لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ ﴿٩٩﴾: حيث فعلنا معك ما فعلنا.

﴿٩٨﴾ ف ﴿٩٩﴾ قَالَ ﴿٩٨﴾ مَجِيبًا لَطْلَبْتَهُمْ وَمَسْرَعًا لِإِجَابَتِهِمْ: سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٩٩﴾: ورجائي به أن يغفر لكم ويرحمكم ويتغمدكم برحمته.

وقد قيل: إنه أخر الاستغفار لهم إلى وقت السحر الفاضل؛ ليكون أتم للاستغفار وأقرب للإجابة.

﴿٩٩﴾ فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ ءَاوَىٰ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَتَابَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُءُوسِي مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَعَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿١٠٠﴾.

﴿٩٩﴾ أي: ﴿٩٩﴾ فَلَمَّا ﴿٩٩﴾ تجهز يعقوب وأولاده وأهلهم أجمعون وارتحلوا من بلادهم قاصدين الوصول إلى يوسف في مصر وسكنها، فلما وصلوا إليه ﴿٩٩﴾ وَدَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ ءَاوَىٰ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ ﴿٩٩﴾؛ أي: ضمهما إليه واختصهما بقربه وأبدى لهما من البر والإحسان والتبجيل والإعظام شيئاً عظيماً.

﴿٩٩﴾ وَقَالَ ﴿٩٩﴾ لَجَمِيعِ أَهْلِهِ: ﴿٩٩﴾ ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ ﴿٩٩﴾: من جميع المكاره والمخاوف. فدخلوا في هذه الحال السارة، وزال عنهم النصب وتكد المعيشة وحصل السرور والبهجة.

﴿١٠٠﴾ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ ﴿١٠٠﴾؛ أي: على سرير الملك ومجلس العزيز، ﴿١٠٠﴾ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا ﴿١٠٠﴾؛ أي: أبوه وأمه وإخوته سجدوا على وجه التعظيم والتبجيل والإكرام. ﴿١٠٠﴾ وَقَالَ ﴿١٠٠﴾ لما رأى هذه الحال ورأى سجودهم له: ﴿١٠٠﴾ يَتَابَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُءُوسِي مِنْ قَبْلُ ﴿١٠٠﴾: حين رأى أحد عشر كوكباً والشمس والقمر له ساجدين؛ فهذا وقوعها الذي آلت إليه ووصلت. ﴿١٠٠﴾ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا ﴿١٠٠﴾: فلم يجعلها أضغاث أحلام. ﴿١٠٠﴾ وَقَدْ أَحْسَنَ بِي ﴿١٠٠﴾: إحساناً جسيماً، ﴿١٠٠﴾ إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ ﴿١٠٠﴾: وهذا من لطفه وحسن خطابه عليه السلام؛ حيث ذكر حاله في السجن، ولم يذكر حاله في الحب؛ لتمام عفوهِ عن إخوته، وأنه لا يذكر ذلك الذنب، وأن إتيانكم من البادية من إحسان الله إليّ، فلم يقل جاء بكم من الجوع والنصب، ولا قال: أحسن بكم، بل قال: أحسن بي، جعل الإحسان عائداً إليه؛ فتبارك من يختص برحمته من يشاء من عباده ويهب لهم من لدنه رحمة إنه هو الوهاب، ﴿١٠٠﴾ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَعَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي ﴿١٠٠﴾: فلم يقل: نزع الشيطان إخواني، بل كان الذنب والجهل صدر من الطرفين؛ فالحمد لله الذي أخزى الشيطان ودحره وجمعنا بعد تلك الفرقة الشاقة. ﴿١٠٠﴾ إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ ﴿١٠٠﴾: يوصل بره وإحسانه إلى العبد من حيث لا يشعر ويوصله إلى المنازل الرفيعة من أمور يكرها. ﴿١٠٠﴾ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ ﴿١٠٠﴾: الذي يعلم ظواهر الأمور ويواطنها وسرائر العباد وضمائرها. ﴿١٠٠﴾ الْحَكِيمُ ﴿١٠٠﴾: في وضعه الأشياء مواضعها وسوقه الأمور إلى أوقاتها المقدرة لها.

﴿١٠٠﴾ رَبِّي قَدْ ءَاتَيْنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَالْحَقِّقِي بِالصَّلَاحِينَ ﴿١٠١﴾.

﴿١٠٠﴾ فَلَمَّا أَنَّ جَاءَ الْبَشِيرَ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ، فَأَرْتَدَّ بِصِيرًا قَالِ
الْمُ أَقُلْ لَكُمْ رَبِّي أَعْلَمُ مِنْ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ قَالُوا
يَتَابَنَّا أَسْتَغْفِر لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ ﴿١٠٢﴾ قَالَ سَوْفَ
أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿١٠٣﴾ فَلَمَّا
دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ ءَاوَىٰ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ
إِنْ شَاءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ ﴿١٠٤﴾ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا
لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَتَابَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُءُوسِي مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا
رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ
مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَعَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ
رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿١٠٥﴾ رَبِّي
قَدْ ءَاتَيْنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ
السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي
مُسْلِمًا وَالْحَقِّقِي بِالصَّلَاحِينَ ﴿١٠٦﴾ ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ
نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ
﴿١٠٧﴾ وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٨﴾

﴿١٠٠﴾ من جميع المكاره والمخاوف. فدخلوا في هذه الحال

﴿١٠٠﴾ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ ﴿١٠٠﴾؛ أي: على سرير الملك ومجلس العزيز، ﴿١٠٠﴾ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا ﴿١٠٠﴾؛ أي: أبوه وأمه وإخوته سجدوا على وجه التعظيم والتبجيل والإكرام. ﴿١٠٠﴾ وَقَالَ ﴿١٠٠﴾ لما رأى هذه الحال ورأى سجودهم له: ﴿١٠٠﴾ يَتَابَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُءُوسِي مِنْ قَبْلُ ﴿١٠٠﴾: حين رأى أحد عشر كوكباً والشمس والقمر له ساجدين؛ فهذا وقوعها الذي آلت إليه ووصلت. ﴿١٠٠﴾ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا ﴿١٠٠﴾: فلم يجعلها أضغاث أحلام. ﴿١٠٠﴾ وَقَدْ أَحْسَنَ بِي ﴿١٠٠﴾: إحساناً جسيماً، ﴿١٠٠﴾ إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ ﴿١٠٠﴾: وهذا من لطفه وحسن خطابه عليه السلام؛ حيث ذكر حاله في السجن، ولم يذكر حاله في الحب؛ لتمام عفوهِ عن إخوته، وأنه لا يذكر ذلك الذنب، وأن إتيانكم من البادية من إحسان الله إليّ، فلم يقل جاء بكم من الجوع والنصب، ولا قال: أحسن بكم، بل قال: أحسن بي، جعل الإحسان عائداً إليه؛ فتبارك من يختص برحمته من يشاء من عباده ويهب لهم من لدنه رحمة إنه هو الوهاب، ﴿١٠٠﴾ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَعَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي ﴿١٠٠﴾: فلم يقل: نزع الشيطان إخواني، بل كان الذنب والجهل صدر من الطرفين؛ فالحمد لله الذي أخزى الشيطان ودحره وجمعنا بعد تلك الفرقة الشاقة. ﴿١٠٠﴾ إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ ﴿١٠٠﴾: يوصل بره وإحسانه إلى العبد من حيث لا يشعر ويوصله إلى المنازل الرفيعة من أمور يكرها. ﴿١٠٠﴾ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ ﴿١٠٠﴾: الذي يعلم ظواهر الأمور ويواطنها وسرائر العباد وضمائرها. ﴿١٠٠﴾ الْحَكِيمُ ﴿١٠٠﴾: في وضعه الأشياء مواضعها وسوقه الأمور إلى أوقاتها المقدرة لها.

﴿١٠٠﴾ رَبِّي قَدْ ءَاتَيْنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَالْحَقِّقِي بِالصَّلَاحِينَ ﴿١٠١﴾.

﴿١٠١﴾ لما أتم الله ليوسف ما أتم من التمكين في الأرض والملك وأقر عينه بأبويه وإخوته وبعد العلم العظيم الذي أعطاه الله إياه، فقال مقرًا بنعمة الله شاكرًا لها داعيًا بالنبات على الإسلام: ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمَلِكِ﴾؛ وذلك أنه كان على خزان الأرض وتديرها وزيرًا كبيرًا للملك، ﴿وَعَلَّمَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾؛ أي: من تأويل أحاديث الكتب المنزلة وتأويل الرؤيا وغير ذلك من العلم. ﴿فَاطْرَأَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا﴾؛ أي: أدم علي الإسلام وثبني عليه حتى توفاني مسلمًا عليه، ولم يكن هذا دعاء باستعجال الموت. ﴿وَأَلْحَقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾؛ من الأنبياء الأبرار والأصفياء الأخيار.

﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾.

﴿١٠٢﴾ لما قص الله هذه القصة على محمد ﷺ؛ قال الله له: ﴿ذَلِكَ﴾: الإنبياء الذي أخبرناك به ﴿مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ﴾: الذي لولا إبحاؤنا إليك؛ لما وصل إليك هذا الخبر الجليل، فإنك لم تكن حاضرًا ﴿لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ﴾؛ أي: إخوة يوسف. ﴿وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾؛ به حين تعاقدوا على التفريق بينه وبين أبيه في حالة لا يطلع عليها إلا الله تعالى ولا يمكن أحدًا أن

يصل إلى علمها إلا بتعليم الله له إياها؛ كما قال تعالى لما قص قصة موسى وما جرى له؛ ذكر الحال التي لا سبيل للخلق إلى علمها إلا بوحيه، فقال: ﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْفَرْقِ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ [الفصل: ٤٤] الآيات؛ فهذا أدل دليل على أن من جاء بها رسول الله حقًا.

﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾ ﴿وَكَايِنْ مِنْ ءَايَةِ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمْشُونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾ ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾ ﴿أَفَأَمِنُوا أَنْ تَأْتِيَهُمْ غَشِيَةٌ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ أَنْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾.

﴿١٠٣﴾ يقول تعالى لنبيه محمد ﷺ: ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ﴾: على إيمانهم ﴿بِمُؤْمِنِينَ﴾؛ فإن مداركهم ومقاصدهم قد أصبحت فاسدة؛ فلا ينفعهم حرص الناصحين عليهم، ولو عدت الموانع؛ بأن كانوا يعلمونهم ويدعونهم إلى ما فيه الخير لهم ودفع الشر عنهم من غير أجر ولا عوض، ولو أقاموا لهم من الشواهد والآيات الدالات على صدقهم ما أقاموا.

﴿١٠٤﴾ ولهذا قال: ﴿وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾؛ يتذكرون به ما ينفعهم ليفعلوه، وما يضرهم ليركوه.

﴿١٠٥﴾ ﴿وَكَايِنْ﴾؛ أي: وكم ﴿مِنْ ءَايَةِ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمْشُونَ عَلَيْهَا﴾: دالة لهم على توحيد الله، ﴿وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾.

﴿١٠٦﴾ ومع هذا، إن وجد منهم بعض الإيمان، فلا ﴿يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾؛ فهم وإن أقروا بربوبية الله تعالى وأنه الخالق الرازق المدبر لجميع الأمور؛ فإنهم يشركون في ألوهية الله وتوحيده.

سورة يوسف
﴿١٠١﴾ وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴿١٠٢﴾ وَكَانَ مِنْ ءَايَةِ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمْشُونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٣﴾ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ ﴿١٠٤﴾ أَفَأَمِنُوا أَنْ تَأْتِيَهُمْ غَشِيَةٌ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ أَنْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٠٥﴾ قُلْ هَذِهِ سَبِيلُ أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعْتُ وَسُبْحَنَ اللَّهِ وَ مَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٦﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رَجُلًا نُوحِيَ إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى أَفَلَا يَسِيرُونَ ﴿١٠٧﴾ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠٨﴾ حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْسَسَ الرُّسُلُ وَظَنُوا أَنَّهُمْ قَدْ كَذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُفِخَ مِنْ شَأْءٍ وَلَا يَرُدُّ بِاسْتِنَاعِ الْقَوْمِ الْمُرْجَمِينَ ﴿١٠٩﴾ لَقَدْ كَانَتْ فِي قَصصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَعُ وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١٠﴾

أي: الجنة وما فيها من النعيم المقيم، ﴿خَيْرٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾: الله في امتثال أوامره واجتناب نواهيه؛ فإن نعيم الدنيا منغص منكذ منقطع، ونعيم الآخرة تام كامل لا يفنى أبداً، بل هو على الدوام في تزايد وتواصل. ﴿عَطَاءٌ غَيْرٌ يُجْدَوْنَ﴾ [مود: ١٠٨]. ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾؛ أي: أفلا يكون لكم عقول تؤثر الذي هو خير على الأدنى؟

﴿حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْسَسَ الرُّسُلُ وَظَنُوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا جَاءَهُمْ نَصْرًا فَنِيحُوا مِّنْ شَأْنِهِ وَلَا يَرُدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾ لَقَدْ كَانَتْ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَكِن تَصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلُ كُلِّ شَيْءٍ وَهَدَىٰ وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ.

﴿يُخْبِرُ تَعَالَىٰ أَنَّهُ يَرْسِلُ الرُّسُلَ الْكَرَامَ، فيكذبهم القوم المجرمون اللئام، وأن الله تعالى يمهلهم ليرجعوا إلى الحق، ولا يزال الله يمهلهم حتى إنه تصل الحال إلى غاية الشدة منهم على الرسل، حتى إن الرسل على كمال يقينهم وشدة تصديقهم بوعده الله ووعيده ربما أنه يخطر بقلوبهم نوع من الإيأس ونوع من ضعف العلم والتصديق؛ فإذا بلغ الأمر هذه الحال؛ ﴿جَاءَهُمْ نَصْرًا فَنِيحُوا مِّنْ شَأْنِهِ﴾: وهم الرسل وأتباعهم، ﴿وَلَا يَرُدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾؛ أي: ولا يرد عذابنا عن من اجترم وتجراً على الله؛ ﴿قَالَ لَهُنَّ قُوَّةٌ وَلَا نَاصِرٌ﴾ [الطارق: ١٠].

﴿لَقَدْ كَانَتْ فِي قَصَصِهِمْ﴾؛ أي: قصص الأنبياء والرسل مع قومهم ﴿عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾؛ أي: يعتبرون بها: أهل الخير وأهل الشر، وأن من فعل مثل فعلهم؛ ناله ما نالهم من كرامة أو إهانة، ويعتبرون بها أيضاً ما لله من صفات الكمال والحكمة العظيمة، وأنه الله الذي لا تنبغي العبادة إلا له وحده لا شريك له. وقوله: ﴿مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ﴾؛ أي: ما كان هذا القرآن الذي قص الله به عليكم من أنباء الغيب ما قص من الأحاديث المفتراة المختلفة. ﴿وَلَكِن﴾: كان ﴿تَصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾: من الكتب السابقة؛ يوافقها ويشهد لها بالصحة، ﴿وَتَفْصِيلُ كُلِّ شَيْءٍ﴾: يحتاج إليه العباد من أصول الدين وفروعه ومن الأدلة والبراهين. ﴿وَهَدَىٰ وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾؛ فإنهم بسبب ما يحصل لهم به من العلم بالحق وإشاره يحصل لهم الهدى، وبما يحصل لهم من الثواب العاجل والأجل تحصل لهم الرحمة.

﴿فَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ وَصَلُوا إِلَىٰ هَذِهِ الْحَالِ لَمْ يَبْقَ عَلَيْهِمْ إِلَّا أَنْ يَحِلَّ بِهِمُ الْعَذَابُ وَيَفْجَأَهُمُ الْعِقَابُ وَهُمْ آمَنُونَ، ولهذا قال: ﴿أَفَأَمِنُوا﴾؛ أي: الفاعلون لتلك الأفعال، المعروضون عن آيات الله، ﴿أَنْ تَأْتِيَهُمْ غَشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ اللَّهِ﴾؛ أي: عذاب يغشاهم ويعمهم ويستأصلهم، ﴿أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً﴾؛ أي: فجأة، ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾؛ أي: فإنهم قد استوجبوا لذلك؛ فليتوبوا إلى الله، ويتركوا ما يكون سبباً في عقابهم.

﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَنَ اللَّهُ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رَجُلًا نُوحِيَ إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَفَلَا تَعْقِلُونَ.

﴿يَقُولُ تَعَالَىٰ لِنَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ ﷺ﴾: ﴿قُلْ﴾ للناس: ﴿هَذِهِ سَبِيلِي﴾؛ أي: طريقي التي أدعو إليها، وهي السبيل الموصلة إلى الله وإلى دار كرامته، المتضمنة للعلم بالحق والعمل به وإيثاره، وإخلاص الدين لله وحده لا شريك له. ﴿أَدْعُو إِلَى اللَّهِ﴾؛ أي: أحث الخلق والعباد إلى الوصول إلى ربهم وأرغبهم في ذلك وأرهبهم مما يبعدهم عنه، ومع هذا؛ فأنا ﴿عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾: من ديني؛ أي: على علم ويقين من غير شك ولا امتراء ولا مرية. وكذلك من ﴿اتَّبَعَنِي﴾: يدعو إلى الله كما أدعو على بصيرة من أمره. ﴿وَسُبْحَنَ اللَّهُ﴾: عما نسب إليه مما لا يليق بجلاله أو ينافي كماله. ﴿وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾: في جميع أموري، بل أعبد الله مخلصاً له الدين.

﴿ثُمَّ قَالَ تَعَالَىٰ﴾: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رَجُلًا﴾؛ أي: لم نرسل ملائكة ولا غيرهم من أصناف الخلق؛ فلا شيء يستغرب قومك رسالتك، ويزعمون أنه ليس لك عليهم فضل، فلك فيمن قبلك من المرسلين أسوة حسنة. ﴿نُوحِيَ إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ﴾؛ أي: لا من البادية، بل من أهل القرى، الذين هم أكمل عقولاً وأصح آراء، وليتين أمرهم ويتضح شأنهم. ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾: إذا لم يصدقوا لقولك، ﴿فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾: كيف أهلكهم الله بتكذيبهم؛ فاحذروا أن تقيموا على ما قاموا عليه، فيصيبكم ما أصابهم. ﴿وَلَدَارُ الْآخِرَةِ﴾؛

فصل

في ذكر شيء من العبر والفوائد التي اشتملت عليها هذه القصة العظيمة التي قال الله في أولها: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾، وقال: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِّلسَّائِلِينَ﴾ (٧)، وقال في آخرها: ﴿لَقَدْ كَانَتْ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾، غير ما تقدم في مطاويها من الفوائد.

فمن ذلك: أن هذه القصة من أحسن القصص وأوضحها وأبينها؛ لما فيها من أنواع التقلبات؛ من حال إلى حال، ومن محنة إلى محنة، ومن محنة إلى محنة ومنة ومنة، ومن ذل إلى عز، ومن رق إلى ملك، ومن فرقة وشتات إلى اجتماع واتلاف، ومن حزن إلى سرور، ومن رخاء إلى جذب، ومن جذب إلى رخاء، ومن ضيق إلى سعة، ومن إنكار إلى إقرار؛ فتبارك من قصها فأحسنها، ووضحها، وبينها.

ومنها: أن فيها أصلاً لتعبير الرؤيا؛ فإن علم التعبير من العلوم المهمة التي يعطيها الله من يشاء من عباده، وإن أغلب ما تبنى عليه المناسبة والمشابهة في الاسم والصفة:

فإن رؤيا يوسف التي رأى أن الشمس والقمر وأحد عشر كوكباً له ساجدين وجه المناسبة فيها أن هذه الأنوار هي زينة السماء وجمالها وبها منافعها؛ فكَذَلِكَ الْأَنْبِيَاءُ وَالْعُلَمَاءُ زينة للأرض وجمال، وبهم يهتدى في الظلمات كما يهتدى بهذه الأنوار، ولأن الأصل أبوه وأمه، وإخوته هم الفرع؛ فمن المناسب أن يكون الأصل أعظم نوراً وجرمًا لما هو فرع عنه؛ فلذلك كانت الشمس أمه والقمر أباه والكواكب إخوته. ومن المناسبة أن الشمس لفظ مؤنث؛ فلذلك كانت أمه، والقمر والكواكب مذكرات؛ فكانت لأبيه وإخوته. ومن المناسبة أن الساجد معظم محترم للمسجود له، والمسجود له معظم محترم؛ فلذلك دل ذلك على أن يوسف يكون معجباً محترماً عند أبويه وإخوته، ومن لازم ذلك أن يكون معجباً مفضلاً في العلم والفضائل الموجبة لذلك، ولذلك قال له أبوه: ﴿وَكَذَلِكَ يَجْزِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾.

ومن المناسبة في رؤيا الفتيتين: أنه أوّل رؤيا الذي رأى أنه يعصر خمراً؛ أن الذي يعصر خمراً في العادة يكون خادماً لغيره، والعصر يقصد لغيره؛ فلذلك أوّل بما يتول إليه؛ أنه يسقي ربه، وذلك متضمن لخروجه من السجن. وأوّل الذي رأى أنه يحمل فوق رأسه خبزاً تأكل الطير منه بأن جلده رأسه

ولحمه وما في ذلك من المخ أنه هو الذي يحمل وأنه سبيرز للطيور بمحل تتمكن من الأكل من رأسه، فرأى من حاله أنه سيقتل ويصلب بعد موته فيبرز للطيور فتأكل من رأسه، وذلك لا يكون إلا بالصلب بعد القتل.

وأوّل رؤيا الملك للبقرات والسنبلات بالسنين المخصبة والسنين المجعبة، ووجه المناسبة أن الملك به ترتبط أحوال الرعية ومصالحها، وبصلاحه تصلح وبفساده تفسد، وكذلك السنون بها صلاح أحوال الرعية واستقامة أمر المعاش أو عدمه، وأما البقر؛ فإنها تحرت الأرض عليها ويستقى عليها الماء وإذا أخضبت السنة؛ سمت، وإذا أجذبت؛ صارت عجافاً، وكذلك السنبال في الخصب تكثر وتخضر، وفي الجذب تقل وتيس، وهي أفضل غلال الأرض.

ومنها: ما فيها من الأدلة على صحة نبوة محمد ﷺ؛ حيث قص على قومه هذه القصة الطويلة، وهو لم يقرأ كتب الأولين، ولا دارس أحد، يراه قومه بين أظهرهم صباحاً ومساءً، وهو أمي لا يخط ولا يقرأ، وهي موافقة لما في الكتب السابقة، وما كان لديهم إذ أجمعوا أمرهم وهم يمكرون.

ومنها: أنه ينبغي البعد عن أسباب الشر وكتمان ما تخشى مضرتة؛ لقول يعقوب ليوسف: ﴿يَبْنَئُ لَا نَقْصُصُ رُءْيَاكَ عَلَيَّ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا﴾.

ومنها: أنه يجوز ذكر الإنسان بما يكره على وجه النصيحة لغيره؛ لقوله: ﴿فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا﴾.

ومنها: أن نعمة الله على العبد نعمة على من يتعلق به من أهل بيته وأقاربه وأصحابه، وأنه ربما شملتهم وحصل لهم ما حصل له بسببه؛ كما قال يعقوب في تفسيره لرؤيا يوسف: ﴿وَكَذَلِكَ يَجْزِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُرِيكَ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ﴾، ولما تمت النعمة على يوسف؛ حصل لآل يعقوب من العز والتمكين في الأرض والسرور والغبطة ما حصل بسبب يوسف.

ومنها: أن العدل مطلوب في كل الأمور، لا في معاملة السلطان رعيته، ولا فيما دونه، حتى في معاملة الوالد لأولاده في المحبة والإيثار وغيره، وأن في الإخلال بذلك يختل عليه الأمر وتفسد الأحوال، ولهذا لما قدم يعقوب يوسف في المحبة وآثره على إخوته؛ جرى منهم ما جرى على أنفسهم وعلى أبيهم وأخيه.

غلامًا رقيقًا، وسماه الله شراً، وكان عندهم بمنزلة الغلام الرقيق المكرم.

ومنها: الحذر من الخلوة بالنساء التي يخشى منهن الفتنة، والحذر أيضًا من المحبة التي يخشى ضررها؛ فإن امرأة العزيز جرى منها ما جرى بسبب توحدها بيوسف وحباها الشديد له، الذي ما تركها حتى راودته تلك المراودة، ثم كذبت عليه، فسجن بسببها مدة طويلة.

ومنها: أن الهم الذي هم به يوسف بالمرأة ثم تركه لله مما يرقه إلى الله زلفى؛ لأن الهم داع من دواعي النفس الأمارة بالسوء، وهو طبيعة لأغلب الخلق، فلما قابل بينه وبين محبة الله وخشيته؛ غلبت محبة الله وخشيته داعي النفس والهوى، فكان ممن ﴿خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ﴾ [التذات: ٤٠]، ومن السبعة الذين يظلمهم الله في ظل عرشه يوم لا ظل إلا ظله؛ أحدهم: رجل دعت امرأة ذات منصب وجمال فقال: إني أخاف الله. وإنما الهم الذي يلام عليه العبد الهم الذي يساكنه، ويصير عزمًا ربما اقترن به الفعل.

ومنها: أن من دخل الإيمان قلبه، وكان مخلصًا لله في جميع أموره؛ فإن الله يدفع عنه ببرهان إيمانه وصدق إخلاصه من أنواع السوء والفحشاء وأسباب المعاصي ما هو جزء لإيمانه وإخلاصه؛ لقوله: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ أَن زَاءَ بُرْهَنَ رَبِّيَ ۚ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِن عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾ [٢٤]؛ على قراءة من قرأها بكسر اللام، ومن قرأها بالفتح؛ فإنه من إخلاص الله إياه، وهو متضمن لإخلاصه هو بنفسه، فلما أخلص عمله لله؛ أخلصه الله، وخلصه من السوء والفحشاء.

ومنها: أنه ينبغي للعبد إذا رأى محلاً فيه فتنة وأسباب معصية أن يفر منه ويهرب غاية ما يمكنه؛ ليتمكن من التخلص من المعصية؛ لأن يوسف عليه السلام لما راودته التي هو في بيتها؛ فر هاربًا يطلب الباب ليتخلص من شرها.

ومنها: أن القرائن يعمل بها عند الاشتباه، فلو تخاصم رجل وامرأته في شيء من أواني الدار؛ فما يصلح للرجل؛ فإنه للرجل، وما يصلح للمرأة؛ فهو لها، هذا إذ لم يكن بينة، وكذا لو تنازع نجار وحداد في آلة حرفتهما من غير بينة، والعمل بالقامة في الأشباه والأثر من هذا الباب؛ فإن شاهد يوسف شهد بالقرينة وحكم بها في قد القميص واستدل بقدته من دبره

ومنها: الحذر من شؤم الذنوب، وأن الذنب الواحد يستتبع ذنوبًا متعددة، ولا يتم لفاعله إلا بعدة جرائم؛ فإخوة يوسف لما أرادوا التفريق بينه وبين أبيه؛ احتالوا لذلك بأنواع من الحيل، وكذبوا عدة مرات، وزوروا على أبيهم في القميص والدم الذي فيه، وفي إتيانهم عشاء يكون، ولا تستبعد أنه قد كثر البحث فيها في تلك المدة، بل لعل ذلك اتصل إلى أن اجتمعوا بيوسف، وكلما صار البحث؛ حصل من الإخبار بالكذب والافتراء ما حصل، وهذا شؤم الذنب وآثاره التابعة والسابقة واللاحقة.

ومنها: أن العبرة في حال العبد بكمال النهاية لا بنقص البداية؛ فإن أولاد يعقوب عليهم السلام جرى منهم ما جرى في أول الأمر مما هو أكبر أسباب النقص واللوم، ثم انتهى أمرهم إلى التوبة النصوح والسماح التام من يوسف ومن أبيهم والدعاء لهم بالمغفرة والرحمة، وإذا سمح العبد عن حقه؛ فالله خير الراحمين، ولهذا في أصح الأقوال أنهم كانوا أنبياء؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْكَ إِذْ رَٰسَمٍ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ﴾ [النساء: ١٦٣]، وهم أولاد يعقوب الاثنا عشر وذريتهم، ومما يدل على ذلك أن في رؤيا يوسف أنه رآهم كواكب نيرة، والكواكب فيها النور والهداية، الذي من صفات الأنبياء؛ فإن لم يكونوا أنبياء؛ فإنهم علماء هداة.

ومنها: ما من الله به على يوسف عليه الصلاة والسلام من العلم والحلم ومكارم الأخلاق والدعوة إلى الله وإلى دينه وعفوه عن إخوته الخاطئين عفواً بادرهم به وتمم ذلك بالألّا يثرب عليهم ولا يعيرهم به، ثم بره العظيم بأبويه وإحسانه لإخوته، بل لعموم الخلق.

ومنها: أن بعض الشر أهون من بعض، وارتكاب أخف الضررين أولى من ارتكاب أعظمهما؛ فإن إخوة يوسف لما اتفقوا على قتل يوسف أو إلقائه أرضاً، وقال قائل منهم: ﴿لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ﴾؛ كان قوله أحسن منهم وأخف، وبسببه خف عن إخوته الإثم الكبير.

ومنها: أن الشيء إذا تداولته الأيدي وصار من جملة الأموال ولم يعلم أنه كان على غير وجه الشرع؛ أنه لا إثم على من باشره ببيع أو شراء أو خدمة أو انتفاع أو استعمال؛ فإن يوسف عليه السلام باعه إخوته بيعاً حراماً لا يجوز، ثم ذهبت به السيارة إلى مصر، فباعوه بها، وبقي عند سيده

أنه لما رأى فيهما قابلية لدعوته حيث ظنَّ فيه الظن الحسن، وقال له: ﴿إِنَّا نُرِيكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ ﴿٦٦﴾ وأتياه لأن يعبر لهما رؤياهما، فأرهما متشوقين لتعبيرها عنده، رأى ذلك فرصة فانتزها، فدعاها إلى الله تعالى قبل أن يعبر رؤياهما؛ ليكون أنجح لمقصوده وأقرب لحصول مطلوبه، وبين لهما أولاً أن الذي أوصله إلى الحال التي رآياه فيها من الكمال والعلم إيمانه وتوحيده وتركه ملة من لا يؤمن بالله واليوم الآخر، وهذا دعاء لهما بالحال، ثم دعاها بالمقال، وبين فساد الشرك وبرهن عليه، وحقيقة التوحيد وبرهن عليه.

ومنها: أنه يبدأ بالأهم فالأهم، وأنه إذا سئل المفتي، وكان السائل حاجته من غير سؤاله أشد؛ أنه ينبغي له أن يعلمه ما يحتاج إليه قبل أن يجيب سؤاله؛ فإن هذا علامة على نصيح المعلم وفطنته وحسن إرشاده وتعليمه؛ فإن يوسف لما سأله الفتیان عن الرؤيا؛ قدم لهما قبل تعبيرها دعوتهما إلى الله وحده لا شريك له.

ومنها: أن من وقع في مكروه وشدة؛ لا بأس أن يستعين بمن له قدرة على تخليصه أو الإخبار بحاله، وأن هذا لا يكون شكوى للمخلوق؛ فإن هذا من الأمور العادية التي جرى العرف باستعانة الناس بعضهم ببعض، ولهذا قال يوسف للذي ظن أنه ناج من الفتيين: ﴿أَذْكُرُنِي عِنْدَ رَبِّكَ﴾.

ومنها: أنه ينبغي ويتأكد على المعلم استعمال الإخلاص التام في تعليمه، وألا يجعل تعليمه وسيلة لمعاوضة أحد في مال أو جاه أو نفع، وألا يمتنع من التعليم أو لا ينصح فيه إذا لم يفعل السائل ما كلفه به المعلم؛ فإن يوسف عليه السلام قد قال، ووصى أحد الفتيين أن يذكره عند ربه، فلم يذكره ونسي، فلما بدت حاجتهم إلى سؤال يوسف؛ أرسلوا ذلك الفتى، وجاءه سائلاً مستفتياً عن تلك الرؤيا، فلم يعنفه يوسف، ولا وبخه لتركه ذكره، بل أجابه عن سؤاله جواباً تاماً من كل وجه.

ومنها: أنه ينبغي للمستئول أن يدل السائل على أمر ينفعه مما يتعلق بسؤاله ويرشده إلى الطريق التي يتفجع بها في دينه ودنياه؛ فإن هذا من كمال نصحه وفطنته وحسن إرشاده؛ فإن يوسف عليه السلام لم يقتصر على تعبير رؤيا الملك، بل دلهم - مع ذلك - على ما يصنعون في تلك السنين المخصابات من كثرة الزرع وكثرة جبايته.

على صدق يوسف وكذبها. ومما يدل على هذه القاعدة أنه استدل بوجود الصواع في رحل أخيه على الحكم عليه بالسرقة من غير بينة شهادة ولا إقرار؛ فعلى هذا إذا وجد المسروق في يد السارق، خصوصاً إذا كان معروفاً بالسرقة؛ فإنه يحكم عليه بالسرقة، وهذا أبلغ من الشهادة. وكذلك وجود الرجل يتقياً الخمر أو وجود المرأة التي لا زوج لها ولا سيد - حاملاً؛ فإنه يقام بذلك الحد ما لم يقم مانع منه، ولهذا سمي الله هذا الحكم شاهداً، فقال: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا﴾.

ومنها: ما عليه يوسف من الجمال الظاهر والباطن؛ فإن جماله الظاهر أوجب للمرأة التي هو في بيتها ما أوجب، وللنساء اللاتي جمعتن حين لُمنها على ذلك أن قطعن أيديهن وقلن: ﴿مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ ﴿٦٦﴾. وأما جماله الباطن؛ فهو العفة العظيمة عن المعصية مع وجود الدواعي الكثيرة لوقوعها وشهادة امرأة العزيز والنسوة بعد ذلك ببراءته، ولهذا قالت امرأة العزيز: ﴿وَلَقَدْ رَوَدُّنِي عَنْ نَفْسِي - فَاسْتَعْصَمَ﴾، وقالت بعد ذلك: ﴿الَّذِينَ حَصَّصَ الْخَلْقَ أَنَا رَوَدُّنِي عَنْ نَفْسِي وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾ ﴿٥١﴾، وقالت النسوة: ﴿حَسْبُ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ﴾.

ومنها: أن يوسف عليه السلام اختار السجن على المعصية؛ فهكذا ينبغي للعبد إذا ابتلي بين أمرين: إما فعل معصية، وإما عقوبة دنيوية؛ أن يختار العقوبة الدنيوية على مواجهة الذنب الموجب للعقوبة الشديدة في الدنيا والآخرة، ولهذا من علامات الإيمان أن يكره العبد أن يعود في الكفر بعد أن أنقذه الله منه كما يكره أن يلقى في النار.

ومنها: أنه ينبغي للعبد أن يلتجئ إلى الله ويحتمي بحماه عند وجود أسباب المعصية ويتبرأ من حوله وقوته؛ لقول يوسف عليه السلام: ﴿وَلَا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ ﴿٢٣﴾.

ومنها: أن العلم والعقل يدعوان صاحبهما إلى الخير وينهيانه عن الشر، وأن الجهل يدعو صاحبه إلى موافقة هوى النفس وإن كان معصية ضاراً لصاحبه.

ومنها: أنه كما على العبد عبودية لله في الرخاء؛ فعليه عبودية في الشدة؛ فيوسف عليه السلام لم يزل يدعو إلى الله، فلما دخل السجن؛ استمر على ذلك ودعا الفتيين إلى التوحيد ونهاهما عن الشرك. ومن فطنته - عليه السلام -

المجدة، وأن هذا غير مناقض للتوكل على الله، بل يتوكل العبد على الله، ويعمل بالأسباب التي تنفعه في دينه ودنياه.

ومنها: حسن تدبير يوسف لما تولى خزائن الأرض حتى كثرت عندهم الغلات جدًّا، حتى صار أهل الأقطار يقصدون مصر لطلب الميرة منها؛ لعلمهم بوفورها فيها، وحتى إنه كان لا يكيل لأحد إلا مقدار الحاجة الخاصة، أو أقل لا يزيد كل قادم على كيل بعير وحمله.

ومنها: مشروعية الضيافة، وأنها من سنن المرسلين، وإكرام الضيف؛ لقول يوسف لإخوته: ﴿أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ﴾ ﴿٥٥﴾.

ومنها: أن سوء الظن مع وجود القرائن الدالة عليه غير ممنوع ولا محرم؛ فإن يعقوب قال لأولاده بعدما امتنع من إرسال يوسف معهم حتى عالجوه أشد المعالجة ثم قال لهم بعدما أتوه وزعموا أن الذئب أكله: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا﴾، وقال لهم في الأخ الآخر: ﴿هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمَنُكُمْ عَلَى أَخِيهِ مِنْ قَبْلُ﴾، ثم لما احتبسه يوسف عنده، وجاء إخوته لأبيهم؛ قال لهم: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا﴾؛ فهم في الأخيرة وإن لم يكونوا مفرطين؛ فقد جرى منهم ما أوجب لأبيهم أن قال ما قال من غير إثم عليه ولا حرج.

ومنها: أن استعمال الأسباب الدافعة للعين وغيرها من المكارة أو الرافعة لها بعد نزولها غير ممنوع، بل جائز، وإن كان لا يقع شيء إلا بقضاء وقدر؛ فإن الأسباب أيضًا من القضاء والقدر؛ لأمر يعقوب؛ حيث قال لبنيه: ﴿يَبْنَى لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ﴾.

ومنها: جواز استعمال المكاييد التي يتوصل بها إلى الحقوق، وأن العلم بالطرق الخفية الموصلة إلى مقاصدها مما يحمد عليه العبد، وإنما الممنوع التحيل على إسقاط واجب أو فعل محرم.

ومنها: أنه ينبغي لمن أراد أن يوهم غيره بأمر لا يحب أن يطلع عليه أن يستعمل المعارض القولية والفعلية المانعة له من الكذب؛ كما فعل يوسف حيث ألقى الصواع في رحل أخيه، ثم استخرجها منه موهماً أنه سارق، وليس فيه إلا القرينة الموهمة لإخوته، وقال بعد ذلك: ﴿مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَّعَيْنًا عِنْدَهُ﴾، ولم يقل: من سرق

ومنها: أنه لا يلام الإنسان على السعي في دفع التهمة عن نفسه وطلب البراءة لها، بل يحمد على ذلك؛ كما امتنع يوسف عن الخروج من السجن حتى تتبين لهم براءته بحال النسوة اللاتي قطعن أيديهن.

ومنها: فضيلة العلم؛ علم الأحكام والشرع، وعلم تعبير الرؤيا، وعلم التدبير والتربية، وأنه أفضل من الصورة الظاهرة، ولو بلغت في الحسن جمال يوسف؛ فإن يوسف بسبب جماله حصلت له تلك المحنة والسجن، وبسبب علمه حصل له العز والرفعة والتمكين في الأرض؛ فإن كل خير في الدنيا والآخرة من آثار العلم وموجباته.

ومنها: أن علم التعبير من العلوم الشرعية، وأنه يثاب الإنسان على تعلمه وتعليمه، وأن تعبير الرؤيا داخل في الفتوى؛ لقوله للفتيين: ﴿فَصِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾ ﴿٥٦﴾، وقال الملك: ﴿أَسْتَوِي فِي رَأْيَيْ﴾، وقال الفتى ليوسف: ﴿أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ﴾ الآيات؛ فلا يجوز الإقدام على تعبير الرؤيا من غير علم.

ومنها: أنه لا بأس أن يخبر الإنسان عما في نفسه من صفات الكمال من علم أو عمل إذا كان في ذلك مصلحة، ولم يقصد به العبد الرياء، وسلم من الكذب؛ لقول يوسف: ﴿اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلَيْهَا﴾ ﴿٥٧﴾.

وكذلك لا تدم الولاية إذا كان المتولي فيها يقوم بما يقدر عليه من حقوق الله وحقوق عباده، وأنه لا بأس بطلبها إذا كان أعظم كفاءة من غيره، وإنما الذي يذم إذا لم يكن فيه كفاية، أو كان موجوداً غيره مثله أو أعلى منه، أو لم يرد بها إقامة أمر الله؛ فبهذه الأمور ينهى عن طلبها والتعرض لها.

ومنها: أن الله واسع الجود والكرم، وجود على عبده بخير الدنيا والآخرة، وأن خير الآخرة له سببان: الإيمان، والتقوى، وأنه خير من ثواب الدنيا وملكها، وأن العبد ينبغي له أن يدعو نفسه، ويشوقها لثواب الله، ولا يدعها تحزن إذا رأت أهل الدنيا ولذاتها وهي غير قادرة عليها، بل يسليها بثواب الله الأخروي وفضله العظيم؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْرُ الْآخِرَةَ خَيْرَ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا وَاكْفَرُوا يَتَّقُونَ﴾ ﴿٥٨﴾.

ومنها: أن جباية الأرزاق إذا أريد بها التوسعة على الناس من غير ضرر يلحقهم؛ لا بأس بها؛ لأن يوسف أمرهم بجباية الأرزاق والأطعمة في السنين المخصبات للاستعداد للسنين

وسوء حال أن يعترف بنعمة الله عليه، ولأيزال ذاكرًا حاله الأولى؛ ليحدث لذلك شكرًا كلما ذكرها؛ لقول يوسف عليه السلام: ﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ﴾.

ومنها: لطف الله العظيم بيوسف؛ حيث نقله في تلك الأحوال، وأوصل إليه الشدائد والمحن؛ ليوصله بها إلى أعلى الغايات ورفيع الدرجات.

ومنها: أنه ينبغي للعبد أن يتملق إلى الله دائماً في تثبيت إيمانه، ويُعَمِّل الأسباب الموجبة لذلك، ويسأل الله حسن الخاتمة وتمام النعمة؛ لقول يوسف عليه الصلاة والسلام: ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّ فِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَالْحَقِّقِي بِالصَّلَاحِينَ﴾.

فهذا ما يَسَّرَ الله من الفوائد والغير في هذه القصة المباركة، ولا بد أن يظهر للمتدبر المتفكر غير ذلك؛ فنسأله تعالى علماً نافعاً وعملاً مقبلاً إنه جواد كريم.

تم تفسير سورة يوسف وأبيه وإخوته عليهم الصلاة والسلام. والحمد لله رب العالمين.



تفسير سورة الرعد

وهي مدنية - وقيل مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الْقُرْآنُ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

يخبر تعالى أن هذا القرآن هو آيات الكتاب الدالة على كل ما يحتاج إليه العباد من أصول الدين وفروعه، وأن الذي أنزل إلى الرسول من ربه هو الحق المبين؛ لأن أخباره صدق وأوامره ونواهيه عدل مؤيدة بالأدلة والبراهين القاطعة؛ فمن أقبل عليه وعلى علمه؛ كان من أهل العلم بالحق الذي يوجب لهم علمهم العمل بما أحب الله. ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾. بهذا القرآن؛ إما جهلاً وإعراضاً عنه وعدم اهتمام به، وإما عناداً وظلماً؛ فلذلك أكثر الناس غير متفهمين به؛ لعدم السبب الموجب للانتفاع.

متاعنا. وكذلك لم يقل: إنا وجدنا متاعنا عنده؛ بل أتى بكلام عام يصلح له ولغيره، وليس في ذلك محذور، وإنما فيه إيهام أنه سارق؛ ليحصل المقصود الحاضر، وأنه يبقى عند أخيه، وقد زال عن الأخ هذا الإيهام بعدما تبينت الحال.

ومنها: أنه لا يجوز للإنسان أن يشهد إلا بما علمه وتحققه إما بمشاهدة أو خبر من يثق به، وتطمئن إليه النفس؛ لقولهم: ﴿وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلَّمْنَا﴾.

ومنها: هذه المحنة العظيمة التي امتحن الله بها نبيه وصفيه يعقوب عليه السلام؛ حيث قضى بالتفريق بينه وبين ابنه يوسف الذي لا يقدر على فراقه ساعة واحدة ويحزنه ذلك أشد الحزن، فحصل التفريق بينه وبينه مدة طويلة لا تقصر عن ثلاثين سنة، ويعقوب لم يفارق الحزن قلبه في هذه المدة، ﴿وَأَبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ﴾، ثم ازداد به الأمر شدة حين صار الفراق بينه وبين ابنه الثاني شقيق يوسف، هذا وهو صابر لأمر الله محتسب الأجر من الله قد وعد من نفسه الصبر الجميل، ولا شك أنه وفى بما وعد به، ولا ينافي ذلك قوله: ﴿إِنَّمَا أَشْكُوا بَنِي وَحُرِّزَ إِلَى اللَّهِ﴾؛ فإن الشكوى إلى الله لا تنافي الصبر، وإنما الذي ينافيه الشكوى إلى المخلوقين.

ومنها: أن الفرج مع الكرب، وأن مع العسر يسراً؛ فإنه لما طال الحزن على يعقوب واشتد به إلى أنهى ما يكون، ثم حصل الاضطراب لآل يعقوب ومسهم الضر؛ أذن الله حيثن بالفرج، فحصل التلاقي في أشد الأوقات إليه حاجة واضطراباً، فتم بذلك الأجر وحصل السرور وعلم من ذلك أن الله يبتلي أوليائه بالشدّة والرخاء والعسر واليسر؛ ليمتحن صبرهم وشكرهم، ويزداد بذلك إيمانهم ويقينهم وعرفانهم.

ومنها: جواز إخبار الإنسان بما يجد وما هو فيه من مرض أو فقر ونحوهما على غير وجه التسخط؛ لأن إخوة يوسف قالوا: ﴿يَتَأْتِيَ الْعَزِيزُ مَسْنًا وَأَهْلًا أَضْرُّ﴾، ولم ينكر عليهم يوسف.

ومنها: فضيلة التقوى والصبر، وأن كل خير في الدنيا والآخرة فمن آثار التقوى والصبر، وأن عاقبة أهلها أحسن العواقب؛ لقوله: ﴿قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى النَّاسِ إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾.

ومنها: أنه ينبغي لمن أنعم الله عليه بنعمة بعد شدة وفقر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
 سُورَةُ الرَّعْدِ
 الرَّعْدِ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ أَسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدِيرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴿٢﴾ وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رِوْسًا وَانْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الشَّجَرِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشَى اللَّيْلُ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٣﴾ وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مُّتَجَوِّرَاتٌ مُّجْتَمِعَاتٌ وَجُنتٌ مِنْ أُعْتَبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفِصِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأَكْثَلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾

يَسْمِ اللَّهُ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
 الرَّعْدِ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ أَسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدِيرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴿٢﴾ وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رِوْسًا وَانْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الشَّجَرِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشَى اللَّيْلُ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٣﴾ وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مُّتَجَوِّرَاتٌ مُّجْتَمِعَاتٌ وَجُنتٌ مِنْ أُعْتَبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفِصِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأَكْثَلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾

وَلَنْ تَجْعَلَ لِقَوْمِهِمْ ذِكْرًا تَرْتَابًا ﴿٥﴾ أَلَمْ يَكُنْ لَكُمْ يَوْمَ الْفَتْحِ نَبَأٌ كَافٍ ﴿٦﴾ فِي الْفَتْحِ وَالْغَنَاءِ ﴿٧﴾ وَلَكُمْ فِي الْقُرْآنِ ذِكْرٌ لَّكُم مَّا كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨﴾ وَلَكُمْ فِي الْقُرْآنِ ذِكْرٌ لَّكُم مَّا كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩﴾ وَلَكُمْ فِي الْقُرْآنِ ذِكْرٌ لَّكُم مَّا كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٠﴾

﴿١﴾ اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ أَسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدِيرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴿٢﴾ وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رِوْسًا وَانْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الشَّجَرِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشَى اللَّيْلُ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٣﴾ وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مُّتَجَوِّرَاتٌ مُّجْتَمِعَاتٌ وَجُنتٌ مِنْ أُعْتَبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفِصِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأَكْثَلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾

﴿٢﴾ يخبر تعالى عن انفرادة بالخلق والتدبير والعظمة والسلطان الدال على أنه وحده المعبود الذي لا تنبغي العبادة إلا له، فقال: ﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ﴾: على عظمها واتساعها بقدرته العظيمة، ﴿بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾: أي: ليس لها عمد من تحتها؛ فإنه لو كان لها عمد؛ لرأيتوها، ﴿ثُمَّ﴾: بعدما خلق السماوات والأرض، ﴿أَسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾: العظيم، الذي هو أعلى المخلوقات، استواء يليق بجلاله ويناسب كماله. ﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾: لمصالح العباد ومصالح مواشيهم وثمارهم. ﴿كُلٌّ﴾: من الشمس والقمر، ﴿يَجْرِي﴾: بتدبير العزيز العليم ﴿لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾: بسير منتظم لا يفتران ولا يتيان حتى يجيء الأجل المسمى، وهو طي الله هذا العالم ونقلهم إلى الدار الآخرة التي هي دار القرار؛ فعند ذلك يطوي الله السماوات ويبدلها ويغير الأرض ويبدلها، فتكور الشمس والقمر ويجمع بينهما فيلقيان في النار؛ ليرى من عبدهما أنهما غير أهل للعبادة، فيتحسر بذلك أشد الحسرة، وليعلم الذين كفروا أنهم كانوا كاذبين. وقوله: ﴿يُدِيرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ﴾: هذا جمع بين الخلق والأمر؛ أي: قد استوى الله العظيم على سرير الملك؛ يدبر الأمور في العالم العلوي والسفلي، فيخلق ويرزق، ويغني ويفقر، ويرفع أقوامًا ويضع آخرين، ويعز وذل، ويخفض ويرفع، ويقبل العثرات، ويفرج الكربات، وينفذ الأقدار في أوقاتها التي سبق بها علمه وجرى بها قلمه، ويرسل ملائكته الكرام لتدبير ما جعلهم على تدبيره، ويُنْزِلُ الْكُتُبَ الْإِلَهِيَّةَ عَلَى رُسُلِهِ، ويبين ما يحتاج إليه العباد من الشرائع والأوامر والنواهي، ويفصلها غاية التفصيل ببيانها وإيضاحها وتمييزها. ﴿لَعَلَّكُمْ﴾: بسبب ما أخرج لكم من الآيات الأفقية والآيات القرآنية، ﴿بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ﴾: فإن كثرة الأدلة وبيانها ووضوحها من أسباب حصول اليقين في جميع الأمور الإلهية، خصوصًا في العقائد الكبار؛ كالبعث والنشور والإخراج من القبور.

ولا يتيان حتى يجيء الأجل المسمى، وهو طي الله هذا العالم ونقلهم إلى الدار الآخرة التي هي دار القرار؛ فعند ذلك يطوي الله السماوات ويبدلها ويغير الأرض ويبدلها، فتكور الشمس والقمر ويجمع بينهما فيلقيان في النار؛ ليرى من عبدهما أنهما غير أهل للعبادة، فيتحسر بذلك أشد الحسرة، وليعلم الذين كفروا أنهم كانوا كاذبين. وقوله: ﴿يُدِيرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ﴾: هذا جمع بين الخلق والأمر؛ أي: قد استوى الله العظيم على سرير الملك؛ يدبر الأمور في العالم العلوي والسفلي، فيخلق ويرزق، ويغني ويفقر، ويرفع أقوامًا ويضع آخرين، ويعز وذل، ويخفض ويرفع، ويقبل العثرات، ويفرج الكربات، وينفذ الأقدار في أوقاتها التي سبق بها علمه وجرى بها قلمه، ويرسل ملائكته الكرام لتدبير ما جعلهم على تدبيره، ويُنْزِلُ الْكُتُبَ الْإِلَهِيَّةَ عَلَى رُسُلِهِ، ويبين ما يحتاج إليه العباد من الشرائع والأوامر والنواهي، ويفصلها غاية التفصيل ببيانها وإيضاحها وتمييزها. ﴿لَعَلَّكُمْ﴾: بسبب ما أخرج لكم من الآيات الأفقية والآيات القرآنية، ﴿بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ﴾: فإن كثرة الأدلة وبيانها ووضوحها من أسباب حصول اليقين في جميع الأمور الإلهية، خصوصًا في العقائد الكبار؛ كالبعث والنشور والإخراج من القبور.

وأيضًا؛ فقد عَلِمَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى حَكِيمٌ؛ لَا يَخْلُقُ الْخَلْقَ سُدًى، وَلَا يَتْرَكُهُمْ عَيْنًا؛ فَكَمَا أَنَّهُ أَرْسَلَ رُسُلَهُ وَأَنْزَلَ كِتَابَهُ لِأَمْرِ الْعِبَادِ وَنَهْيِهِمْ؛ فَلَا بُدَّ أَنْ يَنْقَلِبَهُمْ إِلَى دَارٍ يَحِلُّ فِيهِمْ جَزَاؤُهُ؛ فَيَجْزِي الْمُحْسِنِينَ بِأَحْسَنِ الْجَزَاءِ، وَيَجْزِي الْمُسِيئِينَ بِإِسَاءَتِهِمْ.

﴿٣﴾ وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رِوْسًا وَانْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الشَّجَرِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشَى اللَّيْلُ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤﴾ وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مُّتَجَوِّرَاتٌ مُّجْتَمِعَاتٌ وَجُنتٌ مِنْ أُعْتَبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفِصِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأَكْثَلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٥﴾

أنهم بعدما كانوا تراباً أن الله يعيدهم؛ فإنهم من جهلهم قاسوا قدرة الخالق بقدرة المخلوق، فلما رأوا هذا ممتنعاً في قدرة المخلوق، ظنوا أنه ممتنع على قدرة الخالق، ونسوا أن الله خلقهم أول مرة ولم يكونوا شيئاً. ويحتمل أن معناه: وإن تعجب من قولهم وتكذيبهم للبعث؛ فإن ذلك من العجائب؛ فإن الذي توضح له الآيات ويرى منها الأدلة القاطعة على البعث ما لا يقبل الشك والريب ثم ينكر ذلك؛ فإن قوله من العجائب، ولكن ذلك لا يستغرب على الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ: وجحدوا وحدانيته، وهي أظهر الأشياء وأجلاها. وَأُولَئِكَ الْأَعْمَلُ: المانعة لهم من الهدى في أَغْنَاهُمْ: حيث دعوا إلى الإيمان فلم يؤمنوا، وعرض عليهم الهدى فلم يهتدوا، فقلبت قلوبهم وأفندتهم عقوبة على أنهم لم يؤمنوا به أول مرة. وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ: لا يخرجون منها أبداً.

وَسَتَعْلَمُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثَلَتُ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ ٥١

يخبر تعالى عن جهل المكذبين لرسوله، المشركين به، الذين عطفوا فلم يتعظوا، وأقيمت عليهم الأدلة فلم ينقادوا لها، بل جاهدوا بالإنكار، واستدلوا بحلم الله الواحد القهار عنهم وعدم معاجلتهم بذنوبهم أنهم على حق، وجعلوا يستعجلون الرسول بالعذاب، ويقول قائلهم: اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَاباً مِنَ السَّمَاءِ أَوْ أُنْزِلْ عَلَيْنَا آيَةً ٥٢. [الأنفال: ٣٢]. والحال أنه قد خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثَلَتُ؛ أي: وقائع الله وأيامه في الأمم المكذبين، أفلا يتفكرون في حالهم ويتركون جهلهم؟ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ؛ أي: لا يزال خيره إليهم وإحسانه وبره وعفوه نازلاً إلى العباد، وهم لا يزال شرهم وعصيانهم إليه صاعداً؛ يعصونه فيدعوهم إلى بابه، ويجرمون فلا يحرمهم خيره وإحسانه، فإن تابوا إليه؛ فهو حبيبهم؛ لأنه يحب التوابين ويحب المتطهرين، وإن لم يتوبوا؛ فهو طيبهم؛ يتبليهم بالمصائب ليطهرهم من المعاييب: قُلْ يَعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ٥٣. [الزمر: ٥٣]. وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ ٥٤: على من لم يزل مصراً على الذنوب، قد أبى

إليه العباد. يُعْشَى اللَّيْلَ أَتَاهَا: فتظلم الآفاق، فيسكن كل حيوان إلى مأواه، ويستريحون من التعب والنصب في النهار، ثم إذا قضا ما ربه من النوم؛ غشي النهار الليل؛ فإذا هم مصبحون منتشرون في مصالحهم وأعمالهم في النهار، وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ٥٥. [القصص: ٧٣]. إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ: على المطالب الإلهية لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ٥٦: فيها وينظرون فيها نظر اعتبار، دالة على أن الذي خلقها ودبرها وصرفها هو الله الذي لا إله إلا هو، ولا معبود سواه، وأنه عالم الغيب والشهادة الرحمن الرحيم، وأنه القادر على كل شيء، الحكيم في كل شيء، المحمود على ما خلقه وأمر به، تبارك وتعالى.

ومن الآيات على كمال قدرته وبديع صنعته أن جعل في الْأَرْضِ قَطْعَ مُتَجَبَّرَاتٍ وَجَعَلَ فِيهَا أَنْوَاعَ الْأَشْجَارِ: من الأغصان والنخل والزروع، وغير ذلك، والنخيل التي بعضها صِنَوَانٌ؛ أي: عدة أشجار في أصل واحد. وَغَيْرُ صِنَوَانٍ: بأن كان كل شجرة على حداثها، والجميع يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ: وأرضه واحدة. وَتَفَضَّلَ بَعْضُهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأَكْلِ: لونا وطعماً ونفعاً ولذة؛ فهذه أرض طيبة تنبت الكلاً والعشب الكثير والأشجار والزروع، وهذه أرض تلاصقها لا تنبت كلاً ولا تمسك ماء، وهذه تمسك الماء ولا تنبت الكلاً، وهذه تنبت الزرع والأشجار ولا تنبت الكلاً، وهذه الثمرة حلوة وهذه مرة وهذه بين ذلك؛ فهل هذا التنوع في ذاتها وطبيعتها أم ذلك تقدير العزيز الرحيم؟ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ٥٧: أي: لقوم لهم عقول تهديهم إلى ما ينفعهم وتقودهم إلى ما يرشدون ويعقلون عن الله وصاياه وأوامره ونواهيه، وأما أهل الإعراض وأهل البلاد؛ فهم في ظلماتهم يعمهون وفي غيهم يترددون، لا يهتدون إلى ربهم سبيلاً ولا يعون له قبلاً.

وَإِنْ تَعَجَّبَ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَوَدَا كُنَّا تَرَاباً لَوْ أَنَّ لَنَا خَلْقٌ جَدِيدٌ أَوَّلَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ الْأَعْمَلُ ٥٨. أَغْنَاهُمْ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ٥٩.

يحتمل أن معنى قوله: وَإِنْ تَعَجَّبَ: من عظمة الله تعالى وكثرة أدلة التوحيد؛ فإن العجب مع هذا إنكار المكذبين وتكذيبهم بالبعث وقولهم: أَوَدَا كُنَّا تَرَاباً إِنْ لَنَا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ؛ أي: هذا بعيد في غاية الامتناع بزعمهم

التوبة والاستغفار والالتجاء إلى العزيز الغفار؛ فليحذر العباد عقوباته بأهل الجرائم؛ فإن أخذه أليم شديد.

﴿وَقُولُوا الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴿٧﴾﴾.

﴿٧﴾ أي: ويقترح الكفار عليك من الآيات التي يعينونها ويقولون: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ﴾، ويجعلون هذا القول منهم عذراً لهم في عدم الإجابة إلى الرسول، والحال أنه منذر، ليس له من الأمر شيء، والله هو الذي ينزل الآيات، وقد أيدته بالأدلة البينات التي لا تخفى على أولي الأبصار، وبها يهتدي من قصده الحق، وأما الكافر الذي من ظلمه وجهله يقترح على الله الآيات؛ فهذا اقتراح منه باطل وكذب وافتراء؛ فإنه لو جاءت أي آية كانت؛ لم يؤمن ولم ينقد؛ لأنه لم يمتنع من الإيمان لعدم ما يدل على صحته، وإنما ذلك لهوى نفسه واتباع شهوته. ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴿٧﴾﴾؛ أي: داع يدعوهم إلى الهدى من الرسل واتباعهم، ومعهم من الأدلة والبراهين ما يدل على صحة ما معهم من الهدى.

﴿اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَى وَمَا يَغِيضُ الْأَرْحَامَ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ ﴿٨﴾ عَلَيْهِ الْغَيْبُ وَالشَّهَادَةُ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ ﴿٩﴾ سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسْرَ الْقَوْلَ

وَسَتَعْلَمُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثَلَتُ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَقْفَرٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٦﴾ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴿٧﴾ اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَى وَمَا يَغِيضُ الْأَرْحَامَ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ ﴿٨﴾ عَلَيْهِ الْغَيْبُ وَالشَّهَادَةُ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ ﴿٩﴾ سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسْرَ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ ﴿١٠﴾ لَهُ مُعَقَّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ آلٍ ﴿١١﴾ هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ الْآيَاتِ الْكُبْرَى وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ لَكُمْ وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ ﴿١٢﴾

وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ ﴿١٠﴾ لَهُ مُعَقَّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ آلٍ ﴿١١﴾﴾.

﴿٨﴾، ﴿٩﴾ يخبر تعالى بعموم علمه وسعة اطلاعه وإحاطته بكل شيء، فقال: ﴿اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَى﴾: من بني آدم وغيرهم، ﴿وَمَا يَغِيضُ الْأَرْحَامَ﴾؛ أي: تنقص مما فيها، إما أن يهلك الحمل أو يتضائل أو يضمحل، ﴿وَمَا تَزْدَادُ﴾: الأرحام وتكبر الأجنة التي فيها. ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ ﴿٨﴾﴾: لا يتقدم عليه ولا يتأخر ولا يزيد ولا ينقص إلا بما تقتضيه حكمته وعلمه؛ فإنه ﴿عَلَيْهِ الْغَيْبُ وَالشَّهَادَةُ الْكَبِيرُ﴾: في ذاته وأسمائه وصفاته، ﴿الْمُتَعَالِ ﴿٩﴾﴾: على جميع خلقه بذاته وقدرته وقهره.

﴿١٠﴾ ﴿سَوَاءٌ مِنْكُمْ﴾: في علمه وسمعه وبصره، ﴿مَنْ أَسْرَ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ﴾: أي: مستقر بمكان خفي فيه، ﴿وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ﴾: أي: داخل سره في النهار، والسرب هو ما يستخفي فيه الإنسان؛ إما جوف بيته، أو غار، أو مغارة، أو نحو ذلك.

﴿١١﴾ ﴿لَهُ﴾؛ أي: للإنسان ﴿مُعَقَّبَاتٌ﴾: من الملائكة يتعاقبون في الليل والنهار، ﴿مَنْ بَيْنَ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾؛ أي: يحفظون بدنه وروحه من كل من يريده بسوء، ويحفظون عليه أعماله، وهم ملازمون له دائماً؛ فكما أن علم الله محيط به؛ فالله قد أرسل هؤلاء الحفظة على العباد بحيث لا تخفى أحوالهم ولا أعمالهم ولا ينسى منها شيء. ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ﴾: من النعمة والإحسان ورغد العيش، ﴿حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾: بأن يتقبلوا من الإيمان إلى الكفر، ومن الطاعة إلى المعصية، أو من شكر نعم الله إلى البطر بها، فيسلبهم الله عند ذلك إياها، وكذلك إذا غير العباد ما بأنفسهم من

المعضية، فانتقلوا إلى طاعة الله؛ غير الله عليهم ما كانوا فيه من الشقاء إلى الخير والسرور والغبطة والرحمة. ﴿وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا﴾؛ أي: عذابًا وشدة وأمرًا يكرهونه؛ فإن إرادته لا بد أن تنفذ فيهم، فإنه لا ﴿مَرَدَ لَهُ﴾، ولا أحد يمنعهم منه، ﴿وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ﴾: يتولى أمورهم، فيجلب لهم المحبوب، ويدفع عنهم المكروه. فليحذروا من الإقامة على ما يكره الله؛ خشية أن يحل بهم من العقاب ما لا يرد عن القوم المجرمين.

﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ الْآزْفَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ ﴿١٢﴾ وَيَسْجِجُ الرَّعْدَ يَحْمَدُوهُ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْحَالِ ﴿١٣﴾﴾.

﴿١٢﴾ يَقُولُ تَعَالَى: ﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ الْآيَاتِ﴾ خَوْفًا وَطَمَعًا؛ أَي: يَخَافُ مِنْهُ الصَّوَاغِقُ وَالْهَدْمُ وَأَنْوَاعُ الضَّرَرِ عَلَى بَعْضِ الثَّمَارِ وَنَحْوِهَا، وَيَطْمَعُ فِي خَيْرِهِ وَنَفْعِهِ، ﴿وَيُرِيئُ السَّحَابَ الْإِنْقَالَ﴾ ﴿١٣﴾: بِالْمَطَرِ الْغَزِيرِ الَّذِي بِهِ نَفْعُ الْعِبَادِ وَالْبِلَادِ.

(١٣) ﴿وَيَسْجُدُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ﴾: وهو الصوت الذي يسمع من السحاب المزجج للعباد؛ فهو خاضع لربه، مسبح بحمده، من سطوته، ﴿وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ﴾: وهي هذه النار التي تخرج ما شاء وأراد. ﴿وَهُوَ شَدِيدُ الْحَالِ﴾ (١٣)؛ أي: شديد الحول بقوته هارب. فإذا كان هو وحده الذي يسوق للعباد الأمطار مع له المخلوقات العظام التي يخاف منها وتزعج للعباد، وهو لما قال:

﴿لَهُمْ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ إِلَّا كَبْسِطٍ كَفْتِهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَلِيغِهِ وَمَا دَعَاُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴿١٤﴾﴾

﴿١٤﴾ أي: لله وحده ﴿دَعَا لِقَى﴾: وهي عبادته وحده لا شريك له، وإخلاص دعاء العبادة ودعاء المسألة له تعالى؛ أي: هو الذي ينبغي أن يصرف له الدعاء والخوف والرجاء والحب والرغبة والرغبة والإنابة؛ لأن ألوهيته هي الحق، والوهمية غيره باطلة. ﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ﴾: من الأوثان والأنداد التي جعلوها شركاء لله، ﴿لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ﴾: أي: لمن يدعوها ويعبدها بشيء قليل ولا كثير، لا من أمور الدنيا ولا من أمور الآخرة. ﴿إِلَّا كَيْسِفُ قَهْتِهِ إِلَى الْمَاءِ﴾: الذي لا تناله كفاه لبعده؛ ﴿لِيَلْعَنَ﴾: يبسط كفيه إلى الماء ﴿فَاهُ﴾؛ فإنه عطشان، ومن شدة عطشه يتناول بيده ويسطها إلى الماء الممتنع وصولها إليه؛ فلا يصل إليه؛ كذلك الكفار الذين يدعون معه ألهة لا يستجيبون لهم بشيء ولا ينفعونهم في أشد الأوقات إليهم حاجة؛ لأنهم فقراء؛ كما أن من دعاهم فقراء ﴿لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍَ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ﴾ ﴿آسيا: ٢٢﴾، ﴿وَمَا دَعَا الْكَافِرِينَ إِلَّا إِلَى صِغَالٍ﴾ ﴿١٤﴾: لبطلان ما يدعون من دون الله، فبطلت عبادتهم ودعاؤهم؛ لأن الوسيلة تبطل ببطلان غايتها، ولما كان الله تعالى هو الملك الحق الممين؛ كانت عبادته حقاً متصلة النفع بصاحبها في الدنيا والآخرة.

فقل لهم: الله خالق كل شيء؛ فإنه من المحال أن يخلق شيء من الأشياء نفسه، ومن المحال أيضًا أن يوجد من دون خالق، فتعين أن لها إلهًا خالقًا لا شريك له في خلقه؛ لأنه الواحد القهار؛ فإنه لا توجد الوحدة والقهر إلا لله وحده؛ فالمخلوقات كل مخلوق فوقه مخلوق يقهره، ثم فوق ذلك القاهر قاهر أعلى منه، حتى ينتهي القهر للواحد القهار؛ فالقهر والتوحيد متلازمان متعينان لله وحده، فتبين بالدليل العقلي القاهر أن ما يدعى من دون الله ليس له شيء من خلق المخلوقات، وبذلك كانت عبادته باطلة.

﴿ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلَهُ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ ۝١٧﴾

﴿١٧﴾ شبه تعالى الهدى الذي أنزل على رسوله لحياة القلوب والأرواح بالماء الذي أنزله لحياة الأشباح، وشبه ما في الهدى من النفع العام الكثير الذي يضطر إليه العباد بما في المطر من النفع العام الضروري، وشبه القلوب الحاملة للهدى وتفاوتها بالأودية التي تسيل فيها السيول؛ فواد كبير يسع ماء كثيرًا كقلب كبير يسع علمًا كثيرًا، وواد صغير يأخذ ماء قليلًا كقلب صغير يسع علمًا قليلًا... وهكذا. وشبه ما يكون في القلوب من الشهوات والشبهات عند وصول الحق إليها بالزبد الذي يعلو الماء ويعلو ما يوقد عليه النار من الحلية التي يراد تخليصها وسبكها، وأنها لا تزال فوق الماء طافية مكدرة له حتى تذهب وتضمحل، ويبقى ما ينفع الناس من الماء الصافي والحلية الخالصة، كذلك الشبهات والشهوات لا يزال القلب يكرها ويجاهدها بالبراهين الصادقة والإرادات الجازمة حتى تذهب وتضمحل ويبقى القلب خالصًا صافيًا ليس فيه إلا ما ينفع الناس من العلم بالحق وإثارة والرغبة فيه؛ فالباطل يذهب ويمحقه الحق؛ ﴿إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ ﴿١٨﴾ [الإسراء: ٨١]، وقال هنا: ﴿كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ﴾ ﴿١٧﴾: ليوضح الحق من الباطل والهدى من الضلال.

﴿لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ الْحُسْنَىٰ وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ ۗ أُولَٰئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَهُمْ فِيهَا يُلَاقُونَ ۝١٨﴾

وتشبيه دعاء الكافرين لغير الله بالذي يسقط كفيه إلى الماء ليلبغ فاه من أحسن الأمثلة؛ فإن ذلك تشبيه بأمر محال؛ فكما أن هذا محال؛ فالمشبه به محال، والتعليق على المحال من أبلغ ما يكون في نفي الشيء؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفْنِعُ لَهُمُ آيَاتُنَا وَهُمْ لَا يُدْعُونَ إِلَّا جَهَنَّمَ حَتَّىٰ يُلَاقِيَ أَسْمَ الْيَوْمِ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ﴾ [الأعراف: ٤٠].

﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ۝١٩﴾

﴿١٩﴾ أي: جميع ما احتوت عليه السماوات والأرض كلها خاضعة لربها، تسجد له ﴿طَوْعًا وَكَرْهًا﴾: فالطوع لمن يأتي بالسجود والخضوع اختيارًا كالمؤمنين، والكره لمن يستكبر عن عبادة ربه، وحاله وفطرته تكذبه في ذلك. ﴿وَيُظِلُّهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾ ﴿١٩﴾: أي: ويسجد له ظلال المخلوقات أول النهار وآخره، وسجود كل شيء بحسب حاله؛ كما قال تعالى: ﴿وَمِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: ٤٤]؛ فإذا كانت المخلوقات كلها تسجد لربها طوعًا وكرهًا؛ كان هو الإله حقًا، المعبود المحمود حقًا، وإلهية غيره باطلة، ولهذا ذكر بطلانها وبزهن عليه بقوله:

﴿قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ قُلْ أَتَتَّخِذُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَبَّهُ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ۝٢٠﴾

﴿٢٠﴾ أي: قل لهؤلاء المشركين به أوثانًا وأندادًا؛ يحبونها كما يحبون الله، ويبدلون لها أنواع التقربات والعبادات: أفتأهت عقولكم حتى اتخذتم من دونه أولياء تتولونهم بالعبادة وليسوا بأهل لذلك؛ فإنهم ﴿لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا﴾، وتتركون ولاية من هو كامل الأسماء والصفات، المالك للأحياء والأموات، الذي بيده الخلق والتدبير والنفع والضر؛ فما تستوي عبادة الله وحده وعبادة المشركين به، كما لا يستوي الأعمى والبصير، وكما لا ﴿تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ﴾: فإن كان عندهم شك واشتباه وجعلوا له شركاء، زعموا أنهم خلقوا كخلقه، وفعلوا كفعله؛ فأزل عنهم هذا الاشتباه واللبس بالبرهان الدال على توحيد الإله بالوحدانية،

سورة الرعد

سورة الرعد

﴿١٨﴾ لما بين تعالى الحق من الباطل؛ ذكر أن الناس على قسمين: مستجيب لربه فذكر ثوابه، وغير مستجيب فذكر عقابه، فقال: ﴿لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ﴾؛ أي: انقادت قلوبهم للعلم والإيمان، وجوارحهم للأمر والنهي، وصاروا موافقين لربه فيما يريد منهم؛ فلهم ﴿الْحَسَنُ﴾؛ أي: الحالة الحسنة والثواب الحسن؛ فلهم من الصفات أجلها، ومن المناقب أفضلها، ومن الثواب العاجل والأجل ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر. ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾ لم يستجيبوا لله؛ بعدما ضرب لهم الأمثال وبين لهم الحق لهم الحالة غير الحسنة. ف﴿لَوْ أَنَّهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾: من ذهب وفضة وغيرهما، ﴿وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ﴾: من عذاب يوم القيامة، ما تقبل منهم. وأنى لهم ذلك؟! ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ﴾: وهو الحساب الذي يأتي على كل ما أسلفوه من عمل سيئ وما ضيعوه من حقوق الله وحقوق عباده، قد كتب ذلك وشطر عليهم: ﴿وَقَوْلُوا بَنَيْنَا مَالًا هَذَا أَنْكَبَتْ لَا يَأْتِيهِمْ صَغِيرَةٌ وَلَا كَبِيرَةٌ إِلَّا أَحْصَاهَا وَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظُنُّهُمْ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ ﴿الكهف: ٤٩﴾. وبعد هذا الحساب السيئ، مأواهم ﴿جَهَنَّمَ﴾: الجامعة لكل عذاب من الجوع الشديد والعطش الوجيع والنار الحامية والزقوم والمزهرير والضريع، وجميع ما ذكره الله من أصناف العذاب. ﴿وَيُنَسَّ

﴿١٩﴾ أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّ أَنْزَلَ إِلَيْكَ مِنَ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ إِنَّمَا يَنْذَرُكَ أُولَئِكَ لَا تَلْبَسُ ﴿٢٠﴾ الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنْقُضُونَ الْعَيْثَ وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ ﴿٢١﴾ وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَذَرُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ ﴿٢٢﴾ جَنَّتٌ عَدْنٌ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَامٌ عَلَيْهِمْ بِمَا صَبَرُوا فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ ﴿٢٤﴾ وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ لَهُمُ الْعَذَابُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴿٢٥﴾ اللَّهُ يَسْطُرُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا لَمَعَةٌ ﴿٢٦﴾ وَقَوْلُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّمَا يَضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أُنَابَ ﴿٢٧﴾ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾

٢٥٢

﴿٢٨﴾ أَي: المقر والمسكن مسكنهم.

﴿١٩﴾ أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّ أَنْزَلَ إِلَيْكَ مِنَ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ إِنَّمَا يَنْذَرُكَ أُولَئِكَ لَا تَلْبَسُ ﴿٢٠﴾ الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنْقُضُونَ الْعَيْثَ وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ ﴿٢١﴾ وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَذَرُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ ﴿٢٢﴾ جَنَّتٌ عَدْنٌ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَامٌ عَلَيْهِمْ بِمَا صَبَرُوا فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ ﴿٢٤﴾

﴿٢٠﴾ يقول تعالى مفرقا بين أهل العلم والعمل وبين ضدهم: ﴿أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّ أَنْزَلَ إِلَيْكَ مِنَ رَبِّكَ الْحَقُّ﴾: ففهم ذلك وعمل به. ﴿كَمَنْ هُوَ أَعْمَى﴾: لا يعلم الحق ولا يعمل به؛ فينبغي أن يتذكر ويتفكر، أي الفريقين أحسن حالا وخير مالا، فيؤثر طريقه، ويسلك خلف فريقه، ولكن ما كل أحد يتذكر ما ينفعه ويضره. ﴿إِنَّمَا يَنْذَرُكَ أُولَئِكَ لَا تَلْبَسُ﴾؛ أي: أولو العقول الرزينة والآراء الكاملة، الذين هم لب العالم وصفرة بني آدم. فإن سألت عن وصفهم؛ فلا تجد أحسن من وصف الله لهم بقوله: ﴿الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ﴾: الذي عهده إليهم والذي عاهدهم عليه من القيام بحقوقه كاملة موفرة؛ فالوفاء بها توفيتها حقها من التميم لها والنصح فيها، ومن تمام الوفاء بها أنهم لا يَنْقُضُونَ الْعَيْثَ ﴿٢٠﴾؛ أي: العهد الذي عاهدوا الله عليه، فدخل في ذلك جميع الموائيق والعهود والأيمان والنذور التي يعقدها العباد، فلا يكون العبد من أولي الأبواب الذين لهم الثواب العظيم إلا بأدائها كاملة وعدم نقضها وبخسها.

﴿٢١﴾ وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ﴾: وهذا عام في كل ما أمر الله بوصله من الإيمان به وبرسوله ومحبه رسول الله والانقياد لعبادته وحده لا شريك له ولطاعة رسوله، ويصلون آباءهم وأمهاتهم ببرهم بالقول والفعل وعدم عقوبهم، ويصلون الأقارب والأرحام بالإحسان إليهم قولاً وفعلًا، ويصلون ما بينهم وبين الأزواج والأصحاب والمماليك بأداء

وحقهم كاملاً موقراً من الحقوق الدينية والدنيوية. والسبب الذي يجعل العبد واصلًا ما أمر الله به أن يوصل خشية الله وخوف يوم الحساب، ولهذا قال: ﴿وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾؛ أي: يخافونه، فيمنعهم خوفهم منه ومن القدوم عليه يوم الحساب أن يتجرأوا على معاصي الله أو يقصروا في شيء مما أمر الله به؛ خوفاً من العقاب ورجاء للثواب.

﴿وَالَّذِينَ صَبَرُوا﴾: على المأمورات بالامتنال، وعن المنهيات بالانكفاف عنها والبعد منها، وعلى أقدار الله المؤلمة بعدم تسخطها، ولكن بشرط أن يكون ذلك الصبر ابتغاءً وجه ربهم: لا لغير ذلك من المقاصد والأغراض الفاسدة؛ فإن هذا الصبر النافع، الذي يحبس به العبد نفسه طلباً لمرضاة ربه ورجاء للقرب منه والحظوة بثوابه، وهو الصبر الذي من خصائص أهل الإيمان، وأما الصبر المشترك الذي غايته التجلد ومنتهاه الفخر؛ فهذا يصدر من البر والفاجر والمؤمن والكافر؛ فليس هو الممدوح على الحقيقة. ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾: بأركانها وشروطها ومكملاتها ظاهراً وباطناً. ﴿وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ رِزْقًا وَعَلَانِيَةً﴾: دخل في ذلك النفقات الواجبة كالزكوات والكفارات والنفقات المستحبة، وأنهم ينفقون حيث دعت الحاجة إلى النفقة سراً وعلانية. ﴿وَيَذَرُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ﴾؛ أي: من أساء إليهم يقول أو فعل، لم يقابلوه بفعله، بل قابلوه بالإحسان إليه، فيعطون من حرمهم، ويعفون عن ظلمهم، ويصلون من قطعهم، ويحسنون إلى من أساء إليهم، وإذا كانوا يقابلون المسيء بالإحسان؛ فما ظنك بغير المسيء. ﴿أُولَئِكَ﴾: الذين وصفت صفاتهم الجليلة ومناقبهم الجميلة؛ ﴿لَهُمْ عَقَبَى الدَّارِ﴾.

﴿جَنَّتْ عَنْ﴾؛ أي: إقامة لا يزلون عنها ولا يغيثون عنها حولاً؛ لأنهم لا يرون فوقها غاية؛ لما اشتملت عليه من النعيم والسرور، الذي تنتهي إليه المطالب والغايات، ومن تمام نعيمهم وقرة أعينهم أنهم ﴿يَدْخُلُونَ مِنَ أَبَابِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّتِهِمْ﴾: من الذكور والإناث وأزواجهم؛ أي: الزوج أو الزوجة، وكذلك النظراء والأشباه والأصحاب والأحباب؛ فإنهم من أزواجهم وذرياتهم. ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ﴾: يهنئهم بالسلامة وكرامة الله لهم، ويقولون: ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾؛ أي: حلت عليكم السلامة والتحية من الله وحصلت لكم، وذلك متضمن لزوال كل مكروه

﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَفْسُدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ لَهُمُ النَّعْتَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾.

﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ﴾؛ أي: من بعد ما أكده عليهم على أيدي رسله وغلظ عليهم، فلم يقابلوه بالانقياد والتسليم، بل قابلوه بالإعراض والنقض. ﴿وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ﴾: فلم يصلوا ما بينهم وبين ربهم بالإيمان والعمل الصالح، ولا وصلوا الأرحام، ولا أدوا الحقوق، بل أفسدوا في الأرض بالكفر والمعاصي والصد عن سبيل الله وابتغائها عوجاً. ﴿أُولَئِكَ لَهُمُ النَّعْتَةُ﴾؛ أي: البعد والذم من الله وملائكته وعباده المؤمنين. ﴿وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾: وهي الجحيم بما فيها من العذاب الأليم.

﴿اللَّهُ يَسْطُرُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَفَرَحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ﴾.

﴿أي: هو وحده يوسع الرزق ويسطه على من يشاء ويقدره ويضيقه على من يشاء. ﴿وَفَرَحُوا﴾؛ أي: الكفار ﴿بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾: فرحاً أوجب لهم أن يطمثوا بها ويغفلوا عن الآخرة، وذلك لنقصان عقولهم. ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ﴾؛ أي: شيء حقير يتمتع به قليلاً ويفارق أهله وأصحابه ويُعَقِّبُهُمْ وَيَلَا طَوِيلًا.

﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ يَخْلُقُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ﴾ ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَى لَهُمْ وَحَسُنَ مَا تَنْبَأُ﴾.

﴿٢٧﴾ يخبر تعالى أن الذين كفروا بآيات الله يتعتون على رسول الله ويقترحون ويقولون: ﴿لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ﴾: وبزعمهم أنها لو جاءت لأمنوا، فأجابهم الله بقوله: ﴿قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أُنَابَ﴾ ﴿٢٨﴾؛ أي: طلب رضوانه، فليست الهداية والضلال بأيديهم حتى يجعلوا ذلك متوقفاً على الآيات، ومع ذلك فهم كاذبون؛ ﴿وَلَوْ أَنَّا زَلَلْنَا إِلَهُهُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُ الْوَقُوحَ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ يُجَاهِلُونَ﴾ ﴿٢٩﴾ [الأنعام: ١١١].

ولا يلزم أن يأتي الرسول بالآية التي يعينونها ويقترحونها، بل إذا جاءهم بآية تبين ما جاء به من الحق؛ كفى ذلك وحصل المقصود وكان أنفع لهم من طلبهم الآيات التي يعينونها؛ فإنها لو جاءتهم طبق ما اقترحوا، فلم يؤمنوا بها؛ لعاجلهم العذاب.

﴿٢٨﴾ ثم ذكر تعالى علامة المؤمنين، فقال: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ﴾؛ أي: يزول قلقها واضطرابها، وتحضرها أفراحها ولذاتها. ﴿أَلَا يَذْكُرُ اللَّهُ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ ﴿٢٩﴾؛ أي: حقيق بها وحري ألا تطمئن لشيء سوى ذكره؛ فإنه لا شيء إلا للقلوب ولا أشهى ولا أحلى من محبة خالقها والأنس به ومعرفته، وعلى قدر معرفتها بالله ومحبتها

له يكون ذكرها له، هذا على القول بأن ذكر الله ذكر العبد لربه من تسبيح وتهليل وتكبير وغير ذلك، وقيل: إن المراد بذكر الله كتابه الذي أنزله ذكرى للمؤمنين؛ فعلى هذا معنى طمأنينة القلب بذكر الله أنها حين تعرف معاني القرآن وأحكامه تطمئن لها؛ فإنها تدل على الحق المبين المؤيد بالأدلة والبراهين، وبذلك تطمئن القلوب؛ فإنها لا تطمئن إلا باليقين والعلم، وذلك في كتاب الله مضمون على أتم الوجوه وأكملها، وأما ما سواه من الكتب التي لا ترجع إليه؛ فلا تطمئن بها، بل لا تزال قلقه من تعارض الأدلة وتضاد الأحكام، ﴿وَلَوْ كَانُوا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ ﴿٣٠﴾ [النساء: ٨٢]، وهذا إنما يعرفه من خبر كتاب الله، وتدبره، وتدبر غيره من أنواع العلوم؛ فإنه يجد بينها وبينه فرقاً عظيماً.

﴿٢٩﴾ ثم قال تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾؛ أي: آمنوا بقلوبهم بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وصدقوا هذا الإيمان بالأعمال الصالحة؛ أعمال القلوب كمحبة الله وخشيته ورجائه، وأعمال الجوارح كالصلاة ونحوها. ﴿طُوبَى لَهُمْ وَحَسَنَ مَا أَجْرُهُمْ﴾ ﴿٣٠﴾؛ أي: لهم حالة طيبة ومرجع حسن، وذلك بما ينالون من رضوان الله وكرامته في الدنيا والآخرة، وإن لهم كمال الراحة وتمام الطمأنينة، ومن جملة ذلك شجرة طوبى التي في الجنة، التي يسير الراكب في ظلها مائة عام ما يقطعها؛ كما وردت بها الأحاديث الصحيحة.

﴿كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهَا أُمَمٌ لَتَتْلُوا عَلَيْهِمُ الذِّكْرَ أَوْحِينَآ إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ﴾ ﴿٣١﴾.

﴿٣١﴾ يقول تعالى لنبيه محمد ﷺ: ﴿كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ﴾: إلى قومك تدعوهم إلى الهدى، ﴿قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهَا أُمَمٌ﴾: أرسلنا فيهم رسلنا، فلست ببدع من الرسل حتى يستكروا رسالتك، ولست تقول من تلقاء نفسك، بل تتلو عليهم آيات الله، التي أوحاها الله إليك، التي تطهر القلوب وتزكي النفوس، والحال أن قومك يكفرون بالرحمن، فلم يقابلوا رحمته وإحسانه

الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَى لَهُمْ وَحَسَنَ مَا أَجْرُهُمْ ﴿٣١﴾ كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهَا أُمَمٌ لَتَتْلُوا عَلَيْهِمُ الذِّكْرَ أَوْحِينَآ إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ ﴿٣٢﴾ وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كَلِمَ بِهِ الْمَوْتُ بَل لَّئِنَّ الْأَمْرَ لَجَمِيعٌ أَلَمْ يَأْتِ بَنِيسَ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ لَوْ يَشَاءَ اللَّهُ لَهْدَى النَّاسَ جَمِيعًا وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِنْ دَارِهِمْ حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْوَعْدَ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ أَسْتَهْزِئُ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَمَلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتَهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٣٤﴾ أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ قُلْ سَمُّوهُمْ أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ أَمْ يَبْظَاهِرُ مِنْ الْقَوْلِ بَلْ زَيْنٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرَهُمْ وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴿٣٥﴾ لَهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ وَمَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ ﴿٣٦﴾

التي أعظمها أن أرسلناك إليهم رسولا وأنزلنا عليك كتابا - بالقبول والشكر، بل قابلوها بالإنكار والرد؛ أفلا يعتبرون بمن خلا من قبلهم من القرون المكذبة كيف أخذهم الله بذنوبهم؟ ﴿قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾. وهذا متضمن للتوحيدين: توحيد الألوهية وتوحيد الربوبية؛ فهو ربي الذي رباني بنعمه منذ أوجدني، وهو إلهي الذي ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ في جميع أموري وإليه أنيب؛ أي: أرجع في جميع عباداتي وفي حاجاتي.

﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كَلِمَةٌ فِيهِ الْمَوْتُ بَلْ لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا أَفَلَمْ يَأْنِسِ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنَّ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهْدَى النَّاسَ جَمِيعًا وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾.

﴿٣١﴾ يقول تعالى مبينا فضل القرآن الكريم على سائر الكتب المنزلة: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا﴾: من الكتب الإلهية، ﴿سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ﴾: عن أماكنها، ﴿أَوْ قُطِعَتْ بِهِ الْأَرْضُ﴾: جناتا وانهارا، ﴿أَوْ كَلِمَةٌ فِيهِ الْمَوْتُ﴾: لكان هذا القرآن. ﴿بَلْ لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا﴾: فيأتي بالآيات التي تقتضيها حكمته؛ فما بال المكذبين يقترحون من الآيات ما يقترحون؟! فهل لهم ولغيرهم من الأمر شيء؟! ﴿أَفَلَمْ يَأْنِسِ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنَّ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهْدَى النَّاسَ جَمِيعًا﴾: فليعلموا أنه قادر على هدايتهم جميعا، ولكنه لا يشاء ذلك، بل يهدي من يشاء ويضل من يشاء. ﴿وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾: على كفرهم لا يعتبرون ولا يتعظون، والله تعالى يوالي عليهم القوارع التي تصيبهم في ديارهم أو تحل قريبا منها وهم مصرون على كفرهم. ﴿حَتَّىٰ يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ﴾: الذي وعدهم به لنزول العذاب المتصل الذي لا يمكن رفعه. ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾. وهذا تهديد لهم وتخويف من نزول ما وعدهم الله به على كفرهم وعنادهم وظلمهم.

﴿وَلَقَدْ أَسْهَرْنَا بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَامَلَيْتَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتَهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابُ﴾.

﴿٣٢﴾ يقول تعالى لرسوله ماثبا له ومسليا: ﴿وَلَقَدْ أَسْهَرْنَا بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ﴾: فلست أول رسول كذب وأوذى. ﴿فَامَلَيْتَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾: برسلمهم؛ أي: أمهلتهم مدة حتى ظنوا أنهم غير معذبين، ﴿ثُمَّ أَخَذْتَهُمْ﴾: بأنواع العذاب.

﴿فَكَيْفَ كَانَ عِقَابُ﴾. كان عقابا شديدا وعذابا أليما؛ فلا يغتر هؤلاء الذين كذبوك واستهزؤا بك بامهالنا؛ فلهم أسوة فيمن قبلهم من الأمم، فليحذروا أن يفعل بهم كما فعل بأولئك.

﴿أَفَمَن هُوَ قَائِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ قُلْ سَمُّوهُمْ أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ أَمْ يَبْظَاهِرُ مِن الْقَوْلِ بَلْ زَيْنٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ وَمَن يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن هَادٍ﴾. ﴿ثُمَّ عَذَابٌ فِي الْحَيَوةِ الدُّنْيَا وَلِعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ وَمَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِن وَاقٍ﴾.

﴿٣٣﴾ يقول تعالى: ﴿أَفَمَن هُوَ قَائِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾: بالجزاء العاجل والآجل، بالعدل والقسط، وهو الله تبارك وتعالى؛ كمن ليس كذلك. ولهذا قال: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ﴾: وهو الله الأحد الفرد الصمد الذي لا شريك له ولا ند ولا نظير. ﴿قُلْ﴾: لهم إن كانوا صادقين: ﴿سَمُّوهُمْ﴾: لتعلم حالهم. ﴿أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ﴾: فإنه إذا كان عالم الغيب والشهادة، وهو لا يعلم له شريكا؛ علم بذلك بطلان دعوى الشريك له، وأنكم بمنزلة الذي يعلم الله أن له شريكا وهو لا يعلمه، وهذا أبطل ما يكون! ولهذا قال: ﴿أَمْ يَبْظَاهِرُ مِن الْقَوْلِ﴾؛ أي: غاية ما يمكن من دعوى الشريك له تعالى أنه بظاهر أقوالكم، وأما في الحقيقة؛ فلا إله إلا الله، وليس أحد من الخلق يستحق شيئا من العبادة، ولكن ﴿زَيْنٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ﴾: الذي مكروهه، وهو كفرهم وشركهم وتكذيبهم لآيات الله. ﴿وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ﴾؛ أي: عن الطريق المستقيمة الموصلة إلى الله وإلى دار كرامته. ﴿وَمَن يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن هَادٍ﴾. لأنه ليس لأحد من الأمري شيء. ﴿ثُمَّ عَذَابٌ فِي الْحَيَوةِ الدُّنْيَا وَلِعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ﴾: من عذاب الدنيا؛ لشدة ودوامه. ﴿وَمَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِن وَاقٍ﴾: يقيهم من عذاب الله؛ فعذابه إذا وجهه إليهم لا مانع منه.

﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وَعَدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرَىٰ مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظُلُّهَا تِلْكَ عِقَىٰ الَّذِينَ أَتَقَوْا وَعَقْبَىٰ الْكَافِرِينَ النَّارُ﴾.

﴿٣٤﴾ يقول تعالى: ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وَعَدَ الْمُتَّقُونَ﴾: الذين تركوا ما نهاهم الله عنه، ولم يقصروا فيما أمرهم به؛

سورة الرعد

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿مَثَلُ الْخَنَازِ الَّذِي يُعِدُّ الْمُنْتَفِعِينَ تَجَرَّى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ۖ كُلُّهَا دَائِرٌ وَظُلُّهَا ذَلِكُمْ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ ۝﴾ وَالَّذِينَ آمَنَتْهُمْ الْكُتُبَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمِنْ الْأَخْرَابِ مَنْ يُنْكِرُ بَعْضَهُ قُلْ إِنَّمَا أُرِثُ بِمَا أَتَى اللَّهُ وَلَا أَشْرِكُ بِهِ إِلَهِي أَدْعُوا وَإِلَيْهِ مَتَابُ ۝ وَكَذَلِكَ أُنْزِلَتْهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا وَلَئِنْ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنَ الْوَعْدِ مَا لَكَ مِنْ اللَّهِ مِنْ وِزْرٍ وَلَا وَاقٍ ۝ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِيَّةً وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِبَيِّنَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ۝ يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ ۝ وَإِنْ مَا يُرِيدُ بَعْضُ الَّذِينَ يَغْدُوهُمْ أَوْ تَتَوَفَّنَا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلْغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ ۝ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ۝ وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلِنَّ الْمَكْرَ جَمِيعًا يَعْلَمُوا مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ وَسَيَعْلَمُ الْكُفْرُ لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ ۝﴾

٢٥٤

أي: صفتها وحقيقتها، ﴿تَجَرَّى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾: أنهار العسل وأنهار الخمر وأنهار اللبن وأنهار الماء التي تجري في غير أخدود، فتسقي تلك البساتين والأشجار، فتحمل جميع أنواع الثمار. ﴿كُلُّهَا دَائِرٌ وَظُلُّهَا﴾: دائم أيضًا. ﴿ذَلِكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا﴾؛ أي: عاقبتهم ومآلهم التي إليها يصيرون. ﴿وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ ۝﴾: فكم بين الفريقين من الفرق المبين؟

﴿وَالَّذِينَ آمَنَتْهُمْ الْكُتُبَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمِنْ الْأَخْرَابِ مَنْ يُنْكِرُ بَعْضَهُ قُلْ إِنَّمَا أُرِثُ بِمَا أَتَى اللَّهُ وَلَا أَشْرِكُ بِهِ إِلَهِي أَدْعُوا وَإِلَيْهِ مَتَابُ ۝﴾

﴿٣٦﴾ يقول تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنَتْهُمْ الْكُتُبَ﴾؛ أي: منّا عليهم به وبمعرفة، ﴿يَفْرَحُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ﴾: فيؤمنون به ويصدقونه ويفرحون بموافقة الكتب بعضها لبعض وتصديق بعضها بعضًا، وهذه حال من آمن من أهل الكتابين. ﴿وَمِنْ الْأَخْرَابِ مَنْ يُنْكِرُ بَعْضَهُ﴾؛ أي: ومن طوائف الكفار المنحرفين عن الحق من ينكر بعض هذا القرآن ولا يصدقها؛ ﴿فَمَنْ أَهْتَدَى فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلَّ عَلَيْهَا﴾ [الزمر: ٤١]، إنما أنت يا محمد منذر تدعو إلى الله. ﴿قُلْ إِنَّمَا أُرِثُ بِمَا أَتَى اللَّهُ وَلَا أَشْرِكُ بِهِ﴾؛ أي: بإخلاص الدين لله وحده. ﴿إِلَيْهِ أَدْعُوا وَإِلَيْهِ مَتَابُ ۝﴾؛ أي: مرجعي الذي أرجع به إليه، فيجازيني بما قمت به من الدعوة إلى دينه والقيام بما أمرت به.

﴿وَكَذَلِكَ أُنْزِلَتْهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا وَلَئِنْ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنَ الْوَعْدِ مَا لَكَ مِنْ اللَّهِ مِنْ وِزْرٍ وَلَا وَاقٍ ۝﴾

﴿٣٧﴾ أي: ولقد أنزلنا هذا القرآن والكتاب ﴿حُكْمًا عَرَبِيًّا﴾؛ أي: محكمًا متقنًا بأوضح الألسنة وأفصح اللغات؛ لئلا يقع فيه شك واشتباه، وليوجب أن يتبع وحده ولا يداهن فيه ولا يتبع ما يضاده ويناقضه من أهواء الذين لا يعلمون، ولهذا تواعد رسول - مع أنه معصوم - ليمتن عليه بعصمته، ولتكون أمته أسوته في الأحكام، فقال: ﴿وَلَئِنْ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنَ الْوَعْدِ﴾: البين، الذي ينهك عن اتباع أهوائهم. ﴿مَا لَكَ مِنْ اللَّهِ مِنْ وِزْرٍ﴾: يتولاك فيحصل لك الأمر المحبوب. ﴿وَلَا وَاقٍ ۝﴾: يقيقك من الأمر المكروه.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِيَّةً وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِبَيِّنَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ۝ يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ ۝﴾

﴿٣٨﴾ أي: لست أول رسول أرسل إلى الناس حتى يستغربوا رسالتك. ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِيَّةً﴾: فلا يعيبك أعداؤك بأن يكون لك أزواج وذرية كما كان لإخوانك المرسلين؛ فلا شيء يقدحون فيك بذلك وهم يعلمون أن الرسل قبلك كذلك إلا لأجل أغراضهم الفاسدة وأهوائهم، وإن طلبوا منك أية اقترحوها؛ فليس لك من الأمر شيء. ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِبَيِّنَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾: والله لا يأذن فيها إلا في وقتها الذي قدره وقضاه. ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ۝﴾: لا يتقدم عليه ولا يتأخر عنه، فليس استعجالهم بالآيات أو بالعذاب موجبًا لأن يقدم الله ما كتب أنه يؤخر، مع أنه تعالى فعال لما يريد.

فيها ولا نقص، بل هي مبنية على القسط والعدل والحمد؛ فلا يتعقبا أحدا، ولا سبيل إلى القدح فيها؛ بخلاف حكم غيره؛ فإنه قد يوافق الصواب وقد لا يوافقه. ﴿وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ (٣٩)؛ أي: فلا يستعجلوا بالعذاب؛ فإن كل ما هو آت فهو قريب.

﴿وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا يَعْلَمُ مَا تَكْتُبُ كُلُّ نَفْسٍ وَمَا يَكْفُرُ لِمَنْ عَقَى الدَّارَ﴾ (٤٠) وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾ (٤١).

﴿٤٠﴾ يقول تعالى: ﴿وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾: برسلمهم وبالحق الذي جاءت به الرسل، فلم يغن عنهم مكرهم، ولم يصنعوا شيئا؛ فإنهم يحاربون الله ويبارزون. ﴿فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا﴾؛ أي: لا يقدر أحد أن يمكر مكرًا إلا يائذه وتحت قضائه وقدره؛ فإذا كانوا يمكرون بدينه؛ فإن مكرهم سيعود عليهم بالخيبة والندم؛ فإن الله ﴿يَعْلَمُ مَا تَكْتُبُ كُلُّ نَفْسٍ﴾؛ أي: همومها وإراداتها وأعمالها الظاهرة والباطنة، والمكر لا بد أن يكون من كسبها؛ فلا يخفى على الله مكرهم، فيمتنع أن يمكروا مكرًا يضر الحق وأهله ويفيدهم شيئا. ﴿وَسَبَّعُوا الْكُفْرَ لِمَنْ عَقَى الدَّارَ﴾ (٤١)؛ أي: ألهم أو لرسله؟ ومن المعلوم أن العاقبة للمتقين للكفر، وأعماله.

﴿٤٢﴾ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا؛ أي: يكذبونك ويكذبون ما أرسلت به. ﴿قُلْ لَهُمْ إِنْ طَلَبُوا عَلَى ذَلِكَ شَهِيدًا: ﴿كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾: وشهادته بقوله ويفعله وإقراره: أما قوله؛ فيما أوحاه الله إلى أصدق خلقه مما يثبت به رسالته. وأما فعله؛ فلأن الله تعالى أيد رسوله ونصره نصرًا خارجًا عن قدرته وقدرة أصحابه وأتباعه، وهذا شهادة منه له بالفعل والتأييد، وأما إقراره؛ فإنه أخبر الرسول عنه أنه رسول، وأنه أمر الناس باتباعه؛ فمن اتبعه؛ فله رضوان الله وكرامته، ومن لم يتبعه؛ فله النار والسخط، وحل له ماله ودمه، والله يقره على ذلك؛ فلو تقول عليه بعض الأقاويل؛ لعاجله بالعقوبة.

﴿وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾ (٤٣)؛ وهذا شامل لكل علماء أهل الكتابين؛ فإنهم يشهدون للرسول، من آمن واتباع الحق، صرح بتلك الشهادة التي عليه، ومن كتم ذلك؛ فأخبار الله عنه أن عنده شهادة أبلغ من خبره، ولو لم يكن عنده شهادة؛

﴿يَمَحُورُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾: من الأقدار، ﴿وَيُثَبِّتُ﴾: ما يشاء منها، وهذا المحو والتغيير في غير ما سبق به علمه وكتبه قلمه؛ فإن هذا لا يقع فيه تبديل ولا تغيير؛ لأن ذلك محال على الله أن يقع في علمه نقص أو خلل، ولهذا قال: ﴿وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ (٤٣)؛ أي: اللوح المحفوظ الذي ترجع إليه سائر الأشياء؛ فهو أصلها، وهي فروع له وشعب؛ فالتغيير والتبديل يقع في الفروع والشعب؛ كأعمال اليوم والليلة التي تكتبها الملائكة ويجعل الله لثبوتها أسبابا ولمحوها أسبابا، لا تعدى تلك الأسباب ما رسم في اللوح المحفوظ؛ كما جعل الله البر والصلة والإحسان من أسباب طول العمر وسعة الرزق، وكما جعل المعاصي سببا لمحق بركة الرزق والعمر، وكما جعل أسباب النجاة من المهالك والمعاطب سببا للسلامة، وجعل التعرض لذلك سببا للعطب؛ فهو الذي يدبر الأمور بحسب قدرته وإرادته، وما يدبره منها لا يخالف ما قد علمه وكتبه في اللوح المحفوظ.

﴿وَإِنْ مَا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتُوفِّئَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلْغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾ (٤٤) أَوْلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقَّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ (٤٥).

﴿٤٤﴾ يقول تعالى لنبية محمد ﷺ: لا تعجل عليهم بإصابة ما يوعدون به من العذاب؛ فهم إن استمروا على طغيانهم وكفرهم؛ فلا بد أن يصيبهم ما وعدوا به: إما أن نرينك إياه في الدنيا فنقر بذلك عينك، أو نتوفئك قبل إصابتهم؛ فليس ذلك شغلا لك. ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلْغُ﴾: والتبيين للخلق، ﴿وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾ (٤٥)؛ فنحاسب الخلق على ما قاموا به مما عليهم وضيعوه، ونثيبهم أو نعاقبهم.

﴿٤٦﴾ ثم قال متوعدا للمكذبين: ﴿أَوْلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾: قيل: بإهلاك المكذبين واستئصال الظالمين، وقيل: بفتح بلدان المشركين ونقصهم في أموالهم وأبدانهم، وقيل غير ذلك من الأقوال. والظاهر - والله أعلم - أن المراد بذلك أن أراضي هؤلاء المكذبين جعل الله يفتحها ويجتاحها ويحل القوارع بأطرافها تنبيها لهم قبل أن يجتاحهم النقص، ويوقع الله بهم من القوارع ما لا يرد أحد، ولهذا قال: ﴿وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقَّبَ لِحُكْمِهِ﴾: ويدخل في هذا حكمه الشرعي والقدري والجزائي؛ فهذه الأحكام التي يحكم الله فيها توجد في غاية الحكمة والإتقان، لا خلل

لرد استشهاده بالبرهان؛ فسكوته يدل على أن عنده شهادة مكتومة، وإنما أمر الله باستشهاد أهل الكتاب لأنهم أهل هذا الشأن، وكل أمر إنما يستشهد فيه أهله ومن هم أعلم به من غيرهم؛ بخلاف من هو أجني عنه؛ كالأميين من مشركي العرب وغيرهم؛ فلا فائدة في استشهادهم؛ لعدم خبرتهم ومعرفتهم. والله أعلم.

تم تفسير سورة الرعد.

والحمد لله رب العالمين.

﴿١﴾﴿٢﴾﴿٣﴾

تفسير سورة إبراهيم عليه الصلاة والسلام

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الرَّ كِتَبٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴿١﴾﴾
 الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَوَيْلٌ لِلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٢﴾ الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ ﴿٣﴾﴾
 وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُمْ بِآيَاتِنَا
 اللَّهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٤﴾﴾

﴿١﴾، ﴿٢﴾ يخبر تعالى أنه أنزل كتابه على رسوله محمد ﷺ؛ لنفع الخلق؛ ليخرج الناس من ظلمات الجهل والكفر والأخلاق السيئة وأنواع المعاصي إلى نور العلم والإيمان والأخلاق الحسنة. وقوله: ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾؛ أي: لا يحصل منهم المراد المحبوب لله إلا بإرادة من الله ومعونه؛ فقيه حث للعباد على الاستعانة بربهم. ثم فسر النور الذي يهديهم إليه هذا الكتاب، فقال: ﴿إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ ﴿١﴾؛ أي: الموصول إليه وإلى دار كرامته، المشتمل على العلم بالحق والعمل به. وفي ذكر العزيز الحميد بعد ذكر الصراط الموصول إليه إشارة إلى أن من سلكه؛ فهو عزيز بعز الله، قوي ولو لم يكن له أنصار إلا الله، محمود في أموره، حسن العاقبة، وليلد ذلك على أن صراط الله من أكبر الأدلة على ما لله من صفات الكمال ونعوت الجلال، وأن الذي نصبه لعباده عزيز السلطان حميد في أقواله وأفعاله وأحكامه، وأنه مألوه معبود بالعبادات التي هي منازل الصراط المستقيم، وأنه كما أن له ملك السماوات والأرض خلقاً ورزقاً وتدييراً؛ فله الحكم على عباده بأحكامه الدينية؛ لأنهم ملكه، ولا يليق به أن يتركهم سدى. فلما بين الدليل والبرهان؛ توعد من لم ينقد لذلك، فقال: ﴿وَوَيْلٌ لِلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ ﴿٢﴾؛ لا يُقَدَّرُ قدره، ولا يوصف أمره.

﴿٣﴾ ثم وصفهم بأنهم ﴿الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ﴾؛ فرضوا بها واطمأنوا وغفلوا عن الدار الآخرة. ﴿وَيَصُدُّونَ﴾ ﴿٣﴾ الناس ﴿عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾؛ التي نصبها لعباده وبينها في كيبه وعلى أسنة رسله؛ فهو لا قد ناذوا مولا هم بالمعاداة والمحاربة. ﴿وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾؛ أي: يحرضون على تهجينها وتقييحها للتفكير عنها، ولكن يأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون. ﴿أُولَئِكَ﴾ الذين ذكر وصفهم ﴿فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾ ﴿٣﴾؛ لأنهم ضلوا وأضلوا وشاقوا الله ورسوله وحاربوهما؛ فأبى ضلال أبعد من هذا؟! وأما أهل الإيمان؛ فبعكس هؤلاء؛ يؤمنون بالله وآياته، ويستحبون الآخرة على الدنيا، ويدعون إلى سبيل الله، ويحسنونها مهما أمكنهم، ويبينون استقامتها.

سورة إبراهيم

سورة إبراهيم

وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ ﴿١٣﴾

سورة إبراهيم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
 الرَّ كِتَبٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴿١﴾
 اللَّهُ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَوَيْلٌ
 لِلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٢﴾ الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ
 الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ
 وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ ﴿٣﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا
 مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ لِيُتَبَيَّنَ لَهُمْ فَيُضِلَّ اللَّهُ
 مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِيَ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٤﴾
 وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ
 قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُمْ بِآيَاتِنَا
 اللَّهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٥﴾

٢٥٥

الجهل والكفر وفروعه إلى نور العلم والإيمان وتوابعه. ﴿وَذَكَرَهُمْ يَإَيُّهَا اللَّهُ﴾ أي: بنعمه عليهم وإحسانه إليهم، وبأيامه في الأمم المكذبين ووقائعه بالكافرين؛ ليشكروا نعمه وليحذروا عقابه. ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ أي: في أيام الله على العباد، ﴿لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ أي: صبار في الضراء والعسر والضيقة، شكور على السراء والنعمة؛ فإنه يستدل بأيامه على كمال قدرته وعميم إحسانه وتمام عدله وحكمته.

ولهذا امثل موسى عليه السلام أمر ربه، فذكرهم نعم الله، فقال: ﴿أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ أي: بقلوبكم وألسنتكم، ﴿إِذْ أَنجَاكُمْ مِنْ عَالٍ فِرْعَوْنَ يَسُوءُكُمْ﴾ أي: يولونكم، ﴿سُوءَ الْعَذَابِ﴾ أي: أشده. وفسر ذلك بقوله: ﴿وَيَذِّحُكُمْ أَنْبَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيِيكُمْ نِسَاءَكُمْ﴾ أي: ييقنونهم فلا يقتلونهم. ﴿وَفِي ذَلِكَ﴾ أي: الإنجاء ﴿بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ أي: نعمة عظيمة، أو وفي ذلكم العذاب الذي ابتليتم به من فرعون وملئه ابتلاء من الله عظيم لكم لينظر هل تصبرون أم لا؟

وقال لهم حاثًا على شكر نعم الله: ﴿وَإِذْ تَأَذَّتْ رِجَّتُكُمْ﴾ أي: أعلم ووعد، ﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ من نعمي، ﴿وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ ومن ذلك أن يزيل عنهم النعمة التي أنعم بها عليهم. والشكر: هو اعتراف القلب بنعم الله، والثناء على الله بها، وصرافها في مرضاة الله تعالى. وكفر النعمة ضد ذلك.

﴿وَقَالَ مُوسَى إِنَّ تَكْفُرًا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ فلن تضروا الله شيئًا، ﴿فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ جَمِيدٌ﴾، فالطاعات لا تزيد في ملكه، والمعاصي لا تنقصه، وهو كامل الغنى، حميد في ذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله، ليس له من الصفات إلا كل صفة حمد وكمال، ولا من الأسماء إلا كل اسم حسن، ولا من الأفعال إلا كل فعل جميل.

﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾ قالت رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رُسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فِضْلُ اللَّهِ مِنْ نِشَاءٍ وَيَهْدِيَ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾.

وهذا من لطفه بعباده أنه ما أرسل رسولًا إلا بلسان قومه؛ ليبين لهم ما يحتاجون إليه، ويتمكنون من تعلم ما أتى به، بخلاف ما لو أتى على غير لسانهم؛ فإنهم يحتاجون إلى تعلم تلك اللغة التي يتكلم بها، ثم يفهمون عنه. فإذا بين لهم الرسول ما أمروا به ونهوا عنه وقامت عليهم حجة الله، ﴿فِيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ﴾: ممن لم ينقد للهدى، ﴿وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾: ممن اختصه برحمته. ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾: الذي من عزته أنه انفرد بالهداية والإضلال وتقليب القلوب إلى ما شاء، ومن حكمته أنه لا يضع هدايته ولا إضلاله إلا بالمحل اللائق به.

ويستدل بهذه الآية الكريمة على أن علوم العربية الموصلة إلى تبين كلامه وكلام رسوله أمور مطلوبة محبوبة لله؛ لأنه لا يتم معرفة ما أنزل على رسوله إلا بها، إلا إذا كان الناس في حالة لا يحتاجون إليها، وذلك إذا تمرنوا على العربية، ونشأ عليها صغيرهم، وصار طبيعة لهم؛ فحينئذ قد اكتفوا المؤنة، وصلحوا على أن يتلقوا عن الله وعن رسوله ابتداء، كما تلقى عنهم الصحابة رضي الله عنهم.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكَرَهُمْ بِآيَاتِنَا اللَّهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَاكُمْ مِنْ عَالٍ فِرْعَوْنَ يَسُوءُكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيَذِّحُكُمْ أَنْبَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيِيكُمْ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكَ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٦﴾ وَإِذْ تَأَذَّتْ رِجَّتُكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴿٧﴾ وَقَالَ مُوسَى إِنَّ تَكْفُرًا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ جَمِيدٌ ﴿٨﴾.

يخبر تعالى أنه أرسل موسى بآياته العظيمة الدالة على صدق ما جاء به وصحته، وأمره بما أمر الله به رسوله محمدًا ﷺ، بل وبما أمر به جميع الرسل قومهم: ﴿أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ أي: أي ظلمات

السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِّنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُخْرِجَكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى قَالُوا إِنَّا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَتْ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأَنُوتَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلْيَصْبرِ عَلَىٰ مَا آذَيْنَا عَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴿١٢﴾

﴿٩﴾ يقول تعالى مخوفاً عباده ما أحله بالأمم المكذبة حين جاءتهم الرسل فكذبوهم، فعاقبهم بالعقاب العاجل الذي رآه الناس وسمعوه، فقال: ﴿الَّذِي يَأْتِيَكُمْ بُرُوءُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قُوَّةٌ نُّوحٍ وَعَادٍ وَنُوحٌ﴾: وقد ذكر الله قصصهم في كتابه ووسطها. ﴿وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ﴾: من كثرتهم وكون أخبارهم اندرست؛ فهو لا كلهم ﴿جَاءَهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾؛ أي: بالأدلة الدالة على صدق ما جاءوا به، فلم يرسل الله رسولا إلا آتاه من الآيات ما يؤمن على مثله البشر؛ فحين أتتهم رسلهم بالبينات؛ لم ينقادوا لها، بل استكبروا عنها، ﴿فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ﴾؛ أي: لم يؤمنوا بما جاءوا به، ولم يتفوهوا بشيء مما يدل على الإيمان؛ كقوله: ﴿يَجْعَلُونَ أَصْنَعَهُمْ فِي مَآذِنِهِمْ مِنْ أَصْنَعِ حَذَرِ التَّوْبَةِ﴾ [البقرة: ١٧٩]. ﴿وَقَالُوا﴾ صريحا لرسلهم: ﴿إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾؛ أي: موقع في الريبة.

﴿١٠﴾ وقد كذبوا في ذلك وظلموا، ولهذا ﴿قَالَتْ﴾ لهم ﴿رُسُلُهُمْ أَفَى اللَّهِ شَأْنٌ﴾؛ أي: فإنه أظهر الأشياء وأجلاها؛ فمن شك في الله ﴿فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾: الذي وجود الأشياء مستند إلى وجوده؛ لم يكن عنده نقعة بشيء من المعلومات، حتى الأمور المحسوسة. ولهذا خاطبهم الرسل خطاب من لا يشك فيه، ولا يصلح الرب فيه. ﴿يَدْعُوكُمْ﴾: إلى منافعكم ومصالحكم، ﴿لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِّنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُخْرِجَكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾؛ أي: لينهيكم على الاستجابة لدعوته بالثواب العاجل والأجل، فلم يدعكم ليتنفع بعبادتكم، بل النفع عائد إليكم. فردوا على رسلهم رد السفهاء الجاهلين، وقالوا لهم: ﴿إِنَّا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾؛ أي: كيف تفضلونا بالنبوة والرسالة؟ ﴿تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَتْ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾: فكيف تترك رأي الآباء وسيرتهم لرأيكم؟! وكيف تطيعكم وأنتم بشر مثلنا؟! ﴿فَأَنُوتَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾؛ أي: بحجة وبينة ظاهرة، ومرادهم بينة يقترحونها هم، وإلا؛ فقد تقدم أن رسلهم جاءتهم بالبينات.

﴿١١﴾ ﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ﴾ مجيبين لا تراحمهم واعتراضهم: ﴿إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾؛ أي: صحيح وحقيقة أنا بشر مثلكم. ﴿وَلَكِنَّ﴾ ليس في ذلك ما يدفع ما جئنا به من الحق؛ فإن ﴿اللَّهُ يَمُنُّ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾؛ فإذا من الله علينا بوحيه ورسالته؛ فذلك فضله وإحسانه، وليس لأحد أن يحجر على الله فضله ويمنعه من تفضله؛ فانظروا ما جئناكم به؛ فإن كان حقا؛ فاقبلوه، وإن كان غير ذلك؛ فردوه، ولا تجعلوا حالنا حجة لكم على رد ما جئناكم به، وقولكم: ﴿فَأَنُوتَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾؛ فإن هذا ليس بأدبنا وليس لنا من الأمر شيء. ﴿وَمَا كَانَتْ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾: فهو الذي إن شاء جاءكم به وإن شاء لم يأتكم به، وهو لا يفعل إلا ما هو مقتضى حكمته ورحمته. ﴿وَعَلَى اللَّهِ﴾: لا على غيره،

وَأَذَى مَوْسَىٰ لِقَوْمِهِ أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيَدْعِيحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ فِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِّنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿١﴾ وَإِذْ تَأَذَّتْ رُجُوكُمْ لِنِ شَكْرَتِهِ لِأَزِيدَكُمْ وَلَكِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابَ لَّشِيدٍ ﴿٢﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ إِنَّ تَكْفُرًا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ حَكِيمٌ ﴿٣﴾ أَلَمْ يَأْتِيَكُمُ بُرُوءُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قُوَّةٌ نُّوحٍ وَعَادٍ وَنُوحٌ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٤﴾ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفَى اللَّهِ شَأْنٌ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِّنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُخْرِجَكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى قَالُوا إِنَّا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَتْ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأَنُوتَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٥﴾

٣٦، ٣٧] ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ﴾؛ أي: الجبار العنيد ﴿عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾ ٣٧؛ أي: قوي شديد لا يعلم بوصفه وشدته إلا الله تعالى.

﴿مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَلُهُمْ كَرَمًا اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ﴾ ٣٨.

٣٨ يخبر تعالى عن أعمال الكفار التي عملوها: إما أن المراد بها الأعمال التي عملوها لله بأنها في ذهابها وبطلانها واضمحلالها كاضمحلال الرماد الذي هو أدق الأشياء وأخفها إذا اشتدت به الريح في يوم عاصف شديد الهبوب؛ فإنه لا يبقى منه شيئاً ولا يقدر منه على شيء يذهب ويضمحل؛ فكذلك أعمال الكفار، ﴿لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ﴾، ولا على مثقال ذرة منه؛ لأنه مبني على الكفر والتكذيب. ﴿ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ﴾ ٣٨: حيث بطل سعيهم وضمحل عملهم. وإما أن المراد بذلك أعمال الكفار التي عملوها ليكيدوا بها الحق؛ فإنهم يسعون ويكيدون في ذلك، ومكرهم عائد عليهم، ولن يضرُوا الله ورسله وجنده وما معهم من الحق شيئاً.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ ٣٩ ﴿وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ ٤٠ ﴿وَيَرْزُقُوا اللَّهَ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ قَالُوا لَوْ هَدَّيْنَا اللَّهُ لَهْدَيْنَاكُمْ سَوَاءً عَلَيْنَا أَجْرٌ عَنَّا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَحِيصٍ﴾ ٤١.

٣٩ بينه تعالى عباده بأنه ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾؛ أي: ليعبده الخلق ويعرفوه ويأمرهم وينهاهم، وليستدلوا بهما وما فيهما على ما له من صفات الكمال، وليعلموا أن الذي خلق السماوات والأرض - على عظمهما وسعتهما - قادر على أن يعيدهم خلقاً جديداً؛ ليجازيهم بإحسانهم وإساءتهم، وأن قدرته ومشيئته لا تقصر عن ذلك.

ولهذا قال: ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ ٣٩: يحتمل أن المعنى: إن يشأ يذهبكم ويأت بقوم غيركم يكونون أطوع لله منكم. ويحتمل أن المراد: إن يشأ يفتنكم ثم يعيدهم بالبعث خلقاً جديداً. ويدل على هذا الاحتمال ما ذكره بعده من أحوال القيامة.

وتسخر لهم الأرض وما عليها يستعينون بها على عبادته؛ فمن استعان بذلك على عبادة الله؛ حل له ذلك وخرج من التبعة، ومن استعان بذلك على الكفر وأنواع المعاصي؛ لم يكن ذلك خالصاً له ولم يحل له، فعلم أن أعداء الرسل في الحقيقة ليس لهم شيء من الأرض التي توعدوا الرسل بإخراجهم منها. وإن رجعنا إلى مجرد العادة؛ فإن الرسل من جملة أهل بلادهم وأفراد منهم؛ فلا شيء يمنعهم حقاً لهم صريحاً واضحاً؟ هل هذا إلا من عدم الدين والمروءة بالكلية؟ ولهذا لما انتهى مكرهم بالرسل إلى هذه الحال؛ ما بقي حينئذ إلا أن يمضي الله أمره وينصر أوليائه. ﴿فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ﴾ ٤٢: بأنواع العقوبات.

٤٢ ﴿وَلَنَسْخَنَّكَمُ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذَلِكَ﴾؛ أي: العاقبة الحسنة التي جعلها الله للرسل ومن تبعهم جزاء، ﴿لِمَنْ خَافَ مَقَامِي﴾: عليه في الدنيا، وراقب الله مراقبة من يعلم أنه يراه، ﴿وَخَافَ وَعَبَدَ﴾ ٤٣؛ أي: ما توعدت به من عصائي؛ فأوجب له ذلك الانكفاف عما يكرهه الله والمهادرة إلى ما يحبه الله.

٤٣ ﴿وَأَسْتَفْتَحُوا﴾؛ أي: الكفار؛ أي: هم الذين طلبوا واستعجلوا فتح الله وفرقانه بين أوليائه وأعدائه، فجاءهم ما استفتحوه به، وإلا؛ فالله حلِيم، لا يعاجل من عصاه بالعقوبة. ﴿وَحَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ ٤٤؛ أي: خسر في الدنيا والآخرة من تجبر على الله وعلى الحق وعلى عباد الله، واستكبر في الأرض، وعاند الرسل، وشاقهم.

٤٤ ﴿مِنْ ذُرِّيَّتِهِ جَهَنَّمَ﴾؛ أي: جهنم لهذا الجبار العنيد بالمرصاد؛ فلا بد له من ورودها، فيذاق حيثئذ العذاب الشديد. ﴿وَنُفِثَ مِنْ مَاءٍ صَدِيرٍ﴾ ٤٥: في لونه وطعمه ورائحته الخبيثة، وهو في غاية الحرارة.

٤٥ ﴿يَتَجَرَّعُهُ﴾: من العطش الشديد، ﴿وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ﴾: فإنه إذا قرب إلى وجهه؛ شواه، وإذا وصل إلى بطنه؛ قطع ما أتى عليه من الأمعاء، ﴿وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ﴾؛ أي: يأتيه العذاب الشديد من كل نوع من أنواع العذاب، وكل نوع منه من شدته يبلغ إلى الموت، ولكن الله قضى ألا يموتوا؛ كما قال تعالى: ﴿لَا يَقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفَ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَاثِرٍ﴾ ٤٦ ﴿وَهُمْ يَصْطَرِّحُونَ فِيهَا﴾ ٤٧: افطروا.

﴿٢٠﴾ وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿٢١﴾ أَيُّ مِمَّنْعَ، بَلْ هُوَ سَهْلٌ عَلَيْهِ جَدًّا، ﴿٢٢﴾ مَا خَلَقَكُمْ وَلَا بَعَثَكُمْ إِلَّا كَفْهِنَ وَجِدَةٍ ﴿٢٣﴾ [القمان: ٢٢٨]، ﴿٢٤﴾ وَهُوَ الَّذِي يَدْعُوا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ﴿٢٥﴾ [الروم: ٢٧].

﴿٢٦﴾ وَبَرِّزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا ﴿٢٧﴾ أَيُّ: الخلاق ﴿٢٨﴾ جَمِيعًا: حين ينفخ في الصور فيخرجون من الأحداث إلى ربهم، فيقفون في أرض مستوية، قاع صفصف، لا ترى فيها عوجًا ولا أمًا، ويزرون له لا يخفى عليه منهم خافية؛ فإذا برزوا؛ صاروا يتحاجون، وكل يدفع عن نفسه ويدافع ما يقدر عليه، ولكن أنى لهم ذلك؟! فيقول ﴿٢٩﴾ الضُّعَفَاءُ: أَيُّ: التابعون والمقلدون، ﴿٣٠﴾ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا: وهم المتبوعون الذين هم قادة في الضلال: ﴿٣١﴾ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا: أَيُّ: في الدنيا أمرتمونا بالضلال وزيتموه لنا فأغويتمونا. ﴿٣٢﴾ فَهَلْ أَنْتُمْ: اليوم ﴿٣٣﴾ مُتَّبِعُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ: أَيُّ: ولو مثقال ذرة ﴿٣٤﴾ قَالُوا: أَيُّ: المتبوعون والرؤساء: أغويناكم كما غوينا، ﴿٣٥﴾ لَوْ هَدَّيْنَا اللَّهُ لَهْدَيْتُكُمْ: فلا يغني أحد أحدًا. ﴿٣٦﴾ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجْرُكُمْ: من العذاب، ﴿٣٧﴾ أَمْ صَبْرًا عَلَيْهِ: مَا لَنَا مِنْ مَّحِيصٍ ﴿٣٨﴾: أَيُّ: من ملجأ نلجأ إليه، ولا مهرب لنا من عذاب الله.

﴿٣٩﴾ وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعَدَ الْحَقُّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُمُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ وَمَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٠﴾ وَأَدْخِلَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ فِيهَا سَلَامٌ ﴿٤١﴾ فِيهَا سَلَامٌ ﴿٤٢﴾ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ صَرَّبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَجَسْرٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ﴿٤٣﴾

﴿٤٤﴾ أَيُّ: ﴿٤٥﴾ وَقَالَ الشَّيْطَانُ: الذي هو سبب لكل شريق وقع في العالم مخاطبًا لأهل النار ومتبرًا منهم، ﴿٤٦﴾ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ: ودخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار: ﴿٤٧﴾ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعَدَ الْحَقُّ: على السنة رسله فلم تطيعوه؛ فلو أطمعتموه؛ لأدرتكم الفوز العظيم. ﴿٤٨﴾ وَوَعَدْتُكُمْ: الخير، ﴿٤٩﴾ فَأَخْلَفْتُكُمْ: أَيُّ: لم يحصل ولن يحصل لكم ما منيتكم به من الأماني الباطلة. ﴿٥٠﴾ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ: أَيُّ: من حجة على تأييد قولي، ﴿٥١﴾ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي: أَيُّ: هذه نهاية ما عندي أني دعوتكم إلى مرادي وزيتته لكم فاستجبت لي اتباعًا لأهوائكم وشهواتكم؛ فإذا كانت الحال بهذه الصورة؛ ﴿٥٢﴾ فَلَا تَلُمُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ: فأنتم السبب وعليكم المدار في موجب العقاب. ﴿٥٣﴾ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ: أَيُّ: بمغيثكم من الشدة التي أنتم بها، ﴿٥٤﴾ وَمَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ: كل له قسط من العذاب، ﴿٥٥﴾ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ: أَيُّ: تبرات من جعلكم لي شريكًا مع الله، فلست شريكًا لله، ولا تجب طاعتي. ﴿٥٦﴾ إِنَّ الظَّالِمِينَ: لأنفسهم بطاعة الشيطان ﴿٥٧﴾ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٥٨﴾: خالدين فيه أبدًا. وهذا من لطف الله بعباده أن حذرهم من طاعة الشيطان، وأخبر بمدخله التي يدخل منها على الإنسان ومقاصده فيه، وأنه يقصد أن يدخله النيران.

وهنا بين لنا أنه إذا دخل النار وجنده؛ أنه يتبرأ منهم هذه البراءة، ويكفر بشركهم، ﴿٥٩﴾ وَلَا يَنْبُذُكَ مِثْلَ خَبِيرٍ ﴿٦٠﴾ [فاطر: ١٤]. واعلم أن الله ذكر في هذه الآية أنه ليس له سلطان، وقال في آية أخرى: ﴿٦١﴾ إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ

سورة إبراهيم

المؤمنون

تُؤْتِي أَكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ
لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ وَمِثْلَ كَلِمَةٍ خَيْثُ
كَشَجَرَةٍ خَيْثُ اجْتَنَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ
﴿٢٦﴾ يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ
الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ
اللَّهُ مَا يَشَاءُ ﴿٢٧﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا
وَأَحَلُّوا قُلُوبَهُمْ دَارَ الْبُورِ ﴿٢٨﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَيَنْسَوْنَ
الْقَرَارَ ﴿٢٩﴾ وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَدْدًا لِيُضِلَّوْا عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ
تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ ﴿٣٠﴾ قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ
آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيَمْضُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً
مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَعْجَ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ ﴿٣١﴾ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ
السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ
بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ
فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ
الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ﴿٣٣﴾

٢٥٩

بِهِ مُشْرَكُونَ ﴿١٠٠﴾ [النحل: ١٠٠]؛ فالسلطان الذي نفاه عنه
هو سلطان الحجة والدليل، فليس له حجة أصلاً على ما يدعو
إليه، وإنما نهاية ذلك أن يقيم لهم من الشُّبه والتزيينات ما به
يتجرعون على المعاصي، وأما السلطان الذي أثبتته؛ فهو التسلط
بالإغراء على المعاصي لأوليائه يؤزهم إلى المعاصي أژا، وهم
الذين سلطوه على أنفسهم بمولاته والاتحاق بحزبه، ولهذا
ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون.

﴿٣٣﴾ ولما ذكر عقاب الظالمين؛ ذكر ثواب الطائعين،
فقال: ﴿وَأَدْخِلْ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾؛ أي:
قاموا بالدين قولاً وعملاً واعتقاداً، ﴿جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا
الْأَنْهَارُ﴾: فيها من اللذات والشهوات ما لا عين رأت
ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر. ﴿حَدِيدٍ فِيهَا
بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾؛ أي: لا بحولهم وقوتهم، بل بحول الله وقوته.
﴿يَحْنَتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ﴾؛ أي: يحيي بعضهم بعضاً بالسلام
والتحية والكلام الطيب.

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ
طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ﴿٢٥﴾ تُؤْتِي أَكْلَهَا
كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ
يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٦﴾ وَمِثْلَ كَلِمَةٍ خَيْثُ كَشَجَرَةٍ خَيْثُ
اجْتَنَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ ﴿٢٦﴾﴾.

﴿٢٥﴾ يقول تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً﴾: وهي شهادة أن لا إله إلا الله وفروعها ﴿كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ﴾:
وهي النخلة ﴿أَصْلُهَا ثَابِتٌ﴾: في الأرض. ﴿وَفَرْعُهَا﴾: منتشر ﴿فِي السَّمَاءِ﴾: وهي كثيرة النفع دائماً.

﴿٢٦﴾ ﴿تُؤْتِي أَكْلَهَا﴾؛ أي: ثمرتها، ﴿كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾: فذلك شجرة الإيمان أصلها ثابت في قلب المؤمن علماً
واعتماداً، وفروعها من الكلم الطيب والعمل الصالح والأخلاق المرضية والآداب الحسنة في السماء دائماً، يصعد إلى الله
منه من الأعمال والأقوال التي تخرجها شجرة الإيمان، ما يتنفع به المؤمن ويتنفع غيره، ﴿وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ
يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٦﴾﴾: ما أمرهم به ونهاهم عنه؛ فإن في ضرب الأمثال تقريباً للمعاني المعقولة من الأمثال المحسوسة،
وتبيين المعنى الذي أراده الله غاية البيان ويتضح غاية الوضوح، وهذا من رحمته وحسن تعليمه؛ فله أتم الحمد وأكملة
وأعمه. فهذه صفة كلمة التوحيد، وثباتها في قلب المؤمن.

﴿٢٦﴾ ثم ذكر ضدها، وهي كلمة الكفر وفروعها، فقال: ﴿وَمِثْلَ كَلِمَةٍ خَيْثُ كَشَجَرَةٍ خَيْثُ﴾: المأكَل والمطعم، وهي
شجرة الحنظل ونحوها. ﴿اجْتَنَّتْ﴾: هذه الشجرة ﴿مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ ﴿٢٦﴾﴾؛ أي: من ثبوت؛ فلا عروق
تمسكها، ولا ثمرة صالحة تنتجها، بل إن وجد فيها ثمرة؛ فهي ثمرة خيثة، كذلك كلمة الكفر والمعاصي، ليس لها ثبوت
نافع في القلب، ولا ثمر إلا كل قول خيبي وعمل خيبي يستضر به صاحبه، ولا يتنفع، ولا يصعد إلى الله منه عمل صالح،
ولا ينفع نفسه، ولا يتنفع به غيره.

﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا
يَشَاءُ ﴿٢٧﴾﴾.

فليس ذلك بنافعكم، ﴿فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ﴾ (٣٠)؛
أي: مآلكم ومآواكم فيها وبئس المصير.

١٧ يخبر تعالى أنه يثبت عباده المؤمنين؛ أي: الذين قاموا بما عليهم من الإيمان القلبي التام، الذي يستلزم أعمال الجوارح ويثمرها، فيثبتهم الله في الحياة الدنيا عند ورود الشبهات بالهداية إلى اليقين، وعند عروض الشهوات بالإرادة الجازمة على تقديم ما يحبه الله على هوى النفس ومرادها، وفي الآخرة عند الموت بالثبات على الدين الإسلامي والخاتمة الحسنة، وفي القبر عند سؤال المملكين للجواب الصحيح إذا قيل للميت: من ربك؟ وما دينك؟ ومن نبيك؟ هداهم للجواب الصحيح بأن يقول المؤمن: الله ربي، والإسلام ديني، ومحمد نبي. ﴿وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ﴾ عن الصواب في الدنيا والآخرة، وما ظلمهم الله ولكنهم ظلموا أنفسهم.

وفي هذه الآية دلالة على فتنة القبر وعذابه ونعيمه؛ كما تواترت بذلك النصوص عن النبي ﷺ في الفتنة وصفها ونعيم القبر وعذابه.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ﴾ ﴿٧٨﴾ ﴿جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَيُخْسِ الْفِرَارُ﴾ ﴿٧٩﴾ ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ﴾ ﴿٨٠﴾ ﴿قُلْ تَتَّبِعُوا فَإِنْ مُصِرُّكُمْ إِلَى النَّارِ﴾ ﴿٨١﴾ ﴿

﴿٢٨﴾ يقول تعالى مبينًا حال المكذبين لرسوله من كفار قريش وما آل إليه أمرهم: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَلُوا يَمَعَتَ اللَّهِ كُفْرًا﴾: ونعمة الله هي إرسال محمد ﷺ إليهم يدعوهم إلى إدراك الخيرات في الدنيا والآخرة وإلى النجاة من شرور الدنيا والآخرة، فبدلوا هذه النعمة بردها والكفر بها والصد عنها بأنفسهم وصدهم غيرهم حتى أحلوا ﴿قَوْمَهُمْ دَارَ الْآبَاءِ﴾: وهي النار؛ حيث تسبوا لإضلالهم، فصاروا وبالآ على قومهم من حيث يظن نفعهم، ومن ذلك أنهم زينوا لهم الخروج يوم بدر ليحاربوا الله ورسوله، فجرى عليهم ما جرى، وقتل كثير من كبرائهم وصناديدهم في تلك الوقعة.

﴿٢٩﴾ ﴿جَهَنَّمَ يَصَلَوْنَهَا﴾؛ أي: يحيط بهم حرها من جميع جوانبهم. ﴿وَيُسِرُّ الْقُرَّارُ﴾ ﴿٢٩﴾.

﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا﴾؛ أي: نظراء وشركاء، ﴿لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ﴾؛ أي: ليضلوا العباد عن سبيل الله بسبب ما جعلوا لله من الأنداد ودعوهم إلى عبادتها. ﴿قُلْ لَهُمْ مَتَاعُهَا: تَمَتَّعُوا﴾ بكفركم وضلالكم قليلًا؛

﴿ قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ ءَامَرُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعَ فِيهِ وَلَا خُلُوفٌ ﴾

٦١
 أي: قل لعبادي المؤمنين آمراً لهم بما فيه غاية صلاحهم أن يتتبعوا الفرصة قبل ألا يمكنهم ذلك: ﴿يُقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾: ظاهراً وباطناً، ﴿وَيُقِيمُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ﴾؛ أي: من النعم التي أنعمنا بها عليهم قليلاً أو كثيراً، ﴿سِرّاً وَعَلَانِيَةً﴾: وهذا يشمل النفقة الواجبة كالزكاة ونفقة من تجب عليه نفقته، والمستحبة كالصدقات ونحوها. ﴿مَنْ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَّ يَوْمٌ لَا بَيْعَ فِيهِ وَلَا خِلَالٍ﴾: أي: لا ينفع فيه شيء، ولا سبيل إلى استدراك ما فات؛ لا بمعاوضة بيع وشراء، ولا بهبة خليل وصديق؛ فكل امرئ له شأن يغنيه؛ فليقدم العبد لنفسه، ولينظر ما قدمه لغد، وليتقّد أعماله، ويحاسب نفسه قبل الحساب الأكبر.

﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ
السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ وَسَخَّرَ
لَكُمْ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمْ
الْأَنْهَارَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمْ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ
لَكُمْ الَّيْلَ وَالنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ وَآتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ
وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ
كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾ ۞

يُخَبِّرُ تَعَالَى أَنَّهُ وَحْدَهُ ﴿الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضَ﴾: عَلَى اتِّسَاعِهَا وَعَظَمِهَا، ﴿وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ
مَاءً﴾: وَهُوَ الْمَطَرُ الَّذِي يَنْزِلُهُ اللَّهُ مِنَ السَّحَابِ، فَأَخْرَجَ بِذَلِكَ
الْمَاءِ ﴿مِنَ النَّخْلِ﴾: الْمَخْتَلِفَةِ الْأَنْوَاعِ، ﴿رِزْقًا لَكُمْ﴾:
وَرِزْقًا لِأَنْعَامِكُمْ. ﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ الْفَلَكَ﴾: أَي: السَّفْنَ
وَالْمَرَاكِبَ، ﴿لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ﴾: فَهُوَ الَّذِي يَسِّرُ لَكُمْ
صَنْعَتَهَا وَأَقْدِرَكُمْ عَلَيْهَا وَحَفَظَهَا عَلَى تِيَارِ الْمَاءِ لِتَحْمِلَكُمْ
وَتَحْمِلَ تِجَارَاتِكُمْ وَأَمْتَعَتْكُمْ إِلَى بِلَدٍ تَقْصِدُونَهُ. ﴿وَسَخَّرَ
لَكُمْ الْآفَاقَ﴾: لِتَسْقِيَ حُرُوتَكُمْ وَأَشْجَارَكُمْ، وَتَشْرَبُوا
مِنْهَا.

﴿ ٣٣ ﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ ﴿٣٤﴾ لَا يَفْتَرَانِ وَلَا نَبِيَانِ، يَسْعِيَانِ لِمَصَالِحِكُمْ مِنْ حِسَابِ أَرْزَاقِكُمْ وَمَصَالِحِ

أبدانكم وحيواناتكم وزروعكم وثماركم. ﴿٢٤﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ
الْيَلَّ ﴿٢٥﴾: لتسكنوا فيه، ﴿وَالنَّهَارَ﴾ مَبْصُرًا تَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ.

﴿٢٤﴾ وَأَنَّكُمْ مِنْ كَلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ﴿٢٥﴾: أي: أعطاكم من كل ما تعلقتم به أمانيتكم وحاجتكم مما تسألونه إياه بلسان الحال أو بلسان المقال من أنعام وآلات وصناعات وغير ذلك. ﴿وإن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا﴾: فضلاً عن قيامكم بشكرها. ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لَقَطْلُومٌ كَفَّارٌ﴾ ﴿٢٦﴾: أي: هذه طبيعة الإنسان من حيث هو ظالم متجري على المعاصي مقصر في حقوق ربه، كفار لنعم الله لا يشكرها ولا يعترف بها؛ إلا من هداه الله فشكر نعمه، وعرف حق ربه وقام به.

ففي هذه الآيات من أصناف نعم الله على العباد شيء عظيم مجمل ومفصل يدعو الله به العباد إلى القيام بشكره وذكره، ويحثهم على ذلك، ويرغبهم في سؤاله ودعائه أثناء الليل والنهار؛ كما أن نعمته تتكرر عليهم في جميع الأوقات.

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آيَةً وَأَجْنِبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾ ﴿٢٧﴾ رَبِّ إِنِّي أَضَلَّلْتُ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ فَمَنْ يَبْعَثْ فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٢٨﴾ رَبَّنَا إِنِّي أَصْبَحْتُ بِكَ مِنْ دُورَيْتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٢٩﴾ رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ﴿٣٠﴾ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعٌ الدُّعَاءِ ﴿٣١﴾ رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ ﴿٣٢﴾ رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ ﴿٣٣﴾ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ عَمِلَ عَمَلًا يَسْمَعُ ﴿٣٤﴾ أَطْلُكُمُوتٌ إِنَّمَا تُوَخَّرُهُمْ لِيَوْمَ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ ﴿٣٥﴾

﴿٢٧﴾: واذكر إبراهيم عليه الصلاة والسلام في هذه الحالة الجميلة. إذ قال: ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آيَةً﴾: أي: الحرمة ﴿وَأَجْنِبْ﴾: فاستجاب الله دعاءه شرعاً وقدرًا، فحرمه الله في الشرع، ويسر من أسباب حرمة قدرًا ما هو معلوم، حتى إنه لم يرد ظالم بسوء إلا قصمه الله؛ كما فعل بأصحاب الفيل وغيرهم. ولما دعا له بالأمم؛ دعا له ولبنيه بالأمم، فقال: ﴿وَأَجْنِبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾ ﴿٢٧﴾: أي: اجعلني وإياهم جانبًا بعيدًا عن عبادتها والإلمام بها.

﴿٢٨﴾ ثم ذكر الموجب لخوفه عليه وعلى بنيته بكثرة من افتن وابتلي بعبادتها. فقال: ﴿رَبِّ إِنِّي أَضَلَّلْتُ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ﴾: أي: ضلوا بسببها، ﴿فَمَنْ يَبْعَثْ﴾: على ما جئت به من التوحيد والإخلاص لله رب العالمين ﴿فَإِنَّهُ مِنِّي﴾: لتمام الموافقة، ومن أحب قومًا وتبعهم؛ التحق بهم. ﴿وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ ﴿٢٨﴾: وهذا من شفقة الخليل عليه الصلاة والسلام؛ حيث دعا للعاصين بالمغفرة والرحمة من الله، والله تبارك وتعالى أرحم منه بعباده، لا يعذب إلا من تمرد عليه.

﴿٢٩﴾ رَبَّنَا إِنِّي أَصْبَحْتُ بِكَ مِنْ دُورَيْتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ ﴿٣٠﴾: وذلك أنه أتى بهاجر أم إسماعيل وبابنها إسماعيل عليه الصلاة والسلام وهو في الرضاع من الشام حتى وضعهما في مكة، وهي إذ ذاك ليس فيها سكن ولا دأع ولا مجيب، فلما وضعهما؛ دعا ربه بهذا الدعاء، فقال متضرعًا متوكلاً على ربه: ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَصْبَحْتُ مِنْ دُورَيْتِي﴾: أي: لا كل ذريتي؛ لأن إسحاق في الشام وباقي بنيته كذلك، وإنما أسكن في مكة إسماعيل وذريته. وقوله: ﴿بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ﴾: أي: لأن

سورة إبراهيم
وَأَنَّكُمْ مِنْ كَلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَقَطْلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٢٤﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آيَةً وَأَجْنِبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ ﴿٢٥﴾ رَبِّ إِنِّي أَضَلَّلْتُ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ فَمَنْ يَبْعَثْ فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٢٦﴾ رَبَّنَا إِنِّي أَصْبَحْتُ بِكَ مِنْ دُورَيْتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٢٧﴾ رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ﴿٢٨﴾ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعٌ الدُّعَاءِ ﴿٢٩﴾ رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ ﴿٣٠﴾ رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ ﴿٣١﴾ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ عَمِلَ عَمَلًا يَسْمَعُ ﴿٣٢﴾ أَطْلُكُمُوتٌ إِنَّمَا تُوَخَّرُهُمْ لِيَوْمَ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ ﴿٣٣﴾

﴿٤٢﴾ هذا وعيد شديد للظالمين وتسليّة للمظلومين؛ يقول تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَفِيلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ﴾: حيث أمهلهم وأدر عليهم الأرزاق وتركهم يتقلبون في البلاد آمنين مطمئنين؛ فليس في هذا ما يدل على حسن حالهم؛ فإن الله يملئ للظالم ويمهله ليزداد إثماً، حتى إذا أخذه؛ لم يفلته، ﴿وَكَذَلِكَ أَخَذَ رَبُّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخَذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود: ١٠٢]. والظلم هنا يشمل الظلم فيما بين العبد وربّه وظلمه لعباد الله. ﴿إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ﴾ [٤٣]؛ أي: لا تطرف من شدة ما ترى من الأحوال وما أزعجها من القلاقل.

﴿٤٣﴾ ﴿مُطَهَّرِينَ﴾؛ أي: مسرعين إلى إجابة الداعي حين يدعوهم إلى الحضور بين يدي الله للحساب، لا امتناع لهم ولا محيص ولا ملجأ، ﴿مُنْفِي زُرُوسِهِمْ﴾؛ أي: رافعيها، قد غلّت أيديهم إلى الأذقان، فارتفعت لذلك رءوسهم، ﴿لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ﴾ [٤٤]؛ أي: أفئدتهم فارغة من قلوبهم، قد صعدت إلى الحناجر، لكنها مملوءة من كل هم وغم وحزن وقلق.

﴿وَأَنذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ﴾ يَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخْرِنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّحِبَّ دَعْوَتَكَ وَتَتَّبِعَ الرُّسُلَ أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِّنْ قَبْلِ مَا لَكُم مِّنْ زَوَالٍ ﴿٤٥﴾ وَسَكَنْتُمْ فِي مَسْكَانٍ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ وَنَبَّيْتَ لَكُم كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْأَمْثَالَ ﴿٤٦﴾ وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَتْ مَكْرُهُمْ لَئَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ ﴿٤٧﴾.

﴿٤٥﴾ يقول تعالى لنبيه محمد ﷺ: ﴿وَأَنذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ﴾؛ أي: صف لهم صفة تلك الحال، وحذرهم من الأعمال الموجبة للعذاب، الذي حين يأتي في شدائده وقلقله، فيقول الذين ظلموا بالكفر والتكذيب وأنواع المعاصي، نادمين على ما فعلوا، سائلين للرجعة في غير وقتها: ﴿رَبَّنَا أَخْرِنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾؛ أي: ردنا إلى الدنيا؛ فإننا قد أبصرنا؛ ﴿نُحِبَّ دَعْوَتَكَ﴾؛ والله يدعو إلى دار السلام، ﴿وَتَتَّبِعَ الرُّسُلَ﴾: وهذا كله لأجل التخلص من العذاب الأليم، وإلا؛ فهم كذبة في هذا الوعد؛ ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ﴾ [الأنعام: ٢٨]، ولهذا يوبخون ويقال

أرض مكة لا تصلح للزراعة. ﴿رَبَّنَا يُفِيمُوا الصَّلَاةَ﴾؛ أي: اجعلهم موحدين مقيمين الصلاة؛ لأن إقامة الصلاة من أخص وأفضل العبادات الدينية؛ فمن أقامها كان مقيماً لدينه. ﴿فَأَجْعَلْ آفِئَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ﴾؛ أي: تحبهم وتحب الموضع الذي هم ساكنون فيه. فأجاب الله دعاءه، فأخرج من ذرية إسماعيل محمداً ﷺ، حتى دعا ذريته إلى الدين الإسلامي وإلى ملة أبيهم إبراهيم، فاستجابوا له وصاروا مقيمي الصلاة. وافترض الله حج هذا البيت الذي أسكن به ذرية إبراهيم، وجعل فيه سرّاً عجيباً جاذباً للقلوب؛ فهي تحبّه ولا تقضي منه وطراً على الدوام، بل كلما أكثر العبد التردد إليه؛ ازداد شوقه وعظم لعه وتوقه، وهذا سر إضافته تعالى إلى نفسه المقدسة. ﴿وَأَرْزُقْهُمْ مِّنَ الشَّمْرِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ [٣٧]؛ فأجاب الله دعاءه، فصار يجبي إليه ثمرات كل شيء؛ فإنك ترى مكة المشرفة كل وقت، والثمار فيها متوفرة، والأرزاق تتوالى إليها من كل جانب.

﴿٣٨﴾ ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا تُعَلِّنُ﴾؛ أي: أنت أعلم بنا منا، فنسألك من تديريك وتربيتك لنا أن تيسر لنا من الأمور التي نعلمها والتي لا نعلمها ما هو مقتضى علمك ورحمتك. ﴿وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ [٣٩]؛ ومن ذلك هذا الدعاء الذي لم يقصد به الخليل إلا الخير وكثرة الشكر لله رب العالمين.

﴿٣٩﴾ ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ﴾: فهبتهم من أكبر النعم، وكونهم على الكبر في حال الإيأس من الأولاد نعمة أخرى، وكونهم أنبياء صالحين أجل وأفضل. ﴿إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعٌ الدُّعَاءِ﴾ [٣٩]؛ أي: لقريب الإجابة ممن دعاه، وقد دعوته فلم يخيب رجائي.

﴿٤٠﴾ ثم دعا لنفسه ولذريته، فقال: ﴿رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءَ﴾ [٤١] رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ [٤٢]؛ فاستجاب الله له في ذلك كله؛ إلا أن دعاءه لأبيه إنما كان عن موعده وعدّها إياه، فلما تبين له أنه عدو لله؛ تبرأ منه.

ثم قال تعالى:

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَفِيلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ﴾ [٤٣] ﴿مُطَهَّرِينَ﴾ [٤٤] ﴿لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ﴾ [٤٥].

لهم: ﴿أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِّن قَبْلِ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ۚ﴾ (٤٤) عن الدنيا وانتقال إلى الآخرة؛ فما قد تبين لكم حثكم في إقسامكم وكذبكم فيما تدعون.

(٤٥) وليس عليكم قاصر في الدنيا من أجل الآيات البينات، بل سكتكم ﴿فِي مَسْكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ وَبَنَاتٍ لَّكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ﴾: من أنواع العقوبات، وكيف أحل الله بهم العقوبات حين كذبوا بالآيات البينات، ﴿وَصَرَبْنَا لَكُمُ الْأَمْثَالَ﴾ (٤٥): الواضحة التي لا تدع أدنى شك في القلب إلا أزالته، فلم تنفع فيكم تلك الآيات، بل أعرضتم ودمتم على باطلكم، حتى صار ما صار، ووصلتم إلى هذا اليوم الذي لا ينفع فيه اعتذار من اعتذر بباطل.

(٤٦) ﴿وَقَدْ مَكَرُوا﴾: أي: المكذبون للرسول ﴿مَكَرَهُمْ﴾: الذي وصلت إراداتهم وقدرهم عليه، ﴿وَعِنْدَ اللَّهِ مَكَرُهُمْ﴾: أي: هو محيط به علماً وقدره، فإنه عاد مكرهم عليهم، ولا يحيق المكر السيئ إلا بأهله. ﴿وَإِنْ كَانَتْ مَكْرُهُمْ لَازُولٌ مِنْهُ الْجِبَالُ﴾ (٤٦): أي: ولقد كان مكر الكفار المكذبين للرسول بالحق وبمن جاء به من عظمه لتزول الجبال الراسيات بسببه عن أماكنها؛ أي: مكروا مكراً كباراً لا يقادر قدره، ولكن الله رد كيدهم في نحورهم. كباراً لا يقادر قدره، لينصر باطلاً أو يبطل حقاً، والقصد أن مكرهم لم يغن عنهم شيئاً ولم يضروا الله شيئاً، وإنما ضروا أنفسهم.

﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ تَخْلِفَ وَعْدَهُ رُسُلَهُ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ﴾ (٤٧) يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾ وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ ﴿٤٩﴾ سَرَابِلُهُمْ مِّنْ فَطْرَانٍ وَتَعْنَىٰ وَجُوهَهُمْ النَّارُ ﴿٥٠﴾ لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ ۚ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٥١﴾ هَذَا بَلَاغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا بِهِ، وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهُ وَاحِدٌ وَلِيَذْكُرُوا الْأَلْبَابَ ﴿٥٢﴾

(٤٧) يقول تعالى: ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ تَخْلِفَ وَعْدَهُ رُسُلَهُ ۚ﴾: بنجاتهم ونجاة أتباعهم وسعادتهم، وإهلاك أعدائهم وخذلانهم في الدنيا وعقابهم في الآخرة؛ فهذا لا بد من وقوعه؛ لأنه وعد به الصادق قولاً على السنة أصدق خلقه، وهم الرسل، وهذا أعلى ما يكون من الأخبار، خصوصاً وهو مطابق للحكمة الإلهية والسنن الربانية وللعقول الصحيحة، والله تعالى لا يعجزه شيء؛ فإنه ﴿عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ﴾ (٤٧)؛ أي: إذا أراد أن ينتقم من أحد؛ فإنه لا يفوته ولا يعجزه، وذلك في يوم القيامة.

(٤٨) ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ﴾: تبدل غير السماوات، وهذا التبديل تبديل صفات لا تبديل ذات؛ فإن الأرض يوم القيامة تسوى وتمد كمد الأديم، ويلقى ما على ظهرها من جبل ومعلم، فتصير قاعاً صافئاً، لا ترى فيها عوجاً ولا أمناً، وتكون السماء كالمهل من شدة أهوال ذلك اليوم، ثم يطويها الله تعالى بيمينه. ﴿وَبَرَزُوا﴾: أي: الخلائق من قبورهم إلى يوم بعثهم ونشورهم في محل لا يخفى منهم على الله شيء، ﴿لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ (٤٨)؛ أي: المنفرد بعظمته وأسمائه وصفاته وأفعاله العظيمة وقهره لكل العوالم؛ فكلها تحت تصرفه وتدييره؛ فلا يتحرك منها متحرك، ولا يسكن ساكن إلا بإذنه.

﴿٤٩﴾ وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ؛ أي: الذين وصفهم الإجماع وكثرة الذنوب في ذلك اليوم، ﴿مَقْرَرِينَ فِي الْأَصْفَادِ﴾؛ أي: يسلسل كل أهل عمل من المجرمين بسلاسل من نار، فيقادون إلى العذاب في أذل صورة وأشنعها وأبشعها.

﴿٥٠﴾ سَرَّابِلُهُمْ؛ أي: ثيابهم ﴿مِنْ فِطْرَانِ﴾: وذلك لشدة اشتعال النار فيهم وحرارتها وتنن ريحها، ﴿وَتَقْنُقُ وَجُوهَهُمْ﴾: التي هي أشرف ما في أبدانهم ﴿النَّارُ﴾؛ أي: تحيط بها، وتصلها من كل جانب، وغير الوجوه من باب أولى وأحرى.

﴿٥١﴾ وليس هذا ظلمًا من الله لهم، وإنما هو جزاء لما قدموا وكسبوا، ولهذا قال تعالى: ﴿لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ﴾: من خير وشر بالعدل والقسط الذي لا جور فيه بوجه من الوجوه. ﴿إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾؛ كقوله تعالى: ﴿أَقْرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾ [الأنبياء: ٤١]، ويحتمل أن معناه سريع المحاسبة؛ فيحاسب الخلق في ساعة واحدة كما يرزقهم ويديرهم بأنواع التدابير في لحظة واحدة، لا يشغله شأن عن شأن، وليس ذلك بعسير عليه.

﴿٥٢﴾ فلما بين البيان المبين في هذا القرآن؛ قال في مدحه: ﴿هَذَا بَلَّغٌ لِلنَّاسِ﴾؛ أي: يتبلغون به ويتزودون إلى الوصول إلى أعلى المقامات وأفضل الكرامات؛ لما اشتمل عليه من الأصول والفروع وجميع العلوم التي يحتاجها العباد، ﴿وَلِيُنذِرُوا بِهِ﴾: لما فيه من الترهيب من أعمال الشر وما أعد الله لأهلها من العقاب، ﴿وَلِيُعَلِّمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهُ وَاحِدٌ﴾: حيث صرف فيه من الأدلة والبراهين على ألوهيته ووحدانته ما صار ذلك حق اليقين، ﴿وَلِيَذَكِّرَ أَزْوَاجَ الْأَلْبَابِ﴾؛ أي: العقول الكاملة ما يتفهمه فيفعلونه وما يضرهم فيتركونه، وبذلك صاروا أولي الأبواب والبصائر؛ إذ بالقرآن ازدادت معارفهم وآراؤهم، وتنورت أفكارهم لما أخذوه غصًا طريًا؛ فإنه لا يدعو إلا إلى أعلى الأخلاق والأعمال وأفضلها، ولا يستدل على ذلك إلا بأقوى الأدلة وأبينها، وهذه القاعدة إذا تدرب بها العبد الذكي؛ لم يزل في صعود ورقى على الدوام في كل خصلة حميدة. والحمد لله رب العالمين.

تم تفسير سورة إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام.



تفسير سورة الحجر

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿١﴾ الرُّ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُبِينٍ ﴿٢﴾ رَبِّمَا يَوْذُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ ﴿٣﴾ ذَرَهُمْ يَأْكُلُوا وَيَسْتَمْتَعُوا وَيُلْهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرِيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَعْلُومٌ ﴿٥﴾ مَا نَسِيتُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَعِزُّونَ ﴿٦﴾

بدونها من الآيات الكثيرة الدالة على صحة ما جاء به. وأما الجهل؛ فإنهم جهلوا مصلحتهم من مضرتهم؛ فليس في إنزال الملائكة خير لهم، بل لا ينزل الله الملائكة إلا بالحق الذي لا إهمال على من لم يتبعه وينقذ له. ﴿وَمَا كَانُوا إِذَا﴾؛ أي: حين تنزل الملائكة إن لم يؤمنوا -ولن يؤمنوا- بـ ﴿مُنْظَرِينَ﴾ (٨)؛ أي: بممهلين، فصار طلبهم لإنزال الملائكة تعجلاً لأنفسهم بالهلاك والدمار؛ فإن الإيمان ليس في أيديهم، وإنما هو بيد الله، ﴿وَلَوْ أَنَّا زَلَّنا إِلَيْهِمُ الْمَلَكُكَةُ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتُ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَا كَانُوا يَؤْمِنُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ يَجْهَلُونَ﴾ (١١) [الأنعام: ١١١].

﴿٩﴾ وكيفهم من الآيات إن كانوا صادقين هذا القرآن العظيم، ولهذا قال هنا: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ﴾؛ أي: القرآن الذي فيه ذكرى لكل شيء من المسائل والدلائل الواضحة، وفيه يتذكر من أراد التذكر. ﴿وَنَا لَهُ لَحْفَظُونَ﴾ (٩)؛ أي: في حال إنزاله وبعد إنزاله؛ ففي حال إنزاله حافظون له من استراق كل شيطان رجيماً، وبعد إنزاله أودعه الله في قلب رسوله واستودعه في قلوب أمته وحفظ الله ألفاظه من التغيير فيها والزيادة والنقص ومعانيه من التبديل؛ فلا يحرف محرف معنى من معانيه إلا وقض الله له من يبين الحق المبين، وهذا من أعظم آيات الله ونعمه على عباده المؤمنين، ومن حفظه أن الله يحفظ أهله من أعدائهم، ولا يسلط عليهم عدواً يجتاحهم.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي شِعَابِ الْأَوَّلِينَ﴾ (١٠) ﴿وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ (١١) ﴿كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ﴾ (١٢) ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ﴾ (١٣) ﴿﴾.

﴿١٠﴾ يقول تعالى لنبيه إذ كذبه المشركون: لم يزل هذا دأب الأمم الخالية والقرون الماضية، ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي شِعَابِ الْأَوَّلِينَ﴾ (١٠)؛ أي: فرقهم وجماعتهم رسلاً.

﴿١١﴾ ﴿وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ﴾ يدعوهم إلى الحق والهدى، ﴿إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ (١١) ﴿﴾.

﴿١٢﴾، ﴿كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ﴾ (١٢)؛ أي: الذين وصفهم الظلم والبهت، عاقبتهم لما تشابهت قلوبهم بالكفر والتكذيب تشابهت معاملتهم لأنبيائهم ورسولهم بالاستهزاء والسخرية

﴿١﴾ يقول تعالى معظمًا لكتابه مادحًا له: ﴿إِنَّكَ آتَتْ الْكِتَابَ﴾؛ أي: الآيات الدالة على أحسن المعاني وأفضل المطالب، ﴿وَقُرْآنٍ مُبِينٍ﴾ (١) ﴿: لِلْحَقَّاتِ بِأَحْسَنِ لَفْظٍ وَأَوْضَحِهِ وَأَدْلَهُ عَلَى الْمَقْصُودِ.﴾

﴿٢﴾ وهذا مما يوجب على الخلق الانقياد إليه والتسليم لحكمه وتلقيه بالقبول والفرح والسرور، فأما من قابل هذه النعمة العظيمة بردها والكفر بها؛ فإنه من المكذبين الضالين، الذين سيأتي عليهم وقت يتمنون أنهم مسلمون؛ أي: متقادون لأحكامه، وذلك حين ينكشف الغطاء وتظهر أوائل الآخرة ومقدمات الموت؛ فإنهم في أحوال الآخرة كلها يتمنون أنهم مسلمون، وقد فات وقت الإمكان، ولكنهم في هذه الدنيا مغترون.

﴿٣﴾ ف ﴿ذَرَهُمْ يَأْكُلُوا وَيَسْتَعْمُوا﴾: بلذاتهم، ﴿وَيُتْلِيهِمُ الْأَمَلُ﴾؛ أي: يؤملون البقاء في الدنيا فيلهيهم عن الآخرة، ﴿فَسَوْفَ يَعْمُونَ﴾ (٣) ﴿: أَنْ مَا هُمْ عَلَيْهِ بَاطِلٌ، وَأَنْ أَعْمَالَهُمْ ذَهَبَتْ خَسِرَانًا عَلَيْهِمْ، وَلَا يَغْتُرُوا بِإِهْمَالِ اللَّهِ تَعَالَى؛ فَإِنْ هَذِهِ سَنَتُهُ فِي الْأُمَمِ.﴾

﴿٤﴾ ﴿وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرِيَةٍ﴾: كانت مستحقة للعذاب، ﴿إِلَّا وَهِيَ كَأَنَّهَا كَانَتْ مَعْلُومٌ﴾ (٤) ﴿: مَقْدَرٌ لِإِهْلَاكِهَا.﴾

﴿٥﴾ ﴿مَا تَسْتَقِ مِنْ أُمَّةٍ أَهْلَهَا وَمَا يَسْتَعْرِضُونَ﴾ (٥) ﴿: وَلَا؛ فَالذُّنُوبُ لَا بَدَّ مِنْ وَقُوعِ أَثَرِهَا وَإِنْ تَأَخَّرَ.﴾

﴿٦﴾ وَقَالُوا يَأْتِيهَا الَّذِي نَزَّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴿٦﴾ لَوْ مَا تَأْتِيْنَا بِالْمَلَكِكَةِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٧﴾ مَا نَزَّلَ الْمَلَكِكَةُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا إِذَا مُنْظَرِينَ ﴿٨﴾ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَفِظُونَ ﴿٩﴾ ﴿.﴾

﴿٦﴾ أي: وقال المكذبون لمحمد ﷺ استهزاء وسخرية: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِي نَزَّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ﴾: على زعمك، ﴿إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾ (٦) ﴿: إِذْ تَظُنُّ أَنَّا سَتُبْعُكَ وَنَتْرُكُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ أَبَاءَنَا لِمَجْرَدِ قَوْلِكَ.﴾

﴿٧﴾، ﴿لَوْ مَا تَأْتِيْنَا بِالْمَلَكِكَةِ﴾: يشهدون لك بصحة ما جئت به، ﴿إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ (٧) ﴿: فَلَمَّا لَمْ تَأْتِ بِالْمَلَكِكَةِ؛ فَلَسْتَ بِصَادِقٍ. وهذا من أعظم الظلم والجهل: أما الظلم؛ فظاهر؛ فإن هذا تجرؤ على الله وتعنت بتعيين الآيات التي لم يخترها، وحصل المقصود والبرهان

وعدم الإيمان، ولهذا قال: ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾؛ أي: عادة الله فيهم يهلك من لم يؤمن بآيات الله.

﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١٤﴾ لَقَالُوا إِنَّمَا سُكَّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴿١٥﴾﴾.

﴿١٤﴾، ﴿١٥﴾ أي: ولو جاءتهم كل آية عظيمة؛ لم يؤمنوا وكابروا، ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ﴾: فصاروا يعرجون فيه ويشاهدونه عياناً بأنفسهم؛ لقالوا من ظلمهم وعنادهم منكربين لهذه الآية: ﴿إِنَّمَا سُكَّرَتْ أَبْصَارُنَا﴾؛ أي: أصابها سكر وغشاوة حتى رأينا ما لم نر. ﴿بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ﴾ ﴿١٥﴾؛ أي: ليس هذا بحقيقة، بل هذا سحر. وقوم وصلت بهم الحال إلى هذا الإنكار؛ فإنهم لا مطمع فيهم ولا رجاء.

ثم ذكر الآيات الدالات على ما جاءت به الرسل من الحق فقال:

﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ ﴿١٦﴾ وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ ﴿١٧﴾ إِلَّا مَنَ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَاتَّبَعَهُ شَهَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ ﴿١٩﴾ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعِيشٌ وَمَنْ لَّكُمْ لَمْ يَرْزُقْهُنَّ ﴿٢٠﴾﴾.

﴿١٦﴾ يقول تعالى مبيناً كمال اقتداره ورحمته بخلقه: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا﴾؛ أي: نجومًا كالأبراج والأعلام العظام يهتدى بها في ظلمات البر والبحر، ﴿وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ﴾ ﴿١٦﴾؛ فإنه لولا النجوم؛ لما كان للسماء هذا المنظر البهي والهيبة العجيبة، وهذا مما يدعو الناظرين إلى التأمل فيها والنظر في معانيها والاستدلال بها على بارئها.

﴿١٧﴾ ﴿وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ﴾ ﴿١٧﴾: إذا استرق السمع؛ اتبعته الشهب الثواقب، فبقيت السماء ظاهرها مجمل بالنجوم النيرات، وباطنها محروس ممنوع من الآفات.

﴿١٨﴾ ﴿إِلَّا مَنَ اسْتَرَقَ السَّمْعَ﴾؛ أي: [إلا] في بعض الأوقات قد يسترق بعض الشياطين السمع بخفية واختلاس. ﴿فَاتَّبَعَهُ شَهَابٌ مُّبِينٌ﴾ ﴿١٨﴾؛ أي: بين منير يقتله أو يخله؛ فربما أدركه الشهاب قبل أن يوصلها الشيطان إلى وليه فيقطع خبر السماء عن الأرض، وربما ألغاه إلى وليه قبل أن يدركه الشهاب، فيضمها، ويكذب معها مائة كذبة، ويستدل بتلك الكلمة التي سمعت من السماء.

﴿١٩﴾ ﴿وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا﴾؛ أي: وسعناها سعة يتمكن الآدميون والحيوانات كلها من الامتداد بأرجائها والتناول من أرزاقها والسكون في نواحيها. ﴿وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ﴾؛ أي: جبالاً عظاماً تحفظ الأرض بإذن الله أن تميد وتثبت أن تزول. ﴿وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ﴾ ﴿١٩﴾؛ أي: نافع متقوم يضطر إليه العباد والبلاد ما بين نخيل وأعناب وأصناف الأشجار وأنواع النبات والمعادن.

﴿٢٠﴾ ﴿وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعِيشٌ﴾: من الحرث ومن الماشية ومن أنواع المكاسب والحرف، ﴿وَمَنْ لَّكُمْ لَمْ يَرْزُقْهُنَّ﴾ ﴿٢٠﴾؛ أي: أنعمنا عليكم بعبود وإماء وأنعام لنفعكم ومصالحكم، وليس عليكم رزقها، بل خولكم الله إياها، وتكفل بأرزاقها.

﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ ﴿١٦﴾ وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ ﴿١٧﴾ إِلَّا مَنَ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَاتَّبَعَهُ شَهَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ ﴿١٩﴾ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعِيشٌ وَمَنْ لَّكُمْ لَمْ يَرْزُقْهُنَّ ﴿٢٠﴾﴾ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا أَعَدْنَا خِزْيَانَهُ وَمَا نَزَّلْنَاهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢١﴾ وَأَرْسَلْنَا الرِّيحَ لَوْفٍ فَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنْشَدْنَاهُ بِخَبْرَيْنِ ﴿٢٢﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنْكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ ﴿٢٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَلٍ مِنْ حَمَلٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٦﴾ وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ تَارٍ السُّمُورِ ﴿٢٧﴾ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَلِيقٌ بَشَرًا مِّنْ صَلْصَلٍ مِنْ حَمَلٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴿٢٩﴾ فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَسْجُودًا ﴿٣٠﴾ إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ ﴿٣١﴾

﴿ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنْزِلُهُ إِلَّا بِقَدْرِ مَعْلُومٍ ﴾ (٢١)

﴿ ٢١ ﴾ أي: جميع الأرزاق وأصناف الأقدار لا يملكها أحد إلا الله؛ فخزائنها بيده، يعطي من يشاء ويمنع من يشاء بحسب حكمته ورحمته الواسعة. ﴿ وَمَا نُنْزِلُهُ ﴾؛ أي: المقدر من كل شيء من مطر وغيره، ﴿ إِلَّا بِقَدْرِ مَعْلُومٍ ﴾ (٢١): فلا يزيد على ما قدره الله، ولا ينقص منه.

﴿ وَأَرْسَلْنَا الرِّيحَ لَوْفِحَ لَوْحٍ فَآزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ ﴾ (٢٢)

﴿ ٢٢ ﴾ أي: وسخرنا الرياح ريح الرحمة تلقح السحاب كما يلقي الذكر الأنثى، فينشأ عن ذلك الماء بإذن الله، فيسقيه الله العباد ومواشيهم وأرضهم، ويبقي في الأرض مدخرًا لحاجاتهم وضروراتهم ما هو مقتضى قدرته ورحمته. ﴿ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ ﴾ (٢٢): أي: لا قدرة لكم على خزنه وادخاره، ولكن الله يخزنه لكم ويسلكه ينابيع في الأرض رحمة بكم وإحسانًا إليكم.

﴿ وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ ﴾ (٢٣) ﴿ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنْكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ ﴾ (٢٤) ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾ (٢٥)

﴿ ٢٣ ﴾ - ﴿ ٢٥ ﴾ أي: هو وحده لا شريك له الذي يحيي الخلق من العدم بعد أن لم يكونوا شيئًا مذكورًا، ويميتهم لأجلهم التي قدرها، ﴿ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ ﴾ (٢٣): كقوله: ﴿ إِنَّا نَحْنُ رَبُّ الْأَرْضِ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴾ (٤٠): [مریم: ٤٠]؛ وليس ذلك بعزیز ولا متمنع على الله؛ فإنه تعالى يعلم المستقدمين من الخلق والمستأخرين منهم، ويعلم ما تنقص الأرض منهم وما تفرق من أجزائهم، وهو الذي قدرته لا يعجزها معجز، فيعيد عباده خلقًا جديدًا، ويحشرهم إليه. ﴿ إِنَّهُ حَكِيمٌ ﴾: يضع الأشياء مواضعها، وينزلها منازلها، ويجازي كل عامل بعمله: إن خيرًا فخير، وإن شرًا فشر.

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَلٍ مِنْ حَمَلٍ مَسْنُونٍ ﴾ (٢٦) ﴿ وَالْإِنْسَانَ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السُّمُورِ ﴾ (٢٧) ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَأِكَةِ إِنِّي خَلَقْتُ بَشَرًا مِنْ صَلْصَلٍ مِنْ حَمَلٍ مَسْنُونٍ ﴾ (٢٨) ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَجْدِينَ ﴾ (٢٩) ﴿ فَسَجَدَ الْمَلَأِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴾ (٣٠) ﴿ إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى أَنْ ﴾ (٣١)

يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ ﴿ ٣١ ﴾ ﴿ قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ إِلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ ﴾ (٣٢) ﴿ قَالَ لَمْ أَكُنْ لَأَسْجُدَ لِشَيْءٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَلٍ مِنْ حَمَلٍ مَسْنُونٍ ﴾ (٣٣) ﴿ قَالَ فَخَرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴾ (٣٤) ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ ﴾ (٣٥) ﴿ قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ أُولَئِكَ يُبْعَثُونَ ﴾ (٣٦) ﴿ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ ﴾ (٣٧) ﴿ إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ﴾ (٣٨) ﴿ قَالَ رَبِّ يَا أَعْوَيْنِي لَا تَرِنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ لِأَغْوِيَّتِهِمْ أَجْمَعِينَ ﴾ (٣٩) ﴿ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلِصِينَ ﴾ (٤٠) ﴿ قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ﴾ (٤١) ﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنْ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴾ (٤٢) ﴿ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ (٤٣) ﴿ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ ﴾ (٤٤)

يذكر تعالى نعمته وإحسانه على آينا آدم عليه السلام، وما جرى من عدوه إبليس، وفي ضمن ذلك التحذير لنا من شره وقتته، فقال تعالى:

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ ﴾؛ أي: آدم عليه السلام ﴿ مِنْ صَلْصَلٍ مِنْ حَمَلٍ مَسْنُونٍ ﴾ (٢٦): أي: من طين قد ييس بعدما خُمر حتى صار له صلصلة وصوت كصوت الفخار. والحمأ المسنون: الطين المتغير لونه وريحه من طول مكثه.

﴿ وَالْإِنْسَانَ ﴾: وهو أبو الجن؛ أي: إبليس، ﴿ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ ﴾: خلق آدم، ﴿ مِنْ نَارِ السُّمُورِ ﴾ (٢٧): أي: من النار الشديدة الحرارة.

﴿ ٢٨ ﴾، ﴿ ٢٩ ﴾، ﴿ ٣٠ ﴾ فلما أراد الله خلق آدم؛ قال للملائكة: ﴿ إِنِّي خَلَقْتُ بَشَرًا مِنْ صَلْصَلٍ مِنْ حَمَلٍ مَسْنُونٍ ﴾ (٢٨) ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ ﴾: جسدًا تامًا، ﴿ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَجْدِينَ ﴾ (٢٩).

﴿ ٣٠ ﴾، ﴿ ٣١ ﴾ فامتثلوا أمر ربهم، ﴿ فَسَجَدَ الْمَلَأِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴾ (٣٠): تأكيد بعد تأكيد؛ ليدل على أنه لم يتخلف منهم أحد، وذلك تعظيمًا لأمر الله وإكرامًا لآدم حيث علم ما لم يعلموا. ﴿ إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ ﴾ (٣١): وهذه أول عداوته لآدم وذريته.

﴿ ٣٢ ﴾، ﴿ ٣٣ ﴾ ﴿ قَالَ ﴾: الله ﴿ يَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ إِلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ ﴾ (٣٢) ﴿ قَالَ لَمْ أَكُنْ لَأَسْجُدَ لِشَيْءٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَلٍ مِنْ حَمَلٍ مَسْنُونٍ ﴾ (٣٣): فاستكبر على أمر الله، وأبدى العداوة لآدم وذريته، وأعجب بعنصره، وقال: أنا خير من آدم.

سورة الحجر

الْحَجَرِ

قَالَ يٰٓإِبْلِيسُ مَا لَكَ اَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ ﴿٣٦﴾ قَالَ لَمَ اَكُنْ
لَا سَجْدَ لِشَيْءٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلَٰصَلٍ مِنْ حَمَلٍ مَّسْنُونٍ ﴿٣٧﴾ قَالَ
فَاخْرُجْ مِنْهَا فَاِنَّكَ رَجِيْمٌ ﴿٣٨﴾ وَاِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ اِلَى يَوْمٍ
الَّذِينَ ﴿٣٩﴾ قَالَ رَبِّ اَنْظِرْنِي اِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٤٠﴾ قَالَ فَاِنَّكَ
مِنَ الْمُنْظَرِينَ ﴿٤١﴾ اِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ﴿٤٢﴾ قَالَ رَبِّ بِمَا
اَغْوَيْتَنِي لَآ اُتِيَنَّ لَهُمْ فِي الْاَرْضِ وَلَا غَٰوِبَتِهِمْ اَجْمَعِينَ ﴿٤٣﴾
اِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴿٤٤﴾ قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلٰى
مُسْتَقِيْمٍ ﴿٤٥﴾ اِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطٰنٌ اِلَّا مَنْ
اَتٰكَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴿٤٦﴾ وَاِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ اَجْمَعِينَ ﴿٤٧﴾
لَمَّا سَبَعَةُ اَبْوَابٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ ﴿٤٨﴾ اِنَّ
الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٤٩﴾ اَدْخُلُوْهَا بِسَلٰمٍ ؕ اٰمِيْنَ ﴿٥٠﴾
وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُوْرِهِمْ مِّنْ غَلٍ اِخْوَانًا عَلٰى سُرُرٍ مُّقْدَسٰتٍ
لَّا يَمَسُّهُمْ فِيْهَا نَصَبٌ وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴿٥١﴾
نَجَىٰ عِبَادِيَ اَنِّيْ اَنَا الْغَفُوْرُ الرَّحِيْمُ ﴿٥٢﴾ وَاَنَّ عَذَابِيْ
هُوَ الْعَذَابُ الْاَلِيْمُ ﴿٥٣﴾ وَنَبِّئُهُمْ عَنْ صٰفِيٍّ اِبْرٰهِيْمَ ﴿٥٤﴾

٢٦٤

﴿٣٤﴾، ﴿٣٥﴾ قَالَ ﴿الله معاقباً له على كفره واستكباره: ﴿فَاخْرُجْ مِنْهَا فَاِنَّكَ رَجِيْمٌ ﴿٣٦﴾؛ أي: مطرود مبعد من كل خير، ﴿وَاِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ ﴿٣٧﴾؛ أي: الذم والعيب والبعد عن رحمة الله ﴿اِلَى يَوْمِ الَّذِيْنَ ﴿٣٨﴾. ففيها وما أشبهها دليل على أنه سيستمر على كفره وبعده من الخير.

﴿٣٦﴾ - ﴿٣٨﴾ قَالَ رَبِّ اَنْظِرْنِي ﴿٣٩﴾؛ أي: أمهلني ﴿اِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٤٠﴾ قَالَ فَاِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ ﴿٤١﴾ اِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ﴿٤٢﴾؛ وليس إجابة الله لدعائه كرامة في حقه، وإنما ذلك امتحان وابتلاء من الله له وللعباد؛ ليتبين الصادق الذي يطيع مولاه دون عدوه ممن ليس كذلك، ولذلك حذرنا منه غاية التحذير، وشرح لنا ما يريده منا.

﴿٣٩﴾، ﴿٤٠﴾ قَالَ رَبِّ بِمَا اَغْوَيْتَنِي لَآ اُتِيَنَّ لَهُمْ فِي الْاَرْضِ ﴿٤١﴾؛ أي: أزين لهم الدنيا، وأدعوهم إلى إشارها على الأخرى، حتى يكونوا منقادين لكل معصية، ﴿وَلَا غَٰوِبَتِهِمْ اَجْمَعِينَ ﴿٤٢﴾؛ أي: أصدهم كلهم عن الصراط المستقيم، ﴿اِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴿٤٣﴾؛ أي: الذين أخلصتهم، واجتبتهم لإخلاصهم وإيمانهم وتوكلهم.

﴿٤١﴾ قال الله: ﴿هَذَا صِرَاطٌ عَلٰى مُسْتَقِيْمٍ ﴿٤٢﴾؛ أي: معتدل موصل إلي وإلى دار كرامتي.

﴿٤٢﴾ اِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطٰنٌ ﴿٤٣﴾؛ تميلهم به إلى ما تشاء من أنواع الضلالات بسبب عبوديتهم لربهم وانقيادهم لأوامره، أعانهم الله وعصمهم من الشيطان.

﴿٤٤﴾ اِلَّا مَنِ اَتٰكَ ﴿٤٥﴾؛ فرضي بولايتك وطاعتك بدلاً من طاعة الرحمن، ﴿مِنَ الْغَاوِينَ ﴿٤٦﴾؛ والغاوي ضد الراشد؛ فهو الذي عرف الحق وتركه، والضال الذي تركه من غير علم منه به.

﴿٤٧﴾ وَاِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ اَجْمَعِينَ ﴿٤٨﴾؛ أي: إبليس وجنوده.

﴿٤٩﴾ لَمَّا سَبَعَةُ اَبْوَابٍ ﴿٥٠﴾؛ كل باب أسفل من الآخر. ﴿لِّكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ ﴿٥١﴾؛ أي: من أتباع إبليس ﴿جُزْءٌ مَّقْسُومٌ ﴿٥٢﴾؛ بحسب أعمالهم؛ قال تعالى: ﴿فَكَبْكَبُوا فِيْهَا هُمُ وَالْغَاوُونَ ﴿٥٣﴾ وَخُودٌ اِلَيْسَ اَجْمَعُونَ ﴿٥٤﴾ [الشعراء: ٩٤، ٩٥].

ولما ذكر تعالى ما أعد لأعدائه أتباع إبليس من النكال والعذاب الشديد؛ ذكر ما أعد لأوليائه من الفضل العظيم والنعيم المقيم، فقال:

﴿٥٠﴾ اِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥١﴾ اَدْخُلُوْهَا بِسَلٰمٍ ؕ اٰمِيْنَ ﴿٥٢﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُوْرِهِمْ مِّنْ غَلٍ اِخْوَانًا عَلٰى سُرُرٍ مُّقْدَسٰتٍ ﴿٥٣﴾ لَّا يَمَسُّهُمْ فِيْهَا نَصَبٌ وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴿٥٤﴾ نَجَىٰ عِبَادِيَ اَنِّيْ اَنَا الْغَفُوْرُ الرَّحِيْمُ ﴿٥٥﴾ وَاَنَّ عَذَابِيْ هُوَ الْعَذَابُ الْاَلِيْمُ ﴿٥٦﴾.

﴿٥٠﴾ يقول تعالى: ﴿اِنَّ الْمُتَّقِينَ ﴿٥١﴾ الذين اتقوا طاعة الشيطان وما يدعوهم إليه من جميع الذنوب والعصيان، ﴿فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٢﴾؛ قد احتوت على جميع الأشجار، وأينعت فيها جميع الثمار اللذيذة في جميع الأوقات.

﴿٤٦﴾ وَيَقَالُ لَهُمْ حَالُ دَخُولِهَا: ﴿أَدْخُلُوهَا بِسَلَامٍ﴾
﴿٤٧﴾ آمِينَ: ﴿٤٨﴾ من الموت والنوم والنصب واللغوب وانقطاع
شيء من النعيم الذي هم فيه أو نقصانه ومن المرض والحزن
والهم وسائر المكدرات.

﴿٤٧﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ: ﴿٤٨﴾ فتبقى قلوبهم
سالمة من كل دغل وحسد متصافية متحابية، ﴿٤٩﴾ إِخْرَجْنَا عَنْ سُرُورٍ
مُتَغَيِّرِينَ: ﴿٥٠﴾ دل ذلك على تزاورهم واجتماعهم وحسن
أديهم فيما بينهم في كون كل منهم مقابلاً للآخر لا مستبدراً له،
متكئين على تلك السرور المزينة بالفرش واللؤلؤ وأنواع الجواهر.

﴿٥١﴾ لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا ضَبٌّ: ﴿٥٢﴾ لا ظاهر ولا باطن،
وذلك لأن الله ينشئهم نشأة وحياة كاملة لا تقبل شيئاً من
الآفات. ﴿٥٣﴾ وَمَا هُمْ بِمُتَحَرِّجِينَ: ﴿٥٤﴾ على سائر الأوقات.

﴿٥٥﴾ ولما ذكر ما يوجب الرغبة والرغبة من مفعولات الله
من الجنة والنار؛ ذكر ما يوجب ذلك من أوصافه تعالى، فقال:
﴿٥٦﴾ نَبِّئْ عِبَادِي: ﴿٥٧﴾ أي: أخبرهم خيراً جازماً مؤيداً بالأدلة،
﴿٥٨﴾ أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ: ﴿٥٩﴾ فإنهم إذا عرفوا كمال رحمته
ومغفرته؛ سعوا في الأسباب الموصلة لهم إلى رحمته،
وأقلعوا عن الذنوب وتابوا منها؛ لينالوا مغفرته.

﴿٦٠﴾ ومع هذا؛ فلا ينبغي أن يتمادى بهم الرجاء إلى حال
الآمن والإدلال؛ فنبههم أن ﴿٦١﴾ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ: ﴿٦٢﴾ أي: لا عذاب في الحقيقة إلا عذاب الله الذي لا يقادر قدره
ولا يبلغ كنهه، نعوذ به من عذابه؛ فإنهم إذا عرفوا أنه ﴿٦٣﴾ لَا يَذِيبُ عَذَابُهُ أَحَدًا ﴿٦٤﴾ وَلَا يُؤْتِي وَثَاقَهُ أَحَدًا ﴿٦٥﴾ ﴿٦٦﴾ الفجر: ٢٥، ٢٦؛ حذروا
وأبعدوا عن كل سبب يوجب لهم العقاب.

فالعبد ينبغي أن يكون قلبه دائماً بين الخوف والرجاء والرغبة والرغبة؛ فإذا نظر إلى رحمة ربه ومغفرته وجوده وإحسانه؛
أحدث له ذلك الرجاء والرغبة، وإذا نظر إلى ذنوبه وتقصيره في حقوق ربه؛ أحدث له الخوف والرغبة والإقلاع عنها.

﴿٦٧﴾ وَنَبِّئُهُمْ عَنْ صَفِّ إِبْرَاهِيمَ: ﴿٦٨﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ ﴿٦٩﴾ قَالُوا لَا نَوْجَلُ إِنَّا نَبِّشْرُكَ بِعُلْمٍ
عَلِيمٍ ﴿٧٠﴾ قَالَ أَبَشْرُكُمْ مَوْفَىٰ عَلَىٰ أَنْ مَسَّقَىٰ الْكِبَرُ فِيمَ تَبْشُرُونَ ﴿٧١﴾ قَالُوا بِشْرَتِكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْقَاطِطِينَ ﴿٧٢﴾
قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ ﴿٧٣﴾.

﴿٧٤﴾ يقول تعالى لنبيه محمد ﷺ: ﴿٧٥﴾ وَنَبِّئُهُمْ عَنْ صَفِّ إِبْرَاهِيمَ: ﴿٧٦﴾ أي: عن تلك القصة العجيبة؛ فإن في قصصك عليهم
أنباء الرسل وما جرى لهم ما يوجب لهم العبرة والاعتداء بهم، خصوصاً إبراهيم الخليل - الذي أمرنا الله أن نتبع ملته -
وضيفه هم الملائكة الكرام، أكرمهم الله بأن جعلهم أضيافه.

﴿٧٧﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا: ﴿٧٨﴾ أي: سلموا عليه فرد عليهم، ﴿٧٩﴾ قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ: ﴿٨٠﴾ أي: خائفون؛ لأنه لما دخلوا
عليه، وحسبهم ضيوفاً؛ ذهب مسرعاً إلى بيته، فأحضر لهم ضيافتهم عجلًا حنيئاً، فقدمه إليهم، فلما رأى أيديهم لا تصل إليه؛
خاف منهم أن يكونوا لصوصاً أو نحوهم ف ﴿٨١﴾ قَالُوا: له:

﴿٨٢﴾ لَا نَوْجَلُ إِنَّا نَبِّشْرُكَ بِعُلْمٍ: ﴿٨٣﴾ وهو إسحاق عليه الصلاة والسلام. تضمنت هذه البشارة بأنه ذكر لا أنثى. ﴿٨٤﴾ عَلَيْهِ: ﴿٨٥﴾
أي: كثير العلم. وفي الآية الأخرى: ﴿٨٦﴾ وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٨٧﴾ ﴿٨٨﴾ الصافات: ١١٢.

سورة الحجر
﴿١﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ ﴿٢﴾ قَالُوا لَا نَوْجَلُ إِنَّا نَبِّشْرُكَ بِعُلْمٍ عَلَيْهِ ﴿٣﴾ قَالَ أَبَشْرُكُمْ مَوْفَىٰ عَلَىٰ أَنْ مَسَّقَىٰ الْكِبَرُ فِيمَ تَبْشُرُونَ ﴿٤﴾ قَالُوا بِشْرَتِكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْقَاطِطِينَ ﴿٥﴾ قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ ﴿٦﴾ قَالُوا إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَىٰ قَوْمِ ثَمُودَ مِنْ قَبْلِكَ ﴿٧﴾ فَلَمَّا جَاءَهُمْ آلُ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ ﴿٨﴾ قَالُوا إِنَّا لَمَنْجُوهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩﴾ إِلَّا أَمْرَانَهُ قَدَرْنَا إِنَّا لَنَعْلَمُ الْغَيْبَاتِ ﴿١٠﴾ فَلَمَّا جَاءَهُمْ آلُ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ ﴿١١﴾ قَالُوا قَوْمُكُمْ مُشْكِرُونَ ﴿١٢﴾ قَالُوا لَيْ جُنَّتْ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَتَّبِعُونَ ﴿١٣﴾ وَأَبْنَيْتُكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿١٤﴾ فَاسْرِعْ لِهَٰؤُلَاءِكَ بِقِطْعٍ مِنَ الْبَلِّ وَأَتَّبِعِ الْبَشْرَ هُمْ وَلَا يَلْفِتُ مِنْكُمْ أَحَدٌ وَأَمْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴿١٥﴾ وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَمَرَ أَنَّ هَٰؤُلَاءَ لَمَفْطُوحٌ مُضْمِعِينَ ﴿١٦﴾ وَجَاءَهُمْ أَهْلُ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٧﴾ قَالَ إِنَّ هَٰؤُلَاءَ ضَيْفِي فَلَا تَفْضَحُونِ ﴿١٨﴾ وَاقْوُوا إِلَهُكُمْ وَلَا تَخْزُونِ ﴿١٩﴾ قَالُوا أَوَلَمْ تَسْأَلْنَاكَ عَنِ الْغَالِيَةِ ﴿٢٠﴾

﴿٥٤﴾ قَالَ ﴿لَهُمْ مَتَعِجِبًا مِنْ هَذِهِ الْبَشَارَةِ: ﴿أَبَشِّرْتُمُونِي﴾: بِالْوَلَدِ ﴿عَلَىٰ أَنْ مَسَىٰ الْعَصِيرُ﴾: وَصَارَ نَوْعُ إِبْرَاهِيمَ مِنْهُ. ﴿فَبَشِّرْهُنَّ﴾: أَي: عَلَىٰ أَيِّ وَجْهِ تَبَشِّرُونَ وَقَدْ عَدِمْتَ الْأَسْبَابُ!﴾

﴿٥٥﴾ ﴿فَالُوا بِشْرَتِكَ بِالْحَقِّ﴾: الَّذِي لَا شَكَّ فِيهِ؛ لِأَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، وَأَنْتُمْ بِالْخُصُوصِ يَا أَهْلَ هَذَا الْبَيْتِ، رَحِمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ؛ فَلَا يَسْتَغْرِبُ فَضْلُ اللَّهِ وَإِحْسَانُهُ إِلَيْكُمْ. ﴿فَلَا تَكُنْ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾: الَّذِينَ يَسْتَبْعِدُونَ وَجُودَ الْخَيْرِ، بَلْ لَا تَزَالُ رَاجِعًا لِفَضْلِ اللَّهِ وَإِحْسَانِهِ وَبِرِهِ وَامْتِنَانِهِ.

﴿٥٦﴾ فَأَجَابَهُمْ إِبْرَاهِيمُ بِقَوْلِهِ: ﴿وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ﴾: الَّذِينَ لَا عِلْمَ لَهُمْ بِرَبِّهِمْ وَكِمَالِ اقْتِدَارِهِ، وَأَمَّا مَنْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ بِالْهَدَايَةِ وَالْعِلْمِ الْعَظِيمِ؛ فَلَا سَبِيلَ إِلَى الْقَنُوطِ إِلَيْهِ؛ لِأَنَّهُ يَعْرِفُ مِنْ كَثَرَةِ الْأَسْبَابِ وَالْوَسَائِلِ وَالطَّرِيقِ لِرَحْمَةِ اللَّهِ شَيْئًا كَثِيرًا.

ثم لما بشروه بهذه البشارة؛ عرف أنهم مرسلون لأمر مهم.

﴿٥٧﴾ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿٥٨﴾ ﴿فَالُوا إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكَ قَوْمَ مُجْرِمِينَ ﴿٥٩﴾ إِلَّا ءَالَ لُوطٍ إِنَّا لَمَنْجُوهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٦٠﴾ إِلَّا أَمْرَانَهُ. قَدَرْنَا إِنَّمَا لَعْنُ الْغَدِيرِ ﴿٦١﴾ فَلَمَّا جَاءَ ءَالَ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ ﴿٦٢﴾ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ ﴿٦٣﴾ ﴿فَالُوا بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٦٤﴾ وَأَتَيْنَاكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿٦٥﴾ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ وَلَا يَلْفُتْ مِنْكَ أَحَدٌ وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴿٦٦﴾ وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَمَرَ أَنَّ دَابِرَ هَؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ مُفْصَحِينَ ﴿٦٧﴾ وَجَاءَ أَهْلَ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٦٨﴾ قَالَ إِنَّ هَؤُلَاءِ ضَيْفِي فَلَا تَفْضَحُونِ ﴿٦٩﴾ وَاقْفُوا اللَّهَ وَلَا تَحْزَنُوا ﴿٧٠﴾ ﴿فَالُوا أَوَلَمْ تَنْتَهَكُ عَنِ الْمَعْلُومِ ﴿٧١﴾ قَالَ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ ﴿٧٢﴾ لَعَنَّا لَيْسَ سَكْرَتُهُمْ يَمْمَهُونَ ﴿٧٣﴾ فَأَخَذْتَهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ﴿٧٤﴾ فَجَعَلْنَا عَلَيْهِمَا سَافِلَهُمَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَابَةً مِّنْ سِجِّيلٍ ﴿٧٥﴾ إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَذَكِّرِينَ ﴿٧٦﴾ وَإِنَّمَا لِّسَبِيلِ مَقِيمٍ ﴿٧٧﴾ إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٨﴾﴾

﴿٥٧﴾ أَي: ﴿قَالَ﴾ الْخَلِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ لِلْمَلَائِكَةِ: ﴿فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ﴾: أَي: مَا شَأْنُكُمْ؟ وَلَايَ شَيْءٍ أَرْسَلْتُمْ؟

﴿٥٨﴾ ﴿فَالُوا إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكَ قَوْمَ مُجْرِمِينَ﴾: أَي: كَثُرَ فَسَادُهُمْ وَعَظُمَ شَرُّهُمْ لِنَعْدَبِهِمْ وَنَعَابِهِمْ.

﴿٥٩﴾ ﴿إِلَّا ءَالَ لُوطٍ﴾: أَي: إِلَّا لُوطًا وَأَهْلَهُ، ﴿إِلَّا أَمْرَانَهُ. قَدَرْنَا إِنَّمَا لَعْنُ الْغَدِيرِ﴾: أَي: الْبَاقِينَ بِالْعَذَابِ، وَأَمَّا لُوطٌ؛ فَسَخَّرْجَنَهُ وَأَهْلَهُ وَنَجَّيَهُمْ مِنْهَا. فَجَعَلَ إِبْرَاهِيمَ يَجَادِلُ الرِّسْلَ فِي إِهْلَاكِهِمْ وَيُرَاجِعُهُمْ، فَقِيلَ لَهُ: ﴿يَا إِبْرَاهِيمُ اغْضُ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبِينَ عَذَابٌ عَزِيزٌ مَّرْدُونٌ ﴿٧٠﴾﴾ [هود: ٧٦]. فَلَذَهَبُوا مِنْهُ.

﴿٦١﴾ ﴿فَلَمَّا جَاءَ ءَالَ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ﴾: قَالَ لَهُمْ لُوطٌ: ﴿إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ﴾: أَي: لَا أَعْرِفُكُمْ، وَلَا أَدْرِي مِنْ أَنْتُمْ.

﴿٦٢﴾ ﴿فَالُوا بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾: أَي: جِئْنَاكَ بِعَذَابِهِمْ الَّذِي كَانُوا يَشْكُونَ فِيهِ وَيَكْذِبُونَكَ حِينَ تَعُدُّهُمْ بِهِ.

﴿٦٣﴾ ﴿وَأَتَيْنَاكَ بِالْحَقِّ﴾: الَّذِي لَيْسَ بِالْهَزْلِ. ﴿وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾: ﴿فِيمَا قُلْنَا لَكَ﴾.

﴿٦٤﴾ ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ﴾: أَي: فِي أَثْنَائِهِ حِينَ تَنَامُ الْعَيُونُ وَلَا يَدْرِي أَحَدٌ عَنْ مَسَارِكَ. ﴿وَلَا يَلْفُتْ مِنْكَ أَحَدٌ﴾: أَي: بَلْ بَادَرُوا وَأَسْرَعُوا، وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ. ﴿كَانَ مَعَهُمْ دَلِيلًا يَدُلُّهُمْ عَلَىٰ أَيْنَ يَتَوَجَّهُونَ﴾.

﴿٦٥﴾ ﴿وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ﴾: أَي: أَخْبَرْنَاهُ خَبْرًا لَا مَثْنُوَّةَ فِيهِ، ﴿أَنَّ دَابِرَ هَؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ مُفْصَحِينَ﴾: أَي: سَيَصْبِحُهُمُ الْعَذَابُ الَّذِي يَجْتَاحُهُمْ، وَيَسْتَأْصِلُهُمْ.

﴿٦٦﴾ - ﴿٦٧﴾ ﴿وَجَاءَ أَهْلَ الْمَدِينَةِ﴾: أَي: الْمَدِينَةُ الَّتِي فِيهَا لُوطٌ، ﴿يَسْتَبْشِرُونَ﴾: أَي: يَبْشُرُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا بِأَضْيَافِ لُوطٍ وَصَبَاحَةِ وَجْهِهِمْ وَاقْتِدَارِهِمْ عَلَيْهِمْ، وَذَلِكَ لِقَصْدِهِمْ فِعْلَ الْفَاحِشَةِ فِيهِمْ، فَجَاءُوا حَتَّى وَصَلُوا إِلَى بَيْتِ لُوطٍ، فَجَعَلُوا يَعَاجِلُونَ لُوطًا عَلَىٰ أَضْيَافِهِ، وَلُوطٌ يَسْتَعِذُّ مِنْهُمْ وَيَقُولُ: ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ ضَيْفِي فَلَا تَفْضَحُونِ﴾. وَاقْفُوا اللَّهَ وَلَا تَحْزَنُوا ﴿٦٩﴾: أَي: رَاقِبُوا اللَّهَ أَوَّلَ ذَلِكَ، وَإِنْ كَانَ لَيْسَ فِيكُمْ خَوْفٌ مِنَ اللَّهِ؛ فَلَا تَفْضَحُونِي فِي أَضْيَافِي، وَتَنْتَهَكُوا مِنْهُمْ الْأَمْرَ الشَّيْعَ.

سورة الحجر

الحجر

قَالَ هَؤُلَاءِ بِنَاقٍ إِن كُثِرَ فَعِلِينَ ﴿٧١﴾ لَعَنُوكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ
يَعْمَهُونَ ﴿٧٢﴾ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ﴿٧٣﴾ فَجَعَلْنَا عَلَيْهِمُ
سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَابَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّا فِي ذَلِكَ
لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّتِينَ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّا لَنَسِيبُ لِّمُتَّبِعِيهِ ﴿٧٦﴾ إِنَّا فِي ذَلِكَ
لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾ وَإِن كَانَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ لَنَظَّالِينَ ﴿٧٨﴾
فَانْقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمْ لِيَأْمُرُ مُبِينٍ ﴿٧٩﴾ وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ
الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ ﴿٨٠﴾ وَآتَيْنَهُمُ آيَاتِنَا فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٨١﴾
وكَانُوا يُجْحِثُونَ مِنَ الْجِبَالِ مِوَاتٍ أَمْنِيَةً ﴿٨٢﴾ فَأَخَذَتْهُمُ
الصَّيْحَةُ مُمْصِحِينَ ﴿٨٣﴾ مَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨٤﴾
وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَإِنَّ
السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ فَاصْصَبْ الصَّصَبُ الْجَمِيلُ ﴿٨٥﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ
الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ﴿٨٦﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ النَّفَاثَاتِ
الْعَظِيمِ ﴿٨٧﴾ لَا تَدْنُ عَيْنُكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَاهُ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ
وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَخَفَضْ جَنَاحَكَ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ وَقُلْ إِنِّي
أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ ﴿٨٩﴾ كَمَا أَنزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ ﴿٩٠﴾

تجرءوا على أشنع السيئات.

﴿٧٠﴾ ف ﴿قَالُوا﴾ له جراباً عن قوله: ﴿وَلَا تَحْزُرُونَ﴾ ﴿٧١﴾
فقط: ﴿أَوَلَمْ تَنْهَكْ عَنِ الْفَالِغِينَ﴾ ﴿٧٢﴾: أن تصيفهم، فنحن
قد أنذرناك، ومن أنذر؛ فقد أعذر.

﴿٧٣﴾، ﴿٧٤﴾ ف ﴿قَالَ﴾ لهم لوط من شدة الأمر الذي
أصابه: ﴿هَؤُلَاءِ بِنَاقٍ إِن كُثِرَ فَعِلِينَ﴾ ﴿٧٥﴾: فلم يبالوا بقوله،
ولهذا قال الله لرسوله محمد ﷺ: ﴿لَعَنُوكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ
يَعْمَهُونَ﴾ ﴿٧٦﴾: وهذه السكره هي سكرة محبة الفاحشة التي
لا يبالون معها بعذل ولا لوم.

﴿٧٧﴾ فلما بينت له الرسل حالهم؛ زال عن لوط ما كان يجده
من الضيق والكره، فامتثل أمر ربه، وسرى بأهله ليلاً، فنجوا.
وأما أهل القرية؛ ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ﴾ ﴿٧٨﴾: أي: وقت
شروق الشمس؛ حين كانت العقوبة عليهم أشد.

﴿٧٩﴾ ﴿فَجَعَلْنَا عَلَيْهِمُ سَافِلَهَا﴾؛ أي: قلنا عليهم مدينتهم،
﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَابَةً مِّن سِجِّيلٍ﴾ ﴿٨٠﴾: تبع فيها من شد
من البلد منهم.

﴿٨١﴾ ﴿إِنَّا فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّتِينَ﴾ ﴿٨٢﴾: أي: المتأملين
المتفكرين الذين لهم فكر وروية وفراصة يفهمون بها ما
أريد بذلك من أن من تجرأ على معاصي الله، خصوصاً هذه
الفاحشة العظيمة، وأن الله سيعاقبهم بأشنع العقوبات؛ كما

﴿٧١﴾ ﴿وَإِنَّا﴾؛ أي: مدينة قوم لوط ﴿لَنَسِيبُ لِّمُتَّبِعِيهِ﴾ ﴿٧٢﴾: للسالكين، يعرفه كل من تردد في تلك الديار.

﴿٧٣﴾ ﴿إِنَّا فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿٧٤﴾: وفي هذه القصة من العبر: عنايته تعالى بخليله إبراهيم؛ فإن لوطاً عليه السلام من
أتباعه ومن آمن به، فكانه تلميذه؛ فحين أراد الله إهلاك قوم لوط حين استحقوا ذلك؛ أمر رسله أن يمروا على إبراهيم عليه
السلام كي يشروه بالولد ويخبروه بما بعثوا له، حتى إنه جادلهم عليه السلام في إهلاكهم، حتى أقنعوه، فطابت نفسه، وكذلك
لوط عليه السلام، لما كانوا أهل وطنه؛ فربما أخذته الرقة عليهم والرافة بهم؛ قدّر الله من الأسباب ما به يشتد غيظه وحنقه
عليهم، حتى استبطأ إهلاكهم لما قيل له: ﴿إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾ ﴿٨١﴾ [هود: ٨١].

ومنها: أن الله تعالى إذا أراد أن يهلك قرية ازداد شرهم وطغيانهم؛ فإذا انتهى؛ أوقع بهم من العقوبات ما يستحقونه.

﴿٧٨﴾ ﴿وَإِن كَانَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ لَنَظَّالِينَ﴾ ﴿٧٩﴾ ﴿فَانْقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمْ لِيَأْمُرُ مُبِينٍ﴾ ﴿٨٠﴾.

﴿٨١﴾ وهؤلاء قوم شعيب، نعتهم الله وأضافهم إلى الأيكة، وهو البستان كثير الأشجار؛ ليذكر نعمته عليهم، وأنهم ما قاموا
بها، بل جاءهم نبيهم شعيب، فدعاهم إلى التوحيد، وترك ظلم الناس في المكائيل والموازين، وعالجهم على ذلك أشد
المعالجة، فاستمروا على ظلمهم في حق الخالق وفي حق الخلق، ولهذا وصفهم هنا بالظلم.

﴿٨٢﴾ ﴿فَانْقَمْنَا مِنْهُمْ﴾: فأخذهم عذاب يوم الظلة؛ إنه كان عذاب يوم عظيم. ﴿وَإِنَّهُمْ لِيَأْمُرُ مُبِينٍ﴾ ﴿٨٣﴾: أي: لبطريق واضح يمر بهم المسافرين كل وقت، فيبين من آثارهم ما هو مشاهد بالابصار،
فيعتبر بذلك أولو الألباب.

الْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ ﴿٥٧﴾ [غافر: ٥٧].
﴿فَاصْفَحْ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ﴾ ﴿٥٨﴾: وهو الصَّفْح الذي لا أذية فيه، بل يقابل إساءة المسيء بالإحسان وذنبه بالغفران؛ لتتال من ربك جزيل الأجر والثواب؛ فإن كل ما هو آت فهو قريب.

وقد ظهر لي معنى أحسن مما ذكرت هنا، وهو أن المأمور به هو الصَّفْح الجميل؛ أي: الحسن الذي قد سلم من الحقد والأذية القولية والفعلية، دون الصَّفْح الذي ليس بجميل، وهو الصَّفْح في غير محله؛ فلا يصفح حيث اقتضى المقام العقوبة؛ كعقوبة المعتدين الظالمين الذين لا ينفع فيهم إلا العقوبة، وهذا هو المعنى.

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ﴾: لكل مخلوق، ﴿الْعَلِيمُ﴾ ﴿٥٩﴾: بكل شيء؛ فلا يعجزه أحد من جميع ما أحاط به علمه، وجرى عليه خلقه، وذلك سائر الموجودات.

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِ وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ﴾ ﴿٦٠﴾ لَا تَعْدَنَّ عَيْنُكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَخَفَضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦١﴾ وَقُلْ إِنَّا النَّذِيرُ الْمُبِينُ ﴿٦٢﴾ كَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى الْمُقَسِّمِينَ ﴿٦٣﴾ الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ ﴿٦٤﴾ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ الَّذِينَ لَمْ يُغْنِ عَنْهُمْ كَانُؤُهُمْ يَسْعَوْنَ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ يَدْعُونَ فَاصْطَبْحُوا بِمَأْوَاهُمْ وَأَعْرَضَ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴿٦٥﴾ إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٦٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ ﴿٦٨﴾ وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ﴿٦٩﴾.

﴿٦٠﴾ يقول تعالى ممتثلاً على رسوله: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِ﴾: وهن على الصحيح السور السبع الطوال: البقرة وآل عمران والنساء والمائدة والأنعام والأعراف والأنفال مع التوبة. أو أنها فاتحة الكتاب؛ لأنها سبع آيات. فيكون عطف ﴿وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ﴾ ﴿٦٠﴾ على ذلك من باب عطف العام على الخاص؛ لكثرة ما في المثنائي من التوحيد وعلوم الغيب والأحكام الجليلة وتثبيتها فيها. وعلى القول بأن الفاتحة هي السبع المثنائي معناها أنها سبع آيات تنشئ في كل ركعة.

﴿٦١﴾ وإذ كان الله قد أعطاه القرآن العظيم مع السبع المثنائي؛ كان قد أعطاه أفضل ما يتنافس فيه المتنافسون وأعظم ما فرح به المؤمنون، ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ يُفَرِّحُونَ هُوَ خَيْرٌ

﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحَجَرِ الْمُرْسَلِينَ﴾ ﴿٦٠﴾ وَآتَيْنَاهُمْ ءَايَاتِنَا فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٦١﴾ وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِينَ ﴿٦٢﴾ فَأَخَذْتَهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ ﴿٦٣﴾ فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٦٤﴾.

﴿٦٠﴾ يخبر تعالى عن أهل الحجر، وهم قوم صالح، الذين يسكنون الحجر المعروف في أرض الحجاز: أنهم كذبوا المرسلين؛ أي: كذبوا صالحاً، ومن كذب رسولاً؛ فقد كذب سائر الرسل لاتفاق دعوتهم، وليس تكذيب بعضهم لشخصه، بل لما جاء به من الحق، الذي اشترك جميع الرسل بالإتيان به.

﴿٦١﴾ وَآتَيْنَاهُمْ ءَايَاتِنَا: الدالة على صحة ما جاءهم به صالح من الحق التي من جملة تلك الناقة التي هي من آيات الله العظيمة. ﴿فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ ﴿٦١﴾: كبراً وتجبيراً على الله.

﴿٦٢﴾ وَكَانُوا: من كثرة إنعام الله عليهم، ﴿يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِينَ﴾ ﴿٦٢﴾: من المخاوف، مطمئنين في ديارهم؛ فلو شكروا النعمة وصدقوا نبيهم صالحاً عليه السلام؛ لأدر الله عليهم الأرزاق، ولأكرمهم بأنواع من الثواب العاجل والآجل، ولكنهم لما كذبوا وعقروا الناقة وعتوا عن أمر ربهم وقالوا: ﴿يُصْلِحْ أَثْقَانَا يَمَا تَوَدَّ أَنْ كُنَّا مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ ﴿٦٣﴾.

﴿٦٣﴾ فَأَخَذْتَهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ ﴿٦٣﴾: فنقطعت قلوبهم في أجوافهم وأصبحوا في دارهم جائمين هلكى، مع ما يتبع ذلك من الخزي واللعنة المستمرة.

﴿٦٤﴾ فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٦٤﴾: لأن أمر الله إذا جاء لا يرده كثرة جنود ولا قوة أنصار ولا غزارة أموال.

﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ﴾ ﴿٦٥﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ﴿٦٦﴾.

﴿٦٥﴾ أي: ما خلقناها عبثاً بطلاً كما يظن ذلك أعداء الله، بل ما خلقناها ﴿إِلَّا بِالْحَقِّ﴾: الذي منه أن يكونا بما فيهما دالتين على كمال خالقهما واقتداره وسعة رحمته وحكمته وعلمه المحيط، وأنه الذي لا تنبغي العبادة إلا له وحده لا شريك له. ﴿وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ﴾: لا ريب فيها؛ ﴿لَخَلْقُ

﴿٩٦﴾ ثم ذكر وصفهم، وأنهم كما يؤذونك يا رسول الله؛ فإنهم أيضًا يؤذون الله، ﴿الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾: وهو ربهم وخالقهم ومدبرهم. ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ ﴿٩٦﴾: غب أفعالهم إذا وردوا القيامة.

﴿٩٧﴾ ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ﴾ ﴿٩٧﴾: لك من التكذيب والاستهزاء؛ فنحن قادرون على استئصالهم بالعذاب والتعجيل لهم بما يستحقونه، ولكن الله يمهلهم، ولا يمهلهم.

﴿٩٨﴾ فانت يا محمد، ﴿فَسَيَحْمَدُ بِكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ﴾ ﴿٩٨﴾؛ أي: أكثر من ذكر الله وتسيحه وتحميده والصلاة؛ فإن ذلك يوسع الصدر ويشرحه ويعينك على أمورك.

﴿٩٩﴾ ﴿وَأَعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ ﴿٩٩﴾؛ أي: الموت؛ أي: استمر في جميع الأوقات على التقرب إلى الله بأنواع العبادات. فامتثل ﷺ أمر ربه، فلم يزل دائبًا في العبادة حتى أتاه اليقين من ربه، ﷺ تسليمًا كثيرًا.

تم تفسير سورة الحجر. والحمد لله رب العالمين آمين.



تفسير سورة النحل

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿أَنزَلَ اللَّهُ فَلَا تَسْعَىٰ لُحُوقُهُ سُبْحَانَہُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ ﴿١﴾ يُزِيلُ الْمَلَكُةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ ﴿٢﴾.

﴿١﴾ يقول تعالى مقربًا لما وعد به محققًا لوقوعه: ﴿أَنزَلَ اللَّهُ فَلَا تَسْعَىٰ لُحُوقُهُ﴾: فإنه أت، وما هو أت فإنه قريب. ﴿سُبْحَانَہُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ ﴿١﴾: من نسبة الشريك والولد والصاحبة والكفاء وغير ذلك مما نسب إليه المشركون مما لا يليق بجلاله أو ينافي كماله.

﴿٢﴾ ولما نزه نفسه عما وصفه به أعداؤه؛ ذكر الوحي الذي ينزله على أنبيائه مما يجب اتباعه في ذكر ما ينسب لله من صفات الكمال، فقال: ﴿يُزِيلُ الْمَلَكُةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ﴾؛ أي: بالوحي الذي به حياة الأرواح، ﴿عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ﴾

مَمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٨﴾ ﴿يونس: ٥٨﴾، ولذلك قال بعده: ﴿لَا تَدْنُ عَيْنُكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ﴾؛ أي: لا تعجب إعجابًا يحملك على إشغال فكرك بشهوات الدنيا التي تمتع بها المتفرون واغتر بها الجاهلون، واستغن بما أتاك الله من المثاني والقرآن العظيم. ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾: فإنهم لا خير فيهم يرجى، ولا نفع يرتقب؛ فلك في المؤمنين عنهم أحسن البدل وأفضل العوض. ﴿وَأَخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿٣٨﴾؛ أي: ألن لهم جانبك وحسن لهم خلقك محبة وإكرامًا وتوددًا.

﴿٣٩﴾ ﴿وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ﴾ ﴿٣٩﴾؛ أي: قم بما عليك من النذارة وأداء الرسالة والتبليغ للقريب والبعيد والعدو والصديق؛ فإنك إذا فعلت ذلك؛ فليس عليك من حسابهم من شيء، وما من حسابك عليهم من شيء.

﴿٤٠﴾ وقوله: ﴿كَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ﴾ ﴿٤٠﴾؛ أي: كما أنزلنا العقوبة على المقتسمين على بطلان ما جئت به، الساعين لصد الناس عن سبيل الله.

﴿٤١﴾ ﴿الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ﴾ ﴿٤١﴾؛ أي: أصنافًا وأعضاء وأجزاء يُصَرِّفُونَهُ بحسب ما يهونه؛ فمنهم من يقول: سحر، ومنهم من يقول: كهانة، ومنهم من يقول: مفترى... إلى غير ذلك من أقوال الكفرة المكذبين به، الذين جعلوا قلدحهم فيه؛ ليصدوا الناس عن الهدى.

﴿٤٢﴾، ﴿٤٣﴾ ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسَعَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ ﴿٤٢﴾؛ أي: جميع من قدح فيه وعابه وحرفه ويدله، ﴿عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ﴿٤٣﴾: وفي هذا أعظم ترهيب وزجر لهم عن الإقامة على ما كانوا يعملون.

﴿٤٤﴾ ثم أمر الله رسوله ألا يبالي بهم ولا بغيرهم، وأن يصدع بما أمر الله ويعلن بذلك لكل أحد ولا يعوقه عن أمره عائق ولا تصده أقوال المتهاوكين. ﴿وَأَعِضْ عَنِ الْمَشْرِكِينَ﴾ ﴿٤٤﴾؛ أي: لا تبالي بهم، واترك مشائهم ومسابتهم مقبلًا على شأنك.

﴿٤٥﴾ ﴿إِنَّا كُنَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ﴾ ﴿٤٥﴾: بك وبما جئت به. وهذا وعد من الله لرسوله ألا يضره المستهزئون، وأن يكفيه الله إياهم بما شاء من أنواع العقوبة، وقد فعل تعالى: فإنه ما تظاهر أحد بالاستهزاء برسول الله ﷺ وبما جاء به؛ إلا أهلكه الله وقتله شر قتلة.

مِنْ عِبَادِهِ ﴿١﴾: ممن يعلمه صالحًا لتحمل رسالته. وزبدة دعوة الرسل كلهم ومدارها على قوله: ﴿أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا﴾؛ أي: على معرفة الله تعالى، وتوحده في صفات العظمة، التي هي صفات الألوهية، وعبادته وحده لا شريك له؛ فهي التي أنزل بها كتبه، وأرسل رسله، وجعل الشرائع كلها تدعو إليها، وتحث، وتجاهد من حاربيها، وقام بضدها.

ثم ذكر الأدلة والبراهين على ذلك، فقال:

﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ تَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (٢) ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ﴾ (٣) ﴿وَالْأَنعَمَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنْفَعٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ (٤) ﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرْجَوْنَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ﴾ (٥) ﴿وَتَحْمِلُ أَقْفَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بِلَفِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾ (٦) ﴿وَالْخَلِيلَ وَالْعَالِ وَالْحَمِيرَ لِيَتَرَكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقَ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ (٧) ﴿وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَايِزٌ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَنَكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (٨).

هذه السورة تسمى سورة النعم؛ فإن الله ذكر في أولها أصول النعم وقواعدها، وفي آخرها متمماتها ومكملاتها.

﴿٢﴾ فأخبر أنه ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾؛ ليستدل بهما العباد على عظمة خالقهما وما له من نعوت الكمال، ويعلموا أنه خلقهما مسكنًا لعباده الذين يعبدونه بما يأمرهم به من الشرائع التي أنزلها على ألسنة رسله، ولهذا نزه نفسه عن شرك المشركين به، فقال: ﴿تَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (٣)، أي: تنزه وتعاضم عن شركهم؛ فإنه الإله حقًا، الذي لا تنبغي العبادة والحب والذل إلا له تعالى.

﴿٤﴾ ولما ذكر خلق السماوات [والأرض]؛ ذكر خلق ما فيهما، وبدأ بأشرف ذلك، وهو الإنسان، فقال: ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ﴾؛ لم يزل يدبرها ويرقيها وينميتها حتى صارت بشرًا تامًا كامل الأعضاء الظاهرة والباطنة، قد غمره بنعمه الغزيرة، حتى إذا استتم فخر بنفسه وأعجب بها. ﴿فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ﴾ (٥): يحتمل أن المراد: فإذا هو خصيم لربه؛ يكفر به، ويجادل رسله، ويكذب بآياته، ونسي خلقه الأول، وما أنعم الله عليه به من النعم، فاستعان بها على معاصيه.

ويحتمل أن المعنى أن الله أنشأ آدمي من نطفة، ثم لم يزل ينقله من طور إلى طور، حتى صار عاقلًا، متكلمًا، ذا ذهن ورأي، يخاصم ويجادل؛ فليشكر العبد ربه الذي أوصله إلى هذه الحال، التي ليس في إمكانه القدرة على شيء منها.

﴿٥﴾ ﴿وَالْأَنعَمَ خَلَقَهَا لَكُمْ﴾؛ أي: لأجلكم ولأجل منافعكم ومصالحكم، من جملة منافعها العظيمة، أن لكم ﴿فِيهَا دِفْءٌ﴾: مما تتخذون من أوصافها وأوبارها وأشعارها وجلودها من الثياب والفرش والبيوت. ولكم فيها منافع غير ذلك، ﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ (٦).

﴿٦﴾ ﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرْجَوْنَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ﴾ (٦)؛ أي: في وقت رواحها وراحتها وسكونها ووقت حركتها وسرحها، وذلك أن جمالها لا يعود إليها منه شيء؛ فإنكم أنتم الذين تتجملون بها كما تتجملون بثيابكم وأولادكم وأموركم وتعجبون بذلك.

سورة النحل

سورة النحل

الَّذِينَ جَعَلُوا الشُّرَكَاءَ عِزِينَ ﴿١١﴾ قَوْرَبِكَ لَسْتَ لَهُمْ
أَحْمِيْنُ ﴿١٢﴾ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٣﴾ فَأَصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ
عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٤﴾ إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ ﴿١٥﴾ الَّذِينَ
يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾ وَلَقَدْ نَعْلَمُ
أَنَّكَ بَصِيقٌ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿١٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ
مِنَ السَّاجِدِينَ ﴿١٨﴾ وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ﴿١٩﴾

سورة النحل

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أَنَّ أَمْرَ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ
﴿١﴾ يُزِيلُ الْمَلٰٓئِكَةُ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ
أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ ﴿٢﴾ خَلَقَ السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ تَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣﴾ خَلَقَ
الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ ﴿٤﴾ وَالْأَنعَمَ
خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنْفَعٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٥﴾
وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرْجَوْنَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴿٦﴾

٢٦٧

﴿٧﴾ وَتَحْمِلُ أَنْفَالَكُمْ ﴿٧﴾: من الأحمال الثقيلة، بل وتحملكم أنتم، ﴿إِنْ بَلَذَرْتُمْ تَكُونُوا بِلِفْيِهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ﴾: ولكن الله ذللها لكم؛ فمنها ما تركبونه، ومنها ما تحملون عليه ما تشاءون من الأثقال إلى البلدان البعيدة والأقطار الشاسعة. ﴿إِنْ رَبَّكُمْ لَرَءَوْفٌ رَحِيمٌ﴾ ﴿٧﴾: إذ سخر لكم ما تضطرون إليه وتحتاجونه؛ فله الحمد كما ينبغي لجلال وجهه وعظيم سلطانه وسعة جوده وبره.

﴿٨﴾ وَلِخَيْلٍ وَالْغَالِ وَالْحَمِيرِ ﴿٨﴾: سخرناها لكم؛ ﴿لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً﴾: أي: تارة تستعملونها للضرورة في الركوب، وتارة لأجل الجمال والزينة، ولم يذكر الأكل؛ لأن البغال والحمير محرم أكلها، والخيل لا تستعمل في الغالب للأكل، بل ينهى عن ذبحها لأجل الأكل خوفاً من انقطاعها، وإلا؛ فقد ثبت في الصحيحين أن النبي ﷺ أذن في لحوم الخيل^(١). ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ ﴿٨﴾: مما يكون بعد نزول القرآن من الأشياء التي يركبها الخلق في البر والبحر والجو ويستعملونها في منافعهم ومصالحهم؛ فإنه لم يذكرها بأعيانها؛ لأن الله تعالى لم يذكر في كتابه إلا ما يعرفه العباد أو يعرفون نظيره، وأما ما ليس له نظير؛ فإنه لو ذكر؛ لم يعرفوه ولم يفهموا المراد منه، فيذكر أصلاً جامعاً يدخل فيه ما يعلمون وما لا يعلمون؛ كما ذكر نعيم الجنة، وسمى منه ما نعلم ونشاهد نظيره؛ كالنخل والأعناب والرمان، وأجمل ما لا نعرف له نظيراً في قوله: ﴿فِيهَا مِنْ كُلِّ ثَمَرٍ مِثْقَلِ ذَرَّةٍ﴾ ﴿٩﴾ [الرحمن: ٥٢]؛ فذلك هنا ذكر ما نعرفه من المراكب؛ كالخيل والبغال والحمير والإبل والسفن، وأجمل الباقي في قوله: ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ ﴿٨﴾.

﴿٩﴾ ولما ذكر تعالى الطريق الحسي، وأن الله قد جعل للعباد ما يقطعونه به من الإبل وغيرها؛ ذكر الطريق المعنوي الموصل إليه، فقال: ﴿وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ﴾؛ أي: الصراط المستقيم، الذي هو أقرب الطرق وأخصرها، موصل إلى الله وإلى كرامته، وأما الطريق الجائر في عقائده وأعماله، وهو كل ما خالف الصراط المستقيم؛ فهو قاطع عن الله، موصل إلى دار الشقاء، فسلك المهتدون الصراط المستقيم بإذن ربهم، وضل الغاؤون عنه، وسلخوا الطرق الجائرة. ﴿وَلَوْ شَاءَ لَهَدَّيْنَكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ ﴿٩﴾: ولكنه هدى بعضاً كرمًا وفضلاً، ولم يهد آخرين حكمة منه وعدلاً.

﴿١٠﴾ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾ يُثْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١١﴾.

﴿١١﴾ بذلك على كمال قدرة الله، الذي أنزل هذا الماء من السحاب الرقيق اللطيف، ورحمته حيث جعل فيه ماء غزيراً منه يشربون، وتشرب مواشيتهم، ويسقون منه حروثهم، فتخرج لهم الثمرات الكثيرة والنعم الغزيرة.

﴿١٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمْ الَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِئِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾.

سورة النحل
وَتَحْمِلُ أَنْفَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بِلِفْيِهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءَوْفٌ رَحِيمٌ ﴿٧﴾ وَلِخَيْلٍ وَالْغَالِ وَالْحَمِيرِ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨﴾ وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَايِزٌ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَّيْنَكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩﴾ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾ يُثْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ وَسَخَّرَ لَكُمْ الَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِئِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١٢﴾ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَنًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَذَكَّرُونَ ﴿١٣﴾ وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لَكُمْ لِيَكُونَ لَكُمْ حِمَا طَرِيقًا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلَ كَمَا يَبْغِي فِيهِ لَتَسْتَغْنُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾

عليهم. ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (١٢) : الذي يسر لكم هذه الأشياء وهياها وتثنون على الله الذي من بها؛ فله تعالى الحمد والشكر والثناء؛ حيث أعطى العباد من مصالحهم ومنافعهم فوق ما يطلبون وأعلى مما يتمنون وآتاهم من كل ما سألوه لا نحصي ثناء عليه، بل هو كما أثنى على نفسه.

﴿وَالْقَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوًى أَن يَمِيدَ بِكُمْ وَانْهَارًا سَبِيلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ (١٣) وَعَلَّمَتِ الْبُيُوتَ وَالْجِبَالَ هُمْ يَهْتَدُونَ (١٤).

(١٢)، (١٣) أي: ﴿وَالْقَىٰ﴾: الله تعالى لأجل عباده ﴿فِي الْأَرْضِ رَوًى﴾: وهي الجبال العظام؛ لئلا تميد بهم وتضطرب بالخلق، فيتمكنون من حرث الأرض والبناء والسير عليها، ومن رحمته تعالى أن جعل فيها أنهارًا يسوقها من أرض بعيدة إلى أرض مضطرة إليها؛ لسقيهم وسقي مواشيهم وحروثهم؛ أنهارًا على وجه الأرض وأنهارًا في بطنها يستخرجونها بحفرها حتى يصلوا إليها فيستخرجونها بما سخر الله لهم من الدوالي والآلات ونحوها، ومن رحمته أن جعل في الأرض سبيلًا؛ أي: طرقًا توصل إلى الديار المتناثية. ﴿لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ (١٤): السبيل إليها، حتى إنك تجد أرضًا مشبكة بالجبال مسلسلة فيها، وقد جعل الله فيما بينها منافذ ومسالك للسالكين.

﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ (١٥) وَإِن تَعْدُوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصَوْهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٦) وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسْرُونَ وَمَا يُعْلِنُونَ (١٧) وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ (١٨) أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ (١٩) إِلَهُكُمْ إِلَهُ وَاحِدٌ فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّكْرَةٌ وَهُمْ مُّسْتَكْبِرُونَ (٢٠) لَا جَرَمَ لَهُ أَنَّهُ يَعْلَمُ مَا يُسْرُونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ (٢١).

(١٥) لما ذكر تعالى ما خلقه من المخلوقات العظيمة وما أنعم به من النعم العظيمة؛ ذكر أنه لا يشبهه أحد، ولا كفاء له ولا ند له، فقال: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ﴾: جميع المخلوقات، وهو الفعال لما يريد، ﴿كَمَن لَا يَخْلُقُ﴾: شيئًا لا قليلًا ولا كثيرًا. ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ (١٦): فتعرفون أن المنفرد بالخلق أحق بالعبادة كلها؛ فكما أنه واحد في خلقه وتدبيره؛ فإنه واحد في

(١٢) أي: سخر لكم هذه الأشياء لمنافعكم وأنواع مصالحكم؛ بحيث لا تستغنون عنها أبدًا؛ فبالليل تسكنون وتنامون وتستريحون، وبالنهار تنتشرون في معاشكم ومنافع دينكم ودنياكم، وبالشمس والقمر من الضياء والنور والإشراق وإصلاح الأشجار والثمار والنبات وتجفيف الرطوبات وإزالة البرودة الضارة للأرض وللأبدان وغير ذلك من الضروريات والحاجيات التابعة لوجود الشمس والقمر، وفيهما وفي النجوم من الزينة للسماء والهداية في ظلمات البر والبحر ومعرفة الأوقات وحساب الأزمنة ما تنوع دلالاتها وتتصرف آياتها، ولهذا جمعها في قوله: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ (١٣)؛ أي: لمن لهم عقول يستعملونها في التدبر والتفكير فيما هي مهية له مستعدة تعقل ما تراه وتسمعه، لا كنظر الغافلين الذين حظهم من النظر حظ البهائم التي لا عقل لها.

﴿وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَنُهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَكَّرُونَ﴾ (١٤).

(١٣) أي: فيما ذرأ الله ونشر للعباد من كل ما على وجه الأرض من حيوان وأشجار ونبات وغير ذلك مما تختلف ألوانه وتختلف منافعه آية على كمال قدرة الله وعميم إحسانه وسعة بره وأنه الذي لا تبغي العبادة إلا له وحده لا شريك له. ﴿لِّقَوْمٍ يَذَكَّرُونَ﴾ (١٤)؛ أي: يستحضرون في ذاكرتهم ما ينفعهم من العلم النافع ويتأملون ما دعاهم الله إلى التأمل فيه حتى يتذكروا بذلك ما هو دليل عليه.

﴿وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حَبًّا تَلْبَسُونَهَا وَتَرْكَبُ الْفُلَ مَوَازِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (١٥).

(١٥) أي: [و]هو وحده لا شريك له ﴿الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ﴾: وهياه لمنافعكم المتنوعة؛ ﴿لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا﴾: وهو السمك والحوت الذي يصطادونه منه، ﴿وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حَبًّا تَلْبَسُونَهَا﴾: فتزيدكم جمالاً وحسناً إلى حسنكم. ﴿وَتَرْكَبُ الْفُلَ﴾: أي: السفن والمراكب ﴿مَوَازِرَ فِيهِ﴾: أي: تَمَخَّرُ البحر العجاج الهائل بمقدمها حتى تسلك فيه من قطر إلى آخر تحمل المسافرين وأرزاقهم وأمتعتهم وتجاراتهم التي يطلبون بها الأرزاق وفضل الله

إلهيته وتوحيده وعبادته، وكما أنه ليس له مشارك إذ أنشأكم وأنشأ غيركم؛ فلا تجعلوا له أندادًا في عبادته، بل اخلصوا له الدين.

﴿١٨﴾ وَإِنْ تُعَذِّبُوا نِعْمَةً اللَّهُ ۖ عَذَابًا مَجْرَدًا عَنِ الشُّكْرِ، ﴿١٩﴾ لَا تُخْصَوها ۖ ﴿٢٠﴾ فضلًا عن كونكم تشكرونها؛ فإن نعمه الظاهرة والباطنة على العباد بعدد الأنفاس واللحظات، من جميع أصناف النعم، مما يعرف العباد ومما لا يعرفون، وما يدفع عنهم من النقم؛ فأكثر من أن تحصى. ﴿٢١﴾ إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٢٢﴾: يرضى منكم بالسير من الشكر مع إنعامه الكثير.

﴿٢٣﴾، ﴿٢٤﴾ وكما أن رحمته واسعة وجوده عظيم ومغفرته شاملة للعباد؛ فعلمه محيط بهم، ﴿٢٥﴾ يَعْلَمُ مَا تُسْرُوتُ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٦﴾ من عُبد من دونه فإنهم ﴿٢٧﴾ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا ۖ قَلِيلًا وَلَا كَثِيرًا. ﴿٢٨﴾ وَهُمْ يَخْلُقُونَ شَيْئًا مَعَ اقْتِرَاحِهِمْ فِي إِيجَادِهِمْ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى! ﴿٢٩﴾

﴿٣٠﴾، ﴿٣١﴾ ومع هذا؛ ليس فيهم من أوصاف الكمال شيء لا علم ولا غيره. ﴿٣٢﴾ أَتَوْتُمْ عَذْرَآئِهَا ۖ ﴿٣٣﴾ فلا تسمع ولا تبصر ولا تعقل شيئًا، أفنتخذ هذه آلهة من دون رب العالمين؟! فتبًا لعقول المشركين ما أضلها وأفسدها؛ حيث ضلت في أظهر الأشياء فسادًا، وسووا بين الناقص من جميع الوجوه؛

فلا أوصاف كمال، ولا شيء من الأفعال! وبين الكامل من جميع الوجوه الذي له كل صفة كمال وله من تلك الصفة أكملها وأعظمها؛ فله العلم المحيط بكل الأشياء والقدرة العامة والرحمة الواسعة التي ملأت جميع العوالم، والحمد والمجد والكبرياء والعظمة التي لا يقدر أحد من الخلق أن يحيط ببعض أوصافه، ولهذا قال: ﴿٣٤﴾ إِنَّ اللَّهَ إِلَهُ وَحْدَهُ ۖ وَهُوَ اللَّهُ الْأَحَدُ الْفَرْدُ الصَّمَدُ، الذي لم يلد، ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد؛ فأهل الإيمان والعقول أجلة قلوبهم، وعظمته، وأحبه حبًا عظيمًا، وصرفوا له كل ما استطاعوا من القربات البدنية والمالية وأعمال القلوب وأعمال الجوارح، وأنشأوا عليه بأسمائه الحسنى وصفاته وأفعاله المقدسة.

﴿٣٥﴾ فَأَلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنْكَرَةٌ ۖ ﴿٣٦﴾ لهذا الأمر العظيم، الذي لا ينكره إلا أعظم الخلق جهلاً وعنادًا، وهو توحيد الله. ﴿٣٧﴾ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٨﴾: عن عبادته.

﴿٣٩﴾ لَا جَرَمَ ۖ ﴿٤٠﴾ أي: حقًا لا بد ﴿٤١﴾ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسْرُوتُ وَمَا يُعْلِنُونَ ۖ ﴿٤٢﴾ من الأعمال الفبيحة. ﴿٤٣﴾ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ ﴿٤٤﴾: بل يبغضهم أشد البغض، وسيجازيهم من جنس عملهم. ﴿٤٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٤٦﴾ ﴿٤٧﴾ [غافر: ٦٠].

﴿٤٨﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَاذَا أُنْزِلَ رِجْؤُكُمْ قَالُوا أَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٤٩﴾ لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَاءَ مَا يَزُرُونَ ﴿٥٠﴾ قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَفْأَفَ اللَّهُ بَيْنَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَأَتْنَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥١﴾ لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَاءَ مَا يَزُرُونَ ﴿٥٢﴾ قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَفْأَفَ اللَّهُ بَيْنَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَأَتْنَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٣﴾ ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ يُخْرِجُهُمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَاءُ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَشْفُقُونَ فِيهِمْ قَالَ الَّذِينَ أُوْتُوا الْعِلْمَ إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالْسُّوءَ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٥٤﴾ الَّذِينَ تَوَفَّيْنَاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ عَنِ السُّوءِ لَيَكُنَّ أُولَئِكَ مِنَ الْعَذَابِ ﴿٥٥﴾ فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ

سورة النحل

سورة النحل

وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوْسًا أَنْ يَنْبِذَ بِكُمْ وَيَنْهَرُوا وَسْبًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿٥٦﴾ وَعَلَّمَتِ وَيَا تَجْمِمْ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٥٧﴾ أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾ وَإِنْ تُعَذِّبُوا نِعْمَةً اللَّهُ لَا تُخْصَوها إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٥٩﴾ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسْرُوتُ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٦٠﴾ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿٦١﴾ أَتَوْتُمْ عَذْرَآئِهَا ۖ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٦٢﴾ إِنَّ اللَّهَ إِلَهُ وَحْدَهُ ۖ فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنْكَرَةٌ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ ﴿٦٣﴾ لَا جَرَمَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسْرُوتُ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ ﴿٦٤﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَاذَا أُنْزِلَ رِجْؤُكُمْ قَالُوا أَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٦٥﴾ لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَاءَ مَا يَزُرُونَ ﴿٦٦﴾ قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَفْأَفَ اللَّهُ بَيْنَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَأَتْنَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٧﴾

٢٦٩

خَلِيلِك فِيهَا فَلَيْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٢٩﴾

﴿٢٩﴾ يقول تعالى مخبراً عن شدة تكذيب المشركين بآيات الله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَآذًا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ﴾؛ أي: إذا سئلوا عن القرآن والوحي الذي هو أكبر نعمة أنعم الله بها على العباد؛ فماذا قولكم به؟ وهل تشكرون هذه النعمة وتعرفون بها أم تكفرون وتعادون؟ فيكون جوابهم أفتح جواب وأسمجعه، فيقولون عنه: إنه ﴿أَسْطِيزُ الْأَوَّلِينَ﴾ ﴿٢٩﴾؛ أي: كذب اختلقه محمد على الله، وما هو إلا قصص الأولين التي يتناقفها الناس جيلاً بعد جيل، منها الصدق ومنها الكذب.

﴿٣٠﴾ فقالوا هذه المقالة، ودعوا أتباعهم إليها، وحملوا وزرهم ووزر من انقاد لهم إلى يوم القيامة، وقوله: ﴿وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾؛ أي: من أوزار المقلدين الذين لا علم عندهم إلا ما دعوههم إليه، فيحملون إثم ما دعوههم إليه، وأما الذين يعلمون؛ فكل مستقل بجرمه؛ لأنه عرف ما عرفوا. ﴿أَلَا سَاءَ مَا يَزُرُّوكَ﴾ ﴿٣٠﴾؛ أي: بش ما حملوا من الوزر المثل لظهورهم من وزرهم ووزر من أضلوه.

﴿٣١﴾، ﴿٣٢﴾ ﴿قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾: برسلهم، واحتالوا بأنواع الحيل على رد ما جاءهم به، وبنوا من مكرهم قصوراً هائلة، ﴿فَآفَ اللَّهُ بِنِيعَتِهِمْ رَبَّ الْقَوَاعِدِ﴾؛ أي: جاءها الأمر من أساسها وقاعدتها، ﴿فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ قَوَائِمِهِمْ﴾: فصار ما بنوه عذاباً عذبوا به. ﴿وَأَنَّهُمْ أَلْعَدَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ ﴿٣١﴾: وذلك أنهم ظنوا أن هذا البنيان سينفهمهم ويقيهم العذاب، فصار عذابهم فيما بنوه وأصلوه. وهذا من أحسن الأمثال في إبطال الله مكر أعدائه؛ فإنهم فكروا وقدروا فيما جاءت به الرسل لما كذبوه وجعلوا لهم أصولاً وقواعد من الباطل يرجعون إليها ويردون بها ما جاءت به الرسل، واحتالوا أيضاً على إيقاع المكروه والضرر بالرسل ومن تبعهم، فصار مكرهم وبالأعلى عليهم، فصار تدبيرهم فيه تدميرهم، ذلك لأن مكرهم سيئ، ﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾ ﴿فاطر: ٤٣﴾. هذا في الدنيا، وللعذاب الآخرة أخزى، ولهذا قال: ﴿ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ يُخْزِبُهُمْ﴾؛ أي: يفضحهم على رءوس الخلائق ويبين لهم كذبهم واقتراءهم على الله. ﴿وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَاءُ الَّذِينَ كُنْتُمْ تُشْفِقُونَ فِيهِمْ﴾؛ أي: تحاربون وتعادون الله وحزبه لأجلهم تزعمون أنهم شركاء لله؛ فإذا سألهم هذا السؤال؛ لم يكن لهم جواب إلا الإقرار بضلالهم والاعتراف بعنادهم، فيقولون: ﴿صَلُّوا عَلَيَّ وَشَهِدُوا عَلَيَّ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ﴾ ﴿٣٢﴾ [الأعراف: ٣٧]: ﴿قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْوَحْيَ﴾؛ أي: العلماء الربانيون: ﴿إِنَّ الْآخِرَى الْيَوْمَ﴾؛ أي: يوم القيامة، ﴿وَالْأَوَّلَى﴾؛ أي: العذاب ﴿عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ ﴿٣٢﴾. وفي هذا فضيلة أهل العلم، وأنهم الناطقون بالحق في هذه الدنيا ويوم يقوم الأشهاد، وأن لقولهم اعتباراً عند الله وعند خلقه.

سورة النحل
ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ يُخْزِبُهُمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَاءُ الَّذِينَ كُنْتُمْ تُشْفِقُونَ فِيهِمْ قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْوَحْيَ إِنَّ الْآخِرَى الْيَوْمَ وَالْأَوَّلَى عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٣٢﴾ الَّذِينَ تَوَفَّيْنَاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ فَأَلْقَوْا السَّلَامَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ بَلَى إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٣﴾ فَأَدْخَلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَلِيلِيكَ فِيهَا فَلَيْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٣٤﴾ وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَآذًا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرٌ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ ﴿٣٥﴾ جَنَّاتٌ عِدْنُ يَدْخُلُونَهَا يُجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ كَذَلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ ﴿٣٦﴾ الَّذِينَ تَوَفَّيْنَاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ أَدْخَلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٧﴾ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرٌ رَبِّكَ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٣٨﴾ فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتٌ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٣٩﴾

﴿٣١﴾ وذلك أنهم ظنوا أن هذا البنيان سينفهمهم ويقيهم العذاب، فصار عذابهم فيما بنوه وأصلوه. وهذا من أحسن الأمثال في إبطال الله مكر أعدائه؛ فإنهم فكروا وقدروا فيما جاءت به الرسل لما كذبوه وجعلوا لهم أصولاً وقواعد من الباطل يرجعون إليها ويردون بها ما جاءت به الرسل، واحتالوا أيضاً على إيقاع المكروه والضرر بالرسل ومن تبعهم، فصار مكرهم وبالأعلى عليهم، فصار تدبيرهم فيه تدميرهم، ذلك لأن مكرهم سيئ، ﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾ ﴿فاطر: ٤٣﴾. هذا في الدنيا، وللعذاب الآخرة أخزى، ولهذا قال: ﴿ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ يُخْزِبُهُمْ﴾؛ أي: يفضحهم على رءوس الخلائق ويبين لهم كذبهم واقتراءهم على الله. ﴿وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَاءُ الَّذِينَ كُنْتُمْ تُشْفِقُونَ فِيهِمْ﴾؛ أي: تحاربون وتعادون الله وحزبه لأجلهم تزعمون أنهم شركاء لله؛ فإذا سألهم هذا السؤال؛ لم يكن لهم جواب إلا الإقرار بضلالهم والاعتراف بعنادهم، فيقولون: ﴿صَلُّوا عَلَيَّ وَشَهِدُوا عَلَيَّ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ﴾ ﴿٣٢﴾ [الأعراف: ٣٧]: ﴿قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْوَحْيَ﴾؛ أي: العلماء الربانيون: ﴿إِنَّ الْآخِرَى الْيَوْمَ﴾؛ أي: يوم القيامة، ﴿وَالْأَوَّلَى﴾؛ أي: العذاب ﴿عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ ﴿٣٢﴾. وفي هذا فضيلة أهل العلم، وأنهم الناطقون بالحق في هذه الدنيا ويوم يقوم الأشهاد، وأن لقولهم اعتباراً عند الله وعند خلقه.

﴿٣٢﴾ ثم ذكر ما يفعل بهم عند الوفاة وفي القيامة، فقال: ﴿الَّذِينَ تَوَفَّيْنَاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ﴾؛ أي: توفاهم في هذه الحال التي كثر فيها ظلمهم وغيهم، وقد علم ما يلقي الظلمة في ذلك المقام من أنواع العذاب والخزي والإهانة. ﴿فَأَلْقَوْا السَّلَامَ﴾؛ أي: استسلموا وأنكروا ما كانوا يعبدونهم من دون الله، وقالوا: ﴿مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ﴾: فيقال لهم: ﴿بَلَى﴾: كنتم تعملون السوء. ف ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ ﴿٣٢﴾: فلا يفيدكم الجحود شيئاً. وهذا في بعض مواقف القيامة؛ ينكرون ما كانوا عليه في الدنيا؛ ظناً أنه يتغهم؛ فإذا شهدت عليهم جوارحهم، وتبين ما كانوا عليه؛ أقروا واعترفوا، ولهذا لا يدخلون النار حتى يعترفوا بذنوبهم.

طاهرين مطهرين من كل نقص ودنس يتطرق إليهم ويخل في إيمانهم، فطابت قلوبهم بمعرفة الله ومحبته، وألستهم بذكره والثناء عليه، وجوارحهم بطاعته والإقبال عليه. ﴿يَقُولُونَ سَلَّمَ عَلَيْكُمْ﴾؛ أي: التحية الكاملة حاصلة لكم، والسلامة من كل آفة، وقد سلمتم من كل ما تكرهون. ﴿أَدْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾. من الإيمان بالله والانقياد لأمره؛ فإن العمل هو السبب والمادة والأصل في دخول الجنة والنجاة من النار، وذلك العمل حصل لهم برحمة الله ومته، لا بحولهم وقوتهم.

﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرٌ رَبِّكَ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾. فأصابهم سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٢٩﴾.

﴿٢٩﴾ يقول تعالى: هل ينظر هؤلاء الذين جاءتهم الآيات فلم يؤمنوا وذُكِّروا فلم يتذكروا، ﴿إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ﴾: لقيض أرواحهم، ﴿أَوْ يَأْتِيَ أَمْرٌ رَبِّكَ﴾: بالعذاب الذي سيحل بهم؛ فإنهم قد استحقوا لوقوعه فيهم. ﴿كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾: كذبوا وكفروا، ثم لم يؤمنوا، حتى نزل بهم العذاب. ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ﴾؛ إذ عذبهم، ﴿وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾؛ فإنها مخلوقة لعبادة الله؛ ليكون مآلها إلى كرامة الله، فظلموها وتركوا ما خلقت له وعرضوها للإهانة الدائمة والشقاء الملازم.

﴿٣٠﴾ ﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا﴾؛ أي: عقوبات أعمالهم وآثارها، ﴿وَحَاقَ بِهِمْ﴾؛ أي: نزل ﴿مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾. فإنهم كانوا إذا أخبرتهم رسلهم بالعذاب؛ استهزؤا به، وسخروا ممن أخبر به، فحل بهم ذلك الأمر الذي سخروا منه.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ ﴿٣٠﴾.

﴿٣٠﴾ أي: احتج المشركون على شركهم بمشيتة الله، وأن الله لو شاء ما أشركوا ولا حرموا شيئاً من الأنعام التي أحلها؛ كالبحيرة والوصيلة والحام ونحوها من دونه، وهذه حجة

﴿٣١﴾ فإذا دخلوا أبواب جهنم، كل أهل عمل يدخلون من الباب اللاتق بحالهم؛ ﴿فَلَيْسَ مَثْوًى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾ ﴿٣١﴾: نار جهنم؛ فإنها مَثْوًى الحسرة والندم، ومثزل الشقاء والألم، ومحل الهموم والغموم، وموضع السَّخَط من الحي القيوم، لا يُفْتَر عنهم من عذابها، ولا يرفع عنهم يوماً من أليم عقابها، قد أعرض عنهم الرب الرحيم، وأذاقهم العذاب العظيم.

﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَبَرٌ لَدَيْنَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعَمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ﴾ ﴿٣٢﴾ جَنَّتٌ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ كَذَلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ ﴿٣٣﴾ الَّذِينَ تَوْفَّيْنَاهُمُ الْمَلَائِكَةَ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَّمَ عَلَيْكُمْ أَدْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ ﴿٣٢﴾.

﴿٣١﴾ لما ذكر الله قيل المكذبين بما أنزل الله؛ ذكر ما قاله المتقون، وأنهم اعترفوا وأقروا بأن ما أنزل الله نعمة عظيمة وخير عظيم امتن الله به على العباد، فقبلوا تلك النعمة، وتلقوها بالقبول والانقياد، وشكروا الله عليها، فعملوها وعملوا بها. ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا﴾: في عبادة الله تعالى وأحسنوا إلى عباد الله؛ فلهم ﴿فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ﴾: رزق واسع وعيشة هنية وطمأنينة قلب وأمن وسرور. ﴿وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ﴾: من هذه الدار وما فيها من أنواع اللذات والمشتريات؛ فإن هذه نعيمها قليل محشو بالأفات منقطع؛ بخلاف نعيم الآخرة، ولهذا قال: ﴿وَلَنِعَمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ﴾ ﴿٣٢﴾.

﴿٣٢﴾ ﴿جَنَّتٌ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ﴾؛ أي: مهما تمتته أنفسهم وتعلقت به إراداتهم؛ حصل لهم على أكمل الوجوه وأتمها؛ فلا يمكن أن يطلبوا نوعاً من أنواع النعيم الذي فيه لذة القلوب وسرور الأرواح؛ إلا وهو حاضر لديهم، ولهذا يعطي الله أهل الجنة كل ما تمنوه عليه، حتى إنه يذكرهم أشياء من النعيم لم تخطر على قلوبهم؛ فتبارك الذي لا نهاية لكرمه ولا حد لجوده، الذي ليس كمثل شيء في صفات ذاته وصفات أفعاله وآثار تلك النعوت وعظمة الملك والمملوك. ﴿كَذَلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ﴾ ﴿٣٣﴾: لسخط الله وعذابه؛ بأداء ما أوجبه عليهم من الفروض والواجبات المتعلقة بالقلب والبدن واللسان من حقه وحق عبادته، وترك ما نهاهم الله عنه. ﴿الَّذِينَ تَوْفَّيْنَاهُمُ الْمَلَائِكَةَ﴾: مستمرين على تقواهم، ﴿طَيِّبِينَ﴾؛ أي:

سورة النحل

النحل

وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا أَلْبَانُ الْمُبِينِ ﴿٣٦﴾ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ تَعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٧﴾ إِنَّ تَحْرِيضَ عَلَى هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ﴿٣٨﴾ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَنِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ بَلَى وَعَدًّا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ يُسَبِّحُ لَهُمُ الَّذِينَ يَخْتَفُونَ فِيهِ وَلِيَاعِلَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَذِبِينَ ﴿٤٠﴾ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٤١﴾ وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا لَنَبْوِّتَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَا نَجْزِي الْآخِرَةَ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٤٢﴾ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٤٣﴾

٢٧١

باطلة؛ فإنها لو كانت حقاً؛ ما عاقب الله الذين من قبلهم حيث أشركوا به، فعاقبهم أشد العقاب؛ فلو كان يجب ذلك منهم؛ لما عذبهم. وليس قصدهم بذلك إلا رد الحق الذي جاءت به الرسل، وإلا؛ فعندهم علم أنه لا حجة لهم على الله؛ فإن الله أمرهم ونهاهم، ومكنهم من القيام بما كلفهم، وجعل لهم قوة ومشينة تصدر عنها أفعالهم؛ فاحتجاجهم بالقضاء والقدر من أبطل الباطل، هذا وكل أحد يعلم بالحس قدرة الإنسان على كل فعل يريد من غير أن ينازعه منازع؛ فجمعوا بين تكذيب الله وتكذيب رسله وتكذيب الأمور العقلية والحسية. ﴿٣٦﴾ فَعَلَى الرَّسُولِ إِلَّا أَلْبَانُ الْمُبِينِ ﴿٣٦﴾؛ أي: البين الظاهر الذي يصل إلى القلوب ولا يبقى لأحد على الله حجة؛ فإذا بلغتهم الرسل أمر ربهم ونهيه واحتجوا عليهم بالقدر؛ فليس للرسل من الأمر شيء، وإنما حسابهم على الله عز وجل.

﴿٣٦﴾ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ تَعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٧﴾ إِنَّ تَحْرِيضَ عَلَى هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ﴿٣٨﴾.

﴿٣٩﴾ يخبر تعالى أن حجته قامت على جميع الأمم، وأنه ما من أمة متقدمة أو متأخرة إلا وبعث الله فيها رسولاً، وكلهم متفقون على دعوة واحدة ودين واحد، وهو عبادة الله وحده لا شريك له. ﴿٤٠﴾ أَنْ تَعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ؛ فانقسمت الأمم بحسب استجابتها لدعوة الرسل وعدمها قسمين: ﴿٤١﴾ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ؛ فاتبعوا المرسلين علماً وعملاً، ﴿٤٢﴾ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ؛ فاتبع سبيل الغي. ﴿٤٣﴾ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ؛ بأبداكم وقلوبكم، ﴿٤٤﴾ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٥﴾؛ فإنكم سترون من ذلك العجائب؛ فلا تجد مكذباً إلا كان عاقبته الهلاك.

﴿٣٦﴾ إِنَّ تَحْرِيضَ عَلَى هُدَاهُمْ؛ وتبذل جهلك في ذلك، ﴿٣٧﴾ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ؛ ولو فعل كل سبب؛ لم يهده إلا الله. ﴿٣٨﴾ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ﴿٣٩﴾؛ ينصرونهم من عذاب الله، ويقنونهم بأسه.

﴿٤٠﴾ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَنِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ بَلَى وَعَدًّا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ يُسَبِّحُ لَهُمُ الَّذِينَ يَخْتَفُونَ فِيهِ وَلِيَاعِلَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَذِبِينَ ﴿٤٢﴾ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٤٣﴾.

﴿٤٤﴾ يخبر تعالى عن المشركين المكذبين لرسوله أنهم أقسموا ﴿٤٥﴾ بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَنِهِمْ؛ أي: حلفوا أيماناً مؤكدة مغلظة على تكذيب الله وأن الله لا يبعث الأموات ولا يقدر على إحيائهم بعد أن كانوا تراباً. قال تعالى مكذباً لهم: ﴿٤٦﴾ بَلَى؛ سيعنبهم ويجمعهم ليوم لا ريب فيه. ﴿٤٧﴾ وَعَدًّا عَلَيْهِ حَقًّا؛ لا يخلفه ولا يغيره. ﴿٤٨﴾ وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٩﴾؛ ومن جهلهم العظيم إنكارهم البعث والجزاء.

﴿٥٠﴾ ثم ذكر الحكمة في الجزاء والبعث، فقال: ﴿٥١﴾ يُسَبِّحُ لَهُمُ الَّذِينَ يَخْتَفُونَ فِيهِ؛ من المسائل الكبار والصغار، فيبين حقائقها ويوضحها، ﴿٥٢﴾ وَلِيَاعِلَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَذِبِينَ ﴿٥٣﴾؛ حتى يرون أعمالهم حشرات عليهم، وما نفعتهم

آلهتهم التي يدعون مع الله من شيء لما جاء أمر ربك، وحين يرون ما يعبدون خطباً لجهنم، وتكور الشمس والقمر، وتتناثر النجوم، ويتضح لمن يعبدها أنها عبيد مسخرات، وأنهن مفتقرات إلى الله في جميع الحالات، وليس ذلك على الله بصعب ولا شديد؛ فإنه إذا أراد شيئاً قال له كن فيكون من غير منازعة ولا امتناع، بل يكون على طبق ما أراه وشاءه.

﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا لَنبُوذَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَآجِرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ (٤١) الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٤٢﴾.

﴿٤١﴾ يخبر تعالى بفضل المؤمنين الممتحنين، ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ﴾؛ أي: في سبيله وابتغاء مرضاته، ﴿مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا﴾: بالأذية والمحنة من قومهم، الذين يفتنونهم ليردوهم إلى الكفر والشرك، فتركوا الأوطان والخلا، وانتقلوا عنها لأجل طاعة الرحمن، فذكر لهم ثوابين: ثواباً عاجلاً في الدنيا من الرزق الواسع والعيش الهنيء الذي راوه عياناً بعدما هاجروا وانتصروا على أعدائهم وافتتحوا البلدان وغنموا منها الغنائم العظيمة فتمولوا وآتاهم الله في الدنيا حسنة. ﴿وَلَآجِرُ الْآخِرَةِ﴾: الذي وعدهم على لسان رسوله خير و﴿أَكْبَرُ﴾ من أجر الدنيا؛ كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَبْغِيهِمْ رِبْهُم بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّتْ لَهُمْ فِيهَا نَيْمٌ مُقِيمٌ﴾ (٢١) ﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ (٢٢) وقوله: ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ (٤١)؛ أي: لو كان لهم علم ويقين بما عند الله من الأجر والثواب لمن آمن به وهاجر في سبيله؛ لم يتخلف عن ذلك أحد.

﴿٤٢﴾ ثم ذكر وصف أوليائه، فقال: ﴿وَالَّذِينَ صَبَرُوا﴾: على أوامر الله، وعن نواهي، وعلى أقدار الله المؤلمة، وعلى الأذية فيه والمحن. ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ (٤٢)؛ أي: يعتمدون عليه في تنفيذ محابه لا على أنفسهم، وبذلك تنجح أمورهم وتستقيم أحوالهم؛ فإن الصبر والتوكل ملاك الأمور كلها؛ فما فات أحداً شيء من الخير إلا لعدم صبره وبذل جهده فيما أريد منه أو لعدم توكله واعتماده على الله.

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رَجُلًا نُوحِيَ إِلَيْهِمْ فَتَسْلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ (٤٣) ﴿بِالْبَيِّنَاتِ وَالزَّبْرِ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (٤٤).

﴿٤٣﴾ يقول تعالى لنبيه محمد ﷺ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رَجُلًا﴾؛ أي: لست ببدع من الرسل، فلم نرسل قبلك ملائكة، بل رجلاً كاملياً لا نساء. ﴿نُوحِيَ إِلَيْهِمْ﴾: من الشرائع والأحكام ما هو من فضله وإحسانه على العبيد، من غير أن يأتوا بشيء من قبل أنفسهم. ﴿فَتَسْلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ﴾؛ أي: الكتب السابقة ﴿إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ (٤٣)؛ نأ الأولين، وشككنتم، هل بعث الله رجلاً؟ فاسألوا أهل العلم بذلك، الذين نزلت عليهم الزبر والبينات، فعلموها وفهموها؛ فإنهم كلهم قد تقرر عندهم أن الله ما بعث إلا رجلاً يوحى إليهم من أهل القرى.

وعموماً هذه الآية فيها مدح أهل العلم، وأن أعلى أنواع العلم بكتاب الله المنزل؛ فإن الله أمر من لا يعلم بالرجوع إليهم في جميع الحوادث، وفي ضمنه تعديل لأهل العلم وتركيز لهم؛ حيث أمر بسؤالهم، وأن بذلك يخرج الجاهل من التبعة،

سورة النحل
وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رَجُلًا نُوحِيَ إِلَيْهِمْ فَتَسْلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾ بِالْبَيِّنَاتِ وَالزَّبْرِ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾ أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٤٥﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقْلِيدِهِمْ فَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴿٤٦﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَؤُوفٌ رَحِيمٌ ﴿٤٧﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يَتَفَتَّحُونَ ظُلُفَهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَلِلَّهِ سَجْدٌ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةِ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٩﴾ يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ قَوْفِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٥٠﴾ وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَذَكَّرُوا لِلنَّهْنِ اثْنَيْنِ إِتِمَّاوُا إِلَهَ وَاحِدًا فَإِنِّي فَازَهُبُونَ ﴿٥١﴾ وَلَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَهُ الَّذِينَ وَاصِبًا أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَتَّقُونَ ﴿٥٢﴾ وَمَا يَكُم مِّنْ تَقْوَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْتَرُونَ ﴿٥٣﴾ ثُمَّ إِذَا كُشِفَ الضُّرُّ عَنْكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾

فدل على أن الله اهتمهم على وجه وتنزيله، وأنهم مأمورون بتزكية أنفسهم والاتصاف بصفات الكمال.

﴿٤٤﴾ وأفضل أهل الذكر أهل هذا القرآن العظيم؛ فإنهم أهل الذكر على الحقيقة، وأولى من غيرهم بهذا الاسم، ولهذا قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ﴾؛ أي: القرآن الذي فيه ذكر ما يحتاج إليه العباد من أمور دينهم ودنياهم الظاهرة والباطنة، ﴿لِنُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾؛ وهذا شامل لتبيين ألفاظه وتبيين معانيه. ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ ﴿٤٥﴾؛ فيه، فيستخرجون من كنوزه وعلومه بحسب استعدادهم وإقبالهم عليه.

﴿أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَن يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ ﴿٤٦﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقْلِيلِهِمْ فَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ ﴿٤٧﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمُ لَرَّوُفٌ رَّحِيمٌ﴾ ﴿٤٨﴾.

﴿٤٥ - ٤٦﴾ هذا تخويف من الله تعالى لأهل الكفر والتكذيب وأنواع المعاصي من أن يأخذهم بالعذاب على غرة وهم لا يشعرون؛ إما أن يأخذهم العذاب من فوقهم، أو من أسفل منهم بالخسف وغيره، وإما في حال تقلبهم وشغلهم وعدم خطور العذاب ببالهم، وإما في حال تخوفهم من العذاب؛ فليسوا بمعجزين الله في حالة من هذه الأحوال، بل هم تحت قبضته، ونواصيهم بيده، ولكنه رءوف رحيم، لا يعاجل العصاة بالعقوبة، بل يمهلهم ويعافيهم ويرزقهم، وهم يؤذونه ويؤذون أوليائه، ومع هذا يفتح لهم أبواب التوبة، ويدعوهم إلى الإقلاع عن السيئات التي تضرهم، ويعدهم بذلك أفضل الكرامات ومغفرة ما صدر منهم من الذنوب؛ فليستح المجرم من ربه أن تكون نعم الله عليه نازلة في جميع اللحظات ومعاصيه صاعدة إلى ربه في كل الأوقات، وليعلم أن الله يمهل ولا يهمل، وأنه إذا أخذ العاصي؛ أخذه أخذ عزيز مقتدر؛ فليتب إليه، وليرجع في جميع أموره إليه؛ فإنه رءوف رحيم؛ فالبدار البدار إلى رحمته الواسعة، وبره العميم، وسلوك الطرق الموصلة إلى فضل الرب الرحيم، ألا وهي تقواه والعمل بما يحبه ويرضاه.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يَفْتَنُوا ظِلَلُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالْشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ﴾ ﴿٤٩﴾ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ

مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ ﴿٤٩﴾ يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ ﴿٥٠﴾.

﴿٤٩﴾ يقول تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾؛ أي: الشاكون في توحيد ربهم وعظمته وكماله، ﴿إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ﴾؛ أي: إلى جميع مخلوقاته، وكيف تنفياً أظلتها ﴿عَنِ الْيَمِينِ وَالْشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِلَّهِ﴾؛ أي: كلها ساجدة لربها خاضعة لعظمته وجلاله، ﴿وَهُمْ دَاخِرُونَ﴾ ﴿٤٩﴾؛ أي: ذليلون تحت التسخير والتدبير والقهر، ما منهم أحد إلا وناصيته بيد الله وتديره عنده.

﴿٤٩﴾ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ﴾: من الحيوانات الناطقة والصامتة، ﴿وَالْمَلَائِكَةُ﴾: الكرام، خصهم بعد العموم لفضلهم وشرفهم وكثرة عبادتهم، ولهذا قال: ﴿وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ ﴿٤٩﴾؛ أي: عن عبادته؛ على كثرتهم وعظمة أخلاقهم وقوتهم؛ كما قال تعالى: ﴿لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ﴾ [النساء: ١٧٢].

﴿٥٠﴾ يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ﴾: لما مدحهم بكثرة الطاعة والخضوع لله؛ مدحهم بالخوف من الله الذي هو فوقهم بالذات والقهر وكمال الأوصاف؛ فهم أذلاء تحت قهره. ﴿وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ ﴿٥٠﴾؛ أي: مهما أمرهم الله تعالى؛ امتثلوا لأمره طوعاً واختياراً. وسجود المخلوقات لله تعالى قسمان: سجود اضطرار ودلالة على ما له من صفات الكمال، وهذا عام لكل مخلوق من مؤمن وكافر وبر وفاجر وحيوان ناطق وغيره. وسجود اختيار يختص بأوليائه وعباده المؤمنين من الملائكة وغيرهم من المخلوقات.

﴿وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَذَخَّرُوا إِلَهُيْنَ أَتَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌُ وَاحِدٌ فَإِنِّي فَازَهُبُونَ﴾ ﴿٥١﴾ وَلَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَتَّقُونَ﴾ ﴿٥٢﴾ وَمَا يَكُم مِّن نَّعَمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضَّرُّ فَإِنَّهٗ يُخْشَوْنَ﴾ ﴿٥٣﴾ ثُمَّ إِذَا كُشِفَ الضَّرُّ عَنْكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾ ﴿٥٤﴾ لِيَكْفُرُوا بِمَا ءَاتَيْنَاهُمْ فَتَمَعَوْا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ ﴿٥٥﴾.

﴿٥١﴾ يأمر تعالى بعبادته وحده لا شريك له، ويستدل على ذلك بانفراده بالنعم والوحدانية، فقال: ﴿وَلَا تَتَذَخَّرُوا إِلَهُيْنَ أَتَيْنِ﴾؛ أي: تجعلون له شريكاً في إلهيته، وهو ﴿إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌُ

وَجِدْ ﴿٥٢﴾: متوحد في الأوصاف العظيمة، متفرد بالأفعال كلها؛ فكما أنه الواحد في ذاته وأسمائه ونعوته وأفعاله؛ فلتوحده في عبادته، ولهذا قال: ﴿فَإِنِّي فَاتَّهِبُونَ﴾ ﴿٥٣﴾؛ أي: خافوني، وامتلوا أمري، واجتنبوا نهبي من غير أن تشركوا بي شيئاً من المخلوقات؛ فإنها كلها لله تعالى مملوكة.

﴿٥٤﴾ وَلَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا ﴿٥٥﴾؛ أي: الدين والعبادة والذل في جميع الأوقات لله وحده، على الخلق أن يخلصوه لله وينصبغوا بعبوديته. ﴿أَفَعَبَّرَ اللَّهُ نَفْسُونَ﴾ ﴿٥٦﴾: من أهل الأرض أو أهل السماوات؛ فإنهم لا يملكون لكم ضرراً ولا نفعاً، والله المنفرد بالعتاء والإحسان.

﴿٥٧﴾ وَمَا يَكُم مِّن تَعَمُّوْا: ظاهرة وباطنة ﴿فَإِنَّ اللَّهَ﴾: لا أحد يشركه فيها، ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ: من فقر ومرض وشدة ﴿فَإِنِّي تَحْزَنُونَ﴾ ﴿٥٨﴾؛ أي: تفسجون بالدعاء والتضرع لعلمكم أنه لا يدفع الضرر والشدة إلا هو؛ فالذي انفرد بإعطائكم ما تحبون، وصرف ما تكرهون، هو الذي لا تبغي العبادة إلا له وحده.

﴿٥٩﴾، ﴿٦٠﴾ ولكن كثيراً من الناس يظلمون أنفسهم ويجحدون نعمة الله عليهم إذا نجاهم من الشدة - فصاروا في حال الرخاء؛ أشركوا به بعض مخلوقاته الفقيرة، ولهذا

قال: ﴿يَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ﴾؛ أي: أعطيناهم؛ حيث نجيناهم من الشدة، وخلصناهم من المشقة. ﴿فَتَعْمَؤْا﴾: في دنياكم قليلاً ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ ﴿٦١﴾: عاقبة كفركم.

﴿وَجَعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَاهُمْ تَاللَّهِ لَشَأْنٌ عَمَّا كُتِبَ تَقَرُّونَ﴾ ﴿٦٢﴾ وَجَعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَنَهُ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ ﴿٦٣﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٦٤﴾ يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٦٥﴾ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مِثْلُ النُّعُوذِ وَلِلَّهِ الْمِثْلُ الْأَعْلَىٰ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٦٦﴾

﴿٦٧﴾ يخبر تعالى عن جهل المشركين وظلمهم واقترائهم على الله الكذب، وأنهم يجعلون لأصنامهم التي لا تعلم ولا تنفع ولا تضر نصيباً مما رزقهم الله وأنعم به عليهم، فاستعانوا برزقه على الشرك به، وتقربوا به إلى أصنام منحوتة؛ كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِرَحْمَتِهِ وَهَذَا إِشْرَافُنَا فَمَا كَانَتْ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ﴾ [الأنعام: ١٣٦] الآية. ﴿تَاللَّهِ لَشَأْنٌ عَمَّا كُتِبَ تَقَرُّونَ﴾ ﴿٦٨﴾: ويقال: ﴿ءَالله أذن لكم أم على الله تَقَرُّونَ﴾ ﴿٦٩﴾ وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿٧٠﴾ [يونس: ٥٩، ٦٠]! فيعاقبهم على ذلك أشد العقوبة.

﴿٧١﴾ - ﴿٧٢﴾ وَجَعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ: حيث قالوا عن الملائكة العباد المقربين: إنهم بنات الله، ﴿وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ﴾ ﴿٧٣﴾؛ أي: لأنفسهم الذكور، حتى إنهم يكرهون البنات كراهة شديدة؛ فكان أحدهم إذا ﴿بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا﴾: من الغم الذي أصابه، ﴿وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ ﴿٧٤﴾؛ أي: كاظم على الحزن والأسف إذ بشر بأنثى، وحتى إنه يفتضح عند أبناء جنسه، ويتوارى منهم من سوء ما بشر به، ثم يعمل فكره ورأيه الفاسد فيما يصنع بتلك البنت التي بشر بها: ﴿أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ﴾؛ أي: يتركها من غير قتل على إهانة وذل، ﴿أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ﴾؛ أي: يدفنها وهي حية، وهو الواد الذي ذم الله به المشركين. ﴿أَلَا



الشرك؛ بصرف شيء من العبادات إلى بعض المخلوقات التي هي عبيد لله؛ فكما أنهم يكرهون ولا يرضون أن يكون عبيدهم - وهم مخلوقون من جنسهم - شركاء لهم فيما رزقهم الله؛ فكيف يجعلون له شركاء من عبيده؟ وهم مع هذه الإساءة العظيمة تصف ﴿الْأَسِنَّهُمُ الْكَذِبُ﴾ **أَنْ لَّهُمُ الْفَسَقُ**؛ أي: أن لهم الحالة الحسنة في الدنيا والآخرة؛ رد عليهم بقوله: ﴿لَا جَرَمَ أَنْ لَهُمُ النَّارُ وَأَنْتُمْ مُفْرَطُونَ﴾ **﴿١٢﴾**: مقدمون إليها، ماكنون فيها، غير خارجين منها أبدًا.

﴿١٣﴾ بين تعالى لرسوله ﷺ أنه ليس هو أول رسول كُذِّب، فقال تعالى: ﴿تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ﴾: رسلاً يدعونهم إلى التوحيد، ﴿فَرَزْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ﴾: فكذبوا الرسل، وزعموا أن ما هم عليه هو الحق المنجي من كل مكروه، وأن ما دعت إليه الرسل؛ فهو بخلاف ذلك، فلما زين لهم الشيطان أعمالهم؛ صار ﴿وَلِيَّهُمْ﴾: في الدنيا، فأطاعوه واتبعوه وتولوه، ﴿أَفَلَنْتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِكُمْ عِدَاؤُكُمْ لِلَّذِينَ بَدَلُوا﴾ **﴿١٤﴾** [الكهف: ٥٠]. ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ **﴿١٥﴾**: في الآخرة؛ حيث تولوا عن ولاية الرحمن ورضوا بولاية الشيطان، فاستحقوا لذلك عذاب الهوان.

﴿وَاللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ **﴿١٦﴾**.

﴿١٧﴾ عن الله مواعظه وتذكيره، فيستدلون بذلك على أنه وحده المعبود، الذي لا تنبغي العبادة إلا له وحده؛ لأنه المنعم بإنزال المطر وإنبات جميع أصناف النبات، وعلى أنه على كل شيء قدير، وأن الذي أحيا الأرض بعد موتها قادر على إحياء الأموات، وأن الذي نشر هذا الإحسان لذور رحمة واسعة وجود عظيم.

﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ **﴿١٨﴾** من بين قرب ودمر لبنًا خالصًا سابقًا للشدتين **﴿١٩﴾** ومن تمرات النخيل والأغناب لتتخذون منه سكرًا ورزقًا حسنًا إن في ذلك لآية لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ **﴿٢٠﴾**.

﴿٢١﴾ أي: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ﴾: التي سخرها الله لمنافعكم، ﴿لَعِبْرَةً﴾: تستدلون بها على كمال قدرة الله وسعة إحسانه؛ حيث أسقاكم من بطونها المشتملة على الفرت والدم، فأخرج من بين ذلك لبنًا خالصًا من الكدر

سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ **﴿٢٢﴾**: إذ وصفوا الله بما لا يليق بجلاله من نسبة الولد إليه، ثم لم يكفهم هذا حتى نسبوا له أرداد القسمين، وهو الإناث اللاتي يأنفون بأنفسهم عنها ويكرهونها؛ فكيف ينسبونها لله تعالى؟! فبئس الحكم حكمهم.

﴿٢٣﴾ ولما كان هذا من أمثال السوء التي نسبها إليه أعداؤه المشركون؛ قال تعالى: ﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ﴾؛ أي: المثل الناقص والعييب التام. ﴿وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى﴾: وهو كل صفة كمال، وكل كمال في الوجود فالله أحق به من غير أن يستلزم ذلك نقصًا بوجه، وله المثل الأعلى في قلوب أوليائه، وهو التعظيم والإجلال والمحبة والإنابة والمعرفة. ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾: الذي قهر جميع الأشياء، وانقادت له المخلوقات بأسرها. ﴿الْحَكِيمُ﴾ **﴿٢٤﴾**: الذي يضع الأشياء مواضعها فلا يأمر ولا يفعل إلا ما يحمد عليه، ويشئ على كماله فيه.

﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهِمْ مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَحْضِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ **﴿٢٥﴾**.

﴿٢٦﴾ لما ذكر تعالى ما افتراه الظالمون عليه؛ ذكر كمال حلمه وصبره، فقال: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ﴾: من غير زيادة ولا نقص، ﴿مَا تَرَكَ﴾: على ظهرها ﴿مِنْ دَابَّةٍ﴾؛ أي: لأهلك المباشرين للمعصية وغيرهم من أنواع الدواب والحيوانات؛ فإن شؤم المعاصي يهلك به الحرث والنسل. ﴿وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ﴾: عن تعجيل العقوبة عليهم، ﴿إِلَّا أَجَلٍ مُسَمًّى﴾: وهو يوم القيامة. ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَحْضِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ **﴿٢٧﴾**: فليحذروا ما داموا في وقت الإمهال قبل أن يجيء الوقت الذي لا إمهال فيه.

﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَسِنَّهُمُ الْكَذِبُ أَنْ لَّهُمْ الْفَسَقُ لَا جَرَمَ أَنْ لَهُمُ النَّارُ وَأَنْتُمْ مُفْرَطُونَ﴾ **﴿٢٨﴾** تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَرَزْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمْ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ **﴿٢٩﴾**.

﴿٣٠﴾ يخبر تعالى أن المشركين يجعلون لله ما يكرهون ﴿يَكْرَهُونَ﴾: من البنات ومن الأوصاف القبيحة، وهو

سورة النحل

المزمار رقم ٢٧

وَاللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْبَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٥﴾ وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً لِّتُنْقِضُوا بِمَا فِي بُطُونِهِمْ مِنْ بَيْنِ قَرْنٍ وَدَمٍ بَيْنَا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ ﴿٦٦﴾ وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَنُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٦٩﴾ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَوَفِّقُكُمْ وَيُنَوِّفُكُمُ مِنْ بَيْنِ أَنْزَلِ الْعُمُرَ لَكُمْ إِلَى يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٧٠﴾ وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ فَمَا الَّذِي فَضَّلُوا بَرَأْدِي رِزْقِهِمْ عَلَى مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ أَفَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٧١﴾ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْزَلِكُمْ بَيْنَ وَحَفْدَةٍ وَرَزَقَكُمْ مِنْ أَلْطِيبَاتٍ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَيَنْعَمُونَ إِنَّهُمْ يَكْفُرُونَ ﴿٧٢﴾

٢٧٤

سائغًا للشاربين للذته ولأنه يسقي ويغذي؛ فهل هذه إلا قدرة إلهية لا أمور طبيعية؟! فأَي شيء في الطبيعة يقلب العلف الذي تأكله البهيمة والشراب الذي تشربه من الماء العذب والملح لبنًا خالصًا سائغًا للشاربين؟! ﴿٦٥﴾

﴿٦٦﴾ وجعل تعالى لعباده من ثمرات النخيل والأعناب منافع للعباد ومصالح من أنواع الرزق الحسن الذي يأكله العباد طريًا ونضيجًا وحاضرًا ومدخرًا وطعامًا وشرابًا يتخذ من عصيرها وينبذها ومن السكر الذي كان حلالًا قبل ذلك، ثم إن الله نسخ حل المسكرات وأعاض عنها بالطيبات من الأنبتة وأنواع الأشربة اللذيذة المباحة، ولهذا قال من قال: إن المراد بالسكر هنا الطعام والشراب اللذيذ، وهو أولى من القول الأول. ﴿٦٧﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٦٨﴾: عن الله كمال اقتداره؛ حيث أخرجها من أشجار شبيهة بالحطب، فصارت ثمرة لذيذة وفاكهة طيبة، وعلى شمول رحمته؛ حيث عم بها عباده، ويسرها لهم، وأنه الإله المعبود وحده؛ حيث إنه المنفرد بذلك.

﴿٦٩﴾ وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَنُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٦٩﴾.

﴿٦٩﴾ ﴿٧٠﴾ في خلق هذه النحلة الصغيرة، التي هداها الله هذه الهداية العجيبة، ويسر لها المراعي، ثم الرجوع إلى بيوتها التي أصلحتها بتعليم الله لها وهدايته لها، ثم يخرج من بطونها هذا العسل اللذيذ مختلف الألوان بحسب اختلاف أرضها ومراعيها؛ فيه شفاء للناس من أمراض عديدة؛ فهذا دليل على كمال عناية الله تعالى وتمام لطفه لعباده، وأنه الذي لا ينبغي أن يحب غيره، ويدعى سواه.

﴿٧١﴾ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَوَفِّقُكُمْ وَيُنَوِّفُكُمُ مِنْ بَيْنِ أَنْزَلِ الْعُمُرَ لَكُمْ إِلَى يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٧٠﴾.

﴿٧٠﴾ يخبر تعالى أنه الذي خلق العباد ونقلهم في الخليقة طورًا بعد طور، ثم بعد أن يستكملوا آجالهم يتوفاهم، ومنهم من يعمره حتى يرد ﴿إِلَى أَنْزَلِ الْعُمُرَ﴾؛ أي: أخسه، الذي يبلغ به الإنسان إلى ضعف القوى الظاهرة والباطنة، حتى العقل الذي هو جوهر الإنسان يزيد ضعفه، حتى إنه ينسى ما كان يعلمه، ويصير عقله كعقل الطفل، ولهذا قال: ﴿لَكُمْ لَا يَعْلَمُ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا﴾ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٧١﴾؛ أي: قد أحاط علمه وقدرته بجميع الأشياء، ومن ذلك ما يُنْقَلُ به الآدمي من أطوار الخلقة خلقًا بعد خلق؛ كما قال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ ﴿٥٤﴾﴾ [الروم: ٥٤].

﴿٧٢﴾ وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ فَمَا الَّذِي فَضَّلُوا بَرَأْدِي رِزْقِهِمْ عَلَى مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ أَفَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٧١﴾.

﴿٧١﴾ وهذا من أدلة توحيده وقبح الشرك به؛ يقول تعالى: كما أنكم مشتركون بأنكم مخلوقون مرزوقون؛ إلا أنه تعالى فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ؛ فجعل منكم أحرارًا لهم مال وثروة، ومنكم أرقاء لهم لا يملكون شيئًا من الدنيا؛ فكما

سورة النحل

الجزء الثامن عشر

وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِنَ السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضِ شَيْئًا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٧٢﴾ فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ
إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧٣﴾ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا
مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَمِنْ رِزْقِنَا مَنَارًا رِزْقًا حَسَنًا
فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوِي الْحَمْدُ لِلَّهِ
بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٧٤﴾ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ
أَحَدُهُمَا أَتَى عَلَى مَلِكٍ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى
مَوْلَاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُ لَا يَأْتِي بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ
يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٧٥﴾ وَلِلَّهِ غَيْبُ
السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَنَفْخِ الْبَصِيرِ
أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٧٦﴾ وَاللَّهُ
أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ
لَكُمْ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْعِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٧﴾
أَلَمْ يَرْوِا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوْاءِ السَّمَاءِ
مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٧٨﴾

٢٧٥

﴿٧٢﴾ يجحدونها، ويستعينون بها على معاصي الله والكفر به،
﴿٧٣﴾ لا يملكون رزقاً من السماوات والأرض؛ فلا يتزولون مطراً ولا رزقاً، ولا ينبتون من نبات الأرض شيئاً، ولا يملكون مثقال
ذرة في السماوات والأرض، ولا يستطيعون لو أرادوا؛ فإن غير المالك للشيء ربما كان له قوة واقتدار على ما ينفع من يتصل
به، وهؤلاء لا يملكون ولا يقدرون؛ فهذه صفة آلهتهم؛ كيف جعلوها مع الله وشبهوها بملك الأرض والسماوات الذي له
الملك كله والحمد كله والقوة كلها، ولهذا قال: ﴿٧٤﴾ فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ: المتضمنة للتسوية بينه وبين خلقه. ﴿٧٥﴾ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ
وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧٦﴾: فعلياً ألا نقول عليه بلا علم، وأن نسمع ما ضربه العليم من الأمثال؛ فلماذا ضرب تعالى مثليين له ولمن
يعبد من دونه:

أن سادتهم الذين فضلهم الله عليهم بالرزق ليسوا ﴿٧٢﴾ يَرَادَى
رِزْقُهُمْ عَلَى مَا مَلَكَتْ أَيْدِيهِمْ فَهُمْ بِشَيْءٍ سَوَاءٍ: ويرون هذا
من الأمور الممتعة؛ فكذاك من أشركتم بها مع الله؛ فإنها
عبيد ليس لها من الملك مثقال ذرة؛ فكيف تجعلونها شركاء
لله تعالى؟! هل هذا إلا من أعظم الظلم والجحود لنعم الله،
ولهذا قال: ﴿٧٣﴾ أَفَبِعِزَّةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٧٤﴾: فلو أقروا
بالنعمة ونسبوا إلى من أولاهما؛ لما أشركوا به أحداً.

﴿٧٥﴾ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ
أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيْرِ أَفَبِالْبَاطِلِ
يُؤْمِنُونَ وَيَنْعَمِ اللَّهُ هُمْ يَكْفُرُونَ ﴿٧٦﴾.

﴿٧٦﴾ يخبر تعالى عن منته العظيمة على عباده؛ حيث جعل
لهم أزواجا ليسكنوا إليها، وجعل لهم من أزواجهم أولاداً تقر
بهم أعينهم ويخدمونهم ويقضون حوائجهم ويتفقون بهم
من وجوه كثيرة، ورزقهم من الطيبات من المأكول والمشرب
والنعم الظاهرة التي لا يقدر العباد أن يحصوها. ﴿٧٧﴾ أَفَبِالْبَاطِلِ
يُؤْمِنُونَ وَيَنْعَمِ اللَّهُ هُمْ يَكْفُرُونَ ﴿٧٨﴾: أي: أيؤمنون بالباطل
الذي لم يكن شيئاً مذكوراً، ثم أوجده الله، وليس له من
وجوده سوى العدم؟ فلا تخلق ولا ترزق ولا تدبر من الأمور
شيئاً، وهذا عام لكل ما عبد من دون الله؛ فإنها باطلة؛ فكيف
يتخذها المشركون من دون الله. ﴿٧٩﴾ وَيَنْعَمِ اللَّهُ هُمْ يَكْفُرُونَ
هل هذا إلا من أظلم الظلم وأفجر الفجور وأسفه السفه؟!

﴿٧٩﴾ وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ شَيْئًا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٨٠﴾ فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ إِنَّ
اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَمِنْ رِزْقِنَا مَنَارًا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ
سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوِي الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨٢﴾ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَتَى عَلَى مَلِكٍ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى
مَوْلَاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُ لَا يَأْتِي بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٨٣﴾

﴿٨٠﴾، ﴿٨١﴾ يخبر تعالى عن جهل المشركين وظلمهم، أنهم يعبدون من دونه آلهة اتخذوها شركاء لله، والحال أنهم
لا يملكون رزقاً من السماوات والأرض؛ فلا يتزولون مطراً ولا رزقاً، ولا ينبتون من نبات الأرض شيئاً، ولا يملكون مثقال
ذرة في السماوات والأرض، ولا يستطيعون لو أرادوا؛ فإن غير المالك للشيء ربما كان له قوة واقتدار على ما ينفع من يتصل
به، وهؤلاء لا يملكون ولا يقدرون؛ فهذه صفة آلهتهم؛ كيف جعلوها مع الله وشبهوها بملك الأرض والسماوات الذي له
الملك كله والحمد كله والقوة كلها، ولهذا قال: ﴿٨٢﴾ فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ: المتضمنة للتسوية بينه وبين خلقه. ﴿٨٣﴾ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ
وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾: فعلياً ألا نقول عليه بلا علم، وأن نسمع ما ضربه العليم من الأمثال؛ فلماذا ضرب تعالى مثليين له ولمن
يعبد من دونه:

﴿٨٥﴾ أَحَدُهُمَا: عبد مملوك؛ أي: رقيق لا يملك نفسه ولا يملك من المال والدنيا شيئاً، والثاني: حر غني قدرزقه الله منه رزقاً
حَسَنًا من جميع أصناف المال، وهو كريم محب للإحسان؛ فهو ينفق منه سراً وجهراً؛ هل يستوي هذا وذاك؟! لا يستويان؛ مع

لكل علم؛ فلا وصل للعبد علم إلا من أحد هذه الأبواب الثلاثة، وإلا؛ فسائر الأعضاء والقوى الظاهرة والباطنة هو الذي أعطاهم إياها وجعل ينميها فيهم شيئاً فشيئاً إلى أن يصل كل أحد إلى الحالة اللاتقة به، وذلك لأجل أن يشكروا الله باستعمال ما أعطاهم من هذه الجوارح في طاعة الله؛ فمن استعملها في غير ذلك؛ كانت حجة عليه، وقابل النعمة بأقبح المعاملة.

﴿أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوْاءِ السَّمَاءِ مَا يُمَسِّكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (٧٦).

(٧٦) أي: لأنهم المتفكرون بآيات الله، المتفكرون فيما جعلت آية عليه، وأما غيرهم؛ فإن نظرهم نظر لهُو وغفلة. ووجه الآية فيها أن الله تعالى خلقها بخلقها تصلح للطيران، ثم سخر لها هذا الهواء اللطيف، ثم أودع فيها من قوة الحركة ما قدرت به على ذلك، وذلك دليل على حكمته وعلمه الواسع وعنايته الربانية بجميع مخلوقاته وكمال اقتداره؛ تبارك رب العالمين.

﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثْنَا وَمِئْتًا إِلَى حِينٍ﴾ (٧٧).
﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِمَّا خَلَقَ ظِلَالًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا وَجَعَلَ لَكُم سُرَابِيلَ تَفِيكُمُ الْحَرَّ وَسُرَابِيلَ تَفِيكُمُ بَأْسَكُمْ كَذَلِكَ يُتَذَكَّرُ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (٧٨).
﴿إِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلْغُ الْمَمِينُ﴾ (٧٩).
﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ﴾ (٨٠).

(٧٧) يُذَكِّرُ تعالى عباده نعمه، ويستدعي منهم شكرها والاعتراف بها، فقال: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا﴾: في الدور والقصور ونحوها، تكنكم من الحر والبرد، وتستركم أنتم وأولادكم وأمتعتكم، وتتخذون فيها الغرف والبيوت التي هي لأنواع منافعكم ومصالحكم، وفيها حفظ لأموالكم وحرملك وغير ذلك من الفوائد المشاهدة. ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ﴾: إما من الجلد نفسه، أو مما نبت عليه من صوف وشعر ووبر، ﴿بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا﴾؛ أي: خفيفة الحمل تكون لكم في السفر، والمنازل التي لا

أنهما مخلوقان، غير محال استواؤهما؛ فإذا كانا لا يستويان؛ فكيف يستوي المخلوق العبد الذي ليس له ملك ولا قدرة ولا استطاعة، بل هو فقير من جميع الوجوه، بالرب الخالق المالك لجميع الممالك، القادر على كل شيء؟! ولهذا حمد نفسه واختص بالحمد بأنواعه، فقال: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾: فكأنه قيل: إذا كان الأمر كذلك؛ فلم سَوَى المشركون آلهتهم بالله؟! قال: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٧٥): فلو علموا حقيقة العلم؛ لم يتجرعوا على الشرك العظيم.

(٧٦) والمثل الثاني: مثل ﴿رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ﴾: لا يسمع ولا ينطق، و﴿لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ﴾: لا قليل ولا كثير، و﴿هُوَ كُلُّ عَلَى مَوْلَاهُ﴾؛ أي: يخدمه موله ولا يستطيع هو أن يخدم نفسه؛ فهو ناقص من كل وجه، فهل يستوي هذا ومن كان ﴿يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (٧٦)؟ فأقواله عدل وأفعاله مستقيمة؛ فكما أنهما لا يستويان؛ فلا يستوي من عبد من دون الله وهو لا يقدر على شيء من مصالحه؛ فلو لا قيام الله بها؛ لم يستطع شيئاً منها، لا يكون كفواً ولا نداً لمن لا يقول إلا الحق، ولا يفعل إلا ما يحمد عليه.

﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (٧٧).

(٧٧) أي: هو تعالى المنفرد بغيب السماوات والأرض؛ فلا يعلم الخفايا والبواطن والأسرار إلا هو، ومن ذلك علم الساعة؛ فلا يدري أحد متى تأتي إلا الله؛ فإذا جاءت وتجلت؛ لم تكن ﴿إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ﴾: من ذلك، فيقوم الناس من قبورهم إلى يوم بعثهم ونشورهم، وتفوت الفرص لمن يريد الإمهال. ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (٧٧): فلا يستغرب على قدرته الشاملة إحياءه للموتى.

﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (٧٨).

(٧٨) أي: هو المنفرد بهذه النعم؛ حيث ﴿أَخْرَجَكُم مِّنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا﴾: ولا تقدرون على شيء. ثم إنه جعل ﴿لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ﴾: خص هذه الأعضاء الثلاثة لشرفها وفضلها ولأنها مفتاح

قصد لكم في استيطانها، فتقيكم من الحر والبرد والمطر، وتقي متاعكم من المطر. وجعل لكم من ﴿أَصْوَفَهَا﴾ أي: الأنعام، ﴿وَأَوْبَارَهَا وَأَشْعَارَهَا أَثْنًا﴾: وهذا شامل لكل ما يتخذ منها من الآلية والأوعية والفرش والألبسة والأجلة وغير ذلك. ﴿وَمَتْنًا إِلَى حِينٍ﴾ (٨١)؛ أي: تتمعون بذلك في هذه الدنيا وتتفنون بها؛ فهذا مما سخر الله العباد لصنعتة وعمله.

﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ﴾ (٨٢)؛ أي: من مخلوقاته التي لا صنعة لكم فيها، ﴿ظِلَالًا﴾: وذلك كأظلة الأشجار والجبال والأكام ونحوها. ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْجِبَالِ أَكْنَنًا﴾ (٨٣)؛ أي: مغارات تكنكم من الحر والبرد والأمطار والأعداء. ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ سَرِيلَ﴾ (٨٤)؛ أي: ألبسة وثيابا، ﴿تَقِيكُمْ الْحَرَّ﴾: ولم يذكر الله البرد؛ لأنه قد تقدم أن هذه السورة أولها في أصول النعم وآخرها في مكملاتها ومتمماتها، ووقاية البرد من أصول النعم؛ فإنه من الضرورة وقد ذكره في أولها في قوله: ﴿لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنْفَعٌ﴾ [النحل: ٥٠]. ﴿وَتَقِيكُمْ بِأَسْكُمْ﴾ (٨٥)؛ أي: وثيابا تقيكم وقت البأس والحرب في السلاح، وذلك كالدرع والزرود ونحوها. ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ﴾: حيث أسبغ عليكم من نعمه ما لا يدخل تحت الحصر. ﴿لَعَلَّكُمْ﴾: إذا

ذكرتم نعمة الله ورأيتموها غامرة لكم من كل وجه؛ ﴿سَلِمُونَ﴾ (٨٦)؛ لعظمته وتنفادون لأمره وتصرفونها في طاعة موليا ومسدوها؛ فكثر النعم من الأسباب الجالبة من العباد مزيد الشكر والثناء بها على الله تعالى.

﴿لَكِنَ أَيْ الظَّالِمُونَ إِلَّا تَمَرَّدًا وَعِنَادًا، وَلِهَذَا قَالَ اللَّهُ عَنْهُمْ: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾﴾: عن الله وعن طاعته بعدما ذكروا بنعمه وآياته، ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلْغُ الْمُبِينُ﴾ (٨٧)؛ ليس عليك من هدايتهم وتوفيقهم شيء، بل أنت مطالب بالوعظ والتذكير والإنذار والتحذير.

﴿فَإِذَا أُدِيتَ مَا عَلَيْكَ؛ فَحَسَابُهُمْ عَلَى اللَّهِ؛ فَإِنَّهُمْ يَرُونَ الْإِحْسَانَ وَيَعْرِفُونَ نِعْمَةَ اللَّهِ، وَلَكِنْهُمْ يَنْكُرُونَهَا وَيَجْحَدُونَهَا. ﴿وَأَكْثَرُهُمْ الْكَافِرُونَ﴾﴾ (٨٨)؛ لا خير فيهم، وما ينفعهم توالي الآيات؛ لفساد مشاعرهم وسوء قسودهم، وسيرون جزاء الله لكل جبار عنيد كفور للنعم متمرد على الله وعلى رسله.

﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ (٨٩) وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ﴾ (٩٠) وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَهُمْ قَالُوا رَبَّنَا هَؤُلَاءِ شُرَكَائُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُو مِنْ دُونِكَ فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ (٩١) وَأَلْقَوْا إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَامَ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ (٩٢).

﴿٩٣﴾، ﴿٩٤﴾ يخبر تعالى عن حال هؤلاء الذين كفروا في يوم القيامة، وأنه لا يقبل لهم عذر ولا يرفع عنهم العقاب، وأن شركاءهم تبتأ منهم، ويقرون على أنفسهم بالكفر والافتراء على الله، فقال: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا﴾: يشهد عليها بأعمالهم وماذا أجابوا به الداعي إلى الهدى، وذلك الشهيد الذي يبعثه الله أزكى الشهداء وأعدلهم، وهم الرسل الذين إذا شهدوا؛ تم عليهم الحكم. ﴿ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾: في الاعتذار؛ لأن اعتذارهم بعدما علموا يقينًا بطلان ما هم

عليه، اعتذار كاذب لا يفيدهم شيئاً، وإن طلبوا أيضاً الرجوع إلى الدنيا ليستدركوا؛ لم يجابوا ولم يعتبوا، بل يبادرهم العذاب الشديد الذي لا يخفف عنهم من غير إنظار ولا إمهال من حين يرونه؛ لأنهم لا حسنات لهم، وإنما تعد أعمالهم وتحصى ويوقفون عليها، ويقررون بها، ويفتضحون.

﴿٨٦﴾ وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَهُمْ: يوم القيامة، وعلّموا بطلانها، ولم يمكنهم الإنكار، ﴿قَالُوا رَبَّنَا هَؤُلَاءِ شُرَكَائُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا مِنْ دُونِكَ﴾: ليس عندها نفع ولا شفع، فهووا بأنفسهم ببطلانها، وكفروا بها، وبدت البغضاء والعداوة بينهم وبينها، ﴿فَأَلْفَوْا إِلَهُهُمْ الْقَوْلَ﴾؛ أي: ردت عليهم شركاؤهم قولهم، فقالت لهم: ﴿إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ ﴿٨٧﴾: حيث جعلتمونا شركاء لله وعبدتمونا معه، فلم نمركم بذلك، ولا زعمنا أن فينا استحقاقاً للالوهية؛ فاللوم عليكم.

﴿٨٧﴾ فحينئذ استسلموا لله، وخضعوا لحكمه، وعلّموا أنهم مستحقون للعذاب، ﴿وَصَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾: فدخلوا النار وقد امتلأت قلوبهم من مقت أنفسهم ومن حمد ربهم، وأنه لم يعاقبهم إلا بما كسبوا.

﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا

الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ ﴿٨٨﴾ وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلَاءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَايَ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾ وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٩١﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَا تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَى مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يَبْلُوكُمْ اللَّهُ بِهِمْ وَيُلَيْسَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٩٢﴾ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَلَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾

فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ ﴿٨٨﴾.

﴿٨٨﴾ حيث كفروا بأنفسهم، وكذبوا بآيات الله، وحاربوا رسله، وصدوا الناس عن سبيل الله، وصاروا دعاة إلى الضلال، فاستحقوا مضاعفة العذاب كما تضاعف جرمهم، وكما أفسدوا في أرض الله.

﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلَاءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾ ﴿٨٩﴾.

﴿٨٩﴾ لما ذكر فيما تقدم أنه يبعث في كل أمة شهيداً؛ ذكر ذلك أيضاً هنا، وخص منهم هذا الرسول الكريم، فقال: ﴿وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلَاءِ﴾؛ أي: على أمتك تشهد عليهم بالخير والشر، وهذا من كمال عدل الله تعالى؛ أن كل رسول يشهد على أمة؛ لأنه أعظم اطلاعاً من غيره على أعمال أمة، وأعدل وأشفق من أن يشهد عليهم إلا بما يستحقون، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣]، وقال تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ ﴿٩٠﴾ يَوْمَئِذٍ يُوَدِّعُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصُوا الرَّسُولَ لَوْ سَأَلْتَهُمُ الْأَرْضَ ﴿[النساء: ٤١، ٤٢]﴾. وقوله: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ﴾: في أصول الدين وفروعه، وفي أحكام الدارين، وكل ما يحتاج إليه العباد؛ فهو مبين فيه أنتم تبين، بالفاظ واضحة ومعانٍ جلية، حتى إنه تعالى يثني فيه الأمور الكبار التي يحتاج القلب لمرورها عليه كل وقت وإعادتها في كل ساعة ويعيدها ويبيدها بالفاظ مختلفة وأدلة متنوعة لتستقر في القلوب فتشمر من الخير والبر بحسب ثبوتها في القلب، وحتى إنه تعالى يجمع في اللفظ القليل الواضح معاني كثيرة يكون اللفظ لها كالقاعدة والأساس. واعتبر هذا بالآية التي بعد هذه الآية، وما فيها من أنواع الأوامر والنواهي التي لا تحصر.

والأموال والأعراض. فصارت هذه الآية جامعة لجميع المأمورات والمنهيات، لم يبق شيء إلا دخل فيها. فهذه قاعدة ترجع إليها سائر الجزئيات؛ فكل مسألة مشتملة على عدل أو إحسان أو إيتاء ذي القربى؛ فهي مما أمر الله به، وكل مسألة مشتملة على فحشاء أو منكر أو بغي؛ فهي مما نهى الله عنه، وبها يعلم حسن ما أمر الله به وقيح ما نهى عنه، وبها يعتبر ما عند الناس من الأقوال، وترد إليها سائر الأحوال؛ فتبارك من جعل في كلامه الهدى والشفاء والنور والفرقان بين جميع الأشياء، ولهذا قال: ﴿يَعِظُكُمْ﴾؛ به، أي: بما بينه لكم في كتابه بأمركم بما فيه غاية صلاحكم ونهيكم عما فيه مضرركم. ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ (٩٠)؛ ما يعظكم به فتفهمونه وتعتقلونه؛ فإنكم إذا تذكروتموه وعقلتموه؛ عملتم بمقتضاه، فسدتم سعادة لا شقاوة معها.

فلما أمر بما هو واجب في أصل الشرع؛ أمر بوفاء ما أوجبه العبد على نفسه، فقال:

﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ (٩١) وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِي نَفَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَا تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَى مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ مَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ (٩٢).

(٩١) وهذا يشمل جميع ما عاهد العبد عليه ربه من العبادات والنذور والأيمان التي عقدها إذا كان الوفاء بها براءً، ويشمل أيضًا ما تعاقد عليه هو وغيره؛ كالعهود بين المتعاقدين، وكالوعد الذي يعده العبد لغيره ويؤكد على نفسه؛ فعليه في جميع ذلك الوفاء وتتميمها مع القدرة، ولهذا نهى الله عن نقضها، فقال: ﴿وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾: بعقدها على اسم الله تعالى. ﴿وَقَدْ جَعَلْتُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ﴾: أيها المتعاقدون، ﴿كَفِيلًا﴾: فلا يحل لكم ألا تحكموا ما جعلتم الله عليكم كفيلاً، فيكون ذلك ترك تعظيم لله واستهانة به، وقد رضي الآخر منك باليمين والتوكيد الذي جعلت الله فيه كفيلاً؛ فكما ائتمنتك وأحسن ظنه فيك؛ فلتب له بما قلت وأكدته. ﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ (٩٢): فيجازي كل عامل بعمله على حسب نيته ومقصده.

فلما كان هذا القرآن تبياناً لكل شيء؛ صار حجة الله على العباد كلهم، فانقطعت به حجة الظالمين، وانتفع به المسلمون، فصار هدى لهم يهتدون به إلى أمر دينهم ودنياهم ورحمة ينالون به كل خير في الدنيا والآخرة؛ فالهدى ما نالوا به من علم نافع وعمل صالح، والرحمة ما ترتب على ذلك من ثواب الدنيا والآخرة؛ كصلاح القلب وبره وطمانينته، وتمام العقل الذي لا يتم إلا بتربيته على معانيه التي هي أجل المعاني وأعلاها، والأعمال الكريمة والأخلاق الفاضلة والرزق الواسع والنصر على الأعداء بالقول والفعل ونيل رضا الله تعالى وكرامته العظيمة التي لا يعلم ما فيها من النعيم المقيم إلا الرب الرحيم.

﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ (٩٢).

(٩٢) فالعدل الذي أمر الله به يشمل العدل في حقه وفي حق عباده؛ فالعدل في ذلك أداء الحقوق كاملة موفورة؛ بأن يؤدي العبد ما أوجب الله عليه من الحقوق المالية والبدينية والمرتبة منهما في حقه وحق عباده، ويعامل الخلق بالعدل التام، فيؤدي كل وإل ما عليه تحت ولايته، سواء في ذلك ولاية الإمامة الكبرى وولاية القضاء ونواب الخليفة ونواب القاضي. والعدل: هو ما فرضه الله عليهم في كتابه وعلى لسان رسوله وأمرهم بسلوكه، ومن العدل في المعاملات أن تعاملهم في عقود البيع والشراء وسائر المعاوضات بإيفاء جميع ما عليك؛ فلا تبخس لهم حقاً، ولا تغشهم ولا تخذعهم وتظلمهم؛ فالعدل واجب، والإحسان فضيلة مستحب، وذلك كتفع الناس بالمال والبدن والعلم وغير ذلك من أنواع النفع، حتى يدخل فيه الإحسان إلى الحيوان البهيم المأكول وغيره، وخص الله إيتاء ذي القربى وإن كان داخلاً في العموم؛ لتأكد حقهم وتعين صلتهم وبرهم والحرص على ذلك، ويدخل في ذلك جميع الأقارب؛ قريبهم وبعيدهم، لكن كل من كان أقرب كان أحق بالبر. وقوله: ﴿وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ﴾: وهو كل ذنب عظيم استفحشته الشرائع والفطر؛ كالشرك بالله والقتل بغير حق والزنا والسرقة والعجب والكبر واحتقار الخلق وغير ذلك من الفواحش، ويدخل في المنكر كل ذنب ومعصية متعلق بحق الله تعالى، وبالبغي كل عدوان على الخلق في الدماء

﴿٩٢﴾ وَلَا تَكُونُوا ﴿٩١﴾: في نقضكم لليهود بأسوأ الأمثال وأقبحها وأدلها على سفه متعاطيها، وذلك ﴿كَلَّتِي﴾ تغزل غزلاً قوياً؛ فإذا استحكم وتم ما أريد منه؛ نقضته فجعلته ﴿أَنْكُثًا﴾: فتعبت على الغزل، ثم على النقص، ولم تستفد سوى الخيبة والعناء وسفاهة العقل ونقص الرأي؛ فكذلك من نقض ما عاهد عليه؛ فهو ظالم جاهل سفيه ناقص الدين والمروءة. وقوله: ﴿تَنْجِدُونَ أَيْمَنَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ﴾؛ أي: لا تنبغي هذه الحالة منكم؛ تعتقدون الإيمان المؤكدة، وتنتظرون فيها الفرص: فإذا كان العاقد لها ضعيفاً غير قادر على الآخر؛ أتمها لا لتعظيم العقد واليمين، بل لمعجزه. وإن كان قوياً يرى مصلحته الدنيوية في نقضها؛ نقضها غير مبال بعهد الله ويمينه، كل ذلك دوراً مع أهوية النفوس وتقديماً لها على مراد الله منكم وعلى المروءة الإنسانية والأخلاق المرضية؛ لأجل أن تكون أمة أكثر عدداً وقوة من الأخرى. وهذا ابتلاء من الله وامتحان يبتليكم الله به؛ حيث قيض من أسباب المحن الذي يُمتحن به الصادق الوفي من الفاجر الشقي. ﴿وَلَيَبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ مَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾: فيجازي كلا بعمله، ويخزي الغادر.

﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَلَتَسْتَأَنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾: ﴿٩٣﴾.

﴿٩٣﴾ أي: لو ﴿شَاءَ اللَّهُ﴾ لجمع الناس على الهدى، وجعلهم ﴿أُمَّةً وَاحِدَةً﴾: ولكنه تعالى المنفرد بالهداية والإضلال، وهدايته وإضلاله من أفعاله التابعة لعلمه وحكمته، يعطي الهداية من يستحقها فضلاً، ويمنعها من لا يستحقها عدلاً ﴿وَلَتَسْتَأَنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾: ﴿٩٤﴾: من خير وشر، فيجازيكم عليها أتم الجزاء وأعدله.

﴿وَلَا تَلْخِذُوا أَيْمَنَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتٍهَا وَتَذُوقُوا السُّوءَ بِمَا صَدَدْتُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾: ﴿٩٥﴾.

﴿٩٥﴾ أي: ﴿وَلَا تَلْخِذُوا أَيْمَنَكُمْ﴾: وعهودكم ومواثيقكم تبعاً لأهوائكم، متى شئتم وفيتم بها، ومتى شئتم نقضتموها؛ فإنكم إذا فعلتم ذلك؛ تزل أقدامكم بعد ثبوتها على الصراط المستقيم. ﴿وَتَذُوقُوا السُّوءَ﴾: أي: العذاب الذي يسوءكم ويحزنكم. ﴿بِمَا صَدَدْتُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾: حيث ضللتكم وأضللتكم غيركم. ﴿وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾: ﴿٩٦﴾: مضاعف.

﴿وَلَا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا إِنَّمَا عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لِّكُمْ إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾: ﴿٩٦﴾ ما عندكم ينقذ وما عند الله باقي ولنجزين الذين صبروا أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون ﴿٩٧﴾ من عمل صليحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنجزيهم حيوة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون ﴿٩٨﴾.

﴿٩٨﴾ يحذر تعالى عباده من نقض العهود والأيمان لأجل متاع الدنيا وحطامها، فقال: ﴿وَلَا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾: تالونه بالنقض وعدم الوفاء. ﴿إِنَّمَا عِنْدَ اللَّهِ﴾: من الثواب العاجل والآجل لمن آثر رضاه وأوفى بما عاهد عليه الله، ﴿هُوَ خَيْرٌ لِّكُمْ﴾: من حطام الدنيا الزائلة ﴿إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾: ﴿٩٩﴾.

سورة النحل
لَمْ يَزَلْ يَنْفِذُ
وَلَا تَلْخِذُوا أَيْمَنَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا
وَتَذُوقُوا السُّوءَ بِمَا صَدَدْتُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَلَكُمْ عَذَابٌ
عَظِيمٌ ﴿٩٥﴾ وَلَا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا إِنَّمَا عِنْدَ اللَّهِ
هُوَ خَيْرٌ لِّكُمْ إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ
وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ
مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ
أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَوةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ
أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٨﴾ فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ
فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿٩٩﴾ إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ
عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿١٠٠﴾ إِنَّمَا
سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ
﴿١٠١﴾ وَإِذَا بَدَأْنَا آيَةً مَّكَاتٍ ءَايَةً وَاللَّهُ أَعْلَمُ
بِمَا يَزِيلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتِرٌ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ
﴿١٠٢﴾ قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ
الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿١٠٣﴾

﴿٩٦﴾ فَأْتِرُوا مَا يَبْقَى عَلَى مَا يَفْنَى؛ فَإِنَّ الَّذِي ﴿عِنْدَكُمْ﴾ وَلَوْ كَثُرَ جَدًّا لَا يَدُّ أَنْ يَنْفَدَ وَيَفْنَى، ﴿وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ﴾: ببقائه، لا يفنى ولا يزول؛ فليس بعاقل من أثر الفاني الخسيس على الباقي النفيس، وهذا كقوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ رَاحَةٌ أَلْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ ﴿٩٧﴾ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى ﴿٩٨﴾ [الأنبياء: ١٦، ١٧]. ﴿وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْآبِرَارِ﴾ ﴿٩٩﴾ [آل عمران: ١٩٨]. وفي هذا الحث والترغيب على الزهد في الدنيا، خصوصًا الزهد المتعين، وهو الزهد فيما يكون ضررًا على العبد ويوجب له الاشتغال عما أوجب الله عليه وتقديمه على حق الله؛ فإن هذا الزهد واجب. ومن الدواعي للزهد أن يقابل العبد لذات الدنيا وشهواتها بخيرات الآخرة؛ فإنه يجد من الفرق والتفاوت ما يدعوه إلى إثارة أعلى الأمور، وليس الزهد الممدوح هو الانقطاع للعبادات القاصرة؛ كالصلاة والصيام والذكر ونحوها، بل لا يكون العبد زاهدًا زاهدًا صحيحًا حتى يقوم بما يقدر عليه من الأوامر الشرعية الظاهرة والباطنة، ومن الدعوة إلى الله وإلى دينه بالقول والفعل؛ فالزهد الحقيقي هو الزهد فيما لا ينفع في الدين والدنيا، والرغبة والسعي في كل ما ينفع. ﴿وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا﴾: على طاعة الله وعن معصيته، وفطموا أنفسهم عن الشهوات الدنيوية المضرة بدينهم؛ ﴿أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ﴿١٠٠﴾: الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة؛ فإن الله لا يضيع أجر من أحسن عملًا.

﴿٩٧﴾ ولهذا ذكر جزاء العاملين في الدنيا والآخرة فقال: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنَّىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾: فإن الإيمان شرط في صحة الأعمال الصالحة وقبولها، بل لا تسمى أعمالًا صالحة إلا بالإيمان، والإيمان مقتض لها؛ فإنه التصديق الجازم المثمر لأعمال الجوارح من الواجبات والمستحبات؛ فمن جمع بين الإيمان والعمل الصالح؛ ﴿فَلَنَجْزِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً﴾: وذلك بطمأنينة قلبه وسكون نفسه وعدم التفاته لما يشوش عليه قلبه ويرزقه الله رزقًا حلالًا طيبًا من حيث لا يحتسب. ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ﴾: في الآخرة ﴿أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ﴿٩٨﴾: من أصناف اللذات؛ مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، فيؤتيه الله في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة.

﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ ﴿٩٩﴾

إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ ﴿١٠٠﴾.

﴿٩٩﴾ - ﴿١٠٠﴾ أي: فإذا أردت القراءة لكتاب الله الذي هو أشرف الكتب وأجلها، وفيه صلاح القلوب والعلوم الكثيرة؛ فإن الشيطان أحرص ما يكون على العبد عند شروعه في الأمور الفاضلة، فيسعى في صرفه عن مقاصدها ومعانيها؛ فالطريق إلى السلامة من شره الالتجاء إلى الله والاستعاذة به من شره، فيقول القارئ: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم؛ متدبرًا لمعناها، معتمدًا بقلبه على الله في صرفه عنه، مجتهدًا في دفع وسواسه وأفكاره الرديئة، مجتهدًا على السبب الأقوى في دفعه، وهو التحلي بحلية الإيمان والتوكل؛ فإن الشيطان ﴿لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ﴾؛ أي: تسلط ﴿عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ﴾: وحده لا شريك له، ﴿يَتَوَكَّلُونَ﴾ ﴿٩٩﴾: فيدفع الله عن المؤمنين المتوكلين عليه شر الشيطان ولا يبقى له عليهم سبيل. ﴿إِنَّمَا سُلْطَانُهُ﴾؛ أي: تسلطه ﴿عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ﴾؛ أي: يجعلونه لهم وليًا، وذلك بتخليهم عن ولاية الله، ودخولهم في طاعة الشيطان، وانضمامهم لحزبه؛ فهم الذين جعلوا له ولاية على أنفسهم، فأزهم إلى المعاصي أزا، وقادهم إلى النار قودًا.

﴿وَإِذَا بَدَلْنَا آيَةً مَّكَاتٍ ءَايَةً وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُزِيلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ﴿١٠١﴾ قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ ﴿١٠٢﴾.

﴿١٠١﴾ يذكر تعالى أن المكذبين بهذا القرآن يتبعون ما يرونه حجة لهم، وهو أن الله تعالى هو الحاكم الحكيم، الذي يشرع الأحكام ويبدل حكمًا مكان آخر؛ لحكمته ورحمته؛ فإذا راوه كذلك؛ قدحوا في الرسول وبما جاء به، و﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ﴾، قال الله تعالى: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ﴿١٠٢﴾: فهم جهال، لا علم لهم بربهم ولا بشرعه، ومن المعلوم أن قدح الجاهل بلا علم لا عبرة به؛ فإن القدح في الشيء فرع عن العلم به وما يشتمل عليه مما يوجب المدح والقدح.

﴿١٠٢﴾ ولهذا ذكر تعالى حكمته في ذلك، فقال: ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ﴾: وهو جبريل الرسول المقدس المنزه عن كل عيب وخيانة وآفة، ﴿بِالْحَقِّ﴾؛ أي: نزوله بالحق،

سورة النحل

سورة النحل

وهو مشتمل على الحق في أخباره وأوامره ونواهيه؛ فلا سبيل لأحد أن يقدح فيه قدحاً صحيحاً؛ لأنه إذا علم أنه الحق؛ علم أن ما عارضه وناقضه باطل. ﴿لَيُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾: عند نزول آياته وتواردها عليهم وقتاً بعد وقت؛ فلا يزال الحق يصل إلى قلوبهم شيئاً فشيئاً، حتى يكون إيمانهم أثبت من الجبال الرواسي. وأيضاً؛ فإنهم يعلمون أنه الحق، وإذا شرع حكماً من الأحكام، ثم نسخه؛ علموا أنه أبده بما هو مثله أو خير منه لهم، وأن نسخه هو المناسب للحكمة الربانية والمناسبة العقلية. ﴿وَهَدَىٰ وَيُذَرِّفُ لِّلْمُسْلِمِينَ﴾؛ أي: يهديهم إلى حقائق الأشياء، ويبين لهم الحق من الباطل والهدى من الضلال، ويبشرهم أن لهم أجراً حسناً ما كثر في أبداء. وأيضاً؛ فإنه كلما نزل شيئاً فشيئاً؛ كان أعظم هداية وبشارة لهم مما لو أتاهم جملة واحدة وتفرق الفكر فيه، بل ينزل الله حكماً وبشارة أكثر؛ فإذا فهموه وعقلوه وعرفوا المراد منه وتروّوا منه؛ أنزل نظيره... وهكذا. ولذلك بلغ الصحابة رضي الله عنهم به مبلغاً عظيماً، وتغيرت أخلاقهم وطبائعهم، وانتقلوا إلى أخلاق وعوائد وأعمال فاقوا بها الأولين والآخرين، وكان أعلى وأولى لمن بعدهم أن يتربوا بعلومه، ويتخلقوا بأخلاقه، ويستضيئوا بنوره في ظلمات الغي والجهالات، ويجعلوه إمامهم في جميع الحالات. فبذلك تستقيم أمورهم الدينية والدنيوية.

وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾ إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾ إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴿١٠٥﴾ مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أَكْزَرَهُ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ عَذَابٌ مِنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٦﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿١٠٧﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَغَىٰ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمِعْتَهُمْ أَبْصُرُهُمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴿١٠٨﴾ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿١٠٩﴾ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَنَّهُدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَعَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١١٠﴾

٢٧٩

﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ﴾: ﴿١٠٣﴾ إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾ إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴿١٠٥﴾.

﴿١٠٣﴾ يخبر تعالى عن قيل المشركين المكذبين لرسوله: ﴿أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ﴾: هذا الكتاب الذي جاء به، ﴿بَشَرٌ﴾: وذلك البشر الذي يشيرون إليه أعجمي اللسان. ﴿وَهَذَا﴾: القرآن ﴿لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ﴾: هل هذا القول ممكن أو له حظ من الاحتمال؟! ولكن الكاذب يكذب ولا يفكر فيما يثول إليه كذبه، فيكون في قوله من التناقض والفساد ما يوجب رده بمجرد تصويره.

﴿١٠٤﴾ إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ: الدالة دلالة صريحة على الحق المبين فيردونها ولا يقبلونها، ﴿لَا يَهْدِيهِمُ اللَّهُ﴾: حيث جاءهم الهدى فردوه فعوقبوا بحرمانه وخذلان الله لهم. ﴿وَلَهُمْ﴾: في الآخرة ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

﴿١٠٥﴾ إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ: أي: إنما يصدر افتراء الكذب من ﴿الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾: كالمعاندين لرسوله من بعد ما جاءتهم البينات. ﴿وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾: أي: الكذب منحصر فيهم، وعليهم أولى بأن يطلق من غيرهم. وأما محمد ﷺ المؤمن بآيات الله الخاضع لربه؛ فمحال أن يكذب على الله، ويتقول عليه ما لم يقل، فأعداؤه رموه بالكذب الذي هو وصفهم، فأظهر الله خزيهم وبين فضائحهم؛ فله تعالى الحمد.

﴿مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أَكْزَرَهُ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ عَذَابٌ مِنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾: ﴿١٠٦﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا

وأمواله طالباً لمرضاة الله، وفتن على دينه ليرجع إلى الكفر، فثبت على الإيمان، وتخلص ما معه من اليقين، ثم جاهد أعداء الله ليدخلهم في دين الله بلسانه ويده، وصبر على هذه العبادات الشاقة على أكثر الناس؛ فهذه أكبر الأسباب التي تنال بها أعظم العطايا وأفضل المواهب، وهي مغفرة الله للذنوب صغارها وكبارها، المتضمن ذلك زوال كل أمر مكروه، ورحمته العظيمة التي بها صلحت أحوالهم واستقامت أمور دينهم ودنياهم؛ فلهم الرحمة من الله في يوم القيامة.

﴿حِينَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَدِّدُ عَنْ نَفْسِهَا﴾: كل يقول: نفسي نفسي، لا يهمه سوى نفسه؛ ففي ذلك اليوم يفترق العبد إلى حصول مثقال ذرة من الخير. ﴿وَتُؤْتَى كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ﴾: من خير وشر. ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾: فلا يزداد في سيئاتهم، ولا ينقص من حسناتهم. ﴿فَالْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [يس: ٥٤].

﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ [١١٢] ﴿وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾ [١١٣].

﴿١١٢﴾، وهذه القرية هي مكة المشرفة التي كانت آمنة مطمئنة لا يهاج فيها أحد، وتحترمها الجاهلية الجهلاء، حتى إن أحدهم يجد قاتل أبيه وأخيه فلا يهيجه مع شدة الحمية فيهم والنصرة العربية، فحصل لها من الأمن التام ما لم يحصل لسواها، وكذلك الرزق الواسع، كانت بلدة ليس فيها زرع ولا شجر، ولكن يسر الله لها الرزق يأتيها من كل مكان، فجاءهم رسول منهم يعرفون أمانته وصدقته؛ يدعوهم إلى أكمل الأمور، وينهاهم عن الأمور السيئة، فكذبوه وكفروا بنعمة الله عليهم، فأذاقهم الله ضد ما كانوا فيه، وألبسهم ﴿لِبَاسَ الْجُوعِ﴾ الذي هو ضد الرغد، ﴿وَالْخَوْفِ﴾ الذي هو ضد الأمن، وذلك بسبب صنيعهم وكفرهم وعدم شكرهم، وما ظلمهم الله ولكن كانوا أنفسهم يظلمون.

﴿فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَلًا طَيِّبًا وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ إِنَّ كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [١١٣] ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالْدَّمَ وَلَحْمَ الْخَنَازِيرِ وَمَا أَهْلَ لَغَيْرِ

يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ [١١٧] ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمِعِهِمْ وَأَبْصَرِهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ [١١٨] ﴿لَا جَزَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [١١٩].

﴿١١٧﴾ - ﴿١١٨﴾ يخبر تعالى عن شناعة حال من كفر به من بعد إيمانه فعمي بعدما أبصر، ورجع إلى الضلال بعدما اهتدى، وشرح صدره بالكفر راضياً به مطمئناً: أن لهم الغضب الشديد من الرب الرحيم، الذي إذا غضب؛ لم يقم لغضبه شيء، وغضب عليهم كل شيء. ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [١١٨]؛ أي: في غاية الشدة، مع أنه دائم أبداً. وذلك أنهم ﴿اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ﴾: حيث ارتدوا على أديارهم؛ طمعاً في شيء من حطام الدنيا، ورغبة فيه، وزهداً في خير الآخرة.

فلما اختاروا الكفر على الإيمان؛ منعهم الله الهداية، فلم يهدهم؛ لأن الكفر وصفهم، فطبع على قلوبهم؛ فلا يدخلها خير، وعلى سمعهم وعلى أبصارهم؛ فلا ينفذ منها ما ينفعهم ويصل إلى قلوبهم، فشملتهم الغفلة وأحاط بهم الخذلان وحرموها رحمة الله التي وسعت كل شيء، وذلك أنها أتتهم فردوها وعرضت عليهم فلم يقبلوها.

﴿١١٩﴾ ﴿لَا جَزَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [١١٩] ﴿الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَهْلِيَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَفَاتَهُمُ النِّعَمُ الْمُقِيمُ، وَحَصَلُوا عَلَى الْعَذَابِ الْأَلِيمِ، وَهَذَا بَخْلَافٍ مِنْ أَكْرَهٍ عَلَى الْكُفْرِ وَأَجْبَرٍ عَلَيْهِ، وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ رَاغِبٌ فِيهِ؛ فَإِنَّهُ لَا حَرَجَ عَلَيْهِ وَلَا إِثْمَ، وَيَجُوزُ لَهُ النُّطْقُ بِكَلِمَةِ الْكُفْرِ عِنْدَ الْإِكْرَاهِ عَلَيْهَا.

ودل ذلك على أن كلام المكروه على الطلاق أو العتاق أو البيع أو الشراء أو سائر العقود أنه لا عبرة به ولا يترتب عليه حكم شرعي؛ لأنه إذا لم يعاقب على كلمة الكفر إذا أكره عليها؛ فغيرها من باب أولى وأحرى.

﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [١٢٠] ﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَدِّدُ عَنْ نَفْسِهَا وَتُؤْتَى كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [١٢١].

﴿١٢٠﴾ أي: ثم إن ربك: الذي ربي عباده المخلصين بلطفه وإحسانه لغفور رحيم لمن هاجر في سبيله، وخلي دياره

اللَّهُ بِهِ فَمَنْ أَضْطَرَّ غَيْرَ بَايَغْ وَلَا عَاوِ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١١٥﴾ وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَلٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِنَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَقْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يَقْلِحُونَ ﴿١١٦﴾ مَتَّعَ قَلِيلٌ وَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَمًا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٨﴾

﴿١١٥﴾ يأمر تعالى عباده بأكل ما رزقهم الله من الحيوانات والحبوب والثمار وغيرها. ﴿حَلَلًا طَيِّبًا﴾؛ أي: حالة كونها متصفة بهذين الوصفين؛ بحيث لا تكون مما حرم الله أو أنزأ من غضب ونحوه؛ فتمتعوا بما خلق الله لكم من غير إسراف ولا تعدٍّ. ﴿وَأَشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ﴾؛ بالاعتراف بها بالقلب، والثناء على الله بها، وصرفها في طاعة الله. ﴿إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾؛ أي: إن كنتم مخلصين له العبادة؛ فلا تشكروا إلا إياه، ولا تنسوا المنعم.

﴿١١٦﴾ ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ﴾؛ الأشياء المضرة تنزيهاً لكم، وذلك: كـ ﴿الْمَيْتَةِ﴾، ويدخل في ذلك كل ما كان موته على غير ذكاة مشروعة، ويستثنى من ذلك ميتة الجراد والسَّمَك. ﴿وَالذَّمَّ﴾؛ المسفوح، وأما ما يبقى في العروق واللحم؛ فلا يضر. ﴿وَلَحْمَ الْخِزْيِرِ﴾؛ لقذارته وخبثه، وذلك

شامل للحمه وشحمه وجميع أجزائه. ﴿وَمَا أَهْلَ لَغَيْرِ اللَّهِ بِهِ﴾؛ كالذي يذبح للأصنام والقبور ونحوها؛ لأنه مقصود به الشرك. ﴿فَمَنْ أَضْطَرَّ﴾؛ إلى شيء من المحرمات؛ بأن حملته الضرورة وخاف إن لم يأكل أن يهلك؛ فلا جناح عليه إذا لم يكن باغياً أو عادياً؛ أي: إذا لم يرد أكل المحرم، وهو غير مضطر ولا متعدٍّ الحلال إلى الحرام أو متجاوز لما زاد على قدر الضرورة؛ فهذا الذي حرمه الله من المباحات.

﴿١١٧﴾ ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَلٌ وَهَذَا حَرَامٌ﴾؛ أي: لا تحرموا وتحللوا من تلقاء أنفسكم كذباً وافتراء على الله وتقولاً عليه؛ ﴿لِنَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَقْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يَقْلِحُونَ﴾؛ لا في الدنيا ولا في الآخرة، ولا بد أن يظهر الله خزيعهم.

﴿١١٨﴾ وإن تمتعوا في الدنيا؛ فإنه ﴿مَتَّعَ قَلِيلٌ﴾؛ ومصيرهم إلى النار، ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

﴿١١٩﴾ فالله تعالى ما حرم علينا إلا الخبيثات تفضلاً منه وصيانة عن كل مستقذر، وأما الذين هادوا؛ فحرم الله عليهم طيبات أحلت لهم بسبب ظلمهم عقوبة لهم؛ كما قصه في سورة الأنعام في قوله: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَمًا كَلَّ ذِي طُفْرٍ وَمِيتَ الْبَقَرِ وَالْفَرَسِ حَرْمًا عَلَيْهِمْ شُحُومُهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوْ الْحَوَاكِبُ أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَلِكَ جَزَاهُمْ بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ [الأنعام: ١٤٦].

﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهْلَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

﴿١١٩﴾ وهذا حض من عباده على التوبة ودعوة لهم إلى الإنابة، فأخبر أن من عمل سوءاً ﴿بِجَهْلَةٍ﴾؛ بعاقبة ما تجني عليه، ولو كان متعمداً للذنب؛ فإنه لا بد أن ينقص ما في قلبه من العلم وقت مقارفة الذنب؛ فإذا تاب وأصلح بأن ترك الذنب وندم

سورة النحل

المزاج عشر

عليه وأصلح أعماله؛ فإن الله يغفر له ويرحمه ويتقبل توبته ويعيده إلى حالته الأولى أو أعلى منها.

﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ (١٢٠) شَاكِرًا لِأَنْعَمِهِ أَحَبُّنَهُ وَهَدَنَهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿ وَءَاتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ (١٢١) ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ (١٢٢).

﴿ ١٢٠ ﴾ يخبر تعالى عما فضل به خليله إبراهيم عليه الصلاة والسلام وخصه به من الفضائل العالية والمناقب الكاملة، فقال: ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً ﴾؛ أي: إمامًا جامعًا لخصال الخير هاديًا مهتديًا، ﴿ قَانِتًا لِلَّهِ ﴾؛ أي: مديومًا لطاعة ربه مخلصًا له الدين، ﴿ حَنِيفًا ﴾: مقبلًا على الله بالمحبة والإنابة والعبودية، معرضًا عن سواه. ﴿ وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ (١٢١): في قوله وعمله وجميع أحواله؛ لأنه إمام الموحدين الحنفاء.

﴿ ١٢١ ﴾ شَاكِرًا لِأَنْعَمِهِ؛ أي: آتاه الله في الدنيا حسنة، وأنعم عليه بنعم ظاهرة وباطنة، فقام بشكرها، فكان نتيجة هذه الخصال الفاضلة أن ﴿ أَحَبَّنُهُ ﴾ ربه واختصه بخلته وجعله من صفوة خلقه وخيار عباده المقربين. ﴿ وَهَدَنَهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ (١٢٢): في علمه وعمله، فعلم بالحق وأثره على غيره.

﴿ وَءَاتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً ﴾: رزقًا واسعًا، وزوجة حسناء، وذرية صالحين، وأخلاقًا مرضية. ﴿ وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ (١٢٣): الذين لهم المنازل العالية والقرب العظيم من الله تعالى.

﴿ ١٢٣ ﴾ ومن أعظم فضائله أن الله أوحى لسيد الخلق وأكملهم أن يتبع ملة إبراهيم ويقتدي به هو وأمته.

﴿ إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ (١٢٤).

﴿ ١٢٤ ﴾ يقول تعالى: ﴿ إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ ﴾؛ أي: فرضًا ﴿ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ ﴾: حين ضلوا عن يوم الجمعة، وهم اليهود، فصار اختلافهم سببًا لأن يجب عليهم في السبت احترامه وتعظيمه، وإلا؛ فالفضيلة الحقيقية ليوم الجمعة، الذي هدى الله هذه الأمة إليه.

﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ (١٢٥): فبين لهم المحق من المبطل والمستحق للثواب ممن استحق العقاب.

﴿ أَدْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجِدْ لَهُمُ الْبَالِيَ هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾ (١٢٦).

﴿ ١٢٦ ﴾ أي: ليكن دعاؤك للخلق مسلمهم وكافرهم إلى سبيل ربك المستقيم المشتمل على العلم النافع والعمل الصالح، ﴿ بِالْحُكْمَةِ ﴾؛ أي: كل أحد على حسب حاله وفهمه وقبوله وانقياده، ومن الحكمة الدعوة بالعلم لا بالجهل، والبداة بالأهم

صَبَقَ ﴿١٢٧﴾؛ أي: شدة وحر ج ﴿وَمَا يَمْكُرُونَ﴾ ﴿١٢٨﴾: فإن مكرهم عائد إليهم، وأنت من المتقين المحسنين، والله مع المتقين المحسنين بعونه وتوفيقه وتسديده، وهم الذين اتقوا الكفر والمعاصي، وأحسنوا في عبادة الله؛ بأن عبدوا الله كأنهم يرونه؛ فإن لم يكونوا يرونه فإنه يراهم، والإحسان إلى الخلق يبذل النفع لهم من كل وجه. نسأل الله أن يجعلنا من المتقين المحسنين.

تم تفسير سورة النحل. ولله الحمد والمنة.



تفسير سورة بني إسرائيل

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿سُبْحَنَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَرَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنَ الْأَيْنَانِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ ﴿١﴾.

﴿١﴾ ينزه تعالى نفسه المقدسة ويعظمها لأن له الأفعال العظيمة والمنن الجسيمة التي من جعلتها أنه ﴿أَسْرَى بِعَبْدِهِ﴾: ورسوله محمد ﷺ، ﴿مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾: الذي هو أجل المساجد على الإطلاق، ﴿إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا﴾: الذي هو من المساجد الفاضلة، وهو محل الأنبياء، فأسرى به في ليلة واحدة إلى مسافة بعيدة جدًا، ورجع في ليلته، وأراه الله من آياته ما ازداد به هدى وبصيرة وثباتًا وفرقانًا، وهذا من اعتنائه تعالى به ولطفه؛ حيث يسره لليسرى في جميع أموره، وخوله نعمًا فاق بها الأولين والآخرين. وظاهر الآية أن الإسراء كان في أول الليل، وأنه من نفس المسجد الحرام، لكن ثبت في الصحيح أنه أسري به من بيت أم هانئ؛ فعلى هذا تكون الفضيلة في المسجد الحرام لسائر الحرم؛ فكله تضاعف فيه العبادة كتضاعفها في نفس المسجد، وأن الإسراء بروحه وجسده معًا، وإلا لم يكن في ذلك آية كبرى ومنقبة عظيمة.

وقد تكررت الأحاديث الثابتة عن النبي ﷺ في الإسراء وذكر تفاصيل ما رأى، وأنه أسري به إلى بيت المقدس، ثم عرج به من هناك إلى السماوات حتى وصل إلى ما فوق

الأسمان، وبالأقرب إلى الأذهان والفهم، وبما يكون قبوله أتم، وبالرفق واللين؛ فإن انقاد بالحكمة، وإلا؛ فينتقل معه بالدعوة بالموعظة الحسنة، وهو الأمر والنهي المقرون بالترغيب والترهيب: إما بما تشتمل عليه الأوامر من المصالح وتعدادها والنواهي من المضار وتعدادها، وإما بذكر إكرام من قام بدين الله وهانئة من لم يقم به، وإما بذكر ما أعد الله للطائعين من الثواب العاجل والآجل وما أعد للعاصين من العقاب العاجل والآجل؛ فإن كان المدعو يرى أن ما هو عليه حق، أو كان داعية إلى الباطل؛ فيجادل بالنبي هي أحسن، وهي الطرق التي تكون أدعى لاستجابته عقلاً ونقلاً، ومن ذلك الاحتجاج عليه بالأدلة التي كان يعتقد؛ فإنه أقرب إلى حصول المقصود والأ تؤدي المجادلة إلى خصام أو مشاتمة تذهب بمقصودها ولا تحصل الفائدة منها، بل يكون القصد منها هداية الخلق إلى الحق لا المغالبة ونحوها. وقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ﴾؛ علم السبب الذي أداه إلى الضلال، وعلم أعماله المترتبة على ضلالته، وسيجازه عليه. ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُنْتَهِيْنَ﴾ ﴿١٢٥﴾: علم أنهم يصلحون للهداية فهداهم، ثم من عليهم فاجتباهم.

﴿وَلَنْ عَاقِبَتُهُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُمْ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ﴾ ﴿١٢٦﴾ وَأَصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُفْ فِي صَبَقِ مِمَّا يَمْكُرُونَ﴾ ﴿١٢٧﴾ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾ ﴿١٢٨﴾.

﴿١٢٦﴾ يقول تعالى مبيحاً للعدل ونادياً للفضل والإحسان: ﴿وَلَنْ عَاقِبَتُهُمْ﴾: من أساء إليكم بالقول والفعل، ﴿فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ﴾: من غير زيادة منكم على ما أجراه معكم. ﴿وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ﴾: عن المعاقبة وعفوتهم عن جرمهم، ﴿لَهُمْ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ﴾ ﴿١٢٦﴾: من الاستفاء، وما عند الله خير لكم وأحسن عاقبة؛ كما قال تعالى: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ [الشورى: ٤٠].

﴿١٢٧﴾ ثم أمر رسوله بالصبر على دعوة الخلق إلى الله والاستعانة بالله على ذلك وعدم الاتكال على النفس، فقال: ﴿وَأَصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾: هو الذي يعينك عليه ويثبتك. ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾: إذا دعوتهم فلم تر منهم قبولاً لدعوتك؛ فإن الحزن لا يجدي عليك شيئاً. ﴿وَلَا تَكُفْ فِي

السموات العلى، ورأى الجنة والنار، والأنبياء على مراتبهم، وفرض عليه الصلوات خمسين، ثم ما زال يراجع ربه بإشارة موسى الكليم حتى صارت خمسا في الفعل وخمسين في الأجر والثواب، وحاز من المفاز تلك الليلة هو وأمه ما لا يعلم مقداره إلا الله عز وجل. وذكره هنا وفي مقام الإنزال للقرآن ومقام التحدي بصفة العبودية؛ لأنه نال هذه المقامات الكبار بتكميله لعبودية ربه.

وقوله: ﴿الَّذِي بَرَكْنَا حَوْلَهُ﴾؛ أي: بكثرة الأشجار والأنهار والخصب الدائم، ومن بركته تفضيله على غيره من المساجد سوى المسجد الحرام ومسجد المدينة، وأنه يطلب شد الرحل إليه للعبادة والصلاة فيه، وأن الله اختصه محلا لكثير من أنبيائه وأصفياه.

﴿وَأَتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا مِن دُونِي وَكِيلًا﴾ (١) ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾ (٢) ﴿وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ فِي الْكِتَابِ لُتْفُسِدَنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَنَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ (٣) ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَا أُولَى بَاسٍ شَدِيدِ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا﴾ (٤) ﴿ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا﴾ (٥) ﴿إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسْتَوُوا وَجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا﴾ (٦) ﴿حَصِيرًا﴾ (٧).

﴿كثيرا ما يقرن الباري بين نبوة محمد ﷺ ونبوة موسى ﷺ وبين كتابيهما وشرعيتيهما؛ لأن كتابيهما أفضل الكتب، وشرعيتيهما أكمل الشرائع، ونبوتيهما أعلى النبوات، وأتباعهما أكثر المؤمنين، ولهذا قال هنا: ﴿وَأَتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾: الذي هو التوراة، ﴿وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَءِيلَ﴾: يهتدون به في ظلمات الجهل إلى العلم بالحق. ﴿أَلَّا تَتَّخِذُوا مِن دُونِي وَكِيلًا﴾؛ أي: قلنا لهم ذلك، وأنزلنا إليهم الكتاب لذلك؛ ليعبدوا الله وحده، وينيوا إليه، ويتخذوه وحده وكيلا ومديرا لهم في أمر دينهم ودنياهم، ولا يتعلقوا بغيره من المخلوقين الذين لا يملكون شيئا ولا يتفونهم بشيء.

﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ﴾؛ أي: يا ذرية من مننا عليهم وحملناهم مع نوح. ﴿إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾؛ ففيه التنويه بالثناء على نوح عليه السلام بقيامه بشكر الله واتصافه بذلك، والحث لذريته أن يقتدوا به في شكره ويتابعوه عليه، وأن يتذكروا نعمة الله عليهم إذ أبقاهم، واستخلفهم في الأرض، وأغرق غيرهم.

﴿وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾؛ أي: تقدمنا وعهدنا إليهم وأخبرناهم في كتابهم أنهم لا بد أن يقع منهم إفساد في الأرض مرتين بعمل المعاصي والبطر لنعم الله والعلو في الأرض والتكبر فيها، وأنه إذا وقع واحدة منهما؛ سلط الله عليهم الأعداء وانتقم منهم، وهذا تحذير لهم وإنذار لعلمهم يرجعون فيتذكرون.

﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا﴾؛ أي: أولى المرتين اللتين يفسدون فيهما؛ أي: إذا وقع منهم ذلك الفساد، ﴿بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ﴾: بعثنا قديرا وسلطنا عليكم تسليطا كونيا جزائيا، ﴿عِبَادًا لَّنَا أُولَى بَاسٍ شَدِيدِ﴾؛ أي: ذوي شجاعة وعدد وعدة، فنصرهم الله

سورة الإسراء

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سُحِرَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ. لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَرَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِّنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿١﴾ وَأَتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا مِن دُونِي وَكِيلًا ﴿٢﴾ ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴿٣﴾ وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ فِي الْكِتَابِ لُتْفُسِدَنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَنَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤﴾ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَا أُولَى بَاسٍ شَدِيدِ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ﴿٥﴾ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ﴿٦﴾ إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسْتَوُوا وَجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا ﴿٧﴾

٢٨٢

عليكم، فقتلوكم وَسَبُّوا أولادكم ونهبوا أموالكم، وجاسوا خلال دياركم فهتكوا الدور، ودخلوا المسجد الحرام، وأفسدوه. ﴿وَكَانَ وَعَدًا مَّفْعُولًا ٥﴾: لا بد من وقوعه لوجود سببه منهم. واختلف المفسرون في تعيين هؤلاء المصلطين؛ إلا أنهم اتفقوا على أنهم قوم كفار: إما من أهل العراق، أو الجزيرة، أو غيرها؛ سلطهم الله على بني إسرائيل لما كثرت فيهم المعاصي وتركوا كثيرًا من شريعتهم وطغوا في الأرض.

﴿ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكُرَّةَ عَلَيْهِمْ ٦﴾: أي: على هؤلاء الذين سلطوا عليكم فأجلبتموهم من دياركم، ﴿وَأَمَدَدْنَكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ ٧﴾: أي: أكثرنا أرزاقكم وكثرناكم وقوتناكم عليهم، ﴿وَجَعَلْنَكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ٨﴾: منهم، وذلك بسبب إحسانكم وخضوعكم لله.

﴿إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ٩﴾: لأن النفع عائد إليكم حتى في الدنيا كما شاهدتم من انتصاركم على أعدائكم. ﴿وَلِنْ أَسَآتُمْ فَلَهَا ١٠﴾: أي: فلأنفسكم يعود الضرر؛ كما أراكم الله من تسلط الأعداء. ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ ١١﴾: أي: المرة الآخرة التي تفسدون فيها في الأرض؛ سلطنا أيضًا عليكم الأعداء، ﴿لِيَسْتَوُوا وَجُوهَكُمْ ١٢﴾: بانتصارهم عليكم وسيحكم، ﴿وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ ١٣﴾: فيخربوا

والمراد بالمسجد مسجد بيت المقدس، ﴿وَلِيَسْتَرَوْا ١٤﴾: أي: يخبئوا ويدمروا ﴿مَا عَلُوا ١٥﴾: عليه ﴿تَنْبِيْرًا ١٦﴾: فيخربوا بيوتكم ومساجدكم وحرؤنكم.

﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمْ ١٧﴾: فيدليكم لكم الكرة عليهم، فرحمهم وجعل لهم الدولة وتوعدهم على المعاصي، فقال: ﴿وَلِنْ عُدْتُمْ ١٨﴾: إلى الإفساد في الأرض، ﴿عُدْنَا ١٩﴾: إلى عقوبتكم، فعادوا لذلك، فسلط الله عليهم رسوله محمدًا ﷺ، فانتقم الله به منهم؛ فهذا جزء الدنيا، وما عند الله من النكال أعظم وأشنع، ولهذا قال: ﴿وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا ٢٠﴾: يصلونها ويلازمونها لا يخرجون منها أبدًا. وفي هذه الآيات التحذير لهذه الأمة من العمل بالمعاصي؛ لئلا يصيبهم ما أصاب بني إسرائيل؛ فسنة الله واحدة لا تبدل ولا تغير، ومن نظر إلى تسلط الكفرة على المسلمين والظلمة؛ عرف أن ذلك من أجل ذنوبهم عقوبة لهم، وأنهم إذا أقاموا كتاب الله وسنة رسوله؛ مكن لهم في الأرض، ونصرهم على أعدائهم.

﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ٢١﴾: وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ٢٢﴾.

﴿٢١﴾، ﴿٢٢﴾ يخبر تعالى عن شرف القرآن وجلالته وأنه ﴿يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ ٢١﴾: أي: أعدل وأعلى من العقائد والأعمال والأخلاق؛ فمن اهتدى بما يدعو إليه القرآن؛ كان أكمل الناس وأقومهم وأهداهم في جميع الأمور. ﴿وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ ٢٢﴾: من الواجبات والسنن، ﴿أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ٢١﴾: أعده الله لهم في دار كرامته لا يعلم وصفه إلا هو. ﴿وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ٢٢﴾: فالقرآن مشتمل على البشارة والندارة وذكر الأسباب التي تنال بها البشارة، وهو الإيمان والعمل الصالح، والتي تستحق بها الندارة، وهو ضد ذلك.

﴿وَيَدْعُ الْإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا ٢٣﴾.

سورة الإسراء
عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدْتُمْ عُدْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا ٥ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ٦ وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ٧ وَيَدْعُ الْإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا ٨ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَاتٍ فَحَوْنًا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السَّاعَةِ وَالْحَسَابِ وَكُلُّ شَيْءٍ فَضْلَنَاهُ تَفْصِيلًا ٩ وَكُلُّ الْإِنْسَانِ أَلْمَمَةٌ طَائِفَةٌ فِي عِيقِهِ وَيُخْرِجُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ كَتَبًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا ١٠ أَقْرَأْ كَتَبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ١١ مَن اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ تَبْعَثَ رَسُولًا ١٢ وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُهْلِكَ قَوْمًا مِّنْهُمْ فَهُوَ يَأْمُرُهُمْ فَتَفْسُقُوا فَبِهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَرْنَاهَا تَدْمِيرًا ١٣ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن الْقُرُونِ مِن بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ١٤

سورة الإسراء

المكية المكية

مَنْ كَانَ يَرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا ﴿١٩﴾ كُلًّا نُمِدُّ هُنَا وَهُنَا مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾ أَنْظِرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلِلْآخِرَةِ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴿٢١﴾ لَا يَجْعَلُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقَعُدَ مَذْمُومًا مَدْحُورًا ﴿٢٢﴾ وَفَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبُلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُنْفٍ وَلَا نَهْرُهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَأَخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ﴿٢٤﴾ رَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا ﴿٢٥﴾ وَمَا ذَا الْفَرْقِ حَقًّا وَالْمُسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَلَا يَبْذُرْ بَذِيرًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا ﴿٢٧﴾

٢٨٤

والآثار النبوية، فعمل بذلك على قدر إمكانه، ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾: بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر. ﴿فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا﴾: أي: مقبولاً مني مدحراً، لهم أجرهم وثوابهم عند ربهم.

﴿٢٠﴾ ومع هذا؛ فلا يفوتهم نصيبهم من الدنيا؛ فكللاً يمدّه الله منها؛ لأنه عطاؤه وإحسانه. ﴿وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾: أي: ممنوعاً من أحد، بل جميع الخلق راتعون بفضله وإحسانه.

﴿٢١﴾ ﴿أَنْظِرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾: في الدنيا بسعة الأرزاق وقلتها، واليسر والعسر، والعلم والجهل، والعقل والسفه، وغير ذلك من الأمور التي فضل الله العباد بعضهم على بعض بها. ﴿وَلِلْآخِرَةِ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾: فلا نسبة لنعيم الدنيا ولذاتها إلى الآخرة بوجه من الوجوه؛ فكم بين من هو في الغرف العاليات والذلات المتنوعات والسرور والخيرات والأفراح ممن هو يتقلب في الجحيم، ويعذب بالعذاب الأليم، وقد حل عليه سخط الرب الرحيم، وكل من الدارين بين أهلها من التفاوت ما لا يمكن أحداً عدّه.

﴿لَا يَجْعَلُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقَعُدَ مَذْمُومًا مَدْحُورًا﴾: ﴿٢٢﴾.

﴿٢٢﴾ أي: لا تعتقد أن أحداً من المخلوقين يستحق شيئاً من العبادة، ولا تشرك بالله أحداً منهم؛ فإن ذلك داع للذم والخذلان؛ فالله وملائكته ورسله قد نهوا عن الشرك، وذنوا من عمله أشد الذم، ورتبوا عليه من الأسماء المذمومة والأوصاف المقيوحة ما كان به متعاطيه أشنع الخلق وصفاً وأقبحهم نعتاً، وله من الخذلان في أمر دينه ودنياه بحسب ما تركه من التعلق بربه؛ فمن تعلق بغيره؛ فهو مخذول قد وكل إلى من تعلق به، ولا أحد من الخلق ينفع أحداً إلا بإذن الله؛ وكما أن من جعل مع الله إلهاً آخر له الذم والخذلان؛ فمن وحده وأخلص دينه لله، وتعلق به دون غيره؛ فإنه محمود معانٍ في جميع أحواله.

﴿وَفَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبُلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُنْفٍ وَلَا نَهْرُهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾: ﴿٢٣﴾ وَأَخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾: ﴿٢٤﴾.

﴿٢٣﴾ لما نهى تعالى عن الشرك به؛ أمر بالتوحيد، فقال: ﴿وَفَضَى رَبُّكَ﴾: قضاء ديننا، وأمر أمراً شرعياً ﴿أَلَّا تَعْبُدُوا﴾: أحداً من أهل الأرض والسموات والأحياء والأموات، ﴿إِلَّا إِيَّاهُ﴾: لأنه الواحد الأحد، الفرد الصمد، الذي له كل صفة كمال، وله من تلك الصفة أعظمها، على وجه لا يشبهه أحد من خلقه، وهو المنعم بالنعم الظاهرة والباطنة، الدافع لجميع النقم، الخالق، الرازق، المدبر لجميع الأمور؛ فهو المتفرد بذلك كله، وغيره ليس له من ذلك شيء. ثم ذكر بعد حقه القيام بحق الوالدين، فقال: ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾: أي: أحسنوا إليهما بجميع وجوه الإحسان القولي والفعلية؛ لأنهما سبب وجود العبد، ولهما من المحبة للولد والإحسان إليه، والقرب ما يقتضي تأكيد الحق ووجوب البر. ﴿إِمَّا يَبُلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا﴾: أي: إذا وصلا إلى هذه السن التي تضعف فيها قواهما ويحتاجان من اللطف والإحسان ما هو معروف، ﴿فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُنْفٍ﴾: وهذا أدنى مراتب الأذى، نيه به على ما سواه، والمعنى: لا تؤذيهما أدنى أذى، ﴿وَلَا نَهْرُهُمَا﴾: أي: تزجرهما وتتكلم لهما كلاماً خشناً. ﴿وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾: ﴿٢٤﴾ بلفظ يجانه، وتادب وتلطف بكلام لين حسن يلد على قلوبهما، وتطمئن به نفوسهما، وذلك يختلف باختلاف الأحوال والعوائد والأزمان.

سورة الإسراء

المائدة الحادية عشر

وَأَمَّا نُرْضِئُ عَنْهُمْ ابْنَئَهُ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ رَجُوعًا فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا
مَيْسُورًا ﴿٢٨﴾ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا
كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا ﴿٢٩﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ
لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴿٣٠﴾ وَلَا تَقْتُلُوا
أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةً إِمَّا يَنْتَحِ عَنْ تَرْفُئِهِمْ وَإِنَّا كُنَّا مِنْ قَتْلِهِمْ كَا
خَطَا كَبِيرًا ﴿٣١﴾ وَلَا تَقْرَبُوا الرِّزْقَ إِنَّمَا كَانَ قَنْحَشَةً وَسَاءَ
سَبِيلًا ﴿٣٢﴾ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَنْ
قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيهِ سُلْطَانًا فَلَا يَشْرِفُ فِي
الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا ﴿٣٣﴾ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالْيَقِينِ
هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ
مَسْئُولًا ﴿٣٤﴾ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ زِنُوا بِالْقِسْطِ الَّتِي كُنْتُمْ تُعْطَوْنَ
ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٣٥﴾ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ
إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا ﴿٣٦﴾
وَلَا تَتَّبِعْ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ
الْجِبَالِ طُولًا ﴿٣٧﴾ كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُمْ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴿٣٨﴾

٢٨٥

﴿٢٨﴾ وَأَخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ ﴿٢٩﴾ أَي: تواضع
لهما ذلًا لهما ورحمة واحتسابًا للأجر، لا لأجل الخوف منهما
أو الرجاء لهما لهما ونحو ذلك من المقاصد التي لا يؤجر
عليها العبد. ﴿٣٠﴾ وَقُلْ رَبِّ أَرْحَمُهُمَا ﴿٣١﴾ أَي: ادع لهما بالرحمة
أحياء وأمواتًا؛ جزاء على تربيتكما إياك صغيرًا. وفهم من هذا
أنه كلما ازدادت التربية؛ ازداد الحق. وكذلك من تولى تربية
الإنسان في دينه ودنياه تربية صالحة غير الأبوين؛ فإن له على
من رباه حق التربية.

﴿٣٢﴾ رَبِّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ
كَانَ لِلْأَوَّلِينَ عَفْوَكَ ﴿٣٣﴾

﴿٣٤﴾ أَي: ربكم تعالى مطلع على ما أكتته سرائركم من خير
وشر، وهو لا ينظر إلى أعمالكم وأبدانكم، وإنما ينظر إلى
قلوبكم وما فيها من الخير والشر. ﴿٣٥﴾ إِنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ ﴿٣٦﴾ بَأَن
تكون إراداتكم ومقاصدكم دائرة على مرضاة الله، ورجبتكم
فيما يقرّبكم إليه، وليس في قلوبكم إرادات مستقرة لغير الله.
﴿٣٧﴾ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ أَي: الرجاعين إليه في جميع
الأوقات؛ ﴿٣٩﴾ عَفْوَكَ ﴿٤٠﴾: فمن اطلع الله على قلبه، وعلم أنه
ليس فيه إلا الإنيابة إليه ومحبه ومجبة ما يقرب إليه؛ فإنه وإن
جری منه في بعض الأوقات ما هو مقتضى الطباع البشرية؛
فإن الله يعفو عنه، ويغفر له الأمور العارضة غير المستقرة.

﴿٤١﴾ وَءَاتَ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْيَتِيمَ الْإِسْبِيلَ وَلَا بُدَّ مِنْ تَبَذُّرٍ ﴿٤٢﴾ إِنْ الْمُبْدِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيْطَانِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ
لِرَبِّهِ كَفُورًا ﴿٤٣﴾ وَأَمَّا نُرْضِئُ عَنْهُمْ ابْنَئَهُ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ رَجُوعًا فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مَيْسُورًا ﴿٤٤﴾ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا
تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا ﴿٤٥﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴿٤٦﴾

﴿٤٧﴾ يَقُولُ تَعَالَى: ﴿٤٨﴾ وَءَاتَ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ ﴿٤٩﴾: من البر والإكرام الواجب والمسنون، وذلك الحق يتفاوت بتفاوت
الأحوال والأقارب والحاجة وعدمها والأزمنة، ﴿٥٠﴾ وَالْيَتِيمَ الْإِسْبِيلَ ﴿٥١﴾: أنه حقه من الزكاة ومن غيرها؛ لتزول مسكته، ﴿٥٢﴾ وَالْإِسْبِيلَ
﴿٥٣﴾: وهو الغريب المنقطع به عن بلده، فيعطى الجميع من المال، على وجه لا يضر المعطي، ولا يكون زائدًا على
المقدار اللائق؛ فإن ذلك تبذير، قد نهى الله عنه وأخبر: ﴿٥٤﴾ إِنْ الْمُبْدِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيْطَانِ ﴿٥٥﴾: لأن الشيطان لا يدعو إلا إلى
كل خصلة ذميمة، فيدعو الإنسان إلى البخل والإمساك؛ فإذا عصاه؛ دعاه إلى الإسراف والتبذير، والله تعالى إنما يأمر بأعدل
الأمر وأقسطها، ويمدح عليه؛ كما في قوله عن عباد الرحمن الأبرار: ﴿٥٦﴾ وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ
ذَلِكَ قَوَامًا ﴿٥٧﴾ ﴿الفرقان: ٦٧﴾.

﴿٥٨﴾، وقال هنا: ﴿٥٩﴾ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ ﴿٦٠﴾: كناية عن شدة الإمساك والبخل، ﴿٦١﴾ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ ﴿٦٢﴾:
فتتق فيما لا ينبغي أو زيادة على ما ينبغي، ﴿٦٣﴾ فَتَقْعُدَ ﴿٦٤﴾: إن فعلت ذلك ﴿٦٥﴾ مَلُومًا ﴿٦٦﴾؛ أي: تلام على ما فعلت، ﴿٦٧﴾ مَحْسُورًا ﴿٦٨﴾؛
أي: حاسر اليد فارغها؛ فلا بقي ما في يدك من المال، ولا خلفه مدح وثناء.

وهذا الأمر بإيتاء ذي القربى مع القدرة والغنى، فأما مع العدم أو تعسر النفقة الحاضرة؛ فأمر تعالى أن يُردَّوارًا جميلًا، فقال:
﴿٦٩﴾ وَأَمَّا نُرْضِئُ عَنْهُمْ ابْنَئَهُ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ رَجُوعًا ﴿٧٠﴾؛ أي: تعرض عن إعطائهم إلى وقت آخر ترجو فيه من الله تيسير الأمر. ﴿٧١﴾ قُلْ

﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيهِ سُلْطَانًا فَلَا يَسْرِفُ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا﴾ ﴿٢٦﴾.

﴿٢٦﴾ وهذا شامل لكل نفس حرم الله قتلها من صغير وكبير وذكر وأنثى وحر وعبد ومسلم وكافر له عهد، ﴿إِلَّا بِالْحَقِّ﴾: كالنفس بالنفس، والزاني المحصن، والتارك لدينه المفارق للجماعة، والباغي في حال بغيه إذا لم يدفع إلا بالقتل. ﴿وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا﴾: أي: بغير حق، ﴿فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيهِ﴾: وهو أقرب عصباته وورثته إليه ﴿سُلْطَانًا﴾: أي: حجة ظاهرة على القصاص من القاتل، وجعلنا له أيضًا تسلطًا قدرًا على ذلك، وذلك حين تجتمع الشروط الموجبة للقصاص؛ كالعمد العدوان، والمكافأة، ﴿فَلَا يَسْرِفُ﴾: الولي ﴿فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا﴾ ﴿٢٧﴾: والإسراف مجاوزة الحد: إما أن يمثل بالقاتل، أو يقتله بغير ما قتل به، أو يقتل غير القاتل. وفي هذه الآية دليل إلى أن الحق في القتل للولي؛ فلا يقتص إلا بإذنه، وإن عفا؛ سقط القصاص، وأن ولي المقتول يعينه الله على القاتل ومن أعانه، حتى يتمكن من قتله.

﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَتْ مَسْئُولًا﴾ ﴿٢٨﴾.

﴿٢٨﴾ وهذا من لطفه ورحمته باليتيم الذي فقد والده وهو صغير غير عارف بمصلحة نفسه ولا قائم بها أن أمر أوليائه بحفظه وحفظ ماله وإصلاحه وألا يقربوه ﴿إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾: من التجارة فيه وعدم تعريضه للأخطار والحرص على تنميته، وذلك ممتد إلى أن يبلغ اليتيم ﴿أَشُدَّهُ﴾: أي: بلوغه وعقله ورشده؛ فإذا بلغ أشده؛ زالت عنه الولاية، وصار ولي نفسه، ودفع إليه ماله؛ كما قال تعالى: ﴿فَإِنْ أَسْتَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ﴾ [النساء: ٦]، ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ﴾: الذي عاهدتم الله عليه، والذي عاهدتم الخلق عليه. ﴿إِنَّ الْعَهْدَ كَانَتْ مَسْئُولًا﴾ ﴿٢٩﴾: أي: مسئولين عن الوفاء به وعدمه؛ فإن وفيتم؛ فلكم الثواب الجزيل، وإن لم تفوا؛ فعليكم الإثم العظيم.

﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزَنُوا بِالْقِسْطِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ ﴿٣٠﴾.

﴿٣٠﴾ وهذا أمر بالعدل وإيفاء المكايل والموازين بالقسط من غير بخس ولا نقص. ويؤخذ من عموم المعنى، النهي

لَهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا﴾ ﴿٣١﴾: أي: لطيفًا برفق ووعد بالجميل عند سنوح الفرصة واعتذار بعدم الإمكان في الوقت الحاضر؛ لينقلبوا عنك مطمئنة خواطرهم؛ كما قال تعالى: ﴿قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذَى﴾ [البقرة: ٢٦٣]. وهذا أيضًا من لطف الله تعالى بالعباد، أمرهم بانتظار الرحمة والرزق منه؛ لأن انتظار ذلك عبادة، وكذلك وعدهم بالصدقة والمعروف عند التيسر عبادة حاضرة؛ لأن الهم بفعل الحسنة حسنة، ولهذا ينبغي للإنسان أن يفعل ما يقدر عليه من الخير، وينوي فعل ما لم يقدر عليه ليثاب على ذلك، ولعل الله ييسر له بسبب رجائه.

﴿٣١﴾ ثم أخبر تعالى أن الله ﴿يَسْطُرُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾: من عباده ويقدره ويضيقه على من يشاء حكمة منه. ﴿إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا﴾ ﴿٣٢﴾: فيجزئهم على ما يعلمه صالحًا لهم، ويدبرهم بلطفه وكرمه.

﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا﴾ ﴿٣٣﴾.

﴿٣٣﴾ وهذا من رحمته بعباده؛ حيث كان أرحم بهم من والديهم، فنهى الوالدين أن يقتلوا أولادهم خوفًا من الفقر والإملاق، وتكفل برزق الجميع، وأخبر أن: ﴿قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا﴾ ﴿٣٤﴾: أي: من أعظم كبائر الذنوب؛ لزوال الرحمة من القلب، والعقوق العظيم، والتجروء على قتل الأطفال الذين لم يجرم منهم ذنب ولا معصية.

﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ ﴿٣٥﴾.

﴿٣٥﴾ والنهي عن قربانه أبلغ من النهي عن مجرد فعله؛ لأن ذلك يشمل النهي عن جميع مقدماته ودواعيه؛ فإن من حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه، خصوصًا هذا الأمر الذي في كثير من النفوس أقوى دافع إليه، ووصف الله الزنا وقبحه بأنه ﴿كَانَ فَاحِشَةً﴾: أي: إثمًا يستفحش في الشرع والعقل والفطر؛ لتضمنه التجروء على الحرمة في حق الله وحق المرأة وحق أهلها أو زوجها وإفساد الفراش واختلاط الأنساب وغير ذلك من المفاسد. وقوله: ﴿وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ ﴿٣٦﴾: أي: بش السبيل سبيل من تجرأ على هذا الذنب العظيم.

سورة الإسراء

الْمَلَأْتِكُمْ مِنْهَا

ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَى إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا
 آخَرَ فَتُلْقَى فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَدْحُورًا ﴿٣٦﴾ أَفَأَصْفَكَ رُبُكُمُ
 بِالْبَيْنِ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنْتًا أَنْتُمْ لِقَوْلِهِمْ قَوْلًا عَظِيمًا ﴿٣٧﴾
 وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِيَذَكَّرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٣٨﴾
 قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذَا لَا تَبْعُوا إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا
 ﴿٣٩﴾ سُبْحَانَكَ وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤٠﴾ تَسْبِيحُ لَهُ السَّيِّدَاتُ
 السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يَسْبُحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ
 لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤١﴾ وَإِذَا قَرَأْتَ
 الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ جَبَابًا
 مَسْتُورًا ﴿٤٢﴾ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ
 وَقْرًا وَإِذَا ذُكِّرْتُمْ بَكَوْا فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَوْ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ فَهَرُفُونَ
 ﴿٤٣﴾ تَحْنُ أَعْيُنُهُمْ يَتَعَفَى عَنْهُمْ إِيذًا يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَى
 إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا ﴿٤٤﴾ أَنْظِرْ
 كَيْفَ صَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٤٥﴾
 وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظْمًا وَرَفْنًا أَوَنَا لِمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٤٦﴾

٢٨٦

عن كل غش في ثمن أو مثنى أو معقود عليه، والأمر بالنصح
 والصدق في المعاملة. ﴿ذَلِكَ خَيْرٌ﴾: من عدمه، ﴿وَأَحْسَنُ
 تَأْوِيلًا﴾ ﴿٣٥﴾؛ أي: أحسن عاقبة، به يسلم العبد من التبعات،
 وبه تنزل البركة.

﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ
 كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ ﴿٣٦﴾.

﴿٣٦﴾ أي: ولا تتبع ما ليس لك به علم، بل تثبت في كل ما
 تقوله وتفعله؛ فلا تظن ذلك يذهب لا لك ولا عليك. ﴿إِنَّ
 السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ ﴿٣٦﴾:
 فحقيق بالعبد الذي يعرف أنه مسئول عما قاله وفعله وعما
 استعمل به جوارحه التي خلقها الله لعبادته أن يعد للسؤال
 جوابًا، وذلك لا يكون إلا باستعمالها بعبودية الله، وإخلاص
 الدين له، وكفها عما يكرهه الله تعالى.

﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ
 وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا﴾ ﴿٣٧﴾ كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ
 مَكْرُوهًا ﴿٣٨﴾ ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَى إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ وَلَا تَجْعَلْ
 مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتُلْقَى فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَدْحُورًا ﴿٣٩﴾.

﴿٣٧﴾ يقول تعالى: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا﴾؛ أي:
 كبرًا وتبها وبطرًا متكبرًا على الحق ومتعاطفًا على الخلق. ﴿إِنَّكَ﴾: في فعلك ذلك ﴿لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ
 طُولًا﴾ ﴿٣٧﴾: في تكبرك، بل تكون حقيرًا عند الله، ومحتقرًا عند الخلق، مبغوضًا، ممقوتًا، قد اكتسبت شر الأخلاق،
 واكتسبت باردلها، من غير إدراك لبعض ما تروم.

﴿كُلُّ ذَلِكَ﴾: المذكور الذي نهى الله عنه فيما تقدم من قوله: ﴿لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾، والنهي عن عقوق
 الوالدين، وما عطف على ذلك، ﴿كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا﴾ ﴿٣٨﴾؛ أي: كل ذلك يسوء العاملين ويضرهم، والله تعالى
 يكرهه ويأباه.

﴿ذَلِكَ﴾ الذي بيناه ووضحناه من هذه الأحكام الجليلة، ﴿مِمَّا أَوْحَى إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ﴾: فإن الحكمة الأمر
 بمحاسن الأعمال ومكارم الأخلاق والنهي عن أراذل الأخلاق وأسوأ الأعمال. وهذه الأعمال المذكورة في هذه الآيات من
 الحكمة العالية التي أوحاها رب العالمين لسيد المرسلين في أشرف الكتب ليأمر بها أفضل الأمم؛ فهي من الحكمة التي من
 أوتيتها؛ فقد أوتي خيرًا كثيرًا. ثم ختمها بالنهي عن عبادة غير الله كما افتتحها بذلك، فقال: ﴿وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتُلْقَى فِي
 جَهَنَّمَ﴾؛ أي: خالدًا مخلصًا؛ فإنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة وماواه النار. ﴿مَلُومًا مَدْحُورًا﴾ ﴿٣٩﴾؛ أي: قد لحقتك
 اللاتمة واللعنة والذم من الله وملأته والناس أجمعين.

﴿أَفَأَصْفَكَ رُبُكُمُ بِالْبَيْنِ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنْتًا أَنْتُمْ لِقَوْلِهِمْ قَوْلًا عَظِيمًا﴾ ﴿٤٠﴾.

﴿٤٠﴾ وهذا إنكار شديد على من زعم أن الله اتخذ من خلقه بنات، فقال: ﴿أَفَأَصْفَكَ رُبُكُمُ بِالْبَيْنِ﴾؛ أي: اختار لكم
 الصفوة والقسم الكامل، ﴿وَاتَّخَذَ﴾: لنفسه ﴿مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنْتًا﴾: حيث زعموا أن الملائكة بنات الله. ﴿إِنَّكُمْ لَقَوْلُهُمْ قَوْلًا
 عَظِيمًا﴾ ﴿٤٠﴾: فيه أعظم الجراءة على الله، حيث نسبتم له الولد المتضمن لحاجته، واستغناء بعض المخلوقات عنه، وحكمو له

ألهتهم التي يعبدون من دون الله مقهورة مغلوبة ليس لها من الأمر شيء؛ فلم اتخذوها وهي بهذه الحال؟! فيكون هذا كقوله تعالى: ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا لَدَّهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ [المؤمنون: ٩١].

﴿سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى﴾؛ أي: تقدس وتنزه وعلت أوصافه، ﴿عَمَّا يَقُولُونَ﴾: من الشرك به واتخاذ الأنداد معه، ﴿عُلُوًّا كَبِيرًا﴾: فعلا قدره وعظم وجلت كبرياؤه التي لا تقادر أن يكون معه آلهة؛ فقد ضل من قال ذلك ضلالاً مبيناً وظلم ظلماً كبيراً، لقد تضاءلت لعظمته المخلوقات العظيمة، وصغرت لدى كبريائه السماوات السبع ومن فيهن، والأرضون السبع ومن فيهن، ﴿وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ﴾ [الزمر: ٦٧]، واقتصر إليه العالم العلوي والسفلي فقرا ذاتياً لا ينفك عن أحد منهم في وقت من الأوقات، هذا الفقر بجميع وجوهه؛ فقر من جهة الخلق والرزق والتدبير، وفقر من جهة الاضطراب إلى أن يكون معبودهم ومحبوبهم الذي إليه يتقربون، وإليه في كل حال يفرعون.

ولهذا قال: ﴿سُبْحَ لَهَ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ﴾: من حيوان ناطق وغير ناطق، ومن أشجار ونبات وجامد، وحي وميت، ﴿إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾: بلسان الحال ولسان المقال، ﴿وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾؛ أي: تسبيح باقي المخلوقات التي على غير لغتكم، بل يحيط بها علام الغيوب. ﴿إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾: حيث لم يعاجل بالعقوبة من قال فيه قولاً تكاد السماوات والأرض تنفطر منه وتخرله الجبال، ولكنه أمهلهم، وأنعم عليهم، وعافاهم، ورزقهم، ودعاهم إلى بابه ليتوبوا من هذا الذنب العظيم؛ ليعطيهم الثواب الجزيل، ويغفر لهم ذنبهم؛ فلولاً حلمه ومغفرته؛ لسقطت السماوات على الأرض، ولما ترك على ظهرها من دابة.

﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا﴾ [٤١] وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفي آذانهم وقراً، وإذا ذكرت ربك في القرآن وحده ولولاً على أدبرهم نفورا [٤٢] نحن أعلم بما يستمعون به إذ يستمعون إليك وإذا هم نحوي إذ يقول الظالمون إن تنبعون إلا رجلاً مسحوراً [٤٣] انظر كيف صرئوا لك الأمثال فضلو فلا يستطيعون سبيلاً [٤٤].

بأردا القسمين، وهن الإناث، وهو الذي خلقكم واصطفاكم بالذكر، فتعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً.

﴿وَلَقَدْ صَرَفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِيَذْكُرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا﴾ [٤١] قل لو كان مع الله آلهة كما يقولون إذا لا نبغوا إلى ذي العرش سبيلاً [٤٢] سبحننه وتعالى عما يقولون علواً كبيراً [٤٣] تسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهن وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا نفقهون تسبيحهم إنه كان حليماً غفوراً [٤٤].

﴿٤١﴾ يخبر تعالى أنه صرف لعباده في هذا القرآن؛ أي: نوع الأحكام ووضحها وأكثر من الأدلة والبراهين على ما دعا إليه، ووعظ وذكر لأجل أن يذكروا ما ينفعهم فيسلكوه وما يضرهم فيدعوه، ولكن أبى أكثر الناس ﴿إِلَّا نُفُورًا﴾ [٤١] عن آيات الله؛ لبغضهم للحق ومحبتهم ما كانوا عليه من الباطل، حتى تعصبوا لباطلهم، ولم يعيروا آيات الله لهم سمعاً، ولا ألقوا لها بالاً.

﴿٤٢﴾ ومن أعظم ما صرف فيه الآيات والأدلة التوحيد الذي هو أصل الأصول، فأمر به ونهى عن ضده وأقام عليه من الحجج العقلية والنقلية شيئاً كثيراً؛ بحيث إن من أصغى إلى بعضها لا تدع في قلبه شكاً ولا ريباً، ومن الأدلة على ذلك هذا الدليل العقلي الذي ذكره هنا، فقال: ﴿قُلْ﴾: للمشركين الذين يجعلون مع الله إلهاً آخر: ﴿لَوْ كَانَ مَعَهُ إِلَهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ﴾؛ أي: على موجب زعمهم وافترائهم؛ ﴿إِذَا لَا تَبْتَغُوا إِلَيَّ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا﴾ [٤٢]؛ أي: لاتخذوا سبيلاً إلى الله بعبادته والإنابة إليه والتقرب وابتغاء الوسيلة؛ فكيف يجعل العبد الفقير الذي يرى شدة افتقاره لعبودية ربه إلهاً مع الله؟! هل هذا إلا من أظلم الظلم وأسفه السفه؛ فعلى هذا المعنى تكون هذه الآية كقوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَهَ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ إِلَيْهِمْ أَقْرَبُ﴾ [الإسراء: ٥٧]؛ وكقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَقُولُ أَأُنْشَرُوا ضَلُّوا عَنَّا وَهُمْ هَوَلَاءُ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ﴾ [٧] قالوا سبحنك ما كان ينبغي لنا أن نتخذ من دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ [الفرقان: ١٧، ١٨].

ويحتمل أن المعنى في قوله: ﴿قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ إِلَهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذَا لَا تَبْتَغُوا إِلَيَّ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا﴾ [٤٢]؛ أي: لطلبوا السبيل وسعوا في مغالبة الله تعالى، فإما أن يعلوا عليه فيكون من علا وقهر هو الرب الإله، فأما وقد علموا أنهم يقرون أن

﴿٤٩﴾ يخبر تعالى عن قول المنكرين للبعث وتكذيبهم به واستبعادهم بقولهم: ﴿إِذَا كُنَّا عِظْمًا زَرْقًا﴾؛ أي: أجسادا بالية. ﴿أَنَّا لَبَعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾ ﴿٥٠﴾؛ أي: لا يكون ذلك، وهو محال بزعمهم، فجعلوها أشد الجهل؛ حيث كذبوا رسل الله، وجحدوا آيات الله، وقاسوا قدرة خالق السماوات والأرض بِقُدْرِهِم الضعيفة العاجزة، فلما رأوا أن هذا ممتنع عليهم لا يقدرُونَ عليه؛ جعلوا قدرة الله كذلك؛ فسبحان من جعل خلقًا من خلقه يزعمون أنهم أولو العقول والألباب مثلاً في جهل أظهر الأشياء وأجلاها وأوضحها براهين وأعلاها؛ ليري عباده أنه ما تَمَّ إلا توفيقه وإعانتة أو الهلاك والضلال، ﴿رَبَّنَا لَا تُخِزْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾ ﴿٥١﴾ [آل عمران: ٨].

﴿٥٢﴾، ولهذا أمر رسوله ﷺ أن يقول لهؤلاء المنكرين للبعث استبعاداً: ﴿قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حديدًا﴾ ﴿٥٣﴾ أَوْ خَلْقًا مِمَّا يَكْتُمُونَ؛ أي: يعظم ﴿فِي صُدُورِكُمْ﴾؛ لتسلموا بذلك - على زعمكم - من أن تالكم قدرة الله أو تنفذ فيكم مشيئته؛ فإنكم غير معجزى الله في أي حالة تكونون وعلى أي وصف تتحولون، وليس لكم في أنفسكم تدبير في حالة الحياة وبعد الممات؛ فدعوا التدبير والتصريف لمن هو على كل شيء قدير وبكل شيء محيط. ﴿فَسَيَقُولُونَ﴾: حين تقيم عليهم الحجة في البعث: ﴿مَنْ يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾: فكما فطركم ولم تكونوا شيئاً مذكوراً؛ فإنه سيعيدكم خلقاً جديداً؛ ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ يُعِيدُهُ﴾ ﴿[الأنبياء: ١٠٤]﴾ ﴿فَسَيَقُولُونَ﴾ إِلَيْكَ رُءُوسُهُمْ؛ أي: يهزونها إنكاراً وتعجباً مما قلت. ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ﴾؛ أي: متى وقت البعث الذي تزعمه على قولك؟ لا إقراراً منهم لأصل البعث، بل ذلك سفه منهم وتعجيز. ﴿قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا﴾ ﴿٥٤﴾: فليس في تعيين وقته فائدة، وإنما الفائدة والمدار على تقريره والإقرار به وإثباته، وإلا؛ فكل ما هو آت؛ فإنه قريب.

﴿٥٥﴾ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ ﴿فَسَتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ﴾؛ أي: تتقادون لأمره ولا تستعصون عليه. وقوله: ﴿بِحَمْدِهِ﴾؛ أي: هو المحمود تعالى على فعله، ويجزي به العباد إذا جمعهم ليوم التناد، ﴿وَتَقُولُونَ إِن لَّيْسَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ ﴿٥٦﴾: من سرعة وقوعه، وأن الذي مر عليكم من النعم كأنه ما كان؛ فهذا الذي يقول عنه المنكرون: متى هو؟ يندمون غاية الندم عند وروده، ويقال لهم: هذا الذي كنتم به تكذبون.

﴿٥٧﴾ يخبر تعالى عن عقوبته للمكذبين بالحق الذين ردوه وأعرضوا عنه أنه يحول بينهم وبين الإيمان، فقال: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ﴾: الذي فيه الوعظ والتذكير والهدى والإيمان والخير والعلم الكثير؛ ﴿جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا﴾ ﴿٥٨﴾: يسترهم عن فهمه حقيقة وعن التحقق بحقائقه والانتقاد إلى ما يدعو إليه من الخير.

﴿٥٩﴾ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً؛ أي: أغطية وأغشية لا يفقهون معها القرآن، بل يسمعونهم سماعاً تقرر به عليهم الحجة، ﴿رَفَقَ إِذَا أَنَّهُمْ رَبُّوا﴾؛ أي: صمماً عن سماعه، ﴿وَإِذَا ذُكِّرَتْ رَبِّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ﴾: داعياً لتوحيد، ناهياً عن الشرك به؛ ﴿وَلَوْ أَنَّ عَلَى الَّذِينَ هُمْ مُنْكَرًا﴾ ﴿٦٠﴾: من شدة بغضهم له ومحبته لما هم عليه من الباطل؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا ذُكِّرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْتَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِّرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ ﴿٦١﴾ [الزمر: ٤٥].

﴿٦٢﴾ تَحْنُ أَعْيُنُهُمْ يَسْتَوُونَ بِهِ؛ أي: إنما منعناهم من الانتفاع عند سماع القرآن لأننا نعلم أن مقاصدهم سيئة؛ يريدون أن يعثروا على أقل شيء ليقدحوا به، وليس استماعهم لأجل الاسترشاد وقبول الحق، وإنما هم معتمدون على عدم اتباعه، ومن كان بهذه الحالة؛ لم يفده الاستماع شيئاً، ولهذا قال: ﴿إِذْ يَسْتَوُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ بِخَوَافٍ﴾؛ أي: متناجين، ﴿إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ﴾: في مناجاتهم: ﴿إِنْ تَنْبَغُ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا﴾ ﴿٦٣﴾: فإذا كانت هذه مناجاتهم الظالمة فيما بينهم، وقد بنوها على أنه مسحور؛ فهم جازمون أنهم غير معتبرين لما قال، وأنه يهدي لا يدرى ما يقول.

﴿٦٤﴾ قال تعالى: ﴿انظُرْ﴾: متعجباً ﴿كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ﴾: التي هي أضل الأمثال وأبعدها عن الصواب، ﴿فَقَالُوا﴾: في ذلك، أو فصارت سبباً لضلالهم؛ لأنهم بنوا عليها أمرهم، والمبني على فاسد أفسد منه. ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾ ﴿٦٥﴾؛ أي: لا يهتدون أي اهتداء، فنصبيهم الضلال المحض والظلم الصرف.

﴿وَقَالُوا إِذَا كُنَّا عِظْمًا زَرْقًا﴾ ﴿٦٦﴾ أَوْ خَلْقًا مِمَّا يَكْتُمُونَ ﴿٦٧﴾ قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حديدًا ﴿٦٨﴾ أَوْ خَلْقًا مِمَّا يَكْتُمُونَ فِي صُدُورِكُمْ ﴿٦٩﴾ فَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴿٧٠﴾ فَيَقُولُونَ إِلَيْكَ رُءُوسُهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا ﴿٧١﴾ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَقُولُونَ إِن لَّيْسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٧٢﴾.

سورة الإسراء

﴿ قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ٥٣ أَوْ خَلْقًا مِمَّا يَكْفُرُ
صُدُورُكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ
فَسَيُنْخِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسُهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ قُلْ عَسَى أَنْ
يَكُونَتْ قَرِينًا ٥٤ يَوْمَ يُدْعَوُكُمْ فَتَسْجُدُونَ بِحَمْدِهِ
وَتَقُولُونَ إِنْ لَيْسَ إِلَّا قَلِيلًا ٥٥ وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ
أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزِعُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَانِ
عَدُوًّا مُبِينًا ٥٦ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِنْ يَشَأْ يُرْحَمْكُمْ أَوْ إِنْ يَشَأْ
يُعَذِّبْكُمْ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ٥٧ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ
بِمَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ
وَمَا آتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا ٥٨ قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا
يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ٥٩ أُولَئِكَ الَّذِينَ
يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَيَّ رِجْهًا أَلَوْ سِيلَةً أُنْجِيهِمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ
رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ٦٠
وَلَنْ مِنْ قَرِينَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْفِتْنَةِ
أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا ٦١

٢٨٧

﴿ وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزِعُ
بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوًّا مُبِينًا ٥٦ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ
بِكُمْ إِنْ يَشَأْ يُرْحَمْكُمْ أَوْ إِنْ يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ
وَكِيلًا ٥٧ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَقَدْ
فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ وَمَا آتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا ٥٨

﴿ وهذا من لطفه بعباده؛ حيث أمرهم بأحسن الأخلاق
والأعمال والأقوال الموجبة للسعادة في الدنيا والآخرة،
فقال: ﴿ وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾: وهذا أمر بكل
كلام يقرب إلى الله؛ من قراءة وذكر وعلم وأمر بمعروف
ونهي عن منكر وكلام حسن لطيف مع الخلق على اختلاف
مراتبهم ومنازلهم، وأنه إذا دار الأمر بين أمرين حسنين؛ فإنه
يؤمر بليثار أحسنهما إن لم يمكن الجمع بينهما، والقول
الحسن داع لكل خلق جميل وعمل صالح؛ فإن من ملك
لسانه؛ ملك جميع أمره. وقوله: ﴿ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزِعُ بَيْنَهُمْ ﴾؛
أي: يسعى بين العباد بما يفسد عليهم دينهم ودنياهم؛ فدواء
هذا ألا يطيعوه في الأقوال غير الحسنة التي يدعوهم إليها،
وأن يلبثوا فيما بينهم؛ لينقمع الشيطان الذي ينزع بينهم؛ فإنه
عدوهم الحقيقي الذي ينبغي لهم أن يحاربوه؛ فإنه يدعوهم
ليكونوا من أصحاب السعير، وأما إخوانهم؛ فإنهم وإن نزع
الشیطان فيما بينهم وسعى في العداوة؛ فإن الحزم كل الحزم السعي في ضد عدوهم، وأن يقيموا أنفسهم الأمانة بالسوء، التي
يدخل الشيطان من قبلها؛ فبذلك يطيعون ربه، ويستقيم أمرهم، ويهدون لرشدتهم.

﴿ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ ﴾: من أنفسكم؛ فلذلك لا يريد لكم إلا ما هو الخير، ولا يأمركم إلا بما فيه مصلحة لكم، وقد
تريدون شيئاً الخير في عكسه. ﴿ إِنْ يَشَأْ يُرْحَمْكُمْ أَوْ إِنْ يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ ﴾: فيوفق من شاء لأسباب الرحمة، ويخذل من شاء فيضل
عنها فيستحق العذاب. ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ٥٧ ﴾: تُدبر أمرهم وتقوم بمجازاتهم، وإنما الله هو الوكيل، وأنت
مبلغ هادٍ إلى صراط مستقيم.

﴿ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾: من جميع أصناف الخلائق، فيعطي كلًّا منهم ما يستحقه وتقتضيه حكمته،
ويفضل بعضهم على بعض في جميع الخصال الحسية والمعنوية؛ كما فضل بعض النبيين المشتركين بوحية على بعض،
بالفَضائل والخصائص الراجعة إلى ما منَّ به عليهم، من الأوصاف الممدوحة، والأخلاق المرضية والأعمال الصالحة وكثرة
الأنباع ونزول الكتب على بعضهم، المشتملة على الأحكام الشرعية والعقائد المرضية؛ كما أنزل على داود زبوراً، وهو
الكتاب المعروف؛ فإذا كان تعالى قد فضل بعضهم على بعض وأتى بعضهم كتباً؛ فلم ينكر المكذوبون لمحمد ﷺ ما أنزله الله
عليه وما فضله به من النبوة والكتاب؟

﴿ قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ٥٩ أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَيَّ
رِجْهًا أَلَوْ سِيلَةً أُنْجِيهِمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ٦٠

﴿ يقول تعالى: ﴿ قُلِ ﴾ للمشركين بالله الذين اتخذوا من دونه أنداداً يعبدونهم كما يعبدون الله، ويدعونهم كما يدعونهم
ملزماً لهم بتصحيح ما زعموه، واعتقدوه إن كانوا صادقين: ﴿ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ ﴾: آلهة من دون الله، فانظروا هل ينعفونكم

إلى الله وتصديق رسله قبل أن تتم عليهم كلمة العذاب ويحق عليهم القول.

﴿وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وَآيَاتُنَا نُمُودَ النَّفَاقَةِ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ٥٩﴾ وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ وَمَا جَعَلْنَا آيَةً لَكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةُ الْمَلْعُونَةُ فِي الْفُرْقَانِ وَتَخَوَّفَهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا ٦٠﴾

﴿٥٩﴾ يذكر تعالى رحمته بعدم إنزاله الآيات التي يقترح بها المكذبون، وأنه ما منعه أن يرسلها إلا خوفًا من تكذيبهم لها؛ فإذا كذبوا بها؛ عاجلهم العقاب وحل بهم من غير تأخير كما فعل بالأولين الذين كذبوا بها، ومن أعظم الآيات الآية التي أرسلها الله إلى ثمود، وهي الناقة العظيمة الباهرة التي كانت تصدر عنها جميع القبيلة بأجمعها، ومع ذلك كذبوا بها، فأصابهم ما قص الله علينا في كتابه. وهؤلاء كذلك؛ لو جاءتهم الآيات الكبار؛ لم يؤمنوا؛ فإنه ما منعهم من الإيمان خفاء ما جاء به الرسول واشتباهاه؛ هل هو حق أو باطل؟ فإنه قد جاء من البراهين الكثيرة ما دل على صحة ما جاء به الموجب لهداية من طلب الهداية؛ فغيرها مثلها، فلا بد أن يسلكوا بها ما سلكوا بغيرها، فترك إنزالها والحالة هذه خير لهم وأنفع. وقوله: ﴿وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ٥٩﴾؛ أي: لم يكن القصد بها أن تكون داعية وموجبة للإيمان الذي لا يحصل إلا بها، بل المقصود منها التخويف والترهيب؛ ليرتدعوا عمًا هم عليه.

﴿٦٠﴾ وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ: علمًا وقدرة؛ فليس لهم ملجأ يلجئون إليه ولا ملاذ يلوذون به عنه، وهذا كاف لمن له عقل في الانكفاف عما يكرهه الله الذي أحاط بالناس، ﴿وَمَا جَعَلْنَا آيَةً لَكَ إِلَّا فِتْنَةً ٥٩﴾: أكثر المفسرين على أنها ليلة الإسراء، ﴿وَالشَّجَرَةُ الْمَلْعُونَةُ ٥٩﴾: التي ذكرت في الْفُرْقَانِ؛ وهي شجرة الزقوم التي تنبت في أصل الجحيم.

والمعنى: إذا كان هذان الأمران قد صارا فتنة للناس، حتى استلج الكفار بكفرهم وازداد شرهم، وبعض من كان إيمانه ضعيفًا رجع عنه، بسبب أن ما أخبرهم به من الأمور التي كانت ليلة الإسراء، ومن الإسراء من المسجد الحرام إلى

أو يدفعون عنكم الضر؟ فإنهم لا ﴿يَتَلَكَّوْنَ كَشَفَ الضَّرِّ عَنْكُمْ﴾: من مرض أو فقر أو شدة ونحو ذلك؛ فلا يدفعونه بالكلية. ﴿وَلَا﴾ يملكون أيضًا تحويله من شخص إلى آخر، ومن شدة إلى ما دونها؛ فإذا كانوا بهذه الصفة؛ فلا شيء تدعونهم من دون الله؛ فإنهم لا كمال لهم ولا فعال نافعة؛ فاتخاذهم نقص في الدين والعقل وسفه في الرأي.

ومن العجب أن السفه عند الاعتياد والممارسة وتلقيه عن الآباء الضالين بالقبول يراه صاحبه هو الرأي السديد والعقل المفيد، ويرى إخلاص الدين لله الواحد الأحد الكامل المنعم بجميع النعم الظاهرة والباطنة هو السفه والأمر المتعجب منه؛ كما قال المشركون: ﴿أَجْمَلُ آلِهَةٍ إِلَهًا وَحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ٥٨﴾ [ص: ٥].

﴿٥٧﴾ ثم أخبر أيضًا أن الذين يعبدونهم من دون الله في شغل شاغل عنهم باهتمامهم بالافتقار إلى الله وابتغاء الوسيلة إليه؛ فقال: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ﴾: من الأنبياء والصالحين والملائكة، ﴿يَبْتَغُونَ إِلَهَ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ﴾؛ أي: يتنافسون في القرب من ربهم، ويبدلون ما يقدرون عليه من الأعمال الصالحة المقربة إلى الله تعالى وإلى رحمته، ﴿وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ﴾: فيجتنبون كل ما يوصل إلى العذاب. ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ٥٧﴾؛ أي: هو الذي ينبغي شدة الحذر منه والتوقي من أسبابه. وهذه الأمور الثلاثة الخوف والرجاء والمحبة التي وصف الله بها هؤلاء المقربين عنده هي الأصل والمادة في كل خير؛ فمن تمت له؛ تمت له أموره، وإذا خلا القلب منها؛ ترحلت عنه الخيرات، وأحاطت به الشرور.

وعلاوة المحبة ما ذكره الله أن يجتهد العبد في كل عمل يقربه إلى الله، ويتنافس في قربه بإخلاص الأعمال كلها لله، والصبح فيها وإيقاعها في أكمل الوجوه المقدور عليها؛ فمن زعم أنه يحب الله بغير ذلك؛ فهو كاذب.

﴿وَلَنْ يَنْ قَرِيبَةً إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ أَلْفَيْكَمَةٍ أَوْ مَعْدِبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا ٥٨﴾

﴿٥٨﴾ أي: ما من قرية من القرى المكذبة للرسول إلا لا بد أن يصيبهم هلاك قبل يوم القيامة أو عذاب شديد، كتاب كتبه الله وقضاء أبرمه لا بد من وقوعه؛ فليادر المكذبون بالإجابة

سورة الإسراء

الحزب الخامس عشر

وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ
وَالَّذِينَ آمَنُوا ثَلَاثَةٌ قَبْلَهُمْ فَبَطَلُوا فِيهَا فَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ
إِلَّا تَخَوِيفًا ﴿٥٨﴾ وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ وَمَا
جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ
فِي الْقُرْآنِ وَنُحِفُّهُمْ فَمَا يَرِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا ﴿٥٩﴾
وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ
قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴿٦٠﴾ قَالَ أَرَأَيْتَ هَذَا الَّذِي
كَرَّمْتَ عَلَى كَيْنَ أَخْرَجْتَنِي إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ لَأُحْثِكَ
ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦١﴾ قَالَ أَذْهَبَ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ
جَهَنَّمَ جَزَاءُكُمْ جَزَاءً مَوْفُورًا ﴿٦٢﴾ وَأَسْتَفْزِرُ مِنْ أَسْطَقَتْ
مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبَ عَلَيْهِمْ بِخَبْرِكَ وَرَجَلَكَ وَشَارَكُهُمْ
فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعَدَهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا
غُرُورًا ﴿٦٣﴾ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى
بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴿٦٤﴾ رَبُّكُمْ الَّذِي يُزْجِي لَكُمْ الْفَلَكَ
فِي الْبَحْرِ لِيَنْتَقُوا مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهٗ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٦٥﴾

٢٨٨

المسجد الأقصى كان خارقاً للعادة، والإخبار بوجود شجرة
تنبت في أصل الجحيم أيضًا من الخوارق؛ فهذا الذي أوجب
لهم التكذيب؛ كيف لو شاهدوا الآيات العظيمة والخوارق
الجسيمة؟! ليس ذلك أولى أن يزداد بسببه شرهم؛ فلذلك
رحمهم الله وصرفها عنهم. ومن هنا تعلم أن عدم التصريح في
الكتاب والسنة بذكر الأمور العظيمة التي حدثت في الأزمنة
المتأخرة أولى وأحسن؛ لأن الأمور التي لم يشاهد الناس لها
نظيراً ربما لا تقبلها عقولهم، لو أخبروا بها قبل وقوعها فيكون
ذلك ريباً في قلوب بعض المؤمنين ومانعاً يمنع من لم يدخل
الإسلام ومنفراً عنه، بل ذكر الله ألفاظاً عامة تتناول جميع ما
يكون. والله أعلم. ﴿وَنُحِفُّهُمْ﴾: بالآيات، ﴿فَمَا يَرِيدُهُمْ﴾:
التخويف، ﴿إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا﴾: ﴿وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ﴾: وهذا أبلغ ما يكون في
التحلي بالشر ومحبه وبغض الخير وعدم الانقياد له.

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ
قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا﴾ ﴿٦٠﴾ قَالَ أَرَأَيْتَ هَذَا الَّذِي
كَرَّمْتَ عَلَى كَيْنَ أَخْرَجْتَنِي إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ لَأُحْثِكَ
ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦١﴾ قَالَ أَذْهَبَ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ
جَهَنَّمَ جَزَاءُكُمْ جَزَاءً مَوْفُورًا ﴿٦٢﴾ وَأَسْتَفْزِرُ مِنْ أَسْطَقَتْ
مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبَ عَلَيْهِمْ بِخَبْرِكَ وَرَجَلَكَ وَشَارَكُهُمْ
فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعَدَهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا
غُرُورًا ﴿٦٣﴾ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى
بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴿٦٤﴾ رَبُّكُمْ الَّذِي يُزْجِي لَكُمْ الْفَلَكَ
فِي الْبَحْرِ لِيَنْتَقُوا مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهٗ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٦٥﴾

﴿٦١﴾ بنه تبارك وتعالى عباده على شدة عداوة الشيطان وحرصه على إضلالهم، وأنه لما خلق الله آدم؛ استكبر عن السجود
له و﴿٦٢﴾ قال ﴿متكبراً﴾: ﴿أَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا﴾ ﴿٦١﴾؛ أي: من طين، وبزعمه أنه خير منه؛ لأنه خلق من نار، وقد تقدم فساد
هذا القياس الباطل من عدة أوجه.

﴿٦٣﴾ فلما تبين لإبليس تفضيل الله لآدم؛ ﴿قَالَ﴾ مخاطباً لله: ﴿أَرَأَيْتَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَى كَيْنَ أَخْرَجْتَنِي إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ
لَأُحْثِكَ ذُرِّيَّتَهُ﴾؛ أي: لأستأصلنهم بالإضلال ولأغوينهم، ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ ﴿٦٣﴾: عرف الخبيث أنه لا بد أن يكون منهم من
يعاديه ويعصيه.

﴿٦٤﴾ فقال الله له: ﴿أَذْهَبَ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ﴾: واختارك على ربه ووليه الحق. ﴿فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاءُكُمْ جَزَاءً مَوْفُورًا﴾ ﴿٦٤﴾؛
أي: مدخراً لكم موفراً جزاء على أعمالكم.

﴿٦٥﴾ ثم أمره الله أن يفعل كل ما يقدر عليه من إضلالهم، فقال: ﴿وَأَسْتَفْزِرُ مِنْ أَسْطَقَتْ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ﴾: ويدخل في هذا
كل داع إلى المعصية، ﴿وَأَجْلِبَ عَلَيْهِمْ بِخَبْرِكَ وَرَجَلَكَ﴾: ويدخل فيه كل راكب وماشى في معصية الله؛ فهو من خيل الشيطان
ورجله. والمقصود أن الله ابتلى العباد بهذا العدو المبين الداعي لهم إلى معصية الله بأقواله وأفعاله. ﴿وَشَارَكُهُمْ فِي الْأَمْوَالِ
وَالْأَوْلَادِ﴾: وذلك شامل لكل معصية تعلقت بأموالهم وأولادهم من منع الزكاة والكفارات والحقوق الواجبة، وعدم تأديب
الأولاد وتربيتهم على الخير وترك الشر، وأخذ الأموال بغير حقها أو وضعها بغير حقها أو استعمال المكاسب الرديئة، بل
ذكر كثير من المفسرين أنه يدخل في مشاركة الشيطان في الأموال والأولاد ترك التسمية عند الطعام والشراب والجماع،

سورة الإسراء

المزمل

وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَاهًا فَلَمَّا نَجَّكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾ أَفَأَمْسَرْتُمْ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبُ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلًا ﴿٦٨﴾ أَمْ أَمْسَرْتُمْ أَنْ يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَى فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِبًا مِنْ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ نَبِيًّا ﴿٦٩﴾ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَجَعَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ رَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾ يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِسْمِهِمْ فَمَنْ أَوْفَىٰ كِتَابِهِ يَمِيزْنَاهُ فَأُولَٰئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فِي شَيْءٍ ﴿٧١﴾ وَمَنْ كَانَتْ فِي هَذِهِ آعَمَنَ فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ آعَمَنَ وَأَصْلَبَ سِيلًا ﴿٧٢﴾ وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أُوْحِيَٰنَا إِلَيْكَ لَيَفْتِنَنَّ عَلَيْنَا عَبْدَهُ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَوَّاهُ خَلِيلًا ﴿٧٣﴾ وَلَوْلَا أَنْ تَبَشَّرْتَ لَقَدْ كُنْتَ تَرَكُنَّ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذَا لَأَذْنُكَ ضَعْفَ الْحَيَوةِ وَضَعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴿٧٥﴾

٢٨٩

أَنْ يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَى فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِبًا مِنْ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ نَبِيًّا ﴿٦٩﴾

﴿٦٦﴾ يذكر تعالى نعمته على العباد بما سخر لهم من الفلك والسفن والمراكب، وألهمهم كيفية صنعتهما وسخر لها البحر الملطم يحملها على ظهره؛ ليتنفع العباد بها في الركوب والحمل للأمتعة والتجارة، وهذا من رحمته بعباده؛ فإنه لم يزل بهم رحيمًا رءوفًا، يؤتيهم من كل ما تعلق به إرادتهم ومنافعهم.

﴿٧٧﴾ ومن رحمته الدالة على أنه وحده المعبود دون ما سواه أنهم إذا مسهم الضر في البحر، فخافوا من الهلاك لتراكم الأمواج؛ ضل عنهم ما كانوا يدعون من دون الله في حال الرخاء من الأحياء والأموات، فكانهم لم يكونوا يدعونهم في وقت من الأوقات؛ لعلمهم أنهم ضعفاء عاجزون عن كشف الضر، وصرخوا بدعوة فاطر الأرض والسموات، الذي تستغيث به في شدائد جميع المخلوقات، وأخلصوا له الدعاء والتضرع في هذه الحال، فلما كشف الله عنهم الضر ونجاهم إلى البر؛ نسوا ما كانوا يدعون إليه من قبل، وأشركوا به من لا ينفع ولا يضر ولا يعطي ولا يمنع، وأعرضوا عن الإخلاص لربهم ومليكمهم.

وهذا من جهل الإنسان وكفره؛ فإن الإنسان كفور للنعم؛ إلا من هدى الله فمنَّ عليه بالعقل السليم واهتدى إلى الصراط المستقيم؛ فإنه يعلم أن الذي يكشف الشدائد، وينجي من الأهوال هو الذي يستحق أن يفرد، وتخلص له سائر الأعمال في الشدة والرخاء واليسر والعسر، وأما من خذل ووكل إلى عقله الضعيف؛ فإنه لم يلحظ وقت الشدة إلا مصلحته الحاضرة وإنجاءه في تلك الحال، فلما حصلت له النجاة وزالت عنه المشقة؛ ظن بجعله أنه قد أعجز الله، ولم يخطر بقلبه شيء من العواقب الدنيوية فضلًا عن أمور الآخرة.

﴿٦٨﴾ ولهذا ذكرهم الله بقوله: ﴿أَفَأَمْسَرْتُمْ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبُ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا﴾؛ أي: فهو على كل شيء قدير، إن شاء أنزل عليكم عذابًا من أسفل منكم بالخسف، أو من فوقكم بالحاصب، وهو العذاب الذي يحصبهم فيصبحوا

وأنه إذا لم يسم الله في ذلك؛ شارك فيه الشيطان؛ كما ورد فيه الحديث. ﴿وَعَذَّبْنَاهُمْ﴾: الرعود المزخرفة التي لا حقيقة لها، ولهذا قال: ﴿وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾ ﴿٦٩﴾؛ أي: باطلاً مُضْمَحَلًّا؛ كأن يزين لهم المعاصي والعقائد الفاسدة، ويعدهم عليها الأجر؛ لأنهم يظنون أنهم على الحق، وقال تعالى: ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلًا﴾ [البقرة: ٢٦٨].

﴿٦٩﴾ ولما أخبر عما يريد الشيطان أن يفعل بالعباد؛ ذكر ما يُعْتَصَمُ به من فتنته، وهو عبودية الله والقيام بالإيمان والتوكل، فقال: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾؛ أي: تسلط وإغواء، بل الله يدفع عنهم بقيامهم بعبوديته كل شر، ويحفظهم من الشيطان الرجيم، ويقوم بكفائتهم. ﴿وَكَفَىٰ بَرِيكَ وَكِيلًا﴾ ﴿٧٠﴾: لمن توكل عليه، وأدى ما أمر به.

﴿رَبُّكُمْ الَّذِي يُرْسِلُ لَكُمْ الْفَلَكَ فِي الْبَحْرِ لِيَنْبَغُوا مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ ﴿٦٦﴾ وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَاهًا فَلَمَّا نَجَّكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾ أَفَأَمْسَرْتُمْ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبُ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلًا ﴿٦٨﴾ أَمْ أَمْسَرْتُمْ أَنْ يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَى فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِبًا مِنْ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ نَبِيًّا ﴿٦٩﴾

على ما يرون فيها مما يفرحهم ويسرهم، ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ فَيَسِيلَ﴾ (٧١) ﴿مما عملوه من الحسنات.

﴿وَمَنْ كَانَتْ فِي هَذِهِ﴾: الدنيا ﴿أَعْمَى﴾: عن الحق؛ فلم يقبله ولم ينقد له، بل اتبع الضلال، ﴿فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى﴾: عن سلوك طريق الجنة كما لم يسلكه في الدنيا، ﴿وَأَصْلُ سَبِيلَا﴾ (٧٢) ﴿فإن الجزاء من جنس العمل، وكما تدين تدان.

وفي هذه الآية دليل على أن كل أمة تدعى إلى دينها وكتابها وهل عملت به أم لا؟ وأنهم لا يؤاخذون بشرع نبي لم يؤمروا باتباعه، وأن الله لا يعذب أحداً إلا بعد قيام الحجة عليه ومخالفته لها، وأن أهل الخير يعطون كتبهم بأيمانهم، ويحصل لهم من الفرح والسرور شيء عظيم، وأن أهل الشر بعكس ذلك، وأنهم لا يقدرون على قراءة كتبهم من شدة غمهم وحزنهم وثبورهم.

﴿وَلَنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أُوتِيتَ إِلَيْكَ لَيَفْتَرِيَنَّ عَلَيْنَا عَنَّا وَإِذَا لَتَأْخُذُوكَ خَلِيلًا﴾ (٧٣) ﴿وَلَوْ أَنَّ تَبَنَّنَاكَ لَفَتَدَّيْتُكَ عَنْ إِلَهِهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا﴾ (٧٤) ﴿إِذَا لَأَذْفَنَّاكَ ضَعْفَ الْحَيَوةِ وَضَعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا﴾ (٧٥) ﴿وَلَنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّوكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذَا لَا يَلْسُوكَ خِلَافَكَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (٧٦) ﴿سُنَّةً مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا﴾ (٧٧).

﴿٧٣﴾ يذكر تعالى مته على رسوله محمد ﷺ وحفظه له من أعدائه الحريصين على فتنه بكل طريق، فقال: ﴿وَلَنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أُوتِيتَ إِلَيْكَ لَيَفْتَرِيَنَّ عَلَيْنَا﴾ أي: قد كادوا لك أمراً لم يدركوه، وتحيلوا لك، على أن تفتري على الله غير الذي أنزلنا إليك، فتجيء بما يوافق أهواءهم، وتدع ما أنزل الله إليك. ﴿وَإِذَا﴾: لو فعلت ما يهون؛ ﴿لَتَأْخُذُوكَ خَلِيلًا﴾ (٧٣) ﴿أي: حبيباً صفيّاً أعز عليهم من أحبائهم لما جبلك الله عليه من مكارم الأخلاق ومحاسن الآداب المحببة للقريب والبعيد والصديق والعدو، ولكن لتعلم أنهم لم يعادوك وينابذك العدواة إلا للحق الذي جئت به لا لذاتك؛ كما قال تعالى: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزَنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يَكَذُّونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ (٣٢) ﴿[الأنعام: ٣٣].

هالكين؛ فلا تظنوا أن الهلاك لا يكون إلا في البحر، وإن ظننتم ذلك؛ فأنتم آمنون من ﴿أَنْ يُعِيدَكُمْ﴾: في البحر؛ ﴿تَارَةً أُخْرَى فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِنَ الرِّيحِ﴾؛ أي: ريحاً شديدة جداً تقصف ما أنت عليه، ﴿فَيَغْرِقَكُمْ يَمًا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُ الْكَرَّ عَلَيْنَا يَوْمَ تَبْعَا﴾ (٧٩) ﴿أي: تبعة ومطالبة؛ فإن الله لم يظلمكم مثقال ذرة.

﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَجَعَلْنَاهُمْ فِي الدَّرَجَاتِ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ (٧٨).

﴿٧٨﴾ وهذا من كرمه عليهم وإحسانه الذي لا يقادر قدره؛ حيث كرم بني آدم بجميع وجوه الإكرام، فكرمهم بالعلم والعقل وإرسال الرسل وإنزال الكتب، وجعل منهم الأولياء والأصفياء، وأنعم عليهم بالنعم الظاهرة والباطنة، ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ فِي الدَّرَجَاتِ﴾: على الركاب من الإبل والبغال والحمير والمراكب البرية. وفي البحر في السفن والمراكب، ﴿وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾: من المأكول والمشروب والملابس والمناجح؛ فما من طبيب تتعلق به حوائجهم إلا وقد أكرمهم الله به ويسره لهم غاية التيسير، ﴿وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ (٧٩) ﴿بما خصهم به من المناقب وفضلهم به من الفضائل التي ليست لغيرهم من أنواع المخلوقات، أفلا يقومون بشكر من أولى النعم ودفع النقم، ولا تحجبهم النعم عن المنعم فيشتغلوا بها عن عبادة ربهم، بل ربما استعانوا بها على معاصيه؟!﴾

﴿يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أَنَسٍ بِإِمِينِهِ فَمَنْ أُوْفِيَ كِتَابُهُ بِمِيزَانِهِ فَأُولَئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَيَسِيلَ﴾ (٧١) ﴿مَنْ كَانَتْ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى وَأَصْلُ سَبِيلَا﴾ (٧٢).

﴿٧١﴾ يخبر تعالى عن حال الخلق يوم القيامة، وأنه يدعو كل أناس معهم إمامهم وهاديتهم إلى الرشد، وهم الرسل ونوابهم، فتعرض كل أمة، ويحضرها رسولهم الذي دعاهم، وتعرض أعمالهم على الكتاب الذي يدعو إليه الرسول هل هي موافقة له أم لا؟ فينقسمون بهذا قسمين: ﴿فَمَنْ أُوْفِيَ كِتَابُهُ بِمِيزَانِهِ﴾: لكونه اتبع إمامه الهادي إلى صراط مستقيم، واهتدى بكتابه، فكثرت حسناته، وقلت سيئاته؛ ﴿فَأُولَئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ﴾: قراءة سرور وبهجة

﴿٧٥﴾ ومع هذا فلولا ﴿أَنْ تَبْنِيَنَّكَ﴾: على الحق وامتنا عليك بعدم الإجابة لداعيهم، ﴿لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا﴾ ﴿٧٦﴾: من كثرة المعالجة ومحبتك لهدايتهم.

﴿٧٥﴾ إِذَا ﴿٧٥﴾: لو ركنت إليهم بما يهون، ﴿لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ﴾؛ أي: لأصنأك بعداب مضاعف في الدنيا والآخرة، وذلك لكمال نعمة الله عليك وكمال معرفتك. ﴿ثُمَّ لَا يَجِدُ لَكَ عَلَيْكَ نَصِيرًا﴾ ﴿٧٥﴾: ينقذك مما يحل بك من العذاب، ولكن الله تعالى عصمك من أسباب الشر ومن الشر، فثبتك وهداك الصراط المستقيم، ولم تتركن إليهم بوجه من الوجوه؛ فله عليك أتم نعمة وأبلغ منحة.

﴿٧٦﴾، ﴿٧٦﴾ وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّوكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا﴾؛ أي: من بغضهم لمقامك بين أظهرهم، قد كادوا أن يخرجوك من الأرض ويجعلوك عنها، ولو فعلوا ذلك؛ لم يلبثوا بعدك فيها إلا قليلاً، حتى تحل بهم العقوبة؛ كما هي سنة الله التي لا تحول ولا تبدل في جميع الأمم، كل أمة كذبت رسولها وأخرجته؛ عاجلها الله بالعقوبة، ولما مكر به الذين كفروا وأخرجوه؛ لم يلبثوا إلا قليلاً حتى أوقع الله بهم بيدر، وقتل صناديدهم، وفض يبيضتهم؛ فله الحمد.

وفي هذه الآيات دليل على شدة افتقار العبد إلى تثبيت الله إياه، وأنه ينبغي له ألا يزال متملقاً لربه أن يثبتته على الإيمان ساعياً في كل سبب موصل إلى ذلك؛ لأن النبي ﷺ - وهو أكمل الخلق - قال الله له: ﴿وَلَوْ لَا أَنْ تَبْنِيَنَّكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا﴾ ﴿٧٦﴾؛ فكيف بغيره؟!

وفيها: تذكير الله لرسوله منته عليه وعصمته من الشر، فدل ذلك على أن الله يحب من عباده أن يتفطنوا لإنعامه عليهم عند وجود أسباب الشر بالعصمة منه والثبات على الإيمان.

وفيها: أنه بحسب علو مرتبة العبد وتواتر النعم عليه من الله يعظم إثمه ويتضاعف جرمه إذا فعل ما يلام عليه؛ لأن الله ذكر رسوله لو فعل - وحاشاه من ذلك - بقوله: ﴿إِذَا لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا يَجِدُ لَكَ عَلَيْكَ نَصِيرًا﴾ ﴿٧٥﴾.

وفيها: أن الله إذا أراد إهلاك أمة؛ تضاعف جرمها وعظم وكبر، فيحق عليها القول من الله، فيوقع بها العقاب؛ كما هي سته في الأمم إذا أخرجوا رسولهم.

﴿أَمِرِ الصَّلَاةَ لِذُلُوكِ السَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنِ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ ﴿٧٨﴾ وَمِنْ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا ﴿٧٩﴾ وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مَدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مَخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا ﴿٨٠﴾ وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾.

﴿٧٨﴾ يأمر تعالى نبيه محمداً ﷺ بإقامة الصلاة تامة ظاهراً وباطناً في أوقاتها، ﴿لِذُلُوكِ السَّمْسِ﴾؛ أي: ميلانها إلى الأفق الغربي بعد الزوال، فيدخل في ذلك صلاة الظهر وصلاة العصر ﴿إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ﴾؛ أي: ظلمته، فدخل في ذلك صلاة المغرب وصلاة العشاء، ﴿وَقُرْآنِ الْفَجْرِ﴾؛ أي: صلاة الفجر، وسميت قرآناً لمشروعية إطالة القرآن فيها أطول من غيرها،

ولفضل القراءة؛ حيث يشهدها الله وملائكة الليل وملائكة النهار.

ففي هذه الآية ذكر الأوقات الخمسة للصلوات المكتوبات، وأن الصلوات الموقعة فيها فرائض؛ لتخصيصها بالأمر.

وفيها أن الوقت شرط لصحة الصلاة، وأنه سبب لجوبها؛ لأن الله أمر بإقامتها لهذه الأوقات، وأن الظهر والعصر يجمعان، والمغرب والعشاء كذلك؛ للعدر؛ لأن الله جمع وقتها جميعاً.

وفيه فضيلة صلاة الفجر، وفضيلة إطالة القراءة فيها، وأن القراءة فيها ركن؛ لأن العبادة إذا سميت ببعض أجزائها؛ دل على فرضية ذلك.

﴿٧٩﴾ وقوله: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ﴾؛ أي: صل به في سائر أوقاته، ﴿نَافِلَةً لَّكَ﴾؛ أي: لتكون صلاة الليل زيادة لك في علو القدر ورفع الدرجات؛ بخلاف غيرك؛ فإنها تكون كفارة لسيئاته. ويحتمل أن يكون المعنى أن الصلوات الخمس فرض عليك وعلى المؤمنين؛ بخلاف صلاة الليل؛ فإنها فرض عليك بالخصوص؛ لكرامتك على الله أن جعل وظيفتك أكثر من غيرك، وليكثر ثوابك، وتنال بذلك المقام المحمود، وهو المقام الذي يحمده فيه الأولون والآخرون، مقام الشفاعة العظمى، حين يستشفع الخلائق بآدم ثم بنوح ثم إبراهيم ثم موسى ثم عيسى، وكلهم يعتذر ويتأخر عنها، حتى يستشفعوا بسيد ولد آدم ليرحمهم الله من هم الموقف وكربه، فيشفع عنده، فيشفعه وقيمه مقاماً يغبطه به الأولون والآخرون، وتكون له المنة على جميع الخلق.

﴿٨٠﴾ وقوله: ﴿وَقُلْ رَبِّ ادْخُلْنِي مَدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مَخْرَجَ صِدْقٍ﴾؛ أي: اجعل مدخلي ومخارجي كلها في طاعتك وعلى مرضاتك، وذلك لتضمنها الإخلاص وموافقة الأمر. ﴿وَأَجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا﴾؛ أي: حجة ظاهرة وبرهاناً قاطعاً على جميع ما أتبه وما أذره، وهذا أعلى حالة ينزلها الله العبد، أن تكون أحواله كلها خيراً ومقربة له إلى ربه، وأن يكون له على كل حالة من أحواله دليل ظاهر، وذلك متضمن للعلم النافع والعمل الصالح للعلم بالمسائل والدلائل.

﴿٨١﴾ وقوله: ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ﴾: والحق هو ما أوحاه الله إلى رسوله محمد ﷺ، فأمره الله أن يقول

ويعلن: قد جاء الحق الذي لا يقوم له شيء، وزهق الباطل؛ أي: اضمحل وتلاشى. ﴿إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾؛ أي: هذا وصف الباطل، ولكنه قد يكون له صولة وروجان إذا لم يقابله الحق، فعند مجيء الحق؛ يضمحل الباطل فلا يبقى له حراك، ولهذا لا يروج الباطل إلا في الأزمان والأمكنة الخالية من العلم بآيات الله وبيناته. وقوله:

﴿وَنَزَّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾.

﴿٨٢﴾ فالقرآن مشتمل على الشفاء والرحمة، وليس ذلك لكل أحد، وإنما ذلك للمؤمنين به المصدقين بآياته العالمين به، وأما الظالمون بعدم التصديق به أو عدم العمل به؛ فلا تزيدهم آياته إلا خساراً؛ إذ به تقوم عليهم الحجة؛ فالشفاء الذي تضمنه القرآن عام لشفاء القلوب من الشبه والجهالة والآراء الفاسدة والانحراف السيئ والقصود السيئة؛ فإنه مشتمل على العلم اليقيني الذي تزول به كل شبهة وجهالة، والوعظ والتذكير الذي يزول به كل شهوة تخالف أمر الله، وشفاء الأبدان من آلامها وأسقامها، وأما الرحمة؛ فإن ما فيه من الأسباب والوسائل التي يحث عليها متى فعلها العبد، فاز بالرحمة والسعادة الأبدية والثواب العاجل والآجل.

﴿وَإِذَا آتَيْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ آعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَتُوسَّأُ﴾.

﴿٨٣﴾ هذه طبيعة الإنسان من حيث هو، إلا من هداه الله؛ فإن الإنسان عند إنعام الله عليه يفرح بالنعم، ويبطر بها، ويعرض، وينأى بجانبه عن ربه؛ فلا يشكره، ولا يذكره. ﴿وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ﴾: كالمرض ونحوه، ﴿كَانَ يَتُوسَّأُ﴾: من الخير، قد قطع عن ربه رجاءه، وظن أن ما هو فيه دائم أبداً، وأما من هداه الله؛ فإنه عند النعم يخضع لربه، ويشكر نعمته، وعند الضراء يتضرع، ويرجو من الله عافيته وإزالة ما يقع فيه، وبذلك يخف عليه البلاء.

﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَى سَبِيلًا﴾.

﴿٨٤﴾ أي: ﴿قُلْ كُلٌّ﴾: من الناس، ﴿يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ﴾؛ أي: على ما يليق به من الأحوال؛ إن كان من الصفوة الأبرار؛ لم يشاكلهم إلا عملهم لرب العالمين، ومن كان من غيرهم

سورة الإسراء

الترجمان

إِلَّا رَحْمَةً مِن رَّبِّكَ إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا ﴿٨٧﴾ قُلْ لِّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾ صَرَفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٨٩﴾ وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِكَ حَتَّى تُنْزِلَ عَلَيْنَا مِنَ السَّمَاءِ نَارًا أَوْ تُنْزِلَ عَلَيْنَا مَائِيقًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تُنْزِلَ عَلَيْنَا مَائِيقًا أَوْ تَأْتِيَ بِنَا اللَّهَ وَالْمَلَائِكَةَ فَيَكُونُ أَوْ يَكُونُ لَكَ بَيْتٌ مِّن رَّحْمَتِي أَوْ تَرْفَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُفَيْكَ حَتَّى تُنْزِلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرؤه قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا ﴿٩١﴾ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا ﴿٩٢﴾ قُلْ لَوْ كُنَّا فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةً يَّمشُونَ مَطْمَئِينَ لَئَلَّانَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا ﴿٩٣﴾ قُلْ كَفَىٰ بِإِلَهِهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴿٩٤﴾

٢٩١

من المخذولين؛ لم يناسبهم إلا العمل للمخلوقين، ولم يوافقهم إلا ما وافق أغراضهم. ﴿٨٧﴾ فَرَبِّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا ﴿٨٨﴾: فيعلم من يصلح للهداية فيهديه، ومن لا يصلح لها فيخذله ولا يهديه.

﴿٨٩﴾ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٩٠﴾.

﴿٩١﴾ وهذا متضمن لردع من يسأل المسائل التي لا يقصد بها إلا التعنت والتعجيز، ويدع السؤال عن المهم، فيسألون عن الروح التي هي من الأمور الخفية التي لا يتقن وصفها وكيفيتها كل أحد، وهم قاصرون في العلم الذي يحتاج إليه العباد، ولهذا أمر الله رسوله أن يجيب سؤالهم بقوله: ﴿٩٢﴾ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي ﴿٩٣﴾ أي: من جملة مخلوقاته التي أمرها أن تكون فكانت، فليس في السؤال عنها كبير فائدة مع عدم علمكم بغيرها.

وفي هذه الآية دليل على أن المسئول إذا سئل عن أمر، الأولي بالسائل غيره أن يعرض عن جوابه، ويدله على ما يحتاج إليه، ويرشده إلى ما ينفعه.

﴿٩٤﴾ وَلَكِنْ شِئْنَا لَنُدْهَبَ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ثُمَّ لَا يَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلًا ﴿٩٥﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِن رَّبِّكَ إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا ﴿٩٦﴾.

﴿٩٧﴾ يخبر تعالى أن القرآن والوحي الذي أوحاه إلى رسوله رحمة منه عليه وعلى عباده، وهو أكبر النعم على الإطلاق على رسوله؛ فإن فضل الله عليه كبير لا يقادر قدره؛ فالذي تفضل به عليك قادر على أن يذهب به ثم لا تجد راداً يرده ولا وكيلاً يتوجه عند الله فيه؛ فلتغيب به وتقر به عينك، ولا يحزنك تكذيب المكذبين واستهزاء الضالين؛ فإنهم عرضت عليهم أجل النعم فردوها لهوانهم على الله وخذلانه لهم.

﴿٩٨﴾ قُلْ لِّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٩٩﴾.

﴿١٠٠﴾ وهذا دليل قاطع وبرهان ساطع على صحة ما جاء به الرسول وصدقه؛ حيث تحدى الله الإنس والجن أن يأتوا بمثله، وأخبر أنهم لا يأتون بمثله، ولو تعاونوا كلهم على ذلك؛ لم يقدروا عليه، ووقع كما أخبر الله؛ فإن دواعي أعدائه المكذبين به متوفرة على رد ما جاء به بأي وجه كان، وهم أهل اللسان والفصاحة؛ فلو كان عندهم أدنى تأهل وتمكن من ذلك؛ لفعلوه، فعلم بذلك أنهم أذعنوا غاية الإذعان طوعاً وكرهاً، وعجزوا عن معارضته، وكيف يقدر المخلوق من تراب، الناقص من جميع الوجوه، الذي ليس له علم ولا قدرة ولا إرادة ولا مشيئة ولا كلام ولا كمال إلا من ربه؛ أن يعارض كلام رب الأرض والسموات، المطلع على سائر الخفيات، الذي له الكمال المطلق والحمد المطلق والمجد العظيم، الذي لو أن البحر يمدده من بعده سبعة أبحر مدداً والأشجار كلها أقلاماً؛ لنفذ المداد وفيت الأقلام ولم تنفذ كلمات الله؛ فكما أنه ليس أحد من المخلوقين مماثلاً لله في أوصافه؛ فكلامه من أوصافه التي لا يماثله فيها أحد؛ فليس كمثل شيء في ذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله تبارك وتعالى؛ فتباً لمن اشتبه عليه كلام الخالق بكلام المخلوق، وزعم أن محمداً ﷺ افتراه على الله، واختلقه من نفسه.

تابعة لأهوائهم الفاسدة وآرائهم الضالة. ﴿٨٧﴾ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا مَّرْسُولًا ﴿٨٨﴾: ليس بيده شيء من الأمر.

﴿٨٩﴾ وهذا السبب الذي منع أكثر الناس من الإيمان؛ حيث كانت الرسل التي ترسل إليهم من جنسهم بشرًا، وهذا من رحمته بهم أن أرسل إليهم بشرًا منهم؛ فإنهم لا يطيقون التلقي من الملائكة.

﴿٩٠﴾ فلو ﴿٩١﴾ كَانَتْ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ ﴿٩٢﴾: يشتون على رؤية الملائكة والتلقي عنهم؛ ﴿٩٣﴾ لَازَلْنَا عَلَيْهِمْ رِسَالَاتِ السَّمَاءِ مَلَكًا مَّرْسُولًا ﴿٩٤﴾: ليتمكنهم التلقي عنه.

﴿٩٥﴾ قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ إِنَّهُ كَانَ بِعَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴿٩٦﴾: فمن شهادته لرسوله ما أيده به من المعجزات، وما أنزل عليه من الآيات، ونصره على من عاداه وناواه؛ فلو تقول عليه بعض الأقاويل؛ لأخذ منه باليمين، ثم لقطع منه الوتين؛ فإنه خير بصير، لا تخفى عليه من أحوال العباد خافية.

﴿٩٧﴾ وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَبْهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِلْ فَلَنْ يَجِدَ لَهُمَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِهِ وَيَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عَلَىٰ وَجُوهِهِمْ عَمِيًّا وَيَكْفُرُوا بِمَاؤْنَهُمْ جَهَنَّمَ كَلَمًا خَبَثَ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا ﴿٩٨﴾ ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا وَقَالُوا إِذَا كُنَّا عِظْمًا وَرَفَثًا إَوْفَا لِمِيعُونُ خَلَقْنَا جَدِيدًا ﴿٩٩﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَا رَيْبَ فِيهِ فَإِنَّ الظَّالِمِينَ إِلَّا كُفُورًا ﴿١٠٠﴾ قُلْ لَوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذَا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُورًا ﴿١٠١﴾.

﴿١٠٢﴾ يخبر تعالى أنه المنفرد بالهداية والإضلال؛ فمن يهده فيسره لليسرى ويجنبه العسرى؛ فهو المهتدي على الحقيقة، ومن يضلله فيضلّه ويكله إلى نفسه؛ فلا هادي له من دون الله، وليس له ولي ينصره من عذاب الله حين يحشرهم الله على وجوههم، خزيًا وإهانة، عميًا وبكمًا، لا يبصرون، ولا ينطقون. ﴿١٠٣﴾ مَاؤْنَهُمْ ﴿١٠٤﴾: أي: مقرهم ودارهم ﴿١٠٥﴾ جَهَنَّمَ ﴿١٠٦﴾: التي جمعت كل هم وغم وعذاب. ﴿١٠٧﴾ كَلَمًا خَبَثَ ﴿١٠٨﴾: أي: تهيات للانطفاء، ﴿١٠٩﴾ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا ﴿١١٠﴾: أي: سحرناهم بهم، لا يثتر عنهم العذاب، ولا يقضى عليهم فيموتوا، ولا يخفف عنهم من عذابها.

﴿٨٩﴾ وَلَقَدْ صَرَفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٩٠﴾ وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَنْجِرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَبُوعًا ﴿٩١﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّنْ نَّجِيلٍ وَعَنْبٍ فَتَنْجِرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَنْجِيرًا ﴿٩٢﴾ أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسْفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٣﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّنْ زُخْرٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُبِّكَ حَتَّىٰ تُنْزِلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرؤه قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا مَّرْسُولًا ﴿٩٤﴾ وَمَا مَعَ النَّاسِ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا مَّرْسُولًا ﴿٩٥﴾ قُلْ لَوْ كُنَّا فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَازَلْنَا عَلَيْهِمْ رِسَالَاتِ السَّمَاءِ مَلَكًا مَّرْسُولًا ﴿٩٦﴾ قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ إِنَّهُ كَانَ بِعَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴿٩٧﴾.

﴿٩٨﴾ - ﴿٩٩﴾ يقول تعالى: ﴿٩٨﴾ وَلَقَدْ صَرَفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ ﴿٩٩﴾: أي: نوعنا فيه المواعظ والأمثال، وثبتنا فيه المعاني التي يضطر إليها العباد لأجل أن يتذكروا ويتقوا، فلم يتذكر إلا القليل منهم، الذين سبقت لهم من الله سابقة السعادة، وأعانهم الله بتوفيقه، وأما أكثر الناس؛ فأبوا إلا كفورًا لهذه النعمة التي هي أكبر من جميع النعم، وجعلوا يتعتون عليه آيات غير آياته يخترعونها من تلقاء أنفسهم الظالمة الجاهلة، فيقولون لرسول الله ﷺ الذي أتى بهذا القرآن المشتمل على كل برهان وآية: ﴿١٠٠﴾ لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَنْجِرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَبُوعًا ﴿١٠١﴾: أي: أنهارًا جارية، ﴿١٠٢﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّنْ نَّجِيلٍ وَعَنْبٍ ﴿١٠٣﴾: فتستغني بها عن المشي في الأسواق والذهاب والمجيء، ﴿١٠٤﴾ أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسْفًا ﴿١٠٥﴾: أي: قطعًا من العذاب، ﴿١٠٦﴾ أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا ﴿١٠٧﴾: أي: جميعًا أو مقابلة ومعينة يشهدون لك بما جئت به، ﴿١٠٨﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّنْ زُخْرٍ ﴿١٠٩﴾: أي: مزخرف بالذهب وغيره، ﴿١١٠﴾ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ ﴿١١١﴾: رقيًا حسيا. ومع هذا فلن ﴿١١٢﴾ نُؤْمِنَ لِرُبِّكَ حَتَّىٰ تُنْزِلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرؤه ﴿١١٣﴾. ولما كانت هذه تعنتات وتعجيزات وكلام أسفه الناس وأظلمهم، المتضمنة لرد الحق وسوء أدب مع الله، وأن الرسول ﷺ هو الذي يأتي بالآيات؛ أمره الله أن ينزهه، فقال: ﴿١١٤﴾ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي ﴿١١٥﴾: عما تقولون علوًا كبيرًا، وسبحانه أن تكون أحكامه وآياته

﴿٩٨﴾ ولم يظلمهم الله تعالى، بل جازاهم بما كفروا بآياته وأنكروا البعث الذي أخبرت به الرسل، ونطقت به الكتب، وعجزوا ربهم؛ فأنكروا تمام قدرته، ﴿وَقَالُوا أَوَآدَا كُنَّا عِظْمًا وَرَفْتًا أَوَآدَا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾ ﴿٩٩﴾؛ أي: لا يكون هذا؛ لأنه في غاية البعد عند عقولهم الفاسدة.

﴿٩٩﴾ ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾: وهي أكبر من خلق الناس، ﴿فَإِذْ عَلَّمَ الْحَقَّ يَتْلُوهُ﴾: بلى إنه على ذلك قدير. ولكنه قد جعل لذلك ﴿أَجَلًا لَا رَيْبَ فِيهِ﴾: ولا شك ولا فلو شاء لجاءهم به بغتة ومع إقامة الحجج والأدلة على البعث؛ ﴿فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلَّا كُفُّوا﴾ ﴿١٠٠﴾: ظلماً منهم وإفراء.

﴿١٠٠﴾ ﴿قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي﴾: التي لا تنفذ ولا تبعد، ﴿إِذَا لَأْتَسْكُمُ خَشْيَةُ الْإِنْفَاقِ﴾؛ أي: خشية أن ينفد ما تنفقون منه، مع أنه من المحال أن تنفذ خزائن الله، ولكن الإنسان مطبوع على الشح والبخل.

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى إِسْرَءِيلَ﴾: ﴿إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَمُوسَى مَسْحُورًا﴾ ﴿١٠١﴾: ﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بِصَّائِرٍ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَفِرْعَوْنُ مَجْبُورًا﴾ ﴿١٠٢﴾: ﴿فَأَرَادَ أَنْ يَسْتَفِزَّهُمْ مِنَ الْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ جَمِيعًا﴾ ﴿١٠٣﴾: ﴿وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَءِيلَ أَسْكُنُوا الْأَرْضَ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا﴾ ﴿١٠٤﴾.

﴿١٠١﴾ أي: لست أيها الرسول المؤيد بالآيات أول رسول كذبه الناس؛ فلقد أرسلنا قبلك موسى بن عمران الكليم إلى فرعون وقومه وآتيناه ﴿بِشَعَائِصٍ يَبْتَغِي﴾: كل واحدة منها تكفي لمن قصده اتباع الحق كالحية والعصا والطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم والرجز وقلق البحر؛ فإن شككت في شيء من ذلك؛ ﴿فَسَلِّ بَنِي إِسْرَءِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ﴾: مع هذه الآيات: ﴿إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَمُوسَى مَسْحُورًا﴾ ﴿١٠٢﴾.

﴿١٠٢﴾ ﴿فَإِنْ قَالَ لَهُ مُوسَى﴾: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ﴾: يا فرعون، ﴿مَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ﴾: الآيات. ﴿إِلَّا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بِصَّائِرٍ﴾: منه لعباده؛ فليس قولك هذا بالحقيقة، وإنما قلت ذلك ترويحاً على قومك واستخفافاً لهم. ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَفِرْعَوْنُ مَجْبُورًا﴾ ﴿١٠٣﴾؛ أي: ممقوتاً، ملقى في العذاب، لك الويل والدم واللعة.

﴿١٠٣﴾ ﴿فَأَرَادَ﴾: فرعون ﴿أَنْ يَسْتَفِزَّهُمْ مِنَ الْأَرْضِ﴾؛ أي: يجلبهم ويخرجهم منها، ﴿فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ جَمِيعًا﴾ ﴿١٠٤﴾: وأورثنا بني إسرائيل أرضهم وديارهم، ولهذا قال: ﴿وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَءِيلَ أَسْكُنُوا الْأَرْضَ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا﴾ ﴿١٠٥﴾؛ أي: جميعاً؛ ليجازي كل عامل بعمله.

﴿وَيَلْحَقْ أَزْلَتَهُ وَيَلْحَقْ زَلَّ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ ﴿١٠٦﴾

﴿١٠٦﴾ أي: وبالحق أنزلنا هذا القرآن الكريم لأمر العباد ونهيهم وثوابهم وعقابهم، ﴿وَيَلْحَقْ زَلَّ﴾؛ أي: بالصدق والعدل والحفظ من كل شيطان رجيم. ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا﴾: من أطاع الله بالثواب العاجل والآجل، ﴿وَنَذِيرًا﴾: لمن عصى

الله بالعقاب العاجل والآجل، ويلزم من ذلك بيان ما يبشر به وينذر.

﴿وَفَرَأْنَا أَنَّا لِقَرَاءَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ نَزِيلًا ﴿١٠٦﴾ قُلْ ءَامِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَنَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ﴿١٠٩﴾﴾

﴿١٠٦﴾ أي: وأنزلنا هذا القرآن مفرقا فارقا بين الهدى والضلال والحق والباطل؛ ﴿لِقَرَاءَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ﴾؛ أي: على مهل، ليتدبروه، ويفكروا في معانيه ويستخرجوا علومه، ﴿وَنَزَّلْنَاهُ نَزِيلًا ﴿١٠٦﴾﴾؛ أي: شيئا فشيئا مفرقا في ثلاث وعشرين سنة. ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿١٠٧﴾﴾ [الفرقان: ٣٣].

﴿١٠٧﴾ فإذا تبين أنه الحق الذي لا شك فيه ولا ريب بوجه من الوجوه، فـ ﴿قُلْ﴾ لمن كذب به وأعرض عنه: ﴿ءَامِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا﴾: فليس لله حاجة فيكم ولستم بضاربه شيئا، وإنما ضرر ذلك عليكم؛ فإن لله عبادا غيركم، وهم الذين آتاهم الله العلم النافع؛ ﴿إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾﴾؛ أي: يتأثرون به غاية التأثر ويخضعون له.

﴿١٠٨﴾ ﴿وَيَقُولُونَ سُبْحَنَ رَبِّنَا﴾: عما لا يليق بجلاله مما نسب إليه المشركون. ﴿إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا﴾: بالبعث والجزاء بالأعمال، ﴿لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾﴾: لا خلف فيه ولا شك.

﴿١٠٩﴾ ﴿وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ﴾؛ أي: على وجوههم، ﴿يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾: القرآن ﴿خُشُوعًا ﴿١٠٩﴾﴾: وهؤلاء كالذين من الله عليهم من مؤمني أهل الكتاب؛ كعبد الله بن سلام، وغيره ممن أسلم في وقت النبي ﷺ وبعد ذلك.

﴿قُلْ أَدْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى وَلَا تَجْهَرُوا بِصَلَاتِكُمْ وَلَا تَخَافَتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا ﴿١١٠﴾ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذَّلِيلِ وَكِبَرُهُ تَكْبِيرًا ﴿١١١﴾﴾

﴿١١٠﴾ يقول تعالى لعباده: ﴿ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ﴾؛ أي: أيهما شئتم. ﴿أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾؛ أي: ليس له اسم غير حسن؛ حتى ينهى عن دعائه به؛ بل أي اسم دعوتهم به؛ حصل به المقصود، والذي ينبغي أن

يدعى في كل مطلوب بما يناسب ذلك الاسم. ﴿وَلَا تَجْهَرُوا بِصَلَاتِكُمْ﴾؛ أي: قراءتك، ﴿وَلَا تَخَافَتْ بِهَا﴾؛ فإن في كل من الأمرين محذورا، أما الجهر؛ فإن المشركين المكذبين به إذا سمعوه، سبوه، وسبوا من جاء به. وأما المخافة؛ فإنه لا يحصل المقصود لمن أراد استماعه مع الإخفاء. ﴿وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ﴾؛ أي: بين الجهر والإخفات ﴿سَبِيلًا ﴿١١٠﴾﴾؛ أي: توسط فيما بينهما.

﴿١١١﴾ ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾: الذي له الكمال والثناء والحمد والمجد من جميع الوجوه، المتزه عن كل آفة ونقص. ﴿الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ﴾: بل الملك كله لله الواحد القهار؛ فالعالم العلوي والسفلي كله مملوكون لله، ليس لأحد من الملك شيء. ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذَّلِيلِ﴾؛ أي: لا يتولى أحدا من خلقه ليتعزز به ويعاونه، فإنه الغني الحميد، الذي لا يحتاج إلى أحد من المخلوقات في الأرض ولا في السماوات، ولكنه يتخذ أولياءه إحسانا منه إليهم ورحمة بهم، ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ ءَامَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [البقرة: ٢٥٧]. ﴿وَكِبَرُهُ تَكْبِيرًا ﴿١١١﴾﴾؛ أي: عظمه وأجله بالإخبار بأوصافه العظيمة، وبالثناء عليه بأسمائه الحسنى، وبتمجيده بأفعاله المقدسة، وبتعظيمه وإجلاله بعبادته وحده لا شريك له، وإخلاص الدين كله له.

تم تفسير سورة الإسراء ولله الحمد والمنة والثناء الحسن على يد جامعه عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله بن سعدي.

غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين. آمين. وصلى الله على محمد وسلم تسليما كثيرا.

وذلك في ٧ جمادى الأولى سنة ١٣٤٤ هـ.

ونقلته من خط المؤلف بقلم الفقير إلى ربه سليمان الحمد البسام غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين. آمين. وصلى الله على محمد وعلى آله وصحبه أجمعين. آمين ثم آمين^(١).

(١) كان الشيخ - رحمه الله - قد طلب في ١٣٧٤/٢/٣١ هـ من الشيخ محمد نصيف - رحمه الله - أن يختار من يتولى طباعة خمسة آلاف نسخة من المجلد الخامس من التفسير، وذكر محب الدين الخطيب والشيخ حامد الفقي - رحمهما الله - فبعت الشيخ محمد نصيف - رحمه الله - بالكتاب إلى الأستاذ محب الدين الخطيب لطابعته، وطبع بالفعل =

تفسير سورة الكهف

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا ۖ فَيَمَّا يَنْزِيلُ أَسَاسًا شَدِيدًا مِّنْ لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ۖ مَّنَكِبِينَ فِيهِ أَبَدًا ۖ وَيُنذِرُ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ۚ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ ۚ إِنَّ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ۖ فَلِعَلَّكَ بَلِيغٌ تَقْسِكَ عَلَىٰ عَائِثِهِمْ ۚ إِنَّ لَكَ يَوْمَئِذٍ بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسْفًا ۖ﴾

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾: هو الثناء عليه بصفاته التي هي كلها صفات كمال، وبنيمة الظاهرة والباطنة، الدينية والدنيوية، وأجل نعمه على الإطلاق إنزاله الكتاب العظيم على عبده ورسوله محمد ﷺ، فحمد نفسه، وفي ضمنه إرشاد العباد ليحمدوه على إرسال الرسول إليهم، وإنزال الكتاب عليهم. ثم وصف هذا الكتاب بوصفين مشتملين على أنه الكامل من جميع الوجوه، وهما: نفي العوج عنه، وإثبات أنه مقسم مستقيم: فنفي العوج يقتضي أنه ليس في أخباره كذب، ولا في أوامره ونواهي ظلم ولا عبث. وإثبات الاستقامة يقتضي

= عام ١٣٧٥ هـ وقد جعل الشيخ - رحمه الله - لهذا الجزء مقدمة، وأتبعه بخاتمة فيها أصول وكمالات من أصول وكمالات التفسير، وهذه هي مقدمة الشيخ لهذا الجزء، وأما الخاتمة فقد جعلتها في آخر التفسير، قال - رحمه الله -:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله، وأصلي وأسلم على محمد وآله وصحبه.
أما بعد:

فلما كان علم التفسير للقرآن أشرف العلوم وأهمها وأحقها بتحقيق معانيه وفهم مبانيه؛ لكونه تنزيلًا من حكيم حميد، أنزله هدى ورحمة للعباد وتبيانًا لكل شيء، وتفصيلًا لكل ما يحتاجونه في دينهم ودنياهم وأخراهم، وكان من خاصة علم القرآن أن فهم بعضه وطائفة منه يعين على فهم جميعه؛ لأن القرآن من أوله إلى آخره يدور على تقرير الأصول النافعة والحقائق والشرائع الكبار والأحكام الحسنة والعقائد الصحيحة، ويوجه العباد إلى كل خير، ويحذرهم من كل شر، ويعيد تقرير هذه الأمور ويبيدها، بأساليب متنوعة وتصاريح مناسبة في غاية اليسر والسهولة والإحكام والحسن الذي لا مزيد عليه.

وقد تكرر عليّ السؤال من كثير من الأصحاب في نشر تفسيرنا هذا جميعه، وألحوا لما يرونه من الفائدة الكبيرة، فاعتذرت بأن ذلك يصعب جدًّا؛ لأنه مبسوط، وأيضًا في هذه الأوقات قلت رغبات الناس في الكتب المطولة؛ لذلك أحبيت إجابتهم لنشر بعض ما طلبوا، وهو الاختصار على جزء واحد من أجزاء هذا التفسير، ووقع الاختيار على الجزء الأوسط من سورة الكهف إلى آخر النمل؛ فما لا يحصل جميعه لا يترك جميعه.

وأرجو الله وأسأله أن يجعل ذلك خالصًا لوجهه، نافعا لنا ولإخواننا، وأن يمدنا بعونه وعنايته وتوفيقيه؛ إنه جواد كريم رءوف رحيم. وأتبعته بكمالات وأصول من كمالات التفسير؛ لاستدراك ما لعله يفوت القارئ في غير هذا الجزء؛ فإن الأصول والكمالات تبنى عليها الفروع والجزئيات، ويحصل بها من النفع والفائدة على اختصارها ما لا يحصل في الكلام الطويل، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

المؤلف

سورة الإسراء

سورة الكهف

وَالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَالْحَقِّ نَزَلَ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿١٥﴾
وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مَكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا ﴿١٦﴾
قُلْ ءَامِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُسَلَّنَ عَلَيْهِمْ مُحْزَنُونَ لِلَّذِينَ جَاءُوا سَجْدًا ﴿١٧﴾ يَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٨﴾ وَيُحْزَنُونَ لِلَّذِينَ يَكُونُونَ وَيُزِيدُهُمْ خُشُوعًا ﴿١٩﴾ قُلْ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ وَلَا تَجْهَرُوا بِهَا تَهْتَكُهَا وَلَا تَخَافُهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا ﴿٢٠﴾ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذَّلِيلِ وَكَبِيرًا تَكْبِيرًا ﴿٢١﴾

سورة الكهف

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا ﴿١﴾
فَيَمَّا يَنْزِيلُ أَسَاسًا شَدِيدًا مِّنْ لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ﴿٢﴾ مَّنَكِبِينَ فِيهِ أَبَدًا ﴿٣﴾ وَيُنذِرُ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ﴿٤﴾

٢٩٣

علم من آباؤهم الذين قلدوهم واتبعوهم، بل إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس. ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ﴾؛ أي: عظمت شناعتها واشتدت عقوبتها، وأي شناعة أعظم من وصفه بالاتخاذ للولد الذي يقتضي نقصه ومشاركة غيره له في خصائص الربوبية والإلهية والكذب عليه؟! ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ [الأنعام: ١٤٤]! ولهذا قال هنا: ﴿إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾؛ أي: كذبًا محضًا ما فيه من الصدق شيء. وتأمل كيف أبطل هذا القول بالتدرج والانتقال من شيء إلى أبطل منه: فأخبر أولاً أنه ﴿مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ﴾؛ والقول على الله بلا علم لا شك في منعه وبطلانه. ثم أخبر ثانياً أنه قول قبيح شنيع، فقال: ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ﴾. ثم ذكر ثالثاً مرتبته من القبح، وهو الكذب المنافي للصدق.

﴿١﴾ ولما كان النبي ﷺ حريصاً على هداية الخلق، ساعياً في ذلك أعظم السعي، فكان ﷺ يفرح ويسر بهداية المهتدين، ويحزن ويأسف على المكذبين الضالين؛ شفقة منه ﷺ عليهم، ورحمة بهم؛ أرشده الله ألا يشغل نفسه بالأسف على هؤلاء الذين لا يؤمنون بهذا القرآن؛ كما قال في الآية الأخرى: ﴿لَكَأَنَّ بَيْعُ نَفْسِكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٢٣]، وقال: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَتٍ﴾ [فاطر: ٨]، وهنا قال: ﴿فَلَمَّا كُنْتُ بِبَيْعِ نَفْسِكَ﴾؛ أي: مهلكها غمًا وأسفًا عليهم، وذلك أن أجرك قد وجب على الله، وهؤلاء لو علم الله فيهم خيرًا لهداهم، ولكنه علم أنهم لا يصلحون إلا للنار؛ فلذلك خذلهم فلم يهتدوا؛ فإشغالك نفسك غمًا وأسفًا عليهم ليس فيه فائدة لك.

وفي هذه الآية ونحوها عبرة؛ فإن المأمور بدعاء الخلق إلى الله عليه التبليغ والسعي بكل سبب يوصل إلى الهداية، وسد طرق الضلال والغواية، بغاية ما يمكنه، مع التوكل على الله في ذلك؛ فإن اهتدوا فيها ونعمت، وإلا؛ فلا يحزن ولا يأسف؛ فإن ذلك مضاعف للنفس، هادم للقوى، ليس فيه فائدة، بل يمضي على فعله الذي كلف به وتوجه إليه، وما عدا ذلك؛ فهو خارج عن قدرته. وإذا كان النبي ﷺ يقول الله له: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ [القصص: ٥٦]، وموسى عليه السلام يقول: ﴿رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي﴾ [المائدة: ٢٥] الآية؛ فمن عداهم من باب أولى وأحرى؛ قال تعالى: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ﴾ [التيسير: ٢٢]، عَلَيْهِ يُمْصِطِرُ ﴿٢٢﴾ [الغاشية: ٢٢].

أنه لا يخبر ولا يأمر إلا بأجل الإخبارات، وهي الأخبار التي تملأ القلوب معرفة وإيمانًا وعقلًا؛ كالإخبار بأسماء الله وصفاته وأفعاله، ومنها الغيوب المتقدمة والمتأخرة، وأن أوامره ونواهيه تزكي النفوس وتطهرها وتنميتها وتكملها؛ لاشتمالها على كمال العدل والقسط والإخلاص والعبودية لله رب العالمين وحده لا شريك له. وحقيق بكتاب موصوف بما ذكر أن يحمد الله نفسه على إنزاله، وأن يتمدح إلى عبادته به.

﴿٢﴾ وقوله: ﴿لَيَسْخَرَنَّ بِأَسْأَدِيْدًا مِّنْ لَّدُنْهُ﴾؛ أي: لينذر بهذا القرآن الكريم عقابه الذي عنده؛ أي: قدره وقضاه على من خالف أمره، وهذا يشمل عقاب الدنيا وعقاب الآخرة. وهذا أيضًا من نعمه أن خوف عباده وأنذرهم ما يضرهم ويهلكهم؛ كما قال تعالى لما ذكر في هذا القرآن وصف النار؛ قال: ﴿ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهَ بِهِ عِبَادَهُ، يَتَّبِعُونَ فَاتَّقُونَ﴾ [الزمر: ١٦]؛ فمن رحمته بعباده أن يقض العقوبات الغليظة على من خالف أمره وبينها لهم وبين لهم الأسباب الموصلة إليها. ﴿وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَمْكُتُونَ الصَّلَاحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا﴾؛ أي: وأنزل الله على عبده الكتاب ليبشر المؤمنين به وبرسله وكتبه الذين كمل إيمانهم، فأوجب لهم عمل الصالحات، وهي الأعمال الصالحة من واجب ومستحب، التي جمعت الإخلاص والمتابعة: ﴿أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا﴾؛ وهو الثواب الذي رتبته الله على الإيمان والعمل الصالح، وأعظمه وأجله الفوز برضا الله ودخول الجنة التي فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر. وفي وصفه بالحسن دلالة على أنه لا مكدر فيه ولا منغص بوجه من الوجوه؛ إذ لو وجد فيه شيء من ذلك؛ لم يكن حسنه تامًا.

﴿٣﴾ ومع ذلك؛ فهذا الأجر الحسن ﴿مَكْبُوتٍ فِيهِ أَبَدًا﴾؛ لا يزول عنهم ولا يزولون عنه، بل نعمهم في كل وقت متزايد. وفي ذكر التبشير ما يقتضي ذكر الأعمال الموجبة للمبشر به، وهو أن هذا القرآن قد اشتمل على كل عمل صالح موصل لما تستبشر به النفوس، وتفرح به الأرواح.

﴿٤﴾ ﴿وَمُنْذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا﴾؛ من اليهود والنصارى والمشركين، الذين قالوا هذه المقالة الشنيعة؛ فإنهم لم يقولوها عن علم ولا يقين؛ لا علم منهم ولا

﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لِّمَنَّا لِنَبْلُوهُم أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ ﴿٧﴾ وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرًّا ﴿٨﴾

﴿ يَخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ جَعَلَ جَمِيعَ مَا عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ مِنْ مَّأْكَلٍ لِلذِّبَّةِ وَمَشَارِبٍ وَمَسَاكِنٍ طَيِّبَةٍ وَأَشْجَارٍ وَأَنْهَارٍ وَزُرُوعٍ وَثَمَارٍ وَمَنَاظِرٍ بَهِيْجَةٍ وَرِيَاضٍ أُنَيْقَةٍ وَأَصْوَاتٍ شَجِيَّةٍ وَصُورٍ مَّليحةٍ وَذَهَبٍ وَفُضَّةٍ وَخِيَلٍ وَإِبِلٍ وَنَحْوَهَا؛ الْجَمِيعَ جَعَلَهُ اللَّهُ زِينَةً لِهَذِهِ الدَّارِ فَتَنَةً وَاجْتِبَاءً؛ ﴿ لِنَبْلُوهُم أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ ﴿٧﴾؛ أَي: أَخْلَصَهُ وَأَصْوَبَهُ.

﴿ وَمَعَ ذَلِكَ سَيَجْعَلُ اللَّهُ جَمِيعَ هَذِهِ الْمَذْكُورَاتِ فَانِيَةً مَّضْمَحَلَةً وَزَائِلَةً مَنْقُضِيَّةً، وَسَتَعُودُ الْأَرْضُ صَعِيدًا جُرًّا ﴾ ﴿٨﴾: قَدْ ذَهَبَتْ لَذَاتُهَا وَانْقَطَعَتْ أَنْهَارُهَا وَانْدَرَسَتْ آثَارُهَا وَزَالَ نَعِيمُهَا.

هَذِهِ حَقِيقَةُ الدُّنْيَا، قَدْ جَلَّاهَا اللَّهُ لَنَا كَأَنَّهُا رَأْيِي عَيْنٍ، وَحَذَرْنَا مِنْ الْإِغْتِرَارِ بِهَا، وَرَغَبْنَا فِي دَارِ يَدُومِ نَعِيمِهَا وَيَسْعُدُ مَقِيمِهَا، كُلُّ ذَلِكَ رَحْمَةٌ بِنَا، فَاعْتَرِ بِزُخْرِفِ الدُّنْيَا وَزِينَتِهَا مِنْ نَظَرٍ إِلَى ظَاهِرِ الدُّنْيَا دُونَ بَاطِنِهَا، فَصَحَّبُوا الدُّنْيَا صَحْبَةَ الْبَهَائِمِ، وَتَمَتَّعُوا بِهَا تَمَتُّعَ السَّوَامِ، لَا يَنْظُرُونَ فِي حَقِّ رَبِّهِمْ، وَلَا يَهْتَمُّونَ لِمَعْرِفَتِهِ، بَلْ هُمْ تَنَاولُ الشَّهَوَاتِ مِنْ أَيِّ وَجْهِ حَصَلَتْ وَعَلَى أَيِّ حَالَةٍ اتَّفَقَتْ؛ فَهَؤُلَاءِ إِذَا حَضَرَ أَحَدُهُمُ الْمَوْتُ، قَلَقَ لِخَرَابِ ذَاتِهِ وَفَوَاتِ لَذَاتِهِ، لَا لِمَا قَدَمَتْ يَدَاهُ مِنَ التَّفْرِيطِ وَالسَّيِّئَاتِ.

وَأَمَّا مِنْ نَظَرٍ إِلَى بَاطِنِ الدُّنْيَا وَعِلْمِ الْمَقْصُودِ مِنْهَا وَمَنْعِهِ؛ فَإِنَّهُ تَنَاولَ مِنْهَا مَا يَسْتَعِينُ بِهِ عَلَى مَا خُلِقَ لَهُ، وَانْتَهَزَ الْفُرْصَةَ فِي عَمَرِهِ الشَّرِيفِ، فَجَعَلَ الدُّنْيَا مَنَازِلَ عُبُورٍ لَا مَحَلَّ حُبُورٍ، وَشَقَّةَ سَفَرٍ لَا مَنَازِلَ إِقَامَةٍ، فَبَذَلَ جَهْدَهُ فِي مَعْرِفَةِ رَبِّهِ وَتَنْفِيزِ أَوَامِرِهِ وَإِحْسَانِ الْعَمَلِ؛ فَهَذَا بِأَحْسَنِ الْمَنَازِلِ عِنْدَ اللَّهِ، وَهُوَ حَقِيقٌ مِنْهُ بِكُلِّ كَرَامَةٍ وَنَعِيمٍ وَسُرُورٍ وَتَكْرِيمٍ، فَنَظَرَ إِلَى بَاطِنِ الدُّنْيَا حِينَ نَظَرَ الْمَغْتَرَّ إِلَى ظَاهِرِهَا، وَعَمِلَ لِآخِرَتِهِ حِينَ عَمِلَ الْبَطَالَ لِلدُّنْيَا، فَشَتَّانَ مَا بَيْنَ الْفَرِيقَيْنِ! وَمَا أَبْعَدَ الْفَرْقَ بَيْنَ الطَّائِفَتَيْنِ!

﴿ أَمَّ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ ءَايَاتِنَا عَجَبًا ﴾ ﴿٩﴾ إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا ءَاتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴿١٠﴾ فَضَرَبْنَا عَلَى ءَاذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴿١١﴾ ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْغُرَبَاءِ أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا ﴿١٢﴾

﴿ وَهَذَا الْاسْتِفْهَامُ بِمَعْنَى النِّفْيِ وَالتَّهْيِيءِ؛ أَي: لَا تَنْظُرْ أَنَّ قِصَّةَ أَصْحَابِ الْكَهْفِ وَمَا جَرَى لَهُمْ غَرِيبَةٌ عَلَى آيَاتِ اللَّهِ وَبِدِيعَةٍ فِي حُكْمَتِهِ، وَأَنَّهُ لَا نَظِيرَ لَهَا وَلَا مُجَانِسَ لَهَا، بَلْ لِلَّهِ تَعَالَى مِنَ الْآيَاتِ الْعَجِيبَةِ الْغَرِيبَةِ مَا هُوَ كَثِيرٌ مِنْ جِنْسِ آيَاتِهِ فِي أَصْحَابِ الْكَهْفِ وَأَعْظَمَ مِنْهَا، فَلَمْ يَزَلِ اللَّهُ يَرِي عِبَادَهُ مِنَ الْآيَاتِ فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ مَا يَتَبَيَّنُ بِهِ الْحَقُّ مِنَ الْبَاطِلِ وَالْهُدَى مِنَ الضَّلَالِ. وَلَيْسَ الْمُرَادُ بِهَذَا النِّفْيِ عَنْ أَنَّ تَكُونُ قِصَّةُ أَصْحَابِ الْكَهْفِ مِنَ الْعَجَائِبِ، بَلْ هِيَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ الْعَجِيبَةِ، وَإِنَّمَا الْمُرَادُ أَنَّ جِنْسَهَا كَثِيرٌ جَدًّا؛ فَالْوُقُوفُ مَعَهَا وَحَدَا فِي مَقَامِ الْعَجَبِ وَالِاسْتِعْجَابِ نَقْصٌ فِي الْعِلْمِ وَالْعَقْلِ، بَلْ وَطِيفَةُ الْمُؤْمِنِ فِي التَّفَكُّرِ بِجَمِيعِ آيَاتِ اللَّهِ الَّتِي دَعَا اللَّهُ الْعِبَادَ إِلَى التَّفَكُّرِ فِيهَا؛ فَإِنَّهَا مِفْتَاحُ الْإِيمَانِ وَطَرِيقُ الْعِلْمِ وَالْإِيقَانِ. وَإِضَافَتُهُمْ إِلَى الْكَهْفِ الَّذِي هُوَ الْغَارُ فِي الْجَبَلِ، ﴿ وَالرَّقِيمِ ﴾؛ أَي: الْكِتَابِ الَّذِي قَدْ رُقِمَتْ فِيهِ أَسْمَاؤُهُمْ وَقَصَّتُهُمْ لِمَلازِمَتِهِمْ لَهُ دَهْرًا طَوِيلًا.

﴿١٤﴾ وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ ۖ أَي: صبرناهم وثبتناهم وجعلنا قلوبهم مطمئنة في تلك الحالة المزعجة، وهذا من لطفه تعالى بهم وبره أن وفقهم للإيمان والهدى والصبر والثبات والطمأنينة. ﴿إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ أَي: الذي خلقنا ورزقنا ودبرنا وربانا هو خالق السماوات والأرض، المنفرد بخلق هذه المخلوقات العظيمة، لا تلك الأوثان والأصنام، التي لا تخلق ولا ترزق ولا تملك نفعا ولا ضرا ولا موتا ولا حياة ولا نشورا، فاستدلوا بتوحيد الربوبية على توحيد الإلهية. ولهذا قالوا: ﴿لَنْ نَدْعُوَ مِنْ دُونِهِ إِلَهًا ۖ أَي: من سائر المخلوقات، ﴿لَقَدْ قُلْنَا إِذَا ۖ أَي: إن دعونا معه آلهة بعدما علمنا أنه الرب الإله الذي لا تجوز ولا تنبغي العبادة إلا له ﴿شَطَطًا﴾ ۖ أَي: ميلا عظيما عن الحق، وطريقا بعيدة عن الصواب، فجمعوا بين الإقرار بتوحيد الربوبية وتوحيد الإلهية والتزام ذلك وبيان أنه الحق وما سواه باطل، وهذا دليل على كمال معرفتهم بربهم وزيادة الهدى من الله لهم.

﴿هُؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ إِلَهًا لَوْلَا يَأْتُوا عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ بَيِّنٌ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ آفَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ ۖ.

﴿١٥﴾ لما ذكروا ما من الله به عليهم من الإيمان والهدى والتقوى، التفتوا إلى ما كان عليه قومهم من اتخاذ الآلهة من دون الله، فمقتوهم، وبيّنوا أنهم ليسوا على يقين من أمرهم، بل هم في غاية الجهل والضلال، فقالوا: ﴿لَوْلَا يَأْتُوا عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ بَيِّنٌ ۖ أَي: بحجة وبرهان على ما هم عليه من الباطل، ولا يستطيعون سبيلا إلى ذلك، وإنما ذلك افتراء منهم على الله وكذب عليه، وهذا أعظم الظلم، ولهذا قال: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ آفَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ ۖ.

﴿وَإِذْ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَفَعَلْنَا فِيهِ آيَاتٍ لَّعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ ۖ وَإِذْ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَفَعَلْنَا فِيهِ آيَاتٍ لَّعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ۖ

﴿١٦﴾ أي: قال بعضهم لبعض: إذ حصل لكم اعتزال قومكم في أجسامكم وأديانكم، فلم يبق إلا النجاء من شرهم والتسبب بالأسباب المفضية لذلك؛ لأنه لا سبيل لهم إلى قتالهم ولا بقائهم بين أظهرهم وهم على غير دينهم. ﴿فَأَوْدُوا

﴿١٧﴾ ثم ذكر قصتهم مجملة، فصلها بعد ذلك فقال: ﴿إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ ۖ أَي: الشباب ﴿إِلَى الْكَهْفِ ۖ يريدون بذلك التحصن والتحرز من فتنة قومهم لهم، ﴿فَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً ۖ أَي: تثبتنا بها وتحفظنا من الشر وتوفقنا للخير، ﴿وَهَيَّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾ ۖ أَي: يسر لنا كل سبب موصل إلى الرشd، وأصلح لنا أمر ديننا ودنيانا؛ فجمعوا بين السعي والفرار من الفتنة إلى محل يمكن الاستخفاء فيه، وبين تضرعهم وسؤالهم لله تيسير أمورهم وعدم اتكالهم على أنفسهم وعلى الخلق.

﴿١٨﴾ فلذلك استجاب الله دعاءهم، وقبض لهم ما لم يكن في حسابهم؛ قال: ﴿فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ ۖ أَي: أنمناهم ﴿سِنِينَ عَدَدًا﴾ ۖ وهي ثلاثمائة سنة وتسع سنين، وفي النوم المذكور حفظ لقلوبهم من الاضطراب والخوف وحفظ لهم من قومهم، وليكون آية بينة.

﴿١٩﴾ ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ ۖ أَي: من نومهم، ﴿لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى لِمَا لِسُوءِ أَمَدٍ﴾ ۖ أَي: لنعلم أيهم أحصى لمقدار مدتهم؛ كما قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِنَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ﴾ ۖ الآية، وفي العلم بمقدار لبثهم ضبط للحساب، ومعرفة لكمال قدرة الله تعالى وحكمته ورحمته؛ فلو استمروا على نومهم؛ لم يحصل الاطلاع على شيء من ذلك من قصتهم.

﴿ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ ۖ أَي: من نومهم، ﴿لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى لِمَا لِسُوءِ أَمَدٍ﴾ ۖ أَي: لنعلم أيهم أحصى لمقدار مدتهم؛ كما قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِنَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ﴾ ۖ الآية، وفي العلم بمقدار لبثهم ضبط للحساب، ومعرفة لكمال قدرة الله تعالى وحكمته ورحمته؛ فلو استمروا على نومهم؛ لم يحصل الاطلاع على شيء من ذلك من قصتهم.

﴿٢٠﴾ هذا شروع في تفصيل قصتهم، وأن الله يقصها على نبيه بالحق والصدق الذي ما فيه شك ولا شبهة بوجه من الوجوه. ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ ۖ وهذا من جموع القلة، يدل ذلك على أنهم دون العشرة، آمنوا بالله وحده لا شريك له من دون قومهم، ف شكر الله لهم إيمانهم، فزادهم هدى؛ أي: بسبب أصل اهتدائهم إلى الإيمان زادهم الله من الهدى الذي هو العلم النافع والعمل الصالح؛ كما قال تعالى: ﴿وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى﴾ [مريم: ١٧٦].

إِلَى الْكَهْفِ؛ أَي: انضموا إليه واحتفوا فيه، ﴿يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مَرْفَقًا﴾ (١٦) وفيما تقدم أخبر أنهم دعوه بقولهم: ﴿رَبَّنَا إِنَّا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾ (١٧)؛ فجمعوا بين التبري من حولهم وقوتهم والالتجاء إلى الله في صلاح أمرهم ودعائه بذلك، وبين الثقة بالله أنه سيفعل ذلك، لا جرم أن الله نشر لهم من رحمته وهيا لهم من أمرهم مرفقًا؛ فحفظ أديانهم وأبدانهم، وجعلهم من آياته على خلقه، ونشر لهم من الثناء الحسن ما هو من رحمته بهم، ويسر لهم كل سبب، حتى المحل الذي ناموا فيه كان على غاية ما يمكن من الصيانة؛ ولهذا قال:

﴿وَرَأَى الشَّمْسُ إِذَا طَلَعَتْ تَزْوُورُ عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَتْ تَقَرُّصُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْهُ ذَلِكَ مِنْ عَآيَةِ اللَّهِ مِنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِلْ فَلَنْ يَجْدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا﴾ (١٧) وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمَلِئْتَ مِنْهُمْ رُعبًا﴾ (١٨).

(١٧) أَي: حفظهم الله من الشمس، فسر لهم غارًا إذا طلعت الشمس؛ تميل عنه يمينًا، وعند غروبها تميل عنه شمالًا؛ فلا ينالهم حرها فتفسد أبدانهم بها. ﴿وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْهُ﴾؛ أَي: من الكهف؛ أي: مكان متسع، وذلك ليطرفهم الهواء والنسيم، ويزول عنهم الوخم والتأذي بالمكان الضيق، خصوصًا مع طول المكث، و﴿ذَلِكَ مِنْ عَآيَةِ اللَّهِ﴾؛ الدالة على قدرته ورحمته وإجابة دعائهم وهدايتهم حتى في هذه الأمور، ولهذا قال: ﴿مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ﴾؛ أَي: لا سبيل إلى نيل الهداية إلا من الله؛ فهو الهادي المرشد لمصالح الدارين. ﴿وَمَنْ يُضِلِلْ فَلَنْ يَجْدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا﴾ (١٧)؛ أَي: لا تجد من يتولاه ويدبره على ما فيه صلاحه، ولا يرشده إلى الخير والفلاح؛ لأن الله قد حكم عليه بالضلال، ولا راد لحكمه.

(١٨) وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ؛ أَي: تحسبهم أيها الناظر إليهم كأنهم أيقاظ، والحال أنهم نيام. قال المفسرون: وذلك لأن أعينهم مفتحة لئلا تفسد؛ فالناظر إليهم يحسبهم أيقاظًا وهم رقود. ﴿وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ﴾؛ وهذا أيضًا من حفظه لأبدانهم؛ لأن الأرض من طبيعتها أكل الأجسام المتصلة بها؛ فكان من قدر الله أن قلبهم على جنوبهم يمينًا وشمالًا بقدر ما لا تفسد الأرض أجسامهم، والله تعالى قادر على حفظهم من الأرض من غير قلب، ولكنه تعالى حكيم، أراد أن تجري سنته في الكون ويربط الأسباب بمسبباتها. ﴿وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ﴾؛ أَي: الكلب الذي كان مع أصحاب الكهف أصابه ما أصابهم من النوم وقت حراسته، فكان باسطًا ذراعيه بالوصيد؛ أي: الباب أو فناقه. هذا حفظهم من الأرض، وأما حفظهم من الآدميين؛ فأخبر أنه حماهم بالرعب الذي نشره الله عليهم؛ فلو اطلع عليهم أحد؛ لامتلأ قلبه رعبًا وولى منهم فرارًا، وهذا الذي أوجب أن يبقوا كل هذه المدة الطويلة وهم لم يعثر عليهم أحد مع قربهم من المدينة جدًّا، والدليل على قربهم أنهم لما استيقظوا؛ أرسلوا أحدهم يشتري لهم طعامًا من المدينة، وبقوا في انتظاره، فدل ذلك على شدة قربهم منها.

منها: الحث على العلم وعلى المباحثة فيه؛ لكون الله بعثهم لأجل ذلك.

ومنها: الأدب فيمن اشتبه عليه العلم أن يرده إلى عالمه، وأن يقف عند حده.

ومنها: صحة الوكالة في البيع والشراء وصحة الشركة في ذلك.

ومنها: جواز أكل الطيبات والمطاعم اللذيذة إذا لم تخرج إلى حد الإسراف المنهي عنه؛ لقوله: ﴿فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا فَلْيَأْكُلْكُمْ بِرِزْقِ مَنْهُ﴾: وخصوصاً إذا كان الإنسان لا يلائمه إلا ذلك، ولعل هذا عمدة كثير من المفسرين القائلين بأن هؤلاء أولاد ملوك؛ لكونهم أمره بأزكى الأطعمة التي جرت عادة الأغنياء الكبار بتناولها.

ومنها: الحث على التحرز والاستخفاء والبعد عن مواقع الفتن في الدين واستعمال الكتمان في ذلك على الإنسان وعلى إخوانه في الدين.

ومنها: شدة رغبة هؤلاء الفتية في الدين وفرارهم من كل فتنة في دينهم وتركهم أوطانهم في الله.

ومنها: ذكر ما اشتمل عليه الشر من المضار والمفاسد الداعية لبغضه وتركه، وأن هذه الطريقة هي طريقة المؤمنين المتقدمين والمتأخرين؛ لقولهم: ﴿وَلَنْ نَقْلِيحُوا إِذَا أَبْكَأَ﴾.

﴿وَكَذَلِكَ أَعِزَّنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا إِذْ يَتَنَزَّعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِمْ بُيُوتًا رَأَيْنَاهُمْ أَكْلِمَ يَهُمُ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِدًا﴾.

﴿يَخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ أَطْلَعَ النَّاسَ عَلَى حَالِ أَهْلِ الْكَهْفِ، وَذَلِكَ - وَاللَّهُ أَعْلَمُ - بعدما استيقظوا وبعثوا أحدهم يشتري لهم طعاماً وأمره بالاستخفاء والإخفاء، فأراد الله أمراً فيه صلاح للناس وزيادة أجر لهم، وهو أن الناس رأوا منهم آية من آيات الله المشاهدة بالعيان على أن وعد الله حق لا شك فيه ولا مرية ولا بعد بعدما كانوا يتنازعون بينهم أمرهم؛ فمن مثبت للوعد والجزاء ومن ناف لذللك، فجعل قصتهم زيادة بصيرة ويقين للمؤمنين وحجة على الجاحدين، وصار

﴿وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ كَمْ لَبِئْتُمْ قَالُوا لَبِئْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِئْتُمْ فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا فَلْيَأْكُلْكُمْ بِرِزْقِ مَنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا﴾ (١٩) ﴿إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذَا أَبْكَأَ﴾.

﴿١٩﴾ يقول تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ﴾: من نومهم الطويل، ﴿لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ﴾: أي: ليتباحثوا للوقوف على الحقيقة من مدة لبثهم. ﴿قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ كَمْ لَبِئْتُمْ قَالُوا لَبِئْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾: وهذا مبني على ظن القائل، وكأنهم وقع عندهم اشتباه في طول مدتهم؛ فلماذا ﴿قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِئْتُمْ﴾: فردوا العلم إلى المحيط علمه بكل شيء جملة وتفصيلاً، ولعل الله تعالى بعد ذلك أطلعهم على مدة لبثهم؛ لأنه بعثهم ليتساءلوا بينهم، وأخبر أنهم تساءلوا وتكلموا بمبلغ ما عندهم وصار آخر أمرهم الاشتباه؛ فلا بد أن يكون قد أخبرهم يقيناً؛ علمنا ذلك من حكمته في بعثهم، وأنه لا يفعل ذلك عبثاً، ومن رحمته بمن طلب علم الحقيقة في الأمور المطلوب علمها وسعى لذلك ما أمكنه؛ فإن الله يوضح له ذلك، وبما ذكر فيما بعده من قوله: ﴿وَكَذَلِكَ أَعِزَّنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا﴾؛ فلولا أنه حصل العلم بحالهم؛ لم يكونوا دليلاً على ما ذكر. ثم إنهم لما تساءلوا بينهم، وجرى منهم ما أخبر الله به، أرسلوا أحدهم بورقهم؛ أي: بالدرهم التي كانت معهم؛ ليشتري لهم طعاماً يأكلونه من المدينة التي خرجوا منها، وأمره أن يتخير من الطعام أذكاه؛ أي: أطيبه وألذّه، وأن يتلطف في ذهابه وشرائه وإيابه، وأن يخفي في ذلك، ويخفي حال إخوانه، ولا يشعرن بهم أحداً.

﴿٢٠﴾ وذكروا المحذور من اطلاع غيرهم عليهم وظهورهم عليهم أنهم بين أمرين: إما الرجم بالحجارة فيقتلونهم أشنع قتلة لحقهم عليهم وعلى دينهم، وإما أن يفتنهم عن دينهم ويردوهم في ملتهم، وفي هذه الحال لا تفلحون أبداً، بل يخسرون في دينهم ودنياهم وأخراهم.

وقد دلت هاتان الآيتان على عدة فوائد:

لهم أجر هذه القضية، وشهر الله أمرهم، ورفع قدرهم، حتى عظمهم الذين اطلعوا عليهم؛ وقالوا ﴿أَتَبْنُوا عَلَيْهِمْ بُيُوتًا﴾: الله أعلم بحالهم ومالكهم! وقال من غلب على أمرهم، وهم الذين لهم الأمر:

﴿لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِدًا﴾ (٢١)؛ أي: نعبد الله تعالى فيه ونذكر به أحوالهم وما جرى لهم. وهذه الحالة محظورة نهى عنها النبي ﷺ وذم فاعليها، ولا يدل ذكرها هنا على عدم ذمها؛ فإن السياق في شأن أهل الكهف والثناء عليهم، وأن هؤلاء وصلت بهم الحال إلى أن قالوا ابنا عليهم مسجدًا بعد خوف أهل الكهف الشديد من قومهم وحذرهم من الاطلاع عليهم، فوصلت الحال إلى ما ترى.

وفي هذه القصة دليل على أن من فرّ بدينه من الفتن؛ سلمه الله منها، وأن من حرص على العافية؛ عافاه الله، ومن أوى إلى الله؛ آواه الله وجعله هداية لغيره، ومن تحمل الذل في سبيله وابتغاء مرضاته؛ كان آخر أمره وعاقبته العز العظيم من حيث لا يحتسب، ﴿وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْآبِرَارِ﴾ (١٨٨) [آل عمران: ١٩٨].

﴿سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُل رَّبِّي أَعْلَمُ بِعَدَّتِهِمْ مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرًّا ظَهَرُوا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ (٢٢).

(٢٢) يخبر تعالى عن اختلاف أهل الكتاب في عدة أصحاب الكهف، اختلافًا صادرًا عن رجمهم بالغيب، وتقولهم بما لا يعلمون، وأنهم فيهم على ثلاثة أقوال: منهم من يقول: ﴿ثَلَاثَةٌ رَابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾، ومنهم من يقول: ﴿خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾، وهذان القولان ذكر الله بعدهما أن هذا رجم منهم بالغيب، فدل على بطلانهما، ومنهم من يقول: ﴿سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾، وهذا - والله أعلم - هو الصواب؛ لأن الله أبطل الأولين ولم يطله، فدل على صحته، وهذا من الاختلاف الذي لا فائدة تحته، ولا يحصل بمعرفة عددهم مصلحة للناس دينية ولا دنيوية، ولهذا قال تعالى: ﴿قُل رَّبِّي أَعْلَمُ بِعَدَّتِهِمْ مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ﴾: وهم الذين أصابوا الصواب وعلموا إصابتهم. ﴿فَلَا تُمَارِ﴾: تجادل وتحتاج ﴿فِيهِمْ إِلَّا مِرًّا ظَهَرُوا﴾؛ أي: منبئًا على العلم واليقين، ويكون أيضًا فيه فائدة، وأما المماراة المبنية على الجهل والرجم بالغيب أو التي لا فائدة فيها: إما أن يكون الخصم معاندًا، أو تكون المسألة لا أهمية فيها ولا تحصل فائدة دينية بمعرفتها؛ كعدد أصحاب الكهف ونحو ذلك؛ فإن في كثرة المناقشات فيها والبحوث المتسلسلة تضييعًا للزمان وتأثيرًا في مودة القلوب بغير فائدة. ﴿وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ﴾؛ أي: في شأن أهل الكهف ﴿مِنْهُمْ﴾؛ أي: من أهل الكتاب، ﴿أَحَدًا﴾ (٢٣). وذلك لأن مبنى كلامهم فيهم على الرجم بالغيب والظن الذي لا يغني من الحق شيئًا؛ ففيها دليل على المنع من استفتاء من لا يصلح للفتوى؛ إما لقصوره في الأمر المستفتى فيه، أو لكونه لا يبالي بما تكلم به، وليس عنده ورع يحجزه، وإذا نهى عن استفتاء هذا الجنس؛ فنهيه هو عن الفتوى من باب أولى وأحرى.

وَكَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا إِذْ يَتَنَزَّلُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرُهُمْ فَقَالُوا أَتَبْنُوا عَلَيْهِمْ بُيُوتًا رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِدًا ﴿٢١﴾ سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُل رَّبِّي أَعْلَمُ بِعَدَّتِهِمْ مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرًّا ظَهَرُوا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٢٢﴾ وَلَا تَقُولَنَّ لِيْشَاءُ إِيَّايَ فَاعِلُ ذَلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَادْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَى أَنْ يَهْدِيَنِي رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَدًا ﴿٢٤﴾ وَلَيْسُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا ﴿٢٥﴾ قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْأَلُونَ عَنْهُ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَبْصَرُ بِهِ وَأَسْمَعُ مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ وَأَتْلُ مَا أُرْسِلُ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبْدِلَ لِكَلِمَاتِهِ وَلَنْ يَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا ﴿٢٧﴾

وفي الآية أيضًا دليل على أن الشخص قد يكون منهيًا عن استفتائه في شيء دون آخر، فيستفتي فيما هو أهل له بخلاف غيره؛ لأن الله لم ينه عن استفتائهم مطلقًا، إنما نهى عن استفتائهم في قصة أصحاب الكهف وما أشبهها.

﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ۚ (٢٣) إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ۚ وَادْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَى أَنْ يَهْدِيَنِّي رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا ۚ﴾

(٢٣) هذا النهي كغيره، وإن كان لسبب خاص وموجه للرسول ﷺ؛ فإن الخطاب عام للمكلفين؛ فنهى الله أن يقول العبد في الأمور المستقبلية: ﴿إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ﴾؛ من دون أن يقرنه بمشيئة الله، وذلك لما فيه من المحذور، وهو الكلام على الغيوب المستقبلية التي لا يدري هل يفعله أم لا؟ وهل تكون أم لا؟ وفيه رد الفعل إلى مشيئة العبد استقلالًا، وذلك محذور محذور؛ لأن المشيئة كلها لله، ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ (التكوير: ٢٩)، ولما في ذكر مشيئة الله من تيسير الأمر وتسهيله وحصول البركة فيه والاستعانة من العبد لربه.

(٢٤) ولما كان العبد بشرًا لا بد أن يسهو عن ذكر المشيئة؛ أمره الله أن يستثني بعد ذلك إذا ذكر؛ ليحصل المطلوب ويندفع المحذور. ويؤخذ من عموم قوله: ﴿وَادْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾: الأمر بذكر الله عند النسيان؛ فإنه يزيله ويذكر العبد ما سها عنه. وكذلك يؤمر الساهي الناسي لذكر الله أن يذكر ربه ولا يكون من الغافلين. ولما كان العبد مفتقرًا إلى الله في توفيقه للإصابة وعدم الخطأ في أقواله وأفعاله؛ أمره الله أن يقول: ﴿عَسَى أَنْ يَهْدِيَنِّي رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا ۚ﴾ (٢٤) فأمره أن يدعو الله ويرجوه ويثق به أن يهديه لأقرب الطرق الموصلة إلى الرشd، وحري بعبد تكون هذه حاله، ثم يبذل جهده، ويستفرغ وسعه في طلب الهدى والرشd، أن يوفق لذلك، وأن تأتية المعونة من ربه، وأن يسدده في جميع أموره.

﴿وَلِسُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَارْدَاؤُا سَبْعًا ۚ﴾ (٢٥) قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لِسُوا لَهُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا ۚ﴾ (٢٦)

(٢٥)، (٢٦) لما نهاه الله عن استفتاء أهل الكتاب في شأن أهل الكهف لعدم علمهم بذلك، وكان الله عالم الغيب

والشهادة العالم بكل شيء؛ أخبره الله بمدة لبثهم، وأن علم ذلك عنده وحده؛ فإنه من غيب السماوات والأرض، وغيبها مختص به؛ فما أخبر به عنها على السنة رسله؛ فهو الحق اليقين الذي لا يشك فيه، وما لا يطلع رسله عليه؛ فإن أحدًا من الخلق لا يعلمه. وقوله: ﴿أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ﴾: تعجب من كمال سمعه وبصره وإحاطتهما بالمسموعات والمبصرات بعدما أخبر بإحاطة علمه بالمعلومات، ثم أخبر عن انفراده بالولاية العامة والخاصة؛ فهو الولي الذي يتولى تدبير جميع الكون، والولي لعباده المؤمنين؛ يخرجهم من الظلمات إلى النور، ويسرهم لليسرى، ويجنبهم العسرى، ولهذا قال: ﴿مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ﴾؛ أي: هو الذي تولى أصحاب الكهف بلطفه وكرمه، ولم يكلهم إلى أحد من الخلق. ﴿وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا ۚ﴾ (٢٦) وهذا يشمل الحكم الكوني القدري والحكم الشرعي الديني؛ فإنه الحاكم في خلقه قضاء وقدرًا وخلقًا وتدبيرًا، والحاكم فيهم بأمره ونهيه وثوابه وعقابه.

ولما أخبر أنه تعالى له غيب السماوات والأرض؛ فليس لمخلوق إليها طريق إلا عن الطريق التي يخبر بها عباده، وكان هذا القرآن قد اشتمل على كثير من الغيوب؛ أمر تعالى بالإقبال عليه، فقال:

﴿وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَلَنْ تَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا ۚ﴾ (٢٧)

(٢٧) التلاوة: هي الاتباع؛ أي: اتبع ما أوحى الله إليك بمعرفة معانيه وفهمها وتصديق أخباره وامثال أوامره ونواهيه؛ فإنه الكتاب الجليل، الذي لا مبدل لكلماته؛ أي: لا تغير ولا تبدل لصدقها وعدلها وبلوغها من الحسن فوق كل غاية، ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام: ١١٥]؛ فلكمالها استحال عليها التغير والتبدل، فلو كانت ناقصة؛ لعرض لها ذلك أو شيء منه. وفي هذا تعظيم للقرآن في ضمنه الترغيب على الإقبال عليه. ﴿وَلَنْ تَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا ۚ﴾ (٢٧)؛ أي: لن تجد من دون ربك ملجأ تلجأ إليه ولا معاذًا تعوذ به؛ فإذا تعين أنه وحده الملجأ في كل الأمور؛ تعين أن يكون هو المألوه المرغوب إليه في السراء والضراء، المفتقر إليه في جميع الأحوال، المستول في جميع المطالب.

﴿وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدْوَةِ وَالْعَشيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدَ زِينَةَ

الْحَيَوةَ الدُّنْيَا وَلَا نُطِيعُ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ. عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوْنَهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا ﴿٢٨﴾

﴿٢٨﴾ يأمر تعالى نبيه محمداً ﷺ، وغيره أسوته في الأوامر والنواهي أن يصبر نفسه مع المؤمنين العباد المنيبين. ﴿الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْعَدْوَةِ وَالْعَشَى﴾؛ أي: أول النهار وآخره؛ يريدون بذلك وجه الله، فوصفهم بالعبادة والإخلاص فيها؛ ففيها الأمر بصحبة الأخيار ومجاهدة النفس على صحبتهم ومخالطتهم، وإن كانوا فقراء؛ فإن في صحبتهم من الفوائد ما لا يحصى. ﴿وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ﴾؛ أي: لا تجاوزهم بصرك وترفع عنهم نظرك؛ ﴿ثِيْدُ زِيْنَةِ الدُّنْيَا﴾؛ فإن هذا ضار غير نافع، قاطع عن المصالح الدينية؛ فإن ذلك يوجب تعلق القلب بالدنيا، فتصير الأفكار والهواجس فيها، وتزول من القلب الرغبة في الآخرة؛ فإن زينة الدنيا تروق للناظر وتسحر القلب، فيغفل القلب عن ذكر الله، ويقبل على اللذات والشهوات، فيضيع وقته، وينفرط أمره، فيخسر الخسارة الأبدية والندامة السرمدية، ولهذا قال: ﴿وَلَا نُطِيعُ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ. عَنْ ذِكْرِنَا﴾؛ غفل عن الله فعاقبه بأن أغفله عن ذكره، ﴿وَاتَّبَعَ هَوْنَهُ﴾؛ أي: صار تبعاً لهواه؛ حيث ما اشتتهت نفسه فعله، وسعى في إدراكه، ولو كان فيه هلاكه وخسرانه؛ فهو قد اتخذ إلهه هواه؛ كما قال تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوْنَهُ وَأَصْلَحَ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ [الباقية: ٢٣] الآية. ﴿وَكَانَ أَمْرُهُ﴾؛ أي: مصالح دينه ودنياه ﴿فُرُطًا﴾؛ أي: ضائعة معطلة؛ فهذا قد نهى الله عن طاعته؛ لأن طاعته تدعو إلى الاقتداء به، ولأنه لا يدعو إلا لما هو متصف به.

ودلت الآية على أن الذي ينبغي أن يطاع، ويكون إماماً للناس من امتلأ قلبه بمحبة الله، وفاض ذلك على لسانه، فلهج بذكر الله، واتبع مرضي ربه، فقدّمها على هواه، فحفظ بذلك ما حفظ من وقته، وصلحت أحواله، واستقامت أفعاله، ودعا الناس إلى ما من الله به عليه؛ فحقيق بذلك أن يتبع، ويجعل إماماً.

والصبر المذكور في هذه الآية هو الصبر على طاعة الله، الذي هو أعلى أنواع الصبر، وبتمامه يتم باقي الأقسام. وفي الآية استحباب الذكر والدعاء والعبادة طرفي النهار؛ لأن الله مدحهم بفعله، وكل فعل مدح الله فاعله؛ دل ذلك على أن الله يحبه؛ وإذا كان يحبه فإنه يأمر به ويرغب فيه.

﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٢٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴿٣٠﴾ أُولَٰئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِنْ سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ نِعَمَ الثَّوَابِ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٣١﴾﴾

﴿٢٩﴾ أي: قل للناس يا محمد: هو ﴿الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ﴾؛ أي: قد تبين الهدى من الضلال، والرشد من الغي، وصفات أهل السعادة وصفات أهل الشقاوة، وذلك بما بينه الله على لسان رسوله؛ فإذا بان واتضح ولم يبق فيه شبهة؛ ﴿فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ﴾؛ أي: لم يبق إلا سلوك أحد الطريقين بحسب توفيق العبد وعدم توفيقه، وقد أعطاه الله مشيئة بها يقدر

سورة الكهف
وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْعَدْوَةِ وَالْعَشَى
يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِيْنَةَ الدُّنْيَا
وَلَا نُطِيعُ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ. عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوْنَهُ وَكَانَ
أَمْرُهُ فُرُطًا ﴿٢٨﴾ وَأَقْبَلْنَا الْقُلُوبَ الَّذِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا
وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ
الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٢٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا
الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴿٣٠﴾ أُولَٰئِكَ
لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ
مِنْ ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِنْ سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَّكِئِينَ
فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ نِعَمَ الثَّوَابِ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٣١﴾ وَأَصْرَبَ
لَهُمْ مَثَلًا لِرَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَبٍ وَحَفَفْنَاهُمَا
بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زُرْعًا ﴿٣٢﴾ كُنَّا الْجَنَّتَيْنِ ءَاتَيْنِ أَكْثَرًا وَلَمْ
تَنْظُرُونَهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهْرًا ﴿٣٣﴾ وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ
لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٣٤﴾

الأخضر من السندس، وهو الغليظ من الديباج، والإستبرق وهو ما رق منه، متكئين فيها على الأرائك، وهي السرر المزينة المجملية بالثياب الفاخرة؛ فإنها لا تسمى أريكة حتى تكون كذلك، وفي اتكائهم على الأرائك ما يدل على كمال الراحة وزوال النصب والتعب وكون الخدم يسعون عليهم بما يشتهون، وتماثل ذلك الخلود الدائم والإقامة الأبدية؛ فهذه الدار الجليلة، ﴿يَعْمُ النَّوَابُ﴾: للعاملين، ﴿وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا﴾ (٣٦): يرتفقون بها، ويتمتعون بما فيها، مما تشتهيهِ الأنفس، وتلذ الأعين من الحبرة والسرور، والفرح الدائم، واللذات المتواترة والنعم المتوافرة، وأي مرتفق أحسن من دار، أدنى أهلها يسير في ملكه ونعيمه وقصوره وبساتينه ألفي سنة؟ ولا يرى فوق ما هو فيه من النعيم، قد أعطي جميع أمانيه ومطالبه، وزيد من المطالب، ما قصرت عنه الأماني، ومع ذلك؛ فنعيمهم على الدوام، متزايد في أوصافه وحسنه، فنسأل الله الكريم ألا يحرمنا خير ما عنده من الإحسان بشر ما عندنا من التقصير والعصيان. ودلت الآية الكريمة وما أشبهها على أن الحلية عامة للذكور والإناث؛ كما ورد في الأخبار الصحيحة؛ لأنه أطلقها في قوله: ﴿يُحَلَّوْنَ﴾، وكذلك الحرير ونحوه.

﴿وَأَضْرَبَ لَهُمْ مَثَلًا رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَبٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا﴾ (٣٢) ﴿كُلَّا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْهُمَا كُلُّهُمَا وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَبَوَّءَ لَكُمَا جَنَّتَيْنِ﴾ (٣٣)

﴿٣٢﴾ يقول تعالى لنبيه ﷺ: اضرب للناس مثل هذين الرجلين: الشاكر لنعمة الله، والكافر لها، وما صدر من كل منهما من الأقوال والأفعال، وما حصل بسبب ذلك من العقاب العاجل والآجل والثواب؛ ليعتبرا بحالهما، ويتعظوا بما حصل عليهما، وليس معرفة أعيان الرجلين وفي أي زمان أو مكان هما فيه فائدة أو نتيجة؛ فالنتيجة تحصل من قصتهما فقط، والتعرض لما سوى ذلك من التكلف. فأحد هذين الرجلين الكافر لنعمة الله الجليلة جعل الله له جنتين؛ أي: بستانين حسنين ﴿مِنْ أَعْنَبٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ﴾؛ أي: في هاتين الجنتين من كل الثمرات، وخصوصاً أشرف الأشجار العنب والنخل؛ فالعنب وسطها، والنخل قد حف بذلك ودار به، فحصل فيه من حسن المنظر وبهائه وبروز الشجر والنخل للشمس والرياح التي تكمل بها الثمار وتنضج وتتجوهر، ومع ذلك جعل بين تلك الأشجار زرعاً.

على الإيمان والكفر، والخير والشر؛ فمن آمن؛ فقد وفق للصواب، ومن كفر؛ فقد قامت عليه الحجة، وليس بمكره على الإيمان؛ كما قال تعالى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ أَرْشُدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ [البقرة: ٢٥٦]، وليس في قوله: ﴿فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ﴾ الإذن في كلا الأمرين وإنما ذلك تهديد ووعد لمن اختار الكفر بعد البيان التام كما ليس فيها ترك قتال الكافرين. ثم ذكر تعالى مآل الفريقين، فقال: ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ﴾: بالكفر والفسوق والعصيان، ﴿نَارًا أَحَاطَ بِهَا مِنْ شَرِّهَا﴾؛ أي: سورها المحيط بها؛ فليس لهم منفذ ولا طريق ولا مخلص منها، تصلاهم النار الحامية. ﴿وَلَنْ يَسْتَعِينُوا﴾؛ أي: يطلبوا الشراب ليطفئ ما نزل بهم من العطش الشديد؛ ﴿يَعَاثُوا يَمَاءً كَأَلْهَلٍ﴾؛ أي: كالرصاص المذاب أو كعكر الزيت من شدة حرارته. ﴿يَشْرَبُونَ الْوَجُوهَ﴾؛ أي: فكيف بالأعضاء والبطون؟! كما قال تعالى: ﴿يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ﴾ (٣٢) ﴿وَلَمْ يَمْنَعْ مِنَ حَبِيدٍ﴾ (٣٢) [الحج: ٢٠، ٢١]. ﴿يَشْرَبُ الشَّرَابَ﴾: الذي يراد ليطفئ العطش ويدفع بعض العذاب فيكون زيادة في عذابهم وشدة عقابهم، ﴿وَسَاءَتْ﴾: النار ﴿مُرْتَفَقًا﴾ (٣٦) وهذا ذم لحالة النار؛ أنها ساءت المحل الذي يرتفق به؛ فإنها ليس فيها ارتفاع؛ وإنما فيها العذاب العظيم الشاق الذي لا يُقْتَر عنهم ساعة، وهم فيه مبلسون، قد أيسوا من كل خير، ونسيهم الرحيم في العذاب، كما نسوه.

﴿٣٣﴾ ثم ذكر الفريق الثاني، فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾؛ أي: جمعوا بين الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره، وعمل الصالحات من الواجبات والمستحبات. ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ (٣٣)؛ وإحسان العمل أن يريد العبد العمل لوجه الله متبعا في ذلك شرع الله؛ فهذا العمل لا يضيعه الله ولا شيئا منه، بل يحفظه للعاملين، ويوفيه من الأجر بحسب عملهم وفضله وإحسانه.

﴿٣٤﴾ وذكر أجروهم بقوله: ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِنْ سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ﴾؛ أي: أولئك الموصوفون بالإيمان والعمل الصالح، لهم الجنات العاليات التي قد كثرت أشجارها فأجنت من فيها، وكثرت أنهارها، فصارت تجري من تحت تلك الأشجار الأنيقة والمنازل الرفيعة، وحليتهم فيها الذهب، ولباسهم فيها الحرير

﴿٣٢﴾ فلم يبق عليهما إلا أن يقال: كيف ثمار هاتين الجنتين؟ وهل لهما ماء يكفيهما؟ فأخبر تعالى أن كلا من ﴿الْجَنَّتَيْنِ﴾ أَلْتَّ أَكْلَهَا؛ أي: ثمرها وزرعها ضعفين؛ أي: متضاعفاً، وأنها لم تَظَلِرْ مِنْهُ شَيْئاً؛ أي: لم تنقص من أكلها أدنى شيء، ومع ذلك فلا تنهار في جوانبها سارحة كثيرة غزيرة.

﴿وَكَاثَ لَهُ، ثُمَّ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالاً وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾ ﴿٣٣﴾.

﴿وَكَاثَ لَهُ﴾؛ أي: لذلك الرجل ﴿ثُمَّ﴾؛ أي: عظيم؛ كما يفيد التأكيد؛ أي: قد استكملت جنته ثمارهما، وارجحت أشجارهما ولم تعرض لهما آفة أو نقص، فهذا غاية منتهى زينة الدنيا في الحرث، ولهذا اغتر هذا الرجل وتبجح وافتخر، ونسي آخرته. ﴿فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالاً وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾ ﴿٣٤﴾؛ أي: فقال صاحب الجنتين لصاحبه المؤمن وهما يتحاوران؛ أي: يتراجعان بينهما في بعض الماجريات المعتادة مفتخراً عليه: ﴿أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالاً وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾ ﴿٣٥﴾: فخر بكثرة ماله وعزة أنصاره من عبيد وخدم وأقارب، وهذا جهل منه، وإلا؛ فأى افتخار بأمر خارجي ليس فيه فضيلة نفسية ولا صفة معنوية، وإنما هو بمنزلة فخر الصبي بالأمانى التي لا حقائق تحتها؟!

وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا ﴿٣٦﴾ وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُودْتُ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا ﴿٣٧﴾ قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّكَ رَجُلًا ﴿٣٨﴾ لَيْكَأَ هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا ﴿٣٩﴾ وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ إِنْ تَرَيْنَا أَنَّ أَقْلَ مِنْكَ مَالًا وَلَوْلَا ﴿٤٠﴾ فَعَسَى رَبِّي أَنْ يُؤْتِيَنِي خَيْرًا مِنْ جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ﴿٤١﴾ أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْرًا فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا ﴿٤٢﴾ وَأُحِيطَ بِشَمْرِهِ فَاصْبِرْ يَقُلْ لِقَابِي عَلَى مَا اتَّفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَقُولُ بَلِّغْنِي لِرَبِّ شَرِّكَ بَرِّ أَحَدًا ﴿٤٣﴾ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فِتْنَةً يَصُورُوهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنْصَرًّا ﴿٤٤﴾ هُنَالِكَ الْوَلِيَّةُ لِلَّهِ الْخَلْقُ هُوَ خَيْرُ نَوَابِا وَخَيْرُ عَقْبًا ﴿٤٥﴾ وَاضْرِبْ لَهُم مَثَلِ الْحَيَوَةِ الدُّنْيَا كَمَا أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِرًا ﴿٤٦﴾

٢٩٨

﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا﴾ ﴿٣٦﴾ وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُودْتُ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا﴾ ﴿٣٧﴾.

﴿٣٦﴾، ﴿٣٧﴾ ثم لم يكفه هذا الافتخار على صاحبه، حتى حكم بجهله وظلمه، وظن لما دخل جنته، ﴿قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ﴾؛ أي: تنقطع وتضمحل ﴿هَذِهِ أَبَدًا﴾ ﴿٣٨﴾: فاطمان إلى هذه الدنيا، ورضي بها، وأنكر البعث، فقال: ﴿وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُودْتُ إِلَى رَبِّي﴾ على ضرب المثل؛ ﴿لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا﴾ ﴿٣٩﴾؛ أي: ليعطيني خيراً من هاتين الجنتين! وهذا لا يخلو من أمرين: إما أن يكون عالماً بحقيقة الحال، فيكون كلامه هذا على وجه التهكم والاستهزاء، فيكون زيادة كفر إلى كفره. وإما أن يكون هذا ظنه في الحقيقة، فيكون من أجهل الناس وأبخسهم حظاً من العقل؛ فأى تلازم بين عطاء الدنيا وعطاء الآخرة حتى يظن بجهله أن من أعطي في الدنيا أعطي في الآخرة؟! بل الغالب أن الله تعالى يزوي الدنيا عن أوليائه وأصفيائه، ويوسعها على أعدائه، الذين ليس لهم في الآخرة نصيب. والظاهر أنه يعلم حقيقة الحال، ولكنه قال هذا الكلام على وجه التهكم والاستهزاء؛ بدليل قوله: ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ﴾: فإثبات أن وصفه الظلم في حال دخوله الذي جرى منه من القول ما جرى، يدل على تمرده وعناده.

﴿قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّكَ رَجُلًا﴾ ﴿٣٨﴾ لَيْكَأَ هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا﴾ ﴿٣٩﴾.

﴿٣٨﴾؛ أي: قال له صاحبه المؤمن ناصحاً له ومذكراً له حاله الأولى التي أوجده الله فيها في الدنيا ﴿مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّكَ رَجُلًا﴾ ﴿٣٩﴾؛ فهو الذي أنعم عليك بنعمة الإيجاد والإمداد، وواصل عليك النعم، ونقلك من طور إلى طور، حتى سَوَّكَ رجلاً كامل الأعضاء والجوارح المحسوسة والمعقولة، وبذلك يسر لك الأسباب وهياً لك ما هياً من نعم الدنيا، فلم تحصل

جته المؤمن غضباً لربه؛ لكونها غرته وأطعته واطمأن إليها؛ لعله ينب، ويراجع رشده، ويصبر في أمره.

﴿٤٢﴾ فاستجاب الله دعاءه، ﴿وَأُحِيطَ بِشَرِّهِ﴾؛ أي: أصابه عذاب أحاط به واستهلكه فلم يبق منه شيء، والإحاطة بالشئ يستلزم تلف جميع أشجاره وثماره وزرعه، فندم كل الندامة، واشتد لذلك أسفه. ﴿فَأَصْبَحَ يُغْلِبُ كَفْيَهُ عَلَى مَا أَفَقَ فِيهَا﴾؛ أي: على كثرة نفقاته الدنيوية عليها، حيث اضمحلت وتلاشت، فلم يبق لها عوض، وندم أيضاً على شركه وشربه، ولهذا قال: ﴿وَقَوْلُ يَلَيِّنِي لَمْ أَشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا﴾ ﴿٤٣﴾.

﴿٤٣﴾ قال الله تعالى: ﴿وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فِتْنَةً يَصُورُهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنْتَصِرًا﴾ ﴿٤٤﴾؛ أي: لما نزل العذاب بجته؛ ذهب عنه ما كان يفتخر به من قوله لصاحبه: ﴿أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾ ﴿٤٥﴾، فلم يدفعا عنه من العذاب شيئاً أشد ما كان إليهم حاجة، وما كان بنفسه منتصراً، وكيف يتنصر أو يكون له انتصار على قضاء الله وقدره الذي إذا أمضاه وقدره لو اجتمع أهل السماء والأرض على إزالة شيء منه لم يقدروا؟! ولا يستبعد من رحمة الله ولطفه أن صاحب هذه الجنة التي أحيط بها تحسنت حاله، ورزقه الله الإنابة إليه وراجع رشده، وذهب تمردده وطغيانه؛ بدليل أنه أظهر الندم على شركه بربه، وأن الله أذهب عنه ما يطغيه وعاقبه في الدنيا، وإذا أراد الله بعبد خيراً عجل له العقوبة في الدنيا، وفضل الله لا تحيط به الأوهام والعقول، ولا ينكره إلا ظالم جهول.

﴿٤٤﴾ هَٰذَاكَ الْوَلِيَّةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴿٤٥﴾؛ أي: في تلك الحال التي أجرى الله فيها العقوبة على من طغى، وأثر الحياة الدنيا، والكرامة لمن آمن، وعمل صالحاً، وشكر الله، ودعا غيره لذلك؛ تبين وتوضح أن الولاية الحق لله وحده؛ فمن كان مؤمناً به تقيّاً كان له وليّاً، فأكرمه بأنواع الكرامات، ودفع عنه الشرور والمثلات - ومن لم يؤمن بربه ويتولاه؛ خسر دينه ودنياه - فتوابه الدنيوي والأخروي خير ثواب يرجى ويؤمل.

ففي هذه القصة العظيمة اعتبار بحال الذي أنعم الله عليه نعماً دنيوية، فألهته عن آخرته، وأطعته، وعصى الله فيها، أن مآله الانقطاع والاضمحلال، وأنه وإن تمتع بها قليلاً؛ فإنه يحرمها طويلاً، وأن العبد ينبغي له إذا أعجبه شيء من ماله أو ولده أن يضيف النعمة إلى موليتها ومسديها، وأن يقول:

لك الدنيا بحولك وقوتك، بل بفضل الله تعالى عليك؛ فكيف يليق بك أن تكفر بالله الذي خلقك من تراب ثم من نطفة ثم سواك رجلاً، وتجحد نعمته، وتزعم أنه لا يبعثك، وإن بعثك أنه يعطيك خيراً من جنتك؟! هذا مما لا ينبغي ولا يليق.

﴿٣٨﴾ ولهذا لما رأى صاحبه المؤمن حاله واستمراره على كفره وطغيانه؛ قال مخبراً عن نفسه على وجه الشكر لربه والإعلان بدينه عند ورود المجادلات والشبه: ﴿لَيْكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا﴾ ﴿٣٩﴾: فأقر بربوبية ربه وانفرد فيه والتزام طاعته وعبادته، وأنه لا يشرك به أحداً من المخلوقين.

ثم أخبره أن نعمة الله عليه بالإيمان والإسلام، ولو مع قلة ماله وولده؛ أنها هي النعمة الحقيقية، وأن ما عداها معرض للزوال والعقوبة عليه والنكال، فقال:

﴿وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ إِن تَرَنِ أَنَا أَقَلُّ مِنْكَ مَالًا وَوَلَدًا﴾ ﴿٤٠﴾ فَعَسَى رَبِّي أَنْ يُؤْتِيَنِي خَيْرًا مِنْ جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِنَ السَّمَاءِ فَنُصِيعَ صَعِيدًا زَلَقًا﴾ ﴿٤١﴾ أَوْ يُصْبِحَ مَاوْهَا غَوْرًا فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا﴾ ﴿٤٢﴾ وَأُحِيطَ بِشَرِّهِ. فَأَصْبَحَ يُغْلِبُ كَفْيَهُ عَلَى مَا أَفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَلَيِّنِي لَمْ أَشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا﴾ ﴿٤٣﴾ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فِتْنَةً يَصُورُهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنْتَصِرًا﴾ ﴿٤٤﴾ هَٰذَاكَ الْوَلِيَّةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا﴾ ﴿٤٥﴾.

﴿٣٩﴾ أي: قال للكافر صاحبه المؤمن: أنت وإن فخرت عليّ بكثرة مالك وولده، ورأيتني ﴿أَقَلُّ مِنْكَ مَالًا وَوَلَدًا﴾ ﴿٤٠﴾؛ فإن ما عند الله خير وأبقى، وما يرجى من خيره وإحسانه أفضل من جميع الدنيا التي يتنافس فيها المتنافسون.

﴿٤١﴾ ﴿فَعَسَى رَبِّي أَنْ يُؤْتِيَنِي خَيْرًا مِنْ جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا﴾؛ أي: على جنتك التي طغيت بها وغرنتك، ﴿حُسْبَانًا مِنَ السَّمَاءِ﴾؛ أي: عذاباً بمطر عظيم أو غيره. ﴿فَنُصِيعَ﴾؛ بسبب ذلك ﴿صَعِيدًا زَلَقًا﴾ ﴿٤٢﴾؛ أي: قد اقتلعت أشجارها، وتلفت ثمارها وغرق زرعتها، وزال نفعها.

﴿٤٣﴾ ﴿أَوْ يُصْبِحَ مَاوْهَا﴾ الذي مادتها منه ﴿غَوْرًا﴾؛ أي: غائراً في الأرض. ﴿فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا﴾ ﴿٤٤﴾؛ أي: غائراً لا يستطيع الوصول إليه بالمعاول ولا بغيرها، وإنما دعا على

سورة الكهف

الْمُؤْمِنُونَ

الْمَالِ وَالْأَنْفُسِ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَةُ الصَّالِحَةُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴿٤٦﴾ وَيَوْمَ نُسِرُّ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٤٧﴾ وَعَرَضُوا عَلَى رَبِّكَ صَفًّا لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّنْ نَجْعَلَ لَكُمْ مَوْعِدًا ﴿٤٨﴾ وَوَضِعَ الْكِتَابَ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظُنُّ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَكِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا الْإِبْلِسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا ﴿٥٠﴾ مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴿٥١﴾ وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَاءِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ مَوْبِقًا ﴿٥٢﴾ وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرَفًا ﴿٥٣﴾

٢٩٩

﴿مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾؛ ليكون شاكرًا لله متسببًا لبقائه نعمته عليه؛ لقوله: ﴿وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتُ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾.

وفيها: الإرشاد إلى التسلي عن لذات الدنيا وشهواتها بما عند الله من الخير؛ لقوله: ﴿إِنْ تَرَى أَنَا أَقَلَّ مِنْكَ مَالًا وَوَلَدًا﴾ ﴿٣٩﴾ فَعَسَى رَبِّي أَنْ يُؤْتِيَنِي خَيْرًا مِنْ جَنَّتِكَ ﴿٤٠﴾.

وفيها: أن المال والولد لا ينفعان إن لم يعينا على طاعة الله؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُفَرِّقُكُمْ عِندَنَا زُلْفَى إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ [سبا: ٢٧].

وفيه: الدعاء بتلف مال من كان ماله سبب طغيانه وكفره وخسرانه، خصوصًا إن فضل نفسه بسببه على المؤمنين، وفخر عليهم.

وفيها: أن ولاية الله وعدمها إنما تتضح نتيجتها إذا انجلى الغبار وحق الجزاء، ووجد العاملون أجرهم؛ ف ﴿هُنَالِكَ الْوَلِيَّةُ لِلَّهِ الْخَلْقِ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا﴾ ﴿٤١﴾؛ أي: عاقبة ومآل.

﴿وَأَضْرَبَ لَهُمْ مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقَدِّرًا﴾ ﴿٤٢﴾ الْمَالُ وَالْأَنْفُسُ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَةُ الصَّالِحَةُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴿٤٣﴾.

﴿٤٢﴾ يقول تعالى لنبيه ﷺ أصلاً ولمن قام بورائه بعده تبعاً: اضرب للناس ﴿مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾؛ ليتصوروها حق التصور ويعرفوا ظاهرها وباطنها، فيقيسوا بينها وبين الدار الباقية، ويؤثروا أيهما أولى بالإيثار. وأن مثل هذه الحياة الدنيا كمثل المطر؛ ينزل على الأرض، فيختلط نباتها، تنبت من كل زوج بهيج، فيبنا زهرتها وزخرفها تسر الناظرين، وتفرح المتفرجين، وتأخذ بعيون الغافلين؛ إذ أصبحت ﴿هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيحُ﴾: فذهب ذلك النبات الناضر والزهر الزاهر والمنظر البهي، فأصبحت الأرض غبراء تراباً قد انحرف عنها النظر، وصرف عنها البصر، وأوحشت القلب؛ كذلك هذه الدنيا؛ بينما صاحبها قد أعجب بشبابه، وفاق فيها على أقرانه وأترابه، وحصل درهمها ودينارها، واقتطف من لذته أزهارها، وخاض في الشهوات في جميع أوقاته، وظن أنه لا يزال فيها سائر أيامه؛ إذ أصابه الموت أو التلف لماله، فذهب عنه سروره، وزالت لذته وجوره، واستوحش قلبه من الآلام، وفارق شبابه وقوته وماله، وانفرد بصالح أو سعي أعماله، هنالك يعرض الظالم على يديه، حين يعلم حقيقة ما هو عليه، ويتمنى العود إلى الدنيا، لا يستكمل الشهوات، بل ليستدرك ما فرط منه من الغفلات؛ بالثوبة والأعمال الصالحات، فالعاقل الحازم الموفق، يعرض على نفسه هذه الحالة، ويقول لنفسه: قدّري أنك قد متّ، ولا بد أن تموتي؛ فأَي الحالتين تختارين: الاغترار بزخرف هذه الدار، والتمتع بها كتمتع الأنعام السارحة، أم العمل لدار أكلها دائم وظلها، وفيها ما تشبهه الأنفس وتلد الأعين؟ فبهذا يعرف توفيق العبد من خذلانه، وربحه من خسارانه.

﴿٤٣﴾ ولهذا أخبر تعالى أن المال والبنين ﴿زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾؛ أي: ليس وراء ذلك شيء، وأن الذي يبقى للإنسان وينفعه ويسره الباقيات الصالحات، وهذا يشمل جميع الطاعات الواجبة والمستحبة من حقوق الله وحقوق عباده من صلاة وزكاة وصدقة وحج وعمرة وتسيب وتحميد وتهليل وتكبير وقراءة وطلب علم نافع وأمر بمعروف ونهي عن منكر وصلة رحم وبر والدين وقيام بحق الزوجات والمماليك والبهائم وجميع وجوه الإحسان إلى الخلق، كل هذا من الباقيات الصالحات؛ فهذه

خير عند الله ثواباً وخيراً أملاً؛ فتوابها يبقى، ويتضاعف على الآباد، ويؤمل أجرها وبرها ونفعها عند الحاجة؛ فهذه التي ينبغي أن يتنافس بها المتنافسون، ويستبق إليها العاملون، ويجد في تحصيلها المجتهدون.

وتأمل كيف لما ضرب الله مثل الدنيا وحالها واضمحلالها؛ ذكر أن الذي فيها نوعان: نوع من زيتها يتمتع به قليلاً ثم يزول بلا فائدة تعود لصاحبه، بل ربما لحقته مضرته، وهو المال والبنون. ونوع يبقى لصاحبه على الدوام، وهي الباقيات الصالحات.

﴿ وَيَوْمَ نُسِرُّ الْجِبَالَ وَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴾ (٤٧) وَعَرَّضُوا عَلَى رَبِّكَ صَفًا لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّنْ نَجْعَلَ لَكُمْ مَوْعِدًا ﴿٤٨﴾ وَوَضِعَ الْكِتَابَ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يُبَوِّلُنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظُنُّ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾

﴿٤٧﴾ يخبر تعالى عن حال يوم القيامة وما فيه من الأحوال المقلقة والشدائد المزعجة، فقال: ﴿ وَيَوْمَ نُسِرُّ الْجِبَالَ ﴾؛ أي: يزيلها عن أماكنها؛ يجعلها كتيلاً، ثم يجعلها كالعهن المنفوش، ثم تفضحل وتتلشى وتكون هباء منبثاً، وتبرز الأرض فتصير قاعاً صافصفاً، لا عوج فيه ولا أمناً، ويحشر الله جميع الخلق على تلك الأرض؛ فلا يغادر منهم أحداً، بل يجمع الأولين والآخرين من بطون الفلوات وقصور البحار، ويجمعهم بعدما تفرقوا، ويعيدهم بعدما تمزقوا خلقاً جديداً، فيعرضون عليه صفاً ليستعرضهم وينظر في أعمالهم ويحكم فيهم بحكمه العدل الذي لا جور فيه ولا ظلم، ويقول لهم: ﴿ لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾؛ أي: بلا مال ولا أهل ولا عشيرة، ما معهم إلا الأعمال التي عملوها والمكاسب في الخير والشر التي كسبوها؛ كما قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرْدَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرْكُم مَّا خَوَّلْتُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ ﴾ [الأنعام: ٩٤]، وقال هنا مخاطباً للمنكرين للبعث وقد شاهدوه عياناً: ﴿ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّنْ نَجْعَلَ لَكُمْ مَوْعِدًا ﴾ (٤٨)؛ أي: أنكرتم الجزاء على الأعمال ووعد الله ووعده؛ فما قدر أيتيموه وذقتموه.

﴿٤٩﴾ فحينئذ تحضر كُتُبُ الأعمال التي كتبها الملائكة الكرام، فتطير لها القلوب، وتعظم من وقعها الكروب، وتكاد لها الصم الصلاب تذوب، ويشفق منها المجرمون؛ فإذا رآوها

مسطرة عليهم أعمالهم، محصية عليهم أقوالهم وأفعالهم؛ قالوا: ﴿ يُبَوِّلُنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا ﴾؛ أي: لا يترك خطيئة صغيرة ولا كبيرة إلا وهي مكتوبة فيه محفوظة لم ينس منها عمل سر ولا علانية ولا ليل ولا نهار. ﴿ وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا ﴾: لا يقدرون على إنكاره، ﴿ وَلَا يَظُنُّ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾ (٤٨)؛ فحينئذ يجازون بها ويقررون بها ويخزون ويحق عليهم العذاب، ﴿ ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْت أَيْدِيَكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَالَمِينَ ﴾ (٤٩) [آل عمران: ١٨٢]؛ بل هم غير خارجين عن عدله وفضله.

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا ﴾ (٥٠).

﴿٥٠﴾ يخبر تعالى عن عداوة إبليس لآدم وذريته، وأن الله أمر الملائكة بالسجود لآدم إكراماً وتعظيماً وامتنالاً لأمر الله، فامتثلوا ذلك؛ ﴿ إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ ﴾، وقال: ﴿ مَا أَصْبَدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴾ (٥١) [الإسراء: ٦١]. وقال: ﴿ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ ﴾ [الأعراف: ١٢]، فتبين بهذا عداوته لله ولأبيكم ولكم؛ فكيف تتخذونه ﴿ وَذُرِّيَّتَهُ ﴾؛ أي: الشياطين ﴿ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا ﴾ (٥٠)؛ أي: بش ما اختاروا لأنفسهم من ولاية الشيطان الذي لا يأمرهم إلا بالفحشاء والمنكر عن ولاية الرحمن الذي كل السعادة والفلاح والسرور في ولايته.

وفي هذه الآية الحث على اتخاذ الشيطان عدواً والإغراء بذلك وذكر السبب الموجب لذلك، وأنه لا يفعل ذلك إلا ظالم، وأي ظلم أعظم من ظلم من اتخذ عدوه الحقيقي ولياً وترك الولي الحميد؟! قال تعالى: ﴿ اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الظُّلُمَاتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ ﴾ [البقرة: ٢٥٧]، وقال تعالى: ﴿ إِنَّهُمْ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ اللَّهِ ﴾ [الأعراف: ٣٠].

﴿ مَا أَشْهَدُهُمْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا خَلَقَ أَنْفُسَهُمْ وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴾ (٥١) وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَاءِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا ﴿٥٢﴾

﴿٥١﴾ يقول تعالى: ما أشهدت الشياطين وهؤلاء المضلين خلق السماوات والأرض ولا خلق أنفسهم؛ أي: ما أحضرتهم

وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا ﴿٥١﴾ وَمَنْعَ النَّاسِ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةٌ الْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلًا ﴿٥٢﴾ وَمَا تُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَمَآذِرَهُمْ وَأَهْوَاؤَهُمْ ﴿٥٣﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا ﴿٥٤﴾ وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤْخِذُكُمْ بِمَا كَسَبْتُمْ لَعَجَلَ لَهُمُ الْعَذَابُ بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْيلًا ﴿٥٥﴾ وَتِلْكَ الْقُرَى أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِدًا ﴿٥٦﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَتْلِهِ لَا أَتَّبِعُ حَقًّا أَتَّبِعُ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضَى حَقًّا ﴿٥٧﴾ فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنَهُمَا نَسِيَا حَوْضَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا ﴿٥٨﴾

ذلك ولا شاورتهم عليه؛ فكيف يكونون خالقين لشيء من ذلك، بل المتفرد بالخلق والتدبير والحكمة والتقدير هو الله، خالق الأشياء كلها، المتصرف فيها بحكمته؛ فكيف يجعل له شركاء من الشياطين يوالون ويطاعون كما يطاع الله وهم لم يخلقوا ولم يشهدوا خلقًا ولم يعاونوا الله تعالى، ولهذا قال: ﴿وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا﴾ ﴿٥١﴾؛ أي: معاونين مظاهرين لله على شأن من الشئون؛ أي: ما ينبغي ولا يليق بالله أن يجعل لهم قسطًا من التدبير؛ لأنهم ساعون في إضلال الخلق والعداوة لربهم؛ فاللائق أن يقصمهم ولا يدنيهم.

﴿٥٢﴾ ولما ذكر حال من أشرك به في الدنيا، وأبطل هذا الشرك غاية الإبطال، وحكم بجهل صاحبه وسفه؛ أخبر عن حالهم مع شركائهم يوم القيامة، وأن الله يقول لهم: نادوا شركائي بزعمتكم؛ أي: على موجب زعمتكم الفاسد، وإلا؛ فبالحقيقة ليس لله شريك في الأرض ولا في السماء؛ أي: نادوهم لينفعوكم ويخلصوكم من الشدائد. ﴿فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ﴾: لأن الحكم والملك يومئذ لله، لا أحد يملك مثقال ذرة من النفع لنفسه ولا لغيره. ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ﴾؛ أي: بين المشركين وشركائهم ﴿مَوْبِقًا﴾ ﴿٥٣﴾؛ أي: مهلكًا يفرق بينهم وبينهم، ويبعد بعضهم من بعض، ويتبين حيثئذ عداوة الشركاء لشركائهم، وكفرهم بهم، وتبريهم منهم؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعَادَتِهِمْ كَغفري﴾ ﴿٥٤﴾ [الأحاف: ٦].

﴿وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاعِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا﴾ ﴿٥٥﴾.

﴿٥٦﴾ أي: لما كان يوم القيامة، وحصل من الحساب ما حصل، وتميز كل فريق من الخلق بأعمالهم، وحقت كلمة العذاب على المجرمين، فرأوا جهنم قبل دخولها، فانزعجوا، واشتد قلقهم لظنهم أنهم مواقعوها، وهذا الظن قال المفسرون: إنه بمعنى اليقين، فأيقنوا أنهم داخلوها، ﴿وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا﴾ ﴿٥٧﴾؛ أي: معدلاً يعدلون إليه، ولا شافع لهم من دون إذنه. وفي هذا من التخويف والترهيب ما ترعد له الأفئدة والقلوب.

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾ ﴿٥٨﴾.

﴿٥٩﴾ يخبر تعالى عن عظمة القرآن وجلالته وعمومه، وأنه صرّف فيه ﴿مِنْ كُلِّ مَثَلٍ﴾؛ أي: من كل طريق موصل إلى العلوم النافعة والسعادة الأبدية وكل طريق يعصم من الشر والهلاك؛ ففيه أمثال الحلال والحرام، وجزاء الأعمال، والترهيب والترهيب، والأخبار الصادقة النافعة للقلوب؛ اعتقادًا وطمأنينة ونورًا، وهذا مما يوجب التسليم لهذا القرآن وتلقيه بالانقياد والطاعة وعدم المنازعة له في أمر من الأمور، ومع ذلك؛ كان كثير من الناس يجادلون في الحق بعدما تبين، ويجادلون بالباطل ليدحضوا به الحق، ولهذا قال: ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾ ﴿٥٩﴾؛ أي: مجادلة ومنازعة فيه، مع أن ذلك غير لائق بهم، ولا عدل منهم، والذي أوجب له ذلك، وعدم الإيمان بالله، إنما هو الظلم والعدا، لا لقصور في بيانه وحجته وبرهانه، وإلا؛ فلو جاءهم العذاب وجاءهم ما جاء قبلهم؛ لم تكن هذه حالهم، ولهذا قال:

﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةٌ الْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلًا﴾ ﴿٦٠﴾.

الضلال، وخوف ورهب ورجب، فأعرض عنها، فلم يتذكر بما ذكر به، ولم يرجع عما كان عليه، ﴿وَسَيِّ مَا قَدَّمَتْ يَدَا﴾ من الذنوب، ولم يراقب علام الغيوب؛ فهذا أعظم ظلمًا من المعرض الذي لم تأت آيات الله ولم يُذكر بها، وإن كان ظالمًا؛ فإنه أخف ظلمًا من هذا؛ لكون العاصي على بصيرة وعلم أعظم ممن ليس كذلك، ولكن الله تعالى عاقبه بسبب إعراضه عن آياته ونسيانه للذنوب ورضاه لنفسه حالة الشر مع علمه بها، أن سد عليه أبواب الهداية بأن جعل على قلبه أكنة؛ أي: أعطية محكمة تمنعه أن يفقه الآيات وإن سمعها؛ فليس في إمكانه الفقه الذي يصل إلى القلب. ﴿وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا﴾؛ أي: صممًا يمنعهم من وصول الآيات ومن سماعها على وجه الانتفاع، وإن كانوا بهذه الحالة؛ فليس لهدايتهم سبيل. ﴿وَأَن تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَن يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا﴾ (٥٧)؛ لأن الذي يرجى أن يجيب الداعي للهدى من ليس عالمًا، وأما هؤلاء الذين أبصروا ثم عموا، ورأوا طريق الحق فتركوه، وطريق الضلال فسلكوه، وعاقبهم الله بإقفال القلوب والطبع عليها؛ فليس في هدايتهم حيلة ولا طريق. وفي هذه الآية من التخويف لمن ترك الحق بعد علمه أن يحال بينه وبينه، ولا يتمكن منه بعد ذلك ما هو أعظم مرهب وزاجر عن ذلك.

﴿٥٨﴾ ثم أخبر تعالى عن سعة مغفرته ورحمته، وأنه يغفر الذنوب ويتوب الله على من يتوب فيغفده برحمته ويشمله بإحسانه، وأنه لو أخذ العباد على ما قدمت أيديهم من الذنوب؛ لعجل لهم العذاب، ولكنه تعالى حلیم لا يعجل بالعقوبة، بل يمهّل ولا يهمل، والذنوب لا بد من وقوع آثارها، وإن تأخرت عنها مدة طويلة، ولهذا قال: ﴿بَلْ لَهُمْ مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُوا مِن دُونِهِ مَوْيَلًا﴾ (٥٨)؛ أي: لهم موعد يجازون فيه بأعمالهم، لا بد لهم منه، ولا مندوحة لهم عنه، ولا ملجأ ولا محيد عنه.

﴿٥٩﴾ وهذه سته في الأولين والآخرين، ألا يعاجلهم بالعقاب، بل يستدعيهم إلى التوبة والإنابة؛ فإن تابوا وأنابوا؛ غفر لهم ورحمهم وأزال عنهم العقاب، وإلا؛ فإن استمروا على ظلمهم وعنادهم، وجاء الوقت الذي جعله موعدًا لهم؛ أنزل بهم بأسه، ولهذا قال: ﴿وَتِلْكَ الْأَفْرُوسُ أَهْلَكْنَهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا﴾ (٥٩)؛ أي: بظلمهم، لا بظلم منا. ﴿وَجَعَلْنَا لِهَيْلِكِهِمْ مَّوْعِدًا﴾ (٥٩)؛ أي: وقتًا مقدرًا لا يتقدمون عنه ولا يتأخرون.

﴿٥٥﴾ أي: ما منع الناس من الإيمان - والحال أن الهدى الذي يحصل به الفرق بين الهدى والضلال والحق والباطل قد وصل إليهم وقامت عليهم حجة الله، فلم يمنعهم عدم البيان، بل منعهم الظلم والعُدوان عن الإيمان، فلم يبق إلا أن تأتيتهم سنة الله وعادته في الأولين، من أنهم إذا لم يؤمنوا؛ عوجلوا بالعذاب، أو يرون العذاب قد أقبل عليهم، ورأوه مقابلة ومعابنة؛ أي: فليخافوا من ذلك، وليتوبوا من كفرهم؛ قبل أن يكون العذاب الذي لا مرد له.

﴿وَمَا تُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَمَا أُنذِرُوا هُزُوًا﴾ (٥٦).

﴿٥٦﴾ أي: لم نرسل الرسل عبثًا، ولا ليتخذهم الناس أربابًا، ولا ليدعوا إلى أنفسهم، بل أرسلناهم يدعون الناس إلى كل خير، وينهون عن كل شر، ويشرونهم على امتثال ذلك بالثواب العاجل والأجل، وينذرونهم على معصية ذلك بالعقاب العاجل والأجل، فقامت بذلك حجة الله على العباد، ومع ذلك يأبى الظالمون الكافرون إلا المجادلة بالباطل ليدحضوا به الحق، فسعوا في نصر الباطل مهما أمكنهم، وفي دحض الحق وإبطاله، واستهزؤوا برسول الله وآياته، وفرحوا بما عندهم من العلم، ﴿وَيَأْتِي اللَّهُ إِلَّا أَنْ يَسْخَرُوا لَهُمُ الْكُفْرُوتُ﴾ (٥٦)؛ [التوبة: ٣٢]، ويظهر الحق على الباطل، ﴿بَلْ نَقْذِرُ الْبَاطِلَ عَلَى الْبَاطِلِ لِيَدْمَغَهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ [الأنبياء: ١٨]، ومن حكمة الله ورحمته أن تقيضه المبطلين المجادلين الحق بالباطل من أعظم الأسباب إلى وضوح الحق وتبين شواهد وأدلته وتبين الباطل وفساده؛ فبضدها تبين الأشياء.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَا إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَن يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا﴾ (٥٧) ﴿وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَلَهُمْ الْعَذَابَ بَلْ لَهُمْ مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُوا مِن دُونِهِ مَوْيَلًا﴾ (٥٨) ﴿وَتِلْكَ الْأَفْرُوسُ أَهْلَكْنَهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِهَيْلِكِهِمْ مَّوْعِدًا﴾ (٥٩).

﴿٥٧﴾ يخبر تعالى أنه لا أعظم ظلمًا ولا أكبر جرمًا من عبد ذكر بآيات الله وبين له الحق من الباطل والهدى من

﴿وَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتْنِهِ ءَإِنَّا غَدَاةٌ لِّقَوْمٍ نَّاقِدٌ لِّقَيْنَا مِنْ سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا ۝٦٠﴾ قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَّيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحَوْتَ وَمَا أَنَسِيْنِيهِ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا ۝٦١﴾ قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبِغُ فَأَرْتَدَّا عَلَى ءَاتَارِهِمَا قَصَصًا ۝٦٢﴾ فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا ءَلَيْنَهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا ۝٦٣﴾ قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَيْكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَ مِمَّا عَلَّمْتَ رُشْدًا ۝٦٤﴾ قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ۝٦٥﴾ وَكَيْفَ نَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا ۝٦٦﴾ قَالَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا ۝٦٧﴾ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْتَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ۝٦٨﴾ فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا ۝٦٩﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ۝٧٠﴾ قَالَ لَا تُؤْخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عَسَىٰ ۖ أَنُفْلِتَكَ حَتَّىٰ إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ ۖ قَالَ أَفَتُلْقِي نَفْسًا رَّكِيَةً بَغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا ذُكْرًا ۝٧١﴾

﴿وَلَمَّا جَاوَزَا مُوسَى لِفَتْنِهِ لَا أُنْبِرُ حَتَّىٰ أَتْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا ۝٦٠﴾ فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنَهُمَا نَسِيَا حَوْثُهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا ۝٦١﴾ فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتْنِهِ ءَإِنَّا غَدَاةٌ لِّقَوْمٍ نَّاقِدٌ لِّقَيْنَا مِنْ سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا ۝٦٢﴾ قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَّيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحَوْتَ وَمَا أَنَسِيْنِيهِ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا ۝٦٣﴾ قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبِغُ فَأَرْتَدَّا عَلَى ءَاتَارِهِمَا قَصَصًا ۝٦٤﴾ فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا ءَلَيْنَهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا ۝٦٥﴾ قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَيْكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَ مِمَّا عَلَّمْتَ رُشْدًا ۝٦٦﴾ قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ۝٦٧﴾ وَكَيْفَ نَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا ۝٦٨﴾ قَالَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا ۝٦٩﴾ فَانْطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا ۖ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿ذَلِكَ نَأْوِيْلُ مَا لَمْ تَسْطِيعْ عَلَيْهِ صَبْرًا ۝٨٧﴾.

﴿٦٠﴾ يخبر تعالى عن نبيه موسى عليه السلام وشدة رغبته في الخير وطلب العلم أنه قال لفتاه؛ أي: خادمه الذي يلازمه في حضره وسفره، وهو يوشع بن نون، الذي نبأه الله بعد ذلك: ﴿لَا أُنْبِرُ حَتَّىٰ أَتْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ﴾؛ أي: لا أزال مسافراً وإن طالت علي الشقة ولحققتي المشقة حتى أصل إلى مجمع البحرين، وهو المكان الذي أوحى إليه أنك ستجد فيه عبداً من عباد الله العالمين، عنده من العلم ما ليس عندك، ﴿أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا﴾؛ أي: مسافة طويلة. المعنى أن الشوق والرغبة حمل موسى أن قال لفتاه هذه المقالة.

﴿٦١﴾ وهذا عزم منه جازم، فلذلك أمضاه، ﴿فَلَمَّا بَلَغَا﴾؛ أي: هو وفتاه ﴿بَجْمَعَ بَيْنَهُمَا نَسِيَا حَوْثُهُمَا﴾: وكان معهما حوت يتزودان منه ويأكلان، وقد وعد أنه متى فقد الحوت؛ فثم ذلك العبد الذي قصده. ﴿فَاتَّخَذَ﴾: ذلك الحوت ﴿سَبِيلَهُ﴾؛ أي: طريقه ﴿فِي الْبَحْرِ سَرَبًا﴾. وهذا من الآيات، قال المفسرون: إن ذلك الحوت الذي كانا يتزودان منه لما وصلا إلى ذلك المكان أصابه بلل البحر، فانسرب بإذن الله في البحر، وصار مع حيواناته حياً.

﴿٦٢﴾ فلما جاوز موسى وفتاه مجمع البحرين؛ قال موسى لفتاه: ﴿ءَإِنَّا غَدَاةٌ لِّقَوْمٍ نَّاقِدٌ لِّقَيْنَا مِنْ سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا﴾؛ أي: لقد تعبنا من هذا السفر المجاوز فقط، وإلا؛ فالسفر الطويل الذي وصلا به إلى مجمع البحرين لم يجدنا مس التعب فيه، وهذا من الآيات والعلامات الدالة لموسى على وجود مطلبه، وأيضاً؛ فإن الشوق المتعلق بالوصول إلى ذلك المكان سهل لهما الطريق، فلما تجاوزا غايتهما؛ وجدا مس التعب.

﴿٦٣﴾ فلما قال موسى لفتاه هذه المقالة؛ قال له فتاه: ﴿أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَّيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحَوْتَ﴾؛ أي: ألم تعلم حين آوانا الليل إلى تلك الصخرة المعروفة بينهما ﴿فَإِنِّي نَسِيتُ الْحَوْتَ وَمَا أَنَسِيْنِيهِ إِلَّا الشَّيْطَانُ﴾: لأنه السبب في ذلك، ﴿وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا﴾؛ أي: لما انسرب في البحر ودخل فيه؛ كان ذلك من العجائب. قال المفسرون: كان ذلك المسلك للحوت سرباً ولموسى وفتاه عجباً.

﴿٦٤﴾ فلما قال له الفتى هذا القول، وكان عند موسى وعد من الله أنه إذا فقد الحوت؛ وجد الخضر، فقال موسى: ﴿ذَلِكَ مَا

كُنَّا نَبْعُ أَي: نطلب. ﴿فَارْتَدَّا﴾ أَي: رجعا ﴿عَلَىٰ آثَارِهِمَا قَصَصًا﴾ أَي: رجعا يقصان أثرهما إلى المكان الذي نسيا فيه الحوت.

﴿٦٥﴾ فلما وصلا إليه: ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا﴾ وهو الخضر، وكان عبداً صالحاً لا نبيّاً على الصحيح. ﴿ءَاتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا﴾ أَي: أعطاه الله رحمة خاصة، بها زاد علمه وحسن عمله، ﴿وَعَلَّمْنَاهُ مِمَّا لَدُنَّا﴾ أَي: من عندنا ﴿عِلْمًا﴾ أَي: وكان قد أعطي من العلم ما لم يعط موسى، وإن كان موسى عليه السلام أعلم منه بأكثر الأشياء وخصوصاً في العلوم الإيمانية والأصولية؛ لأنه من أولي العزم من المرسلين، الذين فضلهم الله على سائر الخلق بالعلم والعمل وغير ذلك.

﴿٦٦﴾ فلما اجتمع به موسى؛ قال له على وجه الأدب والمشاورة والإخبار عن مطلبه: ﴿هَلْ أَتَبَعَكَ عَلَىٰ أَنْ تَعَلِّمَني مِمَّا عَلَّمْتَ رَبُّكَ﴾ أَي: هل أتبعك على أن تعلمني مما علمك الله ما به أسترشد وأهتدي، وأعرف به الحق في تلك القضايا؟ وكان الخضر قد أعطاه الله من الإلهام والكرامة ما به يحصل له الاطلاع على بواطن كثير من الأشياء التي خفيت حتى على موسى عليه السلام.

﴿٦٧﴾ فقال الخضر لموسى: لا أمتنع من ذلك، ولكنك ﴿لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ أَي: لا تقدر على اتباعي وملازمتي؛ لأنك ترى ما لا تقدر على الصبر عليه من الأمور، التي ظاهرها المنكر وباطنها غير ذلك.

﴿٦٨﴾ ولهذا قال: ﴿وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا﴾ أَي: كيف تصبر على أمر ما أحطت بباطنه وظاهره وعلمت المقصود منه وماله.

﴿٦٩﴾ فقال موسى: ﴿سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا﴾. وهذا عزم منه قبل أن يوجد الشيء الممتحن به، والعزم شيء ووجود الصبر شيء آخر؛ فلذلك ما صبر موسى عليه السلام حين وقع الأمر.

﴿٧٠﴾ فحينئذ قال له الخضر: ﴿فَإِنْ أَتَبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّىٰ أُحَدِّثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا﴾ أَي: لا تبتدئني بسؤال منك وإنكار حتى أكون أنا الذي أخبرك بحاله في الوقت الذي ينبغي إخبارك به، فنهاه عن سؤاله، ووعد أنه يوقفه على حقيقة الأمر.

﴿٧١﴾ ﴿فَانْطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا﴾ أَي: اقتلع الخضر منها لوحاً، وكان له مقصود في ذلك سبب، فلم يصبر موسى عليه السلام؛ لأن ظاهره أنه منكر؛ لأنه عيب للسفينة وسبب لغرق أهلها، ولهذا قال موسى: ﴿أَخْرَقَهَا لِنَارِ اللَّهِ وَأَهلُهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا﴾ أَي: عظيماً شنيعاً، وهذا من عدم صبره عليه السلام.

﴿٧٢﴾ فقال له الخضر: ﴿أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ أَي: فوقع كما أخبرتك.

﴿٧٣﴾ وكان هذا من موسى نسياناً، فقال: ﴿لَا تُؤْخَذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تَرْهَقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا﴾ أَي: لا تُعَسِّرْ عليّ الأمر، واسمح لي؛ فإن ذلك وقع على وجه النسيان، فلا تؤاخذني في أول مرة، فجمع بين الإقرار به والعذر منه، وأنه ما ينبغي لك أيها الخضر الشدة على صاحبك، فسمح عنه الخضر.

﴿٧٤﴾ ﴿فَانْطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا لَقِيَا غُلَامًا﴾ أَي: صغيراً، ﴿فَقَتَلَهُ﴾: الخضر، فاشتد بموسى الغضب، وأخذته الحمية الدينية حين قتل غلاماً صغيراً لم يذنب. ﴿قَالَ أَقْنَلْتُ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا﴾ وأي نكر مثل قتل الصغير الذي ليس عليه ذنب ولم يقتل أحداً؟! وكان الأول من موسى نسياناً، وهذه غير نسيان، ولكن عدم صبر.

﴿٧٥﴾ فقال له الخضر معاتباً ومذكراً: ﴿أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾؟

﴿٧٦﴾ ف ﴿قَالَ﴾ له موسى: ﴿إِن سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَ هَذِهِ الْمَرَّةِ فَلَا تُصَحِّحْنِي﴾ أَي: فأنت معذور بذلك وبترك صحبتي، ﴿قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا﴾ أَي: أعذرت مني، ولم تقصر.

﴿٧٧﴾ ﴿فَانْطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا أَنَا أَهْلَ قَرْيَةٍ أَسْطَعَمَّا أَهْلَهَا﴾ أَي: استضافاهم فلم يضيفوهما، ﴿فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَ﴾ أَي: قد عاب واستهدم، ﴿فَأَقَامَهُ﴾: الخضر؛ أي بناء وأعاده جديداً، ف ﴿قَالَ﴾ له موسى: ﴿لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ أَي: أهل هذه القرية لم يضيفونا مع وجوب ذلك عليهم، وأنت تبنيه من دون أجر، وأنت تقدر عليها؟!

﴿٧٨﴾ فحينئذ لم يف موسى عليه السلام بما قال، واستعذر الخضر منه، ف ﴿قَالَ﴾ له: ﴿هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ﴾: فإنك

سورة الكهف

المكية

﴿٧٩﴾ قَالَ أَرَأَيْتَ لَكَ إِنْكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٩﴾ قَالَ إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَ هَذَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عَذْرًا ﴿٨٠﴾ فَأَطْلُقَا حَتَّىٰ إِذَا أَنِيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطَعْنَا أَهْلُهَا فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّقُوا هُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَ فَأَقَامَهُ ﴿٨١﴾ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴿٨٢﴾ قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنَكَ سَأَيْتُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِيعَ عَلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٣﴾ أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسْكِينٍ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿٨٤﴾ أَمَّا الْكُلْتُمُ فَكَانَ أَبْوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهَقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا ﴿٨٥﴾ فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِمَّا رَزَقُوهُ وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴿٨٦﴾ وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْتَطِيعَ عَلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٧﴾ وَكَشَرُوا لَكَ عَنْ ذِي الْقَرْيَتَيْنِ قُلْ سَأَتْلُوا عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٨﴾

٣٠٢

شرطت ذلك على نفسك، فلم يبق الآن عذر، ولا موضع للصحة. ﴿سَأَيْتُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِيعَ عَلَيْهِ صَبْرًا﴾ أي: سأخبرك بما أنكرت علي وأثبتك بأن لي في ذلك من المأرب، وما ينول إليه الأمر.

﴿٧٩﴾ أَمَّا السَّفِينَةُ: التي خرقتها، ﴿فَكَانَتْ لِمَسْكِينٍ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ﴾: يقتضي ذلك الرقة عليهم والرافة بهم، ﴿فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾ أي: كان مروورهم على ذلك الملك الظالم؛ فكل سفينة صالحة تمر عليه ما فيها عيب غصبها وأخذها ظلماً، فأردت أن أخرقها ليكون فيها عيب ففسلم من ذلك الظالم.

﴿٨٠﴾ وَأَمَّا الْكُلْتُمُ: الذي قتلته؛ ﴿فَكَانَ أَبْوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهَقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا﴾: وكان ذلك الغلام قد قدر عليه أنه لو بلغ لأرهم أبويه طغياناً وكفراً؛ أي: لحملهما على الطغيان والكفر؛ إما لأجل محبتهم إياه، أو للحاجة إليه؛ أو يحملهما على ذلك؛ أي: قتلته؛ لاطلاعي على ذلك؛ سلامة لدين أبويه المؤمنين، وأي فائدة أعظم من هذه الفائدة الجليلة؟

﴿٨١﴾ وهو وإن كان فيه إساءة إليهما وقطع لذريتهما؛ فإن الله تعالى سيعطيهما من الذرية ما هو خير منه، ولهذا قال: ﴿فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِمَّا رَزَقُوهُ وَأَقْرَبَ رُحْمًا﴾ أي: ولذا أشد لعقهما أشد العقوق بحملهما على الكفر والطغيان.

﴿٨٢﴾ وَأَمَّا الْجِدَارُ: الذي أقمته؛ ﴿فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا﴾ أي: حالهما تقتضي الرافة بهما ورحمتهم؛ لكونهما صغيرين، عدما أباهما، وحفظهما الله أيضاً بصلاح والدهما. ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا﴾ أي: فلماذا هدمت الجدار واستخرجت ما تحته من كنزهما ورددته وأعدته مجاناً؛ ﴿رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ﴾ أي: هذا الذي فعلته رحمة من الله آتاه الله عبده الخضر. ﴿وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي﴾ أي: ما آتيت شيئاً من قبل نفسي ومجرد إرادتي، وإنما ذلك من رحمة الله وأمره. ﴿ذَلِكَ﴾ الذي فسرت لك ﴿تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْتَطِيعَ عَلَيْهِ صَبْرًا﴾.

وفي هذه القصة العجيبة الجليلة من الفوائد والأحكام والقواعد شيء كثير نبه على بعضه بعون الله:

فمنها: فضيلة العلم والرحلة في طلبه، وأنه أهم الأمور؛ فإن موسى عليه السلام رحل مسافة طويلة، ولقي النصب في طلبه، وترك القعود عند بني إسرائيل لتعليمهم وإرشادهم، واختار السفر لزيادة العلم على ذلك.

ومنها: البداية بالأهم فالأهم؛ فإن زيادة العلم وعلم الإنسان أهم من ترك ذلك والاشتغال بالتعليم من دون تزود من العلم، والجمع بين الأمرين أكمل.

ومنها: جواز أخذ الخادم في الحضر والسفر؛ لكفاية المؤمن وطلب الراحة؛ كما فعل موسى.

ومنها: أن المسافر لطلب علم أو جهاد أو نحوه، إذا اقتضت المصلحة الإخبار بمطلبه وأين يريد؛ فإنه أكمل من كتمه؛ فإن في إظهاره فوائد من الاستعداد له عدته وإتيان الأمر على بصيرة وإظهار الشوق لهذه العبادة الجليلة؛ كما قال موسى: ﴿لَا أَبْرَحُ

ومنها: التأدب مع المعلم وخطاب المتعلم إياه اللطيف خطاب؛ لقول موسى عليه السلام: ﴿هَلْ أَتَيْكَ عَلَّانٌ تَعْلَمِينَ وَمِمَّا عَلَّمَتْ رُشْدًا﴾: فأخرج الكلام بصورة الملاطفة والمشاورة، وأنت هل تأذن لي في ذلك أم لا؟ وإقراره بأنه يتعلم منه؛ بخلاف ما عليه أهل الجفاء أو الكبر، الذي لا يظهر للمعلم افتقاره إلى علمه، بل يدعي أنه يتعاون هو وإياه، بل ربما ظن أنه يعلم معلمه وهو جاهل جدًا؛ فالذل للمعلم وإظهار الحاجة إلى تعليمه من أنفع شيء للمتعلم.

ومنها: تواضع الفاضل للتعليم ممن دونه؛ فإن موسى بلا شك أفضل من الخضر.

ومنها: تعلم العالم الفاضل للعلم الذي لم يتمهر فيه ممن مهر فيه، وإن كان دونه في العلم بدرجات كثيرة؛ فإن موسى عليه السلام من أولي العزم من المرسلين، الذين منحهم الله وأعطاهم من العلم ما لم يعط سواهم، ولكن في هذا العلم الخاص كان عند الخضر ما ليس عنده؛ فلهذا حرص على التعلم منه؛ فعلى هذا لا ينبغي للفقير المحدث إذا كان قاصرًا في علم النحو أو الصرف أو نحوه من العلوم ألا يتعلمه ممن مهر فيه، وإن لم يكن محدثًا ولا فقيهاً.

ومنها: إضافة العلم وغيره من الفضائل لله تعالى، والإقرار بذلك، وشكر الله عليها؛ لقوله: ﴿تَعْلَمِينَ مِمَّا عَلَّمَتْ﴾؛ أي: مما علمك الله تعالى.

ومنها: أن العلم النافع هو العلم المرشد إلى الخير، فكل علم يكون فيه رشد وهداية لطريق الخير وتحذير عن طريق الشر أو وسيلة لذلك؛ فإنه من العلم النافع، وما سوى ذلك؛ فإما أن يكون ضارًا أو ليس فيه فائدة؛ لقوله: ﴿أَنْ تَعْلَمِينَ مِمَّا عَلَّمَتْ رُشْدًا﴾.

ومنها: أن من ليس له قوة الصبر على صحبة العالم والعلم وحسن الثبات على ذلك؛ أنه يفوته بحسب عدم صبره كثير من العلم؛ فمن لا صبر له؛ لا يدرك العلم، ومن استعمل الصبر ولازمه؛ أدرك به كل أمر سعى فيه؛ لقول الخضر يعتذر من موسى بذكر المانع لموسى من الأخذ عنه: إنه لا يصبر معه.

ومنها: أن السبب الكبير لحصول الصبر إحاطة الإنسان علمًا وخبرة بذلك الأمر الذي أمر بالصبر عليه، وإلا؛ فالذي لا يدره أو لا يدري غايته ولا نتيجته ولا فائدته وثمرته ليس

حَقٌّ أَتْلَعُ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضَى حَقًّا ﴿٧٩﴾، وكما أخبر النبي ﷺ أصحابه حين غزا تبوك بوجهه مع أن عادته التورية، وذلك تبع للمصلحة.

ومنها: إضافة الشر وأسبابه إلى الشيطان على وجه التسويل والترزين، وإن كان الكل بقضاء الله وقدره؛ لقول فتى موسى: ﴿وَمَا أَتَسْنِيهِ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ﴾.

ومنها: جواز إخبار الإنسان عما هو من مقتضى طبيعة النفس من نصب أو جوع أو عطش إذا لم يكن على وجه التسلط وكان صدقًا؛ لقول موسى: ﴿لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا﴾.

ومنها: استحباب كون خادِم الإنسان ذكيًا فطنًا كيِّسًا؛ ليطمأن له أمره الذي يريده.

ومنها: استحباب إطعام الإنسان خادمه من مأكله وأكلهما جميعًا؛ لأن ظاهر قوله: ﴿ءَايِنَا غَدَاءَنَا﴾: إضافة إلى الجميع؛ أنه أكل هو وهو جميعًا.

ومنها: أن المعونة تنزل على العبد على حسب قيامه بالأمور به، وأن الموافق لأمر الله يعان ما لا يعان غيره؛ لقوله: ﴿لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا﴾، والإشارة إلى السفر المجاوز لمجمع البحرين، وأما الأول؛ فلم يشتك منه التعب مع طوله؛ لأنه هو السفر على الحقيقة، وأما الأخير؛ فالظاهر أنه بعض يوم؛ لأنهم فقدوا الحوت حين أووا إلى الصخرة؛ فالظاهر أنهم باتوا عندها، ثم ساروا من الغد، حتى إذا جاء وقت الغداء؛ قال موسى لفتاه: ﴿ءَايِنَا غَدَاءَنَا﴾. فحيثل تذكر أنه نسيه في الموضع الذي إليه منتهى قصده.

ومنها: أن ذلك العبد الذي لقيه ليس نبيًا، بل عبدًا صالحًا؛ لأنه وصفه بالعبودية، وذكر منه الله عليه بالرحمة والعلم، ولم يذكر رسالته ولا نبوته، ولو كان نبيًا؛ لذكر ذلك كما ذكر غيره. وأما قوله في آخر القصة: ﴿وَمَا فَعَلْنَاهُ عَنْ آثَرٍ﴾؛ فإنه لا يدل على أنه نبي، وإنما يدل على الإلهام والتحديث؛ كما يكون لغير الأنبياء؛ كما قال تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾ [القصص: ١٧]، ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّعْلِ أَنْ اتَّخِذِي مِنَ اللَّبَالِ يَوْمًا﴾ [النحل: ٦٨].

ومنها: أن العلم الذي يعلمه الله لعباده نوعان: علم مكتسب يدركه العبد بجده واجتهاده، ونوع: علم لدني يهبه الله لمن يمن عليه من عباده؛ لقوله: ﴿وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا﴾.

ومنها: القاعدة الكبيرة الجليلة، وهو أنه يدفع الشر الكبير بارتكاب الشر الصغير، ويراعى أكبر المصلحتين بتفويت أدناهما؛ فإن قتل الغلام شر، ولكن بقاءه حتى يفتن أبويه عن دينهما أعظم شراً منه، وبقاء الغلام من دون قتل وعصمته وإن كان يظن أنه خير؛ فالخير ببقاء دين أبويه وإيمانهما خير من ذلك؛ فلذلك قتله الخضر. وتحت هذه القاعدة من الفروع والفوائد ما لا يدخل تحت الحصر، فتزاحم المصالح والمفاسد كلها داخل في هذا.

ومنها: القاعدة الكبيرة أيضاً، وهي أن عمل الإنسان في مال غيره إذا كان على وجه المصلحة وإزالة المفسدة أنه يجوز، ولو بلا إذن، حتى ولو ترتب على عمله إتلاف بعض مال الغير؛ كما خرق الخضر السفينة لتعيب فتسلم من غضب الملك الظالم؛ فعلى هذا: لو وقع حرق أو غرق أو نحوهما في دار إنسان أو ماله، وكان إتلاف بعض المال أو هدم بعض الدار فيه سلامة للباقي؛ جاز للإنسان، بل شرع له ذلك؛ حفظاً لمال الغير. وكذلك لو أراد ظالم أخذ مال الغير، ودفع إليه إنسان بعض المال افتداء للباقي؛ جاز، ولو من غير إذن.

ومنها: أن العمل يجوز في البحر كما يجوز في البر؛ لقوله: ﴿يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ﴾، ولم ينكر عليهم عملهم.

ومنها: أن المسكين قد يكون له مال لا يبلغ كفايته ولا يخرج بذلك عن اسم المسكنة؛ لأن الله أخبر أن هؤلاء المساكين لهم سفينة.

ومنها: أن القتل من أكبر الذنوب؛ لقوله في قتل الغلام: ﴿لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا﴾.

ومنها: أن القتل قصاصاً غير منكر؛ لقوله: ﴿يَغَيِّرُ نَفْسٍ﴾.

ومنها: أن العبد الصالح يحفظه الله في نفسه وفي ذريته.

ومنها: أن خدمة الصالحين أو من يتعلق بهم أفضل من غيرها؛ لأنه علل استخراج كنزهما وإقامة جدارهما بأن أباهما صالح.

ومنها: استعمال الأدب مع الله تعالى في الألفاظ؛ فإن الخضر أضاف عيب السفينة إلى نفسه؛ بقوله: ﴿فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا﴾، وأما الخير؛ فأضافه إلى الله تعالى؛ لقوله: ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِن

عنده سبب الصبر؛ لقوله: ﴿وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا﴾؛ فجعل الموجب لعدم صبره عدم إحاطته خبراً بالأمر.

ومنها: الأمر بالتأني والتثبت وعدم المبادرة إلى الحكم على الشيء حتى يعرف ما يراد منه وما هو المقصود.

ومنها: تعليق الأمور المستقبلية التي من أفعال العباد بالمشيئة، وألا يقول الإنسان للشيء: إني فاعل ذلك في المستقبل إلا أن يقول إن شاء الله.

ومنها: أن العزم على فعل الشيء ليس بمنزلة فعله؛ فإن موسى قال: ﴿سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا﴾: فوطن نفسه على الصبر ولم يفعل.

ومنها: أن المعلم إذا رأى المصلحة في إيزاعه للمتعلم أن يترك الابتداء في السؤال عن بعض الأشياء حتى يكون المعلم هو الذي يوقفه عليها؛ فإن المصلحة تتبع؛ كما إذا كان فهمه قاصراً، أو نهاء عن الدقيق في سؤال الأشياء التي غيرها أهم منها أو لا يدرکہا ذهنه، أو يسأل سؤالاً لا يتعلق في موضع البحث.

ومنها: جواز ركوب البحر في غير الحالة التي يخاف منها.

ومنها: أن الناسي غير مؤاخذ بنسيانه؛ لا في حق الله، ولا في حقوق العباد؛ لقوله: ﴿لَا تُؤْخَذُ بِمَا نَصِبْتُ﴾.

ومنها: أنه ينبغي للإنسان أن يأخذ من أخلاق الناس ومعاملاتهم العفو منها وما سمحت به أنفسهم، ولا ينبغي له أن يكلفهم ما لا يطيقون أو يشق عليهم ويرهقهم؛ فإن هذا مدعاة إلى النفور منه والسامة، بل يأخذ المتيسر ليتيسر له الأمر.

ومنها: أن الأمور تجري أحكامها على ظاهرها، وتعلق بها الأحكام الدنيوية في الأموال والدماء وغيرها؛ فإن موسى عليه السلام أنكر على الخضر خرقه السفينة وقتل الغلام، وأن هذه الأمور ظاهرها أنها من المنكر، وموسى عليه السلام لا يسعه السكوت عنها في غير هذه الحال التي صحب عليها الخضر، فاستعجل عليه السلام، وبادر إلى الحكم في حالتها العامة، ولم يلتفت إلى هذا العارض الذي يوجب عليه الصبر وعدم المبادرة إلى الإنكار.

رَبِّكَ ﴿٨٦﴾ كَمَا قَالَ إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَإِذَا مَرَضْتُ فَهَوِّ بِشَفِيعَتِي﴾ [الشعراء: ٨٠]، وَقَالَتِ الْجَنُّ: ﴿وَأَنَا لَا نَدْرِي أَشَرُّ أَرِيدُ يَمُنُ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾ [الجن: ١٠]؛
مَعَ أَنَّ الْكُلَّ بِقَضَاءِ اللَّهِ وَقَدَرِهِ.

ومنها: أَنَّهُ يَنْبَغِي لِلصَّاحِبِ الْأَافِقِ صَاحِبِهِ فِي حَالَةِ
مِنَ الْأَحْوَالِ وَيَتْرَكَ صَحْبَتَهُ حَتَّى يَعْتَبَهُ وَيَعْذُرَ مِنْهُ؛ كَمَا فَعَلَ
الْخَضِرُ مَعَ مُوسَى.

ومنها: أَنَّ مُوَافَقَةَ الصَّاحِبِ لَصَاحِبِهِ فِي غَيْرِ الْأُمُورِ
الْمَحْذُورَةِ مُدْعَاةٌ وَسَبَبُ لِبْقَاءِ الصَّحْبَةِ وَتَأْكِيدُهَا؛ كَمَا أَنَّ عَدَمَ
الْمُوَافَقَةِ سَبَبٌ لِقَطْعِ الْمُرَافَقَةِ.

ومنها: أَنَّ هَذِهِ الْقَضَايَا الَّتِي أَجْرَاهَا الْخَضِرُ هِيَ قَدَرٌ مُحَضَّصٌ،
أَجْرَاهَا اللَّهُ وَجَعَلَهَا عَلَى يَدِ هَذَا الْعَبْدِ الصَّالِحِ لِيَسْتَدِلَّ الْعِبَادُ
بِذَلِكَ عَلَى الطَّافَةِ فِي أَقْضِيَّتِهِ، وَأَنَّهُ يَقْدِرُ عَلَى الْعَبْدِ أُمُورًا
يَكْرَهُهَا جَدًّا وَهِيَ صَلَاحُ دِينِهِ، كَمَا فِي قِصَّةِ الْغُلَامِ، أَوْ وَهِيَ
صَلَاحُ دُنْيَاهُ كَمَا فِي قِصَّةِ السَّفِينَةِ، فَأَرَاهُمْ نُمُودَاجًا مِنْ لُطْفِهِ
وَكَرَمِهِ لِيَعْرِفُوهُ، وَيَرْضَوْا غَايَةَ الرِّضَا بِأَقْدَارِهِ الْمَكْرُوهَةِ.

﴿وَسَأَلُونَكَ عَنْ ذِي الْقُرْنَيْنِ قُلْ سَأَلْتُوْا عَلَيْهِمْ مِنْهُ
ذِكْرًا﴾ [٨٦] ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَءَاتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا﴾ [٨٦]
﴿فَأَنْبَغِ سَبَبًا﴾ [٨٥] ﴿حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَقْرَبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَقَرَّبُ فِي عَيْنِ
حِمْيَرَ وَوَجَدَ عِنْدَهَا قَوْمًا قُلْنَا يَذَا الْقُرْنَيْنِ إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا﴾ [٨٦] ﴿قَالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَى رَبِّهِ
فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نَكِرًا﴾ [٨٧] ﴿وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءُ الْحَسَنَى وَسَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا﴾ [٨٨].

﴿٨٦﴾ كَانَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَوْ الْمُشْرِكُونَ سَأَلُوا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَنْ قِصَّةِ ذِي الْقُرْنَيْنِ، فَأَمَرَهُ اللَّهُ أَنْ يَقُولَ: ﴿سَأَلْتُوْا عَلَيْهِمْ مِنْهُ
ذِكْرًا﴾ [٨٦] ﴿فِيهِ نَبَأٌ مُفِيدٌ وَخَطَابٌ عَجِيبٌ؛ أَيُّ: سَأَلْتُوْا عَلَيْهِمْ مِنْ أَحْوَالِهِ مَا يُتَذَكَّرُ فِيهِ وَيَكُونُ عِبْرَةً، وَأَمَّا مَا سَوَى ذَلِكَ مِنْ
أَحْوَالِهِ؛ فَلَمْ يَتْلَهُ عَلَيْهِمْ.

﴿٨٥﴾ ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ﴾؛ أَيُّ: مَلِكُهُ اللَّهُ تَعَالَى وَمَكَّنَهُ مِنَ النُّفُوذِ فِي أَقْطَارِ الْأَرْضِ وَاتَّقِيَادِهِمْ لَهُ. ﴿وَءَاتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ
شَيْءٍ سَبَبًا﴾ [٨٥] ﴿فَأَنْبَغِ سَبَبًا﴾ [٨٥] ﴿أَيُّ: أَعْطَاهُ اللَّهُ مِنَ الْأَسْبَابِ الْمَوْصِلَةِ لَهُ لِمَا وَصَلَ إِلَيْهِ مَا بِهِ يَسْتَعِينُ عَلَى قَهْرِ الْبِلْدَانِ وَسَهُولَةِ
الْوَصُولِ إِلَى أَقَاصِي الْعِمْرَانِ، وَعَمِلَ بِتِلْكَ الْأَسْبَابِ الَّتِي أَعْطَاهُ اللَّهُ إِيَّاهَا؛ أَيُّ: اسْتَعْمَلَهَا عَلَى وَجْهٍهَا؛ فَلَيْسَ كُلُّ مَنْ عِنْدَهُ
شَيْءٌ مِنَ الْأَسْبَابِ يَسْلُكُهُ، وَلَا كُلُّ أَحَدٍ يَكُونُ قَادِرًا عَلَى السَّبَبِ؛ فَإِذَا اجْتَمَعَ الْقُدْرَةُ عَلَى السَّبَبِ الْحَقِيقِيِّ وَالْعَمَلُ بِهِ؛ حَصَلَ
الْمَقْصُودُ، وَإِنْ عَدِمَا أَوْ أَحَدُهُمَا؛ لَمْ يَحْصُلْ، وَهَذِهِ الْأَسْبَابُ الَّتِي أَعْطَاهُ اللَّهُ إِيَّاهَا لَمْ يَخْبِرْنَا اللَّهُ وَلَا رَسُولُهُ بِهَا، وَلَمْ تَتَنَاقَلْهَا
الْأَخْبَارُ عَلَى وَجْهِ بَيِّنَةِ الْعِلْمِ؛ فَلِهَذَا لَا يَسْعُنَا غَيْرُ السَّكُوتِ عَنْهَا وَعَدَمُ الْإِتِّفَاقِ لِمَا يَذْكُرُهُ الْإِسْرَائِيلِيَّاتُ وَنَحْوُهَا،
وَلَكِنَّا نَعْلَمُ بِالْجُمْلَةِ أَنَّهَا أَسْبَابٌ قَوِيَّةٌ كَثِيرَةٌ دَاخِلِيَّةٌ وَخَارِجِيَّةٌ، بِهَا صَارَ لَهُ جُنْدٌ عَظِيمٌ ذُو عَدَدٍ وَعُدَدٌ وَنِظَامٌ، وَبِهِ تَمَكَّنَ مِنْ قَهْرِ
الْأَعْدَاءِ وَمِنْ تَسْهِيلِ الْوَصُولِ إِلَى مَشَارِقِ الْأَرْضِ وَمَغَارِبِهَا وَأَنْحَائِهَا.

﴿٨٦﴾ فَأَعْطَاهُ اللَّهُ مَا بَلَغَ بِهِ ﴿مَقْرَبَ الشَّمْسِ﴾، حَتَّى رَأَى الشَّمْسُ فِي مَرَايِ الْعَيْنِ كَأَنَّهَا ﴿تَقَرَّبُ فِي عَيْنِ حِمْيَرَ﴾؛ أَيُّ: سَوْدَاءُ،
وَهَذَا الْمَعْتَادُ لِمَنْ كَانَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَفْقِ الشَّمْسِ الْغَرْبِيِّ مَاءٌ؛ رَأَاهَا تَغْرُبُ فِي نَفْسِ الْمَاءِ، وَإِنْ كَانَتْ فِي غَايَةِ الِارْتِفَاعِ. ﴿وَوَجَدَ
عِنْدَهَا﴾؛ أَيُّ: عِنْدَ مَغْرِبِهَا ﴿قَوْمًا قُلْنَا يَذَا الْقُرْنَيْنِ إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا﴾ [٨٦] ﴿أَيُّ: إِمَّا أَنْ تَعَذِّبَهُمْ بِقَتْلِ أَوْ ضَرْبِ

إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَءَاتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا ﴿٨٥﴾ فَأَنْبَغِ سَبَبًا ﴿٨٥﴾ حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَقْرَبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَقَرَّبُ فِي عَيْنِ حِمْيَرَ وَوَجَدَ عِنْدَهَا قَوْمًا قُلْنَا يَذَا الْقُرْنَيْنِ إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴿٨٦﴾ قَالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَى رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نَكِرًا ﴿٨٧﴾ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءُ الْحَسَنَى وَسَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴿٨٨﴾ ثُمَّ أَنْبَغِ سَبَبًا ﴿٨٩﴾ حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَى قَوْمٍ لَمْ يَجْعَلْ لَهُمُ مِنَ دُونِهَا سِتْرًا ﴿٩٠﴾ كَذَلِكَ وَفَدَّ أَحْطَنًا بِمَا لَدَيْهِ خَبْرًا ﴿٩١﴾ ثُمَّ أَنْبَغِ سَبَبًا ﴿٩٢﴾ حَتَّى إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَيْنِ وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا قَوْمًا لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴿٩٣﴾ قَالُوا يَذَا الْقُرْنَيْنِ إِنْ بَأْسُكُمْ وَمَأْجُوجُ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَى أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٤﴾ قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٩٥﴾ ءَاتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّى إِذَا سَاوَتْ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انْفُخُوا حَتَّى إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ ءَاتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴿٩٦﴾ فَمَا اسْطَبَحُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَعُوا لَهُ نَقْبًا ﴿٩٧﴾

﴿٩٦﴾ ومع هذا؛ فكل هذا بتقدير الله له وعلمه به، ولهذا قال: ﴿كَذَلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا﴾ ﴿٩٧﴾؛ أي: أحطنا بما عنده من الخير والأسباب العظيمة، وعلمنا معه حيثما توجه وسار.

﴿٩٨﴾، ﴿٩٩﴾، ﴿١٠٠﴾ ثُمَّ أَنْتَعَ سَبَبًا ﴿٩٨﴾ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ ﴿٩٩﴾: قال المفسرون: ذهب متوجهًا من المشرق قاصدًا للشمال، فوصل إلى ما بين السدين، وهما سدان كانا معروفين في ذلك الزمان، سدان من سلاسل الجبال المتصلة بمتة ويسرة، حتى تتصل بالبحار، بين يأجوج ومأجوج وبين الناس، ﴿وَجَدَ﴾: من دون السدين ﴿قَوْمًا لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا﴾ ﴿١٠٠﴾؛ لعجمة ألسنتهم واستعجاب أذهانهم وقلوبهم.

﴿١٠١﴾ وقد أعطى الله ذا القرنين من الأسباب العلمية ما فقه به السنة أولئك القوم وفقهم وراجعهم وراجعوه، فاشتكوا إليه ضرر يأجوج ومأجوج، وهما أمتان عظيمتان من بني آدم، فقالوا: ﴿إِنَّا يَا جُوجُ وَمَأْجُوجُ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ﴾: بالقتل وأخذ الأموال وغير ذلك. ﴿فَهَلْ جَعَلَ لَكَ خَرَمًا﴾: أي: جعلًا ﴿عَلَىٰ أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا﴾ ﴿١٠٢﴾: ودل ذلك على عدم اقتدارهم بأنفسهم على بنيان السد، وعرفوا اقتدار ذي القرنين عليه، فبدلوا له أجره ليفعل ذلك، وذكروا له السبب الداعي، وهو إفسادهم في الأرض.

﴿١٠٣﴾ فلم يكن ذو القرنين ذا طمع ولا رغبة في الدنيا ولا تاركًا لإصلاح أحوال الرعية، بل قصده الإصلاح؛ فلذلك أجاب طلبتهم؛ لما فيها من المصلحة، ولم يأخذ منهم أجره، وشكر ربه على تمكينه واقتداره، فقال لهم: ﴿مَا مَكَّنِي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ﴾: أي: مما تبذلون لي وتعطوني، وإنما أطلب منكم أن تعينوني بقوة منكم بأيديكم؛ ﴿أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا﴾ ﴿١٠٤﴾؛ أي: مانعًا من عبورهم عليكم.

﴿١٠٥﴾ ﴿ءَاتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ﴾: أي: قطع الحديد، فأعطوه ذلك، ﴿حَتَّىٰ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ﴾: أي: الجبلين اللذين بني بينهما السد، ﴿قَالَ انْفُخُوا﴾: النار؛ أي أوقدوها إيقادًا عظيمًا واستعملوا لها المنافخ لتشتد فتذيب النحاس، فلما ذاب النحاس الذي يريد أن يلصقه بين زبر الحديد، ﴿قَالَ ءَاتُونِي أَفْرَغْ عَلَيْهِ قَطْرًا﴾ ﴿١٠٦﴾؛ أي: نحاسًا مذابًا، فأفرغ عليه القطر، فاستحكم السد استحكامًا هائلًا، وامتنع به من وراءه من الناس من ضرر يأجوج ومأجوج.

أو أسر ونحوه، وإما أن تحسن إليهم؛ فخير بين الأمرين؛ لأن الظاهر أنهم إما كفار أو فساق أو فيهم شيء من ذلك؛ لأنهم لو كانوا مؤمنين غير فساق؛ لم يرخص له في تعذيبهم.

﴿١٠٧﴾ فكان عند ذي القرنين من السياسة الشرعية ما استحق به المدح والثناء؛ لتوفيق الله له لذلك، فقال: سأجعلهم قسمين: ﴿أَمَّا مَنْ ظَلَمَ﴾: بالكفر، ﴿فَسَوْفَ نَعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُكَرًا﴾ ﴿١٠٨﴾؛ أي: تحصل له العقوبتان؛ عقوبة الدنيا، وعقوبة الآخرة.

﴿١٠٩﴾ ﴿وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءُ الْحَسَنَىٰ﴾: أي: فله الجنة والحالة الحسنة عند الله جزاء يوم القيامة. ﴿وَسَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرٍ آتٍ﴾ ﴿١١٠﴾؛ أي: وسنحسن إليه ونلطف له بالقول ونيسر له المعاملة. وهذا يدل على كونه من الملوك الصالحين والأولياء العادلين العالمين؛ حيث وافق مرضاة الله في معاملة كل أحد بما يليق بحاله.

﴿١١١﴾ ثُمَّ أَنْتَعَ سَبَبًا ﴿١١١﴾ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَمْ يَجْعَلْ لَهُمْ مِنْ دُونِهَا سَبِيلًا ﴿١١٢﴾ كَذَلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ﴿١١٣﴾ ثُمَّ أَنْتَعَ سَبَبًا ﴿١١٤﴾ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا قَوْمًا لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴿١١٥﴾ قَالُوا يَبْنَؤُا الْقَرْيَتَيْنِ إِنَّ يَا جُوجُ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ جَعَلَ لَكَ خَرَمًا عَلَىٰ أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿١١٦﴾ قَالَ مَا مَكَّنِي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿١١٧﴾ ءَاتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّىٰ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انْفُخُوا حَتَّىٰ إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ ءَاتُونِي أَفْرَغْ عَلَيْهِ قَطْرًا ﴿١١٨﴾ فَمَا اسْتَطَعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَعُوا لَهُ نَقْبًا ﴿١١٩﴾ قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا ﴿١٢٠﴾.

﴿١٢١﴾ أي: لما وصل إلى مغرب الشمس؛ كر راجعًا، قاصدًا مطلعها، متبعًا للأسباب التي أعطاه الله.

﴿١٢٢﴾ فوصل إلى مطلع الشمس ف ﴿وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَمْ يَجْعَلْ لَهُمْ مِنْ دُونِهَا سَبِيلًا﴾ ﴿١٢٣﴾؛ أي: وجدها تطلع على أناس ليس لهم ستر من الشمس؛ إما لعدم استعدادهم في المساكن، وذلك لزيادة همجيتهم وتوحشهم وعدم تمدنهم، وإما لكون الشمس دائمة عندهم لا تغرب عنهم غروبًا يذكر؛ كما يوجد ذلك في شرقي إفريقيا الجنوبي، فوصل إلى موضع انقطع عنه علم أهل الأرض فضلًا عن وصولهم إياه بأبدانهم.

﴿٩٧﴾ ﴿فَمَا اسْطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبٌ﴾ ﴿٩٧﴾؛
أي: فما لهم استطاعة ولا قدرة على الصعود عليه؛ لارتفاعه،
ولا على نقبه؛ لإحكامه وقوته.

﴿٩٨﴾ فلما فعل هذا الفعل الجميل والأثر الجليل؛ أضاف
النعمة إلى موليتها، وقال: ﴿هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي﴾؛ أي: من فضله
وإحسانه عليّ، وهذه حال الخلفاء والصالحين إذا من الله
عليهم بالنعم الجليلة؛ ازداد شكرهم وإقرارهم واعترافهم
بنعمة الله؛ كما قال سليمان عليه السلام لما حضر عنده عرش
ملكة سبأ مع البعد العظيم؛ قال: ﴿هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي
أَشْكُرُكُمْ أَمْ أَكْفُرُ﴾ [النمل: ٤٠]؛ بخلاف أهل التجبر والتكبر
والعلو في الأرض؛ فإن النعم الكبار تزيدهم أشراً ويطرأ؛ كما
قال قارون لما آتاه الله من الكنوز ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة
أولي القوة؛ قال: ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي﴾ [القصص: ٧٨].
وقوله: ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي﴾؛ أي: لخروج يأجوج ومأجوج.
﴿جَعَلَهُ﴾؛ أي: ذلك السد المحكم المتقن ﴿دَكَّاءً﴾؛ أي: دكه
فانهدم، واستوى هو والأرض، ﴿وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا﴾ ﴿٩٨﴾.

﴿٩٩﴾ ﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ
جَمْعًا﴾ ﴿٩٩﴾.

﴿٩٩﴾ يحتمل أن الضمير يعود إلى يأجوج ومأجوج، وأنهم
إذا خرجوا على الناس من كثرتهم واستيعابهم للأرض كلها يموج بعضهم ببعض؛ كما قال تعالى: ﴿حَقًّا إِذَا فُيِّضَتْ
يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٦]، ويحتمل أن الضمير يعود إلى الخلائق يوم القيامة، وأنهم
يجتمعون فيه، فيكثرون، ويموج بعضهم ببعض من الأهوال والزلازل العظام؛ بدليل قوله: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا﴾ ﴿٩٩﴾
وَعَرْضًا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرْضًا ﴿١٠٠﴾ الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَنْ ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا ﴿١٠١﴾﴾ ﴿٩٩﴾؛ أي: إذا نفخ إسرافيل في
الصور؛ أعاد الله الأرواح إلى الأجساد، ثم حشرهم وجمعهم لموقف القيامة، الأولين منهم والآخرين، والكافرين والمؤمنين؛
ليسألوا، ويحاسبوا، ويجزون بأعمالهم.

﴿١٠٠﴾ ﴿وَعَرْضًا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرْضًا﴾ ﴿١٠٠﴾ الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَنْ ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا ﴿١٠١﴾﴾.

﴿١٠٠﴾ فاما الكافرون على اختلافهم؛ فإن جهنم جزاؤهم خالدين فيها أبداً، ولهذا قال: ﴿وَعَرْضًا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ
عَرْضًا﴾ ﴿١٠٠﴾؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا الْحُجُجُ سُورَتْ﴾ ﴿١٠١﴾ [التكوير: ١٢]؛ أي: عرضت لهم لتكون مأواهم ومنزلهم، وليتمتعوا
بأغلالها وسعيرها وحميمها وزمهريرها، وليذوقوا من العقاب ما تبكهم له القلوب، وتصفم الأذان.

﴿١٠١﴾ وهذا آثار أعمالهم وجزاء أفعالهم؛ فإنهم في الدنيا كانت أعينهم في غطاء عن ذكر الله؛ أي: معرضين عن الذكر
الحكيم والقرآن الكريم، ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا نَدْعُونَ إِلَيْهِ﴾ [نفلت: ٥]، وفي أعينهم أغطية تمنعهم من رؤية آيات
الله النافعة؛ كما قال تعالى: ﴿وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاةٌ﴾ [البقرة: ٧]. ﴿وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا﴾ ﴿١٠١﴾؛ أي: لا يقدرّون على سماع
آيات الله، الموصلة إلى الإيمان؛ لبغضهم القرآن والرسول؛ فإن المبغض لا يستطيع أن يلقى سمعه إلى كلام من أبغضه؛ فإذا
انحجبت عنهم طرق العلم والخير؛ فليس لهم سمع ولا بصر ولا عقل نافع؛ فقد كفروا بالله، وجحدوا آياته، وكذبوا رسله،
فاستحقوا جهنم، وساءت مصيرًا.

﴿١٠١﴾ ﴿أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِنْ دُونِ آلِهَاتٍ إِنَّا أَعْنَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا﴾ ﴿١٠١﴾.

سورة الكهف
قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا ﴿٩٨﴾ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا ﴿٩٩﴾ وَعَرْضًا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرْضًا ﴿١٠٠﴾ الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَنْ ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا ﴿١٠١﴾ أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِنْ دُونِ آلِهَاتٍ إِنَّا أَعْنَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا ﴿١٠٢﴾ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكَ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴿١٠٣﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيَّهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِمْ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَزَنًا ﴿١٠٥﴾ ذَلِكَ جَزَاءُكُمْ جَهَنَّمَ بِمَا كَفَرُوا وَتَوَلَّوْا آيَاتِي وَرُسُلِي هَرَوًا ﴿١٠٦﴾ إِنَّا لِلَّهِ أَمَتُونَ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴿١٠٧﴾ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ﴿١٠٨﴾ قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لَكُنتَ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ نَفِدَ كَلِمَتِي رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا ﴿١٠٩﴾ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهُ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴿١١٠﴾

الْمُيُنِّ ﴿١٥﴾ [الزمر: ١٥]؟ ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ﴾؛ أي: جحدوا الآيات القرآنية والآيات العينية الدالة على وجوب الإيمان به وملائكته ورسله وكتبه واليوم الآخر. ﴿فَخِطَّتْ﴾: بسبب ذلك ﴿أَعْمَلَهُمْ فَلَا يُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَزَنًا﴾: لأن الوزن فائدته مقابلة الحسنات بالسيئات والنظر في الراجح منها والمرجوح، وهؤلاء لا حسنات لهم؛ لعدم شرطها، وهو الإيمان؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا﴾ [طه: ١١٢]، لكن تعد أعمالهم، وتحصى ويقرونها بها، ويخزون بها على رؤوس الأشهاد ثم يعذبون عليها.

ولهذا قال: ﴿ذَلِكَ جَزَاءُكُمْ﴾؛ أي: حبوط أعمالهم، وأنه لا يقام لهم يوم القيامة وزن؛ لحقارتهم وخستهم بكفرهم بآيات الله واتخاذهم آياته ورسله هزواً يستهزئون بها ويسخرون منها، مع أن الواجب في آيات الله ورُسْله الإيمان التام بها والتعظيم لها والقيام بها أتم القيام، وهؤلاء عكسوا القضية، فانعكس أمرهم وتسوا وانتكسوا في العذاب.

ولمَّا بَيَّنَّ مآل الكافرين وأعمالهم؛ بَيَّنَّ أعمال المؤمنين ومآلهم، فقال:

﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا﴾ [١٦] ﴿خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا﴾ [١٧].

﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾: بقلوبهم، ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾: بجوارحهم، وشمل هذا الوصف جميع الدين؛ عقائده وأعماله، أصوله وفروعه الظاهرة والباطنة؛ فهؤلاء على اختلاف طبقاتهم من الإيمان والعمل الصالح، ﴿لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ﴾: يحتمل أن المراد بجنات الفردوس أعلى الجنة ووسطها وأفضلها، وأن هذا الثواب لمن كمل الإيمان والعمل الصالح، وهم الأنبياء والمقربون، ويحتمل أن يراد بها جميع منازل الجنان، فيشمل هذا الثواب جميع طبقات أهل الإيمان من المقربين والأبرار والمقتصدِين؛ كل بحسب حاله، وهذا أولى المعنيين؛ لعمومه، ولذكر الجنة بلفظ الجمع المضاف إلى الفردوس، وأن الفردوس يطلق على البستان المحتوي على الكرم أو الأشجار الملتفة، وهذا صادق على جميع الجنة؛ فجنة الفردوس نزل وضيافة لأهل الإيمان والعمل الصالح، وأي ضيافة أجل وأكبر وأعظم من هذه الضيافة، المحتوية على كل نعيم للقلوب

﴿١٦﴾ وهذا برهان وبيان لبطلان دعوى المشركين الكافرين، الذين اتخذوا بعض الأنبياء والأولياء شركاء لله يعبدونهم، ويزعمون أنهم يكونون لهم أولياء، ينجونهم من عذاب الله، وينيلونهم ثوابه، وهم قد كفروا بالله وبرسوله، يقول الله لهم على وجه الاستفهام والإنكار المتقرر بطلانه في العقول: ﴿أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِنْ دُونِ آلِهَةٍ﴾؛ أي: لا يكون ذلك، ولا يوالي ولي الله معادياً لله أبداً؛ فإن الأولياء موافقون لله في محبته ورضاه وسخطه وبغضه، فيكون على هذا المعنى مشابهة لقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْجَمْعُ ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهْتَوْلَاءُ إِنَّا كُنَّا بِكُمْ عِبَادُونَ﴾ [١٧] قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِسْنَا مِنْ دُونِهِمْ [سبا: ٤٠، ٤١]؛ فمن زعم أنه يتخذ ولي الله ولياً له وهو معاد لله؛ فهو كاذب. ويحتمل - وهو الظاهر - أن المعنى: أفحسب الكفار بالله المنابذون لرسله أن يتخذوا من دون الله أولياء ينصرونهم وينفعونهم من دون الله ويدفعون عنهم الأذى؟ هذا حسان باطل وظن فاسد؛ فإن جميع المخلوقين ليس بيدهم من النفع والضرر شيء، ويكون هذا كقوله تعالى: ﴿قُلْ أَدْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِي فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا﴾ [الإسراء: ٥٦]، ﴿وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفَعَةَ﴾ [الزخرف: ٨٦]. ونحو ذلك من الآيات التي يذكر الله فيها أن المتخذ من دونه ولياً ينصره ويواليه ضال خائب الرجاء غير نائل لبعض مقصوده. ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا لَهُمْ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا﴾ [١٨]؛ أي: ضيافة وقرى؛ فبئس النزل نزلهم، وبئست جهنم ضيافتهم.

﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا﴾ [١٩] الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا [٢٠] أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ. فَخِطَّتْ أَعْمَالَهُمْ فَلَا يُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَزَنًا [٢١] ذَلِكَ جَزَاءُكُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا ءَابَائِي وَرُسُلِي هُزُوًا [٢٢].

﴿١٩﴾ أي: قل يا محمد للناس - على وجه التحذير والإنذار - هل أخبركم بأخسر الناس أعمالاً على الإطلاق؟

﴿الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾؛ أي: بطل واضمححل كل ما عملوه من عمل، ﴿وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُحْسِنُونَ﴾ في صنعه؛ فكيف بأعمالهم التي يعلمون أنها باطلة وأنها محادة لله ورسله ومعاداة؟!

﴿٢٠﴾ فمن هم هؤلاء الذين خسرت أعمالهم، ﴿فَخَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ [٢١] أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ

والأرواح والأبدان؟! وفيها ما تشتهيهِ الأنفس وتلذ الأعين، من المنازل الأنيقة، والرياض الناضرة، والأشجار المثمرة، والطيور المغردة المشجية، والمأكَل اللذيذة، والمشارب الشهيّة، والنساء الحسان، والخدم، والولدان، والأنهار السارحة، والمناظر الرائقة، والجمال الحسي والمعنوي، والنعمة الدائمة، وأعلى ذلك وأفضله وأجلُّه التمتع بالقرب من الرحمن ونيل رضاه الذي هو أكبر نعيم الجنان، والتمتع برؤية وجهه الكريم وسماع كلام الرؤوف الرحيم، فله تلك الضيافة؛ ما أجلها وأجلها وأدومها وأكملها! وهي أعظم من أن يحيط بها وصف أحد من الخلائق، أو تخطر على القلوب؛ فلو علم العباد بعض ذلك النعيم علماً حقيقياً يصل إلى قلوبهم لطارت إليها قلوبهم بالأسواق، ولتقطعت أرواحهم من ألم الفراق، ولساروا إليها زرافات ووحدانا، ولم يؤثروا عليها دنيا فانية، ولذات منقصة متلاشية، ولم يفوتوا أوقاناً تذهب ضائعة خاسرة، يقابل كل لحظة منها من النعيم من الحقب آلاف مؤلفة، ولكن الغفلة شملت، والإيمان ضعف، والعلم قل، والإرادة همت، فكان ما كان؛ فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

﴿١٠٨﴾ وقوله: ﴿خَلِّدِينَ فِيهَا﴾: هذا هو تمام النعيم، أن فيها النعيم الكامل، ومن تمامه أنه لا ينقطع، ﴿لَا يَمُوتُونَ عَنْهَا جَوْلًا﴾؛ أي: تحوّلًا ولا انتقالًا؛ لأنهم لا يرون إلا ما يعجبهم ويبهجهم ويسرهم ويفرحهم، ولا يرون نعيمًا فوق ما هم فيه.

﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ نُنْفِذَ كَلِمَاتِ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا﴾ ﴿١٠٩﴾.

﴿١٠٩﴾ أي: قل لهم مخبرًا عن عظمة الباري وسعة صفاته وأنها لا يحيط العباد بشيء منها: ﴿لَوْ كَانَ الْبَحْرُ﴾؛ أي: هذه الأبحر الموجودة في العالم ﴿وَمِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي﴾؛ أي: وأشجار الدنيا من أولها إلى آخرها من أشجار البلدان والبراري والبحار أقلام، ﴿لَنَفِدَ الْبَحْرُ﴾: وتكسرت الأقلام ﴿قَبْلَ أَنْ نُنْفِذَ كَلِمَاتِ رَبِّي﴾: وهذا شيء عظيم لا يحيط به أحد، وفي الآية الأخرى: ﴿وَلَوْ أَنَّ فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَمٌ وَالْبَحْرُ يَمْدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ ﴿١١٠﴾ [لقمان: ٢٧]: وهذا من باب تقريب المعنى إلى الأذهان؛ لأن هذه الأشياء مخلوقة، وجميع المخلوقات منقضية منتهية، وأما كلام الله؛ فإنه من جملة صفاته، وصفاته غير مخلوقة ولا لها حد ولا منتهى؛ فأی سعة وعظمة تصورتها القلوب؛ فالله فوق ذلك، وهكذا سائر صفات

الله تعالى؛ كعلمه، وحكمته، وقدرته، ورحمته؛ فلو جمع علم الخلائق من الأولين والآخرين أهل السماوات وأهل الأرض؛ لكان بالنسبة إلى علم العظيم أقل من نسبة عصفور وقع على حافة البحر، فأخذ بمنقاره من البحر بالنسبة للبحر وعظمته، ذلك بأن الله له الصفات العظيمة الواسعة الكاملة، وأن إلى ربك المتهى.

﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَحْدَهُ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ ﴿١١١﴾.

﴿١١١﴾ أي: قل يا محمد للكفار وغيرهم: ﴿إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ﴾؛ أي: لست بإله، ولا لي شركة في الملك، ولا علم بالغيب، ولا عندي خزائن الله، وإنما أنا بشر مثلكم، عبد من عبيد ربي. ﴿يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَحْدَهُ﴾؛ أي: فضلت عليكم بالوحي الذي يوحى الله إليّ، الذي أجله الإخبار لكم، ﴿أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَحْدَهُ﴾؛ أي: لا شريك له ولا أحد يستحق من العبادة مثقال ذرة غيره، وأدعوكم إلى العمل الذي يقربكم منه وينيلكم ثوابه ويدفع عنكم عقابه، ولهذا قال: ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا﴾: وهو الموافق لشرع الله من واجب ومستحب، ﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ ﴿١١٢﴾؛ أي: لا يرائي بعمله، بل يعمل خالصًا لوجه الله تعالى؛ فهذا الذي جمع بين الإخلاص والمتابعة هو الذي ينال ما يرجو ويطلب، وأما من عدا ذلك؛ فإنه خاسر في دنياه وآخره، وقد فاته القرب من مولاه ونيل رضاه.

آخر تفسير سورة الكهف. ولله الحمد.



تفسير سورة مريم

وهي مدنية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿كَهَيَّصَ﴾ ﴿١﴾ ذَكَرَ رَحْمَتَ رَبِّكَ عَبْدُهُ زَكَرِيَّا ﴿٢﴾ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ يَدَّاءَ خَفِيًّا ﴿٣﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴿٤﴾ وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوْلَىٰ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ آمْرَاتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا ﴿٥﴾ يَرِثُنِي وَيَرِثْ مِنْ عَالِ بَيْتِي وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴿٦﴾.

﴿٢﴾ أي: هذا ﴿ذَكَرَ رَحْمَتَ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا﴾: ستقصه عليك، ونفصله تفصيلاً يعرفُ به حالة نبيه زكريا وآثاره الصالحة ومناقبه الجميلة؛ فإن في قصها عبرة للمعتبرين وأسوة للمقتدين، ولأن في تفصيل رحمته لأوليائه وبأي سبب حصلت لهم مما يدعو إلى محبة الله تعالى والإكثار من ذكره ومعرفته والسبب الموصول إليه، وذلك أن الله تعالى اجتبى واصطفى زكريا عليه السلام لرسالته، وخصه بوحيه، فقام بذلك قيام أمثاله من المرسلين، ودعا العباد إلى ربه، وعلمهم ما علمه الله، ونصح لهم في حياته وبعد مماته كل أخوانه من المرسلين ومن اتبعهم.

﴿٣﴾، ﴿٤﴾ فلما رأى من نفسه الضعف، وخاف أن يموت، ولم يكن أحد ينوب منابه في دعوة الخلق إلى ربهم والنصح لهم، شكا إلى ربه ضعفه الظاهر والباطن، وناداه نداء خفياً؛ ليكون أكمل وأفضل وأتم إخلاصاً، فقال: ﴿رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي﴾؛ أي: وهى وضعف، وإذا ضعف العظم الذي هو عماد البدن؛ ضعف غيره. ﴿وَاشْتَغَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا﴾؛ لأن الشيب دليل الضعف والكبر ورسول الموت ورائده ونذيره، فتوسل إلى الله تعالى بضعفه وعجزه، وهذا من أحب الوسائل إلى الله؛ لأنه يدل على التبري من الحول والقوة وتعلق القلب بحول الله وقوته. ﴿وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا﴾؛

أي: لم تكن يا رب تردني خائئاً ولا محروماً من الإجابة، بل لم تزل بي حفيفاً ولدعائي مجيباً، ولم تزل الطافك تتوالى علي وإحسانك واصلًا إلي، وهذا توسل إلى الله بإنعامه عليه وإجابة دعواته السابقة، فسأل الذي أحسن سابقاً أن يتمم إحسانه لاحقاً.

﴿٥﴾ ﴿وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوْتِ مِن وَّرَآءِي﴾؛ أي: وإنني خفت من يتولى على بني إسرائيل من بعد موتي ألا يقوموا بدينك حق القيام، ولا يدعوا عبادك إليك.

وظاهر هذا أنه لم ير فيهم أحدًا فيه لياقة للإمامة في الدين، وهذا فيه شفقة زكريا عليه السلام ونصحه وأن طلبه للولد ليس كطلب غيره؛ قصده مجرد المصلحة الدنيوية، وإنما قصده مصلحة الدين والخوف من ضياعه، ورأى غيره غير صالح لذلك، وكان بيته من البيوت المشهورة في الدين ومعدن الرسالة ومظنة للخير، فدعا الله أن يرزقه ولدًا يقوم بالدين من بعده، واشتكى أن امرأته عاقرة؛ أي: ليست تلد أصلاً، وأنه قد بلغ من الكبر عتياً؛ أي: عمراً ينذر معه وجود الشهوة والولد. ﴿فَهَبْ لِي مِن لَّدُنْكَ وَلِيًّا﴾.

﴿٦﴾ وهذه الولاية ولاية الدين وميراث النبوة والعلم والعمل، ولهذا قال: ﴿يَرْبِّي وَيَرْبِّئُ مِنِّي عَابِدًا﴾؛ أي: عبدًا صالحًا ترضاه وتحببه إلى عبادك.

والحاصل أنه سأل الله ولداً ذكراً صالحاً يبقى بعد موته ويكون ولياً من بعده ويكون نبياً مرضياً عند الله وعند خلقه، وهذا أفضل ما يكون من الأولاد، ومن رحمة الله بعبده أن يرزقه ولداً صالحاً جامعاً لمكارم الأخلاق ومحامد الشيم، فرحمه ربه واستجاب دعوته فقال:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
 ﴿١﴾ ذَكَرَ رَحْمَتَ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا ﴿٢﴾
 إِذْ نَادَى رَبَّهُ يَدَّاءَ خَفِيًّا ﴿٣﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَغَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴿٤﴾ وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوْتِ مِن وَّرَآءِي وَكَانَتِ آمْرًا ثِقَالًا فَهَبْ لِي مِن لَّدُنْكَ وَلِيًّا ﴿٥﴾ يَرْبِّي وَيَرْبِّئُ مِنِّي عَابِدًا أَجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴿٦﴾ يَنَزَّكِرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَسْعَى لَمْ جَعَلْ لَهُ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ﴿٧﴾ قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ آمْرًا ثِقَالًا وَعَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا ﴿٨﴾ قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَى هَيْنٍ وَقَدْ خَلَقْنَاكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا ﴿٩﴾ قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِّي آيَةً قَالَ آيَاكَ إِلَّا تُكَلِّمُ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ﴿١٠﴾ فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿١١﴾

فإن منعه من الكلام مدة ثلاثة أيام وعجزه عنه من غير خرس ولا آفة، بل كان سويًا لا نقص فيه من الأدلة على قدرة الله الخارقة للعوائد، ومع هذا ممنوع من الكلام الذي يتعلق بالآدميين وخطابهم، وأما التسييح والتهليل والذكر ونحوه فغير ممنوع منه، ولهذا قال في الآية الأخرى: ﴿وَأَذْكُرَ رَبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعُشِيِّ وَالْإِبْكَرِ﴾ [آل عمران: ٤١].

﴿١١﴾ فاطمأن قلبه، واستبشر بهذه البشارة العظيمة، وامتلأ أمر الله له بالشكر بعبادته وذكره، فحكف في محرابه، وخرج على قومه منه ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ﴾؛ أي: بالإشارة والرمز، ﴿أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ [١١]: لأن البشارة يبحى في حق الجميع مصلحة دينية.

﴿يَبْحِثُ خِذِ الْكِتَابَ يَقُورُ وَآيَتُهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا﴾ [١٢] وَحَنَانًا مِّنْ لَّدُنَّا وَزَكَاةً وَكَانَ تَقِيًّا [١٣] وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُنْ جَبَّارًا عَصِيًّا [١٤] وَسَلَّمْ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا [١٥].

﴿١٢﴾ دل الكلام السابق على ولادة يحيى وشبابه وتربيته، فلما وصل إلى حالة يفهم فيها الخطاب؛ أمره الله أن يأخذ الكتاب بقوة؛ أي: بجد واجتهاد، وذلك بالاجتهاد في حفظ ألفاظه وفهم معانيه والعمل بأوامره ونواهيه، هذا تمام أخذ الكتاب بقوة، فامتثل أمر ربه، وأقبل على الكتاب فحفظه وفهمه، وجعل الله فيه من الذكاء والفتنة ما لا يوجد في غيره، ولهذا قال: ﴿وَأَيَّتُهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا﴾ [١٢]؛ أي: معرفة أحكام الله والحكم بها وهو في حال صغره وصباه.

﴿١٣﴾ وآتيناه أيضًا حنانًا ﴿مِّنْ لَّدُنَّا﴾؛ أي: رحمة ورافة تيسرت بها أموره، وصلحت بها أحواله، واستقامت بها أفعاله ﴿وَزَكَاةً﴾؛ أي: طهارة من الآفات والذنوب، فطهر قلبه وتزكى عقله، وذلك يتضمن زوال الأوصاف المذمومة والأخلاق الرديئة وزيادة الأخلاق الحسنة والأوصاف المحمودة، ولهذا قال: ﴿وَكَانَ تَقِيًّا﴾ [١٣]؛ أي: فاعلاً للمأمور تاركاً للمحظور.

﴿١٤﴾ ومن كان مؤمنًا تقيًّا؛ كان لله وليًّا، وكان من أهل الجنة التي أعدت للمتقين، وحصل له من الثواب الدنيوي والأخروي ما رتبته الله على التقوى، وكان أيضًا بَرًّا ﴿بِوَالِدَيْهِ﴾؛ أي: لم يكن عاقًا ولا مسيئًا إلى أبويه، بل كان محسنًا إليهما بالقول والفعل. ﴿وَلَمْ يَكُنْ جَبَّارًا عَصِيًّا﴾ [١٤]؛

﴿يَتَزَكَّرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا﴾ [٧] قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ آمْرًا قِيًّا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا [٨] قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَىٰ هَئِنِ وَقَدْ خَلَقْنَاكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُنْ شَيْئًا [٩] قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِّي آيَةً قَالَ ءَايَتُكَ إِلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا [١٠] فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا [١١].

﴿٧﴾ أي: بشره الله تعالى على يد الملائكة بيحيى، وسماء الله له يحيى، وكان اسمًا موافقًا لسماء؛ يحيى حياة حسية قسم به المنة، ويحيى حياة معنوية، وهي حياة القلب والروح بالوحي والعلم والدين. ﴿لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا﴾ [٧]؛ أي: لم يسم هذا الاسم قبله أحد، ويحتمل أن المعنى: لم نجعل له من قبل مثيلًا ومساميًا؛ فيكون ذلك بشارة بكماله واتصافه بالصفات الحميدة، وأنه فاق من قبله، ولكن على هذا الاحتمال؛ هذا العموم لا بد أن يكون مخصوصًا لإبراهيم وموسى ونوح عليهم السلام ونحوهم ممن هو أفضل من يحيى قطعًا.

﴿٨﴾ فحينئذ لما جاءته البشارة بهذا المولود الذي طلبه؛ استغرب وتعجب وقال: ﴿رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ﴾؛ والحال أن المانع من وجود الولد موجود بي وبزوجتي، وكأنه وقت دعائه لم يستحضر هذا المانع؛ لقوة الوارد في قلبه وشدة الحرص العظيم على الولد، وفي هذه الحال حين قبلت دعوته؛ تعجب من ذلك.

﴿٩﴾ فأجابه الله بقوله: ﴿كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَىٰ هَئِنِ﴾؛ أي: الأمر مستغرب في العادة، وفي سنة الله في الخليقة، ولكن قدرة الله تعالى صالحة لإيجاده بدون أسبابها؛ فذلك هين عليه، ليس بأصعب من إيجاده قبل، ولم يك شيئًا.

﴿١٠﴾ ﴿قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِّي آيَةً﴾؛ أي: يطمئن بها قلبي، وليس هذا شكًا في خبر الله، وإنما هو كما قال الخليل عليه السلام: ﴿رَبِّ أَرْنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ قَالَ أُولِمُ تُوْمِنُ قَالَ بَلَىٰ وَلَكِنَّ لِّيْطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ [البقرة: ٢٦٠]. فطلب زيادة العلم والوصول إلى عين اليقين بعد علم اليقين، فأجابه الله إلى طلبته رحمة به. ف ﴿قَالَ ءَايَتُكَ إِلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا﴾ [١٠]، وفي الآية الأخرى: ﴿ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمَزًا﴾ [آل عمران: ٤١]، والمعنى واحد؛ لأنه تارة يعبر بالليالي، وتارة بالأيام، وفؤدهما واحد، وهذا من الآيات العجيبة؛

أي: لم يكن متجبراً متكبراً عن عبادة الله، ولا مترفعاً على عباد الله ولا على والديه، بل كان متواضعاً متذللاً مطيعاً أواباً لله على الدوام، فجمع بين القيام بحق الله وحق خلقه.

ولهذا حصلت له السلامة من الله في جميع أحواله؛ مبادئها وعواقبها؛ فلذا قال: ﴿وَسَلَّمْ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا﴾ (١٥) وذلك يقتضي سلامته من الشيطان والشر والعقاب في هذه الأحوال الثلاثة وما بينها، وأنه سالم من النار والأهوال، ومن أهل دار السلام؛ فصلوات الله وسلامه عليه وعلى والده وعلى سائر المرسلين، وجعلنا من أتباعهم إنه جواد كريم.

﴿وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا﴾ (١٦) فَأَتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾ قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتُ نَقِيًّا ﴿١٨﴾ قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾ قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾ قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَى هَيْنٍ وَلَنَجْعَلَ لَكَ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا ﴿٢١﴾

لما ذكر قصة زكريا ويحيى، وكانت من الآيات العجيبة؛ انتقل منها إلى ما هو أعجب منها تدريجاً من الأدنى إلى

الأعلى، فقال: ﴿وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ﴾: الكريم ﴿مَرْيَمَ﴾: عليها السلام، وهذا من أعظم فضائلها؛ أن تذكر في الكتاب العظيم الذي يتلوه المسلمون في مشارق الأرض ومغاربها؛ تذكر فيه بأحسن الذكر وأفضل الثناء؛ جزاء لعملها الفاضل وسعيها الكامل؛ أي: واذكر في الكتاب مريم في حالها الحسنة حين ﴿انْتَبَذَتْ﴾؛ أي: تباعدت عن أهلها ﴿مَكَانًا شَرْقِيًّا﴾ (١٦)؛ أي: مما يلي الشرق عنهم.

﴿فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا﴾؛ أي: سترًا ومانعًا، وهذا التباعد منها واتخاذ الحجاب لتعتزل وتتفرد بعبادة ربها، وتقتل له في حالة الإخلاص والخضوع والذل لله تعالى، وذلك امتثال منها لقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَمْرُؤُا إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ﴾ (٢١) يَمْرُؤُا أَقْنِي لِرَبِّكِ وَأَسْجُدِي وَأَرْكَبِي مَعَ الزَّكِيِّينَ ﴿٢٢﴾ [آل عمران: ٤٢، ٤٣]. وقوله: ﴿فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا﴾: وهو جبريل عليه السلام، ﴿فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾ (١٧)؛ أي: كاملاً من الرجال في صورة جميلة وهيئة حسنة، لا عيب فيه ولا نقص؛ لكونها لا تحتمل رؤيته على ما هو عليه.

﴿فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا﴾: فلما رآته في هذه الحال، وهي معتزلة عن أهلها، منفردة عن الناس، قد اتخذت الحجاب عن أعز الناس عليها، وهم أهلها؛ خافت أن يكون رجلاً قد تعرض لها بسوء وطمع فيها، فاعتصمت بربها واستعاذت منه فقالت له: ﴿إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ﴾؛ أي: ألتجئ به، واعتصم برحمته أن تتأني بسوء، ﴿إِنْ كُنْتُ نَقِيًّا﴾ (١٨)؛ أي: إن كنت تخاف الله وتعمل بتقواه؛ فأتارك التعرض لي؛ فجمعت بين الاعتصام بربها وبين تخويفه وترهيبه وأمره بلزوم التقوى، وهي في تلك الحالة الخالية والشباب والبعد عن الناس، وهو في ذلك الجمال الباهر والبشرية الكاملة السوية، ولم ينطق لها بسوء أو يتعرض لها، وإنما ذلك خوف منها، وهذا أبلغ ما يكون من العفة والبعد عن الشر وأسبابه، وهذه العفة خصوصاً مع اجتماع الدواعي، وعدم المانع من أفضل الأعمال، ولذلك أثنى الله عليها، فقال: ﴿وَمَرْيَمَ ابْنَتْ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا﴾ [التحریم: ١٢]،

يَجِيئُ خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا ﴿١٣﴾ وَحَنَانًا مِنْ لَدُنَّا وَزَكَاةً وَكَانَ تَقِيًّا ﴿١٤﴾ وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُنْ جَبَّارًا عَصِيًّا ﴿١٥﴾ وَسَلَّمْ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ﴿١٦﴾ وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴿١٧﴾ فَأَتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٨﴾ قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتُ نَقِيًّا ﴿١٩﴾ قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا ﴿٢٠﴾ قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢١﴾ قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَى هَيْنٍ وَلَنَجْعَلَ لَكَ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا ﴿٢٢﴾ فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا ﴿٢٣﴾ فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَلَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًّا مَنْسِيًّا ﴿٢٤﴾ فَنَادَى مِنْ تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٥﴾ وَهَرَىٰ إِلَيْكَ الْجَنَّةُ فَجِئْتَ الْخَلَّةَ تُنْقِطُ عَلَيْكَ رَطْبًا جَنِيًّا ﴿٢٦﴾

﴿١٣﴾ فلما قرب ولادها؛ ألجأها المخاض إلى جذع نخلة، فلما ألمها وجع الولادة، ووجع الانفراد عن الطعام والشراب، ووجع قلبها من قالة الناس، وخافت عدم صبرها؛ تمت أنها ماتت قبل هذا الحادث وكانت نسيًا منسياً؛ فلا تذكر، وهذا التمني بناء على ذلك المزعج، وليس في هذه الأمنية خير لها ولا مصلحة، وإنما الخير والمصلحة بتقدير ما حصل.

﴿١٤﴾ فحيث سكن الملك روعها، وثبت جأشها، ونادها من تحتها؛ لعله من مكان أنزل من مكانها، وقال لها: لا تحزني؛ أي: لا تجزعي ولا تهتمي؛ ﴿قَدْ جَعَلَ رَبُّكَ تَحَنُّكَ سِرًّا﴾ ﴿١٥﴾؛ أي: نهراً تشربين منه.

﴿١٥﴾ وَهَزَى إِلَيْكَ الْجَنَّةَ تَنْفِطُ عَلَيْكَ رُطْبًا جَنًّا ﴿١٦﴾؛ أي: طرياً لذيذاً نافعاً.

﴿١٦﴾ فكلّى ﴿١٧﴾: من التمر، ﴿وَأَسْرَفَ﴾: من النهر، ﴿وَقَرَى عَيْنًا﴾: بعيسى؛ فهذا طماننتها من جهة السلامة من ألم الولادة وحصول المأكّل والمشرب الهني، وأما من جهة قالة الناس؛ فأمرها أنها إذا رأت أحداً من البشر أن تقول على وجه الإشارة: ﴿إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا﴾؛ أي: سكوته، ﴿فَلَنْ أَكَلِمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا﴾ ﴿١٨﴾؛ أي: لا تخاطبهم بكلام لتسريحي من قولهم وكلامهم، وكان معروفاً عندهم أن السكوت من العبادات المشروعة. وإنما لم تؤمر بمخاطبتهم في نفي ذلك عن نفسها، لأن الناس لا يصدقونها، ولا فيه فائدة، وليكون تبرتها بكلام عيسى في المهد أعظم شاهد على براءتها؛ فإن إتيان المرأة بولد من دون زوج ودعواها أنه من غير أحد من أكبر الدعاوى التي لو أقيم عدة من الشهود لم تصدق بذلك، فجعلت بينة هذا الخارق للعادة أمراً من جنسه، وهو كلام عيسى في حال صغره جداً، ولهذا قال تعالى:

﴿فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَبْرَأَ لَكَ قَدْ جَنِّتَ شَيْئًا فَرِيًّا﴾ ﴿١٧﴾ يَأْتَاكَ هَرُونَ مَا كَانَ أَبُوكَ أَمْرًا سَوًّا وَمَا كَانَتْ أُمُّكَ بَغِيًّا ﴿١٨﴾ فَأَسَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ تُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿١٩﴾ قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ءَاتَنِي الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٢٠﴾ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالْصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٢١﴾ وَبَرًّا بِوَالِدِيَّ وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٢٢﴾ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٢٣﴾.

﴿وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ ﴿١٣﴾ [الأنبياء: ٩١]؛ فأعاضها الله بعفتها ولداً من آيات الله، ورسولاً من رسله.

﴿١٤﴾ فلما رأى جبريل منها الروح والخيفة؛ قال: ﴿إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ﴾؛ أي: إنما وظيفتي وشغلي تنفيذ رسالة ربي فيك، ﴿لَا هَبْ لَكَ عَلَماً زَكِيًّا﴾ ﴿١٥﴾؛ وهذه بشارة عظيمة بالولد وزكائه؛ فإن الزكاء يستلزم تطهيره من الخصال الذميمة واتصافه بالخصال الحميدة.

﴿١٦﴾ فتعجبت من وجود الولد من غير أب، فقالت: ﴿أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكْ بَغِيًّا﴾ ﴿١٧﴾؛ والولد لا يوجد إلا بذلك.

﴿١٨﴾ قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَى هَيْنٍ وَلَنَجْعَلَ لَكَ آيَةً لِلنَّاسِ ﴿١٩﴾: تدل على كمال قدرة الله تعالى وعلى أن الأسباب جميعها لا تستقل بالتأثير، وإنما تأثيرها بتقدير الله، فيري عباده خرق العوائد في بعض الأسباب العادية؛ لثلا يقفوا مع الأسباب، ويقطعوا النظر عن مقدرها ومسببها. ﴿وَرَحْمَةً مِنَّا﴾؛ أي: ولنجعل رحمة منا به وبوالدته وبالناس: أما رحمة الله به؛ فلما خصه الله بوحيه، ومنّ عليه بما منّ به على أولي العزم. وأما رحمته بوالدته؛ فلما حصل لها من الفخر والثناء الحسن والمنافع العظيمة. وأما رحمته بالناس؛ فإن أكبر نعمه عليهم أن بعث فيهم رسولاً، يتلو عليهم آياته، ويزكيهم، ويعلمهم الكتاب والحكمة فيؤمنون به، ويطيعونه، وتحصل لهم سعادة الدنيا والآخرة. ﴿وَكَانَ﴾؛ أي: وجود عيسى عليه السلام على هذه الحالة ﴿أَمْرًا مُقْضِيًّا﴾ ﴿٢١﴾؛ قضاء سابقاً؛ فلا بد من نفوذ هذا التقدير والقضاء، فنفخ جبريل عليه السلام في جيبها.

﴿فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا﴾ ﴿٢٢﴾ فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جَنَعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَلْتَنِي مِنْ قَبْلِ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًّا مَنَسِيًّا ﴿٢٣﴾ فَنَادَتْهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحَنُّكَ سِرًّا ﴿٢٤﴾ وَهَزَى إِلَيْكَ الْجَنَّةَ تَنْفِطُ عَلَيْكَ رُطْبًا جَنًّا ﴿٢٥﴾ فكلّى ﴿٢٦﴾ وَأَسْرَفَ ﴿٢٧﴾ وَقَرَى عَيْنًا ﴿٢٨﴾ فَإِمَّا تَرَيَنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أَكَلِمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا ﴿٢٩﴾.

﴿٢٩﴾ أي: لما حملت بعيسى عليه السلام؛ خافت من الفضيحة، فتباعدت عن الناس مكاناً قصياً.

(٢٧) أي: فلما تملت مريم من نفاسها؛ أتت بعيسى قومها تحمله، وذلك لعلمها ببراءة نفسها وطهارتها، فأتت غير مبالية ولا مكترثة، فقالوا: ﴿لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا فَرِيًّا﴾ (٢٧)؛ أي: عظيمًا وخيمًا، وأرادوا بذلك البغاء حاشاها من ذلك.

(٢٨) ﴿يَتَأَخَذَ هَرُونَ﴾: الظاهر أنه أخ لها حقيقي فنسبوا إليه، وكانوا يسمون بأسماء الأنبياء، وليس هو هارون بن عمران أخا موسى، لأن بينهما قرونا كثيرة، ﴿مَا كَانَ أَبُوكَ أَمْرًا سَوًّا وَمَا كَانَتْ أُمُّكَ بَغِيًّا﴾ (٢٨)؛ أي: لم يكن أبوك إلا صالحين سالمين من الشر، وخصوصًا هذا الشر الذي يشيرون إليه، وقصدهم: فكيف كنت على غير وصفهما وأتيت بما لم يأتيا به؟ وذلك أن الذرية في الغالب بعضها من بعض في الصلاح وضده، فتعجبوا بحسب ما قام بقلوبهم؛ كيف وقع منها؟!

(٢٩) ﴿فَأَشَارَتْ﴾ لهم ﴿إِلَيْهِ﴾؛ أي: كلموه، وإنما أشارت لذلك لأنها أمرت عند مخاطبة الناس لها أن تقول: ﴿إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا﴾ (٢٩)، فلما أشارت إليهم بتكليمه؛ تعجبوا من ذلك، وقالوا: ﴿كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا﴾ (٢٩)؛ لأن ذلك لم تجر به عادة ولا حصل من أحد في ذلك السن.

(٣٠) فحينئذ قال عيسى عليه السلام وهو في المهد صبي: ﴿إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ءَاتَنِي الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾ (٣٠)؛ فخطبهم بوصفه بالعبودية، وأنه ليس فيه صفة يستحق بها أن يكون إلها أو ابنا للإله، تعالى الله عن قول النصارى المخالفين لعيسى في قوله: ﴿إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ﴾، ومدعون موافقته، ءَاتَنِي الْكِتَابَ؛ أي: قضى أن يؤتيني الكتاب، وَجَعَلَنِي نَبِيًّا (٣٠)؛ فأخبرهم بأنه عبد الله، وأن الله علمه الكتاب وجعله من جملة أنبيائه؛ فهذا من كماله لنفسه.

(٣١) ثم ذكر تكميله لغيره، فقال: ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ﴾؛ أي: في أي مكان وأي زمان؛ فالبركة جعلها الله في من تعليم الخير والدعوة إليه والنهي عن الشر والدعوة إلى الله في أقواله وأفعاله؛ فكل من جالسه أو اجتمع به؛ نالته بركته وسعد به مصاحبه. ﴿وَأَوْصَنِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾ (٣١)؛ أي: أوصاني بالقيام بحقوقه التي من أعظمها الصلاة، وحقوق عباده التي أجلها الزكاة؛ مدة حياتي؛ أي: فأنا ممثل لوصية ربي، عامل عليها، منفذ لها.

(٣٢) وأوصاني أيضًا أن أبرِّ والدتي فأحسن إليها غاية الإحسان، وأقوم بما ينبغي لها؛ لشرفها وفضلها، ولكونها والدة لها حق الولادة وتوابعها. ﴿وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا﴾؛ أي: متكبرًا على الله مترفعًا على عباده، ﴿سَقِيًّا﴾ (٣٢)؛ في دنياي وأخراي، فلم يجعلني كذلك، بل جعلني مطيعًا له خاضعًا خاشعًا متذللاً متواضعًا لعباد الله سعيًا في الدنيا والآخرة أنا ومن اتبعني.

(٣٣) فلما تم له الكمال ومحامد الخصال؛ قال: ﴿وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾ (٣٣)؛ أي: من فضل ربي وكرمه حصلت لي السلامة يوم ولادتي ويوم موتي ويوم بعثي من الشر والشیطان والعقوبة، وذلك يقتضي سلامته من الأهوال ودار الفجار، وأنه من أهل دار السلام؛ فهذه معجزة عظيمة وبرهان باهر على أنه رسول الله وعبد الله حقا.

﴿ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾ (٣٤) مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَنَهُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (٣٥) وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ (٣٦).

سورة مريم
﴿فَكُنِيَ وَآسَرَنِي وَقَرِي عَيْنًا فَمَا تَرَيْنَ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا﴾ (٢٧) فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَا بَشْرُ إِمَّا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا فَرِيًّا (٢٨) يَتَأَخَذَ هَرُونَ مَا كَانَ أَبُوكَ أَمْرًا سَوًّا وَمَا كَانَتْ أُمُّكَ بَغِيًّا (٢٨) فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا (٢٩) قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ءَاتَنِي الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا (٢٩) وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَنِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا (٣١) وَبَرًّا بِوَالِدِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا سَقِيًّا (٣٢) وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا (٣٣) ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ (٣٤) مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَنَهُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (٣٥) وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ (٣٦) وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُ تَوْنًا لِلَّذِينَ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٣٧)

﴿٢٤﴾، ﴿٢٥﴾ أي: ذلك الموصوف بتلك الصفات عيسى ابن مريم من غير شك ولا مرية، بل ﴿قَوْلَ الْحَقِّ﴾ وكلام الله الذي لا أصدق منه قَيْلاً ولا أحسن منه حديثاً؛ فهذا الخبر اليقيني عن عيسى عليه السلام، وما قيل فيه مما يخالف هذا؛ فإنه مقطوع ببطلانه، وغايته أن يكون شكاً من قائله لا علم له به، ولهذا قال: ﴿الَّذِي فِيهِ يَمَتُّونَ﴾ ﴿٢٦﴾؛ أي: يشكون فيمارون بشكهم ويجادلون بخرصهم؛ فمن قائل عنه: إنه الله، أو ابن الله، أو ثالث ثلاثة، تعالى الله عن إفكهم وتقولهم علواً كبيراً؛ ف ﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ﴾؛ أي: ما ينبغي ولا يليق؛ لأن ذلك من الأمور المستحيلة؛ لأنه الغني الحميد المالك لجميع الممالك؛ فكيف يتخذ من عباده ومماليكه ولداً. ﴿سُبْحَنَهُ﴾؛ أي: تنزه وتقدس عن الولد والنقص، ﴿إِذَا قُضِيَ أَمْرٌ﴾؛ أي: من الأمور الصغار والكبار؛ لم يمتنع عليه ولم يستعصب، ﴿فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ: كُنْ فَيَكُونُ﴾ ﴿٢٧﴾؛ فإذا كان قدره ومشيتته نافذاً في العالم العلوي والسفلي، فكيف يكون له ولد؟! وإذا كان، إذا أراد شيئاً؛ قال له: كن فيكون؛ فكيف يستبعد إيجاده عيسى من غير أب؟!

﴿٢٨﴾ ولهذا أخبر عيسى أنه عبد مربوب كغيره، فقال: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ﴾: الذي خلقنا وصورنا ونفد فينا تدبيره وصرفنا تقديره. ﴿فَاعْبُدُوهُ﴾؛ أي: أخلصوا له العبادة واجتهدوا في الإنابة. وفي هذا الإقرار بتوحيد الربوبية وتوحيد الإلهية والاستدلال بالأول على الثاني، ولهذا قال: ﴿هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ ﴿٢٩﴾؛ أي: طريق معتدل موصل إلى الله؛ لكونه طريق الرسل وأتباعهم، وما عدا هذا؛ فإنه من طرق الغي والضلال.

﴿٣٠﴾ فَأَخْلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ أَسْمِعْ يَوْمَ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُوتُنَا لَيْكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٣٢﴾

﴿٣٣﴾ لما بين تعالى حال عيسى ابن مريم الذي لا يشك فيها ولا يمتري؛ أخبر أن الأحزاب؛ أي: فرق الضلال من اليهود والنصارى وغيرهم على اختلاف طبقاتهم اختلفوا في عيسى عليه السلام؛ فمن غالٍ فيه وجاف؛ فمنهم من قال: إنه الله! ومنهم من قال: إنه ابن الله! ومنهم من قال: إنه ثالث ثلاثة! ومنهم من لم يجعله رسولاً، بل رماه بأنه ولد بغى كاليهود! وكل هؤلاء أقوالهم باطلة، وآراؤهم فاسدة مبنية على الشك والعناد والأدلة الفاسدة والشبه الكاسدة، وكل

هؤلاء مستحقون للوعيد الشديد، ولهذا قال: ﴿قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾: بالله ورسله وكتبه، ويدخل فيهم اليهود والنصارى، القائلون بعيسى قول الكفر، ﴿مِنْ مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ ﴿٣٤﴾؛ أي: مشهد يوم القيامة، الذي يشهده الأولون والآخرون، أهل السماوات وأهل الأرض، الخالق والمخلوق، الممتلئ بالزلازل والأهوال، المشتمل على الجزاء بالأعمال؛ فحينئذ يتبين ما كانوا يخفون، ويدون، وما كانوا يكتُمون.

﴿٣٥﴾ أَسْمِعْ يَوْمَ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُوتُنَا﴾؛ أي: ما أسمعهم وما أبصرهم في ذلك اليوم، فيقرون بكفرهم وشركهم وأقوالهم، ويقولون: ﴿رَبَّنَا أَنْصِرْنَا وَاسْمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحاً إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ ﴿٣٦﴾ [السجدة: ١٧]. ففي القيامة يستيقنون حقيقة ما هم عليه. ﴿لَيْكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ ﴿٣٧﴾؛ وليس لهم عذر في هذا الضلال؛ لأنهم بين معاند ضال على بصيرة عارف بالحق صادف عنه، وبين ضال عن طريق الحق، متمكن من معرفة الحق والصواب، ولكنه راض بضلاله، وما هو عليه من سوء أعماله، غير ساعٍ في معرفة الحق من الباطل.

وتأمل كيف قال: ﴿قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾؛ بعد قوله: ﴿فَأَخْلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ﴾، ولم يقل: قويل لهم؛ ليعود الضمير إلى الأحزاب؛ لأن من الأحزاب المختلفين طائفة أصابت الصواب، ووافقت الحق فقالت في عيسى: إنه عبد الله ورسوله، فآمنوا به واتبعوه؛ فهؤلاء مؤمنون غير داخلين في هذا الوعيد؛ فلهذا خص الله بالوعيد الكافرين.

﴿٣٨﴾ وَأَنذَرَهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّا نَحْنُ رَبُّ الْأَرْضِ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٤٠﴾

﴿٤١﴾، ﴿٤٢﴾ الإنذار: هو الإعلام بالمخوف على وجه التهريب والإخبار بصفاته، وأحق ما ينذر به ويخوف به العباد يوم الحسرة حين يقضى الأمر، فيجمع الأولون والآخرون في موقف واحد، ويسألون عن أعمالهم؛ فمن آمن بالله واتباع رسله؛ سعد سعادة لا يشقى بعدها، ومن لم يؤمن بالله واتباع رسله؛ شقي شقاوة لا سعادة بعدها، وخسر نفسه وأهله؛ فحينئذ يتحسر ويندم ندامة تنقطع منها القلوب، وتتصدع منها الأفئدة، وأي حسرة أعظم من فوات رضا الله وجته واستحقاق سخطه والنار على وجه لا يَمَكِّنُ من الرجوع ليستأنف العمل، ولا سبيل له إلى تغيير

حاله بالعود إلى الدنيا؟! فهذا قدامهم، والحال أنهم في الدنيا في غفلة عن هذا الأمر العظيم؛ لا يخطر بقلوبهم، ولو خطر؛ فعلى سبيل الغفلة، قد عمّتهم الغفلة، وشملتهم السكره؛ فهم لا يؤمنون بالله، ولا يتبعون رسله، قد ألهمتهم دنياهم، وحالت بينهم وبين الإيمان شهواتهم المنقضية الفانية؛ فالدنيا وما فيها من أولها إلى آخرها سذهب عن أهلها ويذهبون عنها، وسيرت الله الأرض ومن عليها، ويرجعهم إليه، فيجازيهم بما عملوا فيها، وما خسروا فيها أو ربحوا؛ فمن عمل خيراً؛ فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك؛ فلا يلومن إلا نفسه.

﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا ٤١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَتَّبِعْ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا ٤٢ يَتَّبِعْ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا ٤٣ يَتَّبِعْ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا ٤٤ يَتَّبِعْ إِنِّي خَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا ٤٥ قَالَ أَرَأَيْتَ أَنْتَ وَالْهَيْتِي يَتَّبِعُهُمْ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا ٤٦ قَالَ سَلِمْتُ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ فِي حَفِيًّا ٤٧ وَأَعْتَزِّلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُوا رَبِّي عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا ٤٨ فَلَمَّا آعَزَّهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ٤٩ وَوَهَبْنَا لَهُمْ مِنْ رَحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ٥٠﴾

أجل الكتب وأفضلها وأعلاها، هذا الكتاب المبين، والذكر الحكيم؛ فإن ذُكر فيه الأخبار؛ كانت أصدق الأخبار وأحقها وأنفعها، وإن ذكر فيه الأمر والنهي؛ كانت أجل الأوامر والنواهي وأعدلها وأقسطها، وإن ذكر فيه الجزاء والوعود والوعيد؛ كان أصدق الأنباء وأحقها وأدلها على الحكمة والعدل والفضل، وإن ذكر فيه الأنبياء والمرسلون؛ كان المذكور فيه أكمل من غيره وأفضل، ولهذا كثيراً ما يبدى ويعيد في قصص الأنبياء الذين فضّلهم على غيرهم، ورفع قدرهم وأعلى أمرهم بسبب ما قاموا به من عبادة الله ومحبته، والإنابة إليه، والقيام بحقوقه، وحقوق العباد، ودعوة الخلق إلى الله، والصبر على ذلك، والمقامات الفاخرة، والمنازل العالية، فذكر الله في هذه السورة جملة من الأنبياء؛ يأمر الله رسوله أن يذكرهم؛ لأن في ذكرهم إظهار الشناء على الله وعليهم، وبيان فضله وإحسانه إليهم، وفيه الحث على الإيمان بهم ومحبتهم، والافتداء بهم، فقال:

﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا ٤١﴾: جمع الله له بين الصديقية والنبوة؛ فالصديق كثير الصدق؛ فهو الصادق في أقواله وأفعاله وأحواله، المصدّق بكل ما أمر بالتصديق به، وذلك يستلزم العلم العظيم، الواصل إلى القلب، المؤثر فيه، الموجب لليقين، والعمل الصالح الكامل، وإبراهيم عليه السلام هو أفضل الأنبياء كلهم بعد محمد ﷺ، وهو الأب الثالث للطوائف الفاضلة، وهو الذي جعل الله في ذريته النبوة والكتاب، وهو الذي دعا الخلق إلى الله، وصبر على ما ناله من العذاب العظيم، فدعا القريب والبعيد، واجتهد في دعوة أبيه مهما أمكنه.

﴿وَذَكَرَ اللَّهُ مَرَجَعَتَهُ إِيَّاهُ فَقَالَ: إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ﴾: مهجناً له عبادة الأوثان: ﴿يَتَّبِعْ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا ٤٢﴾؛ أي: لم تعبد أصناماً ناقصة في ذاتها وفي أفعالها؛ فلا تسمع، ولا تبصر، ولا تملك لعبادها نفعاً ولا ضرراً،

سورة مريم (٤١، ٤٢)

وَأَذْكُرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ٣٦ إِنَّا نَحْنُ رَبُّ الْأَرْضِ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِنَّا يُرْجَعُونَ ٣٧ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا ٤١ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَتَّبِعْ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا ٤٢ يَتَّبِعْ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا ٤٣ يَتَّبِعْ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا ٤٤ يَتَّبِعْ إِنِّي خَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا ٤٥ قَالَ أَرَأَيْتَ أَنْتَ وَالْهَيْتِي يَتَّبِعُهُمْ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا ٤٦ قَالَ سَلِمْتُ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ فِي حَفِيًّا ٤٧ وَأَعْتَزِّلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُوا رَبِّي عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا ٤٨ فَلَمَّا آعَزَّهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ٤٩ وَوَهَبْنَا لَهُمْ مِنْ رَحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ٥٠ وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَىٰ إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا ٥١

بألهته التي هي من الحجر والأصنام، ولام إبراهيم عن رغبته عنها، وهذا من الجهل المفرط والكفر الوخيم؛ يتمدح بعبادة الأوثان ويدعو إليها. ﴿لَنْ تَنفَعَكَ﴾؛ أي: عن شتم ألهتي ودعوتي إلى عبادة الله، ﴿لَا رَجُوكَ﴾؛ أي: قتلاً بالحجارة، ﴿وَأَهْجُرِي مَلِكًا﴾؛ أي: لا تكلمني زماناً طويلاً.

﴿٤٧﴾ فأجابه الخليل جواب عباد الرحمن عند خطاب الجاهلين، ولم يشتمه، بل صبر، ولم يقابل أباه بما يكره، وقال: ﴿سَلِّمْ عَلَيْكَ﴾؛ أي: ستسلم من خطابي إياك بالشم والسب وبما تكره، ﴿سَأَسْتَغْفِرُكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ فِي حَفِيًّا﴾؛ أي: لا أزال أدعو الله لك بالهداية والمغفرة بأن يهديك للإسلام الذي به تحصل المغفرة؛ ﴿إِنَّهُ كَانَ فِي حَفِيًّا﴾؛ أي: رحيماً رءوفاً بحالي معتياً بي، فلم يزل يستغفر الله له رجاء أن يهديه الله، فلما تبين له أنه عدو لله، وأنه لا يفيد فيه شيئاً؛ ترك الاستغفار له وتبرأ منه.

وقد أمرنا الله باتباع ملة إبراهيم؛ فمن اتباع ملته سلوك طريقه في الدعوة إلى الله بطريق العلم والحكمة واللين والسهولة والانتقال من مرتبة إلى مرتبة، والصبر على ذلك، وعدم السأمة منه، والصبر على ما ينال الداعي من أذى الخلق بالقول والفعل، ومقابلة ذلك بالصفح والعفو، بل بالإحسان القولي والفعل.

﴿٤٨﴾ فلما أيس من قومه وأبيه؛ قال: ﴿وَأَعَزَّيْكُمْ وَمَا نَدَعُوكَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾؛ أي: أنتم وأصنامكم، ﴿وَأَدْعُوا رَبِّي﴾. وهذا شامل لدعاء العبادة ودعاء المسألة، ﴿عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا﴾؛ أي: عسى الله أن يسعدني بإجابة دعائي وقبول أعمالي، وهذه وظيفة من أيس ممن دعاهم - فاتبعوا أهواءهم، فلم تنجح فيهم المواعظ، فأصروا في طغيانهم يعمهون - أن يشتغل بإصلاح نفسه، ويرجو القبول من ربه، ويعتزل الشر وأهله.

﴿٤٩﴾ ولما كان مفارقة الإنسان لوطنه ومألفيه وأهله وقومه من أشق شيء على النفس لأمر كثيرة معروفة، ومنها انفرادة عمن يتعزز بهم ويتكثر، وكان من ترك شيئاً لله؛ عوضه الله خيراً منه، واعتزل إبراهيم قومه؛ قال الله في حقه: ﴿فَلَمَّا أَغْرَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا مِنْ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾، ﴿جَعَلْنَا نِسَاءَ﴾؛ فحصل له هبة هؤلاء الصالحين المرسلين إلى الناس، الذين خصهم الله بوحية، واختارهم لرسالته، واصطفاهم من العالمين.

بل لا تملك لأنفسها شيئاً من النفع، ولا تقدر على شيء من الدفع؟! فهذا برهان جلي دال على أن عبادة الناقص في ذاته وأفعاله مستقبح عقلاً وشرعاً، ودل تبيينه وإشارته أن الذي يجب ويحسن عبادة من له الكمال، الذي لا ينال العباد نعمة إلا منه، ولا يدفع عنهم نقمة إلا هو، وهو الله تعالى.

﴿٤٣﴾ ﴿يَتَابَتِ إِيَّيْ قَدْ جَاءَ فِي مَكِّ أَعْلَمَ مَا لَمْ يَأْتِكَ﴾؛ أي: يا أبت لا تحقرني وتقول: إني ابنك، وإن عندك ما ليس عندي، بل قد أعطاني الله من العلم ما لم يعطك، والمقصود من هذا قوله: ﴿فَأَتَيْتُكَ أَهْدِيكَ صِرَاطًا سَوِيًّا﴾؛ أي: مستقيماً معتدلاً، وهو عبادة الله وحده لا شريك له، وطاعته في جميع الأحوال.

وفي هذا من لطف الخطاب ولينه ما لا يخفى، فإنه لم يقل: يا أبت أنا عالم وأنت جاهل، أو: ليس عندك من العلم شيء، وإنما أتى بصيغة تقتضي أن عندي وعندك علماً، وأن الذي وصل إلي لم يصل إليك ولم يأتك؛ فينبغي لك أن تتبع الحجة وتنقاد لها.

﴿٤٤﴾ ﴿يَتَابَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ﴾: لأن من عبد غير الله؛ فقد عبد الشيطان؛ كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ نَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَنْبِئَ آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ [يس: ٦٠]. ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا﴾؛ فمن اتبع خطواته؛ فقد اتخذه ولياً، وكان عاصياً لله بمنزلة الشيطان. وفي ذكر إضافة العصيان إلى اسم الرحمن إشارة إلى أن المعاصي تمنع العبد من رحمة الله وتغلق عليه أبوابها؛ كما أن الطاعة أكبر الأسباب لنيل رحمته.

﴿٤٥﴾ ولهذا قال: ﴿يَتَابَتِ إِيَّيْ أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ﴾؛ أي: بسبب إصرارك على الكفر، وتماديك في الطغيان، ﴿فَتَكُونُ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا﴾؛ أي: في الدنيا والآخرة، فتتزل بمنازله الذميمة، وترتع في مراتعه الوخيمة، فتدرج الخليل عليه السلام بدعوة أبيه بالأسهل فالأسهل، فأخبره بعلمه، وأن ذلك موجب لاتباعك إياي، وأنت إن أطعني؛ اهتديت إلى صراط مستقيم. ثم نهاه عن عبادة الشيطان، وأخبره بما فيها من المضار. ثم حذره عقاب الله ونقمته إن أقام على حاله، وأنه يكون ولياً للشيطان.

﴿٤٦﴾ فلم ينجع هذا الدعاء بذلك الشقي، وأجاب بجواب جاهل وقال: ﴿أَرَأَيْتَ أَنْتَ عَنِ الْإِلَهِ تَكْبَرُ﴾؛ فنبجح

﴿٥٠﴾ وَوَهَبْنَا لَهُمْ؛ أَي: لإبراهيم وابنيه إسحاق ويعقوب، ﴿مِنْ رَحْمَتِنَا﴾: وهذا يشمل جميع ما وهب الله لهم من الرحمة من العلوم النافعة والأعمال الصالحة والذرية الكثيرة المنتشرة، الذين قد كثر فيهم الأنبياء والصالحون، ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا﴾: وهذا أيضًا من الرحمة التي وهبها لهم؛ لأن الله وعد كل محسن أن ينشر له ثناء صادقًا بحسب إحسانه، وهؤلاء من أئمة المحسنين، فنشر الله الثناء الحسن الصادق غير الكاذب العالي غير الخفي، فذكرهم ملاء الخافقين، والثناء عليهم ومحبته امتلأت بها القلوب وفاضت بها الألسنة، فصاروا قدوة للمقتدين وأئمة للمهتدين، ولا تزال أذكارهم في سائر العصور متجددة، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم.

﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَى إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا﴾ ﴿٥١﴾ وَنَدَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيبًا ﴿٥٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا ﴿٥٣﴾.

﴿٥١﴾ أي: واذكر في هذا القرآن العظيم موسى بن عمران على وجه التبجيل له والتعظيم والتعريف بمقامه الكريم وأخلاقه الكاملة. ﴿إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا﴾: قرئ بفتح اللام على معنى أن الله تعالى اختاره، واستخلصه، واصطفاه على

العالمين، وقرئ بكسرها على معنى أنه مُخْلِصٌ لله تعالى في جميع أعماله وأقواله ونياته، فوصفه الإخلاص في جميع أحواله، والمعنيان متلازمان؛ فإن الله أخلصه لإخلاصه، وإخلاصه موجب لاستخلاصه، وأجل حالة يوصف بها العبد الإخلاص منه والاستخلاص من ربه. ﴿وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا﴾ ﴿٥١﴾؛ أي: جمع الله له بين الرسالة والنبوة؛ فالرسالة تقتضي تبليغ كلام المرسل وتبليغ جميع ما جاء به من الشرع دقة وجهه، والنبوة تقتضي إحياء الله إليه وتخصيصه بإنزال الوحي إليه؛ فالنبوة بينه وبين ربه، والرسالة بينه وبين الخلق.

﴿٥٢﴾ بل خصه الله من أنواع الوحي بأجل أنواعه وأفضلها، وهو تكليمه تعالى وتقريبه مناجيًا لله تعالى، وبهذا اختص من بين الأنبياء بأنه كليم الرحمن، ولهذا قال: ﴿وَنَدَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ﴾؛ أي: الأيمن من موسى في وقت مسيره، أو: الأيمن؛ أي: الأبرك من اليمن والبركة، ويدل على هذا المعنى قوله تعالى: ﴿أَنْ بَوَّكَ مِنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ [النمل: ٨]. ﴿وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيبًا﴾ ﴿٥٢﴾: والفرق بين النداء والنجاء: أن النداء هو الصوت الرفيع، والنجاء ما دون ذلك.

وفي هذا إثبات الكلام لله تعالى وأنواعه من النداء والنجاء؛ كما هو مذهب أهل السنة والجماعة؛ خلافاً لمن أنكر ذلك من الجهمية والمعتزلة، ومن نحا نحوهم.

﴿٥٣﴾ وقوله: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا﴾ ﴿٥٣﴾: هذا من أكبر فضائل موسى وإحسانه ونصحه لأخيه هارون: أنه سأل ربه أن يشركه في أمره وأن يجعله رسولاً مثله، فاستجاب الله له ذلك، ووهب له من رحمته أخاه هارون نبياً؛ فنبوة هارون تابعة لنبوة موسى عليهما السلام، فساعدته على أمره وأعانه عليه.

﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا﴾ ﴿٥٤﴾ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا ﴿٥٥﴾.

﴿٥٤﴾ أي: واذكر في القرآن الكريم هذا النبي العظيم، الذي خرج منه الشعب العربي، أفضل الشعوب وأجلها، الذين منهم سيد ولد آدم. ﴿إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ﴾؛ أي: لا يعدُّ وعدًا إلا وفى به، وهذا شامل للوعد الذي يعقده مع الله أو مع العباد، ولهذا لما وعد من نفسه الصبر على ذبح أبيه له؛ قال: ﴿سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾ ﴿٥٥﴾ [الصفات: ١٠٢]: وفى بذلك، ومكن أباه من الذبح الذي هو أكبر مصيبة تصيب الإنسان. ثم وصفه بالرسالة والنبوة التي هي أكبر منن الله على عبده، وأهلها من الطبقة العليا من الخلق.

﴿٥٥﴾ ﴿وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ﴾؛ أي: كان مقيمًا لأمر الله على أهله، فيأمرهم بالصلاة المتضمنة للإخلاص للمعبود، وبالزكاة المتضمنة للإحسان إلى العبيد؛ فكمل نفسه، وكمل غيره، وخصوصًا أخص الناس عنده، وهم أهله؛ لأنهم أحق بدعوته من غيرهم. ﴿وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا﴾ ﴿٥٦﴾: وذلك بسبب امتثاله لمراضي ربه واجتهاده فيما يرضيه؛ ارتضاه الله وجعله من خواص عباده وأوليائه المقربين؛ فرضي الله عنه، ورضي هو عن ربه.

﴿وَإِذْ كُنَّا فِي الْكُتُبِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا﴾ ﴿٥٦﴾ وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴿٥٧﴾.

﴿٥٦﴾ أي: اذكر في الكتاب على وجه التعظيم والإجلال والوصف بصفات الكمال إدريس. ﴿إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا﴾ ﴿٥٦﴾: جمع الله له بين الصديقية الجامعة للتصديق التام والعلم الكامل واليقين الثابت والعمل الصالح، وبين اصطفاؤه لوحيه واختياره لرسالته.

﴿٥٧﴾ وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴿٥٧﴾؛ أي: رفع الله ذكره في العالمين ومنزلته بين المقربين، فكان عالي الذكر عالي المنزلة.

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْبَعْنَاهُ إِذَا نُلِّيَ عَلَيْهِمْ وَعَيَّنْتَ الرَّحْمَنُ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾ ﴿٥٨﴾.

﴿٥٨﴾ لما ذكر هؤلاء الأنبياء المكرمين وخواص المرسلين وذكر فضائلهم ومراتبهم؛ قال: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ﴾؛ أي: أنعم الله عليهم نعمة لا تُلحق ومنة لا تسبق؛ من النبوة والرسالة، وهم الذين أمرنا أن ندعو الله أن يهدينا صراط الذين أنعم عليهم، وأن من أطاع الله كان ﴿مَعَ الَّذِينَ

أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ﴾ [النساء: ٦٩] الآية، وأن بعضهم ﴿مِنْ ذُرِّيَةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ﴾؛ أي: من ذريته. ﴿وَمِنْ ذُرِّيَةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ﴾: فهذه خير بيوت العالم، اصطفاهم الله واختارهم واجتباهم، وكان حالهم عند تلاوة آيات الرحمن عليهم، المتضمنة للإخبار بالغيوب وصفات علام الغيوب والإخبار باليوم الآخر والوعد والوعيد؛ ﴿خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾ ﴿٥٨﴾؛ أي: خضعوا لآيات الله، وخشعوا لها، وأثرت في قلوبهم من الإيمان والرغبة والرغبة ما أوجب لهم البكاء والإنابة والسجود لربهم، ولم يكونوا من الذين إذا سمعوا آيات الله؛ خروا عليها صمًا وعميانًا.

وفي إضافة الآيات إلى اسمه الرحمن دلالة على أن آياته من رحمته بعباده وإحسانه إليهم؛ حيث هداهم بها إلى الحق، وبصرهم من العمى، وأنقذهم من الضلالة، وعلمهم من الجهالة.

﴿خَلَفَ مِنْ بَعدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّمَاةَ فَسُوفَ يَلْقَوْنَ غِيًّا﴾ ﴿٥٩﴾ إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا ﴿٦٠﴾ جَنَّتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًّا ﴿٦١﴾ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَامًا وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿٦٢﴾ تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا ﴿٦٣﴾.

﴿٥٩﴾ لما ذكر تعالى هؤلاء الأنبياء... المخلصون، المتبعون لمراضي ربهم، المنبيون إليه؛ ذكر من أتى بعدهم وبدلوا ما أمروا به، وأنه خلف ﴿مِنْ بَعدِهِمْ خَلْفٌ﴾: رجعوا إلى الخلف والوراء، ف﴿أَضَاعُوا الصَّلَاةَ﴾: التي أمروا بالمحافظة عليها وإقامتها، فتهانوا بها وضيعوها، وإذا ضيعوا الصلاة التي هي عماد الدين وميزان الإيمان والإخلاص لرب العالمين، التي هي أكد الأعمال وأفضل الخصال؛ كانوا لما سواها من دينهم أضيع وله أرفض. والسبب الداعي لذلك أنهم اتبعوا شهوات أنفسهم وإراداتها، فصارت همهم منصرفة إليها مقدمة لها على حقوق الله، فنشأ من ذلك التضييع لحقوقه والإقبال على شهوات أنفسهم مهما لاحت لهم حصلوها، وعلى أي وجه اتفقت تناولوها. ﴿فَسُوفَ يَلْقَوْنَ غِيًّا﴾ ﴿٥٩﴾؛ أي: عذابًا مضاعفًا شديدًا.

﴿٦٠﴾ ثم استثنى تعالى فقال: ﴿إِلَّا مَنْ تَابَ﴾: عن الشرك والبدع والمعاصي، فأقلع عنها، وندم عليها، وعزم عزمًا

ويحتمل أيضًا أن المعنى: هذه الجنات التي وعدها الرحمن عباده من الأمور التي لا تدركها الأوصاف ولا يعلمها أحد إلا الله؛ ففيه من التشويق لها، والوصف المجلل ما يهيج النفوس، ويزعج الساكن إلى طلبها، فيكون هذا مثل قوله: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (١٧) [السجدة: ١٧].

والمعاني كلها صحيحة ثابتة، ولكن الاحتمال الأول أولى؛ بدليل قوله: ﴿إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًا﴾ (١٦): لا بد من وقوعه؛ فإنه لا يخلف الميعاد، وهو أصدق القائلين.

﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا﴾؛ أي: كلامًا لا غيا لا فائدة فيه ولا ما يؤثم؛ فلا يسمعون فيها شتمًا ولا عيبًا ولا قولًا فيه معصية لله أو قولًا مكدرًا، ﴿إِلَّا سَلَامًا﴾؛ أي: إلا الأقوال السالمة من كل عيب؛ من ذكر لله، وتحية، وكلام سرور وبشارة، ومطارحة الأحاديث الحسنة بين الإخوان، وسماع خطاب الرحمن، والأصوات الشجية من الحور والملائكة والولدان، والنغمات المطربة، والألفاظ الرخيمة؛ لأن الدار دار السلام؛ فليس فيها إلا السلام التام من جميع الوجوه. ﴿وَهُمْ يَرْزُقُوهَا فِيهَا بَكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ (١٧)؛ أي: أرزاقهم من المأكّل والمشارب وأنواع اللذات مستمرة حيثما طلبوا وفي أي وقت رغبوا، ومن تمامها ولذتها وحسنها أن تكون في أوقات معلومة ﴿بَكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ (١٧)؛ ليعظم وقعها، ويتم نفعها.

﴿فَإِنَّكَ الْجَنَّةُ﴾: التي وصفناها بما ذكر ﴿الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا﴾ (١٨)؛ أي: نورثها المتقين، ونجعلها منزلهم الدائم، الذي لا يظعنون عنه ولا ييغون عنه حولًا؛ كما قال تعالى: ﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَعْفَرَةٍ مِّن رِّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ (٢٣) [آل عمران: ١٢٣].

﴿وَمَا نَنْزِلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ (٢٤) رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ (٢٥).

﴿استبطن النبي ﷺ جبريل عليه السلام مرة في نزوله إليه، فقال له: لو تأتينا أكثر مما تأتينا؛ شوقًا إليه وتوحشًا لفرقه وليطمئن قلبه بنزوله؛ فأنزل الله تعالى على لسان جبريل: ﴿وَمَا نَنْزِلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾؛ أي: ليس لنا من الأمر شيء، إن أمرنا؛ ابتدرنا أمره ولم نعص له أمرًا؛ كما قال

جازمًا ألا يعاودها، ﴿وَأَمِّنْ﴾؛ بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، ﴿وَعَمِلْ صَالِحًا﴾؛ وهو العمل الذي شرعه الله على ألسنة رسله إذا قصد به وجهه، ﴿فَأُولَئِكَ﴾: الذين جمعوا بين التوبة والإيمان والعمل الصالح، ﴿يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ﴾: المشتملة على النعيم المقيم والعيش السليم وجوار الرب الكريم، ﴿وَلَا يَظْلَمُونَ شَيْئًا﴾ (٢٦)؛ من أعمالهم، بل يجدونها كاملة، موفرة أجورها، مضاعفة عددها.

﴿ثم ذكر أن الجنة التي وعدهم بدخولها ليست كسائر الجنات، وإنما هي: ﴿جَنَّةٍ عَدْنٍ﴾؛ أي: جنات إقامة لا ظعن فيها ولا جَوْل ولا زوال، وذلك لسعتها وكثرة ما فيها من الخيرات والسرور والبهجة والحبور. ﴿الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ﴾؛ أي: التي وعدها الرحمن، أضافها إلى اسمه الرحمن؛ لأنها فيها من الرحمة والإحسان ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، وسماها تعالى رحمته، فقال: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ ابْصَرَتْ وُجُوهُهُمْ فِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (٢٧) [آل عمران: ١٠٧]. وأيضا؛ ففي إضافتها إلى رحمته ما يدل على استمرار سرورها، وأنها باقية ببقاء رحمته التي هي أثرها وموجُّها.

والعباد في هذه الآية المراد عباد إلهيته، الذين عبدوه والتزموا شرائعه، فصارت العبودية وصفًا لهم؛ كقوله: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ﴾ [الفرقان: ٦٣]، ونحوه؛ بخلاف عباده المماليك فقط، الذين لم يعبدوه؛ فهؤلاء وإن كانوا عبيدًا لربوبيته لأنه خلقهم ورزقهم ودبرهم؛ فليسوا داخلين في عبيد إلهيته، العبودية الاختيارية التي يمدح صاحبها، وإنما عبوديتهم عبودية اضطرار لا مدح لهم فيها.

وقوله: ﴿يَالْغَيْبِ﴾: يحتمل أن تكون متعلقة بوعد الرحمن، فيكون المعنى على هذا: أن الله وعدهم إياها وعدًا غائبًا لم يشاهدوه، ولم يروه فآمنوا بها، وصدقوا غيبها، وسعوا لها سعيها مع أنهم لم يروها؛ فكيف لو رأوها؛ لكانوا أشد لها طلبًا وأعظم فيها رغبة وأكثر لها سعيًا، ويكون في هذا مدح لهم بإيمانهم بالغيب، الذي هو الإيمان النافع.

ويحتمل أن تكون متعلقة بعباده؛ أي: الذين عبدوه في حال غيبيهم وعدم رؤيتهم إياه؛ فهذه عبادتهم ولم يروه؛ فلو رأوه؛ لكانوا أشد له عبادة وأعظم إنابة وأكثر حبًا وأجل شوقًا.

عنهم: ﴿لَا يَصْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحریم: ١٦]؛ فنحن عبيد مأمورون. ﴿لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ﴾؛ أي: له الأمور الماضية والمستقبلية والحاضرة في الزمان والمكان؛ فإذا تبين أن الأمر كله لله، وأنا عبيد مدبرون، فيبقى الأمر دائراً بين؛ هل تقتضيه الحكمة الإلهية فينفذه أم لا تقتضيه فيؤخره؟ ولهذا قال: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ [١٧]؛ أي: لم يكن الله ينساك ويهملك؛ كما قال تعالى: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى﴾ [الضحى: ٢٣]؛ بل لم يزل معتنياً بأمورك مجرباً لك على أحسن عوائده الجميلة وتدبيره الجميلة؛ أي: فإذا تأخر نزولنا عن الوقت المعتاد؛ فلا يحزنك ذلك ولا يهملك، واعلم أن الله هو الذي أراد ذلك؛ لما له من الحكمة فيه.

ثم علل إحاطة علمه وعدم نسيانه بأنه ﴿رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾؛ فربوبيته للسموات والأرض، وكونهما على أحسن نظام وأكملة، ليس فيه غفلة ولا إهمال ولا سدى ولا باطل؛ برهان قاطع على علمه الشامل؛ فلا تشغل نفسك بذلك، بل اشغله بما ينفعك ويعود عليك طائله، وهو عبادته وحده لا شريك له، ﴿وَاصْطَرِ لِعِبَادِهِ﴾؛ أي: اصبر نفسك عليها، واجاهدها، وقم عليها أتم القيام وأكملة بحسب قدرتك، وفي الاشتغال بعبادة الله تسلياً للعابد عن جميع التعلقات والمشتبهات؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعَتْ بِهِ ۖ زَوْجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْسِهِمْ فِيهِ﴾ إلى أن قال: ﴿وَأَمُرُ

رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادِهِ ۚ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا ۝١٦ وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ إِذَا مَاتَ لَسَوْفَ أَخْرَجُ حَيًّا ۝١٧ أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا ۝١٨ فَوَرَّيكَ لِلْحَشْرِ نَهْمٌ وَالشَّيَاطِينُ نُهُمُ لِنَحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا ۝١٩ ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَهْبَاقًا شَدِيدًا عَلَى الرَّحْمَنِ عَيْنًا ۝٢٠ ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِصَلِيلِكَ ۝٢١ وَإِن مِّنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ۝٢٢ ثُمَّ نَسْجِي الَّذِينَ أَتَقَوَّا وَذَرُوا الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ۝٢٣ وَإِذَا نُفِثَ عَلَيْهِمْ إِيتَانَا يَنْسِفَ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا ۝٢٤ وَكَوْهُ أَهْلَكُنَا قَبْلَهُمْ مِّن قَبْلِهِمْ أَهْسَنُ أَتَيْنَا وَرِيًّا ۝٢٥ قُلْ مَن كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ إِذَا الْعَذَابُ وَإِنَّمَا السَّاعَةُ فَسَيَعْلَمُونَ مَن هُوَ شَرُّ مَكَانًا ۝٢٦ وَأَضَعُفُ جُنْدًا ۝٢٧ وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ أَحْتَدَوْا هُدًى ۝٢٨ وَالْبَقِيَّةُ الصَّلَاحُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا ۝٢٩

والمشتبهات؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعَتْ بِهِ ۖ زَوْجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْسِهِمْ فِيهِ﴾ إلى أن قال: ﴿وَأَمُرُ

﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ [١٦]؛ أي: هل تعلم لله مسامياً ومشابهاً ومماثلاً من المخلوقين؟ وهذا استفهام بمعنى النفي المعلوم بالعقل؛ أي: لا تعلم له مسامياً ولا مشابهاً؛ لأنه الرب، وغيره مربوب، الخالق وغيره مخلوق، الغني من جميع الوجوه، وغيره فقير بالذات من كل وجه، الكامل الذي له الكمال المطلق من جميع الوجوه، وغيره ناقص ليس فيه من الكمال إلا ما أعطاه الله تعالى؛ فهذا برهان قاطع على أن الله هو المستحق لإفراده بالعبودية، وأن عبادته حق، وعبادة ما سواه باطل؛ فلهذا أمر بعبادته وحده والاصطبار لها، وعمل ذلك بكماله وانفراده بالعظمة والأسماء الحسنى.

﴿وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ إِذَا مَاتَ لَسَوْفَ أَخْرَجُ حَيًّا ۝١٧ أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا ۝١٨﴾.

المراد بالإنسان هنا كل منكر للبعث مستبعد لوقوعه؛ فيقول مستهتماً على وجه النفي والعدا والكفر: ﴿إِذَا مَاتَ لَسَوْفَ أَخْرَجُ حَيًّا﴾ [١٧]؛ أي: كيف يعيدني الله حياً بعد الموت وبعد ما كنت رميمًا؟! هذا لا يكون ولا يتصور! وهذا بحسب عقله الفاسد ومقصده السيئ وعناده لرسول الله وكتبه؛ فلو نظر أدنى نظر وتأمل أدنى تأمل؛ لرأى استبعاده للبعث في غاية السخافة.

ولهذا ذكر تعالى برهاناً قاطعاً ودليلاً واضحاً يعرفه كل أحد على إمكان البعث، فقال: ﴿أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا﴾ [١٧]؛ أي: ألا يلتفت نظره ويستذكر حالته الأولى، وأن الله خلقه أول مرة ولم يك شيئاً؟! فمن قدر على خلقه من العدم، ولم يك شيئاً مذكوراً؛ أليس بقادر على إنشائه بعدما تمزق، وجمعه بعدما تفرق؟! وهذا كقوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧].

وقيل: ورودها دخولها، فتكون على المؤمنين بردًا وسلامًا. وقيل: الورد هو المرور على الصراط الذي هو على متن جهنم، فيمر الناس على قدر أعمالهم؛ فمنهم من يمر كلمح البصر، وكالريح، وكأجاويد الخيل، وكأجاويد الركاب، ومنهم من يسعى، ومنهم من يمشي مشيًا، ومنهم من يزحف زحفًا، ومنهم من يخطف فيلقى في النار؛ كل بحسب تقواه.

﴿٧٦﴾ ولهذا قال: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا﴾: الله تعالى يفعل المأمور واجتناب المحذور. ﴿وَنَذِرُ الظَّالِمِينَ﴾: أنفسهم بالكفر والمعاصي ﴿فِيهَا جِثَاءٌ﴾: وهذا بسبب ظلمهم وكفرهم، وجب لهم الخلود وحق عليهم العذاب، وتقطعت بهم الأسباب.

﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾ ﴿٧٧﴾ ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِّنْ قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثْنًا وَرَدًّا﴾ ﴿٧٨﴾.

﴿٧٦﴾ أي: وإذا تلى على هؤلاء الكفار آياتنا بينات؛ أي: واضحات الدلالة على وحدانية الله وصدق رسله، توجب لمن سمعها صدق الإيمان وشدة الإيقان؛ قابلوها بضد ما يجب لها، واستهزؤوا بها وبمن آمن بها، واستدلوا بحسن حالهم في الدنيا على أنهم خير من المؤمنين، فقالوا معارضين للحق: ﴿أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾؛ أي: نحن والمؤمنون ﴿خَيْرٌ مَقَامًا﴾؛ أي: في الدنيا من كثرة الأموال والأولاد وتفوق الشهوات. ﴿وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾ ﴿٧٧﴾؛ أي: مجلسًا؛ أي: فاستتجوا من هذه المقدمة الفاسدة بسبب أنهم أكثر مالا وأولادًا، وقد حصلت لهم أكثر مطالبهم من الدنيا، ومجالسهم وأنديتهم مزخرفة مزوقة، والمؤمنون بخلاف هذه الحال؛ فهم خير من المؤمنين!!

﴿٧٨﴾ وهذا دليل في غاية الفساد، وهو من باب قلب الحقائق، وإلا؛ فكثرة الأموال والأولاد وحسن المنظر كثيرًا ما يكون سببًا لهلاك صاحبه وشقائه وشره، ولهذا قال تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِّنْ قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثْنًا﴾؛ أي: متاعًا من أوانٍ وفرش وبيوت وزخارف، ﴿وَرَدًّا﴾ ﴿٧٩﴾؛ أي: أحسن مرأى ومنظرًا من غضارة العيش وسرور اللذات وحسن الصور؛ فإذا كان هؤلاء المهلكون أحسن منهم أثنًا ورتبًا، ولم يمنعهم ذلك من حلول العقاب بهم؛ فكيف يكون هؤلاء

وفي قوله: ﴿أَوَّلًا يَذْكُرُ الْإِنسَانَ﴾: دعوة للنظر بالدليل العقلي بالطف خطاب، وأن إنكار من أنكر ذلك مبني على غفلة منه عن حاله الأولى، وإلا؛ فلو تذكرها وأحضرها في ذهنه؛ لم ينكر ذلك.

﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا﴾ ﴿٨٠﴾ ﴿ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عَيْنًا﴾ ﴿٨١﴾ ﴿ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا﴾ ﴿٨٢﴾.

﴿٨٠﴾ أقسم الله تعالى وهو أصدق القائلين بربوبيته ليحشرن هؤلاء المنكرين للبعث هم وشياطينهم، فيجمعهم لميقات يوم معلوم، ﴿ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا﴾ ﴿٨١﴾؛ أي: جاثين على ركبهم من شدة الأهوال وكثرة الزلزال وفظاعة الأحوال، منتظرين لحكم الكبير المتعال.

﴿٨٢﴾ ولهذا ذكر حكمه فيهم، فقال: ﴿ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عَيْنًا﴾ ﴿٨٣﴾؛ أي: ثم لننزع من كل طائفة وفرقة من الظالمين المشتركين في الظلم والكفر والعتو أشدهم عتوًا وأعظمهم ظلمًا وأكبرهم كفرًا، فيقدمهم إلى العذاب، ثم هكذا يقدم إلى العذاب الأغلظ إثما فالأغلظ، وهم في تلك الحال متلاعنون؛ يلعن بعضهم بعضًا، ويقول أخراهم لأولاهم: ﴿رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَفَاتِنَهُمْ عَذَابًا ضِعْفَيْنِ النَّارِ قَالَ لِكُلِّ ضِعْفٍ وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ ﴿٨٤﴾ وَقَالَتْ أُولَهُمْ لِأَخْرَجْنَاهُمْ مِمَّا كَانَتْ لَكُمْ عَلَيْهِمْ عَيْنًا مِنْ فَضْلِ ﴿[الأعراف: ٣٨، ٣٩].

﴿٨٥﴾ وكل هذا تابع لعذله وحكمته وعلمه الواسع، ولهذا قال: ﴿ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا﴾ ﴿٨٦﴾؛ أي: علمنا محيط بمن هو أولى صليًّا بالنار، وقد علمناهم، وعلمنا أعمالهم واستحقاقها وقسطها من العذاب.

﴿وَلَيْنُكْرَمُنَّ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا﴾ ﴿٨٧﴾ ﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذِرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾ ﴿٨٨﴾.

﴿٨٧﴾ وهذا خطاب لسائر الخلائق؛ برَّهم وفاجرهم، مؤمنهم وكافرهم؛ أنه ما منهم من أحد إلا سيرد النار، حكمًا حتمه الله على نفسه، وأوعد به عباده؛ فلا بد من نفوذه، ولا محيد عن وقوعه. واختلف في معنى الورد: فقيل: ورودها حضورها للخلائق كلهم حتى يحصل الانزعاج من كل أحد، ثم بعد ينجي الله المتقين.

التي لا تنقطع إذا انقطع غيرها ولا تضمحل، هي الصالحات منها؛ من صلاة وزكاة وصوم وحج وعمرة وقراءة وتسيح وتكبير وتحميد وتهليل وإحسان إلى المخلوقين وأعمال قلبية وبدنية؛ فهذه الأعمال ﴿خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَرَدًّا﴾ (٧٦)؛ أي: خير عند الله ثوابها وأجرها، وكثير للعاملين نفعها وردّها، وهذا من باب استعمال أفعال التفضيل في غير باب؛ فإنه ما ثمّ غير الباقيات الصالحات عمل ينفع ولا يبقى لصاحبه ثوابه ولا ينجع، ومناسبته ذكر الباقيات الصالحات. والله أعلم: أنه لما ذكر أن الظالمين جعلوا أحوال الدنيا من المال والولد وحسن المقام ونحو ذلك علامة لحسن حال صاحبها؛ أخبر هنا أن الأمر ليس كما زعموا، بل العمل الذي هو عنوان السعادة ومنشور الفلاح، هو العمل بما يحبه الله ويرضاه.

﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَا أُفِيكُ مَالًا وَلَدًا﴾ (٧٧) ﴿أَطْلَعَ الْغَيْبِ أَمْ أَخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا﴾ (٧٨) ﴿كَلَّا سَتَكُنُّ مِمَّا يَقُولُ وَنَعُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا﴾ (٧٩) ﴿وَنَرِيثُهُ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا﴾ (٨٠).

﴿٧٧﴾ أي: أفلا تتعجب من حالة هذا الكافر، الذي جمع بين كفره بآيات الله ودعواه الكبيرة أنه سيؤتي في الآخرة مالا وولداً؛ أي: يكون من أهل الجنة، هذا من أعجب الأمور؛ فلو كان مؤمناً بالله وادعى هذه الدعوى؛ لسهل الأمر.

وهذه الآية وإن كانت نازلة في كافر معين؛ فإنها تشمل كل كافر زعم أنه على الحق، وأنه من أهل الجنة.

﴿٧٨﴾ قال الله توبيخاً له وتكذيباً: ﴿أَطْلَعَ الْغَيْبِ﴾؛ أي: أحاط علمه بالغيّب حتى علم ما يكون، وأن من جملة ما يكون أنه يؤتى يوم القيامة مالا وولداً. ﴿أَمْ أَخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا﴾؛ أي: أنه ناقل ما قاله؛ أي: لم يكن شيء من ذلك، فعلم أنه متقول قائل ما لا علم له به. وهذا التقسيم والترديد في غاية ما يكون من الإلزام وإقامة الحجة؛ فإن الذي يزعم أنه حاصل له خير عند الله في الآخرة لا يخلو: إما أن يكون قوله صادراً عن علم بالغيوب المستقبلية، وقد علم أن هذا لله وحده؛ فلا أحد يعلم شيئاً من المستقبلات الغيبية إلا ما أطلع الله عليه من رسله.

وإما أن يكون متخذاً عهداً عند الله، بالإيمان به، واتباع رسله الذي عهد الله لأهله، وأوزع أنهم أهل الآخرة، الناجون الفاتزون؛ فإذا انتفى هذان الأمران؛ علم بذلك بطلان الدعوى.

وهم أقل منهم وأذل معتصمين من العذاب، ﴿أَكْفَارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أَوْلَئِكَ أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ﴾ (٧٩) [القم: ٩٤٣] وعلم من هذا أن الاستدلال على خير الآخرة بخير الدنيا من أفسد الأدلة وأنه من طرق الكفار.

﴿قُلْ مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلِمَئِدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ إِمَّا الْعَذَابَ وَإِمَّا السَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُنْدًا﴾ (٨٠).

﴿٨٠﴾ لما ذكر دليلهم الباطل الدال على شدة عنادهم وقوة ضلالهم؛ أخبر هنا أن من كان في الضلالة؛ بأن رضيها لنفسه، وسعى فيها؛ فإن الله يمدّه منها ويزيده فيها جناً؛ عقوبة له على اختيارها على الهدى؛ قال تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥]، ﴿وَقُلُوبٌ أَفْسَدَتْهُمْ وَأَبْصَرَتْهُمْ كَمَا لَوْ يُؤْمِنُؤُنَّ بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُوهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ (٨١) [الأنعام: ١١٠]. ﴿حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا﴾؛ أي: القاتلون: ﴿أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَوْبًا﴾ (٧٢)، ﴿مَا يُوعَدُونَ إِمَّا الْعَذَابَ﴾ يقتل أو غيره، ﴿وَلِمَّا السَّاعَةَ﴾: التي هي باب الجزاء على الأعمال. ﴿فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُنْدًا﴾ (٧٣)؛ أي: فحيث يتبين لهم بطلان دعواهم، وأنها دعوى مضمحلة، ويتيقنون أنهم أهل الشر وأضعف جنداً، ولكن لا يفيدهم هذا العلم شيئاً؛ لأنه لا يمكنهم الرجوع إلى الدنيا فيعملون غير عملهم الأول.

﴿وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى وَالْبَاقِيَتُ الصَّالِحَتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَرَدًّا﴾ (٧٦).

﴿٧٦﴾ لما ذكر أنه يمد للظالمين في ضلالهم؛ ذكر أنه يزيد المهتدين هداية من فضله عليهم ورحمته، والهدى يشمل العلم النافع والعمل الصالح؛ فكل من سلك طريقاً في العلم والإيمان والعمل الصالح؛ زاده الله منه، وسهله عليه، ويسره له، ووهب له أموراً آخر لا تدخل تحت كسبه، وفي هذا دليل على زيادة الإيمان ونقصه؛ كما قاله السلف الصالح.

ويدل عليه قوله تعالى: ﴿وَيَزِدَادُ الَّذِينَ آمَنُوا ابْنَاتًا﴾ [المدثر: ٣١]، ﴿وَإِذَا ثَلَيْتَ عَلَيْهِمْ عَائِيَتَهُ رَأَوْهُمْ يُبْهِمُونَ﴾ [الأنفال: ٢٢]. ويدل عليه أيضاً الواقع؛ فإن الإيمان قول القلب واللسان وعمل القلب واللسان والجوارح، والمؤمنون متفاوتون في هذه الأمور أعظم تفاوت.

ثم قال: ﴿وَالْبَاقِيَتُ الصَّالِحَتُ﴾؛ أي: الأعمال الباقية

﴿٧٩﴾ ولهذا قال تعالى: ﴿كَلَّا﴾؛ أي: ليس الأمر كما زعم؛ فليس للقاتل اطلاع على الغيب، لأنه كافر ليس عنده من علم الرسل شيء، ولا اتخذ عند الرحمن عهداً؛ لكفره وعدم إيمانه ولكنه يستحق ضد ما تقوله، وأن قوله مكتوب محفوظ ليجازى عليه ويعاقب، ولهذا قال: ﴿سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا﴾ ﴿٧٩﴾؛ أي: نزيده من أنواع العقوبات كما ازداد من الغي والضلال.

﴿٨٠﴾ ﴿وَرِثُهُ مَا يَقُولُ﴾؛ أي: نرثه ماله وولده، فينتقل من الدنيا فرداً بلا مال ولا أهل ولا أنصار ولا أعوان، ﴿وَيَأْتِينَا فَرْدًا﴾ ﴿٨٠﴾؛ فيرى من وخيم العقاب ما هو جزاء أمثاله من الظالمين.

﴿٨١﴾ ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤْزُهُمْ أَزًّا﴾ ﴿٨١﴾ ﴿فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَذَابًا﴾ ﴿٨١﴾.

﴿٨٢﴾ وهذا من عقوبة الكافرين: أنهم لما لم يعتصموا بالله ولم يتمسكوا بحبل الله، بل أشركوا به ووالوا أعداءه من الشياطين؛ سلطهم عليهم وقضهم، فجعلت الشياطين تؤزهم إلى المعاصي أزاً، وتزعجهم إلى الكفر إزعاجاً، فيوسوسون لهم، ويوحون إليهم، ويزنون لهم الباطل، ويقبحون لهم الحق، فيدخل حب الباطل في قلوبهم ويتشربها، فيسعى فيه سعي المحق في حقه، فينصره بجهده، ويحارب عنه، ويجاهد

أهل الحق في سبيل الباطل، وهذا كله جزاء له على توليه من وليه وتوليه لعدوه؛ جعل له عليه سلطاناً، وإلا؛ فلو آمن بالله وتوكل عليه؛ لم يكن له عليه سلطان؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ ﴿٨٢﴾ ﴿إِنَّمَا سُلْطَانُكَ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ﴾ ﴿٨٢﴾ [النحل: ٩٩، ١٠٠].

﴿٨٣﴾ ﴿فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ﴾؛ أي: على هؤلاء الكفار المستعجلين بالعذاب، ﴿إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَذَابًا﴾ ﴿٨٣﴾؛ أي: إن لهم أياماً معدودة؛ لا يتقدمون عنها ولا يتأخرون، نمهلهم ونحلم عنهم مدة ليراجعوا أمر الله؛ فإذا لم ينجع فيهم ذلك؛ أخذناهم أخذ عزيز مقتدر.

﴿٨٤﴾ ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا﴾ ﴿٨٤﴾ ﴿وَسَوْفَ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وَرْدًا﴾ ﴿٨٤﴾ ﴿لَا يَمْلِكُونَ الشَّفْعَةَ إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا﴾ ﴿٨٤﴾.

﴿٨٥﴾ يخبر تعالى عن تفاوت الفريقين: المتقين والمجرمين، وأن المتقين له بقاء الشرك والبدع والمعاصي، يحشرهم إلى موقف القيامة مكرمين مبجلين معظمين، وأن مآلهم الرحمن، وقصدهم المنان وفداً إليه، والوافد لا بد أن يكون في قلبه من الرجاء وحسن الظن بالوافد إليه ما هو معلوم، فالمتقون يقدون إلى الرحمن راجين منه رحمته وعميم إحسانه والفوز بعطاياه في دار رضوانه، وذلك بسبب ما قدموه من العمل بتقواه واتباع مراضيه، وأن الله عهد إليهم بذلك الثواب على السنة رسله، فتوجهوا إلى ربهم مطمئنين به، واثقين بفضله.

﴿٨٦﴾ وأما المجرمون؛ فإنهم يساقون ﴿إِلَى جَهَنَّمَ وَرْدًا﴾ ﴿٨٦﴾؛ أي: عطاشاً، وهذا أشنع ما يكون من الحالات سوقهم على وجه الذل والصغار إلى أعظم سجن وأفظع عقوبة، وهو جهنم، في حال ظمئهم ونصبهم؛ يستغيثون فلا يغاثون، ويدعون فلا يستجاب لهم، ويستشفعون فلا يشفع لهم.

﴿٧٩﴾ ﴿وَلَهُذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿كَلَّا﴾؛ أَي: لَيْسَ الْأَمْرُ كَمَا زَعَمَ؛ فَلَيْسَ لِلْقَاتِلِ اطِّلَاعٌ عَلَى الْغَيْبِ، لِأَنَّهُ كَافِرٌ لَيْسَ عَنْدهُ مِنْ عِلْمِ الرُّسُلِ شَيْءٌ، وَلَا اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا؛ لِكُفْرِهِ وَغَيْرِإِيمَانِهِ وَلَكِنَّهُ يَسْتَحِقُّ ضِدَّ مَا يَقُولُهُ، وَأَنَّ قَوْلَهُ مَكْتُوبٌ مَحْفُوظٌ لِيَجَازَى عَلَيْهِ وَيُعَاقَبَ، وَلَهُذَا قَالَ: ﴿سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا﴾ ﴿٧٩﴾؛ أَي: نَزِيدُهُ مِنْ أَنْوَاعِ الْعُقُوبَاتِ كَمَا أَزْدَادَ مِنَ الْغِيِّ وَالضَّلَالِ.

﴿٨٠﴾ ﴿وَرِثُهُ مَا يَقُولُ﴾؛ أَي: نَرِثُهُ مَالَهُ وَوَلَدَهُ، فَيَنْتَقِلُ مِنَ الدُّنْيَا فَرْدًا بِلَا مَالٍ وَلَا أَهْلٍ وَلَا أَنْصَارٍ وَلَا أَعْوَانٍ، ﴿وَيَأْتِينَا فَرْدًا﴾ ﴿٨٠﴾؛ فَيَرَى مِنْ وَخِيمِ الْعِقَابِ مَا هُوَ جَزَاءُ أَمْثَالِهِ مِنَ الظَّالِمِينَ.

﴿٨١﴾ ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤْزُهُمْ أَزًّا﴾ ﴿٨١﴾ ﴿فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَذَابًا﴾ ﴿٨١﴾.

﴿٨٢﴾ وَهَذَا مِنْ عُقُوبَةِ الْكَافِرِينَ: أَنَّهُمْ لَمَّا لَمْ يَعْتَصِمُوا بِاللَّهِ وَلَمْ يَتَمَسَّكُوا بِحَبْلِ اللَّهِ، بَلْ أَشْرَكُوا بِهِ وَوَالَوْا أَعْدَاءَهُ مِنَ الشَّيَاطِينِ؛ سَلَطَهُمْ عَلَيْهِمْ وَقَضَّاهُمْ، فَجَعَلَتِ الشَّيَاطِينُ تَؤْزُهُمْ إِلَى الْمَعَاصِي أَزًّا، وَتَزَعَّجَهُمْ إِلَى الْكُفْرِ إِزْعَاجًا، فَيُوسُوسُونَ لَهُمْ، وَيُوحُونَ إِلَيْهِمْ، وَيَزْنُونَ لَهُمُ الْبَاطِلَ، وَيَقْبِحُونَ لَهُمُ الْحَقَّ، فَيَدْخُلُ حُبُّ الْبَاطِلِ فِي قُلُوبِهِمْ وَيَتَشَرَّبُهَا، فَيَسْعَى فِيهِ سَعْيَ الْمُحَقِّ فِي حَقِّهِ، فَيَنْصُرُهُ بِجَهْدِهِ، وَيُحَارِبُ عَنْهُ، وَيُجَاهِدُ

أَهْلَ الْحَقِّ فِي سَبِيلِ الْبَاطِلِ، وَهَذَا كُلُّهُ جَزَاءٌ لَهُ عَلَى تَوَلِيهِ مِنْ وَلِيِّهِ وَتَوَلِيهِ لِعَدُوِّهِ؛ جَعَلَ لَهُ عَلَيْهِ سُلْطَانًا، وَإِلَّا؛ فَلَوْ آمَنَ بِاللَّهِ وَتَوَكَّلَ عَلَيْهِ؛ لَمْ يَكُنْ لَهُ عَلَيْهِ سُلْطَانٌ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ ﴿٨٢﴾ ﴿إِنَّمَا سُلْطَانُكَ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ﴾ ﴿٨٢﴾ [النحل: ٩٩، ١٠٠].

﴿٨٣﴾ ﴿فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ﴾؛ أَي: عَلَى هَؤُلَاءِ الْكَافِرِ الْمُسْتَعْجِلِينَ بِالْعَذَابِ، ﴿إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَذَابًا﴾ ﴿٨٣﴾؛ أَي: إِنَّ لَهُمْ أَيَّامًا مَعْدُودَةً؛ لَا يَتَقَدَّمُونَ عَنْهَا وَلَا يَتَأَخَّرُونَ، نَمُهِلُهُمْ وَنَحْلُمُهُمْ عَنْهُمْ مَدَّةً لِيَرَاجِعُوا أَمْرَ اللَّهِ؛ فَإِذَا لَمْ يَنْجَعْ فِيهِمْ ذَلِكَ؛ أَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُقْتَدِرٍ.

﴿٨٤﴾ ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا﴾ ﴿٨٤﴾ ﴿وَسَوْفَ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وَرْدًا﴾ ﴿٨٤﴾ ﴿لَا يَمْلِكُونَ الشَّفْعَةَ إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا﴾ ﴿٨٤﴾.

﴿٨٥﴾ يَخْبِرُ تَعَالَى عَنْ تَفَاوُتِ الْفَرِيقَيْنِ: الْمُتَّقِينَ وَالْمُجْرِمِينَ، وَأَنَّ الْمُتَّقِينَ لَهُ بَقَاءُ الشَّرْكِ وَالْبِدْعِ وَالْمَعَاصِي، يَحْشَرُهُمْ إِلَى مَوْقِفِ الْقِيَامَةِ مَكْرَمِينَ مَبْجُلِينَ مَعْظَمِينَ، وَأَنَّ مَأْلَهُمُ الرَّحْمَنُ، وَقَصْدُهُمُ الْمَنَانُ وَفْدًا إِلَيْهِ، وَالْوَافِدُ لَا بَدَّ أَنْ يَكُونَ فِي قَلْبِهِ مِنَ الرَّجَاءِ وَحَسَنِ الظَّنِّ بِالْوَافِدِ إِلَيْهِ مَا هُوَ مَعْلُومٌ، فَالْمُتَّقُونَ يَقْدُونَ إِلَى الرَّحْمَنِ رَاجِينَ مِنْهُ رَحْمَتَهُ وَعَمِيمَ إِحْسَانِهِ وَالْفَوْزَ بِعَطَايَاهُ فِي دَارِ رِضْوَانِهِ، وَذَلِكَ بِسَبَبِ مَا قَدَّمُوهُ مِنَ الْعَمَلِ بِتَقْوَاهُ وَاتِّبَاعِ مَرَاضِيهِ، وَأَنَّ اللَّهَ عَهْدَ إِلَيْهِمْ بِذَلِكَ الثَّوَابِ عَلَى أَلْسِنَةِ رُسُلِهِ، فَتَوَجَّهُوا إِلَى رَبِّهِمْ مُطْمَئِنِّينَ بِهِ، وَاثْقِنَ بِفَضْلِهِ.

﴿٨٦﴾ وَأَمَّا الْمُجْرِمُونَ؛ فَإِنَّهُمْ يَسَاقُونَ ﴿إِلَى جَهَنَّمَ وَرْدًا﴾ ﴿٨٦﴾؛ أَي: عَطَاشًا، وَهَذَا أَشْنَعُ مَا يَكُونُ مِنَ الْحَالَاتِ سَوْقَهُمْ عَلَى وَجْهِ الذَّلِّ وَالصَّغَارِ إِلَى أَعْظَمِ سَجْنٍ وَأَفْظَعِ عُقُوبَةٍ، وَهُوَ جَهَنَّمُ، فِي حَالِ ظَمْئِهِمْ وَنَصَبِهِمْ؛ يَسْتَغِيثُونَ فَلَا يَغَاثُونَ، وَيَدْعُونَ فَلَا يَسْتَجَابُ لَهُمْ، وَيَسْتَشْفَعُونَ فَلَا يَشْفَعُ لَهُمْ.

﴿٨٧﴾ ولهذا قال: ﴿لَا يَمْلِكُونَ الشَّفْعَةَ﴾؛ أي: ليست الشفاعة ملكهم ولا لهم منها شيء، وإنما هي لله تعالى، ﴿قُلْ لِلَّهِ الشَّفْعَةُ جَمِيعًا﴾ [الزمر: ٤٤]، وقد أخبر أنه لا تنفعهم شفاعة الشافعين؛ لأنهم لم يتخذوا عنده عهدًا بالإيمان به وبرسله، وإلا؛ فمن اتخذ عنده عهدًا، فأمن به وبرسله، واتبعهم؛ فإنه ممن ارتضاه الله وتحصل له الشفاعة؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى﴾ [الأنبياء: ٢٨]. وسمى الله الإيمان به واتباع رسله عهدًا؛ لأنه عهد في كنهه وعلى السنة رسله بالجزاء الجميل لمن اتبعهم.

﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا﴾ ﴿٨٨﴾ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِذَا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَفْقَطَرْنَ مِنْهُ وَتَشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَذَا ﴿٩٠﴾ أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتَى الرَّحْمَنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَرْدًا ﴿٩٥﴾.

﴿٨٨﴾ وهذا تقييح وتشنيع لقول المعاندين الجاحدين، الذين زعموا أن الرحمن اتخذ ولدًا؛ كقول النصراني: المسيح ابن الله، واليهود: عزيز ابن الله، والمشركون: الملائكة بنات الله؛ تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً.

﴿٩١﴾ - ﴿٩٣﴾ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِذَا ﴿٨٨﴾؛ أي: عظيماً وخيماً. من عظيم أمره أنه: ﴿تَكَادُ السَّمَوَاتُ﴾: على عظمتها وصلابتها؛ ﴿يَفْقَطَرْنَ مِنْهُ﴾؛ أي: من هذا القول، ﴿وَتَشَقُّ الْأَرْضُ﴾؛ منه؛ أي: تتصدع وتنفطر، ﴿وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَذَا﴾؛ أي: تندك الجبال ﴿أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا﴾؛ أي: من أجل هذه الدعوى القبيحة تكاد هذه المخلوقات أن يكون منها ما ذكر.

﴿٩٢﴾ والحال أنه ﴿وَمَا يَنْبَغِي﴾؛ أي: لا يليق ولا يكون ﴿لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾؛ وذلك لأن اتخاذه الولد يدل على نقصه واحتياجه، وهو الغني الحميد، والولد أيضاً من جنس والده، والله تعالى لا شبيه له ولا مثل ولا سمي.

﴿٩٣﴾ إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتَى الرَّحْمَنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾؛ أي: ذليلاً متقاداً غير متعاص ولا ممتنع؛ الملائكة والإنس والجن وغيرهم، الجميع ممالك متصرف فيهم، ليس لهم من الملك شيء، ولا من التدبير شيء؛ فكيف يكون له ولد وهذا شأنه وعظمته ملكه؟! ١

﴿٩٤﴾ لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾؛ أي: لقد أحاط علمه بالخلائق كلهم، أهل السماوات والأرض، وأحصاهم، وأحصى أعمالهم؛ فلا يضل ولا ينسى ولا تخفى عليه خافية. ﴿وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَرْدًا﴾ ﴿٩٥﴾؛ أي: لا أولاد ولا مال ولا أنصار، ليس معه إلا عمله، فيجازيه الله ويوفيه حسابه، إن خيراً؛ فخير، وإن شراً؛ فشر؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرْدًا كَمَا خَلَقْتَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الأنعام: ٩٤].

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا﴾ ﴿٩٦﴾.

﴿٩٦﴾ هذا من نعمه على عباده الذين جمعوا بين الإيمان والعمل الصالح: أن وعدهم أن يجعل لهم وداً؛ أي: محبة ووداداً في قلوب أوليائه وأهل السماء والأرض، وإذا كان لهم في القلوب ود؛ تسر لهم كثير من أمورهم، وحصل لهم من الخيرات والدعوات والإرشاد والقبول والإمامة ما حصل، ولهذا ورد في الحديث الصحيح^(١): «إن الله إذا أحب عبداً؛ نادى جبريل: إني أحب فلاناً؛ فأحبه. فيحبه جبريل، ثم ينادي في أهل السماء: إن الله يحب فلاناً؛ فأحبه، فيحبه أهل السماء، ثم يوضع له القبول في الأرض» وإنما جعل الله لهم وداً لأنهم ودوه، وأحبه، فوددهم إلى أوليائه وأحبابه.

﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا﴾ ﴿٩٧﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِّن قَرْنٍ هَلْ يُحْسِبُ مِنْهُمْ مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا﴾ ﴿٩٨﴾.

﴿٩٧﴾ يخبر تعالى عن نعمته، وأنه يسر هذا القرآن الكريم بلسان الرسول محمد ﷺ؛ يسر ألفاظه ومعانيه؛ ليحصل المقصود منه والانتفاع به؛ ﴿لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ﴾: بالترغيب في المبشر به من الثواب العاجل والآجل، وذكر الأسباب الموجبة للبشارة، ﴿وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا﴾؛ أي: شديدين في باطلهم، أقوياء في كفرهم، فتنذرهم، فتقوم عليهم الحجة، وتبين لهم المحجة، فيهلك من هلك عن بينة، ويحيى من حي عن بينة.

﴿٩٨﴾ ثم توعدهم بإهلاك المكذبين قبلهم، فقال: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِّن قَرْنٍ﴾: من قوم نوح، وعاد، وثمود، وفرعون، وغيرهم من المعاندين المكذبين، لما استمروا

في طغيانهم؛ أهلكهم الله؛ فليس لهم من باقية. ﴿هَلْ نَحْسُ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا﴾ (١٨) ﴿وَالرَّكْزُ: الصوت الخفي؛ أي: لم يبق منهم عين ولا أثر، بل بقيت أخبارهم عبرة للمعتبرين، وأسماهم عظة للمتعطين.﴾

تم تفسير سورة مريم. ولله الحمد والشكر.

﴿١٨﴾ ﴿١٩﴾ ﴿٢٠﴾

تفسير سورة طه

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿طه﴾ (١) ﴿مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى﴾ (٢) ﴿إِلَّا نَذْكِرُ لِمَنْ يَخْشَى﴾ (٣) ﴿تَنْزِيلًا مِّنْ خَلْقِ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتِ الْغُلَى﴾ (٤) ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ (٥) ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى﴾ (٦) ﴿وَإِنْ يُجْهَرُ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى﴾ (٧) ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ (٨) ﴿

﴿١﴾، ﴿٢﴾ ﴿طه﴾ (١) ﴿: من جملة الحروف المقطعة المفتحة بها كثير من السور، وليست اسماً للنبي ﷺ﴾. ﴿مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى﴾ (٢) ﴿: أي: ليس المقصود بالوحي وإنزال القرآن عليك وشرع الشريعة لتشقى بذلك، ويكون في الشريعة تكليف يشق على المكلفين، وتعجز عنه قوى العاملين، وإنما الوحي والقرآن والشرع شرعه الرحيم الرحمن، وجعله موصلاً للسعادة والفلاح والفوز، وسهله غاية السهيل، ويسر كل طريقه وأبوابه، وجعله غذاء للقلوب والأرواح وراحة للأبدان، فتلقته الفطر السليمة والعقول المستقيمة بالقبول والإذعان؛ لعلمها بما احتوى عليه من الخير في الدنيا والآخرة.﴾

﴿٣﴾ ولهذا قال: ﴿إِلَّا نَذْكِرُ لِمَنْ يَخْشَى﴾ (٣) ﴿: إلا ليتذكر به من يخشى الله تعالى، فيتذكر ما فيه من الترهيب لأجل المطالب فيعمل بذلك، ومن الترهيب عن الشقاء والخسران فيهرب منه، ويتذكر به الأحكام الحسنة الشرعية المفصلة التي كان مستقراً في عقله حسنهما مجعلاً، فوافق التفصيل ما يجده في فطرته وعقله، ولهذا سماه الله تذكرة، والتذكرة لشيء كان موجوداً؛ إلا أن صاحبه غافل عنه أو غير مستحضر لتفصيله.﴾

وخص بالتذكرة من يخشى؛ لأن غيره لا يتفبع به، وكيف يتفبع به من لم يؤمن بجنة ولا نار ولا في قلبه من خشية الله مثقال ذرة؟! هذا ما لا يكون، ﴿سَيَذْكُرْ مَنْ يَخْشَى﴾ (١٠) ﴿وَيَجْنِبُهَا الْأَشْقَى﴾ (١١) ﴿الَّذِي يَصِلُ أَتَارَ الْكَبَرَى﴾ (١٢) ﴿[الاعلى: ١٠-١٢].﴾

﴿١٣﴾ ثم ذكر جلالة هذا القرآن العظيم، وأنه تنزيل خالق الأرض والسموات، المدبر لجميع المخلوقات؛ أي: فاقبلوا تنزيلاً بغاية الإذعان والمحبة والتسليم، وعظموه نهاية التعظيم. وكثيراً ما يقرن بين الخلق والأمر؛ كما في هذه الآية وكما في قوله: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾ ﴿[الاعراف: ٥٤]﴾ وفي قوله: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَنْزِلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ﴾ ﴿[الطلاق: ١٢]﴾، وذلك أنه الخالق الأمر الناهي؛ فكما أنه لا خالق سواه؛ فليس على الخلق إلزام ولا أمر ولا نهى إلا من خالقهم. وأيضاً؛ فإن خلقه للخلق فيه من التدبير القدري الكوني، وأمره فيه التدبير الشرعي الديني؛ فكما أن الخلق لا يخرج عن الحكمة، فلم يخلق شيئاً عبثاً؛ فكذلك لا يأمر ولا ينهى إلا بما هو عدل وحكمة وإحسان.﴾

سورة طه

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿طه﴾ (١) ﴿مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى﴾ (٢) ﴿إِلَّا نَذْكِرُ لِمَنْ يَخْشَى﴾ (٣) ﴿تَنْزِيلًا مِّنْ خَلْقِ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتِ الْغُلَى﴾ (٤) ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ (٥) ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى﴾ (٦) ﴿وَإِنْ يُجْهَرُ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى﴾ (٧) ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ (٨) ﴿

﴿١٣﴾ ﴿١٤﴾ ﴿١٥﴾ ﴿١٦﴾ ﴿١٧﴾ ﴿١٨﴾ ﴿١٩﴾ ﴿٢٠﴾

﴿٥﴾ فلما بين أنه الخالق المدبر الأمر الناهي؛ أخبر عن عظمته وكبريائه، فقال: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ﴾: الذي هو أرفع المخلوقات وأعظمها وأوسعها، ﴿أَسْتَوَى﴾: استواء يليق بجلاله ويناسب عظمته وجماله، فاستوى على العرش، واحتوى على الملك.

﴿٦﴾ ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾: من ملك وإنسي وجني وحيوان وجماد ونبات، ﴿وَمَا تَحْتَ الثَّرَى﴾: أي: الأرض؛ فالجميع ملك لله تعالى، عبيد مدبرون مسخرون تحت قضائه وتديره، ليس لهم من الملك شيء، ولا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضرا ولا موتا ولا حياة ولا نشورا.

﴿٧﴾ ﴿وَإِنْ نَجْهَرُ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ أَلْمِثَرُ﴾: الكلام الخفي، ﴿وَأَخْفَى﴾: من السر، الذي في القلب ولم ينطق به، أو السر ما خطر على القلب، وأخفى ما لم يخطر؛ يعلم تعالى أنه يخطر في وقته وعلى صفته. المعنى أن علمه تعالى محيط بجميع الأشياء؛ دقيقها وجليلها؛ خفيها وظاهرها؛ فسواء جهرت بقولك أو أسررت؛ فالكل سواء بالنسبة لعلمه تعالى.

﴿٨﴾ فلما قرر كماله المطلق بعموم خلقه وعموم أمره ونهيه وعموم رحمته وسعة عظمته وعلوه على عرشه وعموم ملكه وعموم علمه؛ نتج من ذلك أنه المستحق للعبادة، وأن عبادته هي الحق التي يوجبها الشرع والعقل والفطرة، وعبادة غيره باطلة، فقال: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾؛ أي: لا معبود بحق ولا مألوه بالحب والذل والخوف والرجاء والمحبة والإنابة والدعاء إلا هو. ﴿لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾: أي: له الأسماء الكثيرة الكاملة الحسنى: من حسنها أنها كلها أسماء دالة على المدح؛ فليس فيها اسم لا يدل على المدح والحمد، ومن حسنها أنها ليست أعلاما محضة، وإنما هي أسماء وأوصاف، ومن حسنها أنها دالة على الصفات الكاملة وأن له من كل صفة أكملها وأعمها وأجلها، ومن حسنها أنه أمر العباد أن يدعوه بها؛ لأنها وسيلة مقربة إليه؛ يحبها ويحب من يحبها، ويحب من يحفظها، ويحب من يبحث عن معانيها، ويتعبد له بها؛ قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠].

﴿٩﴾ ﴿وَهَلْ أُنْتَدَىٰ حَدِيثُ مُوسَىٰ﴾: إِذْ رَأَىٰ نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجْدُ عَلَى النَّارِ هُدًى ﴿١٠﴾ فَلَمَّا أَنَّهُ نُودِيَ بِمُوسَىٰ ﴿١١﴾ إِنِّي

أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٢﴾ وَأَنَا آخَرَتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰ ﴿١٣﴾ إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي ﴿١٤﴾ إِنَّ السَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا سَعَىٰ ﴿١٥﴾.

﴿٩﴾، ﴿١٠﴾ يقول تعالى لنبيه محمد ﷺ على وجه الاستفهام التقريري والتعظيم لهذه القصة والتفخيم لها: ﴿وَهَلْ أُنْتَدَىٰ حَدِيثُ مُوسَىٰ﴾: في حاله التي هي مبدأ سعادته ومنشأ نبوته؛ أنه رأى نارا من بعيد، وكان قد ضل الطريق، وأصابه البرد، ولم يكن عنده ما يتدفأ به في سفره. فقال لأهله: ﴿إِنِّي آنَسْتُ﴾؛ أي: أبصرت ﴿نَارًا﴾: وكان ذلك في جانب الطور الأيمن. ﴿لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ﴾: تصطلون به، ﴿أَوْ أَجْدُ عَلَى النَّارِ هُدًى﴾: أي: من يهديني الطريق. وكان مطلبه النور الحسي والهداية الحسية، فوجد ثم النور المعنوي؛ نور الوحي الذي تستنير به الأرواح والقلوب، والهداية الحقيقية؛ هداية الصراط المستقيم الموصلة إلى جنات النعيم، فحصل له أمر لم يكن في حسابه ولا خطر بباله.

﴿١١﴾ ﴿فَلَمَّا أَنَّهُمَا﴾؛ أي: النار التي آتسها من بعيد، وكانت في الحقيقة نورا، وهي نار تحرق وتشرق، ويدل على ذلك قوله ﷺ: «حجابه النور أو النار، لو كشفه؛ لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره»^(١). فلما وصل إليها؛ نودي منها؛ أي: ناداه الله؛ كما قال: ﴿وَنَدَيْنَاهُ مِنْ حَاجِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَفَرَيْنَاهُ جَبِينًا﴾ ﴿٥١﴾ [مریم: ٥٢].

﴿١٢﴾ ﴿إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى﴾: أخبره أنه ربه، وأمره أن يستعد وتهيبا لمناجاته ويهتم لذلك، ويلقي نعليه، لأنه بالوادي المقدس المطهر المعظم، ولو لم يكن من تقديسه إلا أنه اختاره لمناجاته كليمة موسى؛ لكفى. وقد قال كثير من المفسرين: إن الله أمره أن يلقي نعليه لأنهما من جلد حمار^(٢)؛ فالله أعلم بذلك.

﴿١٣﴾ ﴿وَأَنَا آخَرَتُكَ﴾؛ أي: تخيرتك واصطفيتك من الناس، وهذه أكبر نعمة ومنه أنعم الله بها عليه تقتضي من الشكر ما يليق بها، ولهذا قال: ﴿فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰ﴾ ﴿١٤﴾؛ أي: ألقى سمعك للذي أوحى إليك؛ فإنه حقيق بذلك؛ لأنه أصل الدين ومبدؤه وعماد الدعوة الإسلامية.

(١) مسلم (١٧٩).

(٢) الترمذي (١٧٣٤)، الحاكم في المستدرک (٣٧٩/٢).

﴿١٤﴾ ثم بين الذي يوحيه إليه بقوله: ﴿إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا﴾ أي: الله المستحق الألوهية المتصف بها؛ لأنه الكامل في أسمائه وصفاته، المنفرد بأفعاله، الذي لا شريك له ولا مثل ولا كفو ولا سمي. ﴿فَاعْبُدْنِي﴾: بجميع أنواع العبادة ظاهرها وباطنها أصولها وفروعها. ثم خص الصلاة بالذكر، وإن كانت داخلة في العبادة؛ لفضلها وشرفها وتضمنها عبودية القلب واللسان والجوارح. وقوله: ﴿لِذِكْرِي﴾ ﴿١٥﴾: اللام للتعليل؛ أي: أقم الصلاة لأجل ذكرك إياي؛ لأن ذكره تعالى أجل المقاصد، وبه عبودية القلب، وبه سعادته؛ فالقلب المعطل عن ذكر الله معطل عن كل خير وقد خرب كل الخراب، فشرع الله للعباد أنواع العبادات التي المقصود منها إقامة ذكره، وخصوصاً الصلاة؛ قال تعالى: ﴿أَتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمُ الصَّلَاةَ لِابْتِغَاءِ الْمَضَاهِي عَنْ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [النكبوت: ٤٥]؛ أي: ما فيها من ذكر الله أكبر من نهيا عن الفحشاء والمنكر، وهذا النوع يقال له: توحيد الإلهية وتوحيد العبادة؛ فالألوهية وصفه تعالى، والعبودية وصف عبده.

﴿١٥﴾ ﴿إِنَّ السَّاعَةَ آيَةٌ﴾؛ أي: لا بد من وقوعها، ﴿أَكَادُ أَخْفِيَا﴾؛ أي: عن نفسي؛ كما في بعض القراءات؛ كقوله تعالى: ﴿يَسْتَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي﴾ [الأعراف: ١٨٧]، وقال: ﴿وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ [الزخرف: ٨٥]؛ فعلمها قد أخفاه عن الخلائق كلها؛ فلا يعلمها ملك مقرب ولا نبي مرسل، والحكمة في إتيان الساعة: ﴿لِتَجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا سَعَى﴾ ﴿١٥﴾: من الخير والشر؛ فهي الباب لدار الجزاء، ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسْتَوُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحَقِّ﴾ ﴿١٦﴾ [النجم: ٣١].

﴿فَلَا يَصُدُّكَ عَنْهَا مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَى﴾ ﴿١٦﴾.

﴿١٦﴾ أي: فلا يصدك ويشغلك عن الإيمان بالساعة والجزاء والعمل لذلك من كان كافراً بها، غير معتقد لوقوعها، يسعى في الشك فيها والتشكيك، ويجادل فيها بالباطل، ويقيم من الشبه ما يقدر عليه؛ متبعاً في ذلك هواه، ليس قصده الوصول إلى الحق، وإنما قصاره اتباع هواه؛ فإياك أن تصغي إلى من هذه حاله، أو تقبل شيئاً من أقواله وأعماله الصادة عن الإيمان بها والسعي لها سعيها. وإنما حذر الله تعالى عمن هذه حاله؛ لأنه من أخوف ما يكون على المؤمن بوسوسته وتدجيله وكون النفوس مجبولة على التشبه والافتداء بأبناء الجنس، وفي هذا تنبيه وإشارة إلى التحذير عن كل داع إلى باطل، يصد عن الإيمان الواجب أو عن كماله، أو يوقع الشبهة في القلب، وعن النظر في الكتب المشتملة على ذلك.

وذكر في هذا الإيمان به وعبادته والإيمان باليوم الآخر؛ لأن هذه الأمور الثلاثة أصول الإيمان وركن الدين، وإذا تمت؛ تم أمر الدين، ونقصه أو فقدته بنقصها أو نقص شيء منها. وهذه نظير قوله تعالى في الإخبار عن ميزان سعادة الفرق الذين أوتوا الكتاب وشقاوتهم: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِغُونَ وَالصَّغَرَىٰ مَنَ أَمْرَ اللَّهِ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ صَاحِبًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [المائدة: ٦٩]. وقوله: ﴿فَتَرْدَى﴾ ﴿١٦﴾؛ أي: تهلك وتشقى إن اتبعت طريق من يصد عنها، وقوله تعالى:

﴿وَمَا تِلْكَ بِسَمِيِّكَ يَمْوَسَّى ﴿٧﴾ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُا عَلَيْهَا وَاهْتَسَّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِي فِيهَا مَنَازِبُ أُخْرَىٰ ﴿٨﴾ قَالَ أَلْقَاهَا يَمْوَسَّى ﴿٩﴾ فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيْةٌ سَعَىٰ ﴿١٠﴾ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَحْفَ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَىٰ ﴿١١﴾ وَاضْمُمْ يَدَكَ

إِلَى جَنَاحِكَ تَخْرُجُ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ ؕ آيَةٌ أُخْرَى ۚ لِزَيْدِكَ مِنْ ءَايَاتِنَا الْكُبْرَى ۝٢٣ ﴿٢٣﴾

﴿٢٣﴾ لما بين الله لموسى أصل الإيمان؛ أراد أن يبين له ويريه من آياته ما يطمئن به قلبه، وتقر به عينه، ويقوى إيمانه بتأييد الله له على عدوه، فقال: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَمُوسَى ۝٢٣﴾: هذا مع علمه تعالى، ولكن لزيادة الاهتمام في هذا الموضوع؛ أخرج الكلام بطريق الاستفهام.

﴿٢٤﴾ فقال موسى: ﴿هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُا عَلَيْهَا وَاهْتَسِبَا بِهَا عَلَىٰ عَنَىٰ﴾: ذكر فيها هاتين المنفعتين؛ منفعة لجنس الآدمي، وهو أنه يعتمد عليها في قيامه ومشيه، فيحصل فيها معونة ومنفعة للبهائم، وهو أنه كان يعرى الغنم؛ فإذا رعاها في شجر الخبط ونحوه؛ هش بها؛ أي: ضرب الشجر ليستساقط ورقه فيرعاه الغنم. هذا الخلق الحسن من موسى عليه السلام الذي من آثاره حسن رعاية الحيوان البهيمة والإحسان إليه دل على عناية من الله له واصطفاء وتخصيص تقضيه رحمة الله وحكمته. ﴿وَلَوْ فِيهَا مَنَازِبٌ ۝٢٤﴾ أي: مقاصد ﴿أُخْرَىٰ﴾: غير هذين الأمرين.

ومن أدب موسى عليه السلام أن الله لما سأله عما في يمينه، وكان السؤال محتملاً عن السؤال عن عينها أو منفعتها؛ أجابه بعينها ومنفعتها.

﴿٢٥﴾ فقال الله له: ﴿أَلَيْهَا يَمُوسَىٰ ۝٢٥﴾ فَأَلْفَنَهَا إِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ۝٢٦﴾: انقلبت بإذن الله ثعباناً عظيماً، فولى موسى هارباً خائفاً ولم يعقب.

وفي وصفها بأنها تسعى إزالة لوهم يمكن وجوده، وهو أن يظن أنها تخيل لا حقيقة؛ فكونها تسعى يزيل هذا الوهم.

﴿٢٧﴾ فقال الله لموسى: ﴿خُذْهَا وَلَا تَخَفْ ۝٢٧﴾؛ أي: ليس عليك منها بأس، ﴿سَتَجِدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَىٰ ۝٢٨﴾؛ أي: هيبتها وصفتها؛ إذ كانت عصا، فامتثل موسى أمر الله إيماناً به وتسليماً، فأخذها، فعادت عصاه التي كان يعرفها. هذه آية.

﴿٢٩﴾ ثم ذكر الآية الأخرى، فقال: ﴿وَأَضْمُ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ ۝٢٩﴾؛ أي: أدخل يدك إلى جيبك، وضم عليك عضدك الذي هو جناح الإنسان؛ ﴿تَخْرُجُ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ ۝٣٠﴾؛ أي: بياضاً ساطعاً من غير عيب ولا برص. ﴿آيَةٌ أُخْرَىٰ ۝٣١﴾

﴿٣٢﴾ قال الله: ﴿فَذَلِّكَ بُرْهَانِي مِنْ رَبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ ۝٣٢﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَسِيقًا ۝٣٣﴾ ﴿٣٣﴾ [القصاص: ٣٢] ﴿لِزَيْدِكَ مِنْ ءَايَاتِنَا الْكُبْرَى ۝٣٤﴾؛ أي: فعلنا ما ذكرنا من انقلاب العصا حية تسعى ومن خروج اليد بياضاً للناظرين، لأجل أن نريك من آياتنا الكبرى الدالة على صحة رسالتك وحقيقة ما جئت به، فيطمئن قلبك، ويزداد علمك، وتثق بوعد الله لك بالحفظ والنصرة، وتكون حجة وبرهاناً لمن أرسلت إليهم.

﴿٣٥﴾ أَذْهَبَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ۝٣٥﴾ قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي ۝٣٦﴾ وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي ۝٣٧﴾ وَأَخْلَلْ عُقَدَةَ مِنَ لِسَانِي ۝٣٨﴾ يَقْفَهُوا قَوْلِي ۝٣٩﴾ وَأَجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي ۝٤٠﴾ هَؤُلَاءِ أَخِي ۝٤١﴾ أَشَدُّ بُوءًا أَرَىٰ ۝٤٢﴾ وَأَشْرَكَ فِي أَمْرِي ۝٤٣﴾ كَيْ سُبْحَكَ كَثِيرًا ۝٤٤﴾ وَتَذَكَّرَكَ كَثِيرًا ۝٤٥﴾ إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا ۝٤٦﴾ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَمُوسَىٰ ۝٤٧﴾

﴿٤٨﴾ لما أوحى الله إلى موسى ونباه وأراه الآيات الباهرات؛ أرسله إلى فرعون ملك مصر، فقال: ﴿أَذْهَبَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ۝٤٨﴾؛ أي: تمرد وزاد على الحد في الكفر والفساد والعلو في الأرض والقهر للضعفاء، حتى إنه ادعى الربوبية والألوهية قبحه الله؛ أي: وطغيانه سبب لهلاكه، ولكن من رحمة الله وحكمته وعدله أنه لا يعذب أحداً إلا بعد قيام الحجة بالرسول.

﴿٤٩﴾ فحيث علم موسى عليه السلام أنه تحمل حملاً عظيماً؛ حيث أرسل إلى هذا الجبار العنيد، الذي ليس له منازع في مصر من الخلق، وموسى عليه السلام وحده، وقد جرى منه ما جرى من القتل، فامتثل أمر ربه، وتلقاه بالانشراح والقبول، وسأله المعونة وتيسير الأسباب التي هي من تمام الدعوة، فقال: ﴿رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي ۝٤٩﴾؛ أي: وسعه وافسحه لأتحمل الأذى القولي والفعلية، ولا يتكدر قلبي بذلك، ولا يضيق صدري؛ فإن الصدر إذا ضاق؛ لم يصلح صاحبه لهداية الخلق ودعوتهم؛ قال الله لنبيه محمد ﷺ: ﴿فِيمَا رَحِمَهُ مِنَ اللَّهِ لَئِنْ لَمْ يَكُنْ فَطَا غَلِظَ الْقَلْبُ لَا نَفْضُوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، وعسى الخلق يقبلون الحق مع اللين وسعة الصدر وانشراحه عليهم.

﴿٥٠﴾ وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي ۝٥٠﴾؛ أي: سهل عليّ كل أمر أسألكه وكل طريق أقصده في سبيلك، وهون عليّ ما أمامي من الشدائد، ومن تيسير الأمر أن يسر للداعي أن يأتي جميع

تام على ما يصيبه من الأذى، ولسان فصيح يتمكن من التعبير به عما يريد به ويقصده، بل الفصاحة والبلاغة لصاحب هذا المقام من الأزم ما يكون؛ لكثرة المراجعات والمراوضات، ولحاجته لتحسين الحق وتزيينه بما يقدر عليه؛ ليحبه إلى النفوس، وإلى تقبيح الباطل وتهجينه لينفر عنه، ويحتاج مع ذلك أيضًا أن يتيسر له أمره، فيأتي البيوت من أبوابها، ويدعو إلى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة والمجادلة بالتي هي أحسن؛ يعامل الناس كلًّا بحسب حاله، وتمام ذلك أن يكون لمن هذه صفته أعوان ووزراء يساعدونه على مطلوبه؛ لأن الأصوات إذا كثرت؛ لا بد أن تؤثر؛ فلذلك سأله عليه الصلاة والسلام هذه الأمور، فأعطياها.

وإذا نظرت إلى حالة الأنبياء المرسلين إلى الخلق؛ رأيتهم بهذه الحال بحسب أحوالهم، خصوصاً خاتمهم وأفضلهم محمد ﷺ؛ فإنه في الذروة العليا من كل صفة كمال، وله من شرح الصدر وتيسير الأمر وفصاحة اللسان وحسن التعبير والبيان والأعوان على الحق من الصحابة فمن بعدهم ما ليس لغيره.

﴿ وَلَقَدْ مَنَّا عَلَىكَ مَرَّةً أُخْرَىٰ ﴾ (٣٧) إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰ ﴿ ٣٨ ﴾ أَنِ اقْذِيبِي فِي التَّائِبَاتِ فَأَقْذِيبِي فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُ ۖ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي ﴿ ٣٩ ﴾ إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُ ۖ فَرَجَعْنَاكَ إِلَىٰ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ۚ وَقَلَلْتَ فَنَسًّا فَفَجَّحْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفُتِنْتَ فُتُونًا فَلَمَّتَ سِينِينَ ۖ وَفِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَمْثُلِي ﴿ ٤٠ ﴾ وَأَصْطَلَعْتَكَ لِنَفْسِي ﴿ ٤١ ﴾ ۝

﴿٧٧﴾ - ﴿٧٨﴾ لما ذكر ممته على عبده ورسوله موسى بن عمران في الدين والوحي والرسالة وإجابة سؤله؛ ذكر نعمته عليه وقت التربية والتنقلات في أطواره، فقال: ﴿وَلَقَدْ مَنَّاْ عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَى﴾ ﴿٧٧﴾: حيث ألهمنا أملك أن تقذفك في التابوت وقت الرضاع خوفاً من فرعون؛ لأنه أمر بذبح أبناء بني إسرائيل، فأخفته أمه وخافت عليه خوفاً شديداً، فقدفته في التابوت، ثم قدفته في اليم؛ أي: شط نيل مصر، فأمر الله اليم أن يلقيه في الساحل، وقبض أن يأخذه أعدى الأعداء لله ولموسى، ويتربى في أولاده، ويكون قرة عين لمن رآه، ولهذا قال: ﴿وَالْفَيْتَ عَلَيْكَ حِمَّةً مَّتًى﴾؛ فكل من رآه أحبه.

الأمور من أبوابها، ويخاطب كل أحد بما يناسب له، ويدعوه بأقرب الطرق الموصلة إلى قبول قوله.

﴿٧٧﴾، ﴿٧٨﴾ ﴿وَأَحْلَلْ عُقْدَةَ بَيْنَ لِسَانِي﴾ ﴿٧٩﴾ يَفْقَهُوا قَوْلِي ﴿٨٠﴾: وكان في لسانه ثقل لا يكاد يفهم عنه الكلام كما قال المفسرون؛ كما قال الله عنه: إنه قال: ﴿وَإِخَى هَكَرُوثُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا﴾، فسأل الله أن يحل منه عقدة؛ يفقهوا ما يقول، فيحصل المقصود التام من المخاطبة والمراجعة والبيان عن المعاني.

﴿٢٩﴾، ﴿٣٠﴾ ﴿وَجَعَلَ لِي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِ﴾ ﴿٣١﴾؛ أي: معينا يعاونني ويؤازرنني ويساعدني على من أرسلت إليهم، وسأل أن يكون من أهله؛ لأنه من باب البر، وأحق ببر الإنسان قرابته. ثم عينه بسؤاله، فقال: ﴿هَرُونَ أَخِي﴾ ﴿٣٢﴾.

﴿۳۱﴾، ﴿۳۲﴾ ﴿أَسَدُّ بِهِ أَمْرِي﴾ ﴿۳۳﴾؛ أي قوني به وشد به ظهري. قال الله: ﴿سَنَشُدُّ عَضْذَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلَ لَكُمَا سُلْطَانًا﴾ [الفصل: ۳۵]، ﴿وَأَشْرِكُ فِي أَمْرِي﴾ ﴿۳۴﴾؛ أي: في النبوة؛ بأن تجعله نبيًّا رسولًا كما جعلتني.

﴿٣٣﴾، ﴿٣٤﴾ ثم ذكر الفائدة في ذلك، فقال: ﴿كَيْ سُبْحَكَ كَبِيرًا﴾ ﴿٣٣﴾ وَتَذَرُكَ كَبِيرًا ﴿٣٤﴾: علم عليه الصلاة والسلام أن مدار العبادات كلها والدين على ذكر الله، فسأل الله أن يجعل أخاه معه يتساعدان ويتعاونان على البر والتقوى، فيكثر منهما ذكر الله من التسبيح والتهليل وغيره من أنواع العبادات.

﴿٣٥﴾ إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا ﴿٣٦﴾: تعلم حالنا وضعفنا وعجزنا وافتقارنا إليك في كل الأمور، وأنت أبصر بنا من أنفسنا وأرحم؛ فمن علينا بما سألناك، وأجب لنا فيما دعوناك.

﴿٦٦﴾ فقال الله: ﴿قَدْ أُوتِيَ سُوْلُكَ يَمْوَسَىٰ﴾ ﴿٦٧﴾؛ أي: أعطيت جميع ما طلبت، فسنشرح صدرك، ونيسر أمرك، ونحل عقدة من لسانك؛ يفتحها قولك، ونشد عضدك بأخيك هارون ﴿وَجَعَلْ لَكُمَا سُلْطٰنًا فَلَا يَصِلُوْنَ إِلَيْكُمَا﴾ وَإِنِّيٰ أَنَا أَنَا وَمِنَ اتَّبَعَكُمَا الْغٰلِبُونَ ﴿٦٨﴾ [القصص: ٣٥].

وهذا السؤال من موسى عليه السلام، يدل على كمال معرفته بالله وكمال فطنته ومعرفته للأمور وكمال نصحه، وذلك أن الداعي إلى الله المرشد للمخلوق، خصوصاً إذا كان المدعو من أهل العناد والتكبر والطغيان، يحتاج إلى سعة صدر، وحلم

﴿وَلْنُصَنِّعَ عَلَىٰ عَيْتِكَ ۖ﴾؛ أي: ولتتربى على نظري وفي حفظي وكلاءتي، وأي نظر وكفالة أجل وأكمل من ولاية البر الرحيم القادر على إيصال مصالح عبده ودفع المضار عنه؛ فلا ينتقل من حالة إلى حالة إلا والله تعالى هو الذي دبر ذلك لمصلحة موسى!

﴿٤١﴾ ومن حسن تدبيره أن موسى لما وقع في يد عدوه؛ فلفت أمه قلقاً شديداً، وأصبح فؤاده فارغاً، وكادت تخبر به، لولا أن الله ثبثها وربط على قلبها؛ ففي هذه الحالة حرم الله على موسى المراضع؛ فلا يقبل ثدي امرأة قط؛ ليكون ماله إلى أمه فترضعه ويكون عندها مطمئنة ساكنة قريرة العين، فجعلوا يعرضون عليه المراضع؛ فلا يقبل ثدياً، فجاءت أخت موسى، فقالت لهم: ﴿هَلْ أَذْكَرُ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَصِيحُونَ﴾ ﴿٤٢﴾ [القصص: ١٢]، ﴿فَرَجَحْنَاكَ إِلَىٰ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ۚ وَكَلَّمْنَا نَفْسًا ۖ وَهُوَ الْقَبْطِيُّ لَمَّا دَخَلَ الْمَدِينَةَ وَقْتَ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا وَجَدَ رَجُلَيْنِ يَمْتَنِلَانِ: وَاحِدٌ مِنْ شِيعَةِ مُوسَى وَالْآخَرُ مِنْ عَدُوِّهِ قَبْطِي، ﴿فَاسْتَعْتَنَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَرَهُ مُوسَى فَقَضَىٰ عَلَيْهِ﴾ [القصص: ١٥]، فدعا الله وسأله المغفرة فغفر له، ثم فر هارباً لما سمع أن المملأ طلبوه يريدون قتله. ﴿فَفَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ ۖ﴾: من عقوبة الذنب ومن القتل، ﴿وَفُتْنَاكَ فُتُونًا﴾؛ أي: اختبرناك وبلوناك فوجدناك مستقيماً في أحوالك، أو نقلناك في أحوالك وأطوارك حتى وصلت إلى ما وصلت إليه. ﴿فَلَيْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ﴾: حين فر هارباً من فرعون وملئه حين أرادوا قتله، فترجعه إلى مدين، ووصل إليها، وتزوج هناك، ومكث عشر سنين أو ثماني سنين، ﴿ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَمُوسَىٰ﴾ ﴿٤٣﴾؛ أي: جئت معجباً ليس اتفاقاً من غير قصد ولا تدبير منا، بل بقدر ولطف منا، وهذا يدل على كمال اعتناء الله بكليمه موسى عليه السلام.

﴿٤١﴾ ولهذا قال: ﴿وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي﴾ ﴿٤١﴾؛ أي: أجريت عليك صنائعي ونعمي وحسن عوائدي وتربيتي؛ لتكون لنفسي حبيباً مختصاً، وتبلغ في ذلك مبلغاً لا يناله أحد من الخلق إلا النادر منهم.

وإذا كان الحبيب إذا أراد اصطناع حبيبه من المخلوقين، وأراد أن يبلغ من الكمال المطلوب له ما يبلغ؛ يبذل غاية جهده ويسعى نهاية ما يمكنه في إيصاله لذلك؛ فما ظنك بصنائع الرب القادر الكريم؟! وما تحسبه يفعل بمن أرادته لنفسه، واصطفاه من خلقه.

﴿٤١﴾ أَذْهَبَ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلَا نَبِيًّا فِي ذِكْرِي ﴿٤١﴾ أَذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ﴿٤٢﴾ فَقَوْلَا لَهُ: قَوْلًا لِّنَا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٣﴾ قَالَ رَبَّنَا إِنَّا نَتَخَفُ أَنْ يَفْطُرَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَىٰ ﴿٤٤﴾ قَالَ لَا تَخَافَا إِنِّي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٥﴾

﴿٤١﴾ لما امتن الله على موسى بما امتن به من النعم الدينية والدنيوية؛ قال له: ﴿أَذْهَبَ أَنْتَ وَأَخُوكَ﴾: هارون ﴿بِآيَاتِي﴾؛ أي: الآيات التي مني، الدالة على الحق وحسنه وقبح الباطل؛ كاليد والعصا ونحوها؛ في تسع آيات إلى فرعون وملئه، ﴿وَلَا نَبِيًّا فِي ذِكْرِي﴾ ﴿٤٢﴾؛ أي: لا تفترا ولا تكسلا عن مداومة ذكرى بالاستمرار عليه والزماء كما وعدتما بذلك: ﴿كَيْ سَجَّكَ كَثِيرًا﴾ ﴿٤٣﴾ وتذكرك كثيراً ﴿٤٤﴾؛ فإن ذكر الله فيه معونة على جميع الأمور؛ يسهّلها، ويخفف حملها.

﴿٤٣﴾ أَذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾؛ أي: جاوز الحد في كفره وطغيانه وظلمه وعدوانه.

سورة طه
إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰ ﴿٣٨﴾ أَنْ أَدْفِنِيهِ فِي النَّارِ بَٰرُتَ فَأَقْدِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوِّي وَعَدُوْلُهُ ۖ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلْنُصَنِّعَ عَلَىٰ عَيْتِكَ ﴿٣٩﴾ إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُ ۖ فَرَجَحْنَاكَ إِلَىٰ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ۚ وَكَلَّمْنَا نَفْسًا فَجَجَيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفُتْنَاكَ فُتُونًا ۖ فَلَيْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَمُوسَىٰ ﴿٤٠﴾ وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي ﴿٤١﴾ أَذْهَبَ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلَا نَبِيًّا فِي ذِكْرِي ﴿٤٢﴾ أَذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقَوْلَا لَهُ: قَوْلًا لِّنَا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾ قَالَ رَبَّنَا إِنَّا نَتَخَفُ أَنْ يَفْطُرَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَىٰ ﴿٤٥﴾ قَالَ لَا تَخَافَا إِنِّي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾ فَأُنَبِّئُكَ فَقَوْلَا إِنَّا رَسُولا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ وَلَا تَعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَاتٍ مِّن رَّبِّكَ ۖ وَالسَّلَامُ عَلَيْنَا مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَىٰ ﴿٤٧﴾ إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٤٨﴾ قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَمُوسَىٰ ﴿٤٩﴾ قَالَ رَبَّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ۖ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾ قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَىٰ ﴿٥١﴾

الله عنهما. ﴿وَالسَّلَامُ عَلَيَّ مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى﴾ ٤٧؛ أي: من اتبع الصراط المستقيم واهتدى بالشرع المبين؛ حصلت له السلامة في الدنيا والآخرة.

﴿إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا﴾ ٤٨؛ أي: خبرنا من عند الله لا من عند أنفسنا؛ ﴿أَنَّ الْعَذَابَ عَلَىٰ مَنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى﴾ ٤٩؛ أي: كذب بأخبار الله وأخبار رسله، وتولى عن الانقياد لهم واتباعهم، وهذا فيه الترغيب لفرعون بالإيمان والتصديق واتباعهما والترهيب من ضد ذلك، ولكن لم يفد فيه هذا الوعظ والتذكير، فأنكر ربه وكفر وجادل في ذلك ظلماً وعناداً.

﴿قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يُمُوسَى﴾ ٥٠ قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ، ثُمَّ هَدَىٰ ٥١ قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَىٰ ٥٢ قَالَ عَلِمَهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَصِلُ رَبِّي وَلَا يَنْسَى ٥٣ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ٥٤ كُلُوا وَارْعَوْا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ٥٥ مِنهَا خَلَقْنَكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ٥٦﴾

﴿أي: قال فرعون لموسى على وجه الإنكار: ﴿فَمَنْ رَبُّكُمَا يُمُوسَى﴾ ٤٩؟

﴿فأجاب موسى بجواب شافٍ كافٍ واضح، فقال: ﴿رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ، ثُمَّ هَدَىٰ﴾ ٥١؛ أي: ربنا الذي خلق جميع المخلوقات، وأعطى كل مخلوق خلقه اللائق به، الدال على حسن صنعة من خلقه، من كبر الجسم وصغره وتوسطه وجميع صفاته، ﴿ثُمَّ هَدَىٰ﴾ كل مخلوق إلى ما خلقه له، وهذه الهداية العامة المشاهدة في جميع المخلوقات؛ فكل مخلوق تجده يسعى لما خلق له من المنافع وفي دفع المضار عنه، حتى إن الله أعطى الحيوان البهيم من العقل ما يتمكن به على ذلك، وهذا كقوله تعالى: ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ﴾ [السجدة: ٧]؛ فالذي خلق المخلوقات، وأعطاها خلقها الحسن الذي لا تقتصر العقول فوق حسنه، وهداها لمصالحها؛ هو الرب على الحقيقة؛ فإنكاره إنكار لأعظم الأشياء وجوداً، وهو مكابرة ومجاهرة بالكذب؛ فلو قدر أن الإنسان أنكر من الأمور المعلومة ما أنكر؛ كان إنكاره لرب العالمين أكبر من ذلك.

﴿ولهذا لما لم يمكن فرعون أن يعاند هذا الدليل القاطع؛ عدل إلى المشاغبة، وحاد عن المقصود، فقال

﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لِّئِنَّا﴾ ٤٩؛ أي: سهلاً لطيفاً برفق ولين وأدب في اللفظ من دون فحش ولا صلف ولا غلظة في المقال أو فظاظة في الأفعال. ﴿لَعَلَّهُ﴾ بسبب القول اللين ﴿يَتَذَكَّرُ﴾: ما ينفعه فيأتيه ﴿أَوْ يَحْشَىٰ﴾ ٤٤؛ ما يضره فيتركه؛ فإن القول اللين داع لذلك، والقول الغليظ منفر عن صاحبه، وقد فُسر القول اللين في قوله: ﴿فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَهٌ إِلَّا تَرَكُ﴾ ١٨ ﴿وَأَهْدِيكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَحْشَىٰ﴾ ١٩ [النازعات: ١٨، ١٩]؛ فإن في هذا الكلام من لطف القول وسهولته وعدم بشاعته ما لا يخفى على المتأمل؛ فإنه أتى بـ ﴿هَلْ﴾ الدالة على العرض والمشاورة، التي لا يشتم منها أحد، ودعاه إلى التزكي والتطهر من الأدناس، التي أصلها التطهر من الشرك، الذي يقبله كل عقل سليم، ولم يقل: أزيك، بل قال: ﴿تَرَكُ﴾ ١٨؛ أنت بنفسك، ثم دعاه إلى سبيل ربه الذي رياه وأنعم عليه بالنعم الظاهرة والباطنة، التي ينبغي مقابلتها بشكرها وذكرها، فقال: ﴿وَأَهْدِيكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَحْشَىٰ﴾ ١٩، فلما لم يقبل هذا الكلام اللين الذي يأخذ حسنة بالقلوب؛ علم أنه لا ينجع فيه تذكير، فأخذه الله أخذ عزيز مقتدر.

﴿قَالَ رَبَّنَا إِنَّا نَخَافُ أَنْ يُفْرِطَ عَلَيْنَا﴾ ٥٠؛ أي: يبادرنا بالعقوبة والإيقاع بنا قبل أن تبلغه رسالاتك، ونقيم عليه الحجة، ﴿أَوْ أَنْ يَطْغَىٰ﴾ ٥١؛ أي: يتمرد عن الحق، ويطنى بملكه وسلطانه وجنده وأعوانه.

﴿قَالَ لَا تَخَافَا﴾ ٥٢: أن يفرط عليكما؛ ﴿إِنِّي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ ٥٣؛ أي: أنتما بحفظي ورعايتي، أسمع قولكما، وأرى جميع أحوالكما؛ فلا تخافا منه. فزال الخوف عنهما، واطمأنت قلوبهما بوعدهما ربهما.

﴿فَأَيُّهَا فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ وَلَا تَعْذِِبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِبَيِّنَاتٍ مِّن رَّبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَىٰ﴾ ٤٧ ﴿إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَىٰ مَنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾ ٤٩﴾

﴿أي: فأتياه بهذين الأمرين: دعوته إلى الإسلام، وتخليص هذا الشعب الشريف بني إسرائيل من قيده وتعبيده لهم؛ ليتحرروا ويملكوا أمرهم، ويقيم فيهم موسى شرع الله ودينه. ﴿قَدْ جِئْنَاكَ بِبَيِّنَاتٍ﴾: تدل على صدقنا، ﴿فَأَلْقَى﴾ موسى ﴿عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَمُوتَانِ مَيْمٌ﴾ ١٧ ﴿وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَةٌ لِلنَّظِيرِ﴾ ١٨ [الأعراف: ١٠٧، ١٠٨]... إلى آخر ما ذكر

لموسى: ﴿فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى﴾ ٥١؛ أي: ما شأنهم؟ وما خبرهم؟ وكيف وصلت بهم الحال وقد سبقونا إلى الإنكار والكفر، والظلم، والعناد، ولنا فيهم أسوة؟

٥٢ فقال موسى: ﴿عَلِمَهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾ ٥٢؛ أي: قد أحصى أعمالهم من خير وشر، وكتبه في كتابه، وهو اللوح المحفوظ، وأحاط به علماً وخبراً؛ فلا يضل عن شيء منها ولا ينسى ما علمه منها، ومضمون ذلك أنهم قَدِمُوا إلى ما قدموه ولا قوا أعمالهم وسيجازون عليها؛ فلا معنى لسؤالك واستفهامك يا فرعون عنهم؛ فتلك أمة قد خلت، لها ما كسبت ولكم ما كسبتم؛ فإن كان الدليل الذي أوردناه عليك والآيات التي أريناها قد تحققت صدقها وبقينها، وهو الواقع؛ فانقد إلى الحق، ودع عنك الكفر والظلم وكثرة الجدل بالباطل، وإن كنت قد شككت فيها أو رأيتها غير مستقيمة؛ فالطريق مفتوح، وباب البحث غير مغلق، فرد الدليل بالدليل والبرهان بالبرهان، ولن تجد لذلك سبيلاً ما دام الملأوان؛ كيف وقد أخبر الله عنه أنه جحدتها مع استيقانها؛ كما قال تعالى: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلُمًا وَعُظُمًا﴾ [النمل: ١٤]، وقال موسى: ﴿لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَآ أَنزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بِصَآئِرٍ﴾ [الإسراء: ١٠٢]! فاعلم أنه ظالم في جده، قصده العلو في الأرض.

٥٣ ثم استطرد في هذا الدليل القاطع بذكر كثير من نعمه

وإحسانه الضروري، فقال: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا﴾ ٥٣؛ أي: فرأى بحالة تتمكنون من السكون فيها والقرار والبناء والغراس وإثارتها للازدراع وغيره، وذلكها لذلك، ولم يجعلها ممتعة عن مصلحة من مصالحكم. ﴿وَسَلَكَ لَكُمُ فِيهَا سُبُلًا﴾ ٥٤؛ أي: نفذ لكم الطرق الموصلة من أرض إلى أرض، ومن قطر إلى قطر، حتى كان آدميون يتمكنون من الوصول إلى جميع الأرض بأسهل ما يكون، ويتفنون بأسفارهم أكثر مما يتفنون بإقامتهم. ﴿وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّى﴾ ٥٥؛ أي: أنزل المطر، ﴿فَأَنبَا بِهَ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ [البقرة: ١٦٤]، وأنبت بذلك جميع أصناف النوايت على اختلاف أنواعها وتشت أشكالها وتباين أحوالها، فساقه وقدره ويسره رزقاً لنا ولأنعامنا، ولولا ذلك؛ لهلك من عليها من آدمي وحيوان.

٥٦ ولهذا قال: ﴿كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ﴾ ٥٦؛ وسياقها على وجه الامتنان؛ ليدل ذلك على أن الأصل في جميع النوايت الإباحة؛ فلا يخرم منها إلا ما كان مضراً كالسموم ونحوه. ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النَّهْيِ﴾ ٥٧؛ أي: لذوي العقول الرزينة والأفكار المستقيمة، على فضل الله وإحسانه ورحمته وسعة جوده وتمايم عنايته، وعلى أنه الرب المعبود المالك المحمود، الذي لا يستحق العبادة سواه، ولا الحمد والمدح والثناء إلا من امتن بهذه النعم، وعلى أنه على كل شيء قدير؛ فكما أحيا الأرض بعد موتها؛ إن ذلك لمحيي الموتى. وخص الله أولي النهي بذلك لأنهم المتفنون بها الناظرون إليها نظر اعتبار، وأما من عداهم؛ فإنهم بمنزلة البهائم السارحة والأنعام السائمة، لا ينظرون إليها نظر اعتبار، ولا تنفذ بصائرهم إلى المقصود منها، بل حظهم حظ البهائم؛ يأكلون ويشربون وقلوبهم لاهية وأجسادهم معرضة، ﴿وَكَايْنِ مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾ ٥٨؛ [يوسف: ١٠٥].

٥٩ ولما ذكر كرم الأرض وحسن شكرها لما ينزله الله عليها من المطر، وأنها بإذن ربها تخرج النبات المختلف الأنواع؛ أخبر أنه خلقنا منها، وفيها يعيدنا إذا متنا فدفنا فيها، ومنها يخرجنا ﴿تَارَةً أُخْرَى﴾ ٥٩؛ فكما أوجدنا منها من العدم، وقد علمنا

سورة طه
قَالَ عَلِمَهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى ٥٢
الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمُ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّى ٥٣
كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النَّهْيِ ٥٤
خَلَقْنَاهُمْ فِيهَا نَعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى ٥٥
وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَى ٥٦
قَالَ أَجِئْتُنَا بِنَجْوَا
مِنِ الْأَرْضِ نَبَا بِسِحْرِكُ يَمْوَسَى ٥٧
فَلَسْنَا بِنَبَاكَ بِسِحْرِ مِثْلِهِ
فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَا تُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنْتَ مَكَانًا سَوَى ٥٨
قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمَ الزَّيْنَةِ وَأَن يُخْشِرَ النَّاسَ ضُحَى ٥٩
فَنَوَلَّى فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَى ٦٠
قَالَ لَهُمُ مُوسَى وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَى ٦١
فَتَنَزَّلُوا أَمْرُهُمْ بَيْنَهُمْ وَآسَرُوا النَّجْوَى ٦٢
قَالُوا إِن هَٰذَا إِلَّا لَسِحْرَانِ بَرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُمْ مِنَ الْأَرْضِ بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرَفَيْكُمْ الثَّلَاثِ ٦٣
فَاجْمَعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ أَتُوا صَفًّا وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَى ٦٤

ذلك وتحققناه؛ فسيعيدنا بالبعث منها بعد موتنا؛ ليجازينا بأعمالنا التي عملناها عليها. وهذان دليلان على الإعادة عقليان واضحيان: إخراج النبات من الأرض بعد موتها، وإخراج المكلفين منها في إيجادهم.

﴿ وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَإِنِّي ﴿٥٦﴾ قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَمْوَسَّى ﴿٥٧﴾ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِثْلِهِ، فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَا تُخْلَفُهُ، نَحْنُ وَلَا أَنْتَ مَكَانًا سَوًى ﴿٥٨﴾ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمَ الزَّيْنَةِ وَأَنْ يُخَشِرَ النَّاسُ ضَحًى ﴿٥٩﴾ فَتَوَلَّى فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَى ﴿٦٠﴾ قَالَ لَهُمُ مُوسَى وَبَلِّغُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنْ افْتَرَى ﴿٦١﴾ فَتَنَزَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ وَأَسْرُوا النَّجْوَى ﴿٦٢﴾ قَالُوا إِنْ هَٰذَانِ لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ اللَّيْلِ ﴿٦٣﴾ فَاجْمَعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ أَتَوُا صَفًّا وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنْ أَسْتَعْلَى ﴿٦٤﴾ قَالُوا يَمْوَسَّىٰ إِنَّمَا أَنْ تُلْقَىٰ وَإِنَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ ﴿٦٥﴾ قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا جِأَتْهُمْ وَرَعَصَتْهُمْ يُحِيلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهُ تَسَعَى ﴿٦٦﴾ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةُ مُوسَى ﴿٦٧﴾ فَلَمَّا لَا تَخَفُ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَىٰ ﴿٦٨﴾ وَأَلْقَىٰ مَا فِي يَمِينِكَ لَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدٌ سِحْرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴿٦٩﴾ فَأَلْقَى السَّحَرَةُ سِحْرَهُمْ قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى ﴿٧٠﴾ قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ، قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ، لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَا تُقِطِعُونَ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خَلْفٍ وَلَا صَلْبَتِكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلِلْعَلْمَنِ آيَاتُهُ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ﴿٧١﴾ قَالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ الْآيَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَٰذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٧٢﴾ إِنَّا ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَلَيْنَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَبِيرٌ أَبْقَىٰ ﴿٧٣﴾ ۞

﴿٥٦﴾ يخبر تعالى أنه أرى فرعون من الآيات والعبر والقواطع جميع أنواعها العيانية والأفقية والنفسية؛ فما استقام ولا ارعوى، وإنما كذب وتولى؛ كذب الخبر وتولى عن الأمر والنهي، وجعل الحق باطلاً والباطل حقاً، وجادل بالباطل ليضل الناس.

﴿٥٧﴾ فقال: ﴿أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ﴾: زعم أن هذه الآيات التي أراها إياها موسى سحر وتمويه، المقصود

منها إخراجهم من أرضهم والاستيلاء عليها؛ ليكون كلامه مؤثراً في قلوب قومه؛ فإن الطباع تميل إلى أوطانها، ويصعب عليها الخروج منها ومفارقتها، فأخبرهم أن موسى هذا قصده؛ ليلغضوه ويسعوا في محاربته.

﴿٥٨﴾ ﴿فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ﴾: مثل سحره، فأملنا واجعل لنا ﴿مَوْعِدًا لَا تُخْلَفُهُ، نَحْنُ وَلَا أَنْتَ مَكَانًا سَوًى﴾: أي: مستو علمنا وعلمك به، أو مكاناً مستوياً معتدلاً لتتمكن من رؤية ما فيه.

﴿٥٩﴾ فقال موسى: ﴿مَوْعِدُكُمْ يَوْمَ الزَّيْنَةِ﴾: وهو عيدهم الذي يتفرغون فيه ويقطعون شواغلهم، ﴿وَأَنْ يُخَشِرَ النَّاسُ ضَحًى﴾: أي: يجمعون كلهم في وقت الضحى. وإنما سأل موسى ذلك؛ لأن يوم الزينة وقت الضحى منه يحصل فيه من كثرة الاجتماع ورؤية الأشياء على حقائقها ما لا يحصل في غيره.

﴿٦٠﴾ ﴿فَتَوَلَّى فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ﴾: أي: جميع ما يقدر عليه مما يكيد به موسى، فأرسل في مدائنه من يحشر السحرة الماهرين في سحرهم، وكان السحر إذ ذاك متوفراً، وعلمه مرغوباً فيه، فجمع خلقاً كثيراً من السحرة، ثم أتى كل منها للموعد، واجتمع الناس للموعد، فكان الجمع حافلاً، حضره الرجال والنساء والملا والأشراف والعوام والصغار والكبار، وحضوا الناس على الاجتماع، وقالوا ﴿لِلنَّاسِ هَلْ أَنْتُمْ تُخْتِجِعُونَ﴾ ﴿٦١﴾ ﴿لَمَّا نَبَّحَ النَّحْرُ إِنْ كَانُوا هُمْ الْغَالِبِينَ﴾ ﴿٦٢﴾ [الشعراء: ٣٩، ٤٠].

﴿٦٣﴾ فحين اجتمعوا من جميع البلدان؛ وعظمهم موسى عليه السلام، وأقام عليهم الحجة، وقال لهم: ﴿وَبَلِّغُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذَابٍ﴾: أي: لا تنصروا ما أنتم عليه من الباطل بسحرهم، وتغالبون الحق، وتفترون على الله الكذب، فيستأصلكم بعذاب من عنده، ويخيب سعيكم وافتراؤكم؛ فلا تدركون ما تطلبون من النصر والجاه عند فرعون وملئه، ولا تسلموا من عذاب الله.

﴿٦٤﴾ وكلام الحق لا بد أن يؤثر في القلوب، لا جرم ارتفع الخصام والتزاع بين السحرة لما سمعوا كلام موسى وارتبكوا، ولعل من جملة نزاعهم الاشتباه في موسى هل هو على الحق أم لا؟ ولكنهم إلى الآن ما تم أمرهم؛ ليقضي الله أمراً كان مفعولاً؛ ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ

مَنْ حَوَىٰ عَنْ يَمِينِهِ ﴿٤٢﴾ [الأنفال: ٤٢]؛ فحيث أسروا فيما بينهم النجوى، وأنهم يتفقون على مقالة واحدة؛ لينجحوا في مقالهم وفعالهم، وليتمسك الناس بدينهم.

﴿١٣﴾ والنجوى التي أسروها فسرهما بقوله: ﴿قَالُوا إِنْ هَذَانِ لَسَاحِرُونَ يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكَ مِنْ أَرْضِكَ بِسِحْرِهِمَا﴾؛ كمقالة فرعون السابقة؛ فإما أن يكون ذلك توافقاً من فرعون والسحرة على هذه المقالة من غير قصد، وإما أن يكون تلقيناً منه لهم مقالته التي صمم عليها وأظهرها للناس، وزادوا على قول فرعون أن قالوا: ﴿وَبِذِهِمَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثَلَّى﴾ ﴿١٤﴾؛ أي: طريقة السحر؛ حسدكم عليها، وأراد أن يظهر عليكم؛ ليكون له الفخر والصيت والشهرة، ويكون هو المقصود بهذا العلم الذي شغلتم زمانكم فيه ويذهب عنكم ما كنتم تأكلون بسببه، وما يتبع ذلك من الرياسة.

﴿١٥﴾ وهذا حض من بعضهم على بعض على الاجتهاد في مغالبتة، ولهذا قالوا: ﴿فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ﴾؛ أي: أظهروا دفعة واحدة متظاهرين متساعدين فيه متناصرين متفقاً رأيكم وكلمتكم، ﴿ثُمَّ أَنتُوا صَفًّا﴾؛ ليكون أمكن لعملكم وأهيب لكم في القلوب، ولئلا يترك بعضكم بعض مقدوره من العمل، واعلموا أن من أفلح اليوم ونجح وغلب غيره؛ فإنه المفلح الفائز؛ فهذا يوم له ما بعده من الأيام؛ فما أصلبهم في

باطلهم وأشدهم فيه! حيث أتوا بكل سبب ووسيلة ويمكن ومكيدة يكيدون بها الحق.

﴿١٥﴾ ويأبى الله إلا أن يتم نوره ويظهر الحق على الباطل، فلما تمت مكيدتهم وانحصر قصدهم ولم يبق إلا العمل؛ ﴿قَالُوا يَمُوسَىٰ إِمَّا أَنْ تُلْقَىٰ﴾: عصاك، ﴿وَأِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ﴾ ﴿١٦﴾؛ خيروهم موهمين أنهم على جزم من ظهورهم عليه بأي حالة كانت.

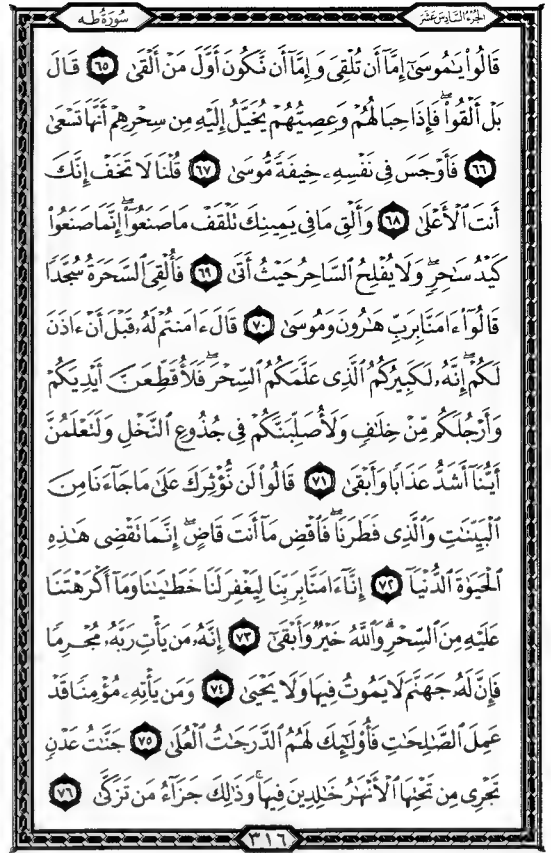
﴿١٦﴾ فقال لهم موسى: ﴿يَا آلِقُوا﴾: فآلقوا حبالهم وعصيهم؛ ﴿فَإِذَا جَاءَهُمْ وَعَصِيَّتُهُمْ بِخَلِّ إِلَيْهِ﴾؛ أي: إلى موسى ﴿مِنْ سِحْرِهِمْ﴾: البليغ، ﴿أَنَّهُمْ تَسْعَىٰ﴾ ﴿١٧﴾؛ أي: أنها حيات تسعى.

﴿١٧﴾ فلما خيل إلى موسى ذلك؛ أوجس في نفسه خيفة كما هو مقتضى الطبيعة البشرية، وإلا؛ فهو جازم بوعده الله ونصره.

﴿١٨﴾ ﴿لَنَا﴾: له تشبهاً وتطميناً: ﴿لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَىٰ﴾ ﴿١٩﴾: عليهم؛ أي: ستعلو عليهم، وتقهرهم، ويذلوا لك، ويخضعوا.

﴿٢٠﴾ ﴿وَأَلْقَىٰ مَا فِي يَمِينِكَ﴾؛ أي: عصاك؛ ﴿فَلَقَفَ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدٌ سِحْرٌ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ﴾ ﴿٢١﴾؛ أي: كيدهم ومكرهم ليس بمثمر لهم ولا ناجح؛ فإنه من كيد السحرة الذين يموهون على الناس ويلبسون الباطل ويخيلون أنهم على الحق.

﴿٢٢﴾ فآلقى موسى عصاه، فتلقفت ما صنعوا كله وأكلته، والناس ينظرون لذلك الصنيع، فعلم السحرة علماً يقيناً أن هذا ليس بسحر، وأنه من الله، فبادروا للإيمان، ﴿فَأَلْقَى السَّحَرَةُ سَجِدِينَ﴾ ﴿٢٣﴾ قَالُوا ءَامَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٤﴾ رَبِّ مُوسَىٰ



وَهَزُونِ ﴿٤٨﴾ [الشعراء: ٤٦-٤٨]، فوق الحق وظهر وسطع، وبطل السحر والمكر والكيد في ذلك المجمع العظيم، فصارت بينة ورحمة للمؤمنين وحجة على المعاندين.

﴿٤٩﴾ ف ﴿٥٠﴾ قَالَ ﴿٥١﴾ فرعون للسحرة: ﴿٥٢﴾ ءَامَنْتُمْ لِي، قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ؟ أي: كيف أقدمتم على الإيمان من دون مراجعة مني ولا إذن، استغرب ذلك منهم لأدبهم معه وذللهم وانقيادهم له في كل أمر من أمورهم، وجعل هذا من ذلك، ثم استلج فرعون في كفره وطغيانه بعد هذا البرهان، واستخف عقول قومه، وأظهر لهم أن هذه الغلبة من موسى للسحرة ليس لأن الذي معه الحق، بل لأنه تمالأ هو والسحرة ومكروا ودبروا أن يخرجوا فرعون وقومه من بلادهم، فقبل قومه هذا المكر منه، وظنوه صدقاً، ﴿٥٣﴾ فَاسْتَحَفَّ قَوْمُهُ، فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٥٤﴾ [الزخرف: ٥٤]؛ مع أن هذه المقالة التي قالها لا تدخل عقل من له أدنى مُسكة من عقل ومعرفة بالواقع؛ فإن موسى أتى من مدين وحيداً، وحين أتى؛ لم يجتمع بأحد من السحرة ولا غيرهم، بل بادر إلى دعوة فرعون وقومه، وأراهم الآيات، فأراد فرعون أن يعارض ما جاء به موسى، فسعى ما أمكنه، وأرسل في مدائنه من يجمع له كل ساحر عليهم، فجاءوا إليه، ووعدهم الأجر والمنزلة عند الغلبة، وهم حرصوا غاية الحرص وكادوا أشد الكيد على غلبتهم لموسى، وكان منهم ما كان؛ فهل يمكن أو يتصور مع هذا أن يكونوا دبروا هم وموسى واتفقوا على ما صدر؟! هذا من أمحل المحال. ثم تواعد فرعون السحرة فقال: ﴿٥٥﴾ لَأَقْطِعَنَّ أَيِّدِيكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِّنْ خَلْفٍ؛ كما يفعل بالمحارب الساعي بالفساد؛ يقطع يده اليمنى ورجله اليسرى. ﴿٥٦﴾ وَلَا أَصْلَبِيكُمْ فِي جُدُوعِ النَّحْلِ؛ أي: لأجل أن تشتهروا وتختروا. ﴿٥٧﴾ وَلَنَعْلَمَنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى ﴿٥٨﴾؛ يعني: بزعمه هو وأمته وأنه أشد عذاباً من الله وأبقى؛ قلباً للحقائق، وترهيباً لمن لا عقل له.

﴿٥٩﴾ ولهذا؛ لما عرف السحرة الحق ورزقهم الله من العقل ما يدركون به الحقائق؛ أجابوه بقولهم: ﴿٦٠﴾ لَن نُّؤْذِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ؛ أي لن نخشاك وما وعدتنا به من الأجر والتقريب على ما أرانا الله من الآيات البينات: الدالات على أن الله هو الرب المعبود وحده، المعظم المبجل وحده، وأن ما سواه باطل، ونؤثرك على الذي فطرنا وخلقنا، هذا لا يكون. ﴿٦١﴾ فَاقْصِصْ مَا آتَتْ قَاصٍ؛ مما أوعدتنا به من القطع

والصلب والعذاب، ﴿٦٢﴾ إِنَّمَا تَقْضَىٰ هَذِهِ الْحَيَوةَ الدُّنْيَا ﴿٦٣﴾؛ أي: إن ما توعدنا به غاية ما يكون في هذه الحياة الدنيا ينقضي ويزول ولا يضرنا؛ بخلاف عذاب الله لمن استمر على كفره؛ فإنه دائم عظيم. وهذا كأنه جواب منهم لقوله: ﴿٦٤﴾ وَلَنَعْلَمَنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى ﴿٦٥﴾. وفي هذا الكلام من السحرة دليل على أنه ينبغي للعاقل أن يوازن بين لذات الدنيا ولذات الآخرة وبين عذاب الدنيا وعذاب الآخرة.

﴿٦٦﴾ إِنَّا ءَمَّا بِرَبِّنَا لِنَغْفِرَنَّ لَكَ أَمْ أَكُنَّا مِنْ أَكْثَرِ الْمُقْسِيْنَ ﴿٦٧﴾؛ أي: كفرنا ومعاصينا؛ فإن الإيمان مكفر للسيئات، والتوبة تجب ما قبلها. وقولهم: ﴿٦٨﴾ وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ؛ الذي عارضنا به الحق. هذا دليل على أنهم غير مختارين في عملهم المتقدم، وإنما أكرههم فرعون إكراهاً. والظاهر - والله أعلم - أن موسى لما وعظهم - كما تقدم في قوله: ﴿٦٩﴾ وَيَلْعَنُكُمُ اللَّهُ أَتَى اللَّهُ كَذِبًا فَيَسْحَرُكَ بِعَذَابٍ؛ أثر معهم ووقع منهم موقعاً كبيراً، ولهذا تنازعوا بعد هذا الكلام والموعظة. ثم إن فرعون ألزمهم ذلك وأكرههم على المكر الذي أجروه، ولهذا تكلموا بكلامه السابق قبل إتيانهم؛ حيث قالوا: ﴿٧٠﴾ إِن هَٰذِهِ سِحْرَانِ يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكَ مِنَّا بِسِحْرِهِمَا، فجروا على ما سنه لهم وأكرههم عليه. ولعل هذه النكتة التي قامت بقلوبهم من كراهتهم لمعارضة الحق بالباطل، وفعلهم ما فعلوا على وجه الإغماض هي التي أثرت معهم ورحمهم الله بسببها، ووفقهم للإيمان والتوبة. ﴿٧١﴾ وَاللَّهُ خَبِيرٌ؛ مما أوعدنا من الأجر والمنزلة والجاه، ﴿٧٢﴾ وَأَبْقَى ﴿٧٣﴾؛ ثواباً وإحساناً، لا ما يقول فرعون: ﴿٧٤﴾ وَلَنَعْلَمَنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى ﴿٧٥﴾؛ يريد أنه أشد عذاباً وأبقى.

وجميع ما أتى من قصص موسى مع فرعون يذكر الله فيه إذا أتى على قصة السحرة أن فرعون توعدهم بالقطع والصلب ولم يذكر أنه فعل ذلك، ولم يأت في ذلك حديث صحيح، والجزم بوقوعه أو عدمه يتوقف على الدليل. والله أعلم بذلك وغيره، ولكن توعدنا إياهم بذلك مع اقتداره، دليل على وقوعه، ولأنه لو لم يقع لذكره الله، ولاتفاق الناقلين على ذلك.

﴿٧٦﴾ إِنَّهُ مَن يَأْتِ رَبَّهُ مُخِيراً فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿٧٧﴾ وَمَن يَأْتِهِ مُؤْمِناً قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَٰئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَىٰ ﴿٧٨﴾ جَنَّاتٌ عَدْنٍ يَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ مَن تَزَكَّىٰ ﴿٧٩﴾.

﴿٧٤﴾ يخبر تعالى أن من آتاه وقدم عليه مجرمًا - أي: وصفه الجرم من كل وجه، وذلك يستلزم الكفر - واستمر على ذلك حتى مات؛ فإن له نار جهنم الشديد نكالها، العظيمة أغلالها، البعيد قعرها، الأليم حرها وقرها، التي فيها من العقاب ما يذيب الأكباد والقلوب، ومن شدة ذلك أن المعذب فيها لا يموت ولا يحيا، لا يموت فيستريح ولا يحيا حياة يتلذذ بها، وإنما حياته محشوة بعذاب القلب والروح والبدن، الذي لا يقدر قدره ولا يفتّر عنه ساعة؛ يستغيث فلا يغاث، ويدعو فلا يستجاب له؛ نعم إذا استغاث؛ أغيث بماء كالمهل يشوي الوجوه، وإذا دعا؛ أجيب: بـ ﴿أَحْسَرُوا فِيهَا وَلَا تُكْمِرُون﴾ ﴿٧٥﴾ [المؤمنون: ١٠٨].

﴿٧٥﴾، ﴿٧٦﴾ ومن يأت ربه مؤمنًا به، مصدقًا لرسله، متبعًا لكاتبه، قد عمل الصالحات الواجبة والمستحبة؛ ﴿فَأُولَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى﴾ ﴿٧٥﴾؛ أي: المنازل العاليات في الغرف المزخرفات، واللذات المتواصلات، والأنهار السارحات، والخلود الدائم، والسرور العظيم، فيما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر. ﴿وَذَلِكَ﴾: الثواب جزاء من تزكى ﴿٧٦﴾؛ أي: تطهر من الشرك والكفر والفسوق والعصيان؛ إما ألا يفعلها بالكليّة، أو يتوب مما فعله منها، وزكى أيضًا نفسه، ونماها بالإيمان والعمل الصالح؛ فإن

سورة طه
وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاصْرَبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَا تَخَفْ دَرَكًا وَلَا تَخْشَى ﴿٧٦﴾ فَأَتَيْنَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُمْ مِنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴿٧٧﴾ وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَى ﴿٧٨﴾ يَبْنِي إِسْرَءِيلَ قَدْ أَجَعْنَاكَ مِنَ عْدُوِّكَ وَوَعَدْنَاكَ جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْمَنَ وَالسَّلَوى ﴿٨٠﴾ كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَمَن يَحِلَّ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَى ﴿٨١﴾ وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لَّنَّابٍ وَمَا مَن وَرِعٌ صَلَاحًا ثُمَّ أَهْدَى ﴿٨٢﴾ وَمَا أَجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يَمُوسَى ﴿٨٣﴾ قَالَ هُمْ أَوْلَاءُ عَلَى أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى ﴿٨٤﴾ قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ ﴿٨٥﴾ فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَنَ أَسَفًا قَالَ يَقُومِ أَلَمْ يَبْعِدْكُمْ رَبِّكُمْ وَعَذَابًا حَسَنًا أَفَطَالَ عَلَيْكُمْ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِي ﴿٨٦﴾ قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلِكِنَا وَلَكِنَّا حَمَلْنَا آوَارًا مِن زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ ﴿٨٧﴾

للتزكية معنيين: التنقية وإزالة الخبث، والزيادة بحصول الخير، وسميت الزكاة زكاة لهذين الأمرين.

﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاصْرَبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَا تَخَفْ دَرَكًا وَلَا تَخْشَى﴾ ﴿٧٦﴾ فَأَتَيْنَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُمْ مِنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴿٧٧﴾ وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَى ﴿٧٨﴾.

﴿٧٦﴾ - ﴿٧٨﴾ لما ظهر موسى بالبراهين على فرعون وقومه؛ مكث في مصر يدعوهم إلى الإسلام ويسعى في تخليص بني إسرائيل من فرعون وعذابه، وفرعون في عتو ونفور، وأمره شديد على بني إسرائيل، ويريه الله من الآيات والعبر ما قصه الله علينا في القرآن، وبني إسرائيل لا يقدر أن يظهر إيمانهم ويعلنوه، قد اتخذوا بيوتهم مساجد، وصبروا على فرعون وأذاه، فأراد الله تعالى أن ينجيهم من عدوهم ويمكن لهم في الأرض؛ ليعبدوه جهراً ويقيموا أمره، فأوحى إلى نبيه موسى أن يواعد بني إسرائيل سرّاً ويسيروا أول الليل ليمتادوا في الأرض، وأخبره أن فرعون وقومه سيتبعونه، فخرجوا أول الليل، جميع بني إسرائيل هم ونسأؤهم وذريتهم، فلما أصبح أهل مصر، وإذا هم ليس فيهم منهم دأع ولا مجيب، فحنق عليهم عدوهم فرعون، وأرسل في المدائن من يجمع له الناس ويحضهم على الخروج في أثر بني إسرائيل، ليوقع بهم ويفذ غيظاً، والله غالب على أمره، فتكاملت جنود فرعون فسار بهم يتبع بني إسرائيل، ﴿فَأَتَيْنَهُمْ مُّشْرِيقَ﴾ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا تَرَا الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمَذْكُورُونَ ﴿٧٧﴾، وقلقوا وخافوا: البحر أمامهم. وفرعون من ورائهم؛ قد امتلأ عليهم غيظاً وحقاً، وموسى مطمئن القلب ساكن البال، قد وثق بوعد ربه فقال: ﴿كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ ﴿٧٨﴾؛ [الشعراء: ٦٠-٦٢]؛ فأوحى الله إليه أن يضرب البحر بعصاه، فضربه، فانفراق اثني عشر طريقاً، وصار الماء كالجبال العالية عن يمين الطرق ويسارها، وأيسس الله طرقهم التي انفرد عنها الماء، وأمرهم الله ألا يخافوا من إدراك فرعون ولا يخشوا من الغرق في البحر، فسلكوا في تلك الطرق، فجاء فرعون وجنوده، فسلكوا وراءهم، حتى تكامل قوم موسى خارجين وقوم فرعون داخلين؛ أمر الله البحر، فالتطم عليهم، وغشيهم

السيئات، وسلوك طرق الهداية، بجميع أنواعها، من تعلم علم وتدبر آية أو حديث، حتى يتبين له معنى من المعاني يهتدي به، ودعوة إلى دين الحق ورد بدعة أو كفر أو ضلالة وجهاد وهجرة، وغير ذلك من جزئيات الهداية كلها مكفريات للذنوب محصلات لغاية المطلوب.

﴿وَمَا أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يَمُوسَىٰ﴾ (٨٠) قَالَ هُمْ أُولَاءِ عَلَىٰ أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ ﴿٨١﴾ قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ ﴿٨٢﴾ فَرَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَنَ أَسَفًا قَالَ يَقُومُ أَلَمْ يَبْعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعَدَا حَسَنًا أَطْعَالٌ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّنْ رَبِّكُمْ فَأَخْلَقْتُم مَّوْعِدِي ﴿٨٣﴾

﴿٨٠﴾ كان الله تعالى قد واعد موسى أن يأتيه لينزل عليه التوراة ثلاثين ليلة، فأتىها بعشر، فلما تم الميعات؛ بادر موسى عليه السلام إلى الحضور للموعود شوقاً لربه وحرصاً على موعوده، فقال الله له: ﴿وَمَا أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يَمُوسَىٰ﴾ (٨٠) أي: ما الذي قدمك عليهم؟ ولم لم تصبر حتى تقدم أنت وهم؟

﴿٨١﴾ قَالَ هُمْ أُولَاءِ عَلَىٰ أَثَرِي، والذي عجلني إليك يا رب الطلب لقربك والمسارعة في رضاك والشوق إليك.

﴿٨٢﴾ قَالَ هُمْ أُولَاءِ عَلَىٰ أَثَرِي، أي: قريباً مني، وسيصلون في أثري، والذي عجلني إليك يا رب الطلب لقربك والمسارعة في رضاك والشوق إليك.

﴿٨٣﴾ قَالَ هُمْ أُولَاءِ عَلَىٰ أَثَرِي، أي: قريباً مني، وسيصلون في أثري، والذي عجلني إليك يا رب الطلب لقربك والمسارعة في رضاك والشوق إليك.

﴿٨٤﴾ قَالَ هُمْ أُولَاءِ عَلَىٰ أَثَرِي، أي: قريباً مني، وسيصلون في أثري، والذي عجلني إليك يا رب الطلب لقربك والمسارعة في رضاك والشوق إليك.

﴿٨٥﴾ قَالَ هُمْ أُولَاءِ عَلَىٰ أَثَرِي، أي: قريباً مني، وسيصلون في أثري، والذي عجلني إليك يا رب الطلب لقربك والمسارعة في رضاك والشوق إليك.

﴿٨٦﴾ قَالَ هُمْ أُولَاءِ عَلَىٰ أَثَرِي، أي: قريباً مني، وسيصلون في أثري، والذي عجلني إليك يا رب الطلب لقربك والمسارعة في رضاك والشوق إليك.

من اليم ما غشبيهم، وغرقوا كلهم، ولم ينج منهم أحد، وبنو إسرائيل ينظرون إلى عدوهم، قد أقر الله أعينهم بهلاكه، وهذا عاقبة الكفر والضلال وعدم الاهتمام بهدي الله، ولهذا قال تعالى: ﴿وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ﴾: بما زين لهم من الكفر، وتهجين ما أتى به موسى، واستخفافه إياهم، وما هدامهم في وقت من الأوقات، فأوردتهم موارد الغي والضلال، ثم أوردتهم مورد العذاب والنكال.

﴿يَبْنَىٰ إِسْرَءِيلَ قَدْ أَجَبْنَاكَ مِنْ عَدُوِّكَ وَوَعَدْنَاكَ جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْمَنَ وَالسَّلَوىٰ﴾ (٨٤) كَلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَمَن يَحِلَّ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَىٰ ﴿٨٥﴾ وَإِنِّي لَنَفَّارٌ لَّنَآبٍ وَءَآمَنٌ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَىٰ ﴿٨٦﴾

﴿٨٤﴾ يذكر تعالى بني إسرائيل منته العظيمة عليهم بإهلاك عدوهم، ومواعيده لموسى عليه السلام بجانب الطور الأيمن؛ لينزل عليه الكتاب الذي فيه الأحكام الجليلة والأخبار الجميلة، فتتم عليهم النعمة الدينية بعد النعمة الدنيوية، ويذكر منته أيضاً عليهم في التيه بإنزال المن والسلوى والرزق الرغد الهني، الذي يحصل لهم بلا مشقة، وأنه قال لهم: ﴿كَلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾؛ أي: واشكروه على ما أسدى إليكم من النعم. ﴿وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ﴾؛ أي: في رزقه فتستعملونه في معاصيه وتبطلون النعمة فإنكم إن فعلتم ذلك حل عليكم غضبي؛ أي: غضبت عليكم ثم عذبتكم. ﴿وَمَن يَحِلَّ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَىٰ﴾ (٨٥)؛ أي: ردي وهلك وخاب وخسر؛ لأنه عديم الرضا والإحسان، وحل عليه الغضب والخسران.

﴿٨٦﴾ ومع هذا؛ فالتوبة معروضة، ولو عمل العبد ما عمل من المعاصي، ولهذا قال: ﴿وَإِنِّي لَنَفَّارٌ﴾؛ أي: كثير المغفرة والرحمة، ﴿لَّنَآبٍ﴾: من الكفر والبدعة والفسوق، ﴿وَأَمَنٌ﴾: بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، ﴿وَعَمِلَ صَالِحًا﴾: من أعمال القلب والبدن وأقوال اللسان، ﴿ثُمَّ اهْتَدَىٰ﴾ (٨٦)؛ أي: سلك الصراط المستقيم، وتابع الرسول الكريم، واقتدى بالدين القويم؛ فهذا يغفر الله أوزاره، ويعفو عما تقدم من ذنبه وإصراره؛ لأنه أتى بالسبب الأكبر للمغفرة والرحمة، بل الأسباب كلها منحصرة في هذه الأشياء؛ فإن التوبة تجب ما قبلها، والإيمان والإسلام يهدم ما قبله، والعمل الصالح الذي هو الحسنات يذهب

سُورَةُ طه

طه

بل النبوة بين أظهركم، والعلم قائم، والعذر غير مقبول. ﴿٨٦﴾ أَرَدْتُمْ ﴿٨٧﴾: بفعلكم ﴿٨٨﴾: أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّكُمْ ﴿٨٩﴾: أي: فتعريضكم لأسبابه واقتحامكم موجب عذابه، وهذا هو الواقع. ﴿٩٠﴾ فَأَخْلَقْتُمْ مُوعِدِي ﴿٩١﴾: حين أمرتكم بالاستقامة ووصيت بكم هارون فلم ترقبوا غائبًا ولم تحترموا حاضرًا.

﴿٩٢﴾ قَالُوا مَا أَخْلَقْنَا مُوعِدَكَ بِمَلِكِنَا وَلَكِنَّا حُمُلْنَا آوَارًا مِنْ زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ ﴿٩٣﴾ فَأَخْرَجَ لَهُمْ عَجَلًا جَسَدًا لَهُ خَوَارٌ فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى فَنَاسِيَ ﴿٩٤﴾ أَفَلَا يَرَوْنَ أَلا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ صَرًا وَلَا نَفَعًا ﴿٩٥﴾.

﴿٩٦﴾ أي: قالوا له: ما فعلنا الذي فعلنا عن تعمد منا ومملك منا لأنفسنا، ولكن السبب الداعي لذلك أننا تأمننا من زينة القوم التي عندنا، وكانوا فيما يذكرون استعاروا حليا كثيرا من القبط، فخرجوا وهو معهم، وألقوه وجمعه حين ذهب موسى ليراجعوه فيه إذا رجع، وكان السامري قد بصر يوم الغرق بأثر الرسول، فسولت له نفسه أن يأخذ قبضة من أثره، وأنه إذا ألقاها على شيء حيي فتنه وامتنحنا، فألقاها على ذلك العجل الذي صاغه بصورة عجل، فتحرك العجل وصار له خوار وصوت، وقالوا: إن موسى ذهب يطلب ربه، وهو ههنا، فأنسى.

فَأَخْرَجَ لَهُمْ عَجَلًا جَسَدًا لَهُ خَوَارٌ فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى فَنَاسِيَ ﴿٨٦﴾ أَفَلَا يَرَوْنَ أَلا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ صَرًا وَلَا نَفَعًا ﴿٨٧﴾ وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلُ يَنْقُورِ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي ﴿٨٨﴾ قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَنكِمِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى ﴿٨٩﴾ قَالِ يَهْرُؤُنَا مَا مَنَّكَ إِذْ رَأَيْنَاهُمْ ضُلُوعًا ﴿٩٠﴾ أَلَا تَتَّبِعُنَّ أَفْصَحْتِ أَمْرِي ﴿٩١﴾ قَالِ يَبْنَؤُمْ لَا تَأْخُذْ بِلِحَتِي وَلَا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَءِيلَ بَلْ وَلَمْ تَرْفَعْ قَوْلِي ﴿٩٢﴾ قَالِ فَمَا خَطْبُكَ يَسْمُرِي ﴿٩٣﴾ قَالِ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي ﴿٩٤﴾ قَالِ فَادْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَنْ تُخْلَفَهُ، وَانْظُرْ إِلَى إِلَهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا ﴿٩٥﴾ إِنْ كُنَّا إِلَهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلُّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴿٩٦﴾

﴿٩٧﴾ وهذا من بلادهم وسخافة عقولهم؛ حيث رأوا هذا الغريب الذي صار له خوار بعد أن كان جمادًا، فظنوه إله الأرض والسموات، أفلا يرون أن العجل لا ﴿٩٨﴾ يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا ﴿٩٩﴾: أي: لا يتكلم ويراجعهم ويراجعونه، ﴿١٠٠﴾ وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ صَرًا وَلَا نَفَعًا ﴿١٠١﴾: فالعادم للكمال والفعال لا يستحق أن يعبد، وهو أنقص من عابديه؛ فإنهم يتكلمون ويقدرّون على بعض الأشياء من النفع والدفع بإقدار الله لهم.

﴿١٠٢﴾ وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلُ يَنْقُورِ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي ﴿١٠٣﴾ قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَنكِمِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى ﴿١٠٤﴾ قَالِ يَهْرُؤُنَا مَا مَنَّكَ إِذْ رَأَيْنَاهُمْ ضُلُوعًا ﴿١٠٥﴾ أَلَا تَتَّبِعُنَّ أَفْصَحْتِ أَمْرِي ﴿١٠٦﴾ قَالِ يَبْنَؤُمْ لَا تَأْخُذْ بِلِحَتِي وَلَا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَءِيلَ بَلْ وَلَمْ تَرْفَعْ قَوْلِي ﴿١٠٧﴾.

﴿١٠٨﴾ أي: إنهم باتخاذهم العجل ليسوا معذورين فيه؛ فإنه وإن كانت عرضت لهم الشبهة في أصل عبادته؛ فإن هارون قد نهاهم عنه، وأخبرهم أنه فتنه، وأن ربهم الرحمن الذي منه النعم الظاهرة والباطنة، الدافع للنقم، وأنه أمرهم أن يتبعوه ويعتزلوا العجل، فأبوا وقالوا: ﴿١٠٩﴾ لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَنكِمِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى ﴿١١٠﴾.

﴿١١١﴾ فأقبل موسى على أخيه لاثما له، وقال: ﴿١١٢﴾ يَهْرُؤُنَا مَا مَنَّكَ إِذْ رَأَيْنَاهُمْ ضُلُوعًا ﴿١١٣﴾ أَلَا تَتَّبِعُنَّ: فتخبرني لأبادر للرجوع إليهم. ﴿١١٤﴾ أَفْصَحْتِ أَمْرِي ﴿١١٥﴾: في قولي: ﴿١١٦﴾ أَخْلَقْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ ﴿١١٧﴾ ﴿١١٨﴾ [الأعراف: ١٤٢]: فأخذ موسى برأس هارون ولحيته يجره من الغضب والعتب عليه.

﴿١١٩﴾ فقال هارون: ﴿١٢٠﴾ يَبْنَؤُمْ: ترفيق له، وإلا فهو شقيقه. ﴿١٢١﴾ لَا تَأْخُذْ بِلِحَتِي وَلَا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَءِيلَ بَلْ وَلَمْ تَرْفَعْ قَوْلِي ﴿١٢٢﴾: فإنك أمرتني أن أخلفك فيهم؛ فلو تبعتك؛ لترك ما أمرتني بلزومه، وخشيت لاثمتك،

﴿إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلُّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ ﴿٩٨﴾.

﴿٩٨﴾ أي: لا معبود إلا وجهه الكريم؛ فلا يؤله، ولا يحب، ولا يرجى، ولا يخاف ولا يدعى إلا هو؛ لأنه الكامل الذي له الأسماء الحسنی، والصفات العلی، المحيط علمه بجميع الأشياء، الذي ما من نعمة بالعباد إلا منه، ولا يدفع السوء إلا هو؛ فلا إله إلا هو، ولا معبود سواه.

﴿كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْرًا﴾ ﴿٩٩﴾ مِّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وِزْرًا ﴿١٠٠﴾ خَلِيدٍ فِيهِ وَسَاءَ لَّهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ حِمْلًا ﴿١٠١﴾.

﴿٩٩﴾ يمتن الله تعالى على نبيه ﷺ بما قصه عليه من أنباء السابقين وأخبار السالفين؛ كهذه القصة العظيمة، وما فيها من الأحكام وغيرها، التي لا ينكرها أحد من أهل الكتاب؛ فأنت لم تدرس أخبار الأولين، ولم تتعلم ممن دراه؛ فإخبارك بالحق اليقين من أخبارهم دليل على أنك رسول الله حقًا، وما جئت به صدق، ولهذا قال: ﴿وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا﴾؛ أي: عطية نفيسة ومنحة جزيلة من عندنا، ﴿ذِكْرًا﴾؛ وهو هذا القرآن الكريم؛ ذكر للأخبار السابقة واللاحقة، وذكر يتذكر به ما لله تعالى من الأسماء والصفات الكاملة، ويتذكر به أحكام الأمر والنهي وأحكام الجزاء، وهذا مما يدل على أن القرآن مشتمل على أحسن ما يكون من الأحكام، التي تشهد العقول والفطر بحسنها وكمالها، ويذكر هذا القرآن ما أودع الله فيها، وإذا كان القرآن ذكرًا للرسول ولأتمته؛ فيجب تلقيه بالقبول والتسليم والانقياد والتعظيم، وأن يهتدى بنوره إلى الصراط المستقيم، وأن يقبلوا عليه بالتعلم والتعليم.

﴿وَأَمَّا مَقَابِلَتُهُ بِالْأَعْرَاضِ أَوْ مَا هُوَ أَعْظَمُ مِنْهُ مِنَ الْإِنْكَارِ؛ فَإِنَّهُ كَفَرَ لَهُذِهِ النِّعْمَةِ، وَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ؛ فَهُوَ مُسْتَحَقٌّ لِلْعُقُوبَةِ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ﴾؛ فلم يؤمن به أو تهاون بأوامره ونواهيه أو بتعلم معانيه الواجبة، ﴿فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وِزْرًا﴾ ﴿١٠٠﴾؛ وهو ذنبه الذي بسببه أعرض عن القرآن، وأولاه الكفر والهجران.

﴿خَلِيدٍ فِيهِ﴾ ﴿١٠١﴾ أي: في وزرهم؛ لأن العذاب هو نفس الأعمال، تنقلب عذابًا على أصحابها بحسب صغرها وكبرها، ﴿وَسَاءَ لَّهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ حِمْلًا﴾ ﴿١٠١﴾؛ أي: بش الحمل الذي يحملونه والعذاب الذي يعذبونه يوم القيامة.

﴿وَأَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾؛ حيث تركتهم وليس عندهم راع ولا خليفة؛ فإن هذا يفرقهم، ويشتت شملهم؛ فلا تجعلني مع القوم الظالمين، ولا تشمت فينا الأعداء. فندم موسى على ما صنع بأخيه وهو غير مستحق لذلك، ﴿فَقَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِإِخْوَتِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ ﴿١٠٢﴾ [الأعراف: ١٥١].

ثم أقبل على السامري:

﴿فَقَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَسْمُرِي﴾ ﴿٩٥﴾ قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي﴾ ﴿٩٦﴾ قَالَ فَادْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّنْ تَخْلَفَنَّهُ، وَأَنْتَ بَصِيرٌ إِلَى إِلَهِكَ الَّذِي ظَلَمْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَّنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا﴾ ﴿٩٧﴾.

﴿٩٥﴾ أي: ما شأنك يا سامري حيث فعلت ما فعلت؟ فقال: ﴿بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ﴾؛ وهو جبريل عليه السلام على فرس، رآه وقت خروجهم من البحر وغرق فرعون وجنوده على ما قاله المفسرون، ﴿فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ﴾ حافر فرسه، فنبدتها على العجل، ﴿وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي﴾ ﴿٩٦﴾؛ أن أقبضها ثم أنبذها، فكان ما كان.

﴿٩٧﴾ فقال له موسى: اذهب؛ أي: تباعد عني واستأخر مني. ﴿فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ﴾؛ أي: تعاقب في الحياة عقوبة، لا يدنو منك أحد ولا يمسك أحد، حتى إن من أراد القرب منك؛ قلت له: لا تمسني ولا تقرب مني؛ عقوبة على ذلك؛ حيث مس ما لم يمسه غيره وأجرى ما لم يجره أحد. ﴿وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّنْ تَخْلَفَنَّهُ﴾؛ فتجازى بعملك من خير وشر. ﴿وَأَنْتَ بَصِيرٌ إِلَى إِلَهِكَ الَّذِي ظَلَمْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا﴾؛ أي: العجل، ﴿لَنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا﴾ ﴿٩٧﴾؛ ففعل موسى ذلك؛ فلو كان إلها؛ لامتنع ممن يريده بأذى ويسعى له بالإنلاف. وكان قد أشرب العجل في قلوب بني إسرائيل، فأراد موسى عليه السلام إنلافه وهم ينظرون على وجه لا تمكن إعادته؛ بالإحراق والسحق وذره في اليم ونسفه؛ ليزول ما في قلوبهم من حبه كما زال شخصه، ولأن في إبقائه محنة؛ لأن في النفوس أقوى دافع إلى الباطل.

فلما تبين لهم بطلانه؛ أخبرهم بمن يستحق العبادة وحده لا شريك له، فقال:

ثم استطرد فذكر أحوال يوم القيامة وأهواله فقال:

﴿يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ﴿١١٦﴾ يَخْلَقْتُهُمْ نِيْنَهُمْ إِن لَّيْسَتْ إِلَّا عَصَا ﴿١١٧﴾ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذ يَقُولُ أَثْلُكُم طَرِيقَةً إِن لَّيْسَتْ إِلَّا يَوْمًا ﴿١١٨﴾﴾.

﴿١١٦﴾ أي: إذا نفخ في الصور، وخرج الناس من قبورهم؛ كل على حسب حاله؛ فالمتقون يحشرون إلى الرحمن وفداً، والمجرمون يحشرون زرقاً ألوانهم من الخوف والقلق والعطش؛ يتناجون بينهم ويتخافتون في قصر مدة الدنيا وسرعة الآخرة، فيقول بعضهم ما لبثتم إلا عشرة أيام، ويقول بعضهم غير ذلك، والله يعلم تخافتهم ويسمع ما يقولون: ﴿إِذ يَقُولُ أَثْلُكُم طَرِيقَةً﴾؛ أي: أعدلهم وأقربهم إلى التقدير: ﴿إِن لَّيْسَتْ إِلَّا يَوْمًا﴾. والمقصود من هذا الندم العظيم؛ كيف ضيعوا الأوقات القصيرة وقطعوا ساهين لاهين معرضين عما ينفعهم مقبلين على ما يضرهم؛ فها قد حضر الجزاء، وحق الوعيد، فلم يبق إلا الندم والدعاء بالويل والثبور؛ كما قال تعالى: ﴿قُلْ كَمْ لَيْسَتْ فِي الْأَرْضِ عَدَّةُ سِنِينَ ﴿١١٦﴾ قَالُوا لَيْتَنَّا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَتَنَّا الْعَادِينَ ﴿١١٧﴾ قُلْ إِن لَّيْسَتْ إِلَّا قَلِيلًا لَّوْ أَنكُم كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١٨﴾﴾ [المؤمنون: ١١٢-١١٤].

﴿وَسْتَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا ﴿١١٩﴾ فَيَذَرُهَا

قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٢٠﴾ لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا ﴿١٢١﴾ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ ﴿١٢٢﴾ وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴿١٢٣﴾ يَوْمَئِذٍ لَا نَنْفَعُ الشَّفِيعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا ﴿١٢٤﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ ﴿١٢٥﴾ عِلْمًا ﴿١٢٦﴾ وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا ﴿١٢٧﴾ وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴿١٢٨﴾﴾.

﴿١١٩﴾ - ﴿١٢٨﴾ يخبر تعالى عن أهوال القيامة وما فيها من الزلازل والقلاقل، فقال: ﴿وَسْتَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ﴾؛ أي: ماذا يصنع بها يوم القيامة؟ وهل تبقى بحالها أم لا؟ ﴿فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا ﴿١١٩﴾﴾؛ أي: يزيلها ويقلعها من أماكنها، فتكون كالعهن وكالرملي، ثم يدكها فيجعلها هباء منبثاً، فنضمحل وتلاشى، ويسويها بالأرض، ويجعل الأرض ﴿قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٢٠﴾﴾؛ مستوية، ﴿لَا تَرَى فِيهَا﴾: أيها الناظر، ﴿عِوَجًا﴾: هذا من تمام استوائها، ﴿وَلَا أَمْتًا ﴿١٢١﴾﴾؛ أي: أودية وأماكن منخفضة أو مرتفعة، فتبرز الأرض وتتسع للخلق ويمدها الله مد الأديم، فيكونون في موقف واحد، يسمعهم الداعي، وينفذهم البصر.

﴿١٢٨﴾ - ﴿١٣٠﴾ ولهذا قال: ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ﴾؛ وذلك حين يبعثون من قبورهم ويقومون منها؛ يدعوهم الداعي إلى الحضور والاجتماع للموقف، فيتبعونه مهطعين إليه، لا يلتفتون عنه، ولا يعرجون يمنة ولا يسرة. وقوله: ﴿لَا عِوَجَ لَهُ﴾؛ أي: لا عوج لدعوة الداعي، بل تكون دعوته حقاً وصدقاً لجميع الخلق، يُسمعهم جميعهم، ويصيح لهم أجمعين، فيحضرون لموقف القيامة خاشعة أصواتهم للرحمن. ﴿فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴿١٢٨﴾﴾؛ أي: إلا وطء الأقدام أو المخافتة سرّاً بتحريك الشفتين فقط؛ يملكهم الخشوع والسكوت والإنصات؛ انتظاراً لحكم الرحمن فيهم، وتنعو وجوههم؛ أي: تذلل وتخضع، فترى في ذلك الموقف العظيم الأغنياء والفقراء والرجال والنساء والأحرار والأرقاء والملوك والسوقة، ساكتين منصتين، خاشعة أبصارهم، خاضعة رقابهم، جاثين على ركبتهم، عانية وجوههم، لا يدرون ماذا ينفصل كل منهم به ولا ماذا يفعل به،

كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْرًا ﴿١٣١﴾ مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وِزْرًا ﴿١٣٢﴾ خَلِيدِينَ فِيهِمْ وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ حِمْلًا ﴿١٣٣﴾ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ﴿١٣٤﴾ يَخْلَقْتُهُمْ نِيْنَهُمْ إِن لَّيْسَتْ إِلَّا عَصَا ﴿١٣٥﴾ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذ يَقُولُ أَثْلُكُم طَرِيقَةً إِن لَّيْسَتْ إِلَّا يَوْمًا ﴿١٣٦﴾ وَتَسْتَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا ﴿١٣٧﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٣٨﴾ لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا ﴿١٣٩﴾ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ ﴿١٤٠﴾ وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴿١٤١﴾ يَوْمَئِذٍ لَا نَنْفَعُ الشَّفِيعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا ﴿١٤٢﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ ﴿١٤٣﴾ عِلْمًا ﴿١٤٤﴾ وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا ﴿١٤٥﴾ وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴿١٤٦﴾ وَصَرَفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَنْقُورُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴿١٤٧﴾

والحرمان والعذاب الأليم في جهنم وسخط الديان. والقسم الثاني: من آمن بالإيمان المأمور به، وعمل صالحاً من واجب ومسنون؛ ﴿فَلَا يَخَافُ ظُلُمًا﴾؛ أي: زيادة في سيئاته. ﴿وَلَا هَضَمًا﴾؛ أي: نقصاً من حسناته، بل تغفر ذنوبه وتطهر عيوبه وتضاعف حسناته، ﴿وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ ﴿النساء: ٤٠﴾.

﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا﴾.

﴿١١٢﴾ أي: وكذلك أنزلنا هذا الكتاب باللسان الفاضل العربي الذي تفهمونه وتفقهونه ولا يخفى عليكم لفظه ولا معناه. ﴿وَصَرَفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ﴾؛ أي: نوعانها أنواعاً كثيرة؛ تارة بذكر أسمائه الدالة على العدل والانتقام، وتارة بذكر المثالات التي أحلها بالأمم السابقة، وأمر أن تعتبر بها الأمم اللاحقة، وتارة بذكر أحوال القيامة وما فيها من المزعجات والقلقات، وتارة بذكر جهنم وما فيها من أنواع العقاب وأصناف العذاب؛ كل هذا رحمة بالعباد؛ ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾؛ الله، فيتركون من الشر والمعاصي ما يضرهم، ﴿أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا﴾؛ فيعملون من الطاعات والخير ما ينفعهم، فكونه عربياً وكونه مصرفاً فيه من الوعيد أكبر سبب وأعظم داع للتقوى والعمل الصالح؛ فلو كان غير عربي أو غير مصرف فيه؛ لم يكن له هذا الأثر.

﴿فَتَعَلَى اللَّهِ الْمَلِكُ الْحَقُّ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾.

﴿١١٣﴾ لما ذكر تعالى حكمه الجزائي في عبادته، وحكمه الأمري الديني الذي أنزله في الكتاب وكان هذا من آثار ملكه؛ قال: ﴿فَتَعَلَى اللَّهِ﴾؛ أي: جل وارتفع وتقدس عن كل نقص وأفة. ﴿الْمَلِكُ﴾؛ الذي الملك وصفه، والخلق كلهم ممالك له، وأحكام الملك القدريّة والشرعية نافذة فيهم. ﴿الْحَقُّ﴾؛ أي: وجوده وملكه وكماله حق؛ فصفات الكمال لا تكون حقيقة إلا لذي الجلال، ومن ذلك الملك؛ فإن غيره من الخلق، وإن كان له ملك في بعض الأوقات على بعض الأشياء؛ فإنه ملك قاصر باطل يزول، وأما الرب؛ فلا يزال ولا يزول ملكاً حياً قيوماً جليلاً. ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ﴾؛ أي: لا تبادر بتلقف القرآن

قد اشتغل كل بنفسه وشأنه عن أبيه وأخيه وصديقه وحبيبه، ﴿لِكُلِّ أَمْرٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُبَيِّنُ﴾ ﴿عيس: ٣٧﴾، فحيثما يحكم فيه الحاكم العدل الديان، ويجازي المحسن بإحسانه والمسيء بالحرمان.

والأمل بالرب الكريم الرحمن الرحيم أن يري الخلائق منه من الفضل والإحسان والعفو والصفح والغفران، ما لا تعبر عنه الألسنة ولا تتصوره الأفكار، ويتطلع لرحمته إذ ذاك جميع الخلق؛ لما يشاهدونه، فيختص المؤمنون به ويرسله بالرحمة.

فإن قيل من أين لكم هذا الأمل؟ وإن شئت قلت: من أين لكم هذا العلم بما ذكر؟

قلنا: لما نعلمه من غلبة رحمته لغضبه، ومن سعة جوده الذي عم جميع البرايا، ومما نشاهده في أنفسنا وفي غيرنا من النعم المتواترة في هذه الدار، وخصوصاً في فضل القيامة؛ فإن قوله: ﴿وَحُشِّنَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ﴾ ﴿إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ﴾، مع قوله: ﴿الْمَلِكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ﴾ ﴿الفرقان: ٢٦﴾، مع قوله ﷺ: «إن لله مائة رحمة، أنزل لعباده رحمة، بها يتراحمون ويتعاطفون، حتى إن البهيمة ترفع حافرهما عن ولدها خشية أن تطأه»^(١)، أي: من الرحمة المودعة في قلبها؛ فإذا كان يوم القيامة؛ ضم هذه الرحمة إلى تسع وتسعين رحمة، فرحم بها العباد، مع قوله ﷺ: «لله أرحم بعباده من الولادة بولدها»^(٢)؛ فقل ما شئت عن رحمته؛ فإنها فوق ما تقول، وتصور فوق ما شئت؛ فإنها فوق ذلك؛ فسبحان من رحم في عدله وعقوبته، كما رحم في فضله وإحسانه ومثوبته، وتعالى من وسعت رحمته كل شيء، وعم كرمه كل حي، وجل من غني عن عبادته رحيم بهم، وهم مفتقرون إليه على الدوام في جميع أحوالهم؛ فلا غنى لهم عنه طرفة عين.

وقوله: ﴿يَوْمَئِذٍ لَا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا﴾ ﴿١١٤﴾؛ أي: لا يشفع أحد عنده من الخلق إلا من أذن له في الشفاعة، ولا يأذن إلا لمن رضي قوله؛ أي: شفاعته؛ من الأنبياء والمرسلين وعباده المقربين فيمن ارتضى قوله وعمله، وهو المؤمن المخلص؛ فإذا اختلف واحد من هذه الأمور؛ فلا سبيل لأحد إلى شفاعته من أحد.

﴿١١٥﴾ و﴿١١٦﴾ وينقسم الناس في ذلك الموقف قسمين: ظالمين بكفرهم وشرهم؛ فهؤلاء لا ينالهم إلا الخيبة

(١) البخاري (٦٠٠٠)، مسلم (٢٧٥٢).

(٢) البخاري (٥٩٩٩)، مسلم (٢٧٥٤).

سورة طه

طه

فَتَعَلَىٰ آلَهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ وَلَا تَجْعَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ، وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴿١١٥﴾ وَلَقَدْ عَاهَدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِنْ قَبْلِ فَنَسَىٰ وَلَمْ يُجِدْ لَهُ عَزْمًا ﴿١١٦﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ ﴿١١٧﴾ فَقُلْنَا يَنْتَهِدُمْ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكُمْ وَلِرِزْوَانِكُمْ فَلَا تُخْرِجُوهُ مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰ ﴿١١٨﴾ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٩﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَصْحَىٰ ﴿١٢٠﴾ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَنْتَهِدُمْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبَلَىٰ ﴿١٢١﴾ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءُ تُهُمَا وَطَافَا بَيْنَهُمَا مِنَ الْجَنَّةِ وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ ﴿١٢٢﴾ ثُمَّ أَجْنَبَهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٣﴾ قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٤﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَنِّي ذُكِّرْ فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٥﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا ﴿١٢٦﴾

٣٢٠

حين يتلوه عليك جبريل، واصبر حتى يفرغ منه؛ فإذا فرغ منه؛ فاقراه؛ فإن الله قد ضمن لك جمعه في صدرك وقراءتك إياه؛ كما قال تعالى: ﴿لَا تَحْزَنْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَجْعَلَ بِهِ﴾ ﴿١١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ﴿١١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْتَهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ﴿١١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ ﴿١١٩﴾ [القيامة: ١٦-١٩]. ولما كانت عجلته ﷺ على تلقف الوحي ومبادرته إليه تدل على محبته التامة للعلم وحرصه عليه؛ أمره تعالى أن يسأله زيادة العلم؛ فإن العلم خير، وكثرة الخير مطلوبة، وهي من الله، والطريق إليها الاجتهاد والشوق للعلم وسؤال الله والاستعانة به والافتقار إليه في كل وقت.

ويؤخذ من هذه الآية الكريمة الأدب في تلقي العلم، وأن المستمع للعلم ينبغي له أن يتأنى ويصبر حتى يفرغ المملي والمعلم من كلامه المتصل بعبءه ببعض؛ فإذا فرغ منه؛ سأل إن كان عنده سؤال، ولا يبادر بالسؤال وقطع كلام ملقي العلم؛ فإنه سبب للحرمان، وكذلك المستول ينبغي له أن يستملي سؤال السائل ويعرف المقصود منه قبل الجواب؛ فإن ذلك سبب لإصابة الصواب.

﴿وَلَقَدْ عَاهَدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِنْ قَبْلِ فَنَسَىٰ وَلَمْ يُجِدْ لَهُ عَزْمًا﴾ ﴿١١٦﴾.

﴿١١٥﴾ أي: ولقد وصينا آدم وأمرناه وعاهدنا إليه عهداً ليقوم به، فالتزمه وأذعن له وانقاد وعزم على القيام به، ومع ذلك نسي ما أمر به، وانتقضت عزمته المحكمة، فجري عليه ما جرى، فصار عبرة للذريته، وصارت طبائعهم مثل طبيعة آدم؛ نسي فنسيت ذريته، وخطى فخطئوا، ولم يثبت على العزم المؤكد وهم كذلك، وبادر بالتوبة من خطيئته، وأقر بها، واعترف بغفرت له، ومن يشابه أباه فما ظلم.

ثم ذكر تفصيل ما أجمله، فقال:

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ﴾ ﴿١١٦﴾ فَقُلْنَا يَنْتَهِدُمْ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكُمْ وَلِرِزْوَانِكُمْ فَلَا تُخْرِجُوهُ مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰ ﴿١١٧﴾ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَصْحَىٰ ﴿١١٩﴾ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَنْتَهِدُمْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبَلَىٰ ﴿١٢٠﴾ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءُ تُهُمَا وَطَافَا بَيْنَهُمَا مِنَ الْجَنَّةِ وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ أَجْنَبَهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾.

﴿١١٦﴾ أي: لما أكمل خلق آدم بيده، وعلمه الأسماء، وفضله وكرمه؛ أمر الملائكة بالسجود له إكراماً وتعظيماً وإجلالاً، فبادروا بالسجود ممثلين، وكان بينهم إبليس، فاستكبر عن أمر ربه، وامتنع من السجود لآدم، وقال: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾ ﴿١٢٠﴾ [الأعراف: ١٢].

﴿١١٧﴾ - ﴿١١٩﴾ فتبينت حينئذ عداوته البليغة لآدم وزوجه لما كان عدواً لله، وظهر من حسده ما كان سبب العداوة، فحذر الله آدم وزوجه منه، وقال: لا ﴿يُخْرِجُكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰ﴾ ﴿١١٧﴾: إذا أخرجت منها؛ فإن لك فيها الرزق الهني والراحة التامة، ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ﴾ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَصْحَىٰ ﴿١١٩﴾: أي: تصيبك الشمس بحرهما، فضمن له استمرار الطعام والشراب والكسوة والماء وعدم التعب والنصب، ولكنه نهاه عن أكل شجرة معينة، فقال: ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ ﴿١٢٠﴾ [البقرة: ٣٥].

وله السعادة والأمن في الآخرة. وقد نفى عنه الخوف والحزن في آية أخرى بقوله: ﴿فَمَنْ يَسْعَ هَذَا فَلَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٣٨]، واتباع الهدى بتصديق الخبر وعدم معارضته بالشبه، وامتنال الأمر بالأيعارضة بشهوة.

﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي﴾؛ أي: كتابي الذي يُتذَكَّر به جميع المطالب العالية، وأن يتركه على وجه الإعراض عنه أو ما هو أعظم من ذلك؛ بأن يكون على وجه الإنكار له والكفر به. ﴿فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا﴾؛ أي: فإن جزاءه أن نجعل معيشته ضيقة مشقة، ولا يكون ذلك إلا عذابًا. وفسرت المعيشة الضنك بعذاب القبر، وأنه يضيق عليه قبره، ويحصر فيه، ويعذب جزاء لإعراضه عن ذكر ربه، وهذه إحدى الآيات الدالة على عذاب القبر.

والثانية: قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ﴾ [الأنعام: ٩٣] الآية.

والثالثة: قوله: ﴿وَلَنَذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَذَىٰ دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ﴾ [السجدة: ٢١].

والرابعة: قوله عن آل فرعون: ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾ [غافر: ٤٦] الآية.

والذي أوجب لمن فسرهما بعذاب القبر فقط من السلف وقصروها على ذلك - والله أعلم - آخر الآية، وأن الله ذكر في آخرها عذاب يوم القيامة.

وبعض المفسرين يرى أن المعيشة الضنك عامة في دار الدنيا؛ بما يصيب المعرض عن ذكر ربه من الهموم والغوم والآلام، التي هي عذاب معجل، وفي دار البرزخ، وفي الدار الآخرة؛ لإطلاق المعيشة الضنك وعدم تقيدها. ﴿وَنَحْشُرُهُ﴾؛ أي: هذا المعرض عن ذكر ربه ﴿يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمَى﴾ [الأنعام: ٩٣]؛ البصر على الصحيح؛ كما قال تعالى: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا﴾ [الإسراء: ٩٧].

﴿قَالَ﴾؛ على وجه الدل والمراجعة والتألم والضجر من هذه الحالة: ﴿رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ فِي دَارِ الدُّنْيَا بَصِيرًا﴾؛ فما الذي صيرني إلى هذه الحالة البشعة؟

﴿قَالَ كَذَلِكَ أَنتَكَ ءَايَتُنَا فَنَسِينَا﴾؛ بإعراضك عنها، ﴿وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَىٰ﴾؛ أي: تترك في العذاب؛ فأجيب بأن هذا هو عين عملك، والجزاء من جنس العمل؛ فكما عميت

﴿فَلَمْ يَزَلِ الشَّيْطَانُ يوسوس لهما ويزين أكل الشجرة ويقول: ﴿هَلْ أَذُكُّ عَلَىٰ شَجَرَةِ الْجَنَّةِ﴾؛ أي: الشجرة التي من أكل منها خلد في الجنة، ﴿وَمَلِكٌ لَا يَلِيَّ﴾؛ أي: لا ينقطع إذا أكلت منها.

﴿فَأَنَّهُ بِصُورَةٍ نَّاصِحٍ، وتلطف له في الكلام؛ فاغتر به آدم، فأكلا من الشجرة، فَسَقَطَ في أيديهما وسقطت كسوتهما، واتضحت معصيتهما، وبدا لكل منهما سوء الآخر بعد أن كانا مستورين، وجعلا يخصفان على أنفسهما من ورق أشجار الجنة؛ ليسترا بذلك، وأصابهما من الخجل ما الله به عليم. ﴿وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ، فَوُتِيَ﴾؛ فبادرا إلى التوبة والإنابة وقالوا:

﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّا تَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣]؛ فاجتبه ربه واختاره ويسر له التوبة، فتاب عليه وهدى، فكان بعد التوبة أحسن منه قبلها، ورجع كيد العدو عليه، وبطل مكره، فتمت النعمة عليه وعلى ذريته، ووجب عليهم القيام بها والاعتراف وأن يكونوا على حذر من هذا العدو المرباط الملازم لهم ليلاً ونهاراً، ﴿يَنبَىٰ آدَمُ لَا يَفْئِتَنَّكَ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكَ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَهُمَا إِنَّهُ يَرَئُكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ٢٧].

﴿قَالَ أَهْطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ﴾ [البقرة: ١٢٩]؛ وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمَى﴾ [البقرة: ١٢٩]؛ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا﴾ [البقرة: ١٢٩]؛ قَالَ كَذَلِكَ أَنتَكَ ءَايَتُنَا فَنَسِينَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَىٰ﴾ [البقرة: ١٢٩]؛ وَكَذَلِكَ يُخَذَّرُ مَنْ أَشْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِتَائِبَتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰ﴾ [البقرة: ١٢٩].

﴿يُخَبِّرُ تَعَالَى أَنَّهُ أَمَرَ آدَمَ وَإِبْلِيسَ أَنْ يَهْبِطَا إِلَى الْأَرْضِ، وأن يتخذوا؛ آدم وبنوه الشيطانَ عَدُوًّا لَهُمْ، فَيَأْخُذُوا الْحَذَرَ مِنْهُ، وَيُعِدُّوا لَهُ عِدَّتَهُ، وَيَحَارِبُوهُ، وَأَنَّهُ سَيَنْزِلُ عَلَيْهِمْ كِتَابٌ وَيُرْسِلُ إِلَيْهِمْ رُسُلًا يبينون لهم الطريق المستقيم الموصلة إليه وإلى جنته، ويحذرونهم من هذا العدو الممين، وأنهم أي وقت جاءهم ذلك الهدى الذي هو الكتب والرسل؛ فإن من اتبعه؛ اتبع ما أُمِر به، واجتنب ما نهي عنه؛ فإنه لا يضل في الدنيا ولا في الآخرة ولا يشقى فيهما، بل قد هدي إلى صراط مستقيم في الدنيا والآخرة،

عن ذكر ربك، وعشيت عنه، ونسيته ونسيت حظك منه؛ أعمى الله بصرك في الآخرة، فحشرت إلى النار أعمى أصم أبكم، وأعرض عنك، ونسيك في العذاب.

﴿وَلَذَلِكَ﴾؛ أي: هذا الجزاء نجزيه ﴿مَنْ أَشْرَفَ﴾؛ بأن تعدى الحدود وارتكب المحارم وجاوز ما أذن له، ﴿وَلَمْ يُؤْمِنْ بِتَابِتِ رَبِّهِ﴾؛ الدالة على جميع مطالب الإيمان دلالة واضحة صريحة؛ فالله لم يظلمه ولم يضع العقوبة في غير محلها، وإنما السبب إصراره وعدم إيمانه. ﴿وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ﴾؛ من عذاب الدنيا أضعافاً مضاعفة، ﴿وَأَبْقَى﴾؛ لكونه لا ينقطع؛ بخلاف عذاب الدنيا؛ فإنه منقطع؛ فالواجب الخوف والحذر من عذاب الآخرة.

﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسْجِكِهِمْ إِنْ فِي ذَلِكَ لَايَنْتِ لِأُولَى النَّهْيِ﴾.

﴿أَي:﴾ ﴿أَفَلَمْ يَهْدِ﴾؛ لهؤلاء المكذبين المعرضين ويدلهم على سلوك طريق الرشاد وتجنب طريق الغي والفساد ما أحل الله بالمكذبين قبلهم من القرون الخالية والأمم المتتابعة، الذين يعرفون قصصهم، ويتناقلون أسماهم، وينظرون بأعينهم مساكنهم من بعدهم؛ كقوم هود وصالح ولوط وغيرهم، وأنهم لما كذبوا رسلنا وأعرضوا عن كتبنا؛

﴿أَكْفَارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أُولَئِكَ أَمْ لَهُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ﴾. أصبناهم بالعذاب الأليم؛ فما الذي يؤمن هؤلاء أن يحل بهم ما حل بأولئك؟ [القم: ٤٣، ٤٤]: لا شيء من هذا كله، فليس هؤلاء الكفار خيراً من أولئك حتى يدفع عنهم العذاب بخيرهم، بل هم شر منهم، لأنهم كفروا بأشرف الرسل وخير الكتب، وليس لهم براءة مزبورة وعهد عند الله، وليسوا كما يقولون إن جمعهم ينفعهم ويدفع عنهم، بل هم أذل وأحق من ذلك؛ فإهلاك القرون الماضية بذنوبهم من أسباب الهداية؛ لكونها من الآيات الدالة على صحة رسالة الرسل الذين جاءوهم وبطلان ما هم عليه، ولكن ما كل أحد ينتفع بالآيات، إنما ينتفع بها أولو النهي؛ أي: العقول السليمة والفطر المستقيمة، والألباب التي تزجر أصحابها عما لا ينبغي.

﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُسَمًّى﴾ ﴿فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَى﴾.

﴿هذه تسلية للرسول وتصبير له عن المبادرة إلى إهلاك المكذبين المعرضين، وأن كفرهم وتكذيبهم سبب صالح لحلول العذاب بهم ولزومه لهم؛ لأن الله جعل العقوبات سبباً وناشئاً عن الذنوب ملازماً لها، وهؤلاء قد أتوا بالسبب، ولكن الذي أخره عنهم كلمة ربك المتضمنة لإمهالهم وتأخيرهم وضرب الأجل المسمى؛ فالأجل المسمى ونفوذ كلمة الله هو الذي أخر عنهم العقوبة إلى إبان وقتها، ولعلمهم يراجعون أمر الله فيتوب عليهم ويرفع عنهم العقوبة إذا لم تحقق عليهم الكلمة.﴾

﴿ولهذا أمر الله رسوله بالصبر على أذيتهم بالقول، وأمره أن يتعوض عن ذلك وليستعين عليه بالتسبيح﴾ ﴿بِحَمْدِ رَبِّهِ فِي هَذِهِ الْأَوْقَاتِ الْفَاضِلَةِ﴾ ﴿قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا﴾، وفي أطراف النهار أوله وآخره؛ عموم بعد خصوص، وأوقات ﴿أَيَّامٍ﴾ وساعاته، لعلك إن فعلت ذلك ترضى بما يعطيك ربك من الثواب العاجل والأجل، وليطمئن قلبك، وتقر عينك بعبادة ربك، وتسلى بها عن أذيتهم؛ فيخف حيتض عليك الصبر.

﴿وَلَذَلِكَ﴾؛ أي: هذا الجزاء نجزيه ﴿مَنْ أَشْرَفَ﴾؛ بأن تعدى الحدود وارتكب المحارم وجاوز ما أذن له، ﴿وَلَمْ يُؤْمِنْ بِتَابِتِ رَبِّهِ﴾؛ الدالة على جميع مطالب الإيمان دلالة واضحة صريحة؛ فالله لم يظلمه ولم يضع العقوبة في غير محلها، وإنما السبب إصراره وعدم إيمانه. ﴿وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ﴾؛ من عذاب الدنيا أضعافاً مضاعفة، ﴿وَأَبْقَى﴾؛ لكونه لا ينقطع؛ بخلاف عذاب الدنيا؛ فإنه منقطع؛ فالواجب الخوف والحذر من عذاب الآخرة.

تَكْفُلُنَا بِأَرْزَاقِ الْخَلَائِقِ كُلِّهِمْ؛ فكيف بمن قام بأمرنا واشتغل بذكرنا؟! ورزق الله عام للمتقي وغيره؛ فينبغي الاهتمام بما يجلب السعادة الأبدية، وهو التقوى، ولهذا قال: ﴿وَالْعَاقِبَةُ﴾: في الدنيا والآخرة ﴿لِلتَّقَى﴾: التي هي فعل المأمور وترك المنهي؛ فمن قام بها؛ كان له العاقبة؛ كما قال تعالى: ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقِينَ﴾ ﴿١٣١﴾ [الأعراف: ١٢٨].

﴿وَقَالُوا لَوْلَا يَأْتِينَا بِآيَاتٍ مِنْ رَبِّهِ أَوْلَمْ تَأْتِهِمْ بَيِّنَةٌ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَى﴾ ﴿١٣٢﴾ ﴿وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِنْ قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنُتَّبِعَ آيَاتِكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَذِلَّ وَنُحْزَرَ﴾ ﴿١٣٣﴾ ﴿قُلْ كُلُّ مُرْتَبَضٍ فَتَرْتَبُؤُا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَبُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ وَمَنِ اهْتَدَى﴾ ﴿١٣٤﴾.

﴿١٣٢﴾ أي: قال المكذبون للرسول ﷺ: هلا يأتينا بآية من ربه؛ يعنون آيات الاقتراح؛ كقولهم: ﴿وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَلْبُوعًا﴾ ﴿١٣٥﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا﴾ ﴿١٣٦﴾ أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسْفًا أَوْ تَأْتِيَ بِلَهُ الْوَالِدِ كَيْفًا فَيَلَا﴾ ﴿١٣٧﴾ [الإسراء: ٩٠-٩٢]، وهذا تعنت منهم وعناد وظلم؛ فإنهم هم والرسول ﷺ بشر عبيد لله؛ فلا يليق منهم الاقتراح بحسب أهوائهم، وإنما الذي يتزلها ويختار منها ما يختار بحسب حكمته هو الله، ولما كان قولهم: ﴿لَوْلَا يَأْتِينَا بِآيَاتٍ مِنْ رَبِّهِ﴾: يقتضي أنه لم يأتهم بآية على صدقه ولا بينة على حقه، وهذا كذب وافتراء؛ فإنه أتى من المعجزات الباهرات والآيات القاهرات ما يحصل ببعضه المقصود، ولهذا قال: ﴿أَوَلَمْ تَأْتِهِمْ﴾: إن كانوا صادقين في قولهم، وأنهم يطلبون الحق بدليله، ﴿بَيِّنَةٌ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَى﴾ ﴿١٣٣﴾؛ أي: هذا القرآن العظيم، المصدق لما في الصحف الأولى من التوراة والإنجيل والكتب السابقة، المطابق لها، المخبر بما أخبرت به، وتصديقه أيضًا مذكور فيها، ومبشر بالرسول ﷺ بها، وهذا كقولته تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ ﴿١٣٥﴾ [النكبات: ٥١]؛ فالآيات تنفع المؤمنين ويزداد بها إيمانهم وإيقانهم، وأما المعارضون عنها المعارضون لها؛ فلا يؤمنون بها ولا يتفعلون بها. ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ ﴿١٣٦﴾ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ ﴿١٣٧﴾ [يونس: ٩٦، ٩٧].

﴿وَلَا تُمَدِّنْ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ ﴿١٣٨﴾.

﴿١٣٨﴾ أي: ولا تمد ﴿عَيْنَيْكَ﴾ معجبًا ولا تكرر النظر مستحسنًا إلى أحوال الدنيا والممتعين بها من المأكّل والمشارب اللذيذة والملابس الفاخرة والبيوت المزخرفة والنساء المجملّة؛ فإن ذلك كله ﴿زَهْرَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾؛ تبتهج بها نفوس المغترّين، وتأخذ إعجابًا بأبصار المعرضين، ويتمتع بها بقطع النظر عن الآخرة القوم الظالمون، ثم تذهب سريعًا وتمضي جميعًا، وتقتل محبيها وعشاقها فيندمون حيث لا تنفع الندامة، ويعلمون ما هم عليه إذا قدموا يوم القيامة، وإنما جعلها الله فتنة واختبارًا ليعلم من يقف عندها ويغتر بها ومن هو أحسن عملًا. كما قال تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ ﴿٧﴾ وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرًّا﴾ ﴿٨﴾ [الكهف: ٧، ٨]. ﴿وَرِزْقُ رَبِّكَ﴾: العاجل من العلم والإيمان وحقائق الأعمال الصالحة، والأجل من النعيم المقيم والعيش السليم في جوار الرب الرحيم، ﴿خَيْرٌ﴾: مما متعنا به أزواجًا في ذاته وصفاته، ﴿وَأَبْقَى﴾ ﴿١٣٩﴾: لكونه لا ينقطع ﴿أَكُلْهَا دَائِمًا وَظِلُّهَا﴾ [الرعد: ٣٥]؛ كما قال تعالى: ﴿يَلْ تُوْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ ﴿١٤٠﴾ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ ﴿١٤١﴾ [الأعلى: ١٦، ١٧].

وفي هذه الآية إشارة إلى أن العبد إذا رأى من نفسه طموحًا إلى زينة الدنيا وإقبالًا عليها أن يذكرها ما أمامها من رزق ربه، وأن يوازن بين هذا وهذا.

﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا تَسْأَلْ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقَى﴾ ﴿١٤٢﴾.

﴿١٤٢﴾ أي: حث أهلك على الصلاة، وأزعجهم إليها من فرض وفل، والأمر بالشيء أمر بجميع ما لا يتم إلا به، فيكون أمرًا بتعليمهم ما يصلح الصلاة ويفسدها ويكملها. ﴿وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾: أي: على الصلاة بإقامتها بحدودها وأركانها وآدابها وخشوعها؛ فإن ذلك مشق على النفس، ولكن ينبغي إكراهها وجهادها على ذلك والصبر معها دائمًا؛ فإن العبد إذا أقام صلاته على الوجه المأمور به؛ كان لما سواها من دينه أحفظ وأقوم، وإذا ضيعها؛ كان لما سواها أضيع. ثم ضمن تعالى لرسوله ﷺ الرزق، وألا يشغله الاهتمام به عن إقامة دينه، فقال: ﴿نَحْنُ نَرْزُقُكَ﴾؛ أي: رزقك علينا، قد تكفلنا به كما

﴿١٣٤﴾ وإنما الفائدة في سوقها إليهم ومخاطبتهم بها لتقوم عليهم حجة الله، ولئلا يقولوا حين ينزل بهم العذاب: ﴿لَوْلَا أَرْسَلَتْ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنُتَّبِعَ آيَاتِكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَذِلَّ وَنُخْزَىٰ﴾ ﴿١٣٥﴾ بالعقوبة؛ فها قد جاءكم رسولي ومعه آياتي وبراهيني؛ فإن كنتم تقولون؛ فصدقوه.

﴿١٣٥﴾ قل: يا محمد مخاطبًا للمكذبين لك الذين يقولون تربصوا به رب المنون: ﴿قُلْ كُلُّ مُتَرَبِّصٍ﴾: فتربصوا بي الموت، وأنا أتربص بكم العذاب، ﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسَيْنَيْنِ﴾؛ أي: الظفر أو الشهادة؛ ﴿وَمَنْ تَرَبَّصْ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِندِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا﴾ [التوبة: ٥٢]. ﴿فَتَرَبَّصُوا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَبَ الصِّرَاطَ السَّوِيِّ﴾؛ أي: المستقيم، ﴿وَمَنْ أَهْتَدَىٰ﴾ ﴿١٣٥﴾: بسلوكه أنا أم أنتم؛ فإن صاحبه هو الفائز الراشد الناجي المفلح، ومن حاد عنه خاسر خائب معذب. وقد علم أن الرسول هو الذي بهذه الحالة، وأعداؤه بخلافه. والله أعلم.



تفسير سورة الأنبياء عليهم السلام

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿١﴾ أَقْرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴿٢﴾ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُجَدِّدٍ إِلَّا آسَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٣﴾ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسْرَأَ النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٤﴾ قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٥﴾

﴿١﴾ هذا تعجب من حالة الناس، وأنهم لا ينجع فيهم تذكير، ولا يراعون إلى نذير، وأنهم قد قرب حسابهم ومجازاتهم على أعمالهم الصالحة والطالحة، والحال أنهم ﴿فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾ ﴿٢﴾؛ أي: غفلة عما خلقوا له، وإعراض عما زجروا به، كأنهم للدنيا خلقوا، ولتمتع بها ولدوا، وأن الله تعالى لا يزال يجدد لهم التذكير والوعظ، ولا يزالون في غفلتهم وإعراضهم.

﴿٢﴾ ولهذا قال: ﴿مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُجَدِّدٍ﴾: يذكرهم ما ينفعهم ويحثهم عليه، وما يضرهم ويرهبهم منه. ﴿إِلَّا آسَمَعُوهُ﴾: سماعًا تقوم عليهم به الحجة، ﴿وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ ﴿٣﴾.

﴿٣﴾ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ؛ أي: قلوبهم غافلة معرضة لاهية بمطالبتها الدنيوية، وأبدانهم لاعبة، قد اشتغلوا بتناول الشهوات والعمل بالباطل والأقوال الرديئة، مع أن الذي ينبغي لهم أن يكونوا بغير هذه الصفة؛ ثَقِيلُ قُلُوبُهُمْ على أمر الله ونهيه، وتستمعه استماعًا تفقه المراد منه، وتسعى جوارحهم في عبادة ربهم التي خلقوا لأجلها، ويجعلون القيامة والحساب والجزاء منهم على بال؛ فبذلك يتم لهم أمرهم وتستقيم أحوالهم وتزكو أعمالهم. وفي معنى قوله: ﴿أَقْرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ﴾: قولان:

وأما جاء به شعرا! وكل من له أدنى معرفة بالواقع من حالة الرسول، ونظر في هذا الذي جاء به؛ جزم جزمًا لا يقبل الشك أنه أجل الكلام وأعلاه، وأنه من عند الله، وأن أحدًا من البشر لا يقدر على الإتيان بمثل بعضه؛ كما تحدى الله أعداءه بذلك ليعارضوه مع توفر دواعيهم لمعارضته وعداوته، فلم يقدرُوا على شيء من معارضته وهم يعلمون ذلك؛ وإلا فما الذي أقامهم وأقعدهم وأفض مضاجعهم ولبل ألسنتهم إلا الحق الذي لا يقوم له شيء، وإنما يقولون هذه الأقوال فيه حيث لم يؤمنوا به؛ تنفيرًا عنه لمن لم يعرفه، وهو أكبر الآيات المستمرة الدالة على صحة ما جاء به الرسول ﷺ وصدقه، وهو كاف شاف؛ فمن طلب دليلًا غيره أو اقترح آية من الآيات سواه؛ فهو جاهل ظالم مشبه لهؤلاء المعاندين الذين كذبوه، وطلبوا من الآيات الاقتراحية ما هو أضر شيء عليهم، وليس لهم فيها مصلحة؛ لأنهم إن كان قصدهم معرفة الحق إذا تبين دليله؛ فقد تبين دليله بدونها، وإن كان قصدهم التعجيز وإقامة العذر لأنفسهم إن لم يأت بما طلبوا؛ فإنهم بهذه الحالة على فرض إتيان ما طلبوا من الآيات لا يؤمنون قطعًا؛ فلو جاءتهم كل آية لا يؤمنون حتى يروا العذاب الأليم، ولهذا قال الله عنهم: ﴿فَلْيَأْنِ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يُؤْمِنُوا بِالْآيَاتِ وَلْيُذَكِّرُوا الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ (١) أي: كناية صالحة وعصا موسى ونحو ذلك.

﴿٢﴾ قال الله: ﴿مَاءَ أَمْنٍ قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا﴾؛ أي: بهذه الآيات المقترحة، وإنما سته تقتضي أن من طلبها، ثم حصلت له، فلم يؤمن؛ أن يعاجله بالعقوبة؛ فالأولون ما آمنوا بها، أفبؤ من هؤلاء بها؟! ما الذي فضلهم على أولئك؟! وما الخير الذي فيهم يقتضي الإيمان عند وجودها؟! وهذا الاستفهام بمعنى النفي؛ أي: لا يكون ذلك منهم أبدًا.

﴿٣﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِي إِلَيْهِمْ فَتَلَوْنَا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لَا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ ﴿٥﴾ ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ فَأَنْجَيْنَاهُمْ وَمَنْ نَشَاءُ وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ ﴿٦﴾

﴿٧﴾ - ﴿٨﴾ هذا جواب لشبه المكذبين للرسول القائلين: هلا كان ملكًا لا يحتاج إلى طعام وشراب، وتصرف في الأسواق! وهلا كان خالدًا! فإذا لم يكن كذلك؛ دل على أنه ليس برسول! وهذه شبه ما زالت في قلوب المكذبين للرسول، تشابهوا في الكفر؛ فتشابهت أقوالهم؛ فأجاب تعالى

أحدهما: أن هذه الأمة هي آخر الأمم، ورسولها آخر الرسل، وعلى أمته تقوم الساعة؛ فقد قرب الحساب منها بالنسبة لما قبلها من الأمم؛ لقوله ﷺ: «بعثت أنا والساعة كهاتين»؛ وقرن بين إصبعيه السبابة والتي تليها^(١).

والقول الثاني: أن المراد بقرب الحساب الموت، وأن من مات قامت قيامته ودخل في دار الجزاء على الأعمال، وأن هذا تعجب من كل غافل معرض لا يدري متى يفجؤه الموت صباحًا أو مساءً؛ فهذه حالة الناس كلهم؛ إلا من أدركته العناية الربانية، فاستعد للموت وما بعده.

ثم ذكر ما يتناجى به الكافرون الظالمون على وجه العناد ومقابلة الحق بالباطل، وأنهم تناجوا وتواطؤوا فيما بينهم أن يقولوا في الرسول ﷺ: إنه بشر مثلكم؛ فما الذي فضله عليكم وخصه من بينكم؟! فلو ادعى أحد منكم مثل دعواه؛ لكان قوله من جنس قوله، ولكنه يريد أن يتفضل عليكم ويرأس فيكم؛ فلا تطيعوه ولا تصدقوه، وإنه ساحر، وما جاء به من القرآن سحر؛ فانفروا عنه ونفروا الناس، وقولوا: ﴿فَأْتَاؤُكَ السَّحَرَ وَآتَاؤُكَ تَبْصُرُوكَ﴾ (٢)؛ هذا وهم يعلمون أنه رسول الله حقًا بما يشاهدون من الآيات الباهرة ما لم يشاهد غيرهم، ولكن حملهم على ذلك الشقاء والظلم والعناد.

﴿٣﴾ والله تعالى قد أحاط علمًا بما تناجوا به، وسيجازيهم عليه، ولهذا قال: ﴿قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ﴾: الخفي والجلي ﴿فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾؛ أي: في جميع ما احتوت عليه أقطارهما. ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ﴾: لسائر الأصوات باختلاف اللغات على تفنن الحاجات. ﴿الْعَلِيمُ﴾: بما في الضمائر، وأكثه السرائر.

﴿٤﴾ بَلْ قَالُوا أَضْغَتْ أَحْلَامٌ بَلْ أَقْرَبَهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْنِ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يُؤْمِنُوا بِالْآيَاتِ وَلْيُذَكِّرُوا الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٥﴾ ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ فَأَنْجَيْنَاهُمْ وَمَنْ نَشَاءُ وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ ﴿٦﴾

﴿٧﴾ يذكر تعالى اتفأك المكذبين بمحمد ﷺ وبما جاء به من القرآن العظيم، وأنهم سفهوه، وقالوا فيه الأقاويل الباطلة المختلفة؛ فتارة يقولون: أضغاث أحلام بمنزلة كلام النائم الهاذي الذي لا يحس بما يقول! وتارة يقولون: افتراه واختلقه وتقلبه من عند نفسه! وتارة يقولون: إنه شاعر

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ (١٠).

﴿١٠﴾ أي: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ﴾: أيها المرسل إليهم محمد بن عبد الله بن عبد المطلب ﴿كِتَابًا﴾: جليلاً وقرآناً مبيناً. ﴿فِيهِ ذِكْرُكُمْ﴾: أي: شرفكم وفخركم وارتفاعكم: إن تذكرتم به ما فيه من الأخبار الصادقة فاعتقدتموها، وامثلتم ما فيه من الأوامر، واجتنبتم ما فيه من النواهي؛ ارتفع قدركم وعظم أمركم. ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ (١١): ما ينفعكم وما يضركم؛ كيف لا ترضون ولا تعملون على ما فيه ذكركم وشرفكم في الدنيا والآخرة؟! فلو كان لكم عقل؛ لسلكتم هذا السبيل، فلما لم تسلكوه وسلكتم غيره من الطرق التي فيها ضعتكم وخستكم في الدنيا والآخرة وشقاوتكم فيها؛ علم أنه ليس لكم معقول صحيح ولا رأي راجح.

وهذه الآية مصداقها ما وقع؛ فإن المؤمنين بالرسول والذين تذكروا بالقرآن من الصحابة فمن بعدهم؛ حصل لهم من الرفعة والعلو الباهر والصيت العظيم والشرف على الملوك ما هو أمر معلوم لكل أحد؛ كما أنه معلوم ما حصل لمن لم يرفع بهذا القرآن رأساً، ولم يهتد به ويتزكى به من المقت والضعة والتدسية والشقاوة؛ فلا سبيل إلى سعادة الدنيا والآخرة إلا بالتذكر بهذا الكتاب.

﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَبْرٍ كَانَتْ ظِلْمَةً وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ﴾ (١٢) ﴿فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ﴾ (١٣) ﴿لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَيَّ مَا أَتْرَفْتُمْ فِيهِ وَمَسْكِكُمْ بَلَعَكُمْ نَسْتَلُونَ﴾ (١٤) ﴿قَالُوا يَنْوَلِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ (١٥) ﴿فَمَا زَالَتْ تِلْكَ دَعْوَاهُمْ حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَامِلِينَ﴾ (١٦).

﴿١٢﴾ يقول تعالى محذراً لهؤلاء الظالمين المكذبين للرسول بما فعل بالأمم المكذبة لغيره من الرسل: ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا﴾ أي: أهلكنا بعداب مستأصل ﴿مِنْ قَبْرٍ﴾: تلتفت عن آخرها، ﴿وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ﴾ (١٣).

﴿١٣﴾، وإن هؤلاء المهلكين لما أحسوا بعداب الله وعقابه وباشروهم نزولاً؛ لم يمكن لهم الرجوع، ولا طريق لهم إلى التزوع، وإنما ضربوا الأرض بأرجلهم ندماً وقلقاً وتحسراً على ما فعلوا، ف قيل لهم على وجه التهكم بهم:

عن هذه الشبه، لهؤلاء المكذبين للرسول، المقرين بإثبات الرسل قبله، ولو لم يكن إلا إبراهيم عليه السلام، الذي قد أقر بنبوته جميع الطوائف، والمشركون يزعمون أنهم على دينه وملته؛ بأن الرسل قبل محمد ﷺ كلهم من البشر الذين يأكلون الطعام ويمشون في الأسواق، وتطرأ عليهم العوارض البشرية من الموت وغيره، وأن الله أرسلهم إلى قومهم وأممهم، فصدقهم من صدقهم، وكذبهم من كذبهم، وأن الله صدقهم ما وعدهم به من النجاة والسعادة لهم ولأتباعهم، وأهلك المسرفين المكذبين لهم؛ فما بال محمد ﷺ تقام الشبه الباطلة على إنكار رسالته، وهي موجودة في إخوانه المرسلين، الذين يقر بهم المكذبون لمحمد؟! فهذا إلزام لهم في غاية الوضوح، وأنهم إن أقروا برسول من البشر، ولن يقرؤا برسول من غير البشر، أن شبههم باطلة، قد أبطلوها هم بإقرارهم بفسادها وتناقضهم بها.

فلو قدر انتقاهم هذا إلى إنكار نبوة البشر رأساً، وأنه لا يكون نبي إن لم يكن ملكاً مخلداً لا يأكل الطعام؛ فقد أجاب الله تعالى عن هذه الشبهة بقوله: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكًا لَفُصِّي الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يَنْظُرُونَ﴾ (٨) ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبِسُونَ﴾ (٩) [الأنعام: ٨، ٩]، وأن البشر لا طاقة لهم بتلقي الوحي من الملائكة، ﴿قَدْ لَوْ كَانَتْ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَسْمَعُونَ﴾ (١٠) ﴿مُظْمِئِينَ لِرَبِّنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَائِكَةٌ رُسُلًا﴾ (١١) [الإنعام: ٩٥]، فإن حصل معكم شك وعدم علم بحالة الرسل المتقدمين؛ فاسألوا أهل الذكر من الكتب السالفة؛ كاهل التوراة والإنجيل؛ يخبرونكم بما عندهم من العلم، وأنهم كلهم بشر من جنس المرسل إليهم.

وهذه الآية وإن كان سببها خاصاً بالسؤال عن حالة الرسل المتقدمين من أهل الذكر، وهم أهل العلم؛ فإنها عامة في كل مسألة من مسائل الدين أصوله وفروعه إذا لم يكن عند الإنسان علم منها أن يسأل من يعلمها؛ ففيه الأمر بالتعلم والسؤال لأهل العلم، ولم يؤمر بسؤالهم إلا لأنه يجب عليهم التعليم والإجابة عما عملوه.

وفي تخصيص السؤال بأهل الذكر والعلم نهي عن سؤال المعروف بالجهل وعدم العلم، ونهي له أن يتصدى لذلك. وفي هذه الآية دليل على أن النساء ليس منهن نبية؛ لا مريم ولا غيرها؛ لقوله: ﴿إِلَّا رِجَالًا﴾.

﴿لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَىٰ مَا أَتَرَقْتُمْ فِيهِ وَمَسْكِينِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (١٣)؛ أي: لا يفيدكم الركض والندم، ولكن؛ إن كان لكم اقتدار؛ فارجعوا إلى ما أترقتم فيه من اللذات والمشتهيات ومسآكنكم المزخرفات وديناكم التي غرتكم والهتكم حتى جاءكم أمر الله؛ فكونوا فيها متمكنين، وللذاتها جانين، وفي منازلكم مطمئنين معظمين؛ لعلكم أن تكونوا مقصودين في أموركم كما كنتم سابقاً مسئولين من مطالب الدنيا كحالاتكم الأولى، وهيهات!

﴿أَيْنَ الْوَصُولُ إِلَىٰ هَذَا وَقَدَفَاتِ الْوَقْتِ، وَحُلْ بِهِم الْعِقَابُ وَالْمَقْتُ، وَذَهَبَ عَنْهُمْ عَزَهُمْ وَشُرْفُهُمْ وَدَنِيَاهُمْ، وَحَضَرَهُمْ نَدَمُهُمْ وَتَحَسَّرَهُمْ؟! وَلِهَذَا﴾ قالوا يَبُولُنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿١٤﴾.

﴿فَمَا زَالَتْ تِلْكَ دَعْوَتُهُمْ﴾؛ أي: الدعاء بالويل والثبور والندم والإقرار على أنفسهم بالظلم وأن الله عادل فيما أحل بهم، ﴿حَتَّىٰ جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَامِدِينَ﴾ (١٥)؛ أي: بمنزلة النبات الذي قد حصد وأنيب؛ قد خمدت منهم الحركات، وسكنت منهم الأصوات؛ فاحذروا أيها المخاطبون، أن تستمروا على تكذيب أشرف الرسل، فيحل بكم كما حل بأولئك.

﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لِعَيْنٍ﴾ (١٦) ﴿لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْوًَا لَّأَتَّخِذْتَهُ مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا فَعَلِينَ﴾ (١٧).

﴿يَخْبِرُ تَعَالَىٰ أَنَّهُ مَا خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ عَبَثًا، وَلَا لَعِبًا مِنْ غَيْرِ فَائِدَةٍ، بَلْ خَلَقَهَا بِالْحَقِّ وَلِلْحَقِّ؛ لِيَسْتَدِلَّ بِهَا الْعِبَادَ عَلَىٰ أَنَّهُ الْخَالِقُ الْعَظِيمُ، الْمُدَبِّرُ الْحَكِيمُ، الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ، الَّذِي لَهُ الْكَمَالُ كُلُّهُ وَالْحَمْدُ كُلُّهَا وَالْعِزَّةُ كُلُّهَا، الصَّادِقُ فِي قِيلِهِ، الصَّادِقَةُ رِسْلُهُ فِيمَا تَخْبِرُ عَنْهُ، وَأَنَّهُ الْقَادِرُ عَلَىٰ خَلْقِهِمَا مَعَ سَعَتِهِمَا وَعَظَمَتِهِمَا، قَادِرٌ عَلَىٰ إِعَادَةِ الْأَجْسَادِ بَعْدَ مَوْتِهَا؛ لِيَجَازِيَ الْمُحْسِنَ بِإِحْسَانِهِ، وَالْمُسِيءَ بِإِسَاءَتِهِ.

﴿لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْوًَا﴾: على الفرض والتقدير المحال؛ ﴿لَّأَتَّخِذْتَهُ مِنْ لَدُنَّا﴾؛ أي: من عندنا، ﴿إِنْ كُنَّا فَعَلِينَ﴾ (١٧)؛ ولم نطلعكم على ما فيه عبث ولهو؛ لأن ذلك نقص ومثل سوء لا نحب أن نريه إياكم؛ فالسماوات والأرض اللذان بمرأى منكم على الدوام لا يمكن أن يكون القصد منهما العبث واللهو؛ كل هذا تنزل مع العقول الصغيرة وإقناعها بجميع الوجوه المقنعة؛ فسبحان الحليم الرحيم الحكيم في تنزيله الأشياء منازلها.

﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمْ الْأُولَىٰ مِمَّا نَصُفُونَ﴾ (١٨) ﴿وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِنْدَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ﴾ (١٩) ﴿يُسَبِّحُونَ أَكْثَلَ اللَّيْلِ وَالتَّهَارَ لَا يَقْرَءُونَ﴾ (٢٠).

﴿يَخْبِرُ تَعَالَىٰ أَنَّهُ تَكْفُلٌ بِإِحْقَاقِ الْحَقِّ وَإِطَالُ الْبَاطِلِ، وَإِنْ كَانَ بَاطِلٌ قَلِيلٌ وَجُودُ لَهُ؛ فَإِنَّ اللَّهَ يُنْزِلُ مِنَ الْحَقِّ وَالْعِلْمِ وَالْبَيَانِ مَا يَدْمَغُهُ فَيُضْمَحِلُّ وَيُبَيِّنُ لِكُلِّ أَحَدٍ بَطْلَانَهُ.﴾ (٢١) ﴿فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾؛ أي: مضمحل فإن. وهذا عام في جميع المسائل الدينية، لا يورد مبطل شبهة عقلية ولا نقلية في إحقاق باطل أو رد حق؛ إلا وفي أدلة الله من القواطع العقلية والنقلية ما يذهب ذلك القول الباطل ويقمعه؛ فإذا هو متبين بطلانه لكل أحد. وهذا يتبين باستقراء المسائل مسألة مسألة؛ فإنك تجدها كذلك.

﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لِعَيْنٍ﴾ (١٦) ﴿لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْوًَا لَّأَتَّخِذْتَهُ مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا فَعَلِينَ﴾ (١٧).

﴿يَخْبِرُ تَعَالَىٰ أَنَّهُ مَا خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ عَبَثًا، وَلَا لَعِبًا مِنْ غَيْرِ فَائِدَةٍ، بَلْ خَلَقَهَا بِالْحَقِّ وَلِلْحَقِّ؛ لِيَسْتَدِلَّ بِهَا الْعِبَادَ عَلَىٰ أَنَّهُ الْخَالِقُ الْعَظِيمُ، الْمُدَبِّرُ الْحَكِيمُ، الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ، الَّذِي لَهُ الْكَمَالُ كُلُّهُ وَالْحَمْدُ كُلُّهَا وَالْعِزَّةُ كُلُّهَا، الصَّادِقُ فِي قِيلِهِ، الصَّادِقَةُ رِسْلُهُ فِيمَا تَخْبِرُ عَنْهُ، وَأَنَّهُ الْقَادِرُ عَلَىٰ خَلْقِهِمَا مَعَ سَعَتِهِمَا وَعَظَمَتِهِمَا، قَادِرٌ عَلَىٰ إِعَادَةِ الْأَجْسَادِ بَعْدَ مَوْتِهَا؛ لِيَجَازِيَ الْمُحْسِنَ بِإِحْسَانِهِ، وَالْمُسِيءَ بِإِسَاءَتِهِ.

﴿لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْوًَا﴾: على الفرض والتقدير المحال؛ ﴿لَّأَتَّخِذْتَهُ مِنْ لَدُنَّا﴾؛ أي: من عندنا، ﴿إِنْ كُنَّا فَعَلِينَ﴾ (١٧)؛ ولم نطلعكم على ما فيه عبث ولهو؛ لأن ذلك نقص ومثل سوء لا نحب أن نريه إياكم؛ فالسماوات والأرض اللذان بمرأى منكم على الدوام لا يمكن أن يكون القصد منهما العبث واللهو؛ كل هذا تنزل مع العقول الصغيرة وإقناعها بجميع الوجوه المقنعة؛ فسبحان الحليم الرحيم الحكيم في تنزيله الأشياء منازلها.

﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمْ الْأُولَىٰ مِمَّا نَصُفُونَ﴾ (١٨) ﴿وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِنْدَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ﴾ (١٩) ﴿يُسَبِّحُونَ أَكْثَلَ اللَّيْلِ وَالتَّهَارَ لَا يَقْرَءُونَ﴾ (٢٠).

﴿يَخْبِرُ تَعَالَىٰ أَنَّهُ تَكْفُلٌ بِإِحْقَاقِ الْحَقِّ وَإِطَالُ الْبَاطِلِ، وَإِنْ كَانَ بَاطِلٌ قَلِيلٌ وَجُودُ لَهُ؛ فَإِنَّ اللَّهَ يُنْزِلُ مِنَ الْحَقِّ وَالْعِلْمِ وَالْبَيَانِ مَا يَدْمَغُهُ فَيُضْمَحِلُّ وَيُبَيِّنُ لِكُلِّ أَحَدٍ بَطْلَانَهُ.﴾ (٢١) ﴿فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾؛ أي: مضمحل فإن. وهذا عام في جميع المسائل الدينية، لا يورد مبطل شبهة عقلية ولا نقلية في إحقاق باطل أو رد حق؛ إلا وفي أدلة الله من القواطع العقلية والنقلية ما يذهب ذلك القول الباطل ويقمعه؛ فإذا هو متبين بطلانه لكل أحد. وهذا يتبين باستقراء المسائل مسألة مسألة؛ فإنك تجدها كذلك.

ثم قال: ولكم أيها الواصفون الله بما لا يليق به من اتخاذ الولد والصاحبة ومن الأنداد والشركاء حظكم من ذلك ونصيبكم، الذي تدركون ﴿الْوَيْلُ﴾ والندامة والخسران. ليس لكم مما قلتم فائدة، ولا يرجع عليكم بعائدة تؤملونها، وتعملون لأجلها، وتسعون في الوصول إليها؛ إلا عكس مقصودكم، وهو الخيبة والحرمان.

﴿١٩﴾ ثم أخبر أنه له ملك السماوات والأرض وما بينهما؛ فالكل عبيده ومماليكه، فليس لأحد منهم ملك ولا قسط من الملك ولا معاونة عليه، ولا يشفع إلا بإذن الله؛ فكيف يتخذ من هؤلاء آلهة؟! وكيف يجعل لله منها ولد؟! فتعالى وتقدس المالك العظيم الذي خضعت له الرقاب، وذلت له الصعاب، وخشعت له الملائكة المقربون، وأذعنوا له بالعبادة الدائمة المستمرة أجمعون؛ ولهذا قال: ﴿وَمَنْ عِنْدَهُ﴾؛ أي: من الملائكة، ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحِيرُونَ﴾ ﴿٢٠﴾؛ أي: لا يملون، ولا يسأمون لشدة رغبتهم وكمال محبتهم وقوة أبدانهم.

﴿٢١﴾ ﴿يُسَبِّحُونَ أَكْثَلَ النَّهَارِ لَا يَفْتُرُونَ﴾ ﴿٢٢﴾؛ أي: مستغرقين في العبادة والتسبيح في جميع أوقاتهم، فليس في أوقاتهم وقت فارغ ولا خالٍ منها، وهم على كثرتهم بهذه الصفة.

وفي هذا من بيان عظمته وجلالة سلطانه وكمال علمه وحكمته ما يوجب ألا يعبد إلا هو، ولا تصرف العبادة لغيره.

﴿أَمْ آتَّخَذُوا إِلَهًا مِّنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنْشِرُونَ﴾ ﴿٢٣﴾ لَوْ كَانَ فِيهَا إِلَهٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسَبِّحْنَا اللَّهَ رَبَّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ ﴿٢٤﴾ لَا يَسْتَلُّ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْتَلُّونَ﴾ ﴿٢٥﴾ أَمْ آتَّخَذُوا مِن دُونِهِ إِلَهًا قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَذَا ذِكْرُ مَنْ مَعِيَ وَذِكْرُ مَنْ قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُمْ مُّعْرِضُونَ﴾ ﴿٢٦﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ: لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ ﴿٢٧﴾.

﴿٢٨﴾ لما بين تعالى كمال اقتداره وعظمته وخضوع كل شيء له؛ أنكر على المشركين الذين اتخذوا من دون الله آلهة من الأرض في غاية العجز وعدم القدرة. ﴿هُمْ يُنْشِرُونَ﴾ ﴿٢٩﴾: استفهام بمعنى النفي؛ أي: لا يقدرون على نشرهم وحشرهم؛ يفسرها قوله تعالى: ﴿وَآتَّخَذُوا مِن دُونِهِ

إِلَهًا لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا شُورًا﴾ ﴿٣٠﴾ [الفرقان: ٢٣]، ﴿وَآتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ إِلَهًا لَّهُمْ يُصْرُوتُ﴾ ﴿٣١﴾ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُنْدٌ مُّحْضَرُونَ﴾ ﴿٣٢﴾ [يس: ٧٤، ٧٥].

﴿٣٣﴾ فالشرك يعبد المخلوق الذي لا ينفع ولا يضر، ويدع الإخلاص لله الذي له الكمال كله وييده الأمر والنفع والضر، وهذا من عدم توفيقه وسوء حظه وتوفر جهله وشدة ظلمه؛ فإنه لا يصلح الوجود إلا على إله واحد؛ كما أنه لم يوجد إلا برب واحد، ولهذا قال: ﴿لَوْ كَانَ فِيهَا﴾؛ أي: في السماوات والأرض، ﴿إِلَهٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾: في ذاتهما، وفسد من فيهما من المخلوقات.

وبيان ذلك: أن العالم العلوي والسفلي على ما يرى في أكمل ما يكون من الصلاح والانتظام، الذي ما فيه خلل ولا عيب ولا ممانعة ولا معارضة، فدل ذلك على أن مدبره واحد، وربه واحد، وإلهه واحد؛ فلو كان له مدبران وربان أو أكثر من ذلك؛ لاختل نظامه وتقوضت أركانه؛ فإنهما يتمانعان ويتعارضان، وإذا أراد أحدهما تدبير شيء وأراد الآخر عدمه؛ فإنه محال وجود مرادهما معًا، ووجود مراد أحدهما دون الآخر يدل على عجز الآخر وعدم اقتداره، واتفاقهما على مراد واحد في جميع الأمور غير ممكن؛ فإذا يتعين أن القاهر الذي يوجد مراده وحده من غير ممانع ولا مدافع هو الله الواحد القهار، ولهذا ذكر الله دليل التمانع في قوله: ﴿مَا آتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِثْلٌ إِذَا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ مِّمَّا خَلَقَ وَلَمَّا لَبِثُوا عَلَى صُحُفٍ سَبِّحْنَا اللَّهَ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ ﴿٣٤﴾ [المؤمنون: ٩١]، ومنه على أحد التأويلين قوله تعالى: ﴿قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ إِلَهٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذَا أَتَيْنَا إِلَى دَرِ الْأَرْضِ سَبِيلًا﴾ ﴿٣٥﴾ سَبِّحْنَاهُ نَعْلَى عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ ﴿٣٦﴾ [الإسراء: ٤٢، ٤٣]؛ ولهذا قال هنا: ﴿فَسَبِّحْنَا اللَّهَ﴾؛ أي: تنزه وتقدس عن كل نقص لكماله وحده، ﴿رَبِّ الْعَرْشِ﴾: الذي هو سقف المخلوقات وأوسعها وأعظمها؛ فربوبية ما دونه من باب أولى، ﴿عَمَّا يَصِفُونَ﴾ ﴿٣٧﴾؛ أي: الجاحدون الكافرون من اتخاذ الولد والصاحبة، وأن يكون له شريك بوجه من الوجوه.

﴿٣٨﴾ ﴿لَا يَسْتَلُّ عَمَّا يَفْعَلُ﴾: لعظمته وعزته وكمال قدرته؛ لا يقدر أحد أن يمانعه أو يعارضه؛ لا بقول ولا بفعل، ولكمال حكمته ووضعه الأشياء مواضعها وإتقانها أحسن شيء يقدره العقل؛ فلا يتوجه إليه سؤال؛ لأن خلقه

ليس فيه خلل ولا إخلال. ﴿وَهُمْ﴾ أي: المخلوقون كلهم، ﴿يُسْأَلُونَ﴾ ٢٤: عن أفعالهم وأقوالهم؛ لعجزهم وفقرهم، ولكونهم عبيداً، قد استحقت أفعالهم وحركاتهم؛ فليس لهم من التصرف والتدبير في أنفسهم ولا في غيرهم مثقال ذرة.

ثم رجع إلى تهجين حال المشركين، وأنهم اتخذوا من دونه آلهة؛ فقل لهم موبخاً ومقرعاً: ﴿أَرَأَيْتُمْ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ ٢٥: أي: حجتكم ودليلكم على صحة ما ذهبتم إليه، ولن يجدوا لذلك سبيلاً، بل قد قامت الأدلة القطعية على بطلانه، ولهذا قال: ﴿هَذَا ذِكْرٌ مِّن مَّعْنَىٰ وَذِكْرٌ مِّن قَبْلِي﴾ ٢٦: أي: قد اتفقت الكتب والشرائع على صحة ما قلت لكم من إبطال الشرك؛ فهذا كتاب الله الذي فيه ذكر كل شيء بأدلة العقلية والنقلية، وهذه الكتب السابقة كلها براهين وأدلة لما قلت. ولما علم أنهم قامت عليهم الحجة والبرهان على بطلان ما ذهبوا إليه؛ علم أنه لا برهان لهم؛ لأن البرهان القاطع يُجْزَمُ أنه لا معارض له، وإلا؛ لم يكن قطعياً، وإن وجد معارضات؛ فإنها شبه لا تغني من الحق شيئاً. وقوله: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ﴾ ٢٧: أي: وإنما أقاموا على ما هم عليه تقليداً لأسلافهم؛ يجادلون بغير علم ولا هدى، وليس عدم علمهم الحق لخفائه وغموضه، وإنما ذلك لإعراضهم عنه، وإلا؛ فلو التفقوا إليه أدنى التفات؛ تبين لهم الحق من الباطل تبيناً واضحاً جلياً، ولهذا قال: ﴿فَهُمْ مُّعْرِضُونَ﴾ ٢٨.

ولما حول تعالى على ذكر المتقدمين، وأمر بالرجوع إليها في بيان هذه المسألة؛ بينها أتم تبين في قوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ ٢٩: فكل الرسل الذين من قبلك مع كتبهم زبدة رسالتهم وأصلها الأمر بعبادة الله وحده لا شريك له، وبيان أنه الإله الحق المعبود وأن عبادة ما سواه باطلة.

﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَنَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ﴾ ٣٠: لَا يَسْبِقُونَهُ، بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ٣١: يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ وَهُمْ مِن خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ ٣٢: وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِّن دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الْفَاطِلِينَ ٣٣.

يخبر تعالى عن سفاهة المشركين المكذبين للرسول، وأنهم زعموا - قبهم الله - أن الله اتخذ ولداً، فقالوا: الملائكة بنات الله! تعالى الله عن قولهم، وأخبر عن وصف الملائكة بأنهم عبيد مريوبون مدبرون، ليس لهم من الأمر شيء، وإنما هم مكرمون عند الله، قد أئزهم الله، وصبرهم من عبيد كرامته ورحمته، وذلك لما خصهم به من الفضائل والتطهير عن الرذائل، وأنهم في غاية الأدب مع الله والامتنال لأوامره.

ف ﴿لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ﴾ ٣٤: أي: لا يقولون قولاً مما يتعلق بتدبير المملكة حتى يقول الله؛ لكمال أدبهم وعلمهم بكمال حكمته وعلمه. ﴿وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ﴾ ٣٥: أي: مهما أمرهم؛ امتثلوا لأمره، ومهما دبرهم عليه؛ فعلوه؛ فلا يعصونه طرفة عين، ولا يكون لهم عمل بأهواء أنفسهم من دون أمر الله.

﴿٢٨﴾ ومع هذا؛ فالله قد أحاط بهم علمه، فعلم ﴿مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾؛ أي: أمورهم الماضية والمستقبلية؛ فلا خروج لهم عن علمه؛ كما لا خروج لهم عن أمره وتدبيره، ومن جزئيات وصفهم بأنهم لا يسبقونه بالقول أنهم لا يشفعون لأحد بدون إذنه ورضاه؛ فإذا أذن لهم وارتضى من يشفعون فيه شفّعوا فيه؛ ولكنه تعالى لا يرضى من القول والعمل إلا ما كان خالصاً لوجهه متبعاً فيه الرسول.

وهذه الآية من أدلة إثبات الشفاعة، وأن الملائكة يشفعون. ﴿وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ﴾ ﴿٢٨﴾؛ أي: خائفون وجلون، قد خضعوا لجلاله، وعنت وجوههم لعزه وجماله.

﴿٢٩﴾ فلما بين أنه لا حق لهم في الألوهية، ولا يستحقون شيئاً من العبودية بما وصفهم به من الصفات المقتضية لذلك؛ ذكر أيضاً أنه لا حظ لهم ولا بمجرد الدعوى، وأن من قال منهم: إني إله من دون الله على سبيل الفرض والتنزل. ﴿فَذَلِكَ تَجْزِيَةُ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ تَجْزَى الظَّالِمِينَ﴾ ﴿٢٩﴾: وأي ظلم أعظم من ادعاء المخلوق الناقص الفقير إلى الله من جميع الوجوه مشاركته الله في خصائص الإلهية والربوبية؟

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ أَسْمَوَاتٍ وَالْأَرْضَ كَانَتْا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ ﴿٣٠﴾.

﴿٣٠﴾ أي: أولم ينظر هؤلاء الذين كفروا بربهم، وجحدوا الإخلاص له في العبودية ما يدلهم دلالة مشاهدة على أنه الرب المحمود الكريم المعبود، فيشاهدون السماء والأرض، فيجدونهما ﴿رَتْقًا﴾؛ هذه ليس فيها سحب ولا مطر، وهذه هامة ميتة لا نبات فيها، ﴿فَفَتَقْنَاهُمَا﴾؛ السماء بالمطر، والأرض بالنبات. أليس الذي أوجد في السماء السحاب بعد أن كان الجو صافياً لا قرعة فيه، وأودع فيه الماء الغزير، ثم ساقه إلى بلد ميت قد اغبرت أرجاؤه وقطع عنه ماؤه، فأمطره فيها، فاهتزت وتحركت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج مختلف الأنواع متعدد المنافع؛ أليس ذلك دليلاً على أنه الحق وما سواه باطل، وأنه محيي الموتى، وأنه الرحمن الرحيم؟ ولهذا قال: ﴿أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ ﴿٣٠﴾؛ أي: إيماناً صحيحاً ما فيه شك ولا شرك.

ثم عدد تعالى الأدلة الأفقية، فقال:

﴿وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ ﴿٣١﴾ وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ ﴿٣٢﴾ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٣٣﴾.

﴿٣١﴾ أي: ومن الأدلة على قدرته وكماله ووحدانيته ورحمته أنه لما كانت الأرض لا تستقر إلا بالجبال؛ أرساها بها، وأوتدنها لثلا تميد بالعباد؛ أي: لثلا تضطرب؛ فلا يتمكن العباد من السكون فيها ولا حرثها ولا الاستقرار بها، فأرساها بالجبال، فحصل بسبب ذلك من المصالح والمنافع ما حصل.

ولما كانت الجبال المتصل بعضها ببعض قد اتصلت اتصالاً كثيراً جداً؛ فلو بقيت بحالها جبلاً شامخات وقللاً باذخات؛ لتعطل الاتصال بين كثير من البلدان؛ فمن حكمة الله ورحمته أن جعل بين تلك الجبال ﴿فِجَاجًا سُبُلًا﴾؛ أي: طرقاً سهلة لا حزنه، ﴿لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ ﴿٣١﴾: إلى الوصول إلى مطالبهم من البلدان، ولعلمهم يهتدون بالاستدلال بذلك على وحدانية المنان.

﴿٣٢﴾، ﴿٣٣﴾ وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا ﴿٣٢﴾: للأرض التي أنتم عليها ﴿مَحْفُوظًا﴾؛ من السقوط؛ ﴿إِنَّ اللَّهَ يُسَيِّدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا﴾ [فاطر: ٤١]؛ محفوظاً أيضاً من استراق الشياطين للسمع. ﴿وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ﴾ ﴿٣٢﴾؛ أي: غافلون لا هون.

وهذا عام في جميع آيات السماء؛ من علوها، وسعتها، وعظمتها، ولونها الحسن، وإتقانها العجيب، وغير ذلك من المشاهد فيها من الكواكب الثوابت والسيارات، وشمسها وقمرها النيرات، المتولد عنهما الليل والنهار، وكونهما دائماً في فلكهما سابحين. وكذلك النجوم، فتقوم بسبب ذلك منافع العباد من الحر والبرد والفصول، ويعرفون حساب عباداتهم ومعاملاتهم، ويستريحون في ليلهم ويهدءون ويسكنون، ويتشرون في نهارهم ويسعون في معاشهم؛ كل هذه الأمور إذا تدبرها اللبيب وأمعن فيها النظر؛ جزم جزماً لا شك فيه أن الله جعلها مؤقتة في وقت معلوم إلى أجل محتوم، يقضي العباد منها مآربهم، وتقوم بها منافعهم، وليستمتعوا ويتشبعوا، ثم بعد هذا ستزول وتضمحل ويفنيها الذي أوجدها ويسكنها الذي حركها، وينتقل المكلفون إلى

الْحَمْدُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَامِلِ

سورة الأنبياء

وَإِذَا رَأَوْا آيَاتِ الَّذِينَ كَفَرُوا إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا
 أَهَذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ وَهُمْ يَذْكُرُ الرَّحْمَنَ
 هُمْ كَافِرُونَ ﴿٣٦﴾ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَجٍ سَأْوَرِيكُمْ
 عَاقِبَتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ ﴿٣٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ
 إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣٨﴾ لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ
 لَا يَكْفُرُونَ عَنْ وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلَا عَنْ ظُهُورِهِمْ وَلَا
 هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٣٩﴾ بَلْ تَأْتِيهِمْ بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا
 يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٤٠﴾ وَلَقَدْ اسْتَهْزَأَ
 رُسُلُكَ مِنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ
 يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٤١﴾ قُلْ مَنْ يَكْلَأُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ
 الرَّحْمَنِ بَلْ هُمْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ مُعْرِضُونَ ﴿٤٢﴾ أَمْ
 لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُمْ مِنْ دُونِنَا لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ
 أَنْفُسِهِمْ وَلَا هُمْ مِنَّا يُصْحَبُونَ ﴿٤٣﴾ بَلْ مَتَّعْنَا هَؤُلَاءَ
 وَآبَاءَهُمْ حَتَّى طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي
 الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴿٤٤﴾

٣٢٥

دار غير هذه الدار؛ يجدون فيها جزاء أعمالهم كاملاً موقراً،
 ويعلم أن المقصود من هذه الدار أن تكون مزرعة لدار القرار،
 وأنها منزل سفر لا محل إقامة.

﴿ وَمَا جَعَلْنَا لِشَرٍّ مِنْ قَبْلِكَ الْخَلْدَ أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمْ
 الْخَالِدُونَ ﴾ ﴿٣٦﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ
 وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾ ﴿٣٧﴾.

﴿٣٦﴾ لما كان أعداء الرسول ﷺ يقولون: تريضوا به رب
 المنون؛ قال الله تعالى: هذا طريق مسلك ومعبود منهوك؛ فلم
 نجعل لبشر ﴿ مِنْ قَبْلِكَ ﴾ يا محمد ﴿ الْخَلْدَ ﴾ في الدنيا؛ فإذا
 مت؛ فسيبل أمثالك من الرسل والأنبياء والأولياء وغيرهم.
 ﴿ أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمْ الْخَالِدُونَ ﴾ ﴿٣٦﴾؛ أي: فهل إذا مت؛ خلدوا
 بعدك، فليتهم الخلود إذا إن كان، وليس الأمر كذلك، بل كل
 من عليها فاني.

﴿٣٧﴾ ولهذا قال: ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ﴾: وهذا يشمل سائر
 نفوس الخلائق، وأن هذا كأس لا بد من شربه وإن طال بالعبد
 المدى وعمر سنين، ولكن الله تعالى أوجد عباده في الدنيا،
 وأمرهم ونهاهم، وابتلاهم بالخير والشر والغنى والفقر والعز
 والذل والحياة والموت؛ فتنة منه تعالى؛ ﴿ لِنَبْلُوهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ
 عَمَلًا ﴾ ﴿٧﴾ [الكهف: ٧]، ومن يفتتن عند مواقع الفتن ومن ينجو،

ثم إلينا ترجعون، فنجازيكم بأعمالكم؛ إن خيراً فخير، وإن شراً فشر، ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَمٍ لِلْعَبِيدِ ﴾ ﴿٤١﴾ [نصفت: ٤١].

وهذه الآية تدل على بطلان قول من يقول ببقاء الخضر، وأنه مخلد في الدنيا؛ فهو قول لا دليل عليه، ومناقض للأدلة الشرعية.

﴿ وَإِذَا رَأَوْا آيَاتِ الَّذِينَ كَفَرُوا إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ وَهُمْ يَذْكُرُ الرَّحْمَنَ
 هُمْ كَافِرُونَ ﴾ ﴿٣٦﴾ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَجٍ سَأْوَرِيكُمْ
 عَاقِبَتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ ﴿٣٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنْتُمْ
 صَادِقِينَ ﴿٣٨﴾ لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لَا يَكْفُرُونَ عَنْ وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلَا عَنْ ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٣٩﴾
 بَلْ تَأْتِيهِمْ بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٤٠﴾ وَلَقَدْ اسْتَهْزَأَ رُسُلُكَ مِنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ
 سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ ﴿٤١﴾.

﴿٣٦﴾ وهذا من شدة كفرهم؛ فإن المشركين إذا رأوا رسول الله ﷺ؛ استهزءوا به وقالوا: ﴿ أَهَذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ ﴾؛
 أي: هذا المحقر بزعيمهم، الذي يسب آلِهَتكم ويذمها ويقع فيها؛ أي: فلا تبالوا به، ولا تحتفلوا به. هذا استهزاءهم واحتقارهم
 له بما هو من كماله؛ فإنه الأكمل الأفضل، الذي من فضائله ومكارمه إخلاص العبادة لله، وذم كل ما يعبد من دونه وتنقصه،
 وذكر محله ومكانته، ولكن محل الازدراء والاستهزاء هؤلاء الكفار الذين جمعوا كل خلق ذميم، ولو لم يكن إلا كفرهم
 بالرب وجحدهم لرسله، فصاروا بذلك من أخس الخلق وأرذلهم، ومع هذا؛ فذكرهم للرحمن الذي هو أعلى حالاتهم
 كافرون به؛ لأنه لا يذكرونه ولا يؤمنون به إلا وهم مشركون؛ فذكرهم كفر وشرك؛ فكيف بأحوالهم بعد ذلك؟! ولهذا قال:
 ﴿ وَهُمْ يَذْكُرُ الرَّحْمَنَ هُمْ كَافِرُونَ ﴾ ﴿٣٦﴾. وفي ذكر اسمه الرحمن هنا بيان لقباحة حالهم، وأنهم كيف قابلوا الرحمن -
 مسدي النعم كلها، ودافع النقم، الذي ما بالعباد من نعمة إلا منه، ولا يدفع السوء إلا هو - بالكفر والشرك.

عَلَيْهِمُ الْعُصْرُ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴿٤٤﴾

﴿٤٢﴾ يقول تعالى ذاكراً عجز هؤلاء الذين اتخذوا من دونه آلهة، وأنهم محتاجون مضطرون إلى ربهم الرحمن، الذي رحمته شملت البر والفاجر في ليلهم ونهارهم، فقال: ﴿قُلْ مَنْ يَكْفُرْكُمْ﴾؛ أي: يحرسكم ويحفظكم ﴿بِالْبَلِيلِ﴾؛ إذا كنتم نائمين على فرشكم وذهبت حواسكم، ﴿وَالنَّهَارِ﴾ وقت انتشاركم وغفلتكم ﴿مِنَ الرَّحْمَنِ﴾؛ أي: بدله غيره؛ أي: هل يحفظكم أحد غيره؟ لا حافظ إلا هو. ﴿بَلْ هُمْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ مُعْرِضُونَ﴾ ﴿٤٣﴾: فهذا أشركوا به، وإلا؛ فلو أقبلوا على ذكر ربهم، وتلقوا نصائحه؛ لهدوا لرشدهم، ووقفوا في أمرهم.

﴿٤٣﴾ ﴿أَرَأَيْتُمْ تَتَمَنَّوْنَ مِنْ دُونِنَا﴾؛ أي: إذا أردناهم بسوء؛ هل من آلهتهم من يقدر على منعمهم من ذلك السوء والشر النازل بهم؟ ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنْفُسِهِمْ وَلَا هُمْ مِنَّا يُصْحَبُونَ﴾ ﴿٤٤﴾؛ أي: لا يعانون على أمورهم من جهننا، وإذا لم يعانون من الله؛ فهم مخذولون في أمورهم، لا يستطيعون جلب منفعة ولا دفع مضرة.

﴿٤٤﴾ والذي أوجب لهم استمرارهم على كفرهم وشركهم قوله: ﴿بَلْ مَتَّعْنَا هَؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُصْرُ﴾؛ أي: أمددناهم بالأموال والبنين، وأطلنا أعمارهم، فاشتغلوا بالتمتع بها، ولهو بها عما له خلقوا، وطال عليهم الأمد، فقس قلوبهم، وعظم طغيانهم، وتغلظ كفرانهم؛ فلو لفتوا أنظارهم إلى من عن يمينهم وعن يسارهم من الأرض؛ لم يجدوا إلا هالكاً، ولم يسمعوا إلا صوت ناعية، ولم يحسوا إلا بقرون متتابعة على الهلاك، وقد نصب الموت في كل طريق لاقتناص النفوس الأشراك، ولهذا قال: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾؛ أي: بموت أهلها وفنائهم شيئاً فشيئاً حتى يرث الله الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين؛ فلو رأوا هذه الحالة؛ لم يغتروا ويستمروا على ما هم عليه. ﴿أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ ﴿٤٥﴾: الذين بوسعهم الخروج عن قدر الله، وبطاعتهم الامتناع عن الموت؟ فهل هذا وصفهم حتى يغتروا بطول البقاء؟ أم إذا جاءهم رسول ربهم، لقبض أرواحهم، أذعنوا وذلوا ولم يظهر منهم أدنى معانعة؟

﴿٣٧﴾ ﴿خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ﴾؛ أي: خلق عجولاً، يبادر الأشياء، ويستعجل بوقوعها؛ فالمؤمنون يستعجلون عقوبة الله للكافرين ويتباطئون، والكافرون يتولون ويستعجلون بالعذاب تكديماً وعناداً ويقولون: ﴿مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ ﴿٣٨﴾، والله تعالى يمهّل ولا يهمل، ويحلم ويجعل لهم أجلاً مؤقتاً، ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْذِنُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ ﴿٣٩﴾ [الأعراف: ٣٤]. ولهذا قال: ﴿سَأُورِيكُمْ آيَاتِي﴾؛ أي: في انتقامي ممن كفر بي وعصاني، ﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ﴾ ﴿٣٧﴾: ذلك.

﴿٣٨﴾ وكذلك الذين كفروا يقولون: ﴿مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ ﴿٣٨﴾: قالوا هذا القول اغتراراً ولما يحقّ عليهم العقاب وينزل بهم العذاب.

﴿٣٩﴾ فلو ﴿يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ حالهم الشنيعة ﴿حِينَ لَا يَكْفُرُونَ عَنْ وُجُوهِِهِمُ النَّارَ وَلَا عَنْ ظُهُورِهِمْ﴾؛ إذ قد أحاط بهم من كل جانب، وغشيه من كل مكان، ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ ﴿٣٩﴾؛ أي: لا ينصرهم غيرهم؛ فلا نصروا، ولا انتصروا.

﴿٤٠﴾ ﴿بَلْ تَأْتِيهِمُ النَّارُ﴾ ﴿بَغْتَةً فَتَبْهِتُهُمْ﴾: من الانزعاج والذعر والخوف العظيم. ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا﴾: إذ هم أذل وأضعف من ذلك. ﴿وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ ﴿٤١﴾؛ أي: يمهلون فيؤخر عنهم العذاب؛ فلو علموا هذه الحالة حق المعرفة؛ لما استعجلوا بالعذاب، ولخافوه أشد الخوف، ولكن لما ترحل عنهم هذا العلم؛ قالوا ما قالوا.

﴿٤١﴾ ولما ذكر استهزاءهم برسوله بقولهم: ﴿أَهَذَا الَّذِي يَدْعُنَا إِلَى اللَّهِ تَعَالَى﴾؛ سلاه بأن هذا دأب الأمم السالفة مع رسلهم، فقال: ﴿وَلَقَدْ أَسْتَهْزِئُ بِرُسُلٍ مِن قَبْلِكَ فَكَفَّ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ﴾؛ أي: نزل بهم، ﴿مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ ﴿٤٢﴾؛ أي: نزل بهم العذاب وتقطعت عنهم الأسباب؛ فليحذر هؤلاء أن يصيبهم ما أصاب أولئك المكذبين.

﴿قُلْ مَنْ يَكْفُرْكُمْ بِالْبَلِيلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَنِ بَلْ هُمْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ مُعْرِضُونَ﴾ ﴿٤٣﴾ ﴿أَرَأَيْتُمْ تَتَمَنَّوْنَ مِنْ دُونِنَا لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنْفُسِهِمْ وَلَا هُمْ مِنَّا يُصْحَبُونَ﴾ ﴿٤٤﴾ بَلْ مَتَّعْنَا هَؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى طَالَ

سورة الأنبياء

الأنبياء

قُلْ إِنَّمَا أُنذِرُكُمْ بِالْوَحْيِ وَلَا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ ﴿٤٥﴾ وَلَكِنْ مَسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يُوَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٤٦﴾ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ ﴿٤٧﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيئَةً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَهُمْ مِنْ أَلْسَاعَةِ مُسْهِفُونَ ﴿٤٩﴾ وَهَذَا ذِكْرٌ مُبَارَكٌ أَنْزَلْنَاهُ أَفَأَنْتُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ ﴿٥٠﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَشْرَكَاءَ آبَاءَكُمْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٥٤﴾ قَالُوا أَحِثْنَا بِالحِقِّ آمْرًا نَتَّبِعَ مِنَ الْغَايِبِ ﴿٥٥﴾ قَالَ تِلْكَ رِيبُكُم مِّنَ التَّائِبِينَ ﴿٥٦﴾ وَالْأَرْضَ الَّتِي فُطِرْتُمْ فِيهَا عَلَىٰ ذِكْرِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٥٧﴾ وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَانَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُولُوا مَدْيَنَ ﴿٥٨﴾

٢٢٦

﴿قُلْ إِنَّمَا أُنذِرُكُمْ بِالْوَحْيِ وَلَا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ﴾ ﴿٤٥﴾ وَلَكِنْ مَسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يُوَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٤٦﴾.

﴿٤٥﴾ أي: ﴿قُلْ﴾: يا محمد للناس كلهم: ﴿إِنَّمَا أُنذِرُكُمْ بِالْوَحْيِ﴾: أي: إنما أنا رسول، لا آتيكم بشيء من عندي، ولا عندي خزائن الله، ولا أعلم الغيب، ولا أقول إني ملك، وإنما أنذركم بما أوحاه الله لي؛ فإن استجبتم فقد استجبتم لله، وسيبئكم على ذلك، وإن أعرضتم وعارضتم؛ فليس بيدي من الأمر شيء، وإنما الأمر لله، والتقدير كله لله. ﴿وَلَا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ﴾: أي: الأصم لا يسمع صوتاً؛ لأن سمعه قد فسد وتعطل، وشرط السماع مع الصوت أن يوجد محل قابل لذلك. كذلك الوحي سبب لحياة القلوب والأرواح وللغة عن الله، ولكن إذا كان القلب غير قابل لسماع الهدى؛ كان بالنسبة للهدى والإيمان بمنزلة الأصم بالنسبة إلى الأصوات؛ فهو لاء المشركون صم عن الهدى؛ فلا يستغرب عدم اهتدائهم، خصوصاً في هذه الحالة التي لم يأتهم العذاب، ولا مسهم ألمه.

﴿٤٦﴾ فلو مسهم ﴿نَفْحَةٌ مِنْ عَذَابِ رَبِّكَ﴾؛ أي: ولو جزء يسير، ولا يسير من عذابه؛ ﴿لَيَقُولُنَّ يُوَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ ﴿٤٦﴾: أي: لم يكن قولهم إلا الدعاء بالويل والثبور والندم والاعتراف بظلمهم وكفرهم واستحقاقهم العذاب.

﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ﴾ ﴿٤٧﴾.

﴿٤٧﴾ يخبر تعالى عن حكمه العدل وقضائه القسط بين عباده إذا جمعهم يوم القيامة، وأنه يضع لهم الموازين العادلة التي يبين فيها مفايل الدر الذي توزن به الحسنات والسيئات؛ ﴿فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ﴾: مسلمة ولا كافرة ﴿شَيْئًا﴾: بأن تنقص من حسناتها أو يزداد في سيئاتها، ﴿وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ﴾ التي هي أصغر الأشياء وأحقرها من خير أو شر ﴿أَتَيْنَا بِهَا﴾ آتينا بها وأحضرناها، ليجازى بها صاحبها؛ كقوله: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ ﴿٧﴾ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ ﴿٨﴾ [الزلزلة: ٧، ٨]، ﴿وَيَقُولُونَ يُوَيْلَنَا مَا هَذَا الْكِتَابُ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا﴾ [الكهف: ٤٩]. ﴿وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ﴾ ﴿٥٧﴾؛ يعني بذلك نفسه الكريمة؛ فكفى بها حاسباً؛ أي: عالماً بأعمال العباد، حافظاً لها، مثبتاً لها في الكتاب، عالماً بمقاديرها ومقادير ثوابها وعقابها واستحقاقها، موصلاً للعمال جزاءها.

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيئَةً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ﴾ ﴿٤٨﴾ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَهُمْ مِنْ أَلْسَاعَةِ مُسْهِفُونَ ﴿٤٩﴾ وَهَذَا ذِكْرٌ مُبَارَكٌ أَنْزَلْنَاهُ أَفَأَنْتُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ ﴿٥٠﴾.

﴿٤٨﴾ كثيراً ما يجمع تعالى بين هذين الكتابين الجليلين اللذين لم يطرق العالم أفضل منهما ولا أعظم ذكراً ولا أبرك ولا أعظم هدىً وبياناً، وهما التوراة والقرآن، فأخبر أنه أتى موسى أصلاً وهارون تبعاً الفرقان، وهو التوراة الفارقة بين الحق والباطل والهدى والضلال، وأنها ﴿ضِيئَةٌ﴾؛ أي: نور يهتدي به المهتدون، ويأتى به السالكون، وتعرف به الأحكام، ويميز به

الله ملكوت السماوات والأرض، وأعطاه من الرشد الذي كمل به نفسه، ودعا الناس إليه، ما لم يؤته أحدًا من العالمين، غير محمد، وأضاف الرشد إليه لكونه رشدًا بحسب حاله وعلو مرتبته، وإلا؛ فكل مؤمن له من الرشد بحسب ما معه من الإيمان. ﴿وَكُنَّا بِهِ عِلْمِينَ﴾؛ أي: أعطيناه رشده، واختصصناه بالرسالة والخلة، واصطفيناه في الدنيا والآخرة؛ لعلنا أنه أهل لذلك وكفء له؛ لذكائه وذكائه.

ولهذا ذكر محاجته لقومه، ونهيه عن الشرك، وتكسير الأصنام وإلزامهم بالحجة، فقال:

﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ﴾: التي مثلتموها؛ نحتموها بأيديكم على صور بعض المخلوقات، ﴿الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ﴾؛ مقيمون على عبادتها، ملازمون لذلك؛ فما هي؟ وأي فضيلة ثبتت لها؟ وأين عقولكم التي ذهبت حتى أفنيت أوقاتكم بعبادتها، والحال أنكم مثلتموها ونحتموها بأيديكم؛ فهذا من أكبر العجائب؛ تعبدون ما تتحتون؟!

﴿فَأَجَابُوا بِغَيْرِ حُجَّةٍ﴾ جواب العاجز الذي ليس بيده أدنى شبهة، فقالوا: ﴿وَجَدْنَا آبَاءَنَا فَعَلْنَا كَمَا فَعَلُوا﴾: كذلك يفعلون فسلكتنا سبيلهم، واتبعناهم على عبادتها!! ومن المعلوم أن فعل أحد من الخلق سوى الرسل ليس بحجة ولا تجوز به القدوة، خصوصًا في أصل الدين وتوحيد رب العالمين.

﴿وَلَهَذَا قَالَ لَهُمُ ابْرَاهِيمُ مَثَلًا لِّلْجَمِيعِ﴾: لقد كنتم أنتم وآبائكم في ضلال مبين؛ أي: ضلال بين واضح، وأي ضلال أبلغ من ضلالهم في الشرك وترك التوحيد؟! أي: فليس ما قلتم يصلح للتمسك به، وقد اشركتم وإياهم في الضلال الواضح البين لكل أحد.

﴿قَالُوا﴾: على وجه الاستغراب لقوله، والاستعظام لما قال، وكيف بادأهم بتسفيهم وتسفيه آبائهم: ﴿أَجِئْنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّائِيِينَ﴾؛ أي: هذا القول الذي قلته والذي جئتنا به: هل هو حق وجد، أم كلامك لنا كلام لاعب مستهزئ لا يدري ما يقول؟! وهذا الذي أرادوا، وإنما ردوا الكلام بين الأمرين لأنهم نزلوه منزلة المتقرر المعلوم عند كل أحد، أن الكلام الذي جاء به إبراهيم كلام سفيه لا يعقل ما يقول.

﴿فرد عليهم إبراهيم ردًا بين به وجه سفيهم وقلة عقولهم، فقال: ﴿بَلْ زَكَّرُ رَبِّيَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ﴾

بين الحلال والحرام، وينير في ظلمة الجهل والبدع والغواية وذكرًا للمتقين؛ يتذكرون به ما ينفعهم وما يضرهم، ويتذكر به الخير والشر، وخص المتقين بالذكر، لأنهم المنتفعون بذلك علمًا وعملاً.

﴿ثُمَّ فسر المتقين فقال: ﴿الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ﴾؛ أي: يخشونه في حال غيبتهم وعدم مشاهدة الناس لهم؛ فمع المشاهدة أولى، فيتورعون عما حرم، ويقومون بما أزم. ﴿وَهُمْ مِنَ السَّاعَةِ مَشْفُوقُونَ﴾؛ أي: خائفون وجلون؛ لكمال معرفتهم بربهم، فجمعوا بين الإحسان والخوف، والعطف هنا من باب عطف الصفات المتغايرات الواردة على شيء واحد وموصوف واحد.

﴿وَهَذَا﴾؛ أي: القرآن، ﴿ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنْزَلْنَاهُ﴾: فوصفه بوصفين جليلين: كونه ذكرًا يتذكر به جميع المطالب من معرفة الله بأسمائه وصفاته وأفعاله، ومن صفات الرسل والأولياء وأحوالهم، ومن أحكام الشرع من العبادات والمعاملات وغيرها، ومن أحكام الجزاء والجنة والنار، فيتذكر به المسائل والدلائل العقلية والنقلية، وسماه ذكرًا؛ لأنه يذكر ما ركزه الله في العقول والفطر من التصديق بالأخبار الصادقة، والأمر بالحسن عقلاً، والنهي عن القبيح عقلاً.

وكونه ﴿مُبَارَكٌ﴾ يقتضي كثرة خيراته ونماها وزيادتها، ولا شيء أعظم بركة من هذا القرآن؛ فإن كل خير ونعمة وزيادة دينية أو دنيوية أو أخروية؛ فإنها بسببه، وأثر عن العمل به؛ فإذا كان ذكرًا مباركًا؛ وجب تلقيه بالقبول والانقياد والتسليم، وشكر الله على هذه المنحة الجليلة، والقيام بها، واستخراج بركته؛ بتعلم ألفاظه ومعانيه.

ومقابلته بضد هذه الحالة؛ من الإعراض عنه، والإضراب عنه صفحًا، وإنكاره، وعدم الإيمان به؛ فهذا من أعظم الكفر وأشد الجهل والظلم، ولهذا أنكر تعالى على من أنكره، فقال: ﴿أَفَأَنْتُمْ لَهُ مُشْكِرُونَ﴾.

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عِلْمِينَ﴾؛ إلى آخر هذه القصة وهو قوله: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَبِيدِينَ﴾.

﴿لما ذكر تعالى موسى ومحمدًا صلى الله عليهما وسلم وكتابينهما؛ قال: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ﴾؛ أي: من قبل إرسال موسى ومحمد ونزول كتابيهما، فأراه

وَأَنَّا عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٥٦﴾: فجمع لهم بين الدليل العقلي والدليل السمعي: أما الدليل العقلي؛ فإنه قد علم كل أحد، حتى هؤلاء الذين جادلهم إبراهيم: أن الله وحده الخالق لجميع المخلوقات من بني آدم والملائكة والجن والبهائم والسموات والأرض المدبر لهم بجميع أنواع التدبير، فيكون كل مخلوق مفطوراً مدبراً متصرفاً فيه، ودخل في ذلك جميع ما عبد من دون الله، أفيلق عند من له أدنى مسكة من عقل وتميز أن يعبد مخلوقاً متصرفاً فيه، لا يملك نفعاً، ولا ضرراً، ولا موتاً، ولا حياة، ولا نشوراً، ويدع عبادة الخالق الرازق المدبر؟!

وأما الدليل السمعي؛ فهو المنقول عن الرسل عليهم الصلاة والسلام؛ فإن ما جاءوا به معصوم لا يغلط ولا يخبر بغير الحق، ومن أنواع هذا القسم شهادة أحد من الرسل على ذلك؛ فلهذا قال إبراهيم: ﴿وَأَنَّا عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ﴾؛ أي: أن الله وحده المعبود، وأن عبادة ما سواه باطل، ﴿وَمِنَ الشَّاهِدِينَ﴾: أي شهادة بعد شهادة الله أعلى من شهادة الرسل، خصوصاً أولي العزم منهم، خصوصاً خليل الرحمن؟

﴿٥٧﴾ ولما بين أن أصنامهم ليس لها من التدبير شيء؛ أراد أن يريهم بالفعل عجزها وعدم انتصارها، وليكيد كيدها يحصل به إقرارهم بذلك؛ فلهذا قال: ﴿وَنَآلَهُ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ﴾؛ أي: أكسرها على وجه الكيد، ﴿بَعْدَ أَنْ تُولَؤُمْ مَذْبُورِينَ﴾: عنها، إلى عيد من أعيادهم.

﴿٥٨﴾ فلما تولوا مذبحين؛ ذهب إليها بخفية، ﴿فَجَعَلَهُمْ جُودًا﴾؛ أي: كسراً وقطعاً، وكانت مجموعة في بيت واحد فكسرها كلها، ﴿إِلَّا كَبِيرًا هُمْ﴾؛ أي: إلا صنمهم الكبير؛ فإنه تركه لمقصد سيئ.

وتأمل هذا الاحتراز العجيب؛ فإن كل ممقوت عند الله لا يطلق عليه ألفاظ التعظيم إلا على وجه إضافته لأصحابه؛ كما كان النبي ﷺ إذا كتب إلى ملوك الأرض المشركين يقول: إلى عظيم الفرس... إلى عظيم الروم... ونحو ذلك ولم يقل: إلى العظيم! وهنا قال تعالى: ﴿إِلَّا كَبِيرًا هُمْ﴾، ولم يقل: كبيراً من أصنامهم؛ فهذا ينبغي التنبيه له والاحتراز من تعظيم ما حقره الله؛ إلا إذا أضيف إلى من عظمه. وقوله: ﴿لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ﴾: أي: ترك إبراهيم تكسير صنمهم هذا لأجل أن يرجعوا إليه، ويستملوا حاجته، ويلتفتوا إليها، ولا يعرضوا عنها، ولهذا قال في آخرها: ﴿فَرَجَعُوا إِلَىٰ أَنفُسِهِمْ﴾.

﴿٥٩﴾ فحين رأوا ما حل بأصنامهم من الإهانة والخزي؛ ﴿قَالُوا مَن فَعَلَ هَٰذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾: فرموا إبراهيم بالظلم الذي هم أولى به حيث كسرها، ولم يدروا أن تكسيه لها من أفضل مناقبه ومن عدله وتوحيده، وإنما الظالم من اتخذها آلهة، وقد رأى ما يفعل بها.

﴿٦٠﴾ ﴿قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ﴾ - أي: يعيهم ويذمهم، ومن هذا شأنه لا بد أن يكون هو الذي كسرها، أو أن بعضهم سمعه يذكر أنه سيكيدها - ﴿يَقَالُ لَهُ﴾: إبراهيم. ﴿٦١﴾

﴿٦١﴾ فلما تحققوا أنه إبراهيم؛ ﴿قَالُوا فَاتَّوَابُوا﴾؛ أي: بإبراهيم، ﴿عَلَىٰ آيَتِنَا النَّاسِ﴾؛ أي: بمرأى منهم وسماع، ﴿لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ﴾؛ أي: يحضرون ما يُصنع بمن كسر آلهتهم. وهذا الذي أراد إبراهيم وقصد: أن يكون بيان الحق بمشهد

سورة الأنبياء
فَجَعَلَهُمْ جُودًا إِلَّا كَبِيرًا هُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ
﴿٥٨﴾ قَالُوا مَن فَعَلَ هَٰذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ
قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ
﴿٦٠﴾ قَالُوا فَاتَّوَابُوا
عَلَىٰ آيَتِنَا النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿٦١﴾ قَالُوا أَأَتَتْكَ
هَٰذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ
هَٰذَا فَاسْتَأْذَنُوكُم مِّنْ أَنْ تَقُولُوا بَشَارُونَ ﴿٦٣﴾ فَرَجَعُوا إِلَىٰ
أَنفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ نَكَسُوا عَلَىٰ
رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَّا هَٰؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ
أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا
يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أَفَبِلَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلَا
تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ
فَاعِلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْنَا يَنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴿٦٩﴾
وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾ وَنَجَّيْنَاهُ
وَلَوْطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ ﴿٧١﴾ وَهَبْنَا
لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ ﴿٧٢﴾

من الناس؛ ليشاهدوا الحق وتقوم عليهم الحجة؛ كما قال موسى حين واعد فرعون: ﴿مَوْعِدُكُمْ يَوْمَ الزَّيْنَةِ وَأَنْ يُخَشِّرَ النَّاسَ شُجَىٰ﴾ ﴿٥٩﴾ [طه: ٥٩].

﴿٦٠﴾ فحين حضر الناس وأحضر إبراهيم؛ قالوا له: ﴿ءَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا﴾؛ أي: التفسير ﴿بِأَهْلَيْنَا يَتَّبِعُهِمْ﴾ ﴿٦١﴾؟ وهذا استفهام تقرير؛ أي: فما الذي جرأك؟ وما الذي أوجب لك الإقدام على هذا الأمر؟

﴿٦٢﴾ فقال إبراهيم والناس مشاهدون: ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا﴾؛ أي: كسرها غضباً عليها لما عبدت معه، وأراد أن تكون العبادة منكم لصلبكم الكبير وحده، وهذا الكلام من إبراهيم القصد منه إلزام الخصم وإقامة الحجة عليه، ولهذا قال: ﴿فَنَشْكُرُهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْظُرُونَ﴾ ﴿٦٣﴾، وأراد الأصنام المكسرة؛ أسألوها لم كسرت؟ والصنم الذي لم يكسر؛ أسألوه لأي شيء كسرها؟ إن كان عندهم نطق؛ فسيجيبونكم إلى ذلك، وأنا وأنتم وكل أحد يدري أنها لا تنطق، ولا تتكلم، ولا تنفع ولا تضر، بل ولا تنصر نفسها ممن يريد بها بأذى.

﴿٦٤﴾ ﴿فَرَحَعُوا إِلَىٰ أَنْفُسِهِمْ﴾؛ أي: ثابت عليهم عقولهم، ورجعت إليهم أحلامهم، وعلموا أنهم ضالون في عبادتها، وأقروا على أنفسهم بالظلم والشرك، ﴿فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمْ الظَّالِمُونَ﴾ ﴿٦٥﴾؛ فحصل بذلك المقصود، ولزمتهم الحجة بإقرارهم أن ما هم عليه باطل، وأن فعلهم كفر وظلم.

﴿٦٦﴾ ولكن لم يستمروا على هذه الحالة، ولكن ﴿فَكُفُّوا عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ﴾؛ أي: انقلب الأمر عليهم، وانتكست عقولهم، وضلت أحلامهم، فقالوا لإبراهيم: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ﴾ ﴿٦٧﴾؛ فكيف تهكم بنا، وتستعزى بنا، وتأمروا أن نسالها، وأنت تعلم أنها لا تنطق؟

﴿٦٨﴾ فقال إبراهيم موبخاً لهم ومعلنًا بشركهم على رؤوس الأَشْهَاد ومبينًا عدم استحقاق ألَهِتِهِم للعبادة: ﴿أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ﴾ ﴿٦٩﴾؛ فلا نفع ولا دفع.

﴿٧٠﴾ ﴿أَفِ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾؛ أي: ما أضلكم وأخسر صفقتكم وما أخسكم أنتم وما عبدتم من دون الله!! إن كنتم تعقلون عرفتم هذه الحال، فلما عدمتم العقل وارتكبتم الجهل والضلال على بصيرة؛ صارت البهائم أحسن حالاً منكم.

﴿٧١﴾ فحينئذ لما أفحمهم ولم يبينوا حجة؛ استعملوا قوتهم في معاقبته، ف ﴿قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ﴾ ﴿٧٢﴾؛ أي: اقتلوه أشنع القتل بالإنحراق غضباً لألَهِتكم ونصرة لها؛ فتعساً لهم تعساً، حيث عبدوا من أقروا أنه يحتاج إلى نصرهم واتخذوه إلهًا!!

﴿٧٣﴾ فانتصر الله لخليله لما ألقوه في النار، وقال لها: ﴿كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبراهيم﴾ ﴿٧٤﴾؛ فكانت عليه برداً وسلاماً، لم ينله فيها أذى، ولا أحس بمكره.

﴿٧٥﴾ ﴿وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا﴾؛ حيث عزموا على إحراقه، ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ الْأَخْسَرِينَ﴾ ﴿٧٦﴾؛ أي: في الدنيا والآخرة؛ كما جعل الله خليله وأتباعه هم الرابحين المفلحين.

﴿٧٧﴾ ﴿وَجَعَلْنَاهُ نَازِلًا﴾؛ وذلك أنه لم يؤمن به من قومه إلا لوط عليه السلام، قيل: إنه ابن أخيه، فنجاه الله، وهاجر ﴿إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ﴾ ﴿٧٨﴾؛ أي: الشام، فغادر قومه في بابل من أرض العراق، ﴿وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ ﴿٧٩﴾ [العنكبوت: ٢٦]. ومن بركة الشام أن كثيراً من الأنبياء كانوا فيها، وأن الله اختارها مهاجراً لخليله، وفيها أحد بيوته الثلاثة المقدسة، وهو بيت المقدس.

﴿٨٠﴾ ﴿وَوَعَدْنَا لَهُ﴾؛ حين اعتزل قومه، ﴿إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾؛ ابن إسحاق، ﴿نَافِلَةً﴾؛ بعدما كبر وكانت زوجته عاقراً، فبشرته الملائكة بإسحاق، ﴿وَمِنْ وَرَآءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ﴾ ﴿٨١﴾ [عود: ٧١]، ويعقوب هو إسرائيل الذي كانت منه الأمة العظيمة، وإسماعيل بن إبراهيم الذي كانت منه الأمة الفاضلة العربية، ومن ذريته سيد الأولين والآخرين. ﴿وَكُلًّا﴾؛ من إبراهيم وإسحاق ويعقوب، ﴿جَعَلْنَا صَالِحِينَ﴾ ﴿٨٢﴾؛ أي: قائمين بحقوقه وحقوق عباد.

﴿٨٣﴾ ومن صلاحهم أنه جعلهم أئمة يهدون بأمره، وهذا من أكبر نعم الله على عبده: أن يكون إماماً يهتدي به المهتدون، ويمشي خلفه السالكون، وذلك لما صبروا، وكانوا بآيات الله يوقنون.

وقوله: ﴿يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾؛ أي: يهدون الناس بديننا، لا يأمرهم بأهواء أنفسهم، بل بأمر الله ودينه واتباع مرضاته، ولا يكون العبد إماماً حتى يدعو إلى أمر الله.

﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ﴾؛ يفعلونها ويدعون الناس إليها، وهذا شامل للخيرات كلها من حقوق الله

الْحَمْدُ لِلَّهِ

سُورَةُ

وحقوق العباد، ﴿وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ﴾: هذا من باب عطف الخاص على العام؛ لشرف هاتين العبادتين وفضلهما، ولأن منكملهما كما أمر؛ كان قائماً بدينه، ومن ضيعهما؛ كان لما سواهما أضيع، ولأن الصلاة أفضل الأعمال التي فيها حقه، والزكاة أفضل الأعمال التي فيها الإحسان لخلقها.

﴿وَكَاذِبُوا لَنَا﴾؛ أي: لا لغيرنا ﴿عَبِيدِينَ﴾ ﴿٧٢﴾؛ أي: مديمين على العبادات القلبية والقولية والبدنية في أكثر أوقاتهم، فاستحقوا أن تكون العبادة وصفهم، فاتصفوا بما أمر الله به الخلق، وخلقهم لأجله.

﴿وَلَوْ طَاءَ آيَاتُنَا حُكْمًا وَعِلْمًا وَبَيَّنَّاهُ مِنَ الْقُرْآنِ الَّذِي كَانَتْ تَعْمَلُ الْخَبِيثَاتُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَسَقِينَ﴾ ﴿٧٣﴾ وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٧٤﴾.

﴿٧٤﴾ هذا ثناء من الله على رسوله لوط عليه السلام بالعلم الشرعي والحكم بين الناس بالصواب والسداد، وأن الله أرسله إلى قومه يدعوهم إلى عبادة الله وينهاهم عما هم عليه من الفواحش، فلبث يدعوهم، فلم يستجيبوا له، فقلب الله عليهم ديارهم، وعذبهم عن آخرهم؛ لأنهم ﴿كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَسَقِينَ﴾ ﴿٧٣﴾: كذبوا الداعي وتوعدوه بالإخراج، ونجى الله لوطاً وأهله، فأمره أن يسري بهم ليلاً ليعبدوا عن القرية، فسروا ونجوا من فضل الله عليهم ومته.

﴿٧٥﴾ ﴿وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا﴾: التي من دخلها كان من الأمنين من جميع المخاوف، النائلين كل خير وسعادة وبر وسرور وثناء، وذلك لأنه من الصالحين، الذين صلحت أعمالهم، وزكت أحوالهم، وأصلح الله فاسدهم، والصلاح هو السبب لدخول العبد برحمة الله؛ كما أن الفساد سبب لحرمانه الرحمة والخير، وأعظم الناس صلاحاً الأنبياء عليهم السلام، ولهذا يصفهم بالصلاح، وقال سليمان عليه السلام: ﴿وَأَدْخَلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾ ﴿١٩﴾ [النمل: ١٩].

﴿وَنُوحًا إِذْ نَادَى مِنْ قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ، فَجَعَلْنَاهُ وَاهِلَةً مِنْ الْكُرْبِ الْعَظِيمِ﴾ ﴿٧٦﴾ وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ ﴿٧٧﴾.

﴿٧٦﴾ أي: واذكر عبدنا ورسولنا نوحاً عليه السلام مثنياً مادحاً حين أرسله الله إلى قومه، فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً؛ يدعوهم إلى عبادة الله، وينهاهم عن الشرك به، ويهديهم ويعيد، ويدعوهم سراً وأجهاً ولبلاً ونهاراً، فلما رآهم لا ينجع فيهم الوعظ ولا يفيد لديهم الزجر؛ نادى ربه وقال: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْنِي عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا﴾ ﴿٧٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْنَهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا أَفْجَارًا كَفَّارًا﴾ ﴿٧٧﴾ [نوح: ٢٦، ٢٧]؛ فاستجاب الله له، فأغرقهم، ولم يبق منهم أحداً، ونجى الله نوحاً وأهله ومن معه من المؤمنين في الفلك المشحون، وجعل ذريته هم الباقين، ونصره الله على قومه المستهزين.

﴿وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ﴾ ﴿٧٨﴾ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكَلَّمَا آدَمَ حُكْمًا وَعِلْمًا وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ﴾ ﴿٧٩﴾ وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لِيُخْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ﴾ ﴿٨٠﴾ وَسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَرَكْنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمِينَ﴾ ﴿٨١﴾ وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَنْ يَغُوصُونَ لَهُ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَلِكَ وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ﴾ ﴿٨٢﴾.

له الحديد، حتى كان يعمل كالعجين والطين من دون إذابة له على النار.

ويحتمل أن تعليم الله له على جاري العادة، وأن إلانة الحديد له بما علمه الله من الأسباب المعروفة الآن لإذابتها، وهذا هو الظاهر؛ لأن الله امتن بذلك على العباد وأمرهم بشكرها، ولولا أن صنعت من الأمور التي جعلها الله مقدورة للعباد؛ لم يمتن عليهم بذلك ويذكر فائدتها؛ لأن الدروع التي صنع داود عليه السلام متعذر أن يكون المراد أعيانها، وإنما المنة بالجنس. والاحتمال الذي ذكره المفسرون لا دليل عليه؛ إلا قوله: ﴿وَأَنَّا لَهُ الْحَدِيدُ﴾ (٨١) [سبأ: ١٠]، وليس فيه أن الإلانة من دون سبب، والله أعلم بذلك.

﴿وَسُلَيْمَنَ الرِّيحِ﴾؛ أي: سخرناها ﴿عَاصِفَةً﴾؛ أي: سريعة في مرورها، ﴿تَجْرِي بِأَمْرِ﴾؛ حيث دبرت امتثلت أمره، غدوها شهر ورواحها شهر، ﴿إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَرَكَتْنَا فِيهَا﴾؛ وهي أرض الشام؛ حيث كان مقره، فيذهب على الريح شرقاً وغرباً، ويكون ما رواها ورجوعها إلى الأرض المباركة. ﴿وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمِينَ﴾ (٨١)؛ قد أحاط علمنا بجميع الأشياء، وعلمنا من داود وسليمان ما أوصلناهما به إلى ما ذكرنا.

﴿وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَن يَغْوُونَ لَهُ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَلِكَ﴾؛ وهذا أيضاً من خصائص سليمان عليه السلام: أن الله سخر له الشياطين والعفاريت، وسلطه على تسخيرهم في الأعمال التي لا يقدر على كثير منها غيرهم، فكان منهم من يغوص له البحر ويستخرج الدر واللؤلؤ وغير ذلك، ومنهم من يعمل له ﴿مُحَدَّرِينَ وَمَنْشِلِينَ وَجَفَانِ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَاسِيَتٍ﴾ [سبأ: ١٢]. وسخر طائفة منهم لبناء بيت المقدس، ومات وهم على عمله، وبقوا بعده سنة، حتى علموا موته؛ كما سيأتي إن شاء الله تعالى. ﴿وَكُنَّا لَهُمْ حَفِظِينَ﴾ (٨٢)؛ أي: لا يقدر على الامتناع منه وعصيانه، بل حفظهم الله له بقوته وعزته وسلطانه.

﴿وَيُؤْتِيكَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ (٨٣) فاستجبتنا له، فكشفنا ما به من ضُرٍّ وآتيناه أهلك ومثلهم معه رحمة من عندنا وذكرى للعبدِين (٨٤).

﴿أَي:﴾ واذكر عبدنا ورسولنا أيوب مثنياً معظمًا له رافعاً لقدره حين ابتلاه ببلاء شديد فوجده صابراً راضياً عنه،

﴿أَي:﴾ واذكر هذين النبیین الكريمین داود وسليمان مثنياً مبجلًا؛ إذ آتاهما الله العلم الواسع والحكم بين العباد؛ بدليل قوله: ﴿إِذْ يَخَافُكَ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَسَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ﴾؛ أي: إذ تحاكم إليهما صاحب حرث نفست فيه غنم القوم الأخرى؛ أي: رعت ليلاً، فأكلت ما في أشجاره ورعت زرع، ففضى فيه داود عليه السلام بأن الغنم تكون لصاحب الحرث؛ نظراً إلى تفریط أصحابها، فعاقبهم بهذه العقوبة، وحكم فيها سليمان بحكم موافق للصواب؛ بأن أصحاب الغنم يدفعون غنمهم إلى صاحب الحرث، فيتنفع بدها وصوفها، ويقومون على بستان صاحب الحرث حتى يعود إلى حاله الأولى؛ فإذا عاد إلى حاله؛ ترادًا، ورجع كل منهما بماله، وكان هذا من كمال فهمه وفطنته عليه السلام.

ولهذا قال: ﴿فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ﴾؛ أي: فهمناه هذه القضية، ولا يدل ذلك أن داود لم يفهمه الله في غيرها، ولهذا خصها بالذكر؛ بدليل قوله: ﴿وَكُلًّا﴾؛ من داود وسليمان ﴿أَتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾؛ وهذا دليل على أن الحاكم قد يصيب الحق والصواب، وقد يخطئ ذلك، وليس بملوم إذا أخطأ مع بذل اجتهاده.

ثم ذكر ما خص به كلاً منهما، فقال: ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ﴾؛ وذلك أنه كان من أعبد الناس وأكثرهم لله ذكراً وتسميحاً وتمجيذاً، وكان قد أعطاه الله من حسن الصوت ورقته ورخامته ما لم يؤته أحداً من الخلق، فكان إذا سبح وأثنى على الله؛ جاوبته الجبال الصم والطيور البهم، وهذا فضل الله عليه وإحسانه، ولهذا قال: ﴿وَكُنَّا فَاعِلِينَ﴾ (٧٩).

﴿وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ﴾؛ أي: علم الله داود عليه السلام صنعة الدروع؛ فهو أول من صنعها وعلمها وسرت صناعته إلى من بعده، فالأن الله له الحديد، وعلمه كيف يسردها، والفائدة فيها كبيرة؛ ﴿لِنُخَصِّنَكُمْ مِنَ بَأْسِكُمْ﴾؛ أي: هي وقاية لكم وحفظ عند الحرب واشتداد البأس. ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ﴾ (٨٥)؛ نعمته الله عليكم؛ حيث أجزاها على يد عبده داود؛ كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْ لَّكُمْ سَرِيلًا تَقِيَكُمُ الْحَرَّ وَسَرِيلًا تَقِيَكُمُ بَأْسَكُمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (٨٦) [النحل: ٨١].

يحتمل أن تعليم الله لداود صنعة الدروع وإلانتها أمر خارق للعادة، وأن يكون كما قاله المفسرون: إن الله ألان

سورة الأنبياء

المعاني

وَمِنَ الشَّيْطَانِ مَنْ يَفْضَحُ لَهُ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا
دُونَ ذَلِكَ وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ ﴿٨٢﴾ وَيَأْتِيكَ إِذْ
نَادَى رَبَّهُ أَتَى مَسْنَى الضَّرِّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿٨٣﴾
فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ
وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنَّا وَذَكَرْنَا لِلْعَالَمِينَ ﴿٨٤﴾
وَلِإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِنَ الصَّابِرِينَ
﴿٨٥﴾ وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُمْ مِنَ الصَّالِحِينَ
﴿٨٦﴾ وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغْضًى فَلَمْ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ
فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي
كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَجَعَلْنَاهُ
مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ وَذَكَرْنَا
إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ
﴿٨٩﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَعَدْنَا لَهُ لُحُوفًا وَصَلَحْنَا
لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ
وَيَدْعُونَ تَارِعًا وَرَهْبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ ﴿٩٠﴾

٢٢٩

وذلك أن الشيطان سلب على جسده ابتلاء من الله وامتحانا،
فنفخ في جسده، فتفرح قروحا عظيمة، ومكث مدة طويلة،
واشتد به البلاء، ومات أهله، وذهب ماله، فنادى ربه: رب
﴿٨٢﴾ أَتَى مَسْنَى الضَّرِّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿٨٣﴾: فتوسل إلى
الله بالإخبار عن حال نفسه، وأنه بلغ الضر منه كل مبلغ،
وبرحمة ربه الواسعة العامة.

﴿٨٤﴾ فاستجاب الله له وقال له: ﴿أَرْكَضْ بِرَجْلِكَ هَذَا مُغْتَسِلٌ
بَارِدٌ وَشَرَابٌ﴾ ﴿٨٥﴾ [ص: ٤٢]: فركض برجله، فخرجت من
ركضته عين ماء باردة، فاغتسل منها، وشرب، فأذهب الله
ما به من الأذى. ﴿وَأَتَيْنَاهُ أَهْلَهُ﴾: أي: رددنا عليه أهله
وماله. ﴿وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ﴾: بأن منحه الله مع العافية من
الأهل والمال شيئا كثيرا، ﴿رَحْمَةً مِنَّا وَذَكَرْنَا لِلْعَالَمِينَ الَّذِينَ
صَبَرُوا وَرَضُوا﴾، فأثابه الله ثوابا عاجلا قبل ثواب الآخرة.
﴿وَذَكَرْنَا لِلْعَالَمِينَ﴾ ﴿٨٤﴾: أي: جعلناه عبرة للعالمين الذين
يتفهمون بالصبر؛ فإذا رأوا ما أصابه من البلاء، ثم ما أثابه بعد
زواله، ونظروا السبب؛ وجدوه الصبر، ولهذا أثنى الله عليه به
في قوله: ﴿إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعَمَ الْعَبْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ ﴿٨٥﴾ [ص: ٤٤]،
فجعلوه أسوة وقدوة عندما يصيبهم الضر.

﴿٨٦﴾ وَلِإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِنَ الصَّابِرِينَ
﴿٨٧﴾ وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُمْ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٨٨﴾.

﴿٨٥﴾ أي: واذكر عبادنا المصطفين وأنبياءنا المرسلين بأحسن الذكر، وأثنى عليهم أبلغ الثناء: ﴿لِإِسْمَاعِيلَ﴾ ابن إبراهيم،
﴿وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ﴾: نبين من أنبياء بني إسرائيل؛ ﴿كُلٌّ﴾ من هؤلاء المذكورين ﴿مِنَ الصَّابِرِينَ﴾. والصبر: هو
حس النفس ومنعها مما تميل بطبعها إليه، وهذا يشمل أنواع الصبر الثلاثة: الصبر على طاعة الله، والصبر عن معصية الله،
والصبر على أقدار الله المؤلمة.

فلا يستحق العبد اسم الصبر التام حتى يوفي هذه الثلاثة حقها؛ فهؤلاء الأنبياء عليهم الصلاة والسلام قد وصفهم الله
بالصبر؛ فدل أنهم وفوها حقها وقاموا بها كما ينبغي.

﴿٨٦﴾ ووصفهم أيضا بالصلاح، وهو يشمل: صلاح القلب بمعرفة الله ومحبة والإجابة إليه كل وقت، وصلاح اللسان؛ بأن
يكون رطبا من ذكر الله، وصلاح الجوارح باشتغالها بطاعة الله وكفها عن المعاصي.

فبصبرهم وصلاحهم أدخلهم الله برحمته، وجعلهم مع إخوانهم من المرسلين، وأثابهم الثواب العاجل والآجل، ولو لم
يكن من ثوابهم إلا أن الله تعالى نوه بذكرهم في العالمين، وجعل لهم لسان صدق في الآخرين؛ لكفى بذلك شرفا وفضلا.

﴿٨٧﴾ وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغْضًى فَلَمْ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ
مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٨٨﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَجَعَلْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٩﴾.

﴿٨٨﴾ أي: واذكر عبدنا ورسولنا ذا ﴿النُّونِ﴾، وهو يونس؛ أي: صاحب النون، وهي الحوت، بالذكر الجميل والثناء
الحسن؛ فإن الله تعالى أرسله إلى قومه، فدعاهم، فلم يؤمنوا، فودعهم بتزول العذاب بأميد سماه لهم، فجاءهم العذاب،

وَأَسْتَعَلَ الرَّأْسَ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴿١٠١﴾ وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوْتِ مِن زُرَّاءِي وَكَانَتْ أَمْرَاتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ﴿١٠٢﴾ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِن عَالِ يَعْقُوبَ وَأَجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴿١٠٣﴾ ﴿مريم: ٤-٦﴾ من هذه الآيات علمنا أن قوله: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا﴾: أنه لما تقارب أجله؛ خاف ألا يقوم أحد بعده مقامه في الدعوة إلى الله والنصح لعباد الله، وأن يكون في وقته فردًا ولا يخلف من يشفعه ويعينه على ما قام به. ﴿وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ﴾ ﴿١٠٤﴾؛ أي: خير الباقيين، وخير من خلفني بخير، وأنت أرحم بعبادك مني، ولكنني أريد ما يطمئن به قلبي، وتسكن له نفسي ويجري في موازني ثوابه.

﴿١٠٥﴾ ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ. وَوَهَبْنَا لَهُ. يَحْيَى﴾: النبي الكريم، الذي لم يجعل الله له من قبل سمياً، ﴿وَأَصْلَحْنَا لَهُ. زَوْجَهُ﴾: بعدما كانت عاقراً لا يصلح رحمها للولادة، فأصلح الله رحمها للحمل لأجل نبيه زكريا، وهذا من فوائد الجليس والقرين الصالح؛ أنه مبارك على قرينه، فصار يحى مشتركاً بين الوالدين. ولما ذكر هؤلاء الأنبياء والمرسلين كلاً على انفراد؛ أثنى عليهم عموماً، فقال: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ﴾؛ أي: يبادرون إليها، ويفعلونها في أوقاتها الفاضلة، ويكملونها على الوجه اللائق الذي ينبغي، ولا يتركون فضيلة يقدرون عليها إلا انتهزوا الفرصة فيها. ﴿وَيَدْعُونَكَ رَغَبًا وَرَهَبًا﴾؛ أي: يسألوننا الأمور المرغوب فيها من مصالح الدنيا والآخرة، ويتعذون بنا من الأمور المرهوب منها من مضار الدارين، وهم راغبون راهبون، لا غافلون لاهون، ولا مدلون. ﴿وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾ ﴿١٠٦﴾؛ أي: خاضعين متذللين متضرعين، وهذا لكمال معرفتهم بربهم.

﴿وَالَّتِي أَحْصَيْنَا فَزَحْمًا فَفَخَّخْنَا فِيهَا مِنْ زُرُوجِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ ﴿١٠٧﴾ إِنَّ هَذِهِ أَمْتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ ﴿١٠٨﴾ وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ كُلٌّ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ ﴿١٠٩﴾ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ أُذْيَةٍ مِن الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعِيدٍ. وَإِنَّا لَهُ كَنُزُوتٌ ﴿١١٠﴾.

﴿١١١﴾ أي: واذكر مريم عليها السلام مثنياً عليها ميثناً لقدرها شاهراً لشرفها، فقال: ﴿وَالَّتِي أَحْصَيْنَا فَزَحْمًا﴾؛ أي: حفظته من الحرام وقربانه، بل ومن الحلال، فلم تتزوج؛ لاشتغالها بالعبادة واستغراق وقتها بالخدمة لربها، وحين

ورأوه عياناً، فعبجوا إلى الله وضجوا وتابوا، فرفع الله عنهم العذاب؛ كما قال تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرِيبَةً ءَامَنْتُ فَتَقَعَهَا بِمِثْلِهَا إِلَّا قَوْمٌ يُؤْمِنُ لَمَّا ءَامَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ غَدَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَوةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ﴾ ﴿٩٨﴾ [يونس: ٩٨]، وقال: ﴿وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ﴾ ﴿٩٩﴾ فَآمَنُوا فَتَغْنَمُهم إِلَى حِينٍ ﴿١٠٠﴾ [الصافات: ١٤٧، ١٤٨]. وهذه الأمة العظيمة الذين آمنوا بدعوة يونس من أكبر فضائله، ولكنه عليه الصلاة والسلام ذهب مغاضباً وأبق عن ربه لذنب من الذنوب التي لم يذكرها الله لنا في كتابه ولا حاجة لنا إلى تعيينها؛ لقوله: ﴿إِذْ أَقْبَى إِلَى الْفَالِكِ الْمَشْهُورِ﴾ ﴿١٠١﴾ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ ﴿١٠٢﴾ فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٠٣﴾ [الصافات: ١٤٠-١٤٢]؛ أي: فاعل ما يلام عليه، والظاهر أن عجلته ومغاضبته لقومه وخروجه من بين أظهرهم قبل أن يأمره الله بذلك. وظن أن الله لا يقدر عليه؛ أي: يضيق عليه في بطن الحوت، أو ظن أنه سيفوت الله تعالى، ولا مانع من عروض هذا الظن للكمّل من الخلق على وجه لا يستقر ولا يستمر عليه، فركب في السفينة مع أناس، فاقترعوا من يلقون منهم في البحر لما خافوا الغرق إن بقوا كلهم، فأصابته القرعة يونس، فالتقمه الحوت، وذهب به إلى ظلمات البحار، فنادى في تلك الظلمات: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ ﴿١٠٤﴾، فأقر لله تعالى بكمال الألوهية، ونزّهه عن كل نقص وعيب وآفة، واعترف بظلم نفسه وجنائته؛ قال الله تعالى: ﴿فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ﴾ ﴿١٠٥﴾ لَكُنْتَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٠٦﴾ [الصافات: ١٤٣، ١٤٤]، ولهذا قال هنا: ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَجَعَلْنَاهُ مِنَ الْآيَاتِ﴾؛ أي: الشدة التي وقع فيها، ﴿وَكَذَلِكَ نُنْشِئُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿١٠٧﴾ وهذا وعد وبشارة لكل مؤمن وقع في شدة وغم: أن الله تعالى سينجيها منها ويكشف عنه ويخفف؛ لإيمانه كما فعل بيونس عليه السلام.

﴿وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ. رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ﴾ ﴿١٠٨﴾ ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ. وَوَهَبْنَا لَهُ. يَحْيَى وَأَصْلَحْنَا لَهُ. زَوْجَهُ﴾ ﴿١٠٩﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَكَ رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ ﴿١١٠﴾.

﴿١١١﴾ أي: واذكر عبدنا ورسولنا زكريا، منوهاً بذكره، ناشراً لمناقبه وفضائله التي من جملتها هذه المنقبة العظيمة، المتضمنة لنصحه للخلق ورحمة الله إياه، وأنه ﴿نَادَى رَبَّهُ. رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا﴾؛ أي: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي

سورة الأنبياء

الأنبياء

وَالَّذِي أَحْصَيْنَتْ فَرَجَهَا فَفَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا
وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ ﴿٩٢﴾ إِنَّ هَذِهِ
أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ ﴿٩٣﴾
وَقَطِّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ كُلاًّ إِلَاسًا رِجْعُونَ ﴿٩٤﴾
فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ
لِسَعِيدِهِ وَإِنَّا لَهُ كَنُيُوتٌ ﴿٩٥﴾ وَكَرَّمُوا عَلَى قَرَبَةٍ
أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٩٦﴾ حَقَّ إِذَا فُتِحَتْ
يَا جُوجُ وَمَاجُوجُ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ ﴿٩٧﴾
وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَرُ الَّذِينَ
كَفَرُوا يُنَادُونَ أَنَّا قَدْ كُنَّا فِي عَقْلَةٍ مِنْ هَذَا بَلْ كُنَّا
ظَالِمِينَ ﴿٩٨﴾ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ
اللَّهِ حَصْبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَرَدُونَ ﴿٩٩﴾ لَوْ كَانَتْ
هَذِهِ إِلَهًا مَا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١٠٠﴾
لَهُمْ فِيهَا زَوْجٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠١﴾ إِنَّ الَّذِينَ
سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠٢﴾

جاءها جبريل في صورة بشر سوي تام الخلق والحسن؛ ﴿٩٢﴾ قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ نَبِيًّا ﴿٩٢﴾ [مریم: ١٨]، فجازاها الله من جنس عملها ورزقها ولداً من غير أب، بل نفخ فيها جبريل عليه السلام، فحملت بإذن الله، ﴿٩٣﴾ وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ ﴿٩٣﴾؛ حيث حملت به ووضعت من دون مسيس أحد، وحيث تكلم في المهد، وبرأها مما ظن بها المتهمون، وأخبر عن نفسه في تلك الحالة، وأجرى الله على يديه من الخوارق والمعجزات ما هو معلوم، فكانت وابنها آية للعالمين، يتحدث بها جيلاً بعد جيل، ويعتبر بها المعتبرون.

﴿٩٤﴾ ولما ذكر الأنبياء عليهم السلام؛ قال مخاطباً للناس: ﴿٩٤﴾ إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً ﴿٩٤﴾؛ أي: هؤلاء الرسل المذكورون هم أمتكم وأمتكم الذين بهم تأتمون وبهديهم تقتدون، كلهم على دين واحد وصراط واحد، والرب أيضاً واحد، ولهذا قال: ﴿٩٤﴾ وَأَنَا رَبُّكُمْ ﴿٩٤﴾: الذي خلقكم وربيتكم بنعمتي في الدين والدنيا؛ فإذا كان الرب واحداً والنبي واحداً والدين واحداً، وهو عبادة الله وحده لا شريك له، بجميع أنواع العبادة؛ كان وظيفتكم والواجب عليكم القيام بها، ولهذا قال: ﴿٩٤﴾ فَاعْبُدُونِ ﴿٩٤﴾: فرتب العبادة على ما سبق بإلغاء ترتيب المسبب على سببه.

﴿٩٥﴾ وكان اللائق الاجتماع على هذا الأمر وعدم التفرق فيه، ولكن البغي والاعتداء أياً إلا الافتراق والتقطع، ولهذا قال: ﴿٩٥﴾ وَنَقَطَعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ ﴿٩٥﴾؛ أي: تفرق الأحزاب المنتسبون لاتباع الأنبياء فرقاً، وتشتوا كل يدعي أن الحق معه والباطل مع الفريق الآخر، ﴿٩٥﴾ وَكُلٌّ حَزْبٌ بِمَا لَدَيْهِمْ فَيُحُونَ ﴿٩٥﴾ [المؤمنون: ٥٣]. وقد علم أن المصيب منهم من كان سالكاً للدين القويم والصراط المستقيم، مؤتماً بالأنبياء، وسيظهر هذا إذا انكشف الغطاء، وبرح الخفاء، وحشر الله الناس لفصل القضاء؛ فحينئذ يتبين الصادق من الكاذب، ولهذا قال: ﴿٩٥﴾ كُلاًّ ﴿٩٥﴾: من الفرق المتفرقة وغيرهم، ﴿٩٥﴾ إِلَاسًا رِجْعُونَ ﴿٩٥﴾؛ أي: فنجازيهم أتم الجزاء.

﴿٩٦﴾ ثم فصل جزاءه فيهم منطوقاً ومفهوماً، فقال: ﴿٩٦﴾ فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ ﴿٩٦﴾؛ أي: الأعمال التي شرعتها الرسل وحثت عليها الكتب، ﴿٩٦﴾ وَهُوَ مُؤْمِنٌ ﴿٩٦﴾: بالله وبرسله وما جاءوا به، ﴿٩٦﴾ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعِيدِهِ ﴿٩٦﴾؛ أي: لا نضيع سعيه ولا نبطله، بل نضاعفه له أضعافاً كثيرة. ﴿٩٦﴾ وَإِنَّا لَهُ كَنُيُوتٌ ﴿٩٦﴾؛ أي: مثبتون له في اللوح المحفوظ وفي الصحف التي مع الحفظة؛ أي: ومن لم يعمل من الصالحات أو عملها وهو ليس بمؤمن؛ فإنه محروم خاسر في دينه ودنياه.

﴿٩٧﴾ وَكَرَّمُوا عَلَى قَرَبَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٩٧﴾.

﴿٩٨﴾ أي: يتمتع على القرى المهلكة المعذبة الرجوع إلى الدنيا ليستدركوا ما فرطوا فيه؛ فلا سبيل إلى الرجوع لمن أهلك وعذب، فليحذر المخاطبون أن يستمروا على ما يوجب الإهلاك، فيقع بهم، فلا يمكن رفعه، وليقلعوا وقت الإمكان والإدراك.

﴿٩٩﴾ حَقَّ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَاجُوجُ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ ﴿٩٩﴾ وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَرُ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادُونَ أَنَّا قَدْ كُنَّا فِي عَقْلَةٍ مِنْ هَذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٩٩﴾.

﴿٩٦﴾ هذا تحذير من الله للناس أن يقيموا على الكفر والمعاصي، وأنه قد قرب انفتاح يأجوج ومأجوج، وهما قبيلتان عظيمتان من بني آدم، وقد سد عليهم ذو القرنين لما شكى إليه إفسادهم في الأرض، وفي آخر الزمان يفتح السد عنهم؛ فيخرجون إلى الناس، وفي هذه الحالة والوصف الذي ذكره الله من كل مكان مرتفع، وهو الحذب، ﴿يَسْأَلُونَ﴾؛ أي: يسرعون.

في هذا دلالة على كثرتهم الباهرة، وإسراعهم في الأرض، إما بذواتهم، وإما بما خلق الله لهم من الأسباب التي تقرب لهم البعيد، وتسهل عليهم الصعب، وأنهم يقهرون الناس، ويعلمون عليهم في الدنيا، وأنه لا يدان لأحد بقتالهم.

﴿٩٧﴾ ﴿وَأَقْرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ﴾؛ أي: يوم القيامة الذي وعد الله بإتيانه، ووعدته حق وصدق؛ ففي ذلك اليوم ترى أبصار الكفار شاخصة من شدة الأفراع والأهوال المزعجة والقلقل المطفعة، وما كانوا يعرفون من جنائياتهم وذنوبهم، وأنهم يدعون بالويل والثبور والندم والحسرة على ما فات ويقولون: ﴿قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا﴾ اليوم العظيم، فلم نزل فيها مستغرقين، وفي لهو الدنيا متمتعين، حتى أتانا اليقين، ووردنا القيامة؛ فلو كان يموت أحد من الندم والحسرة لماتوا. ﴿بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ﴾؛ اعترفوا بظلمهم وعدل الله فيهم؛ فحيث يؤمر بهم إلى النار هم وما كانوا يعبدون، ولهذا قال:

﴿إِنَّكُمْ وَمَنْ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَرَدُّونَ﴾ ﴿٩٨﴾ ﴿لَوْ كَانَتْ هَؤُلَاءِ إِلَهًا مَا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ ﴿٩٩﴾ ﴿لَهُمْ فِيهَا زَوْجٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ﴾ ﴿١٠٠﴾ ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ ﴿١٠١﴾ ﴿لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَالِدُونَ﴾ ﴿١٠٢﴾ ﴿لَا يَحْزَنُهُمُ الْفَرَجُ الْأَكْبَرُ وَنَلَقْنَاهُمْ أَلْمَلِيكَهٗ هَذَا يَوْمُكُمْ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾ ﴿١٠٣﴾.

﴿٩٨﴾ أي: وإنكم أيها العابدون، مع الله آلهة غيره، ﴿حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾؛ أي: وقودها وحطبها، ﴿أَنتُمْ لَهَا وَرَدُّونَ﴾؛ وأصنامكم.

﴿٩٩﴾ والحكمة في دخول الأصنام النار وهي جماد لا تعقل، وليس عليها ذنب؛ بيان كذب من اتخذها آلهة،

وليزداد عذابهم؛ فلماذا قال: ﴿لَوْ كَانَتْ هَؤُلَاءِ إِلَهًا مَا وَرَدُوهَا﴾؛ هذا كقوله تعالى: ﴿إِنَّ لِلَّذِي يُخْتَلَفُونَ فِيهِ وَلِعَلَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَذِبِينَ﴾ ﴿٩٨﴾ [النحل: ٣٩]، وكل من العابدین والمعبودین فیها خالدون، لا یخرجون منها، ولا یتقلون عنها.

﴿١٠٠﴾ ﴿لَهُمْ فِيهَا زَوْجٌ﴾: من شدة العذاب، ﴿وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ﴾؛ صم بكم عمي، أو لا يسمعون من الأصوات غير صوتها؛ لشدة غلبتها، واشتداد زفيرها وتغيظها.

﴿١٠١﴾، ﴿١٠٢﴾ ودخول آلهة المشركين النار إنما هو الأصنام أو من عبد وهو راضٍ بعبادته، وأما المسيح وعزير والملائكة ونحوهم ممن عبد من الأولياء؛ فإنهم لا يعبدون فيها، ويدخلون في قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ﴾؛ أي: سبقت لهم سابقة السعادة في علم الله وفي اللوح المحفوظ وفي تيسيرهم في الدنيا لليسرى والأعمال الصالحة. ﴿أُولَٰئِكَ عَنْهَا﴾؛ أي: عن النار ﴿مُبْعَدُونَ﴾؛ فلا يدخلونها، ولا يكونون قريباً منها، بل يبعدون عنها غاية البعد، حتى لا يسمعوها حسيستها، ولا يروا شخصها. ﴿وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَالِدُونَ﴾ ﴿١٠٢﴾: من المأكّل والمشارب والمناكح والمناظر مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، مستمر لهم ذلك، يزداد حسنه على الأحقاب.

﴿١٠٣﴾ ﴿لَا يَحْزَنُهُمُ الْفَرَجُ الْأَكْبَرُ﴾؛ أي: لا يقلقهم إذا فرغ الناس أكبر فرغ، وذلك يوم القيامة، حين تقرب النار تنغيظ على الكافرين والعاصين، فيفرغ الناس لذلك الأمر، وهؤلاء لا يحزنهم؛ لعلمهم بما يقدمون عليه، وأن الله قد أمنهم مما يخافون. ﴿وَنَلَقْنَاهُمْ أَلْمَلِيكَهٗ﴾؛ إذا بعثوا من قبورهم وأثوا على النجائب وفدًا لنشورهم مهتئين لهم قائلين: ﴿هَذَا يَوْمُكُمْ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾ ﴿١٠٣﴾؛ فليهنكم ما وعدكم الله، وليعظم استبشاركم بما أمامكم من الكرامة، وليكثر فرحكم وسروركم بما أمّنكم الله من المخاوف والمكاره.

﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ﴾ ﴿١٠٤﴾ ﴿بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ بُعِيدُهُ وَعَدَّا عَلَيْهَا بِإِنَّا كُنَّا فَعَالِينَ﴾ ﴿١٠٥﴾ ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزُّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ ﴿١٠٦﴾.

﴿١٠٤﴾ يخبر تعالى أنه يوم القيامة يطوي السماوات على عظمها واتساعها كما يطوي الكاتب للسجل؛ أي: الورقة المكتوب فيها؛ فتتشر نجومها، وتكور شمسها وقمرها، وتزول عن أماكنها.

﴿كما بدأنا أول خلقٍ نعيده﴾؛ أي: إعادتنا للخلق مثل ابتدائنا لخلقهم؛ فكما ابتدأنا خلقهم ولم يكونوا شيئاً؛ كذلك نعيدهم بعد موتهم، ﴿وَعَدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾: ﴿١٠٥﴾ نفذ ما وعدنا؛ لكمال قدرته، وأنه لا تمتنع منه الأشياء.

﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ﴾: وهو الكتاب المزبور، والمراد: الكتب المنزلة؛ كالطهارة، ونحوها، ﴿وَمِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ﴾؛ أي: كتبناه في الكتب المنزلة بعدما كتبناه في الكتاب السابق الذي هو اللوح المحفوظ وأم الكتاب الذي توافقه جميع التقادير المتأخرة عنه والمكتوب في ذلك: ﴿أَنَّا آتِئْنَ﴾؛ أي: أرض الجنة، ﴿يَرْثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾: ﴿١٠٦﴾ الذين قاموا بالمأمورات، واجتنبوا المنهيات؛ فهم الذين يورثهم الله الجنات؛ كقول أهل الجنة: ﴿لِحَمْدِ اللَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا﴾ [الأعراف: ٤٣]، ﴿وَأَوْفَيْنَا الْأَرْضَ نَبْوًا مِنْ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ﴾ [الزمر: ٧٤]، ويحتمل أن المراد الاستخلاف في الأرض، وأن الصالحين يمكن الله لهم في الأرض، ويوليهم عليها؛ كقوله تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفْنَا دَاوُدَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ الآية [النور: ٥٥].

﴿لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنْفُسُهُمْ خَالِدُونَ﴾ ﴿١٠٧﴾ لَا يَحْزَنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمْ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ﴿١٠٨﴾ يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نَعِيدُهُ وَعَدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ ﴿١٠٩﴾ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرْثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴿١١٠﴾ إِنَّ فِي هَذَا بَلَلًا لِقَوْمٍ عَصِيْبٍ ﴿١١١﴾ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴿١١٢﴾ قُلْ إِنَّمَا يُوحِي إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿١١٣﴾ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ آذَنْتُكُمْ عَلَى سَوَاءٍ وَإِنْ أَدْرِي أَقْرَبُ أَمْ بَعِيدٌ مَا تُوعَدُونَ ﴿١١٤﴾ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ ﴿١١٥﴾ وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَنْعٌ إِلَى حِينٍ ﴿١١٦﴾ قُلْ رَبِّ أَعْمُرْ لِحَقِّي وَرَبَّنَا الرَّحْمَنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ ﴿١١٧﴾

﴿إِنَّ فِي هَذَا بَلَلًا لِقَوْمٍ عَصِيْبٍ﴾: ﴿١١١﴾ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴿١١٢﴾ قُلْ إِنَّمَا يُوحِي إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿١١٣﴾ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ آذَنْتُكُمْ عَلَى سَوَاءٍ وَإِنْ أَدْرِي أَقْرَبُ أَمْ بَعِيدٌ مَا تُوعَدُونَ ﴿١١٤﴾ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ ﴿١١٥﴾ وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَنْعٌ إِلَى حِينٍ ﴿١١٦﴾ قُلْ رَبِّ أَعْمُرْ لِحَقِّي وَرَبَّنَا الرَّحْمَنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ ﴿١١٧﴾

﴿يُنِىِ اللّٰهُ تَعَالٰى عَلَى كِتَابِهِ الْعَزِيزِ الْقُرْآنَ وَيُبَيِّنُ كِفَايَتِهِ التَّامَةَ عَنْ كُلِّ شَيْءٍ وَأَنَّهُ لَا يَسْتَغْنٰى عَنْهُ، فَقَالَ: ﴿إِنَّ فِي هَذَا بَلَلًا لِقَوْمٍ عَصِيْبٍ﴾: ﴿١١١﴾ أي: يتبلغون به في الوصول إلى ربهم وإلى دار كرامته، فيوصلهم إلى أجل المطالب وأفضل الرغائب، وليس للعابدين الذين هم أشرف الخلق وراءه غاية؛ لأنه الكفيل بمعرفة ربهم بأسمائه وصفاته وأفعاله وبالإخبار بالغيوب الصادقة وبال الدعوة لحقائق الإيمان وشواهد الإيقان، المبين للمأمورات كلها والمنهيات جميعها، المعروف بعبود النفس والعمل والطرق التي ينبغي سلوكها في دقيق الدين وجليله، والتحذير من طرق الشيطان، وبيان مداخله على الإنسان؛ فمن لم يغتنم القرآن؛ فلا أغناه الله، ومن لا يكتفي؛ فلا كفاه الله.

﴿ثُمَّ أَتٰى عَلَى رَسُولِهِ الَّذِي جَاءَ بِالْقُرْآنِ، فَقَالَ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾: ﴿١١٢﴾ فهو رحمته المهداة لعباده؛ فالؤمنون به قبلوا هذه الرحمة وشكروها وقاموا بها، وغيرهم كفروها، وبدلوا نعمة الله كفرًا، وأبوا رحمة الله ونعمته.

﴿قُلْ يَا مُحَمَّد: ﴿إِنَّمَا يُوحِي إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾: الذي لا يستحق العبادة إلا هو، ولهذا قال: ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾: ﴿١١٣﴾ أي: منقادون لعبوديته مستسلمون لألوهيته؛ فإن فعلوا؛ فليحمدوا ربهم على ما منَّ عليهم بهذه النعمة التي فاقت المنن.

﴿١٠٩﴾ فَإِنْ تَوَلَّوْا ۖ عَنْ الْإِنْقِيَادِ لِعِبَادِيَةِ رَبِّهِمْ؛ فَحَذَرُهم حلول المثلثات ونزول العقوبة. ﴿١١٠﴾ فَقُلْ أَذَنْتُكُمْ؛ أَي: أعلمتكم بالعقوبة، ﴿عَلَى سَوَاءٍ﴾؛ أَي: علمي وعلمكم بذلك مستو؛ فلا تقولوا إذا نزل بكم العذاب: ﴿مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ﴾ [المائدة: ١٩]، بل الآن استوى علمي، وعلمكم لما أذرتكم وحذرتكم وأعلمتكم بمآل الكفر، ولم أكنم عنكم شيئاً. ﴿وَإِنْ أَذْرِي أَقْرَبُ أَمْ بَعِيدُ مَا تُوعَدُونَ﴾ ﴿١١١﴾؛ أَي: من العذاب؛ لأن علمه عند الله، وهو بيده؛ ليس لي من الأمر شيء.

﴿١١٢﴾ وَإِنْ أَذْرِي لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَكُمْ وَمَتْنٌ إِلَى حِينٍ﴾؛ أَي: لعل تأخير العذاب الذي استعجلتموه شر لكم، وإن تمتعوا في الدنيا إلى حين، ثم يكون أعظم لعقوبتكم.

﴿١١٣﴾ قُلْ رَبِّ أَحْكَمْ بِالْحَقِّ﴾؛ أَي: بيننا وبين القوم الكافرين؛ فاستجاب الله هذا الدعاء، وحكم بينهم في الدنيا قبل الآخرة بما عاقب الله به الكافرين من وقعة بدر وغيرها. ﴿وَرَبَّنَا أَلْزَمْنِ الْمُسْتَعَانِ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾ ﴿١١٤﴾؛ أَي: نسأل ربنا الرحمن ونستعين به على ما تصفون من قولكم: سنظهر عليكم، وسيضمحل دينكم! فنحن في هذا لا نعجب بأنفسنا، ولا نتكل على حولنا وقوتنا، وإنما نستعين بالرحمن الذي ناصية كل مخلوق بيده، ونرجوه أن يتم ما استعانه به من رحمته. وقد فعل ولله الحمد.

﴿١١٥﴾

تفسير سورة الحج

قيل مكية وقيل مدنية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ آتِفُوا رَبُّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَقٌّ عَظِيمٌ﴾ ﴿١﴾ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمَلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَرَىٰ وَمَا هُمْ بِسُكَرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ﴾ ﴿٢﴾.

﴿١﴾ يخاطب الله الناس كافة بأن يتقوا ربهم الذي رباهم بالنعم الظاهرة والباطنة، فحقيق بهم أن يتقوه بترك الشرك والفسوق والعصيان، ويمثلوا أوامره مهما استطاعوا. ثم ذكر ما يعينهم على التقوى ويحذرهم من تركها، وهو الإخبار بأحوال القيامة، فقال: ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَقٌّ عَظِيمٌ﴾ ﴿١﴾: لا يقدر قدره ولا يبلغ كنهه، ذلك بأنها إذا وقعت الساعة؛ رجفت الأرض، وارتجت، وزلزلت زلزالها، وتصدعت الجبال، واندكت، وكانت كثيباً مهيباً، ثم كانت هباء منبثاً، ثم انقسم الناس ثلاثة أزواج؛ فهناك تنفطر السماء، وتكور الشمس والقمر، وتشتت النجوم، ويكون من القلائل والبالابل ما تنصدع له القلوب، توجل منه الأفئدة، وتشيب منه الولدان، وتذوب له الصم الصلاب.

﴿٢﴾ ولهذا قال: ﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ﴾: مع أنها مجبولة على شدة محبتها لولدها، خصوصاً في هذه الحال التي لا يعيش إلا بها، ﴿وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمَلٍ حَمْلَهَا﴾: من شدة الفزع والهول، ﴿وَتَرَى النَّاسَ سُكَرَىٰ وَمَا

هُمْ يَسْكُرُونَ ﴿١﴾؛ أي: تحسبهم أيها الرائي لهم سكارى من الخمر، وليسوا سكارى.

﴿وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ﴿٢﴾﴾: فلذلك أذهب عقولهم، وفرغ قلوبهم، وملأها من الفزع، وبلغت القلوب الحناجر، وشخصت الأبصار، وفي ذلك اليوم لا يجزي والد عن ولده، ولا مولود هو جاز عن والده شيئاً، ويومئذ يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ فِي بَيْتِهِ ﴿٣﴾ وَأَبِيهِ ﴿٤﴾ وَنَجِيَّتَهُ ﴿٥﴾ وَلِكُلِّ أَرَبٍ مِّنْهُم يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٦﴾ [عس: ٣٤-٣٧]، وهناك ﴿بَعْضُ الظَّالِمِ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ بَلْئِنِّي أَخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَيْلًا ﴿٧﴾ يَتَوَلَّى لِبَنِي لَوْ أَخَذْتُ فَلَانًا خَلِيلًا ﴿٨﴾﴾ [الفرقان: ٢٧، ٢٨]، وتسود حيثئذ وجوه وتبيض وجوه، وتنصب الموازين التي يوزن بها مثاقيل الذر من الخير والشر، وتشر صحائف الأعمال وما فيها من جميع الأعمال والأقوال والنيات من صغير وكبير، وينصب الصراط على متن جهنم، وتزلف الجنة للمتقين، وبرزت الجحيم للغاوين، ﴿إِذَا رَأَوْهُمْ مِنْ مَّكَانٍ يَبْعِدُ سَمِعُوا لَهَا نَفْثًا وَزَفِيرًا ﴿٩﴾ وَإِذَا أَلْفَاوُا مِنْهَا مَكَانًا شَقِيحًا مُّقْرِرِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴿١٠﴾﴾ [الفرقان: ١٢، ١٣]، ويقال لهم: ﴿لَا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا ﴿١١﴾﴾ [الفرقان: ١٤]، وإذا نادوا ربهم ليخرجهم منها؛ قال: ﴿أَخْسَرُوا فِيهَا وَلَا تَكْلُمُونَ ﴿١٢﴾﴾ [المؤمنون: ١٠٨]؛ قد غضب عليهم الرب الرحيم، وحضرهم العذاب الأليم، وأيسوا من كل خير، ووجدوا أعمالهم كلها، لم يفقدوا منها نقيراً ولا قطميراً.

هذا؛ والمتقون في روضات الجنات يحبرون، وفي أنواع اللذات يتفكهون، وفيما اشتتهت أنفسهم خالدون؛ فحقيق بالعاقل الذي يعرف أن كل هذا أمامه أن يعد له عدته، وألا يلهيه الأمل فيترك العمل، وأن تكون تقوى الله شعاره، وخوفه دثاره، ومحبة الله وذكره روح أعماله.

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَتَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ ﴿١٣﴾ كَتَبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مِّنْ تَوَلَّاهُ فَاتَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ ﴿١٤﴾﴾.

﴿١٣﴾، ﴿١٤﴾ أي: ومن الناس طائفة وفرقة؛ سلكوا طريق الضلال، وجعلوا يجادلون بالباطل الحق؛ يريدون إحقاق الباطل وإبطال الحق، والحال أنهم في غاية الجهل، ما عندهم من العلم شيء، وغاية ما عندهم تقليد أئمة الضلال من كل شيطان مرید متمرّد على الله وعلى رسله معاند لهم، قد

شاق الله ورسوله، وصار من الأئمة الذين يدعون إلى النار. ﴿كُتِبَ عَلَيْهِ ﴿١٥﴾؛ أي: قدر على هذا الشيطان المرید، أَنَّهُ مِّنْ تَوَلَّاهُ ﴿١٦﴾؛ أي: اتبعه؛ فَاتَّهُ يُضِلُّهُ ﴿١٧﴾: عن الحق ويجنبه الصراط المستقيم؛ وَيَهْدِيهِ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ ﴿١٨﴾: وهذا نائب إبليس حقاً؛ فَإِنَّ اللَّهَ قَالَ عَنْهُ ﴿إِنَّمَا يَدْعُوا حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿١٩﴾﴾ [فاطر: ٦]. فهذا الذي يجادل في الله قد جمع بين ضلاله بنفسه وتصديده إلى إضلال الناس، وهو متبع ومقلد لكل شيطان مرید، ظلمات بعضها فوق بعض، ويدخل في هذا جمهور أهل الكفر والبدع؛ فإن أكثرهم مقلدة يجادلون بغير علم.

﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنَبِّئَنَّ لَكُمْ وَنُفِّرُ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَّنْ يُؤْتِقُ وَمِنْكُمْ مَّنْ يَرْدُ إِلَىٰ أَزْدَلِ الْأَعْمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَذَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَلَائِكَةَ اهْبَظَتْ وَرَبَّتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ رَوْحٍ بِهِجٍ ﴿٢٠﴾ ذَلِكَ يَأْنِ لِلَّهِ هُوَ الْخَلَقُ وَأَنَّهُ يُخَيِّمُ الْمَوْتَ وَأَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢١﴾ وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ ﴿٢٢﴾﴾.

﴿٢٠﴾ يقول تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ ﴿٢٠﴾؛ أي: شك واشتباه وعدم علم بوقوعه، مع أن الواجب عليكم أن تصدقوا ربكم وتصدقوا رسله في ذلك، ولكن إذا أبيتم إلا الريب؛ فهاكم دليلين عقلين تشاهدونهما، كل واحد منهما يدل دلالة قطعية على ما شككنتم فيه، ويزيل عن قلوبكم الريب:

أحدهما: الاستدلال بابتداء خلق الإنسان، وأن الذي ابتداءه سميده، فقال فيه: ﴿إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّنْ تُرَابٍ ﴿٢٣﴾: وذلك بخلق أبي البشر آدم عليه السلام، ﴿ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ﴿٢٤﴾؛ أي: مني، وهذا ابتداء أول التخليق، ﴿ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ﴿٢٥﴾؛ أي: تنقلب تلك النطفة بإذن الله دماً أحمر، ﴿ثُمَّ مِنْ مُّضْغَةٍ ﴿٢٦﴾؛ أي: ينتقل الدم مضغة؛ أي: قطعة لحم بقدر ما يمتصغ، وتلك المضغة تارة تكون ﴿مُخَلَّقَةٍ ﴿٢٧﴾؛ أي: مصور منها خلق آدمي. وتارة ﴿وغير مُخَلَّقَةٍ ﴿٢٨﴾: بأن تقذفها الأرحام قبل تخليقها، ﴿لِّنَبِّئَنَّ لَكُمْ ﴿٢٩﴾: أصل نشأتكم؛ مع قدرته تعالى

على تكميل خلقه في لحظة واحدة، ولكن ليبين لنا كمال حكمته وعظيم قدرته وسعة رحمته.

﴿وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾: أي: ونقر؛ أي: نقي في الأرحام من الحمل الذي لم تقذفه الأرحام ما نشاء إبقائه إلى أجل مسمى، وهو مدة الحمل، ﴿ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ﴾: من بطون أمهاتكم ﴿طِفْلًا﴾: لا تعلمون شيئاً، وليس لكم قدرة، وسخرنا لكم الأمهات، وأجرنا لكم في ثديها الرزق، ثم تتقلون طوراً بعد طور حتى تبلغوا أشدكم، وهو كمال القوة والعقل. ﴿وَمِنْكُمْ مَّنْ يَمُوتُ﴾: من قبل أن يبلغ سن الأشد، ومنكم من يتجاوزها فيرد ﴿إِلَى أَزْوَاجِ الْأُمَمِ﴾؛ أي: أخسه وأرذله، وهو سن الهرم والتخريف، الذي به يزول العقل ويضمحل كما زالت باقي القوة وضعفت، ﴿لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا﴾؛ أي: لأجل ألا يعلم هذا المعمّر شيئاً مما كان يعلمه قبل ذلك، وذلك لضعف عقله؛ فقوة الآدمي محفوفة بضعفين: ضعف الطفولية ونقصها، وضعف الهرم ونقصه؛ كما قال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعِفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ﴾ ﴿الروم: ٥٤﴾.

والدليل الثاني: إحياء الأرض بعد موتها، فقال الله فيه: ﴿وَنَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً﴾؛ أي: خاشعة مغبرة لا نبات فيها ولا خضرة، ﴿فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْزَلَتْ﴾؛ أي: تحركت بالنبات، ﴿وَوَرَتْ﴾؛ أي: ارتفعت بعد خشوعها، وذلك لزيادة نباتها، ﴿وَأَكْبَتَتْ مِنْ كُلِّ رَوْحٍ﴾؛ أي: صفت من أصناف النبات ﴿بَهِيحٍ﴾ ﴿٥٥﴾؛ أي: يبهج الناظرين ويسر المتأملين.

﴿٥٦﴾ فهذان الدليلان القاطعان يدلان على هذه المطالب الخمسة، وهي هذه: ﴿ذَلِكَ﴾: الذي أنشأ الآدمي مما وصف لكم وأحيا الأرض بعد موتها، ﴿يَٰٓأَنَّا اللَّهُ هُوَ الْحَقُّ﴾؛ أي: الرب المعبود الذي لا تنبغي العبادة إلا له، وعبادته هي الحق، وعبادة غيره باطلة. ﴿وَأَنَّهُ يَمْحَى الْمَوْتِ﴾: كما ابتداء الخلق، وكما أحيا الأرض بعد موتها، ﴿وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ ﴿٥٦﴾: كما أشهدكم من بديع قدرته وعظيم صنعته ما أشهدكم، ﴿وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا﴾: فلا وجه لاستبعادها، ﴿وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ﴾ ﴿٥٧﴾: فيجازيكم بأعمالكم حسناتها وسيئها.

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّثِيرٍ﴾ ﴿٥٨﴾ ثَانِي عَظْفِهِ: لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُ، فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَنَذِيقُهُ، يَوْمَ الْقِيَمَةِ عَذَابُ الْحَرِيقِ ﴿٥٩﴾ ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتَ يَدَاكَ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُسِرُّ بِظُلْمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٦٠﴾.

﴿٦١﴾ المجادلة المتقدمة للمقلد، وهذه المجادلة للشيطان المرید الداعي إلى البدع، فأخبر أنه ﴿يُجَادِلُ فِي اللَّهِ﴾؛ أي: يجادل رسل الله وأتباعهم بالباطل ليدحض به الحق، ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾: صحيح، ﴿وَلَا هُدًى﴾؛ أي: غير متبع في جداله هذا من يهديه؛ لا عقل مرشد، ولا متبوع مهتد، ﴿وَلَا كِتَابٍ مُّثِيرٍ﴾ ﴿٦١﴾؛ أي: واضح بين؛ أي: فلا له حجة عقلية ولا نقلية، إن هي إلا شبهات يوحىها إليه الشيطان، ﴿وَأِنَّ الشَّيْطَانَ لِرُؤُوسِ الْإِنْسَانِ أَوْلَىٰ بِأَبْنَانِهِ لِيُضِلَّهُمْ﴾ ﴿الأنعام: ١٢١﴾.

﴿٦٢﴾ ومع هذا: ﴿ثَانِي عَظْفِهِ﴾؛ أي: لا وياً جانبه وعنقه، وهذا كناية عن كبره عن الحق واحتقاره للخلق؛ فقد فرح بما معه من العلم غير النافع، واحتقر أهل الحق وما معهم من الحق، ﴿لِيُضِلَّ﴾: الناس؛ أي: ليكون من دعاة الضلال.

سورة الحج

ذَلِكَ يَٰٓأَنَّا اللَّهُ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يَمْحَى الْمَوْتِ وَأَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٥٦﴾ وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ ﴿٥٧﴾ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّثِيرٍ ﴿٥٨﴾ ثَانِي عَظْفِهِ: لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُ، فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَنَذِيقُهُ، يَوْمَ الْقِيَمَةِ عَذَابُ الْحَرِيقِ ﴿٥٩﴾ ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتَ يَدَاكَ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُسِرُّ بِظُلْمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٦٠﴾ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعَادِلُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَهُ فِتْنَةٌ أُنْفِلْ عَلَىٰ وَجْهِهِ خَيْرٌ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ﴿٦١﴾ يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْصُرُهُمْ وَمَا لَا يَنْفَعُهُمْ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ ﴿٦٢﴾ يَدْعُوا لِمَنْ صَرَّهُ أَقْرَبَ مِنْ نَفْعِهِ لَيْسَ الْمَوْلَىٰ وَلَيْسَ الْعَشِيرُ ﴿٦٣﴾ إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿٦٤﴾ مَنْ كَانَتْ يَطْنُ أَنْ لَّنْ يَنْصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ ﴿٦٥﴾

٣٣٢

العقل والبدن والدنيا والآخرة معلوم. ﴿لَيْسَ الْمَوْلَى﴾؛ أي: هذا المعبود، ﴿وَلَيْسَ الْعَشِيرُ﴾ (١٢)؛ أي: القرين الملازم على صحبته؛ فإن المقصود من المولى والعشير حصول النفع ودفع الضرر؛ فإذا لم يحصل شيء من هذا؛ فإنه مذموم ملوم.

﴿إِنَّ اللَّهَ يَدْخُلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ (١٣).

﴿١٤﴾ لما ذكر تعالى المجادل بالباطل، وأنه على قسمين: مقلد وداع؛ ذكر أن المتسمي بالإيمان أيضًا على قسمين: قسم لم يدخل الإيمان قلبه كما تقدم. والقسم الثاني: المؤمن حقيقة؛ صدق ما معه من الإيمان بالأعمال الصالحة، فآخبر تعالى أنه يدخلهم ﴿جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾؛ وسميت الجنة جنة لاشتغالها على المنازل والقصور والأشجار والنوابت التي تجن من فيها ويستتر بها من كثرتها. ﴿إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ (١٥)؛ فمهما أرادته تعالى فعله؛ من غير ممانع ولا معارض، ومن ذلك إيصال أهل الجنة إليها، جعلنا الله منهم بمنه وكرمه.

﴿مَنْ كَانَ يَظُنُّ أَنْ لَنْ يَصُرَهُ اللَّهُ فِي الْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبِّ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ﴾ (١٦).

﴿١٧﴾ أي: من كان يظن أن الله لا ينصر رسوله وأن دينه سيضمحل فإن النصر من الله ينزل من السماء، ﴿فَلْيَمْدُدْ﴾ ذلك الظان ﴿بِسَبِّ﴾ أي: حبل ﴿إِلَى السَّمَاءِ﴾ وليرقى إليها ﴿ثُمَّ لْيَقْطَعْ﴾: النصر النازل عليه من السماء، ﴿فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَ كَيْدُهُ﴾؛ أي: ما يكيد به الرسول، ويعمله من محاربته والحرص على إبطال دينه، ما يغيظه من ظهور دينه. وهذا استفهام بمعنى النفي، وأنه لا يقدر على شفاء غيظه بما يعمل من الأسباب.

ومعنى هذه الآية الكريمة: يا أيها المعادي للرسول محمد ﷺ، الساعي في إطفاء دينه، الذي يظن بجهله أن سعيه سيفيده شيئاً! اعلم أنك مهما فعلت من الأسباب، وسعيت في كيد الرسول؛ فإن ذلك لا يُذْهِبُ غِيظَكَ ولا يشفي كمدك؛ فليس لك قدرة في ذلك، ولكن سنشير عليك برأي تتمكن به من شفاء غيظك ومن قطع النصر عن الرسول إن كان ممكناً: اثبت الأمر من بابه، وارتنق إليه بأسبابه، اعمد

ويدخل تحت هذا جميع أئمة الكفر والضلال. ثم ذكر عقوبتهم الدنيوية والأخروية، فقال: ﴿لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ﴾؛ أي: يفتضح هذا في الدنيا قبل الآخرة.

وهذا من آيات الله العجيبة؛ فإنك لا تجد داعياً من دعاة الكفر والضلال إلا وله من المقت بين العالمين واللعنة والبغض والذم ما هو حقيق به، وكل بحسب حاله. ﴿وَنَذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ (١٨)؛ أي: نذيقه حرها الشديد وسعيرها البلع، وذلك بما قدمت يداه. ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلِيمٍ لِلْعَبِيدِ﴾ (١٩).

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَيْرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾ (٢٠) يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْصُرُهُ وَمَا لَا يَنْفَعُهُ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ ﴿يَدْعُوا لَمَنْ ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ لَيْسَ الْمَوْلَى وَلَيْسَ الْعَشِيرُ﴾ (٢١).

﴿٢٢﴾ أي: ومن الناس من هو ضعيف الإيمان، لم يدخل الإيمان قلبه، ولم تخالطه بشاشته، بل دخل فيه إما خوفاً وإما عادة على وجه لا يثبت عند المحن. ﴿فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ﴾؛ أي: إن استمر رزقه رغداً ولم يحصل له من المكاره شيء اطمأن بذلك الخير، لا بإيمانه؛ فهذا ربما أن الله يعافيه ولا يقيض له من الفتن ما ينصرف به عن دينه. ﴿وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ﴾: من حصول مكروه أو زوال محبوب؛ ﴿انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ﴾؛ أي: ارتد عن دينه؛ ﴿خَيْرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾: أما في الدنيا؛ فإنه لا يحصل له بالردة ما أمله، الذي جعل الردة رأساً لماله وعوضاً عما يظن إدراكه، فخاب سعيه، ولم يحصل له إلا ما قسم له، وأما الآخرة؛ فظاهر، حرم الجنة التي عرضها السموات والأرض، واستحق النار. ﴿ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾ (٢٣)؛ أي: الواضح البين.

﴿٢٤﴾ يَدْعُوا: هذا الراجع على وجهه من دون الله ما لا ينفعه ولا يضره، وهذا صفة كل مدعو ومعبود من دون الله؛ فإنه لا يملك لنفسه ولا لغيره نفعا ولا ضرا. ﴿ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ﴾ (٢٥)؛ الذي قد بلغ في البعد إلى حد النهاية؛ حيث أعرض عن عبادة النافع الضار الغني المغني، وأقبل على عبادة مخلوق مثله أو دونه، ليس بيده من الأمر شيء، بل هو إلى حصول ضد مقصوده أقرب، ولهذا قال: ﴿يَدْعُوا لَمَنْ ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ﴾؛ فإن ضرره في

سورة الحج

وَكَذَلِكَ أَرْزَلْنَاهُ ءَايَاتٍ يَبَيِّنَاتٍ وَأَنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يُرِيدُ ﴿٦٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّكَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٦٧﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَن يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ﴿٦٨﴾ هَذَانِ خَصَمَانِ أَحْضَمُوا فِي رَيْبٍ فَأَلَّذِينَ كَفَرُوا قَطَعْنَا لَهُم نَارًا يَصْبُتُ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ ﴿٦٩﴾ يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ ﴿٧٠﴾ وَلَهُمْ مَقْلِعٌ مِّنْ حَدِيدٍ ﴿٧١﴾ كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿٧٢﴾ إِنَّكَ اللَّهُ يَدْخِلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يُحَاوُونَ فِيهَا مِن فَاكِهَةٍ مِّنْ أَشْوَارٍ مِّنْ ذَهَبٍ وَلَوْثٍ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٧٣﴾

٢٢٤

إلى جبل من ليف أو غيره، ثم علقه في السماء، ثم اصعد به حتى تصل إلى الأبواب التي ينزل منها النصر، فسدها وأغلقها وأقطعها؛ فبهذه الحال تشفي غيظك؛ فهذا هو الرأي والمكيدة، وأما ما سوى هذه الحال؛ فلا يخطر ببالك أنك تشفي بها غيظك، ولو ساعدك من ساعدك من الخلق.

وهذه الآية الكريمة فيها من الوعد والبشارة بنصر الله لدينه ولسوله وعباده المؤمنين ما لا يخفى، ومن تأيس الكافرين الذين يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم، والله متم نوره ولو كره الكافرون؛ أي: وسعوا مهما أمكنهم.

﴿وَكَذَلِكَ أَرْزَلْنَاهُ ءَايَاتٍ يَبَيِّنَاتٍ وَأَنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يُرِيدُ﴾ ﴿٦٦﴾.

﴿٦٦﴾ أي: وكذلك لما فصلنا في هذا القرآن ما فصلنا؛ جعلناه آيات بينات واضحات دالات على جميع المطالب والمسائل النافعة، ولكن الهداية بيد الله؛ فمن أراد الله هدايته؛ اهتدى بهذا القرآن، وجعله إماماً له وقدوة واستضاء بنوره، ومن لم يرد الله هدايته؛ فلو جاءته كل آية ما آمن، ولم ينفعه القرآن شيئاً، بل يكون حجة عليه.

﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّكَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ ﴿٦٧﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَن يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ﴿٦٨﴾ هَذَانِ خَصَمَانِ أَحْضَمُوا فِي رَيْبٍ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿وَهُذُو إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ﴾ ﴿٦٩﴾.

﴿٦٩﴾ يخبر تعالى عن طوائف أهل الأرض من الذين أتوا الكتاب من المؤمنين واليهود والنصارى والصابئين ومن المجوس ومن المشركين: أن الله سيجمعهم جميعهم ليوم القيامة، ويفصل بينهم بحكمه العدل، ويجازيهم بأعمالهم التي حفظها وكتبها وشهدها، ولهذا قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ ﴿٧٠﴾.

﴿٧١﴾ - ﴿٧٢﴾ ثم فصل هذا الفصل بينهم بقوله: ﴿هَذَانِ خَصَمَانِ أَحْضَمُوا فِي رَيْبٍ﴾: كل يدعي أنه الحق. ﴿فَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾: يشمل كل كافر من اليهود والنصارى والمجوس والصابئين والمشركين، ﴿قَطَعْنَا لَهُم نَارًا﴾: أي: يجعل لهم نيب من قطران، وتشعل فيها النار؛ ليعمهم العذاب من جميع جوانبهم، ﴿يُصْبُتُ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ﴾ ﴿٧١﴾: الماء الحار جداً، ﴿يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ﴾: من اللحم والشحم والأمعاء من شدة حره وعظيم أمره. ﴿وَلَهُمْ مَقْلِعٌ مِّنْ حَدِيدٍ﴾ ﴿٧٢﴾: بيد الملائكة الغلاظ الشداد تضربهم بها وتقمعهم. ﴿كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا﴾: فلا يفتقر عنهم العذاب ولا هم ينظرون، ويقال لهم توبيخاً: ﴿وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ ﴿٧٣﴾: أي: المحرق للقلوب والأبدان.

﴿٧٣﴾ ﴿إِنَّ اللَّهَ يَدْخِلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾: ومعلوم أن هذا الوصف لا يصدق على غير المسلمين، الذين آمنوا بجميع الكتب وجميع الرسل، ﴿يُحَاوُونَ فِيهَا مِنْ أَشْوَارٍ مِّنْ ذَهَبٍ﴾: أي: يسورون في أيديهم، رجالهم ونسأؤهم أساور الذهب، ﴿وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ ﴿٧٣﴾: قم نعيمهم بذكر أنواع المأكولات اللذيذات، المشتمل عليها لفظ الجنات، وذكر الأنهار السارحات، أنهار الماء واللبن والعسل والخمر، وأنواع اللباس والحلي الفاخر.

سورة الحج

الْحَجَّاتُ

﴿٢٤﴾ وذلك بسبب أنهم هدوا ﴿إِلَى الطَّيِّبِ مِنْ أَلْقَوْلِ﴾: الذي أفضله وأطيبه كلمة الإخلاص، ثم سائر الأقوال الطيبة التي فيها ذكر الله أو إحسان إلى عباد الله. ﴿وَهُدُوا إِلَى صِرَاطٍ الْحَمِيدِ﴾ ﴿٢٥﴾؛ أي: الصراط المحمود، وذلك لأن جميع الشرع كله محتوٍ على الحكمة والحمد وحسن المأمور به وقبح المنهي عنه، وهو الدين الذي لا إفراط فيه ولا تفريط، المشتتمل على العلم النافع والعمل الصالح. أو: هدوا إلى صراط الله الحميد؛ لأن الله كثيرًا ما يضيف الصراط إليه؛ لأنه يوصل صاحبه إلى الله. وفي ذكر الحميد هنا لبيان أنهم نالوا الهداية بحمد ربهم ومنتته عليهم، ولهذا يقولون في الجنة: ﴿لِنَحْمَدُ اللَّهَ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ﴾ [الأعراف: ٤٣].

واعترض تعالى بين هذه الآيات بذكر سجود المخلوقات له؛ جميع من في السماوات والأرض، والشمس، والقمر، والنجوم، والجبال، والشجر، والدواب الذي يشمل الحيوانات كلها. وكثير من الناس، وهم المؤمنون: ﴿وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ﴾؛ أي: وجب وكتب لكفره وعدم إيمانه، فلم يوفقه الله للإيمان؛ لأن الله أهانه. ﴿وَمَنْ يُنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ﴾: ولا راد لما أراد، ولا معارض لمشيئته؛ فإذا كانت المخلوقات كلها ساجدة لربها، خاضعة لعظمته، مستكنة لعزته، عانية لسلطانه؛ دل أنه وحده الرب المعبود الملك المحمود، وأن من عدل عنه إلى عبادة سواه؛ فقد ضل ضلالًا بعيدًا، وخسر خسرانًا مبينًا.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَذِيفِ فِيهِ وَالْبَادِ وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِالْحَكَمِ يُطْلَمِ نَذْرُهُ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ﴾ ﴿٢٥﴾.

﴿٢٥﴾ يخبر تعالى عن شناعة ما عليه المشركون الكافرون بربهم، وأنهم جمعوا بين الكفر بالله ورسله، وبين الصد عن سبيل الله، ومنع الناس من الإيمان، والصد أيضًا عن المسجد الحرام الذي ليس ملكًا لهم ولا لأبائهم، بل الناس فيه سواء المقيم فيه والطارئ إليه، بل صدوا عنه أفضل الخلق محمدًا وأصحابه، والحال أن المسجد الحرام من حرمة واحترامه وعظمته أن من ﴿يُرِدْ فِيهِ بِالْحَكَمِ يُطْلَمِ نَذْرُهُ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ﴾ ﴿٢٥﴾؛ فمجرد الإرادة للظلم والإلحاد في الحرم موجب للعذاب، وإن كان غيره لا يعاقب العبد عليه إلا بعمل الظلم؛ فكيف بمن أتى فيه أعظم الظلم من الكفر والشرك والصد عن سبيله ومنع من يريده بزيارة؟! فما ظنكم أن يفعل الله بهم؟!.

وفي هذه الآية الكريمة وجوب احترام الحرم وشدة تعظيمه والتحذير من إرادة المعاصي فيه وفعلها.

﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَاتَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكَ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ ﴿٢٦﴾ وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي آيَاتِهِ مَقْلُوبَةً عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَاكْلُوا مِنْهَا وَأَطِيعُوا أَمْرَ الْفَقِيرِ ﴿٢٨﴾ ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴿٢٩﴾.

﴿٢٦﴾ مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ ۖ وَهَذَا مِنَ الْمَنَافِعِ الدِّينِيَّةِ وَالدُّنْيَوِيَّةِ ۖ أَيُّ لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عِنْدَ ذَبْحِ الْهَدَايَا شُكْرًا لِلَّهِ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْهَا وَيَسْرَهَا لَهُمْ ۖ فَإِذَا ذَبَحْتُمُوهَا ۖ ﴿فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ﴾ ﴿٢٧﴾ ۖ أَيُّ شَدِيدِ الْفَقْرِ.

﴿٢٧﴾ ﴿ثُمَّ لَيَقْضُوا تَفَثَهُمْ﴾ ۖ أَيُّ يَقْضُوا نَسْكَهُمْ وَيَزِيلُوا الْوَسْخَ وَالْأَذَى الَّذِي لِحَقِّقَهُمْ فِي حَالِ الْإِحْرَامِ ۖ ﴿وَلْيُؤْفُوا نُذُورَهُمْ﴾ ۖ الَّتِي أَوْجِبُوهَا عَلَى أَنْفُسِهِمْ مِنَ الْحَجِّ وَالْعُمْرَةِ وَالْهَدَايَا ۖ ﴿وَلْيَطُوفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ ﴿٢٨﴾ ۖ أَيُّ الْقَدِيمِ، أَفْضَلُ الْمَسَاجِدِ عَلَى الْإِطْلَاقِ، الْمَعْتَقُ مِنْ تَسْلُطِ الْجَبَابِرَةِ عَلَيْهِ. وَهَذَا أَمْرٌ بِالطَّوْفِ، خُصُوصًا بَعْدَ الْأَمْرِ بِالنَّاسِكِ عُمُومًا ۖ لِفَضْلِهِ وَشَرْفِهِ، وَلِكُونِهِ الْمَقْصُودِ، وَمَا قَبْلَهُ وَسَائِلُ إِلَيْهِ. وَلَعَلَّهُ وَاللَّهُ أَعْلَمُ أَيْضًا لِفَائِدَةِ أُخْرَى، وَهُوَ أَنَّ الطَّوْفَ مَشْرُوعٌ كُلَّ وَقْتٍ، وَسَوَاءٌ كَانَ تَابِعًا لِنَسْكِ أَمْ مُسْتَقِلًّا بِنَفْسِهِ.

﴿ذَلِكَ وَمَنْ يُعْظِمِ حُرْمَتَ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ ۖ وَأُحِلَّتْ لَكُمْ الْآفَاقُ إِلَّا مَا يَنْتَلِي عَلَيْكُمْ فَأَجْنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ﴾ ﴿٢٩﴾ حُفَاءَ اللَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ ۖ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخَفَفَهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهَوَّى بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ ﴿٣٠﴾.

﴿٣٠﴾ ﴿ذَلِكَ﴾ ۖ أَيُّ ذَكَرْنَا لَكُمْ مِنْ تِلْكَ الْأَحْكَامِ وَمَا فِيهَا مِنْ تَعْظِيمِ حُرْمَاتِ اللَّهِ وَاجْلَالِهَا وَتَكْرِيمِهَا ۖ لِأَنَّ تَعْظِيمَ حُرْمَاتِ اللَّهِ مِنَ الْأُمُورِ الْمَحْبُوبَةِ لِلَّهِ الْمُقَرَّبَةِ إِلَيْهِ الَّتِي مِنْ عَظَمَتِهَا وَأَجَلَّتْ أَثَابَةُ اللَّهِ ثَوَابًا جَزِيلًا، وَكَانَتْ خَيْرًا لَهُ فِي دِينِهِ وَدُنْيَاهِ وَأُخْرَاهِ عِنْدَ رَبِّهِ. وَحُرْمَاتُ اللَّهِ كُلُّ مَا لَهُ حُرْمَةٌ وَأَمْرٌ بِاحْتِرَامِهِ مِنْ عِبَادَةٍ أَوْ غَيْرِهَا ۖ كَالْمَنَاسِكِ كُلِّهَا، وَكَالْحَرَمِ وَالْإِحْرَامِ، وَكَالْهَدَايَا، وَكَالْعِبَادَاتِ الَّتِي أَمَرَ اللَّهُ الْعِبَادَ بِالْقِيَامِ بِهَا ۖ فَتَعْظِيمُهَا إِجْلَالُهَا بِالْقَلْبِ وَمَحَبَّتُهَا وَتَكْمِيلُ الْعِبَادَةِ فِيهَا غَيْرُ مَتَاهُونَ وَلَا مُتَكَاسِلِينَ وَلَا مُتَقَاعِلِينَ. ثُمَّ ذَكَرَ مَتْنَهُ وَإِحْسَانَهُ بِمَا أَحْلَاهُ لِعِبَادِهِ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ مِنْ إِبِلٍ وَبَقَرٍ وَغَنَمٍ، وَشَرَعَهَا مِنْ جُمْلَةِ الْمَنَاسِكِ الَّتِي يَتَقَرَّبُ بِهَا إِلَيْهِ، فَعَظُمَتْ مَتْنُهُ فِيهَا مِنَ الْوُجْهِينَ. ﴿إِلَّا مَا يَنْتَلِي عَلَيْكُمْ﴾ ۖ فِي الْقُرْآنِ تَحْرِيمُهُ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكَ الْفَيْتَنَةُ وَالَّذُومُ وَالْحَمُّ الْخَنِزِيرُ﴾ [المائدة: ٣] الآية. وَلَكِنْ الَّذِي مِنْ رَحْمَتِهِ بَعَادَهُ أَنْ حَرَمَهُ عَلَيْهِمْ وَمَنْعَهُمْ مِنْهُ تَرْكِهَ لَهُمْ وَتَطْهِيرَهُ مِنَ الشُّرْكِ بِهِ وَقَوْلَ الزُّورِ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿فَأَجْنِبُوا الرِّجْسَ﴾ ۖ أَيُّ الْخَبْثِ الْقَذَرِ ﴿مِنْ

﴿٢٦﴾ يَذْكُرُ تَعَالَى عَظَمَةَ الْبَيْتِ الْحَرَامِ وَجَلَالَتِهِ وَعَظَمَةَ بَانِيهِ، وَهُوَ خَلِيلُ الرَّحْمَنِ، فَقَالَ: ﴿وَإِذْ يَوَافُّنَا لِأَتْرِهِهِرَ مَكَاتِ الْبَيْتِ﴾ ۖ أَيُّ هَيَأَنَاهُ لَهُ وَأَنْزَلَنَاهُ إِلَيْهَ، وَجَعَلَ قَسَمًا مِنْ ذُرِّيَّتِهِ مِنْ سَكَانِهِ، وَأَمَرَهُ اللَّهُ بَيْنَانَهُ، فَبَنَاهُ عَلَى تَقْوَى اللَّهِ، وَأَسَسَهُ عَلَى طَاعَةِ اللَّهِ، وَبَنَاهُ هُوَ وَابْنُهُ إِسْمَاعِيلُ، وَأَمَرَهُ الْأَلَّ بِشُرْكِهِ بِهَ شَيْئًا ۖ بِأَنْ يَخْلُصَ لِلَّهِ أَعْمَالُهُ وَيَبِينَهُ عَلَى اسْمِ اللَّهِ. ﴿وَطَهَّرَ بَيْتِي﴾ ۖ أَيُّ مِنَ الشُّرْكِ وَالْمَعَاصِي وَمِنَ الْأَنْجَاسِ وَالْأَدْنَاسِ، وَأَضَافَهُ الرَّحْمَنُ إِلَى نَفْسِهِ لَشَرْفِهِ وَفَضْلِهِ وَلِتَعْظُمَ مَحَبَّتُهُ فِي الْقُلُوبِ، وَتَنْصَبَ إِلَيْهِ الْأَفْتَدَةُ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ، وَلِيَكُونَ أَعْظَمَ لَتَطْهِيرِهِ وَتَعْظِيمِهِ ۖ لِكُونِهِ بَيْتُ الرَّبِّ لِلطَّائِفِينَ بِهِ وَالْعَاكِفِينَ عِنْدَهُ، الْمُقِيمِينَ لِعِبَادَةِ مِنَ الْعِبَادَاتِ مِنْ ذِكْرِ وَقِرَاءَةٍ وَتَعْلَمِ عِلْمٍ وَتَعْلِيمِهِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ أَنْوَاعِ الْقُرْبِ، ﴿وَالرُّكُوعِ السُّجُودِ﴾ ﴿٣١﴾ ۖ أَيُّ الْمَصْلُحِينَ ۖ أَيُّ طَهَّرَهُ لِهَؤُلَاءِ الْفَضْلَاءِ الَّذِينَ هُمُ مَهْمُ طَاعَةِ مَوْلَاهُمْ وَخِدْمَتِهِ وَالتَّقَرُّبِ إِلَيْهِ عِنْدَ بَيْتِهِ ۖ فَهَؤُلَاءِ لَهُمُ الْحَقُّ وَلَهُمُ الْإِكْرَامُ، وَمِنْ إِكْرَامِهِمْ تَطْهِيرُ الْبَيْتِ لِأَجْلِهِمْ.

وَيَدْخُلُ فِي تَطْهِيرِهِ تَطْهِيرُهُ مِنَ الْأَصْوَاتِ اللَّاغِيَةِ وَالْمَرْتَعَةِ الَّتِي تَشُوْشُ عَلَى الْمُتَعَبِّدِينَ بِالصَّلَاةِ وَالطَّوْفِ.

وَقَدْ مَرَّ الطَّوْفُ عَلَى الْإِعْتِكَافِ وَالصَّلَاةِ لِاخْتِصَاصِهِ بِهَذَا الْبَيْتِ، ثُمَّ الْإِعْتِكَافُ لِاخْتِصَاصِهِ بِجَنَسِ الْمَسَاجِدِ.

﴿٣١﴾ ﴿وَإِذْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ﴾ ۖ أَيُّ أَعْلَمَهُمْ بِهِ، وَادْعُهُمْ إِلَيْهِ، وَبَلِّغْ دَانِيَهُمْ وَقَاصِيَهُمْ فَرَضَهُ وَفَضِيلَتَهُ ۖ فَإِنَّكَ إِذَا دَعَوْتَهُمْ ۖ أَتَوْكَ حِجَابًا وَعِمَارًا. ﴿رَبَّكَ﴾ ۖ أَيُّ مَشَاةٍ عَلَى أَرْجُلِهِمْ مِنَ الشُّوقِ، ﴿وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ﴾ ۖ أَيُّ نَاقَةٍ ضَامِرٍ تَقْطَعُ الْمَهَامَةَ وَالْمَفَاوِزَ، وَتَوَاصِلُ السَّيْرَ حَتَّى تَأْتِيَ إِلَى أَشْرَفِ الْأَمَاكِنِ، ﴿وَمِنْ كُلِّ فَوْجٍ عَمِيقٍ﴾ ﴿٣٢﴾ ۖ أَيُّ مِنْ كُلِّ بَلَدٍ بَعِيدٍ.

وَقَدْ فَعَلَ الْخَلِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ ثُمَّ مِنْ بَعْدِهِ ابْنُهُ مُحَمَّدٌ ﷺ، فَدَعَا النَّاسَ إِلَى حَجِّ هَذَا الْبَيْتِ، وَأَبْدَى فِي ذَلِكَ وَأَعَادَا، وَقَدْ حَصَلَ مَا وَعَدَ اللَّهُ بِهِ ۖ أَنَاهُ النَّاسَ رَجَالًا وَرُكْبَانًا مِنْ مَشَارِقِ الْأَرْضِ وَمَغَارِبِهَا.

﴿٣٢﴾ ثُمَّ ذَكَرَ فَوَائِدَ زِيَارَةِ بَيْتِ اللَّهِ الْحَرَامِ مَرْغَبًا فِيهِ، فَقَالَ: ﴿لَيَشْهَدُوا مَنْفَعَ لَهُمْ﴾ ۖ أَيُّ لَيَنَالُوا بَيْتَ اللَّهِ مَنَافِعَ دِينِيَّةٍ مِنَ الْعِبَادَاتِ الْفَاضِلَةِ، وَالْعِبَادَاتِ الَّتِي لَا تَكُونُ إِلَّا فِيهِ، وَمَنَافِعَ دُنْيَوِيَّةٍ، مِنَ التَّكْسِبِ وَحَصُولِ الْأَرْبَاحِ الدُّنْيَوِيَّةِ، وَكُلِّ هَذَا أَمْرٌ مُشَاهَدٌ، كُلُّ يَعْرِفُهُ. ﴿لَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَى

الْأَوَّلِينَ ۖ أَي: الأنداد التي جعلتموها آلهة مع الله؛ فإنها أكبر أنواع الرجس.

والظاهر أن ﴿مِنْ﴾ هنا ليست لبيان الجنس كما قاله كثير من المفسرين، وإنما هي للتبعض، وأن الرجس عام في جميع المنهيات المحرمات، فيكون منهياً عنها عموماً، وعن الأوثان التي هي بعضها خصوصاً، ﴿وَأَجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ﴾ ٢١؛ أي: جميع الأقوال المحرمات؛ فإنها من قول الزور، الذي هو الكذب ومن ذلك شهادة الزور، فلما نهاهم عن الشرك والرجس وقول الزور.

﴿٢١﴾ أمرهم أن يكونوا ﴿حُفَاءَ لِلَّهِ﴾؛ أي: مقبلين عليه وعلى عبادته، معرضين عما سواه. ﴿غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ﴾ ومن يُشْرِكُ بِاللَّهِ: فمثله ﴿فَكَأَنَّمَا حَرَّمَ السَّمَاءُ﴾؛ أي: سقط منها، ﴿فَتَخَطَّفَهُ الطَّيْرُ﴾: بسرعة، ﴿أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيحٍ﴾ ٢٢؛ أي: بعيد. كذلك المشركون؛ فالإيمان بمنزلة السماء محفوظة مرفوعة، ومن ترك الإيمان بمنزلة الساقط من السماء عرضة للآفات والبليات؛ فإما أن تحطفه الطير فتقطع أعضاءه، كذلك المشرك إذا ترك الاعتصام بالإيمان؛ تحطفه الشياطين من كل جانب، ومزقه، وأذهبوا عليه دينه ودينه.

﴿ذَلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعِيرَةَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾ ٢٣ ﴿لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعٌ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَا إِلَىٰ الْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ ٢٤.

﴿٢٣﴾ أي: ذلك الذي ذكرنا لكم من تعظيم حرمانه وشعائره، والمراد بالشعائر أعلام الدين الظاهرة:

ومنها: المناسك كلها؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١٥٨].

ومنها: الهدايا والقرابان للبيت، وتقدم أن معنى تعظيمها إجلالها والقيام بها وتكميلها على أكمل ما يقدر عليه العبد.

ومنها: الهدايا؛ فتعظيمها باستحسانها واستسمانها، وأن تكون مكملة من كل وجه. فتعظيم شعائر الله صادر من تقوى القلوب؛ فالمعظم لها يبرهن على تقواه وصحة إيمانه؛ لأن تعظيمها تابع لتعظيم الله وإجلاله.

﴿لَكُمْ فِيهَا﴾ ٢٣؛ أي: في الهدايا، ﴿مَنَافِعٌ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾: هذا في الهدايا المسوقة من البدن ونحوها؛ ينتفع بها أربابها بالركوب والحلب ونحو ذلك مما لا يضرها إلى أجل مسمى مقدر موقت، وهو ذبحها إذا وصلت محلها، وهو ﴿الْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ ٢٤؛ أي: الحرم كله، منى وغيرها؛ فإذا ذبحت؛ أكلوا منها وأهدوا وأطعموا البائس الفقير.

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنَسَكًا لِّيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَإِلَهُهُ إِلَهٌُ وَحْدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ﴾ ٢٥ ﴿الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّادِقِينَ عَلَىٰ مَا أَصَابَهُمْ وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ ٢٦.

﴿٢٥﴾ أي: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ﴾: من الأمم السالفة ﴿جَعَلْنَا مَنَسَكًا﴾؛ أي: فاستبقوا إلى الخيرات وتسارعوا إليها، ولننظر

أيكم أحسن عملاً. والحكمة في جعل الله لكل أمة منسكاً؛ لإقامة ذكره والالتفات لشكره، ولهذا قال: ﴿يَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَإِنَّهُمْ لِلَّهِ وَحْدٌ﴾. وإن اختلفت أجناس الشرائع؛ فكلها متفقة على هذا الأصل، وهو ألوهية الله وإفراده بالعبودية وترك الشرك به، ولهذا قال: ﴿فَلَهُ اسْلِمُوا﴾؛ أي: انقادوا واستسلموا له لا لغيره؛ فإن الإسلام له طريق إلى الوصول إلى دار السلام. ﴿وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ﴾: بخير الدنيا والآخرة، والمخبت: الخاضع لربه، المستسلم لأمره، المتواضع لعباده.

﴿٢٥﴾ ثم ذكر صفات المخبتين، فقال: ﴿الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾؛ أي: خوفاً وتعظيماً، فتركوا ذلك المحرمات لخوفهم ووجلهم من الله وحده. ﴿وَالصَّابِرِينَ عَلَىٰ مَا أَصَابَهُمْ﴾: من البأساء والضراء وأنواع الأذى؛ فلا يجري منهم التسخط لشيء من ذلك، بل صبروا ابتغاء وجه ربهيم؛ محتسبين ثوابه، مرتقين أجره. ﴿وَالْمُحْسِنِينَ الصَّالَةِ﴾؛ أي: الذين جعلوها قائمة مستقيمة كاملة؛ بأن أدوا اللزوم فيها والمستحب وعبوديتها الظاهرة والباطنة. ﴿وَعَمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُقْفُونَ﴾: وهذا يشمل جميع النفقات الواجبة؛ كالزكاة والكفارة والنفقة على الزوجات والمماليك والأقارب، والنفقات المستحبة؛ كالصدقات بجميع وجوهها.

وأتى بـ (من) المفيدة للتبعض ليعلم سهولة ما أمر الله به ورغب فيه، وأنه جزء يسير مما رزق الله، ليس للعبد في تحصيله قدرة لولا تيسير الله له ورزقه إياه؛ فإياها المرزوق من فضل الله أنفق مما رزقك الله؛ ينفق الله عليك ويزدك من فضله.

﴿وَالَّذِينَ جَعَلْنَا لَكُمْ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافٍ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطِيعُوا أَلْفَافِ وَالْمَعَزَّ كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾. لَنْ يَنَالَ اللَّهُ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ الْقَتْلُ مِنْكُمْ كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِشُكْرِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَيْتُمْ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ﴾.

﴿٢٦﴾ هذا دليل على أن الشعائر عامة في جميع أعلام الدين الظاهرة، وتقدم أن الله أخبر أن من عظم شعائره؛ فإن ذلك من تقوى القلوب، وهنا أخبر أن من جملة شعائره البدن؛ أي: الإبل والبقر على أحد القولين، فتعظم وتستسم

وتستحسن. ﴿لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ﴾؛ أي: المهدي وغيره من الأكل والصدقة والانتفاع والثواب والأجر. ﴿فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا﴾؛ أي: عند ذبحها، قولوا: بسم الله، واذبحوها ﴿صَوَافٍ﴾؛ أي: قائمات؛ بأن تقام على قوائمها الأربع، ثم تعقل يدها اليسرى، ثم تنحر. ﴿فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا﴾؛ أي: سقطت في الأرض جنوبها حين تسليخ ثم يسقط الجزار جنوبها على الأرض؛ فحينئذ قد استعدت لأن يؤكل منها؛ ﴿فَكُلُوا مِنْهَا﴾: وهذا خطاب للمهدي، فيجوز له الأكل من هديه، ﴿وَأَطِيعُوا أَلْفَافِ وَالْمَعَزَّ﴾؛ أي: الفقير الذي لا يسأل تقنعاً وتعقفاً، والفقير الذي يسأل؛ فكل منهما له حق فيها. ﴿كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ﴾؛ أي: البدن، ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾: الله على تسخيرها؛ فإنه لولا تسخيرها لها؛ لم يكن لكم بها طاقة، ولكنه ذلّلها لكم وسخرها رحمة بكم وإحساناً إليكم؛ فاحمدوه.

﴿٢٧﴾ وقوله: ﴿لَنْ يَنَالَ اللَّهُ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا﴾؛ أي: ليس المقصود منها ذبحها فقط، ولا ينال الله من لحومها ولا دماؤها شيء؛ لكونه الغني الحميد، وإنما يناله الإخلاص فيها والاحتساب والنية الصالحة، ولهذا قال: ﴿وَلَكِنْ يَنَالُهُ الْقَتْلُ مِنْكُمْ﴾: ففي هذا حث وترغيب على الإخلاص في النحر، وأن يكون القصد وجه الله وحده؛ لا فخراً ولا رياء ولا سمعة ولا مجرد عادة، وهكذا سائر العبادات إن لم يقترب بها الإخلاص وتقوى الله؛ كانت كالقشر الذي لا لب فيه والجسد الذي لا روح فيه. ﴿كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِشُكْرِكُمْ﴾؛ أي: تعظموه وتجلوه، كما ﴿هَدَيْتُمْ﴾؛ أي: مقابلة لهديته إياكم؛ فإنه يستحق أكمل الثناء وأجل الحمد وأعلى التعظيم. ﴿وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ﴾: بعبادة الله؛ بأن يعبدوا الله كأنهم يرونه؛ فإن لم يصلوا إلى هذه الدرجة؛ فليعبدوه معتقدين وقت عبادتهم اطلاعه عليهم ورؤيته إياهم، والمحسنين لعباد الله بجميع وجوه الإحسان؛ من نفع مال أو علم أو جاه أو نصيح أو أمر بمعروف أو نهي عن منكر أو كلمة طيبة ونحو ذلك؛ فالمحسنون لهم البشارة من الله بسعادة الدنيا والآخرة، وسيحسن الله إليهم كما أحسنوا في عبادته ولعباده؛ ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَنِ إِلَّا الْإِحْسَنُ﴾. [الرحمن: ٦٠]، ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا لِحُسْنٍ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦].

﴿إِنَّ اللَّهَ يَذْفَعُ عَنِ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ﴾.

سورة الحج

الحج المبرور

٣٨

هذا إخبار ووعد وبشارة من الله للذين آمنوا أن الله يدافع عنهم كل مكروه، ويدفع عنهم كل شر بسبب إيمانهم: من شر الكفار وشر وسوسة الشيطان وشرور أنفسهم وسيئات أعمالهم، ويحمل عنهم عند نزول المكاره ما لا يتحملون، فيخفف عنهم غاية التخفيف، كل مؤمن له من هذه المدافعة والفضيلة بحسب إيمانه، فمستقل ومستكثر.

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ﴾؛ أي: خائن في أمانته التي حملة الله إياها، فيبخر حقوق الله عليه ويخونها ويخون الخلق. ﴿كَفُورٍ﴾؛ لنعم الله، يوالي عليه الإحسان، ويتوالى منه الكفر والعصيان؛ فهذا لا يحبه الله، بل يُبْغِضُهُ وَيَمْقُتُهُ وسيجازهه على كفره وخيانه. ومفهوم الآية أن الله يحب كل أمين قائم بأمانته شكور لمولاه.

﴿أُوذِنَ الَّذِينَ يَفْتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ (٣٩) الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الصُّلُوحُ وَبِيعَ وَصَلَوْتُ وَمَسَّجِدُ يَذْكُرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ (٤٠) الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَاللَّهُ عَنِقَبَةُ الْأُمُورِ (٤١)﴾.

كان المسلمون في أول الإسلام ممنوعين من قتال الكفار وأمورين بالصبر عليهم لحكمة إلهية، فلما هاجروا إلى المدينة، وأوذوا وحصل لهم منعة وقوة؛ أذن لهم بالقتال؛ قال تعالى: ﴿أُوذِنَ الَّذِينَ يَفْتَلُونَ﴾؛ يفهم منه أنهم كانوا قبل ممنوعين، فأذن الله لهم بقتال الذين يقاتلون، وإنما أذن لهم لأنهم ظلموا بمنعهم من دينهم وأذيتهم عليه وإخراجهم من ديارهم. ﴿وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ (٣٩)؛ فليستصروه وليستعنوا به.

ثم ذكر صفة ظلمهم، فقال: ﴿الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ﴾؛ أي: أُلْجُوا إِلَى الْخُرُوجِ بِالْأَذْيَةِ وَالْفِتْنَةِ، ﴿بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا﴾: أَنْ ذَنْبُهُمُ الَّذِي نَقَمَ مِنْهُمْ أَعْدَاؤُهُمْ، ﴿أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ﴾؛ أي: إِلَّا أَنَّهُمْ وَحَدُوا اللَّهَ وَعَبَدُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ؛ فَإِنْ كَانَ هَذَا ذَنْبًا؛ فَهُوَ ذَنْبُهُمْ؛ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ (٢٨)؛ [البقرة: ٢٨]. وهذا يدل على حكمة الجهاد؛ فَإِنَّ الْمَقْصُودَ مِنْهُ إِقَامَةُ دِينِ اللَّهِ، أَوْ ذَبُّ الْكُفَّارِ الْمُؤْذِنِ لِلْمُؤْمِنِينَ الْبَادِئِينَ لَهُمْ بِالْإِعْتِدَاءِ عَنْ ظُلْمِهِمْ وَاعْتِدَائِهِمْ، وَالتَّمَكُّنُ مِنْ عِبَادَةِ اللَّهِ وَإِقَامَةِ الشَّرَائِعِ الظَّاهِرَةِ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ﴾؛ فَيُدْفَعُ اللَّهُ بِالْمُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِهِ ضَرَرَ الْكَافِرِينَ؛ ﴿لَفَسَدَتِ الصُّلُوحُ وَبِيعَ وَصَلَوْتُ وَمَسَّجِدُ﴾؛ أي: لَهْدَمَتِ هَذِهِ الْمَعَابِدُ الْكُبْرَى لَطَوَائِفِ أَهْلِ الْكِتَابِ، مَعَابِدُ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى وَالْمَسَاجِدُ لِلْمُسْلِمِينَ. ﴿يَذْكُرُ فِيهَا﴾؛ أي: فِي هَذِهِ الْمَعَابِدِ ﴿اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا﴾؛ تَقَامُ فِيهَا الصَّلَوَاتُ، وَتَتْلَى فِيهَا كُتُبُ اللَّهِ، وَيَذْكُرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ بِأَنْوَاعِ الذِّكْرِ؛ فَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ؛ لَاسْتَوَلَى الْكُفَّارُ عَلَى الْمُسْلِمِينَ، فَخَرَبُوا مَعَابِدَهُمْ وَفَتَنُوهُمْ عَنْ دِينِهِمْ، فَدَلَّ هَذَا أَنَّ الْجِهَادَ مَشْرُوعٌ لِأَجْلِ دَفْعِ الصَّائِلِ وَالْمُؤْذِي، وَمَقْصُودٌ لِغَيْرِهِ. وَدَلَّ ذَلِكَ عَلَى أَنَّ الْبُلْدَانَ الَّتِي حَصَلَتْ فِيهَا الطَّمَأْنِينَةُ بِعِبَادَةِ اللَّهِ، وَعُمِرَتْ مَسَاجِدُهَا، وَأَقِيمَتْ فِيهَا شُعَائِرُ الدِّينِ كُلِّهَا مِنْ فُضَائِلِ الْمُجَاهِدِينَ وَبِرَكَّتِهِمْ، دَفَعَ اللَّهُ عَنْهَا الْكَافِرِينَ؛ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ (٢٥١) [البقرة: ٢٥١].

وقوموا أيها المسلمون بحق الإيمان والعمل الصالح؛ فقد ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا﴾ [النور: ٥٥].

﴿٥٦﴾ ثم ذكر علامة من ينصره، وبها يعرف أن من ادعى أنه ينصر الله وينصر دينه ولم يتصف بهذا الوصف؛ فهو كاذب، فقال: ﴿الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾؛ أي: ملكناهم إياها، وجعلناهم المتسلطين عليها من غير منازع ينازعهم ولا معارض؛ ﴿أَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾؛ في أوقاتها وحدودها وأركانها وشروطها في الجمعة والجماعات. ﴿وَأَتُوا الزَّكَاةَ﴾؛ التي عليهم خصوصاً، وعلى رعييتهم عمومًا، آتوها أهلها الذين هم أهلها. ﴿وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ﴾؛ وهذا يشمل كل معروف حسنه شرعاً وعقلاً من حقوق الله وحقوق آدميين. ﴿وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ﴾؛ كل منكر شرعاً وعقلاً، معروف قبحه، والأمر بالشيء والنهي عنه يدخل فيه ما لا يتم إلا به؛ فإذا كان المعروف والمنكر يتوقف على تعلم وتعليم أجبروا الناس على التعلم والتعليم، وإذا كان يتوقف على تأديب مقدر شرعاً أو غير مقدر؛ كأنواع التعزير؛ قاموا بذلك، وإذا كان يتوقف على جعل أناس متصدين له؛ لزم ذلك، ونحو ذلك مما لا يتم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إلا به.

﴿وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾ ﴿٥٧﴾؛ أي: جميع الأمور ترجع إلى الله، وقد أخبر أن العاقبة للتعوى؛ فمن سلطه الله على العباد من الملوك وقام بأمر الله؛ كانت له العاقبة الحميدة والحالة الرشيدة، ومن تسلط عليهم بالجبروت، وأقام فيهم هوى نفسه؛ فإنه وإن حصل له ملك موقت؛ فإن عاقبته غير حميدة؛ فولايته مشثومة، وعاقبته مذمومة.

﴿وَإِن يَكْذِبُواكَ فَتَدَّ كَذَبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودٌ﴾ ﴿٥٨﴾ وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ﴿٥٩﴾ وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكَذَّبَ مُوسَىٰ فَأَمَلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتَهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٦٠﴾ فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَبْرِ مَغْطَلَةٍ وَقَصْرِ مَشِيدٍ ﴿٦١﴾ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُون لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آفَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَلِمَ أَتَى الْأَبْصَرَ وَلَكِن تَعَى الْقُلُوبُ آتَى فِي الضُّلُوبِ ﴿٦٢﴾

فإن قلت: نرى الآن مساجد المسلمين عامرة لم تخرب؛ مع أنها كثير منها إمارة صغيرة وحكومة غير منظمة، مع أنهم لا يدان لهم بقتال من جاورهم من الإفرنج، بل نرى المساجد التي تحت ولايتهم وسيطرتهم عامرة، وأهلها آمنون مطمئنون؛ مع قدرة ولايتهم من الكفار على هدمها، والله أخبر أنه لولا دفع الله الناس بعضهم ببعض؛ لهدمت هذه المعابد، ونحن لا نشاهد دفعا؟

أجيب بأن جواب هذا السؤال والاستشكال داخل في عموم هذه الآية وفرد من أفرادها؛ فإن من عرف أحوال الدول الآن ونظامها، وأنها تعتبر كل أمة وجنس تحت ولايتها وداخل في حكمها؛ تعتبره عضواً من أعضاء المملكة وجزءاً من أجزاء الحكومة، سواء كانت تلك الأمة مقتدرة بحددها أو عُددها، أو مالها، أو علمها، أو خدمتها، فتراعي الحكومات مصالح ذلك الشعب الدينية والدنيوية، وتخشى إن لم تفعل ذلك أن يختل نظامها وتفقد بعض أركانها، فيقوم من أمر الدين بهذا السبب ما يقوم، خصوصاً المساجد؛ فإنها ولله الحمد في غاية الانتظام، حتى في عواصم الدول الكبار. وتراعي تلك الدول الحكومات المستقلة؛ نظراً لخواطر رعاياهم المسلمين، مع وجود التحاسد والتباغض بين دول النصرى، الذي أخبر الله أنه لا يزال إلى يوم القيامة، فتبقى الحكومة المسلمة التي لا تقدر تدافع عن نفسها سالمة من كثير ضررهم؛ لقيام الحسد عندهم؛ فلا يقدر أحدهم أن يمد يده عليها، خوفاً من احتمائها بالآخر، مع أن الله تعالى لا بد أن يري عباده من نصر الإسلام والمسلمين ما قد وعد به في كتابه، وقد ظهرت ولله الحمد أسبابه بشعور المسلمين بضرورة رجوعهم إلى دينهم، والشعور بمبدأ العمل؛ فنحمده ونسأله أن يتم نعمته، ولهذا قال في وعده الصادق المطابق للواقع: ﴿وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَبْصُرُهُ﴾؛ أي: يقوم بنصر دينه، مخلصاً له في ذلك، يقاتل في سبيله لتكون كلمة الله هي العليا.

﴿إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ ﴿٦٣﴾؛ أي: كامل القوة، عزيز، لا يرام، قد قهر الخلائق وأخذ بنواصيهم. فأبشروا يا معشر المسلمين؛ فإنكم وإن ضعف عددكم وعددكم وقوي عدد عدوكم وعدتهم؛ فإن ركنكم القوي العزيز ومعتمدكم على من خلقكم وخلق ما تعملون؛ فاعملوا بالأسباب المأمور بها، ثم اطلبوا منه نصركم؛ فلا بد أن ينصركم، ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ ﴿٦٤﴾ [محمد: ٧]،

٤٢ - ٤٣ يقول تعالى لنبيه محمد ﷺ: وإن يكذبك هؤلاء المشركون؛ فلست بأول رسول كذب، وليسوا بأول أمة كذبت رسولها؛ ﴿فَقَدْ كَذَبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادُ وَتَمُودُ﴾ ٤٢ ﴿وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ﴾ ٤٣ وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ ﴿؛ أَي: قوم شعيب. وَكَذَّبَ مُوسَى فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ﴾: المكذبين، فلم أعجلهم بالعقوبة، بل أمهلهم حتى استمروا في طغيانهم يعمهون وفي كفرهم وشركهم يزدادون، ﴿ثُمَّ أَخَذْتَهُمْ﴾: بالعذاب أخذ عزيز مقتدر. ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ ٤٤: أي: إنكاري عليهم كفرهم وتكذيبهم كيف حاله؟! كان أشد العقوبات وأفظع المثالات؛ فمنهم من أغرقه، ومنهم من أخذته الصيحة، ومنهم من أهلك بالريح العقيم، ومنهم من خسف به الأرض، ومنهم من أرسل عليه عذاب يوم الظلة؛ فليعتبر بهم هؤلاء المكذوبون أن يصيبهم ما أصابهم؛ فإنهم ليسوا خيرًا منهم، ولا كتب لهم براءة في الكتب المنزلة من الله. وكم من المعذبين المهلكين أمثال هؤلاء كثير!

٤٥ ولهذا قال: ﴿فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ﴾: أي: وكم من قرية، ﴿أَهْلَكْنَاهَا﴾: بالعذاب الشديد والخزي الدنيوي، ﴿وَهِيَ ظَالِمَةٌ﴾: بكفرها بالله وتكذيبها لرسله، لم يكن عقوبتنا لها ظلمًا منا. ﴿فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا﴾: أي فديارهم متهدمة قصورها وجدرانها، قد سقطت على عروشها،

فأصبحت خرابًا بعد أن كانت عامرة، وموحشة بعد أن كانت أهلة بأهلها آسنة. ﴿وَبِئْسَ مَعْطَلَةٌ وَقَصْرٌ مَّشِيدٌ﴾ ٤٥: أي: وكم من بئر قد كان يزدحم عليه الخلق لشربهم وشرب مواشيهم، ففقد أهله وعدم منه الوارد والصادر! وكم من قصر تعب عليه أهله فشيده ورفعه وحصنه وزخرفوه؛ فحين جاءهم أمر الله؛ لم يغن عنهم شيئًا، وأصبح خاليًا من أهله، قد صاروا عبرة لمن اعتبر ومثالًا لمن فكر ونظر.

٤٦ ولهذا دعا الله عباده إلى السير في الأرض لينظروا ويعتبروا، فقال: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾: بأبدانهم وقلوبهم؛ ﴿فَتَكُونُ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا﴾: آيات الله ويتأملون بها مواقع عبره، ﴿أَوْ أَعَادَانِ يَسْمَعُونَ بِهَا﴾: أخبار الأمم الماضين وأنباء القرون المعذبين، وإلا فمجرد نظر العين وسماع الأذن وسير البدن الخالي من التفكير والاعتبار غير مفيد ولا موصل إلى المطلوب، ولهذا قال: ﴿فَإِنَّمَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ ٤٦: أي: هذا العمى الضار في الدين عمى القلب عن الحق حتى لا يشاهده كما لا يشاهد الأعمى المرثيات، وأما عمى البصر؛ فغايبته بلغة، ومنفعة دنيوية.

﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ ٤٧ ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَى الْمَصِيرِ﴾ ٤٨.

٤٧ أي: يتعجلك هؤلاء المكذوبون بالعذاب لجعلهم وظلمهم وعنادهم وتعجزًا لله وتكذيبًا لرسله، ولن يخلف الله وعده؛ فما وعدهم به من العذاب لا بد من وقوعه، ولا يمنعهم منه مانع، وأما عجلته والمبادرة فيه؛ فليس ذلك إليك يا محمد، ولا يستفزك عجلتهم وتعجزهم إيانا؛ فإن أمامهم يوم القيامة الذي يجمع فيه أولهم وآخرهم، ويجازون بأعمالهم، ويقع بهم العذاب الدائم الأليم، ولهذا قال: ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ ٤٧: من طوله وشدته وهوله؛ فسواء أصابهم عذاب في الدنيا أم تأخر عنهم العذاب؛ فإن هذا اليوم لا بد أن يدرکہم.

(١) سبق قلم الشيخ - رحمه الله - إلى الآية رقم (٥٦) من هذه السورة فجعل بينها وبين هذه الآية فكتب ﴿كَأَلَيْكَ أَتَيْنَا وَلَكِنْ سَخِرْنَا عَلَىٰ قُلُوبِكَ فَتَكَلَّمْتَ بِهِمْ﴾ والَّذِينَ كَذَّبُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِمٌ ﴿٥٦﴾ ثم فسرها بما يوافق الذي كتب، عدلت الآية وصوبتها، وأقيمت التفسير كما هو. (طبعة اللوحيق).

﴿٥٤﴾ وأما الطائفة الثالثة؛ فإنه يكون رحمة في حقها، وهم المذكورون بقوله: ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ الَّذِينَ آتَوْا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ﴾: وأن الله منحهم من العلم ما به يعرفون الحق من الباطل والرشد من الغي، فيفرون بين الأمرين الحق المستقر الذي يُحْكِمُهُ الله، والباطل العارض الذي ينسخه الله، بما على كل منهما من الشواهد، وليعلموا أن الله حكيم يقبض بعض أنواع الابتلاء، وليظهر بذلك كمال النفوس الخيرة والشريرة؛ ﴿فَيُؤْمِنُوا بِهِ﴾: بسبب ذلك، ويزداد إيمانهم عند دفع المعارض والشبه؛ ﴿فَتُخَيِّتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ﴾؛ أي: تخضع وتخضع وتسلم لحكمته، وهذا من هدايته إياهم. ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَهُدِّ الْذِينَ ءَامَنُوا﴾: بسبب إيمانهم ﴿إِلَّا يَصْرِفُ مُمْسِكِينَ﴾: علم بالحق وعمل بمقتضاه؛ فثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة، وهذا النوع من تثبيت الله لعبده.

وهذه الآيات فيها بيان أن للرسول ﷺ أسوة بإخوانه المرسلين؛ لما وقع منه عند قراءته ﷻ ﴿وَالْتَجِرْ﴾، فلما بلغ: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّتَّ وَالْعُزَّىٰ﴾ (٥٦) وَمَوْنَةُ الثَّلَاثَةِ الْأُخْرَىٰ (٥٧)؛ ألقى الشيطان في قراءته: تلك الغرائق العلى. وإن شفاعتهن لترتجي؛ فحصل بذلك للرسول حزن وللناس فتنة؛ كما ذكر الله، فأنزل الله هذه الآيات.

﴿وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ يَوْمٍ عَقِيمٍ﴾ (٥٥) الْمَلِكُ يَوْمَئِذٍ لَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ (٥٦) وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِيتٌ﴾ (٥٧).

﴿٥٥﴾ يخبر تعالى عن حالة الكفار، وأنهم لا يزالون في شك مما جنتهم به يا محمد؛ لعنادهم وإعراضهم، وأنهم لا يبرحون مستمرين على هذه الحال، ﴿حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً﴾؛ أي: مفاجأة، ﴿أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ يَوْمٍ عَقِيمٍ﴾ (٥٥)؛ أي: لا خير فيه، وهو يوم القيامة؛ فإذا جاءتهم الساعة أو أتاهم ذلك اليوم؛ علم الذين كفروا أنهم كانوا كاذبين، وندموا حيث لا ينفعهم الندم، وأبلسوا، وأيسوا من كل خير، وودوا لو آمنوا بالرسول واتخذوا معه سبيلاً. ففي هذا تحذيرهم من إقامتهم على مريتهم وفريتهم.

﴿٥٦﴾ الْمَلِكُ يَوْمَئِذٍ؛ أي: يوم القيامة ﷻ: تعالى لا لغيره، ﴿يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ﴾: بحكمه العدل وقضائه الفصل. ﴿فَالَّذِينَ ءَامَنُوا﴾: بالله ورسله وما جاءوا به، ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾: ليصدقوا بذلك إيمانهم ﴿فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ (٥٦)؛ نعيم القلب والروح والبدن مما لا يصفه الواصفون ولا تدركه العقول. ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾: بالله ورسله، ﴿وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾: الهادية للحق والصواب، فأعرضوا عنها أو عاندوها ﴿فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِيتٌ﴾ (٥٧)؛ لهم من شدته وألمه وبلوغه للأفئدة؛ كما استهانوا برسله وآياته؛ أهانهم الله بالعذاب.

﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَسِّرْهُمْ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّزُقِينَ﴾ (٥٨) لَيُدْخِلَنَّهُمْ مُدْخَلًا يَرْضَوْنَهُ، وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ﴾ (٥٩).

لكم أيها المظلومون المجني عليهم أن تغفوا وتصفحوا وتغفروا؛ ليغاملكم الله كما تعاملون عباده؛ ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ [الشورى: ٤٠].

﴿ذَلِكَ يَأْتِ اللَّهُ يُؤَلِّجُ أَيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُؤَلِّجُ النَّهَارَ فِي أَيْلَ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ ﴿ذَلِكَ يَأْتِ اللَّهُ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾.

﴿١٦﴾ ذلك الذي شرع لكم تلك الأحكام الحسنة العادلة هو حسن التصرف في تقديره وتديره، الذي ﴿يُؤَلِّجُ أَيْلَ فِي النَّهَارِ﴾؛ أي: يدخل هذا على هذا، وهذا على هذا، فيأتي بالليل بعد النهار، وبالنهار بعد الليل، ويزيد في أحدهما ما ينقصه من الآخر، ثم بالعكس، فيترتب على ذلك قيام الفصول ومصالح الليل والنهار والشمس والقمر، التي هي من أجل نعمه على العباد، وهي من الضروريات لهم. ﴿وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ﴾: يسمع ضجيج الأصوات باختلاف اللغات على تفنن الحاجات. ﴿بَصِيرٌ﴾: يرى ديبب النملة السوداء تحت الصخرة الصماء في الليلة الظلماء، ﴿سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسْرَ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخَفٌّ بِأَيْلٍ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ﴾ [الرعد: ١٠].

﴿١٧﴾ ﴿ذَلِكَ﴾: صاحب الحكم والأحكام، ﴿يَأْتِ اللَّهُ هُوَ الْحَقُّ﴾؛ أي: الثابت الذي لا يزال ولا يزول، فالأول الذي ليس قبله شيء، الآخر الذي ليس بعده شيء، كامل الأسماء والصفات، صادق الوعد، الذي وعده حق ولقاؤه حق ودينه حق وعبادته هي الحق النافعة الباقية على الدوام. ﴿وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ﴾: من الأصنام والأنداد من الحيوانات والجمادات، ﴿هُوَ الْبَاطِلُ﴾: الذي هو باطل في نفسه، وعبادته باطلة؛ لأنها متعلقة بمضمحل فان، فتبطل تبعاً لغايتها ومقصودها. ﴿وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾: العلي في ذاته؛ فهو عالٍ على جميع المخلوقات، وفي قدره؛ فهو كامل الصفات، وفي قهره لجميع المخلوقات، الكبير في ذاته وفي أسمائه وفي صفاته، الذي من عظمته وكبريائه أن الأرض قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه، ومن عظمته وكبريائه أن نواصي العباد بيده؛ فلا يتصرفون إلا بمشيئته، ولا يتحركون ويسكنون إلا بإرادته، وحقيقة الكبرياء التي لا يعلمها إلا هو؛ لا ملك مقرب ولا نبي مرسل: أنها كل

﴿٥٨﴾ هذه بشارة كبرى لمن هاجر في سبيل الله، فخرج من داره ووطنه وأولاده وماله ابتغاء وجه الله ونصرة لدين الله؛ فهذا قد وجب أجره على الله؛ سواء مات على فراشه أو قتل مجاهداً في سبيل الله. ﴿يَسْرُزْنَهُمْ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا﴾: في البرزخ وفي يوم القيامة؛ بدخول الجنة الجامعة للروح والريحان والحسن والإحسان ونعيم القلب والبدن، ويحتمل أن المراد أن المهاجر في سبيل الله قد تكفل برزقه في الدنيا رزقاً واسعاً حسناً، سواء علم الله منه أنه يموت على فراشه أو يقتل شهيداً؛ فكلهم مضمون له الرزق؛ فلا يتوهم أنه إذا خرج من دياره وأمواله سيفتقر ويحتاج؛ فإن رازقه هو خير الرازقين. وقد وقع كما أخبر؛ فإن المهاجرين السابقين تركوا ديارهم وأبنائهم وأموالهم نصرة لدين الله، فلم يلبثوا إلا يسيراً حتى فتح الله عليهم البلاد، ومكنهم من العباد، فاجتبا من أموالها ما كانوا به من أغنى الناس.

﴿٥٩﴾ ويكون على هذا القول قوله: ﴿لَيْدُخْنَهُمْ مُدْخَلًا يَرْضَوْنَهُ﴾: إما ما يفتح الله عليهم من البلدان، خصوصاً فتح مكة المشرفة؛ فإنهم دخلوها في حالة الرضا والسرور، وإما المراد به رزق الآخرة، وأن ذلك دخول الجنة، فتكون الآية جمعت بين الرزقين؛ رزق الدنيا ورزق الآخرة. واللفظ صالح لذلك كله، والمعنى صحيح؛ فلا مانع من إرادة الجميع. ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَعَلِيْزٌ﴾: بالأمور؛ ظاهرها وباطنها، متقدمها ومتأخرها. ﴿حَلِيمٌ﴾: يعصيه الخلاق ويبارزونه بالعظام، وهو لا يعاجلهم بالعقوبة، مع كمال اقتداره، بل يواصل لهم رزقه، ويسدي إليهم فضله.

﴿ذَلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوْقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لِيَنْصُرْنَهُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾.

﴿٦٠﴾ ذلك بأن من جُنِيَ عليه وظلم؛ فإنه يجوز له مقابلة الجاني بمثل جنائته؛ فإن فعل ذلك؛ فليس عليه سبيل، وليس بملوم؛ فإن بغى عليه بعد هذا؛ فإن الله ينصره؛ لأنه مظلوم؛ فلا يجوز أن يُبَغَى عليه بسبب أنه استوفى حقه، وإذا كان المجازي غير بإسأته إذا ظلم بعد ذلك؛ نصره الله؛ فالذي بالأصل لم يعاقب أحداً إذا ظلم وجني عليه؛ فالنصر إليه أقرب. ﴿إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾: أي: يعفو عن المذنبين؛ فلا يعاجلهم بالعقوبة، ويغفر ذنوبهم، فيزيل آثارها عنهم؛ فالله هذا وصفه المستقر اللازم الذاتي، ومعاملته لعباده في جميع الأوقات بالعفو والمغفرة، فينبغي

نقص ذلك من ملكه شيء. ومن غناه أن يده سحاء بالخير والبركات الليل والنهار، لم يزل إفضاله على الأنفاس. ومن غناه وكرمه ما أودعه في دار كرامته مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر. ﴿الْحَمِيدُ ٦٦﴾؛ أي: المحمود في ذاته، وفي أسمائه؛ لكونها حسنى، وفي صفاته؛ لكونها كلها صفات كمال، وفي أفعاله؛ لكونها دائرة بين العدل والإحسان والرحمة والحكمة، وفي شرعه؛ لكونه لا يأمر إلا بما فيه مصلحة خالصة أو راجحة، ولا ينهى إلا عما فيه مفسدة خالصة أو راجحة، الذي له الحمد الذي يملأ ما في السماوات والأرض وما بينهما وما شاء بعدهما، الذي لا يحصى العباد ثناء على حمده، بل هو كما أثنى على نفسه وفوق ما يثني عليه عباده، وهو المحمود على توفيق من يوفقه وخذلان من يخذله، وهو الغني في حمده، الحميد في غناه.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ وَأَلْفَلَكَ بَحْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرُؤُوفٌ رَحِيمٌ ٦٧﴾ وهو الَّذِي أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ ٦٨﴾.

﴿٦٧﴾ أي: ألم تشاهد ببصرك وقلبك نعمة ربك السابعة وأبداية الواسعة، ﴿وَأَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ﴾: من حيوانات ونبات وجمادات؛ فجميع ما في الأرض مسخر لبني آدم؛ حيواناتها لركوبه وحمله وأعماله وأكله وأنواع انتفاعه، وأشجارها وثمارها يقاتها، وقد سلط على غرسها واستغلالها، ومعادنها يستخرجها ويستفيع بها. ﴿وَأَلْفَلَكَ﴾؛ أي: وسخر لكم الفلك، وهي السفن، ﴿بَحْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ﴾: تحملك وتحمّل تجارتكم وتوصلكم من محل إلى محل وتستخرجون من البحر حلية تلبسونها. ومن رحمته بكم أنه يمسك ﴿السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ﴾؛ فلولا رحمته وقدرته؛ لسقطت السماء على الأرض، فتلف ما عليها، وهلك من فيها: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ٦٨﴾ [فاطر: ٤١]. ﴿إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرُؤُوفٌ رَحِيمٌ ٦٩﴾: أرحم بهم من والديهم ومن أنفسهم، ولهذا يريد لهم الخير، ويريدون له الشر والضرر. ومن رحمته أن سخر لهم ما سخر من هذه الأشياء.

﴿وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ﴾: وأوجدكم من العدم، ﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمْ﴾: بعد أن أحياكم، ﴿ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾: بعد

صفة كمال وجلال وكبرياء وعظمة؛ فهي ثابتة له، وله من تلك الصفة أجلها وأكملها، ومن كبريائه أن العبادات كلها، الصادرة من أهل السماوات والأرض كلها، المقصود منها تكبيره وتعظيمه وإجلاله وإكرامه، ولهذا كان التكبير شعارًا للعبادات الكبار كالصلاة وغيرها.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ٦٩﴾ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْغَفِيُّ الْحَمِيدُ ٧٠﴾.

﴿٦٩﴾ هذا حث منه تعالى وترغيب في النظر بآياته الدالة على وحدانيته وكماله، فقال: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾؛ أي: ألم تشاهد ببصرك وبصيرتك، ﴿أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾: وهو المطر، فينزل على أرض خاشعة مجدبة، قد اغبرت أرجاؤها ويسس ما فيها من شجر ونبات، فتصبح مخضرة؛ قد اكتست من كل زوج كريم، وصار لها بذلك منظر بهيج، أن الذي أحيّاها بعد موتها وهمودها لمحيي الموتى بعد أن كانوا رميمًا. ﴿إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ٦٩﴾: اللطيف: الذي يدرك بواطن الأشياء وخفياتها وسرائرها، الذي يسوق إلى عبده الخير، ويدفع عنه الشر بطرق لطيفة تخفى على العباد. ومن لطفه أنه يُري عبده عزته في انتقامه، وكمال اقتداره، ثم يظهر لطفه بعد أن أشرف العبد على الهلاك. ومن لطفه أنه يعلم مواقع القطر من الأرض وبذور الأرض في بواطنها، فيسوق ذلك الماء إلى ذلك البذر الذي خفي على علم الخلائق، فينبُت منه أنواع النبات. ﴿خَبِيرٌ ٦٩﴾: بسرائر الأمور وخبايا الصدور وخفايا الأمور.

﴿٧٠﴾ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ خَلَقًا وَعَبِيدًا، يتصرف فيهم بملكه وحكمته وكمال اقتداره، ليس لأحد غيره من الأمر شيء. ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْغَفِيُّ﴾: بذاته، الذي له الغنى المطلق التام من جميع الوجوه. ومن غناه أنه لا يحتاج إلى أحد من خلقه ولا يواليهم من ذلة ولا يتكبر بهم من قلة. ومن غناه أنه ما اتخذ صاحبة ولا ولدًا. ومن غناه أنه صمد لا يأكل ولا يشرب ولا يحتاج إلى ما يحتاج إليه الخلق بوجه من الوجوه؛ فهو يُطْعِمُ ولا يُطْعَمُ. ومن غناه أن الخلق كلهم مفتقرون إليه؛ في إيجادهم وإعدادهم وإمدادهم، وفي دينهم ودنياهم. ومن غناه أنه لو اجتمع من في السماوات ومن في الأرض، الأحياء منهم والأموات، في صعيد واحد، فسأل كل منهم ما بلغت أمنيته، فأعطاهم فوق أمانهم؛ ما

سورة النجم

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمَا فِي الْأَرْضِ وَآلَافًا مِّنَ النَّجْمِ فِي الْبَحْرِ
بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ إِنَّ
اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرُؤُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٧﴾ وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَكُم
ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ ﴿٦٨﴾
لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنَسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ فَلَا يُنْزِعُ عَنْكَ
فِي الْأَمْرِ وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَى هُدًى مُسْتَقِيمٍ ﴿٦٩﴾
وَلِإِن جَدَلُوكَ فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٧٠﴾ اللَّهُ يَحْكُمُ
بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٧١﴾
أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ
فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧٢﴾ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ
اللَّهِ مَا لَمْ يُنْزِلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَا لَيْسَ لَهُمْ بِهِ عِلْمٌ وَمَا لِلظَّالِمِينَ
مِنْ نَصِيرٍ ﴿٧٣﴾ وَإِذْ أَنْتَلَى عَلَيْهِمْ ءَابَتُنَا بَيِّنَاتٍ نَعْرِفُ فِي
وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرَ يَكَادُونَ يَسْطُونَ
بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَاتِنَا قُلِ أَفَأَنْتُمْ بَشَرٌ مِّثْلُ
ذَلِكَ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ الَّذِي كَفَرُوا وَيَتَّبِعُونَ الْمَصِيرُ ﴿٧٤﴾

٣٤١

موتكم؛ ليجازي المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته. ﴿٦٧﴾ إِنَّ
الْإِنْسَانَ ﴿٦٨﴾ أي: جنسه إلا من عصمه الله؛ ﴿لَكَفُورٌ﴾ ﴿٦٩﴾:
لنعم الله، كفور بالله، لا يعترف بإحسانه، بل ربما كفر بالبعث
وقدرة ربه.

﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنَسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ فَلَا يُنْزِعُ عَنْكَ
فِي الْأَمْرِ وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَى هُدًى مُسْتَقِيمٍ﴾ ﴿٦٩﴾ ولِإِن
جَدَلُوكَ فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٧٠﴾ اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ
يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٧١﴾ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ
اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ
عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧٢﴾.

﴿٧٢﴾ يخبر تعالى أنه جعل لكل أمة ﴿مَنَسَكًا﴾ أي:
معبداً وعبادة، قد تختلف في بعض الأمور، مع اتفاقها على
العدل والحكمة؛ كما قال تعالى: ﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً
وَمِنْهَا جَمْعًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا
ءَاتَيْنَكُمْ﴾ [المائدة: ٤٨] الآية، ﴿هُم نَاسِكُوهُ﴾ أي: عاملون
عليه بحسب أحوالهم؛ فلا اعتراض على شريعة من الشرائع،
خصوصاً من الأسمين أهل الشرك والجهل المبين؛ فإنه إذا
ثبت رسالة الرسول بأدلتها؛ وجب أن يُتَلَقَّى جميع ما جاء به
بالقبول والتسليم وترك الاعتراض، ولهذا قال: ﴿فَلَا يُنْزِعُ عَنْكَ

فِي الْأَمْرِ﴾ أي: لا ينازعك المكذبون لك، ويعترضون على بعض ما جئتهم به بقولهم الفاسدة؛ مثل منازعتهم في حل الميتة
بقياهم الفاسد؛ يقولون: تأكلون ما قتلتم ولا تأكلون ما قتل الله ١٩ وكقولهم: ﴿إِنَّمَا أَلِيسَ بِمَثَلِ زَيْدٍ﴾ [البقرة: ٢٧٥] ونحو
ذلك من اعتراضاتهم التي لا يلزم الجواب عن أعيانها، وهم منكرون لأصل الرسالة، وليس فيها مجادلة ومحااجة بانفرادها،
بل لكل مقام مقال؛ فصاحب هذا الاعتراض المنكر لرسالة الرسول إذا زعم أنه يجادل ليسترشد؛ يقال له: الكلام معك في
إثبات الرسالة وعدمها، وإلا؛ فالاعتراض على هذه دليل أن مقصوده التعتن والتعجيز، ولهذا أمر الله رسوله أن يدعو إلى ربه
بالحكمة والموعظة الحسنة وبمضي على ذلك؛ سواء اعترض المعترضون أم لا، وأنه لا ينبغي أن يثنيك عن الدعوة شيء؛
لأنك على ﴿هُدًى مُسْتَقِيمٍ﴾ ﴿٧٢﴾ أي: معتدل، موصل للمقصود، متضمن علم الحق والعمل به؛ فأنت على ثقة من أمرك
ويقين من دينك، فيوجب ذلك لك الصلابة والمضي لما أمرك به ربك، ولست على أمر مشكوك فيه أو حديث مفترى، فتقف
مع الناس ومع أهوائهم وآرائهم ويوقفك اعتراضهم، ونظير هذا قوله تعالى: ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ﴾ ﴿٧٩﴾ [النمل: ٧٩].

مع أن في قوله: ﴿إِنَّكَ لَعَلَى هُدًى مُسْتَقِيمٍ﴾ ﴿٧٢﴾ إرشاداً لأجوبة المعترضين على جزئيات الشرع بالعقل الصحيح؛ فإن
الهدى وصف لكل ما جاء به الرسول، والهدى ما تحصل به الهداية في مسائل الأصول والفروع، وهي المسائل التي يعرف
حسنها وعدلها وحكمتها بالعقل والقطرة السليمة، وهذا يعرف بتدبر تفاصيل المأمورات والمنهيات.

﴿٧٣﴾ ولهذا أمره الله بالعدل عن جدالهم في هذه الحالة، فقال: ﴿وَلِإِن جَدَلُوكَ فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ ﴿٧٣﴾ أي:
هو عالم بمقاصدكم ونياتكم؛ فمجازيكم عليها في يوم القيامة الذي يحكم الله بينكم ﴿فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ ﴿٧١﴾:
فمن وافق الصراط المستقيم؛ فهو من أهل النعيم، ومن زاغ عنه؛ فهو من أهل الجحيم.

بهم القتل والضرب البليغ من شدة بغضهم وبغض الحق وعداوتهم؛ فهذه الحالة من الكفار بشس الحالة وشرها بشس الشر، ولكن ثم ما هو شر منها: حالتهم التي يتولون إليها؛ فلهذا قال: ﴿قُلْ أَفَأَنْتُمْ تَشِيرُونَ ذَلِكُمُ النَّارُ وَعَذَابُ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَسَّرَ اللَّهُ لِلْمُؤْمِنِينَ الْغُلُوبَ﴾. فهذه شرها طويل عريض، ومكروها وآلامها تزداد على الدوام.

﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ ضُرْبَ مَثَلٍ فَاستَجِئُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَفِيدُوا مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ﴾ (٧٣) مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ (٧٤).

(٧٣)، (٧٤) هذا مثل ضربه الله لقبح عبادة الأوثان وبيان نقصان عقول من عبدها وضعف الجميع، فقال: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ﴾: هذا خطاب للمؤمنين والكفار؛ المؤمنون يزدادون علماً وبصيرة، والكافرون تقوم عليهم الحجة. ﴿ضُرِبَ مَثَلٌ فَاستَجِئُوا لَهُ﴾: أي: ألقوا إليه أسماعكم، وافهموا ما احتوى عليه، ولا يصادف منكم قلوباً لاهية وأسماعاً معرضة، بل ألقوا إليه القلوب والأسماع، وهو هذا: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾: شمل كل ما يُدعى من دون الله، ﴿لَنَخْلُقُوا ذُبَابًا﴾: الذي هو من أحق مخلوقات وأخسها؛ فليس في قدرتهم خلق هذا المخلوق الضعيف؛ فما فوقه من باب أولى، ﴿وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ﴾: بل أبلغ من ذلك: لو ﴿يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَفِيدُوا مِنْهُ﴾: وهذا غاية ما يصير من العجز. ﴿ضَعُفَ الطَّالِبُ﴾: الذي هو المعبود من دون الله، ﴿وَالْمَطْلُوبُ﴾ (٧٣): الذي هو الذباب؛ فكل منهما ضعيف، وأضعف منهما من يتعلق بهذا الضعيف وينزله منزلة رب العالمين؛ فهذا ما قدر ﴿اللَّهُ حَقَّ قَدْرِهِ﴾، حيث سوى الفقير العاجز من جميع الوجوه بالغني القوي من جميع الوجوه، سوى من لا يملك لنفسه ولا لغيره نفعا ولا ضرراً ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً بمن هو النافع الضار المعطي المانع مالك الملك والمتصرف فيه بجميع أنواع التصريف.

﴿إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ (٧٤)؛ أي: كامل القوة، كامل العزة، من كمال قوته وعزته: أن نواصي الخلق بيديه، وأنه لا يتحرك متحرك ولا يسكن ساكن إلا بإرادته ومشيته؛ فما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، ومن كمال قوته: أنه يمسك

(٧٣) ومن تمام حكمه أن يكون حكماً بعلم؛ فلذلك ذكر إحاطة علمه وإحاطة كتابه، فقال: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾: لا يخفى عليه منها خافية من ظواهر الأمور وبواطنها؛ خفيها وجليها، متقدمها ومتأخرها؛ ﴿إِنَّ ذَلِكَ﴾ العلم المحيط بما في السماء والأرض، قد أثبتته الله ﴿فِي كِتَابٍ﴾، وهو: اللوح المحفوظ، حين خلق الله القلم؛ «قال له: اكتب! قال: ما أكتب؟ قال: اكتب ما هو كائن إلى يوم القيامة» (١). ﴿إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ (٧٣)؛ وإن كان تصويره عندكم لا يحاط به؛ فالله تعالى يسير عليه أن يحيط علماً بجميع الأشياء، وأن يكتب ذلك في كتاب مطابق للواقع.

﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَمْ يَنْزِلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَا لَيْسَ لَهُمْ بِهِ عِلْمٌ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ﴾ (٧٤) وَإِذَا نَتَلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَاتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرَ يَكَادُونَ يَسْطُونُ بِالَّذِينَ يَتَلَوْنَ عَلَيْهِمْ ءَايَاتِنَا قُلْ أَفَأَنْتُمْ بِشِرِّ مِنَ ذَلِكُمُ النَّارِ وَعَذَابُ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَسَّرَ اللَّهُ لِلْمُؤْمِنِينَ الْغُلُوبَ﴾.

(٧٤) يذكر تعالى حالة المشركين به العادلين به غيره، وأن حالهم أقبح الحالات، وأنه لا مستند لهم على ما فعلوه؛ فليس لهم به علم، وإنما هو تقليد تلقوه عن آبائهم الضالين، وقد يكون الإنسان لا علم عنده بما فعله، وهو في نفس الأمر له حجة ما علمها، فأخبر هنا أن الله لم ينزل في ذلك ﴿سُلْطَانًا﴾؛ أي: حجة تدل عليه وتجوزه، بل قد أنزل البراهين القاطعة على فساده وبطلانه، ثم تواعد الظالمين منهم المعاندين للحق، فقال: ﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ﴾ (٧٤)؛ ينصرهم من عذاب الله إذا نزل بهم، وحل.

(٧٥) وهل هؤلاء الذين لا علم لهم بما هم عليه قصد في اتباع الآيات والهدى إذا جاءهم أم هم راضون بما هم عليه من الباطل، ذكر ذلك بقوله: ﴿وَإِذَا نَتَلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا﴾: التي هي آيات الله الجليلة المستلزمة لبيان الحق من الباطل؛ لم يلتفتوا إليها، ولم يرفعوا بها رأساً، بل ﴿تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرَ﴾: من بغضها وكرهاتها؛ ترى وجوههم معسبة وأبشارهم مكفهرة. ﴿يَكَادُونَ يَسْطُونُ بِالَّذِينَ يَتَلَوْنَ عَلَيْهِمْ ءَايَاتِنَا﴾؛ أي: يكادون يوقعون (١) أبو داود (٤٧٠٠)، الترمذي (٢١٥٥).

السموات والأرض أن تزولا، ومن كمال قوته: أنه يبعث الخلق كلهم، أولهم وآخرهم بصيحة واحدة، ومن كمال قوته أنه أهلك الجبابرة والأمم العاتية بشيء يسير وسوط من عذابه.

﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ إِبْرَاهِيمَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ ﴿٧٥﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿٧٦﴾

﴿٧٥﴾ ﴿٧٦﴾ لما بين تعالى كماله وضعف الأصنام وأنه المعبود حقاً؛ بين حالة الرسل وتميزهم عن الخلق بما تميزوا به من الفضائل، فقال: ﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ﴾؛ أي: يختار ويجتبي من الملائكة رسلاً ومن الناس رسلاً؛ يكونون أزكى ذلك النوع وأجمعه لصفات المجد وأحقه بالاصطفاء؛ فالرسل لا يكونون إلا صفوة الخلق على الإطلاق، والذي اختارهم واصطفاهم ليس جاهلاً بحقائق الأشياء، أو يعلم شيئاً دون شيء، وإن المصطفى لهم السميع البصير، الذي قد أحاط علمه وسمعه وبصره بجميع الأشياء؛ فاختياره إياهم عن علم منه أنهم أهل لذلك، وأن الوحي يصلح فيهم؛ كما قال تعالى: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ [الأنعام: ١٢٤]. ﴿وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ ﴿٧٦﴾؛

أي: هو يرسل الرسل يدعون الناس إلى الله؛ فمنهم المجيب، ومنهم الراد لدعوتهم، ومنهم العامل، ومنهم التاكل؛ فهذا وظيفة الرسل، وأما الجزاء على تلك الأعمال؛ فمصيرها إلى الله؛ فلا تعدم منه فضلاً وعدلاً.

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَرْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَعَبَدُوا رَبَّكُمْ وَأَفْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ ﴿٧٧﴾ وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَءَاتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾ ﴿٧٨﴾

﴿٧٧﴾ ﴿٧٨﴾ يأمر تعالى عباده المؤمنين بالصلاة، وخص منها الركوع والسجود، لفضلهما وركنيتهما، وعبادته التي هي قرة العيون وسلوة القلب المحزون، وإن ربوبيته وإحسانه على العباد يقتضي منهم أن يخلصوا له العبادة، ويأمرهم بفعل الخير عموماً، وعلق تعالى الفلاح على هذه الأمور، فقال: ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ ﴿٧٧﴾؛ أي: تفوزون بالمطلوب المرغوب، وتنجون من المكروه المرهوب؛ فلا طريق للفلاح سوى الإخلاص في عبادة الخالق والسعي في نفع عبده؛ فمن وفق لذلك؛ فله القُدْحُ المعلى من السعادة والنجاح والفلاح.

﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ﴾: والجihad بذل الوسع في حصول الغرض المطلوب؛ فالجihad في الله حق جهاده هو القيام التام بأمر الله، ودعوة الخلق إلى سبيله بكل طريق موصل إلى ذلك؛ من نصيحة وتعليم وقاتل وأدب وزجر ووعظ وغير ذلك. ﴿هُوَ اجْتَبَاكُمْ﴾؛ أي: اختاركم يا معشر المسلمين من بين الناس، واختار لكم الدين، ورضيه لكم، واختار لكم أفضل الكتب وأفضل الرسل؛ فقابلوا هذه المنحة العظيمة بالقيام بالجihad فيه حق القيام. ولما كان قوله: ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ﴾؛ ربما توهم متوهم أن هذا من باب تكليف ما لا يطاق أو تكليف ما يشق؛ احترز منه بقوله: ﴿وَمَا جَعَلَ

يَتَأْتِيهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٍ فَاَسْمِعُوا لَهُ عِلًّا إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَفِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ ﴿٧٧﴾ مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَعَزِيزٌ ﴿٧٥﴾ اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ إِبْرَاهِيمَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿٧٥﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿٧٦﴾ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَرْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَعَبَدُوا رَبَّكُمْ وَأَفْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٧٧﴾ وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَءَاتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ ﴿٧٨﴾

عَلَيْكُمْ فِي الَّذِينَ مِنْ حَرَجٍ ۖ أَي: مشقة وعسر، بل يسره غاية التيسير، وسهله بغاية السهولة؛ فأولاً: ما أمر وألزم إلا بما هو سهل على النفوس لا يثقلها ولا يثودها، ثم إذا عرض بعض الأسباب الموجبة للتخفيف؛ خفف ما أمر به: إما بإسقاطه، أو إسقاط بعضه.

ويؤخذ من هذه الآية قاعدة شرعية، وهي أن «المشقة تجلب التيسير» والضرورات تبيح المحظورات»، فيدخل في ذلك من الأحكام الفرعية شيء كثير معروف في كتب الأحكام.

﴿مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ﴾؛ أي: هذه الملة المذكورة والأوامر المزبورة ملة أبيكم إبراهيم، التي ما زال عليها؛ فالزموها واستمسكوا بها. ﴿هُوَ سَمَكُكُمْ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ﴾؛ أي: في الكتب السابقة مذكورون ومشهورون، ﴿وَفِي هَذَا﴾؛ أي: هذا الكتاب وهذا الشرع؛ أي: ما زال هذا الاسم لكم قديماً وحديثاً؛ ﴿لَيْكُنْ أَرْسُولُ شَهِيداً عَلَيْكُمْ﴾: بأعمالكم خيرها وشرها، ﴿وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾: لكونكم خير أمة أخرجت للناس، أمة وسطاً عدلاً خياراً، تشهدون للرسول أنهم بلغوا أممهم، وتشهدون على الأمم أن رسلكم بلغتهم بما أخبركم الله به في كتابه.

﴿فَأَقِمْوْا الصَّلَاةَ﴾: بأركانها وشروطها وحدودها وجميع لوازمها، ﴿وَأَتُوا الزَّكَاةَ﴾: المفروضة لمستحقيها؛ شكراً لله على ما أولاكم. ﴿وَأَعِصُوا بِاللَّهِ﴾؛ أي: امتنعوا به، وتوكلوا عليه في ذلك، ولا تتكلموا على حولكم وقوتكم. ﴿هُوَ مَوْلَاكُمْ﴾: الذي يتولى أموركم، فيدبركم بحسن تدبيره، ويصرفكم على أحسن تقديره. ﴿فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾ (٨)؛ أي: نعم المولى لمن تولاه فحصل له مطلوبه، ونعم النصير لمن استنصره فدفع عنه المكروه.

تم تفسير سورة الحج. والحمد لله رب العالمين.

﴿٧٧﴾﴿٧٨﴾﴿٧٩﴾

تفسير سورة المؤمنون

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ (١) الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ (٢)

هذا تنويه من الله بذكر عباده المؤمنين، وذكر فلاحهم وسعادتهم، وبأي شيء وصلوا إلى ذلك، وفي ضمن ذلك الحث على الاتصاف بصفاتهم والترغيب فيها؛ فليزن العبد نفسه وغيره على هذه الآيات؛ يعرف بذلك ما معه وما مع غيره من الإيمان زيادة ونقصاً، كثرة وقلة.

(١) فقلوه: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ (١)؛ أي: قد فازوا وسعدوا ونجحوا، وأدركوا كل ما يرام، المؤمنون الذين آمنوا بالله، وصدقوا المرسلين.

(٢) الذين من صفاتهم الكاملة أنهم ﴿فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾ (٢): والخشوع في الصلاة هو حضور القلب بين يدي الله تعالى، مستحضراً لقربه، فيسكن لذلك قلبه، وتطمئن نفسه، وتسكن حركاته، ويقل التفاته، متأدباً بين يدي ربه، مستحضراً جميع ما يقوله ويفعله في صلاته من أول صلاته إلى آخرها، فتستفي بذلك الوسواس والأفكار الردية، وهذا روح الصلاة والمقصود منها، وهو الذي يكتب للعبد؛ فالصلاة التي لا خشوع فيها ولا حضور قلب، وإن كانت مجزية مثاباً عليها؛ فإن الثواب على حسب ما يعقل القلب منها.

(٣) ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ﴾: وهو الكلام الذي لا خير فيه ولا فائدة، ﴿مُعْرِضُونَ﴾ (٣): رغبة عنه وتنزيهاً لأنفسهم وترفعاً عنه، وإذا مروا باللغو مروا كراماً، وإذا كانوا معرضين عن اللغو؛ فأعرضهم عن المحرم من باب أولى وأحرى، وإذا ملك العبد لسانه وخزنه إلا في الخير؛ كان مالكا لأمره؛ كما قال النبي ﷺ لمعاذ بن جبل حين وصاه بوصايا؛ قال: «ألا أخبرك بملك ذلك كله؟». قلت: بلى يا رسول الله! فأخذ بلسان نفسه وقال: «كف عليك هذا» (١). فالْمُؤْمِنُونَ من صفاتهم الحميدة كف ألسنتهم عن اللغو والمحرمات.

﴿١﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ﴿٢﴾ أَي: مؤدون لزكاة أموالهم على اختلاف أجناس الأموال؛ مزيكين لأنفسهم من أدناس الأخلاق ومساوئ الأعمال التي تزكو النفوس بتركها وتجنبها؛ فأحسنوا في عبادة الخالق في الخشوع في الصلاة، وأحسنوا إلى خلقه بأداء الزكاة.

﴿٣﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ﴿٤﴾ عن الزنا، ومن تمام حفظها تجنب ما يدعو إلى ذلك؛ كالنظر واللمس ونحوهما، فحفظوا فروجهم من كل أحد.

﴿٥﴾ إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ ﴿٦﴾ من الإماء المملوكات؛ ﴿٧﴾ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مُلْكِيَةٍ ﴿٨﴾ بقربيهما؛ لأن الله تعالى أحلهما.

﴿٩﴾ فَمَنْ ابْتَغَى زَوَّاجَةً غَيْرَ الْمَرْكُوبَةِ وَالسَّرِيَّةِ؛ ﴿١٠﴾ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ﴿١١﴾ الذين تعدوا ما أحل الله إلى ما حرمه، المتجربون على محارم الله. وعموم هذه الآية يدل على تحريم نكاح المتعة؛ فإنها ليست زوجة حقيقة مقصوداً بقاؤها ولا مملوكة، وتحريم نكاح المحلل لذلك. ويدل قوله: ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾: أنه يشترط في حل المملوكة أن تكون كلها في ملكه؛ فلو كان له بعضها؛ لم تحل؛ لأنها ليست مما ملكت يمينه، بل هي ملك له ولغيره؛ فكما أنه لا يجوز أن

يشارك في المرأة الحرة زوجان؛ فلا يجوز أن يشترك في الأمة المملوكة سيدان.

﴿١٢﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمْتَانِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رِعُونَ ﴿١٣﴾ أي: مراعون لها، ضابطون، حافضون، حريصون على القيام بها وتنفيذها. وهذا عام في جميع الأمانات التي هي حق لله، والتي هي حق للعباد؛ قال تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ﴾ [الأحزاب: ٧٢]؛ فجميع ما أوجبه الله على عبده أمانة على العبد حفظها بالقيام التام بها. وكذلك يدخل في ذلك أمانات آدميين؛ كأمانات الأموال والأسرار ونحوهما؛ فعلى العبد مراعاة الأمرين وأداء الأمانتين؛ ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا﴾ [النساء: ٥٨]، وكذلك العهد يشمل العهد الذي بينهم وبين ربهم والذي بينهم وبين العباد، وهي الالتزامات والعقود التي يعقدها العبد؛ فعليه مراعاتها والوفاء بها، ويحرم عليه التفريط فيها وإهمالها.

﴿١٤﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿١٥﴾ أي: يداومون عليها في أوقاتها وحدودها وأشراتها وأركانها؛ فمدحهم بالخشوع بالصلاة وبالمحافظة عليها، لأنه لا يتم أمرهم إلا بالأمرين؛ فمن يداوم على الصلاة من غير خشوع أو على الخشوع من دون محافظة عليها؛ فإنه مذموم ناقص.

﴿١٦﴾ أُولَئِكَ هُمُ الْوَرُونَ ﴿١٧﴾ الموصوفون بتلك الصفات.

﴿١٨﴾ أُولَئِكَ يَرْثُونَ الْفَرْدَوْسَ ﴿١٩﴾ الذي هو أعلى الجنة ووسطها وأفضلها؛ لأنهم حلوا من صفات الخير أعلاها وذروتها، أو المراد بذلك جميع الجنة؛ ليدخل بذلك عموم المؤمنين على درجاتهم في مراتبهم كل بحسب حاله. ﴿هُمُ فِيهَا خَالِدُونَ﴾: لا يظعنون عنها ولا ييغون عنها حولاً؛ لاشتغالها على أكمل النعيم وأفضله وأتمه من غير مكدر ولا منغص.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴿٢﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ﴿٤﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ﴿٥﴾ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مُلْكِيَةٍ ﴿٦﴾ فَمَنْ ابْتَغَىٰ زَوَّاجَةً غَيْرَ الْمَرْكُوبَةِ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمْتَانِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رِعُونَ ﴿٧﴾ أُولَئِكَ هُمُ الْوَرُونَ ﴿٨﴾ الَّذِينَ يَرْثُونَ الْفَرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٩﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ ﴿١٠﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ﴿١١﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا النَّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظْمًا فَكَسَّوْنَا الْعِظْمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴿١٢﴾ ثُمَّ إِنَّا كَرَّمْنَا بَعْدَ ذَلِكَ لَيْسُونَ ﴿١٣﴾ ثُمَّ إِنَّا كَرَّمْنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ تَابِعُونَ ﴿١٤﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ ﴿١٥﴾

﴿١٦﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ تُبْعَثُونَ ﴿١٧﴾ فَتَجَازُونَ بِأَعْمَالِكُمْ حَسَنَاتِهَا وَسِئْهَا؛ قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنْ حَسِبَ الْإِنْسَانُ أَنْ يَبْرُكَ سُلَىٰ ﴿١٨﴾ أَلَمْ يَكُنْ لَكُمْ لُفَّةً مِنْ مَنَىٰ يَمْنَىٰ ﴿١٩﴾ ثُمَّ كَانَ عِلْفُهُ فَعَلَقَ فُسْوَىٰ ﴿٢٠﴾ لِحَمَلٍ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقْدِرٍ عَلَيَّ أَنْ يُخَيَّرَ لَكُمْ ﴿٢٢﴾﴾ [القيامة: ٣٦-٤٠].

﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ ﴿٢٤﴾ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ ﴿٢٥﴾ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ ﴿٢٦﴾ فَأَنْشَأْنَا لَكُمْ بِهِ جَنَّاتٍ مِنْ تَحْتِهَا وَأَعْنَبَ لَكُمْ فِيهَا فَوْكُهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٢٧﴾ وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِنْ طُورٍ سَيْنَاءَ تَنْبُتُ بِالذَّهْنِ رَضِيحٍ لِلَّائِكِينَ ﴿٢٨﴾﴾

﴿٢٩﴾ لما ذكر تعالى خلق الأدمي؛ ذكر مسكنه وتوفر النعم عليه من كل وجه، فقال: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ ﴿٢٣﴾ سَبْعَ سَقَفًا لِلْبِلَادِ وَمَصْلَحَةٍ لِلْعِبَادِ، ﴿سَبْعَ طَرَائِقَ﴾؛ أي: سبع سماوات طباقًا، كل طبقة فوق الأخرى، قد زينت بالنجوم والشمس والقمر، وأودع فيها من مصالح الخلق ما أودع. ﴿وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ ﴿٢٤﴾﴾؛ فكما أن خلقنا عام لكل مخلوق؛ فعلمنا أيضًا محيط بما خلقنا؛ فلا نغفل مخلوقًا ولا ننساه، ولا نخلق خلقًا فنضيقه، ولا نغفل عن السماء فتقع على الأرض، ولا ننسى ذرة في لجج البحار وجوانب الفلوات ولا دابة إلا سقنا إليها رزقها، ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَ اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ﴿٢٥﴾﴾ [هود: ٦]؛ وكثيرًا ما يقرن تعالى بين خلقه وعلمه؛ كقوله: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿٢٦﴾﴾ [الملك: ١٤]، ﴿بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ﴿٢٧﴾﴾ [يس: ٨١]؛ لأن خلق المخلوقات من أقوى الأدلة العقلية على علم خالقها وحكمته.

﴿٢٨﴾ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً ﴿٢٩﴾: يكون رزقًا لكم ولأنعامكم بقدر ما يكفيكم؛ فلا ينقصه بحيث لا يكفي الأرض والأشجار، فلا يحصل منه المقصود. ولا يزيده زيادة لا تحتل، بحيث يتلف المساكن، ولا تعيش منه النباتات والأشجار، بل أنزله وقت الحاجة لنزوله، ثم صرفه عند الضرر من دوامه، ﴿فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ ﴿٢٥﴾﴾؛ أي: أنزلناه عليها، فسكن واستقر وأخرج بقدرة منزله جميع الأزواج النباتية، وأسكنه أيضًا معدًا في خزائن الأرض؛ بحيث لم يذهب نازلًا حتى لا يوصل إليه ولا يبلغ قعره. ﴿وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ ﴿٢٦﴾﴾؛ إما بالأنزله، أو ننزله فيذهب نازلًا لا يوصل إليه، أو لا يوجد منه المقصود منه، وهذا تنبيه منه

﴿٣٠﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ ﴿٣١﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نَفْثَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ﴿٣٢﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا النَّفْثَةَ عِلْفَةً ﴿٣٣﴾ فَخَلَقْنَا الْعِلْفَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظْمًا فَكَسَوْنَا الْعِظْمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴿٣٥﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ تُبْعَثُونَ ﴿٣٦﴾﴾.

ذكر الله في هذه الآيات أطوار الأدمي وتنقلاته من ابتداء خلقه إلى آخر ما يصير إليه:

﴿٣٧﴾ فذكر ابتداء خلق أبي النوع البشري آدم عليه السلام، وأنه ﴿مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ ﴿٣٠﴾﴾؛ أي: قد سلت وأخذت من جميع الأرض، ولذلك جاء بنوه على قدر الأرض: منهم الطيب والخبيث وبين ذلك، والسهل والحزن وبين ذلك.

﴿٣٨﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ ﴿٣١﴾؛ أي: جنس الأدميين ﴿نَفْثَةً﴾: تخرج من بين الصلب والترائب، فتستقر ﴿فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ﴿٣٢﴾﴾: وهو الرحم، محفوظة من الفساد والريح وغير ذلك.

﴿٣٩﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا النَّفْثَةَ ﴿٣٣﴾: التي قد استقرت قبل ﴿عِلْفَةً﴾؛ أي: دما أحمر بعد مضي أربعين يومًا من النفثة، ثم خلقنا ﴿الْعِلْفَةَ﴾: بعد أربعين يومًا ﴿مُضْغَةً﴾؛ أي: قطعة لحم صغيرة بقدر ما يمتزج من صغرها، ﴿فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ﴾: اللينة ﴿عِظْمًا﴾: صلبة قد تخللت اللحم بحسب حاجة البدن إليها، ﴿فَكَسَوْنَا الْعِظْمَ لَحْمًا﴾؛ أي: جعلنا اللحم كسوة للعظام؛ كما جعلنا العظام عمادًا للحم، وذلك في الأربعين الثالثة، ﴿ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ ﴿٣٤﴾﴾: نفخ فيه الروح، فانتقل من كونه جمادًا إلى أن صار حيوانًا. ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ ﴿٣٥﴾﴾؛ أي: تعالى وتعاظم وكثر خيره، ﴿أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴿٣٦﴾﴾: ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ ﴿٣٧﴾﴾ ثُمَّ جَعَلَ سُلَّةً مِنْ سُلَّةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ ﴿٣٨﴾ ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٣٩﴾﴾ [السجدة: ٧-٩]؛ فخلقته كله حسن، والإنسان من أحسن مخلوقاته، بل هو أحسنها على الإطلاق؛ كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤٠﴾﴾ [التين: ٤]؛ ولهذا كان خواصه أفضل المخلوقات وأكملها.

﴿٤١﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ ﴿٤٢﴾: الخلق ونفخ الروح، ﴿لَمَيِّتُونَ ﴿٤٣﴾﴾: في أحد أطواركم وتنقلاتكم.

لعباده أن يشكروه على نعمته ويقدرُوا عَدمها؛ ماذا يحصل به من الضرر؛ كقوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ﴾ ﴿٣٠﴾ [الملك: ٣٠].

﴿١٩﴾ ﴿فَأَنشَأْنَا لَكُمْ بِهِ جَنَّاتٍ مِّنْ نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ﴾ أي: بساتين ﴿مِّنْ نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ﴾: خصص تعالى هذين النوعين، مع أنه ينشئ منه غيرهما من الأشجار؛ لفضلهما ومنافعهما التي فاقت بها الأشجار، ولهذا ذكر العام في قوله: ﴿لَكُمْ فِيهَا مِمَّا يُغْنِي عَنْكُمْ كَثِيرٌ مِّمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ ﴿٢٠﴾ أي: في تلك الجنات ﴿فَوَكُورٌ كَثِيرٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ ﴿٢١﴾ من تين وأترج ورمان وتفاح وغيرها.

﴿٢٠﴾ ﴿وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِنْ طُورِ سَيْنَاءَ﴾ وهي شجرة الزيتون؛ أي: جنسها، خصت بالذكر لأن مكانها خاص في أرض الشام، ولمنافعها التي ذكر بعضها في قوله: ﴿تَبَّتْ يُالَ ذَهِينِ وَصَيَّغُ لِّالْكَلِينِ﴾ ﴿٢١﴾ أي: فيها الزيت الذي هو دهن، يستعمل استعماله من الاستصباح به، واصطبغ للكلين؛ أي: يجعل دائماً للكلين وغير ذلك من المنافع.

﴿٢١﴾ ﴿وَلَكُمْ فِي الْآنَتِمْ لَعِبَةٌ شَتَّى كَثِيرَةٌ مِّمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ ﴿٢٢﴾ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ﴾ ﴿٢٣﴾.

﴿٢٢﴾ أي: ومن نعمه عليكم أن سخر لكم الأنعام؛ الإبل والبقر والغنم، فيها عبرة للمعتبرين ومنافع للمتفعين، ﴿شَتَّى كَثِيرَةٌ مِّمَّا فِي بُطُونِهَا﴾: من لبن يخرج من بين فرث ودم خالص سائغ للشاربين، ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ﴾: من أصوافها وأوبارها وأشعارها، وجعل لكم من جلود الأنعام بيوتاً تستخفونها يوم ظعنكم ويوم إقامتكم، ﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ ﴿٢٣﴾: أفضل المأكَل من لحم وشحم.

﴿٢٣﴾ ﴿وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ﴾ ﴿٢٤﴾ أي: جعلها سفناً لكم في البر، تحملون عليها أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس؛ كما جعل لكم السفن في البحر تحملكم وتحمل متاعكم قليلاً كان أو كثيراً؛ فالذي أنعم بهذه النعم وصف أنواع الإحسان وأدر علينا من خيره الممدار هو الذي يستحق كمال الشكر وكمال الثناء والاجتهاد في عبوديته وآلا يستعان بنعمه على معاصيه.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَتَقَوَّمُوا عِبَادُ اللَّهِ مَا لَكُمْ مِّنَ اللَّهِ عِزَّةٌ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ ﴿٢٥﴾ إلى آخر القصة.

﴿٢٤﴾ يذكر تعالى رسالة عبده ورسوله نوح عليه السلام أول رسول أرسله لأهل الأرض، فأرسله إلى قومه، وهم يعبدون الأصنام، فأمرهم بعبادة الله وحده، فقال: ﴿يَتَقَوَّمُوا عِبَادُ اللَّهِ﴾ أي: أخلصوا له العبادة؛ لأن العبادة لا تصح إلا بإخلاصها. ﴿مَا لَكُمْ مِّنَ اللَّهِ عِزَّةٌ﴾: فيه إبطال ألوهية غير الله وإثبات الإلهية لله تعالى؛ لأنه الخالق الرازق الذي له الكمال كله، وغيره بخلاف ذلك. ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ ﴿٢٥﴾: ما أنتم عليه من عبادة الأوثان والأصنام التي صورت على صور قوم صالحين، فعبدوها مع الله؟

﴿٢٥﴾ فاستمر على ذلك يدعوهم سرّاً وجهاراً وليلاً ونهاراً ألف سنة إلا خمسين عاماً، وهم لا يزدادون إلا عتواً ونفورا، ﴿فَقَالَ الْمَلَأُ﴾: من قومه؛ الأشراف والسادة المتبوعون على وجه المعارضة لنبيهم نوح والتحذير من اتباعه: ﴿مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَفْضَلَ عَلَيْكُمْ﴾ أي: ما هذا إلا بشر مثلكم، قصده حين ادعى النبوة أن يزيد عليكم فضيلة ليكون متبوعاً، وإلا؛

وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَتْهُ فِي الْأَرْضِ وَلَنَا عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ بِهِ لَقْدَرُونَ ﴿٢٦﴾ فَأَنشَأْنَا لَكُمْ بِهِ جَنَّاتٍ مِّنْ نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَكُورٌ كَثِيرٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٢٧﴾ وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِنْ طُورِ سَيْنَاءَ تَبَّتْ بِالدَّهْنِ وَصَيَّغُ لِّالْكَلِينِ ﴿٢٨﴾ وَلَكُمْ فِي الْآنَتِمْ لَعِبَةٌ شَتَّى كَثِيرَةٌ مِّمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٢٩﴾ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٣٠﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَتَقَوَّمُوا عِبَادُ اللَّهِ مَا لَكُمْ مِّنَ اللَّهِ عِزَّةٌ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَفْضَلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَائِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ ﴿٣٢﴾ إِنَّ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جَنَّةٌ مَّا تَصْبُرُونَهُ حَتَّىٰ جِئَ الْوَعْدَ قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَبُونَ ﴿٣٣﴾ فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنِ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَوْفَ آتِيهِ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُونَزُ فَاسْلُكْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ مِّنْثَنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْوَعْدُ مِنْهُمْ وَلَا تَخْطُبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُّغْرَقُونَ ﴿٣٤﴾

رَبِّ أَنْصُرْنِي بِمَا كَذَّبْتَنِي ﴿٢٦﴾: فاستنصر ربه عليهم غضباً لله حيث ضيعوا أمره وكذبوا رسله. وقال: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْنِي عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا﴾ ﴿٢٧﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْنَهُمْ يُبْضِلُوا عِبَادَكَ وَلَا يَلْدُرُوا إِلَّا فَاغْرًا كَغَارًا ﴿٢٨﴾ ﴿توح: ٢٧﴾. قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَادَيْنَا نُوْحًا فَلْيَعْمَلْ الْعَامِلُونَ﴾ ﴿٢٩﴾ [الصافات: ٧٥].

﴿٢٧﴾ ﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ﴾: عند استجابتنا له سبباً ووسيلة للنجاة قبل وقوع أسبابه: ﴿أَنْ أَصْنَعْ الْفُلَّكَ﴾؛ أي: السفينة ﴿بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا﴾؛ أي: بأمرنا لك ومعونتنا، وأنت في حفظنا وكلاءتنا؛ بحيث نراك ونسمعك. ﴿فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا﴾: بإرسال الطوفان الذي عذبوا به، ﴿وَفَارَ الْفُتُورُ﴾؛ أي: فارت الأرض وتفجرت عيوناً حتى محل النار الذي لم تجر العادة إلا بعده عن الماء. ﴿فَأَسْلَفَ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ﴾؛ أي: أدخل في الفلك من كل جنس من الحيوانات ذكراً وأنثى تبقى مادة النسل لسائر الحيوانات التي اقتضت الحكمة الربانية إيجادها في الأرض. ﴿وَأَهْلَكَ﴾؛ أي: أدخلهم ﴿إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ﴾: كابنه، ﴿وَلَا تَحْطِطْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾؛ أي: لا تدعي أن أنجيهم؛ فإن القضاء والقدر قد حتم. ﴿إِنَّهُمْ مُّعْرِضُونَ﴾ ﴿٢٧﴾.

﴿٢٨﴾ ﴿فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلِّ﴾؛ أي: علوتم عليها واستقلت بكم في تيار الأمواج ولجج اليم؛ فاحمدوا الله على النجاة والسلامة. وقل: ﴿لَتَحْمِلُنَّ الْوِزْرَ الَّذِي تَحْمِلُنَّ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ ﴿٢٩﴾: وهذا تعليم منه له ولمن معه أن يقولوا هذا شكراً له وحمداً على نجاتهم من القوم الظالمين في عملهم وعذابهم.

﴿٢٩﴾ ﴿وَقُلْ رَبِّ أَرْزُقْنِي مِثْرَكَ بَارِكَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُرْسِلِينَ﴾ ﴿٣٠﴾: أي: وبقيت عليكم نعمة أخرى؛ فادعوا الله فيها، وهي أن يسر الله لكم منزلاً مباركاً، فاستجاب الله دعاءه؛ قال الله: ﴿وَفُضِّلَ الْأَمْرُ وَأَسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ ﴿٣١﴾ إلى أن قال: ﴿قِيلَ يَكُونُ أَمِيرًا يَحْطِطُ بِسُلْطَانِهِمَا وَبَرَكَتِكَ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ أَمْرِ وَمَنْ مَعَكَ﴾ [هود: ٤٤-٤٨] الآية.

﴿٣٠﴾ ﴿إِنْ فِي ذَلِكَ﴾؛ أي: في هذه القصة ﴿لَايَتٌ﴾: تدل على أن الله وحده المعبود، وعلى أن رسوله نوحاً صادق، وأن قومه كاذبون، وعلى رحمة الله بعباده؛ حيث حملهم في صلب أبيهم نوح في الفلك لما غرق أهل الأرض، والفلك أيضاً من آيات الله؛ قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ﴾ [الفر: ١٥]. ولهذا جمعها هنا؛ لأنها تدل على عدة آيات ومطالب. ﴿وَأِنْ كُنَّا لَمُبْتَلِينَ﴾ ﴿٣١﴾.

فما الذي يفضل عليه عليكم وهو من جنسكم؟! وهذه المعارضة لا زالت موجودة في مكذبي الرسل، وقد أجاب الله عنها بجواب شافٍ على ألسنة رسله؛ كما في قوله: ﴿قَالُوا﴾؛ أي: لرسلمهم. ﴿إِنْ أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَتْ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأَتُونَا بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ﴾ ﴿٣٢﴾ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ﴿٣٣﴾ [إبراهيم: ١٠، ١١]: فأخبروا أن هذا فضل الله ومثته، فليس لكم أن تحجروا على الله، وتمنعوه من إيصال فضله علينا.

وقالوا هنا: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً﴾: وهذه أيضاً معارضة بالمشيئة باطلة؛ فإنه وإن كان لو شاء أنزل ملائكة؛ فإنه حكيم رحيم، حكمته ورحمته تقتضي أن يكون الرسول من جنس آدميين؛ لأن الملائكة لا قدرة لهم على مخاطبته، ولا يمكن أن يكون إلا بصورة رجل، ثم يعود اللبس عليهم كما كان. وقولهم: ﴿مَا سَمِعْنَا بِهَذَا﴾؛ أي: بإرسال الرسول ﴿فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ﴾ ﴿٣٤﴾ وأي حجة في عدم سماعهم إرسال رسول في آبائهم الأولين؟! لأنهم لم يحيطوا علماً بما تقدم؛ فلا يجعلون جهلهم حجة لهم! وعلى تقدير أنه لم يرسل فيهم رسولاً: فلما أن يكونوا على الهدى؛ فلا حاجة لإرسال الرسول إذ ذاك، ولما أن يكونوا على غيره؛ فليحمدوا ربهم ويشكروه أن خصهم بنعمة لم تأت آباءهم ولا شعروا بها، ولا يجعلوا عدم الإحسان على غيرهم سبباً لكفرهم للإحسان إليهم.

﴿٣٥﴾ ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جَنَّةٌ﴾؛ أي: مجنون، ﴿فَتَرْفُضُوا بِهِ﴾؛ أي: انتظروا به ﴿حَتَّىٰ حِينٍ﴾ ﴿٣٥﴾: إلى أن يأتيه الموت.

وهذه الشبه التي أوردوها معارضة لنبوة نبيهم دالة على شدة كفرهم وعنادهم وعلى أنهم في غاية الجهل والضلال؛ فإنها لا تصلح للمعارضة بوجه من الوجوه؛ كما ذكرنا، بل هي في نفسها متناقضة متعارضة؛ فقله: ﴿مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَفْضَلَ عَلَيْكُمْ﴾؛ أثبتوا أن له عقلاً يكيدهم به ليعلوهم ويسودهم، ويحتاج مع هذا أن يُخَلَّرَ منه لئلا يغير به؛ فكيف يلتزم مع قولهم: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جَنَّةٌ﴾؟! وهل هذا إلا من مشبه ضال، منقلب عليه الأمر، قصده الدفع بأي طريق اتفق له، غير عالم بما يقول. ويأبى الله إلا أن يظهر خزي من عاداه وعادى رسله.

﴿٣٦﴾ فلما رأى نوح أنه لا يفيدهم دعاؤه إلا فراها؛ ﴿قَالَ﴾

سورة المؤمنون

المؤمنون

فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلْكِ فَقُلِ لِلَّهِ الَّذِي يَجْعَلُنَا
 مِنْ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٣٨﴾ وَقُلْ رَبِّ أَرْنِي مَثَلًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخَيْرُ
 الْفَاعِلِينَ ﴿٣٩﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ وَإِنْ كُنَّا لَمُبْتَلِينَ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ أَنْشَأْنَا
 مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ ﴿٤١﴾ فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ أَنْ عَبُدُوا
 اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٤٢﴾ وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ
 الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا الْآخِرَةِ وَأُتِرْتُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا
 مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ بَايَ كُلِّ مَثَلًا تَكُونُ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا
 تَشْرَبُونَ ﴿٤٣﴾ وَلَكِنْ أَطْعَمْتُمْ بَشَرًا مِثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذَا لَخَلَسِيرونَ
 أَعْبَدْتُمْ أَنْكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ تُرَابًا وَعِظْمًا أَنْكُمْ تُخْرَجُونَ ﴿٤٤﴾
 هَبَّاتٍ هَبَّاتٍ لَمَّا تُوْعِدُونَ ﴿٤٥﴾ إِنَّ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا
 الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٤٦﴾ إِنَّ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ
 افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ قَالَ رَبِّ
 انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٤٨﴾ قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَيُصْبِحُنَّ نَادِيَيْنِ ﴿٤٩﴾
 فَآخَذْتُهُمُ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاءً فَبَعْدًا لِّلْقَوْمِ
 الظَّالِمِينَ ﴿٥٠﴾ ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ ﴿٥١﴾

٣٢٤

﴿٣٨﴾ ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ ﴿٣٩﴾ فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ أَنْ
 عَبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٤٠﴾ وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ
 الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا الْآخِرَةِ وَأُتِرْتُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَذَا
 إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ بَايَ كُلِّ مَثَلًا تَكُونُ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴿٤١﴾
 وَلَكِنْ أَطْعَمْتُمْ بَشَرًا مِثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذَا لَخَلَسِيرونَ أَعْبَدْتُمْ أَنْكُمْ إِذَا
 مِتُّمْ وَكُنْتُمْ تُرَابًا وَعِظْمًا أَنْكُمْ تُخْرَجُونَ ﴿٤٢﴾ هَبَّاتٍ هَبَّاتٍ
 لَمَّا تُوْعِدُونَ ﴿٤٣﴾ إِنَّ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ
 بِمَبْعُوثِينَ ﴿٤٤﴾ إِنَّ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ
 بِمُؤْمِنِينَ ﴿٤٥﴾ قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٤٦﴾ قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ
 لَيُصْبِحُنَّ نَادِيَيْنِ ﴿٤٧﴾ فَآخَذْتُهُمُ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاءً
 فَبَعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٤٨﴾

﴿٣٨﴾ لما ذكر نوحا وقومه وكيف أهلكهم؛ قال: ﴿٣٩﴾ ثُمَّ أَنْشَأْنَا
 مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ ﴿٤٠﴾: الظاهر أنهم ثمود قوم صالح عليه
 السلام؛ لأن هذه القصة تشبه قصتهم.

﴿٤١﴾ فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ: من جنسهم يعرفون نسبه
 وحسبه وصدقه؛ ليكون ذلك أسرع لانقيادهم إذا كان منهم
 وأبعد عن اشتزازهم، فدعا إلى ما دعت إليه الرسل أمهم:
 ﴿٤٢﴾ أَنْ عَبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ: فكلهم اتفقوا على هذه
 الدعوة، وهي أول دعوة يدعون بها أمهم؛ الأمر بعبادة الله،
 والإخبار بأنه المستحق لذلك، والنهي عن عبادة ما سواه، والإخبار بطلان ذلك وفساده، ولهذا قال: ﴿٤٣﴾ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٤٤﴾: ريبكم فتجنبوا هذه الأوثان والأصنام.

﴿٤٥﴾ وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا الْآخِرَةِ وَأُتِرْتُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا
 مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ بَايَ كُلِّ مَثَلًا تَكُونُ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴿٤٦﴾: فما الذي يفضلهم عليكم؟ فهلا كان ملكا لا
 يأكل الطعام ولا يشرب الشراب!

﴿٤٧﴾ وَلَكِنْ أَطْعَمْتُمْ بَشَرًا مِثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذَا لَخَلَسِيرونَ أَعْبَدْتُمْ أَنْكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ
 تُرَابًا وَعِظْمًا أَنْكُمْ تُخْرَجُونَ ﴿٤٨﴾: أي: إن تبعتموه وجعلتموه لكم رئيسا وهو مثلكم؛ إنكم لمسلوبو
 العقل نادمون على ما فعلتم! وهذا من العجب؛ فإن الخسار والندامة حقيقة لمن لم يتابعه ولم يتقده، والجهل والفسف العظيم
 لمن تكبر عن الانقياد لبشر خصه الله بوحيه، وفضله برسالته، وإبتلي بعبادة الشجر والحجر، وهذا نظير قولهم: ﴿٤٩﴾ فَقَالُوا أَبَشَرٌ
 مِثْلُنَا نَنْعُبُهُ إِنَّا إِذْ لَفِيَ ضَلَالٍ وَسُعُرٍ ﴿٥٠﴾ أَلَمْ يَلْقَ الْذِّكْرَ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌّ ﴿٥١﴾ [القم: ٢٤، ٢٥].

﴿٣٨﴾ فلما أنكروا رسالته وردوها؛ أنكروا ما جاء به من البعث بعد الموت والمجازاة على الأعمال، فقالوا: ﴿٣٩﴾ أَعْبَدْتُمْ
 أَنْكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ تُرَابًا وَعِظْمًا أَنْكُمْ تُخْرَجُونَ ﴿٤٠﴾ هَبَّاتٍ هَبَّاتٍ لَمَّا تُوْعِدُونَ ﴿٤١﴾: أي: بعيد بعيد ما يعدكم به من البعث بعد أن
 تمزقتم وكنتم ترابا وعظاما. فنظروا نظرا قاصرا، ورأوا هذا بالنسبة إلى قدرهم غير ممكن، ففاسوا قدرة الخالق بقدرهم،
 تعالى الله، فأنكروا قدرته على إحياء الموتى، وعجزوه غاية التعجيز، ونسوا خلقهم أول مرة، وأن الذي أنشأهم من العدم؛
 فإعادته لهم بعد البلاء أهون عليه، وكلاهما هين لديه؛ فلم لا ينكرون أول خلقهم ويكابرون المحسوسات ويقولون: إننا لم
 نزل موجودين، حتى يسلم لهم إنكارهم البعث ويُنتقل معهم إلى الاحتجاج على إثبات وجود الخالق العظيم؟ وهنا دليل

المعاندين ﴿قُرُونًا عَاقِبَةً﴾: كل أمة في وقت مسمى وأجل محدود، لا تتقدم عنه ولا تتأخر، وأرسلنا إليهم رسلاً متابعة لعلمهم يؤمنون وينيبون، فلم يزل الكفر والتكذيب دأب الأمم العصاة والكفرة البغاة، ﴿كُلَّ مَا جَاءَ أُمَّةً رَسُولُهَا كَذَّبُوهُ﴾: مع أن كل رسول يأتي من الآيات ما يؤمن على مثله البشر، بل مجرد دعوة الرسل وشرعهم يدل على حقيقة ما جاءوا به.

﴿فَاتَّبَعْنَا بَعْضَهُمْ بَعْضًا﴾: بالهلاك، فلم يبق منهم باقية، وتعطلت مسالكهم من بعدهم، ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ﴾: يتحدث بهم من بعدهم، ويكونون عبرة للمتقين ونكالا للمكذبين وخزيًا عليهم مقرونًا بعذابهم. ﴿فَبَعْدًا لِّقَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾: ما أشقاهم! وتعمسا لهم! ما أخسر صفقتهم!

﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾: إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ ﴿فَقَالُوا أَتُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِكَ وَقَوْمُهُمَا لَنَا عِدَدُونَ﴾: فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا مِنَ الْمُهْلَكِينَ ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾.

مر عليّ منذ زمان طويل كلام لبعض العلماء، لا يحضرني الآن اسمه، وهو أنه بعد بعث موسى ونزول التوراة، رفع الله العذاب عن الأمم؛ أي: عذاب الاستئصال، وشرع للمكذبين المعاندين الجهاد، ولم أدر من أين أخذه، فلما تدبرت هذه الآيات مع الآيات التي في سورة القصص؛ تبين لي وجهه: أما هذه الآيات؛ فلأن الله ذكر الأمم المهلكة المتتابعة على الهلاك، ثم أخبر أنه أرسل موسى بعدهم وأنزل عليه التوراة فيها الهداية للناس، ولا يرد على هذا إهلاك فرعون؛ فإنه قبل نزول التوراة.

وأما الآيات التي في سورة القصص؛ فهي صريحة جداً؛ فإنه لما ذكر هلاك فرعون؛ قال: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَىٰ بِصَافِرٍ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾: [القصص: ٤٣]. فهذا صريح أنه آتاه الكتاب بعد هلاك الأمم الباغية، وأخبر أنه أنزله بصائر للناس وهدى ورحمة.

ولعل من هذا ما ذكر الله في سورة يونس من قوله: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِ﴾: أي: من بعد نوح، ﴿رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾: فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ نَطْغِي عَلَىٰ قُلُوبِ الْمُتَعَتِّينَ ﴿٧٦﴾ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِم مُوسَىٰ وَهَارُونَ ﴿٧٧﴾ الْآيَاتَانِ [يونس: ٧٤، ٧٥]. والله أعلم.

آخر، وهو أن الذي أحيا الأرض بعد موتها؛ إن ذلك لمححي الموتى؛ إنه على كل شيء قدير. وثم دليل آخر، وهو ما أجاب به المنكرين للبعث في قوله: ﴿بَلْ يَحْسِبُونَ أَنَّ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ﴾: ﴿أَوَدَا مِنَّا وَكُنَّا نَرَاهُ ذَٰلِكَ رَجْعًا بَعِيدًا﴾. فقال في جوابهم: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ﴾: أي: في البلى ﴿وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِيزٌ﴾: [ق: ٤].

﴿إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾: أي: يموت أناس ويحيي أناس، ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَوِّلِينَ﴾.

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جَنَّةٌ﴾: فلماذا أتى بما أتى به من توحيد الله وإثبات المعاد! ﴿فَتَرَضَّوْا بِهِ حَقٌّ جِنِّ﴾: أي: ارفعوا عنه العقوبة بالقتل وغيره احتراماً له، ولأنه مجنون غير مؤاخذ بما يتكلم به؛ أي: فلم يبق بزعمهم الباطل مجادلة معه لصحة ما جاء به؛ فإنهم قد عرفوا بطلانه، وإنما بقي الكلام هل يوقعون به أم لا؛ فبزعمهم أن عقولهم الرزينة اقتضت الإبقاء عليه وترك الإيقاع به مع قيام الموجب!! فهل فوق هذا العناد والكفر غاية!؟

ولهذا لما اشتد كفرهم ولم ينفع فيهم الإنذار؛ دعا عليهم نبيهم، فقال: ﴿رَبِّ أَصْرَفِي بِمَا كَذَّبُونِ﴾: أي: يهلكهم وخزيهم الدنيوي قبل الآخرة.

﴿قَالَ﴾: ﴿اللَّهُ مَجِيبًا لِّدَعْوَتِهِ﴾: ﴿عَمَّا قَلِيلٍ لِّيُصِحِّحُنَّ نَادِمِينَ﴾: فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ: لا بالظلم والجور، بل بالعدل وظلمهم أخذتهم الصيحة فأهلكتهم عن آخرهم. ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ عَشَاةً﴾: أي: هشيمًا ييسا بمنزلة غشاء السيل الملقى في جنبات الوادي، وقال في الآية الأخرى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيرِ الْمُحْطَرِّ﴾: [القمر: ٣١]. ﴿فَبَعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾: أي: أتبعوا مع عذابهم البعد واللعنة والدم من العالمين؛ ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ﴾: [الدخان: ٢٩].

﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قُرُونًا ءَاخِرَةً﴾: مَا تَسْقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجْلَهَا وَمَا يَسْتَحْزِرُونَ ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرًا كُلَّ مَا جَاءَ أُمَّةً رَسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَاتَّبَعْنَا بَعْضُهُمْ بَعْضًا وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ فَبَعْدًا لِّقَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

﴿٢٤﴾، ﴿٢٣﴾: أي: ثم أنشأنا من بعد هؤلاء المكذبين (١) سها المؤلف - رحمه الله - وقام بتفسير الآية (٢٥) من نفس السورة.

﴿٤٥﴾ فقولوه: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَى﴾: ابن عمران كليم الرحمن، ﴿وَأَخَاهُ هَارُونَ﴾: حين سأل ربه أن يشركه في أمره فأجاب سؤله، ﴿بِأَيَّتِنَا﴾: الدالة على صدقهما وصحة ما جاء به، ﴿وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ ﴿٤٦﴾؛ أي: حجة بينة من قوتها أن تقهر القلوب وتتسلط عليها لقوتها فتتقاد لها قلوب المؤمنين وتقوم الحجة البينة على المعاندين. وهذا كقولوه: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾: ولهذا رئيس المعاندين عرف الحق وعانده. ﴿فَسَتَلَبِثَ إِسْرَءِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ﴾ بتلك الآيات البينات، ﴿فَقَالَ﴾ له فرعون: ﴿إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَمُوسَى مَسْحُورًا﴾ ﴿٤٧﴾. ف ﴿قَالَ﴾ موسى: ﴿لَقَدْ عَلِمْتُ مَا أُنْزِلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رُبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بِصَافِرٍ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَفْرَعَوْتُ مَسْجُورًا﴾ ﴿٤٨﴾ [الإسراء: ١٠١، ١٠٢]. وقال تعالى: ﴿وَجَعَلُوا بَيْنَهُمْ سُلْطَانًا مَلَكًا﴾ [النمل: ١٤].

﴿٤٩﴾ وقال هنا: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَى وَأَخَاهُ هَارُونَ بِأَيَّتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ ﴿٥٠﴾ إلى فرعون ﴿وَمَلَأْنَاهُ﴾: كهامان وغيره من رؤسائهم، ﴿فَاسْتَكْبَرُوا﴾؛ أي: تكبروا عن الإيمان بالله واستكبروا على أنبيائه، ﴿وَكَاثُرًا قَوْمًا عَالِينَ﴾ ﴿٥١﴾؛ أي: وصفهم العلو والقهر والفساد في الأرض، فلهذا صدر منهم الاستكبار، ذلك غير مستكثر منهم.

﴿٥٢﴾ ﴿فَقَالُوا﴾ كبراً وتبهاً وتحذيراً لضعفاء العقول

وتموهياً: ﴿أَنْتُمْ لَشَرِّينَ مِثْلَنَا﴾: كما قاله من قبلهم سواء بسواء؛ تشابهت قلوبهم في الكفر، فتشابهت أقوالهم وأفعالهم، وجحدوا منه الله عليهما بالرسالة. ﴿وَقَوْمُهُمَا﴾؛ أي: بنو إسرائيل. ﴿لَنَا عِيدُونَ﴾ ﴿٥٣﴾؛ أي: معبدون بالأعمال والأشغال الشاقة؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكَ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكَ سُوءَ الْعَذَابِ يَذْبَحُونَ أَبْنَاءَكَ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكَ وَفِي ذَٰلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكَ عَظِيمٌ﴾ ﴿٥٤﴾ [البقرة: ٤٩]. فكيف نكون تابعين بعد أن كنا متبوعين؟! وكيف يكون هؤلاء رؤساء علينا؟! ونظير قولهم قول قوم نوح: ﴿أَنْتُمْ لَكُمُ الْآزْدَادُونَ﴾ ﴿٥٥﴾ [الشعراء: ١١١]، ﴿وَمَا زِلْنَاكَ أَتْبَعَكَ إِلَّا الَّذِيكَ هُمْ أَرَادُوا لَنَا بِأَدَى الرَّأْيِ﴾ [هود: ٢٧].

﴿٥٦﴾ من المعلوم أن هذا لا يصلح لدفع الحق، وأنه تكذيب ومعاندة، ولهذا قال: ﴿فَكَذَّبُوهُمْ فَكَاتُوا مِنْ أَلْمَهْلِكِينَ﴾ ﴿٥٧﴾ في الغرق في البحر وبنو إسرائيل ينظرون.

﴿٥٨﴾ ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى﴾: بعدما أهلك الله فرعون وخلص الشعب الإسرائيلي مع موسى وتمكن حينئذ من إقامة أمر الله فيهم وإظهار شعائره؛ وعده الله أن ينزل عليه التوراة أربعين ليلة، فذهب لميقات ربه؛ قال الله تعالى: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاكِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف: ١٤٥]. ولهذا قال هنا: ﴿لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ ﴿٥٩﴾؛ أي: بمعرفة تفاصيل الأمر والنهي والثواب والعقاب ويعرفون ربهم بأسمائه وصفاته.

﴿وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾ ﴿٦٠﴾.

﴿٦١﴾ أي: وامتننا على عيسى ابن مريم وجعلناه وأمه من آيات الله العجيبة؛ حيث حملته وولده من غير أب، وتكلم في المهد صبياً، وأجرى الله على يديه من الآيات ما أجرى. ﴿وَوَآوَيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ﴾؛ أي: مكان مرتفع، وهذا - والله أعلم - وقت وضعها،

سورة المؤمنون
مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجْلَهَا وَمَا يَسْتَحْجِرُونَ ﴿١﴾ ثُمَّ أَرْسَلْنَا نُوحًا نَذِيرًا ﴿٢﴾ كُلَّ مَا جَاءَ أُمَّةً رَسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَاتَّبَعْنَا بَعْضَهُمْ بَعْضًا وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ فَبُعْدًا لِقَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣﴾ ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَى وَأَخَاهُ هَارُونَ بِأَيَّتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٤﴾ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ ﴿٥﴾ فَقَالُوا أَنْتُمْ لَشَرِّينَ مِثْلَنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عِيدُونَ ﴿٦﴾ فَكَذَّبُوهُمْ فَكَاتُوا مِنْ أَلْمَهْلِكِينَ ﴿٧﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴿٩﴾ يَتَأْتِيهِمُ الرُّسُلُ كُلٌّ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿١٠﴾ وَإِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ ﴿١١﴾ فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلَّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿١٢﴾ فَذَرَهُمْ فِي عَصْرَتِهِمْ حَتَّى حِينٍ ﴿١٣﴾ أَيْحَسِبُونَ أَنَّمَا نُثَبِّتُ لَهُمْ مِنْ مَالِهِمْ وَنَبِّئُهُمْ فِي الْحَيَاتِ بِأَلَيْسَ عَرُونَ ﴿١٤﴾ إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ ﴿١٥﴾ وَالَّذِينَ هُمْ بِأَيَّتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿١٦﴾ وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿١٧﴾

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلّٰهِ إِن كُنتُمْ إِتْيَآءَ مَقْدُورَ﴾ (٧٣) ﴿[البقرة: ١٧٢]: فالواجب على كل المتتسبين إلى الأنبياء وغيرهم أن يمثلوا هذا ويعملوا به.

﴿٥٢﴾ ولكن أبى الظالمون المفترقون إلا عصيآء، ولهذا قال: ﴿فَقَطَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا﴾؛ أي: تقطع المتتسبون إلى أتباع الأنبياء ﴿أَمْرَهُم﴾؛ أي: دينهم ﴿بَيْنَهُمْ زُبُرًا﴾؛ أي: قطعًا. ﴿كُلْ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ﴾؛ أي: بما عندهم من العلم والدين ﴿فَرِحُونَ﴾ (٥٢) ﴿يزعمون أنهم المحقون، وغيرهم على غير الحق، مع أن المحق منهم من كان على طريق الرسل من أكل الطيبات والعمل الصالح، وما عداهم فإنهم مبطلون.

﴿٥٣﴾ ﴿فَذَرَهُمْ فِي غَتَرَتِهِمْ﴾؛ أي: في وسط جهلهم بالحق ودعواهم أنهم هم المحقون ﴿حَتَّىٰ جِئَ﴾ (٥٣) ﴿أي: إلى أن ينزل العذاب بهم؛ فإنهم لا ينفع فيهم وعظ، ولا يفيدهم زجر؛ فكيف يفيد بمن يزعم أنه على الحق ويطمع في دعوة غيره إلى ما هو عليه؟

﴿٥٤﴾ ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُسَبِّحُ بِهِ مِنْ مَّالٍ وَيَبِئَ﴾ (٥٤) ﴿سُبْحَٰنَ لَّهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ﴾؛ أي: أيقنون أن زيادتنا إياهم بالأموال والأولاد دليل على أنهم من أهل الخير والسعادة، وأن لهم خير الدنيا والآخرة، وهذا مقدم لهم؟! ليس الأمر كذلك؛ ﴿بَلْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ (٥٤) ﴿أنما نملي لهم ونملهم ونمدهم بالنعيم ليزدادوا إثماً وليتوفر عقابهم في الآخرة، وليغتبطوا بما أوتوا، حَتَّىٰ إِذَا فُرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً﴾ [الأنعام: ٤٤].

﴿إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ﴾ (٥٥) ﴿وَالَّذِينَ هُمْ يُشَارِكُ رَبِّهِمْ يَقُولُونَ﴾ (٥٥) ﴿وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ﴾ (٥٥) ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ مَا ءَاتَاؤُا قُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ﴾ (٥٦) ﴿أُولَٰئِكَ يُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ﴾ (٥٦) ﴿وَلَا تُكَلِّفُ نَفْسًا وِجْدًا وَلَا وُسْعًا وَلَدَيْنَا مَكْتُبٌ بِمَا يَفْعَلُ وَهُمْ لَا يَخْلَعُونَ﴾ (٥٧).

لما ذكر تعالى الذين جمعوا بين الإساءة والأمن، الذين يزعمون أن عطاء الله إياهم في الدنيا دليل على خيرهم وفضلهم؛ ذكر الذين جمعوا بين الإحسان والخوف، فقال:

﴿٥٧﴾ ﴿إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ﴾ (٥٧) ﴿أي: وجلون، مشفقة قلوبهم، كل ذلك من خشية ربهم؛ خوفاً أن

﴿ذَاتِ قُرَارٍ﴾؛ أي: مستقر وراحة، ﴿وَمَعِينٍ﴾ (٥٥) ﴿أي: ماء جارٍ؛ بدليل قوله: ﴿فَدَجَمَلْ رَبُّكَ نَحْنُ﴾؛ أي: تحت المكان الذي أنت فيه لارتفاعه ﴿سَرِيًّا﴾ (٥٦) ﴿أي: نهراً، وهو المعين. ﴿وَهَزَيْتَ إِلَيْكَ يَجْنَعُ النَّحْلُ شَقِطَ عَلَيْكَ رَطْبًا جَنِيًّا﴾ (٥٦) ﴿فَكُلْ وَأَشْرَبْ وَفَرِّ عَيْنًا﴾ [مریم: ٢٤-٢٦].

﴿يَأْتِيهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ (٥٨) ﴿وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ﴾ (٥٩) ﴿فَقَطَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلٌّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ (٥٣) ﴿فَذَرَهُمْ فِي غَتَرَتِهِمْ حَتَّىٰ جِئَ﴾ (٥٣) ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُسَبِّحُ بِهِ مِنْ مَّالٍ وَيَبِئَ﴾ (٥٤) ﴿سُبْحَٰنَ لَّهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ﴾ (٥٤) ﴿بَلْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ (٥٤).

﴿٥٩﴾ هذا أمر منه تعالى لرسله بأكل الطيبات التي هي: الرزق والطيب الحلال، والشكر لله بالعمل الصالح الذي به يصلح القلب والبدن والدنيا والآخرة، ويخبرهم أنه بما يعملون عليهم؛ فكل عمل عمله وكل سعي اكتسبه؛ فإن الله يعلمه، وسيجازيهم عليه أتم الجزاء وأفضله، فدل هذا على أن الرسل كلهم متفقون على إباحة الطيبات من المأكول وتحريم الخبائث منها، وأنهم متفقون على كل عمل صالح، وإن تنوعت بعض أجناس المأمورات واختلفت بها الشرائع؛ فإنها كلها عمل صالح، ولكن تتفاوت بتفاوت الأزمنة. ولهذا؛ الأعمال الصالحة التي هي صلاح في جميع الأزمنة قد اتفقت عليها الأنبياء والشرائع؛ كالأمر بتوحيد الله وإخلاص الدين له ومحبة وخوفه ورجائه والبر والصدق والوفاء بالعهد وصلة الأرحام وبر الوالدين والإحسان إلى الضعفاء والمساكين واليتامى والحنو والإحسان إلى الخلق ونحو ذلك من الأعمال الصالحة، ولهذا كان أهل العلم والكتب السابقة والعقل حين بعث الله محمداً ﷺ يستدلون على نبوته بأجناس ما يأمر به وينهى عنه؛ كما جرى لهرقل وغيره؛ فإنه إذا أمر بما أمر به الأنبياء الذين من قبله ونهى عما نهوا عنه؛ دل على أنه من جنسهم؛ بخلاف الكذاب؛ فلا بد أن يأمر بالشر وينهى عن الخير.

﴿٥٩﴾ ولهذا قال تعالى للرسول: ﴿وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُوا﴾ (٥٩) ﴿بامثال أوامري واجتناب زواجرى. وقد أمر الله المؤمنين بما أمر به المرسلين؛ لأنهم بهم يقتدون وخلفهم يسلكون، فقال:

يضع عليهم عدله؛ فلا يبقى لهم حسنة، وسوء ظن بأنفسهم ألا يكونوا قد قاموا بحق الله تعالى، وخوفاً على إيمانهم من الزوال، ومعرفة منهم بربهم وما يستحقه من الإجلال والإكرام. وخوفهم وإشفاقهم يوجب لهم الكف عما يوجب الأمر المخوف من الذنوب والتقصير في الواجبات.

﴿وَالَّذِينَ هُمْ يَدْعُونَ بِهِمْ يُؤْمِنُونَ﴾ ٥٨؛ أي: إذا تليت عليهم آياته؛ زادتهم إيماناً، ويتفكرون أيضاً في الآيات القرآنية، ويتدبرونها، فيبين لهم من معاني القرآن وجلالته واتفاقه وعدم اختلافه وتناقضه وما يدعو إليه من معرفة الله وخوفه ورجائه وأحوال الجزاء، فيحدث لهم بذلك من تفاصيل الإيمان ما لا يعبر عنه اللسان، ويتفكرون أيضاً في الآيات الأفقية؛ كما في قوله: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَكَاتِ وَالْأَرْضِ وَخْتِلَافِ أَلْيَلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ ١١١؛ إلى آخر الآيات [آل عمران: ١٩٠].

﴿وَالَّذِينَ هُمْ بِهِمْ لَا يَشْكُرُونَ﴾ ٥٩؛ أي: لا شركاً جلياً؛ كاتخاذ غير الله معبوداً يدعو ويرجوه، ولا شركاً خفياً؛ كالرياء ونحوه، بل هم مخلصون لله في أقوالهم وأعمالهم وسائر أحوالهم.

﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا﴾ ٦٠؛ أي: يعطون من أنفسهم مما أمروا به ما آتوا من كل ما يقدرون عليه من صلاة وزكاة وحج وصدقة وغير ذلك، ومع هذا ﴿وَقُلُوبُهُمْ وَجَلَةٌ﴾ ٦١؛ أي: خائفة

﴿أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ﴾ ٦٢؛ أي: خائفة عند عرض أعمالها عليه والوقوف بين يديه أن تكون أعمالهم غير منجية من عذاب الله؛ لعلهم بربهم، وما يستحقه من أصناف العبادات.

﴿أُولَئِكَ يَسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ﴾ ٦١؛ أي: في ميدان التسارع في أفعال الخير؛ همهم ما يقربهم إلى الله، وإرادتهم مصروفة فيما ينجي من عذابه؛ فكل خير سمعوا به أو سنحت لهم الفرصة إليه؛ انتهزوه وبادروه؛ قد نظروا إلى أولياء الله وأصفياؤه أمامهم، ويمنة، ويسرة؛ يسارعون في كل خير، وينافسون في الزلفى عند ربهم؛ فنافسوه، ولما كان المسابق لغيره المسارع؛ قد يسبق لجده وتشميره، وقد لا يسبق لتقصيره؛ أخبر تعالى أن هؤلاء من القسم السابقين، فقال: ﴿وَهُمْ لَهَا﴾ ٦١؛ أي: للخيرات، ﴿سَافِقُونَ﴾ ٦٢؛ قد بلغوا ذروتها، وتباروا هم والرعيل الأول، ومع هذا قد سبقت لهم من الله سابقة السعادة أنهم سابقون.

﴿لَمَّا ذَكَرَ مَسَارِعَتَهُمْ إِلَى الْخَيْرَاتِ وَسَبَقَهُمْ إِلَيْهَا﴾ ٦٢؛ ربما وهم وأهم أن المطلوب منهم ومن غيرهم أمر غير مقدور أو متعسر؛ أخبر تعالى أنه لا يكلف ﴿فَقَسَاً أَلَّا يَؤْسَعَهَا﴾ ٦١؛ أي: بقدر ما تسعه ويفضل من قوتها عنه، ليس مما يستوعب قوتها؛ رحمة منه وحكمة؛ لتيسير طريق الوصول إليه، ولتعمر جادة السالكين في كل وقت إليه. ﴿وَلَدُنَا كِتَابٌ يَنْطِقُ بِالْحَقِّ﴾ ٦٢؛ وهو الكتاب الأول الذي فيه كل شيء، وهو يطابق كل واقع يكون؛ فلذلك كان حقاً. ﴿وَهُمْ لَا يَظْلُمُونَ﴾ ٦٢؛ ينقص من إحسانهم، أو يزداد في عقوبتهم وعصيانهم.

﴿بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَرْفٍ مِّنْ هَذَا وَلَهُمْ أَعْمَلٌ مِّنْ دُونِ ذَلِكَ هُمْ لَهَا عَمِلُونَ﴾ ٦٣؛ حتى إذا أخذنا مَرَفِيقَهُم بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْتَرُونَ ﴿لَا تَجْتَرُوا الْيَوْمَ إِنَّا كَرِهْنَا لَكُمْ أَن تَنْصُرُوا﴾ ٦٤؛ فَكَانَتْ ءَايَاتِي تُنْثَلِ عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ عَلَىٰ أَغْلَبِكُمْ تَنْكَبُونَ ﴿مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سِمِرًا تَهْجُرُونَ﴾ ٦٥؛ أَفَلَا يَذَرُّوْا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمْ الْأَوَّلِينَ ﴿أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ﴾ ٦٦؛ أَمْ يَقُولُونَ بِهِ

سورة المؤمنون
وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجَلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ﴿٥٨﴾
أُولَئِكَ يَسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَافِقُونَ ﴿٥٩﴾ وَلَا تَكُلِفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَلَدُنَّا كِتَابٌ يَنْطِقُ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٠﴾
بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَرْفٍ مِّنْ هَذَا وَلَهُمْ أَعْمَلٌ مِّنْ دُونِ ذَلِكَ هُمْ لَهَا عَمِلُونَ ﴿٦١﴾
حَتَّىٰ إِذَا أَخَذْنَا مُتَرَفِّعِيهِم بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْتَرُونَ ﴿٦٢﴾
لَا تَجْتَرُوا الْيَوْمَ إِنَّا كَرِهْنَا لَكُمْ أَن تَنْصُرُوا ﴿٦٣﴾ فَكَانَتْ ءَايَاتِي تُنْثَلِ عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ عَلَىٰ أَغْلَبِكُمْ تَنْكَبُونَ ﴿٦٤﴾
مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سِمِرًا تَهْجُرُونَ ﴿٦٥﴾ أَفَلَا يَذَرُّوْا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمْ الْأَوَّلِينَ ﴿٦٦﴾
أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ ﴿٦٧﴾
أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جَاءَهُم بِالْحَقِّ وَكَذَّبْتُمُوهُ لِلْحَقِّ كَرِهْتُمْ ﴿٦٨﴾ وَلَوْ أَتَبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْنَهُمْ بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ ﴿٦٩﴾
أَمْ قَسَمَلَهُمْ خَيْمًا فَخَرَّاجَ رَبِّكَ خَيْرٌ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿٧٠﴾ وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧١﴾
وَلِأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنُكَيِّبُنَّ ﴿٧٢﴾

هو القبيح في هذا القرآن؛ فالمكذبون كانت طريقتهم في القرآن الإعراض عنه، ويوصي بعضهم بعضاً بذلك، ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [نمل: ٢٦]، وقال الله عنهم: ﴿أَفَنُورِ هَذَا الْقُرْآنِ تَعْلَمُونَ﴾ [النجم: ٥٩-٦١]، ﴿وَنَصْحَكُونُ وَلَا يَكُونُ﴾ [النجم: ٦١]، وَأَنْتُمْ سَيِّدُونَ ﴿[النجم: ٦١]﴾، ﴿أَمْ يَقُولُونَ نَقُولُ﴾ [الطور: ٣٣]، فلما كانوا جامعين لهذه الرذائل؛ لا جرم حقت عليهم العقوبة، ولما وقعوا فيها؛ لم يكن لهم ناصر ينصرهم ولا مغيث ينقذهم، ويوبخون عند ذلك بهذه الأعمال الساقطة.

﴿أَفَلَمْ يَذْكُرُوا الْقَوْلَ﴾؛ أي: أفلا يتفكرون في القرآن ويتأملونه ويتدبرونه؛ أي: فإنهم لو تدبروه؛ لأوجب لهم الإيمان، ولمنعهم من الكفر، ولكن المصيبة التي أصابتهم بسبب إعراضهم عنه. ودل هذا على أن تدبر القرآن يدعو إلى كل خير ويعصم من كل شر، والذي منعهم من تدبره أن على قلوبهم أقبالها. ﴿أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَا يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ﴾ [النجم: ٣٨]؛ أي: أو منعهم من الإيمان أنه جاءهم رسول وكتاب ما جاء آباءهم الأولين، فرضوا بسلك طريق آبائهم الضالين، وعارضوا كل ما خالف ذلك! ولهذا قالوا هم ومن أشبههم من الكفار ما أخبر الله عنهم: ﴿وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ مِثْلِ الَّذِي أَنْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِهِمْ مُقْتَدُونَ﴾ [النجم: ٣٢]، فأجابهم بقوله: ﴿قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ بِإِهْدَىٰ مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءُهُمْ﴾ فهل تتبعون؟ إن كان قصدكم الحق. فأجابوا بحقيقة أمرهم: ﴿قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾ [الزخرف: ٢٣، ٢٤].

﴿وَقَوْلُهُ﴾ [النجم: ٣٢]، ﴿أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ﴾ [النجم: ٣٢]؛ أي: أو منعهم من اتباع الحق أن رسولهم محمداً ﷺ غير معروف عندهم فهم منكرون له يقولون: لا نعرفه ولا نعرف صدقه، دعونا حتى ننظر حاله ونسأل عنه من له به خبرة؟ أي: لم يكن الأمر كذلك؛ فإنهم يعرفون الرسول ﷺ معرفة تامة، صغيرهم وكبيرهم، يعرفون منه كل خلق جميل، ويعرفون صدقه وأمانته، حتى كانوا يسمونه قبل البعثة: الأمين؛ فلم لا يصدقونه حين جاءهم بالحق العظيم والصدق المبين؟!

﴿أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ﴾؛ أي: جنون؛ فهذا قال ما قال! والمجنون غير مسموع منه، ولا عبرة بكلامه؛ لأنه يهذي بالباطل والكلام السخيف! قال الله في الرد عليهم في هذه المقالة: ﴿بَلْ جَاءَهُمُ بِالْحَقِّ﴾؛ أي: بالأمر الثابت الذي

جِنَّةٌ بَلْ جَاءَهُمُ بِالْحَقِّ وَكَثُرَتْ لَهُمُ الْكُذُوبُ ﴿[النجم: ٣٢]﴾ وَلَوْ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْنَهُمْ بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ ﴿[النجم: ٣٢]﴾.

﴿يُخْبِرُ تَعَالَىٰ أَنْ قُلُوبُ الْمُكَذِّبِينَ فِي غَمْرَةٍ مِنْ هَذَا﴾ أي: وسط غمرة من الجهل والظلم والغفلة والإعراض تمنعهم من الوصول إلى هذا القرآن؛ فلا يهتدون به، ولا يصل إلى قلوبهم منه شيء، ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَجَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا﴾ [النجم: ٤٥]، وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا ﴿[الإسراء: ٤٦]﴾؛ فلما كانت قلوبهم في غمرة منه؛ عملوا بحسب هذا الحال من الأعمال الكفرية والمعاندة للشرع ما هو موجب لعقابهم، ولكن لهم ﴿أَعْمَلٌ مِّنْ دُونِ﴾: هذه الأعمال ﴿هُمْ لَهَا عَمَلُونَ﴾ [النجم: ٣٢]؛ أي: فلا يستغربوا عدم وقوع العذاب فيهم؛ فإن الله يمهلهم ليعملوا هذه الأعمال التي بقيت عليهم مما كتب عليهم؛ فإذا عملوها، واستوفوها؛ انتقلوا بشر حالة إلى غضب الله وعقابه.

﴿[النجم: ٤٥]﴾، ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِهِمْ﴾؛ أي: متنعيمهم الذين ما اعتادوا إلا الترف والرفاهية والتنعيم، ولم تحصل لهم المكارة؛ فإذا أخذناهم ﴿بِالْعَذَابِ﴾، ووجدوا مسه؛ ﴿إِذَا هُمْ يَخْرُجُونَ﴾ [النجم: ٤٥]؛ يصرخون ويتوجعون؛ لأنه أصابهم أمر خالف ما هم عليه، ويستغيثون، فيقال لهم: ﴿لَا تَجْعَلُوا أَلْوَمًا لِذِكْرِهِمْ لَا يُنْصَرُونَ﴾ [النجم: ٤٥]؛ وإذا لم تأتهم النصرة من الله، وانقطع عنهم الغوث من جانبه؛ لم يستطيعوا نصر أنفسهم، ولم ينصرهم أحد.

﴿فَكَانَهُ قِيلَ: مَا السَّبَبُ الَّذِي أَوْصَلَهُمْ إِلَىٰ هَذِهِ الْحَالِ؟﴾ قال: ﴿فَذَكَاتُ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾؛ لتؤمنوا بها وتقبلوا عليها، فلم تفعلوا ذلك، بل ﴿فَكَثُرَتْ عَلَىٰ أَعْقَابِهِمْ نَكَصُونَ﴾ [النجم: ٤٥]؛ أي: راجعين الفهقرى إلى الخلف، وذلك لأن باتباعهم القرآن يتقدمون، وبالإعراض عنه يستأخرون، ويتزلزلون إلى أسفل سافلين.

﴿[النجم: ٤٥]﴾، ﴿مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَعِيرًا تَهْجُرُونَ﴾ [النجم: ٤٥]؛ قال المفسرون: معناه: مستكبرين به: الضمير يعود إلى البيت المعهود عند المخاطبين أو الحرم؛ أي: متكبرين على الناس بسببه، تقولون: نحن أهل الحرم؛ فنحن أفضل من غيرنا وأعلى. ﴿سَعِيرًا﴾؛ أي: جماعة يتحدثون بالليل حول البيت. ﴿تَهْجُرُونَ﴾ [النجم: ٤٥]؛ أي: تقولون الكلام الهجر الذي

﴿وَأَنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (٧٣) ﴿وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنُكَوِّنَنَّ﴾ (٧٤).

﴿٧٣﴾، ﴿٧٤﴾ ذكر الله تعالى في هذه الآيات الكريمات كل سبب موجب للإيمان، وذكر الموانع، وبين فسادها واحداً بعد واحد، فذكر من الموانع: أن قلوبهم في غمرة، وأنهم لم يدبروا القول، وأنهم اقتدوا بأبائهم، وأنهم قالوا: برسولهم جنة؛ كما تقدم الكلام عليها.

وذكر من الأمور الموجبة لإيمانهم: تدبر القرآن، وتلقي نعمة الله بالقبول، ومعرفة حال الرسول محمد ﷺ، وكمال صدقه وأمانته، وأنه لا يسألهم عليه أجراً، وإنما سعيه لنفعهم ومصلحتهم، وأن الذي يدعوهم إليه صراط مستقيم، سهل على العاملين لاستقامته، موصل إلى المقصود من قرب، حنيفة سمحة؛ حنيفة في التوحيد، سمحة في العمل؛ فدعوتك إياهم إلى الصراط المستقيم موجب لمن يريد الحق أن يتبعك؛ لأنه مما تشهد العقول والفطر بحسنه وموافقته للمصالح؛ فأين يذهبون إن لم يتابعوك؟ فإنهم ليس عندهم ما يغنيهم ويكفيهم عن متابعتك؛ لأنهم ﴿عَنِ الصِّرَاطِ لَنُكَوِّنَنَّ﴾ (٧٤)، متجنبون، منحرفون عن الطريق الموصل إلى الله وإلى دار كرامته، ليس في أيديهم إلا ضلالات وجهالات، وهكذا كل من خالف الحق؛ لا بد أن يكون منحرفاً في جميع أموره؛ قال تعالى: ﴿فَإِنْ لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَكْفُرُونَ﴾ (٧٥) ﴿أَوْاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ اتَّبَعَ هَوَاهُ يَفْتَرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ﴾ (القصص: ٥٠).

﴿وَلَوْ رَحَّمْنَهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِمْ مِّنْ ضُرٍّ لَلَجُوا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ (٧٥) ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكْبَرُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَضُرُّوهُمْ﴾ (٧٦) ﴿حَتَّىٰ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْسُوتُونَ﴾ (٧٧).

﴿٧٥﴾ هذا بيان لشدة تمردهم وعنادهم، وأنهم إذا أصابهم الضر؛ دعوا الله أن يكشف عنهم ليؤمنوا، أو ابتلاهم بذلك ليرجعوا إليه؛ أن الله إذا كشف الضر عنهم؛ ﴿لَلَجُوا﴾؛ أي: استمروا ﴿فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ (٧٥)؛ أي: يَجُولُونَ في كفرهم حائرين مترددين؛ كما ذكر الله حالهم عند ركوب الفلك، وأنهم يدعونه مخلصين له الدين، وينسون ما يشركون به، فلما أنجاهم؛ إذا هم ييغون في الأرض بالشرك وغيره.

هو صدق وعدل لا اختلاف فيه ولا تناقض؛ فكيف يكون من جاء به، به جنة؟! وهل يكون إلا في أعلى درج الكمال من العلم والعقل ومكارم الأخلاق! وأيضاً؛ فإن في هذا الانتقال مما تقدم؛ أي: بل الحقيقة التي منعتهم من الإيمان أنه ﴿جَاءَهُم بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُم لِلْحَقِّ كَارِهُونَ﴾ (٧٥)، وأعظم الحق الذي جاءهم به: إخلاص العبادة لله وحده، وترك ما يعبد من دون الله، وقد علم كراهتهم لهذا الأمر وتعجبهم منه؛ فكون الرسول أتى بالحق، وكونهم كارهين للحق بالأصل، هو الذي أوجب لهم التكذيب بالحق؛ لا شكاً ولا تكذيباً للرسول؛ كما قال تعالى: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يَكْذِبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بَيَّاتٍ اللَّهُ يَجْحَدُونَ﴾ (٧٣) ﴿[الأنعام: ٣٣].﴾

﴿٧٦﴾ فإن قيل: لِمَ لَمْ يكن الحق موافقاً لأهوائهم؛ لأجل أن يؤمنوا أو يسرعوا الانقياد؟ أجاب تعالى بقوله: ﴿وَلَوْ أَتَّبَعَ الْهَوَاءَ أَهْوَاهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾؛ ووجه ذلك أن أهواءهم متعلقة بالظلم والكفر والفساد من الأخلاق والأعمال؛ فلو اتبع الحق أهواءهم؛ لفسدت السماوات والأرض؛ لفساد التصرف والتدبير المبني على الظلم وعدم العدل؛ فالسماوات والأرض ما استقامتا إلا بالحق والعدل. ﴿بَلْ أَتَيْنَهُمْ بِذِكْرِهِمْ﴾؛ أي: بهذا القرآن المذكر لهم بكل خير، الذي به فخرهم وشرفهم حين يقومون به ويكونون به سادة الناس. ﴿فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ﴾ (٧٦) ﴿شَقَاوَةٌ مِنْهُمْ وَعَدِمَ تَوْفِيقٌ﴾ (٧٦) ﴿سُئِلُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ [التوبة: ٦٧]، ﴿سُئِلُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ﴾ [الحشر: ١٩]؛ فالقرآن ومن جاء به أعظم نعمة ساقها الله إليهم، فلم يقابلوها إلا بالرد والإعراض؛ فهل بعد هذا الحرمان حرمان؟! وهل يكون وراءه إلا نهاية الخسران؟!.

﴿أَمْ سَأَلْتَهُم خَرَجًا فَأَجَرَكِ رَبِّكَ خَيْرٌ وَهُوَ خَيْرُ الرَّزْقِينَ﴾ (٧٦).

﴿٧٦﴾ أي: أو منعهم من اتباعك يا محمد أنك تسألهم على الإجابة أجراً؟ ﴿هُمْ مِّنْ مَّغْرَمٍ مَُّتَقَلُونَ﴾ (٧٦) ﴿[الطور: ٤٠]: يتكلفون من اتباعك بسبب ما تأخذ منهم من الأجر والخراج، ليس الأمر كذلك. ﴿فَخَرَجَ رَبُّكَ خَيْرٌ وَهُوَ خَيْرُ الرَّزْقِينَ﴾ (٧٦)؛ وهذا كما قال الأنبياء لأممهم: ﴿يَقُولُوا لَا اسْتَكْبَرُوا عَلَيْنَا أَجْرًا إِنَّا أَجْرِيكَ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي﴾ [هود: ٥١]؛ أي: ليسوا يدعون الخلق طمعاً فيما يصيبهم منهم من الأموال، وإنما يدعونهم نصحاً لهم وتحصيلاً لمصالحهم، بل كان الرسل أنصح للخلق من أنفسهم، فجزاهم الله عن أممهم خير الجزاء، ورزقنا الاقتداء بهم في جميع الأحوال.

سورة المؤمنون

المؤمنون

﴿وَلَوْ رَحَّمْنَهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِمْ مِنْ ضُرٍّ لَلَجُوا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٥﴾ وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَضُرُّعُونَ ﴿٧٦﴾ حَتَّىٰ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذْ هُمْ فِيهِ مُبْسُوتُونَ ﴿٧٧﴾ وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ وَهُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٩﴾ وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ وَلَهُ اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٨٠﴾ بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالِ الْأَوَّلُونَ ﴿٨١﴾ قَالُوا آءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظْمًا أَوْنَا لَمْعُوتُونَ ﴿٨٢﴾ لَقَدْ وَعِدْنَا نَحْنُ وَءَاكِبًا وَهُمَا قُلُوبٌ لَا يَتَذَكَّرُونَ إِلَّا آسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٨٣﴾ قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَكِاتِ السَّعْيِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَنْقُرُونَ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَنْ مَلِكُ يَوْمِ الدِّينِ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تُسْهَرُونَ ﴿٨٩﴾

٢٤٧

﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ﴾: قال المفسرون: المراد بذلك الجوع الذي أصابهم سبع سنين، وأن الله ابتلاهم بذلك ليرجعوا إليه بالذل والاستسلام، فلم يتجع فيهم، ولا نجح منهم أحد. ﴿فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ﴾: أي: خضعوا وذلوا، ﴿وَمَا يَضُرُّعُونَ﴾ ﴿٧٦﴾: إليه ويفتقرون، بل مر عليهم ذلك ثم زال كأنه لم يصبهم، لم يزلوا في غيهم وكفرهم.

﴿وَلَكِنْ وِرَاءَهُمُ الْعَذَابُ الَّذِي لَا يَرِدُ، وَهُوَ قَوْلُهُ: ﴿حَتَّىٰ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾: كالقتل يوم بدر وغيره؛ ﴿إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْسُوتُونَ﴾ ﴿٧٧﴾: أيسون من كل خير، قد حضرهم الشر وأسبابه؛ فليحذروا قبل نزول عذاب الله الشديد، الذي لا يرد؛ بخلاف مجرد العذاب؛ فإنه ربما أفلح عنهم؛ كالعقوبات الدنيوية التي يؤدي بها عباده؛ قال تعالى فيها: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ مَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ ﴿٤١﴾ [الروم: ٤١].

﴿وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ ﴿٧٨﴾ وَهُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٩﴾ وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ وَلَهُ اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٨٠﴾.

﴿يُخَبِّرُ تَعَالَى بِمَنْتَهُ عَلَى عِبَادِهِ الدَّاعِيَةِ لَهُمْ إِلَى شُكْرِهِ وَالْقِيَامِ بِحَقِّهِ، فَقَالَ: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ﴾: لتدركوا به المسموعات فتنتفعوا في دينكم ودنياكم، ﴿وَالْأَبْصَرَ﴾: لتدركوا بها المبصرات فتنتفعوا بها في مصالحكم، ﴿وَالْأَفْئِدَةَ﴾: أي: العقول التي تدركون بها الأشياء وتتميزون بها عن البهائم؛ فلو عدمتم السمع والأبصار والعقول بأن كنتم صمًا عميًا بكما؛ ماذا تكون حالكم؟ وماذا تفقدون من ضرورياتكم وكمالكم؟ أفلا تشكرون الذي منَّ عليكم بهذه النعم؛ فتقومون بتوحيده وطاعته؟ ولكنكم قليل شكركم مع توالي النعم عليكم.

﴿وَهُوَ﴾: تعالى ﴿الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ﴾: أي: بشكم في أقطارها وجهاتها، وسلطكم على استخراج مصالحها ومنافعها، وجعلها كافية لمعاشكم ومساكنكم. ﴿وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ ﴿٧٩﴾: بعد موتكم فيجازيكم بما عملتم في الأرض من خير وشر، وتحدث الأرض التي كنتم فيها بأخبارها.

﴿وَهُوَ﴾: تعالى وحده ﴿الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾: أي: المتصرف في الحياة والموت هو الله وحده. ﴿وَلَهُ اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾: أي: تعاقبهما وتناوبهما؛ فلو شاء أن يجعل النهار سرمداً، ﴿مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِبَلِيلٍ تَشْكُرُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ ﴿٧٦﴾ ولو شاء أن يجعل الليل سرمداً ﴿مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾ ﴿٧٦﴾ وَنَحْمِيهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِيَسْكُنُوا فِيهِ وَلِيَتَنَفَّعُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ [القصص: ٧١-٧٣]. ولهذا قال هنا: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ ﴿٨٠﴾؛ فتعرفون أن الذي وهب لكم من النعم السمع والأبصار والأفئدة، والذي نشركم في الأرض وحده، والذي يحيي ويميت وحده، والذي يتصرف بالليل والنهار وحده؛ إن ذلك موجب لكم أن تخلصوا له العبادة وحده لا شريك له، وتتركوا عبادة من لا ينفع ولا يضر ولا يتصرف بشيء، بل هو عاجز من كل وجه؛ فلو كان لكم عقل؛ لم تفعلوا ذلك.

﴿بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالِ الْأَوَّلُونَ﴾ ﴿٨١﴾ قَالُوا آءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظْمًا أَوْنَا لَمْعُوتُونَ ﴿٨٢﴾ لَقَدْ وَعِدْنَا نَحْنُ وَءَاكِبًا وَهُمَا قُلُوبٌ لَا يَتَذَكَّرُونَ إِلَّا آسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٨٣﴾.

السيارات والثواب، ﴿وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ (٨١)؛ الذي هو أعلى المخلوقات وأوسعها وأعظمها؛ فمن الذي خلق ذلك ودبره وصرفه بأنواع التدبير؟ ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾؛ أي: سيقرون بأن الله رب ذلك كله، قل لهم حين يقرون بذلك: ﴿أَفَلَا نُنْفِثُوكَ﴾ (٨٢)؛ عبادة المخلوقات العاجزة وتتقون الرب العظيم كامل القدرة عظيم السلطان؟! وفي هذا من لطف الخطاب من قوله: ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ (٨٣)؛ ﴿أَفَلَا نُنْفِثُوكَ﴾ (٨٤)؛ والوعظ بأداة العرض الجاذبة للقلوب [فيه] ما لا يخفى.

(٨٤) (٨٥) ثم انتقل إلى إقرارهم بما هو أعم من ذلك كله، فقال: ﴿قُلْ مَنْ يَبْرُؤُكُمْ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾؛ أي: مُلك كل شيء من العالم العلوي والعالم السفلي، ما نبصره وما لا نبصره، والملكوت صيغة مبالغة؛ بمعنى الملك. ﴿وَهُوَ يُجِيرُ﴾؛ عباده من الشر ويدفع عنهم المكاره ويحفظهم مما يضرهم، ﴿وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ﴾؛ أي: لا يقدر أحد أن يجير على الله ولا يدفع الشر الذي قدره الله، بل ولا يشفع أحد عنده إلا بإذنه. ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾؛ أي: سيقرون أن الله المالك لكل شيء، المجير الذي لا يجار عليه، ﴿قُلْ﴾ لهم حين يقرون بذلك ملزمًا لهم: ﴿فَأَنِّي تُسْهِرُونَ﴾ (٨٦)؛ أي: فأين تذهب عقولكم حيث عبدتم من علمتم أنهم لا ملك لهم ولا قسط من الملك، وأنهم عاجزون من جميع الوجوه، وتركتم الإخلاص للمالك العظيم القادر المدبر لجميع الأمور؟ فالقول التي دلتكم على هذا لا تكون إلا مسحورة، وهي بلا شك قد سحرها الشيطان بما زين لهم، وحسن لهم وقلب الحقائق لهم فسحر عقولهم، كما سحرت السحرة أعين الناس.

﴿بَلْ أَتَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ (٨٧) مَا أَخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنَ الْإِلَهِ إِذَا لَدَّهَبَ كُلُّ الْإِلَهِ يَمَّا خَلَقَ وَلَعَلَّا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَنَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ (٨٨) عَلِيمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَعَلَّنَا عَمَّا يُشْرِكُونَ (٨٩).

(٩٠) - (٩١) يقول تعالى: بل أتينا هؤلاء المكذبين بالحق؛ المتضمن للصدق في الأخبار، العدل في الأمر والنهي؛ فما بالهم لا يعترفون به، وهو أحق أن يتبع، وليس عندهم ما يعوضهم عنه إلا الكذب والظلم؟! ولهذا قال: ﴿وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ (٩٠) مَا أَخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنَ الْإِلَهِ؛ كذب يعرف بخبر الله وخبر رسله، ويعرف بالعقل الصحيح،

(٨١) - (٨٢) أي: بل سلك هؤلاء المكذبون مسلك الأولين من المكذبين بالبعث، واستبعدوه غاية الاستبعاد، وقالوا: ﴿إِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظْمًا إِذَاً لَنَبْعُثُونَ﴾ (٨٢)؛ أي: هذا لا يتصور ولا يدخل العقل بزمعهم. ﴿لَقَدْ وَعَدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا هَذَا مِنْ قَبْلُ﴾؛ أي: ما زلنا نوجد بأن البعث كائن نحن وآبائنا، ولم نره، ولم يأت بعد. ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا أَسْطِيزُ الْأُولِينَ﴾ (٨٣)؛ أي: قصصهم وأسمارهم التي يتحدث بها وتلهي، وإلا؛ فليس لها حقيقة، وكذبوا قبحهم الله؛ فإن الله أراهم من آياته أكبر من البعث، ومثله: ﴿لَخَلْقُ السَّمَكَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ﴾ [غافر: ٥٧]، ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَبَسَى خَلْقَهُ. قَالَتْ مَنْ يُتِي الْعَظْمَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ (٨٤) الآيات [يس: ٧٨]، ﴿وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ﴾ الآيات [الحج: ٥].

﴿قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (٨٥) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (٨٥) قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَكَاتِ السَّيِّعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (٨٦) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا نُنْفِثُوكَ (٨٧) قُلْ مَنْ يَبْرُؤُكُمْ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٨٨) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنِّي تُسْهِرُونَ (٨٩).

(٨٩) (٩٠) أي: قل لهؤلاء المكذبين بالبعث، العادلين بالله غيره؛ محتجًا عليهم بما أثبتوه وأقروا به من توحيد الربوبية وانفراد الله بها على ما أنكروه من توحيد الإلهية والعبادة، وبما أثبتوه من خلق المخلوقات العظيمة على ما أنكروه من إعادة الموتى الذي هو أسهل من ذلك: ﴿لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا﴾؛ أي: من هو الخالق للأرض ومن عليها من حيوان ونبات وجماد وبحار وأنهار وجبال، المالك لذلك، المدبر له؛ فإنك إذا سألتهم عن ذلك؛ لا بد أن يقولوا: الله وحده. فقل لهم إذا أقروا بذلك: ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ (٩٠)؛ أي: أفلا ترجعون إلى ما ذكركم الله به مما هو معلوم عندكم مستقر في فطركم قد يغيبه الإعراض في بعض الأوقات، والحقيقة أنكم إن رجعتم إلى ذاكرتكم بمجرد التأمل؛ علمتم أن مالك ذلك هو المعبود وحده، وأن إلهية من هو مملوك أبطل الباطل.

(٩١) (٩٢) ثم انتقل إلى ما هو أعظم من ذلك، فقال: ﴿قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَكَاتِ السَّيِّعِ﴾؛ وما فيها من النيرات والكواكب

ولهذا نبه تعالى على الدليل العقلي على امتناع الإهين فقال: ﴿إِذَا﴾؛ أي: لو كان معه آلهة كما يقولون؛ ﴿لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ مِمَّا خَلَقَ﴾؛ أي: لانفرد كل واحد من الإلهين بمخلوقاته واستقل بها، ولحرص على ممانعة الآخر ومغالبتها، ﴿وَلَمَّا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾؛ فالغالب يكون هو الإله؛ فمع التمانع لا يمكن وجود العالم ولا يتصور أن ينتظم هذا الانتظام المدهش للعقول، واعتبر ذلك بالشمس والقمر والكواكب الثابتة والسيارة؛ فإنها منذ خلقت وهي تجري على نظام واحد وترتيب واحد، كلها مسخرة بالقدر، مدبرة بالحكمة لمصالح الخلق كلهم، ليست مقصورة على مصلحة أحد دون أحد، ولن ترى فيها خللاً ولا تناقضاً ولا معارضة في أدنى تصرف؛ فهل يتصور أن يكون ذلك تقدير إلهين ريين. ﴿سُبْحَنَ اللَّهُ عَمَّا يُصِفُونَ﴾ (٩٣)؛ قد نطقت بلسان حالها، وأفهمت ببدیع أشكالها: أن المدبر لها إله واحد؛ كامل الأسماء والصفات، قد افتقرت إليه جميع المخلوقات في ربوبيته لها وفي إلهيته لها؛ فكما لا وجود لها ولا دوام إلا بربوبيته؛ كذلك لا صلاح لها ولا قوام إلا بعبادته وإفراده بالطاعة. ولهذا نبه على عظمة صفاته بأنموذج من ذلك، وهو علمه المحيط، فقال: ﴿عَلِيمٌ الْغَيْبِ﴾؛ أي: الذي غاب عن أبصارنا وعلمنا من الواجبات والمستحيلات والممكنات ﴿وَالشَّهَادَةِ﴾؛ وهو ما نشاهد من ذلك. ﴿فَتَعَلَّى﴾؛ أي: ارتفع وعظم ﴿عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (٩٤)؛ به من لا علم عنده إلا ما علمه الله.

﴿قُلْ رَبِّ إِنَّمَا تُرِيدُنِي مَا يُوعَدُونَ﴾ (٩٣) رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٩٤) وَإِنَّا عَلَى أَنْ تُرِيكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَادِرُونَ (٩٥).

(٩٣) - (٩٤) لما أقام تعالى على المكذبين أدلته العظيمة، فلم يلتفتوا لها، ولم يذعنوا لها؛ حتى عليهم العذاب، ووعداً بنزوله، وأرشد الله رسوله أن يقول: ﴿قُلْ رَبِّ إِنَّمَا تُرِيدُنِي مَا يُوعَدُونَ﴾ (٩٣)؛ أي: أي وقت أريتني عذابهم وأحضرتني ذلك، ﴿رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ (٩٤)؛ أي: اعصمني وارحمني مما ابتليتهم به من الذنوب الموجبة للنقم، واحمني أيضاً من العذاب الذي ينزل بهم؛ لأن العقوبة العامة تعم عند نزولها العاصي وغيره. قال الله في تقريب عذابهم: ﴿وَأَنَا عَلَى أَنْ تُرِيكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَادِرُونَ﴾ (٩٥)؛ ولكن إن أخرناه؛ فلحكمة، وإلا فقدرتنا صالحة لإيقاعه فيهم.

﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةِ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ﴾ (٩٤) وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيْطَانِ (٩٧) وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ (٩٨).

(٩٦) هذا من مكارم الأخلاق التي أمر الله رسوله بها، فقال: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةِ﴾؛ أي: إذا أساء إليك أعداؤك بالقول والفعل؛ فلا تقابلهم بالإساءة؛ مع أنه يجوز معاقبة المسيء بمثل إساءته، ولكن ادفع إساءتهم إليك بالإحسان منك إليهم؛ فإن ذلك فضل منك على المسيء، ومن مصالح ذلك أنه تخف الإساءة عنك في الحال وفي المستقبل، وأنه أدعى لجلب المسيء إلى الحق، وأقرب إلى ندمه وأسفه ورجوعه بالتوبة عما فعل، ويتصف العافي بصفة الإحسان، ويقهر بذلك عدوه الشيطان، ويستوجب الثواب من الرب؛ قال تعالى: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ (الشورى: ٤٠)، وقال تعالى: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةِ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ (٩٦) وَمَا يَلْقَئُهَا (٩٧)؛ أي: ما يوفق لهذا الخلق الجميل

موتهم إلى يوم يبعثون؛ أي: فليعدوا له عدته، وليأخذوا له أهبة.

﴿إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقِيهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ [فصلت: ٣٤، ٣٥].

﴿فَإِذَا نَفَخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَسْأَلُونَ﴾ [١١١] ﴿فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ، فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [١١٢] ﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ، فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ﴾ [١١٣] ﴿تَلْفَحُ وُجُوهُهُمُ النَّارَ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ﴾ [١١٤] ﴿أَلَمْ تَكُنْ أَتَنبِئُنَا عَنْ عِبَادِكِ الَّذِينَ يُكَادِّبُونَكُم بِمَا تُكَذِّبُونَ﴾ [١١٥] ﴿قَالُوا رَبَّنَا عَلَبْنَاكَ سِغَوْنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ﴾ [١١٦] ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ﴾ [١١٧] ﴿قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونَ﴾ [١١٨] ﴿إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ﴾ [١١٩] ﴿فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرًا حَتَّىٰ أَسْوَأَكُمْ ذِكْرِي وَكَثُرَتْ مِّنْهُمْ فَضْحَكُوكُمْ﴾ [١٢٠] ﴿إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [١٢١] ﴿قُلْ كَمْ لَبِئْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ﴾ [١٢٢] ﴿قَالُوا لَبِئْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَتَنَّا الْعَالَمِينَ﴾ [١٢٣] ﴿قُلْ إِنْ لَّبِئْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَّوْ أَنْتُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [١٢٤].

﴿يُخَبِّرُ تَعَالَىٰ عَنْ هَوْلِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَمَا فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ مِنَ الْمَزْعَجَاتِ وَالْمَقْلَقَاتِ، وَأَنَّهُ إِذَا نَفَخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةُ الْبَعْثِ، فَحُشِرَ النَّاسُ أَجْمَعُونَ، لِمَقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ؛ أَنَّهُ يَصِيبُهُمُ مِنَ الْهَوْلِ مَا يَنْسِيهِمْ أَنْسَابُهُمُ الَّتِي هِيَ أَقْوَى الْأَسْبَابِ، فَغَيْرُ الْأَنْسَابِ مِنْ بَابِ أَوَّلَى، وَأَنَّهُ لَا يَسْأَلُ أَحَدٌ أَحَدًا عَنْ حَالِهِ؛ لِاشْتَغَالِهِ بِنَفْسِهِ؛ فَلَا يَدْرِي هَلْ يَنْجُو نَجَاةً لَا شِقَاوَةَ بَعْدَهَا أَوْ يَشْقَى شِقَاوَةَ لَا سَعَادَةَ بَعْدَهَا؛ قَالَ تَعَالَى: ﴿فَإِذَا جَاءَتِ الصَّلَافَةُ﴾ [١٣٣] ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْغَرَّةُ مِنْ أَخِيهِ﴾ [١٣٤] ﴿وَأُخِيهِ وَأُخِيهِ﴾ [١٣٥] وَصَحْبِيهِ وَبَنِيهِ﴾ [١٣٦] ﴿لِكُلِّ أُمَرٍي مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ [١٣٧].

﴿وَفِي الْقِيَامَةِ مَوَاضِعُ يَشْتَدُّ كَرِبُهَا وَيَعْظُمُ وَقَعُهَا؛ كَالْمِيزَانِ الَّذِي يَمِيزُ بِهِ أَعْمَالُ الْعَبْدِ، وَيَنْظُرُ فِيهِ بِالْعَدْلِ مَا لَهُ وَمَا عَلَيْهِ، وَتَبَيَّنَ فِيهِ مِثَاقِيلُ الذَّرِّ مِنَ الْخَيْرِ وَالْشَّرِّ.﴾ [١٣٨] ﴿فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ،﴾ [١٣٩] ﴿بَانَ رَجَحَتْ حَسَنَاتُهُ عَلَى سَيِّئَاتِهِ؛﴾ [١٤٠] ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [١٤١] ﴿لِنَجَاتِهِمْ مِنَ النَّارِ، وَاسْتِحْقَاقِهِمُ الْجَنَّةَ، وَفُوزِهِمُ بِالنَّاتِ الْجَمِيلِ.﴾

﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ،﴾ [١٤٢] ﴿بَانَ رَجَحَتْ سَيِّئَاتُهُ عَلَى حَسَنَاتِهِ وَأَحَاطَتْ بِهَا خَطِيئَاتُهُ؛﴾ [١٤٣] ﴿فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ﴾ [١٤٤] ﴿: كُلُّ خَسَارَةٍ غَيْرِ هَذِهِ الْخَسَارَةِ؛ فَإِنَّهَا بِالنَّسْبَةِ

وقوله: ﴿تَحَنَّنْ عَلَيْنَا يَا مُحَمَّدُ بِمَا يَصِفُونَ﴾ [٩٦]؛ أي: بما يقولون من الأقوال المتضمنة للكفر والتكذيب بالحق، قد أحاط علمنا بذلك، وقد حلمنا عنهم وأمهلناهم وصبرنا عليهم، والحق لنا، وتكذيبهم لنا؛ فأنت يا محمد ينبغي لك أن تصبر على ما يقولون، وتقابلهم بالإحسان. هذه وظيفة العبد في مقابلة المسيء من البشر.

﴿٩٧﴾، ﴿٩٨﴾ وأما المسيء من الشياطين؛ فإنه لا يفيد فيه الإحسان، ولا يدعو حزبه إلا ليكونوا من أصحاب السعير؛ فالوظيفة في مقابلته أن يسترشد بما أرشد الله إليه رسوله، فقال: ﴿وَقُلْ رَبِّ اعْوِذْ بِكَ﴾ [٩٩]؛ أي: اعتصم بحولك وقوتك متبرئاً من حولي وقوتي، ﴿مِنَ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ﴾ [١٠٠] وَأَعُوذْ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ﴾ [١٠١]؛ أي: أعوذ بك من الشر الذي يصيبني بسبب مباشرتهم وهمزهم ومسههم، ومن الشر الذي بسبب حضورهم ووسوستهم، وهذه استعاذة من مادة الشر كله وأصله، ويدخل فيه الاستعاذة من جميع نزغات الشيطان ومن مسه ووسوسته؛ فإذا أعاذ الله عبده من هذا الشر، وأجاب دعاءه؛ سلم من كل شر، ووفق لكل خير.

﴿حَقَّ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ﴾ [٩٩] ﴿لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمُ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [١٠٠].

﴿٩٩﴾، ﴿١٠٠﴾ يخبر تعالى عن حال من حضره الموت من المفرطين الظالمين: أنه يندم في تلك الحال إذا رأى ماله، وشاهد قبح أعماله، فيطلب الرجعة إلى الدنيا، لا للتمتع بلذاتها واقتطاف شهواتها، وإنما ذلك يقول: ﴿لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ﴾ [٩٩] من العمل وفرطت في جنب الله. ﴿كَلَّا﴾ [١٠٠]؛ أي: لا رجعة له ولا إمهال، قد قضى الله أنهم إليها لا يُرْجَعُونَ، ﴿إِنَّمَا﴾ [١٠١]؛ أي: مقالته التي تمنى فيها الرجوع إلى الدنيا ﴿كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا﴾ [١٠٢]؛ أي: مجرد قول باللسان، لا يفيد صاحبه إلا الحسرة والندم، وهو أيضاً غير صادق في ذلك؛ فإنه لو رد لعاد لما نهى عنه. ﴿وَمِنْ وَرَائِهِمُ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [١٠٣]؛ أي: من أمامهم وبين أيديهم برزخ، وهو الحاجز بين الشيتين؛ فهو هنا الحاجز بين الدنيا والآخرة، وفي هذا البرزخ يتنعم المطيعون، ويعذب العاصون من

إِلَيْهَا سَهْلَةٌ، وَلَكِنْ هَذِهِ خَسَارَةٌ صَعِبَةٌ؛ لَا يُجْبِرُ مَصَابِيهَا، وَلَا يَسْتَدْرِكُ فَائِزَتَهَا؛ خَسَارَةٌ أَبَدِيَّةٌ وَشَقَاوَةٌ سَرْمَدِيَّةٌ، قَدْ خَسِرَ نَفْسَهُ الشَّرِيفَةُ الَّتِي يَتِمَكَّنُ بِهَا مِنَ السَّعَادَةِ الْأَبَدِيَّةِ، فَفُوتَهَا هَذَا النِّعَمِ الْمُقِيمِ فِي جِوَارِ الرَّبِّ الْكَرِيمِ. ﴿فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ﴾: لَا يَخْرُجُونَ مِنْهَا أَبَدَ الْأَبَدِينَ، وَهَذَا الْوَعْدُ إِنَّمَا هُوَ - كَمَا ذَكَرْنَا - لِمَنْ أَحَاطَتْ خَطِيئَاتُهُ بِحَسَنَاتِهِ، وَلَا يَكُونُ ذَلِكَ إِلَّا كَافِرًا؛ فَعَلَى هَذَا لَا يَحَاسِبُ مُحَاسِبَةً مِنْ تَوْزَنِ حَسَنَاتِهِ وَسَيِّئَاتِهِ؛ فَإِنَّهُمْ لَا حَسَنَاتَ لَهُمْ، وَلَكِنْ تَعْدُ أَعْمَالُهُمْ وَتَحْصَى، فَيُوقَفُونَ عَلَيْهَا، وَيَقْرَرُونَ بِهَا، وَيَخْزَوْنَ بِهَا.

وَأَمَّا مَنْ مَعَهُ أَصْلُ الْإِيمَانِ، وَلَكِنْ عَظُمَتْ سَيِّئَاتُهُ، فَارْجَحَتْ عَلَى حَسَنَاتِهِ؛ فَإِنَّهُ وَإِنْ دَخَلَ النَّارَ؛ لَا يَخْلُدُ فِيهَا كَمَا دَلَّتْ عَلَى ذَلِكَ نصوص الكتاب والسنة.

﴿ثُمَّ ذَكَرَ تَعَالَى سُوءَ مَصِيرِ الْكَافِرِينَ، فَقَالَ: ﴿تَلَفُّحٌ وَجُوهُهُمْ النَّارُ﴾؛ أَيُّ: تَغْشَاهُمْ مِنْ جَمِيعِ جَوَانِبِهِمْ، حَتَّى تَصِيبَ أَعْضَاءَهُمُ الشَّرِيفَةَ، وَيَقْطَعُ لَهَا عَنْ وَجْهِهِمْ، وَهُمْ فِيهَا كَالْيَحْرُوكِ﴾: قَدْ عَبَسَتْ وَجْهِهِمْ وَقَلَصَتْ شَفَاهِهِمْ، مِنْ شِدَّةِ مَا هُمْ فِيهِ، وَعَظِيمِ مَا يَلْقَوْنَهُ.

﴿فَيَقَالُ لَهُمْ تَوْبِعْنَا وَلَوْ مَا: ﴿أَلَمْ تَكُنْ ءَايَتِي تُنَالُ عَلَيْكَ﴾: تُدْعَوْنَ بِهَا لِتُؤْمِنُوا وَتَعْرِضَ عَلَيْكُمْ لِتَنْظُرُوا؛ ﴿فَكَثُرَ بِهَا تَكْذِبُوتُ﴾: ﴿ظَلَمْنَا مِنْكُمْ وَعِنَادًا، وَهِيَ آيَاتُ بَيِّنَاتٍ، دَالَّتْ عَلَى الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ، مَبِينَاتٌ لِلْمُحَقِّ وَالْمُبْطَلِ ۚ﴾

﴿فَجِئْتُمْ أَقْرَبُوا بِظُلْمِهِمْ حَيْثُ لَا يَنْفَعُ الْإِقْرَارُ: ﴿قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا﴾؛ أَيُّ: غَلَبَتْ عَلَيْنَا الشَّقَاوَةُ النَّاشِئَةُ عَنِ الظُّلْمِ وَالْإِعْرَاضِ عَنِ الْحَقِّ وَالْإِقْبَالِ عَلَى مَا يَضُرُّ وَتَرْكُ مَا يَنْفَعُ، ﴿وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ﴾: فِي عَمَلِهِمْ، وَإِنْ كَانُوا يَدْرُونَ أَنَّهُمْ ظَالِمُونَ؛ أَيُّ: فَعَلْنَا فِي الدُّنْيَا فِعْلَ الدَّيَاغَةِ الضَّالِّ السَّافِيهِ؛ كَمَا قَالُوا فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى: ﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [الملك: ١٠].

﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ﴾: وَهُمْ كَاذِبُونَ فِي وَعْدِهِمْ هَذَا؛ فَإِنَّهُمْ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ﴾ [الأنعام: ٢٨]، وَلَمْ يُبَيِّنِ اللَّهُ لَهُمْ حُجَّةً، بَلْ قَطَعَ أَعْدَارَهُمْ، وَعَمَّرَهُمْ فِي الدُّنْيَا مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مِنْ تَذَكُّرٍ، وَيَرْتَدِعُ فِيهِ الْمَجْرِمُ.

﴿فَقَالَ اللَّهُ جَوَابًا لِسُؤَالِهِمْ: ﴿أَخْشَوْا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾﴾: وَهَذَا الْقَوْلُ - نَسَّالَهُ تَعَالَى الْعَافِيَةُ - أَعْظَمُ قَوْلٍ عَلَى الْإِطْلَاقِ يَسْمَعُهُ الْمَجْرُمُونَ فِي التَّخْيِيبِ وَالتَّوْبِيخِ وَالذَّلِّ وَالْخَسَارِ وَالتَّائِسِ مِنْ كُلِّ خَيْرٍ وَالبُشْرَى بِكُلِّ شَرٍّ، وَهَذَا الْكَلَامُ وَالْغَضَبُ مِنَ الرَّبِّ الرَّحِيمِ أَشَدَّ عَلَيْهِمْ، وَأَبْلَغُ فِي نَكَائِهِمْ مِنْ عَذَابِ الْجَحِيمِ.

﴿ثُمَّ ذَكَرَ الْحَالِ الَّتِي أَوْصَلَتْهُمْ إِلَى الْعَذَابِ وَقَطَعَتْ عَنْهُمْ الرَّحْمَةَ، فَقَالَ: ﴿إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا ءَامَنَّا فَآفَقِرْنَا لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّحِيمِينَ﴾﴾: فَجَمَعُوا بَيْنَ الْإِيمَانِ الْمُقْتَضِي لِأَعْمَالِهِ الصَّالِحَةِ، وَالدَّعَاءِ لِرَبِّهِمْ بِالْمَغْفِرَةِ وَالرَّحْمَةِ، وَالتَّوَسُّلِ إِلَيْهِ بِرَبُّوبِيَّتِهِ وَمَتَّعَهُمْ بِالْإِيمَانِ، وَالْإِخْبَارِ بِسَعَةِ رَحْمَتِهِ وَعُمُومِ إِحْسَانِهِ، وَفِي ضَمْنِهِ مَا يَدُلُّ عَلَى خُضُوعِهِمْ وَخُشُوعِهِمْ وَانْكَسَارِهِمْ لِرَبِّهِمْ وَخَوْفِهِمْ وَرَجَائِهِمْ؛ فَهَؤُلَاءِ سَادَاتُ النَّاسِ وَفَضْلَاؤُهُمْ.

﴿ثُمَّ ذَكَرَ تَعَالَى سُوءَ مَصِيرِ الْكَافِرِينَ، فَقَالَ: ﴿تَلَفُّحٌ وَجُوهُهُمْ النَّارُ﴾؛ أَيُّ: تَغْشَاهُمْ مِنْ جَمِيعِ جَوَانِبِهِمْ، حَتَّى تَصِيبَ أَعْضَاءَهُمُ الشَّرِيفَةَ، وَيَقْطَعُ لَهَا عَنْ وَجْهِهِمْ، وَهُمْ فِيهَا كَالْيَحْرُوكِ﴾: قَدْ عَبَسَتْ وَجْهِهِمْ وَقَلَصَتْ شَفَاهِهِمْ، مِنْ شِدَّةِ مَا هُمْ فِيهِ، وَعَظِيمِ مَا يَلْقَوْنَهُ.

﴿ثُمَّ ذَكَرَ تَعَالَى سُوءَ مَصِيرِ الْكَافِرِينَ، فَقَالَ: ﴿تَلَفُّحٌ وَجُوهُهُمْ النَّارُ﴾؛ أَيُّ: تَغْشَاهُمْ مِنْ جَمِيعِ جَوَانِبِهِمْ، حَتَّى تَصِيبَ أَعْضَاءَهُمُ الشَّرِيفَةَ، وَيَقْطَعُ لَهَا عَنْ وَجْهِهِمْ، وَهُمْ فِيهَا كَالْيَحْرُوكِ﴾: قَدْ عَبَسَتْ وَجْهِهِمْ وَقَلَصَتْ شَفَاهِهِمْ، مِنْ شِدَّةِ مَا هُمْ فِيهِ، وَعَظِيمِ مَا يَلْقَوْنَهُ.

﴿ثُمَّ ذَكَرَ تَعَالَى سُوءَ مَصِيرِ الْكَافِرِينَ، فَقَالَ: ﴿تَلَفُّحٌ وَجُوهُهُمْ النَّارُ﴾؛ أَيُّ: تَغْشَاهُمْ مِنْ جَمِيعِ جَوَانِبِهِمْ، حَتَّى تَصِيبَ أَعْضَاءَهُمُ الشَّرِيفَةَ، وَيَقْطَعُ لَهَا عَنْ وَجْهِهِمْ، وَهُمْ فِيهَا كَالْيَحْرُوكِ﴾: قَدْ عَبَسَتْ وَجْهِهِمْ وَقَلَصَتْ شَفَاهِهِمْ، مِنْ شِدَّةِ مَا هُمْ فِيهِ، وَعَظِيمِ مَا يَلْقَوْنَهُ.

﴿ثُمَّ ذَكَرَ تَعَالَى سُوءَ مَصِيرِ الْكَافِرِينَ، فَقَالَ: ﴿تَلَفُّحٌ وَجُوهُهُمْ النَّارُ﴾؛ أَيُّ: تَغْشَاهُمْ مِنْ جَمِيعِ جَوَانِبِهِمْ، حَتَّى تَصِيبَ أَعْضَاءَهُمُ الشَّرِيفَةَ، وَيَقْطَعُ لَهَا عَنْ وَجْهِهِمْ، وَهُمْ فِيهَا كَالْيَحْرُوكِ﴾: قَدْ عَبَسَتْ وَجْهِهِمْ وَقَلَصَتْ شَفَاهِهِمْ، مِنْ شِدَّةِ مَا هُمْ فِيهِ، وَعَظِيمِ مَا يَلْقَوْنَهُ.

﴿ثُمَّ ذَكَرَ تَعَالَى سُوءَ مَصِيرِ الْكَافِرِينَ، فَقَالَ: ﴿تَلَفُّحٌ وَجُوهُهُمْ النَّارُ﴾؛ أَيُّ: تَغْشَاهُمْ مِنْ جَمِيعِ جَوَانِبِهِمْ، حَتَّى تَصِيبَ أَعْضَاءَهُمُ الشَّرِيفَةَ، وَيَقْطَعُ لَهَا عَنْ وَجْهِهِمْ، وَهُمْ فِيهَا كَالْيَحْرُوكِ﴾: قَدْ عَبَسَتْ وَجْهِهِمْ وَقَلَصَتْ شَفَاهِهِمْ، مِنْ شِدَّةِ مَا هُمْ فِيهِ، وَعَظِيمِ مَا يَلْقَوْنَهُ.

﴿ثُمَّ ذَكَرَ تَعَالَى سُوءَ مَصِيرِ الْكَافِرِينَ، فَقَالَ: ﴿تَلَفُّحٌ وَجُوهُهُمْ النَّارُ﴾؛ أَيُّ: تَغْشَاهُمْ مِنْ جَمِيعِ جَوَانِبِهِمْ، حَتَّى تَصِيبَ أَعْضَاءَهُمُ الشَّرِيفَةَ، وَيَقْطَعُ لَهَا عَنْ وَجْهِهِمْ، وَهُمْ فِيهَا كَالْيَحْرُوكِ﴾: قَدْ عَبَسَتْ وَجْهِهِمْ وَقَلَصَتْ شَفَاهِهِمْ، مِنْ شِدَّةِ مَا هُمْ فِيهِ، وَعَظِيمِ مَا يَلْقَوْنَهُ.

﴿ثُمَّ ذَكَرَ تَعَالَى سُوءَ مَصِيرِ الْكَافِرِينَ، فَقَالَ: ﴿تَلَفُّحٌ وَجُوهُهُمْ النَّارُ﴾؛ أَيُّ: تَغْشَاهُمْ مِنْ جَمِيعِ جَوَانِبِهِمْ، حَتَّى تَصِيبَ أَعْضَاءَهُمُ الشَّرِيفَةَ، وَيَقْطَعُ لَهَا عَنْ وَجْهِهِمْ، وَهُمْ فِيهَا كَالْيَحْرُوكِ﴾: قَدْ عَبَسَتْ وَجْهِهِمْ وَقَلَصَتْ شَفَاهِهِمْ، مِنْ شِدَّةِ مَا هُمْ فِيهِ، وَعَظِيمِ مَا يَلْقَوْنَهُ.

﴿ثُمَّ ذَكَرَ تَعَالَى سُوءَ مَصِيرِ الْكَافِرِينَ، فَقَالَ: ﴿تَلَفُّحٌ وَجُوهُهُمْ النَّارُ﴾؛ أَيُّ: تَغْشَاهُمْ مِنْ جَمِيعِ جَوَانِبِهِمْ، حَتَّى تَصِيبَ أَعْضَاءَهُمُ الشَّرِيفَةَ، وَيَقْطَعُ لَهَا عَنْ وَجْهِهِمْ، وَهُمْ فِيهَا كَالْيَحْرُوكِ﴾: قَدْ عَبَسَتْ وَجْهِهِمْ وَقَلَصَتْ شَفَاهِهِمْ، مِنْ شِدَّةِ مَا هُمْ فِيهِ، وَعَظِيمِ مَا يَلْقَوْنَهُ.

﴿وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا جِسْمُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾ ﴿١١٧﴾ وَقُلْ رَبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّحِيمِينَ ﴿١١٨﴾

﴿١١٧﴾ أي: ومن دعا مع الله آلهة غيره بلا بينة من أمره ولا برهان على ذلك يدل على ما ذهب إليه، وهذا قيد ملازم؛ فكل من دعا غير الله؛ فليس له برهان على ذلك، بل دلت البراهين على بطلان ما ذهب إليه، فأعرض عنها ظلماً وعناداً؛ فهذا سيقدم على ربه فيجازيه بأعماله ولا ينيله من الفلاح شيئاً؛ لأنه كافر، ﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾ ﴿١١٧﴾: فكفرهم منعهم من الفلاح.

﴿١١٨﴾ ﴿وَقُلْ: دَاعِيَاً لِرَبِّكَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ: رَبِّ اغْفِرْ﴾ لنا حتى تنجينا من المكروه، وارحمنا لتوصلنا برحمتك إلى كل خير. ﴿وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّحِيمِينَ﴾ ﴿١١٨﴾: فكل راحم للعبد؛ فالله خير له منه، أرحم بعبد من الوالدة بولدها، وأرحم به من نفسه.

تم تفسير سورة المؤمنون من فضله وإحسانه.



تفسير سورة النور

وهي مدنية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿سُورَةُ أَنْزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنْزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ يَبَيِّنَاتٍ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ ﴿١﴾

﴿١﴾ أي: هذه ﴿سُورَةُ﴾ عظيمة القدر، ﴿أَنْزَلْنَاهَا﴾: رحمة منا بالعباد، وحفظناها من كل شيطان، ﴿وَفَرَضْنَاهَا﴾: أي: قدرنا فيها ما قدرنا من الحدود والشهادات وغيرها، ﴿وَأَنْزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ يَبَيِّنَاتٍ﴾: أي: أحكاماً جلية وأوامر وزواجر وحكمًا عظيمة؛ ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ ﴿١﴾: حين نبين لكم، ونعلمكم ما لم تكونوا تعلمون.

ثم شرع في بيان تلك الأحكام المشار إليها، فقال:

﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابُهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿٢﴾

﴿١١٠﴾ ﴿فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ﴾: أيها الكفرة الأذنان ناقصو العقول والأحلام، ﴿سِخْرِيًّا﴾: تهزءون بهم وتحقرونهم حتى اشتغلتم بذكر السفه، ﴿حَتَّىٰ أَنْسَوَكُمُ ذِكْرِي وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ﴾ ﴿١١١﴾: وهذا الذي أوجب لهم نسيان الذكر اشتغالهم بالاستهزاء بهم؛ كما أن نسيانهم للذكر يحثهم على الاستهزاء؛ فكل من الأمرين يمد الآخر؛ فهل فوق هذه الجرأة جرأة؟!

﴿١١٢﴾ ﴿إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا﴾: على طاعتي وعلى أذاكم حتى وصلوا إليَّ ﴿أَنَّهُمْ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ ﴿١١٣﴾: بالنعيم المقيم والنجاة من الجحيم؛ كما قال في الآية الأخرى: ﴿فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ﴾ ﴿١١٤﴾ [المطففين: ٣٤] الآيات.

﴿١١٢﴾ - ﴿١١٤﴾ ﴿قَالَ﴾ لهم على وجه اللوم وأنهم سفهاء الأحلام حيث اكتسبوا في هذه المدة اليسيرة كل شر أوصلهم إلى غضبه وعقوبته، ولم يكتسبوا ما اكتسبه المؤمنون من الخير الذي يوصلهم إلى السعادة الدائمة ورضوان ربهم: ﴿كَمْ لَبِئْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ﴾ ﴿١١٢﴾ قَالُوا لَيْسَ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ: كلامهم هذا مبني على استقصارهم جداً لمدة مكثهم في الدنيا، وأفاد ذلك، لكنه لا يفيد مقداره ولا يعينه؛ فلماذا قالوا: ﴿قَسَتِ الْأَعْدَيْنَ﴾ ﴿١١٣﴾: أي: الضابطين لعدده، وأما هم؛ ففي شغل شاغل وعذاب مذهل عن معرفة عدده. فقال لهم: ﴿إِنْ لَبِئْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾: سواء عيتم عدده أم لا، ﴿لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ ﴿١١٤﴾.

﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّكُمْ خَلَقْتُمْ عَبَثًا وَأَنْكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ ﴿١١٥﴾ فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ ﴿١١٦﴾

﴿١١٥﴾، ﴿١١٦﴾ أي: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ﴾ أيها الخلق، ﴿أَنَّكُمْ خَلَقْتُمْ عَبَثًا﴾: أي: سدى وباطلاً تأكلون وتشربون وتمرحون وتتمتعون بلذات الدنيا وتترككم لا نأمركم ولا نهاكم ولا ننيحكم ونعاقبكم، ولهذا قال: ﴿وَأَنْكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ ﴿١١٥﴾؟ لا يخطر هذا ببالكم. ﴿فَتَعَالَى اللَّهُ﴾: أي: تعظم وارتفع عن هذا الظن الباطل الذي يرجع إلى القدر في حكمته، ﴿الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ﴾ ﴿١١٦﴾: فكونه ملكاً للخلق كله حقاً في صدقه ووعدته ووعدته مألوهة معبوداً لما له من الكمال، رب العرش العظيم فما دونه من باب أولى يمنع أن يخلقكم عبثاً.

﴿٢﴾ هذا الحكم في الزاني والزانية البكرين: أنهما يجلد كل منهما مائة جلدة، وأما الثيب؛ فقد دلت السنة الصحيحة المشهورة أن حده الرجم.

ونها تعالى أن تأخذنا رافة بهما في دين الله تمنعنا من إقامة الحد عليهما، سواء رافة طبيعية، أو لأجل قرابة أو صداقة أو غير ذلك، وأن الإيمان موجب لانتفاء هذه الرافة المانعة من إقامة أمر الله؛ فرحمته حقيقة بإقامة الحد عليه، فنحن وإن رحمناه لجريان القدر عليه؛ فلا نرحمه من هذا الجانب.

وأمر تعالى أن يحضر عذاب الزانيين ﴿طَائِفَةٌ﴾؛ أي: جماعة من المؤمنين؛ ليشتهر ويحصل بذلك الخزي والارتداع، وليشاهدوا الحد فعلاً؛ فإن مشاهدة أحكام الشرع بالفعل مما يقوى به العلم، ويستقر بها الفهم، ويكون أقرب لإصابة الصواب؛ فلا يزداد فيه ولا ينقص. والله أعلم.

﴿الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحَرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿٣﴾.

﴿٣﴾ هذا بيان لرذيلة الزنا، وأنه يندس عرض صاحبه وعرض من قارنه ومازجه ما لا يفعله بقية الذنوب، فأخبر أن الزاني لا يُقَدِّم على نكاحه من النساء إلا أنثى زانية تناسب حاله حالها، أو مشركة بالله لا تؤمن ببعث ولا جزاء، ولا تلتزم أمر الله.

والزانية كذلك لا ينكحها إلا زانٍ أو مشرك.

﴿وَحَرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿٣﴾؛ أي: حرم عليهم أن ينكحوا زانياً أو ينكحوا زانية. ومعنى الآية أن من اتصف بالزنا من رجل أو امرأة، ولم يتب من ذلك؛ أن المقدم على نكاحه مع تحريم الله لذلك لا يخلو إما ألا يكون ملتزماً لحكم الله ورسوله؛ فذاك لا يكون إلا مشركاً، وإما أن يكون ملتزماً لحكم الله ورسوله، فأقدم على نكاحه، مع علمه بزناه؛ فإن هذا النكاح زنا، والناكح زانٍ مسافح؛ فلو كان مؤمناً بالله حقاً؛ لم يقدم على ذلك.

وهذا دليل صريح على تحريم نكاح الزانية حتى تتوب، وكذلك نكاح الزاني حتى يتوب؛ فإن مقارنة الزوج لزوجته والزوجة لزوجها أشد الاقترانات والازدواجات، وقد قال تعالى: ﴿أَخْشَرُوا الَّذِينَ خَلَقُوا وَأَزْوَاجَهُمْ﴾ [الصافات: ٢٢]؛ أي: قرأهم، فحرم الله ذلك لما فيه من الشر العظيم، وفيه من قلة الغيرة والحق الأولاد الذين ليسوا من الزوج، وكون الزاني لا يعفها بسبب اشتغاله بغيرها؛ مما بعضه كاف في التحريم.

وفي هذا دليل أن الزاني ليس مؤمناً كما قال النبي ﷺ: «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن»^(١)؛ فهو وإن لم يكن مشركاً؛ فلا يطلق عليه اسم المدح الذي هو الإيمان المطلق.

﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شَهَدَةٍ فَلَجِدُوهُنَّ مَنَّينَ جَلَدًا وَلَا يَقْبَلُوا لَهُنَّ شَهَدَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ ﴿٤﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ ﴿٥﴾.

وإنما كانت شهادات الزوج على زوجته دائرة عنه الحد؛ لأن الغالب أن الزوج لا يقدم على رمي زوجته التي يدنسها ما يدنسها إلا إذا كان صادقاً، ولأن له في ذلك حقاً، وخوفاً من إلحاق أولاد ليسوا منه به، ولغير ذلك من الحكم المفقودة في غيره، فقال:

﴿١﴾، ﴿٧﴾ وَالَّذِينَ يَزْمُونَ زَوَاجَهُمْ ﴿٢﴾؛ أي: الحرائر لا المملوكات ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُنْ لَكُمْ ﴿٤﴾؛ أي: رميهم بذلك ﴿٥﴾ شَهَادَةٌ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ ﴿٦﴾؛ بأن لم يقيموا شهداء على ما رموه به، ﴿٧﴾ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَدَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٨﴾؛ سماها شهادة لأنها نائبة مناب الشهود؛ بأن يقول: أشهد بالله أنني لمن الصادقين فيما رميته به. ﴿٩﴾ وَالْخَمْسَةُ أَنْ لَعَنْتَ اللَّهُ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿١٠﴾؛ أي: يزيد في الخامسة مع الشهادة المذكورة مؤكداً تلك الشهادات بأن يدعو على نفسه باللعنة إن كان كاذباً؛ فإذا تم لعانه؛ سقط عنه حد القذف.

وظاهر الآيات ولو سمي الرجل الذي رماها به؛ فإنه يسقط حقه تبعاً لها.

وهل يقام عليها الحد بمجرد لعان الرجل ونكولها أم تحبس؟ فيه قولان للعلماء، الذي يدل عليه الدليل أنه يقام عليها الحد؛ بدليل قوله: ﴿١١﴾ وَيَبْرَأُ عَنْهَا الْعَذَابُ أَنْ تَشْهَدَ ﴿١٢﴾ إلى آخره؛ فلو لا أن العذاب - وهو الحد - قد وجب بلعانه؛ لم يكن لعانه دارئاً له.

﴿١٣﴾، ﴿١٤﴾ وَيَبْرَأُ عَنْهَا ﴿١٥﴾؛ أي: يدفع عنها العذاب إذا قابلت شهادات الزوج بشهادات من جنسها؛ ﴿١٦﴾ أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَدَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿١٧﴾، وتزيد في الخامسة مؤكدة لذلك أن تدعو على نفسها بالغضب، فإذا تم اللعان بينهما؛ فرق بينهما إلى الأبد، وانتهى الولد الملاعن عنه.

وظاهر الآيات يدل على اشتراط هذه الألفاظ عند اللعان منه ومنها، واشتراط الترتيب فيها، وألا ينقص منها شيء ولا يبدل شيء بشيء، وأن اللعان مختص بالزوج إذا رمى امرأته، لا بالعكس، وأن الشبه في الولد مع اللعان لا عبرة به؛ كما لا يعتبر مع الفراش، وإنما يعتبر الشبه حيث لا مرجح إلا هو.

﴿١٨﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ، وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ ﴿١٩﴾ حَكِيمٌ ﴿٢٠﴾؛ وجواب الشرط محذوف يدل عليه سياق الكلام؛ أي: لأحل بأحد المتلاعنين الكاذب منهما ما دعا به على نفسه، ومن رحمته وفضله ثبوت هذا الحكم الخاص

﴿٢١﴾ لما عظم تعالى أمر الزاني بوجوب جلده وكذا رجمه إن كان محصناً، وأنه لا تجوز مقارنته ولا مخالطته على وجه لا يسلم فيه العبد من الشر؛ بين تعالى تعظيم الإقدام على الأعراض بالرمي بالزنا، فقال: ﴿٢٢﴾ وَالَّذِينَ يَزْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ﴿٢٣﴾؛ أي: النساء الأحرار العفاف، وكذلك الرجال، لا فرق بين الأمرين، والمراد بالرمي الرمي بالزنا؛ بدليل السياق. ﴿٢٤﴾ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا ﴿٢٥﴾؛ أي: ما رموا به ﴿٢٦﴾ بِأَرْبَعَةِ شَهَدَاتٍ ﴿٢٧﴾؛ أي: رجال عدول يشهدون بذلك صريحاً ﴿٢٨﴾ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً ﴿٢٩﴾؛ بسوط متوسط يؤلم فيه، ولا يبالغ بذلك حتى يتلفه؛ لأن القصد التأديب لا الإتلاف.

وفي هذا تقرير حد القذف، ولكن بشرط أن يكون المقذوف كما قال تعالى محصناً مؤمناً، وأما قذف غير المحصن؛ فإنه يوجب التعزير، ﴿٣٠﴾ وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا ﴿٣١﴾؛ أي: لهم عقوبة أخرى، وهو أن شهادة القاذف غير مقبولة، ولو حد على القذف، حتى يتوب؛ كما يأتي. ﴿٣٢﴾ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٣٣﴾؛ أي: الخارجون عن طاعة الله، الذين قد كثر شرهم، وذلك لانتهاك ما حرم الله، وانتهاك عرض أخيه، وتسليط الناس على الكلام بما تكلم به، وإزالة الأخوة التي عقدها الله بين أهل الإيمان، ومحبة أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا. وهذا دليل على أن القذف من كبائر الذنوب.

﴿٣٤﴾ وقوله: ﴿٣٥﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٣٦﴾؛ فالتوبة في هذا الموضع أن يكذب القاذف نفسه، ويقر أنه كاذب فيما قال، وهو واجب عليه أن يكذب نفسه، ولو تيقن وقوعه؛ حيث لم يأت بأربعة شهداء؛ فإذا تاب القاذف وأصلح عمله وبدل إساءته إحساناً؛ زال عنه الفسق، وكذلك تقبل شهادته على الصحيح؛ ﴿٣٧﴾ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٣٨﴾، يغفر الذنوب جميعاً لمن تاب وأناب.

وإنما يجلد القاذف إذا لم يأت بأربعة شهداء إذا لم يكن زوجاً؛ فإن كان زوجاً؛ فقد ذكر بقوله:

﴿٣٩﴾ وَالَّذِينَ يَزْمُونَ زَوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شَهَادَةٌ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَدَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٤٠﴾ وَالْخَمْسَةُ أَنْ لَعَنْتَ اللَّهُ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٤١﴾ وَيَبْرَأُ عَنْهَا الْعَذَابُ أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَدَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٤٢﴾ وَالْخَمْسَةُ أَنْ غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٤٣﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ، وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ ﴿٤٤﴾.

بالزوجين؛ لشدة الحاجة إليه، وأن بين لكم شدة الزنا وفظاعة وفضاعة القذف به، وأن شرع التوبة من هذه الكبائر وغيرها.

﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنْكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ إلى آخر القصة.

لما ذكر فيما تقدم تعظيم الرمي بالزنا عموماً؛ صار ذلك كأنه مقدمة لهذه القصة التي وقعت على أشرف النساء أم المؤمنين رضي الله عنها، وهذه الآيات نزلت في قصة الإفك المشهورة الثابتة في الصحاح والسنن والمسانيد^(١)، وحاصلها أن النبي ﷺ في بعض غزواته ومعه زوجته عائشة الصديقة بنت الصديق، فانقطع عقدها، فأنحسبت في طلبه، ورحلوا جملها وهودجها فلم يفقدوها، ثم استقل الجيش راحلاً، وجاءت مكانهم، وعلمت أنهم إذا فقدوها؛ رجعوا إليها، فاستمروا في مسيرهم، وكان صفوان بن المعطل السلمي من أفاضل الصحابة رضي الله عنه، قد عرس في أخريات القوم ونام، فرأى عائشة رضي الله عنها، فعرفها، فأناخ راحلته، فركبتها من دون أن يكلمها أو تكلمه، ثم جاء يقود بها بعدما نزل الجيش في الظهيرة، فلما رأى بعض المنافقين الذين في صحبة النبي ﷺ في ذلك السفر مجيء صفوان بها في هذه الحال؛ أشاع ما أشاع، ووشي الحديث، وتلقفته الألسن، حتى اغتر بذلك بعض المؤمنين، وصاروا يتناقلون هذا الكلام، وانحسب الوحي مدة طويلة عن رسول الله ﷺ، وبلغ الخبر عائشة بعد ذلك بمدة، فحزنت حزناً شديداً؛ فأنزل الله براءتها في هذه الآيات، ووعظ الله المؤمنين وأعظم ذلك، ووصاهم بالوصايا النافعة.

﴿قُلْهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ﴾؛ أَي: الكذب الشنيع، وهو رمي أم المؤمنين، ﴿عُصْبَةٌ مِّنْكُمْ﴾؛ أَي: جماعة متسبون إليكم يا معشر المؤمنين، منهم المؤمن الصادق في إيمانه، ولكنه اغتر بترويج المنافقين، ومنهم المنافق. ﴿لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾: لما تضمن ذلك تبرئة أم المؤمنين ونزاهتها والتوبة بذكرها، حتى تناول عموم المدح سائر زوجات النبي ﷺ، ولما تضمن من بيان الآيات المضطر إليها العباد، التي ما زال العمل بها إلى يوم القيامة؛ فكل هذا خير عظيم، لولا مقالة أهل الإفك، لم يحصل بذلك، وإذا أراد الله أمراً؛ جعل له سبباً، ولذلك جعل الخطاب عاماً مع المؤمنين كلهم، وأخبر أن قدح بعضهم ببعض كقدح في أنفسهم؛ ففيه أن المؤمنين في توادهم وتراحيمهم وتعاطفهم واجتماعهم على مصالحهم كالجسد الواحد، والمؤمن للمؤمن كاللبنيان يشد بعضه بعضاً؛ فكما أنه يكره أن يقدح أحد في عرضه؛ فليكره من كل أحد أن يقدح في أخيه المؤمن الذي بمنزلة نفسه، وما لم يصل العبد إلى هذه الحالة؛ فإنه من نقص إيمانه وعدم نصحه. ﴿لِكُلِّ أَمْرٍ مِّنْهُمْ مَا أَكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ﴾: وهذا وعيد للذين جاءوا بالإفك، وأنهم سيعاقبون على ما قالوا من ذلك، وقد حد النبي ﷺ منهم جماعة، ﴿وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ﴾؛ أَي: معظم الإفك، وهو المنافق الخبيث عبد الله بن أبي بن سلول لعنه الله. ﴿لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾: ألا وهو الخلود في الدرك الأسفل من النار.

﴿ثُمَّ أَرْسَلَ اللَّهُ عَبْدَهُ عِنْدَ سَمَاعٍ مِثْلَ هَذَا الْكَلَامِ، فَقَالَ: ﴿لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا﴾؛ أَي: ظن المؤمنون بعضهم ببعض خيراً، وهو السلامة مما رموا به، وأن ما معهم من الإيمان المعلوم يدفع ما قيل فيهم من الإفك الباطل. ﴿وَقَالُوا﴾ بسبب ذلك الظن: ﴿سُبْحَنَكَ﴾؛ أَي: تنزيهاً لك من كل سوء، وعن أن تبغلي أصفياءك بالأمر الشنيعة. ﴿هَذَا

المواعظ والنصائح من ربنا؛ فيجب علينا مقابلتها بالقبول والإذعان والتسليم والشكر له على ما بين لنا ﴿إِنَّ اللَّهَ نِعَمًا يُعْطِيكَ بِهِ﴾ [النساء: ٥٨]. ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (٧) دل ذلك على أن الإيمان الصادق يمنع صاحبه من الإقدام على المحرمات.

﴿وَيَسِّرُ اللَّهُ لَكُمْ آلَايَتِهِ﴾: المشتعلة على بيان الأحكام والوعظ والزجر والترغيب والترهيب، يوضحها لكم توضيحاً جلياً. ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ (٨)؛ أي: كامل العلم، عام الحكمة؛ فمن علمه وحكمته أن علمكم من علمه، وإن كان ذلك راجعاً لمصالحكم في كل وقت.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ﴾؛ أي: الأمور الشنيعة المستقبحة، فيحبون أن تشتهر الفاحشة ﴿فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾: عَامُوا لَهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ؛ أي: موجه للقلب والبدن، وذلك لغشه لإخوانه المسلمين، ومحبة الشر لهم، وجراءته على أعراضهم؛ فإذا كان هذا الوعيد لمجرد محبة أن تشيع الفاحشة واستحلاء ذلك بالقلب؛ فكيف بما هو أعظم من ذلك من إظهاره ونقله؟ وسواء كانت الفاحشة صادرة أو غير صادرة، وكل هذا من رحمة الله لعباده المؤمنين، وصيانة أعراضهم؛ كما صان دماءهم وأموالهم، وأمرهم بما يقتضي المصافاة، وأن يحب أحدهم لأخيه ما يحب لنفسه، ويكره له ما يكره لنفسه. ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ (٩)؛ فلذلك علمكم، وبين لكم ما تجهلونه.

﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾: قد أحاط بكم من كل جانب ﴿وَرَحْمَتُهُ﴾ عليكم، ﴿وَأَنَّ اللَّهَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ (١٠)؛ لما بين لكم هذه الأحكام والمواعظ والحكم الجليلة، ولما أمهل من خالف أمره، ولكن فضله ورحمته، وأن ذلك وصفه اللازم أثر لكم من الخير الدنيوي والأخروي ما لن تحصوه أو تعدوه.

﴿وَلَمَّا نَهَىٰ عَنْ هَذَا الذَّنْبِ بِخُصُوصِهِ﴾: نهى عن الذنوب عموماً، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾؛ أي: طرقه ووساوسه. وخطوات الشيطان يدخل فيها سائر المعاصي المتعلقة بالقلب واللسان والبدن.

ومن حكمته تعالى أن بين الحكم وهو النهي عن اتباع خطوات الشيطان، والحكمة وهو بيان ما في المنهي عنه من الشر المقضي والداعي لتركه، فقال: ﴿وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ﴾؛ أي: الشيطان ﴿يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ﴾؛ أي:

إفكٌ مبين ﴿١١﴾؛ أي: كذب وبهت من أعظم الأشياء وأبينها؛ فهذا من الظن الواجب حين سماع المؤمن عن أخيه المؤمن مثل هذا الكلام، وأن يبرئه بلسانه، ويكذب القائل لذلك.

﴿لَوْلَا جَاءَهُ عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ﴾؛ أي: هلاً جاء الرامون على ما رما به بأربعة شهداء؛ أي: عدول مرضيين، ﴿فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَٰئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكَذِبُونَ﴾ (١٢)؛ وإن كانوا في أنفسهم قد تيقنوا ذلك؛ فإنهم كاذبون في حكم الله؛ لأنه حرم عليهم التكلم بذلك من دون أربعة شهود، ولهذا قال: ﴿فَأُولَٰئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكَذِبُونَ﴾ (١٣)؛ ولم يقل: فأولئك هم الكاذبون، وهذا كله من تعظيم حرمة عرض المسلم؛ بحيث لا يجوز الإقدام على رميه من دون نصاب الشهادة بالصدق.

﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾: بحيث شملكم إحسانه فيهما في أمر دينكم ودنياكم ﴿لَسَكَّرَ فِي مَا أَفَضْتُمْ﴾؛ أي: خضتم فيه؛ من شأن الإفك ﴿عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (١٤)؛ لاستحقاقكم ذلك بما قلتم، ولكن من فضل الله عليكم ورحمته أن شرع لكم التوبة، وجعل العقوبة مطهرة للذنوب.

﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ﴾؛ أي: تَلَقَّوْنَهُ ويلقيه بعضكم إلى بعض وتستوشون حديثه وهو قول باطل. ﴿وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ﴾: والأمران محظوران؛ التكلم بالباطل، والقول بلا علم. ﴿وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا﴾: فلذلك أقدم عليه من أقدم من المؤمنين الذين تابوا منه. وتطهروا بعد ذلك. ﴿وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ﴾ (١٥)؛ وهذا فيه الزجر البالغ عن تعاطي بعض الذنوب على وجه التهاون بها؛ فإن العبد لا يفيد حسباناً شيئاً، ولا يخفف من عقوبته الذنب، بل يضاعف الذنب، ويسهل عليه مواقعة مرة أخرى.

﴿وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ﴾؛ أي: وهلاً إذ سمعتم أيها المؤمنون كلام أهل الإفك، ﴿قُلْتُمْ﴾: منكربين لذلك معظمين لأمره: ﴿مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا﴾؛ أي: ما ينبغي لنا وما يليق بنا الكلام بهذا الإفك المبين؛ لأن المؤمن يمنع إيمانه من ارتكاب القبائح. ﴿هَذَا بَشَرٌ﴾؛ أي: كذب ﴿عَظِيمٌ﴾ (١٦).

﴿يُعْطِيكُمُ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ﴾؛ أي: لنظيره من رمي المؤمن بالفجور؛ فالله يعظكم وينصحكم عن ذلك، ونعم

سورة النور

سورة النور

ما تستفحشه العقول والشرائع من الذنوب العظيمة مع ميل بعض النفوس إليه، ﴿وَالْمُنْكَرِ﴾: وهو ما تنكره العقول ولا تعرفه؛ فالمعاصي التي هي خطوات الشيطان لا تخرج عن ذلك، فهي الله عنها العباد نعمة منه عليهم أن يشكروه ويذكروه؛ لأن ذلك صيانة لهم عن التدنس بالردائل والقبائح؛ فمن إحسانه عليهم أن نهاهم عنها كما نهاهم عن أكل السموم القاتلة ونحوها. ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا﴾؛ أي: ما تطهر من اتباع خطوات الشيطان؛ لأن الشيطان يسعى هو وجنده في الدعوة إليها وتحسينها، والنفس ميالة إلى السوء أمانة به، والنقص مستول على العبد من جميع جهاته، والإيمان غير قوي؛ فلو خلي وهذه الدواعي؛ ما زكى أحد بالتطهر من الذنوب والسيئات والنماء بفعل الحسنات؛ فإن الزكاء يتضمن الطهارة والنماء، ولكن فضله ورحمته أوجبا أن يتزكى منكم من تزكى، وكان من دعاء النبي ﷺ: «اللهم آت نفسي تقواها، وزكها أنت خير من زكاها، أنت وليها ومولاها»^(١). ولهذا قال: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ﴾: من يعلم منه أن يتزكى بالتزكية، ولهذا قال: ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.

﴿وَلَا يَأْتَلِ﴾؛ أي: لا يحلف ﴿أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولَى الْقُرْبَى وَالْمَسْكِينِ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِيَعْفُوا وَلِيَصْفَحُوا﴾: كان من جملة الخائضين في الإفك

مسطح بن أثانة، وهو قريب لأبي بكر الصديق رضي الله عنه، وكان مسطح فقيرًا من المهاجرين في سبيل الله، فحلف أبو بكر ألا ينفق عليه؛ لقوله الذي قال، فنزلت هذه الآية ينهاهم عن هذا الحلف المتضمن لقطع النفقة عنه، ويحثه على العفو والصفح، ويعد بمغفرة الله إن غفر له، فقال: ﴿أَلَا يُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾^(٢٢): إذا عاملتم عبيده بالعفو والصفح؛ عاملكم بذلك، فقال أبو بكر لما سمع هذه الآية: بلى والله؛ إني لأحب أن يغفر الله لي، فرجع النفقة إلى مسطح.

وفي هذه الآية دليل على النفقة على القريب، وأنه لا ترك النفقة والإحسان بمعصية الإنسان، والحث على العفو والصفح ولو جرى منه ما جرى من أهل الجرائم.

﴿ثُمَّ ذَكَرَ الْوَعِيدَ الشَّدِيدَ عَلَى رَمِي الْمُحْصَنَاتِ﴾، فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ﴾؛ أي: العفاف عن الفجور ﴿الْفَاطِلَاتِ﴾: اللاتي لم يخطر ذلك بقلوبهن، ﴿الْمُؤْمِنَاتِ لِمَنْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾: واللعنة لا تكون إلا على ذنب كبير، وأكد اللعنة بأنها متواصلة عليهم في الدارين. ﴿وَكَمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾^(٢٣): وهذا زيادة على اللعنة، أبعدهم عن رحمته وأحل بهم شدة نقمته، وذلك العذاب يوم القيامة.

﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾^(٢٤): فكل جارية تشهد عليه بما عملته، ينطقها الذي أنطق كل شيء؛ فلا يمكنه الإنكار، ولقد عدل في العباد من جعل شهودهم من أنفسهم.

﴿يَوْمَ يَرَى يَوْمَهُمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ﴾؛ أي: جزاءهم على أعمالهم الجزاء الذي بالعدل والقسط؛ يجدون جزاءها موفراً لم يفقدوا منها شيئاً، ﴿وَيَقُولُونَ بَوْلًا مَالِ هَذَا الَّذِي كُنَّا لَا نَعَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظُنُّ رَبُّكَ أَحَدًا﴾^(٢٥) [الكهف: ٤٩]، ﴿وَيَعْلَمُونَ﴾ في ذلك الموقف العظيم ﴿أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ﴾^(٢٦)، فيعلمون انحصار

منها: ما ذكره الرسول ﷺ: حيث قال: «إنما جعل الاستئذان من أجل البصر»^(٢)؛ فبسبب الإخلال به يقع البصر على العورات التي داخل البيوت؛ فإن البيت للإنسان في ستر عورة ما وراءه بمنزلة الثوب في ستر عورة جسده.

ومنها: أن ذلك يوجب الرية من الداخل، ويتهم بالشر سرقه أو غيرها؛ لأن الدخول خفية يدل على الشر، ومنع الله المؤمنين من دخول غير بيوتهم ﴿حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا﴾؛ أي: تستأذنوا، سمي الاستئذان استئناساً؛ لأن به يحصل الاستئناس، وبعده تحصل الوحشة، ﴿وَسَلِّمُوا عَلَٰٓى أَهْلِهَا﴾: وصفة ذلك ما جاء في الحديث: «السلام عليكم، أدخل؟»^(٣). ﴿ذَلِكُمْ﴾؛ أي: الاستئذان المذكور ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾^(٤): لاشتماله على عدة مصالح، وهو من مكارم الأخلاق الواجبة؛ فإن أذن؛ دخل المستأذن.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا فِيهَا أَحَدًا﴾: فلا تدخلوا فيها ﴿حَتَّى يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِنْ قِيلَ لَكُمْ تَرْتَجِعُوا فَارْجِعُوا﴾؛ أي: فلا تمتنعوا من الرجوع ولا تغضبوا منه؛ فإن صاحب المنزل لم يمنعكم حقاً واجباً لكم، وإنما هو متبرع؛ فإن شاء أذن أو منع؛ فأنتم لا تأخذ أحدكم الكبر والاشمئزاز من هذه الحال، ﴿هُوَ أَزْكَى لَكُمْ﴾؛ أي: أشد لتطهيركم من السيئات وتنميتكم بالحسنات. ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾^(٥): فيجازي كل عامل بعمله من كثرة وقلة وحسن وعدمه.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا وَسَلِّمُوا عَلَٰٓى أَهْلِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾^(٦) فإن لم تجدوا فيها أحداً فلا تدخلوها حتى يؤذن لكم وإن قيل لكم ارجعوا فارجعوا هو أزكى لكم والله بما تعملون عليم^(٧) ليس عليكم جناح أن تدخلوا بيوتاً غير مسكونة فيها متع لكم: وهذا من احترازا القرآن العجيبة؛ فإن قوله: ﴿لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ﴾: لفظ عام في كل بيت ليس ملكاً للإنسان، أخرج منه تعالى البيوت التي ليست ملكه وفيها متاعه وليس فيها ساكن، فأسقط الحرج في الدخول إليها. ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ﴾^(٨): أحوالكم الظاهرة والخفية،

الحق المبين في الله تعالى؛ فأوصافه العظيمة حق، وأفعاله هي الحق، وعبادته هي الحق، ولقاؤه حق، ووعدته ووعدته حق، وحكمه الديني والجزائي حق، ورسله حق؛ فلا ثم حق إلا في الله، وما من الله.

﴿الْحَيِّثُ لِلْحَيِّثِينَ وَالْحَيِّثُ لِلْحَيِّثَاتِ﴾؛ أي: كل خبيث من الرجال والنساء والكلمات والأفعال مناسب للخبيث وموافق له ومقترون به ومشاكل له، وكل طيب من الرجال والنساء والكلمات والأفعال مناسب للطيب وموافق له ومقترون به ومشاكل له؛ فهذه كلمة عامة وحصر لا يخرج منه شيء، من أعظم مفرداته أن الأنبياء، خصوصاً أولي العزم منهم، وخصوصاً سيدهم محمد ﷺ، الذي هو أفضل الطيبين من الخلق على الإطلاق، لا يناسبهم إلا كل طيب من النساء؛ فالقدح في عائشة رضي الله عنها بهذا الأمر قدح في النبي ﷺ، وهو المقصود بهذا الإفك من قصد المنافقين؛ فمجرد كونها زوجة للرسول ﷺ يعلم أنها لا تكون إلا طيبة طاهرة من هذا الأمر القبيح؛ فكيف وهي ما هي؟! صديقة النساء وأفضلهن وأعلمهن وأطيبهن، حبيبة رسول رب العالمين التي لم ينزل الوحي عليه وهو في لحاف زوجة من زوجاته غيرها^(٩)!

ثم صرح بذلك بحيث لا يبقى لمبطل مقالاً، ولا لشك وشبهة مجالاً، فقال: ﴿أُولَٰئِكَ مَبَرَّاتٌ وَمِمَّا يَقُولُونَ﴾: والإشارة إلى عائشة رضي الله عنها أصلاً، وللمؤمنات المحصنات الغافلات تبعاً ﴿لَهُمْ مَغْفِرَةٌ﴾: تستغرق الذنوب. ﴿وَرَزَقٌ كَرِيمٌ﴾^(١٠): في الجنة صادر من الرب الكريم.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا وَسَلِّمُوا عَلَٰٓى أَهْلِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾^(١١) فإن لم تجدوا فيها أحداً فلا تدخلوها حتى يؤذن لكم وإن قيل لكم ارجعوا فارجعوا هو أزكى لكم والله بما تعملون عليم^(١٢) ليس عليكم جناح أن تدخلوا بيوتاً غير مسكونة فيها متع لكم والله يعلم ما تبدون وما تكتمون^(١٣).

يرشد الباري عباده المؤمنين ألا يدخلوا بيوتاً غير بيوتهم بغير استئذان؛ فإن في ذلك عدة مفساد:

وعلم مصالحكم؛ فلذلك شرع لكم ما تحتاجون إليه وتضطرون من الأحكام الشرعية.

﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَّهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ (٣٠).

﴿٣٠﴾ أي: أرشد المؤمنين وقل لهم: الذين معهم إيمان يمنعهم من وقوع ما يخل بالإيمان ﴿يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ﴾: عن النظر إلى العورات وإلى النساء الأجنبية وإلى المردان، الذين يخاف بالنظر إليهم الفتنة وإلى زينة الدنيا التي تفتن وتوقع في المحذور. ﴿وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ﴾: عن الوطء الحرام في قبل أو دبر أو ما دون ذلك وعن التمكين من مسها والنظر إليها. ﴿ذَلِكَ﴾: الحفظ للأبصار والفروج ﴿أَزْكَى لَّهُمْ﴾: أطهر وأطيب وأنمى لأعمالهم؛ فإن من حفظ فرجه وبصره؛ طهر من الخبث الذي يتدنس به أهل الفواحش، وزكت أعماله بسبب ترك المحرم الذي تطمع إليه النفس وتدعو إليه؛ فمن ترك شيئاً لله؛ عوضه الله خيراً منه، ومن غص بصره عن المحرم أثار الله بصيرته، ولأن العبد إذا حفظ فرجه وبصره عن الحرام ومقدماته مع دواعي الشهوة؛ كان حفظه لغيره أبلغ، ولهذا سماه الله حفظاً؛ فالشيء المحفوظ إن لم يجتهد حافظه في مراقبته وحفظه وعمل الأسباب

الموجبة لحفظه؛ لم ينحفظ، كذلك البصر والفرج إن لم يجتهد العبد في حفظهما؛ أوقعهما في بلایا ومحن.

وتأمل كيف أمر بحفظ الفرج مطلقاً لأنه لا يباح في حالة من الأحوال، وأما البصر؛ فقال: ﴿يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ﴾: أتى بأداة (من) الدالة على التبعض؛ فإنه يجوز النظر في بعض الأحوال لحاجة؛ كنظر الشاهد والمعامل والمخاطب ونحو ذلك. ثم ذكرهم بعلمه بأعمالهم ليجتهدوا في حفظ أنفسهم من المحرمات.

﴿وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ نِسَاءِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوْ التَّابِعِينَ غَيْرَ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَتِ النِّسَاءِ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهُ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (٣١).

﴿٣١﴾ لما أمر المؤمنين بغض الأبصار وحفظ الفروج؛ أمر المؤمنات بذلك، فقال: ﴿وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ﴾: عن النظر إلى العورات والرجال بشهوة ونحو ذلك من النظر الممنوع. ﴿وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ﴾: من التمكين من جماعها أو مسها أو النظر المحرم إليها، ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ﴾: كالثياب الجميلة والحلي وجميع البدن كله من الزينة. ولما كانت الثياب الظاهرة لا بد لها منها؛ قال: ﴿إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾؛ أي: الثياب الظاهرة التي جرت العادة بلبسها إذا لم يكن في ذلك ما يدعو إلى الفتنة بها، ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ﴾: وهذا لكمال الاستتار.

ويدل ذلك على أن الزينة التي يحرم إبدائها يدخل فيها جميع البدن كما ذكرنا.

وفيه الحث على الإخلاص بالتوبة في قوله: ﴿وَتَوْبُوا إِلَى اللَّهِ﴾؛ أي: لا لمقصد غير وجهه من سلامة من آفات الدنيا أو رياء وسمعة، أو نحو ذلك من المقاصد الفاسدة.

﴿وَأَنكِحُوا الْأَيْمَىٰ مِنكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِن عِبَادِكُم وَإِمَائِكُم﴾
 إِنَّ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِيهِمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَسِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٣﴾
 وَلِئَسْتَعِفَّفَ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ
 وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ
 إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا وَإِذَا تَوَّضَعُوا لِنِكَاحٍ فَارْجِعُوا إِلَيْكُمْ
 وَلَا تَكْرِهُوا فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿٢٤﴾
 الْحَيَوةَ الدُّنْيَا وَمَنْ يُكْرِهْنَهَا فَإِنَّ اللَّهَ مِن بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ
 رَّحِيمٌ ﴿٢٥﴾

﴿٢٣﴾ يأمر تعالى الأولياء والأسياء بإنكاح من تحت ولايتهم من الأيامي، وهم من لا أزواج لهم من رجال ونساء ثيب وأبكار، فيجب على القريب وولي اليتيم أن يزوج من يحتاج للزواج ممن تجب نفقته عليه، وإذا كانوا مأمورين بإنكاح من تحت أيديهم؛ كان أمرهم بالنكاح بأنفسهم من باب أولى. ﴿وَالصَّالِحِينَ مِن عِبَادِكُم وَإِمَائِكُم﴾: يحتمل أن المراد بالصالحين صلاح الدين، وأن الصالح من العبيد والإماء - وهو الذي لا يكون فاجراً زانياً - مأمور سيده بإنكاحه جزاء له على صلاحه وترغيباً له فيه، ولأن الفاسد بالزنا منهي عن تزوجه، فيكون مؤيذاً للمذكور في أول السورة أن نكاح الزاني والزانية محرم حتى يتوب، ويكون التخصيص بالصالح في العبيد والإماء دون الأحرار؛ لكثرة وجود ذلك في العبيد عادة.

ويحتمل أن المراد بالصالحين الصالحون للزوج المحتاجون إليه من العبيد والإماء، يؤيد هذا المعنى أن السيد غير مأمور بتزويج مملوكه قبل حاجته إلى الزواج، ولا يبعد إرادة المعنيين كليهما، والله أعلم. وقوله: ﴿إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ﴾؛ أي: الأزواج والمتزوجين، ﴿يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ﴾: فلا يمنعكم ما توهمون من أنه إذا تزوج افتقر بسبب كثرة العائلة ونحوه.

وفيه حث على التزوج ووعده للمتزوج بالغنى بعد الفقر. ﴿وَاللَّهُ وَسِيعٌ﴾: كثير الخير عظيم الفضل. ﴿عَلَيْكُمْ﴾: بمن يستحق فضله الديني والدنيوي أو أحدهما ممن لا يستحق، فيعطي كل ما علمه، واقتضاه حكمه.

ثم كرر النهي عن إبداء زيتنهن؛ ليستثني منه قوله: ﴿إِلَّا لِيُعَوِّلَهُنَّ﴾؛ أي: أزواجهن، ﴿أَوْ آبَائَهُنَّ أَوْ أَبْنَاءَهُنَّ﴾؛ أي: يشمل الأب بنفسه والجد وإن علا، ﴿أَوْ إِخْوَانَهُنَّ أَوْ إِخْوَانَهُنَّ﴾؛ أي: ويشمل الأخوة في الأبناء، وأبناء البعولة مهما نزلوا، ﴿أَوْ إِخْوَانَهُنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانَهُنَّ﴾؛ أي: أشقاء أو لأب أو لأم. ﴿أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانَهُنَّ﴾؛ أي: يجوز للنساء أن ينظر بعضهن إلى بعض مطلقاً، ويحتمل أن الإضافة تقتضي الجنسية؛ أي: النساء المسلمات اللاتي من جنسكن؛ ففيه دليل لمن قال: إن المسلمة لا يجوز أن تنظر إليها الذمية، ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ﴾: فيجوز للمملوك إذا كان كله للأثني أن ينظر لسيدته ما دامت مالكة له كله، فإذا زال الملك أو بعضه؛ لم يجز النظر، ﴿أَوْ النَّسَبَ﴾: أي: أُولَى الْأَرْبَابِ مِنَ الرِّجَالِ؛ أي: أو الذين يتبعونكم ويتعلقون بكم من الرجال الذين لا إربة لهم في هذه الشهوة؛ كالمعتوه الذي لا يدري ما هنالك، وكالعين الذي لم يبق له شهوة لا في فرجه ولا في قلبه؛ فإن هذا لا محذور من نظره. ﴿أَوْ الْأَطْفَالَ الَّذِينَ لَمْ يَرْيَهُنَّ عَلَىٰ عُرُوتِ النِّسَاءِ﴾؛ أي: الأطفال الذين دون التمييز؛ فإنه يجوز نظرهم للنساء الأجانب، وعلل تعالى ذلك بأنهم ﴿لَمْ يَرْيَهُنَّ عَلَىٰ عُرُوتِ النِّسَاءِ﴾؛ أي: ليس لهم علم بذلك، ولا وجدت فيهم الشهوة بعد، ودل هذا أن المميز تستتر منه المرأة؛ لأنه يظهر على عورات النساء.

﴿وَلَا يَضْرِبْنَ يَدِيَهُنَّ لِيُعَلِّمَ مَا يَفْتَنَنَّ مِنَ زِينَتِهِنَّ﴾؛ أي: لا يضرين الأرض بأرجلهن ليصوت ما عليهن من حلي كخلاخل وغيرها، فتعلم زينتها بسببه، فيكون وسيلة إلى الفتنة.

ويؤخذ من هذا ونحوه قاعدة سد الوسائل، وأن الأمر إذا كان مباحاً ولكنه يفضي إلى محرم أو يخاف من وقوعه؛ فإنه يمنع منه. فالضرب بالرُّجُل في الأرض الأصل أنه مباح، ولكن لما كان وسيلة لعلم الزينة؛ منع منه.

ولما أمر تعالى بهذه الأوامر الحسنة، ووصى بالوصايا المستحسنة، وكان لا بد من وقوع تقصير من المؤمن بذلك؛ أمر الله تعالى بالتوبة، فقال: ﴿وَتَوْبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ﴾، لأن المؤمن يدعوه إيمانه إلى التوبة. ثم علق على ذلك الفلاح، فقال: ﴿لَعَلَّكُمْ تَفْلَحُونَ﴾ ﴿٢٦﴾: فلا سبيل إلى الفلاح إلا بالتوبة، وهي الرجوع مما يكرهه الله ظاهراً وباطناً إلى ما يحبه ظاهراً وباطناً. ودل هذا أن كل مؤمن محتاج إلى التوبة؛ لأن الله خاطب المؤمنين جميعاً.

﴿وَلَيْسَتَفِيهِ الَّذِينَ لَا يُحِدُونَ نِكَاحًا حَتَّى يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾: هذا حكم العاجز عن النكاح، أمره الله أن يستعفف؛ أن يكف عن المحرم ويفعل الأسباب التي تكفه عنه، من صرف دواعي قلبه بالأفكار التي تخطر بإيقاعه فيه، ويفعل أيضًا كما قال النبي ﷺ: «يا معشر الشباب، من استطاع منكم الباءة؛ فليتزوج، ومن لم يستطع؛ فعليه بالصوم، فإنه له وجاء»^(١). وقوله: ﴿الَّذِينَ لَا يُحِدُونَ نِكَاحًا﴾؛ أي: لا يقدرון نكاحًا: إما لفقرهم، أو فقر أوليائهم وأسيادهم، أو امتناعهم من تزويجهم، وليس لهم قدرة على إجبارهم على ذلك. وهذا التقدير أحسن من تقدير من قدر لا يجدون مهر نكاح، وجعلوا المضاف إليه نائبًا مناب المضاف؛ فإن في ذلك محذورين: أحدهما: الحذف في الكلام، والأصل عدم الحذف. والثاني: كون المعنى قاصرًا على من له حالان: حالة غنى بماله، وحالة عُدْم، فيخرج العبيد والإماء ومن إنكاحه على وليه كما ذكرنا، ﴿حَتَّى يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾: وعد للمستعفف أن الله سيغنيه ويسر له أمره، وأمر له بانتظار الفرج؛ لئلا يشق عليه ما هو فيه.

وقوله: ﴿وَالَّذِينَ يَبْتِغُونَ الْكِتَابَ بِمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا﴾؛ أي: من ابتغى وطلب منكم الكتاب وأن يشتري نفسه من عبيد وإماء؛ فأجيبوه إلى ما طلب، وكاتبوه، ﴿إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا﴾؛ أي: في الطالبين للكتابة ﴿خَيْرًا﴾؛ أي: قدرة على التكسب وصلاحًا في دينه؛ لأن في الكتابة تحصيل المصلحتين: مصلحة العتق والحرية، ومصلحة العوض الذي يبدله في فداء نفسه، وربما جد واجتهد وأدرك لسيده في مدة الكتابة من المال ما لا يحصل في رقه، فلا يكون ضرر على السيد في كتابته، مع حصول عظيم المنفعة للعبد؛ فلذلك أمر الله بالكتابة على هذا الوجه أمر لإيجاب؛ كما هو الظاهر، أو أمر استحباب على القول الآخر، وأمر بمعاونتهم على كتابتهم؛ لكونهم محتاجين لذلك؛ بسبب أنهم لا مال لهم، فقال: ﴿وَأَتَوْهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي ءَاتَيْنَاكُمْ﴾؛ يدخل في ذلك أمر سيده الذي كاتبه أن يعطيه من كتابته أو يسقط عنه منها وأمر الناس بمعاونتهم، ولهذا جعل الله للمكاتبين قسطًا من الزكاة ورغب في إعطائه بقوله: ﴿مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي ءَاتَيْنَاكُمْ﴾؛ أي: فكما أن المال مال الله، وإنما الذي بأيديكم عطية من الله لكم ومحض منه؛ فأحسنوا لعباد الله كما أحسن الله إليكم.

ومفهوم الآية الكريمة أن العبد إذا لم يطلب الكتابة؛ لا يؤمر سيده أن يتدبّر بكتابته، وأنه إذا لم يعلم منه خيرًا؛ بأن علم منه عكسه: إما أنه يعلم أنه لا كسب له، فيكون بسبب ذلك كلاً على الناس ضائعاً، وإما أن يخاف إذا عتق وصار في حرية نفسه أن يتمكن من الفساد؛ فهذا لا يؤمر بكتابته، بل ينهى عن ذلك؛ لما فيه من المحذور المذكور.

ثم قال تعالى: ﴿وَلَا تُكْرِهُوا فَتِيَّتَكُمْ﴾؛ أي: إماءكم ﴿عَلَى الْإِعَاءِ﴾؛ أي: أن تكون زانية؛ ﴿إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا﴾: لأنه لا يتصور إكراهها إلا بهذه الحال، وأما إذا لم ترد تحصنًا؛ فإنها تكون بغياً يجب على سيدها منعها من ذلك، وإنما هذا نهى لما كانوا يستعملونه في الجاهلية من كون السيد يجبر أمته على البغاء؛ ليأخذ منها أجرة ذلك، ولهذا قال: ﴿لِيَتَّبِعُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾: فلا يليق بكم أن تكون إماءكم خيراً منكم وأعف عن الزنا وأنتم تفعلون بهن ذلك لأجل عرض الحياة؛ متاع قليل يعرض ثم

يزول؛ فكسبكم النزاهة والنظافة والمروءة - بقطع النظر عن ثواب الآخرة وعقابها - أفضل من كسبكم العرض القليل الذي يكسبكم الرذالة والخسة.

ثم دعا من جرى منه الإكراه إلى التوبة، فقال: ﴿وَمَنْ يُكْرِهْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِمْ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (٢٣)؛ فليتب إلى الله، وليقلع عما صدر منه مما يغضبه؛ فإذا فعل ذلك؛ غفر الله ذنوبه ورحمه؛ كما رحم نفسه بفكاكها من العذاب، وكما رحم أمته بعدم إكراهها على ما يضرها.

﴿وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُبِينَاتٍ وَمَثَلًا مِّنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ (٢٤).

﴿٢٤﴾ هذا تعظيم وتفخيم لهذه الآيات التي تلاها على عباده؛ ليعرفوا قدرها ويقوموا بحققها، فقال: ﴿وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُّبِينَاتٍ﴾؛ أي: واضحات الدلالة على كل أمر تحتاجون إليه من الأصول والفروع؛ بحيث لا يبقى فيها إشكال ولا شبهة. وأنزلنا إليكم أيضًا مثلًا ﴿مِّنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُمْ﴾: من أخبار الأولين؛ الصالح منهم والطالح، وصفة أعمالهم، وما جرى لهم وجرى عليهم؛ تعتبرونه مثلًا ومعبرًا لمن فعل مثل أعمالهم أن يجازى مثل ما جوزوا. ﴿وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ (٢٤)؛ أي: وأنزلنا إليكم موعظة للمتقين؛ من الوعد والوعيد والترغيب والترهيب؛ يتعظ بها المتقون، فيكفون عما يكره الله إلى ما يحبه الله.

﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مِثْلُ نُورِهِ كَيْشْكُورٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَلَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ يَكُلُّ شَيْءٌ عَلَيْهِمْ﴾ (٢٥).

﴿٢٥﴾ ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾: الحسي والمعنوي. وذلك أنه تعالى بذاته نور، وحجابه نور، الذي لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه، وبه استنار العرش والكرسي والشمس والقمر والنور، وبه استنارت الجنة. وكذلك النور المعنوي يرجع إلى الله؛ فكتابه نور، وشرعه نور، والإيمان والمعرفة في قلوب رسله وعباده المؤمنين نور؛ فلولوا نوره تعالى؛ لتراكمت الظلمات، ولهذا كل محل يفقد نوره؛ فثم الظلمة والحصر. ﴿مِثْلُ نُورِهِ﴾: الذي يهدي إليه، وهو نور الإيمان

والقرآن في قلوب المؤمنين ﴿كَيْشْكُورٍ﴾؛ أي: كوة ﴿فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾: لأن الكوة تجمع نور المصباح بحيث لا يتفرق. ذلك ﴿الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ﴾: من صفائها وبهائها، ﴿كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ﴾؛ أي: مضيء إضاءة الدر، ﴿يُوقَدُ﴾: ذلك المصباح الذي في تلك الزجاجاة الدرية ﴿مِن شَجَرَةٍ مُّبَرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ﴾؛ أي: يوقد من زيت الزيتون، الذي ناره من أنور ما يكون ﴿لَا شَرْقِيَّةٍ﴾: فقط؛ فلا تصيبها الشمس آخر النهار ﴿وَلَا غَرْبِيَّةٍ﴾: فقط؛ فلا تصيبها الشمس [أول] النهار. وإذا انتفى عنها الأمان؛ كانت متوسطة من الأرض؛ كزيتون الشام؛ تصيبه الشمس أول النهار وآخره، فيحسن ويطيب ويكون أصفى لزيته، ولهذا قال: ﴿يَكَادُ زَيْتُهَا﴾: من صفائها ﴿يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ﴾: فإذا مسته النار؛ أضاء إضاءة بليغة. ﴿نُورٌ عَلَى نُورٍ﴾؛ أي: نور النار ونور الزيت.

ووجه هذا المثل الذي ضربه الله وتطبيقه على حالة المؤمن ونور الله في قلبه أن فطرته التي فطر عليها بمنزلة الزيت الصافي؛ ففطرته صافية مستعدة للتعاليم الإلهية والعمل المشروع؛ فإذا وصل إليه العلم والإيمان؛ اشتعل ذلك النور في قلبه بمنزلة اشتعال النار في فتيلة ذلك المصباح، وهو صافي القلب من سوء القصد وسوء الفهم عن الله، إذا وصل إليه الإيمان؛ أضاء إضاءة عظيمة لصفاته من الكدورات، وذلك بمنزلة صفاء الزجاجاة الدرية، فيجتمع له نور الفطرة ونور الإيمان ونور العلم وصفاء المعرفة؛ نور على نوره.

ولما كان هذا من نور الله تعالى، وليس كل أحد يصلح له ذلك؛ قال: ﴿يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ﴾: ممن يعلم زكاه وطهارته، وأنه يزكي معه وينمو. ﴿وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَلَ لِلنَّاسِ﴾: ليعقلوا عنه ويفهموا؛ لطفًا منه بهم، وإحسانًا إليهم، وليتضح الحق من الباطل؛ فإن الأمثال تقرب المعاني المعقولة من المحسوسة، فيعلمها العباد علمًا واضحًا. ﴿وَاللَّهُ يَكُلُّ شَيْءٌ عَلَيْهِمْ﴾ (٢٥)؛ فعلمه محيط بجميع الأشياء، فلتعلموا أن ضربه الأمثال ضرب من يعلم حقائق الأشياء وتفاصيلها وأنها مصلحة للعباد؛ فليكن اشتغالكم بتدبرها وتعقلها لا بالاعتراض عليها ولا بمعارضتها؛ فإنه يعلم وأنتم لا تعلمون.

ولما كان نور الإيمان والقرآن أكثر وقوع أسبابه في المساجد؛ ذكرها منوها بها، فقال:

سورة النور

النور

رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ
 الزَّكَاةِ يُحَافُونَ يَوْمًا نَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ ﴿٣٧﴾
 لِيَجْزِيَهمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَبَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ
 مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٨﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أََعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ
 بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْثَانُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا
 وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٣٩﴾
 أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّن
 فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ
 يَكْدِرْهَا وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ ﴿٤٠﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ
 اللَّهَ يُسْخِرُ لَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالظَّيْرُ صَدَقَتْ كُلُّ قَدِّ
 عِلْمٍ صَلَاتُهُ وَتَسْبِيحُهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٤١﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ
 السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴿٤٢﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُخْرِجُ
 سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَّامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ
 خِلَالِهِ وَيَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ مِثْرًا مِّن جِبَالٍ فِيهَا مِن بَرِّ فَيُصِيبُ بِمَنِّ شَاءَ
 وَيَصْرِفُهُ عَنِ مَنِّ شَاءَ يَكَادُ سَنَاقِبُهُ يَقْدِرُ بِالْأَبْصَارِ ﴿٤٣﴾

٣٥٥

﴿ فِي يَوْمٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تَرْفَعَ وَيُذَكَّرَ فِيهَا أَسْمُهُ يُسْخَرُ
 لَهُ فِيهَا بِالْفُؤَادِ وَالْأَصَالِ ﴾ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا
 بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يُحَافُونَ يَوْمًا نَتَقَلَّبُ
 فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ ﴿٣٧﴾ لِيَجْزِيَهمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا
 وَبَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٨﴾

﴿٣٦﴾ أي: يُتَعَبَّدُ لِلَّهِ ﴿ فِي يَوْمٍ ﴾: عظيمة فاضلة هي أحب
 البقاع إليه، وهي المساجد، ﴿ أَذِنَ اللَّهُ ﴾: أي: أمر ووصى
 ﴿ أَنْ تَرْفَعَ وَيُذَكَّرَ فِيهَا أَسْمُهُ ﴾: هذان مجموع أحكام
 المساجد، فيدخل في رفعها بناؤها وكنسها وتنظيفها من
 النجاسات والأذى وصونها عن المجانين والصبيان الذين
 لا يتحرزون عن النجاسات وعن الكافر، وأن تصان عن
 اللغو فيها ورفع الأصوات بغير ذكر الله. ﴿ وَيُذَكَّرَ فِيهَا
 أَسْمُهُ ﴾: يدخل في ذلك الصلاة كلها؛ فرضها ونفلها، وقراءة
 القرآن، والتسبيح، والتلهيل، وغيره من أنواع الذكر، وتعلم
 العلم وتعليمه، والمذاكرة فيها، والاعتكاف، وغير ذلك
 من العبادات التي تفعل في المساجد، ولهذا كانت عمارة
 المساجد على قسمين: عمارة بنيان وصيانة لها، وعمارة بذكر
 اسم الله من الصلاة وغيرها، وهذا أشرف القسمين، ولهذا
 شرعت الصلوات الخمس والجمعة في المساجد وجوباً عند
 أكثر العلماء واستحباً عند آخرين.

﴿٣٧﴾ ثم مدح تعالى عمارها بالعبادة، فقال: ﴿ يُسْخَرُ لَهُ ﴾: إخلاصاً ﴿ بِالْفُؤَادِ ﴾: أول النهار ﴿ وَالْأَصَالِ ﴾: آخره ﴿ رِجَالٌ ﴾:
 خص هذين الوقتين لشرفهما ولتيسر السير فيهما إلى الله وسهولته، ويدخل في ذلك التسبيح في الصلاة وغيرها، ولهذا شرعت
 أذكار الصباح والمساء وأورادهما عند الصباح والمساء؛ أي: يسبح فيها لله رجال، وأي رجال؟! ليسوا ممن يؤثر على ربه دنيا
 ذات لذات ولا تجارة ومكاسب مشغلة عنه. ﴿ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ ﴾: وهذا يشمل كل تكسب يقصد به العوض، فيكون قوله:
 ﴿ وَلَا بَيْعٌ ﴾: من باب عطف الخاص على العام؛ لكثرة الاشتغال بالبيع على غيره؛ فهو لاء الرجال وإن اتجروا وباعوا واشتروا؛
 فإن ذلك لا محذور فيه، لكنهم لا تلهيهم تلك بأن يقدموها ويؤثروها على ﴿ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ ﴾: بل جعلوا طاعة
 الله وعبادته غاية مرادهم ونهاية مقصدهم؛ فما حال بينهم وبينها رفضوه.

ولما كان ترك الدنيا شديداً على أكثر النفوس، وحب المكاسب بأنواع التجارات محبوباً لها، ويشق عليها تركه في الغالب
 وتتكلف من تقديم حق الله على ذلك؛ ذكر ما يدعوها إلى ذلك ترغيباً وترهيباً، فقال: ﴿ يُحَافُونَ يَوْمًا نَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ
 وَالْأَبْصَارُ ﴾: من شدة هوله وإزعاجه للقلوب والأبدان؛ فلذلك خافوا ذلك اليوم، فسهل عليهم العمل وترك ما يشغل
 عنه.

﴿٣٨﴾ لِيَجْزِيَهمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا: والمراد بـ ﴿ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا ﴾: أعمالهم الحسنة الصالحة؛ لأنها أحسن ما عملوا؛
 لأنهم يعملون المباحات وغيرها؛ فالثواب لا يكون إلا على العمل الحسن؛ كقوله تعالى: ﴿ لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي
 عَمِلُوا وَيَجْزِيَهمُ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ ﴿٣٥﴾ [النمر: ٣٥]، وبزيدهم مِّن فَضْلِهِ: زيادة كثيرة عن الجزاء المقابل
 لأعمالهم. ﴿ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾: بل يعطيه من الأجر ما لا يبلغه عمله، بل ولا تبلغه أمنيته، ويعطيه من
 الأجر بلا عد ولا كيل، وهذا كناية عن كثرة جوداً.

الجهل، وفوق ذلك ظلمة الأعمال الصادرة عما ذكر، فبقوا في الظلمة متحيرين، وفي غمرتهم يعمهون، وعن الصراط المستقيم مدبرين، وفي طرق الغي والضلال يترددون، وهذا لأن الله خذلهم فلم يعطهم من نوره. ﴿وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ﴾ (٤٠): لأن نفسه ظالمة جاهلة، فليس فيها من الخير والنور إلا ما أعطاها مولايها ومنحها ربها.

يحتمل أن هذين المثالين لأعمال جميع الكفار؛ كل منهما منطبق عليها، وعددهما لتعدد الأوصاف، ويحتمل أن كل مثال لطائفة وفرقة، فالأول للمتبعين، والثاني للتابعين. والله أعلم.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ لَهُ مِنَ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْأَشْيَاءِ صَفْنَتٌ كُلُّ قَدْ عِلْمٌ صَلَاتُهُ وَتَسْبِيحُهُ وَاللَّهُ عَلَيْهِ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ (٤١) ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِلَّهِ الْمَصِيرُ﴾ (٤٢).

﴿٤١﴾ نبه تعالى عباده على عظمتهم وكمال سلطانه وافتقار جميع المخلوقات له في ربوبيتها وعبادتها، فقال: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ لَهُ مِنَ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾: من حيوان وجماد، ﴿وَالْأَشْيَاءِ صَفْنَتٌ﴾: أي: صافات أجنتها في جو السماء تسبح ربها. ﴿كُلُّ﴾: من هذه المخلوقات ﴿قَدْ عِلْمٌ صَلَاتُهُ وَتَسْبِيحُهُ﴾: أي: كل له صلاة وعبادة بحسب حاله اللاتفة به، وقد ألهمه الله تلك الصلاة والتسبيح: إما بواسطة الرسل كالجن والإنس والملائكة، وإما بإلهام منه تعالى كسائر المخلوقات غير ذلك.

وهذا الاحتمال أرجح؛ بدليل قوله: ﴿وَاللَّهُ عَلَيْهِ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ (٤١): أي: علم جميع أفعالها، فلم يخف عليه منها شيء، وسيجازيهم بذلك، فيكون على هذا قد جمع بين علمه بأعمالها، وذلك بتعليمه، وبين علمه بأعمالهم المتضمن للجزاء. ويحتمل أن الضمير في قوله: ﴿قَدْ عِلْمٌ صَلَاتُهُ وَتَسْبِيحُهُ﴾: يعود إلى الله، وأن الله تعالى قد علم عباداتهم، وإن لم تعلموا أيها العباد منها إلا ما أطلعكم الله عليه. وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿يُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ (٤٤) [الإسراء: ٤٤].

﴿٤١﴾ فلما بين عبوديتهم وافتقارهم إليه من جهة العبادة والتوحيد؛ بين افتقارهم من جهة الملك والتربية والتدبير، فقال: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾: خالقهما ورازقهما

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَلُهُمْ كَرَابٍ يَغِيغُهُ يَحْسَبُهُ الظَّمْثَانُ مَاءً حَقًّا إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ (٣٩) ﴿أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَكَدُهُ لَمْ يَكِدْ بِرَبِّهَا وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ﴾ (٤٠).

هذان مثالان ضربهما الله لأعمال الكفار في بطلانها وذهابها سدى وتحسر عاملها منها، فقال:

﴿٣٩﴾ ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾: بربهم وكذبوا رسله ﴿أَعْمَلُهُمْ كَرَابٍ يَغِيغُهُ﴾: أي: بقاع لا شجر فيه ولا نبت ﴿يَحْسَبُهُ الظَّمْثَانُ مَاءً﴾: شديد العطش، الذي يتوهم ما لا يتوهم غيره، بسبب ما معه من العطش، وهذا حسان باطل، فيقصده ليزيل ظمأه ﴿حَقًّا إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا﴾: فندم ندماً شديداً، وازداد ما به من الظمأ بسبب انقطاع رجائه؛ كذلك أعمال الكفار بمنزلة السراب، ترى ويظنها الجاهل الذي لا يدري الأمور أعمالاً نافعة، فيغترُّ صورتها، ويخيلها خيالها، ويحسبها هو أيضاً أعمالاً نافعة لهواه، وهو أيضاً محتاج إليها، بل مضطر إليها؛ كاحتياج الظمآن للماء، حتى إذا قدم على أعماله يوم الجزاء؛ وجدها ضائعة، ولم يجدها شيئاً، والحال أنه لم يذهب لا له ولا عليه، بل ﴿وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ﴾: لم يخف عليه من عمله فقير ولا قاطمير، ولن يعدم منه قليلاً ولا كثيراً. ﴿وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ (٣٩): فلا يستبطئ الجاهلون ذلك الوعد؛ فإنه لا بد من إتيانه، ومثلها الله بالسراب الذي ﴿يَغِيغُهُ﴾: أي: لا شجر فيه ولا نبات، وهذا مثال لقلوبهم؛ لا خير فيها ولا بر فتزكو فيها الأعمال، وذلك للسبب المانع، وهو الكفر.

﴿٤٠﴾ والمثل الثاني لبطلان أعمال الكفار: ﴿كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ﴾: بعيد قعره طويل مداه، ﴿يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ﴾: ظلمة البحر اللجج، ثم فوقه ظلمة الأمواج المتراكمة، ثم فوق ذلك ظلمة السحب المدلهمة، ثم فوق ذلك ظلمة الليل البهيم، فاشتدت الظلمة جداً؛ بحيث إن الكائن في تلك الحال ﴿إِذَا أَخْرَجَ يَكَدُهُ لَمْ يَكِدْ بِرَبِّهَا﴾: مع قربها إليه؛ فكيف بغيرها؟! كذلك الكفار تراكمت على قلوبهم الظلمات؛ ظلمة الطبيعة التي لا خير فيها، وفوقها ظلمة الكفر، وفوق ذلك ظلمة

سورة النور

سورة النور

يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ ﴿٤٣﴾
وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَّاءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ
يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ
إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٤﴾ لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْنِكَ آيَاتٍ مُبِينَاتٍ
وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٤٥﴾ وَيَقُولُونَ
ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ مِنْ بَعْدِ
ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٦﴾ وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ
لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ مُعْرِضُونَ ﴿٤٧﴾ وَإِنْ يَكُنْ لَهُمُ الْحُكْمُ
يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِبِينَ ﴿٤٨﴾ أُولَئِكَ لَهُمْ مَرْحُومٌ أَمَرْنَا بِمَا كَانُوا يُفْعَلُونَ
أَنْ يُحِفَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ نَبِيُّ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٤٩﴾
إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ
أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٥٠﴾ وَمَنْ
يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ الَّذِي يَتَقَتَّلُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿٥١﴾
وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَنْ أُمرَهُمْ لِيُخْرِجَنَّ قُلَّ
لَا تُقْسِمُوا طَاعَةَ مَعْرُوفَةٍ إِنَّ اللَّهَ خَيْرٌ مِمَّا تَحْمَلُونَ ﴿٥٢﴾

٣٥٦

والمتصرف فيهما في حكمه الشرعي والقدري في هذه الدار وفي حكمه الجزائي بدار القرار؛ بدليل قوله: ﴿وَلِكُلِّ اللَّهُ أَصْحَابٌ﴾؛ أي: مرجع الخلق ومآلهم ليجازيهم بأعمالهم.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَّامًا فَتَرَى الْوَدَّكَ يَخْرِجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنْ مَنْ يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقُهُ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَرِ﴾ ﴿٤٣﴾ يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ ﴿٤٤﴾.

﴿٤٣﴾ أي: ألم تشاهد ببصرك عظيم قدرة الله وكيف ﴿يُزْجِي﴾؛ أي: يسوق ﴿سَحَابًا﴾: قطعاً متفرقة، ﴿ثُمَّ يُؤَلِّفُ﴾: بين تلك القطع، فيجعله سحاباً متراكماً مثل الجبال ﴿فَتَرَى الْوَدَّكَ﴾؛ أي: الوابل والمطر يخرج من خلال السحاب قطعاً متفرقة؛ ليحصل بها الانتفاع من دون ضرر، فتمتلئ بذلك الغدران، وتتدفق الخلجان، وتسيل الأودية، وتنبث الأرض من كل زوج كريم. وتارة ينزل الله من ذلك السحاب برداً يتلف ما يصيبه ﴿فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنْ مَنْ يَشَاءُ﴾؛ أي: بحسب اقتضاء حكمه القدري وحكمته التي يحمد عليها، ﴿يَكَادُ سَنَا بَرْقُهُ﴾؛ أي: يكاد ضوء برق ذلك السحاب من شدته ﴿يَذْهَبُ بِالْأَبْصَرِ﴾؛ أي: ليس الذي أنشأها وساقها لعباده المفتقرين وأنزلها على وجه يحصل به النفع وينتفي به الضرر كامل القدرة نافذ المشيئة واسع الرحمة؟!.

﴿يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾: من حر إلى برد، ومن برد إلى حر، ومن ليل إلى نهار، ونهار إلى ليل ويدل الأيام بين عباده. ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ﴾؛ أي: لذوي البصائر والعقول النافذة للأمور المطلوبة منها كما تنفذ الأبصار إلى الأمور المشاهدة الحسية؛ فالبصير ينظر إلى هذه المخلوقات نظر اعتبار وتفكر وتدبر لما أريد بها ومنها، والمعرض الجاهل نظره إليها نظر غفلة بمنزلة نظر البهائم.

﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَّاءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ ﴿٤٤﴾.

﴿٤٥﴾ ينه عباده على ما يشاهدونه أنه خلق جميع الدواب التي على وجه الأرض ﴿مِنْ مَّاءٍ﴾؛ أي: مادتها كلها الماء؛ كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ [الأنبياء: ٣٠]؛ فالحيوانات التي تتوالد، مادتها ماء النطفة حين يلقح الذكر الأنثى، والحيوانات التي تتولد من الأرض لا تتولد إلا من الرطوبات المائية؛ كالحشرات، لا يوجد منها شيء يتولد من غير ماء أبداً؛ فالمادة واحدة، ولكن الخلقة مختلفة من وجوه كثيرة. ﴿فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ﴾؛ كالحية ونحوها، ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ﴾؛ كالأدميين وكثير من الطيور، ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ﴾؛ كبهيمة الأنعام ونحوها؛ فاختلافها مع أن الأصل واحد يدل على نفوذ مشيئة الله وعموم قدرته. ولهذا قال: ﴿يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾؛ أي: من المخلوقات على ما يشاؤه من الصفات. ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ ﴿٤٦﴾؛ كما أنزل المطر على الأرض، وهو لقاح واحد، والأم واحدة، وهي الأرض، والأولاد مختلفو الأصناف والأوصاف. ﴿وَفِي الْأَرْضِ قَطْعٌ مُتَجَوِّزٌ وَجَعَلْتُ مِنَ عَنتٍ وَرَزَقٌ وَنَحِيلٌ صَوْنٌ وَتَغَرَّ صَوْنٌ يُسْنَى بِمَاءٍ وَحِلٌّ

وَنُفِصِلُ بَعْضًا عَلَى بَعْضٍ فِي الْآكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٤٦﴾ [الرعد: ٤٤].

﴿لَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ مُّبِينَاتٍ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٤٦﴾﴾

﴿٤٦﴾ أي: لقد رحمنا عبادنا وأنزلنا إليهم آيات بينات؛ أي: واضحات الدلالة على جميع المقاصد الشرعية والآداب المحمودة والمعارف الرشيدة، فاتضحت بذلك السبل، وتبين الرشد من الغي والهدى من الضلال؛ فلم يبق أدنى شبهة لمبطل يتعلق بها، ولا أدنى إشكال لمريد الصواب؛ لأنها تنزيل من كمل علمه وكملت رحمته وكمل بيانه؛ فليس بعد بيانه بيان. ليهلك بعد ذلك من هلك عن بينة ويحيى من حي عن بينة. ﴿وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾: ممن سبقت لهم سابقة الحسنى وقدم الصدق ﴿إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٤٦﴾﴾؛ أي: طريق واضح مختصر موصل إليه وإلى دار كرامته متضمن العلم بالحق وإيثاره والعمل به. عمم البيان التام لجميع الخلق، وخصص بالهداية من يشاء؛ فهذا فضله وإحسانه، وما فضل الكريم بممنون، وذلك عدله، وقطع الحجة للمحتج، والله أعلم حيث يجعل مواقع إحسانه.

﴿وَيَقُولُونَ ءَأَمَّا بِاللَّهِ وَيَأْمُرُ الرَّسُولَ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِّنْهُمْ مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ مُّعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِنْ يَكُنْ لَهُمُ لِقَاءُ يُأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِبِينَ ﴿٤٩﴾ أَوَى قُلُوبُهُمْ مَّرَضٌ أَمْ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ ۚ بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٥٠﴾﴾

﴿٤٧﴾ يخبر تعالى عن حالة الظالمين ممن في قلبه مرض وضعف إيمان أو نفاق وريب وضعف، علم أنهم يقولون بالسنتهم ويلتزمون الإيمان بالله والطاعة، ثم لا يقومون بما قالوا، ويتولى فريق منهم عن الطاعة تولياً عظيماً؛ بدليل قوله: ﴿وَهُمْ مُّعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [آل عمران: ٢٣]؛ فإن المتولي قد يكون له نية عود ورجوع إلى ما تولى عنه، وهذا المتولي معرض لا التفات له ولا نظر لما تولى عنه. وتجد هذه الحالة مطابقة لحال كثير ممن يدعي الإيمان والطاعة لله، وهو ضعيف الإيمان، تجده لا يقوم بكثير من العبادات، خصوصاً العبادات التي تشق على كثير من النفوس؛ كالزكوات، والتفقات الواجبة والمستحبة، والجهاد في سبيل الله، ونحو ذلك.

﴿٤٨﴾ وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ؛ أي: إذا صار بينهم وبين أحد حكومة ودعوا إلى حكم الله ورسوله، ﴿إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ مُّعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾﴾: يريدون أحكام الجاهلية ويفضلون أحكام القوانين غير الشرعية على الأحكام الشرعية؛ لعلمهم أن الحق عليهم، وأن الشرع لا يحكم إلا بما يطاق الواقع.

﴿٤٩﴾ وَإِنْ يَكُنْ لَهُمُ لِقَاءُ يُأْتُوا إِلَيْهِ؛ أي: إلى حكم الشرع ﴿مُذْعِبِينَ ﴿٤٩﴾﴾: وليس ذلك لأجل أنه حكم شرعي، وإنما ذلك لأجل موافقة أهوائهم؛ فليسوا بمدوحين في هذه الحال، ولو أتوا إليه مذعبين؛ لأن العبد حقيقة من يتبع الحق فيما يحب ويكره، وفيما يسره ويحزنه. وأما الذي يتبع الشرع عند موافقة هواه وينبذه عند مخالفته، ويقدم الهوى على الشرع؛ فليس بعبد على الحقيقة.

﴿٥٠﴾ قال الله في لوهمهم على الإعراض عن الحكم الشرعي: ﴿أَوَى قُلُوبُهُمْ مَّرَضٌ﴾؛ أي: علة أخرجت القلب عن صحته وأزالت حاسته فصار بمنزلة المريض الذي يعرض عما ينفعه ويقبل على ما يضره. ﴿أَمْ ارْتَابُوا﴾؛ أي: شكوا وقلقت قلوبهم من حكم الله ورسوله واتهموه أنه لا يحكم بالحق. ﴿أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ﴾؛ أي: يحكم عليهم حكماً ظالماً جائراً، وإنما هذا وصفهم؛ ﴿بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٥٠﴾﴾، وأما حكم الله ورسوله؛ ففي غاية العدالة والقسط وموافقة الحكمة، ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥١﴾﴾ [المائدة: ٥٠].

وفي هذه الآيات دليل على أن الإيمان ليس هو مجرد القول حتى يقترب به العمل، ولهذا نفى الإيمان عن من تولى عن الطاعة ووجوب الانقياد لحكم الله ورسوله في كل حال، وأن من لم ينقل له دل على مرض في قلبه ورب في إيمانه، وأنه يحرم إساءة الظن بأحكام الشريعة، وأن يظن بها خلاف العدل والحكمة.

ولما ذكر حالة المعرضين عن الحكم الشرعي، ذكر حالة المؤمنين الممدوحين، فقال:

﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿٥٢﴾﴾

نصصت عليهم حين خرجت؛ ﴿لَيُخْرِجَنَّ﴾ والمعنى الأول. أولى. قال الله راداً عليهم: ﴿قُلْ لَا تُقْسِمُوا﴾؛ أي: لا نحتاج إلى إقسامكم وإلى أعداركم؛ فإن الله قد نبأنا من أخباركم. وطاعتكم معروفة لا تخفى علينا، قد كنا نعرف منكم الشاقل والكسل من غير عذر؛ فلا وجه لعذرهم وقسمكم، إنما يحتاج إلى ذلك من كان أمره محتملاً وحاله مشبهة؛ فهذا ربما يفيد العذر براءة، وأما أنتم؛ فكلاً ولما، وإنما يُنتظر بكم ويخاف عليكم حلول بأس الله ونقمته، ولهذا توعدهم بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ خَيْرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ (٥٣)؛ فيجازيكم عليها أتم الجزاء.

هذه حالهم في نفس الأمر، وأما الرسول عليه الصلاة والسلام؛ فوظيفته أن يأمرهم وينهاهم، ولهذا قال: ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُوا أَمْرَهُمْ وَكَفَّ بُغْضَهُمْ وَكُنْتُمْ بِهِ خَالِدِينَ﴾ (٥٤)؛ أي: إن كنتم تحبون الله فليطعوا أمره، ولا يكرهوا ما نهى عنه، ويكف نفسه عما تهوى، ولهذا قال: ﴿وَيَتَّقِ اللَّهَ﴾؛ بترك المحظور؛ لأن التقوى عند الإطلاق يدخل فيها فعل المأمور وترك المنهي عنه، وعند اقترانها بالبر أو الطاعة - كما في هذا الموضع - تفسر بتوقي عذاب الله بترك معاصيه. ﴿فَأُولَئِكَ﴾ الذين جمعوا بين طاعة الله وطاعة رسوله، وخشية الله وتقواه ﴿هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ (٥٦)؛ بنجاتهم من العذاب؛ لتركهم أسبابه، ووصولهم إلى الثواب؛ لفعلهم أسبابه؛ فالفوز محصور فيهم، وأما من لم يتصف بوصفهم؛ فإنه يفوته من الفوز بحسب ما قصر عنه من هذه الأوصاف الحميدة.

واشتملت هذه الآية على الحق المشترك بين الله وبين رسوله، وهو الطاعة المستلزمة للإيمان، والحق المختص بالله، وهو الخشية والتقوى، وبقي الحق الثالث المختص بالرسول، وهو التعزير والتوقير؛ كما جمع بين الحقوق الثلاثة في سورة الفتح في قوله: ﴿لَتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَلَتُوقِرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ (١) [الفتح: ٩].

﴿وَأَقْسِمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرِجُنَّ قُلْ لَا تُقْسِمُوا طَاعَةٌ مَعْرُوفَةٌ إِنَّ اللَّهَ خَيْرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ (٥٦) ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا أَلْبَانُ الْمَيْتِ﴾ (٥٧) هذا من أوعاده الصادقة التي شوهد تأويلها ومخبرها؛ فإنه وعد من قام بالإيمان والعمل الصالح من هذه الأمة أن يستخلفهم في الأرض، يكونون هم الخلفاء فيها، المتصرفين في تدبيرها، وأنه يمكن ﴿هُمُ دِينُهُمُ الَّذِي آتَيْنَاهُمْ﴾، وهو دين الإسلام الذي فاق الأديان كلها، ارتضاه لهذه الأمة لفضلها وشرفها ونعمته عليها بأن يتمكنوا من إقامته وإقامة شرائعه الظاهرة والباطنة في أنفسهم وفي غيرهم؛ لكون غيرهم من أهل الأديان وسائر الكفار مغلوبين ذليلين،

أي: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ﴾: حقيقة، الذين صدقوا إيمانهم بأعمالهم حين يدعون ﴿إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ﴾: سواء وافق أهواءهم أو خالفها، ﴿أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾؛ أي: سمعنا حكم الله ورسوله وأجينا من دعائنا إليه وأطعنا طاعة تامة سالمة من الحرج. ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (٥٦)؛ حصر الفلاح فيهم؛ لأن الفلاح الفوز بالمطلوب والنجاة من المكروه، ولا يفلح إلا من حكم الله ورسوله وأطاع الله ورسوله.

ولما ذكر فضل الطاعة في الحكم خصوصاً؛ ذكر فضلها عموماً في جميع الأحوال، فقال: ﴿وَمَن يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾: فيصدق خبرهما ويمثل أمرهما ﴿وَيَخْشِ اللَّهَ﴾؛ أي: يخافه خوفاً مقروناً بمعرفة، فيترك ما نهى عنه، ويكف نفسه عما تهوى، ولهذا قال: ﴿وَيَتَّقِ اللَّهَ﴾؛ بترك المحظور؛ لأن التقوى عند الإطلاق يدخل فيها فعل المأمور وترك المنهي عنه، وعند اقترانها بالبر أو الطاعة - كما في هذا الموضع - تفسر بتوقي عذاب الله بترك معاصيه. ﴿فَأُولَئِكَ﴾ الذين جمعوا بين طاعة الله وطاعة رسوله، وخشية الله وتقواه ﴿هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ (٥٦)؛ بنجاتهم من العذاب؛ لتركهم أسبابه، ووصولهم إلى الثواب؛ لفعلهم أسبابه؛ فالفوز محصور فيهم، وأما من لم يتصف بوصفهم؛ فإنه يفوته من الفوز بحسب ما قصر عنه من هذه الأوصاف الحميدة.

واشتملت هذه الآية على الحق المشترك بين الله وبين رسوله، وهو الطاعة المستلزمة للإيمان، والحق المختص بالله، وهو الخشية والتقوى، وبقي الحق الثالث المختص بالرسول، وهو التعزير والتوقير؛ كما جمع بين الحقوق الثلاثة في سورة الفتح في قوله: ﴿لَتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَلَتُوقِرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ (١) [الفتح: ٩].

﴿وَأَقْسِمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرِجُنَّ قُلْ لَا تُقْسِمُوا طَاعَةٌ مَعْرُوفَةٌ إِنَّ اللَّهَ خَيْرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ (٥٦) ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا أَلْبَانُ الْمَيْتِ﴾ (٥٧) هذا من أوعاده الصادقة التي شوهد تأويلها ومخبرها؛ فإنه وعد من قام بالإيمان والعمل الصالح من هذه الأمة أن يستخلفهم في الأرض، يكونون هم الخلفاء فيها، المتصرفين في تدبيرها، وأنه يمكن ﴿هُمُ دِينُهُمُ الَّذِي آتَيْنَاهُمْ﴾، وهو دين الإسلام الذي فاق الأديان كلها، ارتضاه لهذه الأمة لفضلها وشرفها ونعمته عليها بأن يتمكنوا من إقامته وإقامة شرائعه الظاهرة والباطنة في أنفسهم وفي غيرهم؛ لكون غيرهم من أهل الأديان وسائر الكفار مغلوبين ذليلين،

يخبر تعالى عن حالة المتخلفين عن الرسول ﷺ في الجهاد من المنافقين ومن في قلوبهم مرض وضعف إيمان أنهم يقسمون بالله: ﴿لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ﴾: فيما يستقبل أو لئن

سورة النور

سورة النور

قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ قُلْتُ تَوَلَّوْا فَمَا عَالِيَهُ مَا حُجِّلَ
وَعَلَيْكُمْ مَا حُجِّلْتُمْ وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ
إِلَّا الْبَلَّغُ الْمُبِينُ ﴿٥٤﴾ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا
الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ
الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ
وَلَيَكْبِدَنَّ لَهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمَنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي
شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٥٥﴾
وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ
تُرحَمُونَ ﴿٥٦﴾ لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ
وَمَا وَهُمْ مِنَ النَّارِ وَلَيْسَ الْمَصِيرُ ﴿٥٧﴾ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا
لَيَسْتَغْفِرَنَّ لَكُمْ أَلَيْكَ يَمْلِكُ أَمْنُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَلْبِغُوا الْحُكْمَ مِنْكُمْ
تِلْكَ مَرْثَةٌ مِنْ قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُمْ مِنَ الظَّهِيرَةِ
وَمِنْ بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ ثَلَاثُ عَوْدَاتٍ لَكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ
وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ طَوَافُونَ عَلَيْكُمْ بَعْضُكُمْ عَلَى
بَعْضٍ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٨﴾

٣٥٧

لا داعي له لترك الدين إلا ذلك.

ودلت هذه الآية أن الله قد مكن من قبلنا واستخلفهم في الأرض؛ كما قال موسى لقومه: ﴿وَيَسْتَخْلِفْكُمْ فِي الْأَرْضِ فَنَنْظُرْ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٢٩]، وقال تعالى: ﴿وَرِيدُ أَنْ تَمَنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتَخْلَفُوا فِي الْأَرْضِ وَتَجْعَلَهُمْ أَيْمَةً وَتَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾ [٥] وَتُمْكِنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ ﴿[الفصل: ٥، ٦]﴾.

﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [٥٦] لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا وَهُمْ مِنَ النَّارِ وَلَيْسَ الْمَصِيرُ ﴿٥٧﴾.

﴿٥٦﴾ يأمر تعالى بإقامة الصلاة بأركانها وشروطها وآدابها ظاهراً وباطناً، وبإيتاء الزكاة من الأموال التي استخلف الله عليها العباد وأعطاهم إياها؛ بأن يؤتوها الفقراء وغيرهم ممن ذكرهم الله لمصرف الزكاة؛ فهذان أكبر الطاعات وأجلهما، جامعتان لحقه وحق خلقه، للإخلاص للمعبود وللإحسان إلى العبيد. ثم عطف عليهما الأمر العام، فقال: ﴿وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾؛ وذلك بامثال أوامره واجتناب نواهيه، ﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠]، ﴿لَعَلَّكُمْ﴾؛ حين تقومون بذلك ﴿تُرْحَمُونَ﴾ [٥٦]؛ فمن أراد الرحمة؛ فهذا طريقها، ومن رجاها من دون إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وإطاعة الرسول؛ فهو متمنٌ كاذب، وقد متته نفسه الأماني الكاذبة.

﴿٥٧﴾ لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ؛ فلا يغرك ما متعوا به في الحياة الدنيا؛ فإن الله وإن أمهلهم؛ فإنه لا يمهلهم، ﴿نُتِعْتُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضَّضْتُهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ [لقمان: ٢٤]، ولهذا قال هنا: ﴿وَمَا وَهُمْ مِنَ النَّارِ وَلَيْسَ الْمَصِيرُ﴾ [٥٧]؛ أي: بشس المآل مآل الكافرين؛ مآل الشر والحسرة والعقوبة الأبديّة.

وفي هاتين الآيتين فوائد:

منها: أن السيد وولي الصغير مخاطبان بتعليم عبيدهم ومن تحت ولايتهم من الأولاد العلم والآداب الشرعية؛ لأن الله وجه الخطاب إليهم بقوله: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لِيَسْتَفْذِنَكُمْ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَلْبِسُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ مِنْ قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُمْ مِنَ الظَّهْرِ وَمِنْ بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ لَكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ طَوَفُوتٌ عَلَيْكُمْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٨﴾ وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنْكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَفْذِنُوا كَمَا اسْتَفْذَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ ءَايَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٩﴾﴾

ومنها: الأمر بحفظ العورات والاحتياط لذلك من كل وجه، وأن المحل والمكان الذي هو مظنة لرؤية عورة الإنسان فيه، أنه منهي عن الاغتسال فيه والاستنجاء ونحو ذلك.

ومنها: جواز كشف العورة لحاجة؛ كالحاجة عند النوم وعند البول والغائط ونحو ذلك.

ومنها: أن المسلمين كانوا معتادين القيلولة وسط النهار؛ كما اعتادوا نوم الليل؛ لأن الله خاطبهم ببيان حالهم الموجودة.

ومنها: أن الصغير الذي دون البلوغ لا يجوز أن يمكن من رؤية العورة، ولا يجوز أن ترى عورته؛ لأن الله لم يأمر باستئذانهم إلا عن أمر ما يجوز.

ومنها: أن المملوك أيضاً لا يجوز أن يرى عورة سيده؛ كما أن سيده لا يجوز أن يرى عورته؛ كما ذكرنا في الصغير.

ومنها: أنه ينبغي للواعظ والمعلم ونحوهم ممن يتكلم في مسائل العلم الشرعي أن يقرن بالحكم بيان مأخذه ووجهه، ولا يلقيه مجرداً عن الدليل والتعليل؛ لأن الله لما بين الحكم المذكور؛ علله بقوله: ﴿ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ لَكُمْ﴾.

ومنها: أن الصغير والعبد مخاطبان كما أن وليهما مخاطب؛ لقوله: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ﴾.

ومنها: أن ريق الصبي طاهر، ولو كان بعد نجاسة؛ كالقيء؛ لقوله تعالى: ﴿طَوَفُوتٌ عَلَيْكُمْ﴾؛ مع قول النبي ﷺ حين سئل عن الهرة: «إنها ليست بنجس، إنها من الطوافين عليكم والطوافات»^(١).

ومنها: جواز استخدام الإنسان من تحت يده من الأطفال على وجه معتاد لا يشق على الطفل؛ لقوله: ﴿طَوَفُوتٌ عَلَيْكُمْ﴾. ومنها: أن الحكم المذكور المفصل إنما هو لما دون البلوغ، وأما ما بعد البلوغ؛ فليس إلا الاستئذان.

(١) أبو داود (٧٥)، الترمذي (٩٢).

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لِيَسْتَفْذِنَكُمْ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَلْبِسُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ مِنْ قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُمْ مِنَ الظَّهْرِ وَمِنْ بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ لَكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ طَوَفُوتٌ عَلَيْكُمْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٨﴾ وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنْكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَفْذِنُوا كَمَا اسْتَفْذَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ ءَايَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٩﴾﴾

﴿٥٨﴾ أمر المؤمنين أن يستأذنهم مما ليكهم والذين لم يبلغوا الحلم منهم، قد ذكر الله حكمته، وأنه ثلاث عورات للمستأذن عليهم؛ وقت نومهم بالليل بعد العشاء، وعند انتباههم قبل صلاة الفجر؛ فهذا في الغالب أن النائم يستعمل للنوم في الليل ثوباً غير ثوبه المعتاد، وأما نوم النهار؛ فلما كان في الغالب قليلاً قد بنام فيه العبد بشابه المعتادة؛ قيده بقوله: ﴿وَسِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُمْ مِنَ الظَّهْرِ﴾؛ أي: للقائلة وسط النهار؛ ففي ثلاثة هذه الأحوال يكون الممالك والأولاد الصغار كغيرهم لا يمكنون من الدخول إلا بإذن، وأما ما عدا هذه الأحوال الثلاثة؛ فقال: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ﴾؛ أي: ليسوا كغيرهم؛ فإنهم يحتاج إليهم دائماً، فيشق الاستئذان منهم في كل وقت، ولهذا قال: ﴿طَوَفُوتٌ عَلَيْكُمْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾؛ أي: يترددون عليكم في قضاء أشغالكم وحوائجكم. ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ﴾: بياناً مقروناً بحكمته؛ ليتأكد ويتقوى ويعرف به رحمة شارعها وحكمته، ولهذا قال: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾: له العلم المحيط بالواجبات والمستحيلات والممكنات والحكمة التي وضعت كل شيء موضعه، فأعطى كل مخلوق خلقه اللائق به، وأعطى كل حكم شرعي حكمه اللائق به، ومنه هذه الأحكام التي بينها وبين مأخذها وحسنها.

﴿٥٩﴾ ﴿وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنْكُمُ الْحُلُمَ﴾: وهو إنزال المني يقظة أو مناماً؛ ﴿فَلْيَسْتَفْذِنُوا كَمَا اسْتَفْذَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾؛ أي: في سائر الأوقات، والذين من قبلهم هم الذين ذكرهم الله بقوله: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْأَلُوا﴾ الآية. ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ ءَايَاتِهِ﴾: ويوضحها ويفصل أحكامها. ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾.

﴿طَبِيبَةً﴾: لأنها من الكلم الطيب المحبوب عند الله، الذي فيه طيب نفس للمحيا ومحبة وجلب مودة.

لما بين لنا هذه الأحكام الجليلة؛ قال: ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ﴾: الدالات على أحكامه الشرعية وحكمها ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ (٦١)؛ عنه؛ ففهمونها وتعقلونها بقلوبكم، ولتكونوا من أهل العقول والألباب الرزينة؛ فإن معرفة أحكامه الشرعية على وجهها يزيد في العقل وينمو به القلب؛ لكون معانيها أجل المعاني وآدابها أجل الآداب، ولأن الجزاء من جنس العمل؛ فكما استعمل عقله للعقل عن ربه وللتفكر في آياته التي دعاه إليها؛ زاده من ذلك.

وفي هذه الآيات دليل على قاعدة عامة كلية، وهي: أن العرف والعادة مخصص للالفاظ؛ كتخصيص اللفظ للفظ؛ فإن الأصل أن الإنسان ممنوع من تناول طعام غيره مع أن الله أباح الأكل من بيوت هؤلاء للعرف والعادة؛ فكل مسألة تتوقف على الإذن من مالك الشيء إذا علم إذنه بالقول أو العرف؛ جاز الإقدام عليه.

وفيها: دليل على أن الأب يجوز له أن يأخذ ويتملك من مال ولده ما لا يضره؛ لأن الله سمى بيته بيتاً للإنسان.

وفيها: دليل على أن المتصرف في بيت الإنسان كزوجته وأخته ونحوهما يجوز لهما الأكل عادة وإطعام السائل المعتاد.

وفيها: دليل على جواز المشاركة في الطعام، سواء أكلوا مجتمعين أو متفرقين، ولو أفضى ذلك إلى أن يأكل بعضهم أكثر من بعض.

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوا مِنَ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِذَا أَسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأَنْزَلْنَا لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (٦٢) لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَسْتَلْلُونَ مِنْكُمْ لِيُذَادُوا فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (٦٣) أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنْشُرَ عَلَيْهِ وَيَوْمَ رُجِعَتِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَمَٰعِلُوهَا وَاللَّهُ يَكُلُّ شَيْءًا عَالِمٌ﴾ (٦٤).

وليس المراد من قوله: ﴿يَنْبِئُكُمْ﴾: بيت الإنسان نفسه؛ فإن هذا من باب تحصيل الحاصل، الذي ينزه عنه كلام الله، ولأنه نفي الحرج عما يظن أو يتوهم فيه الإثم من هؤلاء المذكورين، وأما بيت الإنسان نفسه؛ فليس فيه أدنى توهم. ﴿أَوْ يُبَيِّنُ أَلْبَابَكُمْ أَوْ يُبَيِّنُ أَمْنَكُمْ أَوْ يُبَيِّنُ إِخْوَانَكُمْ أَوْ يُبَيِّنُ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ يُبَيِّنُ أَعْمَامَكُمْ أَوْ يُبَيِّنُ عَمَلَكُمْ أَوْ يُبَيِّنُ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ يُبَيِّنُ خَلْقَكُمْ﴾: وهؤلاء معروفون. ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْهُ مَفَاتِحُهُ﴾؛ أي: البيوت التي أنتم متصرفون فيها بوكالة أو ولاية ونحو ذلك، وأما تفسيرها بالمملوك؛ فليس بوجيه؛ لوجهين: أحدهما: أن المملوك لا يقال فيه: ملكت مفاتيحه، بل يقال: ما ملكتموه، أو: ما ملكت أيمانكم؛ لأنهم مالكون له جملة، لا لمفاتيحه فقط. والثاني: أن بيوت المماليك غير خارجة عن بيت الإنسان نفسه؛ لأن المملوك وما ملكه لسيده؛ فلا وجه لنفي الحرج عنه.

﴿أَوْ صَدِيقَكُمْ﴾: وهذا الحرج المنفي عن الأكل من هذه البيوت؛ كل ذلك إذا كان بدون إذن، والحكمة فيه معلومة من السياق؛ فإن هؤلاء المسمين قد جرت العادة والعرف بالمسامحة في الأكل منها؛ لأجل القرابة القريبة أو التصرف التام أو الصداقة؛ فلو قدر في أحد من هؤلاء عدم المسامحة والشح في الأكل المذكور؛ لم يجز الأكل ولم يرتفع الحرج نظراً للحكمة والمعنى. وقوله: ﴿كَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا﴾؛ فكل ذلك جائز؛ أكل أهل البيت الواحد جميعاً، أو أكل كل واحد منهم وحده، وهذا نفي للحرج لا نفي للفضيلة، وإلا؛ فالأفضل الاجتماع على الطعام. ﴿فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا﴾: نكرة في سياق الشرط؛ يشمل بيت الإنسان وبيت غيره، سواء كان في البيت ساكن أم لا؛ فإذا دخلها الإنسان؛ ﴿فَسَلِّمُوا عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ﴾؛ أي: فَلْيَسَلِّمُوا بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ؛ لأن المسلمين كأنهم شخص واحد من توادهم وتراحمهم وتعاطفهم؛ فالسلام مشروع لدخول سائر البيوت؛ من غير فرق بين بيت وبيت، والاستئذان تقدم أن فيه تفصيلاً في أحكامه، ثم مدح هذا السلام، فقال: ﴿حَيَّةٌ مِنَ عِنْدِ اللَّهِ مُبْرَكَةٌ طَيِّبَةٌ﴾؛ أي: سلامكم بقولكم: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، أو: السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين؛ إذ تدخلون البيوت ﴿حَيَّةٌ مِنَ عِنْدِ اللَّهِ﴾؛ أي: قد شرعها لكم وجعلها تحيتكم، ﴿مُبْرَكَةٌ﴾: لاشتمالها على السلامة من النقص وحصول الرحمة والبركة والنماء والزيادة،

﴿١٢﴾ هذا إرشاد من الله لعباده المؤمنين أنهم إذا كانوا مع الرسول ﷺ على أمر جامع؛ أي: من ضرورته أو مصلحته أن يكونوا فيه جميعاً؛ كالجهاد والمشاورة ونحو ذلك من الأمور التي يشترك فيها المؤمنون؛ فإن المصلحة تقتضي اجتماعهم عليه وعدم تفرقهم؛ فالمؤمن بالله ورسوله حقاً لا يذهب لأمر من الأمور؛ لا يرجع لأهله، ولا يذهب لبعض الحوائج التي يشذ بها عنهم؛ إلا بإذن من الرسول أو نائبه من بعده، فجعل موجب الإيمان عدم الذهاب إلا بإذن، ومدحهم على فعلهم هذا وأدبهم مع رسوله وولي الأمر منهم، فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَذِنُونَكَ أُولَئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾؛ ولكن؛ هل يأذن لهم أم لا؟ ذكر لإذنه لهم شرطين؛ أحدهما: أن يكون لشأن من شئونهم وشغل من أشغالهم، فاما من يستأذن من غير عذر؛ فلا يؤذن له. والثاني: أن يشاء الإذن، فتقتضيه المصلحة من دون مضرة بالأذن؛ قال: ﴿فَإِذَا اسْتَذِنَكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأَنْذِرْ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ﴾؛ فإذا كان له عذر، واستأذن؛ فإن كان في قعوده وعدم ذهابه مصلحة برأيه أو شجاعته ونحو ذلك؛ لم يأذن له. ومع هذا؛ إذا استأذن وأذن له بشرطيه؛ أمر الله رسوله أن يستغفر له لما عسى أن يكون مقصراً في الاستئذان، ولهذا قال: ﴿وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾؛ يغفر لهم الذنوب، ويرحمهم؛ بأن جوز لهم الاستئذان مع العذر.

﴿١٣﴾ ﴿لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا﴾؛ أي: لا تجعلوا دعاء الرسول إياكم، ودعاءكم للرسول كدعاء بعضكم بعضاً، فإذا دعاكم فأجيبوه وجوباً، حتى إنه تجب إجابة الرسول ﷺ في حال الصلاة، وليس أحد إذا قال قولاً يجب على الأمة قبول قوله والعمل به إلا الرسول؛ لعصمته، وكوننا مخاطبين باتباعه؛ قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال: ٢٤]. وكذلك لا تجعلوا دعاءكم للرسول كدعاء بعضكم بعضاً؛ فلا تقولوا: يا محمد، عند نداءكم، أو: يا محمد بن عبد الله؛ كما يقول ذلك بعضكم لبعض، بل من شرفه وفضله وتميظه ﷺ عن غيره أن يقال: يا رسول الله، يا نبي الله. ﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَسْتَلْلُونَ مِنْكُمْ لَوْادًا﴾؛ أي: يلوذون وقت تسللهم وانطلاقهم بشيء يحجبهم عن العيون؛ فالله يعلمهم، وسيجازيهم على ذلك أتم الجزاء، ولهذا توعدهم بقوله: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ﴾؛ أي: يذهبون إلى بعض شئونهم عن أمر الله ورسوله؛ فكيف بمن لم يذهب إلى شأن من شئونه، وإنما ترك أمر الله من دون شغل له؛ ﴿أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ﴾؛ أي: شر، ﴿أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

﴿١٤﴾ ﴿أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾؛ ملكاً وعبداً يتصرف فيهم بحكمه القدري وحكمه الشرعي. ﴿قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنْشَأَ عَلَيْهِ﴾؛ أي: قد أحاط علمه بما أنتم عليه من خير وشر، وعلم جميع أعمالكم؛ أحصاها علمه، وجرى بها قلمه، وكتبها عليكم الحفظة الكرام الكاتبون. ﴿وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ﴾؛ أي: يوم القيامة ﴿فَيُنْصَبُ عَلَيْهِمْ بِمَا عَمِلُوا﴾؛ يخبرهم بجميع أعمالهم؛ دقيقها وجليلها؛ إخباراً مطابقاً لما وقع منهم، ويستشهد عليهم أعضاؤهم؛ فلا يعدمون منه فضلاً أو عدلاً. ولما قيد علمه بأعمالهم؛ ذكر العموم بعد الخصوص، فقال: ﴿وَاللَّهُ يَكِلُ شَيْءٌ عَلَيْهِمُ﴾.

سورة النور

إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوا إِنْ الَّذِينَ يَسْتَذِنُونَكَ أُولَئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِذَا اسْتَذِنَكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأَنْذِرْ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٢﴾ لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَسْتَلْلُونَ مِنْكُمْ لَوْادًا فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٣﴾ أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنْشَأَ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنْصَبُ عَلَيْهِمْ بِمَا عَمِلُوا وَاللَّهُ يَكِلُ شَيْءٌ عَلَيْهِمُ ﴿١٤﴾

سورة النور

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾ أَلَيْسَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ تَقْدِيرًا ﴿٢﴾

٣٥٩

الذي هو فيه؛ قال تعالى: ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ۝ الَّذِي خَلَقَ سُبْحَانَ ۝ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ ۝﴾ [الأعلى: ١-٣]، وقال تعالى: ﴿رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ حَلْقَهُ، ثُمَّ هَدَىٰ ۝﴾ [طه: ٥٠].

ولما بين كماله وعظمته وكثرة إحسانه؛ كان ذلك مقتضياً لأن يكون وحده المحبوب المألوه المعظم المفرد بالإخلاص وحده لا شريك له؛ ناسب أن يذكر بطلان عبادة ما سواه، فقال:

﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوةً وَلَا نُشُورًا ۝﴾.

﴿٣﴾ أي: من أعجب العجائب وأدل الدليل على سفاهتهم ونقص عقولهم، بل أدل على ظلمهم وجراءتهم على ربهم: أن اتخذوا آلهة بهذه الصفة، في غاية العجز أنها لا تقدر على خلق شيء، بل هم مخلوقون، بل بعضهم مما عملته أيديهم، ﴿وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾؛ أي: لا قليلاً ولا كثيراً؛ لأنه نكرة في سياق النفي. ﴿وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوةً وَلَا نُشُورًا﴾؛ أي: بعثاً بعد الموت. فأعظم أحكام العقل بطلان إلهيتها وفسادها وفساد عقل من اتخذها آلهة وشركاء للخالق لسائر المخلوقات من غير مشاركة له في ذلك، الذي بيده النفع والضرر والعطاء والمنع، الذي يحيي ويميت ويبعث من في القبور ويجمعهم يوم النشور، وقد جعل لهم دارين: دار الشقاء والخزي والنتال لمن اتخذ معه آلهة أخرى، ودار الفوز والسعادة والتعيم المقيم لمن اتخذته وحده معبوداً.

ولما قرر بالدليل القاطع الواضح صحة التوحيد وبطلان ضده؛ قرر صحة الرسالة وبطلان قول من عارضها واعترضها، فقال:

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا فِكْ أَفْرَنُهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخِرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلُمًا وَزُورًا ۝﴾ [١] وَقَالُوا أَسْطِيرٌ الْأَوَّلِينَ أَكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ۝ قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ۝﴾.

﴿٤﴾ أي: وقال الكافرون بالله، الذي أوجب لهم كفرهم أن قالوا في القرآن والرسول: إن هذا القرآن كذب كذبه

تفسير سورة الفرقان

وهي مكية عند الجمهور

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿بَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ۝ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ تَقْدِيرًا ۝﴾.

﴿١﴾ هذا بيان لعظمته الكاملة وتفرد بالوحدانية من كل وجه وكثرة خيراته وإحسانه، فقال: ﴿بَارَكَ﴾؛ أي: تعاضم، وكملت أوصافه، وكثرت خيراته، الذي من أعظم خيراته ونعمه أن نزل هذا القرآن الفارق بين الحلال والحرام والهدى والضلال وأهل السعادة من أهل الشقاوة، ﴿عَلَىٰ عَبْدِهِ﴾: محمد ﷺ، الذي كمل مراتب العبودية وفاق جميع المرسلين، ﴿لِيَكُونَ﴾: ذلك الإنزال للفرقان على عبده ﴿لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾؛ ينذرهم بأس الله ونقمه ويبين لهم مواقع رضا الله من سخطه، حتى إن من قبل نذارته وعمل بها؛ كان من الناجين في الدنيا والآخرة، الذين حصلت لهم السعادة الأبدية والملك السرمدى؛ فهل فوق هذه النعمة وهذا الفضل والإحسان شيء؟! فتبارك الذي هذا من بعض إحسانه وبركاته.

﴿٢﴾ ﴿الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾؛ أي: له التصرف فيهما وحده، وجميع من فيهما ممالك وعبيد له، مذعنون لعظمته، خاضعون لربوبيته، فقراء إلى رحمته، الذي لم يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ؛ وكيف يكون له ولد أو شريك، وهو المالك وغيره مملوك، وهو القاهر وغيره مقهور، وهو الغني بذاته من جميع الوجوه والمخلوقون مفتقرون إليه فقراً ذاتياً من جميع الوجوه؟! وكيف يكون له شريك في الملك ونواصي العباد كلهم يديده؛ فلا يتحركون أو يسكنون ولا يتصرفون إلا بإذنه؛ فتعالى الله عن ذلك علواً كبيراً؛ فلم يقدره حق قدره من قال فيه ذلك، ولهذا قال: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾: شمل العالم العلوي والعالم السفلي من حيواناته ونباتاته وجماداته، ﴿فَقَدَرَهُ تَقْدِيرًا﴾؛ أي: أعطى كل مخلوق منها ما يليق به ويناسبه من الخلق وما تقتضيه حكمته من ذلك؛ بحيث صار كل مخلوق لا يتصور العقل الصحيح أن يكون بخلاف شكله وصورته المشاهدة، بل كل جزء وعضو من المخلوق الواحد لا يناسبه غير محله

سورة الفرقان

الفرقان

وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ
وَلَا يَمْلِكُونَ أَنْ يَنْفُسَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا
وَلَا حَيَاةً وَلَا شُورًا ﴿٢﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا إِفْكُ
أَقْرَبِهِ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا
﴿٣﴾ وَقَالُوا أَأَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ أَكُتِبَ عَلَيْهَا فَحْيٌ ثَمَلٌ
عَلَيْهِ بُكْرَةٌ وَأَصِيلًا ﴿٤﴾ قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ
فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٥﴾ وَقَالُوا
مَا لِي هَذَا الرُّسُولُ يَأْكُلُ الْأَطْعَامَ وَيَمشِي فِي الْأَسْوَاقِ
لَوْلَا أَنْزَلَ إِلَهُكَ مَلَكٌ فَيَكُونُ مَعَهُ نَذِيرًا ﴿٦﴾ أَوْ يُنْفِخُ
إِلَيْهِ كَنَزًا أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ
الظَّالِمُونَ إِنَّا تَعْتَصِمُونَ إِلَّا أَرْجُلًا مَسْخُورًا ﴿٧﴾ أَنْظِرْ
كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ
سَبِيلًا ﴿٨﴾ تَبَارَكَ الَّذِي إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِنْ ذَلِكَ
جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَيَجْعَلُ لَكَ قُصُورًا ﴿٩﴾ بَلْ
كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا ﴿١٠﴾

٣٦٠

محمد، وإفك افتراه على الله، وأعانه على ذلك قوم آخرون؛
فرد الله عليهم ذلك بأن هذا مكابرة منهم وإقدام على الظلم
والزور الذي لا يمكن أن يدخل عقل أحد؛ وهم أشد الناس
معرفة بحالة الرسول ﷺ وكمال صدقه وأمانته وبره التام، وأنه
لا يمكنه لا هو ولا سائر الخلق أن يأتوا بهذا القرآن الذي هو
أجل الكلام وأعلاه، وأنه لم يجتمع بأحد يعينه على ذلك؛
﴿فَقَدْ جَاءُوا﴾ بهذا القول ﴿ظُلْمًا وَزُورًا﴾.

﴿ومن جملة أقاويلهم فيه أن قالوا: هذا الذي جاء به
محمد ﴿أَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ أَكُتِبَ عَلَيْهَا﴾؛ أي: هذا قصص
الأولين وأساطيرهم، التي تتلقاها الأفواه وينقلها كل أحد،
استنسجها محمد؛ ﴿فَحْيٌ ثَمَلٌ عَلَيْهِ بُكْرَةٌ وَأَصِيلًا﴾؛
وهذا القول منهم فيه عدة عظام:

منها: رميهم الرسول الذي هو أبر الناس وأصدقهم بالكذب
والجراة العظيمة.

ومنها: إخبارهم عن هذا القرآن -الذي هو أصدق الكلام
وأعظمه وأجله- بأنه كذب وافتراء.

ومنها: أن في ضمن ذلك أنهم قادرون أن يأتوا بمثله، وأن
يضاهي المخلوق الناقص من كل وجه الخالق الكامل من كل
وجه بصفة من صفاته، وهي الكلام.

ومنها: أن الرسول قد علمت حالته، وهم أشد الناس علمًا بها؛ أنه لا يكتب ولا يجتمع بمن يكتب له؛ وهم قد زعموا
ذلك.

﴿فلذلك رد عليهم ذلك بقوله: ﴿قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾؛ أي: أنزله من أحاط علمه بما في
السموات وما في الأرض من الغيب والشهادة والجهر والسر؛ كقوله: ﴿وَأَنَّهُ لَنَزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ﴾ ﴿عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ﴾ [الشعراء: ١٩٢-١٩٤]. ووجه إقامة الحجة عليهم أن أنزله هو المحيط علمه بكل شيء،
فيستحيل ويمتنع أن يقول مخلوق ويقول عليه هذا القرآن، ويقول: هو من عند الله، وما هو من عنده، ويستحل دماء من
خالفه وأموالهم، ويزعم أن الله قال له ذلك، والله يعلم كل شيء، ومع ذلك؛ فهو يؤيده وينصره على أعدائه ويمكنه من
رقابهم وبلادهم؛ فلا يمكن أحدًا أن ينكر هذا القرآن إلا بعد إنكار علم الله، وهذا لا يقول به طائفة من بني آدم سوى الفلاسفة
الدهرية.

وأيضًا: فإن ذكر علمه تعالى العام بينهم ويحضهم على تدبر القرآن، وأنهم لو تدبروا؛ لراوا فيه من علمه وأحكامه ما يدل
دلالة قاطعة على أنه لا يكون إلا من عالم الغيب والشهادة.

ومع إنكارهم للتوحيد والرسالة؛ من لطف الله بهم أنه لم يدعهم وظلمهم، بل دعاهم إلى التوبة والإنابة إليه، ووعدهم
بالمغفرة والرحمة إن هم تابوا ورجعوا، فقال: ﴿إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا﴾؛ أي: وصفه المغفرة لأهل الجرائم والذنوب إذا فعلوا
أسباب المغفرة، وهي الرجوع عن معاصيه والتوبة منها. ﴿رَحِيمًا﴾ بهم؛ حيث لم يعاجلهم بالعقوبة وقد فعلوا مقتضاها،
وحيث قبل توبتهم بعد المعاصي، وحيث محا ما سلف من سيئاتهم، وحيث قبل حسناتهم، وحيث أعاد الرجوع إليه بعد
شروده والمقبل عليه بعد إعراضه إلى حالة المطيعين المنيبين إليه.

وسفه، ليس في شيء منها هداية، بل ولا في شيء منها أدنى شبهة تقدر في الرسالة، فبمجرد النظر إليها وتصورها يجزم العاقل ببطلانها، ويكفيه عن ردها. ولهذا أمر تعالى بالنظر إليها وتدبرها، والنظر: هل توجب التوقف عن الجزم للرسول بالرسالة والصدق؟!

﴿١٠﴾ ولهذا أخبر أنه قادر على أن يعطيك خيراً كثيراً في الدنيا، فقال: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي إِن شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِنْ ذَلِكَ﴾؛ أي: خيراً مما قالوا، ثم فسره بقوله: ﴿جَنَّتْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَيَجْعَلُ لَكَ فُصُورًا﴾ ﴿١١﴾: مرتفعة مزخرفة؛ فقدرته ومشيتته لا تقصر عن ذلك، ولكنه تعالى لما كانت الدنيا عنده في غاية البعد والحقارة؛ أعطى منها أولياءه ورسله ما اقتضته حكمته منها، واقترح أعدائهم بأنهم هلا رزقوا منها رزقاً كثيراً جداً - ظلم وجراءة.

﴿١٢﴾ ولما كانت تلك الأقوال التي قالوها معلومة الفساد؛ أخبر تعالى أنها لم تصدر منهم لطلب الحق ولا لاتباع البرهان، وإنما صدرت منهم تعتاً وظلماً وتكديباً بالحق، فقالوا ما في قلوبهم من ذلك، ولهذا قال: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ﴾: والمكذب المتعنت الذي ليس له قصد في اتباع الحق لا سبيل إلى هدايته ولا حيلة في مجادلته، وإنما له حيلة واحدة، وهي نزول العذاب به؛ فلهذا قال: ﴿وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا﴾ ﴿١٣﴾؛ أي: ناراً عظيمة قد اشتد سعيها وتغيظت على أهلها واشتد زفيرها.

﴿١٤﴾ ﴿إِذَا رَأَتْهُمْ مِنْ مَكَّانٍ بَعِيدٍ﴾؛ أي: قبل وصولهم ووصولها إليهم؛ ﴿سَعَوْا لَهَا تَعْظِيًا﴾: عليهم ﴿وَزَفِيرًا﴾ ﴿١٥﴾: تقلق منهم الأئدة، وتتصدع القلوب، ويكاد الواحد منهم يموت خوفاً منها وذعراً، قد غضبت عليهم لغضب خالقها، وقد زاد لهما لزيادة كفرهم وشرهم.

﴿١٦﴾ ﴿وَإِذَا أَلْقَا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُقَرَّرِينَ﴾؛ أي: وقت عذابهم وهم في وسطها جمع في مكان، بين ضيق المكان وتزاحم السكان وتقرينهم بالسلاسل والأغلال؛ فإذا وصلوا لذلك المكان التحس وحسبوا في أشد حبس؛ ﴿دَعَا هُنَالِكَ ثُبُورًا﴾ ﴿١٧﴾: دعوا على أنفسهم بالثبور والخزي والفضيحة، وعلموا أنهم ظالمون معتدون، قد عدل فيهم الخالق حيث أنزلهم بأعمالهم هذا المنزل.

﴿١٨﴾ وليس ذلك الدعاء والاستغاثة بنافعة لهم ولا مغنية من عذاب الله، بل يقال لهم: ﴿لَا نَدْعُوا يَوْمَ ثُبُورًا وَجِدًا

﴿١٩﴾ وَقَالُوا مَا هَذَا الرَّسُولُ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونُ مَعَهُ نَذِيرًا﴾ ﴿٢٠﴾ أو يُلْقَى إِلَيْهِ كِتَابٌ أَوْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا﴾ ﴿٢١﴾ أَنْظِرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَل فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾ ﴿٢٢﴾ تَبَارَكَ الَّذِي إِن شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِنْ ذَلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَيَجْعَلُ لَكَ فُصُورًا﴾ ﴿٢٣﴾ بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا﴾ ﴿٢٤﴾ إِذَا رَأَتْهُمْ مِنْ مَكَّانٍ بَعِيدٍ سَعَوْا لَهَا تَعْظِيًا وَزَفِيرًا﴾ ﴿٢٥﴾ وَإِذَا أَلْقَا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُقَرَّرِينَ دَعَا هُنَالِكَ ثُبُورًا﴾ ﴿٢٦﴾ لَا نَدْعُوا يَوْمَ ثُبُورًا وَجِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا﴾ ﴿٢٧﴾.

﴿٢٨﴾ هذا من مقالة المكذبين للرسول، التي قدحوا بها في رسالته، وهو أنهم اعترضوا بأنه هلاً كان ملكاً أو ملكاً أو يساعده ملك؛ فقالوا: ﴿مَا هَذَا الرَّسُولُ﴾؛ أي: ما لهذا الذي ادعى الرسالة تهكمًا منهم واستهزاء ﴿يَأْكُلُ الطَّعَامَ﴾: وهذا من خصائص البشر؛ فهلاً كان ملكاً لا يأكل الطعام ولا يحتاج إلى ما يحتاج إليه البشر، ﴿وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ﴾: للبيع والشراء، وهذا بزعمهم لا يليق بمن يكون رسولاً؛ مع أن الله قال: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قبْلَكَ مِنْ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا أَنْهُمْ يَأْكُلُوا الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ﴾. ﴿لَوْلَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ﴾؛ أي: هلاً أنزل معه ملك يساعده ويعاونه ﴿فَيَكُونُ مَعَهُ نَذِيرًا﴾ ﴿٢٩﴾: وبزعمهم أنه غير كاف للرسالة، ولا بطوقه وقدرته القيام بها.

﴿٣٠﴾ ﴿أَوْ يُلْقَى إِلَيْهِ كِتَابٌ﴾؛ أي: مال مجموع من غير تعب، ﴿أَوْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا﴾: فيستغني بذلك عن مشيه في الأسواق لطلب الرزق، ﴿وَقَالَ الظَّالِمُونَ﴾: حملهم على القول ظلمهم، لا اشتباه منهم: ﴿إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا﴾ ﴿٣١﴾: هذا وقد علموا كمال عقله وحسن حديثه وسلامته من جميع المطاعن.

﴿٣٢﴾ ولما كانت هذه الأقوال منهم عجيبة جداً؛ قال تعالى: ﴿أَنْظِرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَل﴾: وهي: هلاً كان ملكاً وزالت عنه خصائص البشر، أو معه ملك لأنه غير قادر على ما قال، أو أنزل عليه كتز، أو جعلت له جنة تغنيه عن المشي في الأسواق، أو أنه كان مسحوراً. ﴿فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾ ﴿٣٣﴾: قالوا أقوالاً متناقضة، كلها جهل وضلال

وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا ﴿١٤﴾؛ أي: لو زاد ما قلتُم أضعاف
أضعافه؛ ما أفادكم إلا الهم والغم والحزن.

لَمَّا بَيْنَ جَزَاءِ الظَّالِمِينَ؛ ناسب أن يذكر جزاء المتقين،
فقال:

﴿قُلْ أَذَلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعدَ الْمُتَّقُونَ
كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً وَصِيرًا ﴿١٥﴾ هُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ خَالِدِينَ
كَانَ عَلَى رَبِّكَ وَعْدًا مَسْئُولًا ﴿١٦﴾﴾.

﴿١٥﴾ أي: قل لهم مبيّنًا لسفاهة رأيهم واختيارهم الضار على
النافع: ﴿أَذَلِكَ﴾: الذي وصفت لكم من العذاب ﴿خَيْرٌ أَمْ
جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعدَ الْمُتَّقُونَ﴾: التي زادها تقوى الله؛
فمن قام بالتقوى؛ فالله قد وعده إياها، ﴿كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً﴾:
على تقواهم، ﴿وَصِيرًا ﴿١٥﴾﴾: موثلاً يرجعون إليها،
ويستقرون فيها، ويخلدون دائماً أبداً.

﴿١٦﴾ ﴿هُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ﴾؛ أي: يطلبون وتتعلق
به أمانيتهم ومشيتهم؛ من المطاعم، والمشارب اللذيذة،
والملابس الفاخرة، والنساء الجميلات، والقصور العاليات،
والجنات والحدائق المرجحة، والفواكه التي تسر ناظرها
وأكلها من حسننها وتنوعها وكثرة أصنافها، والأنهار التي
وأنتهر من خير لَذْوٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْتَهُر من لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّر طَعْمُهُ،
بالقلوب، ومزاورة الإخوان، والتمتع بقاء الأحباب، وأعلى من ذلك كله التمتع بالنظر إلى وجه الرب الرحيم، وسماع كلامه
والحظوة بقربه والسعادة برضاه، والأمن من سخطه واستمرار هذا النعيم ودوامه وزيادته على ممر الأوقات وتعاقب الآفات.
﴿كَانَ﴾: دخولها والوصول إليها ﴿عَلَى رَبِّكَ وَعْدًا مَسْئُولًا ﴿١٦﴾﴾: يسأله إياها عباده المتقون بلسان حالهم ولسان مقالهم.

فأي الدارين المذكورتين خير وأولى بالإيثارة؟ وأي العاملين - عمال دار الشقاء أو عمال دار السعادة - أولى بالفضل
والعقل والفخر يا أولي الأبواب؟! لقد وضح الحق واستنار السبيل، فلم يبق للمفرط عذر في تركه الدليل؛ فزجوك يا من
قضيت على أقوام بالشقاء وأقوام بالسعادة أن تجعلنا ممن كتبت لهم الحسنى وزيادة، ونستغيث بك اللهم من حالة الأشقياء
ونسألك المعافاة منها.

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَقُولُ أَأَنْتُمْ أَضَلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ ﴿١٧﴾ قَالُوا
سُحِبْنَاكَ مَا كَانَ بِلَبِّغِي لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنْ مَتَّعْتَهُمْ وَعِبَاءَهُمْ حَتَّى نَسُوا الذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا ﴿١٨﴾
فَقَدْ كَذَّبْتُمْ بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا وَمَنْ يَظْلِم مَنكُم نَذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا ﴿١٩﴾ وَمَا
أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً
أَنْتَبِرُونَ ﴿٢٠﴾ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴿٢١﴾﴾.

﴿١٧﴾ يخبر تعالى عن حالة المشركين وشركائهم يوم القيامة وتبريهم منهم وبطلان سعيهم، فقال: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ﴾؛
أي: المكذبين المشركين، ﴿وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَقُولُ﴾: الله مخاطباً للمعبودين على وجه التقرير لمن عبدهم:

سورة الفرقان
إِذَا رَأَوْهُمْ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهُمْ أَسْطِطَاءً وَزَفِيرًا ﴿١٣﴾ وَإِذَا
أَلْقَاوْنَهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مَقْرِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴿١٤﴾
لَا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَجِدًا وَاذْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا ﴿١٥﴾ قُلْ
أَذَلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعدَ الْمُتَّقُونَ كَانَتْ
لَهُمْ جَزَاءً وَصِيرًا ﴿١٥﴾ هُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ خَالِدِينَ
كَانَ عَلَى رَبِّكَ وَعْدًا مَسْئُولًا ﴿١٦﴾ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا
يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَقُولُ أَأَنْتُمْ أَضَلَلْتُمْ عِبَادِي
هَؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ ﴿١٧﴾ قَالُوا سُبْحَانَكَ مَا كَانَ
يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنْ مَتَّعْتَهُمْ
وَعِبَاءَهُمْ حَتَّى نَسُوا الذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا ﴿١٨﴾ فَقَدْ
كَذَّبْتُمْ بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا
نَصْرًا وَمَنْ يَظْلِم مَنكُم نَذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا ﴿١٩﴾
وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ
الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ
لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَنْتَبِرُونَ ﴿٢٠﴾ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴿٢١﴾

بفعلكم أو بقاء أو غير ذلك ﴿وَلَا نَصْرًا﴾: لعجزكم وعدم ناصركم. هذا حكم الضالين المقلدين الجاهلين كما رأيت، أسوأ حكم وأشر مصير. وأما المعاند منهم الذي عرف الحق وصدف عنه؛ فقال في حقه: ﴿وَمَنْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ﴾: بترك الحق ظلمًا وعدا، ﴿ثِقُفْهُ عَذَابًا كَبِيرًا﴾: لا يقدر قدره ولا يبلغ أمره.

﴿٢٠﴾ ثم قال تعالى جوابًا لقول المكذبين: ﴿مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَشْرِي فِي الْأَنْتَاقِ﴾: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَشْرُونَ فِي الْأَنْتَاقِ﴾: فما جعلناهم جسدًا لا يأكلون الطعام وما جعلناهم ملائكة؛ فلك فيهم أسوة، وأما الغني والفقير؛ فهو فتنه وحكمة من الله تعالى؛ كما قال: ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ يَظُنُّ فِتْنَةً﴾: الرسول فتنه للمرسل إليهم واختبار للمطيعين من العاصين، والرسول فتنهم بدعوة الخلق، والغني فتنه للفقير، والفقير فتنه للغني، وهكذا سائر أصناف الخلق في هذه الدار دار الفتن والابتلاء والاختبار، والقصد من تلك الفتن: ﴿أَنْتَصِرُونَ﴾، فتقومون بما هو وظيفتكم اللازمة الراتبه، فيشيكم مولاكم، أم لا تصبرون فتستحقون المعاقبة؟ ﴿وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا﴾: يعلم أحوالكم، ويصطفي من يعلمه يصلح لرسالته، ويختصه بتفضيله ويعلم أعمالكم فيجازيكم عليها إن خيرًا فخير وإن شرًا فشر.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَكُوتُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا لَقَدْ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا﴾: يوم يرون الملائكة لا بشرى يومئذ للمجرمين ويقولون حجراً محجوراً ﴿وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا﴾.

﴿٢١﴾ أي: قال المكذبون للرسول، المكذبون بوعد الله ووعيده، الذين ليس في قلوبهم خوف الوعيد ولا رجاء لقاء الخالق: ﴿لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَكُوتُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا﴾: أي: هلاً نزلت الملائكة تشهد لك بالرسالة وتؤيدك عليها، أو تنزل رسلاً مستقلين، أو نرى ربنا فيكملنا ويقول: هذا رسولي؛ فاتبعوه! وهذا معارضة للرسول بما ليس بمعارض، بل بالتكبر والعلو والعتو. ﴿لَقَدْ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ﴾: حيث اقترحوا هذا الاقتراح وتجروا هذه الجراءة؛ فمن أنتم يا قراء

﴿هَآؤُنْتُمْ أَضَلَلْتُمْ عِبَادِيَ هَؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ﴾: هل أمرتموهم بعبادتكم وزيتهم لهم ذلك أم ذلك من تلقاء أنفسهم؟

﴿٢٢﴾ ﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ﴾: نزهوا الله عن شرك المشركين به، وبرعوا أنفسهم من ذلك، ﴿مَا كَانَ يَنْبَغِي لَنَا﴾: أي: لا يليق بنا ولا يحسن منا أن نتخذ من دونك من أولياء نتولاهم ونعبدهم وندعوهم؛ فإذا كنا محتاجين ومفتقرين إلى عبادتك ومتبرئين من عبادة غيرك؛ فكيف نأمر أحدا بعبادتنا؟! هذا لا يكون. أو: سبحانه عن ﴿أَنْ نَّتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ﴾: وهذا كقول المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام: ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ لِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ءَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأَهْلِيَّ وَإِهْلِيَّ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقِّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمَ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَالِمُ الْغُيُوبِ﴾ ما قُلْتَ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ﴿المائدة: ١١٦، ١١٧﴾ وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَكَةِ هَؤُلَاءِ إِنَّا كُنَّا بِعَبْدُونَ﴾ ﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِسْنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا بِعِبْدُونَ آجِنًا أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ﴾ ﴿سبا: ٤٠، ٤١﴾، ﴿وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ﴾ ﴿الأحاف: ٦﴾.

فلما نزهوا أنفسهم أن يدعوا لعبادة غير الله أو يكونوا أضلهم؛ ذكروا السبب الموجب لإضلال المشركين، فقالوا: ﴿وَلَكِنْ مَتَّعْتَهُمْ وَءَابَأَهُمْ﴾: في لذات الدنيا وشهواتها ومطالبها النفسية، ﴿حَتَّىٰ سَوَّاءُ الْكَعْبَرِ﴾: اشتغالا في لذات الدنيا وإكبابا على شهواتها؛ فحافظوا على دنياهم وضيعوا دينهم، ﴿وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا﴾: أي: باثرين، لا خير فيهم، ولا يصلحون لصالح، لا يصلحون إلا للهلاك والبوار، فذكروا المانع من اتباعهم الهدى، وهو التمتع في الدنيا، الذي صرفهم عن الهدى، وعدم مقتضي للهدى، وهو أنهم لا خير فيهم؛ فإذا عدموا المقتضي ووجد المانع؛ فلا تشاء من شر وهلاك إلا وجدته فيهم.

﴿٢٣﴾ فلما تبرعوا منهم؛ قال الله توبيخًا وتقريعًا للعابدين: ﴿فَقَدْ كَذَّبْتُمْ بِمَا تَقُولُونَ﴾: إنهم أمروكم بعبادتهم ورضوا بفعلكم وإنهم شفعاء لكم عند ربكم؛ كذبكم في ذلك الزعم، وصاروا من أكبر أعدائكم، فحق عليكم العذاب. ﴿فَمَا تَسْتَظِيمُونَ صَرْفًا﴾: للعذاب عنكم

ويا مساكين حتى تطلبوا رؤية الله وترعموا أن الرسالة متوقف
ثبوتها على ذلك؟! وأي كبر أعظم من هذا؟! ﴿١٩﴾ وَعَتَوْا عُتُوًّا
كَبِيرًا ﴿٢٠﴾ أي: قساوا وصلبوا عن الحق قساوة عظيمة؛
فقلوبهم أشد من الأحجار وأصلب من الحديد، لا تلبين
للحق ولا تصغي للناصحين؛ لذلك لم ينجع فيهم وعظ ولا
تذكير، ولا اتبعوا الحق حين جاءهم النذير، بل قابلوا أصدق
الخلق وأنصحهم وآيات الله البينات بالإعراض والتكذيب
والمعارضة؛ فأي عتو أكبر من هذا العتو؟! ولذلك بطلت
أعمالهم، واضمحلت، وخسروا أشد الخسران، وحرموا غاية
الحرمان.

﴿٢١﴾ يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ ﴿٢٢﴾ التي اقترحوا نزولها، ﴿٢٣﴾ لَا
بُشْرَى يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ ﴿٢٤﴾ وذلك أنهم لا يرونها مع استمرارهم
على جرمهم وعنادهم إلا لعقوبتهم وحلول البأس بهم:
فأول ذلك عند الموت إذا تنزلت عليهم الملائكة؛ قال الله
تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ
بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرَجُوا أَنْفُسَكُمْ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ
الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ
تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٩٣﴾﴾ [الأنعام: ٩٣]. ثم في القبر حيث يأتيهم منكر
ونكير، فيسألهم عن ربهم ونيهم ودينهم، فلا يجيبون جوابًا
ينجيهم، فيحلون بهم النقرة وتزول عنهم بهم الرحمة.

ثم يوم القيامة حين تسوقهم الملائكة إلى النار، ثم يسلمونهم لخزنة جهنم، الذين يتولون عذابهم ويبشرون عقابهم. فهذا
الذي اقترحوه وهذا الذي طلبوه إن استمروا على إجرامهم لا بد أن يروه ويلقوه، وحينئذ يتعذون من الملائكة ويفرون،
ولكن لا مفر لهم، ﴿يَقُولُونَ جِئْنَا نَعْبُجُّكَ ﴿٢٧﴾﴾ بِمَعْتَرِ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنَّ اسْتَطَعْنَاهُمْ أَنْ نَقْدُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْقُدُوا
لَا نَقْدُوكَ إِلَّا يَسْلُطُنِي ﴿٢٨﴾﴾ [الرحمن: ٢٣].

﴿٢٩﴾ وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ ﴿٣٠﴾ أي: أعمالهم التي رجوا أن تكون خيرا وتعابوا فيها، ﴿فَجَعَلْنَاهُ هَبْأَةً مَنْشُورًا ﴿٣١﴾﴾
أي: باطلاً مضمحلاً قد خسروه وحرموا أجره وعوقبوا عليه، وذلك لفقده الإيمان وصدوره عن مكذب لله ورسله؛ فالعمل
الذي يقبله الله ما صدر من المؤمن المخلص المصدق للرسول المتبع لهم فيه.

﴿٣٢﴾ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴿٣٣﴾.

﴿٣٤﴾ أي: في ذلك اليوم الهائل كثير البلبال، ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ ﴿٣٥﴾﴾ الذين آمنوا بالله وعملوا صالحًا واتقوا ربهم ﴿خَيْرٌ
مُسْتَقَرًّا ﴿٣٦﴾﴾ من أهل النار، ﴿وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴿٣٧﴾﴾ أي: مستقرهم في الجنة وراحتهم التي هي القيلولة هو المستقر النافع
والراحة التامة؛ لاشتغال ذلك على تمام النعيم الذي لا يشوبه كدر؛ بخلاف أصحاب النار؛ فإن جهنم مستقرهم ساءت
مستقرًا ومقيلًا، وهذا من باب استعمال أفعال التفضيل فيما ليس في الطرف الآخر منه شيء؛ لأنه لا خير في مقيل أهل النار
ومستقرهم؛ كقوله: ﴿اللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [النمل: ٥٩].

﴿٣٨﴾ وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَمِ وَيُزَلُّ الْمَلَائِكَةُ تَزِيلًا ﴿٣٩﴾ الْمَلَكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا ﴿٤٠﴾
يَوْمَ يَعْصُ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَلَيْتَنِي أَخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَيْلًا ﴿٤١﴾ يَوَلَّى يَلْتَوِي لَوْ أَخَذْتُ فَلَانًا خَلِيلًا ﴿٤٢﴾ لَقَدْ أَضَلَّنِي

عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَتْكَ الْشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَنِ
حَذُولًا ﴿٢٩﴾

﴿٢٩﴾ يخبر تعالى عن عظمة يوم القيامة وما فيه من
الشدة والكروب ومزعجات القلوب، فقال: ﴿وَيَوْمَ تَشْقَى
أَسْمَاءُ بِأَلْفَمٍ﴾: وذلك الغمام الذي ينزل الله فيه؛ ينزل من فوق
السموات، فتفطر له السماوات وتشقق وتنزل [ملائكة] كل
سما، فيقفون صفًا صفًا، إما صفًا واحدًا محيطًا بالخلايق،
وإما كل سما يكونون صفًا، ثم السماء التي عليها صفًا^(١)،
وهكذا القصد أن الملائكة على كثرتهم وقوتهم ينزلون
محيطين بالخلق مذعنين لأمر ربهم لا يتكلم منهم أحد إلا
بإذن من الله؛ فما ظنك بالآدمي الضعيف، خصوصًا الذي بارز
مالكه بالعظائم، وأقدم على مساخطه، ثم قدم عليه بذنوب
وخطايا لم يتب منها، فيحكم فيه الملك الخلاق بالحكم الذي
لا يجور ولا يظلم مثقال ذرة، ولهذا قال: ﴿وَكَانَ يَوْمًا عَلَى
الْكَافِرِينَ عَذَابًا﴾: لصعوبته الشديدة وتعسر أموره
عليه؛ بخلاف المؤمن؛ فإنه يسير عليه خفيف الحمل: ﴿يَوْمَ
تَخْشَرُ السَّمْعَيْنِ إِلَى الرَّحْمَنِ وَقَدْ أَهْلًا﴾ ﴿٨٥﴾ وَتَسْأَلُ الْمَجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ
وَرَدًّا ﴿٨٦﴾ [مریم: ٨٥، ٨٦]. وقوله: ﴿أَلَمَلِكُ يَوْمَئِذٍ﴾؛ أي:
يوم القيامة، ﴿الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ﴾: لا يبقى لأحد من المخلوقين
ملك ولا صورة ملك؛ كما كانوا في الدنيا، بل قد تساوت
الملوك ورعاياهم والأحرار والعبيد والأشراف وغيرهم.

ومما يرتاح له القلب وتطمئن به النفس ويشرح له الصدر
أنه أضاف الملك في يوم القيامة لاسمه الرحمن؛ الذي وسعت
رحمته كل شيء، وعمت كل حي، وملأت الكائنات، وعمرت
بها الدنيا والآخرة، وتم بها كل ناقص، وزال بها كل نقص،
وغلبت الأسماء الدالة عليه الأسماء الدالة على الغضب،
وسبقت رحمته غضبه وغلبته؛ فلها سبق والغلبة، وخلق
هذا الآدمي الضعيف وشرفه وكرمه ليتم عليه نعمته وليتغمده
برحمته، وقد حضروا في موقف الذل والخضوع والاستكانة
بين يديه؛ ينتظرون ما يحكم فيهم وما يجري عليهم، وهو
أرحم بهم من أنفسهم والديهم؛ فما ظنك بما يعاملهم به،
ولا يهلك على الله إلا هالك، ولا يخرج من رحمته إلا من
غلبت عليه الشقاوة، وحقت عليه كلمة العذاب.

﴿٧﴾ وَيَوْمَ يَعْصِي الْأَمْرُ ﴿٧﴾: بشركه وكفره وتكذيبه للرسول
﴿عَلَى يَدَيْهِ﴾: تأسفًا وتحسرًا وحزنًا وأسفًا، ﴿يَقُولُ يَلَيْتَنِي

أَتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَيْلًا ﴿٢٨﴾؛ أي: طريقًا بالإيمان به
وتصديقه واتباعه.

﴿٢٨﴾ يَتَوَلَّى يَتَبَوَّى لَمْ يَتَّخِذْ فَلَانًا﴾: وهو الشيطان الإنسي
أو الجني ﴿خَلِيلًا﴾؛ أي: حبيبًا مصافيًا، عادت أنصح
الناس لي وأبرهم بي وأرقهم بي، وواليت أعدى عدو لي،
الذي لم تفدني ولايته إلا الشقاء والخسار والخزي والبوار.

﴿٢٩﴾ لَقَدْ أَهْلَانِي مِنَ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي﴾: حيث زين
له ما هو عليه من الضلال بخدعه وتسويله، ﴿وَكَانَ
الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَنِ حَذُولًا﴾: يزين له الباطل ويقبح
له الحق ويعدو الأمانى ثم يتخلى عنه ويتبرأ منه؛ كما قال
لجميع أتباعه حين قضى الأمر وفرغ الله من حساب الخلق:
﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ
الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا
أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُمُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ
مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِي إِنْ كَفَرْتُمْ بِمَا
أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ﴾ [إبراهيم: ٢٢] الآية؛ فلينظر العبد
لنفسه وقت الإمكان، ولينتدرك الممكن قبل ألا يمكن،
وليوال من ولايته فيها سعادته، ويعاد من تنفعه عداوته
وتضره صداقته. والله الموفق.

﴿٣٠﴾ وَقَالَ الرَّسُولُ يَرَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ
مَهْجُورًا ﴿٣٠﴾ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ
وَكُفِيَ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴿٣١﴾

﴿٣٠﴾ وَقَالَ الرَّسُولُ﴾: مناديا لربه وشاكيا عليه إعراض
قومه عما جاء به ومتأسفا على ذلك منهم: ﴿يَرَبِّ إِنَّ قَوْمِي﴾:
الذي أرسلتني لهدايتهم وتبليغهم ﴿أَتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ
مَهْجُورًا﴾؛ أي: قد أعرضوا عنه وهجروه وتركوه، مع
أن الواجب عليهم الانقياد لحكمه والإقبال على أحكامه
والمشي خلفه.

﴿٣١﴾ قال الله مسلما لرسوله ومخبرا: إن هؤلاء الخلق لهم
سلف صنعوا كصنيعهم، فقال: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا
مِّنَ الْمُجْرِمِينَ﴾؛ أي: من الذين لا يصلحون للخير ولا يزكون
عليه؛ يعارضونهم، ويردون عليهم، ويجادلونهم بالباطل.
من بعض فوائد ذلك أن يعلو الحق على الباطل، وأن يتبين
الحق ويتضح اتضاحا عظيما؛ لأن معارضة الباطل للحق مما
تزيده وضوحا وبيانا وكمال استدلال، وأن تتبين ما يفعل الله

بأهل الحق من الكرامة، وبأهل الباطل من العقوبة؛ فلا تحزن عليهم، ولا تذهب نفسك عليهم حسرات، ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا﴾: يهديك فيحصل لك المطلوب ومصالح دينك ودينك، ﴿وَنَصِيرًا﴾ (٢١): ينصرك على أعدائك، ويدفع عنك كل مكروه في أمر الدين والدنيا؛ فاكف به وتوكل عليه.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا﴾ (٢٢) ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ (٢٣).

(٢٢) هذا من جملة مقترحات الكفار الذي توحيه إليهم أنفسهم، فقالوا: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً﴾؛ أي: كما أنزلت الكتب قبله. وأي محذور من نزوله على هذا الوجه؟! بل نزوله على هذا الوجه أكمل وأحسن، ولهذا قال: ﴿كَذَلِكَ﴾: أنزلناه متفرقا ﴿لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ﴾: لأنه كلما نزل عليه شيء من القرآن؛ ازداد طمأنينة وثباتا، وخصوصا عند ورود أسباب القلق؛ فإن نزول القرآن عند حدوثه يكون له موقع عظيم وتثبيت كثير أبلغ مما لو كان نازلا قبل ذلك ثم تذكره عند حلول سببه، ﴿وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا﴾ (٢٢)؛ أي: مهلهله، ودرجناك فيه تدريجا.

وهذا كله يدل على اعتناء الله بكتابه القرآن وبرسوله

محمد ﷺ؛ حيث جعل إنزال كتابه جاريا على أحوال الرسول ومصالحة الدينية.

(٢٣) ولهذا قال: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ﴾: يعارضون به الحق ويدفعون به رسالتك، ﴿إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ (٢٣)؛ أي: أنزلنا عليك قرآنا جامعا للحق في معانيه والوضوح والبيان التام في ألفاظه؛ فمعانيه كلها حق وصدق لا يشوبها باطل ولا شبهة بوجه من الوجوه، وألفاظه وحدوده للأشياء أوضح ألفاظا وأحسن تفسيرا، مبين للمعاني بيانا كاملا.

وفي هذه الآية دليل على أنه ينبغي للمتكلم في العلم من محدث ومعلم وواعظ أن يقتدي بربه في تدبيره حال رسوله، كذلك العالم يدبر أمر الخلق، وكلما حدث موجب أو حصل موسم؛ أتى بما يناسب ذلك من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية والمواعظ الموافقة لذلك.

وفيه رد على المتكلمين من الجهمية ونحوهم ممن يرى أن كثيرا من نصوص القرآن محمولة على غير ظاهرها، ولها معاني غير ما يفهم منها؛ فإذا على قولهم لا يكون القرآن أحسن تفسيراً من غيره، وإنما التفسير الأحسن على زعمهم تفسيرهم الذي حرفوا له المعاني تحريفاً!

﴿الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُولَٰئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ (٢٤).

(٢٤) يخبر تعالى عن حال المشركين الذين كذبوا رسوله وسوء مآلهم وأنهم ﴿يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ﴾: في أشنع مرأى وأفظع منظر، تسحبهم ملائكة العذاب ويجرونهم ﴿إِلَىٰ جَهَنَّمَ﴾: الجامعة لكل عذاب وعقوبة، ﴿أُولَٰئِكَ﴾: الذين بهذه الحال ﴿شَرٌّ مَّكَانًا﴾: ممن آمن بالله وصدق رسله ﴿وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ (٢٤): وهذا من باب استعمال أفعال التفضيل فيما ليس في الطرف الآخر منه شيء؛ فإن المؤمنين حسن مكانهم ومستقرهم، واهتدوا في الدنيا إلى الصراط المستقيم، وفي الآخرة إلى الوصول إلى جنات النعيم.

سورة الفرقان
وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٢٣﴾
الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُولَٰئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٢٤﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ الْكِتَابَ وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيرًا ﴿٢٥﴾ فَقُلْنَا أَذْهَبَا إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِعَائِدَتِنَا فَدَمْزَلْنَهُمْ نَذِيرًا ﴿٢٦﴾ وَقَوْمٌ لَّمَّا كَذَبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٢٧﴾ وَعَادَا وَنَوْمَدًا وَأَصْحَابَ الرِّيسِ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا ﴿٢٨﴾ وَكَأَلَضْرِبَتَا لَهُمَا الْأَمْثَلُ وَكَأَلْتَرْتَابِنَا تَنْبِيْرًا ﴿٢٩﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا عَلَىٰ الْفَرْيَةِ الْآتِيَ أَنْ مَطَرَتْ مَطَرُ السَّوَاءِ أَفَكَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنها بَلْ كَانُوا لَا يَرْجِعُونَ شُعْرًا ﴿٣٠﴾ وَإِذَا رَأَوْكَ إِذَا يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا ﴿٣١﴾ إِنْ كَادَ لَيُضِلَّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلَا أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حَيْثُ يَرْوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾ أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ لِلْهِمَّةِ هَوْنَهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٣٣﴾

وعنادهم وقلوبهم الحقائق؛ فإن كلامهم هذا يفهم أن الرسول - حاشاه - في غاية الخسة والحقارة، وأنه لو كانت الرسالة لغيره؛ لكان أنسب. ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نَزَلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْفَرِيقَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١]؛ فهذا الكلام لا يصدر إلا من أجهل الناس وأضلهم، أو من أعظمهم عناداً، وهو متجاهل، قصده ترويح ما معه من الباطل بالقدح بالحق وبمن جاء به، وإلا؛ فمن تدبر أحوال محمد بن عبد الله ﷺ؛ وجده رجل العالم وهماهم ومقدمهم في العقل والعلم واللب والرزانة ومكارم الأخلاق ومحاسن الشيم والعفة والشجاعة والكرم وكل خلق فاضل. وأن المحقر له والشأنى له قد جمع من السفه والجهل والضلال والتناقض والظلم والعُدوان ما لا يجمعه غيره. وحسبه جهلاً وضلالاً أن يقدح بهذا الرسول العظيم والهامم الكريم، والقصد من قدحهم فيه واستهزائهم به؛ تصليبهم على باطلهم وغروراً لضعفاء العقول.

﴿٤٢﴾ ولهذا قالوا: ﴿إِنْ كَادَ لَيُضِلَّنَا عَنْ آلِهَتِنَا﴾ هذا الرجل: بأن يجعل الآلهة إلهاً واحداً، ﴿لَوْلَا أَنْ صَبَرْنَا عَلَيْهَا﴾: لأضلنا. زعموا - قبحهم الله - أن الضلال هو التوحيد، وأن الهدى ما هم عليه من الشرك؛ فلهذا تواصوا بالصبر عليه، ﴿وَأَنطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ﴾ [ص: ٦]، وهنا قالوا: ﴿لَوْلَا أَنْ صَبَرْنَا عَلَيْهَا﴾: والصبر يحمد في المواضع كلها؛ إلا في هذا الموضع؛ فإنه صبر على أسباب الغضب، وعلى الاستكثار من حطب جهنم، وأما المؤمنون؛ فهم كما قال الله عنهم: ﴿وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ [العصر: ٣]، ولما كان هذا حكماً منهم بأنهم المهتدون والرسول ضال، وقد تقرر أنهم لا حيلة فيهم توعدهم بالعذاب، وأخبر أنهم في ذلك الوقت، ﴿حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ﴾: يعلمون علماً حقيقياً، ﴿مَنْ هُوَ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [٤٢]. ﴿وَيَوْمَ يَعْصُ الْأَعْمَالُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَلَيْتَنِیْ أَخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا﴾ [٢٧] الآيات.

﴿٤٣﴾ وهل فوق ضلال من جعل إلهه معبوده هواه؛ فما هو به فعله؟! فلهذا قال: ﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ﴾: ألا تعجب من حاله وتنظر ما هو فيه من الضلال وهو يحكم لنفسه بالمنازل الرفيعة، ﴿أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا﴾ [٤٣]؛ أي: لست عليه بمسيطر مسلط، بل إنما أنت منذر قد قمت بوظيفتك. وحسابه على الله.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيْرًا﴾ [٣٥] فقلنا أذهباً إلى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا فَدَمَرْنَاهُمْ تَدْمِيْرًا ﴿٣٦﴾ وَقَوْمٌ نَّوْجٌ لَّمَّا كَذَبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ ءَايَةً وَاعْتَدْنَا لِلظَّالِمِيْنَ عَذَابًا أَلِيْمًا ﴿٣٧﴾ وَعَادًا وَثَمُوْدًا وَأَصْعَبَ الرِّسِّ وَقُرُوْنَا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيْرًا ﴿٣٨﴾ وَكُلًّا ضَرَفْنَا لَهُ ٱلْأَمْثَلَ وَكُلًّا تَبَرْنَا تَبِيْرًا ﴿٣٩﴾ وَلَقَدْ أَنۢوَأۡ عَلَى ٱلْقَرِيۡءِ ٱلَّتِي ٱمۡطَرَتۡ مَطَرَ السَّوۡءِ أَفَلَمۡ يَكُونُوْا يَكۡرُوۡنَهَا بَلۡ كَانُوۡا لَا يَرۡجُوۡنَ دُشُوْرًا ﴿٤٠﴾

﴿٣٥﴾ - ﴿٤٠﴾ أشار تعالى إلى هذه القصص، وقد بسطها في آيات أخر؛ ليحذر المخاطبين من استمرارهم على تكذيب رسولهم، فيصيبهم ما أصاب هؤلاء الأمم الذين كانوا قريباً منهم ويعرفون قصصهم بما استفاض واشتهر عنهم، ومنهم من يرون آثارهم عياناً؛ كقوم صالح في الحجر، وكالقرية التي أمطرت مطر السوء بحجارة من سجيل؛ يمرّون عليهم مصبحين وبالليل في أسفارهم؛ فإن أولئك الأمم ليسوا شراً منهم، ورسلم ليسوا خيراً من رسول هؤلاء؛ ﴿أَكْفَارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُولَئِكَ أَمْ لَهُمْ بَرَآءَةٌ فِي الزُّبُرِ﴾ [الزمر: ٢٤]، ولكن الذي منع هؤلاء من الإيمان مع ما شاهدوا من الآيات أنهم كانوا لا يرجون بعثاً ولا نشوراً؛ فلا يرجون لقاء ربهم، ولا يخشون نكاله؛ فلذلك استمروا على عنادهم، وإلا؛ فقد جاءهم من الآيات ما لا يبقى معه شك ولا شبهة ولا إشكال ولا ارتياب.

﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِذَا يَتَخَذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَلَا إِلَى اللَّهِ يَبْعَثُ اللَّهُ رُسُلًا﴾ [٤١] ﴿إِنْ كَادَ لَيُضِلَّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلَا أَنْ صَبَرْنَا عَلَيْهَا وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [٤٢] أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾ أَمْ تَحْسَبُ أَنْ أَكْثَرُهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَفْقَهُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا لَا تَعْلَمُ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾

﴿٤١﴾ أي: ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ﴾: يا محمد؛ هؤلاء المكذبون لك، المعاندون لآيات الله، المستكبرون في الأرض؛ استهزؤا بك، واحتقروك، وقالوا على وجه الاحتقار والاستصغار: ﴿أَلَا إِلَى اللَّهِ يَبْعَثُ اللَّهُ رُسُلًا﴾ [٤١]؛ أي: غير مناسب ولا لائق أن يبعث الله هذا الرجل! وهذا من شدة ظلمهم

﴿٤٤﴾ ثم سجل تعالى على ضلالهم البليغ بأن سلبهم العقول والأسماع، وشبههم في ضلالهم بالأنعام السائمة التي لا تسمع ﴿لَا دَعَاءَ وَنَذَاءَ صُمْ بِكُمْ عُمَىٰ فَهُمْ لَا يَقْبَلُونَ﴾ ﴿٤٥﴾ [البقرة: ١٧١]، بل هم أضل من الأنعام؛ فإن الأنعام يهديها راعيها فتهدى، وتعرف طريق هلاكها فتجتنبه، وهي أيضًا أسلم عاقبة من هؤلاء، فتبين بهذا أن الرامي للرسول بالضلال أحق بهذا الوصف، وأن كل حيوان بهيم؛ هو أهدي منه.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسُ عَلَيْهِ دَلِيلًا﴾ ﴿٤٦﴾ ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴿٤٧﴾.

﴿٤٥﴾، ﴿٤٦﴾ أي: ألم تشاهد ببصرك وبصيرتك كمال قدرة ربك وسعة رحمته: أنه مد على العباد الظل، وذلك قبل طلوع الشمس، ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسُ عَلَيْهِ﴾؛ أي: على الظل ﴿دَلِيلًا﴾ ﴿٤٦﴾: فلولا وجود الشمس؛ لما عرف الظل؛ فإن الضد يعرف بضده، ﴿ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا﴾ ﴿٤٧﴾؛ فكلما ارتفعت الشمس؛ تقلص الظل شيئًا فشيئًا، حتى يذهب بالكلية. فتوالي الظل والشمس على الخلق الذي يشاهدونه عيانًا، وما يترتب على ذلك من اختلاف الليل والنهار وتعاقبهما وتعاقب الفصول وحصول المصالح

سورة الفرقان
﴿٤٨﴾ ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴿٤٩﴾ لَكُمْ إِلِيلَ لَيْسًا وَالنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلْنَا النَّهَارَ نَشُورًا ﴿٥٠﴾ وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا ﴿٥١﴾ لِنُخْجِيَ بِهِ بَلَدَهُ مَيْتًا وَنُشْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَمًا وَأَنْبَاسًا كَثِيرًا ﴿٥٢﴾ وَلَقَدْ صَرَفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذْكُرُوا فَآبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٥٣﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيرًا ﴿٥٤﴾ فَلَا تَطِيعُ الْكَافِرِينَ وَجَهَنَّهُمْ بِهِمْ جَبَاهَا كَبِيرًا ﴿٥٥﴾ وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَجِجْرًا تَحْجُرُهُمَا ﴿٥٦﴾ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴿٥٧﴾ وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِ ظَهِيرًا ﴿٥٨﴾

الكثيرة بسبب ذلك؛ من أدل دليل على قدرة الله وعظمته، وكمال رحمته وعنايته بعباده، وأنه وحده المعبود المحمود المحبوب المعظم ذو الجلال والإكرام.

﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ إِلِيلَ لَيْسًا وَالنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلْنَا النَّهَارَ نَشُورًا﴾ ﴿٤٨﴾.

﴿٤٧﴾ أي: من رحمته بكم ولطفه أن جعل الليل لكم بمنزلة اللباس الذي يغشاكم حتى تستقروا فيه، وتهدهوا بالنوم وتسبت حركاتكم؛ أي: تنقطع عند النوم؛ فلولا الليل؛ لما سكن العباد، ولا استمروا في تصرفهم، فضرهم ذلك غاية الضرر، ولو استمر أيضًا الظلام؛ لتعطلت عليهم معاشهم ومصالحهم، ولكنه جعل النهار نشورًا؛ يتشرون فيه لتجاراتهم وأسفارهم وأعمالهم، فيقوم بذلك ما يقوم من المصالح.

﴿وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا﴾ ﴿٤٩﴾ لِنُخْجِيَ بِهِ بَلَدَهُ مَيْتًا وَنُشْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَمًا وَأَنْبَاسًا كَثِيرًا ﴿٥٠﴾ وَلَقَدْ صَرَفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذْكُرُوا فَآبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٥١﴾.

﴿٤٨﴾، ﴿٤٩﴾ أي: هو وحده الذي رحم عباده وأدر عليهم رزقه بأن أرسل الرياح مبشرات بين يدي رحمته، وهو المطر، فتاربها السحاب وتأنف، وصار كسفاً وألقحته وأدرته بإذن أمرها والمتصرف فيها؛ ليقع استبشار العباد بالمطر قبل نزوله، وليستعدوا له قبل أن يفجأهم دفعة واحدة، ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا﴾ ﴿٤٩﴾: يطهر من الحدث والخبث، ويطهر من الغش والأدناس، وفيه بركة من بركه؛ أنه أنزل له ليحيي به بلدة ميتة، فتختلف أصناف النوايت والأشجار فيها مما يأكل الناس والأنعام، ﴿وَنُشْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَمًا وَأَنْبَاسًا كَثِيرًا﴾ ﴿٥٠﴾؛ أي: نسقيكموه أنتم وأنعامكم؛ أليس الذي أرسل الرياح المبشرات، وجعلها في عملها متنوعات، وأنزل من السماء ماء طهورًا مباركًا، فيه رزق العباد ورزق بهائمهم؛ هو الذي يستحق أن يعبد وحده ولا يشرك معه غيره؟!

﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِ ظَهِيرًا﴾ ﴿٥٥﴾.

﴿٥٥﴾ أي: يعبدون أصنامًا وأموالًا لا تضر ولا تنفع، ويجعلونها أئدادًا لمالك النفع والضرر والعطاء والمنع؛ مع أن الواجب عليهم أن يكونوا مقتدين بإرشادات ربهم، ذابين عن دينه، ولكنهم عكسوا القضية، ﴿وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِ ظَهِيرًا﴾ ﴿٥٥﴾: فالباطل الذي هو الأوثان والأئداد أعداء لله؛ فالكافر عاونها وظاهرها على ربها، وصار عدوًّا لربه مبارزًا له في العداوة والحرب؛ هذا هو الذي خلقه ورزقه وأنعم عليه بالنعم الظاهرة والباطنة، وليس يخرج عن ملكه وسلطانه وقبضته، والله لم يقطع عنه إحسانه وبره، وهو بجعله مستمر على هذه المعادة والمبارزة.

﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ ﴿٥٦﴾ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَيْنَا سَبِيلًا ﴿٥٧﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَىٰ بِهِ بُدُوْبُ عِبَادِهِ خَبِيرًا ﴿٥٨﴾ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ فَسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا ﴿٥٩﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا ﴿٦٠﴾﴾.

﴿٥٦﴾ يخبر تعالى أنه ما أرسل رسوله محمدًا ﷺ مسيطرًا على الخلق، ولا جعله ملكًا، ولا عنده خزائن الأشياء، وإنما أرسله ﴿مُبَشِّرًا﴾: يبشر من أطاع الله بالشواب العاجل والآجل. ﴿وَنَذِيرًا﴾: ينذر من عصى الله بالعقاب العاجل والآجل، وذلك مستلزم لتبيين ما به البشارة، وما تحصل به النذارة من الأوامر والنواهي.

﴿٥٧﴾ وإنك يا محمد لا تسألهم على إبلاغهم القرآن والهدى أجرًا حتى يمنعمهم ذلك من اتباعك ويتكلفون من الغرامة، ﴿إِلَّا مَنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَيْنَا سَبِيلًا﴾ ﴿٥٧﴾؛ أي: إلا من شاء أن ينفق نفقة في مرضاة ربه وسبيله؛ فهذا وإن رغبتكم فيه؛ فلست أجبركم عليه، وليس أيضًا أجرًا لي عليكم، وإنما هو راجع لمصلحتكم وسلوكمم للسبيل الموصلة إلى ربكم.

﴿٥٨﴾ ثم أمره أن يتوكل عليه ويستعين به، فقال: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ﴾: الذي له الحياة الكاملة المطلقة ﴿الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ﴾؛ أي: اعبدوه وتوكل عليه في الأمور

﴿٥٥﴾ ولما ذكر تعالى هذه الآيات العيانة المشاهدة، وصرفها للعباد ليعرفوه ويشكروه ويذكروه؛ مع ذلك: أبى ﴿أَكْثَرَ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾ ﴿٥٥﴾: لفساد أخلاقهم وطبائعهم.

﴿وَلَوْ شِئْنَا لَبعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيرًا﴾ ﴿٥٦﴾ فَلَا تُلَاحِظُ الْكَافِرِينَ وَجَهْدَهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا ﴿٥٧﴾﴾.

﴿٥٦﴾ يخبر تعالى عن نفوذ مشيئته، وأنه لو شاء؛ لبعث في كل قرية نذيرًا؛ أي: رسولًا ينذرهم ويحذرهم؛ فمشيئته غير قاصرة عن ذلك، ولكن اقتضت حكمته ورحمته بك وبالعباد يا محمد أن أرسلك إلى جميعهم؛ أحمرهم وأسودهم، عربهم وعجمهم، إنسهم وجنهم.

﴿٥٧﴾ ﴿فَلَا تُلَاحِظُ الْكَافِرِينَ﴾: في ترك شيء مما أرسلت به، بل ابدل جهدك في تبليغ ما أرسلت به، ﴿وَجَهْدَهُمْ﴾: بالقرآن ﴿جِهَادًا كَبِيرًا﴾ ﴿٥٧﴾؛ أي: لا تبق من مجهودك في نصر الحق وقمع الباطل إلا بذلته، ولو رأيت منهم من التكذيب والجراءة ما رأيت؛ فابدل جهدك، واستفرغ وسعك، ولا تيأس من هدايتهم، ولا ترك إبلاغهم لأهوائهم.

﴿وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فَرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزًا وَجِجًا مَحْجُورًا﴾ ﴿٥٨﴾﴾.

﴿٥٨﴾ أي: ﴿وَهُوَ﴾: وحده ﴿الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ﴾: يلتقيان؛ البحر العذب، وهي الأنهار السارحة على وجه الأرض، والبحر المالح، وجعل منفعة كل واحد منهما مصلحة للعباد. ﴿وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزًا﴾؛ أي: حاجزًا يحجز من اختلاط أحدهما بالآخر، فتذهب المنفعة المقصودة منها ﴿وَجِجًا مَحْجُورًا﴾ ﴿٥٨﴾؛ أي: حاجزًا حصينًا.

﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا﴾ ﴿٥٩﴾﴾.

﴿٥٩﴾ أي: وهو الله وحده لا شريك له الذي خلق الآدمي من ماء مهين، ثم نشر منه ذرية كثيرة، وجعلهم أنسابًا وأصهارًا، متفرقين ومجتمعين، والمادة كلها من ذلك الماء المهين؛ فهذا يدل على كمال اقتداره؛ لقوله: ﴿وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا﴾ ﴿٥٩﴾، ويدل على أن عبادته هي الحق وعبادة غيره باطلة؛ لقوله:

المتعلقة بك والمتعلقة بالخلق، ﴿رَكَفَى بِهِ﴾ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَيْرًا ﴿٥٨﴾: يعلمها ويجازي عليها؛ فأنت ليس عليك من هدامهم شيء، وليس عليك حفظ أعمالهم، وإنما ذلك كله بيد الله.

﴿٥٩﴾ أَلَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى: بعد ذلك ﴿عَلَى الْعَرْشِ﴾: الذي هو سقف المخلوقات وأعلاها وأوسعها وأجملها، ﴿الرَّحْمَنُ﴾: استوى على عرشه الذي وسع السماوات والأرض باسمه الرحمن الذي وسعت رحمته كل شيء، فاستوى على أوسع المخلوقات بأوسع الصفات، فأثبت بهذه الآية خلقه للمخلوقات وإطلاعه على ظاهريهم وباطنهم وعلوه فوق العرش ومبايسته إياهم. ﴿فَسَتَلَّ بِهِ خَيْرًا﴾: يعني: بذلك نفسه الكريمة؛ فهو الذي يعلم أوصافه وعظمته وجلاله، وقد أخبركم بذلك، وأبان لكم من عظمته ما تسعدون به من معرفته، فعرفه العارفون وخضعوا لجلاله، واستكبر عن عبادته الكافرون، واستكفوا عن ذلك.

﴿٦٠﴾ ولهذا قال: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ﴾: أي: وحده، الذي أنعم عليكم بسائر النعم، ودفع عنكم جميع النقم، ﴿قَالُوا﴾ جحدًا وكفرًا: ﴿وَمَا الرَّحْمَنُ﴾: بزعمهم الفاسد أنهم لا يعرفون الرحمن، وجعلوا من جملة قوادحهم في: ﴿يَا رَحْمَنُ!﴾ ونحو ذلك؛ كما قال تعالى: ﴿قُلْ أَدْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ [الإسراء: ١١٠]: فأسماؤه تعالى كثيرة لكثرة أوصافه وتعدد كماله؛ فكل واحد منها دل على صفة كمال، ﴿اسْجُدُوا لِمَا تَأْمُرُنَا﴾: أي: لمجرد أمرك إيانا، وهذا مبني منهم على التكذيب بالرسول واستكبارهم عن طاعته، ﴿وَزَادَهُمْ﴾: دعوتهم إلى السجود للرحمن ﴿تَقُورًا﴾: ﴿هَرَبًا مِنَ الْحَقِّ إِلَى الْبَاطِلِ وَزِيَادَةَ كُفْرٍ وَشَقَاءٍ﴾.

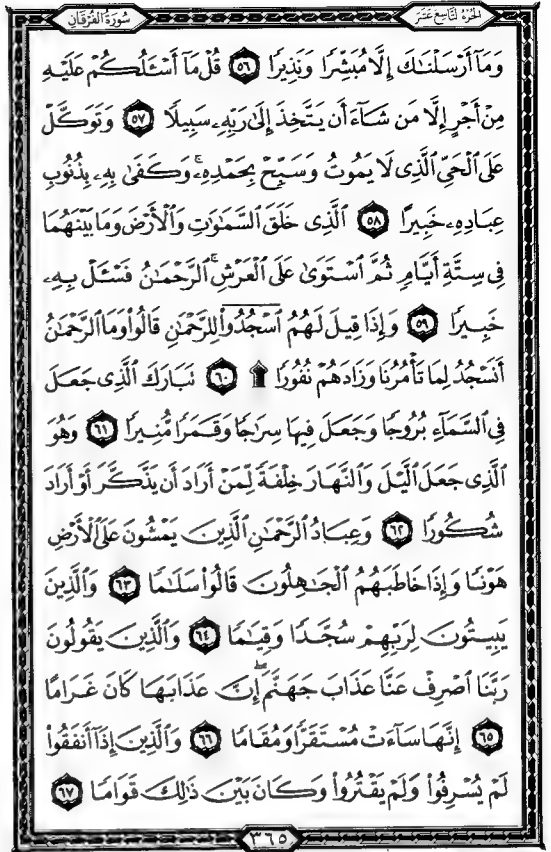
﴿نَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا﴾: وهو الذي جعل أَيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَنْكَرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴿٦١﴾.

كرر تعالى في هذه السورة الكريمة قوله: ﴿نَبَارَكَ﴾؛ ثلاث مرات؛ لأن معناها كما تقدم أنها تدل على عظمة الباري وكثرة أوصافه وكثرة خيراته وإحسانه.

وهذه السورة فيها من الاستدلال على عظمته وسعة سلطانه ونفوذ مشيئته وعموم علمه وقدرته وإحاطة ملكه في الأحكام الأمرية والأحكام الجزائية وكمال حكمته.

وفيها: ما يدل على سعة رحمته وواسع جوده وكثرة خيراته الدينية والدنيوية ما هو مقتضى لتكرار هذا الوصف الحسن.

﴿٦١﴾ فقال: ﴿نَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا﴾: وهي النجوم عمومها أو منازل الشمس والقمر التي تنزلها منزلة منزلة، وهي بمنزلة البروج والقلاع للمدن في حفظها، كذلك النجوم بمنزلة البروج المجعولة للحراسة؛ فإنها رجوم للشياطين،



وعبودية لألوهيته وعبادته ورحمته، وهي عبودية أنبيائه وأوليائه، وهي المراد هنا، ولهذا أضافها إلى اسمه الرحمن؛ إشارة إلى أنهم إنما وصلوا إلى هذه الحال بسبب رحمته، فذكر أن صفاتهم أكمل الصفات ونعوتهم أفضل النعوت، فوصفهم بأنهم ﴿يَتَشَوَّنَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا﴾؛ أي: ساكنين متواضعين لله وللخلق؛ فهذا وصف لهم بالوقار والسكينة والتواضع لله و لعباده، ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ﴾؛ أي: خطاب جهل؛ بدليل إضافة الفعل وإسناده لهذا الوصف، ﴿قَالُوا سَكَنًا﴾؛ أي: خاطبهم خطابًا يسلمون فيه من الإثم، ويسلمون من مقابلة الجاهل بجهله، وهذا مدح لهم بالحلم الكثير ومقابلة المسيء بالإحسان والعفو عن الجاهل ورزاقه العقل الذي أوصلهم إلى هذه الحال.

﴿١٤﴾ وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَمًا ﴿١٥﴾ أي: يكثرون من صلاة الليل مخلصين فيها لربهم متذللين له؛ كما قال تعالى: ﴿تَسْجُدُونَ جُثُودُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾ [السجدة: ١٧، ١٦].

﴿١٥﴾ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ؛ أي: ادفعه عنا بالعصمة من أسبابه ومغفرة ما وقع منا مما هو مقتضى للعذاب، ﴿إِنَّكَ عَذَابُهَا كَانَ غَرَامًا﴾ ﴿١٥﴾؛ أي: ملازمًا لأهلها بمنزلة ملازمة الغريم لغريمه.

﴿١٦﴾ إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿١٧﴾ وهذا منهم على وجه التضرع لربهم، وبيان شدة حاجتهم إليه، وأنهم ليس في طاعتهم احتمال هذا العذاب، وليذكروا منة الله عليهم؛ فإن صرف الشدة بحسب شدتها وقظاعتها يعظم وقعها، ويشد الفرح بصرفها.

﴿١٧﴾ وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا: النفقات الواجبة والمستحبة ﴿لَمْ يُسْرِفُوا﴾: بأن يزيدوا على الحد فيدخلوا في قسم التبذير، ﴿وَلَمْ يَقْتُرُوا﴾: فيدخلوا في باب البخل والشح، وإهمال الحقوق الواجبة، ﴿وَكَانَ﴾: إيفاقهم ﴿بَيْنَ ذَلِكَ﴾: بين الإسراف والتقتير ﴿قَوْمًا﴾ ﴿١٧﴾: يبدلون في الواجبات من الزكوات والكفارات والنفقات الواجبة وفيما ينبغي على الوجه الذي ينبغي من غير ضرر ولا ضرار، وهذا من عدلهم واقتصادهم.

﴿وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا﴾: فيه النور والحرارة، وهي الشمس ﴿وَقَمَرًا مِّنِيرًا﴾ ﴿١٦﴾: فيه النور لا الحرارة، وهذا من أدلة عظمتهم وكثرة إحسانه؛ فإن ما فيها من الخلق الباهر والتدبير المنتظم والجمال العظيم دال على عظمة خالقها في أوصافه كلها، وما فيها من المصالح للخلق والمنافع دليل على كثرة خيراته.

﴿١٦﴾ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً ﴿١٧﴾؛ أي: يذهب أحدهما؛ فيخلفه الآخر، هكذا أبدًا لا يجتمعان ولا يرتفعان، ﴿لَمَن أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾ ﴿١٧﴾؛ أي: لمن أراد أن يتذكر بهما ويعتبر ويستدل بهما على كثير من المطالب الإلهية ويشكر الله على ذلك، ولمن أراد أن يذكر الله ويشكره، وله ورد من الليل أو النهار؛ فمن فاته ورده من أحدهما؛ أدركه في الآخر، وأيضًا؛ فإن القلوب تتقلب وتتقل في ساعات الليل والنهار، فيحدث لها النشاط والكسل والذكر والغفلة والقبض والبسط والإقبال والإعراض، فجعل الله الليل والنهار يتواليان على العباد ويتكرران؛ ليحدث لهما الذكر والنشاط والشكر لله في وقت آخر، ولأن أوقات العبادات تتكرر بتكرر الليل والنهار؛ فكلما تكررت الأوقات؛ أحدث للعبدة مهمة غير همته التي كسلت في الوقت المتقدم، فزاد في تذكرها وشكرها، فوظائف الطاعات بمنزلة سقي الإيمان الذي يمدّه؛ فلولاً ذلك؛ لذوى غرس الإيمان ويس، فله أتم حمد وأكمل على ذلك.

ثم ذكر من جملة كثرة خيره، منته على عباده الصالحين وتوفيقهم للأعمال الصالحات التي أكسبتهم المنازل العاليات في غرف الجنات، فقال:

﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَتَشَوَّنَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾ ﴿١٧﴾ وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَمًا ﴿١٨﴾ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّكَ عَذَابُهَا كَانَ غَرَامًا ﴿١٩﴾ إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٢٠﴾ إلى آخر السورة الكريمة.

﴿١٧﴾ العبودية لله نوعان: عبودية لربوبيته؛ فهذه يشترك فيها سائر الخلق؛ مسلمهم وكافرهم، برهم وفاجرهم؛ فكلهم عبيد لله مريبون مدبرون، ﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتَى الرَّحْمَنِ عَبْدًا﴾ ﴿٢٠﴾ [مریم: ٩٣].

﴿٦٨﴾ وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ: بل يعبدونه وحده مخلصين له الدين حنفاء مقبلين عليه معرضين عما سواه، ﴿وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ﴾: وهي نفس المسلم والكافر المعاهد، ﴿إِلَّا بِالْحَقِّ﴾: قتل النفس بالنفس، وقتل الزاني المحصن والكافر الذي يحل قتله، ﴿وَلَا يَزْنُونَ﴾: بل يحفظون فروجهم؛ إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم، ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ ذَلِكَ﴾: أي: الشرك بالله أو قتل النفس التي حرم الله بغير حق أو الزنا؛ فسوف ﴿يَلْقَىٰ أَثَمًا﴾ ﴿٦٩﴾.

﴿٦٩﴾ ثم فسر بقوله: ﴿يُضْطَفُّ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَيَخْلُدُ فِيهِ﴾؛ أي: في العذاب ﴿مُهَنَّا﴾ ﴿٧٠﴾، فالوعيد بالخلود لمن فعلها كلها ثابت لا شك فيه، وكذلك لمن أشرك بالله، وكذلك الوعيد بالعذاب الشديد على كل واحد من هذه الثلاثة؛ لكونها إما شرك وإما من أكبر الكبائر، وأما خلود القاتل والزاني في العذاب؛ فإنه لا يتناوله الخلود؛ لأنه قد دلت النصوص القرآنية والسنة النبوية أن جميع المؤمنين سيخرجون من النار، ولا يخلد فيها مؤمن، ولو فعل من المعاصي ما فعل. ونص تعالى على هذه الثلاثة لأنها أكبر الكبائر: فالشرك فيه فساد الأديان، والقتل فيه فساد الأبدان، والزنا فيه فساد الأعراض.

﴿٧١﴾ ﴿إِلَّا مَنْ تَابَ﴾: عن هذه المعاصي وغيرها بأن أقلع

عنها في الحال، وندم على ما مضى له من فعلها، وعزم عزمًا جازمًا ألا يعود، ﴿وَأَمَّنْ﴾ بالله إيمانًا صحيحًا يقتضي ترك المعاصي وفعل الطاعات، ﴿وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا﴾: مما أمر به الشارع إذا قصد به وجه الله؛ ﴿فَأُولَٰئِكَ يَدْعُلُ اللَّهُ سَعَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ﴾؛ أي: تبدل أفعالهم التي كانت مستعدة لعمل السيئات، تبدل حسنات، فيتبدل شركهم إيمانًا، ومعصيتهم طاعة، وتبدل نفس السيئات التي عملوها ثم أحدثوا عن كل ذنب منها توبة وإنابة وطاعة، تبدل حسنات كما هو ظاهر الآية، وورد في ذلك حديث الرجل الذي حاسبه الله ببعض ذنوبه، فعددها عليه، ثم أبدل مكان كل سيئة حسنة، فقال: يا رب إن لي سيئات لا أراها هنا. والله أعلم. ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا﴾: لمن تاب يغفر الذنوب العظيمة. ﴿رَحِيمًا﴾ ﴿٧٢﴾: بعباده؛ حيث دعاهم إلى التوبة بعد مبارزته بالعظائم، ثم وفقهم لها، ثم قبلها منهم.

﴿٧٢﴾ ﴿وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَبُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا﴾ ﴿٧٣﴾؛ أي: فليعلم أن توبته في غاية الكمال؛ لأنها رجوع إلى الطريق الموصل إلى الله، الذي هو عين سعادة العبد وفلاحه؛ فليخلص فيها، وليخلصها من شوائب الأغراض الفاسدة. فالمقصود من هذا الحث على تكميل التوبة واتباعها على أفضل الوجوه وأجلها؛ ليقدم على من تاب إليه، فيوفيه أجره بحسب كمالها.

﴿٧٣﴾ ﴿وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ﴾؛ أي: لا يحضرون الزور؛ أي: القول والفعل المحرم، فيجتنبون جميع المجالس المشتملة على الأقوال المحرمة أو الأفعال المحرمة؛ كالخوض في آيات الله، والجدال الباطل، والغيبة، والنميمة، والسب، والقذف، والاستهزاء، والغناء المحرم، وشرب الخمر، وفرش الحرير والصور... ونحو ذلك، وإذا كانوا لا يشهدون الزور؛ فمن باب أولى وأحرى ألا يقولوه ويفعلوه، وشهادة الزور داخلة في قول الزور، تدخل في هذه الآية بالأولوية، ﴿وَإِذَا رُؤُوا بِالْغُفْرِ﴾: وهو الكلام الذي لا خير فيه ولا فيه فائدة دينية ولا دنيوية؛ ككلام السفهاء ونحوهم ﴿مَرُؤًا كِرَامًا﴾ ﴿٧٤﴾؛ أي: نزها أنفُسهم، وأكرمواها عن الخوض فيه، ورأوا الخوض فيها وإن كان لا إثم فيه؛ فإنه سفة ونقص للإنسانية والمروءة؛ فربثوا

سورة الفرقان

وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَمًا ۖ يُضْطَفُّ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَيَخْلُدُ فِيهِ مُهَنَّا ۖ إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يُدْعِلُ اللَّهُ سَعَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ ۖ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ۖ وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَبُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا ۖ وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا ۖ وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يُخَيِّرُوا وَأَعْيَاهَا ضَمًّا وَغَمِيانًا ۖ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْ لَنَا لِلْمُقِيمِينَ ۖ أَمَامًا ۖ أُولَٰئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا مِنْ حَسَنَةٍ وَسَلَامًا ۖ خَالِدِينَ فِيهَا حَسَنَاتٍ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ۖ قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا ۖ

سورة الفرقان

﴿٧٥﴾، ﴿٧٦﴾ ولهذا لما كانت همهم ومطالبهم عالية، كان الجزء من جنس العمل، فجازاهم بالمنازل العاليات، فقال: ﴿أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا﴾؛ أي: المنازل الرفيعة والمساكن الأنيقة الجامعة لكل ما يشتهى وتلذه الأعين، وذلك بسبب صبرهم نالوا ما نالوا؛ كما قال تعالى: ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ﴾ ﴿٧٢﴾ سَلَّمَ عَلَيْهِمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ ﴿٧٤﴾ [الرعد: ٢٣، ٢٤]، ولهذا قال هنا: ﴿وَيُلْقَوْنَ فِيهَا حَمِيمًا وَسَلَامًا﴾ ﴿٧٥﴾ من ربههم ومن ملائكته الكرام ومن بعض على بعض، ويسلمون من جميع المنغصات والمكدرات.

والحاصل أن الله وصفهم بالوقار، والسكينة، والتواضع له وعباده، وحسن الأدب، والحلم، وسعة الخلق، والعفو عن الجاهلين، والإعراض عنهم، ومقابلة إساءتهم بالإحسان، وقيام الليل، والإخلاص فيه، والخوف من النار، والتضرع لربهم أن ينجيهم منها، وإخراج الواجب والمستحب في النفقات، والاقتصاد في ذلك. وإذا كانوا مقتصدين في الإنفاق الذي جرت العادة بالتفريط فيه أو الإفراط؛ فاقصدهم وتوسطهم في غيره من باب أولى، والسلامة من كبائر الذنوب، والاتصاف بالإخلاص لله في عبادته، والعفة عن الدماء والأعراض، والتوبة عند صدور شيء من ذلك، وأنهم لا يحضرون مجالس المنكر والفسوق القولية والفعلية، ولا يفعلونها بأنفسهم، وأنهم ينتزهون من اللغو والأفعال الردية، التي لا خير فيها، وذلك يستلزم مروءتهم وإنسانيتهم وكمالهم ورفعة أنفسهم عن كل خسيس قولي وفعلي، وأنهم يقابلون آيات الله بالقبول لها والتفهم لمعانيها والعمل بها والاجتهاد في تنفيذ أحكامها، وأنهم يدعون الله تعالى بأكمل الدعاء في الدعاء الذي ينتفعون به، ويتنفع به من يتعلق بهم، ويتنفع به المسلمون من صلاح أزواجهم وذريتهم، ومن لوازم ذلك سعيهم في تعليمهم ووعظهم ونصحهم؛ لأن من حرص على شيء ودعا الله فيه؛ لا بد أن يكون متسبباً فيه، وأنهم دعوا الله ببلوغ أعلى الدرجات الممكنة لهم، وهي درجة الإمامة والصدقية؛ فله ما أعلى هذه الصفات، وأرفع هذه الهمم، وأجل هذه المطالب، وأزكى تلك النفوس، وأطهر تلك القلوب، وأصفى هؤلاء الصفة، وأتقى هؤلاء السادة. ولله فضل الله عليهم، ونعمته، ورحمته التي جلتهم، ولطفه الذي أوصلهم إلى هذه المنازل.

بأنفسهم عنه. وفي قوله: ﴿وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ﴾ إشارة إلى أنهم لا يقصدون حضوره ولا سماعه، ولكن عند المصادفة التي من غير قصد يكرمون أنفسهم عنه.

﴿٧٣﴾ ﴿وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ﴾: التي أمرهم باستماعها والاهتداء بها ﴿لَمْ يَجْرُوا عَلَيْهَا ضُمًّا وَعُمِيَانًا﴾ ﴿٧٣﴾؛ أي: لم يقابلوها بالإعراض عنها، والصمم عن سماعها، وصرف النظر والقلوب عنها كما يفعله من لم يؤمن بها ويصدق، وإنما حالهم فيها وعند سماعها كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ ﴿١٩﴾ [السجدة: ١٥]؛ يقابلونها بالقبول والافتقار إليها والانقياد والتسليم لها، وتجد عندهم أذاناً سامعة وقلوباً واعية، فيزداد بها إيمانهم، ويتم بها إيقانهم، وتحدث لهم نشاطاً، ويفرحون بها سروراً واغتباطاً.

﴿٧٤﴾ ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا﴾؛ أي: قرنائنا من أصحاب وأقران وزوجات، ﴿وَذُرِّيَّتِنَا نَسْرَةً أَزْوَاجٍ﴾؛ أي: تقر بهم أعيننا، وإذا استقرأنا حالهم وصفاتهم؛ عرفنا من همهم وعلو مرتبتهم أنهم لا تقر أعينهم حتى يروهم مطيعين لربهم عالمين عاملين وهذا كما أنه دعاء لأزواجهم وذرياتهم في صلاحهم؛ فإنه دعاء لأنفسهم؛ لأن نفعه يعود عليهم، ولهذا جعلوا ذلك هبة لهم، فقالوا: ﴿هَبْ لَنَا﴾، بل دعائهم يعود إلى نفع عموم المسلمين؛ لأن بصلاح من ذكر يكون سبباً لصلاح كثير ممن يتعلق بهم ويتنفع بهم.

﴿وَأَجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ ﴿٧٥﴾؛ أي: أوصلنا يا ربنا إلى هذه الدرجة العالية؛ درجة الصديقين والأكمل من عباد الله الصالحين، وهي درجة الإمامة في الدين، وأن يكونوا قدوة للمتقين في أقوالهم وأفعالهم، يقتدى بأفعالهم ويطمئن لأقوالهم ويسير أهل الخير خلفهم، فيهدون ويهتدون. ومن المعلوم أن الدعاء ببلوغ شيء دعاء بما لا يتم إلا به، وهذه الدرجة - درجة الإمامة في الدين - لا تتم إلا بالصبر واليقين؛ كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَيْمَةً يَهْتَدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ ﴿٢٤﴾ [السجدة: ٢٤]؛ فهذا الدعاء يستلزم من الأعمال والصبر على طاعة الله وعن معصيته وأقداره المؤلمة ومن العلم التام الذي يوصل صاحبه إلى درجة اليقين خيراً كثيراً وعطاء جزيلاً، وأن يكونوا في أعلى ما يمكن من درجات الخلق بعد الرسل.

ولله منة الله على عباده أن بين لهم أوصافهم ونعت لهم هياتهم، وبين لهم همهم وأوضح لهم أجورهم؛ ليشاقوا إلى الاتصاف بأوصافهم، ويبدلوا جهدهم في ذلك، ويسألوا الذي من عليهم وأكرمهم، الذي فضله في كل زمان ومكان وفي كل وقت وأوان أن يهديهم كما هداهم، ويتولاهم بتربيته الخاصة كما تولاهم.

فاللهم لك الحمد، وإليك المشتكى، وأنت المستعان، وبك المستغاث، ولا حول ولا قوة إلا بك، لا نملك لأنفسنا نفعا ولا ضرا، ولا نقدر على مثقال ذرة من الخير إن لم تيسر ذلك لنا؛ فإننا ضعفاء عاجزون من كل وجه، نشهد أنك إن وكلتنا إلى أنفسنا طرفة عين؛ وكلتنا إلى ضعف وعجز وخطيئة؛ فلا نتق يا ربنا إلا برحمتك، التي بها خلقتنا ورزقنا وأنعمت علينا بما أنعمت من النعم الظاهرة والباطنة، وصرفت عنا من النقم؛ فارحمنا رحمة تغنيها عن رحمة من سواك، فلا خاب من سالك ورجاك.

﴿٧٧﴾ ولما كان الله تعالى قد أضاف هؤلاء العباد إلى رحمته واختصهم بعبوديته لشرفهم وفضلهم، ربما توهم متوهم أنهم وأيضا غيرهم؛ فلم لا يدخل في العبودية؟! فأخبر تعالى أنه لا يبالي ولا يعابى بغير هؤلاء، وأنه لولا دعاؤكم إياه دعاء العبادة ودعاء المسألة؛ ما عبأ بكم ولا أحبكم، فقال: ﴿قُلْ مَا يَعْجُزُا يَكُورُ رَبِّي لَوْلَا دَعَاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا﴾ ﴿٧٧﴾؛ أي: عذابا يلزمكم لزوم الغريم لغريمه، وسوف يحكم الله بينكم وبين عباده المؤمنين.

تم تفسير سورة الفرقان. فله الحمد والثناء والشكر أبدا.



تفسير سورة الشعراء

وهي مكية عند الجمهور

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿١﴾ طَسَّرَ ﴿٢﴾ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْغَيْبِ ﴿٣﴾ لَعَلَّكَ بَنِيعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٤﴾ إِنَّ شَأْ نُزِّلَ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ ﴿٥﴾ وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرِ مِنَ الرَّحْمَنِ مُخَلِّدًا إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ ﴿٦﴾ فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا يَكُونُ بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٧﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَرَّ أَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿٨﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٩﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٠﴾

﴿١﴾، ﴿٢﴾ يشير الباري تعالى إشارة تدل على التعظيم لآيات الكتاب المبين البين الواضح الدال على جميع المطالب الإلهية والمقاصد الشرعية؛ بحيث لا يبقى عند الناظر فيه شك ولا شبهة فيما أخبر به أو حكم به؛ لوضوحه ودلالته على أشرف المعاني وارتباط الأحكام بحكمها وتعليقها بمناسبتها، فكان رسول الله ﷺ ينذر به الناس، ويهدي به الصراط المستقيم،

الذي أهلك الأشقياء بأنواع العقوبات، الرحيم بالسعداء؛ حيث أنجاهم من كل شر وبلاء.

﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰ أَنْ أَنتَ أَلَقَمَ الظَّالِمِينَ﴾ إلى آخر القصة.

أعاد الباري تعالى قصة موسى وثناها في القرآن ما لم يشن غيرها؛ لكونها مشتملة على حكم عظيمة وعبر، وفيها نبؤة مع الظالمين والمؤمنين، وهو صاحب الشريعة الكبرى، وصاحب التوراة أفضل الكتب بعد القرآن، فقال:

﴿١١﴾، ﴿١٢﴾ واذكر حالة موسى الفاضلة وقت نداء الله إياه حين كلمه ونباه وأرسله، فقال: ﴿أَنْتَ أَلَقَمَ الظَّالِمِينَ﴾: ﴿١٣﴾ الذين تكبروا في الأرض وعلوا على أهلها وادعى كبيرهم الربوبية، ﴿قَوْمٌ فَرَعَوْنَ لَا يَتَّقُونَ﴾ ﴿١٤﴾؛ أي: قل لهم بلين قول ولطف عبارة: ألا تتقون الله الذي خلقكم ورزقكم فتركوا ما أنتم عليه من الكفر.

﴿١٥﴾ - ﴿١٦﴾ فقال موسى عليه السلام معتذراً من ربه ومبيناً لعدوه وسائلاً له المعونة على هذا الحمل الثقيل: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ﴾ ﴿١٧﴾ وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي، فقال: ﴿رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي﴾ ﴿١٨﴾ وَبَيِّرْ لِي أَمْرِي ﴿١٩﴾ وَأَخْلُصْ عُدَّةَ مِنِّي لِسَانِي ﴿٢٠﴾ يَقْفَهُوا قَوْلِي ﴿٢١﴾ وَأَجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِ هَٰؤُلَاءِ أَخِي ﴿٢٢﴾ [طه: ٢٥-٣٠]، ﴿فَأَرْسِلْ إِلَيَّ هَارُونَ﴾ ﴿٢٣﴾: فأجاب الله طلبته ونبا أخاه هارون كما نبأه، ﴿فَأَرْسَلْنَا مَعِيَ رِدْءًا﴾ [القصص: ٣٤]؛ أي: معاونًا لي على أمري. ﴿وَلَمْ نَكُنْ عَلَىٰ دَبٍّ﴾؛ أي: في قتل القبطي، ﴿فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ﴾ ﴿٢٤﴾.

﴿٢٥﴾ - ﴿٢٦﴾ ﴿قَالَ كَلَّا﴾؛ أي: لا يتمكنون من قتلك؛ فإنا سنجعل لكما سلطاناً؛ فلا يصلون إليكما بأيأتنا أنتما ومن اتبعكما الغالبون، ولهذا لم يتمكن فرعون من قتل موسى مع منابذته له غاية المناذبة وتسفيه رأيه وتضليله وقومه، ﴿فَأَذْهَبَا عَادِيْنَتَا﴾: الدالة على صدقكما وصحة ما جئتما به، ﴿وَإِنَّا مَعَكُمْ مُّسْتَمِعُونَ﴾ ﴿٢٧﴾: أحفظكما واكلوكمما، ﴿فَأَتَا فِرْعَوْنَ فَقَوْلَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿٢٨﴾؛ أي: أرسلنا إليك لتؤمن به وبنا، وتنقاد لعبادته وتذعن لتوحيده. ﴿أَنْ أَرْسِلَ مَعَنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ ﴿٢٩﴾: فكف عنهم عذابك، وارفع عنهم يدك؛ ليعبدوا ربهم، وقيموا أمر دينهم.

﴿٣٠﴾، ﴿٣١﴾ فلما جاء لفرعون وقال لا ما قال الله لهما؛ لم يؤمن فرعون، ولم يلب، وجعل يعارض موسى، فـ ﴿قَالَ﴾:

فيتهدي بذلك عباد الله المتقون، ويعرض عنه من كتب عليه الشقاء، فكان يحزن حزناً شديداً على عدم إيمانهم؛ حرصاً منه على الخير، ونصحاً لهم.

﴿٣٢﴾ فلهذا قال تعالى لنبيه: ﴿لَمَّا كَبُحَ نَفْسُكَ﴾؛ أي: مهلكها وشاق عليها ﴿أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ ﴿٣٣﴾؛ أي: فلا تفعل ولا تذهب نفسك عليهم حسرات؛ فإن الهداية بيد الله، وقد أدبت ما عليك من التبليغ، وليس فوق هذا القرآن المبين آية حتى ننزلها ليؤمنوا بها؛ فإنه كافٍ شافٍ لمن يريد الهداية.

﴿٣٤﴾ ولهذا قال: ﴿إِنْ دُشْنَا نُنْزِلْ عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ آيَةً﴾؛ أي: من آيات الاقتراح ﴿فَطَلَّ أَعْنَاقُهُمْ﴾؛ أي: أعناق المكذبين ﴿مَّا خَضِعِينَ﴾ ﴿٣٥﴾: ولكن لا حاجة إلى ذلك ولا مصلحة فيه؛ فإنه إذ ذاك الوقت يكون الإيمان غير نافع، وإنما الإيمان النافع الإيمان بالغيب؛ كما قال تعالى: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِشْرَاقًا﴾ [الأنعام: ١٥٨] الآية.

﴿٣٦﴾ ﴿وَمَا يَأْتِيهِمْ مِّنْ ذِكْرٍ مِّنَ الرِّمَنِ يُخَدِّثُ﴾: يأمرهم وينهاهم ويذكرهم ما ينفعهم ويضرهم ﴿إِلَّا كَاثُرًا عَنْهُ مُتَرْصِنِينَ﴾ ﴿٣٧﴾: بقلوبهم وأبدانهم. هذا إعراضهم عن الذكر المحدث الذي جرت العادة أنه يكون موقعه أبلغ من غيره؛ فكيف بإعراضهم عن غيره؟! وهذا لأنهم لا خير فيهم، ولا تنجع فيهم المواعظ.

﴿٣٨﴾ ولهذا قال: ﴿فَقَدْ كَذَّبُوا﴾؛ أي: بالحق، وصار التكذيب لهم سجية لا تتغير ولا تبدل، ﴿فَسَيَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ ﴿٣٩﴾؛ أي: سيقع بهم العذاب ويحل بهم ما كذبوا به؛ فإنهم قد حققت عليهم كلمة العذاب.

﴿٤٠﴾ قال الله منبهاً على التفكير الذي ينفع صاحبه: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَرِهْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾ ﴿٤١﴾: من جميع أصناف النباتات، حسنة المنظر، كريمة في نفعها.

﴿٤٢﴾ ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً﴾: على إحياء الله الموتى بعد موتهم؛ كما أحيا الأرض بعد موتها، ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾ ﴿٤٣﴾؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿٤٤﴾ [يوسف: ١٠٣].

﴿٤٥﴾ ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ﴾: الذي قد قهر كل مخلوق، ودان له العالم العلوي والسفلي. ﴿الْكَرِيمُ﴾ ﴿٤٦﴾: الذي وسعت رحمته كل شيء، ووصل جوده إلى كل حي، العزيز

سورة الشعراء

المزمل المكي

قَالَ فَعَلَّهَا إِذَا وَاَنَا مِنَ الصَّالِينَ ﴿٢٠﴾ فَفَرَزْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ
فَوَهَبَ لِي رِجِّي حُكْمًا وَحَمَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٢١﴾ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا
عَلَى أَنْ عَبْدَتَ بَنِي إِسْرَءِيلَ ﴿٢٢﴾ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ
﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ
﴿٢٤﴾ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمْ
الْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾
قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَقُولُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَ
لَنْ نَخَذَعَ لِلَهَا غَيْرِي لِأَجْعَلَكَ مِنَ الْمُسْجُوتِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ
أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُبِينٍ ﴿٣٠﴾ قَالَ فَأْتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ
الصَّادِقِينَ ﴿٣١﴾ فَأَتَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ ﴿٣٢﴾ وَنَزَّ بِهِ
فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّظِيرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَ لِلْمَلَأِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ
عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمَاذَا
تَأْمُرُونَ ﴿٣٥﴾ فَأَتُوا أَرْجَاهُ وَآخَاهُ وَابْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ
﴿٣٦﴾ يَا أَتُوكَ بِكُلِّ سَحَابٍ عَلِيمٍ ﴿٣٧﴾ فَجِئَ السَّحَرَةُ
لِيَقْدِتَ يَوْمَ مَعْلُومٍ ﴿٣٨﴾ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنْتُمْ تُحْتَمِعُونَ ﴿٣٩﴾

٣٦٨

﴿أَلَمْ تُرْيَكْ فِينَا وَلِيدًا﴾؛ أي: ألم ننعلم عليك ونقم بتربيتك منذ
كنت وليدًا في مهدك ولم تولد كذلك، ﴿وَلَيْسَتْ فِينَا مِنْ عُمَرِكَ
سِنَّينَ﴾ ﴿١٨﴾ وَقَعَلْتَ فَعَلْنَاكَ أَلَنِي فَعَلْتَ ﴿١٩﴾ وهي قتل موسى
للقبطي حين استغاثه ﴿الَّذِي مِنْ شَيْعِنِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ
فَوَكَرَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ﴾ [القصص: ١٥] الآية. ﴿وَأَنْتَ مِنَ
الْكَافِرِينَ﴾ ﴿٢١﴾؛ أي: وأنت إذ ذاك طريقك طريقنا وسبيلك
سبيلنا في الكفر، فأقر على نفسه بالكفر من حيث لا يدري.

﴿٢٢﴾ - ﴿٢٣﴾ فقال موسى: ﴿فَعَلَّهَا إِذَا وَاَنَا مِنَ الصَّالِينَ﴾ ﴿٢٠﴾؛
أي: عن غير كفر، وإنما كان عن ضلال وسفه، فاستغفرت ربي
فغفر لي، ﴿فَفَرَزْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ﴾: حين تراجعتم بقتلي،
فهربت إلى مدين، ومكثت سنين، ثم جئتمكم ﴿فَوَهَبَ لِي رِجِّي
حُكْمًا وَحَمَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ ﴿٢١﴾.

فالحاصل أن اعتراض فرعون على موسى اعتراض جاهل
أو متجاهل؛ فإنه جعل المانع من كونه رسولاً أن جرى منه
القتل، فبين له موسى أن قتله على وجه الضلال والخطأ الذي
لم يقصد نفس القتل، وأن فضل الله تعالى غير ممنوع منه
أحد؛ فَلِمَ منعتم ما منحني الله من الحكم والرسالة؟

بقي عليك يا فرعون إدلاؤك بقولك: ﴿أَلَمْ تُرْيَكْ فِينَا
وَلِيدًا﴾؟ وعند التحقيق يتبين أن لا منة لك فيها، ولهذا قال
موسى: ﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَى أَنْ عَبْدَتَ بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ ﴿٢١﴾؛ أي: تدلي علي بهذه المنة لأنك سخرت بني إسرائيل، وجعلتهم
لك بمنزلة العبيد، وأنا قد أسلمتني من تعبيدك وتسخيرك، وجعلتها علي نعمة؛ فعند التصور يتبين أن الحقيقة أنك ظلمت
هذا الشعب الفاضل، وعذبتهم وسخرتهم بأعمالك، وأنا قد سلمني الله من أذاك، مع وصول أذاك لقومي؛ فما هذه المنة التي
تمنُّ بها وتدلي بها؟!

﴿٢٢﴾ - ﴿٢٣﴾ ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿٢٣﴾: وهذا إنكار منه لربه ظلماً وعلوفاً، مع يقن صحة ما دعاه إليه موسى،
﴿قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾؛ أي: الذي خلق العالم العلوي والسفلي، ودبره بأنواع التدبير، ورباه بأنواع التربية،
ومن جملة ذلك أنتم أيها المخاطبون؛ فكيف تنكرون خالق المخلوقات وفاطر الأرض والسموات، ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ﴾ ﴿٢٤﴾،
فقال فرعون متجرهماً ومعجباً لقوله: ﴿أَلَا تَسْمَعُونَ﴾ ﴿٢٥﴾: ما يقوله هذا الرجل؟!

﴿٢٦﴾، ﴿٢٧﴾ فقال موسى: ﴿رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ﴾ ﴿٢٦﴾: تعجبتم أم لا، استكبرتم أم أذعتم، فقال فرعون معانداً للحق
قادحاً بمن جاء به: ﴿إِنَّ رَسُولَكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾ ﴿٢٧﴾: حيث قال خلاف ما نحن عليه، وخالفنا فيما ذهبنا إليه؛ فالعقل
عنده وأهل العقل من زعموا أنهم لم يخلقوا، أو أن السماوات والأرض ما زالتا موجودتين من غير موجد، وأنهم بأنفسهم
خلقوا من غير خالق! والعقل عنده أن يعبد المخلوق الناقص من جميع الوجوه؛ والجنون عنده أن يثبت الرب الخالق للعالم
العلوي والسفلي والمنعم بالنعم الظاهرة والباطنة ويدعى إلى عبادته! وزين لقومه هذا القول، وكانوا سفهاء الأحلام خفيفي
العقول، ﴿فَاسْتَحَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَتِيسِينَ﴾ ﴿٢٨﴾ [الزخرف: ٥٤].

﴿٢٩﴾ فقال موسى عليه السلام مجيباً لإنكار فرعون وتعطيله لرب العالمين: ﴿رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾: من سائر
المخلوقات، ﴿إِنْ كُنْتُمْ تَقُولُونَ﴾ ﴿٢٨﴾: فقد أدبت لكم من البيان والتبيين ما يفهمه كل من له أدنى مُسَكَّة من عقل؛ فما بالكم

العظيم، فيظهر الحق على الباطل، ويقر أهل العلم وأهل الصناعة بصحة ما جاء به موسى، وأنه ليس بسحر.

(٣٨) - (٤٠) فعمل فرعون برأيهم، فأرسل في المدائن من يجمع السحرة، واجتهد في ذلك وجد، ﴿فَجِيعَ السَّحَرَةُ لِيَقْتَتِ يَوْمَ مَعْلُومٍ﴾ (٣٨) قد واعدهم إياه موسى، وهو يوم الزينة الذي يتفرغون فيه من أشغالهم، ﴿وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنْتُمْ مُخْتَبِعُونَ﴾ (٣٩) أي: نودي بعموم الناس بالاجتماع في ذلك اليوم الموعود، ﴿لَعَلَّآ نَتَّبِعَ السَّحَرَةَ إِن كَانُوا هُمْ أَغْلَبِينَ﴾ (٤٠) أي: قالوا للناس: اجتمعوا لتنتظروا غلبة

السحرة لموسى، وأنهم ماهرون في صناعتهم، فتبعمهم ونعظمهم ونعرف فضيلة علم السحر. فلو وفقوا للحق؛ لقالوا: لعننا تتبع المحق منهم، ونعرف الصواب؛ لذلك ما أفاد فيهم ذلك إلا قيام الحجة عليهم.

(٤١) - (٤٢) ﴿فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ﴾: ووصلوا لفرعون؛ قالوا له: ﴿أَيْنَ لَنَا لَآجِرٌ إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ﴾ (٤١) لموسى؟ ﴿قَالَ نَعَمْ﴾: لكم أجر وثواب، ﴿وَأَنْتُمْ إِذَا لَيْنَ الْمُفْرَيْنَ﴾ (٤٢)؛ وعدهم الأجر والقرية منه؛ ليزداد نشاطهم ويأتوا بكل مقدورهم في معارضة ما جاء به موسى.

(٤٣) - (٤٥) فلما اجتمعوا للموعد هم وموسى وأهل مصر؛ وعظمهم موسى وذكرهم وقال: ﴿وَيَلَكُمْ لَا تَقْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيَسْحَبَكُم بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَى﴾ (٤٣) [طه: ٦١]، فتنازعوا وتخاصموا، ثم شجعهم فرعون وشجع بعضهم بعضاً، ﴿قَالَ هُمْ مُوسَى أَقْبَرُ مَا أَنْتُمْ مُلْكُونَ﴾ (٤٤)؛ أي: ألقوا كل ما في خواطركم إلقاؤه ولم يقيده بشيء دون شيء لجزمه ببطلان ما جاءوا به من معارضة الحق، ﴿فَالْقَوُّ أَرْجَاهُمْ وَعَصِيَّتُهُمْ﴾: فإذا هي حيات تسعى، وسحروا بذلك أعين الناس. ﴿وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ﴾ (٤٥)؛ فاستعانوا بعزة عبد ضعيف عاجز من كل وجه؛ إلا أنه قد تجبر وحصل له صورة ملك وجنود، فغرتهم تلك الأبهة، ولم تنفذ بصائرهم إلى حقيقة الأمر، أو أن هذا قسم منهم بعزة فرعون، والمقسم عليه أنهم غالبون، ﴿فَأَلْفَى مَوْسَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ﴾: تتبلع وتأخذ ﴿مَا يَأْكُفُونَ﴾ (٤٥)؛ فالتقت جميع ما ألقوا من الحبال والعصي؛ لأنها إلفك وكذب وزور، وذلك كله باطل لا يقوم للحق ولا يقاومه.

(٤٦) - (٤٨) فلما رأى السحرة هذه الآية العظيمة؛ تيقنوا لعلمهم أن هذا ليس بسحر، وإنما هو آية من آيات الله

تتجاهلون فيما أخطبكم به؟! وفيه إيماء وتنبيه إلى أن الذي رميت به موسى من الجنون أنه دأؤكم، فرميت أركى الخلق عقلاً وأكملهم علماً بالجنون! والحال أنكم أنتم المجانين؛ حيث ذهبت عقولكم عن إنكار أظهر الموجودات؛ خالق الأرض والسموات وما بينهما؛ فإذا جحدتموه؛ فأى شيء تثبتون؟! وإذا جهلتموه؛ فأى شيء تعلمون؟! وإذا لم تؤمنوا به وبآياته؛ فأى شيء بعد الله وآياته تؤمنون؟! تالله؛ إن المجانين الذين بمنزلة البهائم أعقل منكم، وإن الأنعام السارحة أهدى منكم.

(٤٩) - (٥٠) فلما خفت فرعون الحجة وعجزت قدرته وبيانه عن المعارضة؛ ﴿قَالَ﴾: متوعداً لموسى بسلطانه: ﴿لَئِنْ أَتَيْتَ إِلَهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُورِينَ﴾ (٤٩)؛ زعم - قبحه الله - أنه قد طمع في إضلال موسى، وألا يتخذ إلهاً غيره، وإلا؛ فقد تقرر أنه هو ومن معه على بصيرة من أمرهم، فقال له موسى: ﴿أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ﴾ (٥٠)؛ أي: آية ظاهرة جليلة على صحة ما جئت به من خوارق العادات، ﴿قَالَ فَأْتِ بِهِ إِن كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ (٥١) فَأَلْفَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثَمْبَانٌ؛ أي: ذكر الحيات. ﴿ثُمَّ يَنْفُثُ﴾: ظاهر لكل أحد لا خيال ولا تشبيه، ﴿وَرَزَقَ بِهِ﴾: من جيبه، ﴿فَإِذَا هِيَ بِضَاءٌ لِلنَّظِيرِينَ﴾ (٥٢)؛ أي: لها نور عظيم لا نقص فيه لمن نظر إليها.

(٥٣) - (٥٥) ﴿قَالَ﴾ فرعون ﴿لِلْمَلَأِ حَوْلَهُ﴾: معارضاً للحق ومن جاء به: ﴿إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ عَلِيمٌ﴾ (٥٣) يريد أن يخرجهكم من أرضكم؛ موه عليهم لعلمه بضعف عقولهم أن هذا من جنس ما يأتي به السحرة؛ لأنه من المتقرر عندهم أن السحرة يأتون من العجائب بما لا يقدر عليه الناس، وخوفهم أن قصده بهذا السحر التوصل إلى إخراجهم من وطنهم؛ ليجدوا ويجهتدوا في معادة من يريد إجلاءهم عن أولادهم وديارهم، ﴿فَمَادَا تُمَرُّونَ﴾ (٥٤) أن نفعل به؟ ﴿قَالُوا أَرْجَاهُ وَأَخَاهُ﴾؛ أي: آخرهما، ﴿وَأَبْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ﴾ (٥٥)؛ جامعين للناس، ﴿يَأْتُوكَ﴾ أولئك الحاشرون ﴿بِكُلِّ سَحَابٍ عَلِيمٍ﴾ (٥٦)؛ أي: ابعث في جميع مدنك التي هي مقر العلم ومعدن السحر من يجمع لك كل ساحر ماهر عليم في سحره؛ فإن الساحر يقابل بسحر من جنس سحره، وهذا من لطف الله؛ أن يري العباد ببطلان ما موه به فرعون الجاهل الضال المضل أن ما جاء به موسى سحر؛ فيضهم أن جمعوا أهل المهارة بالسحر؛ لينتقد المجلس عن حضرة الخلق

ومعجزة تنبئ بصدق موسى وصحة ما جاء به، ﴿فَأَلْقَى السَّحَرَةُ سِحْرَ سَاجِدِينَ﴾ ٤٩: ﴿لرَّيْبِهِمْ، ﴿فَالَوْ أَنَّمَا فِي رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ٥٠﴾ رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ﴾ ٥١: ﴿وانقمع الباطل في ذلك المجمع، وأقر رؤساؤه ببطلانه، ووضح الحق وظهر، حتى رأى ذلك الناظرون بأبصارهم.

٥٢ - ٥٣ ﴿لكن أبى فرعون إلا عتوا وضلّالا وتماديّا في غيه وعنادا، فقال للسحرة: ﴿ءَأَمْنُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ مَأْذَنَ لَكُمْ﴾ يتعجب ويعجب قومه من جراتهم عليه وإقدامهم على الإيمان من غير إذنه ومؤامرتة، ﴿إِنَّهُ لَكَيْدِكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ﴾: هذا، وهو الذي جمع السحرة، وملأه الذين أشاروا عليه بجمعهم من مدائنهم، وقد علموا أنهم ما اجتمعوا بموسى ولا راوه قبل ذلك، وأنهم جاءوا من السحر بما يحير الناظرين ويهلبهم، ومع ذلك؛ فراج عليهم هذا القول الذي هم بأنفسهم وقفوا على بطلانه؛ فلا يستنكر على أهل هذه العقول ألا يؤمنوا بالحق الواضح والآيات الباهرة؛ لأنهم لو قال لهم فرعون عن أي شيء كان، أنه على خلاف حقيقته؛ صدقوه. ثم تواعد السحرة، فقال: ﴿لَأَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خَلْفٍ﴾؛ أي: اليد اليمنى والرجل اليسرى؛ كما يفعل بالمفسد في الأرض، ﴿وَأَصْلَحَنَّاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ ٥٤: ﴿لتخزوا وتذلوا، فقال السحرة حين وجدوا حلاوة الإيمان وذاقوا لذته: ﴿لَا صَبْرَ لَنَا﴾؛

أي: لا نبالي بما توعدتنا به، ﴿إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ﴾ ٥٥: ﴿إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطِيئَتَنَا﴾: من الكفر والسحر وغيرهما ﴿أَنْ كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ٥٦: ﴿بموسى من هؤلاء الجنود. فثبتهم الله وصبرهم؛ فيحتمل أن فرعون فعل بهم ما توعدهم به لسلطانه واقتداره إذ ذاك، ويحتمل أن الله منعه منهم.

٥٧ ثم لم يزل فرعون وقومه مستمرين على كفرهم؛ يأتيهم موسى بالآيات البيّنات، وكلما جاءتهم آية وبلغت منهم كل مبلغ؛ وعدوا موسى وعاهدوه لئن كشف الله عنهم؛ ليؤمنن به وليرسلن معه بني إسرائيل، فيكشفه الله، ثم ينكثون. فلما يس موسى من إيمانهم، وحقت عليهم كلمة العذاب، وأن لبني إسرائيل أن ينجيهم من أسرهم ويمكن لهم في الأرض؛ أوحى الله إلى موسى: ﴿أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي﴾؛ أي: أخرج ببني إسرائيل أول الليل، ليتمادوا ويتمهلوا في ذهابهم ﴿إِنَّا كَرِهْنَا مُنْبِعِينَ﴾ ٥٨: أي: سيتبعكم فرعون وجنوده. ووقع كما أخبر؛ فإنهم لما أصبحوا، وإذا بنو إسرائيل قد سروا كلهم مع موسى.

٥٩ - ٦٠ ﴿فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَلَأَيْنِ خَشِيرَتَيْنِ﴾ ٦١: ﴿يجمعون الناس؛ ليقوم ببني إسرائيل، ويقول مشجعا لقومه: ﴿إِنَّ هَؤُلَاءَ﴾؛ أي: بني إسرائيل ﴿لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ﴾ ٦٢: ﴿وَأَنَّهُمْ لَنَا لَآئِطُونَ﴾ ٦٣: ﴿فتريد أن نفذ غيظنا في هؤلاء العبيد الذين أبغوا منا، ﴿وَأَنَّا لَجَمِيعٌ خَدِيرُونَ﴾ ٦٤: أي: الحذر على الجميع منهم، وهم أعداء للجميع، والمصلحة مشتركة.

٦٥ - ٦٦ ﴿فخرج فرعون وجنوده في جيش عظيم ونفير عام، لم يتخلف منهم سوى أهل الأعداء الذين منعهم العجز؛ قال الله تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ ٦٧: ﴿أي: بساتين مصر وجنانها الفائقة وعيونها المتدفقة وزروع قد ملأت أراضيهم وعمرت بها حاضرتهم وبواديهم، ﴿وَمَقَارِ كَرِيمٍ﴾ ٦٨: ﴿يعجب الناظرين ويلهي المتأملين؛ تمتعوا به دهرًا طويلا، وقضوا بلذاته وشهواته عمرا مديدا على الكفر والعناد والتكبر على العباد والتهيه العظيم، ﴿كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا﴾؛ أي: هذه البساتين والعيون والزروع والمقام الكريم ﴿بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾: الذين جعلوهم من قبل عبيدهم وسخروا في أعمالهم الشاقة؛ فسبحان

سورة الشعراء

لَعَلَّنَا نَبِّغَ السَّحَرَةَ إِنْ كَانُوا هُمْ الْفَٰلِغِينَ ﴿٤٩﴾ فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَإِنَّا لَلْأَجْرَ إِنْ كُنَّا نَعْنُ الْفَٰلِغِينَ ﴿٥٠﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنِّكُمْ إِذَا لِلنَّاقِرِينَ ﴿٥١﴾ قَالَ لَهُمْ مُوسَىٰ أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ ﴿٥٢﴾ فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا بِعَزَاءِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْفَٰلِغُونَ ﴿٥٣﴾ فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿٥٤﴾ فَأَلْقَى السَّحَرَةُ سِحْرَ سَاجِدِينَ ﴿٥٥﴾ قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٥٦﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ﴿٥٧﴾ قَالَ ءَأَمْنُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ مَأْذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَيْدِكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَسَوْفَ نَعْتَمِدُ لَأَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خَلْفٍ وَلَا صِلَتَكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٨﴾ قَالُوا لَا صَبْرَ لَنَا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ ﴿٥٩﴾ إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطِيئَتَنَا أَنْ كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٠﴾ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِنَّكَ مُتَّبَعُونَ ﴿٦١﴾ فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَلَأَيْنِ خَشِيرَتَيْنِ ﴿٦٢﴾ لَشِرْذِمَةً قَلِيلُونَ ﴿٦٣﴾ وَأَنَّهُمْ لَنَا لَآئِطُونَ ﴿٦٤﴾ وَأَنَّا لَجَمِيعٌ خَدِيرُونَ ﴿٦٥﴾ فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٦٦﴾ وَمَقَارِ كَرِيمٍ ﴿٦٧﴾ كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَءِيلَ ﴿٦٨﴾ فَأَتَتْهُمْ مُشْرِقَتٌ ﴿٦٩﴾

٣٦٩

سورة الشعراء

وَأَجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ ﴿٨٤﴾ وَاجْعَلْنِي مِنْ رِزْقِهِ جَنَّةَ
النَّعِيمِ ﴿٨٥﴾ وَأَعِزَّنِي بِإِثْنِهِ كَأَنْ مِنَ الصَّالِّينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ
يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾ يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ
سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾ وَأَرْزُقْنِي الْجَنَّةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٩٠﴾ وَبَرِّزْتَ الْجَحِيمَ لِلْعَاقِبِينَ ﴿٩١﴾
وَقِيلَ لَهُمْ إِنَّ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٩٢﴾ مِنْ دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنْصُرُونَكُمْ
أَوْ يَنْصُرُونَ ﴿٩٣﴾ فَكَبَّكَرُوا فِيهَا هُمْ وَالْعَاوُنَ ﴿٩٤﴾ وَخَوَدُوا لَيْلٍ
أَجْمَعُونَ ﴿٩٥﴾ قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ﴿٩٦﴾ تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي
ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ دُسِّيَكُمْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٩٨﴾ وَمَا أَضَلَّنَا
إِلَّا الْأَعْيُنُ الْمُرْسِلُونَ ﴿٩٩﴾ فَمَنَّا مِنَ الشَّاعِرِينَ ﴿١٠٠﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴿١٠١﴾
فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةٌ فَنَتُخَرَّجُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٢﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ
أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَمَوْعِظٌ رَحِيمٌ ﴿١٠٤﴾ كَذَّبَتْ
قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٠٦﴾
إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٧﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا أَمْرًا ﴿١٠٨﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ
عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ
وَأَطِيعُوا أَمْرًا ﴿١١٠﴾ قَالُوا أَلَمْ نَأْمُرْكَ أَنْ تَتَّبِعَكَ الْأَرْضَ لَوْلَا نُنَزِّلُكَ

٣٧١

وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ ﴿١١٢﴾: فهذا هو
وحده المنفرد بذلك، فيجب أن يفرد بالعبادة والطاعة، وترك
هذه الأصنام التي لا تخلق ولا تهدي، ولا تمرض ولا تشفي،
ولا تطعم ولا تسقي، ولا تميت ولا تحيي، ولا تنفع عابديها
بكشف الكروب ولا مغفرة الذنوب؛ فهذا دليل قاطع وحجة
باهرة لا تقدر أنتم وأباؤكم على معارضتها، فدل على
اشتراككم في الضلال وترككم طريق الهدى والرشد. قال
الله تعالى: ﴿وَحَاجَّتْهُ قَوْمُهُ قَالُوا نُخَيِّبُكَ فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَيْنَا
[الأنعام: ٨٠] الآيات.

﴿٨٢﴾، ﴿٨٣﴾ ثم دعا عليه السلام ربه، فقال: ﴿رَبِّ
هَبْ لِي حُكْمًا﴾؛ أي: علماً كثيراً أعرف به الأحكام
والحلال والحرام، وأحكم به بين الأنام، ﴿وَأَلْحِقْنِي
بِالصَّالِحِينَ﴾ ﴿٨٣﴾: من إخوانه الأنبياء والمرسلين،
﴿وَأَجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ﴾ ﴿٨٤﴾؛ أي: اجعل لي ثناء
صدق مستمر إلى آخر الدهر. فاستجاب الله دعاءه، فوهب
له من العلم والحكم ما كان به من أفضل المرسلين، والحقه
بإخوانه المرسلين، وجعله محبوباً مقبولاً معظماً مثني عليه
في جميع الملل في كل الأوقات، قال تعالى: ﴿وَرَكْنَا عَلَيْهِ
فِي الْآخِرِينَ﴾ ﴿٨٨﴾ سَلَّمَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ ﴿١٠٣﴾ كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١١٢﴾
إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١١﴾ ﴿[الصافات: ١٠٨-١١١].

﴿٨٥﴾ وَاجْعَلْنِي مِنْ رِزْقِهِ جَنَّةَ النَّعِيمِ ﴿٨٥﴾؛ أي: من أهل الجنة التي يورثهم الله إياها، فأجاب الله دعاءه، ورفع منزلته في جنات النعيم.
﴿٨٦﴾ وَأَعِزَّنِي بِإِثْنِهِ كَأَنْ مِنَ الصَّالِّينَ ﴿٨٦﴾: وهذا الدعاء بسبب الوعد الذي قال لآبيه: ﴿سَأَسْتَفِيرُكَ رَبِّ إِنَّهُ كَانَتْ بِي
حَفِيظًا﴾ ﴿٤٧﴾، قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَتْ أَسْتَفْغَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا بَيَّنَّ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ
لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾ ﴿١١٤﴾ ﴿[التوبة: ١١٤].

﴿٨٧﴾ - ﴿٨٩﴾ وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾؛ أي: بالتوبيخ على بعض الذنوب والعقوبة عليها والفضيحة، بل أسعدني في ذلك
اليوم الذي لَا يَنْفَعُ فيه ﴿مَالٌ وَلَا بَنُونَ﴾ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾: فهذا الذي ينفعه عندك، وهذا الذي ينجو من
العقاب ويستحق جزيل الثواب.

والقلب السليم: معناه: الذي سلم من الشرك والشك ومحبة الشر والإصرار على البدعة والذنوب، ويلزم من سلامته مما
ذكر اتصافه بأضدادها من الإخلاص والعلم واليقين ومحبة الخير وترينه في قلبه، وأن تكون إرادته ومحبته تابعة لمحبة الله،
وهو اه تبعاً لما جاء عن الله.

﴿٩٠﴾ - ﴿٩٢﴾ ثم ذكر من صفات ذلك اليوم العظيم وما فيه من الثواب والعقاب، فقال: ﴿وَأَرْزُقْنِي الْجَنَّةَ﴾؛ أي: قربت
﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾ ﴿٩٠﴾: ربه، الذين امتثلوا أوامره، واجتنبوا زواجره واتقوا سخطه وعقابه. ﴿وَبَرِّزْتَ الْجَحِيمَ﴾؛ أي: برزت واستعدت
بجميع ما فيها من العذاب ﴿لِلْعَاقِبِينَ﴾ ﴿٩١﴾: الذين أوضاعوا في معاصي الله، وتجرعوا على محارمه، وكذبوا رسله، وردوا ما
جاءهم به من الحق، ﴿وَقِيلَ لَهُمْ إِنَّ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ﴾ ﴿٩٢﴾ مِنْ دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنْصُرُونَكُمْ أَوْ يَنْصُرُونَ ﴿٩٣﴾: بأنفسهم؛ أي: فلم يكن من ذلك
من شيء، وظهر كذبهم وخزيهم، ولاحت خسارتهم وفضيحتهم، وبان ندمهم، وضل سعيهم. ﴿فَكَبَّكَرُوا فِيهَا﴾؛ أي: القوا

خطاب؛ كما هي طريقة الرسل صلوات الله وسلامه عليهم: ﴿أَلَا نُنْفِئُ﴾ (٩٦) : الله تعالى، فتركوا ما أنتم مقيمون عليه من عبادة الأوثان، وتخلصوا العبادة لله وحده. ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ (٩٧) : فكونه رسولاً إليهم بالخصوص يوجب لهم تلقي ما أرسل به إليهم، والإيمان به، وأن يشكروا الله تعالى على أن خصهم بهذا الرسول الكريم. وكونه أميناً يقتضي أنه لا يقول على الله، ولا يزيد في حيه ولا ينقص. وهذا يوجب لهم التصديق بخبره والطاعة لأمره، ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا﴾ (٩٨) : فيما أمركم به ونهاكم عنه؛ فإن هذا هو الذي يترتب على كونه رسولاً إليهم أميناً؛ فلذلك رتبته بالفاء الدالة على السبب، فذكر السبب الموجب، ثم ذكر انتفاء المانع، فقال: ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾ : فتكلفوا من المغمر الثقيل ﴿إِنِّي أَجْرِي إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (٩٩) : أرجو بذلك القرب منه والثواب الجزيل، وأما أنتم؛ فمبني ومتتهى إرادتي منكم النصح لكم وسلوكم الصراط المستقيم، ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا﴾ (١٠٠) : كرر ذلك عليه السلام؛ لتكريره دعوة قومه، وطول مكثه في ذلك؛ كما قال تعالى: ﴿فَلَيْتَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾ [العنكبوت: ١٤]، و﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا نَهَارًا﴾ (١٠١) فَلَمْ يَذْهَبْ دُعَاؤِي إِلَّا فِرَارًا﴾ (١٠٢) [نوح: ٦] الآيات.

﴿فَقَالُوا﴾ (١٠٣) فقالوا ردًا لدعوته ومعارضة له بما ليس يصلح للمعارضة: ﴿أَتُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ﴾ (١٠٤) : أي: كيف تتبعك ونحن لا نرى أتباعك إلا أسافل الناس وأراذلهم وسقطهم. بهذا يعرف تكبرهم عن الحق وجهلهم بالحقائق؛ فإنهم لو كان قصدهم الحق؛ لقالوا - إن كان عندهم إشكال وشك في دعوته - : بين لنا صحة ما جئت به بالطرق الموصلة إلى ذلك! ولو تأملوا حق التأمل؛ لعلموا أن أتباعه هم الأعلون، خيار الخلق، أهل العقول الرزينة والأخلاق الفاضلة، وأن الأرذل من سلب خاصية عقله، فاستحسن عبادة الأحجار، ورضي أن يسجد لها ويدعوها، وأبى الانقياد لدعوة الرسل الكامل. ويمجد ما يتكلم أحد الخصمين في الكلام الباطل؛ يعرف فساد ما عنده؛ بقطع النظر عن صحة دعوى خصمه؛ فقوم نوح لما سمعنا عنهم أنهم قالوا في ردهم دعوة نوح: ﴿أَتُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ﴾ (١٠٥) : فبنوا على هذا الأصل الذي كل أحد يعرف فساده رد دعوته؛ عرفنا أنهم ضالون مخطئون، ولو لم نشاهد من آيات نوح ودعوته العظيمة ما يفيد الجزم واليقين بصدقه وصحة ما جاء به.

في النار ﴿هَرُ﴾؛ أي: ما كانوا يعبدون، ﴿وَالْفَاؤُونَ﴾ (٩٥) : العابدون لها، ﴿وَجُنُودٌ إِبْلِيسَ أَجْعُونَ﴾ (٩٦) : من الإنس والنجن، الذين أزههم إلى المعاصي أژا، وتسלט عليهم بشركهم وعدم إيمانهم، فصاروا من دعائه والساعين في مرضاته، وهم ما بين داعٍ لطاعته ومجيب لهم ومقلد لهم على شركهم.

﴿٩٦﴾ - ﴿٩٧﴾ ﴿قَالُوا﴾؛ أي: جنود إبليس الغاؤون لأصنامهم وأوثانهم التي عبدوها: ﴿تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ (٩٧) إِذْ سُويَكُمْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (٩٨) : في العبادة والممجة والخوف والرجاء، وندعوكم كما ندعوه. فبين لهم حيث ضلالهم، وأقروا بعدل الله في عقوبتهم، وأنها في محلها، وهم لم يسوهم رب العالمين؛ إلا في العبادة، لا في الخلق؛ بدليل قولهم: ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (٩٩) : أنهم مقرون أن الله رب العالمين كلهم، الذين من جملتهم أصنامهم وأوثانهم، ﴿وَمَا أَضَلَّنَا﴾ : عن طريق الهدى والرشد ودعانا إلى طريق الغي والفسق ﴿إِلَّا الْفَجْرُونَ﴾ (١٠٠) : وهم الأئمة الذين يدعون إلى النار، ﴿فَمَا لَنَا﴾ : حيثن ﴿بَيْنَ شَفِيعِينَ﴾ (١٠١) : يشفعون لنا لينقذونا من عذابه ﴿وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾ (١٠٢) : أي: قريب مصاف ينفعنا بأدنى نفع؛ كما جرت العادة بذلك في الدنيا؛ فأيسوا من كل خير، وأبلسوا بما كسبوا، وتمنوا العودة إلى الدنيا ليعملوا صالحاً؛ ﴿فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةٌ﴾؛ أي: رجعة إلى الدنيا وإعادة إليها، ﴿فَنَكُونُ مِنَ الْمُتُوبِينَ﴾ (١٠٣) : لنسلم من العقاب ونستحق الثواب. هيهات هيهات؛ قد حيل بينهم وبين ما يشتهون، وقد غلقت منهم الرهون. ﴿إِنِّي فِي ذَلِكَ﴾ : الذي ذكرنا لكم ووصفنا ﴿لَآيَةً﴾ : لكم، ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾ (١٠٤) : مع نزول الآيات.

﴿كَذَبَ قَوْمٌ نُّوحٌ الْمُرْسَلِينَ﴾ (١٠٥) : إلى آخر القصة.

﴿١٠٥﴾ - ﴿١٠٦﴾ يذكر تعالى تكذيب قوم نوح لرسولهم نوح، وما رد عليهم وردوا عليه، وعاقبة الجميع، فقال: ﴿كَذَبَ قَوْمٌ نُّوحٌ الْمُرْسَلِينَ﴾ (١٠٥) : جميعهم، لأن تكذيب نوح كتكذيب جميع المرسلين؛ لأنهم كلهم اتفقوا على دعوة واحدة وأخبار واحدة؛ فتكذيب أحدهم كتكذيب بجميع ما جاءوا به من الحق. كذبوه ﴿إِذْ قَالَ لَّمْ أَخُوهُ﴾ : في النسب ﴿نُوحٌ﴾ : وإنما ابتعث الله الرسل من نسب من أرسل إليهم؛ لئلا يشتمزوا من الانقياد له، ولأنهم يعرفون حقيقته؛ فلا يحتاجون أن يبحثوا عنه، فقال لهم مخاطباً بالطف

(١١٢) - (١١٥) فقال نوح عليه السلام: ﴿وَمَا عَلَيَّ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (١١٦) ﴿إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ﴾ (١١٧)؛ أي: أعمالهم وحسابهم على الله، إنما علي التبليغ، وأنتم دعوهم عنكم؛ إن كان ما جئتمكم به الحق؛ فانقادوا له، وكل له عمله، ﴿وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (١١٨)؛ كأنهم - قبهم الله - طلبوا منه أن يطردهم عنه تكبراً وتجبراً ليؤمنوا، فقال: ﴿وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (١١٩)؛ فإنهم لا يستحقون الطرد والإهانة، وإنما يستحقون الإكرام القولي والفعل؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا نُنَزِّلُ فَقُلْ سَلِّمْتُ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام: ٥٤]. ﴿إِن أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ (١٢٠)؛ أي: ما أنا إلا منذر ومبلغ عن الله، ومجتهد في نصح العباد، وليس لي من الأمر شيء إن الأمر إلا لله.

(١٢١) فاستمر نوح عليه الصلاة والسلام على دعوتهم ليلاً ونهاراً، سرّاً وجهاً، فلم يزدادوا إلا نفوراً، ﴿وَقَالُوا لَيْنَ لَّهٗ تَنْتَه يَتَنُوحُ﴾ (١٢٢)؛ من دعوتك إيانا إلى الله وحده؛ ﴿لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ﴾ (١٢٣)؛ أي: لتقتلك شر قتلة؛ بالرمي بالحجارة؛ كما يقتل الكلب، فتباً لهم! ما أقبح هذه المقابلة! يقابلون الناصح الأمين الذي هو أشفق عليهم من أنفسهم بشر مقابلة.

(١٢٤) لا جرم لما انتهى ظلمهم واشتد كفرهم؛ دعا عليهم نبيهم بدعوة أحاطت بهم، فقال: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ عَلَيْهِمْ نَبِيَّهُمْ بِدْعَةٍ أَحَاطَتْ بِهِمْ﴾ (١٢٥)؛ أي: أهلك الباغي منا، وهو يعلم أنهم البغاة الظلمة، ولهذا قال: ﴿وَيَجْنِي وَمَن مَّيِّ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (١٢٦).

(١٢٧) - (١٢٩) ﴿فَاجْتَنِبْهُ وَمَن مَّعَهُ فِي الْقُلُوبِ﴾ (١٢٧)؛ أي: السفينة ﴿الْمَشْحُونِ﴾ (١٢٨)؛ من الخلق والحيوانات، ﴿فَمُتَّعْنَا بِقَدْرٍ﴾ (١٢٩)؛ أي: بعد نوح ومن معه من المؤمنين ﴿الْبَاقِينَ﴾ (١٣٠)؛ أي: جميع قومه. ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ (١٣١)؛ أي: نجاة نوح وأتباعه وإهلاك من كذبه ﴿لَّآيَةً﴾ (١٣٢)؛ دالة على صدق رسلنا وصحة ما جاءوا به وبطلان ما عليه أعداؤهم المكذبون بهم. ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهٗوَ الْعَزِيزُ﴾ (١٣٣)؛ الذي قهر بعزه أعداءه فأغرقهم بالطوفان. ﴿الرَّحِيمُ﴾ (١٣٤)؛ بأوليائه؛ حيث نجى نوحاً ومن معه من أهل الإيمان.

﴿كَذَّبَتْ عَادُ الْمُرْسَلِينَ﴾ (١٣٥) إلى آخر القصة.

(١٣٦) - (١٣٩) أي: كذبت القبيلة المسماة عاداً رسولهم هوداً، وتكذيبهم له تكذيب لغيره؛ لاتفاق الدعوة، ﴿إِذْ قَالَ لَهُمُ أَخُوهُمْ﴾ (١٣٦)؛ في النسب ﴿هُودٌ﴾ (١٣٧)؛ بلطف وحسن خطاب: ﴿أَلَا نُنْفِذُ﴾ (١٣٨)؛ أي: الله، فتركوا الشرك وعبادة غيره، ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ (١٣٩)؛ أي: أرسلني الله إليكم رحمة بكم واعتناء بكم، وأنا أمين؛ تعرفون ذلك مني. رتب على ذلك قوله: ﴿فَاقْبَلُوا إِلَهَ اللَّهِ وَأَطِيعُوا﴾ (١٤٠)؛ أي: أدوا حق الله تعالى، وهو التقوى، وأدوا حقى؛ بطاعتي فيما أمركم به وأنهاكم عنه؛ فهذا موجب لأن تتبعوني وتطيعوني، وليس ثم مانع يمنعكم من الإيمان، فلست أسألكم على تبليغي إياكم ونصحي لكم أجراً حتى تستقبلوا ذلك المغرم. ﴿إِنْ أَجْرِي إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (١٤١)؛ الذي رباهم بنعمه وأدر عليهم فضله وكرمه؛ خصوصاً ما ربي به أوليائه وأنبياءه.

(١٤٢) - (١٤٥) ﴿أَتَتَّبِعُونَ بِكُلِّ رِيحٍ﴾ (١٤٢)؛ أي: مدخل بين الجبال ﴿مَّآيَةً﴾ (١٤٣)؛ أي: علامة ﴿تَبْشُرُونَ﴾ (١٤٤)؛ أي: تفعلون ذلك عبثاً لغير فائدة تعود بمصالح دينكم ودنياكم، ﴿وَتَتَّخِذُونَ مَصَاصٍ﴾ (١٤٥)؛ أي: برتاً ومجالي للمياه؛ ﴿لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾ (١٤٦)؛ والحال أنه لا سبيل إلى الخلود لأحد. ﴿وَإِذَا بَطَشْتُمْ﴾ (١٤٧)؛ بالخلق ﴿بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ﴾ (١٤٨)؛ قتلاً وضرباً وأخذ أموال. وكان الله تعالى

﴿قَالَ وَمَا عَلَيَّ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (١٤٩) ﴿إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ﴾ (١٥٠) ﴿وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (١٥١) ﴿إِن أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ (١٥٢) ﴿قَالُوا لَيْنَ لَّهٗ تَنْتَه يَتَنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ﴾ (١٥٣) ﴿قَالَ رَبِّ إِن قَوْمِي كَذَّبُونِ﴾ (١٥٤) ﴿فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَن مَّعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (١٥٥) ﴿فَاجْتَنِبْهُ وَمَن مَّعَهُ فِي الْقُلُوبِ الْمَشْحُونِ﴾ (١٥٦) ﴿فَمُتَّعْنَا بِقَدْرٍ﴾ (١٥٧) ﴿الْبَاقِينَ﴾ (١٥٨) ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾ (١٥٩) ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهٗوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ (١٦٠) ﴿كَذَّبَتْ عَادُ الْمُرْسَلِينَ﴾ (١٦١) ﴿إِذْ قَالَ لَهُمُ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا نُنْفِذُ﴾ (١٦٢) ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ (١٦٣) ﴿فَاقْبَلُوا إِلَهَ اللَّهِ وَأَطِيعُوا﴾ (١٦٤) ﴿وَأَطِيعُوا أَمْرًا مِّنْ أَمْرِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (١٦٥) ﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ (١٦٦) ﴿قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَّعْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ﴾ (١٦٧)

سورة الشعراء

الجزء الثاني عشر

١٣٦ - **إِنْ هَذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ ۚ وَمَنْ يَمْعَدِينَ ۚ فَكَذَّبُوهُ ۚ فَأَهْلَكْنَاهُمْ إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ وَمَا كَانُوا أَكْثَرَهُمْ مُّؤْمِنِينَ ۚ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ۚ كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ ۚ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ ۖ أَلا تَتَّقُونَ ۚ إِنْ لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ۚ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَاطِيعُونَ ۚ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ۚ أَنْتُمْ كُنْتُمْ فِي مَا هُمْ بِمُتَّبِعِينَ ۚ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ۚ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضْبٌ ۚ وَتَنَحُّنُ مِنَ الْجِبَالِ يُؤْتَا فُرْهَيْنَ ۚ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَاطِيعُونَ ۚ وَلَا تَطِيعُوا أَمْرَ الْمُشْرِكِينَ ۚ الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ۚ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ۚ مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا فَأْتِ بِآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصّٰدِقِينَ ۚ قَالَ هَٰذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ ۖ مَا يَشْرَبُ وَلَٰكِنَّ شَرْبَ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ۚ وَلَا تَسْهَوْا يَسْؤُوا فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ ۚ فَعَقَرُوهَا فَاصْبَحُوا نَدِيمِينَ ۚ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ ۖ إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ وَمَا كَانُوا أَكْثَرَهُمْ مُّؤْمِنِينَ ۚ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ۚ**

٣٧٣

قد أعطاهم قوة عظيمة، وكان الواجب عليهم أن يستعينوا بقوتهم على طاعة الله، ولكنهم فخروا واستكبروا وقالوا: من أشد منا قوة؟ واستعملوا قوتهم في معاصي الله وفي العيث والسفه؛ فلذلك نهاهم نبيهم عن ذلك. ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾: أتركوا شرككم وبطركم ﴿وَاطِيعُونَ﴾: حيث علمتم أني رسول الله إليكم أمين ناصح. ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَذْكُرُ﴾: أي: أعطاكم ﴿بِمَا تَعْلَمُونَ﴾: أي: أمدكم بما لا يجهل ولا ينكر من الأنعام، ﴿أَمْذَكُرُ بِأَنْتُمْ﴾: من إبل وبقر وغنم، ﴿وَبَيْنَ﴾: أي: وكثرة نسل؛ كثر أموالكم وكثر أولادكم؛ خصوصًا الذكور؛ أفضل القسمين. هذا تذكيرهم بالنعم، ثم ذكّرهم حلول عذاب الله فقال: ﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾: أي: إني من شفقتي عليكم، وبري بكم أخاف أن ينزل بكم عذاب عظيم. إذا نزل لا يرد إن استمررتم على كفركم وبغيكم.

١٣٧ - ﴿فَقَالُوا مَعَانِدِينَ لِلْحَقِّ مَكْذِبِينَ لِنَبِيِّهِمْ﴾: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعظْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ﴾: أي: الجميع على حد سواء؛ وهذا غاية العتو؛ فإن قومًا بلغت بهم الحال إلى أن صارت مواعظ الله التي تذيب الجبال الصم الصلاب، وتتصدع لها أفئدة أولي الألباب، وجودها وعدمها عندهم على حد سواء؛ لقوم انتهى ظلمهم واشتد شقاؤهم وانقطع الرجاء من هدايتهم، ولهذا قالوا: ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ﴾: أي: هذه الأحوال والنعم ونحو ذلك عادة الأولين؛ تارة يستغنون، وتارة يفتقرون، وهذه أحوال الدهر؛ لأن هذه محن ومنح من الله تعالى وابتلاء لعباده. ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ﴾: وهذا إنكار منهم للبعث، أو تنزل مع نبيهم وتهكم به؛ إنا على فرض أننا نبعث؛ فإننا كما أدركت علينا النعم في الدنيا؛ كذلك لا تزال مستمرة علينا إذا بعثنا.

١٣٨ - ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾: أي: صار التكذيب سجية لهم وخلقًا لا يردعهم عنه رادع؛ ﴿فَأَهْلَكْنَاهُمْ﴾: ﴿بِرِيحٍ صَارَ صَرْصَرًا عَالِيَةً ۖ سَخَرَهَا عَلَيْهِمْ سَمْعَ لَيْلٍ وَفُجْيَةً آتَاةٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أُعِجَابُ غَحَلٍ خَاوِيَةٍ﴾: [الحاقة: ٦، ٧]. ﴿إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ﴾: على صدق نبينا هود عليه السلام، وصحة ما جاء به، وبطلان ما عليه قومه من الشرك والجبروت. ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرَهُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾: مع وجود الآيات المقضية للإيمان، ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهوَ الْعَزِيزُ﴾: الذي أهلك بقوته قوم هود على قوتهم وبطشهم. ﴿الرَّحِيمُ﴾: بنبيه هود حيث نجاه ومن معه من المؤمنين.

﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ﴾: إلى آخر القصة.

١٣٩ - ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ﴾: القبيلة المعروفة في مداخل الحجر ﴿الْمُرْسَلِينَ﴾: كذبوا صالحا عليه السلام، الذي جاء بالتحيد، الذي دعت إليه المرسلون، فكان تكذيبهم له تكذيبًا للجميع، ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ﴾: في النسب برفق ولين: ﴿أَلَا تَتَّقُونَ﴾: الله تعالى وتدعون الشرك والمعاصي. ﴿إِنْ لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾: من الله ربكم، أرسلني إليكم لطفًا بكم ورحمة، فتلقوا رحمته بالقبول، وقابلوها بالإذعان. ﴿أَمِينٌ﴾: تعرفون ذلك مني، وذلك يوجب عليكم أن تؤمنوا بي وبما جئت به، ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾: فتقولوا: يمنعنا من اتباعك أنك تريد أخذ أموالنا. ﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾: أي: لا أطلب الثواب إلا منه.

﴿١٤٦﴾ - ﴿١٤٧﴾ أَتَذْكُرُونَ فِي مَا هُمْنَا ءَامِنِينَ ﴿١٤٦﴾ فِي جَنَّتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ وَزُودٍ وَخَلٍ طَلْعَهَا هَاضِمٌ ﴿١٤٨﴾؛ أي: تضيد كثير؛ أي: تحسبون أنكم تتركون في هذه الخيرات والنعم سدى تتعمون وتمتعون كما تتمتع الأنعام؟ وتتركون سدى لا تؤمرون ولا تنهون، وتستعينون بهذه النعم على معاصي الله، ﴿وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَرَهِينَ﴾ ﴿١٤٩﴾؛ أي: بلغت بكم الفراشة والحدق إلى أن اتخذتم بيوتًا من الجبال الصم الصلاب. ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ﴾ ﴿١٥٠﴾: الذين تجاوزوا الحد، ﴿الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ ﴿١٥١﴾؛ أي: الذين وصفهم ودأبهم الإفساد في الأرض بعمل المعاصي والدعوة إليها إفسادًا لا إصلاح فيه، وهذا أضر ما يكون؛ لأنه شر محض، وكان أناسًا عندهم مستعدون لمعارضة نبيهم. موضعون في الدعوة لسبيل الغي، فنهاهم صالح عن الاغترار بهم، ولعلمهم الذين قال الله فيهم: ﴿وَكُنَّا فِي الْآلِدِيَةِ سَعَةً رَهْطٌ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ ﴿١٥٢﴾ [النمل: ٤٨].

﴿١٥٣﴾ - ﴿١٥٤﴾ فلم يفد فيهم هذا النهي والوعظ شيئًا، فقالوا لصالح: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ﴾ ﴿١٥٣﴾؛ أي: قد سحرت فأنت تهذي بما لا معنى له، و﴿مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا﴾؛ أي: فأي فضيلة فقتنا بها حتى تدعونا إلى اتباعك، ﴿فَأَيُّ زَيَاةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ ﴿١٥٤﴾؛ هذا مع أن مجرد اعتبار حالته وحالة ما دعا إليه من أكبر الآيات البينات على صحة ما جاء به وصدقه، ولكنهم من قسوتهم سألوا آيات الاقتراح التي في الغالب لا يفلح من طلبها؛ لكون طلبه مبيتًا على التعنت لا على الاسترشاد.

﴿١٥٥﴾ - ﴿١٥٦﴾ فقال صالح: ﴿هَذِهِ نَاقَةٌ﴾: تخرج من صخرة صماء ملساء - تابعنا في هذا كثيرًا من المفسرين، ولا مانع من ذلك - ترونها وتشاهدونها بأجمعكم، ﴿لَهَا شَرِبٌ وَلَكُمْ شَرِبٌ يَوْمَ مَعْلُورٍ﴾ ﴿١٥٥﴾؛ أي: تشرب ماء البئر يومًا، وأنتم تشربون لبنها، ثم تصدر عنكم اليوم الآخر، وتشربون أنتم ماء البئر، ﴿وَلَا تَمْسُوهَا يُسُوءَ﴾: بعقر أو غيره، ﴿فَيَأْخُذْكُمْ عَذَابٌ يَوْمَ عَظِيمٍ﴾ ﴿١٥٦﴾.

﴿١٥٧﴾ - ﴿١٥٨﴾ فخرجت، واستمرت عندهم بتلك الحال، فلم يؤمنوا، واستمروا على طغيانهم، ﴿فَعَقَرُوهَا فَاصْبَحُوا سَاقِيَةً﴾ ﴿١٥٧﴾ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ ﴿١٥٨﴾: وهي صيحة نزلت عليهم فدمرتهم أجمعين. ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً﴾: على صدق ما جاءت به رسلنا وبطلان قول معارضيهم. ﴿وَمَا كَانَتْ أَكْثَرَهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ ﴿١٥٩﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٦٠﴾.

﴿كَذَبَتْ قَوْمٌ لُوطُ الْمُرْسَلِينَ﴾ ﴿١٦١﴾ إلى آخر القصة.

﴿١٦٢﴾ - ﴿١٦٣﴾ قال لهم وقالوا كما قال من قبلهم، تشابهت قلوبهم في الكفر، فتشابهت أقوالهم، وكانوا مع شركهم يأتون فاحشة لم يسبقهم إليها أحد من العالمين؛ يختارون نكاح الذكران المستقلز الخبيث، ويرغبون عما خلق لهم من أزواجهم؛ لإسرافهم وعدوانهم، فلم يزل ينهاهم حتى ﴿قَالُوا﴾: له: ﴿لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ﴾ ﴿١٦٢﴾؛ أي: من البلد.

﴿١٦٤﴾ - ﴿١٦٥﴾ فلما رأى استمرارهم عليه؛ ﴿قَالَ إِنِّي لَعَلِكُمْ مِنَ الْفَالِغِينَ﴾ ﴿١٦٤﴾؛ أي: المبغضين له الناهين عنه المحذرين، ﴿رَبِّ يَحْيَى وَأَهْلِي مِمَّا يَمْعَلُونَ﴾ ﴿١٦٥﴾: من فعله وعقوبته، فاستجاب الله له ﴿فَجِئْتَهُ وَآهْلُهُ أَجْمَعِينَ﴾ ﴿١٦٦﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَدِيرِ ﴿١٦٧﴾؛

﴿١٦٨﴾ كَذَبَتْ قَوْمٌ لُوطُ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٦٨﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطُ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٦٩﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٧٠﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَالْطَّيْعِينَ ﴿١٧١﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٧٢﴾ أَتَأْتُونَ الذَّكَرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿١٧٣﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رُبُّكُمْ مِنْ أَرْوَاحِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴿١٧٤﴾ قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ ﴿١٧٥﴾ قَالَ إِنِّي لَعَلِكُمْ مِنَ الْفَالِغِينَ ﴿١٧٦﴾ رَبِّ يَحْيَى وَأَهْلِي مِمَّا يَمْعَلُونَ ﴿١٧٧﴾ فَجِئْتَهُ وَآهْلُهُ أَجْمَعِينَ ﴿١٧٨﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَدِيرِ ﴿١٧٩﴾ ثُمَّ دَمَرْنَا الْآخَرِينَ ﴿١٨٠﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا مُسَوِّمًا ﴿١٨١﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٨٢﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٨٣﴾ كَذَبَ أَصْحَابُ لَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٨٤﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٨٥﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٨٦﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَالْطَّيْعِينَ ﴿١٨٧﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٨٨﴾ أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ ﴿١٨٩﴾ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ﴿١٩٠﴾ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْنُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿١٩١﴾

سورة الشعراء

سورة الشعراء

أي: الباقيين في العذاب، وهي امرأته. ﴿ثُمَّ دَمَرْنَا الْآخَرِينَ﴾ (١٧٦) وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا؛ أي: حجارة من سجيل، ﴿فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ﴾ (١٧٧)؛ أهلكهم الله عن آخرهم. ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (١٧٨) وَإِنَّ رَبَّكَ لَمَوْعِظٌ رَحِيمٌ﴾ (١٧٩).

﴿كَذَّبَ أَصْحَابُ لَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ﴾ (١٨٠) إلى آخر القصة.

(١٧٦) - (١٨٠) أصحاب الأيكة؛ أي: البساتين الملتفة أشجارها، وهم أصحاب مدين، فكذبوا نبيهم شعيبًا الذي جاء بما جاء به المرسلون. ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تُنْفِقُونَ﴾ (١٧٧): الله تعالى فتركو ما يسخطه ويغضبه من الكفر والمعاصي، ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ (١٧٨): يترتب على ذلك أن تتقوا الله، وتطيعوني.

(١٨١) - (١٨٤) وكانوا مع شركهم يخسون المكايل والموازين؛ لذلك قال لهم: ﴿أَوْفُوا الْكَيْلَ﴾؛ أي: أتموه وأكملوه، ﴿وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ﴾ (١٨١): الذين ينقصون الناس أموالهم ويسلبونها يخس المكيال والميزان، ﴿وَزِنُوا بِالْقِسْطِ أَسْتَقِيمَ﴾؛ أي: بالميزان العادل الذي لا يميل، ﴿وَأَتَقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِلَّةَ الْأُولَى﴾ (١٨٢)؛ أي: الخليفة الأولين؛ فكما انفرد بخلقكم وخلق من قبلكم من غير مشاركة له في ذلك؛ فأفردوه بالعبادة والتوحيد، وكما أنعم عليكم بالإيجاد والإمداد بالنعيم؛ فقابلوه بشكره.

(١٨٥) - (١٨٧) قالوا له مكذبين له رادين لقوله: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسْحَرِينَ﴾ (١٨٥)؛ فأنت تهذي وتكلم كلام المسحور الذي غايته ألا يؤخذ به، ﴿وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا﴾؛ فليس فيك فضيلة اختصاصت بها علينا حتى تدعونا إلى اتباعك. وهذا مثل قول من قبلهم ومن بعدهم، ممن عارضوا الرسل بهذه الشبهة، التي لم يزالوا يدلون بها ويصولون ويتفقون عليها؛ لاتفاقهم على الكفر، وتشابه قلوبهم، وقد أجابت عنها الرسل بقولهم: ﴿إِنْ تَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ [إبراهيم: ٢١]. ﴿وَإِنْ تَنْظُرُكَ لَمِنَ الْكَذِبِينَ﴾ (١٨٦)؛ وهذا جراءة منهم وظلم وقول زور، قد انطروا على خلافه؛ فإنه ما من رسول من الرسل واجه قومه ودعاهم وجادلهم وجادلوه؛ إلا وقد أظهر الله على يديه من الآيات ما به يتيقنون صدقه وأمانته، خصوصًا شعيبًا عليه السلام، الذي يسمى خطيب الأنبياء؛ لحسن مراجعته قومه ومجادلتهم بالتالي هي أحسن؛ فإن قومه قد يتيقنوا صدقه وأن ما جاء به حق، ولكن إخبارهم عن ظن كذبه كذب منهم. ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ﴾؛ أي: قطع عذاب تستأصلنا، ﴿إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ (١٨٧)؛ كقول إخوانهم: ﴿وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِن كَانَتْ هَذِهِ حَقًّا مِنْ عِنْدِكَ فَامْطَرْ عَلَيْنَا جِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوْ آتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ (١٨٨) [الأنفال: ٣٢]، أو أنهم طلبوا بعض آيات الاقتراح التي لا يلزم تميم مطلوب من سألها.

(١٨٨) ﴿قَالَ﴾ شعيب عليه السلام: ﴿رَبِّي أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ (١٨٨)؛ أي: نزول العذاب ووقوع آيات الاقتراح لست أنا الذي أتى بها وأنزلها بكم، وليس عليّ إلا تبليغكم ونصحكم، وقد فعلت، وإنما الذي يأتي بها ربي، العالم بأعمالكم وأحوالكم، الذي يجازيكم ويحاسبكم.

(١٨٩) - (١٩١) ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾؛ أي: صار التكذيب لهم وصفًا، والكفر لهم ديدنًا، بحيث لا تنفذهم الآيات، وليس بهم حيلة إلا نزول العذاب، ﴿فَأَخَذَهُمْ عَذَابٌ يَوْمَ الظُّلَّةِ﴾؛ أظلمتهم سحابة، فاجتمعوا تحتها مستلذين لظلمها غير الظليل، فأحرقتهم

أمن أن يزيد فيه أو ينقص ﴿عَلَىٰ قَلِيلِكَ﴾: يا محمد ﴿لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ﴾ ﴿١٩٢﴾: تهدي به إلى طريق الرشاد وتنذر به عن طريق الغي، ﴿يَلْسَانِ عَرَبِيٍّ﴾: وهو أفضل الألسنة، بلغة من بعث إليهم وياشر دعوتهم أصلاً، اللسان البين الواضح.

وتأمل كيف اجتمعت هذه الفضائل الفاخرة في هذا الكتاب الكريم؛ فإنه أفضل الكتب، نزل به أفضل الملائكة، على أفضل الخلق، على أفضل بضعة فيه، وهي قلبه على أفضل أمة أخرجت للناس، بأفضل الألسنة وأفصحها وأوسعها، وهو اللسان العربي المبين.

﴿وَلَئِنَّ لَئِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ﴾ ﴿١٩٦﴾: أي: قد بشرت به كتب الأولين وصدقته، وهو لما نزل طبق ما أخبرت به، صدقها، بل جاء بالحق وصدق المرسلين.

﴿أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةٌ﴾: على صحته وأنه من الله ﴿أَن يَأْتِيَهُمْ عِلْمُ بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ ﴿١٩٧﴾: الذين قد انتهى إليهم العلم، وصاروا أعلم الناس، وهم أهل الصنف؛ فإن كل شيء يحصل به اشتباه يرجع فيه إلى أهل الخبرة والدراية، فيكون قولهم حجة على غيرهم؛ كما عرف السحرة الذين مهرؤا في علم السحر صدق معجزة موسى، وأنه ليس بسحر؛ فقول الجاهلين بعد هذا لا يؤبه به.

﴿وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَىٰ بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ﴾ ﴿١٩٨﴾: الذين لا يفقهون لسانهم ولا يقدرون على التعبير لهم كما ينبغي. ﴿فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ﴾ ﴿١٩٩﴾: يقولون ما نفقه ما يقول ولا ندري ما يدعو إليه؛ فليحمدوا ربهم أن جاءهم على لسان أفصح الخلق وأقدرهم على التعبير على المقاصد بالعبارات الواضحة وأنصحهم، وليبادروا إلى التصديق به وتلقيه بالتسليم والقبول.

﴿٢٠٠﴾ - ﴿٢٠١﴾ ولكن تكذيبهم له من غير شبهة إن هو إلا محض الكفر والعناد وأمر قد توارثته الأمم المكذبة؛ فلهذا قال: ﴿كَذَٰلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُخْرِجِينَ﴾ ﴿٢٠٢﴾: أي: أدخلنا التكذيب وأنظمناه في قلوب أهل الإجماع، كما يدخل السلك في الإبرة، فنشربته، وصار وصفاً لها، وذلك بسبب ظلمهم وجرمهم؛ فلذلك ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ ﴿٢٠٣﴾: على تكذيبهم، ﴿فَيَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ ﴿٢٠٤﴾: أي: يأتيهم على حين غفلة وعدم إحساس منهم ولا استشعار بنزوله؛ ليكون أبلغ في عقوبتهم والنكال بهم، ﴿فَيَقُولُوا﴾: إذ ذاك: ﴿هَلْ نَحْنُ مُنْظَرُونَ﴾ ﴿٢٠٥﴾: أي:

بالعذاب، فظلوا تحتها خامدين، ولديارهم مفارقين، ولدلدار الشقاء والعذاب نازلين، ﴿لَئِنَّهُ كَانَ عَذَابٌ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ ﴿١٩٩﴾: لا كرة لهم إلى الدنيا فيستأنفوا العمل، ولا يفترون عنهم العذاب ساعة ولا هم ينظرون. ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً﴾: دالة على صدق شعيب وصحة ما دعا إليه وبطلان رد قومه عليه، ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾ ﴿٢٠٠﴾: مع رؤيتهم الآيات؛ لأنهم لا زكاء فيهم ولا خير لديهم؛ ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿٢٠١﴾ [يوسف: ١٠٣]. ﴿وَلَا رَيْبَ لَكَ هُوَ الْأَمِيرُ﴾: الذي امتنع بقوته عن إدراك أحد وقهر كل مخلوق. ﴿الرَّحِيمُ﴾ ﴿٢٠٢﴾: الذي الرحمة وصفه، ومن آثارها جميع الخيرات في الدنيا والآخرة، من حين أوجد الله العالم إلى ما لا نهاية له، ومن عزته أن أهلك أعداءه حين كذبوا رسله، ومن رحمته أن نجى أوليائه ومن اتبعهم من المؤمنين.

﴿وَلَئِنَّهُ لَنَزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿٢٠٣﴾: نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿٢٠٤﴾ عَلَىٰ قَلِيلِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿٢٠٥﴾ يَلْسَانِ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿٢٠٦﴾ وَلَئِنَّهُ لَئِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ ﴿٢٠٧﴾ أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةٌ أَن يَأْتِيَهُمْ عِلْمُ بَنِي إِسْرَءِيلَ ﴿٢٠٨﴾ وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَىٰ بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ ﴿٢٠٩﴾ فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا بِهِ مُّؤْمِنِينَ ﴿٢١٠﴾ كَذَٰلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُخْرِجِينَ ﴿٢١١﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٢١٢﴾ فَيَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢١٣﴾ فَيَقُولُوا هَلْ نَحْنُ مُنْظَرُونَ ﴿٢١٤﴾.

﴿٢١٥﴾ لما ذكر قصص الأنبياء مع أممهم، وكيف دعوهم [وما] ردوا عليهم به، وكيف أهلك الله أعداءهم وصارت لهم العاقبة؛ ذكر هذا الرسول الكريم والنبى المصطفى العظيم وما جاء به من الكتاب الذي فيه هداية لأولي الألباب، فقال: ﴿وَلَئِنَّهُ لَنَزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿٢١٦﴾: فالذي أنزله فاطر الأرض والسموات، المربي جميع العالم العلوي والسفلي، وكما أنه رباهم بهدائيتهم لمصالح دنياهم وأبدانهم؛ فإنه يريهم أيضاً بهدائيتهم لمصالح دينهم وأخراهم، ومن أعظم ما رباهم به إنزال هذا الكتاب الكريم، الذي اشتمل على الخير الكثير والبر الغزير، وفيه من الهداية لمصالح الدارين والأخلاق الفاضلة ما ليس في غيره، وفي قوله: ﴿وَلَئِنَّهُ لَنَزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿٢١٧﴾ من تعظيمه وشدة الاهتمام فيه من كونه نزل من الله لا من غيره مقصوداً فيه نفعكم وهدايتكم.

﴿٢١٨﴾ - ﴿٢١٩﴾ ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ﴾ ﴿٢٢٠﴾: وهو جبريل عليه السلام، الذي هو أفضل الملائكة وأقواهم، الأمين الذي قد

يطلبون أن ينظروا ويمهلوا، والحال أنه قد فات الوقت، وحل بهم العذاب الذي لا يرفع عنهم، ولا يُقتر ساعة.

﴿ أَفَعِدَّائِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴾ (٢٠٤) أَفَرَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ ﴿ ٢٠٥ ﴾ ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿ ٢٠٦ ﴾ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَمْتَنُونَ ﴿ ٢٠٧ ﴾

﴿ ٢٠٤ ﴾ يقول تعالى: ﴿ أَفَعِدَّائِنَا ﴾: الذي هو العذاب الأليم العظيم الذي لا يستهان به ولا يحتقر ﴿ يَسْتَعْجِلُونَ ﴾ (٢٠٤) ﴿ ٢٠٥ ﴾ فما الذي غرهم؟! هل فيهم قوة وطاقة للصبر عليه؟! أم عندهم قوة يقدرّون على دفعه أو رفعه إذا نزل؟! أم يعجزوننا ويظنون أننا لا نقدر على ذلك؟! ﴿ ٢٠٦ ﴾ - ﴿ ٢٠٧ ﴾

﴿ ٢٠٥ ﴾ - ﴿ ٢٠٦ ﴾ أَفَرَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ ﴿ ٢٠٥ ﴾؟ أي: أفرايت إذا لم نستعجل عليهم بإنزال العذاب وأمهلتهم عدة سنين يتمتعون في الدنيا، ﴿ ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ ﴾ (٢٠٦): من العذاب، ﴿ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَمْتَنُونَ ﴾ (٢٠٧): من اللذات والشهوات؛ أي: أي شيء تغني عنهم وتفيدهم، وقد مضت وبطلت واضمحلت، وأعقت تبعاتها، وضوعف لهم العذاب عند طول المدة. القصد أن الحذر من وقوع العذاب واستحقاقهم له، وأما تعجيله أو تأخيره؛ فلا أهمية تحته، ولا جدوى عنده.

﴿ وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرَبَةٍ إِلَّا هَا مُنْذِرُونَ ﴾ (٢٠٨) ذَكَرْنِي وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿ ٢٠٩ ﴾ وَمَا نَنْزِلُكَ بِهِ الشَّيْطَانُ ﴿ ٢١٠ ﴾ وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿ ٢١١ ﴾ إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمْعَزُولُونَ ﴿ ٢١٢ ﴾

﴿ ٢٠٨ ﴾، ﴿ ٢٠٩ ﴾ يخبر تعالى عن كمال عدله في إهلاك المكذبين، وأنه ما أوقع بقرية هلاكاً وعذاباً إلا بعد أن يُعْذِرَ منهم، ويبعث فيهم النذر بالآيات البينات، فيدعونهم إلى الهدى، وينهونهم عن الردى، ويذكرونهم بآيات الله، وينبهونهم على أيامه في نعمه ونقمه. ﴿ ذَكَرْنِي ﴾: لهم وإقامة حجة عليهم، ﴿ وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴾ (٢٠٩): فنهلك القرى قبل أن ننذرهم ونأخذهم وهم غافلون عن النذر؛ كما قال تعالى: ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ تَبْعَثَ رَسُولًا ﴾ (١٥٠) ﴿ [الاسراء: ١٥٠] ﴾، ﴿ رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ ﴾ [النساء: ١٦٥].

﴿ ٢١٠ ﴾ - ﴿ ٢١١ ﴾ ولما بين تعالى كمال القرآن وجلالته؛ نزّه عن كل صفة نقص، وحماه وقت نزوله وبعد نزوله من شياطين الجن والإنس، فقال: ﴿ وَمَا نَنْزِلُكَ بِهِ الشَّيْطَانُ ﴾ (٢١٠) وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ؟ أي: لا يليق بحالهم ولا يناسبهم، ﴿ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴾ (٢١١): ذلك ﴿ إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمْعَزُولُونَ ﴾ (٢١٢): قد أبعدها عنه، وأعدت لهم الرجوم لحفظه، ونزل به جبريل أقوى الملائكة، الذي لا يقدر شيطان أن يقربه أو يحوم حول ساحته، وهذا كقوله: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ (٩) ﴿ [الحجر: ٩]. ﴾

﴿ فَلَا نَنْفَعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَكُونُ مِنَ الْمُعَذِّبِينَ ﴾ (٢١٣) وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴿ ٢١٤ ﴾ وَخَفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿ ٢١٥ ﴾ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ ﴿ ٢١٦ ﴾

﴿ ٢١٣ ﴾ ينهى تعالى رسوله أصلاً وأمثه أسوة له في ذلك عن دعاء غير الله من جميع المخلوقين، وأن ذلك موجب للعذاب الدائم والعقاب السرمدي؛ لكونه شركاً، ﴿ وَمَنْ يَشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ ﴾ [المائدة: ٧٢]، والنهي عن

﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ﴾ (٢١٧) الَّذِي يَرِنَكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقْلُبُكَ فِي السَّجْدِينَ ﴿٢١٩﴾ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٢٢٠﴾ .

﴿٢١٧﴾ أعظم مساعد للعبد على القيام بما أمر به الاعتماد على ربه والاستعانة بمولاه على توفيقه للقيام بالمأمور؛ فلذلك أمر الله تعالى بالتوكل عليه، فقال: ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ﴾ (٢١٧)؛ والتوكل هو اعتماد القلب على الله تعالى في جلب المنافع ودفع المضار، مع ثقته به وحسن ظنه بحصول مطلوبه؛ فإنه عزيز رحيم؛ بعزته يقدر على إيصال الخير ودفع الشر عن عبده، وبرحمته به يفعل ذلك.

﴿٢١٨﴾ - ﴿٢١٩﴾ ثم نبهه على الاستعانة باستحضار قرب الله والنزول في منزل الإحسان، فقال: ﴿ الَّذِي يَرِنَكَ حِينَ تَقُومُ ﴾ (٢١٨) وَتَقْلُبُكَ فِي السَّجْدِينَ ﴿٢١٩﴾؛ أي: يراك في هذه العبادة العظيمة، التي هي الصلاة؛ وقت قيامك وتقلبك راکعاً وساجداً؛ خصها بالذكر لفضلها وشرفها، ولأن من استحضر فيها قرب ربه؛ خشع وذل وأكملها، وبتكميلها يكمل سائر عمله، ويستعين بها على جميع أموره. ﴿ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ ﴾؛ لسائر الأصوات على اختلافها وتشتتها وتنوعها. ﴿ الْعَلِيمُ ﴾ (٢١٩)؛ الذي أحاط بالظواهر والبواطن والغيب والشهادة. فاستحضر العبد رؤية الله له في جميع أحواله، وسمعه لكل ما ينطق به، وعلمه بما ينطوي عليه قلبه من الهم والعزم والنيات؛ مما يعينه على منزلة الإحسان.

﴿ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ ﴾ (٢٢١) تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾ يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْتَرُهُمْ كِذْبُوتٌ ﴿٢٢٣﴾ وَالشَّعْرَاءُ يَبْهِيهِمُ الْغَاوُونَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا ﴿٢٢٧﴾ وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ ﴿٢٢٨﴾ .

هذا جواب لمن قال من مكذبي الرسول: إن محمداً ينزل عليه شيطان، وقول من قال: إنه شاعر.

﴿٢٢١﴾ - ﴿٢٢٢﴾ فقال: ﴿ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ ﴾؛ أي: أخبركم الخبر الحقيقي الذي لا شك فيه ولا شبهة على من تنزل الشياطين عليه؛ أي: بصفة الأشخاص الذين تنزل عليهم الشياطين. ﴿ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴾؛ أي: كذاب كثير القول للزور والإفك بالباطل، ﴿ أَثِيمٍ ﴾ (٢٢٢)؛ أي: في فعله كثير المعاصي. هذا الذي

الشيء أمر بضده؛ فالنهي عن الشرك أمر بإخلاص العبادة لله وحده لا شريك له؛ محبة وخوفاً ورجاء وذلاً وإنابة إليه في جميع الأوقات.

﴿٢١٩﴾ ولما أمره بما فيه كمال نفسه؛ أمره بتكميل غيره، فقال: ﴿ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴾ (٢١٩)؛ الذين هم أقرب الناس إليك، وأحقهم بإحسانك الديني والدنيوي، وهذا لا ينافي أمره بإنذار جميع الناس؛ كما إذا أمر الإنسان بعموم الإحسان، ثم قيل له: أحسن إلى قرابتك؛ فيكون هذا الخصوص دالاً على التأكيد وزيادة الحث. فامتثل ﷺ هذا الأمر الإلهي، فدعا سائر بطون قريش، فعمم وخصص، وذكرهم ووعظهم، ولم يُبقِ ﷺ من مقدوره شيئاً من نصيحهم وهدايتهم إلا فعله، فاهتدى من اهتدى، وأعرض من أعرض.

﴿٢٢٠﴾ ﴿ وَأَخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (٢٢٠) بلين جانبك، ولطف خطابك لهم وتوددك وتحببك إليهم وحسن خلقك والإحسان التام بهم، وقد فعل ﷺ ذلك؛ كما قال تعالى: ﴿ فِيمَا رَحِمَهُ مِنَ اللَّهِ لَئِنْ لَمْ يَأْمُرْكَ اللَّهُ فَمَا لَتُفَضِّلَ الْقَلْبُ لَا تَقْضُوا مِنْ حَوْلِكَ فَأَعُفَّ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرَ لَهُمْ وَشَاوَرَهُمْ فِي الْأَمْرِ ﴾ [آل عمران: ١٥٩]؛ فهذه أخلاقه ﷺ أكمل الأخلاق التي يحصل بها من المصالح العظيمة ودفع المضار ما هو مشاهد؛ فهل يليق بمؤمن بالله ورسوله يدعي اتباعه والافتداء به أن يكون كلاً على المسلمين، شرس الأخلاق، شديد الشكيمة عليهم، غليظ القلب، فظ القول فظيعه، وإن رأى منهم معصية أو سوء أدب؛ هجرهم ومقتهم وأبغضهم، لا لين عنده، ولا أدب لديه، ولا توفيق؛ قد حصل من هذه المعاملة من المفساد وتعطيل المصالح ما حصل، ومع ذلك تجده محتقراً لمن اتصف بصفات الرسول الكريم، وقد رماه بالنفاق والمداينة، وذكر نفسه ورفعها وأعجب بعمله!؟ فهل يعد هذا إلا من جهله وتزين الشيطان وخدعه له!؟

﴿٢٢١﴾ ولهذا قال الله لرسوله: ﴿ فَإِنْ عَصَاكَ ﴾؛ أي: في أمر من الأمور؛ فلا تتبرأ منهم، ولا تترك معاملتهم بخفض الجناح ولين الجانب، بل تبرأ من عملهم؛ فعظهم عليه، وانصحبهم، وابذل قدرتك في ردهم عنه وتوبتهم منه. وهذا لدفع احتراز وهم من يتوهم أن قوله: ﴿ وَأَخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الحجر: ٨٨]؛ يقتضي الرضاء بجميع ما يصدر منهم ما داموا مؤمنين، فدفع هذا بهذا. والله أعلم.

حاله حالة الشعراء أو يقاربهم؟ أم هو مخالف لهم من جميع الوجوه؟ فصلوات الله وسلامه على هذا الرسول الأكمل، والهمام الأفضل، أبد الأبدین، ودهر الدهرين، الذي ليس بشاعر ولا ساحر ولا مجنون، ولا يليق به إلا كل كمال.

﴿٢٢٧﴾ ولما وصف الشعراء بما وصفهم به؛ استثنى منهم من آمن بالله ورسوله وعمل صالحاً وأكثر من ذكر الله وانتصر من أعدائه المشركين من بعد ما ظلموهم، فصار شعرهم من أعمالهم الصالحة وآثار إيمانهم؛ لاشتماله على مدح أهل الإيمان والانتصار من أهل الشرك والكفر والذب عن دين الله وتبيين العلوم النافعة والحث على الأخلاق الفاضلة، فقال: ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا وَسِعَعُوا لِلَّذِينَ ظَلَمُوا أَيْ مُنْقَلَبٍ يَقْبَلُونَ﴾ ﴿٢٢٨﴾ إلى موقف وحساب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ولا حقاً إلا استوفاه. والحمد لله رب العالمين.



تفسير سورة النمل

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿طَسَّ تِلْكَ مَا يَنْتِ الْقُرْآنَ وَكِتَابٍ مُبِينٍ﴾ ﴿١﴾ هُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ رَبَّنَا لَهُمْ أَعْمَالُهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ ﴿٤﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَهُمْ سُوءُ الْعَذَابِ وَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمْ الْآخَسُونَ ﴿٥﴾ وَلِئِكَ لَلْقَى الْقُرْآنُ مِنَ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴿٦﴾

﴿١﴾ ينه تعالى عباده على عظمة القرآن، ويشير إليه إشارة دالة على التعظيم، فقال: ﴿تِلْكَ مَا يَنْتِ الْقُرْآنَ وَكِتَابٍ مُبِينٍ﴾ ﴿١﴾ أي: هي أعلى الآيات وأقوى البينات وأوضح الدلالات وأبينها على أجل المطالب وأفضل المقاصد وخير الأعمال وأزكى الأخلاق؛ آيات تدل على الأخبار الصادقة والأوامر الحسنة والنهي عن كل عمل وخيم وخلق ذميم، آيات بلغت في وضوحها وبيانها للبصائر النيرة مبلغ

تنزل عليه الشياطين وتناسب حاله حالهم. ﴿يُلْقُونَ﴾ عليه ﴿السَّعَ﴾: الذي يسترقونه من السماء، ﴿وَكَثُرَتْهُمْ كَثُورٌ﴾ ﴿١٢٣﴾ أي: أكثر ما يلقون إليه كذب، فيصدق واحدة ويكذب معها مائة، فيختلط الحق بالباطل، ويضمحل الحق بسبب قلته وعدم علمه. فهذه صفة الأشخاص الذين تنزل عليهم الشياطين، وهذه صفة وحيم له.

وأما محمد ﷺ؛ فحاله مביانة لهذه الأحوال أعظم مביانة؛ لأنه الصادق الأمين البار الراشد، الذي جمع بين بر القلب وصدق اللهجة ونزاهة الأفعال من المحرم، والوحي الذي ينزل عليه من عند الله ينزل محروساً محفوظاً مشتملاً على الصدق العظيم الذي لا شك فيه ولا ريب؛ فهل يستوي يا أهل العقول هذا وأولئك؟! وهل يشتبهان إلا على مجنون لا يميز ولا يفرق بين الأشياء؟!

﴿٢٢٨﴾ - ﴿٢٢٩﴾ فلما نزهه عن نزول الشياطين عليه؛ برأه أيضاً من الشعر، فقال: ﴿وَالشُّعْرَاءُ﴾؛ أي: هل أنبتكم أيضاً عن حالة الشعراء ووصفهم الثابت؛ فإنهم ﴿يَنْتَعِمُونَ الْقَاوُونَ﴾ ﴿٢٢٩﴾: عن طريق الهدى، المقبلون على طريق الغي والردى؛ فهم في أنفسهم غاؤون، وتجد أتباعهم كل غاو ضال فاسد. ﴿أَلَمْ تَرَ﴾: غوايتهم وشدة ضلالهم، ﴿أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ﴾: من أودية الشعر ﴿يَهَيِّثُونَ﴾ ﴿٢٣٠﴾ فتارة في مدح، وتارة في قدح، وتارة في صدق، وتارة في كذب، وتارة يتغزلون، وأخرى يسخرون، ومرة يمرحون، وآونة يحزنون؛ فلا يستقر لهم قرار، ولا يشتون على حال من الأحوال. ﴿وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ﴾ ﴿٢٣١﴾؛ أي: هذا وصف الشعراء: أنهم تخالف أقوالهم أفعالهم؛ فإذا سمعت الشاعر يتغزل بالغزل الرقيق؛ قلت: هذا أشد الناس غراماً، وقلبه فارغ من ذلك، وإذا سمعته يمدح أو يذم؛ قلت: هذا صدق! وهو كذب. وتارة يتمدح بأفعال لم يفعلها، وتروك لم يتركها، وكرم لم يحم حول ساحته، وشجاعة يعلو بها على الفرسان، وتراه أجبن من كل جبان. هذا وصفهم؛ فانظر هل يطابق حالة الرسول محمد ﷺ الراشد البار، الذي يتبعه كل راشد ومهتد، الذي قد استقام على الهدى وجانب الردى ولم تتناقض أفعاله، ولم تخالف أقواله أفعاله؛ الذي لا يأمر إلا بالخير، ولا ينهى إلا عن الشر، ولا أخبر بشيء إلا بصدق، ولا أمر بشيء إلا كان أول الفاعلين له، ولا نهى عن شيء إلا كان أول التاركين له؛ فهل تناسب

سورة النمل

الحزب التاسع عشر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

طَسَّ يَٰذَاكَ ءَايَتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابِ تُبَيِّنُ ١ هُدًى وَنُذِيرٌ
لِّلْمُؤْمِنِينَ ٢ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ
بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ٣ إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ
أَعْمَالَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ ٤ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَهُمْ سُوءُ الْعَذَابِ
وَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمْ الْآخَسُونَ ٥ وَإِلَٰكَ لَنُلْقِي الْقُرْآنَ مِن
لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ٦ إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِي عِزِّي ءَأَنْتُمْ نَارًا سَتَائِدُكُمُ
مِّنْهَا يَخَبَّرُونَ أَوْ ءَاتِيكُمْ بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ٧ فَلَمَّا
جَاءَهَا نُورٌ أَنْ يُورِكَ مِنَ الْنَارِ وَوَعَدَهَا رَبُّهَا بِبَشَاطَةٍ لَّا تُخَفَّفُ
أَلَعَلَّيْنِ ٨ يَمْشِي بَيْنَهُمَا أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ٩ وَأَلْقَىٰ عَصَاهُ
فَلَمَّا رَأَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّىٰ مُدِرًّا وَلََّ رِعْقَبٌ يَمْشِي لَا تَخَفُ
إِلَّا بِي لَأَيُّهَا لَدَى الرَّسُولِ ١٠ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ ثُمَّ بَدَلْ حُسْبًا بَعْدَ
سُوءِ قَوْلِي غَفُورٌ رَّحِيمٌ ١١ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ
مِنْ غَيْرِ سُوءٍ فِي تَيْسَعِ آيَاتِ إِلَٰهِكَ وَرُءُوفٍ مَّهِيمٍ ١٢ كَاوَأَ قَوْمًا مُّشْرِكِينَ
١٣ فَلَمَّا جَاءَهُمْ ءَايَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَٰذَا إِلَٰهُنَّ مُّشْرِكُونَ ١٤

٣٧٧

الشمس للأبصار، آيات دلت على الإيمان ودعت للوصول إلى الإيقان وأخبرت عن الغيوب الماضية والمستقبلية على طبق ما كان ويكون، آيات دعت إلى معرفة الرب العظيم بأسمائه الحسنی وصفاته العليا وأفعاله الكاملة، آيات عرّفتنا برسله وأوليائه ووصفتهم حتى كأننا ننظر إليهم بأبصارنا.

٢ ولكن مع هذا؛ لم ينتفع بها كثير من العالمين، ولم يهتد بها جميع المعاندين؛ صوتًا لها عَمَّنْ لا خير فيه ولا صلاح ولا زكاء في قلبه، وإنما اهتدى بها من خصهم الله بالإيمان واستنارت بذلك قلوبهم، وصفت سرائرهم، فلماذا قال: ﴿هُدًى وَنُذِيرٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ ٢؛ أي: تهديهم إلى سلوك الصراط المستقيم، وتبين لهم ما ينبغي أن يسلكوه أو يتركوه، وتبشرهم بشواب الله. المرتب على الهداية لهذا الطريق.

٣ ربما قيل: لعله يكثر مدعو الإيمان؛ فهل يقبل من كل أحد ادعى أنه مؤمن ذلك؟ أم لا بد لذلك من دليل وهو الحق؟ فلذلك بين تعالى صفة المؤمنين، فقال: ﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ﴾: فرضها ونفلها؛ فيأتون بأفعالها الظاهرة من أركانها وشروطها وواجباتها بل ومستحباتها وأفعالها الباطنة وهو الخشوع الذي هو روحها ولبها؛ باستحضار قرب الله وتدبر ما يقوله المصلي ويفعله، ﴿وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾:

المفروضة لمستحقها. ﴿وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ ٣؛ أي: قد بلغ معهم الإيمان إلى أن وصل إلى درجة اليقين، وهو العلم التام الواصل إلى القلب الداعي إلى العمل، ويقينهم بالآخرة يقتضي كمال سعيهم لها وحذرهم من أسباب العذاب وموجبات العقاب، وهذا أصل كل خير.

٤ ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾: ويكذبون بها ويكذبون من جاء بإثباتها؛ ﴿زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ﴾ ٤؛ حائرين، مترددين، مؤثرين سخط الله على رضاه، قد انقلبت عليهم الحقائق، فرأوا الباطل حقًا والحق باطلاً.

٥ ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَهُمْ سُوءُ الْعَذَابِ﴾ ٥؛ أي: أشده وأسوأه وأعظمه، ﴿وَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمْ الْآخَسُونَ﴾ ٥؛ حصر الخسار فيهم، لكونهم خسروا أنفسهم وأهلبيهم يوم القيامة، وخسروا الإيمان الذي دعتهم إليه الرسل.

٦ ﴿وَإِلَٰكَ لَنُلْقِي الْقُرْآنَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾ ٦؛ أي: وإن هذا القرآن الذي ينزل عليك، وتلقفه وتلقنه ينزل من عند حكيم، يضع الأشياء مواضعها، وينزلها منازلها، ﴿عَلِيمٍ﴾ بأسرار الأمور وبواطنها كظواهرها. وإذا كان من عند حكيم عَلِيمٍ ٦؛ علم أنه كله حكمة ومصالح للعباد من الذي هو أعلم بمصالحهم منهم.

٧ ﴿إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِي عِزِّي ءَأَنْتُمْ نَارًا﴾ إلى آخر قصته.

٧ يعني: اذكر هذه الحالة الفاضلة الشريفة من أحوال موسى بن عمران؛ ابتداء الوحي إليه واصطفائه برسالته وتكليم الله إياه، وذلك أنه لما مكث في مدين عدة سنين، وسار بأهله من مدين متوجهاً إلى مصر، فلما كان في أثناء الطريق؛ ضل، وكان في ليلة مظلمة باردة، فقال لهم: ﴿إِنِّي ءَأَنْتُمْ نَارًا﴾ ٧؛ أي: أبصرت نارًا من بعيد، ﴿سَتَائِدُكُمْ مِّنْهَا يَخَبَّرُونَ﴾: عن الطريق، ﴿أَوْ ءَاتِيكُمْ بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ ٧؛ أي: تستدفئون، وهذا دليل على أنه تائه ومشدد برده وأهله.

كَاثِرًا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿١٦﴾ فسقوا بشركهم وعتوهم وعلوهم على عباد الله واستكبارهم في الأرض بغير الحق.

﴿١٦﴾ فذهب موسى عليه السلام إلى فرعون وملئه، ودعاهم إلى الله تعالى، وأراههم الآيات، ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ ءَايَاتُنَا مُبْصِرَةً﴾: مضئية تدل على الحق ويُبَصِّرُ بها كما تبصر الأبصار بالشمس، ﴿قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ ﴿١٧﴾: لم يكفهم مجرد القول بأنه سحر، بل قالوا: مبين ظاهر لكل أحد! وهذا من أعجب العجائب؛ الآيات المبصرات والأنوار الساطعات تجعل من أبين الخزعلات وأظهر السحر، هل هذا إلا من أعظم المكابرة وأوقع السفسطة؟!

﴿١٧﴾ وَجَحَدُوا بِهَا؛ أي: كفروا بآيات الله جاحدين لها، ﴿وَأَسْتَفْتَتْهَا أَنْفُسُهُمْ﴾؛ أي: ليس جحدهم مستنداً إلى الشك والريب، وإنما جحدهم مع علمهم وتيقنهم بصحتها ﴿ظُلُمًا﴾: منهم لحق ربهم ولأنفسهم، ﴿وَعُلُوًّا﴾: على الحق وعلى العباد وعلى الانقياد للرسول. ﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ ﴿١٨﴾: أسوأ عاقبة؛ دمرهم الله، وغرقهم في البحر، وأخزاهم، وأورث مساكنهم المستضعفين من عبادهم.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُدَ...﴾ إلى آخر القصة.

﴿١٩﴾ يذكر في هذا القرآن وينوه بمتته على داود وسليمان ابنه بالعلم الواسع الكثير؛ بدليل التنكير؛ كما قال تعالى: ﴿وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَخْتَصِمَانِ فِي الْخَرْثِ إِذْ نَفَسَتْ فِيهِمْ غَمُّ الْقَوْمِ وَكَأَنَّ لِحُكْمِهِمْ شَهِيدِينَ﴾ ﴿٢٠﴾ ففهمتها سُلَيْمَانُ وَكَأَنَّ ءَايَاتِنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ﴿٢١﴾ الآيتان [الأنبياء: ٧٨، ٧٩]. وقالوا شاكرين لربهما متته الكبرى بتعليمهما: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿٢٢﴾: فحمدوا الله على جعلهما من المؤمنين أهل السعادة، وأنهم كانوا من خواصهم. ولا شك أن المؤمنين أربع درجات: الصالحون، ثم فوقهم الشهداء، ثم فوقهم الصديقون، ثم فوقهم الأنبياء. وداود وسليمان من خواص الرسل، وإن كانوا دون درجة أولي العزم الخمسة، لكنهم من جملة الرسل الفضلاء الكرام، الذين نوه الله بذكرهم ومدحهم في كتابه مدحاً عظيماً، فحمدوا الله على بلوغ هذه المنزلة، وهذا عنوان سعادة العبد: أن يكون شاكراً لله على نعمه الدينية والدنيوية، وأن يرى جميع النعم من ربه؛ فلا يفخر بها ولا يعجب بها، بل يرى أنها تستحق عليه شكراً كثيراً.

﴿٨﴾ ﴿فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَن بُورِكَ مَن فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾؛ أي: ناداه الله تعالى وأخبره أن هذا محل مقدس مبارك، ومن بركته أن جعله الله موضعاً لتكليم الله لموسى وندائه وإرساله. ﴿وَسَبِّحْنَا اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿٩﴾: عن أن يظن به نقص أو سوء، بل هو الكامل في وصفه وفعله.

﴿٩﴾ ﴿يَسُوعَىٰ إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ ﴿١٠﴾؛ أي: أخبره الله أنه الله المستحق للعبادة وحده لا شريك له؛ كما في الآية الأخرى: ﴿إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾ ﴿١١﴾ [طه: ١٤]. ﴿الْعَزِيزُ﴾: الذي قهر جميع الأشياء وأذعنت له كل المخلوقات. ﴿الْحَكِيمُ﴾: في أمره وخلقه، ومن حكمته أن أرسل عبده موسى بن عمران، الذي علم الله منه أنه أهل لرسالته ووحيه وتكليمه، ومن عزته أن تعتمد عليه ولا تستوحش من انفرادك وكثرة أعدائك وجبروتهم؛ فإن نواصيهم بيد الله وحركاتهم وسكونهم بتدبيره.

﴿١٢﴾ ﴿وَأَنَّىٰ عَصَاكَ﴾: فآلقاها، ﴿فَلَمَّا رَأَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ﴾: وهو ذكر الحيات سريع الحركة؛ ﴿وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَكُرَّ يَعْقُبُ﴾: ذعراً من الحية التي رأى على مقتضى الطباع البشرية، فقال الله له: ﴿يَسُوعَىٰ لَا تَخَفْ﴾، وقال في الآية الأخرى: ﴿أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ﴾ ﴿١٣﴾ [القصص: ٣١]. ﴿إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَىٰ الرَّسُولِ﴾ ﴿١٤﴾: لأن جميع المخاوف مندرجة في قضائه وقدره وتصريفه وأمره، فالذين اختصهم الله برسالته واصطفاهم لوحيه لا ينبغي لهم أن يخافوا غير الله؛ خصوصاً عند زيادة القرب منه والخطوة بتكليمه.

﴿١٥﴾ ﴿إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلْ حِسْتًا بَعْدَ سُوءٍ﴾؛ أي: فهذا الذي هو محل الخوف والوحشة؛ بسبب ما أسدى من الظلم وما تقدم له من الجرم، وأما المرسلون؛ فما لهم وللوحشة والخوف؟! ومع هذا؛ من ظلم نفسه بمعاصي الله و تاب وأناب فبدل سيئاته حسنات ومعاصيه طاعات؛ فإن الله غفور رحيم؛ فلا ييأس أحد من رحمته ومغفرته؛ فإنه يغفر الذنوب جميعاً، وهو أرحم بعباده من الوالدة بولدها.

﴿١٦﴾ ﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخَرِّجْ يَصْفَاءً مِّنْ غَيْرِ سُوءٍ﴾: لا برص ولا نقص، بل بياض يبهر الناظرين شعاعه ﴿فِي سَبْعِ ءَايَاتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ﴾؛ أي: هاتان الآيتان - انقلاب العصا حية تسعى، وإخراج اليد من الجيب فتخرج بياضاً - في جملة تسع آيات تذهب بها وتدعو فرعون وقومه. ﴿إِنَّهُمْ

سورة النمل

المائة والثمانون

وَحَمْدُوا بِهَا وَاسْتَقْبَلَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلُمًا وَعُلُوًّا فَانْظُرْ كَيْفَ
 كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٦﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا
 وَقَالَ آلِ عِمْدَلِلَّهِ الَّذِي فَضَّلْنَا عَلَى كَثِيرٍ مِنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾
 وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ وَقَالَ يَبْنَئُهَا النَّاسُ عِلْمَنَا مَطَاقُ الطَّيْرِ
 وَأَوْتَيْنَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْعَلِيِّ ﴿١٨﴾ وَحُشِرَ
 لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٩﴾
 حَتَّى إِذَا تَوَارَوْا عَلَى وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَبْنَئُهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا
 مَسَكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ
 ﴿٢٠﴾ فَتَبَسَّرَ صَاحِبُهَا مِنْ قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ
 نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَتِي وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا
 تَرْضَاهُ وَأَذِلِّجَنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ ﴿٢١﴾
 وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الَّتِي هَذِهِ أَمْ كَانَ مِنْ
 الْفَاسِقِينَ ﴿٢٢﴾ لَا أَغْنِيَنِي عَنْهَا بَنِيَّ وَلَا أَغْنِيَنِي عَنْهَا
 أَوْلِيَائِي بِيْطَلْنِي ثِيْبِينَ ﴿٢٣﴾ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ
 أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَخِشْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بَنِيَّ يَفِينُ ﴿٢٤﴾

٣٧٨

﴿١٦﴾ فلما مدحهما مشتركين؛ خص سليمان بما خصه به
 لكون الله أعطاه ملكًا عظيمًا وصار له من المعجزات ما لم
 يكن لأبيه صلى الله عليهما وسلم، فقال: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ
 دَاوُدَ﴾؛ أي: ورث علمه ونبوته، وانضم علم أبيه إلى علمه،
 فلعله تعلم من أبيه ما عنده من العلم مع ما كان عليه من العلم
 وقت أبيه؛ كما تقدم من قوله: ﴿فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ﴾ [الأنبياء:
 ١٧٩]. ﴿وَقَالَ﴾: شكرًا لله وتبجحًا بإحسانه وتحديثًا بنعمته:
 ﴿يَبْنَئُهَا النَّاسُ عِلْمَنَا مَطَاقُ الطَّيْرِ﴾: فكان عليه الصلاة والسلام
 يفقه ما تقول وتتكلم به؛ كما راجع الهدهد وراجع، وكما فهم
 قول النملة للنمل كما يأتي، وهذا لم يكن لأحد غير سليمان
 عليه السلام، ﴿وَأَوْتَيْنَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾؛ أي: أعطانا الله من النعم
 ومن أسباب الملك ومن السلطنة والقهرة ما لم يؤت أحدًا من
 الأدميين، ولهذا دعا ربه، فقال: ﴿وَهَبْ لِي مَلَكًا لَا يُبْنِي لِأَحَدٍ
 مِنْ بَعْدِي﴾ [ص: ٣٥]: فسخر الله له الشياطين يعملون له كل
 ما شاء من الأعمال التي يعجز عنها غيرهم، وسخر له الريح
 غدوها شهر ورواحها شهر. ﴿إِنَّ هَذَا﴾: الذي أعطانا الله،
 وفضلنا، واختصنا به ﴿هُوَ الْفَضْلُ الْعَلِيُّ﴾ ﴿١٦﴾: الواضح
 الجلي، فاعترف أكمل اعتراف بنعمة الله تعالى.

﴿١٧﴾ ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ
 يُوزَعُونَ﴾: أي جمع له جنوده الكثيرة الهائلة المتنوعة من
 بني آدم ومن الجن والشياطين ومن الطيور. ﴿فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾: يدبرون ويرد أولهم على آخرهم وينظمون غاية التنظيم
 في سيرهم ونزولهم وحلهم وترحالهم، قد استعد لذلك وأعد له عدته، وكل هذه الجنود مؤتمرة بأمره لا تقدر على عصيانه
 ولا تمرد عليه؛ كما قال تعالى: ﴿هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْكِرْ﴾ [ص: ٣٩]؛ أي: أعط بغير حساب.

﴿١٨﴾ فسار بهذه الجنود الضخمة في بعض أسفاره، ﴿حَتَّى إِذَا تَوَارَوْا عَلَى وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ﴾: منبهة لرفقتها وبني جنسها:
 ﴿يَبْنَئُهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ ﴿١٩﴾: فنصحت هذه النملة وأسمعت النمل:
 إما بنفسها، ويكون الله قد أعطى النمل أسماعا خارقة للعادة؛ لأن التنبيه للنمل الذي قد ملأ الوادي بصوت نملة واحدة من
 أعجب العجائب. وإما بأنها أخبرت من حولها من النمل ثم سرى الخبر من بعضهن لبعض حتى بلغ الجميع وأمرتهن بالحدز
 والطريق في ذلك، وهو دخول مساكنهن، وعرفت حالة سليمان وجنوده وعظمة سلطانه، واعتذرت عنهم أنهم إن حطموكم؛
 فليس عن قصد منهم ولا شعور.

﴿٢٠﴾ فسمع سليمان عليه الصلاة والسلام قولها وفهمه، ﴿فَتَبَسَّرَ صَاحِبُهَا مِنْ قَوْلِهَا﴾: إعجابًا منه بفصاحتها ونصحها
 وحسن تعبيرها، وهذا حال الأنبياء عليهم الصلاة والسلام؛ الأدب الكامل، والتعجب في موضعه، وألا يبلغ بهم الضحك
 إلا إلى التيسم؛ كما كان الرسول ﷺ جل ضحكته التيسم^(١)؛ فإن القهقهة تدل على خفة العقل وسوء الأدب، وعدم التيسم
 والعجب مما يتعجب منه يدل على شراسة الخلق والجبروت، والرسول منزّهون عن ذلك. وقال شاكرًا لله الذي أوصله إلى
 هذه الحال: ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِي﴾؛ أي: ألهمني ووفقني ﴿أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَتِي﴾: فإن النعمة على الوالدين
 نعمة على الولد، فسأل ربه التوفيق للقيام بشكر نعمته الدينية والدنيوية عليه وعلى والديه، ﴿وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ﴾؛

المعروفة المعاني التي لا تجهلها العرب العرباء، وإذا وجد أقوالاً منقولة عن غير رسول الله ﷺ، ردها إلى هذا الأصل؛ فإن وافقه؛ قبلها؛ لكون اللفظ دالاً عليها، وإن خالفه لفظاً ومعنى أو لفظاً أو معنى؛ ردها وجزم بطلانها؛ لأن عنده أصلاً معلوماً مناقضاً لها، وهو ما يعرفه من معنى الكلام ودلالته.

والشاهد أن تفقد سليمان عليه السلام للطير وفقده الهدهد يدل على كمال حزمه وتدبيره للملك بنفسه وكمال فطنته، حتى فقد هذا الطائر الصغير، ﴿فَقَالَ مَا لَكَ لَأَ أَرَى أَنَّهُ هَدَدٌ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ﴾ (٢٠)؛ أي: هل عدم رؤيتي إياه لقلة فطنتي به لكونه خفياً بين هذه الأمم الكثيرة؟ أم على بابها بأن كان غائباً من غير إذني ولا أمري؟!

﴿فَحِثُّهُ تَغِيظُ عَلَيْهِ وَتَوَعَّدَهُ فَقَالَ: ﴿لَأُعَذِّبَنَّكَ عَذَابًا شَدِيدًا﴾: دون القتل ﴿أَوْ لَأَذْبَحَنَّكَ أَوْ لِيَأْتِيَنَّكَ بِسُلْطَانٍ ثُنَيْنٍ﴾ (٢١)؛ أي: حجة واضحة على تخلفه. وهذا من كمال ورعه وإنصافه؛ أنه لم يقسم على مجرد عقوبته بالعذاب أو القتل؛ لأن ذلك لا يكون إلا من ذنب، وغيبته قد تحتمل أنها لعذر واضح؛ فلذلك استثناه لورعه وفطنته.

﴿فَمَكَتْ غَيْرَ بَعِيرٍ﴾: ثم جاء، وهذا يدل على هيبة جنوده منه وشدة اتسامهم لأمره، حتى إن هذا الهدهد الذي خلفه العذر الواضح لم يقدر على التخلف زمناً كثيراً، ﴿فَقَالَ﴾ لسليمان: ﴿أَحْطَطُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ﴾؛ أي: عندي من العلم علم ما أحطت به على علمك الواسع وعلو درجتك فيه، ﴿وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ﴾: القبيلة المعروفة في اليمن ﴿بِبَنِينَ ثُنَيْنٍ﴾ (٢٢)؛ أي: خبر متيقن.

﴿ثُمَّ فَسَّرَ هَذَا النَّبَأَ فَقَالَ: ﴿إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ﴾؛ أي: تملك قبيلة سبأ، وهي امرأة، ﴿وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ قَبِيلٍ﴾: يوتاه الملوك من الأموال والسلاح والجنود والحصون والقلاع ونحو ذلك، ﴿وَلَمَّا عَرَّشَ عَظِيمٌ﴾ (٢٣)؛ أي: كرسي ملكها الذي تجلس عليه عرش هائل، وعظم العروش تدل على عظمة المملكة وقوة السلطان وكثرة رجال الشورى.

﴿وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّيْءِ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾؛ أي: هم مشركون يعبدون الشمس، ﴿وَوَزَّيْنَهُمْ أَلْشَّيْطَانُ اتَّمَأَنَّتْهُمْ﴾: فرأوا ما هم عليه هو الحق، ﴿فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ﴾ (٢٤)؛ لأن الذي يرى أن الذي عليه حق لا مطمع في هدايته حتى تتغير عقيدته.

أي: ووفقتي أن أعمل صالحاً ترضاه؛ لكونه موافقاً لأمرك مخلصاً فيه سالماً من المفسدات والمنقصات، ﴿وَأَدَّخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ﴾: التي منها الجنة، ﴿فِي﴾: جملة ﴿عِبَادِكَ الْفَاضِلِينَ﴾ (١٩)؛ فإن الرحمة مجعولة للصالحين على اختلاف درجاتهم ومنازلهم. فهذا نموذج ذكره الله من حالة سليمان عند سماع خطاب النملة وندائها.

﴿ثُمَّ ذَكَرَ نَمُودَجًا آخَرَ مِنْ مَخَاطِبَتِهِ لِلطَّيْرِ، فَقَالَ: ﴿وَتَقَعَّدَ الطَّيْرَ﴾: دل هذا على كمال عزمه وحزمه وحسن تنظيمه لجنوده وتدبيره بنفسه للأمور الصغار والكبار، حتى إنه لم يهمل هذا الأمر، وهو تفقد الطيور، والنظر هل هي موجودة كلها أم مفقودة منها شيء؟ وهذا هو المعنى للآية.

ولم يصنع شيئاً من قال: إنه تفقد الطير لينظر أين الهدهد منها ليدله على بعد الماء وقربه؛ كما زعموا عن الهدهد أنه يبصر الماء تحت الأرض الكثيفة؛ فإن هذا القول لا يدل عليه دليل، بل الدليل العقلي واللفظي دال على بطلانه: أما العقلي؛ فإنه قد عرف بالعادة والتجارب والملاحظات أن هذه الحيوانات كلها ليس منها شيء يبصر هذا البصر الخارق للعادة وينظر الماء تحت الأرض الكثيفة، ولو كان كذلك؛ لذكره الله؛ لأنه من أكبر الآيات. وأما الدليل اللفظي؛ فلو أريد هذا المعنى؛ لقال: وطلب الهدهد لينظر له الماء، فلما فقده؛ قال ما قال، أو: ففتش عن الهدهد، أو: بحث عنه. ونحو ذلك من العبارات. وإنما تفقد الطير لينظر الحاضر منها والغائب ولزومها للمراكز والمواضع التي عينها لها. وأيضاً؛ فإن سليمان عليه السلام لا يحتاج ولا يضطر إلى الماء بحيث يحتاج لهندسة الهدهد؛ فإن عنده من الشياطين والعفاريت ما يحفرون له الماء، ولو بلغ في العمق ما بلغ، وسخر الله له الريح غدوها شهر ورواحها شهر؛ فكيف مع ذلك يحتاج إلى الهدهد؟!

وهذه التفاسير التي توجد وتشتهر بها أقوال لا يعرف غيرها تنقل هذه الأقوال عن بني إسرائيل مجردة، ويغفل الناقل عن مناقشتها للمعاني الصحيحة وتطبيقها على الأقوال، ثم لا تزال تتناقل وينقلها المتأخر مسلماً للمتقدم، حتى يظن أنها الحق، فيقع من الأقوال الردية في التفاسير ما يقع، والليبب الفطن يعرف أن هذا القرآن الكريم العربي المبين الذي خاطب الله به الخلق كلهم عالمهم وجاهلهم وأمرهم بالتفكر في معانيه وتطبيقها على ألفاظه العربية

سورة النمل

ملأه من عرشه

إِنِّي رَجَدْتُ أَمْرًا تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٢﴾ وَجَدْتُهُمْ قَوْمًا يَسْجُدُونَ لِلشَّيْطَانِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالُهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٣﴾ أَلَا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٤﴾ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿٢٥﴾ قَالَ سَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٢٦﴾ أَذْهَبَ يَكْنِي هَذَا فَأَلْقَاهُ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّى عَنْهُمْ فَانْظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴿٢٧﴾ قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُوْا إِنِّي أَتِيْتُكُمْ بِكَيْدٍ كَرِيمٍ ﴿٢٨﴾ إِنَّهُمْ مِنْ شُعَيْنٍ وَإِنَّهُمْ يُسِيرُ اللَّهُ الرَّحْمَنَ الرَّحِيمَ ﴿٢٩﴾ أَلَا تَعْلَمُونَ عَلَى وَأُتُوْا مُسْلِمِينَ ﴿٣٠﴾ قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُوْا أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَتَشْهَدُونَ ﴿٣١﴾ قَالُوا نَحْنُ أَوْلُوْا قُوَّةً وَأُولُوْا بَأْسٍ شَدِيدًا وَالْأَمْرُ لِلَّهِ قَاطِرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعْرَءَ أَهْلِهَا آذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَئِنْ مَرِسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَظِرَةٌ لِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ ﴿٣٤﴾

٣٧٩

﴿٢٥﴾ ثُمَّ قَالَ: ﴿أَلَا﴾؛ أي: هلا ﴿يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾؛ أي: يعلم الخفي الخبيء في أقطار السماوات وأنحاء الأرض من صغار المخلوقات ويذور النباتات وخفايا الصدور، ويخرج خبء الأرض والسماء بإنزال المطر وإنبات النبات، ويخرج خبء الأرض عند النفخ في الصور وإخراج الأموات من الأرض ليجازيهم بأعمالهم، ﴿وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ ﴿٢٥﴾.

﴿٢٦﴾ ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾؛ أي: لا تنبغي العبادة والإنابة والذل والحب إلا له؛ لأنه المألوه؛ لما له من الصفات الكاملة والنعم الموجبة لذلك. ﴿رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ ﴿٢٦﴾: الذي هو سقف المخلوقات، ووسع الأرض والسماوات. فهذا الملك عظيم السلطان كبير الشأن هو الذي يذل له ويخضع ويسجد له ويركع.

﴿٢٧﴾، ﴿٢٨﴾ فسلم الهدهد حين ألقى إليه هذا النبا العظيم، وتعجب سليمان كيف خفي عليه، وقال مثبتاً لكمال عقله ووراثته: ﴿سَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ ﴿٢٧﴾ أَذْهَبَ يَكْنِي هَذَا: ﴿وسبأني نصه، ﴿فَأَلْقَاهُ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّى عَنْهُمْ﴾؛ أي: استأخر غير بعيد، ﴿فَانْظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ﴾ ﴿٢٨﴾: إليك وما يترجعون به.

﴿٢٩﴾ - ﴿٣٠﴾ فذهب به، فألقاه عليها، فقالت لقومها: ﴿إِنِّي أَتِيْتُكُمْ بِكَيْدٍ كَرِيمٍ﴾؛ أي: جليل المقدار، من أكبر ملوك الأرض، ثم بينت مضمونه، فقالت: ﴿إِنَّهُمْ مِنْ شُعَيْنٍ وَإِنَّهُمْ يُسِيرُ اللَّهُ الرَّحْمَنَ الرَّحِيمَ﴾ ﴿٣٠﴾ أَلَا تَعْلَمُونَ عَلَى وَأُتُوْا مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾؛ أي: لا تكونوا فوق، بل اخضعوا تحت سلطاني، وانقادوا لأوامري، وأقبلوا إلي مسلمين. وهذا في غاية الوجازة مع البيان التام؛ فإنه تضمن نهيه عن العلو عليه والبقاء على حالهم التي هم عليها، والانقياد لأمره والدخول تحت طاعته، ومجيئهم إليه ودعوتهم إلى الإسلام. وفيه استحباب ابتداء الكتب بالبسملة كاملة، وتقديم الاسم في أول عنوان الكتاب.

﴿٣٢﴾، ﴿٣٣﴾ فمن حزمها وعقلها أن جمعت كبار دولتها ورجال مملكتها وقالت: ﴿يَا أَيُّهَا الْمَلَأُوْا أَفْتُونِي فِي أَمْرِي﴾؛ أي: أخبروني ماذا نجيبه به؟! وهل ندخل تحت طاعته ونقاد أم ماذا نفعل؟! ﴿مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَتَشْهَدُونَ﴾ ﴿٣٢﴾؛ أي: ما كنت مستبدة بأمر دون رأيكم ومشورتكم، ﴿قَالُوا نَحْنُ أَوْلُوْا قُوَّةً وَأُولُوْا بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾؛ أي: إن رددت عليه قوله، ولم تدخل في طاعته؛ فإننا أقوياء على القتال. فكانهم مالوا إلى هذا الرأي الذي لو تم، لكان فيه دمارهم، ولكنهم أيضاً لم يستقروا عليه، بل قالوا: ﴿وَالْأَمْرُ لِلَّهِ﴾؛ أي: الرأي ما رأيت؛ لعلمهم بعقلها وحزمها ونصحها لهم، ﴿فَاقْضِ لِي﴾: نظر فكر وتدبر ﴿مَاذَا تَأْمُرِينَ﴾ ﴿٣٣﴾.

﴿٣٤﴾، ﴿٣٥﴾ فقالت لهم - مقنعة لهم عن رأيهم، ومبينة سوء مغبة القتال -: ﴿إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا﴾: قتلوا وأسروا ونهبوا لأموالها وتخريباً لديارها، ﴿وَجَعَلُوا أَعْرَءَ أَهْلِهَا آذِلَّةً﴾؛ أي: جعلوا الرؤساء السادة أشرف الناس من الأرذلين؛ أي: فهذا رأي غير سعيد، وأيضاً؛ فلست بمطيعية له قبل الاختبار وإرسال من يكشف عن أحواله ويتدبرها، وحيث أن يكون على بصيرة من أمرنا. فقالت: ﴿وَلَئِنْ مَرِسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَظِرَةٌ لِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ﴾ ﴿٣٥﴾: منه؛ هل يستمر على رأيه وقوله؟ أم تخدعه الهدية وتبدل فكرته؟! وكيف أحواله وجنوده؟!.

﴿٣٦﴾ فأرسلت إليه بهدية مع رسل من عقلاء قومها وذوي الرأي منهم. ﴿فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَنُ﴾؛ أي: جاءه الرسل بالهدية، ﴿قَالَ﴾: منكراً عليهم ومتغيظاً على عدم إجابتهم: ﴿أَتُيَدُّونَ بِمَالٍ فَمَا آتَيْنَاهُ خَيْرٌ مِمَّا آتَيْنَاكُمْ﴾: فليست تقع عندي موقعا،

الْقَوْلُ الْخَالِصُ

سورة النمل

ولا أفرح بها، قد أغناني الله عنها، وأكثر علي النعم، ﴿٣٦﴾ بل أنثر بهديتك، فَنَحْنُ ﴿٣٦﴾: لحبكم للدنيا، وقلة ما بأيديكم بالنسبة لما أعطاني الله.

﴿٣٧﴾ ثم أوصى الرسول من غير كتاب لما رأى من عقله وأنه سينقل كلامه على وجهه، فقال: ﴿٣٧﴾ أَرَجَعِ إِلَيْهِمْ؛ أي: بهديتك، ﴿٣٧﴾ فَلَمَّا أَيْتَهُمْ بِحُجُودٍ لَا قِيلَ لَهُمْ؛ أي: لا طاقة لهم ﴿٣٧﴾ وَلَخَرَجَتْ مِنْهَا أَذَلَّةٌ وَهُمْ صَغِيرُونَ ﴿٣٧﴾: فرجع إليهم وأبلغهم ما قال سليمان، وتجهزوا للمسير إلى سليمان.

﴿٣٨﴾ - ﴿٣٩﴾ وعلم سليمان أنهم لا بد أن يسيروا إليه، فقال لمن حضره من الجن والإنس: ﴿٣٨﴾ أَيْتُكُمْ بِأَيِّ بَعْرٍ شَأْنٍ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴿٣٨﴾؛ أي: لأجل أن تنصرف فيه قبل أن يسلموا فتكون أموالهم محترمة، ﴿٣٩﴾ قَالَ عِفْرِيتٌ مِنَ الْجِنِّ: ﴿٣٩﴾ والعفريت هو القوي الشيط جذا، ﴿٣٩﴾ أَنَا أَيْتُكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ ﴿٣٩﴾: والظاهر أن سليمان إذ ذاك في الشام، فيكون بينه وبين سبأ نحو مسيرة أربعة أشهر؛ شهران ذهاباً وشهران إياباً، ومع ذلك يقول هذا العفريت: أنا ألزم بالمجيء به على كبره وثقله وبعده قبل أن تقوم من مجلسك الذي أنت فيه، والمعتاد من المجالس الطويلة أن تكون معظم الضحى نحو ثلث يوم، هذا نهاية المعتاد، وقد يكون دون ذلك أو أكثر، وهذا الملك العظيم الذي عند أحاد رعيته هذه القوة والقدرة.

وأبلغ من ذلك أن ﴿٤٠﴾ قَالَ أَلَيْسَ عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ: قال المفسرون: هو رجل عالم صالح عند سليمان، يقال له: أصف بن برخيا، كان يعرف اسم الله الأعظم، الذي إذا دعي به؛ أجاب، وإذا سئل به أعطى: ﴿٤٠﴾ أَنَا أَيْتُكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ: بأن يدعوا الله بذلك الاسم، فيحضر حالاً، وأنه دعا الله، فحضر. فالله أعلم؛ هل هذا المراد، أم أن عنده علماً من الكتاب يقتدر به على جلب البعيد وتحصيل الشديد؟! ﴿٤١﴾ فَلَمَّا رَأَاهُ ﴿٤١﴾ سُلَيْمَانُ ﴿٤١﴾ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ ﴿٤١﴾: حمد الله تعالى على أقداره وملكه وتيسير الأمور له، ﴿٤٢﴾ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ؟ ﴿٤٢﴾ أي: ليختبرني بذلك، فلم يغتر عليه السلام بملكه وسلطانه وقدرته كما هو دأب الملوك الجاهلين، بل علم أن ذلك اختبار من ربه، فخاف ألا يقوم بشكر هذه النعمة، ثم بين أن هذا الشكر لا يتففع الله به، وإنما يرجع نفعه إلى صاحبه، فقال: ﴿٤٣﴾ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ عَنْ أَعْمَالِهِ كَرِيمٌ كثير الخير، يعم به الشاكر والكافر؛ إلا أن شكر نعمه داعٍ للمزيد منها، وكفرها داعٍ لزلوالها.

﴿٤٤﴾ ثُمَّ قَالَ لِمَنْ عِنْدَهُ: ﴿٤٤﴾ نَكِرُوا لَهَا عَرَشَهَا: أي: غيروا بزيادة ونقص، ونحن في ذلك: ﴿٤٥﴾ نَنْظُرُ: مختبرين لعقلها: ﴿٤٦﴾ أَنْتَهَدَى: للصواب ويكون عندها ذكاء وفطنة تليق بملكها، ﴿٤٧﴾ أَمْ تَكُونُونَ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٤٧﴾.

﴿٤٨﴾ فَلَمَّا جَاءَتْ: قادمة على سليمان؛ عرض عليها عرشها، وكان عهدا به قد خلفته في بلدها، ﴿٤٩﴾ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكَ: أي: أنه استقر عندنا أن لك عرشاً عظيماً؛ فهل هو كهذا العرش الذي أحضرناه لك؟ ﴿٥٠﴾ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ: وهذا من ذكائها وفطنتها: لم تقل هو لوجود التغيير فيه والتذكير، ولم تنف أنه هو لأنها عرفت، فأنت بلفظ محتمل للأمرين، صادق على الحالين.

فقال سليمان متعجباً من هدايتها وعقلها وشاكرًا لله أن أعطاه أعظم منها: ﴿٥١﴾ وَأَوْتَيْنَا آلَ عَادَ مِنْ قَبْلِهَا: أي: الهداية والعقل والحزم من قبل هذه الملكة، ﴿٥٢﴾ وَكَأَنَّ سُلَيْمَانَ: وهي الهداية النافعة الأصلية.

ويحتمل أن هذا من قول ملكة سبأ: وأوتينا العلم عن ملك سليمان وسلطانه وزيادة اقتداره من قبل هذه الحالة التي رأينا فيها قدرته على إحضار العرش من المسافة البعيدة، فأذعن له وجئنا مسلمين له خاضعين لسلطانه.

﴿٤٣﴾ قال الله تعالى: ﴿وَصَدَّهَا مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ؟﴾ أي: عن الإسلام، وإلا؛ فلها من الذكاء والفطنة ما به تعرف الحق من الباطل، ولكن العقائد الباطلة تُذهب بصيرة القلب. ﴿إِنَّمَا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾ ﴿٤٤﴾: فاستمرت على دينهم، وانفراد الواحد عن أهل الدين والعادة المستمرة بأمر يراه بعقله من ضلالهم وخطئهم من أندر ما يكون؛ فلهذا لا يستغرب بقاؤها على الكفر.

﴿٤٥﴾ ثم إن سليمان أراد أن ترى من سلطانه ما يبهر العقول، فأمرها أن تدخل الصرح، وهو المجلس المرتفع المتسع، وكان مجلساً من قوارير، تجري تحته الأنهار. فـ ﴿قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَبَّتْهُ لُجَّةٌ﴾: ماء؛ لأن القوارير شفاقة يرى الماء الذي تحتها كأنه بذاته يجري ليس دونه شيء، ﴿وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقِيهَا﴾: للخيضة، وهذا أيضاً من عقلها وأدبها؛ فإنها لم تمتنع من الدخول للمحل الذي أمرت بدخوله لعلمها أنها لم تستدع إلا للإكرام، وأن ملك سليمان وتنظيمه قد بناه على الحكمة، ولم يكن في قلبها أدنى شك من حالة السوء بعدما رأت ما رأت، فلما استعدت للخوض؛ قيل لها: ﴿إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ﴾؛ أي: مجلس ﴿مِنْ قَوَارِيرَ﴾: فلا حاجة منك لكشف الساقين؛ فحيثئذ لما وصلت إلى سليمان وشاهدت ما شاهدت وعلمت نبوته ورسالته؛ تابت ورجعت عن كفرها و﴿قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿٤٦﴾.

فهذا ما قصه الله علينا من قصة ملكة سبأ وما جرى لها مع سليمان، وما عدا ذلك من الفروع المولدة والقصص الإسرائيلية؛ فإنه لا يتعلق بالتفسير لكلام الله، وهو من الأمور التي يقف الحزم بها على الدليل المعلوم المعصوم، والمنقولات في هذا الباب كلها أو أكثرها ليس كذلك؛ فالحزم كل الحزم الإعراض عنها وعدم إدخالها في التفاسير. والله أعلم.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ﴾ ﴿٤٧﴾ إلى آخر القصة.

﴿٤٨﴾ يخبر تعالى أنه أرسل إلى ثمود القبيلة المعروفة أخاهم في النسب صالحاً، وأنه أمرهم أن يعبدوا الله وحده، ويتركوا الأنداد والأوثان؛ ﴿فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ﴾ ﴿٤٩﴾: منهم المؤمن، ومنهم الكافر - وهم معظمهم.

﴿٥٠﴾ ﴿قَالَ يَنْقُورُ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ﴾؛ أي: لم تبادرون فعل السيئات وتحرصون عليها قبل فعل الحسنات التي بها تحسن أحوالكم وتصلح أموركم الدينية والدنيوية؟! والحال أنه لا موجب لكم إلى الذهاب لفعل السيئات ﴿لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ﴾: بأن تتوبوا من شرككم وعصيانكم وتدعوه أن يغفر لكم، ﴿لَعَلَّكُمْ تَرْحَمُونَ﴾ ﴿٥١﴾: فإن رحمة الله قريب من المحسنين، والتائب من الذنوب هو من المحسنين.

﴿٥٢﴾ ﴿قَالُوا﴾: لنبيهم صالح مكذبين ومعارضين: ﴿أَطِيعْنَا بِكَ وَيَمْنُ مَعَكَ﴾: زعموا - قبحهم الله - أنهم لم يروا على وجه صالح خيراً، وأنه هو ومن معه من المؤمنين صاروا سبباً لمنع بعض مطالبهم الدنيوية! فقال لهم صالح: ﴿طَاعُوا رَبَّكُمْ عَنِ الْوَجْهِ﴾؛

سُورَةُ النَّمْلِ
وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٨﴾ قَالَ يَنْقُورُ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٩﴾ قَالُوا أَطِيعْنَا بِكَ وَيَمْنُ مَعَكَ قَال طَاعُوا رَبَّكُمْ عَنِ الْوَجْهِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَفْتَنُونَ ﴿٥٠﴾ وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ شَعَةٌ رَهْطٌ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿٥١﴾ قَالُوا نَقَاسُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّنَنَّ لَهُمْ وَاٰهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لَوْ يَدُّ مَآشِدَنَا مَهْلَكًا أَهْلَهُ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿٥٢﴾ وَمَكْرُؤًا مَكْرًا وَمَكْرُؤًا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٣﴾ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْرِهِمْ إِنَّا دَمَرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٤﴾ فَبَلَغَ الْيَوْمَ نَبَأَهُمْ خَاوِيَةً يُبَاطِلُوهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾ وَأَنْجَيْنَا آلَ إِبْرَٰهِيمَ إِذْ كَانُوا يَنْقُوتُونَ ﴿٥٦﴾ وَلَوْطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفُلُوحَةَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٥٧﴾ أَيْنَكُمُ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ الْنِسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّجْهَلُونَ ﴿٥٨﴾

أي: ما أصابكم إلا بذنوبكم. ﴿بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْسِدُونَ﴾ (٤٧)؛ بالسراء والضراء، والخير والشر؛ لينظر هل تقلعون وتوبون أم لا؟ فهذا دأبهم في تكذيب نبيهم وما قابله به.

﴿وَكُنَّا فِي الْمَدِينَةِ﴾: التي فيها صالح، الجامعة لمعظم قومه ﴿يَتَّبِعُهُ رَهْطٌ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ (٤٨)؛ أي: وصفهم الإفساد في الأرض، ولا لهم قصد ولا فعل بالإصلاح، قد استعدوا المعادة صالح والطعن في دينه ودعوة قومهم إلى ذلك؛ كما قال تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْلِمِينَ﴾ (١٥١) الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ (١٥٢) [الشعراء: ١٥٠-١٥٢].

﴿فَلَمْ يَزَلْ أُولَئِكَ فِي هَذِهِ الْحَالِ الشَّنِيعَةِ حَتَّى أَهْلَكْنَاهُمْ بِمُكْرٍ مُكْتَرٍ﴾ (٤٩) فلما يزلوا بهذه الحال الشنيعة حتى أنهم من عداوتهم ﴿تَقَاسَمُوا﴾ فيما بينهم؛ كل واحد أقسم للآخر: ﴿لَنَيْبِتَنَّهُنَّ وَأَهْلَهُنَّ﴾؛ أي: لنأيتهم ليلاً هو وأهله، فلنقتلنهم، ﴿ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِنَّ﴾: إذا قام علينا وادعى علينا أننا قتلناهم؛ ننكر ذلك وننفيه ونحلف: ﴿وَلَنَأْتِيَنَّكَ بِبَيِّنَاتٍ﴾ (٤٩).

﴿فَوَاطِنَا عَلَى ذَلِكَ﴾ (٥٠) ﴿وَمَكْرُؤٌ مَكْرٌ﴾: دبروا أمرهم على قتل صالح وأهله على وجه الخفية حتى من قومه خوفاً من أوليائه، ﴿وَمَكْرُؤٌ مَكْرٌ﴾: بنصر نينا صالح عليه السلام وتيسير أمره وإهلاك قومه المكذبين. ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ (٥٠).

﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَتْ عِقَابُهُمْ مَكْرَهُمْ﴾ (٥١) هل حصل مقصودهم وأدركوا بذلك المكر المطلوبهم؟ أم انتقض عليهم الأمر؟ ولهذا قال: ﴿أَنَّا دَمَرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (٥١): أهلكتناهم واستأصلنا شأفتهم فجاءتهم صيحة عذاب فأهلكوا عن آخرهم.

﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةٌ﴾: قد تهدمت جدرانها على سقوفها، وأوحشت من ساكنها، وعطلت من نازليها ﴿يَسْأَلُونَ﴾؛ أي: هذا عاقبة ظلمهم وشركهم بالله وبغيرهم في الأرض. ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ (٥٢)؛ الحقائق، ويتدبرون وقائع الله في أوليائه وأعدائه، فيعتبرون بذلك، ويعلمون أن عاقبة الظلم الدمار والهلاك، وأن عاقبة الإيمان والعدل النجاة والفوز.

﴿وَلِهَذَا قَالَ﴾ (٥٣) ﴿وَأَفْبَحْنَا الْآيَاتِ﴾: أنبأنا المؤمنين بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره، وكانوا يتقون الشرك بالله والمعاصي، ويعملون بطاعته وطاعة رسله.

﴿وَلَوْطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَلْحِشَةَ وَأَنْتُمْ بُصُورُونَ﴾ (٥٤) إلى آخر القصة.

﴿أَي: واذكر عبدنا ورسولنا لوطاً ونبأه الفاضل حين قال لقومه داعياً لهم إلى الله وناصحاً﴾: ﴿أَتَأْتُونَ الْفَلْحِشَةَ﴾؛ أي: الفعل الشنعاء التي تستفحشها العقول والفطر وتستقبحها الشرائع. ﴿وَأَنْتُمْ بُصُورُونَ﴾ (٥٤): ذلك وتعلمون قبحه، فعاندتم وارتكبتم ذلك ظلماً منكم وجراً على الله.

﴿ثُمَّ فَسَّرَ تِلْكَ الْفَاحِشَةَ فَقَالَ﴾ (٥٥) ﴿أَيُّكُمْ لَمَّا تَوْنُ الْإِجَالِ شَهْوَةً مِّنْ دُونِ النِّسَاءِ﴾؛ أي: كيف توصلتم إلى هذه الحال، فصارت شهوتكم للرجال وأدبارهم محل الغايط والنجو والخبث، وتركتهم ما خلق الله لكم من النساء من المحال الطبية التي جبلت النفوس إلى الميل إليها، وأنتم انقلب عليكم الأمر، فاستحسنتم القبيح، واستقبحتم الحسن؟! ﴿بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ بِجَهَلُونَ﴾ (٥٥) متجاوزون لحدود الله متجربون على محارمه.

﴿فَمَا كَانَتْ جَوَابَ قَوْمِهِ﴾: قبول ولا انزجار ولا تذكر وادكار، إنما كان جوابهم المعارضة والمناقضة والتوعد لنبيهم الناصح ورسولهم الأمين بالإجلاء عن وطنه والتشريد عن بلده؛ فما كان جواب قومه ﴿إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّنْ قَرْيَتِكُمْ﴾: فكانه قيل: ما نقمتهم منهم وما ذنبهم الذي أوجب لهم الإخراج؟ فقالوا: ﴿إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَّتَطَهَّرُونَ﴾ (٥٦)؛ أي: يتنزهون عن اللواط وأدبار الذكور! فقبحهم الله؛ جعلوا أفضل الحسنات بمنزلة أقيع السيئات، ولم يكتفوا بمعصيتهم لنبيهم فيما وعظهم به، حتى وصلوا إلى إخراجهم، والبلاء موكل بالمنطق؛ فهم قالوا: أخرجوهم من قريبتكم إنهم أناس يتطهرون! ومفهوم هذا الكلام: وأنتم متلوثون بالخبث والقذارة المقضي لنزول العقوبة بقريبتكم ونجاة من خرج منها.

﴿وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى﴾ (٥٧) ﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا أَمْرَأَتَهُ قَدَرْنَاهَا مِنَ الْغَايِبِينَ﴾ (٥٧): وذلك لما جاءته الملائكة في صورة أضياف، وسمع بهم قومه، فجاءوا إليه يريدونهم بالشر، وأغلق الباب دونهم، واشتد الأمر عليه، ثم أخبرته

(١) سبق قلم الشيخ - رحمه الله - فذهب إلى آية الأعراف فكتب: ﴿بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ بُصُورُونَ﴾ (٥٤) وفسرها على هذا، فصحت الآية وأقيمت التفسير كما هو. (طبعة اللويحق).

الملائكة عن جلية الحال، وأنهم جاءوا لاستنقاذهم وإخراجهم من بين أظهرهم، وأنهم يريدون إهلاكهم، وأن موعدهم الصبح، وأمره أن يسري بأهله ليلاً إلا أمرته؛ فإنه سيصيبها ما أصابهم، فخرج بأهله ليلاً، فنجوا، وصباحهم العذاب، فقلب الله عليهم ديارهم، وجعل أعلاها أسفلها، وأمطر عليهم حجارة من سجيل منضود مسومة عند ربك، ولهذا قال هنا: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذِرِينَ﴾ ٥٩؛ أي: بشس المطر مطرهم، وبشس العذاب عذابهم؛ لأنهم أنذروا وخوفوا فلم ينزجروا ولم يرتدعوا، فأحل الله بهم عقابه الشديد.

﴿قُلِ الْمُنْذِرِينَ وَسَلَّمَ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ أَصْطَفَىٰ ۖ اللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ ٥٩.

٥٩: أي: قل الحمد لله الذي يستحق كمال الحمد والمدح والثناء؛ لكمال أوصافه وجميل معرفته وهباته وعدله وحكمته في عقوبته المكذبين وتعذيب الظالمين، وسلام أيضاً على عباده الذين تخيرهم واصطفاهم على العالمين من الأنبياء والمرسلين وصفوة الله رب العالمين، وذلك لرفع ذكرهم وتنويعاً بقدرهم وسلامتهم من الشر والأدناس وسلامة ما قالوه في ربهم من النقائص والعيوب. ﴿اللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ ٥٩: وهذا استفهام قد تقرر وعرف؛ أي: أله الله تعالى ربهم وما يشركون. وهي ناقصة من كل وجه؛ لا تنفع ولا

الجزء المشرى
سورة النمل
﴿فَمَا كَانَتْ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ أَلَا لَوْ طُرِدْنَا قَوْمَهُمْ إِنَّهُمْ نَاسٌ يَبْطِئُونَ﴾ ٥٨ ﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا أُمَّرَأَتَهُ ۖ فَدَرَبَتْهَا مِنَ الْغَدْرِ ۖ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذِرِينَ﴾ ٥٩ ﴿قُلِ الْمُنْذِرِينَ ۖ أَصْطَفَىٰ ۖ اللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ ٥٩ ﴿أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَبَائِقَ ذَاتٍ بِهَجَةٍ مَّا كَانَتْ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا ۗ أَوَلَمْ مَعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾ ٦٠ ﴿أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسٍ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَوَلَمْ مَعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ٦١ ﴿وَيَكْشِفُ السُّيُوفَ وَيَجْعَلُ لَكُمْ خُلُفَاءَ الْأَرْضِ ۖ أَوَلَمْ مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ ٦٢ ﴿أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّيْحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ۗ أَوَلَمْ مَعَ اللَّهِ تَعْلَىٰ اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ ٦٣

الرب العظيم كامل الأوصاف عظيم اللطاف خير أم الأصنام والأوثان التي عبدوها معه وهي ناقصة من كل وجه؛ لا تنفع ولا تملك لأنفسها ولا لعابديها مثقال ذرة من الخير؟ فالله خير مما يشركون.

ثم ذكر تفاصيل ما به يعرف ويتعين أنه الإله المعبود، وأن عبادته هي الحق وعبادة ما سواه هي الباطل، فقال:

﴿أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَبَائِقَ ذَاتٍ بِهَجَةٍ مَّا كَانَتْ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا ۗ أَوَلَمْ مَعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾ ٦٠.

٦٠: أي: أمَّن خلق السماوات وما فيها من الشمس والقمر والنجوم والملائكة والأرض وما فيها من جبال وبحار وأنهار وأشجار وغير ذلك، ﴿وَأَنْزَلَ لَكُمْ﴾؛ أي: لأجلكم ﴿مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَبَائِقَ﴾؛ أي: بساتين ﴿ذَاتٍ بِهَجَةٍ﴾؛ أي: حسن منظر من كثرة أشجارها وتنوعها وحسن ثمارها. ﴿مَّا كَانَتْ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا﴾؛ أي: لولا منة الله عليكم بإنزال المطر. ﴿أَوَلَمْ مَعَ اللَّهِ﴾؛ فعل هذه الأفعال حتى يعبد معه ويشرك به، ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾ ٦٠: به غيره، ويسوون به سواه، مع علمهم أنه وحده خالق العالم العلوي والسفلي ومنزل الرزق.

﴿أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسٍ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَوَلَمْ مَعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ٦١.

٦١: أي: هل الأصنام والأوثان الناقصة من كل وجه التي لا فعل منها ولا رزق ولا نفع خير أم الله الذي ﴿جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا﴾؛ أي: يستقر عليها العباد ويتمكنون من السكنى والحراث والبناء والذهاب والإياب، ﴿وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا﴾؛ أي: جعل في خلال الأرض أنهارًا يتنفع بها العباد في زروعهم وأشجارهم وشرب مواشيهم، ﴿وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسٍ﴾؛

سواه؟ ﴿تَعْلَىٰ اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ ﴿٦٢﴾: تعظم وتنزه وتقدس عن شركهم وتسويتهم به غيره.

﴿أَمَّنْ يَدْعُوا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ، وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُولَئِكَ مَعَ اللَّهِ قُلْ هَاسِتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ ﴿٦٣﴾.

﴿٦٣﴾ أي: من هو الذي يبدأ الخلق وينشئ المخلوقات وينتدئ خلقها ثم يعيد الخلق يوم البعث والنشور؟ ﴿وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ بالمطر والنبات؟ ﴿أُولَئِكَ مَعَ اللَّهِ﴾: يفعل ذلك ويقدر عليه، ﴿قُلْ هَاسِتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾؛ أي: حجتكم ودليلكم على ما قلتم: ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ ﴿٦٤﴾. وإلا؛ فبتقدير أنكم تقولون: إن الأصنام لها مشاركة له في شيء من ذلك؛ فذلك مجرد دعوى صدقوها بالبرهان، وإلا فاعرفوا أنكم مبطلون لا حجة لكم، فارجعوا إلى الأدلة اليقينية والبراهين القطعية الدالة على أن الله هو المنفرد بجميع التصرفات وأنه المستحق أن يصرف له جميع أنواع العبادات.

﴿قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ ﴿٦٥﴾ بَلْ أَذْرَكَ عِلْمَهُمْ فِي الْآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا بَلْ هُمْ مِنْهَا عَمُونَ ﴿٦٦﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِذَا كُنَّا تُرَابًا وَءَابَاؤُنَا أَبْنَاءَ لَمُخْرَجُونَ ﴿٦٧﴾ لَقَدْ وَعَدْنَا هَذَا نَحْنُ وَءَابَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ ﴿٦٩﴾.

﴿٦٥﴾ يخبر تعالى أنه المنفرد بعلم غيب السماوات والأرض؛ كقوله تعالى: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْغَيْبِ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظُلْمَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَابِسٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ ﴿٥٩﴾ [الأنعام: ٥٩]، وكقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ﴾ [لقمان: ٣٤] إلى آخر السورة.

فهذه الغيوب ونحوها اختص الله بعلمها، فلم يعلمها ملك مقرب ولا نبي مرسل، وإذا كان هو المنفرد بعلم ذلك، والمحيط علمه بالسرائر والبواطن والخفايا؛ فهو الذي لا تنبغي العبادة إلا له.

ثم أخبر تعالى عن ضعف علم المكذبين بالآخرة، منتقلاً من شيء إلى ما هو أبلغ منه، فقال: ﴿وَمَا يَتَّبِعُونَ﴾؛ أي: وما يدرعون ﴿أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ ﴿٦٥﴾؛ أي: متى البعث والنشور والقيام من القبور؛ أي: فلذلك لم يستعدوا.

أي: جبالاً ترسيها وتثبتها لثلاً تميد وتكون أوتاداً لها لثلاً تضطرب، ﴿وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ﴾: البحر المالح والبحر العذب ﴿حَاجِزًا﴾: يمنع من اختلاطهما فتفوت المنفعة المقصودة من كل منهما، بل جعل بينهما حاجزاً من الأرض؛ جعل مجرى الأنهار في الأرض مبعدة عن البحار، فيحصل منها مقاصدها ومصالحها. ﴿أُولَئِكَ مَعَ اللَّهِ﴾: فعل ذلك حتى يعدل به الله ويشرك به معه، ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ﴿٦٦﴾: فيشركون بالله تقليداً لرؤسائهم، وإلا؛ فلو علموا حق العلم لم يشركوا به شيئاً.

﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاً وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أُولَئِكَ مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَّا تَذْكُرُونَ﴾ ﴿٦٧﴾.

﴿٦٧﴾ أي: هل يجيب المضطر الذي أقلقته الكروب وتعسر عليه المطلوب واضطر للخلاص بما هو فيه إلا الله وحده؟ ومن يكشف السوء؛ أي: البلاء والشر والنقمة؛ إلا الله وحده؟ ومن يجعلكم خلفاء الأرض يمكنكم منها ويمد لكم بالرزق ويوصل إليكم نعمه وتكونون خلفاء من قبلكم كما أنه سيميتكم ويأتي يقوم بعدكم؟ إله مع الله يفعل هذه الأفعال؟ لا أحد يفعل مع الله شيئاً من ذلك، حتى بإقراركم أيها المشركون، ولهذا كانوا إذا مسهم الضر دعوا الله مخلصين له الدين؛ لعلمهم أنه وحده المقتدر على دفعه وإزالته، ﴿قَلِيلًا مَّا تَذْكُرُونَ﴾ ﴿٦٨﴾؛ أي: قليلاً تذكركم وتدبركم للأمر التي إذا تذكركموا اذكركم ورجعتم إلى الهدى، ولكن الغفلة والإعراض شامل لكم؛ فلذلك ما ارفعوهم ولا اهتديتم.

﴿أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتٍ أَلْوَىٰ وَالْبَحْرِ وَمَنْ يُرْسِلَ الرِّيحَ بِشَرِّ بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أُولَئِكَ مَعَ اللَّهِ تَعْلَىٰ اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ ﴿٦٩﴾.

﴿٦٩﴾ أي: من هو الذي يهديكم حين تكونون في ظلمات البر والبحر حيث لا دليل ولا معلم يرى ولا وسيلة إلى النجاة إلا هدايته لكم وتيسيره الطريق وجعل ما جعل لكم من الأسباب التي تهتدون بها؟ ﴿وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّيحَ بِشَرِّ بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾؛ أي: بين يدي المطر، فيرسلها، فتثير السحاب، ثم تولفه، ثم تجمعها، ثم تلقحها، ثم تدره، فيستبشر بذلك العباد قبل نزول المطر. ﴿أُولَئِكَ مَعَ اللَّهِ﴾: فعل ذلك؟ أم هو وحده الذي انفرد به؟ فلم أشركتم معه غيره وعبدتم

﴿٦٦﴾ بَلْ أَدْرَكَ عَلَيْهِمْ فِي الْآخِرَةِ؛ أَي: بل ضعف وقل ولم يكن يقيناً ولا علماً واصلاً إلى القلب، وهذا أقل وأدنى درجة للعلم، ضعفه ووهأوه، بل ليس عندهم علم ولا ضعف، وإنما ﴿هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا﴾؛ أَي: من الآخرة، والشك زال به العلم؛ لأن العلم بجميع مراتبه لا يجمع الشك. ﴿بَلْ هُمْ مِنْهَا﴾؛ أَي: من الآخرة ﴿عَمُونَ﴾ ﴿٦٧﴾: قد عميت عنها بصائرهم، ولم يكن في قلوبهم من وقوعها، ولا احتمال، بل أنكروها واستبعدوها.

﴿٦٧﴾ ولهذا قال: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِذَا كُنَّا تُرَابًا وَءَابَاؤُنَا أَبْنَاءَ لَمُخْرَجُونَ﴾ ﴿٦٨﴾؛ أَي: هذا بعيد غير ممكن؛ قاسوا قدرة كامل القدرة بقدرهم الضعيفة.

﴿٦٨﴾ ﴿لَقَدْ وَعَدْنَا هَذَا﴾؛ أَي: البعث ﴿نَحْنُ وَءَابَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ﴾؛ أَي: فلم يعجبنا ولا رأينا منه شيئاً. ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا أَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ ﴿٦٩﴾؛ أَي: قصصهم وأخبارهم التي تقطع بها الأوقات، وليس لها أصل، ولا صدق فيها. فانتقل في الإخبار عن أحوال المكذبين بالإخبار أنهم لا يدرون متى وقت الآخرة، ثم الإخبار بضعف علمهم فيها، ثم الإخبار بأنه شك، ثم الإخبار بأنه عَمَى، ثم الإخبار بإنكارهم لذلك واستبعادهم وقوعه؛ أَي: وبسبب هذه الأحوال؛ ترحل خوف الآخرة من قلوبهم، فأقدموا على معاصي الله، وسهل عليهم

تكذيب الحق والتصديق بالباطل، واستحلوا الشهوات على القيام بالعبادات، فخسروا دنياهم وأخرهم.

﴿٧٠﴾ ثم نبههم على صدق ما أخبرت به الرسل، فقال: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾ ﴿٧١﴾؛ فلا تجدون مجرمًا قد استمر على إجرامه إلا وعاقبته شر عاقبة، وقد أحل الله به من الشر والعقوبة ما يليق بحاله.

﴿٧٢﴾ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُنْ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٧٤﴾ قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ رَدِفٌ لَكُمْ بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٧٥﴾﴾.

﴿٧٢﴾ أي: لا تحزن يا محمد على هؤلاء المكذبين وعدم إيمانهم؛ فإنك لو علمت ما فيهم من الشر وأنهم لا يصلحون للخير؛ لم تأس ولم تحزن، ولا يضيّق صدرك ولا تقلق نفسك بمكرهم؛ فإن مكرهم سيعود عاقبته عليهم، ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِرِينَ﴾ ﴿٧٣﴾ [الأنفال: ٣٠].

﴿٧٤﴾ ويقول المكذبون بالمعاد وبالحق الذي جاء به الرسول مستعجلين للعذاب: ﴿مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ ﴿٧٥﴾: وهذا من سفاهة رأيهم وجهلهم؛ فإن وقوعه ووقته قد أجله الله بأجله وقدره بقدر؛ فلا يدل عدم استعجاله على بعض مطلوبهم، ولكن مع هذا قال تعالى محذراً لهم وقوع ما يستعجلون:

﴿٧٦﴾ ﴿قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ رَدِفٌ لَكُمْ﴾؛ أَي: قرب منكم وأوشك أن يقع بكم ﴿بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ﴾ ﴿٧٧﴾: من العذاب. ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنْ أَسْأَفُكُمْ لَا يَشْكُرُونَ﴾ ﴿٧٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٩﴾ وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴿٨٠﴾﴾.

سورة النمل
أَمِنْ يَدَاؤِ الْخَلْقِ ثُمَّ يُعِيدُهُمْ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ
أَوَّلَهُ مَعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٦٦﴾
قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبُ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ
أَيَّانَ يَبْعَثُونَ ﴿٦٧﴾ بَلْ أَدْرَكَ عَلَيْهِمْ فِي الْآخِرَةِ بَلْ هُمْ
فِي شَكٍّ مِنْهَا بَلْ هُمْ مِنْهَا عَمُونَ ﴿٦٨﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا
إِذَا كُنَّا تُرَابًا وَءَابَاؤُنَا أَبْنَاءَ لَمُخْرَجُونَ ﴿٦٩﴾ لَقَدْ وَعَدْنَا
هَذَا نَحْنُ وَءَابَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٧٠﴾
قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ
﴿٧١﴾ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُنْ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ ﴿٧٢﴾
وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٧٣﴾ قُلْ عَسَى
أَنْ يَكُونَ رَدِفٌ لَكُمْ بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٧٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ
لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنْ أَسْأَفُكُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّ
رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٦﴾ وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ
فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴿٧٧﴾ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ
يَقُصُّ عَلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٧٨﴾

وَلِئِنَّهُ لَكُنْهُدَىٰ وَرَحْمَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ بِحُكْمِهِ ۖ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ﴿٧٨﴾ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ ﴿٧٩﴾ إِنَّكَ لَا تَسْمَعُ الْوَقْفَ وَلَا تَسْمَعُ الدَّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ ﴿٨٠﴾ وَمَا أَنتَ بِهَدَى الْأَعْمَىٰ عَنْ ضَلَالَتِهِمْ ۚ إِنَّ تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ ﴿٨١﴾ وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴿٨٢﴾ وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مَّن يَكْذِبُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿٨٣﴾ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ قَالَ أَكَذَّبْتُ بِآيَاتِي وَلَمْ تُحِطُوا بِهَا ۖ أَمَّا أَذُكُمُ تَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾ وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ بِمَا ظَلَمُوا فَهُمْ لَا يَنْطِقُونَ ﴿٨٥﴾ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لِسُكُونٍ فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٨٦﴾ وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَتَرْجَمُ فِي السَّمَاءِ وَمَن فِي الْأَرْضِ ۚ إِنَّمَا شَاءَ اللَّهُ وَكُلُّ أَمْرٍ دَٰخِرِينَ ﴿٨٧﴾ وَتَرَى الْجِبَالُ تَحْشَا بِهَا جُمُودًا ۖ وَهِيَ تَكُ مَرْمَرًا نَّحَاطًا ۖ صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي لَآ تَنفِكُ كُلُّ شَيْءٍ ۖ وَإِنَّهُ خَيْرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٨٨﴾

﴿٧٣﴾ بنيه عباده على سعة جوده وكثرة أنضاله، ويحثهم على شكرها، ومع هذا؛ فأكثر الناس قد أعرضوا عن الشكر، واشتغلوا بالنعم عن المنعم.

﴿٧٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ ۖ أَي: تنطوي عليه ۖ صُدُّوهُمْ وَمَا يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾: فليحذروا من عالم السرائر والظواهر وليراقبوه.

﴿٧٦﴾ وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ۖ أَي: خفية وسر من أسرار العالم العلوي والسفلي ۖ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿٧٧﴾: قد أحاط ذلك الكتاب بجميع ما كان ويكون إلى أن تقوم الساعة؛ فكل حادث يحدث جلي أو خفي؛ إلا وهو مطابق لما كتب في اللوح المحفوظ.

﴿٧٨﴾ إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَقْضَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٧٩﴾ وَلِئِنَّهُ لَكُنْهُدَىٰ وَرَحْمَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٠﴾.

﴿٨١﴾ وهذا خبر عن هيمنة القرآن على الكتب السابقة وتفصيله وتوضيحه لما كان فيها قد وقع فيه اشتباه واختلاف عند بني إسرائيل، فقصة هذا القرآن قصاً زال به الإشكال، وبين الصواب من المسائل المختلف فيها.

﴿٨٢﴾ وإذا كان بهذه المثابة من الجلالة والوضوح وإزالة كل

خلاف وفصل كل مشكل؛ كان أعظم نعم الله على العباد، ولكن ما كل أحد يقابل النعمة بالشكر، ولهذا بين أن نفعه ونوره وهده مختص بالمؤمنين، فقال: ﴿وَلِئِنَّهُ لَكُنْهُدَىٰ﴾: من الضلالة والغبي والشبه، ﴿وَرَحْمَةً﴾: تتلجج له صدورهم وتستقيم به أمورهم الدنيوية والدنيوية، ﴿لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾: به، المصدقين له، المتلقين له، بالقبول المقبلين على تدبره، المتفكرين في معانيه؛ فهو لا تحصل لهم به الهداية إلى الصراط المستقيم، والرحمة المتضمنة للسعادة والفوز والفلاح.

﴿٨٣﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ بِحُكْمِهِ ۖ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ﴿٨٤﴾.

﴿٨٥﴾ أي: إن الله تعالى سيفصل بين المختصمين وسيحكم بين المختلفين بحكمه العدل وقضائه القسط؛ فالأمور؛ وإن حصل فيها اشتباه في الدنيا بين المختلفين لخباء الدليل أو لبعض المقاصد؛ فإنه سيبين فيها الحق المطابق للواقع حين يحكم الله فيها. ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾: الذي قهر الخلائق فأذعنوا له. ﴿الْعَلِيمُ﴾: بجميع الأشياء، العليم بأقوال المختلفين، وعن ماذا صدرت، وعن غاياتها ومقاصدها، وسيجازي كلا بما علمه فيه.

﴿٨٦﴾ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ ﴿٨٧﴾ إِنَّكَ لَا تَسْمَعُ الْوَقْفَ وَلَا تَسْمَعُ الدَّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ ﴿٨٨﴾ وَمَا أَنتَ بِهَدَى الْأَعْمَىٰ عَنْ ضَلَالَتِهِمْ ۚ إِنَّ تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ ﴿٨٩﴾.

﴿٩٠﴾ أي: اعتمد على ربك في جلب المصالح ودفع المضار وفي تبليغ الرسالة وإقامة الدين وجهاد الأعداء. ﴿إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ﴾: الواضح، والذي على الحق يدعو إليه ويقوم بنصرته أحق من غيره بالتوكل؛ فإنه يسعى في أمر مجزوم به، معلوم صدقه، لا شك فيه ولا مرية، وأيضاً؛ فهو حق في غاية البيان، لا خفاء به ولا اشتباه.

﴿٨٠﴾ حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوْهُ وَحَضَرُوْهُ قَالْ لَهُمْ مَوْبِخًا وَمَقْرَعًا: ﴿٨١﴾ أَكْذَبْتُمْ بَيَاتِيَّ وَلَمْ تُحِطْ بِمَا عَلَّمَاْ؛ أَي: الواجب عليكم التوقف حتى ينكشف لكم الحق، وألا تتكلموا إلا بعلم؛ فكيف كذبتهم بأمر لم تحيطوا به علما. ﴿٨٢﴾ أَمَّا أَكُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨٣﴾؛ أَي: يسألهم عن علمهم وعن عملهم، فيجد علمهم تكذيبا بالحق وعملهم لغير الله، أو على غير سنة رسولهم.

﴿٨٤﴾ وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ بِمَا ظَلَمُواْ؛ أَي: حقت عليهم كلمة العذاب بسبب ظلمهم الذي استمروا عليه وتوجهت عليهم الحجة، ﴿٨٥﴾ فَهُمْ لَا يَظْفَرُونَ ﴿٨٦﴾؛ لأنه لا حجة لهم. ﴿٨٧﴾ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا آلِيلَ لِسِئَلِكُمْ فِيهِ وَلَنَهَارًا مُّبْصِرًا إِنَّكَ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾.

﴿٨٩﴾ أَي: ألم يشاهدوا هذه الآية العظيمة والنعمة الجسيمة، وهو تسخير الله لهم الليل والنهار، هذا بظلمته ليسكنوا فيه ويستريحوا من التعب ويستعدوا للعمل، وهذا بضياؤه ليتشربوا فيه في معاشهم وتصرفاتهم. ﴿٩٠﴾ إِنَّكَ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٩١﴾؛ على كمال وحدانية الله وسبوغ نعمته.

﴿٩٢﴾ وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ وَكُلُّ أَنتَاهٍ دَخِرِينَ ﴿٩٣﴾ وَنَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدًا وَهِيَ تَمُورُ مَرْمَرًا سَحَابٍ صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي أَنْفَخَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٤﴾ مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَهُمْ مِنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ ﴿٩٥﴾ وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكَيْتٌ وَجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ يُخْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾.

﴿٩٧﴾ يخوف تعالى عباد ما أمامهم من يوم القيامة وما فيه من المحن والكروب ومزعجات القلوب، فقال: ﴿٩٨﴾ وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ؛ بسبب النفخ فيه ﴿٩٩﴾ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ؛ أَي: انزعجوا وارتاعوا وماج بعضهم ببعض خوفا مما هو مقدمة له ﴿١٠٠﴾ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ؛ ممن أكرمهم الله وثبته وحفظه من الفزع. ﴿١٠١﴾ وَكُلُّ مَنْ فِي الْخَلْقِ عِنْدَ النَّفْخِ فِي الصُّورِ ﴿١٠٢﴾ أَنتَاهُ دَخِرِينَ ﴿١٠٣﴾؛ صاغرين ذليلين؛ كما قال تعالى: ﴿١٠٤﴾ إِنَّ كُلَّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا عِزَّ الرَّحْمَنِ عَبْدًا ﴿١٠٥﴾ [مریم: ٩٣]. ففي ذلك اليوم يتساوى الرؤساء والمرءوسون في الذل والخضوع لمالك الملك.

﴿٨٠﴾ وإذا قتت بما حملت وتوكلت على الله في ذلك؛ فلا يضرك ضلال من ضل وليس عليك هدام؛ فلماذا قال: ﴿٨١﴾ إِنَّكَ لَا تَسْمَعُ الْمَوْتَى وَلَا تَسْمَعُ الدُّعَاءَ؛ أَي: حين تدعوهم وتناديهم، وخصوصا: ﴿٨٢﴾ وَإِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ ﴿٨٣﴾؛ فإنه يكون أبلغ في عدم إسماعهم.

﴿٨٤﴾ وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعَمَى عَنْ صُلُوكِهِمْ؛ كما قال تعالى: ﴿٨٥﴾ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ﴿٨٦﴾ [القصر: ٥٦]. ﴿٨٧﴾ إِنْ تَشِيعُ إِلَّا مَنْ يُوْنُسَ يَتَابِعُنَا فَهُمْ مُسْمِئُونَ ﴿٨٨﴾؛ أَي: هؤلاء الذين يتقادون لك، الذين يؤمنون بآيات الله ويتقادون لها بأعمالهم واستسلامهم؛ كما قال تعالى: ﴿٨٩﴾ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ لِيُوْجِّعَهُمْ ﴿٩٠﴾ [الأنعام: ٣٦].

﴿٩١﴾ وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴿٩٢﴾.

﴿٩٣﴾ أَي: إذا وقع على الناس القول الذي حتمه الله وفرض وقته؛ ﴿٩٤﴾ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً ﴿٩٥﴾ خَارِجَةً ﴿٩٦﴾ مِّنَ الْأَرْضِ؛ أو دابة من دواب الأرض، ليست من السماء، وهذه الدابة ﴿٩٧﴾ تُكَلِّمُهُمْ؛ أَي: تكلم العباد ﴿٩٨﴾ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴿٩٩﴾؛ أَي: لأجل أن الناس ضعف علمهم ويقينهم بآيات الله؛ فإظهار الله هذه الدابة من آيات الله العجيبة؛ ليبين للناس ما كانوا فيه يمترون. وهذه الدابة المشهورة التي تخرج في آخر الزمان، وتكون من أشرط الساعة؛ كما تكاثرت بذلك الأحاديث، لم يذكر الله ورسوله كيفية هذه الدابة، وإنما ذكر أثرها والمقصود منها، وأنها من آيات الله؛ تكلم الناس كلاما خارقا للعادة حين يقع القول على الناس وحين يمترون بآيات الله، فتكون حجة وبرهانا للمؤمنين، وحجة على المعاندين.]

﴿١٠٠﴾ وَيَوْمَ نَخْتَرُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مَّمَّنْ يَكْذِبُ بَيَاتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٠١﴾ حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوا قَالَ أَكَذَّبْتُمْ بَيَاتِيَّ وَلَمْ تُحِطْ بِمَا عَلَّمَاْ أَكُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٢﴾ وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ بِمَا ظَلَمُواْ فَهُمْ لَا يَظْفَرُونَ ﴿١٠٣﴾.

﴿١٠٤﴾ يخبر تعالى عن حالة المكذبين في موقف القيامة، وأن الله يجمعهم ويحشر من كل أمة من الأمم فوجا وطائفة، ﴿١٠٥﴾ مَّمَّنْ يَكْذِبُ بَيَاتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٠٦﴾؛ يجمع أولهم على آخرهم، وآخرهم على أولهم؛ ليعمهم السؤال والتوبيخ والولم.

﴿٨٨﴾ ومن هوله أنك ترى ﴿الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً﴾: لا تفقد شيئاً منها، وتظنها باقية على الحال المعهودة، وهي قد بلغت منها الشدائد والأهوال كل مبلغ، وقد تفتتت، ثم تضمحل وتكون هباء منبثاً، ولهذا قال: ﴿وَيَئِىَ تَمْرَمَرُ السَّحَابُ﴾: من خفتها وشدّة ذلك الخوف، وذلك ﴿صُنِعَ اللَّهُ الَّذِى أَنْفَقَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَيْرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾ ﴿٨٨﴾: فيجازيكم بأعمالكم.

﴿٨٩﴾ ثم بين كيفية جزائه، فقال: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ﴾: اسم جنس، يشمل كل حسنة قولية أو فعلية أو قلبية، ﴿فَلَهُ خَيْرٌ بِهَا﴾: هذا أقل التفضيل. ﴿وَهُمْ مِنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِثُونَ﴾ ﴿٨٩﴾؛ أي: من الأمر الذي فزع الخلق لأجله آمنون، وإن كانوا يفرعون معهم.

﴿٩٠﴾ ﴿وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ﴾: اسم جنس يشمل كل سيئة، ﴿فَكَبَتْ وَجُوهُهُمْ فِي النَّارِ﴾؛ أي: القوا في النار على وجوههم، ويقال لهم: ﴿هَلْ تَحْزَنُونَ﴾ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٠﴾.

﴿٩١﴾ إِنَّمَا أَمِرتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلَدَةِ الَّذِى حَرَمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَأَمِرتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٩١﴾ وَأَنْ أَتْلُوَ الْقُرْآنَ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿٩٢﴾ وَقُلْ الْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَعَرِّفُونَهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾.

﴿٨٨﴾ مِنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَهُمْ مِنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِثُونَ ﴿٨٩﴾ وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكَبَتْ وَجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ تَحْزَنُونَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَا أَمِرتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلَدَةِ الَّذِى حَرَمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَأَمِرتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٩١﴾ وَأَنْ أَتْلُوَ الْقُرْآنَ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿٩٢﴾ وَقُلْ الْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَعَرِّفُونَهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
طَسَّرَ ﴿١﴾ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴿٢﴾ نَتْلُو عَلَيْكَ مِنْ نَبَأٍ مَوْسَىٰ وَقَصَّوْتِ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضَعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُدْعِي أُنْيَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾ وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ﴿٥﴾

﴿٩١﴾ أي: قل لهم يا محمد: ﴿إِنَّمَا أَمِرتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلَدَةِ﴾؛ أي: مكة المكرمة ﴿الَّذِى حَرَمَهَا﴾ وأنعم على أهلها؛ فيجب أن يقابلوا ذلك بالشكر والقبول، ﴿وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ﴾: من العلويات والسفليات؛ أتى به ثلاثاً يتوهم اختصاص ربوبيته بالبيت وحده. ﴿وَأَمِرتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ ﴿٩١﴾؛ أي: أبادر إلى الإسلام. وقد فعل ﷺ؛ فإنه أول هذه الأمة إسلاماً، وأعظمها استسلاماً.

﴿٩٢﴾ وأمرت أيضاً أن ﴿أَتْلُو﴾ عليكم ﴿الْقُرْآنَ﴾: لتتهدوا به وتقتدوا وتعلموا ألفاظه ومعانيه؛ فهذا الذي عليّ، وقد أدبته، ﴿فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِ﴾: نفعه يعود عليه، وثمرته عائدة إليه، ﴿وَمَنْ ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنذِرِينَ﴾ ﴿٩٢﴾: وليس بيدي من الهداية شيء.

﴿٩٣﴾ ﴿وَقُلْ الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾: الذي له الحمد في الأولى والآخرة، ومن جميع الخلق، خصوصاً أهل الاختصاص والصفوة من عباده؛ فإن الذي وقع والذي ينبغي أن يقع منهم من الحمد والثناء على ربهم أعظم مما يقع من غيرهم؛ لرفعة درجاتهم وكمال قربهم منه وكثرة خيراته عليهم، ﴿سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَعَرِّفُونَهَا﴾: معرفة تدلكم على الحق والباطل؛ فلا بد أن يريكم من آياته ما تستتيرون به في الظلمات؛ ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حي عن بينة. ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ ﴿٩٣﴾: بل قد علم ما أنتم عليه من الأعمال والأحوال، وعلم مقدار جزاء تلك الأعمال، وسيحكم بينكم حكماً تحمدونه عليه، ولا يكون لكم حجة بوجه من الوجوه عليه.

تم تفسير سورة النمل بفضل الله وإعانتة وتيسيره، ونسأله تعالى ألا تزال ألطافه ومعونته مستمرة علينا وواصله منه إلينا، فهو أكرم الأكرمين، وخير الراحمين، وموصل المنقطعين، ومجيب السائلين، ميسر الأمور العسيرة، وفتاح أبواب بركاته،

(١) سبق قلم الشيخ رحمه الله إلى آية الأنعام فكتب: ﴿فَلَهُ عَشْرُ أَنْتَالِهَا﴾.

(٢) سبق قلم الشيخ رحمه الله فكتب: ﴿وَأَمِرتُ لِأَنَّهُ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الزمر: ١٧] وعلى هذا فسر الآية. (طبعة اللويحق).

قهره وسطوته، ﴿يَسْتَضَعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ﴾: وتلك الطائفة هم بنو إسرائيل، الذين فضلهم الله على العالمين، الذي ينبغي له أن يكرمهم ويجلهم، ولكنه استضعفهم بحيث إنه رأى أنهم لا منعة لهم تمنعهم مما أَرَادَهُ فيهم، فصار لا يبالي بهم ولا يهتم بشأنهم، وبلغت به الحال إلى أنه ﴿يُدْبِحُ أَشْيَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ﴾: خوفاً من أن يكثرُوا فيغمره في بلاده، ويصير لهم الملك. ﴿إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾: الذين لا قصد لهم في صلاح الدين ولا صلاح الدنيا. وهذا من إفساده في الأرض.

﴿٥﴾ وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ: بأن نزيل عنهم مواد الاستضعاف ونهلك من قاومهم ونخذل من ناوَاهُم، وَنَجْعَلَهُمْ آيَةً ﴿في الدين﴾، وذلك لا يحصل مع الاستضعاف، بل لا بد من تمكين في الأرض، وقدرة تامة، وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ﴿٥﴾: للأرض، الذين لهم العاقبة في الدنيا قبل الآخرة.

﴿٦﴾ وَنُنَكِّرُ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ: فهذه الأمور كلها قد تعلقت بها إرادة الله وجرت بها مشيئته. وكذلك نريد أن نري ﴿فِرْعَوْنَ وَهَارُونَ﴾: وزيره ﴿وَحُودَ هَمًّا﴾: التي بها صالوا، وجالوا وعلوا وبغوا، مِنْهُمْ: أي: من هذه الطائفة المستضعفة ﴿مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ﴾: من إخراجهم من ديارهم، ولذلك كانوا يسعون في قمعهم وكسر شوكتهم وتقتيل أبنائهم الذين هم محل ذلك؛ فكل هذا قد أَرَادَهُ الله، وإذا أراد أمراً؛ سهل أسبابه ونهج طريقه، وهذا الأمر كذلك؛ فإنه قدر وأجرى من الأسباب - التي لم يشعر بها لا أولياؤه ولا أعداؤه - ما هو سبب موصل إلى هذا المقصود.

﴿٧﴾ فأول ذلك لما أوجد الله رسوله موسى الذي جعل استنقاذ هذا الشعب الإسرائيلي على يديه ويسيه، وكان في وقت تلك المخافة العظيمة التي يذبحون بها الأبناء، أوحى إلى أمه أن ترضعه ويمكث عندها، ﴿فَإِذَا خِفتَ عَلَيْهِ﴾: بأن أحسست أحداً تخافين عليه منه أن يوصله إليهم، ﴿فَكَلِّفِيهِ فِي الْيَمِّ﴾: أي: نيل مصر، في وسط تابوت مغلق، ﴿وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾: فبشرها بأنه سيرده عليها وأنه سيكبر ويسلم من كيدهم ويجعله الله رسولا، وهذا من أعظم البشائر الجليلة. وتقديم هذه البشارة لأم موسى ليطمئن قلبها، ويسكن روعها.

ومجزل في جميع الأوقات هباته، ميسر القرآن للمتذكرين، ومسهل طرقه وأبوابه للمقبلين، ويمد مائدة خيراته ومبراته للمتفكرين. والحمد لله رب العالمين. وصلى الله على محمد وآله وصحبه وسلم.

على يد جامعته وممليه عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله السعدي غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين. وذلك في ٢٢ رمضان سنة ١٣٤٣. وتم تحريره من خط مؤلفه في ٢٩ ذي الحجة سنة ١٣٤٦.

﴿١﴾

تفسير سورة القصص

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿١﴾ طَسَّهٖ تِلْكَ ءَايَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴿٢﴾ نَتْلُو عَلَيْكَ مِنْ نَبَأِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣﴾ إلى آخر القصة.

﴿٢﴾ تِلْكَ ﴿الآيات المستحقة للتعظيم والتفخيم، ءَايَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾: لكل أمر يحتاج إليه العباد؛ من معرفة ربهم، ومعرفة حقوقه، ومعرفة أوليائه وأعدائه، ومعرفة وقائعه وأيامه، ومعرفة ثواب الأعمال جزاء العمال؛ فهذا القرآن قد بينها غاية التبيين، وجلاها للعباد، ووضحها.

﴿٣﴾ من جملة ما أبان، قصة موسى وفرعون؛ فإنه أبدأها وأعادها في عدة مواضع، وبسطها في هذا الموضع، فقال: ﴿نَتْلُو عَلَيْكَ مِنْ نَبَأِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ﴾: فإن نبأهما غريب وخبرهما عجيب، ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾: ﴿٣﴾: فإليهم يساق الخطاب ويوجه الكلام؛ حيث إن معهم من الإيمان ما يقبلون به على تدبر ذلك وتلقيه بالقبول والاهتداء بمواقع العبر، ويزدادون به إيماناً وبقيناً وخيراً إلى خيرهم، وأما من عداهم؛ فلا يستفيدون منه إلا إقامة الحجة عليهم، وصانه الله عنهم، وجعل بينهم وبينه حجاباً أن يفقهوه.

﴿٤﴾ فأول هذه القصة: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ﴾: في ملكه وسلطانه وجنوده وجبروته، فصار من أهل العلو فيها، لا من الأعلى فيها، ﴿وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيْعًا﴾: أي: طوائف متفرقة يتصرف فيهم بشهوته وينفذ فيهم ما أَرَادَ من

﴿٨﴾

فكانها خافت عليه، وفعلت ما أمرت به، ألقته في اليم، وساقه الله تعالى، حتى التقطه ﴿٨﴾ آل فرعون ﴿٩﴾: فصار من لقطهم، وهم الذين باسروا وجدانه؛ ﴿١٠﴾ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ﴿١١﴾؛ أي: لتكون العاقبة والمآل من هذا الالتقاط أن يكون عدوًّا لهم وحزنًا يحزنهم؛ بسبب أن الحذر لا ينفع من القدر، وأن الذي خافوا منه من بني إسرائيل قبض الله أن يكون زعيمهم يترى تحت أيديهم وعلى نظرهم وبكفالتهم.

وعند التدبر والتأمل تجد في طي ذلك من المصالح لبني إسرائيل ودفع كثير من الأمور الفادحة بهم ومنع كثير من التعديات قبل رسالته؛ بحيث إنه صار من كبار المملكة، وبالطبع لا بد أن يحصل منه مدافعة عن حقوق شعبه، هذا وهو هو ذو الهمة العالية والغيرة المتوقدة، ولهذا وصلت الحال بذلك الشعب المستضعف - الذي بلغ بهم الذل والإهانة إلى ما قص الله علينا بعضه - أن صار بعض أفرادها يتنازع ذلك الشعب القاهر العالي في الأرض كما سيأتي بيانه، وهذا مقدمة للظهور؛ فإن الله تعالى من سنته الجارية أن جعل الأمور تمشي على التدرج شيئًا فشيئًا، ولا تأتي دفعة واحدة. وقوله: ﴿١٢﴾ إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَمْنًا وَحُنُودَهُمَا كَانُوا خَنِيعِينَ ﴿١٣﴾؛ أي: فأردنا أن نعاقبهم على خطيئهم، ونكيدهم جزاء على مكرهم وكيدهم.

وَمَكَانَ لَمْ يَكُنْ فِي الْأَرْضِ وَرَأَى فِرْعَوْنُ وَهْمَنًا وَحُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْدُرُونَ ﴿١٤﴾ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا اخْضَعَتْ عَلَيْهِ فَكَلِمَةٍ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٥﴾ فَالْتَفَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَمْنًا وَحُنُودَهُمَا كَانُوا خَنِيعِينَ ﴿١٦﴾ وَقَالَتْ أُمُّ مُوسَىٰ فِرْعَوْنُ قُرْتُ عَيْنِي لِي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٧﴾ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَرِيعًا إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَنْ رَبَّنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٨﴾ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصَّرَتْ بِهِ عَنْ جُنْبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٩﴾ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ ﴿٢٠﴾ فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ آتِيهِ كُنْ تَفَرَّقَ عَنْهَا وَلَا تَحْزَنْ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾

﴿٢٢﴾ فلما التقطه آل فرعون؛ حزن الله عليه امرأة فرعون الفاضلة الجليلة المؤمنة آسية بنت مزاحم، ﴿٢٣﴾ وَقَالَتْ ﴿٢٤﴾: هذا الولد قُرْتُ عَيْنِي لِي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ ﴿٢٥﴾؛ أي: أبقي لنا لتقر به أعيننا، ونسر به في حياتنا، ﴿٢٦﴾ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا ﴿٢٧﴾؛ أي: لا يخلو: إما أن يكون بمنزلة الخدم الذين يسعون في نفعنا وخدمتنا، أو نرقبه درجة أعلى من ذلك؛ نجعله ولدًا لنا ونكرمه ونجمله. فقدر الله تعالى أنه نفع امرأة فرعون التي قالت تلك المقالة؛ فإنه لما صار قرة عين لها وأحبته حبًّا شديدًا، فلم يزل لها بمنزلة الولد الشفيق، حتى كبر، ونبأه الله، وأرسله، فبادرت إلى الإسلام والإيمان به، رضي الله عنها وأرضاها. قال الله تعالى عن هذه المراجعات والمقاولات في شأن موسى: ﴿٢٨﴾ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٩﴾؛ ما جرى به القلم، ومضى به القدر من وصوله إلى ما وصل إليه. وهذا من لطفه تعالى؛ فإنهم لو شعروا؛ لكان لهم وله شأن آخر.

﴿٣٠﴾ ولما فقدت موسى أمه حزنت حزنًا شديدًا، وأصبح فؤادها فارغًا من الفلق الذي أزعجها على مقتضى الحالة البشرية، مع أن الله تعالى نهاها عن الحزن والخوف، ووعدها برده. ﴿٣١﴾ إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ ﴿٣٢﴾؛ أي: بما في قلبها ﴿٣٣﴾ لَوْلَا أَنْ رَبَّنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا ﴿٣٤﴾: فثبتناها، فبصرت ولم تبد به؛ ﴿٣٥﴾ لِيَكُونَ ﴿٣٦﴾: بذلك الصبر والثبات ﴿٣٧﴾ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٨﴾: فإن العبد إذا أصابته مصيبة فصبر وثبت؛ ازداد بذلك إيمانه، ودل ذلك على أن استمرار الجزع مع العبد دليل على ضعف إيمانه.

﴿٣٩﴾ وَقَالَتْ ﴿٤٠﴾ أم موسى ﴿٤١﴾ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ ﴿٤٢﴾؛ أي: اذهبي فقصي الأثر عن أخيك، وابحثي عنه؛ من غير أن يحس بك أحد أو يشعروا بمقصودك، فذهبت تقصه، ﴿٤٣﴾ فَبَصَّرَتْ بِهِ عَنْ جُنْبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٤٤﴾؛ أي: أبصرت على وجه كأنها مارة لا قصد لها فيه، وهذا من تمام الحزم والحذر؛ فإنها لو أبصرت وجاءت إليهم قاصدة؛ لظنوا بها أنها هي التي ألقته، فربما عزموا على ذبحه عقوبة لأهله.

﴿١٧﴾ ومن لطف الله بموسى وأمه أن منعه من قبول ثدي امرأة، فأخرجوه إلى السوق رحمة به، ولعل أحدًا يطلبه، فجاءت أخته وهو بتلك الحال، ﴿فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَصِيحُونَ﴾ ﴿١٧﴾ وهذا جل غرضهم؛ فإنهم أحبه حبًا شديدًا، وقد منعه الله من المراضع، فخافوا أن يموت.

﴿١٨﴾ فلما قالت لهم أخته تلك المقالة المشتملة على الترغيب في أهل هذا البيت بتمام حفظه وكفالاته والنصح له؛ بادروا إلى إجابتها، فأعلمتهم ودلتهم على أهل هذا البيت. ﴿فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ آتِيَةٍ﴾: كما وعدناها بذلك؛ ﴿كَانَ نَقَرٌ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنُ﴾: بحيث إنه تربى عندها على وجه تكون فيه أمنة مطمئنة تفرح به وتأخذ الأجرة الكثيرة على ذلك، ﴿وَلَتَعْلَمَنَّ أَنَّكَ عِنْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾: فأريناها بعض ما وعدناها به عيانًا ليطمئن بذلك قلبها ويزداد إيمانها، ولتعلم أنه سيحصل وعد الله في حفظه ورسالته. ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ﴿١٨﴾: فإذا رأوا السبب متشوشًا؛ شوش ذلك إيمانهم؛ لعدم علمهم الكامل أن الله تعالى يجعل المحن والعقبات الشاقة بين يدي الأمور العالية والمطالب الفاضلة.

فاستمر موسى عليه الصلاة والسلام عند آل فرعون يتربى في سلطانهم ويركب مراكبهم ويلبس ملابسهم، وأمه بذلك مطمئنة، قد استقر أنها أمه من الرضاع، ولم يستنكر ملازمته إياها وحنوها عليه. وتأمل هذا اللطف وصيانة نبيه موسى من الكذب في منطقه وتيسير الأمر الذي صار به التعلق بينه وبينها، الذي بان للناس هو الرضاع الذي بسببه يسميها أمًا، فكان الكلام الكثير منه ومن غيره في ذلك كله صدقًا وحقًا.

﴿١٩﴾ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ ﴿١٩﴾: من القوة والعقل واللب، وذلك نحو أربعين سنة في الغالب، ﴿وَأَسْتَوَىٰ﴾: كملت فيه تلك الأمور ﴿وَأَيُّنَهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾؛ أي: حكمًا يعرف به الأحكام الشرعية، ويحكم به بين الناس، وعلمًا كثيرًا. ﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ ﴿٢٠﴾: في عبادة الله، المحسنين لخلق الله؛ يعطيهم علمًا وحكمًا بحسب إحسانهم. ودل هذا على كمال إحسان موسى عليه السلام.

﴿٢١﴾ - ﴿٢٢﴾ وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينٍ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا ﴿٢١﴾: إما وقت القائلة أو غير ذلك من الأوقات التي بها يغفلون عن الانتشار، ﴿فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ﴾: أي يتخاصمان ويتضاربان. ﴿هَذَا مِنْ شِيعَتِهِ﴾؛ أي: من بني إسرائيل، ﴿وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ﴾: القبط، ﴿فَأَسْتَفْتَاهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ﴾: لأنه قد اشتهر وعلم الناس أنه من بني إسرائيل، واستغاثه لموسى دليل على أنه بلغ موسى عليه السلام مبلغًا يخاف منه ويرجى من بيت المملكة والسلطان. ﴿فَوَكَرَهُ مُوسَىٰ﴾؛ أي: وكز الذي من عدوه استجابة لاستغاثته الإسرائيلي، ﴿فَقَضَىٰ عَلَيْهِ﴾؛ أي: أماته من تلك الوكرة لشدهتها وقوة موسى. فندم موسى عليه السلام على ما جرى منه، و﴿قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ﴾؛ أي: من تزيينه ووسوسته. ﴿إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ﴾ ﴿٢٢﴾: فلذلك أجريت ما أجريت بسبب عداوته البينة وحرصه على الإضلال. ثم استغفر ربه، ف﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ ﴿٢٣﴾: خصوصًا للمختبين إليه، المبادرين للإنباء والتوبة؛ كما جرى من موسى عليه السلام، ف﴿قَالَ﴾ موسى: ﴿رَبِّ يَمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ﴾: بالتوبة والمغفرة والنعم الكثيرة، ﴿فَلَن أَكُونَ ظَهِيرًا﴾؛ أي: معيّنًا ومساعدًا ﴿لِّلْمُجْرِمِينَ﴾ ﴿٢٤﴾؛ أي: لا أعين أحدًا على معصية. وهذا وعد من موسى عليه السلام بسبب منه الله عليه ألا يعين معجرًا كما

سورة القصص
وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَأَسْتَوَىٰ ؕ أَيُّنَهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٩﴾ وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينٍ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَذَا مِنْ شِيعَتِهِ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَفْتَاهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَرَهُ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٠﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٢١﴾ قَالَ رَبِّ يَمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَن أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴿٢٢﴾ فَاصْبِرْ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اُسْتَنْصَرَهُ بِالْأُمْسِ يَسْتَصْرِحُهُ قَالَ لَهُ مُوسَىٰ إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٣﴾ فَلَمَّا أَتَىٰ أَرَادَ أَنْ يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا قَالَ يَمْوَسَىٰ أَرِيدُ أَنْ نَقْتُلَكَ كَمَا قُتِلَتْ نَفْسًا بِالْأُمْسِ إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمَصْلُوحِينَ ﴿٢٤﴾ وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَمْوَسَىٰ إِنَّكَ أَلَمَّا لَا تَأْتِرُونَ بَكَ لَيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ ﴿٢٥﴾ فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٢٦﴾

فعل في قتل القبطي، وهذا يفيد أن النعم تقتضي من العبد فعل الخير وترك الشر.

﴿١٨﴾ فلما جرى منه قتل الذي هو من عدوه؛ أصبح ﴿١٩﴾ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ: هل يشعر به آل فرعون أم لا؟ وإنما خاف لأنه قد علم أنه لا يتجرأ أحد على مثل هذه الحال سوى موسى من بني إسرائيل. فبينما هو على تلك الحال؛ ﴿٢٠﴾ فَإِذَا الَّذِي اُسْتَنْصَرُهُ بِالْأَمْسِ: على عدوه. ﴿٢١﴾ يَسْتَصْرِخُهُ: على قبطي آخر، ﴿٢٢﴾ قَالَ لَهُ مُوسَى: موبخاً على حاله: ﴿٢٣﴾ إِنَّكَ لَنُفُوءٌ مُّبِينٌ ﴿٢٤﴾؛ أي: بين الغواية ظاهر الجراءة، ﴿٢٥﴾ فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَنْ يَبْطِشَ: موسى ﴿٢٦﴾ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا: أي له وللخصام المستصرخ لموسى؛ أي: لم يزل اللجاج بين القبطي والإسرائيلي، وهو يستغيث بموسى، فأخذته الحمية، حتى هم أن يبطش بالقبطي، ف ﴿٢٧﴾ قَالَ له القبطي زاجراً له عن قتله: ﴿٢٨﴾ أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ: لأن من أعظم آثار الجبار في الأرض قتل النفس بغير حق. ﴿٢٩﴾ وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٣٠﴾: وإلا؛ فلو أردت الإصلاح؛ لعلت بيني وبينه من غير قتل أحد. فانكف موسى عن قتله، وارعى لوعظه وزجره.

﴿٣١﴾ وشاع الخبر بما جرى من موسى في هاتين القضيتين حتى تراود ملاً فرعون وفرعون على قتله، وتشاوروا على ذلك، فقيض الله ذلك الرجل الناصح، وبادرهم إلى الإخبار لموسى بما اجتمع عليه رأي ملثهم، فقال: ﴿٣٢﴾ وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ يَتَخَفُ: أي: ركضاً على قدميه من نصحه لموسى وخوفه أن يوقعوا به قبل أن يشعر، فقال: ﴿٣٣﴾ يَتَمُوسَى إِنَّكَ لَمَلَأَ بِأَتِيرُونَ: أي: يتشاورون فيك، ﴿٣٤﴾ يَفْتَكُلُوكَ فَافْخُجْ: عن المدينة ﴿٣٥﴾ إِنْ لَكَ مِنَ النَّصِيحَةِ: فامثل نصحه. ﴿٣٦﴾ فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ: أن يوقع به القتل، ودعا الله و ﴿٣٧﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٣٨﴾: فإنه قد تاب من ذنبه، وفعله غضباً من غير قصد منه للقتل؛ فتوعدته له ظلم منهم وجراءة.

﴿٣٩﴾ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تَلَقَّاهُ مَدْيَنُ: أي: قاصداً بوجهه مدين، وهو جنوبي فلسطين؛ حيث لا ملك لفرعون، ﴿٤٠﴾ قَالَ عَسَى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿٤١﴾: أي: وسط الطريق المختصر الموصل إليها بسهولة ورفق. فهده الله سواء السبيل، فوصل إلى مدين.

﴿٤٢﴾ وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةٌ مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ: مواشيهم، وكانوا أهل ماشية كثيرة، ﴿٤٣﴾ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ: أي: دون تلك الأمة ﴿٤٤﴾ أَمْرأتَيْنِ تَذُودَانِ: عنهما عن حياض الناس؛ لعجزهما عن مزاحمة الرجال، وبخلهم وعدم مروءتهم عن السقي لهما، ﴿٤٥﴾ قَالَ: لهما موسى: ﴿٤٦﴾ مَا خَطْبُكُمَا؟ أي: ما شأنكما بهذه الحالة؟ ﴿٤٧﴾ قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ: أي: قد جرت العادة أنه لا يحصل لنا سقي حتى يصدر الرعاء مواشيهم؛ فإذا خلا لنا الجو؛ سقيناً، ﴿٤٨﴾ وَأُتُونَا شَيْحٌ كَبِيرٌ ﴿٤٩﴾: أي: لا قوة له على السقي، فليس فينا قوة تقتدر بها، ولا لنا رجال يراحمون الرعاء.

﴿٥٠﴾ فرق لهما موسى عليه السلام ورحمهما، ﴿٥١﴾ فَسَقَى لَهُمَا: غير طالب منهما الأجر، ولا له قصد غير وجه الله تعالى، فلما سقى لهما، وكان ذلك وقت شدة حر وسط النهار؛ بدليل قوله: ﴿٥٢﴾ ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ: مستريحاً لتلك الظلال بعد التعب، ﴿٥٣﴾ فَقَالَ: في تلك الحالة مستريحاً ربه: ﴿٥٤﴾ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَزَلْتُ إِلَيْكَ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٥٥﴾: أي: إني مفتقر للخير الذي تسوقه إليّ

﴿٥٦﴾ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تَلَقَّاهُ مَدْيَنُ: قَالَ عَسَى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿٥٧﴾ وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةٌ مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأُتُونَا شَيْحٌ كَبِيرٌ ﴿٥٨﴾ فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَزَلْتُ إِلَيْكَ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٥٩﴾ فَجَاءَهُمَا مِنْهُمَا شَيْءٌ فَتَمَشَّى عَلَى أَسْتَحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّكِ ابْنَتُكَ بِدَعْوِكَ لَكُنَّ عَجَبٌ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَبَوِّتُ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٦٠﴾ قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَبْتَاطِ اسْتَجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَجَرْتَ الْقَوَى الْأَمِينُ ﴿٦١﴾ قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ نَمُنَ بِمَا نَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَّنِي بِحَبِّجٍ فَإِنْ أَتَمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٦٢﴾ قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتَ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٦٣﴾

وتيسره لي، وهذا سؤال منه بحاله، والسؤال بالحال أبلغ من السؤال بلسان المقال.

﴿٢٥﴾ فلم يزل في هذه الحالة داعياً ربه متملقاً، وأما المرأتان؛ فذهبتا إلى أبيهما وأخبرتاه بما جرى، فأرسل أبوهما إحداهما إلى موسى، فجاءته ﴿تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ﴾، وهذا يدل على كرم عنصرها وخلقها الحسن؛ فإن الحياء من الأخلاق الفاضلة، وخصوصاً في النساء، ويدل على أن موسى عليه السلام لم يكن فيما فعله من السقي لهما بمنزلة الأجير والخادم الذي لا يستحي منه عادة، وإنما هو عزيز النفس، رأت من حسن خلقه ومكارم أخلاقه ما أوجب لها الحياء منه، ﴿قَالَتْ لَهُ﴾ ﴿إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾؛ أي: لا ليمنن عليك، بل أنت الذي ابتدأتنا بالإحسان، وإنما قصده أن يكافئك على إحسانك، فأجابها موسى، ﴿فَلَمَّا جَاءَهُ، وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ﴾: من ابتداء السبب الموجب لهربه إلى أن وصل إليه، ﴿قَالَ﴾: له مسكناً روعه جابراً قلبه: ﴿لَا تَحْزَنْ بَمَوْتَ رَبِّ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ ﴿٢٦﴾؛ أي: ليذهب خوفك وروعك؛ فإن الله نجاك منهم حيث وصلت إلى هذا المحل الذي ليس لهم عليه سلطان.

﴿٢٦﴾ ﴿قَالَتْ إِحْدَاهُمَا﴾؛ أي: إحدى ابنتيه: ﴿اسْتَفْجِرْهُ﴾؛ أي: اجعله أجيراً عندك يرعى الغنم ويسقيها، ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ﴾ ﴿٢٧﴾؛ أي: إن موسى أولى من استؤجر؛ فإنه جمع القوة والأمانة، وخير أجير استؤجر من جمعهما؛ أي: القوة والقدرة على ما استؤجر عليه، والأمانة فيه بعدم الخيانة، وهذان الوصفان ينبغي اعتبارهما في كل من يتولى للإنسان عملاً بإجارة أو غيرها؛ فإن الخلل لا يكون إلا بفقدتهما أو فقد إحداهما، وأما اجتماعهما؛ فإن العمل يتم ويكمل. وإنما قالت ذلك لأنها شاهدت من قوة موسى عند السقي لهما ونشاطه ما عرفت به قوته، وشاهدت من أمانته وديانته وأنه رحمهما في حالة لا يرجى نفعهما، وإنما قصده بذلك وجه الله تعالى.

﴿٢٧﴾ ف ﴿قَالَ﴾ صاحب مدين لموسى: ﴿إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أَمْكِكَ﴾ إِحْدَى ابْنَتَي هَاتَيْنِ عَلَيَّ أَنْ تَأْجُرَنِي؛ أي: تصير أجيراً عندي ﴿ثُمَّنِي حِجَجٌ﴾؛ أي: ثماني سنين، ﴿فَإِنْ أَتَمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ﴾: تبرع منك لا شيء واجب عليك. ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ﴾: فأحتم عشر السنين، أو ما أريد أن أستأجرك لأكلفك أعمالاً شاقة، وإنما استأجرتك لعمل سهل يسير لا مشقة فيه. ﴿سَتَجِدُنِي﴾

شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٢٨﴾: فرغبه في سهولة العمل وفي حسن المعاملة، وهذا يدل على أن الرجل الصالح ينبغي له أن يحسن خلقه مهما أمكنه، وأن الذي يطلب منه أبلغ من غيره.

﴿٢٨﴾ ف ﴿قَالَ﴾ موسى عليه السلام مجيباً له فيما طلب منه: ﴿ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ﴾؛ أي: هذا الشرط الذي أنت ذكرت رضيت به، وقد تم فيما بيني وبينك، ﴿أَيُّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ﴾: سواء قضيت الثماني الواجبة أم تبرعت بالزائد عليها، ﴿وَاللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ ﴿٢٩﴾: حافظ يراقبنا ويعلم ما تعاقدا عليه.

وهذا الرجل أبو المرأتين صاحب مدين ليس بشعيب النبي المعروف كما اشتهر عند كثير من الناس؛ فإن هذا قول لم يدل عليه دليل، وغاية ما يكون أن شعيباً عليه السلام قد كانت بلده مدين، وهذه القضية جرت في مدين؛ فأين الملازمة بين الأمرين؟! وأيضاً؛ فإنه غير معلوم أن موسى أدرك زمان شعيب؛ فكيف بشخصه؟! ولو كان ذلك الرجل شعيباً؛ لذكره الله تعالى، ولسمته المرأتان. وأيضاً؛ فإن شعيباً عليه الصلاة والسلام قد أهلك الله قومه بتكذيبهم إياه، ولم يبق إلا من آمن به، وقد أعاد الله المؤمنين به أن يرضوا لبنتي نبيهم بمنعهما عن الماء وصد ماشيتهما حتى يأتيهما رجل غريب فيحسن إليهما ويسقي ماشيتهما، وما كان شعيب ليرضى أن يرعى موسى عنده ويكون خادماً له وهو أفضل منه وأعلى درجة؛ إلا أن يقال: هذا قبل نبوة موسى؛ فلا منافاة. وعلى كل حال؛ لا يعتمد على أنه شعيب النبي بغير نقل صحيح عن النبي ﷺ. والله أعلم.

﴿٢٩﴾ ﴿فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الْأَجَلَ﴾: يحتمل أنه قضى الأجل الواجب أو الزائد عليه كما هو الظن بموسى ووفائه؛ اشتاق إلى الوصول إلى أهله ووالدته وعشيرته ووطنه، وظن من طول المدة أنهم قد تناسوا ما صدر منه. ﴿وَسَارَ بِأَهْلِهِ﴾: قاصداً مصر، ﴿ءَأْتَسِرَ﴾؛ أي: أبصر، ﴿مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا﴾ قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا تَلْعَلُ مِنْكُمْ مَّنْهَا يَحْبُرُ أَوْ جَذْوَةً مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٣٠﴾: وكان قد أصابهم البرد، وتاهوا الطريق.

﴿٣٠﴾ فلما أتاهما نودي: ﴿يَمْوَسَّىٰ إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿٣١﴾: فأخبره بألوهيته وربوبيته، ويلزم من ذلك أن يأمره بعبادته وتألّفه كما صرح به في الآية الأخرى، ﴿فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾ ﴿٣٢﴾ [طه: ١٤].

﴿٢١﴾ وَأَنْ أَلْقَى عَصَاكَ ﴿٢٢﴾ فَأَلْقَاهَا، ﴿٢٣﴾ فَلَمَّا رَأَاهَا تَهْتَزُّ: تسعى سعيًا شديدًا، ولها صورة مهيلة ﴿كَأَنَّهَا جَانٌّ﴾: ذكر الحيات العظيم، ﴿وَلَوْ مُدِيرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾؛ أي: يرجع لاستيلاء الروح على قلبه، فقال الله له: ﴿يَتَّبِعُكَ أَقِيلٌ وَلَا تُخَفِّفُ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ﴾ ﴿٢٤﴾: وهذا أبلغ ما يكون في التأمين وعدم الخوف؛ فإن قوله: ﴿أَقِيلٌ﴾ يقتضي الأمر بإقباله ويجب عليه الامتثال، ولكن قد يكون إقباله وهو لم يزل الأمر المخوف، فقال: ﴿وَلَا تُخَفِّفْ﴾: أمر له بشئتين: إقباله، والألا يكون في قلبه خوف. ولكن يبقى احتمال، وهو أنه قد يُقْبَلُ وهو غير خائف، ولكن لا تحصل له الوقاية والأمن من المكروه فقال: ﴿إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ﴾ ﴿٢٥﴾: فحينئذ اندفع المحذور من جميع الوجوه. فأقبل موسى عليه السلام غير خائف ولا مرعوب، بل مطمئنًا واثقًا بخبر ربه، قد ازداد إيمانه وتم يقينه. فهذه آية أراه الله إياها قبل ذهابه إلى فرعون؛ فيكون على يقين تام، فيكون أجره له وأقوى وأصلب.

﴿٢٦﴾ ثُمَّ أَرَاهُ الْآيَةَ الْآخَرَى، فقال: ﴿أَسْلَكَ يَدَكَ﴾؛ أي: أدخلها ﴿فِي جَيْبِكَ تَخْرُجُ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوَرٍ﴾: فسلكها وأخرجها كما ذكر الله تعالى، ﴿وَأَضْمَمَ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ﴾؛ أي: ضم جناحك - وهو عضدك - إلى جنبك؛ ليزول عنك الرهب والخوف. ﴿فَذَنَبَكَ﴾؛ أي: انقلب العصا حية وخروج اليد بيضاء من غير سوء ﴿بُرْهَانًا مِنْ رَبِّكَ﴾؛ أي: حجتان قاطعتان من الله ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٢٧﴾: فلا يكفيهم مجرد الإنذار وأمر الرسول إياهم، بل لا بد من الآيات الباهرة إن نفعت.

﴿٢٨﴾ فَذَكَرَ ﴿٢٩﴾ قَالَ ﴿٣٠﴾ فَمُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ مُعْتَذِرًا مِنْ رَبِّهِ وَسَائِلًا لَهُ الْمَعُونَةَ عَلَىٰ مَا حَمَلَهُ وَذَاكِرًا لَهُ الْمَوَانِعَ الَّتِي فِيهِ لِيُزِيلَ رَبُّهُ مَا يَحْذَرُهُ مِنْهَا: ﴿رَبِّ إِنِّي قُلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا﴾؛ أي: ﴿فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِي﴾ ﴿٣١﴾ وَأَخِي هَارُونَ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسَلْتُهُ مَعِيَ رِدْءًا﴾؛ أي: معاونًا ومساعدًا، ﴿يُصَدِّقُنِي﴾ فإنه مع تضافر الأخبار يقوى الحق.

﴿٣٢﴾ فَأَجَابَهُ اللَّهُ إِلَىٰ سَوَالِهِ، فقال: ﴿سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ﴾؛ أي: نعاونك به ونقويك. ثم أزال عنه محذور القتل، فقال: ﴿وَنَجْعَلُ لَكَ سُلْطَانًا﴾؛ أي: تسلطًا وتمكنًا من الدعوة بالحجة والهيبة الإلهية من عدوهما لهما؛ ﴿فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكَ﴾: وذلك بسبب آياتنا وما دلت عليه من الحق وما أزعجت به من باشرها ونظر إليها؛ فهي التي بها حصل لهما السلطان، واندفع بها عنكم كيد عدوكم، وصارت لكم أبلغ من الجنود أولي العدد والعدد. ﴿أَنْتُمْ وَمَنْ أَتَيْكُمْ مِنَ الْفَلِيلِ﴾ ﴿٣٣﴾: وهذا وعد لموسى في ذلك الوقت، وهو وحده فريد، وقد رجع إلى بلده بعدما كان شريدًا، فلم تزل الأحوال تتطور والأمور تتنقل حتى أنجز له موعوده، ومكنه من العباد والبلاد، وصار له ولأتباعه الغلبة والظهور.

﴿٣٤﴾ فَذَهَبَ مُوسَىٰ بِرِسَالَةِ رَبِّهِ، ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ﴾: واضحات الدلالة على ما قال لهم، ليس فيها قصور ولا خفاء، ﴿قَالُوا﴾: على وجه الظلم والعلو والعناد: ﴿مَا هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُتَعَدِّى﴾؛ كما قال فرعون في تلك الحال التي ظهر فيها الحق، واستعلى على الباطل، واضمحل الباطل، وخضع له الرؤساء العارفون حقائق الأمور: ﴿إِنَّهُ لَكَيْفَ كُفُّوا عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ﴿٣٥﴾: وهذا وعد لموسى في ذلك الوقت، وهو وحده فريد، وقد رجع إلى بلده بعدما كان شريدًا، فلم تزل الأحوال تتطور والأمور تتنقل حتى أنجز له موعوده، ومكنه من العباد والبلاد، وصار له ولأتباعه الغلبة والظهور.

﴿٣٦﴾ فَذَهَبَ مُوسَىٰ بِرِسَالَةِ رَبِّهِ، ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ﴾: واضحات الدلالة على ما قال لهم، ليس فيها قصور ولا خفاء، ﴿قَالُوا﴾: على وجه الظلم والعلو والعناد: ﴿مَا هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُتَعَدِّى﴾؛ كما قال فرعون في تلك الحال التي ظهر فيها الحق، واستعلى على الباطل، واضمحل الباطل، وخضع له الرؤساء العارفون حقائق الأمور: ﴿إِنَّهُ لَكَيْفَ كُفُّوا عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ﴿٣٥﴾: وهذا وعد لموسى في ذلك الوقت، وهو وحده فريد، وقد رجع إلى بلده بعدما كان شريدًا، فلم تزل الأحوال تتطور والأمور تتنقل حتى أنجز له موعوده، ومكنه من العباد والبلاد، وصار له ولأتباعه الغلبة والظهور.

﴿٣٦﴾ فَذَهَبَ مُوسَىٰ بِرِسَالَةِ رَبِّهِ، ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ﴾: واضحات الدلالة على ما قال لهم، ليس فيها قصور ولا خفاء، ﴿قَالُوا﴾: على وجه الظلم والعلو والعناد: ﴿مَا هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُتَعَدِّى﴾؛ كما قال فرعون في تلك الحال التي ظهر فيها الحق، واستعلى على الباطل، واضمحل الباطل، وخضع له الرؤساء العارفون حقائق الأمور: ﴿إِنَّهُ لَكَيْفَ كُفُّوا عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ﴿٣٥﴾: وهذا وعد لموسى في ذلك الوقت، وهو وحده فريد، وقد رجع إلى بلده بعدما كان شريدًا، فلم تزل الأحوال تتطور والأمور تتنقل حتى أنجز له موعوده، ومكنه من العباد والبلاد، وصار له ولأتباعه الغلبة والظهور.

﴿٣٦﴾ فَذَهَبَ مُوسَىٰ بِرِسَالَةِ رَبِّهِ، ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ﴾: واضحات الدلالة على ما قال لهم، ليس فيها قصور ولا خفاء، ﴿قَالُوا﴾: على وجه الظلم والعلو والعناد: ﴿مَا هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُتَعَدِّى﴾؛ كما قال فرعون في تلك الحال التي ظهر فيها الحق، واستعلى على الباطل، واضمحل الباطل، وخضع له الرؤساء العارفون حقائق الأمور: ﴿إِنَّهُ لَكَيْفَ كُفُّوا عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ﴿٣٥﴾: وهذا وعد لموسى في ذلك الوقت، وهو وحده فريد، وقد رجع إلى بلده بعدما كان شريدًا، فلم تزل الأحوال تتطور والأمور تتنقل حتى أنجز له موعوده، ومكنه من العباد والبلاد، وصار له ولأتباعه الغلبة والظهور.

﴿٣٦﴾ فَذَهَبَ مُوسَىٰ بِرِسَالَةِ رَبِّهِ، ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ﴾: واضحات الدلالة على ما قال لهم، ليس فيها قصور ولا خفاء، ﴿قَالُوا﴾: على وجه الظلم والعلو والعناد: ﴿مَا هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُتَعَدِّى﴾؛ كما قال فرعون في تلك الحال التي ظهر فيها الحق، واستعلى على الباطل، واضمحل الباطل، وخضع له الرؤساء العارفون حقائق الأمور: ﴿إِنَّهُ لَكَيْفَ كُفُّوا عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ﴿٣٥﴾: وهذا وعد لموسى في ذلك الوقت، وهو وحده فريد، وقد رجع إلى بلده بعدما كان شريدًا، فلم تزل الأحوال تتطور والأمور تتنقل حتى أنجز له موعوده، ومكنه من العباد والبلاد، وصار له ولأتباعه الغلبة والظهور.

أرسل يوسف قبل موسى؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَ كُومُ
يُوسُفَ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا جَاءَ كُومُ بِهِ حَتَّى
إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا كَذَلِكَ
يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ ﴿٣٦﴾﴾ [غافر: ٣٤].

﴿٣٧﴾ وَقَالَ مُوسَى: ﴿حِينَ زَعَمُوا أَنِ الَّذِي جَاءَهُمْ بِهِ سَحَرٌ
وَضَلَالٌ، وَأَن مَّا هُمْ عَلَيْهِ هُوَ الْهُدَى: ﴿رَبِّیْ أَعْلَمُ بِمَن جَاءَ
بِالْهُدَى مِنْ عِنْدِهِ، وَمَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ؟﴾؛ أَي: إِذَا لَمْ تَقْدِ
المقابلة معكم وتبين الآيات البينات وأیتم إلا التماهي في
غیكم واللجاج على كفرکم؛ فالله تعالى العالم بالمهتدي
وغيره ومن تكون له عاقبة الدار؛ نحن أم أنتم. ﴿إِنَّهُ لَا يَفْلِحُ
الظَّالِمُونَ ﴿٣٧﴾﴾: فصار عاقبة الدار لموسى وأتباعه، والفلاح
والفوز، وصار لأولئك الخسار وسوء العاقبة والهلاك.

﴿٣٨﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ: ﴿مَتَجَرِّفًا عَلَى رَبِّهِ وَمَمُوهًا عَلَى قَوْمِهِ
السُّفَهَاءِ أَخْفَاءَ الْعُقُولِ﴾: ﴿يَكَايُهَا أَلْمَلُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ
إِلَهِ غَيْرِ﴾؛ أَي: أَنَا وحدي إلهكم ومعبودكم، ولو كان
ثم إله غيري؛ لعلمته! فانظر إلى هذا الورع التام من فرعون؛
حيث لم يقل: ما لكم من إله غيري! بل تورع وقال: ما علمت
لكم من إله غيري! وهذا لأنه عندهم العالم الفاضل، الذي
مهما قال؛ فهو الحق، ومهما أمر؛ أطاعوه.

سُورَةُ الْقَصَصِ
فَلَمَّا جَاءَهُمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا سِحْرٌ
مُتَمَتِّرٌ وَمَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ ﴿٣٦﴾ وَقَالَ
مُوسَى رَبِّي أَعْلَمُ بِمَن جَاءَ بِالْهُدَى مِنْ عِنْدِهِ وَمَنْ تَكُونُ
لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ
يَكَايُهَا أَلْمَلُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرِي فَأَوْقِدْ
لِي يَهْنَكُنَّ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَلْ لِّي صَرْحًا لَعَلِّي أَطْلُعُ إِلَى
إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٣٨﴾ وَاسْتَكْبَرَ
هُوَ وَجُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِكِبَرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا
لَا يُرْجَعُونَ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذَتْهُ وَجُودُهُ، فَجَذَبْنَاهُمْ فِي
الْبَيْتِ فَأَنْظَرُ كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ ﴿٤٠﴾
وَجَعَلْنَاهُمْ آيَةً يَذْعُرُونَ إِلَى الْتَكَارِ وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ
لَا يُبْصَرُونَ ﴿٤١﴾ وَاتَّبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً
وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ هُمْ رَبُّ الْمَقْبُوحِينَ ﴿٤٢﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا
مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى
بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٣﴾

فلما قال هذه المقالة التي قد تحتل أن ثم إلهًا غيره؛ أراد أن يحقق النفي الذي جعل فيه ذلك الاحتمال، فقال لهامان:
﴿فَأَوْقِدْ لِي يَهْنَكُنَّ عَلَى الطِّينِ﴾: ليجعل له لبنًا من فخار، ﴿فَاجْعَلْ لِّي صَرْحًا﴾؛ أَي: بناءً عاليًا؛ ﴿لَعَلِّي أَطْلُعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى
وَإِنِّي لأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٣٨﴾﴾ ولكن سنحقق هذا الظن ونريكم كذب موسى.

فانظر هذه الجراءة العظيمة على الله، التي ما بلغها آدمي! كذب موسى، وادعى أنه الله، ونفى أن يكون له علم بالإله الحق،
وفعل الأسباب ليتوصل إلى إله موسى، وكل هذا ترويج. ولكن العجب من هؤلاء الملاء الذين يزعمون أنهم كبار المملكة
المدبرون لشؤونها؛ كيف لعب هذا الرجل بعقولهم، واستخف أحلامهم؟! وهذا لفسقهم الذي صار صفة راسخة فيهم؛ فسد
دينهم، ثم تبع ذلك فساد عقولهم؛ ففسادك اللهم الثبات على الإيمان، وألّا تزيع قلوبنا بعد إذ هديتنا، وتهب لنا من لدنك
رحمة إنك أنت الوهاب.

﴿٣٩﴾ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِكِبَرِ الْحَقِّ﴾: استكبروا على عباد الله، وساموهم سوء العذاب،
واستكبروا على رسل الله وما جاءهم به من الآيات، فكذبوها، وزعموا أن ما هم عليه أعلى منها وأفضل، ﴿وَوَظَنُوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا
لَا يُرْجَعُونَ ﴿٣٩﴾﴾: فلذلك تجرعوا، وإلا؛ فلو علموا أو ظنوا أنهم يرجعون إلى الله؛ لما كان منهم ما كان.

﴿٤٠﴾ فَأَخَذَتْهُ وَجُودُهُ: ﴿عِنْدَمَا اسْتَمَرَّ عِنَادُهُمْ وَبَغْيُهُمْ، فَجَذَبْنَاهُمْ فِي الْبَيْتِ فَأَنْظَرُ كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ
الظَّالِمِينَ ﴿٤٠﴾﴾: كانت أشد العواقب وأخسرها عاقبة، أعقبها العقوبة الدنيوية المستمرة المتصلة بالعقوبة الأخروية.

﴿٤١﴾ وَجَعَلْنَاهُمْ آيَةً يَذْعُرُونَ إِلَى الْتَكَارِ؛ أَي: جعلنا فرعون وملاءه من الأئمة الذين يقتدى بهم، ويمشى خلفهم إلى
دار الخزي والشقاء. ﴿وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ لَا يُبْصَرُونَ ﴿٤١﴾﴾: من عذاب الله؛ فهم أضعف شيء عن دفعه عن أنفسهم، وليس لهم
من دون الله من ولي ولا نصير.

وَاتَّبَعْنَاهُمْ فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً ۖ أَي: وأتبعناهم
زيادة في عقوبتهم وخزيهم في الدنيا لعنة يلعنون، ولهم عند
الخلق الشاء القبيح والمقت والذم، وهذا أمر مشاهد؛ فهم
أئمة الملعونين في الدنيا ومقدمتهم. ﴿٤٢﴾ وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ هُمْ
مِنَ الْمَقْبُوحِينَ ﴿٤٣﴾: المبعدين، المستقذرة أفعالهم،
الذين اجتمع عليهم مقت الله ومقت خلقه ومقت أنفسهم.

﴿٤٤﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ ۖ وَهُوَ التَّوْرَةُ ۖ مِنْ بَعْدِ
مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى: الذين كان خاتمهم في الإهلاك
العام فرعون وجنوده، وهذا دليل على أنه بعد نزول التوراة
انقطع الهلاك العام، وشرع جهاد الكفار بالسيف؛ ﴿بَصَائِرَ
لِلنَّاسِ﴾؛ أي: كتاب الله الذي أنزله على موسى فيه بصائر
للناس؛ أي: أمور ييصرون بها ما ينفعهم وما يضرهم، فتقوم
الحجة على العاصي، ويستنفع بها المؤمن، فتكون رحمة في
حقه وهداية له إلى الصراط المستقيم، ولهذا قال: ﴿وَهَدَى
وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾. ﴿٤٥﴾

﴿٤٦﴾ وَلَمَّا قَصَّ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مَا قَصَّ مِنْ هَذِهِ الْأَخْبَارِ
الغيبية؛ نبه العباد على أن هذا خبر إلهي محض، ليس للرسول
طريق إلى علمه؛ إلا من جهة الوحي؛ ولهذا قال: ﴿وَمَا كُنْتُ
بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ﴾؛ أي: بجانب الطور الغربي وقت قضائنا
لموسى الأمر، ﴿وَمَا كُنْتُ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾: على ذلك حتى يقال: إنه وصل إليك من هذا الطريق.

﴿٤٧﴾ وَلَكِنَّا أَشْنَانَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ ۖ فَنَادَرَسُ الْعِلْمَ وَنَسِيتُ آيَاتِهِ، فَبِعَيْنِكَ فِي وَقْتِ اشْتَدَّتْ الْحَاجَةُ إِلَيْكَ وَإِلَى
ما علمناك وأوحينا إليك، ﴿وَمَا كُنْتُ تَأْوِيًا﴾؛ أي: مقيماً، ﴿فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِنَا﴾؛ أي: تعلمهم وتعلم
منهم، حتى أخبرت بما أخبرت من شأن موسى في مدين. ﴿وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾: ﴿٤٨﴾؛ أي: ولكن ذلك الخبر الذي
جئت به عن موسى أثر من آثار إرسالنا إياك ووحى لا سبيل لك إلى علمه بدون إرسالنا.

﴿٤٩﴾ وَمَا كُنْتُ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْتَنِي: موسى وأمرناه أن يأتي القوم الظالمين ويبلغهم رسالتنا ويريه من آياتنا وعجائبنا
ما قصصنا عليك.

والمقصود أن الماجريات التي جرت لموسى عليه الصلاة والسلام في هذه الأماكن، فقصصتها كما هي من غير زيادة ولا
نقص، لا يخلو من أحد أمرين: إما أن تكون حضرته وشاهدتها، أو ذهبت إلى محالها فتعلمتها من أهلها؛ فحينئذ قد لا يدل
ذلك على أنك رسول الله؛ إذ الأمور التي يُخبر بها عن شهادة ودراسة من الأمور المشتركة غير المختصة بالأنبياء، ولكن هذا
قد علم وثيق أنه ما كان وما صار؛ فأولياؤك وأعداؤك يعلمون عدم ذلك. فتعين الأمر الثاني، وهو أن هذا جاءك من قبل الله
ووحيه وإرساله، فثبت بالدليل القطعي صحة رسالتك ورحمة الله بك للعباد، ولهذا قال: ﴿وَلَكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ
قَوْمًا مَّا أَتَتْهُمْ مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ﴾؛ أي: العرب وقریش؛ فإن الرسالة عندهم لا تعرف وقت إرسال الرسول وقبلة بأزمان
متطاولة، ﴿لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾: ﴿٥٠﴾: تفصيل الخير فيفعلونه، والشر فيتركونه. فإذا كنت بهذه المنزلة؛ كان الواجب عليهم
المبادرة إلى الإيمان بك وشكر هذه النعمة التي لا يقادر قدرها ولا يدرك شكرها. وإنذاره للعرب لا ينفي أن يكون مرسلًا
لغيرهم؛ فإنه عربي، والقرآن الذي نزل عليه عربي، وأول من باشر بدعوته العرب، فكانت رسالته لهم أصلاً ولغيرهم تبعاً؛

﴿٥١﴾ وَمَا كُنْتُ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْتَنِي: موسى وأمرناه أن يأتي القوم الظالمين ويبلغهم رسالتنا ويريه من آياتنا وعجائبنا
ما قصصنا عليك.

والمقصود أن الماجريات التي جرت لموسى عليه الصلاة والسلام في هذه الأماكن، فقصصتها كما هي من غير زيادة ولا
نقص، لا يخلو من أحد أمرين: إما أن تكون حضرته وشاهدتها، أو ذهبت إلى محالها فتعلمتها من أهلها؛ فحينئذ قد لا يدل
ذلك على أنك رسول الله؛ إذ الأمور التي يُخبر بها عن شهادة ودراسة من الأمور المشتركة غير المختصة بالأنبياء، ولكن هذا
قد علم وثيق أنه ما كان وما صار؛ فأولياؤك وأعداؤك يعلمون عدم ذلك. فتعين الأمر الثاني، وهو أن هذا جاءك من قبل الله
ووحيه وإرساله، فثبت بالدليل القطعي صحة رسالتك ورحمة الله بك للعباد، ولهذا قال: ﴿وَلَكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ
قَوْمًا مَّا أَتَتْهُمْ مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ﴾؛ أي: العرب وقریش؛ فإن الرسالة عندهم لا تعرف وقت إرسال الرسول وقبلة بأزمان
متطاولة، ﴿لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾: ﴿٥٢﴾: تفصيل الخير فيفعلونه، والشر فيتركونه. فإذا كنت بهذه المنزلة؛ كان الواجب عليهم
المبادرة إلى الإيمان بك وشكر هذه النعمة التي لا يقادر قدرها ولا يدرك شكرها. وإنذاره للعرب لا ينفي أن يكون مرسلًا
لغيرهم؛ فإنه عربي، والقرآن الذي نزل عليه عربي، وأول من باشر بدعوته العرب، فكانت رسالته لهم أصلاً ولغيرهم تبعاً؛

﴿٥٣﴾ وَمَا كُنْتُ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْتَنِي: موسى وأمرناه أن يأتي القوم الظالمين ويبلغهم رسالتنا ويريه من آياتنا وعجائبنا
ما قصصنا عليك.

والمقصود أن الماجريات التي جرت لموسى عليه الصلاة والسلام في هذه الأماكن، فقصصتها كما هي من غير زيادة ولا
نقص، لا يخلو من أحد أمرين: إما أن تكون حضرته وشاهدتها، أو ذهبت إلى محالها فتعلمتها من أهلها؛ فحينئذ قد لا يدل
ذلك على أنك رسول الله؛ إذ الأمور التي يُخبر بها عن شهادة ودراسة من الأمور المشتركة غير المختصة بالأنبياء، ولكن هذا
قد علم وثيق أنه ما كان وما صار؛ فأولياؤك وأعداؤك يعلمون عدم ذلك. فتعين الأمر الثاني، وهو أن هذا جاءك من قبل الله
ووحيه وإرساله، فثبت بالدليل القطعي صحة رسالتك ورحمة الله بك للعباد، ولهذا قال: ﴿وَلَكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ
قَوْمًا مَّا أَتَتْهُمْ مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ﴾؛ أي: العرب وقریش؛ فإن الرسالة عندهم لا تعرف وقت إرسال الرسول وقبلة بأزمان
متطاولة، ﴿لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾: ﴿٥٤﴾: تفصيل الخير فيفعلونه، والشر فيتركونه. فإذا كنت بهذه المنزلة؛ كان الواجب عليهم
المبادرة إلى الإيمان بك وشكر هذه النعمة التي لا يقادر قدرها ولا يدرك شكرها. وإنذاره للعرب لا ينفي أن يكون مرسلًا
لغيرهم؛ فإنه عربي، والقرآن الذي نزل عليه عربي، وأول من باشر بدعوته العرب، فكانت رسالته لهم أصلاً ولغيرهم تبعاً؛

﴿٥٥﴾ وَمَا كُنْتُ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْتَنِي: موسى وأمرناه أن يأتي القوم الظالمين ويبلغهم رسالتنا ويريه من آياتنا وعجائبنا
ما قصصنا عليك.

والمقصود أن الماجريات التي جرت لموسى عليه الصلاة والسلام في هذه الأماكن، فقصصتها كما هي من غير زيادة ولا
نقص، لا يخلو من أحد أمرين: إما أن تكون حضرته وشاهدتها، أو ذهبت إلى محالها فتعلمتها من أهلها؛ فحينئذ قد لا يدل
ذلك على أنك رسول الله؛ إذ الأمور التي يُخبر بها عن شهادة ودراسة من الأمور المشتركة غير المختصة بالأنبياء، ولكن هذا
قد علم وثيق أنه ما كان وما صار؛ فأولياؤك وأعداؤك يعلمون عدم ذلك. فتعين الأمر الثاني، وهو أن هذا جاءك من قبل الله
ووحيه وإرساله، فثبت بالدليل القطعي صحة رسالتك ورحمة الله بك للعباد، ولهذا قال: ﴿وَلَكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ
قَوْمًا مَّا أَتَتْهُمْ مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ﴾؛ أي: العرب وقریش؛ فإن الرسالة عندهم لا تعرف وقت إرسال الرسول وقبلة بأزمان
متطاولة، ﴿لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾: ﴿٥٦﴾: تفصيل الخير فيفعلونه، والشر فيتركونه. فإذا كنت بهذه المنزلة؛ كان الواجب عليهم
المبادرة إلى الإيمان بك وشكر هذه النعمة التي لا يقادر قدرها ولا يدرك شكرها. وإنذاره للعرب لا ينفي أن يكون مرسلًا
لغيرهم؛ فإنه عربي، والقرآن الذي نزل عليه عربي، وأول من باشر بدعوته العرب، فكانت رسالته لهم أصلاً ولغيرهم تبعاً؛

كما قال تعالى: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ﴾ [يونس: ٢]، ﴿قُلْ يَأَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الاعراف: ١٥٨].

﴿٤٧﴾ وَلَوْلَا أَنْ نُصِيبَهُمْ مُصِيبَةً بِمَا قَدَّمَتْ آيَاتِهِمْ: من الكفر والمعاصي، لقالوا: ﴿رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ وَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [٤٧]؛ أي: فأرسلناك يا محمد، لدفع حجتهم، وقطع مقالتهم.

﴿٤٨﴾ فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ: الذي لا شك فيه ﴿مِنْ عِنْدِنَا﴾: وهو القرآن الذي أوحيناه إليك، ﴿قَالُوا﴾: مكذبين له ومعترضين بما ليس يعترض به: ﴿لَوْلَا أَوْفَىٰ مِثْلَ مَا أَوْفَىٰ مُوسَىٰ﴾؛ أي: أنزل عليه كتاب من السماء جملة واحدة؛ أي: فاما ما دام ينزل متفرقا؛ فإنه ليس من عند الله، وأي دليل في هذا؟ وأي شبهة أنه ليس من عند الله حين نزل متفرقا؟ بل من كمال هذا القرآن واعتناء الله بمن أنزل عليه أن نزل متفرقا؛ ليثبت الله به فؤاد رسوله، ويحصل زيادة الإيمان للمؤمنين، ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمِثْلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ [الفرقان: ٣٣]. وأيضا؛ فإن قياسهم على كتاب موسى قياس قد نقضوه؛ فكيف يقيسونه على كتاب كفروا به ولم يؤمنوا [به]؟ ولهذا قال: ﴿أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أَوْفَىٰ مُوسَىٰ مِنْ قَبْلُ قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا﴾؛ أي: القرآن والتوراة تعاونوا في سحرهما وإضلال الناس ﴿وَقَالُوا إِنَّا بِكَ لَكَاظِمُونَ﴾ [٤٨]؛ فثبت بهذا أن القوم يريدون إبطال الحق بما ليس ببرهان، وينقضونه بما لا ينقض، ويقولون الأقوال المتناقضة المختلفة، وهذا شأن كل كافر، ولهذا صرح أنهم كفروا بالكتابين والرسولين.

﴿٤٩﴾ ولكن هل كفرهم بهما طلبا للحق واتباعا لأمر عندهم خير منهما، أم مجرد هوى؟ قال تعالى ملزما لهم بذلك: ﴿قُلْ فَأَنُوتُوا يَكْتُبُ مَنْ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا﴾؛ أي: من التوراة والقرآن؛ ﴿أَتَبْعُهُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [٤٩]؛ ولا سبيل لهم ولا لغيرهم أن يأتوا بمثلها؛ فإنه ما طرق العالم منذ خلقه الله مثل هذين الكتابين علما وهدى وبيانا ورحمة للخلق، وهذا من كمال الإنصاف من الداعي أن قال: أنا مقصودي الحق والهدى والرشد، وقد جئتكم بهذا الكتاب المشتمل على ذلك الموافق لكتاب موسى؛ فيجب علينا جميعا الإذعان لهما واتباعهما من حيث كونهما هدى وحقا؛ فإن جئتموني بكتاب من عند الله هو أهدى منهما؛ اتبعته، وإلا؛ فلا أترك هدى وحقا قد علمته لغير هدى وحق.

﴿٥٠﴾ فَإِنْ لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ: فلم يأتوا بكتاب أهدى منهما، ﴿فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُنْفِرُونَ أَهْوَاءَهُمْ﴾؛ أي: فاعلم أن تركهم اتباعك ليسوا ذاهبين إلى حق يعرفونه ولا إلى هدى، وإنما ذلك مجرد اتباع لأهوائهم. ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ يَغْفِرَ هُدًى مِنَ اللَّهِ﴾: فهذا من أضل الناس؛ حيث عرض عليه الهدى والصراط المستقيم الموصول إلى الله وإلى دار كرامته؛ فلم يلتفت إليه، ولم يقبل عليه، ودعاه هواه إلى سلوك الطرق الموصلة إلى الهلاك والشقاء، فاتبعه وترك الهدى؛ فهل أحد أضل ممن هذا وصفه؟ ولكن ظلمه وعدوانه وعدم محبته للحق هو الذي أوجب له أن يبقى على ضلاله ولا يهديه الله؛ فلماذا قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [٥٠]؛ أي: الذين صار الظلم لهم وصفاً والعناد لهم نعتا، جاءهم الهدى فرفضوه، وعرض لهم الهوى فتبعوه، سدوا على أنفسهم أبواب الهداية وطرقها، وفتحوا عليهم أبواب الغواية وسبلها؛ فهم في غيهم وظلمهم يعمهون، وفي شقاوتهم وهلاكهم يترددون، وفي قوله: ﴿فَإِنْ لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُنْفِرُونَ أَهْوَاءَهُمْ﴾: دليل على أن كل من لم يستجب للرسول، وذهب إلى قول مخالف لقول الرسول؛ فإنه لم يذهب إلى هدى، وإنما ذهب إلى هوى.

﴿٥١﴾ وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ؛ أي: تابعناه وواصلناه وأنزلناه شيئا فشيئا رحمة بهم ولطفاً؛ ﴿لَعَلَّهُمْ يَنْذَكُرُونَ﴾ [٥١]؛ حين تتكرر عليهم آياته، وتنزل عليهم بيناته وقت الحاجة إليها، فصار نزوله متفرقا رحمة بهم، فلم يعترضوا بما هو من مصالحهم؟!

فصل في ذكر بعض الفوائد والعبر

في هذه القصة العجيبة

فمنها: أن آيات الله تعالى وعبره وأيامه في الأمم السابقة إنما يستفيد بها ويستنير المؤمنون؛ فعلى حسب إيمان العبد تكون عبرته، وأن الله تعالى إنما يسوق القصص لأجلهم، وأما غيرهم؛ فلا يعاى الله بهم، وليس لهم منها نور وهدى.

ومنها: أن الله تعالى إذا أراد أمرا؛ هيا أسبابه، وأتى بها شيئا فشيئا بالتدرج لا دفعة واحدة.

ومنها: أن الأمة المستضعفة، ولو بلغت في الضعف ما بلغت، لا ينبغي لها أن يستولي عليها الكسل عن طلب حقها، ولا الإيأس من ارتقاها إلى أعلى الأمور، خصوصا إذا

ومنها: أن الله من رحمته بعبد الضعيف الذي يريد إكرامه أن يريه من آياته ويشهده من بيناته ما يزيد به إيمانه؛ كما رد الله موسى على أمه؛ لتعلم أن وعد الله حق.

ومنها: أن قتل الكافر الذي له عهد بعقد أو عرف لا يجوز؛ فإن موسى عليه السلام عد قتله القبطي الكافر ذنباً، واستغفر الله منه.

ومنها: أن الذي يقتل النفوس بغير حق؛ يعد من الجبارين الذين يفسدون في الأرض.

ومنها: أن من قتل النفوس بغير حق، وزعم أنه يريد الإصلاح في الأرض وتهيب أهل المعاصي؛ فإنه كاذب في ذلك، وهو مفسد؛ كما حكى الله قول القبطي: ﴿إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ﴾ (١٩)؛ على وجه التقرير له لا الإنكار.

ومنها: أن إخبار الرجل غيره بما قيل فيه على وجه التحذير له من شريع فيه؛ لا يكون ذلك نسيمة، بل قد يكون واجباً؛ كما أخبر ذلك الرجل لموسى ناصحاً له ومعدلاً.

ومنها: أنه إذا خاف القتل والتلف في الإقامة؛ فإنه لا يلقي يده إلى التهلكة، ولا يستسلم لذلك، بل يذهب عنه كما فعل موسى.

ومنها: أنه عند تراحم المفسدين؛ إذا كان لا بد من ارتكاب إحداهما؛ فإنه يرتكب الأخف منهما الأسلم؛ كما أن موسى لما دار الأمر بين بقاءه في مصر ولكنه يقتل، أو يذهب إلى بعض البلدان البعيدة التي لا يعرف الطريق إليها، وليس معه دليل يدلّه غير ربه، ولكن هذه الحالة أرجى للسلامة من الأولى، فتبعها موسى.

ومنها: أن الناظر في العلم عند الحاجة إلى التكلم فيه إذا لم يترجح عنده أحد القولين؛ فإنه يستهدي ربه، ويسأله أن يهديه الصواب من القولين بعد أن يقصد بقلبه الحق ويبحث عنه؛ فإن الله لا يخيب من هذه حاله؛ كما خرج موسى تلقاء مدين، فقال: ﴿عَسَى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ (٢٢).

ومنها: أن الرحمة بالخلق والإحسان على من يعرف ومن لا يعرف من أخلاق الأنبياء، وأن من الإحسان سقي الماشية الماء وإعانة العاجز.

كانوا مظلومين؛ كما استنقذ الله أمة بني إسرائيل الأمة الضعيفة من أسر فرعون وملئه، ومكنهم في الأرض، وملكهم بلادهم.

ومنها: أن الأمة ما دامت ذليلة مقهورة، لا تأخذ حقها، ولا تتكلم به لا يقوم لها أمر دينها ولا دنياها، ولا يكون لها إمامة فيه.

ومنها: لطف الله بأم موسى وتهوينه عليها المصيبة بالبشارة بأن الله تعالى سيرد إليها ابنها، ويجعله من المرسلين.

ومنها: أن الله يُقدّر على عبده بعض المشاق لينيله سروراً أعظم من ذلك، أو يدفع عنه شراً أكثر منه؛ كما قدر على أم موسى ذلك الحزن الشديد والهَمّ البالغ الذي هو وسيلة إلى أن يصل إليها ابنها على وجه مطمئن به نفسها، وتقرّ به عينها، وتزداد به غبطة وسروراً.

ومنها: أن الخوف الطبيعي من الخلق لا ينافي الإيمان ولا يزيله؛ كما جرى لأم موسى، ولموسى من تلك المخاوف.

ومنها: أن الإيمان يزيد وينقص، وأن من أعظم ما يزيد به الإيمان، ويتم به اليقين؛ الصبر عند المزعجات، والتثبيت من الله عند المحلقات؛ كما قال تعالى: ﴿لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهَا لَنُكَوِّنَنَّ مِنَ الْمُتَكِبِينَ﴾ (٢٦)؛ أي: ليزداد إيمانها بذلك، ويطمئن قلبها.

ومنها: أن من أعظم نعم الله على عبده وأعظم معونة للعبد على أموره تثبيت الله إياه وربط جأشه وقلبه عند المخاوف وعند الأمور المذهلة؛ فإنه بذلك يتمكن من القول الصواب والفعل الصواب؛ بخلاف من استمر قلقه وروعه وانزعاجه؛ فإنه يضيع فكره، ويذهل عقله؛ فلا ينتفع بنفسه في تلك الحال.

ومنها: أن العبد ولو عرف أن القضاء والقدر ووعد الله نافذ لا بد منه؛ فإنه لا يهمل فعل الأسباب التي أمر بها، ولا يكون ذلك منافياً لإيمانه بخبر الله؛ فإن الله قد وعد أم موسى أن يرده عليها، ومع ذلك اجتهدت في رده، وأرسلت أخته لتقصه وتطلبه.

ومنها: جواز خروج المرأة في حوائجها وتكليمها للرجال من غير محذور كما جرى لأخت موسى وابنتي صاحب مدين.

ومنها: جواز أخذ الأجرة على الكفالة والرضاع والدلالة على من يفعل ذلك.

ومنها: ما فيها من الدلالة على رسالة محمد ﷺ؛ حيث أخبر بذلك تفصيلاً مطابقاً وتأصيلاً موافقاً قصه قصاً صدق به المرسلين وأيد به الحق المبين، من غير حضور شيء من تلك الوقائع، ولا مشاهدة لموضع واحد من تلك المواضع، ولا تلاوة درس فيها شيئاً من هذه الأمور، ولا مجالسة أحد من أهل العلم، إن هو إلا رسالة الرحيم الرحمن، ووحى أنزله عليه الكريم المنان؛ لينذر به قومًا جاهلين، وعن النذر والرسول غافلين؛ فصلوات الله وسلامه على من مجرد خبره ينشئ أنه رسول الله، ومجرد أمره ونهيه ينه العقول النيرة أنه من عند الله؛ كيف وقد تطابق على صحة ما جاء به وصدقه، خبر الأولين والآخرين، والشرع الذي جاء به من رب العالمين، وما جبل عليه من الأخلاق الفاضلة التي لا تناسب ولا تصلح إلا لأعلى الخلق درجة، والنصر المبين لدينه وأمته، حتى بلغ دينه مبلغ الليل والنهار، وفتحت أمته معظم بلدان الأمصار بالسيف والسنان وقلوبهم بالعلم والإيمان، ولم تزل الأمم المعاندة والملوك الكفرة المتعاضدة ترميه بقوس واحدة وتكيد له المكاييد وتمكر لإطفائه وإخفائه وإخماده من الأرض، وهو قد بهرها وعلاها، لا يزداد إلا نموًا، ولا آياته وبراهينه إلا ظهورًا، وكل وقت من الأوقات يظهر من آياته ما هو عبرة للعالمين، وهادية للعالمين، ونورًا وبصيرة للمتوسمين. والحمد لله وحده.

﴿الَّذِينَ آمَنَتْهُمْ أَكْتَئِبُ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ﴾ (٥٢)
وإِذَا يَتْلَى عَلَيْهِمْ قَالُوا ءَأَمَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾ أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَذَرُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ سَلِّمْ عَلَيْكُمْ لَا تَبْنِيَنَّ الْجَاهِلِينَ ﴿٥٥﴾

﴿٥٢﴾ يذكر تعالى عظمة القرآن وصدقه وحقه، وأن أهل العلم بالحقيقة يعرفونه، ويؤمنون به، ويقرون بأنه الحق، فقال: ﴿الَّذِينَ آمَنَتْهُمْ أَكْتَئِبُ مِنْ قَبْلِهِ﴾: وهم أهل التوراة والإنجيل، الذين لم يغيروا ولم يبدلوا، ﴿هُمْ بِهِ﴾: أي: بهذا القرآن ومن جاء به ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ (٥٣).

﴿٥٣﴾ وَإِذَا يَتْلَى عَلَيْهِمْ: استمعوا له وأذعنوا، ﴿وَقَالُوا ءَأَمَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا﴾: لموافقته ما جاءت به الرسل، ومطابقته لما ذكر في الكتب، واشتماله على الأخبار الصادقة

ومنها: استحباب الدعاء بتبيين الحال وشرحها، ولو كان الله عالمًا بها؛ لأنه تعالى يحب تضرع عبده وإظهار ذله ومسكته؛ كما قال موسى: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ (٢٤).

ومنها: أن الحياء - خصوصًا من الكرام - من الأخلاق الممدوحة.

ومنها: المكافأة على الإحسان لم يزل دأب الأمم السابقين.

ومنها: أن العبد إذا فعل العمل لله تعالى، ثم حصل له مكافأة عليه من غير قصد بالقصد الأول؛ فإنه لا يلام على ذلك؛ كما قبل موسى مجازاة صاحب مدين عن معرفه الذي لم يبتغ له، ولم يستشرف بقلبه على عوض.

ومنها: مشروعية الإجارة، وأنها تجوز على رعاية الغنم ونحوها مما لا يُقدَّر به العمل، وإنما مردده العرف.

ومنها: أنه تجوز الإجارة بالمنفعة، ولو كانت المنفعة بضعًا.

ومنها: أن خطبة الرجل لابنته الرجل الذي يتخيره لا يلام عليه.

ومنها: أن خير أجير وعامل يعمل للإنسان أن يكون قويًا أمينًا.

ومنها: أن من مكارم الأخلاق أن يحسن خلقه لأجيره وخادمه، ولا يشق عليه بالعمل؛ لقوله: ﴿وَمَا أَرِيدُ أَنْ أُشَقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ (٧٧).

ومنها: جواز عقد الإجارة وغيرها من العقود من دون إشهاد؛ لقوله: ﴿وَاللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ (٧٨).

ومنها: ما أجرى الله على يد موسى من الآيات البينات والمعجزات الظاهرة من الحية وانقلاب يده بيضاء من غير سوء ومن عصمة الله لموسى وهارون من فرعون ومن الغرق.

ومنها: أن من أعظم العقوبات أن يكون الإنسان إمامًا في الشر، وذلك بحسب معارضته لآيات الله وبيناته؛ كما أن من أعظم نعمة أنعم الله بها على عبده، أن يجعله إمامًا في الخير هاديًا مهديًا.

الجزء الثامن

سورة القصص

والأوامر والنواهي الموافقة لغاية الحكمة، وهؤلاء الذين نفيد شهادتهم وينفع قولهم؛ لأنهم لا يقولون ما يقولون إلا عن علم وبصيرة؛ لأنهم أهل الخبرة وأهل الكتب، وغيرهم لا يدل ردهم ومعارضتهم للحق على شبهة فضلاً عن الحجة؛ لأنهم ما بين جاهل فيه أو متجاهل معاند للحق؛ قال تعالى: ﴿قُلْ ءَامِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُسْأَلُونَ عَلَيْهِمْ يَجِزُونَ لِّلْأَذْقَانِ سَجْدًا ۝١٧﴾ [الإسراء: ١٠٧] الآيات، وقوله: ﴿إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ ۝٢٧﴾: فلذلك ثبتنا على ما من الله به علينا من الإيمان، فصدقنا بهذا القرآن، آمنا بالكتاب الأول والكتاب الآخر، وغيرنا ينقض تكذيبه بهذا الكتاب إيمانه بالكتاب الأول.

﴿٢٨﴾ أُولَٰئِكَ: الذين آمنوا بالكتابين ﴿يُؤْتُونَ أَجْرَهُمْ مَّرْتَبَيْنِ﴾: أجراً على الإيمان الأول، وأجراً على الإيمان الثاني؛ ﴿يَمَّا صَبَرُوا﴾: على الإيمان، وثبتوا على العمل، فلم تزعزعهم عن ذلك شبهة، ولا ناههم عن الإيمان رياسة ولا شهوة. ومن خصالهم الفاضلة التي هي من آثار إيمانهم الصحيح أنهم يدرءون ﴿بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةِ﴾: أي: دأبهم وطريقتهم الإحسان لكل أحد، حتى للمسيء إليهم بالقول والفعل؛ يقابلونه بالقول الحميد والفعل الجميل؛ لعلمهم بفضيلة هذا الخلق العظيم، وأنه لا يوفق له إلا ذو حظ عظيم.

﴿٢٩﴾ وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ: من جاهل خاطبهم به، ﴿وَقَالُوا﴾: مقالة عباد الرحمن أولي الألباب: ﴿لَنَّا أَعْمَلْنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ﴾؛ أي: كل سيجازى بعمله الذي عمله وحده، ليس عليه من وزر غيره شيء، ولزم من ذلك أنهم يتبرءون مما عليه الجاهلون من اللغو والباطل والكلام الذي لا فائدة فيه. ﴿سَلَّمْتُ عَلَيْكُمْ﴾: أي: لا تسمعون منا إلا الخير، ولا نخاطبكم بمقتضى جهلكم؛ فإنكم وإن رضيتم لأنفسكم هذا المرتع اللئيم؛ فإننا ننزه أنفسنا عنه ونصونها عن الخوض فيه، ﴿لَا تَبْنِيَنَّ الْجَهْلِيَّينَ ۝٣٠﴾: من كل وجه.

﴿٣١﴾ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ۝٣٢

﴿٣١﴾ يخبر تعالى أنك يا محمد - وغيرك من باب أولى - لا تقدر على هداية أحد، ولو كان من أحب الناس إليك؛ فإن هذا أمر غير مقدور للخلق؛ هداية التوفيق وخلق الإيمان في القلب، وإنما ذلك بيد الله تعالى؛ يهدي من يشاء وهو أعلم بمن يصلح للهداية فيهديه ممن لا يصلح لها فيبقيه على ضلاله. وأما إثبات الهداية للرسول في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ۝٣٢﴾ [الشورى: ٥٢]: فتلك هداية البيان والإرشاد؛ فالرسول يبين الصراط المستقيم، ويرغب فيه، ويبذل جهده في سلوك الخلق له، وأما كونه يخلق في قلوبهم الإيمان، ويوفقهم بالفعل؛ فحاشا وكلاً، ولهذا لو كان قادراً عليها؛ لهدى من وصل إليه إحسانه ونصره ومنعه من قومه؛ عمه أبا طالب، ولكنه أوصل إليه من الإحسان بالدعوة له للدين والنصح التام ما هو أعظم مما فعله معه عمه، ولكن الهداية بيد الله.

﴿٣٢﴾ وَقَالُوا إِن تَبِيعَ أَهْلَ الدُّنْيَا مَعَكَ تَخْطِفُ مِنْ أَرْضِنَا أَوْلَمْ تُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجِبِّي إِلَيْهِ تُمَرَّتْ كُلُّ شَيْءٍ رِّزْقًا مِّنْ لَّدُنَّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ۝٣٣ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطَرَتْ مَعِيشَتَهَا فَبَلَكَ مَسْكَنُهَا لَمْ تُمْسِكْ مِنْ بَعْدِهَا وَلَا

قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ ﴿٥٨﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْفَرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمَمٍ رَسُولًا يَلْقُوا عَلَيْهِمْ ءَايَتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْفَرَى إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ ﴿٥٩﴾

﴿٥٧﴾ يخبر تعالى أن المكذبين من قريش وأهل مكة يقولون للرسول ﷺ: ﴿إِنْ تَتَّبِعْ أَهْدَىٰ مَعَكَ تَخْطَفُ مِنْ أَرْضِنَا﴾: بالقتل والأسر ونهب الأموال؛ فإن الناس قد عادوك وخالفوك؛ فلو تابعتنا؛ لتعرضنا لمعاداة الناس كلهم، ولم يكن لنا بهم طاقة. وهذا الكلام منهم يدل على سوء الظن بالله تعالى، وأنه لا ينصر دينه ولا يعلي كلمته، بل يمكن الناس من أهل دينه، فيسومونهم سوء العذاب، وظنوا أن الباطل سيعلو على الحق. قال الله مبيّنًا لهم حالة هم بها دون الناس وأن الله اختصهم بها، فقال: ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجِئُ إِلَيْهِ شَرَّتْ كُلُّ شَيْءٍ رَزَقًا مِنْ لَدُنَّا﴾؛ أي: أولم نجعلهم متمكنين ممكنين في حرم يكثره المتتابعون ويقصده الزائرون، قد احترمه القريب والبعيد؛ فلا يهاج أهله، ولا يتقصون بقليل ولا كثير، والحال أن كل ما حولهم من الأماكن قد حف بها الخوف من كل جانب، وأهلها غير آمنين ولا مطمئنين؛ فليحمدوا ربهم على هذا الأمن التام الذي ليس فيه غيرهم، وعلى الرزق الكثير الذي يجبي إليهم من كل مكان من الثمرات والأطعمة والبضائع ما به يرتزقون ويتوسعون، وليتبعوا هذا الرسول الكريم؛ ليتم لهم الأمن والرغد، وليأهم وتكذبه والبطر بنعمة الله؛ فيبدّلوا من بعد أمنهم خوفًا، وبعد عزهم ذلًا، وبعد غناهم فقرًا.

﴿٥٨﴾ ولهذا توعدهم بما فعل بالأمم قبلهم، فقال: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِكَ بَطَرَتْ مَيْسَرَتَهَا﴾؛ أي: فخرت بها وألتهتها واشتغلت بها عن الإيمان بالرسول، فأهلكهم الله، وأزال عنهم النعمة، وأحل بهم النعمة، ﴿فَبِئْسَ مَسْكِنُهُمْ لَمْ يَنْشَأُوا مِنْ بَيْتِهِ إِلَّا قَلِيلًا﴾؛ لتوالي الهلاك والتلف عليهم وإيحاشها من بعدهم، ﴿وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ﴾ ﴿٥٩﴾: للعباد؛ نعميتهم ثم يرجع إلينا جميع ما متعناهم به من النعم، ثم نعيدهم إلينا، فنجازيهم بأعمالهم.

﴿٥٩﴾ ومن حكمته ورحمته ألا يعذب الأمم بمجرد كفرهم قبل إقامة الحجّة عليهم بإرسال الرسل إليهم، ولهذا قال: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْفَرَى﴾؛ أي: بكفرهم وظلمهم؛ ﴿حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمَمٍ﴾؛ أي: في القرية والمدينة التي إليها يرجعون، ونحوها يترددون، وكل ما حولها يتجمعها، ولا تخفى عليه

أخبارها، ﴿رَسُولًا يَلْقُوا عَلَيْهِمْ ءَايَتِنَا﴾: الدالة على صحة ما جاء به وصدق ما دعاهم إليه، فيبلغ قوله قاصيهم ودانيهم؛ بخلاف بعث الرسل في القرى البعيدة والأطراف النائية؛ فإن ذلك مظنة الخفاء والجفاء، والمدن الأمهات مظنة الظهور والانتشار، وفي الغالب أنهم أقل جفاء من غيرهم، ﴿وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْفَرَى إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ﴾ ﴿٥٩﴾: بالكفر والمعاصي، مستحقون للعقوبة. والحاصل أن الله لا يعذب أحدًا إلا بظلمه وإقامة الحجّة عليه.

﴿٥٨﴾ وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَّعَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزَيَّنَّهَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٥٩﴾ أَفَن وَعَدْنَاهُ وَعَدًا حَسَنًا فَهُوَ لَئِيْهِ كُنَّا مُنْتَعِنُهُ مَنَعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَمَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ﴿٦٠﴾

﴿٥٨﴾ هذا حض من الله تعالى لعباده على الزهد في الدنيا وعدم الاغترار بها، وعلى الرغبة في الآخرة وجعلها مقصود العبد ومطلوبه، ويخبرهم أن جميع ما أُوتيه الخلق من الذهب والفضة والحيوانات والأمتعة والنساء والبنين والمأكّل والمشارب واللذات كلها متاع الحياة الدنيا وزينتها؛ أي: يُتَمَتَّعُ به وقتًا قصيرًا متاعًا قاصرًا محشوا بالمنغصات ممزوجة بالغصص، ويتزين به زمانًا يسيرًا للفخر والرياء، ثم يزول ذلك سريعًا، وينقضي جميعًا، ولم يستفد صاحبه منه إلا الحسرة والندم والخيبة والحرمان، ﴿وَمَا عِنْدَ اللَّهِ﴾: من النعيم المقيم والعيش السليم ﴿خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾؛ أي: أفضل في وصفه وكميته، وهو دائم أبدًا ومستمر سرمداً، ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ ﴿٥٩﴾؛ أي: أفلا تكون لكم عقول بها تزنون؛ أي: الأمرين أولى بالإيثارة! وأي الدارين أحق للعمل لها؟! فدل ذلك أنه بحسب عقل العبد يؤثر الأخرى على الدنيا، وأنه ما آثر أحد الدنيا إلا لنقص في عقله.

﴿٦٠﴾ ولهذا نبه العقول على الموازنة بين عاقبة مؤثر الدنيا ومؤثر الآخرة، فقال: ﴿أَفَن وَعَدْنَاهُ وَعَدًا حَسَنًا فَهُوَ لَئِيْهِ﴾؛ أي: هل يستوي مؤمن، ساع للآخرة سعيها، قد عمل على وعد ربه له بالثواب الحسن الذي هو الجنة وما فيها من النعيم العظيم؛ فهو لاقية من غير شك ولا ارتياب؛ لأنه وعد من كريم صادق الوعد لا يخلف الميعاد لعبد قام بمرضاته وجانب سخطه، ﴿كُنَّا مُنْتَعِنُهُ مَنَعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ فهو يأخذ فيها ويعطي، ويأكل ويشرب، ويتمتع كما تتمتع البهائم، قد اشتغل بدنياء عن آخرته، ولم يرفع بهدى الله رأسًا، ولم ينقد

سورة القصص

الجزء العشرين

وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَّعُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزَيَّنَّا لَهَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَفَنُؤَدُّنَا أَعْيُنًا لَكُمْ لِكَيْ تُبْصِرُوا وَنُقَرِّبُ الْأَبْصَارَ لَكُمْ لِكَيْ تَبْصُرُوا مَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٦١﴾ وَنُقَرِّبُ الْأَبْصَارَ لَكُمْ لِكَيْ تَبْصُرُوا مَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٦٢﴾ وَنُقَرِّبُ الْأَبْصَارَ لَكُمْ لِكَيْ تَبْصُرُوا مَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٦٣﴾ وَنُقَرِّبُ الْأَبْصَارَ لَكُمْ لِكَيْ تَبْصُرُوا مَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٦٤﴾ وَنُقَرِّبُ الْأَبْصَارَ لَكُمْ لِكَيْ تَبْصُرُوا مَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٦٥﴾ وَنُقَرِّبُ الْأَبْصَارَ لَكُمْ لِكَيْ تَبْصُرُوا مَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٦٦﴾

للمرسلين؛ فهو لا يزال كذلك؛ لا يتزود من دنياه إلا الخسار والهلاك. ﴿٦٠﴾ ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَمَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ﴿٦١﴾: للحساب، وقد علم أنه لم يقدم خيرا لنفسه، وإنما قدم جميع ما يضره، وانتقل إلى دار الجزاء بالأعمال؛ فما ظنكم بالإلام يصير إليه؟! وما تحسبون ما يصنع به؟! فليختر العاقل لنفسه ما هو أولى بالاختيار وأحق الأمرين بالإشارة.

﴿٦٢﴾ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٦٣﴾ قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَاهُمْ أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا أَغْوَيْنَا تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِلَّا فِتْنَتُنَا أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٤﴾ وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَرَأَوُا الْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ ﴿٦٥﴾ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ ﴿٦٦﴾ فَعِمَّتْ عَلَيْهِمُ الْأَنْبَاءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَاءَلُونَ ﴿٦٧﴾

﴿٦٢﴾، ﴿٦٣﴾ هذا إخبار من الله تعالى عما يسأل عنه الخلائق يوم القيامة، وأنه يسألهم عن أصول الأشياء؛ عن عبادة الله، وإجابة رسله، فقال: ﴿٦٣﴾ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ؛ أي: ينادي من أشركوا به شركاء يعبدونهم ويرجون نفعهم ودفع الضرر عنهم، فيناديهم ليبين لهم عجزها وضلالهم، ﴿٦٤﴾ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ؛ وليس لله شريك، ولكن ذلك بحسب زعمهم وافتراءهم، ولهذا قال: ﴿٦٥﴾ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٦٦﴾: فأين هم بدعوتهم؟! وأين نفعهم؟! وأين دفعهم؟! ومن المعلوم أنه يتبين لهم في تلك الحال أن الذي عبدوه ورجوه باطل مضمحل في ذاته وما رجوا منه، فيقرون على أنفسهم بالضلالة والغواية، ولهذا ﴿٦٧﴾ قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ؛ من الرؤساء والقادة في الكفر والشرك؛ مقرين بغوايتهم وإغوائهم: ﴿٦٨﴾ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا أَغْوَيْنَا؛ أي: كلنا قد اشترك في الغواية وحق عليه كلمة العذاب، ﴿٦٩﴾ تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ؛ من عبادتهم؛ أي: نحن برآء منهم ومن عملهم. ﴿٧٠﴾ مَا كَانُوا إِلَّا فِتْنَتُنَا؛ وإنما كانوا يعبدون الشياطين.

﴿٧١﴾ وَقِيلَ لَهُمْ: ﴿٧٢﴾ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ؛ على ما أملت فيهم من النفع، فأمرؤا بدعائهم في ذلك الوقت الحرج الذي يضطر فيه العابد إلى من عبده، ﴿٧٣﴾ فَدَعَوْهُمْ؛ لينفعوهم أو يدفعوا عنهم من عذاب الله من شيء، ﴿٧٤﴾ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ؛ فعلم الذين كفروا أنهم كانوا كاذبين مستحقين للعقوبة، ﴿٧٥﴾ وَرَأَوُا الْعَذَابَ؛ الذي سيحل بهم عياناً بأبصارهم بعدما كانوا مكذبين به منكبين له؛ ﴿٧٦﴾ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ ﴿٧٧﴾؛ أي: لما حصل عليهم ما حصل، ولهدوا إلى صراط الجنة كما اهتدوا في الدنيا، ولكن لم يهتدوا، فلم يهتدوا.

﴿٧٨﴾ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ ﴿٧٩﴾: هل صدقتموهم واتبعتموهم؟ أم كذبتموهم وخالفتموهم؟ ﴿٨٠﴾ فَعِمَّتْ عَلَيْهِمُ الْأَنْبَاءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَاءَلُونَ ﴿٨١﴾؛ أي: لم يحيروا عن هذا السؤال جواباً، ولم يهتدوا إلى الصواب، ومن المعلوم أنه لا ينجي في هذا الموضع إلا التصريح بالجواب الصحيح المطابق لأحوالهم من أننا أجبناهم بالإيمان والانقياد، ولكن لما علموا تكذيبهم لهم وعنادهم لأمرهم؛ لم ينطقوا بشيء، ولا يمكن أن يتساءلوا، ويتراجعوا بينهم في ماذا يجيبون به، ولو كان كذباً.

﴿٨٢﴾ فَأَمَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَسَوْفَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٨٣﴾

﴿٧٧﴾ لما ذكر تعالى سؤال الخلق عن معبودهم وعن رسلهم؛ ذكر الطريق الذي ينجو به العبد من عقاب الله تعالى، وأنه لا نجاة إلا لمن اتصف بالتوبة من الشرك والمعاصي، وأمن بالله فعبده، وأمن برسله فصدقهم، وعمل صالحاً متبعاً فيه للرسل. ﴿فَمَسَىٰ أَن يَكُونَ﴾: من جمع هذه الخصال ﴿مِنَ الْمُفْلِحِينَ﴾ ﴿٧٨﴾: الناجحين بالمطلوب، الناجين من المرهوب؛ فلا سبيل إلى الفلاح بدون هذه الأمور.

﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَنَ اللَّهِ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ ﴿٧٩﴾ وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٨٠﴾ وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَىٰ وَالْآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨١﴾.

﴿٨٢﴾ - هذه الآيات فيها عموم خلقه لسائر المخلوقات، ونفوذ مشيئته بجميع البريات، وانفراده باختيار من يختاره ويختصه من الأشخاص والأوامر والأزمان والأماكن، وأن أحداً ليس له من الأمر والاختيار شيء، وأنه تعالى منزّه عن كل ما يشركون به من الشريك والظهير والعوين والولد والصاحبة ونحو ذلك مما أشرك به المشركون، وأنه العالم بما أكتته الصدور وما أعلنوه، وأنه وحده المعبود المحمود في الدنيا والآخرة على ما له من صفات الجلال والجمال، وعلى ما أسداه إلى خلقه من الإحسان والإفضال، وأنه هو الحاكم في الدارين؛ في الدنيا بالحكم القدري الذي أثره جميع ما خلق وذراً، والحكم الديني الذي أثره جميع الشرائع والأوامر والنواهي. وفي الآخرة يحكم بحكمه القدري والجزائي، ولهذا قال: ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ ﴿٨٣﴾: فيجازي كلّا منكم بعمله من خير وشر.

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ الَيَّلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيَكُم بِضِيَاءٍ أَوْ لَظْلَمَةٍ أَوَّلَ تَسْمَعُونَ﴾ ﴿٨٤﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيَكُم بِلَيَالٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَوْ لَظْلَمَةٍ أَوَّلَ تَبْصُرُونَ﴾ ﴿٨٥﴾ وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ الَيَّلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ ﴿٨٦﴾.

﴿٨٧﴾ - ﴿٨٨﴾ هذا امتنان من الله على عباده؛ يدعوهم به إلى شكره والقيام بعبوديته وحقه أن جعل لهم من رحمته النهار ليتغوا من فضل الله ويتشروا لطلب أرزاقهم ومعاشهم في ضيائه، والليل ليهدهوا فيه ويسكنوا وتستريح أبدانهم وأنفسهم من تعب التصرف في النهار؛ فهذا من فضله ورحمته بعباده؛ فهل أحد يقدر على شيء من ذلك، فلو جعل ﴿عَلَيْكُمُ الَيَّلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيَكُم بِضِيَاءٍ أَوْ لَظْلَمَةٍ﴾ ﴿٨٩﴾: مواظ الله وآياته سماع فهم وقبول وانقياد، ولو ﴿جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيَكُم بِلَيَالٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَوْ لَظْلَمَةٍ أَوَّلَ تَبْصُرُونَ﴾ ﴿٩٠﴾: مواقع العبر ومواضع الآيات فتستتير بصائرهم وتسلكون الطريق المستقيم، وقال في الليل: ﴿أَوْ لَظْلَمَةٍ أَوَّلَ تَسْمَعُونَ﴾ ﴿٩١﴾، وفي النهار: ﴿أَوْ لَظْلَمَةٍ أَوَّلَ تَبْصُرُونَ﴾ ﴿٩٢﴾، لأن سلطان السمع في الليل أبلغ من سلطان البصر، وعكسه النهار.

وفي هذه الآيات تنبيه إلى أن العبد ينبغي له أن يتدبر نعم الله عليه، ويستبصر فيها، ويقيسها بحال عدمها؛ فإنه إذا وزن بين حالة وجودها وبين حالة عدمها؛ تنبه عقله لموضع المنّة؛ بخلاف من جرى مع العوائد، ورأى أن هذا أمر لم يزل مستمراً ولا يزال، وعمي قلبه عن الثناء على الله بنعمه ورؤية افتقاره إليها في كل وقت؛ فإن هذا لا يحدث له فكرة شكر ولا ذكر.

الْمَلَأَهُ ابْتِغَاءً
قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ الَيَّلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ
مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيَكُم بِضِيَاءٍ أَوْ لَظْلَمَةٍ أَوَّلَ تَسْمَعُونَ ﴿٨٤﴾
قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى
يَوْمِ الْقِيَمَةِ مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيَكُم بِلَيَالٍ تَسْكُنُونَ
فِيهِ أَوْ لَظْلَمَةٍ أَوَّلَ تَبْصُرُونَ ﴿٨٥﴾ وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ الَيَّلَ
وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ
﴿٨٦﴾ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَاءِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ
تَزْعُمُونَ ﴿٨٧﴾ وَنَرَعْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا
هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا
يَفْتَرُونَ ﴿٨٨﴾ إِن قَدْ فَرَّوْنَ كَاتٍ مِنْ قَوْمٍ مَّوَسَىٰ فَعَنَى
عَلَيْهِمْ وَهَآئِنْتَهُ مِنَ الْكُفَّارِ مَا إِن مَفَاحِمُهُ لِلنَّوَىٰ بِالْمُصْبَةِ
أُولَى الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ
﴿٨٩﴾ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ
نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ
وَلَا تَبْغِ الْفُسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴿٩٠﴾

كنوز الأموال شيئاً كثيراً، ﴿مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَسَلَوُا بِالْمُصْبَةِ أُولَى الْقُوَّةِ﴾: والعصبة من العشرة إلى التسعة إلى السبعة ونحو ذلك؛ أي: حتى إن مفاتيح خزائن أمواله تُثقل الجماعة القوية عن حملها؛ هذه المفاتيح؛ فما ظنك بالخزان؟! ﴿إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ: نَاصِحِينَ لَهُ مَحْذَرِينَ لَهُ عَنِ الطَّغْيَانِ: لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾: أي: لا تفرح بهذه الدنيا العظيمة، وتفتخر بها، وتلهيك عن الآخرة؛ فإن الله لا يحب الفرحين بها المكبين على محبتها.

﴿وَاتَّبَعَ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ﴾: أي: قد حصل عندك من وسائل الآخرة ما ليس عند غيرك من الأموال، فابتغ بها ما عند الله، وتصدق، ولا تقتصر على مجرد نيل الشهوات وتحصيل اللذات، ﴿وَلَا تَتَّكِبْ فَتَبْنِيكَ مِنْ الدُّنْيَا﴾: أي: لا تأمرك أن تتصدق بجميع مالك وتبقى ضائعاً، بل أنفق لأخرك وأستمتع بدنياك استمتاعاً لا يثلم دينك ولا يضر بأخرك، ﴿وَأَحْسِنْ﴾: إلى عباد الله ﴿كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ عَلَيْكَ بِهَذِهِ الْأَمْوَالِ، وَلَا تَتَّبِعِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ﴾: بالتكبر والعمل بمعاصي الله والاشتغال بالنعم عن المنعم. ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾: بل يعاقبهم على ذلك أشد العقوبة.

﴿فَإِنْ قَالُوا قَارُونُ رَاذًا لِنَصِيحَتِهِمْ كَافِرًا لِنِعْمَةِ رَبِّهِ: إِنَّمَا أُوتِيَهُهُ عَلَنَ عَلَيْهِ عَيْنِي﴾: أي: إنما أدركت هذه الأموال بكسبي ومعرفتي بوجوه المكاسب وحذقي. أو: على علم من الله بحالي؛ يعلم أنني أهل لذلك؛ فلم تنصحوني على ما أعطاني الله؟! قال تعالى مبيّناً أن عطاءه ليس دليلاً على حسن حالة المعطي: ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْبَرُ جَمْعًا﴾: فما المانع من إهلاك قارون مع مضي عادتنا وستتنا بإهلاك من هو مثله وأعظم منه إذا فعل ما يوجب الهلاك؟! ﴿وَلَا يَسْتَلْ عَنْ ذُنُوبِهِ الْمُجْرِمُونَ﴾: بل يعاقبهم الله ويعذبهم على ما يعلمه منهم؛ فهم وإن أثبتوا لأنفسهم حالة حسنة وشهدوا لها بالنجاة؛ فليس قولهم مقبولاً، وليس ذلك راداً عنهم من العذاب شيئاً؛ لأن ذنوبهم غير خفية؛ فإنكارهم لها لا محل له.

﴿فَلَمْ يَزَلْ قَارُونُ مُسْتَمِرًّا عَلَى عُنَادِهِ وَيَغِيهِ وَعَدَمَ قَبُولِ نَصِيحَةِ قَوْمِهِ، فَرَحًا بَطَرًا، قَدْ أَعْجَبَتْهُ نَفْسُهُ وَغَرَّهُ مَا أُوتِيَهُ مِنَ الْأَمْوَالِ، فَخَرَجَ﴾ ذات يوم ﴿فِي زِينَتِهِ﴾: أي: بحالة أرفع ما يكون من أحوال دنياه، قد كان له من الأموال ما كان، وقد استعد وتجمل بأعظم ما يمكنه، وتلك الزينة في العادة

﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَاءِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾: وَزَعَمْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ فَعِلْكُمْ أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ.

﴿٧٦﴾، ﴿٧٧﴾ أي: ويوم ينادي الله المشركين به العادلين به غيره، الذين يزعمون أن له شركاء يستحقون أن يعبدوا، وينفعون، ويضرون؛ فإذا كان يوم القيامة؛ أراد الله أن يظهر جرائتهم وكذبهم في زعمهم وتكذيبهم لأنفسهم؛ ف ﴿يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَاءِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾: أي: بزعمهم لا بنفس الأمر؛ كما قال: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ إِنْ يَسْتَجِيبُوا إِلَّا الظَّنُّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ [يونس: ٦٦]، فإذا حضروا وإياهم؛ نزع ﴿مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ﴾: من الأمم المكذبة ﴿شَهِيدًا﴾: يشهد على ما جرى في الدنيا من شركهم واعتقادهم، وهؤلاء بمنزلة المتتخين؛ أي: انتخبنا من رؤساء المكذبين من يتصدى للخصومة عنهم والمجادلة عن إخوانهم، وهم على طريق واحد؛ فإذا برزوا للمحاكمة، ﴿فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾: حجتكم ودليلكم على صحة شرككم؛ هل أمرناكم بذلك؟ هل أمرتكم رسلنا؟ هل وجدتم ذلك في شيء من كتبنا؟ هل فيهم أحد يستحق شيئاً من الإلهية؟ هل ينفعونكم أو يدفعون عنكم من عذاب الله أو يغفون عنكم؟ فليفعلوا إذا إن كان فيهم أهلية وليروكم إن كان لهم قدرة، ﴿فَعَمِلُوا﴾: حينئذ بطلان قولهم وفساده، و﴿أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ﴾: تعالى، قد توجهت عليهم الخصومة وانقطعت حجتهم وأفلجت حجة الله، ﴿وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾: من الكذب والإفك؛ اضمحل وتلاشى وعدم، وعلموا أن الله قد عدل فيهم؛ حيث لم يضع العقوبة إلا بمن استحقها واستأهلها.

﴿إِنَّ قُرُونًا كَانَتْ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ﴾ إلى آخر القصة.

﴿٧٨﴾ يخبر تعالى عن حالة قارون وما فعل وفعل به ونصح ووعظ، فقال: ﴿إِنَّ قُرُونًا كَانَتْ مِنْ قَوْمِ مُوسَى﴾: أي: من بني إسرائيل، الذين فضلوا على العالمين وفاقوهم في زمانهم، وامتن الله عليهم بما امتن به، فكانت حالهم مناسبة للاستقامة، ولكن قارون هذا بغى على قومه، وطغى بما أوتي من الأموال العظيمة المطغية، ﴿وَأَكْبَتْهُ مِنَ الْكُتُوبِ﴾: أي:

سورة القصص

الحق المبرور

من مثله تكون هائلة، جمعت زينة الدنيا وزهرتها وبهجتها وغضارتها وفخرها، فرمقتها في تلك الحالة العيون، وملأت بزهة القلوب، واختلبت زينة النفوس، فانقسم فيه الناظرون قسمين، كل تكلم بحسب ما عنده من الهمة والرغبة، فـ ﴿قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾؛ أي: الذين تعلقوا بإرادتهم فيها، وصارت منتهى رغبتهم، ليس لهم إرادة في سواها: ﴿يَبْلَيْتُ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيتُمْ قَدْ رُفِئَتْ﴾: من الدنيا ومتاعها وزهرتها، ﴿إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ ﴿٧١﴾: وصدقوا إنه لذو حظ عظيم لو كان الأمر منتهياً إلى رغبتهم وإنه ليس وراء الدنيا دار أخرى؛ فإنه قد أعطي منها ما به غاية التمتع بنعيم الدنيا، واقتدر بذلك على جميع مطالبه، فصار هذا الحظ العظيم بحسب همتهم، وإن همة جعلت هذا غاية مرادها ومنتهى مطلبها؛ لمن أدنى الهمم وأسفلها وأدناها، وليس لها أدنى صعود إلى المراتب العالية والمطالب الغالية.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾: الذين عرفوا حقائق الأشياء ونظروا إلى باطن الدنيا حين نظر أولئك إلى ظاهرها: ﴿وَيَلْكُمُ﴾: متوجعين مما تمنوا لأنفسهم، راثين لحالهم، منكبين لمقالمهم، ﴿ثَوَابُ اللَّهِ﴾: العاجل من لذة العبادة ومحبة والإجابة إليه والإقبال عليه، والأجل من الجنة وما فيها مما تشتهيhe الأنفس وتلد الأعين خير من هذا الذي تمنيتهم ورغبتهم فيه؛ فهذه حقيقة الأمر، ولكن ما كل من يعلم ذلك يؤثر الأعلى على الأدنى، فما يلقي ذلك ويوفق له ﴿إِلَّا أَصْخِرُوا﴾ ﴿٨١﴾: الذين حبسوا أنفسهم على طاعة الله وعن معصيته وعلى أقذاره المؤلمة وصبروا على جواذب الدنيا وشهواتها أن تشغلهم عن ربهم وأن تحول بينهم وبين ما خلقوا له؛ فهؤلاء الذين يؤثرون ثواب الله على الدنيا الفانية.

﴿فَلَمَّا انْتَهتْ بِقَارُونَ حَالَةُ الْبَغْيِ وَالْفَخْرِ، وَازِينَتِ الدُّنْيَا عِنْدَهُ، وَكَثُرَ بِهَا إِعْجَابُهُ، وَبَغَتْهُ الْعَذَابُ﴾، ﴿خَسَفْنَا بِهِ وَبَدَارِهِ الْأَرْضَ﴾: جزاء من جنس عمله؛ فكما رفع نفسه على عباد الله؛ أنزل الله أسفل سافلين هو وما اغتر به من داره وأثائه ومتاعه. ﴿فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِتْنَةٍ﴾؛ أي: جماعة وعصبة وخدم وجنود، ﴿يَضْرِبُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُتَصَرِّينَ﴾ ﴿٨١﴾؛ أي: جاءه العذاب فما نصر ولا انتصر.

﴿وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ﴾؛ أي: الذين يريدون الحياة الدنيا، الذين قالوا: ﴿يَبْلَيْتُ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيتُمْ قَدْ رُفِئَتْ﴾: ﴿يَقُولُونَ﴾: متوجعين ومعتبرين وخائفين من وقوع العذاب بهم: ﴿وَيَكَاكَ اللَّهُ يَسْطُرُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ﴾؛ أي: يضيّق الرزق على من يشاء. فعلمنا حينئذ أن بسطه لقارون ليس دليلاً على خير فيه، وأنا غالطون في قولنا: ﴿إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ ﴿٧١﴾، و﴿لَوْ أَنَّ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا﴾: فلم يعاقبنا على ما قلنا؛ فلولا فضله ومنتهى؛ ﴿لَخَسَفَ بَنَّا﴾: فصار هلاك قارون عقوبة له، وعبرة وموعظة لغيره، حتى إن الذين غبطوه سمعت كيف ندموا، وتغير فكرهم الأول، ﴿وَيَكَاكَ لَا يَفْلَحُ الْكَافِرُونَ﴾ ﴿٨١﴾؛ أي: لا في الدنيا، ولا في الآخرة.

﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ ﴿٨٢﴾.

﴿لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى قَارُونَ وَمَا أُوتِيَ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا صَارَتْ إِلَيْهِ عَاقِبَةُ أَمْرِهِ، وَأَنَّ أَهْلَ الْعِلْمِ قَالُوا: ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا رَغَبَ تَعَالَى فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ، وَأَخْبَرَ بِالسَّبَبِ الْمَوْصِلِ إِلَيْهَا، فَقَالَ: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ﴾: التي أخبر الله بها

كَتَرَجَوْا أَنْ يُلْقَى إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ
فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِلْكَافِرِينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا يَصُدُّكَ عَنْ ءَايَاتِ
اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنْزِلَتْ إِلَيْكَ وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ
الْمُشْرِكِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ
كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٨﴾

﴿٨٥﴾ يقول تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ﴾
أي: أنزله، وفرض فيه الأحكام، وبين فيه الحلال والحرام،
وأمرك بتبليغه للعالمين والدعوة لأحكامه جميع المكلفين؛
لا يليق بحكمته أن تكون الحياة هي الحياة الدنيا فقط من
غير أن يثاب العباد ويعاقبوا، بل لا بد أن يردك إلى معاد
يجازى فيه المحسنون بإحسانهم والمستثون بمعصيتهم،
وقد بينت لهم الهدى وأوضحت لهم المنهج؛ فإن تبعوك؛
فذلك حظهم وسعادتهم، وإن أبوا إلا عصيانك والقبح بما
جئت به من الهدى وتفضيل ما معهم من الباطل على الحق؛
فلم يبق للمجادلة محل، ولم يبق إلا المجازاة على الأعمال
من العالم بالغيب والشهادة والمحق والمبطل، ولهذا قال:
﴿قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ مَنْ جَاءَ بِالْهُدَى وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ ﴿٨٥﴾
وقد علم أن رسوله هو المهتدي الهادي، وأن أعداءه هم
الضالون المضلون.

﴿٨٦﴾ وَمَا كُنْتَ تَرْجُو أَنْ يُلْقَى إِلَيْكَ الْكِتَابُ؛ أي:
لم تكن متحرراً لتزول هذا الكتاب عليك، ولا مستعداً له،
ولا متصدياً، ﴿إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ﴾: بك وبالعباد، فأرسلك
بهذا الكتاب الذي رحم به العالمين، وعلمهم ما لم يكونوا
يعلمون، وزكاهم وعلمهم الكتاب والحكمة، وإن كانوا من
قبل لفي ضلال مبين: فإذا علمت أنه أنزله إليك رحمة منه؛
علمت أن جميع ما أمر به ونهى عنه؛ فإنه رحمة وفضل من
الله؛ فلا يكن في صدرك حرج من شيء منه، وتظن أن مخالفه
أصلح وأنفع، ﴿فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِلْكَافِرِينَ﴾ ﴿٨٦﴾؛ أي: معيناً
لهم على ما هو من شعب كفرهم، ومن جملة مظاهرهم أن
يقال في شيء منه: إنه خلاف الحكمة والمصلحة والمنفعة.

﴿٨٧﴾ وَلَا يَصُدُّكَ عَنْ ءَايَاتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنْزِلَتْ إِلَيْكَ؛
بل أبلغها وأنفذها، ولا تبال بمكرهم، ولا يخدعك عنها،
ولا تتبع أهواءهم، ﴿وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ﴾؛ أي: اجعل الدعوة
إلى ربك متتهى قصدك وغاية عملك، فكل ما خالف ذلك؛
فأرفضه من رياء أو سمعة أو موافقة أغراض أهل الباطل؛ فإن

في كتبه وأخبرت بها رسله التي قد جمعت كل نعيم، واندفع
عنها كل مكدر ومنغص، ﴿يَجْعَلُهَا﴾: داراً وقراراً ﴿لِلَّذِينَ
لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا﴾؛ أي: ليس لهم إرادة؛
فكيف العمل للعلو في الأرض على عباد الله والتكبر عليهم
وعلى الحق؟! ﴿وَلَا فَسَادًا﴾: وهذا شامل لجميع المعاصي؛
فإذا كان لا إرادة لهم في العلو في الأرض ولا الفساد؛ لزم
من ذلك أن تكون إرادتهم مصروفة إلى الله، وقصدهم
الدار الآخرة، وحالهم التواضع لعباد الله والانقياد للحق
والعمل الصالح، وهؤلاء هم المتقون، الذين لهم العاقبة،
ولهذا قال: ﴿وَالْعَاقِبَةُ﴾؛ أي: حالة الفلاح والنجاح، التي
تستقر وتستمر، لمن اتقى الله تعالى. وغيرهم، وإن حصل
لهم بعض الظهور والراحة؛ فإنه لا يطول وقته، ويزول عن
قريب.

وعلم من هذا الحصر في الآية الكريمة أن الذين يريدون
العلو في الأرض أو الفساد ليس لهم في الدار الآخرة نصيب،
ولا لهم منها نصيب.

﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا
يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ﴿٨٨﴾.

﴿٨٨﴾ يخبر تعالى عن مضاعفة فضله وتمازج عدله، فقال:
﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ﴾: شرط فيها أن يأتي بها العامل؛ لأنه قد
يعملها ولكن يقرن بها ما لا تقبل منه أو يبطئها؛ فهذا لم يجز
بالحسنة، والحسنة اسم جنس يشمل جميع ما أمر الله به
ورسوله من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة المتعلقة بحق
الله تعالى وحق عباده، ﴿فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا﴾؛ أي: أعظم وأجل،
وفي الآية الأخرى: ﴿فَلَهُ عَشْرُ أَثْمَالِهَا﴾ ﴿[الأنعام: ١٦٠]﴾ هذا
التضعيف للحسنة لا بد منه، وقد يقرن بذلك من الأسباب
ما يزيد به المضاعفة؛ كما قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَضْعِيفُ لِمَنْ يَشَاءُ
وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ ﴿[البقرة: ٢٦١]﴾ بحسب حال العامل
وعمله ونفعه ومحلّه ومكانه، ﴿وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ﴾: وهي
كل ما نهى الشارع عنه، نهى تحريم؛ ﴿فَلَا يُجْزَى الَّذِينَ
عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ﴿٨٨﴾؛ كقوله تعالى:
﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَثْمَالِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى
إِلَّا مِثْلُهَا وَهُمْ لَا يَظْلَمُونَ﴾ ﴿[الأنعام: ١٦٠]﴾.

﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ قُلْ
رَبِّي أَعْلَمُ مَنْ جَاءَ بِالْهُدَى وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ ﴿٨٥﴾ وَمَا

ذلك داع إلى الكون معهم ومساعدتهم على أمرهم، ولهذا قال: ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ ﴿٨٧﴾: لا في شركهم، ولا في فروعه وشعبه التي هي جميع المعاصي.

﴿٨٨﴾ ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾: بل أخلص لله عبادتك؛ فإنه ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾: فلا أحد يستحق أن يؤله ويحب ويعبد إلا الله الكامل الباقي الذي ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾: وإذا كان كل شيء هالكًا مضمحلًا سواه؛ فعبادة الهالك الباطل باطلة ببطان غايتها وفساد نهايتها، ﴿لَهُ الْفُتُورُ﴾: في الدنيا والآخرة، ﴿وَالْيَتِيمَ﴾: لا إلى غيره ﴿تَرْجِعُونَ﴾ ﴿٨٩﴾: فإذا كان ما سوى الله باطلاً هالكًا، والله هو الباقي الذي لا إله إلا هو، وله الحكم في الدنيا والآخرة، وإليه مرجع الخلائق كلهم؛ ليجازيهم بأعمالهم؛ تعين على من له عقل أن يعبد الله وحده لا شريك له، ويعمل لما يقربه ويدنيه، ويحذر من سخطه وعقابه، وأن يقدم على ربه غير تائب ولا مقلع عن خطئه وذنبه.

تم تفسير سورة القصص.

ولله الحمد والثناء والمجد دائماً أبداً.



سورة القصص
الجزء العشرون

إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَأْدُكَ إِلَى مَعَادٍ قُلُوبِي
أَعْلَمُ مَنْ جَاءَ بِالْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٨٥﴾ وَمَا كُنْتُ
تَرْجُو أَنْ يُلْقَىٰ إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ
فَلَا تَكُونَنَّ ظَهيرًا لِلْكَافِرِينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا يَصُدُّكَ عَنْ آيَاتِ
اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنْزِلَتْ إِلَيْكَ وَاعْزُ إِلَىٰ رَبِّكَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ
الْمُشْرِكِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا إِلَهَ إِلَّا
هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْفُتُورُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٨﴾

سورة العنكبوت

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْعَمَّ ﴿١﴾ أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا ءَامَنَّا وَهُمْ لَا
يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ
صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ﴿٣﴾ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ
السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْبِقُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٤﴾ مَنْ كَانَ يَرْجُوا
لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنْ أَجَلَ اللَّهُ لَكَ لَاقٍ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٥﴾ وَمَنْ
جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴿٦﴾

٣٩٦

تفسير سورة العنكبوت

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿١﴾ الْعَمَّ أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ﴿٣﴾.

﴿١﴾ - ﴿٣﴾ يخبر تعالى عن تمام حكمته، وأن حكمته لا تقتضي أن كل من قال إنه مؤمن وادعى لنفسه الإيمان؛ أن يبقوا في حالة يسلمون فيها من الفتن والمحن، ولا يعرض لهم ما يشوش عليهم إيمانهم وفروعه؛ فإنهم لو كان الأمر كذلك؛ لم يتميز الصادق من الكاذب والمحق من المبطل، ولكن ستنه وعادته في الأولين وفي هذه الأمة أن يتليهم بالسراء والضراء والعسر واليسر والمنشط والمكره والغنى والفقر وإدالة الأعداء عليهم في بعض الأحيان ومجاهدة الأعداء بالقول والعمل ونحو ذلك من الفتن، التي ترجع كلها إلى فتنه الشبهات المعارضة للعقيدة والشهوات المعارضة للإرادة؛ فمن كان عند ورود الشبهات يثبت إيمانه ولا يتزلزل ويدفعها بما معه من الحق، وعند ورود الشهوات الموجبة والداعية إلى المعاصي والذنوب أو الصارفة عما أمر الله به ورسوله، يعمل بمقتضى الإيمان ويجاهد شهوته؛ دل ذلك على صدق إيمانه وصحته، ومن كان عند ورود الشبهات تؤثر في قلبه شكًا وريبًا، وعند اعتراض الشهوات تصرفه إلى المعاصي أو تصدقه عن الواجبات؛ دل ذلك على عدم صحة إيمانه وصدقه. والناس في هذا المقام درجات لا يحصيها إلا الله؛ فمستقل ومستكثر. فنسأل الله تعالى أن يثبتنا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة، وأن يثبت قلوبنا على دينه؛ فلا ابتلاء والامتحان للنفوس بمنزلة الكبير يخرج خبثها وطبيها.

سُورَةُ عَسْكَرٍ

وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٧﴾ وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَلَدَيْهِ خُشْعًا وَإِنْ جَاهِدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا إِلَىٰ مَرْجِعِكُمْ فَاثْبِتُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ ﴿٩﴾ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةً لِلنَّاسِ كَذَّابٍ إِلَهُهُ وَلَئِن جَاءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ ؕ أَوَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ ﴿١٠﴾ وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ ﴿١١﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلَ خَطَايَكُمْ وَمَا هُمْ بِحَامِلِينَ ﴿١٢﴾ مِن خَطَايَاهُمْ مِن شَيْءٍ ؕ إِنَّهُمْ لَكَذِبُونَ ﴿١٣﴾ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَنفَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيَسْئَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿١٤﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ

٢٩٧

دَعَاوَاهُ، وَهُوَ الْعَلِيمُ بِمَنْ يَصْلَحُ لِحُجَّةٍ وَمَنْ لَا يَصْلَحُ، ﴿وَمَنْ جَهَدَ﴾: نَفْسُهُ وَشَيْطَانُهُ وَعَدُوهُ الْكَافِرُ؛ ﴿فَإِنَّمَا يَجْتَعِدُ لِنَفْسِهِ﴾: لِأَنَّ نَفْعَهُ رَاجِعٌ إِلَيْهِ، وَثَمَرَتُهُ عَائِدَةٌ إِلَيْهِ، وَاللَّهُ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ، لَمْ يَأْمُرْهُمْ بِمَا أَمَرَهُمْ بِهِ لِيَتَنَفَّعَ بِهِ، وَلَا نَهَاهُمْ عَمَّا نَهَاهُمْ عَنْهُ بِخَلَا مِنْهُمْ عَلَيْهِمْ، وَقَدْ عَلِمَ أَنَّ الْأَوَامِرَ وَالنَّوَاهِيَ يَحْتَاجُ الْمَكْلُوفُ فِيهَا إِلَى جِهَادٍ؛ لِأَنَّ نَفْسَهُ تَتَنَاقَلُ بَطْبَعُهَا عَنِ الْخَيْرِ، وَشَيْطَانُهُ يَنْهَاهُ عَنْهُ، وَعَدُوهُ الْكَافِرُ يَمْنَعُهُ مِنْ إِقَامَةِ دِينِهِ كَمَا يَنْبَغِي، وَكُلُّ هَذِهِ مَعَارِضَاتٌ تَحْتَاجُ إِلَى مَجَاهِدَاتٍ وَسْعَى شَدِيدٍ.

﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِى كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ﴿٧﴾

يعني: أن الذين مَنَّ الله عليهم بالإيمان والعمل الصالح سيكفر الله عنهم سيئاتهم؛ لأن الحسنات يذهبن السيئات، ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾؛ وهي أعمال الخير من واجبات ومستحبات، فهي أحسن ما يعمل العبد؛ لأنه يعمل المباحات أيضًا وغيرها.

﴿وَوَضِعْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِّ مَقَاصِدٍ وَإِنْ جَهْدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ إِلَىٰ مَرْجِعِكُمْ فَأُنَبِّتُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾﴾

﴿٨﴾ أي: وأمرنا الإنسان ووصيناه بوالديه حسناً؛ أي: ببرهما والإحسان إليهما بالقول والعمل، وأن يحافظ على ذلك ولا يعقبهما ويسيء إليهما في قوله وعمله، ﴿وَإِنْ جَهِدَاكَ﴾ على أن تشرك ﴿بِمَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾: وليس لأحد علم بصحة الشرك بالله، وهذا تعظيم لأمر الشرك. ﴿فَلَا تَطْغَبْهُمَا إِلَىٰ مَرْحَمَتِكَ فَوَيْلٌ لَّكَ بِمَا كُنْتَ تَعْمَلُونَ﴾ ﴿٩﴾: فأجازيكم بأعمالكم، فبروا والديكم، وقدموا طاعتهما إلا على طاعة الله ورسوله؛ فإنها مقدمة على كل شيء.

﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ﴾ ﴿٩﴾ ﴿

﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْبِقُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾

أي: أحسب الذين همهم فعل السيئات وارتكاب
الجنائيات أن أعمالهم ستهمل وأن الله سيغفل عنهم أو
يفوتونه؛ فلذلك أقدموا عليها وسهل عليهم عملها؟! ﴿سَاءَ
مَا يَحْكُمُونَ﴾ أي: ساء حكمهم؛ فإنه حكم جائر
لنضمنه إنكار قدرة الله وحكمته، وأن لديهم قدرة يمتنعون
بها من عقاب الله، وهم أضعف شيء وأعجزه.

﴿مَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنْ أَجَلَ اللَّهُ لَاتٍ وَهُوَ السَّكِينُ
الْعَلِيمُ﴾ وَمَنْ جَاهَدْ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ
الْعَالَمِينَ ﴿١١٠﴾

يعني: يا أيها المحب لربه، المشتاق لقربه ولقائه، المسارع في مرضاته! أبشر بقرب لقاء الحبيب؛ فإنه آت، وكل ما هو آت قريب، فتزود للقاءه، وسر نحوه مستصحباً الرجاء مؤملاً الوصول إليه.

ولكن ما كل من يدعي يعطى بدعواه، ولا كل من تمنى يعطى ما تمناه، فإن الله سميع للأصوات عليم بالنيات؛ فمن كان صادقاً في ذلك؛ أناله ما يرجو، ومن كان كاذباً؛ لم تنفعه

دعواه، وهو العليم بمن يصلح لحيه ومن لا يصلح، ﴿وَمَنْ جَاءَ لَأَنْ نُّفَعَهُ رَاجِعْ إِلَيْهِ، وَثِمَرُهُ عَائِدَةٌ إِلَيْهِ، وَاللَّهُ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ بخلافه عليهم، وقد علم أن الأوامر والنواهي يحتاج المكلف إليها، وينهاه عنه، وعدوه الكافر يمنعه من إقامة دينه كما ينبغي، وكل

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ﴿٧﴾

يعني: أن الذين مَنَّ الله عليهم بالإيمان والعمل الصالح سيكفر الله عنهم سيئاتهم؛ لأن الحسنات يذهبن السيئات، ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (٧)؛ وهي أعمال الخير من واجبات ومستحبات، فهي أحسن ما يعمل العبد؛ لأنه يعمل المباحات أيضًا وغيرها.

﴿وَوَضِعْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۖ وَإِنْ جَاهِدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ إِلَىٰ مَرْجِعِكُم ۖ فَأُنَبِّتُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾﴾

﴿٨﴾ أي: وأمرنا الإنسان ووصيناه بوالديه حسناً؛ أي: ببرهما والإحسان إليهما بالقول والعمل، وأن يحافظ على ذلك ولا يعقبهما ويسيء إليهما في قوله وعمله، ﴿وَإِنْ جَهَدَاكَ﴾ على أن تشرك ﴿بِمَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾: وليس لأحد علم بصفة الشرك بالله، وهذا تعظيم لأمر الشرك. ﴿فَلَا تَطْغَبْهُمَا إِلَىٰ مَرْحَمَتِكَ فَيَشْكُرَ﴾ ﴿بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ ﴿٨﴾: فأجازيكم بأعمالكم، فبروا والديكم، وقدموا طاعتهما إلا على طاعة الله ورسوله؛ فإنها مقدمة على كل شيء.

﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ﴾ ﴿٩﴾ ﴿

﴿٩﴾ أي: من آمن بالله وعمل صالحًا فإن الله وعده أن يدخله الجنة في جملة عباد الله الصالحين من النبيين والصدّيقين والشهداء والصالحين، كل على حسب درجته ومرتبته عند الله؛ فالإيمان الصحيح والعمل الصالح عنوان على سعادة صاحبه، وأنه من أهل الرحمن والصالحين من عباد الله.

﴿١٠﴾ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللّٰهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللّٰهِ جَعَلَ فِتْنَةً لِلنَّاسِ كَذَابٍ اَللّٰهُ وَلَٰكِن جَاءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوَلَيْسَ اَللّٰهُ بِاَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعٰلَمِيْنَ ﴿١٠﴾ وَلَيَعْلَمَنَّ اَللّٰهُ الَّذِيْنَ ءَامَنُوْا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنْفِقِيْنَ ﴿١١﴾

﴿١٠﴾ ﴿١١﴾ لما ذكر تعالى أنه لا بد أن يمتحن من ادعى الإيمان؛ ليظهر الصادق من الكاذب؛ بين تعالى أن من الناس فريقًا لا صبر لهم على المحن ولا ثبات لهم على بعض الزلازل، فقال: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللّٰهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللّٰهِ﴾ بضرب أو أخذ مال أو تعبير؛ ليرتد عن دينه، وليراجع الباطل؛ ﴿جَعَلَ فِتْنَةً لِلنَّاسِ كَذَابٍ اَللّٰهُ﴾ أي: يجعلها صادة له عن الإيمان والثبات عليه؛ كما أن العذاب صاد عما هو سببه. ﴿وَلَٰكِن جَاءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ﴾ لأنه موافق للهوى.

فهذا الصنف من الناس من الذين قال الله فيهم: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَّعِدُّ اَللّٰهُ عَلَىٰ حَرْفٍ فَاَن اَصَابَهُ حَرْ اَطْمَأَنَّ بِهٖ وَلَٰن اَصَابَهُ فِتْنَةً اَنْقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهٖ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذٰلِكَ هُوَ الْخُسْرٰنُ اَلْمُبِيْنُ ﴿١١﴾﴾ [الحج: ١١]. ﴿أَوَلَيْسَ اَللّٰهُ بِاَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ اَلْعٰلَمِيْنَ ﴿١٢﴾﴾: حيث أخبركم بهذا الفريق الذي حاله كما وصف لكم، فتعرفون بذلك كمال علمه وسعة حكمته. ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ اَللّٰهُ الَّذِيْنَ ءَامَنُوْا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنْفِقِيْنَ ﴿١٣﴾﴾ أي: فذلك قدر محنتا وابتلاء؛ ليظهر علمه فيهم، فيجازيهم بما ظهر منهم، لا بما يعلمه بمجردة؛ لأنهم قد يحتجون على الله أنهم لو ابتلوا لثبتوا.

﴿١٤﴾ وَقَالَ الَّذِيْنَ كَفَرُوْا لِلَّذِيْنَ اٰتٰهُمُوْا سَبِيْلًا وَلَنَحْمِلَ خَطِيْئَكُمْ وَمَا هُمْ بِحٰمِلِيْنَ مِّنْ خَطِيْئَتِهِمْ مِّنْ شَيْءٍ اِنَّهُمْ لَكَاذِبُوْنَ ﴿١٤﴾ وَلَيَحْمِلُنَّ اَنْفُقَالَهُمْ وَاَنْفُقَالَهُمْ مَّعَ اَنْفُقَالِهِمْ وَلَيَسْتَلْنَ يَوْمَ الْقِيٰمَةِ عَمَّا كَانُوْا يَقْرَءُوْنَ ﴿١٥﴾

﴿١٥﴾ يخبر تعالى عن افتراء الكفار ودعوتهم للمؤمنين إلى

دينهم، وفي ضمن ذلك تحذير المؤمنين من الاغترار بهم والوقوع في مكرهم، فقال: ﴿وَقَالَ الَّذِيْنَ كَفَرُوْا لِلَّذِيْنَ ءَامَنُوْا اٰتٰهُمُوْا سَبِيْلًا﴾ فاتركوا دينكم أو بعضه، واتبعونا في ديننا؛ فإننا نضمن لكم الأمر، ونحمل ﴿خَطِيْئَكُمْ﴾ وهذا الأمر ليس بأيديهم؛ فلهذا قال: ﴿وَمَا هُمْ بِحٰمِلِيْنَ مِّنْ خَطِيْئَتِهِمْ مِّنْ شَيْءٍ﴾ لا قليل ولا كثير؛ فهذا التحمل ولو رضي به صاحبه؛ فإنه لا يفيد شيئًا؛ فإن الحق لله، والله تعالى لم يمكن العبد من التصرف في حقه إلا بأمره وحكمه، وحكمه ألا تزر وازرة وزر أخرى.

﴿١٣﴾ ولما كان قوله: ﴿وَمَا هُمْ بِحٰمِلِيْنَ مِّنْ خَطِيْئَتِهِمْ مِّنْ شَيْءٍ﴾ قد يتوهم منه أيضًا أن الكفار الداعين إلى كفرهم - ونحوهم ممن دعا إلى باطله - ليس عليهم إلا ذنبهم الذي ارتكبه دون الذنب الذي فعله غيرهم، ولو كانوا متسبين فيه؛ قال محترًا عن هذا الوهم: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ اَنْفُقَالَهُمْ﴾ أي: أنقل ذنوبهم التي عملوها، ﴿وَاَنْفُقَالَهُمْ مَّعَ اَنْفُقَالِهِمْ﴾ وهي الذنوب التي بسببهم ومن جرّائهم؛ فالذنب الذي فعله التابع لكل من التابع والمتبوع حصّة منه: هذا لأنه فعله وباشره، والمتبوع لأنه تسبب في فعله ودعا إليه؛ كما أن الحسنة إذا فعلها التابع له أجرها بالمباشرة وللداعي أجره بالتسبب، ﴿وَلَيَسْتَلْنَ يَوْمَ الْقِيٰمَةِ عَمَّا كَانُوْا يَقْرَءُوْنَ ﴿١٣﴾﴾: من الشر وتزيينه وقولهم: ﴿وَلَنَحْمِلَ خَطِيْئَكُمْ﴾.

﴿١٤﴾ وَلَقَدْ اَرْسَلْنَا نُوحًا اِلٰى قَوْمِهٖ فَلَمَّتْ فِيْهِمْ اَلْفَ سَنَةٍ اِلَّا خَمْسِيْنَ عَامًا فَاَخَذَهُمُ الطُّوفٰنُ وَهُمْ ظٰلِمُوْنَ ﴿١٤﴾ فَاَنْجَيْنٰهُ وَاَصْحٰبَ السَّفِيْنَةِ وَجَعَلْنٰهَا اٰيَةً لِّلْعٰلَمِيْنَ ﴿١٥﴾

﴿١٤﴾ يخبر تعالى عن حكمه وحكمته في عقوبة الأمم المكذبة، وأن الله أرسل عبده ورسوله نوحًا عليه الصلاة والسلام إلى قومه يدعوهم إلى التوحيد وإفراد الله بالعبادة والنهي عن الأنداد والأصنام، ﴿فَلَمَّتْ فِيْهِمْ﴾: نبيًا داعيًا ﴿اَلْفَ سَنَةٍ اِلَّا خَمْسِيْنَ عَامًا﴾: وهو لا يني بدعوتهم ولا يفتر في نصحهم؛ يدعوهم ليلاً ونهارًا وسرًا وجهارًا، فلم يرشدوا ولا اهتموا، بل استمروا على كفرهم وطغيانهم، حتى دعا عليهم نبيهم نوح عليه الصلاة والسلام مع شدة صبره وحلمه واحتماله، فقال: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْاَرْضِ مِنَ الْكَافِرِيْنَ ذَبٰرًا ﴿١٦﴾﴾ [نوح: ٢٦]، ﴿فَاَخَذَهُمُ الطُّوفٰنُ﴾ أي: الماء الذي نزل من السماء بكثرة ونبع من الأرض بشدة، ﴿وَهُمْ ظٰلِمُوْنَ ﴿١٧﴾﴾: مستحقون للعذاب.

الجزء العشرون

سورة العنكبوت

فَأَنجَيْنَاهُ وَأَصْحَبَ السَّفِينَةَ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ
 ١٥ وَإِذْ هَمِيمٌ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَلِكُمْ
 خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ١٦ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن
 دُونِ اللَّهِ أَوتُنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن
 دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ
 وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ١٧ وَإِنْ تَكْذِبُوا
 فَقَدْ كَذَّبْتُمْ أَمْرًا مِّن قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ
 الْمُبِينُ ١٨ أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ
 يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ١٩ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ
 فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ
 إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ٢٠ يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَيَرْحَمُ
 مَن يَشَاءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ ٢١ وَمَا أُنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي
 الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ
 وَلَا نَصِيرٍ ٢٢ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ
 أُولَٰئِكَ يُسَوِّمُ مِنْ رَّحْمَتِي وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ٢٣

٣٩٨

﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَأَصْحَبَ السَّفِينَةَ﴾: الذين ركبوا معه؛ أهله
 ومن آمن به، ﴿وَجَعَلْنَاهَا﴾؛ أي: السفينة أو قصة نوح ﴿آيَةً
 لِلْعَالَمِينَ﴾: يعتبرون بها على أن من كذب الرسل آخر
 أمره الهلاك، وأن المؤمنين سيجعل الله لهم من كل هم فرجاً
 ومن كل ضيق مخرجاً، وجعل الله أيضاً السفينة؛ أي: جنسها
 آية للعالمين؛ يعتبرون بها رحمة ربهم الذي قبض لهم أسبابها،
 ويسر لهم أمرها، وجعلها تحملهم، وتحمل متاعهم من محل
 إلى محل، ومن قطر إلى قطر.

﴿وَإِذْ هَمِيمٌ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَلِكُمْ خَيْرٌ
 لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ ١٦ ﴿إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ
 أَوتُنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ
 لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ
 وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ ١٧ ﴿وَإِنْ تَكْذِبُوا فَقَدْ كَذَّبْتُمْ
 أَمْرًا مِّن قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ ١٨
 ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ
 يَسِيرٌ﴾ ١٩ ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ
 ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ ٢٠
 ﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَاءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ﴾ ٢١ ﴿وَمَا
 أُنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَمَا لَكُم مِّن
 دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ ٢٢.

﴿يَذْكُرُ تَعَالَى أَنَّهُ أَرْسَلَ خَلِيلَهُ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ إِلَى قَوْمِهِ يَدْعُوهُمْ إِلَى اللَّهِ، فَقَالَ لَهُمْ: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ﴾؛ أي: وحدوه
 وأخلصوا له العبادة وامتلوا ما أمركم به، ﴿وَاتَّقُوهُ﴾: أن يغضب عليكم فيعذبكم، وذلك بترك ما يغضبه من المعاصي.
 ﴿ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾: أي: عبادة الله وتقواه ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ﴾: من ترك ذلك، وهذا من باب إطلاق أفعال التفضيل بما ليس في الطرف
 الآخر منه شيء؛ فإن ترك عبادة الله وترك تقواه لا خير فيه بوجه، وإنما كانت عبادة الله وتقواه خيراً للناس لأنه لا سبيل إلى
 نيل كرامته في الدنيا والآخرة إلا بذلك، وكل خير يوجد في الدنيا والآخرة؛ فإنه من آثار عبادة الله وتقواه. ﴿إِن كُنْتُمْ
 تَعْلَمُونَ﴾ ١٦: ذلك؛ فاعلموا الأمور، وانظروا ما هو أولى بالإشارة.

﴿١٧﴾، ﴿١٨﴾ فلما أمرهم بعبادة الله وتقواه؛ نهاهم عن عبادة الأصنام، وبين لهم نقصها وعدم استحقاتها للعبودية، فقال:
 ﴿إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَوتُنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا﴾: تحنثونها، وتخلقونها بأيديكم، وتخلقون لها أسماء الآلهة، وتختلقون
 الكذب بالأمر بعبادتها والتمسك بذلك. ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾: في نقصه وأنه ليس فيه ما يدعو إلى عبادته،
 ﴿لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا﴾: فكانه قيل: قد بان لنا أن هذه الأوتان مخلوقة ناقصة لا تملك نفعاً ولا ضرراً ولا موتاً ولا حياة
 ولا نشوراً، وأن من هذا وصفه لا يستحق أدنى أدنى مثقال مثقال ذرة من العبادة والتأله، والقلوب لا بد أن تطلب
 معبوداً تألهه وتسأله حوائجها. فقال حاثاً لهم على من يستحق العبادة: ﴿فَابْتَغُوا عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ﴾: فإنه هو الميسر له المقدر
 المجيب لدعوة من دعاه لمصالح دينه ودنياه، ﴿وَاعْبُدُوهُ﴾: وحده لا شريك له؛ لكونه الكامل النافع الضار المتفرد بالتدبير،
 ﴿وَاشْكُرُوا لَهُ﴾: وحده؛ لكون جميع ما وصل ويصل إلى الخلق من النعم فمنه، وجميع ما اندفع ويندفع من النقم عنهم؛
 فهو الدافع لها. ﴿إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ ٢١: فيجازيكم على ما علمتم، وينبئكم بما أسررتم وأعلنتم؛ فاحذروا القوم عليه وأنتم
 على شرككم، وارغبوا فيما يقربكم إليه ويثيبكم عند القوم عليه.

﴿١٩﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ﴿١٩﴾ يوم القيامة. ﴿٢٠﴾ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢١﴾؛ كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧].

﴿٢٠﴾ قُلْ: ﴿لهم إن حصل معهم ريب وشك في الابتداء: ﴿سِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾: بأبدانكم وقلوبكم، ﴿فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ﴾: فإنكم ستجدون أمما من الادميين والحيوانات لا تزال توجد شيئا فشيئا، وتجدون النبات والأشجار كيف تحدث وقتا بعد وقت، وتجدون السحاب والرياح ونحوها مستمرة في تجدها، بل الخلق دائما في بدء وإعادة؛ فانظر إليهم وقت موتهم الصغرى - النوم؛ وقد هجم عليهم الليل بظلامه، فسكنت منهم الحركات، وانقطعت منهم الأصوات، وصاروا في فرشهم ومأواهم كالميتين، ثم إنهم لم يزالوا على ذلك طول ليلهم حتى انفلق الإصباح، فانتبهوا من رقدتهم، وبعثوا من موتهم؛ قائلين: الحمد لله الذي أحيانا بعدما أماتنا وإليه النشور. ولهذا قال: ﴿ثُمَّ اللَّهُ﴾: بعد الإعادة ﴿يُبْشِرُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ﴾: وهي النشأة التي لا تقبل موتا ولا نومًا، وإنما هو الخلود والدوام في إحدى الدارين. ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾: فقدرته تعالى لا يعجزها شيء، وكما قدر بها على ابتداء الخلق؛ فقدرته على الإعادة من باب أولى وأحرى.

﴿٢١﴾ ﴿يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَنْ يَشَاءُ﴾؛ أي: هو المنفرد بالحكم الجزائي، وهو إثابة الطائعين ورحمتهم، وتعذيب العصاة والتنكيل بهم، ﴿وَالِلَّهِ تُقْلُبُونَ﴾: أي: ترجعون إلى الدار التي بها تجري عليكم أحكام عذابه ورحمته، فاكسبوا في هذه الدار ما هو من أسباب رحمته من الطاعات، وابتعدوا من أسباب عذابه وهو المعاصي.

﴿٢٢﴾ ﴿وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾؛ أي: يا هؤلاء المكذبون المتجربون على المعاصي! لا تحسبوا أنه مغفول عنكم أو أنكم معجزون لله في الأرض ولا في السماء؛ فلا تغرنكم قدرتكم وما زينت لكم أنفسكم وخذعتكم من النجاة من عذاب الله، فلستم بمعجزين الله في جميع أقطار العالم، ﴿وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ﴾: يتولاكم فيحصل لكم مصالح دينكم ودنياكم. ﴿وَلَا تَصْبِرْ﴾: ينصركم فيدفع عنكم المكاره.

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ أُولَٰئِكَ يَكُونُوا مِنْ رَحْمَتِي وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ﴿٢٣﴾.

﴿٢٣﴾ يخبر تعالى من هم الذين زال عنهم الخير وحصل لهم الشر، وأنهم الذين كفروا به وبرسله وبما جاءهم به، وكذبوا بقاء الله، فليس عندهم إلا الدنيا؛ فلذلك أقدموا على ما أقدموا عليه من الشرك والمعاصي؛ لأنه ليس في قلوبهم ما يخوفهم من عاقبة ذلك، ولهذا قال: ﴿أُولَٰئِكَ يَكُونُوا مِنْ رَحْمَتِي﴾؛ أي: فلذلك لم يعملوا سببًا واحدًا يحصلون به الرحمة، وإلا؛ فلو طمعوا في رحمته؛ لعملوا لذلك أعمالًا.

والإياس من رحمة الله من أعظم المحاذير، وهو نوعان: إياس الكفار منها وتركهم جميع سبب يقرهم منها. وإياس العصاة بسبب كثرة جناباتهم أو حشنتهم فملكت قلوبهم، فأحدث لها الإياس. ﴿وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾: أي: مؤلم موجه.

وكان هذه الآيات معترضات بين كلام إبراهيم لقومه وردهم عليه، والله أعلم بذلك.

﴿فَمَا كَانَتْ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَتَقُولُونَ أَوْ حَرْفُهُ فَأَجَبَهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ ﴿٢٤﴾ وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَنًا مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَيَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ تَنْصِيرٍ﴾ ﴿٢٥﴾.

﴿٢٤﴾ أي: فما كان مجاوبة قوم إبراهيم لإبراهيم حين دعاهم إلى ربه بقبول دعوته والاهتداء بنصحه ورؤية نعمة الله عليهم بإرساله إليهم، وإنما كان مجاوبتهم له شر مجاوبة، ﴿قَالُوا أَتَقُولُونَ أَوْ حَرْفُهُ﴾: أشنع القتلات، وهم أناس مقتدرون، لهم السلطان، فألقوه في النار، ﴿فَأَجَبَهُ اللَّهُ﴾: منها. ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾: فيعلمون صحة ما جاءت به الرسل وبرهم ونصحهم وبطلان قول من خالفهم وناقضهم، وأن المعارضين للرسل كأنهم تواصلوا وحث بعضهم بعضًا على التكذيب.

﴿٢٥﴾ وَقَالَ: ﴿لهم إبراهيم في جملة ما قاله من نصحه: ﴿إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَنًا مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾؛ أي: غاية ذلك مودة في الدنيا ستقطع

وَتَضْمَحِلُ، ﴿ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ يَبْعَثُ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا﴾؛ أي: يتبرأ كل من العابدين والمعبودين من الآخر، ﴿وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ﴾ [الاحقاف: ٦]؛ فكيف تتعلقون بمن يعلم أنه سيتبرأ من عابديه، ويلعنهم. وأن ماوى الجميع العابدين والمعبودين ﴿النَّارُ﴾: وليس أحد ينصرهم من عذاب الله، ولا يدفع عنهم عقابه.

﴿فَأَمَّنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾.

﴿٢٦﴾ أي: لم يزل إبراهيم عليه الصلاة والسلام يدعو قومه، وهم مستمررون على عنادهم؛ إلا أنه آمن له بدعوته لوط الذي نبأه الله وأرسله إلى قومه كما سيأتي ذكره، ﴿وَقَالَ﴾: إبراهيم حين رأى أن دعوة قومه لا تنفيدهم شيئاً: ﴿إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي﴾؛ أي: هاجر أرض السوء، ومهاجر إلى الأرض المباركة، وهي الشام. ﴿إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ﴾؛ أي: الذي له القوة، وهو يقدر على هدايتكم، ولكنه حكيم، ما اقتضت حكمته ذلك.

ولما اعتزلهم وفارقهم وهم بحالهم؛ لم يذكر الله عنهم أنه أهلكتهم بعذاب، بل ذكر اعتزاله إياهم وهجرته من بين أظهرهم، فأما ما يذكر في الإسرائيليات أن الله تعالى فتح على قومه باب البعوض، فشرب دماءهم، وأكل لحومهم، وأتلفهم عن آخرهم؛ فهذا يتوقف الجزم به على الدليل الشرعي، ولم يوجد؛ فلو كان الله استأصلهم بالعذاب؛ لذكره كما ذكر إهلاك الأمم المكذبة، ولكن هل من أسرار ذلك أن الخليل عليه السلام من أرحم الخلق وأفضلهم وأحلمهم وأجلهم؛ فلم يدع على قومه كما دعا غيره، ولم يكن الله ليجزى بسببه عذاباً عاماً؟ ومما يدل على ذلك أنه راجع الملائكة في إهلاك قوم لوط، وجادلهم، ودافع عنهم، وهم ليسوا قومه. والله أعلم بالحال.

﴿٢٧﴾ ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾؛ أي: بعدما هاجر إلى الشام، ﴿وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ﴾: فلم يأت بعده نبي إلا من ذريته، ولا نزل كتاب إلا على ذريته، حتى ختموا بابنه محمد ﷺ وعليهم أجمعين. وهذا من أعظم المناقب والمفاخر، أن تكون مواد الهداية والرحمة والسعادة والفلاح والفوز في ذريته، وعلى أيديهم اهتدى المهتدون، وآمن المؤمنون، وصلاح الصالحون، ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا﴾: من الزوجة الجميلة فائقة الجمال، والرزق الواسع، والأولاد الذين بهم قرت عينه، ومعرفة الله ومحبة والإجابة إليه. ﴿وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ ﴿٢٧﴾: بل هو ومحمد صلى الله عليهما وسلم أفضل الصالحين على الإطلاق وأعلاهم منزلة. فجمع الله له بين سعادة الدنيا والآخرة.

﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَأَنْتُنَّ أَلْفَحِشَّةٌ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿٢٨﴾ أَيْنَكُمْ لَأَنْتُنَّ الرِّجَالُ وَتَقَطُّعُونَ الشَّيْبَ لَتَأْتُونَ فِي كَادِيكُمْ الْمُنْكَرُ فَمَا كَانَتْ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَتَيْنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ ﴿٢٩﴾ قَالَ رَبِّ انصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ ﴿٣٠﴾ إلى آخر القصة.

تقدم أن لوطاً عليه السلام آمن لإبراهيم وصار من المهتدين به، وقد ذكروا أنه ليس من ذرية إبراهيم، وإنما هو ابن أخي إبراهيم؛ فقله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ﴾: وإن كان عاماً؛ فلا يناقض كون لوط نبياً رسولاً، وهو ليس من

ذريته؛ لأن الآية جيء بها لسياق المدح والثناء على الخليل، وقد أخبر أن لوطاً اهتدى على يديه، ومن اهتدى على يديه؛ أكمل ممن اهتدى من ذريته بالنسبة إلى فضيلة الهادي. والله أعلم.

﴿٢٨﴾، ﴿٢٩﴾ فأرسل الله لوطاً إلى قومه، وكانوا مع شركهم قد جمعوا بين فعل الفاحشة في الذكور وتقطيع السبيل وفشو المنكرات في مجالسهم، فنصحهم لوط عن هذه الأمور، وبين لهم قبائحها في نفسها وما تنول إليه من العقوبة البليغة، فلم يرعوا ولم يذكروا. ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا اقْتُلْنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ ﴿٢٩﴾.

﴿٣٠﴾ - ﴿٣١﴾ فأليس منهم نبیهم، وعلم استحقاقهم العذاب، وجزع من شدة تكذيبهم له، فدعا عليهم، و﴿قَالَ رَبِّ انصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ﴾ ﴿٣١﴾. فاستجاب الله دعاءه، فأرسل الملائكة لإهلاكهم، فمروا بإبراهيم قبل ذلك، وبشروه بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب، ثم سألهم إبراهيم: أين يريدون؟ فأخبروه أنهم يريدون إهلاك قوم لوط، فجعل يراجعهم ويقول: ﴿إِنَّ فِيهَا لُوطًا﴾، فقالوا له: ﴿لَنُجِيبَنَّهٗ وَأَهْلَهُ إِلَّا أَمْرَاتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَافِرِينَ﴾ ﴿٣٢﴾. ثم مضوا حتى أتوا لوطاً، فساء مجيئهم، وضاق بهم ذرعاً؛ بحيث إنه لم يعرفهم، وظن أنهم من جملة أبناء السبيل الضيوف، فخاف

عليهم من قومه، فقالوا له: ﴿لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ﴾. وأخبروه أنهم رسل الله، ﴿إِنَّا مُنْجُوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا أَمْرَانِكَ كَانَتْ مِنَ الْغَافِرِينَ﴾ ﴿٣٣﴾. إِنَّا مُنْزِلُونَ عَلَى أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا؛ أي: عذاباً ﴿مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ ﴿٣٤﴾. فأمروه أن يسري بأهله ليلاً، فلما أصبحوا؛ قلب الله عليهم ديارهم، فجعل عاليها سافلها، وأمطر عليهم حجارة من سجيل متتابعة حتى أبادتهم وأهلكتهم فصاروا سمرًا من الأسمار وعبرة من العبر. ﴿وَلَقَدْ تَرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ ﴿٣٥﴾. أي: تركنا من ديار قوم لوط آثاراً بينة لقوم يعقلون العبر بقلوبهم فيستغفون بها؛ كما قال تعالى: ﴿وَأَنْذَرْتُ لَكُمْ أَنْفُسَكُمْ﴾ ﴿٣٦﴾. ﴿وَالصَّافَاتُ: ١٣٧، ١٣٨﴾.

﴿وَالِى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَنْقُومِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ ﴿٣٧﴾. فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّحْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جِثِيمًا﴾ ﴿٣٨﴾.

﴿٣٩﴾، ﴿٤٠﴾ أي: وأرسلنا إلى ﴿مَدْيَنَ﴾: القبيلة المعروفة المشهورة ﴿شُعَيْبًا﴾: فأمرهم بعبادة الله وحده لا شريك له، والإيمان بالبعث ورجائه والعمل له، ونهاهم عن الإفساد في الأرض ببخس المكايل والموازين والسعي بقطع الطرق. ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾: فأخذهم عذاب الله، ﴿فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جِثِيمًا﴾ ﴿٤١﴾.

﴿وَعَادًا وَثَمُودًا وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَسْكَنِهِمْ وَرَبِّكَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ﴾ ﴿٤٢﴾. وَقُرُونٌ وَهَمَزٌ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَاقِينَ﴾ ﴿٤٣﴾. فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ ﴿٤٤﴾.

الجزء العشرون سورة العنكبوت وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبَشَرِ قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلَ هَذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانَُوا ظَالِمِينَ ﴿٢٨﴾ قَالَ إِنَّكَ فِيهَا لُوطٌ قَالُوا تَحَرَّبْ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا لَنُجِيبَنَّهٗ وَأَهْلَهُ إِلَّا أَمْرَاتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَافِرِينَ ﴿٢٩﴾ وَلَمَّا أَنْ جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيقَهُمْ وَصَافَكَ بِهِمْ ذُرْعًا وَقَالُوا لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنْجُوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا أَمْرَانِكَ كَانَتْ مِنَ الْغَافِرِينَ ﴿٣٠﴾ إِنَّا مُنْزِلُونَ عَلَى أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿٣١﴾ وَلَقَدْ تَرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٣٢﴾ وَلِى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَنْقُومِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٣٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّحْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جِثِيمًا ﴿٣٤﴾ وَعَادًا وَثَمُودًا وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَسْكَنِهِمْ وَرَبِّكَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ ﴿٣٥﴾

سورة العنكبوت

الجزء العشرون

وَقُرُونٌ وَفِرْعَوْنٌ وَهَنُتٌ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مُوسَى
بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ
﴿٢٨﴾ فَكَلَّا أَخَذْنَا بِذُنُوبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا
وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ
الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ
وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٢٩﴾ مَثَلُ الَّذِينَ
اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنَكَبُوتِ
أَتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَرَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنَكَبُوتِ
لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُدْعَوْنَ مِنْ
دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٣١﴾ وَتِلْكَ
الْأَمْثَلُ نُصْرَتُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ
﴿٣٢﴾ خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنَّ فِي ذَلِكَ
لَآيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٣﴾ أَتُلَى مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ
وَأَقْرَأَ الصَّلَاةَ وَإِذَا الصَّلَاةُ تَنَهَّيْتَ عَنِ الْفَحْشَاءِ
وَالنَّكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴿٣٤﴾

٤٠١

﴿٢٨﴾ أي: وكذلك ما فعلنا بعاد وثمود، وقد علمت قصصهم، وتبين لكم بشيء تشاهدونه بأبصاركم من مساكنهم وآثارهم التي بانوا عنها، وقد جاءتهم رسلهم بالآيات البينات المفيدة للبصيرة، فكذبوهم وجادلوهم، وزين لهم الشيطان عملهم، حتى ظنوا أنه أفضل مما جاءتهم به الرسل.

﴿٢٩﴾ وكذلك قارون وفرعون وهامان، حين بعث الله إليهم موسى بن عمران بالآيات البينات، والبراهين الساطعات، فلم ينقادوا، واستكبروا في الأرض على عباد الله فأذلوهم، وعلى الحق فردوه فلم يقدرُوا على النجاء حين نزلت بهم العقوبة. ﴿٣٠﴾ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ ﴿٣١﴾: الله ولا فائتين، بل سلموا واستسلموا.

﴿٣٢﴾ فَكَلَّا: من هؤلاء الأمم المكذبة ﴿أَخَذْنَا بِذُنُوبِهِ﴾: على قدره وبعبقورية مناسبة له، ﴿فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا﴾: أي: عذابًا يحصبهم تقوم عاد حين أرسل الله عليهم الريح العقيم و﴿سَحَرَهَا عَلَيْهِمْ سَمَّ بَالٍ وَتَمِينَةَ آيَاتٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أُعِجَابُ غُلٍّ حَاوِيَةٍ﴾ [الحاقة: ٧]، ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ﴾: تقوم صالح، ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ﴾: كفارون، ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا﴾: كفرعون وهامان وجنودهما. ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ﴾: أي: ما ينبغي ولا يليق به تعالى أن يظلمهم لكمال عدله وغناه التام عن جميع الخلق، ﴿وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾: ﴿٣٣﴾: منعوها حقها التي هي بصدده؛ فإنها مخلوقة لعبادة الله وحده؛ فهؤلاء وضعوها في غير موضعها، وشغلوها بالشهوات والمعاصي، فضرروها غاية الضرر من حيث ظنوا أنهم ينفعونها.

﴿مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنَكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَرَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنَكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ ﴿٣٠﴾ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُدْعَوْنَ مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٣١﴾ وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نُصْرَتُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ ﴿٣٢﴾.

﴿٣١﴾ هذا مثل ضربه الله لمن عبد معه غيره يقصد به التعزز والتقوي والنفع، وأن الأمر بخلاف مقصوده؛ فإن مثله كمثل العنكبوت اتخذت بيتًا يقيها من الحر والبرد والآفات، ﴿وَإِنَّ أَوْهَرَ الْبُيُوتِ﴾: أضعفها وأوهاها ﴿لَبَيْتُ الْعَنَكَبُوتِ﴾: فالعنكبوت من الحيوانات الضعيفة، وبيتها من أضعف البيوت؛ فما ازدادت باتخاذها إلا ضعفًا.

كذلك هؤلاء الذين يتخذون من دونه أولياء فقراء عاجزون من جميع الوجوه، وحين اتخذوا الأولياء من دونه يتعززون بهم ويستنصرونهم؛ ازدادوا ضعفًا إلى ضعفهم ووهنًا إلى وهنهم؛ فإنهم اتكلوا عليهم في كثير من مصالحهم، وألقوا عليها، وتخلفوا هم عنها؛ على أن أولئك سيقومون بها، فخذلوهم، فلم يحصلوا منهم على طائل، ولا أنالوهم من معونتهم أقل نائل؛ فلو كانوا يعلمون حقيقة العلم حالهم وحال من اتخذوهم؛ لم يتخذوهم، ولتبرءوا منهم، ولتولوا الرب القادر الرحيم، الذي إذا تولا عبده وتوكل عليه؛ كفاه مثونة دينه ودنياه، وازداد قوة إلى قوته في قلبه وبدنه وحاله وأعماله.

﴿٣٢﴾ ولما بين نهاية ضعف آلهة المشركين؛ ارتقى من هذا إلى ما هو أبلغ منه، وأنها ليست بشيء، بل هي مجرد أسماء سموها وظنون اعتقدوها، وعند التحقيق يتبين للعاقل بطلانها وعدمها، ولهذا قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُدْعَوْنَ مِنْ دُونِهِ مِنْ

لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٤﴾: على كثير من المطالب الإيمانية، إذا تدبرها المؤمن؛ رأى ذلك فيها عياناً.

﴿أَتَلَّ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقْرَبَ الصَّلَاةِ وَأَنَّى الصَّلَاةِ تَنَهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴿٤٥﴾﴾.

﴿٤٥﴾ يأمر تعالى بتلاوة وحيه وتنزيله، وهو هذا الكتاب العظيم، ومعنى تلاوته: اتباعه بامثال ما يأمر به واجتناب ما ينهى عنه، والاهتداء بهداه، وتصديق أخباره، وتدبر معانيه، وتلاوة ألفاظه. فصار تلاوة لفظه جزء المعنى وبعضه، وإذا كان هذا معنى تلاوة الكتاب؛ علم أن إقامة الدين كله داخله في تلاوة الكتاب، فيكون قوله: ﴿وَأَقْرَبَ الصَّلَاةِ﴾: من باب عطف الخاص على العام؛ لفضل الصلاة وشرفها وآثارها الجميلة، وهي: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنَهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾: فالفحشاء كل ما استعظم واستفحش من المعاصي التي تشتهيها النفوس، والمنكر كل معصية تنكرها العقول والنفوس.

ووجه كون الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر: أن العبد المقيم لها المتمم لأركانها وشروطها وخشوعها يستنير قلبه ويتطهر فؤاده ويزداد إيمانه وتقوى رغبته في الخير وتقل أو تعدم رغبته في الشر؛ فبالضرورة مداومتها، والمحافظة عليها على هذا الوجه تنهى عن الفحشاء والمنكر؛ فهذا من أعظم مقاصد الصلاة وثمراتها.

وثم في الصلاة مقصود أعظم من هذا وأكبر، وهو ما اشتملت عليه من ذكر الله بالقلب واللسان والبدن؛ فإن الله تعالى إنما خلق الخلق لعبادته، وأفضل عبادة تقع منهم الصلاة، وفيها من عبادات الجوارح كلها ما ليس في غيرها، ولهذا قال: ﴿وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾: ويحتمل أنه لما أمر بالصلاة ومدحها؛ أخبر أن ذكره تعالى خارج الصلاة أكبر من الصلاة؛ كما هو قول جمهور المفسرين، لكن الأول أولى؛ لأن الصلاة أفضل من الذكر خارجها، ولأنها - كما تقدم - بنفسها من أكبر الذكر. ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴿٤٥﴾﴾: من خير وشر، فيجازيكم على ذلك أكمل الجزاء وأوفاه.

﴿وَلَا تَجِدُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا يَأْتِيهِمْ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأَنْزَلَ إِلَيْنَا وَاللَّهُمَّ وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿٤٦﴾﴾.

نَوْءٍ: أي: إنه تعالى يعلم - وهو عالم الغيب والشهادة - أنهم ما يدعون من دون الله شيئاً موجوداً ولا إلهاً له حقيقة؛ كقوله تعالى: ﴿إِنَّ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءُ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَابَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ﴾ [النجم: ٢٣]، وقوله: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ﴾ [يونس: ٦٦]. ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾: الذي له القوة جميعاً، التي قهر بها جميع الخلق. ﴿الْحَكِيمُ﴾: الذي يضع الأشياء مواضعها، الذي أحسن كل شيء خلقه وأتقن ما أمره.

﴿٤٦﴾ وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ؛ أي: لأجلهم ولانتفاعهم وتعليمهم؛ لكونها من الطرق الموضحة للعلوم؛ لأنها تقرب الأمور المعقولة بالأمور المحسوسة، فيتضح المعنى المطلوب بسببها؛ فهي مصلحة لعموم الناس. ولكن ما ﴿يَعْقِلُهَا﴾: لفهمها وتدبرها وتطبيقها على ما ضرت له وعقلها في القلب ﴿إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾ ﴿٤٦﴾: أي: إلا أهل العلم الحقيقي، الذين وصل العلم إلى قلوبهم. وهذا مدح للأمثال التي يضرِبها، وحث على تدبرها وتعقلها، ومدح لمن يعقلها، وأنه عنوان على أنه من أهل العلم، فعلم أن من لم يعقلها ليس من العالمين.

والسبب في ذلك أن الأمثال التي يضرِبها الله في القرآن إنما هي للأمور الكبار والمطالب العالية والمسائل الجلية، فأهل العلم يعرفون أنها أهم من غيرها؛ لاعتناء الله بها، وحثه عباده على تعقلها وتدبرها، فيبذلون جهدهم في معرفتها، وأما من لم يعقلها مع أهميتها؛ فإن ذلك دليل على أنه ليس من أهل العلم؛ لأنه إذا لم يعرف المسائل المهمة، فعدم معرفته غيرها من باب أولى وأحرى، ولهذا أكثر ما يضرِب الله الأمثال في أصول الدين ونحوها.

﴿خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾﴾.

﴿٤٧﴾ أي: هو تعالى المنفرد بخلق السماوات على علوها وارتفاعها وسعتها وحسنها وما فيها من الشمس والقمر والكواكب والملائكة والأرض وما فيها من الجبال والبحار والبراري والقفار والأشجار ونحوها، وكل ذلك خلقه بالحق؛ أي: لم يخلقها عبثاً ولا سدى ولا لغير فائدة، وإنما خلقها ليقوم أمره وشرعه، ولتتم نعمته على عباده، وليروا من حكمته وقهره وتدبيره ما يدلهم على أنه وحده معبودهم ومحبوبهم وإلههم. ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً

(٤٦)

ينهى تعالى عن مجادلة أهل الكتاب إذا كانت عن غير بصيرة من المجادل أو بغير قاعدة مرضية، وألا يجادلوا إلا بالتي هي أحسن؛ بحسن خلق ولطف ولين كلام ودعوة إلى الحق وتحسينه، ورد عن الباطل وتهجينه بأقرب طريق موصل لذلك، وألا يكون القصد منها مجرد المجادلة والمغالبة وحب العلو، بل يكون القصد بيان الحق وهداية الخلق، ﴿إِلَّا﴾: من ظلم من أهل الكتاب؛ بأن ظهر من قصده وحاله أنه لا إرادة له في الحق، وإنما يجادل على وجه المشاغبة والمغالبة؛ فهذا لا فائدة في جداله؛ لأن المقصود منها ضائع، ﴿وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَالْهَذَا الَّذِي كُنْتُمْ تُجَادِلُونَ﴾: أي: ولتكن مجادلتكم لأهل الكتاب مبنية على الإيمان بما أنزل إليكم وأنزل إليهم، وعلى الإيمان برسولكم ورسولهم، وعلى أن الإله واحد، ولا تكن مناظرتكم إياهم على وجه يحصل به القدح في شيء من الكتب الإلهية أو بأحد من الرسل كما يفعله الجهلة عند مناظرة الخصوم يقدر بجميع ما معهم من حق وباطل؛ فهذا ظلم وخروج عن الواجب وآداب النظر؛ فإن الواجب أن يرد ما مع الخصم من الباطل، ويقبل ما معه من الحق، ولا يرد الحق لأجل قوله، ولو كان كافراً.

وأيضاً؛ فإن بناء مناظرة أهل الكتاب على هذا الطريق فيه إلزام لهم بالإقرار بالقرآن وبالرسول الذي جاء به؛ فإنه إذا تكلم في الأصول الدينية والتي اتفقت عليها الأنبياء والكتب وتقررت عند المتناظرين وثبتت حقائقها عندهما وكانت الكتب السابقة والمرسلون مع القرآن ومحمد ﷺ قد بيّتها، ودلت عليها وأخبرت بها؛ فإنه يلزم التصديق بالكتب كلها والرسول كلهم، وهذا من خصائص الإسلام، فأما أن يقال: نؤمن بما دل عليه الكتاب الفلاني دون الكتاب الفلاني، وهو الحق الذي صدق ما قبله؛ فهذا ظلم وهوى، وهو يرجع إلى قوله بالكذب؛ لأنه إذا كذب القرآن الدال عليها المصدق لما بين يديه من التوراة؛ فإنه مكذب لما زعم أنه به مؤمن. وأيضاً؛ فإن كل طريق تثبت بها نبوة أي نبي كان؛ فإن مثلها وأعظم منها دالة على نبوة محمد ﷺ، وكل شبهة يقدر بها في نبوة محمد ﷺ؛ فإن مثلها أو أعظم منها يمكن توجيهها إلى نبوة غيره؛ فإذا ثبت بطلانها في غيره؛ فثبت بطلانها في حقه ﷺ. وأظهر وأظهر. وقوله: ﴿وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾: أي: منقادون مستسلمون لأمره، ومن آمن به واتخذها إلهاً وآمن بجميع كتبه ورسله واتقاد لله واتباع رسله؛ فهو السعيد، ومن انحرف عن هذا الطريق؛ فهو الشقي.

﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ فَالَّذِينَ ءَانَيْتَهُمُ الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمِنْ هَؤُلَاءِ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الْكَافِرُونَ﴾ (٤٧) وَمَا كُنْتَ تَسْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كُتُبٍ وَلَا تَحْطُهُ بِسَمِينِكَ إِذَا لَزَأْتَ رِجَالَهُ الْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾.

(٤٧) أي: ﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ﴾: هذا ﷻ، يا محمد، ﴿الْكِتَابَ﴾: الكريم، المبين كل نبأ عظيم، الداعي إلى كل خلق فاضل وأمر كامل، المصدق للكتب السابقة، المخبر به الأنبياء الأقدمون، ﴿فَالَّذِينَ ءَانَيْتَهُمُ الْكِتَابَ﴾: فعرفوه حق معرفته ولم يداخلهم حسد وهوى، ﴿يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾: لأنهم يتقنوا صدقه بما لديهم من الموافقات، وبما عندهم من البشارات، وبما تميزوا به من معرفة الحسن والقيح والصدق والكذب. ﴿وَمِنْ هَؤُلَاءِ﴾: الموجودين ﴿مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ﴾: إيماناً عن بصيرة لا عن رغبة ولا رهبة، ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الْكَافِرُونَ﴾ (٤٨): الذين دأبهم الجحود للحق والعناد له، وهذا حصر لمن كفر به؛ أنه لا يكون من أحد قصده متابعة الحق، وإلا؛ فكل من له قصد صحيح؛ فإنه لا بد أن يؤمن به؛ لما اشتمل عليه من البينات لكل من له عقل أو ألقى السمع وهو شهيد. ومما يدل على صحته أنه جاء به هذا النبي الأمين، الذي عرف قومه صدقه وأمانته

سورة العنكبوت

الْمُتَزَلِّينَ وَالْمُتَزَلِّينَ

﴿وَلَا تَجْعَلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بَآئِنًا هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَالْهَذَا الَّذِي كُنْتُمْ تُجَادِلُونَ﴾ (٤٦) ﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ فَالَّذِينَ ءَانَيْتَهُمُ الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمِنْ هَؤُلَاءِ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الْكَافِرُونَ﴾ (٤٧) ﴿وَمَا كُنْتَ تَسْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كُتُبٍ وَلَا تَحْطُهُ بِسَمِينِكَ إِذَا لَزَأْتَ رِجَالَهُ الْمُبْطِلُونَ﴾ (٤٨) ﴿ءَايَتُ يَنْتُ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ﴾ (٤٩) ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَتٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَتُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ (٥٠) ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (٥١) ﴿قُلْ كَفَى بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيداً يَعْلَمُ مَا فِي السَّمُوتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ (٥٢)

(٤٠٢)

الرسول ﷺ، فإن في ذلك تدبيراً مع الله، وأنه لو كان كذلك، وينبغي أن يكون كذلك، وليس لأحد من الأمر شيء، ولهذا قال: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَلْآنْتُ عِنْدَ اللَّهِ﴾: إن شاء أنزلها أو منعها، ﴿وإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾: وليس لي مرتبة فوق هذه المرتبة. وإذا كان القصد بيان الحق من الباطل؛ فإذا حصل المقصود بأي طريق كان؛ كان اقتراح الآيات المعينات على ذلك ظلمًا وجورًا وتكبرًا على الله وعلى الحق، بل لو قدر أن تنزل تلك الآيات ويكون في قلوبهم أنهم لا يؤمنون بالحق إلا بها؛ كان ذلك ليس بإيمان، وإنما ذلك شيء وافق أهواءهم، فآمنوا لا لأنه حق، بل لتلك الآيات؛ فأي فائدة حصلت في إنزالها على التقدير الفرضي؟

﴿٥١﴾ ولما كان المقصود بيان الحق؛ ذكر تعالى طريقه، فقال: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ﴾: في علمهم بصدقك وصدق ما جئت به، ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾: وهذا كلام مختصر جامع فيه من الآيات البيّنات والدلالات الباهرات شيء كثير؛ فإنه كما تقدم إتيان الرسول به بمجردة وهو أُمي من أكبر الآيات على صدقه، ثم عجزهم عن معارضته وتحديه بإهام آية أخرى، ثم ظهوره وبروزه جهراً علانية يتلى عليهم، ويقال هو من عند الله، قد أظهره الرسول وهو في وقت قل فيه أنصاره وكثر مخالفوه وأعداؤه؛ فلم يخفه، ولم يشن ذلك عزمه، بل صرح به على رؤوس الأشهاد، ونادى به بين الحاضر والباد؛ بأن هذا كلام ربي؛ فهل أحد يقدر على معارضته أو ينطق بمباراته أو يستطيع مجاراته؟! ثم إخباره عن قصص الأولين وأنباء السالفين والغيوب المتقدمة والمتأخرة، مع مطابقته للواقع.

ثم هيمته على الكتب المتقدمة وتصحيحه للصحيح، ونفي ما أدخل فيها من التحريف والتبديل، ثم هدايته لسواء السبيل في أمره ونهيه؛ فما أمر بشيء فقال العقل: ليت لم يأمر به، ولا نهى عن شيء فقال العقل: ليت لم ينه عنه، بل هو مطابق للعدل والميزان والحكمة المعقولة لذوي البصائر والعقول، ثم مسامرة إرشاداته وهداياته وأحكامه لكل حال وكل زمان بحيث لا تصلح الأمور إلا به؛ فجميع ذلك يكفي من أراد تصديق الحق، وعمل على طلب الحق؛ فلا كفى الله من لم يكفه القرآن، ولا شفى الله من لم يشفه الفرقان، ومن اهتدى به واكتفى؛ فإنه رحمة له وخير؛ فلذلك قال: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾: وذلك لما يحصلون فيه من العلم الكثير، والخير الغزير، وتركبة

ومدخله ومخرجه وسائر أحواله، وهو لا يكتب بيده خطأ، بل ولا يقرأ خطأ مكتوباً، فإتيانه به في هذه الحال من أظهر البيّنات القاطعة التي لا تقبل الارتياب أنه من عند الله العزيز الحميد.

﴿٥٢﴾ ولهذا قال: ﴿وَمَا كُنْتَ تَتْلُو﴾: أي: تقرأ ﴿مِنْ قَبْلِهِ﴾: من كتب ولا تحطه، يمينك إذا: لو كنت بهذه الحال ﴿لَازْتَابَ الْمُبْطِلُونَ﴾: فقالوا تعلمه من الكتب السابقة أو استنسخه منها، فأما وقد نزل على قلبك كتاباً جليلاً تحدث به الفصحاء والبلغاء الأعداء الألداء أن يأتوا بمثله أو بسورة من مثله، فعجزوا غاية العجز، بل ولا حدثهم أنفسهم بالمعارضة؛ لعلمهم ببلاغته وفصاحته، وأن كلام أحد من البشر لا يبلغ أن يكون مجارياً له أو على منواله، ولهذا قال:

﴿بَلْ هُوَ آيَاتٌ يَبْنَتْ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ﴾: ﴿٥٣﴾

﴿٥٤﴾ أي: بل هذا القرآن ﴿آيَاتٌ يَبْنَتْ﴾: لا خفيات في صدور الذين أُوتوا العلم: وهم سادة الخلق وعقلاؤهم، وأولو الألباب منهم والكمل منهم، فإذا كان آيات بيّنات في صدور أمثال هؤلاء؛ كانوا حجة على غيرهم، وإنكار غيرهم لا يضر، ولا يكون ذلك إلا ظلمًا، ولهذا قال: ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ﴾: ﴿٥٥﴾ لأنه لا يجحدها إلا جاهل، تكلم بغير علم، ولم يقتد بأهل العلم، وهو متمكن من معرفته على حقيقتها، وإما متجاهل عرف أنه حق فعانده، وعرف صدقه فخالفه.

﴿٥٦﴾ وَقَالُوا لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿٥٧﴾ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةٌ وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾ قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ بَيِّنًا وَبَيِّنَاتٍ شَهِيدًا يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٥٩﴾

﴿٦٠﴾ أي: واعترض هؤلاء الظالمون المكذبون للرسول ولما جاء به، واقترحوا عليه نزول آيات عينوها؛ كقولهم: ﴿وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَنزِلَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوءًا﴾: ﴿٦١﴾ [الإسراء: ٩٠] الآيات، فتعين الآيات ليس عندهم ولا عند

القلوب والأرواح، وتطهير العقائد، وتكميل الأخلاق، والفتوحات الإلهية والأسرار الربانية.

﴿٥٢﴾ قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ بَنِيَّ وَيَنصُرْكُمْ شَهِيدًا ﴿٥٣﴾ فإنا قد استشهدته؛ فإن كنت كاذبًا؛ أحل بي مابه تعتبرون، وإن كان إنما يؤيدني، وينصرنني، ويسر لي الأمور؛ فلتكفكم هذه الشهادة الجليلة من الله؛ فإن وقع في قلوبكم أن شهادته - وأنتم لم تسمعه ولم تروه - لا تكفي دليلًا؛ فإنه ﴿يَعْلَمُ مَا فِي السَّمُوتِ وَالْأَرْضِ﴾ ومن جملة معلوماته حالي وحالكم ومقالي لكم؛ فلو كنت متقولاً عليه مع علمه بذلك وقدرته على عقوبي؛ لكان قدحاً في علمه وقدرته وحكمته؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ نَقُولُ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقْوَالِ﴾ ﴿٥٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴿٥٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴿٥٦﴾ [الحاقة: ٤٤-٤٦]. ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْغَيْبِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ ﴿٥٧﴾ حيث خسروا الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وحيث فاتهم النعيم المقيم، وحيث حصل لهم في مقابلة الحق الصحيح كل باطل قبيح، وفي مقابلة النعيم كل عذاب اليم، فخسروا أنفسهم وأهلهم يوم القيامة.

﴿٥٨﴾ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٩﴾ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿٦٠﴾ يَوْمَ يَغْشَاهُمْ الْعَذَابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٦١﴾

﴿٥٨﴾ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٩﴾ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿٦٠﴾ يَوْمَ يَغْشَاهُمْ الْعَذَابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٦١﴾ يَبْعَادِي الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَسِعَةٌ فَإِنِّي فَاعْبُدُونِ ﴿٦٢﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٦٣﴾ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ غُرًّا فَجَرَىٰ مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نِعَمَ أَجْرَ الْعَامِلِينَ ﴿٦٤﴾ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٦٥﴾ وَكَانَ مِنْ دَائِرَةِ مَا لَنَحْمِلُ فِي رِزْقِهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا إِيَّائَكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٦٦﴾ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَعَرَ النَّفْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴿٦٧﴾ اللَّهُ يَسْطُرُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ إِنَّ اللَّهَ يَكُلُّ شَيْءًا عَلَيْهِ ﴿٦٨﴾ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٩﴾

﴿٦٩﴾ يخبر تعالى عن جهل المكذبين للرسول وما جاء به، وأنهم يقولون استعجالاً للعذاب وزيادة تكذيب: ﴿مَنْ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ ﴿٦٨﴾ [يونس: ٤٨]؟ يقول تعالى: ﴿وَلَوْلَا أَجَلٌ مُّسَمًّى﴾: مضروب لتزوله ولم يأت بعد، ﴿لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ﴾: بسبب تعجزهم لنا وتكذيبهم الحق؛ فلو أخذناهم بجهلهم؛ لكان كلامهم أسرع لبلائهم وعقوبتهم، ولكن مع ذلك؛ فلا يستطيعون نزوله فإنه سيأتيهم ﴿بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ ﴿٦٠﴾ فوق كما أخبر الله تعالى، لما قدموا لبدن بطرين مفاخرين ظانين أنهم قادرون على مقصودهم، فأهانهم الله، وقتل كبارهم، واستوعب جملة أشرارهم، ولم يبق منهم بيت إلا أصابته تلك المصيبة، فاتاهم العذاب من حيث لم يحتسبوا، ونزل بهم وهم لا يشعرون.

﴿٦١﴾ هذا؛ وإن لم ينزل عليهم العذاب الدنيوي؛ فإن أمامهم العذاب الآخروي الذي لا يخلص منهم أحد منه، سواء عوجل بعذاب الدنيا أو أمهل، ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ ﴿٦٢﴾: ليس لهم عنه معدل ولا متصرف؛ قد أحاطت بهم من كل جانب كما أحاطت بهم ذنوبهم وسيئاتهم وكفرهم، وذلك العذاب هو العذاب الشديد.

﴿٦٣﴾ يَوْمَ يَغْشَاهُمْ الْعَذَابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٦٤﴾: فإن أعمالكم انقلبت عليكم عذاباً، وشملكم العذاب كما شملكم الكفر والذنوب.

﴿٦٥﴾ يَبْعَادِي الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَسِعَةٌ فَإِنِّي فَاعْبُدُونِ ﴿٦٦﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٦٧﴾ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ غُرًّا فَجَرَىٰ مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نِعَمَ أَجْرَ الْعَامِلِينَ ﴿٦٨﴾ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٦٩﴾

﴿١١﴾ - ﴿١٣﴾ هذا استدلال على المشركين المكذبين بتوحيد الإلهية والعبادة، وإلزام لهم بما أثبتوه من توحيد الربوبية؛ فأنت لو ﴿سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ؟﴾ ومن نزل من السماء ماء فأحيا به الأرض بعد موتها؟ ومن بيده تدبير جميع الأشياء؟ ﴿لَيَقُولَنَّ اللَّهُ﴾ وحده، ولا يعرفوا بعجز الأوثان ومن عبده مع الله على شيء من ذلك! فاعجب لإفكهم وكذبهم وعدولهم إلى من أقروا بعجزه وأنه لا يستحق أن يدبر شيئاً وسجل عليهم بعدم العقل، وأنهم السفهاء ضعفاء الأحلام! فهل تجد أضعف عقلاً وأقل بصيرة ممن أتى إلى حجر أو قبر ونحوه - وهو يدري أنه لا ينفع ولا يضر ولا يخلق ولا يرزق، ثم صرف له خالص الإخلاص وصافي العبودية، وأشركه مع الرب الخالق الرازق النافع الضار؟! قل: الحمد لله الذي بين الهدى من الضلال، وأوضح بطلان ما عليه المشركون؛ ليحذره الموفقون. قل: الحمد لله الذي خلق العالم العلوي والسفلي، وقام بتدبيرهم ورزقهم، وبسط الرزق على من يشاء، وضيقه على من يشاء حكمة منه، ولعلمه بما يصلح عباده، وما ينبغي لهم.

﴿وَمَا هَذِهِ الْحَيَوةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهُوَ وَلِئِبَّ الْدَّارِ الْآخِرَةُ لَئِي الْحَيَوةِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ ﴿١٤﴾ فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفَلَكِ دَعَاُ اللَّهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الَّذِينَ فَلَمَّا جَسَّهُمْ إِلَى الْآخِرَةِ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿١٥﴾ لِيَكْفُرُوا بِمَا ءَاتَيْنَاهُمْ وَلِيَسْتَمْتَعُوا قُصُوفَ يَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيَخْطَفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفْيَالًا بَاطِلًا يُؤْمِنُونَ وَنِعْمَةَ اللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴿١٧﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ ﴿١٨﴾ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٩﴾

﴿٢٠﴾ يخبر تعالى عن حالة الدنيا والآخرة وفي ضمن ذلك التزهيد في الدنيا والتشويق للآخرة، فقال: ﴿وَمَا هَذِهِ الْحَيَوةُ الدُّنْيَا﴾: في الحقيقة ﴿إِلَّا لَهُوَ وَلِئِبَّ﴾: تلهو بها القلوب، وتلعب بها الأبدان؛ بسبب ما جعل الله فيها من الزينة واللذات والشهوات الخالية للقلوب المعرضة، الباهجة للعيون الغافلة، المفرحة للنفوس المبطللة الباطلة، ثم تزول سريعاً وتتقضي جميعاً ولم يحصل منها محبتها

﴿٥٦﴾ - ﴿٥٨﴾ يقول تعالى: ﴿يَعْبُدُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾: بي وصدقوا رسولي، ﴿إِنَّ أَرْضِي وَسِعَةٌ فَإِنِّي فَاعْبُدُون﴾ ﴿٥٦﴾: فإذا تعذرت عليكم عبادة ربكم في أرض؛ فارتحلوا منها إلى أرض أخرى؛ حيث كانت العبادة لله وحده؛ فأماكن العبادة ومواضعها واسعة، والمعبود واحد، والموت لا بد أن ينزل بكم، ثم ترجعون إلى ربكم، فيجازي من أحسن عبادته وجمع بين الإيمان والعمل الصالح بإنزاله الغرف العالية والمنازل الأنيقة الجامعة، لما تشتهيهِ الأنفس، وتلذ الأعين، وأتم فيها خالدهن. فـ ﴿نَعَمْ﴾ تلك المنازل في جنات النعيم ﴿أَجْرُ الْعَمَلِينَ﴾ ﴿٥٧﴾ لله. ﴿الَّذِينَ صَبَرُوا﴾: على عبادة الله ﴿وَعَلَىٰ رِيحِهِمْ يَبْتَغُونَ﴾ ﴿٥٨﴾: في ذلك، فصبرهم على عبادة الله يقتضي بذل الجهد والطاقة في ذلك، والمحاربة العظيمة للشيطان، الذي يدعوهم إلى الإخلال بشيء من ذلك. وتوكلهم يقتضي شدة اعتمادهم على الله، وحسن ظنهم به أن يحقق ما عزموا عليه من الأعمال ويكملها. ونص على التوكل وإن كان داخلًا في الصبر؛ لأنه يحتاج إليه في كل فعل وترك مأمور به، ولا يتم إلا به.

﴿وَكَاْنٍ مِّن دَابَّةٍ لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ ﴿٥٩﴾

﴿٦٠﴾ أي: الباري تبارك وتعالى قد تكفل بأرزاق الخلائق كلهم قورهم وعاجزهم؛ فكم ﴿مِن دَابَّةٍ﴾ في الأرض ضعيفة القوى، ضعيفة العقل، ﴿لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا﴾: ولا تدخره، بل لم تزل لا شيء معها من الرزق، ولا يزال الله يسخر لها الرزق في كل وقت بوقته. ﴿اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ﴾: فكلكم عيال الله القائم برزقكم كما قام بخلقكم وتدبيركم. ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ ﴿٦١﴾: فلا تخفى عليه خافية، ولا تهلك دابة من عدم الرزق بسبب أنها خافية عليه؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ ﴿٦٢﴾ ﴿هود: ٦١﴾.

﴿٦٣﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولَنَّ اللَّهُ فَآَنِي يُؤْفِكُونَ ﴿٦٤﴾ اللَّهُ يَسْطُرُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ إِنَّ اللَّهَ يَكُلُ شَيْءٍ عَلَيْهِ ﴿٦٥﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولَنَّ اللَّهُ فَلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٦﴾

إلا على الندم والحسرة والخسران. وأما الدار الآخرة؛ فإنها دار ﴿الْحَيَوَانِ﴾؛ أي: الحياة الكاملة، التي من لوازمها أن تكون أبدان أهلها في غاية القوة، وقواهم في غاية الشدة؛ لأنها أبدان وقوى خلقت للحياة، وأن يكون موجوداً فيها كل ما تكمل به الحياة، وتتم به اللذة من مفرحات القلوب وشهوات الأبدان من المأكّل والمشارب والمناكح وغير ذلك، مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ (٦٦): لَمَّا آثَرُوا الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ، وَلَوْ كَانُوا يَعْقِلُونَ؛ لَمَا رَغِبُوا عَنْ دَارِ الْحَيَوَانِ، وَرَغِبُوا فِي دَارِ اللّٰهُوِّ وَاللَّعِبِ. فدل ذلك: أن الذين يعلمون لا بد أن يؤثروا الآخرة على الدنيا؛ لما يعلمونه من حالة الدارين.

﴿٦٥﴾ ثم ألزم تعالى المشركين بإخلاصهم لله في حال الشدة عند ركوب البحر وتلاطم أمواجه وخوفهم الهلاك؛ يتركون إذا أندادهم، ويخلصون الدعاء لله وحده لا شريك له، فلما زالت عنهم الشدة، ونجى من أخلصوا له الدعاء إلى البر - أشركوا به من لا نجاهم من شدة، ولا أزال عنهم مشقة؛ فهلا أخلصوا لله الدعاء في حال الرخاء والشدة واليسر والعسر؛ ليكونوا مؤمنين به حقاً، مستحقين

ثوابه، مندفعاً عنهم عقابه، ولكن شرّكهم هذا بعد نعمتنا عليهم بالنجاة من البحر ليكون عاقبته كفر ما آتيناهم، ومقابلة النعمة بالإساءة، وليكملوا تمتعهم في الدنيا، الذي هو كتمتع الأنعام، ليس لهم هم إلا بطونهم وفروجهم. ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ (٦٧): حين ينتقلون من الدنيا إلى الآخرة شدة الأسف وأليم العقوبة.

﴿٦٧﴾ ثم امتن عليهم بحرمة الأمن، وأنهم أهله في أمن وسعة ورزق، والناس من حولهم يتخطفون ويخافون، أفلا يعبدون الذي أطعمهم من جوع وأمنهم من خوف؟ ﴿أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ﴾: وهو ما هم عليه من الشرك والأقوال والأفعال الباطلة، ﴿وَيَعْبُدُونَ اللَّهَ﴾: هم ﴿يَكْفُرُونَ﴾؟ فأين ذهبت عقولهم، وانسلخت أحلامهم حيث آثروا الضلال على الهدى، والباطل على الحق والشقاء على السعادة، وحيث كانوا أظلم الخلق؟!

﴿٦٨﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا؟: فنسب ما هو عليه من الضلال والباطل إلى الله، ﴿أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ﴾: على يد رسوله محمد ﷺ، ولكن هذا الظالم العنيد أمامه جهنم، ﴿الَّذِينَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ﴾ (٦٨): يؤخذ بها منهم الحق، ويخزون بها، وتكون منزلهم الدائم الذي لا يخرجون منه؟

﴿٦٩﴾ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا: وهم الذين هاجروا في سبيل الله وجاهدوا أعداءهم وبذلوا مجهودهم في اتباع مرضاته؛ ﴿لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾؛ أي: الطرق الموصلة إلينا، وذلك لأنهم محسنون. ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ (٦٩): بالعون والنصر والهداية.

سورة العنكبوت

وَمَا هَذِهِ الْحَيَوةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِىَ الْحَيَوَانِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٦٥﴾ فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلِكِ دَعَاُ اللَّهِ مُخْلِصِينَ لَهُ الَّذِينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٦﴾ لِيَكْفُرُوا بِمَا ءَاتَيْنَاهُمْ وَلِيَسْتَمْنَعُوا فُسُوقَ يَعْلَمُونَ ﴿٦٧﴾ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُخَاطَفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَيَنْعِمَ اللَّهُ يَكْفُرُونَ ﴿٦٨﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ؟ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ ﴿٦٩﴾ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٧٠﴾

سُورَةُ الْعَنْكَبُوتِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْم ١ غُلَيْتِ الرُّومُ ٢ فِي آدَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَيْهِمْ سَيَقْلِبُونَ ٣ فِي بَضْعِ سِنِينَ ٤ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ٥ بِنَصْرِ اللَّهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ٦

٤٠٤

دل هذا على أن أخرى الناس بموافقة الصواب أهل الجهاد، وعلى أن من أحسن فيما أمر به؛ أعانه الله ويسر له أسباب الهداية، وعلى أن من جد واجتهد في طلب العلم الشرعي؛ فإنه يحصل له من الهداية والمعونة على تحصيل مطلوبه أمور إلهية خارجة عن مدرّك اجتهداده، وتيسر له أمر العلم؛ فإن طلب العلم الشرعي من الجهاد في سبيل الله، بل هو أحد نوعي

الجهاد، الذي لا يقوم به إلا خواص الخلق، وهو الجهاد بالقول واللسان للكفار والمنافقين، والجهاد على تعليم أمور الدين وعلى رد نزاع المخالفين للحق، ولو كانوا من المسلمين.

تم تفسير سورة العنكبوت - بحمد الله وعونه.



تفسير سورة الروم

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الْعَلَّامُ الْغُيُوبُ﴾ ١ غُلِبَتِ الرُّومُ ٢ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلِبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ٣ فِي بَضْعِ سِنِينَ ٤ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ٥ بِنَصْرِ اللَّهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ٦ وَعَدَ اللَّهُ لَا يَخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ٧ يَعْلَمُونَ ظَهْرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ ٨

١ - ٨ كانت الفرس والروم في ذلك الوقت من أقوى دول الأرض، وكان يكون بينهما من الحروب والقتال ما يكون بين الدول المتوازنة، وكانت الفرس مشركين يعبدون النار، وكانت الروم أهل كتاب يتسبون إلى التوراة والإنجيل، وهم أقرب إلى المسلمين من الفرس، فكان المؤمنون يحبون غلبتهم وظهورهم على الفرس، وكان المشركون لا يشتركونهم والفرس في الشرك يحبون ظهور الفرس على الروم، فظهر الفرس على الروم وغلبوهم غلبًا لم يحط بملكهم، بل بأدنى أرضهم، ففرح بذلك مشركو مكة وحزن المسلمون، فأخبرهم الله، ووعدهم أن الروم ستغلب الفرس ﴿فِي بَضْعِ سِنِينَ﴾: تسع أو ثمان ونحو ذلك مما لا يزيد على العشر ولا ينقص عن الثلاث، وأن غلبة الفرس للروم ثم غلبة الروم للفرس كل ذلك بمشيئته وقدره، ولهذا قال: ﴿لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ﴾: فليس الغلبة والنصر لمجرد وجود الأسباب، وإنما هي لا بد أن يقترب بها القضاء والقدر.

﴿وَيَوْمَئِذٍ﴾: أي: يوم يغلب الروم الفرس ويقهروهم، ﴿يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ﴾ ١ يَنْصُرُ اللَّهُ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ ٢: أي: يفرحون بانتصارهم على الفرس، وإن كان الجميع كفارًا، ولكن بعض الشر أهون من بعض، ويحزن يومئذ المشركون. ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾: الذي له العزة التي قهر بها الخلائق أجمعين، يؤتي الملك من يشاء، وينزع الملك ممن يشاء، ويعز من يشاء ويذل من يشاء. ﴿الرَّحِيمُ﴾ ٣: بعباده المؤمنين؛ حيث قيض لهم من الأسباب التي تسعدهم وتنصرهم ما لا يدخل في الحساب.

٤ ﴿وَعَدَ اللَّهُ لَا يَخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ﴾: فتيقنوا ذلك، واجزموا به، واعلموا أنه لا بد من وقوعه. فلما نزلت هذه الآيات التي فيها هذا الوعد؛ صدق بها المسلمون، وكفر بها المشركون، حتى تراهن بعض المسلمين وبعض المشركين على مدة سنين عینوها، فلما جاء الأجل الذي ضربه الله؛ انتصر الروم على الفرس، وأجلوهم من بلادهم التي أخذوها منهم، وتحقق وعد الله. وهذا من الأمور الغيبية التي أخبر بها الله قبل وقوعها ووجدت في زمان من أخبرهم الله بها من المسلمين والمشركين. ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ٦: أن ما وعد الله به حق؛ فلذلك يوجد فريق منهم يكذبون بوعد، ويكذبون آياته.

٧ وهؤلاء الذين لا يعلمون؛ أي: لا يعلمون بواطن الأشياء وعواقبها، وإنما ﴿يَعْلَمُونَ ظَهْرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾: فينظرون إلى الأسباب، ويجزمون بوقوع الأمر الذي في رأيهم انعقدت أسباب وجوده، ويتيقنون عدم الأمر الذي لم يشاهدوا له من الأسباب المقتضية لوجوده شيئًا؛ فهم واقفون مع الأسباب، غير ناظرين إلى مسببها المتصرف فيها. ﴿وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾ ٨: قد توجهت قلوبهم وأهواؤهم وإراداتهم إلى الدنيا وشهواتها وحطامها؛ فعملت لها وسعت وأقبلت بها وأدبرت، وغفلت عن الآخرة؛ فلا الجنة تشاق إليها، ولا النار تخافها وتخشاها، ولا المقام بين يدي الله ولقائه يروعها ويزعجها، وهذا علامة الشقاء، وعنوانه الغفلة عن الآخرة.

ومن العجب أن هذا القسم من الناس قد بلغت بكثير منهم الفطنة والذكاء في ظاهر الدنيا إلى أمر يحير العقول ويدهش الألباب، وأظهروا من العجائب الذرية والكهربائية والمراكب البرية والبحرية والهوائية ما فاقوا

سورة الروم

الرسالة الثانية

وَعَدَ اللَّهُ لِمَنْ خَلِفَ اللَّهَ وَعَدَهُ. وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ

﴿٦﴾ يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَفْلُونَ

﴿٧﴾ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ

وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِأَلْحَقٍ وَأَجَلٍ مُّسَعًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ

بِلِقَآئِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ ﴿٨﴾ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا

كَيْفَ كَانَ عَقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً

وَأَنَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ

رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُظْلَمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا

أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾ ثُمَّ كَانَ عَقِبَةُ الَّذِينَ اسْتَرَأَوْا الشُّرَاقِبَ

أَن كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ ﴿١٠﴾ اللَّهُ

يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾ وَيَوْمَ نَقُومُ

السَّاعَةِ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ ﴿١٢﴾ وَلَمْ يَكُنْ لَهُم مِّنْ شُرَكَائِهِمْ

شُفَعَاءُ وَكَانُوا بِشُرَكَائِهِمْ كَافِرِينَ ﴿١٣﴾ وَيَوْمَ

نَقُومُ السَّاعَةِ يُومِذُ بِنَفَرٍ قُوتٍ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا

وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْحَةٍ يُحْبَرُونَ ﴿١٥﴾

٤٠٥

به، وبرزوا وأعجبوا بقولهم، ورأوا غيرهم عاجزاً عما أقدرهم الله عليه، فنظروا إليهم بعين الاحتقار والازدراء، وهم مع ذلك أبلد الناس في أمر دينهم، وأشدهم غفلة عن آخرتهم، وأقلهم معرفة بالعواقب. قد رأهم أهل البصائر النافذة في جهلهم يتخطون، وفي ضلالهم يعمهون، وفي باطلهم يترددون، نسوا الله فأنساهم أنفسهم، أولئك هم الفاسقون، ثم نظروا إلى ما أعطاهم الله وأقدرهم عليه من الأفكار الدقيقة في الدنيا وظاهرها، و[ما] حرموا من العقل العالي، فعرفوا أن الأمر لله والحكم له في عباده، وإن هو إلا توفيقه أو خذلانه، فخافوا ربهم وسألوه أن يتم لهم ما وهبهم من نور العقول والإيمان حتى يصلوا إليه ويحلوا بساحته. وهذه الأمور لو قارنها الإيمان وبنيت عليه؛ لأثمرت الرقي العالي والحياة الطيبة، ولكنها لما بني كثير منها على الإلحاد؛ لم تثمر إلا هبوط الأخلاق وأسباب الفناء والتدمير.

﴿٦﴾ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِأَلْحَقٍ وَأَجَلٍ مُّسَعًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَآئِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ ﴿٨﴾ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَنَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُظْلَمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾ ثُمَّ كَانَ عَقِبَةُ الَّذِينَ اسْتَرَأَوْا الشُّرَاقِبَ أَن كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ ﴿١٠﴾

﴿١١﴾ وَيَوْمَ نَقُومُ السَّاعَةِ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ ﴿١٢﴾ وَلَمْ يَكُنْ لَهُم مِّنْ شُرَكَائِهِمْ شُفَعَاءُ وَكَانُوا بِشُرَكَائِهِمْ كَافِرِينَ ﴿١٣﴾ وَيَوْمَ نَقُومُ السَّاعَةِ يُومِذُ بِنَفَرٍ قُوتٍ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْحَةٍ يُحْبَرُونَ ﴿١٥﴾

﴿٨﴾ أي: أفلم يتفكر هؤلاء المكذبون لرسول الله ولقائه ﴿٦﴾ في أنفسهم؟ فإن في أنفسهم آيات يعرفون بها أن الذي أوجدهم من العدم سيعيدهم بعد ذلك، وأن الذي تقلهم أطواراً من نطفة إلى علقة إلى مضغة إلى آدمي قد نفخ فيه الروح إلى طفل إلى شاب إلى شيخ إلى هرم غير لائق أن يتركهم سدى مهملين. لا ينهون، ولا يؤمرون، ولا يثابون، ولا يعاقبون. ﴿٨﴾ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِأَلْحَقٍ؟ أي: ليلوكم أيكم أحسن عملاً، ﴿٨﴾ وَأَجَلٍ مُّسَعًّى؟ أي: مؤقت بقاؤهما إلى أجل تنقضي به الدنيا وتجيء القيامة، وتبدل الأرض غير الأرض والسموات. ﴿٨﴾ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَآئِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ ﴿٨﴾: فلذلك لم يستعدوا للقاءه، ولم يصدقوا رسله التي أخبرت به.

﴿٩﴾ وهذا الكفر عن غير دليل، بل الأدلة القاطعة دلت على البعث والجزاء، ولهذا نبههم على السير في الأرض والنظر في عاقبة الذين كذبوا رسلهم وخالفوا أمرهم ممن هم أشد من هؤلاء قوَّةً وأكثر آثاراً في الأرض من بناء قصور ومصانع ومن غرس أشجار ومن زرع وإجراء أنهار، فلم تغن عنهم قوتهم، ولا نفعتهم آثارهم حين كذبوا رسلهم الذين جاءهم بالبينات الدالات على الحق وصحة ما جاءهم به؛ فإنهم حين ينظرون في آثار أولئك؛ لم يجدوا إلا أمماً بائدة، وخلفاً مهلكين، ومنازل بعدهم موحشة. وذم من الخلق عليهم متتابع، وهذا جزاء معجل نموذج للجزاء الأخروي ومبتدأ له؛ وكل هذه الأمم المهلكة لم يظلمهم الله بذلك الإهلاك، وإنما ظلّموا أنفسهم وتسببوا في هلاكها.

﴿١٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَقِبَهُ الَّذِينَ اسْتَوُوا؛ أَي: المسيئين ﴿الشَّوْءَ﴾؛ أَي: الحالة السيئة الشنيعة، وصار ذلك داعياً لهم لأن ﴿كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ﴾ ﴿١٨﴾؛ فهذا عقوبة لسوءهم وذنوبهم، ثم ذلك الاستهزاء والتكذيب يكون سبباً لأعظم العقوبات وأعضل المثالات.

﴿اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ ﴿١٩﴾ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ مِنْ شُرَكَائِهِمْ شُفَعَاتٌ وَكَانُوا بِشُرَكَائِهِمْ كَافِرِينَ ﴿٢١﴾ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُومِّدُ بِقُرْطُوبٍ ﴿٢٢﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ﴿٢٣﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ فَأُولَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿٢٤﴾.

﴿١٧﴾ - ﴿٢٤﴾ يخبر تعالى أنه المتفرد بإبداء المخلوقات، ثم يعيدهم. ثم إليه يرجعون بعد إعادتهم ليجازيهم بأعمالهم. ولهذا ذكر جزاء أهل الشر ثم جزاء أهل الخير، فقال: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ﴾: ويقوم الناس لرب العالمين، ويرون القيامة عياناً، يومئذ ﴿يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ﴾ ﴿٢٠﴾؛ أي: يباسون من كل خير، وذلك أنهم ما قدموا لذلك اليوم إلا الإجمام، وهي الذنوب من كفر وشرك ومعاصي، فلما قدموا أسباب العقاب، ولم يخلطوها بشيء من أسباب الثواب؛ أيسوا، وأبلسوا، وأفلسوا، وضل عنهم ما كانوا يفترونه من نفع شركائهم وأنهم يشفعون لهم، ولهذا قال: ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ مِنْ شُرَكَائِهِمْ شُفَعَاتٌ﴾: التي عبدوها مع الله ﴿شُفَعَاتٌ﴾ وَكَانُوا بِشُرَكَائِهِمْ كَافِرِينَ ﴿٢١﴾. تبارأ المشركون ممن أشركوهم مع الله، وتبارأ المعبودون وقالوا: ﴿تَبَرَأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ﴾ ﴿٢٢﴾ [الفصل: ٦٣]، والتعنوا وابتعدوا.

﴿١٩﴾ - ﴿٢٤﴾ وفي ذلك اليوم يفترق أهل الخير والشر كما افترت أعمالهم في الدنيا. ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾: آمنوا بقلوبهم وصدقوا ذلك بالأعمال الصالحة ﴿فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ﴾: فيها سائر أنواع النبات وأصناف المشتريات ﴿يُحْبَرُونَ﴾ ﴿٢٣﴾؛ أي: يسرون، وينعمون بالمآكل اللذيذة والأشربة والحدود الحسان والخدم والولدان والأصوات المطربات والسماع المشجي والمناظر العجيبة والروائح الطيبة والفرح والسرور واللذة والحبور، مما لا يقدر أحد أن يصفه. ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا﴾: وجحدوا نعمه، وقابلوها بالكفر، ﴿وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾: التي جاءتهم بها رسلنا ﴿فَأُولَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ﴾ ﴿٢٤﴾؛ فيه، قد أحاطت بهم جهنم من جميع جهاتهم، واطلع العذاب الأليم على أفئدتهم، وشوى الحميم وجوههم، وقطع أمعاءهم؛ فأين الفرق بين الفريقين؟! وأين التساوي بين المتعممين والمعتدين!؟

﴿فَسُبْحَنَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ﴾ ﴿٢٥﴾ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴿٢٦﴾ يُخْرِجُ الْغَيَّ مِنَ الْغَيْبِ وَيُخْرِجُ اللَّيْلَ مِنَ النَّهْرِ وَيُخْرِجُ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿٢٧﴾.

﴿٢٥﴾، ﴿٢٦﴾ هذا إخبار عن تنزهه عن السوء والنقص وتقده عن أن يماثله أحد من الخلق، وأمر للعباد أن يسبحوه حين يمسون، وحين يصبحون، ووقت العشي ووقت الظهيرة؛ فهذه الأوقات الخمسة أوقات الصلوات الخمس، أمر الله عباده بالتسبيح فيها والحمد، ويدخل في ذلك الواجب منه؛ كالمشتملة عليه الصلوات الخمس، والمستحب؛ كآذكار الصباح والمساء وأدبار الصلوات وما يقترب بها من النوافل؛ لأن هذه الأوقات التي اختارها الله لأوقات المفروضات هي أفضل الأوقات؛ فالتسبيح

سورة الروم
وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ فَأُولَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿١٧﴾ فَسُبْحَنَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿١٨﴾ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴿١٩﴾ يُخْرِجُ الْغَيَّ مِنَ الْغَيْبِ وَيُخْرِجُ اللَّيْلَ مِنَ النَّهْرِ وَيُخْرِجُ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿٢٠﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ ﴿٢١﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٢﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَخِلْقَ الْبُنْيَانِ وَالْزُكْرَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالَمِينَ ﴿٢٣﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاءُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٤﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمْ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُخْرِجُ بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٥﴾

يَنْفَكُرُونَ ﴿٢١﴾: يُعْمَلُونَ أَفْكَارَهُمْ، وَيَتَدَبَّرُونَ آيَاتِ اللَّهِ، وَيَتَنَقَّلُونَ مِنْ شَيْءٍ إِلَى شَيْءٍ.

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَخْلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَالْوَنَائِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالَمِينَ﴾ ﴿٢٢﴾.

﴿٢٢﴾ والعالَمون: هم أهل العلم الذين يفهمون العبر ويتدبرون الآيات، والآيات في ذلك كثيرة: فمن آيات خلق السماوات والأرض وما فيها؛ أن ذلك دال على عظمة سلطان الله وكمال اقتداره، الذي أوجد هذه المخلوقات العظيمة، وكمال حكمته؛ لما فيها من الإتقان، وسعة علمه؛ لأن الخالق لا بد أن يعلم ما خلقه؛ ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ﴾ [الملك: ١٤]، وعموم رحمته وفضله؛ لما في ذلك من المنافع الجليلة، وأنه المريد الذي يختار ما يشاء؛ لما فيها من التخصيصات والمزايا، وأنه وحده الذي يستحق أن يعبد ويوحده؛ لأنه المنفرد بالخلق؛ فيجب أن يفرد بالعبادة.

فكل هذه أدلة عقلية نبه الله العقول إليها، وأمرها بالتفكير واستخراج العبرة منها، وكذلك في اختلاف ﴿أَلْسِنَتِكُمْ وَالْوَنَائِكُمْ﴾: على كثرتكم وتباينكم مع أن الأصل واحد ومخارج الحروف واحدة، ومع ذلك؛ لا تجد صوتين متفقين من كل وجه، ولا لونين متشابهين من كل وجه؛ إلا وتجد من الفرق بين ذلك ما به يحصل التمييز.

وهذا دال على كمال قدرته ونفوذ مشيئته و﴿من﴾ عنايته بعباده ورحمته بهم، أن قدر ذلك الاختلاف؛ لثلا يقع التشابه، فيحصل الاضطراب، ويفوت كثير من المقاصد والمطالب.

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ ﴿٢٣﴾.

﴿٢٣﴾ أي: سماع تدبر وتعقل للمعاني والآيات في ذلك؛ إن ذلك دليل على رحمة الله تعالى؛ كما قال: ﴿وَمِنْ رَحْمَتِي جَعَلْتُ لَكُمْ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ، وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [القصص: ٧٣]، وعلى تمام حكمته؛ إذ حكمته اقتضت سكون الخلق في وقت ليستريحوا به ويستجموا، وانتشارهم في وقت لمصالحهم الدينية والدنيوية، ولا يتم ذلك إلا بتعاقب الليل والنهار عليهم، والمنفرد بذلك هو المستحق للعبادة.

والتحميد فيها والعبادة فيها أفضل من غيرها، بل العبادة وإن لم تشمل على قول: سبحانه الله؛ فإن الإخلاص فيها تنزيه لله بالفعل أن يكون له شريك في العبادة، أو أن يستحق أحد من الخلق ما يستحقه من الإخلاص والإنابة.

﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ﴾: كما يخرج النبات من الأرض الميتة، والسنبلة من الحبة، والشجرة من النواة، والفرخ من البيضة، والمؤمن من الكافر، ونحو ذلك. ﴿وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ﴾: بعكس المذكور، ﴿وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾: فينزل عليها المطر وهي ميتة هامدة؛ فإذا أنزل عليها الماء؛ اهتزت، وربت، وأنبتت من كل زوج بهيج. ﴿وَكَذَلِكَ نُخْرِجُكَ﴾ ﴿١٩﴾: من قبوركم.

فهذا دليل قاطع وبرهان ساطع أن الذي أحيا الأرض بعد موتها فإنه يحيي الأموات؛ فلا فرق في نظر العقل بين الأمرين، ولا موجب لاستبعاد أحدهما مع مشاهدة الآخر.

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ﴾ ﴿٢٠﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَفْكُرُونَ﴾ ﴿٢١﴾.

﴿٢٠﴾ هذا شروع في تعداد آياته الدالة على انفرادة بالإلهية وكمال عظمته ونفوذ مشيئته وقوة اقتداره وجميل صنعه وسعة رحمته وإحسانه، فقال: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ﴾: وذلك بخلق أصل النسل آدم عليه السلام، ﴿ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ﴾ ﴿٢١﴾؛ [أي: الذي خلقكم من أصل واحد ومادة واحدة]، ويثكم في أقطار الأرض وأرجائها.

ففي ذلك آيات على أن الذي أنشأكم من هذا الأصل، ويثكم في أقطار الأرض هو الرب المعبود الملك المحمود والرحيم الودود، الذي سيعيدكم بالبعث بعد الموت.

﴿٢١﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ: الدالة على رحمته وعنايته بعباده وحكمته العظيمة وعلمه المحيط، ﴿أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا﴾: تناسبكم، وتناسبونهم، وتشاكلكم، وتشاكلونهم؛ ﴿لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾: بما رتب على الزواج من الأسباب الجالبة للمودة والرحمة، فحصل بالزوجة الاستمتاع واللذة والمنفعة بوجود الأولاد وتربيتهم والسكون إليها؛ فلا تجد بين أحد في الغالب مثل ما بين الزوجين من المودة والرحمة. ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمْ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُخْرِجُ بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ (٢٤).

﴿٢٤﴾ أي: ومن آياته أن ينزل عليكم المطر الذي تحيا به البلاد والعباد، ويريكهم قبل نزوله مقدماته من الرعد والبرق الذي يخاف ويطمع فيه. ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ﴾: دالة على عموم إحسانه وسعة علمه وكمال إقنانه وعظم حكيمته، وأنه يحيي الموتى، كما أحيا الأرض بعد موتها، ﴿لَقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ (٢٤)؛ أي: لهم عقول تعقل بها ما تسمعه وتراه وتحفظه، وتستدل به على ما جعل دليلاً عليه.

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ مِنْ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ﴾ (٢٥) ﴿وَلَهُ مِنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلِّ لَهٗ فَنَيْنُونَ﴾ (٢٦) ﴿هُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَتْ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (٢٧).

﴿٢٥﴾ أي: ومن آياته العظيمة أن قامت السماوات والأرض واستقرتا وثبتتا لأمره، فلم يتزلزا، ولم تسقط السماء على الأرض؛ فقد رته العظيمة التي بها أمسك السماوات والأرض؛ أن تزولا؛ يقدر بها على أنه إذا دعا الخلق دعوة من الأرض؛ إذا هم يخرجون. ﴿لَخَلَقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ﴾ [غافر: ٥٧].

﴿٢٦﴾ ﴿وَلَهُ مِنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾: الكل خلقه ومماليكه والمتصرف فيهم من غير منازع ولا معاون ولا معارض، وكلهم قانتون لجلاله، خاضعون لكماله.

﴿٢٧﴾ ﴿هُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ﴾؛ أي: إعادة الخلق بعد موتهم، ﴿أَهْوَتْ عَلَيْهِ﴾: من ابتداء خلقهم، وهذا بالنسبة إلى الأذهان والعقول؛ فإذا كان قادراً على الابتداء الذي تقرون به؛ كانت قدرته على الإعادة التي هي أهون أولى وأولى.

ولما ذكر من الآيات العظيمة ما به يعتبر المعتبرون، ويتذكر المؤمنون، ويستبصر المهتدون؛ ذكر الأمر العظيم والمطلب الكبير، فقال: ﴿وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾: وهو كل صفة كمال، والكمال من تلك الصفة، والمحبة والإنابة التامة الكاملة في قلوب عباده المخلصين والذكر الجليل والعبادة منهم؛ فالمثل الأعلى هو وصفه الأعلى وما ترتب عليه، ولهذا كان أهل العلم يستعملون في حق الباري قياس الأولى، فيقولون: كل صفة كمال في المخلوقات؛ فخالقها أحق بالانصاف بها على وجه لا يشاركه فيها أحد، وكل نقص في المخلوق ينزه عنه؛ فتزبه الخالق عنه من باب أولى وأحرى. ﴿هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (٢٧)؛ أي: له العزة الكاملة والحكمة الواسعة، فعزته أوجد بها المخلوقات وأظهر المأمورات، وحكمته أقرن بها ما صنعه وأحسن فيها ما شرعه.

﴿ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِنْ أَنْفُسِكُمْ هَلْ لَكُمْ مِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ (٢٨) ﴿بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَنْ يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾ (٢٩).

سورة الروم
وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ ﴿٢٥﴾ وَلَهُ مِنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلِّ لَهٗ فَنَيْنُونَ ﴿٢٦﴾ وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَتْ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾ ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِنْ أَنْفُسِكُمْ هَلْ لَكُمْ مِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَنْ يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ﴿٢٩﴾ حِينَئِذٍ فَطَرَتْ اللَّهُ أَلْفَىٰ فَطَرَ النَّاسَ عَلَيَّ لَا يَبْدِلُ لِحَاقِي اللَّهُ ذَلِكَ الْبَرِثُ الْقَيُّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾ مِنَ الَّذِينَ قَرَأُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا سَهِيًا كُلَّ حَرْبٍ يَمَّا لَدَيْهِمْ فَيَرْجِعُونَ

وَأَقِمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾ مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِعْبًا كُلَّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٣٢﴾

﴿٣١﴾ يأمر تعالى بالإخلاص له في جميع الأحوال وإقامة دينه، فقال: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ﴾ أي: انصب وجهه ﴿لِلدِّينِ﴾ الذي هو الإسلام والإيمان والإحسان، بأن توجه بقلبك وقصدك وبذلك إلى إقامة شرائع الدين الظاهرة كالصلاة والزكاة والصوم والحج ونحوها، وشرائعه الباطنة كالمحبة والخوف والرجاء والإنابة، والإحسان في الشرائع الظاهرة والباطنة؛ بأن تعبد الله فيها كأنك تراه؛ فإن لم تكن تراه؛ فإنه يراك.

وخص الله إقامة الوجه؛ لأن إقبال الوجه تبع لإقبال القلب، ويترتب على الأمرين سعي البدن، ولهذا قال: ﴿حَنِيفًا﴾ أي: مقبلًا على الله في ذلك معرضًا عما سواه، وهذا الأمر الذي أمرناك به هو ﴿فَطَرَتِ اللَّهُ إِلَهِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾: ووضع في عقولهم حسننها واستقباح غيرها؛ فإن جميع أحكام الشرع الظاهرة والباطنة قد وضع الله في قلوب الخلق كلهم الميل إليها، فوضع في قلوبهم محبة الحق وإيثار الحق، وهذا حقيقة الفطرة. ومن خرج عن هذا الأصل؛ فلعارض عرض لفطرته أفسدها؛ كما قال النبي ﷺ: «كل مولود يولد على الفطرة؛ فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه»^(١). ﴿لَا يَبْدِيلُ لِحَالِي اللَّهُ﴾ أي: لا أحد يبدل خلق الله فيجعل المخلوق على غير الوضع الذي وضعه الله. ﴿ذَلِكَ﴾ الذي أمرناك به ﴿الَّذِي تَلَقَّيْتُ إِلَهِي﴾ أي: الطريق المستقيم الموصل إلى الله وإلى كرامته؛ فإن من أقام وجهه للدين حنيفًا؛ فإنه سالك الصراط المستقيم في جميع شرائعه وطرقه، ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ﴿٣٢﴾ فلا يتعرفون الدين القيم، وإن عرفوه؛ لم يسلكوه.

﴿٣٢﴾ ﴿مُتَّبِعِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ﴾: وهذا تفسير لإقامة الوجه للدين؛ فإن الإنابة إجابة القلب وانجذاب دواعيه لمراضي الله تعالى، ويلزم من ذلك عمل البدن بمقتضى ما في القلب، فشمل ذلك العبادات الظاهرة والباطنة، ولا يتم ذلك إلا بترك المعاصي الظاهرة والباطنة؛ فلذلك قال: ﴿وَاتَّقُوهُ﴾؛ فهذا يشمل فعل المأمورات وترك المنهيات، وخص من المأمورات الصلاة لكونها تدعو إلى الإنابة والتقوى لقوله

(١) البخاري (١٣٥٩)، مسلم (٢٦٥٨).

﴿٣١﴾ هذا مثل ضربه الله لقبح الشرك وتهجينه، مثلًا من أنفسكم لا يحتاج إلى حل وترحال وإعمال الجمال. ﴿هَلْ لَكُمْ مِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْتُمْ﴾ أي: هل أحد من عبيدكم وإمائكم الأرقاء يشارككم في رزقكم، وترون أنكم وهم فيه على حد سواء. ﴿تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ﴾ أي: كالأحرار الشركاء في الحقيقة، الذين يخاف من قسمه واختصاص كل شيء بحاله؟! ليس الأمر كذلك؛ فإنه ليس أحد مما ملكت أيمانكم شريكًا لكم فيما رزقكم الله تعالى، هذا؛ ولستم الذين خلقتهم ورزقتهم، وهم أيضًا مماليك مثلكم؛ فكيف ترضون أن تجعلوا لله شريكًا من خلقه، وتجعلونه بمنزلة وعديلا له في العبادة، وأنتم لا ترضون مساواة مماليككم لكم؟! هذا من أعجب الأشياء، ومن أدل شيء على سفه من اتخذ شريكًا مع الله، وأن ما اتخذ به باطل مضمحل، ليس مساويًا لله ولا له من العبادة شيء. ﴿كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ﴾ بتوضيحها بأمثلتها ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ ﴿٣٢﴾ الحقائق ويعرفون. وأما من لا يعقل؛ فلو فصلت له الآيات وبينت له البينات؛ لم يكن له عقل يصبر به ما تبين، ولا لب يعقل به ما توضح؛ فأهل العقول والألباب هم الذين يساق إليهم الكلام، ويوجه الخطاب.

﴿٣٢﴾ وإذا علم من هذا المثال أن من اتخذ من دون الله شريكًا يعبد ويتوكل عليه في أموره؛ فإنه ليس معه من الحق شيء؛ فما الذي أوجب لهم الإقدام على أمر باطل توضح بطلانه وظهر برهانه؟ لقد أوجب لهم ذلك اتباع الهوى، فهذا قال: ﴿بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾: هويت أنفسهم الناقصة التي ظهر من نقصها ما تعلق به هواها أمرًا يجزم العقل بفساده والفطر برده بغير علم دلهم عليه ولا برهان قادهم إليه، ﴿فَمَنْ يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ﴾ أي: لا تعجبوا من عدم هدايتهم؛ فإن الله تعالى أضلهم بظلمهم، ولا طريق لهداية من أضل الله؛ لأنه ليس أحد معارضًا لله أو منازعًا له في ملكه، ﴿وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾ ﴿٣٣﴾ ينصرونهم حين تحقق عليهم كلمة العذاب، وتنقطع بهم الوصل والأسباب.

﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتِ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا يَبْدِيلُ لِحَالِي اللَّهُ ذَلِكَ الَّذِي تَلَقَّيْتُ إِلَهِي﴾

سورة الروم

سورة الروم

وَإِذَا مَسَّ النَّاسُ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُمْ مُبِينِينَ إِلَيْهِ شَرُّ إِذَا أَذَقَهُمْ
رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٣٢﴾ لِيَكْفُرُوا بِمَا
ءَاتَيْنَاهُمْ فَتَمْتَعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾ أَمْ أَتَيْنَا عَلَيْهِمْ
سُلْطَانًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ ﴿٣٤﴾ وَإِذَا أَذَقْنَا
النَّاسَ رَحْمَةً فَظَلُّوا بِهَا وَيَنْصِبُ لَهُمْ سِنِينَ إِمَامًا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ
إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ﴿٣٥﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ
وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣٦﴾ فَكَذَّبَ الَّذِينَ
كَفَرُوا وَالْمُشْرِكِينَ وَابْنِ السَّبِيلِ ذَلِكَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُرِيدُونَ
وَجْهَ اللَّهِ وَأَوَّلِيكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٣٧﴾ وَمَا آتَيْنَاهُمْ مِنْ رَبِّنا
لِيُزَيِّنُوا فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَزَيِّنُوا عِنْدَ اللَّهِ وَمَا آتَيْنَاهُمْ مِنْ زَكَاةٍ
تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضْغَعُونَ ﴿٣٨﴾ اللَّهُ الَّذِي
خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِنْ
شُرَكَائِكُمْ مَن يَفْعَلُ مِنْ ذَلِكَ مِثْلَ شَيْءٍ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى
عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣٩﴾ ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ مَا كَسَبَتْ
أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤٠﴾

٤٠٨

تعالى: ﴿وَأَقْبِرَ الصَّلَاةَ إِنَّكَ الصَّلَاةُ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ
وَالْمُنْكَرِ﴾: فهذا إيعازها على التقوى، ثم قال: ﴿وَلَذِكْرُ اللَّهِ
أَكْبَرُ﴾ [المنكوت: ٤٥]: فهذا حثها على الإنابة. وخص من
المنهيات أصلها، والذي لا يقبل معه عمل، وهو الشرك،
فقال: ﴿وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ ﴿٣١﴾: لكون الشرك
مضاداً للإنابة التي روحها الإخلاص من كل وجه.

﴿٣٢﴾ ثم ذكر حالة المشركين مهجناً لها ومقبحاً، فقال:
﴿مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ﴾: مع أن الدين واحد، وهو
إخلاص العبادة لله وحده، وهؤلاء المشركون فرقوه: منهم
من يعبد الأوثان والأصنام، ومنهم من يعبد الشمس والقمر،
ومنهم من يعبد الأولياء والصالحين، ومنهم يهود، ومنهم
نصارى، ولهذا قال: ﴿وَكَانُوا شِيعًا﴾؛ أي: كل فرقة من
فرق الشرك تاهت وتعصبت على نصر ما معها من الباطل
ومناذرة غيرهم ومحاربتهم. ﴿كُلٌّ حِزْبٌ بِمَا لَدَيْهِمْ﴾: من
العلوم المخالفة لعلوم الرسل ﴿فَرِحُونَ﴾ ﴿٣٣﴾: به يحكمون
لأنفسهم بأنه الحق وأن غيرهم على باطل.

وفي هذا تحذير للمسلمين من تشبههم وتفرقهم فرقاً، كل
فريق يتعصب لما معه من حق وباطل، فيكونون مشابهيين
بذلك للمشركين في التفرق، بل الدين واحد، والرسول
واحد، والإله واحد، وأكثر الأمور الدينية وقع فيها الإجماع
بين العلماء والأئمة، والأخوة الإيمانية قد عقدها الله وربطها أتم ربط؛ فما بال ذلك كله يلغى ويبنى التفرق والشقاق بين
المسلمين على مسائل خفية أو فروع خلافة يضل بها بعضهم بعضاً ويتميز بها بعضهم عن بعض؟! فهل هذا إلا من أكبر
نزغات الشيطان وأعظم مقاصده التي كاد بها المسلمون؟! وهل السعي في جمع كلمتهم وإزالة ما بينهم من الشقاق المبني
على ذلك الأصل الباطل إلا من أفضل الجهاد في سبيل الله وأفضل الأعمال المقربة إلى الله؟!!

ولما أمر تعالى بالإنابة إليه، وكان المأمور بها هي الإنابة الاختيارية، التي تكون في حال العسر واليسر والسعة والضيق؛
ذكر الإنابة الاضطرارية التي لا تكون مع الإنسان إلا عند ضيقه وكرهه؛ فإذا زال عنه الضيق؛ نبذها وراء ظهره، وهذه غير نافعة،
فقال:

﴿وَإِذَا مَسَّ النَّاسُ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُمْ مُبِينِينَ إِلَيْهِ شَرُّ إِذَا أَذَقَهُمْ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٣٢﴾ لِيَكْفُرُوا بِمَا
ءَاتَيْنَاهُمْ فَتَمْتَعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾ أَمْ أَتَيْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ ﴿٣٤﴾﴾.

﴿٣٢﴾ ﴿وَإِذَا مَسَّ النَّاسُ ضُرٌّ﴾: مرض أو خوف من هلاك ونحوه، ﴿دَعَوْا رَبَّهُمْ مُبِينِينَ إِلَيْهِ﴾: ونسوا ما كانوا به يشركون
في تلك الحال؛ لعلمهم أنه لا يكشف الضر إلا الله، ﴿شَرُّ إِذَا أَذَقَهُمْ رَحْمَةً﴾: شفاهم من مرضهم وآمنهم من خوفهم،
﴿إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ﴾: ينقضون تلك الإنابة التي صدرت منهم، ويشركون به من لا دفع عنهم ولا أغنى، ولا أفقر ولا أغنى، وكل
هذا كفر بما آتاهم الله ومن به عليهم حيث أنجاهم، وأنقذهم من الشدة وأزال عنهم المشقة؛ فهلا قابلوا هذه النعمة الجليلة
بالشكر والدوام على الإخلاص له في جميع الأحوال؟!!

﴿٣٥﴾ ﴿أَمْ أَتَيْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا﴾؛ أي: حجة ظاهرة، ﴿فَهُوَ﴾؛ أي: ذلك السلطان ﴿يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ﴾ ﴿٣٥﴾: ويقول
لهم: اثبتوا على شرككم واستمروا على شككم؛ فإن ما أنتم عليه هو الحق، وما دعتكم الرسل إليه باطل؛ فهل ذلك السلطان

به في غير بلده، الذي في مظنة شدة الحاجة، وأنه لا مال معه ولا كسب قد دبر نفسه به في سفره؛ بخلاف الذي في بلده؛ فإنه وإن لم يكن له مال، لكن لا بد في الغالب أن يكون في حرفة أو صناعة ونحوها تسد حاجته، ولهذا جعل الله في الزكاة حصّة للمسكين وابن السبيل.

﴿ذَلِكَ﴾؛ أي: إيتاء ذي القربى والمسكين وابن السبيل: ﴿خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُرِيدُونَ﴾: بذلك العمل ﴿وَجَهَ اللَّهُ﴾؛ أي: خير غزير وثواب كثير؛ لأنه من أفضل الأعمال الصالحة، والنفع المتعدي الذي وافق محله المقرون به الإخلاص؛ فإن لم يرد به وجه الله؛ لم يكن خيراً للمعطي، وإن كان خيراً ونفعاً للمعطي؛ كما قال تعالى: ﴿لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّنْ نُّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنَ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ﴾ [النساء: ١١٤]؛ مفهومها أن هذه المستثنيات خير؛ لنفعها المتعدي، ولكن من يفعل ذلك ابتغاء مرضاة الله؛ فسوف نؤتيه أجراً عظيماً، وقوله: ﴿وَأُولَئِكَ﴾: الذين عملوا هذه الأعمال وغيرها لوجه الله، ﴿هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [٣٦]؛ الفائزون بثواب الله الناجون من عقابه.

﴿٣٦﴾ ولما ذكر العمل الذي يقصد به وجهه من النفقات؛ ذكر العمل الذي يقصد به مقصد دنيوي، فقال: ﴿وَمَا ءَاتَيْتُم مِّن رَّبِّا لِّرَبِّوَا فِي أَمْوَالِ النَّاسِ﴾؛ أي: ما أعطيتم من أموالكم الزائدة عن حوائجكم، وقصدكم بذلك أن يربو؛ أي: يزيد في أموالكم؛ بأن تعطوها لمن تطمعون أن يعاوضكم عنها بأكثر منها؛ فهذا العمل لا يربو أجره عند الله؛ لكونه معدوم الشرط الذي هو الإخلاص.

ومثل ذلك العمل الذي يراد به الزيادة في الجاه والرياء عند الناس؛ فهذا كله لا يربو عند الله. ﴿وَمَا ءَاتَيْتُم مِّن زَكَاةٍ﴾؛ أي: مال يطهركم من الأخلاق الرذيلة، ويطهر أموالكم من البخل بها، ويزيد في دفع حاجة المعطي؛ ﴿تُرِيدُونَ﴾: بذلك ﴿وَجَهَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ﴾ [٣٦]؛ أي: المضاعف لهم الأجر، الذين تربو نفقاتهم عند الله، ويربها الله لهم، حتى تكون شيئاً كثيراً، ودل قوله: ﴿وَمَا ءَاتَيْتُم مِّن زَكَاةٍ﴾ أن الصدقة مع اضطراب من يتعلق بالمنفق أو مع دين عليه لم يقضه ويُقدّم عليه الصدقة؛ أن ذلك ليس بزيادة يوجب عليه العبد، ويُرَدُّ تصرفه شرعاً؛ كما قال تعالى في الذي يُمدَح: ﴿الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى﴾ [الليل: ١٨]؛ فليس مجرد إيتاء المال خيراً، حتى يكون بهذه الصفة، وهو أن يكون على وجه يتزكى به المؤتي.

موجود عندهم حتى يوجب لهم شدة التمسك بالشرك؟ أم البراهين العقلية والسمعية والكتب السماوية والرسول الكرام وسادات الأنام قد نهوا أشد النهي عن ذلك، وحذروا من سلوك طريقه الموصلة إليه، وحكموا بفساد عقل ودين من ارتكبه؟! فشرّك هؤلاء بغير حجة ولا برهان، وإنما هو أهواء النفوس ونزغات الشيطان.

﴿وَلِإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا وَإِن تُصِيبَهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ﴾ [٣٦] ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِن فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [٣٧].

﴿٣٦﴾، ﴿٣٧﴾ يخبر تعالى عن طبيعة أكثر الناس في حالي الرخاء والشدة أنهم إذا أذاقهم الله منه رحمة من صحة وغنى ونصر ونحو ذلك؛ فرحوا بذلك فرح بطر لا فرح شكر وتبجح بنعمة الله. ﴿وَإِن تُصِيبَهُمْ سَيِّئَةٌ﴾؛ أي: حال تسوء هم، وذلك ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾: من المعاصي، ﴿إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ﴾ [٣٦]؛ يياسون من زوال ذلك الفقر والمرض ونحوه، وهذا جهل منهم وعدم معرفة. ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾: فالقنوط بعدما علم أن الخير والشر من الله والرزق سعة وضيقه من تقديره ضائع ليس له محل؛ فلا تنظر أيها العاقل لمجرد الأسباب، بل اجعل نظرك لمسببها، ولهذا قال: ﴿إِن فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [٣٧]؛ فهم الذين يعتبرون بسط الله لمن يشاء وقبضه، ويعرفون بذلك حكمة الله ورحمته وجوده وجذب القلوب لسؤاله في جميع مطالب الرزق.

﴿فَتَاتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجَهَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [٣٨] ﴿وَمَا ءَاتَيْتُم مِّن رَّبِّا لِّرَبِّوَا فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرَبُّوْا عِنْدَ اللَّهِ وَمَا ءَاتَيْتُم مِّن زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجَهَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ﴾ [٣٩].

﴿٣٨﴾ أي: فأعط القريب منك - على حسب قربه وحاجته - حقه الذي أوجبه الشارع أو حض عليه من النفقة الواجبة والصدقة والهدية والبر والسلام والإكرام والعفو عن زلته والمسامحة عن هفوته، وكذلك آت المسكين الذي أسكنه الفقر والحاجة ما تزيل به حاجته وتدفع به ضرورته من إطعامه وسقيه وكسوته. ﴿وَإِنَّ السَّبِيلَ﴾: الغريب المنقطع

﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُعِيْشُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيْكُمْ هَٰذَا مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذَٰلِكُمْ مِنْ شَيْءٍ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ ٤٠.

﴿٤٠﴾ يخبر تعالى أنه وحده المنفرد بخلقكم ورزقكم وإماتتكم وإحيائكم، وأنه ليس أحد من الشركاء التي يدعوها المشركون من يشارك الله في شيء من هذه الأشياء؛ فكيف يشركون بمن انفرد بهذه الأمور من ليس له تصرف فيها بوجه من الوجوه؟ فسبحانه وتعالى، وتقدس، وتزده، وعلا عن شركهم؛ فلا يضره ذلك، وإنما وباله عليهم.

﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ ٤١.

﴿٤١﴾ أي: استعلن ﴿الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾؛ أي: فساد معاشهم ونقصها وحلول الآفات بها وفي أنفسهم من الأمراض والوباء وغير ذلك، وذلك بسبب ما قدمت أيديهم من الأعمال الفاسدة المفسدة بطبعها. هذه المذكورة، ﴿لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا﴾؛ أي: ليعلموا أنه المجازي على الأعمال، فعجل لهم نموذجاً من جزاء أعمالهم في الدنيا؛ ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ ٤١: عن أعمالهم التي أثرت لهم من الفساد ما أثرت، فتصلح أحوالهم، ويستقيم أمرهم؛ فسبحان

من أنعم بعباده، وتفضل بعقوبته، وإلا؛ فلو أذاقهم جميع ما كسبوا؛ ما ترك على ظهرها من دابة.

﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلُ كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُشْرِكِينَ﴾ ٤٢.

﴿٤٢﴾ والأمر بالسير في الأرض يدخل فيه السير بالأبدان والسير في القلوب للنظر والتأمل بعواقب المتقدمين، ﴿كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُشْرِكِينَ﴾ ٤٢: تجدون عاقبتهم شر العواقب، ومآلهم شر مآل: عذاب استأصلهم، وذم، ولعن من خلق الله يتبعهم، وخزي متواصل؛ فاحذروا أن تفعلوا فعالهم؛ يُحْذِي بكم حذوهم؛ فإن عدل الله وحكمته في كل زمان ومكان.

﴿فَاقْرَأْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ، مِنَ اللَّهِ يَوْمَئِذٍ يُصَدِّعُونَ ﴿٤٣﴾ مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ، وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِأَنْفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ ﴿٤٤﴾ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾ ٤٥.

﴿٤٣﴾ أي: أقبل بقلبك وتوجه بوجهك، واسع بيدك لإقامة الدين القيم المستقيم، فنفذ أوامره ونواهيه بجد واجتهاد، وقم بوظائفه الظاهرة والباطنة، وبادر زمانك وحياتك وشبابك، ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ، مِنَ اللَّهِ﴾ ٤٣: وهو يوم القيامة، الذي إذا جاء؛ لا يمكن رده، ولا يرجأ العاملون ليستأنفوا العمل، بل فرغ من الأعمال، ولم يبق إلا جزاء العمال. ﴿يَوْمَئِذٍ يُصَدِّعُونَ﴾ ٤٣: أي: يتفرقون عن ذلك اليوم، ويصدرون أشتاتاً متفاوتين؛ ليروا أعمالهم.

﴿٤٤﴾ ف ﴿مَنْ كَفَرَ﴾: منهم، ﴿فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ﴾: ويعاقب هو بنفسه، لا تزر وازرة وزر أخرى، ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا﴾: من الحقوق التي لله والتي للعباد الواجبة والمستحبة ﴿فَلِأَنْفُسِهِمْ﴾: لا لغيرهم؛ ﴿يَمْهَدُونَ﴾ ٤٤: أي: يهيئون، ولأنفسهم يعمرن آخرتهم، ويستعدون للفوز بمنازلتها وغرفاتها، ومع ذلك جزاؤهم ليس مقصوراً على أعمالهم، بل يجزيهم الله من فضله الممدود وكرمه غير المحدود ما لا تبلغه أعمالهم، وذلك لأنه أحبهم، وإذا أحب الله عبداً؛ صب عليه الإحسان

سورة الروم

قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلُ كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُشْرِكِينَ ﴿٤٢﴾ فَاقْرَأْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ، مِنَ اللَّهِ يَوْمَئِذٍ يُصَدِّعُونَ ﴿٤٣﴾ مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ، وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِأَنْفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ ﴿٤٤﴾ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ ﴿٤٥﴾ وَمِنْ ءَايَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيحَ مُبَشِّرَاتٍ وَلِيُذِيقَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَلِتَجْرِيَ الْفَلَاحُ بِأَمْرِهِ وَلِتَتَّبِعُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَهَآؤُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَاَنْفَقْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرُمُوا وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ فَتُبْرِجُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسْفًا فَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبِشِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ يُزَلَّ عَلَيْهِمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمُبْلِغِينَ ﴿٤٩﴾ فَانظُرْ إِلَى ءَانْتَرِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُخَيِّ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُخِي الْمَوْتِ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾

﴿اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَّحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا يَبْسُطُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كَيْسًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ ۖ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنْزَلَ عَلَيْهِمْ مِنَ قَبْلِهِ لَمُبْسِيتٍ ﴿٤٩﴾ فَانْظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُخَيِّ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ إِنَّ ذَلِكَ لَمُنْحَى الْمَوْتِ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾﴾

﴿٤٨﴾، ﴿٤٩﴾ يخبر تعالى عن كمال قدرته وتمام نعمته أنه ﴿يُرْسِلُ الرِّيَّحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا﴾: من الأرض، ﴿يَبْسُطُ فِي السَّمَاءِ﴾: أي: يمدّه ويوسعه ﴿كَيْفَ يَشَاءُ﴾: أي: على أي حالة أرادها من ذلك، ثم يجعله؛ أي: ذلك السحاب الواسع ﴿كَيْسًا﴾: أي: سحابًا ثخينًا قد طبّق بعضه فوق بعض. ﴿فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ﴾: أي: السحاب؛ نقطًا صغارًا متفرقة، لا تنزل جميعًا فتفسد ما أتت عليه، ﴿فَإِذَا أَصَابَ بِهِ﴾: أي: بذلك المطر ﴿مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ ﴿٤٨﴾: يبشر بعضهم بعضًا بنزوله، وذلك لشدة حاجتهم وضرورتهم إليه؛ فلهذا قال: ﴿وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنْزَلَ عَلَيْهِمْ مِنَ قَبْلِهِ لَمُبْسِيتٍ﴾ ﴿٤٩﴾: أي: آيسين قاطنين لتأخر وقت مجيئه؛ أي: فلما نزل في تلك الحال؛ صار له موقع عظيم عندهم وفرح واستبشار.

﴿٥٠﴾ فَانْظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُخَيِّ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ فَاهْتَرَتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ۚ ﴿٥١﴾ إِنَّ ذَلِكَ ۖ الَّذِي أَحْيَا الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ لَمُنْحَى الْمَوْتِ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾﴾: فقدّره تعالى لا يتعاصى عليها شيء، وإن تعاصى على قدر خلقه، ودق عن أفهامهم، وحارت فيه عقولهم.

﴿٥١﴾ وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَظَلُّوا مِنْ بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ ﴿٥١﴾ فَإِنَّكَ لَا تَسْمَعُ الْمَوْتَى وَلَا تَسْمَعُ الضُّعْفَ الدُّعَاءَ إِذَا وَلُوا مَدْرَيْنَ ﴿٥٢﴾ وَمَا أَنْتَ بِهَادٍ الْعُمَى عَنْ ضَلَالِهِمْ ۚ إِنَّ تَسْمَعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِتَيْنَانَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ ﴿٥٣﴾﴾

﴿٥١﴾ يخبر تعالى عن حالة الخلق وأنهم مع هذه النعم عليهم بإحياء الأرض بعد موتها ونشر رحمة الله تعالى: لو أرسلنا على هذا النبات الناشئ عن المطر وعلى زروعهم ريحًا مضرّة، متلفة أو منقصة، ﴿فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا﴾: قد تداعى إلى التلف، ﴿لَظَلُّوا مِنْ بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ﴾ ﴿٥١﴾: فينسئون النعم الماضية، ويبادرون إلى الكفر! وهؤلاء لا ينفع فيهم وعظ ولا زجر.

صَبًا، وأجزل له العطايا الفاخرة، وأنعم عليه بالنعم الظاهرة والباطنة، وهذا بخلاف الكافرين؛ فإن الله لما أبغضهم ومقتهم؛ عاقبهم وعذبهم، ولم يزدهم كما زاد من قبلهم؛ فلهذا قال: ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾ ﴿٥٠﴾.

﴿وَمَنْ أَيْنَبَهُ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيَّاحَ مُبَشِّرَاتٍ وَلِيُذِيقَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَلِتَجْرِيَ الْفُلُكُ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلِتُكْذَرُوا ۚ﴾

﴿٤٦﴾ أي: ومن الأدلة الدالة على رحمته وبعثه الموتى وأنه الإله المعبود والملك المحمود، أن أرسل ﴿الرِّيَّاحَ﴾: أمام المطر ﴿مُبَشِّرَاتٍ﴾: بإثارتها للسحاب ثم جمعها، فتبشر بذلك النفوس قبل نزوله، ﴿وَلِيُذِيقَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ﴾: فينزل عليكم مطرًا تحيا به البلاد والعباد وتذوقون من رحمته ما تعرفون أن رحمته هي المنقذة للعباد الجالبة لأرزاقهم، فتشتاقون إلى الإكثار من الأعمال الصالحة الفاتحة لخزائن الرحمة، ﴿وَلِتَجْرِيَ الْفُلُكُ﴾: في البحر ﴿بِأَمْرِهِ﴾: القدري، ﴿وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ﴾: بالتصرف في معاشكم ومصالحكم. ﴿وَلِتُكْذَرُوا ۚ﴾ ﴿٤٦﴾: من سخر لكم الأسباب، ويسر لكم الأمور؛ فهذا المقصود من النعم أن تقابل بشكر الله تعالى؛ ليزيدكم الله منها، ويبقيها عليكم، وأما مقابلة النعم بالكفر والمعاصي؛ فهذه حال من بدل نعمة الله كفرًا، ونعمته محنة، وهو معرض لها للزوال والانتقال منه إلى غيره.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءَهُمْ بِآيَاتِنَا فَانْقَمَتْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرُمُوا وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿٤٧﴾

﴿٤٧﴾ أي: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ﴾: في الأمم السالفةين ﴿رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ﴾: حين جحدوا توحيد الله وكذبوا بالحق، فجاءتهم رسلهم يدعونهم إلى التوحيد والإخلاص والتصديق بالحق وبطلان ما هم عليه من الكفر والضلال، وجاءوهم بالبينات والأدلة على ذلك، فلم يؤمنوا ولم يزولوا عن غيهم، ﴿فَانْقَمَتْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرُمُوا﴾: ونصرنا المؤمنين أتباع الرسل، ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿٤٧﴾؛ أي: أوجبنا ذلك على أنفسنا، وجعلناه من جملة الحقوق المتعينة، ووعدناهم به؛ فلا بد من وقوعه، فأنتم أيها المكذبون لمحمد ﷺ إن بقيتم على تكذيبكم؛ حلت بكم العقوبة، ونصرناه عليكم.

شُورَةُ الزُّوْمِ

مِنْ الطَّائِفَةِ الْبَاطِنَةِ

﴿٥٢﴾ فَإِنَّكَ لَا تَسْمِعُ الْمَوْتَى وَلَا تَسْمِعُ الضُّمَّةَ الدُّعَاءَ: وبالأولى: ﴿٥٣﴾ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ ﴿٥٢﴾: فإن الموانع قد توفرت فيهم عن الانقياد والسمع النافع كنوفر هذه الموانع المذكورة عن سماع الصوت الحسي.

﴿٥٢﴾ وَمَا أَنْتَ بِهَادٍ الْعَمَى عَنْ ضَلَالَتِهِمْ: لأنهم لا يقبلون الإبصار بسبب عماهم؛ فليس فيهم قابلية له. ﴿٥٣﴾ إِنَّ تَسْمِعَ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ ﴿٥٢﴾: فهو لاء الذين ينفع فيهم إسماع الهدى، المؤمنون بآياتنا بقلوبهم، المتفادون لأوامرنا، المسلمون لنا؛ لأن معهم الداعي القوي لقبول النصائح والمواعظ، وهو استعدادهم للإيمان بكل آية من آيات الله، واستعدادهم لتنفيذ ما يقدرون عليه من أوامر الله ونواهيه.

﴿٥٢﴾ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ ﴿٥١﴾.

﴿٥١﴾ يخبر تعالى عن سعة علمه وعظيم اقتداره وكمال حكمته؛ أنه ابتداء خلق آدميين من ضعف، وهو الأطوار الأولى من خلقه من نطفة إلى علقة إلى مضغة إلى أن صار حيواناً في الأرحام إلى أن ولد وهو في سن الطفولية، وهو إذ ذاك في غاية الضعف وعدم القوة والقدرة، ثم ما زال الله يزيد

في قوته شيئاً فشيئاً، حتى بلغ سن الشباب، واستوت قوته، وكملت قواه الظاهرة والباطنة، ثم انتقل من هذا الطور ورجع إلى الضعف والشيبة والهرم. ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾: بحسب حكمته، ومن حكمته أن يري العبد ضعفه، وأن قوته محفوفة بضعفين، وأنه ليس له من نفسه إلا النقص، ولولا تقوية الله له؛ لما وصل إلى قوة وقدرة، ولو استمرت قوته في الزيادة؛ لطفى وبغى وعتا، وليعلم العباد كمال قدرة الله، التي لا تزال مستمرة؛ يخلق بها الأشياء، ويدبر بها الأمور، ولا يلحقها إعياء ولا ضعف ولا نقص بوجه من الوجوه.

﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ ﴿٥٥﴾ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَكِنَّكُمْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٥٦﴾ فَيَوْمَذِي لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعذَرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٥٧﴾﴾.

﴿٥٥﴾ يخبر تعالى عن يوم القيامة وسرعة مجيئه، وأنه إذا قامت الساعة؛ أقسم ﴿الْمُجْرِمُونَ﴾: بالله أنهم ﴿مَا لَبِثُوا﴾: في الدنيا ﴿غَيْرَ سَاعَةٍ﴾، وذلك اعتذار منهم؛ لعله ينفعهم العذر، واستقصار لمدة الدنيا. ولما كان قولهم كذباً لا حقيقة له؛ قال تعالى: ﴿كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ ﴿٥٥﴾﴾؛ أي: ما زالوا وهم في الدنيا يوفكون عن الحقائق ويأتفكون الكذب؛ ففي الدنيا كذبوا الحق الذي جاءهم به المرسلون، وفي الآخرة أنكروا الأمر المحسوس، وهو البعث الطويل في الدنيا؛ فهذا خلقهم القبيح، والعبد يُبْعَثُ على ما مات عليه.

﴿٥٦﴾ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ ﴿٥٦﴾: أي: من الله عليهم بهما، وصارا وصفاً لهم، العلم بالحق والإيمان المستلزم إثبات الحق، وإذا كانوا عالمين بالحق، مؤثرين له؛ لزم أن يكون قولهم مطابقاً للواقع مناسباً لأحوالهم؛ فلماذا قالوا الحق: ﴿لَقَدْ لَبِثْتُ فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾؛ أي: في قضائه وقدره الذي كتبه الله عليكم وفي حكمه ﴿إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ﴾؛ أي: عمرتم عمراً يتذكر

﴿١٠﴾ ﴿فَاصْبِرْ﴾: على ما أمرت به وعلى دعوتهم إلى الله ولو رأيت منهم إعراضاً فلا يصدك ذلك: ﴿إِنْ وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا﴾؛ أي: لا شك فيه، وهذا مما يعين على الصبر؛ فإن العبد إذا علم أن عمله غير ضائع، بل سيحده كاملاً؛ هان عليه ما يلقاه من المكارة، وتيسر عليه كل عسير، واستقل من عمله كل كثير. ﴿وَلَا يَسْتَخْفِكَ الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَكَ﴾؛ أي: قد ضعف إيمانهم وقُلْ يقينهم فحُفَّتْ لذلك أحلامهم، وقُلْ صبرهم؛ فإياك أن يستخفك هؤلاء؛ فإنك إن لم تجعلهم منك على بال، وتحذر منهم، وإلا؛ استخفوك وحملوك على عدم الثبات على الأوامر والنواهي، والنفس تساعدكم على هذا، وتطلب التشبه والموافقة، وهذا مما يدل على أن كل مؤمن موقن رزين العقل؛ يسهل عليه الصبر، وكل ضعيف اليقين؛ ضعيف العقل خفيفه؛ فالأول بمنزلة اللب، والآخر بمنزلة القشور. فالله المستعان.



تفسير سورة لقمان

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿١﴾ ﴿إِنَّمَا يَتَّبِعُ الْكَاتِبَ الْحَكِيمَ﴾ هَذِي وَرَحْمَةً لِلْمُحْسِنِينَ ﴿٢﴾ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٣﴾ أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٤﴾.

﴿٢﴾ يشير تعالى إشارة دالة على التعظيم إلى: ﴿إِنَّمَا يَتَّبِعُ الْكَاتِبَ الْحَكِيمَ﴾؛ أي: آياته محكمة صدرت من حكيم خبير.

ومن إحكامها أنها جاءت بأجل الألفاظ وأفصحها وأبينها، الدالة على أجل المعاني وأحسنها.

ومن إحكامها أنها محفوظة من التغير والتبديل والزيادة والنقص والتحريف.

ومن إحكامها أن جميع ما فيها من الأخبار السابقة واللاحقة والأمور الغيبية كلها مطابقة للواقع، مطابق لها الواقع، لم يخالفها كتاب من الكتب الإلهية، ولم يخبر بخلافها نبي من الأنبياء، ولم يأت علم محسوس ولا معقول صحيح يناقض ما دلت عليه.

فيه المتذكر، ويتدبر فيه المتدبر ويعتبر فيه المعتبر، حتى صار البعث، ووصلتم إلى هذه الحال. ﴿فَهَكَذَا يَوْمَ أَلْبَعَثَ وَلَكِنَّكُمْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ ﴿٥٦﴾: فلذلك أنكرتموه في الدنيا، وأنكرتم إقامتكم في الدنيا وقتاً تتمكنون فيه من الإنابة والتوبة، فلم يزل الجهل شعاركم، وآثاره من التكذيب والخسار دثاركم.

﴿٥٧﴾ ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعْذِرَتُهُمْ﴾: فإن كذبوا، وزعموا أنهم ما قامت عليهم الحجة، أو ما تمكنوا من الإيمان؛ ظهر كذبهم بشهادة أهل العلم والإيمان وشهادة جلودهم وأيديهم وأرجلهم، وإن طلبوا الإعذار، وأنهم يردون، ولا يعودون لما نهوا عنه؛ لم يمكنوا؛ فإنه فات وقت الإعذار، فلا تقبل معذرتهم. ﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ ﴿٥٧﴾؛ أي: يزال عنهم والعتاب عنهم.

﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَلَئِنْ جِئْتَهُمْ بِآيَةٍ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ﴾ ﴿٥٨﴾ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٩﴾ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفُّكَ الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَكَ﴾ ﴿٦٠﴾.

﴿٥٨﴾، ﴿٥٩﴾، ﴿٦٠﴾: أي: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ﴾: تتضح به الحقائق وتعرف به الأمور وتنقطع به الحجة، وهذا عام في الأمثال التي يضربها الله في تقريب الأمور المعقولة بالمحسوسة، وفي الإخبار بما سيكون وجلاء حقيقته حتى كأنه وقع، ومنه في هذا الموضع ذكر الله تعالى ما يكون يوم القيامة، وحالة المجرمين فيه، وشدة أسفهم، وأنه لا يقبل منهم عذر ولا عتاب، ولكن أبى الظالمون الكافرون إلا معاندة الحق الواضح، ولهذا قال: ﴿وَلَئِنْ جِئْتَهُمْ بِآيَةٍ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ﴾ ﴿٥٨﴾؛ أي: قالوا للحق: إنه باطل! وهذا من كفرهم وجراءتهم وطبع الله على قلوبهم وجهلهم المفرط، ولهذا قال: ﴿كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ﴿٥٩﴾: فلا يدخلها خير، ولا تدرك الأشياء على حقيقتها، بل ترى الحق باطلاً والباطل حقاً.

ومن إحكامها أنها ما أمرت بشيء إلا وهو خالص المصلحة أو راجحها، ولا نهت عن شيء إلا وهو خالص المفسدة أو راجحها، وكثيراً ما يجمع بين الأمر بالشيء مع ذكر حكمته وفائده، والنهي عن الشيء مع ذكر مضرته.

ومن إحكامها أنها جمعت بين الترغيب والترهيب والوعظ البليغ الذي تعتدل به النفوس الخيرة، وتحتكم فتعمل بالحزم.

ومن إحكامها: أنك تجد آياتها المتكررة كالقصص والأحكام ونحوها قد اتفقت كلها وتواطأت، فليس فيها تناقض ولا اختلاف؛ فكلما ازداد بها البصير تدبراً وأعمل فيها العقل تفكيراً؛ انبهر عقله وذهل لبه من التوافق والتواطؤ، وجزم جزماً لا يمتري فيه أنه تنزيل من حكيم حميد.

❶ ولكن مع أنه حكيم يدعو إلى كل خلق كريم وينهى عن كل خلق لئيم، أكثر الناس محرومون من الاهتداء به، معرضون عن الإيمان والعمل به؛ إلا من وفقه الله تعالى وعصمه، وهم المحسنون في عبادة ربهم، والمحسنون إلى الخلق؛ فإنه ﴿هُدًى﴾: لهم يهديهم إلى الصراط المستقيم، ويحذرهم من طرق الجحيم. ﴿وَرَحْمَةً﴾: لهم تحصل لهم به السعادة في الدنيا والآخرة والخير الكثير والثواب الجزيل

سورة لقمان

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْقَمْرُ ١ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ ٢ هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ ٣ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ٤ أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ٥ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ٦ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّى مُسْتَكْبِرًا ٧ كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَن فِي أُذُنِهِ قِرَآءَةً فَأَنشِئِ لَهُمُ بَعْدَآلِ ٨ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّتٌ أَلِيمٌ ٩ خَالِدِينَ فِيهَا وَعَدَّ اللَّهُ حَقًّا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ١٠ خَلَقَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَآلَفَىٰ فِي الْأَرْضِ رُوسًا أَن يَمَسَّ يَكُمُ وَيَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ١١ هَٰذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ ١٢ كُلِّ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ١٣

والفرح والسرور، ويندفع عنهم الضلال والشقاء.

❶ ثم وصف المحسنين بالعلم التام، وهو اليقين الموجب للعمل والخوف من عقاب الله، فيتركون معاصيه، ووصفهم بالعمل، وخص من العمل عمليين فاضلين: ﴿الصَّلَاةَ﴾ المشتملة على الإخلاص، ومناجاة الله تعالى، والتعبد العام للقلب واللسان والجوارح المعينة على سائر الأعمال. و﴿الزَّكَاةَ﴾: التي تزكي صاحبها من الصفات الرذيلة، وتنفع أخاه المسلم وتسد حاجته، ويبين بها أن العبد يؤثر محبة الله على محبته للمال، فيخرج محبوبه من المال لما هو أحب إليه، وهو طلب مرضاة الله.

❷ ف ﴿أُولَٰئِكَ﴾: المحسنون الجامعون بين العلم التام والعمل ﴿عَلَىٰ هُدًى﴾؛ أي: عظيم كما يفيد التنكير، وذلك الهدى حاصل لهم وواصل إليهم ﴿مِّن رَّبِّهِمْ﴾: الذي لم يزل يريهم بالنعم ويدفع عنهم النقم، وهذا الهدى الذي أوصله إليهم من تربيته الخاصة بأوليائه، وهو أفضل أنواع التربية. ﴿وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾: الذين أدركوا رضا ربهم وثوابه الدنيوي والآخروي، وسلموا من سخطه وعقابه، وذلك لسلوكهم طريق الفلاح، الذي لا طريق له غيرها.

ولما ذكر تعالى المهتدين بالقرآن المقبلين عليه؛ ذكر من أعرض عنه ولم يرفع به رأساً، وأنه عوقب على ذلك بأن تعوض عنه كل باطل من القول، فترك أعلى الأقوال وأحسن الحديث، واستبدل به أسفل قول وأقبحه؛ فلذلك قال:

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ ١٢
 ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّى مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَن فِي أُذُنِهِ قِرَآءَةً فَأَنشِئِ لَهُمُ بَعْدَآلِ﴾ ٨
 ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّتٌ أَلِيمٌ﴾ ٩
 ﴿خَالِدِينَ فِيهَا وَعَدَّ اللَّهُ حَقًّا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ ١٠

الحكمة، من عزته وحكمته، وفق من وفق، وخذل بحسب ما اقتضاه علمه فيهم وحكمته.

﴿ خَلَقَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَلٍ تَرَوْنَهَا وَالْأَرْضَ رَوْسِي أَنْ تُبِيدَ بِكُمْ وَبَيْنَ يَدَيْكُمْ رَبِّي ذَاتَ بَنَانٍ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَأْنَا فِيهَا مِنْ كَبَلٍ رَوْحٍ كَرِيمٍ ﴾ (١١) هَذَا خَلَقَ اللَّهُ فَارُوفٍ مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (١٢).

﴿١١﴾ يتلو تعالى على عباده آثارًا من آثار قدرته وبدائع من بدائع حكمته ونعمًا من آثار رحمته، فقال: ﴿ خَلَقَ السَّمَوَاتِ ﴾: السبع على عظمها وسعتها وكثافتها وارتفاعها الهائل ﴿ بِغَيْرِ عَمَلٍ تَرَوْنَهَا ﴾؛ أي: ليس لها عمد، ولو كان لها عمد؛ لرئيت، وإنما استقرت، واستمسكت بقدرة الله تعالى، ﴿ وَالْأَرْضَ رَوْسِي ﴾؛ أي: جبالاً عظيمة ركزها في أرجائها وأنحائها لثلاثا ﴿ تُبِيدُ بِكُمْ ﴾؛ فلولاً الجبال الراسيات؛ لمادت الأرض ولما استقرت بساكنيها، ﴿ وَبَيْنَ يَدَيْكُمْ ﴾: أي: نشر في الأرض الواسعة من جميع أصناف الدواب التي هي مسخرة لبني آدم ولمصالحهم ومنافعهم، ولما بثها في الأرض؛ علم تعالى أنه لا بد لها من رزق تعيش به، فأنزل من السماء ماء مباركا، ﴿ فَأَنْبَأْنَا فِيهَا مِنْ كَبَلٍ رَوْحٍ كَرِيمٍ ﴾ (١٢): المنظر، نافع، مبارك، فرتعت فيه الدواب المنبهة، وسكن إليه كل حيوان.

﴿١١﴾ هَذَا؛ أي: خلق العالم العلوي والسفلي من جماد وحيوان وسوق أرزاق الخلق إليهم، ﴿ خَلَقَ اللَّهُ ﴾: وحده لا شريك له، كل مقر بذلك، حتى أنتم يا معشر المشركين، ﴿ فَارُوفٍ مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ ﴾؛ أي: الذين جعلتموهم له شركاء تدعونهم وتعبدونهم، يلزم على هذا أن يكون لهم خلق كخلقه ورزق كرزقه؛ فإن كان لهم شيء من ذلك؛ فأروني؛ ليصح ما ادعيتهم فيهم من استحقاق العبادة. ومن المعلوم أنهم لا يقدر أن يروه شيئا من الخلق لها؛ لأن جميع المذكورات قد أفرأ أنها خلق الله وحده، ولا ثم شيء يعلم غيرها، ثبتت عجزمهم عن إثبات شيء لها تستحق به أن تعبد، ولكن عبادتهم إياها عن غير علم وبصيرة، بل عن جهل وضلال، ولهذا قال: ﴿ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ (١٢)؛ أي: جلي واضح؛ حيث عبدوا من لا يملك نفعا ولا ضرا ولا موتا ولا حياة ولا نشورا، وتركوا الإخلاص للخالق الرازق المالك لكل الأمور.

﴿١١﴾ أَي: ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ ﴾: هو محروم مخذول ﴿ يَشْتَرِي ﴾؛ أي: يختار ويرغب رغبة من يبذل الثمن في الشيء، ﴿ لَهُوَ الْحَدِيثُ ﴾؛ أي: الأحاديث الملهمية للقلوب، الصادة لها عن أجل مطلوب، فدخل في هذا كل كلام محرم وكل لغو وباطل وهذيان؛ من الأقوال المرغبة في الكفر والفسوق والعصيان، ومن أقوال الرادين على الحق المجادلين بالباطل ليدحضوا به الحق، ومن غيبة ونميمة وكذب وشتم وسب، ومن غناء ومزامير شيطان. ومن الماجريات الملهمية التي لا نفع فيها في دين ولا دنيا؛ فهذا الصنف من الناس ﴿ يَشْتَرِي لَهُوَ الْحَدِيثُ ﴾ عن هدي الحديث ﴿ يُضِلُّ ﴾ الناس ﴿ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾؛ أي: بعدما ضل في فعله أضل غيره؛ لأن الإضلال ناشئ عن الضلال، وإضلاله في هذا الحديث صده عن الحديث النافع والعمل النافع والحق المبين والصرط المستقيم، ولا يتم له هذا حتى يقدح في الهدى والحق، ويتخذ آيات الله هزوا، يسخر بها وبمن جاء بها؛ فإذا جمع بين مدح الباطل والترغيب فيه والقدح في الحق والاستهزاء به وبأهله؛ أضل من لا علم عنده، وخدعه بما يوحيه إليه من القول الذي لا يميزه ذلك الضال، ولا يعرف حقيقته، ﴿ أَوَلَيْكَ لَمَمٌ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴾ (١٢)؛ بما ضلوا، وأضلوا، واستهزؤا بآيات الله، وكذبوا الحق الواضح.

﴿١٢﴾ ولهذا قال: ﴿ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِ آيَاتُنَا ﴾: ليؤمن بها وينقاد لها، ﴿ وَلَكِنْ مُسْتَكْبِرًا ﴾؛ أي: أدبر إدبار مستكبر عنها راد لها ولم تدخل قلبه ولا أثرت فيه بل أدبر عنها ﴿ كَانَ لَّهُ يَسْمَعُهَا ﴾، بل: ﴿ كَانَ فِي أَذُنِهِ وَقْرًا ﴾؛ أي: صمما لا تصل إليها الأصوات؛ فهذا لا حيلة في هدايته. ﴿ فَبَشِّرْهُ ﴾: بشارة تؤثر في قلبه الحزن والغم، وفي بشرته السوء والظلمة والغبرة، ﴿ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ (١٣)؛ مؤلم لقلبه ولبدنه، لا يقادر قدره، ولا يدرى بعظيم أمره؛ فهذه بشارة أهل الشر؛ فلا نعمت البشارة.

﴿١٣﴾، ﴿١٤﴾ وأما بشارة أهل الخير؛ فقال: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾: جمعوا بين عبادة الباطن بالإيمان والظاهر بالإسلام والعمل الصالح، ﴿ لَمْ يَجْنُ أَلْعَمِ ﴾: بشارة لهم بما قدموه وقرى لهم بما أسلفوه ﴿ خَالِدِينَ فِيهَا ﴾؛ أي: في جنات النعيم نعيم القلب والروح والبدن. ﴿ وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا ﴾: لا يمكن أن يخلف ولا يغير ولا يتبدل. ﴿ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ (١٤)؛ كامل العزة، كامل

سورة لقمان

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَنَ الْحِكْمَةَ أَنْ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَنْ يَشْكُرْ
فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿١٢﴾ وَلَئِنْ
قَالَ لُقْمَنُ لِابْنِهِ وَهُوَ يُعْطِيهِ يَبْنِىْ لَا تَشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ
لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾﴾ إلى آخر القصة.

﴿١٢﴾ يخبر تعالى عن امتثاله على عبده الفاضل لقمان بالحكمة، وهي العلم بالحق على وجهه وحكمته؛ فهي العلم بالأحكام، ومعرفة ما فيها من الأسرار والأحكام؛ فقد يكون الإنسان عالماً ولا يكون حكيماً، وأما الحكمة؛ فهي مستلزمة للعلم، بل وللعمل، ولهذا فسرت الحكمة بالعلم النافع والعمل الصالح. ولما أعطاه الله هذه المنة العظيمة؛ أمره أن يشكره على ما أعطاه؛ ليبارك له فيه، وليزيده من فضله، وأخبره أن شكر الشاكرين يعود نفعه عليهم، وأن من كفر فلم يشكر الله؛ عاد وبال ذلك عليه، والله غني عنه حميد فيما يقدره ويقضيه على من خالف أمره؛ فغناه تعالى من لوازم ذاته، وكونه حميداً في صفات كماله حميداً في جميل صنعه من لوازم ذاته، وكل واحد من الوصفين صفة كمال، واجتماع أحدهما إلى الآخر زيادة كمال إلى كمال.

واختلف المفسرون هل كان لقمان نبياً أو عبداً صالحاً، والله تعالى لم يذكر عنه إلا أنه آتاه الحكمة، وذكر بعض ما

وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَنَ الْحِكْمَةَ أَنْ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿١٢﴾ وَلَئِنْ قَالَتْ لُقْمَنُ لِابْنِهِ وَهُوَ يُعْطِيهِ يَبْنِىْ لَا تَشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾ وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَلَدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهَنًا عَلَى وَهْنٍ وَفَصَّلَهُ فِي عَامَيْنِ أَنْ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَى الْمَصِيرِ ﴿١٤﴾ وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفٌ وَأَتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَى تَمَرٍ إِلَى مَرْجِعِكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ يَبْنِىْ إِنَّمَا إِنْ تَكُ مَشْقَالٌ حَبْرَةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١٦﴾ يَبْنِىْ أَقْبَرُ الصَّلَاةِ وَأَمْرٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَنَّهُ عَنِ الْمُشْكِرِ وَأَصْبَرُ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزَمِ الْأُمُورِ ﴿١٧﴾ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرْمَعًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾ وَأَقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَأَغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنْ أَنْكَرَ الْأَصَوَاتُ لَصُوتُ الْحَمِيرِ ﴿١٩﴾

٤١٢

يدل على حكمته في وعظه لابنه، فذكر أصول الحكمة وقواعدها الكبار، فقال:

﴿١٢﴾ وَلَئِنْ قَالَتْ لُقْمَنُ لِابْنِهِ وَهُوَ يُعْطِيهِ؛ أَوْ: قال له قولاً به يعظه، والوعظ: الأمر والنهي المَقْرُونُ بالترغيب والترهيب؛ فأمره بالإخلاص ونهاه عن الشرك وبين له السبب في ذلك، فقال: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾﴾: وجهه كونه عظيماً أنه لا أظف وأبشع ممن سوى المخلوق من تراب بمالك الرقاب، وسوى الذي لا يملك من الأمر شيئاً بمالك الأمر كله، وسوى الناقص الفقير من جميع الوجوه بالرب الكامل الغني من جميع الوجوه، وسوى من لم ينعم بمثقال ذرة من النعم، بالذي ما بالخلق من نعمة في دينهم ودنياهم وأخراهم وقلوبهم وأبدانهم إلا منه، ولا يصرف السوء إلا هو؛ فهل أعظم من هذا الظلم شيء؟! وهل أعظم ظلماً ممن خلقه الله لعبادته وتوحيده، فذهب بنفسه الشريفة، فجعلها في أخس المراتب، جعلها عابدة لمن لا يسوى شيئاً، فظلم نفسه ظلماً كبيراً؟!

﴿١٤﴾ ولما أمر بالقيام بحقه بترك الشرك الذي من لوازمه القيام بالتوحيد؛ أمر بالقيام بحق الوالدين، فقال: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَلَدَيْهِ﴾ أي: عهدنا إليه وجعلناه وصية عنده سنسأله عن القيام بها وهل حفظها أم لا؟ فوصيناه ﴿بِوَلَدَيْهِ﴾، وقلنا له: ﴿اشْكُرْ لِي﴾: بالقيام بعبوديتي وأداء حقوقي وألا تستعين بنعمي على معصيتي ﴿وَوَلَدَيْكَ﴾: بالإحسان إليهما بالقول اللين والكلام اللطيف والفعل الجميل والتواضع لهما وإكرامهما وإجلالهما والقيام بموئنتهما واجتناب الإساءة إليهما من كل وجه بالقول والفعل، فوصيناه بهذه الوصية وأخبرناه أن ﴿إِلَى الْمَصِيرِ ﴿١٥﴾﴾ أي: سترجع أيها الإنسان إلى من وصاك وكلفك بهذه الحقوق، فیسألك: هل قمت بها فيبيك الثواب الجزيل، أم ضيعتها فيعاقبك العقاب الويل؟! ثم ذكر السبب الموجب لبر الوالدين في الأم، فقال: ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهَنًا عَلَى وَهْنٍ﴾ أي: مشقة على مشقة؛ فلا تزال تلاقي المشاق من حين يكون نطفة؛ من الوحم والمرض، والضعف، والثقل، وتغير الحال، ثم وجع الولادة، ذلك الوجع الشديد. ثم فصله ﴿فِي عَامَيْنِ﴾: وهو ملازم لحضانه أمه وكفالتها ورضاعها. أمّا يحسن بمن تحمل على ولده هذه الشدائد مع شدة الحب أن يؤكد

ذَلِكَ: الذي وعظ به لقمان ابنه ﴿مِنْ عَمِّ الْأُمُورِ﴾ أي: من الأمور التي يُعَزَّمُ عليها، ويهتم بها، ولا يوفق لها إلا أهل العزائم.

﴿وَلَا تُصَيِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ﴾ أي: لا تملء وتعبس بوجهك للناس تكبراً عليهم وتعاضماً، ﴿وَلَا تَمْسِ فِي الْأَرْضِ مَرَمًا﴾ أي: بطراً فخرًا بالنعم ناسياً المنعم معجباً بنفسك. ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ﴾: في نفسه وهيته وتعاضمه ﴿فَخُورٍ﴾: بقوله.

﴿وَأَقْصِدْ فِي مَشْيِكَ﴾ أي: امش متواضعاً مستكيناً لا مشي البطر والتكبر ولا مشي التماوت، ﴿وَأَغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ﴾: أدباً مع الناس ومع الله، ﴿إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ﴾: أي: أنظعها وأبشعها ﴿لَصَوْتُ الْحَبِيرِ﴾: فلو كان في رفع الصوت البليغ فائدة ومصلحة؛ لما اختص بذلك الحمار الذي قد علمت خسته وبلادته.

وهذه الوصايا التي وصى بها لقمان لابنه؛ تجمع أمهات الحكم، وتستلزم ما لم يُذكر منها، وكل وصية يقرن بها ما يدعو إلى فعلها إن كانت أمراً وإلى تركها إن كانت نهياً، وهذا يدل على ما ذكرنا في تفسير الحكمة: أنها العلم بالأحكام وحكمها ومناسباتها: فأمره بأصل الدين وهو التوحيد، ونهاه عن الشرك، وبين له الموجب لتركه. وأمره ببر الوالدين، وبين له السبب الموجب لبرهما، وأمره بشكره وشكرهما، ثم احترز بأن محل برهما وامثال أوامرهما ما لم يأمر بمعصية، ومع ذلك؛ فلا يعقهما، بل يحسن إليهما، وإن كان لا يطيعهما إذا جاهدها على الشرك. وأمره بمراقبة الله وخوفه القدوم عليه، وأنه لا يغادر صغيرة ولا كبيرة من الخير والشر إلا أتى بها، ونهاه عن التكبر. وأمره بالتواضع ونهاه عن البطر والأشر والمرح. وأمره بالسكون في الحركات والأصوات، ونهاه عن ضد ذلك. وأمره بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وإقامة الصلاة وبالصبر للذين يسهل بهما كل أمر؛ كما قال تعالى: ﴿وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾ [البقرة: ٤٥]. فحقيق بمن أوصى بهذه الوصايا أن يكون مخصوصاً بالحكمة مشهوراً بها، ولهذا من منة الله عليه وعلى سائر عباده أن قص عليهم من حكمته ما يكون لهم به أسوة حسنة.

﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجْدِلُ

على ولده، ويوصي إليه بتمام الإحسان إليه؟

﴿وَإِنْ جَاهَدَاكَ﴾ أي: اجتهد والدك ﴿عَلَيْكَ أَنْ تَشْرِكَ بِمَآ لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطْعِمَهُمَا﴾: ولا تظن أن هذا داخل في الإحسان إليهما؛ لأن حق الله مقدم على حق كل أحد، ولا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، ولم يقل: وإن جاهداك على أن تشرك بي ما ليس لك به علم؛ فعقهما، بل قال: ﴿فَلَا تُطْعِمَهُمَا﴾ أي: في الشرك، وأما برهما؛ فاستمر عليه، ولهذا قال: ﴿وَصَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾ أي: صالحة إحسان إليهما بالمعروف، وأما اتباعهما وهما بحالة الكفر والمعاصي؛ فلا تتبعهما، ﴿وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ﴾: وهم المؤمنون بالله وملائكته وكتبه ورسله، المستسلمون لربهم، المنيبون إليه، واتباع سبيلهم أن يسلك مسلكتهم في الإنابة إلى الله، التي هي انجذاب دواعي القلب وإراداته إلى الله، ثم يتبعها سعي البدن فيما يرضي الله ويقرب منه، ﴿ثُمَّ إِلَىٰ مَرْجِعِكُمْ﴾: الطائع والعاصي والمنيب وغيره، ﴿فَأَنْبِئْهُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾: فلا يخفى على الله من أعمالهم خافية.

﴿يَبْقَىٰ إِلَهُنَّ إِنَّمَا إِنْ تَكُ مِنْقَالَ حَبَوَ مِنْ خَدَلٍ﴾: التي هي أصغر الأشياء وأحقرها ﴿فَتَكُ فِي صَخْرَةٍ﴾ أي: في وسطها، ﴿أَوْ فِي السَّمَوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ﴾: في أي جهة من جهاتها؛ ﴿يَأْتِي بِهَا اللَّهُ﴾: لسعة علمه وتمام خبرته وكمال قدرته، ولهذا قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ أي: لطف في علمه وخبرته، حتى اطلع على البواطن والأسرار وخفايا القفار والبحار. والمقصود من هذا الحث على مراقبة الله والعمل بطاعته مهما أمكن، والترهيب من عمل القبيح قل أو كثير.

﴿يَبْقَىٰ أَفَرِ الصَّلَاةِ﴾: حثه عليها وخصها لأنها أكبر العبادات البدنية، ﴿وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَأَنْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾: وذلك يستلزم العلم بالمعروف؛ ليأمر به، والعلم بالمنكر؛ لينهى عنه، والأمر بما لا يتم الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر إلا به، من الرفق والصبر، وقد صرح به في قوله: ﴿وَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ﴾: ومن كونه فاعلاً لما يأمر به، كافاً لما يُنهى عنه، فتضمن هذا تكمیل نفسه بفعل الخير وترك الشر، وتكمیل غيره بذلك بأمره ونهيه. ولما علم أنه لا بد أن يتلى إذا أمر ونهى وأن في الأمر والنهي مشقة على النفوس؛ أمره بالصبر على ذلك، فقال: ﴿وَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ

سورة لقمان

سورة لقمان

الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَهَّرَهُ وَبَاطَنَهُ وَمَنِ النَّاسُ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنبِئٍ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ ﴿٢١﴾ وَمَنِ يُسَلِّمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ﴿٢٢﴾ وَمَنِ كَفَرَ فَلَا يَحْزَنُكَ كُفْرُهُ إِلَّا إِنَّا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٢٣﴾ نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٢٤﴾ وَلَكِنْ سَأَلْتَهُمْ مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٥﴾ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿٢٦﴾ وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَمٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٧﴾ مَا خَلَقَكُمْ وَلَا يَحْسَبُكُمْ إِلَّا كَفْهٍ وَاحِدٌ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿٢٨﴾

٤١٣

فِي اللَّهِ يَغْيِرْ عِلْمٌ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنبِئٍ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ ﴿٢١﴾

﴿٢٠﴾، ﴿٢١﴾ يمتن تعالى على عباده بنعمه، ويدعوهم إلى شكرها ورؤيتها وعدم الغفلة عنها، فقال: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾: أي: تشاهدوا وتبصروا بأبصاركم وقلوبكم، ﴿أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي السَّمَوَاتِ﴾: من الشمس والقمر والنجوم كلها مسخرات لنفع العباد، ﴿وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾: من الحيوانات والأشجار والزروع والأنهار والمعادن ونحوها؛ كما قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [البقرة: ٢٩]، ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ﴾: أي: عمكم وغمركم ﴿بِنِعْمِهِ﴾ الظاهرة والباطنة؛ التي نعلم بها والتي تخفى علينا؛ نعم الدنيا ونعم الدين، حصول المنافع ودفع المضار؛ فوظيفتكم أن تقوموا بشكر هذه النعم بمحبة المنعم والخضوع له وصرفها في الاستعانة على طاعته والألّا يستعان بشيء منها على معصيته. ولكن مع توالي هذه النعم من ﴿النَّاسِ مَن﴾: لم يشكرها، بل كفرها، وكفر بمن أنعم بها، وجحد الحق الذي أنزل به كتبه، وأرسل به رسله، فجعل ﴿يُجَادِلُ فِي اللَّهِ﴾: أي: يجادل عن الباطل ليدحض به الحق، ويدفع به ما جاء به الرسول من الأمر بعبادة الله وحده، وهذا المجادل على غير بصيرة؛ فليس جداله عن

علم؛ فيترك شأنه، ويسمح له في الكلام. ﴿وَلَا هُدًى﴾: يقتدي به بالمهتدين ﴿وَلَا كِتَابٍ مُّنبِئٍ﴾: غير مبين للحق؛ فلا معقول ولا منقول ولا اقتداء بالمهتدين، وإنما جداله في الله مبني على تقليد آباء غير مهتدين، بل ضالين مضلين، ولهذا قال: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾: على أيدي رسله؛ فإنه الحق، وبيئت لهم أدلته الظاهرة، ﴿قَالُوا﴾: معارضين ذلك: ﴿بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾: فلا نترك ما وجدنا عليه آباءنا لقول أحد كائنات من كان. قال تعالى في الرد عليهم وعلى آبائهم: ﴿أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ﴾ ﴿٢١﴾: أي: فاستجاب له آباؤهم، ومشوا خلفه، وصاروا من تلاميذ الشيطان، واستولت عليهم الحيرة؛ فهل هذا موجب لاتباعهم لهم ومشيههم على طريقتهم؟! أم ذلك يرهبهم من سلوك سبيلهم، وينادي على ضلالهم وضلال من تبعهم؟! وليس دعوة الشيطان لأبائهم ولهم محبة لهم ومودة، وإنما ذلك عداوة لهم ومكر لهم، وبالْحَقِيقَةِ آبَاءَهُمْ مِنْ أَعْدَائِهِ الَّذِينَ تَمَكَّنْ مِنْهُمْ، وظفر بهم، وقرت عينه باستحقاقهم عذاب السعير بقبول دعوته.

﴿وَمَنِ يُسَلِّمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾ ﴿٢٢﴾ وَمَنِ كَفَرَ فَلَا يَحْزَنُكَ كُفْرُهُ إِلَّا إِنَّا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ ﴿٢٣﴾ نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٢٤﴾

﴿٢٢﴾ وَمَنِ يُسَلِّمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ﴾: أي: يخضع له وينقاد له بفعل الشرائع مخلصاً له دينه، ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾: في ذلك الإسلام؛ بأن كان عمله مشروعاً، قد اتبع فيه الرسول ﷺ، أو: ومن يسلم وجهه إلى الله بفعل جميع العبادات وهو محسن فيها؛ بأن يعبد الله كأنه يراه؛ فإن لم يكن يراه؛ فإنه يراه. أو: ومن يسلم وجهه إلى الله بالقيام بحقوقه، وهو محسن إلى عباد الله، قائم بحقوقهم، والمعاني متلازمة، لا فرق بينها إلا من جهة اختلاف مورد اللفظتين، وإلا؛ فكلها متفقة على القيام بجميع شرائع الدين على وجه تقبل به وتكمل؛ فمن فعل ذلك؛ ﴿فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ﴾: أي: بالعروة التي من تمسك بها؛

أشركوا به غيره، ورضوا بتناقص ما ذهبوا إليه على وجه الحيرة والشك لا على وجه البصيرة.

﴿٣١﴾ ثم ذكر في هاتين الآيتين نموذجًا من سعة أوصافه؛ ليدعو عباده إلى معرفته ومحبته وإخلاص الدين له، فذكر عموم ملكه، وأن جميع ما في السماوات والأرض - وهذا شامل لجميع العالم العلوي والسفلي - أنه ملكه، يتصرف فيهم بأحكام الملك القدريّة وأحكامه الأمرية وأحكامه الجزائية؛ فكلهم عبيد ممالك مدبرون مسخرون، ليس لهم من الملك شيء، وأنه واسع الغنى؛ فلا يحتاج إلى ما يحتاج إليه أحد من الخلق، ﴿مَا أَرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطِيعُونِ﴾ [الذاريات: ٥٧]، وأن أعمال النسيين والصادقين والشهداء والصالحين لا تنفع الله شيئًا، وإنما تنفع عامليها، والله غني عنهم وعن أعمالهم، ومن غناه أن أغناهم وأقناهم في دنياهم وأخراهم.

ثم أخبر تعالى عن سعة حمده، وأن حمده من لوازم ذاته؛ فلا يكون إلا حميدًا من جميع الوجوه؛ فهو حميد في ذاته، وهو حميد في صفاته؛ فكل صفة من صفاته يستحق عليها أكمل حمد وأتمه؛ لكونها صفات عظمة وكمال، وجميع ما فعله وخلقه يحمد عليه، وجميع ما أمر به ونهى عنه يحمد عليه، وجميع ما حكم به في العباد وبين العباد في الدنيا والآخرة يحمد عليه.

﴿٣٧﴾ ثم أخبر عن سعة كلامه وعظمة قوله بشرح يبلغ من القلوب كل مبلغ، وتنهر له العقول وتحير فيه الأفئدة وتسيح في معرفته أولو الأبواب والبصائر، فقال: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرٍ أَفَلَدٌ﴾: يكتب بها، ﴿وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ﴾: مدا إذا يستمد بها؛ لتكسرت تلك الأقلام، ولفني ذلك المداد، ولم تنفذ ﴿كَلِمَتُ اللَّهِ﴾: وهذا ليس مبالغة لا حقيقة له، بل لما علم تبارك وتعالى أن العقول تتقاصر عن الإحاطة ببعض صفاته، وعلم تعالى أن معرفته لعباده أفضل نعمة أنعم بها عليهم وأجل منقبة حصلوها، وهي لا تمكن على وجهها، ولكن ما لا يدرك كله، لا يترك كله، فنبههم تعالى على بعضها تنبيهًا تستتير به قلوبهم، وتشرح له صدورهم، ويستدلون بما وصلوا إليه إلى ما لم يصلوا إليه، ويقولون كما قال أفضلهم، وأعلمهم بربه: «لا نحصى ثناء عليك، أنت كما أثنيت على نفسك»، وإلا فالأمر أجل من ذلك وأعظم.

توثق ونجا وسلم من الهلاك وفاز بكل خير، ومن لم يسلم وجهه لله، أو: لم يحسن؛ لم يستمسك بالعروة الوثقى، وإذا لم يستمسك بالعروة الوثقى؛ لم يكن ثم إلا الهلاك والبوار. ﴿وَالِلَّهِ عُنُقُ الْأُمُورِ﴾ ﴿٢٣﴾؛ أي: رجوعها وموئلها ومنتهاها، فيحكم في عباده ويجازيهم بما آلت إليه أعمالهم، ووصلت إليه عواقبهم، فليستعدوا لذلك الأمر.

﴿٣٢﴾ ﴿وَمَنْ كَفَرَ فَلَا يَحْزُنُكَ كُفْرُهُ﴾: لأنك أديت ما عليك من الدعوة والبلاغ؛ فإذا لم يهتد؛ فقد وجب أجرك على الله، ولم يبق للحزن موضع على عدم اهتدائه؛ لأنه لو كان فيه خير؛ لهداه الله، ولا تحزن أيضًا على كونهم تجرءوا عليك بالعداوة، ونابدوك المحاربة، واستمروا على غيهم وكفرهم، ولا تتحرق عليهم بسبب أنهم ما بودروا بالعذاب، فإن ﴿إِنَّمَا مَرْجُعُهُمْ فِتْنَتُهُمْ بِمَا عَمِلُوا﴾: من كفرهم وعداوتهم وسعيهم في إطفاء نور الله وأذى رسله. ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ ﴿٣٣﴾: التي ما نطق بها الناطقون؛ فكيف بما ظهر وكان شهادة؟!

﴿٣٤﴾ ﴿نُعِمَّتْهُمْ قَلِيلًا﴾: في الدنيا؛ ليزداد إنهم ويتوفر عذابهم. ﴿ثُمَّ نَصَّطُرُهُمْ﴾؛ أي: نلجئهم ﴿إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ ﴿٣٥﴾؛ أي: انتهى في عظمه وكبره وفظاعته وألمه وشدته.

﴿٣٦﴾ ﴿وَلَيْنَ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ﴿٣٧﴾ ﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ ﴿٣٨﴾ ﴿لَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرٍ أَفَلَدٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ ﴿٣٩﴾ ﴿مَا خَلَقَكُمْ وَلَا بَعَثَكُمْ إِلَّا كَفَنَسٍ وَاحِدَةٍ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ ﴿٤٠﴾.

﴿٤١﴾ ﴿وَلَيْنَ﴾: سألت هؤلاء المشركين المكذبين بالحق: ﴿مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾: لعلوا أن أصنامهم ما خلقت شيئًا من ذلك، ولبادروا بقولهم: ﴿اللَّهُ﴾: الذي خلقهما وحده، ف ﴿قُلِ﴾ لهم ملزمًا لهم ومحتجًا عليهم بما أقروا به على ما أنكروا: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾: الذي بين النور وأظهر الاستدلال عليكم من أنفسكم؛ فلو كانوا يعلمون؛ لجزموا أن المنفرد بالخلق والتدبير هو الذي يفرد بالعبادة والتوحيد، ولكن ﴿أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ﴿٤٢﴾: فلذلك

وهذا التمثيل من باب تقريب المعنى الذي لا يطاق الوصول إليه إلى الأفهام والأذهان، وإلا؛ فالأشجار وإن تضاعفت على ما ذكر أضعافاً كثيرة، والبحور لو امتدت بأضعاف مضاعفة؛ فإنه يتصور نفادها وانقضاؤها؛ لكونها مخلوقة، وأما كلام الله تعالى؛ فلا يتصور نفاده، بل دلنا الدليل الشرعي والعقلي على أنه لا نفاد له ولا منتهى؛ فكل شيء ينتهي إلا الباري وصفاته، ﴿وَأَنْ لَّكَ رِزْقٌ لَّغْنٍ﴾ [النجم: ٤٢]، وإذا تصور العقل حقيقة أوليته تعالى وآخرته، وأن كل ما فرضه الذهن من الأزمان السابقة مهما تسلسل الفرض والتقدير؛ فهو تعالى قبل ذلك إلى غير نهاية، وأنه مهما فرض الذهن والعقل من الأزمان المتأخرة وتسلسل الفرض والتقدير وساعد على ذلك من ساعد بقلبه ولسانه؛ فالله تعالى بعد ذلك إلى غير غاية ولا نهاية، والله في جميع الأوقات يحكم ويتكلم ويقول ويفعل كيف أراد، وإذا أراد، لا مانع له من شيء من أقواله وأفعاله؛ فإذا تصور العقل ذلك؛ عرف أن المثل الذي ضربه الله لكلامه ليدرك العباد شيئاً منه، وإلا؛ فالأمر أعظم وأجل.

ثم ذكر جلالة عزته وكمال حكمته، فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ أي: له العزة جميعاً الذي ما في العالم العلوي والسفلي من القوة إلا منه، هو الذي أعطاهم للخلق؛ فلا حول ولا قوة إلا به، وبعزته قهر الخلق كلهم، وتصرف فيهم ودبرهم، وبحكمته خلق الخلق، وابتدأ بالحكمة، وجعل غايته المقصود منه الحكمة، وكذلك الأمر والنهي وجد بالحكمة، وكانت غايته المقصودة الحكمة؛ فهو الحكيم في خلقه وأمره.

ثم ذكر عظمة قدرته وكمالها، وأنه لا يمكن أن يتصورها العقل، فقال: ﴿مَا خَلَقَكُمْ وَلَا يَعْصِيكُمْ إِلَّا كَفَّيْسٌ وَاحِدٌ﴾ وهذا شيء يحير العقول: أن خلق جميع الخلق على كثرتهم ويعتبرهم بعد موتهم بعد تفرقهم في لمحة واحدة كخلقه نفساً واحدة؛ فلا وجه لاستبعاد البعث والنشور والجزاء على الأعمال؛ إلا الجهل بعظمة الله وقوة قدرته. ثم ذكر عموم سمعه لجميع المسموعات وبصره لجميع المبصرات، فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ﴾ أي: لا يمكن أن يتصورها العقل، فقال: ﴿مَا خَلَقَكُمْ وَلَا يَعْصِيكُمْ إِلَّا كَفَّيْسٌ وَاحِدٌ﴾ وهذا شيء يحير العقول: أن خلق جميع الخلق على كثرتهم ويعتبرهم بعد موتهم بعد تفرقهم في لمحة واحدة كخلقه نفساً واحدة؛ فلا وجه لاستبعاد البعث والنشور والجزاء على الأعمال؛ إلا الجهل بعظمة الله وقوة قدرته. ثم ذكر عموم سمعه لجميع المسموعات وبصره لجميع المبصرات، فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾.

﴿وَاللَّهُ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ﴾ أي: لا يمكن أن يتصورها العقل، فقال: ﴿مَا خَلَقَكُمْ وَلَا يَعْصِيكُمْ إِلَّا كَفَّيْسٌ وَاحِدٌ﴾ وهذا شيء يحير العقول: أن خلق جميع الخلق على كثرتهم ويعتبرهم بعد موتهم بعد تفرقهم في لمحة واحدة كخلقه نفساً واحدة؛ فلا وجه لاستبعاد البعث والنشور والجزاء على الأعمال؛ إلا الجهل بعظمة الله وقوة قدرته. ثم ذكر عموم سمعه لجميع المسموعات وبصره لجميع المبصرات، فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾.

﴿وَاللَّهُ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ﴾ أي: لا يمكن أن يتصورها العقل، فقال: ﴿مَا خَلَقَكُمْ وَلَا يَعْصِيكُمْ إِلَّا كَفَّيْسٌ وَاحِدٌ﴾ وهذا شيء يحير العقول: أن خلق جميع الخلق على كثرتهم ويعتبرهم بعد موتهم بعد تفرقهم في لمحة واحدة كخلقه نفساً واحدة؛ فلا وجه لاستبعاد البعث والنشور والجزاء على الأعمال؛ إلا الجهل بعظمة الله وقوة قدرته. ثم ذكر عموم سمعه لجميع المسموعات وبصره لجميع المبصرات، فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ﴾ أي: لا يمكن أن يتصورها العقل، فقال: ﴿مَا خَلَقَكُمْ وَلَا يَعْصِيكُمْ إِلَّا كَفَّيْسٌ وَاحِدٌ﴾ وهذا شيء يحير العقول: أن خلق جميع الخلق على كثرتهم ويعتبرهم بعد موتهم بعد تفرقهم في لمحة واحدة كخلقه نفساً واحدة؛ فلا وجه لاستبعاد البعث والنشور والجزاء على الأعمال؛ إلا الجهل بعظمة الله وقوة قدرته. ثم ذكر عموم سمعه لجميع المسموعات وبصره لجميع المبصرات، فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾.

وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَارٍ عَنِ الْوَلَدِ شَيْئًا ﴿٣١﴾: لا يزيد في حسناته ولا ينقص من سيئاته، قد تم على كل عبد عمله، وتحقق عليه جزاؤه. فلفت النظر لهذا اليوم المهيل مما يقوي العبد ويسهل عليه تقوى الله، وهذا من رحمة الله بالعباد؛ يأمرهم بتقواه التي فيها سعادتهم، ويعدهم عليها الثواب، ويحذرهم من العقاب، ويزعجهم إليه بالمواعظ والمخوفات، فلك الحمد يا رب العالمين. ﴿إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾: فلا تمتروا فيه، ولا تعملوا عمل غير المصدق؛ فهذا قال: ﴿فَلَا تَعْرَنْكُمْ الْحَيَوةُ الدُّنْيَا﴾: بزيتها وزخارفها وما فيها من الفن والمحن. ﴿وَلَا تَعْرَنْكُمْ بِاللَّهِ الْقُرُوءُ﴾ ﴿٣٢﴾: الذي هو الشيطان، الذي ما زال يخدع الإنسان، ولا يغفل عنه في جميع الأوقات؛ فإن لله على عباده حقًا، وقد وعدهم موعدًا يجازيهم فيه بأعمالهم وهل وفوا حقه أم قصرُوا فيه؟ وهذا أمر يجب الاهتمام به، وأن يجعله العبد نصب عينيه ورأس مال تجارته التي يسعى إليه، ومن أعظم العوائق عنه والقواطع دونه الدنيا الفتناء والشيطان الموسوس المسول، فهني تعالى عباده أن تغرهم الدنيا أو يغرهم بالله الغرور، ﴿يَمِيدُهُمْ وَيُمْنِيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾ ﴿٣٣﴾ [النساء: ١٢٠].

﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ ﴿٣٤﴾.

﴿٣١﴾ قد تقرر أن الله تعالى أحاط علمه بالغيب والشهادة والظواهر والبواطن، وقد يطلع الله عباده على كثير من الأمور الغيبية، وهذه الأمور الخمسة من الأمور التي طوى علمها عن جميع الخلق؛ فلا يعلمها نبي مرسل ولا ملك مقرب، فضلًا عن غيرهما، فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾؛ أي: يعلم متى مرساها؛ كما قال تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجِيبُهَا لَوْفَهَا إِلَّا هُوَ نَقَلَتْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمُ إِلَّا بَغْتَةً﴾ [الأعراف: ١٨٧] الآية، ﴿وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ﴾؛ أي: هو المنفرد بإنزاله، وعلم وقت نزوله، ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ﴾: فهو الذي أنشأ ما فيها، وعلم ما هو؛ هل هو ذكر أم أنثى؟

ولهذا يسأل الملك الموكل بالأرحام ربه: هل هو ذكر أم أنثى؟ فيقضي الله ما يشاء. ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا﴾: من كسب دينها ودنياها، ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾: بل الله تعالى هو المختص بعلم ذلك

ولولا إمداده؛ لما بقي؛ فإذا كان باطلاً؛ كانت عبادته أبطل وأبطل. ﴿وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ﴾: بذاته فوق جميع مخلوقاته الذي علت صفاته أن يقاس بها صفات أحد من الخلق، وعلا على الخلق؛ فقهرهم ﴿الْكَبِيرُ﴾ ﴿٣٥﴾: الذي له الكبرياء في ذاته وصفاته، وله الكبرياء في قلوب أهل السماء والأرض.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفَلَكَ يَجْرِي فِي الْبَحْرِ يَنْصَبُ اللَّهُ لِيُرِيَكُمْ مِنْ آيَاتِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ ﴿٣٦﴾: وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوَجٌ كَاطِفٌ دَعَا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الْاَيْنَ فَلَمَّا بَلَغَهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُمْ مُقْنَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كُفُورٍ﴾ ﴿٣٧﴾.

﴿٣٦﴾ أي: ألم تر من آثار قدرته ورحمته وعنايته بعباده أن سخر البحر تجري فيه الفلك بأمره القدري ولطفه وإحسانه؛ ﴿لِيُرِيَكُمْ مِنْ آيَاتِهِ﴾: ففيها الانتفاع والاعتبار. ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ ﴿٣٦﴾: فهم المتفعلون بالآيات ﴿صَبَّارٍ﴾ على الضراء. ﴿شَكُورٍ﴾ على السراء، صبار على طاعة الله وعن معصيته وعلى أقداره، شكور لله على نعمه الدينية والدنيوية.

﴿٣٧﴾ وذكر تعالى حال الناس عند ركوبهم البحر وغشيان الأمواج كالظلل فوقعهم أنهم يخلصون الدعاء لله والعبادة، ﴿فَلَمَّا بَلَغَهُمْ إِلَى الْبَرِّ﴾: انقسموا فريقين: فرقة مقتصد؛ أي: لم تقم بشكر الله على وجه الكمال، بل هم مذنبون ظالمون لأنفسهم، وفرقة كافرة لنعمة الله جاحدة لها، ولهذا قال: ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ﴾؛ أي: غدار، ومن غدره أنه عاهد ربه لئن أنجيتنا من البحر وشدته لنتكونن من الشاكرين. فغدر، ولم يف بذلك. ﴿كُفُورٍ﴾ ﴿٣٧﴾: لنعم الله؛ فهل يليق بمن نجاهم الله من هذه الشدة إلا القيام التام بشكر نعم الله؟!

﴿يَتَأْتِيَ النَّاسُ أَنْفُورًا رَبِّكُمْ وَأَخْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَارٍ عَنِ الْوَلَدِ شَيْئًا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَوةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُمُ بِاللَّهِ الْقُرُوءُ﴾ ﴿٣٨﴾.

﴿٣٨﴾ يأمر تعالى الناس بتقواه، التي هي امثال أوامره وترك زواجره، ويستلفتهم لخشية يوم القيامة، اليوم الشديد الذي فيه كل أحد لا يهيمه إلا نفسه. ﴿فَلَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ

جميعه. ولما خصص [الله] هذه الأشياء؛ عمم علمه بجميع الأشياء، فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ (٣٦): محيط بالظواهر والباطن والخفايا والخبائيا والسرائر، ومن حكمته التامة أن أخفى علم هذه الخمسة عن العباد؛ لأن في ذلك من المصالح ما لا يخفى على من تدبر ذلك.

تم تفسير سورة لقمان بفضل الله وعونه والحمد لله.



تفسير سورة السجدة

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَىكَ الْكِتَابَ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (١) ﴿أَمْ يَقُولُونَ أَفَرَّغْنَاكَ مِنْ لَدُنْهِ قُوًّا مَّا أَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ يَشْهَدُونَ﴾ (٢).

﴿يَخْبُرُ تَعَالَى أَنْ هَذَا الْكِتَابُ أَنْزَلْنَا مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ، الَّذِي رِيبًا مِنْ رِيبِهِ، وَمَنْ أَكْبَرُ مِنْ رِيبِهِ بِهَذَا الْكِتَابِ، الَّذِي فِيهِ كُلُّ مَا يَصْلَحُ أحوالهم ويضم أخلاقهم، وأنه لا ريب فيه ولا شك ولا امتراء.﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَىكَ الْكِتَابَ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ
﴿١﴾ أَمْ يَقُولُونَ أَفَرَّغْنَاكَ مِنْ لَدُنْهِ قُوًّا مَّا أَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ يَشْهَدُونَ ﴿٢﴾ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾ يُدِيرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ ﴿٤﴾ ذَلِكَ عَلِيمٌ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٥﴾ الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ ﴿٦﴾ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ ﴿٧﴾ ثُمَّ رَسَوْنَاهُ نَفْحًا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٨﴾ وَقَالُوا آءِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ بَلْ هُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ ﴿٩﴾ قُلْ يَتَوَفَّنَا اللَّهُ الْمَوْتَ الَّذِي فِيهِ نَحْنُ وَأَمَّا السَّاعَةُ فَمَا شَاءَ اللَّهُ لَا يَسْأَلُكُمْ فِيهَا عَنْ أَرْبَابٍ شَتَّى وَلَكِنْ يَسْأَلُكُمْ فِيهَا عَنْ يَوْمٍ أَهْلَ بِهِمْ أَنْ تُقَامُوا فِيهِ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿١٠﴾

﴿٣﴾ ومع ذلك؛ قال المكذبون للرسول الظالمون في ذلك: افتراه محمد واختلقه من عند نفسه! وهذا من أكبر الجراءة على إنكار كلام الله، ورمي محمد ﷺ بأعظم الكذب، وقدرة الخلق على كلام مثل كلام الخالق، وكل واحد من هذه من الأمور العظام، قال الله راداً على من قال: افتراه: ﴿بَلْ هُوَ الْحَقُّ﴾: الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ﴿مِنْ رَبِّكَ﴾: أنزله رحمة للعباد، ﴿لِئَنذَرُوهُمْ مَّا أَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ يَشْهَدُونَ﴾: أي: هم في حال ضرورة وفاقعة لإرسال الرسول وإنزال الكتاب لعدم النذير، بل هم في جهلهم يعمهون، وفي ظلمة ضلالهم يترددون، فأنزلنا الكتاب عليك، ﴿لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾: من ضلالهم، فيعرفون الحق ويؤثرونه. وهذه الأشياء التي ذكرها الله كلها مناقضة لتكذيبهم له، وإنها تقتضي منهم الإيمان والتصديق التام به، وهو كونه من رب العالمين، وأنه حق، والحق مقبول على كل حال، وأنه ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾: بوجه من الوجوه؛ فليس فيه ما يوجب الريبة؛ لا بخبر غير مطابق للواقع، ولا بخفاء واشتباه معانيه، وأنهم في ضرورة وحاجة إلى الرسالة، وأن فيه الهداية لكل خير وإحسان.

﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ (١) ﴿يُدِيرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ﴾ (٢) ﴿ذَلِكَ عَلِيمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ (٣) ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ﴾ (٤) ﴿ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ﴾ (٥) ﴿ثُمَّ رَسَوْنَاهُ نَفْحًا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ (٦).

﴿١﴾ يخبر تعالى عن كمال قدرته بخلق السماوات والأرض في ستة أيام، أولها يوم الأحد، وآخرها الجمعة، مع قدرته على خلقها بلحظة، ولكنه تعالى رفيق حكيم، ﴿ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾: الذي هو سقف المخلوقات استواء يليق بجلاله، ﴿مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ﴾: يتولاكم في أموركم فينفعكم ﴿وَلَا شَفِيعَ﴾: يشفع لكم إن توجه عليكم العقاب. ﴿أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ (١).

فتعلموا أن خالق الأرض والسموات، المستوي على العرش العظيم، الذي انفرد بتدبيركم وتوليكم، وله الشفاعة كلها، هو المستحق لجميع أنواع العبادة!

﴿يَذَرُ الْأَمْرَ﴾: القدري والأمر الشرعي، الجميع هو المنفرد بتدبيره، نازلة تلك التدابير من عند الملك القدير، ﴿وَمِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ﴾: فيسعد بها ويشقي، ويغني ويفقر، ويعز ويذل ويكرم ويهين، ويرفع أقواماً ويضع آخرين، وينزل الأرزاق، ﴿ثُمَّ يَرْجِعُ إِلَيْهِ﴾: أي: الأمر ينزل من عنده، ويعرج إليه ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾: وهو يعرج إليه، ويصله في لحظة.

﴿ذَلِكَ﴾: الذي خلق تلك المخلوقات العظيمة، الذي استوى على العرش العظيم، وانفرد بالتدبير في المملكة، ﴿عَلِيمٌ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾: فبسعة علمه وكمال عزته وعموم رحمته أوجدها، وأودع فيها من المنافع ما أودع، ولم يعسر عليه تدبيرها.

﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ﴾: أي: كل مخلوق خلقه الله؛ فإن الله أحسن خلقه، وخلقه خلقاً يليق به ويوافقه؛ فهذا عام، ثم خص الأدمي لشرفه وفضله، فقال: ﴿وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِن طِينٍ﴾: وذلك بخلق آدم عليه السلام أبي البشر.

﴿ثُمَّ جَعَلْ سَلَكَهُ﴾: أي: ذرية آدم ناشئة ﴿مِنْ مَّاءٍ مَّهِينٍ﴾: وهو النطفة المستقذرة الضعيفة.

﴿ثُمَّ سَوَّاهُ﴾ بلحمه وأعضائه وأعصابه وعروقه، وأحسن خلقته، ووضع كل عضو منه بالمحل الذي لا يليق به غيره، ﴿وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ﴾: بأن أرسل إليه الملك؛ فينفخ فيه الروح، فيعود بإذن الله حيواناً بعد أن كان جماداً، ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ﴾: أي: ما زال يعطيكم من المنافع شيئاً فشيئاً حتى أعطاكم السمع والأبصار ﴿وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾: الذي خلقكم، وصوركم.

﴿وَقَالُوا إِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ بَلْ هُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ﴾: قل يَنُفِقُكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ.

﴿أَي: قال المكذبون بالبعث على وجه الاستبعاد: ﴿إِنَّا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ﴾: أي: بليتنا وتمزقنا وفرقنا في

المواضع التي لا تعلم، ﴿إِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾: أي: لمبعوثون بعثاً جديداً؛ بزعمهم أن هذا من أبعد الأشياء؛ وذلك بقياسهم قدرة الخالق على قدرهم، وكلامهم هذا ليس لطلب الحقيقة، وإنما هو ظلم وعناد وكفر بقاء ربهم ووجد، ولهذا قال: ﴿بَلْ هُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ﴾: فكلامهم علم مصدره وغايته، وإلا؛ فلو كان قصدهم بيان الحق لبين لهم من الأدلة القاطعة على ذلك ما يجعله مشاهداً للبصيرة بمنزلة الشمس للبصر، ويكفيهم أنهم عندهم علم أنهم قد ابتدئوا من العدم؛ فالإعادة أسهل من الابتداء، وكذلك الأرض الميتة ينزل الله عليها المطر فتحيا بعد موتها، وينبت به متفرق بذورها.

﴿قُلْ يَنُفِقُكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ﴾: أي: جعله الله وكيلاً على قبض الأرواح، وله أعوان، ﴿ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾: فيجازيكم بأعمالكم، وقد أنكرتم البعث؛ فانظروا ماذا يفعل الله بكم.

﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾: وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدًى وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا إِنَّا نَسِينَاكُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

﴿لما ذكر تعالى رجوعهم إليه يوم القيامة؛ ذكر حالهم في مقامهم بين يديه، فقال: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ﴾: الذين أصروا على الذنوب العظيمة، ﴿نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾: خاشعين خاضعين، أذلاء مقرين بجرمهم، سائلين الرجعة قائلين: ﴿رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا﴾: أي: بان لنا الأمر ورأيناه عياناً، فصار عين يقين، ﴿فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾: أي: صار عندنا الآن يقين بما كنا نكذب به؛ أي: لرأيت أمراً فظيماً وحالاً مزعجة وأقواماً خاسرين وسؤلاً غير مجاب؛ لأنه قد مضى وقت الإمهال.

﴿وكل هذا بقضاء الله وقدره؛ حيث خلى بينهم وبين الكفر والمعاصي؛ فلماذا قال: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدًى﴾: أي: لهدينا الناس كلهم وجمعناهم على الهدى، فمشتبهاً صالحة لذلك، ولكن الحكمة تأبى أن يكونوا كلهم على الهدى، ولهذا قال: ﴿وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي﴾: أي: وجب وثبت ثبوتاً لا تغير فيه، ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ

أَجْمَعِينَ ﴿١٣﴾: فهذا الوعد لا بد منه ولا محيد عنه؛ فلا بد من تقرير أسبابه من الكفر والمعاصي.

﴿١٤﴾ فَذُقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا ﴿١٤﴾؛ أي: يقال للمجرمين الذين ملكهم الذل، وسألوا الرجعة إلى الدنيا؛ ليستدركوا ما فاتهم: قد فات وقت الرجوع، ولم يبق إلا العذاب، فذوقوا العذاب الأليم بما نسيتم لقاء يومكم هذا، وهذا النسيان نسيان ترك؛ أي: بما عرضتم عنه، وتركتم العمل له، وكأنكم غير قادمين عليه ولا ملاقيه. ﴿إِنَّا نَسِيتُكُمْ﴾؛ أي: تركناكم بالعذاب جزاء من جنس عملكم؛ فكما نسيتم نسيتم، ﴿وَذُقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ﴾؛ أي: العذاب غير المنقطع؛ فإن العذاب إذا كان له أجل وغاية؛ كان فيه بعض التنفيس والتخفيف، وأما عذاب جهنم - أعادنا الله منه - فليس فيه روح راحة ولا انقطاع لعذابهم فيها؛ ﴿بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ ﴿١٥﴾: من الكفر والفسوق والمعاصي.

﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِإِيمَانِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ ﴿١٥﴾ نَتَجَافَى جُنُوبَهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾

وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا لَعَمَلٍ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴿١٣﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدًى وَلَكِن حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٤﴾ فَذُقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا إِنَّا نَسِيتُكُمْ وَذُقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِإِيمَانِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿١٥﴾ نَتَجَافَى جُنُوبَهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾ أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَّا يَسْتَوُونَ ﴿١٨﴾ أَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ الْمَمْلُوكِ ﴿١٩﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٠﴾

﴿١٥﴾ لما ذكر تعالى الكافرين بآياته وما أعد لهم من العذاب؛ ذكر المؤمنين بها ووصفهم وما أعد لهم من الثواب، فقال: ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِإِيمَانِنَا﴾؛ أي: إيماناً حقيقياً من يوجد منه شواهد الإيمان، وهم ﴿الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا﴾ ﴿١٥﴾ بآيات ربهم، فتلبت عليهم آيات القرآن، وأتهم النصائح على أيدي رسول الله، ودعوا إلى التذكر؛ سمعوها قبلوها وانقادوا ﴿وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ ﴿١٥﴾: لا بقلوبهم ولا بأبدانهم فيمتنعون من الانقياد لها، بل متواضعون لها، قد تلقوها بالقبول والتسليم وقابلوها بالانسراح والتسليم، وتوصلوا بها إلى مرضاة الرب الرحيم، واهتدوا بها إلى الصراط المستقيم.

﴿١٦﴾ نَتَجَافَى جُنُوبَهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ ﴿١٦﴾؛ أي: ترتفع جنوبهم وتترعج عن مضاجعها اللذيذة إلى ما هو ألد عندهم منه وأحب إليهم، وهو الصلاة في الليل ومناجاة الله تعالى، ولهذا قال: ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ﴾؛ أي: في جلب مصالحهم الدينية والدنيوية ودفع مضارهما ﴿خَوْفًا وَطَمَعًا﴾؛ أي: جامعين بين الوصفين؛ خوفاً أن ترد أعمالهم، وطمعاً في قبولها؛ خوفاً من عذاب الله، وطمعاً في ثوابه، ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ﴾: من الرزق قليلاً أو كثيراً، ﴿يُنْفِقُونَ﴾ ﴿١٦﴾: ولم يذكر قيد النفقة، ولا المنفق عليه؛ ليدل على العموم؛ فإنه يدخل فيه النفقة الواجبة؛ كالزكوات والكفارات ونفقة الزوجات والأقارب، والنفقة المستحقة في وجوه الخير، والنفقة والإحسان المالي خير مطلقاً؛ سواء وافق فقيراً أو غنياً، قريباً أو بعيداً، ولكن الأجر يتفاوت بتفاوت النفع، فهذا عملهم.

﴿١٧﴾ وَأَمَّا جَزَاؤُهُمْ؛ فقال: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ﴾: يدخل فيه جميع نفوس الخلق؛ لكونه نكرة في سياق النفي؛ أي: فلا يعلم أحد ﴿مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾: من الخير الكثير والنعيم الغزير والفرح والسرور واللذة والحبور؛ كما قال تعالى على لسان رسوله: «أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر»^(١)؛ فكما صلوا في الليل ودعوا

فهذا عذاب النار الذي يكون فيه مقرهم ومأواهم، وأما العذاب الذي قبل ذلك ومقدمة له، وهو عذاب البرزخ؛ فقد ذكر بقوله:

﴿وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَىٰ دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ (١٨)

(١٨) أي: ولنذيقن الفاسقين المكذبين نموذجاً من العذاب الأدنى، وهو عذاب البرزخ، فنذيقهم طرقاته قبل أن يموتوا؛ إما بعذاب بالقتل ونحوه كما جرى لأهل بدر من المشركين، وإما عند الموت؛ كما في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْقُلُلُومُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ﴾ [الأنعام: ٩٣]، ثم يكمل لهم العذاب الأدنى في برزخهم.

وهذه الآية من الأدلة على إثبات عذاب القبر، ودلائلها ظاهرة؛ فإنه قال: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَىٰ﴾؛ أي: بعض وجزء منه، فدل على أن ثم عذاباً أدنى قبل العذاب الأكبر، وهو عذاب النار، ولما كانت الإذابة من العذاب الأدنى في الدنيا قد لا يتصل بها الموت، فأخبر تعالى أنه يذيقهم ذلك؛ لعلهم يرجعون إليه، ويتوبون من ذنوبهم؛ كما قال تعالى: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم: ٤١].

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنْقِطُونَ﴾ (١٩)

(١٩) أي: لا أحد أظلم وأزيد تعدياً ممن ذُكر بآيات ربه، التي أوصلها إليه ربه، الذي يريد تربيته وتكميل نعمته عليه على يد رسله، تأمره وتذكره مصالحه الدينية والدنيوية، وتنهيه عن مضاره الدينية والدنيوية، التي تقتضي أن يقابلها بالإيمان والتسليم والانقياد والشكر، فقابلها هذا الظالم بضد ما ينبغي، فلم يؤمن بها ولا اتبعها، بل أعرض عنها وتركها وراء ظهره؛ فهذا من أكبر المجرمين، الذين يستحقون شديد النعمة، ولهذا قال: ﴿إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنْقِطُونَ﴾ (٢٠).

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ الْكِتَابَ فَلَا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَائِهِ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ (٢١) ﴿وَجَعَلْنَا مَتْنَهُمُ آيَةً يَّهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ (٢٢) ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُم يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ (٢٣)

وأخفوا العمل؛ جازاهم من جنس عملهم، فأخفى أجرهم، ولهذا قال: ﴿جَزَاءً يَّمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (٢٤).

﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَّا يَسْتَوُونَ﴾ (٢٥) ﴿أَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَىٰ نُزُلًا يَّمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (٢٦) ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنتُمْ بِهِ تَكْذِبُونَ﴾ (٢٧)

(٢٥) ينه تعالى العقول على ما تقرر فيها من عدم تساوي المتفاوتين المتباينين، وأن حكمته تقتضي عدم تساويهما، فقال: ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا﴾: قد عمر قلبه بالإيمان، وانقادت جوارحه لشرائعه، واقتضى إيمانه آثاره وموجباته من ترك مساخط الله التي يضر وجودها بالإيمان، ﴿كَمَن كَانَ فَاسِقًا﴾: قد خرب قلبه وتعطل من الإيمان، فلم يكن فيه وازع ديني، فأسرعت جوارحه بموجبات الجهل والظلم في كل إثم ومعصية، وخرج بفسقه عن طاعة ربه، أفستوي هذان الشخصان؟! ﴿لَّا يَسْتَوُونَ﴾ (٢٦) ﴿عَقَلًا وَشَرْعًا﴾ كما لا يستوي الليل والنهار والضيء والظلمة، وكذلك لا يستوي ثوابهما في الآخرة.

(٢٦) ﴿أَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾: من فروض ونوافل، ﴿فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَىٰ﴾؛ أي: الجنات التي هي مأوى اللذات، ومعدن الخيرات، ومحل الأفراح، ونعيم القلوب والنفوس والأرواح، ومحل الخلود، وجوار الملك المعبود، والتمتع بقربه والنظر إلى وجهه وسماع خطابه، ﴿نُزُلًا﴾: لهم؛ أي: ضيافة وقرى؛ ﴿يَّمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (٢٧) فاعمالهم التي تفضل الله بها عليهم هي التي أوصلتهم لتلك المنازل الغالية العالية، التي لا يمكن التوصل إليها ببذل الأموال، ولا بالجنود والخدم، ولا بالأولاد، بل ولا بالنفوس والأرواح، ولا يقترب إليها بشيء أصلاً سوى الإيمان والعمل الصالح.

(٢٧) ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ﴾؛ أي: مقرهم ومحل خلودهم النار، التي جمعت كل عذاب وشقاء، ولا يفتر عنهم العقاب ساعة، ﴿كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا﴾: فكلما حدثتهم إرادتهم بالخروج لبلوغ العذاب منهم كل مبلغ؛ ردوا إليها، فذهب عنهم روح ذلك الفرج، واشتد عليهم الكرب، ﴿وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنتُمْ بِهِ تَكْذِبُونَ﴾ (٢٨)

﴿٢٣﴾ لما ذكر تعالى آياته التي ذكر بها عباده، وهو القرآن الذي أنزله على محمد ﷺ، ذكر أنه ليس ببدع من الكتب، ولا من جاء به بغريب من الرسل، فقد أتى الله ﴿مُوسَى الْكِتَابَ﴾: الذي هو التوراة المصدقة للقرآن، التي قد صدقها القرآن، فتطابق حقهما، وثبت برهانهما. ﴿فَلَا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَائِهِ﴾: لأنه قد تواردت أدلة الحق وبيناته، فلم يبق للشك والمرية محل، ﴿وَجَعَلْنَاهُ﴾؛ أي: الكتاب الذي آتيناه موسى ﴿هُدًى لِبَنِي إِسْرَءِيلَ﴾: ﴿٢٤﴾: يهتدون به في أصول دينهم، وفروعه، وشراعه موافقة لذلك الزمان في بني إسرائيل، وأما هذا القرآن الكريم؛ فجعله الله هداية للناس كلهم؛ لأنه هداية للخلق في أمر دينهم ودنياهم إلى يوم القيامة، وذلك لكماله وعلوه، ﴿وَأَنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلُّ حَكِيمٌ﴾ ﴿٢٥﴾ [الزخرف: ٤].

﴿٢٦﴾ ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ﴾؛ أي: من بني إسرائيل، ﴿أَيُّمَةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾؛ أي: علماء بالشرع وطرق الهداية مهتدين في أنفسهم يهدون غيرهم بذلك الهدى؛ فالكتاب الذي أنزل إليهم هدى، والمؤمنون به منهم على قسمين: أتمة يهدون بأمر الله، وأتباع مهتدون بهم، والقسم الأول أرفع الدرجات بعد درجة النبوة والرسالة، وهي درجة الصديقين، وإنما نالوا هذه الدرجة العالية، ﴿لَمَّا صَبَرُوا﴾: على التعلم والتعليم والدعوة إلى الله والأذى في سبيله، وكفوا نفوسهم عن جماحها في المعاصي واسترسالها في الشهوات. ﴿وَكُنَّا نُبَيِّنُ لَهُمْ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾: أي: وصلوا في الإيمان بآيات الله إلى درجة اليقين، وهو العلم التام الموجب للعمل، وإنما وصلوا إلى درجة اليقين؛ لأنهم تعلموا تعلمًا صحيحًا، وأخذوا المسائل عن أدلتها المفيدة لليقين، فما زالوا يتعلمون المسائل، ويستدلون عليها بكثرة الدلائل، حتى وصلوا لذلك؛ فبالصبر واليقين تنال الإمامة في الدين.

﴿٢٧﴾ وثم مسائل اختلف فيها بنو إسرائيل، منهم من أصاب فيها الحق، ومنهم من أخطأ خطأ أو عمدًا، والله تعالى ﴿يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾: وهذا القرآن يقصص على بني إسرائيل بعض الذي يختلفون فيه؛ فكل خلاف وقع بينهم، ووجد في القرآن تصديق لأحد القولين؛ فهو الحق، وما عداه مما خالفه باطل.

﴿٢٨﴾ ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسْجِدِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ﴾: يعني: أولم يتبين لهؤلاء المكذبين للرسول ويهديهم إلى الصواب كم أهلكنا قبلهم من القرون الذين سلکوا مسلكهم، ﴿يَمْشُونَ فِي مَسْجِدِهِمْ﴾: فيشاهدونها عيانًا؛ كقوم هود وصالح وقوم لوط. ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ﴾: يستدل بها على صدق الرسل التي جاءتهم، وبطلان ما هم عليه من الشرك والشر، وعلى أن من فعل مثل فعلهم؛ فعل بهم كما فعل بأشباعه من قبل، وعلى أن الله تعالى مجازي العباد وابعثهم للحشر والتناد. ﴿أَفَلَا يَسْمَعُونَ﴾: آيات الله، فيعونها، فيتفجعون بها؛ فلو كان لهم سمع صحيح وعقل رجيح؛ لم يقيموا على حالة يجزم بها بالهلاك.

﴿٢٩﴾ ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾: بأبصارهم نعمتنا وكمال حكمتنا، ﴿أَنَّا سَوَّيْنَا الْأَرْضَ الْجُرْزَ﴾: التي لا نبات فيها، فيسوق الله المطر الذي لم يكن قبل موجودًا فيها، فيفرغه فيها من السحاب أو من الأنهار؛ ﴿فَتُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا﴾؛ أي: نباتًا مختلف الأنواع،

سورة السجدة

وَلَنَذِقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَذَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٣﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذَكَرَ بَيِّنَاتٍ مِنْ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ﴿٢٤﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَلَا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَائِهِ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِبَنِي إِسْرَءِيلَ ﴿٢٥﴾ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ آيَةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٦﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٢٧﴾ أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسْجِدِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ ﴿٢٨﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا سَوَّيْنَا الْأَرْضَ الْجُرْزَ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْفُسُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴿٢٩﴾ وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ الْقُبُورِ ﴿٣٠﴾ قُلْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيْمَانُهُمْ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ ﴿٣١﴾ فَأَعْرَضَ عَنْهُمْ فَنَسَوْنَهُمْ مَتَى نُنَازِلُكُمْ فَتَمَازِلُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٣٢﴾

سورة السجدة

٤١٧

سورة الأحزاب

الْمُنْفِقِينَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَطِيعُ الْكٰفِرِينَ وَالْمُنْفِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ۝ وَأَتَّبِعْ مَا يُوْحَىٰ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ يَمَّا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ۝ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا ۝ مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ ۚ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللَّائِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ ۚ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ۚ ذٰلِكُمْ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ ۚ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ ۝ أَدْعُوهُمْ لِأَبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَاِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ ۚ وَلٰكِنْ مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ۝ الَّذِينَ أُولَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُمْ أُمَّهَاتُهُمْ وَأُولُو الْأَرْحَامِ مِنْ بَعْضِهِمْ أُولَىٰ ۚ بَعْضٌ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ إِلَّا أَنْ تَفْعَلُوا إِلَىٰ أَوْلِيَائِكُمْ مَعْرُوفًا ۚ كَانَ ذٰلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا ۝

٤١٨

﴿تَأْكُلْ مِنْهُ أَمْهَاتُهُمْ﴾: وهو نبات البهائم ﴿وَأَنْفُسُهُمْ﴾: وهو طعام الآدميين. ﴿أَفَلَا يُبْصِرُونَ﴾ (٢٧): تلك المنة التي أحيا الله بها البلاد والعباد، فيستبصرون فيهتدون بذلك البصر وتلك البصيرة إلى الصراط المستقيم؟ ولكن غلب عليهم العمى، واستولت عليهم الغفلة، فلم يبصروا في ذلك بصر الرجال، وإنما نظروا إلى ذلك نظر الغفلة ومجرد العادة، فلم يوقفوا للخير.

﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هٰذَا الْفَتْحُ إِنْ كُنْتُمْ صٰدِقِينَ﴾ (٢٨) قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيْمَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ ﴿٢٩﴾ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانْتَظِرْ إِنَّهُمْ مُنْتَظَرُونَ ﴿٣٠﴾.

﴿٢٨﴾ أي: يستعجل المجرمون بالعذاب الذي وعدوا به على التكذيب جهلاً منهم ومعاندة، ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هٰذَا الْفَتْحُ﴾: الذي يفتح بيننا وبينكم بتعذيبنا على زعمكم ﴿إِنْ كُنْتُمْ﴾ أيها الرسل ﴿صٰدِقِينَ﴾ (٢٨): في دعواكم.

﴿٢٩﴾ قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ﴾: الذي يحصل به عقابكم لا تستفيدون به شيئاً؛ فلو كان إذا حصل؛ حصل إمهالكم لتستدركوا ما فاتكم حين صار الأمر عندكم يقيناً؛ لكان لذلك وجه، ولكن إذا جاء يوم الفتح؛ انقضى الأمر، ولم يبق للمحنة والابتلاء محل، ف﴿لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيْمَتُهُمْ﴾: لأنه صار إيمان ضرورة، ﴿وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ﴾ (٢٩): أي: يمهلون، فيؤخر عنهم العذاب، فيستدركون أمرهم.

﴿٣٠﴾ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾: لما وصل خطابهم لك وظلمهم إلى حالة الجهل واستعجال العذاب. ﴿وَانْتَظِرْ﴾: الأمر الذي يحل بهم؛ فإنه لا بد منه، ولكن له أجل إذا جاء لا يتقدم ولا يتأخر، ﴿إِنَّهُمْ مُنْتَظَرُونَ﴾ (٣٠): بك ريب المنون، ومتربصون بكم دوائر السوء، والعاقبة للتعقوى.

تم تفسير سورة السجدة بحول الله ومنه. فله تعالى كمال الحمد والثناء والمجد.

﴿٣١﴾

تفسير سورة الأحزاب

وهي مدنية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَطِيعُ الْكٰفِرِينَ وَالْمُنْفِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ (١) وَأَتَّبِعْ مَا يُوْحَىٰ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ يَمَّا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٢﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿٣﴾.

﴿١﴾، ﴿٢﴾، ﴿٣﴾ أي: يا أيها الذي من الله عليه بالنبوة واختصه بوحيه وفضله على سائر الخلق! اشكر نعمة ربك عليك باستعمال تقواه التي أنت أولى بها من غيرك، والذي يجب عليك منها أعظم من سواك؛ فامثل أوامره ونواهيه، وبلغ رسالاته، وأد إلى

عباده وحيه، وابذل النصيحة للخلق، ولا يصدنك عن هذا المقصود صاذاً ولا يردك عنه راداً، فلا تطع كل كافر قد أظهر العداوة لله ولرسوله، ولا منافق قد استبطن التكذيب والكفر وأظهر ضده؛ فهؤلاء هم الأعداء على الحقيقة؛ فلا تطعمهم في بعض الأمور التي تنقض التقوى وتناقضها، ولا تتبع أهواءهم؛ يضلوك عن الصواب. ولكن اتبع ﴿مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾؛ فإنه هو الهدى والرحمة، وارج بذلك ثواب ربك؛ فإنه ﴿يَمَّا تَعْمَلُونَ خَيْرًا﴾ ﴿٢﴾: يجازيكم بحسب ما يعلمه منكم من الخير والشر.

﴿٣﴾ فإن وقع في قلبك أنك إن لم تطعمهم في أهوائهم المضلة؛ حصل عليك منهم ضرر، أو حصل نقص في هداية الخلق؛ فادفع ذلك عن نفسك، واستعمل ما يقاومه ويقاوم غيره، وهو التوكل على الله؛ بأن تعتمد على ربك اعتماد من لا يملك لنفسه ضرراً ولا نفعاً ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً في سلامتك من شرهم وفي إقامة الدين الذي أمرت به، وثق بالله في حصول ذلك الأمر على أي حال كان.

﴿وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ ﴿٤﴾: توكل إليه الأمور، فيقوم بها وبما هو أصلح للعبد، وذلك لعلمه بمصالح عبده من حيث لا يعلم العبد، وقدرته على إيصالها إليه من حيث لا يقدر عليها العبد، وأنه أرحم بعبده من نفسه ومن والديه وأرأف به من كل أحد، خصوصاً خواص عبيده، الذين لم يزل يرببهم ببره ويدر عليهم بركاته الظاهرة والباطنة، خصوصاً وقد أمره بإلقاء أموره إليه، ووعد أنه يقوم بها؛ فهناك لا تسأل عن كل أمر يتيسر، وصعب يسهل، وخطوب تهون، وكروب تزول، وأحوال وحوائج تقضى، وبركات تنزل، ونقم تدفع، وشرور ترفع. وهناك ترى العبد، الضعيف الذي فوض أمره لسيده قد قام بأمور لا تقوم بها أمة من الناس، وقد سهل الله عليه ما كان يصعب على فحول الرجال. وبالله المستعان.

﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ﴾ وَمَا جَعَلَ أَرْوَاحَكُمْ أَلَّتِي تَطْلَهُونَ مِنْهُنَّ أَمْهَاتِكُمْ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَلِكَ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ ﴿٥﴾ أَدْعُوهُمْ لِأَبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَلَاخُونَكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوْلَاكُمْ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُم بِهِ وَلَكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٦﴾

﴿٥﴾ ثم صرح لهم بترك الحالة الأولى المتضمنة للقول الباطل، فقال: ﴿أَدْعُوهُمْ﴾؛ أي: الأدعياء ﴿لِأَبَائِهِمْ﴾: الذين ولدوهم ﴿هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ﴾؛ أي: أعدل

﴿وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ﴾: والأدعياء: الولد الذي كان الرجل يدعيه وهو ليس له، أو يدعى إليه بسبب تبنيه إياه؛ كما كان الأمر في الجاهلية وأول الإسلام، فأراد الله تعالى أن يبطله ويزيله، فقدم بين يدي ذلك بيان قبحه، وأنه باطل وكذب، وكل باطل وكذب لا يوجد في شرع الله ولا يتصف به عباد الله، يقول تعالى: فالله لم يجعل الأديعاء الذين تدعونهم أو يدعون إليكم أبناءكم؛ فإن أبناءكم في الحقيقة من ولدتموهم وكانوا منكم، وأما هؤلاء الأديعاء من غيركم؛ فلا جعل الله هذا كهذا، ﴿ذَلِكَ﴾: القول الذي تقولون في الدعي: إنه ابن فلان الذي ادعاه، أو والده فلان، ﴿قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ﴾؛ أي: قول لا حقيقة له ولا معنى له، ﴿وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ﴾؛ أي: اليقين والصدق؛ فلذلك أمركم باتباعه على قوله وشرعه؛ فقوله حق، وشرعه حق، والأقوال والأفعال الباطلة لا تنسب إليه بوجه من الوجوه، وليست من هدايته؛ لأنه لا يهدي إلا إلى السبيل المستقيمة والطرق الصادقة، وإن كان ذلك واقعاً بمشيئته؛ فمشيئته عامة لكل ما وجد من خير وشر.

﴿٦﴾ ثم صرح لهم بترك الحالة الأولى المتضمنة للقول الباطل، فقال: ﴿أَدْعُوهُمْ﴾؛ أي: الأديعاء ﴿لِأَبَائِهِمْ﴾: الذين ولدوهم ﴿هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ﴾؛ أي: أعدل

مقدمة لما سيأتي في قصة زيد بن حارثة، الذي كان يدعى قبل زيد بن محمد، حتى أنزل الله: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ﴾ [الأحزاب: ٤٠]، فقطع نسبه وانتسابه منه.

فأخبر في هذه الآية أن المؤمنين كلهم أولاد للرسول؛ فلا مزية لأحد عن أحد، وإن انقطع عن أحدهم انتساب الدعوة؛ فإن النسب الإيماني لم ينقطع عنه؛ فلا يحزن ولا يأسف، وترتب على أن زوجات الرسول أمهات المؤمنين: أنهن لا يحلن لأحد من بعده؛ كما سيصرح بذلك، ﴿وَلَا أَن تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُنَّ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا﴾ [الأحزاب: ٥٣].

﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ﴾؛ أي: الأقارب قربوا أو بعدوا ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾؛ أي: في حكمه، فيرتب بعضهم بعضاً ويبر بعضهم بعضاً؛ فهم أولى من الحلف والنصرة، والأدعياء الذين كانوا من قبل يربون بهذه الأسباب دون ذوي الأرحام، فقطع تعالى التوارث بذلك، وجعله للأقارب لطفاً منه وحكمة؛ فإن الأمر لو استمر على العادة السابقة؛ لحصل من الفساد والشر والتحليل لحرمان الأقارب من الميراث شيء كثير، ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ﴾؛ أي: سواء كان الأقارب مؤمنين مهاجرين أو غير مهاجرين؛ فإن ذوي الأرحام مقدمون في ذلك. وهذه الآية حجة على ولاية ذوي الأرحام في جميع الولايات؛ كولاية النكاح والمال وغير ذلك، ﴿إِلَّا أَن تَفْعَلُوا إِلَىٰ أَوْلِيَائِكُمْ مَّعْرُوفًا﴾؛ أي: ليس لهم حق مفروض، وإنما هو بإرادتكم، إن شئتم أن تبرعوا لهم تبرعاً وتعطوهم معروفاً منكم، ﴿كَانَ﴾؛ ذلك الحكم المذكور ﴿فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا﴾؛ أي: قد سطر وكتب وقدره الله؛ فلا بد من نفوذه.

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا﴾ (٧) لِيَسْتَلِ الصَّادِقِينَ عَنْ صِدْقِهِمْ وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا (٨).

(٧)، (٨) يخبر تعالى أنه أخذ من النبيين عموماً ومن أولي العزم - وهم هؤلاء الخمسة المذكورون خصوصاً - ميثاقهم الغليظ وعهدهم الثقيل المؤكد على القيام بدين الله والجهاد في سبيله، وأن هذا سبيل قد مشى عليه الأنبياء المتقدمون، حتى ختموا بسيدهم وأفضلهم محمد ﷺ، وأمر الناس بالاعتداء بهم، وسيسأل الله الأنبياء وأتباعهم عن هذا

وأقوم وأهدي، ﴿فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ﴾: الحقيقين ﴿فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ﴾؛ أي: إخوانكم في دين الله ومواليكم في ذلك؛ فادعوهم بالأخوة الإيمانية الصادقة والموالاتة على ذلك؛ فترك الدعوة إلى من تبناهم حتم لا يجوز فعلها، وأما دعاؤهم لأبائهم؛ فإن علموا؛ دعوا إليهم، وإن لم يعلموا؛ اقتصر على ما يعلم منهم، وهو أخوة الدين والموالاتة؛ فلا تظنوا أن حالة عدم علمكم بأبائهم عذر في دعوتهم إلى من تبناهم؛ لأن المحذور لا يزول بذلك.

﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُم بِهِ﴾: بأن سبق على لسان أحدكم دعوته إلى من تبناه؛ فهذا غير مؤاخذ به، أو علم أبوه ظاهراً فدعوتموه إليه، وهو في الباطن غير أبيه؛ فليس عليكم في ذلك حرج إذا كان خطأ. ﴿وَلَكِن يَأْخُذُكُمْ بِهِ﴾: مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ من الكلام بما لا يجوز. ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ (٩): غفر لكم ورحمكم؛ حيث لم يعاقبكم بما سلف، وسمح لكم بما أخطأتم به، ورحمكم؛ حيث بين لكم أحكامه التي تصلح دينكم ودنياكم؛ فله الحمد تعالى.

﴿الَّتِي أُولَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ إِلَّا أَن تَفْعَلُوا إِلَىٰ أَوْلِيَائِكُمْ مَّعْرُوفًا﴾ (١٠) كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا (١١).

(١١) يخبر تعالى المؤمنين خبراً يعرفون به حالة الرسول ﷺ ومرتبته، فيعاملونه بمقتضى تلك الحالة، فقال: ﴿الَّتِي أُولَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾: أقرب ما للإنسان وأولى ما له نفسه؛ فالرسول أولى به من نفسه؛ لأنه عليه الصلاة والسلام بذل لهم من النصح والشفقة والرافة ما كان به أرحم الخلق وأرأفهم؛ فرسول الله أعظم الخلق منة عليهم من كل أحد؛ فإنه لم يصل إليهم مثقال ذرة من الخير ولا اندفع عنهم مثقال ذرة من الشر إلا على يديه وبسببه؛ فلذلك وجب عليهم إذا تعارض مراد النفس أو مراد أحد من الناس مع مراد الرسول أن يقدم مراد الرسول، وألا يعارض قول الرسول بقول أحد كائناً ما كان، وأن يفدوه بأنفسهم وأموالهم وأولادهم، ويقدموا محبته على محبة الخلق كلهم، وألا يقولوا حتى يقول، ولا يتقدموا بين يديه، وهو ﷺ أب للمؤمنين؛ كما في قراءة بعض الصحابة يريهم كما يربي الوالد أولاده، فترتب على هذه الأبوة أن كان نساؤه أمهاتهم؛ أي: في الحرمة والاحترام والإكرام، لا في الخلوة والمحرمية، وكان هذا

العهد الغليظ؛ هل وفوا فيه وصدقوا فيبيهم جنات النعيم، أم كفروا فيعذبهم العذاب الأليم؟ قال تعالى: ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ﴾ [الأحزاب: ٢٣].

﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾ ① إِذْ جَاءَكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَنَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونًا ② هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا ③.

① - ③ يذكر تعالى عباده المؤمنين نعمته عليهم، ويعثهم على شكرها حين جاءتهم جنود أهل مكة والحجاز من فوقهم وأهل نجد من أسفل منهم، وتعاقدوا وتعاهدوا على استئصال الرسول والصحابة، وذلك في وقعة الخندق، ومالاتهم طوائف اليهود الذين حوالي المدينة، فجاءوا بجنود عظيمة وأمم كثيرة، وخندق رسول الله ﷺ على المدينة، فحصرها المدينة، واشتد الأمر، وبلغت القلوب الحناجر، حتى بلغ الظن من كثير من الناس كل مبلغ لما رأوا من الأسباب المستحكمة والشدائد الشديدة، فلم يزل الحصار على المدينة مدة طويلة، والأمر كما وصف الله: ﴿وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَنَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونًا﴾ ②؛ ﴿هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ ③: بهذه الفتنة العظيمة، ﴿وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا﴾ ④: بالخوف والقلق والجوع؛ ليتبين إيمانهم ويزيد إيقانهم، فظهر ولله الحمد من إيمانهم وشدة يقينهم ما فاقوا فيه الأولين والآخرين. وعندما اشتد الكرب وتفاقت الشدائد؛ صار إيمانهم عين اليقين، ﴿وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ، وَصَدَّقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ، وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا﴾ ⑤ [الأحزاب: ٢٢].

وهناك تبين نفاق المنافقين، وظهر ما كانوا يضمرون؛ قال تعالى:

﴿وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا﴾ ⑥.

⑥ وهذه عادة المنافق عند الشدة والمحنة؛ لا يثبت إيمانه، وينظر بعقله القاصر إلى الحالة الحاضرة، ويصدق ظنه.

﴿وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يَأْتِلُ الْيَرْبَ لَا مَقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَبَسْتِذِنْ فَرِيقٌ مِنْهُمْ النَّبِيُّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا﴾ ⑦ وَلَوْ دَخَلَتْ عَلَيْهِمْ مِنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سَبَلُوا الْفِتْنَةَ لَأَتَوْهَا وَمَا تَلَبَّسُوا بِهَا إِلَّا يَسِيرًا ⑧ وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ لَا يُولُوكَ إِلَّا دَبْرًا وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا ⑨ قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمْ الْفِرَارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذْ لَا تُنْعَوُونَ إِلَّا قَلِيلًا ⑩ قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُمْ مِنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَجِدُونَ لَهْمَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَيْكَا وَلَا نَصِيرًا ⑪ قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّنِينَ مِنْكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْرَجِهِمْ هَلْمْ إِيَّانَا وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ⑫ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ نَظَرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْنِي عَنْهُ مِنَ الْمَوْتِ إِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُمْ بِالنِّسَةِ جَدِيدًا أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ أُولَئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَلَهُمْ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ⑬ بَحْسُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا وَإِنْ يَأْتِ الْأَحْزَابَ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُمْ بَادُوا فِي الْأَحْزَابِ يَسْلُوكُ عَنْ أُنْبِيَائِهِمْ وَلَوْ كَانُوا فِيكُمْ مَا قَتَلُوا إِلَّا قَلِيلًا ⑭ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَذِكْرًا ⑮ وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ

سورة الأحزاب

سورة الأحزاب

قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا ﴿١٦﴾ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَن يَنْظُرُ وَمَا بَدَلُوا تَبْدِيلًا ﴿١٧﴾ لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِن شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٨﴾ وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَأْتُوا خَيْرًا وَكَفَىٰ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيمًا ﴿١٩﴾ وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صَافِيهِمْ وَوَدَّفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٢٠﴾ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَبَنَاتَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطْهَرْهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴿٢١﴾

﴿١٦﴾ وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ: ﴿من المنافقين بعدما جزعوا وقل صبرهم صاروا أيضًا من المخذلين؛ فلا صبروا بأنفسهم، ولا تركوا الناس من شرهم، فقالت هذه الطائفة: ﴿يَتَأَهَّلَ يَرْبُ﴾ يريدون: يا أهل المدينة! فنادوهم باسم الوطن المنبئ عن التسمية فيه؛ إشارة إلى أن الدين والأخوة الإيمانية ليس له في قلوبهم قدر؛ وأن الذي حملهم على ذلك مجرد الخور الطبيعي. ﴿يَتَأَهَّلَ يَرْبُ لَا مُقَامَ لَكُمْ﴾؛ أي: في موضعكم الذي خرجتم إليه خارج المدينة، وكانوا عسكروا دون الخندق وخارج المدينة، ﴿فَارْجِعُوا﴾: إلى المدينة. فهذه

الطائفة تُخَذِّلُ عن الجهاد وتبين أنهم لا قوة لهم بقتال عدوهم ويأمرهم بترك القتال؛ فهذه الطائفة أشر الطوائف وأضرها، وطائفة أخرى دونهم، أصابهم الجبن والجزع، وأحبوا أن ينخلعوا عن الصفوف، فجعلوا يعتذرون بالأعذار الباطلة، وهم الذين قال الله فيهم: ﴿وَيَسْتَفِذُّ فَرِيقٌ مِنْهُمْ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ﴾؛ أي: عليها الخطر ونخاف عليها أن يهجم عليها الأعداء ونحن غيب عنها؛ فأذن لنا؛ نرجع إليها فتحرسها، وهم كذبة في ذلك، ﴿وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ﴾؛ أي: ما قصدهم ﴿إِلَّا فِرَارًا﴾ ﴿١٦﴾ ولكن جعلوا هذا الكلام وسيلة وعذرًا لهم؛ فهؤلاء قل إيمانهم، وليس له ثبوت عند اشتداد المحن.

﴿١٧﴾ وَلَوْ دَخَلَتْ عَلَيْهِمُ: المدينة ﴿مِنْ أَقْطَارِهَا﴾؛ أي: لو دخل الكفار إليها من نواحيها واستولوا عليها - لا كان ذلك - ثم سئل هؤلاء ﴿الْفِتْنَةَ﴾؛ أي: الانقلاب عن دينهم والرجوع إلى دين المستولين المتغلبين، ﴿لَا تَوَهَا﴾؛ أي: لأعطوها مبادرين، ﴿وَمَا تَلَبَّثُوا فِيهَا إِلَّا بَسِيرًا﴾ ﴿١٧﴾؛ أي: ليس لهم منعة ولا تصلب على الدين، بل بمجرد ما تكون الدولة للأعداء؛ يعطونهم ما طلبوا، ويوافقونهم على كفرهم.

﴿١٨﴾ هَذِهِ حَالُهُمْ، وَالْحَالُ أَنَّهُمْ قَدْ ﴿عَاهَدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُولَوْا الْآدْبِرَ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا﴾ ﴿١٨﴾: سيسألهم عن ذلك العهد، فيجدهم قد نقضوه؛ فما ظنهم إذا برههم؟!

﴿١٩﴾ قُلْ: ﴿لَهُمْ لَائِمًا عَلَى فِرَارِهِمْ وَمَخْبَرًا أَنَّهُمْ لَا يَفِيدُهُمْ ذَلِكَ شَيْئًا﴾ ﴿لَنْ يَنْفَعَكُمْ الْفِرَارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوْ الْقَتْلِ﴾: فلو كنتم في بيوتكم؛ لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم، والأسباب تنفع إذا لم يعارضها القضاء والقدر؛ فإذا جاء القضاء والقدر؛ تلاشى كل سبب، وبطلت كل وسيلة ظنها الإنسان تنجيها، ﴿وَإِذَا﴾: حين فررتهم؛ لتسلموا من الموت والقتل، لتنعما في الدنيا؛ فإنكم ﴿لَا تَسْعَوْنَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ ﴿١٩﴾: متاعًا لا يسوى فراركم وترككم أمر الله وتفويتكم على أنفسكم التمتع الأبدي في النعيم السرمدى.

لم يذهبوا حتى يستأصلوهم، فخاب ظنهم، وبطل حسبانهم. ﴿وَلَمَّا يَأْتِ الْأَحْزَابُ﴾: مرة أخرى، ﴿يُودُوا لَوْ أَنَّهُمْ بَادَوْتَ فِي الْأَعْرَابِ يَسْأَلُونَ عَنْ أَنْبَائِكُمْ﴾: أي: لو أتى الأحزاب مرة ثانية مثل هذه المرة؛ ود هؤلاء المنافقون أنهم ليسوا في المدينة، ولا في القرب منها، وأنهم مع الأعراب في البادية، يستخبرون عن أخباركم، ويسألون عن أنباءكم ماذا حصل عليكم؟ فتبأ لهم وبعداً؛ فليسوا ممن يبالي بحضورهم، ﴿وَلَوْ كَانُوا فِيكُمْ مَا قُتِلُوا إِلَّا قَلِيلًا﴾: فلا تبالوهم، ولا تأسوا عليهم.

﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾: حيث حضر الهجاء بنفسه الكريمة، وبأشر موقف الحرب وهو الشريف الكامل والبطل الباسل، فكيف تشحون بأنفسكم عن أمر جاد رسول الله ﷺ بنفسه فيه؟ فتأسوا به في هذا الأمر وغيره.

واستدل الأصوليون في هذه الآية على الاحتجاج بأفعال الرسول ﷺ، وأن الأصل أن أمته أسوته في الأحكام؛ إلا ما دل الدليل الشرعي على الاختصاص به؛ فالأسوة نوعان: أسوة حسنة وأسوة سيئة، فالأسوة الحسنة في الرسول ﷺ؛ فإن المتأسي به سالك الطريق الموصل إلى كرامة الله، وهو الصراط المستقيم، وأما الأسوة بغيره إذا خالفه؛ فهو الأسوة السيئة؛ كقول المشركين حين دعتهم الرسل للتأسي بهم: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُّهْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٢]. وهذه الأسوة الحسنة إنما يسلكها ويوفق لها من كان يرجو الله واليوم الآخر؛ فإن ما معه من الإيمان وخوف الله ورجاء ثوابه وخوف عقابه يحثه على التأسي بالرسول ﷺ.

﴿لَمَّا ذَكَرَ الْحَالَةَ الْمُنَافِقِينَ عِنْدَ الْخَوْفِ﴾: ذكر حال المؤمنين فقال: ﴿وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ﴾: الذين تحزبوا ونزلوا منازلهم وانتهى الخوف، ﴿قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾: في قوله: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾ [البقرة: ٢١٤]، ﴿وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾: فإنا رأينا ما أخبرنا به، ﴿وَمَا زَادَهُمْ﴾: ذلك الأمر ﴿إِلَّا إِيْمَانًا﴾: في قلوبهم، ﴿وَسَلِيمًا﴾: في جوارحهم، وانقياداً لأمر الله.

﴿ثُمَّ بَيَّنَّ أَنَّ الْأَسْبَابَ كُلَّهَا لَا تَغْنِي عَنِ الْعَبْدِ شَيْئًا إِذَا أَرَادَهُ اللَّهُ بِسُوءٍ﴾: ﴿قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُمْ؟﴾: أي: يمنعكم ﴿مِنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا﴾: أي: شراً، ﴿أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً﴾: فإنه هو المعطي المانع، الضار النافع، الذي لا يأتي بالخير إلا هو، ولا يدفع السوء إلا هو، ﴿وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا﴾: يتولاهم فيجلب لهم النفع ﴿وَلَا نَصِيرًا﴾: ينصرهم فيدفع عنهم المضار؛ فليمتثلوا طاعة المنفرد بالأمور كلها، الذي نفذت مشيئته ومضى قدره ولم ينفع مع ترك ولايته ونصرته ولي ولا ناصر.

﴿ثُمَّ تَوَعَّدَ تَعَالَى الْمُخْذِلِينَ الْمُعْوِقِينَ وَتَهَدَّدَهُمْ فَقَالَ: قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعْوِقِينَ يَنْكُرُ﴾: عن الخروج لمن لم يخرجوا، ﴿وَالْقَائِلِينَ لِإِخْرَجِهِمْ﴾: الذين خرجوا: ﴿هَلُمَّ إِنِّي﴾: أي: ارجعوا كما تقدم من قولهم: ﴿يَتَأَهَّلُ يَتَرَبَّ لَا مَقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا﴾، وهم مع تعويقهم وتخذيْلهم ﴿وَلَا يَأْتُونَ الْبَاسَ﴾: القتال والجهاد بأنفسهم، ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾: فهم أشد الناس حرصاً على التخلف لعدم الداعي لذلك من الإيمان والصبر، ووجود المقتضي للجبن من النفاق وعدم الإيمان.

﴿أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ﴾: بأبدانهم عند القتال، وأموالهم عند النفقة فيه؛ فلا يجاهدون بأموالهم وأنفسهم، ﴿فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ﴾: نظر المغشي ﴿عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ﴾: من شدة الجبن الذي خلغ قلوبهم والقلق الذي أذهلهم وخوفاً من إجبارهم على ما يكرهون من القتال، ﴿فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ﴾: وصاروا في حال الأمن والطمأنينة؛ ﴿سَلَفُوكُمْ بِالْأَسْنَةِ جِدَارٍ﴾: أي: خاطبوكم وتكلموا معكم بكلام حديد ودعاوى غير صحيحة، وحين تسمعهم تظنهم أهل الشجاعة والإقدام. ﴿أَشِحَّةً عَلَى الْكَفَرِ﴾: الذي يراد منهم، وهذا شر ما في الإنسان: أن يكون شحيحاً بما أمر به، شحيحاً بما له أن ينفقه في وجهه، شحيحاً في بدنه أن يجاهد أعداء الله أو يدعو إلى سبيل الله، شحيحاً بجاهه، شحيحاً بعلمه ونصيحته ورأيه. ﴿أُولَٰئِكَ﴾: الذين بتلك الحالة ﴿لَوْ يُؤْمِنُوا﴾: بسبب عدم إيمانهم؛ أحبط الله أعمالهم. ﴿وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾: وأما المؤمنون؛ فقد وقاهم الله شح أنفسهم، ووقفهم لبذل ما أمروا به من بذل أبدانهم في القتال في سبيله، وإعلاء كلمته، وأموالهم للنفقة في طرق الخير، وجاههم وعلمهم.

﴿يَحْسَبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا﴾: أي: يظنون أن هؤلاء الأحزاب الذين تحزبوا على حرب رسول الله ﷺ وأصحابه

﴿٢٣﴾ ولما ذكر أن المنافقين عاهدوا الله لا يولون الأديار وتنفصوا ذلك العهد؛ ذكر وفاء المؤمنين به، فقال: ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ﴾؛ أي: وفوا به وأتموه وأكملوه، فبذلوا مهجهم في مرضاته، وسبّلوا نفوسهم في طاعته. ﴿فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ﴾؛ أي: إرادته ومطلوبه وما عليه من الحق، فقتل في سبيل الله أو مات مؤدياً لحقه لم ينقصه شيئاً، ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ﴾: تكميل ما عليه؛ فهو شاعر في قضاء ما عليه وفاء نحيبه ولما يكمله، وهو في رجاء تكميله ساع في ذلك معجد، ﴿وَمَا يَدُلُّوا بِتَبْدِيلِكَ﴾: كما بدل غيرهم، بل لم يزلوا على العهد، لا يلوون ولا يتغيرون؛ فهؤلاء الرجال على الحقيقة، ومن عداهم فصورهم صور رجال، وأما الصفات؛ فقد قصرت عن صفات الرجال.

﴿٢٤﴾ لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ؛ أي: بسبب صدقهم في أقوالهم وأحوالهم ومعاملتهم مع الله واستواء ظاهرهم وباطنهم، قال الله تعالى: ﴿هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ﴾ ثُمَّ جَنَّتْ بُرْجِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا [المائدة: ١١٩] الآية؛ أي: قدرنا ما قدرنا من هذه الفتن والمحن والزلازل لبتين الصادق من الكاذب، فيجزى الصادقين بصدقهم، ﴿وَيُعَذِّبُ الْمُنَافِقِينَ﴾: الذين تغيرت قلوبهم وأعمالهم عند حلول الفتن، ولم يفوا بما عاهدوا الله عليه،

﴿إِنْ شَاءَ﴾: تعذيبهم؛ بأن لم يشأ هدايتهم، بل علم أنهم لا خير فيهم، فلم يوفقهم، ﴿أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾: بأن يوفقهم للتوبة والإنابة، وهذا هو الغالب على كرم الكريم، ولهذا ختم الآية باسمين دالين على المغفرة والفضل والإحسان، فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾؛ غفوراً للذنوب المسرفين على أنفسهم، ولو أكثروا من العصيان، إذا أتوا بالمتاب. ﴿رَحِيمًا﴾: بهم؛ حيث وفقهم للتوبة، ثم قبلها منهم، وستر عليهم ما اجترحوه.

﴿٢٥﴾ وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَبِئَاسَ لَوْ آخِرًا؛ أي: ردهم خائبين، لم يحصل لهم الأمر الذي كانوا حريصين عليه، مغتاطين، قادرين عليه، جازمين بأن لهم الدائرة، قد غرتهم جموعهم وأعجبوا بتحزيبهم وفرحوا بعددهم وعددهم، فأرسل الله عليهم ريحاً عظيمة، وهي ريح الصبا، فزعزت مراكزهم، وقوضت خيامهم، وكفأت قدرهم، وأزعجتهم، وضربهم الله بالرعب، فانصرفوا بغيبظهم، وهذا من نصر الله لعباده المؤمنين. ﴿وَكُفِيَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ﴾: بما صنع لهم من الأسباب العادية والقدرية. ﴿وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا﴾: لا يغالبه أحد إلا غلب، ولا يستنصره أحد إلا غلب، ولا يعجزه أمر أراد، ولا ينفع أهل القوة والعزة قوتهم وعزتهم إن لم يعنهم بقوته وعزته.

﴿٢٦﴾ وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ؛ أي: عاونوهم ﴿مِنَ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾؛ أي: من اليهود ﴿مِنْ صَيَاصِيهِمْ﴾؛ أي: أنزلهم من حصونهم نزولاً مظفورا بهم مجعولين تحت حكم الإسلام، ﴿وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ﴾: فلم يقووا على القتال، بل استسلموا وخضعوا وذلوا. ﴿فَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾: وهم الرجال المقاتلون، ﴿وَأَسْرَرْتُمْ قَرِيبًا﴾: من عداهم من النساء والصبيان.

﴿٢٧﴾ وَأَوْرَثَكُمْ؛ أي: غنمكم ﴿أَرْضَهُمْ وَدِينَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَّوْهَا﴾؛ أي: أرضاً كانت من قبل من شرفها وعزتها عند أهلها لا تمكثون من وطنها، فمكنكم الله، وخذلهم، وغنمتم أموالهم، وقتلتموهم، وأسرتموهم، ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ

لَكُنَّ اللَّهُ ورسوله والجنة؛ لم تبالين بسعة الدنيا وضيقتها ويسرها وعسرها، وقنعتن من رسول الله بما تيسر، ولم تطلبن منه ما يشق عليه، ﴿فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنْكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ (٢٩): رتب الأجر على وصفهن بالإحسان؛ لأنه السبب الموجب لذلك، لا لكونهن زوجات للرسول؛ فإن مجرد ذلك لا يكفي، بل لا يفيد شيئاً مع عدم الإحسان، فخيرهن رسول الله ﷺ في ذلك، فاخترن الله ورسوله والدار الآخرة كلهن، لم يتخلف منهن واحدة رضي الله عنهن.

وفي هذا التخيير فوائد عديدة:

منها: الاعتناء برسوله والغيرة عليه أن يكون بحالة يشق عليه كثرة مطالب زوجاته الدنيوية.

ومنها: سلامته ﷺ بهذا التخيير من تبعة حقوق الزوجات، وأنه يبقى في حرية نفسه إن شاء أعطى وإن شاء منع، ﴿مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ﴾ [الأحزاب: ٣٨].

ومنها: تنزيهه عما لو كان فيهن من تؤثر الدنيا على الله ورسوله والدار الآخرة عنها، وعن مقارنتها.

ومنها: سلامة زوجاته رضي الله عنهن عن الإثم والتعرض لسخط الله ورسوله، فحسم الله بهذا التخيير عنهن التسخط على الرسول الموجب لسخطه، المسخط لربه، الموجب لعقابه.

ومنها: إظهار رفعتهن وعلو درجتهم وبيان علو هممهن أن كان الله ورسوله والدار الآخرة مرادهن ومقصودهن دون الدنيا وحطامها.

ومنها: استعدادهن بهذا الاختيار للأمر الخيار للوصول إلى خيار درجات الجنة وأن يكن زوجاته في الدنيا والآخرة.

ومنها: ظهور المناسبة بينه وبينهن؛ فإنه أكمل الخلق، وأراد الله أن تكون نساؤه كاملات مكملات طيبات مطيبات، ﴿وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ﴾ [النور: ٢٦].

ومنها: أن هذا التخيير داع وموجب للقناعة التي يطمئن لها القلب وينشرح لها الصدر، ويزول عنهن جشع الحرص وعدم الرضا الموجب لقلق القلب واضطرابه وهمه وغمه.

ومنها: أن يكون اختيارهن هذا سبباً لزيادة أجرهن ومضاعفته، وأن يكن بمرتبة ليس فيها أحد من النساء، ولهذا قال:

مَنْ قَدِيرًا ﴿٢٧﴾: لا يعجزه شيء، ومن قدرته قدر لكم ما قدر.

وكانت هذه الطائفة من أهل الكتاب هم بنو قريظة من اليهود في قرية خارج المدينة غير بعيد، وكان النبي ﷺ حين هاجر إلى المدينة وادعاهم وهاذنههم فلم يقاتلهم ولم يقاتلوه، وهم باقون على دينهم، لم يغير عليهم شيئاً، فلما رأوا يوم الخندق الأحزاب الذين تحزبوا على رسول الله وكرتهم وقلة المسلمين، وظنوا أنهم سيستأصلون الرسول والمؤمنين، وساعد على ذلك تدجيل بعض رؤسائهم عليهم، فنقضوا العهد الذي بينهم وبين رسول الله ﷺ، ومالوا المشركين على قتاله، فلما خذل الله المشركين؛ تفرغ رسول الله ﷺ لقتالهم، فحاصرههم في حصنهم، فتزلوا على حكم سعد بن معاذ رضي الله عنه، فحكم فيهم أن تقتل مقاتلتهم، وتسبى ذراريهم وتغنم أموالهم، فأتم الله لرسوله والمؤمنين المنة، وأسبغ عليهم النعمة، وأقر أعينهم بخذلان من انحذل من أعدائهم، وقتل من قتلوا، وأسر من أسروا، ولم يزل لطف الله بعباده المؤمنين مستمراً.

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِّزَوْجِكَ إِن كُنْتُمْ تَرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْتَ أُمْتِعْكَ وَأُسرَحَكَ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾ (٢٨) وَلَئِنْ كُنْتُمْ تَرِيدُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالْدارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنْكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾.

﴿٢٨﴾ لما اجتمع نساء رسول الله ﷺ عليه في الغيرة، وطلبن منه النفقة والكسوة؛ طلبن منه أمراً لا يقدر عليه في كل وقت، ولم يزلن في طلبهن متفقات وفي مرادهن متعتات، فشق ذلك على الرسول، حتى وصلت به الحال إلى أنه ألقى منهن شهراً، فأراد الله أن يسهل الأمر على رسوله، وأن يرفع درجة زوجاته، ويذهب عنهن كل أمر ينقص أجرهن فأمر رسوله أن يخبرهن، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِّزَوْجِكَ إِن كُنْتُمْ تَرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾؛ أي: ليس لكن في غيرها مطلب، وصرتن ترضين لوجودها وتغضبن لفقدها؛ فليس لي فيكن أرب وحاجة، وأنتن بهذه الحال، ﴿فَتَعَالَيْتَ أُمْتِعْكَ﴾: شيئاً مما عندي من الدنيا، ﴿وَأُسرَحَكَ﴾؛ أي: أفارقكن سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٢٨﴾: من دون مغاضبة ولا مشاتمة، بل بسعة صدر وانشرح بال، قبل أن تبلغ الحال إلى ما لا ينبغي.

﴿٢٩﴾ وَلَئِنْ كُنْتُمْ تَرِيدُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالْدارَ الْآخِرَةَ؛ أي: هذه الأشياء مرادكن وغاية مقصودكن، وإذا حصل

﴿يَنْسَاءَ النَّبِيِّ مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيَّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ٣٠﴾ وَمَنْ يَقْنُتْ مِنْكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعْمَلْ صَالِحًا نُفِثْنَا بِأَجْرٍ مُرْتَبٍ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا ٣١﴾.

﴿٣٠﴾ لما اخترن الله ورسوله والدار الآخرة؛ ذكر مضاعفة أجرهن ومضاعفة وزرهن وإثمهن لو جرى منهن؛ ليزداد حذرهن وشكرهن الله تعالى، فجعل من أتى منهن بفاحشة ظاهرة لها العذاب ضعفين.

﴿٣١﴾ وَمَنْ يَقْنُتْ مِنْكُنَّ؛ أي: تطع الله ورسوله وتعمل صالحًا قليلًا أو كثيرًا، ﴿نُفِثْنَا بِأَجْرٍ مُرْتَبٍ﴾؛ أي: مثل ما نعطي غيرها مرتين، ﴿وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا ٣١﴾؛ وهي الجنة، فقتن لله ورسوله وعملن صالحًا، فعلم بذلك أجرهن.

﴿يَنْسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ إِنْ أَتَيْتِ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفًا ٣٢﴾ وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ٣٣﴾ وَأَذْكُرْتُ مَا بُثِّلَ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ٣٤﴾.

﴿٣٢﴾ يقول تعالى: ﴿يَنْسَاءَ النَّبِيِّ﴾: خطاب لهن كلهن ﴿لَسْتُ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ إِنْ أَتَيْتِ﴾: الله؛ فإنكن بذلك تفقن النساء ولا يلحقكن أحد من النساء؛ فكمّلن التقوى بجميع وسائلها ومقاصدها، فلهذا أرشدن إلى قطع وسائل المحرم، فقال: ﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ﴾؛ أي: في مخاطبة الرجال، أو بحيث يسمعون، فتكلمن في ذلك، وتكلمن بكلام رقيق، يدعو ويطمع ﴿الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ﴾؛ أي: مرض شهوة الزنا فإنه مستعد ينتظر أدنى محرك يحركه لأن قلبه غير صحيح؛ فإن القلب الصحيح ليس فيه شهوة لما حرم الله؛ فإن ذلك لا تكاد تميله ولا تحركه الأسباب لصحة قلبه وسلامته من المرض؛ بخلاف مريض القلب الذي لا يتحمل ما يتحمل الصحيح، ولا يصبر على ما يصبر عليه؛ فأدنى سبب يوجد ويدعوه إلى الحرام بجيب دعوته ولا يتعاضى عليه؛ فهذا دليل على أن الوسائل لها أحكام المقاصد؛ فإن الخضوع بالقول واللين فيه في الأصل مباح، ولكن لما كان وسيلة إلى المحرم؛ منع منه، ولهذا ينبغي للمرأة في مخاطبة الرجال ألا تلين لهم القول.

ولما نهاهن عن الخضوع في القول؛ فربما توهم أنهن مأمورات بإغلاظ القول؛ دفع هذا بقوله: ﴿وَقُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفًا ٣٢﴾؛ أي: غير غليظ ولا جاف؛ كما أنه ليس بلين خاضع. وتأمل كيف قال: ﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ﴾، ولم يقل: فلا تلن بالقول، وذلك لأن المنهي عنه القول اللين الذي فيه خضوع المرأة للرجل وانكسارها عنده، والخاضع هو الذي يطمع فيه، بخلاف من تكلم كلامًا لينًا ليس فيه خضوع، بل ربما صار فيه ترفع وقهر للخصم؛ فإن هذا لا يطمع فيه خصمه، ولهذا مدح الله رسوله باللين، فقال: ﴿فِيمَا رَحِمَهُ مِنَ اللَّهِ لَئِنْ لَمْ يَأْتِكُمْ رَسُولٌ مِّنْ اللَّهِ لَفَ تَفَتَنُوا فِي مَا بَيْنَ يَدَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُرَكَاءَ لِلَّذِينَ هُم بِآيَاتِهِ لَا يَشْعُرُونَ فَتُؤْتَوْنَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ٣٥﴾ [آل عمران: ١٥٩]، وقال لموسى وهارون: ﴿أَذْهَبَا إِلَىٰ قَوْمِكَ إِنَّهُم مَّطْفُونٌ ٣٦﴾ فقولاً لهم: قَوْلًا لِّينًا لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ أَوْ يَخْشَوْنَ ٣٧﴾ [طه: ٤٣، ٤٤].

ودل قوله: ﴿فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ﴾؛ مع أمره بحفظ الفرج وثباته على الحافظين لفروجهم والحافظات، ونهيه عن

الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ

سورة الأحزاب

﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا﴾ ٣٦.

﴿٣٦﴾ أي: لا ينبغي ولا يليق بمن اتصف بالإيمان إلا الإسراع في مرضاة الله ورسوله والهرب من سخط الله ورسوله وامتنال أمرهما واجتناب نهيهما؛ فلا يليق بمؤمن ولا مؤمنة، ﴿إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا﴾: من الأمور وحثماً به والأزما به ﴿أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾؛ أي: الخيار هل يفعلونه أم لا؟ بل يعلم المؤمن والمؤمنة أن الرسول أولى به من نفسه؛ فلا يجعل بعض أهواء نفسه حجاباً بينه وبين أمر الله ورسوله، ﴿وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا﴾ ٣٦؛ أي: بيناً؛ لأنه ترك الصراط المستقيم الموصلة إلى كرامة الله إلى غيرها من الطرق الموصلة للعذاب الأليم، فذكر أولاً السبب الموجب لعدم معارضة أمر الله ورسوله، وهو الإيمان، ثم ذكر المانع من ذلك، وهو التخويف بالضلال الدال على العقوبة والنكال.

﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتُخْفِي النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا﴾ ٣٧.

﴿٣٧﴾ وكان سبب نزول هذه الآيات^(١) أن الله تعالى أراد أن يشرع شرعاً عاماً للمؤمنين أن الأدعياء ليسوا في حكم الأبناء حقيقة من جميع الوجوه، وأن أزواجهن لا جناح على من تبناهم نكاحهن، وكان هذا من الأمور المعتادة التي لا تكاد تزول إلا بحادث كبير، فأراد أن يكون هذا الشرع قولاً من رسوله وفعلًا، وإذا أراد الله أمراً؛ جعل له سبباً، فكان زيد بن حارثة يدعى زيد بن محمد، قد تبناه النبي ﷺ، فصار يدعى إليه، حتى نزل ﴿أَدْعَوْهُمْ لِأَبَائِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٥]؛ فقيل له: زيد بن حارثة، وكانت تحته زينب بنت جحش ابنة عمه رسول الله ﷺ، وكان قد وقع في قلب الرسول لو طلقها زيد لتزوجها، فقدر الله أن يكون بينها وبين زيد ما اقتضى أن جاء زيد بن حارثة يستأذن النبي ﷺ في فراقها؛ قال الله: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ﴾؛ أي: بالإسلام، ﴿وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ﴾: بالعتق والإرشاد والتعليم حين جاءك مشاوراً في فراقها، فقلت له ناصحاً له ومخبراً بمصلحته مقدماً لها على رغبتك مع وقوعها في قلبك: ﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ﴾؛ أي: لا تفارقها واصبر على ما جاءك منها.

﴿وَاتَّقِ اللَّهَ﴾: تعالى في أموركم عامة وفي أمر زوجك خاصة؛ فإن التقوى تحت على الصبر وتأمر به، ﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ﴾: والذي أخفاه أنه لو طلقها زيد؛ لتزوجها ﷺ، ﴿وَتُخْفِي النَّاسَ﴾: في عدم إبداء ما في نفسك، ﴿وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ﴾: فإن خشيتك جالبة لكل خير مانعة من كل شر، ﴿فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا﴾؛ أي: طابت نفسه ورغب عنها وفارقها، ﴿زَوَّجْنَاكَهَا﴾: وإنما فعلنا ذلك لفائدة عظيمة، وهي: ﴿لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ﴾: حيث راوك تزوجت زوج زيد بن حارثة الذي كان من قبل يتسبب إليك، ولما كان قوله: ﴿لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ﴾: عاماً في جميع الأحوال، وكان من الأحوال ما لا يجوز ذلك، وهي قبل انقضاء وطره منها؛ قيد ذلك بقوله:

ولهذا كانت تفتخر بذلك على أزواج رسول الله ﷺ، وتقول: زوجكن أهاليكن وزوجني الله من فوق سبع سماوات^(١).

ومنها: أن المرأة إذا كانت ذات زوج لا يجوز نكاحها ولا السعي فيه وفي أسبابه حتى يقضي زوجها وطره منها، ولا يقضي وطره حتى تنقضي عدتها؛ لأنها قبل انقضاء عدتها وهي في عصمته أو في حقه الذي له وطر إليها ولو من بعض الوجوه.

﴿ مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا ﴾ (٣٨) **الَّذِينَ** يَلْفُوفُونَ رِسَالَتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا (٣٩).

هذا دفع لظعن من ظعن في الرسول ﷺ في كثرة أزواجه، وأنه ظعن بما لا مظعن فيه، فقال: ﴿ مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ ﴾؛ أي: إثم وذنب ﴿ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ ﴾؛ أي: قدر له من الزوجات؛ فإن هذا قد أباحه الله له كما أباحه للأنبياء قبله، ولهذا قال: ﴿ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا ﴾ (٣٨)؛ أي: لا بد من وقوعه.

ثم ذكر من هم الذين من قبل قد خلوا وهذه سنتهم وعاداتهم، وأنهم ﴿ الَّذِينَ يَلْفُوفُونَ رِسَالَتِ اللَّهِ ﴾: فيتلون على العباد آيات الله وحججه وبراهينه ويدعونهم إلى الله، ﴿ وَيَخْشَوْنَهُ ﴾: وحده لا شريك له، ﴿ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ ﴾؛ فإذا كان هذا سنة في الأنبياء المعصومين الذين وظيفتهم قد أدوها وقاموا بها أتم القيام، وهو دعوة الخلق إلى الله والخشية منه وحده، التي تقتضي فعل كل مأمور وترك كل محذور، دل ذلك على أنه لا نقص فيه بوجه. ﴿ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا ﴾ (٣٩): محاسباً عباده مراقباً أعمالهم. وعلم من هذا أن النكاح من سنن المرسلين.

﴿ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴾ (٤٠).

أي: لم يكن الرسول ﷺ: ﴿ مُحَمَّدٌ ﴾: أباً أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ: أيها الأمة، فقطع انتساب زيد بن حارثة منه من هذا الباب. ولما كان هذا النفي عامًا في جميع الأحوال إن حمل ظاهر اللفظ على ظاهره؛ أي: لا أبوة نسب ولا أبوة

﴿ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا ﴾ (٣٧)؛ أي: لا بد من فعله ولا عائق له ولا مانع.

وفي هذه الآيات المشتملات على هذه القصة فوائد:

منها: الثناء على زيد بن حارثة، وذلك من وجهين: أحدهما: أن الله سماه في القرآن ولم يسم من الصحابة باسمه غيره. والثاني: أن الله أخبر أنه أنعم عليه؛ أي: بنعمة الإسلام والإيمان، وهذه شهادة من الله له أنه مسلم مؤمن ظاهرًا وباطنًا، وإلا؛ فلا وجه لتخصيصه بالنعمة؛ إلا أن المراد بها النعمة الخاصة.

ومنها: أن المعتق في نعمة المعتق.

ومنها: جواز تزوج زوجة الذعي كما صرح به.

ومنها: أن التعليم الفعلي أبلغ من القول، خصوصًا إذا اقترن بالقول؛ فإن ذلك نور على نور.

ومنها: أن المحبة التي في قلب العبد لغير زوجته ومملوكته ومحارمه إذا لم يقترن بها محذور لا يآثم عليها العبد، ولو اقترن بذلك أمنيته أن لو طلقها زوجها لتزوجها من غير أن يسعى في فرقة بينهما أو يتسبب بأي سبب كان؛ لأن الله أخبر أن الرسول ﷺ أخفى ذلك في نفسه.

ومنها: أن الرسول ﷺ قد بلغ البلاغ المبين، فلم يدع شيئًا مما أوحى إليه إلا وبلغه، حتى هذا الأمر الذي فيه عتابه، وهذا يدل على أنه رسول الله، ولا يقول إلا ما أوحى إليه، ولا يريد تعظيم نفسه.

ومنها: أن المستشار مؤتمن، يجب عليه - إذا استشير في أمر من الأمور - أن يشير بما يعلمه أصلح للمستشير، ولو كان له حظ نفس فتقدم مصلحة المستشار على هوى نفسه وغرضه.

ومنها: أن من الرأي الحسن لمن استشار في فراق زوجة أن يؤمر بإمسакها مهما أمكن صلاح الحال؛ فهو أحسن من الفرقة.

ومنها: أنه يتعين أن يقدم العبد خشية الله على خشية الناس، وأنها أحق منها وأولى.

ومنها: فضيلة زينب رضي الله عنها أم المؤمنين؛ حيث تولى الله تزويجها من رسوله ﷺ من دون خطبة ولا شهود،

سورة الأحزاب

الزَّالِمُونَ

يَحْيِيهِمْ يَوْمَ يَقُولُهُ سَلَامٌ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا ﴿٤١﴾ يَأْتِيهَا
الَّتِي إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٢﴾ وَإِعْيَا
إِلَى اللَّهِ يَأْتِيهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا ﴿٤٣﴾ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُمْ
مِنَ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ﴿٤٤﴾ وَلَا تَطْعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ
وَدَعْ أَذُنَهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكُنْ بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿٤٥﴾
يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَقْتُمُوهُنَّ
مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عُدُوٍّ تَعُدُّوهنَّ
فَمَتَّعُوهُنَّ وَسِرَّجُوهُنَّ سِرَاجًا جَمِيلًا ﴿٤٦﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ إِنَّا
أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ الَّتِي ءَاتَيْتَ أَجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ
يَمِينُكَ مِمَّا ءَفَاةَ اللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمَتِكَ
وَبَنَاتِ خَالَكَ وَبَنَاتِ خَالَاتِكَ الَّتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ وَامْرَأَةً
مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا
خَالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا
عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ لِكَيْلَا
يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ وَكَانَ اللَّهُ عَافِيًا رَحِيمًا ﴿٤٧﴾

٤٢٤

ادعاء، وكان قد تقرر فيما تقدم أن الرسول ﷺ أب للمؤمنين
كلهم، وأزواجه أمهاتهم، فاحترز أن يدخل هذا النوع بعموم
النهي المذكور؛ فقال: ﴿ وَلَكِنْ رَسُولُ اللَّهِ وَخَاتَمُ النَّبِيِّينَ ﴾؛
أي: هذه مرتبته؛ مرتبة المطاع المتبوع المهتدى به المؤمن له
الذي يجب تقديم محبته على محبة كل أحد، الناصح، الذي
لهم - أي: للمؤمنين - من برة ونصحه كأنه أب لهم، ﴿ وَكَانَ
اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴾ ﴿٤١﴾؛ أي: قد أحاط علمه بجميع
الأشياء، ويعلم حيث يجعل رسالاته، ومن يصلح لفضله
ومن لا يصلح.

﴿ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴾ ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ
بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾ هُوَ الَّذِي يُصَلِّيْ عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم
مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤٣﴾
يَحْيِيهِمْ يَوْمَ يَقُولُهُ سَلَامٌ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا ﴿٤٤﴾.

﴿٤١﴾ يأمر تعالى المؤمنين بذكره ذكرًا كثيرًا؛ من تهليل
وتحميد وتسبيح وتكبير وغير ذلك من كل قول فيه قربة إلى
الله، وأقل ذلك أن يلزم الإنسان أوراد الصباح والمساء
وأدبار الصلوات الخمس وعند العوارض والأسباب، وينبغي
مداومة ذلك في جميع الأوقات على جميع الأحوال؛ فإن
ذلك عبادة يسبق بها العامل وهو مستريح وداع إلى محبة الله
ومعرفته وعون على الخير وكف للسان عن الكلام القبيح.

﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾؛ أي: أول النهار وآخره؛ لفضلهما وشرفهما وسهولة العمل فيهما.

﴿٤٣﴾ هُوَ الَّذِي يُصَلِّيْ عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤٣﴾؛ أي: من رحمته
بالمؤمنين ولطفه بهم أن جعل من صلاته عليهم وثنائه وصلاة ملائكته ودعائهم ما يخرجهم من ظلمات الذنوب والجهل إلى
نور الإيمان والتوفيق والعلم والعمل؛ فهذه أعظم نعمة أنعم بها على العباد الطائعين، تستدعي منهم شكرها والإكثار من ذكر
الله الذي لطف بهم ورحمهم وجعل حمله عرشه أفضل الملائكة ومن حوله يسبحون بحمد ربهم، ويستغفرون للذين آمنوا،
فيقولون: ﴿ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴾ ﴿٧﴾ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتٍ
عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمِنَ صُلْحِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذَرَيْتَهُمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٨﴾ وَفِهِمُ السَّكَنَاتِ وَمَنْ تَوَّ
السَّكَنَاتِ يَوْمَ يُدْعَىٰ ذِكْرُهُمْ فَبَدَّ رَحْمَتَهُ. وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٩﴾ [غافر: ٧-٩]: فهذه رحمته ونعمته عليهم في الدنيا.

﴿٤٤﴾ وأما رحمته بهم في الآخرة؛ فأجل رحمة وأفضل ثواب، وهو الفوز برضا ربهم وتحيته، واستماع كلامه الجليل، ورؤية
وجهه الجميل، وحصول الأجر الكبير الذي لا يدرى ولا يعرف كنهه إلا من أعطاهم إياه، ولهذا قال: ﴿ يَحْيِيهِمْ يَوْمَ يَقُولُهُ
سَلَامٌ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا ﴾ ﴿٤٤﴾.

﴿٤٥﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَإِعْيَا إِلَى اللَّهِ يَأْتِيهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا ﴿٤٦﴾ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُمْ
مِنَ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ﴿٤٧﴾ وَلَا تَطْعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذُنَهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكُنْ بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿٤٨﴾.

﴿٤٥﴾ هذه الأشياء التي وصف الله بها رسوله محمدًا ﷺ هي المقصود من رسالته وزيدتها وأصولها التي اختص بها، وهي
خمس أشياء:

وعند ذكر الإيمان بمفرده تدخل فيه الأعمال الصالحة، وذكر المبشر به، وهو الفضل الكبير؛ أي: العظيم الجليل الذي لا يقادر قدره من النصر في الدنيا وهداية القلوب وغفران الذنوب وكشف الكرب وكثرة الأرزاق الدارة وحصول النعم السارة والفوز برضا ربهم وثوابه والنجاة من سخطه وعقابه، وهذا مما يُشغط العاملين أن يذكر لهم من ثواب الله على أعمالهم ما به يستعينون على سلوك الصراط المستقيم، وهذا من جملة حِكَمِ الشرع: كما أن من حكمه أن يذكر في مقام التهيب العقوبات المرتبة على ما يرهب منه؛ ليكون عوناً على الكف عما حرم الله.

﴿٤٨﴾ ولما كان ثم طائفة من الناس مستعدة للقيام بصدد الداعين إلى الله من الرسل وأتباعهم، وهم المنافقون الذين أظهروا الموافقة في الإيمان وهم كفرة فجرة في الباطن، والكفار ظاهراً وباطناً؛ نهى الله رسوله عن طاعتهم وحذره ذلك، فقال: ﴿وَلَا تُطِيعِ الْكُفْرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ﴾؛ أي: في كل أمر يصد عن سبيل الله، ولكن لا يقتضي هذا أذاهم، بل لا تطعمهم، ﴿وَدَعْ أَذُنَهُمْ﴾: فإن ذلك جالب لهم وداع إلى قبول الإسلام وإلى كف كثير من أذيتهم له ولأهله، ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾: في إتمام أمرك وخذلان عدوك، ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾: توكل إليه الأمور المهمة، فيقوم بها ويسهلها على عبده.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ﴾: فما لكم عليهن من عِدْوَةٍ تَعْدُوْنَهَا فَمَعُوْهُنَّ وَسَرَّحُوْهُنَّ سَرَاحًا جَمِيْلًا ﴿٤٩﴾.

﴿٤٩﴾ يخبر تعالى المؤمنين أنهم إذا نكحوا المؤمنات ثم طلقوهن من قبل أن يمسوهن؛ فليس عليهن في ذلك عدة يعتد بها أزواجهن عليهن، وأمرهم بتمتعهن بهذه الحالة بشيء من متاع الدنيا الذي يكون فيه جبر لخواطرن لأجل فراقهن، وأن يفارقوهن فراقاً جميلاً من غير مخاصمة ولا مشاتمة ولا مطالبة ولا غير ذلك.

ويستدل بهذه الآية على أن الطلاق لا يكون إلا بعد النكاح، فلو طلقها قبل أن ينكحها أو علق طلاقها على نكاحها؛ لم يقع؛ لقوله: ﴿إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَقْتُمُوهُنَّ﴾، فجعل الطلاق بعد النكاح، فدل على أنه قبل ذلك لا محل له. وإذا كان الطلاق الذي هو فرقة تامة وتحريم تام لا يقع

أحدها: كونه ﴿شَهِيدًا﴾؛ أي: شاهداً على أمته بما عملوه من خير وشر؛ كما قال تعالى: ﴿لَنَكُونَنَّ شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣]، ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٤١]؛ فهو ﷺ شاهد عدل مقبول.

الثاني والثالث: كونه مبشراً ونذيراً: وهذا يستلزم ذكر المبشر والمندر وما يبشر به وينذر والأعمال الموجبة لذلك: فالمبشر هم المؤمنون المتقون، الذين جمعوا بين الإيمان والعمل الصالح وترك المعاصي، لهم البشرى في الحياة الدنيا بكل ثواب دنيوي وديني رُتِبَ على الإيمان والتقوى، وفي الآخرة بالنعيم المقيم، وذلك كله يستلزم ذكر تفصيل المذكور من تفاصيل الأعمال وخصال التقوى وأنواع الثواب. والمندر هم المجرمون الظالمون، أهل الظلم والجهل، لهم النذارة في الدنيا من العقوبات الدنيوية والدينية المرتبة على الجهل والظلم، وفي الآخرة بالعقاب الويل والعذاب الطويل. وهذه الجملة تفصيلها ما جاء به ﷺ من الكتاب والسنة المشتمل على ذلك.

﴿٤٩﴾ الرابع: كونه ﴿وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ﴾؛ أي: أرسله الله يدعو الخلق إلى ربهم ويسوقهم لكرامته ويأمرهم بعبادته التي خلقوا لها، وذلك يستلزم استقامته على ما يدعو إليه وذكر تفاصيل ما يدعو إليه؛ بتعريفهم لربهم بصفاته المقدسة، وتنزيهه عما لا يليق بجلاله، وذكر أنواع العبودية، والدعوة إلى الله بأقرب طريق موصل إليه، وإعطاء كل ذي حق حقه، وإخلاص الدعوة إلى الله لا إلى نفسه وتعظيمها؛ كما قد يعرض ذلك لكثير من النفوس في هذا المقام، وذلك كله بإذن ربه له في الدعوة وأمره وإرادته وقدره.

الخامس: كونه سراجاً منيراً وذلك يقتضي أن الخلق في ظلمة عظيمة، لا نور يهتدى به في ظلماتها، ولا علم يستدل به في جهالاتها، حتى جاء الله بهذا النبي الكريم، فأضاء الله به تلك الظلمات، وعلم به من الجهالات، وهدى به ضللاً إلى الصراط المستقيم، فأصبح أهل الاستقامة قد وضح لهم الطريق، فمشوا خلف هذا الإمام، وعرفوا به الخير والشر، وأهل السعادة من أهل الشقاوة، واستناروا به لمعرفة معبودهم، وعرفوه بأوصافه الحميدة وأفعاله السديدة وأحكامه الرشيدة.

﴿٥٠﴾ وقوله: ﴿وَيَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّهُمْ مِنَ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا﴾: ذكر في هذه الجملة المبشر، وهم المؤمنون،

قبل النكاح؛ فالتحريم الناقص لظهار أو إيلاء ونحوه من باب أولى وأحرى ألا يقع قبل النكاح؛ كما هو أصح قولي العلماء.

ويدل على جواز الطلاق لأن الله أخبر به عن المؤمنين على وجه لم يلهم عليه، ولم يؤنبهم مع تصدير الآية بخطاب المؤمنين.

وعلى جوازه قبل المسيس؛ كما قال في الآية الأخرى: ﴿لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمْسُوهُنَّ﴾ [البقرة: ٢٢٦].

وعلى أن المطلقة قبل الدخول لا عدة لها، بل بمجرد طلاقها يجوز لها الزواج حيث لا مانع.

وعلى أن عليها العدة بعد الدخول. وهل المراد بالدخول والمسيس الوطء كما هو مجمع عليه أو وكذلك الخلوة ولو لم يحصل معها وطء كما أفنى بذلك الخلفاء الراشدون، وهو الصحيح؛ فمتى دخل عليها وطئها أم لا، إذا خلا بها، وجب عليها العدة.

وعلى أن المطلقة قبل المسيس تمتع على الموسع قدره وعلى المقتر قدره، ولكن هذا إذا لم يفرض لها مهر؛ فإن كان لها مهر مفروض؛ فإنه إذا طلق قبل الدخول؛ تنصفت المهر، وكفى عن المتعة.

وعلى أنه ينبغي لمن فارق زوجته قبل الدخول أو بعده أن يكون الفراق جميلاً يحمد فيه كل منهما الآخر، ولا يكون غير جميل؛ فإن في ذلك من الشر المترتب عليه من قدح كل منهما بالآخر شيء كثير.

وعلى أن العدة حق للزوج؛ لقوله: ﴿فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَةٍ﴾: دل مفهومه أنه لو طلقها بعد المسيس؛ كان له عليها عدة.

وعلى أن المفارقة بالوفاة تعدد مطلقاً؛ لقوله: ﴿ثُمَّ طَلَقْتُمُوهُنَّ﴾ الآية.

وعلى أن من عدا غير المدخول بها من المفارقات من الزوجات، بموت أو حياة، عليهن العدة.

﴿يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ إِنْ أَهْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَ النَّبِيِّ أَتَيْتَ أَجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ وَنَبَاتٍ عَمَلِكَ وَنَبَاتٍ عَمَلَيْكَ وَنَبَاتٍ خَلَائِكَ وَالَّتِي هَاجَرَ مَعَكَ وَامْرَأَةً مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ

النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا خَالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٥٠﴾﴾.

﴿٥٠﴾ يقول تعالى ممتثلاً على رسوله بإحلاله له ما أحل مما يشترك هو والمؤمنون وما ينفرد به ويختص: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ إِنْ أَهْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَ النَّبِيِّ أَتَيْتَ أَجُورَهُنَّ﴾؛ أي: أعطيتهن مهرهن من الزوجات، وهذا من الأمور المشتركة بينه وبين المؤمنين؛ فإن المؤمنين كذلك يباح لهم من أتوهن أجورهن من الأزواج. وكذلك أهْلَلْنَا لَكَ مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ؛ أي: الإمام التي ملكت، ﴿مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ﴾: من غنيمة الكفار من عبيدهم، والأحرار من لهن زوج منهم ومن لا زوج لهن، وهذا أيضاً مشترك، وكذلك من المشترك قوله: ﴿وَنَبَاتٍ عَمَلِكَ وَنَبَاتٍ عَمَلَيْكَ وَنَبَاتٍ خَلَائِكَ﴾: شمل العم والعمة والخال والخالة القرييين والبعيدين، وهذا حصر المحلات، يؤخذ من مفهومه أن ما عداهن من الأقارب غير محلل؛ كما تقدم في سورة النساء؛ فإنه لا يباح من الأقارب من النساء غير هؤلاء الأربع، وما عداهن من الفروع مطلقاً، والأصول مطلقاً، وفروع الأب والأم، وإن نزلوا، وفروع من فوقهم لصلبه؛ فإنه لا يباح.

وقوله: ﴿وَالَّتِي هَاجَرَ مَعَكَ﴾: قيد لحل هؤلاء للرسول؛ كما هو الصواب من القولين في تفسير هذه الآية، وأما غيره عليه الصلاة والسلام؛ فقد علم أن هذا قيد لغير الصحة. وأهْلَلْنَا لَكَ امْرَأَةً مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ؛ بمجرد هبتها نفسها، ﴿إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا﴾؛ أي: هذا تحت الإرادة والرغبة، ﴿خَالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾؛ يعني: إباحة الموهبة، وأما المؤمنون؛ فلا يحل لهم أن يتزوجوا امرأة بمجرد هبتها نفسها لهم. ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾؛ أي: قد علمنا ما على المؤمنين وما يحل لهم وما لا يحل من الزوجات وملك اليمين، وقد أعلمناهم بذلك، وبيننا فرائضه فما في هذه الآية مما يخالف ذلك؛ فإنه خاص لك؛ لكون الله جعله خطاباً للرسول وحده بقوله: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ إِنْ أَهْلَلْنَا لَكَ﴾ إلى آخر الآية.

وقوله: ﴿خَالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾: وأبחנו لك يا أيها النبي ما لم نبج لهم، ووسعنا عليك ما لم نوسع على

غيرك؛ ﴿لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ﴾: وهذا من زيادة اعتناء الله تعالى برسوله ﷺ، ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾؛ أي: لم يزل متصفاً بالمغفرة والرحمة، وينزل على عباده من مغفرته ورحمته وجوده وإحسانه ما اقتضته حكمته، ووجدت منهم أسبابه.

﴿تَرْجِي مَن نَّشَاءُ مِنْهُمْ وَتُقَوِّى إِلَيْكَ مَن نَّشَاءُ وَمِنَ ابْنَعَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ذَلِكَ أَدَّى أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَ وَيَرْضَيْنَ بِمَا آتَيْنَهُنَّ كُلُّهُنَّ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا﴾ (٥١).

﴿٥١﴾ وهذا أيضاً من توسعة الله على رسوله ورحمته به أن أباح له ترك القسم بين زوجاته على وجه الوجوب، وأنه إن فعل ذلك؛ فهو تبرع منه، ومع ذلك؛ فقد كان ﷺ يجتهد في القسم بينهن في كل شيء، ويقول: «اللهم! هذا قسمي فيما أملك؛ فلا تلمني فيما لا أملك» (١)، فقال هنا: ﴿تَرْجِي مَن نَّشَاءُ مِنْهُمْ﴾؛ أي: تؤخر من أردت من زوجاتك، فلا تؤويها إليك، ولا تبني عندها، ﴿وَتُقَوِّى إِلَيْكَ مَن نَّشَاءُ﴾؛ أي: تضمها وتبيت عندها، ﴿وَمَن نَّشَاءُ﴾ مع ذلك؛ لا يتعين هذا الأمر. فمن ﴿ابْنَعَيْتَ﴾؛ أي: أن تؤويها، ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ﴾: والمعنى أن الخيرة بيدك في ذلك كله. وقال كثير من المفسرين: إن هذا خاص بالواهبات له أن يرجي من يشاء ويؤوي من يشاء؛ أي: إن شاء؛ قبل من وهبت نفسها له، وإن شاء؛ لم يقبلها. والله أعلم.

ثم بين الحكمة في ذلك، فقال: ﴿ذَلِكَ﴾؛ أي: التوسعة عليك وكون الأمر راجعاً إليك وبيدك، وكون ما جاء منك إليهن تبرعاً منك؛ ﴿أَدَّى أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَ وَيَرْضَيْنَ بِمَا آتَيْنَهُنَّ كُلُّهُنَّ﴾: لعلهن أنك لم تترك واجباً ولم تفرط في حق لازم، ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ﴾؛ أي: ما يعرض لها عند أداء الحقوق الواجبة والمستحبة وعند المزاحمة في الحقوق؛ فلذلك شرع لك التوسعة يا رسول الله؛ لتطمئن قلوب زوجاتك، ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا﴾ (٥١)؛ أي: واسع العلم، كثير الحلم، ومن علمه أن شرع لكم ما هو أصح لأموركم وأكثر لأجوركم، ومن حلمه أن لم يعاقبكم بما صدر منكم، وما أصرت عليه قلوبكم من الشر.

﴿لَا يَحِلُّ لَكَ الْإِسَاءُ مِنْ بَعْدُ وَلَا أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ رَّقِيبًا﴾ (٥٢).

﴿٥٢﴾ وهذا شكر من الله الذي لم يزل شكوراً لزوجات رسوله رضي الله عنهن، حيث اخترن الله ورسوله والدار الآخرة؛ أن رحمهن وقصر رسوله عليهن، فقال: ﴿لَا يَحِلُّ لَكَ الْإِسَاءُ مِنْ بَعْدُ﴾: زوجاتك الموجودات، ﴿وَلَا أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ﴾؛ أي: ولا أن تطلق بعضهن فتأخذ بدلها، فحصل بهذا أمنهن من الضرائر ومن الطلاق؛ لأن الله قضى أنهن زوجاته في الدنيا والآخرة، لا يكون بينه وبينهن فرقة، ﴿وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ﴾؛ أي: حسن غيرهن؛ فلا يحلن لك، ﴿إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ﴾؛ أي: السراي؛ فذلك جائز لك؛ لأن المملوكات في كراهة الزوجات لسن بمنزلة الزوجات في الإضرار للزوجات. ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ رَّقِيبًا﴾ (٥٢)؛ أي: مراقباً للأمور وعالمًا بما إليه تتول وقائماً بتدبيرها على أكمل نظام وأحسن إحكام.

إليه ممنوعاً بكل حال، وكلامه فيه التفصيل الذي ذكره الله. ثم ذكر حكمة ذلك بقوله: ﴿ذَلِكَ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِمْ﴾؛ لأنه أبعد عن الريبة، وكلما بعد الإنسان عن الأسباب الداعية إلى الشر؛ فإنه أسلم له وأطهر لقلبه؛ فهذا من الأمور الشرعية التي بين الله كثيراً من تفاصيلها أن جميع وسائل الشر وأسبابه ومقدماته ممنوعة، وأنه مشروع البعد عنها بكل طريق.

ثم قال كلمة جامعة وقاعدة عامة: ﴿وَمَا كَانَتْ لَكُمْ﴾: يا معشر المؤمنين؛ أي: غير لائق ولا مستحسن منكم، بل هو أقيح شيء، ﴿أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ﴾؛ أي: أذية قولية أو فعلية بجميع ما يتعلق به، ﴿وَلَا أَنْ تَنْكِحُوا زَوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا﴾: هذا من جملة ما يؤذيه؛ فإنه ﷺ له مقام التعظيم والرفعة والإكرام، وتزوج زوجاته بعده مخل بهذا المقام، وأيضاً؛ فإنهن زوجاته في الدنيا والآخرة، والزوجة باقية بعد موته؛ فلذلك لا يحل نكاح زوجاته بعده لأحد من أمته. ﴿إِنَّ ذَلِكَ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيماً﴾: وقد امتثلت هذه الأمة هذا الأمر، واجتنبت ما نهى الله عنه منه، ولله الحمد والشكر.

﴿ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنْ تُبْذُوا شَيْئًا﴾؛ أي: تظهروه، ﴿أَوْ تُخْفَوْهُ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً﴾: يعلم ما في قلوبكم، وما أظهرتموه؛ فيجازيكم عليه.

﴿لَا جُنَاحَ عَلَيْهِمْ فِي آبَائِهِمْ وَلَا أَبْنَائِهِمْ وَلَا إِخْوَانِهِمْ وَلَا أَبْنَاءَ إِخْوَانِهِمْ وَلَا أَبْنَاءَ أَخَوَاتِهِمْ وَلَا نِسَائِهِمْ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ وَأَتَقِينَ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيداً﴾

﴿٥٥﴾ لما ذكر أنهم لا يُسألن متاعاً إلا من وراء حجاب، وكان اللفظ عاماً لكل أحد؛ احتج أن يستثنى منه هؤلاء المذكورون من المحارم، وأنه ﴿لَا جُنَاحَ عَلَيْهِمْ﴾ في عدم الاحتجاب عنهم، ولم يذكر فيها الأعمام والأخوال؛ لأنهم إذا لم يحتجب عن عمن هن عماته ولا خالاته من أبناء الإخوة والأخوات مع رفعتهم عليهم؛ فعدم احتجابهم عن عمهم وخالهم من باب أولى، ولأن منطوق الآية الأخرى المصروفة بذكر العم والخال مقدمة على ما يفهم من هذه الآية، وقوله: ﴿وَلَا نِسَائِهِمْ﴾؛ أي: لا جناح عليهن ألا يحتجب عن نسائهن؛ أي: اللاتي من جنسهن في الدين،

﴿يَتَأْتِيَنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرَ نَظِيرٍ إِنَّهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلَا مُسْتَسِينٍ لِخَدِيثٍ إِنَّ ذَلِكَ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِ مِنْكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِ مِنَ الْحَقِّ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَنْ تَنْكِحُوا زَوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَلِكَ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيماً﴾ ﴿٥٦﴾ إِنْ تُبْذُوا شَيْئًا أَوْ تُخْفَوْهُ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً﴾ ﴿٥٧﴾.

﴿٥٦﴾ يأمر تعالى عباده المؤمنين بالتأدب مع رسول الله ﷺ في دخول بيوته، فقال: ﴿يَتَأْتِيَنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ﴾؛ أي: لا تدخلوها بغير إذن للدخول فيها لأجل الطعام، وأيضاً لا تكونوا ﴿نَظِيرِينَ إِنَّهُ﴾؛ أي: منتظرين ومتأنين لانتظار نضجه أو سعة صدر بعد الفراغ منه. والمعنى: أنكم لا تدخلوا بيوت النبي إلا بشرطين: الإذن لكم بالدخول، وأن يكون جلوسكم بمقدار الحاجة، ولهذا قال: ﴿وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلَا مُسْتَسِينِينَ لِخَدِيثٍ﴾؛ أي: قبل الطعام وبعده.

ثم بين حكمة النهي وفائدته، فقال: ﴿إِنَّ ذَلِكَ﴾؛ أي: انتظاركم الزائد على الحاجة ﴿كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ﴾؛ أي: يتكلف منه ويشق عليه حبسكم إياه عن شئون بيته وأشغاله فيه، ﴿فَيَسْتَحْيِ مِنْكُمْ﴾: أن يقول لكم: اخرجوا! كما هو جاري العادة أن الناس - خصوصاً أهل الكرم منهم - يستحيون أن يخرجوا الناس من مساكنهم، ولكن الله ﴿لَا يَسْتَحْيِ مِنَ الْحَقِّ﴾: فالأمر الشرعي، ولو كان يتوهم أن في تركه أدباً وحياء؛ فإن الحزم كل الحزم اتباع الأمر الشرعي، وأن يجزم أن ما خالفه ليس من الأدب في شيء، والله تعالى لا يستحي أن يأمركم بما فيه الخير لكم والرفق لرسوله كائنًا ما كان.

فهذا أدبهم في الدخول في بيوته، وأما أدبهم معه في خطاب زوجاته؛ فإنه: إما أن يحتاج إلى ذلك، أو لا يحتاج إليه؛ فإن لم يحتج إليه؛ فلا حاجة إليه، والأدب تركه، وإن احتج إليه، كان يسألن متاعاً أو غيره من أواني البيت أو نحوها؛ فإنهن يُسألن ﴿مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ﴾؛ أي: يكون بينكم وبينهن ستر يستر عن النظر؛ لعدم الحاجة إليه، فصار النظر

فيكون ذلك مُخْرِجًا لنساء الكفار، ويحتمل أن المراد جنس النساء؛ فإن المرأة لا تحتجب عن المرأة، ﴿وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ﴾: ما دام العبد في ملكها جميعه، ولما رفع الجناح عن هؤلاء؛ شرط فيه وفي غيره لزوم تقوى الله، وألا يكون في ذلك محذور شرعي، فقال: ﴿وَأَتَقِينَ اللَّهَ﴾؛ أي: استعملن تقواه في جميع الأحوال. ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا﴾: يشهد أعمال العباد ظاهرها وباطنها، ويسمع أقوالهم، ويرى حركاتهم؛ ثم يجازيهم على ذلك أتم الجزاء وأوفاه.

﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ (٥٦).

(٥٦) وهذا فيه تنبيه على كمال رسول الله ﷺ ورفعة درجته وعلو منزلته عند الله وعند خلقه ورفع ذكره، ﴿إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى وَمَلَائِكَتُهُ يُصَلُّونَ﴾ عليه؛ أي: يشي الله عليه بين الملائكة وفي الملأ الأعلى لمحبته تعالى له، ويشي عليه الملائكة المقربون، ويدعون له ويتضرعون. ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ (٥٦): اقتداء بالله وملائكته، وجزاء له على بعض حقوقه عليكم، وتكميلاً لإيمانكم، وتعظيماً له ﷺ ومحبة وإكراماً، وزيادة في حسناتكم، وتكفيراً من سيئاتكم، وأفضل هيئات الصلاة عليه - عليه الصلاة والسلام - ما علم به أصحابه: «اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على آل إبراهيم إنك حميد مجيد، وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على آل إبراهيم إنك حميد مجيد»^(١). وهذا الأمر بالصلاة والسلام عليه مشروع في جميع الأوقات، وأوجبه كثير من العلماء في الصلاة.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا﴾ (٥٧) ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بَغْيٍ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدْ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا﴾ (٥٨).

(٥٧) لما أمر تعالى بتعظيم رسوله ﷺ والصلاة والسلام عليه؛ نهى عن أذيته، وتوعد عليها، فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾: وهذا يشمل كل أذية قولية أو فعلية من سب وشتم أو تنقص له أو لدينه أو ما يعود إليه بالأذى، ﴿لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا﴾؛ أي: أبعدهم وطردهم، ومن لعنهم في الدنيا أنه يتحتم قتل من شتم الرسول وآذاه، ﴿وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا﴾ (٥٧): جزاء له على أذاه أن يؤذي بالعذاب الأليم، فأذية الرسول ليست كاذبة غيره؛ لأنه ﷺ لا يؤمن العبد بالله حتى يؤمن برسوله، وله من التعظيم الذي هو من لوازم الإيمان ما يقتضي ذلك ألا يكون مثل غيره، وإن كان أذية المؤمنين عظيمة وإثمها عظيماً، ولهذا قال فيها: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بَغْيٍ مَا اكْتَسَبُوا﴾؛ أي: بغير جنابة منهم موجبة للأذى، ﴿فَقَدْ احْتَمَلُوا﴾: على ظهورهم ﴿بُهْتَانًا﴾: حيث آذوهم بغير سب، ﴿وَإِثْمًا مُبِينًا﴾ (٥٨): حيث تعدوا عليهم وانتهكوا حرمة أمر الله باحترامها، ولهذا كان سب آحاد المؤمنين موجباً للتعزيز بحسب حالته وعلو مرتبته؛ فتعزيز من سب الصحابة أبلغ، وتعزيز من سب العلماء وأهل الدين أعظم من غيرهم.

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لَأَزْوَجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءَ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلْبِيزِهِنَّ ذَلِكَ آدَقُ أَنْ يَعْرِقَ فَلَا يُؤْذِنُ وَكَانَ اللَّهُ

عَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥٩﴾ لَّيْنٌ لَّرَبِّنَا الَّذِي يَنْتَظِرُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ وَالْمُرْجُفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَعْنَتُكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٠﴾ مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثَقُفُوا أُخِذُوا وَقُتِلُوا تَقْتِيلًا ﴿٦١﴾ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٦٢﴾.

﴿٥٩﴾ هذه الآية هي التي تسمى آية الحجاب، فأمر الله نبيه أن يأمر النساء عموماً، ويبدأ بزوجاته وبناته - لأنهن أكدم غيرهن، ولأن الأمر لغيره ينبغي أن يبدأ بأهله قبل غيرهم؛ كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾ [التحریم: ٦]. أن يُدْرِكَنَّ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلْبِيبِهِنَّ ﴿٦٠﴾: وهن اللاتي يكن فوق الثياب من ملحفة وخمار ورداء ونحوه؛ أي: يغطين بها وجوههن وصدورهن، ثم ذكر حكمة ذلك، فقال: ﴿ذَلِكَ أَدْنَىٰ أَنْ يُعْرَفَ فَلاَ يُؤْذَنَ﴾: دل على وجود أذية إن لم يحتجب، وذلك لأنهن إذا لم يحتجب، ربما ظن أنهن غير عفيفات، فيتعرض لهن من في قلبه مرض، فيؤذيهن، وربما استهجن بهن، وظن أنهن إماء، فتهاون بهن من يريد الشر؛ فالاحتجاب حاسم لمطامع الطامعين فيهن. ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَفُورًا رَّحِيمًا﴾ ﴿٥٩﴾: حيث غفر لكم ما سلف ورحمكم بأن بين لكم الأحكام وأوضح المحلل والحرام؛ فهذا سد للباب من جهتهن.

﴿٦٠﴾ و﴿٦١﴾ وأما من جهة أهل الشر؛ فقد توعدهم بقوله: ﴿لَّيْنٌ لَّرَبِّنَا الَّذِي يَنْتَظِرُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ﴾؛ أي: مرض شك أو شهوة، ﴿وَالْمُرْجُفُونَ فِي الْمَدِينَةِ﴾؛ أي: المخوفون المرهبون الأعداء، المتحدثون بكثرتهم وقوتهم وضعف المسلمين، ولم يذكر المعمول الذي يتهمون عنه؛ ليعلم ذلك كل ما توحى به أنفسهم إليهم، وتوسوس به، وتدعو إليه من الشر من التعريض بسبب الإسلام وأهله، والإرجاف بالمسلمين، وتوهين قواهم، والتعرض للمؤمنات بالسوء والفاحشة. وغير ذلك من المعاصي الصادرة من أمثال هؤلاء.

﴿لَعْنَتُكَ بِهِمْ﴾؛ أي: نأمرك بعقوبتهم قتالهم ونسلكك عليهم؛ ثم إذا فعلنا ذلك؛ لا طاقة لهم بك، وليس لهم قوة ولا امتناع، ولهذا قال: ﴿ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا﴾ ﴿٦٠﴾؛ أي: لا يجاورونك في المدينة إلا قليلاً؛ بأن تقتلهم أو تنفيهم، وهذا فيه دليل لنفي أهل الشر الذين يتضرر بإقامتهم بين أظهر المسلمين؛ فإن ذلك أحسم للشر وأبعد منه، ويكونون ﴿مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثَقُفُوا أُخِذُوا وَقُتِلُوا تَقْتِيلًا﴾ ﴿٦١﴾؛ أي: مبعدين حيث وجدوا، لا يحصل لهم أمن، ولا يقر لهم قرار، يخشون أن يقتلوا أو يحبسوا أو يعاقبوا.

﴿سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ﴾: أن من تمادى في العصيان وتجراً على الأذى ولم ينته منه؛ فإنه يعاقب عقوبة بليغة، ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ ﴿٦٢﴾؛ أي: تغييراً، بل سنته تعالى وعادته جارية مع الأسباب المقتضية لأسبابها.

﴿يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾ ﴿٦٣﴾ إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَا يَجِدُونَ وِلَايَةً وَلَا نَصِيرًا ﴿٦٥﴾ يَوْمَ ثَقُلَتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَلَيْتَنَّا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَ ﴿٦٦﴾ وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكِبَرَاءَنَا فَأَضَلُّنَا السَّبِيلَ ﴿٦٧﴾ رَبَّنَا ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنَاهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴿٦٨﴾.

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ ءَادُوا مُوسَىٰ فِرْعَاةَ
اللَّهِ وَمَا قَالُوا وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِهَاً﴾ (٦٣).

(٦٣) يحذر تعالى عباده المؤمنين عن أذية رسولهم محمد ﷺ النبي الكريم، الرؤوف الرحيم، فيقابلوه بضد ما يجب له من الإكرام والاحترام، وألا يتشبهوا بحال الذين آذوا موسى بن عمران كليم الرحمن، فبرأه الله مما قالوا من الأذية؛ أي: أظهر الله لهم براءته، والحال أنه عليه الصلاة والسلام ليس محل التهمة والأذية؛ فإنه كان وجيهاً عند الله، مقرباً لديه، من خواص المرسلين، ومن عباد الله المخلصين، فلم يزرهم ما له من الفضائل عن أذيته والتعرض له بما يكره. فاحذروا أيها المؤمنون أن تتشبهوا بهم في ذلك، والأذية المشار إليها هي قول بني إسرائيل لموسى لما رأوا شدة حياته وتستره عنهم: إنه ما يمنعه من ذلك إلا أنه آدر؛ أي: كبير الخصيتين، واشتهر ذلك عندهم، فأراد الله أن يبرئه منهم، فاغتسل يوماً، ووضع ثوبه على حجر، ففر الحجر بثوبه، فاهوى موسى عليه السلام في طلبه، فمر به على مجالس بني إسرائيل، فأروه أحسن خلق الله، فزال عنه ما رموه به^(١).

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا
يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ
وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ (٦٤).

(٦٤) يأمر تعالى المؤمنين بتقواه في جميع أحوالهم في السر والعلانية، ويخص منها ويندب للقول السديد، وهو القول الموافق للصواب أو المقارب له عند تعذر اليقين من قراءة، وذكر، وأمر بمعروف، ونهي عن منكر، وتعلم علم وتعليمه، والحرص على إصابة الصواب في المسائل العلمية، وسلوك كل طريق موصل لذلك، وكل وسيلة تعين عليه. ومن القول السديد لين الكلام، ولطفه في مخاطبة الأنام، والقول المتضمن للنصح والإشارة بما هو الأصح.

(٦٥) ثم ذكر ما يترتب على تقواه وقول القول السديد، فقال: ﴿يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ﴾؛ أي: يكون ذلك سبباً لصلاحها وطريقاً لقبولها؛ لأن استعمال التقوى تتقبل به الأعمال؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَقْبَلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ (٢٧) [المائدة: ٢٧]: ووفق فيه الإنسان للعمل الصالح، ويصلح الله الأعمال أيضاً بحفظها عما يفسدها وحفظ ثوابها ومضاعفتها؛

(٦٥) أي: يستخبرك الناس عن الساعة استعجالاً لها، وبعضهم تكديماً لوقوعها وتعجزاً للذي أخبر بها، ﴿قُلْ﴾ لهم: ﴿إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ﴾؛ أي: لا يعلمها إلا الله؛ فليس لي ولا لغيري بها علم، ومع هذا؛ فلا تستبطنوها، ﴿وَمَا يَذْرُوكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾ (٦٦).

(٦٦) - (٦٧) ومجرد مجيء الساعة قرباً وبعداً ليس تحت نتيجة ولا فائدة، وإنما النتيجة والخسار والريح والشقاة والسعادة: هل يستحق العبد العذاب أو يستحق الثواب؟ فهذه سأخبركم بها وأصف لكم مستحقها، فوصف مستحق العذاب ووصف العذاب؛ لأن الوصف المذكور منطبق على هؤلاء المكذبين بالساعة، فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَمَنَّ الْكَافِرِينَ﴾؛ أي: الذين صار الكفر دأبهم وطريقتهم الكفر بالله وبرسله وبما جاءوا به من عند الله، فأبعدهم في الدنيا والآخرة من رحمته، وكفى بذلك عقاباً، ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا﴾ (٦٧)؛ أي: ناراً موقدة تسعر في أجسامهم، ويبلغ العذاب إلى أفئدتهم، ويخلدون في ذلك العذاب الشديد، فلا يخرجون منه، ولا يفتر عنهم ساعة، ﴿لَا يَجِدُونَ﴾ لهم ﴿وَلِيًّا﴾: فيعطيهما ما طلبوه ﴿وَلَا نَصِيرًا﴾ (٦٨)؛ يدفع عنهم العذاب، بل قد تخلى عنهم العلي النصير وأحاط بهم عذاب السعير، وبلغ منهم مبلغاً عظيماً، ولهذا قال: ﴿يَوْمَ ثَقَلَتْ وَجُوهُهُمْ فِي النَّارِ﴾: فيذوقون حرها، ويشتد عليهم أمرها، ويتحسرون على ما أسلفوا. ﴿وَيَقُولُونَ يَلَيْتَنَّا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَ﴾ (٦٩)؛ فسلمنا من هذا العذاب، واستحققنا كالمطيعين جزيل الثواب، ولكن أمانة فات وقتها، فلم تقدمهم إلا حسرة وندماً وهماً وغماً وآلماً.

(٧٠) ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكِبَرَاءَنَا﴾: وقلدناهم على ضلالهم، ﴿فَأَصْلَحْنَا السَّبِيلَ﴾ (٧١)؛ كقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُعْزِزُ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَكَيْتَى أَخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا﴾ (٢٧) يَوَلَّتْ لَيْتَى لَوْ أَخَذْتُ فَلَانًا خَلِيلًا (٧٨) لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي﴾ [الفرقان: ٢٧-٢٩] الآية.

(٧٢) ولما علموا أنهم هم وكبراءهم مستحقون للعقاب؛ أرادوا أن يشتفوا ممن أضلهم، فقالوا: ﴿رَبَّنَا ءَاتِنَامْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنَتُمْ لَنَا كَبِيرًا﴾ (٧٣)؛ فيقول الله ﴿لِكُلِّ ضِعْفٍ﴾ [الأعراف: ٣٨]: فكلكم اشتركتم في الكفر والمعاصي، فتشتركون في العقاب، وإن تفاوت عذاب بعضكم على بعض بحسب تفاوت الجرم.

كما أن الإخلال بالتقوى والقول السديد سبب لفساد الأعمال وعدم قبولها وعدم ترتب آثارها عليها، وَيَقَرُّ لَكُمْ: أيضًا ﴿ذُنُوبَكُمْ﴾: التي هي السبب في هلاككم؛ فالتقوى تستقيم بها الأمور، ويندفع بها كل محذور، ولهذا قال: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ (٧١).

﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ (٧٢) لِعَذَابِ اللَّهِ الْمُنْفِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ (٧٣).

﴿٧٢﴾ يعظم تعالى شأن الأمانة التي اتّمن الله عليها المكلفين، التي هي امتثال الأوامر واجتناب المحارم في حال السر والخفية كحال العلانية، وأنه تعالى عرضها على المخلوقات العظيمة؛ السماوات والأرض والجبال عرض تخيير لا تحميم، وأنت إن قمت بها وأديتها على وجهها؛ فلك الثواب، وإن لم تقومي بها ولم تؤديها؛ فعليك العقاب، ﴿فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا﴾؛ أي: خوفاً ألا يقمن بما حملن، لا عصياناً لربهن ولا زهداً في ثوابه، وعرضها الله على الإنسان على ذلك الشرط المذكور، فقبلها وحملها مع ظلمه وجهله، وحمل هذا الحمل الثقيل.

﴿٧٣﴾ فانقسم الناس بحسب قيامهم بها وعدمه إلى ثلاثة أقسام: منافقون أظهروا أنهم قاموا بها ظاهراً لا باطناً، ومشركون تركوها ظاهراً وباطناً، ومؤمنون قائمون بها ظاهراً وباطناً. فذكر الله تعالى أعمال هذه الأقسام الثلاثة وما لهم من الثواب والعقاب، فقال: ﴿لِعَذَابِ اللَّهِ الْمُنْفِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ (٧٣): فله تعالى الحمد حيث ختم هذه الآية بهذين الاسمين الكريمين الدالين على تمام مغفرة الله وسعة رحمته وعموم جوده، مع أن المحكوم عليهم كثير منهم لم يستحق المغفرة والرحمة؛ لنفاقه وشركه.

تم تفسير سورة الأحزاب بحمد الله وعونه.

﴿٧٢﴾ ﴿٧٣﴾

تفسير سورة سبأ

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾ (١) يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ﴾ (٢).

﴿الْحَمْدُ﴾: الثناء بالصفات الحميدة والأفعال الحسنة؛ فله تعالى الحمد؛ لأن جميع صفاته يحمد عليها لكونها صفات كمال، وأفعاله يحمد عليها لأنها دائرة بين الفضل الذي يحمد عليه ويشكر، والعدل الذي يحمد عليه ويعترف بحكمته فيه. وحمد نفسه هنا على أن ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ ملكاً وعبيداً يتصرف فيهم بحمده. ﴿وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ﴾: لأن في الآخرة يظهر من حمده والثناء عليه ما لا يكون في الدنيا؛ فإذا قضى الله تعالى بين الخلاق كلهم، ورأى الناس والخلق كلهم ما حكم به وكمال عدله وقسطه وحكمته فيه؛ حمدوه كلهم على ذلك، حتى أهل العقاب؛ ما دخلوا النار إلا وقلوبهم ممتلئة من حمده، وأن هذا من جراء أعمالهم، وأنه عادل في حكمه بعقابهم.

وأما ظهور حمده في دار النعيم والثواب؛ فذلك شيء قد تواردت به الأخبار وتوافق عليه الدليل السمعي والعقلي؛ فإنهم في الجنة يرون من توالي نعم الله وإدراك خيره وكثرة بركاته وسعة عطاياه التي لم يبق في قلوب أهل الجنة أمنية ولا إرادة إلا وقد أعطى فوق ما تمنى وأراد، بل يعطون من الخير ما لم تتعلق به أمانيتهم ولم يخطر بقلوبهم؛ فما ظنك بحمدهم لربهم في هذه الحال مع أن في الجنة تضمحل العوارض والقواطع التي تقطع عن معرفة الله ومحبته والثناء عليه، ويكون ذلك أحب إلى أهلها من كل نعيم وألد عليهم من كل لذة؟ ولهذا؛ إذا رآوا الله تعالى وسمعوا كلامه عند خطابه لهم؛ أذهلهم ذلك عن كل نعيم، ويكون الذكر لهم في الجنة كالنفس متواصلاً في جميع الأوقات، هذا إذا أضفت ذلك إلى أنه يظهر لأهل الجنة في الجنة كل وقت من عظمة ربهم، وجلاله، وجماله، وسعة كماله، ما يوجب لهم كمال الحمد والثناء عليه. ﴿وَهُوَ الْحَكِيمُ﴾: في ملكه وتدييره، الحكيم في أمره ونهيه. ﴿الْخَيْرُ﴾: المطلع على سرائر الأمور وخفاياها.

﴿٢﴾ ولهذا فصل علمه بقوله: ﴿يَعْلَمُ مَا يَلْجُ فِي الْأَرْضِ﴾؛ أي: من مطر وبذر وحيوان، ﴿وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا﴾: من أنواع النباتات وأصناف الحيوانات، ﴿وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ﴾: من الأملاك والأرزاق والأقذار، ﴿وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا﴾: من الملائكة والأرواح وغير ذلك. ولما ذكر مخلوقاته وحكمته فيها وعلمه بأحوالها؛ ذكر مغفرته ورحمته لها، فقال: ﴿وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ﴾؛ أي: الذي الرحمة والمغفرة وصفه،

ولم تزل آثارهما تنزل على العباد كل وقت بحسب ما قاموا به من مقتضياتها.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عِلْمُ الْغَيْبِ لَا يُعْرَبُ عَنْهُ مُثْقَلٌ ذَرْبٌ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغُرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ ﴿٣﴾ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾ وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي ءَايَاتِنَا مُعْجِزِينَ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رَّجْزٍ أَلِيمٌ ﴿٥﴾

﴿٢﴾ لما بين تعالى عظمتها بما وصف به نفسه، وكان هذا موجباً لتعظيمه وتقديسه والإيمان به؛ ذكر أن من أصناف الناس طائفة لم تقدر ربها حق قدره، ولم تعظمه حق عظمتها، بل كفروا به وأنكروا قدرته على إعادة الأموات وقيام الساعة، وعارضوا بذلك رسله، فقال: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾؛ أي: بالله وبرسله وبما جاءوا به، فقالوا بسبب كفرهم: ﴿لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ﴾؛ أي: ما هي إلا هذه الحياة الدنيا نموت ونحيا! فأمر الله رسوله أن يرد قولهم ويطلبه ويقسم على البعث وأنه سيأتيهم، واستدل على ذلك بدليل من أقر به؛ لزمه أن يصدق بالبعث ضرورة، وهو علمه تعالى الواسع العام، فقال: ﴿عِلْمُ الْغَيْبِ﴾؛ أي: الأمور الغائبة عن أبصارنا وعن علمنا؛ فكيف بالشهادة؟ ثم أكد علمه فقال: ﴿لَا يُعْرَبُ﴾؛ أي: لا يغيب عن علمه ﴿مُثْقَلٌ ذَرْبٌ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ﴾؛ أي: جميع الأشياء بذواتها وأجزائها، حتى أصغر ما يكون من الأجزاء، وهو الميثاقيل منها، ﴿وَلَا أَصْغُرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ ﴿٣﴾؛ أي: قد أحاط به علمه وجرى به قلمه وتضمنه الكتاب المبين الذي هو اللوح المحفوظ.

فالذي لا يخفى عن علمه مثقال الذرة فما دونه في جميع الأوقات، ويعلم ما تنقص الأرض من الأموات وما يبقى من أجسادهم؛ قادر على بعثهم من باب أولى، وليس بعثهم بأعجب من هذا العلم المحيط.

﴿٤﴾ ثم ذكر المقصود من البعث، فقال: ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾: بقلوبهم، صدقوا الله، وصدقوا رسله تصديقاً جازماً، ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾: تصديقاً لإيمانهم. ﴿أُولَٰئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ﴾: لذنوبهم، بسبب إيمانهم وعملهم

يندفع بها كل شر وعقاب، ﴿وَرَزَقُ كَرِيمٌ﴾: بإحسانهم، يحصل لهم به كل مطلوب ومرغوب وأمنية.

﴿وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعْجِزِينَ﴾: أي: سعوا فيها كفراً بها وتعجيزاً لمن جاء بها وتعجيزاً لمن أنزلها كما عجزوه في الإعادة بعد الموت. ﴿أُولَئِكَ هُمُ عَذَابٌ مِّن رَّجَزٍ أَلِيمٍ﴾: أي: مؤلم لأبدانهم وقلوبهم.

﴿وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقَّ وَهَدَىٰ إِلَى صِرَاطٍ مُّبِينٍ الْحَمِيدُ﴾.

﴿١﴾ لما ذكر تعالى إنكار من أنكر البعث، وأنهم يرون ما أنزل على رسوله ليس بحق؛ ذكر حالة الموقنين من العباد، وهم أهل العلم، وأنهم يرون ما أنزل الله على رسوله؛ من الكتاب وما اشتمل عليه من الأخبار ﴿هُوَ الْحَقُّ﴾؛ أي: الحق منحصراً فيه، وما خالفه وناقضه فإنه باطل؛ لأنهم وصلوا من العلم إلى درجة اليقين، ويرون أيضاً أنه في أوامره ونواهيه؛ يهدي ﴿إِلَى صِرَاطٍ مُّبِينٍ الْحَمِيدُ﴾: وذلك لأنهم جزموا بصدق ما أخبر به من وجوه كثيرة: من جهة علمهم بصدق من أخبر به، ومن جهة موافقته للأمور الواقعة والكتب السابقة، ومن جهة ما يشاهدون من أخبارها التي تقع عياناً، ومن جهة ما يشاهدون من الآيات العظيمة الدالة عليها في الآفاق وفي أنفسهم، ومن جهة موافقتها لما دلت عليه أسماؤه تعالى وأوصافه، ويرون في الأوامر والنواهي أنها تهدي إلى الصراط المستقيم المتضمن للأمور بكل صفة تزكي النفس وتتمى الأجر وتفيد العامل وغيره؛ كالصدق والإخلاص وبر الوالدين وصلة الأرحام والإحسان إلى عموم الخلق ونحو ذلك، وتنتهي عن كل صفة قبيحة، تدنس النفس، وتحبط الأجر، وتوجب الإثم والوزر، من الشرك، والزنا، والربا، والظلم في الدماء، والأموال، والأعراض.

وهذه منقبة لأهل العلم وفضيلة وعلامة لهم، وأنه كلما كان العبد أعظم علماً وتصديقاً بأخبار ما جاء به الرسول وأعظم معرفة بحكم أوامره ونواهيه؛ كان من أهل العلم الذين جعلهم الله حجة على ما جاء به الرسول، احتج الله بهم على المكذبين المعاندين كما في هذه الآية وغيرها.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَى رَجُلٍ يُبَشِّرُكُمْ إِذَا مَرَقْتُمْ كُلَّ مَرْقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾: أفترى على الله كذباً أم بئس حجة! بل الذين لا يؤمنون بالآخرة في العذاب والضلال

الْبَعِيدِ ﴿٨﴾ أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِن نَّشَاءُ نَحْصِفْ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطَ عَلَيْهِمْ كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِن فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٩﴾

﴿٧﴾ أي: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾: على وجه التكذيب والاستهزاء والاستبعاد، وذكر وجه الاستبعاد؛ أي: قال بعضهم لبعض: ﴿هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَى رَجُلٍ يُبَشِّرُكُمْ إِذَا مَرَقْتُمْ كُلَّ مَرْقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾: يعنون بذلك الرجل رسول الله ﷺ، وأنه رجل أتى بما يستغرب منه، حتى صار بزعمهم فرجة يتفرون عليه وأعجوبة يسخرون منه، وأنه كيف يقول: إنكم مبعوثون بعدما مرقكم البلى وتفرقت أوصالكم، واضمحلت أعضاؤكم!

﴿٨﴾ فهذا الرجل الذي يأتي بذلك: هل افترى على الله كذباً؟ فتجراً عليه وقال ما قال، ﴿أَمْ بئس حجة!﴾: فلا يستغرب منه؛ فإن الجنون فنون، وكل هذا منهم على وجه العناد والظلم، ولقد علموا أنه أصدق خلق الله وأعقلهم، ومن علمهم أنهم أبدوا وأعادوا في معاداتهم، وبذلوا أنفسهم وأموالهم في صد الناس عنه؛ فلو كان كاذباً مجنوناً؛ لم ينبغ لكم يا أهل العقول غير الزاكية أن تصغوا لما قال ولا تحتفلوا بدعوته؛ فإن المجنون لا ينبغي للعاقل أن يلفت إليه نظره أو يبلغ قوله منه كل مبلغ، ولولا عنادكم وظلمكم؛ لبادرتم لإجابته وليتيم دعوته، ولكن ما تغني الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون، ولهذا قال تعالى: ﴿بَلِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾، ومنهم الذين قالوا تلك المقالة ﴿فِي الْعَذَابِ وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ﴾: أي: في الشقاء العظيم والضلال البعيد الذي ليس بقريب من الصواب، وأي شقاء وضلال أبلغ من إنكارهم لقدرة الله على البعث، وتكذيبهم لرسولهم الذي جاء به، واستهزائهم به، وجزمهم بأن ما جاءوا به هو الحق فرأوا الحق باطلاً والباطل والضلال حقاً وهدى!؟

﴿٩﴾ ثم نبههم على الدليل العقلي الدال على عدم استبعاد البعث الذي استبعدوه، وأنهم لو نظروا إلى ما بين أيديهم وما خلفهم من السماء والأرض، فرأوا من قدرة الله فيهما ما يبهر العقول، ومن عظمتها ما يذهل العلماء الفحول، وأن خلقهما وعظمتها وما فيهما من المخلوقات أعظم من إعادة الناس بعد موتهم من قبورهم؛ فما الحامل لهم

سورة سبا

سورة سبا

أَفَرَأَيْتَ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَمْ بِهِ جُنَّةٌ بَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ
فِي الْعَذَابِ وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ ﴿٨﴾ أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ
وَمَا خَلْفَهُمْ مِنْ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ شَأْنًا خَفِيفٌ بِهِمْ
الْأَرْضُ أَوْ شَقِيطٌ عَلَيْهِمْ كَسَفَائِرِ السَّمَاءِ إِنَّ فِي ذَلِكَ
لَآيَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ ﴿٩﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلًا
يَنْجِي أَوْبَى مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ ﴿١٠﴾ أَنْ أَعْمَلَ
سَيِّغَتٍ وَقَدَّرَ فِي السَّرْدِ وَأَعْمَلُوا صَليحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ
بَصِيرٌ ﴿١١﴾ وَلِسَلِّمِينَ الرِّيحِ غُدُوها شَهْرٌ وَرَوَّاحُها شَهْرٌ
وَأَسْلَمْنَا لَهُ عَيْنَ الْقَاطِرِ وَمِنَ الْجِنِّ مَنْ يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ
رَبِّهِ وَمَنْ يَرْغَبُ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نَذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ ﴿١٢﴾
يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحْرُوبٍ وَتَمَثَّلُوا لِحُجَّتِهِ كَالْجَوَابِ
وَقُدُورِ رَاسِبَتٍ أَعْمَلُوا أَلْ دَاوُدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ
الشَّاكُورِ ﴿١٣﴾ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ
إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنْسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَ الْجِنُّ
أَنْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ ﴿١٤﴾

٤٢٩

على ذلك التكذيب مع التصديق بما هو أكبر منه؟ نعم؛
ذاك خبر غيبي إلى الآن ما شاهدوه؛ فلذلك كذبوا به. قال
الله: ﴿إِنْ شَأْنًا خَفِيفٌ بِهِمْ الْأَرْضُ أَوْ شَقِيطٌ عَلَيْهِمْ كَسَفَائِرِ
السَّمَاءِ﴾؛ أي: من العذاب؛ لأن الأرض والسماوات تحت
تدبيرنا؛ فإن أمرناهما؛ لم يستعصبا؛ فاحذروا إصراركم على
تكذيبكم فنعاقبكم أشد العقوبة. ﴿إِنْ فِي ذَلِكَ﴾؛ أي: خلق
السموات والأرض وما فيهما من المخلوقات ﴿لَآيَةً لِّكُلِّ
عَبْدٍ مُنِيبٍ﴾ ﴿٩﴾: فكلما كان العبد أعظم إنابة إلى الله؛ كان
انتفاعه بالآيات أعظم؛ لأن المنيب مقبل إلى ربه، قد توجهت
إرادته وهماته لربه، ورجع إليه في كل أمر من أموره، فصار
قريبًا من ربه، ليس له هم إلا الاشتغال بمرضاته، فيكون نظره
للمخلوقات نظر فكرة وعبرة لا نظر غفلة غير نافعة.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلًا يَنْجِي أَوْبَى مَعَهُ وَالطَّيْرَ
وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ﴾ ﴿١٠﴾ أَنْ أَعْمَلَ سَيِّغَتٍ وَقَدَّرَ فِي السَّرْدِ
وَأَعْمَلُوا صَليحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١﴾.

﴿١١﴾، ﴿١٢﴾ أي: ولقد منّا على عبدنا ورسولنا داود عليه
الصلاة والسلام، وآتيناه فضلًا من العلم النافع، والعمل
الصالح، والنعم الدينية والدنيوية: ومن نعمه عليه:

ما خصه به من أمره تعالى الجمادات كالجبال والحيوانات
من الطيور أن تُؤَوَّبَ معه وتُرَجَّعَ التسييح بحمد ربهما مجاوبة له، وفي هذا من النعمة عليه أن كان ذلك من خصائصه التي لم
تكن لأحد قبله ولا بعده، وأن ذلك يكون منهضًا له وغيره على التسييح إذا رآوا هذه الجمادات والحيوانات تتجاوب بتسييح
ربهما وتمجيده وتكبيره وتحميده؛ كان ذلك مما يهيج على ذكر الله تعالى.

ومنها: أن ذلك كما قال كثير من العلماء؛ إنه طرب بصوت داود؛ فإن الله تعالى قد أعطاه من حسن الصوت ما فاق به غيره،
وكان إذا رجع التسييح والتهليل والتمجيد بذلك الصوت الرخيم الشجي المطرب؛ طرب كل من سمعه من الإنس والجن،
حتى الطيور والجبال، وسبحت بحمد ربهما.

ومنها: أنه لعله ليحصل له أجر تسييحها، لأنه سبب ذلك، وتسيح تبعًا له.

ومن فضله عليه أن ألان له الحديد؛ ليعمل الدروع السابغات، وعلمه تعالى كيفية صنعته؛ بأن يقدره في ﴿السَّرْدِ﴾؛ أي:
يقدره حلقًا وصنعه كذلك ثم يدخل بعضها ببعض، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لِيُخَصِّنْكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ
أَنْتُمْ شَاكِرُونَ﴾ ﴿٨٠﴾، ولما ذكر ما امتن به عليه وعلى آله؛ أمره بشكره وأن يعملوا صالحًا، ويراقبوا الله تعالى فيه
بإصلاحه وحفظه من المفسدات؛ فإنه بصير بأعمالهم، مطلع عليها، لا يخفى عليه منها شيء.

﴿وَلِسَلِّمِينَ الرِّيحِ غُدُوها شَهْرٌ وَرَوَّاحُها شَهْرٌ وَأَسْلَمْنَا لَهُ عَيْنَ الْقَاطِرِ وَمِنَ الْجِنِّ مَنْ يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَنْ يَرْغَبُ
مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نَذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ﴾ ﴿١٢﴾ يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحْرُوبٍ وَتَمَثَّلُوا لِحُجَّتِهِ كَالْجَوَابِ وَقُدُورِ رَاسِبَتٍ أَعْمَلُوا
أَلْ دَاوُدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّاكُورِ ﴿١٣﴾ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنْسَأَتَهُ
فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَ الْجِنُّ أَنْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ ﴿١٤﴾.

عليهم؛ فلو علموا الغيب؛ لعلموا موت سليمان الذي هم أحرص شيء عليه ليسلموا مما هم فيه.

﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكِنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلٌّ مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتِ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَلِكَ جَزَيْنَهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ يُجْزَى إِلَّا الْكَافِرُ ﴿١٧﴾ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي بَرَكْنَا فِيهَا قَرْيَ ظَهْرَةٍ وَقَدَرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا ءَامِينَ ﴿١٨﴾ فَقَالُوا رَبَّنَا بَعْدَ بَيْنِ أَصْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَقْنَاهُمْ كُلَّ مِرْقَةٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿١٩﴾ وَلَقَدْ صَدَقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يُوَفِّي بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ ﴿٢١﴾﴾

﴿١٥﴾ - ﴿٢١﴾ سبأ قبيلة معروفة في أداني اليمن، ومسكنهم بلدة يقال لها: مأرب، ومن نعم الله ولطفه بالناس عمومًا وبالعرب خصوصًا أنه قص في القرآن أخبار المهلكين والمعاقبين ممن كان يجاور العرب، ويشاهد آثاره، ويتناقل الناس أخباره؛ ليكون ذلك أدعى إلى التصديق وأقرب للموعظة، فقال: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكِنِهِمْ﴾ أي: محلهم الذي يسكنون فيه ﴿آيَةٌ﴾ والآية هنا ما أدر الله عليهم من النعم، وصرف عنهم من النقم، الذي يقتضي ذلك منهم أن يعبدوا الله ويشكروه. ثم فسر الآية بقوله: ﴿جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ﴾: وكان لهم واد عظيم تأتيه سيول كثيرة، وكانوا بنوا سدًا محكمًا يكون مجمعًا للماء، فكانت السيول تأتيه، فيجتمع هناك ماء عظيم، فيفرقونه على بساتينهم التي عن يمين ذلك الوادي وشماله، وتغل لهم تلك الجنتان العظيمتان من الثمار ما يكفيهم ويحصل لهم به الغبطة والسرور، فأمرهم الله بشكر نعمه التي أدرها عليهم من وجه كثيرة:

منها: هاتان الجنتان اللتان غالب أفواتهم منهما.

ومنها: أن الله جعل بلدتهم بلدة طيبة لحسن هوائها وقلة وخمها وحصول الرزق الرغد فيها.

﴿١٦﴾ لما ذكر فضله على داود عليه السلام؛ ذكر فضله على ابنه سليمان عليه الصلاة والسلام، وأن الله سخر له الريح تجري بأمره وتحمله وتحمل جميع ما معه وتقطع المسافة البعيدة جدًا في مدة يسيرة، فتسير في اليوم مسيرة شهرين: ﴿غَدُوها شَهْرٌ﴾ أي: أول النهار إلى الزوال، ﴿وَرَوْحُها شَهْرٌ﴾ من الزوال إلى آخر النهار، ﴿وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ﴾ أي: سخرنا له عين النحاس: وسهلنا له الأسباب في استخراج ما يستخرج منها من الأواني وغيرها، وسخر الله له أيضًا الشياطين والجن لا يقدر أن يستعصوا عن أمره، ﴿وَمَنْ يَرْغُ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نَذَرُهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ ﴿١٧﴾﴾.

﴿١٨﴾ وأعمالهم؛ كل ما شاء سليمان عمله؛ ﴿مِنْ تَحَرِيْبٍ﴾ وهو كل بناء يعقد وتحكم به الأبنية؛ فهذا فيه ذكر الأبنية الفخمة. ﴿وَتَمْنِيْلٍ﴾ أي: صور الحيوانات والجمادات من إتيان صنعتهم، وقدرتهم على ذلك، وعملهم لسليمان ﴿وَحِجَابٍ كَأُجُوبٍ﴾ أي: كالبرك الكبار يعملونها لسليمان للطعام؛ لأنه يحتاج إلى ما لا يحتاج إليه غيره. ويعملون له قدورًا ﴿رَاسِيَتٍ﴾: لا تزال عن أماكنها من عظمها، فلما ذكر منته عليهم؛ أمرهم بشكرها، فقال: ﴿أَعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ﴾ وهم داود وأولاده وأهله؛ لأن المنة على الجميع، وكثير من هذه المصالح عائد لكلهم ﴿شُكْرًا﴾: لله على ما أعطاهم، ومقابلة لما أولاهم. ﴿وَقِيلَ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ ﴿١٩﴾﴾ فأكثرهم لم يشكروا الله تعالى على ما أولاهم من نعمه ودفع عنهم من النقم. والشكر: اعتراف القلب بمنة الله تعالى، وتلقيها افتقارًا إليها، وصرفها في طاعة الله تعالى، وصونها عن صرفها في المعصية.

﴿٢٠﴾ فلم يزل الشياطين يعملون لسليمان عليه الصلاة والسلام كل بناء، وكانوا قد موهوا على الإنس، وأخبروهم أنهم يعلمون الغيب، ويطلعون على المكنونات، فأراد الله تعالى أن يُري العباد كذبهم في هذه الدعوى، فمكثوا يعملون على عملهم، وقضى الله الموت على سليمان عليه السلام، واتكا على عصاه، وهي المنسأة، فصاروا إذا مروا به وهو متكئ عليها؛ ظنوه حيًا وهابوه. فغدوا على عملهم كذلك سنة كاملة على ما قيل، حتى سلطت دابة الأرض على عصاه، فلم تزل ترعاها حتى باد وسقط، فسقط سليمان، وتفرقت الشياطين وتبينت الإنس أن الجن ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ الغيب ما يَشْتَوْنَ فِي الْمَذَابِ الْمُهِينِ ﴿٢١﴾﴾ وهو العمل الشاق

ومنها: أن الله تعالى وعدهم إن شكروه أن يغفر لهم ويرحمهم، ولهذا قال: ﴿بَلَدٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ﴾ ﴿١٥﴾.

ومنها: أن الله لما علم احتياجهم في تجارتهم ومكاسبهم إلى الأرض المباركة - الظاهر أنها قرى صنعاء كما قاله غير واحد من السلف، وقيل: إنها الشام؛ هيأ لهم من الأسباب ما به يتيسر وصولهم إليها بغاية السهولة من الأمن وعدم الخوف وتواصل القرى بينهم وبينها؛ بحيث لا يكون عليهم مشقة يحمل الزاد والمزاد، ولهذا قال: ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَرَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَرْنَا فِيهَا السَّيْرَ﴾؛ أي: سيرا مقدرًا يعرفونه ويحكمون عليه بحيث لا يتيهون عنه ليالي وأيامًا.

﴿ءَامِنِينَ﴾ ﴿١٨﴾؛ أي: مطمئنين في السير في تلك الليالي والأيام غير خائفين، وهذا من تمام نعمة الله عليهم أن أمنهم من الخوف. فأعرضوا عن المنعم وعن عبادته، ويطروا النعمة وملوها، حتى إنهم طلبوا وتمنوا أن تتباعد أسفارهم بين تلك القرى التي كان السير فيها متيسرًا. ﴿وَطَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾: بكفرهم بالله وبنعمته، فعاقبهم الله تعالى بهذه النعمة التي أطفئهم، فأبادها عليهم، فأرسل عليها ﴿سَيْلَ الْعَرِمِ﴾؛ أي: السيل المتوعر الذي خرب سدهم، وأتلف جناتهم، وخرب

بساتينهم، فتبدلت تلك الجنات ذات الحدائق المعجبة والأشجار المثمرة، وصار بدلها أشجار لا نفع فيها. ولهذا قال: ﴿وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتِ أُكُلٍ﴾؛ أي: شيء قليل من الأكل الذي لا يقع منهم موقعًا، ﴿خَمَطٍ وَأُتًى وَشِئٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ﴾ ﴿١٦﴾: وهذا كله شجر معروف، وهذا من جنس عملهم؛ فكما بدلوا الشكر الحسن بالكفر القبيح؛ بدلوا تلك النعمة بما ذكر. ولهذا قال: ﴿ذَلِكَ جَزَيْنَهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجْزِي إِلَّا الْكَافِرَ﴾ ﴿١٧﴾؛ أي: وهل نجازي جزاء العقوبة - بدليل السياق - إلا من كفر بالله ويطر النعمة؟! فلما أصابهم ما أصابهم؛ تفرقوا وتمزقوا بعدما كانوا مجتمعين، وجعلهم الله أحداث يتحدث بهم وأسما را للناس، وكان يضرب بهم المثل، فيقال: «تفرقوا أيدي سبا»؛ فكل أحد يتحدث بما جرى لهم، ولكن لا ينتفع بالعبرة فيهم إلا من قال الله: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ ﴿١٩﴾: صبار على المكاره والشدائد، يتحملها لوجه الله، ولا يتسخطها، بل يصبر عليها، شكور لنعمة الله تعالى، يُقَرُّ بها، ويعترف، ويشي على من أولاهها، ويصرفها في طاعته.

فهذا إذا سمع بقصتهم وما جرى منهم وعليهم؛ عرف بذلك أن تلك العقوبة جزاء لكفرهم نعمة الله، وأن من فعل مثلهم؛ فُعل به كما فُعل بهم، وأن شكر الله تعالى حافظ للنعمة دافع للنقمة، وأن رسل الله صادقون فيما أخبروا به، وأن الجزاء حق كما رأى أنموذجه في دار الدنيا.

﴿ثُمَّ ذَكَرَ أَنَّ قَوْمَ سَبَأٍ مِّنَ الَّذِينَ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ﴾: حيث قال لربه: ﴿فَاعِزَّكَ لَأَغْوِيَهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ ﴿٨٧﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴿٨٨﴾. [ص: ٨٢، ٨٣]. وهذا ظن من إبليس لا يقين؛ لأنه لا يعلم الغيب ولم يأت خبر من الله أنه سيغويهم أجمعين؛ إلا من استثنى؛ فهؤلاء وأمثالهم ممن صدَّق عليه إبليس ظنه ودعاهم وأغواهم، ﴿فَأَنبَعُوهُ إِلَّا قَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿٩٢﴾: ممن لم يكفر بنعمة الله؛ فإنه لم يدخل تحت ظن إبليس، ويحتمل أن قصة سبا انتهت عند قوله: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ ﴿١٩﴾. ثم ابتداء فقال: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ﴾؛ أي: على جنس الناس، فتكون الآية عامة في كل من اتبعه.

لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكِنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ. بَلَدٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتِ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَلِكَ جَزَيْنَهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجْزِي إِلَّا الْكَافِرَ ﴿١٧﴾ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَرَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لِيَالٍ وَأَيَّامًا آمِنِينَ ﴿١٨﴾ فَقَالُوا رَبَّنَا بَعْدَ بَيْنِ أَسْفَارِنَا وَطَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَرَقْنَاهُمْ كُلَّ مِرْقٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿١٩﴾ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا قَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُّؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ فِي شَكٍّ مِّن رَّبِّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ ﴿٢١﴾ قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُوكَ شَيْئًا قُلْ إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَعْبُدُوا لِيَاسِيٍّ وَأَنبَسِيٍّ وَتَمِيمٍ وَذُرَّافَةَ ثَمُودَ صَوْتُهَا مِثْلُ الْقُرُوفِ وَأَعْيُنُهُنَّ كَظُلُمٍ أَفْوَاهُ مِثْلُ الْقُرُوفِ أَلَمْ يَكْفُوكَ يَٰ سَبَأُ لِّلَّهِ الْكِبْرُ الْأَوَّلُ وَالْحَبْلُ الْمُثَمَّمُ يُفَصِّلُ الْوَحْيَ لَكُمْ وَأَنبَأَ بَيْنَهُمْ أَنبَاءً كَثِيرًا مِّنْ دُونِ ذَلِكَ إِنَّهُم لَكَاذِبُونَ ﴿٢٢﴾

سورة سبا

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ. حَتَّىٰ إِذَا فُزِعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقُّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴿٢١﴾ قُلْ مَنْ يَرْفُقُكُمْ مِنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ وَإِنَّا أُولَٰئِكَ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٢٢﴾ قُلْ لَا تَسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرُكُمْ وَلَا تَسْأَلُوا عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ ﴿٢٤﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمُ الَّذِينَ اتَّخَفْتُمْ بِهِ شُرَكَاءَ كَلَّا بَلْ هُوَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢٥﴾ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٧﴾ قُلْ لَّكُمْ يَوْمَ الْيَعَادِ يَوْمٌ لَا تَسْتَعِجُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِرُونَ ﴿٢٨﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرْآنِ وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ أَتَتْهُمْ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِمُ لَئِنْ لَمْ تَرْجِعْ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ يَقُولُ الَّذِينَ

﴿٢١﴾ ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا كَانَ لَهُ: أَي: لِبَلِيسَ عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطَانٍ﴾؛ أَي: تسلط وقهر وقسر على ما يريده منهم، ولكن حكمة الله تعالى اقتضت تسليطه وتسويله لبني آدم؛ ﴿لِنَعْلَمَ مَنْ يُؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ﴾؛ أَي: ليقوم سوق الامتحان، ويعلم به الصادق من الكاذب، ويعرف من كان إيمانه صحيحًا ثبت عند الامتحان والاختبار واللقاء الشبه الشيطانية ممن إيمانه غير ثابت يتزلزل بأدنى شبهة ويزول بأقل داع يدعوه إلى ضده؛ فالله تعالى جعله امتحانًا يمتحن به عباده ويظهر الخبيث من الطيب. ﴿وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيزٌ﴾: يحفظ العباد ويحفظ عليهم أعمالهم، ويحفظ تعالى جزاءها؛ فيوفيهم إياها كاملة موفرة.

﴿قُلْ أَدْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍَ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ﴾ ﴿٢٢﴾ وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ. حَتَّىٰ إِذَا فُزِعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقُّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴿٢٣﴾.

﴿٢١﴾، ﴿٢٢﴾، ﴿٢٣﴾ أَي: ﴿قُلْ﴾: يا أيها الرسول للمشركين بالله غير من المخلوقات التي لا تنفع ولا تضر ملزمًا لهم بعجزها وميئًا بطلان عبادتها: ﴿أَدْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾؛ أَي: زعمتموهم شركاء لله إن كان دعاؤكم ينفع؛ فإنهم قد توفرت فيهم أسباب العجز وعدم إجابة الدعاء من كل وجه؛ فإنهم ليس لهم أدنى ملك، ف﴿لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ﴾: على وجه الاستقلال، ولا على وجه الاشتراك، ولهذا قال: ﴿وَمَا لَهُمْ﴾؛ أَي: لتلك الآلهة الذين زعمتم فيهما؛ أَي: في السماوات والأرض ﴿مِنْ شِرْكٍَ﴾؛ أَي: لا شرك قليل ولا كثير؛ فليس لهم ملك ولا شركة ملك.

بقي أن يقال: ومع ذلك؛ فقد يكونون أعوانًا للمالك ووزراء له؛ فدعاؤهم يكون نافعًا؛ لأنهم بسبب حاجة الملك إليهم يقضون حوائج من تعلق بهم، فنفي تعالى هذه المرتبة، فقال: ﴿وَمَا لَهُ﴾؛ أَي: لله تعالى الواحد القهار ﴿مِنْهُمْ﴾؛ أَي: من هؤلاء المعبودين ﴿مِنْ ظَهِيرٍ﴾ ﴿٢٢﴾؛ أَي: معاون ووزير يساعده على الملك والتدبير. فلم يبق إلا الشفاعة، فنفاها بقوله: ﴿وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾؛ فهذه أنواع التعلقات التي يتعلق بها المشركون بأناداهم وأوثانهم من البشر والشجر والحجر وغيرهم، قطعها الله وبين بطلانها تبينًا حاسمًا لمواد الشرك قاطعًا لأصوله؛ لأن المشرك إنما يدعو ويعبد غير الله؛ لما يرجو منه من النفع؛ فهذا الرجاء هو الذي أوجب له الشرك؛ فإذا كان من يدعو غير الله لا مالًا للنفع والضرر ولا شريكًا للمالك ولا عونًا وظهيرًا للمالك ولا يقدر أن يشفع بدون إذن المالك؛ كان هذا الدعاء وهذه العبادة ضلالًا في العقل باطلة في الشرع، بل يتعكس على المشرك مطلوبه ومقصوده؛ فإنه يريد منها النفع، فبين الله بطلانه وعدمه، وبين في آيات آخر ضرره على عابديه، وأنه ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ﴾ [المنكوت: ٢٥]، ﴿وَإِذَا خُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كُفْرِينَ﴾ [الاحقاف: ٦].

والعجب أن المشرك استكبر عن الانقياد للرسول بزعمه أنهم بشر، ورضي أن يعبد ويدعو الشجر والحجر، استكبر عن الإخلاص للملك الرحمن الديان، ورضي بعبادة من ضره أقرب من نفعه، طاعة لأعدى عدو له وهو الشيطان!

الْعَلِيِّ ﴿٢٣﴾ قُلْ أَرَأَيْتَ الَّذِينَ اتَّخَفْتُمْ بِهِ شُرَكَاءَ كَلَّا بَلْ هُوَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢٤﴾.

﴿٢٤﴾ يأمر تعالى نبيه محمدًا ﷺ أن يقول لمن أشرك بالله ويسأله عن صحة شركه: ﴿مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾: فإنهم لا بد أن يقولوا أنه الله، ولئن لم يقولوا؛ ف﴿قُلْ اللَّهُ﴾: فإنك لا تجد من يدفع هذا القول. فإذا تبين أن الله وحده الذي يرزقكم من السماوات والأرض وينزل لكم المطر وينبت لكم النبات ويفجر لكم الأنهار ويطلع لكم من ثمار الأشجار وجعل لكم الحيوانات جميعها لنفعمكم ورزقكم؛ فلم تعبدون معه من لا يرزقكم شيئاً ولا يفيدكم نفعاً؟! وقوله: ﴿وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾: أي: إحدى الطائفتين منا ومنكم على الهدى مستعلية عليه، أو في ضلال بين منغمرة فيه.

وهذا الكلام يقوله من تبين له الحق واتضح له الصواب وجزم بالحق الذي هو عليه وبطلان ما عليه خصمه؛ أي: قد شرحنا من الأدلة الواضحة عندنا وعندكم ما به يعلم علمًا يقينياً لا شك فيه من المحق منا ومن المبطل ومن المهتدي ومن الضال، حتى إنه يصير التعيين بعد ذلك لا فائدة فيه؛ فإنك إذا وازنت بين من يدعو إلى عبادة الخالق لسائر المخلوقات، المتصرف فيها بجميع أنواع التصرفات، المسدي جميع النعم، الذي رزقهم وأوصل إليهم كل نعمة ودفع عنهم كل نقمة، الذي له الحمد كله والملك كله وكل أحد من الملائكة فمن دونهم خاضعون لهيئته متذللون لعظمته، وكل الشفعاء تخافه، لا يشفع أحد منهم عنده إلا بإذنه، العلي الكبير في ذاته وأوصافه وأفعاله، الذي له كل كمال وكل جلال وكل جمال وكل حمد وثناء ومجد، يدعو إلى التقرب لمن هذا شأنه، وإخلاص العمل له، وينهى عن عبادة من سواه، وبين من يتقرب إلى أوثان وأصنام وقبور لا تخلق ولا ترزق ولا تملك لأنفسها ولا لمن عبدها نفعاً ولا ضرراً ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً، بل هي جمادات لا تعقل ولا تسمع دعاء عابديها، ولو سمعته؛ ما استجابت لهم، ويوم القيامة يكفرون بشركهم ويتبرءون منهم ويتلانون بينهم، ليس لهم قسط من الملك، ولا شركة فيه ولا إعانة فيه، ولا لهم شفاعة يستقلون بها دون الله؛ فهو يدعو من هذا وصفه، ويتقرب إليه مهما أمكنه، ويعادي من أخلص الدين لله ويحاربه، ويكذب رسل الله الذين جاءوا بالإخلاص لله وحده - تبين

وقوله: ﴿حَقٌّ إِذَا فُزِعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقُّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾: ﴿٢٣﴾: يحتمل أن الضمير في هذا الموضع يعود إلى المشركين؛ لأنهم مذكورون في اللفظ، والقاعدة في الضمائر أن تعود إلى أقرب مذكور، ويكون المعنى: إذا كان يوم القيامة وفزع عن قلوب المشركين؛ أي: زال الفزع وسئلوا حين رجعت إليهم عقولهم عن حالهم في الدنيا وتكذيبهم للحق الذي جاء به الرسل؛ أنهم يقولون أن ما هم عليه من الكفر والشرك باطل، وأن ما قال الله وأخبرت به عنه رسله هو الحق، فبدا لهم ما كانوا يخفون من قبل، وعلموا أن الحق لله، واعترفوا بذنوبهم. ﴿وَهُوَ الْعَلِيُّ﴾: بذاته فوق جميع المخلوقات، وقهره لهم وعلو قدره بما له من الصفات العظيمة جليلة المقدار. ﴿الْكَبِيرُ﴾: ﴿٢٣﴾: في ذاته وصفاته، ومن علوه أن حكمه تعالى يعلو، وتذعن له النفوس، حتى نفوس المتكبرين والمشركين، وهذا المعنى أظهر، وهو الذي يدل عليه السياق.

ويحتمل أن الضمير يعود إلى الملائكة، وذلك أن الله تعالى إذا تكلم بالوحي؛ سمعته الملائكة فصعقوا وخروا لله سجداً، فيكون أول من يرفع رأسه جبريل، فيكلمه الله من وحيه بما أراد؛ فإذا زال الصعق عن قلوب الملائكة وزال الفزع، فيسأل بعضهم بعضاً عن ذلك الكلام الذي صعقوا منه: ماذا قال ربكم؟ فيقول بعضهم لبعض: قال الحق: إما إجمالاً لعلمهم أنه لا يقول إلا حقاً، وإما أن يقولوا: قال كذا وكذا، للكلام الذي سمعوه منه، وذلك من الحق. فيكون المعنى على هذا أن المشركين الذين عبدوا مع الله تلك الآلهة التي وصفنا لكم عجزها ونقصها وعدم نفعها بوجه من الوجوه كيف صدقوا وصرفوا عن إخلاص العبادة للرب العظيم العلي الكبير الذي من عظمته وجلاله أن الملائكة الكرام والمقربين من الخلق يبلغ بهم الخضوع والصعق عند سماع كلامه هذا المبلغ، ويقولون كلهم لله أنه لا يقول إلا الحق؛ فما بال هؤلاء المشركين استكبروا عن عبادة من هذا شأنه وعظمته ملكه وسلطانه؟! فتعالى العلي الكبير عن شرك المشركين وإفكهم وكذبهم.

﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ اللَّهُ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ ﴿٢٤﴾ قُلْ لَا تَسْتَلُوتُ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا تَسْتَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٥﴾ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ

لك أي الفريقين: المهتدي من الضال والشقي من السعيد، ولم يحتج إلى أن يعين لك ذلك؛ لأن وصف الحال أوضح من لسان المقال.

﴿٢٥﴾ قُلْ لَهُمْ: ﴿لَا تُشْكِرُوا عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا شُكْرًا عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾؛ أي: كل منا ومنكم له عمله، أنتم لا تسألون عن إجرامنا وذنوبنا لو أذنبنا، ونحن لا نسأل عن أعمالكم؛ فليكن المقصود منا ومنكم طلب الحقائق وسلوك طريق الإنصاف، ودعوا ما كنا نعمل، ولا يكن مانعاً لكم من اتباع الحق؛ فإن أحكام الدنيا تجري على الظواهر، ويتبع فيها الحق ويجتنب الباطل، وأما الأعمال؛ فلها دار أخرى يحكم فيها أحكم الحاكمين، ويفصل بين المختصمين أعدل العادلين.

﴿٢٦﴾ ولهذا قال: ﴿قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا﴾؛ أي: يحكم بيننا حكماً يثبت به الصادق من الكاذب، والمستحق للثواب من المستحق للعقاب، وهو خير الفاتحين.

﴿٢٧﴾ قُلْ لَهُمْ يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ، ومن ناب منابك: ﴿أَرُونِي الَّذِينَ أَلْفَضْتُمْ بِهِ شُرَكَاءَ﴾؛ أي: أين هم؟ وأين السبيل إلى معرفتهم؟ وهل هم في الأرض أم في السماء؟ فإن عالم الغيب والشهادة قد أخبرنا أنه ليس في الوجود له شريك: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَتَنْتَوُونَ اللَّهَ يَمَّا لَا يَعْلَمُ﴾ [يونس: ١٨] الآية، ﴿وَمَا يَسْجُدُ لِلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ إِن يَسْتَعِزُّوا إِلَّا الظُّلَّ وَإِن هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ ﴿٢٨﴾ [يونس: ٦٦]، وكذلك خواص خلقه من الأنبياء والمرسلين لا يعلمون له شريكاً؛ فيا أيها المشركون! أروني الذين ألحقتم بزعمكم الباطل بالله شركاء! وهذا السؤال لا يمكنهم الإجابة عنه، ولهذا قال: ﴿كَلَّا﴾؛ أي: ليس لله شريك ولا ند ولا ضد، ﴿بَلْ هُوَ اللَّهُ﴾: الذي لا يستحق التآله والتعبد إلا هو ﴿الْعَزِيزُ﴾: الذي قهر كل شيء؛ فكل ما سواه فهو مقهور مسخر مدبر. ﴿الْحَكِيمُ﴾: الذي اتقن ما خلقه، وأحسن ما شرعه، ولو لم يكن في حكمته في شرعه إلا أنه أمر بتوحيده وإخلاص الدين له، وأحب ذلك وجعله طريقاً للنجاة، ونهى عن الشرك به واتخاذ الأنداد من دونه، وجعل ذلك طريقاً للشقاء والهلاك؛ لكفى بذلك برهاناً على كمال حكمته؛ فكيف وجميع ما أمر به ونهى عنه مشتمل على الحكمة؟!

﴿٢٨﴾ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٩﴾ قُلْ لَّكُمْ مِيعَادُ يَوْمٍ لَا تَسْتَحْزِنُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَغِيثُونَ ﴿٣٠﴾

﴿٢٨﴾ يخبر تعالى أنه ما أرسل رسوله ﷺ إلا ليبشر جميع الناس بشواب الله، ويخبرهم بالأعمال الموجبة لذلك، وينذرهم عقاب الله، ويخبرهم بالأعمال الموجبة له؛ فليس لك من الأمر شيء، وكل ما اقترح عليك أهل التكذيب والعناد؛ فليس من وظيفتك، إنما ذلك بيد الله تعالى. ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ﴿٢٨﴾؛ أي: ليس لهم علم صحيح، بل إما جهال أو معاندون لم يعملوا بعلمهم، فكأنهم لا علم لهم، ومن عدم علمهم جعلهم عدم الإجابة لما اقترحوه على الرسول موجباً لرد دعوته.

﴿٢٩﴾ فما اقترحوه استعجالهم العذاب الذي أنذرهم به، فقال: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ ﴿٢٩﴾: وهذا ظلم منهم؛ فأى ملازمة بين صدقه وبين الإخبار بوقت وقوعه؟! وهل هذا إلا رد للحق وسفه في العقل؟! أليس النذير في أمر من أحوال الدنيا لو جاء قوماً يعلمون صدقه ونصحه ولهم عدو يتتهد الفرصة منهم ويعدُّ لهم، فقال لهم: تركت عدوكم قد سار يريد اجتياحكم واستئصالكم؛ فلو قال بعضهم: إن كنت صادقاً؛ فأخبرنا بأية ساعة يصل إلينا؟ وأين مكانه الآن؟ فهل يعدُّ هذا القاتل عاقلاً أم يحكم بسفهه وجنونه؟! هذا والمخبر يمكن صدقه وكذبه، والعدو قد يبدو له غيرهم وقد تنحل عزيمته، وهم قد يكون بهم منعة يدافعون بها عن أنفسهم؛ فكيف بمن كذب أصدق الخلق المعصوم في خبره، الذي لا ينطق عن الهوى بالعذاب اليقين، الذي لا مدفع له ولا ناصر منه، أليس رد خبره بحجة عدم بيان وقت وقوعه من أسفه السفه؟!

﴿٣٠﴾ قُلْ لَهُمْ مَخْبَرًا بوقت وقوعه الذي لا شك فيه: ﴿لَّكُمْ مِيعَادُ يَوْمٍ لَا تَسْتَحْزِنُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَغِيثُونَ﴾ ﴿٣٠﴾: فاحذروا ذلك اليوم وأعدوا له عدته.

﴿٣١﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَن نُّؤْمِنَ بِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلَوْ رَرَيْنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ مَوْفُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتَضَعُّوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿٣١﴾

سورة سبا

سورة سبا

قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتَضِعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ
عَنِ الْهَدْيِ بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ بَلْ كُنتُمْ تَجْرِمِينَ ﴿٣١﴾ وَقَالَ الَّذِينَ
اسْتَضِعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرٌ آلِيلٌ وَالنَّهَارُ إِذْ
تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَادًا وَأَسْرُوا التَّدَامَةَ
لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَغْلَلَ فِي آعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا
هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٣٢﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ
مِّنْ نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴿٣٣﴾
وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٣٤﴾
قُلْ إِنْ رَّبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ
لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٥﴾ وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُفَرِّقُكُمْ عِندَنَا
زُلْفَىٰ إِلَّا مَنَءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضَّعِيفِ
بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ ءَامِنُونَ ﴿٣٦﴾ وَالَّذِينَ سَعَوْنَ فِي
ءَايَاتِنَا مُعْجِرِينَ أُولَٰئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿٣٧﴾ قُلْ
إِنْ رَّبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ وَمَا
أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿٣٨﴾

٤٣٢

قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتَضِعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ
عَنِ الْهَدْيِ بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ بَلْ كُنتُمْ تَجْرِمِينَ ﴿٣١﴾ وَقَالَ الَّذِينَ
اسْتَضِعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرٌ آلِيلٌ وَالنَّهَارُ إِذْ
تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَادًا وَأَسْرُوا التَّدَامَةَ
لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَغْلَلَ فِي آعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ
يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٣٢﴾

﴿٣١﴾ لما ذكر تعالى أن معاد المستعجلين بالعذاب لا بد من
وقوعه عند حلول أجله؛ ذكر هنا حالهم في ذلك اليوم، وأنت
لو رأيت حالهم إذ وقفوا عند ربهم واجتمع الرؤساء والأتباع
في الكفر والضلال؛ لرأيت أمراً عظيماً وهولاً جسيماً،
ورأيت كيف يتراجع ﴿٣٢﴾ يرجع بعضهم إلى بعض القول ﴿٣٣﴾،
ف ﴿٣٤﴾ يقول الذين استضعفوا ﴿٣٥﴾: وهم الأنبياء، ﴿٣٦﴾ للذين
استكبروا ﴿٣٧﴾: وهم القادة: ﴿٣٨﴾ لولا أنتم لكانا مؤمنين ﴿٣٩﴾:
ولكنكم حلت بيننا وبين الإيمان، وزينتم لنا الكفران، فتبعناكم
على ذلك، ومقصودهم بذلك أن يكون العذاب على الرؤساء
دونهم.

﴿٣١﴾ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتَضِعِفُوا ﴿٣٢﴾: مستفهمين
لهم ومخبرين أن الجميع مشتركون في الجرم: ﴿٣٣﴾ أَنَحْنُ
صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهَدْيِ بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ ﴿٣٤﴾: أي: بقوتنا وقهرنا لكم،
﴿٣٥﴾ بَلْ كُنتُمْ تَجْرِمِينَ ﴿٣٦﴾: أي: مختارين للإجرام، لستم مقهورين عليه، وإن كنا قد زينا لكم؛ فما كان لنا عليكم من سلطان.

﴿٣٧﴾ وَقَالَ الَّذِينَ اسْتَضِعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرٌ آلِيلٌ وَالنَّهَارُ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَادًا ﴿٣٨﴾: أي: بل الذي
دهانا منكم ووصل إلينا من إضلالكم ما دبرتموه من المكر في الليل والنهار؛ إذ تحسبون لنا الكفر وتدعوننا إليه، وتقولون: إنه
الحق، وتقدحون في الحق، وتهجئونونه وترغمون أنه الباطل؛ فما زال مكركم بنا وكيدكم إيانا حتى أغويتمونا وفتنتمونا. فلم
تفد تلك المراجعة بينهم شيئاً إلا تباري بعضهم من بعض والتدامة العظيمة، ولهذا قال: ﴿٣٩﴾ وَأَسْرُوا التَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ ﴿٤٠﴾؛
أي: زال عنهم ذلك الاحتجاج الذي احتج به بعضهم لينجو من العذاب، وعلم أنه ظالم مستحق له، فندم كل منهم غاية الندم،
وتمنى أن لو كان على الحق، وأنه ترك الباطل الذي أوصله إلى هذا العذاب، سرّاً في أنفسهم؛ لخوفهم من الفضيحة في
إقرارهم على أنفسهم! وفي بعض مواقف القيامة وعند دخولهم النار يظهرون ذلك الندم جهراً: ﴿٤١﴾ وَيَوْمَ يَعْزُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ
يَقُولُ يَلَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ يَوَيْلٌ لِّتَنِي لَوْ أَنِّي فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٤٣﴾ ﴿الفرقان: ٢٧، ٢٨﴾ الآيات، ﴿٤٤﴾ وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ
نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿٤٥﴾ فَأَعْرِضُوا بِذُنُوبِهِمْ فَحَقًّا لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿٤٦﴾ ﴿الملك: ١٠، ١١﴾. ﴿٤٧﴾ وَجَعَلْنَا الْأَغْلَلَ فِي آعْنَاقِ الَّذِينَ
كَفَرُوا ﴿٤٨﴾: يغلون كما يغل المسجون الذي سيهان في سجنه؛ كما قال تعالى: ﴿٤٩﴾ إِذْ الْأَغْلَلُ فِي آعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ ﴿٥٠﴾
فِي الْحَبِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ ﴿٥١﴾ ﴿غافر: ٧١، ٧٢﴾ الآيات. ﴿٥٢﴾ هَلْ يُجْزَوْنَ ﴿٥٣﴾: في هذا العذاب والنكال وتلك الأغلال
النقال ﴿٥٤﴾ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٥٥﴾: من الكفر والفسوق والعصيان.

﴿٥٦﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّنْ نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴿٥٧﴾ وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَدًا وَمَا
نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٥٨﴾ قُلْ إِنْ رَّبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٩﴾ وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي
تُفَرِّقُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰ إِلَّا مَنَءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضَّعِيفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ ءَامِنُونَ ﴿٦٠﴾ وَالَّذِينَ سَعَوْنَ

بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْيَحْيَىٰ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُّؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ فَالْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعًا وَلَا ضَرًّا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿٤٢﴾.

﴿٤١﴾، ﴿٤٢﴾ وَيَوْمَ يُحْشَرُهُمْ جَمِيعًا؛ أي: العابدين لغير الله والمعبودين من دونه من الملائكة، ﴿ثُمَّ يَقُولُ﴾: الله ﴿لِلْمَلَائِكَةِ﴾: على وجه التوبيخ لمن عبدتهم: ﴿أَهْوَلَاءَ إِنَّا كُنَّا كَانُوا يَعْبُدُونَ﴾ ﴿٤١﴾؟ فبُتُّوا من عبادتهم و﴿قَالُوا﴾ سُبْحَنَكَ؛ أي: تنزيها لك وتقديسا أن يكون لك شريك أو ند، ﴿أَنْتَ وَلِيْنَا مِنْ دُونِهِمْ﴾: فنحن مفتقرون إلى ولايتك، مضطرون إليها؛ فكيف ندعو غيرنا إلى عبادتنا؟ أم كيف نصلح لأن نتخذ من دونك أولياء وشركاء، ولكن هؤلاء المشركون ﴿كَانُوا يَعْبُدُونَ الْيَحْيَىٰ﴾؛ أي: الشياطين، يأمرونهم بعبادتنا أو عبادة غيرنا، فيطيعونهم بذلك، وطاعتهم هي عبادتهم؛ لأن العبادة الطاعة؛ كما قال تعالى مخاطبا لكل من اتخذ معه آلهة: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَحْيَىٰ عَادَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمُ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ ﴿٤١﴾ وَأَنْ عِبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤٢﴾ [س: ٦٠، ٦١]. ﴿أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُّؤْمِنُونَ﴾ ﴿٤١﴾؛ أي: مصدقون للجن منقادون لهم؛ لأن الإيمان هو التصديق الموجب للانقياد.

﴿٤٢﴾ فلما تبرءوا منهم؛ قال تعالى مخاطبا لهم: ﴿فَالْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعًا وَلَا ضَرًّا﴾: تقطعت بينكم الأسباب، وانقطع بعضكم من بعض، ﴿وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا﴾: بالكفر والمعاصي بعدما ندخلهم النار: ﴿ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ ﴿٤٢﴾: فاليوم عايتتموها ودخلتموها جزاء لتكذيبكم وعقوبة لما أحدث ذلك التكذيب من عدم الهرب من أسبابها.

﴿٤٣﴾ وَإِذَا نُنَادِيهِمْ إِنَّا بِإِنْفَتَاقٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَبْهَتَكُمُ عَمَّا كَانُ يَعْبُدُ آبَاؤَكُمْ وَقَالُوا مَا هَذَا إِلَّا إِفْكٌ مُّفْتَرٍ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٣﴾ وَمَا آتَيْنَاهُمْ مِنْ كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِنْ نَذِيرٍ ﴿٤٤﴾ وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَّغُوا مَعْسَارَ مَا آتَيْنَاهُمْ فَكَذَّبُوا رُسُلِي فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٥﴾.

﴿٤٣﴾ يخبر تعالى عن حالة المشركين عندما تتلى عليهم آيات الله البينات وحججه الظاهرات وبراهينه القاطعات، الدالة على كل خير، الناهية عن كل شر، التي هي أعظم

فِتْنَةٍ آتَيْنَا مُعْجِزِينَ أُولَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿٣٨﴾ قُلْ إِنْ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿٣٩﴾.

﴿٣٩﴾ يخبر تعالى عن حالة الأمم الماضية المكذبة للرسل أنها كحال هؤلاء الحاضرين المكذبين لرسولهم محمد ﷺ، وأن الله إذا أرسل رسولا في قرية من القرى؛ كفر به مترفوها، وأبطرتهم نعمتهم، وفخروا بها.

﴿٣٥﴾ وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَدًا؛ أي: ممن اتبع الحق، ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ﴾ ﴿٣٥﴾؛ أي: أولا لسانا بمبعوثين؛ فإن بعثنا؛ فالذي أعطانا الأموال والأولاد في الدنيا؛ سيعطينا أكثر من ذلك في الآخرة، ولا يعذبنا.

﴿٣٦﴾ فأجابهم الله تعالى بأن بسط الرزق وتضييقه ليس دليلا على ما زعمتم؛ فإن الرزق تحت مشيئة الله؛ إن شاء؛ بسطه لعبده، وإن شاء ضيقه.

﴿٣٧﴾ وليست الأموال والأولاد ﴿يَأْتِي﴾ تقرب إلى الله ﴿زُلْفَى﴾: وتدني إليه، وإنما الذي يقرب منه زلفى الإيمان بما جاء به المرسلون والعمل الصالح الذي هو من لوازم الإيمان؛ فإن أولئك لهم الجزاء عند الله تعالى مضاعفا؛ الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة لا يعلمها إلا الله. ﴿وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ عَامُونَ﴾ ﴿٣٧﴾؛ أي: في المنازل العاليات المرتفعات جدا، ساكنين فيها مطمئنين، ﴿عَامُونَ﴾ ﴿٣٧﴾ من المكدرات والمنغصات لما هم فيه من اللذات وأنواع المشتبهات، وآمنون من الخروج منها والحزن فيها.

﴿٣٨﴾ وأما الذين سعووا في آياتنا على وجه التعجيز لنا ولرسلنا والتكذيب؛ ف﴿أُولَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ﴾ ﴿٣٨﴾.

﴿٣٩﴾ ثم أعاد تعالى أنه ﴿يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ﴾: ليرتب عليه قوله: ﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ﴾: نفقة واجبة أو مستحبة على قريب أو جار أو مسكين أو يتيم أو غير ذلك، ﴿فَهُوَ﴾ تعالى ﴿يُخْلِفُهُ﴾: فلا تتوهموا أن الإنفاق مما ينقص الرزق، بل وعد بالخلف للمنفق الذي يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر. ﴿وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ ﴿٣٩﴾: فاطلبوا الرزق منه، واسعوا في الأسباب التي أمركم بها.

﴿٤٠﴾ وَيَوْمَ يُحْشَرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهْوَلَاءَ إِنَّا كُنَّا كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُوا سُبْحَنَكَ أَنْتَ وَلِيْنَا مِنْ دُونِهِمْ

نعمة جاءتهم ومنة وصلت إليهم، الموجبة لمقابلتها بالإيمان والتصديق، والانقياد، والتسليم، أنهم يقابلونها بضد ما ينبغي ويكذبون من جاءهم بها ويقولون: ﴿مَا هَذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُكُمْ﴾؛ أي: هذا قصده حين يأمركم بالإخلاص لله لتركوا عوائد آبائكم الذين تعظمون وتمشون خلفهم، فردوا الحق بقول الضالين، ولم يوردوا برهاناً ولا شبهة؛ فأى شبهة إذا أمرت الرسل بعض الضالين باتباع الحق فادعوا أن إخوانهم الذين على طريقتهم لم يزالوا عليه؟! وهذه السفاهة ورد الحق بأقوال الضالين إذا تأملت كل حق رد؛ فإذا هذا ماله، لا يرد إلا بأقوال الضالين من المشركين والدهريين والفلاسفة والصابئين والملحدين في دين الله المارقين؛ فهم أسوة كل من رد الحق إلى يوم القيامة.

ولما احتجوا بفعل آبائهم وجعلوها دافعة لما جاءت به الرسل؛ طعنوا بعد هذا بالحق، ﴿وَقَالُوا مَا هَذَا إِلَّا إِفْكٌ مُفْتَرًى﴾؛ أي: كذب افتراه هذا الرجل الذي جاء به، وقال الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴿٤٣﴾؛ أي: سحر ظاهر بين لكل أحد؛ تكذيباً بالحق وترويحاً على السفهاء.

﴿٤٤﴾ ولما بين ما ردوا به الحق، وأنها أقوال دون مرتبة الشبهة، فضلاً عن أن تكون حجة؛ ذكر أنهم وإن أراد أحد أن يحتج لهم؛ فإنهم لا مستند لهم ولا لهم شيء يعتمدون عليه أصلاً، فقال: ﴿وَمَا آتَيْنَهُمْ مِنْ كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا﴾؛ حتى تكون عمدة لهم، ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِنْ نَذِيرٍ﴾ ﴿٤٥﴾: حتى يكون عندهم من أقواله وأحواله ما يدفعون به ما جتته به؛ فليس عندهم علم ولا إثارة من علم.

﴿٤٦﴾ ثم خوفهم ما فعل بالأمم المكذبين قبلهم، فقال: ﴿وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَّغُوا﴾؛ أي: ما بلغ هؤلاء المخاطبون ﴿وَمَعَارَ مَا آتَيْنَهُمْ فَكَذَّبُوا﴾؛ أي: الأمم الذين من قبلهم ﴿رُسُلٌ كَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ ﴿٤٧﴾؛ أي: إنكاري عليهم وعقوبي إياهم، قد أعلمنا ما فعل بهم من النكال، وأن منهم من أغرقه، ومنهم من أهلكه بالريح العقيم وبالصيحة وبالرعدة وبالخسف بالأرض وبإرسال الحاصب من السماء؛ فاحذروا يا هؤلاء المكذبون أن تدوموا على التكذيب، فياخذكم كما أخذ من قبلكم ويصيبكم ما أصابهم.

﴿قُلْ إِنَّمَا أَعْطُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَتَىٰ وَفُرَدَىٰ ثُمَّ تَنَفَّكُرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ حِجَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيِّ عَذَابِ شَدِيدٍ﴾ ﴿٤٨﴾ قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٤٩﴾ قُلْ إِنْ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَٰمُ الْغُيُوبِ ﴿٥٠﴾ قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلَ وَمَا يُعِيدُ ﴿٥١﴾ قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِي وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فِيمَا يُوحَىٰ إِلَيَّ رَبِّيَ إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ ﴿٥٢﴾.

﴿٤٨﴾ أي: ﴿قُلْ﴾: يا أيها الرسول لهؤلاء المكذبين المعاندين المتصدين لرد الحق وتكذيبه والقدح بمن جاء به: ﴿إِنَّمَا أَعْطُكُمْ بِوَاحِدَةٍ﴾؛ أي: بخصلة واحدة أشير عليكم بها وأنصح لكم في سلوكها، وهي طريق نَصَفٍ، لست أدعوكم بها إلى اتباع قولي ولا إلى ترك قولكم من دون موجب لذلك، وهي: ﴿أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَتَىٰ وَفُرَدَىٰ﴾؛ أي: تنهضوا بهمة ونشاط

سورة سبا
وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَكَةِ أَهْلُوا إِلَيَّ كَأَنَّهُمْ يُعْبَدُونَ ﴿٤٦﴾ قَالُوا سُبْحَنَكَ أَنْتَ وَلِسْنَا مِنْ دُونِهِمْ كُلٌّ قَالُوا يَعْبَدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ ﴿٤٧﴾ قَالُوا لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِذْ أَنْتَلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُكُمْ وَقَالُوا مَا هَذَا إِلَّا إِفْكٌ مُفْتَرًى وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴿٤٩﴾ وَمَا آتَيْنَهُمْ مِنْ كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِنْ نَذِيرٍ ﴿٥٠﴾ وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَّغُوا مَعَارَ مَا آتَيْنَهُمْ فَكَذَّبُوا رُسُلًا فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٥١﴾ قُلْ إِنَّمَا أَعْطُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَتَىٰ وَفُرَدَىٰ ثُمَّ تَنَفَّكُرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ حِجَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيِّ عَذَابِ شَدِيدٍ ﴿٥٢﴾ قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ قُلْ إِنْ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَٰمُ الْغُيُوبِ ﴿٥٤﴾

يعلم ما تنطوي عليه القلوب من الوسواس والشبه، ويعلم ما يقابل ذلك ويدفعه من الحجج، فيعلم بها عباده، وبينها لهم.

ولهذا قال: ﴿قُلْ جَاءَ الْحَقُّ﴾؛ أي: ظهر وبان وصار بمنزلة الشمس وظهر سلطانه، ﴿وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ﴾؛ أي: اضمحل وبطل أمره وذهب سلطانه؛ فلا يبدئ ولا يعيد.

ولما تبين الحق بما دعا إليه الرسول، وكان المكذبون له يرمونه بالضلal؛ أخبرهم بالحق، ووضحه لهم، وبين لهم عجزهم عن مقاومته، وأخبرهم أن رميهم له بالضلal ليس بضائر الحق شيئاً ولا دافع ما جاء به، وأنه إن ضل - وحاشاه من ذلك، لكن على سبيل التنزل في المجادلة؛ فإنما يضل على نفسه؛ أي: ضلاله قاصر على نفسه، غير متعد إلى غيره، ﴿وَإِنْ أَهْتَدَيْتُمْ﴾: فليس ذلك من نفسي، وحولي، وقوتي، وإنما هدايتي بما ﴿يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي﴾: فهو مادة هدايتي؛ كما هو مادة هداية غيري؛ إن ربي ﴿سَمِيعٌ﴾ للأقوال والأصوات كلها، ﴿قَرِيبٌ﴾ ممن دعاه وسأله وعبده.

﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ فَرَغُوا فَلَا قُوَّةَ وَأُخِذُوا مِنْ مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾ (٥١) ﴿وَقَالُوا آمَنَّا بِهِ وَأَنَّىٰ لَهُمُ التَّنَازُوتُ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ (٥٢) ﴿وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ وَيَقْذِفُونَ بِالْأَعْيَبِ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ (٥٣) ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِمْ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُرِيبٍ﴾ (٥٤).

يقول تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ﴾: أيها الرسول، ومن قام مقامك، حال هؤلاء المكذبين ﴿إِذْ فَرَغُوا﴾: حين رأوا العذاب وما أخبرتهم به الرسل وما كذبوا به؛ لرأيت أمراً هائلاً، ومنظراً مُفْظِعاً، وحالة منكرة، وشدة شديدة، وذلك حين يحق عليهم العذاب، وليس لهم عنه مهرب ولا فوت، ﴿وَأُخِذُوا مِنْ مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾ (٥١)؛ أي: ليس بعيداً عن محل العذاب، بل يؤخذون ثم يقذفون في النار.

﴿وَقَالُوا﴾: في تلك الحال: آمنا بالله، وصدقنا ما به كذبنا، ولكن أنى ﴿لَهُمُ التَّنَازُوتُ﴾؛ أي: تناول الإيمان، ﴿مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ (٥٢)؛ قد حيل بينهم وبينه، وصار من الأمور المحالة في هذه الحالة.

﴿فَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَقَتَ الْإِيمَانِ﴾؛ لكان إيمانهم مقبولاً، ولكنهم ﴿كَفَرُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ وَيَقْذِفُونَ﴾؛ أي: يرمون

وقصد لاتباع الصواب وإخلاص لله مجتمعين ومتباحثين في ذلك ومتناظرين وفرادي، كل واحد يخاطب نفسه بذلك؛ فإذا قمت له مشي وفرادي؛ استعملتم فكركم وأجلمتموه وتدبرتم أحوال رسولكم: هل هو مجنون فيه صفات المجانين من كلامه وهيبته وصفته؟ أم هو نبي صادق منذر لكم ما يضركم مما أمامكم من العذاب الشديد؟ فلو قبلوا هذه الموعظة واستعملوها؛ لتبين لهم أكثر من غيرهم أن رسول الله ﷺ ليس بمجنون؛ لأن هيئاته ليست كهيات المجانين في خنقهم، واختلاجهم، ونظرهم، بل هيئته أحسن الهيئات، وحركاته أجمل الحركات، وهو أكمل الخلق أدباً وسكينة وتواضعاً ووقاراً، لا يكون إلا لأرزن الرجال عقلاً.

ثم إذا تأملوا كلامه الفصيح، ولفظه المليح، وكلماته التي تملأ القلوب أمناً وإيماناً، وتزكي النفوس، وتطهر القلوب، وتبعث على مكارم الأخلاق، وتحت على محاسن الشيم، وترهب عن مساوئ الأخلاق ورذائلها، إذا تكلم رفقته العيون، هيبة وإجلالاً وتعظيماً؛ فهل هذا يشبه هذيان المجانين وعربدتهم وكلامهم الذي يشبه أحوالهم؟ فكل من تدبر أحواله وقصده استعلاماً: هل هو رسول الله أم لا؟ سواء تفكر وحده، أم معه غيره؛ جزم بأنه رسول الله حقاً ونبه صدقاً، خصوصاً المخاطبين، الذي هو صاحبهم، يعرفون أول أمره وآخره.

﴿وَمَنْ مَانَعَ لِلنَّفُوسِ آخِرَ عَنْ اتِّبَاعِ الدَّاعِي إِلَى الْحَقِّ﴾ وهو أنه يأخذ أموال من يستجيب له، ويأخذ أجرة على دعوته، فينبى الله تعالى نزاهة رسوله عن هذا الأمر، فقال: ﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ﴾؛ أي: على اتباعكم للحق ﴿فَهُوَ لَكُمْ﴾؛ أي: فأشهدكم أن ذلك الأجر على التقدير أنه لكم. ﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ (٥٧)؛ أي: محيط علمه بما أدعو إليه؛ فلو كنت كاذباً؛ لأخذني بعقوبته، وشهيد أيضاً على أعمالكم، سيحفظها عليكم ثم يجازيكم بها.

﴿وَلَمَّا بَيَّنَّ الْبَرَاهِينَ الدَّالَّةَ عَلَى صِحَّةِ الْحَقِّ وَبَطْلَانِ الْبَاطِلِ﴾؛ أخبر تعالى أن هذه سنته وعادته أن يقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق؛ لأنه بين من الحق في هذا الموضع ورد به أقوال المكذبين ما كان عبرة للمعتبرين وآية للمتأملين؛ فإنك كما ترى كيف اضمحلت أقوال المكذبين، وتبين كذبهم وعنادهم، وظهر الحق وسطع، وبطل الباطل وانقمع، وذلك بسبب بيان ﴿عَلَّمَ الْقُتُوبِ﴾ (٤٨)، الذي

﴿بِالْعَيْبِ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ ٥٢﴾: بقذفهم الباطل ليدحضوا به الحق، ولكن لا سبيل إلى ذلك؛ كما لا سبيل للرامي من مكان بعيد إلى إصابة الغرض؛ فكذلك الباطل من المحال أن يغلب الحق أو يدفعه، وإنما يكون له صولة وقت غفلة الحق عنه، فإذا برز الحق وقاوم الباطل، قمعه.

﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ ٥٣﴾: من الشهوات واللذات والأولاد والأموال والخدم والجنود، قد انفردوا بأعمالهم، وجاءوا فرادى كما خلقوا وتركوا ما خولوا وراء ظهورهم، ﴿كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِمْ ٥٤﴾: من الأمم السابقين، حين جاءهم الهلاك، حيل بينهم وبين ما يشتهون. ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُرِيبٍ ٥٥﴾: أي: محدث الريبة وقلق القلب؛ فلذلك لم يؤمنوا، ولم يعتبوا حين استعتبوا.

تم تفسير سورة سبا.

ولله الحمد والمنة والفضل، ومنه العون، وعليه التوكل، وبه الثقة.

﴿٥٥﴾ ﴿٥٤﴾ ﴿٥٣﴾

تفسير سورة فاطر

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَكِئَةِ رُسُلًا أُولَىٰ أَجْنَحَةٍ مَّتَنَّى وَثَلَّثَ وَرَبَّعٌ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ١﴾ مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ٢ وَمَا يُمْسِكُ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ ٣ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ٤﴾.

﴿١﴾ يمدح الله تعالى نفسه الكريمة المقدسة على خلقه السماوات والأرض وما اشتملتا عليه من المخلوقات؛ لأن ذلك دليل على كمال قدرته وسعة ملكه وعموم رحمته وبديع حكمته وإحاطة علمه. ولما ذكر الخلق؛ ذكر بعده ما يتضمن الأمر، وهو أنه ﴿جَاعِلِ الْمَلَكِئَةِ رُسُلًا﴾: في تدبير أوامره القدريّة ووسائط بينه وبين خلقه في تبليغ أوامره الدينيّة. وفي ذكره أنه جعل الملائكة رسلًا ولم يستثن منهم أحدًا دليل على كمال طاعتهم لربهم وانقيادهم لأمره؛ كما قال تعالى: ﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ١﴾ [التحريم: ١٦]. ولما كانت الملائكة مدبرات بإذن الله ما جعلهم الله موكلين فيه؛ ذكر قوتهم على ذلك وسرعة سيرهم؛ بأن جعلهم ﴿أُولَىٰ أَجْنَحَةٍ﴾: تطير بها فتسرع بتنفيذ ما أمرت به، ﴿مَّتَنَّى وَثَلَّثَ وَرَبَّعٌ﴾؛ أي: منهم من له جناحان وثلاثة وأربعة بحسب ما اقتضته حكمته. ﴿يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ﴾؛ أي: يزيد بعض مخلوقاته على بعض في صفة خلقها وفي القوة وفي الحسن وفي زيادة الأعضاء المعهودة وفي حسن الأصوات ولذة النغمات. ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ١﴾: فقدرة تعالى تأتي على ما يشاؤه، ولا يستعصي عليها شيء، ومن ذلك زيادة مخلوقاته بعضها على بعض.

﴿٢﴾ ثم ذكر انفرداه تعالى بالتدبير والعطاء والمنع، فقال: ﴿مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ٢ وَمَا يُمْسِكُ﴾: من رحمته عنهم ﴿فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ﴾: فهذا يوجب التعلق بالله تعالى والافتقار إليه من جميع الوجوه، وألا يدعى إلا هو ولا يخاف ويرجى إلا هو. ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾: الذي قهر الأشياء كلها. ﴿الْحَكِيمُ﴾: الذي يضع الأشياء مواضعها، وينزلها منازلها.

سورة فاطر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَكِئَةِ رُسُلًا أُولَىٰ أَجْنَحَةٍ مَّتَنَّى وَثَلَّثَ وَرَبَّعٌ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ١ مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ٢ وَمَا يُمْسِكُ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ ٣ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ٤ النَّاسُ أَذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْهِمْ هَلْ مِنْ خَلْقٍ غَيْرِ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَآفَ تُؤَفَّكَوْنَ ٥

٤٣٤

شُرُوفُ طَرِيقِ

الْمَرْجَى وَالْإِيمَانِ

وَلَا يَكْذِبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ

﴿١﴾ يَأْتِيهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّكُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا

وَلَا يَغُرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ ﴿٢﴾ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُودٌ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ

عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُوا حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿٣﴾ الَّذِينَ

كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ

مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٤﴾ أَفَنْ زَيْنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَءَاهُ حَسَنًا

فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ

عَلَيْهِمْ حَسْرَتٌ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٥﴾ وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ

الرِّيحَ فَتَنتِيرُ سَحَابًا فَمِثْقَنَهُ إِلَى بَلَدٍ مِمَّنْ فَأَعْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ

مَوْتِهَا كَذَلِكَ النُّشُورُ ﴿٦﴾ مَنْ كَانَ يَرْجِدَ الْغَزَا فَلِلَّهِ الْغَزَا جَمِيعًا

إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ وَالَّذِينَ

يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ يُبْزَوُّ

﴿٧﴾ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُفُثَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا

وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ

وَلَا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٨﴾

٤٣٥

﴿١﴾ يَأْتِيهَا النَّاسُ أَذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَلْقٍ غَيْرِ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنْتُمْ تُؤْفَكُونَ ﴿٢﴾ وَلَا يَكْذِبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿٣﴾

﴿١﴾ يأمر تعالى جميع الناس أن يذكروا نعمته عليهم، وهذا شامل لذكرها بالقلب اعترافاً، وباللسان ثناء، وبالجوارح انقياداً، فإن ذكر نعمه تعالى داع لشكوه. ثم نبههم على أصول النعم، وهي الخلق والرزق، فقال: ﴿هَلْ مِنْ خَلْقٍ غَيْرِ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾: ولما كان من المعلوم أنه ليس أحد يخلق ويرزق إلا الله؛ نتج من ذلك أن كان ذلك دليلاً على ألوهيته وعبوديته، ولهذا قال: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنْتُمْ تُؤْفَكُونَ﴾: أي: تصرفون من عبادة الخالق الرازق لعبادة المخلوق المرزوق.

﴿٢﴾ وَلَا يَكْذِبُوكَ: يا أيها الرسول؛ فلك أسوة بمن قبلك من المرسلين؛ ﴿فَقَدْ كَذَّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ﴾: فأهلك المكذبون، ونجى الله الرسل وأتباعهم. ﴿وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾: أي: ترجع الأمور.

﴿٣﴾ يَأْتِيهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّكُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ ﴿٢﴾ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُودٌ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُوا حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿٣﴾ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٤﴾

﴿١﴾ يقول تعالى: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ﴾: بالبعث والجزاء على الأعمال ﴿حَقٌّ﴾؛ أي: لا شك فيه ولا مرية ولا تردد، قد دلت على ذلك الأدلة السمعية والبراهين العقلية، فإذا كان وعده حقاً؛ فتهيئوا له وبادروا أوقاتكم الشريفة بالأعمال الصالحة ولا يقطعكم عن ذلك قاطع. ﴿فَلَا تَغُرَّكُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾: بلذاتها وشهواتها ومطالبها النفسية، فتلهيكم عما خلقتم له، ﴿وَلَا يَغُرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ﴾: الذي هو الشيطان، الذي هو عدوكم في الحقيقة. ﴿فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾؛ أي: لتكن منكم عداوته على بال، ولا تهملوا محاربتة كل وقت؛ فإنه يراكم وأنتم لا ترونه، وهو دائماً لكم بالمرصاد. ﴿إِنَّمَا يَدْعُوا حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾: هذا غايته ومقصوده ممن تبعه أن يهان غاية الإهانة بالعذاب الشديد.

﴿٢﴾ ثم ذكر أن الناس انقسموا بحسب طاعة الشيطان وعدمها إلى قسمين، وذكر جزاء كل منهما، فقال: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾؛ أي: جحدوا ما جاءت به الرسل ودلت عليه الكتب ﴿لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾: في نار جهنم، شديد في ذاته ووصفه، وأنهم خالدون فيها أبداً، ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا﴾: بقلوبهم بما دعا الله إلى الإيمان به، ﴿وَعَمِلُوا﴾ - بمقتضى ذلك الإيمان بجوارحهم - الأعمال الصالحة ﴿لَهُمْ مَغْفِرَةٌ﴾: لذنوبهم، يزول بها عنهم الشر والمكروه، ﴿وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾: يحصل به المطلوب.

﴿٣﴾ أَفَنْ زَيْنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَءَاهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَتٌ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٨﴾

﴿٨﴾ يقول تعالى: ﴿أَفَنْ زَيْنَ لَهُ﴾: عمله السيئ القبيح، زينه له الشيطان وحسنه في عينه، ﴿فَرَءَاهُ حَسَنًا﴾؛ أي: كمن هداه الله إلى الصراط المستقيم والدين القويم؛ فهل يستوي هذا وهذا؟! فالأول عمل السيئ، ورأى الحق باطلاً والباطل حقاً،

يهانون فيه غاية الإهانة. ﴿وَمَكَرُوا لَكَ هُبُورًا﴾؛ أي: يهلك ويضمحل ولا يفيدهم شيئاً؛ لأنه مكر بالباطل لأجل الباطل.

﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ طُفْلَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلَا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾.

﴿١١﴾ يذكر تعالى خلقه الآدمي وتنقله في هذه الأطوار من تراب إلى نطفة وما بعدها، ﴿ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا﴾؛ أي: لم يزل ينقلكم طوراً بعد طور حتى أوصلكم إلى أن كنتم أزواجاً؛ ذكر يتزوج أنثى، ويراد بالزواج الذرية والأولاد؛ فهو وإن كان النكاح من الأسباب فيه؛ فإنه مقترن بقضاء الله وقدره وعلمه. ﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ﴾؛ وكذلك أطوار الآدمي كلها بعلمه وقضائه ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلَا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ﴾؛ أي: عمر الذي كان معمرًا عمرًا طويلاً، ﴿إِلَّا﴾: بعلمه تعالى، أو: وما ينقص من عمر الإنسان الذي هو بصدد أن يصل إليه لولا ما سلكه من أسباب قصر العمر؛ كالزنا وعقوق الوالدين وقطيعة الأرحام ونحو ذلك مما ذكر أنها من أسباب قصر العمر، والمعنى أن طول العمر وقصره بسبب وبغير سبب كله بعلمه تعالى، وقد أثبت ذلك ﴿فِي كِتَابٍ﴾: حوى ما يجري على العبد في جميع أوقاته وأيام حياته. ﴿إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾؛ أي: إحاطة علمه بتلك المعلومات الكثيرة، وإحاطة كتابه بها.

فهذه ثلاثة أدلة من أدلة البعث والنشور، كلها عقلية، نبه الله عليها في هذه الآيات: إحياء الأرض بعد موتها، وأن الذي أحيانا سيحيي الموتى. وتنقل الآدمي في تلك الأطوار، فالذي أوجده ونقله طبقاً بعد طبق وحالاً بعد حال حتى بلغ ما قدر له؛ فهو على إعادته وإنشائه النشأة الأخرى أقدر، وهو أهون عليه. وإحاطة علمه بجميع أجزاء العالم العلوي والسفلي دقيقها وجليلها، الذي في القلوب، والأجنة التي في البطون، وزيادة الأعمار ونقصها، وإثبات ذلك كله في كتاب؛ فالذي كان هذا [نعتة] يسيراً عليه؛ فأعادته للأموات أيسر وأيسر. فتبارك من كثر خيره، ونبه عباده على ما فيه صلاحهم في معاشهم ومعادهم.

﴿وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذَبٌ فَرَاتٌ سَابِغٌ شَرَابُهُ، وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمَنْ كُلٌّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيدًا وَتَسْتَخْرِجُونَ

والثاني عمل الحسن ورأى الحق حقاً والباطل باطلاً، ولكن الهداية والإضلال بيد الله تعالى. ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ﴾؛ أي: على الضالين الذين زين لهم سوء أعمالهم، وصددهم الشيطان عن الحق ﴿حَسْرَتٍ﴾: فليس عليك إلا البلاغ، وليس عليك من هدامهم شيء، والله هو الذي يجازيهم بأعمالهم. ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾.

﴿وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَتُهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ النُّشُورُ﴾.

﴿٩﴾ يخبر تعالى عن كمال اقتداره وسعة جوده وأنه ﴿أَرْسَلَ الرِّيحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَتُهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ﴾: فأنزله الله عليها، ﴿فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾: فحييت البلاد والعباد، وارتزقت الحيوانات، ورتعت في تلك الخيرات، ﴿كَذَلِكَ﴾: الذي أحيأ الأرض بعد موتها ينشر الأموات من قبورهم بعدما مزقهم البلى، فيسوق إليهم مطراً كما ساقه إلى الأرض الميتة، فينزله عليهم، فتحيا الأجساد والأرواح من القبور، فيأتون للقيام بين يدي الله، ليحكم بينهم ويفصل بحكمه العدل.

﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكَرُوا لَكَ هُبُورًا﴾.

﴿١٠﴾ أي: يا من يريد العزة! اطلبها ممن هي بيده؛ فإن العزة بيد الله، ولا تنال إلا بطاعته، وقد ذكرها بقوله: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ﴾: من قراءة وتسبيح وتحميد وتهليل وكل كلام حسن طيب، فيرفع إلى الله، ويعرض عليه، ويشي الله على صاحبه بين الملائكة الأعلی، ﴿وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ﴾: من أعمال القلوب وأعمال الجوارح ﴿يَرْفَعُهُ﴾: الله تعالى إليه أيضاً كالكلم الطيب. وقيل: والعمل الصالح يرفع الكلم الطيب؛ فيكون رفع الكلم الطيب بحسب أعمال العبد الصالحة فهي التي ترفع كلمه الطيب، فإذا لم يكن له عمل صالح؛ لم يرفع له قول إلى الله تعالى. فهذه الأعمال التي ترفع إلى الله تعالى ويرفع الله صاحبها ويعزه، وأما السيئات؛ فإنها بالعكس، يريد صاحبها الرفعة بها، ويمكر ويكيد ويعود ذلك عليه، ولا يزداد إلا هواناً ونزولاً، ولهذا قال: ﴿وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾:

سورة فاطر

سورة فاطر

وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا
 مِلْحٌ أجاجٌ وَمِنْ كُلِّ تَاجُوتٍ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ
 حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفَلَكَ فِيهِ مَوَازِيرَ لَبَنَغًا مِنْ فَضْلِهِ
 وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ
 النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ
 مُسَمًّى ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ
 مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ فِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾ إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا
 يَسْمَعُوا دَعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ
 يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴿١٤﴾

﴿١٢﴾ هَذَا إِخْبَارٌ عَنْ قُدْرَتِهِ وَحُكْمَتِهِ وَرَحْمَتِهِ، أَنَّهُ جَعَلَ
 الْبَحْرَيْنِ لِمَصَالِحِ الْعَالَمِ الْأَرْضِيِّ كُلِّهِمْ، وَأَنَّهُ لَمْ يَسُو بَيْنَهُمَا؛
 لِأَنَّ الْمَصْلَحَةَ تَقْتَضِي أَنْ تَكُونَ الْأَنْهَارُ عَذْبَةً فُرَاتًا سَائِغًا
 شَرَابِيًّا؛ لِيَنْتَفِعَ بِهَا الشَّارِبُونَ وَالْغَارِسُونَ وَالزَّارِعُونَ، وَأَنْ
 يَكُونَ الْبَحْرُ مِلْحًا أَجَاجًا؛ لِئَلَّا يَفْسُدَ الْهَوَاءُ الْمَحِيطُ بِالْأَرْضِ
 بِرَوَائِحِ مَا يَمُوتُ فِي الْبَحْرِ مِنَ الْحَيَوَانَاتِ، وَلِأَنَّهُ سَاكِنٌ
 لَا يَجْرِي؛ فَمَلُوحَتُهُ تَمْنَعُهُ مِنَ التَّغْيِيرِ، وَلِتَكُونَ حَيَوَانَاتُهُ أَحْسَنَ
 وَأَلَذَّ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَمِنْ كُلِّ﴾: مِنَ الْبَحْرِ الْمِلْحُ وَالْعَذْبُ
 ﴿تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا﴾: وَهُوَ السَّمَكُ الْمَتَسَرِّ صِيْدُهُ فِي
 الْبَحْرِ، ﴿وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾: مِنْ لَوْلُؤٍ وَمَرْجَانٍ
 وَغَيْرِهِمَا مِمَّا يَوْجَدُ فِي الْبَحْرِ، فَهَذِهِ مَصَالِحُ عَظِيمَةٌ لِلْعِبَادِ.

وَمِنْ الْمَصَالِحِ أَيْضًا وَالْمَنَافِعِ فِي الْبَحْرِ أَنْ سَخَّرَهُ اللَّهُ
 تَعَالَى يَحْمِلُ الْفَلَكَ مِنَ السَّفْنِ وَالْمَرَاقِبِ، فَتَرَاهَا تَمُخِرُ الْبَحْرَ وَتَشْقَى، فَتَسْلُكُ مِنْ إِقْلِيمٍ إِلَى إِقْلِيمٍ آخَرَ، وَمِنْ مَحَلٍّ إِلَى مَحَلٍّ،
 فَتَحْمِلُ السَّائِرِينَ وَأَثْقَالَهُمْ وَتَجَارِيهِمْ، فَيَحْصُلُ بِذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَإِحْسَانِهِ شَيْءٌ كَثِيرٌ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿لَتَبْنَعُنَّ مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ
 تَشْكُرُونَ﴾ ﴿١٢﴾.

﴿١٣﴾ وَمِنْ ذَلِكَ أَيْضًا إِيْلَاجُهُ تَعَالَى اللَّيْلَ بِالنَّهَارِ وَالنَّهَارَ بِاللَّيْلِ؛ يُدْخِلُ هَذَا عَلَى هَذَا، كَلِمَا أَتَى أَحَدُهُمَا؛ ذَهَبَ
 الْآخَرُ، وَيَزِيدُ أَحَدُهُمَا وَيَنْقُصُ الْآخَرُ وَيَسَاوِيَانِ، فَيَقُومُ بِذَلِكَ مَا يَقُومُ مِنْ مَصَالِحِ الْعِبَادَةِ فِي أَيْدَانِهِمْ وَحَيَوَانَاتِهِمْ وَأَشْجَارِهِمْ
 وَزُرُوعِهِمْ، وَكَذَلِكَ مَا جَعَلَ اللَّهُ فِي تَسْخِيرِ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ مِنْ مَصَالِحِ الضِّيَاءِ وَالنُّورِ وَالْحَرَكَةِ وَالسَّكُونِ وَاتِّشَارِ الْعِبَادَةِ فِي طَلَبِ
 فَضْلِهِ وَمَا فِيهِمَا مِنْ تَنْضِيجِ الثَّمَارِ وَتَجْفِيفِ مَا يَجْفَى وَغَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا هُوَ مِنَ الضَّرُورِيَّاتِ الَّتِي لَوْ فَقَدَتْ؛ لَلِحَقَّ النَّاسُ الضَّرْرَ.

وَقَوْلُهُ ﴿كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى﴾؛ أَيُّ: كُلٌّ مِنَ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ يَسِيرَانِ فِي فَلَكِهِمَا مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَسِيرَا؛ فَإِذَا جَاءَ الْأَجَلُ
 وَقَرَّبَ انْقِضَاءُ الدُّنْيَا؛ انْقَطَعَ سَيْرُهُمَا، وَتَعَطَّلَ سُلْطَانُهُمَا، وَخَسَفَ الْقَمَرُ، وَكَوَرَتِ الشَّمْسُ، وَانْتَشَرَتِ النُّجُومُ.

فَلَمَّا بَيَّنَّ تَعَالَى مَا بَيَّنَّ مِنْ هَذِهِ الْمَخْلُوقَاتِ الْعَظِيمَةِ وَمَا فِيهَا مِنَ الْعِبَرِ الدَّالَّةِ عَلَى كَمَالِهِ وَإِحْسَانِهِ قَالَ: ﴿ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ
 لَهُ الْمُلْكُ﴾؛ أَيُّ: الَّذِي انْفَرَدَ بِخَلْقِ هَذِهِ الْمَذْكُورَاتِ وَتَسْخِيرِهَا هُوَ الرَّبُّ الْمَالُوءُ الْمَعْبُودُ الَّذِي لَهُ الْمُلْكُ كُلُّهُ. ﴿وَالَّذِينَ
 تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ﴾: مِنَ الْأَوْثَانِ وَالْأَصْنَامِ، ﴿مَا يَمْلِكُونَ مِنْ فِطْمِيرٍ﴾ ﴿١٣﴾؛ أَيُّ: لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا لَا قَلِيلًا وَلَا كَثِيرًا، حَتَّى
 وَلَا الْقَطْمِيرَ الَّذِي هُوَ أَحَقُّ الْأَشْيَاءِ، وَهَذَا مِنْ تَنْصِيبِ النَّفْيِ وَعُمُومِهِ؛ فَكَيْفَ يُدْعَوْنَ وَهُمْ غَيْرُ مَالِكِينَ لَشَيْءٍ مِنْ مَلِكِ
 السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ؟!

﴿١٤﴾ وَمَعَ هَذَا: ﴿إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دَعَاءَكُمْ﴾: لَا يَسْمَعُوكُمْ؛ لِأَنَّهُمْ مَا بَيْنَ جَمَادٍ وَأَمَوَاتٍ وَمَلَائِكَةٍ مَشْغُولِينَ بِطَاعَةِ رَبِّهِمْ، ﴿وَلَوْ سَمِعُوا﴾:
 عَلَى وَجْهِ الْفَرَضِ وَالتَّقْدِيرِ ﴿مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ﴾: لِأَنَّهُمْ لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَرْضَى أَكْثَرُهُمْ بِعِبَادَةِ مَنْ عِندَهُ، وَلِهَذَا قَالَ:

﴿١٢﴾ وَمِنْ ذَلِكَ أَيْضًا إِيْلَاجُهُ تَعَالَى اللَّيْلَ بِالنَّهَارِ وَالنَّهَارَ بِاللَّيْلِ؛ يُدْخِلُ هَذَا عَلَى هَذَا، كَلِمَا أَتَى أَحَدُهُمَا؛ ذَهَبَ
 الْآخَرُ، وَيَزِيدُ أَحَدُهُمَا وَيَنْقُصُ الْآخَرُ وَيَسَاوِيَانِ، فَيَقُومُ بِذَلِكَ مَا يَقُومُ مِنْ مَصَالِحِ الْعِبَادَةِ فِي أَيْدَانِهِمْ وَحَيَوَانَاتِهِمْ وَأَشْجَارِهِمْ
 وَزُرُوعِهِمْ، وَكَذَلِكَ مَا جَعَلَ اللَّهُ فِي تَسْخِيرِ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ مِنْ مَصَالِحِ الضِّيَاءِ وَالنُّورِ وَالْحَرَكَةِ وَالسَّكُونِ وَاتِّشَارِ الْعِبَادَةِ فِي طَلَبِ
 فَضْلِهِ وَمَا فِيهِمَا مِنْ تَنْضِيجِ الثَّمَارِ وَتَجْفِيفِ مَا يَجْفَى وَغَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا هُوَ مِنَ الضَّرُورِيَّاتِ الَّتِي لَوْ فَقَدَتْ؛ لَلِحَقَّ النَّاسُ الضَّرْرَ.

وَقَوْلُهُ ﴿كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى﴾؛ أَيُّ: كُلٌّ مِنَ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ يَسِيرَانِ فِي فَلَكِهِمَا مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَسِيرَا؛ فَإِذَا جَاءَ الْأَجَلُ
 وَقَرَّبَ انْقِضَاءُ الدُّنْيَا؛ انْقَطَعَ سَيْرُهُمَا، وَتَعَطَّلَ سُلْطَانُهُمَا، وَخَسَفَ الْقَمَرُ، وَكَوَرَتِ الشَّمْسُ، وَانْتَشَرَتِ النُّجُومُ.

فَلَمَّا بَيَّنَّ تَعَالَى مَا بَيَّنَّ مِنْ هَذِهِ الْمَخْلُوقَاتِ الْعَظِيمَةِ وَمَا فِيهَا مِنَ الْعِبَرِ الدَّالَّةِ عَلَى كَمَالِهِ وَإِحْسَانِهِ قَالَ: ﴿ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ
 لَهُ الْمُلْكُ﴾؛ أَيُّ: الَّذِي انْفَرَدَ بِخَلْقِ هَذِهِ الْمَذْكُورَاتِ وَتَسْخِيرِهَا هُوَ الرَّبُّ الْمَالُوءُ الْمَعْبُودُ الَّذِي لَهُ الْمُلْكُ كُلُّهُ. ﴿وَالَّذِينَ
 تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ﴾: مِنَ الْأَوْثَانِ وَالْأَصْنَامِ، ﴿مَا يَمْلِكُونَ مِنْ فِطْمِيرٍ﴾ ﴿١٣﴾؛ أَيُّ: لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا لَا قَلِيلًا وَلَا كَثِيرًا، حَتَّى
 وَلَا الْقَطْمِيرَ الَّذِي هُوَ أَحَقُّ الْأَشْيَاءِ، وَهَذَا مِنْ تَنْصِيبِ النَّفْيِ وَعُمُومِهِ؛ فَكَيْفَ يُدْعَوْنَ وَهُمْ غَيْرُ مَالِكِينَ لَشَيْءٍ مِنْ مَلِكِ
 السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ؟!

﴿١٤﴾ وَمَعَ هَذَا: ﴿إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دَعَاءَكُمْ﴾: لَا يَسْمَعُوكُمْ؛ لِأَنَّهُمْ مَا بَيْنَ جَمَادٍ وَأَمَوَاتٍ وَمَلَائِكَةٍ مَشْغُولِينَ بِطَاعَةِ رَبِّهِمْ، ﴿وَلَوْ سَمِعُوا﴾:
 عَلَى وَجْهِ الْفَرَضِ وَالتَّقْدِيرِ ﴿مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ﴾: لِأَنَّهُمْ لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَرْضَى أَكْثَرُهُمْ بِعِبَادَةِ مَنْ عِندَهُ، وَلِهَذَا قَالَ:

﴿وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ ١٥؛ أي: الذي له الغنى التام من جميع الوجوه؛ فلا يحتاج إلى ما يحتاج إليه خلقه، ولا يفتقر إلى شيء مما يفتقر إليه الخلق، وذلك لكمال صفاته، وكونها كلها صفات كمال ونعوت جلال، ومن غناه تعالى أنه أغنى الخلق في الدنيا والآخرة، الحميد في ذاته، وأسمائه؛ لأنها حسنى، وأوصافه؛ لكونها عليا، وأفعاله؛ لأنها فضل وإحسان وعدل وحكمة ورحمة، وفي أوامره ونواهيه؛ فهو الحميد على ما فيه، وعلى ما منه، وهو الحميد في غناه، الغني في حمده.

﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ ١٦؛ يحتمل أن المراد: إن يشأ يذهبكم أيها الناس ويأت بغيركم من الناس أطوع لله منكم، ويكون في هذا تهديد لهم بالهلاك والإبادة، وأن مشيئته غير قاصرة عن ذلك. ويحتمل أن المراد بذلك إثبات البعث والنشور، وأن مشيئة الله تعالى نافذة في كل شيء، وفي إعادتكم بعد موتكم خلقاً جديداً، ولكن لذلك الوقت أجل قدره الله لا يتقدم عنه ولا يتأخر.

﴿وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ ١٧؛ أي: بممتنع، ولا معجز له.

﴿وَيَدُلُّ عَلَى الْمَعْنَى الْآخِرِ مَا ذَكَرَهُ بَعْدَهُ فِي قَوْلِهِ: وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ ١٨؛ أي: في يوم القيامة كل أحد يجازى بعمله، ولا يحمل أحد ذنب أحد. ﴿وَإِنْ دَعُ مُثْقَلَةٌ﴾ ١٩؛ أي: نفس مثقلة بالخطايا والذنوب تستغيث بمن يحمل عنها بعض أوزارها، ﴿لَا يَحْمِلُ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى﴾ ٢٠؛ فإنه لا يحمل عن قريب، فليست حال الآخرة بمنزلة حال الدنيا يساعد الحميم حميمه والصديق صديقه، بل يوم القيامة يتمنى العبد أن يكون له حق على أحد، ولو على والديه وأقاربه. ﴿إِنَّمَا نُنْذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾ ٢١؛ أي: هؤلاء الذين يقبلون النذارة ويتفنون بها، أهل الخشية لله بالغيب. أي: الذين يخشونه في حال السر والعلانية والمشهد والمغيب، وأهل إقامة الصلاة بحدودها وشروطها وأركانها وواجباتها وخشوعها؛ لأن الخشية لله تستدعي من العبد العمل بما يخشى من تضييعه العقاب، والهرب مما يخشى من ارتكابه العذاب، والصلاة تدعو إلى الخير، وتنتهي عن الفحشاء والمنكر. ﴿وَمَنْ تَزَكَّى فَإِنَّمَا يَتَزَكَّى لِنَفْسِهِ﴾ ٢٢؛ أي: ومن زكى نفسه بالتقوى من العيوب، كالرياء، والكبر، والكذب، والغش، والمكر، والخداع، والتفاق، ونحو ذلك من الأخلاق الرذيلة، وتحلى

﴿وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ يَكْفُرُونَ بَشِرْكُمْ﴾ ٢٣؛ أي: يتبرءون منكم، ويقولون: ﴿سُبْحَنَكَ أَنْتَ وَلَيْسَ مِنْ دُونِهِمْ﴾ [سبا: ٤١]، ﴿وَلَا يَنْبُتُكَ مِثْلُ خَيْرٍ﴾ ٢٤؛ أي: لا أحد ينبتك أصدق من الله العليم الخبير؛ فاجزم بأن هذا الأمر الذي نبأ به كأنه رأي عين، فلا تشك فيه ولا تمتتر. فتضمنت هذه الآيات الأدلة والبراهين الساطعة الدالة على أنه تعالى المألوه المعبود الذي لا يستحق شيئاً من العبادة سواء، وأن عبادة ما سواه باطلة متعلقة بباطل لا تفيد عباده شيئاً.

﴿يَتَأْتِيَ النَّاسُ أَنْتُمْ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ ٢٥؛ إن يشأ يذهبكم وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ٢٦ وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ٢٧ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ٢٨ وَإِنْ دَعُ مُثْقَلَةٌ إِلَى حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى ٢٩ إِنَّمَا نُنْذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ ٣٠ وَمَنْ تَزَكَّى فَإِنَّمَا يَتَزَكَّى لِنَفْسِهِ ٣١ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ٣٢

١٥ يخاطب تعالى جميع الناس، ويخبرهم بحالهم ووصفهم، وأنهم فقراء إلى الله من جميع الوجوه: فقراء في إيجادهم؛ فلولا إيجاده إياهم لم يوجدوا، فقراء في إعدادهم بالقوى والأعضاء والجوارح، التي لولا إعدادهم إياهم بها؛ لما استعدوا لأي عمل كان، فقراء في إمدادهم بالأقوات والأرزاق والنعم الظاهرة والباطنة؛ فلولا فضله وإحسانه وتيسيره الأمور، لما حصل لهم من الرزق والنعم شيء، فقراء في صرف النقم عنهم ودفع المكاره وإزالة الكروب والشدائد؛ فلولا دفعه عنهم وتفريجه لكرباتهم وإزالته لمسهرهم؛ لاستمرت عليهم المكاره والشدائد، فقراء إليه في تربيتهم بأنواع التربية وأجناس التدبير، فقراء إليه في تألههم له وحبهم له وتعبدهم وإخلاص العبادة له تعالى؛ فلو لم يوفقهم لذلك؛ لهلكوا وفسدت أرواحهم وقلوبهم وأحوالهم، فقراء إليه في تعليمهم ما لا يعلمون وعملهم بما يصلحهم؛ فلولا تعليمه؛ لم يتعلموا، ولولا توفيقه؛ لم يصلحوا؛ فهم فقراء بالذات إليه بكل معنى وبكل اعتبار، سواء شعروا ببعض أنواع الفقر أم لم يشعروا، ولكن الموفق منهم الذي لا يزال يشاهد فقره في كل حال من أمور دينه ودنياه، ويتضرع له ويسأله ألا يكله إلى نفسه طرفة عين وأن يعينه على جميع أموره، ويستصحب هذا المعنى في كل وقت؛ فهذا حري بالإعانة التامة من ربه وإلهه الذي هو أرحم به من الوالدة بولدها.

سورة فاطر

الأنفال والنار

وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ ﴿١٩﴾ وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ ﴿٢٠﴾ وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ ﴿٢١﴾ وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ ﴿٢٢﴾ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ ﴿٢٣﴾ إِنَّ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴿٢٤﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِن مِّن أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٢٥﴾ وَإِن يَكْذِبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالزُّبُرِ وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٢٧﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بَيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَعَرَبِيَّةٌ سُودٌ ﴿٢٨﴾ وَمِنَ النَّاسِ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّكَ عِندَ رَبِّكَ غَفُورٌ ﴿٢٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تَجَارَةً لَّن تَبُورَ ﴿٣٠﴾ لِيُوفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣١﴾

٤٣٧

بالأخلاق الجميلة؛ من الصدق، والإخلاص، والتواضع، ولين الجانب، والنصح للعباد، وسلامة الصدر من الحقد والحسد وغيرهما من مساوئ الأخلاق؛ فإن تركيته يعود نفعها إليه، ويصل مقصودها إليه، ليس يضيع من عمله شيء. ﴿١٩﴾ وَلِلَّهِ الْمَصِيرُ ﴿٢٠﴾: فيجازي الخلائق على ما أسلفوه، ويحاسبهم على ما قدموه وعملوه، ولا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها.

﴿٢١﴾ وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ ﴿٢٢﴾ وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ ﴿٢٣﴾ وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ ﴿٢٤﴾ وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ ﴿٢٥﴾ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ ﴿٢٦﴾ إِنَّ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴿٢٧﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِن مِّن أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٢٨﴾.

﴿٢٩﴾ - ﴿٣١﴾ يخبر تعالى أنه لا يتساوى الأضداد في حكمة الله وفيما أودعه في فطر عباده، ﴿٢٩﴾ وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ: فاقد البصر ﴿٢٩﴾ وَالْبَصِيرُ ﴿٢٠﴾ وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ ﴿٢١﴾ وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ ﴿٢٢﴾ وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ ﴿٢٣﴾؛ فكما أنه من المقرر عندكم الذي لا يقبل الشك أن هذه المذكورات لا تتساوى؛ فكذلك فلتعلموا أن عدم تساوي المتضادات المعنوية أولى وأولى؛ فلا يستوي المؤمن والكافر، ولا المهتدي والضال،

ولا العالم والجاهل، ولا أصحاب الجنة وأصحاب النار، ولا أحياء القلوب وأمواتها؛ فبين هذه الأشياء من التفاوت والفرق ما لا يعلمه إلا الله تعالى. فإذا علمت المراتب وميزت الأشياء وبان الذي ينبغي أن يتنافس في تحصيله من ضده؛ فليختر الحازم لنفسه ما هو أولى به وأحق بالإيثار. ﴿٢٤﴾ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ: سماع فهم وقبول؛ لأنه تعالى هو الهادي الموفق. ﴿٢٥﴾ وَأَنتَ يُسْمِعُ مَن فِي الْقُبُورِ ﴿٢٦﴾: أي: أموات القلوب، أو: كما أن دعاءك لا يفيد سكان القبور شيئاً، كذلك لا يفيد المعرض المعاند شيئاً، ولكن وظيفتك النذارة وإبلاغ ما أرسلت به؛ قبل منك أم لا، ولهذا قال: ﴿٢٧﴾ إِنَّ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴿٢٨﴾.

﴿٢٩﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ: لأن الله تعالى بعثك على حين فترة من الرسل وطموس من السبل واندراس من العلم وضرورة عظمة إلى بعثك، فبعثك الله رحمة للعالمين، وكذلك ما بعثناك به من الدين القيم والصراط المستقيم حق لا باطل، وكذلك ما أرسلناك به من هذا القرآن العظيم وما اشتمل عليه من الذكر الحكيم حق وصدق، ﴿٣٠﴾ بَشِيرًا: لمن أطاعك بثواب الله العاجل والآجل ﴿٣١﴾ وَنَذِيرًا: لمن عصاك بعقاب الله العاجل والآجل، ولست بيدع من الرسل. ﴿٣٢﴾ مِّن أُمَّةٍ: من الأمم الماضية والقرون الخالية ﴿٣٣﴾ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٣٤﴾: يقيم عليهم حجة الله؛ ﴿٣٥﴾ لِيَهْلِكَ مَن هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَن حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ ﴿٣٦﴾ [الأنفال: ٤٢].

﴿٣٧﴾ وَإِن يَكْذِبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالزُّبُرِ وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ ﴿٣٨﴾ ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٣٩﴾.

﴿٤٠﴾ أي: وإن يكذبك أيها الرسول هؤلاء المشركون؛ فلست أول رسول كذب، ﴿٤١﴾ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ: الدالات على الحق وعلى صدقهم فيما أخبروهم به. ﴿٤٢﴾ وَبِالزُّبُرِ: أي: الكتب المكتوبة المجموع فيها كثير من الأحكام. ﴿٤٣﴾ وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ ﴿٤٤﴾: أي: المضيء في أخباره الصادقة وأحكامه العادلة، فلم يكن تكذيبهم إياهم

عن المعاصي والاستعداد للقاء من يخشاه، وهذا دليل على فضيلة العلم؛ فإنه داع إلى خشية الله، وأهل خشيته هم أهل كرامته؛ كما قال تعالى: ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ﴾ [البينة: ٨]. ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ﴾: كامل العزة، ومن عزته خلق هذه المخلوقات المتضادات. ﴿عَفُورٌ﴾ [٢٨]: لذنوب التائبين.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّنْ تَبُورَ﴾ [٢٩] لِيُؤْفِقَهُمْ أَجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُمْ مِّنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾ [٣٠].

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ﴾؛ أي: يتبعونه في أوامره فيمتثلونها وفي نواهيه فيتركونها وفي أخباره فيصدقونها ويعتقدونها ولا يقدمون عليه ما خالفه من الأقوال، ويتلون أيضًا ألفاظه بدراسته، ومعانيه بتتبعها واستخراجها، ثم خص من التلاوة بعدما عم الصلاة، التي هي عماد الدين، ونور المسلمين، وميزان الإيمان وعلامة صدق الإسلام، والنفقة على الأقارب والمساكين واليتامى وغيرهم من الزكاة والكفارات والندور والصدقات، ﴿سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾: في جميع الأوقات؛ ﴿يَرْجُونَ﴾: بذلك ﴿تِجَارَةً لَّنْ تَبُورَ﴾ [٢٩]؛ أي: لن تكسب وتفسد، بل تجارة هي أجل التجارات وأعلاها وأفضلها ألا وهي رضا ربهم والفوز بجزيل ثوابه والنجاة من سخطه وعقابه، وهذا فيه أنهم يخلصون بأعمالهم، وأنهم لا يرجون بها من المقاصد السيئة والنيات الفاسدة شيئًا.

﴿وَذَكَرَ أَنَّهُمْ حَصَلَ لَهُمْ مَا رَجَوْهُ، فَقَالَ﴾: ﴿لِيُؤْفِقَهُمْ أَجُورَهُمْ﴾؛ أي: أجور أعمالهم على حسب قلتها وكثرتها، وحسنها وعدمه، ﴿وَيَزِيدَهُمْ مِّنْ فَضْلِهِ﴾: زيادة عن أجورهم. ﴿إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾ [٣٠]: غفر لهم السيئات، وقبل منهم القليل من الحسنات.

﴿وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ﴾ [٣١] ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ الَّذِينَ أَصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ إِذْنُ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾ [٣٢] جَنَّتٌ عَدْنٌ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ [٣٣]

ناشئًا عن اشتباه أو قصور بما جاءتهم به الرسل، بل بسبب ظلمهم وعنادهم.

﴿ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾: بأنواع العقوبات ﴿فَكَيْفَ كَانَتْ تَكْبِيرُ﴾ [٣٤]: عليهم؟ كان أشد التكبير وأعظم التثكيل؛ فإياكم وتكذيب هذا الرسول الكريم، فيصيبكم كما أصاب أولئك من العذاب الأليم والحزي الوخيم.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بَيَضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ﴾ [٣٥] وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَأَلْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ، كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾ [٣٦].

يذكر تعالى خلقه للأشياء المتضادات التي أصلها واحد ومادتها واحدة وفيها من التفاوت والفرق ما هو مشاهد معروف؛ ليدل العباد على كمال قدرته وبديع حكمته:

﴿فَمِنْ ذَلِكَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً، فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ الْمُخْتَلِفَاتِ وَالنباتات المتنوعات ما هو مشاهد للناظرين، والماء واحد والأرض واحدة. ومن ذلك الجبال التي جعلها الله أوتادًا للأرض؛ تجدها جبالًا مشتبكة، بل جبلًا واحدًا، وفيها ألوان متعددة، فيها ﴿جُدَدٌ بَيَضٌ﴾؛ أي: طرائق بيض، وفيها طرائق صفراء وحمراء، وفيها ﴿غَرَابِيبُ سُودٌ﴾ [٣٥]؛ أي: شديدة السواد جدًا.

﴿وَمِنَ ذَلِكَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ؛ فِيهَا مِنْ اخْتِلَافِ الْأَلْوَانِ وَالْأَوْصَافِ وَالْأَصْوَاتِ وَالْهَيْئَاتِ مَا هُوَ مَرْتِي بِالْأَبْصَارِ مَشْهُودٌ لِلنَّظَارِ، وَالْكَلِّ مِنْ أَصْلٍ وَاحِدٍ وَمَادَّةٍ وَاحِدَةٍ، فَتَفَاوُتُهَا دَلِيلٌ عَلَى عِلْمِي عَلَى مِثْلَةِ اللَّهِ تَعَالَى الَّتِي خَصَّصَتْ مَا خَصَّصَتْ مِنْهَا بِلَوْنِهِ وَوَصْفِهِ، وَقُدْرَةِ اللَّهِ تَعَالَى حَيْثُ أَوْجَدَهَا كَذَلِكَ، وَحُكْمَتِهِ وَرَحْمَتِهِ حَيْثُ كَانَ ذَلِكَ الْاِخْتِلَافُ وَذَلِكَ التَّفَاوُتُ فِيهِ مِنَ الْمَصَالِحِ وَالْمَنَافِعِ وَمَعْرِفَةِ الطَّرِيقِ وَمَعْرِفَةِ النَّاسِ بَعْضُهُمْ بَعْضًا مَا هُوَ مَعْلُومٌ، وَذَلِكَ أَيْضًا دَلِيلٌ عَلَى سَعَةِ عِلْمِ اللَّهِ تَعَالَى، وَأَنَّهُ يَبْعَثُ فِي الْقُبُورِ، وَلَكِنَّ الْغَافِلَ يَنْظُرُ فِي هَذِهِ الْأَشْيَاءِ وَغَيْرِهَا نَظْرَ غَفْلَةٍ لَا تَحْدُثُ لَهُ تَذَكُّرًا، وَإِنَّمَا يَنْتَفِعُ بِهَا مِنْ يَخْشَى اللَّهَ تَعَالَى وَيَعْلَمُ بِفِكْرِهِ الصَّائِبِ وَجِهَةِ الْحِكْمَةِ فِيهَا، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [٣٦]: فكل من كان بالله أعلم؛ كان أكثر له خشية، وأوجب له خشية الله الانكفاف

وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ
شَكُورٌ ﴿٣٢﴾ الَّذِي أَهْلَنَا دَارَ الْمَقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا
نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴿٣٣﴾

﴿٣١﴾ يذكر تعالى أن الكتاب الذي أوحاه إلى رسوله ﴿هُوَ الْحَقُّ﴾ من كثرة ما اشتمل عليه من الحق، كأن الحق منحصر فيه؛ فلا يكن في قلوبكم حرج منه ولا تتبرموا منه ولا تستهينوا به؛ فإذا كان هو الحق؛ لزم أن كل ما دل عليه من المسائل الإلهية والغيبية وغيرها مطابق لما في الواقع؛ فلا يجوز أن يراد به ما يخالف ظاهره وما دل عليه. ﴿مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ من الكتب والرسول؛ لأنها أخبرت به، فلما وجد وظهر؛ ظهر به صدقها؛ فهي بشرت به وأخبرت، وهو صدقها، ولهذا لا يمكن أحداً أن يؤمن بالكتب السابقة وهو كافر بالقرآن أبداً؛ لأن كفره به ينقض إيمانه بها؛ لأن من جملة أخبارها الخبر عن القرآن، ولأن أخبارها مطابقة لأخبار القرآن. ﴿إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ﴾ ﴿٣٢﴾ فيعطي كل أمة وكل شخص ما هو اللائق بحاله، ومن ذلك أن الشرائع السابقة لا تليق إلا بوقتها وزمانها، ولهذا ما زال الله يرسل الرسل رسولا بعد رسول حتى ختمهم بمحمد ﷺ، فجاء بهذا الشرع الذي يصلح لمصالح الخلق إلى يوم القيامة، ويتكفل بما هو الخير في كل وقت، ولهذا لما كانت هذه الأمة أكمل الأمم عقولاً وأحسنهم أفكاراً وأرقهم قلوباً وأزكاهم أنفساً؛ اصطفاها تعالى واصطفى لهم دين الإسلام وأورثهم الكتاب المهيمن على سائر الكتب.

﴿٣٢﴾ ولهذا قال: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ وهم هذه الأمة. ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ﴾ بالمعاصي التي هي دون الكفر، ﴿وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ﴾ مقتصر على ما يجب عليه، تارك للمحرم، ﴿وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ﴾ أي: سارع فيها، واجتهد فسبق غيره، وهو المؤدي للفرائض، المكثر من النوافل، التارك للمحرم والمكروه؛ فكلهم اصطفاها الله تعالى لورثة هذا الكتاب، وإن تفاوتت مراتبهم وتميزت أحوالهم؛ فلكل منهم قسط من وراثته، حتى الظالم لنفسه؛ فإن ما معه من أصل الإيمان، وعلوم الإيمان، وأعمال الإيمان، من وراثته الكتاب؛ لأن المراد بورثة الكتاب وراثته علمه وعمله ودراسة ألفاظه واستخراج معانيه، وقوله: ﴿يَا ذِينَ اللَّهِ﴾ راجع إلى السابق إلى الخيرات؛ لثلاث يقتضيه عمله، بل ما سبق إلى الخيرات إلا بتوفيق الله تعالى وموعنته؛ فينبغي له أن يشتغل بشكر الله تعالى على ما أنعم به عليه. ﴿ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾ أي: وراثته الكتاب الجليل لمن اصطفى تعالى من عباده، هو الفضل الكبير، الذي جميع النعم بالنسبة إليه كالعدم، فأجل النعم على الإطلاق وأكبر الفضل، وراثته هذا الكتاب.

﴿٣٣﴾ ثم ذكر جزاء الذين أورثهم كتابه فقال: ﴿جَنَّتٌ عَدْنٌ يَدْخُلُونَهَا﴾ أي: جنات مشتملات على الأشجار، والظل، والظليل، والحدائق الحسنة، والأنهار المتدفقة، والقصور العالية، والمنازل المزخرفة في أبد لا يزول، وعيش لا ينفد. والعدن: الإقامة؛ فجنات عدن؛ أي: جنات إقامة، أضافها للإقامة، لأن الإقامة والخلود وصفها ووصف أهلها، ﴿يَدْخُلُونَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ﴾ وهو الحلي الذي يجعل في اليدين على ما يحبون ويرون أنه أحسن من غيره، الرجال والنساء في الحلية في الجنة سواء. ويحلون فيها لؤلؤاً؛ يُنْظَمُ في ثيابهم وأجسادهم، ﴿وَلِبَاسُهمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ من سندس ومن إستبرق أخضر.

يُقَضِّعَنَّ عَلَيْهِمْ ﴿٣٤﴾: بالموت ﴿فَيَمُوتُوا﴾: فيستريحوا، ﴿وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا﴾: فشدة العذاب وعظمه مستمر عليهم في جميع الآتات واللحظات. ﴿كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ﴾ ﴿٣٥﴾.

﴿٣٦﴾ وَهُمْ يَصْطَرِّحُونَ فِيهَا ﴿٣٦﴾: أي: يصرخون ويتصايحون ويستغيثون ويقولون: ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا تَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾: فاعترفوا بذنوبهم، وعرفوا أن الله عدل فيهم، ولكن سألوا الرجعة في غير وقتها، فيقال لهم: ﴿أَوَلَمْ نُعْزِزْكُمْ مَا؟﴾: أي: دهرًا وعمراً ﴿يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ﴾؛ أي: يتمكن فيه من أراد التذكر من العمل، متعناكم في الدنيا، وأدرنا عليكم الأرزاق، وقضينا لكم أسباب الراحة، ومددنا لكم في العمر، وتابعنا عليكم الآيات، وواصلنا إليكم النذر، وابتليناكم بالسراء والضراء؛ لتثبوا إلينا وترجعوا إلينا، فلم ينجع فيكم إنذار، ولم تفد فيكم موعظة، وأخرنا عنكم العقوبة، حتى إذا انقضت آجالكم وتمت أعماركم ورحلتكم عن دار الإمكان، بأشر الحالات، ووصلتم إلى هذه الدار دار الجزاء على الأعمال؛ سألتهم الرجعة؟! هيهات هيهات! فات وقت الإمكان، وغضب عليكم الرحيم الرحمن، واشتد عليكم عذاب النار، ونسيكم أهل الجنة، فامكنوا فيها خالدين مخلدين، وفي العذاب مهانين، ولهذا قال: ﴿فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ﴾ ﴿٣٧﴾: ينصرهم فيخرجهم منها، أو يخفف عنهم من عذابها.

﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ غَيْبِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ ﴿٣٨﴾.

﴿٣٩﴾ لما ذكر تعالى جزاء أهل الدارين، وذكر أعمال الفريقين؛ أخبر تعالى عن سعة علمه تعالى، وإطلاعه على غيب السماوات والأرض، التي غابت عن أبصار الخلق وعن علمهم، وأنه عالم بالسرائر وما تنطوي عليه الصدور من الخير والشر والزكاء وغيره، فيعطي كلا ما يستحقه، وينزل كل أحد منزلته.

﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا مَقْتًا وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا﴾ ﴿٤٠﴾.

﴿٤١﴾ يخبر تعالى عن كمال حكمته ورحمته بعباده أنه قدر بقضائه السابق أن يجعل بعضهم يخلف بعضًا في الأرض،

﴿٣٩﴾ وَلَمَّا تَمَّ نَعِيمُهُمْ، وكملت لذتهم؛ قالوا ﴿لَحْمَدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ﴾: وهذا يشمل كل حزن؛ فلا حزن يعرض لهم بسبب نقص في جمالهم، ولا في طعامهم وشرابهم، ولا في لذاتهم ولا في أجسادهم، ولا في دوام لبثهم؛ فهم في نعيم ما يرون عليه مزيدًا، وهو في تزايد أبد الآباد. ﴿إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ﴾: حيث غفر لنا الزلات. ﴿شُكُورٌ﴾ ﴿٤٠﴾: حيث قبل منا الحسنات وضاعفها، وأعطانا من فضله ما لم تبلغه أعمالنا ولا أمانينا. فبمغفرته نجوا من كل مكروه ومرهوب، وبشكره وفضله حصل لهم كل مرغوب محبوب.

﴿الَّذِي أَحَلَّنَا؟﴾: أي: أنزلنا نزول حلول واستقرار، لا نزول معبر واعتبار ﴿دَارَ الْمَقَامَةِ؟﴾: أي: الدار التي تدوم فيها الإقامة، والدار التي يرغب في المقام فيها؛ لكثرة خيراتها وتوالي مسراتها وزوال كدوراتها، وذلك الإحلال بفضله علينا وكرمه، لا بأعمالنا؛ فلولاً فضله؛ لما وصلنا إلى ما وصلنا إليه، ﴿لَا يَسْتَأْذِنُ فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾ ﴿٤١﴾: أي: لا تعب في الأبدان ولا في القلب والقوى ولا في كثرة التمتع.

وهذا يدل على أن الله تعالى يجعل أبدانهم في نشأة كاملة ويهيئ لهم من أسباب الراحة على الدوام ما يكونون بهذه الصفة؛ بحيث لا يمسه نصب ولا لغوب، ولا هم ولا حزن. ويدل على أنهم لا ينامون في الجنة؛ لأن النوم فائدته زوال التعب وحصول الراحة به، وأهل الجنة بخلاف ذلك، ولأنه موت أصغر، وأهل الجنة لا يموتون. جعلنا الله منهم بمنه وكرمه.

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقَضِّعَنَّ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ﴾ ﴿٤٢﴾ وَهُمْ يَصْطَرِّحُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا تَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ ﴿٤٣﴾ أَوَلَمْ نُعْزِزْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمْ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ﴾ ﴿٤٤﴾.

﴿٤٥﴾ لما ذكر تعالى حال أهل الجنة ونعيمهم؛ ذكر حال أهل النار وعذابهم، فقال: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا؟﴾: أي: جحدوا ما جاءتهم به رسلهم من الآيات وأنكروا لقاء ربهم، ﴿لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ﴾: يعذبون فيها أشد العذاب وأبلغ العقاب، ﴿وَلَا

سورة فاطر

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي

هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلْقًا فِي الْأَرْضِ فَمَنْ كَفَرَ بِهِ كُفْرُهُ وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرَهُمْ إِلَّا حَسَارًا ۝ وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرَهُمْ إِلَّا حَسَارًا ۝ قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ أَمْ آتَيْنَهُمْ كِتَابًا فهُمْ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْهُ بَلْ إِنْ يَدْعُوا إِلَى الظَّلَامَةِ يَجْعَلُ اللَّهُ بَعْضَهُمْ بَعْضًا إِلَٰهًا غَيْرًا ۝ إِنْ اللَّهُ يُمَسِّكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ عِبَادِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ۝ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَعْيُنِهِمْ لَنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ كُنْ أَوْ هَدَى مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَارَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ۝ أَسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ لَا يَخِفُّ الْمَكْرَ السَّيِّئِ إِلَّا بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا ۝ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُمْ شَيْئًا فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ۝

٤٣٩

ويرسل لكل أمة من الأمم النذر، فينظر كيف يعملون؛ ﴿فَمَنْ كَفَرَ﴾: بالله وبما جاءت به رسله؛ فإن كفره عليه، وعليه إثم وعقوبته، ولا يحمل عنه أحد، ولا يزداد الكافر بكفره إلا مقت ربه له وبغضه إياه، وأي عقوبة أعظم من مقت الرب الكريم؟! ﴿وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرَهُمْ إِلَّا حَسَارًا﴾: أي: يخسرون أنفسهم وأهليهم وأعمالهم ومنازلهم في الجنة؛ فالكافر لا يزال في زيادة من الشقاء والخسران والخزي عند الله وعند خلقه والحرمان.

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ أَمْ آتَيْنَهُمْ كِتَابًا فهُمْ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْهُ بَلْ إِنْ يَدْعُوا إِلَى الظَّلَامَةِ يَجْعَلُ اللَّهُ بَعْضَهُمْ بَعْضًا إِلَٰهًا غَيْرًا﴾.

يقول تعالى معجزًا لآلهة المشركين ومبينًا نقصها وبطلان شركهم من جميع الوجوه: ﴿قُلْ﴾ يا أيها الرسول لهم: ﴿أَرَأَيْتُمْ﴾: أي: أخبروني عن شركائكم ﴿الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾: هل هم مستحقون للدعاء والعبادة؟! ﴿فَمَا أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ﴾: هل خلقوا بحرًا أم خلقوا جبالًا أو خلقوا حيوانًا أو خلقوا جمادًا؟! سيقرون أن الخالق لجميع الأشياء هو الله تعالى. أم لشركائكم ﴿شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ﴾: في خلقها وتديرها؟! سيقولون: ليس لهم شركة!

فإذا لم يخلقوا شيئًا ولم يشاركوا الخالق في خلقه؛ فلم عبدتموهم ودعوتموهم مع إقراركم بعجزهم؟! فانتفى الدليل العقلي على صحة عبادتهم، ودل على بطلانها.

ثم ذكر الدليل السمعي، وأنه أيضًا متنفذ، فلماذا قال: ﴿أَمْ آتَيْنَهُمْ كِتَابًا﴾: يتكلم بما كانوا به يشركون، يأمرهم بالشرك وعبادة الأوثان. ﴿فَهُمْ﴾: في شركهم ﴿فَهُمْ عَلَى بَيِّنَةٍ﴾: من ذلك الكتاب الذي نزل عليهم في صحة الشرك، ليس الأمر كذلك؛ فإنهم ما نزل عليهم كتاب قبل القرآن، ولا جاءهم نذير قبل رسول الله محمد ﷺ، ولو قدر نزول كتاب إليهم وإرسال رسول إليهم وزعموا أنه أمرهم بشركهم؛ فإننا نجزم بكذبهم؛ لأن الله قال: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥]. فالرسل والكتب كلها متفقة على الأمر بإخلاص الدين لله تعالى: ﴿وَمَا أَمَرُوا إِلَّا لَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ﴾ [البينة: ٥]. فإن قيل: إذا كان الدليل العقلي والنقلي قد دلا على بطلان الشرك؛ فما الذي حمل المشركين على الشرك وفيهم ذوو العقول والذكاء والفتنة؟! أجاب تعالى بقوله: ﴿بَلْ إِنْ يَدْعُوا إِلَى الظَّلَامَةِ يَجْعَلُ اللَّهُ بَعْضَهُمْ بَعْضًا إِلَٰهًا غَيْرًا﴾: أي: ذلك الذي مشوا عليه ليس لهم فيه حجة، وإنما ذلك توصية بعضهم لبعض به، وتزيين بعضهم لبعض، واقتداء المتأخر بالمتقدم الضال، وأماني منها الشياطين، وزين لهم سوء أعمالهم، فنشأت في قلوبهم، وصارت صفة من صفاتها، فعسر زوالها، وتعسر انفصالها، فحصل ما حصل من الإقامة على الكفر والشرك الباطل المضمحل.

﴿إِنْ اللَّهُ يُمَسِّكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ عِبَادِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾.

يخبر تعالى عن كمال قدرته وتمازج رحمته وسعة حلمه ومغفرته، وأنه تعالى ﴿يُمَسِّكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾: عن الزوال؛ فإنهما لو زالتا؛ ما أمسكهما أحد من الخلق، ولعجزت قدرهم وقواهم عنهما، ولكنه تعالى قضى أن يكونا كما وجدا؛ ليحصل للخلق القرار والنفع والاعتبار، وليعلموا من عظيم سلطانه وقوة قدرته ما به تمتلئ قلوبهم له إجلالًا وتعظيمًا، ومعجة

سورة يس

وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكُوا عَلَى
 ظُهُرِهِمْ مِنْ دَابِئِهِمْ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى
 فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا ﴿٥﴾

سورة يس

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَس ١ وَالْقُرْآنَ الْكَرِيمَ ٢ إِنَّكَ لِنَبِّ الْمُرْسَلِينَ ٣ عَلَى
 صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ٤ نَزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ٥ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا
 أُنْذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ ٦ لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ
 فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ٧ إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَنْعَامِهِمْ آيَاتًا لِّئَلَّا يُهْتَمَّ بِهَا
 الْآدِفَانِ فَهُمْ مُّقْمَحُونَ ٨ وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا
 وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ٩ وَسَوَاءٌ
 عَلَيْهِمْ أُنْذِرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ١٠ إِنَّمَا تُنذِرُ
 مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخِشِيَ الرَّحْمَنَ الْعَلِيمَ ١١ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ
 وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ١٢ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ
 مَا قَدَّمُوا وَآخَرَهُمْ وَكُلُّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ ١٣

﴿٢﴾ هذا قسم من الله تعالى بالقرآن الحكيم الذي وصفه الحكمة، وهي وضع كل شيء موضعه: وضع الأمر والنهي في المحل اللائق بهما، ووضع الجزاء بالخير والشر في محلهاما اللائق بهما؛ فأحكامه الشرعية والجزائية كلها مشتملة على غاية الحكمة. ومن حكمة هذا القرآن أنه يجمع بين ذكر الحكم وحكمته، فينبه العقول على المناسبات والأوصاف المقتضية لترتيب الحكم عليها.

﴿٣﴾ إِنَّكَ لِنَبِّ الْمُرْسَلِينَ ﴿٣﴾: هذا المقسم عليه، وهو رسالة محمد ﷺ، وأنت يا محمد من جملة المرسلين، فلست ببدع من الرسل. وأيضاً؛ فجنبت بما جاء به الرسل من الأصول الدينية. وأيضاً فمن تأمل أحوال المرسلين وأوصافهم وعرف الفرق بينهم وبين غيرهم؛ عرف أنك من خيار المرسلين بما فيك من الصفات الكاملة والأخلاق الفاضلة. ولا يخفى ما بين المقسم به وهو القرآن الحكيم وبين المقسم عليه وهو رسالة الرسول محمد ﷺ من الاتصال، وأنه لو لم يكن لرسالته دليل ولا شاهد إلا هذا القرآن الحكيم؛ لكفى به دليلاً وشاهداً على رسالة محمد ﷺ، بل القرآن العظيم أقوى الأدلة المتصلة المستمرة على رسالة الرسول، فأدلة القرآن كلها أدلة لرسالة محمد ﷺ.

﴿٤﴾ ثم أخبر بأعظم أوصاف الرسول ﷺ، الدالة على رسالته، وهو أنه ﴿عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾: معتدل، موصل إلى الله وإلى دار كرامته، وذلك الصراط المستقيم مشتمل على أعمال، وهي الأعمال الصالحة المصلحة للقلب والبدن والدنيا والآخرة، والأخلاق الفاضلة المُرَكَّبَةُ للنفس المطهرة للقلب المنمية للأجر، فهذا الصراط المستقيم الذي هو وصف الرسول ﷺ ووصف دينه الذي جاء به.

فتأمل جلالة هذا القرآن الكريم؛ كيف جمع بين القَسَمِ بأشرف الأقسام على أجل مقسم عليه، وخبر الله وحده كافٍ، ولكنه تعالى أقام من الأدلة الواضحة والبراهين الساطعة في هذا الموضع على صحة ما أقسم عليه من رسالة رسوله ما نبهنا عليه وأشرنا إشارة لطيفة لسلوك طريقه.

﴿٥﴾ وهذا الصراط المستقيم ﴿نَزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ﴾: ﴿٥﴾ فهو الذي أنزل به كتابه وأنزله طريقاً لعباده موصلاً لهم إليه، فحماء يعزته عن التغير والتبدل، ورحم به عباده رحمة اتصلت بهم حتى أوصلتهم إلى دار رحمته، ولهذا ختم الآية بهذين الاسمين الكريمين العزيز الرحيم.

﴿٦﴾ فلما أقسم تعالى على رسالته، وأقام الأدلة عليها؛ ذكر شدة الحاجة إليها واقتضاء الضرورة لها، فقال: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أُنْذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ﴾: ﴿٦﴾ وهم العرب الأميون، الذين لم يزالوا خالين من الكتب، عادمين الرسل، قد عمتهم الجهالة وغمرتهم الضلالة، وأضحكوا عليهم وعلى سفههم عقول العالمين، فأرسل الله إليهم رسولاً من أنفسهم يزكيهم، ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين، فينذر العرب الأميين ومن لحق بهم من كل أمي، ويذكر أهل الكتب بما عندهم من الكتب؛ فنعمة الله به على العرب خصوصاً وعلى غيرهم عموماً.

﴿٧﴾ ولكن هؤلاء الذين بعثت فيهم لإنذارهم بعدما أنذرتهم انقسموا قسمين: قسم رد لما جئت به ولم يقبل النذارة،

عمل خيراً من صلاة أو زكاة أو صدقة أو إحسان فاقتدى به غيره، أو عمل مسجداً أو محلاً من المحال التي يرتفق بها الناس وما أشبه ذلك؛ فإنها من آثاره التي تكتب له، وكذلك عمل الشر، ولهذا: «من سن سنة حسنة؛ فله أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة، ومن سن سنة سيئة، فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة»^(١).

وهذا الموضع يبين لك علو مرتبة الدعوة إلى الله والهداية إلى سبيله بكل وسيلة وطريق موصل إلى ذلك، ونزول درجة الداعي إلى الشر الإمام فيه، وأنه أسفل الخليقة وأشدّهم جرماً وأعظمهم إثمًا، ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ﴾: من الأعمال والنيات وغيرها ﴿أَخَصَيْنَتْهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ﴾^(١٢)؛ أي: كتاب هو أم الكتب، وإليه مرجع الكتب التي تكون بأيدي الملائكة، وهو اللوح المحفوظ.

﴿وَأَضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ﴾^(١٣) إلى آخر القصة.

﴿١٣﴾ أي: واضرب لهؤلاء المكذبين برسالتك الرادين لدعوتك مثلاً يعتبرون به ويكون لهم موعظة إن وفقوا للخير، وذلك المثل: أصحاب القرية وما جرى منهم من التكذيب لرسول الله وما جرى عليهم من عقوبته ونكاله، وتعيين تلك القرية لو كان فيه فائدة؛ لعينها الله، فالتعرض لذلك وما أشبهه من باب التكلف والتكلم بلا علم، ولهذا إذا تكلم أحد في مثل هذه الأمور؛ تجد عنده من الخبط والخلط والاختلاف الذي لا يستقر له قرار ما تعرف به أن طريق العلم الصحيح الوقوف مع الحقائق وترك التعرض لما لا فائدة فيه، وبذلك تزكو النفس ويزيد العلم من حيث يظن الجاهل أن زيادته بذكر الأقوال التي لا دليل عليها ولا حجة عليها ولا يحصل منها من الفائدة إلا تشويش الذهن واعتياد الأمور المشكوك فيها. والشاهد أن هذه القرية جعلها الله مثلاً للمخاطبين. ﴿إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ﴾^(١٣)؛ من الله تعالى، يأمرونهم بعبادة الله وحده وإخلاص الدين له، وينهونهم عن الشرك والمعاصي.

﴿١٤﴾ ﴿إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ﴾؛ أي: قويناهما بثالث، فصاروا ثلاثة رسل؛ اعتناء من الله بهم، وإقامة للحجة بتوالي الرسل إليهم، ﴿فَقَالُوا﴾ لهم: ﴿إِنَّا إِلَيْكُمْ مُّرْسَلُونَ﴾^(١٤).

وهم الذين قال الله فيهم: ﴿لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾^(٧)؛ أي: نفذ فيهم القضاء والمشيئة أنهم لا يزالون في كفرهم وشرهم، وإنما حق عليهم القول بعد أن عرض عليهم الحق فرفضوه؛ فحيثنذ عوقبوا بالطبع على قلوبهم.

﴿٨﴾ وذكر الموانع من وصول الإيمان لقلوبهم، فقال: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَنْفُسِهِمْ غَلًّا﴾: وهي جمع غل، والغل ما يغل به العنق؛ فهو للعنق بمنزلة القيد للرجل. وهذه الأغلال التي في الأعناق عظيمة قد وصلت ﴿إِلَى﴾: أذقانهم، ورفعت رءوسهم إلى فوق. ﴿فَهُمْ مُّقْمَحُونَ﴾^(٨)؛ أي: رافعو رءوسهم من شدة الغل الذي في أعناقهم؛ فلا يستطيعون أن يخفضوها.

﴿٩﴾ ﴿وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا﴾؛ أي: حاجزاً يحجزهم عن الإيمان؛ ﴿فَهُمْ لَا يَبْصِرُونَ﴾^(٩)؛ قد غمرهم الجهل والشقاء من جميع جوانبهم، فلم تُقد فيهم النذارة.

﴿١٠﴾ ﴿وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾^(١٠)؛ وكيف يؤمن من طبع على قلبه ورأى الحق باطلاً وبالباطل حقاً؟!

﴿١١﴾ والقسم الثاني الذين قبلوا النذارة وقد ذكرهم بقوله: ﴿إِنَّمَا تُنْذِرُ﴾؛ أي: إنما تنفع نذارتك ويتعظ بنصحك ﴿مَنْ أَتَّبَعَ الذِّكْرَ﴾؛ أي: من قصده اتباع الحق وما ذُكر به، ﴿وَخِيفَى الرَّحْنِ بِالْغَيْبِ﴾؛ أي: من اتصف بهذين الأمرين: القصد الحسن في طلب الحق، وخشية الله تعالى؛ فهم الذين ينتفعون برسالتك وَيُزَكُّون بتعليمك، وهذا الذي وفق لهذين الأمرين، بشره ﴿بِمَغْفِرَةٍ﴾: لذنوبه ﴿وَأَجْرٍ كَرِيمٍ﴾^(١١)؛ لأعماله الصالحة ونيته الحسنة.

﴿١٢﴾ ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى﴾؛ أي: نبعثهم بعد موتهم لنجازيهم على الأعمال، ﴿وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا﴾: من الخير والشر، وهو أعمالهم التي عملوها وباشروها في حال حياتهم، ﴿وَمَا أَكْتَرَهُمْ﴾: وهي آثار الخير وآثار الشر التي كانوا هم السبب في إيجادها في حال حياتهم وبعد وفاتهم، وتلك الأعمال التي نشأت من أقوالهم وأفعالهم وأحوالهم؛ فكل خير عمل به أحد من الناس بسبب علم العبد وتعليمه أو نصحه أو أمره بالمعروف أو نهيه عن المنكر أو علم أودعه عند المتعلمين أو في كتب ينتفع بها في حياته وبعد موته أو

سورة يس

الأنفال والشرع

وَأَضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿١٣﴾
 إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَهُكُم مُّرْسَلُونَ ﴿١٤﴾ قَالُوا مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَمَا أَنزَلَ الرَّحْمَنُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴿١٥﴾ قَالُوا رَبَّنَا عَلِّمْنَا لَنَا لِكُمْ لِمُرْسَلُونَ ﴿١٦﴾ وَمَا عَلَّمْنَا إِلَّا الْبَلْغَ الْمُبِينِ ﴿١٧﴾
 قَالُوا إِنَّا نَطَّيَّرُ بِكُمْ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨﴾ قَالُوا طَائِفُكُمْ مَعَكُمْ أَيْنَ ذُكِّرْتُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّشْرِكُونَ ﴿١٩﴾ وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَنْفَوْرُ اثْنَا عَشَرَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾ اتَّبِعُوا مِنِّي لَا يَنْسَلَكُمُ الْجَحِيمُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٢﴾ أَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً إِنْ يُرِيدَنَّ الْاَرْحَمَنُ بَضِيعِي لَا تَعْنِي عَنِّي شَفَعَتُهُمْ شَيْفًا وَلَا يُنْقِذُونِ ﴿٢٣﴾ إِنْ إِذَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ إِنْ يَءَاثُرُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ ﴿٢٥﴾ قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ ﴿٢٧﴾

٤٤١

﴿١٥﴾ فأجابوهم بالجواب الذي ما زال مشهوراً عند من رد دعوة الرسل، ف﴿ قَالُوا مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا ﴾؛ أي: فما الذي فضلكم علينا وخصكم من دوننا؟! قالت الرسل لأمرهم: ﴿إِنْ تَحْن إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ [ابراهيم: ١١]، ﴿وَمَا أَنزَلَ الرَّحْمَنُ مِن شَيْءٍ﴾؛ أي: أنكروا عموم الرسالة، ثم أنكروا أيضاً المخاطبين لهم، فقالوا: ﴿إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ﴾ ﴿١٥﴾.

﴿١٦﴾ فقالت هؤلاء الرسل الثلاثة: ﴿رَبَّنَا عَلِّمْنَا لَنَا لِكُمْ لِمُرْسَلُونَ﴾ ﴿١٦﴾: فلو كنا كاذبين؛ لأظهر الله خزينا ولبادرنا بالعقوبة.

﴿١٧﴾ ﴿وَمَا عَلَّمْنَا إِلَّا الْبَلْغَ الْمُبِينِ﴾ ﴿١٧﴾؛ أي: البلاغ المبين الذي يحصل به توضيح الأمور المطلوب بيانها، وما عدا هذا من آيات الاقتراح أو من سرعة العذاب؛ فليس إلينا، وإنما وظيفتنا التي هي البلاغ المبين قمنا بها وبيننا لكم؛ فإن امتدبتم؛ فهو حظكم وتوفيقكم، وإن ضللتهم؛ فليس لنا من الأمر شيء.

﴿١٨﴾ فقال أصحاب القرية لرسولهم: ﴿إِنَّا نَطَّيَّرُ بِكُمْ﴾؛ أي: لم نر على قدمكم علينا واتصالكم بنا إلا الشر، وهذا من أعجب العجائب؛ أن يجعل من قدم عليهم بأجل نعمة ينعم

الله بها على العباد وأجل كرامة يكرمهم بها، وضرورتهم إليها فوق كل ضرورة، قد قدم بحالة شر زادت على الشر الذي هم عليه واستشأموها بها، ولكن الخذلان وعدم التوفيق يصنع بصاحبه أعظم مما يصنع به عدوه، ثم توعدوهم فقالوا: ﴿لَئِنْ لَمْ تَنْتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ﴾؛ أي: لنقتلنكم رجماً بالحجارة أشنع القتل، ﴿وَلَيَمَسَّنَّكُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ﴿١٨﴾.

﴿١٩﴾ فقالت لهم رسولهم: ﴿طَائِفُكُمْ مَعَكُمْ﴾؛ وهو ما معهم من الشرك والشر المقضي لوقوع المكروه والنقمة، وارتفاع المحبوب والنعمة. ﴿أَيْنَ ذُكِّرْتُمْ﴾؛ أي: بسبب أنا ذكركم ما فيه صلاحكم وحظكم، قلتم لنا ما قلتم، ﴿بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّشْرِكُونَ﴾ ﴿١٩﴾: متجاوزون للحد متجرهمون في قولكم. فلم يزدكم دعاؤهم إلا نفوراً واستكباراً.

﴿٢٠﴾ ﴿وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى﴾: حرصاً على نصيح قومه حين سمع ما دعت إليه الرسل وآمن به وعلم ما رده قومه عليهم، فقال لهم: ﴿يَنْفَوْرُ اثْنَا عَشَرَ الْمُرْسَلِينَ﴾ ﴿٢٠﴾: فأمرهم باتباعهم، ونصحهم على ذلك، وشهد لهم بالرسالة.

﴿٢١﴾ ثم ذكر تأييداً لما شهد به ودعا إليه، فقال: ﴿اتَّبِعُوا مِنِّي لَا يَنْسَلَكُمُ الْجَحِيمُ﴾؛ أي: اتبعوا من نصيحتكم نصيحاً يعود إليكم بالخير، وليس يريد منكم أموالكم ولا أجراً على نصيحة لكم وإرشاده؛ فهذا موجب لاتباع من هذا وصفه. بقي أن يقال: فلعله يدعو ولا يأخذ أجره ولكنه ليس على الحق، فدفع هذا الاحتراز بقوله: ﴿وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ ﴿٢١﴾: لأنهم لا يدعون إلا لما يشهد العقل الصحيح بحسنه، ولا ينهون إلا بما يشهد العقل الصحيح بقبحه.

﴿٢٢﴾ - ﴿٢٣﴾ فكان قومه لم يقبلوا نصيحه، بل عادوا لاثمين له على اتباع الرسل وإخلاص الدين لله وحده، فقال: ﴿وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ ﴿٢٢﴾؛ أي: وما المانع لي من عبادة من هو المستحق للعبادة؛ لأنه الذي فطرني وخلقني ورزقني وإليه مال جميع الخلق فيجازيهم بأعمالهم؛ فالذي بيده الخلق والرزق، والحكم بين العباد، في الدنيا والآخرة، هو الذي يستحق أن يعبد، ويثنى عليه ويمجد، دون من لا يملك نفعا ولا ضراً، ولا عطاء ولا منعاً ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً،

ولهذا قال: ﴿ءَاتَخَذُ مِنْ دُونِهِ ءَالِهَةً إِن يَرِدُنِ الْرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لَا تَجْنِي عَنْهُ شَفَعَتُهُمْ شَيْئًا﴾: لأنه لا أحد يشفع عند الله إلا بإذنه؛ فلا تغني شفاعتهم عني شيئًا ﴿وَلَا يَنْقُذُونَ﴾ (٢٦): من الضر الذي أَرَادَهُ اللهُ بِي. ﴿إِنِّي إِذَا﴾؛ أي: إن عبدت آلهة هذا وصفها ﴿لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ (٢٧): فجمع في هذا الكلام بين نصحتهم، والشهادة للرسل بالرسالة والاهتداء، والإخبار بتعين عبادة الله وحده، وذكر الأدلة عليها، وأن عبادة غيره باطلة، وذكر البراهين عليها والأخبار بضلال من عبدها، والإعلان بإيمانه جهراً، مع خوفه الشديد من قتلهم، فقال: ﴿إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ﴾ (٢٨).

(٢٦)، (٢٧) فقتله قومه، لما سمعوا منه وراجعهم بما راجعهم به. ﴿يَقِيلُ﴾: له في الحال: ﴿أَدْخِلِ الْجَنَّةَ﴾. فقال مخبراً بما وصل إليه من الكرامة على توحيده وإخلاصه وناصحاً لقومه بعد وفاته كما نصح لهم في حياته: ﴿يَكَلِّتُ قَوْمِي يَعْلَمُونَ﴾ (٢٩) بما غفر لي ربِّي؛ أي: بأي شيء غفر لي فأزال عني أنواع العقوبات، ﴿وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ﴾ (٣٠): بأنواع المثوبات والمسرات؛ أي: لو وصل علم ذلك إلى قلوبهم؛ لم يقيموا على شركهم.

(٣٨) قال الله في عقوبة قومه: ﴿وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ جُنْدٍ مِّنَ السَّمَاءِ﴾؛ أي: ما احتجنا أن نتكلف في عقوبتهم لعدم الحاجة إلى ذلك، وعظمة اقتدار الله تعالى، وشدة ضعف بني آدم، وأنهم أدنى شيء يصيبهم من عذاب الله يكفيهم.

(٣٩) ﴿إِنْ كَانَتْ﴾؛ أي: ما كانت عقوبتهم ﴿إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً﴾؛ أي: صوتاً واحداً تكلم به بعض ملائكة الله: ﴿فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ﴾ (٤٠): قد قطعت قلوبهم في أجوافهم وانزعجوا لتلك الصيحة فأصبحوا خامدين لا صوت ولا حركة ولا حياة بعد ذلك العتو والاستكبار ومقابلة أشرف الخلق بذلك الكلام القبيح وتجبرهم عليهم.

(٤١) قال الله متوجعاً للعباد: ﴿يَحْزَنُهُ عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ (٤٢): أي: ما أعظم شقاءهم وأطول عناءهم وأشد جهلهم حيث كانوا بهذه الصفة القبيحة التي هي سبب لكل شقاء وعذاب ونكال.

(٤٣)، (٤٤) ﴿الَّذِينَ يَرَوْنَ كَرَاهِلَكُنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ (٤٥) ﴿وَأَن كُلُّ لَمَّا جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ (٤٦)؛ يقول تعالى: ألم ير هؤلاء ويعتبروا بمن قبلهم من القرون المكذبة التي أهلكها الله تعالى وأوقع بها عقابها، وأن جميعهم قد باد وهلك فلم يرجع إلى الدنيا، ولن يرجع إليها، وسيعيد الله الجميع خلقاً جديداً، ويبعثهم بعد موتهم، ويحضرون بين يديه تعالى؛ ليحكم بينهم بحكمه العدل الذي ﴿لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا (٤٧) ﴿[النساء: ٤٠].﴾

﴿وَأَنبِئْهُمْ أَنَّ الْأَرْضَ الَّتِي كَانَتْ فِيهَا جَنَّتْ مِنْ نَجْلِ وَغَمٍّ وَأَعْنَبَ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ﴾ (٤٨) ﴿لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ (٤٩) ﴿سُبْحَنَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٥٠).

سُورَةُ يَسْ
وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ جُنْدٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُنْزِلِينَ (٢٨) إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ (٢٩) يَحْزَنُهُ عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (٣٠) الَّذِينَ يَرَوْنَ كَرَاهِلَكُنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ (٣١) وَأَنبِئْهُمْ أَنَّ الْأَرْضَ الَّتِي كَانَتْ فِيهَا جَنَّتْ مِنْ نَجْلِ وَغَمٍّ وَأَعْنَبَ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ (٣٢) لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ (٣٣) سُبْحَنَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ (٣٤) فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ (٣٥) وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (٣٦) وَالْقَمَرَ قَدَرْتَهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيرِ (٣٧) لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ (٣٨) ٤٤٢

﴿٣٧﴾ أَي: ﴿وَأَيَّاهُمْ﴾: على البعث والنشور والقيام بين يدي الله تعالى للجزاء على الأعمال هذه ﴿الْأَرْضَ الْمَيِّتَةَ﴾: أنزل الله عليها المطر فأحياها بعد موتها، ﴿وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ﴾ ﴿٣٨﴾: من جميع أصناف الزروع ومن جميع أصناف النبات التي تأكله أنواعهم.

﴿٣٩﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا: أي: في تلك الأرض الميتة ﴿حَبًّا﴾: أي: بساتين فيها أشجار كثيرة، وخصوصاً النخيل والأعناب، للذان هما أشرف الأشجار، ﴿وَفَجَّرْنَا فِيهَا﴾: أي: في الأرض ﴿مِنَ الْعُيُونِ﴾ ﴿٤٠﴾: جعلنا في الأرض تلك الأشجار والنخيل والأعناب. ﴿٤١﴾ لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ: قوتاً وفاكهة وأدماً ولذة. والحال أن تلك الثمار ما ﴿عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ﴾: وليس لهم فيها صنع ولا عمل، إن هو إلا صنعة أحكم الحاكمين وخير الرازقين، وأيضاً: فلم تعمله أيديهم بطبخ ولا غيره، بل أوجد الله هذه الثمار غير محتاجة لطبخ ولا شيء تؤخذ من أشجارها فتؤكل في الحال. ﴿أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ ﴿٤٢﴾: من ساق لهم هذه النعم، وأسبغ عليهم من جوده وإحسانه ما به تصلح أمور دينهم ودنياهم، أليس الذي أحيا الأرض بعد موتها فأنبث فيها الزروع والأشجار وأودع فيها لذيق الثمار وأظهر ذلك الجنى من تلك الغصون وفجر الأرض اليابسة الميتة بالعيون - بقادر على أن يحيي الموتى؟ بلى إنه على كل شيء قدير.

﴿٤٣﴾ سُبْحَنَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا: أي: الأصناف كلها ﴿مِمَّا تُثْبِتُ الْأَرْضُ﴾: فنوع فيها من الأصناف ما يعسر تعداده، ﴿وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾: فنوعهم إلى ذكر وأنثى، وفاوت بين خلقهم وخلقتهم وأوصافهم الظاهرة والباطنة ﴿وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾ ﴿٤٤﴾: من المخلوقات التي قد خلقت وغابت عن علمنا، والتي لم تخلق بعد؛ فسبحانه وتعالى أن يكون له شريك، أو ظهير، أو عوين، أو وزير، أو صاحبة، أو ولد، أو سمي، أو شبيه، أو مثل في صفات كماله ونعوت جلاله، أو يعجزه شيء يريد.

﴿٤٥﴾ سُبْحَنَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا: أي: الأصناف كلها ﴿مِمَّا تُثْبِتُ الْأَرْضُ﴾: فنوع فيها من الأصناف ما يعسر تعداده، ﴿وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾: فنوعهم إلى ذكر وأنثى، وفاوت بين خلقهم وخلقتهم وأوصافهم الظاهرة والباطنة ﴿وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾ ﴿٤٦﴾: من المخلوقات التي قد خلقت وغابت عن علمنا، والتي لم تخلق بعد؛ فسبحانه وتعالى أن يكون له شريك، أو ظهير، أو عوين، أو وزير، أو صاحبة، أو ولد، أو سمي، أو شبيه، أو مثل في صفات كماله ونعوت جلاله، أو يعجزه شيء يريد.

﴿٤٧﴾ وَأَيَّاهُمْ: أي: ﴿وَأَيَّاهُمْ﴾: على البعث والنشور والقيام بين يدي الله تعالى للجزاء على الأعمال هذه ﴿الْأَرْضَ الْمَيِّتَةَ﴾: أنزل الله عليها المطر فأحياها بعد موتها، ﴿وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ﴾ ﴿٤٨﴾: من جميع أصناف الزروع ومن جميع أصناف النبات التي تأكله أنواعهم. وكذلك نزيل هذه الظلمة التي عمتهم وشملتهم، فنطلع الشمس، فنضيء الأقطار، ويتنشر الخلق لمعايشهم ومصالحهم، ولهذا قال: ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا﴾: أي: دائماً تجري لمستقر لها، قدرها الله، لا تتعدها ولا تقصر عنه وليس لها تصرف في نفسها ولا استعصاء على قدرة الله تعالى. ﴿ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ﴾: الذي بعزته دبر هذه المخلوقات العظيمة بأكمل تدبير وأحسن نظام. ﴿الْعَلِيمِ﴾ ﴿٤٩﴾: الذي بعلمه جعلها مصالح لعباده ومنافع في دينهم ودنياهم. ﴿٥٠﴾ وَالْقَمَرَ قَدَرْنَاهُ مَنَازِلَ: ينزلها، كل ليلة ينزل منها واحدة، ﴿حَتَّى﴾: يصغر جداً فيعود ﴿كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيرِ﴾ ﴿٥١﴾: أي: عرجون النخلة الذي من قدمه نش وصغر حجمه وانحنى، ثم بعد ذلك ما زال يزيد شيئاً فشيئاً حتى يتم نوره، ويتسق ضياؤه.

﴿٥٢﴾ وَكُلٌّ مِنَ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ وَاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ قَدَرَهُ اللَّهُ تَقْدِيرًا لَا يَتَعَدَاهُ، وكل له سلطان ووقت، إذا وجد؛ عدم الآخر، ولهذا قال: ﴿لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ﴾؛ أي: في سلطانه الذي هو الليل، فلا يمكن أن توجد الشمس في الليل، ﴿وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ﴾: فيدخل عليه قبل انقضاء سلطانه. ﴿وَكُلٌّ﴾: من الشمس والقمر والنجوم ﴿فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ ﴿٥٣﴾: أي: يترددون على الدوام؛ فكل هذا دليل ظاهر وبرهان باهر على عظمة الخالق وعظمة أوصافه، خصوصاً وصف القدرة والحكمة والعلم في هذا الموضع.

﴿٥٤﴾ وَأَيَّاهُمْ: أي: ﴿وَأَيَّاهُمْ﴾: على البعث والنشور والقيام بين يدي الله تعالى للجزاء على الأعمال هذه ﴿الْأَرْضَ الْمَيِّتَةَ﴾: أنزل الله عليها المطر فأحياها بعد موتها، ﴿وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ﴾ ﴿٥٥﴾: من جميع أصناف الزروع ومن جميع أصناف النبات التي تأكله أنواعهم. ﴿٥٦﴾ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٥٧﴾ وَالْقَمَرَ قَدَرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيرِ ﴿٥٨﴾ لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٥٩﴾.

سورة يس

سورة الفلق والشمس

وَأَيُّهُم مَّنْ أَنَا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلِكِ الْمَشْحُونِ ﴿٤١﴾ وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِن مِّثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ ﴿٤٢﴾ وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيحَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنْقَذُونَ ﴿٤٣﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِنَّا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٤٤﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٥﴾ وَمَا تَأْتِيهِمْ مِّنْ آيَةٍ مِّنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤٦﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ انْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا الَّذِينَ كَفَرُوا بِالَّذِينَ آمَنُوا أَنْظِرْهُمْ مِّنْ لَّدُنْيَا اللَّهِ أَطْعَمَهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٤٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤٨﴾ مَا يَنْظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴿٥٠﴾ وَيُنْفِخُ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ الْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴿٥١﴾ قَالُوا ابْنُوا لَنَا مِن مِّثْلِنَا هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ ﴿٥٢﴾ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٥٣﴾ فَالْيَوْمَ لَا تَفْطَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٤﴾

٤٤٣

يَنْظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴿٥٠﴾

﴿٤٩﴾ أي: ودليل لهم وبرهان على أن الله وحده المعبود؛ لأنه المنعم بالنعم الصارف للنقم الذي من جملة نعمه ﴿٥٠﴾ أَنَا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ ﴿٥١﴾: قال كثير من المفسرين: المراد بذلك آبائهم.

﴿٤٢﴾ وَخَلَقْنَا لَهُمْ ﴿٤٣﴾ أي: للموجودين من بعدهم ﴿٤٤﴾ مِّن مِّثْلِهِ ﴿٤٥﴾ أي: من مثل ذلك الفلك؛ أي: جنسه ﴿٤٦﴾ يَرْكَبُونَ ﴿٤٧﴾ به. فذكر نعمته على الآباء بحملهم في السفن؛ لأن النعمة عليهم نعمة على الذرية.

وهذا الموضع من أشكال المواضع علي في التفسير؛ فإن ما ذكره كثير من المفسرين من أن المراد بالذرية الآباء مما لا يعهد في القرآن إطلاق الذرية على الآباء، بل فيه من الإيهام وإخراج الكلام عن موضوعه ما يباهه كلام رب العالمين وإرادته البيان والتوضيح لعباده. وثم احتمال أحسن من هذا، وهو أن المراد بالذرية الجنس، وأنهم هم بأنفسهم؛ لأنهم هم من ذرية بني آدم، ولكن ينقض هذا المعنى قوله: ﴿٤٢﴾ وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِّن مِّثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ ﴿٤٣﴾: إن أريد: وخلقنا من مثل ذلك الفلك؛ أي: لهؤلاء المخاطبين ما يركبون من أنواع الفلك، فيكون ذلك تكريراً للمعنى تأباه فصاحة القرآن. فإن أريد

بقوله: ﴿٤٢﴾ وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِّن مِّثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ ﴿٤٣﴾: الإبل التي هي سفن البر؛ استقام المعنى واتضح؛ إلا أنه يبقى أيضاً أن يكون الكلام فيه تشويش؛ فإنه لو أريد هذا المعنى؛ لقال: وآية لهم أنا حملناهم في الفلك المشحون وخلقنا لهم من مثله ما يركبون، فأما أن يقال في الأول: حملنا ذريتهم، وفي الثاني: حملناهم؛ فإنه لا يظهر المعنى إلا أن يقال: الضمير عائد إلى الذرية. والله أعلم بحقيقة الحال.

فلما وصلت في الكتابة إلى هذا الموضع؛ ظهر لي معنى ليس يبيعد من مراد الله تعالى، وذلك أن من عرف جلالة كتاب الله وبيانه التام من كل وجه للأمر الحاضرة والماضية والمستقبلية، وأنه يذكر من كل معنى أعلاه وأكمل ما يكون من أحواله، وكانت الفلك من آياته تعالى ونعمه على عباده من حين أنعم عليهم بتعلمها إلى يوم القيامة، ولم تزل موجودة في كل زمان إلى زمان المواجهين بالقرآن، فلما خاطبهم الله تعالى بالقرآن، وذكر حالة الفلك، وعلم تعالى أنه سيكون أعظم آيات الفلك في غير وقتهم وفي غير زمانهم حين يعلمهم صنعة الفلك البحرية الشراعية منها والنارية والجوية السابحة في الجو كالطيور ونحوها والمراكب البرية مما كانت الآية العظمى فيه لم توجد إلا في الذرية؛ نبه في الكتاب على أعلى نوع من أنواع آياته، فقال: ﴿٤١﴾ وَأَيُّهُم مَّنْ أَنَا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلِكِ الْمَشْحُونِ ﴿٤٢﴾: أي: المملوء ركباً وأمتعة، فحملهم الله تعالى، ونجاهم بالأسباب التي علمهم الله بها من الغرق.

﴿٤٣﴾ ولهذا نبههم على نعمته عليهم حيث أنجاهم من الغرق مع قدرته على ذلك، فقال: ﴿٤٤﴾ وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيحَ لَهُمْ ﴿٤٥﴾ أي: لا أحد يصرخ لهم فيعاونهم على الشدة ولا يزيل عنهم المشقة، ﴿٤٦﴾ وَلَا هُمْ يُنْقَذُونَ ﴿٤٧﴾: مما هم فيه.

﴿٤٨﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِنَّا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٤٩﴾: حيث لم نغرقهم لطفاً بهم وتمتعاً لهم إلى حين، لعلهم يرجعون، أو يستدركون ما قرط منهم.

﴿٤٥﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ أَوْ: أي: من أحوال البرزخ والقيامة وما في الدنيا من العقوبات؛ ﴿لَعَلَّكُمْ تَرْحَمُونَ﴾ ﴿٤٥﴾: أعرضوا عن ذلك، فلم يعرفوا به رأساً، ولو جاءتهم كل آية.

﴿٤٦﴾ ولهذا قال: ﴿وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ ﴿٤٦﴾: وفي إضافة الآيات إلى ربهم دليل على كمالها ووضوحها؛ لأنه ما أبين من آيات الله ولا أعظم بياناً، وإن من جملة تربية الله لعباده أن أوصل إليهم الآيات التي يستدلون بها على ما ينفعهم في دينهم ودنياهم.

﴿٤٧﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا رَزَقَكُمُ اللَّهُ أَوْ: أي: من الرزق الذي من به الله عليكم، ولو شاء لسلبكم إياه، ﴿قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾: معارضين للحق محتجين بالمشيئة: ﴿أَنطِمْ مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ إِنْ أُنْتَدَ﴾: أيها المؤمنون، ﴿إِلَّا فِي صَلَاتِ مُبِينٍ﴾: حيث تأمرونا بذلك، وهذا مما يدل على جهلهم العظيم أو تجاهلهم الوخيم؛ فإن المشيئة ليست حجة لعاصي أبداً؛ فإنه وإن كان ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن؛ فإنه تعالى مكن العباد وأعطاهم من القوة ما يقدر على فعل الأمر واجتناب النهي؛ فإذا تركوا ما أمروا به؛ كان ذلك اختياراً منهم لا جبراً لهم وقهراً.

﴿٤٨﴾، ﴿٤٩﴾ وَيَقُولُونَ: على وجه التكذيب والاستعجال: ﴿مَنْ هَذَا الَّذِي أَلْعَدَّ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ ﴿٤٨﴾. قال الله تعالى: لا يستبعدوا ذلك؛ فإنه عن قريب، ﴿مَا يَنْظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً﴾: وهي نفخة الصور. ﴿تَأْخُذُهُمْ﴾: أي: تصيبهم ﴿وَهُمْ يَخِصِّصُونَ﴾ ﴿٤٩﴾: أي: وهم لاهون عنها، لم تخطر على قلوبهم في حال خصومتهم وتشاجرهم بينهم، الذي لا يوجد في الغالب إلا وقت الغفلة.

﴿٥٠﴾ وإذا أخذتهم وقت غفلتهم؛ فإنهم لا ينظرون ولا يمهلون؛ ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً﴾: أي: لا قليلة ولا كثيرة، ﴿وَلَا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ﴾ ﴿٥٠﴾.

﴿٥١﴾ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ ﴿٥١﴾ قَالُوا يَوَيْلَنَا مِنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ ﴿٥٢﴾ إِنْ كُنَّا إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْتَا مُحْضَرُونَ ﴿٥٣﴾ فَأَلَيْكَمَ لَا تُظَلِّمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَلَا تَحْزَنُونَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٤﴾.

﴿٥١﴾ النفخة الأولى هي نفخة الفزع والموت. وهذه نفخة البعث والنشور؛ فإذا نفخ في الصور؛ خرجوا ﴿مِنَ الْأَجْدَاثِ﴾ والقبور ﴿يَنْسِلُونَ﴾ ﴿٥١﴾ إلى ربهم؛ أي: يسرعون للحضور بين يديه، لا يتمكنون من التأني والتأخر.

﴿٥٢﴾ وفي تلك الحال يحزن المكذبون ويظهرون الحسرة والندم ويقولون: ﴿يَوَيْلَنَا مِنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا﴾: أي: من رقدتنا في القبور؛ لأنه ورد في بعض الأحاديث أن لأهل القبور رقدة قبيل النفخ في الصور. فيجابون ويقال لهم: ﴿هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ﴾ ﴿٥٢﴾؛ أي: هذا الذي وعدكم الله به ووعدتكم به الرسل، فظهر صدقهم رأي عين. ولا تحسب أن ذكر الرحمن في هذا الموضع لمجرد الخبر عن وعده، وإنما ذلك للإخبار بأنه في ذلك اليوم العظيم سيرون من رحمته ما لا يخطر على الظنون ولا حسب به الحاسبون؛ كقوله: ﴿الْمَلَكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ﴾ [الفرقان: ٢٦]، ﴿وَحَشَعَتِ الْأَمْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ﴾ [طه: ١٠٨]، ونحو ذلك مما يذكر اسمه الرحمن في هذا.

﴿٥٣﴾ إِنْ كُنْتُمْ مِنَ الْبَاطِلَةِ مِنَ الْقُبُورِ ﴿إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً﴾: ينفخ فيها إسرافيل في الصور، فتحيا الأجساد؛ ﴿فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْتَا مُحْضَرُونَ﴾ ﴿٥٣﴾: الأولون والآخرون، والإنس والجن؛ ليحاسبوا على أعمالهم.

﴿٥٤﴾ فَأَلَيْكَمَ لَا تُظَلِّمُ نَفْسٌ شَيْئًا: لا ينقص من حسناتها ولا يزداد في سيئاتها. ﴿وَلَا تَحْزَنُونَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾: من خير أو شر؛ فمن وجد خيراً؛ فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك؛ فلا يلومن إلا نفسه.

﴿٥٥﴾ إِنْ أَصْحَبَ الْجَنَّةَ الْيَوْمَ فِي شُغْلٍ فَتُكْهَنُونَ ﴿٥٥﴾ هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلِّ عَلَى الْأَرْزَاقِ مُتْكِنُونَ ﴿٥٦﴾ هُمْ فِيهَا فَكَّهَةٌ وَهُمْ مَا يَدْعُونَ ﴿٥٧﴾ سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبِّ رَحِيمٍ ﴿٥٨﴾.

﴿٥٥﴾ لما ذكر تعالى أن كل أحد لا يجزى إلا ما عمله؛ ذكر جزاء الفريقين، فبدأ بجزاء أهل الجنة، وأخبر أنهم في ذلك اليوم ﴿فِي شُغْلٍ فَتُكْهَنُونَ﴾ ﴿٥٥﴾: أي: في شغل مفكه للنفس مُلْد لها من كل ما تهواه النفوس وتلذه العيون ويتمناه الممتنون، ومن ذلك افتضاض العذارى الجميلات؛ كما قال: ﴿هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ﴾: من الحور العين اللاتي قد جمعن حسن الوجوه والأبدان وحسن الأخلاق ﴿فِي ظِلِّ عَلَى

سورة يس

سورة يس

إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغْلٍ فَكَّهُونَ ﴿٥٥﴾ ثُمَّ وَأَوَّجَهُمْ
فِي ظُلُلٍ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَكَبِّرُونَ ﴿٥٦﴾ لَّهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَلَهُمْ
مَائِدَعُونَ ﴿٥٧﴾ سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبِّ رَحِيمٍ ﴿٥٨﴾ وَأَمْتَرُوا الْيَوْمَ
أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ ﴿٥٩﴾ أَلَمْ نَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَبْنَىءَ آدَمَ أَنْ لَا
تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنْ أَعْبُدُونِي
هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا
أَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ ﴿٦٢﴾ هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ
﴿٦٣﴾ أَصْلَوْهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٦٤﴾ الْيَوْمَ نَخْتِمُ
عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَنَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا
يَكْسِبُونَ ﴿٦٥﴾ وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَى أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا
الصِّرَاطَ فَأَنْى يُبْصِرُونَ ﴿٦٦﴾ وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ
عَلَى مَكَانَتِهِمْ فَمَا اسْتَطَعُوا مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ ﴿٦٧﴾
وَمَنْ نَعَزْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٨﴾
وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ
﴿٦٩﴾ لِيُنْذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٧٠﴾

تُوعَدُونَ ﴿٦٣﴾ أَصْلَوْهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٦٤﴾ الْيَوْمَ نَخْتِمُ
عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَنَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا
كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٦٥﴾ وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَى أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا
الصِّرَاطَ فَأَنْى يُبْصِرُونَ ﴿٦٦﴾ وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ
عَلَى مَكَانَتِهِمْ فَمَا اسْتَطَعُوا مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ ﴿٦٧﴾

﴿٥٩﴾ لما ذكر تعالى جزاء المتقين؛ ذكر جزاء المجرمين، وأنهم يقال لهم يوم القيامة: امتازوا ﴿٥٩﴾ الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ ﴿٥٩﴾؛ أي: تميزوا عن المؤمنين، وكونوا على حدة؛ ليوخهم ويقرهم على رءوس الأشهاد قبل أن يدخلهم النار، فيقول لهم: ﴿٦٠﴾ أَلَمْ نَعْهَدْ إِلَيْكُمْ ﴿٦٠﴾؛ أي: أمركم وأوصيكم على السنة رسلي وأقول لكم: ﴿٦٠﴾ يَبْنَىءَ آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ ﴿٦٠﴾؛ أي: لا تطيعوه؟ وهذا التوبيخ يدخل فيه التوبيخ عن جميع أنواع الكفر والمعاصي؛ لأنها كلها طاعة للشيطان وعبادة له، ﴿٦٠﴾ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿٦٠﴾؛ فحذرتكم منه غاية التحذير، وأنذرتكم عن طاعته، وأخبرتكم بما يدعوكم إليه.

﴿٦١﴾ وأمرتكم: أن تعبدوني بامثال أوامري وترك زواجري. ﴿٦١﴾ هَذَا ﴿٦١﴾؛ أي: عبادتي وطاعتي ومعصية الشيطان ﴿٦١﴾ صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾؛ فعلوم الصراط المستقيم وأعماله ترجع إلى هذين الأمرين؛ أي: فلم تحفظوا عهدي ولم تعملوا بوصيتي، فواليتم عدوكم.

﴿٦٢﴾ فَ﴿٦٢﴾ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا ﴿٦٢﴾؛ أي: خلقًا كثيرًا. ﴿٦٢﴾ أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ ﴿٦٢﴾؛ أي: أفلا كان لكم عقل يأمركم بموالاة ربكم ووليكم الحق، ويزجركم عن اتخاذ أعدى الأعداء لكم وليًا؟ فلو كان لكم عقل صحيح؛ لما فعلتم ذلك.

﴿٦٣﴾ فإذ أطمعتم الشيطان، وعاديتكم الرحمن، وكذبتكم بلفائه، ووردتم القيامة دار الجزاء، وحق عليكم القول بالعذاب، ف﴿٦٣﴾ هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٦٣﴾؛ وتكذبون بها؛ فانظروا إليها عيانًا! فهناك تترجع منهم القلوب، وتزوغ الأبصار، ويحصل الفزع الأكبر.

الْأَرَائِكِ ﴿٥٥﴾؛ أي: السرر المزينة باللباس المزخرف الحسن ﴿٥٥﴾ مُتَكَبِّرُونَ ﴿٥٥﴾؛ أي: عليها اتكاء دالًّا على كمال الراحة والطمأنينة واللذة.

﴿٥٦﴾ لَّهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ ﴿٥٦﴾؛ كثيرة من جميع أنواع الثمار اللذيذة؛ من عنب، وتين، ورمان، وغيرها، ﴿٥٦﴾ وَلَهُمْ مَائِدَعُونَ ﴿٥٦﴾؛ أي: يطلبون؛ فمهما طلبوه وتمنوه؛ أدركوه.

﴿٥٨﴾ وَلَهُمْ أَيْضًا ﴿٥٨﴾ سَلَامٌ ﴿٥٨﴾ حاصل لهم ﴿٥٨﴾ مِنْ رَبِّ رَحِيمٍ ﴿٥٨﴾؛ ففي هذا كلام الرب تعالى لأهل الجنة وسلامه عليهم، وأكده بقوله: ﴿٥٨﴾ قَوْلًا ﴿٥٨﴾؛ وإذا سلم عليهم الرب الرحيم؛ حصلت لهم السلامة التامة من جميع الوجوه، وحصلت لهم التحية التي لا تحية أعلى منها ولا نعيم مثلها؛ فما ظنك بتحية ملك الملوك، الرب العظيم، الرؤوف الرحيم، لأهل دار كرامته، الذين أحل عليهم رضوانه؛ فلا يسخط عليهم أبدًا؛ فلو لا أن الله تعالى قدر ألا يموتوا أو تزول قلوبهم عن أماكنها من الفرح والبهجة والسرور؛ لحصل ذلك، فرجو ربنا ألا يحرمنا ذلك النعيم، وأن يمتعنا بالنظر إلى وجهه الكريم.

﴿٥٩﴾ وَأَمْتَرُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ ﴿٥٩﴾ أَلَمْ نَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَبْنَىءَ آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿٥٩﴾ وَأَنْ أَعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿٥٩﴾ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ ﴿٥٩﴾ هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٥٩﴾ الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَنَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٥٩﴾ وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَى أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ فَأَنْى يُبْصِرُونَ ﴿٥٩﴾ وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَى مَكَانَتِهِمْ فَمَا اسْتَطَعُوا مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ ﴿٥٩﴾ وَمَنْ نَعَزْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٥٩﴾ وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ ﴿٥٩﴾ لِيُنْذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٥٩﴾

﴿٦٤﴾ ينزه تعالى نبيه محمداً ﷺ عما رماه به المشركون من أنه شاعر، وأن الذي جاء به شعر، فقال: ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ﴾: أن يكون شاعراً! أي: هذا من جنس المحال أن يكون شاعراً؛ لأنه رشيد مهتد، والشعراء غاؤون، يتبعهم الغاؤون، ولأن الله تعالى حسم جميع الشبه التي تتعلق بها الضالون عن رسوله، فحسم أن يكون يكتب أو يقرأ، وأخبر أنه ما علمه الشعر وما ينبغي له. ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ﴾ ﴿٦٥﴾؛ أي: ما هذا الذي جاء به إلا ذكر يتذكر به أولو الأبواب جميع المطالب الدينية؛ فهو مشتمل عليها أتم اشتمال، وهو يذكر العقول، ما ركز الله في فطرها من الأمر بكل حسن، والنهي عن كل قبيح. ﴿وَقُرْآنٌ مُبِينٌ﴾ ﴿٦٦﴾؛ أي: مبين لما يطلب بيانه، ولهذا حذف المعمول؛ ليدل على أنه مبين لجميع الحق بأدلته التفصيلية والإجمالية والباطل وأدلة بطلانه. أنزله الله كذلك على رسوله.

﴿٦٧﴾ ﴿يُنذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا﴾؛ أي: حي القلب واعيه؛ فهو الذي يزكو على هذا القرآن، وهو الذي يزداد من العلم منه والعمل، ويكون القرآن لقلبه بمنزلة المطر للأرض الطيبة الزاكية، ﴿وَيَحْيِي الْقَوْلَ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ ﴿٦٨﴾؛ لأنهم قامت عليهم به حجة الله وانقطع احتجاجهم، فلم يبق لهم أدنى عذر وشبهة يدلون بها.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِيئُنَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ﴾ ﴿٦٩﴾ وذلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَيَنْهَارُوكُوهُمْ وَمِنْهَا يُأْكُلُونَ ﴿٧٠﴾ وَهُمْ فِيهَا مَتَّعُونَ وَشَارِبُونَ أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ ﴿٧١﴾.

﴿٧١﴾ - ﴿٧٢﴾ يأمر تعالى العباد بالنظر إلى ما سخر لهم من الأنعام وذلَّلها وجعلهم مالكيين لها مطاوعة لهم في كل أمر يريدونه منها، وأنه جعل لهم فيها منافع كثيرة من حملهم وحمل أثقالهم ومحاملهم وأمتعته من محل إلى محل، ومن أكلهم منها، وفيها دفء، ومن أوبارها وأصوافها وأشعارها أئاثاً ومتاعاً إلى حين، وفيها زينة وجمال وغير ذلك من المنافع المشاهدة منها. ﴿أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ ﴿٧٣﴾ الله تعالى الذي أنعم بهذه النعم، ويخلصون له العبادة، ولا يتمتعون بها تمتعاً خالياً من العبرة والفكرة؟! ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَعَلَّهُمْ يُبْصِرُونَ﴾ ﴿٧٤﴾ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُنْدٌ مُنْخَضَرُونَ﴾ ﴿٧٥﴾.

﴿٧٤﴾ ثم يكمل ذلك بأن يؤمر بهم إلى النار، ويقال لهم: ﴿أَصْلَوْهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ ﴿٧٥﴾؛ أي: ادخلوها على وجه تصلاكم، ويحيط بكم حرها، ويبلغ منكم كل مبلغ، بسبب كفركم بآيات الله، وتكذيبكم لرسل الله.

﴿٧٦﴾ قال تعالى في بيان وصفهم الفظيع في دار السقاء: ﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ﴾: بأن نجعلهم خرمًا فلا يتكلمون، فلا يقدرون على إنكار ما عملوه من الكفر والتكذيب. ﴿وَنُكَلِّمُنَا أَيْدِيَهُمْ وَنَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ ﴿٧٧﴾؛ أي: تشهد عليهم أعضاؤهم بما عملوه، وينطقها الذي أنطق كل شيء.

﴿٧٨﴾ ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَى أَعْيُنِهِمْ﴾: بأن نذهب أبصارهم كما طمسنا على نطقهم؛ ﴿فَأَسْتَبْقُوا الصِّرَاطَ﴾؛ أي: فبادروا إليه؛ لأنه الطريق إلى الوصول إلى الجنة. ﴿فَأَنْزَلْنَاهُمْ فِي بُيُوتِهِمْ﴾ ﴿٧٩﴾: وقد طمست أبصارهم؟! ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَى مَكَائَتِهِمْ﴾؛ أي: لأذهبنا حركتهم، ﴿فَمَا اسْتَطَاعُوا مُضِيًّا﴾: إلى الأمام، ﴿وَلَا يَرْجِعُونَ﴾ ﴿٨٠﴾: إلى ورائهم، ليعبدوا عن النار.

والمعنى: أن هؤلاء الكفار حقت عليهم كلمة العذاب، ولم يكن بد من عقابهم، وفي ذلك الموطن ما تم إلا النار قد برزت، وليس لأحد نجاة إلا بالعبور على الصراط، وهذا لا يستطيعه إلا أهل الإيمان الذين يمشون في نورهم، وأما هؤلاء فليس لهم عند الله عهد في النجاة من النار؛ فإن شاء طمس أعينهم، وأبقى حركتهم فلم يهتدوا إلى الصراط لو استبقوا إليه وبادروه، وإن شاء أذهب حراكهم فلم يستطيعوا التقدم ولا التأخر، المقصود أنهم لا يعبرونه، فلا تحصل لهم النجاة.

﴿وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ﴾ ﴿٨١﴾.

﴿٨١﴾ يقول تعالى: ﴿وَمَنْ نُعَمِّرْهُ﴾: من بني آدم ﴿نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ﴾؛ أي: يعود إلى الحالة التي ابتدأ منها؛ حالة الضعف؛ ضعف العقل وضعف القوة. ﴿أَفَلَا يَعْقِلُونَ﴾ ﴿٨٢﴾: أن الأدمي ناقص من كل وجه، فيتداركوا قوتهم وعقولهم، فيستعملوها في طاعة ربهم؟

﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ﴾: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ﴾ ﴿٨٣﴾ يُنذِرُ مَنْ كَانَ حَيًّا وَيَحْيِي الْقَوْلَ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ ﴿٨٤﴾.

﴿٧٤﴾، ﴿٧٥﴾ هذا بيان لبطلان آلهة المشركين التي اتخذوها مع الله تعالى ورجوا نصرها وشفعها؛ فإنها في غاية العجز. ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ﴾: ولا أنفسهم ينصرون: فإذا كانوا لا يستطيعون نصرهم؛ فكيف ينصرونهم؟! والنصر له شرطان: الاستطاعة والقدرة؛ فإذا استطاع يبقى: هل يريد نصرة من عبده أم لا؟ فنفي الاستطاعة ينفي الأمرين كليهما. ﴿وَهُمْ لَمْ جُنْدٌ تُحْضِرُونَ﴾ ﴿٧٥﴾؛ أي: محضرون هم وهم في العذاب، ومتبرئ بعضهم من بعض، أفلا تبرءوا في الدنيا من عبادة هؤلاء وأخلصوا العبادة للذي بيده الملك والنفع والضرر، والعطاء والمنع، وهو الولي النصير؟

﴿فَلَا يَحْزُنُكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُبْرُونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ ﴿٧٦﴾. أي: فلا يحزنك يا أيها الرسول قول المكذبين، والمراد بالقول ما دل عليه السياق، كل قول يقدحون فيه في الرسول أو فيما جاء به؛ أي: فلا تشغل قلبك بالحزن عليهم. ﴿إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُبْرُونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ ﴿٧٦﴾؛ فنجازيهم على حسب علمنا بهم، وإلا؛ فقولهم لا يضرنا شيئاً.

﴿أَوَلَمْ يَرِ الْإِنْسَانُ إِنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ﴾ ﴿٧٧﴾ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَبَسَى خَلْقَهُ. قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقَدُونَ ﴿٨٠﴾ أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَدِيرٍ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ فَسُبْحَنَ الَّذِي يَبْدِئُ مَلَكُوتَهُ كُلِّ نَفْسٍ وَلْيَرْجِعُونَ ﴿٨٣﴾

هذه الآيات الكريمات فيها ذكر شبهة منكري البعث، والجواب عنها بأتم جواب وأحسنه وأوضحه.

﴿٧٧﴾ فقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرِ الْإِنْسَانُ﴾: المنكر للبعث أو الشاك فيه أمراً يفيد اليقين التام بوقوعه، وهو ابتداء خلقه من نُطْفَةٍ، ثم تنقله في الأطوار شيئاً فشيئاً، حتى كبر وشب وتم عقله واستتب؛ ﴿فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ﴾ ﴿٧٧﴾: بعد أن كان ابتداء خلقه من نطفة؛ فلينظر التفاوت بين هاتين الحالتين، وليعلم أن الذي أنشأه من العدم قادر على أن يعيده بعدما تفرق وتمزق من باب أولى.

﴿٧٨﴾ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا: لا ينبغي لأحد أن يضره، وهو قياس قدرة الخالق بقدرة المخلوق، وأن الأمر المستبعد على قدرة المخلوق مستبعد على قدرة الخالق، فسّر هذا المثل بقوله: ﴿قَالَ﴾: ذلك الإنسان: مَنْ يُحْيِي الْعِظَمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾؛ أي: هل أحد يحييها؟ استفهام إنكار؛ أي: لا أحد يحييها بعدما بليت وتلاشت. هذا وجه الشبهة والمثل، وهو أن هذا أمر في غاية البعد على ما يعهد من قدرة البشر، وهذا القول الذي صدر من هذا الإنسان غفلة منه ونسيان لابتداء خلقه؛ فلو فطن لخلقها بعد أن لم يكن شيئاً مذكوراً، فوجد عياناً؛ لم يضره هذا المثل.

﴿٧٩﴾ فأجاب تعالى عن هذا الاستبعاد بجواب شافٍ كافٍ، فقال: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾: وهذا بمجرد تصورهِ يعلم به علماً يقيناً لا شبهة فيه أن الذي أنشأها أول مرة قادر على الإعادة ثاني مرة، وهو أهون على القدرة إذا تصوره المتصور. ﴿وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ ﴿٧٩﴾: هذا أيضاً دليل ثانٍ من صفات الله تعالى، وهو أن علمه تعالى محيط بجميع مخلوقاته في

سورة يس

أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِيهِمْ أَنْعَمًا فَهُمْ لَهَا مَلَائِكُونَ ﴿٧٤﴾ وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٥﴾ وَهُمْ فِيهَا مَتَّعٌ وَمَسَارِبٌ أَفْلا يَشْكُرُونَ ﴿٧٦﴾ وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ ﴿٧٧﴾ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَمْ جُنْدٌ تُحْضِرُونَ ﴿٧٥﴾ فَلَا يَحْزُنُكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُبْرُونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٦﴾ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ ﴿٧٧﴾ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَبَسَى خَلْقَهُ. قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقَدُونَ ﴿٨٠﴾ أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَدِيرٍ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ فَسُبْحَنَ الَّذِي يَبْدِئُ مَلَكُوتَهُ كُلِّ نَفْسٍ وَلْيَرْجِعُونَ ﴿٨٣﴾

سورة الأحقاف

٤٤٥

تفسير سورة الصافات

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالصَّفَّاتِ صَفًّا﴾ ١ ﴿فَالرَّجَرَتِ زَجْرًا﴾ ٢ ﴿فَالْتَلَيْتِ دُكْرًا﴾ ٣ ﴿إِنَّ إِلَهَكُمْ لَوَاحِدٌ﴾ ٤ ﴿رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشْرِقِ﴾ ٥ ﴿إِنَّا زَيْنَا السَّمَاءِ الدُّنْيَا بِزِينَةِ الْكَوَاكِبِ﴾ ٦ ﴿وَحِفْظًا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَارِدٍ﴾ ٧ ﴿لَا يَسْمَعُونَ إِلَى آلِمًا الْأَعْلَى وَيُقْذَفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ﴾ ٨ ﴿دُحُورًا وَهُمْ عَذَابٌ وَأَصِيبٌ﴾ ٩ ﴿إِلَّا مَنْ خِطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾ ١٠ ﴿فَاسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ مَنْ خَلَقْنَا إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ لَازِبٍ﴾ ١١ ﴿

١ - ﴿١﴾ هذا قسم منه تعالى بالملائكة الكرام في حال عباداتها وتبديرها ما تدبره بإذن ربها على ألوهيته تعالى وربوبيته، فقال: ﴿وَالصَّفَّاتِ صَفًّا﴾ ١؛ أي: صفوفًا في خدمة ربهم، وهم الملائكة، ﴿فَالرَّجَرَتِ زَجْرًا﴾ ٢؛ وهم الملائكة يزجرون السحاب وغيره بأمر الله، ﴿فَالْتَلَيْتِ دُكْرًا﴾ ٣؛ وهم الملائكة الذين يتلون كلام الله تعالى، فلما كانوا متألّهين لربهم ومتعبدين في خدمته ولا يعصونه طرفة عين؛ أقسم بهم على ألوهيته، فقال: ﴿إِنَّ إِلَهَكُمْ لَوَاحِدٌ﴾ ٤؛ ليس له شريك في الإلهية؛ فأخلصوا له الحب والخوف والرجاء وسائر أنواع العبادة.

٥ ﴿٥﴾ ﴿رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشْرِقِ﴾ ٥؛ أي: هو الخالق لهذه المخلوقات، الرازق لها، المدبر لها؛ فكما أنه لا شريك له في ربوبيته إياها؛ فكذلك لا شريك له في ألوهيته. وكثيرًا ما يقرر تعالى توحيد الإلهية بتوحيد الربوبية؛ لأنه دال عليه. وقد أقر به أيضًا المشركون في العبادة، فيلزمهم بما أقرؤا به على ما أنكروه. وخص الله المشارق بالذكر؛ لدالاتها على المغارب، أو لأنها مشارق النجوم التي سيذكرها. فلهذا قال:

٦ - ﴿٦﴾ ﴿إِنَّا زَيْنَا السَّمَاءِ الدُّنْيَا بِزِينَةِ الْكَوَاكِبِ﴾ ٦ ﴿وَحِفْظًا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَارِدٍ﴾ ٧ ﴿لَا يَسْمَعُونَ إِلَى آلِمًا الْأَعْلَى﴾ ٨ ﴿ذَكَرَ اللَّهُ فِي الْكَوَاكِبِ هَاتَيْنِ الْفَائِدَتَيْنِ الْعَظِيمَتَيْنِ: إِحْدَاهُمَا: كَوْنُهَا زِينَةٌ لِلسَّمَاءِ؛ إِذْ لَوْلَاهَا؛ لَكَانَتِ السَّمَاءُ جَرَمًا مَظْلَمًا لَا ضَوْءَ فِيهِ، وَلَكِنْ زِينَتُهَا بِهَا؛ لِتَسْتِيرَ أَرْجَاؤُهَا وَتَحْسَنَ صُورَتَهَا،

جميع أحوالها في جميع الأوقات، ويعلم ما تنقص الأرض من أجساد الأموات وما يبقى، ويعلم الغيب والشهادة؛ فإذا أقر العبد بهذا العلم العظيم؛ علم أنه أعظم وأجل من إحياء الله الموتى من قبورهم.

٩ ﴿٩﴾ ثم ذكر دليلًا ثالثًا، فقال: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقَدُونَ﴾ ٩؛ فإذا أخرج النار اليابسة من الشجر الأخضر الذي هو في غاية الرطوبة مع تضادهما وشدة تخالفهما؛ فأخرجه الموتى من قبورهم مثل ذلك.

١٠ ﴿١٠﴾ ثم ذكر دليلًا رابعًا، فقال: ﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ: عَلَى سَعَتِهِمَا وَعِظْمُهُمَا يُقَدِّرُ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ؟﴾ ١٠؛ أي: أن يعيدهم بأعيانهم ﴿بَكَلٍّ﴾: قادر على ذلك؛ فإن خلق السماوات والأرض أكبر من خلق الناس. ﴿وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ﴾ ١١؛ وهذا دليل خامس؛ فإنه تعالى الخالق الذي جميع المخلوقات؛ متقدمها ومتأخرها، صغيرها وكبيرها؛ كلها أثر من آثار خلقه وقدرته، وأنه لا يستعصي عليه مخلوق أراد خلقه؛ فإعادته للأموات فرد من أفراد آثار خلقه.

١٢ ﴿١٢﴾ ولهذا قال: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا: نَكْرَةٌ فِي سِيَاقِ الشَّرْطِ فَتَعْمُ كُلِّ شَيْءٍ، ﴿أَنْ يَقُولَ لَهُ، كُنْ فَيَكُونُ﴾ ١٢؛ أي: في الحال من غير تمناع.

١٣ ﴿١٣﴾ ﴿فَسُبْحَنَ الَّذِي يَدْرِي مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ ١٣؛ وهذا دليل سادس؛ فإنه تعالى هو الملك المالك لكل شيء، الذي جميع ما سكن في العالم العلوي والسفلي ملك له وعبيد مسخرون مدبرون، يتصرف فيهم بأقداره الحكيمية وأحكامه الشرعية وأحكامه الجزائية؛ فإعادته إياهم بعد موتهم لينفذ فيهم حكم الجزاء من تمام ملكه، ولهذا قال: ﴿وَالَّذِي تُرْجَعُونَ﴾ ١٤؛ من غير امتراء ولا شك؛ لتواتر البراهين القاطعة والأدلة الساطعة على ذلك. فتبارك الذي جعل في كلامه الهدى والشفاء والنور.

تم تفسير سورة يس.

فلله تعالى الحمد كما ينبغي لجلاله، وله الثناء كما يليق بكماله، وله المجد كما تستدعيه عظمته وكبرياؤه، وصلى الله على محمد وسلم.

سورة الصافات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالصَّانِدَتِ صَفًا ۝ فَالزَّجْرَتِ زَجْرًا ۝ فَالتَّالِيَتِ ذِكْرًا ۝
 إِنَّ إِلَهَهُمْ لَوَاحِدٌ ۝ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ
 الْمَشْرِقِ ۝ إِنَّا رَتْنَا السَّمَاءَ الدُّنْيَا نِيرَانًا لِّلْكَوَاكِبِ ۝ وَحِفْظًا
 مِن كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ ۝ لَا يَسْمَعُونَ إِلَى آلِهَا الْاَعْلَىٰ وَيَقْدِرُونَ
 مِن كُلِّ جَانِبٍ ۝ دُخُولًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ۝ إِلَّا مَن خُفِيَ
 الْخُطْفَةُ فَاتَّبَعَهُ ۝ شَهَابٌ ثَاقِبٌ ۝ فَاسْتَفْنِيَهُمْ أَهْمُ أَشَدَّ خَلْقًا
 أَمْ مَن خَلَقْنَا إِنَّا خَلَقْنَاهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ ۝ بَلْ عَجِبْتَ
 وَيَسْخَرُونَ ۝ وَإِنَّا ذُكِّرُوا لَا يَذْكُرُونَ ۝ وَإِنَّا رَأَوْنَاهُ يُنْسَخِرُونَ
 ۝ وَقَالُوا إِن هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّؤْمِنٌ ۝ أَوَدَا مِنَّا وَكَأَنَّا رَاكِبٌ وَعِظْلَانَا
 أَوْثَانًا لِّبَعُولَتَيْنِ ۝ أَوَدَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ ۝ قُلْ نَعَمْ وَأَنْتُمْ دَخِرُونَ
 ۝ فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنْظُرُونَ ۝ وَقَالُوا بَلِنَا هَٰذَا
 يَوْمَ الدِّينِ ۝ هَٰذَا يَوْمَ الْفَصْلِ الَّذِي كُتِبَ بِهِ تَكْذِيبُكَ ۝
 ۝ أَخْسَرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ ۝ مِن دُونِ
 اللَّهِ فَأَهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْحَنِيمِ ۝ وَفَقُّوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ ۝

ويهتدى بها في ظلمات البر والبحر، ويحصل فيها من
 المصالح ما يحصل. والثانية: حراسة السماء عن كل شيطان
 مارد يصل بتمرده إلى استماع الملائ الأعلى، وهم الملائكة؛
 إذا استمعت قذفتها بالشهب الثواقب ﴿مِن كُلِّ جَانِبٍ﴾ (٨)؛
 طردًا لهم وإبعادًا عن استماع ما يقول الملائ الأعلى. ﴿وَهُمْ
 عَذَابٌ وَاصِبٌ﴾ (٩)؛ أي: دائم معد لهم لتمردهم عن طاعة
 ربهم.

﴿١٠﴾ ولولا أنه تعالى استثنى؛ لكان ذلك دليلًا على أنهم
 لا يستمعون شيئًا أصلاً، ولكن قال: ﴿إِلَّا مَن خُفِيَ الْخُطْفَةُ﴾؛
 أي: إلا من تلقف من الشياطين المردة الكلمة الواحدة على
 وجه الخفية والسرقة، ﴿فَاتَّبَعَهُ شَهَابٌ ثَاقِبٌ﴾ (١١)؛ تارة يدركه
 قبل أن يوصلها إلى أوليائه فينقطع خبر السماء، وتارة يخبر بها
 قبل أن يدركه الشهاب، فيكذبون معها مائة كذبة، يروجونها
 بسبب الكلمة التي سمعت من السماء.

﴿١٢﴾ ولما بين هذه المخلوقات العظيمة؛ قال:
 ﴿فَاسْتَفْنِيَهُمْ﴾؛ أي: اسأل منكري خلقهم بعد موتهم:
 ﴿أَهْمُ أَشَدَّ خَلْقًا﴾؛ أي: لإيجادهم بعد موتهم أشد خلقًا
 وأشق. ﴿أَمْ مَن خَلَقْنَا﴾؛ من هذه المخلوقات؛ فلا بد أن يُقرروا
 أن خلق السماوات والأرض أكبر من خلق الناس، فيلزهم إذا
 الإقرار بالبعث، بل لورجعوا إلى أنفسهم وفكروا فيها؛ لعلموا
 أن ابتداء خلقهم من طين لازب أصعب عند الفكر من إنشائهم بعد موتهم، ولهذا قال: ﴿إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِّن طِينٍ لَّازِبٍ﴾ (١٣)؛
 أي: قوي شديد؛ كقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ مِّن حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ (١٤) [الحجر: ٢٦].

﴿بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ﴾ (١٥) وَإِنَّا ذُكِّرُوا لَا يَذْكُرُونَ ﴿١٦﴾ وَإِنَّا رَأَوْنَاهُ يُنْسَخِرُونَ ﴿١٧﴾ وَقَالُوا إِن هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّؤْمِنٌ ﴿١٨﴾ أَوَدَا مِنَّا وَكَأَنَّا رَاكِبٌ وَعِظْلَانَا ﴿١٩﴾ أَوْثَانًا لِّبَعُولَتَيْنِ ﴿٢٠﴾ أَوَدَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ ﴿٢١﴾ قُلْ نَعَمْ وَأَنْتُمْ دَخِرُونَ ﴿٢٢﴾ فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنْظُرُونَ ﴿٢٣﴾ وَقَالُوا بَلِنَا هَٰذَا يَوْمَ الدِّينِ ﴿٢٤﴾ هَٰذَا يَوْمَ الْفَصْلِ الَّذِي كُتِبَ بِهِ تَكْذِيبُكَ ﴿٢٥﴾

﴿بَلْ عَجِبْتَ﴾ (٢٦) أيها الرسول أو أيها الإنسان من تكذيب من كذب بالبعث بعد أن أريتهم من الآيات العظيمة
 والأدلة المستقيمة، وهو حقيقة محل عجب واستغراب؛ لأنه مما لا يقبل الإنكار. وأعجب من إنكارهم وأبلغ منه أنهم
 يسخرون ممن جاء بالخبر عن البعث، فلم يكفهم مجرد الإنكار، حتى زادوا السخرية بالقول الحق.

﴿٢٧﴾ ومن العجب أيضًا أنهم إذا ﴿ذُكِّرُوا﴾؛ ما يعرفون في فطرتهم وعقولهم وفطنوا له ولفت نظرهم إليه ﴿لَا يَذْكُرُونَ﴾ (٢٨)؛
 ذلك؛ فإن كان جهلاً؛ فهو من أدل الدلائل على شدة بلادتهم العظيمة؛ حيث ذكروا ما هو مستقر في الفطر معلوم بالعقل لا
 يقبل الإشكال، وإن كان تجاهلاً وعناداً؛ فهو أعجب وأغرب.

﴿٢٩﴾ ومن العجب أيضًا أنهم إذا أقيمت عليهم الأدلة، وذكروا الآيات التي يخضع لها فحول الرجال وألباب الألباء،
 يسخرون منها ويعجبون.

﴿٣٠﴾ ومن العجب أيضًا قولهم للحق لما جاءهم: ﴿إِن هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّؤْمِنٌ﴾ (٣١)؛ فجعلوا أعلى الأشياء وأجلها - وهو
 الحق - في رتبة أخس الأشياء وأحقرها.

﴿١٦﴾ ومن العجب أيضًا قياسهم قدرة رب الأرض
والسماوات على قدرة آدمي الناقص من جميع الوجوه،
فقالوا استبعادًا وإنكارًا: ﴿أَمَازَنَا وَكُنَّا نُرَآكَ وَعَظَمْنَا أَمَنَا
لَمُبْعُوثُونَ﴾ ﴿١٧﴾ أَوْ أَبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ ﴿١٧﴾.

﴿١٨﴾ ولما كان هذا منتهى ما عندهم وغاية ما لديهم؛ أمر
الله رسوله أن يجيبهم بجواب مشتمل على ترهيبهم، فقال:
﴿قُلْ نَعَمْ﴾: ستبعثون أئمت وأباؤكم الأولون، ﴿وَأَنْتُمْ
ذَكْرُونَ﴾: ذليلون صاغرون لا تمتنعون، ولا تستعصون
على قدرة الله.

﴿١٩﴾ فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ﴾: ينفخ إسرافيل فيها في الصور،
﴿فَإِذَا هُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ قُبُورِهِمْ﴾: كما ابتدئ
خلقهم، بعثوا بجميع أجزائهم حفاة عراة غرلاً.

﴿٢٠﴾ وفي تلك الحال يظهرون الندم والخزي والخسار،
ويدعون بالويل والشبور، ﴿وَقَالُوا يَوَيْلًا هَذَا يَوْمُ الَّذِينَ﴾: ﴿٢١﴾
فقد أقروا بما كانوا في الدنيا به يهزون!

﴿٢٢﴾ فيقال لهم: ﴿هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ﴾: بين العباد فيما بينهم
وبين ربهم من الحقوق وفيما بينهم وبين غيرهم من الخلق.

﴿أَخْشَرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ﴾ ﴿٢٣﴾ مِنْ دُونِ
اللَّهِ فَأَهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ ﴿٢٤﴾ وَقَفَّوهُمْ إِنْهُمْ مَسْتَوْلُونَ ﴿٢٥﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنصَحُونَ ﴿٢٦﴾ بَلْ هُمْ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ ﴿٢٧﴾.

﴿٢٨﴾ أي: إذا حضروا يوم القيامة وعانوا ما به يكذبون ورأوا ما به يستسخرون؛ يؤمر بهم إلى النار التي بها يكذبون،
فيقال: ﴿أَخْشَرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾: أنفسهم بالكفر والشرك والمعاصي ﴿وَأَزْوَاجَهُمْ﴾: الذين من جنس عملهم، كل يضم إلى من
يجانسه في العمل، ﴿وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ﴾ ﴿٢٩﴾ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴿٢٨﴾: من الأصنام والأنداد التي زعموها، اجمعوهم جميعاً، واهدوهم ﴿إِلَى
صِرَاطِ الْجَحِيمِ﴾ ﴿٣٠﴾؛ أي: سوقوهم سوقاً عنيفاً إلى جهنم.

﴿٣١﴾ وبعدها يتعين أمرهم إلى النار ويعرفون أنهم من أهل دار البوار؛ يقال: قفوه قبل أن توصلوهم إلى جهنم، ﴿إِنَّهُمْ
مَسْتَوْلُونَ﴾ ﴿٣٢﴾: عما كانوا يفترونه في الدنيا؛ ليظهر على رءوس الأشهاد كذبهم وقضيحتهم.

﴿٣٣﴾ فيقال لهم: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَنصَحُونَ﴾ ﴿٣٤﴾: أي: ما الذي جرى عليكم اليوم، وما الذي طرقتكم، لا ينصر بعضكم بعضاً، ولا
يغيث بعضكم بعضاً، بعدما كنتم تزعمون في الدنيا أن ألهتكم ستدفع عنكم العذاب وتغيثكم أو تشفع لكم عند الله؟! ﴿٣٥﴾

﴿٣٦﴾ فكانهم لا يجيبون هذا السؤال؛ لأنهم قد علاهم الذل والصغار، واستسلموا لعذاب النار وخشعوا وخضعوا وأبلسوا،
فلم ينطقوا، ولهذا قال: ﴿بَلْ هُمْ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ﴾ ﴿٣٧﴾.

﴿٣٨﴾ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٣٩﴾ قَالُوا إِنَّكُمْ كُنْتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ ﴿٤٠﴾ قَالُوا بَلْ لَمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٤١﴾ وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُمْ
مِنْ سُلْطَانٍ بَلْ كُنْتُمْ قَوْمًا طَٰغِيينَ ﴿٤٢﴾ فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّا لَذَٰئِقُونَ ﴿٤٣﴾ فَأَعْوَيْتَكُمْ إِنَّا كُنَّا عٰلِيُونَ ﴿٤٤﴾ فَأَنْتُمْ يَوْمَ فِي الْعَذَابِ
مُشْتَرِكُونَ ﴿٤٥﴾ إِنَّا كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ ﴿٤٦﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٧﴾ وَيَقُولُونَ إِنَّا لَنَارِكُوا إِلَهَ الْهَيْتَا
لِشَاعِرٍ يَجْتُنِئِ ﴿٤٨﴾ بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَقَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٤٩﴾ إِنَّكُمْ لَذَٰئِقُوا الْعَذَابِ الْأَلِيمِ ﴿٥٠﴾ وَمَا تَجَزَّوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥١﴾.

كذب من خالفهم، فلو قدر عدم مجيئه، وهم قد أخبروا به؛ لكان ذلك قاذحاً في صدقهم. وصدق أيضاً المرسلين؛ بأن جاء بما جاءوا به، ودعا إلى ما دعوا إليه، وآمن بهم، وأخبر بصحة رسالتهم ونبوتهم وشرعهم.

﴿٢٨﴾، ﴿٢٩﴾ ولما كان قولهم السابق: ﴿إِنَّا لَنَذِيرُونَ﴾ ﴿٣٠﴾ قولاً صادراً منهم يحتمل أن يكون صدقاً أو غيره؛ أخبر تعالى بالقول الفصل الذي لا يحتمل غير الصدق واليقين، وهو الخير الصادر منه تعالى، فقال: ﴿إِنَّكُمْ لَنَاقِمُونَ الْعَذَابِ الْأَلِيمِ﴾ ﴿٣١﴾؛ أي: المؤلم الموجه، ﴿وَمَا تَحْزَنُونَ﴾: في إذاقة العذاب الأليم ﴿إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ ﴿٣٢﴾: فلم نظلمكم، وإنما عدلنا فيكم.

ولما كان هذا الخطاب لفظه عامّاً، والمراد به المشركون؛ استثنى تعالى المؤمنين، فقال:

﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ ﴿٣٣﴾ أُولَئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ ﴿٣٤﴾ فَوَكَّاهُمْ ﴿٣٥﴾ وَهُمْ يَكْرُمُونَ ﴿٣٦﴾ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿٣٧﴾ عَلَى سُرُرٍ مُّقْنَصِينَ ﴿٣٨﴾ يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿٣٩﴾ بَيْضَاءَ لَدُوٍّ لِلشَّرِيبِ ﴿٤٠﴾ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنْزَفُونَ ﴿٤١﴾ وَعِنْدَهُمْ قَصِيرَاتُ الْظَّرْفِ عِينٌ ﴿٤٢﴾ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ﴿٤٣﴾.

﴿٤٤﴾ يقول تعالى: ﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ ﴿٤٥﴾؛ فإنهم غير ذاتي العذاب الأليم؛ لأنهم أخلصوا لله الأعمال، فأخلصهم واختصهم برحمته وجاد عليهم بلطفه.

﴿٤٦﴾، ﴿٤٧﴾ أُولَئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ ﴿٤٨﴾؛ أي: غير مجهول، وإنما هو رزق عظيم جليل لا يجهل أمره ولا يبلغ كنهه، فسرّه بقوله: ﴿فَوَكَّاهُمْ﴾: من جميع أنواع الفواكه التي تتفكه بها النفس للذتها في لونها وطعمها. ﴿وَهُمْ يَكْرُمُونَ﴾ ﴿٤٩﴾: لا مهانون محقرون، بل معظمون مبدلون موقرون، قد أكرم بعضهم بعضاً، وأكرمتهم الملائكة الكرام، وصاروا يدخلون عليهم من كل باب، ويهتئونهم ببلوغ أهنا الثواب، وأكرمهم أكرم الأكرمين وجاد عليهم بأنواع الكرامات من نعيم القلوب والأرواح والأبدان.

﴿٥٠﴾ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿٥١﴾؛ أي: الجنات التي النعيم وصفها والسرور نعمتها، وذلك لما جمعته مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، وسلمت من كل مخل بنعيمها من جميع المكدرات والمنغصات.

﴿٥٢﴾، ﴿٥٣﴾ لما جمعوا هم وأزواجهم وأهليهم وهدوا إلى صراط الجحيم ووقفوا فستلوا فلم يجيبوا؛ أقبلوا فيما بينهم يلوم بعضهم بعضاً على إضلالهم وضلالهم، فقال الاتباع للمتبوعين الرؤساء: ﴿إِنَّكُمْ كُنْتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ﴾ ﴿٥٤﴾؛ أي: بالقوة والغلبة فتضلونا، ولولا أنتم؛ لكننا مؤمنين.

﴿٥٥﴾ - ﴿٥٦﴾ ﴿قَالُوا﴾ لهم: ﴿بَلْ لَأَرْتَكِبُونَا مُؤْمِنِينَ﴾ ﴿٥٧﴾؛ أي: ما زلتُم مشركين كما نحن مشركون؛ فأى شيء فضلكم علينا؟! وأي شيء يوجب لومنا؟! والحال أنه ما ﴿كَانَ لَنَا عَلَيْكُمْ مِن سُلْطَانٍ﴾؛ أي: قهر لكم على اختيار الكفر، ﴿بَلْ كُنْتُمْ قَوْمًا طَافِينَ﴾ ﴿٥٨﴾: متجاوزين للحد، ﴿فَحَقَّ عَلَيْنَا﴾: نحن وإياكم ﴿قَوْلٌ رَبِّاً إِنَّا لَنَاقِمُونَ﴾ ﴿٥٩﴾: العذاب؛ أي: حق علينا قدر ربنا وقضاؤه، أننا وإياكم سندوق العذاب ونشترك في العقاب. فلذلك أغويناكم ﴿إِنَّا كَاغِبُونَ﴾ ﴿٦٠﴾؛ أي: دعواناكم إلى طريقتنا التي نحن عليها، وهي الغواية، فاستجبتم لنا؛ فلا تلومونا ولوموا أنفسكم.

﴿٦١﴾، ﴿٦٢﴾ قال تعالى: ﴿فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ﴾؛ أي: يوم القيامة ﴿فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ ﴿٦٣﴾؛ وإن تفاوتت مقادير عذابهم بحسب جرمهم؛ كما اشتركوا في الدنيا على الكفر اشتركوا في الآخرة بجزائه، ولهذا قال: ﴿إِنَّا كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ﴾ ﴿٦٤﴾.

﴿٦٥﴾، ﴿٦٦﴾ ثم ذكر أن إجرامهم قد بلغ الغاية وجاوز النهاية، فقال: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾: فدعوا إليها وأمروا بترك الإلهية ما سواه ﴿يَسْتَكْبِرُونَ﴾ ﴿٦٧﴾: عنها وعلى من جاء بها، ﴿وَيَقُولُونَ﴾: معارضة لها: ﴿إِنَّا لَنَارْكُوهَا أَهْلِيَةً﴾: التي لم نزل نعبدها نحن وأباؤنا، لقول شاعر ﴿تَجَنَّبُونِ﴾ ﴿٦٨﴾؛ يعنون: محمداً ﷺ، فلم يكفهم - قبحهم الله - الإعراض عنه ولا مجرد تكذيبه، حتى حكموا عليه بأظلم الأحكام، وجعلوه شاعراً مجنوناً، وهم يعلمون أنه لا يعرف الشعر والشعراء، ولا وصفه وصفهم، وأنه أعقل خلق الله وأعظمهم رايًا.

﴿٦٩﴾ ولهذا قال تعالى ناقضاً لقولهم: ﴿بَلْ جَاءَ﴾: محمد ﴿بِالْحَقِّ﴾؛ أي: مجيئه حقاً، وما جاء به من الشرع والكتاب حق، ﴿وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ﴾ ﴿٧٠﴾؛ أي: ومجيئه صدق المرسلين؛ فلولا مجيئه وإرساله؛ لم يكن الرسل صادقين؛ فهو آية ومعجزة لكل رسول قبله؛ لأنهم أخبروا به وبشروا، وأخذ الله عليهم العهد والميثاق لئن جاءهم ليؤمنن به ولينصرنه، وأخذوا ذلك على أممهم، فلما جاء؛ ظهر صدق الرسل الذين قبله، وتبين

﴿ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَسَاءَ لَؤُنْ ۖ ﴾ (٥٠) قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ﴿٥١﴾ يَقُولُ أَتَأْتِكُ لَئِنْ أَصْدَقْتَ ۖ ﴿٥٢﴾ إِذَا مِنَّا وَكُنَّا تُرَابًا وَعَظْمًا أَتَا لَمْدِيئُونَ ﴿٥٣﴾ قَالَ هَلْ أَنْتُمْ مُّطْلَعُونَ ﴿٥٤﴾ فَأَطْلَعَ قَرَاهُ فِي سَوَاءِ الْحَجِيرِ ﴿٥٥﴾ قَالَ تَأَلَّهْ إِنَّ كِدْتَ لَتُرْدِينَ ﴿٥٦﴾ وَلَوْلَا رِغْمَةُ رَبِّي لَكُنْتَ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ﴿٥٧﴾ أَمَّا نَحْنُ بِمَبِيتِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّا مَوْتَنَا الْأَوَّلَى وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٥٩﴾ إِنَّ هَذَا هُوَ الْقَوْمُ الْعَظِيمُ ﴿٦٠﴾ لِيُثِلَ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ ﴿٦١﴾ ۝

﴿٥٠﴾ - ﴿٥١﴾ لما ذكر تعالى نعيمهم، وتمام سرورهم، بالآكل والمشرب، والأزواج الحسان، والمجالس الحسنة؛ ذكر تذاكرهم فيما بينهم ومطارحتهم للأحاديث عن الأمور الماضية وأنهم ما زالوا في المحادثة والتساؤل حتى أفضى ذلك بهم إلى أن قال قائل منهم: ﴿إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ﴾ ﴿٥١﴾ في الدنيا ينكر البعث ويؤمنني على تصديقي به، ويقول لي: ﴿أَتَأْتِكُ لَئِنْ أَصْدَقْتَ﴾ ﴿٥٢﴾ إِذَا مِنَّا وَكُنَّا تُرَابًا وَعَظْمًا أَتَا لَمْدِيئُونَ ﴿٥٣﴾ أي: مجازون بأعمالنا؟ أي: كيف تصدق بهذا الأمر البعيد، الذي في غاية الاستغراب، وهو أننا إذا تمزقنا فصرنا ترابًا وعظامًا أننا نبعث ونعاد ثم نحاسب ونجازى بأعمالنا؟ أي: يقول صاحب الجنة لإخوانه: هذه قصتي وهذا خبري أنا وقريني، ما زلت أنا مؤمنًا مصدقًا، وهو ما زال مكذبًا منكراً للبعث، حتى متنا، ثم بعثنا، فوصلت أنا إلى ما ترون من النعيم الذي أخبرتنا به الرسل، وهو لا شك أنه قد وصل إلى العذاب. ف﴿هَلْ أَنْتُمْ مُّطْلَعُونَ﴾ ﴿٥٤﴾: لننظر إليه فتزاد غبطة وسرورًا بما نحن فيه، ويكون ذلك رأي عين؟ والظاهر من حال أهل الجنة، وسرور بعضهم ببعض، وموافقة بعضهم بعضًا، أنهم أجابوه لما قال، وذهبوا تبعًا له للاطلاع على قرينه. ﴿فَأَطْلَعَ﴾ فرأى قرينه ﴿فِي سَوَاءِ الْحَجِيرِ﴾ ﴿٥٥﴾ أي: في وسط العذاب وغمراته. والعذاب قد أحاط به، ف﴿قَالَ﴾ له لائما على حاله وشاكرًا لله على نعمته أن نجاه من كيده: ﴿تَأَلَّهْ إِنَّ كِدْتَ لَتُرْدِينَ﴾ ﴿٥٦﴾ أي: تهلكني بسبب ما أدخلت علي من الشبه بزعمك، ﴿وَلَوْلَا رِغْمَةُ رَبِّي﴾: سبب ما أنثني على الإسلام ﴿لَكُنْتَ مِنَ الْمُحْضَرِينَ﴾ ﴿٥٧﴾: في العذاب معك. ﴿أَمَّا نَحْنُ بِمَبِيتِينَ﴾ ﴿٥٨﴾ إِلَّا مَوْتَنَا الْأَوَّلَى وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٥٩﴾ أي: يقول المؤمن مبتهجًا بنعمة الله على أهل الجنة بالخلود الدائم فيها والسلامة من العذاب. استفهام بمعنى الإثبات والتقرير. وقوله: ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَسَاءَ لَؤُنْ﴾ ﴿٥٠﴾، وحذف المعمول، والمقام مقام

﴿٥١﴾ ومن كرامتهم عند ربهم وإكرام بعضهم بعضًا أنهم على ﴿سُرُرٍ﴾: وهي المجالس المرتفعة المزينة بأنواع الأكسية الفاخرة المزخرفة الجميلة؛ فهم متكئون عليها على وجه الراحة والطمأنينة والفرح، ﴿مُتَقَبِّلِينَ﴾ ﴿٥٢﴾: فيما بينهم، قد صفت قلوبهم ومحبتهم فيما بينهم، ونعموا باجتماع بعضهم مع بعض؛ فإن مقابلة وجوههم تدل على تقابل قلوبهم وتأدب بعضهم مع بعض، فلم يستدبره أو يجعله إلى جانبه، بل من كمال السرور والأدب ما دل عليه ذلك التقابل.

﴿٥٣﴾ - ﴿٥٤﴾ ﴿يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ مِّنْ نَّعِيمٍ﴾ ﴿٥٣﴾ أي: يتردد الولدان المستعدون لخدمتهم عليهم بالأشربة اللذيذة بالكاسات الجميلة المنظر المترعة من الرحيق المختوم بالمسك، وهي كاسات الخمر، وتلك الخمر تخالف خمر الدنيا من كل وجه؛ فإنها في لونها ﴿يَبَّضَاءَ﴾ من أحسن الألوان، وفي طعمها ﴿لَذَّةٌ لِّلشَّارِبِينَ﴾ ﴿٥٤﴾: يلتذ شاربها بها وقت شربها وبعده، وأنها سالمة من غول العقل وذهابه ونزفه ونزف مال صاحبها، وليس فيها صداع ولا كدر.

﴿٥٨﴾، ﴿٥٩﴾ فلما ذكر طعامهم وشرابهم ومجالسهم وعموم النعيم وتفاصيله داخلة في قوله: ﴿جَنَّاتٍ النَّعِيمِ﴾ ﴿٥٧﴾، لكن فصل هذه الأشياء لتعلم فتشاق النفوس إليها؛ ذكر أزواجهم، فقال: ﴿وَعِنْدَهُمْ قَصْرَتُ الطَّرَفِ عَيْنٌ﴾ ﴿٥٨﴾ أي: وعند أهل دار النعيم في محلاتهم القريبة حور حسان كاملات الأوصاف قاصرات الطرف؛ إما أنها قصرت طرفها على زوجها لعفتها، وعدم مجاوزته لغيره، ولجمال زوجها وكمالها؛ بحيث لا تطلب في الجنة سواه، ولا ترغب إلا به. وإما لأنها قصرت طرف زوجها عليها، وذلك يدل على كمالها وجمالها الفائق، الذي أوجب لزوجها أن يقصر طرفه عليها. وقصر الطرف أيضًا يدل على قصر النفس والمحبة عليها، وكلا المعنيين محتمل، وكلاهما صحيح.

وكل هذا يدل على جمال الرجال والنساء في الجنة ومحبة بعضهم بعضًا محبة لا يطمح إلى غيرها وشدة عفتهم كلهم وأنه لا حسد فيها ولا تباعد ولا تشاحن، وذلك لانتفاء أسبابه. ﴿عَيْنٌ﴾ ﴿٥٨﴾ أي: حسان الأعين جميلاتها ملاح الحلق. ﴿كَأَنَّهُنَّ﴾ ﴿٥٩﴾ أي: الحور ﴿يَبَّضُ مَكُونٌ﴾ ﴿٥٩﴾ أي: مستور، وذلك من حسنهن وصفائهن، وكون ألوانهن أحسن الألوان وأبهاها، ليس فيه كدر ولا شين.

لذة وسرور، فدل ذلك على أنهم يتساءلون بكل ما يتلذذون بالتحدث به والمسائل التي وقع فيها النزاع والإشكال، ومن المعلوم أن لذة أهل العلم بالتساؤل عن العلم والبحث عنه فوق اللذات الجارية في أحاديث الدنيا؛ فلهم من هذا النوع النصيب الوافر، ويحصل لهم من انكشاف الحقائق العلمية في الجنة ما لا يمكن التعبير عنه.

﴿١٧﴾ فلما ذكر تعالى نعيم الجنة ووصفه بهذه الأوصاف الجميلة؛ مدحه وشوق العاملين وحثهم على العمل له، فقال: ﴿إِنَّ هَذَا لَهُمُ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ ﴿١٨﴾: الذي حصل لهم به كل خير وكل ما تهوى النفوس وتشتهي، واندفع عنهم به كل محذور ومكروه؛ فهل فوز يطلب فرقه، أم هو غاية الغايات ونهاية النهايات؛ حيث حل عليهم رضا رب الأرض والسموات، وفرحوا بقربه، وتنعموا بمعرفته، واستروا برؤيته، وطربوا الكلامه؟

﴿١٩﴾ ﴿لِيُنْزِلَ هَذَا فَيَلْعَمَ الْعَمِلُونَ﴾ ﴿٢٠﴾: فهو أحق ما أنفقت فيه نفائس الأنفاس، وأولى ما شمر إليه العارفون الأكياس، والحسرة كل الحسرة أن يمضي على الحازم وقت من أوقاته وهو غير مشغول بالعمل الذي يقرب لهذه الدار؛ فكيف إذا كان يسير بخطاياه إلى دار البوار؟

﴿٢١﴾ ﴿أَذَلَّكَ خَيْرٌ نَزْلًا أَمْ شَجَرَةُ الزَّوْقِ﴾ ﴿٢٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً ﴿٢٣﴾ لِلظَّالِمِينَ ﴿٢٤﴾ إِنَّا شَجَرَةُ الزَّوْقِ ﴿٢٥﴾ نَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ ﴿٢٦﴾ طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ ﴿٢٧﴾ فَإِنَّهُمْ لَا يَكُونُونَ فِيهَا فَأَلَوْنَ مِمَّا الْبُطُونَ ﴿٢٨﴾ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوَاكِبًا ﴿٢٩﴾ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ ﴿٣٠﴾ إِنَّهُمْ أَلَوْا آتَاءَهُمْ هَرُغُونَ ﴿٣١﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِمْ مُنْذِرِينَ ﴿٣٢﴾ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذِرِينَ ﴿٣٣﴾ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿٣٤﴾

﴿٣٥﴾ ﴿أَذَلَّكَ خَيْرٌ؟﴾ أي: ذلك النعيم الذي وصفناه لأهل الجنة خير أم العذاب الذي يكون في الجحيم من جميع أصناف العذاب؛ فأَيُّ الطعامين أولى؟ الطعام الذي وصف في الجنة، ﴿أَمْ؟﴾ طعام أهل النار، وهو ﴿شَجَرَةُ الزَّوْقِ﴾ ﴿٣٦﴾؟

﴿٣٧﴾ - ﴿٣٨﴾ ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً﴾ ﴿٣٩﴾: أي: عذاباً ونكالا ﴿لِلظَّالِمِينَ﴾ ﴿٤٠﴾: أنفسهم بالكفر والمعاصي. ﴿إِنَّا شَجَرَةُ الزَّوْقِ نَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ﴾ ﴿٤١﴾: أي: وسطه؛ فهذا مخرجها ومعدنها؛ شر المعادن وأسوأها، وشر المغرس يدل على شر الغراس وخسته، ولهذا نبهنا الله على شرها بما ذكر أين تنبت به وبما ذكر من صفة ثمرتها، وأنها كـ ﴿رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ﴾ ﴿٤٢﴾ فلا تسأل بعد هذا عن طعمها وما تفعل في أجوافهم وبطونهم. وليس لهم عنها مندوحة ولا معدل، ولهذا قال: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يَكُونُونَ فِيهَا فَأَلَوْنَ مِمَّا الْبُطُونَ﴾ ﴿٤٣﴾: فهذا طعام أهل النار؛ فبئس الطعام طعامهم.

﴿٤٤﴾ ثم ذكر شرابهم، فقال: ﴿ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا﴾ ﴿٤٥﴾: أي: على أثر هذا الطعام ﴿لَشَوَاكِبًا حَمِيمًا﴾ ﴿٤٦﴾: أي: ماء حاراً قد تناهى حره؛ كما قال تعالى: ﴿وَيَنْبَغِي شَرَابٌ يَغَاثُوا بِمَاءٍ كَأَلْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ يَسُكُ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا﴾ ﴿٤٧﴾ [الكهف: ٢٩]، وكما قال تعالى: ﴿وَشَرُّوْا مَاءً حَمِيماً فَقَطَّعَ أَمْعَاهُمْ﴾ ﴿٤٨﴾ [محمد: ١٥].

﴿٤٩﴾ ﴿ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ﴾ ﴿٥٠﴾: أي: مآلهم ومقرهم ومآواهم ﴿لَإِلَى الْجَحِيمِ﴾ ﴿٥١﴾: ليدوقوا من عذابه الشديد وحره العظيم ما ليس عليه مزيد من الشقاء.

سورة الصافات
يَقُولُ أَهْلَكَ لِيَنَّ الْمُصَدِّقِينَ ﴿٥٢﴾ أَوْ دَامِنَا وَكَثَرْنَا أَوْ عَظَمْنَا أَوْ نَا
لَمْدِيُونُ ﴿٥٣﴾ قَالَ هَلْ أَتَىكَ مَظْلِمُونَ ﴿٥٤﴾ فَأَطْلَعُ فَرَأَى فِي سَوَاءِ
الْجَحِيمِ ﴿٥٥﴾ قَالَ تَاللَّهِ إِنْ كِدْتَ لَتَرْوِينَ ﴿٥٦﴾ وَلَوْلَا رَحْمَةُ رَبِّي
لَكُنْتُ مِنَ الْمُخْضَرِينَ ﴿٥٧﴾ أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّا مَوْتُنَا
الْأُولَى وَمَا نَحْنُ بِمُعْدِيْنَ ﴿٥٩﴾ إِنَّ هَذَا لَهُمُ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٦٠﴾
لِيُنْزِلَ هَذَا فَيَلْعَمَ الْعَمِلُونَ ﴿٦١﴾ أَذَلَّكَ خَيْرٌ نَزْلًا أَمْ شَجَرَةُ
الزَّوْقِ ﴿٦٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ ﴿٦٣﴾ إِنَّا شَجَرَةُ
نَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾ طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ
﴿٦٥﴾ فَإِنَّهُمْ لَا يَكُونُونَ فِيهَا فَأَلَوْنَ مِمَّا الْبُطُونَ ﴿٦٦﴾ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ
عَلَيْهَا لَشَوَاكِبًا حَمِيمًا ﴿٦٧﴾ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ ﴿٦٨﴾
إِنَّهُمْ أَلَوْا آتَاءَهُمْ هَرُغَالِينَ ﴿٦٩﴾ فَهُمْ عَلَى عَاتِرِهِمْ هَرْغُونَ ﴿٧٠﴾
وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِمْ أَكْثَرَ الْأَوَّلِينَ ﴿٧١﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِمْ
مُنْذِرِينَ ﴿٧٢﴾ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذِرِينَ ﴿٧٣﴾
إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿٧٤﴾ وَلَقَدْ نَادَيْنَاهُ فَلَئِنْ
الْمُجِيبُونَ ﴿٧٥﴾ وَبَعِثْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾

سورة الصافات

سورة الصافات

﴿٦٩﴾ - ﴿٧٣﴾ كأنه قيل: ما الذي أوصلهم إلى هذه الدار؟ فقال: ﴿إِنَّهُمْ أَلَقُوا﴾؛ أي: وجدوا ﴿ءَابَاءَهُمْ صَالِينَ﴾ ﴿٦٩﴾ فهُمْ عَلَىٰ آثَرِهِمْ يَرْعَوْنَ ﴿٧٠﴾؛ أي: يسرعون في الضلال، فلم يلتفتوا إلى ما دعاهم إليه الرسل ولا إلى ما حذرهم عنه الكتب ولا إلى أقوال الناصحين، بل عارضوهم بأن قالوا: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا ءَابَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُّقْتَدُونَ﴾ ﴿٧١﴾ [الزخرف: ٢٣]. ﴿وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ﴾؛ أي: قبل هؤلاء المخاطبين ﴿أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ﴾ ﴿٧٢﴾: وقليل منهم آمن واهتدى، ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِمْ مُّذَرِّينَ﴾ ﴿٧٣﴾: ينذرونهم عن غيهم وضلالهم، ﴿فَإَنْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُتَذَرِّينَ﴾ ﴿٧٤﴾: كانت عاقبتهم الهلاك والخزي والفضيحة؛ فليحذر هؤلاء أن يستمروا على ضلالهم فيصيبهم مثل ما أصابهم.

﴿٧٥﴾ ولما كان المنذرون ليسوا كلهم ضالين، بل منهم من آمن وأخلص الدين لله؛ استثناهم الله من الهلاك، فقال: ﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ ﴿٧٥﴾؛ أي: الذين أخلصهم الله وخصهم برحمته لإخلاصهم؛ فإن عواقبهم صارت حميدة.

ثم ذكر نموذجاً من عواقب الأمم المكذبين، فقال:

﴿وَلَقَدْ نَادَيْنَا نُوْحًا فَلَيْعَمَ الْمُجِيبُونَ﴾ ﴿٧٥﴾ وَخَيَّجْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمْ الْبَاقِينَ ﴿٧٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿٧٨﴾ سَلَّمَ عَلَىٰ نُوْحٍ فِي الْعَالَمِينَ ﴿٧٩﴾ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿٨١﴾ ثُمَّ أَعْرَفْنَا الْآخِرِينَ ﴿٨٢﴾.

﴿٧٥﴾ - ﴿٧٩﴾ يخبر تعالى عن عبده ورسوله نوح عليه السلام أول الرسل أنه لما دعا قومه إلى الله تلك المدة الطويلة، فلم يزدحم دعاؤه إلا فرأوا أنه نادى ربه، فقال: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْنِي عَلَى الْكَافِرِينَ ذَرَارًا﴾ ﴿٧٥﴾ [نوح: ٢٦] الآية، وقال: ﴿رَبِّ أَنْصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ﴾ ﴿٧٦﴾ [الأنبياء: ٣٠]. فاستجاب الله له، ومدح تعالى نفسه، فقال: ﴿فَلَيْعَمَ الْمُجِيبُونَ﴾ ﴿٧٥﴾: لدعاء الداعين وسماع تبتلهم وتضرعهم، أجابه إجابة طابقت ما سأل، نجاه وأهله من الكرب العظيم، وأغرق جميع الكافرين، وأبقى نسله وذريته متسلسلين؛ فجميع الناس من ذرية نوح عليه السلام، وجعل له ثناء حسناً مستمراً إلى وقت الآخرين، وذلك لأنه محسن في عبادة الخالق، محسن إلى الخلق، وهذه سته تعالى في المحسنين؛ أن ينشر لهم من الثناء على حسب إحسانهم، ودل قوله: ﴿إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿٨١﴾: أن الإيمان أرفع منازل العباد، وأنه مشتمل على جميع شرائع الدين وأصوله وفروعه؛ لأن الله مدح به خواص خلقه.

﴿وَإِنَّمَا مِنْ شِيعَتِهِ لِبَرْهِيْمَ﴾ ﴿٨٢﴾ إلى آخر القصة.

﴿٨٣﴾؛ أي: وإن من شيعته نوح عليه السلام ومن هو على طريقته في النبوة والرسالة ودعوة الخلق إلى الله وإجابة الدعاء إبراهيم الخليل عليه السلام. ﴿إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ ﴿٨٣﴾: من الشرك والشبه والشهوات المانعة من تصور الحق والعمل به. وإذا كان قلب العبد سليماً؛ سلم من كل شر، وحصل له كل خير.

﴿٨٤﴾ - ﴿٨٥﴾ ومن سلامته أنه سليم من غش الخلق وحسدكم وغير ذلك من مساوئ الأخلاق، ولهذا نصح الخلق في الله، وبدأ بأبيه وقومه، فقال: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ﴾ ﴿٨٤﴾؟ هذا استفهام على وجه الإنكار والزمام لهم بالحقبة.

تكسير الهتهم، وأرادوا ﴿بِهِ كَيْدًا﴾: ليقتلوه أشنع قتلة؛ ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ الْأَسْفَلِينَ﴾ ﴿٨٨﴾: رد الله كيدهم في نحورهم، وجعل النار على إبراهيم بردًا وسلامًا.

﴿٨٩﴾ ولما فعلوا فيه هذا الفعل، وأقام عليهم الحجة، وأعذر منهم؛ قال: ﴿إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي﴾؛ أي: مهاجر إليه، قاصد إلى الأرض المباركة أرض الشام ﴿سَبِّحِينَ﴾ ﴿٩٠﴾: يدلني على ما فيه الخير لي من أمر ديني ودنياي. وقال في الآية الأخرى: ﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُوا رَبِّي عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي سَاقِيًا﴾ ﴿٩١﴾ [مریم: ٤٨].

﴿٩٢﴾ رَبِّ هَبْ لِي: ولذا يكون ﴿مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ ﴿٩٣﴾، وذلك عندما أيس من قومه، ولم ير فيهم خيرًا؛ دعا الله أن يهب له غلامًا صالحًا ينفع الله به في حياته وبعد مماته.

﴿٩٤﴾ فاستجاب الله له وقال: ﴿فَبَشِّرْنَاهُ بِعَلَمٍ حَسِيرٍ﴾ ﴿٩٥﴾: وهذا إسماعيل عليه السلام بلا شك؛ فإنه ذكر بعده البشارة بإسحاق، ولأن الله تعالى قال في بشره بإسحاق: ﴿فَبَشِّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِهِ إِسْحَاقُ يَعْقُوبُ﴾ ﴿٩٦﴾ [هود: ٧١]: فدل على أن إسحاق غير الذبيح، ووصف الله إسماعيل عليه السلام بالحلم، وهو يتضمن الصبر وحسن الخلق وسعة الصدر والعفو عمن جنى.

﴿٩٧﴾ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ: أي: أدرك أن يسعى معه، وبلغ سنًا يكون في الغالب أحب ما يكون لوالديه؛ قد ذهبت مشقته وأقبلت منفعته، فقال له إبراهيم عليه السلام: ﴿إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَازِلِ آيَاتِكَ أَذْبَحْكَ﴾؛ أي: قد رأيت في النوم والرؤيا أن الله يأمرني بذبحك، ورؤيا الأنبياء وحي. ﴿فَانْظُرْ مَاذَا تَرَىٰ﴾؛ فإن أمر الله تعالى لا بد من تنفيذه، فقال إسماعيل صابرًا محتسبًا مرضيًا لربه وبارًا بوالده: ﴿يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمُرُ﴾؛ أي: امض لما أمرك الله، ﴿سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾ ﴿٩٨﴾: أخبر أباه أنه موطن نفسه على الصبر، وقرن ذلك بمشيئة الله تعالى؛ لأنه لا يكون شيء بدون مشيئة الله.

﴿٩٩﴾ فَلَمَّا أَتَمَّ: أي: إبراهيم وابنه إسماعيل: إبراهيم جازمًا بقتل ابنه وثمره فؤاده امتثالًا لأمر ربه وخوفًا من عقابه، والابن قد وطن نفسه على الصبر، وهانت عليه في طاعة ربه ورضا والده، ﴿وَكَلَّمَ لِلْحَجَّينَ﴾ ﴿١٠٠﴾؛ أي: تل إبراهيم إسماعيل على جبينه ليضجعه فيذبحه، وقد انكب لوجهه؛ لئلا ينظر وقت الذبح إلى وجهه.

﴿أَفَبُكَ إِلَهَهُ دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ﴾ ﴿١٠١﴾؟ أي: تعبدون من دون إلهة كذبًا ليست بآلهة، ولا تصلح للعبادة؟! ﴿فَمَا ظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿١٠٢﴾: أن يفعل بكم وقد عبدتم معه غيره؟! وهذا ترهيب لهم بالجزاء بالعقاب على الإقامة على شركهم، وما الذي ظننتم برب العالمين من النقص حتى جعلتم له أندادًا وشركاء؟!.

﴿١٠٣﴾ - ﴿١٠٤﴾ فأراد عليه السلام أن يكسر أصنامهم ويتمكن من ذلك، فانتهاز الفرصة في حين غفلة منهم لما ذهبوا إلى عيد من أعيادهم، فخرج معهم، ﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ﴾ ﴿١٠٥﴾ فَقَالَ إِنِّي سَمِعْتُ ﴿١٠٦﴾: في الحديث الصحيح: «لم يكذب إبراهيم عليه السلام إلا ثلاث كذبات: قوله: إني سقيم، وقوله: بل فعله كبيرهم هذا، وقوله عن زوجته: إنها أختي»^(١). والقصد أنه تخلف عنهم ليتم له الكيد بآلهتهم. فلهذا تولوا ﴿عَنهُ مُدْبِرِينَ﴾ ﴿١٠٧﴾، فلما وجد الفرصة؛ ﴿فَرَاغَ إِلَىٰ آلِهِمْ﴾؛ أي: أسرع إليها على وجه الخفية والمراوغة، ﴿فَقَالَ﴾ متهمكم بها: ﴿أَلَا تَأْكُلُونَ﴾ ﴿١٠٨﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ ﴿١٠٩﴾؛ أي: فكيف يليق أن تعبد وهي أنقص من الحيوانات التي تأكل وتكلم، وهذه جماد لا تأكل ولا تكلم؟! ﴿فَرَاغَ عَلَيْهِمْ صَرْبًا يَأْتِينَ﴾ ﴿١١٠﴾؛ أي: جعل يضربها بقوته ونشاطه حتى جعلها جذاذًا؛ إلا كبيرًا لهم لعلهم إليه يرجعون.

﴿١١١﴾ - ﴿١١٢﴾ ﴿فَاقْبَلُوا إِلَيْهِ يَرَوْنَ﴾ ﴿١١٣﴾؛ أي: يسرعون ويهرعون؛ يريدون أن يوقعوا به بعدما بحثوا ﴿وَقَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ ﴿١١٤﴾ وقيل لهم: ﴿سَمِعْنَا قَوْلَ يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ﴾ ﴿١١٥﴾ [الأنبياء: ٥٩، ٦٠]، يقول: ﴿وَتَاللَّهِ لَا كَيْدَ أَصْنَمُكُمْ بَعْدَ أَنْ تُولُوا مُدْبِرِينَ﴾ ﴿١١٦﴾ [الأنبياء: ٥٧]. فويخوه ولا موه، فقال: ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَيْدُهُمْ هَذَا فَفَسَلُوهُمْ إِنَّ كَانُوا يَنطِقُونَ﴾ ﴿١١٧﴾ فَرَعَوْا إِلَىٰ أَنْفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ ﴿١١٨﴾ ثُمَّ نَكَسُوا عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنطِقُونَ ﴿١١٩﴾ قَالَ أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿١٢٠﴾ [الأنبياء: ٦٦-٦٣] الآية، و﴿قَالَ﴾ هنا: ﴿أَتَعْبُدُونَ مَا تَحْمِلُونَ﴾ ﴿١٢١﴾؛ أي: تنحوتونه بأيديكم وتصنعونه؛ فكيف تعبدونهم وأنتم الذين صنعتموهم، وتتركون الإخلاص لله الذي ﴿خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ ﴿١٢٢﴾!

﴿١٢٣﴾، ﴿١٢٤﴾ قَالُوا إِنَّمَا لَّهُ تَبَعٌ مُّبِينٌ ﴿١٢٥﴾؛ أي: عاليًا مرتفعًا وأوقدوا فيه النار، ﴿فَنَالِقُوهُ فِي الْحَجِيرِ﴾ ﴿١٢٦﴾: جزاء على ما فعل من

﴿١١٤﴾ وَتَذَرْتَهُ ﴿١١٥﴾: في تلك الحال المزعجة والأمر المدهش: ﴿أَنْ يَتَّيَرَهُمْ﴾ ﴿١١٦﴾ قَدْ صَدَقْتَ أَرَأَيْتَ؟ أي: قد فعلت ما أمرت به؛ فإنك وطنت نفسك على ذلك، وفعلت كل سبب، ولم يبق إلا إمرار السكين على حلقة. ﴿إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ ﴿١١٧﴾: في عبادتنا، المقدمين رضانا على شهوات أنفسهم.

﴿إِنَّ هَذَا﴾: الذي امتحنا به إبراهيم عليه السلام ﴿هُوَ﴾ أَلْبَتُوا النَّبِيَّ ﴿١١٨﴾؟ أي: الواضح الذي تبين به صفاء إبراهيم وكمال محبته لربه وخلته؛ فإن إسماعيل عليه السلام لما وهبه الله لإبراهيم؛ أحبه حباً شديداً، وهو خليل الرحمن، والخلة أعلى أنواع المحبة، وهو منصب لا يقبل المشاركة، ويقضي أن تكون جميع أجزاء القلب متعلقة بالمحسوب، فلما تعلقت شعبة من شعب قلبه بابنه إسماعيل؛ أراد الله تعالى أن يصفي وده ويختبر خلته، فأمره أن يذبح من زاحم حبه حب ربه، فلما قدم حب الله وأثره على هواه وعزم على ذبحه وزال ما في القلب من المزاحم، بقي الذبح لا فائدة فيه؛ فلهاذا قال: ﴿إِن كَذَلِكَ هُوَ أَلْبَتُوا النَّبِيَّ﴾ ﴿١١٩﴾.

﴿وَقَدَرْتَهُ يَذْبَحُ عَظِيمٌ﴾ ﴿١٢٠﴾؟ أي: صار بدله ذبح من الغنم عظيم ذبحه إبراهيم، فكان عظيماً: من جهة أنه كان فداء لإسماعيل، ومن جهة أنه من جملة العبادات الجليلة، ومن جهة أنه كان قرباناً وسنة إلى يوم القيامة.

﴿وَتَرْكُنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ﴾ ﴿١٢١﴾ سَلَّمَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ ﴿١٢٢﴾؟ أي: وأبقينا عليه ثناء صادقاً في الآخرين؛ كما كان في الأولين؛ فكل وقت بعد إبراهيم عليه السلام؛ فإنه فيه محبوب معظم مثني عليه. ﴿سَلَّمَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ﴾ ﴿١٢٣﴾؟ أي: تحية عليه؛ كقوله: ﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى﴾ [النمل: ٥٩].

﴿كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ ﴿١٢٤﴾: في عبادة الله ومعاملة خلقه أن نفرج عنهم الشدائد، ونجعل لهم العاقبة والثناء الحسن.

﴿إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿١٢٥﴾: بما أمر الله بالإيمان به، الذين بلغ بهم الإيمان إلى درجة اليقين؛ كما قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ نُرَى إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَكُوتِ وَالْأَرْضِ وَلَيْكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ﴾ ﴿٧٥﴾ [الأنعام: ٧٥].

﴿وَتَرْكُنَا بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ ﴿١٢٦﴾: هذه البشارة الثانية بإسحاق؛ الذي من ورائه يعقوب، فبشر بوجوده وبقائه ووجود ذريته وكونه نبياً من الصالحين؛ فهي بشارات متعددة.

﴿وَتَرْكُنَا عَلَيْهِ وَعَلَى إِسْحَاقَ﴾؟ أي: أنزلنا عليهما البركة التي هي النمو والزيادة في علمهما وعملهما وذريتهما، فنشر الله من ذريتهما ثلاث أمم عظيمة: أمة العرب من ذرية إسماعيل، وأمة بني إسرائيل، وأمة الروم من ذرية إسحاق. ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِنَفْسِهِ مُبِينٌ﴾ ﴿١٢٧﴾؟ أي: منهم الصالح والطالح، والعاقل والظالم، الذي تبين ظلمه بكفره وشره، ولعل هذا من باب دفع الإيهام؛ فإنه لما قال: ﴿وَتَرْكُنَا عَلَيْهِ وَعَلَى إِسْحَاقَ﴾؛ اقتضى ذلك البركة في ذريتهما، وأن من تمام البركة أن تكون الذرية كلهم محسنين، فأخبر الله تعالى أن منهم محسناً وظالماً. والله أعلم.

﴿ وَلَقَدْ مَكَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ﴾ ﴿١١٤﴾ إلى آخر القصة.

﴿١١٤﴾ - ﴿١١٢﴾ يذكر تعالى منته على عبديه ورسوله موسى وهارون ابني عمران بالنبوة والرسالة والدعوة إلى الله تعالى، ونجاتهما وقومهما من عدوهما فرعون، ونصرهما عليه، حتى أغرقه الله وهم ينظرون، وإنزال الله عليهما الكتاب المستبين، وهو التوراة التي فيها الأحكام والمواظ وتفصيل كل شيء، وأن الله هدهما الصراط المستقيم؛ بأن شرع لهما ديناً ذا أحكام وشرائع مستقيمة موصلة إلى الله، ومنَّ عليهما بسلوكه. ﴿ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِي الْآخِرِينَ ﴾ ﴿١١٢﴾ سَلَّمَ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ﴿١١٢﴾؛ أي: أبقى عليهما ثناء حسناً وتحية في الآخرين، ومن باب أولى وأحرى في الأولين. ﴿ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾ ﴿١١٢﴾ إِنَّمَا مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾.

﴿ وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ ﴿١١٣﴾ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١١٣﴾ أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَلْقِينَ ﴿١١٤﴾ اللَّهُ رَبُّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ﴿١١٤﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَنَّهُم لَمُحْضَرُونَ ﴿١١٥﴾ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿١١٥﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿١١٥﴾ سَلَّمَ عَلَىٰ إِلَاسِينَ ﴿١١٥﴾ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١١٥﴾ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٥﴾.

﴿١١٣﴾ - ﴿١١٢﴾ يمدح تعالى عبده ورسوله إلياس عليه الصلاة

والسلام بالنبوة والرسالة والدعوة إلى الله، وأنه أمر قومه بالتقوى وعبادة الله وحده، ونهاهم عن عبادتهم صنماً لهم يقال له: بعل، وتركهم عبادة الله الذي خلق الخلق، وأحسن خلقهم ورباهم فأحسن تربيتهم، وأدّر عليهم النعم الظاهرة والباطنة، وأنكم كيف تركتم عبادة من هذا شأنه إلى عبادة صنم لا يضر ولا ينفع ولا يخلق ولا يرزق، بل لا يأكل ولا يتكلم، وهل هذا إلا من أعظم الضلال والسفاهة والغفلة. ﴿ فَكَذَّبُوهُ ﴾: فيما دعاهم إليه، فلم ينقادوا له، قال الله متوعداً لهم: ﴿ فَأَنَّهُم لَمُحْضَرُونَ ﴾ ﴿١١٥﴾؛ أي: يوم القيامة في العذاب، ولم يذكر لهم عقوبة دنيوية ﴿ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴾ ﴿١١٥﴾؛ أي: الذين أخلصهم الله ومن عليهم باتباع نبينهم؛ فإنهم غير محضرين في العذاب، وإنما لهم من الله جزيل الثواب. ﴿ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ ﴾؛ أي: على إلياس ﴿ فِي الْآخِرِينَ ﴾ ﴿١١٥﴾ ثناء حسناً. ﴿ سَلَّمَ عَلَىٰ إِلَاسِينَ ﴾ ﴿١١٥﴾؛ أي: تحية من الله ومن عباده عليه. ﴿ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾ ﴿١١٥﴾ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٥﴾: فأثنى الله عليه كما أثنى على إخوانه صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

﴿ وَإِنَّ لُوطًا لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ ﴿١١٦﴾ إِذْ نَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ ﴿١١٦﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَدِيرِ ﴿١١٦﴾ ثُمَّ دَمَرْنَا الْآخَرِينَ ﴿١١٦﴾ وَإِنَّا لَنُرَوُّهُمْ عَنِ مِصْرَاجِهِمْ ﴿١١٦﴾ وَبِأَيْلٍ أَفَلًا تَعْقِلُونَ ﴿١١٦﴾.

﴿١١٦﴾ - ﴿١١٥﴾ وهذا ثناء منه تعالى على عبده ورسوله لوط بالنبوة والرسالة ودعوته إلى الله قومه ونهيهم عن الشرك وفعل الفاحشة، فلما لم ينتهوا؛ نجاه الله وأهله أجمعين، فسروا ليلاً، فنجوا؛ ﴿ إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَدِيرِ ﴾ ﴿١١٦﴾؛ أي: الباقيين المعذبين، وهي زوجة لوط، لم تكن على دينه. ﴿ ثُمَّ دَمَرْنَا الْآخَرِينَ ﴾ ﴿١١٦﴾: بأن قلبنا عليهم ديارهم فجعلنا عاليها سافلها، وأمطرنا عليها حجارة من سجيل منضود حتى همدوا وخمدوا، ﴿ وَإِنَّا لَنُرَوُّهُمْ عَنِ مِصْرَاجِهِمْ ﴾؛ أي: على ديار قوم لوط ﴿ مُصْجِحِينَ ﴾ ﴿١١٦﴾ وبِأَيْلٍ؛ أي: في هذه الأوقات يكثر ترددكم إليها ومروركم بها، فلم تقبل الشك والمرية. ﴿ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ ﴿١١٦﴾: الآيات والعبر وتزجرون عما يوجب الهلاك؟!

سورة الصافات
فَكَذَّبُوهُ فَأَنَّهُم لَمُحْضَرُونَ ﴿١١٥﴾ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿١١٥﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿١١٥﴾ سَلَّمَ عَلَىٰ إِلَاسِينَ ﴿١١٥﴾ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١١٥﴾ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٥﴾ وَإِنَّا لَنُرَوُّهُمْ عَنِ مِصْرَاجِهِمْ ﴿١١٦﴾ وَبِأَيْلٍ أَفَلًا تَعْقِلُونَ ﴿١١٦﴾ ثُمَّ دَمَرْنَا الْآخَرِينَ ﴿١١٦﴾ وَإِنَّا لَنُرَوُّهُمْ عَنِ مِصْرَاجِهِمْ ﴿١١٦﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿١١٥﴾ سَلَّمَ عَلَىٰ إِلَاسِينَ ﴿١١٥﴾ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١١٥﴾ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٥﴾

﴿ وَإِنْ يُؤْسَ لِمَنِ الْمُرْسَلِينَ ﴾ ﴿١٣٩﴾ إلى آخر القصة.

﴿١٣٩﴾ وهذا ثناء منه تعالى على عبده ورسوله يونس بن متى؛ كما أثنى على إخوانه المرسلين بالنبوة والرسالة والدعوة إلى الله.

﴿١٤٠﴾ وذكر تعالى عنه أنه عاقبه عقوبة دنيوية أنجاه منها بسبب إيمانه وأعماله الصالحة، فقال: ﴿ إِذْ أَبَقَ ﴾؛ أي: من ربه مغاضباً له ظاناً أنه لا يقدر عليه ويحبسه في بطن الحوت، ولم يذكر الله ما غاضب عليه ولا ذنبه الذي ارتكبه؛ لعدم فائدتنا بذكره، وإنما فائدتنا بما ذكرنا عنه أنه أذن، وعاقبه الله مع كونه من الرسل الكرام، وأنه نجاه بعد ذلك، وأزال عنه الملام، وقيض له ما هو سبب صلاحه. فلما أبق؛ لجأ ﴿ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ﴾ ﴿١٤١﴾: بالركاب والأمتعة.

﴿١٤١﴾ فلما ركب مع غيره والفلك شاحن؛ ثقلت السفينة، فاحتاجوا إلى إلقاء بعض الركبان، وكانهم لم يجدوا لأحد مزية في ذلك، فاقترعوا على أن من قرع وغلب؛ ألقى في البحر؛ عدلاً من أهل السفينة، وإذا أراد الله أمراً؛ هبأ أسبابه، فلما اقترعوا؛ أصابت القرعة يونس. ﴿ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ ﴾ ﴿١٤٢﴾؛ أي: المغلوبين، فألقى في البحر.

﴿١٤٢﴾ ﴿ فَالْتَمَعَهُ الْحَوْتُ وَهُوَ ﴾: وقت التقامه ﴿ مُلِيمٌ ﴾ ﴿١٤٣﴾؛ أي: فاعل ما يلام عليه، وهو مغاضبته لربه.

﴿١٤٣﴾ ﴿ فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ ﴾ ﴿١٤٤﴾؛ أي: في وقته السابق بكثرة عبادته لربه وتسيحه وتحميده وفي بطن الحوت حيث قال: ﴿ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ ﴿٨٧﴾ [الأنبياء: ٨٧] ﴿ لَلَيْتَ فِي بَطْنِهِ إِذْ يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴾ ﴿١٤٥﴾؛ أي: لكانت مقبرته، ولكن بسبب تسيحه وعبادته لله؛ نجاه الله تعالى، وكذلك ينجي الله المؤمنين عند وقوعهم في الشدائد.

﴿١٤٥﴾ ﴿ فَبَدَّلَ بِالْعَرَاءِ ﴾: بأن قذفه الحوت من بطنه بالعراء، وهي الأرض الخالية العارية من كل أحد، بل ربما كانت عارية من الأشجار والظلال. ﴿ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴾ ﴿١٤٦﴾؛ أي: قد سقم ومرض بسبب حبسه في بطن الحوت حتى صار مثل الفرخ الممعوط من البيضة.

﴿١٤٦﴾ ﴿ وَأَنْبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّنْ يَقْطِينٍ ﴾ ﴿١٤٧﴾: تظله بظلها الظليل؛ لأنها باردة الظلال، ولا يسقط عليها ذباب، وهذا من لطفه به وبره.

﴿١٤٧﴾ ثم لطف به لطفاً آخر، وامتن عليه منة عظيمة، وهو أنه أرسله ﴿ إِنْ يَأْتِ الْفُلْ ﴾: من الناس ﴿ أَوْ يَزِيدُونَ ﴾ ﴿١٤٨﴾: عنها، والمعنى أنهم إن لم يزدوا عنها؛ لم ينقصوا، فدعاهم إلى الله تعالى، ﴿ فَتَأْتُوا ﴾: فصاروا في موازينه؛ لأنه الداعي لهم، ﴿ فَتَعْتَهُمْ إِلَى جَنِّ ﴾ ﴿١٤٩﴾: بأن صرف الله عنهم العذاب بعدما انعقدت أسبابه؛ قال تعالى: ﴿ فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَنُهَا إِلَّا قَوْمٌ يُّؤْسَ لِمَا ءَامَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى جَنِّ ﴾ ﴿٩٨﴾ [يونس: ٩٨].

﴿ فَاسْتَفْتَاهُ رَبُّكَ الْبَنَاتَ وَلَهُمُ الْبَسُوتُ ﴾ ﴿١٥٠﴾ أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ ﴿١٥١﴾ أَلَا إِنَّهُمْ مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴿١٥٢﴾ وَلَدَ اللَّهُ وَلِئِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٥٣﴾ أَصْطَفَى الْبَنَاتَ عَلَى الْبَنِينَ ﴿١٥٤﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿١٥٥﴾ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٦﴾ أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٥٧﴾ فَأَتُوا بِكُتُبِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٥٨﴾.

﴿١٤٩﴾ يقول تعالى لنبيه ﷺ ﴿ فَاسْتَفْتِهِمْ ﴾؛ أي: اسأل المشركين بالله غيره، الذين عبدوا الملائكة وزعموا أنها بنات الله، فجمعوا بين الشرك بالله ووصفه بما لا يليق بجلاله. ﴿ أَلَيْسَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَسُوتُ ﴾ ﴿١٤٩﴾؛ أي: هذه قسمة ضيزى، وقول جائر من جهة جعلهم الولد لله تعالى، ومن جهة جعلهم أرباً القسمين وأخسهما له، وهو البنات، التي لا يرضونهن لأنفسهم؛ كما قال في الآية الأخرى: ﴿ وَجَعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتَ سُبْحَانَهُ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ ﴾ ﴿٥٧﴾ [النحل: ٥٧]، ومن جهة جعلهم الملائكة بنات لله، وحكمهم بذلك.

﴿١٥٠﴾ قال تعالى في بيان كذبهم: ﴿ أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ ﴾ ﴿١٥١﴾: خلقهم؛ أي: ليس الأمر كذلك؛ فإنهم ما شهدوا خلقهم، فدل على أنهم قالوا هذا القول بلا علم، بل افتراء على الله.

﴿١٥١﴾ - ﴿١٥٧﴾ ولهذا قال: ﴿ أَلَا إِنَّهُمْ مِّنْ إِفْكِهِمْ ﴾؛ أي: كذبهم الواضح؛ ﴿ لَيَقُولُونَ ﴾ ﴿١٥٢﴾ وَلَدَ اللَّهُ وَلِئِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٥٣﴾ أَصْطَفَى؛ أي: اختار ﴿ الْبَنَاتَ عَلَى الْبَنِينَ ﴾ ﴿١٥٤﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿١٥٥﴾: هذا الحكم الجائر. ﴿ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ ﴿١٥٦﴾ وتميزون هذا القول الباطل الجائر؟ فإنكم لو تذكرتم؛ لم تقولوا هذا القول. ﴿ أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُّبِينٌ ﴾ ﴿١٥٧﴾؛ أي: حجة ظاهرة على قولكم من كتاب أو رسول، وكل هذا غير واقع، ولهذا قال: ﴿ فَأَتُوا بِكُتُبِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ ﴿١٥٨﴾: فإن

من يقول قولاً لا يقيم عليه حجة شرعية؛ فإنه كاذب متعمد أو قاتل على الله بلا علم.

﴿وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجَنَّةِ نَسَبًا وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ۚ سُبْحَنَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ ۚ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ۝﴾.

﴿١٥٨﴾ أي: جعل هؤلاء المشركون بالله بين الله وبين الجنة نسباً؛ حيث زعموا أن الملائكة بنات الله، وأن أمهاتهم سراوات الجن! والحال أن الجنة قد علمت أنهم محضرون بين يدي الله ليجازيهم؛ فهم عباد أذلاء؛ فلو كان بينهم وبينه نسب؛ لم يكونوا كذلك.

﴿١٥٩﴾، ﴿سُبْحَنَ اللَّهُ﴾: الملك العظيم، والكمال الحليم، عما يصفه به المشركون من كل وصف أوجبه كفرهم وشركهم. ﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾: فإنه لم ينزه نفسه عما وصفوه به؛ لأنهم لم يصفوه إلا بما يليق بجلاله، وبذلك كانوا مخلصين.

﴿فَأَنذَرْتُهُمْ مَآ تَعْبُدُونَ ۚ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَاتِنِينَ ۚ إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِي الْجَنَّةِ ۝﴾.

﴿١٦١﴾ - ﴿١٦٢﴾ أي: إنكم أيها المشركون ومن عبدتموه مع الله

لا تقدرون أن تفتنوا وتضلوا أحداً إلا من قضى الله أنه من أهل الجحيم، فنفذ فيه القضاء الإلهي. والمقصود من هذا بيان عجزهم وعجز آلهتهم عن إضلال أحد، وبيان كمال قدرة الله تعالى؛ أي: فلا تطمعوا بإضلال عباد الله المخلصين وحزبه المفلحين.

﴿وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ، مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ۚ وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُونَ ۚ وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسْتَحُونَ ۝﴾.

﴿١٦٤﴾ - ﴿١٦٦﴾ هذا فيه بيان براءة الملائكة عليهم السلام عما قاله فيهم المشركون، وأنهم عباد الله، لا يعصونه طرفه عين؛ فما منهم من أحد إلا وله مقام وتدبير قد أمره الله به لا يتعداه ولا يتجاوز، وليس لهم من الأمر شيء، ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُونَ﴾: في طاعة الله وخدمته، ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسْتَحُونَ﴾: لله عما لا يليق به؛ فكيف مع هذا يصلحون أن يكونوا شركاء لله، تعالى الله

﴿وَإِنْ كَانُوا يَقُولُونَ ۚ لَوَ أَنَّ عِنْدَنَا ذِكْرًا مِنَ الْأَوَّلِينَ ۚ لَكُنَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ۚ فَكْفَرُوا بِهِ ۚ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ۚ وَلَقَدْ سَبَقَتْ لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ۚ إِنَّهُمْ لَمُ مِّنَ الْمَصْزُورِينَ ۚ وَإِن جُنَدُنَا لَمُ الْقَالِبُونَ ۚ فَنُفِئَ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ۚ وَأَنصَرَّمُ فَسَوْفَ يُصِيرُونَ ۚ أَفَعِدَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ۚ فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحِنِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنْذَرِينَ ۚ وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ۚ﴾ إلى آخر السورة.

﴿١٦٧﴾ - ﴿١٦٨﴾ يخبر تعالى أن هؤلاء المشركين يظهرون التمني ويقولون: لو جاءنا من الذكر والكتب ما جاء الأولين؛ لأخلصنا للعبادة، بل لكنا المخلصين على الحقيقة، وهم كذبة في ذلك؛ فقد جاءهم أفضل الكتب فكفروا به، فلمعلم أنهم متمردون على الحق. ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾: العذاب حين يقع بهم.

﴿١٦٩﴾ - ﴿١٧٠﴾ ولا يحسبوا أيضاً أنهم في الدنيا غالبون، بل قد سبقت كلمة الله التي لا مرد لها ولا مخالف لها لعباده المرسلين وجنده المفلحين؛ أنهم الغالبون لغيرهم المنصورون من ربهم نصراً عزيزاً يتمكنون فيه من إقامة دينهم. وهذه بشارة عظيمة لمن

سورة الصافات

مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ۚ ۝ لَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُّبِينٌ ۚ ۝ فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ۚ كُمْ صَدِيقِينَ ۚ ۝ وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجَنَّةِ نَسَبًا ۚ وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ۚ ۝ سُبْحَنَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ ۚ ۝ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ۚ ۝ فَأَنذَرْتُكُمْ مَآ تَعْبُدُونَ ۚ ۝ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَاتِنِينَ ۚ ۝ إِنَّمَنْ هُوَ صَالِي الْجَنَّةِ ۚ ۝ وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ، مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ۚ ۝ وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُونَ ۚ ۝ وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسْتَحُونَ ۚ ۝ وَإِنْ كَانُوا يَقُولُونَ ۚ لَوَ أَنَّ عِنْدَنَا ذِكْرًا مِنَ الْأَوَّلِينَ ۚ لَكُنَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ۚ ۝ فَكْفَرُوا بِهِ ۚ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ۚ ۝ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كِمْ لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ۚ ۝ إِنَّهُمْ لَمُ مِّنَ الْمَصْزُورِينَ ۚ ۝ وَإِن جُنَدُنَا لَمُ الْقَالِبُونَ ۚ ۝ فَنُفِئَ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ۚ ۝ وَأَنصَرَّمُ فَسَوْفَ يُصِيرُونَ ۚ ۝ أَفَعِدَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ۚ ۝ فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحِنِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنْذَرِينَ ۚ ۝ وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ۚ ۝ وَأَنصَرَّمُ فَسَوْفَ يُصِيرُونَ ۚ ۝ سُبْحَنَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ۚ ۝ وَسَلِّمْ عَلَى الْمُرْسَلِينَ ۚ ۝ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۚ ۝

سورة الصافات

٤٥٢

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
 صَ وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ ١ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عَذَابٍ وَشِقَاقٍ ٢
 كَرَّ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ فَنَادَوا وَلَوْلَا حِينَ مَنَاصٍ ٣ وَعِجُّوا
 أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سِحْرٌ كَذَّابٌ ٤
 أَجْعَلِ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ٥ وَأَنْطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ
 أَنْ آمَسُوا وَأَصْبَرُوا عَلَىٰ إِلَهِتِهِمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ ٦
 مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِنْ هَذَا إِلَّا خُلُقٌ ٧ أُنْزِلَ
 عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْ ذِكْرِي بَلْ لَمَّا يَدْعُونَ عَذَابَ ٨
 أَمْ عَنْهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ ٩ أَمْ لَهُمْ
 مِثْلُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَلْيَرْتَقُوا فِي الْأَسْبَابِ ١٠
 جُنْدٌ مَا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِنَ الْأَحْزَابِ ١١ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ
 نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْدَادِ ١٢ وَفُؤَادُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ
 لَيْكَةِ أُولَئِكَ الْأَحْزَابِ ١٣ إِنْ كُلُّ إِلَّا كَذَّبَ الرَّسُولَ
 فَحَقَّ عِقَابٌ ١٤ وَمَا يَنْظُرُ هَؤُلَاءِ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً مَأْ لَهَا
 مِنْ فَوَاقٍ ١٥ وَقَالُوا رَبَّنَا عَجَلْنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ ١٦

٤٥٣

اتصف بأنه من جند الله؛ بأن كانت أحواله مستقيمة، وقاتل من
 أمر بقتالهم أنه غالب منصور. ثم أمر رسوله بالإعراض عمن
 عاندوا ولم يقبلوا الحق، وأنه ما بقي إلا انتظار ما يحل بهم من
 العذاب، ولهذا قال: ﴿وَأَصْبِرْهُمْ فَسَوْفَ يَصِيرُونَ﴾ ١٧٥: من يحل به
 النكال؛ فإنه سيحل بهم. ﴿فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ﴾ ١٧٦: أي: نزل عليهم
 وقريباً منهم، ﴿فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنْذَرِينَ﴾ ١٧٧: لأنه صباح الشر
 والعقوبة والاستئصال. ثم كرر الأمر بالتولي عنهم وتهديدهم
 بوقوع العذاب.

١٨٠ - ١٨١ ولما ذكر في هذه السورة كثيراً من أقوالهم
 الشيعة التي وصفوه بها؛ نزه نفسه عنها، فقال: ﴿سُبْحَانَ
 رَبِّكَ﴾ ١٨٠: أي: تنزه وتعالى، ﴿رَبِّ الْعِزَّةِ﴾ ١٨١: الذي عز
 فقهر كل شيء، واعتز عن كل سوء يصفونه به، ﴿وَسَلَّمَ
 عَلَى الْمُرْسَلِينَ﴾ ١٨٢: لسلامتهم من الذنوب والآفات،
 وسلامة ما وصفوا به فاطر الأرض والسموات. ﴿وَالْحَمْدُ
 لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ١٨٣: الألف واللام للاستغراق؛ فجميع
 أنواع الحمد من الصفات الكاملة العظيمة والأفعال التي ربي
 بها العالمين وأدر عليهم فيها النعم وصرف عنهم بها النقم
 ودبرهم تعالى في حركاتهم وسكونهم وفي جميع أحوالهم
 كلها لله تعالى؛ فهو المقدس عن النقص، المحمود بكل
 كمال، المحبوب المعظم، ورسله سالمون مسلم عليهم،

ومن اتبعهم في ذلك له السلامة في الدنيا والآخرة، وأعداؤه لهم الهلاك والعطب في الدنيا والآخرة.

تم تفسير سورة الصافات في ٦ شوال سنة ١٣٤٣.

على يد جامعه و كاتبه عبد الرحمن بن ناصر السعدي.

وصلى الله على محمد وسلم تسليمًا. والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.



تفسير سورة ص

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿صَ وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ﴾ ١ ﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عَذَابٍ وَشِقَاقٍ﴾ ٢ ﴿كَرَّ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ فَنَادَوا وَلَوْلَا حِينَ مَنَاصٍ﴾ ٣ ﴿وَعِجُّوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سِحْرٌ كَذَّابٌ﴾ ٤ ﴿أَجْعَلِ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾ ٥ ﴿وَأَنْطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنْ آمَسُوا وَأَصْبَرُوا عَلَىٰ إِلَهِتِهِمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ﴾ ٦ ﴿مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِنْ هَذَا إِلَّا خُلُقٌ﴾ ٧ ﴿أُنْزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْ ذِكْرِي بَلْ لَمَّا يَدْعُونَ عَذَابَ﴾ ٨ ﴿أَمْ عَنْهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ﴾ ٩ ﴿أَمْ لَهُمْ مِثْلُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَلْيَرْتَقُوا فِي الْأَسْبَابِ﴾ ١٠ ﴿جُنْدٌ مَا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِنَ الْأَحْزَابِ﴾ ١١

نفوسكم في الصبر عليها وعلى عبادتها، ولا يردكم عنها رادًّا، ولا يصدنكم عن عبادتها صاذًّا. ﴿إِنَّ هَذَا﴾: الذي جاء به محمد من النهي عن عبادتها ﴿لَشَيْءٌ يُرَادُّ﴾: أي: يقصد؛ أي: له قصد ونية غير صالحة في ذلك، وهذه شبهة لا تروج إلا على السفهاء؛ فإن من دعا إلى قول حق أو غير حق لا يُردُّ قوله بالقدر في نيته؛ فنيته وعمله له، وإنما يرد بمقابلته بما يبطله ويفسده من الحجج والبراهين، وهم قصدهم أن محمدًا ما دعاكم إلى ما دعاكم إلا ليرأس فيكم ويكون معظمًا عندكم متبوعًا.

﴿٧﴾ ﴿مَّا سَمِعْنَا بِهَذَا﴾: القول الذي قاله والدين الذي دعا إليه ﴿فِي آيَةِ الْآخِرَةِ﴾: أي: في الوقت الأخير، فلا أدركنا عليه آباءنا، ولا آباؤنا أدركوا آباءهم عليه؛ فامضوا على الذي مضى عليه آباؤكم؛ فإنه الحق، وما هذا الذي دعا إليه محمد إلا اختلاق اختلقه وكذب افتراه. وهذه أيضًا شبهة من جنس شبهتهم الأولى؛ حيث ردوا الحق بما ليس بحجة لرد أدنى قول، وهو أنه قول مخالف لما عليه آباؤهم الضالون؛ فأين في هذا ما يدل على بطلانه؟!

﴿٨﴾ ﴿أَمْ نَزَّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرَ مِنْ بَيْنِنَا﴾: أي: ما الذي فضله علينا حتى ينزل الذكر عليه من دوننا ويخصه الله به؟ وهذه أيضًا شبهة، أين البرهان فيها على رد ما قاله؟ وهل جميع الرسل إلا بهذا الوصف؟! يَمُنُّ الله عليهم برسائله ويأمرهم بدعوة الخلق إلى الله. ولهذا؛ لما كانت هذه الأقوال الصادرة منهم لا يصلح شيء منها لرد ما جاء به الرسول؛ أخبر تعالى من أين صدرت، وأنهم ﴿فِي شَكٍّ مِنْ ذِكْرِي﴾: ليس عندهم علم ولا بينة، فلما وقعوا في الشك وارتضوا به وجاءهم الحق الواضح وكانوا جازمين بإقامتهم على شكهم؛ قالوا ما قالوا من تلك الأقوال لدفع الحق، لا عن بينة من أمرهم، وإنما ذلك من باب الالتفak منهم. ومن المعلوم أن من هو بهذه الصفة يتكلم عن شك وعناد؛ فإن قوله غير مقبول ولا قادح أدنى قدح في الحق، وأنه يتوجه عليه الذم واللوم بمجرد كلامه، ولهذا توعدهم بالعذاب، فقال: ﴿بَلْ لَّمَّا يَدُورُوا عَذَابِ﴾: أي: قالوا هذه الأقوال وتجروا عليها؛ حيث كانوا متمتعين في الدنيا، لم يصبهم من عذاب الله شيء؛ فلو ذاقوا عذابه؛ لم يتجرءوا.

﴿٩﴾ ﴿أَمْ عَنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ﴾: فيعطون منها من شاءوا ويمنعون منها من شاءوا؛ حيث قالوا:

﴿١﴾ هذا بيان من الله تعالى لحال القرآن وحال المكذبين به معه ومع من جاء به، فقال: ﴿صَّ وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ﴾: أي: ذي القدر العظيم والشرف، المذكر للعباد كل ما يحتاجون إليه من العلم بأسماء الله وصفاته وأفعاله، ومن العلم بأحكام الله الشرعية، ومن العلم بأحكام المعاد والجزاء؛ فهو مذكر لهم في أصول دينهم وفروعه. وهنا لا يحتاج إلى ذكر المقسم عليه؛ فإن حقيقة الأمر أن المقسم به وعليه شيء واحد، وهو هذا القرآن الموصوف بهذا الوصف الجليل.

﴿٢﴾ فإذا كان القرآن بهذا الوصف؛ علم ضرورة العباد إليه فوق كل ضرورة، وكان الواجب عليهم تلقيه بالإيمان والتصديق والإقبال على استخراج ما يتذكر به منه، فهدى الله من هدى لهذا، وأبى الكافرون به وبمن أنزله، وصار معهم عزة وشقاق، عزة وامتناع عن الإيمان به، واستكبار وشقاق له؛ أي: مشاقة ومخاصمة في رده وإبطاله وفي القدح بمن جاء به.

﴿٣﴾ فتوعدهم بإهلاك القرون الماضية المكذبة بالرسول، وأنهم حين جاءهم الهلاك؛ نادوا واستغاثوا في صرف العذاب عنهم، ولكن ﴿وَلَا تَجِيءُ مَنَاصِي﴾: أي: وليس الوقت وقت خلاص مما وقعوا فيه ولا فرج لما أصابهم، فليحذر هؤلاء أن يدوموا على عزتهم وشقاقهم؛ فيصيبهم ما أصابهم.

﴿٤﴾ ﴿وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ﴾: أي: عجب هؤلاء المكذبون في أمر ليس محل عجب أن جاءهم منذر منهم ليتمكنوا من التلقي عنه وليعرفوه حق المعرفة، ولأنه من قومهم؛ فلا تأخذهم النخوة القومية عن اتباعه؛ فهذا مما يوجب الشكر عليهم وتام الانقياد له، ولكنهم عكسوا القضية، فنعجبوا تعجب إنكار، وقالوا من كفرهم وظلمهم: ﴿هَذَا سِحْرٌ كَذَّابٌ﴾!

﴿٥﴾ وذنبه عندهم أنه جعل ﴿الْأَلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا﴾: أي: كيف ينهى عن اتخاذ الشركاء والأنداد ويأمر بإخلاص العبادة لله وحده؟! ﴿إِنَّ هَذَا﴾: الذي جاء به ﴿لَشَيْءٌ عَجَابٌ﴾: أي: يقضى منه العجب لبطلانه وفساده عندهم.

﴿٦﴾ ﴿وَأَنطَلَقَ الْآلَاءُ مِنْهُمْ﴾: المقبول قولهم، محرضين قومهم على التمسك بما هم عليه من الشرك. ﴿أَنْ أَسْأَلُوا وَاصْبِرُوا عَلَى الْهَيْكَلِ﴾: أي: استمروا عليها وجاهدوا

من الرسل؛ فإن قولهم لا يضر الحق شيئاً، ولا يضرونك في شيء، وإنما يضرون أنفسهم.

﴿وَأَذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ (٧) ﴿إِنَّا سَخَرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَمِيِّ وَالْإِشْرَاقِ﴾ (٨) ﴿وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَّكَ أَوَّابٌ﴾ (٩) ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَأَيَّنْتُهُ الْحِكْمَةَ وَفَصَّلَ الْخُطَابِ﴾ (١٠).

﴿٧﴾ لما أمر الله رسوله بالصبر على قومه؛ أمره أن يستعين على الصبر بالعبادة لله وحده، ويتذكر حال العابدين؛ كما قال في الآية الأخرى: ﴿فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا﴾ [طه: ١٣٠]. ومن أعظم العابدين نبي الله داود عليه الصلاة والسلام، ﴿ذَا الْأَيْدِ﴾؛ أي: القوة العظيمة على عبادة الله تعالى في بدنه وقلبه. ﴿إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ (٧)؛ أي: رجّاع إلى الله في جميع الأمور بالإنابة إليه بالحب والتأله والخوف والرجاء وكثرة التضرع والدعاء، رجّاع إليه عندما يقع منه بعض الخلل بالإقلاع والتوبة النصوح.

﴿٨﴾، ﴿٩﴾ ومن شدة إنابته لربه وعبادته أن سخر الله الجبال معه تسبح معه بحمد ربها ﴿بِالْعَمِيِّ وَالْإِشْرَاقِ﴾ (٨)؛ أول النهار وآخره، وسخر الطير ﴿مَحْشُورَةً﴾: معه مجموعة. ﴿كُلٌّ﴾: من الجبال والطير ﴿لَكَ﴾ تعالى ﴿أَوَّابٌ﴾ (٩)؛ امتثالاً لقوله تعالى: ﴿يَسْجُدُ أَوَّابٌ مَعَهُ وَالطَّيْرُ﴾ [سبا: ١٠]. فهذه منة الله عليه بالعبادة.

﴿١٠﴾ ثم ذكر مته عليه بالملك العظيم، فقال: ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ﴾؛ أي: قويناه بما أعطيناه من الأسباب وكثرة العدد والعدد التي بها قوى الله ملكه. ثم ذكر مته عليه بالعلم، فقال: ﴿وَأَيَّنْتُهُ الْحِكْمَةَ﴾؛ أي: النبوة والعلم العظيم ﴿وَفَصَّلَ الْخُطَابِ﴾ (١٠)؛ أي: الخصومات بين الناس.

﴿وَهَلْ أُنْتِكَ نَبَوُا الْخَصَمَ إِذْ سَوَّرُوا الْإِحْرَابَ﴾ (١١) ﴿إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا تَحْفَظْ خَصْمَانِ بَعَى بَعْضًا عَلَى بَعْضٍ فَاحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ﴾ (١٢) ﴿إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَجْمَةً وَلِيَ نَجْمَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخُطَابِ﴾ (١٣) ﴿قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَجِيكِ إِنْ يَأْجِهْ وَإِنْ كَثُرَ مِنْ الظُّلَمَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَا هُمْ وَظَنَّ دَاوُدُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ﴾ (١٤) ﴿فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ وَإِنْ

﴿أَنزَلَ عَلَيْهِ الذِّكْرَ مِنْ بَيْنِنَا﴾؛ أي: هذا فضله تعالى ورحمته، وليس ذلك بأيديهم حتى يتجرؤوا على الله.

﴿١١﴾ ﴿أَمَرَ لَهُمْ مَلَكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾: بحيث يكونون قادرين على ما يريدون، ﴿فَلْيَرْقُؤْا فِي الْأَنْسَابِ﴾ (١١)؛ الموصلة لهم إلى السماء، فيقطعوا الرحمة عن رسول الله! فكيف يتكلمون وهم أعجز خلق الله وأضعفهم بما تكلموا به؟!

﴿١٢﴾ أم قصدهم التحزب والتجند والتعاون على نصر الباطل وخذلان الحق، وهو الواقع؛ فإن هذا المقصود لا يتم لهم، بل سعيهم خائب، وجندهم مهزوم، ولهذا قال: ﴿جُنْدٌ مَا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِنَ الْأَحْزَابِ﴾ (١٢).

﴿كَذَبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْدَادِ﴾ (١٣) ﴿وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَبُ لَيْكَةِ أُولَئِكَ الْأَحْزَابُ﴾ (١٤) ﴿إِنْ كُلُّ إِلَّا كَذَّبَ الرَّسْلَ فَحَقَّ عِقَابِ﴾ (١٥) ﴿وَمَا يَنْظُرُ هَؤُلَاءِ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً مَّا لَهَا مِنْ فَوَاقٍ﴾ (١٥).

﴿١٣﴾ - ﴿١٤﴾ يحذرهم تعالى أن يفعل بهم ما فعل بالأمم من قبلهم، الذين كانوا أعظم قوة منهم وتحزباً على الباطل. ﴿قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ﴾: قوم هود ﴿وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْدَادِ﴾ (١٣)؛ أي: الجنود العظيمة والقوة الهائلة، ﴿وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَبُ لَيْكَةِ﴾: قوم صالح، ﴿وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَبُ لَيْكَةِ﴾؛ أي: الأشجار والبساتين المختلفة، وهم قوم شعيب. ﴿أُولَئِكَ الْأَحْزَابُ﴾ (١٣)؛ الذين اجتمعوا بقوتهم وعددهم وعددهم على رد الحق، فلم تغن عنهم شيئاً ﴿إِنْ كُلُّ﴾: من هؤلاء ﴿إِلَّا كَذَّبَ الرَّسْلَ فَحَقَّ﴾: عليهم ﴿عِقَابِ﴾ (١٤)؛ الله، وهؤلاء ما الذي يطهرهم ويزكيهم ألا يصيبهم ما أصاب أولئك؟ فليتظروا ﴿صَيْحَةً وَاحِدَةً مَّا لَهَا مِنْ فَوَاقٍ﴾ (١٥)؛ أي: من رجوع ورد، تهلكهم، وتستأصلهم إن أقاموا على ما هم عليه.

﴿وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّلْ لَنَا قِطْنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ﴾ (١٦).

﴿١٦﴾ أي: قال هؤلاء المكذبون من جهلهم ومعاندتهم الحق مستعجلين للعذاب: ﴿رَبَّنَا عَجِّلْ لَنَا قِطْنَا﴾؛ أي: قسطنا وما قسم لنا من العذاب عاجلاً ﴿قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ﴾ (١٦)؛ ولجوا في هذا القول، وزعموا أنك يا محمد إن كنت صادقاً؛ فعلامة صدقك أن تأتينا بالعذاب.

فقال لرسوله: ﴿أَصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ﴾: كما صبر من قبلك

لَهُ عِنْدَنَا لُزْزَتٌ وَحُسْنٌ مَتَابٍ ﴿٢٥﴾ يَدَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ يَوْمَ نُسَوِّدُ يَوْمَ الْحِسَابِ ﴿٢٦﴾.

﴿٢٥﴾ لما ذكر تعالى أنه أتى نبيه داود الفصل في الخطاب بين الناس، وكان معروفاً بذلك مقصوداً؛ ذكر تعالى نبأ خصمين اختصما عنده في قضية جعلهما الله فتنه لداود وموعظة لخلل ارتكبه، فتاب الله عليه وغفر له وقيض له هذه القضية، فقال لنبيه محمد ﷺ: ﴿وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ﴾؛ فإنه نبأ عجيب، ﴿إِذْ سَوَّرُوا﴾؛ على داود ﴿الْمِحْرَابَ﴾؛ أي: محل عبادته من غير إذن ولا استئذان، ولم يدخلوا عليه من باب.

﴿٢٦﴾ فلذلك لما دخلوا عليه بهذه الصورة؛ فزع منهم وخاف، فقالوا له: نحن ﴿خَصَمَانٌ﴾؛ فلا تخف، ﴿بَنَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ﴾؛ بالظلم، ﴿فَاحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ﴾؛ أي: بالعدل ولا تؤول مع أحدهما، ﴿وَلَا تَشْطُطْ وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ﴾.

﴿٢٧﴾ والمقصود من هذا أن الخصمين قد عرف أن قصدهما الحق الواضح الصرف، وإذا كان ذلك؛ فسيقضان عليه نبأهما بالحق، فلم يشتم نبي الله داود من وعظهما له ولم يؤنبهما، فقال أحدهما: ﴿إِنَّ هَذَا أَخِي﴾؛ نص على الأخوة في الدين فقال الآخر: ﴿وَأَنْ بَغِيهِ الصَّادِرُ مِنْهُ أَكْبَرُ مِنْ لُغْلُغَةِ بَنِي بَعْضٍ عَلَى بَعْضٍ﴾؛ أي: زوجة، وذلك خير كثير يوجب عليه القناعة بما آتاه الله، ﴿وَلَيْ نَجْعَ وَجِدَّةٌ﴾؛ فطمع فيها، ﴿فَقَالَ أَكْثَلِيَّيَا﴾؛ أي: دعها لي وخلصها في كفالتني، ﴿وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ﴾؛ أي: غلبني في القول، فلم يزل بي حتى أدركها أو كاد.

﴿٢٨﴾ فقال داود لما سمع كلامه، ومن المعلوم من السياق السابق من كلامهما أن هذا هو الواقع؛ فلهذا لم يحتج أن يتكلم الآخر؛ فلا وجه للاعتراض يقول القائل: لم حكم داود قبل أن يسمع كلام الخصم الآخر؟ ﴿لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَجِيَّتِكَ إِلَى نِعَاجِهِ﴾؛ وهذه عادة الخلقاء والقرناء - الكثير منهم - فقال: ﴿وَإِنْ كَثُرَ مِنْ لُغْلُغَةِ بَنِي بَعْضٍ عَلَى بَعْضٍ﴾؛ لأن الظلم من صفة النفوس ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾؛ فإن ما معهم من الإيمان والعمل الصالح يمنعه من الظلم، ﴿وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾؛ كما قال تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ ﴿١٣﴾. [سبأ: ١٣]. ﴿وَلَقَدْ دَاوُدُ﴾؛ حين حكم بينهما ﴿أَنَّمَا فَتْنَةٌ﴾؛ أي: اختبرناه ودبرنا عليه هذه القضية ليتنبه، ﴿فَاسْتَغْفِرَ رَبَّهُ﴾؛ لما صدر منه، ﴿وَحَرَّ رَاكِعًا﴾؛ أي: ساجداً، ﴿وَأَنَابَ﴾؛ لله تعالى بالتوبة النصوح والعبادة.

﴿٢٩﴾ ﴿فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ﴾؛ الذي صدر منه، وأكرمه الله بأنواع الكرامات، فقال: ﴿وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُزَّةً﴾؛ أي: منزلة عالية وقربة منا، ﴿وَحُسْنٌ مَتَابٍ﴾؛ أي: مرجع. وهذا الذنب الذي صدر من داود عليه السلام لم يذكره الله لعدم الحاجة إلى ذكره؛ فالتعرض له من باب التكلف، وإنما الفائدة ما قصه الله علينا من لطفه به وتوبته وإنابته وأنه ارتفع محله فكان بعد التوبة أحسن منه قبلها.

﴿٣٠﴾ يَدَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ؛ تنفذ فيها القضايا الدينية والدنيوية، ﴿فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ﴾؛ أي: العدل، وهذا لا يتمكن منه إلا بعلم بالواجب، وعلم بالواقع، وقدرة على تنفيذ الحق، ﴿وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ﴾؛ فتميل مع أحد لقرابة أو صداقة أو محبة أو بغض للآخر، ﴿فَيُضِلَّكَ﴾؛ الهوى ﴿عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾؛ ويخرجك عن الصراط المستقيم. ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ

سورة ص
أَصْبَرَ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَذَكَرَ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴿٢٧﴾
إِنَّا سَخَرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعُثَىٰ وَالْإِشْرَاقِ ﴿٢٨﴾ وَالطَّيْرِ
مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ ﴿٢٩﴾ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَأَيَّانَهُ الْحِكْمَةَ
وَقَصَلْنَا لَخِطَابٍ ﴿٣٠﴾ وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ سَوَّرُوا
الْمِحْرَابَ ﴿٣١﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا تَخَفْ
خَصَمَانِ بَنَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ فَاحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ
وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ ﴿٣٢﴾ إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَجَّةً
وَلَيْ نَجَّةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ ﴿٣٣﴾ قَالَ
لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَجِيَّتِكَ إِلَى نِعَاجِهِ وَإِنْ كَثُرَ مِنْ لُغْلُغَةِ بَنِي
بَعْضٍ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ
مَّا هُمْ وَلَقَدْ دَاوُدُ أَنَّمَا فَتْنَةٌ فَاَسْتَغْفِرَ رَبَّهُ وَحَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ
﴿٣٤﴾ فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُزَّةً وَحُسْنٌ مَتَابٍ
﴿٣٥﴾ يَدَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ
بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ
عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ يَوْمَ نُسَوِّدُ يَوْمَ الْحِسَابِ ﴿٣٦﴾

سَبِيلَ اللَّهِ: خصوصاً المتعمدين منهم ﴿لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ بما سَوَّوْا يَوْمَ الْحِسَابِ ﴿٢٦﴾؛ فلو ذكروه ووقع خوفه في قلوبهم؛ لم يميلوا مع الهوى الفاتن.

﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَطْلًا﴾ ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ ﴿٢٧﴾ أَمْ تَجْعَلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ تَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾ كَتَبَ أَرْزُلَهُ إِلَيْكَ مُبَرِّكٌ لِيَذْبِرَ ءَايَتِهِ وَلِيَسْذَكَّرَ أُولَؤُلَ الْأَلْبَابِ ﴿٢٩﴾.

﴿٢٧﴾ يخبر تعالى عن تمام حكمته في خلقه السماوات والأرض، وأنه لم يخلقهما ﴿بَطْلًا﴾؛ أي: عبثاً ولعباً من غير فائدة ولا مصلحة. ﴿ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾: برهم حيث ظنوا ما لا يليق بجلاله. ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ﴾: فإنها التي تأخذ الحق منهم وتبلغ منهم كل مبلغ. وإنما خلق الله السماوات والأرض بالحق وللحق، فخلقهما ليعلم العباد كمال علمه وقدرته وسعة سلطانه، وأنه تعالى وحده المعبود دون من لم يخلق مثقال ذرة من السماوات والأرض، وأن البعث حق، وسيفصل الله بين أهل الخير والشر، ولا يظن الجاهل بحكمة الله أن يسوي الله بينهم في حكمه.

﴿٢٨﴾ ولهذا قال: ﴿أَمْ تَجْعَلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ تَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ﴾ ﴿٢٨﴾: هذا غير لائق بحكمتنا وحكمنا.

﴿٢٩﴾ كَتَبَ أَرْزُلَهُ إِلَيْكَ مُبَرِّكٌ: فيه خير كثير وعلم غزير، فيه كل هدى من ضلالة، وشفاء من داء، ونور يستضاء به في الظلمات، وكل حكم يحتاج إليه المكلفون، وفيه من الأدلة القطعية على كل مطلوب ما كان به أجل كتاب طرق العالم منذ أنشأ الله، ﴿لِيَذْبِرَ ءَايَتِهِ﴾؛ أي: هذه الحكمة من إنزاله؛ ليتدبر الناس آياته، فيستخرجوا علمها، ويتأملوا أسرارها وحكمها؛ فإنه بالتدبر فيه والتأمل لمعانيه وإعادة الفكر فيها مرة بعد مرة تدرك بركته وخيره، وهذا يدل على الحث على تدبر القرآن، وأنه من أفضل الأعمال، وأن القراءة المشتملة على التدبر أفضل من سرعة التلاوة التي لا يحصل بها هذا المقصود، ﴿وَلِيَسْذَكَّرَ أُولَؤُلَ الْأَلْبَابِ﴾ ﴿٢٩﴾؛ أي: أولو العقول الصحيحة، يتذكرون بتدبرهم لها كل علم ومطلب. فدل هذا على أنه بحسب لب الإنسان وعقله يحصل له التذكر والانتفاع بهذا الكتاب.

﴿وَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَنَ نِّعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ ءَوَّابٌ﴾ ﴿٣٠﴾ إِذْ عَرَضَ عَلَيْهِ بِالْعَنِيِّ الصَّفِينَتُ الْجِيَادُ ﴿٣١﴾ فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ ﴿٣٢﴾ رُدُّوْهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَنَ وَالْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَداً ثُمَّ أَنَابَ ﴿٣٤﴾ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكاً لَا يَبْغِي لِأَحَدٍ مِنِّ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾ فَسَخَرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾ وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَتَاءٍ وَعَوَاصٍ ﴿٣٧﴾ وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾ هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٩﴾ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى وَحَسَنَ مَّكَارٍ ﴿٤٠﴾.

﴿٣٠﴾ لما أتى الله تعالى على داود وذكر ما جرى له ومنه؛ أتى على ابنه سليمان عليهما السلام، فقال: ﴿وَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَنَ﴾؛ أي: أنعمنا به عليه وأقرنا به عينه. ﴿نِّعْمَ الْعَبْدُ﴾: سليمان عليه السلام، فإنه اتصف بما يوجب المدح، وهو

فمنها: أن الله تعالى يقص على نبيه محمد ﷺ أخبار من قبله ليثبت فؤاده وتطمئن نفسه، ويذكر له من عباداتهم وشدة صبرهم وإنابتهم ما يشوقه إلى منافستهم والتقرب إلى الله الذي تقربوا له والصبر على أذى قومه، ولهذا في هذا الموضع لما ذكر الله ما ذكر من أذية قومه وكلامهم فيه وفيما جاء به؛ أمره بالصبر، وأن يذكر عبده داود فيتسلى به.

ومنها: أن الله تعالى يمدح ويحب القوة في طاعته؛ قوة القلب والبدن؛ فإنه يحصل منها من آثار الطاعة وحسنها وكثرتها ما لا يحصل مع الوهن وعدم القوة، وأن العبد ينبغي له تعاطي أسباهاها وعدم الركون إلى الكسل والبطالة المخلة بالقوة المضعفة للنفس.

ومنها: أن الرجوع إلى الله في جميع الأمور من أوصاف أنبياء الله وخوائص خلقه؛ كما أثنى الله على داود وسليمان بذلك؛ فليقتد بهما المقتدون، وليهتد بهداهم السالكون، ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَيُهْدِيهِمْ فَأَتَدِرُهُمْ﴾ [الأنعام: ٩٠].

ومنها: ما أكرم الله به نبيه داود عليه السلام من حسن الصوت العظيم الذي جعل الله بسببه الجبال الصم والطيور البهيم يجاوبونه إذا رجّع صوته بالتسبيح، ويُسبحن معه بالعشي والإشراق.

ومنها: أن من أكبر نعم الله على عبده أن يرزقه العلم النافع ويعرف الحكم والفصل بين الناس؛ كما امتن الله به على عبده داود عليه السلام.

ومنها: اعتناء الله تعالى بأنبيائه وأصفيائه عندما يقع منهم بعض الخلل بفتنته إياهم وابتلائهم بما به يزول عنهم المحذور، ويعودون إلى أكمل من حالتهم الأولى؛ كما جرى لداود وسليمان عليهما السلام.

ومنها: أن الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم معصومون من الخطأ فيما يبلغون عن الله تعالى؛ لأن مقصود الرسالة لا يحصل إلا بذلك، وأنه قد يجري منهم بعض مقتضيات الطبيعة من المعاصي، ولكن الله يتداركهم ويبادرهم بلطفه.

ومنها: أن داود عليه السلام في أغلب أحواله لازماً محرابه لخدمة ربه، ولهذا تسور الخصمان عليه المحراب؛ لأنه كان إذا خلا في محرابه؛ لا يأتيه أحد، فلم يجعل كل وقته للناس مع كثرة ما يرد عليه من الأحكام، بل جعل له وقتاً يخلو فيه

﴿إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾؛ أي: رجّاع إلى الله في جميع أحواله بالتأله والإنابة والمحبة والذكر والدعاء والتضرع والاجتهاد في مرضاة الله وتقديما على كل شيء.

﴿٣١﴾ - ﴿٣٢﴾ ولهذا؛ لما عرضت عليه الخيل الجياد السبق ﴿الْمُصَفِّنَاتُ﴾؛ أي: التي من وصفها الصفون، وهو رفع إحدى قوائمها عند الوقوف، وكان لها منظر رائع وجمال معجب، خصوصاً للمحتاج إليها؛ كالمملوك؛ فما زالت تعرض عليه حتى غابت الشمس في الحجاب، فألهته عن صلاة المساء وذكره، فقال ندماً على ما مضى منه، وتقرباً إلى الله بما ألهاه عن ذكره، وتقديماً لحب الله على حب غيره: ﴿إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ﴾؛ وضمن أحببت معنى أثرت؛ أي: أثرت حب الخير الذي هو المال عموماً وفي الموضع المراد الخيل ﴿عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ﴾ ﴿رُدُّوْهَا عَلَيَّ﴾؛ فردوها، ﴿فَطَفِقْ﴾؛ فيها ﴿مَسْحًا بِأَسْوَاقٍ﴾ ﴿وَالْأَعْنَاقِ﴾؛ أي: جعل يعقرها بسيفه في سوقها وأعناقها.

﴿٣٣﴾ ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ﴾؛ أي: ابتليناه واختبرناه بذهاب ملكه وانفصاله عنه بسبب خلل اقتضته الطبيعة البشرية، ﴿وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَداً﴾؛ أي: شيطاناً قضى الله وقدر أن يجلس على كرسي ملكه ويتصرف في الملك في مدة فتنة سليمان، ﴿ثُمَّ أَنَابَ﴾؛ سليمان إلى الله تعالى، وتاب.

﴿٣٤﴾ - ﴿٣٥﴾ ﴿فَ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَبْغِي لِأَحَدٍ مِنِّي بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْكَوَّابُ﴾؛ فاستجاب الله له، وغفر له، وردّ عليه ملكه، وزاده ملكاً لم يحصل لأحد من بعده، وهو تسخير الشياطين له يبنون ما يريد، ويغوصون له في البحر يستخرجون الدر والحلي، ومن عصاه منهم؛ قرّنه في الأصفاة وأوثقه، وقلنا له: ﴿هَذَا عَطَاؤُنَا﴾؛ فقرر به عينا، ﴿فَأَنزَلْنَاهُ﴾؛ على من شئت، ﴿أَوْ أَمْسِكْ﴾؛ من شئت ﴿بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾؛ أي: لا حرج عليك في ذلك ولا حساب؛ لعلمه تعالى بكمال عدله وحسن أحكامه.

﴿٣٦﴾ ولا تحسبن هذا لسليمان في الدنيا دون الآخرة، بل له في الآخرة خير عظيم، ولهذا قال: ﴿وَأَن لَّهُ عِندَنَا زُكُوفٌ وَحَسَنَ مَّكَابٍ﴾؛ أي: هو من المقربين عند الله المكرمين بأنواع الكرامات لله.

فصل

فيما تبين لنا من الفوائد والحكم في قصة داود وسليمان عليهما السلام.

ومنها: أن الحكم بين الناس مرتبة دينية توليها رسل الله وخواص خلقه، وأن وظيفة القائم بها الحكم بالحق ومجانبة الهوى؛ فالحكم بالحق يقتضي العلم بالأمور الشرعية والعلم بصورة القضية المحكوم بها وكيفية إدخالها في الحكم الشرعي؛ فالجاهل بأحد الأمرين لا يصلح للحكم، ولا يحل له الإقدام عليه.

ومنها: أنه ينبغي للحاكم أن يحذر الهوى ويجعله منه على بال؛ فإن النفوس لا تخلو منه، بل يجاهد نفسه بأن يكون الحق مقصوده، وأن يلقي عنه وقت الحكم كل محبة أو بغض لأحد الخصمين.

ومنها: أن سليمان عليه السلام من فضائل داود ومن منن الله عليه حيث وهبه له، وأن من أكبر نعم الله على عبده أن يهب له ولدًا صالحًا؛ فإن كان عالمًا؛ كان نورًا على نور.

ومنها: ثناء الله تعالى على سليمان ومدحه في قوله: ﴿يَعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ ﴿٣١﴾.

ومنها: كثرة خير الله وبره بعبده أن يمن عليهم بصالح الأعمال ومكارم الأخلاق، ثم ينهي عليهم بها، وهو المتفضل الوهاب.

ومنها: تقديم سليمان محبة الله تعالى على محبة كل شيء.

ومنها: أن كل ما أشغل العبد عن الله؛ فإنه مشغوم مذموم؛ فليفارقه وليقبل على ما هو أنفع له.

ومنها: القاعدة المشهورة: من ترك شيئًا لله؛ عوضه الله خيرًا منه. فسليمان عليه السلام عقر الجياد الصافنات المحبوبة للنفوس تقديمًا لمحبة الله، فعوضه الله خيرًا من ذلك؛ بأن سخر له الريح الرخاء اللينة التي تجري بأمره إلى حيث أراد وقصد، غدوها شهر ورواحها شهر، وسخر له الشياطين أهل الاقتدار على الأعمال التي لا يقدر عليها آدميون.

ومنها: أن تسخير الشياطين لا يكون لأحد بعد سليمان عليه السلام.

ومنها: أن سليمان عليه السلام كان ملكًا نبياً، يفعل ما أراد، ولكنه لا يريد إلا العدل، بخلاف النبي العبد؛ فإنه تكون إرادته تابعة لأمر الله؛ فلا يفعل ولا يترك إلا بالأمر؛ كحال نبينا ﷺ، وهذه الحال أكمل.

بربه وتقر عينه بعبادته، وتعينه على الإخلاص في جميع أموره.

ومنها: أنه ينبغي استعمال الأدب في الدخول على الحكام وغيرهم؛ فإن الخصمين لما دخلا على داود في حالة غير معتادة ومن غير الباب المعهود؛ فزع منهم، واشتد عليه ذلك، ورآه غير لائق بالحال.

ومنها: أنه لا يمنع الحاكم من الحكم بالحق سوء أدب الخصم وفعله ما لا ينبغي.

ومنها: كمال حلم داود عليه السلام؛ فإنه ما غضب عليهما حين جاءاه بغير استئذان، وهو الملك، ولا انتهرهما، ولا وبخهما.

ومنها: جواز قول المظلوم لمن ظلمه: أنت ظلمتني أو: يا ظالم! ونحو ذلك أو باغ علي! لقولهما: ﴿حَصَّانَ يَبَئُ بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ﴾.

ومنها: أن الموعوظ والمنصوح، ولو كان كبير القدر جليل العلم، إذا نصحه أحد أو وعظه؛ لا يغضب ولا يشتمز، بل يبادره بالقبول والشكر؛ فإن الخصمين نصحا داود، فلم يشتمز ولم يغضب ولم يثنه ذلك عن الحق، بل حكم بالحق الصرف.

ومنها: أن المخالطة بين الأقارب والأصحاب وكثرة التعلقات الدنيوية المالية. موجبة للتعادي بينهم، وبغي بعضهم على بعض، وأنه لا يرد عن ذلك إلا استعمال تقوى الله والصبر على الأمور بالإيمان والعمل الصالح، وأن هذا من أقل شيء في الناس.

ومنها: أن الاستغفار والعبادة، خصوصًا الصلاة، من مكفرات الذنوب؛ فإن الله رتب مغفرة ذنب داود على استغفاره وسجوده.

ومنها: إكرام الله لعبده داود وسليمان بالقرب منه وحسن الثواب، وألا يظن أن ما جرى لهما منقص لدرجتهما عند الله تعالى، وهذا من تمام لطفه بعباده المخلصين؛ أنه إذا غفر لهم وأزال أثر ذنوبهم؛ أزال الآثار المترتبة عليه كلها، حتى ما يقع في قلوب الخلق؛ فإنهم إذا علموا ببعض ذنوبهم؛ وقع في قلوبهم نزولهم عن درجتهم الأولى، فأزال الله تعالى هذه الآثار، وما ذاك بعزیز على الكريم الغفار.

﴿وَذَكَرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ۚ﴾ ﴿٤١﴾ ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴿٤٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُولَى الْأَلْبَابِ ﴿٤٣﴾ وَخَذْ بِيدِكَ صِفْعًا فَأَضْرِبْ بِوَعْدِ اللَّهِ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعَمَ الْعَبْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴿٤٤﴾

﴿٤١﴾ أي: ﴿وَذَكَرْ﴾: في هذا الكتاب ذي الذكر ﴿عَبْدَنَا أَيُّوبَ﴾: بأحسن الذكر، وأثن عليه بأحسن الثناء؛ حين أصابه الضر فصر على ضربه، فلم يشتك لغير ربه، ولا لجأ إلا إليه. فـ ﴿نَادَىٰ رَبَّهُ﴾: داعيًا، وإليه لا إلى غيره شاكياً، فقال: رب ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾ ﴿٤٢﴾؛ أي: بأمر مشق متعب معذب، وكان سُلْطَ على جسده فنفخ فيه حتى تفرح ثم تقيح بعد ذلك، واشتد به الأمر، وكذلك هلك أهله وماله.

﴿٤٣﴾ فقيل له: ﴿ارْكُضْ بِرِجْلِكَ﴾؛ أي: اضرب الأرض بها؛ لينبع لك منها عين تغسل منها وتشرب، فيذهب عنك الضر والأذى، ففعل ذلك، فذهب عنه الضر وشفاه الله تعالى.

﴿٤٤﴾ ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ﴾: قيل: إن الله تعالى أحياهم له ﴿وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ﴾: في الدنيا، وأغناه الله وأعطاه مالا عظيما، ﴿رَحْمَةً مِنَّا﴾: بعدنا أيوب حيث صبر فأثبنا من رحمتنا ثوابا

عاجلا وأجلا. ﴿وَذَكَرَىٰ لِأُولَى الْأَلْبَابِ﴾ ﴿٤٣﴾؛ أي: وليتذكر أولو العقول بحالة أيوب ويعتبروا فيعلموا أن من صبر على الضر؛ فإن الله تعالى يثيبه ثوابا عاجلا وأجلا ويستجيب دعاءه إذا دعا.

﴿٤٤﴾ ﴿وَخَذْ بِيدِكَ صِفْعًا﴾؛ أي: حزمة شماريخ، ﴿فَأَضْرِبْ بِوَعْدِ اللَّهِ﴾: قال المفسرون: وكان في مرضه وضربه قد غضب على زوجته في بعض الأمور، فحلف لئن شفاه الله لضربها مائة جلدة، فلما شفاه الله، وكانت امرأته صالحة محسنة إليه؛ رحمها الله ورحمه، فأثناه أن يضربها بضغت فيه مائة شراخ ضربة واحدة فيبر في يمينه. ﴿إِنَّا وَجَدْنَاهُ﴾؛ أي: أيوب ﴿صَابِرًا﴾؛ أي: ابتليناه بالضر العظيم فصر لوجه الله تعالى. ﴿نِعَمَ الْعَبْدِ﴾: الذي كمل مراتب العبودية في حال السراء والضراء والشدة والرخاء، ﴿إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ ﴿٤٤﴾؛ أي: كثير الرجوع إلى الله في مطالبه الدينية والدنيوية، كثير الذكر لربه والدعاء والمجبة والتأله.

﴿وَذَكَرْ عَبْدَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولَى الْأَيْدِي وَالْأَبْصَرِ﴾ ﴿٤٥﴾ إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذَكَرَى الدَّارِ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّهُمْ عِنْدَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْآخِيَارِ ﴿٤٧﴾

﴿٤٥﴾ يقول تعالى: ﴿وَذَكَرْ عَبْدَنَا﴾: الذين أخلصوا لنا العبادة ذكرا حسنا ﴿إِبْرَاهِيمَ﴾: الخليل وابنه ﴿إِسْحَاقَ﴾: وابن ابنه يعقوب ﴿أُولَى الْأَيْدِي﴾؛ أي: القوة على عبادة الله تعالى، ﴿وَالْأَبْصَرِ﴾ ﴿٤٥﴾؛ أي: البصيرة في دين الله. فوصفهم بالعلم النافع والعمل الصالح الكثير.

﴿٤٦﴾ ﴿إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ﴾: عظيمة وخصيصة جسيمة، وهي: ﴿ذَكَرَى الدَّارِ﴾ ﴿٤٦﴾: جعلنا ذكرى الدار الآخرة في قلوبهم، والعمل لها صفوة وقتهم. والإخلاص والمراقبة لله وصفهم الدائم، وجعلناهم ذكرا الدار، يتذكر بأحوالهم المتذكر ويعتبر بهم المعبر، ويذكرون بأحسن الذكر.

﴿وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُولَى الْأَلْبَابِ ۚ﴾ ﴿٤٣﴾ وَخَذْ بِيدِكَ صِفْعًا فَأَضْرِبْ بِوَعْدِ اللَّهِ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعَمَ الْعَبْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴿٤٤﴾ وَذَكَرْ عَبْدَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولَى الْأَيْدِي وَالْأَبْصَرِ ﴿٤٥﴾ إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذَكَرَى الدَّارِ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّهُمْ عِنْدَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْآخِيَارِ ﴿٤٧﴾ وَاسْمِعِلْ وَالْإِسْعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلَّ مِنَ الْآخِيَارِ ﴿٤٨﴾ هَذَا ذَكَرَ وَإِنْ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْن مَتَابٍ ﴿٤٩﴾ جَنَّتْ عَيْنٌ مُنْعِنَةٌ لَّهُمُ الْكُتُوبُ ﴿٥٠﴾ مُتَكِينِينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَكَهْمٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ ﴿٥١﴾ وَعِنْدَهُمْ قَصِيرَاتُ الْظُرْفِ أَرْبَابٌ ﴿٥٢﴾ هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ الْحِسَابِ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَذَا لِرِزْقِنَا مَا لَهُم مِّن نَّفَادٍ ﴿٥٤﴾ هَذَا وَارْتِ لِّلْطَّالِعِينَ لَشَرَّ مَتَابٍ ﴿٥٥﴾ جَهَنَّمَ بَصُورًا فَنَسَّرَ لَهَا هَذَا ﴿٥٦﴾ فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَعَسَاقٌ ﴿٥٧﴾ وَآخِرُ مِنْ شَكْلِهِ أَرْوَجُ ﴿٥٨﴾ هَذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ لَا مَرْجَا بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ ﴿٥٩﴾ قَالُوا بَلْ أَنْتُمْ لَمَرْجَا بِكُمْ أَنْتُمْ قَدْ مَتَمُّوهُ لَنَا فَنَسَّرَ الْفَرَارِ ﴿٦٠﴾ قَالُوا رَبَّنَا مَنْ قَدَّمَ لَنَا هَذَا فَرَدُّهُ عَذَابًا يُضَعَّفَانِ فِي النَّارِ ﴿٦١﴾

وتلذه أعينهم، وهذا يدل على كمال النعيم وكمال الراحة والطمأنينة وتمام اللذة.

﴿٥٧﴾ وَعِنْدَهُمْ: من أزواجهم الحور العين ﴿قَصِرَتْ﴾ طرفهن على أزواجهن، وطرف أزواجهن عليهن لجمالهم كلهم ومحبة كل منهما للآخر وعدم طموحه لغيره، وأنه لا ينبغي بصاحبه بدلاً ولا عنه عوضاً، ﴿أَرْأَبُ﴾؛ أي: على سن واحد، أعدل سن الشباب وأحسنه وألذه.

﴿٥٨﴾ هَذَا مَا تُوعَدُونَ: أيها المتقون ﴿يَوْمَ الْحِسَابِ﴾: جزاء على أعمالكم الصالحة.

﴿٥٩﴾ إِنَّ هَذَا لَرِزْقُنَا: الذي أوردناه على أهل دار النعيم ﴿مَا لَهُ مِنْ نَفَادٍ﴾؛ أي: انقطاع، بل هو دائم مستقر في جميع الأوقات، متزايد في جميع الآتات، وليس هذا بعظيم على الرب الكريم، الرؤوف الرحيم، البر الجواد، الواسع الغني، الحميد اللطيف، الرحمن، الملك الديان، الجليل الجميل المنان، ذي الفضل الباهر والكرم المتواتر، الذي لا تحصى نعمه ولا يحاط ببعض بره.

﴿٦٠﴾ هَذَا وَإِنَّ لِلظَّالِمِينَ لَشَرَّ مَنَاقِبٍ ﴿جَهَنَّمَ يَصَلَوْنَهَا فَيَنْسُ الْمِهَادَ﴾ هَذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَعَسَاقُ ﴿٦١﴾ وَآخِرُ مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاجُ ﴿٦٢﴾ هَذَا فَوْجٌ مُقْتَنِمٌ مَعَكُمْ لَا مَرْجَأَ لَهُمْ إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ ﴿٦٣﴾ قَالُوا بَلْ أَنْتُمْ لَمَرْجَبٌ بِكُمْ أَنْتُمْ قَدْ مَتَمُّوهُ لَنَا فَيَنْسُ الْقَرَارَ ﴿٦٤﴾ قَالُوا رَبَّنَا مَنْ قَدَّمَ لَنَا هَذَا فَرَدَّهِ عَلَيْنَا ضِعْفًا فِي النَّارِ ﴿٦٥﴾ وَقَالُوا مَا لَنَا لَا نَرَى رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُمْ مِنْ الْأَشْرَارِ ﴿٦٦﴾ أَخَذَتْهُمْ سِجْرَاتٌ أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمْ الْأَبْصَارُ ﴿٦٧﴾ إِنَّ ذَلِكَ لَمَقْصُودٌ خَاصٌّ أَهْلِ النَّارِ ﴿٦٨﴾.

﴿٦٩﴾ هَذَا ﴿الجزاء للمتقين ما وصفناه، ﴿وَإِنَّ لِلظَّالِمِينَ﴾؛ أي: للمتجاوزين للحد في الكفر والمعاصي ﴿لَشَرَّ مَنَاقِبٍ﴾؛ أي: لشَرَّ مرجع ومنقلب.

﴿٧٠﴾ ثم فصله فقال: ﴿جَهَنَّمَ﴾: التي جمع فيها كل عذاب واشتد حرها وانتهى قرها ﴿يَصَلَوْنَهَا﴾؛ أي: يعذبون فيها عذاباً يحيط بهم من كل وجه، لهم من فوقهم ظلل من النار ومن تحتهم ظلل. ﴿فَيَنْسُ الْمِهَادَ﴾: المعد لهم مسكناً ومستقراً.

﴿٧١﴾ هَذَا ﴿المهاد، هذا العذاب الشديد والخزي والفضيحة والنكال. ﴿فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ﴾: ماء حار قد اشتد

﴿٧٢﴾ وَإِنَّهُمْ عِنْدَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ: الذين اصطفاهم الله من صفوة خلقه ﴿الْأَخْيَارِ﴾: الذين لهم كل خلق كريم وعمل مستقيم.

﴿٧٣﴾ وَادْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِنَ الْأَخْيَارِ ﴿٧٤﴾.

﴿٧٥﴾ أي: واذكر هؤلاء الأنبياء بأحسن الذكر، وأثن عليهم أحسن الثناء؛ فإن كلاً منهم من الأخيار، الذين اختارهم الله من الخلق، واختار لهم أكمل الأحوال من الأعمال والأخلاق والصفات الحميدة والخصال السديدة.

﴿٧٦﴾ هَذَا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لِحُسْنٍ مَنَاقِبٍ ﴿٧٧﴾ جَنَّاتٍ عَدْنٍ مُمْتِنَةٍ مُّكِّنَ فِيهَا يَدْخُلُونَهَا فِيهَا يَفْتَكِهَتُهُمْ كَثِيرَةٌ وَشَرَابٍ ﴿٧٨﴾ وَعِنْدَهُمْ قَصِيرَةٌ أَلْطَفِ أَرْأَبُ ﴿٧٩﴾ هَذَا مَا تُوعَدُونَ يَوْمَ الْحِسَابِ ﴿٨٠﴾ إِنَّ هَذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِنْ نَفَادٍ ﴿٨١﴾.

﴿٨٢﴾ هَذَا؛ أي: ذكر هؤلاء الأنبياء الصفوة، وذكر أوصافهم ﴿ذِكْرٌ﴾: في هذا القرآن ذي الذكر، يتذكر بأحوالهم المتذكرون، ويشتاقل إلى الاقتداء بأوصافهم الحميدة المقتدون، ويعرف ما من الله عليهم به من الأوصاف الزكية، وما نشر لهم من الثناء بين البرية. فهذا نوع من أنواع الذكر، وهو ذكر أهل الخير.

ومن أنواع الذكر ذكر جزاء أهل الخير وأهل الشر، ولهذا قال: ﴿وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ﴾: ربهم؛ بامثال الأوامر واجتناب النواهي من كل مؤمن ومؤمنة ﴿لِحُسْنٍ مَنَاقِبٍ﴾؛ أي: لمآباً حسناً ومرجعاً مستحسناً.

﴿٨٣﴾ ثم فسره وفصله فقال: ﴿جَنَّاتٍ عَدْنٍ﴾؛ أي: جنات إقامة لا ينبغي صاحبها بدلاً منها من كمالها وتمام نعيمها، وليسوا بخارجين منها ولا بمخرجين، ﴿مُمْتِنَةٍ﴾: مفتحة لأجلهم أبواب منازلها ومسكنها، لا يحتاجون أن يفتحوها هم، بل هم مخدومون، وهذا دليل أيضاً على الأمان التام، وأنه ليس في جنات عدن ما يوجب أن تغلق لأجله أبوابها.

﴿٨٤﴾ مُّكِّنَ فِيهَا: على الأرائك المزينات والمجالس المزخرات. ﴿يَدْخُلُونَهَا﴾؛ أي: يأمرهم خدامهم أن يأتوا ﴿يَفْتَكِهَتُهُمْ كَثِيرَةٌ وَشَرَابٍ﴾: من كل ما تشتهيه نفوسهم

حره، يشربونه فيقطع أمعاءهم، ﴿وَعَسَاقٌ﴾ (٥٧)؛ وهو أكره ما يكون من الشراب من قيق وصديد، مر المذاق، كريه الرائحة.

﴿٥٨﴾ ﴿وَمِنْ سَكْبَةٍ﴾؛ أي: من نوعه ﴿أَرْوَجُ﴾ (٥٩)؛ أي: عدة أصناف من أصناف العذاب، يعذبون بها ويخزون بها.

﴿٥٩﴾، ﴿٦٠﴾ وعند تواردهم على النار يشتد بعضهم بعضاً، ويقول بعضهم لبعض: ﴿هَذَا فَوْجٌ مُّقْتَدِمٌ مَّعَكُمْ﴾: النار لا مرحباً بكم، ﴿إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ﴾ (٥٩) ﴿قَالُوا﴾؛ أي: الفوج المقبل المقتحم: ﴿بَلْ أَنْتُمْ لَا مَرْحَبًا بِكُمْ أَنْتُمْ قَدْ مَتَّوْهُ﴾؛ أي: العذاب لنا؛ بدعوتكم لنا وفتنتكم وإضلالكم وتسيبكم. ﴿فَيَسَّ الْقَرَارُ﴾ (٦٠)؛ قرار الجميع قرار السوء والشر.

﴿٦١﴾ ثم دعوا على المغوين لهم: ﴿قَالُوا رَبَّنَا مَنْ قَدَّمَ لَنَا هَذَا فَرَدَّهِ عَذَابًا ضِعْفًا فِي النَّارِ﴾ (٦١)؛ وقال في الآية الأخرى: ﴿قَالَ لِكُلِّ ضِعْفٌ وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ (٦٢) ﴿[الاعراف: ٣٨]﴾.

﴿٦٢﴾ ﴿وَقَالُوا﴾: وهم في النار: ﴿مَا لَنَا لَا نَرَى رَجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُمْ مِنَ الْأَشْرَارِ﴾ (٦٢)؛ أي: كنا نزعهم أنهم من الأشرار المستحقين لعذاب النار، وهم المؤمنون، تفقدتهم أهل النار - قبحهم الله - هل يرونهم في النار؟

﴿٦٣﴾ ﴿أَتَخَذْتُمْ سَخِرِيًّا أَمْ رَاحَتَ عَنْهُمْ الْأَبْصَرُ﴾ (٦٣)؛ أي:

عدم رؤيتنا لهم دائر بين أمرين: إما أننا غلطون في عدنا إياهم من الأشرار، بل هم من الأخيار، وإنما كلامنا لهم من باب السخرية والاستهزاء بهم، وهذا هو الواقع؛ كما قال تعالى لأهل النار: ﴿إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِي يَقُولُوا تَقْبَلُونَ رَبَّنَا مَا خَفِرْنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ﴾ (٦٤) ﴿فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سَخِرِيًّا حَتَّىٰ أَنْسَوْكُم ذِكْرِي وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ﴾ (٦٥) ﴿[المؤمنون: ١٠٩، ١١٠]﴾.

والأمر الثاني: أنهم لعلمهم زاغت أبصارنا عن رؤيتهم معنا في العذاب، وإلا؛ فهم معنا معذبون، ولكن تجاوزتهم أبصارنا! فيحتمل أن هذا الذي في قلوبهم، فتكون العقائد التي اعتقدوها في الدنيا وكثرة ما حكموا لأهل الإيمان بالنار تمكنت من قلوبهم وصارت صبغة لها، فدخلوا النار وهم بهذه الحالة، فقالوا ما قالوا.

ويحتمل أن كلامهم هذا كلام تمويه؛ كما موهوا في الدنيا موهوا حتى في النار، ولهذا يقول أهل الأعراف لأهل النار: ﴿أَهْلُوا الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَتَالَهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ أَدْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ (٦٦) ﴿[الاعراف: ٤٩]﴾.

﴿٦٧﴾ قال تعالى مؤكداً ما أخبر به، وهو أصدق القائلين: ﴿إِنَّ ذَلِكَ﴾: الذي ذكرت لكم ﴿لَحَقٌّ﴾؛ ما فيه شك ولا مربة ﴿تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ﴾ (٦٧).

﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنذِرٌ وَمَا مِن إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ (٦٧) ﴿رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الْعَزِيزُ الْغَفُورُ﴾ (٦٨) ﴿قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ﴾ (٦٩) ﴿أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ﴾ (٧٠) ﴿مَا كَانَ لِي مِنْ عِلْمٍ بِاللَّيْلِ إِذَا يَخْصِفُ السُّحُومَ﴾ (٧١) ﴿إِنْ يُوحَىٰ إِلَيَّ إِلَّا أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ (٧٢) ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلٰٓئِكَةِ إِنِّي خَلَقْتُ بَشَرًا مِّن طِينٍ﴾ (٧٣) ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ (٧٤) ﴿فَسَجَدَ الْمَلٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾ (٧٥) ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ (٧٦) ﴿قَالَ يٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِدَيِّ اسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ﴾ (٧٧) ﴿قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾ (٧٨) ﴿قَالَ فَخَرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ﴾ (٧٩) ﴿وَأَن عَلَيْكَ لَْعْنَتِي إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ﴾ (٨٠) ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي﴾ (٨١)

سورة ص
﴿قَالُوا مَا لَنَا لَا نَرَى رَجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُمْ مِنَ الْأَشْرَارِ﴾ (٦٢) ﴿أَتَخَذْتُمْ سَخِرِيًّا أَمْ رَاحَتَ عَنْهُمْ الْأَبْصَرُ﴾ (٦٣) ﴿إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ﴾ (٦٧) ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنذِرٌ وَمَا مِن إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ (٦٧) ﴿رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الْعَزِيزُ الْغَفُورُ﴾ (٦٨) ﴿قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ﴾ (٦٩) ﴿أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ﴾ (٧٠) ﴿مَا كَانَ لِي مِنْ عِلْمٍ بِاللَّيْلِ إِذَا يَخْصِفُ السُّحُومَ﴾ (٧١) ﴿إِنْ يُوحَىٰ إِلَيَّ إِلَّا أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ (٧٢) ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلٰٓئِكَةِ إِنِّي خَلَقْتُ بَشَرًا مِّن طِينٍ﴾ (٧٣) ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ (٧٤) ﴿فَسَجَدَ الْمَلٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾ (٧٥) ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ (٧٦) ﴿قَالَ يٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِدَيِّ اسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ﴾ (٧٧) ﴿قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾ (٧٨) ﴿قَالَ فَخَرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ﴾ (٧٩) ﴿وَأَن عَلَيْكَ لَْعْنَتِي إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ﴾ (٨٠) ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي﴾ (٨١)

تعليم الله إياي وإبحاؤه إليّ، ولهذا قال: ﴿إِنْ يُؤَخِّرْ إِلَىٰ إِلَّا أَمَّا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ (٧٠)؛ أي: ظاهر النذارة جليها؛ فلا نذير أبلغ من نذارته ﷺ.

﴿٧١﴾ ثم ذكر اختصاص الملائكة الأعلى، فقال: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ﴾ على وجه الإخبار، ﴿إِنِّي خَلَقْتُ بَشَرًا مِّنْ طِينٍ﴾ (٧١)؛ أي: مادته من طين، ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ﴾ (٧٢)؛ أي: سويت جسمه وتم، ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ (٧٣).

﴿٧٤﴾ فوطن الملائكة الكرام أنفسهم على ذلك حين يتم خلقه ونفخ الروح فيه امتثالاً لربه وإكراماً لآدم عليه السلام، فلما تم خلقه في بدنه وروحه، وامتنح الله آدم والملائكة في العلم، وظهر فضله عليهم؛ أمرهم الله بالسجود، فسجدوا ﴿كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾ (٧٥) إلا إيليس: ﴿لَمْ يَسْجُدْ﴾ (٧٦) استكبر: ﴿عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ، وَاسْتَكْبَرَ عَلَىٰ آدَمَ، وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ (٧٧)؛ في علم الله تعالى.

﴿٧٨﴾ ف ﴿قَالَ﴾ الله له موبخاً ومعاتباً: ﴿مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِإِيدِي﴾ (٧٨)؛ أي: شرفته وكرمه واختصصته بهذه الخصيصة التي اختص بها عن سائر الخلق، وذلك يقتضي عدم التكبر عليه. ﴿أَسْتَكْبَرْتَ﴾ (٧٩) في امتناعك: ﴿أَمْ كُنْتَ مِنَ الْمَالِئِينَ﴾ (٨٠).

﴿٨١﴾ ف ﴿قَالَ﴾ إيليس معارضاً لربه مناقضاً: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِّمَّا خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾ (٨١)؛ وبزعمه أن عنصر النار خير من عنصر الطين، وهذا من القياس الفاسد؛ فإن عنصر النار مادة الشر والفساد والعلو والطيش والخفة، وعنصر الطين مادة الرزانة والتواضع وإخراج أنواع الأشجار والنباتات، وهو يغلب النار ويطفئها، والنار تحتاج إلى مادة تقوم بها والطين قائم بنفسه. فهذا قياس شيخ القوم، الذي عارض به الأمر الشفاهي من الله، قد تبين غاية بطلانه وفساده؛ فما بالك بأقيسة التلاميذ الذين عارضوا الحق بأقيستهم؛ فإنها كلها أعظم بطلاناً وفساداً من هذا القياس.

﴿٨٢﴾ ف ﴿قَالَ﴾ الله له: ﴿فَاخْرُجْ مِنْهَا﴾ (٨٢)؛ أي: من السماء والمحل الكريم، ﴿فَإِنَّكَ رَجِيمٌ﴾ (٨٣)؛ أي: مبعث مدحور، ﴿وَرَأَىٰ عَلَيْكَ لَعْنَتِي﴾ (٨٤)؛ أي: طردني وإبعادي ﴿إِلَىٰ يَوْمِ الْآزِلِ﴾ (٨٥) دائماً أبداً.

﴿٨٦﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٨٦﴾ لشدة عداوته لآدم وذريته؛ ليمكن من إغواء من قدر الله أن يغويه.

﴿٨٧﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ ﴿٨٧﴾ إِلَىٰ يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ﴿٨٨﴾ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لأُعَوِّثَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخَلَصِينَ ﴿٩٠﴾ قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقُّ أَقُولُ ﴿٩١﴾ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٩٣﴾ إِنَّ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَنَعْلَمَنَّ بَنَاهُ بَعْدَ جَعَلِهِ ﴿٩٥﴾.

﴿٩٦﴾ قُلْ: يا أيها الرسول لهؤلاء المكذبين إن طلبوا منك ما ليس لك ولا بيدك: ﴿إِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ﴾ (٩٦) هذا نهاية ما عندي، وأما الأمر؛ فله تعالى، ولكني أمركم وأنهاكم وأحثكم على الخير وأزجركم عن الشر؛ فمن اهتدى فلنفسه، ومن ضل فعليها. ﴿وَمَا مِن إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ﴾ (٩٧)؛ أي: ما أحد يؤله ويعبد بحق إلا الله، ﴿الْوَحْدَ الْقَهَّارَ﴾ (٩٨)؛ هذا تقرير لآلوهيته بهذا البرهان القاطع، وهو وحدته تعالى وقهره لكل شيء؛ فإن القهر ملازم للوحدة؛ فلا يكون قهاران متساويان في قهرهما أبداً، فالذي يقهر جميع الأشياء هو الواحد الذي لا نظير له، وهو الذي يستحق أن يعبد وحده كما كان قاهراً وحده.

﴿٩٩﴾ وقرر ذلك أيضاً بتوحيد الربوبية، فقال: ﴿رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ (٩٩)؛ أي: خالقهما ومربيهما ومدبرهما بجميع أنواع التدابير، ﴿الْعَزِيزُ﴾ (١٠٠) الذي له القوة التي بها خلق المخلوقات العظيمة. ﴿الْمُقَرَّرُ﴾ (١٠١) لجميع الذنوب؛ صغيرها وكبيرها، لمن تاب إليه وأقلع منها. فهذا الذي يجب، ويستحق أن يعبد دون من لا يخلق، ولا يرزق ولا يضر، ولا ينفع، ولا يملك من الأمر شيئاً، وليس له قوة الاقتدار، ولا بيده مغفرة الذنوب والأوزار.

﴿١٠٢﴾ قُلْ: لهم مخوفاً ومحذراً ومنهضاً لهم ومنذراً: ﴿هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ﴾ (١٠٢)؛ أي: ما أنبأتكم به من البعث والنشور والجزاء على الأعمال خبر عظيم ينبغي الاهتمام الشديد بشأنه، ولا ينبغي إغفاله. ولكن ﴿أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ﴾ (١٠٣)؛ كأنه ليس أمامكم حساب ولا عقاب ولا ثواب.

﴿١٠٤﴾ فَإِنْ شَكَكْتُمْ فِي قَوْلِي وامترئتم في خبري؛ فإنني أخبركم بأخبار لا علم لي بها ولا درستها في كتاب؛ فأخباري بها على وجهها من غير زيادة ولا نقص أكبر شاهد لصدقي وأدل دليل على حق ما جئتكم به، ولهذا قال: ﴿مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَأِ الْأَعْلَى﴾ (١٠٤)؛ أي: الملائكة؛ ﴿إِذْ يَخْصِمُونَ﴾ (١٠٥)؛ لولا

بأنه ذو الذكر، ووصفه في آخرها بأنه ذكر للعالمين، وأكثر التذكير بها فيما بين ذلك؛ كقوله: ﴿وَأَذْكُرْ عَبْدًا﴾، ﴿وَأَذْكُرْ عَبْدًا﴾، ﴿رَحْمَةً مِنَّا وَذِكْرًا﴾، ﴿هَذَا ذِكْرٌ﴾. اللهم علمنا منه ما جهلنا، وذكرنا منه ما نسينا نسيان غفلة ونسيان ترك.

﴿وَلَنَعْلَمَنَّ نَبَأَهُ﴾؛ أي: خبره ﴿بَعْدَ حِينٍ﴾ ﴿وَلَنَعْلَمَنَّ نَبَأَهُ﴾؛ أي: خبره ﴿بَعْدَ حِينٍ﴾. وذلك حين يقع عليهم العذاب، وتتقطع عنهم الأسباب. تم تفسير سورة ص بمنه تعالى وعونه.

﴿وَلَنَعْلَمَنَّ نَبَأَهُ﴾

تفسير سورة الزمر

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ﴾ ﴿أَلِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ﴾

﴿١﴾ يخبر تعالى عن عظمة القرآن وجلالة من تكلم به ونزل منه، وأنه نزل ﴿مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾؛ أي: الذي وصفه الألوهية للخلق، وذلك لعظمته وكماله والعزة التي قهر بها كل مخلوق، وذل له كل شيء والحكمة في خلقه وأمره؛ فالقرآن نازل ممن هذا وصفه، والكلام وصف للمتكلم، والوصف يتبع الموصوف؛ فكما أن الله تعالى الكامل من كل وجه الذي لا مثيل له؛ فكذلك كلامه كامل من كل وجه لا مثيل له؛ فهذا وحده كافٍ في وصف القرآن دال على مرتبته.

﴿٢﴾ ولكنه مع هذا زاد بياناً لكماله بمن نزل عليه، وهو محمد ﷺ، الذي هو أشرف الخلق، فعلم أنه أشرف الكتب، وبما نزل به، وهو الحق، فنزل بالحق الذي لا مرية فيه لإخراج الخلق من الظلمات إلى النور، ونزل مشتقاً على الحق في أخباره الصادقة وأحكامه العادلة؛ فكل ما دل عليه؛ فهو أعظم أنواع الحق من جميع المطالب العلمية، وما بعد الحق إلا الضلال.

﴿٣١﴾ ﴿قَالَ﴾ ﴿اللَّهُ مُجِيبًا لِدُعَوْتِهِ حَيْثُ اقْتَضَتْ حِكْمَتُهُ ذَلِكَ: ﴿كَانَكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ﴾﴾ ﴿إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ﴾: حين تستكمل الذرية، ويتم الامتحان.

﴿٣٢﴾ ﴿فَلَمَّا عَلِمَ أَنَّهُ مُنْظَرٌ بِأَدَى رِيهِ مِنْ خَبْثَةِ بَشَدَةِ الْعَدَاوَةِ لِرِيهِ وَلَادَمَ وَذَرِيَّتِهِ، فَقَالَ: ﴿فَيُعَزِّزُكَ لَأَعُوذَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾﴾:

يحتمل أن الباء للقسام، وأنه أقسم بعزة الله ليغوينهم كلهم أجمعين ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلِصِينَ﴾: علم أن الله سيحفظهم من كيدته. ويحتمل أن الباء للاستعانة، وأنه لما علم أنه عاجز من كل وجه، وأنه لا يفضل أحداً إلا بمشيئة الله تعالى، فاستعان بعزة الله على إغواء ذرية آدم. هذا وهو عدو الله حقاً، ونحن يا ربنا العاجزون المقصرون، المقرون لك بكل نعمة، ذرية من شرفته وكرمه؛ فنستعين بعزتك العظيمة، وقدرتك، ورحمتك الواسعة لكل مخلوق، ورحمتك التي أوصلت إلينا بها ما أوصلت من النعم الدينية والدنيوية، وصرفت بها ما عنا صرفت من النقم، أن تعيننا على محاربتة وعداوته والسلامة من شره وشركه، ونحسن الظن بك أن تجيب دعاءنا، ونؤمن بوعدك الذي قلت لنا: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠]؛ فقد دعوناك كما أمرتنا، فاستجب لنا كما وعدتنا. ﴿إِنَّكَ لَا تَخْلِفُ أَلْعِمَادَ﴾ [آل عمران: ١٩٤].

﴿٣٥﴾ ﴿قَالَ﴾ ﴿اللَّهُ تَعَالَى: ﴿فَالْحَقُّ وَالْحَقُّ أَقُولُ﴾﴾؛ أي: الحق وصفي والحق قولِي، ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّنْ تَتَّبَعُكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾.

﴿٣٦﴾ فلما بين الرسول للناس الدليل، ووضح لهم السبيل؛ قال الله له: ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ﴾؛ أي: على دعائي إليكم ﴿مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ﴾: ادعي أمر ليس لي، وأقفو ما ليس لي به علم، لا أتبع إلا ما يوحى إلي.

﴿٣٧﴾ ﴿إِنْ هُوَ﴾؛ أي: هذا الوحي والقرآن ﴿إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾: يتذكرون به كل ما ينفعهم من مصالح دينهم ودنياهم، فيكون شرفاً ورفعة للعالمين به وإقامة حجة على المعاندين.

فهذه السورة العظيمة مشتملة على الذكر الحكيم، والنبأ العظيم، وإقامة الحجج والبراهين على من كذب بالقرآن، وعارضه، وكذب من جاء به، والإخبار عن عباد الله المخلصين، وجزاء المتقين والطاغين؛ فلهذا أقسم في أولها

ولما كان نازلاً من الحق مشتتلاً على الحق لهداية الخلق على أشرف الخلق؛ عظمت فيه النعمة، وجلت، ووجب القيام بشكرها، وذلك بإخلاص الدين لله؛ فهذا قال: ﴿فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ﴾ أي: أخلص لله تعالى جميع دينك من الشرائع الظاهرة والشرائع الباطنة: الإسلام والإيمان والإحسان؛ بأن تفرد الله وحده بها، وتقصد به وجهه، لا غير ذلك من المقاصد.

﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾: هذا تقرير للأمر بالإخلاص، وبيان أنه تعالى كما أنه له الكمال كله وله التفضل على عباده من جميع الوجوه؛ فذلك له الدين الخالص الصافي من جميع الشوائب؛ فهو الدين الذي ارتضاه لنفسه وارتضاه لصفوة خلقه وأمرهم به؛ لأنه متضمن للتأله لله في حبه وخوفه ورجائه والإنابة إليه في عبوديته والإنابة إليه في تحصيل مطالب عباده، وذلك الذي يصلح القلوب ويزكيها ويظهرها؛ دون الشرك به في شيء من العبادة؛ فإن الله بريء منه، وليس لله فيه شيء؛ فهو أغنى الشركاء عن الشرك، وهو مفسد للقلوب والأرواح والدنيا والآخرة، مشي للنفوس غاية الشقاء.

فلذلك لما أمر بالتوحيد والإخلاص؛ نهى عن الشرك به، وأخبر بدم من أشرك به، فقال: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾ أي: يتولونهم بعبادتهم ودعائهم، معتذرين عن أنفسهم، وقائلين: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ أي: لترفع حوائجنا لله، وتشفع لنا عنده، وإلا؛ فنحن نعلم أنها لا تخلق ولا ترزق ولا تملك من الأمر شيئاً؛ أي: فهو لاء قد تركوا ما أمر الله به من الإخلاص، وتجروا على أعظم المحرمات، وهو الشرك، وقاسوا الذي ليس كمثله شيء الملك العظيم بالملوك، وزعموا بعقولهم الفاسدة ورأيهم السقيم أن الملوك كما أنه لا يوصل إليهم إلا بوجهاء وشفعاء ووزراء يرفعون إليهم حوائج رعاياهم ويستعطفونهم عليهم ويمهدون لهم الأمر في ذلك؛ أن الله تعالى كذلك!

وهذا القياس من أفسد الأقيسة، وهو يتضمن التسوية بين الخالق والمخلوق، مع ثبوت الفرق العظيم عقلاً ونقلاً وفطرة؛ فإن الملوك إنما احتاجوا للوساطة بينهم وبين رعاياهم؛ لأنهم لا يعلمون أحوالهم، فيحتاج من يعلمهم بأحوالهم، وربما لا يكون في قلوبهم رحمة لصاحب الحاجة، فيحتاج من يعظفهم عليه، ويسترحه لهم، ويحتاجون إلى الشفعاء والوزراء، ويخافون منهم، فيقضون حوائج من توسطوا لهم مراعاة لهم ومداراة لخواطرها، وهم أيضاً فقراء؛ قد يمنعون لما يخشون من الفقر، وأما الرب تعالى؛ فهو الذي أحاط علمه بظواهر الأمور وبواطنها، الذي لا يحتاج من يخبره بأحوال رعيته وعباده، وهو تعالى أرحم الراحمين، وأجود الأجودين، لا يحتاج إلى أحد من خلقه يجعله راحماً لعباده، بل هو أرحم بهم من أنفسهم ووالديهم، وهو الذي يحثهم ويدعوهم إلى الأسباب التي ينالون بها رحمته، وهو يريد من مصالحهم ما لا يريدونه لأنفسهم، وهو الغني، الذي له الغنى التام المطلق، الذي لو اجتمع الخلق من أولهم وآخرهم في صعيد واحد، فسألوه، فأعطى كلا منهم ما سأل وتمنى؛ لم ينقصوا غناه شيئاً، ولم ينقصوا مما عنده إلا كما ينقص البحر إذا غمس فيه المِخِيط، وجميع الشفعاء يخافونه؛ فلا يشفع منهم أحد إلا بإذنه، وله الشفاعة كلها؛ فهذه الفروق يعلم جهل المشركين به وسفههم العظيم وشدة جراتهم عليه، ويعلم أيضاً الحكمة في كون الشرك لا يغفره الله تعالى؛ لأنه يتضمن القدح في الله تعالى، ولهذا قال حاكماً بين الفريقين المخلصين والمشركين وفي ضمنه التهديد للمشركين: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾: وقد

سورة الزمر

قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ ﴿٤٦﴾ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٧﴾ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٤٨﴾ إِنَّ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴿٤٩﴾ وَلَنَعْلَمَنَّ بَأْهَ بَعْدَ حِينٍ ﴿٥٠﴾

سورة الزمر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿١﴾ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ بِالْحَقِّ فَاغْبُذْ اللَّهَ تَجُوزًا ﴿٢﴾ أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ ﴿٣﴾ لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لَاصْطَفَى مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحَنَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿٤﴾ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ يَكُونُ أَثَرُهُ عَلَى النَّهَارِ وَيَكُونُ أَثَرُهُ عَلَى اللَّيْلِ وَسَحَرَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ ﴿٥﴾

٤٥٨

سورة الزمر

الزمر

﴿٧﴾ **إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنَىٰ عَنْكُمْ**؛ لا يضره كفركم كما لا يتنفع بطاعتكم، ولكن أمره ونهيه لكم محض فضله وإحسانه عليكم. ﴿وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ﴾: لكمال إحسانه بهم وعلمه أن الكفر يشقيهم شقاوة لا يسعدون بعدها، ولأنه خلقهم لعبادته؛ فهي الغاية التي خلق لها الخلق؛ فلا يرضى أن يدعوا ما خلقهم لأجله.

﴿وَأَنْ تَشْكُرُوا﴾: لله تعالى بتوحيده وإخلاص الدين له ﴿يَرْضَاهُ لَكُمْ﴾: لرحمته بكم ومحبته للإحسان عليكم وللعلمكم ما خلقكم لأجله، وكما أنه لا يتضرر بشرككم ولا يتنفع بأعمالكم وتوحيدكم؛ كذلك كل أحد منكم له عمله من خير وشر. ﴿وَلَا نُزِرْ وَأُزِرْ وَزُرْ أَخْرَىٰ ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ﴾: في يوم القيامة، ﴿فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾: إخبارًا أحاط به علمه وجرى عليه قلمه وكتبته عليكم الحفظة الكرام وشهدت به عليكم الجوارح، فيجازي كلًا منكم ما يستحقه. ﴿إِنَّهُ عَلَيْهِ يَدَاتِ الصُّدُورِ﴾؛ أي: بنفس الصدور وما فيها من وصف بر أو فجور. والمقصود من هذا الإخبار بالجزاء بالعدل التام.

﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا حَوَلَهُ نِعْمَةً مِنْهُ نِسَىٰ مَا كَانَ يُدْعُوا إِلَيْهِ مِنْ قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَنْدَادًا لِّيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ﴾.

﴿٨﴾ يخبر تعالى عن كرمه بعبده وإحسانه وبره وقلة شكر عبده، وأنه حين يمسه الضر من مرض أو فقر أو وقوع في كربة بحر أو غيره؛ أنه يعلم أنه لا ينجيه في هذه الحال إلا الله، فيدعوه متضرعًا منيبًا، ويستغيث به في كشف ما نزل به ويلجأ في ذلك. ﴿ثُمَّ إِذَا حَوَلَهُ﴾: الله ﴿نِعْمَةً مِنْهُ﴾: بأن كشف ما به من الضر والكربة، ﴿نِسَىٰ مَا كَانَ يُدْعُوا إِلَيْهِ مِنْ قَبْلُ﴾؛ أي: نسي ذلك الضر الذي دعا الله لأجله، ومر كأنه ما أصابه ضر، واستمر على شركه، ﴿وَجَعَلَ لِلَّهِ أَنْدَادًا لِّيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ﴾؛ أي: ليضل بنفسه ويضل غيره؛ لأن الإضلال فرع عن الضلال، فأتى بالملزوم ليدل على اللازم. ﴿قُلْ: لهذا العاني الذي بدل نعمة الله كفرًا: تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ﴾: فلا يغنيك ما تتمتع به إذا كان المال النار، ﴿أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ﴾؛ ما أغنى عنهم ما كانوا يمتنعون ﴿٩﴾ [الشعراء: ٢٠٥-٢٠٧].

﴿أَمَنْ هُوَ قَنِيتَ عَانَاءَ آلِئِل سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُوا رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾.

﴿١﴾ هذه مقابلة بين العامل بطاعة الله وغيره، وبين العالم والجاهل، وأن هذا من الأمور التي تقرر في العقول تباينها، وعلم علمًا يقينًا تفاوتها؛ فليس المعرض عن طاعة ربه المتبع لهواه كمن هو قانت؛ أي: مطيع لله بأفضل العبادات، وهي الصلاة، وأفضل الأوقات، وهي أوقات الليل، فوصفه بكثرة العمل وأفضله، ثم وصفه بالخوف والرجاء، وذكر أن متعلق الخوف عذاب الآخرة على ما سلف من الذنوب، وأن متعلق الرجاء رحمة الله، فوصفه بالعمل الظاهر والباطن. ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ﴾: ربهم ويعلمون دينه الشرعي ودينه الجزائي وما له في ذلك من الأسرار والحكم، ﴿وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾: شيئًا من ذلك، لا يستوي هؤلاء ولا هؤلاء؛ كما لا يستوي الليل والنهار والضياء والظلام والماء والنار. ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ﴾: إذا دُكرُوا

﴿أُولَئِكَ الْأَتْلَبُ﴾ ٩؛ أي: أهل العقول الزكية الذكية؛ فهم الذين يؤثرون الأعلى على الأدنى؛ فيؤثرون العلم على الجهل، وطاعة الله على مخالفته؛ لأن لهم عقولاً ترشددهم للنظر في العواقب؛ بخلاف من لا لب له ولا عقل؛ فإنه يتخذ إلهه هواه.

﴿قُلْ يٰعِبَادِ الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللَّهِ وَسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ ١٠.

١٠؛ أي: قل منادياً لأشرف الخلق، وهم المؤمنون، آمراً لهم بأفضل الأوامر، وهي التقوى، ذاكرًا لهم السبب الموجب للتقوى، وهو ربوبية الله لهم وإنعامه عليهم، المقضي ذلك منهم أن يتقوه، ومن ذلك ما من الله عليهم به من الإيمان؛ فإنه موجب للتقوى؛ كما تقول: أيها الكريم تصدق! وأيها الشجاع قاتل! وذكر لهم الثواب المنشط في الدنيا، فقال: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا﴾: بعبادة ربهم لهم ﴿حَسَنَةٌ﴾: رزق واسع ونفس مطمئنة وقلب منشرج؛ كما قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلْ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنَّىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيٰوةً طَيِّبَةً﴾ [النحل: ٩٧]. ﴿وَأَرْضُ اللَّهِ وَسِعَةٌ﴾: إذا منعمت من عبادته في أرض؛ فهاجروا إلى غيرها تعبدون فيها ربكم وتتمكنون من إقامة دينكم. ولما قال: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ﴾؛ كان لبعض النفوس مجال في هذا الموضع، وهو أن النص عام؛ أنه كل من أحسن؛ فله في الدنيا حسنة؛ فما بال من آمن في أرض يضطهد فيها ويمتنع لا يحصل له ذلك؟ دفع هذا الظن بقوله: ﴿وَأَرْضُ اللَّهِ وَسِعَةٌ﴾: وهنا بشارة نص عليها النبي ﷺ بقوله: «لا تزال طائفة من أمتي على الحق ظاهرين؛ لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى يأتي أمر الله وهم على ذلك»^(١). تشير إليه هذه الآية وترمي إليه من قريب، وهو أنه تعالى أخبر أن أرضه واسعة؛ فمهما منعمت من عبادته في موضع؛ فهاجروا إلى غيرها. وهذا عام في كل زمان ومكان؛ فلا بد أن يكون لكل مهاجر ملجأ من المسلمين يلجأ إليه وموضع يتمكن من إقامة دينه فيه.

﴿إِنَّمَا يُوفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ ١١. وهذا عام في جميع أنواع الصبر: الصبر على أقدار الله المؤلمة؛ فلا

يتسخطها، والصبر عن معاصيه؛ فلا يرتكبها، والصبر على طاعته حتى يؤديها، فوعد الله الصابرين أجرهم بغير حساب؛ أي: بغير حد ولا عد ولا مقدار، وما ذاك إلا لفضيلة الصبر ومحلّه عند الله، وأنه معين على كل الأمور.

﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ ۚ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ﴾ ١٢. ﴿قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ ١٣. ﴿قُلْ اللَّهُ أَعْبُدْ مُخْلِصًا لَهُ دِينِي ۚ فَاَعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ ۚ قُلْ إِنَّا لِلّٰهِ حَاسِرُونَ أَنفُسُهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ ۚ أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾ ١٤. ﴿لَهُمْ مِنْ قَوْفِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهَا ظُلَلٌ ۚ يَخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ ۚ يٰعِبَادِ ۚ فَاتَّقُونِ﴾ ١٥. ١٦؛ أي: ﴿قُلْ﴾: يا أيها الرسول، للناس: ﴿إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ﴾ ١٢. في قوله في أول السورة: ﴿فَاَعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ﴾ ١٣.

١٢. ﴿وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ﴾ ١٢. لأنني الداعي الهادي للخلق إلى ربهم، فيقتضي أنني أول من ائتمر بما أمر به وأول من أسلم، وهذا الأمر لا بد من إيقاعه من محمد ﷺ وممن زعم أنه من أتباعه؛ فلا بد من الإسلام في الأعمال الظاهرة والإخلاص لله في الأعمال الظاهرة والباطنة.

١٣. ﴿قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي﴾: فيما أمرني به من الإخلاص والإسلام ﴿عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ ١٣. يخلد فيه من أشرك ويعاقب فيه من عصى.

١٤، ١٥. ﴿قُلْ اللَّهُ أَعْبُدْ مُخْلِصًا لَهُ دِينِي ۚ فَاَعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ﴾: كما قال تعالى: ﴿قُلْ يٰأَيُّهَا الْكَافِرُونَ ۚ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ ١٦. ﴿وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ﴾ ١٧. ﴿وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَّدْتُمْ﴾ ١٨. ﴿وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ﴾ ١٩. ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ ٢٠. [الكافرون: ١-٦]. ﴿قُلْ إِنَّا لِلّٰهِ حَاسِرُونَ﴾: حقيقة هم ﴿الَّذِينَ حَسِرُوا أَنفُسَهُمْ﴾: حيث حرموها الثواب، واستحقت بسببهم وخيم العقاب، ﴿وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾؛ أي: فرق بينهم وبينهم، واشتد عليهم الحزن، وعظم الخسران. ﴿أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾ ٢١. الذي ليس مثله خسران، وهو خسران مستمر لا ربح بعده، بل ولا سلامة.

٢١. ثم ذكر شدة ما يحصل لهم من الشقاء، فقال: ﴿لَهُمْ مِنْ قَوْفِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ﴾؛ أي: قطع عذاب كالسحاب العظيم، ﴿وَمِنْ تَحْتِهَا ظُلَلٌ ۚ﴾: الوصف الذي وصفنا به عذاب

أهل النار سوط يسوق الله به عباده إلى رحمته، ﴿يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ، يَعْبادُ فَأَتَقُونَ﴾ (١٧)؛ أي: جعل ما أعده لأهل الشقاء من العذاب داع يدعو عباده إلى التقوى وزجراً عما يوجب العذاب؛ فسبحان من رحم عباده في كل شيء! وسهل لهم الطرق الموصلة إليه، وحثهم على سلوكها، ورغبهم بكل مرغبت تشاق له النفوس وتطمئن له القلوب، وحذرهم من العمل لغيره غاية التحذير، وذكر لهم الأسباب الزاجرة عن تركه.

﴿وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فَبَشِّرْ عِبَادَ﴾ (١٧) الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُوا الْأَلْبَابِ ﴿١٨﴾.

﴿١٧﴾ لما ذكر تعالى حال المجرمين؛ ذكر حال المؤمنين وثوابهم، فقال: ﴿وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا﴾: والمراد بالطاغوت في هذا الموضع عبادة غير الله؛ فاجتنبوا في عبادتها، وهذا من أحسن الاحتراز من الحكيم العليم؛ لأن المدح إنما يتناول المجتنب لها في عبادتها. ﴿وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ﴾: بعبادته وإخلاص الدين له، فانصرفت دواعيهم من عبادة الأصنام إلى عبادة الملك العلام، ومن الشرك والمعاصي إلى التوحيد والطاعات. ﴿لَهُمُ الْبُشْرَىٰ﴾: التي لا يقادر قدرها ولا

يعلم وصفها إلا ما أكرمهم بها، وهذا شامل للبشرى في الحياة الدنيا بالثناء الحسن والرؤيا الصالحة والعناية الربانية من الله، التي يرون في خلالها أنه مريد لإكرامهم في الدنيا والآخرة، ولهم البشرى في الآخرة عند الموت وفي القبر وفي القيامة، وخاتمة البشرى ما يشرهم به الرب الكريم من دوام رضوانه وبره وإحسانه وحلول أمانه في الجنة.

﴿١٨﴾ ولما أخبر أن لهم البشرى؛ أمره الله بشارتهم، وذكر الوصف الذي استحقوا به البشارة، فقال: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادَ﴾ (١٧) الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ: ﴿وهذا جنس يشمل كل قول؛ فهم يستمعون جنس القول ليميزوا بين ما ينبغي إشارته مما ينبغي اجتنابه؛ فلهذا كان من حزمهم وعقلهم أنهم يتبعون أحسنه، وأحسنه على الإطلاق كلام الله وكلام رسوله؛ كما قال في هذه السورة: ﴿اللَّهُ زَلَّ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَبِهًا﴾ [الزمر: ٢٣] الآية.

وفي هذه الآية نكتة، وهي أنه لما أخبر عن هؤلاء الممدوحين أنهم يستمعون القول فيتبعون أحسنه؛ كأنه قيل: هل من طريق إلى معرفة أحسنه حتى تنصف بصفات أولي الأبواب، وحتى نعرف أن مَنْ أثره علمنا أنه من أولي الأبواب؟ قيل: نعم؛ أحسنه ما نص الله عليه بقوله: ﴿اللَّهُ زَلَّ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَبِهًا﴾ الآية. أولئك ﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ﴾: لأحسن الأخلاق والأعمال، ﴿وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ (١٨)؛ أي: العقول الزاكية، ومن لبهم وحزمهم أنهم عرفوا الحسن من غيره، وآثروا ما ينبغي إشارته على ما سواه، وهذا علامة العقل، بل لا علامة للعقل سوى ذلك؛ فإن الذي لا يميز بين الأقوال حسنها وقيبحها؛ ليس من أهل العقول الصحيحة، أو الذي يميز لكن غلبت شهوته عقله فبقي عقله تابعا لشهوته فلم يؤثر الأحسن؛ كان ناقص العقل.

﴿أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنْتَ تُنْقِذُ مِنْ فِي النَّارِ﴾ (١٩) لَكِنَّ الَّذِينَ أَتَقُوا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرْفٌ مِّنْ فَوْقَهَا غُرْفٌ مَّيْنَةً تَجْرَىٰ مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَعَدَّ اللَّهُ لَا يَخْلِفُ اللَّهُ الْمِيعَادَ ﴿٢٠﴾.

﴿١٩﴾ أي: أقمن وجبت عليه كلمة العذاب باستمراره على غيه وعناده وكفره؛ فإنه لا حيلة لك في هدايته، ولا تقدر تنقذ من في النار لا محالة.

﴿٢٠﴾ لكن الغنى كل الغنى والفوز كل الفوز للمتقين، الذين أعد لهم من الكرامة وأنواع النعيم ما لا يقادر قدره، ﴿هُمُ عَرُفٌ﴾؛ أي: منازل عالية مزخرفة من حسناتها وبهائها وصفاتها أنه يرى ظاهرها من باطنها وباطنها من ظاهرها، ومن علوها وارتفاعها أنها ترى كما يرى الكوكب الغابر في الأفق الشرقي أو الغربي، ولهذا قال: ﴿بَيْنَ فَرْقَهَا عَرُفٌ﴾؛ أي: بعضها فوق بعض ﴿تَبَيَّنَ﴾: بذهب وفضة وملاطها المسك الأذفر، ﴿تَجَرَّى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾: المتدفقة المسقية للبساتين الزاهرة والأشجار الطاهرة، فتجلى أنواع الثمار اللذيذة والفاكهة النضيجة. ﴿وَعَدَ اللَّهُ لَا يَخْلِفُ اللَّهُ الْوَعْدَ﴾ ﴿٢١﴾: وقد وعد المتقين هذا الثواب؛ فلا بد من الوفاء به؛ فليوفوا بخصال التقوى؛ ليوفهم أجورهم.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنْبِيعٌ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُخْتَلِفًا أَلْوَنُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطْلًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ ﴿٢٢﴾.

سُورَةُ الزُّمَرِ
أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿١٩﴾
اللَّهُ نَزَلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَتَابِي نَقَشَ عُرْمَتَهُ جُلُودَ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلَيْنُ جُلُودَهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴿٢٠﴾ أَفَمَنْ يَبْقَى بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٢١﴾ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَاَتَتْهُمْ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٢﴾ فَأَذَاقَهُمُ اللَّهُ الْخِزْيَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ صَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾ قَوْلَنَا عَرِيبًا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٢٥﴾ صَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ ﴿٢٧﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴿٢٨﴾

﴿٢١﴾ يذكر تعالى أولي الألباب ما أنزله من السماء من الماء، وأنه سلكه ينابيع في الأرض؛ أي: أودعه فيها ينبوعاً يستخرج بسهولة ويسر. ﴿ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُخْتَلِفًا أَلْوَنُهُ﴾: من بُرٍّ وذرّةٍ وشعيرٍ وأرز وغير ذلك، ﴿ثُمَّ يَهِيجُ﴾: عند استكمالها أو عند حدوث آفة فيه، ﴿فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطْلًا﴾: متكسراً. ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ ﴿٢٢﴾: يذكرون به عناية ربهم ورحمته بعباده، حيث يسر لهم هذا الماء وخزونه بخزائن الأرض تبعاً لمصالحهم، ويذكرون به كمال قدرته، وأنه يحيي الموتى كما أحيا الأرض بعد موتها، ويذكرون به أن الفاعل لذلك هو المستحق للعبادة. اللهم اجعلنا من أولي الألباب، الذين نوهت بذكرهم، وهديتهم بما أعطيتهم من العقول وأريتهم من أسرار كتابك وبديع آياتك ما لم يصل إليه غيرهم؛ إنك أنت الوهاب.

﴿أَقْمِنَ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ ﴿٢٣﴾.

﴿٢٤﴾ أي: أفيستوي من شرح الله صدره للإسلام، فأتسع لتلقي أحكام الله والعمل بها منشراحاً قير العين على بصيرة من أمره، وهو المراد بقوله: ﴿فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ﴾: كمن ليس كذلك؛ بدليل قوله: ﴿فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ﴾؛ أي: لا تلين لكتابه ولا تذكر آياته ولا تطمئن بذكره، بل هي معرضة عن ربها، ملتفتة إلى غيره؛ فهو لاء لهم الويل الشديد والشر الكبير. ﴿أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ ﴿٢٥﴾: وأي ضلال أعظم من ضلال من أعرض عن وليه، ومن كل السعادة في الإقبال عليه، وقسا قلبه عن ذكره، وأقبل على كل ما يضره؟! ﴿٢٦﴾

﴿اللَّهُ نَزَلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَتَابِي نَقَشَ عُرْمَتَهُ جُلُودَ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلَيْنُ جُلُودَهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ ﴿٢٧﴾.

﴿قُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ﴾؛ أي: عند ذكر الرجاء والترغيب؛ فهو تارة يرغبهم لعمل الخير، وتارة يرهبهم من عمل الشر. ﴿ذَلِكَ﴾: الذي ذكره الله من تأثير القرآن فيهم ﴿هُدًى﴾ الله؛ أي: هداية منه لعباده، وهو من جملة فضله وإحسانه عليهم، ﴿يَهْدِي يَدَ﴾؛ أي: بسبب ذلك ﴿مَنْ يَشَاءُ﴾ من عباده. ويحتمل أن المراد بقوله: ﴿ذَلِكَ﴾؛ أي: القرآن الذي وصفناه لكم ﴿هُدًى﴾ الله؛ الذي لا طريق يوصل إلى الله إلا منه. ﴿يَهْدِي يَدَ مَنْ يَشَاءُ﴾ من عباده، ممن حسن قصده؛ كما قال تعالى: ﴿يَهْدِي يَدَ اللَّهِ مَنْ أَسْبَغَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ﴾ [المائدة: ١٦]. ﴿وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ (٢٣)؛ لأنه لا طريق يوصل إليه إلا توفيقه، والتوفيق للإقبال على كتابه، فإذا لم يحصل هذا؛ فلا سبيل إلى الهدى، وما هو إلا الضلال المبين والشقاء.

﴿أَفَمَنْ يَتَّبِعِ بَوَجهَهُ سَوْءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ (٢٤) كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَنْتَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٥﴾ فَأَذَاقَهُمُ اللَّهُ الْخِزْيَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾.

﴿٢٤﴾ أي: أفستوي هذا الذي هداه الله، ووفقه لسلوك الطريق الموصلة لدار كرامته كمن كان في الضلال، واستمر على عناده حتى قدم القيامة فجاءه العذاب العظيم فجعل يتقي بوجهه الذي هو أشرف الأعضاء، وأدنى شيء من العذاب يؤثر فيه، فهو يتقي فيه سوء العذاب؛ لأنه قد غلَّتْ يداه ورجلاه؟ ﴿وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ﴾: أنفسهم بالكفر والمعاصي توبيخاً وتقريعاً: ﴿ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ (٢٥).

﴿٢٥﴾ ﴿كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾: من الأمم كما كذب هؤلاء، ﴿فَأَنْتَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ (٢٥)؛ جاءهم في غفلة أول نهار أو هم قائلون.

﴿٢٦﴾ ﴿فَأَذَاقَهُمُ اللَّهُ﴾: بذلك العذاب ﴿الْخِزْيَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾: فافتضحوا عند الله وعند خلقه. ﴿وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ (٢٦)؛ فليحذر هؤلاء من المقام على التكذيب فيصيبهم ما أصاب أولئك من التعذيب.

﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ (٢٧) ﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ (٢٨)

﴿٢٣﴾ يخبر تعالى عن كتابه الذي نزل أنه ﴿أَحْسَنَ الْحَدِيثِ﴾ على الإطلاق؛ فأحسن الحديث كلام الله، وأحسن الكتب المنزلة من كلام الله هذا القرآن، وإذا كان هو الأحسن؛ علم أن ألفاظه أفصح الألفاظ وأوضحها، وأن معانيه أجل المعاني؛ لأنه أحسن الحديث في لفظه ومعناه. ﴿مُتَشَبِّهًا﴾: في الحسن والائتلاف وعدم الاختلاف بوجه من الوجوه، حتى إنه كلما تدبره المتدبر وتفكر فيه المتفكر؛ رأى من اتفاهه - حتى في معانيه الغامضة - ما يبهير الناظرين ويجزم بأنه لا يصدر إلا من حكيم عليهم، هذا المراد بالتشابه في هذا الموضع، وأما في قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ تُحْكِمُكُنَّ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَبِّهَاتٌ﴾ [آل عمران: ٤٧]؛ فالمراد بها: التي تشبه على فهم كثير من الناس، ولا يزول هذا الاشتباه إلا بردها إلى المحكم، ولهذا قال: ﴿مِنْهُ آيَاتٌ تُحْكِمُكُنَّ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَبِّهَاتٌ﴾: فجعل التشابه لبعضه، وهنا جعله كله متشابهاً؛ أي: في حسنه؛ لأنه قال: ﴿أَحْسَنَ الْحَدِيثِ﴾، وهو سور وآيات، والجميع يشبه بعضه بعضاً؛ كما ذكرنا. ﴿مَثَانِي﴾؛ أي: تُثَنَّى فيه القصص والأحكام والوعد والوعيد وصفات أهل الخير وصفات أهل الشر، وتثنى فيه أسماء الله وصفاته، وهذا من جلالته وحسنه؛ فإنه تعالى لما علم احتياج الخلق إلى معاني المزكية للقلوب المكملة للأخلاق، وأن تلك المعاني للقلوب بمنزلة الماء لسقي الأشجار؛ فكما أن الأشجار كلما بعد عهدها بسقي الماء؛ نقصت، بل ربما تلفت، وكلما تكرر سقيها؛ حسنت وأثمرت أنواع الثمار النافعة؛ فكذلك القلب يحتاج دائماً إلى تكرر معاني كلام الله تعالى عليه، وأنه لو تكرر عليه المعنى مرة واحدة في جميع القرآن؛ لم يقع منه موقفاً، ولم تحصل النتيجة منه.

ولهذا سلكت في هذا التفسير هذا المسلك الكريم؛ اقتداء بما هو تفسير له؛ فلا تجد فيه الحوالة على موضع من المواضع، بل كل موضع تجد تفسيره كامل المعنى غير مراعى لما مضى مما يشبهه، وإن كان بعض المواضع يكون أبسط من بعض وأكثر فائدة، وهكذا ينبغي للقارئ للقرآن المتدبر لمعانيه ألا يدع التدبر في جميع المواضع منه؛ فإنه يحصل له بسبب ذلك خير كثير ونفع غزير. ولما كان القرآن العظيم بهذه الجلالة والعظمة؛ أثر في قلوب أولي الألباب المهتدين؛ فلهذا قال تعالى: ﴿نَفْسَعِرْ مِنْهُ جُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾: لما فيه من التخويف والترهيب المزيج، ﴿ثُمَّ تَلِيَنَّ جُودَهُمْ

﴿٣١﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخَصَّمُونَ ﴿٣٢﴾
فيما تنازعتم فيه، فيفصل بينكم بحكمه العادل، ويجازي كلًّا ما عمله، أحصاه الله ونسوه.

﴿قَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَبَ بِالْصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ﴾ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ ﴿٣٣﴾ وَالَّذِي جَاءَ بِالْصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴿٣٤﴾ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٣٥﴾ لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٣٦﴾

﴿٣٣﴾ يقول تعالى محذراً ومخبراً أنه لا أظلم وأشد ظلمًا ﴿مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ﴾: إما بنسبته إلى ما لا يليق بجلاله، أو بادعاء النبوة أو الإخبار بأن الله قال كذا أو أخبر بكذا أو حكم بكذا وهو كاذب؛ فهذا داخل في قوله تعالى: ﴿وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ ﴿البقرة: ١٦٩﴾: إن كان جاهلاً وإلا فهو أشنع وأشنع، ﴿وَكَذَبَ بِالْصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ﴾: أي: ما أظلم ممن جاءه الحق المؤيد بالبينات فكذبه، فتكذيبه ظلم عظيم منه؛ لأنه رد الحق بعدما تبين له؛ فإن كان جامعاً بين الكذب على الله والتكذيب بالحق؛ كان ظلمًا على ظلم. ﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ﴾: يحصل بها الاشتفاء منهم وأخذ حق الله من كل ظالم وكافر، ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ ﴿لقمان: ١٣﴾.

﴿٣٤﴾ ولما ذكر الكاذب المكذب وجنابته وعقوبته؛ ذكر الصادق المصدق وثوابه، فقال: ﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالْصِّدْقِ﴾: في قوله وعمله، فدخل في ذلك الأنبياء ومن قام مقامهم ممن صدق فيما قاله عن خبر الله وأحكامه، وفيما فعله من خصال الصدق، ﴿وَصَدَّقَ بِهِ﴾: أي: بالصدق؛ لأنه قد يجيء الإنسان بالصدق، ولكن قد لا يصدق به بسبب استكباره أو احتقاره لمن قاله وأتى به؛ فلا بد في المدح من الصدق والتصديق، فصدقه يدل على علمه وعدله، وتصديقه يدل على تواضعه وعدم استكباره. ﴿أُولَئِكَ﴾: أي: الذين وفقوا للجمع بين الأمرين ﴿هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ ﴿٣٤﴾: فإن جميع خصال التقوى ترجع إلى الصدق بالحق والتصديق به.

﴿٣٥﴾ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ﴿٣٦﴾ من الثواب ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر؛ فكل ما تعلقت به إرادتهم ومشيتهم من أصناف اللذات

ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٧﴾ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ قَيِّمُونَ ﴿٣٨﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخَصَّمُونَ ﴿٣٩﴾

﴿٣٧﴾ يخبر تعالى أنه ضرب في القرآن من جميع الأمثال؛ أمثال أهل الخير وأمثال أهل الشر وأمثال التوحيد والشرك، وكل مثل يقرب حقائق الأشياء والحكمة في ذلك؛ ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ ﴿٣٧﴾: عندما نوضح لهم الحق، فيعلمون ويعملون.

﴿٣٨﴾ ﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ﴾: أي: جعلناه قرآنًا عربيًّا واضح اللفاظ سهل المعاني، خصوصًا على العرب، غير ذي عوج؛ أي: ليس فيه خلل ولا نقص بوجه من الوجوه؛ لا في ألفاظه ولا في معانيه. وهذا يستلزم كمال اعتداله واستقامته؛ كما قال تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَّهُ عِوَجًا﴾ ﴿٣٨﴾ ﴿الكهف: ٢١﴾. ﴿لَعَلَّهُمْ يَقْوُونَ﴾ ﴿٣٨﴾: الله تعالى؛ حيث سهلنا عليهم طرق التقوى العلمية والعملية بهذا القرآن العربي المستقيم، الذي ضرب الله فيه من كل مثل.

﴿٣٩﴾ ثم ضرب مَثَلًا للشرك والتوحيد، فقال: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا﴾: أي: عبدًا. ﴿فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ﴾: فهم كثيرون، وليسوا متفقين على أمر من الأمور وحالة من الحالات حتى تمكن راحته، بل هم متشاكسون متنازعون فيه، كل له مطلب يريد تنفيذه ويريد الآخر غيره؛ فما تظن حال هذا الرجل مع هؤلاء الشركاء المتشاكسين؟! ﴿وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ﴾: أي: خالصًا له قد عرف مقصود سيده وحصلت له الراحة التامة. ﴿هَلْ يَسْتَوِيَانِ﴾: أي: هذان الرجلان ﴿مَثَلًا﴾؟ لا يستويان، كذلك المشرك فيه شركاء متشاكسون، يدعو هذا ثم يدعو هذا، فتراه لا يستقر له قرار ولا يطمئن قلبه في موضع، والموحد مخلص لربه، قد خلصه الله من الشركة لغیره؛ فهو في أتم راحة وأكمل طمأنينة. ﴿هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾: على تبين الحق من الباطل وإرشاد الجاهل. ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ﴿٣٩﴾.

﴿٣٩﴾ ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ﴾ ﴿٣٩﴾: أي: كلكم لا بد أن يموت، ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِشَرِّكَ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِنْ يَمَنُّ فَهُمْ لَخَالِدُونَ﴾ ﴿٣٩﴾ ﴿الأنبياء: ٣٤﴾.

سورة الزمر

الزمر (٣٥ - ٣٨)

والمستهيات؛ فإنه حاصل لهم معد مهيا. ﴿ذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ﴾ (٣٥): الذين يعبدون الله كأنهم يرونه؛ فإن لم يكونوا يرونه؛ فإنه يراهم، المحسنين إلى عباد الله.

﴿إِنَّ كُفْرَ اللَّهِ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا وَجَزَاءُ مَا جَزَاءُ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (٣٥): عمل الإنسان له ثلاث حالات: إما أسوأ، أو أحسن، أو لا أسوأ ولا أحسن، والقسم الأخير قسم المباحات وما لا يتعلق به ثواب ولا عقاب، والأسوأ المعاصي كلها، والأحسن الطاعات كلها. فهذا التفصيل يتبين معنى الآية، وأن قوله ﴿إِنَّ كُفْرَ اللَّهِ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا﴾؛ أي: ذنوبهم الصغار والكبار بسبب إحسانهم وتقواهم، ﴿وَجَزَاءُ مَا جَزَاءُ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (٣٥)؛ أي: بحسناتهم كلها، ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظِلُّهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكَ حَسَنَةً يَضَعَهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ (٣٥) [النساء: ٤٠].

﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ (٣٦) ﴿وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُضِلٍّ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِي انْفِقَارٍ﴾ (٣٧).

﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾؛ أي: ليس من كرمه

وجوده وعنايته بعبد الذي قام بعبوديته وامتلأ أمره واجتنب نهي، خصوصاً أكمل الخلق عبودية لربه، وهو محمد ﷺ؛ فإن الله تعالى سيكفيه في أمر دينه ودنياه ويدفع عنه من ناوأه بسوء. ﴿وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ﴾؛ من الأصنام والأنداد أن تنالك بسوء، وهذا من غيهم وضلالهم. ﴿وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ (٣٦) ﴿وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُضِلٍّ﴾؛ لأنه تعالى الذي بيده الهداية والإضلال، وهو الذي ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن. ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ﴾؛ له العزة الكاملة التي قهر بها كل شيء، وبعزته يكفي عبده، ويدفع عنه مكروهم ﴿ذِي انْفِقَارٍ﴾ (٣٧)؛ ممن عصاه، فاحذروا موجبات نقمته.

﴿وَلَكِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لِيَقُولُوا﴾ (٣٨) ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾؛ لأن الله ﷻ أرادني الله بضرٍ هل هنَّ كَشَفْتُ ضَرَّهُ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُسَكِّنَتْ رَحْمَتَهُ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ (٣٨).

﴿أَي: ولئن سألت هؤلاء الضلال الذين يخوفونك بالذين من دونه وأقمت عليهم دليلاً من أنفسهم، فقلت: ﴿مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾؛ لم يشتروا لآلهتهم من خلقها شيئاً، ﴿لِيَقُولُوا﴾ (٣٨): الذي خلقها الله وحده. ﴿قُلْ﴾: لهم مقررًا عجز آلهتهم بعدما بينت قدرة الله: ﴿أَفَرَأَيْتُمْ﴾؛ أي: أخبروني ﴿مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضَرِّهِ﴾؛ بإزالته بالكلية أو بتخفيفه من حال إلى حال؟ ﴿أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ﴾؛ يوصل إلي بها منفعة في ديني أو دنيائي، ﴿هَلْ هُنَّ مُسَكِّنَاتُ رَحْمَتِهِ﴾؛ ومانعاتها عني؟ سيقولون: لا يكشفون الضر ولا يمسكون الرحمة، قل لهم بعدما تبين الدليل القاطع على أنه وحده المعبود، وأنه الخالق للمخلوقات، النافع الضار وحده، وأن غيره عاجز من كل وجه عن الخلق والنفع والضرر، مستجلباً كفايته، مستدفعاً مكروهم وكيدهم. ﴿قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ (٣٨)؛ أي: عليه يعتمد المعتمدون في جلب مصالحهم ودفع مضارهم، فالذي بيده وحده الكفاية هو حسي سيكفيني كل ما أهمني، وما لا أهتم به.

﴿قُلْ يَقَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَمِلْتُ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ (٣٩) ﴿مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ (٤٠).

(٣٩)، (٤٠) أي: ﴿قُلْ﴾ لهم يا أيها الرسول: ﴿يَقَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾؛ أي: على حالتكم التي رضيتموها لأنفسكم من عبادة من لا يستحق من العبادة شيئاً ولا له من الأمر شيء، ﴿إِنِّي عَمِلْتُ﴾: على ما دعوتكم إليه من إخلاص الدين لله تعالى وحده، ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾: لمن العاقبة و﴿مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ﴾: في الدنيا، ﴿وَيَحِلُّ عَلَيْهِ﴾: في الأخرى ﴿عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾: لا يحول عنه ولا يزول. وهذا تهديد عظيم لهم، وهم يعلمون أنهم المستحقون للعذاب المقيم، ولكن الظلم والعناد حال بينهم وبين الإيمان.

﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِ. وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ﴾ (٤١).

(٤١) يخبر تعالى أنه أنزل على رسوله الكتاب المشتمل على الحق في أخباره وأوامره ونواهيه، الذي هو مادة الهداية وبلاغ لمن أراد الوصول إلى الله وإلى دار كرامته، وأنه قامت به الحجة على العالمين. ﴿فَمَنِ اهْتَدَىٰ﴾: بنوره واتبع أوامره؛ فإن نفع ذلك يعود إلى نفسه ﴿وَمَنْ ضَلَّ﴾: بعدما تبين له الهدى ﴿فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾: لا يضر الله شيئاً. ﴿وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ﴾ (٤١): تحفظ عليهم أعمالهم وتحاسبهم عليها وتجبرهم على ما تشاء، وإنما أنت مبلغ تؤدي إليهم ما أمرت به.

﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فِيمِيسَاتُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأَخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (٤٢).

(٤٢) يخبر تعالى أنه المتفرد بالتصرف بالعباد في حال يقظتهم ونومهم وفي حال حياتهم وموتهم، فقال: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾: وهذه الوفاة الكبرى وفاة الموت، وإخباره أنه يتوفى الأنفس وإضافة الفعل إلى نفسه لا ينافي أنه قد وكل بذلك ملك الموت وأعوانه؛ كما قال تعالى: ﴿قُلْ يَتَوَفَّكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي ذُكِّرَ بِكُمْ﴾ [السجدة: ١١]، ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدُكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴾ [الأنعام: ٦١]؛ لأنه تعالى يضيف الأشياء إلى نفسه باعتبار أنه الخالق المدبر، ويضيفها إلى أسبابها باعتبار أن من سنته تعالى وحكمته أن جعل لكل أمر من الأمور سبباً. وقوله: ﴿وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا﴾: وهذه الموة الصغرى؛ أي: ويمسك النفس التي لم تمت في منامها، ﴿فِيمِيسَاتُ﴾: من هاتين النفسين النفس ﴿الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ﴾، وهي نفس من كان مات أو قضى أن يموت في منامه، ﴿وَيُرْسِلُ﴾ النفس ﴿الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾؛ أي: إلى استكمال رزقها وأجلها. ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (٤٢): على كمال اقتداره وإحيائه الموتى بعد موتهم.

وفي هذه الآية دليل على أن الروح والنفس جسم قائم بنفسه، مخالف جوهره جوهر البدن، وأنها مخلوقة مدبرة يتصرف الله فيها في الوفاة والإمساك والإرسال، وأن أرواح الأحياء والأموات تتلاقى في البرزخ فتجتمع فتحدث، فيرسل الله أرواح الأحياء، ويمسك أرواح الأموات.

﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِ. وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ﴾ (٤١) ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فِيمِيسَاتُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأَخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (٤٢) ﴿أَمْ آتَاخُذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ قُلْ أَوَلَوْ كُنْتُمْ تُدْرِكُونَ الْآيَاتِ الْكُبْرَىٰ قُلْ لِلَّهِ الشَّفَعَةُ جَمِيعاً لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (٤٣) ﴿وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْتَمَارَتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ (٤٤) ﴿قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ عِلِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ (٤٥) ﴿وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ مِنْ سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَبَدَّلَهُمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ﴾ (٤٦)

من دون الله شيئاً؟! ولهذا قال: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾؛ أي: خالقهما ومديرهما، ﴿عَلَيْمَ الْغَيْبِ﴾: الذي غاب عن أبصارنا وعلمنا، ﴿وَالشَّهِيدَ﴾: الذي نشاهده، ﴿أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ (٤٣).

﴿أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ قُلْ أُولَئِكَ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَقُولُونَ﴾ (٤٤) ﴿قُلِ لِلَّهِ الشَّفَعَةُ جَمِيعًا لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (٤٥).

﴿٤٣﴾ ينكر تعالى على من اتخذ من دونه شفعا يتعلق بهم ويسألهم ويعبدهم، ﴿قُلْ﴾ لهم مبينا جهلهم وأنها لا تستحق شيئا من العبادة: ﴿أُولَئِكَ كَانُوا﴾؛ أي: من اتخذتم من الشفعاء ﴿لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا﴾؛ أي: لا مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض ولا أصغر من ذلك ولا أكبر، بل وليس لهم عقل يستحقون أن يمدحوا به؛ لأنها جمادات من أحجار وأشجار وصور وأموات؛ فهل يقال: إن لمن اتخذها عقلا، أم هو من أضل الناس وأجهلهم وأعظمهم ظلما؟! (٤٤)

﴿٤٥﴾ ﴿قُلْ﴾: لهم: ﴿لِلَّهِ الشَّفَعَةُ جَمِيعًا﴾: لأن الأمر كله لله، وكل شافع؛ فهو يخافه، ولا يقدر أن يشفع عنده أحد إلا بإذنه؛ فإذا أراد رحمة عبده؛ أذن للشفيع الكريم عنده أن يشفع رحمة بالاثنتين. ثم قرر أن الشفاعة كلها له بقوله: ﴿لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾؛ أي: جميع ما فيهما من الدوات والأفعال والصفات؛ فالواجب أن تطلب الشفاعة ممن يملكها وتخلص له العبادة. ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (٤٦): فيجازي المخلص له بالثواب الجزيل، ومن أشرك به بالعذاب الويليل.

﴿وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ (٤٧) ﴿قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ عَلِيمُ الْغَيْبِ وَالشَّهِيدَ أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ (٤٨).

﴿٤٧﴾، ﴿٤٨﴾ يذكر تعالى حالة المشركين وما الذي اقتضاه شركهم: أنهم إذا ﴿ذُكِرَ اللَّهُ﴾ تعالى توحيدا له وأمرًا بإخلاص الدين له وترك ما يُعبد من دونه؛ أنهم يشمترون وينفرون ويكرهون ذلك أشد الكراهة. ﴿وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ﴾: من الأصنام والأنداد، ودعا الداعي إلى عبادتها ومدحها؛ ﴿إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ (٤٩): بذلك فرحا بذكر معبوداتهم، ولكون الشرك موافقا لأهوائهم وهذه الحال أشرف الحالات وأشنعها ولكن موعدهم يوم الجزاء؛ فهناك يؤخذ الحق منهم وينظر: هل تنفعهم ألهتهم التي كانوا يدعون

وإن من أعظم الاختلاف اختلاف الموحد المخلصين القائلين: إن ما هم عليه هو الحق وإن لهم الحسن في الآخرة دون غيرهم، والمشركون الذين اتخذوا من دونك الأنداد والأوثان وسواك من لا يسوى شيئا، وتنقصوك غاية التنقص، واستبشروا عند ذكر ألهتهم، واشمازوا عند ذكرك وزعموا مع هذا أنهم على الحق وغيرهم على الباطل وأن لهم الحسن؛ قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِقِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْمُجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ (٥٠) ﴿[الحج: ١٧]، وقد أخبرنا بالفصل بينهم بعدها بقوله: ﴿هَذَانِ خَصِمَانِ أَتَخْصِمُا فِي رِيبٍ فَأَلَّذِينَ كَفَرُوا قُطِعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِنْ نَارٍ يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمْ مِنْ حَمِيمٍ﴾ (٥١) ﴿يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ﴾ (٥٢) ﴿وَهُمْ مَقْلَعُونَ مِنْ حَدِيدٍ﴾ (٥٣) ﴿إِلَى أَنْ قَالَ: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَدْخُلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ (٥٤) ﴿[الحج: ١٩-٢٣]، وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمَنُ وَهُمْ مُنْتَهَوْنَ﴾ (٥٥) ﴿[الأنعام: ٨٢]، ﴿إِنَّهُ مَنْ يَشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَهُ النَّارُ﴾ [المائدة: ٧٢]؛ ففي هذه الآية بيان عموم خلقه تعالى، وعموم علمه، وعموم حكمه بين عباده؛ فقد رته التي نشأت عنها المخلوقات، وعلمه المحيط بكل شيء دال على حكمه بين عباده وبعثهم وعلمه بأعمالهم خيرا وشرها بمقادير جزائها، وخلق دال على علمه، ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ﴾ [الملك: ١٤].

﴿وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَا فُتِنُوا بِهِ مِنْ سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَبَدَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ﴾ (٥٦) ﴿وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ (٥٧).

﴿٥٧﴾ لما ذكر تعالى أنه الحاكم بين عباده، وذكر مقالة المشركين وشناعتها، كأن النفوس تشوفت إلى ما يفعل الله بهم يوم القيامة، فأخبر أن لهم ﴿سُوءَ الْعَذَابِ﴾؛ أي: أشده وأظفعه؛ كما قالوا أشد الكفر وأشنعه، وأنهم على الفرض

والتقدير لو كان لهم ما في الأرض جميعاً من ذهبها وفضتها ولؤلئها وحيواناتها وأشجارها وزروعها وجميع أوانيها وأثاثها، ومثله معه، ثم بذلوه ﴿يَوْمَ الْفَيْكَةِ﴾ ليفتدوا به من العذاب وينجوا منه؛ ما قبل منهم، ولا أغنى عنهم من عذاب الله شيئاً، ﴿يَوْمَ لَا يَفْعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ﴾ (٨٨) إِلَّا مَنْ أَقَى اللَّهَ يَقْلِبُ سَلِيمٌ (٨٩) [الشعراء: ٨٨، ٨٩]. ﴿وَبَدَأَ لَهُمْ مِنْ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ﴾ (٩٧)؛ أي: يظنون من السخط العظيم والمقت الكبير، وقد كانوا يحكمون لأنفسهم بغير ذلك.

﴿وَبَدَأَ لَهُمْ سَيِّئَاتٍ مَا كَسَبُوا﴾؛ أي: الأمور التي تسوءهم بسبب صنيعهم وكسبهم، ﴿وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ (٩٨)؛ من الوعيد والعذاب، نزل بهم، وحل عليهم العقاب.

﴿فَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْتَهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٩٩) قَدْ قَالُوا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٠٠﴾ فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِن هَؤُلَاءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴿١٠١﴾ أَوَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (١٠٢).

سورة الزمر
وَبَدَأَ لَهُمْ سَيِّئَاتٍ مَا كَسَبُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٩٨﴾ فَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْتَهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٩٩﴾ قَدْ قَالُوا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٠٠﴾ فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِن هَؤُلَاءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴿١٠١﴾ أَوَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٢﴾ قُلْ يَتَّبِعُوا آلَ الَّذِينَ آمَنُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْطَعُوا مِّن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿١٠٣﴾ وَإِنبِئُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلُمُوا اللَّهُ مِنْ قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصِرُونَ ﴿١٠٤﴾ وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿١٠٥﴾ أَن تَقُولَ نَفْسٌ بِحَسْرَتِي عَلَىٰ مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ وَإِن كُنتَ لَمِنَ السَّخِرِينَ ﴿١٠٦﴾

﴿١٠٣﴾ يخبر تعالى عن حالة الإنسان وطبيعته أنه حين يمسّه ضرر من مرض أو شدة أو كرب، ﴿دَعَانَا﴾؛ ملجأ في تفريج ما نزل به، ﴿ثُمَّ إِذَا خَوَّلْتَهُ نِعْمَةً مِّنَّا﴾؛ فكشفنا ضرره، وأزلنا مشقته؛ عاد بربه كافراً ولمعروفه منكراً، و﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾؛ أي: علم من الله أنني له أهل وأنني مستحق له؛ لأنني كريم عليه، أو على علم مني بطرق تحصيله، قال تعالى: ﴿بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ﴾؛ يبتلي الله به عباده ليظهر من يشكره ممن يكفره. ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٩٩)؛ فلذلك يعدون الفتنة منحة، ويشتهه عليهم الخير المحض بما قد يكون سبباً للخير أو للشر.

﴿١٠٠﴾ قال تعالى: ﴿قَدْ قَالُوا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾؛ أي: قولهم: ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾؛ فما زالت متوارثة عند المكذبين، لا يقرنون نعمة ربهم، ولا يرون له حقاً، فلم يزل دأبهم حتى أهلكوا، ولم يغن ﴿عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (١٠٠)؛ حين جاءهم العذاب!

﴿١٠١﴾ ﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا﴾؛ والسيئات في هذا الموضع العقوبات؛ لأنها تسوء الإنسان وتحزنه. ﴿وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِن هَؤُلَاءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا﴾؛ فليسوا خيراً من أولئك، ولم يكتب لهم براءة في الزبر.

﴿١٠٢﴾ ولما ذكر أنهم اغتروا بالمال وزعموا بجهلهم أنه يدل على حسن حال صاحبه؛ أخبرهم تعالى أن رزقه لا يدل على ذلك، وأنه ﴿يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ﴾؛ من عباده، سواء كان صالحاً أو طالحاً. ﴿وَيَقْدِرُ﴾؛ الرزق؛ أي: يضيقه على من يشاء صالحاً أو طالحاً؛ فرزقه مشترك بين البرية، والإيمان والعمل الصالح يخص به خير البرية ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (١٠٢)؛ أي: بسط الرزق وقبضه؛ لعلمهم أن مرجع ذلك عائد إلى الحكمة والرحمة، وأنه أعلم بحال عبيده؛ فقد يضيّق عليهم الرزق لطفاً بهم؛ لأنه لو بسطه؛ لبغوا في الأرض، فيكون تعالى مراعيّاً في ذلك صلاح دينهم الذي هو مادة سعادتهم وفلاحهم. والله أعلم.

﴿وَأَسْأَلُوهُ لَهُ﴾: بجوارحكم، إذا أفردت الإنابة؛ دخلت فيها أعمال الجوارح، وإذا جمع بينهما كما في هذا الموضع؛ كان المعنى ما ذكرنا. وفي قوله: ﴿إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْأَلُوهُ لَهُ﴾: دليل على الإخلاص، وأنه من دون إخلاص لا تفيد الأعمال الظاهرة والباطنة شيئاً ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمْ الْعَذَابُ﴾: مجيباً لا يدفع، ﴿ثُمَّ لَا تَنْصُرُونَ﴾ (٥٤) ﴿﴾.

(٥٥) فكانه قيل: ما هي الإنابة والإسلام، وما جزئياتها وأعمالها؟ فأجاب تعالى بقوله: ﴿وَأَتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ﴾: مما أمركم من الأعمال الباطنة؛ كمحبة الله وخشيته وخوفه ورجائه والنصح لعباده ومحبة الخير لهم وترك ما يضاد ذلك، ومن الأعمال الظاهرة؛ كالصلاة والزكاة والصيام والحج والصدقة وأنواع الإحسان، ونحو ذلك مما أمر الله به، وهو أحسن ما أنزل إلينا من ربنا، فالمتبع لأوامر ربه في هذه الأمور ونحوها هو المنيب المسلم ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمْ الْعَذَابُ بَعَثَهُ وَأَنْشَرَهُ لَا تَنْصُرُونَ﴾ (٥٥) ﴿﴾: وكل هذا حث على المبادرة وانتهاز الفرصة.

(٥٦) ثم حذرهم ﴿أَنْ﴾ لا يستمروا على غفلتهم حتى يأتيهم يوم يندمون فيه ولا تنفع الندامة، ﴿وَتَقُولُ نَفْسُ بِحَسْرَتٍ عَلَى مَا قَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ﴾؛ أي: في جانب حقه. ﴿وَأَنْ كُنْتُ﴾: في الدنيا ﴿لَعِنَ السَّخِرِينَ﴾ (٥٦) ﴿﴾: في إتيان الجزاء حتى رأيته عياناً.

(٥٧) ﴿أَوْ تَقُولُ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ (٥٧) ﴿﴾: و(لو) في هذا الموضع للتمني؛ أي: ليت أن الله هداني، فأكون متقياً له، فأسلم من العقاب، وأستحق الثواب، وليست (لو) هنا شرطية؛ لأنها لو كانت شرطية؛ لكانوا محتجين بالقضاء والقدر على ضلالهم، وهي حجة باطلة، ويوم القيامة تضمحل كل حجة باطلة.

(٥٨) ﴿أَوْ تَقُولُ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ﴾: وتجزم بوروده: ﴿لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً﴾؛ أي: رجعة إلى الدنيا: لكنك ﴿مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ (٥٨) ﴿﴾.

(٥٩) قال تعالى في أن ذلك غير ممكن ولا مفيد، وأن هذه أمانى باطلة لا حقيقة لها؛ إذ لا يتجدد للعبد لو رد بيان بعد البيان الأول: ﴿بَلَى قَدْ جَاءَ تِلْكَ عَائِي﴾: الدالة دلالة لا يمتري فيها على الحق، ﴿فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ﴾:

﴿قُلْ يَعْبادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ (٥٩) ﴿﴾. وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلُمُوا لَهُ، مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمْ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصُرُونَ (٥٩) ﴿﴾. وَأَتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمْ الْعَذَابُ بَعَثَهُ وَأَنْشَرَهُ لَا تَنْصُرُونَ (٥٩) ﴿﴾. أَنْ تَقُولَ نَفْسُ بِحَسْرَتٍ عَلَى مَا قَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ وَإِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّخِرِينَ (٥٦) ﴿﴾. أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ (٥٧) ﴿﴾. أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (٥٨) ﴿﴾. بَلَى قَدْ جَاءَ تِلْكَ عَائِي فَكَذَّبْتُ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتُ وَكُنْتُ مِنَ الْكَافِرِينَ (٥٩) ﴿﴾.

(٥٩) يخبر تعالى عباده المسرفين بسعة كرمه، ويحثهم على الإنابة قبل ألا يمكنهم ذلك، فقال: ﴿قُلْ﴾ يا أيها الرسول ومن قام مقامه من الدعاة لدين الله مخبراً للعباد عن ربهم: ﴿يَعْبادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ﴾: باتباع ما تدعوهم إليه أنفسهم من الذنوب والسعي في مساخط علام الغيوب، ﴿لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ﴾؛ أي: لا تيأسوا منها، فتلحقوا بأيديكم إلى التهلكة، وتقولوا: قد كثرت ذنوبنا وترأمت عيوبنا؛ فليس لها طريق يزيلها ولا سبيل يصرفها فتبقون بسبب ذلك مصرين على العصيان، متزودين ما يغضب عليكم الرحمن، ولكن اعرفوا ربكم بأسمائه الدالة على كرمه وجوده، واعلموا أنه يغفر الذنوب جميعاً من الشرك والقتل والزنا والربا والظلم وغير ذلك من الذنوب الكبار والصغار. ﴿إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ (٥٩) ﴿﴾؛ أي: وصفه المغفرة والرحمة وصفان لازمان ذاتيان لا تنفك ذاته عنهما، ولم تزل آثارهما سارية في الوجود، ماثلة للموجود، تسح يدها من الخيرات آناء الليل والنهار، ويوالي النعم على العباد والفواضل في السر والجهر، والعطاء أحب إليه من المنع، والرحمة سبقت الغضب وغلبته.

(٥٩) ولكن لمغفرته ورحمته ونيلهما أسباب؛ إن لم يأت بها العبد؛ فقد أغلق على نفسه باب الرحمة والمغفرة، أعظمها وأجلها - بل لا سبب لها غيره - الإنابة إلى الله تعالى بالتوبة النصوح، والدعاء والتضرع والتأله والتعبد؛ فهلم إلى هذا السبب الأجل والطريق الأعظم، ولهذا أمر تعالى بالإنابة إليه والمبادرة إليها، فقال: ﴿وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ﴾: بقلوبكم،

عن اتباعها، ﴿وَكُنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ (٥٩)؛ فسؤال الرد إلى الدنيا نوع عبث، ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ (٦٠) [الأنعام: ٢٢٨].

﴿وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُمْ مُسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ (٦١) وَيَسْخَى اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمْ أَلْسُوءٌ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦٢).

(٦١) يخبر تعالى عن خزي ﴿الَّذِينَ كَذَبُوا﴾ عليه، وأن وجوههم يوم القيامة ﴿مُسْوَدَّةٌ﴾: كأنها الليل البهيم، يعرفهم بذلك أهل الموقف، فالحق أبلج واضح كأنه الصبح؛ فكما سودوا وجه الحق بالكذب؛ سود الله وجوههم جزاء من جنس عملهم؛ فلهم سواد الوجوه ولهم العذاب الشديد في جهنم، ولهذا قال: ﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ (٦١)؛ عن الحق، وعن عبادة ربهم، المفترين عليه، بلى والله؛ إن فيها لعقوبة وخزيًا وسخطًا يبلغ من المتكبرين كل مبلغ، ويؤخذ الحق منهم بها، والكذب على الله يشمل الكذب عليه باتخاذ الشريك والولد والصاحبة، والإخبار عنه بما لا يليق بجلاله، أو ادعاء النبوة، أو القول في شرعه بما لم يقله والإخبار بأنه قاله وشرعه.

أَوْ تَقُولُ لَوَأَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ (٥٧)
أَوْ تَقُولُ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوَأَنَّ لِي كَرَّةٌ فَأَكُونُ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (٥٨) بَلَىٰ قَدْ جَاءَ تَكَءَايَتِي فَكَذَّبَتْ بِهَا وَاسْتَكْبَرَتْ وَكُنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ (٥٩) وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُمْ مُسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ (٦٠) وَيَسْخَى اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمْ أَلْسُوءٌ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦١) اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ (٦٢) لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (٦٣) قُلْ أَغْفِرُ اللَّهُ تَأْمُرُونِي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ (٦٤) وَلَقَدْ أَوْحَىٰ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٦٥) بَلَىٰ اللَّهُ قَاعِدٌ وَكَانَ مِنَ الشَّاكِرِينَ (٦٦) وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَتَّىٰ قَدَرَهُ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا بِقَيْصَتِهِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٦٧)

(٦١) ولما ذكر حالة المتكبرين؛ ذكر حالة المتقين، فقال: ﴿وَيَسْخَى اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ﴾؛ أي: بنجاتهم، وذلك لأن معهم آلة النجاة، وهي تقوى الله تعالى، التي هي العُدَّة عند كل هول وشدة. ﴿لَا يَمَسُّهُمْ أَلْسُوءٌ﴾؛ أي: العذاب الذي يسوءهم، ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (٦١)؛ فنفي عنهم مباشرة العذاب وخوفه، وهذا غاية الأمان؛ فلهم الأمن التام يصحبهم حتى يوصلهم إلى دار السلام؛ فحيثئذ يأمنون من كل سوء ومكروه، وتجري عليهم نضرة النعيم، ويقولون: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ﴾ (٦٢) [فاطر: ٣٤].

﴿اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ (٦٢) لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (٦٣).

(٦٢) يخبر تعالى عن عظمته وكماله الموجب لخسران من كفر به، فقال: ﴿اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾: هذه العبارة وما أشبهها مما هو كثير في القرآن تدل على أن جميع الأشياء غير الله مخلوقة؛ ففيها رد على كل من قال بقدم بعض المخلوقات؛ كالفلاسفة القائلين بقدم الأرض والسموات، وكالقائلين بقدم الأرواح، ونحو ذلك من أقوال أهل الباطل المتضمنة تعطيل الخالق عن خلقه، وليس كلام الله من الأشياء المخلوقة؛ لأن الكلام صفة المتكلم، والله تعالى بأسمائه وصفاته أولٌ ليس قبله شيء؛ فأخذ أهل الاعتزال من هذه الآية ونحوها أنه مخلوق، من أعظم الجهل؛ فإنه تعالى لم يزل بأسمائه وصفاته، ولم يحدث له صفة من صفاته، ولم يكن معطلاً عنها بوقت من الأوقات.

والشاهد من هذا أن الله تعالى أخبر عن نفسه الكريمة أنه خالق لجميع العالم العلوي والسفلي، وأنه ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ (٦٢)، والوكالة التامة لا بد فيها من علم الوكيل بما كان وكيلاً عليه، وإحاطته بتفاصيله، ومن قدرة تامة على ما هو وكيل عليه؛ ليتمكن من التصرف فيه، ومن حفظ لما هو وكيل عليه، ومن حكمة ومعرفة بوجوه التصرفات ليصرفها ويدبرها

يَعْمَلُونَ ﴿٨٨﴾ [الأنعام: ٨٨]، وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٨٩﴾: ديناك وآخرتك؛ فبالشرك تحبط الأعمال، ويستحق العقاب والنكال.

﴿٩٠﴾ ثم قال: ﴿بَلَىٰ اللَّهُ فَاعْبُدْ﴾: لما أخبر أن الجاهلين يأمرونه بالشرك، وأخبر عن شناعته؛ أمره بالإخلاص، فقال: ﴿بَلَىٰ اللَّهُ فَاعْبُدْ﴾؛ أي: أخلص له العبادة وحده لا شريك له، ﴿وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ ﴿٩١﴾: الله على توفيق الله تعالى؛ فكما أنه تعالى يشكر على النعم الدينية كصحة الجسم وعافيته وحصول الرزق وغير ذلك؛ كذلك يشكر ويشنى عليه بالنعم الدينية؛ كالتوفيق للإخلاص والتقوى، بل نعم الدين هي النعم على الحقيقة، وفي تدبر أنها من الله تعالى، والشكر لله عليها سلامة من آفة العجب التي تعرض لكثير من العاملين بسبب جهلهم، وإلا؛ فلو عرف العبد حقيقة الحال؛ لم يعجب بنعمة تستحق عليه زيادة الشكر.

﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ ﴿٩٢﴾.

﴿٩٣﴾ يقول تعالى: وما قدر هؤلاء المشركون ربهم ﴿حَقَّ قَدْرِهِ﴾: ولا عظموه حق تعظيمه، بل فعلوا ما يناقض ذلك من إشراكهم به من هو ناقص في أوصافه وأفعاله؛ فأوصافه ناقصة من كل وجه، وأفعاله ليس عنده نفع ولا ضرر ولا عطاء ولا منع ولا يملك من الأمر شيئا، فسوا هذا المخلوق الناقص بالخالق الرب العظيم، الذي من عظمته الباهرة وقدرته القاهرة أن جميع الأرض يوم القيامة قبضة للرحمن، وأن السماوات على سعتها وعظمها مطويات بيمينه، فلا عظمه حق عظمته من سوى به غيره، ولا أظلم منه. ﴿سُبْحَنَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ ﴿٩٤﴾؛ أي: تنزهه وتعظمه عن شركهم به.

﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ سَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نَفَخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ﴾ ﴿٩٥﴾ وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجَاءَتِ الْبَلَيَاتُ وَالشَّهَادَاتُ وَقَفِيَٰ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٩٧﴾.

على ما هو الأليق؛ فلا تتم الوكالة إلا بذلك كله؛ فما نقص من ذلك؛ فهو نقص فيها. ومن المعلوم المقرر أن الله تعالى منزّه عن كل نقص في صفة من صفاته؛ فإخباره بأنه على كل شيء وكيل؛ يدل على إحاطة علمه بجميع الأشياء، وكمال قدرته على تدبيرها، وكمال تدبيره، وكمال حكمته التي يضع بها الأشياء مواضعها.

﴿٩٨﴾ لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ؛ أي: مفاتيحها علما وتديبرا؛ ف ﴿مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكُ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ ﴿٩٩﴾ [فاطر: ٢]. فلما بين من عظمته ما يقتضي أن تمتلئ القلوب له إجلالا وإكراما؛ ذكر حال من عكس القضية فلم يقدره حق قدره، فقال: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَائِدُوا لِلَّهِ﴾: الدالة على الحق اليقين والصراط المستقيم؛ ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ ﴿١٠٠﴾: خسروا ما به تصلح القلوب من التآله والإخلاص لله، وما به تصلح الألسن من إشغالها بذكر الله، وما تصلح به الجوارح من طاعة الله، وتعوضوا عن ذلك كل مفسد للقلوب والأبدان، وخسروا جنات النعيم، وتعوضوا عنها بالعذاب الأليم.

﴿قُلْ أَفَعَيَّرَ اللَّهُ تَأْمُرُوَنِي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ﴾ ﴿١٠١﴾ وَلَقَدْ أَوْحَىٰ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكَتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿١٠٢﴾ بَلَىٰ اللَّهُ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿١٠٣﴾.

﴿١٠٤﴾ ﴿قُلْ﴾ يا أيها الرسول لهؤلاء الجاهلين الذين دعوك إلى عبادة غير الله: ﴿أَفَعَيَّرَ اللَّهُ تَأْمُرُوَنِي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ﴾ ﴿١٠٥﴾؛ أي: هذا الأمر صدر من جهلكم، وإلا؛ فلو كان لكم علم بأن الله تعالى الكامل من جميع الوجوه، مسدي جميع النعم هو المستحق للعبادة دون من كان ناقصا من كل وجه لا ينفع ولا يضر؛ لم تأمروني بذلك، وذلك لأن الشرك بالله محبط للأعمال، مفسد للأحوال.

﴿١٠٦﴾ ولهذا قال: ﴿وَلَقَدْ أَوْحَىٰ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ﴾: من جميع الأنبياء، ﴿لَئِنْ أَشْرَكَتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾: هذا مفرد مضاف يعم كل عمل، ففي نبوة جميع الأنبياء أن الشرك محبط لجميع الأعمال؛ كما قال تعالى في سورة الأنعام لما عدد كثيرا من أنبيائه ورسله؛ قال عنهم: ﴿ذَٰلِكَ هُدَىٰ اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا

﴿٦٨﴾ لما خوفهم تعالى من عظمتهم؛ خوفهم بأحوال يوم القيامة، ورغبتهم ورهبهم، فقال: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ﴾: وهو قرن عظيم لا يعلم عظمته إلا خالقه ومن أطلعه الله على علمه من خلقه، فينفخ فيه إسرائيل عليه السلام أحد الملائكة المقربين وأحد حملة عرش الرحمن؛ ﴿فَصَعِقَ﴾: أي: غشي أو مات على اختلاف القولين، ﴿مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾: أي: كلهم، لما سمعوا نفخة الصور؛ أزعمتهم من شدتها وعظمتها، وما يعلمون أنها مقدمة له، ﴿إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ﴾: ممن ثبته الله عند النفخة، فلم يصعق؛ كالشهداء أو بعضهم وغيرهم، وهذه النفخة الأولى نفخة الصعق ونفخة الفرع، ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ﴾: النفخة الثانية؛ نفخة البعث، ﴿فَإِذَا هُمْ بِيَوْمٍ يُنْظَرُونَ﴾ ﴿٦٩﴾: أي: قد قاموا من قبورهم لبعثهم وحسابهم ينظرون قد تمت منهم الخلقة الجسدية والأرواح، وشخصت أبصارهم، ﴿يُنْظَرُونَ﴾ ﴿٧٠﴾: ماذا يفعل الله بهم؟

﴿٧١﴾ وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا: علم من هذا أن الأنوار الموجودة تذهب يوم القيامة وتضمحل، وهو كذلك؛ فإن الله أخبر أن الشمس تكور والقمر يخسف والنجوم تُتَشَتَّرُ ويكون الناس في ظلمة؛ فتشرق عند ذلك الأرض بنور ربها عندما يتجلى وينزل للفصل بينهم، وذلك اليوم يجعل الله للخلق قوة، وينشئهم نشأة يَقَوُّونَ على ألا يحرقهم نوره ويتمكنون أيضاً من

رؤيته، وإلا؛ فنوره تعالى عظيم، لو كشفه؛ لأحرقت سمحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه. ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ﴾: أي: كتاب الأعمال وديوانه، وضع ونشر ليقرأ ما فيه من الحسنات والسيئات؛ كما قال تعالى: ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يُوزِنُنَا مَا لَ هَذَا الْكِتَابِ لَا يَغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩]، ويقال للعامل من تمام العدل والإنصاف: ﴿أَقْرَأَ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَبِيبًا﴾ ﴿٧٢﴾ [الاسراء: ١٤]، ﴿وَجَاءَ بِالنَّبِيِّينَ﴾: ليسألوا عن التبليغ وعن أمهم ويشهدوا عليهم، ﴿وَالشَّهَدَاءَ﴾: من الملائكة والأعضاء والأرض، ﴿وَفُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ﴾: أي: العدل التام والقسط العظيم؛ لأنه حساب صادر ممن لا يظلم مثقال ذرة ومن هو محيط بكل شيء وكتابه الذي هو اللوح المحفوظ محيط بكل ما عملوه، والحفظة الكرام الذين لا يعصون ربهم قد كتبت عليهم ما عملوه، وأعدل الشهداء قد شهدوا على ذلك الحكم، فحكم بذلك من يعلم مقادير الأعمال ومقادير استحقاقها للثواب والعقاب، فيحصل حكم يقر به الخلق، ويعترفون لله بالحمد والعدل، ويعرفون به من عظمتهم وعلمه وحكمته ورحمته ما لم يخطر بقلوبهم، ولا تعبر عنه ألسنتهم.

﴿٧٣﴾ ولهذا قال: ﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ ﴿٧٤﴾.

﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهَا فَصَحَّتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا بَلَىٰ وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ ﴿٧٥﴾ قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فِئَسَ مَوَى الْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٦﴾ وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ ﴿٧٧﴾ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَّبِعُكَ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴿٧٨﴾ وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَفُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٧٩﴾.

﴿٧٢﴾ ثم قال عن أهل الجنة: ﴿وَسَيَقُ الَذِينَ اتَّقَوْا رَحْمَةً﴾: بتوحيده والعمل بطاعته سَوْقَ إكرام وإعزاز يحشرون وفدًا على النجائب ﴿إِلَى الَحَنَّةِ زُمَرًا﴾: فرحين مستبشرين، كل زمرة مع الزمرة التي تناسب عملها وتشاكله، ﴿حَقَّ إِذَا جَاءَهَا﴾؛ أي: وصلوا لتلك الرحاب الرحبية والمنازل الأنيفة، وهبَّ عليهم ريحها ونسيمها وأن خلودها ونعيمها، ﴿وَفُتِحَتْ﴾ لهم ﴿أَبْوَابُهَا﴾: فتح إكرام لكرام الخلق ليكرموا فيها، ﴿وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا﴾: تهتة لهم وترحيبًا: ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾؛ أي: سلام من كل آفة وشر حال عليكم ﴿طِبَّتْ﴾؛ أي: طابت قلوبكم بمعرفة الله ومحبه وخشيته، وألستكم بذكره وجوارحكم بطاعته. فسبب طيكم ادخلوها ﴿خَلِيلِينَ﴾: لأنها الدار الطيبة، ولا يليق بها إلا الطيبون. وقال في النار: ﴿فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا﴾، وفي الجنة: ﴿وَفُتِحَتْ﴾: بالواو؛ إشارة إلى أن أهل النار بمجرد وصولهم إليها؛ فتحت لهم أبوابها من غير إنظار ولا إهمال، وليكون فتحها في وجوهم وعلى وصولهم أعظم لحرها وأشدَّ لعذابها، وأما الجنة؛ فإنها الدار العالية الغالية، التي لا يوصل إليها ولا ينالها كل أحد إلا من أتى بالوسائل الموصلة إليها، ومع ذلك؛ فيحتاجون لدخولها لشفاعاة أكرم الشفعاء عليه، فلم تفتح لهم بمجرد ما وصلوا إليها، بل يستشفعون إلى الله بمحمد ﷺ، حتى يشفع، فيشفعه الله تعالى.

وفي الآيات دليل على أن النار والجنة لهما أبواب تفتح وتغلق، وأن لكل منهما خزنة، وهما الداران الخالصتان اللتان لا يدخل فيهما إلا من استحقهما؛ بخلاف سائر الأمكنة والدور.

﴿٧٣﴾ ﴿وَقَالُوا﴾ عند دخولهم فيها واستقرارهم حامدين ربهم على ما أولاهم وَمَنْ عَلَيْهِم هداهم: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ﴾؛ أي: وعدنا الجنة على السنة رسله، إن آمنا وصلحنا؛ فوفى لنا بما وعدنا وأنجز لنا ما مَنَّا، ﴿وَأَوْزَنَّا الْأَرْضَ﴾؛ أي: أرض الجنة ﴿نَبَوًّا مِنْ الَحَنَّةِ حَيْثُ نَشَأَ﴾؛ أي: نزل منها أي مكان شئنا، ونتناول منها أي نعيم أردنا، ليس ممنوعًا عنا شيء نريده، ﴿فَنَعَمْ أَجْرُ الْعَمَلِينَ﴾: الذين اجتهدوا بطاعة ربهم في زمن قليل منقطع، فنالوا بذلك خيرًا عظيمًا باقياً مستمراً. وهذه الدار التي تستحق المدح على الحقيقة، التي يكرم الله فيها

﴿٧٤﴾ لما ذكر تعالى حكمه بين عباده الذين جمعهم في خلقه ورزقه وتديره واجتماعهم في موقف القيامة - فرقمهم تعالى عند جزائهم كما افترقوا في الدنيا بالإيمان والكفر والتقوى والفجور، فقال: ﴿وَسَيَقُ الَذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ﴾؛ أي: سَوْقًا عنيفًا، يضربون بالسياط الموجهة من الزبانية الغلاظ الشداد، إلى شر محبس وأقظع موضع، وهي جهنم، التي قد جمعت كل عذاب، وحضرها كل شقاء، وزال عنها كل سرور؛ كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَدْعُوتُ إِلَى تَارِ جَهَنَّمَ دَعَا﴾ [الطور: ١٣]؛ أي: يدفعون إليها دفعا، وذلك لامتناعهم من دخولها ويساقون إليها، ﴿زُمَرًا﴾؛ أي: فرقا متفرقة، كل زمرة مع الزمرة التي تناسب عملها وتشاكل سعيها، يلعن بعضهم بعضًا ويبرأ بعضهم من بعض، ﴿حَقَّ إِذَا جَاءَهَا﴾؛ أي: وصلوا إلى ساحتها، ﴿فُتِحَتْ﴾ لهم؛ أي: لأجلهم ﴿أَبْوَابُهَا﴾: لقدومهم وقرى لنزولهم، ﴿وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا﴾: مهين لهم بالشقاء الأبدى والعذاب السرمدي، وموبخين لهم على الأعمال التي أوصلتهم إلى هذا المحل الفظيع: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ﴾؛ أي: من جنسكم، تعرفونهم وتعرفون صدقهم، وتمكنون من التلقي عنهم، ﴿يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ﴾: التي أرسلهم الله بها، الدالة على الحق اليقين بأوضح البراهين، ﴿وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا﴾؛ أي: وهذا يوجب عليكم اتباعهم والحذر من عذاب هذا اليوم باستعمال تقواه، وقد كانت حالكم بخلاف هذه الحال، ﴿قَالُوا﴾: مقرين بذنبهم وأن حجة الله قامت عليهم: ﴿بَلَى﴾: قد جاءتنا رسل ربنا بآياته وبيناته، وبينوا لنا غاية التبيين، وحذرونا من هذا اليوم. ﴿وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾: أي: بسبب كفرهم وجبت عليهم كلمة العذاب التي هي لكل من كفر بآيات الله وجحد ما جاءت به المرسلون، فاعترفوا بذنبهم وقيام الحجة عليهم.

﴿٧٥﴾ ﴿قِيلَ﴾ لهم على وجه الإهانة والإذلال: ﴿ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ﴾: كل طائفة تدخل مع الباب الذي يناسبها ويوافق عملها، ﴿خَلِيلِينَ فِيهَا﴾: أبدا لا يظعنون عنها ولا يُفترَّ عنهم العذاب ساعة ولا يُنظرون، ﴿فَيَتَسَّ مَتَوَى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾: أي: يتس المقر النار مقرهم، وذلك لأنهم تكبروا على الحق، فجازاهم الله من جنس عملهم بالإهانة والذل والخزي.

خواص خلقه، ورضيها الجواد الكريم لهم نزلًا، وبنى أعلاها وأحسنها وغرسها بيده وحشاها من رحمته وكرامته ما ببعضه يفرح الحزين، ويزول الكدر، ويتم الصفاء.

﴿وَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ﴾: أيها الراي ذلك اليوم العظيم ﴿حَافِينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ﴾؛ أي: قد قاموا في خدمة ربهم واجتمعوا حول عرشه خاضعين لجلاله معترفين بكماله مستغرقين بجماله، ﴿يَسْتَحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾؛ أي: ينزهونه عن كل ما لا يليق بجلاله مما نسب إليه المشركون وما لم ينسبوا. ﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾؛ أي: بين الأولين والآخرين من الخلق ﴿بِالْحَقِّ﴾: الذي لا اشتباه فيه ولا إنكار ممن عليه الحق. ﴿وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾: لم يذكر القائل من هو؛ ليدل ذلك على أن جميع الخلق نطقوا بحمد ربهم وحكمته على ما قضى به على أهل الجنة وأهل النار، حمد فضل وإحسان، وحمد عدل وحكمة.

تم تفسير سورة الزمر بحمد الله وعونه.

﴿٧٥﴾

تفسير سورة المؤمن

وهي مكية

سورة غافر

وَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٧٥﴾

سورة غافر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

حَمْدٌ ١ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ٢ غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَهُ الْمَصِيرِ ٣ مَا يُجَدَّلُ فِيءَ آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَا يَغْرُرُكَ تَقْلُبُهُمْ فِي الْإِلْدَادِ ٤ كَذَبَتْ فَبِلَهُمْ قَوْمُهُمْ نَارًا وَالْأَحْزَابِ مِنْ بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَدَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ٥ وَكَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ ٦ الَّذِينَ يَمْجُلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ، وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ٧

٤٦٧

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿حَمْدٌ ١ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ٢ غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَهُ الْمَصِيرِ ٣﴾.

١ - يخبر تعالى عن كتابه العظيم وأنه صادر ومنزل من الله المألوه المعبود لكماله وانفراذه بأفعاله. ﴿الْعَزِيزِ﴾: الذي قهر بعزته كل مخلوق. ﴿الْعَلِيمِ﴾: بكل شيء، ﴿غَافِرِ الذَّنْبِ﴾: للمذنبين، ﴿وَقَابِلِ التَّوْبِ﴾: من التائبين، ﴿شَدِيدِ الْعِقَابِ﴾: على من تجرأ على الذنوب ولم يتب منها، ﴿ذِي الطَّوْلِ﴾: أي: التفضل والإحسان الشامل. فلما قرر ما قرر من كماله، وكان ذلك موجبا لأن يكون وحده المألوه الذي تخلص له الأعمال، قال: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَهُ الْمَصِيرِ ٣﴾.

ووجه المناسبة بذكر نزول القرآن من الله الموصوف بهذه الأوصاف أن هذه الأوصاف مستلزمة لجميع ما يشتمل عليه القرآن من المعاني؛ فإن القرآن: إما إخبار عن أسماء الله وصفاته وأفعاله، وهذه أسماء وأوصاف وأفعال. وإما إخبار عن الغيوب الماضية والمستقبل؛ فهي من تعليم العليم لعباده. وإما إخبار عن نعمه العظيمة والآله الجسيمة وما يوصل إلى ذلك من الأوامر؛ فذلك يدل عليه قوله: ﴿ذِي الطَّوْلِ﴾. وإما إخبار عن نقمه الشديدة وعمها يوجبها ويقضيها من المعاصي؛ فذلك يدل عليه قوله: ﴿شَدِيدِ الْعِقَابِ﴾. وإما دعوة للمذنبين إلى التوبة والإنابة والاستغفار؛ فذلك يدل عليه قوله: ﴿غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ﴾. وإما إخبار بأنه وحده المألوه المعبود وإقامة الأدلة العقلية والنقلية على ذلك والحث عليه والنهي عن عبادة ما سوى الله وإقامة الأدلة العقلية والنقلية على فسادها والترهيب منها؛ فذلك يدل عليه قوله تعالى: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾. وإما إخبار عن حكمه الجزائي العدل وثواب المحسنين وعقاب العاصين؛ فهذا يدل عليه قوله: ﴿إِلَهُ الْمَصِيرِ ٣﴾. فهذا جميع ما يشتمل عليه القرآن من المطالب العاليتين.

شَيْءٍ رَّحِمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٨﴾ وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ وَمَنْ بَقِيَ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٩﴾

﴿٧﴾ يخبر تعالى عن كمال لطفه تعالى بعباده المؤمنين، وما قبض لأسباب سعادتهم من الأسباب الخارجة عن قدرهم من استغفار الملائكة المقربين لهم ودعائهم لهم بما فيه صلاح دينهم وآخرتهم، وفي ضمن ذلك الإخبار عن شرف حملة العرش ومن حوله وقربهم من ربهم وكثرة عبادتهم ونصحهم لعباد الله لعلمهم أن الله يحب ذلك منهم، فقال: ﴿الَّذِينَ يَمْجُلُونَ الْعَرْشَ﴾؛ أي: عرش الرحمن، الذي هو سقف المخلوقات وأعظمها وأوسعها وأحسنها وأقربها من الله تعالى، الذي وسع الأرض والسموات والكرسي، وهؤلاء الملائكة قد وكلهم الله تعالى بحمل عرشه العظيم؛ فلا شك أنهم من أكبر الملائكة وأعظمهم وأقوامهم، واختيار الله لهم لحمل عرشه وتقديسهم في الذكر وقربهم منه يدل على أنهم أفضل أجناس الملائكة عليهم السلام؛ قال تعالى: ﴿وَيَجْلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمِينَةٌ﴾ ﴿[الحاقة: ١٧]، وَمَنْ حَوْلَهُ﴾: من الملائكة المقربين في المنزلة والفضيلة، ﴿يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾: هذا مدح لهم بكثرة عبادتهم لله تعالى، وخصوصاً التسييح والتحميد، وسائر العبادات تدخل في تسييح الله وتحميده؛ لأنها تنزيه له عن كون العبد يصرفها لغيره وحمد له تعالى، بل الحمد هو العبادة لله تعالى، وأما قول العبد: «سبحان الله وبحمده»^(١)؛ فهو داخل في ذلك، وهو من جملة العبادات، ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾: وهذا من جملة فوائد الإيمان وفضائله الكثيرة جداً؛ أن الملائكة الذين لا ذنوب عليهم يستغفرون لأهل الإيمان؛ فالمؤمن بإيمانه تسبب لهذا الفضل العظيم.

ولما كانت المغفرة لها لوازم لا تتم إلا بها - غير ما يتبادر إلى كثير من الأذهان أن سؤالها وطلبها غاية مجرد مغفرة الذنوب - ذكر تعالى صفة دعائهم لهم بالمغفرة بذكر ما لا تتم إلا به، فقال: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾: فعملك قد أحاط بكل شيء، لا يخفى عليك خافية ولا يعزب عن علمك مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر، ورحمتك وسعت كل شيء؛

(١) البخاري (٦٦٨٢)، مسلم (٢٦٩٤).

﴿مَا يَجْدُلُ فِيَّ عَائِلَتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَا يَغْفِرُكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْيَلْدِ﴾ ﴿١٠﴾ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَدَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْخِلْهُمْ فِي الْفِتَنِ فَآخَذْتَهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿١١﴾ وَكَذَلِكَ حَقَّتْ كَيْمُتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ ﴿١٢﴾

﴿١٠﴾ يخبر تبارك وتعالى أنه ما يجادل في آياته إلا الذين كفروا، والمراد بالمجادلة هنا المجادلة لرد آيات الله ومقابلتها بالباطل؛ فهذا من صنيع الكفار، وأما المؤمنون؛ فيخضعون للحق ليدخضوا به الباطل، ولا ينبغي للإنسان أن يغتر بحالة الإنسان الدنيوية ويظن أن إعطاء الله إياه في الدنيا دليل على محبته له وأنه على الحق، ولهذا قال: ﴿فَلَا يَغْفِرُكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْيَلْدِ﴾ ﴿١١﴾؛ أي: ترددهم فيها بأنواع التجارات والمكاسب، بل الواجب على العبد أن يعتبر الناس بالحق وينظر إلى الحقائق الشرعية ويزن بها الناس، ولا يزن الحق بالناس كما عليه من لا علم ولا عقل له.

﴿١٢﴾ ثم هدد من جادل بآيات الله ليطلها كما فعل من قبله من الأمم من ﴿قَوْمُ نُوحٍ﴾ وعاد ﴿وَالْأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ﴾، الذين تحزبوا وتجمعوا على الحق ليطلوه وعلى الباطل لينصروه، وأنه بلغت بهم الحال وآل بهم التحزب إلى أنه همت ﴿كُلُّ أُمَّةٍ﴾: من الأمم ﴿بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ﴾؛ أي: يقتلوه، وهذا أبلغ ما يكون للرسول، الذين هم قادة أهل الخير، الذين معهم الحق الصرف، الذي لا شك فيه ولا اشتباه، هموا يقتلهم؛ فهل بعد هذا البغي والضلال والشقاء إلا العذاب العظيم الذي لا يخرجون منه؟! ولهذا قال في عقوبتهم الدنيوية والأخروية: ﴿فَآخَذْتَهُمْ﴾؛ أي: بسبب تكذيبهم وتحزبهم ﴿فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ ﴿١٣﴾: كان أشد العقاب وأفظعه، إن هو إلا صيحة أو حاصب ينزل عليهم، أو يأمر الأرض أن تأخذهم أو البحر أن يغرقهم؛ فإذا هم خامدون.

﴿١٣﴾ وَكَذَلِكَ حَقَّتْ كَيْمُتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا؛ أي: كما حقت على أولئك حقت عليهم كلمة الضلال التي نشأت عنها كلمة العذاب، ولهذا قال: ﴿أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ﴾ ﴿١٤﴾.

﴿الَّذِينَ يَمْجُلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ، وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ

فالكون علويه وسفليه قد امتلأ برحمة الله تعالى، ووسعتهم، ووصل إلى ما وصل إليه خلقه، ﴿فَاعْقِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا﴾: من الشرك والمعاصي، ﴿وَاتَّبِعُوا سَبِيلَكَ﴾: باتباع رسلك بتوحيذك وطاعتك، ﴿وَفِيهِمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾: أي: قهمل العذاب نفسه، وقهمل أسباب العذاب.

﴿٨﴾ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ: على السنة رسلك ﴿وَمَنْ صَلَحَ﴾: أي: صلح بالإيمان والعمل الصالح ﴿مِنْ آبَائِهِمْ وَازْوَاجِهِمْ﴾: زوجاتهم وأزواجهن وأصحابهم ورفقائهم ﴿وَوَدَّيْتَهُمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ﴾: القاهر لكل شيء؛ فيعزتك تغفر ذنوبهم، وتكشف عنهم المحذور، وتوصلهم بها إلى كل خير. ﴿الْحَكِيمُ﴾: الذي يضع الأشياء مواضعها؛ فلا نسألك يا ربنا أمراً تقتضي حكمتك خلافه، بل من حكمتك التي أنخبرت بها على السنة رسلك واقتضاها فضلك - المغفرة للمؤمنين.

﴿٩﴾ وَفِيهِمُ السَّيِّئَاتِ: أي: الأعمال السيئة وجزاءها؛ لأنها تسوء صاحبها، ﴿وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ﴾: أي: يوم القيامة ﴿فَقَدْ رَحِمْتَهُ﴾: لأن رحمتك لم تزل مستمرة على العباد، لا يمنعها إلا ذنوب العباد وسيئاتهم؛ فمن وقته السيئات؛ وافته للحسنات وجزائها الحسن. ﴿وَذَلِكَ﴾: أي: زوال المحذور بوقاية السيئات وحصول المحبوب بحصول الرحمة؛ ﴿هُوَ أَفْزَرُ الْعَظِيمِ﴾: الذي لا فوز مثله، ولا يتنافس المتنافسون بأحسن منه.

وقد تضمن هذا الدعاء من الملائكة: كمال معرفتهم بربهم، والتوسل إلى الله بأسمائه الحسنى التي يحب من عباده التوسل بها إليه، والدعاء بما يناسب ما دعوا الله فيه. فلما كان دعاؤهم بحصول الرحمة وإزالة أثر ما اقتضته النفوس البشرية التي علم الله نقصها واقتضاءها لما اقتضته من المعاصي ونحو ذلك من المبادئ والأسباب التي قد أحاط الله بها علماً؛ توسلوا بالرحيم العليم. وتضمن كمال أدبهم مع الله تعالى بإقرارهم بربوبيته لهم الربوبية العامة والخاصة، وأنه ليس لهم من الأمر شيء، وإنما دعاؤهم لربهم صدر من فقير بالذات من جميع الوجوه لا يدلي على ربه بحالة من الأحوال، إن هو إلا فضل الله وكرمه وإحسانه. وتضمن موافقتهم لربهم تمام الموافقة؛ بمحبة ما يحبه من الأعمال، التي هي العبادات التي قاموا بها واجتهدوا اجتهدا المحبين، ومن العمال الذين هم المؤمنون، الذين يحبهم الله تعالى من بين خلقه؛ فسائر الخلق المكلفين ييغضهم الله إلا المؤمنين منهم؛ فمن محبة الملائكة لهم دعوا الله واجتهدوا في صلاح أحوالهم؛ لأن الدعاء للشخص من أدل الدلائل على محبته؛ لأنه لا يدعو إلا لمن يحبه.

وتضمن ما شرحه الله، وفصله من دعائهم - بعد قوله: ﴿وَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ - التنبيه اللطيف على كيفية تدبر كتابه، وألا يكون المتدبر مقتصرًا على مجرد معنى اللفظ بمفرده، بل ينبغي له أن يتدبر معنى اللفظ؛ فإذا فهمه فهماً صحيحاً على وجهه؛ نظر بعقله إلى ذلك الأمر والطرق الموصلة إليه، وما لا يتم إلا به، وما يتوقف عليه؛ وجزم بأن الله أراد؛ كما يجزم أنه أراد المعنى الخاص الدال عليه اللفظ، والذي يوجب الجزم له، بأن الله أراد أمران: أحدهما: معرفته وجزمه بأنه من تواب المعنى والمتوقف عليه. الثاني: علمه بأن الله بكل شيء عليم، وأن الله أمر عباده بالتدبر والتفكر في كتابه. وقد علم تعالى ما يلزم من تلك المعاني، وهو المخبر بأن كتابه هدى ونور وتبيان لكل شيء، وأنه أفصح الكلام وأجله إيضاحاً؛ فبذلك يحصل للعبد من العلم العظيم والخير الكثير بحسب ما وفقه الله له.

سورة غافر
رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٨﴾ وَفِيهِمُ السَّيِّئَاتِ وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ وَذَلِكَ هُوَ أَفْزَرُ الْعَظِيمِ ﴿٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَتَادَوْنَ لَمَقَتِ اللَّهِ أَكْبَرُ مِنْ مَقَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ ﴿١٠﴾ قَالُوا رَبَّنَا آمَنَّا أَفْنَتْنَا وَاحْيِنَا أَلَمْ نَكُنْ مِنْ قَبْلِكَ قَوْمًا يَدْعُونَ بِنَا فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ ﴿١١﴾ ذَلِكُمْ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِنْ يُشْرَكَ بِهِ تَوَمَّنُوا فَلَنْ نَكُفِّرَهُ بَلَى الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ ﴿١٢﴾ هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ آيَاتِهِ وَيُرْسِلُ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ رِزْقًا وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَنْ يُنِيبُ ﴿١٣﴾ فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴿١٤﴾ رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنْذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ ﴿١٥﴾ يَوْمَ هُمْ بَرْزُورٌ لَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴿١٦﴾

وقد كان في تفسيرنا هذا كثير من هذا من به الله علينا، وقد يخفى في بعض الآيات مأخذه على غير المتأمل صحيح الفكرة، ونسأله تعالى أن يفتح علينا من خزائن رحمته ما يكون سبباً لصلاح أحوالنا وأحوال المسلمين، فليس لنا إلا التعلق بكرمه والتوسل بإحسانه الذي لا نزال نتقلب فيه في كل الآنات وفي جميع اللحظات، ونسأله من فضله أن يقينا شر أنفسنا المانع والمعوق لوصول رحمته؛ إنه الكريم الوهاب، الذي تفضل بالأسباب ومسبباتها. وتضمن ذلك أن المقارن من زوج وولد وصاحب يسعد بقرينه ويكون اتصاله به سبباً لخير يحصل له خارج عن عمله، وسبب عمله؛ كما كانت الملائكة تدعو للمؤمنين ولمن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم، وقد يقال: إنه لا بد من وجود صلاحهم؛ لقوله: ﴿وَمَنْ صَلَحَ﴾؛ فحينئذ يكون ذلك من نتيجة عملهم. والله أعلم.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا ينادونَ لَمَقْتُ اللَّهُ أَكْبَرُ مِنْ مَقْتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ﴾^(١٠)
 قَالُوا رَبَّنَا آمَنَّا أَتَيْنَا وَأَحْيَيْتَنَا أَتَيْنَا فَأَعْرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ ﴿١١﴾ ذَلِكُمْ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِنْ يُشْرَكَ بِهِ تَوَلَّيْتُمْ فَأَلْحَكُمُ اللَّهُ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ ﴿١٢﴾

﴿١٠﴾ يخبر تعالى عن الفضيحة والخزي الذي يصيب الكافرين وسؤالهم الرجعة والخروج من النار، وامتناع ذلك عليهم وتوبيخهم، فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾: أطلقه ليشمل أنواع الكفر كلها من الكفر بالله أو بكتبه أو برسله أو باليوم الآخر، حين يدخلون النار، ويقرون أنهم مستحقونها؛ لما فعلوه من الذنوب والأوزار، فيمقتون أنفسهم لذلك أشد المقت، ويغضبون عليها غاية الغضب، فينادون عند ذلك ويقال لهم: ﴿لَمَقْتُ اللَّهُ﴾؛ أي: إياكم ﴿إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ﴾^(١١)؛ أي: حين دعيتكم الرسل وأتباعهم إلى الإيمان، وأقاموا لكم من البينات ما تبين به الحق، فكفرتهم وزهدتكم في الإيمان الذي خلقكم الله له، وخرجتكم من رحمته الواسعة، فمقتكم وأبغضكم؛ فهذا ﴿أَكْبَرُ مِنْ مَقْتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ﴾؛ أي: فلم يزل هذا المقت مستمراً عليكم، والسخط من الكريم حالاً بكم، حتى آلت بكم الحال إلى ما آلت؛ فالיום حل عليكم غضب الله وعقابه، حين نال المؤمنون رضوان الله وثوابه.

﴿١١﴾ فتمنوا الرجوع و﴿قَالُوا رَبَّنَا آمَنَّا أَتَيْنَا﴾ يريدون الموت الأولى وما بين النفختين على ما قيل، أو العدم المحض قبل إيجادهم ثم أماتهم بعدما أوجدتهم، ﴿وَأَحْيَيْتَنَا أَتَيْنَا﴾: الحياة الدنيا والحياة الأخرى، ﴿فَاعْرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ﴾^(١٢)؛ أي: تحسروا وقالوا ذلك، فلم يقد ولم ينجع.

﴿١٢﴾ ووبخوا على عدم فعل أسباب النجاة، فقيل لهم: ﴿ذَلِكُمْ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ﴾؛ أي: إذا دعي لتوحيد وإخلاص العمل له ونهي عن الشرك به، ﴿كَفَرْتُمْ﴾؛ به، واشمازت لذلك قلوبكم ونفرتكم غاية النفور، ﴿وَإِنْ يُشْرَكَ بِهِ تَوَلَّيْتُمْ﴾؛ أي: هذا الذي أنزلكم هذا المنزل وبوأكم هذا المقييل والمحل أنكم تكفرون بالإيمان وتؤمنون بالكفر، ترضون بما هو شر وفساد في الدنيا والآخرة، وتكرهون ما هو خير وصلاح في الدنيا والآخرة، تؤثرون سبب الشقاوة والذل والغضب، وتزهدون بما هو سبب الفوز والفلاح والظفر: ﴿وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغِيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا﴾ [الأعراف: ١٤٦]. ﴿فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ﴾^(١٣)؛ العلي: الذي له العلو المطلق من جميع الوجوه: علو الذات، وعلو القدر، وعلو القهر، ومن علو قدره كمال عدله تعالى، وأنه يضع الأشياء مواضعها، ولا يساوي بين المتقين والفسقار. الكبير: الذي له الكبرياء والعظمة والمجد في أسمائه وصفاته وأفعاله، المُتَّزِعُ عن كل آفة وعيب ونقص؛ فإذا كان الحكم له تعالى، وقد حكم عليكم بالخلود الدائم؛ فحكمه لا يغير ولا يبدل.

﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ وَيُنَزِّلُ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ رِزْقًا وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَنْ يُنِيبُ﴾^(١٤) فَأَدْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴿١٥﴾ رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنْزِلَ يَوْمَ التَّلَاقِ ﴿١٦﴾ يَوْمَ هُمْ بَرْزُورٌ لَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴿١٧﴾ الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿١٨﴾

﴿١٤﴾ يذكر تعالى نعمه العظيمة على عباده بتبيين الحق من الباطل بما يري عباده من آياته النفسية والأفاقية والقرآنية الدالة على كل مطلوب مقصود، الموضحة للهدى من الضلال، بحيث لا يبقى عند الناظر فيها والمتأمل لها أدنى

شك في معرفة الحقائق، وهذا من أكبر نعمه على عباده حيث لم يبق الحق مشتبها ولا الصواب ملتبسا، بل نوع الدلالات ووضح الآيات؛ ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حي عن بينة، وكلما كانت المسائل أجَلْ وأكبر؛ كانت الدلائل عليها أكثر وأيسر؛ فانظر إلى التوحيد، لما كانت مسألته من أكبر المسائل، بل أكبرها؛ كثرت الأدلة عليها العقلية والنقلية وتنوعت، وضرب الله لها الأمثال، وأكثر لها من الاستدلال، ولهذا ذكرها في هذا الموضع، ونبه على جملة من أدلتها، فقال: ﴿فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾.

ولما ذكر أنه يري عباده آياته؛ نبه على آية عظيمة، فقال: ﴿وَيَزِيلُ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ رِزْقًا﴾؛ أي: مطرا به ترتزون وتعيشون أنتم وبها تمكم، وذلك يدل على أن النعم كلها منه؛ فمنه نعم الدين، وهي المسائل الدينية والأدلة عليها وما يتبع ذلك من العمل بها، والنعم الدنيوية كلها كالنعم الناشئة عن الغيث الذي تحيا به البلاد والعباد، وهذا يدل دلالة قاطعة أنه وحده هو المعبود الذي يتعين إخلاص الدين له؛ كما أنه وحده المنعم. ﴿وَمَا يَتَذَكَّرُ﴾: بالآيات حين يذكر بها ﴿إِلَّا مَنْ يُنِيبُ﴾: إلى الله تعالى بالإقبال على محبته وخشيته وطاعته والتضرع إليه؛ فهذا الذي يتفجع بالآيات، وتصير رحمة في حقه، ويزداد بها بصيرة.

﴿١٤﴾ ولما كانت الآيات تثمر التذكر، والتذكر يوجب الإخلاص لله؛ رتب الأمر على ذلك بالفاء الدالة على السببية، فقال: ﴿فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾: وهذا شامل لدعاء العبادة ودعاء المسألة. والإخلاص معناه تخلص القصد لله تعالى في جميع العبادات الواجبة والمستحبة، حقوق الله وحقوق عباده؛ أي: أخلصوا لله تعالى في كل ما تدنيونه به، وتقرّبون به إليه، ﴿وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾: لذلك؛ فلا تبالوا بهم، ولا يشكم ذلك عن دينكم، ولا تأخذكم بالله لومة لائم؛ فإن الكافرين يكرهون الإخلاص لله وحده غاية الكراهة؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [الزمر: ٤٥].

﴿١٥﴾ ثم ذكر من جلاله وكماله ما يقتضي إخلاص العبادة له، فقال: ﴿رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ﴾؛ أي: العليّ الأعلى، الذي استوى على العرش واختص به وارتفعت درجاته ارتفاعا باين به مخلوقاته وارتفع به قدره وجلت أوصافه وتعالّت ذاته أن يتقرب إليه إلا بالعمل الزكي

الطاهر المطهر، وهو الإخلاص الذي يرفع درجات أصحابه ويقربهم إليه ويجعلهم فوق خلقه. ثم ذكر نعمته على عباده بالرسالة والوحي، فقال: ﴿يُلْقِي الرُّوحَ﴾؛ أي: الوحي الذي للأرواح والقلوب بمنزلة الأرواح للأجساد؛ فكما أن الجسد بدون الروح لا يحيا ولا يعيش؛ فالروح والقلب بدون روح الوحي لا يصلح ولا يفلح؛ فهو تعالى ﴿يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ﴾: الذي فيه نفع العباد ومصلحتهم ﴿عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾: وهم الرسل الذين فضلهم، واختصهم لوحيه ودعوة عباده.

والفائدة في إرسال الرسل هو تحصيل سعادة العباد في دينهم ودنياهم وآخرتهم، وإزالة الشقاوة عنهم في دينهم ودنياهم وآخرتهم، ولهذا قال: ﴿يُنذِرُ﴾: من ألقى الله إليه الوحي ﴿يَوْمَ التَّلَاقِ﴾: أي: يخوف العباد بذلك ويحثهم على الاستعداد له بالأسباب المنجية مما يكون فيه؛ وسماه ﴿يَوْمَ التَّلَاقِ﴾: لأنه يلتقي فيه الخالق والمخلوق، والمخلوقون بعضهم مع بعض، والعاملون وأعمالهم وجزأؤهم.

﴿١٦﴾ ﴿يَوْمَ هُمْ بَدْرُؤُنَ﴾؛ أي: ظاهرون على الأرض، وقد اجتمعوا في صعيد واحد لا عوج ولا أمت فيه، يسمعون الداعي وينفذهم البصر. ﴿لَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ﴾: لا من ذواتهم ولا من أعمالهم ولا من جزاء تلك الأعمال ﴿لَيْسَ الْمُلْكُ الْيَوْمَ﴾؛ أي: من هو المالك لذلك اليوم العظيم الجامع للأولين والآخرين، أهل السماوات وأهل الأرض، الذي انقطعت فيه الشركة في الملك وتقطعت الأسباب، ولم يبق إلا الأعمال الصالحة أو السيئة، الملك ﴿لِلَّهِ الْوَحْدُ الْقَهَّارُ﴾: أي: المنفرد في ذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله؛ فلا شريك له في شيء منها بوجه من الوجوه. القهار لجميع المخلوقات، الذي دانت له المخلوقات وذلت وخضعت، خصوصا في ذلك اليوم الذي عنت فيه الوجوه للحي القيوم، يومئذ لا تكلم نفس إلا بإذنه.

﴿١٧﴾ ﴿الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾: في الدنيا من خير وشر قليل وكثير. ﴿لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ﴾: على أحد بزيادة في سيئاته أو نقص من حسناته. ﴿إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾: أي: لا تستبطئوا ذلك اليوم؛ فإنه آت، وكل آت قريب، وهو أيضا سريع المحاسبة لعباده يوم القيامة لإحاطة علمه وكمال قدرته.

﴿وَأَنذَرَهُمْ يَوْمَ الْأَرْزَاقِ إِذْ أَلْقَوْهُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَظْمِينَ ﴿١٨﴾ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حِمِيرٍ وَلَا سَمِيعٌ يُطَاعُ ﴿١٩﴾ يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ ﴿٢٠﴾ وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَقْضُونَ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿٢١﴾﴾

﴿١٨﴾ يقول تعالى لنبينه محمد ﷺ: ﴿وَأَنذَرَهُمْ يَوْمَ الْأَرْزَاقِ﴾؛ أي: يوم القيامة التي قد أزلت وقربت، وأن الوصول إلى أهوالها وقلقلها وزلازلها. ﴿إِذْ أَلْقَوْهُ لَدَى الْحَنَاجِرِ﴾؛ أي: قد ارتفعت وبقيت أفئدتهم هواء ووصلت القلوب من الروح والكرب إلى الحناجر شاخصة أبصارهم ﴿كَظْمِينَ﴾: لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صواباً، وكاظمين على ما في قلوبهم من الروح الشديد والمزعجات الهائلة. ﴿مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حِمِيرٍ﴾؛ أي: قريب ولا صاحب ﴿وَلَا سَمِيعٌ يُطَاعُ﴾: لأن الشفعاء لا يشفعون في الظالم نفسه بالشرك، ولو قدرت شفاعتهم؛ فالله تعالى لا يرضى شفاعتهم فلا يقبلها.

﴿١٩﴾ ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ﴾: وهو النظر الذي يخفيه العبد من جلسه ومقارنه، وهو نظر المسارقة، ﴿وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾: مما لم يبينه العبد لغيره؛ فالله تعالى يعلم ذلك الخفي؛ فغيره من الأمور الظاهرة من باب أولى وأحرى.

﴿٢٠﴾ ﴿وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ﴾: لأن قوله حق وحكمه الشرعي حق وحكمه الجزائي حق، وهو المحيط علماً وكتابة وحفظاً بجميع الأشياء، وهو المنزه عن الظلم والنقص وسائر العيوب، وهو الذي يقضي قضاءه القدري، الذي إذا شاء شيئاً كان، وما لم يشأ لم يكن، وهو الذي يقضي بين عباده المؤمنين والكافرين في الدنيا ويفصل بينهم بفتح ينصر به أوليائه وأحبابه. ﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ﴾: وهذا شامل لكل ما عبد من دون الله، ﴿لَا يَقْضُونَ شَيْئًا﴾: لعجزهم وعدم إرادتهم للخير واستطاعتهم لفعله. ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ﴾: لجميع الأصوات باختلاف اللغات على تفنن الحاجات. ﴿الْبَصِيرُ﴾: بما كان، وما يكون، وما يُبْصَرُ، وما لا يُبْصَرُ، وما يعلم العباد وما لا يعلمون.

قال في أول هاتين الآيتين: ﴿وَأَنذَرَهُمْ يَوْمَ الْأَرْزَاقِ﴾، ثم وصفها بهذه الأوصاف المقتضية للاستعداد لذلك اليوم العظيم؛ لاشتمالها على الترهيب والترغيب.

﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَءَانَارًا فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ ﴿٢١﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَكَفَرُوا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٢٢﴾﴾

﴿٢١﴾، ﴿٢٢﴾ يقول تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾؛ أي: بقلوبهم وأبصارهم سير نظر واعتبار وتفكر في الآثار، ﴿فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ من المكذبين، فسيجدونها شر العواقب، عاقبة الهلاك والدمار والخزي والفضيحة، وقد كانوا أشد قوة من هؤلاء في العدد والعدد وكبر الأجسام، وأشد آثاراً في الأرض: من البناء والغرس، وقوة الآثار تدل على قوة المؤثر فيها وعلى تمنعه بها، ﴿فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ﴾: بعقوبته ﴿بِذُنُوبِهِمْ﴾: حين أصروا واستمروا عليها. ﴿إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾

سَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٢٧﴾: فلم تغن قوتهم عند قوة الله شيئاً، بل من أعظم الأمم قوة قوم عاد الذين قالوا: من أشد منا قوة؟! أرسل الله إليهم ريحاً أضعفت قواهم ودمرتهم كل تدمير.

ثم ذكر نموذجاً من أحوال المكذبين بالرسول وهو فرعون وجنوده فقال:

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴿٢٨﴾ إِلَى آخِرِ الْقِصَّةِ.

﴿٢٨﴾ أي: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا﴾: إلى جنس هؤلاء المكذبين ﴿مُوسَى﴾: ابن عمران ﴿بِآيَاتِنَا﴾: العظيمة الدالة دلالة قطعية على حقيقة ما أرسل به وبطلان ما عليه من أرسل إليهم من الشرك وما يتبعه ﴿وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ﴾ ﴿٢٩﴾: أي: حجة بينة تتسلط على القلوب فتدعن لها كالحجة والعصا ونحوهما من الآيات البينات التي أيد الله بها موسى، ومكنه مما دعا إليه من الحق.

﴿٢٩﴾ والمبعوث إليهم ﴿فِرْعَوْنَ وَهَمَزَ﴾: وزيره ﴿وَقَرْنَهُ﴾: الذي كان من قوم موسى فبغى عليهم بماله، فكلهم ردوا عليه أشد الرد، ﴿فَقَالُوا سَنَجِرُ كَذَّابٌ ﴿٣٠﴾﴾.

وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ ﴿٣١﴾
وَقَالَ مُوسَى إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ ﴿٣٢﴾
فِرْعَوْنُ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكُ كَذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا بُصِبْكُمْ بِعَظْمِ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴿٣٣﴾
يَقَوْمُ لَكُمْ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ يَصْرِفُنَا مِنْ بَاسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴿٣٤﴾
وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَنْفَعُوكَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ ﴿٣٥﴾
مِثْلَ دَابِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعِبَادِ ﴿٣٦﴾
وَيَنْفَعُوكَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ ﴿٣٧﴾
يَوْمَ تَوَلَّوْنَ مَدِيرِينَ مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِرٍ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴿٣٨﴾

﴿٣٠﴾ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنَا: وأيده الله بالمعجزات الباهرة الموجبة لتتام الإذعان؛ لم يقابلوها بذلك، ولم يكفهم مجرد الترك والإعراض، بل ولا إنكارها ومعارضتها بباطلهم، بل وصلت بهم الحال الشنيعة إلى أن ﴿قَالُوا أَقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ﴾: حيث كادوا هذه المكيدة وزعموا أنهم إذا قتلوا أبناءهم لم يقبوا، وبقوا في رقهم وتحت عبوديتهم. فما كيدهم ﴿إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴿٣١﴾﴾: حيث لم يتم لهم ما قصدوا، بل أصابهم ضد ما قصدوا، أهلكهم الله، وأبادهم عن آخرهم.

وتدبر هذه النكتة التي يكثر مرورها بكتاب الله تعالى إذا كان السياق في قصة معينة أو على شيء معين، وأراد الله أن يحكم على ذلك المعين بحكم لا يختص به؛ ذكر الحكم وعلقه على الوصف العام؛ ليكون أعم، وتدرج فيه الصورة التي سبق الكلام لأجلها، وليندفع الإيهام باختصاص الحكم بذلك المعين؛ فلهذا لم يقل: وما كيدهم إلا في ضلال، بل قال: ﴿وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴿٣٢﴾﴾.

﴿٣١﴾ ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ﴾: متكبراً متجبراً مغروراً لقومه السفهاء: ﴿ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ﴾: أي: زعم - فبحه الله - أنه لولا مراعاة خواطر قومه؛ لقتله، وأنه لا يمنعه منه دعاء ربه. ثم ذكر الحامل له على إرادة قتله، وأنه نصح لقومه وإزالة للشك في الأرض، فقال: ﴿إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ﴾: الذي أنتم عليه ﴿أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ ﴿٣٢﴾﴾: وهذا من أعجب ما يكون أن يكون شر الخلق ينصح الناس عن اتباع خير الخلق. هذا من التمويه والترويح الذي لا يدخل إلا عقل من قال الله فيهم: ﴿فَاسْتَحَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٣٣﴾﴾ [الزخرف: ٥٤].

﴿٣٢﴾ ﴿وَقَالَ مُوسَى﴾: حين قال فرعون تلك المقالة الشنيعة التي أوجبها له طغيانه واستعان فيها بقوته واقتداره مستعيناً بربه: ﴿إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ﴾: أي: امتنعت بربوبيته التي دبر بها جميع الأمور ﴿مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ ﴿٣٣﴾﴾؛

والإقبال على الباطل، ﴿كَذَّابٌ ۝٢٨﴾: بنسبته ما أسرف فيه إلى الله؛ فهذا لا يهديه الله إلى طريق الصواب؛ لا في مدلوله، ولا في دليله، ولا يوفق للصراط المستقيم؛ أي: وقد رأيتم ما دعا موسى إليه من الحق وما هداه الله إلى بيانه من البراهين العقلية والخوارق السماوية؛ فالذي اهتدى هذا الهدى لا يمكن أن يكون مسرفاً ولا كاذباً. وهذا دليل على كمال علمه وعقله ومعرفته بربه.

﴿٢٩﴾ ثم حذر قومه ونصحهم وخوفهم عذاب الآخرة ونهاهم عن الاغترار بالملك الظاهر، فقال: ﴿يَقَوْمُ لَكُمْ أَلْمَلِكُ أَلْيَوْمَ ۝٢٩﴾: أي: في الدنيا ﴿ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ ۝٣٠﴾ على رعيحكم تنفذون فيهم ما شئتم من التدبير؛ فهبكم حصل لكم ذلك وتم ولن يتم؛ ﴿فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ ۝٣١﴾: أي: عذابه ﴿إِنْ جَاءَنَا ۝٣٢﴾؟ وهذا من حسن دعوته؛ حيث جعل الأمر مشتركاً بينه وبينهم بقوله: ﴿فَمَنْ يَنْصُرُنَا ۝٣٣﴾، وقوله: ﴿إِنْ جَاءَنَا ۝٣٤﴾؛ ليفهمهم أنه ينصح لهم كما ينصح لنفسه ويرضى لهم ما يرضى لنفسه، فـ ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ ۝٣٥﴾: معارضاً له في ذلك ومغرراً لقومه أن يتبعوا موسى: ﴿مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ ۝٣٦﴾: وصدق في قوله: ﴿مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَىٰ ۝٣٧﴾، ولكن ما الذي رأى؟! رأى أن يستخف قومه فيتابعوه ليقيم بهم رياسته، ولم ير الحق معه، بل رأى الحق مع موسى وجحد به مستيقناً له، وكذب في قوله: ﴿وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ ۝٣٨﴾؛ فإن هذا قلب للحق؛ فلو أمرهم باتباعه اتباعاً مجرداً على كفره وضلاله؛ لكان الشر أهون، ولكنه أمرهم باتباعه، وزعم أن في اتباعه اتباع الحق، وفي اتباع الحق اتباع الضلال.

﴿٣٩﴾ وَقَالَ الَّذِينَ آمَنُوا ۝٣٩﴾: مكرراً دعوة قومه، غير آيس من هدايتهم؛ كما هي حالة الدعاة إلى الله تعالى؛ لا يزالون يدعون إلى ربهم، ولا يرددهم عن ذلك راداً، ولا يشبههم عتو من دعوته عن تكرار الدعوة، فقال لهم: ﴿يَقَوْمُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ ۝٤٠﴾؛ يعني: الأمم المكذبين الذين تحزبوا على أنبيائهم واجتمعوا على معارضتهم.

﴿٤١﴾ ثم بينهم فقال: ﴿مِثْلَ دَابِ قَوْمِ نُوحٍ وَكَانَ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ ۝٤٢﴾؛ أي: مثل عاداتهم في الكفر والتكذيب، وعادة الله فيهم بالعقوبة العاجلة في الدنيا قبل الآخرة، ﴿وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْماً لِلْعِبَادِ ۝٤٣﴾: فيعذبهم بغير ذنب أذنبوه ولا جرم أسلفوه.

أي: يحمله تكبره وعدم إيمانه بيوم الحساب على الشر والفساد، يدخل فيه فرعون وغيره كما تقدم قريباً في القاعدة، فمنعه الله تعالى بلطفه من كل متكبر لا يؤمن بيوم الحساب، وقضى له من الأسباب ما اندفع به عنه شر فرعون وملئه.

﴿٤٤﴾ ومن جملة الأسباب هذا الرجل المؤمن الذي من آل فرعون من بيت المملكة، لا بد أن يكون له كلمة مسموعة، وخصوصاً إذا كان يظهر موافقتهم ويكتم إيمانه؛ فإنهم يراعونه في الغالب ما لا يراعونه لو خالفهم في الظاهر؛ كما منع الله رسوله محمداً ﷺ بعمه أبي طالب من قريش؛ حيث كان أبو طالب كبيراً عندهم موافقاً لهم على دينهم، ولو كان مسلماً؛ لم يحصل منه ذلك المنع، فقال ذلك الرجل المؤمن الموفق العاقل الحازم مقبلاً فعل قومه وشناعة ما عزموا عليه: ﴿أَفَقَتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ ۝٤٥﴾؛ أي: كيف تستحلون قتله وهذا ذنبه وجرمه أنه يقول ربي الله، ولم يكن أيضاً قولاً مجرداً عن البينات، ولهذا قال: ﴿وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ ۝٤٦﴾: لأن بيئته اشتهرت عندهم اشتهاً اعلم به الصغير والكبير؛ أي: فهذا لا يوجب قتله؛ فهلا أبطلتم قبل ذلك ما جاء به من الحق، وقابلتم البرهان ببرهان يرده ثم بعد ذلك نظرت هل يحل قتله إذا ظهرت عليه بالحجة أم لا؟! فأما وقد ظهرت حجته واستعلى برهانه؛ فبينكم وبين حل قتله مفاوز تنقطع بها أعناق المطي.

ثم قال لهم مقالة عقلية تقنع كل عاقل بأي حالة قدرت، فقال: ﴿وَإِنْ يَكُ كَذِبًا فَلَعَلَّيْهِ كَذِبٌ ۝٤٧﴾: وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِيبَكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ ۝٤٨﴾: أي: موسى بين أمرين إما كاذب في دعواه أو صادق فيها، فإن كان كاذباً فكذبه عليه وضرره مختص به، وليس عليكم في ذلك ضرر؛ حيث امتنعتم من إجابته وتصديقه، وإن كان صادقاً، وقد جاءكم بالبيانات وأخبركم أنكم إن لم تجيبوه عذبكم الله عذاباً في الدنيا وعذاباً في الآخرة؛ فإنه لا بد أن يصيبكم بعض الذي يعدكم، وهو عذاب الدنيا. وهذا من حسن عقله ولطف دفعه عن موسى؛ حيث أتى بهذا الجواب الذي لا تشويش فيه عليهم، وجعل الأمر دائراً بين تلك الحالتين، وعلى كل تقدير؛ فقتله سفه وجهل منكم.

ثم انتقل - رضي الله عنه وأرضاه وغفر له ورحمه - إلى أمر أعلى من ذلك وبيان قرب موسى من الحق فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ ۝٤٩﴾؛ أي: متجاوز الحد بترك الحق

سورة غافر

الجزء الرابع والعشرون

وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَا زَلَّمْتُمْ فِي شَيْكٍ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ نَبْعَثَ اللَّهَ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ ﴿٣٦﴾ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَتْهُمْ كَبْرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ ءَامَنُوا كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبٍ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴿٣٧﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَنْهَكُنْ أَبْنِيَّ صَرَخًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ ﴿٣٨﴾ أَسْبَابَ السَّمَوَاتِ فَأَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لأَظُنُّهُ كَذِبًا وَكَذَلِكَ زَيْنَ فِرْعَوْنَ سَوْءَ عَمَلِهِ وَصَدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ ﴿٣٩﴾ وَقَالَ الَّذِينَ ءَامَنُ يَقُولُوا آمِنُوا وَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴿٤٠﴾ يَقُولُوا إِنَّمَا هَذِهِ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ ﴿٤١﴾ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَى إِلَّا يَوْمَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْفَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ قَالُوا لَيْتَكَ يَدْخُلُوكَ الْجَنَّةَ بِنُزُقَةٍ مِنْهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٤٢﴾

٤٧١

﴿٣٢﴾ ولما خوفهم العقوبات الدنيوية؛ خوفهم العقوبات الأخروية، فقال: ﴿وَيَقُولُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ النَّارِ﴾؛ أي: يوم القيامة؛ حين ينادي أهل الجنة أهل النار: ﴿أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا﴾ [الأعراف: ٤٤] إلى آخر الآيات، ﴿وَكَاذِبٌ أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْكُمْ مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [الأعراف: ٥٠]، وحين ينادي أهل النار مالكا: ﴿يَقْبِضُ عَلَيْكَ رَبُّكَ﴾، فيقول: ﴿إِنَّكُمْ مَكِيدُونَ﴾ [الزخرف: ٧٧]، وحين ينادون ربهم: ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ﴾ [٧٧]، فيجيبهم: ﴿أَخْسَرُوا فِيهَا وَلَا تَكْفُرُونَ﴾ [٧٨] [المؤمنون: ١٠٧، ١٠٨]، وحين يقال للمشركين: ﴿أَدْعُوا شُرَكَاءَكُمْ فَدَعَوْهُمُ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ﴾ [القصص: ٦٤].

﴿٣٣﴾ فخوفهم رضي الله عنه هذا اليوم المهل، وتوَجَّع لهم أن أقاموا على شركهم بذلك، ولهذا قال: ﴿يَوْمَ تُولَوْنَ مُدْبِرِينَ﴾؛ أي: قد ذهب بكم إلى النار. ﴿مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِرٍ﴾: لا من أنفسكم قوة تدفعون بها عذاب الله ولا ينصركم من دونه من أحد، ﴿يَوْمَ تَبْلَى السَّرَائِرُ﴾ ﴿فَأَلَّهُ مِنْ قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ﴾ [الطارق: ٩، ١٠]، ﴿وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ ﴿٣٣﴾: لأن الهدى بيد الله تعالى. فإذا منع عبده الهدى لعلمه أنه غير لائق به لخبثه؛ فلا سبيل إلى هدايته.

﴿٣٢﴾ وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ: ابن يعقوب عليهما السلام ﴿مِنْ قَبْلُ﴾: إتيان موسى ﴿بِالْبَيِّنَاتِ﴾ الدالة على صدقه، وأمركم بعبادة ربكم وحده لا شريك له، ﴿فَا زَلَّمْتُمْ فِي شَيْكٍ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ﴾: في حياته، ﴿حَتَّى إِذَا هَلَكَ﴾: ازداد شككم وشرككم، ﴿قُلْتُمْ لَنْ نَبْعَثَ اللَّهَ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا﴾؛ أي: هذا ظنكم الباطل وحسانكم الذي لا يليق بالله تعالى؛ فإنه تعالى لا يترك خلقه سدى لا يأمرهم وينهاهم، بل يرسل إليهم رسله؛ وظن أن الله لا يرسل رسولاً ظن ضلال، ولهذا قال: ﴿كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ﴾ [٣٦]، وهذا هو وصفهم الحقيقي الذي وصفوا به موسى ظلمًا وعلوًا؛ فهم المسرفون بتجاوزهم الحق وعدولهم عنه إلى الضلال، وهم الكذبة حيث نسبوا ذلك إلى الله وكذبوا رسوله؛ فالذي وصفه السرف والكذب لا ينفك عنهم لا يهديه الله ولا يوفقه للخير؛ لأنه رد الحق بعد أن وصل إليه وعرفه؛ فجزاؤه أن يعاقبه الله بأن يمنعه الهدى؛ كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥]، ﴿وَقُلُوبٌ أَفْئِدَتُهُمْ وَابْصَرَهُمْ كَمَا لَوْ يُؤْمِنُونَ بِهِ أَوَّْلَ مَرَّةٍ وَنَذَرَهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [١١٠]، [الأنعام: ١١٠]، ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ٢٥٨].

﴿٣٦﴾ ثم ذكر وصف المسرف الكذاب، فقال: ﴿الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ﴾: التي بينت الحق من الباطل وصارت من ظهورها بمنزلة الشمس للبصر؛ فهم يجادلون فيها على وضوحها ليدفعوها ويبطلوا ﴿بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَتْهُمْ كَبْرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾؛ فإله أشد بغضًا لصاحبه؛ لأنه تضمن التكذيب بالحق والتصديق بالباطل ونسبته إليه، وهذه أمور يشتد بغض الله لها ولمن اتصف بها، وكذلك عباده المؤمنون يمتقون على ذلك أشد المقت موافقة لربهم، وهؤلاء خواص خلق الله تعالى؛ فمقتهم دليل على شناعة من مقتوه. ﴿كَذَلِكَ﴾؛ أي: كما طبع على قلوب آل فرعون، ﴿يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبٍ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾ [٣٧]، متكبر في نفسه على الحق برده وعلى المخلوق باحتقارهم، جبار بكثرة ظلمه وعدوانه.

سورة غافر

الأنبياء والمرسلين

﴿ وَيَقُولُ مَا لِيَ أَدْعُوكُمْ إِلَى التَّجْوَةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ ﴾ ٣٦ ﴿ تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ ﴾ ٣٧ ﴿ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ وَأَنْ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ ﴾ ٣٨ ﴿ فَسْتَذَكِّرُونَ مَا أَقُولَ لَكُمْ وَأَفْوِضْ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴾ ٣٩ ﴿ فَوَقَدَ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا كُفَرُوا وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ ﴾ ٤٠ ﴿ النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ﴾ ٤١ ﴿ وَإِذْ يَحْجُرُونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ بَعْثًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُعْتَنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِنَ النَّارِ ﴾ ٤٢ ﴿ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ ﴾ ٤٣ ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَتِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِنَ الْعَذَابِ ﴾ ٤٤

٤٧٧

﴿ ٣٦ ﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ﴿: معارضًا لموسى ومكذبًا له في دعوته إلى الإقرار برب العالمين الذي على العرش استوى وعلى الخلق اعتمد: ﴿ يَهْتَكُنْ آتَنِي صِرَاحًا ﴾؛ أي: بناءً عظيمًا مرتفعًا، والقصد منه: ﴿ لَعَلِّي أَطْلُعَ إِلَهَ إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴾ ٣٧ ﴿ [القصص: ٢٨]: في دعواه أن لنا ربًّا، وأنه فوق السماوات، ولكنه يريد أن يحتاط فرعون ويختبر الأمر بنفسه، قال الله تعالى في بيان الذي حمله على هذا القول: ﴿ وَكَذَلِكَ زَيْنٌ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ ﴾: فزين له العمل السيئ، فلم يزل الشيطان يزينه وهو يدعو إليه ويحسنه حتى رآه حسنًا ودعا إليه وناظر مناظرة المحققين وهو من أعظم المفسدين. ﴿ وَصَدَّ عَنِ السَّبِيلِ ﴾: الحق بسبب الباطل الذي زين له. ﴿ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ ﴾: الذي أراد أن يكيد به الحق ويوهم به الناس أنه محق وأن موسى مبطل ﴿ إِلَّا فِي تَبَابٍ ﴾ ٣٧ ﴿؛ أي: خسار وبوار، لا يفيد إلا الشقاء في الدنيا والآخرة.

﴿ ٣٨ ﴾ وَقَالَ الَّذِينَ ءَامَنُوا ﴿: معيدًا نصيحته لقومه: ﴿ وَيَقُولُوا اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴾ ٣٨ ﴿: لا كما يقول لكم فرعون؛ فإنه لا يهديكم إلا طريق الغي والفساد.

﴿ ٣٩ ﴾ وَيَقُولُوا إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَّعٌ ﴿: يتمتع بها

ويستمتع قليلاً، ثم تنقطع وتضمحل؛ فلا تغرنكم وتخدعنكم عما خلقتم له. ﴿ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْفَكَارِ ﴾ ٣٩ ﴿: التي هي محل الإقامة ومنزل السكون والاستقرار؛ فينبغي لكم أن تؤثروها وتعملوا لها عملاً يسعدكم فيها.

﴿ ٤٠ ﴾ مِّنْ عَمَلٍ سَيِّئَةٍ ﴿: من شرك أو فسوق أو عصيان ﴿ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا ﴾؛ أي: لا يجازى إلا بما يسوءه ويحزنه؛ لأن جزاء السيئة السوء. ﴿ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْتَنَ ﴾: من أعمال القلوب والجوارح وأقوال اللسان؛ ﴿ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْفَعُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ ٤١ ﴿؛ أي: يعطون أجرهم بلا حد ولا عد، بل يعطيهم الله ما لا تبلغه أعمالهم.

﴿ ٤٢ ﴾ وَيَقُولُ مَا لِيَ أَدْعُوكُمْ إِلَى التَّجْوَةِ ﴿: بما قلت لكم، ﴿ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ ﴾ ٤٣ ﴿: بترك اتباع نبي الله موسى عليه السلام.

﴿ ٤٤ ﴾ ثُمَّ فسر ذلك فقال: ﴿ تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ ﴾: أنه يستحق أن يعبد من دون الله، والقول على الله بلا علم من أكبر الذنوب وأقبحها. ﴿ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ ﴾: الذي له القوة كلها، وغيره ليس بيده من الأمر شيء. ﴿ الْغَفَّارِ ﴾ ٤٥ ﴿: الذي يسرف العباد على أنفسهم ويتجرءون على مساحطه، ثم إذا تابوا وأنبأوا إليه؛ كفر عنهم السيئات والذنوب ودفع موجباتها من العقوبات الدنيوية والآخروية.

﴿ ٤٦ ﴾ ﴿ لَا جَرَمَ ﴾؛ أي: حقًا يقينًا ﴿ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ ﴾؛ أي: لا يستحق من الدعوة إليه والحث على اللجا إليه في الدنيا ولا في الآخرة لعجزه ونقصه، وأنه لا يملك نفعًا ولا ضرًا ولا موتًا ولا حياة ولا نشورًا، ﴿ وَأَنْ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ ﴾: تعالى فسيجازي كل عامل بعمله، ﴿ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ ﴾ ٤٧ ﴿: وهم الذين أسرفوا على أنفسهم بالتجرؤ على ربهم بمعاصيه والكفر به دون غيرهم.

﴿٤٤﴾ فلما نصحبهم وحذرهم وأنذرهم ولم يطيعوه ولا وافقوه؛ قال لهم: ﴿فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ﴾: من هذه النصيحة، وسترون مغبة عدم قبولها حين يحل بكم العقاب وتحرمون جزيل الثواب، ﴿وَأَفُوضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ﴾؛ أي: ألجأ إليه واعتصم وألقي أموري كلها لديه وأتوكل عليه في مصالححي ودفع الضرر الذي يصيبني منكم أو من غيركم. ﴿إِنَّ اللَّهَ بِصِيرُكُمْ بِالْعَبَادِ﴾: يعلم أحوالهم وما يستحقون: يعلم حالي وضعفي فيمنعني منكم ويكفني شركم، ويعلم أحوالكم فلا تصرفون إلا بإرادته ومشيتته؛ فإن سلطكم عليّ؛ فبحكمة منه تعالى وعن إرادته ومشيتته صدر ذلك.

﴿٤٥﴾ ﴿فَوَقَّهُ اللَّهُ سَيِّئَاتٍ مَا مَكَرُوا﴾؛ أي: وفى الله القويّ الرحيم ذلك الرجل المؤمن الموقّ عقوبات ما مكر فرعون وآله له من إرادة إهلاكه وإتلافه لأنه بادأهم بما يكرهون وأظهر لهم الموافقة التامة لموسى عليه السلام، ودعاهم إلى ما دعاهم إليه موسى، وهذا أمر لا يحتملونه، وهم الذين لهم القدرة إذ ذاك، وقد أغضبهم واشتدّ حقنهم عليه، فأرادوا به كيداً، فحفظه الله من كيدهم ومكرهم، وانقلب كيدهم ومكرهم على أنفسهم. ﴿وَحَاقَ بِقَالِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ﴾: أغرقهم الله تعالى في صبيحة واحدة عين آخرهم، وفي البرزخ: ﴿الَّذِينَ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾: فهذه العقوبات الشنيعة التي تحل بالمكذبين لرسول الله المعاندين لأمره.

﴿وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُمْ مُعْتَدُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِنَ النَّارِ﴾ ﴿٤٧﴾ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّكَ اللَّهُ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعَبَادِ﴾ ﴿٤٨﴾ وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ الْعَذَابِ﴾ ﴿٤٩﴾ قَالُوا أَوَلَمْ تَأْتِيَكُم رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَى قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دَعَا الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾ ﴿٥٠﴾

﴿٤٧﴾ يخبر تعالى عن تخاصم أهل النار وعتاب بعضهم بعضاً واستغاثتهم بخزنة النار وعدم الفائدة في ذلك، فقال: ﴿وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي النَّارِ﴾: يحتج التابعون

بإغواء المتبوعين، ويتبرأ المتبوعون من التابعين، ﴿فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ﴾؛ أي: الأتباع للقادة الذين استكبروا على الحق ودعوههم إلى ما استكبروا لأجله: ﴿إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا﴾: أنتم أغويتمونا وأضللتُمونا، وزيتم لنا الشرك والشر، ﴿فَهَلْ أَنتُمْ مُعْتَدُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِنَ النَّارِ﴾ ﴿٤٧﴾؛ أي: ولو قليلاً.

﴿٤٨﴾ ﴿قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا﴾: مبينين لعجزهم ونفوذ الحكم الإلهي في الجميع: ﴿إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّكَ اللَّهُ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعَبَادِ﴾: وجعل لكل قسطه من العذاب؛ فلا يزداد في ذلك ولا ينقص منه ولا يغير ما حكم به الحكيم.

﴿٤٩﴾ ﴿وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ﴾: من المستكبرين والضعفاء ﴿لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ الْعَذَابِ﴾ ﴿٤٩﴾: لعله تحصل بعض الراحة.

﴿٥٠﴾ ف ﴿قَالُوا﴾ لهم موبخين ومبينين أن شفاعتهم لا تنفعهم ودعاهم لا يفيدهم شيئاً: ﴿أَوَلَمْ تَأْتِيَكُم رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾: التي تبيّن بها الحق والصراف المستقيم وما يقرب من الله وما يبعد منه، ﴿قَالُوا بَلَى قَدْ جَاءُونَا بِالْبَيِّنَاتِ، وَقَامَتْ عَلَيْنَا حُجَّةُ اللَّهِ الْبَالِغَةُ، فَظَلَمْنَا وَعَانَدْنَا الْحَقَّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ،﴾ ﴿قَالُوا﴾؛ أي: الخزنة لأهل النار متبرئين من الدعاء لهم والشفاعة: ﴿فَادْعُوا﴾: أنتم، ولكن هذا الدعاء هل يغني شيئاً أم لا؟ قال تعالى: ﴿وَمَا دَعَا الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾ ﴿٥٠﴾؛ أي: باطل لاغ؛ لأن الكفر محبط لجميع الأعمال صاد لإجابة الدعاء.

﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾ ﴿٥١﴾ يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعَذَرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾ ﴿٥٢﴾.

﴿٥١﴾ لما ذكر عقوبة آل فرعون في الدنيا والبرزخ ويوم القيامة، وذكر حالة أهل النار الفظيعة الذين نابذوا رسله وحاربوهم؛ قال: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾؛ أي: بالحجة والبرهان والنصر، وفي الآخرة بالحكم ولأتباعهم بالثواب ولمن حاربهم بشدة العذاب.

﴿٥٢﴾ ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعَذَرَتُهُمْ﴾: حين يعتذرون، ﴿وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾ ﴿٥٢﴾؛ أي: الدار السيئة التي تسوء نازليها.

سورة غافر

الأنعام والشر

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْهُدَى وَأَوْرَثْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ الْكِتَابَ ﴿٥٦﴾ هُدًى وَذِكْرَى لِأَوَّلِي الْأَلْبَابِ ﴿٥٧﴾ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَرِ ﴿٥٨﴾﴾.

﴿٥٦﴾، ﴿٥٧﴾ لما ذكر ما جرى لموسى وفرعون وما آل إليه أمر فرعون وجنوده، ثم ذكر الحكم العام الشامل له ولأهل النار؛ ذكر أنه أعطى موسى ﴿الهُدَى﴾؛ أي: العلم الذي يهتدي به المهتدون، ﴿وَأَوْرَثْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ الْكِتَابَ ﴿٥٧﴾﴾؛ أي: جعلناه متوارثاً بينهم من قرن إلى آخر، وهو التوراة، وذلك الكتاب مشتمل على الهدى، الذي هو العلم بالأحكام الشرعية وغيرها، وعلى التذكر للخير بالترغيب فيه وعن الشر بالترهيب عنه، وليس ذلك لكل أحد، وإنما هو ﴿لِأَوَّلِي الْأَلْبَابِ ﴿٥٨﴾﴾.

﴿٥٨﴾ ﴿فَاصْبِرْ﴾: يا أيها الرسول كما صبر من قبلك من أولي العزم المرسلين، ﴿إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾؛ أي: ليس مشكوكاً فيه أو فيه ريب أو كذب حتى يعسر عليك الصبر، وإنما هو الحق المحض والهدى الصرف الذي يصبر عليه الصابرون ويجهتد في التمسك به أهل البصائر؛ فقلوه: ﴿إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾: من الأسباب التي تحث على الصبر على طاعة الله

وعماً يكره الله، ﴿وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ﴾: المانع لك من تحصيل فوزك وسعادتك، فأمره بالصبر الذي فيه يحصل المحبوب، وبالاستغفار الذي فيه دفع المحذور، وبالتسبيح بحمد الله تعالى، خصوصاً ﴿بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَرِ ﴿٥٨﴾﴾: اللذين هما أفضل الأوقات، وفيهما من الأوراد والوظائف الواجبة والمستحبة ما فيهما؛ لأن في ذلك عوناً على جميع الأمور.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ يَغْيِرُ اللَّهُ يُغْيِرُ سُلْطَانَهُمْ إِنَّ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرًا مَا هُمْ بِبَلِّغِيهِ فَاَسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿٥٩﴾﴾.

﴿٥٩﴾ يخبر تعالى أن من جادل في آياته ليطلها بالباطل بغير بينة من أمره ولا حجة أن هذا صادر من كبر في صدورهم على الحق وعلى من جاء به؛ يريدون الاستعلاء عليه بما معهم من الباطل؛ فهذا قصدهم ومرادهم، ولكن هذا لا يتم لهم، وليسوا بالبغيه؛ فهذا نص صريح وبشارة بأن كل من جادل الحق أنه مغلوب، وكل من تكبر عليه فهو في نهايته ذليل، ﴿فَاَسْتَعِذْ﴾؛ أي: اعتصم والجا ﴿بِاللَّهِ﴾: ولم يذكر ما يستعذ منه إرادة للعموم؛ أي: استعذ بالله من الكبر الذي يوجب التكبر على الحق، واستعذ بالله من شياطين الإنس والجن، واستعذ بالله من جميع الشرور. ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ﴾: لجميع الأصوات على اختلافها. ﴿الْبَصِيرُ ﴿٥٩﴾﴾: بجميع المراتب بأي محل وموضع وزمان كانت.

﴿لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦٠﴾ وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلَا الْمُسِيءُ قَلِيلًا مَا تَنْذَرُ ﴿٦١﴾﴾. ﴿إِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٦٢﴾﴾.

﴿٦٠﴾ يخبر تعالى بما تقرر في العقول أن خلق السماوات والأرض -على عظمتهما وسعتهما- أعظم وأكبر من خلق الناس؛ فإن الناس بالنسبة إلى خلق السماوات والأرض من أصغر ما يكون؛ فالذي خلق الأجرام العظيمة وأتقنها قادر على إعادة

الناس بعد موتهم من باب أولى وأحرى، وهذا أحد الأدلة العقلية الدالة على البعث دلالة قاطعة بمجرد نظر العاقل إليها، يستدل بها استدلالاً لا يقبل الشك والشبهة بوقوع ما أخبرت به الرسل من البعث؛ وليس كل أحد يجعل فكره لذلك، ويقبل بتدبره، ولهذا قال: ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٥٧). ولذلك لا يعتبرون بذلك، ولا يجعلونه منهم على بال.

ثم قال تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلَا الْمُسِيءُ﴾؛ أي: كما لا يستوي الأعمى والبصير؛ كذلك لا يستوي من آمن بالله وعمل الصالحات ومن كان مستكبراً على عبادة ربه، مقدماً على معاصيه، ساعياً في مساخطه، ﴿فَلَيْسَ مَا نَذْكُرُونَ﴾ (٥٨)؛ أي: تذكركم قليل، وإلا؛ فلو تذكرتم مراتب الأمور ومنازل الخير والشر والفرق بين الأبرار والفجار، وكانت لكم همة عليه؛ لأنتم النافع على الضار، والهدى على الضلال، والسعادة الدائمة على الدنيا الفانية.

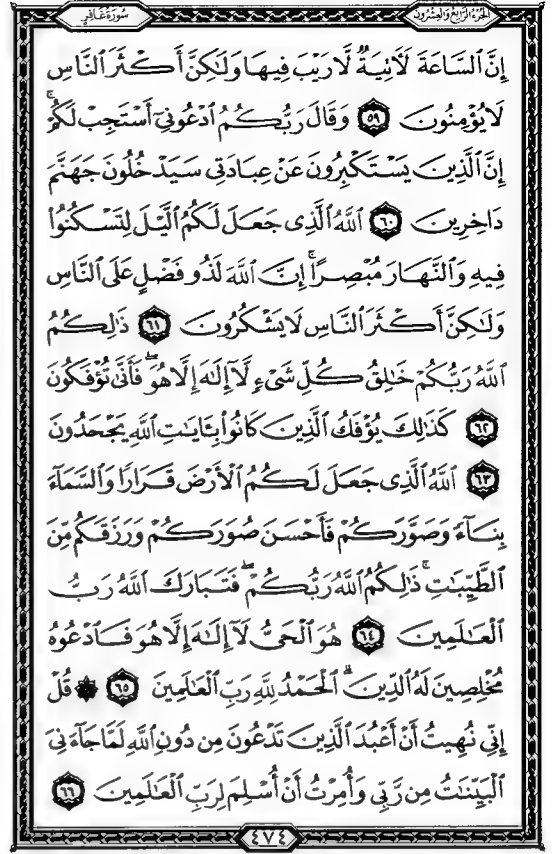
﴿إِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا﴾: قد أخبرت بها الرسل الذين هم أصدق الخلق، ونطقت بها الكتب السماوية التي جميع أخبارها أعلى مراتب الصدق، وقامت عليها الشواهد المرئية والآيات الأفقية. ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (٥٩) مع هذه الأمور التي توجب كمال التصديق والإذعان.

﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ (٦٠).

هذا من لطفه بعباده ونعمته العظيمة؛ حيث دعاهم إلى ما فيه صلاح دينهم ودنياهم وأمرهم بدعائه دعاء العبادة ودعاء المسألة ووعدهم أن يستجيب لهم، وتوعد من استكبر عنها، فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ (٦١)؛ أي: ذليلين حقيرين، يجتمع عليهم العذاب والإهانة جزاء على استكبارهم.

﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ (٦٢) ذلكم الله ربكم خالق كل شيء لا إله إلا هو فأنى تؤفكون (٦٣) كذلك يؤفك الذين كانوا يتأيت الله يمجّدون (٦٤) الله الذي جعل لكم الأرض قراراً والسماء بناءً وصوركم فأحسن صوركم ورزقكم من الطيبات ذلكم الله ربكم فبارك الله رب العالمين (٦٥) هو الحى لا إله إلا هو فادعوه مخلصين له الدين الحمد لله رب العالمين (٦٦).

تدبر هذه الآيات الكريمات الدالة على سعة رحمة الله، وجزيل فضله، ووجوب شكره، وكمال قدرته، وعظيم سلطانه، وسعة ملكه، وعموم خلقه لجميع الأشياء، وكمال حياته، واتصافه بالحمد على كل ما اتصف به من الصفات الكاملة وما فعله من الأفعال الحسنة، وتام ربوبيته، وانفراذه فيها، وأن جميع التدبير في العالم العلوي والسفلي في ماضي الأوقات وحاضرها ومستقبلها بيد الله تعالى، ليس لأحد من الأمر شيء ولا من القدرة شيء. فيستج من ذلك أنه تعالى المألوه المعبود وحده الذي لا يستحق أحد من العبودية شيئاً كما لم يستحق من الربوبية شيئاً، ويتج من ذلك امتلاء القلوب بمعرفة الله تعالى ومحبه



قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ هَلْ يَرِيكُمْ مِنْ أَجْدٍ ثُمَّ أَنْصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهِ قُلُوبَهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ ۖ﴾ [التوبة: ١٢٧].

﴿٦١﴾ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ قَرَارًا؛ أي: قارة ساكنة مهيأة لكل مصالحكم، تمكنون من حرثها وغرسها والبناء عليها والسفر والإقامة فيها، ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَاءً﴾: سقفًا للأرض الذي أنتم فيها، قد جعل الله فيها ما تنتفعون به من الأنوار والعلامات، التي يهتدى بها في ظلمات البر والبحر، ﴿وَسَوَّيْتُمْ فَأَحْسَنَ صُورَكُمْ﴾: فليس في جنس الحيوانات أحسن صورة من بني آدم؛ كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين: ٤]، وإذا أردت أن تعرف حسن الأدمي وكمال حكمة الله تعالى فيه؛ فانظر إليه عضوًا عضوًا؛ هل تجد عضوًا من أعضائه يليق به ويصلح أن يكون في غير محله، وانظر أيضًا إلى الميل الذي في القلوب بعضهم لبعض؛ هل تجد ذلك في غير الأدميين، وانظر إلى ما خصه الله به من العقل والإيمان والمحبة والمعرفة التي هي أحسن الأخلاق المناسبة لأجمل الصور؟ ﴿وَزَوَّجَكُمْ مِنْ أَنْثَىٰ تَبَرَّكَ﴾: وهذا شامل لكل طيب من مأكول ومشرب ومنكح وملبس ومنظر وسميع وغير ذلك من الطيبات التي يسرها الله لعباده ويسر لهم أسبابها ومنعهم من الخبائث التي تضادها وتضر أبدانهم وقلوبهم وأديانهم. ﴿ذَلِكُمْ﴾: الذي دبر الأمور وأنعم عليكم بهذه النعم، ﴿اللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [٦١]؛ أي: تعظم وكثر خيره وإحسانه، المربي لجميع العالمين بنعمه.

﴿٦٢﴾ هُوَ الَّذِي له الحياة الكاملة التامة المستلزمة لما تستلزمه من صفاته الذاتية التي لا تتم حياته إلا بها؛ كالسمع والبصر والقدرة والعلم والكلام وغير ذلك من صفات كماله ونعوت جلاله. ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾؛ أي: لا معبود بحق إلا وجهه الكريم، ﴿فَادْعُوهُ﴾: وهذا شامل لدعاء العبادة ودعاء المسألة ﴿مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾؛ أي: اقتصدوا بكل عبادة ودعاء وعمل وجه الله تعالى؛ فإن الإخلاص هو المأمور به؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْأَىٰ إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ خُنْفَاءً﴾ [البينة: ٥]. ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [٦٢]؛ أي: جميع المحامد والمدائح والثناء؛ بالقول كنطق الخلق بذكره، والفعل لعبادتهم له؛ كل ذلك لله تعالى وحده لا شريك له؛ لكماله في أوصافه وأفعاله وتمايم نعمه.

وخوفه ورجائه. وهذان الأمران - وهما معرفته وعبادته - هما اللذان خلق الله الخلق لأجلهما، وهما الغاية المقصودة منه تعالى لعباده، وهما الموصولان إلى كل خير وفلاح وصلاح وسعادة دنيوية وأخروية، وهما اللذان هما أشرف عطايا الكريم لعباده، وهما أشرف اللذات على الإطلاق، وهما اللذان إن فاتا فأتى كل خير وحضر كل شر. فنسأله تعالى أن يملأ قلوبنا بمعرفته ومحبته، وأن يجعل حركاتنا الباطنة والظاهرة خالصة لوجهه تابعة لأمره؛ إنه لا يتعاضمه سؤال، ولا يحفيه نوال.

﴿٦٣﴾ فَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْيَلَّ﴾؛ أي: لأجلكم جعل الله الليل مظلمًا، ﴿لِتَسْكُنُوا فِيهِ﴾: من حركاتكم التي لو استمرت لضرت؛ فتأوون إلى فرشكم، ويلقي الله عليكم النوم الذي يستريح به القلب والبدن، وهو من ضروريات الأدمي، لا يعيش بدونه، ويسكن فيه أيضًا كل حبيب إلى حبيبه، ويجتمع الفكر، وتقل الشواغل. وجعل تعالى النهار ﴿مُبْصِرًا﴾: منيرًا بالشمس المستمرة في الفلك، فتقومون من فرشكم إلى أشغالكم الدينية والدنيوية؛ هذا لذكره وقراءته، وهذا لصلاته، وهذا لطلبه العلم ودراسته، وهذا لبيعه وشرائه، وهذا لبنائه أو حدادته أو نحوها من الصناعات، وهذا لسفره براء وبحرا، وهذا لفلاحته، وهذا لتصليح حيواناته. ﴿إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ﴾؛ أي: عظيم كما يدل عليه التذكير ﴿عَلَىٰ النَّاسِ﴾: حيث أنعم عليهم بهذه النعم وغيرها، وصرف عنهم النقم، وهذا يوجب عليهم تمام شكره وذكره. ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَر النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ [٦٣]؛ بسبب جهلهم وظلمهم. ﴿وَقِيلَ مِنْ عِبَادِيَ الشَّاكِرُ﴾ [سبا: ١٣]، الذين يقرون بنعمة ربهم ويخضعون لله ويحبونه، ويصرفونها في طاعة مولاهم ورضاه.

﴿٦٤﴾ ذَلِكُمْ: الذي فعل ما فعل ﴿اللَّهُ رَبُّكُمْ﴾؛ أي: المنفرد بالإلهية والمنفرد بالربوبية؛ لأن انفراد هذه النعم من ربوبيته، وإيجابها للشكر من ألوهيته. ﴿خَلَقْتُ كُلَّ شَيْءٍ﴾: تقرير لربوبيته، ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾: تقرير أنه المستحق للعبادة وحده لا شريك له. ثم صرح بالأمر بعبادته، فقال: ﴿فَأَنِّي تَوَكُّونَ﴾ [٦٤]؛ أي: كيف تصرفون عن عبادته وحده لا شريك له بعدما أبان لكم الدليل، وأنار لكم السبيل.

﴿٦٥﴾ كَذَلِكَ يُؤْفِكُ الَّذِينَ كَانُوا بِآيَاتِ اللَّهِ يَحْصِرُونَ [٦٥]؛ أي: عقوبة على جحدهم لآيات الله وتعديهم على رسله؛ صرفوا عن التوحيد والإخلاص؛ كما

سورة غافر

سورة غافر

﴿قُلْ إِنِّي نُهَيْتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَمَّا جَاءَنِي الْبَيِّنَاتُ مِنْ رَبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٦﴾ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُفُوفٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشَدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى مِنْ قَبْلٍ وَلْيَبْلُغُوا أَجَلَ مَسْمُوعٍ وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ فَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٦٨﴾﴾.

﴿٦٦﴾ لما ذكر الأمر بإخلاص العبادة لله وحده، وذكر الأدلة على ذلك والبيّنات؛ صرح بالنهي عن عبادة ما سواه، فقال: ﴿قُلْ﴾ يا أيها النبي، ﴿إِنِّي نُهَيْتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾: من الأوثان والأصنام، وكل ما عبد من دون الله، ولست على شك من أمري، بل على يقين وبصيرة، ولهذا قال: ﴿لَمَّا جَاءَنِي الْبَيِّنَاتُ مِنْ رَبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾: بقلبي ولساني وجوارحي؛ بحيث تكون منقادة لطاعته مستسلمة لأمره، وهذا أعظم مأمور به على الإطلاق؛ كما أن النهي عن عبادة ما سواه أعظم منهي عنه على الإطلاق.

﴿٦٧﴾ ثم قرر هذا التوحيد بأنه الخالق لكم والمطور لخلقكم؛ فكما خلقكم وحده؛ فاعبدوه وحده، فقال:

﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ﴾: وذلك بخلقة أصلكم وأبيكم آدم عليه السلام، ﴿ثُمَّ مِنْ نُفُوفٍ﴾: وهذا ابتداء خلق سائر النوع الإنساني ما دام في بطن أمه، فنبه بالابتداء على بقية الأطوار من العلقة فالمضغة فالعظام فنفخ الروح، ﴿ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ﴾: هكذا تتقنون في الخلقة الإلهية حتى تبلغوا أشدكم: من قوة العقل والبدن وجميع قواه الظاهرة والباطنة، ﴿ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى مِنْ قَبْلٍ﴾: بلوغ الأشد، ﴿وَلْيَبْلُغُوا﴾: بهذه الأطوار المقدرة إلى أجل مسمى: تنتهي عنده أعماركم. ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾: أحوالكم فتعلموا أن المطور لكم في هذه الأطوار كامل الاقتدار، وأنه الذي لا تنبغي العبادة إلا له، وأنكم ناقصون من كل وجه.

﴿٦٨﴾ هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ؛ أي: هو المنفرد بالإحياء والإماتة؛ فلا تموت نفس بسبب أو بغير سبب إلا بإذنه ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَنْهُمْ مَغْفِرٌ وَلَا يُغْنِي عَنْهُمْ غَمْرُهُ﴾: إلّا في كتبٍ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٦٩﴾. ﴿فَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا﴾: جليلاً أو حقيراً ﴿فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾: لا رد في ذلك ولا مشوية ولا تمتنع.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَمْجِدُونَ فِي ءَايَاتِ اللَّهِ أَنَّهُمْ يُصِرُّونَ ﴿٦٩﴾ الَّذِينَ كَذَبُوا بِالْكِتَابِ وَمِمَّا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٧٠﴾ إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ ﴿٧١﴾ فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ ﴿٧٢﴾ ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَنْتُمْ كُنْتُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا بَلْ لَمْ تَكُنْ تَدْعُوا مِنْ قَبْلُ شَيْئًا كَذَلِكَ يَضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ ﴿٧٤﴾ ذَلِكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَمِمَّا كُنْتُمْ تَمْرَحُونَ ﴿٧٥﴾ أَذْهَبُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٦﴾﴾.

﴿٦٩﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَمْجِدُونَ فِي ءَايَاتِ اللَّهِ؟ الواضحة البينة متعجباً من حالهم الشنيعة، ﴿أَنَّهُمْ يُصِرُّونَ﴾: أي: كيف ينعدلون عنها؟! وإلى أي شيء يذهبون بعد البيان التام؟! هل يجدون آيات بينات تعارض آيات الله؟! لا والله. أم يجدون شبهاً توافق أهواءهم ويصولون بها لأجل باطلهم؟!!

﴿٧٦﴾ ﴿أَدْخُلُوا أَبْوَٓبَ جَهَنَّمَ﴾: كل طبقة من طبقاتها على قدر عمله ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾: لا يخرجون منها أبداً. ﴿فَلْيَسْكُ مَتَوًى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾ ﴿٧٧﴾: مشوى يخزون فيه ويهانون ويجسسون ويعذبون، ويترددون بين حرها وزمهريرها.

﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَكَيْمَا تُرِيدُكَ بَعْضَ الَّذِي نَعْلَمُ أَوْ تَتَوَقَّعْتَ فَإِلَيْنَا يَرْجِعُونَ﴾ ﴿٧٨﴾.

﴿٧٩﴾ أي: ﴿فَاصْبِرْ﴾: يا أيها الرسول على دعوة قومك وما ينالك منهم من أذى، واستعن على صبرك بإيمانك. ﴿إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾: سينصر دينه ويعلي كلمته وينصر رسله في الدنيا والآخرة، واستعن على ذلك أيضاً بتوقع العقوبة بأعدائك في الدنيا والآخرة، ولهذا قال: ﴿فَكَيْمَا تُرِيدُكَ بَعْضَ الَّذِي نَعْلَمُ﴾: في الدنيا؛ فذاك، ﴿أَوْ تَتَوَقَّعْتَ﴾: قبل عقوبتهم، ﴿فَالِإِنَّا يَرْجِعُونَ﴾ ﴿٨٠﴾: فنجازيهم بأعمالهم؛ فلا تحسبن الله غافلاً عما يعمل الظالمون.

ثم سلاه وصبره بذكر إخوانه المرسلين، فقال:

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ وَمَا كَانَ لِرُّسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِشَآئِئٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ فُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ﴾ ﴿٨١﴾.

﴿٨٢﴾ أي: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِّن قَبْلِكَ رُسُلًا﴾: كثيرين إلى قومهم يدعونهم ويصبرون على أذاهم. ﴿مِنْهُمْ مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ﴾: خبرهم، ﴿وَمِنْهُمْ مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾: وكل الرسل مدبرون ليس بيدهم شيء من الأمر. ﴿وَمَا كَانَ لِأَحَدٍ مِنْهُمْ أَن يَأْتِيَ بِأَيِّ مِنَ الْآيَاتِ السَّمْعِيَّةِ وَالْعَقْلِيَّةِ﴾ ﴿٨٣﴾ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ؛ أي: بمشيئته وأمره؛ فاقترح المقترح على الرسل الإتيان بالآيات ظلم منهم وتعنت وتكذيب بعد أن أيدهم الله بالآيات الدالة على صدقهم وصحة ما جاءوا به. ﴿فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ﴾: بالفصل بين الرسل وأعدائهم والفتح، ﴿فُضِيَ﴾: بينهم ﴿بِالْحَقِّ﴾: الذي يقع الموقع ويوافق الصواب بإنجاء الرسل وأتباعهم وإهلاك المكذبين، ولهذا قال: ﴿وَخَسِرَ هُنَالِكَ﴾؛ أي: وقت القضاء المذكور ﴿الْمُبْطِلُونَ﴾ ﴿٨٤﴾: الذين وصفهم الباطل وما جاءوا به من العلم والعمل باطل، وغايتهم المقصودة لهم باطلة، فليحذر هؤلاء المخاطبون أن يستمروا على باطلهم، فيخسروا كما خسروا أولئك؛ فإن هؤلاء لا خير منهم ولا لهم براءة في الكتب بالنجاة.

﴿٧٥﴾ - ﴿٧٦﴾ فيس ما استبدلوا واختاروا لأنفسهم بتكذيبهم بالكتاب الذي جاءهم من الله وبما أرسل الله به رسله الذين هم خير الخلق وأصدقهم وأعظمهم عقولاً؛ فهو لا جزء لهم سوى النار الحامية، ولهذا توعدهم الله بعذابها، فقال: ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ ﴿٧٧﴾ إِذِ الْأَغْلَى فِيْ أَعْنَاقِهِمْ﴾: التي لا يستطيعون معها حركة، ﴿وَالسَّلَاسِلُ﴾: التي يقرنون بها هم وشياطينهم ﴿يُسْحَبُونَ﴾ ﴿٧٨﴾ فِي الْحَمِيرِ﴾: أي: الماء الذي اشتد غليانه وحره، ﴿ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ﴾ ﴿٧٩﴾: يوقد عليهم اللهب العظيم، فيصلون بها، ثم يويخون على شرهم وكذبهم.

﴿٨٠﴾، ﴿٨١﴾ ويقال ﴿فَمِمَّ أَتَى مَا كُنْتُمْ تُشْرِكُونَ﴾ ﴿٨٢﴾ مِن دُونِ اللَّهِ﴾: هل نفعوكم أو دفعوا عنكم بعض العذاب؟ ﴿قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا﴾؛ أي: غابوا ولم يحضروا، ولو حضروا؛ لم ينفعوا. ثم إنهم أنكروا فقالوا: ﴿بَلْ لَّوْ تَكُنْ نَّدَعُوا مِن قَبْلُ شَيْئًا﴾: يحتمل أن مرادهم بذلك الإنكار، وظنوا أنه ينفعهم ويفيدهم، ويحتمل - وهو الأظهر - أن مرادهم بذلك الإقرار على بطلان إلهية ما كانوا يعبدون، وأنه ليس لله شريك في الحقيقة، وإنما هم ضالون مخطئون بعبادة معدوم الإلهية، ويدل على هذا قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ﴾ ﴿٨٣﴾؛ أي: كذلك الضلال الذي كانوا عليه في الدنيا الضلال الواضح لكل أحد، حتى إنهم بأنفسهم يقرون ببطلانه يوم القيامة، ويتبين لهم معنى قوله تعالى: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ﴾ [يونس: ٦٦]، ويدل عليه قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بَشِرِكِكُمْ﴾ [فاطر: ١٤]، ﴿وَنَزَّلْنَا مَنِّ مِّن دُونِ اللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَّا يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [الاحقاف: ٥] الآيات.

﴿٨٤﴾ ويقال لأهل النار: ﴿ذَلِكُمْ﴾: العذاب الذي نوع عليكم ﴿بِمَا كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ﴾ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَمِمَّا كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ﴾ ﴿٨٥﴾؛ أي: تفرحون بالباطل الذي أنتم عليه وبالعلوم الذي خالفتكم بها علوم الرسل، وتفرحون على عباد الله بغيا وعدوانا وظلما وعصيانا؛ كما قال تعالى في آخر هذه السورة: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ﴾، وكما قال قوم قارون له: ﴿لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾ ﴿٨٦﴾ [القصص: ٧٦]، وهذا هو الفرح المذموم الموجب للعقاب؛ بخلاف الفرح الممدوح، الذي قال الله فيه: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا﴾ [يونس: ٥٨]، وهو الفرح بالعلم النافع والعمل الصالح.

﴿ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَنْعَمَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴾ (٧٩) وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَى الْفَلَكَ تَحْمَلُونَ ﴿٨٠﴾ وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَأَيَّ آيَاتِ اللَّهِ تُنْكِرُونَ ﴿٨١﴾

﴿٧٩﴾، ﴿٨٠﴾، ﴿٨١﴾ يمتن تعالى على عباده بما جعل لهم من الأنعام التي بها جملة من الإنعام: منها: منافع الركوب عليها والحمل، ومنها: منافع الأكل من لحومها والشرب من ألبانها، ومنها: منافع الدفء واتخاذ الآلات والأمتعة من أصوافها وأوبارها وأشعارها... إلى غير ذلك من المنافع ﴿٨٠﴾ وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ ﴿٨١﴾ من الوصول إلى الأفطار البعيدة، وحصول السرور بها والفرح عند أهلها. ﴿٨١﴾ وَعَلَى الْفَلَكَ تَحْمَلُونَ ﴿٨٢﴾ أي: على الرواحل البرية والفلك البحرية يحملكم الله، الذي سخرها، وهيا لها ما هيا من الأسباب التي لا تتم إلا بها.

﴿٨٢﴾ وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ ﴿٨٣﴾: الدالة على وحدانيته وأسمائه وصفاته، وهذا من أكبر نعمه؛ حيث أشهد عباده آياته النفسية وآياته الأقدية ونعمه الباهرة وعددها عليهم ليعرفوه ويشكروه ويذكروه. ﴿٨٣﴾ فَأَيَّ آيَاتِ اللَّهِ تُنْكِرُونَ ﴿٨٤﴾ أي: أي آية من آياته لا تعترفون بها؟! فإنكم قد تقرر عندهم أن جميع الآيات

والنعم منه تعالى، فلم يبق للإنكار محل، ولا للإعراض عنها موضع، بل أوجبت لذوي الألباب بذل الجهد واستفراغ الوسع للاجتهاد في طاعته والتبتل في خدمته والانقطاع إليه.

﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرُ مِنْهُمْ وَأَشَدُّ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ (٨٢) فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ يَاجِئِينَ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٨٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكْ يَنْفَعُهُمْ إِيْمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهُ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ ﴿٨٥﴾

﴿٨٢﴾ يحث تعالى المكذبين لرسولهم على السير في الأرض بأبدانهم وقلوبهم وسؤال العالمين، ﴿٨٣﴾ فَيَنْظُرُوا ﴿٨٤﴾: نظر فكر واستدلال لا نظر غفلة وإهمال ﴿٨٥﴾ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴿٨٦﴾: من الأمم السالفة؛ كعاد وثمود وغيرهم ممن كانوا أعظم منهم قوة وأكثر أموالاً وأشد آثاراً في الأرض من الأبنية الحصينة والغراس الأنيقة والزروع الكثيرة. ﴿٨٦﴾ فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨٧﴾: حين جاءهم أمر الله، فلم تغن عنهم قوتهم، ولا اقتدوا بأموالهم، ولا تحصنوا بحصونهم.

﴿٨٧﴾ ثم ذكر جرمهم الكبير، فقال: ﴿٨٨﴾ فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ يَاجِئِينَ ﴿٨٩﴾: من الكتب الإلهية والخوارق العظيمة، والعلم النافع المبين للهدى من الضلال والحق من الباطل، ﴿٩٠﴾ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ ﴿٩١﴾: المناقض لدين الرسل، ومن المعلوم أن فرحهم به يدل على شدة رضاهم به وتمسكهم ومعاداة الحق الذي جاءت به الرسل وجعل باطلهم حقاً، وهذا عام لجميع العلوم التي نوقض بها ما جاءت به الرسل، ومن أحقها بالدخول في هذا، علوم الفلسفة والمنطق اليوناني الذي رُدت به كثير من آيات القرآن، ونقصت قدره في القلوب، وجعلت أدلته اليقينية القاطعة أدلة لفظية لا تفيد شيئاً من اليقين، ويقدم عليها

سورة غافر
وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ فُضِيَ وَلَمْ يَخْصِرْ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ ﴿٧٨﴾ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَنْعَمَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَى الْفَلَكَ تَحْمَلُونَ ﴿٨٠﴾ وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَأَيَّ آيَاتِ اللَّهِ تُنْكِرُونَ ﴿٨١﴾ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرُ مِنْهُمْ وَأَشَدُّ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ يَاجِئِينَ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٨٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكْ يَنْفَعُهُمْ إِيْمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهُ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ ﴿٨٥﴾

عقول أهل السفه والباطل، وهذا من أعظم الإلحاد في آيات الله والمعارضة لها والمناقضة؛ فالله المستعان، ﴿وَحَافٍ بِهِمْ﴾؛ أي: نزل ما كانوا يستهزئون به من العذاب.

﴿٨٤﴾ ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا﴾؛ أي: عذابنا؛ أقروا حيث لا ينفعهم الإقرار؛ ﴿قَالُوا ءَأَمْنَا بِاللَّهِ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ﴾؛ من الأصنام والأوثان، وتبرأنا من كل ما خالف الرسل من علم أو عمل.

﴿٨٥﴾ ﴿فَلَمْ يَكْ يَنْفَعُهُمْ إِيْنَهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا﴾؛ أي: في تلك الحال، وهذه ﴿سُنَّتُ اللَّهِ﴾ وعادته ﴿الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ﴾؛ أن المكذبين حين ينزل بهم بأس الله وعقابه إذا آمنوا؛ كان إيمانهم غير صحيح ولا منجياً لهم من العذاب، وذلك لأنه إيمان ضرورة؛ قد اضطروا إليه، وإيمان مشاهدة، وإنما الإيمان النافع الذي ينجي صاحبه هو الإيمان الاختياري الذي يكون إيماناً بالغيب، وذلك قبل وجود قرائن العذاب، ﴿وَحَيْرَ هُنَالِكَ﴾؛ أي: وقت الإهلاك وإذاعة البأس ﴿الْكَافِرُونَ﴾؛ دينهم ودنياهم وأخراهم، ولا يكفي مجرد الخسارة في تلك الدار، بل لا بد من خسران يشقي في العذاب الشديد والخلود فيه دائماً أبداً.

تم تفسير سورة المؤمن بحمد الله ولطفه ومعونته لا بحولنا وقوتنا. فله الشكر والثناء.

﴿٥٥﴾﴿٥٤﴾﴿٥٣﴾﴿٥٢﴾﴿٥١﴾﴿٥٠﴾﴿٤٩﴾﴿٤٨﴾﴿٤٧﴾﴿٤٦﴾﴿٤٥﴾﴿٤٤﴾﴿٤٣﴾﴿٤٢﴾﴿٤١﴾﴿٤٠﴾﴿٣٩﴾﴿٣٨﴾﴿٣٧﴾﴿٣٦﴾﴿٣٥﴾﴿٣٤﴾﴿٣٣﴾﴿٣٢﴾﴿٣١﴾﴿٣٠﴾﴿٢٩﴾﴿٢٨﴾﴿٢٧﴾﴿٢٦﴾﴿٢٥﴾﴿٢٤﴾﴿٢٣﴾﴿٢٢﴾﴿٢١﴾﴿٢٠﴾﴿١٩﴾﴿١٨﴾﴿١٧﴾﴿١٦﴾﴿١٥﴾﴿١٤﴾﴿١٣﴾﴿١٢﴾﴿١١﴾﴿١٠﴾﴿٩﴾﴿٨﴾﴿٧﴾﴿٦﴾﴿٥﴾﴿٤﴾﴿٣﴾﴿٢﴾﴿١﴾

تفسير سورة السجدة^(١)

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿حَمْدٌ تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ ﴿١﴾ كُنْتُ فُصِّلْتُ ءَايَتُهُ، قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٢﴾ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٣﴾ وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكْثَرِ مَا نَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِي ءَادَانَا وَقَرٍّ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَأَعْمَلْ إِنَّا عَمِلُونَ ﴿٤﴾ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَىٰ إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ ﴿٥﴾ الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٧﴾

﴿٢﴾ يخبر تعالى عباده أن هذا الكتاب الجليل والقرآن الجميل ﴿تَنْزِيلٌ﴾؛ صادر ﴿مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾؛ الذي وسعت رحمته كل شيء، الذي من أعظم رحمته وأجلها إنزال هذا الكتاب، الذي حصل به من العلم والهدى والنور والشفاء والرحمة والخير الكثير ما هو من أجل نعمه على العباد، وهو الطريق للسعادة في الدارين.

﴿٣﴾ ثم أثنى على الكتاب بتمام البيان، فقال: ﴿فُصِّلْتُ ءَايَتُهُ﴾؛ أي: فصل كل شيء من أنواعه على حدته، وهذا يستلزم البيان التام والتفريق بين كل شيء وتمييز الحقائق، ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾؛ أي: باللغة الفصحى أكمل اللغات، فصلت آياته وجعل

(١) كذا في الأصل، والاسم المشتهر للسورة هو (سورة فصلت) أو حم السجدة.

ذلك بالاستغفار المتضمن للتوبة، فقال: ﴿وَأَسْتَغْفِرُهُ﴾، ثم توعد من ترك الاستقامة فقال: ﴿وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ﴾ الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ؛ أي: الذين عبدوا من دونه من لا يملك نفعاً ولا ضرراً ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً، ودسوا أنفسهم فلم يزكوها بتوحيد ربهم والإخلاص له، ولم يُصلُّوا ولا زكوا؛ فلا إخلاص للخالق بالتوحيد والصلاة، ولا نفع للخلق بالزكاة وغيرها. ﴿وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَفِرُونَ﴾؛ أي: لا يؤمنون بالبعث ولا بالجنة والنار؛ فلذلك لما زال الخوف من قلوبهم؛ أقدموا على ما أقدموا عليه مما يضرهم في الآخرة.

﴿٨﴾ ولما ذكر الكافرين؛ ذكر المؤمنين ووصفهم وجزاءهم، فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بهذا الكتاب وما اشتمل عليه مما دعا إليه من الإيمان وصدقوا إيمانهم بالأعمال الصالحة الجامعة للإخلاص والمتابعة، ﴿لَهُمْ أَجْرٌ﴾؛ أي: عظيم ﴿غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾؛ أي: غير مقطوع ولا نافذ، بل هو مستمر مدى الأوقات، متزايد على الساعات، مشتمل على جميع اللذات والمشتبهات.

﴿قُلْ أَيْنَكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَاداً ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رِجْساً مِن فَوْقِهَا وَرِجْساً فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَمَواتٍ فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلنَّاسِ لَئِيلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ اأْتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴿١١﴾ فَفَضَّلَهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظاً ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿١٢﴾

﴿٩﴾ ينكر تعالى ويعجب من كفر الكافرين به، الذين جعلوا معه أنداداً، يشركونهم معه، ويبدلون لهم ما يشاءون من عباداتهم، ويسوونهم بالرب العظيم الملك الكريم، الذي خلق الأرض الكثيفة العظيمة في يومين، ثم دحاها في يومين؛ بأن جعل فيها رواسي من فوقها ترسيها عن الزوال والتزلزل وعدم الاستقرار؛ فكمل خلقها ودحاها وأخرج أقاتها وتوابع ذلك ﴿فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلنَّاسِ لَئِيلِينَ﴾؛ عن ذلك؛ فلا يبتك مثل خبير؛ فهذا الخبر الصادق الذي لا زيادة فيه ولا نقص.

﴿١٢﴾ ثُمَّ: بعد أن خلق الأرض ﴿اسْتَوَىٰ﴾؛ أي: قصد ﴿إِلَىٰ﴾: خلق ﴿السَّمَاءَ وَهِيَ دُخَانٌ﴾: قد ثار على وجه الماء،

عريباً. ﴿لَقَوْمٍ يَكْفُرُونَ﴾؛ أي: لأجل أن يتبين لهم معناه كما يتبين لفظه، ويتضح لهم الهدى من الضلال والغى من الرشاد، وأما الجاهلون الذين لا يزيدهم الهدى إلا ضلالاً ولا البيان إلا عمية؛ فهؤلاء لم يسق الكلام لأجلهم، و﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أُنذِرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ ﴿١٣﴾ [البقرة: ٦].

﴿١٣﴾ بَشِيرًا وَنَذِيرًا؛ أي: بشيراً بالثواب العاجل والآجل، ونذيراً بالعقاب العاجل والآجل، وذكر تفصيلهما، وذكر الأسباب والأوصاف التي تحصل بها البشارة والنذارة، وهذه الأوصاف للكتاب مما يوجب أن يتلقى بالقبول والإذعان والإيمان والعمل به، ولكن أعرض أكثر الخلق عنه إعراض المستكبرين، ﴿فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾؛ أي: له سماع قبول وإجابة، وإن كانوا قد سمعوه سماعاً تقوم عليهم به الحجة الشرعية.

﴿١٤﴾ وَقَالُوا؛ أي: هؤلاء المعرضون عنه مبينين عدم انتفاعهم به بسد الأبواب الموصلة إليه: ﴿قُلُونَا فِي أَصْحَابِ﴾؛ أي: أغطية مغطاة، ﴿مِمَّا نَدْعُونَ إِلَيْهِ فِي ذَاتِنَا وَقَدْ﴾؛ أي: صمم فلا نسمع لك ﴿وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ﴾؛ فلا نراك؛ القصد من ذلك أنهم أظهروا الإعراض عنه من كل وجه، وأظهروا بغضه والرضا بما هم عليه، ولهذا قالوا: ﴿فَاعْمَلْ إِنَّا عَمِلُونَا﴾؛ أي: كما رضيت بالعمل بدينك؛ فإننا راضون كل الرضا بالعمل في ديننا، وهذا من أعظم الخذلان؛ حيث رضوا بالضلال عن الهدى، واستبدلوا الكفر بالإيمان، وباعوا الآخرة بالدنيا.

﴿١٥﴾ ﴿قُلْ﴾ لهم يا أيها النبي: ﴿إِنَّا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾؛ أي: هذه صفتي ووظيفتي: أنني بشر مثلكم، ليس بيدي من الأمر شيء، ولا عندي ما تستعجلون به، وإنما فضلني الله عليكم وميزني وخصني بالوحي الذي أوحاه إلي وأمرني باتباعه ودعوتكم إليه. ﴿فَأَسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ﴾؛ أي: اسلكوا الصراط الموصل إلى الله تعالى بتصديق الخبر الذي أخبر به واتباع الأمر واجتناب النهي، هذه حقيقة الاستقامة، ثم الدوام على ذلك، وفي قوله: ﴿إِلَيْهِ﴾: تنبيه على الإخلاص، وأن العامل ينبغي له أن يجعل مقصوده وغايته التي يعمل لأجلها الوصول إلى الله وإلى دار كرامته؛ فبذلك يكون عمله خالصاً صالحاً نافعاً، وبفواته يكون عمله باطلاً.

ولما كان العبد ولو حرص على الاستقامة لا بد أن يحصل منه خلل بتقصير بمأمور أو ارتكاب منهي؛ أمره بدواء

﴿فَقَالَ لَهَا﴾: ولما كان هذا التخصيص يوم الاختصاص؛ عطف عليه بقوله: ﴿وَالْأَرْضِ أَنْتَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾؛ أي: انقادا لأمرى طائعتين أو مكرهتين؛ فلا بد من نفوذه، ﴿قَالَتَا أَنْتَا طَائِعَتَانِ﴾ (١١)؛ أي: ليس لنا إرادة تخالف إرادتك.

﴿فَقَضَيْنَهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ﴾: فتم خلق السماوات والأرض في ستة أيام؛ أولها يوم الأحد، وآخرها يوم الجمعة، مع أن قدرة الله ومشيئته صالحة لخلق الجميع في لحظة واحدة، ولكن مع أنه قدير؛ فهو حكيم رقيق؛ فمن حكمته ورفقه أن جعل خلقها في هذه المدة المقدرة. واعلم أن ظاهر هذه الآية مع قوله تعالى في النازعات لما ذكر خلق السماوات؛ قال: ﴿وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا﴾ (٣١)؛ يظهر منهما التعارض! مع أن كتاب الله لا تعارض فيه ولا اختلاف! والجواب عن ذلك ما قاله كثير من السلف: أن خلق الأرض وصورتها متقدم على خلق السماوات كما هنا. ودحي الأرض بأن ﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَرَمَعَهَا﴾ (٣١) وَالْجِبَالَ أَرْسَهَا (٣٢)؛ متأخر على خلق السماوات؛ كما في سورة النازعات، ولهذا قال فيها: ﴿وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا﴾ (٣١) أَخْرَجَ مِنْهَا ﴿[النازعات: ٣٠-٣٢] إلى آخره، ولم يقل: والأرض بعد ذلك خلقها. وقوله: ﴿وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا﴾؛ أي: الأمر والتدبير اللائق بها، التي اقتضته حكمة أحكم الحاكمين،

﴿وَرَبَّنَا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصْنُوعٍ﴾: هي النجوم؛ يستنار بها ويهتدى، وتكون زينة وجمالاً للسماء ظاهراً وجمالاً لها باطناً بجعلها رجوماً للشياطين؛ لئلا يسترق السمع فيها. ﴿ذَلِكَ﴾: المذكور من الأرض وما فيها والسماء وما فيها ﴿تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ﴾: الذي عزته قهر بها الأشياء ودبرها وخلق بها المخلوقات. ﴿الْعَلِيمِ﴾: الذي أحاط علمه بالمخلوقات والغائب والشاهد.

فترك المشركين الإخلاص لهذا الرب العظيم الواحد القهار، الذي انقادت المخلوقات لأمره، ونفذ فيها قدره من أعجب الأشياء، واتخاذهم له أنذاذا يسوونهم به وهم ناقصون في أوصافهم وأفعالهم أعجب وأعجب، ولا دواء لهؤلاء إن استمر إعراضهم إلا العقوبات الدنيوية والأخروية؛ فهذا خوفهم بقوله:

﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ (١٢) إِذْ جَاءَتْهُمْ الرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾ (١٣).

﴿١٢﴾، ﴿١٣﴾ أي: فإن أعرض هؤلاء المكذبون بعدما بين لهم من أوصاف القرآن الحميدة ومن صفات الإله العظيم، ﴿فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً﴾؛ أي: عذاباً يستأصلكم ويجتاحكم، ﴿مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ (١٣)؛ القبيلتين المعروفتين؛ حيث اجتاحتهم العذاب، وحل عليهم وبيل العقاب، وذلك بظلمهم وكفرهم؛ حيث ﴿جَاءَتْهُمْ الرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾؛ أي: يتبع بعضهم بعضاً متوالين، ودعوتهم جميعاً واحدة: ﴿أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ﴾؛ أي: يأمرون بالإخلاص لله، وينهونهم عن الشرك به، فردوا رسالتهم وكذبوهم، ﴿قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً﴾؛ أي: وأما أنتم؛ فبشر مثلنا، ﴿فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾ (١٤)؛ وهذه الشبهة لم تزل متوارثة بين المكذبين من الأمم، وهي من أوهى الشبه؛ فإنه ليس من شرط الإرسال أن يكون المرسل ملكاً، وإنما شرط الرسالة أن يأتي الرسول بما يدل على صدقه، فليقدحوا إن استطاعوا بصدقهم بقادح عقلي أو شرعي، ولن يستطيعوا إلى ذلك سبيلاً.

﴿فَقَضَيْنَهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا﴾ وَرَبَّنَا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصْنُوعٍ وَحَفَظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿١١﴾ فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٢﴾ إِذْ جَاءَتْهُمْ الرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴿١٣﴾ فَأَمَّا عَادُ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً وَأَنزَلْنَا إِلَهُكَ آلَ الْيَمِّ فَخَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٤﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ مَحْصُوبَاتٍ لِيُنذِرَهُمْ عَذَابَ الْآخِرَةِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿١٥﴾ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْإِثْمِ فَأَخَذْتُمُ صَاعِقَةً الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٦﴾ وَبَشِّرْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿١٧﴾ وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٨﴾ حَتَّىٰ إِذَا مَلَآءَتِهَا أَشْهُدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَرُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾

وذكرهم وأنشأهم، وكانت آية مبصرة، فلهذا خصهم بزيادة البيان والهدى، ولكنهم من ظلمهم وشرهم استحبوا ﴿الْعَمَى﴾ الذي هو الكفر والضلال ﴿عَلَى الْهَدَى﴾ الذي هو العلم والإيمان، فأخذهم العذاب بما كانوا يكسبون، لا ظلماً من الله لهم.

﴿١٨﴾ وَنَجِّنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿١٩﴾؛ أي: نجى الله صالحاً عليه السلام ومن اتبعه من المؤمنين المتقين للشرك والمعاصي.

﴿٢٠﴾ وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿٢١﴾ حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَرُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ وَقَالُوا لِمَ جُلِدْنَا لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْظَفْنَاهُ اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلَئِيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٣﴾ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَرْشِدُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرَدْتُمْ أَنْ تُصَبِّحْتُمْ مِنْ أَنْخُسِيرِينَ ﴿٢٥﴾ فَإِنْ يَصِيرُوا فَإِنَّهُمْ قَالُوا قَدْ نَبَّأُوا قَوْمَهُمْ وَلَنْ تَسْتَعْتِبُوا قَوْمَهُمْ مِنَ الْمُفْتِنِينَ ﴿٢٦﴾.

﴿٢٧﴾ يخبر تعالى عن أعدائه الذين بارزوه بالكفر به وبآياته وتكذيب رسله ومعاداتهم ومحاربتهم وحالهم الشنيعة حين يحشرون؛ أي: يجمعون ﴿إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾؛ أي: يرد أولهم على آخرهم، ويتبع آخرهم أولهم، ويساقون إليها سوقاً عنيقاً، لا يستطيعون امتناعاً ولا ينصرون أنفسهم ولا هم ينصرون.

﴿٢٨﴾ حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا ﴿٢٩﴾؛ أي: حتى إذا وردوا على النار وأرادوا الإنكار أو أنكروا ما عملوه من المعاصي، ﴿شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَرُهُمْ وَجُلُودُهُمْ﴾: عموم بعد خصوص، ﴿بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾؛ أي: شهد عليهم كل عضو من أعضائهم؛ فكل عضو يقول: أنا فعلت كذا وكذا يوم كذا وكذا، وخص هذه الأعضاء الثلاثة؛ لأن أكثر الذنوب إنما تقع بها أو بسببها.

﴿٣٠﴾ فإذا شهدت عليهم، عاتبوها ﴿وَقَالُوا لِمَ جُلِدْنَا﴾: هذا دليل على أن الشهادة تقع من كل عضو كما ذكرنا، ﴿لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا﴾: ونحن ندافع عنكن؟ ﴿قَالُوا أَنْظَفْنَاهُ اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾: فليس في إمكاننا الامتناع عن الشهادة حين

﴿فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ ﴿١٥﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ مَحْسَبَاتٍ لِنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْرَىٰ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿١٦﴾.

هذا تفصيل لقصة هاتين الأمتين عاد وثمود:

﴿١٥﴾ فأما عاد؛ فكانوا مع كفرهم بالله وجحدهم بآيات الله وكفرهم برسله مستكبرين ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ قاهرين لمن حولهم من العباد ظالمين لهم قد أعجبته قوتهم، ﴿وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾: قال تعالى ردّاً عليهم بما يعرفه كل أحد: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾: فلولاً خلقه لإياهم؛ لم يوجدوا؛ فلو نظروا إلى هذه الحال نظراً صحيحاً؛ لم يغتروا بقوتهم.

﴿١٦﴾ فعاقبهم الله عقوبة تناسب قوتهم التي اغتروا بها، ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا﴾؛ أي: ريحاً عظيمة من قوتها وشدتها، لها صوت مزعج كالرعد القاصف، فسخرها الله ﴿عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَتَمْنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَارٌ نَثَلَ ضَرْبُهَا﴾ ﴿١٧﴾ [الحاقة: ١٧]، ﴿مَحْسَبَاتٍ﴾: فدمرتهم وأهلكتهم ﴿فَأَصْبَحُوا لَا يَرَىٰ إِلَّا مَسَكِنُهُمْ﴾ [الاحقاف: ٢٥]، وقال هنا: ﴿لِنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾: الذي اختزوا به وافضحوا بين الخليقة، ﴿وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْرَىٰ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ ﴿١٨﴾؛ أي: لا يمنعون من عذاب الله، ولا ينفعون أنفسهم.

﴿١٩﴾ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمُ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٢٠﴾ وَنَجِّنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿٢١﴾.

﴿٢٢﴾ وَأَمَّا ثَمُودُ﴾: وهم القبيلة المعروفة، الذين سكنوا الحجر وحواليه، الذين أرسل الله إليهم صالحاً عليه السلام يدعوهم إلى توحيد ربهم وينهاهم عن الشرك، وآتاهم الله الناقة آية عظيمة لها شرب ولهم شرب يوم معلوم، يشربون لبنها يوماً ويشربون من الماء يوماً، وليسوا يتفقون عليها، بل تأكل من أرض الله، ولهذا قال هنا: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ﴾؛ أي: هداية بيان، وإنما نص عليهم، وإن كان جميع الأمم المهلكة قد قامت عليهم الحجة وحصل لهم البيان؛ لأن آية ثمود آية باهرة قد رآها صغيرهم وكبيرهم

سورة فصلت

المراد بالظن والظن

أنطقنا الذي لا يستعصي أحد عن مشيئته، ﴿وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾: فكما خلقكم بذواتكم وأجسامكم؛ خلق أيضًا صفاتكم، ومن ذلك الإنطاق. ﴿وَالَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (٢١): في الآخرة، فيجزىكم بما عملتم. ويحتمل أن المراد بذلك الاستدلال على البعث بالخلق الأول كما هو طريقة القرآن.

﴿وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَرْوْنَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ﴾؛ أي: وما كنتم تخفون عن شهادة أعضائكم عليكم ولا تحاذرون من ذلك. ﴿وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ﴾: بإقدامكم على المعاصي ﴿أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾ (٢٢): فلذلك صدر منكم ما صدر.

﴿٢٣﴾ وهذا الظن صار سبب هلاكهم وشقائهم، ولهذا قال: ﴿وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ﴾: الظن السيئ؛ حيث ظننتم به ما لا يليق بجلاله، ﴿أَزْدَنْتُمْ﴾؛ أي: أهلكم، ﴿فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (٢٣): لأنفسهم وأهليهم وأديانهم؛ بسبب الأعمال التي أوجبتها لكم ظنكم القبيح بربكم. فحققت عليكم كلمة العقاب والشقاء، ووجب عليكم الخلود الدائم في العذاب، الذي لا يفتر عنهم ساعة.

﴿٢٤﴾ فَإِنْ بَصَرُوا فَالْأَنْزَارُ مَتَى لَهُمْ: فلا جلد عليها ولا صبر، وكل حالة قُدِّرَ إمكان الصبر عليها؛ فالنار لا يمكن

الصبر عليها، وكيف الصبر على نار قد اشتد حرها وزادت على نار الدنيا بسبعين ضعفًا وعظم غليان حميمها وزاد تن صديدها وتضاعف برد زمهريرها، وعظمت سلاسلها وأغلالها، وكبرت مقامعها، وغلظ خزائنها، وزال ما في قلوبهم من رحمتهم، وختم ذلك سخط الجبار، وقوله لهم حين يدعونه ويستغيثون: ﴿أَخْسَرُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ (٢٥) [المؤمنون: ١٠٨]. ﴿وَأَنْ يَسْتَعْتَبُوا﴾؛ أي: يطلبوا أن يزال عنهم العتب، فيرجعوا إلى الدنيا؛ ليستأنفوا العمل، ﴿فَمَا لَهُمْ مِنَ الْمُعْتَبِينَ﴾ (٢٤): لأنه ذهب وقته، وعمر ما يعمر فيه من تذكر، وجاءهم التنذير، وانقطعت حجبتهم، مع أن استعتابهم كذب منهم، فلو ردوا؛ لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون.

﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أَمْرِ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ﴾ (٢٥).

﴿٢٥﴾ أي: ﴿وَقَيَّضْنَا﴾: لهؤلاء الظالمين الجاحدين للحق ﴿قُرَنَاءَ﴾: من الشياطين؛ كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤْزُهُمْ أَزًّا﴾ [مريم: ٨٣]؛ أي: تزعجهم إلى المعاصي، وتحثهم عليها، بسبب ما زينوا ﴿لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾: فاللذات زخرها بأعينهم ودعواهم إلى لذاتها وشهواتها المحرمة، حتى افتنوا فأقعدوا على معاصي الله وسلوكوا ما شاءوا من محاربة الله ورسوله، والآخرة بعدوها عليهم وأنسوهم ذكرها، وربما أوقعوا عليهم الشبه بعدم وقوعها، فترحل خوفها من قلوبهم، فقادوهم إلى الكفر والبدع والمعاصي. وهذا التسليط والتقييض من الله للمكذبين الشياطين بسبب إعراضهم عن ذكر الله وآياته وجحودهم الحق؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾ (٣٦) ﴿وَأَنَّهُمْ لَيَصْدُوْنَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُّهْتَدُونَ﴾ (٣٧) [الزخرف: ٣٦، ٣٧]. ﴿وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ﴾؛ أي: وجب عليهم ونزل القضاء والقدر بعذابهم ﴿فِي﴾ جملة ﴿أَمْرِ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ﴾ (٢٥): لأديانهم وآخرتهم، ومن خسر؛ فلا بد أن يذل ويشقى ويعذب.

قادانا إلى الضلال والعذاب من شياطين الجن وشياطين
الإنس الدعاة إلى جهنم، ﴿تَجْعَلُهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ
الْأَسْفَلِينَ﴾ (٣٦)؛ أي: الأدلين المهانين؛ كما أضلونا وفتنونا
وصاروا سبيلًا لتزولنا؛ ففي هذا بيان حنق بعضهم على بعض،
وتبري بعضهم من بعض.

﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ
الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي
كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ (٣٧) نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا
وفي الآخرة ولكم فيها ما تشتهي أنفسكم ولكم
فيها ما نددعون ﴿ثُمَّ لَا يَمَنُّ عَفْوَ رَحِيمٍ﴾ (٣٨).

﴿يُخَبِّرُ تَعَالَى عَنْ أَوْلِيَائِهِ، وَفِي ضَمْنِ ذَلِكَ تَنْشِيطُهُمْ
وَالْحَثُّ عَلَى الْإِقْدَاءِ بِهِمْ، فَقَالَ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا
اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا﴾؛ أي: اعترفوا ونطقوا ورضوا بربوبية
الله تعالى واستسلموا لأمره، ثم استقاموا على الصراط
المستقيم علمًا وعملاً؛ فلم يبق في الحياة الدنيا وفي
الآخرة. ﴿تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ﴾: الكرام؛ أي: يتكرر
نزولهم عليهم مبشرين لهم عند الاحتضار ﴿أَلَّا تَخَافُوا﴾:
على ما يستقبل من أمرهم، ﴿وَلَا تَحْزَنُوا﴾: على ما مضى،
ففنوا عنهم المكروه الماضي والمستقبل. ﴿وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ
الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ (٣٧)؛ فإنها قد وجبت لكم وثبتت،
وكان وعد الله مفعولاً.

﴿وَيَقُولُونَ لَهُمْ أَيْضًا مُبَشِّرِينَ لَهُمْ وَمُبَشِّرِينَ﴾: نحن
أولياؤكم في الحياة الدنيا وفي الآخرة؛ يحثونهم في الدنيا
على الخير ويزيّنونه لهم، ويرهبونهم عن الشر ويقبحونه في
قلوبهم، ويدعون الله لهم، ويشبّونهم عند المصائب والمخاوف،
وخصوصًا عند الموت وشدته، والقبر وظلمته، وفي القيامة
وأحوالها، وعلى الصراط، وفي الجنة؛ يهثّونهم بكرامة ربهم،
ويدخلون عليهم من كل باب، ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَدَقْتُمْ فِيمَنْ عَنِ
الدَّارِ﴾ (٣٨) [الرعد: ٢٤]، ويقولون لهم أيضًا: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا﴾؛
أي: في الجنة، ﴿مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ﴾: قد أعد وهب،
﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ﴾ (٣٩)؛ أي: تطلبون من كل ما تتعلق
به إرادتكم وتطلبونه، من أنواع اللذات والمشتبهات، مما لا
عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

﴿ثُمَّ لَا يَمَنُّ عَفْوَ رَحِيمٍ﴾ (٣٨)؛ أي: هذا الثواب
الجزيل والنعيم المقيم نزل وضيافة من ﴿عَفْوَ رَحِيمٍ﴾ غفر لكم

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ
تَعْلَمُونَ﴾ (٣٦) فَلَنَذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ
أَسْوَأَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿ذَلِكَ جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ النَّارُ هُمْ
فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ جَزَاءُ يَمَّا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ (٣٧) وَقَالَ الَّذِينَ
كَفَرُوا رَبَّنَا أَرْنَا الَّذِينَ أَضَلَّانَا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ تَجْعَلُهُمَا
تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ﴾ (٣٨).

﴿يُخَبِّرُ تَعَالَى عَنْ إِعْرَاضِ الْكَفَارِ عَنْ الْقُرْآنِ وَتَوَاصِيهِمْ
بذلك، فَقَالَ: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ﴾؛
أي: أعرضوا عنه بأسماعكم، وإياكم أن تلتفتوا أو تَصْغُوا
إليه وإلى من جاء به؛ فإن اتفق أنكم سمعتموه أو سمعتم
الدعوة إلى أحكامه، فالغوا فيه؛ أي: تكلّموا بالكلام الذي
لا فائدة فيه، بل فيه المضرة، ولا تمكثوا - مع قدرتكم -
أحدًا يملك عليكم الكلام به وتلاوة الفاظه ومعانيه، هذا
لسان حالهم ولسان مقالهم في الإعراض عن هذا القرآن.
﴿لَعَلَّكُمْ﴾: إن فعلتم ذلك ﴿تَعْلَمُونَ﴾ (٣٦)؛ وهذه شهادة
من الأعداء، وأوضح الحق ما شهدت به الأعداء؛ فإنهم
لم يحكموا بغيبتهم لمن جاء بالحق إلا في حال الإعراض
عنه والتواصي بذلك، ومفهوم كلامهم أنهم إن لم يَلْغُوا فيه،
بل استمعوا إليه وألقوا أذهانهم؛ أنهم لا يغلّبون؛ فإن الحق
غالب غير مغلوب، يعرف هذا أصحاب الحق وأعداؤه.

﴿وَلَمَّا كَانَ هَذَا ظِلْمًا مِنْهُمْ وَعِنَادًا؛ لَمْ يَبْقَ فِيهِمْ
مَطْمَعٌ لِلْهَدَايَةِ، فَلَمْ يَبْقَ إِلَّا عَذَابُهُمْ وَنَكَالُهُمْ، وَلِهَذَا قَالَ:
﴿فَلَنَذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي
كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (٣٧)؛ وهو الكفر والمعاصي؛ فإنها أسوأ
ما كانوا يعملون؛ لكونهم يعملون المعاصي وغيرها؛
فالجزاء بالعقوبة إنما هو على عمل الشر، ﴿وَلَا يَطْلُمُ رَبُّكَ
أَحَدًا﴾ (٣٨) [الكهف: ٤٩].

﴿ذَلِكَ جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ﴾: الذين حاربوه وحاربوا
أولياءه؛ بالكفر والتكذيب والمجادلة والمجادلة. ﴿النَّارُ
لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ﴾؛ أي: الخلود الدائم، الذي لا يفتر عنهم
العذاب ساعة ولا هم ينصرون، وذلك ﴿جَزَاءُ يَمَّا كَانُوا بِآيَاتِنَا
يَجْحَدُونَ﴾ (٣٨)؛ فإنها آيات واضحة وأدلة قاطعة مفيدة لليقين،
فأعظم الظلم وأكبر العناد جحدوها والكفر بها.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾: أي: الأتباع منهم؛
بدليل ما بعده على وجه الحنق على من أضلهم: ﴿رَبَّنَا
أَرْنَا الَّذِينَ أَضَلَّانَا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ﴾: أي: الصنفين اللذين

السيئات، ﴿رَحِمَ﴾ ﴿٣٢﴾ ﴿﴾ حيث وفقكم لفعل الحسنات ثم قبلها منكم؛ فبمغفرته أزال عنكم المحذور، وبرحمته أنالكم المطلوب.

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾

﴿٣٣﴾ هذا استفهام بمعنى النفي المتيقن؛ أي: لا أحد ﴿أَحْسَنُ قَوْلًا﴾؛ أي: كلامًا وطريقة وحالة ﴿وَمَنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ﴾: بتعليم الجاهلين، ووعظ الغافلين والمعرضين، ومجادلة المبطلين؛ بالأمر بعبادة الله بجميع أنواعها، والحث عليها، وتحسينها مهما أمكن، والزجر عما نهى الله عنه، وتقييده بكل طريق يوجب تركه، خصوصًا من هذه الدعوة إلى أصل دين الإسلام وتحسينه، ومجادلة أعدائه والتي هي أحسن، والنهي عما يضاده من الكفر والشرك، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. ومن الدعوة إلى الله تحبيبه إلى عباده؛ بذكر تفاصيل نعمه، وسعة جوده، وكمال رحمته، وذكر أوصاف كماله، ونعوت جلاله.

ومن الدعوة إلى الله الترغيب في اقتباس العلم والهدى من كتاب الله وسنة رسوله، والحث على ذلك بكل طريق موصل إليه. ومن ذلك الحث على مكارم الأخلاق، والإحسان إلى عموم الخلق، ومقابلة المسيء بالإحسان، والأمر بصلة الأرحام، والمواسم والعوارض والمصائب بما يناسب ذلك الحال، إلى والترهيب من جميع الشر.

ثم قال تعالى: ﴿وَعَمَلٌ صَالِحًا﴾؛ أي: مع دعوته الخلق إلى الله بادر هو بنفسه إلى امتثال أمر الله بالعمل الصالح الذي يرضي ربه، ﴿وَقَالَ إِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾؛ أي: المتقادين لأمره، السالكين في طريقه، وهذه المرتبة تمامها للصديقين الذين عملوا على تكميل أنفسهم وتكميل غيرهم وحصلت لهم الوراثة الثامنة من الرسل؛ كما أن من أشر الناس قولاً من كان من دعا الضلال السالكين لسبله، وبين هاتين المرتبتين المتباينتين، التي ارتفعت إحداها إلى أعلى عليين، ونزلت الأخرى إلى أسفل سافلين، مراتب لا يعلمها إلا الله، وكلها معمورة بالخلق، ﴿وَلِكُلِّ دَرَجَةٌ مِمَّا عَمِلُوا وَمَا رُبُّكَ يَفْضِلُ عَمَّا يَسْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ١٣٢].

﴿وَلَا تَسْتَوِ الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٢٤﴾ وَمَا يُلْقُهَا إِلَّا الَّذِينَ صَدَرُوا وَمَا يُلْقُهَا إِلَّا ذُرْحًا عَظِيمٌ ﴿٢٥﴾﴾

﴿٦٦﴾ يقول تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِ الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ﴾؛ أي: لا يستوي فعل الحسنات والطاعات لأجل رضا الله تعالى، ولا فعل السيئات والمعاصي التي تسخطه ولا ترضيه، ولا يستوي الإحسان إلى الخلق، ولا الإساءة إليهم لا في ذاتها، ولا في وصفها، ولا في جزائها. ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ﴾ ﴿الرحمن: ٦٠﴾. ثم أمر بإحسان خاص، له موقع كبير، وهو الإحسان إلى من أساء إليك، فقال: ﴿وَأَدْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾؛ أي: فإذا أساء إليك مسيء من الخلق، خصوصًا من له حق كبير عليك؛ كالأقارب والأصحاب ونحوهم، إساءة بالقول أو بالفعل، فقابله بالإحسان إليه؛ فإن قَطَعَكَ فَصَلِّهِ،

وحده لا شريك له، ﴿الَّذِينَ لَا يَدْعُونَ لَهَا وَلَهُمْ أَعْبَادُهَا وَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ لِمَا شَاءُوا مِنْهُ وَلَا يَخَافُونَ عِزَّهُ﴾. هذا بمنفعة ضيائه وتصرف العباد فيه، وهذا بمنفعة ظلمته وسكون الخلق فيه، ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ لَهَا وَلَهُمْ أَعْبَادُهَا وَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ لِمَا شَاءُوا مِنْهُ وَلَا يَخَافُونَ عِزَّهُ﴾. اللذان لا تستقيم معاش العباد ولا أبدانهم ولا أبدان حيواناتهم إلا بهما، وبهما من المصالح ما لا يحصى عدده. ﴿لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ﴾: فإنهما مدبران مسخران مخلوقان، ﴿وَأَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ﴾: أي عبيدوه وحده؛ لأنه الخالق العظيم، ودعوا عبادة ما سواه من المخلوقات، وإن كبر جرمه وكثرت مصالحه فإن ذلك ليس منه، وإنما هو من خالقه تبارك وتعالى ﴿إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾: فخصوه بالعبادة وإخلاص الدين له.

﴿فَإِنْ أَسْتَكْبَرُوا﴾: عن عبادة الله تعالى، ولم ينقادوا لها؛ فإنهم لن يضروا الله شيئاً، والله غني عنهم، وله عباد مكرمون، لا يعصون الله ما أمروهم ويفعلون ما يؤمرون، ولهذا قال: ﴿فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ﴾: يعني: الملائكة المقربين، ﴿يَسْتَحْشِرُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْتَمُونُ﴾: أي: لا يملكون من عبادته؛ لقوتهم وشدة الداعي القوي منهم إلى ذلك.

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ﴾: الدالة على كمال قدرته وانفراده بالملك والتدبير والوحدانية، ﴿أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً﴾: أي: لا نبات فيها، ﴿فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ﴾: أي: المطر، ﴿أَهْزَتْ﴾: أي: تحركت بالنبات، ﴿وَرَبَّتْ﴾: ثم أنبت من كل زوج بهيج؛ فيحيي به العباد والبلاد. ﴿إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا﴾: بعد موتها وهمودها ﴿لَمُتَّى الْمَوْتِ﴾: من قبورها إلى يوم بعثهم ونشورهم. ﴿إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾: فكما لم تعجز قدرته على إحياء الأرض بعد موتها لا تعجز عن إحياء الموتى.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا أَفَنْ يُلْقُوا فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِي آمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾: إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكَنُزٌّ عَزِيزٌ ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبُطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَرْجُلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾.

﴿الإلحاد في آيات الله: الميل بها عن الصواب بأي وجه كان: إما بإنكارها وجحودها وتكذيب من جاء بها، وإما بتحريفها وتصريفها عن معناها الحقيقي وإثبات معانٍ ما أَرَادَهَا اللهُ منها، فتوعد تعالى من ألحد فيها بأنه لا يخفى

وإن ظلمك فاعف عنه، وإن تكلم فيك غائباً أو حاضراً فلا تقابله، بل اعف عنه، وعامله بالقول اللين، وإن هجرك وترك خطابك فطيب له الكلام، وابذل له السلام؛ فإذا قابلت الإساءة بالإحسان؛ حصل فائدة عظيمة. ﴿فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾: أي: كأنه قريب شفيق.

﴿وَمَا يُلْقِهَا﴾: أي: وما يوفق لهذه الخصلة الحميدة ﴿إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا﴾: صبروا نفوسهم على ما تكره، وأجبروها على ما يحبه الله؛ فإن النفوس مجبولة على مقابلة المسيء بإساءته، وعدم العفو عنه؛ فكيف بالإحسان؛ فإذا صبر الإنسان نفسه وامتلأ أمر ربه وعرف جزيل الثواب وعلم أن مقابلته للمسيء بجنس عمله لا يفيد شيئاً ولا يزيد العداوة إلا شدة، وأن إحسانه إليه ليس بواضع قدره، بل من تواضع لله رفعه؛ هان عليه الأمر، وفعل ذلك متلذذاً مستحلياً له. ﴿وَمَا يُلْقِهَا إِلَّا ذُو حِظٍّ عَظِيمٍ﴾: لكونها من خصال خواص الخلق، التي ينال بها العبد الرفعة في الدنيا والآخرة، التي هي من أكبر خصال مكارم الأخلاق.

﴿وَلَمَّا يَزْعُفَنَّ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾: وَمِنْ آيَاتِهِ الَّذِي لَا يَدْعُونَ لَهَا وَلَهُمْ أَعْبَادُهَا وَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ لِمَا شَاءُوا مِنْهُ وَلَا يَخَافُونَ عِزَّهُ. ﴿فَإِنْ أَسْتَكْبَرُوا﴾: فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ يَسْتَحْشِرُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْتَمُونُ ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ﴾: أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ أَهْزَتْ وَرَبَّتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُتَّى الْمَوْتِ إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ.

﴿لما ذكر تعالى ما يقابل به العدو من الإنس، وهو مقابلة إساءته بالإحسان؛ ذكر ما يدفع به العدو الجني، وهو الاستعاذة بالله والاحتماء من شره، فقال: ﴿وَلَمَّا يَزْعُفَنَّ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ﴾: أي: أي وقت من الأوقات أحسست بشيء من نزغات الشيطان؛ أي: من وساوسه وتزيينه للشر وتكسيه عن الخير وإصابة بعض الذنوب وإطاعة له ببعض ما يأمر به، ﴿فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ﴾: أي: اسأله مفتقراً إليه أن يعيدك ويعصمك منه. ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾: فإنه يسمع قولك وتضرعك، ويعلم حالك واضطراك إلى عصمته وحمايته.

﴿ثم ذكر تعالى أن من آياته الدالة على كمال قدرته ونفوذ مشيئته وسعة سلطانه ورحمته بعباده وأنه الله

سورة فصلت

المرسلات والبريات

وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ
 اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُجِي الْمَوْتِ إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ
 قَدِيرٌ ﴿٣٨﴾ إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا أَفَنُ
 يُلْقَى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِي آيَاتِنَا يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ
 إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ
 وَإِنَّهُمْ لَكَاِبَتٌ عَرِيزٌ ﴿٤٠﴾ لَا يَأْتِيهِ الْبُطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ
 خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤١﴾ مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ
 لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَدُوٌّ مَعْفَرٌ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴿٤٢﴾
 وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا عَجَبِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَإِنَّهُ لَمَّا
 عَجَبِيٌّ وَعَرَفِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا
 يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقُرْءَانُهُمْ وَهُمْ عَلَى عَمَىٰ أُولَٰئِكَ
 يَتَذَكَّرُ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴿٤٣﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ
 فَخَلِّفْ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ
 بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ ﴿٤٤﴾ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا
 فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَمٍ لِلْعَمِيدِ ﴿٤٥﴾

٤٨١

ألفاظه ومعانيه، قد تكفل من أنزله بحفظه؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَاطُطُونَ﴾ ﴿٤١﴾ [الحجر: ٩]. ﴿تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ﴾: في خلقه وأمره، يضع كل شيء موضعه وينزلها منازلها ﴿حَمِيدٍ﴾ ﴿٤٣﴾: على ما له من صفات الكمال ونعوت الجلال، وعلى ما له من العدل والإفضال؛ فلهذا كان كتابه مشتقاً على تمام الحكمة وعلى تحصيل المصالح والمنافع ودفع المفاسد والمضار التي يحمد عليها.

﴿مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَدُوٌّ مَعْفَرٌ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ﴾ ﴿٤٢﴾.

﴿٤٢﴾ أي: ﴿مَا يُقَالُ لَكَ﴾: أيها الرسول من الأقوال الصادرة ممن كذبك وعاندك ﴿إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ﴾؛ أي: من جنسها، بل ربما إنهم تكلموا بكلام واحد؛ كتعجب جميع الأمم المكذبة للرسول من دعوتهم إلى الإخلاص لله وعبادته وحده لا شريك له، ورددهم هذا بكل طريق يقدر على، وقولهم: ﴿مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا﴾ [يس: ١٥] ما أنتم إلا بشر مثلاً، واقتراحهم على رسلكم الآيات التي لا يلزمهم الإتيان بها... ونحو ذلك من أقوال أهل التكذيب؛ لما تشابهت قلوبهم في الكفر؛ تشابهت أقوالهم، وصبر الرسل عليهم السلام على أذاهم وتكذيبهم؛ فاصبر كما صبر من قبلك.

ثم دعاهم إلى التوبة والإتيان بأسباب المغفرة، وحذرهم من الاستمرار على الغي، فقال: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَدُوٌّ مَعْفَرٌ﴾؛ أي: عظيمة يمحو بها كل ذنب لمن أقلع وتاب، ﴿وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ﴾ ﴿٤٣﴾: لمن أصر واستكبر.

﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا عَجَبِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَإِنَّهُ لَمَّا عَجَبِيٌّ وَعَرَفِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقُرْءَانُهُمْ وَهُمْ عَلَى عَمَىٰ أُولَٰئِكَ يَتَذَكَّرُ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ ﴿٤٤﴾.

﴿٤٤﴾ يخبر تعالى عن فضله وكرمه؛ حيث أنزل كتابه عربياً على الرسول العربي بلسان قومه ليعين لهم، وهذا مما يوجب لهم زيادة الاعتناء به والتلقي له والتسليم، وأنه لو جعله قرآناً أعجمياً بلغة غير العرب؛ لاعترض المكذبون، وقالوا: ﴿لَوْلَا فُصِّلَتْ

عليه، بل هو مطلع على ظاهره وباطنه، وسيجازهه على الحاديه بما كان يعمل، ولهذا قال: ﴿أَفَنُ يُلْقَى فِي النَّارِ﴾: مثل الملحد بآيات الله ﴿خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِي آيَاتِنَا يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾: من عذاب الله، مستحقاً لتوابعه؟ من المعلوم أن هذا خير.

لما تبين الحق من الباطل والطريق المنجي من عذابه من الطريق المهلك؛ قال: ﴿أَعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ﴾: إن شئتم؛ فاسلكوا طريق الرشد الموصلة إلى رضا ربكم وجنته، وإن شئتم؛ فاسلكوا طريق الغي المسخطة لربكم الموصلة إلى دار الشقاء. ﴿إِنَّهُمْ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ ﴿٤٥﴾: يجازيكم بحسب أحوالكم وأعمالكم؛ كقوله تعالى: ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ﴾ [الكهف: ٢٩].

﴿٤١﴾، ﴿٤٢﴾ ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ﴾؛ أي: يجحدون القرآن الكريم، المذكر للعباد جميع مصالحهم الدينية والدينية والأخروية، المعلي لقدر من اتبعه، ﴿لَمَّا جَاءَهُمْ﴾: نعمة من ربهم على يد أفضل الخلق وأكملهم. والحال: إنه ﴿لَكَاِبَتٌ﴾: جامع لأوصاف الكمال، ﴿عَرِيزٌ﴾ ﴿٤٠﴾؛ أي: منيع من كل من أراده بتحريف أو سوء، ولهذا قال: ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبُطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ﴾؛ أي: لا يقتربه شيطان من شياطين الإنس والجن؛ لا بسرقة ولا بإدخال ما ليس منه به ولا بزيادة ولا نقص؛ فهو محفوظ في تنزيله، محفوظة

﴿وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا﴾: ضرره وعقابه في الدنيا والآخرة، وفي هذا حث على فعل الخير وترك الشر، وانتفاع العاملين بأعمالهم الحسنة، وضررهم بأعمالهم السيئة، وأنه لا تزر وازرة وزر أخرى. ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَمٍ لِلْعَبِيدِ﴾ (٤٦): فيحتمل أحداً فوق سيئاته.

﴿إِلَيْهِ يَرْدُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَمَا تَخْرُجُ مِنْ ثَمَرَاتٍ مِنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا يَعْلَمُهُ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَتَيْنَ شُرَكَاءِي قَالُوا ءَآذَنَّاكَ مَا مِنَّا مِنْ شَيْءٍ﴾ (٤٧) ﴿وَصَلَّى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَدْعُونَ مِنْ قَبْلُ وَظَنُّوا مَا لَهُمْ مِنْ نَجِيصٍ﴾ (٤٨).

﴿٤٧﴾، ﴿٤٨﴾ هذا إخبار عن سعة علمه تعالى واختصاصه بالعلم الذي لا يطلع عليه سواه، فقال: ﴿إِلَيْهِ يَرْدُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾: أي: جميع الخلق يرد علمها إلى الله تعالى، ويقرون بالعجز عنه؛ الرسل والملائكة وغيرهم. ﴿وَمَا تَخْرُجُ مِنْ ثَمَرَاتٍ مِنْ أَكْمَامِهَا﴾: أي: وعائها الذي تخرج منه، وهذا شامل لثمرات جميع الأشجار التي في البلدان والبراري؛ فلا تخرج ثمرة شجرة من الأشجار إلا وهو يعلمها علماً تفصيلاً. ﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى﴾: من بني آدم وغيرهم من أنواع الحيوانات إلا بعلمه، ﴿وَلَا تَضَعُ﴾ أنثى حملها ﴿إِلَّا يَعْلَمُهُ﴾؛ فكيف سوى المشركون به تعالى من لا علم عنده ولا سمع ولا بصر؟ ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ﴾: أي: المشركين به يوم القيامة توبيخاً وإظهاراً لكذبهم، فيقول لهم: ﴿أَتَيْنَ شُرَكَاءِي﴾: الذين زعمتم أنهم شركائي، فعبدتموهم وجادلتم على ذلك وعاديتهم الرسل لأجلهم؟ ﴿قَالُوا﴾: مقررين ببطان الإلهيتهم وشركتهم مع الله: ﴿ءَآذَنَّاكَ مَا مِنَّا مِنْ شَيْءٍ﴾ (٤٧)؛ أي: أعلمناك ياربنا واشهد علينا أنه ما منا أحد يشهد بصحة إلهيتهم وشركتهم؛ فكلنا الآن قد رجعنا إلى بطلان عبادتها وتبرأنا منها، ولهذا قال: ﴿وَصَلَّى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَدْعُونَ﴾: من دون الله؛ أي: ذهب عقائدهم وأعمالهم التي أفنوا فيها أعمارهم على عبادة غير الله، وظنوا أنها تفيدهم، وتدفع عنهم العذاب، وتشفع لهم عند الله، فخاب سعيهم، وانتقض ظنهم، ولم تغن عنهم شركاؤهم شيئاً. ﴿وَضَلُّوا﴾؛ أي: أيقنوا في تلك الحال ﴿مَا لَهُمْ مِنْ نَجِيصٍ﴾ (٤٨)؛ أي: منقذ ينقذهم ولا مغيث ولا ملجأ. فهذه عاقبة من أشرك بالله غيره، يبينها الله لعباده، ليحذروا الشرك به.

﴿إِنَّمَا﴾: أي: هلا بينت آياته ووضحت وفسرت، ﴿ءَآخِزِي وَعَرِّفِي﴾؛ أي: كيف يكون محمد عربياً والكتاب أعجمياً؟! هذا لا يكون. فنفي الله تعالى كل أمر يكون فيه شبهة لأهل الباطل عن كتابه، ووصفه بكل وصف يوجب لهم الانقياد، ولكن المؤمنون الموفقون انتفعوا به، وارتفعوا، وغيرهم بالعكس من أحوالهم، ولهذا قال: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا هُدًى وَشِفَاءً﴾؛ أي: يهديهم لطريق الرشd والصراط المستقيم، ويعلمهم من العلوم النافعة ما به تحصل الهداية التامة، وشفاء لهم من الأسقام البدنية والأسقام القلبية؛ لأنه يزرع عن مساوئ الأخلاق وأقبح الأعمال، ويحث على التوبة النصوح التي تغسل الذنوب وتشفى القلب. ﴿وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾: بالقرآن ﴿فِي ءَآذَانِهِمْ وَقُرْ﴾؛ أي: صمم عن استماعه وإعراض، ﴿وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾؛ أي: لا يبصرون به رشدًا، ولا يهتدون به، ولا يزيدهم إلا ضلالًا؛ فإنهم إذا ردوا الحق؛ ازدادوا عمى إلى عماهم وغياً إلى غيهم. ﴿أُولَئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ (٤٩)؛ أي: ينادون إلى الإيمان ويدعون إليه فلا يستجيبون؛ بمنزلة الذي ينادى وهو في مكان بعيد، لا يسمع داعياً ولا يجيب منادياً. والمقصود أن الذين لا يؤمنون بالقرآن لا يتفكرون بهداه ولا يبصرون بنوره ولا يستفيدون منه خيراً؛ لأنهم سدوا على أنفسهم أبواب الهدى بإعراضهم وكفرهم.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاتَّخِذْ فِيهِ وَلَوْ لَا كَلِمَةً سَاقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَفُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ﴾ (٥٠) ﴿مَنْ عَمِلْ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَمٍ لِلْعَبِيدِ﴾ (٥١).

﴿٥٠﴾ يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾: كما آتيناك الكتاب، فصنع به الناس ما صنعوا معك؛ اختلفوا فيه: فمنهم من آمن به واهتدى وانتفع، ومنهم من كذبه ولم يتففع به، وإن الله تعالى لولا حلمه وكلمته السابقة بتأخير العذاب إلى أجل مسمى لا يتقدم عليه ولا يتأخر؛ ﴿لَفُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾: بمجرد ما يميز المؤمنون من الكافرين؛ بإهلاك الكافرين بالحال؛ لأن سبب الهلاك قد وجب وحق. ﴿وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ﴾ (٥٠)؛ أي: قد بلغ بهم إلى الريب الذي يقلقهم؛ فلذلك كذبوه وجحدوه.

﴿٥١﴾ ﴿مَنْ عَمِلْ صَالِحًا﴾: وهو العمل الذي أمر الله به ورسوله ﴿فَلِنَفْسِهِ﴾: نفعه وثوابه في الدنيا والآخرة.

سورة فصلت

الأنعام

﴿إِلَيْهِ يَرْجِعُ السَّاعَةَ وَمَا تَخْرُجُ مِنْ دَرَجَتٍ مِنْ أَكْمَالِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ إِنْ شُرَكَاءُى قَالُوا أَدْنَاكَ مَا مَتَّامِنْ شَهِيدٍ ﴿٤٩﴾ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَدْعُونَ مِنْ قَبْلُ وَظَنَّوْا مَا لَمْ يَنْجِصِ ﴿٥٠﴾ لَا يَسْتَمِعُ الْإِنْسَانُ مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ وَإِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ فَيَنْوَسْ قَنُوطٌ ﴿٥١﴾ وَلَكِنْ أَدْقَنَتْهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَاءَ مَسَّتْهُ لِيَقُولَنَّ هَذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلَى رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لِلْحُسْنَى فَلَنُنَبِّتَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٢﴾ وَإِذَا أُنْعِمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَسَا بِنِعْمَتِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ ﴿٥٣﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴿٥٤﴾ سَرَّيْهِمْ ءَايَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٥﴾ أَلَا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَاءِ رَبِّهِمْ ءَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطٌ ﴿٥٦﴾﴾

٤٨٢

﴿لَا يَسْتَمِعُ الْإِنْسَانُ مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ وَإِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ فَيَنْوَسْ قَنُوطٌ ﴿٤٩﴾ وَلَكِنْ أَدْقَنَتْهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَاءَ مَسَّتْهُ لِيَقُولَنَّ هَذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلَى رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لِلْحُسْنَى فَلَنُنَبِّتَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٠﴾ وَإِذَا أُنْعِمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَسَا بِنِعْمَتِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ ﴿٥١﴾﴾.

﴿٤٩﴾ هذا إخبار عن طبيعة الإنسان من حيث هو، وعدم صبره وجلده، لا على الخير ولا على الشر، إلا من نقله الله من هذه الحال إلى حال الكمال، فقال: ﴿لَا يَسْتَمِعُ الْإِنْسَانُ مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ﴾؛ أي: لا يمل دائماً من دعاء الله في الغنى والمال والولد وغير ذلك من مطالب الدنيا، ولا يزال يعمل على ذلك، ولا يقتنع بقليل ولا بكثير منها؛ فلو حصل له من الدنيا ما حصل؛ لم يزل طالباً للزيادة. ﴿وَإِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ﴾؛ أي: المكروه كالمرض والفقر وأنواع البلاء، ﴿فَيَنْوَسْ قَنُوطٌ﴾؛ أي: ييأس من رحمة الله تعالى، ويظن أن هذا البلاء هو القاضي عليه بالهلاك، ويتشوش من إتيان الأسباب على غير ما يجب ويطلب؛ إلا الذين صبروا وعملوا الصالحات؛ فإنهم إذا أصابهم الخير والنعمة والمحاب؛ شكروا الله تعالى، وخافوا أن تكون نعم الله عليهم استدراجاً وإمهالاً، وإن أصابهم مصيبة في أنفسهم وأموالهم وأولادهم؛ صبروا ورجوا فضل ربهم فلم يياسوا.

﴿٥٠﴾ ثم قال تعالى: ﴿لَكِنْ أَدْقَنَتْهُ﴾؛ أي: الإنسان الذي لا يسأم من دعاء الخير وإن مسه الشر فينوس قنوط ﴿رَحْمَةً مِنَّا﴾؛ أي: بعد ذلك الشر الذي أصابه؛ بأن عافاه الله من مرضه أو أغناه من فقره؛ فإنه لا يشكر الله تعالى؛ بل يبغى ويطنى ويقول: ﴿هَذَا لِي﴾؛ أي: أثنائي لأنني له أهل وأنا مستحق له، ﴿وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً﴾، وهذا إنكار منه للبعث، وكفر للنعمة والرحمة التي أذاقها الله له، ﴿وَلَكِنْ رُجِعْتُ إِلَى رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لِلْحُسْنَى﴾؛ أي: على تقدير إتيان الساعة، وأني سأرجع إلى ربي؛ إن لي عنده للحسنى؛ فكما حصلت لي النعمة في الدنيا؛ فإنها ستحصل لي في الآخرة؛ وهذا من أعظم الجراءة والقول على الله بلا علم؛ فلهذا توعد الله بقوله: ﴿فَلَنُنَبِّتَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥١﴾﴾؛ أي: شديد جداً.

﴿٥٢﴾ ﴿وَإِذَا أُنْعِمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ﴾؛ بصحة أو رزق أو غيرهما ﴿أَعْرَضَ﴾؛ عن ربه وعن شكره، ﴿وَنَسَا﴾؛ أي: ترفع ﴿بِنِعْمَتِهِ﴾؛ عجباً وتكبيراً، ﴿وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ﴾؛ أي: المرض أو الفقر أو غيرهما ﴿ذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ ﴿٥٣﴾﴾؛ أي: كثير جداً؛ لعدم صبره؛ فلا صبر في الضراء ولا شكر في الرخاء؛ إلا من هداه الله ومنَّ عليه.

﴿٥٤﴾ ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴿٥٤﴾﴾ سَرَّيْهِمْ ءَايَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٥﴾﴾ أَلَا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَاءِ رَبِّهِمْ ءَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطٌ ﴿٥٦﴾﴾.

﴿٥٦﴾ ﴿قُلْ﴾؛ لهؤلاء المكذبين بالقرآن المسارعين إلى الكفران: ﴿أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ﴾؛ هذا القرآن ﴿مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾؛ من غير شك ولا ارتياب، ﴿ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴿٥٦﴾﴾؛ أي: معاندة لله ولرسوله؛ لأنه

تبين لكم الحق والصواب، ثم عدلتم عنه لا إلى حق، بل إلى باطل وجهل؛ فإذا تكونون أضل الناس وأظلمهم.

﴿٥٢﴾ فَإِنْ قُلْتُمْ أَوْ شَكَّكُمْ بِصِحَّتِهِ وَحَقَّقْتَهُ؛ فسيقم الله لكم، ويرىكم من آياته في الآفاق؛ كآيات التي في السماء وفي الأرض وما يحدثه الله تعالى من الحوادث العظيمة الدالة للمستبصر على الحق. ﴿وَفِي أَنْفُسِهِمْ﴾: مما اشتملت عليه أبدانهم من بديع آيات الله وعجائب صنعته وباهر قدرته، وفي حلول العقوبات والمثلثات في المكذبين ونصر المؤمنين، ﴿حَتَّىٰ يَبَيِّنَ لَهُمْ﴾: من تلك الآيات بيانا لا يقبل الشك، ﴿أَنَّهُ الْحَقُّ﴾: وما اشتمل عليه حق، وقد فعل تعالى؛ فإنه أرى عباده من الآيات ما به تبين لهم أنه الحق، ولكن الله هو الموفق للإيمان من شاء، والخاذل لمن يشاء. ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ ﴿٥٣﴾؛ أي: أولم يكفهم - على أن القرآن حق، ومن جاء به صادق - شهادة الله تعالى؛ فإنه قد شهد له بالصدق، وهو أصدق الشاهدين، وأيده ونصره نصرًا متضمنًا لشهادته القولية عند من شك فيها.

﴿٥٤﴾ أَلَا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَاءِ رَبِّهِمْ؟ أي: في شك من البعث والقيامة، وليس عندهم دار سوى الدار الدنيا؛ فلذلك لم يعملوا للآخرة، ولم يلتفتوا لها. ﴿أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ﴾ ﴿٥٥﴾: علمًا وقدرة وعزة.

سُورَةُ الشُّورَى

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

حَمْدٌ ۝ عَسَىٰ ۝ كَذَٰلِكَ يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ ۝
 اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝ لَهُ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ
 الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ۝ تَكَادُ السَّمٰوٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ
 وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِي
 الْأَرْضِ ۚ أَلَا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ۝ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا
 مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ ۚ اللَّهُ حَفِيفٌ عَلَيْهِمْ وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ
 ۝ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَن
 حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لَا رَبَّ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي
 السَّعِيرِ ۝ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِن يَدْخُلْ
 مِّنْ يَّشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ۝
 أَمْ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ ۚ فَإِنَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ وَهُوَ يُحْيِي الْمَوْتِ
 وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝ وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُ
 إِلَى اللَّهِ ۚ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ۝

٤٨٣

تم تفسير سورة السجدة بمنه تعالى.



تفسير سورة الشورى

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿١﴾ حَمْدٌ ۝ عَسَىٰ ۝ كَذَٰلِكَ يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ ۝
 اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝ لَهُ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ
 الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ۝ تَكَادُ السَّمٰوٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ
 وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِي الْأَرْضِ ۚ
 أَلَا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ۝ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ
 أَوْلِيَاءَ ۚ اللَّهُ حَفِيفٌ عَلَيْهِمْ وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ۝ وَكَذَٰلِكَ
 أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَن حَوْلَهَا
 وَتُنذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لَا رَبَّ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي
 السَّعِيرِ ۝ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِن يَدْخُلْ
 مِّنْ يَّشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ۝
 أَمْ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ ۚ فَإِنَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ وَهُوَ يُحْيِي
 الْمَوْتِ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝

﴿٢﴾ - يخبر تعالى أنه أوحى هذا القرآن العظيم على النبي الكريم كما أوحى إلى من قبله من الأنبياء والمرسلين؛ ففيه بيان فضله بإنزال الكتب وإرسال الرسل سابقاً ولاحقاً، وأن محمداً ﷺ ليس ببدع من الرسل، وأن طريقته طريقة من قبله، وأحواله

﴿٨﴾ ﴿وَعَلَىٰ هَذَا فَلو شاء الله لجعل الناس أُمَّةً وَاحِدَةً﴾: على الهدى؛ لأنه القادر الذي لا يمتنع عليه شيء، ولكنه أراد أن يدخل في رحمته من شاء من خواص خلقه، وأما الظالمون الذين لا يصلحون لصالح؛ فإنهم محرومون من الرحمة؛ فما لهم من دون الله من ولي يتولاهم فيحصل لهم المحبوب، ولا نصير يدفع عنهم المكروه.

﴿٩﴾ ﴿وَالَّذِينَ اخْتَدَوْا مِن دُونِهِ أُولَٰئِكَ يَتُولَاهُمْ عِبَادَتُهُمْ إِنِّي أَهَمُّ؛ فَقَدْ غَلَطُوا أَقْبَحَ غَلْطٍ؛ ﴿فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ﴾ الذي يتولاه عبده عبادته وطاعته والتقرب إليه بما أمكن من أنواع التقربات، ويتولى عباده المؤمنين خصوصاً بإخراجهم من الظلمات إلى النور، وتربيتهم بلطفه، وإعانتهم في جميع أمورهم. ﴿وَهُوَ يُحْيِي الْمَوْتِ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾؛ أي: هو المتصرف بالإحياء والإماتة ونفوذ المشيئة والقدرة؛ فهو الذي يستحق أن يعبد وحده لا شريك له.

﴿وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ ﴿١٠﴾ ﴿فَاطِرُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذُرْكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ ﴿١١﴾ ﴿لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ ﴿١٢﴾.

﴿١٣﴾ يقول تعالى: ﴿وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ﴾: من أصول دينكم وفروعه مما لم تتفقوا عليه ﴿فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ﴾: يُرَدُّ إلى كتابه وإلى سنة رسوله؛ فما حكما به؛ فهو الحق، وما خالف ذلك؛ فباطل. ﴿ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي﴾؛ أي: فكما أنه تعالى الرب الخالق الرازق المدبر؛ فهو تعالى الحاكم بين عباده بشره في جميع أمورهم. ومفهوم الآية الكريمة أن اتفاق الأمة حجة قاطعة؛ لأن الله تعالى لم يأمرنا أن نرد إليه إلا ما اختلفنا فيه؛ فما اتفقنا عليه يكفي اتفاق الأمة عليه؛ لأنها معصومة عن الخطأ، ولا بد أن يكون اتفاقها موافقاً لما في كتاب الله وسنة رسوله. وقوله: ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾؛ أي: اعتمدت بقلبي عليه في جلب المنافع ودفع المضار، واتقأ به تعالى في الإسعاف بذلك، ﴿وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ ﴿١٤﴾؛ أي: أتوجه بقلبي وبدني إليه وإلى طاعته وعبادته، وهذان الأصلان كثيراً ما يذكرهما الله في كتابه؛ لأنهما يحصل بمجموعهما كمال

تناسب أحوال مَنْ قبله من المرسلين، وما جاء به يشابه ما جاءوا به؛ لأن الجميع حق وصدق، وهو تنزيل من اتصف بالالوهية والعزة العظيمة والحكمة البالغة، وأن جميع العالم العلوي والسفلي ملكه وتحت تديره القدري والشرعي، وأنه ﴿الْعَلِيُّ﴾ بذاته وقدره وقهره. ﴿الْعَظِيمُ﴾ ﴿١٥﴾ الذي من عظمته ﴿تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْ فَوْقِهِنَّ﴾: على عظمها وكونها جماداً، ﴿وَالْمَلَائِكَةُ﴾: الكرام المقربون خاضعون لعظمته مستكينون لعزته مذعنون ببروبيته، ﴿يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾: ويعظمونه عن كل نقص، ويصفونه بكل كمال، ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِي الْأَرْضِ﴾: عما يصدر منهم مما لا يليق بعظمة ربهم وكبريائه، مع أنه تعالى ﴿الْفَقِيرُ الرَّحِيمُ﴾ ﴿١٦﴾ الذي لولا مغفرته ورحمته؛ لعاجل الخلق بالعقوبة المستأصلة.

وفي وصفه تعالى بهذه الأوصاف بعد أن ذكر أنه أوحى إلى الرسل كلهم عموماً وإلى محمد - صلى الله عليه وسلم - خصوصاً، إشارة إلى أن هذا القرآن الكريم فيه من الأدلة والبراهين والآيات الدالة على كمال الباري تعالى ووصفه بهذه الأسماء العظيمة الموجبة لامتلاء القلوب من معرفته ومحبه وتعظيمه وإجلاله وإكرامه وصرف جميع أنواع العبودية الظاهرة والباطنة له تعالى، وأن من أكبر الظلم وأفحش القول اتخاذ أنداد من دونه، ليس يبداهم نفع ولا ضرر، بل هم مخلوقون مفتقرون إلى الله في جميع أحوالهم.

﴿١٧﴾ ولهذا عقبه بقوله: ﴿وَالَّذِينَ اخْتَدَوْا مِن دُونِهِ أُولَٰئِكَ﴾: يتولونهم بالعبادة والطاعة؛ كما يعبدون الله ويطيعونه؛ فإنما اتخذوا الباطل، وليسوا بأولياء على الحقيقة. ﴿اللَّهُ حَفِيفٌ عَلَيْهِمْ﴾: يحفظ عليهم أعمالهم فيجازيهم بخيرها وشرها، ﴿وَمَا أَنتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ﴾ ﴿١٨﴾: فتسأل عن أعمالهم، وإنما أنت مبلغ أدبت وظيفتك.

﴿١٩﴾ ثم ذكر مته على رسوله وعلى الناس حيث أنزل الله ﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾: بَيْنَ الْأَلْفَاظِ وَالْمَعَانِي، ﴿لِنُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى﴾: وهي مكة المكرمة، ﴿وَمَنْ حَوْلَهَا﴾: من قرى العرب، ثم يسري هذا الإنذار إلى سائر الخلق، ﴿وَنُنذِرَ﴾: الناس ﴿بِیَوْمٍ الْجَمْعِ﴾: الذي يجمع الله به الأولين والآخرين، وتخبرهم أنه ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾، وأن الخلق ينقسمون فيه فريقين: ﴿فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ﴾: وهم الذين آمنوا بالله وصدقوا المرسلين، ﴿وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾ ﴿٢٠﴾: وهم أصناف الكفرة المكذبين.

العبد، ويقوته الكمال بفوتهما أو فوت أحدهما؛ كقوله تعالى:
﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِثُ﴾ [الفاتحة: ٥]، وقوله:
﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود: ١٢٣].

﴿فَاطِرُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾؛ أي: خالقهما بقدرته
ومشيئته وحكمته. ﴿جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا﴾: لتسكنوا
إليها وتنتشر منكم الذرية ويحصل لكم من النفع ما يحصل،
﴿وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا﴾؛ أي: ومن جميع أصنافها نوعين ذكرًا
وأنثى؛ لتبقى وتنمو لمنافعكم الكثيرة، ولهذا عداها باللام
الدالة على التعليل؛ أي: جعل ذلك لأجلكم ولأجل النعمة
عليكم، ولهذا قال: ﴿يَذَرُوكُمْ فِيهِ﴾؛ أي: يشكم ويترككم
ويكثر مواشيكم بسبب أن جعل لكم من أنفسكم، وجعل لكم
من الأنعام أزواجًا. ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾؛ أي: ليس يشبهه
تعالى ولا يماثله شيء من مخلوقاته لا في ذاته ولا في أسمائه
ولا في صفاته ولا في أفعاله؛ لأن أسماء كلها حسنى، وصفاته
صفات كمال وعظمة، وأفعاله تعالى أوجد بها المخلوقات
العظيمة من غير مشارك؛ فليس كمثلته شيء؛ لا انفراده وتوحده
بالكمال من كل وجه. ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ﴾: لجميع الأصوات،
باختلاف اللغات، على تفنن الحاجات. ﴿الْبَصِيرُ﴾: يرى
يرى ديبب النملة السوداء، في الليلة الظلماء، على الصخرة
الصماء، ويرى سريان القوت في أعضاء الحيوانات الصغيرة
جداً، وسريان الماء في الأغصان الدقيقة.

وهذه الآية ونحوها دليل لمذهب أهل السنة والجماعة من إثبات الصفات ونفي مماثلة المخلوقات، وفيها رد على المشبهة
في قوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾، وعلى المعطلة في قوله: ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾.

﴿قَوْلُهُ: ﴿لَهُ، مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾؛ أي: له ملك السماوات والأرض، وبه مفاتيح الرحمة والأرزاق والنعم
الظاهرة والباطنة؛ فكل الخلق مفتقرون إلى الله في جلب مصالحهم ودفع المضار عنهم في كل الأحوال، ليس بيد أحد
من الأمور شيء، والله تعالى هو المعطي المانع الضار النافع، الذي ما بالعباد من نعمة إلا منه، ولا يدفع الشر إلا هو، ﴿وَمَا
يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا﴾ وَمَا يُمِيتُكَ فَلَا مُمْسِكٌ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ﴾ [فاطر: ٢]، ولهذا قال هنا: ﴿يَسْطُرُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾؛ أي:
يوسعه ويعطيه من أصناف الرزق ما شاء، ﴿وَيَقْدِرُ﴾؛ أي: يضيق على من يشاء حتى يكون بقدر حاجته، لا يزيد عنها، وكل
هذا تابع لعلمه وحكمته؛ فلهذا قال: ﴿إِنَّهُ يَكُنِّي شَيْءٌ عَلِيمٌ﴾ [٢١]؛ فيعلم أحوال عباده، فيعطي كل ما يليق بحكمته، وتقتضيه
مشيئته.

﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا
تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ﴾ [١٣].

﴿١٣﴾ هذه أكبر منة أنعم الله بها على عباده أن شرع لهم من الدين خير الأديان وأفضلها وأزكاها وأطهرها، دين الإسلام،
الذي شرعه الله للمصطفين المختارين من عباده، بل شرعه الله لخيار الخيار وصفوة الصفوة، وهم أولو العزم من المرسلين،
المذكورون في هذه الآية، أعلى الخلق درجة وأكملهم من كل وجه؛ فالدين الذي شرعه الله لهم لا بد أن يكون مناسباً لأحوالهم
موافقاً لكمالهم، بل إنما كملهم الله، واصطفاهم بسبب قيامهم به؛ فلولاً الدين الإسلامي؛ ما ارتفع أحد من الخلق؛ فهو روح

سورة الشورى
﴿فَاطِرُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا
وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذَرُوكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ
وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ١١ لَهُ، مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ
يَسْطُرُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ يَكُنِّي شَيْءٌ عَلِيمٌ ١٢
شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا
إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ
وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ
يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ ١٣ وَمَا
تَفَرَّقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَعِيًا بَيْنَهُمْ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ
سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى لَفُضِّ بَيْنَهُمْ وَلَكِنَّ الدِّينَ
أُورِثُوا الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَقِيَ شَكَّ مِنْهُ مُرِيبٌ ١٤
فَلِذَلِكَ فَادَّعَ وَأَسْتَقِيمَ كَمَا أَمَرْتُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ
وَقُلْ مَا مَنَنْتُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيَّ مِنْ كِتَابٍ وَأَمَرْتُ لِأَعْدِلَ
بَيْنَكُمْ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَأَعْمَلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ
لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ١٥﴾

السعادة وقطب رضى الكمال، وهو ما تضمنه هذا الكتاب الكريم ودعا إليه من التوحيد والأعمال والأخلاق والآداب. ولهذا قال: ﴿أَنْ أَتَقُومُوا لِلدِّينِ﴾؛ أي: أكرم أن تقيموا جميع شرائع الدين أصوله وفروعه؛ تقيمونه بأنفسكم، وتجتهدون في إقامته على غيركم، وتعاونون على البر والتقوى، ولا تعاونون على الإثم والعدوان، ﴿وَلَا تَنفَرُوا فِيهِ﴾؛ أي: ليحصل منكم الاتفاق على أصول الدين وفروعه، واحرصوا على ألا تفرقكم المسائل وتحزبكم أحزاباً، فتكونوا شيعاً يعادي بعضكم بعضاً مع اتفاقكم على أصل دينكم.

ومن أنواع الاجتماع على الدين وعدم التفرق فيه ما أمر به الشارع من الاجتماعات العامة؛ كاجتماع الحج والأعياد والجمع والصلوات الخمس والجهاد وغير ذلك من العبادات التي لا تتم ولا تكمل إلا بالاجتماع لها وعدم التفرق. ﴿كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا نَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ﴾؛ أي: شق عليهم غاية المشقة؛ حيث دعوتهم إلى الإخلاص لله وحده؛ كما قال عنهم: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [الزمر: ٢٥]، وقولهم: ﴿أَجْعَلِ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾ [ص: ٥٠]. ﴿اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ﴾؛ أي: يختار من خلقه من يعلم أنه يصلح للاجتماع لرسالته وولايته، ومنه أن اجتبي هذه الأمة وفضلها على سائر الأمم واختار لها أفضل الأديان وخيرها. ﴿وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ﴾ [١٣]: هذا السبب الذي من العبد يتوصل به إلى هداية الله تعالى، وهو إنايته لربه، وانجذاب دواعي قلبه إليه، وكونه قاصداً وجهه؛ فحسن مقصد العبد مع اجتهاده في طلب الهداية من أسباب التيسير لها؛ كما قال تعالى: ﴿يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ﴾ [المائدة: ١٦].

وفي هذه الآية أن الله يهدي إليه من ينيب، مع قوله: ﴿وَاتَّبَعَ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ﴾ [لقمان: ١٥]، مع العلم بأحوال الصحابة رضي الله عنهم وشدة إنابتهم، دليل على أن قولهم حجة، خصوصاً الخلفاء الراشدين رضي الله عنهم أجمعين.

﴿وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَعِيًّا بَيْنَهُمْ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى لَفُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوْرُوا إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِي سَكِّ مِنْهُ مُرِيبٌ﴾ [١٤] فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ

وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ ءَامَنْتُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيَّ مِنْ كِتَابِ رَبِّي وَلَأَعِدُّ لَكُمْ اللَّهُ رَبَّنَا وَرَبَّكُمْ لَنَا أَعْمَلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ [١٥].

﴿١٤﴾ لما أمر تعالى باجتماع المسلمين على دينهم، ونهاهم عن التفرق؛ أخبرهم أنهم لا يغتروا بما أنزل الله عليهم من الكتاب؛ فإن أهل الكتاب لم ينفروا حتى أنزل الله عليهم الكتاب الموجب للاجتماع، ففعلوا ضد ما يأمر به كتابهم، وذلك كله بغياً وعدواناً منهم؛ فإنهم تباعدوا، وتحاسدوا، وحصلت بينهم المشاحنة والعداوة، فوقع الاختلاف؛ فاحذروا أيها المسلمون أن تكونوا مثلهم. ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ﴾؛ أي: بتأخير العذاب القاضى إلى أجل مسمى، ﴿لَفُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾: ولكن حكمته وحلمه اقتضى تأخير ذلك عنهم. ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ أُوْرُوا إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ﴾؛ أي: الذين ورثوهم، وصاروا خلفاً لهم ممن يتسبب إلى العلم منهم، ﴿لَفِي سَكِّ مِنْهُ مُرِيبٌ﴾ [١٤]؛ أي: لفي اشتباه كثير يقع في الاختلاف؛ حيث اختلف سلفهم بغياً وعدواناً؛ فإن خلفهم اختلفوا شكاً وارتياباً، والجميع مشتركون في الاختلاف المذموم.

﴿١٥﴾ فَلِذَلِكَ فَادْعُ؛ أي: فللذين القويم والصراط المستقيم، الذي أنزل الله به كتبه وأرسل رسله؛ فادع إليه أمتك، وحضهم عليه، وجاهد عليه من لم يقبله. ﴿وَاسْتَقِمْ﴾: بنفسك ﴿كَمَا أُمِرْتَ﴾؛ أي: استقامة موافقة لأمر الله؛ لا تفريط ولا إفراط، بل امتثالاً لأوامر الله، واجتناباً لنواهيه، على وجه الاستمرار على ذلك؛ فأمره بتكميل نفسه بلزوم الاستقامة، وتكميل غيره بالدعوة إلى ذلك. ومن المعلوم أن أمر الرسول ﷺ أمر لأمة إذا لم يرد تخصيص له. ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ﴾؛ أي: أهواء المنحرفين عن الدين من الكفرة والمنافقين، إما باتباعهم على بعض دينهم، أو بترك الدعوة إلى الله، أو بترك الاستقامة؛ فإنك إن اتبعت أهواءهم من بعد ما جاءك من العلم إنك إذا لمن الظالمين، ولم يقل: ولا تتبع دينهم؛ لأن حقيقة دينهم الذي شرعه الله لهم هو دين الرسل كلهم، ولكنهم لم يتبعوه، بل اتبعوا أهواءهم واتخذوا دينهم لهواً ولعباً، ﴿وَقُلْ﴾: لهم عند جدالهم ومناظرتهم: ﴿ءَامَنْتُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيَّ مِنْ كِتَابِ﴾؛ أي: لتكن مناظرتك لهم مبنية على هذا

الأصل العظيم، الدال على شرف الإسلام وجلالته وهيمته على سائر الأديان، وأن الدين الذي يزعم أهل الكتاب أنهم عليه جزء من الإسلام، وفي هذا إرشاد إلى أن أهل الكتاب إن ناظروا مناظرة مبنية على الإيمان ببعض الكتب أو ببعض الرسل دون غيره؛ فلا يسلم لهم ذلك؛ لأن الكتاب الذي يدعون إليه والرسول الذي ينتسبون إليه من شرطه أن يكون مصدقاً بهذا القرآن وبمن جاء به؛ فكتابتنا ورسولنا لم يأمرنا إلا بالإيمان بموسى وعيسى والتوراة والإنجيل التي أخبر بها وصدق بها وأخبر أنها مصدقة له ومقرة بصحته، وأما مجرد التوراة والإنجيل وموسى وعيسى الذين لم يوصفوا لنا ولم يوافقوا لكتابتنا؛ فلم يأمرنا بالإيمان بهم.

وقوله: ﴿وَأَمَرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمْ﴾؛ أي: في الحكم فيما اختلفتم فيه؛ فلا تمنعني عداوتكم وبغضكم يا أهل الكتاب من العدل بينكم، ومن العدل في الحكم بين أهل الأقوال المختلفة من أهل الكتاب وغيرهم أن يُقْبَلَ ما معهم من الحق ويرد ما معهم من الباطل. ﴿اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ﴾؛ أي: هو رب الجميع، لستم بأحق به منا، ﴿لَنَا أَعْنَانُ وَلَكُمْ أَعْنَانُ﴾؛ من خير وشر، ﴿لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾؛ أي: بعدما تبينت الحقائق واتضح الحق من الباطل والهدى من الضلال؛ لم يبق للجدال والمنازعة محل؛ لأن المقصود من الجدل إنما هو بيان الحق من الباطل؛ ليهتدي الراشد، ولتقوم الحجة على الغاوي. وليس المراد بهذا أن أهل الكتاب لا يجادلون، كيف والله يقول: ﴿وَلَا تُعْجِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النكبت: ٤٦]؛ وإنما المراد ما ذكرنا. ﴿اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ (١٥)؛ يوم القيامة، فيجزي كل بعمله، وتبين حيثن الصادق من الكاذب.

﴿وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ، مَجْهُومٌ دَاحِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ (١٦).

(١٦) وهذا تقرير لقوله: ﴿لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾؛ فأخبر هنا أن الذين ﴿يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ﴾: بالحجج الباطلة والشبه المتناقضة ﴿مِنْ بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ﴾؛ أي: من بعد ما استجاب لله أولو الألباب والعقول لما بين لهم من الآيات القاطعة والبراهين الساطعة؛ فهؤلاء المجادلون للحق من بعد ما تبين ﴿مَجْهُومٌ دَاحِضَةٌ﴾؛ أي: باطلة مدفوعة ﴿عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾؛ لأنها مشتملة على رد الحق، وكل ما خالف الحق؛ فهو باطل، ﴿وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ﴾: بعصيانهم وإعراضهم عن حجج الله وبيناته وتكذيبها، ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ (١٦)؛ هو أثر غضب الله عليهم؛ فهذه عقوبة كل مجادل للحق بالباطل.

﴿اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾ (١٧) ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ﴾ (١٨) ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُعَارِضُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾ (١٩).

(١٧) لما ذكر تعالى أن حججه واضحة بينة بحيث استجاب لها كل من فيه خير؛ ذكر أصلها وقاعدتها، بل جميع الحجج التي أوصلها إلى العباد ترجع إليه، فقال: ﴿اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ﴾؛ فالكتاب هو هذا القرآن العظيم الذي نزل بالحق، واشتمل على الحق والصدق واليقين، وكله آيات بينات وأدلة واضحات على جميع المطالب الإلهية والعقائد الدينية، فجاء بأحسن المسائل وأوضح الدلائل.

سورة الشورى
وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ، مَجْهُومٌ دَاحِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿١٦﴾
اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴿١٧﴾ يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ ﴿١٨﴾
إِنَّ الَّذِينَ يُعَارِضُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ ﴿١٩﴾
اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ ﴿٢٠﴾
مَنْ كَانَ يُرِيدْ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدْ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ ﴿٢١﴾
أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَفُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٢﴾ تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا وَهُمْ وَقِعُوا بِهَيْمٍ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ﴿٢٣﴾

﴿اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ﴾ (١٩) ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ﴾ (٢٠).

(١٩) يخبر تعالى بلطفه بعباده؛ ليعرفوه ويحبوه ويتعرضوا للطفه وكرمه، واللطف من أوصافه تعالى معناه: الذي يدرك الضمائر والسرائر، الذي يوصل عباده - وخصوصاً المؤمنين - إلى ما فيه الخير لهم من حيث لا يعلمون ولا يحسبون. فمن لطفه بعبده المؤمن أن هداه إلى الخير هداية لا تخطر بباله بما يسر له من الأسباب الداعية له إلى ذلك من فطرته على محبة الحق والانقياد له وإيزاعه تعالى لملائكته الكرام أن يثبتوا عباده المؤمنين ويحثوهم على الخير ويلقوا في قلوبهم من تزيين الحق ما يكون داعياً لاتباعه. ومن لطفه أن أمر المؤمنين بالعبادات الاجتماعية التي بها تقوى عزائمهم وتنبعث همهم ويحصل منهم التنافس على الخير والرغبة فيه واقتداء بعضهم ببعض. ومن لطفه أن قيض كل سبب يعوقه ويحول بينه وبين المعاصي، حتى إنه تعالى إذا علم أن الدنيا والمال والرياسة ونحوها مما يتنافس فيه أهل الدنيا تقطع عبده عن طاعته أو تحمله على الغفلة عنه أو على معصيته؛ صرفها عنه، وقدر عليه رزقه، ولهذا قال هنا: ﴿يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ﴾: بحسب اقتضاء حكمته ولطفه، ﴿وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ﴾ (١٩) ﴿الذي له القوة كلها؛ فلا حول ولا قوة لأحد من المخلوقين إلا به، الذي دانت له جميع الأشياء.

(٢٠) ثم قال تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ﴾؛ أي: أجرها وثوابها، فآمن بها وصدق وسعى لها سعيها، ﴿نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ﴾: بأن نضاعف عمله وجزاءه أضعافاً كثيرة؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا﴾ (١٩) [الإسراء: ١٩]، ومع ذلك؛ فنصبيه من الدنيا لا بد أن يأتيه، ﴿وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا﴾: بأن كانت الدنيا هي مقصوده وغاية مطلوبه، فلم يقدم لآخرته، ولا رجا ثوابها، ولم يخش عقابها، ﴿نُؤْتِهِ مِنْهَا﴾: نصيبه الذي قسم له، ﴿وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ﴾ (٢٠) ﴿قد حرم الجنة ونعيمها، واستحق النار وجحيمها. وهذه الآية شبيهة بقوله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزَيَّنَّا لَهَا فِي الْآخِرَةِ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهِيَ فِيهَا لَا يَخْسُونَ﴾ (١٥) [هود: ١٥] إلى آخر الآيات.

وأما الميزان؛ فهو العدل والاعتبار بالقياس الصحيح والعقل الرجيع؛ فكل الدلائل العقلية من الآيات الآفاقية، والنفسية، والاعتبارات الشرعية، والمناسبات، والعلل، والأحكام، والحكم، داخلة في الميزان الذي أنزله الله تعالى ووضعه بين عباده ليزنوا به ما أثبت وما نفاه من الأمور، ويعرفوا به صدق ما أخبر به وأخبرت به رسله. فما خرج عن هذين الأمرين - عن الكتاب والميزان - مما قيل: إنه حجة أو برهان أو دليل أو نحو ذلك من العبارات؛ فإنه باطل متناقض قد فسدت أصوله وإنهدمت مبانيه وفروعه، يعرف ذلك من خبر المسائل ومآخذها، وعرف التمييز بين راجح الأدلة من مرجوحها، والفرق بين الحجج والشبه.

وأما من اغتر بالعبارات المزخرفة والألفاظ المموهة ولم تنفذ بصيرته إلى المعنى المراد؛ فإنه ليس من أهل هذا الشأن، ولا من فرسان هذا الميدان؛ فوفاه وخلافه سيان. ثم قال تعالى مخوفاً للمستعجلين لقيام الساعة المنكرين لها، فقال: ﴿وَمَا يَدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾ (١٧) ﴿؟ أي: ليس بمعلوم بعدها ولا متى تقوم؛ فهي في كل وقت متوقع وقوعها، مخوف وجبتها.

(١٨) ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا﴾: عناداً وتكديراً وتعجيزاً لربهم، ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا﴾؛ أي: خائفون؛ لإيمانهم بها، وعلمهم بما تشتمل عليه من الجزاء بالأعمال، وخوفهم لمعرفةهم بربهم ألا تكون أعمالهم منجية لهم ولا مسعدة، ولهذا قال: ﴿وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ﴾: الذي لا مرية فيه، ولا شك يعتريه. ﴿أَلَا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ﴾؛ أي: بعدما امتروا فيها، ماروا الرسل وأتباعهم بإثباتها؛ فهم في شقاق بعيد (١٨) ﴿؟ أي: معاندة ومخاصمة غير قريبة من الصواب، بل في غاية البعد عن الحق. وأي بعد أبعد ممن كذب بالدار التي هي الدار على الحقيقة؟ وهي الدار التي خلقت للبقاء الدائم والخلود السرمد، وهي دار الجزاء التي يظهر الله فيها عدله وفضله، وإنما هذه الدار بالنسبة إليها كراكب قال في ظل شجرة ثم رحل وتركها، وهي دار عبور وممر لا محل استقرار، فصدقوا بالدار المضمحلة الفانية حيث رأوها وشاهدوها، وكذبوا بالدار الآخرة التي تواترت بالإخبار عنها الكتب الإلهية والرسل الكرام وأتباعهم، الذين هم أكمل الخلق عقولاً وأغزرهم علماً وأعظمهم فطنة وفهماً.

المتدفقة، والغياض المعشبة، والمناظر الحسنة، والأشجار المثمرة، والطيور المغردة، والأصوات الشجية المطربة، والاجتماع بكل حبيب، والأخذ من المعاشرة والمنادمة بأكمل نصيب؛ رياض لا تزداد على طول المدى إلا حسناً وبهاء، ولا يزداد أهلها إلا اشتياقاً إلى لذاتها ووداداً. ﴿لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ﴾: فيها؛ أي: في الجنات؛ فمهما أرادوا؛ فهو حاصل، ومهما طلبوا؛ حصل، مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر. ﴿ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾ (٢٢): وهل فوز أكبر من الفوز برضا الله تعالى والتنعم بقربه في دار كرامته؟!

﴿ذَلِكَ الَّذِي يَنْشُرُ اللَّهُ عِبَادَهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾: أي: هذه البشارة العظيمة التي هي أكبر البشائر على الإطلاق بشر بها الرحيم الرحمن على يد أفضل خلقه لأهل الإيمان والعمل الصالح؛ فهي أجل الغايات، والوسيلة الموصلة إليها أفضل الوسائل، ﴿قُلْ لَا أَتْلُكُمْ عَلَيْهِ﴾: أي: على تبليغي إياكم هذا القرآن ودعوتكم إلى أحكامه ﴿أَجْرًا﴾؛ فلست أريد أخذ أموالكم ولا التولي عليكم والثروس ولا غير ذلك من الأغراض ﴿إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾.

يحتمل أن المراد: لا أسألكم عليه أجراً؛ إلا أجراً واحداً، هو لكم، وعائد نفعه إليكم، وهو أن تودوني وتحبوني في القربة؛ أي: لأجل القربة، ويكون على هذا المودة الزائدة على مودة الإيمان؛ فإن مودة الإيمان بالرسول وتقديم محبته على جميع المحاب بعد محبة الله فرض على كل مسلم، وهؤلاء طلب منهم زيادة على ذلك أن يحبوه لأجل القربة؛ لأنه ﷺ قد باشر بدعوته أقرب الناس إليه، حتى إنه قيل: إنه ليس في بطون قريش أحد إلا ورسول الله ﷺ فيه قرابة.

ويحتمل أن المراد: إلا مودة الله تعالى المودة الصادقة، وهي التي يصحبها التقرب إلى الله والتوسل بطاعته الدالة على صحتها وصدقها، ولهذا قال: ﴿إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾؛ أي: في التقرب إلى الله.

وعلى كلا القولين؛ فهذا الاستثناء دليل على أنه لا يسألكم عليه أجراً بالكلية؛ إلا أن يكون شيئاً يعود نفعه إليهم؛ فهذا ليس من الأجر في شيء، بل هو من الأجر منه لهم ﷺ؛ كقوله تعالى: ﴿وَمَا تَقْصُومُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ (البروج: ٨)، وقولهم: ما لفلان عندك ذنب إلا أنه محسن إليك.

﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَفُتِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (٢١) تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ (٢٢) الَّذِي يَنْشُرُ اللَّهُ عِبَادَهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ قُلْ لَا أَتْلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى وَمَنْ يَقْرِفْ حَسَنَةً نَّزَدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ (٢٣).

﴿يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّ الْمَشْرِكِينَ اتَّخَذُوا شُرَكَاءَ يُولُونَهُمْ وَيَشْرَكُونَ هُمْ وَيَأْهَمُهُمْ فِي الْكُفْرِ وَأَعْمَالِهِ مِنْ شَيَاطِينِ الْإِنْسِ الدُّعَاءُ إِلَى الْكُفْرِ، شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ﴾: من الشرك والبدع، وتحريم ما أحل الله، وتحليل ما حرم الله ونحو ذلك مما اقتضته أهواؤهم، مع أن الدين لا يكون إلا ما شرعه الله تعالى، ليدين به العباد، ويتقربوا به إليه؛ فالأصل الحجر على كل أحد أن يشرع شيئاً ما جاء عن الله وعن رسوله؛ فكيف بهؤلاء الفسقة المشتركين هم وآباؤهم وهم على الكفر. ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَفُتِيَ بَيْنَهُمْ﴾: أي: لولا الأجل المسمى الذي ضربه الله فاصلاً بين الطوائف المختلفة، وأنه سيؤخرهم إليه؛ لقضي بينهم في الوقت الحاضر بسعادة المحق وإهلاك المبطل؛ لأن المقتضي للإهلاك موجود، ولكن أمامهم العذاب الأليم في الآخرة؛ هؤلاء وكل ظالم.

﴿وَفِي ذَلِكَ الْيَوْمَ تَرَى الظَّالِمِينَ﴾: أنفسهم بالكفر والمعاصي، ﴿مُشْفِقِينَ﴾؛ أي: خائفين وجلين، ﴿مِمَّا كَسَبُوا﴾: أن يعاقبوا عليه، ولما كان الخائف قد يقع به ما أشفق منه وخافه وقد لا يقع؛ أخبر أنه ﴿وَاقِعٌ بِهِمْ﴾: العقاب الذي خافوه؛ لأنهم أتوا بالسبب التام الموجب للعقاب من غير معارض من توبة ولا غيرها، ووصلوا موضعاً فات فيه الإنظار والإمهال. ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾: يشمل فيه كل عمل صالح من أعمال القلوب وأعمال الجوارح من الواجبات والمستحبات؛ فهؤلاء ﴿فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ﴾؛ أي: الروضات المضافة إلى الجنات، والمضاف يكون بحسب المضاف إليه؛ فلا تسأل عن بهجة تلك الرياض المونقة، وما فيها من الأنهار

سورة الشورى

سورة الشورى

ذَٰلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهُ عِبَادَهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ قُلْ لَا
 اسْتَكْبَرُ عَلَيْهٖ أَجْرٌ إِلَّا أَلَمُوْهُدَىٰ فِي الْفَرْقِ وَمَنْ يَقْرَفْ حَسَنَةً نَّزِدْ
 لَهُ فِيهَا حُسْنًا إِنَّ اللَّهَ غَفُوْرٌ شَكُوْرٌ ﴿٢٧﴾ أَمْ يَقُوْلُونَ أَفَرَىٰ عَلَى اللَّهِ
 كَذِبًا فَإِنْ يَشِئِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُخَيِّطُ الْحَقَّ
 بِكَلِمَتِهِ إِنَّهٗ عَلِيْمٌ بِذَاتِ الصُّدُوْرِ ﴿٢٨﴾ وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ
 عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُوْنَ ﴿٢٩﴾
 وَيَسْجِئُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَيَزِيْدُهُمْ مِنْ فَضْلِهٖ
 وَالْكَافِرُوْنَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيْدٌ ﴿٣٠﴾ وَلَوْ سَـَّطَ اللَّهُ الرِّزْقَ
 لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِنْ يُنْزِلُ بِقَدْرِ مَا يَشَآءُ إِنَّهٗ بِعِبَادِهِ
 خَبِيْرٌ بَصِيْرٌ ﴿٣١﴾ وَهُوَ الَّذِي يُنْزِلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا
 وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهٗ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيْدُ ﴿٣٢﴾ وَمَنْ ءَايَنَيْهِ خَلْقُ
 السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا مِنْ دَابَّةٍ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ
 إِذَا يَشَآءُ قَدِيْرٌ ﴿٣٣﴾ وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُّصِيبَةٍ فَمَا
 كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيْرٍ ﴿٣٤﴾ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِيْنَ
 فِي الْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُوْنِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيْرٍ ﴿٣٥﴾

٤٨٦

﴿وَمَنْ يَقْرَفْ حَسَنَةً﴾: من صلاة، أو صوم، أو حج، أو إحسان إلى الخلق، ﴿نَزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا﴾: بأن يشرح الله صدره، ويسر أمره، ويكون سبباً للتوفيق لعمل آخر، ويزداد بها عمل المؤمن، ويرتفع عند الله، وعند خلقه، ويحصل له الثواب العاجل والآجل. ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُوْرٌ شَكُوْرٌ﴾: يغفر الذنوب العظيمة، ولو بلغت ما بلغت عند التوبة منها، ويشكر على العمل القليل بالأجر الكثير؛ فبمغفرته يغفر الذنوب ويستمر العيوب، وبشكره يقبل الحسنات ويضاعفها أضعافاً كثيرة.

﴿أَمْ يَقُوْلُونَ أَفَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾: فإن يشأ الله يختم على قلبك ويمح الله الباطل ويخيط الحق بكلماته، إنه على ما يذات الصدور بصير ﴿٢٨﴾.

﴿٢٩﴾ يعني: أم يقول المكذبون للرسول ﷺ جرأة منهم وكذباً: ﴿أَفَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾: فرموك بأشنع الأمور وأقبحها، وهو الافتراء على الله بادعاء النبوة والنسبة إلى الله ما هو بريء منه، وهم يعلمون صدقك وأمانتك؛ فكيف يتجرءون على هذا الكذب الصراح؟! بل تجرءوا بذلك على الله تعالى؛ فإنه قدح في الله؛ حيث يمكنك من هذه الدعوة العظيمة المتضمنة - على موجب زعمهم - أكبر الفساد في الأرض؛ حيث مكناه الله من التصريح بالدعوة، ثم بنسبتها إليه، ثم يؤيده

بالمعجزات الظاهرات والأدلة القاهرات والنصر المبين والاستيلاء على من خالفه، وهو تعالى قادر على حسم هذه الدعوة من أصلها ومادتها، وهو أن يختم على قلب الرسول ﷺ؛ فلا يعي شيئاً، ولا يدخل إليه خير، وإذا ختم على قلبه؛ انحسم الأمر كله وانقطع؛ فهذا دليل قاطع على صحة ما جاء به الرسول، وأقوى شهادة من الله له على ما قال، ولا يوجد شهادة أعظم منها ولا أكبر، ولهذا من حكمته ورحمته وسنته الجارية أنه يمحو الباطل ويزيله، وإن كان له صولة في بعض الأوقات؛ فإن عاقبته الاضمحلال، ﴿وَيُخَيِّطُ الْحَقَّ بِكَلِمَتِهِ﴾: الكونية التي لا تبدل ولا تغير، ووعد الصديق، وكلماته الدينية التي تحقق ما شرعه من الحق وثبتته في القلوب وتبصر أولي الأبواب، حتى إن من جملة إحقاقه تعالى الحق أن يقيض له الباطل ليقاومه؛ فإذا قاومه؛ صال عليه الحق ببراينه وبياناته، فظهر من نوره وهده ما به يضمحل الباطل وينقمع ويتبين بطلانه لكل أحد، ويظهر الحق كل الظهور لكل أحد. ﴿إِنَّهٗ عَلِيْمٌ بِذَاتِ الصُّدُوْرِ﴾ ﴿٢٨﴾؛ أي: بما فيها، وما انصفت به من خير وشر، وما أكتنه ولم تبده.

﴿وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُوْنَ﴾ ﴿٢٩﴾ و﴿يَسْجِئُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَيَزِيْدُهُمْ مِنْ فَضْلِهٖ وَالْكَافِرُوْنَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيْدٌ﴾ ﴿٣٠﴾ وَلَوْ سَـَّطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِنْ يُنْزِلُ بِقَدْرِ مَا يَشَآءُ إِنَّهٗ بِعِبَادِهِ خَبِيْرٌ بَصِيْرٌ ﴿٣١﴾ وَهُوَ الَّذِي يُنْزِلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهٗ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيْدُ ﴿٣٢﴾.

﴿٣٥﴾ هذا بيان لكمال كرم الله تعالى وسعة جوده وتعام لطفه بقبول التوبة الصادرة ﴿عَنْ عِبَادِهِ﴾: حين يقلعون عن ذنوبهم ويندمون عليها ويعزمون على ألا يعاودوها إذا قصدوا بذلك وجه ربهم؛ فإن الله يقبلها بعدما انعقدت سبباً للهلاك ووقوع العقوبات الدنيوية والدينية، ﴿وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ﴾: ويمحوها، ويمحو أثرها من العيوب، وما اقتضته من العقوبات، ويعود التائب عنده كريماً كأنه ما عمل سوءاً قط، ويحبه ويوفقه لما يقربه إليه.

ولما كانت التوبة من الأعمال العظيمة التي قد تكون كاملة بسبب تمام الإخلاص والصدق فيها، وقد تكون ناقصة عند

نقصهما، وقد تكون فاسدة إذا كان القصد منها بلوغ غرض من الأغراض الدنيوية، وكان محل ذلك القلب الذي لا يعلمه إلا الله؛ ختم هذه الآية بقوله: ﴿وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ (٢٥).

﴿٢٦﴾ قاله تعالى دعا جميع العباد إلى الإنابة إليه والتوبة من التقصير، فانقسموا بحسب الاستجابة له إلى قسمين: مستجيبين، وصفهم بقوله: ﴿وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾؛ أي: يستجيبون لربهم لما دعاهم إليه، ويتقادون له، ويلبون دعوته؛ لأن ما معهم من الإيمان والعمل الصالح يحملهم على ذلك؛ فإذا استجابوا له؛ شكر الله لهم، وهو الغفور الشكور، وزادهم ﴿مِنْ فَضْلِهِ﴾: توفيقاً ونشاطاً على العمل، وزادهم مضاعفة في الأجر زيادة عما تستحقه أعمالهم من الثواب والفوز العظيم. وأما غير المستجيبين لله، وهم المعاندون الذين كفروا به وبرسله؛ فد ﴿لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ (٢٦) في الدنيا والآخرة.

﴿٢٧﴾ ثم ذكر أن من لطفه بعباده أنه لا يوسع عليهم الدنيا سعة تضر بأديانهم، فقال: ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَّزَا فِي الْأَرْضِ﴾؛ أي: لغفلوا عن طاعة الله، وأقبلوا على التمتع بشهوات الدنيا، فأوجب لهم الإكباب على ما تشتهي نفوسهم، ولو كان معصية وظلماً. ﴿وَلَكِنْ يَنْزِلُ بِقَدَرِ مَا يَشَاءُ﴾: بحسب ما اقتضاه لطفه وحكمته، ﴿إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ﴾ (٢٧)؛ كما في بعض الآثار أن الله تعالى يقول: «إن من عبادي من لا يصلح إيمانه إلا الغنى، ولو أفقرته؛ لأفسده ذلك، وإن من عبادي من لا يصلح إيمانه إلا الفقر، ولو أغنيته؛ لأفسده ذلك، وإن من عبادي من لا يصلح إيمانه إلا الصحة، ولو أمرضته؛ لأفسده ذلك، وإن من عبادي من لا يصلح إيمانه إلا المرض، ولو عافيته؛ لأفسده ذلك، إني أدبر أمر عبادي بعلمي بما في قلوبهم، إني خير بصير» (١).

﴿٢٨﴾ ﴿وَهُوَ الَّذِي يُنْزِلُ الْغَيْثَ﴾؛ أي: المطر الغزير الذي به يغيث البلاد والعباد ﴿مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا﴾: وانقطع عنهم مدة ظنوا أنه لا يأتيهم، وأيسوا، وعملوا لذلك الجذب أعمالاً، فينزل الله الغيث، ﴿وَيَنْشُرُ﴾ به ﴿رَحْمَتَهُ﴾ من إخراج الأقوات للآدميين وبهائمهم، فيقع عندهم موقفاً عظيماً، ويستبشرون بذلك ويفرحون. ﴿وَهُوَ الْوَلِيُّ﴾: الذي يتولى عباده بأنواع التدبير، ويتولى القيام بمصالح دينهم ودنياهم

(١) أبو نعيم في «الحلية» (٣١٨/٨).

﴿الْحَمِيدُ﴾ (٢٨)؛ في ولايته وتدبيره، الحميد على ما له من الكمال، وما أوصله إلى خلقه من أنواع الأفضال.

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا مِنْ دَابَّةٍ وَهُوَ عَلَى جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ﴾ (٢٩).

﴿٢٩﴾ أي: ومن أدلة قدرته العظيمة وأنه سيحيي الموتى بعد موتهم: ﴿خَلَقَ﴾ هذه ﴿السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾؛ على عظمهما وسعتهما، الدال على قدرته وسعة سلطانه، وما فيهما من الإتقان والإحكام دال على حكمته، وما فيهما من المنافع والمصالح دال على رحمته، وذلك يدل على أنه المستحق لأنواع العبادة كلها، وأن إلهية ما سواه باطلة. ﴿وَمَا بَيْنَ فِيهِمَا﴾؛ أي: نشر في السماوات والأرض من أصناف الدواب، التي جعلها الله مصالح ومنافع لعباده. ﴿وَهُوَ عَلَى جَمْعِهِمْ﴾؛ أي: جمع الخلق بعد موتهم لموقف القيامة ﴿إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ﴾ (٢٩)؛ فقدرته ومشيتته صالحان لذلك، ويتوقف وقوعه على وجود الخبر الصادق، وقد علم أنه قد تواترت أخبار المرسلين وكتبهم بوقوعه.

﴿وَمَا أَصْبَحْتُمْ مِنْ مُّصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ﴾ (٣٠) ﴿وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ (٣١).

﴿٣٠﴾ يخبر تعالى أنه ما أصاب العباد من مصيبة في أبدانهم وأموالهم وأولادهم وفيما يحبون ويكون عزيزاً عليهم إلا بسبب ما قدمته أيديهم من السيئات، وأن ما يعفو الله عنه أكثر؛ فإن الله لا يظلم العباد، ولكن أنفسهم يظلمون، ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكُوا عَلَى ظَهْرِهِمَا مِنْ دَابَّةٍ﴾ [فاطر: ٤٥].

﴿٣١﴾ وليس إلهاً إلا الله تعالى تأخير العقوبات ولا عجزاً: ﴿وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ﴾؛ أي: معجزين قدرة الله عليكم، بل أنتم عاجزون في الأرض، ليس عندكم امتناع عما ينفذه الله فيكم، ﴿وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ﴾: يتولاكم، فيحصل لكم المنافع ﴿وَلَا نَصِيرٍ﴾ (٣١)؛ يدفع عنكم المضار.

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ﴾ (٣٢) ﴿إِنْ يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ (٣٣) ﴿أَوْ يُوقِفَهُنَّ بِمَا كَسَبُوا وَيَعْفُ عَنْ كَثِيرٍ﴾ (٣٤) ﴿وَيَعْلَمُ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِنَا مَا لَهُمْ مِنْ نَجِيصٍ﴾ (٣٥).

﴿٣٢﴾ أي: ومن أدلة رحمته وعنايته بعباده ﴿الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ﴾: من السفن والمراكب النارية والشرابية التي من عظمها ﴿كَالْأَعْلَٰغِ﴾ ﴿٣٣﴾، وهي الجبال الكبار التي سخر لها البحر العجاج، وحفظها من النظام الأمواج، وجعلها تحملكم وتحمل أمتعتكم الكثيرة إلى البلدان والأقطار البعيدة، وسخر لها من الأسباب ما كان معونة على ذلك.

﴿٣٢﴾، ﴿٣٣﴾ ثم نبه على هذه الأسباب بقوله: ﴿إِنْ يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ﴾: التي جعلها الله سبيلاً لمشيها، ﴿فَيُظْلَلْنَ﴾؛ أي: الجواري ﴿رَوَّادِكْ﴾: على ظهر البحر لا تتقدم ولا تتأخر. ولا يتقضى هذا بالمراكب النارية؛ فإن من شرط مشيها وجود الريح، وإن شاء الله تعالى؛ أوبق الجواري بما كسب أهلها؛ أي: أغرقها في البحر وأتلفها، ولكنه يحلم ويعفو عن كثير. ﴿إِنْ فِي ذَلِكَ لَا يَنُوبَ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ ﴿٣٤﴾؛ أي: كثير الصبر على ما تكرهه نفسه، ويشق عليها فيكرهها عليه من مشقة طاعة أو ردع دأع إلى معصية أو ردع نفسه عند المصائب عن التسخط، شكور في الرخاء، وعند النعم يعترف بنعمة ربه، ويخضع له، ويصرفها في مرضاته؛ فهذا الذي يتتبع بآيات الله، وأما الذي لا صبر عنده ولا شكر له عند نعم الله؛ فإنه معرض أو معاند لا ينتفع بالآيات.

﴿٣٥﴾ ثم قال تعالى: ﴿وَيَعْلَمُ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي ءَايَاتِنَا﴾: ليبتلوا بها بطلهم، ﴿مَا لَهُمْ مِنْ نَّجِيسٍ﴾ ﴿٣٥﴾؛ أي: لا ينقدهم منقذ مما حل بهم من العقوبة.

﴿فَأَ أُنذِرْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَفَتَعَ الْحَيَوٰةَ الدُّنْيَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ ﴿٣٦﴾ وَالَّذِينَ يَخْتَفُونَ كَثِيرًا إِلَّا فِي الْأَنْوَاعِ وَإِذَا مَا عَصَبُوا لَهُمْ يَغْفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٨﴾ وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ ﴿٣٩﴾.

﴿٣٦﴾ هذا تزهيد في الدنيا وترغيب في الآخرة وذكر الأعمال الموصلة إليها؛ فقال: ﴿فَأَ أُنذِرْتُمْ مِنْ شَيْءٍ﴾: من ملك ورياسة وأموال وبنين وصحة وعافية بدنية، ﴿فَتَعَ الْحَيَوٰةَ الدُّنْيَا﴾: لذة منغصة منقطعة، ﴿وَمَا عِنْدَ اللَّهِ﴾: من الثواب الجزيل والأجر الجليل والنعيم المقيم ﴿خَيْرٌ﴾ من لذات الدنيا، خيرية لا نسبة بينهما ﴿وَأَبْقَىٰ﴾: لأنه نعيم لا منغص فيه ولا كدر ولا انتقال.

ثم ذكر لمن هذا الثواب، فقال: ﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ ﴿٣٦﴾؛ أي: جمعوا بين الإيمان الصحيح المستلزم لأعمال الإيمان الظاهرة والباطنة، وبين التوكل الذي هو الآلة لكل عمل؛ فكل عمل لا يصحبه التوكل؛ فغير تام، وهو الاعتماد بالقلب على الله في جلب ما يحبه العبد ودفع ما يكرهه مع الثقة به تعالى.

﴿٣٧﴾ وَالَّذِينَ يَخْتَفُونَ كَثِيرًا إِلَّا فِي الْأَنْوَاعِ وَالْفَوَاحِشِ: والفرق بين الكبائر والفواحش - مع أن جميعهما كبائر - أن الفواحش هي الذنوب الكبار التي في النفوس دأع إليها كالزنا ونحوه، والكبائر ما ليس كذلك، هذا عند الاقتران، وأما مع إفراد كل منهما عن الآخر؛ فإن الآخر يدخل فيه. ﴿وَإِذَا مَا عَصَبُوا لَهُمْ يَغْفِرُونَ﴾ ﴿٣٧﴾؛ أي: قد تخلقوا بمكارم الأخلاق ومحاسن الشيم، فصار الحلم لهم سجية وحسن الخلق لهم طبيعة، حتى إذا أغضبهم أحد بمقاله أو فعاله؛ كظموا ذلك الغضب، فلم ينفذوه، بل غفروه، ولم

﴿٣٥﴾ ذكر الله في هذه الآية مراتب العقوبات، وأنها على ثلاث مراتب: عدل، وفضل، وظلم. فمرتبة العدل: جزاء السيئة بسيئة مثلها؛ لا زيادة ولا نقص؛ فالتنفس بالنفس، وكل جارة بالجارحة المماثلة لها، والمال يضمن بمثله.

ومرتبة الفضل: العفو والإصلاح عن المسيء، ولهذا قال: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾؛ يعجزه أجراً عظيماً وثواباً كثيراً، وشرط الله في العفو الإصلاح فيه ليدل ذلك على أنه إذا كان الجاني لا يلقى بالعفو عنه، وكانت المصلحة الشرعية تقتضي عقوبته؛ فإنه في هذه الحال لا يكون مأموراً به، وفي جعل أجر العافي على الله مما يهيج على العفو، وأن يعامل العبد الخلق بما يحب أن يعامله الله به؛ فكما يحب أن يعفو الله عنه؛ فليعف عنهم، وكما يحب أن يسامحه الله؛ فليسامحهم؛ فإن الجزاء من جنس العمل.

وأما مرتبة الظلم؛ فقد ذكرها بقوله: ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ ﴿٣٦﴾: الذين يجنون على غيرهم ابتداءً، أو يقابلون الجاني بأكثر من جنايته؛ فالزيادة ظلم.

﴿٣٧﴾ وَلَمَنْ أَنْصَرَ ﴿٣٧﴾ مَنْ ﴿بَعْدَ ظُلْمِهِ﴾؛ أي: انتصر ممن ظلمه بعد وقوع الظلم عليه ﴿فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ﴾ ﴿٣٨﴾؛ أي: لا حرج عليهم في ذلك. ودل قوله: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ﴾، وقوله: ﴿وَلَمَنْ أَنْصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ﴾؛ أنه لا بد من إصابة البغي والظلم ووقوعه، وأما إرادة البغي على الغير وإرادة ظلمه من غير أن يقع منه شيء؛ فهذا لا يجازى بمثله، وإنما يؤدب تأديباً يردعه عن قول أو فعل صدر منه.

﴿٣٩﴾ إِنَّمَا السَّبِيلُ ﴿٣٩﴾؛ أي: إنما تتوجه الحجة بالعقوبة الشرعية ﴿عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾؛ وهذا شامل للظلم والبغي على الناس في دمائهم وأموالهم وأعراضهم. ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾؛ أي: موجه للقلوب والأبدان بحسب ظلمهم وبغيهم.

﴿٤٠﴾ وَلَمَنْ صَبَرَ ﴿٤٠﴾؛ على ما يناله من أذى الخلق، ﴿وَعَفَرَ﴾؛ لهم بأن سمح لهم عما يصدر منهم ﴿إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ ﴿٤١﴾؛ أي: لمن الأمور التي حث الله عليها وأكدها وأخبر أنه لا يلقاها إلا أهل الصبر والحفظ العظيمة، ومن الأمور التي لا يوفق لها إلا أولو العزائم والهمم وذوو الالباب والبصائر؛ فإن ترك الانتصار للنفس بالقول أو الفعل من أشق شيء عليها، والصبر على الأذى والصفح عنه

يقابلوا المسيء إلا بالإحسان والعفو والصفح، فترتب على هذا العفو والصفح من المصالح ودفع المفاسد في أنفسهم وغيرهم شيء كثير؛ كما قال تعالى: ﴿أَدْفَعْ يَأْتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ ﴿٤٢﴾ وَمَا يُلْقُهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقُهَا إِلَّا ذُو حِظٍّ عَظِيمٍ ﴿٤٣﴾ [فصلت: ٣٤، ٣٥].

﴿٤٤﴾ وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ ﴿٤٤﴾؛ أي: انتقادوا لطاعته، ولبوا دعوته، وصار قصدهم رضوانه وغايتهم الفوز بقربه، ومن الاستجابة لله إقام الصلاة وإيتاء الزكاة؛ فذلك عطفهما على ذلك من باب عطف العام على الخاص الدال على شرفه وفضله، فقال: ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾؛ أي: ظاهرها وباطنها فرضها ونفلها، ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ ﴿٤٥﴾: من النفقات الواجبة؛ كالزكاة والنفقة على الأقارب ونحوهم، والمستحبة؛ كالصدقات على عموم الخلق. ﴿وَأَمْرُهُمْ﴾: الديني والدنيوي، ﴿شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾؛ أي: لا يستبد أحد منهم برأيه في أمر من الأمور المشتركة بينهم، وهذا لا يكون إلا فرعاً عن اجتماعهم وتوافقه وتواددهم وتحاببهم؛ وكما عقولهم أنهم إذا أرادوا أمراً من الأمور التي تحتاج إلى إعمال الفكر والرأي فيها؛ اجتمعوا لها وتشاوروا وبحثوا فيها، حتى إذا تبينت لهم المصلحة؛ انتهزوها وبادروها، وذلك كالرأي في الغزو والجهاد وتولية الموظفين لإمارة أو قضاء أو غيره، وكالبحث في المسائل الدينية عموماً؛ فإنها من الأمور المشتركة، والبحث فيها لبيان الصواب مما يحبه الله، وهو داخل في هذه الآية.

﴿٤٦﴾ وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ ﴿٤٦﴾؛ أي: وصل إليهم من أعدائهم ﴿هُمْ يَنْصَرُونَ﴾ ﴿٤٧﴾: لقوتهم وعزتهم، ولم يكونوا أذلاء عاجزين عن الانتصار؛ فوصفهم بالإيمان، والتوكل على الله، واجتناب الكبائر والفواحش الذي تكفر به الصغائر، والانقياد التام، والاستجابة لربهم، وإقامة الصلاة، والإنفاق في وجوه الإحسان، والمشاورة في أمورهم، والقوة، والانتصار على أعدائهم؛ فهذه خصال الكمال قد جمعوها، ويلزم من قيامها فيهم فعل ما هو دونها وانتفاء ضدها.

﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ ﴿٤٨﴾ وَلَمَنْ أَنْصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ ﴿٤٩﴾ إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٥٠﴾ وَلَمَنْ صَبَرَ وَعَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴿٥١﴾.

سورة الشورى

الْمُتَّقِينَ وَالْمُتَّقِينَ

وَتَرْنَهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَشِيعَاتٍ مِنَ الذَّلِيلِ يَنْظُرُونَ
 مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ وَقَالَ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ الْخَشِيعَاتِ الَّذِينَ
 خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَلَا إِنَّ الظَّالِمِينَ
 فِي عَذَابٍ مُقِيمٍ ﴿٤٥﴾ وَمَا كَانَتْ لَهُمْ مِنْ أَوْلِيَاءَ يَصْرِفُونَ
 مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ سَبِيلٍ ﴿٤٦﴾ اسْتَجِيبُوا
 لِرَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنْ اللَّهِ مَا لَكُمْ
 مِنْ مَلْجَأٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَكِيرٍ ﴿٤٧﴾ فَإِنْ أَعْرَضُوا
 فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِظًا إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ وَإِنَّا إِذَا
 أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَجَاحَ وَهَانَ وَإِنْ تَضَعُهُمْ سِنِينَ
 يَمَّا قَدَّمْتُ أَيْدِيَهُمْ فَإِنَّ إِلَيْنَا أَمْرَهُمْ كَقُورٍ ﴿٤٨﴾ إِنَّهُ مُلْكُ
 السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنشَاءً
 وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذَّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنثَاءً
 وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾ وَمَا كَانَ
 لِيُشِيرَ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ رُسُلٍ
 رَسُولًا فَيُوحِي بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلَى حَكِيمٍ ﴿٥١﴾

٤٨٨

ومغفرته ومقابلته بالإحسان أشق وأشق، ولكنه يسير على من
 يسره الله عليه وجاهد نفسه على الاتصاف به، واستعان الله
 على ذلك، ثم إذا ذاق العبد حلاوته، ووجد آثاره؛ تلقاه برحب
 الصدر، وسعة الخلق، والتلذذ فيه.

﴿وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ وَلِيٍّ مِنْ بَعْدِهِ وَتَرَى الظَّالِمِينَ
 لَمَّا رَأَوْا الْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَى مَرَرٍ مِنْ سَبِيلِ﴾ ﴿٤٥﴾
 وَتَرْنَهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَشِيعَاتٍ مِنَ الذَّلِيلِ يَنْظُرُونَ مِنْ
 طَرْفٍ خَفِيٍّ وَقَالَ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ الْخَشِيعَاتِ الَّذِينَ خَسِرُوا
 أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَلَا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذَابٍ
 مُقِيمٍ ﴿٤٥﴾ وَمَا كَانَتْ لَهُمْ مِنْ أَوْلِيَاءَ يَصْرِفُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ
 وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ سَبِيلٍ ﴿٤٦﴾.

﴿٤٥﴾ يخبر تعالى أنه المنفرد بالهداية والإضلال، وأنه
 ﴿مَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ﴾: بسبب ظلمه ﴿فَمَا لَهُ مِنْ وَلِيٍّ مِنْ بَعْدِهِ﴾:
 يتولى أمره ويهديه، ﴿وَتَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوْا الْعَذَابَ﴾: مرأى
 ومنظراً فظيماً صعباً شنيعاً يظهرهم الندم العظيم والحزن على
 ما سلف منهم، و﴿يَقُولُونَ هَلْ إِلَى مَرَرٍ مِنْ سَبِيلٍ﴾ ﴿٤٥﴾؛
 أي: هل لنا طريق أو حيلة إلى رجوعنا إلى الدنيا لنعمل غير
 الذي كنا نعمل، وهذا طلب للأمر المحال الذي لا يمكن.

﴿٤٦﴾ وَتَرْنَهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا﴾؛ أي: على النار
 ﴿خَشِيعَاتٍ مِنَ الذَّلِيلِ﴾؛ أي: ترى أجسامهم خاشعة للذل الذي في قلوبهم، ﴿يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ﴾؛ أي: ينظرون إلى
 النار مسارقة وشرراً من هيبته وخوفها، ﴿وَقَالَ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾: حين ظهرت عواقب الخلق وتبين أهل الصدق من غيرهم:
 ﴿إِنَّ الْخَشِيعَاتِ﴾: على الحقيقة، ﴿الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾: حيث فوّتوا أنفسهم جزيل الثواب وحصلوا على
 أليم العقاب وفُرق بينهم وبين أهليهم فلم يجتمعوا بهم آخر ما عليهم. ﴿أَلَا إِنَّ الظَّالِمِينَ﴾: أنفسهم بالكفر والمعاصي ﴿فِي
 عَذَابٍ مُقِيمٍ﴾ ﴿٤٥﴾؛ أي: في سوائه ووسطه منغمرين لا يخرجون منه أبداً، و﴿لَا يَنْفَعُهُمْ فِيهِ مِيلُسُونَ﴾ ﴿٥٠﴾ [الزخرف: ٧٥].

﴿٤٦﴾ وَمَا كَانَتْ لَهُمْ مِنْ أَوْلِيَاءَ يَصْرِفُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾: كما كانوا في الدنيا ينمون أنفسهم بذلك؛ ففي القيامة يتبين لهم
 ولغيرهم أن أسبابهم التي أمَلُّوها تقطعت، وأنه حين جاءهم عذاب الله لم يدفع عنهم، ﴿وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ سَبِيلٍ﴾ ﴿٤٦﴾؛
 تحصل به هدايته؛ فهو لاء ضلوا حين زعموا في شركائهم النفع ودفع الضر، فتبين حيثئذ ضلالهم.

﴿٤٧﴾ اسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنْ اللَّهِ مَا لَكُمْ مِنْ مَلْجَأٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَكِيرٍ﴾ ﴿٤٧﴾ فَإِنْ
 أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِظًا إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَجَاحَ وَهَانَ وَإِنْ تَضَعُهُمْ سِنِينَ
 يَمَّا قَدَّمْتُ أَيْدِيَهُمْ فَإِنَّ إِلَيْنَا أَمْرَهُمْ كَقُورٍ ﴿٤٨﴾.

﴿٤٧﴾ يأمر تعالى عباده بالاستجابة له بامتنال ما أمر به واجتناب ما نهى عنه وبالمبادرة بذلك وعدم التسويف ﴿مِنْ قَبْلِ
 أَنْ يَأْتِيَ﴾: يوم القيامة، الذي إذا جاء؛ لا يمكن رده واستدراك الفائت، وليس للعبد في ذلك اليوم ملجأ يلجأ إليه فيفُوت
 ربه ويهرب منه، بل قد أحاطت الملائكة بالخلقة من خلفهم، ونودوا: ﴿يَمْتَسِرْ لِمَنْ وَالْإِنْسَانُ إِنْ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ
 السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لَا تَنْفُذُوا إِلَّا بِأَمْرٍ﴾ ﴿٢٣﴾ [الرحمن: ٢٣]: وليس للعبد في ذلك اليوم نكير لما اقترفه وأجرمه، بل

﴿٥١﴾ لما قال المكذبون لرسل الله الكافرون بالله: ﴿أَوَلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ﴾ [البقرة: ١١٨]: من كبرهم وتجبرهم؛ رد الله عليهم بهذه الآية الكريمة، وأن تكليمه تعالى لا يكون إلا لخواص خلقه؛ للأنبياء والمرسلين وصفوته من العالمين، وأنه يكون على أحد هذه الأوجه: إما أن يكلمه الله وحياً، بأن يلقي الوحي في قلب الرسول من غير إرسال ملك ولا مخاطبة منه شفاهاً، ﴿أَوْ﴾ يكلمه منه شفاهاً، لكن ﴿مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ﴾؛ كما حصل لموسى بن عمران كلم الرحمن، ﴿أَوْ﴾ يكلمه الله بواسطة الرسول الملكي؛ ف﴿رُسُلٌ رُسُولا﴾؛ كجبريل أو غيره من الملائكة، ﴿فَيُوحِي بِإِذْنِهِ﴾؛ أي: بإذن ربه لا بمجرد هواه؛ ﴿إِنَّهُ﴾ تعالى عليّ الذات عليّ الأوصاف، عظيمها، عليّ الأفعال، قد قهر كل شيء، ودانت له المخلوقات، ﴿حَكِيمٌ﴾ ﴿٥١﴾ في وضعه كل شيء في موضعه من المخلوقات والشرائع.

﴿٥٢﴾ وَكَذَلِكَ ﴿٥٢﴾ حين أوحينا إلى الرسل قبلك، ﴿أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِّنْ أَمْرِنَا﴾: وهو هذا القرآن الكريم، سماه روحاً؛ لأن الروح يحيا به الجسد، والقرآن تحيا به القلوب والأرواح، وتحيا به مصالح الدنيا والدين؛ لما فيه من الخير الكثير والعلم الغزير، وهو محض منة الله على رسوله وعباده المؤمنين من غير سبب منهم، ولهذا قال: ﴿مَا كُنْتُ نَذِيرٌ﴾؛ أي: قبل نزوله عليك ﴿مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ﴾؛ أي: ليس عندك علم بأخبار الكتب السابقة، ولا إيمان وعمل بالشرائع الإلهية، بل كنت أمياً لا تخط ولا تقرأ، فجاءك هذا الكتاب الذي ﴿جَعَلْنَاهُ نُورًا تَهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾: يستضيئون به في ظلمات الكفر والبدع والأهواء المردية، ويعرفون به الحقائق، ويهتدون به إلى الصراط المستقيم. ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ ﴿٥٢﴾؛ أي: تبينه لهم، وتوضحه، وتبينه وترغبهم فيه، وتنههم عن ضده، وترهبهم منه.

﴿٥٣﴾ ثم فسر الصراط المستقيم، فقال: ﴿صِرَاطُ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾؛ أي: الصراط الذي نصبه الله لعباده وأخبرهم أنه موصل إليه وإلى دار كرامته. ﴿وَأَلَّا إِلَى اللَّهِ تَسِيرُ الْأُمُورُ﴾ ﴿٥٣﴾؛ أي: ترجع جميع أمور الخير والشر، فيجازي كلا بعمله؛ إن خيراً فخير وإن شراً فشر.

تم تفسير سورة الشورى.

والحمد لله أولاً وآخراً وظاهراً وباطناً على تيسيره وتسهيله.



لو أنكر؛ لشهدت عليه جوارحه. وهذه الآية ونحوها فيها ذم الأمل والأمر بانتهاز الفرصة في كل عمل يعرض للعبد؛ فإن للتأخير آفات.

﴿٥٤﴾ فَإِنْ أَعْرَضُوا ﴿٥٤﴾ عما جنتهم به بعد البيان التام ﴿فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِظًا﴾: تحفظ أعمالهم وتسال عنها، ﴿وَإِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ﴾: فإذا أديت ما عليك؛ فقد وجب أجرك على الله، سواء استجابوا أم أعرضوا، وحسابهم على الله الذي يحفظ عليهم صغير أعمالهم وكبيرها وظاهرها وباطنها. ثم ذكر تعالى حالة الإنسان، وأنه إذا أذاقه الله رحمة من صحة بدن، ورزق رغد، وجاه ونحوه؛ ﴿فَرِحَ بِهَا﴾؛ أي: فرح فرحاً مقصوراً عليها لا يتعداها، ويلزم من ذلك طمأنينته بها وإعراضه عن المنعم. ﴿وَإِنْ نُصِيبَهُمْ سَيِّئَةً﴾؛ أي: مرض أو فقر أو نحوهما ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ كَفُورٌ﴾ ﴿٥٤﴾؛ أي: طبيعته كفران النعمة السابقة والتسخط لما أصابه من السيئة.

﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذَّكَرَ﴾ ﴿٥٥﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذَكَرًا وَإِنثًا وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٥٥﴾.

﴿٥٦﴾ هذه الآية فيها الإخبار عن سعة ملكه تعالى ونفوذ تصرفه في الملك في الخلق لما يشاء والتدبير لجميع الأمور، حتى إن تدبيره تعالى من عمومته أنه يتناول المخلوقة عن الأسباب التي يياشرها العباد؛ فإن النكاح من الأسباب لولادة الأولاد؛ فالله تعالى هو الذي يعطيهم من الأولاد ما يشاء؛ فمن الخلق من يهب له إناثاً، ومنهم من يهب له ذكوراً، ومنهم من يزوجه؛ أي: يجمع له ذكوراً وإناثاً، ومنهم من يجعله عقيماً لا يولد له. ﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ﴾: بكل شيء. ﴿قَدِيرٌ﴾ ﴿٥٦﴾: على كل شيء. فيتصرف بعلمه وإتقانه الأشياء وبقدرته في مخلوقاته.

﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحياً أَوْ مِنْ وَرَائِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِي بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلَى حَكِيمٍ﴾ ﴿٥٦﴾ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتُ نَذِيرٌ مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا تَهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾ صِرَاطُ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ أَلَا إِلَى اللَّهِ تَسِيرُ الْأُمُورُ ﴿٥٦﴾.

تفسير سورة الزخرف

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿حَمِّ ١﴾ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴿٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٣﴾ وَإِنَّهُ فِي أُولَى الْأَكْتَابِ لَذِينَ لَعَلِّي حَكِيمٌ ﴿٤﴾ أَنْفَضِرْبُ عَنْكُمْ الذِّكْرَ صَفْحًا أَنْ كُنْتُمْ قَوْمًا مُسْرِفِينَ ﴿٥﴾

﴿١﴾ - ﴿٢﴾ هذا قسم بالقرآن على القرآن، فأقسم بالكتاب المبين، وأطلق، ولم يذكر المتعلق؛ ليدل على أنه مبين لكل ما يحتاج إليه العباد من أمور الدنيا والدين والآخرة. ﴿٣﴾ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا: هذا المقسم عليه أنه جعل بأفصح اللغات وأوضحها وأبينها، وهذا من بيانه. وذكر الحكمة في ذلك، فقال: ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾؛ الفاظه ومعانيه لتيسرها وقربها من الأذهان.

﴿٤﴾ وَإِنَّهُ: أي: هذا الكتاب ﴿لَدَيْنَا﴾ في الملأ الأعلى في أعلى الرب وأفضلها ﴿لَعَلِّي حَكِيمٌ﴾؛ أي: لعلني في قدره وشرفه ومجده، حكيم فيما يشتمل عليه من الأوامر والنواهي والأخبار؛ فليس فيه حكم مخالف للحكمة والعدل والميزان.

﴿٥﴾ ثم أخبر تعالى أن حكمته وفضله يقتضي ألا يترك عباده هملاً لا يرسل إليهم رسولاً ولا ينزل عليهم كتاباً ولو كانوا مسرفين ظالمين، فقال: ﴿أَنْفَضِرْبُ عَنْكُمْ الذِّكْرَ صَفْحًا﴾؛ أي: أنعرض عنكم ونترك إنزال الذكر إليكم ونضرب عنكم صفحاً لأجل إعراضكم وعدم انقيادكم له، بل ننزل عليكم الكتاب، ونوضح لكم فيه كل شيء؛ فإن أمتمتم به واهتديتم؛ فهو من توفيقكم، وإلا؛ قامت عليكم الحجة، وكتمت على بينة من أمركم.

﴿٦﴾ وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِنْ نَبِيِّ فِي الْأَوَّلِينَ ﴿٧﴾ وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٨﴾ فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُمْ بَطْشًا وَمَضَى مَثَلُ الْأَوَّلِينَ ﴿٩﴾

﴿١٠﴾ - ﴿١١﴾ يقول تعالى: إن هذه سنتنا في الخلق ألا نتركهم هملاً؛ فكم ﴿أَرْسَلْنَا مِنْ نَبِيِّ فِي الْأَوَّلِينَ﴾؛ أي: بأمرناهم بعبادة الله وحده لا شريك له، ولم يزل التكذيب موجوداً في الأمم. ﴿١٢﴾ وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿١٣﴾: جحدًا لما جاء به، وتكبُّراً على الحق، ﴿فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ﴾ من هؤلاء ﴿بَطْشًا﴾؛ أي: قوة وأفعالاً وآثاراً في الأرض، ﴿وَمَضَى مَثَلُ الْأَوَّلِينَ﴾؛ أي: مضت أمثالهم وأخبارهم وبيننا لكم منها ما فيه عبرة ومزدجر عن التكذيب والإنكار.

﴿١٤﴾ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ﴿١٥﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٦﴾ وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً يَقْدِرُ فَأَنْشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيِّتًا كَذَلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١٧﴾ وَالَّذِي خَلَقَ الْأَنْزَجَ كُلَّهُ وَجَعَلَ لَكُمُ مِنَ الْفَلَاحِ وَالْآفَاحِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٨﴾ لِيَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ ﴿١٩﴾ وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُقَبِلُونَ ﴿٢٠﴾

وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٢١﴾ صِرَاطَ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۚ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ تَعَالَى الْأُمُورُ ﴿٢٢﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
حَمِّ ١ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ٢ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ٣ وَإِنَّهُ فِي أُولَى الْأَكْتَابِ لَذِينَ لَعَلِّي حَكِيمٌ ٤ أَنْفَضِرْبُ عَنْكُمْ الذِّكْرَ صَفْحًا أَنْ كُنْتُمْ قَوْمًا مُسْرِفِينَ ٥ وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِنْ نَبِيٍّ فِي الْأَوَّلِينَ ٦ وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ٧ فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُمْ بَطْشًا وَمَضَى مَثَلُ الْأَوَّلِينَ ٨ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ٩ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ١٠

﴿٩﴾ يخبر تعالى عن المشركين أنك لو ﴿سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ﴾: الله وحده لا شريك له. ﴿الْفَرِيقُ﴾: الذي دانت لعزته جميع المخلوقات. ﴿الْعَلِيمُ﴾: بظواهر الأمور وبواطنها وأوائها وأواخرها. فإذا كانوا مقرين بذلك؛ فكيف يجعلون له الولد والصاحبة والشريك؟! وكيف يشركون به من لا يخلق ولا يرزق ولا يميت ولا يحيي؟! ﴿١٠﴾

ثم ذكر أيضًا من الأدلة الدالة على كمال نعمته واقتداره بما خلقه لعباده من الأرض التي مهدها وجعلها قرارًا للعباد يتمكنون فيها من كل ما يريدون، ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا﴾؛ أي: جعل منافذ بين سلاسل الجبال المتصلة تنفذون منها إلى ما وراءها من الأقطار، ﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾: في السير في الطرق ولا تضيعون، ولعلكم أيضًا تهتدون في الاعتبار بذلك والادكار فيه. ﴿١١﴾

﴿وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ﴾: لا يزيد ولا ينقص، ويكون أيضًا بمقدار الحاجة؛ لا ينقص بحيث لا يكون فيه نفع، ولا يزيد بحيث يضر العباد والبلاد، بل أغاث به العباد، وأنقذ به البلاد من الشدة، ولهذا قال: ﴿فَأَنْزَلْنَا بِهِ بَلَدَهُ مَيِّتًا﴾؛ أي: أحييناها بعد موتها، ﴿كَذَلِكَ نُخْرِجُوهَا﴾: أي: فكما أحيا الأرض الميتة الهامدة بالماء؛ كذلك يحييكم بعدما تستكملون في البرزخ بأعمالكم. ﴿١٢﴾

﴿وَالَّذِي خَلَقَ الْأَرْزَاقَ كُلَّهَا﴾؛ أي: الأصناف جميعها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون؛ من ليل ونهار، وحر وبرد، وذكر وأنثى... وغير ذلك، ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْفَلَكِ﴾: السفن البحرية الشراعية والنارية ما تركبون، ومن الأنعام ﴿مَا تَرْكَبُونَ﴾. ﴿١٣﴾

﴿لَسْتُمْ عَلَى ظُهُورِهِ﴾: وهذا شامل لظهور الفلك ولظهور الأنعام؛ أي: لستقروا عليها. ﴿ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ﴾: بالاعتراف بالنعمة لمن سخرها والثناء عليه تعالى بذلك، ولهذا قال: ﴿وَتَقُولُوا سُبْحَنَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ﴾: أي: لولا تسخيرها لنا ما سخر من الفلك والأنعام؛ ما كنا مطيقين لذلك وقادرين عليه، ولكن من لطفه وكرمه تعالى سخرها وذلها ويسر أسبابها. والمقصود من هذا بيان أن الرب الموصوف بما ذكره من إفاضة النعم على العباد هو الذي يستحق أن يعبد، ويصلى له ويسجد. ﴿١٤﴾

﴿وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنْ الْإِنْسَانُ لَكَفُورٌ مُبِينٌ﴾: أَرَأَيْتُمْ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَحَكُمْ بِالْبَيْنِ ﴿وَأَذَا بَشَرًا أَحَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾: أَوَمِنْ يُنْشَأُ فِي الْحَلِيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرَ مُبِينٍ ﴿وَجَعَلُوا لِلْمَلَائِكَةِ الَّذِينَ هُمْ عِبْدُ الرَّحْمَنِ إِنِ شَاءُوا أَشْهَادًا خَلَقَهُمْ سَتَكُنَّ مِنْكُمْ مَنَاقِبُ﴾: أَمْ أَنْتُمْ مِّنْ قَبْلِهِ فَهُمْ بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ ﴿بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أَمَّةٍ وَّإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُّقْتَدُونَ﴾: وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أَمَّةٍ وَّإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُّقْتَدُونَ ﴿قُلْ أُولُو حِجَّتِكُمْ بَاهِدْيَ وَمَا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾: فَانْقَمْنَا مِنْهُمْ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عِقَابُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿١٥﴾

﴿وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنْشَرْنَا بِهِ بَلَدَهُ مَيِّتًا كَذَلِكَ نُخْرِجُوهَا﴾: ﴿وَالَّذِي خَلَقَ الْأَرْزَاقَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْفَلَكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ﴾: ﴿لَسْتُمْ عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَنَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ﴾: ﴿وَأَنَّا إِلَٰهِنَا لَمُغْلِبُونَ﴾: ﴿وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنْ الْإِنْسَانُ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ﴾: ﴿أَرَأَيْتُمْ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَحَكُمْ بِالْبَيْنِ﴾: ﴿وَأَذَا بَشَرًا أَحَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾: ﴿أَوَمِنْ يُنْشَأُ فِي الْحَلِيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرَ مُبِينٍ﴾: ﴿وَجَعَلُوا لِلْمَلَائِكَةِ الَّذِينَ هُمْ عِبْدُ الرَّحْمَنِ إِنِ شَاءُوا أَشْهَادًا خَلَقَهُمْ سَتَكُنَّ مِنْكُمْ مَنَاقِبُ﴾: ﴿وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾: ﴿أَمْ أَنْتُمْ مِّنْ قَبْلِهِ فَهُمْ بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ﴾: ﴿بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أَمَّةٍ وَّإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُّقْتَدُونَ﴾: ﴿١٥﴾

وشرعاً؛ فكل عاقل لا يقبل الاحتجاج بالقدر، ولو سلكه في حالة من أحواله؛ لم يثبت عليها قدمه، وأما شرعاً؛ فإن الله تعالى أبطل الاحتجاج به، ولم يذكره عن غير المشركين به المكذبين لرسله؛ فإن الله تعالى قد أقام الحجة على العباد؛ فلم يبق لأحد عليه حجة أصلاً، ولهذا قال هنا: ﴿مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ (١٥)؛ أي: يتخرون تخروصاً لا دليل عليه، ويتخبطن خبط عشواء.

﴿١٦﴾ ثم قال: ﴿أَمْ أَلَيْسَ كِتَابًا مِنْ قَبْلِهِ فَهُمْ بِهِ مُسْتَسْكِرُونَ﴾ (١٦)؛ يخبرهم بصحة أفعالهم وصدق أقوالهم؟! ليس الأمر كذلك؛ فإن الله أرسل محمداً نذيراً إليهم، وهم لم يأتهم نذير غيره؛ أي: فلا عقل ولا نقل، وإذا انتفى الأمران؛ فلا ثم إلا الباطل.

﴿١٧﴾ نعم؛ لهم شبهة من أوهى الشبه، وهي تقليد آبائهم الضالين، الذين ما زال الكفرة يردون بتقليدهم دعوة الرسل، ولهذا قال هنا: ﴿بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أَمْرٍ ۖ أَيْ: عَلَىٰ دِينٍ وَمِلَّةٍ، وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُتَّبِعُونَ﴾ (١٧)؛ أي: فلا تنبع ما جاء به محمد ﷺ.

﴿١٨﴾ وكذلك ما أرسلنا من قبلك في قرآنٍ من نذيرٍ إلا قال مرفوهاً؛ أي: منعموها وملوها الذين أطغتهم الدنيا وغرتهم الأموال واستكبروا على الحق: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أَمْرٍ ۖ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُتَّبِعُونَ﴾ (١٨)؛ أي: فهؤلاء ليسوا ببدع منهم، وليسوا بأول من قال هذه المقالة. وهذا الاحتجاج من هؤلاء المشركين الضالين بتقليدهم لآبائهم الضالين ليس المقصود به اتباع الحق والهدى، وإنما هو تعصب محض، يراد به نصرته ما معهم من الباطل.

﴿١٩﴾ ولهذا كل رسول يقول لمن عارضه بهذه الشبهة الباطلة: ﴿أَوَلَمْ يَحْشُرْكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ﴾ (١٩)؛ أي: أفتستبغوني لأجل الهدى؟ ﴿قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾ (٢٠)؛ فاعلم بهذا أنهم ما أرادوا اتباع الحق والهدى، وإنما قصدهم اتباع الباطل والهوى.

﴿٢١﴾ ﴿فَأَنذَرْنَا مِنْهُمْ﴾ بتكذيبهم الحق وردهم إياه بهذه الشبهة الباطلة، ﴿فَأَنظَرَكُم﴾ كان عقبة المكذبين ﴿٢١﴾؛ فليحذر هؤلاء أن يستمروا على تكذيبهم فيصيبهم ما أصابهم.

﴿٢٢﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيِّدُنِي ﴿٢٣﴾ وَجَعَلَهَا

﴿٢٤﴾ يخبر تعالى عن شناعة قول المشركين الذين جعلوا لله تعالى ولداً، وهو الواحد الأحد الفرد الصمد، الذي لم يتخذ صاحبة ولا ولداً، ولم يكن له كفواً أحد. وأن ذلك باطل من عدة أوجه: منها: أن الخلق كلهم عباد، والعبودية تنافي الولادة. ومنها: أن الولد جزء من والده، والله تعالى بائن من خلقه مبين لهم في صفاته ونعوت جلاله، والولد جزء من الوالد؛ فمحال أن يكون لله تعالى ولد.

﴿٢٥﴾ ومنها: أنهم يزعمون أن الملائكة بنات الله، ومن المعلوم أن البنات أدون الصنفين؛ فكيف يكون لله البنات ويصطفيهن بالبنين ويفضلهم بها؟! فإذا؛ يكونون أفضل من الله تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً!

﴿٢٦﴾ ومنها: أن الصنف الذي نسبوه لله - وهو البنات - أدون الصنفين وأكرهما لهم، حتى إنهم من كراهتهم لذلك إذا ﴿بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا﴾ (٢٦) من كراهته وشدة بغضه؛ فكيف يجعلون لله ما يكرهون؟!

﴿٢٧﴾ ومنها: أن الأنثى ناقصة في وصفها وفي منطقها وبيانها، ولهذا قال تعالى: ﴿أَوَمِنْ يُنْشَأُ فِي الْحُلِيِّ﴾ (٢٧)؛ أي: يجمل فيها لنقص جماله، فيجمل بأمر خارج عنه، ﴿وَهُوَ فِي الْخِصَامِ﴾ (٢٨)؛ أي: عند الخصام الموجب لإظهار ما عند الشخص من الكلام ﴿غَيْرِ مُبِينٍ﴾ (٢٨)؛ أي: غير مبين لحجته ولا مفصح عما احتوى عليه ضميره؛ فكيف ينسبون لله تعالى؟!

﴿٢٩﴾ ومنها: أنهم جعلوا ﴿الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِنْدَ الرَّحْمَنِ إِنَّتَ﴾ (٢٩)؛ فتجروا على الملائكة العباد المقربين، ورفقهم عن مرتبة العبادة والذل إلى مرتبة المشاركة لله في شيء من خواصه، ثم نزلوا بهم عن مرتبة الذكورية إلى مرتبة الأنوثة؛ فسبحان من أظهر تناقض من كذب عليه وعاند رسله! ومنها: أن الله رد عليهم بأنهم لم يشهدوا خلق الله لملائكته؛ فكيف يتكلمون بأمر من المعلوم عند كل أحد أنه ليس لهم به علم؟! ولكن لا بد أن يسألوا عن هذه الشهادة، وستكتب عليهم ويعاقبون عليها.

﴿٣٠﴾ وقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ﴾ (٣٠) فاحتجوا على عبادتهم الملائكة بالمشيئة، وهي حجة لم يزل المشركون يطرقونها، وهي حجة باطلة في نفسها عقلاً

سورة الزخرف

سورة الزخرف

وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا
إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُّقْتَدُونَ ﴿٢٦﴾
﴿ قُلْ أُولَئِكَ حُتُّوا بَآءُكُمْ وَإِنَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِمْ آيَاتِهِمْ ﴾ قَالُوا
إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴿٢٧﴾ فَأَنْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَنْظَرَكُنَّكَ
كَانَ عَقِيبَهُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٨﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ
إِنِّي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٩﴾ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ
﴿٣٠﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٣١﴾ بَلْ
مَتَّعْتُ هَؤُلَاءَ وَآبَاءَهُمْ حَتَّىٰ جَاءَهُمُ الْحَقُّ وَرَسُولٌ مُبِينٌ ﴿٣٢﴾
وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ ﴿٣٣﴾ وَقَالُوا
لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣٤﴾ أَمْ
يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ﴿٣٥﴾ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ
الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ
بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٦﴾ وَلَوْلَا
أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ
لِيُجْزِيَهِمْ سُقَاتًا مِنْ فَوْقٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٧﴾

كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ بَلْ مَتَّعْتُ هَؤُلَاءَ
وَآبَاءَهُمْ حَتَّىٰ جَاءَهُمُ الْحَقُّ وَرَسُولٌ مُبِينٌ ﴿٢٩﴾ وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ
قَالُوا هَذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ ﴿٣٠﴾ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ
عَلَىٰ رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ أَمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ
نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ
فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ
رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٢﴾

﴿٣٣﴾ يخبر تعالى عن ملة إبراهيم الخليل عليه السلام، الذي
يتسبب إليه أهل الكتاب والمشركون، وكلهم يزعم أنه على
طريقته، فأخبر عن دينه الذي ورثه في ذريته، فقال: ﴿ وَإِذْ
قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ ﴾: الذين اتخذوا من دون الله آلهة
يعبدونها ويتقربون إليهم: ﴿ إِنِّي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ ﴾؛
أي: مبغض له مجتنب معاد لأهله.

﴿٣٤﴾ ﴿ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي ﴾؛ فإني أنولاه وأرجو أن يهديني
للعلم بالحق والعمل بالحق؛ فكما فطرني ودبرني بما يصلح
بدني ودنياي، فـ ﴿ سَيَهْدِينِ ﴾؛ لما يصلح ديني وآخرتي.

﴿٣٥﴾ ﴿ وَجَعَلَهَا ﴾؛ أي: هذه الخصلة الحميدة التي هي أم
الخصال وأساسها، وهي إخلاص العبادة لله وحده، والتبري
من عبادة ما سواه ﴿ كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ ﴾؛ أي: في ذريته، ﴿ لَعَلَّهُمْ ﴾: إليها ﴿ يَرْجِعُونَ ﴾؛ لشهرتها عنه وتوصيته لذريته
وتوصية بعض بنيهِ كإسحاق ويعقوب لبعض؛ كما قال تعالى: ﴿ وَمَنْ يَرْغَبْ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ ﴾ [البقرة: ١٣٠].
إلى آخر الآيات.

﴿٣٦﴾ فلم تزل هذه الكلمة موجودة في ذريته عليه السلام حتى دخلهم الترف والطغيان، فقال تعالى: ﴿ بَلْ مَتَّعْتُ هَؤُلَاءَ
وَآبَاءَهُمْ ﴾: بأنواع الشهوات، حتى صارت هي غايتهم ونهاية مقصودهم، فلم تزل يترى حبها في قلوبهم، حتى صارت
صفات راسخة وعقائد متأصلة. ﴿ حَتَّىٰ جَاءَهُمُ الْحَقُّ ﴾: الذي لا شك فيه ولا مرية ولا اشتباه، ﴿ وَرَسُولٌ مُبِينٌ ﴾؛ أي: بين
الرسالة، قامت أدلة رسالته قياماً باهراً بأخلاقه ومعجزاته، وبما جاء به، وبما صدق به المرسلين وبنفس دعوته ﷺ.

﴿٣٧﴾ ﴿ وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ ﴾: الذي يوجب على من له أدنى دين ومعقول أن يقبله وينقاد له، ﴿ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ
كَافِرُونَ ﴾؛ وهذا من أعظم المعاندة والمشاقة؛ فإنهم لم يكتفوا بمجرد الإعراض عنه، بل ولا جحدته، فلم يرضوا حتى
قدحوا به قدحاً شنيعاً، وجعلوه بمنزلة السحر الباطل الذي لا يأتي به إلا أخبث الخلق وأعظمهم افتراء، والذي حملهم على
ذلك طغيانهم بما متعهم الله به وآباءهم.

﴿٣٨﴾ ﴿ وَقَالُوا ﴾: مقترحين على الله بعقولهم الفاسدة: ﴿ لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾؛ أي: معظم
عندهم مبجل من أهل مكة أو أهل الطائف؛ كالوليد بن المغيرة ونحوه ممن هو عندهم عظيم.

﴿٣٩﴾ قال الله ردّاً لاقتراحهم: ﴿ أَمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ﴾؛ أي: أهم الخزان لرحمة الله، ويبدعهم تديبرها، فيعطون النبوة
والرسالة من يشاءون، ويمنعونها ممن يشاءون؟! ﴿ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ ﴾؛
أي: في الحياة الدنيا، والحال أن رحمة ﴿ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ ﴾؛ من الدنيا؛ فإذا كانت معاش العباد وأرزاقهم الدنيوية

وَزُخْرُفًا وَإِنْ كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَّعَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ
عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٢٥﴾

﴿٣٣﴾ - ﴿٣٤﴾ يخبر تعالى بأن الدنيا لا تسوى عنده شيئاً، وأنه لو لا لطفه ورحمته بعباده التي لا يقدم عليها شيئاً؛ لوسع الدنيا على الذين كفروا توسيعاً عظيماً، ولجعل ﴿لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّنْ فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ﴾؛ أي: درجاً من فضة، ﴿عَلَيْهَا يَنْهَوْنَ﴾ ﴿٣٣﴾: إلى سطوحهم، ﴿وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابٌ وَسُرُرٌ عَلَيْهَا يَتَكُونُونَ﴾ ﴿٣٤﴾: من فضة، ولجعل لهم زخرفاً؛ أي: للزخرف لهم دنياهم بأنواع الزخارف وأعطاهم ما يشتهون، ولكن منعه من ذلك رحمته بعباده؛ خوفاً عليهم من التسارع في الكفر وكثرة المعاصي بسبب حب الدنيا. ففي هذا دليل على أنه يمنع العباد بعض أمور الدنيا متعاً عاماً أو خاصاً لمصالحهم، وأن الدنيا لا تزن عند الله جناح بعوضة. وأن كل هذه المذكورات متاع الحياة الدنيا مغصّة مكدرّة فانية، وأن الآخرة عند الله تعالى خير للمؤمنين لربهم بامثال أو أمره واجتناب نواهيهِ؛ لأن نعيمها تام كامل من كل وجه، وفي الجنة ما تشتهي الأنفس وتلذ الأعين، وهم فيها خالدون. فما أشد الفرق بين الدارين!

﴿ وَمَنْ يَعِشْ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقِصْ لَهُ سَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ﴾ ﴿٢٦﴾ ﴿ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّوهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهُتَدُونَ ﴾ ﴿٢٧﴾ ﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَلَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بَعْدَ الْمَهِرَةِ فَيَسْ أَلْقَرِينِ ﴾ ﴿٢٨﴾ ﴿ وَلَنْ يَفْعَلَكَ الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴾ ﴿٢٩﴾ .

﴿٣٦﴾ يخبر تعالى عن عقوبته البليغة بمن أعرض عن ذكره، فقال: ﴿وَمَنْ يَعْشْ﴾؛ أي: يعرض ويصد ﴿عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ﴾: الذي هو القرآن العظيم، الذي هو أعظم رحمة رحم بها الرحمن عباده؛ فمن قبلها؛ فقد قبل خير المواهب، وفاز بأعظم المطالب والرغائب، ومن أعرض عنها ووردها؛ فقد خاب وخسر خسارة لا يسعد بعدها أبدًا، وقبض له الرحمن شيطانًا مريدًا يقارنه ويصاحبه ويعدده ويمنيه ويؤزّه إلى المعاصي أژًا.

﴿٢٧﴾ ﴿وَأَنذَرْتَهُمْ يَصُدُّوهُمْ عَنِ السَّبِيلِ﴾؛ أي: الصراط المستقيم والدين القويم، ﴿وَنَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾ ﴿٢٨﴾ بسبب تزوين الشيطان للباطل وتحسينه له وإعراضهم عن الحق، فاجتمع هذا وهذا. فإن قيل: فهل لهذا من عذر من

بيد الله تعالى، هو الذي يقسمها بين عباده، فيسقط الرزق على من يشاء ويضيقه على من يشاء بحسب حكمته؛ ففرحمته الدينية - التي أعلاها النبوة والرسالة - أولى وأحرى أن تكون بيد الله تعالى؛ فالله أعلم حيث يجعل رسالته.

فعلم أن اقتراحهم ساقط لاغ، وأن التدبير للأمور كلها دينيها ودينيتها بيد الله وحده، هذا إقناع لهم من جهة غلطهم في الاقتراح الذي ليس في أيديهم منه شيء، إن هو إلا ظلم منهم ورد للحق. وقولهم: ﴿لَوْلَا نَزَلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْفَرِثِيِّينَ عَظِيمٍ﴾ لو عرفوا حقائق الرجال والصفات التي بها يعرف علو قدر الرجل، وعظم منزلته عند الله وعند خلقه؛ لعلموا أن محمد بن عبد الله بن عبد المطلب هو أعظم الرجال قدراً، وأعلاهم فخراً، وأكملهم عقلاً، وأغزهم علماً، وأجلهم رآياً وعزماً وحزماً، وأكملهم خلقاً، وأوسعهم رحمة، وأشدهم شفقة، وأهداهم وأتقاهم، وهو قطب دائرة الكمال، وإليه المنتهى في أوصاف الرجال، ألا وهو رجل العالم على الإطلاق؛ يعرف ذلك أولياؤه وأعداؤه؛ إلا من ضل وكابر؛ فكيف يفضل عليه المشركون من لم يشم مثقال ذرة من كماله، ومن حزمه ومنتهى عقله أن جعل إلهه الذي يعبدوه ويدعوه ويتقرب إليه صنماً أو شجراً أو حجراً لا يضر ولا ينفع ولا يعطي ولا يمنع، وهو كل على مولاه، يحتاج لمن يقوم بمصالحه؟! فهل هذا إلا من فعل السفهاء والمجانين؟! فكيف يجعل مثل هذا عظيماً؟! أم كيف يفضل على خاتم الرسل وسيد ولد آدم ﷺ؟! ولكن الذين كفروا لا يعقلون.

وفي هذه الآية تنبيه على حكمة الله تعالى في تفضيل الله بعض العباد على بعض في الدنيا؛ ﴿لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُرْحَانًا﴾ أي: ليسخر بعضهم بعضًا في الأعمال والحرف والصنائع؛ فلو تساوى الناس في الغنى ولم يحتج بعضهم إلى بعض؛ لتعطلت كثير من مصالحهم ومنافعهم.

وفيه دليل على أن نعمته الدينية خير من النعمة الدنيوية؛ كما قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ ﴿٥٨﴾.

﴿ وَلَوْلَا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقْفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴾ ﴿٢٥٦﴾

حيث إنه ظن أنه مهتد وليس كذلك؟ قيل: لا عذر لهذا وأمثاله الذين مصدر جهلهم الإعراض عن ذكر الله مع تمكنهم على الاهتداء، فزهّدوا في الهدى مع القدرة عليه، ورغبوا في الباطل؛ فالذنب ذنبهم والجرم جرمهم.

﴿٢٨﴾ فهذه حالة هذا المعرض عن ذكر الله في الدنيا مع قرينه، وهو الضلال والغى وانقلاب الحقائق، وأما حاله إذا جاء ربه في الآخرة؛ فهو شر الأحوال، وهو الندم والتحسر والحزن الذي لا يُجبر مصابه والتبري من قرينه، ولهذا قال تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَنَا قَالَ بَلَغْتَ بَيْتِي وَيَبْنُكَ بَعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَيَنْسُ الْفَرِيقَ﴾ ﴿٢٩﴾؛ كما في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَعْصُ الظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَسْقُوتُ يَنْزِلُنِي أَخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا﴾ ﴿٣٠﴾ يُوَلِّتُنِي لِتَنِي لَوْ أَخَذْتُ فَلَا تَا خَلِيلًا ﴿٣١﴾ لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَدُولًا ﴿٣٢﴾﴾ [الفرقان: ٢٧-٢٩].

﴿٣٣﴾ وقوله تعالى: ﴿وَلَنْ يَنْفَعَكُمْ الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنْتُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ ﴿٣٤﴾؛ أي: ولا ينفعكم يوم القيامة اشتراككم في العذاب أنتم وقرناؤكم وأخلاقكم، وذلك لأنكم اشتركتم في الظلم فاشتركتم في عقابه وعذابه، ولن ينفعكم أيضًا روح التسلي في المصيبة؛ فإن المصيبة إذا وقعت في الدنيا واشترك فيها المعاقبون؛ هان عليهم بعض الهون، وتسلى بعضهم ببعض، وأما مصيبة الآخرة؛ فإنها جمعت كل عقاب ما فيه أدنى راحة، حتى ولا هذه الراحة. نسألك يا ربنا العافية وأن تريحنا برحمتك.

﴿٣٥﴾ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِي الْأَعْمَىٰ وَمَنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٣٦﴾ فَإِنَّمَا نَذَرْنَا بِكَ فَإِنَّمَا مِنْهُمْ مُتَقِمُونَ ﴿٣٧﴾ أَوْ نُزِيلُكَ الَّذِي وَعَدْنَاهُمْ فَإِنَّمَا عَلَيْهِمْ مُّقْتَدِرُونَ ﴿٣٨﴾ فَاسْتَمِيعْ بِالَّذِي أَرْجَىٰ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٣٩﴾ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ ﴿٤٠﴾ وَسَلِّ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ أَعْجَلَنَا مِنْ دُونِ اللَّهِ يَعْجِدُونَ ﴿٤١﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٢﴾ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِآيَاتِنَا إِذَا هُمْ بِهَا يَضْحَكُونَ ﴿٤٣﴾

﴿٤٤﴾ يقول تعالى لرسوله ﷺ مسلياً له عن امتناع المكذبين عن الاستجابة له وأنهم لا خير فيهم ولا فيهم زكاء يدعوهم إلى الهدى: ﴿أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ﴾؛ أي: الذين لا يسمعون، ﴿أَوْ تَهْدِي الْأَعْمَى﴾؛ الذين لا يبصرون أو تهدي من ﴿كَانَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾؛ أي: بين واضح لعلمه بضلاله ورضاه به؛ فكما أن الأصم لا يسمع الأصوات، والأعمى لا يبصر، والضال ضالاً مبيناً لا يهتدي؛ فهؤلاء قد فسدت فطرتهم وعقولهم بإعراضهم عن الذكر، واستحدثوا عقائد فاسدة وصفات خبيثة تمنعهم وتحول بينهم وبين الهدى، وتوجب لهم الازدياد من الردى.

﴿٤٥﴾ فهؤلاء لم يبق إلا عذابهم ونكالهم إما في الدنيا أو في الآخرة، ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّمَا نَذَرْنَا بِكَ فَإِنَّمَا مِنْهُمْ مُتَقِمُونَ﴾ ﴿٤٦﴾؛ أي: فإن ذهبنا بك قبل أن نريك ما نعدهم من العذاب؛ فاعلم بخبرنا الصادق أننا متقمون.

﴿٤٧﴾ أَوْ نُزِيلُكَ الَّذِي وَعَدْنَاهُمْ ﴿٤٨﴾ من العذاب، ﴿إِنَّمَا عَلَيْهِمْ مُّقْتَدِرُونَ﴾ ﴿٤٩﴾؛ ولكن ذلك متوقف على اقتضاء الحكمة لتعجيله أو تأخير؛ فهذه حاله وحال هؤلاء المكذبين.

﴿٥٠﴾ وأما أنت؛ ﴿فَاسْتَمِيعْ بِالَّذِي أَرْجَىٰ إِلَيْكَ﴾؛ فعلاً واتصافاً بما يأمر بالاتصاف به، ودعوة إليه، وحرصاً على تنفيذه بنفسك وفي غيرك. ﴿إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ ﴿٥١﴾؛ موصل إلى الله وإلى دار كرامته، وهذا مما يوجب عليك زيادة التمسك

سورة الزخرف
وَيُسْمِعُ يَوْمَ أَنْبَأُوا رَسُولًا عَلَيْهَا تَنَكُّبُونَ ﴿٣٥﴾ وَزُخْرُفًا وَإِنْ كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَّعَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٣٦﴾ وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقِضْ لَهُ شَيْعَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ﴿٣٧﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُّهْتَدُونَ ﴿٣٨﴾ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَنَا قَالَ بَلَغْتَ بَيْتِي وَيَبْنُكَ بَعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَيَنْسُ الْفَرِيقَ ﴿٣٩﴾ وَلَنْ يَنْفَعَكُمْ الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنْتُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٤٠﴾ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِي الْأَعْمَىٰ وَمَنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٤١﴾ فَإِنَّمَا نَذَرْنَا بِكَ فَإِنَّمَا مِنْهُمْ مُتَقِمُونَ ﴿٤٢﴾ أَوْ نُزِيلُكَ الَّذِي وَعَدْنَاهُمْ فَإِنَّمَا عَلَيْهِمْ مُّقْتَدِرُونَ ﴿٤٣﴾ فَاسْتَمِيعْ بِالَّذِي أَرْجَىٰ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٤٤﴾ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ ﴿٤٥﴾ وَسَلِّ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ أَعْجَلَنَا مِنْ دُونِ اللَّهِ يَعْجِدُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٧﴾ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِآيَاتِنَا إِذَا هُمْ بِهَا يَضْحَكُونَ ﴿٤٨﴾

به والامتداء، إذا علمت أنه حق وعدل وصدق تكون بانيًا على أصل أصيل، إذا بنى غيرك على الشكوك والأوهام والظلم والجور.

﴿٤٤﴾ وَإِنَّهُ؛ أَي: هذا القرآن الكريم، ﴿لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾؛ أَي: فخر لكم ومنقبة جلية ونعمة لا يقادر قدرها ولا يعرف وصفها، ويذكركم أيضًا ما فيه من الخير الدنيوي والأخروي، ويحثكم عليه، ويذكركم الشر ويرهبكم عنه. ﴿وَسَوْفَ تَسْأَلُونَ﴾؛ عنه: هل قمتم به فارتفعتم وانتفعتم؟ أم لم تقوموا به فيكون حجة عليكم وكفرًا منكم بهذه النعمة؟ ﴿٤٥﴾ وَتَسْأَلُ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ﴾؛ حتى يكون للمشركين نوع حجة يتبعون فيها أحدًا من الرسل؛ فإنك لو سألتهم واستخبرت عن أحوالهم؛ لم تجد أحدًا منهم يدعو إلى اتخاذ إله آخر مع الله، وأن كل الرسل من أولهم إلى آخرهم يدعون إلى عبادة الله وحده لا شريك له؛ قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦]، وكل رسول بعثه الله يقول لقومه: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ [الأعراف: ٥٩]، فدل هذا أن المشركين ليس لهم مستند في شركهم لا من عقل صحيح ولا نقل عن الرسل.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ﴾ إلى آخر القصة.

﴿٤٦﴾ لما قال تعالى: ﴿وَتَسْأَلُ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ﴾؛ بين تعالى حال موسى ودعوته التي هي أشهر ما يكون من دعوات الرسل، ولأن الله تعالى أكثر من ذكرها في كتابه، فذكر حاله مع فرعون فقال: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا﴾: التي دلت دلالة قاطعة على صحة ما جاء به؛ كالعصا والحية وإرسال الجراد والقمل... إلى آخر الآيات، ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ﴾ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾؛ فدعاهم إلى الإقرار بربهم، ونهاهم عن عبادة ما سواه.

﴿٤٧﴾، ﴿٤٨﴾ ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِآيَاتِنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَصْحَكُونَ﴾؛ أي: ردوها وأنكروها واستهزؤا بها ظلمًا وعلوًا، فلم يكن لقصور بالآيات وعدم وضوح فيها، ولهذا قال: ﴿وَمَا تُرِيدُهُمْ مِنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا﴾؛ أي: الآية المتأخرة أعظم من السابقة، ﴿وَأَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ﴾: كالجراد والقمل والضفادع والدم آيات مفصلات، ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾؛ إلى الإسلام ويزعنون له؛ ليزول شركهم وشرهم.

﴿٤٩﴾ ﴿وَقَالُوا﴾ عندما نزل عليهم العذاب: ﴿يَأْتِيَهُ السَّاحِرُ﴾؛ يعنون: موسى عليه السلام، وهذا إما من باب التهكم به، وإما أن يكون هذا الخطاب عندهم مدحًا، فنضربوا إليه بأن خاطبوه بما يخاطبون به من يزعمون أنهم علماؤهم، وهم السحرة، فقالوا: ﴿يَأْتِيَهُ السَّاحِرُ أَنْزَلَ رَبُّكَ بِمَا عَاهَدَ عَبْدُكَ﴾؛ أي: بما خصصك الله به وفضلك به من الفضائل والمناقب أن يكشف عنا العذاب، ﴿إِنَّا كُفَرْنَا بِكَ﴾؛ إن كشف الله عنا ذلك.

﴿٥٠﴾ ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنْكُتُونَ﴾؛ أي: لم يفوا بما قالوا، بل غدروا، واستمروا على كفرهم، وهذا كقوله تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ﴾ ولَمَّا

وَمَثَلًا لِلْآخِرِينَ ﴿٥١﴾ ليعتبر بهم المعتبرون، ويتعظ بأحوالهم المتعظون.

﴿٥٢﴾ وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴿٥٣﴾ وَقَالُوا ءَالِهَتُنَا خَيْرٌ أَوْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴿٥٤﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِّبَنِي إِسْرَءِيلَ ﴿٥٥﴾ وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنْكُمْ مَلَائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُفُونَ ﴿٥٦﴾ وَإِنَّهُ لَكَيْفَ لِلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَاتَّبِعُونِ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿٥٧﴾ وَلَا يَصُدُّكُمْ الشَّيْطَانُ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿٥٨﴾ وَلَمَّا جَاءَ عِيسَى بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلَفُونَ فِيهِ فَأَتَقُوا اللَّهَ وَاطِيعُونَ ﴿٥٩﴾ إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَأَعْبُدُوا هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿٦٠﴾ فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابٍ يَوْمَ أَلِيمٍ ﴿٦١﴾

﴿٥٧﴾ يقول تعالى: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا﴾؛ أي: نهي عن عبادته وجعلت عبادته بمنزلة عبادة الأصنام والأنداد، ﴿إِذَا قَوْمُكَ﴾: المكذبون لك ﴿مِنْهُ﴾؛ أي: من أجل هذا المثل المضروب، ﴿يَصِدُّونَ﴾؛ أي: يستلجون في خصومتهم لك ويصيحون ويزعمون أنهم قد غلبوا في حجتهم وأفلجوا.

﴿٥٨﴾ وَقَالُوا ءَالِهَتُنَا خَيْرٌ أَوْ هُوَ﴾؛ يعني: عيسى؛ حيث نهي عن عبادة الجميع، وشورك بينهم بالوعيد على من عبدهم، ونزل أيضًا قوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصْبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَرَدُونَ﴾. ووجه حجتهم الظالمة أنهم قالوا: قد تقرر عندنا وعندك يا محمد أن عيسى من عباد الله المقربين الذين لهم العاقبة الحسنة؛ فلم سويت بينه وبينها في النهي عن عبادة الجميع؟! فلو لا أن حجتك باطلة؛ لم تتناقض؟! ولم قلت: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصْبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَرَدُونَ﴾ ﴿[الأنبياء: ٩٨]﴾ وهذا اللفظ بزعمهم يعم الأصنام وعيسى؛ فهل هذا إلا تناقض؟ وتناقض الحجة دليل على بطلانها! هذا أنهى ما يقررون به هذه الشبهة التي فرحوا بها واستبشروا وجعلوا يصدون ويتباشرون. وهي - ولله الحمد - من أضعف الشبه وأبطلها؛ فإن تسوية الله بين النهي عن عبادة المسيح وبين النهي عن عبادة الأصنام؛ لأن العبادة حق لله تعالى، لا يستحقها أحد من الخلق لا الملائكة

وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَمُوسَى أَدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ لَئِنْ كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَءِيلَ ﴿١٣٥﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الرِّجْزَ إِلَى أَجَلٍ هُمْ بِلُغْوِهِ إِذَا هُمْ يَنْكُتُونَ ﴿١٣٦﴾ [الأعراف: ١٣٣-١٣٥].

﴿١٣٥﴾ وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ: ﴿مُسْتَعْلِيًا يَبَاطِلُهُ قَدْ غَرِهَ مَلَكُهُ وَأَطْغَاهُ مَالُهُ وَجُنُودُهُ: ﴿يَقَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكٌ يَضُرُّ﴾؛ أي: أليس المالك لذلك المتصرف فيه؟ ﴿وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي﴾؛ أي: الأنهار المنسحبة من النيل في وسط القصور والبساتين. ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ ﴿١٣٦﴾: هذا الملك الطويل العريض؟! وهذا من جهله البليغ؛ حيث افتخر بأمر خارج عن ذاته، ولم يفخر بأوصاف حميدة، ولا أفعال سديدة.

﴿١٣٧﴾ أَرَأَيْتَ إِنْ خَرَّ مِنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ﴾؛ يعني - قبحه الله - بالمهين موسى بن عمران كليم الرحمن الوجه عند الله؛ أي: أنا العزيز وهو الذليل المهان المحقر؛ فأينا خير؟! ﴿و﴾ مع هذا؛ فلا ﴿يَكَادُ يُبَيِّنُ﴾ ﴿١٣٨﴾ عما في ضميره بالكلام؛ لأنه ليس بفصيح اللسان، وهذا ليس من العيوب في شيء، إذا كان يبين ما في قلبه، ولو كان ثقیلاً عليه الكلام.

﴿١٣٩﴾ ثُمَّ قَالَ فِرْعَوْنُ: ﴿فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِنْ ذَهَبٍ﴾؛ أي: فهلا كان موسى بهذه الحالة: أن يكون مزينا مجملاً بالحلي والأساور، ﴿أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقَرَّرِينَ﴾ ﴿١٤٠﴾: يعاونونه على دعوته ويؤيدونه على قوله.

﴿١٤١﴾ فَاسْتَحَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ﴾؛ أي: استخف عقولهم بما أبدى لهم من هذه الشبه، التي لا تسمن ولا تغني من جوع، ولا حقيقة تحتها، وليست دليلاً على حق ولا على باطل، ولا تروج إلا على ضعفاء العقول؛ فأى دليل يدل على أن فرعون محق لكون ملك مصر له وأنهاره تجري من تحته؟! وأى دليل يدل على بطلان ما جاء به موسى لقلة أتباعه وقل لسانه وعدم تحلية الله له؟! ولكنه لقي ملاً لا معقول عندهم؛ فمهما قال؛ اتبعوه؛ من حق وباطل. ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ ﴿١٤٢﴾: فبسبب فسقهم قبيض لهم فرعون، يزين لهم الشرك والشر.

﴿١٤٣﴾ ﴿فَلَمَّا ءَاسَفُونَا﴾؛ أي: أغضبونا بأفعالهم، ﴿أَنْقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ ﴿١٤٤﴾ فجعلناهم سلفاً

المقربون ولا الأنبياء المرسلون ولا من سواهم من الخلق؛
فأي شبهة في تسوية النهي عن عبادة عيسى وغيره؟!

﴿٥٩﴾ وليس تفضيل عيسى عليه السلام وكونه مقرباً عند ربه ما يدل على الفرق بينه وبينها في هذا الموضع، وإنما هو كما قال تعالى: ﴿إِنَّ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ﴾: بالنبوة والحكمة والعلم والعمل، ﴿وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِّبَنِي إِسْرَءِيلَ﴾: يعرفون به قدرة الله تعالى على إيجاده من دون أب. وأما قوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصْبُ جَهَنَّمَ أَنتَر لَهَا وَرَدُّونَ﴾ ﴿٦٠﴾؛ فالجواب عنها من ثلاثة أوجه: أحدها: أن قوله: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ أن ﴿مَا﴾ اسم لما لا يعقل لا يدخل فيه المسيح ونحوه. الثاني: أن الخطاب للمشركين الذين بمكة وما حولها، وهم إنما يعبدون أصناماً وأوثاناً ولا يعبدون المسيح. الثالث: أن الله قال بعد هذه الآية: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ ﴿٦١﴾ [الأنبياء: ١٠١]؛ فلا شك أن عيسى وغيره من الأنبياء والأولياء داخلون في هذه الآية.

﴿٦٢﴾ ثم قال تعالى: ﴿وَلَوْ كُنَّا فَاعِلِينَ لَمَلَكْنَا مَلَائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُقُونَ﴾ ﴿٦٣﴾؛ أي: لجعلنا بدلکم ملائكة يخلقونکم في الأرض، ويكونون في الأرض حتى نرسل إليهم ملائكة من جنسهم، وأما أنتم يا معشر البشر؛ فلا تطيقون أن ترسل إليکم الملائكة؛ فمن رحمة الله بکم أن أرسل إليکم رسلاً من جنسکم تتمكنون من الأخذ عنهم.

﴿٦٤﴾ وَإِنَّهُ لَعِلَّمَ لِّلسَّاعَةِ أَي: وإن عيسى عليه السلام لدليل على الساعة، وأن القادر على إيجاده من أم بلا أب قادر على بعث الموتى من قبورهم، أو: وإن عيسى عليه السلام سينزل في آخر الزمان ويكون نزوله علامة من علامات الساعة، ﴿فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا﴾؛ أي: لا تشكن في قيام الساعة؛ فإن الشك فيها كفر، ﴿وَأَنصِبُوا﴾: بامثال ما أمرتكم واجتناب ما نهيتكم، ﴿هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾: موصل إلى الله عز وجل.

﴿٦٥﴾ وَلَا يَصُدُّكُمْ الشَّيْطَانُ: عما أمرکم الله به؛ فإن الشيطان ﴿لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ ﴿٦٦﴾: حريص على إغوائکم، باذل جهده في ذلك.

﴿٦٧﴾ وَلَمَّا جَاءَ عِيسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ: الدالة على صدق نبوته وصحة ما جاءهم به من إحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص ونحو ذلك من الآيات، ﴿قَالَ﴾: لبني إسرائيل: ﴿قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ﴾: النبوة والعلم بما ينبغي على الوجه الذي ينبغي، ﴿وَلَا يَتَّبِعَنَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْلُقُونَ فِيهِ﴾؛ أي: أبين لكم صوابه وجوابه، فيزول عنكم بذلك اللبس، فجاء عليه السلام مكملًا ومتممًا لشريعة موسى عليه السلام ولأحكام التوراة، وأتى ببعض التسهيلات الموجبة للانقياد له وقبول ما جاءهم به. ﴿فَأَتَقُوا اللَّهَ وَاطِيعُونَ﴾ ﴿٦٨﴾؛ أي: اعبدوا الله وحده لا شريك له، وامثلوا أمره، واجتنبوا نهيه، وآمنوا بي، وصدقوني، ﴿وَاطِيعُونَ﴾ ﴿٦٩﴾.

﴿٧٠﴾ إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَأَعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٧١﴾: ففيه الإقرار بتوحيد الربوبية بأن الله هو المربي جميع خلقه بأنواع النعم الظاهرة والباطنة، والإقرار بتوحيد العبودية بالأمر بعبادة الله وحده لا شريك له، وإخبار عيسى عليه السلام أنه

سورة الزخرف
وَأِنَّهُ لَعِلَّمَ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَأَنصِبُوا هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦٤﴾ وَلَا يَصُدُّكُمْ الشَّيْطَانُ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٥﴾ وَلَمَّا جَاءَ عِيسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ وَلَا يَتَّبِعَنَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْلُقُونَ فِيهِ فَأَتَقُوا اللَّهَ وَاطِيعُونَ ﴿٦٦﴾ إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَأَعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦٧﴾ فَأَخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابٍ يَوْمَ الْآسْرِ ﴿٦٨﴾ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٩﴾ الْأَخْلَاقُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ ﴿٧٠﴾ يَتَعَبَّدُونَ لِمَآ أَتَتْهُم مِّن دُونِ اللَّهِ يَدْعُونَ إِلَٰهًا أَوْلَىٰ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَإِن يَدْعُوا إِلَٰهًا غَيْرَ اللَّهِ لَا يَكْفُرُونَ ﴿٧١﴾ وَإِن يَدْعُوا إِلَٰهًا غَيْرَ اللَّهِ لَا يَكْفُرُونَ ﴿٧٢﴾ وَإِن يَدْعُوا إِلَٰهًا غَيْرَ اللَّهِ لَا يَكْفُرُونَ ﴿٧٣﴾ وَإِن يَدْعُوا إِلَٰهًا غَيْرَ اللَّهِ لَا يَكْفُرُونَ ﴿٧٤﴾ وَإِن يَدْعُوا إِلَٰهًا غَيْرَ اللَّهِ لَا يَكْفُرُونَ ﴿٧٥﴾ وَإِن يَدْعُوا إِلَٰهًا غَيْرَ اللَّهِ لَا يَكْفُرُونَ ﴿٧٦﴾ وَإِن يَدْعُوا إِلَٰهًا غَيْرَ اللَّهِ لَا يَكْفُرُونَ ﴿٧٧﴾ وَإِن يَدْعُوا إِلَٰهًا غَيْرَ اللَّهِ لَا يَكْفُرُونَ ﴿٧٨﴾ وَإِن يَدْعُوا إِلَٰهًا غَيْرَ اللَّهِ لَا يَكْفُرُونَ ﴿٧٩﴾ وَإِن يَدْعُوا إِلَٰهًا غَيْرَ اللَّهِ لَا يَكْفُرُونَ ﴿٨٠﴾

عبد من عباد الله، ليس كما قال النصارى فيه: إنه ابن الله أو ثالث ثلاثة. والإخبار بأن هذا المذكور صراط مستقيم موصل إلى الله وإلى جنته.

﴿٦٥﴾ فلما جاءهم عيسى عليه السلام بهذا، ﴿فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ﴾: المتحزبون على التكذيب، ﴿مِنْ بَيْنِهِمْ﴾: كل قال بعيسى عليه السلام مقالة باطلة ورد ما جاء به؛ إلا من هدى الله من المؤمنين، الذين شهدوا له بالرسالة، وصدقوا بكل ما جاء به، وقالوا: إنه عبد الله ورسوله. ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابٍ يَوْمَ آيَةِ﴾: أي: ما أشد حزن الظالمين! وما أعظم خسارهم في ذلك اليوم!

﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾: ﴿٦٦﴾ الْأَخْلَاءَ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾: ﴿٦٧﴾ يَتَعَادَى لَا حَوْفَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ﴾: ﴿٦٨﴾ الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ﴾: ﴿٦٩﴾ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ﴾: ﴿٧٠﴾ يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصِحَافٍ مِنْ ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَكْدُّ الْأَعْيُنُ وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾: ﴿٧١﴾ وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾: ﴿٧٢﴾ لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾: ﴿٧٣﴾

﴿٦٦﴾ يقول تعالى: ما ينتظر المكذبون؟! وما يتوقعون ﴿إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾: ﴿٦٧﴾ أي: فإذا جاءت؛ فلا تسألوا عن أحوال من كذب بها واستهزا بمن جاء بها.

﴿٦٨﴾ وإن الأخلاء يوم القيامة، المتخالين على الكفر والتكذيب ومعصية الله، ﴿بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾: لأن خلتهم ومحبتهم في الدنيا لغير الله، فانقلبت يوم القيامة عداوة ﴿إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾: ﴿٦٩﴾ للشرك والمعاصي؛ فإن محبتهم تدوم وتتصل بدوام من كانت المحبة لأجله.

﴿٧٠﴾ ثم ذكر ثواب المتقين، وأن الله تعالى يناديهم يوم القيامة بما يسر قلوبهم ويذهب عنهم كل آفة وشراً، فيقول: ﴿يَتَعَادَى لَا حَوْفَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ﴾: ﴿٧١﴾ أي: لا خوف يلحقكم فيما تستقبلونه من الأمور، ولا حزن يصيبكم فيما مضى منها، وإذا انتفى المكروه من كل وجه؛ ثبت المحبوب المطلوب.

﴿٦٩﴾ الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ﴾: ﴿٧٠﴾ أي: وصفهم بالإيمان بآيات الله، وذلك يشمل التصديق بها، وما لا يتم التصديق إلا به من العلم بمعناها والعمل بمقتضاها، ﴿وَكَانُوا مُسْلِمِينَ﴾: ﴿٧١﴾ لله متقادين له في جميع أحوالهم، فجمعوا بين الاتصاف بعمل الظاهر والباطن.

﴿٧٠﴾ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ﴾: التي هي دار القرار ﴿أَنْتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ﴾: أي: من كان على مثل عملكم من كل مقارن لكم من زوجة وولد وصاحب وغيرهم، ﴿تُحْبَرُونَ﴾: أي: تنعمون وتكرمون، ويأتيكم من فضل ربكم من الخيرات والسرور والأفراح واللذات ما لا تعبر الألسن عن وصفه.

﴿٧١﴾ يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصِحَافٍ مِنْ ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ﴾: أي: تدور عليهم خدامهم من الولدان المخلدين بطعامهم بأحسن الأواني وأفخرها، وهي صحاف الذهب، وبشرابهم بألطف الأواني، وهي الأكواب التي لا عرى لها، وهي من أصفى الأواني، من فضة أعظم من صفاء الفوارير، ﴿وَفِيهَا﴾: أي: الجنة ﴿مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَكْدُّ الْأَعْيُنُ﴾: وهذا اللفظ جامع، يأتي على كل نعيم وفرح وقرة عين وسرور قلب؛ فكل ما تشتهيه النفوس من مطاعم ومشارب وملابس ومناكح، ولذته العيون من مناظر حسنة وأشجار محدقة ونعم موفقة ومبانٍ مزخرفة؛ فإنه حاصل فيها معد لأهلها على أكمل الوجوه وأفضلها؛ كما قال تعالى: ﴿لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَهُمْ مَا يَدَّعُونَ﴾: ﴿٧٢﴾ [يس: ٥٧]. ﴿وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾: ﴿٧٣﴾ وهذا هو تمام نعيم أهل الجنة، وهو الخلد الدائم فيها، الذي يتضمن دوام نعيمها وزيادته وعدم انقطاعه.

﴿٧١﴾ وَتِلْكَ الْجَنَّةُ﴾: الموصوفة بأكمل الصفات هي ﴿الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾: ﴿٧٢﴾ أي: أورثكم الله إياها بأعمالكم، وجعلها من فضله جزاء لها، وأودع فيها من رحمته ما أودع.

﴿٧٣﴾ لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ﴾: كما في الآية الأخرى: ﴿فِيهَا مِنْ كُلِّ فَاكِهَةٍ رِزْقَانٌ﴾: ﴿٧٤﴾ [الرحمن: ٥٢]، ﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾: ﴿٧٥﴾ أي: مما تتخيرون من تلك الفواكه الشهية والثمار اللذيذة تأكلون.

ولما ذكر نعيم الجنة عقبه بذكر عذاب جهنم، فقال:

﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابٍ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ﴾: ﴿٧٦﴾ لَا يَغْتَرَّ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ﴾: ﴿٧٧﴾ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ﴾: ﴿٧٨﴾

سورة الزخرف

سورة الزخرف

إِنَّ الْمَجْرِمِينَ فِي عَذَابٍ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يُفَرِّغُهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٥﴾ وَمَا ظَنَنْتُمْ وَلَكِنْ كَانُوا هُمْ الظَّالِمِينَ ﴿٧٦﴾ وَنَادُوا بِمَلَكِكُمْ لِيَقْضِيَ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَرْكُوثُونَ ﴿٧٧﴾ خِشْتُمْ بِالْحَقِّ وَلَكِنْ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَذِبُونَ ﴿٧٨﴾ أَمْ أَبْرَمُوا أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ ﴿٧٩﴾ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَىٰ وَرُسُلْنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴿٨٠﴾ قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَالَمِينَ ﴿٨١﴾ سُبْحَنَ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٨٢﴾ فَذَرَهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوْعَدُونَ ﴿٨٣﴾ وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ ﴿٨٤﴾ وَبَارَكَ الَّذِي لَهُ مَلَكُوتُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٥﴾ وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الشَّفَعَةَ إِلَّا مَنَ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾ وَلَكِنْ سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ يَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّ يُوقَفُونَ ﴿٨٧﴾ وَقِيلَ إِنْ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ لَا يَتُوبُونَ ﴿٨٨﴾ فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾

٤٩٥

وَنَادُوا بِمَلَكِكُمْ لِيَقْضِيَ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَرْكُوثُونَ ﴿٧٧﴾ خِشْتُمْ بِالْحَقِّ وَلَكِنْ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَذِبُونَ ﴿٧٨﴾.

﴿٧٤﴾ إِنَّ الْمَجْرِمِينَ: الذين أجمعوا بكفرهم وتكذيبهم ﴿٧٥﴾ فِي عَذَابٍ جَهَنَّمَ: أي: منغمرون فيه، محيط بهم العذاب من كل جانب، ﴿٧٦﴾ خَالِدُونَ: فيه لا يخرجون منه أبداً.

﴿٧٧﴾ وَلَا يُفَرِّغُهُمْ: العذاب ساعة لا يبارتته ولا يتهوين عذابه، ﴿٧٨﴾ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ: أي: آيسون من كل خير، غير راجعين للفرج، وذلك أنهم ينادون ربهم، فيقولون: رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنَّا عَمَدٌ فَأَنَا ظَالِمُونَ ﴿٧٩﴾ قَالَ أَخْسَرُوا فِيهَا وَلَا تُكْلِمُونِ ﴿٨٠﴾ [المؤمنون: ١٠٧، ١٠٨].

﴿٧٦﴾ وهذا العذاب العظيم بما قدمت أيديهم وبما ظلموا به أنفسهم، والله لم يظلمهم ولم يعاقبهم بلا ذنب ولا جرم.

﴿٧٧﴾ وَنَادُوا: وهم في النار لعلهم يحصل لهم استراحة: ﴿يَمْلِكُ لِيَقْضِيَ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾: أي: ليمتنا فنستريح؛ فإننا في غم شديد وعذاب غليظ لا صبر لنا عليه ولا جلد، فـ ﴿قَالَ﴾ لهم مالك خازن النار حين طلبوا منه أن يدعو الله لهم أن يقضي عليهم: ﴿إِنَّكُمْ مَرْكُوثُونَ﴾: أي: مقيمون فيها لا تخرجون عنها أبداً، فلم يحصل لهم ما قصدوه، بل أجابهم بنقيض قصدهم، وزادهم غمًا إلى غمهم.

﴿٧٨﴾ ثُمَّ وَبِخْهُمْ بِمَا فَعَلُوا، فقال: ﴿لَقَدْ خِشْتُمْ بِالْحَقِّ﴾: الذي يوجب عليكم أن تتبعوه، فلو تبعتموه؛ لفزتم وسعدتم، ﴿وَلَكِنْ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَذِبُونَ﴾: فلذلك شقيتم شقاوة لا سعادة بعدها.

﴿٧٩﴾ أَمْ أَبْرَمُوا أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ ﴿٨٠﴾ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَىٰ وَرُسُلْنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴿٨١﴾.

﴿٧٩﴾ يقول تعالى: ﴿أَمْ أَبْرَمُوا﴾: أي: أبرم المكذوبون بالحق المعاندون له ﴿أَمْرًا﴾: أي: كادوا كيذاً ومكروا للحق ولمن جاء بالحق ليدحضوه بما موهوا من الباطل المزخرف المزوق، ﴿فَأَنَا مُبْرِمُونَ﴾: أي: محكمون أمراً ومدبرون تديباً يعلو تديبرهم وينقضه ويطله. وهو ما يقضه الله من الأسباب والأدلة لإحقاق الحق وإبطال الباطل، كما قال تعالى: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ﴾ [الأنبياء: ١٨].

﴿٨٠﴾ أَمْ يَحْسَبُونَ: بجعلهم وظلمهم ﴿أَنَا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ﴾: الذي لم يتكلموا به، بل هو سر في قلوبهم، ﴿وَنَجْوَاهُمْ﴾: أي: كلامهم الخفي الذي يتناجون به؛ أي: فلذلك أقدموا على المعاصي، وظنوا أنها لا تبعة لها ولا مجازاة على ما خفي منها، فرد الله عليهم بقوله: ﴿بَلَىٰ﴾: أي: إنا نعلم سرهم ونجواهم، ﴿وَرُسُلْنَا﴾: الملائكة الكرام ﴿لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾: كل ما عملوه، وسيحفظ ذلك عليهم حتى يردوا القيامة فيجدوا ما عملوا حاضراً، ولا يظلم ربك أحداً.

﴿٨١﴾ قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَالَمِينَ ﴿٨٢﴾ سُبْحَنَ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٨٣﴾ فَذَرَهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوْعَدُونَ ﴿٨٤﴾.

﴿٨١﴾ أي: قل يا أيها الرسول الكريم للذين جعلوا لله ولداً، وهو الواحد الأحد، الفرد الصمد، الذي لم يتخذ صاحبة ولا ولداً، ولم يكن له كفواً أحد: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَالَمِينَ﴾: لذلك الولد؛ لأنه جزء من والده، وأنا أولى الخلق

وهو من أكبر الأدلة على بطلان الشرك.

﴿٨٨﴾ وَقِيلَ يَكْرَبُ إِنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٩﴾ هذا معطوف على قوله: ﴿وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾؛ أي: وعنده علم قيله؛ أي: الرسول ﷺ شاكيًا لربه تكذيب قومه، متحزنًا على ذلك، متحسرًا على عدم إيمانهم؛ فالله تعالى عالم بهذه الحال، قادر على معاجلتهم بالعقوبة، ولكنه تعالى حلیم، يمهّل العباد، ويستأنى بهم لعلهم يتوبون ويرجعون.

﴿٩٠﴾ ولهذا قال: ﴿فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ﴾؛ أي: اصفح عنهم ما يأتيك من أذيتهم القولية والفعلية، واعف عنهم، ولا بيدرك منك لهم إلا السلام الذي يقابل به أولو الألباب والبصائر الجاهلين؛ كما قال تعالى عن عباده الصالحين: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قُلْ أَتَى الْبَشَرُ نِعْمَ الرَّحْمَنُ الَّذِي فَضَّلَنَا﴾ [الفرقان: ٦٣]. فامتثل ﷺ لأمر ربه، وتلقى ما يصدر إليه من قومه وغيرهم من الأذى بالعفو والصفح، ولم يقابلهم عليه السلام إلا بالإحسان إليهم والخطاب الجميل؛ فصولات الله وسلامه على من خصه الله بالخلق العظيم الذي فضل به أهل الأرض والسماء، وارتفع به أعلى من كواكب الجوزاء، وقوله: ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ ﴿٩١﴾؛ أي: غب ذنوبهم وعاقبة جرمهم.

تم تفسير سورة الزخرف. ولله الحمد والمنة.

﴿٩٢﴾ ﴿٩٣﴾ ﴿٩٤﴾ ﴿٩٥﴾ ﴿٩٦﴾

تفسير سورة الدخان

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿١﴾ حَمْدٌ ﴿٢﴾ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴿٣﴾ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ مُبَرَكَةٍ ﴿٤﴾ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ﴿٥﴾ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴿٦﴾ أَمْرًا مِّنْ عِندِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٧﴾ رَحْمَةً مِّنْ رَبِّكَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٨﴾ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنْتُمْ مُوقِنِينَ ﴿٩﴾ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٠﴾ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ ﴿١١﴾ فَأَرْقَبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُحَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٢﴾ يَغْشَى النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٣﴾ رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ﴿١٤﴾ أَتَى لَهُمُ الذِّكْرَى وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ بَجْوٌ ﴿١٦﴾ إِنَّا كَاشِفُوا الْعَذَابَ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَائِدُونَ ﴿١٧﴾ يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى إِنَّا مُنْتَقِمُونَ ﴿١٨﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ ﴿١٩﴾ أَنْ أَذْأَبْ إِلَىٰ عِبَادِ اللَّهِ إِنِّي لَكُم رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿٢٠﴾

﴿١﴾ - ﴿٢﴾ هذا قسم بالقرآن على القرآن، فأقسم بالكتاب المبين لكل ما يحتاج إلى بيانه أنه أنزله ﴿فِي لَيْلَةِ مُبَرَكَةٍ﴾؛ أي: كثيرة الخير والبركة، وهي ليلة القدر، التي هي خير من ألف شهر، فأنزل أفضل الكلام بأفضل الليالي والأيام على أفضل الأنام بلغة العرب الكرام؛ لينذر به قوماً عمتهم الجهالة وغلبت عليهم الشقاوة، فيستضيئوا بنوره، ويقتبسوا من هداياه، ويسيروا

وراءه، فيحصل لهم الخير الدنيوي والخير الأخروي، ولهذا قال: ﴿إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ﴾ (٢).

﴿فِيهَا﴾ (٣)؛ أي: في تلك الليلة الفاضلة التي نزل فيها القرآن، ﴿يُقَرَّرُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ (٤)؛ أي: يفصل ويميز ويكتب كل أمر قدري وشرعي حكم الله به. وهذه الكتابة والفرقان الذي يكون في ليلة القدر إحدى الكتابات التي تكتب وتميز، فتطابق الكتاب الأول الذي كتب الله به مقادير الخلائق وآجالهم وأرزاقهم وأعمالهم وأحوالهم. ثم إن الله تعالى قد وكل ملائكة تكتب ما يسجري على العبد وهو في بطن أمه. ثم وكلهم بعد خروجه إلى الدنيا؛ وكل به كرامًا كاتبين يكتبون ويحفظون عليه أعماله. ثم إنه تعالى يقدر في ليلة القدر ما يكون في السنة، وكل هذا من تمام علمه وكمال حكمته وإتقان حفظه واعتنائه تعالى بخلقه.

﴿أَمْرًا مِّنْ عِندِنَا﴾ (٥)؛ أي: هذا الأمر الحكيم أمر صادر من عندنا. ﴿إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾ (٦)؛ للرسول ومنزلين للكتب، والرسول تبلغ أوامر المرسل وتخبر بأقداره.

﴿رَحْمَةً مِّنْ رَبِّكَ﴾ (٧)؛ أي: إن إرسال الرسل وإنزال الكتب التي أفضلها القرآن رحمة من رب العباد بالعباد؛ فما رحم الله عباده برحمة أجل من هدايتهم بالكتب والرسول، وكل خير ينالونه في الدنيا والآخرة؛ فإنه من أجل ذلك وبسببه. ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (٨)؛ أي: يسمع جميع الأصوات، ويعلم جميع الأمور الظاهرة والباطنة، وقد علم تعالى ضرورة العباد إلى رسله وكتبه، فرحمهم بذلك ومنهم عليهم؛ فله تعالى الحمد والمنة والإحسان.

﴿رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ (٩)؛ أي: خالق ذلك ومدبره والمتصرف فيه بما يشاء، ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُّوقِنِينَ﴾ (١٠)؛ أي: عالمين بذلك علمًا مفيدًا لليقين؛ فاعلموا أن الرب للمخلوقات هو إلهها الحق، ولهذا قال: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ (١١)؛ أي: لا معبود إلا وجهه، ﴿يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ (١٢)؛ أي: هو المتصرف وحده بالإحياء والإماتة، وسيجمعكم بعد موتكم فيجزيكم بعملكم، إن خيرًا فخير، وإن شرًا فشر. ﴿رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأُولِينَ﴾ (١٣)؛ أي: رب الأولين والآخرين؛ مربيهم بالنعم، الدافع عنهم بالنقم.

﴿فَلَمَّا قَرَّرَ تَعَالَى رَبُّوَيْتَهُ وَأَلُوَيْتَهُ بِمَا يُوْجِبُ الْعِلْمُ التَّامَ وَيُدْفَعُ الشُّكَّ﴾؛ أخبر أن الكافرين مع هذا البيان: ﴿فِي سَكِّ

يَلْبُثُونَ﴾ (١٤)؛ أي: منغمرون في الشكوك والشبهات، غافلون عما خلقوا له، قد اشتغلوا باللعب الباطل الذي لا يجدي عليهم إلا الضرر.

﴿فَآرَقَبَ﴾ (١٥)؛ أي: انتظر فيهم العذاب؛ فإنه قد قرب وأن أوانه، ﴿يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ﴾ (١٦) يَغْشَى النَّاسَ؛ أي: يعمهم ذلك الدخان، ويقال لهم: ﴿هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (١٧). واختلف المفسرون في المراد بهذا الدخان:

ف قيل: إنه الدخان الذي يغشى الناس ويمعمهم حين تقرب النار من المجرمين في يوم القيامة، وأن الله توعدهم بعذاب يوم القيامة، وأمر نبيه أن ينتظر بهم ذلك اليوم. ويؤيد هذا المعنى أن هذه الطريقة هي طريقة القرآن في توعد الكفار والتأني بهم وترهيبهم بذلك اليوم وعذابه وتسلية الرسول والمؤمنين بالانتظار بمن آذاهم. ويؤيده أيضًا أنه قال في هذه الآية: ﴿أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ دُخَانٌ وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ﴾ (١٨)، وهذا يقال يوم القيامة للكفار حين يطلبون الرجوع إلى الدنيا، فيقال: قد ذهب وقت الرجوع.

وقيل: إن المراد بذلك ما أصاب كفار قريش حين امتنعوا من الإيمان واستكبروا على الحق، فدعا عليهم النبي ﷺ، فقال: «اللهم أعني عليهم بسنين كسني يوسف» (١٩). فأرسل الله عليهم الجوع العظيم، حتى أكلوا الميتات والعظام، وصاروا يرون الذي بين السماء والأرض كهيئة الدخان، وليس به، وذلك من شدة الجوع، فيكون على هذا قوله: ﴿يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ﴾: أن ذلك بالنسبة إلى أبصارهم وما يشاهدون، وليس بدخان حقيقة، ولم يزلوا بهذه الحالة حتى استرحموا رسول الله ﷺ، وسألوه أن يدعو الله لهم أن يكشفه الله عنهم، فدعا ربه؛ فكشفه الله عنهم، وعلى هذا فيكون قوله: ﴿إِنَّا كَاتِبُوا الْعَذَابَ قَلِيلًا أَنتَ أَكْثَرُ عَالِمُونَ﴾ (٢٠)؛ إخبار بأن الله سيصرفه عنهم، وتوعد لهم أن يعودوا إلى الاستكبار والتكذيب، وإخبار بوقوعه، فوق، وأن الله سيعاقبهم بالبطشة الكبرى، قالوا: وهي وقعة بدر. وفي هذا القول نظر ظاهر.

وقيل: إن المراد بذلك أن ذلك من أشراط الساعة، وأنه يكون في آخر الزمان دخان يأخذ بأنفاس الناس ويصيب المؤمنين منه كهيئة الدخان.

والقول هو الأول. وفي الآية احتمال أن المراد بقوله:
﴿فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ﴾ (١٧) يَغْشَى النَّاسَ
هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٨) رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ (١٩)
أَنَّى لَهُمُ الذِّكْرَى وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُبِينٌ (٢٠) ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ
مَجْنُونٌ (٢١) ﴿أَن هَذَا كَلَه يَكُونُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَأَن قَوْلُهُ تَعَالَى:
﴿إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَائِدُونَ﴾ (٢٠) يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ
الْكُبْرَى إِنَّا مُنْقِضُونَ﴾ (٢١) أَن هَذَا مَا وَقَعَ لِقْرِيشَ كَمَا تَقْدُم.

وإذا أنزلت هذه الآيات على هذين المعنيين؛ لم تجد في
اللفظ ما يمنع من ذلك، بل تجدها مطابقة لهما أتم المطابقة،
وهذا الذي يظهر عندي ويترجح. والله أعلم.

﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ﴾ إلى آخر القصة.

(١٧) لما ذكر تعالى تكذيب من كذب الرسول محمداً ﷺ، ذكر
أن لهم سلفاً من المكذبين، فذكر قصتهم مع موسى، وما أحل
الله بهم؛ ليرتدع هؤلاء المكذبون عما هم عليه، فقال: ﴿وَلَقَدْ
فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ﴾؛ أي: ابتليناهم واختبرناهم بإرسال
رسولنا موسى بن عمران إليهم، الرسول الكريم الذي فيه من
الكرم ومكارم الأخلاق ما ليس في غيره.

(١٨) ﴿أَن أَدُّوا إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ﴾؛ أي: قال لفرعون وملته:
أدوا إلي عباد الله؛ يعني بهم: بني إسرائيل؛ أي: أرسلوهم

وأطلقوهم من عذابكم وسومكم إياهم سوء العذاب؛ فإنهم عشيرتي وأفضل العالمين في زمانهم، وأنتم قد ظلمتموهم
واستعبدتموهم بغير حق، فأرسلوهم ليعبدوا ربهم. ﴿إِنِّي لَكُرُّ رَسُولٍ أَمِينٌ﴾ (١٨)؛ أي: رسول من رب العالمين، أمين على
ما أرسلني به، لا أكتكم منه شيئاً، ولا أزيد فيه ولا أنقص، وهذا يوجب تمام الانقياد له.

(١٩) ﴿وَأَن لَّا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ﴾ بالاستكبار عن عبادته والعلو على عباد الله. ﴿إِنِّي ءَاتِيكُمْ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ (١٩)؛ أي: بحجة بينة
ظاهرة، وهو ما أتى به من المعجزات الباهرات والأدلة القاهرة.

(٢٠) فكذبوه وهموا بقتله، فلجأ إلى الله من شرهم، فقال: ﴿وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُون﴾ (٢٠)؛ أي: تقتلونني أشر
القتلات بالرجم بالحجارة.

(٢١) ﴿وَإِن لَّرَّ تَوْصِيًا لِّي فَأَعَزِّلُون﴾ (٢١)؛ أي: لكم ثلاث مراتب: الإيمان بي، وهو مقصودي منكم. فإن لم تحصل منكم هذه
المرتبة؛ ﴿فَأَعَزِّلُون﴾ (٢١) لا علي ولا لي؛ فاكفوني شركم. فلم تحصل منهم المرتبة الأولى ولا الثانية، بل لم يزالوا متمردين
عائين على الله محاربين لنبيه موسى عليه السلام غير ممكنين له من قومه بني إسرائيل.

(٢٢) ﴿فَدَعَا رَبَّهُ أَن هَؤُلَاءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ﴾ (٢٢)؛ أي: قد أجرموا جرماً يوجب تعجيل العقوبة، فأخبر عليه السلام بحالهم، وهذا
دعاء بالحال التي هي أبلغ من المقال؛ كما قال عن نفسه عليه السلام: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ (٢٢) [الفصل:

٢٢٤

(٢٣) فأمره الله أن يسري بعباده ليلاً، وأخبره أن فرعون وقومه سيقتلونه.

(٢٤) ﴿وَأَتْرَكُوا الْبَحْرَ رَهَوًا﴾ (٢٤)؛ أي: بحاله، وذلك أنه لما سرى موسى ببني إسرائيل كما أمره الله، ثم تبعهم فرعون، فأمر الله
موسى أن يضرب البحر، فضربه، فصار اثني عشر طريقاً، وصار الماء من بين تلك الطرق كالجبال العظيمة، فسلكه موسى

أَهْمَ خَيْرٌ أَمْ قَوْمٌ تُبْعَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿٢٧﴾.

﴿٢٧﴾، ﴿٢٨﴾ يخبر تعالى ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ﴾: المكذبين، يقولون: مستبعبدين للبعث والنشور: ﴿إِنَّ هِيَ إِلَّا مَوْتُنَا الْأُولَى وَمَا نَحْنُ بِمُنْشَرِينَ﴾ ﴿٢٨﴾؛ أي: ما هي إلا الحياة الدنيا؛ فلا بعث ولا نشور، ولا جنة ولا نار.

﴿٢٩﴾ ثم قالوا متجربين على ربهم معجزين له: ﴿فَأَتُوا بِآبَائِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ ﴿٢٩﴾: وهذا من اقتراح الجهلة المعاندين في مكان سحيق؛ فأى ملازمة بين صدق الرسول ﷺ وأنه متوقف على الإتيان بآبائهم؛ فإن الآيات قد قامت على صدق ما جاءهم به وتواترت تواتراً عظيماً من كل وجه؟!

﴿٣٠﴾ قال تعالى: ﴿أَهْمَ خَيْرٌ﴾؛ أي: هؤلاء المخاطبون، ﴿أَمْ قَوْمٌ تُبْعَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ﴾ ﴿٣٠﴾؟ فإنهم ليسوا خيراً منهم، وقد اشتركوا في الإجماع؛ فليتوقعوا من الهلاك ما أصاب إخوانهم المجرمين.

﴿٣١﴾ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لِعَيْبٍ ﴿٣١﴾ مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٢﴾ إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٣﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْتِي عَنْ مَوْتِي شَيْئًا وَلَا هُمْ يُصْرُونَ ﴿٣٤﴾ إِلَّا مَنْ رَحِمَ اللَّهُ إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٣٥﴾.

﴿٣١﴾، ﴿٣٢﴾ يخبر تعالى عن كمال قدرته وتمام حكمته، وأنه ما خلق السماوات والأرض لعباً، ولا لهواً، وسدى من غير فائدة، وأنه ما خلقهما ﴿إِلَّا بِالْحَقِّ﴾؛ أي: نفس خلقهما بالحق، وخلقهما مشتمل على الحق، وأنه أوجدتهما ليعبدوه وحده لا شريك له، وليلامر العباد وينهاهم ويشبههم ويعاقبهم. ﴿وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ﴿٣٢﴾؛ فلذلك لم يتفكروا في خلق السماوات والأرض.

﴿٣٣﴾ إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ: وهو يوم القيامة، الذي يفصل الله به بين الأولين والآخرين وبين كل مختلفين، ﴿مِيقَاتُهُمْ﴾؛ أي: الخلائق ﴿أَجْمَعِينَ﴾ ﴿٣٣﴾: كلهم سيجمعهم الله فيه، ويحضرهم ويحضر أعمالهم، ويكون الجزاء عليها.

﴿٣٤﴾ لَا يَنْفَعُ ﴿مَوْتِي عَنْ مَوْتِي شَيْئًا﴾: لا قريب عن قريبه، ولا صديق عن صديقه، ﴿وَلَا هُمْ يُصْرُونَ﴾ ﴿٣٤﴾؛

وقومه، فلما خرجوا منه؛ أمره الله أن يتركه ﴿رَهْوَ﴾؛ أي: بحاله؛ ليسلكه فرعون وجنوده. ﴿إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُفْرَقُونَ﴾ ﴿٣٥﴾: فلما تكامل قوم موسى خارجين منه وقوم فرعون داخلين فيه؛ أمره الله تعالى أن يلتزم عليهم، ففرقوا عن آخرهم، وتركوا ما متعوا به من الحياة الدنيا، وأورثه الله بني إسرائيل الذين كانوا مستعبدين لهم.

﴿٣٦﴾ - ﴿٣٨﴾ ولهذا قال: ﴿كَرِهْتُمُوهُمْ كَذَبُوا بَيِّنَاتٍ وَرَدُّوا وَعَاظَ كَرِيمٍ﴾ ﴿٣٦﴾ وَتَعَمَّ كَانُوا فِيهَا فَنَكَيْهِمْ ﴿٣٧﴾ كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا؛ أي: هذه النعمة المذكورة ﴿قَوْمًا عَاكِرِينَ﴾ ﴿٣٨﴾. وفي الآية الأخرى: ﴿كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ ﴿٣٩﴾ [الشعراء: ٥٩].

﴿٣٩﴾ ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ﴾؛ أي: لما أنلفهم الله وأهلكهم لم تبك عليهم السماء والأرض؛ أي: لم يحزن عليهم ولم يؤس على فراقهم، بل كل استبشر بهلاكهم وتلفهم، حتى السماء والأرض؛ لأنهم ما خلفوا من آثارهم إلا ما يسود وجوههم ويوجب عليهم اللعنة والمقت من العالمين. ﴿وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ﴾ ﴿٣٩﴾؛ أي: ممهلين عن العقوبة، بل اصطلمتهم في الحال.

﴿٣٩﴾، ﴿٣٩﴾ ثم امتن تعالى على بني إسرائيل، فقال: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا لِبَنِي إِسْرَءِيلَ مِنَ الْآذَانِ أَلْمِيقِينَ﴾ ﴿٣٩﴾: الذي كانوا فيه ﴿مِنْ فِرْعَوْنَ﴾: إذ يذبح أبناءهم ويستحيي نساءهم، ﴿إِنَّهُ كَانَ عَلِيًّا﴾؛ أي: مستكبراً في الأرض بغير الحق، ﴿وَمِنَ الْمُتَشَفِّينَ﴾ ﴿٣٩﴾: المتجاوزين لحدود الله المتجربين على محارمه.

﴿٣٩﴾ وَلَقَدْ آخَرْنَاهُمْ؛ أي: اصطفيناهم وانتقيناهم ﴿عَلَىٰ عِلِّيٍّ﴾: منا بهم وباستحقاقهم لذلك الفضل ﴿عَلَىٰ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿٣٩﴾؛ أي: عالمي زمانهم ومن قبلهم وبعدهم، حتى أتى الله بأمة محمد ﷺ ففضلوا العالمين كلهم، وجعلهم الله خير أمة أخرجت للناس، وامتن عليهم بما لم يمتن به على غيرهم.

﴿٣٩﴾ وَءَاتَيْنَاهُمْ؛ أي: بني إسرائيل ﴿مِنَ الْآيَاتِ﴾: الباهرة والمعجزات الظاهرة ﴿مَا فِيهِ بَلَكَاةٌ مُبِينَةٌ﴾ ﴿٣٩﴾؛ أي: إحسان كثير ظاهر منا عليهم وحجة عليهم على صحة ما جاءهم به نبينهم موسى عليه السلام.

﴿٣٩﴾ إِنَّ هَؤُلَاءِ لَيَقُولُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّ هِيَ إِلَّا مَوْتُنَا الْأُولَى وَمَا نَحْنُ بِمُنْشَرِينَ ﴿٣٩﴾ فَأَتُوا بِآبَائِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣٩﴾

طلبوه من أنواع الفاكهة وأجناسها؛ أحضر لهم في الحال من غير تعب ولا كلفة، آمنين من انقطاع ذلك، وآمنين من مضرته، وآمنين من كل مكدر، وآمنين من الخروج منها والموت.

ولهذا قال: ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَى﴾؛ أي: ليس فيها موت بالكلية، ولو كان فيها موت يستثنى؛ لم يستثنِ الموتة الأولى التي هي الموتة في الدنيا، فتم لهم كل محبوب مطلوب، ﴿وَوَقَّهَتْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾.

﴿فَضَلَّ مِنْ رَبِّكَ﴾؛ أي: حصول النعيم واندفاع العذاب عنهم من فضل الله عليهم وكرمه؛ فإنه تعالى هو الذي وفقهم للأعمال الصالحة، التي بها نالوا خير الآخرة وأعطاهم أيضًا ما لم تبلغه أعمالهم. ﴿ذَلِكَ هُوَ الْقَوْزُ الْعَظِيمُ﴾. وأي فوز أعظم من نيل رضوان الله وجنته والسلامة من عذابه وسخطه.

﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ﴾؛ أي: القرآن ﴿بِلِسَانِكَ﴾؛ أي: سهلناه بلسانك الذي هو أفصح الألسنة على الإطلاق وأجلها، فتيسر به لفظه، وتيسر به معناه، ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾. ما فيه نفعتهم في فعلونه، وما فيه ضررهم في تركونه.

﴿فَارْتَقِبْ﴾؛ أي: انتظر ما وعدك ربك من الخير والنصر. ﴿إِنَّهُمْ مُرْتَبِّبُونَ﴾. ما يحل بهم من العذاب، وفرق بين الارتقاين: رسول الله وأتباعه يرتقبون الخير في الدنيا والآخرة، وضدهم يرتقبون الشر في الدنيا والآخرة.

تم تفسير سورة الدخان. ولله الحمد والمنة.

﴿٥٦﴾

تفسير سورة الجاثية

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿حَمْدٌ﴾ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿١﴾ إِنَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُذُّ مِنْ دَانٍ لَّآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٣﴾ وَأَخْلَفَ بِالنَّارِ وَمَا أُنْزِلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ فَآحَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَصَرِيفَ الرِّيحِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾ تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ تَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَيَأْتِي حَدِيثٌ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ ﴿٥﴾ وَيَلْ لَّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٦﴾ سَمِعَ آيَاتُ اللَّهِ تُنَلِّىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَئِذٍ يَعَذِّبُ أَلِيمٌ ﴿٧﴾ وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئًا اتَّخَذَهَا هُزُوًا أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٨﴾ مِّن رَّأْيِهِمْ جَهَنَّمَ وَلَا يُعْنِي عَنْهُمْ مَا كَسَبُوا شَيْئًا وَلَا مَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٩﴾ هَٰذَا هُدًى وَلَٰذِينَ كَفَرُوا يُكَذِّبُ رَبَّهُمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِنْ رِّجْزٍ أَلِيمٌ ﴿١٠﴾ اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلُكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَسْتَوُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١١﴾ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٢﴾

﴿١﴾، ﴿٢﴾ يخبر تعالى خبرًا يتضمن الأمر بتعظيم القرآن والاعتناء به؛ أنه ﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ﴾: المألوه المعبود؛ لما اتصف به من صفات الكمال، وانفرد به من النعم، الذي له العزة الكاملة والحكمة التامة.

﴿١٧﴾ يخبر تعالى عن فضله على عباده وإحسانه إليهم بتسخير البحر لسير المراكب والسفن بأمره وتيسيره، ﴿لَتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ﴾: بأنواع التجارات والمكاسب، ﴿وَلَكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ ﴿١٨﴾: الله تعالى؛ فإنكم إذا شكرتموه؛ زادكم من نعمه وأثابكم على شكركم أجرًا جزيلًا.

﴿١٩﴾ ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ﴾: أي: من فضله وإحسانه، وهذا شامل لأجرام السماوات والأرض، ولما أودع الله فيهما من الشمس والقمر والكواكب الثابت والسيارات وأنواع الحيوانات وأصناف الأشجار والثمرات وأجناس المعادن وغير ذلك مما هو معد لمصالح بني آدم ومصالح ما هو من ضروراته؛ فهذا يوجب عليهم أن يبذلوا غاية جهدهم في شكر نعمته، وأن تغلغل أفكارهم في تدبر آياته وحكمه، ولهذا قال: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ ﴿٢٠﴾. وجملة ذلك أن خلقها وتدبيرها وتسخيرها دال على نفوذ مشيئة الله وكمال قدرته.

وما فيها من الإحكام والإتقان وبديع الصنعة وحسن الخلقة دال على كمال حكمته وعلمه.

وما فيها من السعة والعظمة والكثرة دال على سعة ملكه وسلطانه.

وما فيها من التخصيصات والأشياء المتضادات دليل على أنه الفعال لما يريد.

وما فيها من المنافع والمصالح الدينية والدنيوية دليل على سعة رحمته وشمول فضله وإحسانه وبديع لطفه وبره، وكل ذلك دال على أنه وحده المألوه المعبود الذي لا تبغي العبادة والذل والمحبة إلا له، وأن رسله صادقون فيما جاءوا به. فهذه أدلة عقلية واضحة لا تقبل ريبًا ولا شكًا.

﴿قُلْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ ﴿٢١﴾ مَن عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَن أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿٢٢﴾.

﴿٢٣﴾ ﴿يَأْمُرُ تَعَالَىٰ عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ بِحَسَنِ الْخُلُقِ وَالصَّبْرِ عَلَىٰ أَذْيَةِ الْمَشْرِكِينَ بِهِ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ﴾؛ أي: لا يرجون ثوابه ولا يخافون وقائعه في العاصين؛ فإنه تعالى سيجزي كل قوم ﴿بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ ﴿٢٤﴾: فأنتم يا معشر المؤمنين يجزيكم على إيمانكم وصفحكم وصبركم

﴿٣﴾ - ﴿٥﴾ ثم أيد ذلك بما ذكره من الآيات الأفقية والنفسية؛ من خلق السماوات والأرض، وما بث فيهما من الدواب، وما أودع فيهما من المنافع، وما أنزل الله من الماء الذي يحيي به الله البلاد والعباد؛ فهذه كلها آيات بينات وأدلة واضحات على صدق هذا القرآن العظيم وصحة ما اشتمل عليه من الحكم والأحكام، ودالات أيضًا على ما لله تعالى من الكمال، وعلى البعث والنشور.

﴿٦﴾ - ﴿١٠﴾ ثم قسم تعالى الناس بالنسبة إلى الانتفاع بآياته وعدمه إلى قسمين:

قسم يستدلون بها، ويتفكرون بها، ويتفكرون فيرتفعون، وهم المؤمنون بالله وملأته وكتبه ورسله واليوم الآخر إيمانًا تامًا، وصل بهم إلى درجة البقين، فزكى منهم العقول، وازدادت به معارفهم وألبابهم وعلومهم.

وقسم يسمع آيات الله سماعًا تقوم به الحجة عليه، ثم يعرض عنها ويستكبر، كأنه ما سمعها؛ لأنها لم ترك قلبه ولا طهرته، بل بسبب استكباره عنها؛ ازداد طغيانه، وأنه إذا علم من آيات الله شيئًا؛ اتخذها هزواً، فتوعده الله تعالى بالويل، فقال: ﴿وَلَّيْ كُلُّ أَفَّاكٍ أَثِيمٌ﴾ ﴿٧﴾؛ أي: كذاب في مقاله، أثيم في فعله، وأخبر أن له عذابًا أليمًا، وأن ﴿مِن رَّوَابِهِمْ جَهَنَّمُ﴾: تكفي في عقوبتهم البليغة، وأنه لا ﴿يُعْنِي عَنْهُمْ مَا كَسَبُوا﴾: من الأموال ﴿شَيْئًا وَلَا مَأْخُذًا مِنْ دُونِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ يَسْتَكْبِرُونَ﴾ بهم، فخذلهم أحوج ما كانوا إليهم لو نفعوا.

﴿١١﴾ فلما بين آياته القرآنية والعيانية، وأن الناس فيها على قسمين؛ أخبر أن القرآن المشتمل على هذه المطالب العالية؛ أنه هدى، فقال: ﴿هَذَا هُدًى﴾: وهذا وصف عام لجميع القرآن؛ فإنه يهدي إلى معرفة الله تعالى بصفاته المقدسة وأفعاله الحميدة، ويهدي إلى معرفة رسله وأوليائهم وأعدائهم وأوصافهم، ويهدي إلى الأعمال الصالحة، ويدعو إليها، ويبين الأعمال السيئة وينهى عنها، ويهدي إلى بيان الجزاء على الأعمال، ويبين الجزاء الدنيوي والأخروي؛ فالمهنددون اهتدوا به فأفلحوا وسعدوا. ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَكُتِبُ عَلَيْهِمْ﴾: الواضحة القاطعة، التي لا يكفر بها إلا من اشتد ظلمه، وتضاعف طغيانه، ﴿لَهُمْ عَذَابٌ مِنْ رَّجَزٍ أَلِيمٌ﴾ ﴿١٢﴾.

﴿اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لَتَجْرِيَ أَلْفَاكٌ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ. وَلَكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ ﴿٢٣﴾ ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ ﴿٢٤﴾.

ثوابًا جزيلًا، وهم إن استمروا على تكذيبهم؛ فلا يحل بكم ما حل بهم من العذاب الشديد والخزي، ولهذا قال: ﴿مَنْ عَمِلْ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ (١٥). ثم قال تعالى:

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ (١٦) ﴿وَأَيَّبْنَاهُمْ مِّنَ الْأَمْرِ فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَعِيًّا يَبْغُوا يَبْغِيهِمْ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ (١٧).

(١٦) أي: ولقد أنعمنا على بني إسرائيل نعمًا لم تحصل لغيرهم من الناس، وآتيناهم ﴿الْكِتَابَ﴾؛ أي: التوراة والإنجيل والحكم بين الناس والنبوَّة التي امتازوا بها، وصارت النبوَّة في ذرية إبراهيم عليه السلام، أكثرهم من بني إسرائيل، ﴿وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾: من المأكَل والمشرب والملابس وإنزال المن والسلوى عليهم، ﴿وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ (١٦)؛ أي: على الخلق بهذه النعم. ويخرج من هذا العموم اللفظي هذه الأمة؛ فإنهم خير أمة أخرجت للناس، والسياق يدل على أن المراد غير هذه الأمة؛ فإن الله يقص علينا ما امتن به على بني إسرائيل وميزهم على غيرهم.

وأيضًا؛ فإن الفضائل التي فاق بها بنو إسرائيل من الكتاب والحكم والنبوَّة وغيرها من النعم قد حصلت كلها لهذه الأمة، وزادت عليهم هذه الأمة فضائل كثيرة؛ فهذه الشريعة شريعة بني إسرائيل جزء منها؛ فإن هذا الكتاب مهيم على سائر الكتب السابقة، ومحمد ﷺ مصدق لجميع المرسلين.

(١٧) ﴿وَأَيَّبْنَاهُمْ﴾؛ أي: آتيناهم بني إسرائيل ﴿بَيِّنَاتٍ﴾؛ أي: دلالات تبين الحق من الباطل ﴿مِّنَ الْأَمْرِ﴾: القدر الذي أوصله الله إليهم، وتلك الآيات هي المعجزات التي رآوها على يد موسى عليه السلام؛ فهذه النعم التي أنعم الله بها على بني إسرائيل تقتضي الحال أن يقوموا بها على أكمل الوجوه، وأن يجتمعوا على الحق الذي بينه الله لهم، ولكن انعكس الأمر، فعاملوها بعكس ما يجب، واختلفوا فيما أمروا بالاتِّباع به، ولهذا قال: ﴿فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ﴾؛ أي: الموجب لعدم الاختلاف، وإنما حملهم على الاختلاف، البغي من بعضهم على بعض والظلم. ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ (١٧)؛ فيميز المحق من المبطل، والذي حمله على الاختلاف الهوى أو غيره.

﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (١٨) ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُفْسِدُونَ عَلَى النَّاسِ فَوَلَّى اللَّهُ مَنِاسِكُهُمْ إِنَّهُم كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ (١٩).

(١٨) أي: ثم شرعنا لك شريعة كاملة تدعو إلى كل خير، وتنهى عن كل شر من أمرنا الشرعي، ﴿فَاتَّبِعْهَا﴾؛ فإن في اتباعها السعادة الأبدية والصلاح والفلاح، ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (١٨)؛ أي: الذين تكون أهويتهم غير تابعة للعلم ولا ماشية خلفه، وهم كل من خالف شريعة الرسول ﷺ هواه وإرادته؛ فإنه من أهواء الذين لا يعلمون.

(١٩) ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُفْسِدُونَ عَلَى النَّاسِ فَوَلَّى اللَّهُ مَنِاسِكُهُمْ إِنَّهُم كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ (١٩)؛ أي: لا ينفعونك عند الله، فيحصلوا لك الخير، ويدفعوا عنك الشر إن اتبعتهم على أهوائهم، ولا تصلح أن توافقهم وتواليهم؛ فإنك وإياهم متباينون، وبعضهم ولي لبعض. ﴿وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (١٩).

سُورَةُ الْجَاثِيَةِ
قُلْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا يَرْحَمُونَ اَيَّامَ اللّٰهِ لَيَجْزِيَنَّ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٦﴾ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ اَسَاءَ فَعَلَيْهَا ثُمَّ اِلٰى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١٥﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي اِسْرَءِيْلَ الْكِتٰبَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَهُمْ مِنَ الطَّيِّبٰتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعٰلَمِيْنَ ﴿١٧﴾ وَاَيَّبْنَاهُمْ مِّنَ الْاَمْرِ فَمَا اخْتَلَفُوْا اِلَّا مِنْۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ الْعِلْمُ بِمَا يَتَّبِعُوْنَ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوْا فِيْهِ يَخْتَلِفُوْنَ ﴿١٨﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْاَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ اَهْوَاَءَ الَّذِيْنَ لَا يَعْلَمُوْنَ ﴿١٩﴾ اِنَّهُمْ كَانُوْا يُفْسِدُوْنَ عَلَى النَّاسِ فَوَلَّى اللّٰهُ مَنِاسِكُهُمْ اِنَّهُمْ كَانُوْا فِيْهِ يَخْتَلِفُوْنَ ﴿٢٠﴾ هٰذَا بَصِيْرٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُوْنَ ﴿٢١﴾ اَمْ حَسِبَ الَّذِيْنَ اٰخَرْتُمْ اَلْسِنَتَا بَا اَنْ يَّجْمَعَهُمْ كَالَّذِيْنَ ءَامَنُوْا وَعَمِلُوا الصَّٰلِحٰتِ سَوَآءٌ حَيَّاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَآءٌ مَا يَحْكُمُوْنَ ﴿٢٢﴾ وَخَلَقَ اللّٰهُ السَّمٰوٰتِ وَالْاَرْضَ بِالْحَقِّ وَلَيُجْزٰى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُوْنَ ﴿٢٣﴾

سورة الجاثية

سورة الجاثية

يخرجهم من الظلمات إلى النور بسبب تقواهم وعملهم بطاعته.

﴿ هَذَا بَصِيرَتُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ (٢٠).

﴿ أي: ﴿ هَذَا ﴾ القرآن الكريم والذكر الحكيم ﴿ بَصِيرَتُ لِلنَّاسِ ﴾؛ أي: يحصل به التبصرة في جميع الأمور للناس، فيحصل به الانتفاع للمؤمنين، والهدى والرحمة ﴿ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ (٢١): فيهتدون به إلى الصراط المستقيم في أصول الدين وفروعه، ويحصل به الخير والسرور والسعادة في الدنيا والآخرة، وهي الرحمة، فتزكو به نفوسهم، وتزداد به عقولهم، ويزيد به إيمانهم ويقينهم، وتقوم به الحجة على من أصر وعاند.

﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً نَحْيَاهُمْ وَمَعَاهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ (٢٢).

﴿ أي: أم حسب المسيئون المكثرون من الذنوب المقصرون في حقوق ربهم، ﴿ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾: بأن قاموا بحقوق ربهم، واجتنبوا مساخطه، ولم يزلوا مؤثرين رضاه على هوى أنفسهم؛ أي: أحسبوا أن يكونوا ﴿ سَوَاءً ﴾ في الدنيا والآخرة؟ ساء ما ظنوا وحسبوا، وساء ما حكموا به؛ فإنه حكم يخالف حكمة أحكم الحاكمين

وخير العادلين، وينافض العقول السليمة والفطر المستقيمة، ويضاد ما نزلت به الكتب وأخبرت به الرسل، بل الحكم الواقع القطعي أن المؤمنين العاملين الصالحات، لهم النصر والفلاح والسعادة والثواب في العاجل والآجل؛ كل على قدر إحسانه، وأن المسيئين لهم الغضب والإهانة والعذاب والشقاء في الدنيا والآخرة.

﴿ وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِمَلْفٍ وَلِئَجْرَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ (٢٣).

﴿ أي: خلق الله السماوات والأرض بالحكمة، ولبعيد وحده لا شريك له، ثم يجازي بعد ذلك من أمرهم بعبادته، وأنعم عليهم بالنعم الظاهرة والباطنة؛ هل شكروا الله تعالى وقاموا بالمأمور؟ أم كفروا فاستحقوا جزاء الكفور؟

﴿ أَفَرَأَيْتَ مَنْ أَخَذَ إِلَهُهُ هَوْنَهُ وَأَصْلَهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشًوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ (٢٤) وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴾ (٢٥) وَإِذَا نُنْثَى عَلَيْهِمْ ءَايَتُنَا يَنْتَسِفُونَ مِمَّا كَانُوا يَحْجُبُونَ إِلَّا أَنْ قَالُوا اتَّبَوْنَا ءِبَابَنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (٢٦) قُلِ اللَّهُ يُجَسِّمُكُمْ ثُمَّ يُمَيِّتُكُمْ ثُمَّ يُجْمَعُكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (٢٧).

﴿ يقول تعالى: ﴿ أَفَرَأَيْتَ ﴾: الرجل الضال الذي، ﴿ أَخَذَ إِلَهُهُ هَوْنَهُ ﴾: فما هويه سلكه؛ سواء كان يرضي الله أم يسخطه، ﴿ وَأَصْلَهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ ﴾: من الله تعالى أنه لا تليق به الهداية. ولا يزكو عليها، ﴿ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ ﴾: فلا يسمع ما ينفعه، ﴿ وَقَلْبِهِ ﴾: فلا يعي الخير، ﴿ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشًوَةً ﴾: تمنعه من نظر الحق. ﴿ فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ ﴾؛ أي: لا أحد يهديه، وقد سد الله عليه أبواب الهداية، وفتح له أبواب الغواية، وما ظلمه الله، ولكن هو الذي ظلم نفسه، وتسبب لمنع رحمة الله عليه. ﴿ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ (٢٨): ما ينفعكم فتسلكونه وما يضركم فتجتنبونه؟!

﴿٢٤﴾ وَقَالُوا ۖ أَيُّ مَنكَوِرٍ إِلَٰهًا كُنَّا الَّذِي نَمُوتُ وَيَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ ۚ إِنَّ هِيَ إِلَّا عَادَاتُ وَجَرِي عَلَى رُسُومِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، يموت أناس ويحيا أناس، وما مات؛ فليس برافع إلى الله ولا مجازيه بعمله. وقولهم هذا صادر عن غير علم، ﴿إِنَّ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ ﴿٢٤﴾: فأنكروا المعاد، وكذبوا الرسل الصادقين من غير دليل دلهم ولا برهان، إن هي إلا ظنون واستباعات خالية عن الحقيقة.

﴿٢٥﴾ ولهذا قال تعالى: ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٌ مَّا كَانُوا حُجَّتَهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا اتَّبَعْنَا آبَاءَنَا إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ ﴿٢٥﴾: وهذا جراءة منهم على الله؛ حيث اقترحوا هذا الاقتراح، وزعموا أن صدق رسل الله متوقف على الإتيان بأبائهم - وأنهم لو جاءهم بكل آية؛ لم يؤمنوا؛ إلا إن اتبعهم الرسل على ما قالوا - وهم كذبة فيما قالوا، وإنما قصدهم دفع دعوة الرسل، لا بيان الحق.

﴿٢٦﴾ قال تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْعَلُكُمْ لِيَوْمِ الْقِيَمَةِ لَرَبٍّ فِيهِ وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ﴿٢٦﴾: وإلا؛ فلو وصل العلم باليوم الآخر إلى قلوبهم؛ لعملوا أفعالاً وتهيئوا له.

﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُومِيزُ بَحْسَرِ الْمُبْطِلِينَ﴾ ﴿٢٧﴾ وَرَبِّ كُلِّ أُمَّةٍ جَائِئَةٌ كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ هَذَا كِتَابُنَا يُنْطَقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٩﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ ﴿٣٠﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا أَفَأَمَرَ تَكُنْ ءَابَتِي شَكْلًا عَلَيْكَ فَأَسْكَنْتُكُمْ وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُمْ مَا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُتَّبِعِينَ ﴿٣٢﴾ وَبَدَأَ لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٣٣﴾ وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنسِفُكُمْ كَمَا نَسِفْنَا لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا وَمَأْوَنُكُمْ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِّنْ نَّصِيرٍ ﴿٣٤﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ أَخَذْتُمْ ءَابَتِي هُزُوا وَعَزَّيْزُكَ الْحَيُّوَةُ الدُّنْيَا قَالِيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْعَوُونَ ﴿٣٥﴾ فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٣٦﴾ وَلَهُ الْكِتَابُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٣٧﴾.

﴿٣٧﴾ يخبر تعالى عن سعة ملكه وانفراده بالتصرف والتدبير في جميع الأوقات، وأنه يوم ﴿تَقُومُ السَّاعَةُ﴾؛ ويجمع الخلائق لموقف القيامة؛ يحصل الخسار على المبطلين، الذين أتوا بالباطل ليدحضوا به الحق، وكانت أعمالهم باطلة

لأنها متعلقة بالباطل، فبطلت في يوم القيامة، اليوم الذي تستبين فيه الحقائق واضمحلت عنهم، وفاتهم الثواب، وحصلوا على أليم العقاب.

﴿٣٨﴾ ثم وصف تعالى شدة يوم القيامة وهوله ليحذره العباد ويستعد له العباد، فقال: ﴿وَرَبِّ ۖ أَيُّهَا الرَّائِي لِلذَّكَ الْيَوْمِ، كُلُّ أُمَّةٍ جَائِئَةٌ ۖ عَلَى رُكْبِهَا خَوْفًا وَذَعْرًا وَانْتَظَارًا لِّحُكْمِ الْمَلِكِ الرَّحْمَنِ. كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا ۖ أَيُّ: إلى شريعة نبهم الذي جاءهم من عند الله، وهل قاموا بها فيحصل لهم الثواب والنجاة؟ أم ضيعوها فيحصل لهم الخسران؟ فامة موسى يدعون إلى شريعة موسى، وامة عيسى كذلك، وامة محمد كذلك، وهكذا غيرهم؛ كل أمة تدعى إلى شرعها الذي كلفت به، هذا أحد الاحتمالات في الآية، وهو معنى صحيح في نفسه، غير مشكوك فيه.

ويحتمل أن المراد بقوله: ﴿كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا ۖ أَيُّ: إلى كتاب أعمالها وما سطر عليها من خير وشر، وأن كل أحد يجازى بما عمله بنفسه؛ كقوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ ۖ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا﴾ [فصلت: ٤٦].

ويحتمل أن المعنيين كليهما مراد من الآية.

﴿٣٩﴾ ويدل على هذا قوله: ﴿هَذَا كِتَابُنَا يُنْطَقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ ۖ أَيُّ: هذا كتابنا الذي أنزلنا عليكم يفصل بينكم بالحق الذي هو العدل، إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ ﴿٣٩﴾: فهذا كتاب الأعمال.

﴿٣٠﴾ ولهذا فصل ما يفعل الله بالفريقين، فقال: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ۖ إِيْمَانًا صَحِيحًا، وصدقوا إيمانهم بالأعمال الصالحة من واجبات ومستحبات، ﴿فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ ۖ﴾: التي محلها الجنة، وما فيها من النعيم المقيم والعيش السليم. ﴿ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ﴾ ﴿٣٠﴾؛ أي: المفاز والنجاة والريح والفلاح الواضح البين، الذي إذا حصل للعبد؛ حصل له كل خير، واندفع عنه كل شر.

﴿٣١﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا ۖ بِاللَّهِ، فيقال لهم توبيخًا وتقريعًا: ﴿أَفَأَمَرَ تَكُنْ ءَابَتِي شَكْلًا عَلَيْكَ ۖ﴾، وقد دلتكم على ما فيه صلاحكم ونهتكم عما فيه ضرركم، وهي أكبر نعمة وصلت إليكم لو وفقتم لها، ولكن استكبرتم عنها وأعرضتم وكفرتم بها، فجئتم أكبر جنابة، وأجرتم أشد الجرم؛ فاليوم تجزون ما كنتم تعملون.

سورة الأحقاف

سورة الأحقاف

وَيَذَلُّهُمْ سَيِّئَاتٍ مَا وَعَدُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٣٦﴾
 وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنْسِفُكُمْ كَمَا نَسِفْنَا لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا وَمَأْوَاكُمْ النَّارُ وَمَا
 لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ﴿٣٧﴾ ذَلِكَ بِمَا كَانُوا أَفْعَدْتُمْ ءَايَاتِ اللَّهِ هُزُوا وَغَرَّكُمْ
 الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْمَعُونَ ﴿٣٨﴾
 فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٣٩﴾ وَلَهُ
 الْكِبَرِيَاءُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٤٠﴾

سورة الأحقاف

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

حَمْدٌ ﴿١﴾ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿٢﴾ مَا خَلَقْنَا
 السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَالَّذِينَ
 كَفَرُوا عَمَّا أُنذِرُوا مُّعْرِضُونَ ﴿٣﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ
 دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ
 أَفَتُؤْتِي بِكِتَابٍ مِنْ قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَرَةٍ مِنْ عِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ
 صَادِقِينَ ﴿٤﴾ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ
 لَا يَسْتَجِيبُ لَهُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَفِلُونَ ﴿٥﴾

٥٠٢

﴿٣٦﴾ وَيُوبِخُونَ أَيضًا بِقَوْلِهِ: ﴿وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُمْ: مَنكُرِينَ لِلذَّكَ: ﴿مَا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُتَّبِعِينَ﴾ ﴿٣٧﴾: فَهَذِهِ حَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا، وَحَالُ الْبَعثِ الْإِنْكَارَ لَهُ، وَرَدُّوا قَوْلَ مَنْ جَاءَ بِهِ.

﴿٣٨﴾ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَيَذَلُّهُمْ سَيِّئَاتٍ مَا وَعَدُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾: أَي: وَظَهَرَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَقُوبَاتُ أَعْمَالِهِمْ، ﴿وَحَاقَ بِهِمْ﴾: أَي: نَزَلَ بِهِمْ الْعَذَابُ الَّذِي كَانُوا فِي الدُّنْيَا يَسْتَهْزِئُونَ بِوَقُوعِهِ وَبِمَنْ جَاءَ بِهِ.

﴿٣٩﴾ وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنْسِفُكُمْ: أَي: نَتْرَكُكُمْ فِي الْعَذَابِ كَمَا نَسَفْنَا لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا؛ فَإِنَّ الْجَزَاءَ مِنْ جِنْسِ الْعَمَلِ، ﴿وَمَا وَتَكُمْ النَّارُ﴾: أَي: هِيَ مَقْرَمٌ وَمَصِيرُكُمْ. ﴿وَمَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾: يَنْصُرُونَكُمْ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ وَيُدْفَعُونَ عَنْكُمْ عِقَابَهُ.

﴿٤٠﴾ ذَلِكَكُمْ: الَّذِي حَصَلَ لَكُمْ مِنَ الْعَذَابِ بِسَبَبِ أَنْكُمْ ﴿أَفْعَدْتُمْ ءَايَاتِ اللَّهِ هُزُوا﴾: مَعَ أَنَّهَا مُوجِبَةٌ لِلْجِدِّ وَالْإِجْتِهَادِ وَتَلْقِيهَا بِالسُّرُورِ وَالِاسْتِبْشَارِ وَالْفَرَحِ، ﴿وَغَرَّكُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾: بِزُخَارِفِهَا وَلَذَاتِهَا وَشَهَوَاتِهَا، فَاطْمَأْنَنْتُمْ إِلَيْهَا، وَعَمِلْتُمْ لَهَا، وَتَرَكْتُمْ الْعَمَلَ لِلدَّارِ الْبَاقِيَةِ. ﴿فَالْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْمَعُونَ﴾: أَي: لَا يَمْهَلُونَ وَلَا يَرُدُّونَ إِلَى الدُّنْيَا لِيَعْمَلُوا صَالِحًا.

﴿٣٦﴾ فَلِلَّهِ الْحَمْدُ: كَمَا يَنْبَغِي لِجَلَالِ وَجْهِهِ وَعَظِيمِ سُلْطَانِهِ، ﴿رَبِّ السَّمَوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾: أَي: لَهُ الْحَمْدُ عَلَى رُبُوبِيَّتِهِ لِسَائِرِ الْخَلْقِ؛ حَيْثُ خَلَقَهُمْ وَرَبَاهُمْ، وَأَنْعَمَ عَلَيْهِمْ بِالنِّعَمِ الظَّاهِرَةِ وَالْبَاطِنَةِ.

﴿٣٧﴾ وَلَهُ الْكِبَرِيَاءُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ: أَي: لَهُ الْجَلَالُ وَالْعِظَمَةُ وَالْمَجْدُ؛ فَالْحَمْدُ فِيهِ الشَّاءُ عَلَى اللَّهِ بِصِفَاتِ الْكَمَالِ، وَمُحِبَّتُهُ تَعَالَى وَإِكْرَامُهُ، وَالْكِبَرِيَاءُ فِيهَا عِظَمَتُهُ وَجَلَالُهُ، وَالْعِبَادَةُ مَبْنِيَّةٌ عَلَى رَكْنَيْنِ: مَحَبَّةِ اللَّهِ وَالذَّلِّ لَهُ، وَهُمَا نَاشِئَانِ عَنِ الْعِلْمِ بِمَحَامِدِ اللَّهِ وَجَلَالِهِ وَكِبَرِيَّاتِهِ، ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾: الْقَاهِرُ لِكُلِّ شَيْءٍ. ﴿الْحَكِيمُ﴾: الَّذِي يَضَعُ الْأَشْيَاءَ مَوَاضِعَهَا؛ فَلَا يَشْرَعُ مَا يَشْرَعُهُ إِلَّا لِحِكْمَةٍ وَمُصْلَحَةٍ، وَلَا يَخْلُقُ مَا يَخْلُقُهُ إِلَّا لِفَائِدَةٍ وَمُنْفَعَةٍ.

تم تفسير سورة الجاثية. ولله الحمد والمنة والفضل.



تفسير سورة الأحقاف

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿حَمْدٌ ﴿١﴾ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿٢﴾ مَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنذِرُوا مُّعْرِضُونَ ﴿٣﴾﴾

سورة الأحقاف

الأنعام والبر

وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ ﴿٦﴾ وَإِذَا نُنَادِيهِمْ يَخْتَلِفُ عَلَيْهِمْ عَصْفَتَانِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ لَهُنَّ سِخْرٌ مِثْلُ مَا يَخْلُفُ لَكَ اللَّهُ شَيْئًا هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفْعِلُونَ فَبَلِّغْ رِسَالَتَهُ قُلْ إِنِّي أَخَذْتُ بِوَثَاقٍ ﴿٧﴾ وَبَيِّنْ لَهُمْ نَبَأَهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٨﴾ قُلْ مَا كُنْتُ بِدَعَايِنِ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرَى مَا يَفْعَلُ بِي وَلَا يَكْرَهُ أَنْ أَنْبِئُ إِلَّا مَا يُوْحَى إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿٩﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ كَانُوا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَكَفَرُوا بِهِمْ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَلَى مِثْلِهِ فَقَامَتْ وَاسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٠﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَمَسَّبِقُولُونَ هَذَا أَفْكَ قَدِيمٌ ﴿١١﴾ وَمِنْ قَبْلِهِ كَتَبَ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً وَهَذَا كِتَابٌ مُصَدِّقٌ لِمَا نَاسَا عَرَبِيًّا يُنْذِرُ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَهُمْ يَنْسَوْنَ ﴿١٢﴾ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا فَالْخَوْفُ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٣﴾ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً لِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾

٥٠٣

مِنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرَى مَا يَفْعَلُ بِي وَلَا يَكْرَهُ أَنْ أَنْبِئُ إِلَّا مَا يُوْحَى إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿٦﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنَ عِنْدِ اللَّهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِمْ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَلَى مِثْلِهِ فَقَامَتْ وَاسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٧﴾

﴿٧﴾ أي: ﴿وَإِذَا نُنَادِي﴾: على المكذبين ﴿ءَايَاتُنَا بَيِّنَاتٍ﴾: بحيث تكون على وجه لا يمتري بها، ولا يشك في وقوعها وحققها؛ لم تقدم خيرا، بل قامت عليهم بذلك الحجة، ويقولون من إفكهم وافتراءهم ﴿لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾: أي: ظاهر لا شك فيه. وهذا من باب قلب الحقائق، الذي لا يروج إلا على ضعفاء العقول، وإلا؛ فبين الحق الذي جاء به الرسول ﷺ وبين السحر من المنافاة والمخالفة أعظم مما بين السماء والأرض، وكيف يقاس الحق - الذي علا وارتفع ارتفاعا علا على الأفلاك، وفاق بضوئه ونوره نور الشمس، وقامت الأدلة الأقفية والنفسية عليه، وأقرت به، وأذعن أولو البصائر والعقول الرزنية - بالباطل الذي هو السحر الذي لا يصدر إلا من ضال ظالم خبيث النفس خبيث العمل؛ فهو مناسب له وموافق لحاله؟! وهل هذا إلا من البهجة؟!

﴿٨﴾ أَمْ يَقُولُونَ أَفَرَّيْتُمْ؟ أي: افترى محمد هذا القرآن من

عند نفسه؛ فليس من عند الله، ﴿قُلْ﴾ لهم: ﴿إِنْ أَفَرَّيْتُمْ،﴾ قاله علي قادر وبما تفيضون فيه عالم؛ فكيف لم يعاقبني على افترائي الذي زعمتم؛ فهل ﴿تَكْلُكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾: إن أرادني الله بضر أو أرادني برحمة؟ ﴿كُنْ بِهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾: فلو كنت متقولا عليه؛ لأخذ مني باليمين، ولعاقبني عقابا يراه كل أحد؛ لأن هذا أعظم أنواع الافتراء لو كنت متقولا. ثم دعاهم إلى التوبة مع ما صدر منهم من معاندة الحق ومخاصمته، فقال: ﴿وَهُوَ الْعَفْوَ الرَّحِيمُ﴾: أي: فتوبوا إليه، وأقلعوا عما أنتم فيه يغفر لكم ذنوبكم، ويرحمكم فيوفقكم للخير، ويشيكم جزيل الأجر.

﴿٩﴾ ﴿قُلْ مَا كُنْتُ بِدَعَايِنِ الرُّسُلِ﴾: أي: لست بأول رسول جاءكم حتى تستغربوا رسالتي وتستكروا دعوتي؛ فقد تقدم من الرسل والأنبياء من وافقت دعوتي دعوتهم؛ فلا شيء تنكرون رسالتي؟! ﴿وَمَا أَدْرَى مَا يَفْعَلُ بِي وَلَا يَكْرَهُ﴾: أي: لست إلا بشرا، ليس بيدي من الأمر شيء، والله تعالى هو المتصرف بي وبكم، الحاكم علي وعليكم، ولست آتي بالشيء من عندي. ﴿وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾: فإن قبلتم رسالتي وأجبت دعوتي؛ فهو حظكم ونصيبكم في الدنيا والآخرة، وإن رددتم ذلك علي؛ فحسابكم على الله، وقد أنذرتكم، ومن أنذر فقد أعذر.

﴿١٠﴾ ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنَ عِنْدِ اللَّهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِمْ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَلَى مِثْلِهِ فَقَامَتْ وَاسْتَكْبَرْتُمْ﴾: أي: أخبروني لو كان هذا القرآن من عند الله، وشهد على صحته الموفقون من أهل الكتاب، الذين عندهم من الحق ما يعرفون أنه الحق، فآمنوا به واهتدوا، فطابقت أنباء الأنبياء وأتباعهم النبلاء واستكبرتم أيها الجهلاء الأغبياء؛ فهل هذا إلا أعظم الظلم وأشد الكفر؟! ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾: ومن الظلم الاستكبار عن الحق بعد التمكن منه.

﴿١١﴾ ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَمَسَّبِقُولُونَ هَذَا أَفْكَ قَدِيمٌ﴾: ﴿وَمِنْ قَبْلِهِ كَتَبَ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً وَهَذَا كِتَابٌ مُصَدِّقٌ لِمَا نَاسَا عَرَبِيًّا يُنْذِرُ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَهُمْ يَنْسَوْنَ لِلْمُحْسِنِينَ﴾: ﴿١٢﴾

﴿١١﴾ أَي: قال الكفار بالحق معاندين له ورادين لدعوته: ﴿لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ﴾؛ أي: ما سبقنا إليه المؤمنون، أي: لكننا أول مبادر به وسابق إليه! وهذا من البهرجة في مكان؛ فأى دليل يدل على أن علامة الحق سبق المكذبين به للمؤمنين؟! هل هم أذكى نفوسًا؟! أم أكمل عقولًا؟! أم الهدى بأيديهم؟! ولكن هذا الكلام الذي صدر منهم يعزون به أنفسهم، بمنزلة من لم يقدر على الشيء ثم طفق يذمه، ولهذا قال: ﴿وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَمَسَّحُوا بِأَيْدِيهِمْ﴾؛ أي: هذا السبب الذي دعاهم إليه أنهم لما لم يهتدوا بهذا القرآن، وفاتهم أعظم المواهب وأجل الرغائب؛ قدحوا فيه بأنه كذب، وهو الحق الذي لا شك فيه ولا امتراء يعتريه، الذي قد وافق الكتب السماوية، خصوصًا أكملها وأفضلها بعد القرآن، وهي التوراة التي أنزلها الله على ﴿مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً﴾؛ أي: يقتدي بها بنو إسرائيل ويهتدون بها، فيحصل لهم خير الدنيا والآخرة.

﴿وَهَذَا﴾: القرآن ﴿كَتَبْتُ مُصَدِّقًا﴾: للكتب السابقة، شهد بصدقها وصدقها بموافقتها لها، وجعله الله ﴿لِسَانًا عَرَبِيًّا﴾: ليسهل تناوله ويتيسر تذكره؛ ﴿لِنُنْذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾: أنفسهم بالكفر والفسوق والعصيان إن استمروا على ظلمهم بالعذاب الويل، ويشر المحسنين في عبادة الخالق وفي نفع المخلوقين بالثواب الجزيل في الدنيا والآخرة، ويذكر الأعمال التي ينذر عنها والأعمال التي يشر بها.

﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ ﴿١٢﴾ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٣﴾.

﴿١٢﴾ أي: إن الذين أقروا بربهم، وشهدوا له بالوحدانية، والتزموا طاعته، وداموا على ذلك، و﴿اسْتَقَمُوا﴾ مدة حياتهم؛ ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾: من كل شر أمامهم، ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾: على ما خلفوا وراءهم.

﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ﴾؛ أي: أهلها الملائمون لها، الذين لا ييغون عنها حولًا ولا يريدون بها بدلًا، ﴿خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾: من الإيمان بالله، المقتضي للأعمال الصالحة، التي استقاموا عليها.

﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمَلُهُ وَفَصْلُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا حَتَّى إِذَا بَلَغَ

أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ ﴿١٥﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ نَقَبْلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَعَدَ الصَّادِقُ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿١٦﴾.

﴿١٥﴾ هذا من لطفه تعالى بعباده وشكره للوالدين أن وصى الأولاد وعهد إليهم أن يحسنوا إلى والديهم بالقول اللطيف والكلام اللين وبذل المال والنفقة وغير ذلك من وجوه الإحسان، ثم نبه على ذكر السبب الموجب لذلك، فذكر ما تحملته الأم من ولدها، وما قاسته من المكاره وقت حملها، ثم مشقة ولادتها المشقة الكبيرة، ثم مشقة الرضاع وخدمة الحضانه، وليست المذكورات مدة يسيرة ساعة أو ساعتين، وإنما ذلك مدة طويلة قدرها ﴿ثَلَاثُونَ شَهْرًا﴾: للحمل تسعة أشهر ونحوها، والباقي للرضاع، هذا الغالب. ويستدل بهذه الآية مع قوله: ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ﴾ [البقرة: ٢٣٣]: أن أقل مدة الحمل ستة أشهر؛ لأن مدة الرضاع - وهي ستان - إذا سقطت منها الستان؛ بقي ستة أشهر مدة للحمل، ﴿حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ﴾؛ أي: نهاية قوته وشبابه وكمال عقله، ﴿وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي﴾؛ أي: ألهمني ووفقني، ﴿أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ﴾؛ أي: نعم الدين ونعم الدنيا، وشكره بصرف النعم في طاعة مسديها وموليها ومقابلة مته بالاعتراف والعجز عن الشكر والاجتهاد في الثناء بها على الله، والنعم على الوالدين نعم على أولادهم وذريتهم لأنهم لا بد أن ينالهم منها ومن أسبابها وأثارها، خصوصًا نعم الدين؛ فإن صلاح الوالدين بالعلم والعمل من أعظم الأسباب لصلاح أولادهم، ﴿وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ﴾: بأن يكون جامعًا لما يصلحه سالمًا مما يفسده؛ فهذا العمل الذي يرضاه الله ويقبله ويثيب عليه، ﴿وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي﴾: لما دعا لنفسه بالصلاح؛ دعا لذريته أن يصلح الله أحوالهم، وذكر أن صلاحهم يعود نفعه على والديهم؛ لقوله: ﴿وَأَصْلِحْ لِي﴾. ﴿إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ﴾: من الذنوب والمعاصي ورجعت إلى طاعتك، ﴿وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ ﴿١٥﴾.

﴿أُولَئِكَ﴾: الذين ذكرت أوصافهم ﴿الَّذِينَ نَقَبْلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا﴾: وهو الطاعات؛ لأنهم يعملون أيضًا غيرها، ﴿وَنَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ فِي﴾: جملة ﴿أَصْحَابِ الْجَنَّةِ﴾:

سورة الأحقاف

الأنبياء والآل

وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ
 كُرْهًا وَحَمَلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ
 أَرْبَعِينَ سَنًا قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ
 عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلَحَ لِي فِي
 ذُرِّيَّتِي إِنِّي بُنِيتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٧﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ
 تَنفَعِلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَتَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ
 الْجَنَّةِ وَعَدَ الصَّادِقُ الَّذِي كَانُوا يُوْعَدُونَ ﴿١٨﴾ وَالَّذِي قَالَ
 لَوْلَايَ أَفِيَ لَكُمْ أَعْدَانِي أَنْ أُخْرِجَ وَقَدْ خَلَّتِ الْقُرُونُ مِنْ
 قَبْلِي وَهُمَا يَسْتَفِيتَانِ اللَّهَ وَيْلَكَ ءَامِنٌ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ
 مَا هَذَا إِلَّا أَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٩﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ
 الْقَوْلُ فِي أَمْرٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْغَنِيِّ وَالْإِنْسَانِ إِنَّهُمْ كَانُوا
 خَسِيرِينَ ﴿٢٠﴾ وَلِكُلِّ دَرَجَةٍ مِمَّا عَمِلُوا وَلِيُوفيَهُمْ أَعْمَلُهُمْ وَهُمْ
 لَا يَظْلَمُونَ ﴿٢١﴾ وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَهُمْ طَبِيعَتُهُمْ
 فِي حَيَاتِهِمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمَنَعْتُمْ بِهَا فَأَلْيَوْمَ يُعْرَضُونَ عَذَابَ الْهُونِ
 بِمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَفْسُقُونَ ﴿٢٢﴾

٥٠٤

فحصل لهم الخير والمحبوب، وزال عنهم الشر والمكروه.
 ﴿وَعَدَ الصَّادِقُ الَّذِي كَانُوا يُوْعَدُونَ﴾ (١٧)؛ أي: هذا الوعد
 الذي وعدناهم هو وعد صادق من أصدق القائلين الذي
 لا يخلف الميعاد.

﴿وَالَّذِي قَالَ لَوْلَايَ أَفِيَ لَكُمْ أَعْدَانِي أَنْ أُخْرِجَ وَقَدْ
 خَلَّتِ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي وَهُمَا يَسْتَفِيتَانِ اللَّهَ وَيْلَكَ ءَامِنٌ إِنَّ وَعْدَ
 اللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَذَا إِلَّا أَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ (١٨) أُولَٰئِكَ الَّذِينَ
 حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أَمْرٍ قَدْ خَلَّتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْغَنِيِّ وَالْإِنْسَانِ
 إِنَّهُمْ كَانُوا خَسِيرِينَ ﴿٢٠﴾ وَلِكُلِّ دَرَجَةٍ مِمَّا عَمِلُوا وَلِيُوفيَهُمْ
 أَعْمَلُهُمْ وَهُمْ لَا يَظْلَمُونَ ﴿٢١﴾.

﴿١٧﴾ لما ذكر تعالى حال الصالح البار لوالديه؛ ذكر حالة
 العاق، وأنها شر الحالات، فقال: ﴿وَالَّذِي قَالَ لَوْلَايَ﴾:
 إذ دعواه إلى الإيمان بالله واليوم الآخر، وخوفاه الجزاء،
 وهذا أعظم إحسان يصدر من الوالدين لولدهما أن يدعوه
 إلى ما فيه سعاده الأبدية وفلاحه السرمدي، فقابلهما بأقبح
 مقابلة، فقال: ﴿أَفِيَ لَكُمْ﴾؛ أي: تبأ لكما، ولما جتمما به.

ثم ذكر وجه استبعاده وإنكاره لذلك، فقال: ﴿أَعْدَانِي
 أَنْ أُخْرِجَ﴾: من قبري إلى يوم القيامة ﴿وَقَدْ خَلَّتِ الْقُرُونُ
 مِنْ قَبْلِي﴾: على التكذيب، وسلفوا على الكفر، وهم الأئمة

المقندى بهم لكل كفور وجهول ومعاند. ﴿وَهُمَا﴾؛ أي: والداه ﴿يَسْتَفِيتَانِ اللَّهَ﴾: عليه ويقولان له: ﴿وَيْلَكَ ءَامِنٌ﴾؛ أي:
 يبذلان غاية جهدهما ويسعيان في هدايته أشد السعي، حتى إنهما من حرصهما عليه أنهما يستغيثان الله له استغاثة الغريق،
 ويسألانه سؤال الشريك، ويعذلان ولدتهما، ويتوجعان له، ويبينان له الحق، فيقولان: ﴿إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾، ثم يقيمان عليه من
 الأدلة ما أمكنهما، وولدتهما لا يزداد إلا عتواً ونفورا واستكباراً عن الحق وقدحاً فيه، ﴿فَيَقُولُ مَا هَذَا إِلَّا أَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ (١٨)؛
 أي: إلا منقول من كتب المتقدمين، ليس من عند الله، ولا أوحاه الله إلى رسوله، وكل أحد يعلم أن محمداً ﷺ أُمِّي لا يكتب
 ولا يقرأ، ولا يتعلم من أحد؛ فمن أين يتعلمه؟ وأنى للخلق أن يأتوا بمثل هذا القرآن ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً؟!

﴿١٩﴾ ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ﴾: بهذه الحالة الذميمة ﴿حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ﴾؛ أي: حقت عليهم كلمة العذاب ﴿فِي﴾ جملة ﴿أَمْرٍ قَدْ
 خَلَّتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْغَنِيِّ وَالْإِنْسَانِ﴾: على الكفر والتكذيب، فسدخل هؤلاء في غمارهم، ويفرقون في تيارهم. ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا
 خَسِيرِينَ﴾ (٢٠): والخسران فوات رأس مال الإنسان، وإذا فقد رأس ماله؛ فالأرباح من باب أولى وأحرى؛ فهم قد فاتهم
 الإيمان، ولم يحصلوا شيئاً من النعيم، ولا سلموا من عذاب الجحيم.

﴿٢١﴾ ﴿وَلِكُلِّ﴾: من أهل الخير وأهل الشر ﴿دَرَجَةٍ مِمَّا عَمِلُوا﴾؛ أي: كل على حسب مرتبته من الخير والشر، ومنزلهم
 في الدار الآخرة على قدر أعمالهم، ولهذا قال: ﴿وَلِيُوفيَهُمْ أَعْمَلُهُمْ وَهُمْ لَا يَظْلَمُونَ﴾ (٢١): بألا يزداد في سيئاتهم ولا ينقص من
 حسناتهم.

﴿٢٢﴾ ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَهُمْ طَبِيعَتُهُمْ فِي حَيَاتِهِمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمَنَعْتُمْ بِهَا فَأَلْيَوْمَ يُعْرَضُونَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ
 فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَفْسُقُونَ﴾ (٢٢).

﴿٢٠﴾ يذكر تعالى حال الكفار عند عرضهم على النار حين يوبخون ويقرعون، فيقال لهم: ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيْبِنَا فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا؟﴾ حيث اطمأنتم إلى الدنيا، واغترتم بلذاتها، ورضيتم بشهواتها، وألهمكم طيباتها عن السعي لأخرتكم، وتمتعتم تمتع الأنعام السارحة؛ فهي حظكم من آخرتكم. ﴿قَالُوا لَمْ نَجُزْ عَذَابَ الْهَوْنِ؟﴾ أي: العذاب الشديد الذي يهينكم، ويفضحكم بما كنتم تقولون على الله غير الحق؛ أي: تنسبون الطريق الضالة التي أنتم عليها إلى الله وإلى حكمه وأنتم كذبة في ذلك، ﴿وَمَا كُنْتُمْ تَفْسُقُونَ﴾؟ أي: تتكبرون عن طاعته، فجمعوا بين قول الباطل والعمل بالباطل والكذب على الله بنسبته إلى رضا والقدح في الحق والاستكبار عنه، فعوقبوا أشد العقوبة.

﴿وَأَذْكُرْنَا عَادَ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ﴾ إلى آخر القصة. ﴿٢١﴾ أي: ﴿وَأَذْكُرْ﴾: بالثناء الجميل ﴿أَعَادَ﴾: وهو هود عليه السلام، حيث كان من الرسل الكرام، الذين فضلهم الله تعالى بالدعوة إلى دينه وإرشاد الخلق إليه، ﴿إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ﴾: وهم عاد ﴿بِالْأَحْقَافِ﴾؛ أي: في منازلهم المعروفة بالأحقاف، وهي الرمال الكثيرة في أرض اليمن، ﴿وَقَدْ خَلَّتِ النَّذْرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ﴾: فلم يكن بدعاً منهم ولا مخالفاً لهم، قائلاً لهم: ﴿فَأمرهم بعبادة الله الجامعة لكل قول سديد وعمل حميد، ونهاهم عن الشرك والتنديد، وخوفهم إن لم يطيعوه العذاب الشديد، فلم تفد فيهم تلك الدعوة.

﴿٢٢﴾ ف ﴿قَالُوا أِجْتَنَّا لِنَأْفِكَا عَنْ آلِهَتِنَا؟﴾ أي: ليس لك من القصد ولا معك من الحق إلا أنك حسدتنا على آلهتنا، فأردت أن تصرفنا عنها، ﴿فَأَنَّا يَمَّا تَوَدَّأْنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾: وهذا غاية الجهل والعناد.

﴿٢٣﴾ قَالَ إِنَّمَا أَعْلَمُ عِنْدَ اللَّهِ: فهو الذي بيده أَرْزَمَةُ الأمور ومقاليدها، وهو الذي يأتيكم بالعذاب إن شاء، ﴿وَأُفْلِكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ؟﴾ أي: ليس علي إلا البلاغ المبين، ﴿وَلَكِنِّي أَرْكُكُمْ قَوْمًا يَجْهَلُونَ﴾: فلذلك صدر منكم ما صدر من هذه الجراءة الشديدة.

﴿٢٤﴾، ﴿٢٥﴾ فأرسل الله عليهم العذاب العظيم، وهو الريح التي دمرتهم وأهلكتهم، ولهذا قال: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ﴾؛ أي: العذاب، ﴿عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَّتِهِمْ﴾؛ أي: معترضاً كالسحاب، قد أقبل على أوديتهم التي تسيل فتسقي نوابتهم ويشربون من آبارها وغدرانها، ﴿قَالُوا﴾: مستبشرين: ﴿هَذَا عَارِضٌ مُطْمَئِنٌّ﴾؛ أي: هذا السحاب سيمطرننا. قال تعالى: ﴿بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ﴾؛ أي: هذا الذي جئتم به على أنفسكم حيث قلتم: ﴿فَأَنَّا يَمَّا تَوَدَّأْنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾. ﴿رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ﴿٢٦﴾ تَدْمِرُ كُلَّ شَيْءٍ: تمر عليه من شدتها ونحسها، فسلطها الله ﴿عَلَيْهِمْ سَيْحَ لِبَالٍ وَتَمْنِيَةِ آيَاتٍ حُسُومًا فَفَرَّقَ الْقَوْمَ فِيهَا صَرَخَ كَأَنَّهُمْ أَعْبَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾ [الحاقة: ٧]، ﴿بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾؛ أي: بإذنه ومشيئته، ﴿فَأَصْبَحُوا لَا يَرَوْنَ إِلَّا مَسْكَنَهُمْ﴾: قد تلفت مواشيسهم وأموالهم وأنفسهم. ﴿كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾: بسبب جرمهم وظلمهم.

﴿٢٦﴾ هذا مع أن الله قد أدر عليهم النعم العظيمة فلم يشكروه ولا ذكروه، ولهذا قال: ﴿وَلَقَدْ مَكَنَّهُمْ فِيمَا إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ﴾؛ أي: مكناهم في الأرض يتناولون طيباتها، ويتمتعون بشهواتها، وعمرانهم عمرًا يتذكرون فيه من تذكروا ويتعظ فيه المهتدي؛ أي:

﴿سُورَةُ الْأَحْقَافِ﴾
﴿٢٠﴾ وَأَذْكُرْنَا عَادَ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَّتِ النَّذْرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ ۚ أَلَا اللَّهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٢١﴾ قَالُوا أِجْتَنَّا لِنَأْفِكَا عَنْ آلِهَتِنَا فَأَنَّا يَمَّا تَوَدَّأْنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٢٢﴾ قَالَ إِنَّمَا أَعْلَمُ عِنْدَ اللَّهِ وَأُفْلِكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ ۚ وَلَكِنِّي أَرْكُكُمْ قَوْمًا يَجْهَلُونَ ﴿٢٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَّتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُطْمَئِنٌّ بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ ۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ تَدْمِرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يَرَوْنَ إِلَّا مَسْكَنَهُمْ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ﴿٢٥﴾ وَلَقَدْ مَكَنَّهُمْ فِيمَا إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٢٦﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ مِنَ الْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٧﴾ فَلَوْلَا نَصْرُهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا آلِهَةً ۚ بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ وَذَلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا يَفْقَهُونَ ﴿٢٨﴾

ولقد مكننا عاذًا كما مكناكم يا هؤلاء المخاطبون؛ أي: فلا تحسبوا أن ما مكناكم فيه مختص بكم، وأنه سيدفع عنكم من عذاب الله شيئًا، بل غيركم أعظم منكم تمكينًا، فلم تغن عنهم أموالهم ولا أولادهم ولا جنودهم من الله شيئًا، ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَرًا وَأَفْئِدَةً﴾؛ أي: لا قصور في أسماعهم ولا أبصارهم ولا أذهانهم حتى يقال: إنهم تركوا الحق جهلاً منهم وعدم تمكن من العلم به ولا خلل في عقولهم، ولكن التوفيق بيد الله، ﴿فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَرُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ﴾: لا قليل ولا كثير، وذلك بسبب أنهم يجحدون آيات الله الدالة على توحيده وإفراده بالعبادة، ﴿وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾؛ أي: نزل بهم العذاب الذي يكذبون بوقوعه، ويستهزئون بالرسول الذين حذروهم منه.

﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ مِنَ الْقَرْيَةِ وَصَرَفْنَا آلَيْبَتَ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ (٢٧) ﴿فَلَوْلَا نَصْرُهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا آلِهَةً بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ وَذَلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ (٢٨).

(٢٧)، (٢٨) يحذر تعالى مشركي العرب وغيرهم بإهلاك الأمم المكذبين الذين هم حول ديارهم، بل كثير منهم في جزيرة العرب؛ كعاد وثمود ونحوهم، وأن الله تعالى صرف لهم ﴿الْآيَةَ﴾؛ أي: نوعها من كل وجه، ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ (٢٧): عما هم عليه من الكفر والتكذيب، فلما لم يؤمنوا؛ أخذهم الله أخذ عزيز مقتدر، ولم تنفعهم آلهتهم التي يدعون من دون الله من شيء، ولهذا قال هنا: ﴿فَلَوْلَا نَصْرُهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا آلِهَةً﴾؛ أي: يتقربون إليهم ويتألهونهم لرجاء نفعهم. ﴿بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ﴾: فلم يجيبوهم ولا دفعوا عنهم، ﴿وَذَلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ (٢٨): من الكذب الذي يمينون به أنفسهم؛ حيث يزعمون أنهم على الحق، وأن أعمالهم ستنتفعهم، فضلت وبطلت.

﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ﴾ (٢٩) ﴿قَالُوا يَنْقُومُنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَّا طَرِيقُ مُسْتَقِيمٍ﴾ (٣٠) ﴿يَقُومُنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُخْرِجَكُمْ مِنْ عَذَابِ آلِيمٍ﴾ (٣١) ﴿وَمَنْ لَا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءُ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ (٣٢).

(٢٩) كان الله تعالى قد أرسل رسوله محمدًا ﷺ إلى الخلق إنسهم وجنهم، وكان لا بد من إبلاغ الجميع لدعوة النبوة والرسالة؛ فالإنس يمكنه عليه الصلاة والسلام دعوتهم وإنذارهم، وأما الجن؛ فصر فهم الله إليه بقدرته وأرسل إليه ﴿نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا﴾؛ أي: وصى بعضهم بعضًا بذلك، ﴿فَلَمَّا قُضِيَ﴾: وقد عوه وأثر ذلك فيهم، ﴿وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ﴾ (٢٩): نصحا منهم لهم، وإقامة لحجة الله عليهم، وقضاهم الله لمعونة لرسوله ﷺ في نشر دعوته في الجن.

(٣٠) ﴿قَالُوا يَنْقُومُنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَىٰ﴾: لأن كتاب موسى أصل للإنجيل وعملة لبني إسرائيل في أحكام الشرع، وإنما الإنجيل متمم ومكمل ومغير لبعض الأحكام، ﴿مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي﴾: هذا الكتاب الذي سمعناه، ﴿إِلَّا الْحَقِّ﴾: وهو الصواب في كل مطلوب وخير، ﴿وَإِلَّا طَرِيقُ مُسْتَقِيمٍ﴾ (٣٠): موصل إلى الله وإلى جنته من العلم بالله وبأحكامه الدينية وأحكام الجزاء.

(٣١) ﴿يَقُومُنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُخْرِجَكُمْ مِنْ عَذَابِ آلِيمٍ﴾ (٣١) ﴿وَمَنْ لَا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءُ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ (٣٢).

﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ﴾ (٢٩) ﴿قَالُوا يَنْقُومُنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَّا طَرِيقُ مُسْتَقِيمٍ﴾ (٣٠) ﴿يَقُومُنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُخْرِجَكُمْ مِنْ عَذَابِ آلِيمٍ﴾ (٣١) ﴿وَمَنْ لَا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءُ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ (٣٢) ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَكُنْ يَخْلُقْهُمْ يَفْقَدِرُ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ الْوَقُوفَ بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (٣٣) ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ (٣٤) ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرْنَا وَلَوْ الْعَزِيمُونَ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبُثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَارٍ بَلَّغْ فَهَلْ يَهْلِكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ﴾ (٣٥).

والهمم العالية، الذين عظم صبرهم وتم يقينهم؛ فهم أحق الخلق بالأسوة بهم والقفو لأثارهم والاهتداء بمنارهم، فامثل ﷺ لأمر ربه، فصبر صبراً لم يصبره نبي قبله، حتى رماه المعادون له عن قوس واحدة، وقاموا جميعاً بصدده عن الدعوة إلى الله، وفعلوا ما يمكنهم من المعادة والمحاربة، وهو ﷺ لم يزل صادعاً بأمر الله، مقيماً على جهاد أعداء الله، صابراً على ما يناله من الأذى، حتى مكن الله له في الأرض، وأظهر دينه على سائر الأديان وأمته على الأمم، فصلى الله عليه وسلم تسليماً.

وقوله: ﴿وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ﴾؛ أي: لهؤلاء المكذبين المستعجلين للعذاب؛ فإن هذا من جهلهم وحمقهم؛ فلا يستخفنك بجهلهم ولا يحملك ما ترى من استعجالهم على أن تدعو الله عليهم بذلك؛ فإن كل ما هو آت قريب، ﴿وَكَاثِبُهُمْ﴾ حين ﴿يُرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ﴾ لَمْ يَلْتَوُوا في الدنيا ﴿إِلَّا سَاعَةً مِّنْ نَّهَارٍ﴾؛ فلا يحزنك تمتعهم القليل وهم صائرون إلى العذاب الويل، ﴿بَلَّغْ﴾؛ أي: هذه الدنيا متاعها وشهواتها ولذاتها بلغة منغصة ودفع وقت حاضر قليل، أو هذا القرآن العظيم - الذي بينا لكم فيه البيان التام - بلاغ لكم وزاد إلى الدار الآخرة، ونعم الزاد والبلغة، زاد يوصل إلى دار النعيم، ويعصم من العذاب الأليم؛ فهو أفضل زاد يتزوده الخلاق، وأجل نعمة أنعم الله بها عليهم، ﴿فَهَلْ يُهْلَكُ﴾ بالعقوبات ﴿إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ﴾؛ أي: الذين لا خير فيهم، وقد خرجوا عن طاعة ربه، ولم يقبلوا الحق الذي جاءهم به الرسل، وأعذر الله لهم وأنذرهم، فبعد ذلك إذ يستمرون على تكذيبهم وكفرهم، نسال الله العصمة.

آخر تفسير سورة الأحقاف. والحمد لله رب العالمين.



تفسير سورة القتال

وهي مدنية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْيُنُهُمْ﴾^(١) وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَءَامَنُوا بِمَا نَزَلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ذَلِكَ يَأْنِ لِلَّذِينَ

﴿٣١﴾ فلما مدحوا القرآن وبينوا محله ومرتبته؛ دعوهم إلى الإيمان به، فقالوا: ﴿يَقَوْمًا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ﴾؛ أي: الذي لا يدعو إلا إلى ربه، لا يدعوكم إلى غرض من أغراضه ولا هوى، وإنما يدعوكم إلى ربكم ليشيكم، ويزيل عنكم كل شر ومكروه، ولهذا قالوا: ﴿يَقْفَرُ لَكُمْ مِّنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُمْ مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾؛ وإذا أجارهم من العذاب الأليم؛ فما ثم بعد ذلك إلا النعيم؛ فهذا جزء من أجاب داعي الله.

﴿٣٢﴾ وَمَنْ لَا يُحِبِّ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ؛ فإن الله على كل شيء قدير، فلا يفوته هارب ولا يغالبه مغالب، ﴿وَلَيْسَ لَهُ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءُ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾؛ وأي ضلال أبلغ من ضلال من نادته الرسل، ووصلت إليه النذر بالآيات البينات والحجج المتواترات فأعرض واستكبر؟!

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَكُنْ يَخْلُقْهُنَّ بِقَدِيرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ الْمَوْتَ بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾^(٣٣).

﴿٣٤﴾ هذا استدلال منه تعالى على الإعادة بعد الموت بما هو أبلغ منها، وهو الذي خلق السماوات والأرض على عظمهما وسعتهما وإتقان خلقيهما من دون أن يكثر بذلك، ﴿وَلَمْ يَكُنْ يَخْلُقْهُنَّ﴾؛ فكيف تعجزه إعادتك بعد موتكم وهو ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾^(٣٥)؟!

﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ تُكَفِّرُونَ﴾^(٣٦) قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٧﴾ فَأَصْبَحَ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَرْشِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ كَانَتْهُمْ يَوْمَ يُرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّنْ نَّهَارٍ بَلَّغٌ فَبَلَّغٌ يُّهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمَ الْفَاسِقُونَ﴾^(٣٨).

﴿٣٩﴾ يخبر تعالى عن حال الكفار الفظيعة عند عرضهم على النار التي كانوا يكذبون بها، وأنهم يوبخون ويقال لهم: ﴿الَّذِينَ هَذَا بِالْحَقِّ﴾؛ فقد حضرتهم وشاهدتموه عياناً، ﴿قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا﴾؛ فاعترفوا بذنوبهم وتبين كذبهم، ﴿قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾^(٤٠)؛ أي: عذاباً لازماً دائماً كما كان كفركم صفة لازمة.

﴿٤١﴾ ثم أمر تعالى رسوله أن يصبر على أذية المكذبين المعادين له، وألا يزال داعياً لهم إلى الله، وأن يقتدي بصبر أولي العزم من المرسلين سادات الخلق أولي العزائم

كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَلَهُمْ ﴿٣﴾

﴿٣﴾ هذه الآيات مشتملات على ذكر ثواب المؤمنين، وعقاب العاصين، والسبب في ذلك، ودعوة الخلق إلى الاعتبار بذلك، فقال: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾: وهؤلاء رؤساء الكفر وأئمة الضلال، الذين جمعوا بين الكفر بالله وآياته والصد لأنفسهم وغيرهم عن سبيل الله، التي هي الإيمان بما دعت إليه الرسل واتباعه؛ فهؤلاء ﴿أَضَلَّ اللَّهُ﴾ ﴿أَعْمَاهُمْ﴾ ﴿١﴾؛ أي: أبطلها وأشقاها بسببها، وهذا يشمل أعمالهم التي عملوها ليكيدوا بها الحق وأولياء الله، إن الله جعل كيدهم في نحورهم، فلم يدركوا مما قصدوا شيئاً، وأعمالهم التي يرجون أن ينالوا عليها؛ إن الله سيحيطها عليهم، والسبب في ذلك أنهم اتبعوا الباطل، وهو كل غاية لا يراد بها وجه الله من عبادة الأصنام والأوثان. والأعمال التي في نصر الباطل لما كانت باطلة؛ كانت الأعمال لأجلها باطلة.

﴿٢﴾ وأما ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بما أنزل الله على رسله عموماً وعلى محمد ﷺ خصوصاً، ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾: بأن قاموا بما عليهم من حقوق الله وحقوق العباد الواجبة والمستحبة، ﴿كَفَرُ﴾ الله ﴿عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾: صغارها وكبارها، وإذا كفرت سيئاتهم؛ نجوا من عذاب الدنيا والآخرة، ﴿وَأَصْلَحَ﴾ ﴿١﴾؛ أي: أصلح دينهم ودنياهم وقلوبهم وأعمالهم، وأصلح ثوابهم بتنميته وتزكيته، وأصلح جميع أحوالهم.

﴿٣﴾ والسبب في ذلك أنهم اتبعوا الحق الذي هو الصدق واليقين وما اشتمل عليه هذا القرآن العظيم الصادر من ربهم الذي رباهم بنعمته ودبرهم بلطفه، فرباهم تعالى بالحق، فاتبعوه، فصلحت أمورهم، فلما كانت الغاية المقصودة لهم متعلقة بالحق المنسوب إلى الله الباقي الحق المبين؛ كانت الوسيلة صالحة باقية، باقياً ثوابها. ﴿كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَلَهُمْ﴾ ﴿١﴾؛ حيث بين لهم تعالى أهل الخير وأهل الشر، وذكر لكل منهم صفة يعرفون بها ويتميزون؛ ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حي عن بينة.

﴿فَإِذَا لَقِيتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّىٰ إِذَا أَثْخَسْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَتَاقَ فَإِمَّا مَأْبُودٌ وَإِمَّا فَدَاءٌ حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَأُنْصَرَفْتُمْ وَلَكِنَّ يُبْطِلُوا بَعْضَكُمْ بَعْضًا وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾ ﴿٤﴾ سَيِّئَاتِهِمْ وَيُضْلِحُّ بِأَعْمَالِهِمْ الْجَنَّةَ عَرَفَهَا لَهُمْ ﴿٥﴾

﴿٤﴾ يقول تعالى مرشداً عباده إلى ما فيه صلاحهم ونصرهم على أعدائهم: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾: في الحرب والقتال؛ فاصدقوهم القتال واضربوا منهم الأعناق حتى تتخنوهم وتكسروا شوكتهم وتبطلوا شرهم؛ فإذا فعلتم ذلك ورأيتم الأسر أولى وأصلح؛ ﴿فَشُدُّوا الْوَتَاقَ﴾: أي: الرباط، وهذا احتياط لآسرهم لئلا يهربوا؛ فإذا شد منهم الوثاق؛ اطمأن المسلمون من حربهم ومن شرهم؛ فإذا كانوا تحت أسركم؛ فأنتم بالخيار بين المن عليهم وإطلاقهم بلا مال ولا فداء، وإما أن تفدوهم بالألطاف حتى يشتروا أنفسهم، أو يشتريهم أصحابهم بمال أو بأسير مسلم عندهم، وهذا الأمر مستمر ﴿حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾؛ أي: حتى لا يبقى حرب، وتبقون في المسالمة والمهادنة؛ فإن لكل مقام مقالاً، ولكل حال حكماً.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴿١﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ﴿٢﴾ ذَلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَلَهُمْ ﴿٣﴾ فَإِذَا لَقِيتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّىٰ إِذَا أَثْخَسْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَتَاقَ فَإِمَّا مَأْبُودٌ وَإِمَّا فَدَاءٌ حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَأُنْصَرَفْتُمْ وَلَكِنَّ يُبْطِلُوا بَعْضَكُمْ بَعْضًا وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴿٤﴾ سَيِّئَاتِهِمْ وَيُضْلِحُّ بِأَعْمَالِهِمْ الْجَنَّةَ عَرَفَهَا لَهُمْ ﴿٥﴾ يَتَذَكَّرُ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّا نُنْصَرُّوهُمُ اللَّهُ يَنْصَرِّكُمُ وَلَيَبِيتَ أَقْدَامَكُمْ ﴿٦﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْسَا لَهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴿٧﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أُنْزِلَ اللَّهُ فَأَخْطَأَ أَعْمَالَهُمْ ﴿٨﴾ أَفَلَا يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَلُهَا ﴿٩﴾ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ ﴿١٠﴾

فالحال المتقدمة إنما هي إذا كان قتال وحرب؛ فإذا كان في بعض الأوقات لا حرب فيه لسبب من الأسباب؛ فلا قتل ولا أسر. ﴿ذَلِكَ﴾: الحكم المذكور في ابتلاء المؤمنين بالكافرين ومدولة الأيام بينهم وانتصار بعضهم على بعض، ﴿وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ﴾: فإنه تعالى على كل شيء قدير، وقادر على ألا ينتصر الكفار في موضع واحد أبداً، حتى يبيد المسلمون خضراءهم، ﴿وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ بَعْضُكُمْ يَتَّقِيَ﴾: ليقوم سوق الجهاد، وتبين بذلك أحوال العباد الصادق من الكاذب، وليؤمن من آمن إيماناً صحيحاً عن تبصرة لا إيماناً مبنياً على متابعة أهل الغلبة؛ فإنه إيمان ضعيف جداً، لا يكاد يستمر لصاحبه عند المحن والبلايا. ﴿وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾: لهم ثواب جزيل وأجر جميل، وهم الذين قاتلوا مَنْ أَمَرُوا بِقَتْلِهِمْ؛ لتكون كلمة الله هي العليا؛ فهولاء لَنْ يُبَيِّدَ اللَّهُ ﴿أَعْمَلَهُمْ﴾؛ أي: لن يحبطها ويطلها، بل يتقبلها وينميها لهم ويظهر من أعمالهم نتائجها في الدنيا والآخرة.

﴿سَيَهَيِّجُهُمْ﴾: إلى سلوك الطريق الموصلة إلى الجنة، ﴿وَيُضَيِّعُ بِالْمُؤْمِنِ﴾؛ أي: حالهم وأمورهم، وثوابهم يكون صالحاً كاملاً لا نكد فيه ولا تنغيص بوجه من الوجوه.

﴿وَيُدْخِلُهُمْ الْجَنَّةَ عَرَفَهَا هُمْ﴾؛ أي: عرفها أولاً بأن شوقهم إليها، ونعتها لهم، وذكر لهم الأعمال الموصلة إليها، التي من جملتها القتل في سبيل الله، ووفقهم للقيام بما أمرهم به ورغبهم فيه، ثم إذا دخلوا الجنة؛ عرفهم منازلهم وما احتوت عليه من النعيم المقيم والعيش السليم.

﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن نَّصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُم وَيُخْلِّصْكُمْ أَقْدَامَكُمْ﴾: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعَسَا لَهُمْ ءَاصِلُ﴾ ﴿أَعْمَلَهُمْ﴾ ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أُنْزِلَ اللَّهُ فَاحْبَطَ أَعْمَلَهُمْ﴾.

﴿هَذَا أَمْرٌ مِنْهُ تَعَالَى لِلْمُؤْمِنِينَ أَنْ يَنْصُرُوا اللَّهَ بِالْقِيَامِ بِدِينِهِ وَالدَّعْوَةِ إِلَيْهِ وَجِهَادِ أَعْدَائِهِ، وَالْقَصْدُ بِذَلِكَ وَجْهَ اللَّهِ؛ فَإِنَّهُمْ إِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ؛ نَصَرَهُمْ وَثَبَّتْ أَقْدَامُهُمْ؛ أَي: يربط على قلوبهم بالصبر والطمأنينة والثبات، ويصبر أجسادهم على ذلك، ويعينهم على أعدائهم؛ فهذا وعد من كريم صادق الوعد أن الذي ينصره بالأقوال والأفعال سينصره مولاه، ويسير له أسباب النصر من الثبات وغيره.

﴿وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَنَصَرُوا الْبَاطِلَ؛ فَإِنَّهُمْ

في تعس؛ أي: انتكاس من أمرهم وخذلان، ﴿وَاصْلُ أَعْمَلَهُمْ﴾؛ أي: أبطل أعمالهم التي يكيدون بها الحق، فرجع كيدهم في نحورهم، وبطلت أعمالهم التي يزعمون أنهم يريدون بها وجه الله.

﴿ذَلِكَ الْإِضْلَالُ وَالتَّعَسُّ لِلَّذِينَ كَفَرُوا بِسَبَبِ أَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أُنْزِلَ اللَّهُ﴾ من القرآن الذي أنزله الله صلاحاً للعباد وفلاحاً لهم، فلم يقبلوه، بل أبغضوه وكرهوه، ﴿فَاحْبَطَ أَعْمَلَهُمْ﴾.

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْتَلُهَا﴾ ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ﴾.

﴿أَي: أفلا يسير هؤلاء المكذبون بالرسول ﷺ، فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾: فإنهم لا يجدون عاقبتهم إلا شر العواقب؛ فإنهم لا يلتفتون يمنة ولا يسرة إلا وجدوا ما حولهم قد بادوا وهلكوا واستأصلهم التكذيب والكفر، فخدموا، ودمر الله عليهم أموالهم وديارهم، بل دمر أعمالهم ومكرهم، وللكافرين في كل زمان ومكان أمثال هذه العواقب الوخيمة والعقوبات الدميمة، وأما المؤمنون؛ فإن الله تعالى ينجيهم من العذاب، ويجزل لهم كثير الثواب.

﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾: فنولاهم برحمته، فأخرجهم من الظلمات إلى النور، وتولى جزاءهم ونصرهم، ﴿وَأَنَّ الْكَافِرِينَ﴾: بالله تعالى؛ حيث قطعوا عنهم ولاية الله، وسدوا على أنفسهم رحمته ﴿لَا مَوْلَى لَهُمْ﴾: يهديهم إلى سبل السلام، ولا ينجيهم من عذاب الله وعقابه، بل أولياؤهم الطاغوت؛ يخرجونهم من النور إلى الظلمات، أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون.

﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَسْمَعُونَ وَاكْوَكَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ مِنَ النَّارِ مَتَوًى لَهُمْ﴾.

﴿لما ذكر تعالى أنه ولي المؤمنين؛ ذكر ما يفعل بهم في الآخرة من دخول الجنات، التي تجري من تحتها الأنهار، التي تسقي تلك البساتين الزاهرة، والأشجار الناضرة المشمرة؛ لكل زوج بهيج، وكل فاكهة لذينة. ولما ذكر أن

سورة محمد

الأنبياء والآل

إِنَّ اللَّهَ يَدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَسْتَنْصِفُونَ وَلَا كُنْ أَنْ تَأْكُلَ الْأَعْنَمُ وَالنَّارُ مَتَوًى لَهُمْ ﴿١٣﴾ وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجْنَاكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ ﴿١٤﴾ أَفَنْ كَانَ عَلَى بَيْنَةٍ مِنْ رَبِّهِ كَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ﴿١٥﴾ مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرَ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَلِيدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءُهُمْ ﴿١٦﴾ وَمَنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ أَنِفًا أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِم وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ﴿١٧﴾ وَالَّذِينَ أَهْتَدُوا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ ﴿١٨﴾ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا فَأَنْتُمْ إِذَا جَاءَتْكُمْ ذَكَرْتَهُمْ ﴿١٩﴾ فَأَعْلَمُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرُوا لِذَنبِكُمْ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ ﴿٢٠﴾

٥٠٨

الكافرين لا مولى لهم؛ ذكر أنهم وكلوا إلى أنفسهم، فلم يتصفوا بصفات المروءة ولا الصفات الإنسانية، بل نزلوا عنها دركات، وصاروا كالأنعام التي لا عقل لها ولا فضل، بل جل همهم ومقصدهم التمتع بلذات الدنيا وشهواتها، فترى حركاتهم الظاهرة والباطنة دائرة حولها غير متعدية لها إلى ما فيه الخير والسعادة، ولهذا كانت النار متوى لهم؛ أي: متزلاً معداً لا يخرجون منها ولا يفتر عنهم من عذابها.

﴿ وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجْنَاكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ ﴾ ﴿١٣﴾.

﴿١٣﴾ أي: وكم من قرية من قرى المكذبين هي أشد قوة من قريتك في الأموال والأولاد والأعوان والأبنية والآلات، ﴿ أَهْلَكْنَاهُمْ ﴾ حين كذبوا رسلنا، ولم تفد فيهم الموعظة؛ فلم نجد لهم ناصرًا، ولم تغن عنهم قوتهم من عذاب الله شيئًا؛ فكيف حال هؤلاء الضعفاء أهل قريتك إذ أخرجوك عن وطنك، وكذبوك وعادوك، وأنت أفضل المرسلين وخير الأولين والآخرين؟! اليسوا بأحق من غيرهم بالإهلاك والعقوبة، لولا أن الله تعالى بعث رسوله بالرحمة والثاني بكل كافر وجاحد. ﴿ أَفَنْ كَانَ عَلَى بَيْنَةٍ مِنْ رَبِّهِ كَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ﴾ ﴿١٤﴾.

﴿١٤﴾ أي: لا يستوي من هو على بصيرة من أمر دينه علمًا وعملاً قد علم الحق واتبعه، ورجا ما وعده الله لأهل الحق؛ كمن هو أعمى القلب، قد رفض الحق وأصله واتبع هواه بغير هدى من الله، ومع ذلك يرى أن ما هو عليه هو الحق؛ فما أبعد الفرق بين الفريقين! وما أعظم التفاوت بين الطائفتين! أهل الحق وأهل الغي.

﴿ مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرَ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَلِيدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ ﴾ ﴿١٥﴾.

﴿١٥﴾ أي: مثل الجنة التي أعدّها الله لعباده الذين اتقوا سخطه، واتبعوا رضوانه؛ أي: نعمتها وصفتها الجميلة، ﴿ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ ﴾؛ أي: غير متغير لا بوخم ولا بريح منتنة ولا بمرارة ولا بكدورة، بل هو أعذب المياه وأصفاه وأطيبها ريحًا وألذها شربًا، ﴿ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرَ طَعْمُهُ ﴾: بحموضة ولا غيرها، ﴿ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ ﴾؛ أي: يلتذ به شاربه لذة عظيمة، لا كخمر الدنيا الذي يكره مذاقه ويصدع الرأس ويغول العقل، ﴿ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى ﴾: من شمعته وسائر أوساخه. ﴿ وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ ﴾: من نخيل وعنب وتفاوح ورماني وأترج وتين وغير ذلك مما لا نظير له في الدنيا؛ فهذا المحبوب المطلوب قد حصل لهم. ثم قال: ﴿ وَمَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ ﴾: يزول بها عنهم المروء؛ فأى هؤلاء خير أم: ﴿ كَمَنْ هُوَ خَلِيدٌ فِي النَّارِ ﴾: التي اشتد حرها وتضاعف عذابها، ﴿ وَسُقُوا ﴾: فيها ﴿ مَاءً حَمِيمًا ﴾؛ أي: حارًا جدًّا، ﴿ فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ ﴾ ﴿١٦﴾: فسبحان من فاوت بين الدارين والجزاءين والعاملين والعاملين.

﴿ وَمَنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ أَنِفًا أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِم وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ﴾ ﴿١٧﴾ وَالَّذِينَ أَهْتَدُوا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ ﴿١٨﴾.

﴿١٧﴾

الدالة على كماله وعظمته وجلاله؛ فإنها توجب بذل الجهد في التأله له والتعبد للرب الكامل الذي له كل حمد ومجد وجلال وجمال.

الثاني: العلم بأنه تعالى المنفرد بالخلق والتدبير، فيعلم بذلك أنه المنفرد بالألوهية.

الثالث: العلم بأنه المنفرد بالنعم الظاهرة والباطنة الدينية والدنيوية؛ فإن ذلك يوجب تعلق القلب به ومحبة والتأله له وحده لا شريك له.

الرابع: ما نراه ونسمعه من الثواب ولوائه القائمين بتوحيده من النصر والنعم العاجلة، ومن عقوبته لأعدائه المشركين به؛ فإن هذا داعٍ إلى العلم بأنه تعالى وحده المستحق للعبادة كلها.

الخامس: معرفة أوصاف الأوثان والأنداد التي عبدت مع الله واتخذت آلهة، وأنها ناقصة من جميع الوجوه، فقيرة بالذات، لا تملك لنفسها ولا لعبادها نفعا ولا ضرا ولا موتا ولا حياة ولا نشورا، ولا ينصرون من عبدهم ولا ينفعونهم بمثل ذرة من جلب خير أو دفع شر؛ فإن العلم بذلك يوجب العلم بأنه لا إله إلا الله وبطلان إلهية ما سواه.

السادس: اتفاق كتب الله على ذلك وتواطؤها عليه.

السابع: أن خواص الخلق الذين هم أكمل الخليقة أخلاقا وعقولا ورأيا وصوابا وعلما - وهم الرسل والأنبياء والعلماء الربانيون - قد شهدوا لله بذلك.

الثامن: ما أقامه الله من الأدلة الأقفية والنفسية التي تدل على التوحيد أعظم دلالة وتنادي عليه بلسان حالها بما أودعها من لطائف صنعته وبديع حكمته وغرائب خلقه؛ فهذه الطرق التي أكثر الله من دعوة الخلق بها إلى أنه لا إله إلا الله، وأبداها في كتابه وأعادها، عند تأمل العبد في بعضها؛ لا بد أن يكون عنده يقين وعلم بذلك؛ فكيف إذا اجتمعت وتواطأت وافقت وقامت أدلة التوحيد من كل جانب؟! فهناك يرسخ الإيمان والعلم بذلك في قلب العبد؛ بحيث يكون كالجبال الرواسي، لا تزلزله الشبه والخيالات، ولا يزداد على تكرار الباطل والشبه إلا نمواً وكمالاً. هذا، وإن نظرت إلى الدليل العظيم والأمر الكبير - وهو تدبر هذا القرآن العظيم والتأمل في آياته؛ فإنه الباب الأعظم إلى العلم بالتوحيد، ويحصل به من تفاصيله وجمله ما لا تحصى في غيره.

﴿يَقُولُ تَعَالَى: وَمِنَ الْمُنَافِقِينَ ﴿١٦﴾ مَنْ يَسْتَعِمْ إِلَيْكَ ﴿١٧﴾ تَقُولُ: اسْتَعَاكَ لَا عَن قَبُولٍ وَانْقِيَادٍ، بَلْ مَعْرُضَةٌ قُلُوبِهِمْ عَنْهُ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿حَقَّ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ ﴿١٨﴾: مُسْتَفْهِمِينَ عَمَّا قُلْتُ وَمَا سَمِعُوا مِمَّا لَمْ يَكُنْ لَهُمْ فِيهِ رَغْبَةٌ: ﴿مَاذَا قَالَ مَايُنَاقَا﴾: أَي: قَرِيبًا! وَهَذَا فِي غَايَةِ الذَّمِّ لَهُمْ؛ فَإِنَّهُمْ لَوْ كَانُوا حَرِيصِينَ عَلَى الْخَيْرِ؛ لَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ أَسْمَاعَهُمْ وَوَعْتَهُ قُلُوبُهُمْ وَانْقَادَتْ لَهُ جَوَارِحُهُمْ، وَلَكِنَّهُمْ بِعَكْسِ هَذِهِ الْحَالِ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾؛ أَي: خَتَمَ عَلَيْهَا وَسَدَّ أَبْوَابَ الْخَيْرِ الَّتِي تَصِلُ إِلَيْهَا بِسَبَبِ اتِّبَاعِهِمْ أَهْوَاءَهُم الَّتِي لَا يَهْوُونَ فِيهَا إِلَّا الْبَاطِلَ.

﴿ثُمَّ بَيْنَ حَالِ الْمُهْتَدِينَ، فَقَالَ: ﴿وَالَّذِينَ أَهْتَدُوا﴾: بِالْإِيمَانِ وَالْإِنْقِيَادِ وَاتِّبَاعِ مَا يَرْضِي اللَّهَ ﴿زَادَهُمْ هُكًى﴾: شُكْرًا مِنْهُ تَعَالَى لَهُمْ عَلَى ذَلِكَ، ﴿وَأَنذَنَهُمْ فَفَوْتَهُمْ﴾؛ أَي: وَفَقَهُمْ لِلْخَيْرِ، وَحَفَظَهُمْ مِنَ الشَّرِّ. فَذَكَرَ لِلْمُهْتَدِينَ جَزَائِنَ: الْعِلْمَ النَّافِعَ، وَالْعَمَلَ الصَّالِحَ.

﴿فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا فَأَنَّى لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرُهُمْ﴾.

﴿أَي: فَهَلْ يَنْظُرُ هَؤُلَاءِ الْمَكْذُوبُونَ أَوْ يَنْتَظِرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً﴾؛ أَي: فَجَاءَتْ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ، ﴿فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا﴾؛ أَي: عَلَامَاتُهَا الدَّالَّةُ عَلَى قَرْبِهَا ﴿فَأَنَّى لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرُهُمْ﴾؛ أَي: مِنْ أَيْنَ لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ السَّاعَةُ وَانْقَطَعَتْ أَجَالُهُمْ أَنْ يَتَذَكَّرُوا وَيَسْتَعْتَبُوا؛ قَدْ فَاتَ ذَلِكَ وَذَهَبَ وَقْتُ التَّذَكُّرِ؛ فَقَدْ عَمَرُوا مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مِنْ تَذَكُّرٍ وَجَاءَهُمُ النَّذِيرُ. فَفِي هَذَا الْحَثِّ عَلَى الْاسْتِعْدَادِ قَبْلَ مَفَاجَأَةِ الْمَوْتِ؛ فَإِنَّ مَوْتَ الْإِنْسَانِ قِيَامَ سَاعَتِهِ.

﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ﴾.

﴿الْعِلْمُ لَا يَدُ فِيهِ مِنْ إِقْرَارِ الْقَلْبِ وَمَعْرِفَتِهِ بِمَعْنَى مَا طَلَبَ مِنْهُ عِلْمُهُ، وَتِمَامُهُ أَنْ يَعْمَلَ بِمُقْتَضَاهُ. وَهَذَا الْعِلْمُ الَّذِي أَمَرَ اللَّهُ بِهِ، وَهُوَ الْعِلْمُ بِتَوْحِيدِ اللَّهِ، فَفَرْضُ عَيْنٍ عَلَى كُلِّ إِنْسَانٍ، لَا يَسْقُطُ عَنْ أَحَدٍ كَائِنًا مِنْ كَانَ، بَلْ كُلُّ مُضْطَرٍ إِلَى ذَلِكَ.

والطريق إلى العلم بأنه لا إله إلا الله أمور:

أحدها - بل أعظمها - تدبر أسمائه وصفاته وأفعاله

وقوله: ﴿وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ﴾؛ أي: اطلب من الله المغفرة لذنبك؛ بأن تفعل أسباب المغفرة من التوبة والدعاء بالمغفرة والحسنات الماحية وترك الذنوب والعفو عن الجرائم، واستغفر أيضًا للمؤمنين والمؤمنات؛ فإنهم بسبب إيمانهم كان لهم حق على كل مسلم ومسلمة، ومن جملة حقوقهم أن يدعى لهم ويستغفر لذنوبهم، وإذا كان مأمورًا بالاستغفار لهم المتضمن لإزالة الذنوب وعقوباتها عنهم؛ فإن من لوازم ذلك النصح لهم، وأن يحب لهم من الخير ما يحب لنفسه، ويكره لهم من الشر ما يكره لنفسه، ويأمرهم بما فيه الخير لهم، وينهاهم عما فيه ضررهم، ويعفو عن مساوئهم ومعائبهم، ويحرص على اجتماعهم اجتماعًا تتألف به قلوبهم، ويزول ما بينهم من الأحقاد المفضية للمعاداة والشقاق، الذي به تكثر ذنوبهم ومعاصيهم. ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ﴾؛ أي: تصرفاتكم وحرركاتكم وذهابكم ومجيئكم، ﴿وَمُتَوَكِّرَكُمْ﴾؛ أي: الذي به تستقرون؛ فهو يعلمكم في الحركات والسكنات، فيجازيكم على ذلك أتم الجزاء وأوفاه.

﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأُولَئِكَ لَهُمْ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتَقَطَّعُوا أَرْحَامَكُمْ﴾ ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعَمَّى أَبْصَرَهُمْ﴾ ﴿٢٣﴾.

﴿٢٢﴾، ﴿٢٣﴾ يقول تعالى: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾: استعجالًا ومبادرة للأوامر الشاقة: ﴿لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ﴾؛ أي: فيها الأمر بالقتال، ﴿فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ﴾؛ أي: ملزم العمل بها، ﴿وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ﴾: الذي هو أشق شيء على النفوس؛ لم يثبت ضعفاء الإيمان على امتثال هذه الأوامر، ولهذا قال: ﴿رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ﴾: من كراهتهم لذلك وشدة عليهم، وهذا كقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَءَاتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً﴾ [النساء: ٧٧].

ثم نذبهم تعالى إلى ما هو الأليق بحالهم، فقال: ﴿فَأُولَئِكَ لَهُمْ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ﴾؛ أي: فأولى لهم أن يمتثلوا الأمر الحاضر المحتم عليهم، ويجمعوا عليه همهم، ولا يطلبوا أن يشرع لهم ما هو شاق عليهم، وليفرحوا بعافية الله تعالى وعفوه، ﴿فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ﴾؛ أي: جاءهم أمر جد وأمر محتّم، ففي هذه الحال، لو ﴿صَدَقُوا اللَّهَ﴾: بالاستعانة به وبذل الجهد في امتثاله، ﴿لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾: من حالهم الأولي، وذلك من وجوه: منها: أن العبد ناقص من كل وجه، لا قدرة له إلا إن أعانه الله؛ فلا يطلب زيادة على ما هو قائم بصدده. ومنها: أنه إذا تعلق نفسه بالمستقبل؛ ضعف عن العمل بوظيفة وقته الحاضر وبوظيفة المستقبل، أما الحال؛ فلأن الهمة انتقلت عنه إلى غيره، والعمل تبع للهمة. وأما المستقبل؛ فإنه لا يجيء حتى تفر الهمة عن نشاطها، فلا يعان عليه. ومنها: أن العبد المؤمل للأمال المستقبلية، مع كسله عن عمل الوقت الحاضر، شبيه بالميتالي الذي يجزم بقدرته على ما يستقبل من أموره؛ فأحرى به أن يخذل ولا يقوم بما هم به ووطن نفسه عليه؛ فالذي ينبغي أن يجمع العبد همه وفكرته ونشاطه على وقته الحاضر، ويؤدي وظيفته بحسب قدرته، ثم كلما جاء وقت؛ استقبله بنشاط وهمة عالية مجتمعة غير

متفرقة، مستعيناً بربه في ذلك؛ فهذا حري بالتوفيق والتسديد في جميع أموره.

﴿٢٢﴾ ثم ذكر تعالى حال المتولي عن طاعة ربه، وأنه لا يتولى إلى خير، بل إلى شر، فقال: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتَقَطَّعُوا أَرْحَامَكُمْ﴾؛ أي: فهما أمران: إما التزام لطاعة الله وامتنال لأوامره؛ فثم الخير والرشد والفلاح. وإما إعراض عن ذلك وتول عن طاعة الله؛ فما ثم إلا الفساد في الأرض بالعمل بالمعاصي وقطيعة الأرحام.

﴿٢٣﴾ ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ﴾: أفسدوا في الأرض، وقطعوا أرحامهم. ﴿لَعَنَهُمُ اللَّهُ﴾: بأن أبعدهم عن رحمته وقربوا من سخط الله ﴿فَأَسْفَهَوْا وَأَعْمَوْا أَبْصَرَهُمْ﴾؛ أي: جعلهم لا يسمعون ما ينفعهم ولا يبصرون؛ فلمهم آذان ولكن لا تسمع سماع إذعان وقبول، وإنما تسمع سماعاً تقوم بها حجة الله عليها، ولهم أعين ولكن لا يبصرون بها العبر والآيات، ولا يلتفتون بها إلى البراهين والبيّنات.

﴿٢٤﴾ ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْفُرَاتِ أَمْرَ عَلَى قُلُوبِ أَقْفَالِهَا﴾.

﴿٢٤﴾ أي: فهلا يتدبر هؤلاء المعرضون لكتاب الله ويتأملونه حق التأمل؛ فإنهم لو تدبروه؛ لدلهم على كل خير، ولحذرهم من كل شر، ولملأ قلوبهم من الإيمان وأفندتهم من الإيقان، ولأوصلهم إلى المطالب العالية والمواهب الغالية، ولبين لهم الطريق الموصلة إلى الله وإلى جنته ومكلماتها ومفساتها، والطريق الموصلة إلى العذاب، وبأي شيء يحذر، ولعرفهم بربهم وأسمائه وصفاته وإحسانه، ولشوقهم إلى الثواب الجزيل، ورهبهم من العقاب الويل، ﴿أَمْرَ عَلَى قُلُوبِ أَقْفَالِهَا﴾؛ أي: قد أغلق على ما فيها من الإعراض والغفلة والاعتراض، وأقفلت فلا يدخلها خير أبداً؟! هذا هو الواقع.

﴿٢٥﴾ ﴿إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُمُ الْهُدَى الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمَلَى لَهُمْ﴾ ﴿٢٥﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ﴿٢٦﴾ فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَصْرِيخُونَ وَجُوهُهُمْ وَأَذْبَرَهُمْ ﴿٢٧﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اتَّبَعُوا مَا اسْتَحْطَ اللَّهُ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَاحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ ﴿٢٨﴾

﴿٢٥﴾ يخبر تعالى عن حالة المرتدين عن الهدى والإيمان على أعقابهم إلى الضلال والكفران، ذلك لا عن دليل دلهم ولا برهان، وإنما هو تسويل من عدوهم الشيطان، وتزيين لهم وإملاء منه لهم؛ ﴿يَعِدُّهُمْ وَيُمَيِّنُهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾ ﴿٢٦﴾ ﴿النساء: ١٢٠﴾.

﴿٢٦﴾ ﴿وَالَّذِينَ﴾: أنهم قد تبين لهم الهدى، فزهدوا فيه ورفضوه، ﴿وَقَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ﴾: من المبارزين العداوة لله ولرسوله؛ ﴿سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ﴾؛ أي: الذي يوافق أهواءهم؛ فلذلك عاقبهم الله بالضلال والإقامة على ما يوصلهم إلى الشقاء الأبدي والعذاب السرمدي، ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ﴾ ﴿٢٦﴾: فلذلك فضحهم، وبينها لعباده المؤمنين؛ لئلا يغتروا بها.

﴿٢٧﴾ ﴿فَكَيْفَ﴾ ترى حالهم الشنيعة ورؤيتهم الفظيعة، ﴿إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ﴾: الموكلون بقبض أرواحهم، ﴿يَصْرِيخُونَ وَجُوهُهُمْ وَأَذْبَرَهُمْ﴾: بالمقامع الشديدة؟!

﴿٢٨﴾ ﴿وَالَّذِينَ﴾: العذاب الذي استحقوه ونالوه، بسبب أنهم ﴿اتَّبَعُوا مَا اسْتَحْطَ اللَّهُ﴾: من كل كفر وفسوق وعصيان، ﴿وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ﴾: فلم يكن لهم رغبة فيما يقربهم إليه ولا يدينهم منه، ﴿فَاحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ﴾ ﴿٢٨﴾؛ أي: أبطلها وأذهبها، وهذا بخلاف من اتبع ما يرضي الله وكره سخطه؛ فإنه سيكفر عنه سيئاته ويضاعف له أجره وثوابه.

﴿٢٩﴾ ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَصْغَرَهُمْ﴾ ﴿٢٩﴾ وَلَوْ شَاءَ لَأَرْسَلْنَاهُمْ فَلَغَرْنَاهُمْ بِسِمَتِهِمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ ﴿٣٠﴾ وَلَتَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى تَعْلَمَ الْمُجْتَهِدِينَ مِنْكُمْ وَالضَّالِّينَ وَتَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ ﴿٣١﴾

﴿٣١﴾ يقول تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾: من شبهة أو شهوة؛ بحيث تخرج القلب عن حال صحته واعتداله، أن الله لا يخرج ما في قلوبهم من الأضغان والعداوة للإسلام وأهله! هذا ظن لا يليق بحكمة الله؛ فإنه لا بد أن يميز الصادق من الكاذب، وذلك بالابتلاء بالمحن التي من ثبت عليها ودام إيمانه فيها؛ فهو المؤمن حقيقة، ومن رده على عقبيه، فلم يصبر عليها، وحين آتاه الامتحان جزع وضعف إيمانه وخرج ما في قلبه من الضغن وتبين نفاقه؛ هذا مقتضى الحكمة الإلهية.

﴿٣٠﴾ مع أنه تعالى قال: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمِهِمْ﴾؛ أي: بعلاماتهم التي هي كالرسم في وجوههم، ﴿وَلَعَرَفْتَهُمْ فِي لَحَنِ الْقَوْلِ﴾؛ أي: لا بد أن يظهر ما في قلوبهم ويتبين بفتلات ألسنتهم؛ فإن الألسن مغارف القلوب، يظهر فيها ما في القلوب من الخير والشر، ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ﴾؛ ﴿٣١﴾ فيجازيكم عليها.

﴿٣١﴾ ثم ذكر أعظم امتحان يمتحن به عباده، وهو الجهاد في سبيل الله، فقال: ﴿وَلِتَلُوْنَكُمْ﴾؛ أي: نختبر إيمانكم وصبركم، ﴿حَتَّى تَمَازَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالضَّعِيفِينَ وَتُبْلُواْ أَخْبَارَكُمْ﴾؛ ﴿٣٢﴾ فمن امثل أمر الله وجاهد في سبيل الله بنصر دينه وإعلاء كلمته؛ فهو المؤمن حقاً، ومن تكاسل عن ذلك؛ كان ذلك نقصاً في إيمانه.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُّواْ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَىٰ لَنْ يَضُرُّواَ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيُحْطِ بِأَعْمَالِهِمْ﴾؛ ﴿٣٣﴾

﴿٣٣﴾ هذا وعيد شديد لمن جمع أنواع الشر كلها من الكفر بالله وصد الخلق عن سبيل الله الذي نصبه موصلاً إليه، ﴿وَشَاقُّواْ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَىٰ﴾؛ أي: عانده وخالفه عن عمد وعناد، لا عن جهل وغي وضلال؛ فإنهم ﴿لَنْ يَضُرُّواَ اللَّهَ شَيْئًا﴾؛ فلا ينقص به ملكه، ﴿وَسَيُحْطِ بِأَعْمَالِهِمْ﴾؛ ﴿٣٤﴾ أي: مساعيمهم التي بذلوا في نصر الباطل؛ بالأشتمر لهم إلا الخيبة والخسران، وأعمالهم التي يرجون بها الثواب لا تقبل؛ لعدم وجود شرطها.

﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُواْ أَعْمَالَكُمْ﴾؛ ﴿٣٥﴾

﴿٣٥﴾ يأمر تعالى المؤمنين بأمر به تتم أمورهم وتحصل سعادتهم الدنيوية والدنيوية، وهو طاعته وطاعة رسوله في أصول الدين وفروعه، والطاعة هي امتثال الأمر واجتناب النهي على الوجه المأمور به بالإخلاص وتتمام المتابعة، وقوله: ﴿وَلَا تُبْطِلُواْ أَعْمَالَكُمْ﴾؛ ﴿٣٦﴾ يشمل النهي عن إبطالها بعد عملها بما يفسدها من من بها وإعجاب وفخر وسمعة، ومن عمل بالمعاصي التي تضمحل معها الأعمال ويحبط أجرها. ويشمل النهي عن إفسادها حال وقوعها بقطعها أو الإتيان بمفسد من مفسداتها. فمبطلات الصلاة والصيام والحج ونحوها كلها داخلية في هذا ومنهية عنها.

ويستدل الفقهاء بهذه الآية على تحريم قطع الفرض وكراهة قطع النفل من غير موجب لذلك، وإذا كان الله قد نهى عن إبطال الأعمال؛ فهو أمر بإصلاحها وإكمالها وإتمامها والإتيان بها على الوجه الذي تصلح به علماً وعملاً.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾؛ ﴿٣٦﴾ فلا تهتأ وتَدْعُوا إِلَى السَّلَإِ وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَتَرَكَكُمْ أَعْمَالَكُمْ﴾؛ ﴿٣٧﴾

﴿٣٧﴾ هذه الآية والتي في البقرة قوله: ﴿وَمَنْ يَتَرَكَ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ [البقرة: ٢١٧]؛ مقيدتان لكل نص مطلق فيه إحباط العمل بالكفر؛ فإنه مقيد بالموت عليه، فقال هنا: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ﴾؛ بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، ﴿وَصَدُّواْ﴾؛ الخلق ﴿عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾؛ بترهيدهم إياهم بالحق، ودعوتهم

﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمِهِمْ وَلَعَرَفْتَهُمْ فِي لَحَنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ﴾؛ ﴿٣٠﴾ وَلِتَلُوْنَكُمْ حَتَّى تَمَازَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالضَّعِيفِينَ وَتُبْلُواْ أَخْبَارَكُمْ﴾؛ ﴿٣١﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُّواْ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَىٰ لَنْ يَضُرُّواَ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيُحْطِ بِأَعْمَالِهِمْ﴾؛ ﴿٣٢﴾ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُواْ أَعْمَالَكُمْ﴾؛ ﴿٣٣﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾؛ ﴿٣٤﴾ فَلَا تَهْتَأُواْ وَتَدْعُوا إِلَى السَّلَإِ وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَتَرَكَكُمْ أَعْمَالَكُمْ﴾؛ ﴿٣٥﴾ تَبَحَّلُواْ وَخُجِرَ أَصْفَتَكُمْ﴾؛ ﴿٣٦﴾ هَذَا نَشَأُ هَذَا تَدْعُونَ لِيُغْفَرَ لَكُمْ﴾؛ ﴿٣٧﴾ لَنْ يَضُرُّواَ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيُحْطِ بِأَعْمَالِهِمْ﴾؛ ﴿٣٨﴾

والثواب؛ فكيف إذا اجتمعت هذه الأمور الثلاثة؟! فإن ذلك يوجب النشاط التام. فهذا من ترغيب الله لعباده وتنشيطهم وتقوية أنفسهم على ما فيه صلاحهم وفلاحهم.

﴿إِنَّمَا لِلْيَتِيمِ الدُّنْيَا لَيْمٌ وَلَهُوَ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أَجْرَكُمْ وَلَا يَسْتَلْكُمْ أَمْوَالُكُمْ﴾ (٣٦) ﴿إِنْ يَسْتَلْكُمُوهَا فَيُخْفِضْكُم بِهَاطِلًا وَيُخْرِجْ أَسْفَنَكُمْ﴾ (٣٧) ﴿هَاطِلَةٌ هَاطِلَةٌ تَدْعُونَ لِيُخْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخَلُ وَمَنْ يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلْ عَن نَفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَلَكُمْ﴾ (٣٨).

(٣٦)، (٣٧) هذا ترهيد منه تعالى لعباده في الحياة الدنيا؛ بإخبارهم عن حقيقة أمرها؛ بأنها لعب ولهو؛ لعب في الأبدان ولهو في القلوب، فلا يزال العبد لاهياً في ماله وأولاده وزينته ولذاته من النساء والمأكّل والمشارب والمساكن والمجالس والمناظر والرياسات، لاعباً في كل عمل لا فائدة فيه، بل هو دائر بين البطالة والغفلة والمعاصي، حتى يستكمل ديناه ويحضره أجله؛ فإذا هذه الأمور قد ولت وفارقت ولم يحصل العبد منها على طائل، بل قد تبين له خسارته وحرمانه وحضر عذابه؛ فهذا موجب للعاقل الزهد فيها وعدم الرغبة فيها والاهتمام بشأنها، وإنما الذي ينبغي أن يهتم به ما ذكره بقوله: ﴿وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا﴾: بأن تؤمنوا بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وتقوموا بتقواه التي هي من لوازم الإيمان ومقتضياته، وهي العمل بمصراته على الدوام، مع ترك معاصيه؛ فهذا الذي ينفع العبد، وهو الذي ينبغي أن يتنافس فيه وتبذل الهمم والأعمال في طلبه، وهو مقصود الله من عباده؛ رحمة بهم ولطفاً؛ ليشيهم الثواب الجزيل، ولهذا قال: ﴿وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أَجْرَكُمْ وَلَا يَسْتَلْكُمُوهَا﴾ (٣٦) ﴿أَمْوَالُكُمْ﴾ (٣٧)؛ أي: لا يريد تعالى أن يكلفكم ما يشق عليكم ويعتكم من أخذ أموالكم وبقايتكم بلا مال أو ينقصكم نقصاً يضركم، ولهذا قال: ﴿إِنْ يَسْتَلْكُمُوهَا فَيُخْفِضْكُم بِهَاطِلًا وَيُخْرِجْ أَسْفَنَكُمْ﴾ (٣٧)؛ أي: ما في قلوبكم من الضغن إذا طلب منكم ما تكرهون بذلك.

(٣٨) والدليل على أن الله لو طلب منكم أموالكم وأحفاكم بسؤالها أنكم تمتنعون منها، أنكم ﴿تَدْعُونَ لِيُخْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾: على هذا الوجه الذي فيه مصلحتكم الدينية

إلى الباطل وتزينه، ﴿ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ﴾: لم يتوبوا منه، ﴿فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾: لا بشفاعته ولا بغيرها؛ لأنه قد تحتم عليهم العقاب، وفاتهم الثواب، ووجب عليهم الخلود في النار، وسدت عليهم رحمة الرحيم الغفار.

ومفهوم الآية الكريمة أنهم إن تابوا من ذلك قبل موتهم؛ فإن الله يغفر لهم ويرحمهم ويدخلهم الجنة، ولو كانوا مفسنين أعمارهم في الكفر به والصد عن سبيله والإقدام على معاصيه. فسبحان من فتح لعباده أبواب الرحمة ولم يغلقها عن أحد ما دام حياً متمكناً من التوبة. وسبحان الحليم الذي لا يعاجل العاصين بالعقوبة، بل يعافيه ويرزقهم كأنهم ما عصوه مع قدرته عليهم.

(٣٩) ثم قال تعالى: ﴿فَلَا تَهِنُوا﴾؛ أي: تضعفوا عن قتال عدوكم، ويستولي عليكم الخوف، بل اصبروا، واثبتوا، ووطنوا أنفسكم على القتال والجلاد طلباً لمرضاة ربكم ونصحاء للإسلام وإغضاباً للشيطان، ولا تدعوا إلى المسالمة والمشاركة بينكم وبين أعدائكم طلباً للراحة، والحال أنكم أنتم ﴿الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَهْزِبَكُمْ﴾؛ أي: ينقصكم ﴿أَعْمَلَكُمْ﴾ (٣٩)؛ فهذه الأمور الثلاثة كل منها مقتض للصبر وعدم الوهن كونهم الأعلين؛ أي: قد توفرت لهم أسباب النصر ووعدوا من الله بالوعد الصادق؛ فإن الإنسان لا يهن إلا إذا كان أذل من غيره وأضعف عدداً وعدداً وقوة داخلية وخارجية.

الثاني: أن الله معهم؛ فإنهم مؤمنون، والله مع المؤمنين بالعون والنصر والتأييد، وذلك موجب لقوة قلوبهم وإقدامهم على عدوهم.

الثالث: أن الله لا ينقصهم من أعمالهم شيئاً، بل سيوفهم أجورهم ويزيدهم من فضله، خصوصاً عبادة الجهاد؛ فإن النفقة تضاعف فيه إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة، وقال تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطْغُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نِيلاً إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ (٤٠) وَلَا يُفْقِرُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ يَمْجَرِّهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (٤١) [التوبة: ١٢٠، ١٢١].

فإذا عرف الإنسان أن الله تعالى لا يضيع عمله وجهاده؛ أوجب له ذلك النشاط وبذل الجهد فيما يترتب عليه الأجر

سورة الفتح

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا ﴿١﴾ لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ﴿٢﴾ وَينصرك الله نصراً عزيزاً ﴿٣﴾ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَرُدَّادُوا إِلَى مَنَاصِعِهِمْ وَاللَّهُ جُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٤﴾ لِيَدْخُلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتُ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرُ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَكَانَ ذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ قُرْوَاعًا عَظِيمًا ﴿٥﴾ وَيُعَذِّبُ الْمُتَّقِينَ وَالْمُتَّقِينَ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكِينَ الظَّالِمِينَ يَأْتِيهِمْ ظَرْبُ السَّوَةِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوَةِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿٦﴾ وَلِلَّهِ جُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٧﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٨﴾ اتَّقُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٩﴾

٥١١

والدنيوية، ﴿فَمِنْكُمْ مَن يَبْخُلُ﴾؛ أي: فكيف لو سألكم وطلب منكم أموالكم في غير أمر ترونه مصلحة عاجلة؟! ليس من باب أولى وأحرى امتناعكم من ذلك؟!!

ثم قال: ﴿وَمَن يَبْخُلْ فَإِنَّمَا يَبْخُلْ عَن نَفْسِهِ﴾: لأنه حرم نفسه ثواب الله تعالى، وفاته خير كثير، ولن يضر الله بترك الإنفاق شيئاً، فإن الله هو ﴿الْفَقِيرُ وَالْفَقْرَاءُ﴾: تحتاجون إليه في جميع أوقاتكم لجميع أموركم، ﴿وَلَا تَتَوَلَّوْا﴾: عن الإيمان بالله وامتنال ما يأمركم به، ﴿يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَلَكُمْ﴾ (٢٨): في التولي، بل يطيعون الله ورسوله ويحبون الله ورسوله؛ كما قال تعالى: ﴿يَتَأَيَّأُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَن دِينِهِ سَوْفَ يَأْتِي اللَّهَ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ [المائدة: ٥٤].

تم تفسير سورة القتال. والحمد لله رب العالمين.



تفسير سورة الفتح

وهي مدنية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا﴾ (١) لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا (٢) وَينصرك الله نصراً عزيزاً (٣).

(١) هذا الفتح المذكور هو صلح الحديبية، حين صد المشركون رسول الله ﷺ لما جاء معتمراً في قصة طويلة، صار آخر أمرها أن صالحهم رسول الله ﷺ على وضع الحرب بينه وبينهم عشر سنين، وعلى أن يعتمر من العام المقبل، وعلى أن من أراد أن يدخل في عهد قريش وحلفهم؛ دخل، ومن أحب أن يدخل في عهد رسول الله ﷺ وعقده؛ فعل. وسبب ذلك لما آمن الناس بعضهم بعضاً؛ اتسعت دائرة الدعوة لدين الله عز وجل، وصار كل مؤمن بأي محل كان من تلك الأقطار يتمكن من ذلك، وأمكن الحريص على الوقوف على حقيقة الإسلام، فدخل الناس في تلك المدة في دين الله أفواجا؛ فلذلك سماه الله فتحاً، ووصفه بأنه فتح مبين؛ أي: ظاهر جلي، وذلك لأن المقصود في فتح بلدان المشركين إعزاز دين الله وانتصار المسلمين، وهذا حصل بذلك الفتح.

(٢) ورتب الله على هذا الفتح عدة أمور، فقال: ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾: وذلك - والله أعلم - بسبب ما حصل بسببه من الطاعات الكثيرة والدخول في الدين بكثرة، وبما تحمل ﷺ من تلك الشروط التي لا يصبر عليها إلا أولو العزم من المرسلين، وهذا من أعظم مناقبه وكراماته ﷺ: أن غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، ﴿وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ﴾: بإعزاز دينك ونصرك على أعدائك واتساع كلمتك، ﴿وَيَهْدِيكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾ (٢): تنال به السعادة الأبدية والفلاح السرمدى.

(٣) ﴿وَيُنْصِرْكَ اللَّهُ نَصْرًا عَظِيمًا﴾ (٣)؛ أي: قوياً لا يتضعضع فيه الإسلام، بل يحصل الانتصار التام وقمع الكافرين وذلههم ونقصهم، مع توفر قوى المسلمين ونموهم وأموالهم؛ ثم ذكر آثار هذا الفتح على المؤمنين، فقال:

السوء عليهم في الدنيا، ﴿وَعَصَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾: بما اقترفوه من المحادة لله ولرسوله، ﴿وَلَعَنَهُمْ﴾: أي: أبعدهم وأقصاهم عن رحمته، ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ ٦.

﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا حَكِيمًا﴾ ٧.

٧) كرر الإخبار بأن له ملك السماوات والأرض وما فيهما من الجنود؛ ليعلم العباد أنه تعالى هو المعز المدل، وأنه سينصر جنوده المنسوبة إليه؛ كما قال تعالى: ﴿وَأَنَّ جُنُودَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ ٧٧، [الصفحات: ١٧٣]، ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا﴾: أي: قوياً غالباً قاهراً لكل شيء، ومع عزته وقوته؛ فهو حكيم في خلقه. وتدبيره يجري على ما تقتضيه حكمته وإتقانه.

﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ ٨ ﴿لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ ٩.

٨) أي: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ﴾: أيها الرسول الكريم، ﴿شَهِيدًا﴾: لأمك بما فعلوه من خير وشر، وشاهدًا على المقالات والمسائل حقها وباطلها، وشاهدًا لله تعالى بالوحدانية والانفراد بالكمال من كل وجه، ﴿وَمُبَشِّرًا﴾: من أطاعك وأطاع الله بالثواب الدنيوي والديني والأخروي، ومنذراً من عصى الله بالعقاب العاجل والأجل، ومن تمام البشارة والندارة بيان الأعمال والأخلاق التي يبشر بها وينذر؛ فهو المبين للخير والشر والسعادة والشقاوة والحق من الباطل.

٩) ولهذا رتب على ذلك قوله: ﴿لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾: أي: بسبب دعوة الرسول لكم وتعليمه لكم ما ينفعكم أرسلناه؛ لتقوموا بالإيمان بالله ورسوله، المستلزم ذلك لطاعتها في جميع الأمور، ﴿وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ﴾: أي: تعزروا الرسول ﷺ وتوقروه؛ أي: تعظموه، وتجلوه، وتقوموا بحقوقه، كما كانت له المنة العظيمة بركابكم، ﴿وَتُسَبِّحُوهُ﴾: أي: تسبحوا لله ﴿بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ ٩: أول النهار وآخره.

فذكر الله في هذه الآية الحق المشترك بين الله وبين رسوله، وهو الإيمان بهما، والمختص بالرسول، وهو التعزير والتوقير، والمختص بالله، وهو التسبيح له والتقدیس بصلاة أو غيرها.

﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيْمَانِهِمْ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ ١٠ ﴿يُدْخِلُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرُ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَكَانَ ذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ ١١ ﴿وَيُعَذِّبُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّالِمِينَ بِاللَّهِ ظَنَ السَّوءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوءِ وَعَصَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ ١٢.

١٠) يخبر تعالى عن منتهى المؤمنين بإزالة السكينة في قلوبهم، وهي السكون والطمأنينة والثبات عند نزول المحن المقلقة والأمور الصعبة التي تشوش القلوب وترزعج الأبواب وتضعف النفوس؛ فمن نعمة الله على عبده في هذه الحال أن يشبهه ويربط على قلبه، وينزل عليه السكينة، ليتلقى هذه المشقات بقلب ثابت ونفس مطمئنة، فيستعد بذلك لإقامة أمر الله في هذه الحال، فيزداد بذلك إيمانه، ويتم إيقانه. فالصحابة رضي الله عنهم لما جرى ما جرى بين رسول الله ﷺ والمشركون من تلك الشروط التي ظاهرها أنها غضاضة عليهم وحط من أقدارهم، وتلك لا تكاد تصبر عليها النفوس، فلما صبروا عليها ووطنوا أنفسهم لها؛ ازدادوا بذلك إيماناً مع إيمانهم. وقوله: ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾: أي: جميعها في ملكه وتحت تدبيره وقهره؛ فلا يظن المشركون أن الله لا ينصر دينه ونبيه، ولكنه تعالى عليهم حكيم، فتقتضي حكمته المداولة بين الناس في الأيام وتأخير نصر المؤمنين إلى وقت آخر.

١١) ﴿يُدْخِلُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرُ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾: فهذا أعظم ما يحصل للمؤمنين؛ أي: يحصل لهم المرغوب المطلوب بدخول الجنات، ويزيل عنهم المحذور بتكفير السيئات، ﴿وَكَانَ ذَلِكَ﴾: الجزاء المذكور للمؤمنين، ﴿عِنْدَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ ١١: فهذا ما يفعل بالمؤمنين في ذلك الفتح المبين.

١٢) وأما المنافقون والمنافقات والمشركون والمشركات؛ فإن الله يعذبهم بذلك ويربهم ما يسوءهم؛ حيث كان مقصودهم خذلان المؤمنين، وظنوا بالله ظن السوء أنه لا ينصر دينه ولا يعلي كلمته، وأن أهل الباطل ستكون لهم الدائرة على أهل الحق، فأدار الله عليهم ظنهم، وكانت دائرة

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهُ فَمُسَوْنَةٌ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ (١٠).

﴿١٠﴾ هذه المبايعة التي أشار الله إليها هيبيعة الرضوان، التي يابح الصحابة رضي الله عنهم فيها رسول الله ﷺ على ألا يفروا عنه؛ فهي عقد خاص، من لوازمه ألا يفروا، ولو لم يبق منهم إلا القليل، ولو كانوا في حال يجوز الفرار فيها. فأخبر تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ﴾: حقيقة الأمر أنهم ﴿يُبَايِعُونَ اللَّهَ﴾: ويعقدون العقد معه، حتى إنه من شدة تأكده أنه قال: ﴿يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾؛ أي: كأنهم بايعوا الله وصافحوه بتلك المبايعة، وكل هذا لزيادة التأكيد والتقوية، وحملهم على الوفاء بها، ولهذا قال: ﴿فَمَنْ نَكَثَ﴾: فلم يف بما عاهد الله عليه، ﴿فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ﴾؛ أي: لأن وبال ذلك راجع إليه وعقوبته واصله له، ﴿وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهُ﴾؛ أي: أتى به كاملاً موفراً، ﴿فَمُسَوْنَةٌ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ (١١): لا يعلم عظمه وقدره إلا الذي آتاه إياه.

﴿سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِآلِسِنْتِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نِعْمًا بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ (١١). ﴿بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْفَلِبَ الرُّسُولُ إِلَى أَهْلِهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَّتُمْ أَنْ لَنْ تَعْمَلُوا خَيْرًا وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا﴾ (١٢). ﴿وَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعِيرًا﴾ (١٣).

﴿١١﴾ - ﴿١٣﴾ يذم تعالى المتخلفين عن رسول الله في الجهاد في سبيله من الأعراب، الذين ضعف إيمانهم وكان في قلوبهم مرض وسوء ظن بالله تعالى، وأنهم سيعتذرون بأن أموالهم وأهليهم شغلتهم عن الخروج في سبيله، وأنهم طلبوا من رسول الله ﷺ أن يستغفر لهم؛ قال الله تعالى: ﴿يَقُولُونَ بِآلِسِنْتِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾: فإن طلبهم الاستغفار من رسول الله ﷺ يدل على ندمهم وإقرارهم على أنفسهم بالذنوب، وأنهم تخلفوا تخلفاً يحتاج إلى توبة واستغفار؛ فلو كان هذا الذي في قلوبهم؛ لكان استغفار الرسول نافعاً لهم؛ لأنهم قد تابوا وأنبأوا، ولكن الذي في قلوبهم أنهم إنما تخلفوا لأنهم ظنوا بالله ظن السوء، فظنوا ﴿أَنْ لَنْ يَنْفَلِبَ الرُّسُولُ إِلَى أَهْلِهِمْ أَبَدًا﴾؛ أي: أنهم سيقتلون ويستأصلون، ولم يزل هذا الظن يزين في قلوبهم، ويطمئنون إليه حتى استحكم، وسبب ذلك أمران: أحدهما: أنهم كانوا ﴿قَوْمًا بُورًا﴾ (١٢)؛ أي: هلكي لا خير فيهم؛ فلو كان فيهم خير؛ لم يكن هذا في قلوبهم. الثاني: ضعف إيمانهم ويقينهم بوعد الله ونصر دينه وإعلاء كلمته، ولهذا قال: ﴿وَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾؛ أي: فإنه كافر مستحق للعقاب، ﴿فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعِيرًا﴾ (١٣).

﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَعْفُرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَكَانَ اللَّهُ عَظِيمًا رَحِيمًا﴾ (١٤).

﴿١٤﴾ أي: هو تعالى المنفرد بملك السماوات والأرض، يتصرف فيهما بما يشاء من الأحكام القدرية والأحكام الشرعية والأحكام الجزائية، ولهذا ذكر حكم الجزاء المرتب على الأحكام الشرعية، فقال: ﴿يَعْفُرُ لِمَنْ يَشَاءُ﴾: وهو من قام بما أمره الله به، ﴿وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ﴾: ممن تهاون بأمر الله، ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَظِيمًا رَحِيمًا﴾ (١٤)؛ أي: وصفه اللازم الذي لا ينفك عنه المغفرة والرحمة، فلا يزال في جميع الأوقات يغفر للمذنبين، ويتجاوز عن الخطائين، ويتقبل توبة التائبين، وينزل خيره والمدار آتاء الليل والنهار.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهُ فَمُسَوْنَةٌ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ (١٠). ﴿سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِآلِسِنْتِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نِعْمًا بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ (١١). ﴿بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْفَلِبَ الرُّسُولُ إِلَى أَهْلِهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَّتُمْ أَنْ لَنْ تَعْمَلُوا خَيْرًا وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا﴾ (١٢). ﴿وَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعِيرًا﴾ (١٣). ﴿سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انْطَلَقْتُمْ إِلَى مَغَائِرِنَا لَنَأْخُذْ بِهَا دُرُودًا نَنْتَعِمُ بِبُرُودِكُمْ بَرِيدُوكُمْ أَنْ يَسُدُّوا كَلِمَةَ اللَّهِ قُلْ لَنْ تَتَّبِعُونَا كَذَلِكُمْ قَالَكُمُ اللَّهُ مِنْ قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ نَحْنُ مُخْلِصُونَ وَمَا لَنَا لَا نَقْفَهُمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (١٤).

﴿سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِآلِسِنْتِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نِعْمًا بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ (١١). ﴿بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْفَلِبَ الرُّسُولُ إِلَى أَهْلِهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَّتُمْ أَنْ لَنْ تَعْمَلُوا خَيْرًا وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا﴾ (١٢). ﴿وَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعِيرًا﴾ (١٣).

﴿١١﴾ - ﴿١٣﴾ يذم تعالى المتخلفين عن رسول الله في الجهاد في سبيله من الأعراب، الذين ضعف إيمانهم وكان في قلوبهم مرض وسوء ظن بالله تعالى، وأنهم سيعتذرون بأن أموالهم وأهليهم شغلتهم عن الخروج في سبيله، وأنهم طلبوا من رسول الله ﷺ أن يستغفر لهم؛ قال الله تعالى: ﴿يَقُولُونَ بِآلِسِنْتِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾: فإن طلبهم الاستغفار من رسول الله ﷺ يدل على ندمهم وإقرارهم على أنفسهم بالذنوب، وأنهم تخلفوا تخلفاً يحتاج إلى توبة واستغفار؛ فلو كان هذا الذي في قلوبهم؛ لكان استغفار الرسول نافعاً لهم؛ لأنهم قد تابوا وأنبأوا، ولكن الذي في قلوبهم أنهم إنما تخلفوا لأنهم ظنوا بالله ظن السوء، فظنوا ﴿أَنْ لَنْ يَنْفَلِبَ الرُّسُولُ إِلَى أَهْلِهِمْ أَبَدًا﴾؛ أي: أنهم سيقتلون ويستأصلون، ولم يزل هذا الظن يزين في قلوبهم، ويطمئنون إليه حتى استحكم، وسبب ذلك أمران: أحدهما: أنهم كانوا ﴿قَوْمًا بُورًا﴾ (١٢)؛ أي: هلكي لا خير فيهم؛ فلو كان فيهم خير؛ لم يكن هذا في قلوبهم. الثاني: ضعف إيمانهم ويقينهم بوعد الله ونصر دينه وإعلاء كلمته، ولهذا قال: ﴿وَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾؛ أي: فإنه كافر مستحق للعقاب، ﴿فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعِيرًا﴾ (١٣).

﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَعْفُرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَكَانَ اللَّهُ عَظِيمًا رَحِيمًا﴾ (١٤).

﴿١٤﴾ أي: هو تعالى المنفرد بملك السماوات والأرض، يتصرف فيهما بما يشاء من الأحكام القدرية والأحكام الشرعية والأحكام الجزائية، ولهذا ذكر حكم الجزاء المرتب على الأحكام الشرعية، فقال: ﴿يَعْفُرُ لِمَنْ يَشَاءُ﴾: وهو من قام بما أمره الله به، ﴿وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ﴾: ممن تهاون بأمر الله، ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَظِيمًا رَحِيمًا﴾ (١٤)؛ أي: وصفه اللازم الذي لا ينفك عنه المغفرة والرحمة، فلا يزال في جميع الأوقات يغفر للمذنبين، ويتجاوز عن الخطائين، ويتقبل توبة التائبين، وينزل خيره والمدار آتاء الليل والنهار.

﴿ سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انْطَلَقْتُمْ إِلَى مَغَائِرِهِمْ لِنَاخِذُهُمْ ذُرُونَنَا نَنبَغْكُمْ يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلِمَ اللَّهِ قُلْ لَنْ تَتَّبِعُونَا كَذَلِكُمْ قَالَكُمُ اللَّهُ مِنْ قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ نَحْسُدُونَا بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ۝١٥﴾

﴿١٥﴾ لما ذكر تعالى المخلفين وذمهم؛ ذكر أن من عقوبتهم الدنيوية أن الرسول ﷺ وأصحابه إذا انطلقوا إلى غنائم لا قتال فيها لياخذوها؛ طلبوا منهم الصلابة والمشاركة، ويقولون: ﴿ ذُرُونَا نَبَغْكُمْ يُرِيدُونَ ﴾: بذلك ﴿ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلِمَ اللَّهِ ﴾؛ حيث حكم بعقوبتهم واختصاص الصحابة المؤمنين بتلك الغنائم شرعاً وقدرًا، ﴿ قُلْ ﴾: لهم: ﴿ لَنْ تَتَّبِعُونَا كَذَلِكُمْ قَالَكُمُ اللَّهُ مِنْ قَبْلُ ﴾: إنكم محرومون منها بما جئتم على أنفسكم وبما تركتم القتال أول مرة؛ ﴿ فَسَيَقُولُونَ ﴾: مجيبين لهذا الكلام الذي منعوا به عن الخروج: ﴿ بَلْ نَحْسُدُونَا ﴾: على الغنائم! هذا منتهى علمهم في هذا الموضع، ولو فهموا رشدهم؛ لعلموا أن حرمانهم بسبب عصيانهم، وأن المعاصي لها عقوبات دنيوية ودينية، ولهذا قال: ﴿ بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ۝١٥﴾

﴿ قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سَتُدْعُونَ إِلَى فَوْمٍ أُولَى بِأَنْسِ شَيْدِهِمْ فَنَقِيلُونَهُمْ أَوْ يُسَلِّمُونَ فَإِنْ طَئِعُوا يُؤْتِيَكُمْ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِنْ تَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُمْ مِنْ قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ۝١٦﴾ لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يَدْخُلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَنْ يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا ۝١٧﴾

﴿١٦﴾ لما ذكر تعالى أن المخلفين من الأعراب يتخلفون عن الجهاد في سبيله، ويعتذرون بغير عذر، وأنهم يطلبون الخروج معهم إذا لم يكن شوكة ولا قتال، بل لمجرد الغنيمة؛ قال تعالى محتجاً لهم: ﴿ قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سَتُدْعُونَ إِلَى فَوْمٍ أُولَى بِأَنْسِ شَيْدِهِمْ ﴾؛ أي: سيدعوكم الرسول ومن ناب منابه من الخلفاء الراشدين والأئمة، وهؤلاء القوم فارس والروم ومن نحا نحوهم وأشباههم، ﴿ فَنَقِيلُونَهُمْ أَوْ يُسَلِّمُونَ ﴾؛ أي: إما هذا وإما هذا، وهذا هو الأمر الواقع؛ فإنهم في حال قتالهم ومقاتلتهم لأولئك الأقوام إذا كانت شدتهم وبأسهم معهم؛ فإنهم في تلك الحال لا يقبلون أن يبذلوا الجزية، بل إما أن يدخلوا في الإسلام، وإما أن يقاتلوا على ما هم عليه، فلما أثنى عليهم المسلمون وضعفوا وذلوا؛ ذهب بأسهم، فصاروا إما أن يسلموا وإما أن يبذلوا الجزية، ﴿ فَإِنْ طَئِعُوا ﴾: الداعي لكم إلى قتال هؤلاء، ﴿ يُؤْتِيَكُمْ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا ﴾: وهو الأجر الذي رتبته الله ورسوله على الجهاد في سبيل الله، ﴿ وَإِنْ تَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُمْ مِنْ قَبْلُ ﴾: عن قتال من دعاكم الرسول إلى قتاله، ﴿ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾: ودلت هذه الآية على فضيلة الخلفاء الراشدين الداعين لجهاد أهل البأس من الناس، وأنه تجب طاعتهم في ذلك.

﴿١٧﴾ ثم ذكر الأعداء التي يعذر بها العبد عن الخروج إلى الجهاد، فقال: ﴿ لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ ﴾؛ أي: في التخلف عن الجهاد لعذرهم المانع، ﴿ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾: في امتثال أمرهما واجتناب نهيهما، ﴿ يَدْخُلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ﴾: فيها ما تشتهيه الأنفس، وتلذ الأعين، ﴿ وَمَنْ يَتَوَلَّ ﴾: عن طاعة الله ورسوله، ﴿ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا ۝١٧﴾: فالسعادة كلها في طاعة الله، والشقاوة في معصيته ومخالفته.

سورة الفتح
قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سَتُدْعُونَ إِلَى فَوْمٍ أُولَى بِأَنْسِ شَيْدِهِمْ فَنَقِيلُونَهُمْ أَوْ يُسَلِّمُونَ فَإِنْ طَئِعُوا يُؤْتِيَكُمْ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِنْ تَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُمْ مِنْ قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ۝١٦ لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يَدْخُلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَنْ يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا ۝١٧ لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ۝١٨ وَمَغَانِدَ كَثِيرَةٍ يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ۝١٩ وَعَدَّكُمْ اللَّهُ مَغَانِدَ كَثِيرَةٍ يَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ وَلِتَكُونَ آيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ۝٢٠ وَأُخْرَى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ۝٢١ وَلَوْ قَتَلْتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوْا الْأَذْيَارُ ثُمَّ لَا يَجِدُوكَ وَإِلَّا وَلَا تَصِيرُوا ۝٢٢ سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ۝٢٣

﴿عَنْكُمْ﴾: فهي نعمة وتخفيف عنكم، ﴿وَلِتَكُونَ﴾: هذه الغنيمة ﴿ءَايَةً لِلْمُؤْمِنِينَ﴾: يستدلون بها على خبر الله الصادق ووعد الحق وثوابه للمؤمنين، وأن الذي قدرها سيقدر غيرها، ﴿وَيَهْدِيَكُمْ﴾: بما يقيض لكم من الأسباب ﴿صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾: من العلم والإيمان والعمل.

﴿وَأُخْرَى﴾: أي: وعدكم أيضًا غنيمة أخرى، ﴿لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا﴾: وقت هذا الخطاب، ﴿قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا﴾: أي: هو قادر عليها وتحت تدبيره وملكه، وقد وعدكموها؛ فلا بد من وقوع ما وعد به؛ لكمال اقتدار الله تعالى، ولهذا قال: ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾.

﴿وَلَوْ قَتَلْتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوْا الْأَذْبَرُ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وِلَا وَلَا نَصِيرًا﴾: سُنَّةُ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَّتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ يَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا.

﴿هذه بشارة من الله لعباده المؤمنين بنصرهم على أعدائهم الكافرين، وأنهم لو قابلوهم وقتلوهم؛ ﴿لَوَلَّوْا الْأَذْبَرُ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وِلَا﴾: يتولى أمرهم، ﴿وَلَا نَصِيرًا﴾: ينصرهم ويعينهم على قتالكم، بل هم مخدولون مغلوبون.

﴿وهذه سنة الله في الأمم السابقة أن جند الله هم الغالبون، ﴿وَلَنْ يَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾.

﴿وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾ هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيِ مَعَكُوفًا أَنْ يَبْلُغَ يَحِلَّهُمْ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُؤْمِنَاتٌ لَمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَّوُّهُمْ فَتُصِيبَكُمْ مِنْهُم مَعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِيَدْخُلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾.

﴿يقول تعالى ممتنًا على عباده بالعافية من شر الكفار ومن قتالهم، فقال: ﴿وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ﴾: أي: أهل مكة ﴿عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ﴾: أي: من بعد ما قدرتم عليهم وصاروا تحت ولايتكم بلا عقد ولا عهد، وهم نحو ثمانين رجلًا، انحدروا على المسلمين ليصيبوا منهم غزوة، فوجدوا المسلمين متبئين، فأمسكواهم، فتركوهم ولم يقتلوهم؛ رحمة من الله بالمؤمنين إذ لم

﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَنْبَهُمْ فَتَحًا قَرِيبًا﴾ وَمَعَانِيهِ كَثِيرَةٌ يَأْخُذُوهَا وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا وَعَدَكُمْ اللَّهُ مَعَانِيَهُ كَثِيرَةً تَأْخُذُوهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا وَأُخْرَى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾.

﴿١٨﴾، ﴿١٩﴾ يخبر تعالى بفضلته ورحمته برضاه عن المؤمنين إذ يبايعون الرسول ﷺ تلك المبايعة التي يبضت وجوههم واكتسبوا بها سعادة الدنيا والآخرة. وكان سبب هذه البيعة - التي يقال لها: بيعة الرضوان؛ لرضا الله عن المؤمنين فيها. ويقال لها: بيعة أهل الشجرة - أن رسول الله ﷺ لما دار الكلام بينه وبين المشركين يوم الحديبية في شأن مجيئه، وأنه لم يجرى لقتال أحد، وإنما جاء زائرًا هذا البيت معظمًا له، فبعث رسول الله ﷺ عثمان بن عفان لمكة في ذلك، فجاء خبر غير صادق أن عثمان قتله المشركون، فجمع رسول الله ﷺ من معه من المؤمنين، وكانوا نحوًا من ألف وخمسمائة، فبايعوه تحت شجرة على قتال المشركين والآن يفروا حتى يموتوا، فأخبر تعالى أنه رضي عن المؤمنين في تلك الحال التي هي من أكبر الطاعات وأجل القربات. ﴿تَعْلَمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾: من الإيمان، ﴿فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ﴾: شكرًا لهم على ما في قلوبهم، زادهم هدى، وعلم ما في قلوبهم من الجزع من تلك الشروط التي شرطها المشركون على رسوله، فأنزل عليهم السكينة تثبيتهم، وتطمئن بها قلوبهم، ﴿وَأَنْبَهُمْ فَتَحًا قَرِيبًا﴾: وهو فتح خبير، لم يحضره سوى أهل الحديبية، فاخضعوا بخير وغنائمها جزاء لهم وشكرًا على ما فعلوه من طاعة الله تعالى والقيام بمرضاته، ﴿وَمَعَانِيَهُ كَثِيرَةٌ يَأْخُذُوهَا وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾: أي: له العزة والقدرة، التي قهر بها الأشياء؛ فلو شاء؛ لانتصر من الكفار في كل وقعة تكون بينهم وبين المؤمنين، ولكنه حكيم يتلي بعضهم ببعض ويمتحن المؤمن بالكافر.

﴿وَعَدَكُمْ اللَّهُ مَعَانِيَهُ كَثِيرَةً تَأْخُذُوهَا﴾: وهذا يشمل كل غنيمة غنمها المسلمون إلى يوم القيامة، ﴿فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ﴾: أي: غنيمة خبير؛ أي: فلا تحسبوها وحدها، بل ثم شيء كثير من الغنائم سيبعها، واحمدوا الله إذ كف ﴿أَيْدِيَ النَّاسِ﴾: القادرين على قتالكم الحريصين عليه

سورة الفتح

سورة الفتح

وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَارْتَمَى بِكُمْ عَنْهُمْ بِطَنِ مَكَّةَ مِنْ
 بَعْدَ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٢٥﴾ هُمْ
 الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْمَدِينِ
 مَعَكُوفًا أَنْ يَبْلُغَ حِمْلُهُمْ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُؤْمِنَاتٌ
 لَمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَافُوهُمْ فَيَنْصِيبَكُمْ مِنْهُنَّ مَعْرَةٌ بَعِيرٌ عَلَيْهِمْ
 لِيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَابُ الَّذِينَ
 كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٢٦﴾ إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا
 فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حِمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ
 عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى
 وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٢٧﴾
 لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ
 الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ
 لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ
 فَتَحَاقِرًا ﴿٢٨﴾ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ
 الْحَقِّ يُظَاهِرُهُ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴿٢٩﴾

٥١٤

يقتلوهم، ﴿٢٥﴾ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٢٦﴾: فيجازي كل
 عامل بعمله، ويديركم أيها المؤمنون بتدبيره الحسن.

﴿٢٥﴾ ثم ذكر تعالى الأمور المهيبة على قتال المشركين،
 وهي كفرهم بالله ورسوله، وصددهم رسول الله ومن معه من
 المؤمنين أن يأتوا للبيت الحرام زائرين معظمين له بالحج
 والعمرة، وهم الذين أيضًا صدوا الهدى ﴿٢٦﴾ مَعَكُوفًا؛ أي:
 محبوسًا، ﴿٢٧﴾ أَنْ يَبْلُغَ حِمْلُهُمْ؛ وهو محل ذبحه في مكة، حيث
 تدبح هدايا العمرة، فمنعوه من الوصول إليه ظلماً وعدواناً.
 وكل هذه أمور موجبة وداعية إلى قتالهم، ولكن ثم مانع، وهو
 وجود رجال ونساء من أهل الإيمان بين أظهر المشركين،
 وليسوا بمتميزين بمحلة أو مكان يمكن ألا ينالهم أذى؛
 فلولا هؤلاء الرجال المؤمنون والنساء المؤمنات الذين لا
 يعلمهم المسلمون ﴿٢٨﴾ أَنْ تَطَافُوهُمْ؛ أي: خشية أن تطوهم،
 ﴿٢٩﴾ فَيَنْصِيبَكُمْ مِنْهُنَّ مَعْرَةٌ بَعِيرٌ عَلَيْهِمْ؛ والمعرة ما يدخل تحت
 قتالهم من نيلهم بالأذى والمكرهه، وفائدة أخرى، وهو
 أنه ليدخل ﴿٣٠﴾ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ؛ فَيَسْتُرْ عَلَيْهِمُ بِالْإِيمَانِ
 بعد الكفر، وبالهدى بعد الضلال، فيمنعكم من قتالهم
 لهذا السبب، ﴿٣١﴾ لَوْ تَزَيَّلُوا؛ أي: لو زالوا من بين أظهرهم،
 ﴿٣٢﴾ لَعَذَابُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٣٣﴾: بأن نبيح
 لكم قتالهم، ونأذن فيه، ونصركم عليهم.

﴿٢٥﴾ إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حِمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ
 كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٢٦﴾.

﴿٢٦﴾ يقول تعالى: ﴿٢٥﴾ إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حِمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ؛ حيث أنفوا من كتابة «بسم الله الرحمن
 الرحيم»، وأنفوا من دخول رسول الله ﷺ والمؤمنين إليه في تلك السنة؛ لثلاث يقول الناس: دخلوا مكة قاهرين لقرش!
 وهذه الأمور ونحوها من أمور الجاهلية لم تزل في قلوبهم حتى أوجب لهم ما أوجب من كثير من المعاصي، ﴿٢٦﴾ فَأَنْزَلَ اللَّهُ
 سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ؛ فلم يحملهم الغضب على مقابلة المشركين بما قابلوهم به، بل صبروا لحكم الله
 والتزموا الشروط التي فيها تعظيم حرمت الله، ولو كانت ما كانت، ولم يبالوا بقول القائلين ولا لوم اللاتمين، ﴿٢٧﴾ وَأَلْزَمَهُمْ
 كَلِمَةَ التَّقْوَى؛ وهي لا إله إلا الله وحقوقها، ألزمهم القيام بها، فالتزموها وقاموا بها، ﴿٢٨﴾ وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا؛ من غيرهم،
 وكانوا أهلها الذين استأهلوها؛ لما يعلم الله عندهم وفي قلوبهم من الخير، ولهذا قال: ﴿٢٩﴾ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٣٠﴾.

﴿٣١﴾ لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا
 تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتَحَاقِرًا ﴿٣٢﴾ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ يُظَاهِرُهُ
 عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴿٣٣﴾.

﴿٣٣﴾ يقول تعالى: ﴿٣١﴾ لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ؛ وذلك أن رسول الله ﷺ رأى في المدينة رؤيا أخبر بها أصحابه؛
 أنهم سيدخلون مكة ويطوفون بالبيت، فلما جرى يوم الحديبية ما جرى ورجعوا من غير دخول لمكة؛ كثر في ذلك الكلام منهم،
 حتى إنهم قالوا ذلك لرسول الله ﷺ: ألم نخبرنا أنا سنأتي البيت ونطوف به؟ فقال: «أخبرتكم أنه العام ١؟»، قالوا: لا، قال: «فإنكم

أجل أركانها الركوع والسجود، ﴿يَتَنَوَّنُونَ﴾: بتلك العبادة ﴿فَضَلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا﴾؛ أي: هذا مقصودهم، بلوغ رضا ربهم والوصول إلى ثوابه ﴿سَيِّمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ﴾؛ أي: قد أثرت العبادة من كثرتها وحسنها في وجوههم حتى استنارت، لَمَّا استنارت بالصلاة بواطنهم؛ استنارت [بالجلال] ظواهرهم. ﴿ذَلِكَ﴾: المذكور ﴿مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ﴾؛ أي: هذا وصفهم الذي وصفهم الله به مذكور بالثورة هكذا.

وأما مثلهم ﴿فِي الْإِنْجِيلِ﴾؛ فإنهم موصوفون بوصف آخر، وأنهم في كمالهم وتعاونهم ﴿كَزَرْجٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ﴾؛ أي: أخرج فراخه فوازرت فراخه في الشباب والاستواء، ﴿فَاسْتَقْلَقَ﴾: ذلك الزرع؛ أي: قوي وغلظ، ﴿فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سَوَاقٍ﴾: جمع ساق، ﴿يُعْجِبُ الزَّرْعَ﴾: من كماله واستوائه وحسنه واعتداله، كذلك الصحابة رضي الله عنهم هم كالزرع في نفعهم للخلق واحتياج الناس إليهم، فقرة إيمانهم وأعمالهم بمنزلة قوة عروق الزرع وسوقه، وكون الصغير والمتأخر إسلامه قد لحق الكبير السابق، ووازره وعاونته على ما هو عليه من إقامة دين الله والدعوة إليه، كالزرع الذي أخرج شطأه فأزره فاستغلظ، ولهذا قال: ﴿لِيَغِظَ يَوْمَ الْكُفَّارِ﴾: حين يرون اجتماعهم وشدتهم على دينهم، وحين يتصادمون هم وهم في معارك النزال ومعامع القتال، ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ (٢٨)؛ فالصحابة رضي الله عنهم، الذين جمعوا بين الإيمان والعمل الصالح، قد جمع الله لهم بين المغفرة التي من لوازمها وقاية شرور الدنيا والآخرة والأجر العظيم في الدنيا والآخرة.

ولنسق قصة الحديدية بطولها كما ساقها الإمام شمس الدين ابن القيم في الهدى النبوي، فإن فيها إعانة على فهم هذه السورة، وقد تكلم على معانيها وأسرارها. قال رحمه الله تعالى:

فصل في قصة الحديدية

قال نافع: كانت سنة ست في ذي القعدة. وهذا هو الصحيح، وهو قول الزهري وقتادة وموسى بن عقبة ومحمد ابن إسحاق وغيرهم. وقال هشام بن عروة عن أبيه: خرج رسول الله ﷺ إلى الحديدية في رمضان، وكانت في شوال.

سأوتونه وتطوفون به» (١). قال الله تعالى هنا: ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ﴾؛ أي: لا بد من وقوعها وصدقها، ولا يقدح في ذلك تأخر تأويلها، ﴿لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ﴾؛ أي: في هذه الحال المقتضية لتعظيم هذا البيت الحرام وأدائكم للنسك وتكميله بالحلقة والتقصير وعدم الخوف. ﴿فَعَلِمَ﴾: من المصلحة والمنافع ﴿مَا لَمْ تَمْلِكُوا فَعَجَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ﴾: الدخول بتلك الصفة ﴿فَتَحَا قَرِيبًا﴾ (٢٩).

ولما كانت هذه الواقعة مما تشوشت بها قلوب بعض المؤمنين، وخفيت عليهم حكمتها، فبين تعالى حكمتها ومنفعتاتها، وهكذا سائر أحكامه الشرعية؛ فإنها كلها هدى ورحمة، أخبر بحكم عام، فقال: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ﴾: الذي هو العلم النافع، الذي يهدي من الضلالة، ويبين طرق الخير والشر، ﴿وَيَذِينَ الْحَقِّ﴾؛ أي: الدين الموصوف بالحق، وهو العدل والإحسان والرحمة، وهو كل عمل صالح مذكور للقلوب مطهر للنفوس مربب للأخلاق مغلل للأقدار، ﴿يُظْهِرُهُ﴾: بما بعثه الله به ﴿عَلَىٰ الَّذِينَ كُفِرُوا﴾: بالحجة والبرهان، ويكون داعيًا لإخضاعهم بالسيف واللسان.

﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سَيِّمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمَثَلُهُ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْجٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَقْلَقَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سَوَاقٍ يُعْجِبُ الزَّرْعَ لِيَغِظَ يَوْمَ الْكُفَّارِ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ (٢٩).

يخبر تعالى عن رسوله محمد ﷺ وأصحابه من المهاجرين والأنصار؛ أنهم بأكمل الصفات وأجل الأحوال، وأنهم ﴿أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ﴾؛ أي: جادين ومجتهدين في عداوتهم، وساعين في ذلك بغاية جهدهم، فلم يروا منهم إلا الغلظة والشدّة؛ فلذلك ذل أعداؤهم لهم وانكسروا وقهرهم المسلمون، ﴿رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾؛ أي: متحابون متراحمون متعاطفون كالجسد الواحد، يحب أحدهم لأخيه ما يحب لنفسه، هذه معاملتهم مع الخلق، وأما معاملتهم مع الخالق؛ فإنك ﴿تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا﴾؛ أي: وصفهم كثرة الصلاة التي

ذراري هؤلاء الذين أعانوهم فنصيبهم؟ فإن قعدوا قعدوا موتورين محزونين، وإن نجوا؛ تكن عنقاً قطعها الله، أم ترون أن نؤم البيت فمن صدنا عنه قاتلناه؟ قال أبو بكر: الله ورسوله أعلم، إنما جئنا معتمرين، ولم نجئ لقتال أحد، ولكن من حال بيننا وبين البيت؛ قاتلناه. فقال النبي ﷺ: «فروحوا إذا!» فراحوا، حتى إذا كانوا ببعض الطريق؛ قال النبي ﷺ: «إن خالد بن الوليد بالغيم في خيل لقريش [طليعة]؛ فخذوا ذات اليمين». فوالله ما شعر بهم خالد، حتى إذا هم بغبرة الجيش، فانطلق يركض نذيراً لقريش.

وسار النبي ﷺ، حتى إذا كان بالثنية التي يهبط عليهم منها؛ بركت به راحلته، فقال الناس: حل حل! فألحت، فقالوا: خلأت القصواء، خلأت القصواء. فقال النبي ﷺ: «ما خلأت القصواء وما ذاك لها بخلق، ولكن حبسها حابس الفيل». ثم قال: «والذي نفسي بيده؛ لا يسألوني خطة يعظمون فيها حرمان الله؛ إلا أعطيتموها». ثم زجرها، فوثبت به، فعدل، حتى نزل بأقصى الحديبية على ثمد قليل الماء، إنما يتبرضه الناس تبرضاً، فلم يلبث الناس أن نزحوه، فشكوا إلى رسول الله ﷺ العطش، فانتزع سهماً من كنانته، ثم أمرهم أن يجعلوه فيه. قال: فوالله؛ ما زال يجيش لهم بالري حتى صدروا عنها.

وفزعت قريش لنزوله عليهم، فأحب رسول الله ﷺ أن يبعث إليهم رجلاً من أصحابه، فدعا عمر بن الخطاب ليعثه إليهم، فقال: يا رسول الله! ليس لي بمكة أحد من بني كعب يغضب لي إن أوديت؛ فأرسل عثمان بن عفان؛ فإن عشيرته بها، وإنه مبلغ ما أردت. فدعا رسول الله ﷺ عثمان ابن عفان، فأرسله إلى قريش، وقال: «أخبرهم أنا لم نأت لقتال، [و] إنما جئنا عماراً، وادعهم إلى الإسلام». وأمره أن يأتي رجالاً بمكة مؤمنين ونساء مؤمنات، فيدخل عليهم، ويشرحهم بالفتح، ويخبرهم أن الله عز وجل مظهر دينه بمكة حتى لا يستخفى فيها بالإيمان.

فانطلق عثمان، فمر على قريش ببلدح، فقالوا: أين تريد؟ فقال: بعثني رسول الله ﷺ أَدْعُوكُمْ إِلَى اللَّهِ وإلى الإسلام، وأخبركم أنا لم نأت لقتال، وإنما جئنا عماراً. قالوا: قد سمعنا ما تقول؛ فانفذ لحاجتك. وقام إليه أبان بن سعيد بن العاص، فرحب به، وأسرج فرسه، فحمل عثمان على الفرس، فأجاره، وأردفه أبان حتى جاء مكة. وقال المسلمون قبل أن

وهذا وهم، وإنما كانت غزاة الفتح في رمضان. [وقد] قال أبو الأسود عن عروة: إنها كانت في ذي القعدة على الصواب. وفي الصحيحين^(١) عن أنس أن النبي ﷺ اعتمر أربع عمر، كلهن في ذي القعدة. فذكر منهن عمرة الحديبية.

وكان معه ألف وخمسمائة. هكذا في الصحيحين^(٢) عن جابر. وعنه فيهما^(٣): كانوا ألفاً وأربعمائة. وفيهما^(٤) عن عبد الله بن أبي أوفى: كنا ألفاً وثلاثمائة. قال قتادة: قلت لسعيد بن المسيب: كم كان الجماعة الذين شهدوا بيعة الرضوان؟ قال خمس عشرة مائة. قال: قلت: فإن جابر بن عبد الله قال: كانوا أربع عشرة مائة، قال: يرحمه الله وهم، هو حدثني أنهم كانوا خمس عشرة مائة. قلت: وقد صح عن جابر القولان، وصح عنه أنهم نحروا عام الحديبية سبعين بدنة، البدنة عن سبعة، فليل له: كم كنتم؟ قال: ألفاً وأربعمائة بخيلنا ورجلنا؛ يعني: فارسهم وراجلهم. والقلب إلى هذا أميل، وهو قول البراء بن عازب ومقل بن يسار وسلمة بن الأكوع في أصح الروايتين وقول المسيب بن حزن. قال شعبة عن قتادة عن سعيد بن المسيب عن أبيه: كنا مع رسول الله ﷺ تحت الشجرة ألفاً وأربعمائة، وغلط غلطاً بيناً من قال: كانوا سبعمائة! وعذره أنهم نحروا يومئذ سبعين بدنة، والبدنة قد جاء إجزاؤها عن سبعة وعن عشرة! وهذا لا يدل على ما قاله هذا القائل؛ فإنه قد صرح بأن البدنة كانت في هذه الغزوة عن سبعة؛ فلو كانت السبعون عن جميعهم؛ لكانوا أربعمائة وتسعين رجلاً، وقد قال في تمام الحديث بعينه: إنهم كانوا ألفاً وأربعمائة.

فصل

فلما كانوا بذئ الحليفة؛ قلد رسول الله ﷺ الهدى وأشعره وأحرم بالعمرة وبعث عينا له بين يديه من خزاعة يخبره عن قريش، حتى إذا كان قريباً من عسفان؛ أتاه عينه، فقال: إني قد تركت كعب بن لؤي قد جمعوا لك الأحابيش، وجمعوا لك جموعاً، وهم مقاتلون وصادوك عن البيت [ومانعوك]. واستشار النبي ﷺ أصحابه [وقال]^(٥): «أترون أن نميل إلى

(١) البخاري (٤١٤٨)، مسلم (١٢٥٣).

(٢) البخاري (٤١٥٣)، مسلم (١٨٥٦/٧٢، ٧٣).

(٣) البخاري (٤١٥٤)، مسلم (١٨٥٦).

(٤) البخاري (٤١٥٥)، مسلم (١٨٥٧).

(٥) البخاري (٢٧٣٢)، أحمد (١٨٩٢٨).

[فحدثهم بما قال النبي ﷺ]، فقال عروة بن مسعود الثقفي: إن هذا قد عرض عليكم خطة رشد؛ فاقبلوها ودعوني آته. فقالوا: آته! فأتاه، فجعل يكلمه، فقال النبي ﷺ نحواً من قوله لبديل، فقال له عروة عند ذلك: أي محمد، أ رأيت لو استأصلت قومك؛ هل سمعت بأحد من العرب اجتاحت أهله قبلك؟ وإن تكن الأخرى؛ فوالله؛ إني لأرى وجوهاً وأرى أوباشاً من الناس خليقاً أن يفروا ويدعوك. فقال له أبو بكر: امصص بظر اللات! أنحن نفر عنه ندعه؟! قال: من ذا؟ قالوا: أبو بكر. قال: أما والذي نفسي بيده؛ لولا يد كانت لك عندي لم أجرك بها لأجبتك. وجعل يكلم النبي ﷺ، وكلمه؛ أخذ بلحيته، والمغيرة بن شعبة عند رأس النبي ﷺ، ومعه السيف، وعليه المغفر، فكلماً أهوى عروة إلى لحية النبي ﷺ؛ ضرب يده بنعل السيف، وقال: أخرج يدك عن لحية رسول الله ﷺ! أرفع عروة رأسه، وقال: من ذا؟ قال: المغيرة بن شعبة. فقال: أي غدر، أولست أسعى في غدرتك؟! وكان المغيرة صاحب قومًا قتلهم وأخذ أموالهم ثم جاء فأسلم، فقال النبي ﷺ: «أما الإسلام؛ فأقبل، وأما المال؛ فلست منه في شيء». ثم إن عروة جعل يرمق أصحاب رسول الله ﷺ، يعنيه فوالله؛ ما تنخم النبي ﷺ نخامة؛ إلا وقعت في كف رجل منهم، فذلك بها جلده ووجهه، وإذا أمرهم؛ ابتدروا أمره، وإذا توضأ؛ كادوا يقتتلون على وضوئه، وإذا تكلم؛ خفضوا أصواتهم عنده، وما يحدون إليه النظر تعظيماً له. فرجع عروة إلى أصحابه، فقال: أي قوم، والله لقد وفدت على الملوك؛ على كسرى، وقيصر والنجاشي. والله ما رأيت ملكاً يعظمه أصحابه ما يعظم أصحاب محمد محمدًا. والله؛ إن تنخم نخامة إلا وقعت في كف رجل منهم، فذلك بها وجهه وجلده، وإذا أمرهم؛ ابتدروا أمره، وإذا توضأ؛ كادوا يقتتلون على وضوئه، وإذا تكلم؛ خفضوا أصواتهم عنده، وما يحدون إليه النظر تعظيماً له، وقد عرض عليكم خطة رشد؛ فاقبلوها.

فقال رجل من بني كنانة: دعوني آته! فقالوا: آته! فلما أشرف على النبي ﷺ وأصحابه؛ قال رسول الله ﷺ: «هذا فلان، وهو من قوم يعظمون البدن، فابعثوها له». فبعثوها، فاستقبله القوم يلبون، فلما رأى ذلك؛ قال: سبحان الله! لا ينبغي لهؤلاء أن يصدوا عن البيت. فرجع إلى أصحابه، فقال: رأيت البدن قد قلدت وأشعرت، وما أرى أن يصدوا عن البيت.

يرجع عثمان: خلص عثمان قبلنا إلى البيت وطاف به. فقال رسول الله ﷺ: «ما أظنه طاف بالبيت ونحن محصورون». فقالوا: وما يمنعه يا رسول الله وقد خلص؟ قال: «ذاك ظني به ألا يطوف بالكعبة حتى تطوف معه».

واختلط المسلمون بالمشركين في أمر الصلح، فرمى رجل من أحد الفريقين رجلاً من الفريق الآخر، وكانت معركة، وتراموا بالنبل والحجارة، وصاح الفريقان كلاهما، وارتعن كل واحد من الفريقين بمن فيهم، وبلغ رسول الله ﷺ أن عثمان قد قتل، فدعا إلى البيعة، فنار المسلمون إلى رسول الله ﷺ وهو تحت الشجرة فبايعوه على ألا يفروا فأخذ رسول الله ﷺ بيد نفسه، وقال: «هذه عن عثمان».

ولما تمت البيعة؛ رجع عثمان، فقال له المسلمون: اشتفيت يا أبا عبد الله من الطواف بالبيت؟ فقال: بشما ظننتم بي، والذي نفسي بيده؛ لو مكثت بها سنة ورسول الله ﷺ مقيم بالحديبية ما طفت بها حتى يطوف بها رسول الله ﷺ، ولقد دعيتي قريش إلى الطواف بالبيت فأبيت. فقال المسلمون: رسول الله ﷺ كان أعلمنا بالله وأحسننا ظناً.

وكان عمر أخذًا بيد رسول الله ﷺ للبيعة تحت الشجرة، فبايعه المسلمون كلهم إلا الجند بن قيس، وكان معقل بن يسار أخذًا بغصنها يرفعه عن رسول الله ﷺ، وكان أول من بايعه أبو سنان الأسدي، وبايعه سلمة بن الأكوع ثلاث مرات في أول الناس وأوسطهم وآخرهم.

فبينما هم كذلك؛ إذ جاء بديل بن ورقاء الخزاعي في نفر من خزاعة، وكانوا عيبة نصح رسول الله ﷺ من أهل تهامة، فقال: إني تركت كعب بن لؤي وعامر بن لؤي نزلوا أعداد مياه الحديبية، معهم العوذ المطافيل، وهم مقاتلون وصادوك عن البيت. قال رسول الله ﷺ: «إنا لم نجئ لقتال أحد، ولكن جئنا معتمرين، وإن قريشاً قد نهكتهم الحرب وأضرمت بهم؛ فإن شاءوا أماددهم ويخلوا بيني وبين الناس، وإن شاءوا أن يدخلوا فيما دخل فيه الناس؛ فعلوا، وإلا؛ فقد جموا، وإن [هم] أبوا إلا القتال؛ فوالذي نفسي بيده؛ لأقاتلنهم على أمري هذا حتى تنفرد سالفتي أو لينفذن الله أمره». قال بديل: سأبلغهم ما تقول. فانطلق حتى أتى قريشاً، فقال: إني قد جئتكم من عند هذا الرجل، وسمعته يقول قولاً؛ فإن شئتم عرضته عليكم. فقال سفيهاؤهم: لا حاجة لنا أن تحدثنا عنه بشيء. وقال ذوو الرأي منهم: هات ما سمعته! قال: سمعته يقول كذا وكذا.

ورد عليه أبو بكر كما رد عليه رسول الله سواء، وزاد: «فاستمسك بغرزه حتى تموت، فوالله؛ إنه لعلى الحق». قال عمر: فعملت لذلك أعمالاً.

فلما فرغ من قضية الكتاب؛ قال رسول الله ﷺ: «قوموا وانحروا ثم احلقوا». فوالله ما قام منهم رجل [واحد]، حتى قال ثلاث مرات، فلما لم يقيم منهم أحد؛ قام فدخل على أم سلمة، فذكر لها ما لقي من الناس، فقالت أم سلمة: يا رسول الله، أتحب ذلك؟ أخرج، ثم لا تكلم أحداً منهم كلمة حتى تنحر بدنك وتدعو حالقك فيحلق لك. فقام، فخرج، فلم يكلم أحداً منهم حتى فعل ذلك؛ نحر بدنه ودعا حالقه فحلقه. فلما رأى الناس ذلك؛ قاموا، فنحروا، وجعل بعضهم يحلق بعضاً، حتى كاد بعضهم يقتل بعضاً غمًا. ثم جاءت نسوة مؤمنات، فأنزل الله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا جَاءَكُمْ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ﴾ حتى بلغ ﴿بَعْضِ الْكَافِرِ﴾، فطلق عمر يومئذ امرأتين كانتا له في الشرك، فتزوج إحداهما معاوية والأخرى صفوان بن أمية، ثم رجع إلى المدينة. وفي مرجعه أنزل الله عليه: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾ ١ لِيُغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَبَشِّرْ نَفْسَكَ بِإِيمَانِكَ وَعِزِّكَ بِرَحْمَةِ اللَّهِ وَسَيِّدِكَ بِرَحْمَةِ اللَّهِ وَسَيِّدِكَ بِرَحْمَةِ اللَّهِ وَبَشِّرْكَ اللَّهُ نَصْرًا عَظِيمًا ٢ إلى آخرها، فقال عمر: أفتع هو يا رسول الله؟ قال: «نعم». فقال الصحابة: هنيئاً لك يا رسول الله؛ فما لنا؟ فأنزل الله عز وجل: ﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ الآية. انتهى.

وهذا آخر تفسير سورة الفتح. ولله الحمد والمنة.

وصلّى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه.



تفسير سورة الحجرات

وهي مدنية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْدُمُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَانفُوا﴾
 اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ١ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ ٢ إِنَّ الَّذِينَ

فقام مركز بن حفص، وقال: دعوني آتة! فقالوا: آتة! فلما أشرف عليهم؛ قال النبي ﷺ: «هذا مركز بن حفص، وهو رجل فاجر». فجعل يكلم رسول الله ﷺ، فبينما هو يكلمه؛ إذ جاء سهيل بن عمرو، فقال النبي ﷺ: «قد سهل لكم من أمركم». فقال: هات اكتب بيننا وبينك كتاباً. فدعا الكاتب، فقال: «اكتب: بسم الله الرحمن الرحيم». فقال سهيل: أما الرحمن؛ فوالله ما ندري ما هو؟ ولكن اكتب: باسمك اللهم. كما كنت تكتب. فقال المسلمون: والله لا نكتبها إلا بسم الله الرحمن الرحيم. فقال النبي ﷺ: «اكتب باسمك اللهم». ثم قال: «اكتب: هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله». فقال سهيل: فوالله لو كنا نعلم أنك رسول الله ما صددناك عن البيت ولا قاتلناك، ولكن اكتب: محمد بن عبد الله. فقال النبي ﷺ: «إني رسول الله وإن كذبتموني، اكتب: محمد بن عبد الله». فقال النبي ﷺ: «على أن تخلوا بيننا وبين البيت فتطوف به». فقال سهيل: والله لا تتحدث العرب أنا أخذنا ضغطة. ولكن ذلك من العام المقبل. فكتب: فقال سهيل: على ألا يأتينا منا رجل، وإن كان على دينك؛ إلا رددته علينا. فقال المسلمون: سبحان الله! كيف يرد إلى المشركين وقد جاء مسلماً؟ فبينما هم كذلك؛ إذ جاء أبو جندل بن سهيل [بن عمرو] يرسف في قيوده، قد خرج من أسفل مكة، حتى رمى بنفسه بين أظهر المسلمين، فقال سهيل: هذا يا محمد أول ما أقاضيك عليه أن ترده إلي. فقال النبي ﷺ: «إنا لم نقض الكتاب بعد». فقال: فوالله إذا لا أصلحك على شيء أبداً. فقال النبي ﷺ: «فأجزه لي». فقال: ما أنا بمجيزه [لك]. فقال: «بلى فافعل». قال: ما أنا بفاعل. قال مركز: [بلى] قد أجزناه. فقال أبو جندل: يا معشر المسلمين! أرد إلى المشركين وقد جئت مسلماً؟ ألا ترون ما لقيت؟ وكان قد عذب في الله عذاباً شديداً.

قال عمر بن الخطاب: والله ما شككت منذ أسلمت إلا يومئذ، فأثبت النبي ﷺ، فقلت: يا رسول الله، ألست نبي الله حقاً؟ قال: «بلى». قلت: ألسنا على الحق وعدونا على الباطل؟ قال: «بلى». فقلت: علام نعطي الدنيا في ديننا [إذا] ونرجع ولما يحكم الله بيننا وبين أعدائنا؟ فقال: «إني رسول الله، وهو ناصري، ولست أعصيه». قلت: أولست كنت تحدثنا أنا سنأتي البيت ونطوف به؟ قال: «بلى، أنا أخبرتك أنك تأتية العام؟». قلت: لا. قال: «فإنك آتية ومطوف به». قال: فأثبت أبا بكر، فقلت له كما قلت لرسول الله ﷺ،

يَغْضُونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٣﴾

هذا متضمن للأدب مع الله تعالى ومع رسول الله ﷺ والتعظيم والاحترام له وإكرامه، فأمر الله عباده المؤمنين بما يقتضيه الإيمان بالله ورسوله من امثال أوامر الله واجتناب نواهيه، وأن يكونوا ماشين خلف أوامر الله، متبعين لسنة رسول الله ﷺ؛ في جميع أمورهم، وألا يتقدموا بين يدي الله ورسوله؛ فلا يقولوا حتى يقول، ولا يأمرؤا حتى يأمر، فإن هذا حقيقة الأدب الواجب مع الله ورسوله، وهو عنوان سعادة العبد وفلاحه، وبفواته تفوته السعادة الأبدية والنعيم السرمدي. وفي هذا النهي الشديد عن تقديم قول غير الرسول ﷺ على قوله؛ فإنه متى استبان سنة رسول الله ﷺ؛ وجب اتباعها وتقديمها على غيرها كائناً ما كان.

﴿١﴾ ثم أمر الله بتقواه عموماً، وهي كما قال طلق بن حبيب: أن تعمل بطاعة الله على نور من الله ترجو ثواب الله، وأن تترك معصية الله على نور من الله تخشى عقاب الله. وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ﴾؛ أي: لجميع الأصوات، في جميع الأوقات، في خفي المواضع والجهات، ﴿عَلِيمٌ﴾؛ بالظواهر والبواطن، والسوابق واللواحق، والواجبات والمستحيلات والممكنات. وفي ذكر الاسمين الكريمين بعد النهي عن التقدم بين يدي الله ورسوله والأمر بتقواه حث على امثال تلك الأوامر الحسنة والآداب المستحسنة وترهيب عن عدم الامثال.

﴿٢﴾ ثم قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ﴾؛ وهذا أدب مع الرسول ﷺ في خطابه؛ أي: لا يرفع المخاطب له صوته معه فوق صوته، ولا يجهر له بالقول، بل يغض الصوت ويخاطبه بأدب ولين وتعظيم وتكريم وإجلال وإعظام، ولا يكون الرسول كأحد، بل يميزونه في خطابهم كما تميز عن غيره في وجوب حقه على الأمة، ووجوب الإيمان به، والحب الذي لا يتم الإيمان إلا به؛ فإن في عدم القيام بذلك محذوراً وخشية أن يحبط عمل العبد وهو لا يشعر؛ كما أن الأدب معه من أسباب حصول الثواب وقبول الأعمال.

﴿٣﴾ ثم مدح من غض صوته عند رسول الله ﷺ بأن الله امتحن قلوبهم للتقوى؛ أي: ابتلاها واختبرها، فظهرت نتيجة ذلك بأن صلحت قلوبهم للتقوى. ثم وعدهم المغفرة لذنوبهم، المتضمنة لزوال الشر والمكروه، وحصول الأجر العظيم، الذي لا يعلم وصفه إلا الله تعالى، وفيه حصول كل محبوب. وفي هذا دليل على أن الله يمتحن القلوب بالأمر والنهي والمحن؛ فمن لازم أمر الله واتباع رضاه وسارع إلى ذلك وقدمه على هواه؛ تمحض وتمحص للتقوى، وصار قلبه صالحاً لها، ومن لم يكن كذلك؛ علم أنه لا يصلح للتقوى.

﴿٤﴾ إِنَّ الَّذِينَ يُتَادُونَكَ مِنَ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٢﴾

﴿١﴾ نزلت هذه الآيات الكريمة في ناس من الأعراب، الذين وصفهم الله بالجفاء، وأنهم أجدر ألا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله؛ قدموا وافدين على رسول الله ﷺ، فوجدوه في بيته وحجرات نسائه، فلم يصبروا ويتأدبوا حتى يخرج، بل

سورة الحجرات

يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ

يَغْضُونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ

يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ

يَغْضُونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ

يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ

يَغْضُونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ

يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ

يَغْضُونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ

يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ

يَغْضُونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ

يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ

يَغْضُونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ

يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ

يَغْضُونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ

يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ

يَغْضُونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ

يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ

يَغْضُونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ

يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ

يَغْضُونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ

يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ

يَغْضُونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ

يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ

يَغْضُونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ

يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ

يَغْضُونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ

يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ

يَغْضُونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ

نادوه: يا محمد، يا محمد؛ أي: اخرج إلينا. فذمهم الله بعدم العقل؛ حيث لم يعقلوا عن الله الأدب مع رسوله واحترامه؛ كما أن من العقل استعمال الأدب؛ فأدب العبد عنوان عقله، وأن الله مريد به الخير.

ولهذا قال: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾؛ أي: غفور لما صدر عن عباده من الذنوب والإخلال بالآداب، رحيم بهم حيث لم يعاجلهم بذنوبهم بالعقوبات والمثلثات.

﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنْ جَاءَ كُرْ فَاسِقُ بْنُا فَيَقِينُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَلَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾.

وهذا أيضًا من الآداب التي على أولي الألباب التأدب بها واستعمالها، وهو أنه إذا أخبرهم فاسق بنياً؛ أي: خبر: أن يثبتوا في خبره، ولا يأخذوه مجرداً؛ فإن في ذلك خطراً كبيراً ووقوعاً في الإثم؛ فإن خبره إذا جعل بمنزلة خبر الصادق العدل؛ حكم بموجب ذلك ومقتضاه، فحصل من تلف النفوس والأموال بغير حق بسبب ذلك الخبر ما يكون سبباً للندامة، بل الواجب عند خبر الفاسق التثبت والتبين؛ فإن دلت الدلائل والقرائن على صدقه؛ عمل به وصدق، وإن دلت على كذبه؛ كذب ولم يعمل به؛ ففيه دليل على أن خبر الصادق مقبول، وخبر الكاذب مردود، وخبر الفاسق متوقف فيه كما ذكرنا، ولهذا كان السلف يقبلون روايات كثير من الخوارج المعروفين بالصدق، ولو كانوا فاسقاً.

﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَنَخِفَّ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاكِدُونَ﴾.

أي: ولكن لديكم معلوماً أن رَسُولَ اللَّهِ ﷺ بين أظهركم، وهو الرسول الكريم البار الراشد، الذي يريد بكم الخير، وينصح لكم، وتريدون لأنفسكم من الشر والمضرة ما لا يوافقكم الرسول عليه، و﴿لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ﴾ لشق عليكم وأعتكم، ولكن الرسول يرشدكم، والله تعالى يحب ﴿إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ﴾ ويزينه ﴿فِي قُلُوبِكُمْ﴾ بما أودع في قلوبكم من محبة الحق وإيثاره، وبما نصب على الحق من الشواهد والأدلة الدالة على صحته وقبول القلوب والفطر له، وبما يفعله تعالى بكم من توفيقه للإجابة إليه، ويكره ﴿إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ﴾؛ أي: الذنوب الكبار. ﴿وَالْعِصْيَانَ﴾؛ هي ما دون ذلك من الذنوب؛ بما أودع في قلوبكم من كراهة الشر وعدم إرادة فعله، وبما نصبه من الأدلة والشواهد على فساده ومضرته وعدم قبول الفطر له، وبما يجعل الله في القلوب من الكراهة له.

﴿أُولَئِكَ﴾؛ أي: الذين زين الله الإيمان في قلوبهم وحببه إليهم، وكره إليهم الكفر والفسوق والعصيان ﴿هُمُ الرَّاكِدُونَ﴾؛ أي: الذين صلحت علومهم وأعمالهم، واستقاموا على الدين القويم والصراط المستقيم، وضدهم الغاؤون الذين حجب إليهم الكفر والفسوق والعصيان، وكره إليهم الإيمان، والذنب ذنبهم؛ فإنهم لما فسقوا؛ طبع الله على قلوبهم، ولما زاغوا؛ أزاع الله قلوبهم، ولما لم يؤمنوا بالحق لما جاءهم أول مرة؛ قلب الله أفئدتهم.

سورة الحجرات
وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٥﴾ يَتَأْتِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنْ جَاءَ كُرْ فَاسِقُ بْنُا فَيَقِينُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَلَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ ﴿٦﴾ وَأَعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَنَخِفَّ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاكِدُونَ ﴿٧﴾ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرَحْمَةً وَاللَّهُ عَلَيْهِ حَكِيمٌ ﴿٨﴾ وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَتَلَبَّسُوا بِالْبَغْيِ حَتَّىٰ تَقَىٰ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاتَتْ فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿٩﴾ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلَحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٠﴾ يَتَأْتِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا ضَعُفَ مِن قَوْمٍ عَسَىٰ أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا لِّهِمْ وَلَا ضَرَارَ مِن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا لِّكُمْ وَلَا تَحْزَنُوا لِنَفْسِكُمْ وَلَا تُنَاصِبُوا إِلَّا مَا لَاقَتْ بِنَفْسِكُمْ إِلَيْكُمْ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَنْ لَّمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿١١﴾

ولا تاجشوا ولا تباغضوا ولا تدابروا، وكونوا عباد الله إخواناً. المسلم أخو المسلم؛ لا يظلمه ولا يخذله ولا يكذبه. متفق عليه^(٢). وقال ﷺ: «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً»، وشبك ﷺ بين أصابعه^(٣).

ولقد أمر الله ورسوله بالقيام بحقوق المؤمنين بعضهم لبعض وبما يحصل به التآلف والتوادد والتواصل بينهم، كل هذا تأكيد لحقوق بعضهم على بعض؛ فمن ذلك إذا وقع الاقتتال بينهم الموجب لتفريق القلوب وتباغضها وتدابرها؛ فليصلح المؤمنون بين إخوانهم، وليسعوا فيما به يزول شنائهم.

ثم أمر بالتقوى عموماً، ورتب على القيام بالتقوى وبحقوق المؤمنين الرحمة، فقال: ﴿لَعَلَّكُمْ تَرْحَمُونَ﴾^(٤)، وإذا حصلت الرحمة؛ حصل خير الدنيا والآخرة. ودل ذلك على أن عدم القيام بحقوق المؤمنين من أعظم حواجب الرحمة.

وفي هاتين الآيتين من الفوائد غير ما تقدم: أن الاقتتال بين المؤمنين مناف للأخوة الإيمانية، ولهذا كان من أكبر الكبائر. وأن الإيمان والأخوة الإيمانية لا يزولان مع وجود الاقتتال؛ كغيره من الذنوب الكبار، التي دون الشرك، وعلى ذلك مذهب أهل السنة والجماعة. وعلى وجوب الإصلاح بين المؤمنين بالعدل. وعلى وجوب قتال البغاة حتى يرجعوا إلى أمر الله، وعلى أنهم لو رجعوا لغير أمر الله؛ بأن رجعوا على وجه لا يجوز الإقرار عليه والتزامه؛ أنه لا يجوز ذلك. وأن أموالهم معصومة؛ لأن الله أباح دمائهم وقت استمرارهم على بغيتهم خاصة دون أموالهم.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَر قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَىٰ أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نَسَاءٌ مِنْ نِسَاءِ عَسَىٰ أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الْأَلْسُنُ الْمُفْسُوقَةُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾^(٥).

﴿٥﴾ وهذا أيضاً من حقوق المؤمنين بعضهم على بعض؛ أن: ﴿لَا يَسْخَر قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ﴾: بكل كلام وقول وفعل دال على تحقير الأخ المسلم؛ فإن ذلك حرام لا يجوز، وهو دال على إعجاب الساخر بنفسه، وعسى أن يكون المسخور به خيراً من الساخر، كما هو الغالب والواقع؛ فإن السخرية لا تقع إلا

(٢) البخاري (٦٠٦٤)، مسلم (٢٥٥٩).

(٣) البخاري (٦٠٢٦)، مسلم (١٩٩٩).

﴿٥﴾ وقوله: ﴿فَضَلَّ مِنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً﴾؛ أي: ذلك الخير الذي حصل لهم هو بفضل الله عليهم وإحسانه، لا بحولهم وقوتهم. ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾^(٦)؛ أي: عليم بمن يشكر النعمة فيوفقه لها ممن لا يشكرها ولا تليق به، فيضع فضله حيث تقتضيه حكمته.

﴿وَلَنْ طَافَيْنَاكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَفْتَلَوْا فَاصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَاصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْضُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾^(٧) إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَاصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾^(٨).

﴿٧﴾ هذا متضمن لنهي المؤمنين عن أن يبغى بعضهم على بعض ويقاتل بعضهم بعضاً، وأنه إذا اقتتل طائفتان من المؤمنين؛ فإن على غيرهم من المؤمنين أن يتلافوا هذا الشر الكبير بالإصلاح بينهم والتوسط على أكمل وجه يقع به الصلح ويسلكوا الطرق الموصلة إلى ذلك؛ فإن صلحتا؛ فيها ونعمت. ﴿فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ﴾؛ أي: ترجع إلى ما حد الله ورسوله من فعل الخير وترك الشر الذي من أعظمه الاقتتال. وقوله: ﴿فَإِنْ فَاءَتْ فَاصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ﴾: هذا أمر بالصلح وبالعدل في الصلح؛ فإن الصلح قد يوجد، ولكن لا يكون بالعدل، بل بالظلم والحيف على أحد الخصمين؛ فهذا ليس هو الصلح المأمور به، فيجب ألا يراعى أحدهما لقرابة أو وطن أو غير ذلك من المقاصد والأغراض، التي توجب العدول عن العدل. ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾^(٩)؛ أي: العادلين في حكمهم بين الناس، وفي جميع الولايات التي تولوها، حتى إنه قد يدخل في ذلك عدل الرجل في أهله وعياله في أداء حقوقهم، وفي الحديث الصحيح: «المقسطون عند الله على منابر من نور؛ الذين يعدلون في حكمهم وأهليهم وما ولوا»^(١٠).

﴿٨﴾ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ: هذا عقد عقده الله بين المؤمنين؛ أنه إذا وجد من أي شخص كان في مشرق الأرض ومغربها الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسوله واليوم الآخر؛ فإنه أخ للمؤمنين أخوة توجب أن يحب له المؤمنون ما يحبون لأنفسهم، ويكرهوا له ما يكرهون لأنفسهم، ولهذا قال النبي ﷺ آمراً بالأخوة الإيمانية: «لا تحاسدوا

(١) مسلم (١٨٢٧).

من قلب ممتلئ من مساوي الأخلاق، متحل بكل خلق ذميم، متحل من كل خلق كريم، ولهذا قال النبي ﷺ: «بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم»^(١).

ثم قال: ﴿وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ﴾؛ أي: لا يعب بعضكم على بعض، واللمز بالقول، والهمز بالفعل، وكلاهما منهى عنه حرام متوعد عليه بالنار؛ كما قال تعالى: ﴿وَبَلَّ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُغْمًا﴾^(٢) [الهمزة: ١] الآية، وسمى الأخ المؤمن نفساً لأخيه؛ لأن المؤمنين ينبغي أن يكون هكذا حالهم؛ كالجسد الواحد، ولأنه إذا همز غيره؛ أوجب للغير أن يهمزه، فيكون هو المتسبب لذلك، ﴿وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ﴾؛ أي: لا يعير أحدهم أخاه ويلقبه بلقب ذم يكره أن يطلق عليه، وهذا هو التنازع، وأما الألقاب غير المذمومة؛ فلا تدخل في هذا. ﴿يَسَّ الْأَيْتُمُ الْقُسُوفَ بَعْدَ الْإِيمَانِ﴾؛ أي: بشما تبدلت عن الإيمان والعمل بشرائعه وما يقتضيه بالإعراض عن أوامره ونواهيه باسم الفسوق والعصيان الذي هو التنازع بالألقاب، ﴿وَمَنْ لَمْ يَنْتَبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾^(٣)؛ وهذا هو الواجب على العبد: أن يتوب إلى الله تعالى، ويخرج من حق أخيه المسلم باستحلاله والاستغفار والمدح له مقابلة على ذمه. ﴿وَمَنْ لَمْ يَنْتَبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾^(٤)؛ فالناس قسمان: ظالم لنفسه غير تائب، وتائب مفلح، ولا ثم غيرهما.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبَ بَعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّن ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾ قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تَوَدُّوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِّنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴿١٥﴾ قُلْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ بِدِينِكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٦﴾ يَمْشُونَ عَلَيْكَ أَوْ لَا تَسْمَعُوا قُلْ لَا تَمْنُوا عَلَيَّ إِلَّا سَلَامٌ عَلَى اللَّهِ يُعْمَلُ عَلَيْكُمْ أَن هَدَيْتُمُ لِلْإِيمَانِ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ مُتَعَلِّمُونَ ﴿١٧﴾ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبَ بَعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾^(١٢).

نهى تعالى عن كثير من الظن السيئ بالمؤمنين، ف﴿بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾؛ وذلك كالظن الخالي من الحقيقة والقرينة، وكظن السوء الذي يقترن به كثير من الأقوال والأفعال المحرمة؛ فإن بقاء ظن السوء بالقلب لا يقتصر صاحبه على مجرد ذلك، بل لا يزال به حتى يقول ما لا ينبغي ويفعل ما لا ينبغي، وفي ذلك أيضًا إساءة الظن بالمسلم وبغضه وعداوته المأمور بخلافها منه، ﴿وَلَا تَجَسَّسُوا﴾؛ أي: لا تفتشوا عن عورات المسلمين، ولا تتبعوها، ودعوا المسلم على حاله، واستعملوا التغافل عن زلاته، التي إذا فتنشت؛ ظهر منها ما لا ينبغي، ﴿وَلَا يَغْتَبَ بَعْضُكُم بَعْضًا﴾؛ والغيبة كما قال النبي ﷺ: «ذكرك أخاك بما يكره، ولو كان فيه»^(١). ثم ذكر مثلاً منفرداً عن الغيبة، فقال: ﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ﴾؛ شبه أكل لحمه ميتاً المكروه للنفوس غاية الكراهة باغتيابه؛ فكما أنكم تكرهون أكل لحمه، خصوصاً إذا كان ميتاً فاقد الروح؛ فكذلك فلتكرهوا غيبته وأكل لحمه حياً، ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾^(٢)؛ والتواب: الذي يأذن بتوبة عبده، فيوفقه لها، ثم يتوب عليه بقبول توبته، رحيم بعباده؛ حيث دعاهم إلى ما ينفعهم، وقبل منهم التوبة. وفي هذه الآية دليل على التحذير الشديد من الغيبة، وأنها من الكبائر؛ لأن الله شبهها بأكل لحم الميت، وذلك من الكبائر.

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّن ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾^(١٣).

(١) مسلم (٢٥٦٤).

(٢) مسلم (٢٥٨٩).

بشاشة الإيمان في قلوبكم. وفي قوله: ﴿وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾؛ أي: وقت هذا الكلام الذي صدر منكم، فكان فيه إشارة إلى أحوالهم بعد ذلك؛ فإن كثيراً منهم من الله عليهم بالإيمان الحقيقي والجهاد في سبيل الله، ﴿وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾؛ أي: لا ينقصكم منها مثقال ذرة، بل يوفىكم إياها أكمل ما تكون، لا تفقدون منها صغيراً ولا كبيراً. ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾؛ أي: غفور لمن تاب إليه وأناب، رحيم به؛ حيث قبل توبته.

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ﴾؛ أي: على الحقيقة، ﴿الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾؛ أي: من جمعوا بين الإيمان بالله ورسوله والجهاد في سبيله؛ فإن من جاهد الكفار؛ دل ذلك على الإيمان التام في قلبه؛ لأن من جاهد غيره على الإسلام والإيمان والقيام بشرائعه؛ فجهاده لنفسه على ذلك من باب أولى وأحرى، ولأن من لم يقو على الجهاد؛ فإن ذلك دليل على ضعف إيمانه. وشرط تعالى في الإيمان عدم الريب؛ أي: الشك؛ لأن الإيمان النافع هو الجزم اليقيني بما أمر الله بالإيمان به، الذي لا يعتريه شك بوجه من الوجوه. وقوله: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾؛ أي: الذين صدقوا إيمانهم بأعمالهم الجميلة؛ فإن الصدق دعوى عظيمة في كل شيء يُدعى، يحتاج صاحبه إلى حجة وبرهان، وأعظم ذلك دعوى الإيمان، الذي هو مدار السعادة والفوز الأبدي والفلاح السرمدي؛ فمن ادعاه وقام بواجباته ولوازمه؛ فهو الصادق المؤمن حقاً، ومن لم يكن كذلك؛ علم أنه ليس بصادق في دعواه، وليس لدعواه فائدة؛ فإن الإيمان في القلب، لا يطلع عليه إلا الله تعالى؛ فإثباته ونفيه من باب تعليم الله بما في القلب وهو سوء أدب وظن بالله.

ولهذا قال: ﴿قُلْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ بِدِينِكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾؛ وهذا شامل للأشياء كلها، التي من جملتها ما في القلوب من الإيمان والكفران والبر والفجور؛ فإنه تعالى يعلم ذلك كله، ويجازي عليه، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر.

﴿هَذِهِ حَالَةُ مَنْ أَحْوَالَ مِنْ ادَّعَى لِنَفْسِهِ الْإِيمَانَ وَلَيْسَ بِهِ؛ فَإِنَّهُ إِمَّا أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ تَعْلِيماً لِلَّهِ، وَقَدْ عَلِمَ أَنَّهُ عَالِمٌ بِكُلِّ شَيْءٍ، وَإِمَّا أَنْ يَكُونَ قَصْدُهُمْ بِهَذَا الْكَلَامِ الْمُنَّةَ عَلَى

﴿يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ خَلَقَ بَنِي آدَمَ مِنْ أَصْلٍ وَاحِدٍ وَجَنَسٍ وَاحِدٍ، وَكُلُّهُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى، وَيَرْجِعُونَ جَمِيعُهُمْ إِلَى آدَمَ وَحَوَاءَ، وَلَكِنَّ اللَّهَ تَعَالَى بَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً، وَفَرَقَهُمْ وَجَعَلَهُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ﴾؛ أي: قبائل صغاراً وكباراً، وذلك لأجل أن يتعارفوا؛ فإنه لو استقل كل واحد منهم بنفسه؛ لم يحصل بذلك التعارف الذي يترتب عليه التناصر والتعاون والتوارث والقيام بحقوق الأقارب، ولكن الله جعلهم شعوباً وقبائل؛ لأجل أن تحصل هذه الأمور وغيرها مما يتوقف على التعارف ولحوق الأنساب، ولكن الكرم بالتقوى؛ فأكرمهم عند الله أنقامهم، وهو أكثرهم طاعة وانكفافاً عن المعاصي، لا أكثرهم قرابة وقوماً، ولا أشرفهم نسباً، ولكن الله تعالى ﴿عَلَّمَ خَيْرٌ﴾؛ أي: يعلم منهم من يقوم بتقوى الله ظاهراً وباطناً ممن لا يقوم بذلك ظاهراً ولا باطناً، فيجازي كلًّا بما يستحق. وفي هذه الآية دليل على أن معرفة الأنساب مطلوبة مشروعة؛ لأن الله جعلهم شعوباً وقبائل لأجل ذلك.

﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ ءَأَمَّا قُلُوبُكُمْ لَمْ تُوْثِقُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئاً إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾؛ أي: إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله أولئك هم الصديقون ﴿قُلْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ بِدِينِكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَمَكُم بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَيْتُكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ ﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾.

﴿يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ مَقَالَةِ الْأَعْرَابِ، الَّذِينَ دَخَلُوا فِي الْإِسْلَامِ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ دَخُولاً مِنْ غَيْرِ بَصِيرَةٍ وَلَا قِيَامٍ بِمَا يَجِبُ وَيَقْتَضِيهِ الْإِيمَانُ؛ أَنَّهُمْ مَعَ هَذَا ادَّعَوْا وَقَالُوا ءَأَمَّا قُلُوبُكُمْ لَمْ تُوْثِقُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا﴾؛ أي: إيماناً كاملاً مستوفياً لجميع أموره. هذا موجب هذا الكلام، فأمر الله رسوله أن يرد عليهم، فقال: ﴿قُلْ لَمْ تُوْثِقُوا﴾؛ أي: لا تدَّعوا لأنفسكم مقام الإيمان ظاهراً وباطناً كاملاً، ﴿وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا﴾؛ أي: دخلنا في الإسلام، واقتصروا على ذلك، والسبب في ذلك أنه لما ﴿يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾؛ وإنما أسلمتم خوفاً أو رجاءاً أو نحو ذلك مما هو السبب في إيمانكم؛ فلذلك لم تدخلوا

رسوله، وأنهم قد بذلوا وتبرعوا بما ليس من مصالحهم بل هو من حظوظه الدنيوية، وهذا تجمل بما لا يجمل، وفخر بما لا ينبغي لهم الفخر به علي رسوله؛ فإن المنة لله تعالى عليهم؛ فكما أنه تعالى هو المان عليهم بالخلق والرزق والنعم الظاهرة والباطنة؛ فمته عليهم بهدايتهم إلى الإسلام ومته عليهم بالإيمان أعظم من كل شيء، ولهذا قال: ﴿يَمُنُونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمُنُوا عَلَيَّ إِسْلَمَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَيْتُكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (١٧) ❖

﴿١٨﴾ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ❖؛ أي: الأمور الخفية فيهما، التي تخفى على الخلق؛ كالذي في لجج البحار، ومهامه القفار، وما جنة الليل أو وراه النهار؛ يعلم قطرات الأمطار، وحبات الرمال، ومكونات الصدور، وخبايا الأمور، ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِنْ رَرَقَةٍ إِلَّا أَلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظِلْمَةٍ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَابِسٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ (٥٩) ❖ [الأنعام: ٥٩]. ﴿وَاللَّهُ بَصِيرٌ يَمَا تَعْمَلُونَ﴾ (١٨) ❖: يحصي عليكم أعمالكم ويوفيككم إياها، ويجازيكم عليها بما تقتضيه رحمته الواسعة وحكمته البالغة.

تم تفسير سورة الحجرات بعون الله ومنه وجوده وكرمه.
والحمد لله.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ ﴿١﴾ بَلْ يَجْعَلُونَ آيَاتِهِمْ مُنْذِرًا مِنْهُمْ فَقَالَ الْكَاذِبُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ ﴿٢﴾ أَوَإِذَا نَزَّلْنَاهُ مِنْكَ رَجْعٌ عَسِيبٌ ﴿٣﴾ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِيفٌ ﴿٤﴾ بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيعٍ ﴿٥﴾ أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ ﴿٦﴾ وَالْأَرْضِ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَواسِيَ وَأَشْبَقْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴿٧﴾ تَبْصِرَةٌ وَتَذَكُّرٌ لِكُلِّ عَبْدٍ مُتَبِينٍ ﴿٨﴾ وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ ﴿٩﴾ وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ ﴿١٠﴾ رِزْقًا لِلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ ﴿١١﴾ كَذَبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّيْسِ وَشُعُوبٌ أُخْرَى وَمَعَادُ فِرْعَوْنَ وَآخُونَ لَهُمْ لَوْ طَرَفَ الْأَيْتُكَ وَنُوحٌ وَقَوْمٌ مِمَّنْ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ﴿١٢﴾ أَفَعَيَّنَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٣﴾

﴿٥١٨﴾

تفسير سورة ق

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ﴾ (١) بَلْ يَجْعَلُونَ آيَاتِهِمْ مُنْذِرًا مِنْهُمْ فَقَالَ الْكَاذِبُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ ﴿٢﴾ أَوَإِذَا نَزَّلْنَاهُ مِنْكَ رَجْعٌ عَسِيبٌ ﴿٣﴾ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِيفٌ ﴿٤﴾

﴿٥﴾ بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيعٍ ﴿٦﴾ أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ ﴿٧﴾ وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ ﴿٨﴾ رِزْقًا لِلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ ﴿٩﴾ كَذَبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّيْسِ وَشُعُوبٌ أُخْرَى وَمَعَادُ فِرْعَوْنَ وَآخُونَ لَهُمْ لَوْ طَرَفَ الْأَيْتُكَ وَنُوحٌ وَقَوْمٌ مِمَّنْ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ﴿١٢﴾

﴿١٣﴾ أَفَعَيَّنَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٤﴾ وهذا موجب لكمال اتباعه وسرعة الانقياد له وشكر الله على المنة به، ولكن أكثر الناس لا يقدر نعم الله قدرها، ولهذا قال تعالى: ﴿بَلْ يَجْعَلُونَ آيَاتِهِمْ مُنْذِرًا مِنْهُمْ﴾ (١) ❖؛ أي: المكذبون للرسول ﷺ، ﴿أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ﴾ (١) ❖؛ أي: ينذرهم ما يضرهم ويأمرهم بما ينفعهم، وهو من جنسهم، يمكنهم التلقي عنه ومعرفة أحواله وصدقه، فتعجبوا من أمر لا ينبغي لهم التعجب منه، بل يتعجب من عقل من تعجب منه، ﴿فَقَالَ الْكَاذِبُونَ﴾ (١) ❖؛ أي: الذين حملهم كفرهم وتكذيبهم لا نقص بذكائهم وآرائهم: ﴿هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ﴾ (٢) ❖؛ أي: مستغرب.

إلى النظر في آياته الأفقية كي يعتبروا ويستدلوا بها على ما جعلت أدلة عليه، فقال: ﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ﴾؛ أي: لا يحتاج ذلك النظر إلى كلفة وشد رحل، بل هو في غاية السهولة، فينظرون ﴿كَيْفَ بَيَّنَّهَا﴾: قبة مستوية الأرجاء ثابتة البناء مزينة بالنجوم الخشن والجواري الكنس، التي ضربت من الأفق إلى الأفق في غاية الحسن والملاحة، لا ترى فيها عيباً ولا فروجاً ولا خللاً ولا إخلالاً، قد جعلها الله سقفاً لأهل الأرض، وأودع فيها من مصالحهم الضرورية ما أودع.

﴿٧﴾ وإلى الأرض كيف مددناها ووسعناها حتى أمكن كل حيوان السكون فيها والاستقرار والاستعداد لجميع مصالحه، وأرساها بالجبال، لتستقر من التزلزل والتموج. ﴿وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ (٧)؛ أي: من كل صنف من أصناف النبات التي تسر ناظرها، وتعجب مبصرها، وتقر عين راميها لأكل بني آدم وأكل بهائمهم ومنافعهم.

﴿٨﴾ - ﴿١١﴾ وخص من تلك المنافع بالذكر الجنات المشتملة على الفواكه اللذيذة من العنب والرمان والأترج والتفاح وغير ذلك من أصناف الفواكه، ومن النخيل الباسقات؛ أي: الطوال، التي يطول نفعها، وترتفع إلى السماء حتى تبلغ مبلغاً لا يبلغه كثير من الأشجار، فتخرج من الطلع النضيد في قنوانها ما هو رزق للعباد قوتاً وأدماً وفاكهة يأكلون منه ويدخرونهم ومواشيهم. وكذلك ما يخرج الله بالمطر، وما هو أثره من الأنهار التي على وجه الأرض والتي تحتها من حب ﴿الْحَصِيدِ﴾ (١١)؛ أي: من الزرع المحصود من بر وشعير وذرة وأرز ودخن وغيره؛ فإن في النظر في هذه الأشياء ﴿تَبْصِرَةً﴾: يتبصر بها من عمى الجهل، ﴿وَذِكْرٌ﴾: يتذكر بها ما ينفع في الدين والدنيا، ويتذكر بها ما أخبر الله به وأخبرت به رسله، وليس ذلك لكل أحد، بل ﴿لِكُلِّ عَبْدٍ مُتَّبِعٍ﴾ (١٢) إلى الله؛ أي: مقبل عليه بالحب والخوف والرجاء وإجابة داعيه، وأما المكذب أو المعرض؛ فما تغني الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون.

وحاصل هذا أن ما فيها من الخلق الباهر والقوة والشدة دليل على كمال قدرة الله تعالى، وما فيها من الحسن والإتقان وبديع الصنعة وبديع الخلقة دليل على أن الله أحكم الحاكمين، وأنه بكل شيء عليم، وما فيها من المنافع والمصالح للعباد دليل على رحمة الله التي وسعت كل

وهم في هذا الاستغراب بين أمرين: إما صادقون في استغرابهم وتعجبهم؛ فهذا يدل على غاية جهلهم وضعف عقولهم؛ بمنزلة المجنون الذي يستغرب كلام العاقل، وبمنزلة الجبان الذي يتعجب من لقاء الفارس للفرسان، وبمنزلة البخيل الذي يستغرب سخاء أهل السخاء؛ فأى ضرر يلحق من تعجب من هذه حاله؟! وهل تعجبه إلا دليل على زيادة جهله وظلمه؟! وإما أن يكونوا متعجبين على وجه يعلمون خطأهم فيه؛ فهذا من أعظم الظلم وأشنعه.

﴿١٢﴾ ثم ذكر وجه تعجبهم، فقال: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُ أُولَٰئِكَ رَجْعُ بَعِيدٍ﴾ (١٢)؛ فقاوسا قدرة من هو على كل شيء قدير الكامل من كل وجه، بقدرة العبد الفقير العاجز من جميع الوجوه! وقاوسا الجاهل الذي لا علم له، بمن هو بكل شيء عليم، الذي يعلم ﴿مَا تَخْفَى الْأَرْضُ﴾: من أجسادهم مدة مقامهم في البرزخ، وقد أحصى في كتابه الذي هو عنده - محفوظ عن التغير والتبدل - كل ما يجري عليهم في حياتهم ومماتهم. وهذا استدلال بكمال سعة علمه، التي لا يحيط بها إلا هو على قدرته على إحياء الموتى.

﴿١٣﴾ بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيجٍ (١٣).

﴿١٤﴾ أي: ﴿بَلْ﴾: كلامهم الذي صدر منهم إنما هو عناد وتكذيب للحق الذي هو أعلى أنواع الصدق. ﴿لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيجٍ﴾ (١٤)؛ أي: مختلط مشتبه، لا يثبتون على شيء، ولا يستقر لهم قرار، فتارة يقولون عنك: إنك ساحر! وتارة: مجنون! وتارة: شاعر! وكذلك جعلوا القرآن عضيض، كل قال فيه ما اقتضاه فيه رأيه الفاسد. وهكذا كل من كذب بالحق؛ فإنه في أمر مختلط، لا يدرى له وجهة ولا قرار، فترى أموره متناقضة متفككة؛ كما أن من اتبع الحق وصدق به قد استقام أمره واعتدل سبيله، وصدق فعله قبله.

﴿١٥﴾ أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَيَّنَّهَا وَزَيَّنَّهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ (١٥) وَالْأَرْضِ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ (١٦) تَبْصِرَةً وَذِكْرٌ لِكُلِّ عَبْدٍ مُتَّبِعٍ (١٧) وَزَوَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبْرَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ (١٨) وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ (١٩) رِزْقًا لِلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ (٢٠).

﴿٢١﴾ لما ذكر تعالى حالة المكذبين وما ذمهم به؛ دعاهم

أهون من الابتداء؛ كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧].

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعَلَهُ مَا تَوَسَّوسُ بِهِ نَفْسَهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ (١٦) إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾.

﴿١٦﴾ يخبر تعالى أنه المتفرد بخلق جنس الإنسان ذكورهم وإناثهم، وأنه يعلم أحواله وما يسره وتوسوس به نفسه، وأنه ﴿أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ (١٦) الذي هو أقرب شيء إلى الإنسان، وهو العرق المكتنف لثغرة النحر. وهذا مما يدعو الإنسان إلى مراقبة خالقه، المطلع على ضميره وباطنه، القريب إليه في جميع أحواله، فيستحي منه أن يراه حيث نهاه، أو يفقده حيث أمره.

﴿١٧﴾ وكذلك ينبغي له أن يجعل الملائكة الكرام الكاتبين منه على بال، فيجلهم ويوقرهم ويحذر أن يفعل أو يقول ما يكتب عنه مما لا يرضي رب العالمين، ولهذا قال: ﴿إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ﴾؛ أي: يتلقيان عن العبد أعماله كلها، واحد ﴿عَنِ الْيَمِينِ﴾ يكتب الحسنات، والآخر عن ﴿الشِّمَالِ﴾ يكتب السيئات، وكل منهما ﴿قَعِيدٌ﴾ ﴿١٧﴾ مقيد بذلك، متهيئ لعمله الذي أعد له، ملازم لذلك.

﴿١٨﴾ ﴿مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ﴾: خير أو شر ﴿إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ ﴿١٨﴾؛ أي: مراقب له، حاضر لحاله؛ كما قال تعالى: ﴿وَأَنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ﴾ ﴿١٧﴾ كِرَامًا كَاتِبِينَ ﴿١٨﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَقُولُونَ ﴿١٩﴾﴾ [الانفطار: ١٠-١٢].

﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾ (١٩) وَتَفِيعٌ فِي الْأُصُورِ ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ ﴿٢٠﴾ وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ ﴿٢١﴾ لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴿٢٢﴾.

﴿١٩﴾ أي: ﴿وَجَاءَتْ﴾ هذا الغافل المكذب بآيات الله، ﴿سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ﴾: الذي لا مرد له ولا مناص. ﴿ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾ (١٩)؛ أي: تتأخر وتنكص عنه.

﴿٢٠﴾ وَتَفِيعٌ فِي الْأُصُورِ ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ ﴿٢٠﴾؛ أي: اليوم الذي يلحق الظالمين ما أوعدهم الله به من العقاب والمؤمنين ما وعدهم به من الثواب.

شيء، وجوده الذي عم كل حي، وما فيها من عظمة الخلقة وبديع النظام دليل على أن الله تعالى هو الواحد الأحد الفرد الصمد الذي لم يتخذ صاحبة ولا ولدًا، ولم يكن له كفواً أحد، وأنه الذي لا تنبغي العبادة والذل والحب إلا له، وما فيها من إحياء الأرض بعد موتها دليل على إحياء الله الموتى ليجازيهم بأعمالهم، ولهذا قال: ﴿وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيِّتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ﴾ (٢١).

ولما ذكرهم بهذه الآيات السماوية والأرضية؛ خوفهم أخذات الأمم، وألا يستمروا على ما هم عليه من التكذيب، فيصيهم ما أصاب إخوانهم من المكذبين، فقال:

﴿كَذَبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّيِّسِ وَثَمُودُ﴾ (٢٢) وَعَادُ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ ﴿٢٣﴾ وَأَصْحَابُ الْآيَةِ وَقَوْمُ ثَجَّ كُلِّ كَذَبٍ الرَّسُلُ حَقٌّ وَعِيدٌ ﴿٢٤﴾ أَفَعَيَّنَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿٢٥﴾.

﴿٢٢﴾ - ﴿٢٥﴾ أي: كذب الذين من قبلهم من الأمم رسلهم الكرام وأنبياءهم العظام؛ كنوح كذبه قومه، وثمود كذبوا صالحًا، وعاد كذبوا هودًا، وإخوان لوط كذبوا لوطًا، وأصحاب الأيكة كذبوا شعيبًا، وقوم تبع - وتبع كل ملك ملك اليمن في الزمان السابق قبل الإسلام - فقوم تبع كذبوا الرسول الذي أرسله الله إليهم، ولم يخبرنا الله من هو ذلك الرسول، وأي تبع من التبابعة؛ لأنه - والله أعلم - كان مشهورًا عند العرب العرباء، الذين لا تخفى ماجرياتهم على العرب، خصوصًا مثل هذه الحادثة العظيمة؛ فهؤلاء كلهم كذبوا الرسل الذين أرسلهم الله إليهم، فحق عليهم وعيد الله وعقوبته، ولستم أيها المكذبون لمحمد ﷺ خيرًا منهم، ولا رسلهم أكرم على الله من رسولكم؛ فاحذروا جرمهم؛ لئلا يصيبكم ما أصابهم.

﴿٢٥﴾ ثم استدلت تعالى بالخلق الأول - وهو النشأة الأولى - على الخلق الآخر - وهو النشأة الآخرة؛ فكما أنه الذي أوجدتهم بعد العدم؛ كذلك يعيدهم بعد موتهم وصيروتهم إلى الرفات والرّم، فقال: ﴿أَفَعَيَّنَا﴾؛ أي: أفعجزنا وضعفت قدرتنا ﴿بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ﴾: ليس الأمر كذلك، فلم نعجز ونعي عن ذلك، وليسوا في شك من ذلك، وإنما ﴿هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ (٢٥)؛ هذا الذي شكوا فيه والتبس عليهم أمره، مع أنه لا محل للبس فيه؛ لأن الإعادة

﴿٢١﴾ وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ: يسوقها إلى موقف القيامة؛ فلا يمكنها أن تتأخر عنه، ﴿وَسَهِيدٌ﴾: يشهد عليها بأعمالها؛ خيرها وشرها. وهذا يدل على اعتناء الله بالعباد، وحفظه لأعمالهم، ومجازاته لهم بالعدل.

﴿٢٢﴾ فهذا الأمر مما يجب أن يجعله العبد منه على بال، ولكن أكثر الناس غافلون، ولهذا قال: ﴿لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا﴾؛ أي: يقال للمعرض المكذب يوم القيامة هذا الكلام توبيخاً ولو ما وتعتيهاً؛ أي: لقد كنت مكذباً بهذا تاركاً للعمل له. فالآن كشفنا ﴿عَنْكَ غِطَاءَكَ﴾: الذي غطى قلبك فكشرك نومك واستمر إعراضك، ﴿بَصْرَكَ الْيَوْمَ حَرِيدٌ﴾: ينظر ما يزعجه ويروعه من أنواع العذاب والنكال، أو هذا خطاب من الله للعبد؛ فإنه في الدنيا في غفلة عما خلق له، ولكنه يوم القيامة يتنبه ويزول عنه وسنه في وقت لا يمكنه أن يتدارك الفارط ولا يستدرك الفائت. وهذا كله تخويف من الله للعباد، وترهيب بذكر ما يكون على المكذبين في ذلك اليوم العظيم.

﴿وَقَالَ فِيْنَهُ هَذَا مَا لَدَى عَيْنِدْ﴾ ﴿٢٣﴾ أَلَيْفَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَيْنِدْ ﴿٢٤﴾ مَنَاجٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَرٍ مُّرِيبٍ ﴿٢٥﴾ الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهَهَا ءَاخِرَ قَالِقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ ﴿٢٦﴾ قَالَ فِيْنَهُ رَبَّنَا مَا أَطَقْنَاهُ وَلَكِنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ ﴿٢٧﴾ قَالَ لَا تَخْصِمُوا لَدَى وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِالْوَعِيدِ ﴿٢٨﴾ مَا يُبَدِّلُ الْقَوْلَ لَدَى وَمَا أَنَا بِظَالِمٍ لِلْعَبِيدِ ﴿٢٩﴾.

وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعَلَهُ مَا تَوَسَّوْش بِهِ نَفْسَهُ، وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴿٢١﴾ إِذْ يَتَلَفَّى الصَّافِقِينَ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَلِيدٌ ﴿٢٢﴾ مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَيْنِدْ ﴿٢٣﴾ وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴿٢٤﴾ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمَ الْوَعِيدِ ﴿٢٥﴾ وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ ﴿٢٦﴾ لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَرِيدٌ ﴿٢٧﴾ وَقَالَ فِيْنَهُ هَذَا مَا لَدَى عَيْنِدْ ﴿٢٨﴾ أَلَيْفَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَيْنِدْ ﴿٢٩﴾ مَنَاجٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَرٍ مُّرِيبٍ ﴿٣٠﴾ الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهَهَا ءَاخِرَ قَالِقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ ﴿٣١﴾ قَالَ فِيْنَهُ رَبَّنَا مَا أَطَقْنَاهُ وَلَكِنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ ﴿٣٢﴾ قَالَ لَا تَخْصِمُوا لَدَى وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِالْوَعِيدِ ﴿٣٣﴾ مَا يُبَدِّلُ الْقَوْلَ لَدَى وَمَا أَنَا بِظَالِمٍ لِلْعَبِيدِ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأَتْ وَنَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ ﴿٣٥﴾ وَأَزَلَفْتُ الْجَنَّةَ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿٣٦﴾ هَذَا مَا تُوْعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيفٍ ﴿٣٧﴾ مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ الْعَلِيمَ بِالْعَبِيدِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ ﴿٣٨﴾ ادْخُلُوا هَذَا يَوْمَ لَا يَكُونُ لَكُم مَّا يُشَاكُوْنَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴿٣٩﴾

٥١٩

﴿٢٣﴾ يقول تعالى: ﴿وَقَالَ فِيْنَهُ﴾؛ أي: قرين هذا المكذب المعرض من الملائكة، الذين وكلهم الله على حفظه وحفظ أعماله، فيحضره يوم القيامة، ويحضر أعماله، ويقول: ﴿هَذَا مَا لَدَى عَيْنِدْ﴾؛ أي: قد أحضرت ما جعلت عليه من حفظه وحفظ عمله.

﴿٢٤﴾ فيجازى بعمله، ويقال لمن استحق النار: ﴿أَلَيْفَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَيْنِدْ﴾؛ أي: كثير الكفر والعناد لأيات الله، الكثير من المعاصي، المتجرئ على المحارم والمآثم.

﴿٢٥﴾ مَنَاجٍ لِلْخَيْرِ؛ أي: يمنع الخير الذي قبَّله، الذي أعظمه الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله، منافع لثمنه وبيدنه، ﴿مُعْتَرٍ﴾: على عباد الله وعلى حدوده، أئيم، أي: كثير الإثم، ﴿مُرِيبٍ﴾؛ أي: شاك في وعد الله ووعيده؛ فلا إيمان ولا إحسان، ولكن وصفه الكفر والعدوان والشك والريب والشح واتخاذ الآلهة من دون الرحمن.

﴿٢٦﴾ ولهذا قال: ﴿الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهَهَا ءَاخِرَ﴾؛ أي: عبد معه غيره ممن لا يملك لنفسه ضرراً ولا نفعاً ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً، ﴿قَالِقِيَاهُ﴾: أيها الملكان القرينان ﴿فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ﴾: الذي هو معظمها وأشدّها وأشنعها.

﴿٢٧﴾ قَالَ فِيْنَهُ: الشيطان متبرئاً منه حاملاً عليه إثمه: ﴿رَبَّنَا مَا أَطَقْنَاهُ﴾: لأنني لم يكن لي عليه سلطان ولا حجة ولا برهان، ﴿وَلَكِنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾: فهو الذي ضل وبعد عن الحق باختياريه؛ كما قال في الآية الأخرى: ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ﴾ [إبراهيم: ٢٢]. الآية.

﴿٢٨﴾ قال الله تعالى مجيباً لاختصاصهم: ﴿لَا تَخْصِمُوا لَدَى﴾؛ أي: لا فائدة في اختصاصكم عندي، والحال أنني قد ﴿قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِالْوَعِيدِ﴾؛ أي: جاءكم رسلي بالآيات والبيّنات والحجج الواضحات والبراهين الساطعات، فقامت عليكم حجتي

وانقطعت حجّتكم، وقد متم إليّ بما أسلفتم من الأعمال التي وجب جزاؤها.

﴿١٩﴾ مَا يَبْدَأُ الْقَوْلَ لَدَيَّ؛ أَي: لا يمكن أن يخلف ما قاله الله وأخبر به؛ لأنه لا أصدق من الله قيلاً، ولا أصدق حديثاً. ﴿٢٠﴾ وَمَا أَنَا بِظَالِمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٢١﴾: بل أجزئهم بما عملوا من خير وشر؛ فلا يزداد في سيئاتهم، ولا ينقص من حسناتهم.

﴿٢٢﴾ يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأَتْ وَنَقُولُ هَلْ مِنْ مَّزِيدٍ ﴿٢٣﴾ وَأَزْلَفَتْ الْجَنَّةُ لِلنَّارِ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿٢٤﴾ هَذَا مَا توعّدون لكلّ أوّابٍ حفيظٍ ﴿٢٥﴾ مَن خَشِيَ الرَّحْمَنَ الْغَنِيِّ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴿٢٦﴾ ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ ﴿٢٧﴾ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴿٢٨﴾.

﴿٢٩﴾ يقول تعالى مخوفاً لعباده: ﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأَتْ﴾: وذلك من كثرة ما ألقى فيها، ﴿وَنَقُولُ هَلْ مِنْ مَّزِيدٍ﴾: أَي: لا تزال تطلب الزيادة من المجرمين العاصين؛ غضباً لربها، وغيطاً على الكافرين، وقد وعدّها الله ملاها؛ كما قال تعالى: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [هود: ١١٩]: حتى يضع رب العزة عليها قدمه الكريمة المنزهة عن التشبيه، فيزوي بعضها على بعض، وتقول: قط، قط؛ قد اكثفتم وامتلات.

﴿٣٠﴾ وَأَزْلَفَتْ الْجَنَّةُ؛ أَي: قربت بحيث تشاهد وينظر ما فيها من النعيم المقيم والحبرة والسرور، وإنما أزلفت وقربت لأجل المتقين لربهم، التاركين للشرك كبيره وصغيره، الممتثلين لأوامر ربهم، المنقادين له.

﴿٣١﴾ ويقال لهم على وجه التهنية: ﴿هَذَا مَا توعّدون لكلّ أوّابٍ حفيظٍ﴾: أَي: هذه الجنة وما فيها مما تشبهه الأنفس وتلد الأعين هي التي وعد الله كل أوّاب؛ أَي: رجع إلى الله في جميع الأوقات؛ بذكره وحبه والاستعانة به ودعائه وخوفه ورجائه. ﴿حفيظٍ﴾: أَي: محافظ على ما أمر الله به؛ بامتثاله على وجه الإخلاص والإكمال له على أتم الوجوه، حفيظ لحدوده.

﴿٣٢﴾ مَن خَشِيَ الرَّحْمَنَ؛ أَي: خافه على وجه المعرفة بربه والرجاء لرحمته، ولازم على خشية الله في حال غيبه؛ أَي: مغيبه عن أعين الناس. وهذه الخشية الحقيقية، وأما خشيته في حال نظر الناس وحضورهم؛ فقد يكون رياء وسمعة؛ فلا يدل على الخشية، وإنما الخشية النافعة خشيته في الغيب والشهادة، ويحتمل أن المراد بخشية الله بالغيب، كالمراد

بالإيمان بالغيب. وأن هذا مقابل للشهادة حيث يكون الإيمان والخشية ضروريّاً لا اختياريّاً حيث يعاين العذاب، وتأتي آيات الله وهذا هو الظاهر. ﴿وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ﴾ ﴿٣٣﴾؛ أَي: وصفه الإنابة إلى مولاه، وانجذاب دواعيه إلى مرضاه. ﴿٣٤﴾ ويقال لهؤلاء الأتقياء الأبرار: ﴿ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ﴾؛ أَي: دخولاً مقروناً بالسلامة من الآفات والسرور، مأموناً فيه جميع مكاره الأمور؛ فلا انقطاع لتعيمهم ولا كدر ولا تنغيص. ﴿ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ﴾: الذي لا زوال له ولا موت ولا شيء من المكدرات.

﴿٣٥﴾ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا؛ أَي: كل ما تعلقت به مشيتهم؛ فهو حاصل فيها، ﴿وَلَدَيْنَا﴾: فوق ذلك ﴿مَزِيدٌ﴾ ﴿٣٦﴾؛ أَي: ثواب يمدّهم به الرحمن الرحيم، مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، وأعظم ذلك وأجله وأفضله النظر إلى وجهه الكريم، والتمتع بسماع كلامه، والتمعن بقربه، ففسأله من فضله.

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُمْ بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ هَلْ مِنْ مَّخِصٍ﴾ ﴿٣٧﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرٍ لِّمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٨﴾.

﴿٣٩﴾ يقول تعالى مخوفاً للمشركين المكذابين للرسول: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِّن قَرْنٍ﴾؛ أَي: أمماً كثيرة ﴿هُم أَشَدُّ مِنْهُمْ بَطْشًا﴾؛ أَي: قوة وآثاراً في الأرض، ولهذا قال: ﴿فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ﴾؛ أَي: بنوا الحصون المنيعة والمنازل الرفيعة، وغرسوا الأشجار، وأجروا الأنهار، وزرعوا، وعمروا، ودمروا، فلما كذبوا رسل الله وجحدوا آياته؛ أخذهم الله بالعقاب الأليم والعذاب الشديد. ﴿هَلْ مِنْ مَّخِصٍ﴾ ﴿٤٠﴾؛ أَي: لا مفر لهم من عذاب الله حين نزل بهم ولا منقذ، فلم تغن عنهم قوتهم ولا أموالهم ولا أولادهم.

﴿٤١﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرٍ لِّمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ؛ أَي: قلب عظيم حي ذكي زكي؛ فهذا إذا ورد عليه شيء من آيات الله؛ تذكر بها وارتفع فارتفع، وكذلك من ألقى سمعه إلى آيات الله واستمعها استماعاً يسترشد به وقلبه ﴿شَهِيدٌ﴾ ﴿٤٢﴾؛ أَي: حاضر؛ فهذا أيضاً له ذكرى وموعظة وشفاء وهدى، وأما المعرض الذي لم يصغ سمعه إلى الآيات؛ فهذا لا نفيده شيئاً؛ لأنه لا قبول عنده، ولا تقتضي حكمة الله هداية من هذا نعت.

سورة ق

سورة القدر والبر

وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُمْ بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي
الِالْبَدَنِ هَلْ مِنْ مَحْمِيصٍ ﴿٣٨﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِمَنْ كَانَ
لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٩﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا

السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا
مِنْ لُغُوبٍ ﴿٣٨﴾ فَأَصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ
قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ ﴿٣٩﴾ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ
وَادْبِرْ الشُّجُورِ ﴿٤٠﴾ وَأَسْمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ
﴿٤١﴾ يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ ﴿٤٢﴾ إِنَّا
نَحْنُ نَحْيِي وَيُثَبِّتُ وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ ﴿٤٣﴾ يَوْمَ نَشَقُّ الْأَرْضَ
عَنَّهُمْ سِرَاعًا ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ﴿٤٤﴾ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ
وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ فَذَكَرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ ﴿٤٥﴾

سورة القدر والبر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالَّذِينَ ذَرَوْا ﴿١﴾ فَأَلْحَقْنَا بِهِمْ قُرْآنًا ﴿٢﴾ فَالْحَرِيتُ بِسَرَاةٍ ﴿٣﴾
فَالْمَقْدَرُ أَمْرًا ﴿٤﴾ إِنَّمَا تَوَعَّدُونَ لِصَادِقٍ ﴿٥﴾ وَإِنَّا إِلَيْنَا لَوَائِقٌ ﴿٦﴾

٥٢٠

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ
أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ ﴾ ﴿٣٨﴾ فَأَصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ
وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ ﴿٣٩﴾
وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَادْبِرْ الشُّجُورِ ﴿٤٠﴾.

﴿٣٨﴾ وهذا إخبار منه تعالى عن قدرته العظيمة ومشيبته
النافذة، التي أوجد بها أعظم المخلوقات؛ ﴿السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ
وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾: أولها يوم الأحد، وآخرها يوم
الجمعة؛ من غير تعب ولا نصب ولا لغوب ولا إعياء؛ فالذي
أوجدها على كبرها وعظمتها قادر على إحياء الموتى من باب
أولى وأحرى.

﴿٣٩﴾ ﴿فَأَصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ﴾: من الذم لك والتكذيب
بما جئت به، واشتغل عنهم وآلة بطاعة ربك وتسيبته أول
النهار وآخره وفي أوقات الليل وأدبار الصلوات؛ فإن ذكر الله
تعالى مسلٌ للنفس مؤنس لها مهون للصبر.

﴿وَأَسْمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ﴾ ﴿٤١﴾ يَوْمَ يَسْمَعُونَ
الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ ﴿٤٢﴾ إِنَّا نَحْنُ نَحْيِي وَيُثَبِّتُ
وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ ﴿٤٣﴾ يَوْمَ نَشَقُّ الْأَرْضَ عَنَّهُمْ سِرَاعًا ذَلِكَ
حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ﴿٤٤﴾ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنْتَ
عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ فَذَكَرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ ﴿٤٥﴾.

﴿٤١﴾ أي: ﴿وَأَسْمِعْ﴾: بقلبك نداء المنادي، وهو إسرافيل عليه السلام، حين ينفخ في الصور ﴿مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ﴾ ﴿٤١﴾: من الخلق.

﴿٤٢﴾ يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ﴾: أي: كل الخلائق يسمعون تلك ﴿الصَّيْحَةَ﴾: المزعجة المهولة ﴿بِالْحَقِّ﴾: الذي لا شك
فيه ولا امتراء. ﴿ذَلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ﴾ ﴿٤٢﴾: من القبور، الذي انفرده القادر على كل شيء.

﴿٤٣﴾، ﴿٤٤﴾ ولهذا قال: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَحْيِي وَيُثَبِّتُ وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ﴾ ﴿٤٣﴾ يَوْمَ نَشَقُّ الْأَرْضَ عَنَّهُمْ﴾؛ أي: عن الأموات ﴿سِرَاعًا﴾؛
أي: يسرعون لإجابة الداعي لهم إلى موقف القيامة. ﴿ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ﴾ ﴿٤٤﴾؛ أي: سهل على الله، لا تعب فيه ولا
كلفة.

﴿٤٥﴾ ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ﴾: لك مما يحزنك من الأذى، وإذا كنا أعلم بذلك؛ فقد علمت كيف اعتناؤنا بك وتيسيرنا
لأمورك ونصرنا لك على أعدائك؛ فليفرح قلبك، ولتطمئن نفسك، ولتعلم أننا أرحم بك وأرأف من نفسك، فلم يبق لك إلا
انتظار وعد الله والتأسي بأولي العزم من رسل الله، ﴿وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ﴾؛ أي: مسلط عليهم، ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ وَكُلُّ قَوْمٍ
هَادٍ﴾ [الرعد: ٧]، ولهذا قال: ﴿فَذَكَرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ﴾ ﴿٤٥﴾، والتذكير هو تذكير ما تقرر في العقول والفطر من
محبة الخير وإيثاره وفعله ومن بغض الشر ومجانبته، وإنما يتذكر بالتذكير من يخاف وعيد الله، وأما من لم يخف الوعيد ولم
يؤمن به؛ فهذا فائدة تذكيره إقامة الحجة عليه لئلا يقول: ما جاءنا من بشير ولا نذير.

آخر تفسير سورة ق. والحمد لله أولاً وآخراً وظاهراً وباطناً

تفسير سورة الذاريات

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالذَّارِيْنَ ذَرَوْا ۚ ﴿١﴾ فَلَمْ يَلَمَّوْا ۖ وَفَرَّ ﴿٢﴾ فَلَمْ يَرْجِعْ
يُسْرًا ۚ ﴿٣﴾ فَلَمْ يَمْسَسْ أَمْرًا ۚ ﴿٤﴾ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ﴿٥﴾ وَلِلَّهِ
لَوْحٌ ﴿٦﴾ ۝﴾

﴿١﴾ - ﴿٦﴾ هذا قسم من الله الصادق في قلبه بهذه المخلوقات العظيمة، التي جعل الله فيها من المصالح والمنافع ما جعل، على أن وعده صادق، وأن الدين الذي هو يوم الجزاء والمحاسبة على الأعمال واقع لا محالة، ما له من دافع. فإذا أخبر به الصادق العظيم، وأقسم عليه، وأقام الأدلة والبراهين عليه؛ فلم يكذب به المكذبون، ويعرض عن العمل له العاملون؟ ﴿١﴾ وَالذَّارِيْنَ ﴿٢﴾ هي الرياح التي تذر في هبوبها ﴿١﴾ ذَرَوْا ﴿٢﴾ بليتها ولطفها وقوتها وإزعاجها، ﴿٢﴾ فَلَمْ يَلَمَّوْا ۖ وَفَرَّ ﴿٢﴾ هي السحاب، تحمل الماء الكثير، الذي ينفع الله به العباد والبلاد، ﴿٢﴾ فَلَمْ يَرْجِعْ يُسْرًا ﴿٣﴾ النجوم التي تجري على وجه اليسر والسهولة، فتزين بها السماوات، ويهتدى بها في ظلمات البر والبحر، وينتفع بالاعتبار بها، والمقسمات ﴿٤﴾ أَمْرًا ﴿٤﴾ الملائكة التي تقسم الأمر وتدبره بإذن الله؛ فكل منهم قد جعله الله على تدبير أمر من أمور الدنيا والآخرة لا يتعدى ما حد له وقدر ورسم، ولا ينقص منه.

﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُوبِ ﴿٧﴾ إِنَّكَ لَفِي قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ ﴿٨﴾ يُؤَفِّكُ عَنْهُ مَنَ أُولَٰئِكَ ۝﴾

﴿٧﴾ أي: ﴿وَالسَّمَاءِ﴾ ذات الطرائق الحسنة، التي تشبه حبك الرمال ومياه الغدران حين يحركها النسيم.

﴿٨﴾ إِنَّكُمْ ﴿٨﴾ أيها المكذبون لمحمد ﷺ، ﴿لَفِي قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ ﴿٨﴾﴾ منكم من يقول: ساحرا! ومنكم من يقول: كاهن! ومنكم من يقول: مجنون! إلى غير ذلك من الأقوال المختلفة الدالة على حيرتهم وشكهم، وأن ما هم عليه باطل.

﴿٩﴾ يُؤَفِّكُ عَنْهُ مَنَ أُولَٰئِكَ ﴿٩﴾ أي: يصرف عنه من صرف عن الإيمان وانصرف قلبه عن أدلة الله اليقينية وبراهينه. واختلاف قولهم دليل على فسادهم وبطلانهم؛ كما أن الحق

الذي جاء به محمد ﷺ متفق؛ يصدق بعضه بعضا، لا تناقض فيه ولا اختلاف، وذلك دليل على صحته، وأنه من عند الله؛ فلو كان من عند غير الله؛ لوجدوا فيه اختلافا كثيرا.

﴿قُلِ الْخَرَصُونَ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي عَمَرِهِ سَاهَوْنَ ﴿١١﴾ يَسْتَلُونَ أَيَّانَ يَوْمَ الَّذِينَ يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُقْنُونَ ﴿١٢﴾ دُوقُوا ۚ ﴿١٣﴾ فَنَنْتَكِرُ هَذَا الَّذِي كُنتُمْ بِهِ سَتَعْمَلُونَ ۝﴾

﴿١٠﴾ يقول تعالى: ﴿قُلِ الْخَرَصُونَ ﴿١٠﴾﴾ أي: قاتل الله الذين كذبوا على الله، وجحدوا آياته، وخاضوا بالباطل ليدحضوا به الحق، الذين يقولون على الله ما لا يعلمون.

﴿١١﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي عَمَرِهِ ﴿١١﴾ أي: في لجة من الكفر والجهل والضلال، ﴿سَاهَوْنَ ﴿١١﴾﴾.

﴿١٢﴾ يَسْتَلُونَ ﴿١٢﴾ على وجه الشك والتكذيب: ﴿أَيَّانَ يَوْمَ الَّذِينَ ﴿١٢﴾﴾: يبعثون؛ أي: متى يبعثون؟ مستبشرين لذلك!

﴿١٣﴾، ﴿١٤﴾ فلا تسأل عن حالهم وسوء ما لهم! ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُقْنُونَ ﴿١٣﴾﴾ أي: يعذبون بسبب ما انطوا عليه من خبث الباطن والظاهر، ويقال لهم: ﴿دُوقُوا ۚ فَنَنْتَكِرُ ﴿١٣﴾﴾ أي: العذاب والنار، الذي هو أثر ما افستوا به من الابتلاء، الذي صيرهم إلى الكفر والضلال. ﴿هَذَا ﴿١٣﴾﴾ العذاب الذي وصلت إليه هو ﴿الَّذِي كُنتُمْ بِهِ سَتَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾﴾: فالآن تمتعوا بأنواع العقاب والنكال، والسلاسل والأغلال، والسخط والوبال.

﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي جَنَّتِ وَعُيُونِ ﴿١٥﴾ أَخَذِينَ مَا آتَاهُمْ مِنْهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي ذَلِكَ يَٰحْسِنِينَ ﴿١٦﴾ كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ الْآتِلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَإِلَّا لَأَسْخَرَهُمْ بِسْتَعْفِرُونَ ﴿١٨﴾ وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلْأَسَاكِلِ وَالْمَحْرُورِ ﴿١٩﴾﴾.

﴿١٥﴾ يقول تعالى في ذكر ثواب المتقين وأعمالهم التي وصلوا بها إلى ذلك الجزاء: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ ﴿١٥﴾﴾ الذين كانت التقوى شعارهم وطاعة الله دثارهم، ﴿فِي جَنَّتِ ﴿١٥﴾﴾ مشتملات على جميع أصناف الأشجار والفواكه، التي يوجد لها نظير في الدنيا، والتي لا يوجد لها نظير، مما لم تنظر العيون إلى مثله، ولم تسمع الآذان، ولم يخطر على قلب بشر، ﴿وَعُيُونِ ﴿١٥﴾﴾: سارحة تشرب منها تلك البساتين، ويشرب بها عباد الله يفجرونها تفجييرا.

وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُوبِ ﴿٧﴾ إِنَّا كُنَّا لَنَاقِلُهُ فِي غَمَرٍ خَفِيفٍ ﴿٨﴾ يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ ﴿٩﴾ قُلِ الْخَرَصُونَ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي غَمَرٍ وَسَّاهُونَ ﴿١١﴾ يَسْتَلُونَ أَيَّانَ يَوْمَ الدِّينِ ﴿١٢﴾ يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُقْنَنُونَ ﴿١٣﴾ ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ هَذَا الَّذِي كُنتُمْ بِهِ تُسْتَعْتَلُونَ ﴿١٤﴾ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾ ءَاخِذِينَ مَاءً ثَمَرَهُمْ رَبُّهُمْ بِهِمْ كَانُوا قِيلَ ذَلِكَ لِمُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾ كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَلَا يَأْتِيهِمُ الْخُصْفُ هُمْ يُسْتَغْفَرُونَ ﴿١٨﴾ وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴿١٩﴾ وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾ وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾ قُورِبَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ يِّنْثَلُ مَا أَنْتُمْ نَاطِقُونَ ﴿٢٣﴾ هَلْ أَنْتَ حَدِيثٌ حَفِيصٌ يُرْسِلُهمُ الْمَكُورِينَ ﴿٢٤﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُّشْكُرُونَ ﴿٢٥﴾ فَرَأَى إِلَهُهُ فَجَاءَ بِعَبْلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾ فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٢٧﴾ فَأَرْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشِّرُوهُ بِنُعْمٍ عَلَيْهِ ﴿٢٨﴾ فَأَقْبَلَ أَمْرَاتَهُ فِي صَرَفٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴿٢٩﴾ قَالُوا كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ ﴿٣٠﴾

﴿١٦﴾ ءَاخِذِينَ مَاءً ثَمَرَهُمْ رَبُّهُمْ ﴿١٦﴾: يحتمل أن المعنى أن أهل الجنة قد أعطاهم مولاهم جميع مناهم من جميع أصناف النعيم، فأخذوا ذلك راضين به، قد قرت به أعينهم، وفرحت به نفوسهم، ولم يطلبوا منه بدلًا، ولا ييغون عنه حولًا، وكل قد ناله من النعيم ما لا يطلب عليه المزيد. ويحتمل أن هذا وصف المتقين في الدنيا، وأنهم آخذون ما آتاهم الله من الأوامر والنواهي؛ أي: قد تلقوها بالرحب وانشرح الصدر، متقادين لما أمر الله به بالامتثال على أكمل الوجوه، ولما نهى عنه بالانزجار عنه لله على أكمل وجه؛ فإن الذي أعطاهم الله من الأوامر والنواهي هو أفضل العطايا التي حقها أن تتلقى بالشكر لله عليها والانتقاد.

والمعنى الأول ألصق بسياق الكلام؛ لأنه ذكر وصفهم في الدنيا وأعمالهم بقوله: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ﴾: الوقت الذي وصلوا به إلى النعيم ﴿مُحْسِنِينَ﴾ ﴿١٦﴾: وهذا شامل لإحسانهم بعبادة ربهم؛ بأن يعبدوه كأنهم يرونه؛ فإن لم يكونوا يرونه؛ فإنه يراهم، وللإحسان إلى عباد الله ببذل النفع والإحسان من مال أو علم أو جاه أو نصيحة أو أمر بمعروف أو نهى عن منكر، أو غير ذلك من وجوه الإحسان وطرق الخيرات، حتى إنه يدخل في ذلك الإحسان بالقول والكلام اللين والإحسان إلى الممالك والبهاائم المملوكة وغير المملوكة.

﴿١٧﴾ وَمِنْ أَفْضَلِ أَنْوَاعِ الْإِحْسَانِ فِي عِبَادَةِ الْخَالِقِ صَلَاةُ اللَّيْلِ الدَّالَّةُ عَلَى الْإِحْلَاصِ وَتَوَاطُّؤِ الْقَلْبِ وَاللِّسَانِ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿كَانُوا﴾؛ أي: المحسنون، ﴿قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ﴾ ﴿١٧﴾؛ أي: كان هجوعهم؛ أي: نومهم بالليل قليلًا، وأما أكثر الليل؛ فإنهم قانتون لربهم، ما بين صلاة وقراءة وذكر ودعاء وتضرع.

﴿١٨﴾ وَلَا يَأْتِيهِمُ الْخُصْفُ ﴿١٨﴾: التي هي قبيل الفجر، ﴿هُمْ يُسْتَغْفَرُونَ﴾ ﴿١٨﴾: الله تعالى، فمدوا صلاتهم إلى السحر، ثم جلسوا في خاتمة قيامهم بالليل يستغفرون الله تعالى استغفار المذنب لذنبه. وللاستغفار بالأسحار فضيلة وخصيصة ليست لغيره؛ كما قال تعالى في وصف أهل الإيمان والطاعة: ﴿وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ﴾ ﴿١٧﴾ ﴿آل عمران: ١٧﴾.

﴿١٩﴾ وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١٩﴾: واجب ومستحب ﴿لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾ ﴿١٩﴾؛ أي: للمحتاجين الذين يطلبون من الناس والذين لا يسألونهم.

﴿٢٠﴾ وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾ وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾ قُورِبَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ يِّنْثَلُ مَا أَنْتُمْ نَاطِقُونَ ﴿٢٣﴾.

﴿٢٠﴾ يَقُولُ تَعَالَى دَاعِيًا عِبَادَهُ إِلَى التَّفَكُّرِ وَالْإِعْتِبَارِ: ﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾ ﴿٢٠﴾: وذلك شامل لنفس الأرض وما فيها من جبال وبحار وأنهار وأشجار ونبات تدل المتفكر فيها، المتأمل لمعانيها على عظمة خالقها وسعة سلطانه وعميم إحسانه وإحاطة علمه بالظواهر والبواطن.

﴿٢١﴾ وَكَذَلِكَ فِي نَفْسِ الْعَبْدِ مِنَ الْعِبَرِ وَالْحِكْمَةِ وَالرَّحْمَةِ مَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ اللَّهَ وَحْدَهُ الْأَحَدُ الْفَرْدُ الصَّمَدُ، وَأَنَّهُ لَمْ يَخْلُقْ الْخَلْقُ سُدًى.

﴿٢٢﴾ وقوله: ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ﴾؛ أي: مادة رزقكم من الأمطار وصنوف الأقدار؛ الرزق الديني والدنيوي، وما توعدون به من الجزاء في الدنيا والآخرة؛ فإنه ينزل من عند الله كسائر الأقدار.

﴿٢٣﴾ فلما بين الآيات ونبه عليها تنبيهًا يتنبه به الذكي اللبيب؛ أقسم تعالى على أن وعده وجزاءه حق، وشبه ذلك بأظهر الأشياء لنا، وهو النطق، فقال: ﴿فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطُقُونَ﴾ ﴿٢٣﴾؛ فكما أنكم لا تشكون في نطقكم؛ فكذلك ينبغي ألا يعتربكم الشك في البعث والجزاء.

﴿٢٤﴾ هَلْ أَنْتَ حَدِيثُ صَافٍ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِ ﴿٢٤﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ ﴿٢٥﴾ فَرَاغَ إِلَهُ أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾ فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٢٧﴾ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ فَأَقْبَلَتْ امْرَأَتُهُ فِي صَرَرٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴿٢٩﴾ قَالُوا كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ ﴿٣٠﴾ قَالَ فَاحْطَبْكُمُ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿٣١﴾ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَيْكُمْ بِخَبَرٍ مُتَّبِعٍ ﴿٣٢﴾ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ جِبَارَةً مِنْ طِينٍ ﴿٣٣﴾ مُسَوِّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ﴿٣٤﴾ فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٣٦﴾ وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٣٧﴾

﴿٢٤﴾ يقول تعالى: ﴿هَلْ أَنْتَ﴾؛ أي: أما جاءك؟ ﴿حَدِيثُ صَافٍ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِ﴾ ﴿٢٤﴾: ونبؤهم الغريب العجيب، وهم الملائكة الذين أرسلهم الله لإهلاك قوم لوط، وأمرهم بالمرور على إبراهيم، فجاءوه في صورة أضياف.

﴿٢٥﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ ﴿٢٥﴾: مجيبًا لهم: ﴿سَلَامٌ﴾؛ أي: عليكم، ﴿قَوْمٌ مُنْكَرُونَ﴾ ﴿٢٥﴾؛ أي: أنتم قوم منكرون، فأحب أن تعرفوني بأنفسكم، ولم يعرفهم إلا بعد ذلك.

﴿٢٦﴾ ولهذا راغ ﴿إِلَى أَهْلِهِ﴾؛ أي: ذهب سريعًا في خفية ليحضر لهم قراهم، ﴿فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ﴾ ﴿٢٦﴾.

﴿٢٧﴾ ﴿فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ﴾: وعرض عليهم الأكل، فـ ﴿قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ﴾ ﴿٢٧﴾؟

﴿٢٨﴾ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ﴿٢٨﴾: حين رأى أيديهم لا تصل إليه، ﴿قَالُوا لَا تَخَفْ﴾: وأخبروه بما جاءوا له، ﴿وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ﴾ ﴿٢٨﴾: وهو إسحاق عليه السلام.

﴿٢٩﴾ فلما سمعت المرأة البشارة؛ ﴿فَأَقْبَلَتْ﴾: فرحة مستبشرة ﴿فِي صَرَرٍ﴾؛ أي: صيحة، ﴿فَصَكَّتْ وَجْهَهَا﴾: وهذا من جنس ما يجري للنساء عند السرور ونحوه من الأقوال والأفعال المخالفة للطبيعة والعادة، ﴿وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ﴾ ﴿٢٩﴾؛ أي: أتى لي الولد وأنا عجوز قد بلغت من السن ما لا تلد معه النساء! ومع ذلك؛ فأنا عقيم غير صالح رحمي للولادة أصلًا؛ فثم مانعان، كل منهما مانع من الولد، وقد ذكرت المانع الثالث في سورة هود في قولها: ﴿وَهَذَا بَعْلِي شَيْعًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ﴾ ﴿٢٩﴾ [هود: ٧٢].

﴿٣٠﴾ قَالُوا كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ ﴿٣٠﴾؛ أي: الله الذي قدر ذلك وأمضاه؛ فلا عجب في قدرة الله تعالى، ﴿إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ﴾ ﴿٣٠﴾؛ أي: الذي يضع الأشياء مواضعها، وقد وسع كل شيء علمًا، فسلموا حكمه، واشكروه على نعمته.

﴿٣١﴾ قَالَ فَا حْطَبْكُمُ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿٣١﴾؛ أي: قال لهم إبراهيم عليه السلام: ما شأنكم أيها المرسلون؟ وماذا تريدون؟ لأنه استشعر أنهم رسل أرسلهم الله لبعض الشئون المهمة.

﴿٣٢﴾ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَيْكُمْ بِخَبَرٍ مُتَّبِعٍ ﴿٣٢﴾: وهم قوم لوط، قد أجزموا بإشراكهم بالله وتكذيبهم لرسولهم وإتيانهم الفاحشة التي لم يسبقهم إليها أحد من العالمين.

﴿٣٣﴾ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ جِبَارَةً مِنْ طِينٍ ﴿٣٣﴾ مُسَوِّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ﴿٣٣﴾؛ أي: معلمة على كل حجر اسم صاحبه؛ لأنهم أسرفوا وتجاوزوا الحد. فجعل إبراهيم يجادلهم في قوم لوط، لعل الله يدفع عنهم العذاب، فقليل له: ﴿يَكَاذِبُهُمْ أَغْرَضَ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ لَمِتٌ بِغَيْرِ مَرَدٍّ وَرُفٍّ﴾ ﴿٣٣﴾ [هود: ٧٦].

﴿٣٤﴾ فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٤﴾ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٣٤﴾: وهم بيت لوط عليه السلام؛ إلا امرأته؛ فإنها من المهلكين.

﴿٣٥﴾ وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٣٥﴾: يعتبرون بها ويعلمون أن الله شديد العقاب، وأن رسله صادقون صدوقون.

فصل

في ذكر بعض ما تضمنته هذه القصة من الحكم والأحكام منها: أن من الحكمة قص الله على عباده نبأ الأخيار والفجار؛ ليعتبروا بهم، وأين وصلت بهم الأحوال.

ومنها: فضيلة إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام؛ حيث ابتدأ الله قصته بما يدل على الاهتمام بشأنها والاعتناء بها.

ومنها: مشروعية الضيافة، وأنها من سنن إبراهيم الخليل، الذي أمر الله هذا النبي وأمه أن يتبعوا ملته، وساقها الله في هذا الموضع على وجه المدح له والثناء.

ومنها: أن الضيف يُكْرَمُ بأنواع الإكرام؛ بالقول والفعل؛ لأن الله وصف أضياف إبراهيم بأنهم مكرمون؛ أي: أكرمهم إبراهيم، ووصف الله ما صنع بهم من الضيافة قولاً وفعلًا، ومكرمون أيضًا عند الله تعالى.

ومنها: أن إبراهيم عليه السلام قد كان بيته مأوى للطارقين والأضياف؛ لأنهم دخلوا عليه من غير استئذان، وإنما سلكوا طريق الأدب في الابتداء بالسلام، فرد عليهم إبراهيم سلامًا أكمل من سلامهم وأتم؛ لأنه أتى به جملة اسمية دالة على الثبوت والاستقرار.

ومنها: مشروعية تعرف من جاء إلى الإنسان أو صار له فيه نوع اتصال؛ لأن في ذلك فوائد كثيرة.

ومنها: أدب إبراهيم ولطفه في الكلام؛ حيث قال: ﴿قَوْمٌ مُّكْرَوْنَ﴾ (٢٥)، ولم يقل: أنكرتكم، وبين اللفظين من الفرق ما لا يخفى.

ومنها: المبادرة إلى الضيافة والإسراع بها؛ لأن خير البر عاجله، ولهذا بادر إبراهيم بإحضار قرى أضيافه.

ومنها: أن الذبيحة الحاضرة التي قد أعدت لغير الضيف الحاضر إذا جعلت له ليس فيها أقل إهانة، بل ذلك من الإكرام؛ كما فعل إبراهيم عليه السلام، وأخبر الله أن ضيفه مكرمون.

ومنها: ما منَّ الله به على خليله إبراهيم من الكرم الكثير، وكون ذلك حاضرًا لديه وفي بيته معدًّا لا يحتاج إلى أن يأتي به من السوق أو الجيران أو غير ذلك.

ومنها: أن إبراهيم هو الذي خدم أضيافه، وهو خليل الرحمن وسيد من صَيِّفَ الضيفان.

ومنها: أنه قربه إليهم في المكان الذي هم فيه، فلم يجعله في موضع ويقول لهم تفضلوا أو اتوا عليه؛ لأن هذا أيسر عليهم وأحسن.

ومنها: حسن ملاطفة الضيف في الكلام اللين، خصوصًا عند تقديم الطعام إليه؛ فإن إبراهيم عرض عليهم عرضًا لطيفًا، فقال: ﴿أَلَا تَأْكُلُونَ﴾ (٢٧)، ولم يقل: كلوا! ونحوه من الألفاظ التي غيرها أولى منها، بل أتى بأداة العرض، فقال: ﴿أَلَا تَأْكُلُونَ﴾ (٢٧)؛ فينبغي للمقتدي به أن يستعمل من الألفاظ الحسنة ما هو المناسب واللائق بالحال؛ كقوله لأضيافه: ألا

تأكلون؟ أو: ألا تتفضلون؟ أو تشرفوننا وتحسنون إلينا... ونحو ذلك.

ومنها: أن من خاف من أحد لسبب من الأسباب؛ فإن عليه أن يزيل عنه الخوف، ويذكر له ما يؤمن روعه ويسكن جأشه؛ كما قالت الملائكة لإبراهيم لما خافهم: ﴿لَا تَخَفْ﴾، وأخبروه بتلك البشارة السارة بعد الخوف منهم.

ومنها: شدة فرح سارة امرأة إبراهيم، حتى جرى منها ما جرى من صك وجهها وصرتها غير المعهودة.

ومنها: ما أكرم الله به إبراهيم وزوجته سارة من البشارة بغلام عليم.

وقوله تعالى: ﴿وَفِي مُوسَى إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ ﴿٢٨﴾ ﴿فَتَوَلَّىٰ بِرُكْبِهِ﴾ ﴿٢٩﴾ وَقَالَ سِحْرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٣٠﴾ فَأَخَذَتْهُ وَجُودُهُ. فَبَدَّتْهُمْ فِي آيَمٍ وَهُؤُمٍ ﴿٣١﴾.

﴿٢٨﴾ أي: ﴿وَفِي مُوسَى﴾: وما أرسله الله به إلى فرعون وملئه بالآيات البينات والمعجزات الظاهرات آية للذين يخافون العذاب الأليم.

﴿٢٩﴾ فلما أتى موسى فرعون بذلك السلطان المبين؛ تولى فرعون ﴿بِرُكْبِهِ﴾؛ أي: أعرض بجانبه عن الحق، ولم يلتفت إليه، وقد حوا فيه أعظم القدح، فقالوا: ﴿سِحْرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾ ﴿٣٠﴾؛ أي: إن موسى لا يخلو إما أن يكون ساحراً وما أتى به شعبة ليس من الحق في شيء، وإما أن يكون مجنوناً لا يؤاخذ بما صدر منه لعدم عقله! هذا وقد علموا - خصوصاً فرعون - أن موسى صادق؛ كما قال تعالى: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلُمًا وَعُظُمًا﴾ [النمل: ١٤]، وقال موسى لفرعون: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَزَلَّ هَؤُلَاءُ إِلَّا رَبَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ﴾ [الإسراء: ١٠٢] الآية.

﴿٣١﴾ ﴿فَأَخَذَتْهُ وَجُودُهُ﴾ فَبَدَّتْهُمْ فِي آيَمٍ وَهُؤُمٍ ﴿٣١﴾؛ أي: منذب طاغ عات على الله، فأخذه الله أخذ عزيز مقتدر.

﴿وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ﴾ ﴿٤١﴾ مَا نَذُرِينَ شَيْءَ أَنْتَ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلْتَهُ كَالرَّمِيمِ ﴿٤٢﴾.

﴿٤١﴾ أي: وآية لهم في ﴿عَادٍ﴾: القبيلة المعروفة، ﴿إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ﴾ ﴿٤١﴾؛ أي: التي لا خير فيها، حين كذبوا نبиеم هوذا عليه السلام.

﴿٤٢﴾ ﴿مَا نَذُرِينَ شَيْءَ أَنْتَ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلْتَهُ كَالرَّمِيمِ﴾ ﴿٤٢﴾؛ أي: كالرمم البالية؛ فالذي أهلكهم على قوتهم وبطشهم دليل على كمال قوته واقتداره، الذي لا يعجزه شيء، المتقم ممن عصاه.

﴿وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّىٰ حِينٍ﴾ ﴿٤٣﴾ فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ وَهُمْ يَنْظُرُونَ ﴿٤٤﴾ فَمَا اسْتَطَعُوا مِنْ قِيَارٍ وَمَا كَانُوا مُنْصِرِينَ ﴿٤٥﴾.

﴿٤٣﴾ أي: ﴿وَفِي ثَمُودَ﴾: آية عظيمة حين أرسل الله إليهم صالحاً عليه السلام، فكذبوه وعاندوه، وبعث الله له الناقة آية مبصرة، فلم يزداهم ذلك إلا عتوا ونفورا، ﴿قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّىٰ حِينٍ﴾ ﴿٤٣﴾.

﴿٤٤﴾ ﴿فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ﴾؛ أي: الصيحة العظيمة المهلكة، ﴿وَهُمْ يَنْظُرُونَ﴾ ﴿٤٤﴾: إلى عقوبتهم بأعينهم.

﴿٤٥﴾ ﴿فَمَا اسْتَطَعُوا مِنْ قِيَارٍ﴾: ينجون به من العذاب، ﴿وَمَا كَانُوا مُنْصِرِينَ﴾ ﴿٤٥﴾: لأنفسهم.

﴿وَقَوْمٌ نُوحٍ مِنْ قَبْلِ إِيَّاهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ ﴿٤٦﴾.

﴿٤٦﴾ أي: وكذلك ما فعل الله بقوم نوح حين كذبوا نوحاً عليه السلام وفسقوا عن أمر الله، فأرسل الله عليهم السماء والأرض بماء منهمر، فأغرقهم الله تعالى عن آخرهم، ولم يبق من الكافرين دياراً. وهذه عادة الله وستته فيمن عصاه.

﴿وَالسَّمَاءَ بَدَّلْنَاهُ بِإِنْيَارٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ ﴿٤٧﴾ وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعَمَ الْمُنْهَدُونَ ﴿٤٨﴾ وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾ فَقَرُّوا إِلَىٰ اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿٥٠﴾ وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿٥١﴾.

﴿٤٧﴾ يقول تعالى ميّناً لقدرته العظيمة: ﴿وَالسَّمَاءَ بَدَّلْنَاهُ﴾؛ أي: خلقناها وأتقناها وجعلناها سقفا للأرض وما عليها، ﴿بِإِنْيَارٍ﴾؛ أي: بقوة وقدرة عظيمة، ﴿وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ ﴿٤٧﴾: لأرجائها وأنحائها، وإنا لموسعون أيضاً على عبادنا بالرزق الذي ما ترك دابة في مهامه القفار ولجج البحار وأقطار العالم العلوي والسفلي إلا وأوصل إليها من الرزق ما يكفيها، وساق إليها من الإحسان ما يغنيها. فسبحان من

عم بجوده جميع المخلوقات، وتبارك الذي وسعت رحمته جميع البريات.

﴿وَالْأَرْضَ قَرَشْنَهَا﴾؛ أي: جعلناها فراشاً للخلق يتمكنون فيها من كل ما تتعلق به مصالحهم من مساكن وغراس وزرع وحرث وجلوس وسلوك للسبل الموصلة إلى مقاصدهم ومآربهم. ولما كان الفراش قد يكون صالحاً للارتفاع من كل وجه، وقد يكون من وجه دون وجه؛ أخبر تعالى أنه مهدها أحسن مهاده على أكمل الوجوه وأحسنها، وأثنى على نفسه بذلك، فقال: ﴿فَتَعِمَّ الْمَهْدُونَ﴾ (٤٨)؛ الذي مهد لعباده ما اقتضته حكمته ورحمته.

﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾؛ أي: صنفين ذكر وأنثى من كل نوع من أنواع الحيوانات، ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ (٤٩)؛ لنعم الله التي أنعم بها عليكم في تقدير ذلك وحكمته؛ حيث جعل ما هو السبب لبقاء نوع الحيوانات كلها؛ لتقوموا بتنميتها وخدمتها وتربيتها فيحصل من ذلك ما يحصل من المنافع.

﴿فَلَمَّا دَعَا الْعِبَادَ إِلَى النَّظَرِ إِلَى آيَاتِهِ الْمَوْجِبَةِ لَخِشِيَةِ الْإِنَابَةِ إِلَيْهِ؛ أمر بما هو المقصود من ذلك، وهو الفرار إليه؛ أي: الفرار مما يكرهه الله ظاهراً وباطناً إلى ما يحبه ظاهراً وباطناً، فرار من الجهل إلى العلم، ومن الكفر إلى الإيمان، ومن المعصية إلى الطاعة، ومن الغفلة إلى الذكر؛ فمن استكمل هذه الأمور؛ فقد استكمل الدين كله، وزال عنه المروء، وحصل له غاية المراد والمطلوب. وسمى الله الرجوع إليه فراراً؛ لأن في الرجوع إلى غيره أنواع المخاوف والمكاه، وفي الرجوع إليه أنواع المحاب والأمن والسرور والسعادة والفوز، فيفر العبد من قضائه وقدره إلى قضائه وقدره، وكل من خُفَّتْ منه فررت منه إلا الله تعالى؛ فإنه بحسب الخوف منه يكون الفرار إليه، ﴿إِنِّي لَكُم مِّنْ ذَكِّيرٍ مُّبِينٍ﴾ (٥٠)؛ أي: منذر لكم من عذاب الله ومخوف بين النذارة.

﴿وَلَا تَجْمَلُوا مَعَ اللَّهِ إِنَّهَا آخِرُ﴾؛ هذا من الفرار إلى الله، بل هذا أصل الفرار إليه: أن يفر العبد من اتخاذ آلهة غير الله من الأوثان والأنداد والقبور وغيرها مما عبد من دون الله، ويخلص العبد لربه العبادة والخوف والرجاء والدعاء والإنابة.

﴿كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مُجُنُّنٌ﴾ (٥١) اتَّوَصَّوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٥٢﴾.

﴿٥١﴾ يقول الله مسلماً لرسوله ﷺ عن تكذيب المشركين بالله، المكذبين له، القائلين فيه من الأقوال الشنيعة ما هو منزه عنه، وأن هذه الأقوال ما زالت دأباً وعادة للمجرمين المكذبين للرسل؛ فما أرسل الله من رسول؛ إلا رماه قومه بالسحر أو الجنون.

﴿٥٢﴾ يقول الله تعالى: هذه الأقوال التي صدرت منهم - الأولين والآخرين - هل هي أقوال تواصوا بها، ولقن بعضهم بعضاً بها؛ فلا يستغرب بسبب ذلك اتفاقهم عليها؟! أم ﴿هُم قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ (٥٣)؛ تشابهت قلوبهم وأعمالهم بالكفر والطغيان، فتشابهت أقوالهم الناشئة عن طغيانهم؟! وهذا هو الواقع؛ كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَبَهَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [البقرة: ١١٨]، وكذلك المؤمنون لما تشابهت قلوبهم بالإذعان للحق وطلبه والسعي فيه؛ بادروا إلى الإيمان برسولهم وتعظيمهم وتوقيرهم وخطابهم بالخطاب اللائق بهم.

﴿فَقَوْلَهُمْ قَمَا أَتَى بِمَلُومٍ﴾ (٥٤) وَذَكَرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٥﴾.

﴿٥٤﴾ يقول تعالى أمراً رسوله بالإعراض عن المعرضين المكذبين: ﴿فَقَوْلَهُمْ قَمَا أَتَى بِمَلُومٍ﴾؛ أي: لا تبال بهم، ولا تؤاخذهم، وأقبل على شأنك؛ فليس عليك لوم في ذنبهم، وإنما عليك البلاغ، وقد أدبت ما حملت وبلغت ما أرسلت به.

﴿٥٥﴾ وَذَكَرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٥﴾ والتذكير نوعان: تذكير بما لم يعرف تفصيله مما عرف مجمله بالفطر والعقول؛ فإن الله فطر العقول على محبة الخير وإيثاره وكرهه الشر والزهد فيه، وشرعه موافق لذلك؛ فكل أمر ونهي من الشرع؛ فهو من التذكير، وتام التذكير أن يذكر ما في المأمور به من الخير والحسن والمصالح، وما في المنهي عنه من المضار. والنوع الثاني من التذكير: تذكير بما هو معلوم للمؤمنين، ولكن انسحبت عليه الغفلة والذهول، فيذكرون بذلك، ويكرر عليهم؛ ليرسخ في أذهانهم، ويشتبهوا، ويعملوا بما تذكره من ذلك، وليحدث لهم نشاطاً وهمة توجب لهم الانتفاع والارتفاع. وأخبر الله

أن الذكرى تنفع المؤمنين؛ لأن ما معهم من الإيمان والخشية والإجابة واتباع رضوان الله يوجب لهم أن تنفع فيهم الذكرى وتقع الموعظة منهم موقعها؛ كما قال تعالى: ﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَىٰ ۙ سِيذَرُكَ مِنْ بَخْسِي ۙ وَنَجِّنَا الْأَشَقَىٰ﴾ [١١] ﴿١٢﴾ الأعلى: ٩-١١، وأما من ليس معه إيمان ولا استعداد لقبول التذكير؛ فهذا لا ينفع تذكيره؛ بمنزلة الأرض السبخة التي لا يفيدها المطر شيئاً. وهؤلاء الصنف لو جاءتهم كل آية؛ لم يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم.

﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِعِبَادُونَ﴾ [٥٦] ﴿٥٧﴾ مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطِيعُونِ ﴿٥٨﴾ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ﴿٥٩﴾﴾.

﴿٥٦﴾ هذه الغاية التي خلق الله الجن والإنس لها، وبعث جميع الرسل يدعون إليها، وهي عبادته المتضمنة لمعرفته ومحبته والإجابة إليه والإقبال عليه والإعراض عما سواه، وذلك متوقف على معرفة الله تعالى؛ فإن تمام العبادة متوقف على المعرفة بالله، بل كلما ازداد العبد معرفة بربه؛ كانت عبادته أكمل؛ فهذا الذي خلق الله المكلفين لأجله؛ فما خلقهم لحاجة منه إليهم.

﴿٥٧﴾ فما يريد ﴿٥٨﴾ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا ﴿٥٩﴾ أَنْ يُطِيعُونِ ﴿٥٧﴾﴾:

تعالى الغني المغني عن الحاجة إلى أحد بوجه من الوجوه، وإنما جميع الخلق فقراء إليه في جميع حوائجهم ومطالبهم الضرورية وغيرها.

﴿٥٨﴾ ولهذا قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ﴾؛ أي: كثير الرزق، الذي ما من دابة في الأرض ولا في السماء إلا على الله رزقها، ويعلم مستقرها ومستودعها، ﴿ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ [٥٨]؛ أي: الذي له القوة والقدرة كلها، الذي أوجد بها الأجرام العظيمة السفلية والعلوية، وبها تصرف في الظواهر والبواطن، ونفذت مشيئته في جميع البريات؛ فما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، ولا يعجزه هارب، ولا يخرج عن سلطانه أحد، ومن قوته أنه أوصل رزقه إلى جميع العالم، ومن قدرته وقوته أنه يبعث الأموات بعدما مزقهم البلى، وعصفت بترابهم الرياح، وابتلعتهم الطيور والسباع، وتفرقوا وتمزقوا في مهامه القفار ولجج البحار؛ فلا يفوته منهم أحد، ويعلم ما تنقص الأرض منهم؛ فسبحان القوي المتين.

﴿فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُنُوبًا مِثْلَ ذُنُوبِ أَصْحَابِهِمْ فَلَا يَسْتَعِجِلُونَ﴾ [٥٩] ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوعَدُونَ﴾ [٦٠]﴾.

﴿٥٩﴾ أي: ﴿فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا﴾: بتكذيبهم محمداً ﷺ من العذاب والنكال ﴿ذُنُوبًا﴾؛ أي: نصيباً وقسطاً، مثل ما فعل بأصحابهم من أهل الظلم والتكذيب، ﴿فَلَا يَسْتَعِجِلُونَ﴾ [٥٩]؛ بالعذاب؛ فإن سنة الله في الأمم واحدة؛ فكل مكذب يدوم على تكذيبه من غير توبة وإنابة؛ فإنه لا بد أن يقع عليه العذاب ولو تأخر عنه مدة.

﴿٦٠﴾ ولهذا توعدهم الله بيوم القيامة، فقال: ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوعَدُونَ﴾ [٦٠]؛ وهو يوم القيامة، الذي قد وعدوا فيه بأنواع العذاب والنكال والسلاسل والأغلال؛ فلا مغيب ولا منقذ لهم من عذاب الله. نعوذ بالله منه.

سورة الذاريات

كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مُجُنٌّ ﴿٥٦﴾ أَتَوَاصَوْا بِهِمْ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٥٧﴾ فَوَلَّوْهُمْ عَنْهَا فَأَمَّا أُولَٰئِكَ فَلِئَلَّا يَكْفُرُوا بِالَّذِي نَفَعَهُمْ الظَّوْفُورُ ﴿٥٨﴾ وَذَكَرَ فَإِنَّ الذِّكْرَىٰ تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٩﴾ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِعِبَادُونَ ﴿٥٦﴾ مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطِيعُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ﴿٥٨﴾ فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُنُوبًا مِثْلَ ذُنُوبِ أَصْحَابِهِمْ فَلَا يَسْتَعِجِلُونَ ﴿٥٩﴾ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوعَدُونَ ﴿٦٠﴾

سورة الذاريات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالْطُّورِ ﴿١﴾ وَكِتَابٍ مُسْتُورٍ ﴿٢﴾ فِي رَقٍّ مَشْهُورٍ ﴿٣﴾ وَالتَّابِثِ ﴿٤﴾ وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ ﴿٥﴾ وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ ﴿٦﴾ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ ﴿٧﴾ مَا لَهُ مِنْ دَافِعٍ ﴿٨﴾ يَوْمَ نُفُورٍ أَسْمَاءُ ﴿٩﴾ وَنَسِيرٍ أَلْبِجَالِ سِيرًا ﴿١٠﴾ فَوَيْلٌ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ ﴿١٢﴾ يَوْمَ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ نَارٍ جَهَنَّمَ دَعَاً ﴿١٣﴾ هَٰذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٤﴾

٥٢٣

أَن يَقْسِمَ اللَّهُ بِهِ، وَيُبَيِّنَ مِنْ عَظَمَتِهِ مَا هُوَ اللَّاتِقُ بِهِ وَبِحَرَمَتِهِ.

﴿٥﴾ وَالسَّقْفَ الْمَرْفُوعَ ﴿٥﴾؛ أَي: السماء التي جعلها الله سقفاً للمخلوقات وبناء للأرض تستمد منها أنوارها، ويقتدى بعلاماتها ومنازلها، وينزل الله منها المطر والرحمة وأنواع الرزق.

﴿٦﴾ وَالْبَحْرَ الْمَسْجُورَ ﴿٦﴾؛ أَي: المملوء ماء، قد سجره الله ومنعه من أن يفيض على وجه الأرض، مع أن مقتضى الطبيعة أن يغمر وجه الأرض، ولكن حكمته اقتضت أن يمنعه عن الجريان والفيضان؛ ليعيش مَنْ على وجه الأرض من أنواع الحيوان. وقيل: إن المراد بالمسجور: الموقد، الذي يوقد ناراً يوم القيامة، فيصير ناراً تلتظي، ممتلئاً على سعته من أصناف العذاب.

﴿٧﴾ هَذِهِ الْأَشْيَاءُ الَّتِي أَقْسَمَ اللَّهُ بِهَا مِمَّا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهَا مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَأَدَلَّةِ تَوْحِيدِهِ وَبِرَاهِينِ قُدْرَتِهِ وَبِعِثَةِ الْأَمْوَاتِ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ﴾ ﴿٧﴾؛ أَي: لا بد أن يقع، ولا يخلف الله وعده وقيله.

﴿٨﴾ مَا لَهُ مِنْ دَافِعٍ ﴿٨﴾؛ يدفعه، ولا مانع يمنعه، لأن قدرة الله لا يغالبها مغالب ولا يفوتها هارب.

﴿٩﴾ ثُمَّ ذَكَرَ وَصْفَ ذَلِكَ الْيَوْمِ الَّذِي يَقَعُ فِيهِ الْعَذَابُ، فَقَالَ: ﴿يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا﴾ ﴿٩﴾؛ أَي: تدور السماء وتضطرب وتدوم حركتها بانزعاج وعدم سكون.

﴿١٠﴾ وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا ﴿١٠﴾؛ أَي: تزول عن أماكنها، وتسير كسير السحاب، وتتلون كالعهن المنفوش، وتبت بعد ذلك حتى تصبح مثل الهباء، وذلك كله لعظم هول يوم القيامة؛ وفظاعة ما فيه من الأمور المزعجة والزلازل المقلقة التي أزعجت هذه الأجرام العظيمة فكيف بالآدمي الضعيف؟!

﴿١١﴾ قَوْلُ يَوْمَ يَمِيزُ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾؛ والويل كلمة جامعة لكل عقوبة وحزن وعذاب وخوف.

﴿١٢﴾ ثُمَّ ذَكَرَ وَصْفَ الْمُكَذِّبِينَ، الَّذِينَ اسْتَحَقُّوا بِهِ الْوَيْلَ، فَقَالَ: ﴿الَّذِينَ هُمْ فِي حَوْضٍ يَلْعَبُونَ﴾ ﴿١٢﴾؛ أَي: خوض بالباطل ولعب به؛ فعلمهم وبحوثهم بالعلوم الضارة المتضمنة للتكذيب بالحق والتصديق بالباطل، وأعمالهم أعمال أهل الجهل والسفه واللعب؛ بخلاف ما عليه أهل التصديق والإيمان من العلوم النافعة والأعمال الصالحة.

تفسير سورة الطور

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿١﴾ وَالطُّورِ ﴿١﴾ وَكَتَبَ مَسْطُورَ ﴿٢﴾ فِي رَقٍّ مَّنْشُورٍ ﴿٣﴾ وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ ﴿٤﴾ وَالسَّقْفَ الْمَرْفُوعِ ﴿٥﴾ وَالْبَحْرَ الْمَسْجُورِ ﴿٦﴾ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ ﴿٧﴾ مَا لَهُ مِنْ دَافِعٍ ﴿٨﴾ يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا ﴿٩﴾ وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا ﴿١٠﴾ قَوْلُ يَوْمَ يَمِيزُ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي حَوْضٍ يَلْعَبُونَ ﴿١٢﴾ يَوْمَ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعَاً ﴿١٣﴾ هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُتِبَ بِهَا تَكْذِبُونَ ﴿١٤﴾ أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ﴿١٥﴾ أَصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾

﴿١﴾ يقسم تعالى بهذه الأمور العظيمة المشتملة على الحكم الجليلة على البعث والجزاء للمتقين وللمكذبين، فأقسم بالطور، وهو الجبل الذي كلم الله عليه موسى ابن عمران عليه الصلاة والسلام، وأوحى إليه ما أوحى من الأحكام، وفي ذلك من المنة عليه وعلى أمته ما هو من آيات الله العظيمة ونعمه التي لا يقدر العباد لها على عدٍّ ولا ثمن.

﴿٢﴾ وَكَتَبَ مَسْطُورَ ﴿٢﴾؛ يحتمل أن المراد به اللوح المحفوظ، الذي كتب الله به كل شيء، ويحتمل أن المراد به القرآن الكريم، الذي هو أفضل كتاب، أنزله الله محتويًا على نبا الأولين والآخرين وعلوم السابقين واللاحقين.

﴿٣﴾ فِي رَقٍّ مَّنْشُورٍ ﴿٣﴾؛ أَي: ورقٍ مَّنْشُورٍ ﴿٣﴾؛ أَي: مكتوب، مسطر، ظاهر غير خفي، لا تخفى حاله على كل عاقل بصير.

﴿٤﴾ وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ ﴿٤﴾؛ وهو البيت الذي فوق السماء السابعة، المعمور مدى الأوقات بالملائكة الكرام، الذي يدخله كل يوم سبعون ألف ملك، يتعبدون فيه لربهم، ثم لا يعودون إليه إلى يوم القيامة، وقيل: إن البيت المعمور هو بيت الله الحرام المعمور بالطائفين والمصلين والذاكرين كل وقت وبالفودد إليه بالحج والعمرة؛ كما أقسم الله به في قوله: ﴿وَهَذَا بَلَدُ الْأَمِينِ﴾ ﴿٥﴾ [التين: ٣]، وحقيق بيت هو أفضل بيوت الأرض، الذي يقصده الناس بالحج والعمرة، أحد أركان الإسلام ومبانيه العظام، التي لا يتم إلا بها، وهو الذي بناه إبراهيم وإسماعيل، وجعله الله مثابة للناس وأمناء؛

سورة الطور

مكية وآياتها ثمانية

﴿١٣﴾، ﴿١٤﴾ ﴿يَوْمَ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعَا﴾ ﴿١٣﴾؛ أي: يوم يدفعون إليها دفعا، ويساقون إليها سوقا عنيقا، ويجرون على وجوههم، ويقال لهم توبيخا ولو ما: ﴿هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ ﴿١٤﴾: فالיום ذوقوا عذاب الخلد الذي لا يبلغ قدره ولا يوصف أمره.

﴿١٥﴾ ﴿أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ﴾ ﴿١٥﴾: يحتمل أن الإشارة إلى النار والعذاب؛ كما تدل عليه سياق الآيات؛ أي: لما رأوا النار والعذاب؛ قيل لهم من باب التقرع: أهذا سحر لا حقيقة له؛ فقد رأيتموه أم أنتم في الدنيا لا تبصرون؟! أي: لا بصيرة لكم ولا علم عندكم، بل كنتم جاهلين بهذا الأمر، لم تقم عليكم الحجة؟! والجواب انتفاء الأمرين: أما كونه سحرا؛ فقد ظهر لهم أنه أحق الحق وأصدق الصدق المنافي للسحر من جميع الوجوه. وأما كونهم لا يبصرون؛ فإن الأمر بخلاف ذلك، بل حجة الله قد قامت عليهم، ودعوتهم الرسل إلى الإيمان بذلك، وأقامت من الأدلة والبراهين على ذلك ما يجعله من أعظم الأمور المبرهنة الواضحة الجلية.

ويحتمل أن الإشارة بقوله: ﴿أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ﴾ ﴿١٥﴾: إلى ما جاء به محمد ﷺ من الحق المبين والصرط المستقيم؛ أي: أفيتصور من له عقل أن يقول عنه:

أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ﴿١٥﴾ أَصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا
أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْرُونَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾
إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ ﴿١٧﴾ فَتَكْبِهِينَ بِمَاءٍ أَنْهَمَ رِيحُهُمْ
وَوَقَّهَهُمْ رِيحُهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴿١٨﴾ كُلُوا وَأَشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا
كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ مُتَكِبِينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ وَزَوَّجْنَاهُمْ
بِحُورٍ عِينٍ ﴿٢٠﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِذْنِ الْغَفَّةِ
بِهِمْ ذُرِّيَّتُهُمْ وَمَا فَتَنَهُمُ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ
رَهِينٌ ﴿٢١﴾ وَأَمَدَدْنَاهُمْ فِيهَا كَهْكَمَةً وَالْحَمِيزَ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٢﴾ يَنْزِعُونَ
فِيهَا كَأْسًا لَا تَغْوِي فِيهَا وَلَا تَأْسِيءُ ﴿٢٣﴾ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ زُلْفًا
لَهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَكُونٌ ﴿٢٤﴾ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ
﴿٢٥﴾ قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُتَشَفِّينَ ﴿٢٦﴾ فَنُرِيكَ اللَّهُ
عَلَيْنَا وَوَقَّعْنَا عَذَابَ السَّمُورِ ﴿٢٧﴾ إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ
نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ ﴿٢٨﴾ فَذَكِّرْ فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَتِ
رَبِّكَ بِكَاهِنٌ وَلَا جَاهِلُونَ ﴿٢٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَتَرَبُّصُ بِهِ رَبَّ
الْمُنُونِ ﴿٣٠﴾ قُلْ تَرَبُّصُوا فَإِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُرْتَصِبِينَ ﴿٣١﴾

٥٢٤

إنه سحر. وهو أعظم الحق وأجله، ولكن لعدم بصيرتهم قالوا فيه ما قالوا.

﴿١٦﴾ ﴿أَصْلَوْهَا﴾؛ أي: ادخلوا النار على وجه تحيط بكم وتشمل أبدانكم وتطلع على أفئدتكم، ﴿فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ﴾؛ أي: لا يفيدكم الصبر على النار شيئا، ولا يتأسى بعضكم ببعض، ولا يخفف عنكم العذاب، وليست من الأمور التي إذا صبر العبد عليها هانت مشقتها وزالت شدتها، وإنما فعل بهم ذلك بسبب أعمالهم الخبيثة وكسبهم، ولهذا قال: ﴿إِنَّمَا تُجْرُونَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ ﴿١٦﴾.

﴿١٧﴾ ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ﴾ ﴿١٧﴾ فَتَكْبِهِينَ بِمَاءٍ أَنْهَمَ رِيحُهُمْ وَوَقَّهَهُمْ رِيحُهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴿١٨﴾ كُلُوا وَأَشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ مُتَكِبِينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ ﴿٢٠﴾.

﴿٢١﴾ لما ذكر تعالى عقوبة المكذبين؛ ذكر نعيم المتقين؛ ليجمع بين الترغيب والترهيب، فتكون القلوب بين الخوف والرجاء، فقال: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ﴾: لربهم، الذين اتقوا سخطه وعذابه بفعل أسبابه من امتثال الأوامر واجتناب النواهي، ﴿فِي جَنَّاتٍ﴾؛ أي: بساتين، قد اكتست رياضها من الأشجار الملففة والأنهار المتدفقة والقصور المحدقة والمنازل المزخرقة، ﴿وَنَعِيمٍ﴾: وهذا شامل لنعيم القلب والروح والبدن.

﴿٢٢﴾ ﴿فَتَكْبِهِينَ بِمَاءٍ أَنْهَمَ رِيحُهُمْ﴾؛ أي: معجيين به، متمتعين على وجه الفرح والسرور بما أعطاهم الله من النعيم الذي لا يمكن وصفه: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ [السجدة: ١٧]. ﴿وَوَقَّهَهُمْ رِيحُهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾ ﴿٢٢﴾: فرزقهم المحبوب، ونجاهم من المرهوب، لما فعلوا ما أحبه الله وجانبوا ما يسخطه.

﴿٢٣﴾ ﴿كُلُوا وَأَشْرَبُوا﴾؛ أي: مما تشتهي أنفسكم من أصناف المأكول والمشارب اللذيذة ﴿هَنِيئًا﴾؛ أي: متهنئين بتلك المأكول

ومن عدله تعالى ألا يعذب أحداً إلا بذنب، ولهذا قال: ﴿كُلُّ

أَتْرَفٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾ (٢١)؛ أي: مرتبهن بعمله؛ فلا تزر وازرة وزر أخرى، ولا يحمل على أحد ذنب أحد، فهذا اعتراض من فوائده لإزالة هذا الوهم المذكور.

﴿٢٢﴾ وقوله: ﴿وَأَمَدَدْنَاهُمْ﴾؛ أي: أمددنا أهل الجنة من فضلنا الواسع ورزقنا العميم، ﴿بِفِكَهَةٍ﴾ من العنب والرمان والتفاح وأصناف الفواكه اللذيذة الزائدة على ما به يتقوتون، ﴿وَلَحْرِمًا شَتَهُونَ﴾ (٢٣)؛ من كل ما طلبوه واشتهته أنفسهم من لحوم الطير وغيرها.

﴿٢٤﴾ ﴿يَسْرَعُونَ فِيهَا كَأْسًا﴾؛ أي: تدور كاسات الرحيق والخمر عليهم، ويتعاطونها فيما بينهم، وتطوف عليهم الولدان المخلدون بأكواب وأباريق. ﴿لَا لَوْ فِيهَا وَلَا تَأْتِيهِمْ﴾ (٢٥)؛ أي: ليس في الجنة كلام لغو، وهو الذي لا فائدة فيه، ولا تأتيم، وهو الذي فيه إثم ومعصية. وإذا انتفى الأمران؛ ثبت الأمر الثالث، وهو أن كلامهم فيها سلام طيب طاهر مُسرٍّ للنفوس مفرح للقلوب، يتعاشرون أحسن عشرة، ويتنادمون أطيب المناادمة، ولا يسمعون من ربهم إلا ما يقر أعينهم ويدل على رضاه عنهم ومحبه لهم.

﴿٢٦﴾ ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَهُمْ﴾؛ أي: خدم شباب، ﴿كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَكْنُونٌ﴾ (٢٧)؛ من حسنهم وبهائهم، يدورون عليهم بالخدمة وقضاء ما يحتاجون إليه، وهذا يدل على كثرة نعيمهم وسعته وكمال راحتهم.

﴿٢٨﴾ ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾ (٢٩)؛ عن أمور الدنيا وأحوالها.

﴿٣٠﴾ ﴿قَالُوا﴾: في ذكر بيان الذي أولصلهم إلى ما هم فيه من الحيرة والسرور: ﴿إِنَّا كُنَّا قَبْلَ﴾؛ أي: في دار الدنيا ﴿فِي أَهْلِائِ مُشْفِقِينَ﴾ (٣١)؛ أي: خائفين وجلين، فتركنا من خوفه الذنوب، وأصلحنا لذلك العيوب.

﴿٣٢﴾ ﴿فَمَرَّ اللَّهُ عَلَيْنَا﴾: بالهداية والتوفيق، ﴿وَوَقَّعَنَا عَذَابَ السَّمُورِ﴾ (٣٣)؛ أي: العذاب الحار الشديد حره.

﴿٣٤﴾ ﴿إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلَ نَدْعُوهُ﴾: أن يقينا عذاب السموم، ويوصلنا إلى النعيم، وهذا شامل لدعاء العباد ودعاء المسألة؛ أي: لم نزل نتقرب إليه بأنواع القربات، وندعوه في سائر الأوقات. ﴿إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ﴾ (٣٥)؛ فمن يره بنا ورحمته إيانا أنالنا رضاه والجنة، ووقانا سخطه والنار.

والمشارب على وجه الفرح والسرور والبهجة والحبور، ﴿بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (٣٦)؛ أي: نلتهم ما نلتهم بسبب أعمالكم الحسنة وأقوالكم المستحسنة.

﴿٣٧﴾ ﴿مُنْكَيْنٍ عَلَى سُرُرٍ مَصْفُوفَةٍ﴾: الاتكاء هو الجلوس على وجه التمكن والراحة والاستقرار، والسُّرر هي الأرائك المزينة بأنواع الزينة من اللباس الفاخر والفرش الزاهية. ووصف الله السرر بأنها مصفوفة؛ ليدل ذلك على كثرتها وحسن تنظيمها واجتماع أهلها وسرورهم بحسن معاشرتهم وملاطفة بعضهم بعضاً. فلما اجتمع لهم من نعيم القلب والروح والبدن ما لا يخطر بالبال ولا يدور في الخيال من المأكَل والمشارب اللذيذة والمجالس الحسنة الأنيقة؛ لم يبق إلا التمتع بالنساء اللاتي لا يتم سرور بدونهن، فذكر تعالى أن لهم من الأزواج أكمل النساء أوصافاً وخلقاً وأخلاقاً، ولهذا قال: ﴿وَوَجَّعْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ﴾ (٣٨)؛ وهن النساء اللواتي قد جمعن جمال الصورة الظاهرة وبهاءها ومن الأخلاق الفاضلة ما يوجب أن يحيرن بحسنة الناظرين، ويسلبن عقول العالمين، وتكاد الأفئدة أن تطير شوقاً إليهن ورغبة في وصالهن، والعين: حسان الأعين مليحاتها، التي صفا بياضها وسوادها.

﴿٣٩﴾ ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ كُلُّ أَتْرَفٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾ (٤٠) وَأَمَدَدْنَاهُمْ بِفِكَهَةٍ وَلَحْرِمًا شَتَهُونَ ﴿٤١﴾ يَسْرَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَا لَوْ فِيهَا وَلَا تَأْتِيهِمْ ﴿٤٢﴾ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَكْنُونٌ ﴿٤٣﴾ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٤٤﴾ قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلَ فِي أَهْلِائِ مُشْفِقِينَ ﴿٤٥﴾ فَمَرَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَّعَنَا عَذَابَ السَّمُورِ ﴿٤٦﴾ إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلَ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ ﴿٤٧﴾

﴿٤٨﴾ وهذا من تمام نعيم أهل الجنة: أن ألحق الله بهم ذريتهم الذين اتبعوهم بإيمان؛ أي: لحقوهم بالإيمان الصادر من آبائهم، فصارت الذرية تبعاً لهم بالإيمان، ومن باب أولى؛ إذا تبعتهم ذريتهم بإيمانهم الصادر من أنفسهم؛ فهو لاء المذكورون يُلحقهم الله بمنازل آبائهم في الجنة، وإن لم يبلغوها؛ جزاء لأبائهم، وزيادة في ثوابهم، ومع ذلك؛ لا ينقص الله الآباء من أعمالهم شيئاً. ولما كان - ربما - توهم متوهم أن أهل النار كذلك يلحق الله بهم ذريتهم؛ أخبر أنه ليس حكم الدارين حكماً واحداً؛ فإن النار دار العدل،

سورة الطور

سورة الطور

أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَخْلَعُهُمْ يَهْدًا أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاعُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ يَقُولُونَ نَقُولُهُ
 بَلْ لَا يَوْمُنُونَ ﴿٣٧﴾ فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ
 ﴿٣٨﴾ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمْ الْخَالِقُونَ ﴿٣٩﴾ أَمْ خَلَقُوا
 السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يَوْمُنُونَ ﴿٤٠﴾ أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ
 رَيْكِ أَمْ هُمْ الْمُصْطَفُونَ ﴿٤١﴾ أَمْ هُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ فَلْيَأْتِ
 مُسْتَمِعُهُمْ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴿٤٢﴾ أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمْ الْبَنُونَ ﴿٤٣﴾
 أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ ﴿٤٤﴾ أَمْ عِنْدَهُ الْغَيْبُ فَهُمْ
 يَكْتُمُونَ ﴿٤٥﴾ أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمْ الْمَكِيدُونَ ﴿٤٦﴾
 أَمْ هُمْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ سُبْحَنَ اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٧﴾ وَإِنْ يَرَوْا كِسْفًا
 مِنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَرْكُومٌ ﴿٤٨﴾ فَذَرَهُمْ حَتَّى يُلَاقُوا
 يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ ﴿٤٩﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا
 وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٥٠﴾ وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَلِكَ وَلَكِنْ
 أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥١﴾ وَأَصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ
 بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٥٢﴾ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَادْبِرَ النُّجُومِ ﴿٥٣﴾

سورة التكاثر

٥٢٥

﴿ فَذَكِّرْ فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ﴾ ﴿٣٦﴾
 أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَبِّ السَّمَوَاتِ ﴿٣٧﴾ قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي
 مَعَكُمْ مِنَ الْمُرْتَبِصِينَ ﴿٣٨﴾ أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَخْلَعُهُمْ يَهْدًا أَمْ هُمْ
 قَوْمٌ طَاعُونَ ﴿٣٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ نَقُولُهُ بَلْ لَا يَوْمُنُونَ ﴿٤٠﴾ فَلْيَأْتُوا
 بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ ﴿٤١﴾ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ
 أَمْ هُمْ الْخَالِقُونَ ﴿٤٢﴾ أَمْ خَلَقُوا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا
 يَوْمُنُونَ ﴿٤٣﴾ أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَيْكِ أَمْ هُمْ الْمُصْطَفُونَ ﴿٤٤﴾
 أَمْ هُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُمْ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴿٤٥﴾
 أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمْ الْبَنُونَ ﴿٤٦﴾ أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ
 مُثْقَلُونَ ﴿٤٧﴾ أَمْ عِنْدَهُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُمُونَ ﴿٤٨﴾ أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا
 فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ ﴿٤٩﴾ أَمْ هُمْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ سُبْحَنَ اللَّهُ عَمَّا
 يُشْرِكُونَ ﴿٥٠﴾

﴿٣٦﴾ يأمر الله تعالى رسوله ﷺ أن يذكر الناس مسلمهم
 وكافرهم؛ لتقوم حجة الله على الظالمين، ويهتدي بتذكيره
 الموفقون، والآيالي بقول المشركين المكذبين وأذيتهم
 وأقوالهم التي يصدون بها الناس عن اتباعه، مع علمهم أنه
 أبعد الناس عنها، ولهذا نفى عنه كل نقص رموه به، فقال:
 ﴿فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ﴾؛ أي: منته ولطفه ﴿بِكَاهِنٍ﴾؛ أي: له
 رُئي من الجن يأتيه بخبر بعض الغيوب التي يضم إليها مائة كذبة، ﴿وَلَا مَجْنُونٍ﴾؛ أي: فاقدر العقل، بل أنت أكمل الناس عقلاً،
 وأبعدهم عن الشياطين، وأعظمهم صدقاً، وأجلهم، وأكملهم.

﴿٣٧﴾ وتارة ﴿يَقُولُونَ﴾ فيه: إنه ﴿شَاعِرٌ﴾؛ يقول الشعر، والذي جاء به شعر، والله يقول: ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي
 لَهُ﴾ [يس: ٦٩]، ﴿نَتَرَبَّصُ بِهِ رَبِّ السَّمَوَاتِ﴾؛ أي: نتظر به الموت، فيبطل أمره ونستريح منه.

﴿٣٨﴾ ﴿قُلْ﴾؛ لهم جواباً لهذا الكلام السخيف: ﴿تَرَبَّصُوا﴾؛ أي: انتظروا بي الموت، ﴿فَإِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُرْتَبِصِينَ﴾؛
 نترصد بكم أن يصيبكم الله بعذاب من عنده، أو بأيدينا.

﴿٣٩﴾ ﴿أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَخْلَعُهُمْ يَهْدًا أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاعُونَ﴾؛ أي: أهذا التكذيب لك والأقوال التي قالوها؛ هل صدرت عن عقولهم
 وأحلامهم؛ فبئس العقول والأحلام التي هذه نتائجها وهذه ثمراتها؛ فإن عقولاً جعلت أكمل الخلق عقلاً معجوناً، وجعلت
 أصدق الصدق وأحق الحق كذباً وباطلاً؛ لهي العقول التي ينزه المجانين عنها؟ أم الذي حملهم على ذلك ظلمهم وطغيانهم؟
 وهو الواقع؛ فالطغيان ليس له حد يقف عليه؛ فلا يستغرب من الطاغية المتجاوز الحد، كل قول وفعل صدر منه.

﴿٤٠﴾ ﴿أَمْ يَقُولُونَ نَقُولُهُ﴾؛ أي: تقول محمد القرآن وقاله من تلقاء نفسه، ﴿بَلْ لَا يَوْمُنُونَ﴾؛ فلو آمنوا؛ لم يقولوا ما
 قالوا.

﴿٤١﴾ ﴿فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ﴾؛ أنه تقوله؛ فإنكم العرب الفصحاء والفحول البلغاء، وقد تحداكم أن
 تأتوا بمثله؛ فتصدق معارضتكم، أو تقروا بصدقه، وأنكم لو اجتمعتم أنتم والإنس والجن؛ لم تقدروا على معارضته والإتيان
 بمثله؛ فحينئذ أنتم بين أمرين: إما مؤمنون به مقتدون بهديه، وإما معاندون متبعون لما علمتم من الباطل.

الجهل والضلال والغبي والعناد؛ فأَيُّ المخبرين أحق بقبول خبره، خصوصاً والرسول ﷺ قد أقام من الأدلة والبراهين على ما أخبر به ما يوجب أن يكون خبره عين اليقين وأكمل الصدق، وهم لم يقيموا على ما ادعوه شبهة فضلاً عن إقامة حجة؟!

﴿٣٦﴾ وقوله: ﴿أَمْ لَمْ يَلْتَمِسْ﴾: كما زعمتم، ﴿وَلَكُمْ آيَاتُ﴾: فتجمعون بين المحذورين: جعلكم له الولد، واختياركم له أنقص الصنفين؛ فهل بعد هذا التنقص لرب العالمين غاية أو دونه نهاية؟!

﴿٣٧﴾ ﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ﴾: يا أيها الرسول، ﴿أَجْرًا﴾: على تبليغ الرسالة، ﴿فَهُمْ مِنْ مَّغْرَمٍ مَقْلُونُونَ﴾: ليس الأمر كذلك، بل أنت الحرص على تعليمهم تبرعاً من غير شيء، بل تبذل لهم الأموال الجزيلة على قبول رسالتك والاستجابة لأمرك ودعوتك، وتعطي المؤلفة قلوبهم؛ ليمكن العلم والإيمان من قلوبهم.

﴿٣٨﴾ ﴿أَمْ عِنْدَهُ الْغَيْبُ﴾: ما كانوا يعلمونه من الغيوب، فيكونون قد اطلعوا على ما لم يطلع عليه رسول الله، فعارضوه وعاندوه بما عندهم من علم الغيب، وقد علم أنهم الأمة الأمية الجهال الضالون، ورسول الله ﷺ هو الذي عنده من العلم أعظم من غيره، وأنبأه الله من علم الغيب على ما لم يطلع عليه أحد من الخلق، وهذا كله لإزامهم بالطرق العقلية والنقلية على فساد قولهم وتصوير بطلانه بأحسن الطرق وأوضحها وأسلمها من الاعتراض.

﴿٣٩﴾ وقوله: ﴿أَمْ يُرِيدُونَ﴾: بقدرتهم فيكم وفيما جئت به ﴿كَيْدًا﴾: يطلعون به دينك، ويفسدون به أمرك. ﴿فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ﴾: أي: كيدهم في نحورهم، ومضرته عائدة إليهم، وقد فعل الله ذلك، ولله الحمد، فلم يُتَّقِ الكفار من مقدورهم من المكر شيئاً إلا فعلوه، فنصر الله نبيه عليهم، وأظهر دينه، وخذلهم وانتصر منهم.

﴿٤٠﴾ ﴿أَمْ لَمْ يَلَمْ إِلَهُ غَيْرَ اللَّهِ﴾: أي: ألهم إله يدعى ويرجى نفعه ويخاف من ضره غير الله تعالى؟ ﴿سُبْحَنَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾: فليس له شريك في الملك، ولا شريك في الوجدانية والعبادة، وهذا هو المقصود من الكلام الذي سبق لأجله، وهو بطلان عبادة ما سوى الله، وبيان فسادها بتلك الأدلة القاطعة، وأن ما عليه المشركون هو الباطل، وأن الذي

﴿٤١﴾ ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾: وهذا استدلال عليهم بأمر لا يمكنهم فيه إلا التسليم للحق، أو الخروج عن موجب العقل والدين. وبيان ذلك أنهم منكرون لتوحيد الله، مكذبون لرسوله، وذلك مستلزم لإنكار أن الله خلقهم، وقد تقرر في العقل مع الشرع أن ذلك لا يخلو من أحد ثلاثة أمور: إما أنهم ﴿خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ﴾؛ أي: لا خالق خلقهم؛ بل وجدوا من غير إيجاد ولا موجد؛ وهذا عين المحال. ﴿أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾: لأنفسهم؛ وهذا أيضاً محال؛ فإنه لا يتصور أن يوجد أحد نفسه. فإذا بطل هذان الأمران وبان استحالتهما؛ تعين القسم الثالث، وهو أن الله هو الذي خلقهم. وإذا تعين ذلك؛ علم أن الله تعالى هو المعبود وحده، الذي لا تنبغي العبادة ولا تصلح إلا له تعالى.

﴿٤٢﴾ وقوله: ﴿أَمْ خَلَقُوا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾: وهذا استفهام يدل على تقرير النفي؛ أي: ما خلقوا السماوات والأرض، فيكونوا شركاء لله، وهذا أمر واضح جداً. ﴿بَلْ الْمَكْذُوبُونَ﴾: لا يُوقِنُونَ ﴿٤٣﴾: أي: ليس عندهم علم تام يقين يوجب لهم الانتفاع بالأدلة الشرعية والعقلية.

﴿٤٤﴾ ﴿أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُصَيِّطُونَ﴾: أي: أعند هؤلاء المكذبين خزائن رحمة ربك، فيعطوا من يشاءون ويمنعوا من يشاءون؛ أي: فلذلك حجبوا على الله أن يعطي النبوة عبده ورسوله محمداً ﷺ، وكأنهم الوكلاء المفوضون على خزائن رحمة الله، وهم أحقر وأذل من ذلك؛ فليس في أيديهم لأنفسهم نفع ولا ضر ولا موت ولا حياة ولا نشور؛ ﴿أَمْ هُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمًا بَيْنَهُمْ مَبِيتُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [الزخرف: ٢٢]؟ ﴿أَمْ هُمُ الْمُصَيِّطُونَ﴾: أي: المتسلطون على خلق الله وملكه بالقهر والغلبة؟! ليس الأمر كذلك، بل هم العاجزون الفقراء.

﴿٤٥﴾ ﴿أَمْ لَمْ يَسْمَعْهُمْ فِيهِ﴾: أي: ألهم اطلاع على الغيب واستماع له بين الملا الأعلى، فيخبرون عن أمور لا يعلمها غيرهم، ﴿فَلْيَأْتِ مُسْتَعْتَبُهُمُ﴾: المدعي لذلك ﴿بِسُطْنِ مِيِّنٍ﴾: وأنا له ذلك والله تعالى عالم الغيب والشهادة؛ فلا يظهر على غيبه أحداً؛ إلا من ارتضى من رسول يخبره بما أراد من علمه، وإذا كان محمد ﷺ أفضل الرسل وأعلمهم وإمامهم، وهو المخبر بما أخبر به من توحيد الله ووعده ووعيده وغير ذلك من أخباره الصادقة، والمكذبون هم أهل

ينبغي أن يعبد ويصلى له ويسجد ويخلص له دعاء العبادة ودعاء المسألة هو الله المألوه المعبود، كامل الأسماء والصفات، كثير النعوت الحسنة والأفعال الجميلة، ذو الجلال والإكرام والعز الذي لا يرام، الواحد الأحد، الفرد الصمد، الكبير الحميد المجيد.

﴿وَإِنْ يَرَوْا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَّرْكُومٌ ٤٤﴾
﴿فَذَرَهُمْ حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ ٤٥﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ٤٦﴾.

﴿٤٤﴾ يقول تعالى في ذكر بيان أن المشركين المكذابين بالحق الواضح قد عتوا عن الحق وعسوا على الباطل، وأنه لو قام على الحق كل دليل؛ لما اتبعوه، ولخالفوه وعاندوه: ﴿وَإِنْ يَرَوْا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا﴾؛ أي: لو سقط عليهم من السماء من الآيات الباهرة كسف؛ أي: قطع كبار من العذاب، ﴿يَقُولُوا سَحَابٌ مَّرْكُومٌ ٤٤﴾؛ أي: هذا سحب متراكم على العادة؛ أي: فلا يبالون بما رأوا من الآيات، ولا يعتبرون بها! ﴿٤٥﴾ وهؤلاء لا دواء لهم إلا العذاب والنكال، ولهذا قال: ﴿فَذَرَهُمْ حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ ٤٥﴾ وهو يوم القيامة، الذي يصيبهم فيه من العذاب ما لا يقادر قدره ولا يوصف أمره.

﴿٤٦﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا؛ أي: لا قليلاً ولا كثيراً، وإن كان في الدنيا قد يوجد منهم كيد يعيشون به زمناً قليلاً؛ فيوم القيامة يضمحل كيدهم، وتبطل مساعيهم، ولا ينتصرون من عذاب الله، ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ٤٦﴾.

﴿وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَلِكَ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ٤٧﴾ وَأَصْرُ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ٤٨ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَرَ النُّجُومِ ٤٩﴾.

﴿٤٧﴾ لما ذكر الله عذاب الظالمين في الآخرة؛ أخبر أن لهم عذاباً قبل عذاب يوم القيامة، وذلك شامل لعذاب الدنيا بالقتل والسبي والإخراج من الديار، ولعذاب البرزخ والقبر. ﴿وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ٤٧﴾؛ أي: فلذلك أقاموا على ما يوجب العذاب وشدة العقاب.

﴿٤٨﴾، ﴿٤٩﴾ ولما بين تعالى الحجج والبراهين على بطلان أقوال المكذبين؛ أمر رسوله ﷺ ألا يعاب بهم شيئاً، وأن يصبر لحكم ربه القدري والشرعي؛ بلزومه والاستقامة عليه،

ووعده الله الكفاية بقوله: ﴿فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾؛ أي: بمرأى منا وحفظ واعتناء بأمرك، وأمره أن يستعين على الصبر بالذكر والعبادة، فقال: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ٤٨﴾؛ أي: من الليل؛ ففيه الأمر بقيام الليل، أو حين تقوم إلى الصلوات الخمس؛ بدليل قوله: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَرَ النُّجُومِ ٤٩﴾؛ أي: آخر الليل، ويدخل فيه صلاة الفجر. والله أعلم.

تم تفسير سورة الطور. والحمد لله.

﴿٤٩﴾

تفسير سورة النجم

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ١﴾ مَا صَلَ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ٢﴾ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ٤﴾ عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ ٥﴾ ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ ٦﴾ وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ ٧﴾ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ٨﴾ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ٩﴾ فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ ١٠﴾ مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ ١١﴾ أَفَتَسْمُرُونَ عَلَىٰ مَا بَرَىٰ ١٢﴾ وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ١٣﴾ عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَىٰ ١٤﴾ عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ ١٥﴾ إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ١٦﴾ مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَفَىٰ ١٧﴾ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ ١٨﴾.

﴿١﴾ يقسم تعالى بالنجم عند هويته؛ أي: سقوطه في الأفق في آخر الليل عند إدبار الليل وإقبال النهار؛ لأن في ذلك من الآيات العظيمة ما أوجب أن أقسم به، والصحيح أن النجم اسم جنس شامل للنجوم كلها. وأقسم بالنجوم على صحة ما جاء به الرسول ﷺ من الوحي الإلهي؛ لأن في ذلك مناسبة عمجية؛ فإن الله تعالى جعل النجوم زينة للسماء؛ وكذلك الوحي وآثاره زينة للأرض؛ فلولا العلم الموروث عن الأنبياء؛ لكان الناس في ظلمة أشد من ظلمة الليل البهيم.

﴿٢﴾ والمقسم عليه تنزيه الرسول ﷺ عن الضلال في علمه والغني في قصده، ويلزم من ذلك أن يكون مهتدياً في علمه هادياً حسن القصد ناصحاً للامة، بعكس ما عليه أهل الضلال من فساد العلم وسوء القصد، وقال: ﴿صَاحِبُكُمْ﴾؛ لينبههم على ما يعرفونه منه من الصدق والهداية، وأنه لا يخفى عليهم أمره.

﴿٢﴾، ﴿٤﴾ ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ﴾ ﴿٣﴾؛ أي: ليس نطقه صادراً عن هوى نفسه. ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ ﴿٤﴾؛ أي: لا يتبع إلا ما أوحى إليه من الهدى والتقوى في نفسه وفي غيره. ودل هذا على أن السنة وحي من الله لرسوله ﷺ؛ كما قال تعالى: ﴿وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ [النساء: ١١٣]. وأنه معصوم فيما يخبر به عن الله تعالى وعن شرعه؛ لأن كلامه لا يصدر عن هوى، وإنما يصدر عن وحي يوحى.

﴿٥﴾ ثم ذكر المعلم للرسول ﷺ، وهو جبريل عليه السلام، أفضل الملائكة الكرام وأقوامهم وأكملهم، فقال: ﴿عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ﴾ ﴿٥﴾؛ أي: نزل بالوحي على الرسول ﷺ جبريل عليه السلام، شديد القوى؛ أي: شديد القوة الظاهرة والباطنة، قوي على تنفيذ ما أمره الله بتنفيذه، قوي على إيصال الوحي إلى الرسول ﷺ ومنعه من اختلاس الشياطين له أو إدخالهم فيه ما ليس منه، وهذا من حفظ الله لوحيه؛ أن أرسله مع هذا الرسول القوي الأمين.

﴿٦﴾ ﴿ذُو مِرَّةٍ﴾؛ أي: قوة وخلق حسن وجمال ظاهر وباطن، ﴿فَأَسْتَوَىٰ﴾؛ جبريل عليه السلام.

﴿٧﴾ ﴿وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ﴾ ﴿٧﴾؛ أي: أفق السماء الذي هو أعلى من الأرض؛ فهو من الأرواح العلوية، التي لا تتألف الشياطين ولا يتمكنون من الوصول إليها.

﴿٨﴾ ﴿ثُمَّ دَنَا﴾؛ جبريل من النبي ﷺ لإيصال الوحي إليه، ﴿فَدَنَّا﴾ ﴿٨﴾؛ عليه من الأفق الأعلى.

﴿٩﴾ ﴿فَكَانَ﴾؛ في قربه منه ﴿قَابَ قَوْسَيْنِ﴾؛ أي: قدر قوسين، والقوس معروف، ﴿أَوْ أَدْنَىٰ﴾ ﴿٩﴾؛ أي: أقرب من القوسين. وهذا يدل على كمال مباشرته للرسول ﷺ بالرسالة، وأنه لا واسطة بينه وبين جبريل عليه السلام.

﴿١٠﴾ ﴿فَأَوْحَىٰ﴾ الله بواسطة جبريل عليه السلام ﴿إِلَىٰ عَبْدِهِ﴾ محمد ﷺ ﴿مَا أَوْحَىٰ﴾ ﴿١٠﴾؛ أي: الذي أوحاه إليه من الشرع العظيم والنبا المستقيم.

﴿١١﴾، ﴿١٢﴾ ﴿مَا كَذَّبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ﴾ ﴿١١﴾؛ أي: اتفق فؤاد الرسول ﷺ ورؤيته على الوحي الذي أوحاه الله إليه، وتواطأ عليه سمعه وبصره وقلبه، وهذا دليل على كمال الوحي الذي أوحاه الله إليه، وأنه تلقاه منه تلقياً لا شك فيه ولا شبهة ولا ريب، فلم يكذب فؤاده ما رأى بصره، ولم يشك في ذلك.

ويحتمل أن المراد بذلك ما رأى ﷺ ليلة أسري به من آيات الله العظيمة، وأنه يقننه حقاً بقلبه ورؤيته، هذا هو الصحيح في تأويل الآية الكريمة. وقيل: إن المراد بذلك رؤية الرسول ﷺ لربه ليلة الإسراء وتكليمه إياه. وهذا اختيار كثير من العلماء رحمهم الله، فأثبتوا بهذا رؤية الرسول ﷺ لربه في الدنيا.

ولكن الصحيح القول الأول، وأن المراد به جبريل عليه السلام؛ كما يدل عليه السياق، وأن محمداً ﷺ رأى جبريل في صورته الأصلية التي هو عليها مرتين^(١): مرة في الأفق الأعلى تحت السماء الدنيا كما تقدم، والمرة الثانية فوق السماء السابعة ليلة أسري برسول الله ﷺ.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴿١﴾ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾ عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ ﴿٥﴾ ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ ﴿٦﴾ وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ ﴿٧﴾ ثُمَّ دَنَا فَدَنَّا ﴿٨﴾ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴿٩﴾ فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ ﴿١٠﴾ مَا كَذَّبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ ﴿١١﴾ أَفَتُكْفَرُونَ بِهِ وَلَقَدْ رَأَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٢﴾ عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَىٰ ﴿١٣﴾ عِنْدَ جَانَّةِ الْمَأْوَىٰ ﴿١٤﴾ إِذْ يَقْنُنُ مِنَ السَّمَاءِ مَا يَخْفَىٰ ﴿١٥﴾ مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٦﴾ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ ﴿١٧﴾ أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ ﴿١٨﴾ وَمَنْوَةَ الثَّالِثَةَ الْآخِرَىٰ ﴿١٩﴾ أَلَكُمُ الذَّكْرُ وَلَهُ الْأُنثَىٰ ﴿٢٠﴾ تِلْكَ إِذْ أَدْبَسَتْهُ زَيْزِقَةٌ ﴿٢١﴾ إِنَّ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءُ سَمِيَتْهُمَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمْ الْهُدَىٰ ﴿٢٢﴾ أَمْ لِلْإِنْسَانِ مَا تَنَّىٰ ﴿٢٣﴾ فَلِلَّهِ الْآخِرَةُ وَالْأُولَىٰ ﴿٢٤﴾ وَكَرَّمَنَ مَلَكٌ فِي السَّمَوَاتِ لَا تَعْنَىٰ شَفَعَتُهُمْ شَيْئاً إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَىٰ ﴿٢٥﴾

٥٢٦

شيء ولا تنفع ولا تضر، وإنما هي أسماء فارغة من المعنى سماها المشركون هم وآباؤهم الجاهل الضلال، ابتدعوا لها من الأسماء الباطلة التي لا تستحقها، فخدعوا بها أنفسهم وغيرهم من الضلال؛ فالآلهة التي بهذه الحال لا تستحق مثقال ذرة من العبادة، وهذه الأنداد التي سموها بهذه الأسماء زعموا أنها مشتقة من أوصاف هي متصفة بها، فسموا اللات من الإله المستحق للعبادة، والعزى من العزيز، ومناة من المنان؛ إلحاداً في أسماء الله، وتجريباً على الشرك به! وهذه أسماء متجردة من المعاني؛ فكل من له أدنى مسكة من عقل يعلم بطلان هذه الأوصاف فيها.

﴿٢١﴾ أَلَكُمُ الذَّكْرُ وَلَهُ الْأُنثَى ﴿٢٢﴾؛ أي: أنجعلون لله البنات بزعمكم ولكم البنون.

﴿٢٣﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَى ﴿٢٤﴾؛ أي: ظالمة جائرة. وأي ظلم أعظم من قسمة تقتضي تفضيل العبد المخلوق على الخالق؟! تعالى عن قولهم علواً كبيراً.

﴿٢٥﴾ وقوله: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمِيَتْهُمَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ﴾؛ أي: من حجة وبرهان على صحة مذهبيكم، وكل أمر ما أنزل الله به من سلطان؛ فهو باطل فاسد لا يتخذ ديناً، وهم في أنفسهم ليسوا بمتبعين لبرهان يتيقنون به ما ذهبوا إليه، وإنما دلهم على قولهم الظن الفاسد والجهل الكاسد، وما تهواه أنفسهم من الشرك والبدع الموافقة لأهويتهم، والحال أنه لا موجب لهم يقتضي اتباعهم الظن من فقد العلم والهدى، ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَى﴾؛ أي: الذي يرشدكم في باب التوحيد والنبوة وجميع المطالب التي يحتاج إليها العباد؛ فكلها قد بينها الله أكمل بيان وأوضحه وأدله على المقصود، وأقام عليه من الأدلة والبراهين ما يوجب لهم ولغيرهم اتباعه، فلم يبق لأحد حجة ولا عذر من بعد البيان والبرهان، وإذا كان ما هم عليه غايته اتباع الظن ونهايته الشقاء الأبدي والعذاب سرمدي؛ فالبقاء على هذه الحال من أسفه السفه وأظلم الظلم.

﴿٢٦﴾ ومع ذلك يتمنون الأماني ويغترون بأنفسهم! ولهذا أنكر تعالى على من زعم أنه يحصل له ما تمنى وهو كاذب في ذلك، فقال: ﴿أَمْ لِلْإِنْسَانِ مَا تَمَنَّى﴾ ﴿٢٧﴾ فَلِلَّهِ الْآخِرَةُ وَالْأُولَى ﴿٢٨﴾؛ فيعطي منهما من يشاء ويمنع من يشاء؛ فليس الأمر تابعاً لأمانيتهم ولا موافقاً لأهوائهم.

﴿٢٩﴾ ولهذا قال: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى﴾ ﴿٣٠﴾؛ أي: رأى محمد جبريل مرة أخرى نازلاً إليه، ﴿عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَنِ﴾ ﴿٣١﴾؛ وهي شجرة عظيمة جداً فوق السماء السابعة، سميت سدرة المنتهى؛ لأنه ينتهي إليها ما يعرج من الأرض، وينزل إليها ما ينزل من الله من الوحي وغيره، أو لانهاء علم المخلوقات إليها؛ أي: لكونها فوق السماوات والأرض؛ فهي المنتهى في علوها، أو لغير ذلك. والله أعلم. فرأى محمد ﷺ جبريل في ذلك المكان الذي هو محل الأرواح العلوية الزاكية الجميلة التي لا يقربها شيطان ولا غيره من الأرواح الخبيثة.

﴿٣٢﴾ عند تلك الشجرة، ﴿جَنَّةِ الْمَأْوَى﴾ ﴿٣٣﴾؛ أي: الجنة الجامعة لكل نعيم؛ بحيث كانت محلاً تنتهي إليه الأماني، وترغب فيها الإرادات، وتأوي إليها الرغبات. وهذا دليل على أن الجنة في أعلى الأماكن وفوق السماء السابعة.

﴿٣٤﴾ ﴿إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى﴾ ﴿٣٥﴾؛ أي: يغشاها من أمر الله شيء عظيم لا يعلم وصفه إلا الله عز وجل.

﴿٣٦﴾ ﴿مَا زَاغَ الْبَصَرُ﴾؛ أي: ما زاغ بصره ولا يسره عن مقصوده ﴿وَمَا طَغَى﴾ ﴿٣٧﴾؛ أي: وما تجاوز البصر. وهذا كمال الأدب منه صلوات الله وسلامه عليه؛ أن قام مقاماً أقامه الله فيه، ولم يقصر عنه ولا تجاوزه ولا حاد عنه، وهذا أكمل ما يكون من الأدب العظيم، الذي فاق فيه الأولين والآخرين؛ فإن الإخلال يكون بأحد هذه الأمور: إما ألا يقوم العبد بما أمر به، أو يقوم به على وجه التفریط، أو على وجه الإفراط، أو على وجه الحيدة يميناً وشمالاً. وهذه الأمور كلها متفية عنه ﷺ.

﴿٣٨﴾ ﴿لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى﴾ ﴿٣٩﴾؛ من الجنة والنار وغير ذلك من الأمور التي رآها ﷺ ليلة أسري به.

﴿٤٠﴾ أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى ﴿٤١﴾ وَمَوْتَةَ الثَّالِثَةَ الْآخِرَى ﴿٤٢﴾ أَلَكُمُ الذَّكْرُ وَلَهُ الْأُنثَى ﴿٤٣﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَى ﴿٤٤﴾ إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمِيَتْهُمَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ يَبْعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَى ﴿٤٥﴾ أَمْ لِلْإِنْسَانِ مَا تَمَنَّى ﴿٤٦﴾ فَلِلَّهِ الْآخِرَةُ وَالْأُولَى ﴿٤٧﴾.

﴿٤٨﴾ لما ذكر تعالى ما جاء به محمد ﷺ من الهدى ودين الحق والأمر بعبادة الله وتوحيده؛ ذكر بطلان ما عليه المشركون من عبادة من ليس له من أوصاف الكمال

سورة النجم

سورة النجم

﴿وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لَا تُغْنِي عَنْهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى﴾ (٣٦).

﴿٣٦﴾ يقول تعالى منكرًا على من عبد غيره من الملائكة وغيرهم، وزعم أنها تنفعه وتشفع له عند الله يوم القيامة: ﴿وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ﴾: من الملائكة المقربين وكرام الملائكة، ﴿لَا تُغْنِي عَنْهُمْ شَيْئًا﴾؛ أي: لا تفيد من دعاها وتعلق بها ورجاها، ﴿إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى﴾ (٣٦)؛ أي: لا بد من اجتماع الشرطين: إذنه تعالى في الشفاعة، ورضاه عن المشفوع له. ومن المعلوم المتقرر أنه لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصًا لوجه الله، موافقًا فيه صاحبه الشريعة؛ فالمشركون إذاً لا نصيب لهم من شفاعة الشافعين؛ وقد سدوا على أنفسهم رحمة أرحم الراحمين.

﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لَيَسْئُونَ الْمَلَائِكَةَ تَسْيِئَةً الْأُنثَى﴾ (٣٧) وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِنْ يَسْمَعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا ﴿٣٨﴾ فَأَعْرَضَ عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٣٩﴾ ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدَى ﴿٤٠﴾

﴿٣٧﴾ يعني: أن المشركين بالله، المكذبين لرسوله، الذين لا يؤمنون بالآخرة؛ وبسبب عدم إيمانهم بالآخرة؛ تجرأوا على ما تجرأوا عليه من الأقوال والأفعال المحادة لله ولرسوله؛ من قولهم: الملائكة بنات الله! فلم ينزهوا ربهم عن الولادة، ولم يكرموا الملائكة ويجلوهم عن تسميتهم إياهم إناثًا، والحال أنه ليس لهم بذلك علم لا عن الله ولا عن رسوله ولا دلت على ذلك الفطر والعقول، بل العلم كله دالٌّ على نقيض قولهم، وأن الله منزّه عن الأولاد والصاحبة؛ لأنه الواحد الأحد، الفرد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد، وأن الملائكة كرام مقربون إلى الله قائمون بخدمته، ﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ (٤١) ﴿[التحريم: ٦]﴾.

﴿٣٨﴾ والمشركون إنما يتبعون في ذلك القول القبيح، وهو الظن الذي لا يغني من الحق شيئاً؛ فإن الحق لا بد فيه من اليقين المستفاد من الأدلة القاطعة والبراهين الساطعة.

﴿٣٩﴾ ولما كان هذا دأب هؤلاء المذكورين، أنهم لا غرض لهم في اتباع الحق، وإنما غرضهم ومقصودهم ما تهواه نفوسهم؛ أمر الله رسوله بالإعراض عمن تولى عن ذكره، الذي هو الذكر الحكيم والقرآن العظيم والنبا الكريم، فأعرض عن العلوم النافعة، ولم يرد إلا الحياة الدنيا؛ فهذا منتهى إرادته. ومن المعلوم أن العبد لا يعمل إلا للشيء الذي يريده؛ فسعي هؤلاء مقصور على الدنيا ولذاتها وشهواتها كيف حصلت حصلوها، وبأي طريق سنحت ابتدروها.

﴿٤٠﴾ ﴿ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ﴾؛ أي: هذا منتهى علمهم وغايته، وأما المؤمنون بالآخرة المصدقون بها أولو الأبواب والعقول؛ فمهمتهم وإرادتهم للدار الآخرة، وعلومهم أفضل العلوم وأجلها، وهو العلم المأخوذ من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، والله تعالى أعلم بمن يستحق الهداية فيهديه ممن لا يستحق ذلك فيكله إلى نفسه ويخذله بفضل عن سبيل الله، ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدَى﴾ (٤١)؛ فيضع فضله حيث يعلم المحل اللائق به.

القوية، والضعف موجود مشاهد منكم حين أنشأكم الله من الأرض، وإذ كنتم في بطون أمهاتكم، ولم يزل موجوداً فيكم، وإن كان الله تعالى قد أوجد فيكم قوة على ما أمركم به. ولكن الضعف لم يزل؛ فلعلمه تعالى بأحوالكم هذه؛ ناسبت الحكمة الإلهية والجود الرباني أن يتعمدكم برحمته ومغفرته وعفوه، ويغمركم بإحسانه، ويزيل عنكم الجرائم والمآثم، خصوصاً إذا كان العبد مقصوده مرضاة ربه في جميع الأوقات، وسعيه فيما يقرب إليه في أكثر الآتات، وفراره من الذنوب التي يمقت بها عند مولاه، ثم تقع منه الفلتة بعد الفلتة؛ فإن الله تعالى أكرم الأكرمين وأرحم الراحمين، أرحم بعباده من الوالدة بولدها؛ فلا بد لمثل هذا أن يكون من مغفرة ربه قريباً، وأن يكون الله له في جميع أحواله مجيباً، ولهذا قال تعالى: ﴿فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ﴾؛ أي: تخبرون الناس بطهارتها على وجه التمدح عندهم، ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ أَنْفَقَ﴾؛ فإن التقوى محلها القلب، والله هو المطلع عليه، المجازي على ما فيه من بر وتقوى، وأما الناس؛ فلا يغنون عنكم من الله شيئاً.

﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَكَّلَ﴾ إلى آخر السورة.

﴿٣١﴾ - ﴿٣٢﴾ يقول تعالى: أفرأيت قبح حالة من أمر بعبادة ربه وتوحيده فتولى عن ذلك وأعرض عنه؟ فإن سمحت نفسه ببعض الشيء القليل؛ فإنه لا يستمر عليه، بل ييخل ويكدي ويمنع؛ فإن الإحسان ليس سجية له وطبعاً، بل طبعه التولي عن الطاعة وعدم الثبوت على فعل المعروف، ومع هذا؛ فهو يزكي نفسه وينزلها غير منزلتها التي أنزلها الله بها. ﴿أَعِنْدَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ بِرَأْيِهِ﴾: الغيب فيخبر به؟ أم هو متقول على الله متجرب عليه جامع بين المحذورين والإساءة والتزكية؟ كما هو الواقع؛ لأنه قد علم أنه ليس عنده علم من الغيب، وأنه لو قدر أنه ادعى ذلك؛ فالإخبارات القاطعة عن علم الغيب التي على يد النبي المعصوم تدل على نقيض قوله، وذلك دليل على بطلانه.

﴿٣٣﴾، ﴿٣٤﴾، ﴿٣٥﴾: ﴿أَمْ لَمْ يَلِدْ﴾: هذا المدعي ﴿يَساً﴾ في صُحُفِ مُوسَى ﴿وَأَبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى﴾؛ أي: قام بجميع ما ابتلاه الله به، وأمره به من الشرائع وأصول الدين وفروعه.

﴿٣٦﴾ - ﴿٣٧﴾ وفي تلك الصحف أحكام كثيرة، من أهمها ما ذكره الله بقوله: ﴿الْأَنْزِلُ وَأَزِيدُ وَزُرْتُ﴾ ﴿وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى﴾؛ أي: كل عامل له عمله الحسن والسيئ؛

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ الَّذِينَ اسْتَوُوا بِمَا عَلَيْهِمْ وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى﴾ ﴿٣٨﴾ الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَثِيرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشِ إِلَّا اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجْنَةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ أَنْفَقَ﴾.

﴿٣٩﴾ يخبر تعالى أنه مالك الملك، المتفرد بملك الدنيا والآخرة، وأن جميع ما فيهما ملك لله، يتصرف فيهما تصرف الملك العظيم في عبيده ومماليكه، ينفذ فيهم قدره، ويجري عليهم شرعه، ويأمرهم وينهاهم، ويجزيهم على ما أمرهم به ونهاهم عنه، فيثيب المطيع ويعاقب العاصي، ﴿يَجْزِيَ الَّذِينَ اسْتَوُوا﴾ العمل من سيئات الكفر فما دونه من المعاصي، وبما عملوه من أعمال الشر بالعقوبة البليغة، ﴿وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا﴾: في عبادة الله، وأحسنوا إلى خلق الله بأنواع المنافع ﴿بِالْحُسْنَى﴾؛ أي: بالحالة الحسنة في الدنيا والآخرة، وأكبر ذلك وأجله رضا ربهم والفوز بنعيم الجنة.

﴿٤٠﴾ ثم ذكر وصفهم، فقال: ﴿الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَثِيرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشِ﴾؛ أي: يفعلون ما أمرهم الله به من الواجبات، التي يكون تركها من كبائر الذنوب، ويتركون المحرمات الكبار من الزنا وشرب الخمر وأكل الربا والقتل ونحو ذلك من الذنوب العظيمة، ﴿إِلَّا اللَّمَمَ﴾: وهو الذنوب الصغار التي لا يصير صاحبها عليها، أو التي يلم العبد بها المرة بعد المرة على وجه الندرة والقلة؛ فهذه ليس مجرد الإقدام عليها مخرجاً للعبد من أن يكون من المحسنين؛ فإن هذه مع الإتيان بالواجبات وترك المحرمات تدخل تحت مغفرة الله التي وسعت كل شيء، ولهذا قال: ﴿إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ﴾: فلولاً مغفرته؛ لهلكت البلاد والعباد، ولولا عفوه وحلمه؛ لسقطت السماء على الأرض، ولما ترك على ظهرها من دابة، ولهذا قال النبي ﷺ: «الصلوات الخمس، والجمعة إلى الجمعة، ورمضان إلى رمضان؛ مكفرات لما بينهن ما اجتنبت الكبائر»^(١). وقوله: ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجْنَةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ﴾؛ أي: هو تعالى أعلم بأحوالكم كلها، وما جبلكم عليه من الضعف والخور عن كثير مما أمركم الله به، ومن كثرة الدواعي إلى فعل المحرمات، وكثرة الجواذب إليها، وعدم الموانع

فليس له من عمل غيره وسعيه شيء، ولا يتحمل أحد عن أحد ذنباً، ﴿وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى﴾ ﴿٤٢﴾: في الآخرة، فيميز حسنه من سيئه، ﴿ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَى﴾ ﴿٤٣﴾؛ أي: المستكمل لجميع العمل، الخالص الحسن بالحسن، والسيئ الخالص بالسيئ، والمشوب بحسبه؛ جزاء تقرُّ بعدله وإحسانه الخليقة كلها، وتحمد الله عليه، حتى إن أهل النار ليدخلون النار، وإن قلوبهم مملوءة من حمد ربهم والإقرار له بكمال الحكمة ومقت أنفسهم، وأنهم الذين أوصلوا أنفسهم وأوردوها شر الموارد. وقد استدل بقوله تعالى: ﴿وَأَنْ لَّيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى﴾ ﴿٤٤﴾: من يرى أن القرب لا يجوز إهداؤها للأحياء ولا للموات، قالوا: لأن الله قال: ﴿وَأَنْ لَّيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى﴾ ﴿٤٥﴾؛ فصول سعي غيره إليه منافع لذلك. وفي هذا الاستدلال نظر؛ فإن الآية إنما تدل على أنه ليس للإنسان إلا ما سعى بنفسه، وهذا حق لا خلاف فيه، وليس فيها ما يدل على أنه لا يتنفع بسعي غيره إذا أهده ذلك الغير إليه؛ كما أنه ليس للإنسان من المال إلا ما هو في ملكه وتحت يده، ولا يلزم من ذلك ألا يملك ما وهبه الغير له من ماله الذي يملكه.

﴿٤٦﴾ وقوله: ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنْتَهَىٰ﴾ ﴿٤٦﴾؛ أي: إليه تنتهي

الأمر، وإليه تصير الأشياء والخلائق بالبعث والنشور، وإلى الله المنتهى في كل حال؛ فإليه ينتهي العلم والحكم والرحمة وسائر الكمالات.

﴿٤٧﴾ وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى ﴿٤٧﴾؛ أي: هو الذي أوجد أسباب الضحك والبكاء، وهو الخير والشر والفرح والسرور والهم والحزن، وهو سبحانه له الحكمة البالغة في ذلك.

﴿٤٨﴾ وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتٌ وَاحْيَا ﴿٤٨﴾؛ أي: هو المنفرد بالإيجاد والإعدام، والذي أوجد الخلق وأمرهم ونهاهم، سيعيدهم بعد موتهم، ويجازيهم بتلك الأعمال التي عملوها في دار الدنيا.

﴿٤٩﴾ وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ ﴿٤٩﴾: فسرهما بقوله: ﴿الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ﴾ ﴿٥٠﴾: وهذا اسم جنس شامل لجميع الحيوانات ناطقها وبهيما؛ فهو المنفرد بخلقها ﴿مِنْ تُطْفَئُ إِذَا تَنَفَّسَتْ﴾ ﴿٥١﴾: وهذا من أعظم الأدلة على كمال قدرته وانفراده بالعزة العظيمة؛ حيث أوجد تلك الحيوانات صغيرها وكبيرها من نطفة ضعيفة من ماء مهين، ثم نماها وكمّلها حتى بلغت ما بلغت، ثم صار الآدمي منها إما إلى أرفع المقامات في أعلى عليين، وإما إلى أدنى الحالات في أسفل سافلين.

﴿٥٢﴾ وَلِهَذَا اسْتَدَلَّ بِالْبَدَاةِ عَلَى الْإِعَادَةِ، فَقَالَ: ﴿وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشْأَةَ الْأُخْرَىٰ﴾ ﴿٥٢﴾: فيعيد العباد من الأجداث، ويجمعهم ليوم الميقات، ويجازيهم على الحسنات والسيئات.

﴿٥٣﴾ وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ ﴿٥٣﴾؛ أي: أغنى العباد بتيسير أمر معاشهم من التجارات وأنواع المكاسب من الحرف وغيرها، ﴿وَأَقْنَىٰ﴾ ﴿٥٤﴾؛ أي: أفاد عباده من الأموال بجميع أنواعها ما يصيرون به مقتنين لها ومالكين لكثير من الأعيان، وهذا من نعمه تعالى؛ أن أخبرهم أن جميع النعم منه، وهذا يوجب للعباد أن يشكروه ويعبدوه وحده لا شريك له.

سُورَةُ النَّجْمِ

وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ ﴿٤٩﴾ مِنْ تُطْفَئُ إِذَا تَنَفَّسَتْ ﴿٥١﴾ وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشْأَةَ الْأُخْرَىٰ ﴿٥٢﴾ وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ ﴿٥٣﴾ وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشَّعَرِ ﴿٥٤﴾ وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَىٰ ﴿٥٥﴾ وَتَمَوَّذًا أَبْنَىٰ ﴿٥٦﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطَىٰ ﴿٥٧﴾ وَالْمُرْثَفَةَ أَمْهُوَىٰ ﴿٥٨﴾ فَغَشَّاهَا مَعْنَىٰ ﴿٥٩﴾ فَيَأْتِي آلَؤُكَ نَسَمَاتِ ﴿٦٠﴾ هَذَا نَذِيرٌ مِنَ النَّذْرِ الْأُولَىٰ ﴿٦١﴾ أَرَأَيْتَ الْآزِفَةَ ﴿٦٢﴾ لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ ﴿٦٣﴾ أَفَرَأَيْتَ هَذَا الْوَلَدِيتَ تَصْغُبُونَ ﴿٦٤﴾ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ﴿٦٥﴾ وَأَنْتُمْ سَيِّدُونَ ﴿٦٦﴾ فَاتَّخِذُوا لِلَّهِ عِبْدًا ﴿٦٧﴾

سُورَةُ النَّجْمِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أَفَرَأَيْتَ السَّاعَةَ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ ﴿١﴾ وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرَضُوا ﴿٢﴾ وَيَقُولُوا بَحَّرَ مُسْتَعِيرٌ ﴿٣﴾ وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ﴿٤﴾ وَكُلُّ أَمْرٍ مُسْتَقَرٌّ ﴿٥﴾ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ﴿٦﴾ حِكْمَةٌ بَلَغَتْ فَمَا تَنفَىٰ النَّذْرُ ﴿٧﴾ فَنُفِّلَ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعُ إِلَىٰ شَيْءٍ نَكِيرٍ ﴿٨﴾

٥٢٨

﴿٤٩﴾ وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ السَّمْعَى ﴿٤٩﴾: وهي النجم المعروف بالشعري العبور، المسماة بالمرزم، وخصها الله بالذكر وإن كان هو رب كل شيء؛ لأن هذا النجم مما عبد في الجاهلية، فأخبر تعالى أن جنس ما يعبد المشركون مربوب مدبر مخلوق؛ فكيف تتخذ إلهًا مع الله؟! ﴿٥٠﴾ وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَى ﴿٥٠﴾: وهم قوم هود عليه السلام حين كذبوا هودًا، فأهلكهم الله بريح صرصر عاتية.

﴿٥١﴾ وَنَمُودَ ﴿٥١﴾: قوم صالح عليه السلام؛ أرسله الله إلى ثمود، فكذبوه، فبعث الله إليهم الناقة آية، فعقروها وكذبوه، فأهلكهم الله تعالى، ﴿فَمَا أَفَى﴾ ﴿٥١﴾: منهم أحدًا، بل أبادهم عن آخرهم.

﴿٥٢﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلِ أَن يَهْبِطَ سَافِرًا مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًا وَآخَرَ ﴿٥٢﴾: وهم قوم لوط عليه السلام، ﴿فَأَهْلَكْنَاهُمْ﴾ ﴿٥٢﴾: وأصابهم الله بعذاب ما عذب به أحدًا من العالمين قلب أسفل ديارهم أعلاها، وأمطر عليهم حجارة من سجيل، ولهذا قال: ﴿فَنَفْسُهَا مَأْغَشَى﴾ ﴿٥٢﴾: أي: غشيها من العذاب الأليم الوحيم ما غشى؛ أي: شيء عظيم لا يمكن وصفه.

﴿٥٣﴾ وَيَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي آتَاكُم بِذِكْرٍ لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿٥٣﴾: أي: فبأي نعم الله وفضله تشك أيها الإنسان؛ فإن نعم الله ظاهرة لا تقبل الشك بوجه من الوجوه؛ فما بالعباد من نعمة إلا منه تعالى، ولا يدفع النقم إلا هو.

﴿٥٤﴾ هَذَا نَذِيرٌ مِّنَ النَّذِيرِ الْأُولَى ﴿٥٤﴾: أي: هذا الرسول القرشي الهاشمي محمد بن عبد الله ليس ببدع من الرسل، بل قد تقدمه من الرسل السابقين، ودعوا إلى ما دعا إليه؛ فلا شيء تنكر رسالته؟! وبأي حجة تبطل دعوته؟! أليست أخلاقه أعلى أخلاق الرسل الكرام؟! أليس يدعو إلى كل خير وينهى عن كل شر؟! ألم يأت بالقرآن الكريم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد؟! ألم يهلك الله من كذب من قبله من الرسل الكرام؟! فما الذي يمنع العذاب عن المكذبين لمحمد سيد المرسلين وإمام المتقين وقائد الغر المحجلين؟! ﴿٥٥﴾ وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَى ﴿٥٥﴾: وهم قوم هود عليه السلام حين كذبوا هودًا، فأهلكهم الله بريح صرصر عاتية.

﴿٥٦﴾ أَزِفَتِ الْآزِفَةُ ﴿٥٦﴾: أي: قربت القيامة ودنا وقتها وياتن علاماتنها، ﴿لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ﴾ ﴿٥٦﴾: أي: إذا أتت القيامة وجاءهم العذاب المريع، ﴿فَقَالَ﴾ ﴿٥٦﴾: المكذبين لما جاء به من القرآن الكريم، فقال:

﴿٥٧﴾ أَفَرَأَيْتَ إِنْ هَذَا لَكَلِّيتٌ نَّعْجِبُونَ ﴿٥٧﴾: أي: أفمن هذا الحديث الذي هو خير الكلام وأفضله وأشرفه تتعجبون، وتجعلونه من الأمور المخالفة للعادة، الخارقة للآثار والحقائق المعروفة؟! هذا من جهلهم وضلالهم وعنادهم، وإلا؛ فهو الحديث الذي إذا حدث صدق، وإذا قال قولاً فهو القول الفصل، ليس بالهزل، وهو القرآن العظيم، الذي لو أنزل على جبل لرأيت حاششاً متصدعاً من خشية الله، الذي يزيد ذوي الأحلام رأياً وعقلاً وتسديداً وثباتاً و يقيناً وإيماناً، بل الذي ينبغي العجب من عقل من تعجب منه، وسفهة وضلاله.

﴿٥٨﴾ وَنَضْحَكُونَ وَلَا يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾: أي: تستعجلون الضحك والاستهزاء به، مع أنه الذي ينبغي أن تتأثر منه النفوس وتلين له القلوب وتبكي له العيون؛ سماعاً لأمره ونهي، وإصغاء لوعده ووعيده، والتفاتاً لأخباره الصادقة الحسنة.

﴿٥٩﴾ وَأَن تَتَذَكَّرُوا ﴿٥٩﴾: أي: غافلون لاهون عنه وعن تدبره، وهذا من قلة عقولكم وأديانكم؛ فلو عبدتم الله وطلبتهم رضاه في جميع الأحوال؛ لما كنتم بهذه المثابة التي يأنف منها أولو الأبواب.

﴿٦٠﴾ وَلَهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَاتَّبِعُوا اللَّهَ وَاعْبُدُوا﴾ ﴿٦٠﴾: الأمر بالسجود لله خصوصاً يدل على فضله، وأنه سر العبادة وليها؛ فإن روحها الخشوع لله والخضوع له، والسجود هو أعظم حالة يخضع بها العبد؛ فإنه يخضع قلبه وبدنه، ويجعل أشرف أعضائه على الأرض المهينة موضع وطء الأقدام. ثم أمر بالعبادة عموماً الشاملة لجميع ما يحبه الله ويرضاه من الأعمال والأقوال الظاهرة والباطنة.

تم تفسير سورة النجم.

والحمد لله الذي لا نحصي ثناء عليه، بل هو كما أثنى على نفسه وفوق ما ينثي عليه عباده وصلى الله على محمد وسلم تسليمًا كثيرًا.

تفسير سورة اقتربت الساعة

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿اَقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ﴾ ١ وَإِنْ يَرَوْا ءَايَةً يُعْرَضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَعْتِرٌ ٢ وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُسْتَقَرٌّ ٣ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْأَنْبَاءِ مَا فِيهِ مُرْدَجَرٌ ٤ حَكَمُهُ بَلِغَةٌ فَمَا تُغْنِ الْأَنْذُرُ ٥﴾

١ يخبر تعالى أن الساعة - وهي القيامة - اقتربت، وأن أوانها، وحان وقت مجيئها، ومع هذا؛ فهؤلاء المكذبون لم يزالوا مكذبين بها غير مستعدين لنزولها، ويريههم الله من الآيات العظيمة الدالة على وقوعها ما يؤمن على مثله البشر؛ فمن أعظم الآيات الدالة على صحة ما جاء به محمد بن عبد الله ﷺ أنه لما طلب منه المكذبون أن يريهم من خوارق العادات ما يدل على صحة ما جاء به وصدقه؛ أشار ﷺ إلى القمر، فانشق بإذن الله فلقتين؛ فلقة على جبل أبي قبيس، وفلقة على جبل قعيقعان، والمشركون وغيرهم يشاهدون هذه الآية الكبرى الكائنة في العالم العلوي، التي لا يقدر الخلق على التمويه بها والتخيل، فشاهدوا أمراً ما رأوا مثله، بل ولم يسمعوها أنه جرى لأحد من المرسلين قبله نظيره، فانبهروا لذلك، ولم يدخل الإيمان في قلوبهم، ولم يرد الله بهم خيراً، ففزعوا إلى بهتهم وطمعنائهم، وقالوا: سحرنا محمد! ولكن علامة ذلك أنكم تسألون من ورد عليكم من السفر؛ فإنه وإن قدر على سحرهم؛ لا يقدر أن يسحر من ليس مشاهداً مثلكم! فسألوا كل من قدم، فأخبروهم بوقوع ذلك، فقالوا: ﴿سِحْرٌ مُسْتَعْتِرٌ﴾ ٢! سحرنا محمد وسحر غيرنا!! وهذا من البهت الذي لا يروج إلا على أسفه الخلق وأضلهم عن الهدى والعقل.

٢ وهذا ليس إنكاراً منهم لهذه الآية وحدها، بل كل آية تأتيهم؛ فإنهم مستعدون لمقابلتها بالكذب والرد لها، ولهذا قال: ﴿وَإِنْ يَرَوْا ءَايَةً يُعْرَضُوا﴾: فلم يعد الضمير على انشقاق القمر، فلم يقل: وإن يروها، بل قال: ﴿وَإِنْ يَرَوْا ءَايَةً يُعْرَضُوا﴾؛ فليس قصدهم اتباع الحق والهدى، وإنما مقصودهم اتباع الهوى.

٣ ولهذا قال: ﴿وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾؛ كقوله تعالى: ﴿إِنْ لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا يُغْنِي عَنْكَ أَهْوَاءُهُمْ﴾ [قصص: ٥٠]؛ فإنه لو كان قصدهم اتباع الهدى؛ لأمنوا قطعاً واتبعوا محمداً ﷺ؛ لأنه أراهم الله على يديه من البينات والبراهين والحجج القواطع ما دل على جميع المطالب الإلهية والمقاصد الشرعية، ﴿وَكُلُّ أَمْرٍ مُسْتَقَرٌّ﴾ ٣؛ أي: إلى الآن لم يبلغ الأمر غايته ومنتهاه، وسيصير الأمر إلى آخره؛ فالمصدق يتقلب في جنات النعيم ومغفرة الله ورضوانه، والمكذب يتقلب في سخط الله وعذابه خالداً مخلداً أبداً.

٤ وقال تعالى ميئاً أنهم ليس لهم قصد صحيح ولا اتباع للهدى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْأَنْبَاءِ﴾؛ أي: الأخبار السابقة واللاحقة والمعجزات الظاهرة ﴿مَا فِيهِ مُرْدَجَرٌ﴾ ٤؛ أي: زاجر يزرهم عن غيهم وضلالهم.

٥ وذلك ﴿حَكَمُهُ﴾: منه تعالى ﴿بَلِغَةٌ﴾؛ أي: لتقوم حجة على المخالفين، ولا يبقى لأحد على الله حجة بعد الرسل، ﴿فَمَا تُغْنِ الْأَنْذُرُ﴾ ٥؛ كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ جَاءَهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ [يونس: ٩٧]. ﴿فَقَوْلَ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَى شَيْءٍ نُكْرٍ﴾ ٦ خُشْعاً أَبْصَرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُتَسَرِّحٌ ٧ مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَرِيرٌ ٨﴾.

٦ يقول تعالى لرسوله ﷺ: قد بان أن المكذبين لا حيلة في هداهم، فلم يبق إلا الإعراض عنهم، فقال: ﴿فَقَوْلَ عَنْهُمْ﴾: وانتظر بهم يوماً عظيماً وهولاً جسيماً، وذلك حين ﴿يَدْعُ الدَّاعِ﴾؛ وهو إسماعيل عليه السلام ﴿إِلَى شَيْءٍ نُكْرٍ﴾ ٦؛ أي: إلى أمر فظيع تنكره الخليفة، فلم تر منظراً أفظع ولا أروع منه، فينفخ إسماعيل نفخة يخرج بها الأموات من قبورهم لموقف القيامة.

٧ ﴿خُشْعاً أَبْصَرُهُمْ﴾؛ أي: من الهول والفرع الذي وصل إلى قلوبهم، فخضعت وذلت، وخشعت لذلك أبصارهم ﴿يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ﴾: وهي القبور ﴿كَأَنَّهُمْ﴾: من كثرتهم وروجان بعضهم ببعض ﴿جَرَادٌ مُتَسَرِّحٌ﴾ ٧؛ أي: مبثوث في الأرض متكاثر جداً.

٨ ﴿مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ﴾؛ أي: مسرعين لإجابة نداء الداعي، وهذا يدل على أن الداعي يدعوهم ويأمرهم بالحضور

لموقف القيامة، فيلبون دعوته ويسرعون إلى إجابته، ﴿يَقُولُ الْكَافِرُونَ﴾: الذين قد حضر عذابهم: ﴿هَذَا يَوْمٌ عَسَىٰ﴾؛ كما قال تعالى: ﴿عَلَى الْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [المدر: ١٠]. مفهوم ذلك أنه يسير سهل على المؤمنين.

﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ﴾ إلى آخر قصته.

لما ذكر تبارك وتعالى حال المكذبين لرسوله وأن الآيات لا تنفع فيهم ولا تجدي عليهم شيئاً؛ أنذرهم وخوفهم بعقوبات الأمم الماضية المكذبة للرسول، وكيف أهلكهم الله وأحل بهم عقابه، فذكر قوم نوح؛ أول رسول بعثه الله إلى قوم يعبدون الأصنام، فدعاهم إلى توحيد الله وعبادته وحده لا شريك له، فامتنعوا من ترك الشرك، وقالوا: ﴿لَا نَذَرُ﴾، أي: لا نذركم، ولم يزل نوح يدعوهم إلى الله ليلاً ونهاراً سراً وجهاراً، فلم يزدهم ذلك إلا عناداً وطغياناً وقدحاً في نبيهم، ولهذا قال هنا: ﴿فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ﴾: لزعمهم أن ما هم عليه وآباؤهم من الشرك والضلال هو الذي يدل عليه العقل، وأن ما جاء به نوح عليه السلام جهل وضلال لا يصدر إلا من المجانين، وكذبوا في ذلك، وقلبوا الحقائق الثابتة شرعاً وعقلاً؛ فإن ما جاء به هو الحق الثابت الذي يرشد العقول النيرة المستقيمة إلى الهدى والنور والرشد، وما هم عليه جهل وضلال مبين. وقوله: ﴿وَازْدُجِرَ﴾؛ أي: زجره قومه وعنفوه لما دعاهم إلى الله تعالى، فلم يكفهم - قبحهم الله - عدم الإيمان به ولا تكذيبهم إياه، حتى أوصلوا إليه من أذيتهم ما قدروا عليه، وهكذا جميع أعداء الرسل هذه حالهم مع أنبيائهم.

﴿فَعَنَدَ ذَلِكَ دَعَا نُوحٍ رَبَّهُ﴾: فقال: ﴿إِنِّي مَقْلُوبٌ﴾: لا قدرة لي على الانتصار منهم؛ لأنه لم يؤمن من قومه إلا القليل النادر، ولا قدرة لهم على مقاومة قومهم، ﴿فَآتَيْنَهُ﴾: اللهم لي منهم، وقال في الآية الأخرى: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْنِي عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دِيَّارًا﴾ [نوح: ٦٦] الآيات.

﴿فَاجَابَ اللَّهُ سُؤْلَهُ﴾، فانتصر له من قومه؛ قال تعالى: ﴿فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُّطَهَّرٍ﴾؛ أي: كثير جداً متتابع.

﴿وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا﴾: فجعلت السماء ينزل منها من الماء شيء خارق للعادة، وتفجرت الأرض كلها، حتى التنور الذي لم تجر العادة بوجود الماء فيه، فضلاً عن كونه منبعاً للماء؛ لأنه موضع النار، ﴿فَالْتَفَى الْمَاءُ﴾؛ أي: ماء السماء والأرض، ﴿عَلَى أُنْثَى﴾: من الله له بذلك، ﴿فَقَدِيرٌ﴾؛ أي: قد كتبه الله في الأزل وقضاه عقوبة لهؤلاء الظالمين الطاغين.

﴿وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسْرٍ﴾؛ أي: ونجيننا عبدنا نوحاً على السفينة ذات الألواح والدسر؛ أي: المسامير التي قد سمرت بها ألواحها وشد بها أسرها.

﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا﴾؛ أي: تجري بنوح ومن آمن معه ومن حملة من أصناف المخلوقات برعاية من الله وحفظ منه لها عن الغرق ونظر وكلاءة منه تعالى، وهو نعم الحافظ الوكيل، ﴿جَزَاءً لِّمَن كَانَ كَفِرًا﴾؛ أي: فعلنا بنوح ما فعلنا من النجاة من الغرق العام جزاء له؛ حيث كذبه قومه وكفروا به، فصبر على دعوتهم، واستمر على أمر الله، فلم يرد عنه راداً ولا صده

حُشْعًا أَبْصَرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ﴿٧﴾
مُتَهَيِّعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسَىٰ ﴿٨﴾ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ ﴿٩﴾ دَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرَ ﴿١٠﴾ فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُّطَهَّرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَفَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدِيرٍ ﴿١٢﴾ وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسْرٍ ﴿١٣﴾ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِّمَن كَانَ كَفِرًا ﴿١٤﴾ وَلَقَدْ تَرَكْنَاهُ آيَةً فَهَلْ مِنْ مُّذَكِّرٍ ﴿١٥﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرٍ ﴿١٦﴾ وَلَقَدْ سَبَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُّذَكِّرٍ ﴿١٧﴾ كَذَّبَتْ عادُ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرٍ ﴿١٨﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمٍ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ﴿١٩﴾ تَنَزَّعُ النَّاسُ ظُلُمًا عَصَاؤُا نَحْلٍ شَنْعِيرٍ ﴿٢٠﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرٍ ﴿٢١﴾ وَلَقَدْ سَبَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُّذَكِّرٍ ﴿٢٢﴾ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ ﴿٢٣﴾ فَقَالُوا أَبَشَرًا مِّثْلَنَا وَجِدْنَا آلِهَتَهُنَا إِذَا نَالُوا ضَلَّالٍ وَسُعُرٍ ﴿٢٤﴾ أَلَهُنَّ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌّ ﴿٢٥﴾ سَمِعْتُمُونَ عَذَابَ مَنِي الْكَذَّابِ الْأَشِيرِ ﴿٢٦﴾ إِنَّا مُرْسِلُوا السَّاعَةِ فَنُفِثَ لَهُمْ فَاذْقَتَهُمْ وَأَصْطَبِرُ ﴿٢٧﴾

فكذبوه، فأرسل الله عليهم ﴿رِيحًا صَرْصَرًا﴾؛ أي: شديدة جدًا. ﴿فِي يَوْمٍ نَخَسٍ﴾؛ أي: شديد العذاب والشقاء عليهم ﴿مُتَسَخِّرٍ﴾. ﴿عليهم سبع ليالٍ وثمانية أيام حسوماً﴾.

﴿تَبْرِجُ النَّاسُ﴾: من شدتها فترفعهم إلى جو السماء، ثم تدمغهم بالأرض، فتهلكهم، فيصبحون ﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مَنْقَعٍ﴾؛ أي: كأن جثثهم بعد هلاكهم مثل جذوع النخل الخاوي الذي اقتلعه الريح فسقط على الأرض؛ فما أهون الخلق على الله إذا عصوا أمره!

﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنَذِيرِي﴾: كان والله العذاب الأليم والنذارة التي ما أبت لأحد عليه حجة.

﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّذَكِّرٍ﴾: كرر تعالى ذلك رحمة بعباده وعناية بهم؛ حيث دعاهم إلى ما يصلح دنياهم وآخرهم.

﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنَّدَى﴾ فقالوا ﴿أَشْرًا مِّنَّا وَحِدًا نَّتَّبَعُهُ﴾ إنا إذا لَفِيَ ضَلَالٍ وَسُعُرٍ ﴿أَتَأْتِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِن بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ﴾ سَيَعْمُونَ عَذَابًا مِّنَ الْكَذَّابِ الْآثِرِ ﴿إِنَّا مُرْسِلُونَ النَّافَةَ فَيَنْسَهُ لَهُمْ فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ﴾ وَنَبِّئُهُمْ أَنَّ الْمَاءَ فِيسْمَةُ بَيْنِهِمْ كُلُّ شَرْبٍ مُّخْضَرٌ ﴿فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَى فَعَقَرَ﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنَذِيرِي ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَاشِيَةِ الْحَنَظِيرِ﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّذَكِّرٍ.

﴿أَي: كَذَّبَتْ ثَمُودُ﴾: وهم القبيلة المعروفة المشهورة في أرض الحجر - نبيهم صالحًا عليه السلام حين دعاهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له، وأنذرهم العقاب إن هم خالفوه.

﴿فَكَذَّبُوهُ وَاسْتَكْبَرُوا عَلَيْهِ وَقَالُوا كِبْرًا وَتَبَاهَا﴾: ﴿أَشْرًا مِّنَّا وَحِدًا نَّتَّبَعُهُ﴾؛ أي: كيف نتبع بشرًا لا ملكًا منا، لا من غيرنا ممن هو أكبر عند الناس منا، ومع ذلك؛ فهو شخص واحد. ﴿إِنَّا إِذَا﴾؛ أي: إن اتبعناه وهو في هذه الحالة ﴿لَفِيَ ضَلَالٍ وَسُعُرٍ﴾؛ أي: إنا لضالون أشقياء. وهذا الكلام من ضلالهم وشقاقهم؛ فإنهم أنفوا أن يتبعوا رسولًا من البشر، ولم يأنفوا أن يكونوا عابدين للشجر والحجر والصور.

﴿أَتَأْتِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِن بَيْنِنَا﴾؛ أي: كيف يخصه الله من بيننا وينزل عليه الذكر؛ فأى مزية خصه من بيننا؟! وهذا اعتراض من المكذبين على الله لم يزالوا يدلون به

عن ذلك صاّد؛ كما قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿قِيلَ يَتْلُ أَخْبِطُ يَسْخَرُ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِّمَّنْ مَعَكَ﴾ [مود: ٤٨] الآية. ويحتمل أن المراد أنا أهلكنا قوم نوح وعلنا بهم ما فعلنا من العذاب والخزي جزاء لهم على كفرهم وعنادهم. وهذا متوجه على قراءة من قرأها بفتح الكاف.

﴿وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا مَائَةً فَهَلْ مِن مُّذَكِّرٍ﴾؛ أي: ولقد تركنا قصة نوح مع قومه آية يتذكر بها المتذكرون على أن من عصى الرسل وعانداهم أهلكه الله بعقاب عام شديد، أو أن الضمير يعود إلى السفينة وجنسها، وأن أصل صنعها تعليم من الله لرسوله نوح عليه السلام، ثم أبقى الله صنعها وجنسها بين الناس؛ ليدل ذلك على رحمته بخلقه وعنايته وكمال قدرته وبديع صنعته. ﴿فَهَلْ مِن مُّذَكِّرٍ﴾؛ أي: فهل متذكر للآيات ملئ ذمته وفكرته لما يأتيه منها؛ فإنها في غاية البيان واليسر؟

﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنَذِيرِي﴾؛ أي: فكيف رأيت أيها المخاطب عذاب الله الأليم وإنذاره الذي لا يبقى لأحد عليه حجة.

﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّذَكِّرٍ﴾؛ أي: ولقد يسرنا وسهلنا هذا القرآن الكريم ألفاظه للحفظ والأداء ومعانيه للفهم والعلم؛ لأنه أحسن الكلام لفظًا، وأصدق معنى، وأبين تفسيرًا؛ فكل من أقبل عليه؛ يسر الله عليه مطلوبه غاية التيسير، وسهله عليه، والذكر شامل لكل ما يتذكر به العالمون من الحلال والحرام وأحكام الأمر والنهي وأحكام الجزاء والمواعظ والعبر والعقائد النافعة والأخبار الصادقة، ولهذا كان علم القرآن حفظًا وتفسيرًا أسهل العلوم وأجلها على الإطلاق، وهو العلم النافع الذي إذا طلبه العبد؛ أمين عليه. قال بعض السلف عند هذه الآية: هل من طالب علم فيعان عليه. ولهذا يدعو الله عباده إلى الإقبال عليه والتذكر بقوله: ﴿فَهَلْ مِن مُّذَكِّرٍ﴾.

﴿كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنَذِيرِي﴾ إنا أرسلنا عليهم ريحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمٍ نَخَسٍ مُّتَسَخِّرٍ ﴿تَبْرِجُ النَّاسُ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مَنْقَعٍ﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنَذِيرِي ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّذَكِّرٍ﴾.

﴿١٨﴾، ﴿١٩﴾ وعاد هي القبيلة المعروفة باليمن، أرسل الله إليهم هوذاً عليه السلام يدعوهم إلى توحيد الله وعبادته،

وَلَقَدْ صَبَّحَهُمْ بُكْرَةً عَذَابٌ مُسْتَقِرٌّ ﴿٣٨﴾ فَذُوقُوا عَذَابِ
وَنَذِيرٍ ﴿٣٩﴾ وَلَقَدْ يَتْرَأُ الْفَرُءَانُ لِلَّذِي هُوَ مِنْ مَذْكَرٍ ﴿٤٠﴾.

﴿٣٣﴾ - ﴿٤٠﴾ أي: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ﴾: لوطاً عليه السلام حين دعاهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له ونهاهم عن الشرك والفاحشة التي ما سبقهم بها أحد من العالمين، فكذبوه واستمروا على شركهم وقبائحهم، حتى إن الملائكة الذين جاءوه بصورة أضياف، حين سمع بهم قومه؛ جاءهم مسرعين يريدون إيقاع الفاحشة فيهم لعنهم الله وقبحهم ورأودهم عنهم، فأمر الله جبريل عليه السلام، فطمس أعينهم بجناحه، وأنذرهم نبيهم بطشة الله وعقوبته، ﴿فَتَمَارَوْا بِالنَّذْرِ﴾ ﴿٣٦﴾، ﴿وَلَقَدْ صَبَّحَهُمْ بُكْرَةً عَذَابٌ مُسْتَقِرٌّ﴾ ﴿٣٨﴾: قلب الله عليهم ديارهم، وجعل أسفلها أعلاها، وتبهم بحجارة من سجيل منضود مسومة عند ربك للمسرفين، ونجى الله لوطاً وأهله من الكرب العظيم؛ جزاء لهم على شكرهم لربهم وعبادته وحده لا شريك له.

﴿وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ﴾ إلى آخر السورة.

﴿٤١﴾، ﴿٤٢﴾ أي: ﴿وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ﴾؛ أي: فرعون وقومه، ﴿النَّذْرُ﴾: فأرسل الله إليهم موسى الكليم، وأيده بالآيات البينات والمعجزات الباهرات، وأشهدهم من العبر ما لم يشهد عليه أحدًا غيرهم، فكذبوا بآيات الله كلها، فأخذهم أخذ عزيز مقتدر، فأغرقه وجنوده في اليم.

﴿٤٣﴾ والمراد من ذكر هذه القصص تحذير الناس والمكذبين لمحمد ﷺ، ولهذا قال: ﴿أَكْثَرُكُمْ خَبِيرِينَ أُولَئِكَ﴾؛ أي: أهؤلاء الذين كذبوا أفضل الرسل خير من أولئك المكذبين الذين ذكر الله هلاكهم وما جرى عليهم؟ فإن كانوا خيراً منهم؛ أمكن أن ينجوا من العذاب ولم يصبهم ما أصاب أولئك الأشرار، وليس الأمر كذلك؛ فإنهم إن لم يكونوا شراً منهم؛ فليسوا بخير منهم. ﴿أَوَلَمْ يَكُنْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ﴾ ﴿٤٣﴾؛ أي: أم أعطاكم الله عهداً وميثاقاً في الكتب التي أنزلها على الأنبياء، فتعتقدوا حينئذ أنكم الناجون بإخبار الله ووعدته؟! وهذا غير واقع، بل غير ممكن عقلاً وشرعاً أن تكتب براءتهم في الكتب الإلهية المتضمنة للعدل والحكمة؛ فليس من الحكمة نجاة أمثال هؤلاء المعاندين المكذبين لأفضل الرسل وأكرمهم على الله.

﴿٤٤﴾ فلم يبق إلا أن يكون بهم قوة ينتصرون بها، فأخبر تعالى أنهم يقولون: ﴿نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرُونَ﴾ ﴿٤٥﴾.

ويصلون ويجولون ويردون به دعوة الرسل، وقد أجاب الله عن هذه الشبهة بقول الرسل لأمرهم: ﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ [إبراهيم: ١١]: فالرسل من الله عليهم بصفات وأخلاق وكمالات بها صلحوا الرسالات ربهم والاختصاص بوحية، ومن رحمته وحكمته أن كانوا من البشر؛ فلو كانوا من الملائكة؛ لم يمكن البشر أن يتلقوا عنهم، ولو جعلهم من الملائكة؛ لعاجل المكذبين لهم بالعقاب العاجل. والمقصود من هذا الكلام الصادر من ثمود لنبيهم صالح تكذيبه، ولهذا حكموا عليه بهذا الحكم الجائر، فقالوا: ﴿بَلْ هُوَ كَذَابٌ أَوَّيَّرَ﴾ ﴿٢٥﴾؛ أي: كثير الكذب والشرافقبحهم الله ما أسفه أحلامهم وأظلمهم وأشدهم مقابلة للصادقين الناصحين بالخطاب الشنيع.

﴿٢٦﴾ لا جرم عاقبهم الله حين اشتد طغيانهم، فأرسل الله الناقة التي هي من أكبر النعم عليهم آية من آيات الله ونعمة؛ يحتلبون من ضرعها ما يكفيهم أجمعين، ﴿فَإِنَّهُ لَهُمْ﴾؛ أي: اختباراً منه لهم وامتحاناً، ﴿فَارْتَبَّهِمْ وَأَصْطَرَّ﴾ ﴿٢٧﴾؛ أي: اصبر على دعوتك إياهم وارتقب ما يحل بهم، أو ارتقب هل يؤمنون أو يكفرون.

﴿٢٨﴾ ﴿وَيَنْتَهُمُ أَنْ أَلَمَّا قَسَمًا يَنْتَهُمُ﴾؛ أي: وأخبرهم أن الماء؛ أي: موردهم الذي يستعذبونه، قسمة بينهم وبين الناقة، لها شرب يوم ولهم شرب يوم آخر معلوم. ﴿كُلُّ شَيْءٍ يُخَضَّرُ﴾ ﴿٢٩﴾؛ أي: يحضره من كان قسمته، ويحظر على من ليس بقسمته له.

﴿٣٠﴾ ﴿فَادَا صَاحِبَهُ﴾: الذي باشر عقرها، الذي هو أشقى القبيلة، ﴿فَنَاعَى﴾؛ أي: انقاد لما أمروه به من عقرها، ﴿فَفَقَرَ﴾ ﴿٣١﴾.

﴿٣٢﴾ - ﴿٣٣﴾ ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنَّذْرِ﴾ ﴿٣٣﴾ إنا أرسلنا عليهم حاصباً إلا آل لوط نجَّيناهم بسحر ﴿٣٤﴾ نعمة من عندنا كذلك نجزي من شكر ﴿٣٥﴾ ولقد أنذرهم بطشناً فتماروا بالنذر ﴿٣٦﴾ ولقد رآه من ضيقه فطمسنا أعينهم فذوقوا عذاباً ونذيراً ﴿٣٧﴾.

﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنَّذْرِ﴾ ﴿٣٣﴾ إنا أرسلنا عليهم حاصباً إلا آل لوط نجَّيناهم بسحر ﴿٣٤﴾ نعمة من عندنا كذلك نجزي من شكر ﴿٣٥﴾ ولقد أنذرهم بطشناً فتماروا بالنذر ﴿٣٦﴾ ولقد رآه من ضيقه فطمسنا أعينهم فذوقوا عذاباً ونذيراً ﴿٣٧﴾.

سورة القمر
الجزء الثامن والعشرون

وَيَنبِئُهُمُ أَنَّ الْمَاءَ فِيسْمِهِ يُنْهَكُ كُلُّ شَرْبٍ مُخَضَّرٌ ٢٨ فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ
فَتَعَالَى فَعَرٌ ٢٩ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنَذِيرٌ ٣٠ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ
صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمٍ مُّخْطَرٍ ٣١ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ
لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُّذَكِّرٍ ٣٢ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنَّذِيرِ ٣٣ إِنَّا أَرْسَلْنَا
عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا آلَ لُوطٍ لَّوْظًا بِنَجَّتْهُمْ يَسْحَرُ ٣٤ نِعْمَةً مِنْ عِنْدِنَا
كَذَلِكَ يَجْرِي مِنْ شَكْرٍ ٣٥ وَلَقَدْ أَنْذَرَهُمْ بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا
بِالنَّذِيرِ ٣٦ وَلَقَدْ رَدَوْهُ عَنْ حَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا
عَذَابِي وَنَذِيرٌ ٣٧ وَلَقَدْ صَبَّحَهُمْ بُكْرَةً عَذَابٌ مُسْتَقِرٌّ ٣٨
فَذُوقُوا عَذَابِي وَنَذِيرٌ ٣٩ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُّذَكِّرٍ
٤٠ وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النَّذِيرُ ٤١ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا فَاعْلَمْ أَنَّهُمْ
أَخَذَ عَزِيزٌ مُّقْنِدٌ ٤٢ أَكْفَارُكَ خَيْرٌ مِنْ أَوْلَئِكَ أَمْ لَكَ بَرَاءَةٌ
فِي الزُّبُرِ ٤٣ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرٌ ٤٤ سُبِّحَ رَبُّكَ الْجَمْعُ
وَيُؤَلِّقُ الذُّبُرَ ٤٥ بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَذَى وَأَمْرٌ
٤٦ إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ ٤٧ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ
عَلَى وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ ٤٨ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ٤٩

٤٥ قال تعالى مِينًا لضعفهم وأنهم مهزومون: ﴿سُبِّحَ رَبُّكَ الْجَمْعُ وَيُؤَلِّقُ الذُّبُرَ ٤٥﴾: فوقع كما أخبر؛ هزم الله جمعهم الأكبر يوم بدر، وقتل من صناديدهم وكبرائهم، ما ذلوا به، ونصر الله دينه ونبيه وحزبه المؤمنين.

٤٦ ومع ذلك؛ فلهم موعد يجمع به أولهم وآخرهم ومن أصيب في الدنيا منهم ومن متع بلذاته، ولهذا قال: ﴿بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ ٤٦﴾: الذي يجازون به ويؤخذ منهم الحق بالقسط، ﴿وَالسَّاعَةُ أَذَى وَأَمْرٌ ٤٧﴾؛ أي: أعظم وأشق وأكبر من كل ما يتوهم أو يدور بالبال.

٤٧ ﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ ٤٧﴾؛ أي: الذين أكثروا من فعل الجرائم، وهي الذنوب العظيمة؛ من الشرك وغيره من المعاصي ﴿فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ ٤٧﴾؛ أي: هم ضالون في الدنيا، ضلال عن العلم وضلال عن العمل الذي ينجيهم من العذاب، ويوم القيامة في العذاب الأليم والنار التي تستعر بهم وتشتعل في أجسامهم حتى تبلغ أفئدتهم.

٤٨ ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ ٤٨﴾: التي هي أشرف ما بهم من الأعضاء، وألمها أشد من ألم غيرها، فيها نون بذلك ويعزون، ويقال لهم: ﴿ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ ٤٨﴾؛ أي: ذوقوا ألم النار وأسفها وغيظها ولهبها.

٤٩ ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ٤٩﴾: وهذا شامل للمخلوقات والعوالم العلوية والسفلية؛ أن الله تعالى وحده خلقها، لا خالق لها سواه، ولا مشارك له في خلقه، وخلقها بقضاء سبق به علمه وجرى به قلمه بوقتها ومقدارها، وجميع ما اشتملت عليه من الأوصاف.

٥٠ وذلك على الله يسير؛ فلهذا قال: ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ ٥٠﴾: فإذا أراد شيئاً؛ قال له: كن فيكون؛ كما أراد؛ كلمح البصر؛ من غير ممانعة ولا صعوبة.

٥١ ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ ٥١﴾: من الأمم السابقين، الذين عملوا كما عملتم وكذبوا كما كذبتهم، ﴿فَهَلْ مِنْ مُّذَكِّرٍ ٥١﴾؛ أي: متذكر يعلم أن سنة الله في الأولين والآخرين واحدة، وأن حكمته كما اقتضت إهلاك أولئك الأشرار فإن هؤلاء مثلهم، ولا فرق بين الفريقين.

٥٢ ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ ٥٢﴾؛ أي: كل ما فعلوه من خير وشر مكتوب عليهم في الكتب القدريّة.

٥٣ ﴿وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌّ ٥٣﴾؛ أي: مسطر مكتوب، وهذه حقيقة القضاء والقدر، وأن جميع الأشياء كلها قد علمها الله تعالى وسطرها عنده في اللوح المحفوظ؛ فما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن؛ فما أصاب الإنسان لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه.

٥٤، ٥٥ ﴿إِنَّ الْمُنَيْنَ ٥٤﴾: لله يفعل أوامره وترك نواهيه، الذين اتقوا الشرك والكبائر والصغائر ﴿فِي جَنَّتٍ وَهَرٍ ٥٥﴾؛ أي: في جنات النعيم، التي فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر؛ من الأشجار البانعة، والأنهار الجارية، والقصور الرفيعة، والمنازل الأنيقة، والمأكول والمشرب اللذيذة، والحدود الحسان، والروضات البهية في الجنان، ورضا الملك الديان والفوز بقربه، ولهذا قال: ﴿فِي مَقْعَدٍ صَدِيقٍ عِنْدَ مَلِكٍ مُّقْنَدٍ ٥٥﴾؛ فلا تسأل بعد هذا عما يعطيهم ربهم

من كرامته وجوده ويمدهم به من إحسانه ومنته! جعلنا الله
منهم، ولا حرما خير ما عنده بشر ما عندنا.

تم تفسير هذه السورة. والحمد لله.

﴿١﴾﴿٢﴾﴿٣﴾﴿٤﴾﴿٥﴾﴿٦﴾﴿٧﴾﴿٨﴾

تفسير سورة الرحمن

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿١﴾ الرَّحْمَنُ ﴿٢﴾ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ﴿٣﴾ خَلَقَ الْإِنْسَانَ ﴿٤﴾ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ﴿٥﴾ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ﴿٦﴾ وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ﴿٧﴾ وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ﴿٨﴾ أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ ﴿٩﴾ وَأَقِيمُوا الزُّلْزَالَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَخْشَرُوا الْمِيزَانَ ﴿١٠﴾ وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ﴿١١﴾ فِيهَا فَكْهَةٌ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ ﴿١٢﴾ وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ ﴿١٣﴾ فَيَا أَيُّهَا الْآءُ رَيْكُمَا تَكْذِبَانِ ﴿١٤﴾

﴿١﴾ هذه السورة الكريمة الجليلة افتتحها باسمه الرحمن، الدال على سعة رحمته وعموم إحسانه وجزيل بره وواسع فضله، ثم ذكر ما يدل على رحمته وأثرها الذي أوصله الله إلى عباده من النعم الدينية والدنيوية والأخروية، وبعد كل جنس ونوع من نعمه ينبه الثقلين لشكره ويقول: ﴿فَيَا أَيُّهَا الْآءُ رَيْكُمَا تَكْذِبَانِ﴾ ﴿١٣﴾.

﴿٢﴾ فذكر أنه: ﴿عَلَّمَ الْقُرْآنَ﴾ ﴿٢﴾؛ أي: علم عباده ألفاظه ومعانيه ويسرها على عباده، وهذا أعظم منة ورحمة رحم بها العباد، حيث أنزل عليهم قرآناً عربياً بأحسن الألفاظ وأوضح المعاني، مشتمل على كل خير، زاجر عن كل شر.

﴿٣﴾ ﴿٤﴾ ﴿٥﴾ ﴿٦﴾ ﴿٧﴾ ﴿٨﴾ ﴿٩﴾ ﴿١٠﴾ ﴿١١﴾ ﴿١٢﴾ ﴿١٣﴾ ﴿١٤﴾ ﴿١٥﴾ ﴿١٦﴾ ﴿١٧﴾ ﴿١٨﴾ ﴿١٩﴾ ﴿٢٠﴾ ﴿٢١﴾ ﴿٢٢﴾ ﴿٢٣﴾ ﴿٢٤﴾ ﴿٢٥﴾ ﴿٢٦﴾ ﴿٢٧﴾ ﴿٢٨﴾ ﴿٢٩﴾ ﴿٣٠﴾ ﴿٣١﴾ ﴿٣٢﴾ ﴿٣٣﴾ ﴿٣٤﴾ ﴿٣٥﴾ ﴿٣٦﴾ ﴿٣٧﴾ ﴿٣٨﴾ ﴿٣٩﴾ ﴿٤٠﴾ ﴿٤١﴾ ﴿٤٢﴾ ﴿٤٣﴾ ﴿٤٤﴾ ﴿٤٥﴾ ﴿٤٦﴾ ﴿٤٧﴾ ﴿٤٨﴾ ﴿٤٩﴾ ﴿٥٠﴾ ﴿٥١﴾ ﴿٥٢﴾ ﴿٥٣﴾ ﴿٥٤﴾ ﴿٥٥﴾ ﴿٥٦﴾ ﴿٥٧﴾ ﴿٥٨﴾ ﴿٥٩﴾ ﴿٦٠﴾ ﴿٦١﴾ ﴿٦٢﴾ ﴿٦٣﴾ ﴿٦٤﴾ ﴿٦٥﴾ ﴿٦٦﴾ ﴿٦٧﴾ ﴿٦٨﴾ ﴿٦٩﴾ ﴿٧٠﴾ ﴿٧١﴾ ﴿٧٢﴾ ﴿٧٣﴾ ﴿٧٤﴾ ﴿٧٥﴾ ﴿٧٦﴾ ﴿٧٧﴾ ﴿٧٨﴾ ﴿٧٩﴾ ﴿٨٠﴾ ﴿٨١﴾ ﴿٨٢﴾ ﴿٨٣﴾ ﴿٨٤﴾ ﴿٨٥﴾ ﴿٨٦﴾ ﴿٨٧﴾ ﴿٨٨﴾ ﴿٨٩﴾ ﴿٩٠﴾ ﴿٩١﴾ ﴿٩٢﴾ ﴿٩٣﴾ ﴿٩٤﴾ ﴿٩٥﴾ ﴿٩٦﴾ ﴿٩٧﴾ ﴿٩٨﴾ ﴿٩٩﴾ ﴿١٠٠﴾

﴿٥﴾ ﴿٦﴾ ﴿٧﴾ ﴿٨﴾ ﴿٩﴾ ﴿١٠﴾ ﴿١١﴾ ﴿١٢﴾ ﴿١٣﴾ ﴿١٤﴾ ﴿١٥﴾ ﴿١٦﴾ ﴿١٧﴾ ﴿١٨﴾ ﴿١٩﴾ ﴿٢٠﴾ ﴿٢١﴾ ﴿٢٢﴾ ﴿٢٣﴾ ﴿٢٤﴾ ﴿٢٥﴾ ﴿٢٦﴾ ﴿٢٧﴾ ﴿٢٨﴾ ﴿٢٩﴾ ﴿٣٠﴾ ﴿٣١﴾ ﴿٣٢﴾ ﴿٣٣﴾ ﴿٣٤﴾ ﴿٣٥﴾ ﴿٣٦﴾ ﴿٣٧﴾ ﴿٣٨﴾ ﴿٣٩﴾ ﴿٤٠﴾ ﴿٤١﴾ ﴿٤٢﴾ ﴿٤٣﴾ ﴿٤٤﴾ ﴿٤٥﴾ ﴿٤٦﴾ ﴿٤٧﴾ ﴿٤٨﴾ ﴿٤٩﴾ ﴿٥٠﴾ ﴿٥١﴾ ﴿٥٢﴾ ﴿٥٣﴾ ﴿٥٤﴾ ﴿٥٥﴾ ﴿٥٦﴾ ﴿٥٧﴾ ﴿٥٨﴾ ﴿٥٩﴾ ﴿٦٠﴾ ﴿٦١﴾ ﴿٦٢﴾ ﴿٦٣﴾ ﴿٦٤﴾ ﴿٦٥﴾ ﴿٦٦﴾ ﴿٦٧﴾ ﴿٦٨﴾ ﴿٦٩﴾ ﴿٧٠﴾ ﴿٧١﴾ ﴿٧٢﴾ ﴿٧٣﴾ ﴿٧٤﴾ ﴿٧٥﴾ ﴿٧٦﴾ ﴿٧٧﴾ ﴿٧٨﴾ ﴿٧٩﴾ ﴿٨٠﴾ ﴿٨١﴾ ﴿٨٢﴾ ﴿٨٣﴾ ﴿٨٤﴾ ﴿٨٥﴾ ﴿٨٦﴾ ﴿٨٧﴾ ﴿٨٨﴾ ﴿٨٩﴾ ﴿٩٠﴾ ﴿٩١﴾ ﴿٩٢﴾ ﴿٩٣﴾ ﴿٩٤﴾ ﴿٩٥﴾ ﴿٩٦﴾ ﴿٩٧﴾ ﴿٩٨﴾ ﴿٩٩﴾ ﴿١٠٠﴾

﴿١٦﴾ ﴿١٧﴾ ﴿١٨﴾ ﴿١٩﴾ ﴿٢٠﴾ ﴿٢١﴾ ﴿٢٢﴾ ﴿٢٣﴾ ﴿٢٤﴾ ﴿٢٥﴾ ﴿٢٦﴾ ﴿٢٧﴾ ﴿٢٨﴾ ﴿٢٩﴾ ﴿٣٠﴾ ﴿٣١﴾ ﴿٣٢﴾ ﴿٣٣﴾ ﴿٣٤﴾ ﴿٣٥﴾ ﴿٣٦﴾ ﴿٣٧﴾ ﴿٣٨﴾ ﴿٣٩﴾ ﴿٤٠﴾ ﴿٤١﴾ ﴿٤٢﴾ ﴿٤٣﴾ ﴿٤٤﴾ ﴿٤٥﴾ ﴿٤٦﴾ ﴿٤٧﴾ ﴿٤٨﴾ ﴿٤٩﴾ ﴿٥٠﴾ ﴿٥١﴾ ﴿٥٢﴾ ﴿٥٣﴾ ﴿٥٤﴾ ﴿٥٥﴾ ﴿٥٦﴾ ﴿٥٧﴾ ﴿٥٨﴾ ﴿٥٩﴾ ﴿٦٠﴾ ﴿٦١﴾ ﴿٦٢﴾ ﴿٦٣﴾ ﴿٦٤﴾ ﴿٦٥﴾ ﴿٦٦﴾ ﴿٦٧﴾ ﴿٦٨﴾ ﴿٦٩﴾ ﴿٧٠﴾ ﴿٧١﴾ ﴿٧٢﴾ ﴿٧٣﴾ ﴿٧٤﴾ ﴿٧٥﴾ ﴿٧٦﴾ ﴿٧٧﴾ ﴿٧٨﴾ ﴿٧٩﴾ ﴿٨٠﴾ ﴿٨١﴾ ﴿٨٢﴾ ﴿٨٣﴾ ﴿٨٤﴾ ﴿٨٥﴾ ﴿٨٦﴾ ﴿٨٧﴾ ﴿٨٨﴾ ﴿٨٩﴾ ﴿٩٠﴾ ﴿٩١﴾ ﴿٩٢﴾ ﴿٩٣﴾ ﴿٩٤﴾ ﴿٩٥﴾ ﴿٩٦﴾ ﴿٩٧﴾ ﴿٩٨﴾ ﴿٩٩﴾ ﴿١٠٠﴾

﴿٧﴾ ﴿٨﴾ ﴿٩﴾ ﴿١٠﴾ ﴿١١﴾ ﴿١٢﴾ ﴿١٣﴾ ﴿١٤﴾ ﴿١٥﴾ ﴿١٦﴾ ﴿١٧﴾ ﴿١٨﴾ ﴿١٩﴾ ﴿٢٠﴾ ﴿٢١﴾ ﴿٢٢﴾ ﴿٢٣﴾ ﴿٢٤﴾ ﴿٢٥﴾ ﴿٢٦﴾ ﴿٢٧﴾ ﴿٢٨﴾ ﴿٢٩﴾ ﴿٣٠﴾ ﴿٣١﴾ ﴿٣٢﴾ ﴿٣٣﴾ ﴿٣٤﴾ ﴿٣٥﴾ ﴿٣٦﴾ ﴿٣٧﴾ ﴿٣٨﴾ ﴿٣٩﴾ ﴿٤٠﴾ ﴿٤١﴾ ﴿٤٢﴾ ﴿٤٣﴾ ﴿٤٤﴾ ﴿٤٥﴾ ﴿٤٦﴾ ﴿٤٧﴾ ﴿٤٨﴾ ﴿٤٩﴾ ﴿٥٠﴾ ﴿٥١﴾ ﴿٥٢﴾ ﴿٥٣﴾ ﴿٥٤﴾ ﴿٥٥﴾ ﴿٥٦﴾ ﴿٥٧﴾ ﴿٥٨﴾ ﴿٥٩﴾ ﴿٦٠﴾ ﴿٦١﴾ ﴿٦٢﴾ ﴿٦٣﴾ ﴿٦٤﴾ ﴿٦٥﴾ ﴿٦٦﴾ ﴿٦٧﴾ ﴿٦٨﴾ ﴿٦٩﴾ ﴿٧٠﴾ ﴿٧١﴾ ﴿٧٢﴾ ﴿٧٣﴾ ﴿٧٤﴾ ﴿٧٥﴾ ﴿٧٦﴾ ﴿٧٧﴾ ﴿٧٨﴾ ﴿٧٩﴾ ﴿٨٠﴾ ﴿٨١﴾ ﴿٨٢﴾ ﴿٨٣﴾ ﴿٨٤﴾ ﴿٨٥﴾ ﴿٨٦﴾ ﴿٨٧﴾ ﴿٨٨﴾ ﴿٨٩﴾ ﴿٩٠﴾ ﴿٩١﴾ ﴿٩٢﴾ ﴿٩٣﴾ ﴿٩٤﴾ ﴿٩٥﴾ ﴿٩٦﴾ ﴿٩٧﴾ ﴿٩٨﴾ ﴿٩٩﴾ ﴿١٠٠﴾

سورة الرحمن

وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ ﴿١﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا
أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ﴿٢﴾ وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ
فِي الزُّبُرِ ﴿٣﴾ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُسْتَطَرٌ ﴿٤﴾ إِنَّ الْفَتَنَ
فِي جَنَّتٍ وَنَهْرٍ ﴿٥﴾ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِكٍ مُقَدِّرٍ ﴿٦﴾

سورة الرحمن

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الرَّحْمَنُ ﴿١﴾ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ﴿٢﴾ خَلَقَ الْإِنْسَانَ ﴿٣﴾
عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ﴿٤﴾ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ﴿٥﴾ وَالنَّجْمُ
وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ﴿٦﴾ وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ﴿٧﴾
أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ ﴿٨﴾ وَأَقِيمُوا الزُّلْزَالَ بِالْقِسْطِ
وَلَا تَخْشَرُوا الْمِيزَانَ ﴿٩﴾ وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ﴿١٠﴾
فِيهَا فَكْهَةٌ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ ﴿١١﴾ وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ
وَالرَّيْحَانُ ﴿١٢﴾ فَيَا أَيُّهَا الْآءُ رَيْكُمَا تَكْذِبَانِ ﴿١٣﴾
الْإِنْسَانُ مِنْ صَلَاسِلٍ كَالْفَخَّارِ ﴿١٤﴾ وَخَلَقَ الْجَانَّ
مِنْ مَارِجٍ مِّنْ نَّارٍ ﴿١٥﴾ فَيَا أَيُّهَا الْآءُ رَيْكُمَا تَكْذِبَانِ ﴿١٦﴾

٥٣١

﴿فَيَأْتِي ٱلْآءَ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ (١٣)؛ إلا قالوا: ولا بشيء من
آلائك ربنا نكذب؛ فلك الحمد (١٤). فهكذا ينبغي للعبد إذا تليت
عليه نعم الله وآلاؤه أن يقر بها ويشكر ويحمد الله عليها.
ثم قال تعالى:

﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَانَ مِنْ صَلْصَلٍ ٱلْفَخَّارِ﴾ (١١) وَخَلَقَ ٱلْجَنَّ
مِنْ مَّارِجٍ مِّنْ نَّارٍ ﴿١٥﴾ فَيَأْتِي ٱلْآءَ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٦﴾.

(١١) وهذا من نعمه تعالى على عباده؛ حيث أراهم من آثار
قدرته وبديع صنعته أن ﴿خَلَقَ﴾ أبا الإنسان، وهو آدم عليه
السلام، ﴿مِنْ صَلْصَلٍ ٱلْفَخَّارِ﴾ (١١)؛ أي: من طين
مبلول، قد أحكم بله وأنقن، حتى جف فصار له صلصلة
وصوت يشبه صوت الفخار، وهو الطين المشوي.

(١٥) وَخَلَقَ ٱلْجَنَّ؛ أي: أبا الجن، وهو إبليس لعنه
الله ﴿مِنْ مَّارِجٍ مِّنْ نَّارٍ﴾ (١٥)؛ أي: من لهب النار الصافي،
أو الذي قد خالطه الدخان. وهذا يدل على شرف عنصر
الآدمي المخلوق من الطين والتراب، الذي هو محل الرزاة
والثقل والمنافع؛ بخلاف عنصر الجن، وهو النار، التي هي
محل الخفة والطيش والشر والفساد.

(١٦) ولما بين خلق الثقلين ومادة ذلك، وكان ذلك
منة منه تعالى على عباده؛ قال: ﴿فَيَأْتِي ٱلْآءَ رَبِّكُمَا
تُكَذِّبَانِ﴾ (١٦) ١٩

﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ﴾ (٧) فَيَأْتِي ٱلْآءَ رَبِّكُمَا
تُكَذِّبَانِ ﴿١٨﴾.

(٧) أي: هو تعالى رب كل ما أشرقت عليه الشمس
والقمر والكواكب النيرة، وكل ما غربت عليه، وكل ما كانا
فيه؛ فالجمع تحت تدبيره وربوبيته، وثناهما هنا باعتبار
مشارقتها شتاء وصيفاً. والله أعلم.

﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ﴾ (١٩) يَبْتَهِمَا بَرْحٌ لَّا يَبْغِيَانِ ﴿٢٠﴾ فَيَأْتِي
ٱلْآءَ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢١﴾ يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللَّوْزُ وَٱلْمَرْجَاتُ ﴿٢٢﴾
فَيَأْتِي ٱلْآءَ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٣﴾.

(٢١) - (٢٣) المراد بالبحرين: البحر العذب والبحر المالح؛
فهما يلتقيان كلاهما، فيصب العذب في البحر المالح
ويختلطان ويمتزجان، ولكن الله تعالى جعل بينهما برزخاً

كان يرجع إلى عقولكم وآرائكم؛ لحصل من الخلل ما الله به
عليهم، ولفسدت السماوات والأرض ومن فيهن.

(٩) ﴿وَأَتَيْمُوا ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ﴾؛ أي: اجعلوه قائماً
بالعدل، الذي تصل إليه مقدرتكم وإمكانكم، ﴿وَلَا تَخْشَرُوا
ٱلْمِيزَانَ﴾ (٩)؛ أي: لا تنقصوه وتعملوا بضده، وهو الجور
والظلم والطغيان.

(١٠) ﴿وَٱلْأَرْضَ وَصَّعَهَا﴾؛ الله على ما كانت عليه
من الكثافة والاستقرار واختلاف أوصافها وأحوالها
﴿يَلْأَنَارِ﴾ (١٠)؛ أي: للخلق؛ لكي يستقروا عليها، وتكون
لهم مهاداً وفراشاً، يبنون بها ويحراثون ويغرسون ويحفرون،
ويسلكون سبلها فجاجاً، ويتنعمون بمعادنها، وجميع ما فيها
مما تدعو إليه حاجتهم بل ضرورتهم.

ثم ذكر ما فيها من الأقوات الضرورية، فقال:

(١١) ﴿فِيهَا فَتَكهُۥ﴾؛ وهي جميع الأشجار التي تثمر
الثمرات التي يتفكه بها العباد من العنب والتين والرمان
والنخيل وغير ذلك، ﴿وَٱلْخَلْ ذَاتُ ٱلْأَكْمَامِ﴾ (١١)؛ أي: ذات
الوعاء الذي يتفلق عن القنوان التي تخرج شيئاً فشيئاً حتى
تتم فتكون قوتاً يدخر ويؤكل ويتزود منه المقيم والمسافر
وفاكهة لذيدة من أحسن الفواكه.

(١٢) ﴿وَالْحَبُّ ذُو ٱلْصَّفِ﴾؛ أي: ذو الساق الذي
يداس فيستفح ببتنه للأنعام وغيرها، ويدخل في ذلك
حب البر والشعير والذرة والأرز والدخن وغير ذلك،
﴿وَٱلرَّيْحَانُ﴾ (١٢)؛ يحتمل أن المراد به جميع الأرزاق
التي يأكلها آدميون، فيكون هذا من باب عطف العام على
الخاص، ويكون الله [تعالى] قد امتن على عباده بالقوت
والرزق عموماً وخصوصاً. ويحتمل أن المراد بالريحان
الريحان المعروف، وأن الله امتن على عباده بما يسره في
الأرض من أنواع الروائح الطيبة والمشام الفاخرة التي تسر
الأرواح وتنشرح لها النفوس.

(١٣) ولما ذكر جملة كثيرة من نعمه التي تشاهد بالآبصار
والبصائر، وكان الخطاب للثقلين الجن والإنس؛ قرره
تعالى بنعمه، فقال: ﴿فَيَأْتِي ٱلْآءَ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ (١٣)؛ أي:
فبأي نعم الله الدينية والدنيوية تكذبان؟ وما أحسن جواب
الجن حين تلا عليهم النبي ﷺ هذه السورة؛ فكلما مر بقوله:

من الأرض، حتى لا يبغي أحدهما على الآخر، ويحصل النفع بكل منهما؛ فالعذب منه يشربون وتشرب أشجارهم وزروعهم وحرثهم، والملح به يطيب الهواء ويتولد الحوت والسماك واللؤلؤ والمرجان، ويكون مستقرًا مسخرًا للسفن والمراكب، ولهذا قال:

﴿وَلَهُ الْخَازِنَاتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ ﴿٢٤﴾ فَإِنِّي ءَالَاءُ رَبِّكَما تُكَذِّبَانِ ﴿٢٥﴾﴾

﴿٢٤﴾، أي: وسخر تعالى لعباده السفن الجواري التي تمخر البحر وتشقه بإذن الله، التي ينشئها آدميون، فتكون من عظمها وكبرها كالأعلام، وهي الجبال العظيمة، فيركبها الناس، ويحملون عليها أمتعتهم وأنواع تجارتهم وغير ذلك مما تدعو إليه حاجتهم وضرورتهم، وقد حفظها حافظ السماوات والأرض، وهذه من نعم الله الجليلة، ولهذا قال:

﴿فَإِنِّي ءَالَاءُ رَبِّكَما تُكَذِّبَانِ ﴿٢٥﴾﴾

﴿٢٥﴾ - أي: كل من على الأرض من إنس وجن ودواب وسائر المخلوقات يفنى ويموت ويبيد، ويبقى الحي الذي لا يموت، ذو الجلال والإكرام، الذي يعظم ويجل ويجل لأجله، والإكرام الذي هو سعة الفضل والجلود، الذي يكرم أوليائه وخواص خلقه بأنواع الإكرام، الذي يكرمه أولياؤه ويجلونه ويعظمونه ويحبونه وينيبون إليه ويعبدونه. ﴿فَإِنِّي ءَالَاءُ رَبِّكَما تُكَذِّبَانِ ﴿٢٥﴾﴾

﴿يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴿٢٦﴾ فَإِنِّي ءَالَاءُ رَبِّكَما تُكَذِّبَانِ ﴿٢٧﴾﴾

﴿٢٦﴾، أي: هو الغني بذاته عن جميع مخلوقاته، وهو واسع الجود والكرم، فكل الخلق مفتقرون إليه، يسألونه جميع حوائجهم بحالهم ومقالهم، ولا يستغنون عنه طرفة عين ولا أقل من ذلك، وهو تعالى ﴿كُلُّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴿٢٦﴾﴾: يغني فقيرًا ويجبر كسيرًا ويعطي قومًا ويمنع آخرين، ويميت، ويحيي، ويخفف، ويرفع، لا يشغله شأن عن شأن، ولا تغلظه المسائل، ولا يبرمه إلحاح الملحّين، ولا طول مسألة السائلين. فسبحان الكريم الوهاب، الذي عمت مواهبه أهل الأرض والسماوات، وعم لطفه جميع الخلق في كل الآفات واللحظات، وتعالى الذي لا يمنعه من الإعطاء معصية العاصين ولا استغناء الفقراء الجاهلين به وبكرمه.

وهذه الشئون التي أخبر أنه تعالى ﴿كُلُّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴿٢٦﴾﴾: هي تقاديره وتدابيره التي قدرها في الأزل وقضاها، لا يزال تعالى يمضيها وينفذها في أوقاتها التي اقتضتها حكمته، وهي أحكامه الدينية التي هي الأمر والنهي، والقدرية التي يجريها على عباده مدة مقامهم في هذه الدار، حتى إذا تمت هذه الخليقة، وأفانهم الله تعالى، وأراد أن يتفد فيهم أحكام الجزاء ويربهم من عدله وفضله وكثرة إحسانه ما به يعرفونه ويوحدونه؛ نقل المكلفين من دار الابتلاء والامتحان إلى دار الحيوان، وفرغ حينئذ لتنفيذ هذه الأحكام التي جاء وقتها، وهو المراد بقوله:

سورة الرحمن
رَبِّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبِّ الْغَرْبَيْنِ ﴿١٧﴾ فَإِنِّي ءَالَاءُ رَبِّكَما تُكَذِّبَانِ ﴿١٨﴾
مَجِّ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ﴿٢٠﴾ فَإِنِّي ءَالَاءُ
رَبِّكَما تُكَذِّبَانِ ﴿٢١﴾ يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ ﴿٢٢﴾ فَإِنِّي
ءَالَاءُ رَبِّكَما تُكَذِّبَانِ ﴿٢٣﴾ وَلَهُ الْخَازِنَاتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ ﴿٢٤﴾
فَإِنِّي ءَالَاءُ رَبِّكَما تُكَذِّبَانِ ﴿٢٥﴾ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَى
وَجْهَ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾ فَإِنِّي ءَالَاءُ رَبِّكَما تُكَذِّبَانِ ﴿٢٨﴾
يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴿٢٩﴾ فَإِنِّي
ءَالَاءُ رَبِّكَما تُكَذِّبَانِ ﴿٣٠﴾ سَنَعُرُّ لَكُمْ إِلَهُ الْفَلَاحِ ﴿٣١﴾ فَإِنِّي
ءَالَاءُ رَبِّكَما تُكَذِّبَانِ ﴿٣٢﴾ يَنْعَمُ الرِّجُوعُ وَالْإِنْشَاءُ إِنْ أَسْتَظْعَمُ
أَنْ تُفْعِدُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ فَتُفْعِدُوا لَّا تُنْفَعُونَ
إِلَّا بِإِطْلَاقِ ﴿٣٣﴾ فَإِنِّي ءَالَاءُ رَبِّكَما تُكَذِّبَانِ ﴿٣٤﴾ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا
شَوْابٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنْصِرَانِ ﴿٣٥﴾ فَإِنِّي ءَالَاءُ رَبِّكَما
تُكَذِّبَانِ ﴿٣٦﴾ إِذَا أَنْشَقَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ زُرَّةً كَالْذَهَابِ ﴿٣٧﴾
فَإِنِّي ءَالَاءُ رَبِّكَما تُكَذِّبَانِ ﴿٣٨﴾ فَيَوْمَذِي نُبَسِّلُ عَنْ ذِيهِ
إِنْسٌ وَلَا جَانٌ ﴿٣٩﴾ فَإِنِّي ءَالَاءُ رَبِّكَما تُكَذِّبَانِ ﴿٤٠﴾

﴿٣٧﴾ ﴿٣٨﴾ فَإِذَا انشَقَّتِ السَّمَاءُ؛ أَي: يوم القيامة من الأحوال وكثرة البلبال وترادف الأوجال، فانخسفت شمسها وقمرها، وانتشرت نجومها؛ ﴿فَكَانَتْ﴾: من شدة الخوف والانزعاج ﴿وَرَدَّةً كَالَّذِي هَكَانَ﴾ ﴿٣٧﴾؛ أَي: كانت كالمهل والرصاص المذاب ونحوه. ﴿فَيَأْتِي ءَالَءَ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ ﴿٣٨﴾!

﴿٣٩﴾ ﴿٤٠﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ ﴿٣٩﴾؛ أَي: سؤال استعلام بما وقع؛ لأنه تعالى عالم الغيب والشهادة والماضي والمستقبل، ويريد أن يجازي العباد بما علمه من أحوالهم، وقد جعل لأهل الخير والشر يوم القيامة علامات يعرفون بها؛ كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ [آل عمران: ١٠٦].

﴿٤١﴾ ﴿٤٢﴾ وَقَالَ هُنَا: ﴿يَعْرِفُ الْمُجْرِمُونَ سِمْبَهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنُّوَصَى وَالْأُقْدَامِ﴾ ﴿٤١﴾ ﴿فَيَأْتِي ءَالَءَ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ ﴿٤٢﴾؛ أَي: فيؤخذ بنواصي المجرمين وأقدامهم، فيلقون في النار ويسحبون إليها. وإنما يسألهم تعالى سؤال توبيخ وتقرير بما وقع منهم، وهو أعلم به منهم، ولكنه تعالى يريد أن تظهر للخلق حجته البالغة وحكمته الجليلة.

﴿هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ﴾ ﴿٤٣﴾ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ ﴿٤٤﴾ ﴿فَيَأْتِي ءَالَءَ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ ﴿٤٥﴾.

﴿٤٣﴾ - ﴿٤٥﴾: أَي: يقال للمكذبين بالوعد والوعيد حين تسعر الجحيم: ﴿هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ﴾ ﴿٤٣﴾؛ فليهنهم تكذيبهم بها، وليذوقوا من عذابها ونكالها وسعيرها وأغلالها ما هو جزاء لهم على تكذيبهم، يطفون بين أطباق الجحيم ولهبها، ﴿وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ﴾ ﴿٤٤﴾؛ أَي: ماء حار جدًا قد انتهى حره، وزمهرير قد اشتد برده وقره. ﴿فَيَأْتِي ءَالَءَ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ ﴿٤٥﴾! ١٩

ولما ذكر ما يفعل بالمجرمين؛ ذكر جزاء المتقين الخائفين، فقال:

﴿وَلَمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ﴾ ﴿٤٦﴾ ﴿فَيَأْتِي ءَالَءَ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ ﴿٤٧﴾ إلى آخر السورة.

﴿٤٦﴾ ﴿٤٧﴾: أَي: وللذي خاف ربه وقيامه عليه، فترك ما نهى عنه، وفعل ما أمر به؛ له ﴿جَنَّاتٍ﴾ من ذهب آتيتها وحليتها وبنائها وما فيها، إحدى الجنتين جزاء على ترك المنهيات، والأخرى على فعل الطاعات.

﴿سَنَفِخُ لَكُمْ فِيهَ الثَّقَلَانِ﴾ ﴿٤٨﴾ ﴿فَيَأْتِي ءَالَءَ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ ﴿٤٩﴾. ﴿٤٨﴾، ﴿٤٩﴾: أَي: سنفرغ لحسابكم ومجازاتكم بأعمالكم التي عملتموها في دار الدنيا.

﴿يَمْعَسَرُ الْخَبَرُ وَالْإِنْسُ إِنْ أَسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ﴾ ﴿٥٠﴾ ﴿فَيَأْتِي ءَالَءَ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ ﴿٥١﴾.

﴿٥٠﴾، ﴿٥١﴾: أَي: إذا جمعهم الله في موقف القيامة؛ أخبرهم بعجزهم وضعفهم وكمال سلطانه ونفوذ مشيئته وقدرته، فقال معجزاً لهم: ﴿يَمْعَسَرُ الْخَبَرُ وَالْإِنْسُ إِنْ أَسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾؛ أَي: تجدون مسلماً ومنفذاً تخرجون به عن ملك الله وسلطانه، ﴿فَانْفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ﴾ ﴿٥٠﴾؛ أَي: لا تخرجون منه إلا بقوة وتسلط منكم وكمال قدرة، وأنى لهم ذلك وهم لا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضرا ولا موتا ولا حياة ولا نشورا؛ ففي ذلك الموقف لا يتكلم أحد إلا بإذنه، ولا تسمع إلا همسا، وفي ذلك الموقف يستوي الملوك والمماليك والرؤساء والمرءوسون والأغنياء والفقراء.

ثم ذكر ما أعد لهم في ذلك اليوم، فقال:

﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شَوْابُ مِنْ نَارٍ وَغُثَاسٌ فَلَا تَنْصَرَانِ﴾ ﴿٥٢﴾ ﴿فَيَأْتِي ءَالَءَ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ ﴿٥٣﴾.

﴿٥٢﴾، ﴿٥٣﴾: أَي: ﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا﴾ لهب صاف من النار ﴿وَغُثَاسٌ﴾ وهو اللهب الذي قد خالطه الدخان. والمعنى: أن هذين الأمرين الفظيعين يرسلان عليكما يا معشر الجن والإنس ويحيطان بكما فلا تنصران؛ لا بناصر من أنفسكم، ولا بأحد ينصركم من دون الله. ولما كان تخويفه لعباده نعمة منه عليهم وسوطا يسوقهم به إلى أعلى المطالب وأشرف المواهب؛ ذكر مته بذلك فقال: ﴿فَيَأْتِي ءَالَءَ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ ﴿٥٣﴾! ١٩

﴿فَإِذَا انشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالَّذِي هَكَانَ﴾ ﴿٥٤﴾ ﴿فَيَأْتِي ءَالَءَ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ ﴿٥٥﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ ﴿٥٤﴾ ﴿فَيَأْتِي ءَالَءَ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ ﴿٥٥﴾ يَعْرِفُ الْمُجْرِمُونَ سِمْبَهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنُّوَصَى وَالْأُقْدَامِ ﴿٥٦﴾ ﴿فَيَأْتِي ءَالَءَ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ ﴿٥٧﴾.

سورة الرحمن

يَعْرِفُ الْمَجْرُومُونَ بِمَسْمُومِهِمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَصِي وَالْأَقْدَمِ ﴿٤٨﴾ فَيَأْتِي
 ءَالَآءُ رَبِّكَمَّا تُكْذِبَانِ ﴿٤٩﴾ هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمَجْرُمُونَ
 يَطُوفُونَ فِيهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانِ ﴿٥٠﴾ فَيَأْتِي ءَالَآءُ رَبِّكَمَّا تُكْذِبَانِ
 وَلَمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ ﴿٥١﴾ فَيَأْتِي ءَالَآءُ رَبِّكَمَّا تُكْذِبَانِ
 ذَوَاتَا أَفْنَانٍ ﴿٥٢﴾ فَيَأْتِي ءَالَآءُ رَبِّكَمَّا تُكْذِبَانِ ﴿٥٣﴾ فَيَمَاسِعَانِ
 تَجْرِيَانِ ﴿٥٤﴾ فَيَأْتِي ءَالَآءُ رَبِّكَمَّا تُكْذِبَانِ ﴿٥٥﴾ فَيَمَاسِ مِنْ كُلِّ فَنَكِهِمُ
 رَوْجَانِ ﴿٥٦﴾ فَيَأْتِي ءَالَآءُ رَبِّكَمَّا تُكْذِبَانِ ﴿٥٧﴾ مُتَكَيِّينَ عَلَى فُرُشٍ
 بَطَانُهَا مِنْ إِسْتَرْجٍ وَحَى الْجَنَّتَيْنِ دَانِ ﴿٥٨﴾ فَيَأْتِي ءَالَآءُ رَبِّكَمَّا
 تُكْذِبَانِ ﴿٥٩﴾ فِيهِنَّ قَصِيرَتُ الطَّرْفِ لَمْ يَطْمِئِنَّ إِسْ قَبْلَهُمْ
 وَلَا جَانٌّ ﴿٦٠﴾ فَيَأْتِي ءَالَآءُ رَبِّكَمَّا تُكْذِبَانِ ﴿٦١﴾ كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ
 وَالْمَرْجَانُ ﴿٦٢﴾ فَيَأْتِي ءَالَآءُ رَبِّكَمَّا تُكْذِبَانِ ﴿٦٣﴾ هَلْ جَزَاءُ
 الْإِحْسَنِ إِلَّا الْإِحْسَنُ ﴿٦٤﴾ فَيَأْتِي ءَالَآءُ رَبِّكَمَّا تُكْذِبَانِ
 وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴿٦٥﴾ فَيَأْتِي ءَالَآءُ رَبِّكَمَّا تُكْذِبَانِ
 مُدْهَأَتَانِ ﴿٦٦﴾ فَيَأْتِي ءَالَآءُ رَبِّكَمَّا تُكْذِبَانِ ﴿٦٧﴾ فَيَمَاسِ
 عَيْنَانِ نَضَّخَتَانِ ﴿٦٨﴾ فَيَأْتِي ءَالَآءُ رَبِّكَمَّا تُكْذِبَانِ ﴿٦٩﴾

﴿٤٨﴾، ﴿٤٩﴾ ومن أوصاف تلك الجنتين أنهما ﴿٥٠﴾ ذَوَاتَا أَفْنَانٍ ﴿٥١﴾؛ أي: فيهما من ألوان النعيم المتنوعة؛ نعيم الظاهر والباطن؛ ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر؛ أي: فيهما الأشجار الكثيرة الزاهرة، ذوات الغصون الناعمة، التي فيها الثمار البانعة الكثيرة اللذيذة أو ذواتا أنواع وأصناف من جميع أصناف النعيم وأنواعه جمع فن، أي: صنف.

﴿٥٠﴾، ﴿٥١﴾ وفي تلك الجنتين ﴿٥٢﴾ عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ ﴿٥٣﴾: يفجرونهما على ما يريدون ويشتهون.

﴿٥٢﴾، ﴿٥٣﴾ فَيَمَاسِ مِنْ كُلِّ فَنَكِهِمُ ﴿٥٤﴾: من جميع أصناف الفواكه ﴿٥٥﴾ رَوْجَانِ ﴿٥٦﴾؛ أي: صنفان؛ كل صنف له لذة ولون ليس للنوع الآخر.

﴿٥٦﴾، ﴿٥٧﴾ مُتَكَيِّينَ عَلَى فُرُشٍ بَطَانُهَا مِنْ إِسْتَرْجٍ ﴿٥٨﴾: هذه صفة فرش أهل الجنة وجلسهم عليها، وأنهم متكئون عليها؛ أي: جلوس تمكن واستقرار وراحة؛ كجلوس الملوك على الأسرة، وتلك الفرش لا يعلم وصفها وحسنها إلا الله تعالى، حتى إن بطانتها التي تلي الأرض منها من إسترج وهو أحسن الحرير وأفخره؛ فكيف بظواهرها التي يباشرون، ﴿٥٩﴾ وَحَى الْجَنَّتَيْنِ دَانِ ﴿٦٠﴾: الجنى هو الثمر المستوي؛ أي: وثمر

هاتين الجنتين قريب التناول، يناله القائم والقاعد والمضطجع.

﴿٥٩﴾ - ﴿٦٠﴾ ﴿٦١﴾ فِيهِنَّ قَصِيرَتُ الطَّرْفِ ﴿٦٢﴾؛ أي: قد قصرن طرفهن على أزواجهن من حسنهم وجمالهم وكمال محبتهم لهم، وقصرن أيضًا طرف أزواجهن عليهن من حسنهن وجمالهن ولذة وصالهن وشدة محبتهن، ﴿٦٣﴾ لَمْ يَطْمِئِنَّ إِسْ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ ﴿٦٤﴾؛ أي: لم ينلهن أحد قبلهن من الإنس والجن، بل هن أبكار عرب متحبيات إلى أزواجهن؛ بحسن التبعيل والتغنج والملاحة والدلال، ولهذا قال: ﴿٦٥﴾ كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ ﴿٦٦﴾، وذلك لصفائهن وجمال منظرهن وبهائهن.

﴿٦٦﴾، ﴿٦٧﴾ ﴿٦٨﴾ هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَنِ إِلَّا الْإِحْسَنُ ﴿٦٩﴾؛ أي: هل جزاء من أحسن في عبادة الخالق، ونفع عبده إلا أن يحسن إليه بالثواب الجزيل والفوز الكبير والنعيم المقيم والعيش السليم؟ فهاتان الجنتان العاليتان للمقربين.

﴿٦٦﴾ - ﴿٦٧﴾ ﴿٦٨﴾ وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴿٦٩﴾: من فضة بنيانهما وحليتهما وآتيتهما وما فيهما لأصحاب اليمين، وتلك الجنتان ﴿٧٠﴾ مُدْهَأَتَانِ ﴿٧١﴾؛ أي: سوداوان من شدة الخضرة التي هي أثر الري، ﴿٧٢﴾ فَيَمَاسِعَانِ نَضَّخَتَانِ ﴿٧٣﴾؛ أي: فوارتان، ﴿٧٤﴾ فَيَمَاسِ مِنْ كُلِّ فَنَكِهِمُ ﴿٧٥﴾: من جميع أصناف الفواكه، وأخصها النخل والرمال، اللذان فيهما من المنافع ما فيهما.

﴿٧٥﴾ - ﴿٧٦﴾ ﴿٧٧﴾ فِيهِنَّ ﴿٧٨﴾؛ أي: في الجنات كلها ﴿٧٩﴾ خَيْرَتُ حِسَانٍ ﴿٨٠﴾؛ أي: خيرات الأخلاق حسان الأوجه، فجمعن بين جمال الظاهر والباطن وحسن الخلق والخلق. ﴿٨١﴾ حُورٌ مَقْصُورَتٌ فِي الْحِيَامِ ﴿٨٢﴾؛ أي: محبوسات في خيام اللؤلؤ، قد تهيأن وأعددن أنفسهن لأزواجهن، ولا ينفي ذلك خروجهن في البساتين ورياض الجنة كما جرت العادة لبنات الملوك المخدرات الخفريات، ﴿٨٣﴾ لَمْ يَطْمِئِنَّ إِسْ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ ﴿٨٤﴾ فَيَأْتِي ءَالَآءُ رَبِّكَمَّا تُكْذِبَانِ ﴿٨٥﴾ ۝ ١٩

﴿٧٦﴾، ﴿٧٧﴾ ﴿٧٨﴾ مُتَكَيِّينَ عَلَى رَقِيقٍ خَضِرٍ ﴿٧٩﴾؛ أي: أصحاب هاتين الجنتين متكؤهم على الرفرف الأخضر، وهي الفرش التي فوق المجالس العالية، التي قد زادت على مجالسهم، فصار لها رفرفة من وراء مجالسهم؛ لزيادة البهاء وحسن المنظر،

﴿وَعَبَقَرِي حَسَانٍ﴾ (٧٦): العبقري نسبة لكل منسوج نسجاً حسناً فاخراً، ولهذا وصفها بالحسن الشامل لحسن الصفة وحسن المنظر ونعومة الملمس وهاتان الجنتان دون الجنتين الأوليين؛ كما نص الله على ذلك بقوله: ﴿وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّتَانِ﴾ (٧٧)، وكما وصف الأوليين بعدة أوصاف لم يصف به الآخرين، فقال في الأوليين: ﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ﴾ (٧٥)، وفي الآخرين: ﴿عَيْنَانِ نَضَّخَتَانِ﴾ (٧٦)، ومن المعلوم الفرق بين الجارية والنضاجة، وقال في الأوليين: ﴿ذَوَاتَا أَفْنَانٍ﴾ (٧٨)، ولم يقل ذلك في الآخرين، وقال في الأوليين: ﴿فِيهِمَا مِنْ كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ﴾ (٧٩)، وفي الآخرين: ﴿فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرِيَّانٌ﴾ (٨٠)، وقد علم ما بين الوصفين من التفاوت. وقال في الأوليين: ﴿مُتَكَبِّرِينَ عَلَى فُرُشٍ بَطَّائِنُهَا مِنْ إِسْتَرْيٍ وَحَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ﴾ (٨١)، ولم يقل ذلك في الآخرين، بل قال: ﴿مُتَكَبِّرِينَ عَلَى رَقَرٍ خُضِرٍ وَعَبَقَرِي حَسَانٍ﴾ (٧٦)، وقال في الأوليين في وصف نسايتهم وأزواجهم: ﴿فِيهِمَا قَصِيرَتُ الْأَطْرَفِ لَمْ يَطْمِئْتُنَّ إِشْنَ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌ﴾ (٨٢)، وفي الآخرين: ﴿حُورٌ مَقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ﴾ (٧٧)، وقد علم التفاوت بين ذلك، وقال في الأوليين: ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَنِ إِلَّا الْإِحْسَنُ﴾ (٨٣)، فدل ذلك أن الأوليين جزاء المحسنين، ولم يقل ذلك في الآخرين، ومجرد تقديم الأوليين على الآخرين يدل على فضلها.

فهذه الأوجه يعرف فضل الأوليين على الآخرين، وأنهما معدتان للمقربين من الأنبياء والصديقين وخواص عباد الله الصالحين، وأن الآخرين معدتان لعموم المؤمنين. وفي كل من الجنات المذكورات ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، وفيهن ما تشتهي الأنفس وتلذ الأعين، وأهلهن في غاية الراحة والرضا والطمأنينة وحسن المأوى، حتى إن كل واحد منهم لا يرى أحداً أحسن حالاً منه ولا أعلى من نعيمه الذي هو فيه.

﴿وَلَمَّا ذَكَرَ سَعَةَ فَضْلِهِ وَإِحْسَانَهُ﴾ قال: ﴿بَرَكَةُ أَسْمِ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ (٧٨)، أي: تعظم وكثر خيره الذي له الجلال الباهر والمجد الكامل والإكرام لأوليائه.

تم تفسير سورة الرحمن. ولله الحمد والشكر والثناء الحسن.

﴿٥٣٤﴾

تفسير سورة الواقعة

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ﴾ (١) ﴿لَيْسَ لَوْعَتِهَا كَاذِبَةٌ﴾ (٢) ﴿خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ﴾ (٣) ﴿إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًا﴾ (٤) ﴿وَسُتِ الْجِبَالُ بَسًا﴾ (٥) ﴿فَكَانَتْ هَبَاءً مُتْبَثًا﴾ (٦) ﴿وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً﴾ (٧) ﴿فَأَصْحَبُ الْمُيمَنَةِ مَا أَصْحَبُ الْمُشْغَمَةِ﴾ (٨) ﴿وَأَصْحَبُ الْمُشْغَمَةِ مَا أَصْحَبُ

الْمَشَقَّةَ ٩ وَالسَّيِّئُونَ السَّيِّئُونَ ١٠ أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ ١١ فِي
جَنَّتِ النَّعِيمِ ١٢ ثَلَاثَةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ ١٣ وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ ١٤
عَلَى سُرُرٍ مَوْضُوئَةٍ ١٥ مُتَّكِئِينَ عَلَيْهَا مُتَقَلِّبِينَ ١٦ يَطُوفُ
عَلَيْهِمْ وَلَدَانُ مَخْلُودُونَ ١٧ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ ١٨
لَا يَصَدَّغُونَ عَنْهَا وَلَا يَزْفُونَ ١٩ وَفَكَهَمَتُمْ مِمَّا يَتَخَبَّروُنَّ ٢٠
وَلَحِيزَ طَيْرٍ مِمَّا يَشْتَبُونَ ٢١ وَحُورٌ عِينٌ ٢٢ كَأَمْثَلِ اللَّوْلُؤِ
الْمَكْنُونِ ٢٣ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ٢٤ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا
تَأْتِيهِمْ ٢٥ إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا ٢٦

١ - ٢ يخبر تعالى بحال الواقعة التي لا بد من وقوعها، وهي القيامة، التي ﴿لَيْسَ لَوْعِنَهَا كَاذِبَةٌ﴾ ٢؛ أي: لا شك فيها؛ لأنها قد تظاهرت عليها الأدلة العقلية والسمعية، ودلت عليها حكمته تعالى ﴿خَافِضَةً رَافِعَةً﴾ ٣؛ أي: خافضة لأناس في أسفل سافلين، رافعة لأناس في أعلى عليين، أو: خفضت بصوتها فأسمعت القريب، ورفعت فأسمعت البعيد.

٤ - ٦ ﴿إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًا﴾ ٤؛ أي: حركت واضطربت، ﴿وَسَبَّتِ الْجِبَالُ سَبًّا﴾ ٥؛ أي: فنتت، ﴿فَكَانَتْ هَبَاءً مُتَّبَثًا﴾ ٦؛ فأصبحت ليس عليها جبل ولا معلم، ﴿فَاعَا صَفْصَفًا﴾ ٧؛ لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا ٨ [طه: ١٠٦، ١٠٧].

٩ - ١٢ ﴿وَكُنْتُمْ﴾ ٩: أيها الخلق، ﴿أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً﴾ ١٠؛ أي: انقسمتم ثلاث فرق بحسب أعمالكم الحسنة والسيئة. ثم فصل أحوال الأزواج الثلاثة، فقال: ﴿فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ﴾ ١١: تعظيم لشأنهم وتفخيم لأحوالهم، ﴿وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ﴾ ١٢: أي: الشمال، ﴿مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ﴾ ١٣: تهويل لحالهم.

١٤ - ١٦ وَالسَّيِّئُونَ السَّيِّئُونَ ١٤ أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ ١٥؛ أي: السابقون في الدنيا إلى الخيرات هم السابقون في الآخرة لدخول الجنات، أولئك الذين هذا وصفهم المقربون عند الله ﴿فِي جَنَّتِ النَّعِيمِ﴾ ١٦: في أعلى عليين، في المنازل العاليات التي لا منزلة فوقها، وهؤلاء المذكورون ﴿ثَلَاثَةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ﴾ ١٧؛ أي: جماعة كثيرون من المتقدمين من هذه الأمة وغيرهم. ﴿وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ﴾ ١٨: وهذا يدل على فضل صدر هذه الأمة في الجملة على متأخريها؛ لكون المقربين من الأولين أكثر من المتأخرين، والمقربون هم خواص الخلق.

١٥ - ١٦ ﴿عَلَى سُرُرٍ مَوْضُوئَةٍ﴾ ١٥؛ أي: مرمولة بالذهب والفضة واللؤلؤ والجوهر وغير ذلك من الحلي والزينة التي لا يعلمها إلا الله تعالى، ﴿مُتَّكِئِينَ عَلَيْهَا﴾ ١٦؛ أي: على تلك السرر، جلوس تمكن وطمأنينة وراحة واستقرار، ﴿مُتَقَلِّبِينَ﴾ ١٧: وجه كل منهم إلى وجه صاحبه؛ من صفاء قلوبهم وتقابلها بالمحبة وحسن أدبهم وتقابل قلوبهم.

١٧ - ٢٤ ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وَلَدَانُ مَخْلُودُونَ﴾ ١٧؛ أي: يدور على أهل الجنة لخدمتهم وقضاء حوائجهم ولدان صغار الأسنان في غاية الحسن والبهاء. ﴿كَأَنَّهُمْ لَوْلُؤُا مَكْنُونٌ﴾ ٢١ [الطور: ٢٤]؛ أي: مستور لا يناله ما غيره، مخلوقون للبقاء والخلد؛ لا يهرمون ولا يتغيرون ولا يزيدون على أسنانهم، ويدورون عليهم بأنية شرايبهم؛ ﴿بِأَكْوَابٍ﴾ ٢٢: وهي التي لا عرى لها، ﴿وَأَبَارِيقَ﴾ ٢٣: الأواني التي لها عرى، ﴿وَكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ﴾ ٢٤؛ أي: من خمر للذيذ المشرب لا آفة فيه، ﴿لَا يَصَدَّغُونَ عَنْهَا﴾ ٢٥؛ أي: لا تصدعهم رءوسهم كما تصدع خمرة الدنيا رأس شاربها، ولا هم عنها ﴿يَزْفُونَ﴾ ٢٦؛ أي: لا تنزف عقولهم ولا تنذهب أحلامهم منها كما يكون لخمير الدنيا. والحاصل أن كل ما في الجنة من أنواع النعيم الموجود جنسه في الدنيا لا يوجد في الجنة فيه آفة؛ كما قال تعالى: ﴿فِيهَا أَشْهَرُ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَرٍ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ. وَأَنْهَرٍ مِنْ حَمَرٍ لَذْوٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَرٍ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى﴾ [محمد: ١٥]، وذكر هنا خمر الجنة، ونفى عنه كل آفة توجد في الدنيا.

٢٦ - ٢٧ ﴿وَفَكَهَمَتُمْ مِمَّا يَتَخَبَّروُنَّ﴾ ٢٦؛ أي: مهما تخيروا وراق في أعينهم واشتتهت نفوسهم من أنواع الفواكه الشهية والجنى اللذيذ حصل لهم على أكمل وجه وأحسنه.

٢٨ - ٢٩ ﴿وَلَحِيزَ طَيْرٍ مِمَّا يَشْتَبُونَ﴾ ٢٨؛ أي: من كل صنف من الطيور يشتبهونه، ومن أي جنس من لحمه أرادوا؛ إن شاءوا مشويًا أو طيبخًا أو غير ذلك.

٣٠ - ٣٣ ﴿وَحُورٌ عِينٌ﴾ ٣٠ كَأَمْثَلِ اللَّوْلُؤِ الْمَكْنُونِ ٣١؛ أي: ولهم حور عِين، والحواء التي في عينها كحل وملاحة وحسن وبهاء، والعين حسان الأعين وضخامها، وحسن العين في الأنثى من أعظم الأدلة على حسناتها وجمالها. ﴿كَأَمْثَلِ اللَّوْلُؤِ الْمَكْنُونِ﴾ ٣٢؛ أي: كأنهن اللؤلؤ الأبيض الرطب الصافي البهي المستور عن الأعين والريح والشمس، الذي يكون لونه من أحسن الألوان، الذي لا عيب فيه بوجه

سورة الواقعة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ ﴿٧﴾ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ
 لَا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُرْفَوْنَ ﴿٨﴾ وَفَكَهْوَ مِمَّا يَشْتَبِرُونَ ﴿٩﴾
 وَلَمْ يَطْمِئْزِمْ يَمْثِلُ الْمَتَدُونَ ﴿١٠﴾ وَحُورٌ عِينٌ ﴿١١﴾ كَأَمْثَلِ الثَّوْلِ
 الْمَكُونِ ﴿١٢﴾ جَزَاءً لِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٣﴾ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا
 تَأْنِيًا ﴿١٤﴾ إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا ﴿١٥﴾ وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ
 الْيَمِينِ ﴿١٦﴾ فِي سِدْرٍ مَحْضُورٍ ﴿١٧﴾ وَطَلْحٍ مَبْشُورٍ ﴿١٨﴾ وَظِلٍّ مَمْدُودٍ ﴿١٩﴾
 وَمَاءٍ مَسْكُوبٍ ﴿٢٠﴾ وَفَكَهْوَ كَثِيرٍ ﴿٢١﴾ لَا مَقْطُوعَةٍ وَلَا
 مَمْنُوعَةٍ ﴿٢٢﴾ وَفُرُشٍ مَرْفُوعَةٍ ﴿٢٣﴾ إِنَّا أَنشَأْنَاهُنَّ إِنشَاءً ﴿٢٤﴾ فَعَمَلْنَهُنَّ
 أَكْبَارًا ﴿٢٥﴾ عُرُبًا أَتْرَابًا ﴿٢٦﴾ لِأَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴿٢٧﴾ ثَلَاثَةٌ مِنْ
 الْأُولَىٰ ﴿٢٨﴾ وَثَلَاثَةٌ مِنَ الْآخِرِينَ ﴿٢٩﴾ وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ
 الشِّمَالِ ﴿٣٠﴾ فِي سَمُورٍ وَجِجٍ ﴿٣١﴾ وَظِلٍّ يَمْنَحُورٍ ﴿٣٢﴾ لَا بَارِدٍ
 وَلَا كَرِيمٍ ﴿٣٣﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَفِينَ ﴿٣٤﴾ وَكَانُوا يُصِرُّونَ
 عَلَىٰ الْحِنثِ الْعَظِيمِ ﴿٣٥﴾ وَكَانُوا يَقُولُونَ أَهَذَا بَشَرًا مِثْلَنَا وَكَانُوا رَبَّابًا
 وَعَظَمَاءَ آوَاءَ لِمَبْعُوثِينَ ﴿٣٦﴾ آوَاءَ آبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ ﴿٣٧﴾ قُلْ إِنَّ
 الْأُولَىٰ وَالْآخِرِينَ ﴿٣٨﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِقْدَرٍ يَوْمٍ مَعْلُومٍ ﴿٣٩﴾

٥٣٥

من الوجوه؛ فكذلك الحور العين، لا عيب فيهن بوجه، بل هن
 كاملات الأوصاف جميلات النعوت؛ فكل ما تأملته منها؛ لم
 تجد فيه إلا ما يسر الخاطر ويروق الناظر.

﴿٢٤﴾ وذلك النعيم المعد لهم ﴿٢٥﴾ جزاءً لما كانوا يعملون ﴿٢٦﴾؛
 فكما حسنت منهم الأعمال؛ أحسن الله لهم الجزاء، ووفر
 لهم الفوز والنعيم.

﴿٢٧﴾، ﴿٢٨﴾ ﴿٢٩﴾ ﴿٣٠﴾ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْنِيًا ﴿٣١﴾؛ أي:
 لا يسمعون في جنات النعيم كلامًا يلغي، ولا يكون فيه فائدة
 ولا كلامًا يؤثم صاحبه ﴿٣٢﴾ إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا ﴿٣٣﴾؛ أي:
 إلا كلامًا طيبًا، وذلك لأنها دار الطيبين، ولا يكون فيها إلا كل
 طيب، وهذا دليل على حسن أدب أهل الجنة في خطابهم فيما
 بينهم، وأنه أطيّب كلام وأسر للنفوس وأسلمه من كل لغو
 واثم، نسأل الله من فضله.

﴿٣٤﴾ وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ ﴿٣٥﴾ فِي سِدْرٍ مَحْضُورٍ ﴿٣٦﴾
 وَطَلْحٍ مَبْشُورٍ ﴿٣٧﴾ وَظِلٍّ مَمْدُودٍ ﴿٣٨﴾ وَمَاءٍ مَسْكُوبٍ ﴿٣٩﴾ وَفَكَهْوَ
 كَثِيرٍ ﴿٤٠﴾ لَا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴿٤١﴾ وَفُرُشٍ مَرْفُوعَةٍ ﴿٤٢﴾
 إِنَّا أَنشَأْنَاهُنَّ إِنشَاءً ﴿٤٣﴾ فَعَمَلْنَهُنَّ أَكْبَارًا ﴿٤٤﴾ عُرُبًا أَتْرَابًا ﴿٤٥﴾
 لِأَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴿٤٦﴾ ثَلَاثَةٌ مِنَ الْأُولَىٰ ﴿٤٧﴾ وَثَلَاثَةٌ مِنَ
 الْآخِرِينَ ﴿٤٨﴾.

﴿٤٧﴾ - ﴿٤٨﴾ ثم ذكر ما أعد لأصحاب اليمين، فقال: ﴿٤٩﴾ وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ ﴿٥٠﴾؛ أي: شأنهم عظيم وحالهم
 جسيم، ﴿٥١﴾ فِي سِدْرٍ مَحْضُورٍ ﴿٥٢﴾؛ أي: مقطوع ما فيه من الشوك والأغصان الرديئة المضرة، مجعول مكان ذلك الثمر الطيب.
 وللصدر من الخواص الظل الظليل وراحة الجسم فيه، ﴿٥٣﴾ وَطَلْحٍ مَبْشُورٍ ﴿٥٤﴾؛ أي: والطلح معروف، وهو شجر كبار يكون بالبادية
 تنضد أغصانه من الثمر اللذيذ الشهى، ﴿٥٥﴾ وَمَاءٍ مَسْكُوبٍ ﴿٥٦﴾؛ أي: كثير من العيون والأنهار السارحة والمياه المتدفقة،
 ﴿٥٧﴾ وَفَكَهْوَ كَثِيرٍ ﴿٥٨﴾ لَا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴿٥٩﴾؛ أي: ليست بمنزلة فاكهة الدنيا؛ تنقطع في وقت من الأوقات وتكون ممتنعة؛
 أي: متعسرة على مبتغيها، بل هي على الدوام موجودة، وجناها قريب يتناوله العبد على أي حال يكون، ﴿٦٠﴾ وَفُرُشٍ مَرْفُوعَةٍ ﴿٦١﴾؛
 أي: مرفوعة فوق الأسرة ارتفاعاً عظيماً، وتلك الفرش من الحرير والذهب واللؤلؤ وما لا يعلمه إلا الله.

﴿٦٢﴾ - ﴿٦٣﴾ إِنَّا أَنشَأْنَاهُنَّ إِنشَاءً ﴿٦٤﴾؛ أي: إنا أنشأنا نساء أهل الجنة نشأة غير النشأة التي كانت في الدنيا، نشأة كاملة، لا تقبل
 الفناء، ﴿٦٥﴾ فَعَمَلْنَهُنَّ أَكْبَارًا ﴿٦٦﴾؛ أي: صغارهن وكبارهن، وعموم ذلك يشمل الحور العين ونساء أهل الدنيا، وأن هذا الوصف -
 وهو البكارة - ملازم لهن في جميع الأحوال؛ كما أن كونهن ﴿٦٧﴾ عُرُبًا أَتْرَابًا ﴿٦٨﴾؛ أي: ملازم لهن في كل حال، والعروب هي
 المرأة المتحبة إلى بعلها بحسن لفظها وحسن هيئتها ودلالها وجمالها ومحبتها؛ فهي التي إن تكلمت سببت العقول، وود
 السامع أن كلامها لا ينقضي، خصوصاً عند غنائهن بتلك الأصوات الرخيمة والنفحات المطربة، وإن نظر إلى أدبها وسمتها
 ودلها؛ ملأت قلب بعلها فرحاً وسروراً، وإن انتقلت من محل إلى آخر؛ امتلأ ذلك الموضع منها ريحاً طيباً ونوراً، ويدخل في
 ذلك الغنجة عند الجماع، والأتراب: اللاتي على سن واحدة ثلاث وثلاثين سنة، التي هي غاية ما يتمنى ونهاية سن الشباب؛
 فمساوهم عرب أتراب متفقات مؤتلفات راضيات مرضيات لا يحزن ولا يحزن، بل هن أفرح النفوس وقررة العيون وجلاء
 الأبصار، ﴿٦٩﴾ لِأَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴿٧٠﴾؛ أي: معدات لهم مهيآت.

﴿٢٩﴾ ﴿٤٠﴾ ثَلَاثَةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ ﴿٣٩﴾ وَثَلَاثَةٌ مِنَ الْآخِرِينَ ﴿٤٠﴾؛
أي: هذا القسم، وهم أصحاب اليمين، عدد كثير من الأولين
وعدد كثير من الآخرين.

﴿٤١﴾ وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ ﴿٤١﴾ فِي سَمُومٍ وَجَمِيمٍ ﴿٤٢﴾
وَطَلٍّ مِنْ جَحِيمٍ ﴿٤٣﴾ لَا بَارِدَ وَلَا كَرِيمٍ ﴿٤٤﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ
مُتْرَفِينَ ﴿٤٥﴾ وَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَى اللَّغْوِ الْعَظِيمِ ﴿٤٦﴾ وَكَانُوا
يَقُولُونَ أَيُّذَا مِنَّا وَكَأَنَّا تُرَابًا وَعِظْمًا إِذَا لَمَبَعُونَا ﴿٤٧﴾
أَوْ أَبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ ﴿٤٨﴾.

﴿٤١﴾ - المراد بأصحاب الشمال هم أصحاب النار
والأعمال المشثومة، فذكر الله لهم من العقاب ما هم
حقيقون به، فأخبر أنهم ﴿٤١﴾ فِي سَمُومٍ؛ أي: ريح حارة
من حر نار جهنم؛ تأخذ بأنفاسهم، وتقلقهم أشد القلق،
﴿٤٢﴾ وَجَمِيمٍ؛ أي: ماء حار يقطع أمعاءهم، ﴿٤٣﴾ وَطَلٍّ مِنْ
جَحِيمٍ ﴿٤٣﴾؛ أي: لهب نار يختلط بدخان، ﴿٤٤﴾ لَا بَارِدَ وَلَا
كَرِيمٍ ﴿٤٥﴾؛ أي: لا برد فيه ولا كرم. والمقصود أن هناك
الهم والغم والحزن والشر الذي لا خير فيه؛ لأن نفي الضد
إثبات للضد.

﴿٤٦﴾ - ﴿٤٨﴾ ثم ذكر أعمالهم التي أوصلتهم إلى هذا الجزاء،
فقال: ﴿٤٦﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَفِينَ ﴿٤٧﴾؛ أي: قد ألهمتهم
دنياهم وعملوا لها وتنعموا وتمتعوا بها، فآلهاهم الأمل عن
إحسان العمل، فهذا الترف الذي ذمهم الله عليه، ﴿٤٨﴾ وَكَانُوا
يُصِرُّونَ عَلَى اللَّغْوِ الْعَظِيمِ ﴿٤٩﴾؛ أي: وكانوا يفعلون الذنوب
الكبار ولا يتوبون منها ولا يندمون عليها، بل يصرون على
ما يسخط مولاهم، فقدموا عليه بأوزار كثيرة غير مغفورة،
وكانوا ينكرون البعث، فيقولون استبعاداً للوقوع: ﴿٤٩﴾ أَيُّذَا مِنَّا
وَكَأَنَّا تُرَابًا وَعِظْمًا إِذَا لَمَبَعُونَا ﴿٥٠﴾ أَوْ أَبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ ﴿٥١﴾؛
أي: كيف نبعث بعد موتنا وقد بلىنا فكنّا تراباً وعظاماً! هذا
من المحال.

قال تعالى في جوابهم:

﴿٥٢﴾ قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ ﴿٥١﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَاتِ يَوْمٍ
مَّعْلُومٍ ﴿٥٢﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ أَنْتُمْ الْأَصْلَ الْكُذِّبُونَ ﴿٥٣﴾ لَا كُفُونَ مِنْ شَجَرٍ مِنْ
زُقُومٍ ﴿٥٤﴾ فَلَا تِلْكَ مِنْهَا الْبُطُونَ ﴿٥٥﴾ فَتَذَرُوهَا عَلَيْهِ مِنْ اللَّعِيمِ ﴿٥٦﴾
فَتَذَرُوهَا شُرْبَ اللَّيْمِ ﴿٥٧﴾ هَذَا تَرْكُكُمْ يَوْمَ الْبَيْنِ ﴿٥٨﴾ تَعْنُ خَلْقَتَكُمْ
فَلَوْلَا تَصَدُّقُونَ ﴿٥٩﴾.

﴿٤٩﴾، ﴿٥٠﴾ أي: قل: إن متقدم الخلق ومتأخرهم؛ الجميع
سيجمعهم الله ويجمعهم لميقات يوم معلوم قدره الله لعباده
حين تنقضي الخليقة، ويريد الله تعالى جزاءهم على أعمالهم
التي عملوها في دار التكليف.

﴿٥١﴾ - ﴿٥٣﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ أَنْتُمْ الْأَصْلُ الْكُذِّبُونَ ﴿٥١﴾؛ عن طريق الهدى،
التابعون لطريق الردى، ﴿٥٢﴾ الْكُذِّبُونَ ﴿٥٢﴾؛ بالرسول ﷺ
وما جاء به من الحق والوعد والوعيد، ﴿٥٣﴾ لَا كُفُونَ مِنْ شَجَرٍ
مِنْ زُقُومٍ ﴿٥٤﴾؛ وهو أقيح الأشجار وأخسها وأنتها ريحاً
وأبشعها منظرًا، ﴿٥٥﴾ فَلَا تِلْكَ مِنْهَا الْبُطُونَ ﴿٥٥﴾؛ والذي أوجب
لهم أكلها مع ما هي عليه من الشناعة، الجوع المفرط الذي
يلتهب في أكبادهم وتكاد تنقطع منه أفئدتهم، هذا الطعام
الذي يدفعون به الجوع، وهو الذي لا يسمن ولا يغني من
جوع.

﴿٥٦﴾ - ﴿٥٨﴾ وأما شرابهم؛ فهو بشس الشراب، وهو أنهم
يشربون على هذا الطعام من الماء الحميم الذي يغلي في
البطون ﴿٥٦﴾ شُرْبَ اللَّيْمِ ﴿٥٦﴾؛ وهي الإبل العطاش، التي قد
اشتد عطشها، أو أن الهميم داء يصيب الإبل لا تروى معه
من شرب الماء. ﴿٥٧﴾ هَذَا ﴿٥٧﴾؛ الطعام والشراب ﴿٥٨﴾ تَرْكُكُمْ ﴿٥٨﴾؛
أي: ضيافتهم ﴿٥٩﴾ يَوْمَ الْبَيْنِ ﴿٥٩﴾؛ وهي الضيافة التي قدموها
لأنفسهم وآثروها على ضيافة الله لأوليائه؛ قال تعالى: ﴿٥٩﴾ إِنَّ
الْبَيْنَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴿٦٠﴾ خَالِدِينَ
فِيهَا لَا يَبْغَوْنَ عَنْهَا جَلُولًا ﴿٦١﴾ [الكهف: ١٠٧، ١٠٨، ١٠٩].

﴿٥٩﴾ ثم ذكر الدليل العقلي على البعث، فقال: ﴿٥٩﴾ تَعْنُ
خَلَقْتَكُمْ فَلَوْلَا تَصَدُّقُونَ ﴿٥٩﴾؛ أي: نحن الذين أوجدناكم بعد
أن لم تكونوا شيئاً مذكوراً من غير عجز ولا تعب، أفليس
القادر على ذلك بقادر على أن يحيي الموتى؟ بلى إنه على
كل شيء قدير، ولهذا ويخهم على عدم تصديقهم بالبعث
وهم يشاهدون ما هو أعظم منه وأبلغ.

﴿٥٩﴾ أَوْرَثَكُمْ مَأْتِمُونَ ﴿٥٩﴾ ءَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ ﴿٥٩﴾
تَعْنُ قَدَرْنَا بَيْنَكُمْ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٦٠﴾ عَلَىٰ أَنْ نُبَدِّلَ
أَمْثَلَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ
الْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾.

﴿٥٩﴾ - ﴿٦٢﴾ أي: ﴿٥٩﴾ أَوْرَثَكُمْ ﴿٥٩﴾ ابتداء خلقكم من المني
الذي ﴿٦٠﴾ تَمْتُونُ ﴿٦٠﴾؛ فهل أنتم خالقون ذلك المني، وما
ينشأ منه أم الله تعالى الخالق؟ الذي خلق فيكم من الشهوة

والآنها في الذكر والأنثى، وهدي كلا منهما لما هنالك، وحب بين الزوجين، وجعل بينهما من المودة والرحمة ما هو سبب التناسل، ولهذا أحالهم الله تعالى على الاستدلال بالنشأة الأولى على النشأة الأخرى، فقال: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ﴾ (٦٦): أن القادر على ابتداء خلقكم قادر على إعادتكم.

﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ﴾ (٦٧) ﴿أَأَنْتُمْ تَرْزَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ﴾ (٦٨) لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ﴾ (٦٩) إِنَّا لَمُعْرِضُونَ﴾ (٧٠) بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ﴾ (٧١).

١٣ - ١٧ وهذا امتتان منه على عباده؛ يدعوهم به إلى توحيد عبادته والإجابة إليه؛ حيث أنعم عليهم بما يسره لهم من الحرث للزروع والثمار، فيخرج من ذلك من الأقوات والأرزاق والفواكه ما هو من ضروراتهم وحاجاتهم ومصالحهم التي لا يقدرون أن يحصوها، فضلاً عن شكرها وأداء حقها، فقرهم بمنته، فقال: ﴿أَأَنْتُمْ تَرْزَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ﴾ (٦٨) أي: أنتم أخرجتموه نباتاً من الأرض؟ أم أنتم الذي نميتوه؟ أم أنتم الذين أخرجتم سنبله وثمره حتى صار حباً حصيداً وثمرًا نضيجاً؟ أم الله الذي افرد بذلك وحده وأنعم به عليكم، وأنتم غاية ما تفعلون أن تحرثوا الأرض، وتشقوها، وتلقوا فيها البذر، ثم لا علم عندكم بما يكون بعد ذلك ولا قدرة لكم على أكثر من ذلك؟ ومع ذلك؛ فنبههم على أن ذلك الحرث معرض للأخطار لولا حفظ الله وإبقاؤه بلغة لكم ومتاعاً إلى حين. فقال: ﴿لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ﴾ (٦٩) أي: الزرع المحرث وما فيه من الثمار ﴿حُطَامًا﴾ (٦٩) أي: فتأتنا متحطماً لا نفع فيه ولا رزق، ﴿فَظَلْتُمْ﴾ (٦٩) أي: فصرتم بسبب جعله حطاماً بعد أن تعبت فيه، وأنفقت النفقات الكثيرة، ﴿تَفَكَّهُونَ﴾ (٦٩) أي: تندمون وتحسرون على ما أصابكم، ويزلو بذلك فرحكم وسروركم وتفكهكم، فتقولون: ﴿إِنَّا لَمُعْرِضُونَ﴾ (٧٠) أي: إنا قد نقصنا وأصابنا مصيبة اجتاحتنا، ثم تعرفون بعد ذلك من أين أتيتم، وبأي سبب ذهبتم؟ فتقولون: ﴿بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ﴾ (٧١) فاحمدوا الله تعالى حيث زرعه الله لكم، ثم أبقاه وكماله لكم، ولم يرسل عليه من الآفات ما به تحرمون من نفعه وخيره.

﴿أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ﴾ (٧٢) ﴿أَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ﴾ (٧٣) لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ أَمْحًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ﴾ (٧٤).

١٨ - ٢٢ لما ذكر تعالى نعمته على عباده بالطعام؛ ذكر نعمته عليهم بالشراب العذب الذي منه يشربون، وأنه لولا أن الله يسره وسهله؛ لما كان لكم إليه سبيل، وأنه الذي أنزله ﴿مِنَ الْمُزْنِ﴾ (٧٢) وهو السحاب والمطر الذي ينزله الله تعالى، فيكون منه الأنهار الجارية على وجه الأرض وفي بطنها، ويكون منه الغدران المتدفقة، ومن نعمته تعالى أن جعله عذبةً فرائاً تسيغه النفوس، ولو شاء لجعله ملحاً ﴿أَمْحًا﴾ (٧٢) مكروهاً للنفوس لا ينتفع به، ﴿فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ﴾ (٧٢) الله تعالى على ما أنعم به عليكم.

﴿أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ﴾ (٧٢) ﴿أَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ﴾ (٧٣) ﴿لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ أَمْحًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ﴾ (٧٤) ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ (٧٥).

سورة الواقعة
ثُمَّ لَكُمْ أَجَاءٌ الْمَكِيدُونَ﴾ (٥١) ﴿لَا يُلَاقُونَ مِنْ شَجَرٍ مِنْ زُفَيْرٍ﴾ (٥٢) ﴿فَالْيَوْمَ مِمَّا الْبُطُونَ﴾ (٥٣) ﴿فَتَشْرَبُونَ عَلَيْهِ مِنَ اللَّعِيمِ﴾ (٥٤) ﴿فَتَشْرَبُونَ﴾ (٥٥) ﴿هَذَا تَرْتَلُمُ يَوْمَ الدِّينِ﴾ (٥٦) ﴿نَحْنُ خَلَقْنَكُمْ فَلَوْلَا تَصَدَّقُونَ﴾ (٥٧) ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ﴾ (٥٨) ﴿أَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ﴾ (٥٩) ﴿نَحْنُ قَدْ زَيَّنَّا يَكْمُ الْمَوْتِ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾ (٦٠) ﴿عَلَىٰ أَنْ يُبَدِّلَ أَمْثَلَكُمْ وَنُنشِئَ فِيكُمْ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ (٦١) ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ﴾ (٦٢) ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ﴾ (٦٣) ﴿أَأَنْتُمْ تَرْزَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ﴾ (٦٤) ﴿لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ﴾ (٦٥) ﴿إِنَّا لَمُعْرِضُونَ﴾ (٦٦) ﴿بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ﴾ (٦٧) ﴿أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ﴾ (٦٨) ﴿أَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ﴾ (٦٩) ﴿لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ أَمْحًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ﴾ (٧٠) ﴿أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ﴾ (٧١) ﴿أَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ﴾ (٧٢) ﴿لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ أَمْحًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ﴾ (٧٣) ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ (٧٤) ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ (٧٥).

الخير غزير العلم، فكل خير وعلم؛ فإنما يستفاد من كتاب الله ويستنبط منه.

﴿٧٨﴾ ﴿فِي كِتَابٍ مَّكُونٍ﴾؛ أي: مستور عن أعين الخلق، وهذا الكتاب المكون هو اللوح المحفوظ؛ أي: إن هذا القرآن مكتوب في اللوح المحفوظ، معظم عند الله وعند ملائكته في الملأ الأعلى.

ويحتمل أن المراد بالكتاب المكون هو الكتاب الذي بأيدي الملائكة الذين ينزلهم الله لوحه ورسالته، وأن المراد بذلك أنه مستور عن الشياطين، لا قدرة لهم على تغييره ولا الزيادة والنقص منه واستراقه.

﴿٧٩﴾ ﴿لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾؛ أي: لا يمس القرآن إلا الملائكة الكرام، الذين طهرهم الله تعالى من الآفات والذنوب والعيوب، وإذا كان لا يمس إلا المطهرون، وأن أهل الخبث والشياطين لا استطاعة لهم ولا يدان إلى مسه؛ دلت الآية بتبيينها على أنه لا يجوز أن يمس القرآن إلا طاهر كما ورد بذلك الحديث، ولهذا قيل: إن الآية خبر بمعنى النهي؛ أي: لا يمس القرآن إلا طاهر.

﴿٨٠﴾ ﴿تَنْزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾؛ أي: إن هذا القرآن الموصوف بتلك الصفات الجليلة هو تنزيل رب العالمين، الذي يربي عباده بنعمه الدينية والدنيوية، وأجل تربية ربي بها عباده إنزاله هذا القرآن، الذي قد اشتمل على مصالح الدارين، ورحم الله به العباد رحمة لا يقدرون لها شكورًا، ومما يجب عليهم أن يقوموا به، ويعلموه، ويدعوا إليه، ويصدقوا به.

﴿٨١﴾ ولهذا قال: ﴿أَفَيْهَذَا الْحَدِيثِ أَنْتُمْ مُذْهَبُونَ﴾؛ أي: أفبهذا الكتاب العظيم والذكر الحكيم ﴿أَنْتُمْ مُذْهَبُونَ﴾؛ أي: تخفون وتدلسون خوفًا من الخلق وعارهم وألستهم! هذا لا ينبغي ولا يليق! إنما يليق أن يداهن بالحديث الذي لا يثق صاحبه منه، وأما القرآن الكريم؛ فهو الحق الذي لا يغالب به مغالب إلا غلب، ولا يصول به سائل إلا كان العالي على غيره، وهو الذي لا يداهن به ويختفى، بل يصدع به ويعلمن.

﴿٨٢﴾ وقوله: ﴿وَيَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنْتُمْ تُكْذِبُونَ﴾؛ أي: تجعلون مقابلة منة الله عليكم بالرزق الكذب والكفر لنعمة الله، فتقولون: مطرنا بوء كذا وكذا! وتضيفون النعمة لغير مسديها وموليها؛ فهلا شكرتم الله على إحسانه إذ أنزله إليكم

﴿٧٦﴾ - ﴿٧٧﴾ وهذه نعمة تدخل في الضروريات التي لا غنى للخلق عنها؛ فإن الناس محتاجون إليها في كثير من أمورهم وحوائجهم، فقرهم تعالى بالنار التي أوجدها في الأشجار، وأن الخلق لا يقدرون أن ينشئوا شجرها، وإنما الله تعالى قد أنشأها من الشجر الأخضر؛ فإذا هي نار توقد بقدر حاجة العباد؛ فإذا فرغوا من حاجتهم؛ أطفئوها وأحمدوها. ﴿يَحْتَرُّ جَعْلُهَا تَذَكُّرًا﴾؛ للعباد بنعمة ربهم، وتذكرة بنار جهنم التي أعدها الله للعاصين، وجعلها سوطًا يسوق به عباده إلى دار النعيم، ﴿وَمَتَاعًا لِلْمُقْوِينَ﴾؛ أي المتفعين أو المسافرين، وخص الله المسافرين؛ لأن نفع المسافر بها أعظم من غيره، ولعل السبب في ذلك لأن الدنيا كلها دار سفر، والعبد من حين ولد فهو مسافر إلى ربه؛ فهذه النار جعلها الله متاعًا للمسافرين في هذه الدار وتذكرة لهم بدار القرار.

﴿٧٦﴾ فلما بين من نعمه ما يوجب الثناء عليه من عباده وشكره وعبادته؛ أمر بتسبيحه وتحميده، فقال: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾؛ أي: نزه ربك العظيم كامل الأسماء والصفات، كثير الإحسان والخيرات، واحمده بقلبك ولسانك وجوارحك؛ لأنه أهل لذلك، وهو المستحق لأن يشكر فلا يكفر ويذكر فلا ينسى ويطاع فلا يعصى.

﴿٧٧﴾ ﴿فَلَا أَقْسَمُ بِمَوْقِعِ النُّجُومِ﴾؛ وَإِنَّهُ لَفَسَّرَ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٨﴾ إِنَّهُ لَقَرَّآنٌ كَرِيمٌ ﴿٧٩﴾ فِي كِتَابٍ مَّكُونٍ ﴿٨٠﴾ لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ ﴿٨١﴾ تَنْزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٨٢﴾ أَفَيْهَذَا الْحَدِيثِ أَنْتُمْ مُذْهَبُونَ ﴿٨٣﴾ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنْتُمْ تُكْذِبُونَ ﴿٨٤﴾ فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلُقُومَ ﴿٨٥﴾ وَأَنْتُمْ حِينِيذٍ نَّظُرُونَ ﴿٨٦﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لَا تُبْصِرُونَ ﴿٨٧﴾ فَلَوْلَا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٨﴾ تَرْجِعُونَهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٨٩﴾

﴿٧٦﴾، ﴿٧٧﴾ أقسم تعالى بالنجوم ومواقعها، أي: مساقطها في مغاريها وما يحدث الله في تلك الأوقات من الحوادث الدالة على عظمته وكبريائه وتوحيده، ثم عظم هذا المقسم به، فقال: ﴿وَإِنَّهُ لَفَسَّرَ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾؛ وإنما كان القسم عظيمًا؛ لأن في النجوم وجريانها وسقوطها عند مغاريها آيات وعبرًا لا يمكن حصرها.

﴿٧٧﴾ وأما المقسم عليه؛ فهو إثبات القرآن، وأنه حق لا ريب فيه ولا شك يعتريه، وأنه ﴿كَرِيمٌ﴾؛ أي: كثير

فيه بيان عموم افتقار المخلوقات العلوية والسفلية لربها في جميع أحوالها، وعموم عزته وقهره للأشياء كلها، وعموم حكمته في خلقه وأمره.

﴿١﴾ ثم أخبر عن عموم ملكه، فقال: ﴿لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾؛ أي: هو الخالق لذلك، الرازق المدبر لها بقدرته، ﴿وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ ﴿٢﴾.

﴿٣﴾ ﴿هُوَ الْأَوَّلُ﴾: الذي ليس قبله شيء. ﴿وَالْآخِرُ﴾: الذي ليس بعده شيء. ﴿وَالظَّاهِرُ﴾: الذي ليس فوقه شيء. ﴿وَالْبَاطِنُ﴾: الذي ليس دونه شيء. ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ ﴿٤﴾: قد أحاط علمه بالظواهر والبواطن والسرائر والخفايا والأمور المتقدمة والمتأخرة.

﴿٥﴾ ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾: أولها يوم الأحد، وآخرها يوم الجمعة، ﴿ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾: استواء يليق بجلاله فوق جميع خلقه، ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ﴾: من حب وحيوان ومطر وغير ذلك، ﴿وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا﴾: من نبت وشجر وحيوان وغير ذلك، ﴿وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ﴾: من الملائكة والأقذار والأرزاق، ﴿وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا﴾: من الملائكة والأرواح والأدعية والأعمال وغير ذلك، ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ﴾؛ كقوله: ﴿مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرُ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا﴾ [المجادلة: ٧]؛ وهذه المعية معية العلم والاطلاع، ولهذا توعد ووعد بالمجازاة بالأعمال بقوله: ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ ﴿٦﴾؛ أي: هو تعالى بصير بما يصدر منكم من الأعمال وما صدرت عنه تلك الأعمال من بر وفجور؛ فمجازيكم عليها وحافظها عليكم.

﴿٧﴾ ﴿لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾: ملكاً وخلقاً وعبداً يتصرف فيهم بما شاء من أوامره القدرية والشرعية الجارية على الحكمة الربانية، ﴿وَالِلَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ ﴿٨﴾: من الأعمال والعمال، فيعرض عليه العباد، فيميز الخبيث من الطيب، ويجازي المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته.

﴿٩﴾ ﴿يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ﴾؛ أي: يدخل الليل على النهار، فيغشيهم الليل بظلامه، فيسكنون ويهدون، ثم يدخل النهار على الليل، فيزول ما على الأرض من الظلام، ويضيء الكون، فيتحرك العباد، ويقومون إلى

من شدة العطش والظما؛ ﴿يَعْمَلُونَ يَمَاءً كَالْعَمَلِ يَشْوَى الْوُجُوهَ يَسْأَلُ الشَّرَابَ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا﴾ ﴿١٠﴾ [الكهف: ٢٩].

﴿١١﴾ ﴿إِنَّ هَذَا﴾: الذي ذكره الله تعالى من جزاء العباد بأعمالهم خيرا وشرها وتفصيل ذلك ﴿مَوْحٍ الْقَيْنِ﴾ ﴿١٢﴾؛ أي: الذي لا شك فيه ولا مرية، بل هو الحق الثابت الذي لا بد من وقوعه، وقد أشهد الله عباده الأدلة القواطع على ذلك، حتى صار عند أولي الأبواب كأنهم ذائقون له مشاهدون لحقيقته، فحمدوا الله تعالى على ما خصهم من هذه النعمة العظيمة والمنحة الجسيمة.

﴿١٣﴾ ولهذا قال تعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ ﴿١٤﴾؛ فسبحان ربنا العظيم، وتعالى وتنزه عما يقول الظالمون والجاحدون علواً كبيراً، والحمد لله رب العالمين حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه.

تم تفسير سورة الواقعة.

﴿١٥﴾

تفسير سورة الحديد

وهي مدنية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿سَبِّحْ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ ﴿١﴾
لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢﴾ هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣﴾ هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤﴾ لَّهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿٥﴾ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٦﴾.

﴿١﴾ يخبر تعالى عن عظمته وجلاله وسعة سلطانه أن جميع ﴿مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ من الحيوانات الناطقة والصامتة وغيرها والجوامد تسبح بحمد ربها وتنزهه عما لا يليق بجلاله، وأنها قانتة لربها، منقادة لعزته، قد ظهرت فيها آثار حكمته، ولهذا قال: ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ ﴿١﴾؛ فهذا

سورة الحديد

الأنعام والحرث

مصلحهم ومعاشهم، ولا يزال الله يكور الليل على النهار والنهار على الليل، ويداول بينهما في الزيادة والنقص والطول والقصر، حتى تقوم بذلك الفصول وتستقيم الأزمنة ويحصل من المصالح بذلك ما يحصل، فتبارك الله رب العالمين، وتعالى الكريم الجواد الذي أنعم على عباده بالنعم الظاهرة والباطنة، ﴿وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ (٦)؛ أي: بما يكون في صدور العالمين، فيوفق من يعلم أنه أهل لذلك، ويخذل من يعلم أنه لا يصلح له دايته.

﴿ءَامِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلِفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا هُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ (٧) وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولِ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَى عَبْدِهِ ءَايَاتٍ يُنَبِّئُ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿٩﴾ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَتْلَ أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدِ وَقَتْلُوا وَكَلاَّ وَعَدَ اللَّهُ الْحَسَنَى وَاللَّهُ يَمَّا تَعْمَلُونَ خَيْرٌ ﴿١٠﴾ مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١١﴾

﴿٧﴾ يأمر تعالى عباده بالإيمان به، ورسوله وبما جاء به، وبالنفقة في سبيله من الأموال التي جعلها الله في أيديهم واستخلفهم عليها؛ لينظر كيف يعملون. ثم لما أمرهم بذلك؛ رغبهم وحثهم عليه بذكر ما رتب عليه من الثواب، فقال: ﴿فَالَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا هُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ (٧)؛ أي: الذين جمعوا بين الإيمان بالله ورسوله والنفقة في سبيله لهم أجر كبير، أعظمه وأجله رضا ربهم والفوز بدار كرامته وما فيها من النعيم المقيم الذي أعده الله للمؤمنين والمجاهدين.

﴿٨﴾ ثم ذكر السبب الداعي لهم إلى الإيمان وعدم المانع منه، فقال: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولِ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (٨)؛ أي: وما الذي يمنعكم من الإيمان والحال أن الرسول محمداً ﷺ أفضل الرسل وأكرم داعٍ دعا إلى الله يدعوكم؟! فهذا مما يوجب المبادرة إلى إجابة دعوته والتلبية والإجابة للحق الذي جاء به، وقد أخذ عليكم العهد والميثاق بالإيمان إن كنتم مؤمنين.

﴿٩﴾ ومع ذلك من لطفه وعنايته بكم أنه لم يكتف بمجرد دعوة الرسول الذي هو أشرف العالم، بل أيدته بالمعجزات، ودلكم على صدق ما جاء به بالآيات البينات؛ فلماذا قال: ﴿هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَى عَبْدِهِ ءَايَاتٍ يُنَبِّئُ﴾ (٩)؛ أي: ظاهرات تدل أهل العقول على صدق كل ما جاء به، وأنه الحق اليقين؛ ﴿لِيُخْرِجَكُمْ﴾: بإرسال الرسول إليكم وما أنزله الله على يده من الكتاب والحكمة ﴿مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ (٩)؛ أي: من ظلمات الجهل والكفر إلى نور العلم والإيمان. وهذا من رحمته بكم ورأفته؛ حيث كان أرحم بعباده من الوالدة بولدها، ﴿وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ (٩).

﴿١٠﴾ ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ (١٠)؛ أي: وما الذي يمنعكم من النفقة في سبيل الله؟ وهي طرق الخير كلها، ويوجب لكم أن تبخلوا، والحال أنه ليس لكم شيء، بل لله ﴿مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾: فجميع الأموال ستنتقل من أيديكم أو تنقلون عنها، ثم يعود الملك إلى مالكة تبارك وتعالى؛ فاعتنوا الإنفاق ما دامت الأموال في أيديكم،

على متن جهنم؛ فحينئذ ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم، فيمشون بنورهم وأيمانهم في ذلك الموقف الهائل الصعب كل على قدر إيمانه، ويشيرون عند ذلك بأعظم بشارة، فيقال: ﴿شَرِّبْنَا الْيَوْمَ حَنْتَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَلِّدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ (١١)؛ فله ما أحلى هذه البشارة بقلوبهم وألذها لنفوسهم؛ حيث حصل لهم كل مطلوب محبوب، ونجوا من كل شر ومرهوب.

﴿١٢﴾ فإذا رأى المنافقون المؤمنين يمشون بنورهم، وهم قد طفق نورهم ويقوا في الظلمات حائرين؛ قالوا للمؤمنين: ﴿أَنْظَرُونَا نَقْتَسِبْ مِنْ رَبِّكُمْ﴾؛ أي: أمهلونا لننال من نوركم ما نمشي به لننجو من العذاب، ف ﴿يَقِيلُ﴾ لهم: ﴿أَرْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا﴾؛ أي: إن كان ذلك ممكناً، والحال أن ذلك غير ممكن، بل هو من المحالات، فضرب بين المؤمنين والمنافقين ﴿سُورًا﴾؛ أي: حائط منيع وحصن حصين ﴿لَهُ بَابٌ بِابْنَةٍ، فِيهِ الرَّحْمَةُ﴾؛ وهو الذي يلي المؤمنين، ﴿وَلَهَا بَابٌ﴾ في قوله ﴿لَهُ بَابٌ بِابْنَةٍ﴾؛ وهو الذي يلي المنافقين.

﴿١٣﴾ فينادي المنافقون المؤمنين، فيقولون تضرعاً وترحمًا: ﴿أَلَمْ تَكُنْ مَعَكُمْ﴾؛ في الدنيا نقول: لا إله إلا الله، ونصلي ونصوم ونجاهد ونعمل مثل عملكم؟ ﴿قَالُوا بَلَى﴾؛ كنتم معنا في الدنيا وعملتم في الظاهر مثل عملنا، ولكن أعمالكم أعمال المنافقين من غير إيمان ولا نية صادقة صالحة، ﴿وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَتَرَفْتُمْ وَارْتَبْتُمْ﴾؛ أي: شككنتم في خبر الله الذي لا يقبل شكًا، ﴿وَعَزَّيْتُمْ الْأُمَانِي﴾؛ الباطلة؛ حيث تمنيت أن تنالوا منال المؤمنين وأنتم غير موقنين، ﴿حَتَّى جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ﴾؛ أي: حتى جاءكم الموت وأنتم بتلك الحالة الذميمة، ﴿وَعَزَّيْتُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورَ﴾ (١٤)؛ وهو الشيطان الذي زين لكم الكفر والرب فاطمأنتم به، ووثقتم بوعده وصدقتم خبره.

﴿١٥﴾ ﴿قَالِيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾؛ ولو اقتديتم بملء الأرض ذهبًا ومثله معه؛ لما تقبل منكم. ﴿مَأْوِيَّتُكُمُ النَّارُ﴾؛ أي: مستقركم، ﴿هِيَ مَوْلَانَكُمْ﴾؛ التي تتولاكم وتضمكم إليها، ﴿وَيَبْسُ الْمَصِيرُ﴾ (١٥)؛ النار؛ قال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ﴾ (٨) ﴿فَأَمَّهُ هَكَاوِيَةٌ﴾ (٩) ﴿وَمَا آذَرْتِكَ مَا هِيَ﴾ (١٠) ﴿نَارُ حَامِيَةٍ﴾ (١١)؛ [القارة: ٨-١١].

﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلَ فَطَالَ عَلَيْهِمْ

وانتهزوا الفرصة. ثم ذكر تعالى تفاضل الأعمال بحسب الأحوال والحكمة الإلهية، فقال: ﴿لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَتْلَ أَوْلِيكَ أَعْظَمَ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدِ وَقَتْلَوْا﴾؛ المراد بالفتح هنا هو فتح الحديبية، حين جرى من الصلح بين الرسول وبين قريش، مما هو أعظم الفتوحات التي حصل فيها نشر الإسلام واختلاط المسلمين بالكافرين والدعوة إلى الدين من غير معارض، فدخل الناس من ذلك الوقت في دين الله أفواجًا، واعتز الإسلام عزًا عظيمًا، وكان المسلمون قبل هذا الفتح لا يقدرّون على الدعوة إلى الدين في غير البقعة التي أسلم أهلها كالمدينة وتوابعها، وكان مَنْ أسلم من أهل مكة وغيرها من ديار المشركين يؤذى ويخاف؛ فلذلك كان من أسلم قبل الفتح وأنفق وقاتل أعظم درجة وأجرًا وثوابًا ممن لم يسلم ويقاتل وينفق إلا بعد ذلك؛ كما هو مقتضى الحكمة، ولهذا كان السابقون وفضلاء الصحابة غالبهم أسلم قبل الفتح. ولما كان التفضيل بين الأمور قد يتوهم منه نقص وقبح في المفضول؛ احترز تعالى من هذا بقوله: ﴿وَكَلَّا وَعَدَ اللَّهُ أَحْسَنَ﴾؛ أي: الذين أسلموا وقاتلوا وأنفقوا من قبل الفتح وبعده كلهم وعده الله الجنة. وهذا يدل على فضل الصحابة كلهم رضي الله عنهم، حيث شهد الله لهم بالإيمان ووعدهم الجنة. ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ (١٦)؛ فيجازي كلًا منكم على ما يعلمه من عمله.

﴿١٧﴾ ثم حث على النفقة في سبيله؛ لأن الجهاد متوقف على النفقة فيه وبذل الأموال في التجهز له، فقال: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾؛ وهي النفقة الطيبة التي تكون خالصة لوجه الله موافقة لمرضاة الله من مال حلال طيب طيبة به نفسه، وهذا من كرم الله تعالى؛ حيث سماه قرضًا، والمال ماله، والعبيد عبيده، ووعده بالمضاعفة عليه أضعافًا كثيرة، وهو الكريم الوهاب، وتلك المضاعفة محلها وموضعها يوم القيامة، يوم كل يتبين فقره، ويحتاج إلى أقل شيء من الجزاء الحسن، ولهذا قال:

﴿يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَنْفُسِهِمْ﴾ إلى قوله: ﴿وَيَبْسُ الْمَصِيرُ﴾ (١٥).

﴿١٦﴾ يقول تعالى مبينًا لفضل الإيمان واغتراب أهل به يوم القيامة: ﴿يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَنْفُسِهِمْ﴾؛ أي: إذا كان يوم القيامة، وكورت الشمس وخسف القمر وصار الناس في الظلمة، ونصب الصراط

والولد، وهذا مصداقه وقوعه من محبي الدنيا والمطمئنين إليها؛ بخلاف من عرف الدنيا وحقيقتها، فجعلها معبراً، ولم يجعلها مستقرّاً، فنافس فيما يقربه إلى الله، واتخذ الوسائل التي توصله إلى ذلك، وإذا رأى من يكاثره وينافسه في الأموال والأولاد؛ نافسه بالأعمال الصالحة.

ثم ضرب للدنيا مثلاً بغيث نزل على الأرض، فاختلف به نبات الأرض مما يأكل الناس والأنعام، حتى إذا أخذت الأرض زخرفها، وأعجب نباته الكفار الذين قصروا نظرهم وهمهم على الدنيا؛ جاءها من أمر الله ما أنلفها، فهاجت وبست وعادت إلى حالها الأولى؛ كأنه لم ينبت فيها خضراء ولا رُئي لها مرأى أنيق، كذلك الدنيا؛ بينما هي زاهية لصاحبها زاهية؛ مهما أراد من مطالبتها حصل، ومهما توجه لأمر من أمورها؛ وجد أبوابه مفتحة؛ إذ أصابها القدر، فأذهبها من يده، وأزال تسلطه عليها، أو ذهب به عنها، فرحل منها صفر الدين؛ لم يتزود منها سوى الكفن، فتباً لمن أضحى هي غاية أمنيته ولها عمله وسعيه.

وأما العمل للآخرة؛ فهو الذي ينفع ويدخر لصاحبه ويصحب العبد على الأبد، ولهذا قال تعالى: ﴿وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ﴾؛ أي: حال الآخرة ما يخلو من هذين الأمرين: إما العذاب الشديد في نار جهنم وأغلالها وسلاسلها وأهوالها لمن كانت الدنيا هي غايته ومتهى مطلبه، فتجرأ على معاصي الله، وكذب بآيات الله، وكفر بأنعم الله، وإما مغفرة من الله للسيئات، وإزالة العقوبات، ورضوان من الله يحل من أحله عليه دار الرضوان لمن عرف الدنيا وسعى للآخرة سعيها؛ فهذا كله مما يدعو إلى الزهد في الدنيا والرغبة في الآخرة، ولهذا قال: ﴿وَمَا الْحَيَوةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾؛ أي: إلا متاع يتمتع به ويتمتع به ويستدفع به الحاجات؛ لا يغتر به ويطمئن إليه إلا أهل العقول الضعيفة، الذين يغرم بالله الغرور.

﴿٢٠﴾ ثم أمر بالمسابقة إلى مغفرة الله ورضوانه وجنته، وذلك يكون بالسعي بأسباب المغفرة من التوبة النصوح، والاستغفار النافع، والبعد عن الذنوب ومظانها، والمسابقة إلى رضوان الله بالعمل الصالح، والحرص على ما يرضي الله على الدوام من الإحسان في عبادة الخالق، والإحسان إلى الخلق بجميع وجوه النفع، ولهذا ذكر الله الأعمال الموجبة لذلك، فقال: ﴿وَجَنَّةٌ عَرْضُهَا السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ﴾، والإيمان بالله ورسله

الله للمجاهدين في سبيله». وهذا يقتضي شدة علوهم ورفعتهم وقربهم من الله تعالى، ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾؛ فهذه الآيات جمعت أصناف الخلق المتصدقين والصادقين والشهداء وأصحاب الجحيم، فالمتصدقون الذين كان جل عملهم الإحسان إلى الخلق وبذل النفع لهم بغاية ما يمكنهم، خصوصاً بالنفع بالمال في سبيل الله، والصادقون هم الذين كملوا مراتب الإيمان والعمل الصالح والعلم النافع واليقين الصادق، والشهداء هم الذين قاتلوا في سبيل الله لإعلاء كلمة الله، وبذلوا أنفسهم وأموالهم فقتلوا، وأصحاب الجحيم هم الكفار الذين كذبوا بآيات الله. وبقي قسم ذكرهم الله في سورة فاطر، وهم المقتصدون الذين أدوا الواجبات وتركوا المحرمات؛ إلا أنهم حصل منهم بعض التقصير بحقوق الله وحقوق عباده؛ فهؤلاء مآلهم الجنة، وإن حصل لبعضهم عقوبة ببعض ما فعل.

﴿٢١﴾ أَعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَوةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُمْ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَكَثَافٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَمًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَوةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴿٢٢﴾ سَابِقُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٢٣﴾

﴿٢٢﴾ يخبر تعالى عن حقيقة الدنيا وما هي عليه، ويبين غايتها وغاية أهلها؛ بأنها ﴿لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾؛ تلعب بها الأبدان وتلهو بها القلوب، وهذا مصداقه ما هو موجود وواقع من أبناء الدنيا؛ فإنك تجدهم قد قطعوا أوقات عمرهم بلهو قلوبهم وغفلتهم عن ذكر الله وعما أمامهم من الوعد والوعيد، وتراهم قد اتخذوا دينهم لعباً ولهواً؛ بخلاف أهل اليقظة وعمال الآخرة؛ فإن قلوبهم معمورة بذكر الله ومعرفته ومحبه، وقد شغلوا أوقاتهم بالأعمال التي تقرهم إلى الله من النفع القاصر والمتعدي. وقوله: ﴿وَزِينَةٌ﴾؛ أي: تزين في اللباس والطعام والشراب والمراكب والدور والقصور والجاه وغير ذلك، ﴿وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ﴾؛ أي: كل واحد من أهلها يريد مفاخرة الآخر، وأن يكون هو الغالب في أمورها، والذي له الشهرة في أحوالها، ﴿وَكَثَافٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ﴾؛ أي: كل يريد أن يكون هو الكاثر لغيره في المال

يدخل فيه أصول الدين وفروعها. ﴿ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ﴾؛ أي: هذا الذي بيناه لكم وذكرنا لكم فيه الطرق الموصلة إلى الجنة والطرق الموصلة إلى النار، وأن ثواب الله بالأجر الجزيل والثواب الجميل من أعظم منته على عباده وفضله، ﴿وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ (٢١): الذي لا يحصى ثناء عليه، بل هو كما أثنى على نفسه، وفوق ما يشئ عليه أحد من خلقه.

﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ (٢٢) لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ (٢٣) الَّذِينَ يَخْلَوْنَ وَيَاْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (٢٤).

(٢٢) يقول تعالى مخبراً عن عموم قضائه وقدره: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ﴾: وهذا شامل لعموم المصائب التي تصيب الخلق من خير وشر؛ فكلها قد كتبت في اللوح المحفوظ صغيرها وكبيرها، وهذا أمر عظيم لا تحيط به العقول، بل تذهل عنده أفئدة أولي الألباب، ولكنه على الله يسير.

(٢٣) وأخبر الله عباده بذلك لأجل أن تتقرر هذه القاعدة عندهم، وينبأ عليها ما أصابهم من الخير والشر؛ فلا يأسوا، ويحزنوا على ما فاتهم، مما طمحت له أنفسهم وتشوفوا إليه؛ لعلمهم أن ذلك مكتوب في اللوح المحفوظ، لا بد من نفوذه ووقوعه؛ فلا سبيل إلى دفعه، ولا يفرحوا بما آتاهم الله فرح بطر وأشر؛ لعلمهم أنهم ما أدركوه بحولهم وقوتهم، وإنما أدركوه بفضل الله ومنه، فيشتغلوا بشكر من أولى النعم ودفع النقم، ولهذا قال: ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ (٢٣)؛ أي: متكبر فظ غليظ معجب بنفسه فخور بنعم الله ينسبها إلى نفسه وتطغيه وتلهيه؛ كما قال تعالى: ﴿إِذْ أَخَذْنَا نِعْمَةً مِنْكَ قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ﴾ [الزمر: ٤٩].

(٢٤) ﴿الَّذِينَ يَخْلَوْنَ وَيَاْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ﴾؛ أي: يجمعون بين الأمرين الذميين اللذين كل منهما كافٍ في الشر: البخل، وهو منع الحقوق الواجبة، ويأمرون الناس بذلك، فلم يكفهم بخلهم، حتى أمروا الناس بذلك، وحشواهم على هذا الخلق الذميين بقولهم وفعلهم، وهذا من إغراضهم عن طاعة ربهم وتوليهم عنها، ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّ﴾: عن طاعة الله؛ فلا يضر إلا نفسه، ولن يضر الله شيئاً، ﴿فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ (٢٤): الذي غناه من لوازم ذاته، الذي له ملك السماوات والأرض، وهو الذي أغنى عباده وأقنأهم، الحميد الذي له كل اسم حسن ووصف كامل وفعل جميل يستحق أن يحمد عليه ويشئ ويعظم.

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ (٢٥) وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا ﴿وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَتَسُوفُونَ﴾ (٢٦).

(٢٥) يقول تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ﴾: وهي الأدلة والشواهد والعلامات الدالة على صدق ما جاءوا به وحقيقته، ﴿وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ﴾: وهو اسم جنس يشمل سائر الكتب التي أنزلها الله لهداية الخلق وإرشادهم ما ينفعهم

في دينهم ودنياهم، ﴿وَالْمِيزَانَ﴾: وهو العدل في الأقوال والأفعال، والدين الذي جاءت به الرسل كله عدل وقسط في الأوامر والنواهي وفي معاملات الخلق وفي الجنيات والقصاص والحدود والمواثيق وغير ذلك، وذلك ﴿لِيُقَوْمَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾: قياماً بدين الله، وتحصيلاً لمصالحهم التي لا يمكن حصرها وعدها، وهذا دليل على أن الرسل متفقون في قاعدة الشرع، وهو القيام بالقسط، وإن اختلفت صور العدل بحسب الأزمنة والأحوال، ﴿وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾: من آلات الحرب؛ كالسلاح والدروع وغير ذلك، ﴿وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ﴾: وهو ما يشاهد من نفعه في أنواع الصناعات والحرف والأواني وآلات الحرث، حتى إنه قل أن يوجد شيء إلا وهو يحتاج إلى الحديد، ﴿وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَصْرُهُ﴾: أي: ليقوم تعالى سوق الامتحان بما أنزله من الكتاب والحديد، فيتين من ينصره وينصر رسله في حالة الغيب، التي ينفع فيها الإيمان قبل الشهادة، التي لا فائدة بوجود الإيمان فيها؛ لأنه حيثئذ يكون ضرورياً. ﴿إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾: أي: لا يعجزه شيء ولا يفوته هارب، ومن قوته وعزته أن أنزل الحديد الذي منه الآلات القوية، ومن قوته وعزته أنه قادر على الانتصار من أعدائه، ولكنه يتلي أوليائه بأعدائه؛ ليعلم من ينصره بالغيب.

لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيُقَوْمَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَصْرُهُ وَرُسُلُهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٢٦﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ فَمِثْلَهُ مُهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَسِقُونَ ﴿٢٧﴾ ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰ عَادٍ وَنَادَيْنَاهُمْ بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهَابَنِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَسِقُونَ ﴿٢٨﴾ يٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَءَامِنُوا بِرُسُلِهِ يُؤْخَذَ مِنكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٩﴾ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا أَهْلُ الْكِتَابِ لَا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّنْ فَضْلِ اللَّهِ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٣٠﴾

وقرن تعالى في هذا الموضع بين الكتاب والحديد؛ لأن بهذين الأمرين ينصر الله دينه ويعلي كلمته: بالكتاب الذي فيه الحجة والبرهان، والسيف الناصر بإذن الله، وكلاهما قيامه بالعدل والقسط، الذي يستدل به على حكمة الباري وكماله وكمال شريعته التي شرعها على السنة رسله.

﴿٢٦﴾ ولما ذكر نبوة الأنبياء عموماً؛ ذكر من خواصهم النبيين الكريمين نوحاً وإبراهيم، اللذين جعل الله النبوة والكتاب في ذريتهما، فقال: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ﴾: أي: الأنبياء المتقدمين والمتأخرين، كلهم من ذرية نوح وإبراهيم عليهما السلام، وكذلك الكتب كلها نزلت على ذرية هذين النبيين الكريمين. ﴿فَمِثْلَهُ﴾: أي: ممن أرسلنا إليهم الرسل ﴿مُهْتَدٍ﴾: بدعوتهم، منقاد لأمرهم، مسترشد بهداهم، ﴿وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَسِقُونَ﴾: أي: خارجون عن طاعة الله وطاعة الرسل والأنبياء؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿١٣٣﴾ [يوسف: ١٠٣].

﴿٢٧﴾ ﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا﴾: أي: اتبعنا ﴿عَلَىٰ عَادٍ وَنَادَيْنَاهُمْ بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾: خص الله عيسى عليه السلام؛ لأن السياق مع النصاري، الذين يزعمون اتباع عيسى، ﴿وَأَتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ﴾: الذي هو من كتب الله الفاضلة، ﴿وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً﴾: كما قال تعالى: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ ءَامَنُوا الْيَهُودُ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَنَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِلَّذِينَ ءَامَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصْرِيكَ ذَلِكَ بَأَنَّ مِنْهُمْ قِسِيَسَ وَرَهَابَنَاءَ وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ ﴿٨٧﴾ [المائدة: ٨٢] ولهذا كان النصاري آلين من غيرهم قلوباً حين كانوا على شريعة عيسى عليه السلام، ﴿وَرَهَابَنِيَّةً ابْتَدَعُوهَا﴾: والرهابانية العبادة؛ فهم ابتدعوا من عند أنفسهم عبادة، ووظفوها على أنفسهم، والتزموا لوازم ما كتبها الله عليهم ولا فرضها، بل هم الذين التزموا بها من تلقاء أنفسهم؛ قصدتهم بذلك رضا الله، ومع ذلك، ﴿فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾: أي: ما قاموا بها، ولا أدوا حقوقها، فقصروا من وجهين: من جهة ابتداعهم، ومن جهة عدم قيامهم بما فرضوه على أنفسهم. فهذه الحال هي

تعالى أن المؤمنين برسوله محمد ﷺ، المتقين لله أن لهم كفلين من رحمته ونورا ومغفرة؛ رغما على أنوف أهل الكتاب، وليعلموا أن ﴿الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ﴾: ممن اقتضت حكمته تعالى أن يؤتیه من فضله، ﴿وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾: الذي لا يقادر قدره.

تم تفسير سورة الحديد. ولله الحمد والمنة. والحمد لله.



تفسير سورة قد سمع الله

وهي مدنية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا﴾ إلى قوله: ﴿وَاللَّكَفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

نزلت هذه الآيات الكريمات في رجل من الأنصار اشتكته زوجته إلى الله وجادلته إلى رسول الله ﷺ لما حرّمها على نفسه بعد الصّحبة الطويلة والأولاد، وكان هو رجلاً شيخاً كبيراً، فشكت حالها وحاله إلى الله وإلى رسول الله ﷺ، وكررت ذلك، وأبدت فيه وأعادت، فقال تعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا﴾؛ أي: تخاطبكما فيما بينكما. ﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ﴾: لجميع الأصوات في جميع الأوقات على تفنن الحاجات. ﴿بَصِيرٌ﴾: يبصر ديب النملة السوداء، على الصخرة الصماء، في الليلة الظلماء.

وهذا إخبار عن كمال سمعه وبصره، وإحاطتهما بالأمر الدقيقة والجليلة، وفي ضمن ذلك الإشارة بأن الله [تعالى] سيزيل شكواها ويرفع بلواها، ولهذا ذكر حكمها وحكم غيرها على وجه العموم، فقال:

﴿الَّذِينَ يَظَاهِرُونَ مِنْكُمْ مِنْ نِسَائِهِمْ مَا هُنَّ أُمَّهَاتُهُمْ إِنَّ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا الَّتِي وَلَدْنَهُمْ﴾: المظاهرة من الزوجة أن يقول الرجل لزوجه: أنت علي كظهر أمي. أو غيرها من محارمه، أو أنت علي حرام. وكان المعتاد عندهم في هذا اللفظ الظاهر، ولهذا سماه الله ظاهراً، فقال: ﴿الَّذِينَ يَظَاهِرُونَ مِنْكُمْ مِنْ نِسَائِهِمْ مَا هُنَّ أُمَّهَاتُهُمْ﴾؛ أي: كيف يتكلمون بهذا الكلام الذي يعلمون أنه لا حقيقة له، فيشبهون أزواجهم

الغالب من أحوالهم، ومنهم من هو مستقيم على أمر الله، ولهذا قال: ﴿فَأَتَيْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ﴾؛ أي: الذين آمنوا بمحمد ﷺ مع إيمانهم بعيسى؛ كل أعطاه الله على حسب إيمانه، ﴿وَكَبِيرٌ مِنْهُمْ فَذُوقُوا﴾.

﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْتَقُوا اللَّهَ وَءَامَنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾: ﴿إِنَّمَا يَعْلَمُ أَهْلَ الْكِتَابِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾.

وهذا الخطاب يحتمل أنه خطاب لأهل الكتاب، الذين آمنوا بموسى وعيسى عليهما السلام؛ يأمرهم أن يعملوا بمقتضى إيمانهم؛ بأن يتقوا الله فتركوا معاصيه ويؤمنوا برسوله محمد ﷺ، وأنهم إن فعلوا ذلك؛ أعطاهم الله ﴿كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ﴾؛ أي: نصيبين من الأجر؛ نصيب على إيمانهم بالأنبياء الأقدمين، ونصيب على إيمانهم بمحمد ﷺ. ويحتمل أن يكون الأمر عامّاً؛ يدخل فيه أهل الكتاب وغيرهم، وهذا الظاهر، وأن الله أمرهم بالإيمان والتقوى، الذي يدخل فيه جميع الدين ظاهره وباطنه أصوله وفروعه، وأنهم إن امتثلوا هذا الأمر العظيم؛ أعطاهم الله ﴿كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ﴾؛ لا يعلم قدرهما ولا وصفهما إلا الله تعالى: أجر على الإيمان وأجر على التقوى، أو أجر على امتثال الأوامر وأجر على اجتناب النواهي، أو أن التثنية المراد بها تكرار الإتياء مرة بعد أخرى. ﴿وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ﴾؛ أي: يعطيكم علماً وهدى ونوراً تمشون به في ظلمات الجهل، ويغفر لكم السيئات، ﴿وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾: فلا يستغرب كثرة هذا الثواب على فضل ذي الفضل العظيم، الذي عم فضله أهل السماوات والأرض؛ فلا يخلو مخلوق من فضله طرفة عين ولا أقل من ذلك.

وقوله: ﴿إِنَّمَا يَعْلَمُ أَهْلَ الْكِتَابِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ﴾؛ أي: بينا لكم فضلنا وإحساننا لمن آمن إيماناً عامّاً واتقى الله وآمن برسوله؛ لأجل أن يكون عند أهل الكتاب علم بأنهم لا يقدرّون على شيء من فضل الله؛ أي: لا يحجرون على الله بحسب أهوائهم وعقولهم الفاسدة، فيقولون: ﴿لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصْرَى﴾، ويتمنون على الله الأمانى الفاسدة، فأخبر الله

بأمهاتهم اللاتي ولدنهم؟! ولهذا عظم الله أمره وقبحه، فقال: ﴿وَلَا تَنسَوْنَ قَوْلَ اللَّهِ لَعْنَةُ اللَّهِ لَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْفُتُورَ مِنَ الْقَوْلِ وَرُؤُوسَ الْبُيُوتِ﴾؛ أي: قولاً شنيعاً وكذباً، ﴿وَاتَّكَفَّ اللَّهُ عَنْهُمْ لَعْنَةُ اللَّهِ لَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْفُتُورَ مِنَ الْقَوْلِ وَرُؤُوسَ الْبُيُوتِ﴾؛ عمن صدر منه بعض المخالفات فتداركها بالتوبة النصوح.

﴿وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا﴾: اختلف العلماء في معنى العود، فقليل معناه العزم على جماع من ظاهر منها، وأنه بمجرد عزمه؛ تجب عليه الكفارة المذكورة، ويدل على هذا أن الله تعالى ذكر في الكفارة أنها تكون قبل المسيس، وذلك إنما يكون بمجرد العزم، وقيل: معناه حقيقة الوطء. ويدل على ذلك أن الله قال: ﴿ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا﴾، والذي قالوا إنما هو الوطء، وعلى كل من القولين؛ فإذا وجد العود؛ صار كفارة هذا التحريم تحرير ﴿رَبِّهِ﴾ مؤمنة؛ كما قُيدت في آية القتل؛ ذكر أو أنثى؛ بشرط أن تكون سالمة من العيوب المضرة بالعمل ﴿وَمِنْ قَبْلِ أَنْ يَمَاسَ﴾؛ أي: يلزم الزوج أن يترك وطء زوجته التي ظاهر منها حتى يكفر برقية. ﴿ذَلِكَ﴾: الحكم الذي ذكرناه لكم ﴿ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا﴾؛ أي: يبين لكم حكمه مع الترهيب المقرون به؛ لأن معنى الوعظ ذكر الحكم مع الترغيب والترهيب فالذي يريد أن يظهر؛ إذا ذكر أن عليه عتق رقبة؛ كف نفسه عنه. ﴿وَاللَّهُ يَمَسُّ مَا تَعْمَلُونَ خَيْرٌ﴾: فيجازي كل عامل بعمله.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ۝ ١
الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْكُمْ مِنْ نِسَائِهِمْ مَا هُنَّ أُمَّهَاتُهُمْ إِنْ أُمُّهُنَّ إِلَّا الَّتِي وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَرًا مِنَ الْقَوْلِ وَرُؤُوسَ الْبُيُوتِ وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوفٌ غَفُورٌ ۝ ٢
وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَمَاسَ ذَلِكَ كُمْ تَوْعُظُونَ بِهِ ۝ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ۝ ٣
مُتَّاعِينَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَمَاسَ فَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَاطْعَامَ سِتِّينَ مِسْكِينًا ذَلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ۝ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝ ٤
إِنَّ الَّذِينَ يُحَادِّثُونَ اللَّهَ مَوْلًى كَثِيرًا كَمَا كُنْتَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ يَبِّنَاتٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ ۝ ٥
يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللَّهُ وَسُوهُ ۝ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ۝ ٦

﴿فَمَنْ لَمْ يَجِدْ﴾: رقبة يعتقها؛ بأن لم يجدها أو لم يجد ثمنها، فعليه صيام ﴿شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَمَاسَ فَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ﴾: الصيام، ﴿فَاطْعَامَ سِتِّينَ مِسْكِينًا﴾: إما أن يطعمهم من قوت بلده ما يكفيهم؛ كما هو قول كثير من المفسرين، وإما أن يطعم كل مسكين مد بر أو نصف صاع من غيره مما يجزي في الفطرة؛ كما هو قول طائفة أخرى. ﴿ذَلِكَ﴾: الحكم الذي بيناه لكم ووضحناه، ﴿لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾: وذلك بالتزام هذا الحكم وغيره من الأحكام والعمل به؛ فإن التزام أحكام الله والعمل بها من الإيمان، بل هي المقصودة، ويزداد بها الإيمان ويكمل وينمو. ﴿وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ﴾: التي تمنع من الوقوع فيها، فيجب ألا تتعدى ولا يقصر عنها. ﴿وَالِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

وفي هذه الآيات عدة أحكام:

منها: لطف الله بعباده واعتناؤه بهم؛ حيث ذكر شكوى هذه المرأة المصابة، وأزالها، ورفع عنها البلوى، بل رفع البلوى بحكمه العام لكل من ابتلي بمثل هذه القضية.

ومنها: أن الظهار مختص بتحريم الزوجة؛ لأن الله قال: ﴿مِنْ نِسَائِهِمْ﴾؛ فلو حرم أمته؛ لم يكن ذلك ظهاراً، بل هو من جنس تحريم الطيبات كالطعام والشراب؛ تجب فيه كفارة اليمين فقط.

ومنها: أنه لا يصح الظهار من امرأة قبل أن يتزوجها؛ لأنها لا تدخل في نسائه وقت الظهار؛ كما لا يصح طلاقها؛ سواء نجز ذلك أو علقه.

ومنها: أن الظهار محرم؛ لأن الله سماه ﴿مُنْكَرًا مِنَ الْقَوْلِ وَرُؤُوسَ الْبُيُوتِ﴾.

ومنها: تنبيه الله على الحكم وحكمته؛ لأن الله قال: ﴿مَا هُنَّ أُمَّهَاتُهُمْ﴾.

﴿٦﴾ يقول الله تعالى: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ﴾ الخلق جميعاً فيقومون من أجدانهم سريعاً، فيجازيهم بأعمالهم؛ وينبئهم بما عملوا من خير وشر؛ لأنه علم ذلك وكتبه في اللوح المحفوظ، وأمر الملائكة الكرام الحفظة بكتابته، هذا والعاملون قد نسوا ما عملوه والله أحصى ذلك. ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ ﴿٧﴾: على الظواهر والسرائر والخبايا والخفايا.

﴿٧﴾ ولهذا أخبر عن سعة علمه وإحاطته بما في السماوات والأرض من دقيق وجليل، وأنه ﴿مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا آدَنَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ إِنْ مَا كَانُوا﴾. والمراد بهذه المعية معية العلم والإحاطة بما تناجوا به وأسروه فيما بينهم، ولهذا قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ ﴿٧﴾. ثم قال تعالى:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَهَوْنَا عَنِ الْغَوَىٰ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نَهَوْا عَنْهُ وَيَتَنَبَّهُونَ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ وَإِذَا جَاءَهُمْ حَيْكَةٌ بِمَا لَرَّحِمَكَ بِهِ اللَّهُ يَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصَلُّونَهَا فِئَاسَ الْمَصِيرِ﴾ ﴿٨﴾ يَتَأَيَّأُ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا تَنَجَّيْتُمْ فَلَا تَنَجَّوْا بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ وَتَنَجَّوْا بِالْبِرِّ وَالنَّقْوَىٰ وَأَتَقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ ﴿٩﴾.

﴿٨﴾، ﴿٩﴾ النجوى هي التناجي بين اثنين فأكثر، وقد تكون في الخير وتكون في الشر، فأمر الله المؤمنين أن يتناجوا بالبر، وهو اسم جامع لكل خير وطاعة وقيام بحق الله وحق عباده، والتقوى، وهي هنا اسم جامع لترك جميع المحارم والمآثم؛ فالمؤمن يمثل هذا الأمر الإلهي؛ فلا تجده مناجياً ومتحدثاً إلا بما يقربه إلى الله ويباعده من سخطه، والفاجر يتهاون بأمر الله ويناجي بالإثم والعدوان ومعصية الرسول؛ كالمنافقين الذين هذا دأبهم وحالهم مع الرسول ﷺ، قال تعالى: ﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ حَيْكَةٌ بِمَا لَرَّحِمَكَ بِهِ اللَّهُ﴾؛ أي: يسيئون الأدب في تحيتهم لك، ﴿وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ﴾؛ أي: يسرون فيها ما ذكره عالم الغيب والشهادة عنهم، وهو قولهم: ﴿لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ﴾؛ ومعنى ذلك أنهم يتهاونون بذلك، ويستدلون بعدم تعجيل العقوبة عليهم أن ما يقولونه غير محذور، قال تعالى في بيان أنه يمهل ولا يهمل: ﴿حَسْبُهُمْ

ومنها: أنه يكره للرجل أن ينادي زوجته ويدعوها باسم محارمه؛ كقوله: يا أمي يا أختي ونحو ذلك؛ لأن ذلك يشبه المحرم.

ومنها: أن الكفارة إنما تجب بالعود؛ لما قال المظاهر على اختلاف القولين السابقين، لا بمجرد الظهار.

ومنها: أنه يجزئ في كفارة الرقبة الصغير والكبير والذكر والأنثى؛ لإطلاق الآية في ذلك.

ومنها: أنه يجب إخراجها إذا كانت عتقاً أو صياماً قبل المسيس؛ كما قيده الله؛ بخلاف كفارة الإطعام؛ فإنه يجوز المسيس والوطء في أثنائها.

ومنها: أنه لعل الحكمة في وجوب الكفارة قبل المسيس أن ذلك أدعى لإخراجها؛ فإنه إذا اشتاق إلى الجماع، وعلم أنه لا يُمْكِن من ذلك إلا بعد الكفارة؛ بادر بإخراجها.

ومنها: أنه لا بد من إطعام ستين مسكيناً؛ فلو جمع طعام ستين مسكيناً، ودفعها لواحد أو أكثر من ذلك دون الستين؛ لم يجز ذلك؛ لأن الله قال: ﴿فَإِطْعَامُ سِتِينَ مِسْكِينًا﴾.

﴿٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ يُحَادِّثُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ كُنُوا كَمَا كُنْتُمُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَقَدْ أَنْزَلْنَا ءَايَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ ﴿١٠﴾.

﴿١٠﴾ محادة الله ورسوله مخالفتهما ومعصيتهما، خصوصاً في الأمور الفظيعة؛ كمحاددة الله ورسوله بالكفر ومحاددة أولياء الله. وقوله: ﴿كُنُوا كَمَا كُنْتُمُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾؛ أي: أذلوا وأهينوا كما فعل بمن قبلهم جزاء وفاقا، وليس لهم حجة على الله؛ فإن الله قد قامت حجته البالغة على الخلق، وقد أنزل من الآيات البينات والبراهين ما يبين الحقائق ويوضح المقاصد؛ فمن اتبعها وعمل عليها، فهو من المهتدين الفائزين. ﴿وَلِلْكَافِرِينَ﴾: بها ﴿عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ ﴿١٠﴾؛ أي: يهينهم ويذلهم؛ فكما تكبروا عن آيات الله؛ أهانهم وأذلهم.

﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللَّهُ وَشُودَّ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ ﴿١١﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا آدَنَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ إِنْ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ ﴿١٢﴾.

سورة المجادلة

المجادلة والمجادلة

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ
 مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا حَافِظُهُمْ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ
 وَلَا آذَنٌ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْفَرُ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ إِنْ مَا كَانُوا أَنْ يَشْهَرُوا
 بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ
 نُهُوا عَنِ النَّجْوَى ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَيَتَنَبَّهُونَ بِالْآثَرِ
 وَالْعُدْوَنِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ وَإِذْ أَمَرُواكَ بِمَا لَمْ يَحِبُّكَ
 بِهِ اللَّهُ وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ
 جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَيُتْسَلِّمُ الْمَصِيرُ ﴿٨﴾ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا
 تَنَجَّيْتُمْ فَلَا تَنَجَّوْا بِالْآثَرِ وَالْعُدْوَنِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ وَتَنَجَّوْا
 بِالْبَرِّ وَالنَّقْوَى وَأَتَقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٩﴾ إِنَّمَا النَّجْوَى
 مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُونَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَيْسَ بِضَارِهِمْ شَيْئًا
 إِلَّا بِالْإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ
 ءَامَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ
 اللَّهُ لَكُمْ وَإِذَا قِيلَ أَنْشُرُوا فَأَنْشُرُوا يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا
 مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١﴾

٥٤٣

جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَيُتْسَلِّمُ الْمَصِيرُ ﴿٨﴾؛ أي: تكفيهم جهنم التي
 جمعت كل عذاب وشقاء عليهم، تحيط بهم ويعذبون بها؛
 فبئس المصير. وهؤلاء المذكورون إما أناس من المنافقين،
 يظهرون الإيمان ويخاطبون الرسول ﷺ بهذا الخطاب الذي
 يوهمون أنهم أرادوا به خيرا، وهم كذبة في ذلك، وإما أناس
 من أهل الكتاب الذين إذا سلموا على رسول الله ﷺ؛ قالوا:
 السام عليك يا محمد. يعنون: الموت.

﴿إِنَّمَا النَّجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُونَ الَّذِينَ ءَامَنُوا
 وَلَيْسَ بِضَارِهِمْ شَيْئًا إِلَّا بِالْإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ
 الْمُؤْمِنُونَ﴾ ﴿١٠﴾.

﴿١١﴾ يقول تعالى: ﴿إِنَّمَا النَّجْوَى﴾؛ أي: تناجي أعداء
 المؤمنين بالمؤمنين بالمكر والخديعة وطلب السوء من
 الشيطان الذي كيده ضعيف، ومكره غير مفيد ﴿لِيَحْزُونَ
 الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾: هذا غاية هذا المكر ومقصوده، ﴿وَلَيْسَ
 بِضَارِهِمْ شَيْئًا إِلَّا بِالْإِذْنِ اللَّهِ﴾: فإن الله تعالى وعد المؤمنين
 بالكفاية والنصر على الأعداء، وقال تعالى: ﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ
 السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾ ﴿فاطر: ٤٣﴾: فأعداء الله ورسوله والمؤمنين
 مهما تناجوا ومكروا؛ فإن ضرر ذلك عائد إلى أنفسهم، ولا
 يضر المؤمنين إلا شيء قدره الله وقضاه. ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ
 الْمُؤْمِنُونَ﴾ ﴿١١﴾؛ أي: ليعتمدوا عليه ويشقوا بوعده؛ فإن من توكل على الله؛ كفاه وتولى أمر دينه ودنياه.

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ وَإِذَا قِيلَ أَنْشُرُوا فَأَنْشُرُوا يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ
 ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ ﴿١١﴾.

﴿١١﴾ هذا أدب من الله لعباده المؤمنين إذا اجتمعوا في مجلس من مجالس مجتمعاتهم، واحتاج بعضهم أو بعض القادمين
 عليهم للتفسيح له في المجلس؛ فإن من الأدب أن يفسحوا له؛ تحصيلاً لهذا المقصود، وليس ذلك بضار للفاصح شيئاً،
 فيحصل مقصود أخيه من غير ضرر يلحقه، والجزاء من جنس العمل؛ فإن من فسح؛ فسح الله له، ومن وسع لأخيه؛ وسع الله
 عليه، ﴿وَإِذَا قِيلَ أَنْشُرُوا﴾؛ أي: ارتفعوا وتنحوا عن مجالسكم لحاجة تعرض، ﴿فَأَنْشُرُوا﴾؛ أي: فبادروا للقيام لتحصيل تلك
 المصلحة؛ فإن القيام بمثل هذه الأمور من العلم والإيمان، والله تعالى يرفع أهل العلم والإيمان درجات بحسب ما خصهم
 الله به من العلم والإيمان. ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ ﴿١١﴾: فيجازي كل عامل بعمله؛ إن خيراً فخير، وإن شراً فشر. وفي هذه
 الآية فضيلة العلم، وأن زينته وثمرته التآدب بأدابه والعمل بمقتضاه.

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا تَنَجَّيْتُمْ الرَّسُولَ فَقَدْ مَوَّاهُ بَيْنَ يَدَيْ جَوْنِكُمْ صَدَقَ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ وَأَطْهَرُ فَإِنْ لَمْ يَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ ﴿١٢﴾
 ءَأَشْفَقْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ جَوْنِكُمْ صَدَقَتْ فَإِذَا لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَاللَّهُ
 خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ ﴿١٣﴾.

﴿١٢﴾ يأمر تعالى المؤمنين بالصدقة أمام مناجاة رسوله محمد ﷺ تأديباً لهم وتعليماً وتعظيماً للرسول ﷺ؛ فإن هذا التعظيم
 خير للمؤمنين وأطهر؛ أي: بذلك يكثر خيركم وأجركم، وتحصل لكم الطهارة من الأدناس، التي من جملتها ترك احترام

الرسول ﷺ والأدب معه بكثرة المناجاة التي لا ثمرة تحتها؛ فإنه إذا أمر بالصدقة بين يدي مناجاته؛ صار هذا ميزاناً لمن كان حريصاً على العلم والخير؛ فلا يبالي بالصدقة، ومن لم يكن له حرص ولا رغبة في الخير، وإنما مقصوده مجرد كثرة الكلام، فيتكف بذلك عن الذي يشق على الرسول، هذا في الواجد للصدقة، وأما الذي لا يجد الصدقة؛ فإن الله لم يضيع عليه الأمر، بل عفا عنه وسامحه وأباح له المناجاة بدون تقديم صدقة لا يقدر عليها.

﴿١٣﴾ ثم لما رأى تبارك وتعالى شفقة المؤمنين ومشقة الصدقات عليهم عند كل مناجاة؛ سهل الأمر عليهم، ولم يؤاخذهم بترك الصدقة بين يدي المناجاة، وبقي التعظيم للرسول والاحترام بحاله لم ينسخ؛ لأن هذا الحكم من باب المشروع لغيره، ليس مقصوداً لنفسه، وإنما المقصود هو الأدب مع الرسول والإكرام له، وأمرهم تعالى أن يقوموا بالمأمورات الكبار المقصودة بنفسها، فقال: ﴿فَإِذْ لَمْ تَقْعُوا﴾ أي: لم يهْنُ عليكم تقديم الصدقة، ولا يكفي هذا؛ فإنه ليس من شرط الأمر أن يكون هيناً على العبد، ولهذا قيده بقوله: ﴿وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ أي: عفا لكم عن ذلك، ﴿فَأَقِمْ وَاصْلَوْا﴾ بآركانها وشروطها وجميع حدودها ولوازمها، ﴿وَأَتُوا الزَّكَاةَ﴾ المفروضة في أموالكم إلى مستحقها.

يَتَابِهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نَجَّيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِمُوا بَيْنَ يَدَيْ جُنُودِكُمْ صَدَقَةً ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرُ فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٣﴾ ءَاسْتَفْتُمُ أَنْ تَقْدِمُوا بَيْنَ يَدَيْ جُنُودِكُمْ صَدَقَةً فَإِذْ لَمْ تَقْعُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِمْ وَاصْلَوْا وَأَتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَاللَّهُ خَيْرٌ يُمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٥﴾ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴿١٧﴾ لَنْ تَغْنِي عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١٨﴾ يَوْمَ يَعْلَمُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ ءَلَا إِنَّهُمْ مُّكَذَّبُونَ ﴿١٩﴾ اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ أُولَٰئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ ءَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٢٠﴾ إِنَّ الَّذِينَ يُحَادِّثُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ ﴿٢١﴾ كَتَبَ اللَّهُ لَأَعْلَيْنَا أَنَا وَرَسُولُنَا إِنَّ اللَّهَ لَفِي غَيْبٍ ﴿٢٢﴾

وهاتان العبادتان هما أم العبادات البدنية والمالية؛ فمن قام بهما على الوجه الشرعي؛ فقد قام بحقوق الله وحقوق عباده، ولهذا قال بعده: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ وهذا أشمل ما يكون من الأوامر، فيدخل في ذلك طاعة الله وطاعة رسوله بامتثال أوامره واجتناب نواهيهما وتصديق ما أخبرا به والوقوف عند حدود الله، والعبرة في ذلك على الإخلاص والإحسان؛ فلهذا قال: ﴿وَاللَّهُ خَيْرٌ يُمَّا تَعْمَلُونَ﴾ فيعلم تعالى أعمالهم، وعلى أي وجه صدرت، فيجازيهم على حسب علمه بما في صدورهم.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ إلى قوله: ﴿هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾.

﴿١٤﴾، ﴿١٥﴾ يخبر تعالى عن شناعة حال المنافقين، الذين يتولون الكافرين من اليهود والنصارى وغيرهم ممن غضب الله عليهم ونالوا من لعنة الله أوفى نصيب، وأنهم ليسوا من المؤمنين ولا من الكافرين: ﴿مُذَبَّذَبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ﴾ [النساء: ١٤٣]: فليسوا مؤمنين ظاهراً وباطناً؛ لأن باطنهم مع الكفار، ولا مع الكفار ظاهراً وباطناً؛ لأن ظاهرهم مع المؤمنين، وهذا وصفهم الذي نعمت الله به، والحال أنهم يحلفون على ضده الذي هو الكذب، فيحلفون أنهم مؤمنون، وهم يعلمون أنهم ليسوا مؤمنين، فجاء هؤلاء الخونة الفجرة الكذبة أن الله أعد لهم عذاباً شديداً لا يقادر قدره ولا يعلم وصفه؛ ﴿إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾: حيث عملوا بما يسخط الله ويوجب عليهم العقوبة واللعة.

﴿١٦﴾ ﴿١٧﴾ اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً؛ أي: ترساً ووقاية يتقون بها من لوم الله ورسوله والمؤمنين، فيسبب ذلك صدوا أنفسهم وغيرهم عن سبيل الله، وهو الصراط الذي من سلكه؛ أفضى به إلى جنات النعيم، ومن صد عنه؛ فليس إلا الصراط الموصل إلى الجحيم، ﴿فَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾: حيث استكبروا عن الإيمان بالله والالتقياد لأياته؛ أهانهم بالعذاب السرمد الذي لا يُقْتَرَّ عنهم ساعة ولا هم ينظرون.

﴿١٧﴾ لَنْ تَعَيَّ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا؛ أَي: لا تدفع عنهم شيئاً من العذاب، ولا تحصل لهم قسطاً من الثواب، ﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ﴾: الملازمون لها، الذين لا يخرجون عنها، ﴿وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ ﴿١٨﴾.

﴿١٨﴾ ومن عاش على شيء مات عليه؛ فكما أن المنافقين في الدنيا يموتون على المؤمنين ويحلفون لهم أنهم مؤمنون، فإذا كان يوم القيامة ويعثهم الله جميعاً؛ حلفوا لله كما حلفوا للمؤمنين، ويحسبون في حلفهم هذا ﴿أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ﴾: لأن كفرهم ونفاقهم وعقائدهم الباطلة لم تزل ترسخ في أذهانهم شيئاً فشيئاً، حتى غرتهم وظنوا أنهم على شيء يعتد به ويعلق عليه الثواب، وهم كاذبون في ذلك، ومن المعلوم أن الكذب لا يروج على عالم الغيب والشهادة.

﴿١٩﴾ وهذا الذي جرى عليهم من استحواذ الشيطان الذي استولى عليهم وزين لهم أعمالهم وأنساهم ذكر الله، وهو العدو المبين الذي لا يريد بهم إلا الشر، ﴿إِنَّمَا يَدْعُوا حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنَ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ ﴿٢٠﴾ [فاطر: ٦]، ﴿أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَالِفُونَ﴾ ﴿٢١﴾: الذين خسروا دينهم ودنياهم وأنفسهم وأهلهم.

﴿٢٢﴾ إِنَّ الَّذِينَ يُحَادِّثُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ ﴿٢٣﴾ كَتَبَ اللَّهُ لَأَعْلَيْنَا أَنَّا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٢٤﴾.

سورة المجادلة
بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
سَبِّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١﴾ هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنْتُمْ أَن يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ فَأَلْتَنَّهُمْ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ حَسِبُوا وَقَدْ فِي قُلُوبِهِمُ الرَّعْبُ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِيَ الْأَبْصَارِ ﴿٢﴾ وَلَوْلَا أَن كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ لَعَذَّبَهُمُ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ ﴿٣﴾

﴿٢٣﴾، ﴿٢٤﴾ هذا وعد ووعد، وعيد لمن حاد الله ورسوله بالكفر والمعاصي أنه مخذول مذلول لا عاقبة له حميدة، ولا راية له منصوره، ووعد لمن آمن به وبرسوله واتبع ما جاء به المرسلون فصار من حزب الله المفلحين أن لهم الفتح والنصر والغلبة في الدنيا والآخرة، وهذا وعد لا يخلف ولا يغير؛ فإنه من الصادق القوي العزيز الذي لا يعجزه شيء يريد.

﴿لَا يَحِدُّ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ إلى آخر السورة.

﴿٢٢﴾ يقول تعالى: ﴿لَا يَحِدُّ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾؛ أي: لا يجتمع هذا وهذا، فلا يكون العبد مؤمناً بالله واليوم الآخر حقيقة إلا كان عاملاً على مقتضى الإيمان ولوازمه من محبة من قام بالإيمان وموالاته وبغض من لم يحم به ومعاداته، ولو كان أقرب الناس إليه، وهذا هو الإيمان على الحقيقة، الذي وجدت ثمرته والمقصود منه، وأهل هذا الوصف هم الذين ﴿كَتَبَ﴾ الله ﴿فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ﴾؛ أي: رسمه وثبته وغرسه غرساً لا يتزلزل ولا تؤثر فيه الشبه والشكوك، وهم الذين قواهم الله ﴿بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾؛ أي: بوجهه ومعونته ومدده الإلهي وإحسانه الرباني وهم الذين لهم الحياة الطيبة في هذه الدار، ولهم جنات النعيم في دار القرار، التي فيها كل ما تشتهيhe الأنفس وتلذ الأعين وتختار، ولهم أفضل النعيم وأكبره، وهو أن الله يحل عليهم رضوانه؛ فلا يسخط عليهم أبداً، ويرضون عن ربهم بما يعطيهم من أنواع الكرامات ووافر المثوبات وجزيل الهبات ورفيع الدرجات؛ بحيث لا يرون فوق ما أعطاهم مولاهاً غاية ولا وراء نهاية، وأما من يزعم أنه يؤمن بالله واليوم الآخر، وهو مع ذلك مواد لأعداء الله محب لمن نبذ الإيمان وراء ظهره؛ فإن هذا إيمان زعمي لا حقيقة له؛ فإن كل أمر لا بد له من برهان يصدقه؛ فمجرد الدعوى لا تفيد شيئاً ولا يصدق صاحبها.

تم تفسير (قد سمع الله) بحمد الله وعونه وتسديده، والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على محمد وسلم تسليماً.

تفسير سورة الحشر

وهي مدنية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿سَبِّحْ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ ١ هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا ۖ إِلَى آخِرِ مَا ذَكَرَ اللَّهُ مِنْ قُصَّتِهِمْ.

هذه السورة تسمى سورة بني النضير، وهم طائفة كبيرة من اليهود في جانب المدينة وقت بعثة النبي ﷺ، فلما بعث النبي ﷺ وهاجر إلى المدينة؛ كفروا به في جملة من كفر من اليهود، فهاذن النبي ﷺ طوائف اليهود الذين هم جيرانه في المدينة، فلما كان بعد وقعة بدر بسة أشهر أو نحوها؛ خرج إليهم النبي ﷺ، وكلمهم أن يعينوه في دية الكلابيين الذين قتلهم عمرو بن أمية الضمري، فقالوا: نفعل يا أبا القاسم! اجلس ههنا حتى نقضي حاجتك! فخلا بعضهم ببعض، وسول لهم الشيطان الشقاء الذي كتب عليهم، فتأمروا بقتله ﷺ، فقالوا: أيكم يأخذ هذه الرخي فيصعد فيلقها على رأسه يشدخه بها؟ فقال أشقاها عمرو بن جحاش: أنا. فقال لهم سلام بن مشكم: لا تفعلوا؛ فوالله؛ ليخبرن بما هممتن به، وإنه لنقص للعهد الذي بيننا وبينه.

وجاء الوحي على الفور إليه من ربه بما هموا به، فنهض مسرعاً، فتوجه إلى المدينة، ولحقه أصحابه، فقالوا: نهضت ولم نشعر بك! فأخبرهم بما همت يهود به، وبعث إليهم رسول الله ﷺ أن اخرجوا من المدينة ولا تسكنوني بها، وقد أجَلْتُكُمْ عشراً؛ فمن وجدت بعد ذلك؛ ضربت عنقه. فأقاموا أياماً يتجهزون، وأرسل إليهم المناق عبد الله بن أبي بن سلول ألا تخرجوا من دياركم؛ فإن معي ألفين يدخلون معكم حصنكم فيموتون دونكم، وتنصرمكم قريظة وحلفاؤكم من غطفان. وطمع رئيسهم حيي بن أخطب فيما قال له، وبعث إلى رسول الله ﷺ يقول: إنا لا نخرج من ديارنا؛ فاصنع ما بدا لك! فكبر رسول الله ﷺ وأصحابه، ونهضوا إليهم، وعلي بن أبي طالب يحمل اللواء، وأقاموا على حصونهم يرمون بالنبل والحجارة، واعتزلتهم قريظة، وخانهم ابن أبي وحلفاؤهم من غطفان، فحاصروهم رسول الله ﷺ، وقطع نخلهم وحرق، فأرسلوا إليه: نحن

نخرج من المدينة، فأنزلهم على أن يخرجوا منها بنفوسهم وذرائعهم وأن لهم ما حملت إيلهم إلا السلاح. وقبض رسول الله ﷺ الأموال والسلاح.

وكانت بنو النضير خالصة لرسول الله ﷺ لنوائبه ومصالح المسلمين، ولم يخمسها؛ لأن الله أفاءها عليه ولم يوجف المسلمون عليها بخيل ولا ركاب، وأجلهم إلى خير، وفيهم حيي بن أخطب كبيرهم، واستولى على أرضهم وديارهم، وقبض السلاح، فوجد من السلاح خمسين درعاً وخمسين بيضة وثلاثمائة وأربعين سيفاً، هذا حاصل قصتهم كما ذكرها أهل السير.

﴿فَاتَّبَعَ تَعَالَى هَذِهِ السُّورَةَ بِالْإِخْبَارِ أَنَّ جَمِيعَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ تَسْبِحُ بِحَمْدِ رَبِّهَا وَتَتَزَكَّى عَنْهُ لَا يَلِيْقُ بِجَلَالِهِ وَتَعْبُدُهُ وَتَخْضَعُ لِعَظَمَتِهِ؛ لِأَنَّهُ الْعَزِيزُ الَّذِي قَدْ قَهَرَ كُلَّ شَيْءٍ؛ فَلَا يَمْتَنِعُ عَلَيْهِ شَيْءٌ، وَلَا يَسْتَعِصِي عَلَيْهِ مُسْتَعِصٌ، الْحَكِيمُ فِي خَلْقِهِ وَأَمْرِهِ؛ فَلَا يَخْلُقُ شَيْئاً عَبَثاً، وَلَا يَشْرَعُ مَا لَا مَصْلَحَةَ فِيهِ، وَلَا يَفْعَلُ إِلَّا مَا هُوَ مُقْتَضِي حُكْمَتِهِ.﴾

﴿وَمِنْ ذَلِكَ نَصَرَهُ لِرَسُولِهِ ﷺ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ بَنِي النَّضِيرِ حِينَ غَدَرُوا بِرَسُولِهِ فَأَخْرَجَهُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَوْطَانِهِمُ الَّتِي أَلْفَوْهَا وَأَحْبَوْهَا، وَكَانَ إِخْرَاجُهُمْ مِنْهَا أَوَّلَ حَشْرِ وَجَلَاءَ كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ عَلَى يَدِ رَسُولِهِ مُحَمَّدٍ ﷺ، فَجَلُّوا إِلَى خَيْرٍ. وَدَلَّتِ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ أَنَّ لَهُمْ حَشْراً وَجَلَاءً غَيْرَ هَذَا؛ فَقَدْ وَقَعَ حِينَ أَجْلَاهُمْ النَّبِيُّ ﷺ مِنْ خَيْرٍ، ثُمَّ عَمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَخْرَجَ بَقِيَّتَهُمْ مِنْهَا.﴾ مَا ظَنَنْتُمْ أَنَّ الْمُسْلِمِينَ «أَنْ يَخْرُجُوا»؛ مِنْ دِيَارِهِمْ؛ لِحَصَانَتِهَا وَمَنْعَتِهَا وَعِزِّهَا فِيهَا، «وَرَطَّنُوا أَذْهَرُ مَا نِعْمَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ»؛ فَأَعْجَبُوا بِهَا، وَغَرَّتْهُمْ، وَحَسَبُوا أَنَّهُمْ لَا يُنَالُونَ بِهَا، وَلَا يَقْدِرُ عَلَيْهَا أَحَدٌ، وَقَدَّرَ اللَّهُ وَرَاءَ ذَلِكَ كُلِّهِ، لَا تَغْنِي عَنْهُ الْحُصُونُ وَالْقَلَاعُ وَلَا تَجْدِي فِيهِ الْقُوَّةُ وَالِدِفَاعُ، وَلِهَذَا قَالَ: «فَأَنذَرْتُهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْسَبُوا»؛ أَي: مِنْ الْأَمْرِ وَالْبَابِ الَّذِي لَمْ يَخْطُرُ بِبَالِهِمْ أَنْ يُؤْتُوا مِنْهُ، وَهُوَ أَنَّهُ تَعَالَى قَذْفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرِّعْبُ: وَهُوَ الْخَوْفُ الشَّدِيدُ، الَّذِي هُوَ جُنْدُ اللَّهِ الْأَكْبَرُ، الَّذِي لَا يَنْفَعُ مَعَهُ عَدَدٌ وَلَا عُدَّةٌ وَلَا قُوَّةٌ وَلَا شُدَّةٌ؛ فَلَا أَمْرَ الَّذِي يَحْتَسِبُونَهُ، وَيُظَنُّونَ أَنَّ الْخُلَلَ يَدْخُلُ عَلَيْهِمْ مِنْهُ إِنْ دَخَلَ، هُوَ الْحُصُونُ الَّتِي تَحْصِنُهَا بِهَا وَاطْمَأْنَنَ نَفْسُهُمْ إِلَيْهَا، وَمِنْ وَثْقٍ بِغَيْرِ اللَّهِ؛ فَهُوَ مَخْذُولٌ، وَمِنْ رُكْنٍ إِلَى غَيْرِ اللَّهِ؛ كَانَ وَبِالْأَعْلَى، فَأَنَاهُمْ أَمْرَ سَمَاوِي نَزَلَ عَلَى

قلوبهم، التي هي محل الثبات والصبر أو الخور والضعف، فأزال قوتها وشدتها، وأورثها ضعفاً وخوراً وجبناً لا حيلة لهم في دفعه، فصار ذلك عوناً عليهم، ولهذا قال: ﴿يُخْرِجُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدَى الْمُؤْمِنِينَ﴾، وذلك أنهم صالحوا النبي ﷺ على أن لهم ما حملت الإبل، فنقضوا لذلك كثيراً من سفوفهم التي استحسوها، وسلطوا المؤمنين بسبب بغيتهم على إخراج ديارهم وهدم حصونهم، فهم الذين جنوا على أنفسهم وصاروا أكبر عون عليها. ﴿فَاعْتَرِبُوا بَيْنَ أَلْبُصَرٍ﴾ ١؛ أي: البصائر النافذة والعقول الكاملة؛ فإن في هذا معتبراً يعرف به صنع الله تعالى في المعاندين للحق، المتبعين لأهوائهم، الذين لم تنفعهم عزتهم ولا منعتهم قوتهم ولا حصتهم حصونهم، حين جاءهم أمر الله؛ وصل إليهم النكال بذنوبهم، والعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب؛ فإن هذه الآية تدل على الأمر بالاعتبار، وهو اعتبار النظير بنظيره، وقياس الشيء على ما يشابهه، والتفكر فيما تضمنته الأحكام من المعاني والحكم التي هي محل العقل والفكرة، وبذلك يكمل العقل، وتنور البصيرة، ويزداد الإيمان، ويحصل الفهم الحقيقي.

٢ ثم أخبر تعالى أن هؤلاء اليهود لم يصبهم جميع ما يستحقون من العقوبة، وأن الله خفف عنهم، فلو لا أنه كتب عليهم الجلاء الذي أصابهم وقضاه عليهم وقدره بقدره الذي لا يبدل ولا يغير؛ لكان لهم شأن آخر من عذاب الدنيا ونكالها، ولكنهم وإن فاتهم العذاب الشديد الدنيوي؛ فإن لهم في الآخرة عذاب النار الذي لا يمكن أن يعلم شدته إلا الله؛ فلا يخطر ببالهم أن عقوبتهم قد انقضت وفرغت ولم يبق لهم منها بقية؛ فما أعد الله لهم من العذاب في الآخرة أعظم وأطم.

٣ ﴿وَذَلِكَ﴾ لأنهم ﴿شَاقُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾؛ وعادوهما وحاربوهما وسعوا في معصيتهما، وهذه سته وعادته فيمن شاقه. ﴿وَمَنْ يُشَاقِ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ ٤.

٥ ولما لام بنو النضير رسول الله ﷺ والمسلمين في قطع النخيل والأشجار، وزعموا أن ذلك من الفساد وتوصلوا بذلك إلى الطعن بالمسلمين، أخبر تعالى أن قطع النخيل إن قطعوه أو إبقاءهم إياه إن أبقوه؛ أنه بإذنه تعالى وأمره، ﴿وَالْيَحْرَىٰ﴾ ٦ ﴿الْفَاسِقِينَ﴾ ٧: حيث سلطكم على قطع نخيلهم وتحريقها؛ ليكون ذلك نكالاً لهم وخزياً في الدنيا وذلاً يعرف به عجزهم التام الذي ما قدروا على استنقاذ نخيلهم الذي هو مادة قوتهم. واللية تشمل سائر النخيل على أصح الاحتمالات وأولاه؛ فهذه حال بني النضير وكيف عاقبهم الله [تعالى] في الدنيا.

٨ ثم ذكر من انتقلت إليه أموالهم وأمتعتهم، فقال: ﴿وَمَا آفَأَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْهُمْ﴾؛ أي: من أهل هذه القرية، وهم بنو النضير، فإنكم يا معشر المسلمين ما ﴿أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ﴾؛ أي: ما أجلبتم وحشدتم؛ أي: لم تعبوا بتحصيلها لا بأنفسكم ولا بمواشيكم، بل قذف الله في قلوبهم الرعب، فأنتكم صفواً عفواً، ولهذا قال: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ يَسْلُطُ رُسُلَهُ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ ٩: من تمام قدرته أنه لا يمتنع عليه ممتنع ولا يتعزز من دونه قوي.

١٠ وتعريف الفيء باصطلاح الفقهاء: هو ما أخذ من مال الكفار بحق من غير قتال؛ كهذا المال الذي فروا وتركوه خوفاً

ذَلِكَ يَأْتُهُمْ شَاقُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ. وَمَنْ يُشَاقِ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ١ مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لَيْسَةٍ أَوْ نَرَسْتُمْوهَا قَاطِعَةً عَلَىٰ أَسْوَأِهَا فَيَذَنُ اللَّهُ لِيُخْرِىَ الْفَاسِقِينَ ٢ وَمَا آفَأَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَكِنَّ اللَّهَ يُسْلِطُ رُسُلَهُ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ٣ مَا آفَأَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ وَمَا آتَيْنَاكُمُ الرُّسُولَ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَكُمُ عَنْهُ فَأْتُوهُ وَأَتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ٤ لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ٥ وَالَّذِينَ بَوَّؤُوا الذَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُودْرِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ٦

من المسلمين، وسمي فيثًا؛ لأنه رجع من الكفار الذين هم غير مستحقين له إلى المسلمين الذين لهم الحق الأوفر فيه. وحكمه العام كما ذكره الله بقوله: ﴿مَا آفَاءَ اللَّهِ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى﴾: عمومًا، سواء كان في وقت الرسول أو بعده لمن يتولى من بعده أمته، ﴿فَلِلَّهِ وَالرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾: وهذه الآية نظير الآية التي في سورة الأنفال، وهي قوله: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ، وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ [الأنفال: ٤١]؛ فهذا الفيء يقسم خمسة أقسام: لله ولرسوله يصرف في مصالح المسلمين العامة. وخمس لدوي القربى، وهم بنو هاشم وبنو المطلب؛ حيث كانوا يسرى فيه بين ذكورهم وإناثهم، وإنما دخل بنو المطلب في خمس الخمس مع بني هاشم ولم يدخل بقية بني عبد مناف؛ لأنهم شاركوا بني هاشم في دخولهم الشعب حين تعاقدت قريش على هجرهم وعداوتهم، فنصروا رسول الله ﷺ؛ بخلاف غيرهم، ولهذا قال النبي ﷺ في بني عبد المطلب: «إنهم لم يفارقوني في جاهلية ولا إسلام». وخمس لفقراء اليتامى، وهم من لا أب له ولم يبلغ. وخمس للمساكين. وخمس لأبناء السبيل، وهم الغرياء المنقطع بهم في غير أوطانهم.

وإنما قدر الله هذا التقدير وحصر الفيء في هؤلاء المعينين؛ لـ ﴿كَانَ لَا يَكُونُ دَوْلَةً﴾؛ أي: مداولة واختصاصًا ﴿بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ﴾؛ فإنه لو لم يقدره؛ لتداولته الأغنياء الأقوياء، ولما حصل لغيرهم من العاجزين منه شيء، وفي ذلك من الفساد ما لا يعلمه إلا الله؛ كما أن في اتباع أمر الله وشرعه من المصالح ما لا يدخل تحت الحصر، ولذلك أمر الله بالقاعدة الكلية والأصل العام، فقال: ﴿وَمَا أَتَيْنَكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾؛ وهذا شامل لأصول الدين وفروعه ظاهره وباطنه، وأن ما جاء به الرسول يتعين على العباد الأخذ به واتباعه، ولا تحل مخالفته، وأن نص الرسول على حكم الشيء كنص الله تعالى؛ لا رخصة لأحد ولا عذر له في تركه، ولا يجوز تقديم قول أحد على قوله. ثم أمر بتقواه التي بها عمارة القلوب والأرواح والدنيا والآخرة، وبها السعادة الدائمة والفوز العظيم، وبإضاعتها الشقاء الأبدي والعذاب السرمدي، فقال: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ (٧)؛ على من ترك التقوى وآثر اتباع الهوى.

ثم ذكر تعالى الحكمة والسبب الموجب لجعله تعالى أموال الفيء لمن قدرها له، وأنهم حقيقون بالإعانة، مستحقون لأن تجعل لهم، وأنهم ما بين مهاجرين؛ قد هجروا المحبوبات والمالوفات من الديار والأوطان والأحباب والخلان والأموال رغبة في الله ونصرة لدين الله ومحبة لرسول الله؛ فهؤلاء هم الصادقون؛ الذين عملوا بمقتضى إيمانهم، وصدقوا إيمانهم بأعمالهم الصالحة والعبادات الشاقة؛ بخلاف من ادعى الإيمان وهو لم يصدق به بالجهاد والهجرة وغيرهما من العبادات، وبين أنصار، وهم الأوس والخزرج، الذين آمنوا بالله ورسوله طوعًا ومحبة واختيارًا، وآووا رسول الله ﷺ، ومنعوه من الأحمر والأسود، وتبوءوا دار الهجرة والإيمان، حتى صارت موثلاً ومرجعًا يرجع إليه المؤمنون، ويلجأ إليه المهاجرون، ويسكن بحماه المسلمون؛ إذ كانت البلدان كلها بلدان حرب وشرك وشر، فلم يزل أنصار الدين يأوون إلى الأنصار، حتى انتشر الإسلام وقوي وجعل يزداد شيئًا فشيئًا، وينمو قليلًا قليلًا حتى فتحوا القلوب بالعلم والإيمان والقرآن، والبلدان بالسيف والسنان، الذين من جملة أوصافهم الجميلة أنهم ﴿يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ﴾، وهذا لمحبتهم لله ورسوله، أحبا أحبائه، وأحبا من نصر دينه. ﴿وَلَا يَحْدُثُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا﴾؛ أي: لا يحسدون المهاجرين على ما آتاهم الله من فضله وخصهم به من الفضائل والمناقب الذين هم أهلها.

وهذا يدل على سلامة صدورهم وانتفاء الغل والحقد والحسد عنها، ويدل ذلك على أن المهاجرين أفضل من الأنصار؛ لأن الله قدمهم بالذكر، وأخبر أن الأنصار لا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا، فدل على أن الله تعالى آتاهم ما لم يؤت الأنصار ولا غيرهم، ولأنهم جمعوا بين النصرة والهجرة، وقوله: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾؛ أي: ومن أوصاف الأنصار - التي فاقوا بها غيرهم وتميزوا بها عن سواهم - الإيثار، وهو أكمل أنواع الجود، وهو الإيثار بمحاب النفس من الأموال وغيرها، وبذلها للغير، مع الحاجة إليها، بل مع الضرورة والخصاصة، وهذا لا يكون إلا من خلق زكي ومحبة لله تعالى مقدمة على محبة شهوات النفس ولذاتها. ومن ذلك قصة الأنصاري الذي نزلت الآية بسببه حين أثر ضيفه بطعامه وطعام أهله وأولاده وياتوا جوعًا.

والإيثار عكس الأثرة؛ فالإيثار محمود، والأثرة مذمومة؛ لأنها من خصال البخل والشح، ومن رزق الإيثار؛ فقد وقى شح نفسه، ﴿وَمَنْ يُوقِ شَحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ ٩. ووقاية شح النفس يشمل وقايتها الشح في جميع ما أمر به؛ فإنه إذا وقى العبد شح نفسه؛ سمحت نفسه بأوامر الله ورسوله، ففعلها طائعاً متقاداً منشرحاً بها صدره، وسمحت نفسه بترك ما نهى الله عنه، وإن كان محبوباً للنفس؛ تدعو إليه وتطلع إليه، وسمحت نفسه ببذل الأموال في سبيل الله وابتغاء مرضاته، وبذلك يحصل الفلاح والفوز؛ بخلاف من لم يوق شح نفسه، بل ابتلي بالشح بالخير الذي هو أصل الشر ومادته.

١٠ فهذان الصنفان الفاضلان الزكيان هم الصحابة الكرام والأئمة الأعلام، الذين حازوا من السوابق والفضائل والمناقب ما سبقوا به من بعدهم وأدركوا به من قبلهم، فصاروا أعيان المؤمنين وسادات المسلمين وقادات المتقين، وحسب من بعدهم من الفضل أن يسير خلفهم ويأتم بهداهم، ولهذا ذكر الله من اللاحقين من هو مؤتم بهم وسائر خلفهم، فقال: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ أي: من بعد المهاجرين والأنصار، ﴿يَقُولُونَ﴾: على وجه النصح لأنفسهم ولسائر المؤمنين: ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا

وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ ١١. أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ١٢ لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِنْ قُوتِلُوا لَا يَنْصُرُوهُمْ وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ لَيُؤْتُوا الْأَذْوَثَ ثُمَّ لَا يَنْصُرُونَ ١٣ لَأَنَّهُ أَشَدُّ رَهَبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ ١٤ لَا يَفْقَهُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فَرَى مُخَصَّصًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ ١٥ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَبُذِلُوا فَاذْكُوا بِأَلْأَمْرِ هُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ١٦ كَذَّبَ الشَّاطِطِينَ إِذْ قَالَ لِلنَّاسِ اكْفُرْ فَكَفَرْنَا كَثْرًا قَالُوا رَبِّ عَصَىٰكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ١٧

بِالْإِيمَانِ﴾: وهذا دعاء شامل لجميع المؤمنين من السابقين من الصحابة ومن قبلهم ومن بعدهم، وهذا من فضائل الإيمان؛ أن المؤمنين يتنفع بعضهم ببعض ويدعو بعضهم لبعض؛ بسبب المشاركة في الإيمان، المقتضي لعقد الأخوة بين المؤمنين، التي من فروعها أن يدعو بعضهم لبعض، وأن يحب بعضهم بعضاً، ولهذا ذكر الله في هذا الدعاء نفي الغل عن القلب، الشامل لقليله وكثيره، الذي إذا انتفى؛ ثبت ضده، وهو المحبة بين المؤمنين والموالة والنصح ونحو ذلك مما هو من حقوق المؤمنين، فوصف الله من بعد الصحابة بالإيمان؛ لأن قولهم: ﴿سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ﴾: دليل على المشاركة فيه، وأنهم تابعون للصحابة في عقائد الإيمان وأصوله، وهم أهل السنة والجماعة، الذين لا يصدق هذا الوصف التام إلا عليهم، ووصفهم بالإقرار بالذنوب والاستغفار منها واستغفار بعضهم لبعض واجتهادهم في إزالة الغل والحقد عن قلوبهم لإخوانهم المؤمنين؛ لأن دعاءهم بذلك مستلزم لما ذكرنا ومتضمن لمحبة بعضهم بعضاً، وأن يحب أحدهم لأخيه ما يحب لنفسه، وأن ينصح له حاضراً وغائباً حياً وميتاً.

ودلت الآية الكريمة على أن هذا من جملة حقوق المؤمنين بعضهم لبعض. ثم ختموا دعاءهم باسمين كريمين دالين على كمال رحمة الله وشدة رافته وإحسانه بهم، الذي من جملة: بل من أجله توفيقهم للقيام بحقوقه وحقوق عبادته.

فهؤلاء الأصناف الثلاثة هم أصناف هذه الأمة، وهم المستحقون للفيء، الذي مصرفه راجع إلى مصالح الإسلام، وهؤلاء أهله الذين هم أهله، جعلنا الله منهم بمنه وكرمه.

١١ ثم تعجب تعالى من حال المنافقين، الذين طمعوا لإخوانهم من أهل الكتاب في نصرتهم وموالاتهم على المؤمنين، وأنهم يقولون لهم: ﴿لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا﴾ أي: لا نطيع في عدم نصرتكم أحداً يعذلنا أو يخوفنا، ﴿وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ ١٢. في هذا الوعد الذي غروا به إخوانهم، ولا يستكثر هذا عليهم؛ فإن الكذب وصفهم، والغرور والخداع مقارنهم، والتناق والجبن يصحبهم.

﴿١٥﴾ ﴿كُنْزِلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَرِيبًا﴾: وهم كفار قريش، الذين ﴿زَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ فَلَمَّا تَرَآتِ الْفِتْنَانَ تَكَسَّرَ عَلَى عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ﴾ [الأنفال: ٤٨]! فغرتهم أنفسهم، وغرهم من غرهم، الذين لم ينفعوهم ولم يدفعوا عنهم العذاب، حتى أتوا بدرًا بفخرهم وخيلائهم، ظانين أنهم مدركون برسول الله والمؤمنين أمانهم، فنصر الله رسوله والمؤمنين عليهم، فقتلوا كبارهم وصناديدهم، وأسروا من أسروا منهم، وفر من فر، وذاقوا بذلك وبال أمرهم وعاقبة شركهم وبغيهم. هذا في الدنيا، ﴿وَلَهُمْ﴾ في الآخرة عذاب النار.

﴿١٦﴾ ومثل هؤلاء المنافقين الذين غروا إخوانهم من أهل الكتاب، ﴿كُنْزِلَ النَّبِيُّ إِذْ قَالَ لِلْأَسْنَى أَكْفَرُ﴾؛ أي: زين له الكفر وحسنه ودعاه إليه، فلما اغتر به وكفر وحصل له الشقاء لم ينفعه الشيطان الذي تولاه ودعاه إلى ما دعاه إليه بل تبرأ منه، ﴿قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾؛ أي: ليس لي قدرة على دفع العذاب عنك، ولست بمغن عنك مثقال ذرة من الخير.

﴿١٧﴾ ﴿فَكَانَ عَقِبَتَهَا﴾؛ أي: الداعي الذي هو الشيطان والمدعو الذي هو الإنسان حين أطاعه، ﴿أَتَمَّتْ فِي النَّارِ خَلْقَتِي فِيهَا﴾؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَدْعُوا حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنَ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [فاطر: ٦]. ﴿وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ﴾: الذين اشتروا في الظلم والكفر، وإن اختلوا في شدة العذاب وقوته. وهذا دأب الشيطان مع كل أوليائه؛ فإنه يدعوهم ويدليهم بغرور إلى ما يضرهم، حتى إذا وقعوا في الشباك، وحاق بهم أسباب الهلاك؛ تبرأ منهم وتخلى عنهم، واللوم كل اللوم على من أطاعه؛ فإن الله قد حذر منه وأذذر، وأخبر بمقاصده وغاياته ونهايته، فالمقدم على طاعته عاصي على بصيرة لا عذر له.

﴿يَأْتِيهَا الْزَبَرُ﴾: أمروا أنتم الله وتنتظر نفس ما قدمت لغد وأنتموا الله إن الله خير مما تعملون ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ أُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾: لا يستوي أصحاب النار وأصحاب الجنة أصحاب الجنة هم الفقهاء الذين ﴿لَوْ أَرْزَلْنَا هَٰذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْنَاهُ خَشْيَعًا مُّصَدَّقًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَصْرِيهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾.

ولهذا كذبهم الله بقوله الذي وجد مخبره كما أخبر به ووقع طبق ما قال، فقال: ﴿لَيْنَ أَخْرَجُوا﴾؛ أي: من ديارهم جلاء ونفيًا ﴿لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ﴾: لمحبتهم للأوطان، وعدم صبرهم على القتال، وعدم وفائهم بالوعد، ﴿وَلَيْنَ قُوتِلُوا لَا يَضُرُّوهُمْ﴾: بل يستولي عليهم الجبن ويملكهم الفشل ويخذلون إخوانهم أحوج ما كانوا إليهم، ﴿وَلَيْنَ نَصَرُوهُمْ﴾: على الفرض والتقدير، ﴿لَيُؤْذَنَ الْأَذْبَرُ ثُمَّ لَا يُضَرُّوهُ﴾؛ أي: سيحصل منهم الإذبار عن القتال والنصرة، ولا يحصل لهم نصر من الله.

﴿١٨﴾ والسبب الذي حملهم على ذلك أنكم أيها المؤمنون ﴿أَشَدُّ رَهَبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِنَ اللَّهِ﴾: فخافوا منكم أعظم مما يخافون الله، وقدموا مخافة المخلوق الذي لا يملك لنفسه ولا لغيره نفعًا ولا ضرًا على مخافة الخالق الذي بيده الضر والنفع والعطاء والمنع. ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُوهُ﴾: مراتب الأمور، ولا يعرفون حقائق الأشياء، ولا يتصورون العواقب، وإنما الفقه كل الفقه أن يكون خوف الخالق ورجاؤه ومحبه مقدمة على غيرها، وغيرها تبعًا لها.

﴿١٩﴾ ﴿لَا يَقْدِرُونَكُمْ جَمِيعًا﴾؛ أي: في حال الاجتماع ﴿إِلَّا فِي قَرْىٍ مُّحْصَنَةٍ أَوْ مِنْ دَوْلَةٍ جُدِرَ﴾؛ أي: لا يشتون على قتالكم ولا يعزمون عليه إلا إذا كانوا متحصنين في القرى أو من وراء الجدر والأسوار؛ فإنهم إذ ذاك ربما يحصل منهم امتناع اعتمادًا على حصونهم وجدرهم لا شجاعة بأنفسهم، وهذا من أعظم الذم. ﴿بِأَسْهُرَ بَيْنَهُمْ سَرِيذٌ﴾؛ أي: بأسهم فيما بينهم شديد، لا آفة في أبدانهم ولا في قوتهم، وإنما الآفة في ضعف إيمانهم وعدم اجتماع كلمتهم، ولهذا قال: ﴿تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا﴾: حين تراهم مجتمعين ومظاهرين، ولكن قلوبهم ﴿شَتَّى﴾؛ أي: متباغضة متفرقة متشتتة. ﴿ذَلِكَ﴾: الذي أوجب لهم اتصافهم بما ذكر ﴿بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُوهُ﴾؛ أي: لا عقل عندهم ولا لب؛ فإنهم لو كانت لهم عقول؛ لآثروا الفاضل على المفضول، ولما رضوا لأنفسهم بأبخس الخطتين، ولكانت كلمتهم مجمعة وقلوبهم مؤتلفة؛ فبذلك يتناصرون ويتعاضدون ويتعاونون على مصالحهم ومنافعهم الدينية والدنيوية؛ مثل هؤلاء المخذولين من أهل الكتاب، الذين انتصر الله لرسوله منهم، وأذاقهم الخزي في الحياة الدنيا، وعدم نصر من وعدهم بالمعاونة.

﴿١٨﴾ يأمر تعالى عباده المؤمنين بما يورجه الإيمان ويقتضيه من لزوم تقواه سرًا وعلانية في جميع الأحوال، وأن يراعوا ما أمرهم الله به من أوامره وشرائعه وحدوده، وينظروا ما لهم وما عليهم، وماذا حصلوا عليه من الأعمال التي تنفعهم أو تضرهم في يوم القيامة؛ فإنهم إذا جعلوا الآخرة نصب أعينهم وقبلة قلوبهم، واهتموا للمقام بها؛ اجتهدوا في كثرة الأعمال الموصلة إليها وتصفيها من القواطع والعوائق، التي ترفقهم عن السير أو تعوقهم أو تصرفهم، وإذا علموا أيضًا أن الله خبير بما يعملون، لا تخفى عليه أعمالهم، ولا تضع لده، ولا يهملها؛ أوجب لهم الجهد والاجتهاد.

وهذه الآية الكريمة أصل في محاسبة العبد نفسه، وأنه ينبغي له أن يتفقدتها؛ فإن رأى زللاً؛ تداركه بالإقلاع عنه والتوبة النصوح والإعراض عن الأسباب الموصلة إليه، وإن رأى نفسه مقصراً في أمر من أوامر الله؛ بذل جهده واستعان بربه في تكميله وإتقانه، ويقايس بين منن الله عليه وإحسانه وبين نقصيره؛ فإن ذلك يوجب له الحياة لا محالة.

﴿١٩﴾ والحرمان كل الحرمان أن يغفل العبد عن هذا الأمر، ويشابه قومًا نسوا الله، وغفلوا عن ذكره والقيام بحقه وأقبلوا على حظوظ أنفسهم وشهواتها فلم ينجحوا ولم يحصلوا على طائل، بل أنساهم الله مصالح أنفسهم، وأغفلهم عن ما في أنفسهم، وغبنوا غبنًا لا يمكن تداركه ولا يجبر كسره؛ لأنهم ﴿هُم﴾

فَكَانَ عَقِبَهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ ﴿١٨﴾ يَتَأَيَّأُ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنَّ اللَّهَ وَتَنْظُرُ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ أُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٢٠﴾ لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿٢١﴾ لَوْ أَنزَلْنَاهَا عَلَى الْفَرَّانِ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نُضَرُّهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٢﴾ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ الْغَيْبُ وَالشَّهَادَةُ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ﴿٢٣﴾ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ أَلَمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَنَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٤﴾ هُوَ اللَّهُ الْخَلَّاقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٢٥﴾

منافعها وفوائدها، فصار أمرهم فرطًا، فرجعوا بخسارة الدارين، والذين خرجوا عن طاعة ربهم، وأوضعوا في معاصيه.

﴿٢٠﴾ فهل يستوي من حافظ على تقوى الله، ونظر لما قدم لغده فاستحق جنات النعيم والعيش السليم مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، ومن غفل عن ذكره ونسي حقوقه فشقي في الدنيا، واستحق العذاب في الآخرة؛ فالأولون هم الفائزون، والآخرون هم الخاسرون.

﴿٢١﴾ ولما بين تعالى لعباده ما بين، وأمرهم ونهاهم في كتابه العزيز؛ كان هذا موجبًا لأن يبادروا إلى ما دعاهم إليه وحثهم عليه، ولو كانوا في القسوة وصلابة القلوب كالجبال الرواسي؛ فإن هذا القرآن لو أنزله ﴿عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾؛ أي: لكمال تأثيره في القلوب؛ فإن مواعظ القرآن أعظم المواعظ على الإطلاق، وأوامره ونواهيه محتوية على الحكم والمصالح المقرونة بها وهي من أسهل شيء على النفوس وأيسرها على الأبدان، خالية من التكلف، لا تناقض فيها ولا اختلاف ولا صعوبة فيها ولا اعتساف، تصلح لكل زمان ومكان، وتليق لكل أحد. ثم أخبر تعالى أنه يضرب للناس الأمثال، ويوضح لعباده في كتابه الحلال والحرام؛ لأجل أن يتفكروا في آياته ويتدبروها؛ فإن التفكير فيها يفتح للعبد خزائن العلم، ويبين له طرق الخير والشر، ويحثه على مكارم الأخلاق ومحاسن الشيم، ويزجره عن مساوئ الأخلاق؛ فلا أنفع للعبد من التفكير في القرآن والتدبر لمعانيه.

﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ الْغَيْبُ وَالشَّهَادَةُ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ أَلَمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَنَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ اللَّهُ الْخَلَّاقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٢٤﴾﴾

شيئًا إلا ويكون، ولا يَكُونُ شيئًا إلا لحكمة ومصلحة.

تم تفسير هذه السورة.



تفسير سورة الممتحنة

وهي مدنية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ﴾ إلى قوله: ﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ (١).

ذكر كثير من المفسرين رحمهم الله أن سبب نزول هذه الآيات الكريمت في قصة حاطب بن أبي بلتعة؛ حين غزا النبي ﷺ غزاة الفتح^(١)، فكتب حاطب إلى المشركين من أهل مكة يخبرهم بمسير رسول الله ﷺ إليهم؛ ليتخذ بذلك يدًا عندهم، لا شكًا ونفاقًا، وأرسله مع امرأة، فأخبر النبي ﷺ بشأنه، فأرسل إلى المرأة قبل وصولها، وأخذ منها الكتاب، وعاتب حاطبًا، فاعتذر بعذر قبله النبي ﷺ.

وهذه الآيات فيها النهي الشديد عن موالاته الكفار من المشركين وغيرهم وإلقاء المودة إليهم، وأن ذلك منافٍ للإيمان ومخالف لملة إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام، ومناقض للعقل الذي يوجب الحذر كل الحذر من العدو الذي لا يبغي من مجهوده في العداوة شيئًا ويتنزه الفرصة في إيصال الضرر إلى عدوه.

﴿١﴾ فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾؛ أي: اعملوا بمقتضى إيمانكم من ولاية من قام بالإيمان ومعاودة من عاداه؛ فإنه عدو لله وعدو للمؤمنين، ف ﴿لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تَلْقَوْنَ إِلَيْهِم بِالْمُودَةِ﴾؛ أي: تسارعون في مودتهم والسعي في أسبابها؛ فإن المودة إذا حصلت؛ تبعتهما النصر والموالاتة، فخرج العبد من الإيمان، وصار من جملة أهل الكفران وانفصل عن أهل الإيمان. وهذا المتخذ للكافر وليًا عادم المروءة أيضًا؛ فإنه كيف يوالي أعدى أعدائه، الذي لا يريد له إلا الشر، ويخالف ربه ووليه الذي يريد به الخير، ويأمره به ويحثه عليه. ومما يدعو المؤمن أيضًا إلى معاودة الكفار أنهم قد كفروا بما جاء المؤمنين من الحق، ولا أعظم

﴿٢٢﴾ هذه الآيات الكريمت قد اشتملت على كثير من أسماء الله الحسنى وأوصافه العلى؛ عظيمة الشأن، وبديعة البرهان. فأخبر أنه ﷻ: المألوه المعبود الذي ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾؛ وذلك لكمالته العظيم وإحسانه الشامل وتديره العام، وكل إله غيره؛ فإنه باطل لا يستحق من العبادة مثقال ذرة؛ لأنه فقير عاجز ناقص لا يملك لنفسه ولا لغيره شيئًا. ثم وصف نفسه بعموم العلم، الشامل لما غاب عن الخلق وما يشاهدونه. وبعموم رحمته، التي وسعت كل شيء، ووصلت إلى كل حي.

﴿٢٣﴾ ثم كرر ذكر عموم إلهيته وانفراده بها، وأنه المالك لجميع الممالك؛ فالعالم العلوي والسفلي وأهله، الجميع ممالك لله فقراء مدبرون. ﴿الْقُدُّوسُ أَسْلَمَ﴾؛ أي: المقدس السالم من كل عيب وآفة ونقص المعظم الممجّد؛ لأن القدوس يدل على التنزيه من كل نقص والتعظيم لله في أوصافه وجلاله. ﴿الْمُؤَيَّدُ﴾؛ أي: المصدق لرسله وأنبياؤه بما جاءوا به بالآيات البينات والبراهين القاطعات والحجج الواضحات. ﴿الْعَزِيزُ﴾: الذي لا يغالب ولا يمانع، بل قد قهر كل شيء، وخضع له كل شيء. ﴿الْجَبَّارُ﴾: الذي قهر جميع العباد، وأذعن له سائر الخلق، الذي يجبر الكبير ويغني الفقير. ﴿الْمُتَكَبِّرُ﴾: الذي له الكبرياء والعظمة، المتمتزة عن جميع العيوب والظلم والجور. ﴿سُبْحَنَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (٢٣). وهذا تنزيه عام عن كل ما وصفه به من أشرك به وعانده.

﴿٢٤﴾ ﴿هُوَ اللَّهُ الْخَلِيقُ﴾: لجميع المخلوقات. ﴿الْبَارِئُ﴾: للمبروءات. ﴿الْمُصَوِّرُ﴾: للمصورات. وهذه الأسماء متعلقة بالخلق والتدبير والتقدير، وأن ذلك كله قد انفراد الله به لم يشاركه فيه مشارك. ﴿لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾؛ أي: له الأسماء الكثيرة جدًا، التي لا يحصيها ولا يعلمها أحد إلا هو، ومع ذلك؛ فكلها حسنى؛ أي: صفات كمال، بل تدل على أكمل الصفات وأعظمها، لا نقص في شيء منها بوجه من الوجوه، ومن حسننها أن الله يحبها ويحب من يحبها ويحب من عباده أن يدعوه ويسألوه بها. ومن كماله وأن له الأسماء الحسنى والصفات العليا أن جميع من في السماوات والأرض مفتقرون إليه على الدوام؛ يسبحون بحمده، ويسألونه حوائجهم، فيعطيهم من فضله وكرمه ما تقتضيه رحمته وحكمته. ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (٢٤). الذي لا يريد

من هذه المخالفة والمشاقة؛ فإنهم قد كفروا بأصل دينكم، وزعموا أنكم ضلال على غير هدى، والحال أنهم كفروا بالحق الذي لا شك فيه ولا مرية، ومن رد الحق؛ فمحال أن يوجد له دليل أو حجة تدل على صحة قوله. بل مجرد العلم بالحق يدل على بطلان قول من رده وفساده.

ومن عداوتهم البليغة أنهم ﴿يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ﴾: أيها المؤمنون من دياركم ويشردونكم من أوطانكم ولا ذنب لكم في ذلك عندهم إلا أنكم تؤمنون ﴿بِاللَّهِ رَبِّكُمْ﴾: الذي يتعين على الخلق كلهم القيام بعبوديته؛ لأنه رباهم، وأنعم عليهم بالنعم الظاهرة والباطنة وهو الله تعالى، فلما أعرضوا عن هذا الأمر الذي هو أوجب الواجبات وقمت به؛ عادوكم وأخرجوكم من أجله من دياركم، فأى دين وأي مروءة وعقل يبقى مع العبد إذا وإلى الكفار الذين هذا وصفهم في كل زمان أو مكان، ولا يمنعه من ذلك خوف أو مانع قوي. ﴿إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَآيَاتِي مَرْضَاتِي﴾: أي: إن كنتم مقصودكم به الجهاد في سبيل الله لإعلاء كلمة الله وابتغاء رضاه؛ فاعملوا بمقتضى هذا من موالاة أولياء الله ومعاداة أعدائه؛ فإن هذا هو الجهاد في سبيله، ومن أعظم ما يتقرب به المتقربون إلى الله ويبتغون به رضاه.

﴿يُشِيرُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ﴾: أي:

كيف تسرون المودة للكافرين وتخفونها مع علمكم أن الله عالم بما تعلمون وما تعلنون؛ فهو وإن خفي على المؤمنين؛ فلا يخفى على الله تعالى، وسيجازي العباد بما يعلمه منهم من الخير والشر. ﴿وَمَنْ يَقَعْلَهُ مِنْكُمْ﴾: أي: موالاة الكافرين بعدما حذركم الله منها، ﴿فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾: لأنه سلك مسلكًا مخالفًا للشرع وللعقل والمروءة الإنسانية.

﴿ثُمَّ بَيْنَ تَعَالَى شِدَّةَ عداوتهم تهيجًا للمؤمنين على عداوتهم﴾: أي: يجدوكم وتسنع لهم الفرصة في إذاكم، ﴿يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً﴾: ظاهرين، ﴿وَيَسْطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ﴾: بالقتل والضرب ونحو ذلك، ﴿وَأَلْسِنَتُهُمْ بِالشُّوَءِ﴾: أي: بالقول الذي يسوء من شتم وغيره، ﴿وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ﴾: فإن هذا غاية ما يريدون منكم.

﴿فَإِنْ احْتَجَجْتُمْ قُلُوبَكُمْ﴾: نوالي الكفار لأجل القرابة والأموال؛ فلن تغني عنكم أموالكم ولا أولادكم من الله شيئًا ﴿وَاللَّهُ يَمَّا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾: فلذلك حذركم من موالاة الكافرين الذين تضركم موالاتهم.

﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ﴾: يا معشر المؤمنين، ﴿أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾: أي: قدوة صالحة واتمام ينفعكم ﴿فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾: من المؤمنين؛ لأنكم قد أمرتم أن تتبعوا ملة إبراهيم حنيفًا، ﴿إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءُكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾: أي: إذ تبرأ إبراهيم عليه السلام ومن معه من المؤمنين من قومهم المشركين ومما يعبدون من دُونِ الله، ثم صرحوا بعداوتهم غاية التصريح، فقالوا: ﴿كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا﴾: أي: ظهر وبان ﴿بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ﴾: أي: البغض بالقلوب وزوال مودتها والعداوة بالأبدان. وليس لتلك العداوة والبغضاء وقت ولا حد، بل ذلك ﴿أَبَدًا﴾ ما دمت مستمرين على كفركم، ﴿حَتَّى تَوْمِنُوا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ﴾: أي: فإذا أمتم بالله وحده؛ زالت العداوة والبغضاء وانقلبت مودة وولاية؛ فلكم أيها المؤمنون أسوة حسنة في إبراهيم ومن معه في القيام بالإيمان والتوحيد ولوازم ذلك ومقتضياته وفي كل شيء تعبدوا به لله وحده، ﴿إِلَّا﴾: في خصلة واحدة، وهي: ﴿قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ﴾: أزر المشرك الكافر المعاند حين دعاه إلى الإيمان والتوحيد، فامتنع، فقال

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ ءَوِيَّةً تَقُولُونَ
إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ
وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي
وَآيَاتِي مَرْضَاتِي يُشِيرُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ
وَمَا أَعْلَنْتُمْ وَمَنْ يَقَعْلَهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ۝ إِنْ
يَتَّقَوْكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَسْطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتُهُمْ
بِالشُّوَءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ ۝ لَنْ تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ
يَوْمَ الْقِيَمَةِ يَفْعَلُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ يَمَّا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ۝ قَدْ
كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ
إِنَّا بُرَءُكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا
وَبَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ ۝ إِلَّا
قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَا تُشْفِقَنَّ لَكَ وَمَا أَمَلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ۝
رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ۝ رَبَّنَا اجْعَلْنَا
فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَآخِرًا وَآخِرًا لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝

٥٤٩

سورة الممتحنة

سورة الممتحنة

إبراهيم له: ﴿لَا تَسْتَفِرَّنَّ لَكَ وَمَا﴾: الحال أنني لا ﴿أَمَلِكُ لَكَ مِنْ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾: ولكنني أدعو ربي ﴿عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا﴾ [مريم: ٤٨]، فليس لكم أن تقتدوا بإبراهيم في هذه الحالة التي دعا بها للمشرك، فليس لكم أن تدعوا للمشركين وتقولوا: إنا في ذلك متبعون لملة إبراهيم؛ فإن الله ذكر عذر إبراهيم في ذلك بقوله: ﴿وَمَا كَانَتْ أَسْتَغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا بَيَّنَّ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾ [التوبة: ١١٤] الآية، ولكم أسوة حسنة في إبراهيم ومن معه حين دعوا الله وتوكلوا عليه وأنابوا إليه واعترفوا بالعجز والتقصير، فقالوا: ﴿رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا﴾؛ أي: اعتمدنا عليك في جلب ما ينفعنا ودفع ما يضرنا ووثقنا بك يا ربنا في ذلك، ﴿وَالِإِيَّاكَ أَتَيْنَا﴾؛ أي: رجعنا إلى طاعتك ومرضاتك وجميع ما يقرب إليك؛ فحنن في ذلك ساعون، وبفعل الخيرات مجتهدون، ونعلم أنا إليك نصير، فسنستعد للقدوم عليك، ونعمل ما يقربنا الزلفى إليك.

﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾؛ أي: لا تسلطهم علينا بذنوبنا، فيفتنونا، ويمنعونا مما يقدرون عليه من أمور الإيمان، ويفتنون أيضاً بأنفسهم؛ فإنهم إذا رأوا لهم الغلبة؛ ظنوا أنهم على الحق وأنا على الباطل، فازدادوا كفراً وطمعاً، ﴿وَأَغْفِرْ لَنَا﴾: ما اقترفنا من الذنوب والسيئات وما قصرنا به من المأمورات. ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْغَفُورُ﴾: القاهر لكل شيء. ﴿الْحَكِيمُ﴾: الذي يضع الأشياء مواضعها؛ فبعزتك وحكمتك انصرننا على أعدائنا، واغفر لنا ذنوبنا، وأصلح عيوبنا.

﴿ثُمَّ كَرَّرَ الْحَثَّ لَهُمْ عَلَى الْاِقْتِدَاءِ بِهِمْ وَقَالَ: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾: وليس كل أحد تسهل عليه هذه الأسوة، وإنما تسهل على من ﴿كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ﴾: فإن الإيمان واحتساب الأجر والثواب يسهل على العبد كل عسير، ويقلل لديه كل كثير، ويوجب له الإكثار من الاقتداء بعباد الله الصالحين والأنبياء والمرسلين؛ فإنه يرى نفسه مفتقراً ومضطراً إلى ذلك غاية الاضطراب، ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّ﴾: عن طاعة الله والتأسي برسول الله؛ فلن يضر إلا نفسه، ولا يضر الله شيئاً، ﴿فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفِيُّ﴾: الذي له الغنى التام المطلق من جميع الوجوه؛ فلا يحتاج إلى أحد من خلقه بوجه. ﴿الْحَمِيدُ﴾: في ذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله؛ فإنه محمود على ذلك كله.

﴿ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى أَنَّ هَذِهِ الْعِدَاوَةَ الَّتِي أَمَرَ اللَّهُ بِهَا الْمُؤْمِنِينَ لِلْمُشْرِكِينَ وَوَصَفَهُمْ بِالْقِيَامِ بِهَا؛ أَنَّهُمْ مَا دَامُوا عَلَى شُرْكِهِمْ وَكَفَرِهِمْ، وَأَنَّهُمْ إِنْ انْتَقَلُوا إِلَى الْإِيمَانِ؛ فَإِنَّ الْحَكْمَ يَدُورُ مَعَ عِلَّتِهِ، وَالْمُودَّةُ الْإِيمَانِيَّةُ تَرْجِعُ؛ فَلَا تَيَاسُوا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ مِنْ رَجُوعِهِمْ إِلَى الْإِيمَانِ؛ فَ﴿عَسَىٰ اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُمْ مِنْهُمْ مَوْدَةً﴾: سببها رجوعهم إلى الإيمان. ﴿وَاللَّهُ قَدِيرٌ﴾: على كل شيء، ومن ذلك هداية القلوب وتقليبها من حال إلى حال. ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾: لا يتعاضمه ذنب أن يغفره ولا يكبر عليه عيب أن يستره، ﴿قُلْ يَحِبِّدَائِ الَّذِينَ آمَنُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣]. وفي هذه الآية إشارة وبشارة بإسلام بعض المشركين، الذين كانوا إذ ذاك أعداء للمؤمنين، وقد وقع ذلك، ولله الحمد والمنة.

﴿وَلَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَاتُ الْكَرِيمَاتُ الْمَهِيْجَةُ عَلَى عِدَاوَةِ الْكَافِرِينَ؛ وَقَعَتْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ كُلِّ مَوْقِعٍ، وَقَامُوا بِهَا أَتَمَّ

القيام، وتأثموا من صلة بعض أقاربهم المشركين، وظنوا أن ذلك داخل فيما نهى الله عنه، فأخبرهم الله أن ذلك لا يدخل في المحرم، فقال: ﴿لَا يَنْهَكُكُمْ اللَّهُ عَنْ الَّذِينَ لَمْ يُقِيلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِينِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ ﴿٩﴾؛ أي: لا ينهاكم الله عن البر والصلة والمكافأة بالمعروف والقسط للمشركين من أقاربكم وغيرهم؛ حيث كانوا بحال لم يتصبوا لقتالكم في الدين والإخراج من دياركم؛ فليس عليكم جناح أن تصلوهم؛ فإن صلتهم في هذه الحالة لا محذور فيها ولا مفسدة؛ كما قال تعالى في الأيوين الكافرين إذا كان ولدتهما مسلمًا: ﴿وَإِنْ جَاهِدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبُهُمَا فِي الدِّينِ مَعْرُوفٌ﴾ [لقمان: ١٥].

﴿٩﴾ وقوله: ﴿إِنَّمَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ﴾؛ أي: لأجل دينكم؛ عداوة لدين الله ولمن قام به، ﴿وَأَخْرَجُكُمْ مِنْ دِينِكُمْ وَظَاهَرُوا بِكُمْ﴾؛ أي: عاونوا غيرهم ﴿عَلَى إِخْرَاجِكُمْ﴾؛ نهاكم الله ﴿أَنْ تَوَلَّوْهُمْ﴾؛ بالنصرة والمودة بالقول والفعل، وأما بركم وإحسانكم الذي ليس بتولٍّ للمشركين؛ فلم ينهكم الله عنه، بل ذلك داخل في عموم الأمر بالإحسان إلى الأقارب وغيرهم من الأدميين وغيرهم، ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ﴾ منكم ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ ﴿٩﴾؛ وذلك الظلم يكون بحسب التولي؛ فإن كان توليًا تامًّا؛ صار ذلك كفرًا مخرجًا عن دائرة الإسلام وتحت ذلك من المراتب ما هو غليظ وما هو دونه.

﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا جَاءَكُمْ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ﴾ إلى قوله: ﴿وَأَنْفَقُوا اللَّهُ أَلَيْسَ أَنْتُمْ بِهٖ مُؤْمِنُونَ﴾ ﴿١١﴾.

﴿١١﴾ لما كان صلح الحديبية؛ صالح النبي ﷺ المشركين على أن من جاء منهم إلى المسلمين مسلمًا؛ أنه يرد إلى المشركين، وكان هذا لفظًا عامًا مطلقًا يدخل في عمومه النساء والرجال، فأما الرجال؛ فإن الله لم ينه رسوله عن ردهم إلى الكفار وفاء بالشرط وتتميمًا للصلح الذي هو من أكبر المصالح، وأما النساء؛ فلما كان ردهن فيه مفسد كثيرة؛ أمر المؤمنين إذا جاءهم ﴿الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ﴾؛ وشكوا في صدق إيمانهن أن يمتحنوهن ويختبروهن بما يظهر به من صدقهن من أيمان مغلظة وغيرها؛ فإنه يحتمل أن يكون إيمانها غير صادق، بل رغبة في زوج أو بلد أو غير ذلك من المقاصد الدنيوية؛ فإن كن بهذا الوصف؛

تعين ردهن وفاء بالشرط من غير حصول مفسدة؛ وإن امتحنوهن فوجدن صادقات، أو علموا ذلك منهن من غير امتحان؛ فلا يرجعوهن إلى الكفار. ﴿لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لِهِنَّ﴾؛ فهذه مفسدة كبيرة في ردهن راعاها الشارع وراعى أيضًا الوفاء بالشرط؛ بأن يعطوا الكفار أزواجهن ما أنفقوا عليهن من المهر وتوابعه عوضًا عنهن، ولا جناح حينئذ على المسلمين أن ينكحوهن، ولو كان لهن أزواج في دار الشرك، ولكن بشرط أن يتوهرن أجورهن من المهر والنفقة، وكما أن المسلمة لا تحل للكافر؛ فكذلك الكافرة لا تحل للمسلم أن يمسكها ما دامت على كفرها؛ غير أهل الكتاب، ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَا تُنكِسُوا بِعَصِمِ الْكَافِرِ﴾. وإذا نهى عن الإمساك بعصمتها؛ فالنهي عن ابتداء تزويجها أولى، ﴿وَسَتَلَوْا مَا أَنْفَقْتُمْ﴾؛ أيها المؤمنون حين ترجع زوجاتكم مرتدات إلى الكفار؛ فإذا كان الكفار يأخذون من المسلمين نفقة من أسلمت من نسائهم؛ استحق المسلمون أن يأخذوا مقابلة ما ذهب من زوجاتهم إلى الكفار.

وفي هذا دليل على أن خروج البضع من الزوج مقنوم؛ فإذا أفسد مفسدًا نكاح امرأة رجل برضاع أو غيره؛ كان عليه ضمان المهر.

وقوله: ﴿ذَلِكُمْ﴾؛ الحكم الذي ذكره الله وبينه لكم يحكم به بينكم. ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ ﴿١٢﴾؛ فيعلم تعالى ما يصلح لكم من الأحكام، فيشرعه بحسب حكمته ورحمته.

﴿١١﴾ وقوله: ﴿وَإِنْ فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ﴾؛ بأن ذهبن مرتدات، ﴿فَعَايَنْتُمْ قَنَاتِ الدِّينِ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُمْ نِثْلَ مَا أَنْفَقُوا﴾؛ كما تقدم أن الكفار إذا كانوا يأخذون بدل ما يفوت من أزواجهن إلى المسلمين؛ فمن ذهبت زوجته من المسلمين إلى الكفار، وفاتت عليه؛ فعلى المسلمين أن يعطوه من الغنيمة بدل ما أنفق. ﴿وَأَنْفَقُوا اللَّهُ أَلَيْسَ أَنْتُمْ بِهٖ مُؤْمِنُونَ﴾ ﴿١١﴾؛ فإيمانكم بالله يقتضي منكم أن تكونوا ملازمين للتقوى على الدوام.

﴿يَتَأَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ﴾ إلى قوله: ﴿عَفْوٌ رَحِيمٌ﴾ ﴿١٢﴾.

﴿١٢﴾ هذه الشروط المذكورة في هذه الآية تسمى مبايعة النساء، اللاتي كن يبايعن على إقامة الواجبات المشتركة التي تجب على الذكور والنساء في جميع الأوقات، وأما الرجال؛ فيتفاوت ما يلزمهم بحسب أحوالهم ومراتبهم وما يتعين

عليهم، فكان النبي ﷺ يمثل ما أمره الله به، فكان إذا جاءته النساء يبأيعنّه والتزمن بهذه الشروط؛ بأيعن وجبر قلوبهن، واستغفر لهن الله فيما يحصل منهن من التقصير وأدخلهن في جملة المؤمنين، ﴿عَلَى أَنْ لَا يُشْرَكَ بِاللَّهِ شَيْئًا﴾: بأن يفردن الله وحده بالعبادة، ﴿وَلَا يَقْتُلَنَّ أَوْلَادَهُنَّ﴾: كما يجري لنساء الجاهلية الجاهلاء، ﴿وَلَا يَزْنِينَ﴾: كما كان ذلك موجودًا كثيرًا في البغايا وذوات الأخدان، ﴿وَلَا يَأْتِينَ بِمُتَهَنِّتٍ بِفَتْرَتِهِ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ﴾: والبهتان الافتراء على الغير؛ أي: لا يفترين بكل حالة، سواء تعلقت بهن مع أزواجهن أو تعلق ذلك بغيرهم، ﴿وَلَا يَعْقِبَنَّ فِي مَعْرُوفٍ﴾: أي: لا يعصينك في كل أمر تأمرهن به؛ لأن أمرك لا يكون إلا بمعروف، ومن ذلك طاعتهن لك في النهي عن النجاسة وشق الجيوب وخمش الوجوه والدعاء بدعوى الجاهلية، ﴿فَبَايَعَهُنَّ﴾: إذا التزمن بجميع ما ذكر، ﴿وَأَسْتَغْفِرُ لَكُمْ اللَّهَ﴾: عن تقصيرهن وتطبيعًا لخواطرهن. ﴿إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ﴾: أي: كثير المغفرة للعاصين والإحسان إلى المذنبين التائبين. ﴿رَحِيمٌ﴾: وسعت رحمته كل شيء وعم إحسانه البرايا.

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا مِنَ الْآخِرَةِ كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ﴾.

﴿١٣﴾ أي: يا أيها المؤمنون إن كنتم مؤمنين بربكم، ومتبعين لرضاه، ومجانين لسخطه، ﴿لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾: وإنما غضب عليهم لكفرهم، وهذا شامل لجميع أصناف الكفار، ﴿قَدْ يَئِسُوا مِنَ الْآخِرَةِ﴾: أي: قد حرموا من خير الآخرة، فليس لهم منها نصيب؛ فاحذروا أن تتولوهم فتوافقوهم على شرهم وشركم، فتحرموا خير الآخرة كما حرموا. وقوله: ﴿كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ﴾: حين أفضوا إلى الدار الآخرة، وشاهدوا حقيقة الأمر، وعلموا علم اليقين أنهم لا نصيب لهم منها.

ويحتمل أن المعنى: قد يشؤا من الآخرة؛ أي: قد أنكروها وكفروا بها؛ فلا يستغرب حينئذ منهم الإقدام على مساخط الله وموجبات عذابه، وإياهم من الآخرة كما يش الكفار المنكرون للبعث في الدنيا من رجوع أصحاب القبور إلى الله تعالى.

تم تفسير سورة الممتحنة، والحمد لله رب العالمين.



تفسير سورة الصف

وهي مدنية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿سَبِّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ ١ ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَمْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ ٢ ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ ٣

يَأْتِيهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يَبَايِعُكَ عَلَى أَنْ لَا يُشْرَكَكَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَتَرَفَقَنَّ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلَنَّ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِمُتَهَنِّتٍ بِفَتْرَتِهِ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْقِبَنَّ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايَعَهُنَّ وَأَسْتَغْفِرُ لَكُمْ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٣﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا مِنَ الْآخِرَةِ كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ ﴿١٤﴾

سُورَةُ الصَّفِّ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سَبِّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَمْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٢﴾ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقْتُلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنْيَنٌ مَرْصُوعٌ ﴿٤﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يُقُولُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٥﴾ تَوَدُّونَنِي وَقَدْ تَعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٦﴾

الذي إحسانه إلى الخلق فوق كل إحسان بعد إحسان الله؛ ففي غاية الوقاحة والجراءة والزيغ عن الصراط المستقيم، الذي قد علموه وتركوه، ولهذا قال: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ﴾؛ أي: انصرفوا عن الحق بقصدهم، ﴿أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾: عقوبة لهم على زيغهم الذي اختاروه لأنفسهم ورضوه لها، ولم يوفقهم الله للهدى؛ لأنهم لا يليق بهم الخير ولا يصلحون إلا للشر. ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾؛ أي: الذين لم يزل الفسق وصفًا لهم، ليس لهم قصد في الهدى. وهذه الآية الكريمة تفيد أن إضلال الله لعبيده ليس ظلمًا منه ولا حجة لهم عليه، وإنما ذلك بسبب منهم؛ فإنهم الذين أغلقوا على أنفسهم باب الهدى بعدما عرفوه، فيجازيهم بعد ذلك بالإضلال والزيغ وتقلب القلوب عقوبة لهم وعدلًا منه بهم؛ كما قال تعالى: ﴿وَنَقَلْنَاهُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَدَرْنَاهُمْ فِي طُعْنِهِمْ يَعْصُونَ﴾ ﴿[الأنعام: ١١٠]﴾.

﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ﴾ إلى قوله: ﴿وَلَوْ كَرِهَ الشُّرَكَاءُ﴾.

يقول تعالى مخبرًا عن عناد بني إسرائيل المتقدمين الذين دعاهم عيسى ابن مريم وقال لهم: ﴿يَبْنَى إِسْرَءِيلَ﴾ إلى رسول الله ﷺ؛ أي: أرسلني الله لأدعوكم إلى الخير وأنهاكم عن الشر، وأيدني بالبراهين الظاهرة، ومما يدل على صدقي كوني ﴿مُصَدِّقًا لِّبَيْنِ دَاوُدَ بْنِ النَّبِيِّ﴾؛ أي: جئت بما جاء به موسى من التوراة والشرائع السماوية، ولو كنت مدع للنبوّة؛ لجئت بغير ما جاء به المرسلون، و﴿مُصَدِّقًا لِّبَيْنِ دَاوُدَ بْنِ النَّبِيِّ﴾: أيضًا أنها أخبرت بي وبشرت، فجئت وبُعِثت مصدقًا لها، ﴿وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾: وهو محمد بن عبد الله بن عبد المطلب النبي الهاشمي؛ فعيسى عليه الصلاة والسلام كسائر الأنبياء؛ يصدق بالنبي السابق، ويبشر بالنبي اللاحق؛ بخلاف الكذابين؛ فإنهم يناقضون الأنبياء أشد مناقضة، ويخالفونهم في الأوصاف والأخلاق والأمر والنهي، ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ﴾: محمد ﷺ الذي بشر به عيسى ﴿بِالْبَيِّنَاتِ﴾؛ أي: الأدلة الواضحة الدالة على أنه هو، وأنه رسول الله حقًا، ﴿قَالُوا﴾: معاندين للحق مكذبين له: ﴿هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾. وهذا من أعجب العجائب، الرسول الذي قد وضحت رسالته وصارت أبين من شمس النهار؛ يجعل ساحرًا بينًا سحره؛ فهل في الخذلان أعظم من هذا؟! وهل في الافتراء أبلغ من هذا الافتراء الذي نفى عنه ما كان معلومًا من رسالته وأثبت له ما كان أبعد الناس عنه؟!

وهذا بيان لعظمته تعالى وقهره وذل جميع الأشياء له تبارك وتعالى وأن جميع من في السماوات والأرض يسبحون بحمد ربهم ويعبدونه ويسألونه حوائجهم. ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾: الذي قهر الأشياء بعزته وسلطانه. ﴿الْحَكِيمُ﴾: في خلقه وأمره.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَعْمَلُونَ﴾؛ أي: لم تقولون الخير وتحشون عليه، وربما تمدحتم به وأنتم لا تفعلونه، وتتهون عن الشر، وربما نزهتم أنفسكم عنه وأنتم متلوثون متصفون به؛ فهل تليق بالمؤمنين هذه الحالة الذميمة؟! أم من أكبر المقت عند الله أن يقول العبد ما لا يفعل؟! ولهذا ينبغي للأمر بالخير أن يكون أول الناس إليه مبادرة، والناهي عن الشر أن يكون أبعد الناس عنه؛ قال تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْهَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَكُنْتُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ ﴿[البقرة: ٤٤]﴾، وقال شعيب عليه السلام لقومه: ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَمْلِكَكُمْ إِلَى مَا أَنْتُمْ كُنْتُمْ عَلَيْهِ﴾ ﴿[هود: ٨٨]﴾.

﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقْنَلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًا كَانَهُمْ بَيْنَ مَرْصُوصٍ﴾.

هذا حث من الله لعباده على الجهاد في سبيله، وتعليم لهم كيف يصنعون، وأنهم ينبغي لهم أن يصفوا في الجهاد صفًا مترصًا متساويًا من غير خلل يقع في الصفوف، وتكون صفوفهم على نظام وترتيب به تحصل المساواة بين المجاهدين والتعاقد وإرهاب العدو وتنشيط بعضهم بعضًا، ولهذا كان النبي ﷺ إذا حضر القتال؛ صف أصحابه ورتبهم في مواقعهم بحيث لا يحصل انكال بعضهم على بعض، بل تكون كل طائفة منهم مهمة بمركزها وقائمة بوظيفتها، وبهذه الطريقة تتم الأعمال ويحصل الكمال.

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَتَقَوَّمُوا لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَدْ تَعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ فَلَمَّا رَأَوْهُ أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾.

﴿ي:﴾ أي: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ﴾: موبخًا لهم على صنيعهم، ومقرعًا لهم على أذيتهم، وهم يعلمون أنه رسول الله: ﴿لِمَ تُؤْذُونَنِي﴾: بالأقوال والأفعال، ﴿وَقَدْ تَعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ﴾: والرسول من حقه الإكرام والإعظام والقيام بأوامره والابتدار لحكمه، وأما أذية الرسول

والفرح، ﴿وَفَتْحَ قَرِيبٌ﴾: تتسع به دائرة الإسلام، ويحصل به الرزق الواسع؛ فهذا جزاء المؤمنين المجاهدين، وأما المؤمنون من غير أهل الجهاد إذا قام غيرهم بالجهاد؛ فلم يؤسهم الله تعالى من فضله وإحسانه، بل قال: ﴿وَيُزَيِّرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾؛ أي: بالثواب العاجل والآجل؛ كل على حسب إيمانه، وإن كانوا لا يبلغون مبلغ المجاهدين في سبيل الله؛ كما قال النبي ﷺ: «من رضي بالله رباً، وبالإسلام ديناً، وبمحمد رسولاً؛ وجبت له الجنة». فعجب لها أبو سعيد الخدري راوي الحديث، فقال: أعدها عليّ يا رسول الله! فأعادها عليه، ثم قال: «وأخرى يُرفع بها العبد مائة درجة في الجنة، ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض». فقال: وما هي يا رسول الله؟ قال: «الجهاد في سبيل الله، الجهاد في سبيل الله». رواه مسلم^(١).

﴿ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا أَنصَارَ اللَّهِ﴾﴾؛ أي: بالاقوال والأفعال، وذلك بالقيام بدين الله، والحرص على تنفيذه على الغير وجهاد من عانده وناذبه بالأبدان والأموال، ومن نصر الباطل بما يزعمه من العلم، ورد الحق بدحض حجته وإقامة الحجة عليه والتحذير منه، ومن نصر دين الله تعلم كتاب الله وسنة رسوله [وتعليمه] والحث على ذلك والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

ثم هيج الله المؤمنين بالاعتداء بمن قبلهم من الصالحين بقوله: ﴿كَأَنَّ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِّلْحَوَارِيِّينَ مَن أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ﴾؛ أي: قال لهم عارضاً ومنهضاً: من يعاونني ويقوم معي في نصر دين الله ويدخل مدخلي ويخرج مخرجي؟ فابتدر الحواريون فقالوا: ﴿نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ﴾: فمضى عيسى عليه السلام على أمر الله ونصر دين الله هو ومن معه من الحواريين، ﴿فَنَامَتِ طَائِفَةٌ مِّنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾: بسبب دعوة عيسى والحواريين، ﴿وَكَثُرَتِ طَائِفَةٌ﴾: منهم، فلم يتقادوا لدعوتهم، فجاهد المؤمنون الكافرين، ﴿فَأَيَّدُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا عَلَىٰ عُدُوِّهِمْ﴾؛ أي: قويناهم ونصرناهم عليهم، ﴿فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ﴾؛ أي: عليهم، وقاهرين لهم. فأنتم يا أمة محمد! كونوا أنصار الله ودعاة دينه، ينصركم الله كما نصر من قبلكم، ويظهركم على عدوكم.

تم تفسيرها. والحمد لله رب العالمين.



ما تيسر من أموالكم في ذلك المطلوب؛ فإن ذلك وإن كان كريهاً للنفوس شاقاً عليها؛ فإنه ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾؛ فإن فيه الخير الدنيوي من النصر على الأعداء والعز المنافي للذل والرزق الواسع وسعة الصدر واتساحه، والخير الآخروي بالفوز بثواب الله والنجاة من عقابه.

﴿ثُمَّ ذَكَرَ الْجَزَاءَ فِي الْآخِرَةِ فَقَالَ: ﴿يَتَّقِرْ لَكُمْ دُونُكُمْ﴾﴾: وهو شامل للصغائر والكبائر؛ فإن الإيمان بالله والجهاد في سبيله مكفر للذنوب، ولو كانت كبائر، ﴿وَيَذِّكُرُ جَنَّتْ تَجْرَىٰ مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾؛ أي: من تحت مساكنها وقصورها وغرفها وأشجارها أنهار من ماء غير آسن وأنهار من لبن لم يتغير طعمه وأنهار من خمر لذة للشاربين وأنهار من عسل مصفى ولهم فيها من كل الثمرات، ﴿وَمَسْكَنٌ ظَنَبَةٌ فِي جَنَّتِ عَدْنٍ﴾؛ أي: جمعت كل طيب من علو وارتفاع وحسن بناء وزخرفة، حتى إن أهل الغرف من أهل عليين يتراءهم أهل الجنة كما يتراءى الكوكب اللدي في الأفق الشرقي أو الغربي، وحتى إن بناء الجنة بعضه من لبن ذهب وبعضه من لبن فضة، وخيامها من اللؤلؤ والمرجان، وبعض المنازل من الزمرد والجواهر الملونة بأحسن الألوان، حتى إنها من صفاتها يرى ظاهرها من باطنها وباطنها من ظاهرها، وفيها من الطيب والحسن ما لا يأتي عليه وصف الواصفين ولا خطر على قلب أحد من العالمين، لا يمكن أن يدركوه حتى يروه ويتمتعوا بحسنه، وتقربه أعينهم.

ففي تلك الحالة لولا أن الله خلق أهل الجنة وأنشأهم نشأة كاملة لا تقبل العدم؛ لأشك أن يموتوا من الفرح؛ فسبحان من لا يحصي أحد من خلقه ثناء عليه، بل هو كما أثنى على نفسه، وفوق ما يشئ عليه أحد من خلقه، وتبارك الجليل الجميل، الذي أنشأ دار النعيم، وجعل فيها من الجلال والجمال ما يبهر عقول الخلق ويأخذ بأفئدتهم، وتعالى من له الحكمة التامة، الذي من جملتها أنه لو أرى العباد الجنة حين خلقها ونظروا إلى ما فيها من النعيم؛ لما تخلف عنها أحد، ولما هناهم العيش في هذه الدار المنغصة المشوب نعيمها بألمها وفرحها بترحها. وسميت الجنة جنة عدن؛ لأن أهلها مقيمون فيها، لا يخرجون منها أبداً، ولا ييغون عنها حولاً. ذلك الثواب الجزيل والأجر الجميل هو الفوز العظيم الذي لا فوز مثله؛ فهذا الثواب الآخروي.

﴿ثُمَّ وَأَمَّا الثَّوَابُ الدُّنْيَوِيُّ لِهَذِهِ التِّجَارَةِ؛ فَذَكَرَهُ بِقَوْلِهِ: ﴿وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا﴾﴾؛ أي: ويحصل لكم خصلة أخرى تحبونها، وهي: ﴿تَصَرُّونَ إِلَى اللَّهِ﴾: لكم على الأعداء، يحصل به العز

تفسير سورة الجمعة

وهي مدنية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلَائِكَةُ الْقُدُّوسُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾

﴿١﴾ ﴿الْمَلَائِكَةُ الْقُدُّوسُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾؛ أي: يسبح لله وينقاد لأمره ويتأله ويعبده جميع ما في السماوات والأرض؛ لأنه الكامل الملك، الذي له ملك العالم العلوي والسفلي؛ فالجميع ممالئكه وتحت تدبيره. القدوس المعظم المتزه عن كل آفة ونقص. العزيز القاهر للأشياء كلها. الحكيم في خلقه وأمره؛ فهذه الأوصاف العظيمة تدعو إلى عبادة الله وحده لا شريك له.

﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيَّةِ رُسُلًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ لَيْلٍ ضَلُّوا ضَلِيلًا﴾

﴿٢﴾ ﴿وَأَخْرَجَ مِنْهُمْ لِمَا يُلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾

﴿٣﴾ ﴿وَالَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيَّةِ رُسُلًا﴾: المراد بالأميين الذين لا كتاب عندهم ولا أثر رسالة من العرب وغيرهم ممن ليسوا من أهل الكتاب، فامتن الله تعالى عليهم منة عظيمة أعظم من منته على غيرهم؛ لأنهم عادمون للعلم والخير، وكانوا في ﴿ضَلُّوا ضَلِيلًا﴾ يتعبدون للأصنام والأشجار والأحجار، ويتخلقون بأخلاق السباع الضارية، يأكل قوبهم ضعيفهم، وقد كانوا في غاية الجهل بعلوم الأنبياء، فبعث الله فيهم رسولاً منهم يعرفون نسبه وأوصافه الجميلة وصدقه، وأنزل عليه كتابه، ﴿يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ﴾: القاطعة الموجبة للإيمان واليقين، ﴿وَزَكِّيهِمْ﴾: بأن يفصل لهم الأخلاق الفاضلة ويحثهم عليها ويزجرهم عن الأخلاق الرذيلة، ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾؛ أي: علم الكتاب والسنة، المشتمل على علوم الأولين والآخرين، فكانوا بعد هذا التعليم والتزكية من أعلم الخلق، بل كانوا أئمة أهل العلم والدين وأكمل الخلق أخلاقاً وأحسنهم هدياً وسمتاً، اهتموا بأنفسهم، وهدوا غيرهم، فصاروا أئمة المهتدين وقادة المتقين، فله تعالى عليهم بيعة هذا الرسول أكمل نعمة وأجل منحة.

﴿٤﴾ وقوله: ﴿وَأَخْرَجَ مِنْهُمْ لِمَا يُلْحَقُوا بِهِمْ﴾؛ أي: وامتن على آخرين من غيرهم، أي: من غير الأميين ممن يأتي بعدهم ومن أهل الكتاب ﴿لِمَا يُلْحَقُوا بِهِمْ﴾؛ أي: فيمن باشر دعوة الرسول؛ يحتمل أنهم لما يلحقوا بهم في الفضل، ويحتمل أن يكونوا لما يلحقوا بهم في الزمان، وعلى كل؛ فكلما المعنيين صحيح؛ فإن الذين بعث الله فيهم رسوله وشاهدوه وباشروا دعوته حصل لهم من الخصائص والفضائل ما لا يمكن أحداً أن يلحقهم فيها.

﴿٥﴾ وهذا من عزته وحكمته؛ حيث لم يترك عباده هملاً ولا سدى، بل ابعت فيهم الرسل وأمرهم ونهاهم، وذلك من فضل الله العظيم الذي يؤتبه من يشاء من عباده، وهو أفضل من نعمته عليهم بعافية البدن وسعة الرزق وغير ذلك من النعم الدنيوية؛ فلا أفضل من نعمة الدين التي هي مادة الفوز والسعادة الأبدية.

﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِلُوا الثَّوْنَةُ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا﴾ إلى قوله: ﴿فَيَنْفِقُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾

سورة الجمعة

سورة الجمعة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلَائِكَةُ الْقُدُّوسُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١﴾ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيَّةِ رُسُلًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ لَيْلٍ ضَلُّوا ضَلِيلًا ﴿٢﴾ وَأَخْرَجَ مِنْهُمْ لِمَا يُلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٣﴾ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٤﴾ مَثَلُ الَّذِينَ حُمِلُوا الثَّوْنَةُ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٥﴾ قُلْ يَأَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنْكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَتَّعُوا بِالْمَوْتِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٦﴾ وَلَا تَسْمُنُوهُ أَتَدَّيِمُونَ أَيْدِيَهُمْ وَأَلَّهِ عَلَيْهِمُ الْبَاطِلُ لِيُظْلِمِينَ ﴿٧﴾ قُلْ إِنْ أَلْمَزْتُمْ آلَ الَّذِينَ يُبْعَثُونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ يَمْلِكُكُمْ تُمُوتُونَ إِنْ عَصَيْتُمْ أَمْرًا وَأَلَّهِ عَلَيْهِمُ الْبَاطِلُ لِيُظْلِمِينَ ﴿٨﴾

٥٥٣

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ﴾ إلى آخر السورة.

﴿٩﴾ يأمر تعالى عباده المؤمنين بالحضور لصلاة الجمعة والمبادرة إليها من حين ينادى لها والسعي إليها، والمراد بالسعي هنا المبادرة إليها والاهتمام لها وجعلها أهم الأشغال، لا العدو الذي قد نهى عنه عند المضي إلى الصلاة. وقوله: ﴿وَذَرُوا الْبَيْعَ﴾ أي: اتركوا البيع إذا نودي للصلاة وامضوا إليها؛ فإن ﴿ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾: من اشتغالكم بالبيع، أو تفويتكم الصلاة الفريضة التي هي من أكّد الفروض ﴿إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾: أن ما عند الله خير وأبقى، وأن من آثر الدنيا على الدين؛ فقد خسر الخسارة الحقيقية؛ من حيث يظن أنه يربح.

﴿١٠﴾ وهذا الأمر بترك البيع مؤقت مدة الصلاة؛ ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ﴾: لطلب المكاسب والتجارات، ولما كان الاشتغال بالتجارة مظنة الغفلة عن ذكر الله؛ أمر الله بالإكثار من ذكره؛ لينجبر بهذا؛ فقال: ﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا﴾؛ أي: في حال قيامكم وقعودكم وعلى جنوبكم، ﴿لَعَلَّكُمْ تَفْلَحُونَ﴾: فإن الإكثار من ذكر الله أكبر أسباب الفلاح.

﴿١١﴾ ﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا﴾؛ أي: خرجوا من المسجد حرصاً على ذلك اللهو وتلك التجارة وتركوا الخير، ﴿وَتَرَكُوا قُلُوبَهُمْ﴾: تخطب الناس، وذلك في يوم الجمعة، بينما النبي ﷺ يخطب الناس؛ إذ قدم المدينة غير تحمل تجارة، فلما سمع الناس بها وهم في المسجد؛ انفضوا من المسجد، وتركوا النبي ﷺ يخطب استعجالاً لما لا ينبغي أن يستعجل له وترك أدب، ﴿قُلْ مَا عِنْدَ اللَّهِ﴾: من الأجر والثواب لمن لازم الخير وصبر نفسه على عبادة الله، ﴿خَيْرٌ مِنَ اللَّهِوَمِنْ الْبَاطِلِ﴾: التي وإن حصل منها بعض المقاصد؛ فإن ذلك قليل مُنْقَضٍ، مفوت لخير الآخرة، وليس الصبر على طاعة الله مفوتاً للرزق؛ ﴿وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّزُقِينَ﴾: فمن اتقى الله؛ رزقه من حيث لا يحتسب.

وفي هذه الآيات فوائد عديدة:

منها: أن الجمعة فريضة على جميع المؤمنين يجب عليهم السعي إليها والمبادرة والاهتمام بشأنها.

ومنها: أن الخطبتين يوم الجمعة فريضتان يجب حضورهما؛

﴿٢﴾ لما ذكر تعالى منته على هذه الأمة الذين بعث فيهم النبي الأمي وما خصهم الله به من المزايا والمناقب التي لا يلحقهم فيها أحد، وهم الأمة الأمية، الذين فاقوا الأولين والآخرين، حتى أهل الكتاب الذين يزعمون أنهم العلماء الربانيون والأحبار المتقدمون؛ ذكر أن الذين حملهم الله التوراة من اليهود وكذا النصارى وأمرهم أن يتعلموها ويعملوا بما فيها وأنهم لم يحملوها ولم يقوموا بما حملوا به؛ أنهم لا فضيلة لهم، وأن مثلهم كمثّل الحمار الذي يحمل فوق ظهره أسفاراً من كتب العلم؛ فهل يستفيد ذلك الحمار من تلك الكتب التي فوق ظهره؟! وهل تلحقه فضيلة بسبب ذلك؟! أم حظه منها حملها فقط؟ فهذا مثل علماء اليهود، الذين لم يعملوا بما في التوراة الذي من أجله وأعطاه الأمر باتباع محمد ﷺ والبشارة به والإيمان بما جاء به من القرآن؛ فهل استفاد من هذا وصفه من التوراة إلا الخيبة والخسران وإقامة الحجة عليه؛ فهذا المثل مطابق لأحوالهم. ﴿يَسْأَلُ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ الدالة على صدق رسولنا وصدق ما جاء به ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾؛ أي: لا يرشدهم إلى مصالحهم ما دام الظلم لهم وصفاً والعناد لهم نعتاً.

﴿٣﴾ ومن ظلم اليهود وعنادهم أنهم يعلمون أنهم على باطل ويزعمون أنهم على حق، وأنهم أولياء لله من دون الناس! ولهذا أمر الله رسوله أن يقول لهم: إن كنتم صادقين في زعمكم أنكم على الحق وأولياء الله؛ ﴿فَتَسَوُّوا الْمَوْتَ﴾: وهذا أمر خفيف؛ فإنهم لو علموا أنهم على حق؛ لما توقفوا عن هذا التحدي الذي جعله الله دليلاً على صدقهم إن تمنوه وكذبهم إن لم يتمنوه.

﴿٤﴾ ولما لم يقع منهم مع الإعلان لهم بذلك؛ علم أنهم عالمون ببطلان ما هم عليه وفساده، ولهذا قال: ﴿وَلَا يَتَّقُونَهُ أَبَدًا بِمَا قَدِمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾؛ أي: من الذنوب والمعاصي التي يستوحشون من الموت من أجلها، ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾: فلا يمكن أن يخفى عليه من ظلمهم شيء.

﴿٥﴾ هذا؛ وإن كانوا لا يتمنون الموت بما قدمت أيديهم، بل يفرون منه غاية الفرار؛ فإن ذلك لا ينجيهم، بل لا بد أن يلاقى الموت الذي قد حتمه الله على العباد وكتبه عليهم، ثم بعد الموت واستكمال الأجال يرد الخلق كلهم يوم القيامة إلى عالم الغيب والشهادة، فينبئهم بما كانوا يعملون من خير وشر قليل وكثير.

لأنه فسر الذكر هنا بالخطبتين، فأمر الله بالمضي إليه والسعي له.

ومنها: مشروعية النداء للجمعة والأمر به.

ومنها: النهي عن البيع والشراء بعد نداء الجمعة وتحريم ذلك، وما ذاك إلا لأنه يفوت الواجب ويشغل عنه، فدل ذلك على أن كل أمر وإن كان مباحاً في الأصل، إذا كان ينشأ عنه تفويت واجب؛ فإنه لا يجوز في تلك الحال.

ومنها: الأمر بحضور الخطبتين يوم الجمعة، وذم من لم يحضرهما، ومن لازم ذلك الإنصات لهما.

ومنها: أنه ينبغي للعبد المقبل على عبادة الله وقت دواعي النفس لحضور اللهو والتجارات والشهوات، أن يذكرها بما عند الله من الخيرات وما لمؤثر رضاه على هواه.

تم تفسير سورة الجمعة بمن الله وعونه.

والحمد لله رب العالمين.

﴿١﴾ ﴿٢﴾ ﴿٣﴾ ﴿٤﴾ ﴿٥﴾ ﴿٦﴾ ﴿٧﴾ ﴿٨﴾ ﴿٩﴾ ﴿١٠﴾

تفسير سورة المنافقون

وهي مدنية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ﴾ إلى قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ ﴿١﴾.

﴿١﴾ لما قدم النبي ﷺ المدينة، وكثر المسلمون في المدينة واعتز الإسلام بها؛ صار أناس من أهلها من الأوس والخزرج يظهرون الإيمان ويطنون الكفر؛ ليقى جاههم وتحقق دماؤهم وتسلم أموالهم، فذكر الله من أوصافهم ما به يعرفون؛ لكي يحذر العباد منهم ويكونوا منهم على بصيرة، فقال: ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا﴾: على وجه الكذب: ﴿نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ﴾. وهذه الشهادة من المنافقين على وجه الكذب والنفاق، مع أنه لا حاجة لشهادتهم في تأييد رسوله، فإن الله ﴿يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ﴾. والله يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ ﴿٢﴾: في قولهم ودعواهم، وأن ذلك ليس بحقيقة منهم.

﴿٢﴾ ﴿أَتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً﴾؛ أي: ترساً يترسون بها من نسبتهم إلى النفاق، فصدوا عن سبيله بأنفسهم، وصدوا غيرهم ممن يخفى عليه حالهم. ﴿إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ﴿٣﴾: حيث أظهروا الإيمان وأبطنوا الكفر وأقسموا على ذلك وأوهموا صدقهم.

﴿٣﴾ ﴿ذَلِكَ﴾: الذي زين لهم النفاق، بسبب أنهم لا يثبتون على الإيمان، بل ﴿ءَاْمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطَغَعَ عَلَى قُلُوبِهِمُ﴾: بحيث لا يدخلها الخير أبداً. ﴿فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ ﴿٤﴾: ما ينفعهم ولا يعون ما يعود بمصالحهم.

﴿٤﴾ ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ﴾: من روائها ونضارتها، ﴿وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعُ لِقَوْلِهِمْ﴾؛ أي: من حسن منطقهم تستلذ لاستماعه؛ فأجسامهم وأقوالهم معجبة، ولكن ليس وراء ذلك من الأخلاق الفاضلة والهدي الصالح شيء، ولهذا قال:

يَتَأْتِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١﴾ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢﴾ وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا قُلْ مَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ مِنَ اللَّهِو وَمِنَ التِّجَارَةِ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿٣﴾

سورة المنافقون ﴿١﴾ ﴿٢﴾ ﴿٣﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ ﴿١﴾
أَتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢﴾
ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطَغَعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٣﴾ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعُ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُسْنَدَةٌ يَخْسَبُونَ كُلَّ صِدْقٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قُلْ لَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴿٤﴾

٥٥٥

﴿كَأَنَّهُمْ حُثْبُ مُسْنَدٍ﴾: لا منفعة فيها ولا يُنال منها إلا الضرر المحض. ﴿يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ﴾: وذلك لجبنهم وفزعهم وضعف قلوبهم وريبها؛ يخافون أن يطلع عليها؛ فهو لاء ﴿هُرُّ الْعَدُوِّ﴾ على الحقيقة؛ لأن العدو البارز المتميز أهون من العدو الذي لا يشعر به، وهو مخادع مكر، يزعم أنه ولي، وهو العدو المبين. ﴿فَلَا حَذَرُهُمْ فَتْلَهُمُ اللَّهُ أَفَنُ يُؤْفَكُونَ﴾: أي: كيف يصرفون عن الدين الإسلامي بعدما تبينت أدلته واتضح معاملته إلى الكفر الذي لا يفيدهم إلا الخسار والشقاء.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ﴾: لهؤلاء المنافقين: ﴿تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ﴾: عما صدر منكم؛ لتحسن أحوالكم، وتقبل أعمالكم؛ امتنعوا من ذلك أشد الامتناع، و﴿لَوْ أَرَادُوا سُبُغًا﴾: امتناعاً من طلب الدعاء من الرسول، ﴿وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ﴾: عن الحق بغضاً له، ﴿وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ﴾: عن اتباعه بغياً وعناداً. فهذه حالهم عندما يدعون إلى طلب الدعاء من الرسول.

﴿وَهَذَا مِنْ لُطْفِ اللَّهِ وَكَرَامَتِهِ لِرَسُولِهِ﴾: حيث لم يأتوا إليه فيستغفر لهم، فإنه ﴿سَوَاءٌ﴾ استغفر لهم أم لم يستغفر لهم ف ﴿لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾؟ وذلك لأنهم قوم فاسقون خارجون عن طاعة الله مؤثرون للكفر على الإيمان؛ فلذلك لا ينفع ﴿أَسْتَغْفِرُ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرُ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾ [التوبة: ٨٠]. ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾.

﴿هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُوا﴾ إلى قوله: ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾.

﴿وَهَذَا مِنْ شِدَّةِ عِدَاوَتِهِمْ لِلنَّبِيِّ ﷺ وَالْمُسْلِمِينَ﴾، لما رأوا اجتماع أصحابه واتلافهم ومسارعتهم في مرضاة الرسول ﷺ؛ قالوا بزعمهم الفاسد: ﴿لَا تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُوا﴾: فإنهم على زعمهم لولا أموال المنافقين ونفقاتهم عليهم؛ لما اجتمعوا في نصرة دين الله! وهذا من أعجب العجب أن يدعي هؤلاء المنافقون الذين هم أحرص الناس على خذلان الدين وأذية المسلمين مثل هذه الدعوى التي لا تروج إلا على من لا علم له بحقائق الأمور، ولهذا قال تعالى ردّاً لقولهم: ﴿وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾: فيؤتي الرزق من يشاء، ويمنعه من يشاء، ويسر الأسباب لمن يشاء، ويعسرها على من يشاء. ﴿وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ﴾. فلذلك قالوا تلك المقالة التي مضمونها أن خزائن الرزق في أيديهم وتحت مشيتهم.

﴿يَقُولُونَ لَنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لِيُخْرِجَ الْأَعْرَضُ مِنَّا أَلَدَلْ﴾: وذلك في غزوة المريسيع، حين صار بين بعض المهاجرين والأنصار بعض كلام كدر الخواطر؛ ظهر حينئذ نفاق المنافقين، وتبين ما في قلوبهم، وقال كبيرهم عبد الله بن أبي ابن سلول: ما مثلنا ومثل هؤلاء - يعني: المهاجرين - إلا كما قال القائل: سمن كلبك يأكلك. وقال: لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأدل؛ بزعمه أنه هو وإخوانه من المنافقين الأعزون، وأن رسول الله ومن اتبعه هم الأدلون، والأمر بعكس ما قال هذا المنافق، فلهذا قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾: فهم الأعزاء، والمنافقون وإخوانهم من الكفار هم الأدلاء. ﴿وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾: ذلك؛ فلذلك زعموا أنهم الأعزاء اغتراراً بما هم عليه من الباطل.

سورة المنافقون
بسم الله الرحمن الرحيم
وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّاهُ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ ٥ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ٦ هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُوا وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ٧ يَقُولُونَ لَنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لِيُخْرِجَ الْأَعْرَضُ مِنَّا أَلَدَلْ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ٨ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ٩ وَأَنْفِقُوا مِنْ مَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْخُذَ أَحَدُكُمْ الْمَوْتَ يَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ ١٠ وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ١١
سورة النفاق
٥٥٥

ثم قال تعالى:

﴿يَأْتِيَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ إلى آخر السورة.

﴿٩﴾ يأمر تعالى عباده المؤمنين بالإكثار من ذكره؛ فإن في ذلك الربح والفلاح والخيرات الكثيرة، وينهاهم أن تشغلهم أموالهم وأولادهم عن ذكره؛ فإن محبة المال والأولاد مجبولة عليها أكثر النفوس، فتقدمها على محبة الله، وفي ذلك الخسارة العظيمة، ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْهَمْ مَالَهُ وَوَلَدَهُ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ﴾، فأولئك هم الذين ﴿١٠﴾: للراحة الأبدية والنعيم المقيم؛ لأنهم أثروا ما يفنى على ما يبقى؛ قال تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ ﴿١١﴾ [التغابن: ١٥].

﴿١٢﴾ وقوله: ﴿وَأَنْفِقُوا مِنْ مَّا رَزَقْنَاكُمْ﴾: يدخل في هذه النفقات الواجبة من الزكاة والكفارات، ونفقة الزوجات والمماليك، ونحو ذلك، والنفقات المستحبة؛ كبذل المال في جميع المصالح، وقال: ﴿مِنْ مَّا رَزَقْنَاكُمْ﴾: ليدل ذلك على أنه تعالى لم يكلف العباد من النفقة ما يعتهم ويشق عليهم، بل أمرهم بإخراج جزء مما رزقهم ويسره ويسر أسبابه، فليشكروا الذي أعطاهم بمواساة إخوانهم المحتاجين، وليبادروا بذلك، الموت الذي إذا جاء؛ لم يمكن العبد أن يأتي بمثقال ذرة من الخير،

ولهذا قال: ﴿مَنْ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدُكُمْ الْمَوْتُ فَيَقُولَ﴾: متحسراً على ما فرط في وقت الإمكان، سائلاً الرجعة التي هي محال: ﴿رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾؛ أي: لا تدارك ما فرطت فيه، ﴿فَأَصْدَقَ﴾: من مالي ما به أنجو من العذاب، وأستحق به جزيل الثواب، ﴿وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾: بادء المأمورات كلها واجتناب المنهيات، ويدخل في هذا الحج وغيره.

﴿١٣﴾ وهذا السؤال والتمني قد فات وقته، ولا يمكن تداركه، ولهذا قال: ﴿وَكُلُّ يَوْمٍ لِلَّهِ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا﴾: المحتوم لها. ﴿وَاللَّهُ خَيْرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾: من خير وشر، فيجازيكم على ما علمه منكم من النيات والأعمال.

تم تفسير سورة المنافقون. ولله الحمد.



تفسير سورة التغابن

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ﴾ إلى قوله: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ ﴿١﴾.

﴿٢﴾ هذه الآيات الكريمات مشتملات على جملة كثيرة واسعة من أوصاف الباري العظيمة، فذكر كمال ألوهيته سبحانه [وتعالى]، وسعة غناه، وافتقار جميع الخلائق إليه، وتسبيح من في السماوات والأرض بحمد ربها، وأن الملك كله لله؛ فلا

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ وَاللَّهُ يَمَّا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢﴾ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَصَوَّرَهُمَا خَسَنَ صُورًا وَلِئَلَّيْهِ الْمَصِيرُ ﴿٣﴾ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٤﴾ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَدْ أَفْوَا بِأَلْ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٥﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالُوا أَبَشَرٌ مِثْلُنَا فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوْا وَأَسْتَفْتَى اللَّهُ وَاللَّهُ عَنِّي حَكِيمٌ ﴿٦﴾ زَعِمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَرَبِّي لَتُبْعِنُنَّ ثُمَّ لَنُنَبِّئَنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧﴾ فَآمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَالَّذِي أُنْزِلْنَا وَاللَّهُ يَمَّا تَعْمَلُونَ خَيْرٌ ﴿٨﴾ يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَعَمِلْ صَالِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٩﴾

﴿١﴾ ولهذا ذكر السبب في هذه العقوبة، فقال: ﴿ذَلِكَ﴾: النكال والوبال الذي أحللتناه بهم ﴿بِأَنَّهُ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾؛ أي: بالآيات الواضحات الدالة على الحق والباطل، فاشمأزوا واستكبروا على رسلهم، وقالوا: ﴿أَبَشِّرْ بِهَدُونًا﴾؛ أي: ليس لهم فضل علينا؛ ولأي شيء خصهم الله دوننا؟! كما قال في الآية الأخرى: ﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ [إبراهيم: ١١]: فهم حجروا فضل الله ومنتوا على أنبيائه أن يكونوا رسلًا للخلق، واستكبروا عن الانقياد لهم، فابتلوا بعبادة الأشجار والأحجار ونحوها، ﴿فَكَفَرُوا﴾ بالله، ﴿وَتَوَلَّوْا﴾ عن طاعته، ﴿وَأَسْتَعَىٰ اللَّهُ﴾ عنهم؛ فلا يبالي بهم ولا يضره ضلالهم شيئاً. ﴿وَاللَّهُ عَنِّي حَمِيدٌ﴾؛ أي: هو الغني الذي له الغنى التام المطلق من جميع الوجوه، الحميد في أقواله وأفعاله وأوصافه.

﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ بِبُغْيِهِمْ ثُمَّ لِنُبَيِّنَنَّ لَهُمْ فَعَلَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ١٦٠].

﴿٧﴾ يخبر تعالى عن عناد الكافرين وزعمهم الباطل وتكذيبهم بالبعث بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير، فأمر أشرف خلقه أن يقسم بربه على بعثهم جزائهم بأعمالهم الخبيثة وتكذيبهم بالحق. ﴿وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾؛ فإنه وإن كان عسيراً، بل متعذراً بالنسبة إلى الخلق؛ فإن قواهم كلهم لو اجتمعت على إحياء ميت واحد؛ ما قدروا على ذلك، وأما الله تعالى، فإنه إذا أراد شيئاً؛ قال له: كن فيكون؛ قال تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَبَقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نَفَخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ فِي مَقَامٍ يَنْظُرُونَ﴾ [الزمر: ٦٨].

﴿فَتَأْمُرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنْزَلْنَا وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [التوبة: ١١٨].

﴿٨﴾ لما ذكر تعالى إنكار من أنكر البعث، وأن ذلك منهم موجب كفرهم بالله وآياته؛ أمر بما يعصم من الهلكة والشقاء، وهو الإيمان به وبرسوله وبكتابه، وسماء الله نوراً؛ لأن النور ضد الظلمة؛ فما في الكتاب الذي أنزله الله من الأحكام والشرائع والأخبار أنوار يهتدى بها في ظلمات الجهل المدلهمة، ويمشى بها في حندس الليل البهيم، وما سوى الاهتداء بكتاب الله؛ فهي علوم ضررها أكثر من

يخرج عن ملكه مخلوق، والحمد كله له؛ حمد على ما له من صفات الكمال، وحمد على ما أوجده من الأشياء، وحمد على ما شرعه من الأحكام وأسده من النعم، وقدرته شاملة لا يخرج عنها موجود؛ فلا يعجزه شيء يريد.

﴿٩﴾ وذكر أنه خلق العباد، وجعل منهم المؤمن والكافر؛ فإيمانهم وكفرهم كله بقضاء الله وقدره، وهو الذي شاء ذلك منهم؛ بأن جعل لهم قدرة وإرادة بها يتمكنون من كل ما يريدون من الأمر والنهي. ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [الأنعام: ٦٠].

﴿١٠﴾ فلما ذكر خلق الإنسان المأمور المنهي؛ ذكر خلق باقي المخلوقات، فقال: ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾؛ أي: أجراهما وجميع ما فيهما فأحسن خلقهما ﴿بِالْحَقِّ﴾؛ أي: بالحكمة والغاية المقصودة له تعالى، ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُورَكُمْ﴾؛ كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين: ٤]: فالإنسان أحسن المخلوقات صورة، وأبهاها منظرًا. ﴿وَالِئِنَّهُ لَاصْبِرٌ﴾؛ أي: المرجع يوم القيامة، فيجازيكم على إيمانكم وكفركم، ويسالكم عن النعم والنعم الذي أولاكموه؛ هل قمتم بشكره أم لم تقوموا به؟

﴿١١﴾ ثم ذكر عموم علمه، فقال: ﴿يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾؛ أي: من السرائر والظواهر والغيب والشهادة، ﴿وَيَعْلَمُ مَا تُكْشِرُونَ وَمَا تُكْمِنُونَ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾؛ أي: بما فيها من الأسرار الطيبة والخبايا الخبيثة والنيات الصالحة والمقاصد الفاسدة؛ فإذا كان عليماً بذات الصدور؛ تعين على العاقل البصير أن يحرص ويجتهد في حفظ باطنه من الأخلاق الرذيلة واتصافه بالأخلاق الجميلة.

﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ فَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [الأنعام: ٦١]: ذلك بأنهم رسلهم بالبينات فقالوا: ﴿أَبَشِّرْ هَدُونًا﴾ فكفروا وتولوا واستعفى الله والله عنى حميدٌ [التوبة: ١١٨].

﴿١٢﴾ لما ذكر تعالى من أوصافه الكاملة العظيمة ما به يعرف، ويعبد، ويذل الجهد في مرضاته، وتجنب مسأخطه؛ أخبر بما فعل بالأمم السابقين والقرون الماضية، الذين لم تزل أنباؤهم يتحدث بها المتأخرون، ويخبر بها الصادقون، وأنهم حين جاءتهم رسلهم بالحق؛ كذبوهم، وعاندوهم فأذاقهم الله وبال أمرهم في الدنيا، وأخزاهم فيها. ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢]: في الدار الآخرة.

نفعها، وشرها أكثر من خيرها، بل لا خير فيها ولا نفع؛ إلا ما وافق ما جاءت به الرسل، والإيمان بالله ورسوله وكتابه يقتضي الجزم التام واليقين الصادق بها والعمل بمقتضى ذلك التصديق من امتثال الأوامر واجتناب النواهي. ﴿وَاللَّهُ يَمَّا تَعْمَلُونَ خَيْرٌ﴾ (٨): فيجازيكم بأعمالكم الصالحة والسيئة.

﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمُ يَوْمَ الْجَمْعِ ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ﴾ إلى: ﴿الْمَصِيرِ﴾ (١١).

(٩) يعني: اذكروا يوم الجمع الذي يجمع الله به الأولين والآخرين، ويقفهم موقفًا هائلًا عظيمًا، وينتبههم بما عملوا؛ فحينئذ يظهر الفرق والتغابن بين الخلائق، ويرُفَعُ أقوام إلى عليين في الغرف العاليات والمنازل المرتفعات المشتملة على جميع اللذات والشهوات، ويُخَفَضُ أقوام إلى أسفل سافلين محل الهم والغم والحزن والعذاب الشديد، وذلك نتيجة ما قدموه لأنفسهم وأسلفوه أيام حياتهم، ولهذا قال: ﴿ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ﴾؛ أي: يظهر فيه التغابن والتفاوت بين الخلائق، ويغيب المؤمنون الفاسقين، ويعرف المجرمون أنهم على غير شيء، وأنهم هم الخاسرون. فكأنه قيل: بأي شيء يحصل الفلاح والشقاء والنعيم والعذاب؟ فذكر تعالى أسباب ذلك بقوله: ﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ﴾: إيمانًا تامًا شاملًا لجميع ما أمر الله بالإيمان به، ﴿وَيَعْمَلْ صَالِحًا﴾: من الفرائض والتوافل؛ من أداء حقوق الله وحقوق عبادته، ﴿يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾: فيها ما تشتهي النفس، وتلذذ الأعين، وتختار الأرواح، وتحن إليه القلوب، ويكون نهاية كل مرغوب. ﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ (٩).

(١٠) ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾؛ أي: كفروا بها من غير مستند شرعي ولا عقلي، بل جاءتهم الأدلة والبيانات، فكذبوا بها وعاندوا ما دلت عليه، ﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَيَسَّ الْمَصِيرُ﴾ (١٠): لأنها جمعت كل يؤس وشدة وشقاء وعذاب.

﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ﴾ إلى: ﴿فَلَيْتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ (١٢).

(١١) يقول تعالى: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾: وهذا عام لجميع المصائب في النفس والمال والولد والأحباب ونحوهم؛ فجميع ما أصاب العباد بقضاء الله وقدره؛ قد سبق بذلك علم الله وجرى به قلمه ونفذت به مشيئته واقتضته حكمته، ولكن الشأن كل الشأن: هل يقوم العبد بالوظيفة التي عليه في هذا المقام أم لا يقوم بها؟ فإن قام بها؛ فله الثواب الجزيل والأجر الجميل في الدنيا والآخرة؛ فإذا آمن أنها من عند الله، فرضي بذلك وسلم لأمره؛ هدى الله قلبه، فاطمأن ولم ينزعج عند المصائب؛ كما يجري لمن لم يهد الله قلبه، بل يرزقه الله الثبات عند ورودها والقيام بموجب الصبر، فيحصل له بذلك ثواب عاجل مع ما يدخر الله له يوم الجزاء من الأجر العظيم؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُؤْتِي الضَّعِيفُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ (١١).

[الزمر: ١٠].

وَعَلِمَ من ذلك أن من لم يؤمن بالله عند ورود المصائب؛ بأن لم يلحظ قضاء الله وقدره بل وقف مع مجرد الأسباب؛ أنه يخذل ويكله الله إلى نفسه، وإذا وكل العبد إلى نفسه؛ فالنفس ليس عندها إلا الهلع والجزع الذي هو عقوبة عاجلة

وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَيَسَّ الْمَصِيرُ (١٠) مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (١١) وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلْغُ الْمُبِينُ (١٢) اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (١٣) يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن مِنْ أَرْوَاحِكُمْ وَأَوْلَدِكُمْ عَذَابٌ لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ وَإِن تَعَفَوْا وَتَصَفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١٤) إِنَّمَا أَمْرُكُمْ وَأَوْلَدُكُمْ فَتَنَةٌ وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ (١٥) فَأَنقَلِبْهُمَا إِلَى مَنَاصِبِهِمْ وَأَطِيعُوا وَأَنفِقُوا خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٦) إِن تَقْرَأُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يَضْعَفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ (١٧) عَلِيمُ الْغَيْبِ وَالْفَهْدَةِ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١٨) سُوْرَةُ التَّغَابُنِ (١٩) ٥٥٧

﴿١٢﴾، ﴿١٣﴾ هذا تحذير من الله للمؤمنين عن الاغترار بالأزواج والأولاد؛ فإن بعضهم عدو لكم، والعدو هو الذي يريد لك الشر، فوظيفتك الحذر ممن هذا وصفه، والنفس مجبولة على محبة الأزواج والأولاد، فصاح تعالى عباده أن توجب لهم هذه المحبة الانقياد لمطالب الأزواج والأولاد، التي فيها محذور شرعي، ورغبهم في امتثال أوامره وتقديم مرضاته بما عنده من الأجر العظيم، المشتغل على المطالب العالية والمحاب الغالية، وأن يؤثروا الآخرة على الدنيا الفانية المنقضية. ولما كان النهي عن طاعة الأزواج والأولاد فيما هو ضرر على العبد والتحذير من ذلك قد يوهم الغلظة عليهم وعقابهم؛ أمر تعالى بالحثر منهم والصفح عنهم والعفو؛ فإن في ذلك من المصالح ما لا يمكن حصره، فقال: ﴿وَأَنِ تَعَفُّوا وَنَصَحُوا وَتَغَفَّرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾؛ لأن الجزء من جنس العمل؛ فمن عفا؛ عفا الله عنه، ومن صفح؛ صفح الله عنه، ومن عامل الله تعالى فيما يحب، وعامل عباده بما يحبون وينفهم؛ نال محبة الله ومحبة عباده واستوسق له أمره.

﴿فَأَقْضُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ إِلَى آخِرِهَا﴾

﴿١٤﴾ يأمر تعالى بتقواه التي هي امتثال أوامره واجتناب نواهيه، وقيد ذلك بالاستطاعة والقدرة. فهذه الآية تدل على أن كل واجب عجز عنه العبد يسقط عنه، وأنه إذا قدر على بعض الأمور وعجز عن بعضه؛ فإنه يأتي بما يقدر عليه ويسقط عنه ما يعجز عنه؛ كما قال النبي ﷺ: «إذا أمرتكم بأمر؛ فاتوا منه ما استطعتم»^(١). ويدخل تحت هذه القاعدة الشرعية من الفروع ما لا يدخل تحت الحصر. وقوله: ﴿وَأَسْمِعُوا﴾؛ أي: اسمعوا ما يعظكم الله به وما يشرعه لكم من الأحكام واعلموا ذلك وانقادوا له، ﴿وَأَطِيعُوا﴾؛ الله ورسوله في جميع أموركم، ﴿وَأَنْفِقُوا﴾؛ من النفقات الشرعية الواجبة والمستحبة؛ يكن ذلك الفعل منكم خيراً لكم في الدنيا والآخرة؛ فإن الخير كله في امتثال أوامر الله تعالى وقبول نصائحه والانقياد لشرعه، والشر كله في مخالفة ذلك، ولكن ثم آفة تمنع كثيراً من الناس من النفقة المأمور بها، وهو الشح المجبولة عليه أكثر النفوس؛ فإنها تشح بالمال وتحب وجوده وتكره خروجه من اليد غاية الكراهة، فمن وقاه الله [تعالى] شر نفسه: بأن سمحت نفسه

على العبد قبل عقوبة الآخرة على ما فرط في واجب الصبر، هذا ما يتعلق بقوله: ﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ﴾ في مقام المصائب الخاص، وأما ما يتعلق بها من حيث العموم اللفظي؛ فإن الله أخبر أن كل من آمن؛ أي: الإيمان المأمور به، وهو الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسوله واليوم الآخر والقدر خيره وشره، وصدق إيمانه بما يقتضيه الإيمان من لوازمه وواجباته؛ أن هذا السبب الذي قام به العبد أكبر سبب لهداية الله له في أقواله وأفعاله وجميع أحواله وفي علمه وعمله، وهذا أفضل جزاء يعطيه الله لأهل الإيمان؛ كما قال تعالى مخبراً أنه يثبت المؤمنين في الحياة الدنيا وفي الآخرة، وأصل الثبات ثبات القلب وصبره ويقينه عند ورود كل فتنة، فقال: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ [إبراهيم: ٢٧]؛ فأهل الإيمان أهدى الناس قلوباً وأثبتهم عند المزعجات والمقلقات، وذلك لما معهم من الإيمان.

﴿١٥﴾ وقوله: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾؛ أي: في امتثال أمرهما واجتناب نهيهما؛ فإن طاعة الله وطاعة رسوله مدار السعادة وعنوان الفلاح، ﴿فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ﴾؛ أي: عن طاعة الله وطاعة رسوله، ﴿فَأَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾؛ أي: يبلغكم ما أرسل به إليكم بلاغاً بيناً واضحاً، فتقوم عليكم به الحجة، وليس بيده من هدايتكم ولا من حسابكم شيء، وإنما يحاسبكم على القيام بطاعة الله وطاعة رسوله أو عدم ذلك، عالم الغيب والشهادة.

﴿١٦﴾ الذي ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾؛ أي: هو المستحق للعبادة والألوهية؛ فكل معبود سواه باطل. ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾؛ أي: فليعتمدوا عليه في كل أمر نابههم وفيما يريدون القيام به؛ فإنه لا يتيسر أمر من الأمور إلا بالله ولا سبيل إلى ذلك إلا بالاعتماد على الله، ولا يتم الاعتماد على الله حتى يحسن العبد ظنه بربه ويثق به في كفايته الأمر الذي يعتمد عليه به، وبحسب إيمان العبد يكون توكله قوة وضعفاً.

﴿يَتَأْتِيهِمُ الَّذِينَ آمَنُوا إِتٍ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ وَإِنْ تَعَفَّوْا وَنَصَحُوا وَتَغَفَّرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [١٦] إِنَّمَا أَمُوكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فَتَنَةٌ وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧﴾.

سورة الطلاق

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعَدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا
 الْعِدَّةَ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ لَا تَخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ
 وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَحْشَةٍ مُبَيَّنَةٍ وَتِلْكَ حُدُودُ
 اللَّهِ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ لَا تَدْرِي لَعَلَّ
 اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا ﴿١﴾ فَإِذَا بَلَغَ أَحْلَاهُنَّ فَاْمْسِكُوهُنَّ
 بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا ذَوَى عَدْلٍ مِّنكُمْ
 وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ
 بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَنَزَّلَهُ
 مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَّكِلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ وَإِنَّ اللَّهَ
 بَلِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ﴿٣﴾ وَالَّتِي يَبْسُنُ
 مِنَ الْمَحْضِ مِنْ نِّسَائِكُمْ إِنْ أَرَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ
 وَالَّتِي لَمْ يَحْضَنْ وَأُولَٰئِكَ الْأَحْمَالُ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ
 وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا ﴿٤﴾ ذَٰلِكُمْ أَمْرُ اللَّهِ أَنْزَلَهُ
 إِلَيْكُمْ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَكْفِرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا ﴿٥﴾

٥٥٨

بالإنفاق النافع لها، ﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ ﴿١١﴾: لأنهم أدركوا المطلوب ونجوا من المهراب، بل لعل ذلك شامل لكل ما أمر به العبد ونهي عنه؛ فإنه إن كانت نفسه شحيحة لا تنقاد لما أمرت به ولا تخرج ما قبلها؛ لم يفلح، بل خسر الدنيا والآخرة، وإن كانت نفسه نفساً سمحة مطمئنة منسجمة لشرع الله طالبة لمرضاها؛ فإنها ليس بينها وبين فعل ما كلفت به إلا العلم به ووصول معرفته إليها والبصيرة بأنه مرضي لله تعالى، وبذلك تفلح وتنجح وتفوز كل الفوز.

﴿١٧﴾ ثم رَغِبَ تعالى في النفقة، فقال: ﴿إِنْ تَقَرَّبُوا اللَّهَ قَرَّبَاكُمْ إِلَهُ حَسَنًا﴾: وهو كل نفقة كانت من الحلال إذا قصد بها العبد وجه الله تعالى ووضعها موضعها، ﴿يَضَعُهَا لَكُمْ﴾: النفقة بعشر أمثالها إلى سبعمئة ضعف إلى أضعاف كثيرة، ومع المضاعفة أيضًا يغفر الله ﴿لَكُمْ﴾: بسبب الإنفاق والصدقة ذنوبكم؛ فإن الذنوب يكفرها الله بالصدقات والحسنات؛ ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ الْسَيِّئَاتِ﴾ ﴿هود: ١١٤﴾. ﴿وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ﴾ ﴿١٧﴾: لا يعاجل من عصاه، بل يمهله ولا يمهله، ﴿وَلَوْ يَأْخُذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهِمْ شَيْءًا وَكَانَ يُخْرِجُهُمُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [فاطر: ٤٥]، والله تعالى شكور، يقبل من عباده اليسير من العمل، ويجازيهم عليه الكثير من الأجر، ويشكر تعالى لمن تحمل من أجله المشاق والأثقال وناء بالتكاليف الثقيل، ومن ترك شيئاً لله؛ عوضه الله خيراً منه.

﴿١٨﴾ ﴿عَلِيمٌ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾: أي: ما غاب عن العباد من الجنود التي لا يعلمها إلا هو وما يشاهدونه من المخلوقات. ﴿الْقَرِيرُ﴾: الذي لا يغالب ولا يمانع، الذي قهر جميع الأشياء. ﴿الْحَكِيمُ﴾ ﴿١٨﴾: في خلقه وأمره، الذي يضع الأشياء مواضعها.

تم تفسير سورة التغابن. ولله الحمد.



تفسير سورة الطلاق

وهي مدنية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعَدَّتِهِنَّ﴾ إلى قوله: ﴿قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾ ﴿٢﴾.

﴿١﴾ يقول تعالى مخاطباً لنبيه [محمد] ﷺ وللمؤمنين: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ﴾؛ أي: [إذا] أردتم طلاقهن، فالتمسوا لطلاقهن الأمر المشروع، ولا تبادروا بالطلاق من حين يوجد سببه من غير مراعاة لأمر الله، بل طلقوهن ﴿لِعَدَّتِهِنَّ﴾؛ أي: لأجل عدتهن؛ بأن يطلقها زوجها وهي طاهر في طهر لم يجامعها فيه؛ فهذا الطلاق هو الذي تكون العدة فيه واضحة بينة؛ بخلاف ما لو طلقها وهي حائض؛ فإنها لا تحتسب تلك الحيضة التي وقع فيها الطلاق، وتطول عليها العدة بسبب ذلك،

ومن الحكم أنها مدة التريص يعلم براءة رحمة من زوجها.

وقوله: ﴿فَإِذَا بَلَغَ الْأَجَلُ﴾؛ أي: إذا قارب انقضاء العدة؛ لأنهن لو خرجن من العدة؛ لم يكن الزوج مخيراً بين الإمساك والفرار، ﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾؛ أي: على وجه المعاشرة الحسنة والصحبة الجميلة، لا على وجه الضرار وإرادة الشر والحس؛ فإن إمساكها على هذا الوجه لا يجوز، ﴿أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾؛ أي: فراقاً لا محذور فيه، من غير تشاتم ولا تخاصم ولا قهر لها على أخذ شيء من مالها، ﴿وَأَشْهَدُوا﴾؛ على طلاقها ورجعتها، ﴿ذَوَى عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾؛ أي: رجلين مسلمين عدلين؛ لأن في الإشهاد المذكور سداً لباب المخاصمة وكتمان كل منهما ما يلزم بيانه، ﴿وَأَيُّمُوا﴾؛ أيها الشهداء ﴿الشَّهَادَةَ لِلَّهِ﴾؛ أي: اتوا بها على وجهها من غير زيادة ولا نقص، واقصدوا بإقامتها وجه الله تعالى، ولا تراعوا بها قريباً لقرابته ولا صاحباً لمحبتة. ﴿ذَلِكَمُ﴾؛ الذي ذكرنا لكم من الأحكام والحدود، ﴿يُوعِظُ بِهِ مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾؛ فإن الإيمان بالله واليوم الآخر يوجب لصاحبه أن يتعظ بمواعظ الله وأن يقدم لآخرته من الأعمال الصالحة ما يتمكن منها؛ بخلاف من ترحل الإيمان من قلبه؛ فإنه لا يبالي بما أقدم عليه من الشر، ولا يُعْظَمُ مواعظ الله؛ لعدم الموجب لذلك. ولما كان الطلاق قد يوقع في الضيق والكرب والغم؛ أمر تعالى بتقواه، ووعد من اتقاه في الطلاق وغيره بأن يجعل له فرجاً ومخرجاً. فإذا أراد العبد الطلاق، ففعله على الوجه الشرعي، بأن أوقعه طلاقاً واحدة في غير حيض ولا طهر أصابها فيه؛ فإنه لا يضيق عليه الأمر، بل جعل الله له فرجاً وسعة يتمكن بها من الرجوع إلى النكاح إذا ندم على الطلاق.

والآية وإن كانت في سياق الطلاق والرجعة؛ فإن العبرة بعموم اللفظ فكل من اتقى الله تعالى ولازم مرضاته في جميع أحواله؛ فإن الله يشي في الدنيا والآخرة، ومن جملة ثوابه أن يجعل له فرجاً ومخرجاً من كل شدة ومشقة، وكما أن من اتقى الله؛ جعل له فرجاً ومخرجاً؛ فمن لم يتق الله؛ يقع في الآصار والأغلال التي لا يقدر على التخلص منها والخروج من تبعاتها، واعتبر ذلك في الطلاق؛ فإن العبد إذا لم يتق الله فيه، بل أوقعه على الوجه المحرم؛ كالثلاث ونحوها؛ فإنه لا بد أن يندم ندامة لا يتمكن من استدراكها والخروج منها.

وكذلك لو طلقها في طهر وطىء فيه؛ فإنه لا يؤمن حملها، فلا يتبين ولا يتضح بأي عدة تعتد، وأمر تعالى بإحصاء العدة، أي: ضبطها بالحيض إن كانت تحيض، أو بالأشهر إن لم تكن تحيض وليست حاملاً؛ فإن في إحصائها أداء لحق الله، وحق الزوج المطلق، وحق من سيتزوجها بعد، وحقها في النفقة ونحوها؛ فإذا ضبطت عدتها؛ علمت حالها على بصيرة، وعلم ما يترتب عليها من الحقوق وما لها منها، وهذا الأمر بإحصاء العدة يتوجه للزوج وللرأة إن كانت مكلفة، وإلا؛ فلوليها. وقوله: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ﴾؛ أي: في جميع أموركم، وخافوه في حق الزوجات المطلقات.

فـ ﴿لَا تَخْرُجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ﴾؛ مدة العدة، بل يلزم من بيوتهن الذي طلقها زوجها وهي فيه. ﴿وَلَا يَخْرُجَنَّ﴾؛ أي: لا يجوز لهن الخروج منها، أما النهي عن إخراجها؛ فلأن المسكن يجب على الزوج للزوجة لتكمل فيه عدتها التي هي حق من حقوقه، وأما النهي عن خروجها؛ فلما في خروجها من إضاعة حق الزوج وعدم صونه، ويستمر هذا النهي عن الخروج من البيوت والإخراج إلى تمام العدة. ﴿إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَحِشَةٍ مُّبِينَةٍ﴾؛ أي: بأمر قبيح واضح موجب لإخراجها؛ بحيث يدخل على أهل البيت الضرر من عدم إخراجها؛ كالأذى بالأقوال والأفعال الفاحشة؛ ففي هذه الحال يجوز لهم إخراجها؛ لأنها هي التي تسببت لإخراج نفسها، والإسكان فيه جبر لخطاها ورفق بها؛ فهي التي أدخلت الضرر على نفسها. وهذا في المعتدة الرجعية، وأما البائن؛ فليس لها سكنى واجبة؛ لأن السكنى تبع للنفقة، والنفقة تجب للرجعية دون البائن.

﴿وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ﴾؛ أي: التي حدها لعباده وشرعها لهم وأمرهم بلزومها والوقوف معها، ﴿وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ﴾؛ بأن لم يقف معها، بل تجاوزها أو قصر عنها، ﴿فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ﴾؛ أي: ببخسها حقها، وأضاع نصيبه من اتباع حدود الله التي هي الصلاح في الدنيا والآخرة. ﴿لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا﴾؛ أي: شرع الله العدة، وحدد الطلاق بها لحكم عظيمه:

فمنها: أنه لعل الله يحدث في قلب المطلق الرحمة والمودة، فيراجع من طلقها، ويستأنف عشرتها، فيتمكن من ذلك مدة العدة، أو لعله يطلقها لسبب منها، فيزول ذلك السبب في مدة العدة، فيراجعها؛ لانتفاء سبب الطلاق.

الجهل والكفر والمعصية إلى نور العلم والإيمان والطاعة؛ فمن الناس من آمن به، ومنهم من لم يؤمن به، ﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا﴾: من الواجبات والمستحبات، ﴿يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾: فيها من النعيم المقيم ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر. ﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ رِزْقًا﴾ (١١)؛ أي: ومن لم يؤمن بالله ورسوله؛ فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون.

﴿١٢﴾ ثم أخبر تعالى أنه خلق السماوات والأرض ومن فيهن والأرضين السبع ومن فيهن وما بينهما، وأنزل الأمر، وهو الشرائع والأحكام الدينية، التي أوحاها إلى رسله لتذكير العباد ووعظهم، وكذلك الأوامر الكونية والقدرية التي يدبر بها الخلق؛ كل ذلك لأجل أن يعرفه العباد ويعلموا إحاطة قدرته بالأشياء كلها وإحاطة علمه بجميع الأشياء؛ فإذا عرفوه بأسمائه الحسنى وأوصافه المقدسة؛ عبدوه وأحبوه وقاموا بحقه؛ فهذه الغاية المقصودة من الخلق والأمر؛ معرفة الله وعبادته، فقام بذلك الموفقون من عباد الله الصالحين، وأعرض عن ذلك الظالمون المعرضون.

تم تفسيرها. والحمد لله.



تفسير سورة التحريم

وهي مدنية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْلَغْ مَرَضَاتَ زَوْجِكَ﴾ إلى قوله: ﴿فَبَيَّنْتَ وَابْكَا﴾ (١).

﴿١﴾ هذا عتاب من الله للنبي محمد ﷺ حين حرم على نفسه سُرِّيَّةَ مارية أو شرب العسل مراعاة لخاطر بعض زوجاته في قصة معروفة، فأنزل الله [تعالى] هذه الآيات. ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ﴾؛ أي: يا أيها الذي أنعم الله عليه بالنبوة والرسالة والوحي، ﴿لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ﴾: من الطيبات التي أنعم الله بها عليك وعلى أمتك، ﴿تَبْلَغْ﴾: بذلك التحريم ﴿مَرَضَاتَ زَوْجِكَ وَاللَّهُ عَفْوٌ رَحِيمٌ﴾ (٢). هذا تصريح بأن الله قد غفر لرسوله ورفع عنه اللوم ورحمه.

الفراق الذي لا يحصل في الغالب إلا مقرونًا بالبغض، فيتأثر من ذلك شيء كثير، فكل منهما يؤمر بالمعروف والمعاشرية الحسنة وعدم المشاقة والمنازعة وينصح على ذلك، ﴿وَإِنْ تَمَاسَرْتُمُ﴾: بأن لم يتفق الزوجان على إرضاعها لولدها، ﴿فَسَرِّضْ لَهُ أُخْرَى﴾ (٣)؛ غيرها، ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُمْ مَا بَيْنَكُمْ بِالْمُرُوفِ﴾ [البقرة: ٢٣٣]، وهذا حيث كان الولد يقبل لثدي غير أمه؛ فإن لم يقبل إلا لثدي أمه؛ تعينت لإرضاعه، ووجب عليها، وأجبرت إن امتنعت، وكان لها أجره المثل إن لم يتفق على مسمى. وهذا مأخوذ من الآية الكريمة من حيث المعنى؛ فإن الولد لما كان في بطن أمه مدة الحمل لا خروج له منه؛ عين تعالى على وليه النفقة، فلما ولد وكان يتمكن أن يتقوت من أمه ومن غيرها؛ أباح تعالى الأمرين؛ فإذا كان بحالة لا يمكن أن يتقوت إلا من أمه؛ كان بمنزلة الحمل، وتعينت أمه طريقًا لقوته.

﴿٧﴾ ثم قدر تعالى النفقة بحسب حال الزوج، فقال: ﴿لِيُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّنْ سَعَتِهِ﴾؛ أي: لينفق الغني من غناه؛ فلا ينفق نفقة الفقراء، ﴿وَمَنْ قُدِّرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ﴾؛ أي: ضيق عليه، ﴿فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ﴾: من الرزق. ﴿لَا يَكُلْفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَّا آتَاهَا﴾: وهذا مناسب للحكمة والرحمة الإلهية؛ حيث جعل كلًّا بحسبه، وخفف عن المعسر، وأنه لا يكلفه إلا ما آتاه؛ فلا يكلف الله نفسًا إلا وسعها في باب النفقة وغيرها، ﴿سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾ (٧)؛ وهذه بشارة للمعسرين أن الله تعالى سيزيل عنهم الشدة ويرفع عنهم المشقة؛ ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ (٨) إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا (٩) [الشرح: ٦٠: ٥].

﴿وَكَايْنٍ مِّنْ قَرِيْبَةٍ عَنَتْ عَنْ أُمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسِبْنَهَا حِسَابًا شَدِيدًا﴾ إلى آخر السورة.

﴿٨﴾ - ﴿٩﴾ يخبر تعالى عن إهلاكه الأمم العاتية والقرون المكذبة للرسول، وأن كثرتهم وقوتهم لم تغن عنهم شيئًا حين جاءهم الحساب الشديد والعذاب الأليم، وأن الله أذاقهم من العذاب ما هو موجب أعمالهم السيئة، ومع عذاب الدنيا؛ فإن الله أعد لهم في الآخرة عذابًا شديدًا، ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ يَتَذَكَّرُ أَلَكِبِ﴾؛ أي: يا ذوي العقول التي تفهم عن الله آياته وعبره، وأن الذي أهلك القرون الماضية بتكذيبهم؛ أن من بعدهم مثلهم، لا فرق بين الطائفتين.

﴿١١﴾ ثم ذكر عباده المؤمنين بما أنزل عليهم من كتابه الذي أنزله على رسوله محمد ﷺ؛ ليخرج الخلق من ظلمات

﴿٢﴾ وصار ذلك التحريم الصادر منه سبباً لشرع حكم عام لجميع الأمة، فقال تعالى: ﴿قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ﴾: وهذا عام في جميع أيمان المؤمنين؛ أي: قد شرع لكم وقدر ما به تنحل أيمانكم قبل الحنث وما به الكفارة بعد الحنث، وذلك كما في قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحَرَّمُوا طَيبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَقْسِدُوا إِنَّا اللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ [١٧] إلى أن قال: ﴿فَكَفَّرْنَاهُ؛ إِبْرَاهِيمَ عَشْرَةَ مَسْكِينٍ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعَمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كَسَوُوهُمْ أَوْ تَحْرِيرَ رَقَبٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامَ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ذَلِكَ كَفْرَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ﴾ [الماندة: ٨٧-٨٩]: فكل من حرم حلالاً عليه من طعام أو شراب أو سُرِّيَّة أو حلف يميناً بالله على فعل أو ترك ثم حنث وأراد الحنث؛ فعليه هذه الكفارة المذكورة. وقوله: ﴿وَاللَّهُ مَوْلَاكُمْ﴾؛ أي: متولي أموركم ومريكم أحسن تربية في أمر دينكم ودنياكم وما به يندفع عنكم الشر؛ فلذلك فرض لكم تحلة أيمانكم لتبرا ذممكم. ﴿وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾: الذي أحاط علمه بظواهركم وبواطنكم، وهو الحكيم في جميع ما خلقه وحكم به؛ فلذلك شرع لكم من الأحكام ما يعلم أنه موافق لمصالحكم ومناسب لأحوالكم.

﴿٣﴾ وقوله: ﴿وَإِذَا أَسْرَأْتَنِي إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا﴾: قال كثير من المفسرين: هي حفصة أم المؤمنين رضي الله عنها، أسر لها النبي ﷺ حديثاً، وأمر ألا تخبر به أحداً، فحدثت به عائشة رضي الله عنها، فعرفها ببعض ما قالت وأعرض عن بعضه كرمًا منه ﷺ وحلمًا، فقالت له: ﴿مَنْ أَبْأَكَ هَذَا﴾: الخبر الذي لم يخرج منا، ﴿قَالَ بَنَاتِي الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾: الذي لا تخفى عليه خافية، يعلم السر وأخفى.

﴿٤﴾ وقوله: ﴿إِنْ نَوَّأَ إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾: الخطاب للزوجتين الكريمتين حفصة وعائشة رضي الله عنهما حين كانتا سبباً لتحريم النبي ﷺ على نفسه ما يحبه، فعرض الله عليهما التوبة، وعاتبهما على ذلك، وأخبرهما أن قلوبهما قد صغت؛ أي: مالت وانحرفت عما ينبغي لهن من الورع والأدب مع الرسول ﷺ واحترامه، وألا يشققن عليه، ﴿وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ﴾؛ أي: تعاونا على ما يشق عليه ويستمر هذا الأمر منكم، ﴿فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاكُمْ وَجِبْرِيلُ وَصَلَّى الْمُرْسَلِينَ وَالْمَلَكُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهُيرٌ﴾ [١]؛ أي: الجميع أعوان للرسول مظاهرون. ومن كان هؤلاء أعوانه؛ فهو المنصور، وغيره ممن يناوئه؛ فهو مخدول، وفي هذا أكبر فضيلة وشرف لسيد المرسلين؛ حيث جعل الباري نفسه الكريمة وخواص خلقه أعواناً لهذا الرسول الكريم. وفيه من التحذير للزوجتين الكريمتين ما لا يخفى.

﴿٥﴾ ثم خوفهما أيضاً بحالة تشق على النساء غاية المشقة، وهو الطلاق، الذي هو أكبر شيء عليهن، فقال: ﴿عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبَدِّلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكُنَّ﴾؛ أي: فلا ترفعن عليه؛ فإنه لو طلقكن لم يضق عليه الأمر، ولم يكن مضطراً ليكن؛ فإنه سيجد ويبدله الله أزواجاً خيراً منكن ديناً وجمالاً، وهذا من باب التعليق الذي لم يوجد ولا يلزم وجوده؛ فإنه ما طلقهن، ولو طلقهن؛ لكان ما ذكره الله من هذه الأزواج الفاضلات، الجامعات بين الإسلام وهو القيام بالشرائع الظاهرة، والإيمان وهو القيام بالشرائع الباطنة من العقائد وأعمال القلوب، والقنوت وهو دوام الطاعة واستمرارها. ﴿تَبَيَّنَ﴾: عما يكرهه الله، فوصفهن بالقيام بما يحبه الله والتوبة عما يكرهه الله. ﴿تَبَيَّنَ وَأَبْكَارًا﴾ [٢]؛ أي: بعضهن ثيب وبعضهن أبكار؛ ليتنوع ﷺ فيما يحب.

سورة التحريم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَتَأْتِيَ النَّبِيَّ لَمْ تَحَرِّمْ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبَيَّنَ مَرْضَاتُ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ عَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١﴾ قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ وَاللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٢﴾ وَإِذَا أَسْرَأْتَنِي إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا فَلَمَّا بَيَّنَّاهُ يَدُ اللَّهِ عَلَيْهِ عَرَفَ بَعْضُهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ فَلَمَّا بَيَّنَّاهُ يَدُ اللَّهِ عَلَيْهِ قَالَتْ مَنْ أَبْأَكَ هَذَا قَالَ بَنَاتِي الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٣﴾ إِنْ نَوَّأَ إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاكُمْ وَجِبْرِيلُ وَصَلَّى الْمُرْسَلِينَ وَالْمَلَكُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهُيرٌ ﴿٤﴾ عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبَدِّلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكُنَّ مُؤَمِّنَاتٍ فَمِنْ تَبَيَّنَ عَيْنَاتِكُنَّ فَلْيَزِمَنَّ بَعْضُهُنَّ يَدَ بَعْضَةٍ لِيُطْلَقَ عَنْكُمْ فَاحْتَرِمُوا وَبَوَّأْنَا لِلَّذِينَ آمَنُوا وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَفُودَهَا النَّاسَ وَالْحِجَارَةَ عَلَيْهَا مَلِكُكُمْ غُلَاطٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٥﴾ يَتَأْتِيَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَعْزِدُوا الْيَوْمَ إِنَّمَا تَعْزُونَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٦﴾

٥٦١

سورة التحريم

سورة التحريم

فلما سمعن رضي الله عنهن هذا التخويف والتأديب؛ بادرن إلى رضا رسول الله ﷺ، فكان هذا الوصف منطبقاً عليهن، فصرن أفضل نساء المؤمنين. وفي هذا دليل على أن الله تعالى لا يختار لرسوله ﷺ إلا أكمل الأحوال وأعلى الأمور، فلما اختار الله لرسوله بقاء نسائه المذكورات معه دل على أنهن خير النساء وأكملهن.

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَوَ اَنفُسُكُمْ وَاَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُدُوهَا النَّاسُ وَالْجِبَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاطٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا اَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾.

﴿٦﴾ أي: يا مَنْ مَنَّ الله عليهم بالإيمان! قوموا بلوازمه وشروطه، ف ﴿قُوا اَنفُسُكُمْ وَاَهْلِيكُمْ نَارًا﴾ موصوفة بهذه الأوصاف الفظيعة، ووقاية الأنفس بالزمامها أمر الله امتثالاً ونهيه اجتناباً والتوبة عما يسخط الله ويوجب العذاب، ووقاية الأهل والأولاد بتأديبهم وتعليمهم وإجبارهم على أمر الله؛ فلا يسلم العبد إلا إذا قام بما أمر الله به في نفسه وفيمن تحت ولايته من الزوجات والأولاد وغيرهم ممن هم تحت ولايته وتصرفه، ووصف الله النار بهذه الأوصاف؛ ليزجر عباده عن التهاون بأمره، فقال: ﴿وقُدُوهَا النَّاسُ وَالْجِبَارَةُ﴾؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصْبٌ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَرَدُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٨]، ﴿عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاطٌ شِدَادٌ﴾؛ أي: غليظة أخلاقهم، شديد انتباههم يفزعون بأصواتهم ويخيفون بمرآهم ويهينون أصحاب النار بقوتهم، ويمثلون فيهم أمر الله الذي حتم عليهم العذاب، وأوجب عليهم شدة العقاب، ﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾. وهذا فيه أيضاً مدح للملائكة الكرام، وانقيادهم لأمر الله، وطاعتهم له في كل ما أمرهم به.

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَعْنَدُوا إِلَوهَ إِلَّا أَنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

﴿٧﴾ أي: يوبخ أهل النار يوم القيامة بهذا التوبيخ، فيقال لهم: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَعْنَدُوا إِلَوهَ﴾؛ أي: فإنه ذهب وقت الاعتذار وزال نفعه، فلم يبق الآن إلا الجزاء على الأعمال، وأنتم لم تقدموا إلا الكفر بالله والتكذيب بآياته ومحاربة رسله وأوليائه.

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا تُؤْبَوْنَ إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَنِ رَبِّكُمْ أَنَّ يَكْفَرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَدْخُلَكُمْ جَنَّتُ بَحْرَى مِنْ نَعْمَتِهَا الْأَنْهَرُ يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّاسَ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَنِهِمْ يَقُولُونَ رِبَّنَا اٰتِنَا لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

﴿٨﴾ قد أمر الله بالتوبة النصوح في هذه الآية، ووعد عليها بتكفير السيئات ودخول الجنات والفوز والفلاح، حين يسعى المؤمنون يوم القيامة بنور إيمانهم، ويمشون بضيائهم، ويتمتعون بروحه وراحته، ويشفقون إذا طفت الأنوار التي تعطى المنافقين، ويسألون الله أن يتم لهم نورهم، فيستجيب الله دعوتهم، ويوصلهم بما معهم من النور واليقين إلى جنات النعيم وجوار الرب الكريم، وكل هذا من آثار التوبة النصوح، والمراد بها التوبة العامة الشاملة لجميع الذنوب، التي عقدها العبد لله، لا يريد بها إلا وجهه والقرب منه، ويستمر عليها في جميع أحواله.

﴿يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ جِهْدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَيَسَّرُ الْمَصِيرُ﴾ (٩).

﴿٩﴾ يأمر الله تعالى نبيه ﷺ بجهد الكفار والمنافقين والإغلاظ عليهم في ذلك، وهذا شامل لجهادهم بإقامة الحجة عليهم ودعوتهم بالموعظة الحسنة وإبطال ما هم عليه من أنواع الضلال، وجهادهم بالسلاح والقتال لمن أبى أن يجيب دعوة الله وينقاد لحكمه؛ فإن هذا يجاهد ويغلظ له، وأما المرتبة الأولى؛ فتكون بالنبي هي أحسن؛ فالكفار والمنافقون لهم عذاب في الدنيا بتسليط الله لرسوله وحزبه عليهم وعلى جهادهم، وعذاب النار في الآخرة ﴿وَيَسَّرُ الْمَصِيرُ﴾ (٩): الذي يصير إليها كل شقي خاسر.

﴿١١﴾ ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ﴾: وهي آسية بنت مزاحم رضي الله عنها، ﴿إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَبِئْسَ مِنَ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَبِئْسَ مِنَ الْقَوَارِ الْأُظْلَمِينَ﴾ (١١): فوصفها الله بالإيمان والتضرع لربها وسؤالها أجل المطالب، وهو دخول الجنة ومجاورة الرب الكريم، وسؤالها أن ينجيها الله من فتنة فرعون وأعماله الخبيثة ومن فتنة كل ظالم، فاستجاب الله لها، فعاشت في إيمان كامل وثبات تام ونجاة من الفتن، ولهذا قال النبي ﷺ: «كمل من الرجال كثير، ولم يكمل من النساء إلا مريم بنت عمران، وآسية بنت مزاحم، وخديجة بنت خويلد. وفضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام» (١).

﴿١٢﴾ وقوله: ﴿وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا﴾؛ أي: حفظته وصانته عن الفاحشة؛ لكمال ديانتها وعفتها ونزاهتها، ﴿فَفَخَّنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا﴾: بأن نفخ جبريل عليه السلام في جيب درعها، فوصلت نفخته إلى مريم، فجاء منها عيسى عليه السلام الرسول الكريم والسيد العظيم، ﴿وَصَدَقَتْ بِكَلِمَتِ رَبِّهَا وَكُتِبَ فِيهَا﴾: وهذا وصف لها بالعلم والمعرفة؛ فإن التصديق بكلمات الله يشمل كلماته الدينية والقدرية، والتصديق بكتبه يقتضي معرفة ما به يحصل التصديق، ولا يكون ذلك إلا بالعلم والعمل، ولهذا قال: ﴿وَكُنْتُ مِنَ الْفَقَيْنِ﴾ (١٢): أي: المطيعين لله، المداومين على طاعته بخشية وخشوع. وهذا وصف لها بكمال العمل؛ فإنها رضي الله عنها صديقة. والصديقية هي كمال العلم والعمل.

تمت ولله الحمد.



تفسير سورة الملك

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (١) الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ (٢) الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَا تَرَى فِي خَلْقِ

﴿١١﴾ ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّٰخِلِينَ﴾ (١١) وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَبِئْسَ مِنَ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَبِئْسَ مِنَ الْقَوَارِ الْأُظْلَمِينَ (١٢) وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَصَدَقَتْ بِكَلِمَتِ رَبِّهَا وَكُتِبَ فِيهَا وَكَانَتْ مِنَ الْمُقْنِينَ﴾ (١٢)

هذان المثالان اللذان ضربهما الله للمؤمنين والكافرين؛ ليبين لهم أن اتصال الكافر بالمؤمن وقربه منه لا يفيد شيئا، وأن اتصال المؤمن بالكافر لا يضره شيئا مع قيامه بالواجب عليه، فكان في ذلك إشارة وتحذيرا لزوجات النبي ﷺ عن المعصية، وأن اتصالهن به ﷺ لا ينفعهن شيئا مع الإساءة، فقال:

الرَّحْمَنُ مِنْ تَفَوُّثٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ ﴿١﴾ ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ حَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴿٢﴾

﴿١﴾ ﴿تَبَرَّكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ﴾؛ أي: تعظم وتعالى وكثر خيره وعم إحسانه، من عظمته أن بيده ملك العالم العلوي والسفلي، فهو الذي خلقه ويتصرف فيه بما شاء من الأحكام القدرية والأحكام الدينية التابعة لحكمته. ومن عظمته كمال قدرته التي يقدر بها على كل شيء وبها أوجد ما أوجد من المخلوقات العظيمة؛ كالسماوات والأرض.

﴿٢﴾ ﴿وَالَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ﴾؛ أي: قدر لعباده أن يحييهم ثم يميتهم؛ ﴿يَسْأَلُكُمْ أَتُكْمَلُوا خَيْرًا أَمْ لَا﴾؛ أي: أحلصه وأصوبه، وذلك أن الله خلق عباده وأخرجهم لهذه الدار، وأخبرهم أنهم سيتقلون منها، وأمرهم ونهاهم، وابتلاهم بالشهوات المعارضة لأمره؛ فمن انقاد لأمر الله وأحسن العمل؛ أحسن الله له الجزاء في الدارين، ومن مال مع شهوات النفس ونبذ أمر الله؛ فله شر الجزاء. ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾: الذي له العزة كلها، التي قهر بها جميع الأشياء وانقادت له المخلوقات. ﴿الْفَقُورُ﴾: عن المسكين والمقصرين والمذنبين، خصوصًا إذا تابوا وأتابوا؛ فإنه يغفر ذنوبهم، ولو بلغت عنان السماء، ويستر عيوبهم، ولو كانت ملء الدنيا.

﴿٣﴾ ﴿الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا﴾؛ أي: كل واحدة فوق الأخرى، ولسن طبقة واحدة، وخلقها في غاية الحسن والإتقان، مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَوُّثٍ؟ أي: خلل ونقص، وإذا انتفى النقص من كل وجه؛ صارت حسنة كاملة متناسبة من كل وجه في لونها وهيئتها وارتفاعها وما فيها من الشمس والقمر والكواكب النيرات الثوابت منهن والسيارات، ولما كان كمالها معلومًا؛ أمر تعالى بتكرار النظر إليها والتأمل في أرجائها؛ قال: ﴿فَارْجِعِ الْبَصَرَ﴾؛ أي: أعده إليها ناظرًا معتبرًا، هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ؟ أي: نقص واختلال.

﴿٤﴾ ﴿ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ﴾؛ والمراد بذلك كثرة التكرار، ﴿يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ حَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ﴾؛ أي: عاجزًا عن أن يرى خللاً أو فطورًا، ولو حرص غاية الحرص.

ثم صرح بذكر حسننها، فقال:

﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ ﴿٥﴾ وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَيَسُومُونَ السَّعِيرَ ﴿٦﴾ إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورٌ ﴿٧﴾ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴿٨﴾ قَالُوا بَلَى قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ ﴿٩﴾ وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿١٠﴾ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ فَسَوْحًا لَأَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿١١﴾﴾.

﴿٥﴾ أي: ولقد جملنا ﴿السَّمَاءَ الدُّنْيَا﴾: التي ترونها وتليكم، ﴿بِمَصَابِيحَ﴾: وهي النجوم على اختلافها في النور والضياء؛ فإنه لولا ما فيها من النجوم؛ لكانت سقفاً مظلمًا لا حسن فيه ولا جمال، ولكن جعل الله هذه النجوم زينة للسماء، وجمالاً ونوراً وهداية يهتدى بها في ظلمات البر والبحر، ولا ينافي إخباره أنه زين السماء الدنيا بمصابيح أن يكون كثير من النجوم

سورة الملك

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تَبَرَّكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَسْأَلَكُمْ أَتُكْمَلُونَ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ ﴿٢﴾ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَوُّثٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ ﴿٣﴾ ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ حَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴿٤﴾ وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ ﴿٥﴾ وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَيَسُومُونَ السَّعِيرَ ﴿٦﴾ إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورٌ ﴿٧﴾ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴿٨﴾ قَالُوا بَلَى قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ ﴿٩﴾ وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿١٠﴾ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ فَسَوْحًا لَأَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿١١﴾

٥٦٢

الإيمان بحسب ما من الله عليهم به من الاقتداء بالمعقول والمنقول؛ فسبحان من يختص بفضله من يشاء، ويمن على من يشاء من عباده، ويخذل من لا يصلح للخير.

﴿١١﴾ قال تعالى عن هؤلاء الداخلين للنار المعترفين بظلمهم وعنادهم: ﴿فَاعْرِفُوا بِذَنبِهِمْ فَسُحْقًا لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾؛ أي: بعداً لهم وخسارة وشقاء؛ فما أشقاهم وأرداهم؛ حيث فاتهم ثواب الله، وكانوا ملازمين للسعير التي تستعر في أبدانهم، وتطلع على أفئدتهم.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾.

﴿١٢﴾ لما ذكر حالة الأشقياء الفجار؛ ذكر وصف السعداء الأبرار، فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ﴾؛ أي: في جميع أحوالهم، حتى في الحالة التي لا يطلع عليهم فيها إلا الله؛ فلا يقدمون على معاصيه، ولا يقصرون عما أمرهم به. ﴿لَهُمْ مَغْفِرَةٌ﴾: لذنوبهم، وإذا غفر الله ذنوبهم؛ وقاهم شرها ووقاهم عذاب الجحيم. ﴿وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾؛ وهو ما أعدّه الله لهم في الجنة من النعيم المقيم والملك الكبير واللذات المتواصلات والقصور والمنازل العاليات والحدود الحسان والخدم والولدان، وأعظم من ذلك وأكبر، رضا الرحمن الذي يحله على ساكني الجنان.

﴿وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾
﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾.

﴿١٣﴾ هذا إخبار من الله بسعة علمه وشمول لطفه، فقال: ﴿وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ﴾؛ أي: كلها سواء لديه لا يخفى عليه منها خافية، ف ﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾؛ أي: بما فيها من النيات والإرادات؛ فكيف بالأقوال والأفعال التي تسمع وترى؟!

﴿١٤﴾ ثم قال مستدلاً بدليل عقلي على علمه: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ﴾؛ فمن خلق الخلق وأتقنه وأحسنه؛ كيف لا يعلمه؟! ﴿وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾: الذي لطف علمه وخبره، حتى أدرك السرائر والضمائر والخبائيا والخفايا والغيوب، ﴿فَإِنَّهُ يَعْلَمُ الْسِّرَّ وَأَخْفَى﴾ [طه: ٧]، ومن معاني اللطيف أنه الذي يلطف بعبدته ووليه، فيسوق إليه البر والإحسان من حيث لا يشعر، ويعصمه من الشر من حيث لا يحتسب، ويرقيه إلى أعلى المراتب بأسباب لا تكون من العبد على بال، حتى

فوق السماوات السبع؛ فإن السماوات شفافه، وبذلك تحصل الزينة للسماء الدنيا وإن لم تكن الكواكب فيها، ﴿وَجَعَلْنَاهَا﴾؛ أي: المصابيح ﴿رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ﴾: الذين يريدون استراق خبر السماء، فجعل الله هذه النجوم حراسة للسماء عن تلقف الشياطين أخبار الأرض؛ فهذه الشهب التي ترمى من النجوم أعدّها الله في الدنيا للشياطين، ﴿وَأَعَدَدْنَا لَهُمْ﴾: في الآخرة ﴿عَذَابَ السَّعِيرِ﴾؛ لأنهم تمردوا على الله، وأضلوا عباده.

﴿١٥﴾ ولهذا كان أتباعهم من الكفار مثلهم قد أعد الله لهم عذاب السعير؛ فلهمنا قال: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَسِئسَ الْمَصِيرُ﴾؛ الذي يهان به أهله غاية الهوان.

﴿١٦﴾ ﴿إِذَا أُلْقُوا فِيهَا﴾: على وجه الإهانة والذل، ﴿يَسْمِعُوا لَهَا شَيْهَةً﴾؛ أي: صوتاً عالياً فظيعاً.

﴿١٧﴾ ﴿كَأَذِّمَ مِنْ أَلْفِظٍ﴾؛ أي: تكاد على اجتماعها أن يفارق بعضها بعضاً وتتقطع من شدة غيظها على الكفار؛ فما ظنك ما تفعل بهم إذا حُصلوا فيها؟! ثم ذكر توبيخ الخزنة لأهلها، فقال: ﴿كُلَّمَا أَلْقَى فِيهَا فَوْجٌ سَأَلْتُمُ خَزَنَتَهَا أَلَا يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ﴾؛ أي: حالكم هذه واستحقاقكم النار كأنكم لم تخبروا عنها ولم تحذركم النذر منها.

﴿١٨﴾ ﴿قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ﴾؛ فجمعوا بين تكذيبهم الخاص والتكذيب العام بكل ما أنزل الله، ولم يفهم ذلك، حتى أعلنوا بضلال الرسل المنذرين، وهم الهداة المهتدون، ولم يكتفوا بمجرد الضلال، بل جعلوا ضلالهم ضلالاً كبيراً؛ فأي عناد وتكبر وظلم يشبه هذا؟!

﴿١٩﴾ ﴿وَقَالُوا﴾: معترفين بعدم أهليتهم للهدى والرشاد: ﴿لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾؛ فنفوا عن أنفسهم طرق الهدى، وهي السمع لما أنزل الله وجاءت به الرسل، والعقل الذي ينفع صاحبه ويوقفه على حقائق الأشياء وإيثار الخير والانزجار عن كل ما عاقبه ذميمة، فلا سمع لهم ولا عقل. وهذا بخلاف أهل اليقين والعرفان وأرباب الصدق والإيمان؛ فإنهم أيدوا إيمانهم بالأدلة السمعية، فسمعوا ما جاء من عند الله وجاء به رسول الله علماً ومعرفة وعملاً، والأدلة العقلية المعرفة للهدى من الضلال، والحسن من القبيح، والخير من الشر، وهم في

إنه يذيقه المكاره ليوصله بها إلى المحاب الجليلة والمطالب النبيلة.

﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾ (١٥).

﴿١٥﴾ أي: هو الذي سخر لكم الأرض وذلّلها؛ لتدركوا منها كل ما تعلقت به حاجتكم من غرس وبناء وحرث وطرق يتوصل بها إلى الأنظار النائية والبلدان الشاسعة، ﴿فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا﴾؛ أي: لطلب الرزق والمكاسب، ﴿وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾ (١٥)؛ أي: بعد أن تستقلوا من هذه الدار التي جعلها الله امتحاناً وبلغة يتبلغ بها إلى الدار الآخرة؛ تبعثون بعد موتكم وتحشرون إلى الله؛ ليجازيكم بأعمالكم الحسنة والسيئة.

﴿ءَأَمِنْتُمْ مِّنَ السَّمَاءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ﴾ إلى قوله: ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ (١٨).

﴿١٦﴾ هذا تهديد ووعد لمن استمر في طغيانه وتعديه وعصيانه الموجب للنكال وحلول العقوبة، فقال: ﴿ءَأَمِنْتُمْ مِّنَ السَّمَاءِ﴾؛ وهو الله تعالى العالي على خلقه، ﴿أَن يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ﴾ (١٦)؛ بكم وتضطرب حتى تهلكوا وتتلّفوا.

﴿١٧﴾، ﴿١٨﴾، ﴿١٩﴾، ﴿٢٠﴾ أم أمنتم من في السماء أن يرسل عليكم حاصباً؟ أي: عذاباً من السماء يحصبكم ويشتم الله منكم، ﴿فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ﴾ (١٧)؛ أي: كيف يأتيكم ما أنذرتكم به الرسل والكتب؛ فلا تحسبوا أن أمنكم من الله أن يعاقبكم بعقاب من الأرض ومن السماء ينفعكم، فستجدون عاقبة أمركم سواء طال عليكم الأمد أو قصر؛ فإن من قبلكم كذبوا كما كذبتهم، فأهلكهم الله تعالى؛ فانظروا كيف إنكار الله عليهم؛ عاجلهم بالعقوبة الدنيوية قبل عقوبة الآخرة؛ فاحذروا أن يصيبكم ما أصابهم.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَفْوَتٍ وَيَقِظْنَ مَا يُمَسِّكُهُنَّ إِلَّا الرِّحْمَنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ﴾ (١٨).

﴿١٩﴾ وهذا عتاب وحث على النظر إلى حالة الطير التي سخرها الله وسخر لها الجو والهواء؛ تصف فيه أجنحتها للطيران وتقبضها للوقوع، فتظل سابحة في الجو مترددة فيه بحسب إرادتها وحاجتها، ﴿مَا يُمَسِّكُهُنَّ إِلَّا الرِّحْمَنُ﴾؛ فإنه الذي سخر لهن الجو وجعل أجسادهن وخلقتهن في حالة مستعدة للطيران؛ فمن نظر في حالة الطير واعتبر فيها؛ دلته على قدرة الباري وعنايته الربانية، وأنه الواحد الأحد الذي لا تنبغي العبادة إلا له. ﴿إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ﴾ (١٩)؛ فهو المدبر لعباده بما يليق بهم وتقتضيه حكمته.

﴿أَمَّنْ هَٰذَا الَّذِي هُوَ جُنْدٌ لَّكَ يَصُرُّكَ مِّنْ دُونِ الرَّحْمَنِ إِنِ الْكَافِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ﴾ (٢٠) أمَّن هَٰذَا الَّذِي يَرزُقُكَ إِنِ امْسَكَ رِزْقَهُ، بَلْ لَّجُوا فِي غُرُورٍ وَنُفُورٍ (٢١).

﴿٢٠﴾ يقول تعالى للعتاة النافرين عن أمره، المعرضين عن الحق: ﴿أَمَّنْ هَٰذَا الَّذِي هُوَ جُنْدٌ لَّكَ يَصُرُّكَ مِّنْ دُونِ الرَّحْمَنِ﴾؛ أي: ينصرمك إذا أراد الرحمن بكم سوءاً فيدفعه عنكم؛ أي: من الذي ينصرمك على أعدائكم غير الرحمن؛ فإنه تعالى هو الناصر المعز المذل، وغيره من الخلق لو اجتمعوا على نصر عبد لم يتفعوه بمثقال ذرة على أي عدو كان؛ فاستمرار الكافرين على

سورة الملك
وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (١٣) أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ (١٤) هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ (١٥) ءَأَمِنْتُمْ مِّنَ السَّمَاءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ (١٦) أَمْ أَمِنْتُمْ مِّنَ السَّمَاءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ (١٧) وَلَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ (١٨) أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَفْوَتٍ وَيَقِظْنَ مَا يُمَسِّكُهُنَّ إِلَّا الرِّحْمَنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ (١٩) أَمَّنْ هَٰذَا الَّذِي هُوَ جُنْدٌ لَّكَ يَصُرُّكَ مِّنْ دُونِ الرَّحْمَنِ إِنِ الْكَافِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ (٢٠) أَمَّنْ هَٰذَا الَّذِي يَرزُقُكَ إِنِ امْسَكَ رِزْقَهُ، بَلْ لَّجُوا فِي غُرُورٍ وَنُفُورٍ (٢١) أَمَّنْ يَمِشُ مِثْلَا عَلَى وَجْهِهِ هَذَى أَمَّنْ يَمِشُ سَوِيًّا عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٢٢) قُلْ هُوَ الَّذِي أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ (٢٣) قُلْ هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٢٤) وَيَقُولُونَ مَتَى هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٢٥) قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ عِندَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ (٢٦)

﴿٢١﴾ ف ﴿إِنَّمَا أَعْلَمَ عِنْدَ اللَّهِ﴾: لا عند أحد من الخلق، ولا ملازمة بين هذا الخبر وبين الإخبار بوقته؛ فإن الصدق يعرف بأدلتها، وقد أقام الله من الأدلة والبراهين على صحته ما لا يبقى معه أدنى شك لمن ألقى السمع وهو شهيد.

﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سَيِّئَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ إلى آخر السورة.

﴿٢٢﴾ يعني أن محل تكذيب الكفار وغرورهم به حين كانوا في الدنيا؛ فإذا كان يوم الجزاء، ورأوا العذاب منهم ﴿زُلْفَةً﴾؛ أي: قريباً؛ ساءهم ذلك وأفظعهم وأقلقهم، فتغيرت لذلك وجوههم، ووبخوا على تكذيبهم، وقيل لهم: ﴿هَذَا الَّذِي كُنتُمْ بِهِ تَدْعُونَ﴾: فالיום رأيتموه عياناً، وانجلى لكم الأمر، وتقطعت بكم الأسباب، ولم يبق إلا مباشرة العذاب.

﴿٢٣﴾ ولما كان المكذبون للرسول ﷺ الذين يردون دعوته ينتظرون هلاكه ويتربصون به رب المنون؛ أمره الله أن يقول لهم: إنكم وإن حصلت لكم أمانيكم ﴿وَأَهْلَكِيَ اللَّهُ وَمَن مَّعِيَ﴾: فليس ذلك بنافع لكم شيئاً؛ لأنكم كفرتم بآيات الله، واستحققتم العذاب؛ فمن يجيركم ﴿مِنَ عَذَابِ إِلَهِ﴾: قد تحتم وقوعه بكم؛ فإذا تعبكم وحرصكم على هلاكي غير مفيد ولا مجد لكم شيئاً.

﴿٢٤﴾ ومن قولهم: إنهم على هدى والرسول على ضلال؛ أعادوا في ذلك وأبدوا، وجادلوا عليه وقاتلوا، فأمر الله نبيه أن يخبر عن حاله وحال أتباعه ما به يتبين لكل أحد هداهم وتقواهم، وهو أن يقولوا: ﴿ءَأَمَّا بِيَدِهِ وَتَوَكَّلْنَا﴾: والإيمان يشمل التصديق الباطن والأعمال الباطنة والظاهرة، ولما كانت الأعمال وجودها وكمالها متوقفة على التوكل؛ خص الله التوكل من بين سائر الأعمال، وإلا؛ فهو داخل في الإيمان، ومن جملة لوازمه؛ كما قال تعالى: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنتُمْ شُكُومِينَ﴾ [المائدة: ٢٣]؛ فإذا كانت هذه حال الرسول وحال من اتبعه، وهي الحال التي تتعين للفلاح وتوقف عليها السعادة، وحالة أعدائه بضدها؛ فلا إيمان لهم ولا توكل؛ عَلِمَ بذلك من هو على هدى ومن هو في ضلال مبين.

﴿٢٥﴾ ثم أخبر عن انفراده بالنعم، خصوصاً الماء الذي جعل الله منه كل شيء حي، فقال: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ

كفرهم بعد أن علموا أنه لا ينصرهم أحد من دون الرحمن غرور وسفه.

﴿٢٦﴾ ﴿أَمَنَ هَذَا الَّذِي بَرَزَكُمُ إِن أَسْكَ رِزْقَهُ﴾؛ أي: الرزق كله من الله؛ فلو أمسك عنكم الرزق؛ فمن الذي يرسله لكم؟ فإن الخلق لا يقدرُونَ على رزق أنفسهم؛ فكيف بغيرهم؟! فالرازق المنعم الذي لا يصيب العباد نعمة إلا منه هو الذي يستحق أن يفرد بالعبادة، ولكن الكافرون ﴿لَجُوا﴾؛ أي: استمروا ﴿فِي عَتْوٍ﴾؛ أي: قسوة وعدم لين للحق، ﴿وَنُفُورٍ﴾؛ أي: شرود عن الحق.

﴿أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى أَمَن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾.

﴿٢٧﴾ أي: أي الرجلين أهدى؛ من كان تائهاً في الضلال غارقاً في الكفر قد انتكس قلبه فصار الحق عنده باطلاً والباطل حقاً، ومن كان عالماً بالحق، مؤثراً له، عاملاً به، يمشي على الصراط المستقيم في أقواله وأعماله وجميع أحواله؟! فبمجرد النظر إلى حال الرجلين؛ يعلم الفرق بينهما والمهتدي من الضال منهما. والأحوال أكبر شاهد من الأقوال.

﴿قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ﴾ إلى قوله: ﴿وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾.

﴿٢٨﴾ يقول تعالى مبيناً أنه المعبود وحده وداعياً عباده إلى شكره وإفراده بالعبادة: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ﴾؛ أي: أوجدكم من العدم؛ من غير معاون له ولا مظاهر، ولما أنشأكم؛ كمل لكم الوجود بالسمع والأبصار والأفتدة، وهذه الثلاثة هي أفضل أعضاء البدن وأكمل القوى الجسمانية، ولكنكم مع هذا الإنعام ﴿فَلَيْلًا مَا تَشْكُرُونَ﴾: الله، قليل منكم الشاكر، وقليل منكم الشكر.

﴿٢٩﴾ ﴿قُلْ هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ﴾؛ أي: بشكم في أقطارها، وأسكنكم في أرجائها، وأمركم ونهاكم، وأسدى عليكم من النعم ما به تتفنون، ثم بعد ذلك يحشركم ليوم القيامة، ولكن هذا الوعد بالجزاء ينكره هؤلاء المعاندون.

﴿٣٠﴾ ﴿وَيَقُولُونَ﴾: تكذيباً: ﴿مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾؟ جعلوا علامة صدقهم أن يخبروهم بوقت مجيئه، وهذا ظلم وعناد.

عَوْرًا؛ أَي: غائراً، ﴿فَمَنْ يَأْتِكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ﴾: تشربون منه وتسقون أنعامكم وأشجاركم وزروعكم؟ وهذا استفهام بمعنى النفي؛ أَي: لا يقدر أحد على ذلك غير الله تعالى.

تم تفسير سورة الملك والحمد لله.



تفسير سورة ن

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ت وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ ١ ﴿مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ﴾ ٢ ﴿وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ﴾ ٣ ﴿وَأَنْتَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ ٤ ﴿فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ﴾ ٥ ﴿بِأَيِّكُمْ الْمَفْتُونُ﴾ ٦ ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ ٧ ﴿

١، ٢﴾ يقسم تعالى بالقلم، وهو اسم جنس شامل للأقلام التي تكتب بها أنواع العلوم، ويسطر بها المشور والمنظوم، وذلك أن القلم وما يسطر به من أنواع الكلام من آياته العظيمة، التي تستحق أن يقسم الله بها على براءة نبيه محمد ﷺ مما نسب إليه أعداؤه من الجنون؛ فنفى عنه ذلك بنعمة ربه عليه وإحسانه؛ حيث منَّ عليه بالعقل الكامل والرأي الجزل والكلام الفصل، الذي هو أحسن ما جرت به الأقلام وسطره الأنام، وهذا هو السعادة في الدنيا.

﴿٣﴾ ثم ذكر سعادته في الآخرة، فقال: ﴿وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ﴾ ٣؛ أَي: لأجراً عظيماً كما يفيد التكرير، غير مقطوع، بل هو دائم مستمر، وذلك لما أسلفه ﷺ من الأعمال الصالحة والأخلاق الكاملة والهداية إلى كل خير.

﴿٤﴾ ولهذا قال: ﴿وَأَنْتَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ ٤؛ أَي: علياً به، مستعلياً بخلقك الذي منَّ الله عليك به. وحاصل خلقه العظيم ما فسره به أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها لمن سألها عنه، فقالت: كان خلقه القرآن^(١). وذلك نحو قوله تعالى: ﴿خُلُقٌ نَقِيٌّ وَأَمْرٌ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضٌ عَنِ الْجَاهِلِيَّةِ﴾ ١٩٩، ﴿فِيمَا رَحِمَهُ مِنَ اللَّهِ لَنْتَ لَهُمْ﴾ ١٥٩، الآية، ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾ ١٢٨، الآية، وما أشبه ذلك من الآيات الدالات على اتصافه ﷺ بمكارم الأخلاق، والآيات الحاثات على الخلق العظيم، فكان له منها أكملها وأجلها، وهو في كل خصلة منها في الذروة العليا، فكان ﷺ سهلاً ليناً قريباً من الناس، مجيباً لدعوة من دعاه، قاضياً لحاجة من استقصاه، جابراً لقلب من سألَه لا يحرمه ولا يرده خائباً. وإذا أراد أصحابه منه أمراً؛ وافقهم عليه وتابعهم فيه إذا لم يكن فيه محذور، وإن عزم على أمر؛ لم يستبد به دونهم، بل يشاورهم ويؤامرهم، وكان يقبل من محسنهم، ويعفو عن مسيئهم، ولم يكن يعاشر جليساً إلا أتم عشرة وأحسنها، فكان لا يعبس في وجهه، ولا يغفلظ عليه في مقاله، ولا يطوي عنه بشره، ولا يمسك عليه فلتات لسانه، ولا يؤاخذ به بما يصدر منه من جفوة، بل يحسن إليه غاية الإحسان، ويحتمله غاية الاحتمال ﷺ.

﴿٥﴾، ﴿٦﴾ فلما أنزله الله في أعلى المنازل من جميع الوجوه، وكان أعداؤه ينسبون إليه أنه مجنون مفتون؛ قال: ﴿فَسَتُبْصِرُ

سُورَةُ الْقَلَمِ

فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سَيَّتَتْ وَجُوهَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَقِيلَ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَدْعُونَ ﴿١﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِيَ اللَّهُ وَمَنْ مَعِيَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَنْ يُجِيرُ الْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢﴾ قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ أَمَّنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٣﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ ﴿٤﴾

سُورَةُ الْقَلَمِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

ت وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴿١﴾ مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴿٢﴾ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ﴿٣﴾ وَأَنْتَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾ فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ ﴿٥﴾ بِأَيِّكُمْ الْمَفْتُونُ ﴿٦﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿٧﴾ فَلَا تَطِيعُ الْمَكِيدِينَ ﴿٨﴾ وَذُو لَوْنَيْنِ فَتَدْمُهُنَّ ﴿٩﴾ وَلَا تَطِيعُ كُلَّ حَلَافٍ مَّهِينٍ ﴿١٠﴾ هَمَزَ لُشَانَ بَنِي إِسْرَءِيلَ ﴿١١﴾ مَنَاعَ لِلخَيْرِ مُعْتَدٍ أُنِيمٍ ﴿١٢﴾ عُنْتَلِ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ ﴿١٣﴾ أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ﴿١٤﴾ إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٥﴾

﴿١٧﴾ أَيُّ: كثير الإثم والذنوب المتعلقة في حق الله تعالى.

﴿١٨﴾ عَتَلَ بَعْدَ ذَلِكَ؛ أي: غليظ شرس الخلق، قاس، غير منقاد للحق. ﴿زَنِيرٌ﴾؛ أي: دعي ليس له أصل ولا مادة ينتج منها الخير، بل أخلاقه أقيح الأخلاق، ولا يرجى منه فلاح. له زِنْمَةٌ؛ أي: علامة في الشر يعرف بها.

﴿١٩﴾ وحاصل هذا أن الله تعالى نهى عن طاعة كل حلاف كذاب خسيس النفس سعى الأخلاق، خصوصاً الأخلاق المتضمنة للإعجاب بالنفس، والتكبر على الحق وعلى الخلق، والاحتقار للناس بالغبية والنميمة، والطعن فيهم، وكثرة المعاصي.

﴿٢٠﴾ وهذه الآيات وإن كانت نزلت في بعض المشركين؛ كالوليد بن المغيرة أو غيره؛ لقوله عنه: ﴿أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾؛ أي: لأجل كثرة ماله وولده طغى واستكبر عن الحق ودفعه حين جاءه وجعله من جملة أساطير الأولين التي يمكن صدقها وكذبها؛ فإنها عامة في كل من اتصف بهذا الوصف؛ لأن القرآن نزل لهداية الخلق كلهم، ويدخل فيه أول الأمة وآخرهم، وربما نزل بعض الآيات في سبب أو في شخص من الأشخاص، لتتضح به القاعدة العامة، ويعرف به أمثال الجزئيات الداخلة في القضايا العامة.

﴿٢١﴾ ثم توعد تعالى من جرى منه ما وصف الله بأن الله سيسمه ﴿عَلَى الْخُرُوطِ﴾؛ في العذاب، وليعذبه عذاباً ظاهراً يكون عليه سمة وعلامة في أشق الأشياء عليه وهو وجهه.

﴿٢٢﴾ إِنَّا بَلَوْنَهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إلى آخر القصة.

﴿٢٣﴾، ﴿٢٤﴾ يقول تعالى: إِنَّا بَلَوْنَا هَؤُلَاءِ الْمَكْذِبِينَ بِالْخَيْرِ، وَأَمَلْنَاهُمْ، وَأَمَدَدْنَاهُمْ بما شئنا من مال وولد وطول عمر ونحو ذلك مما يوافق أهواءهم، لا لكرامتهم علينا، بل ربما يكون استدراجاً لهم من حيث لا يعلمون، فاغترارهم بذلك نظير اغترار أصحاب الجنة الذين هم فيها شركاء، حين أئبعت أشجارها، وزهت ثمارها، وأن وقت صرامها وجزموا أنها في أيديهم وطوع أمرهم، وأنه ليس ثم مانع يمنعهم منها، ولهذا أقسموا وحلفوا من غير استثناء أنهم سيصرمونها؛ أي: يجذونها مصبحين، ولم يدروا أن الله بالمرصاد، وأن العذاب سيخلفهم عليها ويبادرهم إليها.

﴿٢٥﴾ يَأْتِيَكُمْ الْمَفْتُونُ؛ وقد تبين أنه أهدي الناس وأكملهم لنفسه ولغيره، وأن أعداءه أضل الناس وشر الناس للناس، وأنهم هم الذين فتنوا عباد الله وأضلواهم عن سبيله، وكفى بعلم الله بذلك؛ فإنه هو المحاسب المجازي.

﴿٢٦﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُنْهَكِينَ؛ وهذا فيه تهديد للضالين، ووعد للمهتدين، وبيان لحكمة الله؛ حيث كان يهدي من يصلح للهداية دون غيره.

﴿٢٧﴾ فَلَا تَطْعُ الْمُنْكَذِبِينَ إلى قوله: ﴿سَتِيسُدُّ عَلَى الْخُرُوطِ﴾.

﴿٢٨﴾ يقول الله تعالى لنبية محمد ﷺ: ﴿فَلَا تَطْعُ الْمُنْكَذِبِينَ﴾: الذين كذبوك وعاندوا الحق؛ فإنهم ليسوا أهلاً لأن يطاعوا؛ لأنهم لا يأمرهم إلا بما يوافق أهواءهم، وهم لا يريدون إلا الباطل؛ فالمطيع لهم مقدم على ما يضره، وهذا عام في كل مكذب وفي كل طاعة ناشئة عن التكذيب، وإن كان السياق في شيء خاص، وهو أن المشركين طلبوا من النبي ﷺ أن يسكت عن عيب آلهم ودينهم ويسكتوا عنه.

﴿٢٩﴾ ولهذا قال: ﴿وَدُّوا﴾؛ أي: المشركون، ﴿لَوْ تَذَرُهُمْ﴾؛ أي: توافقه على بعض ما هم عليه؛ إما بالقول، أو بالفعل، أو بالسكوت عما يتعين الكلام فيه ﴿فَيَذَهُنَّ﴾؛ ولكن اصدع بأمر الله، وأظهر دين الإسلام؛ فإن تمام إظهاره نقض ما يضاذه وعيب ما يناقضه.

﴿٣٠﴾ وَلَا تَطْعُ كُلَّ حَلَّافٍ؛ أي: كثير الحلف؛ فإنه لا يكون كذلك إلا وهو كذاب، ولا يكون كذاباً إلا وهو ﴿مُهَيِّنٌ﴾؛ أي: خسيس النفس، ناقص الهمة، ليس له رغبة في الخير، بل إرادته في شهوات نفسه الخسيسة.

﴿٣١﴾ هَازٍ؛ أي: كثير العيب للناس والطعن فيهم بالغبية والاستهزاء وغير ذلك، ﴿مَسَاءٌ بَنِيمٍ﴾؛ أي: يمشي بين الناس بالنميمة، وهو نقل كلام بعض الناس لبعض لقصد الإفساد بينهم وإيقاع العداوة والبغضاء.

﴿٣٢﴾ مَنَاعٌ لِّلْخَيْرِ: الذي يلزمه القيام به من النفقات الواجبة والكفارات والزكوات وغير ذلك. ﴿مُعْتَدٍ﴾: على الخلق؛ يظلمهم في دمائهم وأموالهم وأعراضهم.

﴿٤٦﴾ ﴿أَمْ تَشَاءُ لَهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَفْرَقٍ مِثْلُ مَا أَفْعَلُ﴾؛ أي: ليس لنفورهم عنك وعدم تصديقهم لك سبب يوجب لهم ذلك؛ فإنك تعلمهم وتدعوهم إلى الله لمحض مصلحتهم من غير أن تطلبهم من أموالهم مغرمًا يثقل عليهم.

﴿٤٧﴾ ﴿أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْنُتُونَ﴾؛ ما كان عندهم من الغيوب، وقد وجدوا فيها أنهم على حق، وأن لهم الثواب عند الله؛ فهذا أمر ما كان، وإنما كانت حالهم حال معاند ظالم.

﴿٤٨﴾ - ﴿٥٠﴾ فلم يبق إلا الصبر لأذاهم والتحمل لما يصدر منهم والاستمرار على دعوتهم، ولهذا قال: ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾؛ أي: لما حكم به شرعًا وقدرًا؛ فالحكم القدري يصبر على المؤذي منه ولا يلتقي بالسخط والجزع، والحكم الشرعي يقابل بالقبول والتسليم والانقياد التام لأمره. وقوله: ﴿وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ﴾: وهو يونس بن متى عليه الصلاة والسلام؛ أي: ولا تشابهه في الحال التي أوصلته وأوجبت له الانحباس في بطن الحوت، وهو عدم صبره على قومه الصبر المطلوب منه وذهابه مغاضبًا لربه، حتى ركب في البحر، فافتزع أهل السفينة حين ثقلت بأهلها أيهم يلقون؛ لكي تخف بهم، فوقعت القرعة عليه، فالتقمه الحوت وهو مليم. وقوله: ﴿إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْشُومٌ﴾؛ أي: وهو في بطنها قد كظمت عليه، أو: نادى وهو مغتم مهتم، فقال: لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين، فاستجاب الله له، وقذفه الحوت من بطنها بالعراء وهو سقيم، وأثبت الله عليه شجرة من يقطين، ولهذا قال هنا: ﴿وَلَوْلَا أَن تَذَكَّرَهُ يَرَمَ تَ رَبِّهِ لَنَبَذَ بِالْعَرَاءِ﴾؛ أي: لطرَح في العراء، وهي الأرض الخالية، ﴿وَهُوَ مَذْمُومٌ﴾؛ ولكن الله تغمدته برحمته، فنبذ وهو ممدوح، وصارت حاله أحسن من حاله الأولى، ولهذا قال: ﴿فَاجْنِبْ رَيْبُ﴾؛ أي: اختاره واصطفاه ونقاه من كل كدر، ﴿فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾؛ أي: الذين صلحت أعمالهم وأقوالهم ونياتهم وأحوالهم.

﴿٥١﴾، ﴿٥٢﴾ فامتثل نبينا محمد ﷺ أمر الله، فصبر لحكم ربه صبرًا لا يدركه فيه أحد من العالمين، فجعل الله له العاقبة، والعاقبة للمتقين، ولم يبلغ أعداؤه فيه إلا ما يسوءهم، حتى إنهم حرصوا على أن يزلقوه ﴿بِأَبْصَرِهِ﴾؛ أي: يصيبوه بأعينهم من حسدهم وحنقهم وغيظهم. هذا انتهى ما قدروا عليه من الأذى الفعلي، والله حافظه وناصره. وأما

في معاصيه والكفر بآياته ومعاندة رسله ومحاربة أوليائه، وأن من ظن أنه يسويهم في الثواب؛ فإنه قد أساء الحكم، وأن حكمه حكم باطل ورأيه فاسد، وأن المجرمين إذا ادعوا ذلك؛ فليس لهم مستند، لا كتاب فيه يدرسون ويتلون أنهم من أهل الجنة، وأن لهم ما طلبوا وتخيروا، وليس لهم عند الله عهد ويمين بالغة إلى يوم القيامة أن لهم ما يحكمون، وليس لهم شركاء وأعوان على إدراك ما طلبوا؛ فإن كان لهم شركاء وأعوان؛ فليأتوا بهم إن كانوا صادقين. ومن المعلوم أن جميع ذلك منتفٍ؛ فليس لهم كتاب ولا لهم عهد عند الله في النجاة ولا لهم شركاء يعينونهم، فعلم أن دعواهم باطلة فاسدة. وقوله: ﴿سَلَّمَهُ أَتُهُمْ بِذَلِكَ زَعِيمٌ﴾؛ أي: أيهم الكفيل بهذه الدعوى التي تبين بطلانها؛ فإنه لا يمكن أحدًا أن يتصدر بها ولا يكون زعيمًا فيها.

﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ﴾ إلى قوله: ﴿وَهُمْ سَلِيمُونَ﴾.

﴿٤٩﴾، ﴿٥٠﴾ أي: إذا كان يوم القيامة، وانكشف فيه من القلائق والزلازل والأهوال ما لا يدخل تحت الوهم، وأتى الباري لفصل القضاء بين عباده ومجازاتهم، فكشف عن ساقه الكريمة التي لا يشبهها شيء، ورأى الخلائق من جلال الله وعظمته ما لا يمكن التعبير عنه؛ فحيثُذَّيْعُونَ إِلَى الشُّجُودِ؛ لله، فيسجد المؤمنون الذين كانوا يسجدون لله طوعًا واختيارًا، ويذهب الفجار المنافقون ليسجدوا؛ فلا يقدرون على السجود، وتكون ظهورهم كصياصي البقر؛ لا يستطيعون الانحناء، وهذا الجزء من جنس عملهم؛ فإنهم كانوا يدعون في الدنيا إلى السجود لله وتوحيده وعبادته وهم سالمون لا علة فيهم؛ فيستكبرون عن ذلك، ويأبون؛ فلا تسأل يومئذ عن حالهم وسوء مآلهم؛ فإن الله قد سخط عليهم، وحقت عليهم كلمة العذاب، وتقطعت أسبابهم، ولم تنفعهم الندامة والاعتذار يوم القيامة؛ ففي هذا ما يزعج القلوب عن المقام على المعاصي ويوجب التدارك مدة الإمكان.

﴿فَذَرْنِي وَنَّ يُكَذِّبْ بِهَذَا الْحَدِيثِ﴾ إلى آخر السورة.

﴿٤٤﴾، ﴿٤٥﴾ أي: دعني والمكذبين بالقرآن العظيم؛ فإن عليَّ جزاءهم، ولا تستعجل لهم؛ فـ﴿سَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُونَ﴾؛ فندمهم بالأموال والأولاد، وندمهم في الأرزاق والأعمال؛ ليغتروا ويستمروا على ما يضرهم، وهذا من كيد الله لهم. وكيد الله لأعدائه متين قوي، يبلغ من ضررهم وعقوبتهم كل مبلغ.

الأذى القولي؛ فيقولون فيه أقوالاً بحسب ما توحى إليهم قلوبهم، فيقولون تارة: مجنون! وتارة: شاعر! وتارة: ساحر! قال تعالى: ﴿وَمَا هُمْ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾ ٥١؛ أي: وما هذا القرآن العظيم والذكر الحكيم إلا ذكر للعالمين، يتذكرون به مصالح دينهم ودنياهم. والحمد لله.

﴿٥١﴾ ﴿٥٢﴾ ﴿٥٣﴾

تفسير سورة الحاقة

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الْحَاقَّةُ﴾ ١ ﴿مَا الْحَاقَّةُ﴾ ٢ ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ﴾ ٣ ﴿إِلَى قَوْلِهِ﴾ ٤ ﴿فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ﴾ ٥.

١ - ﴿الْحَاقَّةُ﴾ ١: من أسماء يوم القيامة؛ لأنها تحق وتنزل بالخلق وتظهر فيها حقائق الأمور ومخبات الصدور؛ فعظم تعالى شأنها وفخمه بما كرره من قوله: ﴿الْحَاقَّةُ﴾ ١ ﴿مَا الْحَاقَّةُ﴾ ٢ ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ﴾ ٣؛ فإن لها شأنًا عظيمًا وهولاً جسيماً.

[ومن عظمتها أن الله أهلك الأمم المكذبة بها بالعذاب العاجل].

١ ثم ذكر نموذجاً من أحوالها الموجودة في الدنيا المشاهدة فيها، وهو ما أحله من العقوبات البليغة بالأمم العاتية، فقال: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ﴾ ١: وهم القبيلة المشهورة سكان الحجر الذين أرسل الله إليهم رسوله صالحاً عليه السلام؛ ينهاهم عما هم عليه من الشرك ويأمرهم بالتوحيد، فردوا دعوته، وكذبوه، وكذبوا ما أخبر به من يوم القيامة، وهي القارعة التي تقرع الخلق بأهوالها، وكذلك عاد الأولى سكان حضرموت حين بعث الله إليهم رسوله هوداً عليه الصلاة والسلام، يدعوهم إلى عبادة الله وحده، فكذبوه، وأنكروا ما أخبر به من البعث، فأهلك الله الطائفتين بالهلاك العاجل.

٢ ﴿فَأَمَّا ثَمُودُ فَأَهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ﴾ ٢: وهي الصيحة العظيمة الفظيعة، التي قطعت قلوبهم وزهقت لها أرواحهم، فأصبحوا موتى لا يرى إلا مساكنهم وجثثهم.

٣ ﴿وَلَمَّا عَادَ فَأَهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ﴾ ٣: أي: قوية شديدة الهبوب لها صوت أبلغ من صوت الرعد القاصف. ﴿عَاتِيَةٍ﴾ ٤: أي: عنت على خزانها على قول كثير من المفسرين، أو عنت على عاد، وزادت على الحد كما هو الصحيح.

٥ ﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَنَعٌ لَيَالٍ وَتَنَنِيَةً أَيَّامٍ حُسُومًا﴾ ٥: أي: نحساً وشرّاً فظيماً عليهم فدمرتهم وأهلكتهم؛ ﴿فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى﴾ ٦: أي: هلكى موتى، ﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَارٌ نَحْلٌ خَاوِيَةٌ﴾ ٧: أي: كأنهم جذوع النخل التي قد قطعت رؤوسها الخاوية الساقط بعضها على بعض.

٨ ﴿فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ﴾ ٨: وهذا استفهام بمعنى النفي المقتصر.

٩ ﴿وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَنْ قَبْلَهُ وَالْمُؤْتَفِكَاتُ بِالْخَاطِئَةِ﴾ ٩: إلى قوله: ﴿أَذُنٌ وَغِيَّةٌ﴾ ١٠.

سورة الحاقة

خُشْعَةً أَبْصَرُهُمْ تَرَفَهُمْ ذُلٌّ وَقَدْ كَانُوا يَدْعُونَ إِلَى الشُّجُورِ وَهُمْ سَلِيمُونَ

٥١ تَذَرِفُ وَمَنْ يَكْذِبُ بِهَذَا الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَأْلَمُونَ ٥٢ وَأَمْلِ لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ٥٣ أَمْ تَسْتَأْذِنُ لَعْنَهُمْ لَعْنَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُتَقَلَّبُونَ ٥٤ أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ٥٥ فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ ٥٦ أَوْ لَا أَنْ تَذَرُكَ نِعْمَةً مِنْ رَبِّهِ لَتَبْدَأَ الْعَرَاءَ وَهُوَ مَذْمُومٌ ٥٧ فَاجْنِبْ رِبَّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ٥٨ وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَرِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَنْجُونٌ ٥٩ وَمَا هُمْ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ٦٠

سورة الحاقة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْحَاقَّةُ ١ مَا الْحَاقَّةُ ٢ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ ٣ كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ ٤ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأَهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ ٥ وَلَمَّا عَادَ فَأَهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ٦ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَنَعٌ لَيَالٍ وَتَنَنِيَةً أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى ٧ كَأَنَّهُمْ أَعْجَارٌ نَحْلٌ خَاوِيَةٌ ٨ فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ ٩

﴿٩﴾، ﴿١٠﴾ أي: وكذلك غير هاتين الأمتين الطاغيتين عاد وثمود جاء غيرهم من الطغاة العتاة؛ كفرعون مصر الذي أرسل الله إليه عبده ورسوله موسى بن عمران عليه الصلاة والسلام، وأراهم من الآيات البينات ما تيقنوا بها الحق، ولكن جحدوا وكفروا ظلماً وعلواً، وجاء من قبله من المكذبين ﴿وَالْمُؤْتَفِكْتُ﴾؛ أي: قري قوم لوط؛ الجميع جاءوا ﴿بِالْحَاطِئَةِ﴾؛ أي: بالفعل الطاغية، وهي الكفر والتكذيب والظلم والمعادنة وما انضم إلى ذلك من أنواع الفواحش والفسوق، ﴿فَنَصَرَا رَسُولَ رَبِّهِمْ﴾: وهذا اسم جنس؛ أي: كل من هؤلاء كذبوا الرسول الذي أرسله الله إليهم؛ فأخذ الله الجميع ﴿أَخَذَهُ رَبِّيَّةٌ﴾؛ أي: زائدة على الحد والمقدار الذي يحصل به هلاكهم.

﴿١١﴾، ﴿١٢﴾ ومن جملة هؤلاء قوم نوح؛ أغرقهم الله في اليم حين طغى الماء على وجه الأرض وعلا على مواضعها الرفيعة، وامتن الله على الخلق الموجودين بعدهم أن حملهم ﴿فِي الْبَارِيَةِ﴾، وهي السفينة؛ في أصلاب آبائهم وأمهاتهم، الذين نجاهم الله؛ فاحمدوا الله واشكروا الذي نجاكم حين أهلك الطاغين، واعتبروا بآياته الدالة على توحيد، ولهذا قال: ﴿لِيَجْهَلَهَا﴾؛ أي: الجارية، والمراد جنسها لكم ﴿نَذْكُرُ﴾: تذكركم أول سفينة صنعت وما قصتها، وكيف نجي الله عليها

من آمن به واتبع رسوله وأهلك أهل الأرض كلهم؛ فإن جنس الشيء مذكر بأصله. وقوله: ﴿وَنَبِّأَ أَذُنَ وَعِيَّةٍ﴾؛ أي: يعقلها أولو الألباب، ويعرفون المقصود منها ووجه الآية بها. وهذا بخلاف أهل الإعراض والغفلة وأهل البلادة وعدم الفطنة؛ فإنهم ليس لهم انتفاع بآيات الله؛ لعدم وعيهم عن الله وتفكرهم بآياته.

﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ﴾ إلى قوله: ﴿لَا تَخَفْنَ مَسْكَرَ حَافِيَةٍ﴾.

﴿١٣﴾ - ﴿١٨﴾ لما ذكر تعالى ما فعله بالمكذبين لرسله، وكيف جازاهم وعجل لهم العقوبة في الدنيا، وأن الله نجي الرسل وأتباعهم؛ كان هذا مقدمة للجزاء الأخروي وتوفية الأعمال كاملة يوم القيامة، فذكر الأمور الهائلة التي تقع أمام يوم القيامة، وأن أول ذلك أنه ينفخ إسرافيل ﴿فِي الصُّورِ﴾ - إذا تكاملت الأجساد نابتة - نفخة واحدة؛ فتخرج الأرواح، فتدخل كل روح في جسدها؛ فإذا الناس قيام لرب العالمين، ﴿وَجُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ ذَكَاذَكَةً وَاحِدَةً﴾؛ أي: فتنت الجبال، واضمحلت وخططت بالأرض، ونسفت عليها، فكان الجميع قاعاً صفصفاً، لا ترى فيها عوجاً ولا أمثاً. هذا ما يصنع بالأرض وما عليها، وأما ما يصنع بالسماء؛ فإنها تضطرب وتمور وتشقق ويتغير لونها، وتتهي بعد تلك الصلابة والقوة العظيمة، وما ذاك إلا لآمر عظيم أزعجها وكرب جسيم هائل أوهاها وأضعفها، ﴿وَالْمَلَكُ﴾؛ أي: الملائكة الكرام ﴿عَلَى أَرْجَائِهَا﴾؛ أي: على جوانب السماء وأركانها، خاضعين لربهم، مستكينين لعظمته، ﴿وَجُمِلَ عَرْشُ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ مَنِينَةً﴾؛ أملاك في غاية القوة، إذا أتى للفصل بين العباد والقضاء بينهم بعدله وقسطه وفضله، ولهذا قال: ﴿يَوْمَئِذٍ تَعْرَضُونَ﴾: على الله، ﴿لَا تَخَفْنَ مَسْكَرَ حَافِيَةٍ﴾: لا من أجسادكم وذواتكم، ولا من أعمالكم وصفاتكم؛ فإن الله تعالى عالم الغيب والشهادة، ويحشر العباد حفاة عراة غرلاً في أرض مستوية يسمعهم الداعي وينفذهم البصر، فحيثما يجازيهم بما عملوا، ولهذا ذكر كيفية الجزاء، فقال:

﴿فَأَمَّا مَنْ أُوَفِّيَ كِتَابَهُ بِمِيزَانٍ﴾ إلى قوله: ﴿بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ﴾.

وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَنْ قَبْلَهُ وَالْمُؤْتَفِكْتُ بِالْحَاطِئَةِ ﴿١﴾ فَنَصَرَا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخَذَةً رَبِّيَّةً ﴿٢﴾ إِنَّا لَنَاطِعَاتُ الْمَاءِ حَمَلَتُكُمْ فِي الْبَارِيَةِ ﴿٣﴾ لِيَجْهَلَهَا لَكُمْ نَذْكُرُ وَنَبِّأَ أَذُنَ وَعِيَّةٍ ﴿٤﴾ فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ ﴿٥﴾ وَجُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ ذَكَاذَكَةً وَاحِدَةً ﴿٦﴾ فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ﴿٧﴾ وَانْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكُيِّمَتْ رَاحِبَتُهُ ﴿٨﴾ وَالْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا وَجُمِلَ عَرْشُ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ مَنِينَةً ﴿٩﴾ يَوْمَئِذٍ تَعْرَضُونَ لَا تَخَفْنَ مَسْكَرَ حَافِيَةٍ ﴿١٠﴾ فَأَمَّا مَنْ أُوَفِّيَ كِتَابَهُ بِمِيزَانٍ ﴿١١﴾ فَيَقُولُ هَؤُلَاءِ أَقْرَبُ وَأَكْنِيبُ ﴿١٢﴾ إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلْكٌ حَسْبِيَّةٌ ﴿١٣﴾ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ ﴿١٤﴾ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿١٥﴾ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴿١٦﴾ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ ﴿١٧﴾ وَأَمَّا مَنْ أُوَفِّيَ كِتَابَهُ بِشِمَالٍ فَيَقُولُ بَلَيْتُ لِرَأْوَتٍ كِثْبِيَّةٍ ﴿١٨﴾ وَلَوْ أَدْرَاكَ حَسْبِيَّةٌ ﴿١٩﴾ بَلَيْتُمَا كَانَتِ الْقَاصِيَةَ ﴿٢٠﴾ مَا أَخْفَى عَنِّي مَالِيَّةٌ ﴿٢١﴾ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَّةٌ ﴿٢٢﴾ خَذُوهُ قُلُوبُهُ ﴿٢٣﴾ فَرَأَى نَجِيمَ صَلْوَهُ ﴿٢٤﴾ تَرَفَّى سَلْسِلَةً ذَرَعَهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ ﴿٢٥﴾ إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْغَظِيْبِ ﴿٢٦﴾ وَلَا يَحْضُ عَلَى طَعَامِ الْمُسْكِينِ ﴿٢٧﴾

عَنِ سُلَيْمَةَ ﴿٢٦﴾؛ أَي: ذهب واضمحل، فلم تنفع الجنود الكثيرة ولا العدد الخطيرة ولا الجاه العريض، بل ذهب ذلك كله أدراج الرياح، وفاتت بسببه المتاجر والأرباح، وحضرت بدله الهموم والغومم والأتراح.

﴿٢٧﴾ - ﴿٢٨﴾ فحينئذ يؤمر بعذابه، فيقال للزبانية الغلاظ الشداد: ﴿خُذُوهُ فَنُلَوِّهُ﴾ ﴿٢٧﴾؛ أَي: اجعلوا في عنقه غلاً يخنقه، ﴿ثُمَّ لَنَجْجِمْ صَوْلَهُ﴾ ﴿٢٨﴾؛ أَي: قلبوه على جمورها ولهبها، ﴿ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا﴾: من سلاسل الجحيم في غاية الحرارة، ﴿فَنَسْلُكُوهُ﴾ ﴿٢٩﴾؛ أَي: انظموه فيها بأن تدخل في دبره وتخرج من فمه ويعلق فيها فلا يزال يعذب هذا العذاب الفظيع؛ فبئس العذاب والعقاب، وواحدة من له التوبيخ والعتاب؛ فإن السبب الذي أوصله إلى هذا المحل ﴿إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ﴾: بأن كان كافراً بربه معانداً لرسله راداً ما جاءوا به من الحق، ﴿وَلَا يَحْضُرُ عَلَى طَعَامِ الْيَسْكِينِ﴾ ﴿٣٠﴾؛ أَي: ليس في قلبه رحمة يرحم بها الفقراء والمساكين؛ فلا يطعمهم من ماله ولا يحض غيره على إطعامهم؛ لعدم الوازع في قلبه، وذلك لأن مدار السعادة ومادتها أمران: الإخلاص لله الذي أصله الإيمان بالله، والإحسان إلى الخلق بجميع وجوه الإحسان، الذي من أعظمها دفع ضرورة المحتاجين بإطعامهم ما يقتوتون به، وهؤلاء لا إخلاص ولا إحسان؛ فلذلك استحقوا ما استحقوا. ﴿فَلَيْسَ لَهُ يَوْمَ هَذَا﴾؛ أَي: يوم القيامة ﴿حِمِيمٌ﴾ ﴿٣١﴾؛ أَي: قريب أو صديق يشفع له لينجو من عذاب الله أو يفوز بثوابه. ﴿وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾ [سبا: ٢٣]، ﴿مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حِمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾ [غافر: ١٨]. وليس له ﴿طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غَنِينٍ﴾ ﴿٣٢﴾: وهو صديد أهل النار، الذي هو في غاية الحرارة والمرارة وتنت الریح وقبح الطعم، لا يأكل هذا الطعام الذميم ﴿إِلَّا الْخَاطِئُونَ﴾ ﴿٣٣﴾، الذين أخطأوا الصراط المستقيم، وسلكوا سبل الجحيم؛ فلذلك استحقوا العذاب الأليم.

﴿فَلَا أَقِيمُ بِمَا بُصِّرُونَ﴾ ﴿٣٤﴾ إلى آخر السورة.

﴿٣٥﴾ - ﴿٣٦﴾ أقسم تعالى بما يبصر الخلق من جميع الأشياء

وما لا يبصرونه، فدخل في ذلك كل الخلق، بل دخل في ذلك نفسه المقدسة، على صدق الرسول بما جاء به من هذا القرآن الكريم، وأن الرسول الكريم بلغه عن الله تعالى، ونزه الله رسوله عما رماه به أعداؤه من أنه شاعر أو ساحر، وأن

﴿١٩﴾، ﴿٢٠﴾ وهؤلاء هم أهل السعادة؛ يعطون كتبهم التي فيها أعمالهم الصالحة بأيمانهم تمييزاً لهم وتنوياً بشأنهم ورفعاً لمقدارهم، ويقول أحدهم عند ذلك من الفرح والسرور ومحبة أن يطالع الخلق على ما مَنَّ الله عليه به من الكرامة: ﴿هَآؤُمْ أَقْرَأُ كِتَابِي﴾ ﴿١٩﴾؛ أَي: دونكم كتابي فاقروه؛ فإنه يبشر بالجنات وأنواع الكرامات ومغفرة الذنوب وستر العيوب، والذي أوصلني إلى هذه الحال ما مَنَّ الله به علي من الإيمان بالبعث والحساب والاستعداد له بالممكن من العمل، ولهذا قال: ﴿إِنِّي كُنْتُ مِنَ الْمُنْتَفِعِينَ﴾ ﴿٢٠﴾؛ أَي: أيقنت؛ فالظن هنا بمعنى اليقين.

﴿٢١﴾ - ﴿٢٢﴾ ﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ﴾ ﴿٢١﴾؛ أَي: جامعة لما تشتهيهِ الأنفس وتلد الأعين وقد رضوا ولم يختاروا عليها غيرها، ﴿فِي جَنَّاتٍ﴾: عالية المنازل والقصور عالية المحل، ﴿قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ﴾ ﴿٢٢﴾؛ أَي: ثمرها وجناها من أنواع الفواكه قريبة سهلة التناول على أهلها، ينالها أهلها قياماً وعوداً ومتكئين، ويقال لهم إكراماً: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا﴾؛ أَي: من كل طعام لذيد وشراب شهي، ﴿هَيْئَةً﴾؛ أَي: تاماً كاملاً من غير مكدر ولا منغص. وذلك الجزاء حصل لكم ﴿بِمَا أَسْفَقْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْفَالِئَةِ﴾ ﴿٢٣﴾: من الأعمال الصالحة - وترك الأعمال السيئة - من صلاة وصيام وصدقة وحج وإحسان إلى الخلق وذكر لله وإنابة إليه؛ فالأعمال جعلها الله سبباً لدخول الجنة ومادة لتعيمها وأصلاً لسعادتها.

﴿وَأَمَّا مَنْ أُوْفِيَ كِتَابُهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَتَنَبَّئُنِي لَأَزِيدَ كِتَابِي﴾ إلى قوله: ﴿لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِئُونَ﴾ ﴿٢٤﴾.

﴿٢٥﴾ - ﴿٢٦﴾ هؤلاء هم أهل الشقاء؛ يعطون كتبهم المشتملة على أعمالهم السيئة بشمالهم؛ تمييزاً لهم وخزياً وعاراً وفضيحة، فيقول أحدهم من الهم والغم والخزي: ﴿يَتَنَبَّئُنِي لَأَزِيدَ كِتَابِي﴾ ﴿٢٥﴾؛ لأنه يبشر بدخول النار والخسارة الأبدية، ﴿وَلَا أَدْرِي مَا حِسَابِي﴾ ﴿٢٦﴾؛ أَي: ليتني كنت نسياً منسياً ولم أبعث وأحاسب، ولهذا قال: ﴿يَتَنَبَّأُكَ كَاتِبُ الْقَاضِيَةِ﴾ ﴿٢٧﴾؛ أَي: يا ليت موتي هي الموتة التي لا بعث بعدها.

ثم التفت إلى ماله وسلطانه؛ فإذا هو وبال عليه لم يقدم منه لآخرته ولا ينفعه لو اقتدى به من العذاب شيئاً، فيقول: ﴿مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِي﴾ ﴿٢٨﴾؛ أَي: ما نفعني لا في الدنيا - لم أقدم منه شيئاً - ولا في الآخرة؛ قد ذهب وقت نفعه، ﴿هَلْكَ

الذي حملهم على ذلك عدم إيمانهم وتذكرهم؛ فلو آمنوا وتذكروا ما ينفعهم ويضرهم، ومن ذلك أن ينظروا في حال محمد ﷺ ويرمقوا أوصافه وأخلاقه ليروا أمراً مثل الشمس يدلهم على أنه رسول الله حقاً وأن ما جاء به ﴿نَزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالِينَ﴾ (٤٣)، لا يليق أن يكون قولاً للبشر، بل هو كلام دال على عظمة من تكلم به وجلالة أوصافه وكمال تربيته للخلق وعلوه فوق عباده. وأيضاً؛ فإن هذا ظن منهم بما لا يليق بالله وحكمته.

﴿٤٤﴾ - ﴿٤٥﴾ فإنه لو تقول عليه واقرئ ﴿بَعْضَ الْأَقَابِلِ﴾ (٤٤): الكاذبة، ﴿لَاخِذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ﴾ (٤٥) ثُمَّ لَقَطْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ (٤٦)؛ وهو عرق متصل بالقلب إذا انقطع هلك منه الإنسان؛ فلو قدر أن الرسول - حاشا وكلاً - تقول على الله؛ لعاجله بالعقوبة وأخذه أخذ عزيز مقتدر؛ لأنه حكيم قدير على كل شيء؛ فحكمته تقتضي ألا يمهل الكاذب عليه الذي يزعم أن الله أباح له دماء من خالفه وأموالهم، وأنه هو وأتباعه لهم النجاة، ومن خالفه؛ فله الهلاك. فإذا كان الله قد أيد رسوله بالمعجزات، وبرهن على صدق ما جاء به بالآيات البينات، ونصره على أعدائه، ومكنه من نواصيهم؛ فهو أكبر شهادة منه على رسالته. وقوله: ﴿فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ﴾ (٤٦)؛ أي: لو أهلكه؛ ما امتنع هو بنفسه ولا قدر أحد أن يمنعه من عذاب الله.

﴿٤٦﴾ - ﴿٤٧﴾ فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هُنَا حَمِيمٌ ﴿٤٦﴾ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ﴿٤٧﴾ لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِئُونَ ﴿٤٧﴾ فَلَا أَقِيمٌ يَمَافِيصُونَ ﴿٤٨﴾ وَمَا لَا بُشِيرُونَ ﴿٤٨﴾ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٩﴾ وَمَا هُوَ يَقُولُ شَاعِرٌ قَلِيلًا مَا تُؤْمِنُونَ ﴿٥٠﴾ وَلَا يَقُولُ كَاهِنٌ قَلِيلًا مَا نَذَرُونَ ﴿٥١﴾ نَزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالِينَ ﴿٥٢﴾ وَلَوْ نَقُولُ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقَابِلِ ﴿٥٣﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴿٥٤﴾ ثُمَّ لَقَطْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴿٥٥﴾ فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ ﴿٥٦﴾ وَإِنَّهُ لَنَذِيرٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٥٧﴾ وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنْكُمْ مُكَذِّبِينَ ﴿٥٨﴾ وَإِنَّهُ لَحَسْرَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٥٩﴾ وَإِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ ﴿٦٠﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴿٦١﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ﴿١﴾ لِّلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ ﴿٢﴾ مِّنَ اللَّهِ ذِي الْمَعَارِجِ ﴿٣﴾ تَمْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴿٤﴾ فَاصْبِرْ صَبْرًا جَدِيدًا ﴿٥﴾ إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا ﴿٦﴾ وَزَرَّهُ قَرِيبًا ﴿٧﴾ يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْهَلِيلِ ﴿٨﴾ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ ﴿٩﴾ وَلَا يَنْتَلِ حِمِيمٌ حِمِيمًا ﴿١٠﴾

﴿٤٨﴾ - ﴿٤٩﴾ وَإِنَّهُ؛ أي: القرآن الكريم، ﴿لَنَذِيرٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾ (٤٨)؛ يتذكرون به مصالح دينهم ودنياهم، فيعرفونها ويعملون عليها، يذكرهم العقائد الدينية والأخلاق المرضية والأحكام الشرعية، فيكونون من العلماء الربانيين، والعباد العارفين، والأئمة المهديين.

﴿٤٩﴾ - ﴿٥٠﴾ وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنْكُمْ مُكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾؛ به، وهذا فيه تهديد ووعد للمكذبين، وأنه سيعاقبهم على تكذيبهم بالعقوبة البليغة.

﴿٥٠﴾ - ﴿٥١﴾ وَإِنَّهُ لَحَسْرَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٥٠﴾؛ فإنهم لما كفروا به ورأوا ما وعدهم به؛ تحسروا إذ لم يهتدوا به ولم ينقادوا لأمره، ففاتهم الثواب، وحصلوا على أشد العذاب، وتقطعت بهم الأسباب.

﴿٥١﴾ - ﴿٥٢﴾ وَإِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ ﴿٥١﴾؛ أي: أعلى مراتب العلم؛ فإن أعلى مراتب العلم اليقين، وهو العلم الثابت الذي لا يتزلزل ولا يزول. واليقين مراتبه ثلاثة، كل واحدة أعلى مما قبلها: أولها علم اليقين، وهو العلم المستفاد من الخبر. ثم عين اليقين، وهو العلم المدرك بحاسة البصر. ثم حق اليقين، وهو العلم المدرك بحاسة الذوق والمباشرة. وهذا القرآن بهذا الوصف؛ فإن ما فيه من العلوم المؤيدة بالبراهين القطعية وما فيه من الحقائق والمعارف الإيمانية يحصل به لمن ذاقه حق اليقين.

﴿٥٢﴾ - ﴿٥٣﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴿٥٢﴾؛ أي: نزهه عما لا يليق بجلاله، وقده بذكر أوصاف جلاله وجماله وكماله.

تم تفسير سورة الحاقة. والحمد لله رب العالمين.

تفسير سورة سأل سائل

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ﴿١﴾ لِلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُمْ دَافِعٌ ﴿٢﴾ مِنْ أَتَىٰ ذِي الْمَعَارِجِ ﴿٣﴾ تَنْزُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ ﴿٤﴾ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴿٥﴾ فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا ﴿٦﴾ إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا ﴿٧﴾ وَنَرَاهُ قَرِيبًا ﴿٨﴾﴾

﴿١﴾ - ﴿٨﴾ يقول تعالى مبينًا لجهل المعاندين واستعجالهم لعذاب الله استهزاء وتعنًا وتعجزًا: ﴿سَأَلَ سَائِلٌ﴾ أي: دعا داع واستفتح مستفتح، ﴿بِعَذَابٍ وَاقِعٍ﴾ ﴿١﴾ ﴿لِلْكَافِرِينَ﴾: لاستحقاقهم له بكفرهم وعنادهم. ﴿لَيْسَ لَهُمْ دَافِعٌ﴾ ﴿٢﴾ ﴿مِنْ أَتَىٰ ذِي الْمَعَارِجِ﴾: ليس لهذا العذاب الذي استعجل به من استعجل من متمردي المشركين أحد يدفعه قبل نزوله أو يرفعه بعد نزوله، وهذا حين دعا النضر بن الحارث القرشي أو غيره من المشركين، فقال: ﴿اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا جَحَازَةً مِنْ السَّمَاءِ أَوْ أَتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ ﴿٣﴾ [الأنفال: ٣٢] إلى آخر الآيات؛ فالعذاب لا بد أن يقع عليهم من الله؛ فإما أن يعجل لهم في الدنيا، وإما أن يدخر لهم في الآخرة؛ فلو عرفوا الله وعرفوا عظمتهم وسعة سلطانه وكمال أسمائه وصفاته؛ لما استعجلوا، ولا تسلموا وتأدبوا، ولهذا ذكر تعالى من عظمتهم ما يضاد أقوالهم القبيحة، فقال: ﴿ذِي الْمَعَارِجِ﴾ ﴿٤﴾ ﴿تَنْزُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ﴾؛ أي: ذي العلو والجلال والعظمة والتدبير لسائر الخلق، الذي تعرج إليه الملائكة بما جعلها على تدبيره، وتعرج إليه الروح، وهذا اسم جنس يشمل الأرواح كلها؛ برها وفاجرها، وهذا عند الوفاة، فاما الأبرار؛ فتعرج أرواحهم إلى الله، فيؤذن لهم من سماء إلى سماء، حتى تنتهي إلى السماء التي فيها الله عز وجل، فتحيي ربها وتسلم عليه وتحظى بقربه، وتتهجج بالذنو منه، ويحصل لها منه الثناء والإكرام والبر والإعظام، وأما أرواح الفجار؛ فتعرج، فإذا وصلت إلى السماء؛ استأذنت، فلا يؤذن لها، وأعيدت إلى الأرض.

ثم ذكر المسافة التي تعرج فيها الملائكة والروح إلى الله، وأنها تعرج في يوم بما يسر لها من الأسباب وأعانها عليه من اللطافة والخفة وسرعة السير، مع أن تلك المسافة على السير المعتاد مقدار خمسين ألف سنة، من ابتداء العروج إلى

وصولها ما حد لها، وما تنتهي إليه من الملاء الأعلى؛ فهذا الملك العظيم والعالم الكبير علويه وسفليه جميعه قد تولى خلقه وتدبيره العلي الأعلى، فعلم أحوالهم الظاهرة والباطنة، وعلم مستقرهم ومستودعهم، وأوصلهم من رحمته وبره وإحسانه ما عمهم وشملهم، وأجرى عليهم حكمه القدري وحكمه الشرعي وحكمه الجزائي؛ فبؤسًا لأقوام جهلوا عظمتهم ولم يقدروه حق قدره، فاستعجلوا بالعذاب على وجه التعجيز والامتحان. وسبحان الحليم الذي أمهلهم وما أمهلهم، وأذوه فصبر عليهم وعافاهم ورزقهم!

هذا أحد الاحتمالات في تفسير هذه الآية الكريمة، فيكون هذا العروج والصعود في الدنيا؛ لأن السياق الأول يدل عليه. ويحتمل أن هذا في يوم القيامة، وأن الله تبارك وتعالى يظهر لعباده في يوم القيامة من عظمتهم وجلاله وكبريائه، ما هو أكبر دليل على معرفته مما يشاهدونه من عروج الأملاك والأرواح، صاعدة ونازلة بالتدابير الإلهية والشئون في الخليقة في ذلك اليوم الذي مقداره خمسون ألف سنة من طوله وشدته، لكن الله تعالى يخففه على المؤمن.

﴿٥﴾ - ﴿٧﴾ وقوله: ﴿فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا﴾ ﴿٥﴾؛ أي: اصبر على دعوتك لقومك صبرًا جميلًا، لا تضجر فيه ولا ملل، بل استمر على أمر الله، وادع عباده إلى توحيده، ولا يمنك عنهم ما ترى من عدم انقيادهم وعدم رغبتهم؛ فإن في الصبر على ذلك خيرًا كثيرًا. ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا ﴿٦﴾ وَنَرَاهُ قَرِيبًا ﴿٧﴾﴾: الضمير يعود إلى البعث الذي فيه عذاب السائلين بالعذاب؛ أي: إن حالهم حال المنكر له، والذي غلبت عليه الشقوة والسكره، حتى تباعد جميع ما أمامه من البعث والنشور، والله يراه قريبًا؛ لأنه رفيق حليم لا يعجل، ويعلم أنه لا بد أن يكون، وكل ما هو آت فهو قريب.

ثم ذكر أهوال ذلك اليوم وما يكون فيه، فقال:

﴿يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْهَلِّ ﴿٨﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰ﴾ ﴿١٨﴾﴾.

﴿٨﴾، ﴿٩﴾ أي: ﴿يَوْمَ﴾ القيامة تقع فيه هذه الأمور العظيمة ﴿تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْهَلِّ﴾ ﴿٨﴾: وهو الرصاص المذاب من تشققها وبلوغ الهول منها كل مبلغ، ﴿وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ﴾ ﴿٩﴾: وهو الصوف المنفوش، ثم تكون بعد ذلك هباء منثورًا فتضمحل.

﴿١٠﴾ - ﴿١٤﴾ فإذا كان هذا الانزعاج والقلق لهذه الأجرام الكبيرة الشديدة؛ فما ظنك بالعبد الضعيف الذي قد أثقل ظهره بالذنوب والأوزار؟! أليس حقيقة أن ينخلع قلبه ويتزعج له ويذهل عن كل أحد؟! ولهذا قال: ﴿وَلَا يَسْتَلْ حِمِيمٌ حِمِيمًا﴾ ﴿١١﴾ يَصْرُوهُمْ؛ أي: يشاهد الحميم - وهو القريب - حميمه؛ فلا يبقى في قلبه متسع لسؤاله عن حاله ولا فيما يتعلق بعشرتهم ومودتهم ولا يهيمه إلا نفسه. ﴿يُودُّ الْمُشْجِرُ﴾: الذي حق عليه العذاب ﴿لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابٍ يَوْمِذٍ بَيْنِي﴾ ﴿١٢﴾ وَصَجَبِي﴾؛ أي: زوجته، ﴿وَأَخِي﴾ ﴿١٣﴾ وَفَصِيلَتِي﴾؛ أي: قرابته، ﴿أَلَيْ تَتَوَبَّعُ﴾ ﴿١٤﴾؛ أي: التي جرت عاداتها في الدنيا أن تتناصر ويعين بعضها بعضًا؛ ففي يوم القيامة لا ينفع أحد أحدًا، ولا يشفع أحد إلا بإذن الله، بل لو يفتدي المجرم المستحق للعذاب بجميع ما في الأرض ثم ينجي ذلك؛ لم ينفعه.

﴿١٥﴾ - ﴿١٨﴾ ﴿كَلَّا﴾؛ أي: لا حيلة ولا مناص لهم، قد حقت عليهم كلمة ربك على الذين فسقوا أنهم لا يؤمنون، وذهب نفع الأقارب والأصدقاء، ﴿إِنَّمَا لَطَىٰ﴾ ﴿١٥﴾ نَزَاعَةُ لِّلشَّوَى﴾ ﴿١٦﴾؛ أي: للأعضاء الظاهرة والباطنة من شدة عذابها، ﴿تَدْعُوا﴾: إلى نفسها ﴿مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّى﴾ ﴿١٧﴾ وَجَمَعَ فَأَوْعَى﴾ ﴿١٨﴾؛ أي: أدبر عن اتباع الحق، وأعرض عنه؛ فلا غرض له فيه، وجمع الأموال بعضها فوق بعض، وأوعاها فلم ينفق منها ما ينفعه ويدفع عنه النار؛ فالتار تدعو هؤلاء إلى نفسها، وتستعد للالتهاب بهم.

﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا﴾ ﴿١٩﴾ إلى قوله: ﴿فِي جَنَّةٍ مَّكْرُومٍ﴾ ﴿٢٥﴾.

﴿١٩﴾ - ﴿٢١﴾ وهذا الوصف للإنسان من حيث هو وصف طبيعته الأصلية أنه هلوع، وفسر الهلوع بقوله: ﴿إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جُرُوعًا﴾ ﴿٢٠﴾؛ فيجزع إن أصابه فقر أو مرض أو ذهاب محبوب له من مال أو أهل أو ولد، ولا يستعمل في ذلك الصبر والرضا بما قضى الله، ﴿وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا﴾ ﴿٢١﴾؛ فلا ينفق مما آتاه الله، ولا يشكر الله على نعمه وبره فيجزع في الضراء ويمنع في السراء.

﴿٢٢﴾ - ﴿٢٣﴾ ﴿إِلَّا الْمُصَلِّينَ﴾ ﴿٢٢﴾: الموصوفين بتلك الأوصاف؛ فإنهم إذا مسهم الخير؛ شكروا الله وأنفقوا مما خولهم الله، وإذا مسهم الشر؛ صبروا واحتسبوا. وقوله في وصفهم: ﴿الَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ﴾ ﴿٢٣﴾؛ أي: مداومون عليها في أوقاتها بشروطها ومكملاتها، وليسوا كمن لا يفعلها، أو يفعلها وقتًا دون وقت، أو يفعلها على وجه ناقص.

﴿٢٤﴾، ﴿٢٥﴾ ﴿وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ﴾ ﴿٢٤﴾: من زكاة وصدقة، ﴿لِّسَّائِلٍ﴾: الذي يتعرض للسؤال، ﴿وَالْمَعْرُورِ﴾ ﴿٢٥﴾: وهو المسكين الذي لا يسأل الناس فيعطوه ولا يفتن له فيصدق عليه.

﴿٢٦﴾ ﴿وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بَيِّنَاتٍ﴾ ﴿٢٦﴾؛ أي: يؤمنون بما أخبر به وأخبرت به الرسل من الجزاء والبعث، ويتيقنون ذلك، فيستعدون للآخرة، ويسعون لها سعيها. والتصديق بيوم الدين يلزم منه التصديق بالرسول وبما جاءوا به من الكتب.

﴿٢٧﴾، ﴿٢٨﴾ ﴿وَالَّذِينَ هُمْ مِنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ﴾ ﴿٢٧﴾؛ أي: خائفون وجلون، فيتركون لذلك كل ما يقربهم من عذاب الله. ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ﴾ ﴿٢٨﴾؛ أي: هو العذاب الذي يخشى ويحذر.

والأخلاق الفاضلة؛ ومعاملة الله ومعاملة خلقه أحسن معاملة؛ من إنصافهم وحفظ عهودهم وأسرارهم والعفة التامة بحفظ الفروج عما يكرهه الله تعالى.

﴿قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَئِنْ مِهْطِعِينَ﴾ ﴿٣٦﴾ ﴿إِلَى قَوْلِهِ﴾ ﴿كَلَّا إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِمَّا يَعْلَمُونَ﴾ ﴿٣٧﴾.

﴿٣٦﴾ - ﴿٣٧﴾ يقول تعالى مبيناً اغترار الكافرين: ﴿قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَئِنْ مِهْطِعِينَ﴾ ﴿٣٦﴾؛ أي: مسرعين، ﴿عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ عِزِينَ﴾ ﴿٣٧﴾؛ أي: قطعاً متفرقة وجماعات متنوعة، كل منهم بما لديه فرح. ﴿أَيُّطَعُ كُلُّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ أَنْ يُدْخَلَ جَنَّةً نَّعِيمٍ﴾ ﴿٣٨﴾؛ أي سبب أطمعهم وهم لم يقدموا سوى الكفر والجمود لرب العالمين؟! ولهذا قال: ﴿كَلَّا﴾ ﴿٣٩﴾؛ أي: ليس الأمر بأمانهم ولا إدراك ما يشتهون بقوتهم، ﴿إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِمَّا يَعْلَمُونَ﴾ ﴿٤٠﴾؛ أي: من ماء دافق يخرج من بين الصلب والترائب؛ فهم ضعفاء لا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضرا ولا موتا ولا حياة ولا نشورا.

﴿فَلَا أَقِيمُ رَبِّ الشَّرِيقَ وَالْمَغْرِبَ﴾ إلى آخر السورة.

﴿٤١﴾، ﴿٤٢﴾ هذا إقسام منه تعالى بالمشرق والمغرب للشمس والقمر والكواكب؛ لما فيها من الآيات الباهرات على البعث وقدرته على تبديل أمثالهم وهم بأعيانهم؛ كما قال تعالى: ﴿وَنُشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ ﴿٤٣﴾ [الواقعة: ٦١]. ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾ ﴿٤٤﴾؛ أي: ما أحد يسبقنا ويفوتنا ويعجزنا إذا أردنا أن نعيده.

﴿٤٥﴾ فإذا تقرر البعث والجزاء، واستمروا على تكذيبهم وعدم انقيادهم لآيات الله؛ ﴿فَذَرْهُمْ يُخَوْضُوا وَيَلْعَبُوا﴾ ﴿٤٦﴾؛ أي: يخوضوا بالأقوال الباطلة والعقائد الفاسدة، ويلعبوا بدينهم، ويأكلوا ويشربوا ويتمتعوا، ﴿حَتَّى يَلْقَا يَوْمَهُمُ الَّذِي يَوْعَدُونَ﴾ ﴿٤٧﴾؛ فإن الله قد أعد لهم فيه من النكال والوبال ما هو عاقبة خوضهم ولعبهم.

﴿٤٨﴾، ﴿٤٩﴾ ثم ذكر حال الخلق حين يلاقون اليوم الذي يوعدون، فقال: ﴿يَوْمَ يُخْرِجُونَ مِنَ الْأَعْدَاةِ﴾ ﴿٤٩﴾؛ أي: القبور ﴿سِرَاعًا﴾ ﴿٥٠﴾؛ مجيبين لدعوة الداعي مهطعين إليها، ﴿كَانَتْهُمْ إِلَى نَفْسٍ يُفُضُّونَ﴾ ﴿٥١﴾؛ أي: كأنهم إلى علم يؤمون ويسرعون؛ أي: فلا يتمكنون من الاستعصاء على الداعي ولا الالتواء عن نداء المنادي، بل يأتون أذلاء مهقورين للقيام بين يدي رب العالمين، ﴿خَتِئَةً أَعُزَّهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذُلٌّ﴾ ﴿٥٢﴾؛ وذلك أن الذلة

﴿٢٩﴾ - ﴿٣١﴾ ﴿وَالَّذِينَ هُمْ يَرْجُوهُمْ حَافِظُونَ﴾ ﴿٣٢﴾؛ فلا يطمنون بها وطناً محرماً من زنا أو لواط أو وطء في دبر أو حيض ونحو ذلك، ويحفظونها أيضاً من النظر إليها ومساها ممن لا يجوز له ذلك، ويتركون أيضاً وسائل المحرمات الداعية لفعل الفاحشة، ﴿إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾؛ أي: سرياتهم، ﴿فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ﴾ ﴿٣٣﴾؛ في وطنهن في المحل الذي هو محل الحرث. ﴿فَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَلِكَ﴾ ﴿٣٤﴾؛ أي: غير الزوجة وملك اليمين، ﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ﴾ ﴿٣٥﴾؛ أي: المتجاوزون ما أحل الله إلى ما حرم الله. ودلت هذه الآية على تحريم نكاح المتعة؛ لكونها غير زوجة مقصودة ولا ملك يمين.

﴿٣٦﴾ ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمْتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رِعُونَ﴾ ﴿٣٧﴾؛ أي: مراعون لها حافظون مجتهدون على أدائها والوفاء بها، وهذا شامل لجميع الأمانات التي بين العبد وبين ربه؛ كالتيكاليف السرية التي لا يطلع عليها إلا الله، والأمانات التي بين العبد وبين الخلق في الأموال والأسرار، وكذلك العهد شامل للعهد الذي عاهد عليه الله، والعهد الذي عاهد الخلق عليه؛ فإن العهد يسأل عنه العبد؛ هل قام به وفاه أم رفضه وخانه فلم يقيم به.

﴿٣٨﴾ ﴿وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَتِهِمْ قَائِمُونَ﴾ ﴿٣٩﴾؛ أي: لا يشهدون إلا بما يعلمونه من غير زيادة ولا نقص ولا كتمان، ولا يحابي فيها قريباً ولا صديقاً ونحوه، ويكون القصد بإقامتها وجه الله؛ قال تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا شَهَادَةَ اللَّهِ﴾ ﴿٤٠﴾، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ﴾ [النساء: ١٣٥].

﴿٤١﴾ ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ ﴿٤٢﴾؛ بالمداومة عليها على أكمل الوجوه.

﴿٤٣﴾ ﴿أُولَٰئِكَ﴾ ﴿٤٤﴾؛ أي: الموصوفون بتلك الصفات، ﴿فِي حَبَّتِ تَرْكَبُونَ﴾ ﴿٤٥﴾؛ أي: قد أوصل الله لهم من الكرامة والنعيم المقيم، ما تشبهه الأنفس، وتلد الأعين، وهم فيها خالدون.

وحاصل هذا أن الله وصف أهل السعادة والخير بهذه الأوصاف الكاملة والأخلاق المرضية الفاضلة من العبادات البدنية؛ كالصلاة والمداومة عليها، والأعمال القلبية؛ كخشية الله الداعية لكل خير، والعبادات المالية، والعقائد النافعة،

والقلق قد ملك قلوبهم، واستولى على أفئدتهم، فخشعت منهم الأبصار، وسكنت منهم الحركات، وانقطعت الأصوات. فهذه الحال والمآل هو يومهم ﴿الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ﴾ (٤٤) ولا بد من الوفاء بوعد الله.

تمت. والحمد لله.



تفسير سورة نوح عليه السلام

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ﴾.

لم يذكر الله في هذه السورة إلا قصة نوح وحدها؛ لطول لبثه في قومه وتكرار دعوته إلى التوحيد ونهيه عن الشرك:

﴿١﴾ فأخبر تعالى أنه أرسله إلى قومه رحمة بهم وإنذاراً لهم من عذاب أليم؛ خوفاً من استمرارهم على كفرهم، فيهلكهم الله هلاكاً أبدياً، ويعذبهم عذاباً سرمدياً.

﴿٢﴾ - فامتثل نوح عليه السلام لذلك، وابتدر لأمر

الله، فقال: ﴿يَقَوْمُ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ (٢)؛ أي: واضح النذارة بينها، وذلك لتوضيحه ما أنذر به وما أنذر عنه، وبأي شيء تحصل النجاة؛ بين ذلك بياناً شافياً، فأخبرهم وأمرهم بزيادة ما يأمرهم به، فقال: ﴿أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ﴾؛ وذلك بإفراده تعالى بالعبادة والتوحيد والبعد عن الشرك وطرقة ووسائله؛ فإنهم إذا اتقوا الله؛ غفر ذنوبهم؛ وإذا غفر ذنوبهم، حصل لهم النجاة من العذاب والفوز بالثواب، ﴿وَيُخْرِجَكُم مِّنْ أَجْلِ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾؛ أي: يمتنعكم في هذه الدار ويدفع عنكم الهلاك إلى أجل مسمى؛ أي: مقدر البقاء في الدنيا بقضاء الله وقدره إلى وقت محدود، وليس المتاع أبداً؛ فإن الموت لا بد منه، ولهذا قال: ﴿إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (٣)؛ كما كفرتم بالله وعاندتم الحق.

﴿٤﴾ - ﴿٥﴾ فلم يجيبوا لدعوته، ولا انقادوا لأمره، فقال شاكية لربه: ﴿رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا﴾ (٤) ﴿٥﴾ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَايَ إِلَّا فِرَارًا ﴿٦﴾؛ أي: نفورا عن الحق وإعراضاً، فلم يبق لذلك فائدة؛ لأن فائدة الدعوة أن يحصل جميع المقصود أو بعضه، ﴿وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ﴾؛ أي: لأجل أن يستجيبوا؛ فإذا استجابوا؛ غفرت لهم، وهذا محض مصلحتهم، ولكن أبوا إلا تمادياً على باطلهم ونفورا عن الحق، ﴿جَعَلُوا أَصْنَعَهُمْ فِي عَادَاتِهِمْ﴾؛ حذر سماع ما يقول لهم نبيهم نوح عليه السلام، ﴿وَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ﴾؛ أي: تغطوا بها غطاء يغشاهم بعداً عن الحق ويغضاً له، ﴿وَأَمَرُوا﴾؛ على كفرهم وشرهم، ﴿وَاسْتَكْبَرُوا﴾؛ على الحق ﴿اسْتَكْبَرُوا﴾؛ فشرهم ازداد وخيرهم بعد.

﴿٨﴾، ﴿٩﴾ ﴿١٠﴾ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ﴿٨﴾؛ أي: بمسمع منهم كلهم، ﴿ثُمَّ إِنِّي أَقْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا﴾ (٩)؛ كل هذا حرص ونصح، وإتيانهم بكل طريق يظن به حصول المقصود.

﴿١١﴾ - ﴿١٢﴾ ﴿فَلَنْتُ أَسْتَغْفِرُوا لَكُمْ﴾؛ أي: اتركوا ما أنتم عليه من الذنوب واستغفروا الله منها؛ ﴿إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا﴾ (١١)؛ كثير المغفرة لمن تاب واستغفر، فرغبهم بمغفرة الذنوب وما يترتب عليها من الثواب واندفاع العقاب، ورغبهم أيضاً بخير الدنيا العاجل،

سورة نوح

سورة نوح

﴿١٣﴾ فَلَا أَقِيمُ رَبِّ السَّرِيقِ وَالْعَرْبِ إِنَّا أَقِيدُونَ ﴿١٣﴾ عَلَّانٌ يُبْدِلُ خَيْرَاتِهِمْ وَمَا خُنَّ يَسْبِقُونَ ﴿١٤﴾ فَذَرَهُمْ حَوْصُوا وَيَلْبِسُوا حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يَوْمَعُونَ ﴿١٥﴾ يَوْمَ يُخْرِجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَانَتْهُمْ إِلَىٰ نَصْبٍ يَوْمَ يَوْمَعُونَ ﴿١٦﴾ خَشِيعَةً أَبْصَرُهُمْ يَرْفَعُهُمْ ذُلُّ ذَلِكَ الْيَوْمِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿١٧﴾

سورة نوح

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿١٨﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨﴾ قَالَ يَتَّبِعُونَ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١٩﴾ أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُوا أَمْرًا ﴿٢٠﴾ يَتَغَفَّرُ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُخْرِجَكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ﴿٢٢﴾ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَايَ إِلَّا فِرَارًا ﴿٢٣﴾ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصْنَعَهُمْ فِي عَادَاتِهِمْ وَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا ﴿٢٤﴾ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنِّي أَقْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ﴿٢٦﴾ فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴿٢٧﴾

٥٧٠

فقال: ﴿يُرْسِلُ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا﴾؛ أي: مطرًا متتابعًا يروي الشعاب والوهاد، ويحيي البلاد والعباد، ﴿وَيُمْدِدُكُمْ بِأَمْوَالٍ وَيَنْبِيءَ﴾؛ أي: يكثر أموالكم التي تدركون بها ما تطلبون من الدنيا وأولادكم، ﴿وَيَجْعَلُ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلُ لَكُمْ أَنْهَارًا﴾؛ وهذا من أبلغ ما يكون من لذات الدنيا ومطالبها.

﴿١٣﴾، ﴿١٤﴾ ﴿مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾؛ أي: لا تخافون لله عظمة وليس لله عندكم قدر، ﴿وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾؛ أي: خلقًا من بعد خلق في بطن الأم ثم في الرضاع ثم في سن الطفولية ثم التمييز ثم الشباب ثم إلى آخر ما يصل إليه الخلق؛ فالذي انفرد بالخلق والتدبير البديع متعين أن يفرد بالعبادة والتوحيد، وفي ذكر ابتداء خلقهم تنبيه لهم على المعاد، وأن الذي أنشأهم من العدم قادر على أن يعيدهم بعد موتهم.

﴿١٥﴾، ﴿١٦﴾ واستدل أيضًا بخلق السماوات التي هي أكبر من خلق الناس، فقال: ﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا﴾؛ أي: كل سماء فوق الأخرى، ﴿وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا﴾؛ أي: لأهل الأرض، ﴿وَجَعَلَ الشَّمْسُ سِرَاجًا﴾؛ ففيه تنبيه على عظم خلق هذه الأشياء، وكثرة المنافع في الشمس والقمر، الدالة على رحمة الله وسعة إحسانه؛ فالعظيم الرحيم يستحق أن يعظم ويحب ويخاف ويرجى.

﴿١٧﴾، ﴿١٨﴾ ﴿وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا﴾؛ أي: حين خلق أباكم آدم وأنتم في صلبه، ﴿ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا﴾؛ عند الموت، ﴿وَيُخْرِجُكُمْ مِنْهَا إِبْرَاجًا﴾؛ للبعث والنشور؛ فهو الذي يملك الحياة والموت والنشور.

﴿١٩﴾، ﴿٢٠﴾ ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ بِسَاطًا﴾؛ أي: ميسورة مهيئة للانتفاع بها، ﴿لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَالًا﴾؛ فلولاً أنه بسطها؛ لما أمكن ذلك، بل ولا أمكنهم حرثها وغرسها وزرعها والبناء والسكون على ظهرها.

﴿٢١﴾ - ﴿٢٢﴾ ﴿قَالَ نُوحٌ﴾؛ شاكيًا لربه: إن هذا الكلام والوعظ والتذكير ما نجع فيههم ولا أفاد: ﴿إِنَّهُمْ عَصَوْنِي﴾؛ فيما أمرتهم به، ﴿وَأَتَّبَعُوا مَنْ لَزِيذَهُ مَالَهُ، وَوَلَدَهُ إِلَّا خَسَارًا﴾؛ أي: عصوا الرسول الناصح الدال على الخير، واتبعوا الملاء والأشراف الذين لم تزد لهم أموالهم ولا أولادهم إلا خسارًا؛ أي: هلاكًا وتقويتًا للأرياح؛ فكيف بمن انقاد لهم وأطاعهم؟! ﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا كَبِيرًا﴾؛ أي: مكرًا كبيرًا بليغًا في معاندة الحق. قالوا لهم داعين إلى الشرك من زينين له: ﴿لَا تَذَرْنِ الْهَكَرَ﴾؛ فدعوههم إلى التعصب على ما هم عليه من الشرك، وألا يدعوا ما عليه آبائهم الأقدمون، ثم عيناو الهتهم، فقالوا: ﴿وَلَا تَذَرْنِ وَدًّا وَلَا سَوَاعًا﴾ بزعمهم على الطاعة إذا رواها، ثم طال الأمد، وجاء غير أولئك، فقال لهم الشيطان: إن أسلافكم يعبدونهم ويتوسلون بهم، وبهم يسقون المطر فعبدهم، ولهذا أوصى رؤسائهم للتابعين لهم ألا يدعوا عبادة هذه الآلهة، ﴿وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا﴾؛ أي: أضل الكبار والرؤساء بدعوتهم كثيرًا من الخلق. ﴿وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا﴾؛ أي: لو كان ضلالهم عند دعوتي إياهم للحق؛ لكان مصلحة، ولكن لا يزيدون دعوة الرؤساء إلا ضلالًا؛ أي: فلم يبق محل لنجاحهم وصلاحهم.

﴿٢٣﴾ ولهذا ذكر الله عذابهم وعقوبتهم الدنيوية والأخروية، فقال: ﴿مِمَّا خَطَبْتِهِمْ أَعْرِفُوا﴾؛ في اليم الذي أحاط بهم، ﴿فَأَذِلُّوا نَارًا﴾؛ فذهبت أجسادهم في الغرق وأرواحهم للنار والحرق. وهذا كله بسبب خطيئاتهم التي أتاهم بنبيهم نوح

يُرْسِلُ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا ﴿١٣﴾ وَيُمْدِدُكُمْ بِأَمْوَالٍ وَيَنْبِيءَ وَيَجْعَلُ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلُ لَكُمْ أَنْهَارًا ﴿١٤﴾ مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٥﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٦﴾ أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا ﴿١٧﴾ وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسُ سِرَاجًا ﴿١٨﴾ وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٩﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ مِنْهَا إِبْرَاجًا ﴿٢٠﴾ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿٢١﴾ لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَالًا ﴿٢٢﴾ قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنِّي هُمْ عَصَوْنِي وَأَتَّبَعُوا مَنْ لَزِيذَهُ مَالَهُ، وَوَلَدَهُ إِلَّا خَسَارًا ﴿٢٣﴾ وَمَكَرُوا مَكْرًا كَبِيرًا ﴿٢٤﴾ وَقَالُوا لَا تَذَرْنِ الْهَكَرَ وَلَا تَذَرْنِ وَدًّا وَلَا سَوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٥﴾ وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا ﴿٢٦﴾ مِمَّا خَطَبْتِهِمْ أَعْرِفُوا فَأَذِلُّوا نَارًا فَأَقْرَبُوا نَارًا فَكَلِمَةً لَمْ يَنْبَغِ أَنْ يَكُونَ اللَّهُ أَنْصَارًا ﴿٢٧﴾ وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْنِ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٨﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرَهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فِاجِرًا كَفَّارًا ﴿٢٩﴾ رَبِّ آغْضِبْ لِي وَلِوَلَدِي وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِي مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا نَارًا ﴿٣٠﴾

ينذرهم عنها ويخبرهم بشؤمها ومغبتها، فرفضوا ما قال، حتى حل بهم النكال، ﴿فَلَمْ يَحْدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْصَارًا﴾ (٢٥)؛ ينصرونهم حين نزل بهم الأمر الأمر، ولا أحد يقدر يعارض القضاء والقدر.

﴿وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ ذِيَارًا﴾ (٢٦)؛ يدور على وجه الأرض. وذكر السبب في ذلك، فقال: ﴿إِنَّكَ إِنْ تَذَرَهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾ (٢٧)؛ أي: بقاؤهم مفسدة محضة لهم ولغيرهم، وإنما قال نوح ذلك؛ لأنه مع كثرة مخالطته إياهم ومزاولته لأخلاقهم؛ علم بذلك نتيجة أعمالهم؛ لا جرم أن الله استجاب دعوته فأغرقهم أجمعين، ونجى نوحًا ومن معه من المؤمنين.

﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَلَدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا﴾؛ خص المذكورين لتأكيد حقهم وتقديم برهم، ثم عمم الدعاء، فقال: ﴿وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا يُزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا﴾ (٢٨)؛ أي: خسارًا ودمارًا وهلاكًا.

تم تفسير سورة نوح عليه السلام. والحمد لله.

﴿٢٨﴾ ﴿٢٧﴾ ﴿٢٦﴾ ﴿٢٥﴾

تفسير سورة قل أوحى إلي

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿قُلْ أُوْحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْغَيْنِ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا﴾ (١) يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا﴾ (٢)

﴿١﴾ أي: ﴿قُلْ﴾: يا أيها الرسول للناس، ﴿أُوْحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْغَيْنِ﴾: صرّفهم الله إلى رسوله لسماع آياته؛ لتقوم عليهم الحجة وتتم عليهم النعمة ويكونوا منذرين لقومهم، وأمر الله رسوله أن يقص نبأهم على الناس، وذلك أنهم لما حضروه؛ قالوا: أنصتوا، فلما أنصتوا؛ فهموا معانيه ووصلت حقائقه إلى قلوبهم. ﴿فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا﴾ (٢)؛ أي: من العجائب الغالية والمطالب العالية.

﴿٢﴾ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ: والرشد: اسم جامع لكل ما يرشد الناس إلى مصالح دينهم ودنياهم، ﴿فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا﴾ (٢)؛ فجمعوا بين الإيمان الذي يدخل فيه جميع أعمال الخير، وبين التقوى المتضمنة لترك الشر، وجعلوا السبب الداعي لهم إلى الإيمان وتوابعه ما علموه من إرشادات القرآن، وما اشتمل عليه من المصالح والفوائد واجتناب المضار؛ فإن ذلك آية عظيمة وحجة قاطعة لمن استنار به واهتدى بهديه، وهذا الإيمان النافع المثمر لكل خير، المبني على هداية القرآن؛ بخلاف إيمان العوائد والمزَيِّ والإلف ونحو ذلك؛ فإنه إيمان تقليد تحت خطر الشبهات والعوارض الكثيرة.

﴿وَأَنَّهُ تَعَلَّى جَدُّ رَبِّنَا﴾؛ أي: تعالت عظمته وتقدست أسماؤه، ﴿مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا﴾ (٣)؛ فعلموا من جد الله وعظمته ما دلهم على بطلان من يزعم أن له صاحبة أو ولدًا؛ لأن له العظمة والكمال في كل صفة كمال، واتخاذ صاحبة

والولد ينافي ذلك؛ لأنه يضاد كمال الغنى.

﴿وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا﴾؛ أي: قولاً جائزاً عن الصواب متعدياً للحد، وما حمله على ذلك إلا سفهه وضعف عقله، وإلا؛ فلو كان رزينا مطمئناً؛ لعرف كيف يقول.

﴿وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّنْ نَقُولَ الْإِنْسَ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾.

﴿٥﴾ أي: كنا مغترين قبل ذلك، غرنا القادة والرؤساء من الجن والإنس، فأحسننا بهم الظن، وحسنناهم لا يتجرعون على الكذب على الله؛ فلذلك كنا قبل ذلك على طريقهم؛ فالיום إذ بان لنا الحق؛ رجعنا إليه، وانقذنا له، ولم نبال بقول أحد من الخلق يعارض الهدى.

﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾.

﴿٦﴾ أي: كان الإنس يعوذون بالجن عند المخاوف والأفزع ويعبدونهم، فزاد الإنس الجن رهقاً؛ أي: طغياناً وتكبراً؛ لما رأوا الإنس يعبدونهم ويستعيذون بهم، ويحتمل أن الضمير وهي الواو ترجع إلى الجن؛ أي: زاد الجن الإنس ذعراً وتخويفاً لما رأوهم يستعيذون بهم ليلجئوهم إلى الاستعاذة بهم والتمسك بما هم عليه، فكان الإنسي إذا نزل بواد مخوف؛ قال: أعوذ بسيد هذا الوادي من سفهاء قومه.

﴿وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنْتُمْ أَن لَّنْ يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَدًا﴾.

﴿٧﴾ أي: فلما أنكروا البعث؛ أقدموا على الشرك والطغيان.

﴿٨﴾ ﴿٩﴾ ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ﴾؛ أي: أتيناها واختبرناها، فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا؛ عن الوصول إلى أرجائها والدنو منها، ﴿وَشَبَّهَا﴾؛ يرمى بها من استرق السمع، وهذا مخالف لعادتنا الأولى؛ فإننا كنا نمكن من الوصول إلى خبر السماء ﴿وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقْعِدًا لِّلسَّمْعِ﴾: فتلقف من أخبار السماء ما شاء الله، ﴿فَمَنْ يَسْمَعُ أَذَّنٌ مِّجْدَلُهُ﴾: شهاباً رَصَدًا؛ أي: مرصداً له معداً لإتلافه وإحراقه؛ أي: وهذا له شأن عظيم ونبا جسيم، وجزموا أن الله تعالى أراد أن يحدث في الأرض حادثاً كبيراً من خير أو شر؛ فلهاذا قالوا:

﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرُّ أُرِيدَ يَمَنَ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾.

﴿١٠﴾ أي: لا بد من هذا أو هذا؛ لأنهم رأوا الأمر تغير عليهم تغيراً أنكروه، فعرفوا بفطنتهم أن هذا الأمر يريد الله ويحدثه في الأرض، وفي هذا بيان لأدبهم إذ أضافوا الخير إلى الله تعالى، والشر حذفوا فاعله تأدباً مع الله.

﴿١١﴾ ﴿وَأَنَّا إِنَّا الْفَالِحُونَ وَمِمَّا دُونَ ذَلِكَ﴾؛ أي: فساق وفجار وكفار، ﴿كُنَّا طَرِيقَ قِدْدًا﴾؛ أي: فرقاً متنوعة وأهواء متفرقة؛ كل حزب بما لديهم فرحون.

﴿وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّنْ نَعْمَرَ اللَّهَ فِي الْأَرْضِ وَلَن نُّعْجزَهُ هَرَبًا﴾.

﴿١٢﴾ أي: وأنا في وقتنا الآن تبين لنا كمال قدرة الله وكمال عجزنا، وأن نواصينا بيد الله؛ فلن نعجزه في الأرض ولن نعجزه إن هربنا وسعينا بأسباب الفرار والخروج عن قدرته، لا ملجأ منه إلا إليه.

﴿١٣﴾ ﴿وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا الْمُدَّةَ﴾: وهو القرآن الكريم الهادي إلى الصراط المستقيم، وعرفنا هدايته وإرشاده؛ أثر في قلوبنا، ﴿فَعَامَّأَ بِهِ﴾، ثم ذكروا ما يرغب المؤمن، فقالوا: ﴿مَنْ يُؤْمِنُ بِرَبِّهِ﴾ إيماناً صادقاً ﴿فَلَا يَخَافُ بَحْسًا وَلَا رَهَقًا﴾؛ أي: لا نقصاً ولا طغياناً ولا أذى يلحقه، وإذا سلم من الشر؛ حصل له الخير؛ فالإيمان سبب داع إلى حصول كل خير وانتفاء كل شر.

﴿١٤﴾ ﴿وَأَنَّا إِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِمَّا الْقَاسِطُونَ﴾؛ أي: الجائرون العادلون عن الصراط المستقيم، ﴿فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا﴾؛ أي: أصابوا طريق الرشد الموصل لهم إلى الجنة ونعيمها.

﴿وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾ ﴿١٥﴾ وَالْوُاسِقُونَ عَلَى الطَّرِيقَةِ لِأَسْقَيْنَهُمْ مَّاءَ غَدَقًا ﴿١٦﴾ لَتَفْنِيَنَّهُمْ فِيهِ وَمَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا ﴿١٧﴾.

﴿١٥﴾ - ﴿١٦﴾ ﴿وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾؛ وذلك جزاء على أعمالهم، لا ظلم من الله لهم، فإنهم لو ﴿أَسْقَمُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ﴾: المثلى، ﴿لَأَسْقَيْنَهُمْ مَّاءَ غَدَقًا﴾؛ أي: هنيئاً مريئاً، ولم يمنعمهم ذلك إلا ظلمهم وعدوانهم، ﴿لَتَفْنِيَنَّهُمْ فِيهِ﴾؛ أي: لنختبرهم فيه ونمتحنهم ليظهر الصادق من الكاذب، ﴿وَمَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا﴾ ﴿١٧﴾؛ أي: من أعرض عن ذكر الله الذي هو

كتابه، فلم يتبعه وينقذ له، بل لها عنه وغفل؛ يسلكه عذاباً صعباً؛ أي: بليغاً شديداً.

﴿وَأَنَّ الْمَسْجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾ ١٨.

﴿١٨﴾ وَأَنَّ الْمَسْجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾؛ أي: لا دعاء عبادة ولا دعاء مسألة؛ فإن المساجد التي هي أعظم محال العبادة مبنية على الإخلاص لله والخضوع لعظمته والاستكانة لعزته.

﴿١٩﴾ وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ ﴿١٩﴾؛ أي: يسأله ويتعبد له ويقرأ القرآن كاد الجن من تكاثرهم عليه، ﴿يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾ ١٩؛ أي: متلبدين متراكمين حرصاً على سماع ما جاء به من الهدى.

﴿٢٠﴾ قُلْ ﴿٢٠﴾: لَهُمْ يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ، مِثْنًا حَقِيقَةً مَا تَدْعُو إِلَيْهِ: ﴿إِنَّمَا أَدْعُوا رَبِّي وَلَا أَشْرِكُ بِهِ أَحَدًا﴾ ٢٠؛ أي: أوحده وحده لا شريك له، وأخلع ما دونه من الأنداد والأوثان، وكل ما يتخذه المشركون من دونه.

﴿٢١﴾، ﴿٢٢﴾ قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ﴿٢١﴾: فإنني عبد ليس لي من الأمر والتصرف شيء، ﴿قُلْ إِنِّي لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ﴾ ٢٢؛ أي: لا أحد أستجير به ينقذني من عذاب الله، وإذا كان الرسول الذي هو أكمل الخلق لا يملك ضراً ولا رشداً

ولا يمنع نفسه من الله شيئاً إن أراد به سوء؛ فغيره من الخلق من باب أولى وأحرى، ﴿وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا﴾ ٢٢؛ أي: ملجأً ومتصراً.

﴿٢٣﴾ ﴿٢٣﴾ لَا بَلَّغَا مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴿٢٣﴾؛ أي: ليس لي مزية على الناس إلا أن الله خصني بإبلاغ رسالاته ودعوة خلقه إليه، وبذلك تقوم الحجة على الناس، ﴿وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ، فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا أَبَدًا﴾ ٢٣؛ وهذا المراد به المعصية الكفرية كما قيدتها النصوص الآخر المحكمة، وأما مجرد المعصية؛ فإنه لا يوجب الخلود في النار؛ كما دلت على ذلك آيات القرآن والأحاديث عن النبي ﷺ، وأجمع عليه سلف الأمة وأئمة هذه الأمة.

﴿٢٤﴾ حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ ﴿٢٤﴾؛ أي: شاهدوه عياناً وجزموا أنه واقع بهم، ﴿فَسَيَعْلَمُونَ﴾ ٢٤: في ذلك الوقت حقيقة المعرفة، ﴿مَنْ أَضَعُفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا﴾ ٢٤؛ حين لا ينصرهم غيرهم، ولا أنفسهم ينتصرون، وإذ يحشرون فرادى كما خلقوا أول مرة.

﴿٢٥﴾، ﴿٢٦﴾ قُلْ ﴿٢٥﴾ لَهُمْ إِنْ سَأَلْتُمْ فَقَالُوا: متى هذا الوعد؟ ﴿إِنْ أَذْرَيْتَ أَقْرَبَ مَا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُ، رَبِّي أَمَدًا﴾ ٢٥؛ أي: غاية طويلة؛ فلمعلم ذلك عند الله ﴿عَلِيمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا﴾ ٢٦؛ من الخلق، بل انفرد بعلم الضمائر والأسرار والغيوب.

﴿٢٧﴾ ﴿٢٧﴾ إِلَّا مَنْ أَرَضَّيْنِي مِنْ رَسُولٍ ﴿٢٧﴾؛ أي: فإنه يخبره بما اقتضت حكمته أن يخبره به، وذلك لأن الرسل ليسوا كغيرهم؛ فإن الله أيدهم بتأييد ما أيده أحداً من الخلق، وحفظ ما أوحاه إليهم حتى يبلغوه على حقيقته؛ من غير أن تتخطبهم الشياطين ولا يزيدوا فيه أو ينقصوا، ولهذا قال: ﴿فَإِنَّهُ يُسَلِّكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا﴾ ٢٧؛ أي: يحفظونه بأمر الله.

﴿يَعْلَمُ﴾ بذلك ﴿أَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا﴾: بما جعله لهم من الأسباب، ﴿وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ﴾؛ أي: بما عندهم وما أسروه وما أعلنوه، ﴿وَأَخَصَّنَا كُلَّ شَيْءٍ عَدْدًا﴾.

وفي هذه السورة فوائد عديدة:

منها: وجود الجن، وأنهم مكلفون بمأمورين منهيون مجازون بأعمالهم؛ كما هو صريح في هذه السورة وغيرها.

ومنها: أن رسول الله ﷺ مبعوث إلى الجن كما هو مبعوث إلى الإنس؛ فإن الله صرف نعر الجن ليستمعوا ما يوحى إليه ويبلغوا قومهم.

ومنها: ذكاء الجن ومعرفتهم بالحق، وأن الذي ساقهم إلى الإيمان هو ما تحققوه من هداية القرآن وحسن أدبهم في خطابهم.

ومنها: اعتناء الله برسوله وحفظه لما جاء به؛ فحين ابتدأت بشارت نبوته والسماء محروسة بالنجوم، والشياطين قد هربت من أماكنها، وأزعجت عن مراصدها، وأن الله رحم به أهل الأرض رحمة ما يقدر لها قدر، وأراد بهم ربهم رشدًا، فأراد أن يظهر من دينه وشرعه ومعرفته في الأرض ما تبتهج به القلوب، وتفرح به أولو الألباب، وتظهر به شعائر الإسلام، وينقمع به أهل الأوثان والأصنام.

ومنها: شدة حرص الجن على استماعهم للرسول ﷺ وتراكمهم عليه.

ومنها: أن هذه السورة قد اشتملت على الأمر بالتوحيد، والنهي عن الشرك، وبينت حالة الخلق، وأن كل أحد منهم لا يستحق من العبادة مثقال ذرة؛ لأن الرسول محمدًا ﷺ إذا كان لا يملك لأحد نفعًا ولا ضرًا، بل ولا يملك لنفسه؛ علم أن الخلق كلهم كذلك؛ فمن الخطأ والظلم اتخاذ من هذا وصفه إلهاً آخر.

ومنها: أن علوم الغيوب قد انفرد الله بعلمها؛ فلا يعلمها أحد من الخلق؛ إلا من ارتضاه الله واختصه بعلم شيء منها.

تم تفسير سورة قل أوحى إلي. ولله الحمد.



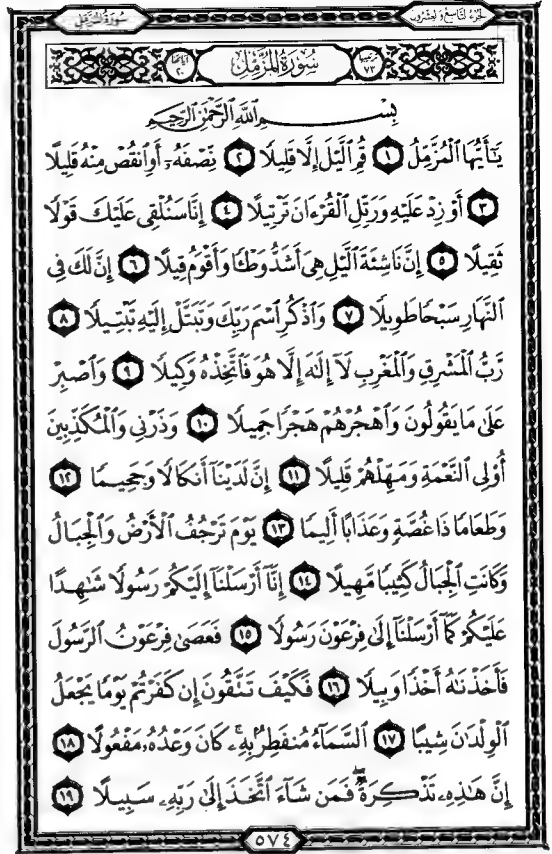
تفسير سورة المزمل

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿يَا أَيُّهَا الْمَزْمُلُ﴾ ﴿١﴾ ﴿قُرْ أَيْلَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ ﴿٢﴾ إلى قوله: ﴿وَمَهْلَهْ قَلِيلًا﴾ ﴿١١﴾.

١ - ٥ المزمل: المتغطي بشيابه كالمدثر، وهذا الوصف حصل من رسول الله ﷺ حين أكرمه الله برسالته، وابتدأه بإنزال وحيه بإرسال جبريل إليه، فرأى أمرًا لم ير مثله ولا يقدر على الثبات عليه إلا المرسلون، فاعتراه في ابتداء ذلك انزعاج،



والمغارب، وما يكون فيها من الأنوار، وما هي مصلحة له من العالم العلوي والسفلي؛ فهو رب كل شيء وخالقه ومدبره. ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾؛ أي: لا معبود إلا وجهه الأعلى، الذي يستحق أن يخص بالمحبة والتعظيم والإجلال والتكريم، ولهذا قال: ﴿فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾؛ أي: حافظًا ومدبرًا لأمره كلها.

﴿١٠﴾ فلما أمره الله بالصلاة خصوصًا وبالذكر عمومًا، وذلك يحصل للعبد ملكة قوية في تحمل الأثقال وفعل الثقيل من الأعمال؛ أمره بالصبر على ما يقوله المعاندون له ويسبون ويسبون ما جاء به، وأن يمضي على أمر الله؛ لا يصده عنه صاد ولا يردده راد، وأن يهجرهم هجرًا جميلًا، وهو الهجر حيث اقتضت المصلحة الهجر، الذي لا أذية فيه، فيقابلهم بالهجر والإعراض عنهم وعن أقوالهم التي تؤذيه، وأمره بجذلهم بالتي هي أحسن.

﴿١١﴾ ﴿وَذَرْنِي وَالْكَذِبِينَ﴾؛ أي: اتركني وإياهم، فسأنتم منهم، وإن أمهلتهم؛ فلا أمهلهم. وقوله: ﴿أُولَى النَّعْمَةِ﴾؛ أي: أصحاب النعمة والغنى، الذين طغوا حين وسع الله عليهم من رزقه وأمدهم من فضله؛ كما قال تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَّاظٍ﴾ ﴿١﴾ ﴿أَن رَّاهُ أَشْتَقَى﴾ ﴿٢﴾ [العلق: ٦، ٧].

ثم توعدهم بما عنده من العقاب فقال:

﴿١٢﴾ ﴿إِنَّ لَدَيْنَا أَنْكَالًا وَجَحِيمًا﴾ ﴿١٣﴾ ﴿وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا﴾ ﴿١٤﴾ ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَيْبًا مَّهِيلًا﴾ ﴿١٥﴾

﴿١٢﴾، ﴿١٣﴾ أي: إن عندنا ﴿أَنْكَالًا﴾؛ أي: عذابًا شديدًا جعلناه تنكيلًا للذي لا يزال مستمرًا على ما يغضب الله، ﴿وَجَحِيمًا﴾؛ أي: نارا حامية، ﴿وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ﴾ وذلك لمرارته وبشاعته وكراهة طعمه وريحه الخبيث المتن، ﴿وَعَذَابًا أَلِيمًا﴾؛ أي: موجعًا مفظعًا.

﴿١٤﴾ وذلك ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ﴾: من الهول العظيم، فكانت ﴿الْجِبَالُ﴾: الراسيات الصم الصلاب ﴿كَيْبًا مَّهِيلًا﴾؛ أي: بمنزلة الرمل المنهال المشتت، ثم إنها تُبس بعد ذلك فتكون كالهباء المنثور.

﴿١٥﴾ ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكَ رَسُولًا شَهِيدًا عَلَيْكَ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَى فِرْعَوْنَ رَسُولًا﴾ ﴿١٦﴾ ﴿فَعَصَى فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلًا﴾ ﴿١٧﴾

حين رأى جبريل عليه السلام، فأتى إلى أهله، فقال: «زملوني زملوني». وهو ترعد فرائضه، ثم جاءه جبريل، فقال: اقرأ. فقال: «ما أنا بقارئ»^(١). فغظه حتى بلغ منه الجهد، وهو يعالجه على القراءة، فقرأ ﴿سُورَةَ﴾.

ثم ألقى الله عليه الثبات، وتابع عليه الوحي، حتى بلغ مبلغًا ما بلغه أحد من المرسلين؛ فسبحان الله ما أعظم التفاوت بين ابتداء نبوته ونهايتها! ولهذا خاطبه الله بهذا الوصف الذي وجد منه في أول أمره، فأمره هنا بالعبادات المتعلقة به، ثم أمره بالصبر على أذية قومه، ثم أمر بالصدع بأمره وإعلان دعوتهم إلى الله، فأمره هنا بأشرف العبادات، وهي الصلاة، ويؤكد الأوقات وأفضلها، وهو قيام الليل. ومن رحمته تعالى أنه لم يأمره بقيام الليل كله، بل قال: ﴿وَرَأَيْتَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ ﴿٢﴾. ثم قدر ذلك فقال: ﴿يَصْنَعُهُ الْوَأْتِظُّرُ مِنْهُ﴾؛ أي: من النصف ﴿قَلِيلًا﴾ ﴿٣﴾: بأن يكون الثلث ونحوه، ﴿أَوْزِدَ عَلَيْهِ﴾؛ أي: على النصف، فيكون نحو الثلثين، ﴿وَرَأَيْتَ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا﴾ ﴿٤﴾؛ فإن ترتيل القرآن به يحصل التدبر والتفكير وتحريك القلوب به والتعبد بآياته والتهوؤ والاستعداد التام له؛ فإنه قال: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ ﴿٥﴾؛ أي: نوحى إليك هذا القرآن الثقيل؛ أي: العظيمة معانيه، الجلييلة أوصافه، وما كان بهذا الوصف حقيق أن يتهيا له ويرتل ويتفكر فيما يشتمل عليه.

﴿٦﴾ ثم ذكر الحكمة في أمره بقيام الليل، فقال: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ﴾؛ أي: الصلاة فيه بعد النوم، ﴿هِيَ أَشَدُّ وَطْأً وَأَقْوَمُ قِيلًا﴾ ﴿٦﴾؛ أي: أقرب إلى حصول مقصود القرآن؛ يتواطأ عليه القلب واللسان، وتقل الشواغل، ويفهم ما يقول، ويستقيم له أمره.

﴿٧﴾ وهذا بخلاف النهار؛ فإنه لا يحصل به هذه المقاصد، ولهذا قال: ﴿إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْعًا شَوِيلًا﴾ ﴿٧﴾؛ أي: ترددًا في حوائجك ومعاشك يوجب اشتغال القلب وعدم تفرغه التفرغ التام.

﴿٨﴾ ﴿وَأَذْكُرْ اسْمَ رَبِّكَ﴾: شامل لأنواع الذكر كلها، ﴿وَيَتَنَلَّ إِلَيْهِ بَنَيْكَ﴾ ﴿٨﴾؛ أي: انقطع إليه؛ فإن الانقطاع إلى الله والإنابة إليه هو: الانفصال بالقلب عن الخلاق، والاتصاف بمحبة الله وما يقرب إليه ويدني من رضاه.

﴿٩﴾ ﴿رَبِّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ﴾: وهذا اسم جنس؛ يشمل المشارق والمغارب كلها؛ فهو تعالى رب المشارق

﴿١٥﴾، ﴿١٦﴾ يقول تعالى: احمدا ربكم على إرسال هذا النبي الأمي العربي البشير النذير الشاهد على الأمة بأعمالهم، واشكروه، وقوموا بهذه النعمة الجليلة، وإياكم أن تكفروا، فتعصوا رسولكم، فتكونوا كفرعون حين أرسل الله إليه موسى ابن عمران، فدعاه إلى الله، وأمره بالتوحيد، فلم يصدقه، بل عصاه، فأخذته الله ﴿أَخَذَا وَيَلَا﴾ ﴿١٧﴾؛ أي: شديداً بليغاً.

﴿فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِنْ كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا﴾ ﴿١٧﴾ السَّمَاءَ مَنفُطَرًا بِدُءٍ كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولًا ﴿١٨﴾.

﴿١٧﴾، ﴿١٨﴾ أي: فكيف يحصل لكم الفكاك والنجاة يوم القيامة، اليوم المهيل أمره، العظيم خطره، الذي يُشيب الولدان وتذوب له الجمادات العظام؛ فتنفطر السماء وتشر نجومها. ﴿كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولًا﴾ ﴿١٨﴾؛ أي: لا بد من وقوعه ولا حائل دونه.

﴿إِنَّ هَذِهِ تَذَكُّرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا﴾ ﴿١٩﴾.

﴿١٩﴾ أي: إن هذه الموعظة التي نبأ الله بها من أحوال يوم القيامة وأحواله تذكّر بها المتقون وينتجرب بها المؤمنون. ﴿فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا﴾ ﴿١٩﴾؛ أي: طريقاً موثقاً إليه، وذلك باتّباع شرعه؛ فإنه قد أبانه كل البيان وأوضحه غاية الإيضاح، وفي هذا دليل على أن الله تعالى أقدّر العباد على أفعالهم ومكنتهم منها، لا كما يقوله الجبرية: إن أفعالهم تقع بغير مشيئتهم؛ فإن هذا خلاف النقل والعقل.

سورة المزمّل

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا الْمَدِينَةُ ﴿١﴾ قُرْآنُكَ ذِكْرٌ ﴿٢﴾ وَبِكَ فَكَيْفَ ﴿٣﴾ وَبِإِيَّاهِ فَكَيْفَ ﴿٤﴾

وَالرُّجُزَ فَاهْجُزِ ﴿٥﴾ وَلَا تَنْتَنِ تَسْتَكْبِرُ ﴿٦﴾ وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرِ ﴿٧﴾

فَإِذَا نَفَرْنَا فِي السَّائِرِ ﴿٨﴾ فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ﴿٩﴾ عَلَى الْكَافِرِينَ

عَسِيرٌ ﴿١٠﴾ ذَرْفٍ وَمَنْ خَلَقْتَ وَحِيدًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْتَ لَهُ مَا لَا

مُدَّوْدًا ﴿١٢﴾ وَبَيْنَ شُهُودًا ﴿١٣﴾ وَمَهَّدْتَ لَهُ تَهْيِيدًا ﴿١٤﴾ ثُمَّ يَطْمَعُ

أَنَّا زَيْدٌ ﴿١٥﴾ كَلَّا إِنَّهُمْ كَانُوا لَبَيْنَا عَيْنِدًا ﴿١٦﴾ سَأَرْفَعُهُ صَعُودًا ﴿١٧﴾

٥٧٥

﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِنْ ثُلُثِي إِلِيلَ﴾ إلى آخر السورة.

﴿٢٠﴾ ذكر الله في أول هذه السورة أنه أمر رسوله بقيام نصف الليل أو ثلثيه أو ثلثه، والأصل أن أمته أسوة له في الأحكام، وذكر في هذا الموضع أنه امتثل ذلك هو وطائفة معه من المؤمنين. ولما كان تحرير الوقت المأمور به مشقة على الناس؛ أخبر أنه سهل عليهم في ذلك غاية التسهيل؛ فقال: ﴿وَاللَّهُ يَقْدَرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾؛ أي: يعلم مقاديرهما وما يمضي ويبقى منهما، ﴿عَلِمَ أَن لَّنْ نَحْصُوهُ﴾؛ أي: لن نعرفوا مقداره من غير زيادة ولا نقص؛ لكون ذلك يستدعي انتباهاً وعناء زائداً؛ أي: فخفف عنكم وأمركم بما تيسر عليكم سواء زاد على المقدّر أو نقص، ﴿فَأَقْرَهُوْا مَا يَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ﴾؛ أي: مما تعرفون ولا يشق عليكم، ولهذا كان المصلي بالليل مأموراً بالصلاة ما دام نشيطاً؛ فإذا فتر أو كسل أو نعتس؛ فليستريح ليأتي الصلاة بطمأنينة وراحة.

ثم ذكر بعض الأسباب المناسبة للتخفيف، فقال: ﴿عَلِمَ أَن سَكُوتَ مَنْكُرٍ مَرَحٍ﴾؛ يشق عليهم صلاة ثلثي الليل أو نصفه أو ثلثه، فليصل المريض ما يسهل عليه، ولا يكون أيضاً مأموراً بالصلاة قائماً عند مشقة ذلك، بل لو شقت عليه الصلاة النافلة؛ فله تركها، وله أجر ما كان يعمل صحيحاً. ﴿وَأَخْرُجُوا بِصُرُوفٍ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ﴾؛ أي: وعلم أن منكم مسافرين يسافرون للتجارة؛ ليستغنوا عن الخلق، ويتكفّفوا عنهم؛ أي: فالمسافر حاله تناسب التخفيف، ولهذا خفف عنه في صلاة الفرض، فأبيح له جمع الصلاتين في وقت واحد وقصر الصلاة الرباعية. وكذلك آخرون ﴿يُقِيلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَأَقْرَهُوْا مَا يَسَّرَ مِنْهُ﴾؛ فذكر تعالى تخفيفين؛ تخفيفاً للصحيح المقيم براعي فيه نشاطه من غير أن يكلف عليه تحرير الوقت، بل يتحرى الصلاة الفاضلة، وهي ثلث الليل بعد نصفه الأول، وتخفيفاً للمريض أو المسافر، سواء كان سفره للتجارة أو لعبادة من

فَطَهِّرْ ﴿١﴾ وَالْأَرْجَ فَاھْجُرْ ﴿٢﴾ وَلَا تَمَنَّ تَسْتَكْثِرُ ﴿٣﴾ وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ ﴿٤﴾

﴿١﴾، ﴿٢﴾ تقدم أن المزمّل والمدثر بمعنى واحد، وأن الله أمر رسوله ﷺ بالاجتهاد في عبادات الله القاصرة والمتعدية، فتقدم هناك الأمر له بالعبادات الفاضلة القاصرة، والصبر على أذى قومه، وأمره هنا بإعلان الدعوة والصدع بالإنذار، فقال: ﴿٣﴾؛ أي: بجد ونشاط ﴿٤﴾؛ أي: بالناس بالأقوال والأفعال التي يحصل بها المقصود وبيان حال المنذر عنه ليكون ذلك أدعى لتركه.

﴿٢﴾ ﴿٣﴾ وَرَبِّكَ فَكَبِّرْ ﴿٤﴾؛ أي: عظمه بالتوحيد، واجعل قصدك في إنذارك وجه الله وأن يعظمه العباد، ويقوموا بعبادته.

﴿٤﴾ ﴿٥﴾ وَيَا أَيُّهَا فَطَهِّرْ ﴿٦﴾: يحتمل أن المراد بالثياب أعماله كلها. وتطهيرها: تخليصها، والنصح بها، وإيقاعها على أكمل الوجوه، وتنقيتها عن المبطلات والمفاسدات والمنقصات من شرك ورياء ونفاق وعجب وتكبر وغفلة وغير ذلك مما يؤمر العبد باجتنابه في عباداته، ويدخل في ذلك تطهير الثياب من النجاسة؛ فإن ذلك من تمام التطهير للأعمال، خصوصاً في الصلاة، التي قال كثير من العلماء: إن إزالة النجاسة عنها شرط من شروطها.

ويحتمل أن المراد بثيابه الثياب المعروفة؛ أنه مأمور بتطهيرها عن جميع النجاسات في جميع الأوقات، خصوصاً عند الدخول في الصلوات.

﴿٥﴾ وإذا كان مأموراً بطهارة الظاهر؛ فإن طهارة الظاهر من تمام طهارة الباطن: ﴿٦﴾ وَالْأَرْجَ فَاھْجُرْ ﴿٧﴾: يحتمل أن المراد بالرجز الأصنام والأوثان التي عبدت مع الله، فأمره بتركها والبراءة منها ومما نسب إليها من قول أو عمل، ويحتمل أن المراد بالرجز أعمال الشر كلها وأقواله، فيكون أمراً له بترك الذنوب صغيرها وكبيرها ظاهرها وباطنها، فيدخل في هذا الشرك فما دونه.

﴿٦﴾ ﴿٧﴾ وَلَا تَمَنَّ تَسْتَكْثِرُ ﴿٨﴾؛ أي: لا تمنن على الناس بما أسديت إليهم من النعم الدينية والدنيوية، فتستكثر بتلك المنّة، وترى لك الفضل عليهم، بل أحسن إلى الناس مهما أمكنك، وانس عندهم إحسانك، واطلب أجرك من الله تعالى، واجعل من أحسنت إليه وغيره على حد سواء.

جهاد أو حج أو غيره؛ فإنه أيضاً يراعي ما لا يكلفه؛ فله الحمد والثناء؛ حيث لم يجعل علينا في الدين من حرج، بل سهل شرعه، ورأى أحوال عبادِه ومصالح دينهم وأبدانهم ودنياهم.

ثم أمر العباد بعبادتين هما أم العبادات وعمادها: إقامة الصلاة التي لا يستقيم الدين إلا بها، وإيتاء الزكاة التي هي برهان الإيمان وبها تحصل المواساة للفقراء والمساكين، فقال: ﴿٩﴾ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ ﴿١٠﴾؛ أي: بأركانها وحدودها وشروطها وجميع مكملاتها، ﴿١١﴾ وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ﴿١٢﴾؛ أي: خالصاً لوجه الله بنية صادقة وثبتت من النفس ومال طيب، ويدخل في هذا الصدقة الواجبة والمستحبة.

ثم حث على عموم الخير وأفعاله، فقال: ﴿١٣﴾ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ يَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ وَأَعْظَمُ أَجْرًا ﴿١٤﴾: الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة. وليعلم أن مثقال ذرة في هذه الدار من الخير يقابله أضعاف أضعاف الدنيا وما عليها في دار النعيم المقيم من اللذات والشهوات، وأن الخير والبر في هذه الدنيا مادة الخير والبر في دار القرار ويذره وأصله وأساسه. فوا أسفاه على أوقات مضت في الغفلات! ووا حسراته على أزمان تقضت في غير الأعمال الصالحات! ووا غوثه من قلوب لم يؤثر فيها وعظ بارئها ولم ينجع فيها تشويق من هو أرحم بها من نفسها! فلك اللهم الحمد وإليك المشتكى وبك المستغاث ولا حول ولا قوة إلا بك.

﴿١٥﴾ وَأَسْتَغْفِرُكَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَفْوٌ رَحِيمٌ ﴿١٦﴾: وفي الأمر بالاستغفار بعد الحث على أفعال الطاعة والخير فائدة كبيرة، وذلك أن العبد لا يخلو من التقصير فيما أمر به: إما ألا يفعل أصلاً، أو يفعله على وجه ناقص، فأمر بترقيع ذلك بالاستغفار؛ فإن العبد يذنب أثناء الليل والنهار؛ فمتى لم يتغمده الله برحمته ومغفرته؛ فإنه هالك.

تم تفسير سورة المزمّل.



تفسير سورة المدثر

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿١﴾ وَيَا أَيُّهَا الْمَدْثُرُ ﴿٢﴾ قُرْ فَأَنْذِرْ ﴿٣﴾ وَرَبِّكَ فَكَبِّرْ ﴿٤﴾ وَيَا أَيُّهَا

وقد قيل: إن معنى هذا ألا تعطي أحدا شيئا وأنت تريد أن يكافئك عليه بأكثر منه، فيكون هذا خاصا بالنبي ﷺ.

﴿٧﴾ وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ ﴿٨﴾؛ أي: احتسب بصبرك واقصد به وجه الله تعالى.

فامثل رسول الله ﷺ لأمر ربه، وبادر فيه، فأنذر الناس وأوضح لهم بالآيات البينات جميع المطالب الإلهية، وعظم الله تعالى، ودعا الخلق إلى تعظيمه، وطهر أعماله الظاهرة والباطنة من كل سوء، وهجر كل ما يعبد من دون الله وما يعبد معه من الأصنام وأهلها والشر وأهلها، وله المنة على الناس بعد منة الله، من غير أن يطلب منهم على ذلك جزاء ولا شكورا، وصبر لربه أكمل صبر: فصبر على طاعة الله، وعن معاصيه، وصبر على أقداره المؤلمة، حتى فاق أولي العزم من المرسلين، صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين.

﴿٩﴾ فَإِذَا نَفَخَ فِي النُّفُورِ ﴿١٠﴾ فَذَلِكَ يَوْمٌ عَسِيرٌ ﴿١١﴾ عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ﴿١٢﴾.

﴿٩﴾ - ﴿١٠﴾ أي: فإذا نفخ في الصور للقيام من القبور، وجمع الخلاق للبعث والنشور، ﴿٩﴾ فَذَلِكَ يَوْمٌ عَسِيرٌ ﴿١١﴾: لكثرة أهواله وشدائده، ﴿١٢﴾ عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ﴿١٣﴾؛ لأنهم قد أيسوا من كل خير وأيقنوا بالهلاك واليبوار. ومفهوم ذلك أنه على المؤمنين يسير؛ كما قال تعالى: ﴿يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِيرٌ﴾ [الفر: ٨].

﴿١٤﴾ ذَرْفٍ وَمَنْ خَلَقَتْ وَجِداً ﴿١٥﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْبَشَرِ﴾ ﴿١٦﴾.

﴿١١﴾ - ﴿١٢﴾ هذه الآيات نزلت في الوليد بن المغيرة^(١)، المعاند للحق، المبارز لله ولرسوله بالمحاربة والمشاقة، فذمه الله ذمًا لم يدم به غيره، وهذا جزاء كل من عاند الحق وناذبه: أن له الخزي في الدنيا، ولعذاب الآخرة أخصى، فقال:

﴿١٤﴾ ذَرْفٍ وَمَنْ خَلَقَتْ وَجِداً ﴿١٥﴾؛ أي: خلقته منفردا بلا مال ولا أهل ولا غيره، فلم أزل أربيه وأعطيه، فجعلت ﴿١٤﴾ لَهُ مَا لَا تَمْدُونَا ﴿١٦﴾؛ أي: كثيرا، ﴿١٥﴾ وَجَعَلْتُ لَهُ بَيْنَ يَدَيْهِ ذِكْرًا، ﴿١٦﴾ شُهُودًا ﴿١٧﴾؛ أي: حاضرين عنده على الدوام، يتمتع بهم ويقضي بهم حوائجه ويستنصر بهم، ﴿١٧﴾ وَمَهَّدْتُ لَهُ تَهَيِّدًا ﴿١٨﴾؛ أي: مكنته من الدنيا وأسبابها حتى انقادت له مطالبه وحصل له ما يشتهي ويريد. ﴿١٩﴾ ثُمَّ: مع هذه النعم والإمدادات ﴿١٩﴾ يَطْمَعُ أَنْ أُزِيدَ ﴿٢٠﴾؛ أي: يطمع أن ينال نعيم الآخرة كما نال نعيم الدنيا، ﴿٢١﴾ كَلَّا؛ أي: ليس الأمر كما طمع، بل هو بخلاف مقصوده ومطلوبه، وذلك ﴿٢٢﴾ إِنَّهُ كَانَ لَا يَتَنَبَّأُ غَيْدًا ﴿٢٣﴾؛ عرفها ثم أنكرها، ودعته إلى الحق فلم ينقد لها، ولم يكفه أنه أعرض عنها وتولى، بل جعل يحاربها ويسعى في إبطالها، ولهذا قال عنه: ﴿٢٤﴾ إِنَّهُ فَكَّرَ؛ أي: في نفسه. ﴿٢٥﴾ وَدَّرَ ﴿٢٦﴾؛ ما فكر فيه؛ ليقول قولًا يبطل به القرآن، ﴿٢٧﴾ فَقِيلَ كَيْفَ دَرَرَتْ قُلُوبُهُمْ ﴿٢٨﴾؛ لأنه قدر أمرًا ليس في طوره، وتسور على ما لا يناله هو ولا أمثاله، ﴿٢٩﴾ ثُمَّ نَظَرُوا ﴿٣٠﴾؛ أي: ما يقول، ﴿٣١﴾ ثُمَّ عَسَى وَبَرَّ ﴿٣٢﴾؛ في وجهه وظاهره نفرة عن الحق وبغضا له، ﴿٣٣﴾ ثُمَّ أَتْبَرَ ﴿٣٤﴾؛ أي: تولى، ﴿٣٥﴾ وَأَسْتَكْبَرَ ﴿٣٦﴾: نتيجة سعيه الفكري والعملية والقولي، ﴿٣٧﴾ فَقَالَ إِنَّ هَذَا إِلَّا نَجْمٌ يُزْجَرُ ﴿٣٨﴾؛ أي: ما هذا كلام الله، بل كلام البشر، وليس أيضًا كلام البشر الأخيار، بل كلام الأشرار منهم والفجار من كل كاذب سحار، فتبًا له! ما أبعد من الصواب! وأحراه بالخسارة والتباب! كيف

سورة المدثر
إِنَّهُ فَكَّرَ وَدَرَرَ ﴿١٨﴾ فَقِيلَ كَيْفَ دَرَرَتْ قُلُوبُهُمْ ﴿٢٨﴾ ثُمَّ نَظَرُوا ﴿٢٩﴾ ثُمَّ عَسَى وَبَرَّ ﴿٣٢﴾ ثُمَّ أَتْبَرَ ﴿٣٣﴾ وَأَسْتَكْبَرَ ﴿٣٤﴾ فَقَالَ إِنَّ هَذَا إِلَّا نَجْمٌ يُزْجَرُ ﴿٣٨﴾ إِنَّ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ ﴿٤٠﴾ سَأَصْلِيهِ سَقَرٌ ﴿٤١﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرٌ ﴿٤٢﴾ لَا تُبْقَى وَلَا نَذْرٌ ﴿٤٣﴾ لَوَاعِجٌ لِّلْبَشَرِ ﴿٤٤﴾ عَلَيْهَا تِسْعَةُ عَشْرَ ﴿٤٥﴾ وَمَا جَعَلْنَا أَحْمِلًا تَأْوِيلًا لِّلْآيَاتِ كَذَلِكَ وَمَا جَعَلْنَا عَدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً ﴿٤٦﴾ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا ﴿٤٧﴾ وَلَا يَزِنَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ ﴿٤٨﴾ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ ﴿٤٩﴾ وَمَا يَعْلَمُ جُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْبَشَرِ ﴿٥٠﴾ كَلَّا ﴿٥١﴾ وَالْقَمَرِ ﴿٥٢﴾ رَأَيْتَ إِذْ أَوْبَرَّ ﴿٥٣﴾ وَالشَّجَّ إِذَا أَسْفَرَ ﴿٥٤﴾ إِنَّمَا يَأْخُذُ بِكُلِّ الْكُتُبِ ﴿٥٥﴾ نَذِيرًا لِّلْبَشَرِ ﴿٥٦﴾ لِمَن شَاءَ مَكْرَهُنَّ أَنْ يَنْقُدَ أَوْ يَنْتَهَرَ ﴿٥٧﴾ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهينٌ ﴿٥٨﴾ إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ ﴿٥٩﴾ فِي جَنَّاتٍ يَسَاءَلُونَ ﴿٦٠﴾ عَنِ الْمُعْجَمِينَ ﴿٦١﴾ مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرٍ ﴿٦٢﴾ قَالُوا لَوْ نَكُنَّ مِنَ الْمُصْطَفِينَ ﴿٦٣﴾ وَلَوْ نَكُنَّ نَفْعُومَ الْيَسْكِينِ ﴿٦٤﴾ وَكُنَّا تَخَوُّشَ مَعَ الْفَاطِصِينَ ﴿٦٥﴾ وَكَانَ كَذِبٌ يَوْمَ الَّذِينَ ﴿٦٦﴾ حَتَّى أَتَيْنَا الْيَقِينَ ﴿٦٧﴾

يُدور في الأذهان أو تصوره ضمير أي إنسان أن يكون أعلى الكلام وأعظمه كلام الرب الكريم الماجد العظيم يشبه كلام المخلوقين الفقراء الناقصين؟! أم كيف يتجرأ هذا الكاذب العنيد على وصفه كلام المبدئ المعيد؛ فما حقه إلا العذاب الشديد والنكال، ولهذا قال تعالى: ﴿سَأْتِلِيهِ سَقَرًا﴾ وَمَا أَذْرَكَ مَا سَقَرٌ ﴿٢٧﴾ لَا تَبْقَى وَلَا تَذَرُ ﴿٢٨﴾؛ أي: لا تبقى من الشدة ولا على المعذب شيئًا إلا وبلغته. ﴿لَوَاعَةٌ لِّلْبَشَرِ﴾ ﴿٢٩﴾؛ أي: تلوحهم وتصليهم في عذابها وتقلقهم بشدة حرها وقرها. ﴿عَلَيْهَا تَسْعَةُ عَشْرَ﴾ ﴿٣٠﴾ من الملائكة، خزنة لها، غلاظ شداد لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون.

﴿كَلَّا وَالْقَمَرِ﴾ ﴿٢٢﴾ إلى آخر السورة.

﴿٢٣﴾ - ﴿٢٤﴾ ﴿كَلَّا﴾: هنا بمعنى حقًا، أو بمعنى ألا الاستفتاحية، فأقسم تعالى بالقمر، وبالليل وقت إداره، والنهار وقت إسفاره؛ لاشتمال المذكورات على آيات الله العظيمة الدالة على كمال قدرة الله وحكمته وسعة سلطانه وعموم رحمته وإحاطة علمه.

﴿٣٥﴾ - ﴿٣٦﴾ والمقسم عليه قوله: ﴿إِنَّمَا يَأْخُذُ الْكَبِيرَ﴾ ﴿٣٥﴾؛ أي: إن النار لإحدى العظام الطامة والأمور الهامة؛ فإذا أعلمناكم بها وكنتم على بصيرة من أمرها؛ فمن شاء منكم أن يتقدم فيعمل بما يقربه إلى الله ويدنيه من رضاه ويزلفه من دار كرامته، أو يتأخر عما خلق له وعما يحبه الله ويرضاه، فيعمل بالمعاصي، ويتقرب إلى جهنم؛ كما قال تعالى: ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيُكْفِرْ﴾ [الكهف: ٢٩] الآية.

﴿٣٨﴾ - ﴿٣٩﴾ ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾: من أفعال الشر وأعمال السوء ﴿رَبِّئَتْ﴾ ﴿٣٨﴾: بها موقفة بسعيها، قد ألزم عقها وغُلَّ في رقبته واستوجبت به العذاب، ﴿إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ﴾ ﴿٣٩﴾: فإنهم لم يرتهنوا، بل أطلقوا وفرحوا ﴿فِي جَنَّاتٍ يَسَّاءُونَ﴾ ﴿٤٠﴾ عَنِ الْمُجْرِمِينَ ﴿٤١﴾؛ أي: في جنات قد حصل لهم فيها جميع مطلوباتهم وتمت لهم الراحة والطمأنينة، حتى أقبلوا يتساءلون، فأفضت بهم المحادثة أن سألوا عن المجرمين؛ أي حال وصلوا إليها؟ وهل وجدوا ما وعدهم الله تعالى؟ فقال بعضهم لبعض هل أنتم مطلعون عليهم، فاطلعوا عليهم في وسط الجحيم يعذبون، فقالوا لهم: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرٍ﴾ ﴿٤٢﴾؛ أي: أي شيء أدخلكم فيها؟ وبأي ذنب استحققتموها؟ فـ ﴿قَالُوا لَرُبَّنَا مِنَ الْمُضِلِّينَ﴾ ﴿٤٣﴾ وَلَرُبَّنَا نَظْمٌ أَلْسَيْنَ ﴿٤٤﴾: فلا إخلاص للمعبود ولا إحسان ولا نفع للخلق المحتاجين، ﴿وَكُنَّا غَوْضَ مَعَ الْخَافِضِينَ﴾ ﴿٤٥﴾؛ أي: نخوض بالباطل ونجادل به الحق، ﴿وَكُنَّا نَكْذِبُ يَوْمَ الَّذِينَ﴾ ﴿٤٦﴾: هذه آثار الخوض بالباطل، وهو التكذيب بالحق، ومن أحق الحق يوم الدين، الذي هو محل الجزاء على الأعمال وظهور ملك الله وحكمه العدل لسائر الخلق، فاستمر عملنا على هذا المذهب الباطل ﴿حَتَّى أَتْنَا آلَيْنَ﴾ ﴿٤٧﴾؛ أي: الموت، فلما ماتوا على الكفر؛ تعذرت

ويحتمل أن المراد أنا ما أخبرناكم بعدتهم إلا لنعلم من يصدق ممن يكذب. ويدل على هذا ما ذكره بعده في قوله: ﴿لَيَسْتَفِيقَنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَرَدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَيْنَا﴾: فإن أهل الكتاب إذا وافق ما عندهم وطابقه؛ ازداد يقينهم بالحق، والمؤمنون كلما أنزل الله آية، فآمنوا بها وصدقوا؛ ازداد إيمانهم، ﴿وَلَا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾؛ أي: ليزول عنهم الريب والشك، وهذه مقاصد جليلة يعتني بها أولو الألباب، وهي السعي في اليقين وزيادة الإيمان في كل وقت وكل مسألة من مسائل الدين، ودفع الشكوك والأوهام التي تعرض في مقابلة الحق، فجعل ما أنزله الله على رسوله محصلًا لهذه المقاصد الجليلة، ومميزًا للصادقين من الكاذبين، ولهذا قال: ﴿وَلَيَقُولَنَّ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾؛ أي: شك وشبهة ونفاق، ﴿وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا﴾: وهذا على وجه الحيرة والشك منهم والكفر بآيات الله، وهذا وذاك من هداية الله لمن يهديه وإضلاله لمن يضلّه، ولهذا قال: ﴿كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾: فمن هداه الله؛ جعل ما أنزل على رسوله رحمة في حقه وزيادة في إيمانه ودينه، ومن أضله؛ جعل ما أنزل على رسوله زيادة شقاء عليه وحيرة وظلمة في حقه، والواجب أن يتلقى ما أخبر الله به ورسوله بالتسليم، فإنه ما يعلم جنود ربك من الملائكة وغيرهم ﴿إِلَّا هُوَ﴾: فإذا كنتم جاهلين بجنوده، وأخبركم بها العليم الخبير؛ فعليكم أن تصدقوا خبره من غير شك ولا ارتياب، ﴿وَمَا

﴿٣١﴾ وَمَا جَعَلْنَا أَحْسَبَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً﴾: وذلك لشدهم وقوتهم، ﴿وَمَا جَعَلْنَا عَذَابَهُمْ إِلَّا نَسْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾: يحتمل أن المراد؛ إلا لعذابهم وعقابهم في الآخرة ولزيادة نكالهم فيها، والعذاب يسمى فتنة؛ كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ﴾ ﴿١٣﴾ [الذاريات: ١٣].

ويحتمل أن المراد أنا ما أخبرناكم بعدتهم إلا لنعلم من يصدق ممن يكذب. ويدل على هذا ما ذكره بعده في قوله: ﴿لَيَسْتَفِيقَنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَرَدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَيْنَا﴾: فإن أهل الكتاب إذا وافق ما عندهم وطابقه؛ ازداد يقينهم بالحق، والمؤمنون كلما أنزل الله آية، فآمنوا بها وصدقوا؛ ازداد إيمانهم، ﴿وَلَا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾؛ أي: ليزول عنهم الريب والشك، وهذه مقاصد جليلة يعتني بها أولو الألباب، وهي السعي في اليقين وزيادة الإيمان في كل وقت وكل مسألة من مسائل الدين، ودفع الشكوك والأوهام التي تعرض في مقابلة الحق، فجعل ما أنزله الله على رسوله محصلًا لهذه المقاصد الجليلة، ومميزًا للصادقين من الكاذبين، ولهذا قال: ﴿وَلَيَقُولَنَّ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾؛ أي: شك وشبهة ونفاق، ﴿وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا﴾: وهذا على وجه الحيرة والشك منهم والكفر بآيات الله، وهذا وذاك من هداية الله لمن يهديه وإضلاله لمن يضلّه، ولهذا قال: ﴿كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾: فمن هداه الله؛ جعل ما أنزل على رسوله رحمة في حقه وزيادة في إيمانه ودينه، ومن أضله؛ جعل ما أنزل على رسوله زيادة شقاء عليه وحيرة وظلمة في حقه، والواجب أن يتلقى ما أخبر الله به ورسوله بالتسليم، فإنه ما يعلم جنود ربك من الملائكة وغيرهم ﴿إِلَّا هُوَ﴾: فإذا كنتم جاهلين بجنوده، وأخبركم بها العليم الخبير؛ فعليكم أن تصدقوا خبره من غير شك ولا ارتياب، ﴿وَمَا

حيثئذ عليهم الحيل، وانسد في وجوههم باب الأمل. ﴿فَمَا نَعْمَهُمْ شَفَعَةُ الشَّافِعِينَ﴾ ٤٨؛ لأنهم لا يشفعون إلا لمن ارتضى، وهؤلاء لا يرضى الله أعمالهم.

٤٩ - ٥٠ ﴿فَلَمَّا بَيْنَ اللَّهِ مَالِ الْمَخَافِينَ وَرَهَبَ مَا يَفْعَلُ بِهِمْ؛ عَظَفَ عَلَى الْمَوْجُودِينَ بِالْعَتَابِ وَاللُّومِ، فَقَالَ: ﴿فَمَا لَمْ عَنْ التَّذَكُّرَةِ مُعْرِضِينَ﴾ ٤٩؛ أي: صادين غافلين عنها، ﴿كَأَنَّهُمْ﴾: في نفرتهم الشديدة منها ﴿حُمُرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ﴾ ٥٠؛ أي: كأنهم حمر وحش نفرت؛ فنفر بعضها بعضاً فزاد عدوها، ﴿فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ﴾ ٥١؛ أي: من صائد ورام يريداه أو من أسد ونحوه، وهذا من أعظم ما يكون من النفور عن الحق، ومع هذا النفور والإعراض يدعون الدعاوى الكبار؛ فـ ﴿يُرِيدُ كُلُّ أَمْرٍ يَنْتَهِي أَنْ يُؤَقِّ صُحُفًا مُنْشَرَةً﴾ ٥٢؛ نازلة عليه من السماء؛ يزعم أنه لا ينفاد للحق؛ إلا بذلك، وقد كذبوا؛ فإنهم لو جاءتهم كل آية؛ لم يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم؛ لأنهم جاءتهم الآيات البينات، التي تبين الحق وتوضحه؛ فلو كان فيهم خير؛ لآمنا، ولهذا قال: ﴿كَلَّا﴾؛ أي: لا نعطيهم ما طلبوا، وهم ما قصدوا بذلك إلا التعجيز، ﴿بَلْ لَا يَخَافُونَ الْآخِرَةَ﴾ ٥٣؛ فلو كانوا يخافونها؛ لما جرى منهم ما جرى.

٥٤ - ٥٦ ﴿كَلَّا إِنَّهُ تَذَكُّرَةٌ﴾ ٥٤؛ الضمير إما أن يعود

على هذه السورة أو على ما اشتملت عليه من هذه الموعظة،

﴿فَمَنْ شَاءَ ذَكَرْهُ﴾ ٥٥؛ لأنه قد بين له السبيل ووضح له الدليل. ﴿وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾: فإن مشيئة الله نافذة عامة، لا يخرج عنها حادث قليل ولا كثير؛ ففيها رد على القدرية، الذين لا يدخلون أفعال العباد تحت مشيئة الله، والجبرية، الذين يزعمون أنه ليس للعبد مشيئة ولا فعل حقيقة، وإنما هو مجبور على أفعاله، فأثبت تعالى للعباد مشيئة حقيقة وفعلاً، وجعل ذلك تابعاً لمشيئته، ﴿هُوَ أَهْلُ النَّفْقَى وَاهْلُ الْغَفْرِ﴾ ٥٦؛ أي: هو أهل أن يتقى ويعبد؛ لأنه الإله الذي لا تنبغي العبادة إلا له، وأهل أن يغفر لمن اتقاه واتبع رضاه.

تم تفسير سورة المدثر، ولله الحمد.



تفسير سورة القيامة

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿لَا أَقِيمُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ ١ ﴿وَلَا أَقِيمُ النَّفْسِ الْوَأَمَةَ﴾ ٢ إلى قوله: ﴿يَسْتَلْ أَيَّانَ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ ٦.

١ ليست (لا) ههنا نافية ولا زائدة، وإنما أتى بها للاستفتاح والاهتمام بما بعدها، ولكثرة الإتيان بها مع اليمين لا يستغرب الاستفتاح بها، وإن لم تكن في الأصل موضوعة للاستفتاح؛ فالمقسم به في هذا الموضع هو المقسم عليه، وهو البعث بعد الموت، وقيام الناس من قبورهم، ثم وقوفهم ينتظرون ما يحكم به الرب عليهم.

سورة القيامة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

لَا أَقِيمُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ ١ وَلَا أَقِيمُ النَّفْسِ الْوَأَمَةَ ٢ أَيْحَسِبُ ٣ الْإِنْسَانَ أَنْ يَجْمَعَ عِظَامَهُ ٤ بَلْ قَدَرِينَ عَلَى أَنْ تُسْوَى بَنَانُهُ ٥ بَلْ يُرِيدُ الْإِنْسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ ٦ يَسْتَلْ أَيَّانَ يَوْمَ الْقِيَمَةِ ٧ فَإِذَا رَأَى الْبَصِيرَ ٨ وَخَسَفَ الْقَمَرُ ٩ وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ ١٠ يَقُولُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ ١١ أَيْنَ الْمَفْرُجُ ١٢ كَلَّا لَا وَزَرَ ١٣ إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ ١٤ يَبْكُ الْإِنْسَانُ ١٥ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ١٦ بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ ١٧ وَلَوْ لَقِيَ ١٨ مَعَاذِيرَهُ ١٩ لَا تُخَذِرُ بُوهُ لِسَانَكَ لِتَجْعَلَ بُوهُ ٢٠ إِنْ عَلَيْنَا جَمْعَهُ ٢١ وَقَرُّهُ ٢٢ فَإِذَا قَرَأْتَ فَالْعِزُّ قَرُّهُ ٢٣ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ ٢٤

٥٧٧

﴿٢﴾ وَلَا أَقْسِمُ بِاللَّيْلِ وَاللَّوَاۤءِ ﴿٢﴾: وهي جميع النفوس الخيرة والفاجرة، سميت لوامة لكثرة تلونها وترددها وعدم ثبوتها على حالة من أحوالها، ولأنها عند الموت تلوم صاحبها على ما فعلت، بل نفس المؤمن تلوم صاحبها في الدنيا على ما حصل منه من تفريط أو تقصير في حق من الحقوق أو غفلة، فجمع بين الإقسام بالجزاء وعلى الجزاء وبين مستحق الجزاء.

﴿٣﴾، ﴿٤﴾ ثم أخبر مع هذا أن بعض المعاندين يكذبون بيوم القيامة، فقال: ﴿يَحْسِبُ الْإِنْسَانُ أَنَّ جَمَعَ عِظَامَهُ﴾: بعد الموت؛ كما قال في الآية الأخرى: ﴿قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ [يس: ٧٨]، فاستبعد من جهله وعدوانه قدرة الله على خلق عظامه التي هي عماد البدن، فرد عليه بقوله: ﴿بَلْ قَدِيرِينَ عَلَيَّ أَنْ سُوَّىٰ بَنَانَهُ﴾ [ي: ٤]؛ أي: أطراف أصابعه وعظامه، وذلك مستلزم لخلق جميع أجزاء البدن؛ لأنها إذا وجدت الأنامل والبنان؛ فقد تمت خلقه الجسد.

﴿٥﴾، ﴿٦﴾ وليس إنكاره لقدرة الله تعالى قصوراً بالدليل الدال على ذلك، وإنما وقع ذلك منه لأن إرادته وقصده التكذيب بما أمامه من البعث. والفجور: الكذب مع التعمد.

ثم ذكر أحوال القيامة فقال:

﴿فَإِذَا بَرَأَ الْبَصَرُ﴾ [٧] وَخَسَفَ الْقَمَرُ ﴿٨﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿وَلَوْ لَقِيَ مَعَاذِيرُهُ﴾ [٩].

﴿٧﴾ - ﴿٨﴾ أي: ﴿فَإِذَا﴾ كانت القيامة؛ برقت الأبصار من الهول العظيم وشخصت فلا تطرف؛ كما قال تعالى: ﴿وَأَنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِیَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ﴾ [مُطَهَّرَاتٍ مَقْنِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدَّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْقِدُوهُمْ هَوَاهُ] [إبراهيم: ٤٢، ٤٣]، وَخَسَفَ الْقَمَرُ ﴿٨﴾؛ أي: ذهب نوره وسلطانه، وَرُجِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ ﴿٩﴾: وهما لم يجتمعا منذ خلقهما

الله تعالى، فيجمع الله بينهما يوم القيامة، ويخسف القمر، وتكور الشمس، ثم يقذفان في النار؛ ليرى العباد أنهم عبادان مسخران، وليرى من عبدهما أنهم كانوا كاذبين، ﴿يَقُولُ الْإِنْسَانُ﴾: حين يرى تلك القلائل المزعجات: ﴿أَن لَّفَعَرٌ﴾ [١٠]؛ أي: أين الخلاص والفكاك مما طرقتنا وآلم بنا؟

﴿١١﴾ - ﴿١٢﴾ ﴿كَلَّا لَا وَزَرَ﴾ [١١]؛ أي: لا ملجأ لأحد دون الله، ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَوْمَئِذٍ لَّشَاقِقٌ﴾ [١٢]؛ لسائر العباد، فليس في إمكان أحد أن يستتر أو يهرب عن ذلك الموضع، بل لا بد

من إيقافه؛ ليجزى بعمله، ولهذا قال: ﴿يَكُونُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾ [١٣]؛ أي: بجميع عمله الحسن والسيئ، في أول وقته وآخره، وبنياً بخبر لا ينكره.

﴿١٤﴾، ﴿١٥﴾ ﴿بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ﴾ [١٤]؛ أي: شاهد ومحاسب، ﴿وَلَوْ لَقِيَ مَعَاذِيرُهُ﴾ [١٥]؛ فإنها معاذير لا تقبل، بل يقرر بعمله، فيقر به؛ كما قال تعالى: ﴿أَقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ [الإسراء: ١٤]؛ فالعبد وإن أنكر أو اعتذر عما عمله؛ فإنكاره واعتذاره لا يفيدانه شيئاً؛ لأنه يشهد عليه سمعه وبصره وجميع جوارحه بما كان يعمل، ولأن استعتابه قد ذهب وقته وزال نفعه، ﴿يَوْمَئِذٍ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ [الروم: ٥٧].

﴿لَا تَحْزَنْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَجْعَلَ بِهِ﴾ [١٦] إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأَهُ فَأَنعَقَ قُرْآنُهُ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ ﴿١٩﴾

﴿١٦﴾ - ﴿١٧﴾ كان النبي ﷺ إذا جاءه جبريل بالوحي وشرع في تلاوته عليه؛ بإدراة النبي ﷺ من الحرص قبل أن يفرغ، وتلاه مع تلاوة جبريل إياه، فنهاه الله عن ذلك، وقال: ﴿وَلَا تَجْعَلْ بِالْقُرْآنِ مَن قَبْلَ أَنْ يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ﴾ [طه: ١١٤]؛ وقال هنا: ﴿لَا تَحْزَنْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَجْعَلَ بِهِ﴾ [١٦].

ثم ضمن له تعالى أنه لا بد أن يحفظه ويقرأه ويجمعه الله في صدره، فقال: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ﴾ [١٧]؛ فالحرص الذي في خاطرك إنما الداعي له حذر الفوات والنسيان؛ فإذا ضمنه الله لك؛ فلا موجب لذلك، ﴿فَإِذَا قَرَأَهُ فَأَنعَقَ قُرْآنُهُ﴾ [١٨]؛ أي: إذا كمل جبريل قراءة ما أوحى الله إليك؛ فحينئذ اتبع ما قرأه وأقرأه، ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾ [١٩]؛ أي: بيان معانيه. فوعده بحفظ لفظه وحفظ معانيه، وهذا أعلى ما يكون، فامثل ﷺ لأدب ربه، فكان إذا تلا عليه جبريل القرآن بعد هذا؛ أنصت له؛ فإذا فرغ؛ قرأه.

وفي هذه الآية أدب لأخذ العلم: ألا يبادر المتعلم للعلم قبل أن يفرغ المعلم من المسألة التي شرع فيها؛ فإذا فرغ منها؛ سألها عما أشكل عليه. وكذلك إذا كان في أول الكلام ما يوجب الرد أو الاستحسان ألا يبادر برده أو قبوله قبل الفراغ من ذلك الكلام؛ ليتبين ما فيه من حق أو باطل، وليفهمه فهماً يتمكن فيه من الكلام فيه على وجه الصواب. وفيها أن النبي ﷺ كما بين للأمة ألفاظ الوحي؛ فإنه قد بين لهم معانيه.

﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ﴾ ٢٠ ﴿وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ﴾ ٢١ ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاصِرَةٌ﴾ ٢٢ ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاطِرَةٌ﴾ ٢٣ ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ﴾ ٢٤ ﴿تَظُنُّ أَنْ يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ﴾ ٢٥ ﴿﴾

٢٠، ٢١ أي: هذا الذي أوجب لكم الغفلة والإعراض عن وعظ الله وتذكيره أنكم ﴿تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ﴾ ٢٠، وتسعون فيما يحصلها وفي لذاتها وشهواتها، وتؤثرونها على الآخرة، فتدرون العمل لها؛ لأن الدنيا نعيمها ولذاتها عاجلة، والإنسان مولع بحب العاجل، والآخرة متأخر ما فيها من النعيم المقيم؛ فلذلك غفلتم عنها وتركتموها كأنكم لم تخلقوها وكان هذه الدار هي دار القرار التي تبذل فيها نفائس الأعمار ويسعى لها آناء الليل والنهار، وبهذا انقلبت عليكم الحقيقة، وحصل من الخسار ما حصل؛ فلو آثرتم الآخرة على الدنيا ونظرتم العواقب نظر البصير العاقل؛ لأنجحتهم وربحتهم ربحتهم لا خسار معه، وفزتم فوزاً لا شقاء يصحبه.

٢٢، ٢٣ ثم ذكر ما يدعو إلى إثارة الآخرة ببيان حال أهلها وتفاوتهم فيها، فقال في جزاء المؤمنين المؤثرين للآخرة على الدنيا: ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاصِرَةٌ﴾ ٢٢؛ أي: حسنة بهية لها رونق ونور مما هم فيه من نعيم القلوب وبهجة النفوس ولذة الأرواح، ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاطِرَةٌ﴾ ٢٣؛ أي: ينظرون إلى ربهم على حسب مراتبهم؛ منهم من ينظره كل يوم بكرة وعشيّاً، ومنهم من ينظره كل جمعة مرة واحدة، فيتمتعون بالنظر إلى وجهه الكريم وجماله الباهر الذي ليس كمثل شيء؛ فإذا رآوه؛ نسوا ما هم فيه من النعيم، وحصل لهم من اللذة والسرور ما لا يمكن التعبير عنه، ونضرت وجوههم، فازدادوا جمالاً إلى جمالهم، فنسأل الله الكريم أن يجعلنا معهم.

٢٤، ٢٥ وقال في المؤمنين العاجلة على الآجلة: ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ﴾ ٢٤؛ أي: معبسة ومكدرة خاشعة ذليلة، ﴿تَظُنُّ أَنْ يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ﴾ ٢٥؛ أي: عقوبة شديدة وعذاب أليم؛ فلذلك تغيرت وجوههم وعبست.

﴿كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ النَّفْسُ﴾ ٢٦ ﴿إِلَىٰ آخِرِ السُّورَةِ﴾.

٢٦ - ٢٧ يعظ تعالى عباده بذكر المحضر حال السياق، وأنه إذا بلغت روحه ﴿النَّفْسُ﴾ ٢٦: وهي العظام المكتنفة للفرجة النحر؛ فحينئذ يشتد الكرب، ويطلب كل وسيلة وسبب يظن أن يحصل به الشفاء والراحة، ولهذا قال: ﴿وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ﴾ ٢٧؛ أي: من يرقيه، من الرقية؛ لأنهم انقطع آملهم من الأسباب العادية، فلم يبق إلا الأسباب الإلهية، ولكن القضاء والقدر إذا حتم وجاء؛ فلا مرد له، ﴿وَقُلْنَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَّا كَافِرٌ﴾ ٢٨؛ أي: اجتمعت الشدائد والتفت، وعظم الأمر، وصعب الكرب، وأريد أن تخرج الروح من البدن الذي ألفته ولم تزل معه، فتساق إلى الله تعالى ليجازيها بأعمالها ويقررها بفعالها؛ فهذا الزجر الذي ذكره الله يسوق القلوب إلى ما فيه نجاتها ويزجرها عما فيه هلاكها.

٢٨ - ٢٩ ولكن المعاند الذي لا تنفع فيه الآيات لا يزال مستمراً على غبه وكفره وعناده، ﴿فَلَا يَصَدَّقُ﴾ ٢٩؛ أي لا آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره، ﴿وَلَا يَصْلَىٰ﴾ ٢٩ ﴿وَلَكِنْ كَذَّبَ﴾ ٣٠: بالحق في مقابلة التصديق، ﴿وَتَوَلَّىٰ﴾ ٣١: عن الأمر والنهي، هذا وهو مطمئن قلبه غير خائف من ربه، بل ﴿ذَهَبَ إِلَىٰ أَهْلِهِ يَمُتُّ﴾ ٣٢؛ أي: ليس على باله شيء.

٣٢، ٣٣ ثم توعده بقوله: ﴿أَوَلَيْكَ فَالُوكَ﴾ ٣٢ ﴿فَأَوَلَيْكَ﴾ ٣٣ ﴿فَأَوَلَيْكَ﴾ ٣٤: وهذه كلمات وعيد؛ كررها لتكرير وعيده.

سورة القيامة

كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ ٢٠ وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ ٢١ وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاصِرَةٌ ٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاطِرَةٌ ٢٣ وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ ٢٤ تَظُنُّ أَنْ يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ٢٥

كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ النَّفْسُ ٢٦ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاطِرَةٌ ٢٧ وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ ٢٨ وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاصِرَةٌ ٢٩ وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ ٣٠ وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ ٣١ تَظُنُّ أَنْ يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ٣٢ وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاصِرَةٌ ٣٣ وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ ٣٤ وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ ٣٥

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

هَلْ أَتَىٰ عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا ١ إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَيِّئًا ٢ بَصِيرًا ٣ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِنَّمَا شَاكَرًا وَإِمَّا كَفُورًا ٤ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَكِينًا ٥ وَأَعْتَدْنَا لِلْغَافِلِينَ ٦ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَكِينًا ٧ وَنَجَّيْنَا الْإِسْرَافِيَّةَ ٨ وَنَجَّيْنَا الْإِسْرَافِيَّةَ ٩ وَنَجَّيْنَا الْإِسْرَافِيَّةَ ١٠ وَنَجَّيْنَا الْإِسْرَافِيَّةَ ١١ وَنَجَّيْنَا الْإِسْرَافِيَّةَ ١٢ وَنَجَّيْنَا الْإِسْرَافِيَّةَ ١٣ وَنَجَّيْنَا الْإِسْرَافِيَّةَ ١٤ وَنَجَّيْنَا الْإِسْرَافِيَّةَ ١٥ وَنَجَّيْنَا الْإِسْرَافِيَّةَ ١٦ وَنَجَّيْنَا الْإِسْرَافِيَّةَ ١٧ وَنَجَّيْنَا الْإِسْرَافِيَّةَ ١٨ وَنَجَّيْنَا الْإِسْرَافِيَّةَ ١٩ وَنَجَّيْنَا الْإِسْرَافِيَّةَ ٢٠ وَنَجَّيْنَا الْإِسْرَافِيَّةَ ٢١ وَنَجَّيْنَا الْإِسْرَافِيَّةَ ٢٢ وَنَجَّيْنَا الْإِسْرَافِيَّةَ ٢٣ وَنَجَّيْنَا الْإِسْرَافِيَّةَ ٢٤ وَنَجَّيْنَا الْإِسْرَافِيَّةَ ٢٥ وَنَجَّيْنَا الْإِسْرَافِيَّةَ ٢٦ وَنَجَّيْنَا الْإِسْرَافِيَّةَ ٢٧ وَنَجَّيْنَا الْإِسْرَافِيَّةَ ٢٨ وَنَجَّيْنَا الْإِسْرَافِيَّةَ ٢٩ وَنَجَّيْنَا الْإِسْرَافِيَّةَ ٣٠ وَنَجَّيْنَا الْإِسْرَافِيَّةَ ٣١ وَنَجَّيْنَا الْإِسْرَافِيَّةَ ٣٢ وَنَجَّيْنَا الْإِسْرَافِيَّةَ ٣٣ وَنَجَّيْنَا الْإِسْرَافِيَّةَ ٣٤ وَنَجَّيْنَا الْإِسْرَافِيَّةَ ٣٥

٥٧٨

إلى شاكراً لنعمة الله عليه، قائماً بما حملة الله من حقوقه. وإلى كفور للنعم أنعم الله عليه بالنعم الدينية والدنيوية، فردها وكفر بربه، وسلك الطريق الموصلة إلى الهلاك. ثم ذكر تعالى الفريقين عند الجزاء، فقال:

﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَكِينًا وَاعْتَدْنَا وَسْعِيرًا﴾ [١] **إِنَّ الْأَبْتَرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا** ﴿٢﴾.

﴿١﴾ أي: إنا هيأنا وأرصدنا لمن كفر بالله وكذب رسله وتجراً على معاصيه، ﴿سَكِينًا﴾: في نار جهنم؛ كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ﴾ [الحاقة: ٣٢]، ﴿وَاعْتَدْنَا﴾: تغل بها أيديهم إلى أعناقهم ويوثقون بها، ﴿وَسْعِيرًا﴾ [١]؛ أي: نارا تستعر بها أجسامهم وتحرق بها أبدانهم، ﴿كَمَا نَبِجَتْ جُلُودُهُمْ بِدَلْنَهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾ [النساء: ٥٦]، وهذا العذاب الدائم مؤبد لهم، مخلدون فيه سرمداً.

﴿٢﴾ وأما الأبرار، وهم الذين برت قلوبهم بما فيها من معرفة الله ومحبه والأخلاق الجميلة؛ فبرت جوارحهم، واستعملوها بأعمال البر، فأخبر أنهم ﴿يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ﴾؛ أي: شراب للذي من خمر قد مزج بكافور؛ أي: خلط به ليبرده ويكسر حدته، وهذا الكافور في غاية اللذة، قد سلم من كل مكدر ومنغص موجود في كافور الدنيا؛ فإن الآفة الموجودة في الدنيا تُعَدُّ من الأسماء التي ذكرها الله في الجنة؛ كما قال تعالى: ﴿فِي سِدْرٍ مَخْشُورٍ﴾ [٧٧] و﴿طَلْحٍ مَّنْشُورٍ﴾ [الروافعة: ٢٨، ٢٩]، ﴿وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ﴾ [١٥]، ﴿فَهُمْ دَاخِرُونَ عَنِ النِّجَمِ﴾ [الأنعام: ١٢٧]، ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ﴾ [الزخرف: ٧١].

﴿١﴾ ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ﴾؛ أي: ذلك الكأس للذي الذي يشربونه لا يخافون نفاده، بل له مادة لا تنقطع، وهي عين دائمة الفيضان والجريان، يفجرها عباد الله تفجيراً أنى شاءوا وكيف أرادوا؛ فإن شاءوا؛ صرفوها إلى البساتين الزاهرات أو إلى الرياض النضرات، أو بين جوانب القصور والمساكن المزخرفات، أو إلى أي جهة يرونها من الجهات الموثقات.

﴿٧﴾ ثم ذكر جملة من أعمالهم، فقال: ﴿يُؤْفُونَ بِالْأَنْذَرِ﴾؛ أي: بما ألزموه بأنفسهم لله من النذور والمعاهدات، وإذا كانوا يوفون بالندرة الذي هو غير واجب في الأصل عليهم إلا بإيجابهم على أنفسهم؛ كان فعلهم وقيامهم

﴿٣٦﴾ - ﴿٤٠﴾ ثم ذكر الإنسان بخلقه الأول، فقال: ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى﴾ [٣٦]؛ أي: مهملاً لا يؤمر ولا ينهى ولا يثاب ولا يعاقب؟ هذا حسيان باطل وظن بالله غير ما يليق بحكمته. ﴿أَلَمْ يَكُنْ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُنْتَنَىٰ﴾ [٣٧] ثم كان: بعد المني ﴿عَلَقَةً﴾؛ أي: دماً، ﴿فَخَلَقَ﴾: الله منها الحيوان، وسواه؛ أي: ألقنه وأحكمه، ﴿فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ﴾ [٣٨] أليس ذلك: أي: الذي خلق الإنسان وطوره إلى هذه الأقطار المختلفة ﴿يَقْدِرُ عَلَىٰ أَنْ يُخَيِّجَ الْوَلَقَ﴾ [٤٠]: بلى إنه على كل شيء قدير.

تم تفسير سورة القيامة. والحمد لله رب العالمين.
وصلّى الله على محمد وسلم.



تفسير سورة الإنسان

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِنْ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا﴾ [١] **إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا** ﴿٢﴾ **إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا** ﴿٣﴾.

﴿١﴾ ذكر الله في هذه السورة أول حال الإنسان ومتهاها ومتوسطها: فذكر أنه مر عليه دهر طويل، وهو الذي قبل وجوده، وهو معدوم، بل ليس مذكوراً.

﴿٢﴾ ثم لما أراد خلقه؛ خلق أباه آدم من طين، ثم جعل نسله متسلسلاً ﴿مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ﴾؛ أي: ماء مهين مستقدر، ﴿نَبْتَلِيهِ﴾: بذلك؛ لنعلم هل يرى حاله الأولى ويتفطن لها أم ينساها وتغره نفسه؟ فأنشأ الله وخلق له القوى الظاهرة والباطنة؛ كالسمع والبصر وسائر الأعضاء، فأتمها له وجعلها سالمة يتمكن بها من تحصيل مقاصده.

﴿٣﴾ ثم أرسل إليه الرسل، وأنزل عليه الكتب، وهذه الطريق الموصلة إليه، وبينها، ورغبه فيها، وأخبره بما له عند الوصول إليه، ثم أخبره بالطريق الموصلة إلى الهلاك، ورهبه عنها، وأخبره بما له إذا سلكها، وابتلاه بذلك، فانقسم الناس

سورة الإنسان

سورة الإنسان

عَيْنَا يَرْبِّ عِبَادَ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ﴿١﴾ يُوقُونَ بِالْأَسْوَاقِ الْبُيُوتَ لَا تَبْنُونَ وَلَا تَصَرُّونَ
يَوْمَئِذٍ شَرًّا مُتَقَرِرًا ﴿٢﴾ وَيَطْعَمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حَيْثُ مَشِيتُمْ
وَبَيْنَمَا أَسِيرًا ﴿٣﴾ إِنَّمَا تَطْعَمُهُمْ لُؤْلُؤًا لَا يُؤْمِنُكَ حِزْلًا وَلَا شُكْرًا
﴿٤﴾ إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْمًا غُيُوبًا ﴿٥﴾ فَوَقَّعْنَاهُمْ مِمَّا كَانُوا فِيهِ
الْيُؤْيُؤَ وَقَلَّبْنَاهُمْ نَصْرًا وَسُرُورًا ﴿٦﴾ وَبَرَّيْنَاهُمْ إِيمَانًا وَحَقًّا وَوَعْدًا
مُتَّكِنِينَ ﴿٧﴾ فَتُكْفَىٰ فِيهَا الشُّكُورُ ﴿٨﴾ فَتُكْفَىٰ فِيهَا الشُّكُورُ ﴿٩﴾ فَتُكْفَىٰ فِيهَا الشُّكُورُ ﴿١٠﴾
وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلُّنَا وَذُلَّتْ أَطْفُوفُنَا ذَلِيلًا ﴿١١﴾ وَيُطَافُ عَلَيْهِمْ ثَوَانٍ
مِنْ فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرًا ﴿١٢﴾ قَوَارِيرًا مِنْ فِضَّةٍ قَدَّرْنَا تَقْدِيرًا ﴿١٣﴾
وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنْجَبِيلًا ﴿١٤﴾ عَيْنَا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا ﴿١٥﴾
﴿١٦﴾ وَيُطَوَّفُ عَلَيْهِمْ خَالِدِينَ وَلَا يَلْعَلُ يَكُونُ مِنْهُمْ حِسَابٌ ﴿١٧﴾ وَإِذَا رَأَيْتُمْ
﴿١٨﴾ وَإِذَا رَأَيْتُمْ نَيْمًا وَمَلَكًا كَبِيرًا ﴿١٩﴾ عَلَيْهِمْ فِيهَا ثَوْبٌ حَسَنٌ
خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِنْ فِضَّةٍ وَسَقَانَهُمْ مِنْهُمْ شَرَابًا
طَهُورًا ﴿٢٠﴾ إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعِيرًا فَتُكْفَىٰ ﴿٢١﴾ إِنَّا
نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلًا ﴿٢٢﴾ فَاصْبِرْ لِمَ رَبِّكَ وَلَا تَطْغَبْ
مِنْهُمْ إِنَّمَا أَنتَ مُبْنِيٌّ ﴿٢٣﴾ وَأَذْكُرْ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٢٤﴾

٥٧٩

بالفروض الأصلية من باب أولى وأحرى، ﴿وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا﴾ ﴿٧﴾؛ أي: فاشيًا منتشرًا، فخافوا أن ينالهم شره، فتركوا كل سبب موجب لذلك.

﴿٨﴾ - ﴿١٠﴾ ﴿وَيَطْعَمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حَيْثُ﴾؛ أي: وهم في حال يحبون فيها المال والطعام، لكنهم قدموا محبة الله على محبة نفوسهم، ويتحرون في إطعامهم أولى الناس وأحوجهم، ﴿مَشِيتُمْ﴾ و﴿بَيْنَمَا وَأَسِيرًا﴾ ﴿٨﴾: ويقصدون بإفناقهم وإطعامهم وجه الله تعالى، ويقولون بلسان الحال: ﴿إِنَّمَا تَطْعَمُهُمْ لُؤْلُؤًا﴾ ﴿٩﴾ ﴿لَا يُؤْمِنُكَ حِزْلًا وَلَا شُكْرًا﴾ ﴿١٠﴾؛ أي: لا جزاء ماليًا ولا ثناء قوليًا، ﴿إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْمًا غُيُوبًا﴾ ﴿١١﴾؛ أي: شديد الجحمة والشر، ﴿فَوَقَّعْنَاهُمْ مِمَّا كَانُوا فِيهِ﴾ ﴿١٢﴾؛ أي: ضنكًا ضيقًا.

﴿١٣﴾ ﴿فَوَقَّعْنَاهُمْ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيُؤْيُؤِ﴾: فلا يحزنهم الفزع الأكبر، وتلقاهم الملائكة هذا يومكم الذي كنتم توعدون، ﴿وَقَلَّبْنَاهُمْ﴾؛ أي: أكرمهم وأعطاهم ﴿نَصْرًا﴾: في وجوههم، ﴿وَسُرُورًا﴾ ﴿١٤﴾: في قلوبهم، فجمع لهم بين نعيم الظاهر والباطن.

﴿١٥﴾ ﴿وَبَرَّيْنَاهُمْ يَمًا صَبْرًا﴾: على طاعته فعملوا ما أمكنهم منها، وعن معاصيه فتركوها، وعلى أقداره المؤلمة فلم يتسخطوها ﴿جَنَّةً﴾: جامعة لكل نعيم سالمة من كل مكدر ومنغص، ﴿وَحَرِيرًا﴾ ﴿١٦﴾: ﴿وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ ﴿١٧﴾ [الحج: ٢٣]: ولعل الله إنما خص الحرير لأنه لباسهم الظاهر الدال على حال صاحبه.

﴿١٨﴾ ﴿مُتَّكِنِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرْبَابِ﴾: الاتكاء: التمكن من الجلوس في حال الطمأنينة والراحة والرفاهية، والأرباب هي السرر التي عليها اللباس المزين، ﴿لَا يَرَوْنَ فِيهَا﴾؛ أي: في الجنة ﴿شَسَا﴾: يضرهم حرها، ﴿وَلَا زَمْهَرِيرًا﴾ ﴿١٩﴾؛ أي: بردًا شديدًا، بل جميع أوقاتهم في ظل ظليل، لا حر ولا برد؛ بحيث تلتذ به الأجساد ولا تتألم من حر ولا برد.

﴿٢٠﴾ ﴿وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلُّنَا وَذُلَّتْ أَطْفُوفُنَا ذَلِيلًا﴾ ﴿٢١﴾؛ أي: قربت ثمراتها من مريدها تقريبًا، ينالها وهو قائم أو قاعد أو مضطجع.

﴿٢٢﴾، ﴿٢٣﴾ ﴿وَيُطَافُ عَلَيْهِمْ﴾؛ أي: يدور الولدان والخدم على أهل الجنة، ﴿وَبَيْنَمَا أَسِيرًا﴾ ﴿٢٤﴾ ﴿قَوَارِيرًا مِنْ فِضَّةٍ﴾؛ أي: مادتها من فضة، وهي على صفاء القوارير، وهذا من أعجب الأشياء؛ أن تكون الفضة الكثيفة من صفاء جوهرها وطيب معدنها على صفاء القوارير، ﴿قَدَّرْنَا تَقْدِيرًا﴾ ﴿٢٥﴾؛ أي: قدروا الأواني المذكورة على قدر ربيهم؛ لا تزيد ولا تنقص؛ لأنها لو زادت؛ نقصت لذتها، ولو نقصت؛ لم تف بربهم. ويحتمل أن المراد: قدرها أهل الجنة بمقدار يوافق لذتهم، فأتتهم على ما قدروا في خواطرهم.

﴿٢٦﴾، ﴿٢٧﴾ ﴿وَيُسْقَوْنَ فِيهَا﴾؛ أي: الجنة ﴿كَأْسًا﴾: وهو الإناء المملوء من خمر ورحيق. ﴿كَانَتْ مِزَاجُهَا﴾؛ أي: خلطها ﴿زَنْجَبِيلًا﴾ ﴿٢٨﴾: ليطيب طعمه وريحه. ﴿عَيْنَا فِيهَا﴾؛ أي: في الجنة ﴿سَلْسَبِيلًا﴾ ﴿٢٩﴾: سميت بذلك لسلاستها ولذتها وحسنها.

﴿٢٣﴾ وقوله تعالى لما ذكر نعيم الجنة: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلًا﴾ ﴿٢٤﴾ فيه الوعد والوعيد وبيان كل ما يحتاجه العباد، وفيه الأمر بالقيام بأوامره وشرائعه أتم القيام والسعي في تنفيذها والصبر على ذلك.

﴿٢٥﴾ ولهذا قال: ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَطِعْ مِنْهُمْ إِنَّمَا أَوْفُرًا﴾ ﴿٢٦﴾ أي: أصبر لحكمه القديري؛ فلا تسخطه، ولحكمه الديني؛ فامض عليه، ولا يعوقك عنه عائق، ﴿وَلَا تَطِعْ﴾ من المعاندين الذين يريدون أن يصدوك ﴿إِنَّمَا﴾ أي: فاعلًا إنمًا ومعصية، ولا ﴿أَوْفُرًا﴾ ﴿٢٧﴾ فإن طاعة الكفار والفجار والفساق لا بد أن تكون معصية لله؛ فإنهم لا يأمرون إلا بما تهواه أنفسهم.

﴿٢٨﴾ ولما كان الصبر يستمد من القيام بطاعة الله والإكثار من ذكره؛ أمر الله بذلك، فقال: ﴿وَاذْكُرْ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ ﴿٢٩﴾ أي: أول النهار وآخره، فدخل في ذلك الصلوات المكتوبات، وما يتبعها من النوافل والذكر والتسبيح والتلهيل والتكبير في هذه الأوقات.

﴿٣٠﴾ ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ﴾ أي: أكثر له من السجود، وذلك متضمن لكثرة الصلاة، ﴿وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا﴾ ﴿٣١﴾ وقد تقدم تقييد هذا المطلق بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الْمَرْءُ﴾ ﴿٣٢﴾ ﴿وَاللَّيْلِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ ﴿٣٣﴾ بضمه؛ أو أنقص منه قليلًا ﴿٣٤﴾ أو زده عليه ﴿المزمل: ١-٤﴾.

﴿٣٥﴾ وقوله: ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ﴾ أي: المكذبين لك أيها الرسول بعدما بينت لهم الآيات ورغبوا ورهبوا، ومع ذلك لم يفد فيهم ذلك شيئًا، بل لا يزالون يؤثرون ﴿الْعَاصِلَةَ﴾: ويطمثون إليها، ﴿وَيَذَرُونَ﴾ أي: يتركون العمل ويهملون ﴿وَرَأَاهُمْ﴾ أي: أمامهم ﴿يَوْمًا نَبِيلًا﴾ ﴿٣٦﴾ وهو يوم القيامة، الذي مقداره خمسون ألف سنة مما تعدون، وقال تعالى: ﴿يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمَ عِسرٍ﴾ ﴿٣٧﴾ [الفر: ٨]؛ فكأنهم ما خلقوا إلا للدنيا والإقامة فيها.

﴿٣٨﴾ ثم استدل عليهم وعلى بعثهم بدليل عقلي، وهو دليل الابتداء، فقال: ﴿نَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ﴾ أي: أوجدناهم من العدم، ﴿وَسَدَدْنَا أَسْرَهُمْ﴾ أي: أحكمنا خلقهم بالأعصاب والعروق والأوتار والقوى الظاهرة والباطنة، حتى تم الجسم واستكمل وتمكن من كل ما يريده؛ فالذي أوجدهم على هذه الحالة قادر على أن يعيدهم بعد موتهم لجزائهم، والذي

﴿٣٩﴾ ﴿وَيَطُوفُ﴾: على أهل الجنة في طعامهم وشرابهم وخدمتهم، ﴿وَلَدَانُ مَخْلُودَنَ﴾ أي: أي: خلقوا من الجنة للبقاء؛ لا يتغيرون ولا يكبرون، وهم في غاية الحسن، ﴿إِذَا رَأَيْتَهُمْ﴾: متشربين في خدمتهم، ﴿حَبِيبَتُهُمْ﴾: من حسنهم ﴿لَوْلَا مَنُورُ﴾ ﴿٤٠﴾: وهذا من تمام لذة أهل الجنة؛ أن يكون خدامهم الولدان المخلدون، الذين تسر رؤيتهم، ويدخلون في مساكنهم آمنين من تبعتهم، ويأتونهم بما يدعون وتطلبه نفوسهم.

﴿٤١﴾ ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ﴾ أي: هناك في الجنة ورمقت ما هم فيه من النعيم، ﴿رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمَلَكًا كَبِيرًا﴾ ﴿٤٢﴾: فتجد الواحد منهم عنده من القصور والمساكن والغرف المزينة المزخرفة ما لا يدركه الوصف، ولديه من البساتين الزاهرة والثمار الدانية والفواكه اللذيذة والأنهار الجارية والرياض المعجبة والطيور المطربة المشجية، ما يأخذ بالقلوب وفرح النفوس، وعنده من الزوجات اللاتي هن في غاية الحسن والإحسان الجامعات لجمال الظاهر والباطن الخيرات الحسان، ما يملأ القلب سرورًا ولذة وجورًا، وحوله من الولدان المخلدين والخدم المؤيدين ما به تحصل الراحة والطمأنينة، وتتم لذة العيش وتكمل الغبطة، ثم علاوة ذلك ومعظمه الفوز برؤية الرب الرحيم وسماع خطابه ولذة قربيه والابتهاج برضاه والخلود الدائم، وتزايد ما هم فيه من النعيم كل وقت وحين؛ فسبحان المالك المملك الحق المبين، الذي لا تنفذ خزائنه ولا يقل خيره؛ كما لا نهاية لأوصافه؛ فلا نهاية لبره وإحسانه.

﴿٤٣﴾ ﴿عَلَيْهِمْ ثِيَابٌ سُنْدُسٌ خُصْرٌ﴾ أي: قد جللتهم ثياب السندس والإستبرق الأخضران اللذان هما أجل أنواع الحرير، فالسندس ما غلظ من الديباج، والإستبرق ما رق منه ^(١)، ﴿وَعَلَوُا أَسَاوِرَ مِنْ فِضَّةٍ﴾ أي: حلوا في أيديهم أساور الفضة؛ ذكورهم وإنائهم. وهذا وعد وعدهم الله، وكان وعده مفعولًا؛ لأنه لا أصدق منه قليلًا ولا حديثًا. وقوله: ﴿وَسَقَنَهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾ ﴿٤٤﴾ أي: لا كدر فيه بوجه من الوجوه، مطهرًا لما في بطونهم من كل أدنى وقذى.

﴿٤٥﴾ ﴿إِنَّ هَذَا﴾: الجزاء الجزيل والعطاء الجميل ﴿كَانَ لَكُمْ جَزَاءً﴾: على ما أسلفتموه من الأعمال، ﴿وَكَانَ سَعِيرًا﴾ ﴿٤٦﴾: أي: القليل منه يجعل الله لكم به من النعيم المقيم ما لا يمكن حصره.

(١) جاء في اللسان (سندس): السندس: رقيق الديباج ورفيعه، والإستبرق: غليظ الديباج.

نقلهم في هذه الدار إلى هذه الأطوار لا يليق به أن يتركهم سدى، لا يؤمرون، ولا ينهون، ولا يثابون، ولا يعاقبون، ولهذا قال: ﴿وَإِذَا شِئْنَا بَدَلْنَا أَمْتَلَهُمْ تَبْدِيلًا ٢٨﴾؛ أي: أنشأناكم للبعث نشأة أخرى، وأعدناكم بأعيانكم، وهم بأنفسهم أمثالهم.

﴿إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ ٢٩﴾؛ أي: يتذكر بها المؤمن، فينتفع بما فيها من التخويف والترغيب، ﴿فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذْ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا ٣٠﴾؛ أي: طريقًا موصلاً إليه؛ فالله يبين الحق والهدى، ثم يخير الناس بين الاهتداء بها أو النفور عنها؛ إقامة للحجة؛ ليهلك من هلك عن بينة، ويحيى من حي عن بينة.

﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ٣١﴾: فإن مشيئة الله نافذة. ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ٣٢﴾: فله الحكمة في هداية المهتدي وإضلال الضال.

﴿يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ ٣٣﴾: فيختصه بعنايته، ويوفقه لأسباب السعادة، ويهديه لطرقها، ﴿وَالظَّالِمِينَ ٣٤﴾: الذين اختاروا الشقاء على الهدى، ﴿أَعَذَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ٣٥﴾: بظلمهم وعدوانهم.

تم تفسير سورة الإنسان. ولله الحمد والمنة.



سورة المرسلات

وَمِنْ أَيْلٍ فَاسْجُدْ لَهُ، وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا ١ إِنَّ هَؤُلَاءِ يُجِبُونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا نَقِيلًا ٢ نَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ وَإِذَا شِئْنَا بَدَلْنَا أَمْتَلَهُمْ تَبْدِيلًا ٣ إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذْ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا ٤ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ٥ يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ٦

سورة المرسلات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا ١ فَالْمُصَفَّتِ عَصْفًا ٢ وَالشَّارِبَاتِ نَضْرًا ٣ فَالْمُفَرِّقَاتِ فَرَقًا ٤ فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْرًا ٥ عُذْرًا أَوْ نَذْرًا ٦ إِنَّهَا تُوَعَّدُونَ وَلَوْ أَنَّ فَادَا الْجُحُومِ طُمِسَتْ ٧ وَإِذَا السَّمَاءُ فُرِجَتْ ٨ وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِفَتْ ٩ وَإِذَا الرُّسُلُ أُنْقِذَتْ ١٠ لِأَيِّ يَوْمٍ أُخِّلَتْ ١١ يَوْمَ الْفَصْلِ ١٢ وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمَ الْفَصْلِ ١٣ وَلَبَّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ١٤ أَلَمْ تَسْأَلِ الْأَوَّلِينَ ١٥ ثُمَّ نَتَّبِعُهُمُ الْآخَرِينَ ١٦ كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ ١٧ وَلَبَّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ١٨

٥٨٠

تفسير سورة المرسلات

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا ١﴾ إلى قوله: ﴿وَلَبَّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ١٨﴾.

١ - ﴿وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا ١﴾ أقسم تعالى على البعث والجزاء على الأعمال بالمرسلات عرفًا: وهي الملائكة التي يرسلها الله تعالى بشئونه القدريّة وتدير العالم، وبشئونه الشرعيّة ووحيه إلى رسله، و﴿عُرْفًا ١﴾: حال من المرسلات؛ أي: أرسلت بالعرف والحكمة والمصلحة، لا بالنكر والعبت. ﴿فَالْمُصَفَّتِ عَصْفًا ٢﴾: وهي أيضًا الملائكة التي يرسلها الله تعالى، وصفها بالمبادرة لأمره وسرعة تنفيذ أوامره كالريح العاصف أو أن العاصفات الرياح الشديدة التي يسرع هبوبها، ﴿وَالشَّارِبَاتِ نَضْرًا ٣﴾: يحتمل أن المراد بها الملائكة؛ تنشر ما دبّرت على نشره، أو أنها السحاب التي يُنْثَرُ الله بها الأرض فيحييها بعد موتها. ﴿فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْرًا ٤﴾: هي الملائكة تلقي أشرف الأوامر، وهو الذكر الذي يرحم الله به عباده، ويذكرهم فيه منافعهم ومصالحهم؛ تلقيه إلى الرسل ﴿عُذْرًا أَوْ نَذْرًا ٥﴾؛ أي: إعدازًا وإنذارًا للناس؛ تنذر الناس ما أمامهم من المخاوف وتقطع أعذارهم؛ فلا يكون لهم حجة على الله.

﴿إِنَّ مَا تُوعَدُونَ ٦﴾: من البعث والجزاء على الأعمال ﴿لَوْعًا ٧﴾؛ أي: محتتم وقوعه من غير شك ولا ارتياب.

(٨) - (١٤) فإذا وقع؛ حصل من التغير للعالم والأحوال الشديدة ما يزعج القلوب وتشتد له الكروب فتطمس النجوم؛ أي: تتناثر وتزول عن أماكنها، وتسف الجبال، فتكون كالهباء المنثور، وتكون هي والأرض قاعاً صفصفاً، لا ترى فيها عوجاً ولا أمناً، وذلك اليوم هو اليوم الذي ﴿أَنْتَ﴾ فيه الرسل، وأجلت للحكم بينها وبين أممها، ولهذا قال: ﴿لَا يَوْمَ يُأْتِي أَجَلٌ﴾ استفهام للتعظيم والتفخيم والتهويل، ثم أجاب بقوله: ﴿يَوْمَ الْفَصْلِ﴾؛ أي: بين الخلائق بعضهم لبعض، وحساب كل منهم منفرداً.

(١٥) ثم توعد المكذب بهذا اليوم، فقال: ﴿وَلَبِئْسَ لِلْمُكْذِبِينَ﴾؛ أي: يا حسرتهم وشدة عذابهم وسوء منقلبهم، أخبرهم الله وأقسم لهم فلم يصدقوه؛ فاستحقوا العقوبة البليغة.

﴿أَلَمْ تَنْهَ الْأَوَّلِينَ﴾ ثُمَّ تُنَبِّئُهُمُ الْآخِرِينَ ﴿كَذَلِكَ نَفْعِلُ بِالْمُجْرِمِينَ﴾ ﴿وَلَبِئْسَ لِلْمُكْذِبِينَ﴾.

(١٦) - (١٩) أي: أما أهلكنا المكذبين السابقين، ثم نتبعهم بإهلاك من كذب من الآخرين، وهذه سنته السابقة واللاحقة في كل مجرم، لا بد من عقابه، فلم لا تعتبرون بما ترون وتسمعون؟! ﴿وَلَبِئْسَ لِلْمُكْذِبِينَ﴾ بعدما شاهدوا من الآيات البينات والعقوبات والمثلات.

﴿أَلَمْ تَخْلُقْهُمْ مِنْ مَّاءٍ مَّهِينٍ﴾ فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ﴿إِلَّكَ قَدَرٌ مَعْلُومٌ﴾ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَدِيرُونَ ﴿وَلَبِئْسَ لِلْمُكْذِبِينَ﴾.

(٢٠) - (٢٦) أي: أما خلقناكم أيها آدميون ﴿مِنْ مَّاءٍ مَّهِينٍ﴾؛ أي: في غاية الحقارة، خرج من بين الصلب والترائب، حتى جعله الله ﴿فِي قَرَارٍ مَكِينٍ﴾ وهو الرحم به يستقر وينمو، ﴿إِلَّكَ قَدَرٌ مَعْلُومٌ﴾ ووقت مقدر. ﴿فَقَدَرْنَا﴾؛ أي: قدرنا ودبرنا ذلك الجنين في تلك الظلمات، ونقلناه من النطفة إلى العلقة إلى المضغة إلى أن جعله الله جسداً ونفخ فيه الروح، ومنهم من يموت قبل ذلك. ﴿فَنِعْمَ الْقَدِيرُونَ﴾؛ يعني بذلك نفسه المقدسة؛ لأن قدره تابع لحكمته موافق للحمد. ﴿وَلَبِئْسَ لِلْمُكْذِبِينَ﴾، بعدما بين الله لهم الآيات وأراهم العبر والبيانات.

﴿أَلَمْ تَجْعَلِ الْأَرْضَ كِهَاتًا﴾ أَحْيَاءً وَأَمْوَاتًا ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا رِوْشً شَحِيحًا وَأَسْفَيْنَاكُمْ مَاءً فَرَاتًا﴾ ﴿وَلَبِئْسَ لِلْمُكْذِبِينَ﴾.

(٢٧) - (٣٨) أي: أما امتننا عليكم وأنعمنا بتسخير الأرض لمصالحكم فجعلناها ﴿كِهَاتًا﴾ لكم، ﴿أَحْيَاءً﴾ في الدور، ﴿وَأَمْوَاتًا﴾ في القبور؛ فكما أن الدور والقصور من نعم الله على عباده ومته؛ فكذلك القبور رحمة في حقهم وستر لهم عن كون أجسادهم بادية للسباع وغيرها. ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا رِوْشً﴾ أي: جبلاً ترسي الأرض لثلاث تميد بأهلها، فثبتها الله بالجبال الراسيات الشامخات؛ أي: الطوال العراض. ﴿وَأَسْفَيْنَاكُمْ مَاءً فَرَاتًا﴾؛ أي: عذاباً زللاً؛ قال تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ﴾ ﴿أَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ﴾ ﴿لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ﴾ [الواقعة: ١٧٠]. ﴿وَلَبِئْسَ لِلْمُكْذِبِينَ﴾ مع ما أراهم الله من النعم التي انفراد بها، واختصهم بها فقابلوها بالكذب.

﴿وَلَبِئْسَ لِلْمُكْذِبِينَ﴾

ويستسلمون لعذاب الله، وبين لهم كذبهم في تكذيبهم.
﴿وَبَلِّغْ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ ٤٠.

﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلِّ وَعُيُونٍ﴾ ٤١ ﴿وَفَوْكَاهِمَا يَسْتَهْوُونَ﴾ ٤٢ ﴿كُلُوا وَأَشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كَسَبْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ ٤٣ ﴿إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ ٤٤ ﴿وَبَلِّغْ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ ٤٥.

٤١ - ٤٥) لما ذكر عقوبة المكذبين؛ ذكر مثوبة المحسنين، فقال: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ﴾؛ أي: للمتصفين بالتصديق في أقوالهم وأفعالهم وأعمالهم، ولا يكونون كذلك إلا بأدائهم الواجبات وتركهم المحرمات، ﴿فِي ظِلِّ﴾ من كثرة الأشجار المتنوعة الزاهرة البهية، ﴿وَعُيُونٍ﴾ ٤١: جارية من السلسيل والرحيق وغيرهما، ﴿وَفَوْكَاهِمَا يَسْتَهْوُونَ﴾ ٤٢: أي: من خيار الفواكه وأطيبها، ويقال لهم: ﴿كُلُوا وَأَشْرَبُوا﴾ ٤٣: من المأكّل الشهية والأشربة اللذيذة، ﴿هَنِيئًا﴾ ٤٤: أي: من غير منغص ولا مكدر، ولا يتم هناؤه حتى يسلم الطعام والشراب من كل آفة ونقص، وحتى يجزوا أنه غير منقطع ولا زائل؛ ﴿بِمَا كَسَبْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ ٤٤: فأعمالكم هي السبب الموصل لكم إلى جنات النعيم المقيم، وهكذا كل من أحسن في عبادة الله وأحسن إلى عباد الله، ولهذا قال: ﴿إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ ٤٤ ﴿وَبَلِّغْ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ ٤٥: ولو لم يكن من هذا الويل إلا فوات هذا النعيم؛ لكفى به حزناً وحرماناً.

﴿كُلُوا وَامْتَنَعُوا قَلِيلًا إِنَّكُمْ تُجْزَوْنَ﴾ ٤٦ ﴿وَبَلِّغْ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ ٤٧ ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لَا يَرْكَعُونَ﴾ ٤٨ ﴿وَبَلِّغْ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ ٤٩ ﴿فَإِنِّي حَادِثٌ بَعْدَهُ يُؤْمِنُوتُ﴾ ٥٠.

٤٦ - ٥٠) هذا تهديد ووعيد للمكذبين أنهم وإن أكلوا في الدنيا وشربوا وتمتعوا باللذات وغفلوا عن القربات؛ فإنهم مجرمون يستحقون ما يستحقه المجرمون، فتقطع عنهم اللذات، وتبقى عليهم التبعات. ومن إجرامهم أنهم إذا أمروا بالصلاة التي هي أشرف العبادات، و﴿قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا﴾: امتنعوا من ذلك؛ فأى إجرام فوق هذا؟ وأي تكذيب يزيد على هذا؟ ﴿وَبَلِّغْ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ ٤٩: ومن الويل عليهم أنهم تنسد عنهم أبواب التوفيق ويحرمون كل خير؛ فإنهم إذا كذبوا هذا القرآن الذي هو أعلى مراتب الصدق واليقين على الإطلاق؛ ﴿فَإِنِّي حَادِثٌ بَعْدَهُ يُؤْمِنُوتُ﴾ ٥٠: أبالباطل الذي هو كاسمه لا يقوم عليه شبهة فضلاً عن الدليل؟ أم

﴿أَطْلِقُوا إِلَى مَا كُتِبَ بِهِ تَكَذِّبُونَ﴾ ٥١ ﴿أَطْلِقُوا إِلَى ظِلِّ ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ﴾ ٥٢ ﴿لَا ظِلِيلَ وَلَا يُغْنِي مِنَ الْلَّهِبِ﴾ ٥٣ ﴿إِنَّمَا تَرَوْنِي بِشَرِّ كَالْقَصْرِ﴾ ٥٤ ﴿كَأَنَّهُ يَحْمِلَتُ صُفْرًا﴾ ٥٥ ﴿وَبَلِّغْ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ ٥٦.

٥١ - ٥٦) هذا من الويل الذي أعد للمجرمين المكذبين أن يقال لهم يوم القيامة: ﴿أَطْلِقُوا إِلَى مَا كُتِبَ بِهِ تَكَذِّبُونَ﴾ ٥١: ثم فسر ذلك بقوله: ﴿أَطْلِقُوا إِلَى ظِلِّ ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ﴾ ٥٢؛ أي: إلى ظل نار جهنم التي تمتاز في خلاله ثلاث شعَب؛ أي: قطع من النار تتعاوره وتتناوبه وتجتمع به. ﴿لَا ظِلِيلَ﴾ ٥٣: ذلك الظل؛ أي: لا راحة فيه ولا طمأنينة، ﴿وَلَا يُغْنِي﴾ ٥٤: من مكث فيه ﴿بِئْسَ الْلَّهِبُ﴾ ٥٥: بل اللهب قد أحاط به يمنة ويسرة ومن كل جانب؛ كما قال تعالى: ﴿لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ﴾ [الزمر: ١٦]، ﴿لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ﴾ وكذلك نجزي الظالمين ٥٦ ﴿[الأعراف: ٤١].

ثم ذكر عظم شرر النار الدال على عظمها وفضاعتها وسوء منظرها، فقال: ﴿إِنَّمَا تَرَوْنِي بِشَرِّ كَالْقَصْرِ﴾ ٥٤ ﴿كَأَنَّهُ يَحْمِلَتُ صُفْرًا﴾ ٥٥: وهي السود التي تضرب إلى لون فيه صفرة، وهذا يدل على أن النار مظلمة لهبها وجمرها وشررها، وأنها سوداء كريهة المنظر شديدة الحرارة؛ نسأل الله العافية منها، ومن الأعمال المقربة منها. ﴿وَبَلِّغْ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ ٥٦.

﴿هَذَا يَوْمٌ لَا يَنْطِقُونَ﴾ ٥٧ ﴿وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْدِرُونَ﴾ ٥٨ ﴿وَبَلِّغْ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ ٥٩ ﴿هَذَا يَوْمٌ الْفَصْلِ جَمَعْتُمْكُمْ وَالْأَوَّلِينَ﴾ ٦٠ ﴿فَإِنْ كَانَ لَكُمْ كُفْكُودٌ فَبِكُذُوبٍ﴾ ٦١ ﴿وَبَلِّغْ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ ٦٢.

٥٧ - ٦٢) أي: هذا اليوم العظيم الشديد على المكذبين، لا ينطقون فيه من الخوف والوجل الشديد، ﴿وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْدِرُونَ﴾ ٥٨؛ أي: لا تقبل معذرتهم ولو اعتذروا. ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ ٥٩ ﴿[الروم: ٥٧].

٦٠ - ٦٢) ﴿هَذَا يَوْمٌ الْفَصْلِ جَمَعْتُمْكُمْ وَالْأَوَّلِينَ﴾ ٦٠: لفصل بينكم ونحكم بين الخلائق. ﴿فَإِنْ كَانَ لَكُمْ كُفْكُودٌ﴾: تقدرون على الخروج عن ملكي وتنجون به من عذابي، ﴿فَبِكُذُوبٍ﴾ ٦١؛ أي: ليس لكم قدرة ولا سلطان؛ كما قال تعالى: ﴿يَتَمَتَّعَ الَّذِينَ وَالْإِنْسِ إِنْ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ﴾ ٦٢ ﴿[الرحمن: ٢٣]؛ ففي ذلك اليوم تبطل حيل الظالمين، ويضمحل مكرهم وكيدهم

بكلام مشرك كذاب أفاك مبين؟ فليس بعد النور المبين إلا دياجي الظلمات، ولا بعد الصدق الذي قامت الأدلة والبراهين على صدقه إلا الكذب الصراح والإفك المبين الذي لا يليق إلا بمن يناسبه؛ فنبأ لهم ما أعماهم! ووبخا لهم ما أخسرهم وأشقاهم! نسأل الله العفو والعافية؛ إنه جواد كريم.

تمت.

﴿١﴾﴿٢﴾﴿٣﴾﴿٤﴾﴿٥﴾﴿٦﴾

تفسير سورة عم

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ﴾ ١ ﴿عَنِ النَّبِيِّ الْعَظِيمِ﴾ ٢ ﴿الَّذِي هُوَ فِيهِ مُخْلِفُونَ﴾ ٣ ﴿كَلَّا سَيَعْلَمُونَ﴾ ٤ ﴿كَلَّا سَيَعْلَمُونَ﴾ ٥ ﴿﴾ ٦.

١ - (٥) أي: عن أي شيء يتساءل المكذبون بآيات الله؟ ثم بين ما يتساءلون عنه فقال: ﴿عَنِ النَّبِيِّ الْعَظِيمِ﴾ ٢ ﴿الَّذِي هُوَ فِيهِ مُخْلِفُونَ﴾ ٣؛ أي: عن الخبر العظيم الذي طال فيه نزاعهم وانتشر فيه خلافهم على وجه التكذيب والاستبعاد، وهو النبأ الذي لا يقبل الشك ولا يدخله الريب، ولكن المكذبون بقاء رهيم لا يؤمنون، ولو جاءتهم كل آية، حتى يروا العذاب الأليم، ولهذا قال: ﴿كَلَّا سَيَعْلَمُونَ﴾ ٤ ﴿كَلَّا سَيَعْلَمُونَ﴾ ٥؛ أي: سيعلمون إذا نزل بهم العذاب ما كانوا به يكذبون حين ﴿يَدْعُونَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعَا﴾ ١٣. ويقال لهم: ﴿هَٰذَا النَّارُ الَّتِي كُتِبَ بِهَا تُكَذَّبُونَ﴾ ١٤ [الطور: ١٣، ١٤].

ثم بين تعالى النعم والأدلة الدالة على صدق ما أخبرت به الرسل فقال:

﴿أَلَمْ تَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهْدًا﴾ ٦ ﴿إِلَى قَوْلِهِ﴾ ٧ ﴿أَلَفَّا﴾ ٨ ﴿﴾.

٦ - (٦) أي: أما أنعمنا عليكم بنعم جليلة، فجعلنا لكم ﴿الْأَرْضَ مِهْدًا﴾ ٦؛ أي: مهدة مذللة لكم ولمصالحكم من الحروث والمسكن والسبل، ﴿وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا﴾ ٧؛ أي: تمسك الأرض لئلا تضطرب بكم وتميد، ﴿وَخَلَقْنَا أَزْوَاجًا﴾ ٨؛ أي: ذكورا وإناثا من جنس واحد؛ ليسكن كل منهما إلى الآخر، فتكون المودة والرحمة، وتنشأ عنهما الذرية. وفي ضمن هذا الامتنان بلذة المنكح. ﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا﴾ ٩؛ أي: راحة لكم وقطعا لأشغالكم التي متى تمادت بكم؛ أضرت بأبدانكم، فجعل الله الليل والنوم يغطي الناس لتسكن حركاتهم الضارة وتحصل راحتهم النافعة، ﴿وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا﴾ ١٠؛ أي: سبع سماوات في غاية القوة والصلابة والشدة، وقد أسكنها الله بقدرته، وجعلها سقفا للأرض، فيها عدة منافع لهم، ولهذا ذكر من منافعها الشمس، فقال: ﴿وَجَعَلْنَا بَرَكًا وَهَاجًا﴾ ١١؛ أي: نبي بالسراج على النعمة بنورها الذي صار ضرورة للخلق، وبالهواج - وهي حرارتها - على ما فيها من الإنضاج والمنافع، ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ﴾ ١٢؛ أي: السحاب ماءً ثَجَّاجًا ١٣؛ أي: كثيرا جذا؛ ﴿نُخْرِجُ بِهِ حَبًّا﴾ ١٤؛ من بر وشعير وذرة وأرز وغير ذلك مما يأكله الآدميون، ﴿وَبَنَاتًا﴾ ١٥؛ أي: يشمل سائر النبات الذي جعله الله قوتا لمواشيهم، ﴿وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا﴾ ١٦؛ أي: بساتين ملتفة فيها من جميع أصناف الفواكه اللذيذة؛ فالذي أنعم عليكم بهذه النعم العظيمة التي لا يقدر قدرها ولا يحصى عدها؛ كيف تكفرون به وتكذبون ما أخبركم به

من البعث والنشور! أم كيف تستعينون بنعمه على معاصيه وتجحدونها!

﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَتًا﴾ ﴿٧﴾ إلى قوله: ﴿فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾ ﴿٣٠﴾.

﴿٧﴾ - ﴿٣٠﴾ ذكر الله تعالى ما يكون في يوم القيامة الذي يتساءل عنه المكذبون ويحجده المعاندون؛ أنه يوم عظيم، وأن الله جعله ﴿مِيقَتًا﴾ ﴿٧﴾ للخلق، ﴿يُنْفَخُ فِي الصُّورِ﴾ فيأتون ﴿أَنوَابًا﴾ ﴿١٨﴾: ويجري فيه من الزعازع والقلاقل ما يشيب له المولود وتزعج له القلوب، فتسير الجبال حتى تكون كالهباء الميثوث، وتشق السماء حتى تكون أبواباً، ويفصل الله بين الخلائق بحكمه الذي لا يجور، وتوقد نار جهنم التي أرصدها الله وأعدّها للطاغين وجعلها مثوى لهم ومأباً، وأنهم يلبثون فيها أحقاباً كثيرة، والحقب على ما قاله كثير من المفسرين ثمانون سنة؛ فإذا وردوها؛ ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا﴾ ﴿٢٤﴾؛ أي: لا ما يبرد جلودهم ولا ما يدفع ظمأهم؛ ﴿إِلَّا حِمِيمًا﴾؛ أي: ماء حاراً يشوي وجوههم ويقطع أمعاءهم ﴿وَعَسَافًا﴾ ﴿٢٥﴾: وهو صديد أهل النار: الذي هو في غاية الشن وكراهة المذاق.

﴿٣١﴾ - ﴿٣٩﴾ وإنما استحقوا هذه العقوبات الفظيعة جزاء لهم وفاقاً على ما عملوا من الأعمال الموصلة إليها، لم يظلمهم الله ولكن ظلموا أنفسهم، ولهذا ذكر أعمالهم التي استحقوا بها هذا الجزاء، فقال: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا﴾ ﴿٣١﴾؛ أي: لا يؤمنون بالبعث، ولا أن الله يجازي الخلق بالخير والشر؛ فلذلك أهملوا العمل للأخرة، ﴿وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كَذِبًا﴾ ﴿٣٢﴾؛ أي: كذبوا بها تكديباً واضحاً صريحاً، وجاءتهم البينات فعاندوها، ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ﴾: من قليل وكثير وخير وشر، ﴿أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا﴾ ﴿٣٣﴾؛ أي: أثبتناه في اللوح المحفوظ؛ فلا يحسب المجرمون أننا عدبناهم بذنوب لم يعملوها، ولا يحسبوا أنه يضيع من أعمالهم شيء أو ينسى منها مثقال ذرة؛ كما قال تعالى: ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يُوزِنُنَا مَا لَ هَذَا الْكِتَابِ لَا يَغَاذِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظِلُّ رُكُوبًا﴾ ﴿٤٩﴾. [الكهف: ٤٩]. ﴿فَذُوقُوا﴾: أيها المكذبون هذا العذاب الأليم والخزي الدائم، ﴿فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾ ﴿٣٠﴾: فكل وقت وحين يزداد عذابهم. وهذه الآية أشد الآيات في شدة عذاب أهل النار، أجارنا الله منها.

﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا﴾ ﴿٣١﴾ إلى قوله: ﴿عَطَاءً حِسَابًا﴾ ﴿٣٩﴾.

﴿٣١﴾ - ﴿٣٩﴾ لما ذكر حال المجرمين؛ ذكر مآل المتقين، فقال: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا﴾ ﴿٣١﴾؛ أي: الذين اتقوا سخط ربهم بالتمسك بطاعته والانكفاف عن معصيته؛ فلهم مفاز ومنجى وبعد عن النار، وفي ذلك المفاز لهم ﴿حَدَائِقُ﴾: وهي البساتين الجامعة لأصناف الأشجار الزاهية بالثمار التي تتفجر بين خلالها الأنهار، وخص العنب لشرفه وكثرته في تلك الحدائق. ولهم فيها زوجات على مطالب النفوس ﴿وَكَاوِبَ﴾: وهي النواهد اللاتي لم تنكسر ثديهن من شبابهن وقوتهن ونضارتهن. والأتراب اللاتي على سن واحدة متقاربة، ومن عادة الأتراب أن يكن متكافات متعاشرات، وتلك السن التي هن فيه ثلاث وثلاثون سنة أعدل ما يكون من الشباب، ﴿وَأَسَاوِيًا﴾ ﴿٣٢﴾؛ أي: مملوءة من رحيق لذة للشاربين، ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا﴾؛ أي: كلاماً لا فائدة فيه، ﴿وَلَا كِدَابًا﴾ ﴿٣٥﴾؛ أي: إثمًا؛ كما قال تعالى: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا﴾ ﴿٣٥﴾ إِلَّا قِيلًا سَلَماً سَلَماً ﴿٣٦﴾ [الرواقعة: ٢٥، ٢٦]، وإنما أعطاهم الله هذا الثواب الجزيل من فضله وإحسانه ﴿جَزَاءً مِّن رَّبِّكَ﴾ لهم. ﴿عَطَاءً حِسَابًا﴾ ﴿٣٩﴾؛ أي: بسبب أعمالهم التي وفقهم الله لها، وجعلها ثمناً لجنته ونعيمها.

﴿رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الرَّحْمَنُ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا﴾ ﴿٣٧﴾ إلى آخر السورة.

﴿٣٧﴾ - ﴿٣٩﴾ أي: الذي أعطاهم هذه العطايا هو ربهم، رب السماوات والأرض: الذي خلقها وديرها. ﴿الرَّحْمَنُ﴾: الذي رحمته وسعت كل شيء، فرباهم ورحمهم ولطف بهم حتى أدرکوا ما أدرکوا، ثم ذكر عظمتهم وملكه العظيم يوم القيامة، وأن جميع الخلق كلهم ساكتون ذلك اليوم لا يتكلمون ﴿وَلَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا﴾ ﴿٣٧﴾؛ ﴿إِلَّا مَن أِذْنُ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾ ﴿٣٨﴾: فلا يتكلم أحد إلا بهذين الشرطين: أن يأذن الله له في الكلام، وأن يكون ما تكلم به صواباً؛ لأن ذلك اليوم هو ﴿الْحَقُّ﴾: الذي لا يروج فيه الباطل ولا ينفع فيه الكذب. وفي ذلك اليوم ﴿يَوْمَ الرُّجُوعِ﴾: وهو جبريل عليه السلام، الذي هو أفضل الملائكة، ﴿وَأَلْمَلِكَةُ﴾: أي: أيضاً يقوم الجميع ﴿صَفًّا﴾: خاضعين لله، لا يتكلمون إلا بإذنه. فلما رغب ورهب وبشر وأنذر؛ قال: ﴿فَمَن شَاءَ اخْتَدِ إِلَىٰ رَبِّهِ مَنَابًا﴾ ﴿٣٩﴾؛ أي: عملاً وقدم صدق يرجع إليه يوم القيامة.

﴿١٤﴾ إِنَّا أَنْذَرْنَكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا ﴿١٥﴾: لأنه قد أُرِفَ مَقْبَلًا، وكل ما هو آتٍ فهو قريب. ﴿يَوْمَ يُنْظَرُ أَلَمْزَةُ مَا قَدَّمْتَ يَدَاهُ﴾؛ أي: هذا الذي يهيمه ويفزع إليه، فلينظر في هذه الدار ما قدم لدار القرار، ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْفَعُوا اللَّهَ وَتَنْظُرُ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَيْرٍ وَتَتَفَقَّأُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ ﴿الحشر: ١٨﴾ الآيات؛ فإن وجد خيرًا؛ فليحمد الله، وإن وجد غير ذلك؛ فلا يلومن إلا نفسه. ولهذا كان الكفار يتمنون الموت من شدة الحسرة والندم. نسأل الله أن يعافينا من الكفر والشر كله إنه جواد كريم.

تم تفسير عم، والحمد لله رب العالمين.



تفسير سورة النازعات

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالنَّازِعَاتِ غَرْاقًا﴾ ﴿١﴾ وَالنَّشِيطَاتِ تَشَاطُاعًا ﴿٢﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ﴾ ﴿١٤﴾.

١ - هذه الإقسامات بالملائكة الكرام وأفعالهم

الدالة على كمال انقيادهم لأمر الله وإسراعهم في تنفيذه؛ يحتمل أن المقسم عليه الجزاء والبعث؛ بدليل الإتيان بأحوال القيامة بعد ذلك، ويحتمل أن المقسم عليه والمقسم به متحدان، وأنه أقسم على الملائكة؛ لأن الإيمان بهم أحد أركان الإيمان الستة، ولأن في ذكر أفعالهم هنا ما يتضمن الجزاء الذي تتولاه الملائكة عند الموت وقبله وبعده، فقال: ﴿وَالنَّازِعَاتِ غَرْاقًا﴾: وهم الملائكة التي تنزع الأرواح بقوة، وتغرق في نزعها حتى تخرج الروح فتجازي بعملها. ﴿وَالنَّشِيطَاتِ تَشَاطُاعًا﴾: وهي الملائكة أيضًا تجتذب الأرواح بقوة ونشاط، أو أن النشاط يكون لأرواح المؤمنين والنزع لأرواح الكفار. ﴿وَالنَّشِيطَاتِ﴾؛ أي: المترددات في الهواء صعودًا ونزولًا، ﴿سَبَّحًا﴾: فالتَّسْبِيحُ: لغيرها ﴿سَبَّحًا﴾: فتبادر لأمر الله وتسبق الشياطين في إيصال الوحي إلى رسل الله؛ لثلاث تسترقه، ﴿فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا﴾ ﴿٥﴾؛ [أي]: الملائكة الذين جعلهم الله يدبرون كثيرًا من أمور العالم العلوي والسفلي من الأمطار والنبات والأشجار والرياح والبحار والأجنة والحيوانات والجنة والنار وغير ذلك.

٢ - ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّجِفَةُ﴾: وهي قيام الساعة، ﴿تَتَّبِعُهَا الرَّادِفَةُ﴾: أي: الرجفة الأخرى التي تردفها وتأتي تلوها. ﴿قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِعَةٌ﴾: أي: منزعة من شدة ما ترى وتسمع، ﴿أَبْصَرُهَا خَشِيعَةٌ﴾: أي: ذليلة حقيرة قد ملك قلوبهم الخوف وأذهل أفئدتهم الفزع وغلب عليهم التأسف، واستولت عليهم الحسرة.

٣ - ﴿يَقُولُونَ﴾: أي: الكفار في الدنيا على وجه التكذيب: ﴿إِنَّا كُنَّا عِظَمًا نَحْرَةً﴾ ﴿١١﴾؛ أي: بالية فنانًا، ﴿قَالُوا يَلَيْكَ إِذَا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ﴾ ﴿١٢﴾؛ أي: استبعدوا أن يعيثنهم الله ويعيدهم بعدما كانوا عظامًا نخرة جهلاً منهم بقدرته الله وتجروا عليه! قال الله في بيان سهولة هذا الأمر عليه: ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ﴾: ينفخ في الصور؛ فإذا الخلائق كلهم ﴿بِالسَّاهِرَةِ﴾ ﴿١٤﴾؛ أي: على وجه الأرض قيام ينظرون، فيجمعهم الله، ويقضي بينهم بحكمه العدل، ويجازيهم.

﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى﴾ ﴿١٥﴾ إلى قوله: ﴿لَعِبْرَةٌ لِّمَن يَخْشَى﴾ ﴿١٦﴾.

سورة النازعات
إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣١﴾ حَتَّىٰ يَأْتِيَ الْوَعْدَ ﴿٣٢﴾ وَكَوَيْبَ آزَابًا ﴿٣٣﴾ وَكَأَسَا دِهَاقًا ﴿٣٤﴾ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِدًّا ﴿٣٥﴾ جَزَاءً مِّن رَّبِّكَ عَطَاةٌ حِسَابًا ﴿٣٦﴾ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الرَّحْمَنُ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا ﴿٣٧﴾ يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَن أُوذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴿٣٨﴾ ذَلِكَ الْيَوْمَ الْحَقُّ فَمَن شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ مَتَابًا ﴿٣٩﴾ إِنَّا أَنْذَرْنَكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنْظُرُ أَلَمْزَةُ مَا قَدَّمْتَ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَلَيْتَنِي كُنْتُ ثَرِيًّا ﴿٤٠﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالنَّازِعَاتِ غَرْاقًا ﴿١﴾ وَالنَّشِيطَاتِ تَشَاطُاعًا ﴿٢﴾ وَالسَّيِّدَاتِ سَبَّحًا ﴿٣﴾ فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا ﴿٤﴾ يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّجِفَةُ ﴿٥﴾ تَتَّبِعُهَا الرَّادِفَةُ ﴿٦﴾ قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِعَةٌ ﴿٧﴾ أَبْصَرُهَا خَشِيعَةٌ ﴿٨﴾ يَقُولُونَ إِنَّا كُنَّا عِظَمًا نَحْرَةً ﴿٩﴾ قَالُوا يَلَيْكَ إِذَا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ ﴿١٠﴾ فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ ﴿١١﴾ فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ ﴿١٢﴾ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى ﴿١٣﴾

١٥ - ﴿يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى لَنُبَيِّنَنَّ لَكَ مَا كُنْتَ تَكْفُرُ﴾ ﴿٢٥﴾ ﴿هَلْ أَتَاكَ

يَتُ مُوسَى﴾ ﴿٢٥﴾ ﴿وَهَذَا الِاسْتِفْهَامُ عَنْ أَمْرٍ عَظِيمٍ مُتَحَقِّقٍ

وَعِهِ أَيُّ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُهُ﴾ ﴿إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ

﴿٢٦﴾ ﴿وَهُوَ الْمَحَلُّ الَّذِي كَلَّمَهُ اللَّهُ فِيهِ، وَامْتَنَ عَلَيْهِ

رِسَالَةً، وَابْتَعَثَهُ بِالْوَحْيِ، وَاجْتَبَاهُ فَقَالَ لَهُ﴾ ﴿أَذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ

طَغَى﴾ ﴿٢٧﴾ ﴿أَيُّ فَانْهَ عَنْ طُغْيَانِهِ وَشُرْكَهِ وَعَصِيَانِهِ بِقَوْلِ

وَخَطَابِ لَطِيفٍ لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾ ﴿فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَهٌ إِلَّا أَنَا

﴿٢٨﴾ ﴿أَيُّ هَلْ لَكَ فِي خَصْلَةِ حَمِيدَةٍ وَمُحَمَّدَةٍ جَمِيلَةٍ

فَسَ فِيهَا أَوَّلُ الْأَلْبَابِ؟ وَهِيَ أَنَّ تَزْكِي نَفْسَكَ وَتُطَهِّرَهَا

دَنَسَ الْكُفْرِ وَالطُّغْيَانِ إِلَى الْإِيمَانِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ.

وَأَمَّا دَيْكَ إِلَى رَبِّكَ﴾ ﴿أَيُّ أَدْلَكَ عَلَيْهِ، وَأَبَيَّنَ لَكَ مَوَاقِعَ رِضَاهِ

مَوَاقِعَ سَخَطِهِ﴾ ﴿فَنَحْنُ﴾ ﴿٢٩﴾ ﴿اللَّهُ إِذَا عَلِمْتَ الصِّرَاطَ

سَتَقِيمُ. فَامْتَنِعْ فِرْعَوْنَ مِمَّا دَعَاهُ إِلَيْهِ مُوسَى﴾ ﴿فَارْتَدَّ الْآيَةُ

بَرِيءٌ﴾ ﴿٣٠﴾ ﴿أَيُّ جِنْسِ الْآيَةِ الْكُبْرَى؛ فَلَا يَنَافِي تَعَدُّدُهَا،

فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ﴾ ﴿٣١﴾ ﴿وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا

بِصَافَةِ اللَّفْظَيْنِ﴾ ﴿٣٢﴾ ﴿[الأعراف: ١٠٧، ١٠٨].﴾ ﴿فَكَذَّبَ﴾ ﴿٣٣﴾

حَقٌّ، وَعَصَى﴾ ﴿٣٤﴾ ﴿الْأَمْرُ، ثُمَّ أَدْبَرَ يَتَوَلَّى﴾ ﴿٣٥﴾ ﴿أَيُّ

يَهْدِي فِي مَبَارَزَةِ الْحَقِّ وَمَحَارِبَتِهِ. فَحَسَرَ﴾ ﴿جُنُودَهُ أَيُّ

بَعِيَهُمْ، فَنَادَى﴾ ﴿٣٦﴾ ﴿فَقَالَ﴾ ﴿لَهُمْ﴾ ﴿أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى﴾ ﴿٣٧﴾

عَنَّا لَهُ وَأَقْرَأُوا بِبَاطِلِهِ حِينَ اسْتَخْفَهُمْ.﴾ ﴿فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ

الحَيوةُ الْآخِرَةُ شُورَةُ الرَّحْمَانِ

إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْقَدَسِ طُوى ﴿١٧﴾ أَذْهَبَ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى ﴿١٨﴾ فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَهٌ إِلَّا أَنْ تَرْكِبَ ﴿١٩﴾ وَأَهْرَبَكَ إِلَى رَبِّكَ فَنَخَشَى ﴿٢٠﴾ فَأَرَبَهُ الْآيَةُ الْكُبْرَى ﴿٢١﴾ فَكَذَّبَ وَعَصَى ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْرَسَنَى ﴿٢٣﴾ فَحَشَرَ فَنَادَى ﴿٢٤﴾ فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى ﴿٢٥﴾ فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى ﴿٢٦﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِمَن يَخْشَى ﴿٢٧﴾ أَنتُمْ أَشَدُّ حُلَاقِمَ السَّمَاءِ بِنْهَا ﴿٢٨﴾ رَفَعَ سَمَكَهَا فَتَوَدَّهَا ﴿٢٩﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا ﴿٣٠﴾ وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا ﴿٣١﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا ﴿٣٢﴾ وَالْجِبَالَ أَرْسَسَهَا ﴿٣٣﴾ مَلْعًا لَّكُمْ وَلِأَنفُسِكُمْ ﴿٣٤﴾ فَإِذَا جَاءَ نَارُ الْمَاطَةِ الْكُبْرَى ﴿٣٥﴾ يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ مَا سَعَى ﴿٣٦﴾ وَبُزِرَتْ الْجَيمُ لِمَن بَرَى ﴿٣٧﴾ فَأَمَّا مَن طَغَى ﴿٣٨﴾ وَاتَرَ الْحَيَوةَ الدُّنْيَا ﴿٣٩﴾ فَإِنَّ الْجَيمَ هِيَ الْمَأْوَى ﴿٤٠﴾ وَأَمَّا مَن خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَهَمَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى ﴿٤١﴾ فَإِنَّ الْحَيَوةَ هِيَ الْمَأْوَى ﴿٤٢﴾ يَسْأَلُوكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا ﴿٤٣﴾ فِيمَ أَنْتَ مِن ذِكْرِهَا ﴿٤٤﴾ إِلَى رَبِّكَ مُنْهَبَهَا ﴿٤٥﴾ إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ مَن يَخْشَى ﴿٤٦﴾ كَانَتْهُمْ يَوْمَ بَرْزَوَاتِهِمْ لَبِئْسَ الْأَعْشِيَّةُ أَوْ ضُحَاهَا ﴿٤٧﴾

سُورَةُ طه

٥٨٤

وَالْأُولَى ﴿٢٥﴾؛ أي: جعل الله عقوبته دليلاً وزاجراً ومبينة لعقوبة الدنيا والآخرة.

﴿٢٦﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَى ﴿٢٧﴾ فلإن من يخشى الله هو الذي يتتبع بالآيات والعبر؛ فإذا رأى عقوبة فرعون؛ عرف أن كل من تكبر وعصى وبارز الملك الأعلى؛ يعاقبه في الدنيا والآخرة، وأما من ترحلت خشية الله من قلبه؛ فلو جاءته كل آية؛ لم يؤمن بها.

﴿أَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا﴾ ﴿٧٧﴾ ﴿إِلَى قَوْلِهِ: ﴿مَنْعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَمَ﴾﴾ ﴿٧٨﴾.

(٧) - (٢٣) يقول تعالى مبيّناً دليلاً واضحاً للمتكري البعث ومستعدي إعادة الله للأجساد: ﴿ءَأَنْتُمْ﴾: أيها البشر، ﴿أَشُدُّ حَقْلًا أَوْ أَسْلَمًا﴾: ذات الجرم العظيم والخلق القوي والارتفاع الباهر، ﴿بَنَيْنَا﴾: ﴿رَفَعْنَا سَنَكُمَا﴾؛ أي: جرمها وصورتها. ﴿فَتَوْنَهَا﴾: بإحكام وإتقان يحير العقول ويذهل الألباب، ﴿وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا﴾؛ أي: أظلمه، فعمت الظلمة جميع أرجاء السماء، فاطلم وجه الأرض، ﴿وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا﴾: أي: أظهر فيه النور العظيم حين أتى بالشمس، فانتشر الناس في مصالح دينهم ودنياهم، ﴿وَالْأَرْضُ بَعْدَ ذَلِكَ﴾؛ أي: بعد خلق السماء ﴿دَحَاهَا﴾: ﴿أُدْعَى فِيهَا مَنَافِعُهَا﴾، وفسر ذلك بقوله: ﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا﴾ (٢٤) ﴿وَالْجِبَالُ أَرْسُنَهَا﴾ (٢٥)؛ أي: ثبتها بالأرض، فَدَحَى الأرض بعد خلق السماء؛ كما هو نص هذه الآيات الكريمة، وأما خلق نفس الأرض؛ فمقدم على خلق السماء؛ كما قال تعالى: ﴿قُلْ أَيْنَكُمْ لَكَفَرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ إِندَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ (٢٦) إلى أن قال: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ آئِنَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ (٢٧) فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ ﴿[فصلت: ٩-١١]: فالذي خلق السماوات العظام وما فيها من الأنوار والأجرام والأرض الغبراء الكثيفة، وما فيها من ضروريات الخلق ومنافعهم لا بد أن يبعث الخلق المكلفين فيجازيهم بأعمالهم؛ فمن أحسن؛ فله الحسنى، ومن أساء؛ فلا يلو من الإنفسيه.

ولهذا ذكر بعد هذا قيام الساعة ثم الجزاء، فقال:

﴿إِذَا جَاءَتِ الطَّائِفَةُ الْكُبْرَى﴾ - ﴿إِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى﴾.

﴿٣١﴾ - ﴿٣٢﴾ أي: إذا جاءت القيامة الكبرى والشدة العظمى، التي يهون عندها كل شدة؛ فحينئذ يذهل الوالد عن ولده، والصاحب عن صاحبه، وكل محب عن حبيبه، و﴿يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ مَا سَعَى﴾: في الدنيا من خير وشر، فيتمنى زيادة مثقال ذرة في حسناته، ويغمه ويحزن لزيادة مثقال ذرة في سيئاته، ويعلم إذ ذاك أن مادة ربحه وخسرانه ما سعه في الدنيا، وينقطع كل سبب ووصلة كانت في الدنيا سوى الأعمال، و﴿وَبُرَزَتِ الْجَحِيمُ لِمَنْ بَرَى﴾: أي: جعلت في البراز ظاهرة لكل أحد؛ قد هيئت لأهلها، واستعدت لأخذهم منتظرة أمر ربه.

﴿٣٧﴾ - ﴿٣٨﴾ ﴿فَأَمَّا مَنْ طَغَى﴾: أي: جاوز الحد بأن تجرأ على المعاصي الكبار ولم يقتصر على ما حده الله، و﴿وَأَنزَلَ الْغَيَّةَ الدُّنْيَا﴾: على الآخرة، فصار سعيه لها ووقته مستغرقاً في حظوظها وشهواتها، ونسي الآخرة والعمل لها؛ ﴿فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى﴾: له؛ أي: المقر والمسكن لمن هذه حاله.

﴿٤١﴾، ﴿٤٢﴾ ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ﴾: أي: خاف القيام عليه ومجازاته بالعدل؛ فأثر هذا الخوف في قلبه، فنهى ﴿النَّفْسَ عَنِ﴾: هواها الذي يصدها عن طاعة الله، وصار هواه تبعاً لما جاء به الرسول، وجاهد الهوى والشهوة الصادين عن الخير؛ ﴿إِنَّ الْجَنَّةَ﴾: المشتملة على كل خير وسرور ونعيم، ﴿هِيَ الْمَأْوَى﴾: لمن هذا وصفه.

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا﴾ - ﴿إِلَى آخِرِ السُّورَةِ﴾.

﴿٤٣﴾ - ﴿٤٤﴾ أي: يسألك المتعنتون المكذبون بالبعث عَنِ السَّاعَةِ: متى وقوعها؟ و﴿أَيَّانَ مُرْسَاهَا﴾؟ فأجابهم الله بقوله: ﴿فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرِهَا﴾: أي: ما الفائدة لك ولهم في ذكرها ومعرفة وقت مجيئها؛ فليس تحت ذلك نتيجة، ولهذا لما كان علم العباد للساعة ليس لهم فيه مصلحة دينية ولا دنيوية، بل المصلحة في إخفائه عليهم، طوى علم ذلك عن جميع الخلق واستأثر بعلمه فقال: ﴿إِلَّا رَبَّكَ تُنَبِّئُهَا﴾: أي: إليه ينتهي علمها؛ كما قال في الآية الأخرى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجِيبُهَا لَوْفٌ إِلَّا هُوَ﴾ [الأعراف: ١٨٧].

﴿٤٥﴾، ﴿٤٦﴾ ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ مَنِ يَخَشَهَا﴾ - ﴿أَي: إِنَّمَا نَذَرْتُكَ نفعها لمن يخشى مجيء الساعة ويخاف الوقوف بين يدي الله؛ فهم الذين لا يهمهم إلا الاستعداد لها والعمل لأجلها، وأما من لم يؤمن بها؛ فلا يبالي به ولا بتبعته؛ لأنه تعنت مبني على التكذيب والعناد، وإذا وصل إلى هذه الحال؛ كان الإجابة عنه عبثاً، ينزه أحكم الحاكمين عنه.

تمت. والحمد لله رب العالمين.



تفسير سورة عبس

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى﴾ - ﴿أَن جَاءَهُ الْأَعْمَى﴾ - ﴿إِلَى قَوْلِهِ: ﴿فَأَن تَعَنَّيَ﴾﴾.

سبب نزول هذه الآيات الكريمات أنه جاء رجل من المؤمنين أعمى يسأل النبي ﷺ ويتعلم منه، وجاءه رجل من الأغنياء، وكان حريصاً على هداية الخلق، فمال ﷺ وأصغى إلى الغني وصد عن الأعمى الفقير؛ رجاء لهداية ذلك الغني وطمعاً في تركيته، فعاتبه الله بهذا العتاب اللطيف فقال:

﴿١﴾ - ﴿١٠﴾ ﴿عَبَسَ﴾: أي: في وجهه، ﴿وَتَوَلَّى﴾: في بدنه لأجل مجيء الأعمى له. ثم ذكر الفائدة في الإقبال عليه، فقال: ﴿وَمَا يَذْكُرُ لَعَلَّهُ﴾: أي: الأعمى، ﴿يَرْكَبُ﴾: أي: يتطهر عن الأخلاق الرذيلة ويتصف بالأخلاق الجميلة، ﴿أَوْ يَذْكُرُ فَنَنْفَعَهُ الذِّكْرَى﴾: أي: يتذكر ما ينفعه فيعمل بتلك الذكرى، وهذه فائدة كبيرة، هي المقصودة من بعثه الرسل ووعظ الوعاظ وتذكير المذكرين؛ فإقبالك على من جاء بنفسه مفتقراً لذلك مقبلاً هو الأليق الواجب، وأما تصديقك وتعرضك للغني المستغني الذي لا يسأل ولا يستفتي لعدم رغبته في الخير مع ترك من أهم منه؛ فإنه لا ينبغي لك؛ فإنه ليس عليك ألا يركب؛ فلو لم يترك؛ فلست بمحاسب على ما عمله من الشر، فدل هذا على القاعدة المشهورة: أنه لا يترك أمر معلوم لأمر موهوم، ولا مصلحة متحقة لمصلحة متوهمة، وأنه ينبغي الإقبال على طالب العلم المفتقر إليه الحريص عليه أزيد من غيره.

سورة عبس

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

عَبَسَ وَنَوَى ۖ أَنْ جَاءَهُ الْأَمَنَى ۚ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهَ بُرْءَانٌ ۚ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَانِ ۚ أَمَّا مَنْ اسْتَفْتَى ۚ فَأَنْتَ لَهُ قَصْدَى ۚ وَمَا عَلَيْكَ الْإِبْرَءَى ۚ وَأَمَّا مَنْ جَاءَهُ يَسْعَى ۚ وَهُوَ يَخْشَى ۚ فَأَنْتَ عَنْهُ لَهْفَى ۚ كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ۚ فَمَنْ شَاءَ ذَكَرْهُ ۚ فِي صُحُفٍ مُكَرَّمَةٍ ۚ مُرْفُوعَةٍ مُطَهَّرَةٍ ۚ بِأَيْدِي سَفَرَةٍ ۚ كِرَامٍ بَرَرَةٍ ۚ قِيلَ لِلْإِنْسَانِ مَا أَكْفَرُهُ ۚ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ۚ مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَرَهُ ۚ ثُمَّ أَلْسَيْلَ يَسَّرَهُ ۚ ثُمَّ أَمَانَهُ فَأَقْبَرَهُ ۚ ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْشَرَهُ ۚ كَلَّا لَمَّا يَقِضْ مَا أَمَرَهُ ۚ فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ ۚ أَنَا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا ۚ ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا ۚ فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ۚ وَعَبَأَ وَفَصًّا ۚ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ۚ وَحَدَائِقَ غُلْبًا ۚ وَفَكْهَةً وَأَبَّا ۚ مَتَّعًا لَكَرًّا ۚ وَلَا تَنْمِيكَرُ ۚ فَإِذَا جَاءَتِ الصَّلَاحَةُ ۚ يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ۚ وَأُمِّيهِ وَأَبِيهِ ۚ وَصَحْبِهِ وَبَيْنِهِ ۚ لِكُلِّ أَمْرٍ يُنْمِزُ شَأْنٌ ۚ يُغْنِيهِ ۚ وَجُوهٌ يُؤْجِزُ ۚ مُسْفِرَةٌ ۚ ضَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ ۚ وَوُجُوهٌ يُؤْجِزُ ۚ عَلَيْهَا غَمَرَةٌ ۚ تَرْهَقُهَا قَفَرَةٌ ۚ أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُ الْعَجَبُ ۚ

٥٨٥

﴿ ١١ ﴾ - ﴿ ١٢ ﴾ كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ﴿ ١٣ ﴾ ﴿ ١٤ ﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿ ١٥ ﴾ مَتَّعًا لَكَرًّا وَلَا تَنْمِيكَرُ ﴿ ١٦ ﴾

﴿ ١٧ ﴾ - ﴿ ١٨ ﴾ يقول تعالى: ﴿ ١٩ ﴾ كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ﴿ ٢٠ ﴾ ﴿ ٢١ ﴾ أَي: حَقًّا إِنَّ هذه الموعظة تذكرك من الله يذكر بها عباده ويبين لهم في كتابه ما يحتاجون إليه ويبين الرشد من الغي؛ فإذا تبين ذلك؛ ﴿ ٢٢ ﴾ فَمَنْ شَاءَ ذَكَرْهُ ﴿ ٢٣ ﴾؛ أَي: عمل به؛ كقوله تعالى: ﴿ ٢٤ ﴾ وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفِرْ ﴿ ٢٥ ﴾ [الكهف: ٢٩]. ثم ذكر محل هذه التذكرة وعظمها ورفع قدرها، فقال: ﴿ ٢٦ ﴾ فِي صُحُفٍ مُكَرَّمَةٍ ﴿ ٢٧ ﴾ مُرْفُوعَةٍ: القدر والرتبة، ﴿ ٢٨ ﴾ مُطَهَّرَةٍ: ﴿ ٢٩ ﴾ من الآفات وعن أن تنالها أيدي الشياطين أو يسترقوها، بل هي ﴿ ٣٠ ﴾ بِأَيْدِي سَفَرَةٍ: وهم الملائكة الذين هم سفراء بين الله وبين عباده، ﴿ ٣١ ﴾ كِرَامٍ: أَي: كثيري الخير والبركة، ﴿ ٣٢ ﴾ بَرَرَةٍ: ﴿ ٣٣ ﴾ قلوبهم وأعمالهم. وذلك كله حفظ من الله لكتابه؛ أن جعل السفراء فيه إلى الرسل الملائكة الكرام الأقوياء الأتقياء، ولم يجعل للشياطين عليه سبيلاً، وهذا مما يوجب الإيمان به وتلقيه بالقبول.

﴿ ٣٤ ﴾ - ﴿ ٣٥ ﴾ ولكن مع هذا أبى الإنسان إلا كفوراً؛ ولهذا قال تعالى: ﴿ ٣٦ ﴾ قِيلَ لِلْإِنْسَانِ مَا أَكْفَرُهُ ﴿ ٣٧ ﴾: لنعمة الله، وما أشد معاندته للحق بعدما تبين، وهو ما هو؟ هو من أضعف الأشياء، خلقه الله من ماء مهين، ثم قدر خلقه وسواه بشراً سوياً، وأتقن قواه الظاهرة والباطنة، ﴿ ٣٨ ﴾ ثُمَّ أَلْسَيْلَ يَسَّرَهُ ﴿ ٣٩ ﴾؛ أَي: يسر له الأسباب الدينية والدنيوية، وهذه السبل، وبينه، وامتنحه بالأمر والنهي، ﴿ ٤٠ ﴾ ثُمَّ أَمَانَهُ فَأَقْبَرَهُ ﴿ ٤١ ﴾؛ أَي: أكرمه بالدفن، ولم يجعله كسائر الحيوانات التي تكون جيفها على وجه الأرض، ﴿ ٤٢ ﴾ ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْشَرَهُ ﴿ ٤٣ ﴾؛ أَي: بعثه بعد موته للجزاء؛ فالله هو المنفرد بتدبير الإنسان وتصريفه بهذه التصاريف، لم يشاركه فيه مشارك، وهو مع هذا لا يقوم بما أمره الله، ولم يقض ما فرضه عليه، بل لا يزال مقصراً تحت الطلب!

﴿ ٤٤ ﴾ - ﴿ ٤٥ ﴾ ثم أرشده الله إلى النظر والتفكير في طعامه، وكيف وصل إليه بعدما تكررت عليه طبقات عديدة ويسره [الله] له؛ فقال: ﴿ ٤٦ ﴾ فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ ﴿ ٤٧ ﴾ أَنَا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا ﴿ ٤٨ ﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا ﴿ ٤٩ ﴾ فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿ ٥٠ ﴾: أصنافاً مصنفة من أنواع الأطعمة اللذيذة والأقوات الشهية، ﴿ ٥١ ﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿ ٥٢ ﴾: وخص هذه الأربعة لكثرة فوائدها ومنافعها، ﴿ ٥٣ ﴾ وَحَدَائِقَ غُلْبًا ﴿ ٥٤ ﴾؛ أَي: بساتين فيها الأشجار الكثيرة الملتفة، ﴿ ٥٥ ﴾ وَفَكْهَةً وَأَبَّا ﴿ ٥٦ ﴾: الفاكهة ما يتفكه فيه الإنسان من تين وعنب وخوخ ورمان وغير ذلك. والآن ما تأكله البهائم والأنعام، ولهذا قال: ﴿ ٥٧ ﴾ مَتَّعًا لَكَرًّا وَلَا تَنْمِيكَرُ ﴿ ٥٨ ﴾: التي خلقها الله وسخرها لكم. فمن نظر في هذه النعم؛ أوجب له ذلك شكره وبذل الجهد في الإنابة إليه والإقبال على طاعته والتصديق لأخباره.

﴿ ٥٩ ﴾ فَإِذَا جَاءَتِ الصَّلَاحَةُ ﴿ ٦٠ ﴾ إِلَى آخِرِ السُّورَةِ.

﴿ ٦١ ﴾ - ﴿ ٦٢ ﴾ أَي: إذا جاءت صبيحة القيامة التي تصخ لهولها الأسماع وتزعج لها الأفئدة يومئذ؛ مما يرى الناس من الأحوال وشدة الحاجة لسالف الأعمال؛ يفر المرء من أعز الناس إليه وأشفقهم عليه؛ من أخيه وأمه وأبيه وصاحبته؛ أَي: زوجته وبنيه، وذلك لأنه ﴿ ٦٣ ﴾ لِكُلِّ أَمْرٍ يُنْمِزُ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿ ٦٤ ﴾؛ أَي: قد أشغلت نفسه، واهتم لفكائها، ولم يكن له التفات إلى غيرها. فحينئذ

ينقسم الخلق إلى فريقين: سعداء وأشقياء: فأما السعداء؛ فوجههم ﴿يُؤْمِنُ مُسْفِرٌ﴾ (٣٨)؛ أي: قد ظهر فيها السرور والبهجة مما عرفوا من نجاتهم وفوزهم بالنعيم، ﴿صَاحِكٌ مُسْتَبْشِرٌ﴾ (٣٩) ووجوه: ﴿الْأَشْقِيَاءَ﴾ ﴿يُؤْمِنُ عَلَيْهَا غَبْرٌ﴾ (٤٠) رَهَقَهَا؛ أي: تغشاها ﴿فَرَّةٌ﴾ (٤١)؛ فهي سوداء مظلمة مدلهمة، قد أيست من كل خير، وعرفت شقاءها وهلاكها. ﴿أُولَئِكَ﴾ الذين بهذا الوصف، ﴿هُمْ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ﴾ (٤٢)؛ أي: الذين كفروا بنعمة الله، وكذبوا بآياته، وتجروا على محارمه. نسأل الله العفو والعافية؛ إنه جواد كريم.

والحمد لله رب العالمين.

﴿٥٥﴾﴿٥٦﴾﴿٥٧﴾

تفسير سورة التكويد

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ (١) ﴿وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ﴾ (٢) ﴿إِلَى قَوْلِهِ﴾ ﴿عَلِمْتَ نَفْسٌ مَّا أَحْضَرْتَ﴾ (٣) ﴿.

﴿١﴾ - ﴿١٤﴾ أي: إذا حصلت هذه الأمور الهائلة؛ تميز الخلق، وعلم كل ما قدمه لآخرته وما أحضره فيها من خير وشر، وذلك أنه إذا كان يوم القيامة؛ تكور الشمس؛ أي: تجمع وتلف ويخسف القمر ويلقيان في النار، ﴿وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ﴾ (٢)؛ أي: تغيرت وتناثرت من أفلاكها، ﴿وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ﴾ (٢)؛ أي: صارت كشيء مهيلًا، ثم صارت كالعن المنفوش، ثم تغيرت وصارت هباء منبثًا وأزيلت عن أماكنها، ﴿وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ﴾ (٣)؛ أي: عطل الناس يومئذ نفائس أموالهم التي كانوا يهتمون لها، ويراعونها في جميع الأوقات، فجاءهم ما يذهلهم عنها، فنبه بالعشار - وهي النوق التي تتبعها أولادها، وهي أنفس أموال العرب إذ ذاك عندهم - على ما هو في معناها من كل نفيس.

﴿وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ﴾ (٤)؛ أي: جمعت ليوم القيامة؛ ليقصص الله من بعضها لبعض، ويرى العباد كمال عدله، حتى إنه يقتصص للشاة الجماء من الشاة القرناء ثم يقال لها: كوني ترابًا (٥)، ﴿وَإِذَا الْيَحَارُ سُجِّرَتْ﴾ (٦)؛ أي: أوقدت فصارت على عظمها نارا تنوقد، ﴿وَإِذَا الْأنفُوسُ زُوِّجَتْ﴾ (٧)؛ أي: قرن كل صاحب عمل مع نظيره، فجمع الأبرار مع الأبرار والفجار مع الفجار، وزوج المؤمنون بالهور العين والكافرون بالشياطين، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُمَرًا﴾، ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا﴾ [الزمر: ٧٢، ٧٣]، ﴿أَحْشَرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ﴾ [الصافات: ٢٢].

﴿وَإِذَا أَلْمُوءَدَّةٌ سِيلَتْ﴾ (٨)؛ وهي التي كانت الجاهلية الجهلاء تفعله من دفن البنات وهن أحياء من غير سبب إلا خشية الفقر، فتسأل: ﴿بِأَيِّ ذَنْبٍ قِيلَتْ﴾ (٩)، ومن المعلوم أنها ليس لها ذنب، ولكن هذا فيه توبيخ وتقريع لقاتليها، ﴿وَإِذَا الصُّحُفُ تُنشَرُ﴾ (١٠)؛ المشتعلة على ما عمله العاملون من خير وشر، ﴿تُنشَرُ﴾ (١١)؛ وفرت على أهلها؛ فأخذ كتابه بيمينه وأخذ كتابه بشماله أو من وراء ظهره.

﴿١٩﴾ وهذه آيات عظام أقسم الله بها على علو سند القرآن وجلالته وحفظه من كل شيطان رجيم، فقال: ﴿إِنَّهٗ لَقَوْلُ رَسُوْلٍ كَرِيْمٍ﴾ ﴿٢٠﴾: وهو جبريل عليه السلام، نزل به من الله تعالى؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّهٗ لَنَزِيْلٌ رَبِّ الْعَالَمِيْنَ﴾ ﴿٢١﴾ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِيْنُ ﴿٢٢﴾ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُوْنَ مِنَ الْمُنْذِرِيْنَ ﴿٢٣﴾ [الشعراء: ١٩٢-١٩٤]. ووصفه الله بالكريم لكرم أخلاقه وكثرة خصاله الحميدة؛ فإنه أفضل الملائكة وأعظمهم رتبة عند ربه.

﴿٢٤﴾ ذِي قُوَّةٍ: على ما أمره الله به، ومن قوته أنه قلب ديار قوم لوط بهم فأهلكهم، ﴿عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ﴾: أي: جبريل مقرب عند الله، له منزلة رفيعة وخصيصة من الله اختصه بها، ﴿مَكِيْنٍ﴾: أي: له مكانة ومنزلة فوق منازل الملائكة كلهم.

﴿٢٥﴾ مُطَاعٌ ثُمَّ: أي: جبريل مطاع في الملأ الأعلى؛ لديه من الملائكة المقربين، نافذ فيهم أمره، مطاع رأيه، ﴿أَمِيْنٍ﴾: أي: ذوامانة وقيام بما أمره، لا يزد ولا ينقص ولا يتعدى ما حد له، وهذا كله يدل على شرف القرآن عند الله تعالى؛ فإنه بعث به هذا الملك الكريم الموصوف بتلك الصفات الكاملة، والعادة أن الملوك لا ترسل الكريم عليها إلا في أهم المهمات وأشرف الرسائل.

﴿٢٦﴾ ولما ذكر فضل الرسول الملكي الذي جاء بالقرآن؛ ذكر فضل الرسول البشري الذي نزل عليه القرآن، ودعا إليه الناس، فقال: ﴿وَمَا صَاحِبُكُمْ﴾: وهو محمد ﷺ ﴿يَسْمَعُوْنَ﴾: ﴿٢٧﴾ كما يقوله أعداؤه المكذبون برسالته، المتقولون عليه من الأقوال التي يريدون أن يطفئوا بها ما جاء به، بل هو أكمل الناس عقلاً، وأجزلهم رأياً، وأصدقهم لهجة.

﴿٢٨﴾ وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأَفْقِ الْمُبِيْنِ ﴿٢٩﴾: أي: رأى محمد ﷺ جبريل عليه السلام بالأفق البين الذي هو أعلى ما يلوح للبصر.

﴿٣٠﴾ وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِيْنٍ ﴿٣١﴾: أي: وما هو على ما أوحاه الله إليه بمتهم يزيد أو ينقص أو يكتم بعضه، بل هو ﷺ أمين أهل السماء وأهل الأرض، الذي بلغ رسالات ربه البلاغ المبين، فلم يشح بشيء منه عن غني ولا فقير ولا رئيس ولا مرعوس ولا ذكر ولا أنثى ولا حضري ولا بدوي، ولذلك بعثه الله في أمة أمية جاهلة جهلاء، فلم يمت ﷺ حتى كانوا علماء ربانيين وأخباراً متفرسين،

﴿وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ﴾ ﴿٣٢﴾: أي: أزيلت؛ كما قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَشْقَى السَّمَاءُ بِأُغْمِمْ﴾ [الفرقان: ٢٥]، ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ﴾ [الأنبياء: ١٠٤]، ﴿وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ﴾ [الزمر: ٦٧]، ﴿وَإِذَا الْجَبَبِمْ شُعِرَتْ﴾ ﴿٣٣﴾: أي: أوقد عليها فاستعرت والنهبت النهاباً لم يكن لها قبل ذلك، ﴿وَإِذَا الْجَنَّةُ أُنْفِلَتْ﴾ ﴿٣٤﴾: أي: قربت للمؤمنين، ﴿عِلْمَتْ نَفْسٌ﴾: أي: كل نفس لإتيانها في سياق الشرط، ﴿مَا أَحْضَرَتْ﴾ ﴿٣٥﴾: أي: ما حضر لديها من الأعمال التي قدمتها؛ كما قال تعالى: ﴿وَجَآءُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا﴾ [الكهف: ٤٩].

وهذه الأوصاف التي وصف الله بها يوم القيامة من الأوصاف التي تنزعج لها القلوب، وتشتد من أجلها الكروب، وترتعد الفرائص، وتعم المخاوف، وتحت أولي الأبواب للاستعداد لذلك اليوم، وترجرهم عن كل ما يوجب اللوم، ولهذا قال بعض السلف: من أراد أن ينظر ليوم القيامة كأنه رأي عين؛ فليتدبر سورة ﴿إِذَا النَّفْسُ كُرِّرَتْ﴾ ﴿٣٦﴾.

﴿فَلَا أَقِيْمُ بِالْخَيْسِ﴾ ﴿٣٧﴾ الْجَوَارِ الْكُنَيسِ ﴿٣٨﴾ وَالْأَيْلِ إِذَا عَسَسَ ﴿٣٩﴾ وَالصُّبْحِ إِذَا نَفَسَ ﴿٤٠﴾ إِنَّهٗ لَقَوْلُ رَسُوْلٍ كَرِيْمٍ ﴿٤١﴾ ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِيْنٍ ﴿٤٢﴾ مُطَاعٌ ثُمَّ أَمِيْنٍ ﴿٤٣﴾ وَمَا صَاحِبُكُمْ يَسْمَعُوْنَ ﴿٤٤﴾ وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأَفْقِ الْمُبِيْنِ ﴿٤٥﴾ وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِيْنٍ ﴿٤٦﴾ وَمَا هُوَ يَقُوْلُ شَيْطَانٍ رَّجِيْمٍ ﴿٤٧﴾ فَأَنَّى تَذَهَبُوْنَ ﴿٤٨﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِيْنَ ﴿٤٩﴾ لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيْمَ ﴿٥٠﴾ وَمَا تَشَاءُوْنَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِيْنَ ﴿٥١﴾.

﴿٥٢﴾ أقسم تعالى ﴿بِالْخَيْسِ﴾ ﴿٥٣﴾: وهي الكواكب التي تخنس؛ أي: تتأخر عن سير الكواكب المعتاد إلى جهة المشرق، وهي النجوم السبعة السيارة؛ الشمس والقمر والزهرة والمشتري والمريخ وزحل وعطارد؛ فهذه السبعة لها سيران: سير إلى جهة المغرب مع سائر الكواكب والأفلاك. وسير معاكس لهذا من جهة المشرق تختص به هذه السبعة دون غيرها، فأقسم الله بها في حال خنوسها؛ أي: تأخرها، وفي حال جريانها، وفي حال كنوسها؛ أي: استتارها بالنهار. ويحتمل أن المراد بها جميع الكواكب السيارة وغيرها.

﴿٥٤﴾ وَالْأَيْلِ إِذَا عَسَسَ ﴿٥٥﴾: أي: أقبل، وقيل أدبر، والنهار ﴿إِذَا نَفَسَ﴾ ﴿٥٦﴾: أي: بدت علامت الصبح، وانشق النور شيئاً فشيئاً حتى يستكمل وتطلع الشمس.

إليهم الغاية في العلوم، وإليهم المنتهى في استخراج الدقائق والمفهوم، وهم الأساتذة، وغيرهم قصاراه أن يكون من تلاميذهم.

﴿٢٥﴾ وَمَا هُوَ يَقُولُ سَيُطَنِّجِيهِ ﴿٢٥﴾: لما ذكر جلالة كتابه وفضله بذكر الرسولين الكريمين اللذين وصل إلى الناس على أيديهما، وأثنى الله عليهما بما أثنى؛ دفع عنه كل آفة ونقص مما يقدح في صدقه، فقال: ﴿٢٥﴾ وَمَا هُوَ يَقُولُ سَيُطَنِّجِيهِ ﴿٢٥﴾؛ أي: في غاية البعد عن الله وعن قربه.

﴿٢٦﴾ فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ﴿٢٦﴾؛ أي: كيف يخطر هذا ببالكم؟! وأين عزبت عنكم أذهانكم حتى جعلتم الحق الذي هو في أعلى درجات الصدق بمنزلة الكذب الذي هو أنزل ما يكون وأرذل وأسفل الباطل؟! هل هذا إلا من انقلاب الحقائق؟!

﴿٢٧﴾ إِنَّ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴿٢٧﴾: يتذكرون به ربهم وما له من صفات الكمال وما ينزه عنه من النقص والردائل والأمثال، ويتذكرون به الأوامر والنواهي وحكمها؛ ويتذكرون به الأحكام القدريّة والشرعية والجزائية، وبالجملة يتذكرون به مصالح الدارين، وينالون بالعمل به السعادتين.

﴿٢٨﴾ لِمَن شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾: بعدما تبين الرشد من الغي والهدى من الضلال.

﴿٢٩﴾ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٩﴾؛ أي: فمشيئته نافذة لا يمكن أن تعارض أو تمنع. وفي هذه الآية وأمثالها رد على فرقتي القدريّة النفاة والقدريّة المجبرة؛ كما تقدم مثالها. والله أعلم والحمد لله.

﴿٢٩﴾

تفسير سورة الانفطار

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿١﴾ إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ ﴿١﴾ وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَرَتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِرَتْ ﴿٣﴾ وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ﴿٤﴾ عَلِمْتَ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ﴿٥﴾.

﴿١﴾ - أي: إذا انشقت السماء، وانفطرت، وتناثرت نجومها، وزال جمالها، وفجرت البحار، فصارت بحراً واحداً، وبعثت القبور بأن أخرج ما فيها من الأموات وحشروا للموقف بين يدي الله للجزاء على الأعمال؛ فحينئذ ينكشف الغطاء، ويزول ما كان خفياً، وتعلم كل نفس ما معها من الأرباح والخسائر. هنالك بعض الظالم على يديه إذا رأى أعماله باطلة، وميزانه قد خف، والمظالم قد تداعت إليه، والسيئات قد حضرت لديه، وأيقن بالشقاء الأبدي والعذاب السرمدى، وهنالك يفوز المتقون المقدمون لصالح الأعمال بالفوز العظيم والنعيم المقيم والسلامة من عذاب الجحيم.

سورة الانفطار

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿١﴾ إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ ﴿١﴾ وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَرَتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِرَتْ ﴿٣﴾ وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ﴿٤﴾ عَلِمْتَ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ﴿٥﴾ يَتَأْتِيهَا الْإِنْسُنُ مَا غَرَّكَ بِكَ الْكَرِيمِ ﴿٦﴾ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّدَكَ فَعَدَّكَ ﴿٧﴾ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ ﴿٨﴾ كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالذِّينِ ﴿٩﴾ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَنِينِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴿١٢﴾ إِنْ الْأَبْرَارُ لَفِي نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ ﴿١٤﴾ يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ الذِّينِ ﴿١٥﴾ وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ ﴿١٦﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمَ الذِّينِ ﴿١٧﴾ ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمَ الذِّينِ ﴿١٨﴾ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ سِتًّا وَلَا أَمْرٌ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ ﴿١٩﴾

سورة المطففين

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿١﴾ وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ ﴿١﴾ الَّذِينَ إِذَا أَكَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ﴿٢﴾ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴿٣﴾ أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ ﴿٤﴾ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥﴾ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦﴾

٥٨٧

فهو الذي يفصل بين العباد، ويأخذ للمظلوم حقه من ظالمه. والله أعلم.



تفسير سورة المطففين

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾ ١ الَّذِينَ إِذَا أَكَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ﴿٢﴾ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴿٣﴾ أَلَا يَظُنُّ أُولَٰئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ ﴿٤﴾ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥﴾ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦﴾

١ - ﴿وَيْلٌ﴾: كلمة عذاب ووعيد، ﴿لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾ ١: وفسر الله المطففين بأنهم ﴿الَّذِينَ إِذَا أَكَالُوا عَلَى النَّاسِ﴾ أي: أخذوا منهم وفاء لهم عما قبلهم، يستوفونه كاملاً من غير نقص، ﴿وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ﴾ أي: إذا أعطوا الناس حقهم الذي لهم عليهم بكيل أو وزن، ﴿يُخْسِرُونَ﴾ ٣: أي: ينقصونهم ذلك إما بمكيال وميزان ناقصين، أو بعدم ملء المكيال والميزان، أو نحو ذلك؛ فهذا سرقة لأموال الناس وعدم إنصاف لهم منهم. وإذا كان هذا الوعيد على الذين يخسون الناس بالمكيال والميزان؛ فالذي يأخذ أموالهم قهراً وسرقة أولى بهذا الوعيد من المطففين.

ودلت الآية الكريمة على أن الإنسان كما يأخذ من الناس الذي له يجب عليه أن يعطيهم كل ما لهم من الأموال والمعاملات، بل يدخل في عموم هذا الحجج والمقالات؛ فإنه كما أن المتناظرين قد جرت العادة أن كل واحد منهما يحرص على ما له من الحجج؛ فيجب عليه أيضاً أن يبين ما لخصمه من الحجج التي لا يعلمها، وأن ينظر في أدلة خصمه كما ينظر في أدلته هو، وفي هذا الموضع يعرف إنصاف الإنسان من تعصبه واعتسافه وتواضعه من كبره وعقله من سفهه، نسأل الله التوفيق لكل خير.

ثم توعد تعالى المطففين، وتعجب من حالهم وإقامتهم على ما هم عليه، فقال: ﴿أَلَا يَظُنُّ أُولَٰئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ﴾ ٤ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥﴾ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦﴾ فالذي جرأهم على التطفيف عدم إيمانهم باليوم الآخر؛ وإلا؛ فلو آمنوا به

﴿يَأْتِيهَا الْإِنْسَنُ مَا غَرَّكَ رَبِّكَ الْكَرِيمِ﴾ ١ إلى قوله: ﴿تَفْعَلُونَ﴾ ١٢.

٦ - ﴿٨﴾ يقول تعالى معاتباً للإنسان المقصر في حقه المتجرى على معاصيه: ﴿يَأْتِيهَا الْإِنْسَنُ مَا غَرَّكَ رَبِّكَ الْكَرِيمِ﴾ ١: أنها واثناً منك في حقوقه؟ أم احتقاراً منك لعذابه؟ أم عدم إيمان منك بجزائه؟ أليس هو ﴿الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوِّكَ﴾: في أحسن تقويم، ﴿فَعَدَّكَ﴾ ٧: وركبك تركيباً قوياً معتدلاً في أحسن الأشكال وأجمل الهيئات؟ فهل يليق بك أن تكفر نعمة المنعم أو تجحد إحسان المحسن؟ إن هذا إلا من جهلك وظلمك وعنادك وغشمك؛ فاحمد الله إذ لم يجعل صورتك صورة كلب أو حمار أو نحوهما من الحيوانات، ولهذا قال تعالى: ﴿فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ﴾ ٨.

٩ - ﴿١٢﴾ وقوله: ﴿كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالَّذِينَ﴾ ٩؛ أي: مع هذا الوعد والتذكير لا تزالون مستمرين على التكذيب بالجزاء، وأنتم لا بدان تحاسبوا على ما عملتم، وقد أقام الله عليكم ملائكة كراماً، يكتبون أقوالكم وأفعالكم ويعلمونها، فدخل في هذا أفعال القلوب وأفعال الجوارح؛ فاللائق بكم أن تكموهم وتجلوهم.

﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ﴾ ١٢ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ ﴿١٣﴾ إلى آخر السورة.

١٣ - ﴿١٩﴾ المراد بالأبرار هم: القائمون بحقوق الله وحقوق عباده، الملازمون للبر في أعمال القلوب وأعمال الجوارح؛ فهؤلاء جزاؤهم النعيم في القلب والروح والبدن في دار الدنيا وفي دار البرزخ وفي دار القرار، ﴿وَإِنَّ الْفُجَّارَ﴾: الذين قصروا في حقوق الله وحقوق عباده، الذين فُجِّرَتْ قلوبهم ففجرت أعمالهم، ﴿لَفِي جَحِيمٍ﴾ ١٣؛ أي: عذاب أليم في دار الدنيا ودار البرزخ وفي دار القرار، ﴿يَصَلُّونَهَا﴾: ويعذبون بها أشد العذاب ﴿يَوْمَ الَّذِينَ﴾ ١٥؛ أي: يوم الجزاء على الأعمال، ﴿وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ﴾ ١٦؛ أي: بل هم ملازمون لها لا يخرجون منها، ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمَ الَّذِينَ﴾ ١٧ ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمَ الَّذِينَ ﴿١٨﴾: في هذا تهويل لذلك اليوم الشديد، الذي يحير الأذهان، ﴿يَوْمَ لَا تَمَلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ سَعِيًّا﴾: ولو كانت قريبة أو حبيبة مصافية؛ فكل مشغول بنفسه لا يطلب الفكاك لغيرها. ﴿وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ﴾ ١٩.

وعرفوا أنهم سيقومون بين يدي الله فيحاسبهم على القليل والكثير؛ لأقلعوا عن ذلك وتابوا منه.

﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَارِ لَفِي سِجِّينٍ﴾ إلى قوله: ﴿ثُمَّ يُقَالُ هَذَا الَّذِي كُنتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾.

﴿٧﴾ - ﴿٩﴾ يقول تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَارِ﴾: وهذا شامل لكل فاجر من أنواع الكفرة والمنافقين والفاسقين، ﴿لَفِي سِجِّينٍ﴾. ثم فسر ذلك بقوله: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ﴾. ﴿كِتَابَ مَرْقُومٍ﴾؛ أي: كتاب مذكور فيه أعمالهم الخبيثة. والسجّين: المحل الضيق الضنك، وسجّين ضد عليين، الذي هو محل كتاب الأبرار كما سيأتي. وقد قيل: إن سجّين هو أسفل الأرض السابعة مأوى الفجار ومستقرهم في معادهم.

﴿١٠﴾ - ﴿١٣﴾ ﴿وَلَهُ يَوْمَيزِلُ السَّكْبِينَ﴾. ثم بينهم بقوله: ﴿الَّذِينَ يَكْذِبُونَ يَوْمَ الَّذِينَ﴾؛ أي: يوم الجزاء، يوم يدين الله الناس فيه بأعمالهم. ﴿وَمَا يَكْذِبُ بِهِ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ﴾: على محارم الله متعد من الحلال إلى الحرام. ﴿أَتَيْمٍ﴾؛ أي: كثير الإثم؛ فهذا يحمله عدوانه على التكذيب، ويوجب له كبره رد الحق، ولهذا ﴿إِذَا نُفِثَ عَلَيْهِ﴾ آيات الله الدالة على الحق وعلى صدق ما جاءت به الرسل؛ كذبها وعاندها وقال: هذه ﴿أَسْطِيزُ الْأَوَّلِينَ﴾؛ أي: من ترهات المتقدمين وأخبار الأمم الغابرين، ليس من عند الله؛ تكبراً وعناداً.

﴿١٤﴾ - ﴿١٧﴾ ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ﴾. ﴿كِتَابَ مَرْقُومٍ﴾. ﴿وَلَهُ يَوْمَيزِلُ السَّكْبِينَ﴾. ﴿الَّذِينَ يَكْذِبُونَ يَوْمَ الَّذِينَ﴾. ﴿وَمَا يَكْذِبُ بِهِ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ﴾. ﴿أَتَيْمٍ﴾. ﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَارِ لَفِي سِجِّينٍ﴾. ﴿ثُمَّ يُقَالُ هَذَا الَّذِي كُنتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾. ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا عَلَيْنَا﴾. ﴿كِتَابَ مَرْقُومٍ﴾. ﴿يَشْهَدُ الْمُفْرُوقُ﴾. ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ﴾. ﴿عَلَى الْأَرَائِكِ يَقْظَرُونَ﴾. ﴿تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ﴾. ﴿يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَخْحُومٍ﴾. ﴿خَتَمَتْهُمْ فِي ذَلِكَ قَلِيبَاتٌ مُمْتَفِسُونَ﴾. ﴿وَمَرَّاجُهُ مِنْ تَسْنِيمٍ﴾. ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ﴾. ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا يَضْحَكُونَ﴾. ﴿وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَرُونَ﴾. ﴿وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ﴾. ﴿وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَؤُلَاءِ لَضَالُّونَ﴾. ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَفِظِينَ﴾. ﴿فَالْيَوْمَ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ﴾.

﴿١٤﴾ - ﴿١٧﴾ وأما من أنصف وكان مقصوده الحق المبين؛ فإنه لا يكذب بيوم الدين؛ لأن الله قد أقام عليه من الأدلة القاطعة والبراهين الساطعة ما يجعله حق اليقين، وصار لبصائرهم بمنزلة الشمس للأبصار؛ بخلاف من ران على قلبه كسبه وغطته معاصيه؛ فإنه محجوب عن الحق، ولهذا جوزي على ذلك بأن حجب عن الله كما حجب قلبه في الدنيا عن آيات الله. ﴿ثُمَّ إِنَّهُمْ﴾: مع هذه العقوبة البليغة، ﴿لَصَالُوا الْجَحِيمِ﴾. ﴿ثُمَّ يُقَالُ﴾: لهم توبيخاً وتقريعاً: ﴿هَذَا الَّذِي كُنتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾. فذكر لهم ثلاثة أنواع من العذاب: عذاب الجحيم، وعذاب التوبيخ واللوم، وعذاب الحجاب عن رب العالمين، المتضمن لسخطه وغضبه عليهم، وهو أعظم عليهم من عذاب النار.

ودل مفهوم الآية على أن المؤمنين يرون ربهم يوم القيامة، وفي الجنة، ويتلذذون بالنظر إليه أعظم من سائر اللذات ويتعجبون بخطابه ويفرحون بقربه؛ كما ذكر الله ذلك في عدة آيات من القرآن، وتواتر فيه النقل عن رسول الله.

وفي هذه الآيات التحذير من الذنوب؛ فإنها ترين على القلب وتغطيه شيئاً فشيئاً، حتى ينطمس نوره وتموت بصيرته، فتقلب عليه الحقائق، فيرى الباطل حقاً والحق باطلاً. وهذا من أعظم عقوبات الذنوب.

﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عَلَيْنَا﴾ إلى قوله: ﴿وَمَرَّاجُهُ مِنْ تَسْنِيمٍ﴾.

﴿١٨﴾ - ﴿٢١﴾ لما ذكر أن كتاب الفجار في أسفل الأمكنة وأضيقتها؛ ذكر أن كتاب الأبرار في أعلاها وأوسعها وأفسحها، وأن كتابهم المرقوم ﴿يَشْهَدُ الْمُفْرُوقُ﴾: من الملائكة الكرام وأرواح الأنبياء والصديقين والشهداء وبنوه الله بذكرهم في الملأ الأعلى. وعليون: اسم لأعلى الجنة.

افتراء على الله، وتجرءوا على القول عليه بلا علم. قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلُوا عَلَيْهِمْ حَفِظِينَ﴾ ٢٣؛ أي: وما أرسلوا وكلاء على المؤمنين، ملزمين بحفظ أعمالهم، حتى يحرسوا على رعيهم بالضلال، وما هذا منهم إلا تعنت وعناد وتلاعب ليس له مستند ولا برهان.

٣٢ - ٣١ ولهذا كان جزاؤهم في الآخرة من جنس عملهم؛ قال تعالى: ﴿فَالْيَوْمَ﴾؛ أي: يوم القيامة، ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَصْحَكُونَ﴾ ٣٢؛ حين يرونهم في غمرات العذاب يتقلبون وقد ذهب عنهم ما كانوا يفترون، والمؤمنون في غاية الراحة والطمأنينة ﴿عَلَى الْأَرْيَافِ﴾؛ وهي السرى المزينة، ﴿يَنْظُرُونَ﴾ ٣٣؛ إلى ما أعد الله لهم من النعيم، وينظرون إلى وجه ربهم الكريم. ﴿هَلْ تُوبَ الْكَافِرُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ ٣٤؛ أي: هل جُوزُوا من جنس عملهم؟ فكما ضحكوا في الدنيا من المؤمنين ورموهم بالضلال؛ ضحك المؤمنون منهم في الآخرة حين رأوهم في العذاب والنكال الذي هو عقوبة الغي والضلال. نعم؛ ثوبوا ما كانوا يفعلون عدلاً من الله وحكمة. والله عليم حكيم.



تفسير سورة الانشقاق

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ﴾ ١ إلى قوله: ﴿يَلْقَ إِذْ رُبُّكَ كَانَ بِهِمْ بَصِيرًا﴾ ١٥.

١، ٢ يقول تعالى مبيناً لما يكون في يوم القيامة من تغير الأجرام العظام: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ﴾ ١؛ أي: انفتحت وتمايز بعضها من بعض، وانتشرت نجومها، وخسف بشمسها وقمرها، ﴿وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا﴾؛ أي: استمعت لأمره وألقت سمعها وأصاحت لخطابه، أي: حق لها ذلك؛ فإنها مسخرة مدبرة تحت مسخر ملك عظيم لا يعصى أمره ولا يخالف حكمه.

٣ - ٤ ﴿وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ﴾ ٣؛ أي: رجفت وارتجت ونسفت عليها جبالها ودك ما عليها من بناء ومعلم فسويت، ومدها الله مد الأديم، حتى صارت واسعة جداً، تسع أهل الموقف على كثرتهم، فتصير قاعاً صفصفاً، لا ترى فيها عوجاً ولا أمناً، ﴿وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا﴾؛ من الأموات والكنوز؛

٢٢ - ٢١ فلما ذكر كتابهم؛ ذكر أنهم في نعيم، وهو اسم جامع لنعيم القلب والروح والبدن. ﴿عَلَى الْأَرْيَافِ﴾؛ أي: على السرى المزينة بالفرش الحسان، ﴿يَنْظُرُونَ﴾ ٢٢؛ إلى ما أعد الله لهم من النعيم، وينظرون إلى وجه ربهم الكريم، ﴿تَعْرِفُ﴾؛ أيها الناظر، ﴿فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةٌ النَّعِيمِ﴾ ٢٣؛ أي: بهاء النعيم ونضارته ورونقه؛ فإن توالي اللذات والمسرات والأفراح يكسب الوجه نوراً وحسناً وبهجة، ﴿يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ﴾؛ وهو من أطيب ما يكون من الأشربة وألدها، ﴿مَخْتَوِمٍ﴾ ٢٤؛ ذلك الشراب ﴿خِتَمُهُ مِسْكٌ﴾؛ يحتمل أن المراد مختوم عن أن يداخله شيء ينقص لذته أو يفسد طعمه، وذلك الختام الذي ختم به مسك، ويحتمل أن المراد أنه الذي يكون في آخر الإناء الذي يشربون منه الرحيق حثالة، وهي المسك الأذفر؛ فهذا الكدر منه الذي جرت العادة في الدنيا أنه يراق يكون في الجنة بهذه المثابة. ﴿وَفِي ذَلِكَ﴾؛ النعيم المقيم الذي لا يعلم حسنه ومقداره إلا الله، ﴿فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَفِّسُونَ﴾ ٢٥؛ أي: فليتنافسوا في المبادرة إليه والأعمال الموصلة إليه؛ فهذا أولى ما بذلت فيه نفائس الأنفاس، وأحرى ما تراحمتم للوصول إليه فحول الرجال. ومزاج هذا الشراب ﴿مِنْ تَنْبِيهِ﴾ ٢٦؛ وهي عين ﴿يَشْرَبُ بِهَا الْمُفْرَبُونَ﴾ ٢٧؛ صرفاً، وهي أعلى أشربة الجنة على الإطلاق؛ فلذلك كانت خالصة للمقربين، الذين هم أعلى الخلق منزلة، وممزوجة لأصحاب اليمين؛ أي: مخلوطة بالرحيق وغيره من الأشربة اللذيذة.

﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا يَصْحَكُونَ﴾ ٢٨ إلى آخر السورة.

٢٩ - ٣٣ لما ذكر تعالى جزاء المعجرمين وجزاء المؤمنين، وذكر ما بينهما من التفاوت العظيم؛ أخبر أن المعجرمين كانوا في الدنيا يسخرون بالمؤمنين ويستهزئون بهم ﴿يَصْحَكُونَ﴾ ٢٩؛ منهم، ﴿يَتَنَافَسُونَ﴾ ٣٠؛ بهم عند مرورهم عليهم احتقاراً لهم وازدراء، ومع هذا تراهم مطمئنين لا يخطر الخوف على بالهم، ﴿وَإِذَا أُنْقِلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ﴾؛ صباحاً أو مساءً، ﴿أُنْقِلَبُوا فِيكَيْهِنَ﴾ ٣١؛ أي: مسرورين مغتبطين، وهذا أشد ما يكون من الاغترار؛ أنهم جمعوا بين غاية الإساءة مع الأمن في الدنيا، حتى كأنهم قد جاءهم كتاب وعهد من الله أنهم من أهل السعادة، وقد حكموا لأنفسهم أنهم أهل الهدى، وأن المؤمنين ضالون؛

وَنَحَلَّتْ ١: منهم؛ فإنه ينفخ في الصور، فتخرج الأموات من الأجداث إلى وجه الأرض، وتخرج الأرض كنوزها، حتى تكون كالإسطوان العظيم، يشاهده الخلق ويتحسرون على ما هم فيه يتنافسون، وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحَقَّتْ ٥.

٦: يَتَأْتِيهَا الْإِنْسُنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدًّا فَلَمْلِقِيهِ ٦؛ أي: إنك ساع إلى الله وعامل بأوامره ونواهيه ومتقرب إليه إما بالخير وإما بالشر، ثم تلاقي الله يوم القيامة؛ فلا تعدم منه جزاء؛ بالفضل إن كنت سعيداً، أو بالعدل إن كنت شقياً.

٧ - ٩: ولهذا ذكر تفصيل الجزاء، فقال: فَأَمَّا مَنْ أَوْفَى كَيْبَهُ بِئِمِينِهِ ٧: وهم أهل السعادة، فسوف يحاسب حساباً يسيراً ٨: وهو العرض اليسير على الله، فيقره الله بذنوبه، حتى إذا ظن العبد أنه قد هلك؛ قال الله تعالى: إني قد سترتها عليك في الدنيا وأنا أسترها لك اليوم، وَيَقْلِبُ إِلَيْنَا أَهْلِهِ ٩: في الجنة مسروراً ٩: لأنه قد نجا من العذاب وفاز بالثواب.

١٠ - ١٢: وَأَمَّا مَنْ أَوْفَى كَيْبَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ ١٠؛ أي: بشماله من خلفه، فسوف يدعو ثبوراً ١١: من الخزي والفضيحة، وما يجد في كتابه من الأعمال التي قدمها ولم يتب منها، وَيَصِلُ سَعِيرًا ١٢: أي: تحيط به السعير من كل جانب، ويقلب على عذابها، وذلك لأنه كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا ١٢: فلا يحسن أن يتركه سدى لا يؤمر ولا ينهى ولا يثاب ولا يعاقب.

فَلَا أَقْسِمُ بِالشَّفَقِ ١١: إلى آخرها.

١١ - ١٢: أقسم في هذا الموضع بآيات الليل، فأقسم بالشفق؛ الذي هو بقية نور الشمس الذي هو مفتتح الليل، وَأَيُّلٍ وَمَا وَسَقَ ١٧: أي: احتوى عليه من حيوانات وغيرها، وَالْقَمَرَ إِذَا أَشَقَّ ١٨: أي: امتلأ نوراً بإبداره، وذلك أحسن ما يكون وأكثر منافع. والمقسم عليه قوله: لَتَرْكَبُنَّ ١٩: أي: أيها الناس طبقاً ٢٠: بعد طبق ٢١: أي: أطواراً متعددة وأحوالاً متباينة من النطفة إلى العلقة إلى المضغة إلى نفخ الروح، ثم يكون وليداً وطفلاً ومعيماً، ثم يجري عليه قلم التكليف والأمر والنهي، ثم يموت بعد ذلك، ثم يبعث ويجازى بأعماله؛ فهذه الطبقات المختلفة الجارية على العبد دالة على أن الله وحده هو المعبود الموحد المدبر لعباده بحكمته ورحمته، وأن العبد فقير عاجز تحت تدبير العزيز الرحيم.

٢٠ - ٢٤: ومع هذا؛ فكثير من الناس لا يؤمنون، وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ ٢١: أي: لا يخضعون للقرآن ولا ينقادون لأوامره ونواهيه، بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يَكْذِبُونَ ٢٢: أي: يعاندون الحق بعدما تبين؛ فلا يستغرب عدم إيمانهم وانقيادهم للقرآن؛ فإن المكذب بالحق عناداً لا حيلة فيه، وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُؤْمِنُونَ ٢٣: أي: بما يعملونه وينوونه سراً؛ فإله يعلم سرهم وجهرهم، وسيجازيهم بأعمالهم، ولهذا قال: فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ٢٤: وسميت البشارة بشارة؛ لأنها تؤثر في البشارة سروراً أو غمماً.

٢٥: فهذه حال أكثر الناس؛ التكذيب بالقرآن، وعدم الإيمان به. ومن الناس فريق هداهم الله فأمنوا بالله وقبلوا ما جاءتهم به الرسل، فءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ٢٥: فهو لاء ٢٥: هُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ٢٥: أي: غير مقطوع، بل هو أجر دائم مما لا عين

سورة الانشقاق

عَلَى الْآرَائِكِ يَنْظُرُونَ ٣٥ هَلْ تُؤِيبُ الْكَفَّارَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ٣٦

سورة الانشقاق

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ ١ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحَقَّتْ ٢ وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ ٣ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ٤ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحَقَّتْ ٥ يَتَأْتِيهَا الْإِنْسُنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدًّا فَلَمْلِقِيهِ ٦ أَي: إِنَّكَ سَاعٍ إِلَى اللَّهِ وَعَامِلٌ بِأَوَامِرِهِ وَنَوَاهِيهِ وَمَتَقَرِّبُ إِلَيْهِ إِمَّا بِالْخَيْرِ وَإِمَّا بِالشَّرِّ ثُمَّ تَلَاقِي اللَّهَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؛ فَلَا تَعْدَمُ مِنْهُ جَزَاءٌ بِالْفَضْلِ إِنْ كُنْتَ سَعِيدًا، أَوْ بِالْعَدْلِ إِنْ كُنْتَ شَقِيًّا.

٧ - ٩: وَلِهَذَا ذَكَرَ تَفْصِيلَ الْجَزَاءِ، فَقَالَ: فَأَمَّا مَنْ أَوْفَى كَيْبَهُ بِئِمِينِهِ ٧: وَهُمْ أَهْلُ السَّعَادَةِ، فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ٨: وَهُوَ الْعَرْضُ الْيَسِيرُ عَلَى اللَّهِ، فَيَقْرَهُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِ، حَتَّى إِذَا ظَنَّ الْعَبْدُ أَنَّهُ قَدْ هَلَكَ؛ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: إِنِّي قَدْ سَتَرْتُهَا عَلَيْكَ فِي الدُّنْيَا وَأَنَا أَسْتَرُهَا لَكَ الْيَوْمَ، وَيَقْلِبُ إِلَيْنَا أَهْلَهُ ٩: فِي الْجَنَّةِ مَسْرُورًا ٩: لِأَنَّهُ قَدْ نَجَا مِنَ الْعَذَابِ وَفَازَ بِالثَّوَابِ.

١٠ - ١٢: وَأَمَّا مَنْ أَوْفَى كَيْبَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ ١٠؛ أَي: بِشِمَالِهِ مِنْ خَلْفِهِ، فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُورًا ١١: مِنَ الْخَزْيِ وَالْفُضَيْحَةِ، وَمَا يَجِدُ فِي كِتَابِهِ مِنَ الْأَعْمَالِ الَّتِي قَدَّمَهَا وَلَمْ يَتُبْ مِنْهَا، وَيَصِلُ سَعِيرًا ١٢: أَي: تُحِيطُ بِهِ السَّعِيرُ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ، وَيَقْلِبُ عَلَى عَذَابِهَا، وَذَلِكَ لِأَنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا ١٢: فَلَا يَحْسُنُ أَنْ يَتْرُكَهُ سَدًى لَا يُؤْمَرُ وَلَا يَنْهَى وَلَا يَثَابُ وَلَا يَعَاقَبُ.

فَلَا أَقْسِمُ بِالشَّفَقِ ١١: إِلَى آخِرِهَا.

١١ - ١٢: أَقْسَمُ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ بِآيَاتِ اللَّيْلِ، فَأَقْسَمُ بِالشَّفَقِ؛ الَّذِي هُوَ بَقِيَّةُ نُورِ الشَّمْسِ الَّذِي هُوَ مُفْتَتِحُ اللَّيْلِ، وَأَيُّلٍ وَمَا وَسَقَ ١٧: أَي: احْتَوَى عَلَيْهِ مِنْ حَيَوَانَاتٍ وَغَيْرِهَا، وَالْقَمَرَ إِذَا أَشَقَّ ١٨: أَي: امْتَلَأَ نُورًا بِإِبْدَارِهِ، وَذَلِكَ أَحْسَنُ مَا يَكُونُ وَأَكْثَرُ مَنَافِعَ. وَالْمَقْسَمُ عَلَيْهِ قَوْلُهُ: لَتَرْكَبُنَّ ١٩: أَي: أَيُّهَا النَّاسُ طَبَقًا ٢٠: بَعْدَ طَبَقٍ ٢١: أَي: أَطْوَارًا مُتَعَدِّدَةً وَأَحْوَالًا مُتَبَايِنَةً مِنَ النُّطْفَةِ إِلَى الْعَلَقَةِ إِلَى الْمَضْغَةِ إِلَى نَفْخِ الرُّوحِ، ثُمَّ يَكُونُ وَلِيدًا وَطِفْلًا وَمَعِيْمًا، ثُمَّ يَجْرِي عَلَيْهِ قَلَمُ التَّكْلِيفِ وَالْأَمْرِ وَالنَّهْيِ، ثُمَّ يَمُوتُ بَعْدَ ذَلِكَ، ثُمَّ يَبْعَثُ وَيُجَازَى بِأَعْمَالِهِ؛ فَهَذِهِ الطَّبَقَاتُ الْمُخْتَلِفَةُ الْجَارِيَةُ عَلَى الْعَبْدِ دَالَّةٌ عَلَى أَنَّ اللَّهَ وَحْدَهُ هُوَ الْمَعْبُودُ الْمَوْحَدُ الْمُدَبِّرُ لِعِبَادِهِ بِحُكْمَتِهِ وَرَحْمَتِهِ، وَأَنَّ الْعَبْدَ فَقِيرٌ عَاجِزٌ تَحْتَ تَدْبِيرِ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ.

٢٠ - ٢٤: وَمَعَ هَذَا؛ فَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ، وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ ٢١: أَي: لَا يَخْضَعُونَ لِلْقُرْآنِ وَلَا يَنْقَادُونَ لِأَوَامِرِهِ وَنَوَاهِيهِ، بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يَكْذِبُونَ ٢٢: أَي: يَعَانِدُونَ الْحَقَّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ؛ فَلَا يَسْتَغْرِبُ عَدَمَ إِيمَانِهِمْ وَانْقِيَادَهُمْ لِلْقُرْآنِ؛ فَإِنَّ الْمَكْذِبَ بِالْحَقِّ عَنَادًا لَا حِيلَةَ فِيهِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُؤْمِنُونَ ٢٣: أَي: بِمَا يَعْمَلُونَهُ وَيَنْوُونَهُ سِرًّا؛ فَإِلَهِهُ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَجَهْرَهُمْ، وَسَيَجَازِيهِمْ بِأَعْمَالِهِمْ، وَلِهَذَا قَالَ: فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ٢٤: وَسَمِيَتْ الْبَشَارَةُ بِشَارَةً؛ لِأَنَّهَا تَوْثِّرُ فِي الْبَشَرَةِ سُرُورًا أَوْ غَمًّا.

٢٥: فَهَذِهِ حَالُ أَكْثَرِ النَّاسِ؛ التَّكْذِيبُ بِالْقُرْآنِ، وَعَدَمُ الْإِيمَانِ بِهِ. وَمِنْ النَّاسِ فَرِيقٌ هَدَاهُمُ اللَّهُ فَأَمَنُوا بِاللَّهِ وَقَبِلُوا مَا جَاءَهُمْ بِهِ الرُّسُلُ، فءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ٢٥: فَهُوَ لَاءٌ ٢٥: هُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ٢٥: أَي: غَيْرُ مُقَطَّوعٍ، بَلْ هُوَ أَجْرٌ دَائِمٌ مِمَّا لَا عَيْنٌ

رات ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

تم تفسير السورة ولله الحمد.

﴿١﴾

تفسير سورة البروج

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ﴾ ﴿١﴾ إلى آخرها.

﴿١﴾ - ﴿٢﴾ ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ﴾ ﴿١﴾؛ أي: ذات المنازل المشتعلة على منازل الشمس والقمر والكواكب المنتظمة في سيرها على أكمل ترتيب ونظام دال على كمال قدرة الله تعالى ورحمته وسعة علمه وحكمته. ﴿وَالْيَوْمِ الْوَعْدِ﴾ ﴿٢﴾: وهو يوم القيامة، الذي وعد الله الخلق أن يجمعهم فيه ويضم في أولهم وآخرهم وقاصيهم ودانيهم، الذي لا يمكن أن يتغير ولا يخلف الله الميعاد. ﴿وَسَاءِ هِمْ شُهُودٌ﴾ ﴿٣﴾: وشمل هذا كل من اتصف بهذا الوصف؛ أي: مبصر ومبصر وحاضر ومحضور وراء ومرئي. والمقسم عليه ما تضمنه هذا القسم من آيات الله الباهرة وحكمه الظاهرة ورحمته الواسعة. وقيل: إن المقسم عليه قوله:

سورة البروج

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ ﴿١﴾ وَالْيَوْمِ الْوَعْدِ ﴿٢﴾ وَسَاءِ هِمْ شُهُودٌ ﴿٣﴾ قِيلَ أَصْحَابُ الْأَعْدُدِ ﴿٤﴾ النَّارِ ذَاتِ الْوُكُودِ ﴿٥﴾ إِذْ هُرِّعَتْهَا فُجُودٌ ﴿٦﴾ وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ﴿٧﴾ وَمَا نَقُصُّوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴿٨﴾ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ فَنُوا بِالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ ﴿١٠﴾ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ ﴿١١﴾ إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴿١٢﴾ إِنَّهُ هُوَ يُدْعَى وَيُعِيدُ ﴿١٣﴾ وَهُوَ الْعَوْدُ الْوَدُودُ ﴿١٤﴾ ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ ﴿١٥﴾ فَقَالَ لِمَا يَرِيدُ ﴿١٦﴾ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ ﴿١٧﴾ فَرِيعُونَ وَنُصُودٌ ﴿١٨﴾ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ ﴿١٩﴾ وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ ﴿٢٠﴾ بَلْ هُوَ قَرِيبٌ أَنْ تُجِيبَ ﴿٢١﴾ فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ ﴿٢٢﴾

سورة البروج

٥٩٠

﴿١﴾ - ﴿٢﴾ ﴿قِيلَ أَصْحَابُ الْأَعْدُدِ﴾ ﴿٤﴾: وهذا دعاء عليهم بالهلاك، والأعدود الحُفَرُ التي تحفر في الأرض، وكان أصحاب الأعدود^(١) هؤلاء قومًا كافرين، ولديهم قوم مؤمنون، فراودهم على الدخول في دينهم، فامتنع المؤمنون من ذلك، فشق الكافرون أعدودًا في الأرض، وقذفوا فيها النار، وقعدوا حولها، وفتنوا المؤمنين، وعرضوهم عليها؛ فمن استجاب لهم أطلقوه، ومن استمر على الإيمان قذفوه في النار، وهذا غاية المحاربة لله ولحزبه المؤمنين، ولهذا لعنهم الله وأهلكهم وتوعدهم، فقال: ﴿قِيلَ أَصْحَابُ الْأَعْدُدِ﴾ ﴿٤﴾، ثم فسر الأعدود بقوله: ﴿النَّارِ ذَاتِ الْوُكُودِ﴾ ﴿٥﴾ إِذْ هُرِّعَتْهَا فُجُودٌ ﴿٦﴾ وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ﴿٧﴾: وهذا من أعظم ما يكون من التجبر وقساوة القلب؛ لأنهم جمعوا بين الكفر بآيات الله ومعاندتها ومحاربة أهلها وتعذيبهم بهذا العذاب الذي تنفطر منه القلوب وحضورهم إياهم عند إلفاتهم فيها. والحال أنهم ما تقموا من المؤمنين إلا خصلة يمدحون عليها وبها سعادتهم، وهي أنهم كانوا يؤمنون ﴿بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ ﴿٨﴾؛ أي: الذي له العزة، التي قهر بها كل شيء، وهو حميد في أقواله وأفعاله وأوصافه. ﴿الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ ﴿٨﴾: خلقًا وعبيدًا يتصرف فيهم بما يشاء. ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ ﴿٩﴾: علمًا وسميًا وبصرًا؛ أفلا خاف هؤلاء المتمردون عليه أن يأخذهم العزيز المقتدر، أو ما علموا كلهم أنهم ممالك لله، ليس لأحد على أحد سلطة من دون إذن المالك؟! أو خفي عليهم أن الله محيط بأعمالهم مجازيهم عليها؟! كلا إن الكافر في غرور، والجاهل في عمى وضلال عن سواء السبيل.

﴿١٠﴾ ثم أوعدهم ووعدهم وعرض عليهم التوبة، فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَنُوا بِالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ﴾ ﴿١٠﴾؛ أي: العذاب الشديد المحرق. قال الحسن رحمه الله: انظروا إلى هذا الكرم والجود؛ قتلوا أوليائه وأهل طاعته، وهو يدعوهم إلى التوبة.

ولأنه أخص المخلوقات بالقرب منه تعالى. وهذا على قراءة الجر يكون ﴿لَلْجِدِّ﴾ ﴿١٥﴾ نعتاً للعرش، وأما على قراءة الرفع؛ فإنه يكون نعتاً لله، والمجد سعة الأوصاف وعظمتها.

﴿فَقَالَ لِمَا يُرِيدُ﴾ ﴿١٦﴾؛ أي: مهما أراد شيئاً؛ فعله، إذا أراد شيئاً؛ قال له: كن. فيكون، وليس أحد فعلاً لما يريد إلا الله؛ فإن المخلوقات ولو أرادت شيئاً؛ فإنه لا بد لإرادتها من معاون وممانع، والله لا معاون لإرادته ولا ممانع له مما أراد.

﴿ثُمَّ ذَكَرَ مِنْ أَفْعَالِهِ الدَّالَّةَ عَلَى صِدْقِ مَا جَاءَتْ بِهِ رُسُلُهُ﴾ ﴿١٧﴾، ﴿هَلْ أَنْتَكَ حَاشِيَةُ الْجُنُودِ﴾ ﴿١٨﴾ وَرَعُونَ وَتَمُودُ ﴿١٩﴾: وكيف كذبوا المرسلين فجعلهم الله من المهلكين.

﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ﴾ ﴿٢٠﴾؛ أي: لا يزالون مستمرين على التكذيب والعناد، لا تنفع فيهم الآيات، ولا تجدي لديهم العظات.

﴿وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ﴾ ﴿٢١﴾: قد أحاط بهم علماً وقدره؛ كقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبَازِلٌ رِصَادٍ﴾ ﴿٢٢﴾ [الفجر: ١٤]؛ ففيه الوعيد الشديد للكافرين من عقوبة من هم في قبضته وتحت تدبيره.

﴿بَلْ هُوَ قَرِيبٌ مِمَّا يَحِيطُ﴾ ﴿٢٣﴾؛ أي: وسيع المعاني عظيمها كثير الخير والعلم. ﴿فِي لَوَجٍّ تَخَفُوفٍ﴾ ﴿٢٤﴾: من التغيير والزيادة والنقص، ومحفوظ من الشياطين، وهو اللوح المحفوظ، الذي قد أثبت الله فيه كل شيء، وهذا يدل على جلالة القرآن وجزالته ورفعة قدره عند الله تعالى. والله أعلم.

تم تفسير السورة.



تفسير سورة الطارق

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالنَّجْمِ وَالطَّارِقِ﴾ ﴿١﴾ إلى آخرها.

﴿١﴾ - ﴿٤﴾ يقول الله تعالى: ﴿وَالنَّجْمِ وَالطَّارِقِ﴾ ﴿١﴾: ثم فسر الطارق بقوله: ﴿النَّجْمِ النَّازِلِ﴾ ﴿٢﴾؛ أي: المضيء الذي

﴿١١﴾ ولما ذكر عقوبة الظالمين؛ ذكر ثواب المؤمنين، فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾: بقلوبهم، ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾: بجوارحهم، ﴿هَلُمَّ جَنَّاتٌ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ﴾ ﴿١٢﴾: الذي حصل به الفوز برضا الله ودار كرامته.

﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾ ﴿١٣﴾؛ أي: إن عقوبته لأهل الجرائم والذنوب العظام لقوية شديدة، وهو للظالمين بالمرصاد؛ قال الله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرْآنَ وَهُوَ ظَلِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلَمٌ شَدِيدٌ﴾ ﴿١٤﴾ [هود: ١٠٢].

﴿إِنَّهُ هُوَ بَئِيضٌ وَيُسَدُّ﴾ ﴿١٥﴾؛ أي: هو المنفرد بإبداء الخلق وإعادته؛ فلا يشاركه في ذلك مشارك.

﴿وَهُوَ الْغَفُورُ﴾: الذي يغفر الذنوب جميعها لمن تاب، ويعفو عن السيئات لمن استغفره وأتاب. ﴿الْوَدُودُ﴾ ﴿١٦﴾: الذي يحبه أحبابه محبة لا يشبهها شيء؛ فكما أنه لا يشابهه شيء في صفات الجلال والجمال والمعاني والأفعال؛ فمحبته في قلوب خواص خلقه التابعة لذلك لا يشبهها شيء من أنواع المحاب، ولهذا كانت محبته أصل العبودية، وهي المحبة التي تتقدم جميع المحاب وتغلبها، وإن لم تكن غيرها تبعاً لها؛ كانت عذاباً على أهلها، وهو تعالى الودود الواد لأحبابه؛ كما قال تعالى: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ [المائدة: ٥٤]: والمودة هي المحبة الصافية.

وفي هذا سر لطيف؛ حيث قرن الودود بالغفور؛ ليدل ذلك على أن أهل الذنوب إذا تابوا إلى الله، وأنابوا غفر لهم ذنوبهم، وأحبهم فلا يقال تغفر ذنوبهم، ولا يرجع إليهم الود كما قاله بعض الغالطين، بل الله أفرح بتوبة عبده حين يتوب من رجل على راحلته عليها طعامه وشرابه وما يصلحه، فأضلها في أرض فلاة مهلكة، فأيس منها، فاضطجع في ظل شجرة ينتظر الموت، فينما هو على تلك الحال؛ إذا راحلته على رأسه، فأخذ بخطامها. فالله أعظم فرحاً بتوبة العبد من هذا براحلته، وهذا أعظم فرح يقدر؛ فله الحمد والثناء وصفو الوداد ما أعظم بره وأكثر خيره وأغزر إحسانه وأوسع امتنانه!

﴿ذُو الْعَرْشِ لَلْجِدِّ﴾ ﴿١٥﴾؛ أي: صاحب العرش العظيم، الذي من عظمته أنه وسع السماوات والأرض والكرسي؛ فهي بالنسبة إلى العرش كحلقة ملقاة في فلاة بالنسبة لسائر الأرض، وخص الله العرش بالذكر لعظمته،

يثقب نوره فيخرق السماوات فينفذ حتى يُرى في الأرض. والصحيح أنه اسم جنس يشمل سائر النجوم الثواب. وقد قيل: إنه زحل، الذي يخرق السماوات السبع وينفذ فيها فيرى منها، وسمي طارقاً لأنه يطرق ليلاً. والمقسم عليه قوله: ﴿إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ﴾: يحفظ عليها أعمالها الصالحة والسيئة، وستجازى بعملها المحفوظ عليها.

٥ - ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ يَوْمَ يُخْلَقُ﴾: أي: فليتدبر خلقته ومبداه؛ فإنه مخلوق ﴿مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ﴾: وهو المني، الذي يخرج من بين الصلب والترائب (٧): يحتمل أنه من بين صلب الرجل وترائب المرأة، وهي ثدياها، ويحتمل أن المراد المني الدافق، وهو مني الرجل، وأن محله الذي يخرج منه ما بين صلبه وترائب، ولعل هذا أولى؛ فإنه إنما وصف به الماء الدافق الذي يحس به ويشاهد دفق، وهو مني الرجل، وكذلك لفظ الترائب؛ فإنها تستعمل للرجل؛ فإن الترائب للرجل بمنزلة الثديين للأنثى؛ فلو أردت الأنثى؛ لقليل من الصلب والثديين ونحو ذلك. والله أعلم.

٨ - ﴿فَالَّذِي أَوْجَدَ الْإِنْسَانَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ﴾ يخرج من هذا الموضع الصعب قادر على رجه في الآخرة وإعادته للبعث والنشور والعزاء. وقد قيل: إن معناه أن الله على رجح الماء المدفوق في الصلب لقادر، وهذا وإن كان المعنى صحيحاً؛ فليس هو المراد من الآية، ولهذا قال بعده: ﴿يَوْمَ يُبْلَى السَّرَائِرُ﴾: أي: تختبر سرائر الصدور ويظهر ما كان في القلوب من خير وشر على صفحات الوجوه؛ كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وَجُوهٌُ وَسَوْدٌ وَجُوهٌُ﴾ [آل عمران: ١٠٦]؛ ففي الدنيا تنكتم كثير من الأشياء ولا يظهر عياناً للناس، وأما يوم القيامة؛ فيظهر بر الأبرار وفجور الفجار، وتصير الأمور علانية. وقوله: ﴿قَالَ لَهُ مِنْ قُوَّةٍ﴾ يدفع بها عن نفسه، ﴿وَلَا نَاصِرَ﴾: من خارج ينتصر به، فهذا القسم على العاملين وقت عملهم وعند جزائهم.

١١ - ﴿ثُمَّ أَقْسَمُ قَسَمًا ثَانِيًا عَلَى صَحَّةِ الْقُرْآنِ﴾، فقال: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ﴾ (١١) و﴿الْأَرْضِ ذَاتِ الصَّعِجِ﴾ (١٢)؛ أي: ترجع السماء بالمطر كل عام، وتنصدع الأرض للنبات، فيعيش بذلك آدميون والبهايم، وترجع السماء أيضاً بالأقذار والشئون الإلهية كل وقت، وتنصدع الأرض عن الأموات، ﴿إِنَّهُ﴾: أي: القرآن، ﴿لَقَوْلٌ فَصْلٌ﴾ (١٣)؛ أي: حق وصدق بين واضح، ﴿وَمَا هُوَ بِالْمُزَلِّ﴾ (١٤)؛ أي: جد ليس بالهزل، وهو القول الذي يفصل بين الطوائف والمقالات، وتفصل به الخصومات.

١٥ - ﴿إِنَّهُمْ﴾: أي: المكذبين للرسول ﷺ وللقرآن، ﴿يَكِيدُونَ كَيْدًا﴾ (١٥)؛ ليدفعوا بكيدهم الحق ويؤيدوا الباطل، ﴿وَأَكِيدُ كَيْدًا﴾ (١٦)؛ لإظهار الحق، ولو كره الكافرون، ولدفع ما جاءوا به من الباطل، ويعلم بهذا من الغالب؛ فإن الأديمي أضعف وأحق من أن يغالب القوي العليم في كيده. ﴿فَهَلْ الْكَافِرِينَ أَهْمُ لَهُمْ رَيْدًا﴾ (١٧)؛ أي: قليلاً، فسيعلمون عاقبة أمرهم حين ينزل بهم العقاب.

تم تفسير سورة الطارق. والحمد لله رب العالمين.

سورة الطارق

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ ١ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ ٢ النَّجْمُ الثَّاقِبُ ٣ إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ٤ فَيَنْظُرُ الْإِنْسَانُ يَوْمَ يُخْلَقُ ٥ خَلْقٌ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ ٦ يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ ٧ إِنَّهُ عَلَى رَجِيئِهِ لَقَادِرٌ ٨ يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ ٩ فَا لَهُ مِنْ قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرَ ١٠ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ ١١ وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّعِجِ ١٢ إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ ١٣ وَمَا هُوَ بِالْمُزَلِّ ١٤ يُكِيدُونَ كَيْدًا ١٥ وَأَكِيدُ كَيْدًا ١٦ فَهَلْ الْكَافِرِينَ أَهْمُ لَهُمْ رَيْدًا ١٧

سورة الطارق

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سَجَّ اسْمُ رَبِّكَ الْأَعْلَى ١ الَّذِي خَلَقَ قَسْوَى ٢ وَالَّذِي فَدَّرَ هَدَى ٣ وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى ٤ فَجَعَلَهُ شَعَثًا آخَرَى ٥ سَنَفَرْنَاكَ فَلَا تَنسَى ٦ إِلَّا مَآسَاءَ اللَّهِ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى ٧ وَيُخَيِّرُكَ اللَّيْسَى ٨ فَذَكِّرْ إِنَّ نَفْعَ الذِّكْرِ ٩ سَيَذَكِّرُ مَنْ يَخْتَارُ ١٠ وَتَجَنَّبَهَا الْأَشْفَى ١١ الَّذِي يَصْلَى الْقَارِ الْكَبْرَى ١٢ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى ١٣ قَدْ أفلحَ مَنْ تَزَكَّى ١٤ وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى ١٥

٥٩١

تفسير سورة الغاشية

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ﴾ ﴿١﴾ إلى قوله: ﴿وَرَزَايُ بُنُوتُهُ﴾ ﴿١١﴾.

﴿١﴾ يذكر تعالى أحوال يوم القيامة وما فيها من الأهوال الطامة، وأنها تغشى الخلائق بشدائدها، فيجازون بأعمالهم، ويتميزون إلى فريقين: فريق في الجنة، وفريق في السعير. فأخبر عن وصف كلا الفريقين:

﴿٢﴾ - ﴿٧﴾ فقال في وصف أهل النار: ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ﴾ أي: يوم القيامة، ﴿خَاشِعَةٌ﴾ ﴿٢﴾: من الذل والفضيحة والخزي، ﴿عَايِلَةٌ نَاصِبَةٌ﴾ ﴿٣﴾: أي: تابعة في العذاب، تجر على وجوهها، ﴿وَتَقْنَىٰ وَجُوهُهُمُ الْبَارُ﴾ ﴿٤﴾ [إبراهيم: ٥٠]؛ ويحتمل أن المراد بقوله: ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ﴾ ﴿٢﴾ عَايِلَةٌ نَاصِبَةٌ ﴿٣﴾: في الدنيا لكونهم في الدنيا أهل عبادات وعمل، ولكنه لما عدم شرطه، وهو الإيمان؛ صار يوم القيامة هباء منثورًا.

وهذا الاحتمال وإن كان صحيحًا من حيث المعنى؛ فلا يدل عليه سياق الكلام، بل الصواب المقطوع به هو الاحتمال الأول؛ لأنه قيده بالظرف، وهو يوم القيامة، ولأن المقصود هنا بيان ذكر أهل النار عمومًا، وذلك الاحتمال جزء قليل بالنسبة إلى أهل النار، ولأن الكلام في بيان حال الناس عند غشيان الغاشية؛ فليس فيه تعرض لأحوالهم في الدنيا.

وقوله: ﴿تَصَلَّىٰ نَارًا حَامِيَةً﴾ ﴿٥﴾: أي: شديدًا حرها تحيط بهم من كل مكان، ﴿تُشَقَّىٰ مِنْ عَيْنٍ عَيْنًا﴾ ﴿٥﴾: أي: شديدة الحرارة، ﴿وَلَا يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ﴾ [الكهف: ٢٩]؛ فهذا شربهم، وأما طعامهم؛ فـ ﴿لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيعٍ﴾ ﴿٦﴾ لَا يُسَمِّنُ وَلَا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ ﴿٧﴾: وذلك لأن المقصود من الطعام أحد أمرين: إما أن يسد جوع صاحبه ويزيل عنه ألمه، وإما أن يسمن بدنه من الهزال، وهذا الطعام ليس فيه شيء من هذين الأمرين، بل هو طعام في غاية المرارة والتشنج والخسة، نسأل الله العافية.

﴿٨﴾ - ﴿١١﴾ وأما أهل الخير؛ فوجوههم يوم القيامة ﴿نَاعِمَةٌ﴾ ﴿٨﴾: أي: قد جرت عليهم نضرة النعيم فنضرت أبدانهم واستنارت وجوههم وسروا غاية السرور، ﴿لَسَعِيًّا﴾: الذي قدمته في الدنيا من الأعمال الصالحة والإحسان إلى عباد الله، ﴿رَاضِيَةً﴾ ﴿٩﴾: إذ وجدت ثوابه مدخرًا مضاعفًا، فحمدت عقباه، وحصل لها كل ما تمنناه. وذلك أنها ﴿فِي جَنَّةٍ﴾: جامعة لأنواع النعيم كلها، ﴿عَالِيَةٍ﴾ ﴿١٠﴾: في محلها ومنازلها؛ فمحلها في أعلى عِلِينَ، ومنازلها مساكن عالية، لها غرف، ومن فوق الغرف غرف مبنية يشرفون منها على ما أعد الله لهم من الكرامة. ﴿فُطُوهُنَّ دَابَّةٌ﴾ ﴿١١﴾ [الحاقة: ٢٣]؛ أي: كثيرة الفواكه اللذيذة المشمرة بالثمار الحسنة السهلة التناول؛ بحيث يتناولونها على أي حال كانوا، لا يحتاجون أن يصعدوا شجرة أو يستعصي عليهم منها ثمرة. ﴿لَا تَسْمَعُ فِيهَا﴾: أي: الجنة ﴿لَغِيَّةٌ﴾ ﴿١١﴾: أي: كلمة لغو وباطل فضلاً عن الكلام المحرم، بل كلامهم كلام حسن نافع، مشتمل على ذكر الله وذكر نعمه المتواترة عليهم وعلى الآداب المستحسنة بين المتعاشرين الذي يسر القلوب ويشرح الصدور. ﴿فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ﴾ ﴿١٢﴾: وهذا اسم جنس؛ أي: فيها العيون الجارية التي يفجرونها ويصرفونها كيف شاءوا وأنى أرادوا. ﴿فِيهَا سُرُرٌ مَّرْمُوعَةٌ﴾ ﴿١٣﴾: والسر جمع سرير، وهي المجالس المرتفعة في ذاتها وبما عليها من الفرش

سورة الغاشية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ ﴿١﴾ وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ ﴿٢﴾ عَايِلَةٌ نَاصِبَةٌ ﴿٣﴾ تَصَلَّىٰ نَارًا حَامِيَةً ﴿٤﴾ تُشَقَّىٰ مِنْ عَيْنٍ عَيْنًا ﴿٥﴾ لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيعٍ ﴿٦﴾ لَا يُسَمِّنُ وَلَا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ ﴿٧﴾ وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاعِمَةٌ ﴿٨﴾ لَسَعِيًّا رَاضِيَةٌ ﴿٩﴾ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿١٠﴾ لَا تَسْمَعُ فِيهَا لَغِيَّةً ﴿١١﴾ فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ﴿١٢﴾ فِيهَا سُرُرٌ مَّرْمُوعَةٌ ﴿١٣﴾ وَأَكْوَابٌ مَوْضُوعَةٌ ﴿١٤﴾ وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ ﴿١٥﴾ وَرَزَايُ بُنُوتُهُ ﴿١٦﴾ أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾ فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ ﴿٢٢﴾ إِلَّا مَنْ تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ﴿٢٣﴾ فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ ﴿٢٦﴾

٥٩٢

﴿٢٥﴾، ﴿٢٦﴾ إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾؛ أي: رجوع الخلائق وجمعهم في يوم القيامة. ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ﴾ ﴿٢٦﴾: على ما عملوا من خير وشر.

آخر تفسير سورة الغاشية والحمد لله رب العالمين.

﴿٢٥﴾ ﴿٢٦﴾ ﴿٢٧﴾

تفسير سورة الفجر

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالْفَجْرِ﴾ ﴿١﴾ وَلَيْلٍ عَشْرِ ﴿٢﴾ وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ ﴿٣﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا يَسَّرَ ﴿٤﴾ هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِّئِي حَجْرٍ ﴿٥﴾.

﴿١﴾ - ﴿٥﴾ الظاهر أن المقسم عليه هو المقسم به، وذلك جائز مستعمل إذا كان أمراً ظاهراً مهماً، وهو كذلك في هذا الموضع. فأقسم تعالى بالفجر، الذي هو آخر الليل ومقدمة النهار؛ لما في إقبال الليل وإقبال النهار من الآيات الدالة على كمال قدرة الله تعالى، وأنه تعالى هو المدبر لجميع الأمور، الذي لا تنبغي العبادة إلا له. ويقع في الفجر صلاة فاضلة معظمة يحسن أن يقسم الله بها، ولهذا أقسم بعده بالليالي العشر، وهي على الصحيح ليالي عشر رمضان أو عشر ذي الحجة؛ فإنها ليال مشتملة على أيام فاضلة، ويقع فيها من العبادات والقربات ما لا يقع في غيرها. وفي ليالي عشر رمضان ليلة القدر، التي هي خير من ألف شهر، وفي نهارها صيام آخر رمضان، الذي هو أحد أركان الإسلام العظام. وفي أيام عشر ذي الحجة الوقوف بعرفة، الذي يغفر الله فيه لعباده مغفرة يحزن لها الشيطان؛ فإنه ما رئي الشيطان أحقر ولا أدرح منه في يوم عرفة^(١)؛ لما يرى من تنزل الأملاك والرحمة من الله على عباده، ويقع فيها كثير من أفعال الحج والعمرة، وهذه أشياء معظمة مستحقة أن يقسم الله بها، ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَسَّرَ﴾ ﴿١﴾؛ أي: وقت سريانه وإرخائه ظلامه على العباد، فيسكنون ويستريحون ويطمثون رحمة منه تعالى وحكمة. ﴿هَلْ فِي ذَلِكَ﴾: المذكور، ﴿قَسَمٌ لِّئِي حَجْرٍ﴾ ﴿٥﴾؛ أي: لذي عقل؟ نعم بعض ذلك يكفي ﴿لَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ ﴿٢٧﴾ [ق: ٣٧].

اللبنة الوطنية. ﴿وَأَكْثَرُ مَوْشَعَةٍ﴾ ﴿١٢﴾؛ أي: أوانٍ ممتلئة من أنواع الأشربة اللذيذة، قد وضعت بين أيديهم، وأعدت لهم، وصارت تحت طلبهم واختيارهم، يطوف بها عليهم الولدان المخلدون. ﴿وَنَارًا مَّصْفُوفَةً﴾ ﴿١٥﴾؛ أي: وسائد من الحرير والإستبرق وغيرهما مما لا يعلمه إلا الله، قد صُفِّتْ للجُلوس والالتكاء عليها، وقد أريحوا عن أن يضعوها أو يصفوها بأنفسهم. ﴿وَرَزَائِي مَثْبُوتَةً﴾ ﴿١٦﴾: والرزائي هي البسط الحسان، ماثوبة؛ أي: مملوءة بها مجالسهم من كل جانب.

﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾ ﴿٧﴾ إلى آخرها.

﴿٧﴾ - ﴿٢٠﴾ يقول تعالى حقاً للذين لا يصدقون الرسول ﷺ ولغيرهم من الناس أن يتفكروا في مخلوقات الله الدالة على توحيده. ﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾ ﴿٧﴾؛ أي: ألا ينظرون إلى خلقها البديع وكيف سخرها الله للعباد وذلكها لمنافعهم الكثيرة التي يضطرون إليها؟ ﴿وَالِى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ﴾ ﴿١٩﴾: بهيئة باهرة حصل بها الاستقرار للأرض وثباتها من الاضطراب وأودع الله فيها من المنافع الجليلة ما أودع، ﴿وَالِى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾ ﴿١٧﴾؛ أي: مدت مدام واسعاً، وسهلت غاية التسهيل؛ ليستقر العباد على ظهرها ويتمكنوا من حرثها وغراسها والبنين فيها وسلوك طرقها.

واعلم أن تسطيحها لا يتنافى أنها كرة مستديرة قد أحاطت الأفلاك فيها من جميع جوانبها كما دل على ذلك النقل والعقل والحس والمشاهدة؛ كما هو مذكور معروف عند كثير من الناس، خصوصاً في هذه الأزمنة، التي وقف الناس على أكثر أبحاثها بما أعطاهم الله من الأسباب المقربة للبعيد؛ فإن التسطيح إنما يتنافى كروية الجسم الصغير جداً، الذي لو سطح؛ لم يبق له استدارة تذكر، وأما جسم الأرض الذي هو كبير جداً وأسم، فيكون كروياً مسطحاً، ولا يتنافى الأمران كما يعرف ذلك أبواب الخبرة.

﴿٢١﴾، ﴿٢٢﴾ ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ﴾ ﴿٢١﴾؛ أي: ذكر الناس وعظهم وأنذرهم وبشرهم؛ فإنك مبعوث لدعوة الخلق إلى الله وتذكيرهم، ولم تبعث عليهم مسيطراً، عليهم مسلطاً موكلاً بأعمالهم؛ فإذا قمت بما عليك؛ فلا عليك بعد ذلك لوم؛ كقوله تعالى: ﴿وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَن يَخَافُ وَعِبِدِ﴾ ﴿٤٥﴾ [ق: ٤٥].

﴿٢٣﴾، ﴿٢٤﴾ وقوله: ﴿إِلَّا مَن تَوَلَّى وَكَفَرَ﴾ ﴿٢٣﴾؛ أي: لكن من تولى عن الطاعة وكفر بالله، ﴿فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ﴾ ﴿٢٤﴾؛ أي: الشديد الدائم.

(١) مالك في (الموطأ) (١٢٦٩)، البيهقي في شعب الإيمان (٣٧٧٥).

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴿٧﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ﴿٨﴾ ۝ ﴾

١ - ﴿٦﴾ يقول تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ ﴾: بقلبك وبصيرتك، كَيْفَ فَعَلَ: بهذه الأمم الطاغية، عاد وهي ﴿٦﴾ إِرَمَ: القبيلة المعروفة في اليمن، ﴿ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴾: أي: القوة الشديدة والعنوت والتعبر، ﴿ أَلَيْسَ لَمْ يَخْلُقْ مِثْلَهَا فِي الْإِلْدِ ﴿٧﴾ ﴾: أي: في جميع البلدان في القوة والشدة؛ كما قال لهم نبيهم هود عليه السلام: ﴿ وَأَذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَضْطَةً فَأَذْكُرُوا ءَالَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٨﴾ ﴾ [الأعراف: ٦٩]. ﴿ وَثُمُودَ الَّذِينَ جَاءُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ ﴿٩﴾ ﴾: أي: وادي القرى؛ نحتوا بقوتهم الصخور فاتخذوها مساكن، ﴿ وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ ﴿١٠﴾ ﴾: أي: ذي الجنود الذين ثبتوا ملكه كما ثبتت الأوتاد ما يراد إمساكه بها، ﴿ الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْإِلْدِ ﴿١١﴾ ﴾: هذا الوصف عائد إلى عاد وثمود وفرعون ومن تبعهم؛ فإنهم طغوا في بلاد الله، وأدوا عباد الله في دينهم ودنياهم. ولهذا قال: ﴿ فَأَذْكُرُوا فِيهَا الْفَسَادَ ﴿١٢﴾ ﴾: وهو العمل بالكفر وشعبه من جميع أجناس المعاصي، وسعوا في محاربة الرسل وصد الناس عن سبيل الله، فلما بلغوا من العتو ما هو موجب لهلاكهم؛ أرسل الله عليهم من عذابه ذنوباً وسوط عذاب، ﴿ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ﴿١٣﴾ ﴾: لمن يعصيه؛ يمهله قليلاً ثم يأخذه أخذ عزيز مقتدر.

﴿ فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْنَلَهُ رَبُّهُ ﴿١٤﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿ حَبًّا جَمًّا ﴿١٥﴾ ۝ ﴾

١٥ - ﴿١٤﴾ يخبر تعالى عن طبيعة الإنسان من حيث هو، وأنه جاهل ظالم لا علم له بالعواقب، يظن الحالة التي تقع فيه تستمر ولا تزول، ويظن أن إكرام الله في الدنيا وإنعامه عليه يدل على كرامته عنده وقربه منه، وأنه إذا قدر ﴿ عَلَيْهِ رِزْقُهُ ﴾: أي: ضيقه، فصار بقدر قوته لا يفضل عنه؛ أن هذا إهانة من الله له، فرد الله عليه هذا الحسبان، فقال: ﴿ كَلَّا ﴾: أي: ليس كل مَنْ نَعَّمْتُهُ فِي الدُّنْيَا فَهُوَ كَرِيمٌ عَلَيَّ، ولا كل من قدرت عليه رزقه فهو مهان لدي، وإنما الغنى والفقر والسعة والضيق ابتلاء من الله وامتحان يمتحن به العباد؛ ليرى من يقوم له بالشكر والصبر، فيثيبه على ذلك الثواب الجزيل، ممن ليس كذلك، فينقله إلى العذاب الويل. وأيضاً؛ فإن وقوف همة العبد عند مراد نفسه فقط من ضعف الهمة، ولهذا لاهمهم الله على عدم اهتمامهم بأحوال الخلق المحتاجين، فقال: ﴿ كَلَّا بَلْ لَا تَكْرُمُونَ الْيَتِيمَ ﴿١٦﴾ ﴾: الذي فقد أباه وكاسبه واحتاج إلى جبر خاطره والإحسان إليه؛ فأنتم لا تكرمونه بل تهينونه، وهذا يدل على عدم الرحمة في قلوبكم وعدم الرغبة في الخير، ﴿ وَلَا تَخْشَوْنَ عَلَى طَعَامِ الْيَتِيمِ ﴾: أي: لا يحض بعضكم بعضاً على إطعام المحاييج من الفقراء والمساكين، وذلك لأجل الشح على الدنيا ومحبتها الشديدة المتمكنة من القلوب. ولهذا قال: ﴿ وَأَتَاكُمُ الثَّرَاثُ ﴿١٧﴾ ﴾: أي: المال المخلف، ﴿ أَكَلَا لَمَّا ﴿١٨﴾ ﴾: أي: ذريعاً، لا يتقون على شيء منه، ﴿ وَتَحِيَّبُونَ الْمَالَ حَبًّا جَمًّا ﴿١٩﴾ ﴾: أي: كثيراً شديداً، وهذا كقوله تعالى: ﴿ بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٢٠﴾ وَالْآخِرَةَ خَيْرٌ وَأَبْقَى ﴿٢١﴾ ﴾ [الأعلى: ١٦، ١٧]، ﴿ كَلَّا بَلْ يُحِيَّبُونَ الْعَالِمَةَ ﴿٢٢﴾ وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ ﴿٢٣﴾ ﴾ [القيامة: ٢٠، ٢١].

﴿ كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴿٢٤﴾ إِلَى آخِرِهَا.

١١ - ﴿٢٤﴾ كَلَّا: أي: ليس كل ما أحببت من الأموال وتنافستم فيه من اللذات بياق لكم، بل أمامكم يوم عظيم وهول

سورة الفجر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالْفَجْرِ ﴿١﴾ وَكَوَالِ عَشْرِ ﴿٢﴾ وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ ﴿٣﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا يَسِرَ ﴿٤﴾ هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حَبْرِ ﴿٥﴾ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴿٧﴾ الَّتِي لَمْ يَخْلُقْ مِثْلَهَا فِي الْإِلْدِ ﴿٨﴾ وَثُمُودَ الَّذِينَ جَاءُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ ﴿٩﴾ وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْإِلْدِ ﴿١١﴾ فَأَذْكُرُوا فِيهَا الْفَسَادَ ﴿١٢﴾ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴿١٣﴾ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْنَلَهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّا إِذَا مَا ابْنَلَهُ فَقَدَّرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهْنَنِ ﴿١٦﴾ كَلَّا بَلْ لَا تَكْرُمُونَ الْيَتِيمَ ﴿١٧﴾ وَلَا تَخْشَوْنَ عَلَى طَعَامِ الْيَتِيمِ ﴿١٨﴾ وَأَتَاكُمُ الثَّرَاثُ أَكَلًا لَمَّا ﴿١٩﴾ وَتَحِيَّبُونَ الْمَالَ حَبًّا جَمًّا ﴿٢٠﴾ كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴿٢١﴾ وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾ وَجِئَتْ يَوْمَئِذٍ النَّفْسُ بِرَبِّهَا النَّفْسُ الْكَافِرَةُ الْفَاسِقَةُ ﴿٢٣﴾ كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴿٢٤﴾ إِلَى آخِرِهَا.

جسيم تدك فيه الأرض والجبال وما عليها حتى تجعل قاعاً صنفصفاً لا عوج فيه ولا أمّاء، ويجيء الله لفصل القضاء بين عباده في ظلل من الغمام، ويجيء الملائكة الكرام أهل السماوات كلهم ﴿صَفَاً صَفَاً﴾؛ أي: صفًا بعد صف، كل سماء يجيء ملائكتها صفًا، يحيطون بمن دونهم من الخلق، وهذه الصفوف صفوف خضوع وذل للملك الجبار، ﴿وَجَاءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ﴾: تقودها الملائكة بالسلاسل؛ فإذا وقعت هذه الأمور؛ ف﴿يَوْمَئِذٍ يَنْذَكُرُ الْإِنْسَنُ﴾: ما قدمه من خير وشر، ﴿وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى﴾: فقد فات أوانها وذهب زمانها، ﴿يَقُولُ﴾: متحسراً على ما فرط في جنب الله: ﴿يَلَيِّنَنِي قَدَمْتُ لِحَيَاتِي﴾: الباقية الدائمة عملاً صالحاً؛ كما قال تعالى: ﴿يَقُولُ يَلَيِّنَنِي أَخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَيْلًا﴾ ﴿يَوَلِّيَنِي لَيِّنِي لَرَأَيْتُ فَلَاحًا خَلِيلًا﴾ [الفقان: ٢٧، ٢٨]، وفي هذا دليل على أن الحياة التي ينبغي السعي في كمالها وتحصيلها وكمالها وفي تسميم لذاتها هي الحياة في دار القرار؛ فإنها دار الخلد والبقاء.

﴿٢٥﴾، ﴿يَوْمَئِذٍ لَا يَعْذِبُ عَذَابُهُ أَحَدًا﴾: لمن أهمل ذلك اليوم ونسي العمل له، ﴿وَلَا يُؤْتِي وَفَاقَهُ أَحَدًا﴾؛ فإنهم يقرنون بسلاسل من نار، ويسحبون على وجوههم في الحميم، ثم في النار يسجرون؛ فهذا جزاء المجرمين.

﴿٢٧﴾ - ﴿٣٠﴾ وأما من آمن بالله واطمأن به وصدق رسله؛ فيقال له: ﴿يَا أَيُّهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ﴾: إلى ذكر الله، الساكنة إلى حبه، التي قرت عينها بالله، ﴿أَرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾: الذي رباك بنعمته، وأسدى عليك من إحسانه ما صرت به من أوليائه وأحابيه ﴿رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً﴾؛ أي: راضية عن الله وعما أكرمها به من الثواب، والله قد رضي عنها، ﴿فَادْخُلِي فِي عِبَادِي﴾ وأدخلي جنِّي ﴿﴾: وهذا تخاطب به الروح يوم القيامة، وتخاطب به وقت السياق والموت.

والحمد لله رب العالمين.



تفسير سورة لا أقسم بهذا البلد

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿لَا أَقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾ ١ ﴿وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾ ٢ ﴿وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ﴾ ٣ ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ﴾ ٤ ﴿أَحْسَبُ أَنَّ لَّنْ يَفْقَرُ عَلَيْهِ أَحَدٌ﴾ ٥ ﴿يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَا لَا بَدَأَ﴾ ٦ ﴿أَحْسَبُ أَنَّ لَّمْ يَرَهُ أَحَدٌ﴾ ٧ ﴿أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ﴾ ٨ ﴿وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ﴾ ٩ ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾ ١٠ ﴿فَلَا اقْنَحُ الْعَقَبَةَ﴾ ١١ ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ﴾ ١٢ ﴿فَكَّرْتَهُ رَقِيعَةً﴾ ١٣ ﴿أَوْ إِطْعَمْتُ فِي يَوْمٍ ذِي سَعَبَةٍ﴾ ١٤ ﴿يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ﴾ ١٥ ﴿أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ﴾ ١٦ ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ﴾ ١٧ ﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْإِيمَانِ﴾ ١٨ ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّا بَيْنَهُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ﴾ ١٩ ﴿عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤَصَّدَةٌ﴾ ٢٠ ﴿

سورة البقرة

سورة البقرة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿لَا أَقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾ ١ ﴿وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾ ٢ ﴿وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ﴾ ٣ ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ﴾ ٤ ﴿أَحْسَبُ أَنَّ لَّنْ يَفْقَرُ عَلَيْهِ أَحَدٌ﴾ ٥ ﴿يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَا لَا بَدَأَ﴾ ٦ ﴿أَحْسَبُ أَنَّ لَّمْ يَرَهُ أَحَدٌ﴾ ٧ ﴿أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ﴾ ٨ ﴿وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ﴾ ٩ ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾ ١٠ ﴿فَلَا اقْنَحُ الْعَقَبَةَ﴾ ١١ ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ﴾ ١٢ ﴿فَكَّرْتَهُ رَقِيعَةً﴾ ١٣ ﴿أَوْ إِطْعَمْتُ فِي يَوْمٍ ذِي سَعَبَةٍ﴾ ١٤ ﴿يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ﴾ ١٥ ﴿أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ﴾ ١٦ ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ﴾ ١٧ ﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْإِيمَانِ﴾ ١٨ ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّا بَيْنَهُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ﴾ ١٩ ﴿عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤَصَّدَةٌ﴾ ٢٠ ﴿

(١٧) - (١٦) ثم فسر هذه العقبة بقوله: ﴿فَكَ رَقِيَّةٌ﴾؛ أي: فكها من الرق بعقتها أو مساعدتها على أداء كتابتها، ومن باب أولى فكك الأسير المسلم عند الكفار، ﴿أَوْ إِطْعَمٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبٍ﴾؛ أي: مجاعة شديدة؛ بأن يطعم وقت الحاجة أشد الناس حاجة، ﴿يَلِيماً ذَا مَقْرَبَةٍ﴾؛ أي: جامعاً بين كونه يتيماً وفقيراً ذا قرابة، ﴿أَوْ مَسْكِينًا ذَا مَرَبٍِّ﴾؛ أي: قد لُزق بالتراب من الحاجة والضرورة.

(١٧) ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾؛ أي: آمنوا بقلوبهم بما يجب الإيمان به، وعملوا الصالحات بجوارحهم، من كل قول وفعل واجب أو مستحب، ﴿وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾: على طاعة الله وعن معصيته وعلى أقداره المؤلمة؛ بأن يحث بعضهم بعضاً على الانقياد لذلك والإتيان به كاملاً منشراحاً به الصدر مطمئنة به النفس، ﴿وَتَوَاصَوْا بِالرَّحْمَةِ﴾: للخلق؛ من إعطاء محتاجهم، وتعليم جاهلهم، والقيام بما يحتاجون إليه من جميع الوجوه، ومساعدتهم على المصالح الدينية والدنيوية، وأن يحب لهم ما يحب لنفسه، ويكره لهم ما يكره لنفسه.

(١٨) ﴿أُولَئِكَ﴾: الذين قاموا بهذه الأوصاف، الذين وفقهم الله لاقتحام هذه العقبة، ﴿أُولَئِكَ أَحَبُّ إِلَيْنَا﴾؛ لأنهم أدوا ما أمر الله به من حقوقه وحقوق عباده، وتركوا ما نهوا عنه، وهذا عنوان السعادة وعلامتها.

(١٩)، (٢٠) ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا﴾: بأن نبذوا هذه الأمور وراء ظهورهم فلم يصدقوا بالله ولا آمنوا به ولا عملوا صالحاً ولا رحموا عباد الله. أولئك ﴿أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ﴾ عليهم نَارٌ مُّؤَصَّدَةٌ؛ أي: مغلقة، في عمدة ممددة، قد مدت من ورائها؛ لئلا تفتح أبوابها، حتى يكونوا في ضيق وهم وشدة.

والحمد لله.



تفسير سورة الشمس وضحاها

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالشَّمْسُ وَضُحَاهَا﴾ إلى آخرها.

(١) - (٢) يقسم تعالى ﴿هَذَا الْبَلَدُ﴾ الأمين، وهو مكة المكرمة، أفضل البلدان على الإطلاق، خصوصاً وقت حلول الرسول ﷺ فيها، ﴿وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدٌ﴾؛ أي: آدم وذريته.

(٣) - (٤) والمقسم عليه قوله: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ﴾: يحتمل أن المراد بذلك ما يكابده ويقاسيه من الشدائد في الدنيا وفي البرزخ ويوم يقوم الأشهاد، وأنه ينبغي له أن يسعى في عمل يريحه من هذه الشدائد ويوجب له الفرح والسرور الدائم، وإن لم يفعل؛ فإنه لا يزال يكابد العذاب الشديد أبد الأبد، ويحتمل أن المعنى لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم وأقوم خلقة يقدر على التصرف والأعمال الشديدة ومع ذلك فإنه لم يشكر الله على هذه النعمة العظيمة، بل بطر بالعافية، وتجبر على خالقه، فحسب بجهله وظلمه أن هذه الحال ستدوم له، وأن سلطان تصرفه لا ينعزل، ولهذا قال تعالى: ﴿أَلَيْسَ أَنْ لَّنْ يَفْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ﴾: ويظنى ويفتخر بما أنفق من الأموال على شهوات نفسه؛ ﴿يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُبَدًا﴾؛ أي: كثيراً بعضه فوق بعض. وسمى الله تعالى الإنفاق في الشهوات والمعاصي إهلاكاً؛ لأنه لا يتفجع المنفق بما أنفق، ولا يعود إليه من إنفاقه إلا الندم والخسار والتعب والقلّة، لا كمن أنفق في مرضاة الله في سبيل الخير؛ فإن هذا قد تاجر مع الله وربح أضعاف أضاعاف ما أنفق، قال الله متوعداً هذا الذي افتخر بما أنفق في الشهوات: ﴿أَلَيْسَ أَنْ لَّمْ يَرَهُ أَحَدٌ﴾؛ أي: أظن في فعله هذا أن الله لا يراه ويحاسبه على الصغير والكبير؟! بل قد رآه الله وحفظ عليه أعماله ووكّل به الكرام الكاتبين لكل ما عمله من خير وشر.

(٥) - (٦) ثم قرره بنعمه، فقال: ﴿أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ﴾ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ؟ للجمال والبصر والنطق وغير ذلك من المنافع الضرورية فيها؛ فهذه نعم الدنيا. ثم قال في نعم الدين: ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾؛ أي: طريقي الخير والشر؛ بينا له الهدى من الضلال، والرشد من الغي. فهذه المنن الجزيلة تقتضي من العبد أن يقوم بحقوق الله ويشكره على نعمه، وألا يستعين بها على معاصي الله.

(٧) ولكن هذا الإنسان لم يفعل ذلك؛ ﴿فَلَا أَفْجَمَ أَعْقَبَةً﴾؛ أي: لم يقتحمها ويعبر عليها؛ لأنه متبع لهواه، وهذه العقبة شديدة عليه.

الحِزْبُ الشَّلَاثُونَ

وَالشَّمْسُ وَنُجُجَهَا ۝ وَالْقَمَرُ إِذَا لِلَّهِ ۝ وَالنَّهَارُ إِذَا جَازَها ۝
وَاللَّيْلُ إِذَا يَغْشَها ۝ وَالسَّمَاءُ وَمَا بَنَها ۝ وَالْأَرْضُ وَمَا حَها ۝
وَنَفْسٍ وَمَا سَوَها ۝ فَأَها جُورَها وَتَقَوَها ۝ قَدْ
أَفْلَحَ مَنْ رَزَها ۝ وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَها ۝ كَذَبَتْ ثُودُ
يَطْعُونِها ۝ إِذْ أَنْبَعَتْ أَشَقَها ۝ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ
نَافَةَ اللَّهِ وَسُقْيَها ۝ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُها فَدَمَمَ
عَلَيْهِمْ رِها ۝ يَذُنُهُمُ فِئْتُهُمْ ۝ وَلَا يَخَافُ عَقْبُها ۝

2-34

وَأَتِلْ إِذَا بَعَثَ ١) وَالتَّهَارِ إِذَا جَعَلَ ٢) وَمَا عَلَى الذِّكْرِ وَالْأُنْثَى ٣)
إِنْ سِكَرَ لَشَى ٤) فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى ٥) وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى ٦)
فَسَيَّرَهُ لِلْعُسْرَى ٧) وَأَمَّا مَنْ يَحِلْ وَاسْتَفْعَى ٨) وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى ٩)
فَسَيَّرَهُ لِلْعُسْرَى ١٠) وَمَا بَيْنَ عِنْدَ اللَّهِ إِذَا تَرَدَّى ١١) إِنْ عَلِمَتْ
لَهُدًى ١٢) وَإِنْ لَنَا الْآخِرَةُ وَالْأُولَى ١٣) فَأَنْذَرَكُمْ نَارًا تَلْقَى ١٤)

090

تفسير سورة الليل

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى﴾ إلى آخرها.

﴿١﴾، ﴿٢﴾ هذا قسم من الله بالزمان الذي تقع فيه أفعال العباد على تفاوت أحوالهم، فقال: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى﴾؛ أي: يعم الخلق بظلامه، فيسكن كل إلى مأواه ومسكنه، ويستريح العباد من الكد والتعب، ﴿وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى﴾: للخلق، فاستضاءوا بنوره، وانتشروا في مصالحهم.

﴿٣﴾ ﴿وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى﴾: إن كانت (ما) موصولة؛ كان إقسامًا بنفسه الكريمة الموصوفة بكونه خالق الذكر والإناث، وإن كانت مصدرية؛ كان قسمًا بخلقه للذكر والأنثى، وكمال حكمته في ذلك؛ أن خلق من كل صنف من الحيوانات التي يريد إبقاءها ذكرًا وأنثى؛ ليبقى النوع ولا يضمحل، وقاد كلا منهما إلى الآخر بسلسلة الشهوة؛ وجعل كلا منهما مناسبًا للآخر؛ فبارك الله أحسن الخالقين.

﴿٤﴾ وقوله: ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى﴾: هذا هو المقسم عليه؛ أي: إن سعيكم أيها المكلفون لمفاوت تفاوتًا كثيرًا، وذلك بحسب تفاوت نفس الأعمال ومقدارها والنشاط فيها، وبحسب الغاية المقصودة بتلك الأعمال؛ هل هو وجه الله الأعلى الباقي، فيبقى السعي له بقاءه، ويتنفع به صاحبه؟ أم هي غاية مضمحلة فانية؛ فيبطل السعي بطلانها ويضمحل باضمحلها؟ وهذا كل عمل يقصد به غير وجه الله تعالى بهذا الوصف.

﴿٥﴾ - ﴿٧﴾ ولهذا فصل الله العاملين ووصف أعمالهم، فقال: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى﴾؛ أي: ما أمر به من العبادات المالية كالزكوات والنفقات والكفارات والصدقات والإنفاق في وجوه الخير، والعبادات البدنية كالصلاة والصوم وغيرها، والمركبة من ذلك كالحج والعمرة ونحوهما، ﴿وَأَنْقَى﴾: مانهي عنه من المحرمات والمعاصي على اختلاف أجناسها، ﴿وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى﴾: أي: صدق بلا إله إلا الله، وما دلت عليه من جميع العقائد الدينية وما ترتب عليها من الجزاء الأخروي، ﴿فَسَيَبُورُهُ لِلْمُتَّبِعِينَ﴾: أي: نسهل عليه أمره ونجعله ميسرًا له كل خير، ميسرًا له ترك كل شر؛ لأنه أتى بأسباب التيسير، فيسر الله له ذلك.

﴿٨﴾ - ﴿١٠﴾ ﴿وَأَمَّا مَنْ يَحِلْ﴾: بما أمر به، فترك الإنفاق الواجب والمستحب، ولم تسمح نفسه بأداء ما وجب لله، ﴿وَأَسْتَفْتَى﴾: عن الله، فترك عبوديته جانبًا، ولم ير نفسه مفتقرة غاية الافتقار إلى ربه، الذي لا نجاة لها ولا فوز ولا فلاح إلا بأن يكون هو محبوبها ومعبودها الذي تقصده وتتوجه إليه، ﴿وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى﴾: أي: بما أوجب الله على العباد التصديق به من العقائد الحسنة، ﴿فَسَيَبُورُهُ لِلْمُتَّبِعِينَ﴾: أي: للحالة العسرة والخصال الذميمة؛ بأن يكون ميسرًا للشر أينما كان ومقيضًا له أفعال المعاصي. نسأل الله العافية.

﴿١١﴾ ﴿وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ﴾: الذي أطعاه واستغنى به وبخل به إذا هلك ومات؛ فإنه لا يصحب الإنسان إلا عمله الصالح. وأما ماله الذي لم يخرج منه الواجب؛ فإنه يكون وبالًا عليه؛ إذ لم يقدم منه لآخرته شيئًا.

﴿١٢﴾ ﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى﴾: أي: إن الهدى المستقيم طريقه يوصل إلى الله ويدين من رضاه، وأما الضلال؛ فطرقة مسدودة عن الله، لا توصل صاحبها إلا للعذاب الشديد.

﴿١٣﴾ ﴿وَأَنَّ لَنَا لَآخِرَةً وَأَوَّلَى﴾: ملكًا وتصرفًا، ليس له فيهما مشارك، فليرغب الراغبون إليه في الطلب، وليتقطع رجائهم عن المخلوقين.

﴿١٤﴾ - ﴿١٦﴾ ﴿فَأَنْذَرْتُكَ نَارًا تَلْتَظَى﴾: أي: تستعر وتتوقد، ﴿لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى﴾: الذي كذب؛ بالخبر، ﴿وَوَلَّى﴾: عن الأمر.

﴿١٧﴾ - ﴿٢١﴾ ﴿وَسَيَجَنَّبُهَا الْأَتَقَى﴾: الذي يؤتي ماله بترًا؛ بأن يكون قصده به تزكية نفسه وتطهيرها من الذنوب والأدناس، قاصدًا به وجه الله تعالى. فدل هذا على أنه إذا تضمن الإنفاق المستحب ترك واجب كدين ونفقة ونحوهما؛ فإنه غير مشروع، بل تكون عطيته مردودة عند كثير من العلماء؛ لأنه لا يتزكى بفعل مستحب يفوت عليه الواجب، ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى﴾: أي: ليس لأحد من الخلق على هذا الأتقى نعمة تجزى؛ إلا وقد كافأه عليها، وربما بقي له الفضل والمنة على الناس، فتمحض عبدًا لله؛ لأنه رقيق إحسانه وحده، وأما من بقيت عليه نعمة للناس فلم يجزها ويكافئها؛ فإنه لا بد أن يترك للناس ويفعل لهم ما ينقص إخلاصه.

وهذه الآية وإن كانت متناولة لأبي بكر الصديق رضي الله عنه، بل قد قيل: إنها نزلت بسببه؛ فإنه رضي الله عنه ما لأحد عنده من نعمة تجزى، حتى ولا رسول الله ﷺ؛ إلا نعمة الرسول، التي لا يمكن جزاؤها، وهي نعمة الدعوة إلى دين الإسلام وتعليم الهدى ودين الحق؛ فإن لله ورسوله المنة على كل أحد، منة لا يمكن لها جزاء ولا مقابلة؛ فإنها متناولة لكل من اتصف بهذا الوصف الفاضل، فلم يبق لأحد عليه من الخلق نعمة تجزى، فبقيت أعماله خالصة لوجه الله تعالى، ولهذا قال: ﴿إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِهِ الْأَعْلَى﴾ (٢) ﴿وَلَسَوْفَ يَرْضَى﴾ (٣)؛ هذا الاتقى بما يعطيه الله من أنواع الكرامات والمثوبات.

والحمد لله رب العالمين.

﴿١﴾ ﴿٢﴾ ﴿٣﴾

تفسير سورة الضحى

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالضُّحَى﴾ (١) ﴿وَاللَّيْلَ إِذَا سَجَى﴾ (٢) ﴿إِلَى آخِرِهَا﴾.

(١) - أقسم تعالى بالنهار إذا انتشر ضياؤه؛ بالضحى، وبالليل ﴿إِذَا سَجَى﴾ (٢) وأدلهمت ظلمته؛ على اعتناء الله برسوله ﷺ، فقال: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ﴾ (٣)؛ أي: ما تركك منذ اعتنى بك، ولا أهملك منذ رباك ورعاك، بل لم يزل يرببك أكمل تربية ويعليك درجة بعد درجة، ﴿وَمَا قَلَى﴾ (٤) ﴿كَ اللَّهُ﴾ (٥)؛ أي: ما أبغضك منذ أحبك؛ فإن نفي الضد دليل على ثبوت ضده، والنفي المحض لا يكون مدحا إلا إذا تضمن ثبوت كمال. فهذه حال الرسول ﷺ الماضية والحاضرة، أكمل حال وأتمها، محبة الله له واستمرارها وترقيته في درج الكمال ودوام اعتناء الله به.

(٦) وأما حاله المستقبل؛ فقال: ﴿وَلَا آخِرَةَ خَيْرَ لَكَ مِنَ الْأُولَى﴾ (٦)؛ أي: كل حالة متأخرة من أحوالك؛ فإن لها الفضل على الحالة السابقة، فلم يزل ﷺ يصعد في درج المعالي، ويمكن الله له دينه، وينصره على أعدائه، ويسدده في أحواله، حتى مات وقد وصل إلى حال ما وصل إليها الأولون والآخرون؛ من الفضائل والنعم وقرة العين وسرور القلب.

(٧) ثم بعد هذا لا تسأل عن حاله في الآخرة من تفاصيل الإكرام وأنواع الإنعام، ولهذا قال: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى﴾ (٧)؛ وهذا أمر لا يمكن التعبير عنه إلا بهذه العبارة الجامعة الشاملة.

(٨) - ثم امتن عليه بما يعلمه من أحواله الخاصة، فقال: ﴿أَلَمْ يَجِدَكَ يَتِيمًا فَآوَى﴾ (٨)؛ أي: وجدك لا أم لك ولا أب، بل قد مات أبوه وأمّه وهو لا يدبر نفسه، فأواه الله، وكفله جده عبد المطلب، ثم لما مات جده؛ كفله الله عمه أبا طالب، حتى أيده الله بنصره وبالمؤمنين، ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى﴾ (٩)؛ أي: وجدك لا تدري ما الكتاب ولا الإيمان، فعلمك ما لم تكن تعلم، ووفقك لأحسن الأعمال والأخلاق. ﴿وَوَجَدَكَ عَائِلًا﴾ (١٠)؛ أي: فقيرا، ﴿فَأَغْنَى﴾ (١١)؛ بما فتح الله عليك من البلدان، التي جبيت لك أموالها وخراجها، فالذي أزال عنك هذه النقائص سيزيل عنك كل نقص، والذي أوصلك إلى الغنى وآواك ونصرك وهداك، قابل نعمته بالشكران.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

لَا يَصْلَحُهَا إِلَّا الْأَشَقَى (١٥) الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى (١٦) وَسَيُجَنَّبُهَا (١٧) الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى (١٨) وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى (١٩) إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِهِ الْأَعْلَى (٢٠) وَلَسَوْفَ يَرْضَى (٢١)

سُورَةُ الضُّحَى (١-٣)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالضُّحَى (١) وَاللَّيْلَ إِذَا سَجَى (٢) مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى (٣) وَلَا آخِرَةَ خَيْرَ لَكَ مِنَ الْأُولَى (٤) وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى (٥) أَلَمْ يَجِدَكَ يَتِيمًا فَآوَى (٦) وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى (٧) وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى (٨) فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَنْهَرْ (٩) وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ (١٠) وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ (١١)

سُورَةُ الضُّحَى (١-٣)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ (١) وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ (٢) الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ (٣) وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ (٤) فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا (٥) إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا (٦) فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ (٧) وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ (٨)

٥٩٦

﴿٩﴾ - ﴿١١﴾ ولهذا قال: ﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ﴾ ﴿٩﴾؛ أي: لا تسع معاملته اليتيم، ولا يضق صدرك عليه، ولا تنهره، بل أكرمه، وأعطه ما يسر، واصنع به كما تحب أن يصنع بولدك من بعدك، ﴿وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾ ﴿١٠﴾؛ أي: لا يصدر منك كلام للسائل يقتضي رده عن مطلوبه بنهر وشراسة خلق، بل أعطه ما يسر عندك، أو رده بمعروف وإحسان. ويدخل في هذا السائل للمال والسائل للعلم، ولهذا كان المعلم مأمورًا بحسن الخلق مع المتعلم ومباشرته بالإكرام والتحنن عليه؛ فإن في ذلك معونة له على مقصده وإكرامًا لمن كان يسعى في نفع العباد والبلاد، ﴿وَأَمَّا يَنْعِمَ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ ﴿١١﴾. وهذا يشمل النعم الدينية والدنيوية؛ أي: أثن على الله بها، وخصها بالذكر إن كان هناك مصلحة، وإلا؛ فحدث بنعم الله على الإطلاق؛ فإن التحدث بنعمة الله داع لشكرها وموجب لتحييب القلوب إلى من أنعم بها؛ فإن القلوب مجبولة على محبة المحسن.

﴿١٢﴾ ﴿١٣﴾ ﴿١٤﴾

تفسير سورة ألم نشرح لك صدرك

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ ﴿١﴾ إلى آخرها.

﴿١﴾ - ﴿١٤﴾ يقول تعالى ممتنًا على رسوله: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ ﴿١﴾؛ أي: نوسعه لشرائع الدين والدعوة إلى الله والاتصاف بمكارم الأخلاق والإقبال على الآخرة وتسهيل الخيرات، فلم يكن ضيقًا حرجًا لا يكاد يتقاد لخير ولا تكاد تجده منبسطة، ﴿وَوَضَعْنَا عَنكَ وَزْرَكَ﴾ ﴿٢﴾؛ أي: ذنبك، ﴿الَّذِي أَنْقَضَ﴾ ﴿٣﴾؛ أي: أنقل ﴿ظَهْرَكَ﴾ ﴿٤﴾؛ كما قال تعالى: ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح: ٢٤]، ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ ﴿٥﴾؛ أي: أعلينا قدرك، وجعلنا لك الثناء الحسن العالي، الذي لم يصل إليه أحد من الخلق؛ فلا يذكر الله؛ إلا ذكر معه رسوله ﷺ؛ كما في الدخول في الإسلام، وفي الأذان، والإقامة، والخطب... وغير ذلك من الأمور التي أعلى الله بها ذكر رسوله محمد ﷺ، وله في قلوب أمته من المحبة والإجلال والتعظيم ما ليس لأحد غيره بعد الله تعالى؛ فجزاه الله عن أمته أفضل ما جزى نبيًا عن أمته.

﴿٦﴾، ﴿٧﴾ وقوله: ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ ﴿٦﴾ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٦﴾ [الشرح: ٥، ٦]: بشارة عظيمة أنه كلما وجد عسر وصعوبة؛ فإن اليسر يقارنه ويصاحبه، حتى لو دخل العسر جحر ضب؛ لدخل عليه اليسر فأخرجه؛ كما قال تعالى: ﴿سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾ ﴿٧﴾، وكما قال النبي ﷺ: «وإن الفرج مع الكرب، وإن مع العسر يسرًا»^(١).

وتعريف العسر في الآيتين يدل على أنه واحد، وتنكير اليسر يدل على تكراره؛ فلن يغلب عسر يسرين.

وفي تعريفه بالألف واللام الدال على الاستغراق والعموم يدل على أن كل عسر وإن بلغ من الصعوبة ما بلغ؛ فإنه في آخره التيسير ملازم له.

﴿٧﴾، ﴿٨﴾ ثم أمر الله رسوله أصلًا والمؤمنين تبعًا بشكره والقيام بواجب نعمه، فقال: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ﴾ ﴿٧﴾؛ أي: إذا فرغت من أشغالك، ولم يبق في قلبك ما يعوقه؛ فاجتهد في العبادة والدعاء، ﴿وَالِلَّهِ رَبِّكَ﴾ ﴿٨﴾: وحده ﴿فَارْغَبْ﴾ ﴿٨﴾؛ أي: أعظم الرغبة في إجابة دعائك وقبول عبادتك، ولا تكن ممن إذا فرغوا؛ لعبوا وأعرضوا عن ربهم وعن ذكره، فتكون من الخاسرين.

وقد قيل: إن معنى هذا: فإذا فرغت من الصلاة وأكملتها؛ فانصب في الدعاء، وإلى ربك فارغب في سؤال مطالبك.

واستدل من قال هذا القول على مشروعية الدعاء والذكر عقب الصلوات المكتوبات. والله أعلم بذلك.

تمت. والحمد لله.

﴿١٥﴾ ﴿١٦﴾ ﴿١٧﴾

تفسير سورة والتين

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالَّتَيْنِ وَالزَّيْتُونِ﴾ ﴿١﴾ إلى آخرها.

﴿١﴾ - ﴿٣﴾ ﴿وَالَّتَيْنِ﴾ هو التين المعروف، وكذلك (الزيتون)؛ أقسم بهاتين الشجرتين؛ لكثرة منافع شجرهما وثمرهما، ولأن سلطانهما في أرض الشام محل نبوة عيسى (١) أحمد (٢٨٠٣)، الترمذي (٢٥١٦).

ابن مريم عليه السلام، ﴿وَطُورِ سِينِينَ﴾ ٧؛ أي: طور سيناء محل نبوة موسى عليه السلام، ﴿وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ﴾ ٨؛ وهو مكة المكرمة محل نبوة محمد ﷺ. فأقسم تعالى بهذه المواضع المقدسة التي اختارها وابتعث منها أفضل الأنبياء وأشرفهم.

والمقسم عليه قوله: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ أي: تام الخلق، متناسب الأعضاء، متمصب القامة، لم يفقد مما يحتاج إليه ظاهراً وباطناً شيئاً.

٥، ٦) ومع هذه النعم العظيمة، التي ينبغي منه القيام بشكرها؛ فأكثر الخلق منحرفون عن شكر النعم، مشتغلون باللهو واللعب، قد رضوا لأنفسهم بأسافل الأمور وسفاسف الأخلاق، فردهم الله ﴿أَسْفَلَ سَافِلِينَ﴾؛ أي: أسفل النار موضع العصاة المتمردين على ربهم؛ إلا مَنْ مَنَّ الله عليه بالإيمان والعمل الصالح والأخلاق الفاضلة العالية، ﴿فَلَهُمْ﴾: بذلك المنازل العالية، و﴿أَجْرٌ عَزِيزٌ﴾؛ أي: غير مقطوع، بل لذات متوافرة وأفراح متواترة ونعم متكاثرة؛ في أبد لا يزول، ونعيم لا يحول، أكلها دائم وظلها.

﴿٧﴾، ﴿٨﴾ ﴿٩﴾ فَمَا يَكْذِبُكَ بَعْدَ يَالَيْتَنِ ﴿٧﴾؛ أي: أي شيء يكذبك أيها الإنسان بيوم الجزاء على الأعمال؟ وقد رأيت من آيات الله الكثيرة ما يحصل لك به اليقين، ومن نعمه ما يوجب

عليك ألا تكفر بشيء منها. ﴿ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ السَّائِرِينَ ﴾ ﴿١٠﴾
ولا يثابون ولا يعاقبون؟ أم الذي خلق الإنسان أطوارًا بعد أطوار
التربية الحسنة؟ لا بد أن يعيدهم إلى دار هي مستقرهم وغايتهم

تمت. والحمد لله.



تفسير سورة اقرأ

وهي مكة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴾ ﴿١﴾ إلى آخر السورة.

﴿هذه السورة أول السور القرآنية نزولاً على رسول الله ﷺ، فإنها نزلت عليه في مبادئ النبوة؛ إذ كان لا يدري ما الكتاب ولا الإيمان، فجاء جبريل عليه الصلاة والسلام بالرسالة، وأمره أن يقرأ، فامتنع وقال: ما أنا بقارئ! فلم يزل به حتى قرأ؛ فأنزل الله عليه: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ ﴿١﴾: عموم الخلق.

﴿ثُمَّ خَصَّ الْإِنْسَانَ﴾، وذكر ابتداء خلقه ﴿مِنْ عَنَّا﴾؛ فالذي خلق الإنسان واعتنى بتدبيره لا بد أن يدبره بالأمر والنهي، وذلك بإرسال الرسل وإنزال الكتب، ولهذا ذكر بعد الأمر بالقراءة خلقه للإنسان.

بما فيه الخسار، ﴿وَأَسْجُدْ﴾: لربك، ﴿وَأَقْرَبْ﴾: منه في السجود وغيره من أنواع الطاعات والقربات؛ فإنها كلها تدني من رضاه وتقرب منه. وهذا عام لكل ناه عن الخير ولكل منهي عنه، وإن كانت نازلة في شأن أبي جهل حين نهى رسول الله ﷺ عن الصلاة وعبث به وآذاه.

تمت. والحمد لله رب العالمين.



تفسير سورة القدر

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾: إلى آخرها.

﴿١﴾ يقول تعالى مبيناً لفضل القرآن وعلو قدره: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾: ﴿٢﴾ كما قال تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ مُبَرَّكَةٍ﴾ [الدخان: ٣] وذلك أن الله تعالى ابتداءً بإنزال القرآن في رمضان في ليلة القدر، ورحم الله بها العباد رحمة عامة لا يقدر العباد لها شكرًا، وسميت ليلة القدر لعظم قدرها وفضلها عند الله، ولأنه يقدر فيها ما يكون في العام من الأجل والأزاق والمقادير القدريّة.

﴿٢﴾ ثم فخم شأنها وعظم مقدارها، فقال: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ﴾: أي: فإن شأنها جليل، وخطرها عظيم.

﴿٣﴾ ﴿لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾: أي: تعادل من فضلها ألف شهر، فالعمل الذي يقع فيها خير من العمل في ألف شهر خالية منها، وهذا مما تحير فيه الألباب، وتدهش له العقول؛ حيث من تبارك وتعالى على هذه الأمة الضعيفة، القوة والقوى بلبلة يكون العمل فيها يقابل ويزيد على ألف شهر، عمر رجل معمر عمراً طويلاً نيافاً وثمانين سنة.

﴿٤﴾ ﴿نَزَّلَ الْمَلَكُ وَالرُّوحُ فِيهَا﴾: أي: يكثّر نزولهم فيها، ﴿مِنْ كُلِّ أَمْرٍ﴾: أي: من كل شأن.

﴿٥﴾ ﴿سَلَّمَ فِيهَا﴾: أي: سالمه من كل آفة وشر، وذلك لكثرة خيرها، ﴿حَتَّىٰ مَطْلَعِ الْفَجْرِ﴾: أي: مبتدأها من غروب الشمس ومنتهاها طلوع الفجر. وقد تواترت الأحاديث في

﴿٢﴾ - ﴿٣﴾ ثم قال: ﴿أَفَرَأَيْتَ الْآلَافُ﴾: أي: كثير الصفات، واسعها، كثير الكرم والإحسان، واسع الجود، الذي من كرمه أن علم بالعلم، و﴿عَلَّمَ بِالْقَلَمِ﴾: علّم الإنسان ما لم يكن يعلم؛ فإنه تعالى أخرجه من بطن أمه لا يعلم شيئاً، وجعل له السمع والبصر والفؤاد، ويسر له أسباب العلم؛ فعلمه القرآن، وعلمه الحكمة، وعلمه بالقلم، الذي به تحفظ العلوم وتضبط الحقوق، وتكون رسلاً للناس تنوب مناب خطابهم؛ فله الحمد والمنة الذي أنعم على عباده بهذه النعم، التي لا يقدرون لها على جزاء ولا شكور، ثم من عليهم بالغنى وسعة الرزق.

﴿٤﴾ - ﴿٥﴾ ولكن الإنسان لجبهله وظلمه؛ إذا رأى نفسه غنياً طغى، وبغى، وتجبر عن الهدى، ونسى أن لربه ﴿الرَّحْمَنُ﴾: ولم يخف الجزاء، بل ربما وصلت به الحال أنه يترك الهدى بنفسه ويدعو غيره إلى تركه، فينهى عن الصلاة التي هي أفضل أعمال الإيمان.

﴿٦﴾ - ﴿٧﴾ يقول الله لهذا المتمرد العاتي: ﴿أَوَيْتَ﴾: أيها الناهي للعبد إذا صلى، ﴿إِنْ كَانَ﴾: العبد المصلي ﴿عَلَّ أَهْلَهُ﴾: العلم بالحق والعمل به، ﴿أَوْ أَمَرَ﴾: غيره ﴿بِالتَّقْوَى﴾: فهل يحسن أن ينهى من هذا وصفه؟! ليس نهيه من أعظم المحادة لله والمحابرة للحق؟! فإن النهي لا يتوجه إلا لمن هو في نفسه على غير الهدى، أو كان يأمر غيره بخلاف التقوى، ﴿أَوَيْتَ إِذْ كَذَّبَ﴾: الناهي بالحق، ﴿وَتَوَلَّى﴾: عن الأمر؟ أما يخاف الله ويخشى عقابه؟! ﴿أَوْ يَفْعَلُ بِأَنَّهُ يَرَىٰ﴾: ما يعمل ويفعل.

﴿٨﴾، ﴿٩﴾ ثم توعده إن استمر على حاله، فقال: ﴿كَأَ لَيْلٍ تَرْبَتِي﴾: عما يقول ويفعل، ﴿لَتَسْفُتُنَّ بِالنَّاصِيَةِ﴾: أي: لناخذن بناصيته أخذاً عتيقاً، وهي حقيقة بذلك؛ فإنها ﴿نَاصِيَةٌ كَذِبٌ خَاطِئَةٌ﴾: أي: كاذبة في قولها، خاطئة في فعلها.

﴿١٠﴾، ﴿١١﴾ ﴿فَلْيَعْلَمْ﴾: هذا الذي حق عليه العذاب ﴿نَادِيَهُ﴾: أي: أهل مجلسه وأصحابه ومن حوله ليعينوه على ما نزل به، ﴿سَنَنْزِلُ الزَّانِبَةَ﴾: أي: خزنة جهنم لأخذها وعقوبته. فليظن أي الفريقين أقوى وأقدر. فهذه حالة الناهي وما توعده به من العقوبة.

﴿١٢﴾ وأما حالة المنهي؛ فأمره الله ألا يصغي إلى هذا الناهي، ولا ينقاد لنهيه، فقال: ﴿كَأَ لَا نُطِيعُ﴾: أي: فإنه لا يأمر إلا

فضلها، وأنها في رمضان، وفي العشر الأواخر منه، خصوصاً في أوتاره، وهي باقية في كل سنة إلى قيام الساعة، ولهذا كان النبي ﷺ يعتكف ويكثر من التعبد في العشر الأواخر من رمضان رجاء ليلة القدر. والله أعلم.

﴿١﴾﴿٢﴾﴿٣﴾﴿٤﴾﴿٥﴾﴿٦﴾

تفسير سورة لم يكن

وهي مدنية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفِكِينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ﴾ ﴿١﴾

﴿١﴾ يقول تعالى: ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ أي: من اليهود والنصارى، ﴿وَالْمُشْرِكِينَ﴾: من سائر أصناف الأمم، ﴿مُنْفِكِينَ﴾: عن كفرهم وضلالهم الذي هم عليه؛ أي: لا يزالون في غيهم وضلالهم، لا يزيدهم مرور السنين إلا كفراً، ﴿حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ﴾ ﴿١﴾: الواضحة والبرهان الساطع.

﴿٢﴾، ﴿٣﴾ ثم فسر تلك البينة، فقال: ﴿رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ﴾؛ أي: أرسله الله يدعو الناس إلى الحق، وأنزل عليه كتاباً يتلوه ليعلم الناس الحكمة ويخرجهم من الظلمات إلى النور، ولهذا قال: ﴿يَتْلُوا صُحُفًا مُطَهَّرَةً﴾ ﴿٤﴾؛ أي: محفوظة من قربان الشياطين، لا يمسها إلا المطهرون؛ لأنها أعلى ما يكون من الكلام، ولهذا قال عنها: ﴿فِيهَا﴾؛ أي: في تلك الصحف ﴿كُتِبَ قِيمَةٌ﴾ ﴿٥﴾؛ أي: أخبار صادقة وأوامر عادلة تهدي إلى الحق وإلى طريق مستقيم؛ فإذا جاءتهم هذه البينة؛ فحيثما يتبين طالب الحق ممن ليس له مقصد في طلبه، فيهلك من هلك عن بينة ويحيى من حي عن بينة.

﴿٦﴾ وإذا لم يؤمن أهل الكتاب بهذا الرسول وينقادوا له؛ فليس ذلك بيدع من ضلالهم وعنادهم؛ فإنهم ما تفرقوا واختلوا وصاروا أحزاباً ﴿إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَةُ﴾ ﴿٦﴾: التي توجب لأهلها الاجتماع والاتفاق، ولكنهم لرداءتهم ونذاتهم لم يزدتهم الهدى إلا ضلالاً ولا البصيرة إلا عمى.

﴿٧﴾ مع أن الكتب كلها جاءت بأصل واحد ودين واحد؛ فما ﴿أُمرُوا﴾ في سائر الشرائع، إلا أن يعبدوا ﴿اللَّهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الَّذِينَ﴾؛ أي: قاصدين بجميع عباداتهم الظاهرة والباطنة وجه الله وطلب الزلفى لديه، ﴿حُفَّاءَ﴾؛ أي: معرضين مائلين عن سائر الأديان المخالفة لدين التوحيد، وخص الصلاة والزكاة بالذكر مع أنهما داخلان في قوله: ﴿لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الَّذِينَ﴾؛ لفضلهما وشرفهما وكونهما العبادتين اللتين من قام بهما قام بجميع شرائع الدين. ﴿وَذَلِكَ﴾؛ أي: التوحيد والإخلاص في الدين هو ﴿وَبِئْسَ الْقِيَمَةُ﴾ ﴿٨﴾؛ أي: الدين المستقيم الموصل إلى جنات النعيم، وما سواه فطرق موصلة إلى الجحيم.

﴿٩﴾ ثم ذكر جزاء الكافرين بعدما جاءتهم البينة، فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ﴾: قد أحاط بهم عذابها، واشتد عليهم عقابها، ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾: لا يُقْتَر عنهم العذاب، وهم فيها مبلسون. ﴿أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ﴾ ﴿٩﴾: لأنهم عرفوا الحق، وتركوه، وخسروا الدنيا والآخرة.

سُورَةُ الْبَيِّنَةِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ ﴿١﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ ﴿٢﴾ لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَبْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴿٣﴾ نَزَّلَ الْمَلَكُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ ﴿٤﴾ سَلَّمَ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ ﴿٥﴾

سُورَةُ الْبَيِّنَةِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفِكِينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ﴾ ﴿١﴾ رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ يَتْلُوا صُحُفًا مُطَهَّرَةً ﴿٢﴾ فِيهَا كُتِبَ قِيمَةٌ ﴿٣﴾ وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَةُ ﴿٤﴾ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقِيَمَةِ ﴿٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ ﴿٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ ﴿٧﴾

٥٩٨

﴿٧﴾ ﴿٨﴾ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴿٧﴾ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴿٨﴾: وهذا شامل عام للخير والشر كله؛ لأنه إذا رأى مثقال الذرة التي هي أحقر الأشياء، وجوزي عليها؛ فما فوق ذلك من باب أولى وأحرى؛ كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تُوَدِّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا﴾ [آل عمران: ٣٠]، ﴿وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا﴾ [الكهف: ٤٩]، وهذا فيه الترغيب في فعل الخير، ولو قليلاً، والترهيب من فعل الشر، ولو حقيراً.

﴿٧﴾ ﴿٨﴾

تفسير سورة العاديات

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا﴾ ﴿١﴾ إلى آخرها.

﴿١﴾ أقسم الله تبارك وتعالى بالخيل؛ لما فيها من آياته الباهرة ونعمه الظاهرة ما هو معلوم للخلق، وأقسم تعالى بها في الحال التي لا يشاركها فيه غيرها من أنواع الحيوانات، فقال: ﴿وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا﴾ ﴿١﴾؛ أي: العاديات عدواً بليغاً قوياً يصدر عنه الضبح، وهو صوت نفسها في صدرها عند اشتداد عدوها.

﴿٢﴾ ﴿وَالْمُورِيَاتِ﴾: بحوافرهن ما يطان عليه من الأحجار، ﴿فَدَحَا﴾ ﴿٢﴾؛ أي: تنفدح النار من صلابة حوافرهن وقوتهن إذا عدون.

﴿٣﴾ ﴿وَالْمُغِيرَاتِ﴾: على الأعداء، ﴿ضَبْحًا﴾ ﴿٣﴾: وهذا أمر أغلبي أن الغارة تكون صباحاً.

﴿٤﴾ ﴿فَأَنزَلْنَ يَهُ﴾: أي: بعدوهن وغارتتهن، ﴿نَقَعًا﴾ ﴿٤﴾؛ أي: غباراً، ﴿فَوَسَطْنَ بِهِ﴾: أي: براكينهن ﴿جَمًّا﴾ ﴿٥﴾؛ أي: توسطن به جموع الأعداء الذين أغار عليهم.

﴿٦﴾ والمقسم عليه قوله: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ﴾ ﴿٦﴾؛ أي: لمنوع للخير الذي عليه لربه؛ فطبيعة الإنسان وجبلته أن نفسه لا تسمح بما عليه من الحقوق فتؤديها كاملة موفرة، بل طبيعتها الكسل والمنع لما عليها من الحقوق المالية والبدنية؛ إلا من هده الله وخرج عن هذا الوصف إلى وصف السماح بأداء الحقوق.

﴿٧﴾ ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ﴾ ﴿٧﴾: لأنهم عبدوا الله وعرفوه، وفازوا بنعيم الدنيا والآخرة.

﴿٨﴾ ﴿جَزَاءُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ﴾؛ أي: جنات إقامة لا ظعن فيها ولا رحيل ولا طلب لغاية فوقها، ﴿تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾: فرضي عنهم بما قاموا به من مرضيه، ورضوا عنه بما أعد لهم من أنواع الكرامات وجزيل المثوبات. ﴿ذَٰلِكَ﴾: الجزاء الحسن ﴿لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ﴾ ﴿٨﴾؛ أي: لمن خاف الله فأحجم عن معاصيه، وقام بما أوجب عليه.

تمت. والحمد لله.

﴿٧﴾ ﴿٨﴾

تفسير سورة إذا زلزلت

وهي مدنية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾ ﴿١﴾ إلى آخرها.

﴿١﴾ ﴿٢﴾ يخبر تعالى عما يكون يوم القيامة، وأن الأرض تنزلزل وترجف وترتج حتى يسقط ما عليها من بناء ومعلم، فتندك جبالها، وتسوى تلالها، وتكون قاعاً صفصفاً لا عوج فيه ولا أمتاً، ﴿وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا﴾ ﴿٢﴾؛ أي: ما في بطنها من الأموات والكنوز.

﴿٣﴾ ﴿وَقَالَ الْإِنْسَانُ﴾: إذا رأى ما عراها من الأمر العظيم مستعظماً لذلك: ﴿مَا لَهَا﴾؛ أي: أي شيء عرض لها؟!

﴿٤﴾ ﴿يَوْمَئِذٍ تُخَدِّثُ﴾: الأرض ﴿أَخْبَارَهَا﴾ ﴿٤﴾؛ أي: تشهد على العاملين بما عملوا على ظهرها من خير وشر؛ فإن الأرض من جملة الشهود الذين يشهدون على العباد بأعمالهم. ذلك ﴿بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا﴾ ﴿٥﴾؛ أي: أمرها أن تخبر بما عمل عليها؛ فلا تعصي لأمره.

﴿٦﴾ ﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ﴾: من موقف القيامة حين يقضي الله بينهم ﴿أَشْتَاتًا﴾؛ أي: فرقاً متفاوتين، ﴿لِيُرَوَّا أَعْمَالَهُمْ﴾ ﴿٦﴾؛ أي: ليريهم الله ما عملوا من السيئات والحسنات، ويريهم جزاءه موفراً.

﴿ إِنَّ رَحْمَتَ رَبِّهِمْ يُؤَمِّنُ ۚ لَا يَخۡفِئُ لَهَا ۖ ﴾ أي: مطلع على أعمالهم الظاهرة والباطنة، الخفية والجلية، ومجازيهم عليها، وخص خبره بذلك اليوم مع أنه خير بهم كل وقت؛ لأن المراء

وهى مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الْفَارِعَةُ﴾ ﴿١﴾ مَا الْفَارِعَةُ ﴿٢﴾ ﴿إِلَى آخِرِهَا﴾.

١ - ﴿الْقَارِعَةُ﴾ ١ من أسماء يوم القيامة، سميت بذلك لأنها تفرع الناس وتزعجهم بأهوالها، ولهذا عظم أمرها وفخمه بقوله: ﴿الْقَارِعَةُ﴾ ١ مَا الْقَارِعَةُ ٢ وَمَا أَذْرَكَ ٣ مَا الْقَارِعَةُ ٤.

﴿يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ﴾: من شدة الفزع والهول، ﴿كَالْفَرَّاشِ الْمُبْثُوثِ﴾؛ أي: كالجراد المنتشر الذي يموج بعضه في بعض، والفراش هي الحيوانات التي تكون في الليل يموج بعضها ببعض، لا تدري أين توجه؛ فإذا أوقد لها ناراً تهافتت إليها لضعف إدراكها، فهذه حال الناس أهل العقول.

﴿وَأَمَّا الْجِبَالُ الصُّمُ الصُّلَابُ؛ فَتَكُونُ﴾ ﴿كَأَعْيُنِ الْمَنُفُوشِ﴾ ﴿﴾؛ أي: كالصوف المنفوش الذي بقي ضعيفاً جداً تطير به أدنى ريح؛ قال تعالى: ﴿وَرَوَى الْجِبَالُ تَحْسَبُهَا جَامِدًا وَهِيَ تَمُزُّ مَرَّ السَّحَابِ﴾ [النمل: ٨٨]، ثم بعد ذلك تكون هباءً منثوراً، فنضمحل ولا يبقى منها شيء يشاهد. فحيث تنصب الموازين، وينقسم الناس قسمين: سعداء وأشقياء.

﴿٦﴾ ﴿٧﴾ فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ ﴿٦﴾؛ أي: رجحت حسناته على سيئاته، ﴿٧﴾ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ ﴿٧﴾؛ في جنات النعيم.

﴿٨﴾ - ﴿١١﴾ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ ﴿٨﴾؛ بأن لم تكن له حسنات تقاوم سيئاته، ﴿٩﴾ فَأَمَّهُ هَوَايَ ﴿٩﴾؛ أي: مأواه ومسكنه النار التي من أسماؤها الهاوية، تكون له بمنزلة الأم الملازمة؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾ ﴿١٠﴾ [الفرقان: ٦٥]. وقيل: إن معنى ذلك: فأم دماغه هاوية في النار؛ أي: يلقي في النار على رأسه، ﴿١١﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَّةَ ﴿١١﴾؛ وهذا تعظيم لأمرها. ثم فسرها بقوله: ﴿نَارٌ حَامِيَةٌ﴾ ﴿١٢﴾؛ أي: شديدة الحرارة، قد زادت حرارتها على حرارة نار الدنيا بسبعين ضعفًا. نستجير بالله منها.

﴿١٢﴾ ﴿١٣﴾ ﴿١٤﴾

تفسير سورة ألهاكم التكاثر

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿١﴾ أَلْهَكُمُ التَّكَاثُرُ ﴿١﴾؛ إلى آخرها.

﴿١﴾ يقول تعالى موبخًا عباده عن اشتغالهم عما خلقوا له من عبادته وحده لا شريك له ومعرفته والإنابة إليه وتقديم محبته على كل شيء: ﴿١﴾ أَلْهَكُمُ التَّكَاثُرُ؛ عن ذلك المذكور، ﴿١﴾ أَلْهَكُمُ التَّكَاثُرُ؛ ولم يذكر المتكاثر به؛ ليشمل ذلك كل ما يتكاثر به المتكاثرون ويفتخرون به المفتخرون؛ من التكاثر في الأموال والأولاد والأنصار والجنود والخدم والجاه وغير ذلك مما يقصد منه مكاثرة كل واحد للآخر، وليس المقصود منه وجه الله.

﴿٢﴾ فاستمرت غفلتكم ولهوتكم وتشاغلكم ﴿٢﴾ حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ﴿٢﴾؛ فانكشف حينئذ لكم الغطاء، ولكن بعدما تعذر عليكم استنفاؤه. ودل قوله: ﴿٢﴾ حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ﴿٢﴾؛ أن البرزخ دار، المقصود منها النفوذ إلى الدار الآخرة؛ لأن الله سماهم زائرين، ولم يسمهم مقيمين، فدل ذلك على البعث والجزاء على الأعمال في دار باقية غير فانية.

﴿٣﴾ - ﴿٦﴾ ولهذا توعدهم: ﴿٣﴾ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ ﴿٥﴾؛ أي: لو تعلمون ما أمامكم علمًا يصل إلى القلوب؛ لما ألهاكم التكاثر، ولبادرتكم إلى الأعمال الصالحة، ولكن عدم العلم الحقيقي صيركم إلى ما ترون، ﴿٦﴾ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ﴿٦﴾؛ أي: لتردن القيامة، فلترون الجحيم التي أعدها الله للكافرين.

﴿٧﴾ ﴿٧﴾ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ ﴿٧﴾؛ أي: رؤية بصرية؛ كما قال تعالى: ﴿٧﴾ وَرَأَى الْمَجْرُمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا ﴿٨﴾ [الكهف: ٥٣].

﴿٨﴾ ﴿٨﴾ لَتَرَوُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ ﴿٨﴾؛ الذي تنعمتم به في دار الدنيا؛ هل قمتم بشكره، وأديتم حق الله فيه، ولم تستعينوا به على معاصيه؛ فينعمكم نعيمًا أعلى منه وأفضل؟ أم اغترتم به، ولم تقوموا بشكره، بل ربما استعتم به على المعاصي؛ فيعاقبكم على ذلك؟ قال تعالى: ﴿٨﴾ وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلْهَبْتُمْ طِبْيَئَكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا فَالْيَوْمَ يُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ ﴿٩﴾ [الاحقاف: ٢٠] الآية.

سورة القارعة

سورة التكاثر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أَلْهَكُمُ التَّكَاثُرُ ﴿١﴾ حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ﴿٢﴾ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ ﴿٥﴾ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ﴿٦﴾ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ ﴿٧﴾ ثُمَّ لَتَرَوُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ ﴿٨﴾

سورة القارعة

سورة التكاثر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أَلْهَكُمُ التَّكَاثُرُ ﴿١﴾ حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ﴿٢﴾ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ ﴿٥﴾ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ﴿٦﴾ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ ﴿٧﴾ ثُمَّ لَتَرَوُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ ﴿٨﴾

تفسير سورة والعصر

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالْعَصْرِ ١﴾ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ ٢ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَّصُوا بِالحَقِّ وَتَوَّصُوا بِالصَّبْرِ ٣﴾.

١ - أقسم تعالى بالعصر، الذي هو الليل والنهار، محل أفعال العباد وأعمالهم؛ أن كل إنسان خاسر، والخاسر ضد الرابع، والخسار مراتب متعددة متفاوتة: قد يكون خساراً مطلقاً، كحال من خسر الدنيا والآخرة، وفاته النعيم، واستحق الجحيم.

وقد يكون خاسراً من بعض الوجوه دون بعض، ولهذا عمم الله الخسار لكل إنسان؛ إلا من اتصف بأربع صفات:

الإيمان بما أمر الله بالإيمان به، ولا يكون الإيمان بدون العلم؛ فهو فرع عنه لا يتم إلا به.

والعمل الصالح، وهذا شامل لأفعال الخير كلها، الظاهرة والباطنة، المتعلقة بحقوق الله وحقوق عباده، الواجبة والمستحبة.

والتواصي بالحق الذي هو الإيمان والعمل الصالح؛ أي: يوصي بعضهم بعضاً بذلك، ويحثه عليه، ويرغبه فيه.

والتواصي بالصبر على طاعة الله، وعن معصية الله، وعلى أقدار الله المؤلمة. فبالأمرين الأولين يكمل الإنسان نفسه، وبالأمرين الأخيرين يكمل غيره، وبتكميل الأمور الأربعة يكون العبد قد سلم من الخسار وفاز بالريح العظيم.

﴿١٠٠﴾

تفسير سورة الهمة

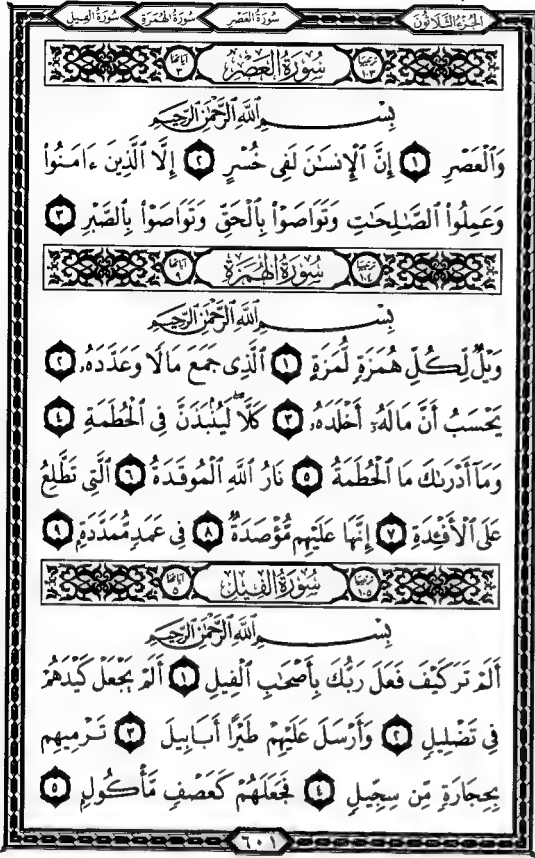
وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَبَلَّ لِكُلِّ هُمْزٍ لُحْمَةً ١﴾ أَلَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ ٢ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ ٣ كَلَّا لَيُبَدِّلَنَّا فِي الْخَطْمَةِ ٤ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْخَطْمَةُ ٥ نَارُ اللَّهِ الْمَوْقُودَةُ ٦ الَّتِي تَطْلُعُ عَلَى الْأَفْقِدَةِ ٧ إِنَّهَا عَلَيْهِمْ مُّوَصَّدَةٌ ٨ فِي عَذْرِ مُّمدَّدَةٍ ٩﴾.

﴿وَبَلَّ ١﴾؛ أي: وعيد ووبال وشدة عذاب، ﴿لِكُلِّ هُمْزٍ لُحْمَةً ١﴾؛ أي: الذي يهزم الناس بفعله ويلمزهم بقوله؛ فالهماز: الذي يعيب الناس ويطنع عليهم بالإشارة والفعل، واللاماز: الذي يعييبهم بقوله.

﴿٢﴾ ومن صفة هذا الهماز اللماز أنه لا هم له سوى جمع المال وتعييده والغبطة به، وليس له رغبة في إنفاقه في طرق الخيرات وصلة الأرحام ونحو ذلك.



في نحورهم، وقصتهم معروفة مشهورة، وكانت تلك السنة التي ولد فيها رسول الله ﷺ، فصارت من جملة إرهاديات دعوته ومقدمات رسالته. فله الحمد والشكر.



تفسير سورة لإيلاف قريش

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿لَا إِلَافَ قُرَيْشٍ ۚ إِلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ ۚ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ ۚ الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ ۚ﴾

(١) - قال كثير من المفسرين: إن الجار والمجرور متعلق بالسورة التي قبلها؛ أي: فعلنا ما فعلنا بأصحاب الفيل؛ لأجل قريش وأمنهم واستقامة مصالحهم وانتظام رحلتهم في الشتاء لليمن وفي الصيف للشام لأجل التجارة والمكاسب. فأهلك الله من أرادهم بسوء، وعظم أمر الحرم وأهله في قلوب العرب، حتى احترموهم، ولم يعترضوا لهم في أي سفر أرادوا، ولهذا أمرهم الله بالشكر، فقال: ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ ۚ﴾؛ أي: ليوحدوه ويخلصوا له العبادة، ﴿الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ ۚ﴾؛ فرغد الرزق والأمن من الخوف من أكبر النعم الدنيوية الموجبة لشكر الله تعالى. فلك اللهم الحمد والشكر على نعمك الظاهرة والباطنة. وخص الله بالربوبية البيت لفضله وشرفه، وإلا؛ فهو رب كل شيء.



تفسير سورة الماعون

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالْإِيمَانِ ۚ فَذَلِكَ الَّذِي يَدْعُ الْيَتِيمَ ۚ وَلَا يُخْصُ عَلَى طَعَامِ الْمُسْكِينِ ۚ فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ ۚ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۚ الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ ۚ وَيَتَّبِعُونَ الْمَاعُونَ ۚ﴾

﴿يَحْسَبُ ۚ﴾: بجهله ﴿أَنَّ مَالَهُ أَخَذَهُ ۚ﴾: في الدنيا، فلذلك كان كده وسعيه كله في تنمية ماله، الذي يظن أنه ينمي عمره، ولم يدرك أن البخل يقصف الأعمار ويخرب الديار، وأن البر يزيد في العمر.

(٤) - ﴿كَلَّا لَيُبَدِّلَنَّ ۚ﴾: أي: ليطرحن ﴿فِي الْخَطْمَةِ ۚ﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْخَطْمَةُ ﴿٥﴾: تعظيم لها وتهويل لشأنها. ثم فسرهما بقوله: ﴿نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ ۚ﴾: التي وقودها الناس والحجارة، ﴿الَّتِي ۚ﴾: من شدتها ﴿تَطْلُعُ عَلَى الْأَفْقِدِ ۚ﴾ (٧)؛ أي: تنفذ من الأجسام إلى القلوب.

(٨) - ومع هذه الحرارة البليغة، هم محبسون فيها، قد أيسوا من الخروج منها، ولهذا قال: ﴿إِنَّهَا عَلَيْهِمْ مُّوَصَّدَةٌ ۚ﴾؛ أي: مغلقة، ﴿فِي عَمْدٍ ۚ﴾: من خلف الأبواب، ﴿مُؤَمَّدَةٌ ۚ﴾: لئلا يخرجوا منها؛ ﴿كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا ۚ﴾ [السجدة: ٢٠]، نعوذ بالله من ذلك، ونسأله العفو والعافية.



تفسير سورة الفيل

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ۚ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضَلُّلٍ ۚ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ۚ تَرْمِيهِمْ بِحِجَارٍ مِّنْ سِجِّيلٍ ۚ جَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ۚ﴾

(١) - (٥) أي: أما رأيت من قدرة الله وعظيم شأنه ورحمته بعباده وأدلة توحيده وصدق رسوله محمد ﷺ ما فعله الله بأصحاب الفيل، الذين كادوا بيته الحرام، وأرادوا إخراجه؛ فتجهزوا لأجل ذلك، واستصحبوا معهم الفيلة لهدمه، وجاءوا بجمع لا قبل للعرب به من الحبشة واليمن، فلما انتهوا إلى قرب مكة - ولم يكن بالعرب مدافعة، وخرج أهل مكة من مكة خوفاً على أنفسهم منهم - أرسل الله عليهم طيراً أبابيل؛ أي: متفرقة، تحمل أحجاراً مَحْمَأةً من سجيل، فرمتهن بها، وتتبع قاصيهم ودانيهم، فحصدوا وهمدوا، وصاروا كعصف مأكول، وكفى الله شرهم، ورد كيدهم

﴿١﴾ يقول تعالى ذَاماً لمن ترك حقوقه وحقوق عباده: ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ﴾ ﴿١﴾؛ أي: بالبعث والجزاء؛ فلا يؤمن بما جاء به الرسل.

﴿٢﴾ ﴿فَذَلِّكَ الَّذِي يُدْعُ آلِيبَ﴾ ﴿٢﴾؛ أي: يدفعه بعنف وشدة، ولا يرحمه؛ لقساوة قلبه، ولأنه لا يرجو ثواباً ولا يخاف عقاباً.

﴿٣﴾ ﴿وَلَا يَحْضُ﴾ ﴿٣﴾؛ غيره ﴿عَلَى طَعَامِ الْمَسْكِينِ﴾ ﴿٣﴾؛ ومن باب أولى أنه بنفسه لا يطعم المسكين.

﴿٤﴾ ﴿نَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ﴾ ﴿٤﴾؛ أي: الملتزمون لإقامة الصلاة، ولكنهم ﴿عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ ﴿٤﴾؛ أي: مضيعون لها، تاركون لوقتها، مُخلون بآركانها، وهذا لعدم اهتمامهم بأمر الله؛ حيث ضيعوا الصلاة التي هي أهم الطاعات، والسهو عن الصلاة هو الذي يستحق صاحبه الدم واللوم، وأما السهو في الصلاة؛ فهذا يقع من كل أحد، حتى من النبي ﷺ.

﴿٥﴾ ﴿وَلِهَذَا وَصَفَ اللَّهُ هَؤُلَاءَ بِالرِّيَاءِ وَالْقَسْوَهِ وَعَدَمَ الرَّحْمَةِ، فَقَالَ: ﴿الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ﴾ ﴿٥﴾؛ أي: يعملون الأعمال لأجل رثاء الناس، ﴿وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ﴾ ﴿٥﴾؛ أي: يمتنعون إعطاء الشيء الذي لا يضر إعطاؤه على وجه العارية أو الهبة؛ كالإئاء والدلو والفأس ونحو ذلك مما جرت العادة ببذله والسماح به، فهؤلاء لشدة حرصهم يمتنعون الماعون؛ فكيف بما هو أكثر منه؟!

وفي هذه السورة الحث على إطعام اليتيم والمساكين، والتضيض على ذلك، ومراعاة الصلاة، والمحافظة عليها، وعلى الإخلاص فيها، وفي سائر الأعمال، والحث على فعل المعروف، وبذل الأمور الخفيفة كعارية الإئاء والدلو والكتاب ونحو ذلك؛ لأن الله ذم من لم يفعل ذلك. والله سبحانه أعلم.



تفسير سورة الكوثر

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿إِنَّا أَعْطَيْنَكَ الْكَوْثَرَ﴾ ﴿١﴾ ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَأَنْحَرْ﴾ ﴿٢﴾ ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ﴾ ﴿٣﴾.

﴿١﴾ يقول الله تعالى لنبيه محمد ﷺ ممثناً عليه: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَكَ الْكَوْثَرَ﴾ ﴿١﴾؛ أي: الخير الكثير والفضل الغزير، الذي من جملة ما يعطيه الله لنبيه ﷺ يوم القيامة من النهر الذي يقال له: الكوثر، ومن الحوض؛ طوله شهر وعرضه شهر، ماؤه أشد بياضاً من اللبن، وأحلى من العسل، أنيته عدد نجوم السماء في كثرتها واستنارتها، من شرب منه شربة؛ لم يظمأ بعدها أبداً.

﴿٢﴾ ولما ذكر منه عليه؛ أمره بشكرها، فقال: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَأَحْزَرْ﴾ ﴿١﴾: خص هاتين العبادتين بالذكر؛ لأنهما أفضل العبادات وأجل القربات، ولأن الصلاة تتضمن الخضوع في القلب والجوارح لله، وتنقله في أنواع العبودية، وفي النحر تقرب إلى الله بأفضل ما عند العبد من النحائر، وإخراج للمال الذي جبلت النفوس على محبته والشح به.

﴿٣﴾ ﴿إِنَّ شَانِئَكَ﴾؛ أي: مبغضك وذامك ومتنقصك، ﴿هُوَ الْأَبَدِيُّ﴾ ﴿٢﴾؛ أي: المقطوع من كل خير؛ مقطوع العمل، مقطوع الذكر، وأما محمد ﷺ؛ فهو الكامل حقاً، الذي له الكمال الممكن للمخلوق من رفع الذكر وكثرة الأنصار والأتباع ﷺ.

﴿١﴾ ﴿٢﴾ ﴿٣﴾

تفسير سورة الكافرون

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿قُلْ يَتَّيْبُهَا الْكَافِرُونَ﴾ ﴿١﴾ ﴿لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ ﴿٢﴾ ﴿وَلَا أَنْتَ عَابِدٌ مَا أَعْبُدُ﴾ ﴿٣﴾ ﴿وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا تَعْبُدُونَ﴾ ﴿٤﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قُلْ يَتَّيْبُهَا الْكَافِرُونَ ﴿١﴾ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾ وَلَا أَنْتَ عَابِدٌ مَا أَعْبُدُ ﴿٣﴾ وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٤﴾ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴿٥﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴿١﴾ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ﴿٢﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْ لَهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ﴿٣﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تَبَّتْ يَدَايَ لَهَا لَهْفٌ وَتَبَّ ﴿١﴾ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ﴿٢﴾ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ﴿٣﴾ وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ﴿٤﴾ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ﴿٥﴾

٦٠٣

﴿٥﴾ أَنْتَ عَابِدٌ مَا أَعْبُدُ ﴿٤﴾ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴿١﴾ ﴿٢﴾ ﴿٣﴾

﴿١﴾ - ﴿١﴾ أي: قل للكافرين معلناً ومصرحاً: ﴿لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ ﴿٢﴾؛ أي: تبرأ مما كانوا يعبدون من دون الله ظاهراً وباطناً. ﴿وَلَا أَنْتَ عَابِدٌ مَا أَعْبُدُ﴾ ﴿٣﴾: لعدم إخلاصكم في عبادتكم لله؛ فعبادتكم له المقترنة بالشرك لا تسمى عبادة. وكرر ذلك ليدل الأول على عدم وجود الفعل، والثاني على أن ذلك قد صار وصفاً لازماً، ولهذا ميز بين الفريقين، وفصل بين الطائفتين، فقال: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ ﴿٤﴾؛ كما قال تعالى: ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِ﴾ [الإسراء: ٨٤]؛ ﴿أَنْتُمْ بَرِئُونَ مِمَّا أَعْمَلُوا وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [يونس: ٤١].

﴿١﴾ ﴿٢﴾ ﴿٣﴾

تفسير سورة النصر

وهي مدنية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ ﴿١﴾ ﴿وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا﴾ ﴿٢﴾ ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْ لَهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾ ﴿٣﴾.

﴿٣﴾ - ﴿٢﴾ في هذه السورة الكريمة: بشارة، وأمر لرسوله عند حصولها، وإشارة، وتنبية على ما يترتب على ذلك:

أبو لهب هو عم النبي ﷺ، وكان شديد العداوة والأذية للنبي ﷺ؛ فلا فيه دين، ولا حمية للقرابة، قبحه الله، فذمه الله بهذا الذم العظيم، الذي هو خزي عليه إلى يوم القيامة، فقال:

﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ﴾؛ أي: خسرت يده وشقي، ﴿وَتَبَّ﴾ ①: فلم يربح.

﴿مَا آخِذٌ عَنْهُ مَالُهُ﴾؛ الذي كان عنده؛ فأطغاه، ولا ما كسبه فلم يرد عنه شيئاً من عذاب الله إذ نزل به.

②- ﴿سَيَصْلَى نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ﴾ ②: أي: ستحيط به النار من كل جانب، هو ﴿وَأَمْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ﴾ ③: وكانت أيضاً شديدة الأذية لرسول الله ﷺ؛ تتعاون هي وزوجها على الإثم والعدوان، وتلقي الشر، وتسعى غاية ما تقدر عليه في أذية الرسول ﷺ، وتجمع على ظهرها الأوزار؛ بمنزلة من يجمع حطباً، قد أعد له في عنقه حبلاً ﴿مِّنْ مَّسَدٍ﴾ ④: أي: من ليف، أو أنها تحمل في النار الحطب على زوجها متقلدة في عنقها حبلاً من مسد.

وعلى كل؛ ففي هذه السورة آية باهرة من آيات الله؛ فإن الله أنزل هذه السورة وأبو لهب وامرأته لم يهلكا، وأخبر أنهما سيعذبان في النار ولا بد، ومن لازم ذلك أنهما لا يسلمان، فوقع كما أخبر عالم الغيب والشهادة.



تفسير سورة الإخلاص

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ ① ﴿اللَّهُ الصَّمَدُ﴾ ② ﴿لَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ ③.

① أي: ﴿قُلْ﴾: قولاً جازماً به، معتقداً له، عارفاً بمعناه: ﴿هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ ①: أي: قد انحصرت فيه الأحدية؛ فهو الأحد المنفرد بالكمال، الذي له الأسماء الحسنی والصفات الكاملة العليا والأفعال المقدسة، الذي لا نظير له ولا مثيل.

فالبشارة هي البشارة بنصر الله لرسوله، وفتحه مكة، ودخول الناس ﴿فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا﴾ ② بحيث يكون كثير منهم من أهله وأنصاره بعد أن كانوا من أعدائه، وقد وقع هذا المبشر به.

وأما الأمر بعد حصول النصر والفتح؛ فأمر الله رسوله أن يشكره على ذلك، ويسبح بحمده، ويستغفره.

وأما الإشارة؛ فإن في ذلك إشارتين: إشارة أن النصر يستمر للدين ويزداد عند حصول التسييح بحمد الله واستغفاره من رسوله؛ فإن هذا من الشكر، والله يقول: ﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ ③ [إبراهيم: ١٧]. وقد وجد ذلك في زمن الخلفاء الراشدين وبعدهم في هذه الأمة، لم يزل نصر الله مستمراً حتى وصل الإسلام إلى ما لم يصل إليه دين من الأديان، ودخل فيه من لم يدخل في غيره، حتى حدث من الأمة من مخالفة أمر الله ما حدث، فابتلوا بتفرق الكلمة وتشتت الأمر، فحصل ما حصل، ومع هذا؛ فلهذه الأمة وهذا الدين من رحمة الله ولطفه ما لا يخطر بالبال أو يدور في الخيال.

وأما الإشارة الثانية؛ فهي الإشارة إلى أن أجل رسول الله ﷺ قد قرب ودنا، ووجه ذلك أن عمره عمر فاضل، أقسم الله به، وقد عهد أن الأمور الفاضلة تختتم بالاستغفار؛ كالصلاة والحج وغير ذلك، فأمر الله لرسوله بالحمد والاستغفار في هذه الحال إشارة إلى أن أجله قد انتهى؛ فليستعد وينتهي للقاء ربه ويختتم عمره بأفضل ما يجده صلوات الله وسلامه عليه، فكان ﷺ يتأول القرآن ويقول ذلك في صلاته؛ يكثر أن يقول في ركوعه وسجوده: «سبحانك اللهم ربنا وبحمدك، اللهم اغفر لي».



تفسير سورة تبت

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ ① ﴿مَا آخِذٌ عَنْهُ مَالُهُ، وَمَا كَسَبَ﴾ ② ﴿سَيَصْلَى نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ﴾ ③ ﴿وَأَمْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ﴾ ④ ﴿فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّنْ مَّسَدٍ﴾ ⑤.

﴿٢﴾ اللَّهُ الصَّكُدُ ﴿١﴾؛ أي: المقصود في جميع الحوائج؛ فأهل العالم العلوي والسفلي مفتقرون إليه غاية الافتقار، يسألونه حوائجهم، ويرغبون إليه في مهماتهم؛ لأنه الكامل في أوصافه، العليم الذي قد كمل في علمه، الحليم الذي قد كمل في حلمه، الرحيم الذي كمل في رحمته، الذي وسعت رحمته كل شيء.... وهكذا سائر أوصافه.

﴿٢﴾ ومن كماله أنه ﴿لَمْ يَكِدْ وَلَمْ يُوَكِّدْ﴾؛ لكمال غناه.

﴿١﴾ ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾؛ لا في أسمائه، ولا في صفاته، ولا في أفعاله؛ تبارك وتعالى.

فهذه السورة مشتملة على توحيد الأسماء والصفات.



تفسير سورة الفلق

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ ﴿١﴾ من شرِّ ما خلق ﴿٢﴾ ومن شرِّ غاسقٍ إذا وقب ﴿٣﴾ ومن شرِّ النّفثاتِ في

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ اللَّهُ الصَّكُدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَكِدْ وَلَمْ يُوَكِّدْ ﴿٣﴾

سُورَةُ الْفَلَقِ ﴿١٠٠﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ﴿١﴾ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ ﴿٢﴾ وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ﴿٣﴾ وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ ﴿٤﴾

سُورَةُ النَّاسِ ﴿١٠٠﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ﴿١﴾ مَلِكِ النَّاسِ إِلَهِ النَّاسِ ﴿٢﴾ مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ ﴿٣﴾ الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ ﴿٤﴾ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ ﴿٥﴾

﴿١﴾ ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾.

﴿١﴾ أي: ﴿قُلْ﴾: متعوذاً؛ ﴿أَعُوذُ﴾؛ أي: الجأ والوذ واعتصم، ﴿بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾؛ أي: فائق الحب والنوى، وفائق الإصباح.

﴿٢﴾ ﴿مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ﴾؛ وهذا يشمل جميع ما خلق الله من إنس وجن وحيوانات؛ فيستعاذ بخالقها من الشر الذي فيها.

﴿٣﴾ ثم خص بعدما عم، فقال: ﴿وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ﴾؛ أي: من شر ما يكون في الليل حين يغشى الناس، وتنتشر فيه كثير من الأرواح الشريرة والحيوانات المؤذية.

﴿٤﴾ ﴿وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ﴾؛ أي: ومن شر السواحر اللاتي يستعنّ على سحرهن بالنفث في العقد التي يعقدنها على السحر.

﴿٥﴾ ﴿وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾؛ والحاسد هو الذي يحب زوال النعمة عن المحسود؛ فيسعى في زوالها بما يقدر عليه من الأسباب، فاحتيج إلى الاستعاذة بالله من شره وإبطال كيده. ويدخل في الحاسد العالين؛ لأنه لا تصدر العين إلا من حاسد شرير الطبع خبيث النفس.

فهذه السورة تضمنت الاستعاذة من جميع أنواع الشرور عموماً وخصوصاً، ودلت على أن السحر له حقيقة؛ يخشى من ضرره، ويستعاذ بالله منه ومن أهله.

تفسير سورة الناس

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ﴿١﴾ مَلِكِ النَّاسِ ﴿٢﴾ إِلَهِ النَّاسِ ﴿٣﴾ مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ ﴿٤﴾ الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ ﴿٥﴾ مِنَ الْغِيَةِ وَالنَّاسِ ﴿٦﴾﴾.

﴿١﴾ - ﴿٦﴾ وهذه السورة مشتملة على الاستعاذة برب الناس ومالكهم وإلههم من الشيطان، الذي هو أصل الشرور كلها ومادتها، الذي من فتنته وشره أنه يوسوس في صدور الناس؛ فيحسّن لهم الشر، ويريهم إياه في صورة حسنة، وينشط إرادتهم لفعله، ويشبطهم عن الخير، ويريهم إياه في صورة غير صورته، وهو دائماً بهذه الحال، يوسوس ثم يخنس؛ أي: يتأخر عن الوسوسة إذا ذكر العبد ربه واستعان به على دفعه؛ فينبغي له أن يستعين ويستعيذ ويعتصم بربوبية الله للناس كلهم، وأن الخلق كلهم داخلون تحت الربوبية والملك، فكل دابة هو آخذ بناصيتها، وبألوهيته التي خلقهم لأجلها؛ فلا تتم لهم إلا بدفع شر عدوهم الذي يريد أن يقطعهم عنها ويحول بينهم وبينها، ويريد أن يجعلهم من حزبه؛ ليكونوا من أصحاب السعير، والوسواس كما يكون من الجن يكون من الإنس، ولهذا قال: ﴿مِنَ الْغِيَةِ وَالنَّاسِ﴾.

والحمد لله رب العالمين أولاً وآخرًا وظاهرًا وباطنًا، ونسأله تعالى أن يتم نعمته، وأن يعفو عنا ذنوبنا التي حالت بيننا وبين كثير من بركاته، وخطايا وشهوات ذهبت بقلوبنا عن تدبر آياته، ونرجوه ونأمل منه ألا يحرمنا خير ما عنده بشر ما عندنا؛ فإنه لا يأس من روح الله إلا القوم الكافرون، ولا يقنط من رحمته إلا الضالون، وصلى الله وسلم على رسوله محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، صلاة وسلامًا دائمين متواصلين أبد الأوقات، والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.

تم تفسير كتاب الله بعونه وحسن توفيقه على يد جامعته وكتابه عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله المعروف بابن سعدي. غفر الله له ولوالديه وجميع المسلمين.

وقع النقل في ٧ شعبان سنة (١٣٤٥).

ربنا تقبل منا واعف عنا إنا نك أنت الغفور الرحيم.



فهرس الموضوعات

رقم الصفحة

الموضوع

٧.....	من تقديسات الطبعات السابقة.....
٩.....	من مقدمة الشيخ عبد الله بن عقيل لطبعة اللويحق.....
١١.....	من مقدمة الشيخ عبد الله بن عقيل لطبعة الصميل.....
١٣.....	من مقدمة ابن عثيمين لطبعة ابن حزم ، وابن الجوزي.....
١٥.....	من تقديم الشيخ بكر أبو زيد.....
١٩.....	تنبيهه.....
٢١.....	مقدمة المؤلف.....
٢٣.....	فوائد مهمة تتعلق بتفسير القرآن من بدائع الفوائد.....
٣٣.....	أصول وكليات من أصول التفسير وكلياته.....
٤٥.....	تفسير سورة الفاتحة.....
٤٦.....	تفسير سورة البقرة.....
١٤٧.....	تفسير سورة آل عمران.....
١٨٨.....	تفسير سورة النساء.....
٢٥٥.....	تفسير سورة المائدة.....
٢٩٦.....	تفسير سورة الأنعام.....
٣٣٩.....	تفسير سورة الأعراف.....
٣٨٠.....	تفسير سورة الأنفال.....
٣٩٧.....	تفسير سورة التوبة.....
٤٣٥.....	تفسير سورة يونس.....
٤٥٩.....	تفسير سورة هود.....
٤٨١.....	تفسير سورة يوسف.....
٥٠٦.....	تفسير سورة الرعد.....
٥١٨.....	تفسير سورة إبراهيم.....
٥٢٩.....	تفسير سورة الحجر.....
٥٣٨.....	تفسير سورة النحل.....
٥٦٢.....	تفسير سورة الإسراء.....
٥٨٣.....	تفسير سورة الكهف.....
٦٠٨.....	تفسير سورة مريم.....
٦٢٥.....	تفسير سورة طه.....
٦٤٦.....	تفسير سورة الأنبياء.....

الموضوع	رقم الصفحة
تفسير سورة الحج	٦٦٦
تفسير سورة المؤمنون	٦٨٥
تفسير سورة النور	٧٠٢
تفسير سورة الفرقان	٧٢٣
تفسير سورة الشعراء	٧٣٨
تفسير سورة النمل	٧٥٣
تفسير سورة القصص	٧٦٨
تفسير سورة العنكبوت	٧٨٦
تفسير سورة الروم	٨٠٠
تفسير سورة لقمان	٨١١
تفسير سورة السجدة	٨٢٠
تفسير سورة الأحزاب	٨٢٥
تفسير سورة سبأ	٨٤٥
تفسير سورة فاطر	٨٥٨
تفسير سورة يس	٨٦٨
تفسير سورة الصافات	٨٧٩
تفسير سورة ص	٨٩١
تفسير سورة الزمر	٩٠٢
تفسير سورة غافر	٩٢٠
تفسير سورة فصلت	٩٣٧
تفسير سورة الشورى	٩٤٨
تفسير سورة الزخرف	٩٦١
تفسير سورة الدخان	٩٧٣
تفسير سورة الجاثية	٩٧٨
تفسير سورة الأحقاف	٩٨٣
تفسير سورة محمد	٩٩٠
تفسير سورة الفتح	٩٩٩
تفسير سورة الحجرات	١٠٠٨
تفسير سورة ق	١٠١٤
تفسير سورة الذاريات	١٠٢٠
تفسير سورة الطور	١٠٢٧
تفسير سورة النجم	١٠٣٢

رقم الصفحة

الموضوع

١٠٣٩	تفسير سورة القمر
١٠٤٤	تفسير سورة الرحمن
١٠٤٩	تفسير سورة الواقعة
١٠٥٦	تفسير سورة الحديد
١٠٦٣	تفسير سورة المجادلة
١٠٦٩	تفسير سورة الحشر
١٠٧٥	تفسير سورة الممتحنة
١٠٧٩	تفسير سورة الصف
١٠٨٣	تفسير سورة الجمعة
١٠٨٥	تفسير سورة المنافقون
١٠٨٧	تفسير سورة التغابن
١٠٩١	تفسير سورة الطلاق
١٠٩٤	تفسير سورة التحريم
١٠٩٧	تفسير سورة الملك
١١٠٢	تفسير سورة القلم
١١٠٦	تفسير سورة الحاقة
١١١٠	تفسير سورة المعارج
١١١٣	تفسير سورة نوح
١١١٥	تفسير سورة الجن
١١١٨	تفسير سورة المزمل
١١٢١	تفسير سورة المدثر
١١٢٤	تفسير سورة القيامة
١١٢٧	تفسير سورة الإنسان
١١٣٠	تفسير سورة المرسلات
١١٣٣	تفسير سورة النبأ
١١٣٥	تفسير سورة النازعات
١١٣٧	تفسير سورة عبس
١١٣٩	تفسير سورة التكويد
١١٤١	تفسير سورة الانفطار
١١٤٢	تفسير سورة المطففين
١١٤٤	تفسير سورة الانشقاق
١١٤٦	تفسير سورة البرق

رقم الصفحة

الموضوع

١١٤٧	تفسير سورة الطارق
١١٤٩	تفسير سورة الأعلى
١١٥٠	تفسير سورة الفاشية
١١٥١	تفسير سورة الفجر
١١٥٣	تفسير سورة البلد
١١٥٤	تفسير سورة الشمس
١١٥٦	تفسير سورة الليل
١١٥٧	تفسير سورة الضحى
١١٥٨	تفسير سورة الشرح
١١٥٨	تفسير سورة التين
١١٥٩	تفسير سورة العلق
١١٦٠	تفسير سورة القدر
١١٦١	تفسير سورة البينة
١١٦٢	تفسير سورة الزلزلة
١١٦٢	تفسير سورة العاديات
١١٦٣	تفسير سورة القارة
١١٦٤	تفسير سورة التكاثر
١١٦٥	تفسير سورة العصر
١١٦٥	تفسير سورة الهمة
١١٦٦	تفسير سورة الفيل
١١٦٦	تفسير سورة قريش
١١٦٦	تفسير سورة الماعون
١١٦٧	تفسير سورة الكوثر
١١٦٨	تفسير سورة الكافرون
١١٦٨	تفسير سورة النصر
١١٦٩	تفسير سورة المسد
١١٦٩	تفسير سورة الإخلاص
١١٧٠	تفسير سورة الفلق
١١٧١	تفسير سورة الناس

